١٧- كتَاب الأُمور المَنهي عَنْهَا

٢٥٤- باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

اعْلَمْ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الكَلامِ إِلاَّ كَلاَمًا ظَهَرَتْ فِيهِ المَصْلَحَةُ، ومَتَى استَوَى الكَلاَمُ وَتَرْكُهُ فِي المَصْلَحَةِ، فالسُّنَّةُ الإمْسَاكُ عَنْهُ، لأَنَّهُ قَدْ يَنْجَرُّ الكَلاَمُ المُبَاحُ إِلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وذَلِكَ كَثِيرٌ فِي العَادَةِ، والسَّلاَمَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

الحديث رقم (١٥١٣)

١٥١٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**)) متفق عَلَيْهِ(١).

وهذا الحديث صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ يَنْبَغي أنْ لا يَتَكَلَّمَ إِلاَّ إِذَا كَانَ الكَلامُ خَيْرًا، وَهُوَ الَّذي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، ومَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ المَصْلَحَةِ، فَلاَ يَتَكَلَّم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

حيث نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجد أنه يتكون من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧/٧٤) ولفظهما سواء، وقد تقدم برقمي ٣١٤، و٧٠٦. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٩٤) بتمامه.

جملة لغوية واحدة، ولكنها تنطوي على كثير من الدلالات، وتتوهج بعديد من التوجيهات والإرشادات... وهذه الجملة صيغت في قالب الشرط والجواب، فالشرط مقدمة تمهد للجواب... وتستند إليه: لأنه لا نتيجة بدون مقدمة، والنتيجة لابد أن تنبثق من خلال إرهاصات المقدمة ومعالمها.

وأداة الشرط: "مَنْ" وهي للعاقل، وفي ذلك إيحاء وإرشاد بأن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، لابد أن يتمتع بقوة عقلية متزنة، وإرادة إيمانية قوية، وسلوك قولي وفعلي إيجابي مؤثر، وجملة فعل الشرط تتضمن فعلين أحدهما ماضي وهو "كان"، والآخر: مضارع وهو "يؤمن"، ولا تناقض بين دلالة الفعلين، فدلالة الفعل "يؤمن"، الاستمرار وعدم انقطاع تيار الإيمان عن قلب المؤمن، والفعل كان يفيد ثبات هذا اليقين المستمر، وذلك الإيمان المتوهج، ولذلك جمع فعل الشرط بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فالإيمان بالله: هو اليقين بوجود الله تعالى في حياة الإنسان، وأنه كل متعلقات المؤمن وكل الخلق أجمعين بحول الله تعالى وقدرته.

وأما اليوم الآخر: أي يوم القيامة فهو أمر مستقبلي، وخصه بالذكر لأن الإيمان به يستلزم التصديق بما فيه من ثواب وعقاب، وذلك مستلزم للإيمان لكل ما يجب الإيمان له من ضرورة الحياة.

وجواب الشرط يتضمن لام الأمر في قوله: "فليقل خيرًا"، وهي تجعل من قول الخير أمرًا واجب التنفيذ: والكلام الخير هو الذي ظهرت مصلحته، وكلمة "خيرًا"، من الكلمات المشحونة بطاقات الإيجاز، فهي تتسع لكثير من الدلالات والتصورات، فكل ما تصدر عن الإنسان من أقوال نافعة للناس، نابعة من تعاليم الإسلام، وقواعد الشرع يُعدُّ خيرًا، ولذلك تكررت اللام مرة أخرى في الفعل المعطوف على "فليقل"، وهو "أو ليصمت"، والصمت واجب شرعًا إذا فقد الكلام خيريته، وشابَهُ عدمُ النفع، أو حكمته اللامبالاة، وسيطرت عليه نزعة التحرر من قواعد التعاليم الإسلامية، وضوابط التفكير الإسلامي، ومعايير الكلمة الجميلة التي يحترمها الإسلام.

المضامين الدعوية [1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الجزء الأخير من الحديث رقم (٣١٤).

الحديث رقم (١٥١٤)

١٥١٤- وعن أَبي موسى رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ أَيُّ المُسْلِمِينَ أفْضَلُ؟ قَالَ: ((مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) متفق عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يقدم في صيغة السؤال والجواب، وهذه الطريقة الحوارية إحدى وسائل الإقناع التي كثيرًا ما تجيء الأحاديث على نهجها حتى يتعلم الصحابة ومَنْ بعدهم من المسلمين، والحوار هنا بين الراوي الأعلى أبي موسى ورسول الله ﷺ، ويبدأ بأداة الاستفهام "أي" مضافة إلى المسلمين، وفي ذلك تشويق للسامع، وبيان لأهمية المسلم الذي يفضله ربه، ومجيء المسلمين في صيغة الجمع يفصح عن الأفضلية في أي زمان ومكان، وليست الأفضلية مقيدة بزمن الرسالة أو غيره، وقوله: "أفضل": أفعل تفضيل فكل المسلمين فضلاء لانتمائهم إلى الدين الحنيف، ولكن منهم الفاضل، ومنهم الأفضل، أي الأكثر فضلاً، والفضل هو الزيادة والشرف، وقولهم: أفضل في الحسب: إذا حاز الشرف وإجابة رسول الله ﷺ تتضمن إيجازًا وهو من بلاغة الحذف، حيث أجاب: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، والتقدير: أفضل المسلمين: من سلم المسلمون... إلخ.

والمشاكلة بين قوله: "سلم"، وقوله: "المسلمون"، تفيد التقارب بين مدلول اللفظين، فمادة سلم، هي: الجذر اللغُوَي: للفظ "المسلمون"، وفي كتاب أساس البلاغة ربطٌ دلاليٌّ بين جَذْر الفعل، وبين دلالاته ومعانيه، فقوله: "سلم"، أي سلم من البلاء سلامة وسلامًا؛ وسلم من المرض، أي برئ، ويقولون: سَالَمْتَ العدو مسالمة، ويقولون: فلان سِلْمٌ لفلان وحرب له.

---

(١) أخرجه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢/٦٦) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠٠).

وكل هذه الدلالات تتآزر في إضاءة المعاني التي يموج بها الحديث الشريف، حيث لا يكون المسلم سبّابًا ولا شتامًا ولا لعانًا، ولا مغتابًا ، ولا نمامًا، ولا كذوبًا، وينجو المسلمون من كل آفات اللسان، وكذلك من كل أذى يلحق بهم باليد أو بغيرها.. ويندرج في إطار السلامة من اللسان واليد ما لا يحصى من السلوكيات التي يرفضها الإسلام، وتأباها طبيعة المسلم الذي يتسم بالأفضلية، وقيل: خص اللسان واليد بالذكر لغلبة صدور الأمر عنهما، فالقول باللسان، والفعل باليد، وإلا فيكون بغيرهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: سلامة المسلمين من لسان المسلم ويده.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: سلامة المجتمع وتحقيق الأخوة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "قلت يارسول الله: أى المسلمين أفضل؟"وما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفتح أذهان المدعوين، وتعرفهم بأحكام الإسلام، قال الشيخ عبدالرحمن الميداني: "وللسؤال والجواب قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، ذلك أن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه"[1]. وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب، قوله

---

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، ٢/ ٥٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[1]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2]، فعلى الداعية، حامل رسالة الدعوة، استخدام هذا الأسلوب وتنمية القدرة لديه للإجابة على أسئلة المدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: سلامة المسلمين من لسان المسلم ويده:

حيث جاء في الحديث: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، قال النووي: (ومعناه: من لم يُؤْذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها، والمراد المسلم الكامل، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة، وكمال الإسلام متعلق بخصال أُخر كثيرة، وإنما خص ما ذكر لما ذكرناه من الحاجة الخاصة)[3].

ومما يبين حرص الرسول ﷺ على سلامة الجماعة المؤمنة ما جاء عن عبدالله بن عمرو: ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ : أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ))[4].

قال القاضي عياض: (وقوله ﷺ للسائل: "أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ"، معناه: أي خصال الإسلام خير، وهذا حض منه ﷺ على تأليف قلوب المؤمنين، وأن أفضل خلقهم الإسلامية ألفة بعضهم بعضًا، وتحببهم وتوادهم، واستجلاب ما يؤكد ذلك بينهم بالقول والفعل، وقد حض ﷺ على التحابب والتودد وعلى أسبابهما من التهادي، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، ونهي عن أضدادها من التقاطع، والتدابر، والتجسس، والتحسس، والنميمة، وذي الوجهين.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢٠.

(٤) أخرجه مسلم ٣٩.

والألفة أحد فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام. وفي بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف إخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا ملقًا، لمن تعرف دون من لا تعرف، وجاء في الحديث: "إن السلام آخر الزمان يكون معرفة"، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع وإفشاء شعار هذه الأمة، من لفظ السلام ومن قوله: ((افشوا السلام بينكم)). وقوله: ((تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)): أي تسلم. قال أبو حاتم: تقول: اقرأ عليه السلام وأقرئه الكتاب ولا تقول: أقرأه السلام إلا في لغة سوء، إلا أن يكون مكتوبًا فتقول: أقرأه السلام، أي جعله يقرأه.

وقوله: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)): أي الكامل الإسلام والجامع لخصاله من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل. إذ أكثر الأفعال بالأيدي، فأضيفت عامتها إليها.

وهذا من جامع كلامه، وفصيحه، ومحاسنه، ولا يفهم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم. وهو كما يقال: المال الإبل، والناس العرب، على التفضيل لا على الحصر، وجوابه بعد هذا بأن هذا أفضل الإسلام، وقد تقدم في الحديث الآخر جواب آخر دل أنه ﷺ أجاب كل واحد من السائلين بمارآه أنفع له، وأخص به، وقد يكون ظهر من أحدهما كبر وإمساك وانقباض عن الناس، فأجابه بما في الحديث الأول من إطعام الطعام وإفشاء السلام، وظهر من الآخر قلة مراعاة ليده ولسانه فأجابه بالجواب الآخر، أو يكون ﷺ تخوف عليهما ذلك، أو كانت الحاجة في وقت سؤال كل واحد منهما للعامة أمس بما جاوب به)[1].

وقال القرطبي: (وقوله: أي المسلمين خير؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده" هذا السؤال غير السؤال الأول وإن اتحد لفظهما بدليل افتراق الجواب، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - فهم عن هذا السؤال إنما سأل عن أحق المسلمين باسم الخيرية وبالأفضلية. وفهم عن الأول أنه سأل عن أحق خصال الإسلام بالأفضلية؛ فأجاب كلاً منهما بما يليق بسؤاله -والله تعالى أعلم- وهذا أولى من أن تقول: الخبران واحد، وإنما

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢٧٦/١، ٢٧٧.

بعض الرواة تسامح؛ لأن هذا التقدير يرفع الثقة بأخبار الأئمة الحفاظ العدول مع وجود مندوحة عن ذلك.

وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" أي: من كانت هذه حاله كان أحق بهذا الاسم وأمكنهم فيه، ويبين ذلك: أنه لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكن خوف عقاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه، فَيُكْسِبه ذلك ورعًا يحمله على ضبط لسانه ويده، فلا يتكلم إلا بما يعنيه، ولا يفعل إلا ما يسلم فيه، ومن كان كذلك فهو المسلم الكامل، والمتقي الفاضل. ويقرب من هذا المعنى بل يزيد عليه قوله - عليه الصلاة والسلام -: «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]. إذ معناه: أنه لا يتم إيمان أحد الإيمانَ التام الكامل حتى يضم إلى سلامة الناس منه إرادته الخير لهم، والنصح لجميعهم، فيما يحاوله معهم، ويستفاد من الحديث الأول: أن الأصل في الحقوق النفسية والمالية المنع، فلا يحل شيء منها إلا بوجه شرعي، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم)[2].

جاء في فتح الملهم: قوله: "قال: من سلم المسلمون من لسانه" الخ: أي: بالشتم، واللعن، والغيبة، والبهتان، والنميمة، والسعي إلى السلطان، وغير ذلك، حتى قيل: أول بدعة ظهرت قول الناس: الطريق الطريق.

قوله: "ويده"... إلخ: بالضرب، والقتل، والهدم، والدفع، والكتابة بالباطل، ونحوها. وخصا لأن أكثر الأذى بهما، أو أريد بهما التمثيل، وقدم اللسان لأن الإيذاء به أكثر وأسهل، ولأنه أشد نكاية، كما قال:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان[3]

ولأنه يعم الأحياء والأموات، وابتلى بهما الخاص والعام، خصوصًا في هذه الأيام. وعبر بالسلامة من اللسان دون القول، ليشمل إخراج اللسان استهزاء بغيره، وقيل: كنى

---

(١) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، قافية النون ١٠/٦٢.

باليد عن سائر الجوارح، لأن سلطنة الأفعال إنما تظهر بها، إذ بها البطش، والقطع، والوصل، والمنع، والأخذ، فقيل في كل عمل: هذا ما عملته أيديهم، وإن لم يكن وقوعه بها.

ثم الحد والتعزيز وتأديب الأطفال والدفع لنحو الصيال ونحوها فهي: استصلاح وطلب للسلامة، أو مستثنى شرعًا، أو لا يطلق عليه الأذى عرفًا.

قوله: "المسلم من سلم المسلمون" إلخ: أي: المسلم الكامل، كما يقال: زيد: الرجل، أي: الكامل في الرجولية، ويقال: المال: الإبل، والناس: العرب، على التفصيل، لا على الحصر، والمراد: أن المسلم الكامل: من سلم المسلمون من لسانه ويده، مع مراعاة باقي الأركان والآداب.

والمراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه "من حيث كونهم إخوانه في الإسلام" فأولى أن يحسن معاملة ربه من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وذِكْر "المسلمين" ههنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا، ولأن الكفار بصدد أن يقاتلوا وإن كان فيهم من يجب الكف عنهم[1].

وقال ابن حجر: "قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى، أداء حقوق المسلمين، انتهى. ويحتمل أن يكون المراد بذلك أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهى سلامة المسلمين من لسانه ويده وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا والإتيان بجمع التذكير للتغليب فإن المسلمات يدخلن في ذلك، وخص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس، وهكذا اليد لأن أكثر الأفعال بها، وفي التعبير باللسان دون القول نكتة، فيدخل فيه من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذكر اليد دون

(١) فتح الملهم، الشيخ/شبير أحمد العثماني، ٥٧٩/١، ٥٨٠.

غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق"[١]. وقال ابن علان: "وقوله: "أى المسلمين أفضل" أى أكثر ثوابًا وأعلى مقامًا والمراد من الحديث من سلم الناس من أذاه، والفعل الخارج على الغالب لامفهوم له، فأفضل المسلمين من لم يصدر منه أذى لأحد منهم"[٢].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: سلامة المجتمع وتحقيق الأخوة:

يتضح هذا من سياق الحديث، فإن المسلم الذي يرفع أذاه عن إخوانه إنما يساهم في تحقيق السلام، والأمن، والأخوة في داخل المجتمع المسلم، وهذا يبين أن من أهم أهداف الدعوة تحقيق الأخوة لسلامة المجتمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣]، وقال الرسول الكريم ﷺ: "وكونوا عباد الله إخوانًا"[٤]، وهذا يجعل الدين عبادة وسلوكًا ومعاملة بين الناس.

قال الشيخ محمد الغزالي: (في المجتمع المتحاب بروح الله الملتقي على شعائر الإسلام، يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، وربما ربت رابطة الإيمان على رابطة الدم، والحق أن أواصر الأخوة في الله هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ في تأسيس أمة صابرت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر الخصوم المتربصين، ثم خرجت بعد صراع طويل وهي رفيعة العماد وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها وهلكوا، لقد كانت المدينة التي احتضنت الإسلام ومجدت كلمته تقيم العلاقات بين القاطنين والوافدين على التباذل في ذات الله، والإيثار عن سماحة رائعة، والمساواة بين الأنساب والأجناس، وتبادل الاحترام والحب وإشاعة الفضل وتقديس الحق، وإسداء المعروف عن رغبة فيه لا عن تكليف به، وهذه علائم الإخاء الصحيح، إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله، لا إخاء المنافع الزائلة،

---

(١) فتح الباري، ١/٦٩، ٧٠.

(٢) دليل الفالحين، ١٥٧٤.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٦٦، ومسلم ٢٥٦٣ واللفظ له.

ولا إخاء الغايات الدنيا[1].

إن الرسول الكريم ﷺ بهذا التوجيه يريد أن تتكاتف الجماعة المسلمة في إيجاد المجتمع الظاهر الذي تراعى فيه المشاعر وتقدر فيه الصلات وتحترم فيه الحرمات.

(إن النبي ﷺ بهذا التوجيه الواقعي الفعال يحب أن يقيم مجتمعًا إسلاميًا له حرمته، وله نظمه وإجراءاته، وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضهم البعض، وله آدابه السلوكية مع الآخرين. وهذه الروابط تزداد قوة ومتانة بإطعام الطعام، وإفشاء السلام. وقوله: "من سلم المسلمون" أي: والمسلمات إما تغليبًا وإما تبعًا، والمرأة المسلمة مطالبة أيضًا باتخاذ وسيلة إطعام الطعام وإفشاء السلام. وهناك رواية أخرى توسع دائرة المجتمع الإسلامي، فعن أنس رضي الله عنه: «مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقبَلَ قِبلتَنا، وأَكلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذمة رسولهِ، فلا تَخفِروا اللهَ في ذِمَّتِه»[2]. ولذلك قال العلماء: إنه يلحق بالمسلمين أيضًا أهل الذمة حكمًا في حسن معاملتهم.

وهو ﷺ يريد بذلك أن يقيم مجتمعًا نظيف المشاعر، مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنه، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرض فيه أمن الناس وكراماتهم وحرياتهم لأدنى مساس، وهو مجتمع له فكرته السامية عن وحدة الإنسانية المختلفة بشريعة الأجناس المتعددة الشعوب، له ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع معتقداً أنه ميزان شريعة الله المبرأة من شوائب الهوى وأنه ميزان الأخوة. والحديث بهذا المفهوم يرسم معالم المجتمع، الرفيع، الكريم، النظيف، ويحدد معالم الإيمان، الذي باسمه دعا إلى إقامة ذلك المجتمع، وفي مثل هذا الجو يطالب المسلم بأن يعيش مع الجماعة، يعمل ويبني ويتآخى، وإذا تطلب الأمر فيتحمل بعض ما يكره ويتغاضى عن بعض مالا يستطيع مقاومته، ويتدرب ألا يتلفظ بكلمة جارحة، ولا يؤذي أحدًا بلسانه؛ لأن المسلم مرهف الحس.

---

(١) خلق المسلم ١٧٠، ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٩١.

وبهذا الشعور المتبادل، والأخوة الحية، تكون للجماعة المسلمة، قوة قادرة على مواجهة الأعداء، وكبح جماحهم، ويترتب على هذا التآني والحذر، أن يكون الحب والسلام والتعاون والوئام والتراحم والتناصح هو الأصل في البيئة الإسلامية، وأن يكون الخلاف والنزاع هو الاستثناء الذي يجب أن يعالج وأن يرد إلى الأصل فور وقوعه. وهذا معنى قوله ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجرَ ما نَهى اللّهُ عنه».

ومن فوائد هذا الحديث:

أن الإسلام الحقيقي لا يتم للمسلم إلا بالقيام بحقوق الله وحقوق المسلمين، وبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وتمامه بكف أذاه عنهم وسلامتهم من شر لسانه وبطش يده. وأن المؤمن الحقيقي هو الذي تمكن الإيمانُ من قلبه، ودفعه إلى رعاية مصالح المسلمين وحافظ على أمانتهم ودمائهم. ويشير إلى وجوب تجنب إيذاء المسلمين بشتى صوره باللسان وبالقلم وبالسنان. وأن الإيمان يدفع المؤمن لأن يؤمن على أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم. وأن إيذاء المسلمين ومن لا يأمنه الناس لا إيمان له.، وأن الهجرة نوعان: ترك الوطن الأصلي إلى مكان آخر وهي خاصة، وهجرة عامة هي ترك ما نهى الله عنه.

ومن هذا الحديث يتضح أن المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله[1].

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٨٦-٨٨ بتصرف.

الحديث رقم (١٥١٥)

١٥١٥- وعن سهل بن سعد، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

لحييه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان[٢].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث نجده يتكون من جملة واحدة، ولكنها تتسم بالإيجاز، والإيحاء، حيث تشع وتتوهج بالمعاني والدلالات الاجتماعية، التي تصلح ما بين الناس من علاقات، وهي كذلك تتوّج حياة المسلم بالفوز بالجنة في الآخرة.

والحديث يبدأ باسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل وبمعنى الذي، وهو ينطبق على أي مسلم في كل زمان ومكان يتسم بهذا السلوك الإسلامي الذي حدده رسول الله ﷺ وهو أن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه.

وقوله: "ما بين لحييه" كناية عن اللسان، واللحيان: هما: العظمان اللذان ينبت عليهما الأسنان علوًا وسفلاً، وقد أبرزه في صورة التمثيل ليكون التأكيد فيه بليغًا.

وقوله "ما بين لحييه" فيه إشارة كذلك إلى أن اللسان وما يجاوره وما يعلوه، من أجزاء الفم من الحلق: والفم والأسنان، وغيرها هي محل مخارج الحروف التي يتكون منها الكلام، فحروف الحلق، ستة، والحروف التي تخرج من جانبي اللسان وأطرافه،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤)، ولم يروه مسلم. وأورده الحميدي في جمعه (١/٥٥٧، رقم ٩٢٨) في أفراد البخاري. أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥٧) وعزاه إلى البخاري والترمذي.

(٢) فتح الباري: ١١/٣١٦.

وما يحيط به: ثمانية عشر حرفًا كما قال علماء اللغة، ومن الفم، ومن الشفتين تخرج الحروف الأربعة الأخرى، فإذا التزم الإنسان بحفظ اللسان من القول الزائف والباطل، فقد فاز بالجنة، وقوله: "يضمن لي" إشارة إلى ضرورة التزام المسلم بالأقوال التي لا تتعارض مع كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ، وقوله: "وما بين رجليه"، كناية عن الفرج، والضمان معناه: أن لا يرتكب الإنسان الحرام عن طريق الفرج، فلا يزني، ولا يرتكب كل ما يغضب الله في هذا الإطار الذي يفسد العلاقات، ويشوه الأنساب، ويدنس الأعراض.

وقوله: "أضمن له الجنة"، يمكن أن يكون جوابًا للشرط المقدر لكونه في جواب الطلب وقصد به الجزاء، لأن وعد الرسول ﷺ بالجنة وضمانها لكل من حافظ على مابين لحييه، وما بين رجليه شهوة القول، وشهوة الفرج، وبينهما شهوة البطن، وإذا حافظ الإنسان على أقواله، وتغلب على غرائزه وشهواته الجسدية، فإنه كذلك لابد أن يحافظ على مطعمه ومشربه، فلا يكون إلا حلالاً، ولا يكون مصدره إلا طيبًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان والفرج.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على المسلم وإعانته على العفاف.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

جاء في الحديث: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"، "من وقاه الله شر ما بين لحييه..."، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو، وتشده إلى ما يقول الداعية، وتبين له وجه الربط بين الشرط والجزاء، وارتباط الثواب بالعمل، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ

أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[١]، وقوله جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان والفرج:

حيث جاء في الحديث: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"، وقوله: "من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة"، ولاشك أن في هذا حث على حفظ اللسان والفرج، قال الطيبي: والمعنى من يضمن لي لسانه أى شر لسانه وبوادره، وحفظه عن التكلم بما لا يعنيه ويضره مما يوجب الكفر والفسوق، وفرجه بأن يصونه من الحرام أضمن له دخول الجنة، وقد أكد الوعد تأكيدًا بليغًا فأبرزه في صورة التمثيل"[٣]، وقال ابن حجر: والضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال، كفه عن الحرام يضمن له الجنة، وحمل الحديث على أن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر"[٤]، قال الإمام أبو الحسن الماوردي: "قال عمر بن عبدالعزيز: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه، وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه، وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك"[٥].

وفي خطورة فضول النظر والكلام قال ابن القيم: (إن فضول النظر من مقدمات حفظ الفرج لأنه يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٩٨.

(٤) فتح الباري ١١/٣١٥ -٣١٦.

(٥) أدب الدنيا والدين ٢٦٧.

به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر.

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وقال آخر:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[1]

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

إنه يفتح للعبد أبوابًا من الشر، كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[2].

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان[3].

ومن الآيات التي تأمر بحفظ الفرج عن طريق النظر قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ إلى قوله

---

(١) الحماسة البصرية ٢/١٢١، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).

(٣) طب القلوب، جمع وترتيب صالح أحمد الشامي، ص ٦٢، ٦٣.

تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

قال السعدي: (فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره أنار الله بصيرته.

ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع دواعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعاه في بلايا ومحن)[٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٤]، وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦].

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠-٣١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥١٥.

(٣) سورة المعارج، الآيات: ٢٩-٣٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٣١.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ١-٧.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

ثالثًا– من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: "أضمن له الجنة" وقوله "دخل الجنة"، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعو في الطاعة وتحثه عليها، "والترغيب والترهيب يفيض بهما بحر الكتاب والسنة، ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل ومن هنا تحرص النفوس الموفقة على وعى هداية القرآن وهدى الرسول ﷺ"(١).

رابعًا– من موضوعات الدعوة: فضل الله على الإنسان وإعانته على العفاف:

حيث جاء في الحديث: "من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة"، وهذا يبين فضل وقاية الله للإنسان، قال المباركفوري: "أراد في الحديث وقايته من شر لسانه وفرجه، ومعنى "دخل الجنة" أي بغير عذاب أو مع السابقين"(٢). وهذا يؤكد أن الجزاء من جنس العمل فمن أنعم الله عليه بالوقاية دخل الجنة، ونظير هذا ما جاء في الحديث "احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، إحْفَظِ الله تجدْهُ تجَاهَكَ"(٣).

قال ابن رجب: (ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل: اللسان والفرج، فمن حفظ حدود الله، وراعى حقوقه حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما: حفظ له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كِبَره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله، قال بعض السلف: من اتقَى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله الغني عنه. الثاني: وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان)(٤).

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ٣٠٨/١.

(٢) تحفة الأحوذي ١٨٩٥/٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

(٤) جامع العلوم والحكم، ٤٦٥/١-٤٦٨ بتصرف.

ومن الأمثلة التي تبين حفظ الله لعبده ما جاء في قصة يوسف عليه السلام لتكون قدوة لغيره من الشباب، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[1].

قال ابن القيم: (وقد ذكر الله جل جلاله عن يوسف الصديق عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه عليه السلام كان شابًا، والشباب مركز الشهوة، وكان عَزَبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي تزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي تناله العيون، وزادت مع تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعف لله ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله)[2].

وما من شك أن من أعظم نعم الله على العبد إعانته على حفظ فرجه ولسانه.

"كم يرتاح الإنسان نفسيًا ويطمئن قلبه إذا ما وقع بصره فجأة على ما يثير كوامن الغريزة فيصرف الإنسان بصره ابتغاء مرضاة الله، إن الذي يصرف بصره عن كل منظر محرم من صورة فاتنة أو امرأة متبرجة، أو منظر لا يليق أن ينظر إليه، يجد حلاوة الإيمان حقيقية ويشعر بها في قلبه، ويعتز بدينه الذي رفعه هذه الرفعة ونزهه هذه

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٢٣-٣٣.

(٢) روضة المحبين ٢٧٣.

النزاهة، وجعله طاهرًا، باطنًا وظاهرًا.

إن العبد المسلم النظيف الحيي العفيف، تجده في منعة من ربه، يصرف الله عز وجل عنه البلاء صغيره وكبيره، ويقيه مواطن الهلاك أيًا كانت، ويحفظه من الشائعات والشبه التي يتلوث بها الفساق. وتجده في منعه من الناس، فلا يقذفه إنسان، ولا يتهمه آخر، ويستأمنه القاصي والداني على أي شيء فهو في الدنيا من أشرف الناس، وفي الآخرة -إن شاء الله- في أعلى الدرجات"[1].

(١) والذين هم لفروجهم حافظون، خميس السعيد محمد، ٦٥.

الحديث رقم (١٥١٦)

١٥١٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: ((إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ ابْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يتبين: يفكر أنها خير أم لا[2].

يزل: يسقط[3].

الشرح الأدبي

إن الكلمة الطيبة في الإسلام: أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أما الكلمة الخبيثة فهي كشجرة خبيثة، وهي لا نفع لها، ولا ديمومة لظلالها.. فهي كما قال تعالى محددًا مصير الكلمة الخبيثة، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[4]، وفي ضوء هذا المنظور نقرأ هذا الحديث الذي يكشف عن مصير الكلام الفاسد، وعن مصير صاحبه، وفي بداية الحديث يؤكد أبو هريرة قوله: ويقنع كل قارئ وكل مسلم، بقوله: إنه سمع النبي ﷺ، ولم يقل: قال النبي، ولكن أكد الكلام بـ"أن"، وأنه حفظ هذا الكلام سماعًا ومباشرة من النبي ﷺ، ويتكرر التأكيد مرة أخرى في قول النبي ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، ومجيء اللام في الفعل "يتكلم": يشعر بالقسم، وذلك لأهمية الأمر، والحرص على ترسيخه وتوصيله للانتباه واتخاذ الحذر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٥٠/٢٩٨٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٣٦).

(٢) رياض الصالحين، ٥٢٠.

(٣) فتح الباري، ٣١٧/١١.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٢٦.

وقوله: "العبد" ولم يقل المسلم، للإشعار بأن الكلام فطرة إنسانية، وبأن الخلق جميعًا هم عبيد الله، وما ربك بظلام للعبيد، وبأن أضرار الكلام الخبيث تفتك بالمجتمعات، وتُمزِّق الأواصر، وقوله: "الكلمة"، يراد بها: كل من معنييها اللغويين: أي: القول المفرد، والجملة المفيدة من استعمال المشترك اللفظي في معنييه جملة.

فالكلمة: يراد بها الكلمة الواحدة، أو مجموع الكلام الذي يخرج من الإنسان في غير وعي أو روية ويحمل الشرور والمفاسد، وقد يؤدي إلى الكفر أو الوقيعة بين الناس، أو التجديف في أمور الدين.

وهذا هو ما يشع به قوله: "ما يتبين فيها": أي لا يفكر أنها خير أم لا.

وصيغة المضارع في قوله: "ليتكلم"، "وما يتبين"، يفيد استمرار هذا الصنف من الناس على هذه الطريقة في إرسال الكلام، وعدم التفكر والتدبير في عواقبه.

وقوله: "يزل بها إلى النار": أي بسببها: فالباء للسببية، والجملة تتضمن إيجازًا بالحذف، فهي إجابة عن سؤال مقدر: كأن قائلاً قال: ماذا يناله بها: فقيل: يزل بها، والزلل: معناه السقوط، وهو تصوير للعذاب وكيفية الانحدار إلى الهاوية.

وكأنه يسقط من جبل عالٍ إلى سَفْحٍ منحدر، بل إلى نار لا تبقى ولا تذر.

وقوله: "أبعد من المشرق والمغرب"، كناية عن بعد المسافة وبشاعة السقوط، وهول العذاب: ولا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصمت وحفظ اللسان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الكلمة في الإسلام.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥١٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥١٧، ١٥١٨).

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، "إن الرجل ليتكلم" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي لها أثر في الدعوة إلى الله، حيث تبين للمدعو مدى قناعة الداعية بما يقول، وتأكيده لكلامه دلالة على صدقه فيه، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٢].

٢-الترغيب والترهيب: حيث جاء في الحديث: "يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب" وقوله: "يرفعه الله بها درجات"، وقوله:"يهوى بها في جهنم"، ولاشك أن أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية النافعة، حيث يخاطب عواطف الإنسان ومشاعره، للحث على فعل الطاعات وترك المنكرات، جاء في موسوعة "نضرة النعيم": والترغيب مصدر. قولهم: رغبة في الشيء، أى أوجد فيه الرغبة ويكون ذلك بتحسينه وتزيينه، لأن النفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها وما جاء به الشرع الحنيف كله - بعد الإقرار بالوحدانية، وصدق الرسول ﷺ- لا يعدوا أن يكون ترغيبًا في الخيرات، وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه"[٣]. قال ابن الأثير: "قالوا لعمر رضي الله عنه عند موته: جزاك الله خيرًا فعلت وفعلت، فقال: راغب وراهب. والمراد راغب فيما عند الله وراهب من عذابه"[٤]، إن الداعية الناجح هو الذي يستطيع الموازنة بين الترغيب والترهيب ويستخدم كلا في موضعه، "إن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٢١٢٧/٦.

(٤) النهاية ٣٦٤.

ومنها ما يخفيه الترهيب ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كل حسب ما يناسبه، على أن يقدموا الترغيب لأنه فعل إيجابي ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين"[١]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصمت وحفظ اللسان:

حيث جاء في الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب"، قال أبو البقاء الكفوي: الصمت: إمساك عن قول الباطل دون الحق"[٣]. وقال الإمام الماوردي: "اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على رد شوارده، فحق على العاقل أن يحترز من زلته بالإمساك عنه أو بالإقلال منه"[٤]. وفي الصمت جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت"[٥].

قال القرطبي: (وقوله: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها" أي: من الإثم والعقاب، وذلك لجهله بذلك، أو لترك التثبت، أو للتساهل. وفي غير كتاب مسلم: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقى لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا»[٦]. وفيه من الفقه: وجوب التثبت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التساهل في شيء من الصغائر، وملازمة الخوف، والحذر عند كل قول وفعل، والبحث عما مضى من

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٣٠-٣١.

(٣) الكليات ٥٠٧.

(٤) أدب الدنيا والدين ٢٦٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧.

(٦) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك، وتذكره من أول زمان تكليفه؛ لإمكان أن يكون صدر من المكلف شيء لم يتثبته يستحق به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكر واستعان بالله، فإن ذكر شيئًا من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكر وجب عليه أن يتوب جملة بجملة، عما عَلِم وعما لم يعلم، فمن فعل ذلك وصدقت نيته قبلت بفضل الله تعالى توبته.

وقوله: "من سخط الله" أي: مما يسخط الله، وذلك بأن يكون كذبة، أو غيبة، أو نميمة، أو بهتانًا، أو بخسًا، أو باطلاً يضحك به الناس، كما قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل للذي يتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»[١][٢].

قال الإمام الغزالي: "قيل لعيسى عليه السلام: "دُلَّنا على عمل ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبدًا، قالوا: لا تستطيع ذلك، فقال: لا تنطقوا إلا بخير". وقال سليمان بن داود عليهما السلام: "إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"[٣]، وقال الإمام ابن حجر: "وقوله في الحديث "ما يتبين ما فيها"، أى لا يتطلب معناها، أى لا يثبتها بفكره ولا يتأملها حتى يثبت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول. وقال العز بن عبدالسلام: هى "الكلمة التي لا يعرف القائل حسنها من قبحها"، قال: "فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه"[٤].

وجاء في فتح الملهم: "قوله: (ليتكلم بالكلمة) أي: الكلام المشتمل على ما يفهم. وقد تطلق الكلمة على الكلام سواء طال أو قصر، كما يقال: كلمة الشهادة، وكما يقال للخُطْبة: كلمة فلان.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يتكلم بكلام دون تحقيق وتثبت، فينسب إلى رجل قولاً أو فعلاً بدون أن يتحقق من صحة النسبة إليه.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦١٦/٦.

(٣) إحياء علوم الدين ١٢٠/٣.

(٤) فتح الباري ٣١٧/١١.

قوله: (ينزل بها) وفي رواية البخاري: (يزلّ بها) ومعناهما قريب.

قوله: (أبعد ما بين المشرق والمغرب) يعني: ينزل بها إلى أعماق جهنم بقدر أبعد مسافة ما بين المشرق والمغرب. وزاد ابن بطال: "بالبغي أو بالسعي على المسلم، فتكون سببًا لهلاكه، وإن لم يُرِد القائلُ ذلك، لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها"، ونقل عن ابن وهب أن المراد بها التلفظ بالسوء والفحش ما لم يرد بذلك الجحد لأمر الله في الدين. وقال القاضي عياض: "يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنى والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الصمت والحذر من آفات اللسان"[(١)].

وقال ابن عثيمين: "والمراد أن الإنسان يتكلم بالكلمة لا يتبين ولا يتثبت ولا يدرس معناها، ولا يدرس ماذا توصل إليه يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جدًا نصف الكرة الأرضية. وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك"[(٢)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الكلمة في الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللّهِ ما يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللّهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سَخَط اللّه لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم". ومما لاشك فيه أن الكلمة في الإسلام مسئولة، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(٣)]، قال النسفي: ومعنى قوله: "ما يلفظ من قول"اى ما يتكلم به وما يرمي من فيه إلا لديه، رقيب حافظ، وعتيد حاضر، ثم قيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه، وقيل: لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر، وقيل: إن الملكين لا

---

(١) تكملة فتح الملهم، الشيخ محمد تقي العثماني، ٢٧٣/١٢.

(٢) شرح رياض الصالحين، ١٦٠٠/٢.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

يجتنبانه: إلا عند الغائط والجماع"[١]. وقال الإمام ابن كثير: "أى ما يتكلم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركه"، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]. وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت، ذهبت جئت، رأيت، حتى إذا كان يومُ الخميس، عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره. وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات"[٣].

وقال النووي: (ومعنى الحديث أنه لا يتدبر الكلمة، ويفكر في قبحها ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة، وكالكلمة تقذف، أو معناه: كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، وهذا كله حث على حفظ اللسان، وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك)[٤].

وقال ابن حجر: (وقوله: "لا يلقي لها بالاً" أي لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئًا، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[٥]، وقوله في الحديث "يهوى" قال عياض: المعنى ينزل فيها ساقطا، وقد جاء بلفظ "ينزل بها في النار" لأن درجات النار إلى أسفل، فهو نزول سقوط، وقيل أهوى من قريب وهوى من بعيد"[٦]. وقال الماوردي: قال بعض الأدباء: "سَعِدَ مَنْ لسانهُ صَمُوت

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل١١٦١.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٩٨/٧-٢٩٩.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٧١٧.

(٥) سورة النور، آية: ١٥.

(٦) فتح الباري ٣١٨/١١.

وكلامه قوت، وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام، ويقول: إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم. وقال أبو تمام الطائي:

ومما كانت الحكماء قالت　　لسان المرء من تبع الفؤاد[1]

قال أبو بكر العربي: ومحل الكلام والعلم القلب، وأن هذه العبارات الدائرة على الألسن بتقطيع الحروف والأصوات دليل عليه، شرف الله تعالى به الآدمي، كما قال سبحانه مخبرًا عن هذه المنة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]، ثم لما خلقه من حمأ مسنون، وكتب عليه إساءة الأقوال كما كتب عليه إساءة الأفعال، بين معاقد الجواز في القول، كما بيّن مراتبه في الفعل، وجعل محل الدليل على الكلام على الاختصاص للسان، وجعل سائر الجوارح تدل عليه بالإشارة، وعلى عظيم شرف اللسان سلط الله سبحانه الآفات، ففيه خصلة واحدة، وهي الصدق، وفيه نيف على عشرين آفة، شرها الكذب"[3].

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يتضح هذا من سياق الأحاديث حيث إن من أهم واجبات الداعية أن يبين للمدعوين الحقائق ويرشدهم إلى ما ينفعهم، وقد بين الله تعالى: أن من وظيفة النبي ﷺ البيان للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، قال السعدي: "والمراد بالذكر القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه

(١) أدب الدنيا والدين، ٢٦٥-٢٦٧، والأبيات لأبي تمام، البحر: وافر تام.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٣-٤.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٣٥٩/٢٣ بتصرف.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، والبيان للناس شامل لتبين ألفاظه وتبين معانيه[١]. "هذا وواجب الدعاة إلى الله الحرص على بيان الحقائق للمدعوين وتبليغها، قال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية"[٢].

قال محمد الشيخ الخضر حسين: "والدعوة نوعان:

دعوة يقصد بها إنقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع.

ودعوة يقصد بها تحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع في بأسه.

أما الأولى: فيحتم القيام بها لأول وقت ممكن، ويُلوِّح إلى هذا الواجب قوله تعالى ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣]، فقوله: "من أقصى المدينة" إظهار لعناية هذا الداعي وشدة رغبته في الإصلاح، حيث لم يثبطه بعدُ المسافة عن السعي إليه والوفاء بحقه؛ وقوله: "يسعى"؛ تذكرة لدعاة الإصلاح وإيقاظ لهممهم؛ كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم، ويسارعوا إلى النصيحة جهدهم، لأن السعي في لسان العرب[٤] بمعنى العَدْو، والمشي بسرعة.

وأما النوع الثاني من الدعوة، فإن كان مما ينشأ عن تأخيره حرج، التحق بالأمر الواقع، ووجبت المبادرة إلى الدعوة حسب الطاقة، وإن كان بينك وبين وقوعه فسحة، جاز إرجاؤها إلى زمن الحاجة.

وما يقوله بعض أهل العلم، من جواز السكوت عن العلم إلى أن يسأل عنه، إنما يحمل على هذا النوع، الذي لم يدع الحال إلى معرفته في الوقت الحاضر.

حكى القاضي عياض في كتاب "المدارك": أن سحنون وصاحبيه عون بن يوسف وابن رشيد دخلوا على أسد بن الفرات، فسألهم عن مسألة؟ فابتدر لجوابه صاحبا سحنون، وسكت سحنون، فلما خرجوا قال له صاحباه: لِمَ لَمْ تتكلم؟ فقال سحنون:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣٩٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) سورة يس، آية: ٢٠.

(٤) انظر: لسان العرب ١٥١/٢، والقاموس المحيط، ١٠، ١٧٧، وتاج العروس، ص١٦٧٠.

ظهر لي أن جوابكم خطأ، وبين لهما ذلك، فقالا: لِمَ لَمْ تتكلم بهذا عنده، فقال: خشيت أن ندخل عليه ونحن أصدقاء ونخرج ونحن أعداء.

قال القاضي عياض: وسكت سحنون حين علم أن القضية لا يفوت أمرها، ولو علم ذلك لبادر بما ظهر له[1].

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح ٣٧-٣٩.

الحديث رقم (١٥١٧)

١٥١٧- وعنه، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا[١] يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)). رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يلقى لها بالاً: لا يتأملها بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئًا[٣].

الشرح الأدبي

إن إمساك اللسان من مفاتيح النجاة، وحصائد الألسن من المهلكات إذا لم يَكُفَّ الإنسان لسانه، ويحكم بيانه، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي العميق الدقيق، نجد الحديث الشريف يعقد مقابلة ترغيبية وترهيبية بين حالتي الإنسان، وهو يتفوه بالكلام، حالة الفوز برضوان العزيز الغفار، وحالة الخسران حيث يبوء العبد بسخط من الواحد القهار، لأنه لم يمسك عليه لسانه، ولم يعرف كيف يتخير كلماته، ولم يدرك عواقب حركاته وسكناته، ولم يتأمل مباني كلامه ودلالاته.

والحديث في صياغته المتوازنة يفصح عن ضرورة التوازن في شخصية المسلم، ومعيار التوازن هو الكلام الطيب، النابع من تعاليم القرآن الكريم وسنة المصطفى المختار ﷺ.

---

(١) لفظ البخاري: (لا)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٦٤٧٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٣٧). تنبيه: الحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٨/٤٩) مختصرًا، ولم يشر إليه.

(٣) فتح الباري، ٣١٨/١١.

وسمة التوازن في الحديث تتجلى في صياغته المتقنة المتعادلة المتوازنة، فهو يتكون من جملتين متناسقتين في المبني، متضادين في المعنى، والجملتان يتكون كل منهما من إنَّ واسمها وخبرها.

ويبدأ الحديث بالتأكيد لأهمية القضية التي يحدد أبعادها، وهي معيار الكلمة الطيبة وثمرتها، ومعيار الكلمة الخبيثة وثمرتها، ونتيجتها المهلكة، والاسم متحد في كلتا الجملتين، "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، ولكن شتان بين الكلمة في كل موقف، فالكلمة في موقف الفوز، "من رضوان الله تعالى"، أي صادرة من قلب مؤمن صادق سابح في محبة الله تعالى ورضوانه؛ وقوله: "العبد"، يوحي بأن الإنسان مهما علا شأنه فهو من عبيد الله وعباده، والتعبير بالمضارع في قوله: "ليتكلم" يشعر بالقسم لوجود اللام بعد التأكيد، وكذلك يوحي باستمرار هذا السلوك الحياتي، وقوله: "لا يلقى لها بالا"، أي تصدر منه الكلمة أو الكلمات على البديهة والارتجال بمنأى عن القصد والاستعداد، لأنه فطر على الكلم الطيب وتَعوَّد على المنطق الإسلامي السديد الرشيد، وخبر "إن" هو تمام الجملة، وهو تاج الفوز، وثمرة الرضوان: في قوله: "يرفعه الله بها درجات"، في الجنة، وفي الحياة الدنيا.

وأما الجملة الثانية: فهي على النقيض من دلالة الجملة الأولى، ولكنها تماثلها في صياغتها ومبناها، ولنتأمل الطباق بين قوله: "من رضوان الله" في الموقف الأول، وقوله: "من سخط الله" في الموقف الثاني، وكذلك الطباق بين ثمرتي الموقفين: ولنتأمل مصير كل من صاحب الكلمتين: ففي الأولى: "يرفعه الله بها درجات"، وفي الثانية: "يهوي بها في جهنم"، ولم تُذكر الجنة في الموقف الأول ترفعًا عن جعل الجنة في موقف موازٍ لجهنم، لأن الجنة من رضوان الله تعالى، وجهنم من سخط الله تعالى وهي مصير المغضوب عليهم والضالين، جعلنا الله من الذين يرفعهم الله درجات حتى يكون مكانهم الفردوس الأعلى من الجنة.

المضامين الدعوية(١)

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥١٨)

١٥١٨- وعن أَبي عبد الرحمن بِلالِ بن الحارثِ المُزَنيِّ رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((**إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إلَى يَومِ يَلْقَاهُ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**)). رواه مالكٌ في المُوَطَّأ، والترمذيُّ[1]، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ).

ترجمة الراوي:

بلال بن الحارث المزني: هو أبو عبدالرحمن المَدَنيُّ، صحابي، شجاع، من أهل البادية بالمدينة، أسلم سنة (٥) من الهجرة، وكان أول من قَدِم من مُزَينة على النبي ﷺ وكان ذلك في رجب سنة إسلامه.

وقد أقطعه النبي ﷺ العقيق وكتب له كتابًا كان نصه: ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ بلال بن الحارث أعط اهُ معادنَ القبيلة غوريَّها وَجَلْسِيَّها غَشَيَةَ وذات النُّصُبِ وَحَيْثُ صَلُحَ الزَّرْعُ مِنْ قُدس إن كان صادقًا))[2].

وكان يسكن موضعًا وراء المدينة يعرف بالأشعر، ثم تحول إلى البصرة وكان حاملاً للواء مزينة يوم الفتح، وقد شهد غزو إفريقية مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح وكان يحمل لواء مُزَينة يومئذ، ومعه أربعمائة مقاتل.

وروى عن النبي ﷺ، وعن عمر بن الخطاب، وابن مسعود رضي الله عنه وتوفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٦٠هـ وهو ابن ٨٠ عامًا[3].

---

(١) الموطأ (٢/٩٨٥، رقم٥)، والترمذي (٢٣١٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٢٨٠)، وقال الحاكم (١/٤٥): هذا حديثٌ صحيحٌ وقد احتجَّ مسلم بمحمد بن عمرو، وقد أقام إسناده عنه سعيد بن عامر كما أوردته عاليًا، هكذا رواه سفيان الثوري، وإسماعيل بن جعفر، وعبد العزيز الدراوردي، ومحمد بن بشر العبدي وغيرهم. تنبيه: هذا الحديث عزاه المنذري في ترغيبه (٣/٥١٨) إلى البخاري، ولم يروه البخاري عن بلال بن الحارث.

(٢) المعجم الكبير، الطبري، رقم ١١٤١، (١/٣٧٠).

(٣) الاستيعاب (٨٣)، أسد الغابة (١/٤١٣-٤١٤)، الإصابة (١٣٨)، تهذيب الكمال (١/٣٨٧-٣٨٨)، تهذيب التهذيب (١/٢٥٣)، الأعلام للزركلي (٢/٧٢).

الشرح الأدبي

هـذا الحـديث يتمـوج داخـل دائـرة القبـول والـرفض، قبـول الكلـم الطيـب ورفـض الكلم الخبيث، ويتضمن الحديث أسرارًا أسلوبية، وظواهر فنية: منها:

أ- التأكيـد: وقـد تكـرر ثـلاث مـرات في الحـديث حيـث ورد علـى لسان الـراوي في صـدر الحـديث لـشحذ الأذهـان لأهميـة الأمـر، وضـرورة الإصـغاء إلى بيـان المصطفى ﷺ، وورد التأكيد بإن في بداية الجملة الأولى: "إن الرجل"، وكذلك، ورد في بداية الجملة الثانية: "وإن الرجل ..."، لأن الموقفين على طرفي نقيض... أحدهما غايته الفوز بالدرجات العلى، والآخر غايته الخسران المبين، ولذلك جاء التأكيد متوافقًا مع المقام، وفيه مراعاة للمخاطَب الغافل عن العاقبة الحسنة أو السيئة.

ب- تكـرار التوكيـد، وكـثير مـن الجمـل، تكـرارًا لفظيًـا في جملـتي الحـديث، للإيحاء بالمزاوجة والمشاكلة الظاهرية، ولكن الدلالة تختلف، والثمرة تتنوع حسب ما يقدمـه العبـد مـن عمـل وسلوكيات وكلمـات، وقـد تكـرر قولـه: "إن الرجـل ليتكلم بالكلمـة"، مـرتين، لأن مصدر الكـلام هـو اللسان. والكـلام إمـا أن يكـون طيبًـا، أو خبيثًـا، وكـذلك تكـرر قولـه ﷺ: "مـا كـان يظـن أن تبلـغ مـا بلغـت" أي الترقـي في الفـضل، في موقـف الرضـوان، وفي الـتردي إلى الـدرك الأسـفل في موقـف الـسخط والخسران!!!.

والسياق هو الذي يحدد دلالة هذه الكلمة، ففي الموقف الأول: هي كلمة "الرضا"، وقد بلغت من الفوز مبلغًا عظيمًا، وفي الموقف الثاني: هـي الكلمة التي بـاء صاحبها بسخط من الله تعالى، وقد بلغت من الخسران مبلغًا عظيمًا.

وقد تكـرر قولـه ﷺ "إلى يوم يلقـاه" ولكـن اليوم شاسع بين لقـاء الله تعـالى في كـل مـن المـوقفين، فـالمعنى في الموقـف الأول: أي: يوفقـه لمـا يرضـى عنـه مـن الطاعـات، ويثيبه عليها إلى يوم موته أو يوم القيامـة، فيلقـى الله مطيعًـا، ولكـن المفارقـة تتجلـى في قوله: "يكتب الله له بها رضوانه"، وقولـه: "يكتـب الله لـه بهـا سخطه"، فـالتعبير بفعل الكتابـة واحـد، والمـراد هنـا الفـرض والتقـدير والقـضاء المحكـم، ولكـن الله تعـالى

يكتب الرضوان للطائعين المتكلمين بالحسنى، ويكتب الخسران للعاصين الذين يجهرون بالسوء من القول.

والحديث في ظل هذا التكرار لا ضعف فيه ولا إسهاب، ولا حشو ولا إغراب، وإنما أسلوبه محكم البنيان، مصقول العبارة، جزل التركيب، نظمه رائق قشيب، ومعناه فائق عجيب.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٥١٦).

الحديث رقم (١٥١٩)

١٥١٩- وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله حدِّثني بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ: ((قلْ: رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ)) قُلْتُ: يَا رسول اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((هَذَا)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سفيان بن عبدالله الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٥).

غريب الألفاظ:

أعتصم به: أستمسك به[2].

الشرح الأدبي

ما أبلغ هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وسفيان بن عبدالله ﷺ !! وما أصدقه!! وما أوجزه، فآفاقه الدلالية تتسع وتمتد لتشمل كل جوانب الحياة التي يتغياها المسلم في ظل معالم التصور الإسلامي، ومحاور شخصية المسلم؛ ويبدأ الحوار بإخبار الراوي عن بداية موضوع هذه المحاورة، حيث يقر على نفسه بأنه قال: وساق الخبر مجردًا من التأكيد، لأنه القائل وهو المقر بذلك، والقول مسند إلى الضمير المتصل "تاء الفاعل" وهي للمتكلم، "قلت"، فلا انفصال بين الفعل والفاعل، ولا بين القول والقائل؛ والنداء في قوله: "يا رسول الله"، للتعظيم والإجلال، وتقديم لفظ "رسول الله" المقترن بياء النداء على الفعل "حدثني"، لمزيد من التقدير والمحبة، ولأن رسول الله ﷺ هو مصدر الحديث الناصح، وهو لا ينطق عن الهوى، ولأنه لا يطلب الهدي من غير رسول الله ﷺ في عصر البعثة فهو المبلغ عن ربه.

---

(١) برقم (٢٤١٠). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٦٩٨)، وقال الحاكم (٣١٣/٤): هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢١٦). تنبيه: الحديث أخرجه مسلم (٣٨/٦٢) بلفظ: (قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: قل: آمنتُ بالله ثم استقم).

(٢) النهاية في (ع ص م).

والأمر في قوله: "حدثني"، للإشعار بمزيد من النصح، ولمزيد من الشعور بالأنس، لأن الحديث فيه ملاطفة، وفيه زيادة في القرب والمحبة، والرغبة في المعرفة والاسترشاد.

وقوله: "بأمر أعتصم به": أبلغ من قوله: بقول: لأن الأمر أعم وأشمل، والتعبير بقوله: "أعتصم به" يوحي بأن الإنسان في خطر دائم، وهو في مهب الريح، والشرور تتربص به، ولا منجاة له إلا بالطاعة والتوحيد والاستقامة، وما أبلغ نصيحة رسول الله ﷺ وما أوجزها حيث قدم له معيار النجاة في جملتين، وهما "قل ربي الله ثم استقم"، أي لابد أن تقر بالتوحيد، وتقر بالربوبية والإلهية، وهو إقرار ينبع من الجنان قبل الإقرار باللسان: لأن الإيمان: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

ولذلك نجد العطف بـ"ثم"، يعطي دلالة التأني واليقين، والتأمل.. فالاستقامة أفق سلوكي تتضوأ في أفلاكه كل مدارات الحياة؛ وسلامة المعتقد مع صدق اللسان، مع صلاح العمل يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة، وتختم المحاورة بسؤال حقيقي يريد به السائل أن يأمن على نفسه من فتنة القول والفعل؛ وصيغة التفضيل مع تكرار مادة الخوف في قوله: "ما أخوف ما تخاف علي": يدل على حرص ذلك الصحابي على الاعتصام الكامل بالمعتقد الصحيح والعمل الصالح؛ وتأتي إجابة رسول الله ﷺ في حركة تصويرية مرئية لتأكيد النصيحة، وتعميق الدلالة، والحرص على الإقناع، حيث أخذ بلسان نفسه، ثم قال: "هذا"، وفي هذه الإشارة الحركية إيجاز بليغ وإقناع سديد، والتقدير: أخوف ما أخاف عليك، وعلى كل مسلم، هذا أي اللسان.

وقيل لأن اللسان سهل الحراك، وفي حراكه أنواع الهلاك إلا إذا قيد بقيود الشريعة وحبس عليها[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله والاستقامة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة اللسان على الإنسان.

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ١٥٧٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ..."، وقوله: "يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟" ومما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفيد المدعوين، وتشجعهم على الحوار والاستجواب، "ومن أبرز أساليب النبي ﷺ في التعليم الحوار والمساءلة لإثارة انتباه السامعين، وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضهم على إعمال الفكر للجواب، ليكون جواب النبي ﷺ إذا لم يستطيعوا الإجابة أقرب إلى نفوسهم وأفهامهم وأوقع في قلوبهم"(١). وقال الشيخ الميداني: (إن مجالس السؤال والجواب مجالس مفيدة ونافعة في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح)(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله والاستقامة:

حيث جاء في الحديث: "قل ربى الله ثم استقم"، قال المباركفوري: وقوله في الحديث: اعتصم به" أى أستمسك به، وقوله: "قل ربى الله ثم استقم" هو لفظ جامع لجميع الأوامر والنواهي، فإنه لو ترك أمرًا أو فعل منهيًا فقد عدل عن الطرق المستقيمة حتى يتوب، فإن من رضى بالله ربًا يؤدي مقتضيات الربوبية ويحقق مراضيه ويشكر نعماءه"(٣). وقد أمر الله نبيه بالاستقامة فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(٤).

قال الطيبي: قال الفخر الرازي: استقامة المأمور صعب شديد؛ فإنها تشتمل على العقائد والأعمال والأخلاق. والاستقامة في العقائد أن يجتنب التشبيه والتعطيل، وفي الأعمال أن يحترز عن التغيير والتبديل، وفي الأخلاق أن يبعد عن طرفى الإفراط والتفريط"(٥).

---

(١) الحوار: آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ص ٨.

(٢) فقه الدعوة إلى الله تعالى، ٦٢/٢٠.

(٣) تحفة الأحوذي ١٨٩٥/٢.

(٤) سورة هود، آية: ١١٢.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٣٥/١.

ونظير هذا الحديث قوله تعالى في فضل الإيمان بالله والاستقامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١]، قال ابن كثير: قال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا -والله- لله بطاعته، ولم يَرُوغُوا رَوَغَان الثعالب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "قالوا ربنا الله ثم استقاموا" على السواء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: "ثم استقاموا" أخلصوا له العمل والدين"[٢]. إن تعاليم الإسلام تحث على الإيمان والاستقامة على منهج الله وأمر الله سبحانه.

"تعتبر هذه الآيات الكريمات في هذا السياق أشمل منهج إسلامي: اعتقادًا، وقولاً، وعملاً واستقامة، مصحوبًا بالنتائج الحميدة المثلى، عاجلاً وآجلاً.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ...﴾[٣] الآية، لما أطنب المولى في الوعيد قبلها، أردفه بهذا الوعد الشريف، ويعني بالوعيد الشديد قبلها من بداية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٤]، ثم بين موقفهم من القرآن بقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٧.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٤) سورة فصلت، الآيات: ١٩-٢٤.

تَغْلِبُونَ﴾ وأعاد الوعيد مرة أخرى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾[1].

وبعد هذا العرض من شدة الوعيد على سوء أعمال الكفار، جاء السياق بأحسن البشري في العاجل والآجل لعباد الله المؤمنين: "الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فهو بمثابة مقارنة بين الفريقين، ويهمني في هذا السياق بيان منهج الفريق الفائز بالسعادة والبشرى، السائرين على منهج الاستقامة، وحقيقة الاستقامة هنا كما جاء عن الخلفاء الراشدين الأربعة، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قالوا ربنا الله ثم استقاموا، أي: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله. وعن علي وعثمان مثل ذلك. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر وهو يخطب: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب.

فأجمل معنى الاستقامة إلى الله، وقد فصلها الفخر الرازي بقوله: ليس المراد منه القول باللسان فقط، لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، يعني قولهم: "ربنا الله" لأنه سبحانه أعقب القول: "ربنا الله". بالاستقامة، ففيه الدلالة على أن ذلك القول مقرون باليقين التام، وتكون الاستقامة في الدين والتوحيد، وفي الأعمال الصالحة.

أما الاستقامة في التوحيد: فإن من علم أن لهذا الكون صانعًا. أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل؛ ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وكذلك يبقى مستقيمًا على الخط الفاصل بين الجبر والقدر، وفي الرجاء والقنوط، لا يفرط في الرجاء ويُسَوِّف العمل، ولا يفرط في القنوط فييأس من رحمة الله، أي يدعو ربه رغبًا ورهبًا.

وكذلك في الأعمال: لا يفرط في حمل نفسه على العزائم وما يشق عليها، ولا يفرط في تتبع الرخص، وقد وقع البيان لهذا الخط من الاستقامة في الأعمال قوله صلى الله عليه وسلم: «أكلفوا من الأعمال ما تُطيقون»[2]. وقوله: «إنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٢) أخرجه مسلم، ١١٠٣.

وَلا ظَهْرًا أَبْقَى». وقال ردًا على النفر الثلاثة الذين قال أحدهم سأصوم فلا أفطر، وقال الآخر سأقوم الليل ولا أنام، وثالثهم قال: لن أتزوج النساء. فغضب لذلك ﷺ وقال: ((أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[١]. وجاء عنه ﷺ: أن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال ﷺ: ((قل آمنت بالله ثم استقم)) قلت: يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: "هذا"[٢].

ولعل أوضح مناهج الاستقامة ما جاء عمليًا في شخصية رسول الله ﷺ في قوله تعالى عنه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، فقد شمل مجالات التكليف كلها، من معتقدات وأقوال وأعمال، في الحياة والممات، أما ما أعده الله تعالى لأهل هذه الاستقامة، فهو كذلك من الشمول ما وسع أمر الدنيا وأمور الآخرة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٤]. قال قتادة: لأوسعنا عليهم من الدنيا. قال ابن كثير: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٥]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦]. وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٦٣، واللفظ له، ومسلم، ١٤٠١.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٤١٠ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٦٥).

(٣) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١-١٦٣.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ١٦-١٧.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٦.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

الإنعام سعادة الدنيا ورغد العيش، أما من جانب أمور الآخرة فقد جاء مجملاً ثم مفصلاً، فالمجمل في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١). وأما التفصيل ففي هذا السياق في قوله تعالى: "تتنزل عليهم الملائكة" أي: عند آخر لحظة من الدنيا وأول لحظات الآخرة بهذه البشرى السعيدة "ألا تخافوا" أي: مما أمامكم. "ولا تحزنوا" أي: عما وراءكم. "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" ثم يؤنسونهم بالولاية والمحبة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾(٢). ما أحسنها بشرى! وما أحوجنا إليها!(٣).

قال الإمام ابن القيم: (ومن منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" منزلة "الاستقامة".

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(٤). وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾(٥). وقال لرسول الله ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ

---

(١) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٣١-٣٢.

(٣) آيات الهداية والاستقامة، الشيخ عطية محمد سالم، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط أولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٢/٦٢-٦٤.

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٥) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣-١٤.

وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان؛ وهو مجاوزة الحدود في كل شيء. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (٣).

سئل صِدِّيق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق ﵁ عن الاستقامة؟ فقال: "أن لا تشرك بالله شيئًا". يريد الاستقامة على محض التوحيد. وقال عمر بن الخطاب ﵁: "الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب".

وقال عثمان بن عفان ﵁ "استقاموا: أخلصوا العمل لله".

وقال علي بن أبي طالب ﵁، وابن عباس ﵄ "استقاموا: أدوا الفرائض".

وقال الحسن "استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته".

وقال مجاهد "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله".

وسمعت ابن تيمية يقول: "استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

وفيه عن ثوبان ﵁ عن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ. وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ»(٤).

والمطلوب من العبد الاستقامة؛ وهي السداد؛ فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قالوا: يا

---

(١) سورة هود، آية: ١١٢.

(٢) سورة فصلت، آية: ٦.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ١٦-١٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٢٤)

رَسُولَ اللّهِ وَلاَ أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا. إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١).

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة؛ وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها؛ فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض؛ فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة؛ فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين؛ وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك الاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله تعالى روحه، يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة اللسان على الإنسان:

حيث جاء في الحديث : "يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: هذا" ومما لا شك فيه أن اللسان هو مورد الخطورة للإنسان، قال الإمام الغزالي: "كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فمه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره ما شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان. وقال الحسن: ما عقل

(١) أخرجه البخاري ٣٩، ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٦-٣٣٩.

دينه من لم يحفظ لسانه"[١]، وقال الحسن بن هانئ:

مُــت بــداءِ الــصمت خيــرٌ لــكَ مِــنْ داءِ الكــلام

إنمــا العاقِــلُ مــن ألــجم فــاهُ بلجــام[٢]

قال الشيخ محمد الغزالي: "نعمة البيان من أجلّ النعم التي أسبغها الله على الإنسان، وكرمه بها على سائر الخلق، وإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام، ولا تهدأ لألسنتهم حركة فإذا ذهبت تحصى ما قالوا وجدت جله اللغو الضائع، أو الهذر الضار، وما لهذا ركب الله الألسنة في الأفواه، ولا بهذا تقدر الموهبة المستفادة، وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه لأن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه، ولأن طرائق الحديث في جماعة ما تحكم على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة في بيئتها، وإن المسلم لا يستطيع هذا إلا إذا ملك لسانه، وسيطر على زمامه بقوة، فكبحه حيث يجب الصمت، وضبطه حين يريد المقال أما الذين تقودهم ألسنتهم فإنما تقودهم إلى مصارعهم"[٣].

إن اللسان خطره عظيم على الإنسان، عندما يجعله يتحدث فيما لا يعنيه، "وذلك لأنه تضييع للوقت الذي هو رأس مال المسلم، فقد كان بإمكانه أن يستغله في ذكر الله عز وجل فينال به الأجر الكثير، فالكلام فيما لا يعني إن لم يكن فيه ضرر، ففيه الخسارة وتضييع الأجر.

ولذلك جاء عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[٤].

وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لَهُنّ أحب إلي من الدهم[٥] الموقوفة:

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢٠/٣.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٣٨/١، والأبيات في تاريخ دمشق ٤٥١/١٣.

(٣) خلق مسلم ٧٧، ٧٨.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٥) الدهم: نوع جيد من أنواع الإبل.

١- لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر.

٢- لا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعًا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت.

٣- ولا تمارِ حليمًا ولا سفيهًا فإن الحليم يقليك والسفيه يؤذيك.

٤- واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به.

٥- واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالإحسان مأخوذ بالاحترام.

وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني.

وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

والسؤال عن المعاصي وعن كل ما يخفيه المسلم ويستحي منه فلا تسأل عنه، وكذلك إذا قابلت أخاك في الطريق وسألته أين كنت؟ فربما يمنعه مانع من الجواب فإن ذكره تأذى، وإن لم يصدق وقع في الكذب، وكنت في ذلك السبب.

فيجب عليك أن تتجنب الكلام فيما لا يعنيك واعلم أن ذلك صعب على النفس.

يقول مورق العجلي: أَمْرٌ أَنَا فِي طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه، قالوا: ما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيك ولكن ما العلاج لمن ابتلى بذلك؟.

قلت: ويستعين على ذلك بالتفكر في معنى الكلمة قبل النطق فإن كانت لمصلحة أطلقها وإلا أمسكها[1].

(١) حفظ اللسان، وحيد عبدالسلام بالي، ص ٨-١٠.

الحديث رقم (١٥٢٠)

١٥٢٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لا تُكْثِرُوا الكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلقَلْبِ! وإنَّ أبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي**)). رواه الترمذيُّ[(١)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفتح أفق النجاة أمام المسلم الذي اعتصم بالطاعة، ولجأ إلى ربه، وكف لسانه، ولذلك يبدأ الحديث بأسلوب النهي في خطاب موجهًا لجماعة المسلمين في كل زمان، وكل مكان، "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله"، والذكر كلمة جامعة مانعة: والمراد منه: ما يشمل الدعاء، وأشرف الذكر: القرآن، فكل قول لابد أن يعمر بذكر الله عز وجل، كما قال الرافعي: ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه.

والجملة الثانية: تعليل للنهي في الجملة الأولى على سبيل الاستئناف البياني، والفاء للإفصاح والتعليل.

ولنتأمل تَكْرَار التأكيد في بداية الجملتين الثانية والثالثة: حيث قال: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة القلب"، وبلاغة التعبير تتجلى في إسناد القسوة إلى

---

(١) برقم (٢٤١١). وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٦٤٠/٤): سكت عنه عبدالحق، وهو حديث يدورُ على إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، يرويه عن عبد الله بن دينار، وإبراهيم المذكور مدنيٌّ، روى عنه القعنبيّ، وعلي بن حفص وغيرهما، ومع ذلك لا تعرف حاله. وقال الذهبي في الميزان (٤١/١): مدني مُقلٌّ ما علمتُ فيه جرحًا. وذكر من غرائبه هذا الحديث. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٤٢).

كثرة الكلام بغير الذكر، وهو من الإسناد للسبب، لأن كثرة الكلام اللاهي العابث يؤدي إلى قسوة القلب.

وفي الكلام بلاغة أخرى وهي طريقة اختيار الكلمة المشعة بالدلالات المتعددة، فقد تكرر في الحديث قوله: "قسوة القلب"، و"القلب القاسي"، حيث أسندت القسوة إلى كثرة الكلام ثم وصف القلب بالقاسي، ومادة: قسا، توحي بكل أمراض القلب، فهي تعني: الخشونة والرداءة والظلمة والزيف، والقحط، والجدب، وعدم الإنبات، وعدم الإثمار، والقلب القاسي الذي لا ينشغل بذكر الله تعالى تفتك به كل هذه الآفات والعلل فهو قلب سقيم، وصاحبه أبعد الناس من الله تعالى.

قال الزمخشري في أساس البلاغة: في مادة: "قسو"، حجر قاس: أي: صلب، وهو أقسى من الصخر، ومن المجاز قولهم: قسا قلبه علي، وفيه قسوة وقساوة: أي مثل الصخر يخلو من الشعور النبيل والعاطفة الرقيقة، ويقولون، قاسيت الأمر: أي عالجت شدته، ودرهم قسى، لأن ما خلص فضة فيه لين، والدرهم الردئ: قاسٍ صلب، ويقولون: هذا كلام قسي: أي كلام زائف وبهرج، ويوم قسي وليل قسي: أي شديد من برد أو شدة ظلمته أو شر؛ ويقولون: قسا ليلنا أي: أظلم؛ وعام قسي أي: قحط، وأرض قاسية: أي: لا تنبت شيئًا.

فتأمل دلالة القسوة، في ظل هذه المعاني المتعددة التي تتجمع في قلب القاسي، فما أعظم بلاغة رسول الله ﷺ في اختيار الكلمات المشعة بالدلالات الكاشفات عن المعاني الباهرات، ولنتأمل في ظل الدلالات السابقة هذا البيان النبوي البليغ، وأن أبعد الناس من الله تعالى: القلب القاسي.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهى والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الكلام بغير ذكر الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة قسوة القلب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والترهيب:

١- النهي: حيث جاء في الحديث: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله" وأسلوب النهى من أساليب الدعوة التي يجب أن يستخدمها الدعاة إلى الله في دعوتهم حيث تشعر المدعو بخطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (١)، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النهى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٢)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ (٣)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٤).

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي"، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة التي تخيف المدعو وترهبه من الوقوع في محظور شرعي، والنفس بفطرتها تخاف من الوعيد "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"(٥). وقال الشيخ محمد الغزالي: "وكما تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة، فتكف عن الرزيلة وَجَلاً مما يعقبها من منغصات، أو تندفع إلى الفضيلة خوفًا من مغبة التراخي والتفريط. والله سبحانه وتعالى قوي متين وعزيز ذو انتقام، وديَّان لا يموت والتخويف به حق وأثر الخوف منه بعيد المدى ولذلك قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٥) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

الجنة"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطورة الكلام بغير ذكر الله:

حيث جاء في الحديث: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب"، قال الطيبي: "والمراد أنه سبب لقسوة القلب، وهي عبارة عن عدم قبول ذكر الله، والخوف والرجاء، وغير ذلك من الخصال الحميدة، وعدم هذه الخلال يبعد الناس من الله"[٢].

وقال المباركفوري: "فيه إشارة إلى أن بعض الكلام مباح وهو ما يعنيه والمراد بقساوة القلب: النبو عن سماع الحق، والميل إلى مخالطة الخلق، وقلة الخشية وعدم الخشوع والبكاء، وكثرة الغفلة عن دار البقاء"[٣]. وهذا وقد وصف الله المؤمنين بأنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[٤]، وبين أن من صفات عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٥]، وقال ابن مفلح: روى الخلال عن عطاء قال: كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام - كل كلام تنطق به - ما عدا كتاب الله أن تقرأه، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لابد لك منه[٦].

ولخطورة الكلام بغير ذكر الله تعالى بوّب الإمام مالك في موطئه باب سمّاه: ما يكره من الكلام بغير ذكر الله.

قال أبو بكر العربي: "وأما الكلام بغير ذكر الله تعالى: فإن مالكًا رحمة الله عليه، عقده عقدًا بديعًا؛ وذلك أن اللسان عبدالله، فلا ينبغي أن يذكر سواه، فيكون خدمةَ عبدٍ لغير مولاه، وهذا هو أصل الدين، والذي عليه كافة المسلمين، وعلى العبد

---

(١) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، ٣١٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٣٩/٤.

(٣) تحفة الأحوذي ١٨٩٥/٢.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٣.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

(٦) الآداب الشرعية ٦٢/١.

أن يذكر ربه، كان مطيعًا له أو عاصيًا، وإن الله تعالى جوز للعبد لحاجة النفس أن يتكلم في معاشه ورياشه[١] بغير ذكر ربه.

وقد قال عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم[٢]. ولذلك قال مالك في حديث النبي ﷺ: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[٣]. إنه مكروه؛ لأنه يخدع الناس خدعة الساحر. هذا هو رأيه فيه، وعليه تدل ترجمة الباب الذي أدخله عليه. وقال غيره من العلماء: إنما أراد به مدح الكلام؛ لأنه أثنى وذم، وكان الكل صدقًا، وصرفه بمقدار الحاجة، فصار أمرًا بديعًا، فأثنى عليه النبي ﷺ، ولا سيما وكان من حاجة المتكلم في الإعراب عن نفسه. والذي ذهب إليه مالك أصح، والدليل عليه ما تفطن له مالك، من أن المرء إذا اتخذ هذا عادة لم يأمن أن يسقط، ولذلك أدخل بعده كلام عيسى: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، إلى آخره. وأما حديث عائشة: «ألا تريحون الكُتَّاب؟»[٤]. فليس عليهم تعب؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم عباد مكرمون، لا يستحسرون ولا يفترون، ولكنها أخذت ذلك من قول النبي ﷺ للحولاء: «إن الله لا يمل وأنتم تملون»[٥]. فضرب لقطع الأجر مثلاً؛ الملل الذي يقطع به العبد العمل، فكذلك قالت: ألا تقطعون كلامكم حتى تقطع الملائكة عملها؟ وكذلك روي أن اليهود قالت: إن الله خلق الخلق في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، فأنزل الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٦]. فإن كانت اليهود قد وجدت هذه اللفظة في التوراة، فذلك جائز، ولكنها أخطأت في حملها على ظاهرها، فقد جاء في القرآن أمثالها، ولكن من حملها على ظاهرها كان أخا اليهود. وقد مرّ مالك بن دينار على قوم يتحدثون فيكثرون فقال لهم: لو اشتريتم

---

(١) الرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس، انظر: لسان العرب مادة (ر-ي-ش).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١٩٢٠.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، ١٩١٩.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ١٩٢١.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢٥٨.

(٦) سورة ق، آية: ٣٨.

الرَقّ[١] والمداد من دراهمكم للكتبة، لكان كلامكم أقل. سمعت أبا سعيد بالمسجد الأقصى يقول: سمعت الإمام أبا القاسم القشيري بنيسابور يقول: قال الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٢]. وكان قادرًا على أن يخلقها في لحظة، ولكن أراد أن يعلم الناس ترك العجلة مع القدرة[٣].

وقال ابن عبدالبر: وعن مالك أنه بلغه أن عيسى بن مريم كان يقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية[٤].

قال أبو عمر: هذا عندي أفضل كلام قيل في معناه، أو من أفضل كلام قيل؛ أجمعه للخير وأدله عليه، ولقد أحسن القائل:

ارْحَمِ النّاسَ جَميعًا فَهُمُ أبْناءُ جِنْسِكْ
ابْغِ للنّاسِ مِنَ الخَيْـرِ كمَا تَبغي لنَفْسِكْ

وعن آدم بن علي قال: سمعت أخا بلال مؤذن النبي ﷺ يقول: الناس ثلاثة: فسالم، وغانم، وظالم لنفسه. قال: فالسالم الساكت، والغانم الذي يأمر بالخير وينهي عن المنكر، والظالم لنفسه الناطق بالخنا والمعين على الظلم.

وقال أبو بكر: عن بكر بن ماعز، قال: كان الربيع بن خثيم يقول: لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل الله، وتسبيح الله، وتكبير الله، وتحميد الله، وسؤالك الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن.

وروينا عن سيبويه أنه قال: رأيت الخليل بن أحمد في المنام، فقال لي: أرأيت ما كنا فيه، فإني لم انتفع بشيء منه، إنما انتفعت بقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا

---

(١) الرق: ما يكتب فيه وهو جلد رقيق، انظر لسان العرب (ر-ق-ق)

(٢) سورة ق، آية: ٣٨.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٣/٤٠٦-٤١٠ بتصرف.

(٤) أخرجه مالك بن الموطأ ١٩٢٠.

الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وقول بالحق.

وعن مالك، أنه بلغه أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت ترسل إلى أهلها بعد العتمة فتقول: ألا تريحون الكُتَّاب؟.

قال أبو عمر: الكُتَّاب هاهنا: الكرام الكاتبون، وهم الحفظة الرقباء، قال الله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]. فكأن عائشة رضي الله عنها ذهبت إلى أن النوم راحة للحفظة؛ لأنه لا يُكْتَب على النائم شيءٌ، وكره ﷺ السمر بعد العشاء إلا لمصل أو مسافر، وكان عمر بن الخطاب يشدد في ذلك وقال مجاهد: لا يجوز السمر بعد العشاء إلا لمصل أو مسافر أو مذاكر بعلم[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة قسوة القلب:

حيث جاء في الحديث: "إن أبعد الناس من الله القلب القاسي" فقد أخبر النبي ﷺ أن صاحب القلب القاسي أبعد الناس من الله، وبين الله أن قسوة القلب من صفات اليهود ونهانا عن التشبه بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]، قال ابن كثير: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله أى تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيع، وقد نهى الله المؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب عندما قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد"[٤].

وذم الله اليهود على قسوة قلوبهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾[٥]. وتوعد الله قساة القلوب التي لا تلين لذكر الله فقال:

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) الاستذكار، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٤٢١/٢٣-٤٢٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٩/٨-٢٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٧٤.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١]. وبين الله مصير الأمم السابقة عندما قست قلوبها قال ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]. قال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم[٣].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: "ومن مضار القسوة أنها تذهب اللين والرحمة والخشوع من القلب، وصاحب القلب القاسي بعيد من الله بعيد من الناس، والقسوة تزيل النعم وتحل النقم، وفي الفظاظة وغلظ القلب مع المسلمين ما يؤدي إلى تفرق كلمتهم وطمع العدو فيهم، والفظاظة والغلظة تؤديان -خاصة في مجال الدعوة إلى الله- إلى انصراف الناس عن الداعية ونفورهم منه"[٤].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله القرطبي، ١٦١/١٥.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٥٣٢٨/١١.

الحديث رقم (١٥٢١)

١٥٢١ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ)). رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لحييه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان[٢].

الشرح الأدبي

الوقاية توحي بالحفظ، والمنع، والحماية، ونسبتها لله تعالى تعطيها مع توكيدها أبعادا إيحائية تشمل الدنيا، ومواقف الآخرة، وقوله (ما بين لحييه) كناية عن اللسان، أي الذي بين الشارب، واللحية الفم، واللسان، وتكرار لفظ (شر) للدلالة على استقلالية الحكم في كل واحد منهما وقوله (وما بين رجليه) كناية عن الفرج فلا يستعمله في معصية الله فيما لا يحل له وقوله دخل تفيد التحقق، والجنة من الألفاظ الموحية بطبيعتها بالمتاع الحسي، والمعنوي، والنعيم الأبدي الذي يذهب فيه العقل كل مذهب، وفي الحديث دعوة إلى كف الجوارح عن إيذاء الناس.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم (٢٤٠٩) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٠٣)، وقال الحاكم (٤/٣٥٧): صحيح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥٨، و ٤٢٠٨).

(٢) فتح الباري، ١١/٣١٦.

(٣) تقدم شرح هذا الحديث برقم (١٥١٥).

الحديث رقم (١٥٢٢)

١٥٢٢ - وعن عقبة بن عامر ﵁ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: ((أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ)). رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٥١).

غريب الألفاظ:

وليسعك بَيْتُك: أي: تعرض لما هو سبب للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من وصايا رسول الله ﷺ الجامعة التي تفيء النفوس إلى ظلالها من هجير الصراع النفسي، والقلق الذاتي، والتنافر الاجتماعي.

والحديث: سؤال وجواب، وهذه من الصيغ المألوفة في الحديث النبوي، وهي صيغة إقناعية ثمرتها التعليم والإرشاد، والهدي والسداد

ويبدأ الحديث بالنداء، والمنادي هو رسول الله ﷺ، وكان السياق يقتضي أن يبدأ السائل بالمسؤول عنه وهو النجاة، ولكنه عدل عن ذلك وقدم نداء لرسول الله ﷺ تعظيمًا وتوقيرًا، ولأن السؤال عن مثل هذه الأمور لا يكون إلا لرسول الله ﷺ، لأنه لا ينطق عن الهوى، وهو المبلغ عن ربه.

وفي قوله: (ما النجاة؟) إيجاز بالحذف: لأن السؤال عن الأسباب المحصلة للنجاة، والسؤال عن النجاة يوحي بأن الإنسان وهو يخوض غمار الحياة في خطر دائم، ومعرض للهلاك.

---

(١) برقم (٢٤٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٢٨).

(٢) تحفة الأحوذي، ١٨٩٤/٢.

وإجابة رسول الله ﷺ جاءت في ثلاث جمل، "أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك" وكلها جاءت في نسق لغوي واحد "صيغة الأمر"، وهي متناسقة التركيب، منسجمة الإيقاع، ومتسقة البناء، وكلها تختم بكاف الخطاب: لسانك.. بيتك.. خطيئتك، وكأن هذا التوازن البنائي صورة لتوازن السلوك الاجتماعي، وصورة لاتزان شخصية المسلم، واستواء نفسيته، وقوله: (أمسك عليك لسانك) فيه عدول عن الظاهر المألوف إلى غيره فالظاهر كما قال صاحب دليل الفالحين أن يقال: حفظ اللسان: فأخرجه على سبيل الأمر المقتضى للتحقيق مزيدًا للتقرير، وقيل الحديث من أسلوب الحكيم، فإن السؤال عن حقيقة النجاة، والجواب بسببها لأنه أهم، والأمر في: (وليسعك بيتك) للبيت: وفي الحقيقة لصاحبه: أي: اشتغل بما هو سبب لزومه، وهو طاعة الله تعالى والاعتزال عن الأغيار.

وقوله: "وابك على خطيئتك": فيه أمر، والأمر للوجوب، والتعدية بـ"على: تضمن الفعل: "ابك"، معنى الندامة، أي: اندم على خطيئتك، والفعل أخطأ يفيد معنى دقيقًا وهو: تعمد الذنب، ومن دلالة الخطأ: الغليان والفوران حيث يقولون: خطأت القدر بزبدها عند الغليان أي قذفت به، والخطأ يعني المخل والجدب، حيث يقول العرب: أخطأ المطرُ الأرض أي لم يصبها، ويقولون: استخطأت الناقة أي لم تحمل سنتها.

وهذه الدلالات اللغوية تتجمع لتشكل صورة منفرة لمرتكب الخطيئة وتجعله إذا أراد النجاة أن يبكي، وأن يندم، وأن يتوب إلى الله تعالى، حتى ينجو من المحل والجدب، والغضب والعصيان، والهلاك والخسران، ويفيء إلى ظلال السكينة والإيمان.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عما ينفعه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان طرق النجاة.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث: "قلت يارسول الله ما النجاة؟" ومما لا شك فيه أن من أهم واجبات المدعو السؤال والاستفسار عما ينفعه وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، قال السعدي: "وهذه الآية عامة في كل مسألة من مسائل العلم والدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك"[٢]. هذا وقد استنكر الرسول ﷺ على من لم يسأل عند جهله ففي قصة المجروح الذي اغتسل فمات قال ﷺ، قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العِيِّ السؤال"[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

حيث جاء في الحديث: "أمسك عليك لسانك" وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تشعر المدعو بأهمية المأمور به، وضرورة تنفيذه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[٤]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٥]، وقوله جل شأنه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[٦].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان طرق النجاة:

حيث جاء في الحديث: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ».
قال الطيبي: "وقوله أمسك عليك لسانك" أي لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك وعن بعضهم، اجعل لسانك مملوكًا لك فيما عليك وَبَالُه وَتَبِعتُه، وأمسكه عما يضرك وأطلقه فيما ينفعك، ومن النجاة أن يتعرض لما هو سبب للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار، وضمن "بكى" معنى الندامة، وعداه بـ "على" أى أندم على خطيئتك باكيًا"[١]. هذا وقد جعل النبي ﷺ إمساك اللسان عن الكلام أول طريق النجاة، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال "من صمت نجا"[٢].

وقال بعضهم:

احْفَـظْ لِسَانَكَ أيُّهَا الإنْسَانُ   لا يَلْـدَغَنَّكَ إنَّـهُ ثُعْبَانُ
كَـم فِي المَقَـابِرِ مِـنْ قَتِيـلِ لِسَانِهِ   كانَتْ تَهَابُ لقَاءهُ الشُّجْعَانُ[٣]

والواجب على المسلم حفظ اللسان عن فضول الكلام.

وهو الزيادة التي لا فائدة من ورائها فإذا أدى مقصوده بكلمة: فذكر كلمتين، فالثانية فضول.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

وعن ركب المصري مرفوعًا: "طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله".

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١٢/٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥٠١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣١).

(٣) الأذكار للنووي، ٢٩٨، والأبيات للإمام الشافعي، البحر: كامل تام، المستظرف ١٨٦/١.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب، حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول له: سأشتري لك كذا وكذا فيكتب كذابًا.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا.

وقد قيل:

وَزِنِ الكلامَ إذا نطقت فإنما ... يبدي عيوبَ ذوي العقولِ المنطق[1]

وقيل أيضًا:

خَيْر الكلامِ قَليلُ ... على كَثير دَليلُ
والعيُّ مَعنى قَصيرُ ... َحويه لفظٌ طَويلُ
وفي الكَلام فضُول ... وفيه قَال وقيلُ[2]

وقوله ﷺ "وليسعك بيتك" فقد أرشد ﷺ إلى إحدى طرق النجاة، وهو أن يبتعد الإنسان عن مخالطة الناس إذا كان في ذلك ضرر له في دينه، وإشغال له عن عبادة ربه وتسبب المخالطة في وقوعه في الفتن والمعاصي.

قال ابن قدامة: "وفوائد العزلة ست:

الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصًا في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأنس بالله.

وقال أويس القرني رضي الله عنه: ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره. واعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا

---

(١) الأبيات لصالح بن عبدالقدوس، تاريخ دمشق ٢٣/٣٥٠، وفيات الأعيان ٢/٤٩٣.

(٢) حفظ اللسان، وحيد عبدالسلام بالي، ١١، والأبيات في معجم الأدباء ١/٣٠٦، والعقد الفريد ٢/١١٤.

بالمخالطة، وهي أربعة: الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرياء، ومسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: ((إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا)) وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمرني؟ فقال" ((الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة)).

وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيقِكَ مُـسْتَفَادٌ ... فَـلا تَـسْتَكْثِرَنَّ مِـنَ الـصِّحَابِ

فَـإِنَّ الـدَّاءَ أَكْـثَرُ مَـا تَـرَاهُ ... يَكُـونُ مِـنَ الطَّعَـامِ أَوِ الـشَّرَابِ[1]

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف. وقال رجل لأخيه: أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه، وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

---

(١) البداية والنهاية، قافية الباء ٧٤/١١، والأبيات لابن الرومي، بحر: وافر تام.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما انقطاع طمعك: فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء لم يلبث أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فانجر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك"[٢].

وذَكَر فوائدَ المخالطةِ وَتَرْك العزلة فقال:

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. ومن فوائد المخالطة:

"التعلم والتعليم والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة"[٣].

ثم بين الضابط في المسألة والراجح فيها فقال:

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحاكم عليها مطلقًا بالتفصيل نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة

---

(١) سورة طه، آية: ١٣١.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١١٩-١٢٢

(٣) المرجع السابق نفسه ١٢٢، ١٢٣.

للسوء، فكن بين القبض والبسط، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آداب العزلة؟، قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كفَّ شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبدًا، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلوته مواظبًا على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيادة ليصفوا وقته، وليكف عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغى إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عند كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسى، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٢٥، ١٢٦.

وذكر الإمام ابن القيم الضابط في أمر الخلطة من عدمها باعتبار أن لزوم البيت سبيل النجاة فقال: "والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير -كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة- ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، وبأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجوء إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة"[1].

وقال أيضًا: (والناس في مخالطتها أربعة أقسام:

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه

---

(١) طب القلوب، جمع وترتيب صالح أحمد الشامي، ص ٥٥، ٥٦.

ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم من خالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل، المبغض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث[1]، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إلي وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال.

---

(١)أي لا يفكر في الكلام ولا يزنه بعقله.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة آكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين. وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير، قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة، وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلُ[(1)]

وقوله ﷺ في الحديث: "وابك على خطيئتك" فهو بيان للطريق الثالث من طرق النجاة أن يتذكر الإنسان معصيته، ويراجع نفسه ويندم على ما فعل وقصر وتجاوز في حق الله.

---

(1) بدائع الفوائد ٢/٢٧٤، ٢٧٥، البداية والنهاية ١١/٢٥٨، والبيت مما استحسنه ابن الجوزي من شعر المتنبي.

قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي: "ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل.

وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا فعفا[١] كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير، فالحذر الحذر.

ولقد رأيت أقوامًا من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي الباطنة والظاهرة، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا، فقلعت أصولهم، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموا لذراريهم.

وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجرى من شر، فمالت سفينة ظنونهم، فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم.

ورأيت أقوامًا من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق عز وجل، إليه في الخلوات، فمحا محاسن ذكرهم في الجلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلوة لرؤيتهم، ولا قلب يحن إلى لقائهم.

فالله الله في مراقبة الحق عز وجل؛ فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مرصد للمخطئ، ولو بعد حين.

وربما ظن أنه العفو، وإنما هو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة.

فالله الله، الخلوات الخلوات، البواطن البواطن، النيات النيات؛ فإن عليكم من الله عينًا ناظرة.

وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم قد استدرج. وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها.

وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، فلعله[٢]...

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه.

---

(١) عفا الأولى من العفو، وهو الصفح والمغفرة، والثانية من التعفية وهي المحو والإزالة.

(٢) يعني لعله ينفع إن شاء الله.

ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى: قدرت على لذة وليست بكبيرة فنازعتني نفسي إليها، اعتمادًا على صغرها، وعظم فضل الله تعالى وكرمه، فقلت لنفسي: إن غلبت هذه فأنتِ أنتِ، وإذا أتيتِ هذه فمن أنت؟

وذكَّرتُها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مسامحة؛ كيف انطوت أذكارهم، وتمكن الإعراض عنهم.

فارعوت[١]، ورجعت عما همَّت به[٢].

وقال ابن القيم: "ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله تعالى ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته، وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذاته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه.

فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة.

فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبدًا.

وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه.

وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده.

فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

---

(١) ارعوت: كفت وامتنعت.

(٢) صيد الخاطر ٢٠٤، ٢٠٥.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعيم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات فيها - أي الدنيا -: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني: الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيى بن معاذ: من سُرّ بخدمة الله سرت الأشياء كلُّها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه.

ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده، وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بما له ومنعًا.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ستة مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم(١).

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث إن من مهام الداعية أن يرشد الناس ويدلهم على الخير ويجيب على تساؤلاتهم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)، وبين الرسول الكريم ﷺ أن من يدل على خير له أجر وثواب ففي الحديث "من دل على خير فله مثل أجر فاعله أو قال عامله"(٣). وإلى هذا يجب أن ينطق الدعاة ويحرصوا على دلالة الناس وإرشادهم إلى الخير.

قال الإمام النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)(٤).

---

(١) طب القلوب ٤٨-٥٠ بتصرف.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٢١٥.

الحديث رقم (١٥٢٣)

١٥٢٣ - وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا أصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأعْضَاءَ كُلَّهَا تَكْفُرُ اللِّسانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإنَّما نَحنُ بِكَ؛ فَإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا)). رواه الترمذيُّ[1].

ترجمة الراوي:

ابو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

تكفر اللسان: أي: تذل وتخضع له[2]. ويراد بها هنا: أنها تتكر عليه كل كلمة غير مشروعة، لأنها تجر على الأعضاء الأذى في الدنيا والهلاك في الآخرة.

وإن اعوججت اعوججنا: أي: ملت عن طريق الهدى ملنا عنه اقتداء بك[3].

الشرح الأدبي

إن اللسان زمام الإنسان - كما قال العاقولي- فإذا أطلقه لزم منه ما لا يرضى صاحبه شاء أو أبى، وإمساك اللسان وحفظه من أسباب النجاة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي يصور الصراع بين اللسان وأعضاء الجسد كلها.. نجد الحديث مُفْعَمًا بأساليب عدة منها الشرط والقصر والأمر والتأكيد، وهو كذلك يتضمّن أسلوب التشويق والإقناع.. عن طريق التصوير والتشخيص.

ويبدأ الحديث بأسلوب الشرط، وأداة الشرط "إذا" في صدر الحديث: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان"، وقوله "أصبح" فعل الشرط، وذلك يوحي

---

(١) برقم (٢٤٠٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٢٨).

(٢) رياض الصالحين، ٥٢٢.

(٣) تحفة الأحوذي، ١٨٩٤/٢.

بأن هذا شأن يومي؛ فكل صباح تتوجه جميع الأعضاء إلى اللسان بهذا الاتهام، وتناشده أن يتقي الله تعالى وأن يستقيم.

وهذه المناشدة يقينية وحقيقية في كل يوم لأن أداة الشرط "إذا" تدل على التحقق والوقوع، وقوله: "ابن آدم"، يوحي بأن الناس جميعًا مطالبون بالإسلام، وبإقامة الحجة على اللسان، ولا بد أن يقر بالتوحيد، وأن ينطق بالشهادتين، وجواب الشرط: مُحصَّن بالتوكيد "فإن الأعضاء كلها" التوكيد "بإن" وبلفظ "كلها" وفي ذلك إشارة إلى الصراع بين فطرة الإنسان الخالصة، وبين ما يلوث هذه الفطرة من آفات اللسان، ورذائل الحياة، وفي قوله تكفر اللسان تصوير وتشخيص، فالتكفير هنا كناية عن تنزيل الأعضاء اللسان إذا أخطأ منزلة الكافر النعم، أو الخارج عن الإسلام إلى الكفر مبالغة فهي تكفره بهذا الاعتبار وبلسان الحال.

ولذلك جاء البيان بعد ذلك في صيغة الأمر حيث تقول الأعضاء للسان: "اتق الله"، وهذه الجملة متصلة بما قبلها كمال الاتصال عن طريق عدم ذكر أي رابط أو فاصل فهي: بدل مما قبلها أو بيان له.

وأسلوب القصر في قوله: "فإنما نحن بك". ينبئ عن الترابط الكامل بين اللسان وجميع أعضاء الجسد لأنه المعبر عن الرغبات والأهواء، وهو المفصح عن الأمنيات والاعتقادات والآراء.

ويختم الحديث بعد القصر والتأكيد بجملتين شرطيتين: تفصحان عن الترابط الوثيق بين صلاح اللسان وصلاح الإنسان كله واستقامة أعضائه، وتعللان كذلك لهذا الترابط، والجملة الأولى تفصح عن العلاقة بين استقامة اللسان واستقامة الأعضاء، والقوام هو العدل والاعتدال، وبدأ بالاستقامة لأنها الثمرة المرجوة، والطريق المبتغى.

والجملة الثانية الشرطية تربط بين اعوجاج الأعضاء واعوجاج اللسان، والتضعيف في فعل الشرط وكذلك في جواب الشرط، والنقل الصوتي الذي يحدثه تكرار حرف الجيم المسبوق بحرف العين، وهي من أقصى الحلق، وتكرار هذا الثقل في الجواب والشرط يجسد ثقل المعصية، وفداحة الانحراف عن طريق الإيمان، وتعاليم الرحمن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطر اللسان على الأعضاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء..." وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة الهامة التي تبين وتلفت انتباه المدعو وتشده إلى معرفة جواب الشرط، وتبين له من وجه آخر مدى ارتباط الشرط بالجزاء، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [١]، وقوله سبحانه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان:

يتضح هذا من الحديث: "فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان"، ولا شك أن المسلم مطالب بالمحافظة على لسانه حتى لا يورده المهاوى والمهالك، قال الإمام الماوردي: "ومن شروط الكلام، أن يكون لداعٍ يدعو إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر ذلك أن ما لا داعي له هذيان، وما لا سبب له هجر، ومن سامح نفسه في الكلام إذا عَنَّ، ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه، كان قوله مرذولا، ورأيه مغلولا، ومن شروطه أن يقتصر منه على قدر حاجته فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة، ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية، ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محضورًا كان إما حصرًا إن قَصّر، أو هذرًا إن كثّر، ومن شروطه اختيار اللفظ الذي يتكلم به لأن اللسان عنوان

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النصر، الآيات: ١-٣.

الإنسان يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريًا، وبتقويم لسانه مليًا"[١]. وكان ﷺ يحفظ لسانه من اللغو فإن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة..."[٢].

قال الإمام القاسمي: اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير. فقد قال معاذ بن جبل قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ياابن جبل: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[٣].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: يالسان قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم. وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَسْكُتْ»[٤].

فمن آفات اللسان، الكلام فيما لا يعني، اعلم أن رأس مال العبد أوقاته: فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابًا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ولهذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ»[٥]. وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها. وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان. فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين.

ومن آفات اللسان: فضول الكلام.

وهو أيضًا مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فإن ذكر كلمتين فالثانية فضول، أي فضل عن الحاجة وهو أيضًا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. واعلم أن

---

(١) أدب الدنيا والدين٢٦٧-٢٦٨.

(٢) أخرجه النسائي ١٤١٤، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي١٣٤١).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى: قال الله عزوجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(١).

ولقد قلب الناس الأمر فأمسكوا فضل المال، وأطلقوا فضل اللسان. قال عطاء: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لابد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين. عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟! أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. وفي الأثر: ما أوتى رجل شرًا من فضل لسانه.

ومن آفات اللسان: الخوض في الباطل: وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق، وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة، فإن ذلك مما لا يحل الخوض فيه، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٢). وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(٣). وعنه ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(٤).

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٥.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٠.

(٤) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ٢١٨-٢٢٠.

قال عائض القرني أمسك عليك لسانك: كررت هذا المعنى كثيرًا لأنني رأيت في حياتي أن اللسان أضر شيء على الإنسان، فكم من رجل حبس في كلمة وآخر جلد لأجل عبارة، وثالث فقد رأسه وسال دمه من أجل جملة، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيكفيك حديث معاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» فاحذر لسانك! ولا تتكلم إلا بخير ولا تتعرض لأذية سلطان أو عالم أو داعية أو أي مسلم فإنك سوف تدفع الثمن إما هنا وإما هناك يوم العرض الأكبر، وتفكر في كلامك قبل أن تنطق به، فإنه إذا خرج منك لن تستطيع إرجاعه أو إصلاحه، واجعل الناس لك لا عليك، وقد كثر الغش وانتشر الحسد، وزاد الطمع، فأنقذ نفسك من رق كلمة غير نافعة، قد تكون سبب كدرك العاجل وعذابك الآجل وانظر لأحمد بن حنبل مع تقواه وورعه ونسكه، كان إذا جلس مجلسًا قال: اللهم سلّم سلّم. فاطلب ربك السلامة، فإن الهالكين أكثر من الناجين"[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطر اللسان على الأعضاء:

حيث جاء في الحديث: " فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا"، قال المباركفوري: "إذا دخل الصباح فإن الأعضاء تتذلل وتتواضع للسان وتقول له حقيقة أو بلسان الحال: اتق الله فينا، أى خفه في حفظ حقوقنا فإنما نحن نتعلق ونستقيم ونعوج بك فإذا اعتدلت اعتدلنا تبعًا لك، وإن اعوججت أى ملت عن طريق الهدى ملنا عنه اقتداء بك"[2]. وقال الطيبي: "ولا يتعارض هذا الحديث مع ما جاء من ارتباط الأعضاء بالقلب فإن اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر يكون على سبيل المجاز في الحكم كما في قولك: شفى الطبيب المريض. قال الميداني في قوله: " المرء بأصغريه" يعني بهما القلب واللسان أى تقوم معانيه بهما ويكمل بهما".

---

(١) هكذا حدثنا الزمان ٨٧، ٨٨.

(٢) تحفة الأحوذي ١٨٩٤/٢.

وأنشد لزهير:

وكَمْ ترَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ   زِيادَتُهُ أوْ نَقصُهُ في التّكلّمِ
لِسانُ الفَتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ   فلَمْ يَبقَ إلاّ صُورَةُ اللّحمِ[١]

قال ابن القيم: "وقد أودع الله اللسان في الفم الذي هو أحد الآيات الدالة عليه وجعله ترجمانًا لتلك الأعضاء مبينًا له مؤديًا عنه، ولما كان اللسان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه، ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه"[٢].

قال الشيخ الحسيني هاشم: (وفي الحديث أن الأعضاء تتأثر بخطأ العضو، وفيه إشارة إلى أن الفاسد لا يقتصر فساده على نفسه بل يضر إخوانه وعليهم ردعه ومقاومته وتوجيهه)[٣].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١٢/٩-١١٣، والأبيات في البيان والتبيين للجاحظ ١٠٢/١، وفوات الوفيات ٤١٧/١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١٩١/١.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧١٥.

الحديث رقم (١٥٢٤)

١٥٢٤ - وعن معاذ رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: ((لَقَدْ سَالتَ[١] عَنْ عَظِيمٍ، وإنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ)) ثُمَّ قَالَ: ((ألا أدُلُّكَ عَلَى أبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)) ثُمَّ تَلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦ - ١٧] ثُمَّ قَالَ: ((ألا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ)) قُلْتُ: بَلَى يَا رسولَ اللهِ، قَالَ: ((رَأْسُ الأمْرِ الإسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ الجِهادُ)) ثُمَّ قَالَ: ((ألا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!)) قُلْتُ: بلَى يَا رَسولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسانِهِ وقال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) قُلْتُ: يَا رسولَ الله وإنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[٢]! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ[٣] إلاَّ حَصَائِدُ ألْسِنَتِهِمْ؟)). رواه الترمذيُّ[٤]، وقال: (حديث حسن صحيح)، وَقَدْ سبق شرحه في باب قبل هَذَا[٥].

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

جُنة: الجُنَّةُ: الوقاية، أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات[٦].

---

(١) لفظ الترمذي: (سألتني).

(٢) عند الترمذي زيادة: (يا معاذ).

(٣) عند الترمذي زيادة: (أو على مناخرهم).

(٤) برقم (٢٦١٦). قال الحاكم (٢/٤١٣): هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٢٠).

(٥) لم يكرر المؤلف هذا الحديث في غير هذا الموضع، وأورده في الأذكار (ص: ٥٨٤) وشرح فيه بعض الكلمات.

(٦) النهاية في (ج ن ن).

جوف الليل: ثلثه الآخِرُ[١].

تتجافى: تتباعد[٢].

المضاجع: المفارش والمراقد[٣].

وذروة سنامه: أعلاه[٤].

بملاك ذلك كله: المِلاكُ: قِوامُ الشيء ونظامه وما يعتمد عليه[٥].

ثكلتك أمك: أي: فقدتك. وهو دعاء على ظاهره، ولا يراد وقوعه، بل هو تأديب وتنبيه من الغفلة وتعجيب وتعظيم للأمر[٦].

حصائد ألسنتهم: أي: ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه، واحدتها حصيدة، تشبيهًا بما يحصد من الزرع وتشبيهًا للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به[٧].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من وصايا رسول الله ﷺ الجامعات، ومن توجيهاته المشرقات، وإرشاداته النيرات، والحديث جامع لكل أمور الدين، وهو من جوامع كلمه ﷺ.

وهذه المحاورة الجامعة المانعة بين رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه تموج بالأساليب البديعة والتراكيب المفصحة عما يستكن في خبايا نظمها من دلالات وتوجيهات، وتبدأ المحاورة بسؤال من معاذ رضي الله عنه ورد في صيغة الأمر، ولكنه أمر متلبس بالرجاء، وهذه البداية تتضمن طباقًا بين موقفين: موقف النجاة في قوله:

---

(١) النهاية في (ج و ف).

(٢) النهاية في (ج ف و).

(٣) اللسان والوسيط في (ض ج ع).

(٤) الوسيط في (ذ ر و) و (س ن م).

(٥) النهاية في (م ل ك).

(٦) النهاية في (ث ك ل).

(٧) النهاية في (ح ص د).

"يدخلني الجنة"، وموقف الخسران في قوله: "يباعدني من النار"، والتضاد الدلالي يكمن في قوله: "يدخلني، ، ويباعدني"، وبين: "الجنة والنار"، وقدّم موقف النجاة على موقف الخذلان لمزيد من الرغبة في الطاعة ومعرفة طرقها وشعائرها، وصيغة المفاعلة في قوله: "يباعدني" للمبالغة في البعد، فقوله: "يباعدني" أبلغ من يبعدني.

وتكون الوصية من أربعة أقسام، وبدأ بالأركان في القسم الأول: لأنها فرائض لا يقوم الإسلام إلا بها.

وتبدأ إجابة رسول الله ﷺ بالتأكيد الذي يُشعر بالقسم في قوله: "لقد سألت عن عظيم"، والتقدير: والله لقد سألت عن عظيم، والتنوين في قوله: "عظيم" للتعظيم، والتأكيد في قوله: "وإنه ليسير": فيه ترغيب للإقبال على ميادين الطاعة، وفي هذه الجملة المرغبة طباق بين قوله: عظيم ويسير، فعظيم تعطي دلالة الشدة والثقل، والمسؤولية، وبدأ رسول الله ﷺ بأركان الإسلام، وقد ساقها مجردة من التوكيد لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يشك في ضرورة ووجوب الإقرار والعمل بأركان الإسلام، فهو مصدق للخبر لا يَشُكُّ ولا يُنْكِر؛ ولنتأمل صيغة المضارع ودلالتها في بيان رسول الله ﷺ البليغ الموجز "تعبد الله، تقيم الصلاة، تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت". وهذه الصياغة تفيد وجوب الاستمرار في هذه العبادات،وتواصل الطاعة وعدم انقطاعها.

وفي القسم الثاني من الوصية يزداد الترغيب عن طريق التصوير البياني.. وبعض الأساليب الدالة على ترسيخ المعاني: لأن الوصايا هنا توضح ثمرة العمل بالأركان والإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وما أرق هذا الاستفتاح، وما أجمله حيث يبدأ بالاستفهام الترغيبي وأداة الاستفتاح : "ألا أدلك على أبواب الخير"، وكأن الخير مدائن تتعدد أبوابها وعلى كل متجه إليها أن يعرف ما هية هذه الأبواب المُشْرَعة، وقد شبه الرسول ﷺ الصوم بأنه جُنَّةٌ أي درع يقي به الإنسان نفسه من النار.. فهو مصدر للقوة والحماية، وليس سببًا في الضعف كما يتوهم الأدعياء والجهلاء، وما أبلغ تصوير الرسول ﷺ للصدقة بالماء العذب الفرات الذي ينهمر على النار فيطفئها فهي تطفئ

الخطايا المشتعلة في النفس وهي تطفئ الأحقاد بين الناس، وتزرع السكينة والتراحم فيما بينهم.

ويتكرر أسلوب الترغيب بعد ذلك مرتين في قوله: "ألا أخبرك برأس الأمر"، و: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، وما أصدق هذا التصوير الأدبي وما أبلغه حيث صُور الدين بالكائن الحي، والخيمة الكبرى أو البناء الضخم، والبعير القوي: وكلها تشبيهات وصور منتزعة من البيئة المشاهدة، فرأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، واللسان هو الطريق لترجمة ذلك كله، فحصائد الألسن هي الطريق إلى الهلاك، والنجاة تتمثل في إمساك اللسان، وترطيبه بذكر الله، والإقرار بالتوحيد، والاعتراف بأفضال الله تعالى ونعمه التي لا تحصى.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

ثالثًا: من مهام الداعية: البيان والتفصيل للأمور العظيمة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى والمحافظة على أركان الإسلام.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التشويق.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصوم والصدقة وصلاة الليل.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطورة اللسان والأمر بحفظه.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه:

حيث جاء عن معاذ رضي الله عنه: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه" ولاشك أن لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فضلاً عظيمًا ومنزلة عالية، قال ابن عبدالبر: (هو معاذ بن جبل ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبدالرحمن قال الواقدي: كان

معاذ بن جبل طوالاً حسن الشعر عظيم العينين أبيض براق الثنايا، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالله بن مسعود، قال الواقدي: هذا ما اختلاف فيه عندنا. شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، وبعثه رسول الله ﷺ قاضيًا إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن)[١].

وقال أبو الفرج بن الجوزي: " عن يحيى بن سعيد قال: كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء. وعن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل إذا تهجد من الليل قال: اللهم قد نامت العيون وغارت النجوم وأنت حي قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هُدىً ترده إليَّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. وعن شهر بن حوشب قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ رضي الله عنه نظروا إليه هيبة له"[٢].

وقال ابن حجر: "هو الإمام المقدم في علم الحلال والحرام، قال كعب بن مالك: كان شابًا جميلاً سمحًا من خير شباب قومه، وقال الشعبي عن مسروق: كنا عند ابن مسعود فقرأ إن معاذًا كان أمة قانتًا لله، فقال: فروة بن نوفل: نسيت؛ فقال: ما نسيت إنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام، وقال عمر رضي الله عنه - عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر... وكانت وفاته رضي الله عنه بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة وعاش أربعًا وثلاثين سنة"[٣]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل"[٤].

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث: "أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار"، ومما

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٦٥٠ – ٦٥١.

(٢) صفة الصفوة ١/٢٢١-٢٢٢.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١٢٥٢-١٢٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي٢٩٨١).

لاشك أن من أهم واجبات المدعو السؤال عما ينفعه ويفيده قال الطيبي: "أى سألتني عن شيء عظيم مشكل متعسر الجواب ولكنه سهل على من يسره الله تعالى عليه لأن معرفة العمل الذي يدخل الرجل الجنة من علم الغيب، وعلم الغيب لا يعلمه أحد إلا الله، ومن علَّمه الله تعالى"(١). هذا وقد أمر الله المسلم أن يسأل عندما يجهل أمرًا من الأمور، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

قال السعدي: "وهذه الآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين - أصوله وفروعه - إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك"(٣).

ثالثًا- من مهام الداعية: البيان والتفصيل للأمور العظيمة:

حيث جاء في الحديث: "تعبد الله ولا تشرك به شيئًا... ألا أدلك على أبواب الخير..." ومما هو معلوم أن من أولى مهام الداعية البيان والتفصيل للمدعوين الأمور العظيمة التي يحتاجونها، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٤)، وقال جل شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥)، قال ابن عاشور: "والتبيين: هو إيضاح المعنى وإسناد التبيين إلى النبي ﷺ باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان، والمراد بالتبيين على هذا، تبيين ما في القرآن من المعاني، فمن حكم إنزال القرآن أن يبينه النبي ﷺ فتحصل فوائد

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ١٦٥/١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٤٦٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٥) سورة النحل، آية: ٤٤.

العلم والبيان"[١]. وفي أهمية البيان والتفصيل للعلم وعدم منعه يقول الإمام الماوردي: " ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودًا من غير بخل، وأتوه عفوًا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما أن بذلوه، زاد ونما، وإن كتموه، تناقص ووهى، ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، ولانقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالاً"[٢].

رابعًا- من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى والمحافظة على أركان الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت"، ومما هو معلوم أن من أهم أهداف الدعوة أن يستقيم الناس على عبادة الله عز وجل، ويمتثلوا أركان الإسلام فإن الغاية من خلق العباد هي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣]، قال ابن كثير: "إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "إلا ليعبدون" أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا، وقال الربيع بن أنس : أى: إلا للعبادة. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون"[٤]. وقال الإمام الراغب: "والعبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٥]، والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وهى للإنسان والحيوان والنبات، وعبادة بالاختيار وهى لذوي النطق وهى المأمور بها في نحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾[٦]، والناس كلهم عباد لله بل الأشياء

---

(١) التحرير والتنوير مج١٦٤/١٤/٦.

(٢) أدب الدنيا والدين ٨٧.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٢٥/٧.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١.

كلها، كذلك[1].

قال السيد سابق: إن سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة، مظهر من مظاهر عقيدته، فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام. وإذا فسدت فسد واعوجّ. ومن ثم كانت عقيدة التوحيد، والإيمان ضرورة، لا يستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته، ويحقق إنسانيته.

ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة أول شيء قام به رسول الله ﷺ لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة. ذلك أن رسوخ هذه العقيدة في النفس الإنسانية، يسمو بها عن الماديات الوضيعة، ويوجهها دائمًا وجهة الخير والنبل، والنزاهة والشرف.

وإذا سيطرت هذه العقيدة أثمرت الفضائل الإنسانية العليا، من الشجاعة والكرم، والسماحة والطمأنينة، والإيثار والتضحية.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

فالإيمان مثله مثل الشجرة المثمرة التي لا ينقطع ثمرها؛ فهي تؤتي أكلها كل حين في صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، والمؤمن كذلك، لا يزال يرفع له عمل صالح، في كل وقت وحين.

يقول الفيلسوف ابن سينا:

العارف شجاع.

وكيف لا؟ وهو بمعزل عن تقيَّة[3] الموت.

وجواد.

(١) المفردات في غريب القرآن ٣١٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٣) لا يتخذ الوقاية من الموت.

وكيف لا؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل.

وصفّاح.

وكيف لا؟ ونفسه أكبر من أن تجرحها زلّة بشر.

ونسّاء للأحقاد.

وكيف لا؟ وفكره مشغول بالحق.

ولهذا كثر في القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح، لأنه ثمرة من ثماره، وأثر من آثاره[1].

خامسًا- من أساليب الدعوة: التشويق:

حيث جاء في الحديث: "ألا أدلك على أبواب الخير"، "ألا أخبرك برأس الأمر"، "ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، وأسلوب التشويق من أساليب الدعوة التي تشد المدعو وتلفت انتباهه، ومن هنا كان على الدعاة إلى الله مراعاة التشويق في عرض الدعوة ليشجع المدعوين على الإقبال عليها، قال العلامة: محمد الخضر حسين: "العمل على إنقاذ النفوس من وادي الغواية، والإقبال بها على مطالع السعادة مسلك وعر لا يمر فيه على استقامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمدًا قاصيًا. فلا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة أو موعظة يلقيها في أى صورة شاء فإن المخاطبين يختلفون ذوقًا وثقافة اختلاف الزمن والبيئة، ومن اللائق أن تصاغ دعوة كل طائفة في أدب يليق بأذواقها أو ثقافتها"[2].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصوم والصدقة وصلاة الليل:

حيث جاء في الحديث: "الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل"، ومما لاشك فيه فضل هذه الأمور والثواب الجزيل عليها، قال الطيبي:

"جعل هذه الأشياء أبواب الخير لأن الصوم شديد على النفس وكذا إخراج المال في

---

(١) إسلامنا، ٢٧.

(٢) الدعوة إلى الإصلاح ٧١.

الصدقة، وكذا الصلاة في جوف الليل فمن اعتادها يسهل عليه كل خير ويأتي منه كل خير لأن المشقة في دخول الدار يكون بفتح الباب المغلق. وجعل الصوم جنة من النار لأن في الجوع سَدّ مجاري الشيطان فإذا سد مجاريه لم يدخل فيه، فلم يكن مسببًا للعصيان الذي هو سبب لدخول النار، والصوم جنة لأنه يقمع الهوى والشهوة، والصدقة تذهب الخطيئة الحاصلة والصلاة في جوف الليل تفيد الإدخال في الجنة، لأن قرة العين كناية عن السرور والفوز التام، وهو مباعدة النار ودخول الجنة"[١]. وقال المباركفوري: "والصوم جنة أى وقاية مانع من النار أو من المعاصي بكسر الشهوة وضعف القوة، والصدقة تذهب الخطيئة وتمحوها وتمحو أثرها أي إذا كانت متعلقة بحق الله تعالى، وإذا كانت من حقوق العباد فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته. وأما صلاة الرجل من جوف الليل فالمعنى أنها تطفئ الخطيئة أو هى من أبواب الخير والأول أظهر. وهو شعار الصالحين"[٢]. ويكفي قول الله في حق المصلين بالليل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

إن قيام الليل يورث العبد محبة الله.

"إن أصحاب الليل هم بلاشك من أهل المحبة. بل هم من أشرف أهل المحبة، لأن قيامهم في الليل بين يدي الله تعالى يجمع لهم جل أسباب المحبة.

- فهم لا يقرءون القرآن فحسب، بل يقومون به متدبرين خاشعين.
- وهم في قيامهم يتقربون بأقرب النوافل إلى الله.
- وهم في تجافيهم عن المضاجع لذكر الله بالليل، أحرى أن يكونوا ذاكرين له في النهار.
- ومجافاتهم تلك دالة على إيثارهم لمحاب الله على محاب أنفسهم.
- وهم في قيامهم يطالعون بقلوبهم أسماء الله وصفاته ويتقلبون في رياضها.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١/١٦٥-١٦٦.

(٢) تحفة الأحوذي، ٢/٢٠٠٤.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٧.

- وهم يتفكرون أثناء تلاوتهم في آلاء الله، وآيات بره، وإحسانه، وإنعامه على سائر الخليقة.

- ثم إنهم لا يقومون هذا المقام بين يدي الله تعالى في جوف الليل والناس حولهم يُغطّون، إلا وهم منكسرون بقلوبهم له سبحانه.

- وتوفيقهم لهذا القيام؛ توفيق للخلوة بربهم وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

فأهل القيام بذلك قد ذهبوا بنحو ثلاثة أرباع أسباب المحبة.

ولهذا فلا عجب أن يتنزل أمين السماء جبريل عليه السلام على أمين الأرض محمد ﷺ ويقول له: «وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزُّهُ ... اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»[1]. وإنما كان قيام الليل شرفًا لأصحابه، لأنهم يستشرفون به - وهو أشق الطاعات - رضا الله في أشد الساعات، ولهذا فهم يقلدون أوسمة الشرف الإلهي نورًا في القلوب ونورًا في الوجوه ونورًا في الحياة ونورًا في الممات، جزاء طول قيامهم لله في الظلمات.

يقول الحسن البصري "لم أجد من العبادة شيئًا أشد من الصلاة في جوف الليل"، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: "لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره". وقال أبو سليمان الداراني "أهل الليل في ليلتهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا".

وقال الضحاك: "أدركت قومًا يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة".

فإذا كان هذا شأن القيام ومنزلة القوامين، فلينهض المقصرون والكسالى والمخلطون -مثلنا- للحاق بركب الشرف الذي سلكوه، قبل أن ينقطع الطريق وتغلق الأبواب.

ومع شدة هذه العبادة، فإن لها من رحمة الله- ميسرات تذللها، ووصفات تسهلها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦١/١، والحاكم ٣٢٤/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني بمجموع طرقه، انظر السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٨٣١، ص ٥٠٥/٢.

على النفس الخالدة إلى الراحة الموقوتة العاجلة، والغافلة عن الراحة الأبدية الآجلة.

فإذا أراد أحدنا اللحاق بقافلة المحبوبين من الله فليَعْجَل إلى مرضاته، وليجعل إخلاص النية وصلاحها أولى خطواته، وليستعن بالله على ذلك[1].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطورة اللسان والأمر بحفظه:

حيث جاء في الحديث: "أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أمك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ". ولا شك أن هذا يدل على خطورة اللسان وكيف أنه سبب في دخول النار والعياذ بالله، قال الطيبي: "والمعنى لا يكب الناس في النار شيء من الأشياء إلا حصائد ألسنتهم من الكلام القبيح مثل الكفر والقذف والشتم والغيبة والبهتان، وهذا الحكم وارد على الأغلب والأكثر لأنك إذا جربت وفكرت لم تجد أحدًا حفظ لسانه عن السوء، ولا يصدر منه شيء يوجب دخول النار إلا نادرًا"[2].

وقال ابن علان: (واستبعد معاذ رضي الله عنه المؤاخذة به لسهولة مزاولته وسرعة حصوله وقوله: "هل يكب الناس" أى يقلبهم في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم، وتقدير الكلام: أو تسأل عن هذا مع ظهوره وأنت الفقيه الألمعي؟ ولذا عقبه بالاستفهام الإنكاري أى ما يكبهم فيها إلا ما يتكلمون به)[3].

وقال ابن عثيمين: (وقوله: "ثكلتك أمك يامعاذ"، وهذه كلمة يقصد بها تعظيم الأمر فيجب على المسلم أن يحذر حصائد اللسان ويحفظه، ومن حفظه أن يحفظ عن الكذب والغش وقول الزور والنميمة والغيبة وكل قول يبعده من الله تعالى، ويوجب عليه العذاب. فإنه يجب أن يتنزه منه)[4].

---

(١) شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدّها الإمام ابن القيم، عبدالعزيز مصطفى، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٦٩/١.

(٣) دليل الفالحين ١٥٨٠.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٦٠٣/٢.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ويتضح هذا من سياق الحديث: ومما لاشك فيه أن أسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة التي لها دور رئيس في الدعوة إلى الله وحث المدعوين على الطاعة"، والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والترهيب كل ما يخيف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"[1]، فيجب على الدعاة إلى الله الموازنة بين الأسلوبين في الدعوة واستخدام كل في موضعه.

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٢٥)

١٥٢٥ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟)) قالوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: ((ذِكْرُكَ أخَاكَ بِما يَكْرَهُ)) قِيلَ: أفَرَأيْتَ إنْ كَانَ فِي أخِي مَا أقُولُ؟ قَالَ: ((إنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ (مَا تَقُولُ) [1] فَقَدْ بَهَتَّهُ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بهته: كذبت وافتريت عليه[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث محاورة بليغة موجزة بين رسول الله ﷺ والصحابة الأخيار رضي الله عنهم وغرضها التعليم والإرشاد إلى السلوك الاجتماعي القويم، ومعرفة أبعاد العلاقة الحسنة بين أفراد الأمة وطوائفها فهم عباد الله تعالى، وهم إخوان في الدين والحياة.

ويبدأ الحديث بسؤال توجيهي من رسول الله ﷺ إلى صحابته حتى يلفت انتباههم، ويسترعي أسماعهم وأنظارهم، ويدعوهم لمزيد من الإصغاء، وإجابة السؤال لم تكن بالنفي، ولكنها تضمنت تسليم الأمر لله تعالى ولرسوله ﷺ، فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقيل: ردُّوا العلم إليهما عملاً بالأدب ووقوفًا عند حد العلم.

ويأتي توضيح رسول الله ﷺ في أسلوب خبري خالٍ من التوكيد: لأن الصحابة رضي الله عنهم لا ينكرون كلام النبي ﷺ ولا يشكون في صدقه، فهم قالوا: الله

---

(١) هذه الزيادة ليست عند مسلم، وإنما عند أبي داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤) نقله المؤلف عن المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٢٥٨٩/٧٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٨٩).

(٣) النهاية في (ب هـ ت).

ورسوله أعلم، فالأسلوب هنا مطابق لمقتضى الحال، حيث قال موضحًا مفهوم الغيبة: "ذكرك أخاك بما يكره"، وهذه الجملة الاسمية تفصح اسميتُها عن ثبات هذه الدلالة في كل زمان ومكان، وقوله: "أخاك" يوحي بالتأنيب والتقريع، فكيف يذكر الإنسان أخاه بما يكره، والأخوة هنا: أخوة الدين، فالمسلم أخو المسلم، "أيحب أحدكم أكل لحم أخيه ميتا؟".

والسؤال الذي وجهه بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ يتضمن الرغبة في معرفة الحكم الصحيح حيث قال: أو قيل له: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ وجواب الشرط محذوف: تقديره: فهو غيبة، وتوضيح رسول الله ﷺ يتضمن جملتين شرطيتين لأن القضية بها مقدمات ونتائج.

والجملة الأولى تؤكد رفض الرسول ﷺ للغيبة حتى لو كان في الإنسان هذه الخصال المعيبة.

والجملة الثانية: تضاعف من رفض الخوض في سير الناس بالباطل "وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته": أي افتريت عليه الكذب، وأداة الشرط في الجمل الثلاث: "إن" وهي بدلالتها الاحتمالية تفيد عدم اليقين، وتفيد بأن الغيبة أمر غير مرغوب فيه، ولذلك جاءت الجملة الأولى في كلام رسول الله ﷺ بدلالة الغيبة، والتعبير بـ"إن" يوحي بالتشكيك في هذا الأمر: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته"، والجملة الثانية كذلك تفيد وتعطي دلالة البهتان وهو الكذب والافتراء، والغيبة مرفوضة والبهتان مرفوض، لأن الإسلام يحرص على صون اللسان من آفات الكذب والسب والشتم، حفاظًا على روابط الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١- حكم الغيبة: اتفق الفقهاء على حرمة الغيبة، وأنها كبيرة من الكبائر[1].

---

(١) مجمع الأنهر ٢/٥٥٢، الفواكه الدواني ٢/٢٨٩، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/٢٣، مطالب أولي النهى ٢/٤٠٢، شرح صحيح مسلم ١٦/١٤٢.

٢- أن الغيبة كما تكون باللسان تكون أيضًا بالفعل، وبالتعريض، وبالكتابة والحركة، وبالرمز، وبغمز العين، وكل ما يفهم منه المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام[١].

٣- أن غير المؤمن ممن ليس بأخ كاليهودي والنصراني وسائر أهل الملل تجوز غيبته[٢].

٤- بيان توكيد غلظ تحريم الأموال، والدماء، والأعراض، والتحذير من ذلك[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان حقائق الأمور للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الغيبة على الإنسان والمجتمع.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: أتدرون ما الغيبة؟ "أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟" وأسلوب السؤال والجواب، من أساليب الدعوة النافعة "وعلى الدعاة إلى الله أن يعقدوا مجالس السؤال والجواب ذلك لأن حاضري هذه المجالس تثير الأسئلة المطروحة انتباههم إذ يشعرون بأن الدافع إليها في الغالب أمر مهم في نفوس السائلين، وهي تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتح أذهانهم لمعرفة الجواب من المتصدر للجواب، العالم بأجوبة الأسئلة المطروحة"[٤].

ولقد كان النبي ﷺ يهتم بإثارة الأسئلة في نفوس المدعوين، لتتطلع نفوسهم إلى

---

(١) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢.

(٢) سبل السلام ٣٣٣/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٩/١١.

(٤) فقه الدعوة إلى الله، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٩/٢.

معرفة الجواب، "وأسلوب الحوار والاستجواب كان ينتهجه النبي ﷺ مع من يلتقي بهم ويدعوهم ليثير انتباههم ويحرك فطنتهم وذكاءهم، ويُذْهب مَلَلَهم وسآمتهم ويصيب في مشاعر أحاسيسهم معين المعرفة وسلسبيل الهدى"[١].

ثانيًا- من واجبات الداعية: بيان حقائق الأمور للمدعوين:

حيث جاء في الحديث: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"، إن من أهم واجبات الداعية بيان الحقائق للمدعوين حتى لا يلتبس عليهم الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، قال المباركفوري: "وقوله: إن كان فيه ما تقول" أى من العيب، ولا معنى للغيبة إلا هذا، وهو أن تكون المنقصة فيه، وقوله "وإن لم يكن فيه ما تقول"، بتاء الخطاب أى قلت عليه البهتان، وهو كذب عظيم، يبهت فيه من يقال في حقه"[٣].

ففي هذا الحديث فرق النبي ﷺ للمدعو بين الغيبة والبهتان، وهذا ما يجب أن يفطن إليه الدعاة من تبيين الحقائق للمدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطر الغيبة على الإنسان والمجتمع:

يتضح هذا من سياق الحديث: "وقد نهى الله عن الغيبة، فقال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤]. قال أبو حامد الغزالي: "قال الحسن: ذِكْرُ الغيرِ ثلاثة: الغيبةُ والبهتانُ والإفكُ وكل في كتاب الله عز وجل، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذلك الرجل الأسود ثم قال: استغفر الله، إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على

---

(١) صفات الداعية، د. حمد العمار، ٩٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تحفة الأحوذي ١٦٣١/٢.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٢.

عينه ولم يقل الأعور"[١].

وقال النووي: (والغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا في الناس، حتى لم يسلم منها إلا القليل من الناس، والغيبة هي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خُلقه أو خَلْقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو ثوبه أو مشيته وحركته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته أو غير ذلك مما يتعلق به)[٢].

قال الشيخ السيد سابق: (إن ذكر الغير بالنقص، والتماس عيوبه فضلاً عن كونه يؤلم الإنسان ويخدش كرامته، فإنه كثيرًا ما يثير الفتن، ويقطع الروابط، ويمزق الصلات، وينسى المرء عيوب نفسه، ومن ثمَّ فإن الإسلام اعتبر هذا التنقيص والتحقير كأكل لحم الأخ الميت لينفر منه، فكما أن النفس تشمئز من أكل لحم الأخ بعد موته، وتنفر منه فكذلك يجب النفور والاشمئزاز من الغيبة. والنهي عن الغيبة ليس مقصورًا على الذكر باللسان فقط، بل هو شامل لكل ما يفيد معنى التحقير سواء كان بالإشارة أم بالتلميح. قال عمر بن عبدالعزيز: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم، ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. إن كرامة الإنسان وصيانة الأمة، يجب أن يظلا بعيدين عن عبث العابثين، وليس ثمة سبب من الأسباب يبيح التفريط في أية ناحية من هاتين الناحيتين)[٣].

قال القاضي أبو بكر العربي: "وأما الباب الرابع: في الغيبة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[٤]. معناه: يذكره بما فيه مما يكره، فإن ذَكَرَه بغير ما فيه فهو البهتان، حرم الله تعالى ذلك؛ لأنه تناول الأعراض، وكما حرم على الناس تناول أموال الناس ودمائهم بغير حق، كذلك حرم عليهم تناول أعراضهم بغير حق، ولا

---

(١) إحياء علوم الدين ١٦٠٧/٣.

(٢) الأذكار ٣٧٤.

(٣) إسلامنا ٢٨٣، ٢٨٤.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٢.

فرق بين الأحوال الثلاثة، وقد حَفَّ الله تعالى الدماء بالقصاص، وحَفَّ الأموال بالقطع، وحف الأعراض بالحد، كل ذلك حجب لا يَحِل اختراقها، فمن اخترقها بالأدنى أدب، ومن اخترقها بالأقصى حد، ترتيب حكيم للمصلحة، وتدبير عزيز له القهر والغلبة، أخبرنا أبو سعد الزنجاني قال: قال لنا أبو القاسم القشيري: قال الله عز وجل في الغيبة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1]. فذكر وجوها؛ أولها وأولاها تنزيل الغائب منزلة الميت؛ لأن الحاضر ينتصر لنفسه إذا سمع عرضه، والغائب لا ناصر له من نفسه كالميت[2].

جاء في موسوعة فقه القلوب:

والغيبة: ذكرك أخاك الغائب بما يكره.

والغيبة محرمة، والمستمع للغيبة شريك فيها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك.

وعلاج الغيبة: أن يعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى من اغتابه، وإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وإذا عرضت له الغيبة تفكر في عيوب نفسه، واشتغل بإصلاحها، فيستحي أن يعيب وهو معيب.

وإن ظن أنه سليم من العيوب فليشكر ربه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضي نفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه. وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالتجسس، وذلك منهي عنه؛ لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، وهو محرم كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

(١) الآية السابقة نفسها.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ ٢٣/ ٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

أما كفار الغيبة:

فالمغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: جناية على حق الله تعالى حيث فعل ما نهاه الله عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

الثانية: جناية على عرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، أو مات، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، والدعاء له، والثناء عليه، ولا يخبره بما لا يعلمه إن كان حياً؛ لئلا يوغر صدره.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[1]، [2].

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٤٤٩.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، ص٤/٣١٤٥، ٣١٤٦.

الحديث رقم (١٥٢٦)

١٥٢٦- وعن أَبي بَكْرة رضي الله عنه : أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: ((إنَّ دِماءكُمْ، وَأمْوَالَكُمْ، وأعْرَاضَكُمْ،(حَرَامٌ عَلَيْكُمْ) [١] كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ)) متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

الشرح الأدبي

إن خطبة حجة الوداع تعد دستورًا - لكل مسلم - يضيء الطريق، وينير القلوب، ويشحذ العقول؛ وينقذ المجتمعات من ظلام الشرك والصراعات التي تفتك بكل القيم الإنسانية الجميلة، وحين ألقى الرسول ﷺ خطبته أنصتت الدنيا لتسمع قوله، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودِّعة، ينطق بها فم رسول الله ﷺ بعد أن أنِسَت وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عاما، وها هو الآن يلخص المبادئ التي جاء بها وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة، وبنود معدودة، يلقي بها إلى سمع العالم.

وهذا الحديث قبس من هذه الخطبة المباركة، وقد ورد في صدر الحديث تحديد زمن الخطبة ومكانها ومناسبتها، فهي في يوم النحر في العام العاشر من الهجرة، ومكان الخطبة: "منى"، وفي بعض الروايات أن الخطبة كانت في يوم عرفة وسميت: حجة الإسلام، أو: حجة رسول الله ﷺ، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الجزء من الخطبة نجده يشع بكثير من الدلالات من خلال نظم الكلمات، وتنوع الأساليب، ودقة التراكيب، فالمباني تفصح عن المعاني.

---

(١) قوله: (حرام عليكم) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١٠٥) بلفظ: (عليكم حرام) وكذا عند مسلم. والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩/٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٥٩).

ويبدأ الحديث بالتأكيد في كلام الراوي الذي يروي كلام أبي بكر رضي الله عنه في صيغة مؤكدة، "أن رسول الله ﷺ قال" فالخبر مؤكد، ولا مجال للإنكار أو للتشكك في الرواية، وكلام رسول الله ﷺ يبدأ كذلك بالتأكيد بإن: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم" وهذا التأكيد يوجب الإيمان بهذا الحكم، وعدم التعدي على الأنفس والأموال والأعراض، والترتيب في الجملة ليس تعاقبيًا، لأنّ الواو لمطلق الجمع. ولكنَّ تقديم الدماء يفيد بأن الحفاظ على الأنفس وعدم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، هو الطريق إلى الحفاظ على الأموال والأعراض، ويأتي خبر "إن" بعد ذلك وهو: "حرام عليكم"، ليجمع الكل في دائرة واحدة وهي حرمة الدماء، وحرمة الأموال، وحرمة الأعراض.

والتكرار من وسائل تأكيد المعاني في هذا الحديث، وهو من سمات الأداء الأسلوبي في الخطابة، لأنه من أقوى وسائل التأثير والإفادة، والإمتاع والإقناع، وتكرار لفظ "هذا" يؤكد هذه الحرمة التي شبهها الرسول ﷺ بحرمة يوم الحج الأكبر، وحرمة شهر ذي الحجة، وحرمة البلد الحرام، وهذه الموازنة تذكر المسلم دائمًا في كل عصر بما قدمه رسول الله ﷺ والذين معه من جهاد وبلاء، وعناء وفداء، في سبيل الدعوة الإسلامية، وحماية البيت الحرام، وكل ديار الإسلام؛ وتكرار كاف الخطاب الدالة على الجمع سبع مرات.. له تأثيره الصوتي والإيقاعي، حيث ينفذ الكلام إلى القلوب قبل الأسماع، وكل من يسمعه يحفظه ويعيه، وختام الحديث فيه استفهام وحض على الإصغاء والتنفيذ، وفيه حث على الاستجابة والذي لا يستجيب لا يلومن إلا نفسه "ألا هل بلغت اللهم فاشهد".

المضامين الدعوية [1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١٣).

الحديث رقم (١٥٢٧)

١٥٢٧- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قُلْتُ للنبيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذَا وكَذَا. (قَالَ بعضُ الرواةِ[١]: تَعْنِي قَصيرَةً، فقالَ: ((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!)) قالت: وَحَكَيْتُ لَهُ إنْسَانًا فَقَالَ: ((مَا أُحِبُّ أنِّي حَكَيْتُ إنْسانًا وإنَّ لِي كَذَا وَكَذَا)). رواه أَبُو داود والترمذيُّ[٢]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

حسبك: كافيك[٣].

مزجت: خلطت[٤].

لمزجته: لخالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها[٥].

الشرح الأدبي

يدور المعنى حول بيان خطر الغيبة، والترهيب منها، وهو بيان عملي في حوار بين أم المؤمنين رضي الله عنها وبين الرسول ﷺ وقد بدأ الحوار بقول عائشة (حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذَا وكَذَا) كناية عن ما ذكرت فيها من قصرها، وقول الرسول ﷺ (لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!) صدور المعنى في ثوب الشرط بـ(لو) يفيد تعليق مزج البحر على مزج الكلمة المقولة في صاحبتها دلالة على عظم خطرها، وبين قوله مزجت،

---

(١) لفظ أبي داود: (قال غير مسدد). والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) واللفظ له، والترمذي (٢٥٠٢)، وقد تقدم مطولًا برقم ٢١٣. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٦٧).

(٣) المعجم الوسيط في (ح س ب).

(٤) اللسان في (م ز ج).

(٥) رياض الصالحين ٥٢٣.

ومزجته جناس يؤكد المعنى ويقرر تحقق الأثر المعلق بالفعل الأول وتخصيص ماء البحر للتكثير مبالغة في بيان الأثر، وقولها (: وَحَكَيْتُ لَهُ إنْسَاناً) كناية عن ذكره بعيب (مَا أُحِبُ أنّي حَكَيْتُ إنْساناً وإنَّ لِي كَذَا وَكَذَا) أسلوب نفي لذكر عيوب الناس مهما كان المقابل - هذا إن لم يكن هناك غرض شرعي يستلزم الغيبة - أي لا أحب أن أذكر أحد، وقوله (وإن لي كذا، وكذا) كناية عن المقابل المذكور لحكاية فلان، والحديث تحذير بليغ من خطر الغيبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من خطر الغيبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عما يتكلم به.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من خطر الغيبة:

يتضح هذا من سياق الحديث: ومما لاشك فيه أن الغيبة خطرها عظيم. قال النووي: "وقوله "مزجته" أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدَّة نتنها وقبحها، وهذا الحديث من أعظمِ الزواجر عن الغيبة أو أعظمُها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ في الذمِّ لها هذا المبلغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1]، نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه، والغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها ورِوينا عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، أنه دعى إلى وليمة فحضر، فذكروا رجلاً لم يأتهم، فقالوا: "إنه ثقيل، فقال إبراهيم: أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرت موضعًا يغتاب فيه الناس، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام وما أنشدوه في هذا:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ القَبِيحِ ... كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ

فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ القَبِيحِ ... شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ"[2]

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٢) الأذكار ٣٧٧-٣٧٨، والأبيات في: معجم الأدباء، قافية الهاء ٢٠٠/٣، والمستظرف ١٩٠١/٢، ومحاضرات الأدباء ٩٧/١.

قال ابن كثير: (والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها سبحانه وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، فكما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها"[١]. وقال الإمام الغزالي: "قال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس، فإنه داء. وقال الحسن البصري: (والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأكلة في الجسد)[٢].

(والغيبة حرام باتفاق الفقهاء، وذهب بعض المفسرين والفقهاء إلى أنها من الكبائر ونص الشافعية على أن الغيبة إن كانت في أهل العلم وحملة القرآن الكريم فهي كبيرة وإلا فصغيرة)[٣].

والإنسان الذي يغتاب الناس ضعيف النفس مرذول الخلق.

"والغيبة لا تصدر إلا من نفس ضعيفة وضيعة دنيئة.

والغيبة هي -كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»[٤].

والمغتاب يريد التسلق على أكتاف الآخرين، وذلك بالحط من أقدارهم، وتزهيد الناس بهم.

وما علم هذا المغتاب أن الرافع الخافض هو الله عز وجل، وأن بصنيعه يهدي حسناته - وهي أعز ما يملك - لمن يقع في عرضه.

فأين هذا المغتاب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٨٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٢.

(٣) الموسوعة الفقهية ٣١/ ٣٣٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٩.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٢.

بل أين هو من أهل الجاهلية التي كان أشرافها يتمدحون بترك الغيبة.

قال المثقب العبدي:

لا تَراني راتِعًا في مَجلِسٍ ... في لحومِ الناسِ كالسَّبعِ الضَّرِمْ[١]

والغيبة لا تقتصر على اللسان فحسب، بل قد تكون بالإشارة بالعين، أو اليد، أو نحو ذلك.

أما أسبابها فكثيرة، منها التشفي من الآخرين، ومجاملة الأقران والرفقاء، والحسد، وكثرة الفراغ، والتقرب لدى أصحاب الأعمال والمسؤولين عن طريق ذم العاملين.

ومن أسبابها الإعجاب بالنفس، والغفلة عن التفكر في عيوبها.

وأعظم أسبابها قلة الخوف من الله سبحانه وتعالى"[٢].

هذا وقد أفاض الإمام الغزالي في الإحياء في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة فعدّد لذلك أحد عشر سببًا، ذكر أن ثمانية من تلك الأسباب تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية التي تطرد في حق العامة فهي:

الأول: أن يشفي الغيظ.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره.

السادس: الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

---

(١) خزانة الأدب، البغدادي، قافية الميم ٨٩/١١، المفضليات، قافية الميم ٢٩٤/١.

(٢) سوء الخلق مظاهره – أسبابه – علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٩، ٢٠.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقارًا للغير، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضًا في الغيبة.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة، فهي أغمضها وأدقها، وهي:

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان، فإنه قد يكون به صادقًا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابًا وآثمًا من حيث لا يدري.

الثاني: الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به غيره فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره فيصير بذلك مغتابًا فيكون غمه ورحمته خيرًا، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، وهو ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء.

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أنّ التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى. كان عذرًا في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا ترخص الغيبة في سواها"(١).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عما يتكلم به:

حيث جاء في الحديث: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته"، وهذا يدل على مسئولية الإنسان عما يتكلم به، قال النووي: "وعن أبي علي الفضيل بن عياض ﷺ قال: "من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه فيما لا يعنيه". وقال الشافعي: (لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك، ولم تملكها، وعن عبدالله بن مسعود قال: "ما من شيء أحق بالسجن من اللسان، وقال غيره: مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك، ومما أنشدوه في هذا الباب:

---

(١) إحياء علوم الدين ١٤٣/٣-١٤٥، والأبيات للإمام الشافعي في الديوان، قافية النون، البحر: كامل تام.

احْفَـظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَم فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ(١)

وفي خطورة الكلام ومسئولية كل إنسان عما يتكلم به قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ»(٢).

قال ابن عبدالبر: "وهذا وما كان مثله إنما معناه نقصان الإيمان وعدم كماله لا الكفر، وأما في خطورة الغيبة فعن ابن لهيعة قال: أخبرني سليمان بن كيسان قال: كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر عنده رجل بفضل أو صلاح قال: كيف هو إذا ذكر عنده إخوانه؟ فإن قالوا: إنه ينتقصهم وينال منهم، قال عمر: ليس هو كما تقولون وإن قالوا: إنه يذكر منهم جميلاً وخيرًا ويحسن الثناء عليهم، قال: هو كما تقولون، إن شاء الله.

قال أبو عمر: يكفي في ذم الغيبة قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾(٣).

وقال الشاعر:

احذر الغيبة فهي الـ ... ـفسق لا رخصة فيه
إنما المغتاب كالآ ... كل من لحم أخيه

وعن محمد بن سيرين قال: ظلم لأخيك المسلم أن تقول أسوأ ما تعلم فيه.

وعن الحسن البصري أنه سأله رجل فقال: يا أبا سعيد، اغتبتُ فلانًا وأنا أريد أن أستحله؟ فقال: لم يكفك أن اغتبته حتى تريد أن تبهته!.

---

(١) الأذكار ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٩، ومسلم ٤٨.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

وعن قتيبة بن مسلم أنه سمع رجلاً يغتاب آخر فقال: أمسك عليك، فوالله لقد مضغت مُضغَة طالما لفظها الكرام.

وعن عتبة بن أبي سفيان أنه قال لابنه عمرو: إياك واستماع الغيبة، نزه سمعك عن الخنا كما تنزه لسانك عن البذا، فإن المستمع شريك القائل وإنما نظر إلى أخبث ما يكون في وعائه فألقاها في وعائك، ولقد أحسن القائل:

تحرَّ من الطرق أوساطها وعَدْ عن الموضع المُشتَبِه

وسمعك صُن عن سماع القبيـ ـح كصون اللسان عن القول به

فإنك عند استماع القبيـ ـح شريك لقائله فانتبه[١]

وهذا مأخوذ من قول كعب بن زهير، والله أعلم:

فالسامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل[٢]

وكان أبو حازم يقول: أربح التجارة ذكر الله وأخسر التجارة ذكر الناس يعني بالشر:

وهذا باب يحتمل أن يفرد له كتاب وقد أكثر العلماء والحكماء من ذم الغيبة والمغتاب وذم النميمة وجاء عنهم في ذلك من نظم الكلام ونثره ما يطول ذكره ومن وفق كفاه من الحكمة يسيرها إذا استعملها.

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول القائل:

إن شرّ الناس من يكشر لي حين يلقاني وإن غبتُ شتم

ويُحَيّيني إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمي كدم

وكلامٌ سيءٌ قد وُقرت منه أذناي وما بي من صمم

---

(١) معجم الأدباء، قافية الهاء ٣/٢٠٠، والمستظرف ١/٩٠، ومحاضرات الأدباء ١/٩٧ مع تعديل في بعض الكلمات.

(٢) خزانة الأدب، البغدادي، قافية اللام ٩/١٥٥.

لا يرانـــي راتعًـــا في مجلـــس في لحـوم النـاس كالـسبع الـضرم[١]

وعن المغيرة بن مسلم عن يحيى البكاء قال: كنت عند ابن عمر فجاءه رجل فوقع في الحجاج وشتمه فقال ابن عمر: أرأيت لو كان شاهدًا أكنت تقول هذا؟ فقال: لا فقال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

"ويتضح من سياق الحديث، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفوس المدعوين، وحثهم على ترك المحظورات الشرعية، "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله والترهيب يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[٣].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٥].

---

(١) خزانة الأدب، البغدادي، قافية الميم ١١/٨٩ مع تبديل في بعض الكلمات وترتيب الأبيات.

(٢) التمهيد، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٣/٤٢٨-٤٣١.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٤) سورة النبأ، الآيتان: ٢١-٢٢.

(٥) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤-٧٥.

الحديث رقم (١٥٢٨)

١٥٢٨ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَومٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هؤُلاء يَا جِبريلُ؟ قَالَ: هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ في أعْرَاضِهِمْ!)). رواه أَبُو داود[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يخمشون: يخدشون[٢].

يأكلون لحوم الناس: يغتابونهم[٣].

يقعون في أعراضهم: يسبُّونهم[٤].

الشرح الأدبي

قوله (لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَومٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ) العروج معناه الحركة صعودا جهة السماء، وبناء الفعل للمفعول يشير إلى أنه لم يعرج بنفسه 'أي أنه ليس من فعل النبي ﷺ وإنما من فعل الله تعالى بواسطة ملائكته فليس من عجب أن يصعد السماء بهذه الصفة، وليس لمعترض أن يعترض جهلا بكيف؟ والجار والمجرور (بي) يؤكد هذا، وأنه ليس من فعله وإنما من تصرف القادر الذي لا يعجزه شيء، وقوله (مررت) نسب المرور لنفسه؛ لأنه فعله بينما العروج لغيره (لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ) صورة من الهول المرتقب، والتعبير بالخمش يصور شدة الأثر،

---

(١) برقم (٤٨٧٨) إسناده صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٧٩).

(٢) النهاية والمصباح المنير في (خ م ش).

(٣) عون المعبود ٢١٠٥.

(٤) المصباح المنير في (و ق ع).

وتخصيص الوجه والصدر لأنهم مجمع محاسن الإنسان، وخمشه أشد شناعة من غيره، وقال الطيبي لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات جعلهما جزاء من يغتاب ويفري في أعراض المسلمين إشعارا بأنهما ليستا من صفات الرجال بل هما من صفات النساء في أقبح حالة وأشوه صورة)، وسؤال الرسول ﷺ (مَنْ هؤُلاءِ يَا جِبرِيلُ؟) استفهام يحمل مع طلب المعرفة تعجبا من حالهم لأنهم هم الذين يباشرون أنفسهم بالتعذيب، وكأنه يقول لهذا الذي يقع في أعراض الناس أنك بما تقول تعذب نفسك بنفسك، وقوله (هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ !) والإشارة لتميزهم أكمل تمييز مع ما تحمله من ذمهم، والتعبير بأكل لحوم الناس استعارة لانتهاك أراضهم، واغتيابهم وذكر عيوبهم وما يذم فيهم، وفائدتها التنفير من الفعل الذي تأباه الطباع، وقوله (ويقعون في أعراضهم) التعبير بالوقوع يوحي بشدة أثر أقوالهم في الناس وأكده بالتعبير بحرف الجر (في) التي تدل على الانغماس في هذه الأعراض، وفيه ترهيب بليغ بالمشهد المحكي من الوقوع في أعراض الناس.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: معراج النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الغيبة وعقوبة فاعلها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من تاريخ الدعوة: معراج النبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث: "لما عرج بي مررت بقوم" ومما لا شك فيه أن معراج النبي ﷺ حدث هام في تاريخ الدعوة الإسلامية، "ولقد كان المعراج بالنبي ﷺ في السنة العاشرة من سنى البعثة النبوية، كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها"[1].

---

(١) هذا الحبيب، أبوبكر جابر الجزائري، ١٠٧.

وقال البوطي: (لقد عانى رسول الله ﷺ ألوانًا كثيرة من المحن التي لاقاها من قريش، فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريمًا من الله تعالى له، وتجديدًا لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذي يلاقيه ﷺ من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه، أو أنه قد غضب عليه،وإنما هي سنة الله مع محبيه ومحبوبيه، وهي سنة الدعوة الإسلامية في كل عصر وزمن)[١]، وقال الشيخ محمد الغزالي: (إن جهاد الدعوة الذي حمله محمد ﷺ على كواهله عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء، ومزق شمل أتباعه فما ذاقوا، مذ آمنوا به، راحة الركون إلى الأهل والمال فمن تطمين الله له، ومن نعمائه عليه أن يهيء له هذه الرحلة السماوية لتمس فؤاده الُمَعنَّى ببرد الراحة، وليشعر أنه بعين الله، مذ قام يوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيده وعبادته، إن الإسراء والمعراج يقعان قريبًا من منتصف الرسالة التي مكث ثلاثة وعشرين عامًا، وبذلك كانا علاجًا مسح متاعب الماضي، ووضع بذور النجاح للمستقبل)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطورة الغيبة وعقوبة فاعلها:

حيث جاء في الحديث: "مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاءِ يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم". قال الطيبي: (ومعنى يخمشون أى يخدشون، ولما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات، جعلهما جزاء من يغتاب ويفرى من أعراض المسلمين، إشعارًا بأنهما ليسا من صفات الرجال، بل هما من صفات النساء في أقبح حالة وأسوء صورة)[٣].

ولا شك أن هذا الحديث يبين عقوبة الغيبة، قال ابن مفلح: "قال عدى بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام، وقال أبو عاصم النبيل: لا يذكر في الناس ما يكرهونه إلا سفلة لا دين لهم"[٤].

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ١٦٦.

(٢) فقه السيرة ١٣٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٨/٩.

(٤) الآداب الشرعية ٣١/١.

فإذا كانت الغيبة بهذه الخطورة فالواجب على العاقل أن يخزن لسانه عن الوقوع فيها.

قال ابن عبدالبر: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه! غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد.

قال أبو عمر: إذا كان أبو بكر، وموضعه من الدين والفضل والسابقة أعلى المواضع، يخاف من لسانه، ويقول إنه يورده موارد يخشى منها على نفسه، فما ظنك بغيره؟!، وعلى قدر علم الإنسان يكون خوفه ووجله وإشفاقه؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾[(١)]. ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[(٢)].

روينا عن ابن مسعود أنه قال: ((المؤمن يرى كأنه جالس تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، فتندق عنقه، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فصرفه بيده))[(٣)].

وقال عبدالله بن مسعود: أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل.

وروينا عن سلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود أنهما قالا: ما شيء أحق بطول سجن من لسان.

ولقد أحسن امرؤ القيس في قوله:

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليه لِسَانَهُ ... فليس على شَيءٍ سِواهُ بخَزَّانِ[(٤)]

وقال آخر:

رأيتُ اللسانَ على أهله ... إذا ساسه الجهلُ لَيْثًا مغيرا

وقال منصور الفقيه:

خَرِسٌ إذا نطقوا وإن ... قالوا عَيِي أو جبانُ

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٠٨.

(٤) خزانة الأدب، البغدادي، قافية النون ٥٥١/٨، البحر: طويل. الشاعر امرئ القيس.

فـالعي لـيس بقاتـل ولربمـا قتـل اللـسان[١]

والغيبة خطر على دين المسلم.

قال الحسن البصري: والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأكلة في الجسد.

وقال الحسن أيضًا: يا ابن آدم لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا.

وقال عمر ﷺ: عليكم بذكر الله فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وروى عن الحسن البصري أن رجلاً قال له: إن فلانًا قد اغتابك فبعث إليه الحسن رطبًا على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

وقال بشار بن برد:

خَيْـرُ إخْوَانِـكَ المُـشَارِكُ في المُـرِّ وأيْـنَ الـشَّرِيكُ في المـر أَيْنَـا
الـذي إن شـهدْتَ سَـرَّكَ في الحـيِّ وإنْ غبْـتَ كـانَ أذْنًـا وعيْنَـا
مِثْـلَ حُـرِّ اليـاقوت إنْ مَـسَّه النَّـارُ جَـلاه الـبلاَءُ فـازداد زَيْنـا
أنـتَ في معـشر إذا غبـت عـنهم بـدَّلُوا كـلَّ مـا يَزِينُـكَ شَـيْنا
وإذا مـا رأَوْكَ قـالوا جميعًـا أنـتَ مـن أَكـرَم البرايـا علينـا
مـا أَرى للأَنـامِ وُدًّا صـحيحًا صـار ود الأَنـام زُورًا وقينـا[٢]

ولما كانت الغيبة بهذه الخطورة فالواجب أن يتوب المسلم عنها، ويكفر عما بدر منه، ويعاهد الله عز وجل أن لا يكون من المغتابين، ويحسن توبته بألا يعاود الكرة إليها أبدًا.

جاء في الموسوعة الفقهية: وكلُّ من ارتكب معصية، لزمه المبادرةُ إلى التوبة

---

(١) الاستذكار، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٣/٤٥٠-٤٥٣.

(٢) انظر: حفظ اللسان، الشيخ وحيد عبدالسلام بالي، ص٣٧-٤٧ بتصرف، والأبيات لبشار بن برد، قافية النون، البحر: خفيف تام.

منها، والتوبةُ من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء: أن يُقْلِعَ عن المعصية في الحال، وأن يندَم على فعلها، وأن يَعْزِمَ ألاَّ يعود إليها.

والتوبةُ من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابعٌ: وهو ردُّ الظُّلامة إلى صاحبها، أو طلبُ عفوه عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبةُ بهذه الأمور الأربعة، لأن الغيبَةَ حقُّ آدميَ، ولا بد من استحلاله ممن اغتابه.

وقد ذكر الشافعية وجهين في كونه هل يكفيه أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حل، أو لابد أن يبين له ما اغتاب به؟

أحدهما: يشترط بيانه، فإن أبرأه من غير بيانه، لم يصحّ، كما لو أبرأه عن مال مجهول.

والثاني: لا يشترط، لأن هذا مما يتسامح فيه، فلا يشترط علمه، بخلاف المال، والأول أظهر، لأن الإنسان قد يسمح بالعفو عن غيبة دون غيبة، فإن كان صاحب الغيبة ميتًا أو غائبًا فقد تعذَّر تحصيل البراءة منها، لكن قال العلماء: ينبغي أن يكثر من الاستغفار له، والدعاء ويكثر من الحسنات. وهو قول الحسن في الاقتصار على الاستغفار دون الاستحلال.

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير. وصحح الغزالي قول عطاء في جواب من سأله عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبتُ فيما قلت وظلمتُك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت.

وأما قول القائل: العرض لا عوض له، فلا يجب الاستحلال منه، بخلاف المال، كلام ضعيف، إذ قد وجب في العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به. بل في الحديث الصحيح ما جاء أنه ﷺ قال: «مَن كانت لهُ مَظلمةٌ لأخيهِ مِن عِرضِهِ أو شيءٍ فليَتحلَّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ أن لا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إن كانَ لهُ عملٌ صالِحٌ أُخِذَ منهُ بقدْرِ مَظلمتِهِ، وإن لم تكنْ لهُ حَسناتٌ أُخِذَ من سيِّئات صاحبه فحُمِلَ عليه»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل: قد اغتبتيها فاستحليها. فإذن لا بد

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائبًا أو ميتًا فينبغي أن يكثر الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات.

وذكر النووي في الأذكار: أنه يستحب لصاحب الغيبة أن يبرئ المغتاب منها، ولا يجب عليه ذلك، لأنه تبرع وإسقاط حق، فكان إلى خيرته، ولكن يستحب له استحبابًا مؤكدًا ليخلص أخاه المسلم من وبال هذه المعصية، ويفوز هو بعظيم ثواب الله تعالى في العفو ومحبة الله سبحانه وتعالى، وقال: إن الصواب هو الحث على الإبراء من الغيبة[1].

ولقد جعل رسول الله ﷺ الشخص المغتاب خيرًا من الذي اغتاب ووقع في الغيبة، فعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: «أن رجلاً مر على قوم، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله، فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت، أما والله لننبئنه، قم يا فلان ـ رجلاً منهم ـ فأَخْبِره، قال: فأدركه رسولهم فأخبره بما قال، فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان، فسلمت عليهم، فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم، فأخبرني أن فلانًا قال: والله إني لأبغض هذا الرجل في الله، فادْعُه، فسله عَلامَ يبغضني؟ فدعاه رسول الله ﷺ، فسأله عما أخبره الرجل، فاعترف بذلك، وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ فلم تبغضه؟ قال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر، قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخّرتها عن وقتها؟ أو أسأت الوضوء لها؟ أو أسأت الركوع والسجود فيها؟ فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: لا، ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: يا رسول الله، هل رآني قط أفطرت فيه؟ أو انتقصت من حقه شيئًا؟ فسأله رسول الله ﷺ، فقال: لا، ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئًا في شيء من سبيل الله بخير، إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر

---

(١) الموسوعة الفقهية ٣٣٧/٣١-٣٣٩، وانظر: الأذكار للنووي، ٣٠٨-٣٠٩.

والفاجر، قال: فسله يا رسول الله، هل كتمت من الزكاة شيئًا قط؟ أو ماكست فيها طالبها؟ قال: فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: لا، فقال له رسول الله ﷺ: قم، إن أدري لعله خير منك»(١).

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديث وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، "والترهيب أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها. ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن"(٢).

ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا...﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥٥/٥، حديث رقم ٢٣٨٠٣. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لإرساله – لكن صحح إسناده الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ص١٤٥/٣ بهامش الإحياء.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

(٣) سورة فاطر، آية: ٣٦.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤-٧٥.

الحديث رقم (١٥٢٩)

١٥٢٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العِرْضُ: جانبُ الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه، ويُحامي عنه أن يُنْتَقَص ويُعابَ[٢].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بلافتة قصيرة تعجل بالحكم الذي يريد ترسيخه من حرمة دم المسلم، وعرضه، ودينه وتقرير حقوق الأخوة بين المسلمين وهو تفصيل بعده إجمال ففي قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) وال في المسلم للعهد أي المعهود وهو ما يعطي الحكم عموما، وفي العبارة إجمال فصَّله بقوله: (دمه، وعرضه، وماله) وهو من وسائل التشويق والإثارة مع ما يحققه من تأكيد المعنى، وتثبيته بذكره مجملاً ثم تفصيله، والأمور الذي قرر حفظها هي تقريبا كل ما للإنسان، وقد جعل كل المسلمين مطالبين بحفظ دم الفرد، وعرضه، ودينه، كما جعل كل فرد حارسا أمينا على دم أخيه، وعرضه، ودينه وهو من ذكاء النبي ﷺ في حفظ الأمة.

المضامين الدعوية[٣]

---

(١) برقم (٣٢/٢٥٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٩٥).

(٢) النهاية في (ع ر ض).

(٣) تقدم شرح هذا الحديث برقم (٢١٣).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على حفظ اللسان:

إن تربية الإنسان على حفظ لسانه من أهم ما يجب الاعتناء به، حيث أعلى الشرع منزلة حفظ اللسان، ويكفي في ذلك ما أشارت إليه أحاديث الباب، من ارتباط حفظ اللسان بالإيمان، وذلك في قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، وكذلك في جعل حفظ اللسان سببًا لدخول الجنان والبعد عن النيران، كما في قوله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ...إلخ»، وقوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة...إلخ».

والتربية على حفظ اللسان تحتاج إلى ترويض ومجاهدة للنفس، وتعويد لها على المنطق الحسن، واختيار الألفاظ الطيبة والبعد عن الفحش، وهذا مما يشق ويحتاج لمجاهدة، قال ابن القيم: "ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، لا يبالي بارتكاب الحرام"[1].

"لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه تربية الأنفس على حفظ اللسان والبعد عن الألفاظ المحرمة شرعًا، سواء كانت متعلقة بحق الله، أم بحق المخلوق كالسب والشتم والسخرية والغيبة...إلخ"[2].

ثانيًا- التربية بالترغيب والترهيب:

إن من جملة الأساليب التربوية، التي تراءت في أحاديث الباب، أسلوب التربية بالترغيب والترهيب، حيث الترغيب في حفظ اللسان وصونه، والترهيب من مخالفة ذلك

---

(١) عدة الصابرين، ص٧٠.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد عبدالله الدويش، ١٥٥، ١٥٦ بتصرف.

بإطلاقه فيما خالف شرعًا أو تجاوز حدًا.

"والترغيب كأسلوب تربوي يقوم على وعد بتحقيق منفعة، مقابل الالتزام بأداء أمر، أو اجتناب نهي"[1]، وذلك كما ورد في حديث الباب من الترغيب في الجنة لمن حفظ لسانه، وذلك في قوله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ».

أما "الترهيب فيقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به، أو نُهي عنه"[2]، وذلك كقوله ﷺ مرهبًا من إطلاق اللسان فيما لا حل له - «.... وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

والتربية بالترغيب والترهيب من الأساليب التربوية المهمة التي يُبنى عليها إعداد نفس المتربي للاستجابة، والالتزام بأوامر الشرع، "فالإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه، من خلال الترغيب والترهيب"[3].

ثالثًا- التربية بالسؤال:

إن كل إنسان في هذه الحياة له طاقات معينة، وبالتالي فإن معارفه محدودة ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة. ولذا تراه يبحث عن إجابات لما يجهل. ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال. وللسؤال مزايا متعددة من توفير للجهد والوقت والمال، كما أن فيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين، خاصة إذا كان المسؤول من أهل الخبرة والاختصاص. قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4][5]، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من سؤال معاذ

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٢.

(٢) المرجع السابق، ٣٩٢.

(٣) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، محمد الصيد الزنتاني، ٦٤٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣، سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٥) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

رضي الله عنه للنبي ﷺ في قوله: «يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ؟..إلخ».

وفي ذلك يقول أمية بن الصلت:

لا يذهبنَّ بك التفريط منتظرًا ... طول الأناة ولا يطمع بك العَجَلُ
فقد يزيد السؤال المرءَ تجربةً ... ويستريح إلى الأخبار من يسلُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصرُ
فاستخبرِ الناس عمَّا أنت جاهلُهُ ... إذا عَميتَ فقد يجلو العمى الخبرُ[1]

ولما كان الأمر كذلك فلا ينبغي للعاقل التردد في السؤال والسكوت على الجهل حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه سواء في القريب العاجل أو في البعيد الآجل. ويذكر عبدالحميد الهاشمي أن "سكوت الإنسان على جهله قد يكلفه غير قليل من تجارب فاشلة، ومن آلام ومتاعب، لأنه لو عرف الإجابة الموفقة لضمن لنفسه العمل السليم أو السلوك الصائب لاسيما في أمور تتصل بالمحاولة والخطأ والتجريب"[2][3].

والتربية بالسؤال لا تكون دائمًا من المتعلم أو المتربي للمعلم، بل قد تكون من العالم على أسماع المتربي، كما في قوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ...إلخ».

وفي ذلك تعظم الفائدة، وتتضح الفكرة، وتتضج المعرفة في أذهان المتعلمين والمتربين.

رابعًا: التربية العقائدية:

إن التربية الإسلامية تقوم على أصول واضحة تتمثل في العقيدة الإسلامية، حيث

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السهلي، ط٢، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٣٩٤هـ، ص٤٣٦.

(٢) الرسول العربي المربي، ص٢٣٣، نقلًا عن التربية الذاتية، من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

(٣) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥.

الأسس التي يؤمن بها الإنسان، ويصدر عنها تصرفاته وسلوكه، وتطلق العقائد الإسلامية على أركان الإيمان وما يتفرع عنها والبعد عن شبهات الشرك.

وهذا ما أشار إليه حديث الباب في قوله ﷺ: - بعد سؤال معاذ رضي الله عنه له عما يدخله الجنة ويباعده من النار - «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تعَالى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، ...إلخ».

وعقيدة التوحيد والإيمان بالله لها عظيم الأثر التربوي في حياة المسلم، وتتضح فيما يلي:

١ - تحرير الإنسان من الذل والمهانة لمغريات الحياة، فلا يستعبده جاه ولا مال، ولا يذل للطواغيت.

٢ - تحرير الإنسان من العبودية إلا لله. فلا يخضع أو يستسلم بالعبادة لأي من بني البشر أو كائن آخر أو جماد.

٣ - تربية عقل الإنسان على سعة الأفق والتأمل والرغبة في الاطلاع على أسرار الكون، وذلك للاستدلال على قدرة الله في خلقه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1].

٤ - توفير الاستقرار النفسي والراحة النفسية للإنسان فيما يتعلق بتساؤله دائمًا عن القوة التي هي أكبر منه تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله، فهو يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها.

٥ - تربية المؤمن على النفس الموحدة لله، وقد شبه الله تعالى النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فكل تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده، وبهذا تهدأ نفسه، وتستقيم حياته، وتكون تصرفاته بنسق واحد خاليًا من الصراعات والاعتراضات، أما العبد الذي يملكه أكثر من فرد فإن تصرفاته تكون حائرة بينهم بسبب اختلافهم وتناقضاتهم، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١][٢].

خامسًا: التربية الروحية:

إن العبادات تربية عملية وثمرة الامتثال لأوامر الله تعالى، وتهذيب للنفس وتزكية لها وإشباع للروح، ومن شواهد ذلك في حديث الباب ما ورد في قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «....وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ،.... وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ،....إلخ».

فالصلاة، هي المرتكز الأساسي للروح في صلتها بالله وهي محور إحياء معاني الإيمان للإنسان، "ففي الصلاة يتذكر الإنسان ربه، من مبدأ الصلاة وحتى منتهاها، والصلاة تربي الإنسان روحيًا وخلقيًا، إذ تربط بين الإنسان وخالقه، وتعلم الإنسان الطاعة والشكر لله، كما أنها تقوي إرادة الإنسان وتعوده على ضبط النفس والصبر والمثابرة والمحافظة على المواعيد"[٣].

والصوم له مقصود عظيم في تربية الأنفس:

"حيث حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بما للأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين"[٤].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد محمد عطية، ٦٥-٦٧باختصار.

(٣) نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، د. محمد فاضل الجمالي، ط١، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٠م، ص١٠٥.

(٤) زاد المعاد، ابن القيم، ١/١٥٢.

أما الزكاة "فبها تطهر نفوس الأفراد من الذنوب، ومن أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب، وتزكي أنفسهم أن تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية"[1].

والمؤمن في تربيته يحتاج - بعد صلاته التي يصليها، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا أتم النصاب وحال الحول - إلى أن يشهد موسمًا هو ربيع الحب والحنان، وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين ألا وهو الحج.

وفيه يتربى المؤمن على أن يروي ظمأ روحه، ويقضي حاجة حنانه، ويكسر ثورة نفسه، ويثور على وثنية" عاداته ومألوفه.

فالحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد، وسعي وراء الأمر، وتلبية وإجابة للطلب[2].

فالقصد من الحج تربية النفس على الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية، وانتهاضًا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه[3].

وذلك فضلاً عن تربية الأنفس على الاقتصار على الضروريات من الحياة، والتجرد لله في جميع الحركات والسكنات[4].



(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٤٣.

(٢) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٤٣، ٢٤٦.

(٣) المرجع السابق، ٢٤٦.

(٤) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٤٣.

٢٥٥- باب تحريم سماع الغيبة

وأمر من سمع غيبة محرمة بردها والإنكار على قائلها فإن عجز أو لم يقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[القصص: ٥٥]، وقال تَعَالَى: ﴿والَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الحديث رقم (١٥٣٠)

١٥٣٠- وعن أَبي الدرداء ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَومَ القيَامَةِ**)). رواه الترمذيُّ[1]،وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٢).

غريب الألفاظ:

ردّ عن عرض أخيه: أي: منع غيبة عن أخيه، والعِرْضُ: جانبُ الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه، ويُحامى عنه أن يُنْتَقَص ويُعابَ[2].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى الذَّب عن المسلم، والدفع عنه في غيابه وهو ما يصوب خطأ المغتاب أو السَّاب أو القاذف وقد صاغ المعنى في ثوب الشرط الذي يحيط المعنى بمزاياه وخصائصه حيث يعطيه اطرادا مع الزمان المكان ويربط الجزاء بالشرط،

---

(١) برقم (١٩٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٩٤).

(٢) النهاية في (ع ر ض).

ويشعر المخاطب بأنه حر الاختيار في الرد عن أخيه، أو عدم الرد، ولكن ربط الجزاء به تشجيعا، وترغيبا على إتيان الفعل فقد ربط رد المسلم عن عرض أخيه برد الله النار عن وجهه يوم القيامة، والتعبير بالرد يوحي بتقدم فعل أو قول فيه انتهاك لعرضه، والتعبير بالأخ وإضافته إلى الضمير يشعر برابطة الرحم التي تستلزم المودة، والرحمة، والنصرة، وإن كان المراد أخوة الإسلام، ونسبة الرد في الجزاء لله توكيد للتحقق كما أكدته صيغة الماضي وتخصيص الوجه بالذكر لأن العذاب فيه أنكى، وأكثر مهانة وهو أول ما يحاول الإنسان حمايته عند الخطر، وتعلق الرد بالنار يزيد الرغبة في العمل الموجب للرد وتقييد الرد بيوم القيامة يصعِّد الرغبة في الرد عن أعراض المسلمين رغبة في النجاة من هول اليوم.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١- فضيلة رد غيبة المسلم الذي ليس بمتهتك في الباطل وأن هذا من مهمات الآداب وحقوق الإسلام[١].

٢-التنبيه على من يظن به الفساد في الدين عند الإمام على جهة النصيحة ولا يعد ذلك غيبة، وأن على الإمام أن يتثبت من ذلك ويحمل الأمر فيه على الوجه الجميل[٢].

٣- لا يخلد في النار من مات على التوحيد[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الدفاع عن عرض المسلم في غيبته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: ثواب الدفاع عن عرض المسلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨٩/٧، فتح الباري ٥٤/٨، سبل السلام ٣٥٧/٤.

(٢) فتح الباري ٦٥٢/١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦١/١٥، فتح الباري ٦٥٢/١.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن الترغيب في فعل الخير والتحلي بالفضائل من أساليب الدعوة التي تحدو بالمدعوين وتدفعهم دائمًا إلى عمل الخير وخير العمل، وقد جاء الترغيب في الحديث "رد ودفاع المسلم عن عرض أخيه برد الله النار عن وجهه يوم القيامة، فقال ﷺ: "من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وأسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه والحث على طاعة الله تعالى[١]، خاصة وأن أسلوب الترغيب والترهيب من أوفق الأساليب للنفس البشرية، وذلك أن النفس البشرية تعيش بين شد ولين وقبض وبسط، والترغيب والترهيب من أقوى المؤثرات في هذا المخلوق العجيب، والوعد والوعيد عاملان حاسمان في استقامة البشر وتقويم سلوكهم[٢]، وآيات القرآن حافلة بأسلوب الترغيب، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

إن من عظمة دين الإسلام وكمال نهجه أنه يربي الناس على الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، فكما أن هنالك من آيات الترهيب وأحاديث التخويف ما يزلزل النفوس، ويهز الأفئدة، ويرهب النفس، فهناك من آيات الترغيب ما يسلي القلب، ويؤنس الخاطر، ويبعث على الأمل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٤.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٦٧.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[٢].

إن من الواجب على العالم في علمه، والداعي في دعوته، والواعظ في وعظه والمربي في تربيته، أن يجمع بين الأمرين، ويقرن بين الحسنيين، ويمزج بين الغرضين، فليس التخويف بمفرده سبيلاً للعلاج، وأداة للتقويم، وطريقة للدعوة، بل قد يكون الرجاء أجمل، والترغيب أوقع، وإن المتأمل لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه ﷺ يجد جانب الترغيب، ونصوص الرجاء أكثرَ عددًا وأجمل موقعًا، وألذ سماعًا، وأطرب استمتاعًا.

إن الرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة، ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوبًا بالعمل، مقرونًا بالطاعة، ممزوجًا بالعطاء، فليس معنى الرجاء أن ينغمس المرء في الذنوب، ويتقاعس عن الطاعة، ويتنكر للعبادة، ويفرط في الحقوق، ويضيع الواجبات، ثم يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة، بل هو يعمل ويرجو، ويجتهد ويطمع، ويبذل ويرغب، وهو معترف بتقصيره مقر بذنوبه، مؤمل في نيل غفران ربه[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الدفاع عن عرض المسلم في غيبته:

إن من أعظم الأسباب أثرًا في جلب محبة المسلم لأخيه المسلم الذَّب والدفاع عنه في غيبته إذا قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك تقصير في حق الأخوة[٤].

وقد وردت النصوص الجمة في حض المسلم على الرد والدفاع عن عرض أخيه إذا تعرض لسوء أو أذى، ومن ذلك ما روى عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ أُرَاهُ قال بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ٦-٩.

(٣) انظر: كتاب: "الله أهل الثناء والمجد"، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٦٦٤، ٦٦٥.

(٤) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز، ٣٧٦.

الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قالَ))[١].

وكذلك ما جاء من قوله ﷺ "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، أى من منع غيبةً عن أخيه صرف الله عن وجه الرادِّ نار جهنم، قال المناوى أى عن ذاته العذاب، وخص الوجه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان[٢]، والحث على الدفاع عن أعراض الغير من حقوق الإخاء الذي هو أوثق الروابط، فالإخوة رباط تزول أمامها جميع الفوارق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣]. وهذه الأخوة والمؤاخاة في الله سبحانه، وقد جعل الإسلام هذا النوع من الأخوة فوق كل أخوة، وجعله من كمال الإيمان، حيث جعله رابطة قوية بين المسلم وأخيه المسلم، ومن كمال الإيمان أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، ومن ذلك أن يرد عن عرضه إذا انتهك أمامه[٤]، وهذا الإخاء يقتضي تبعات وحقوقًا، فليس هو إخاءً عقيمًا لا ثمرة له في الواقع ولا أثر له في الحياة العملية، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه، وأن يعني بشأنه، والدفاع عنه، والذياد عن حياضه، والعمل الدائب على ترقية حاضره وإعداده لمستقبل أعز وأكرم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[٥]، ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه، ويصون حرمته، في حضوره أو غيبته، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: ثواب الدفاع عن عرض المسلم:

بين الحق تبارك وتعالى أن جزاء العمل من جنسه، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ

---

(١) أخرجه ابو داود ٤٨٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٦).

(٢) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ١٦٢٨/٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١٦/٢.

(٥) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٦) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٨١-١٨٢.

إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[2]، فإن ذلك هو الجزاء الحق ومقتضى الحكمة والعدل[3]. والحديث فيه بيان لصورة من ذلك في بيان ثواب الدفاع عن عرض المسلم، فقال ﷺ "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وذلك لأنه رد مريد الغيبة عن عذابها لو فعلها، فجوزى بردها عنه في الآخرة، ورد عن المغتاب ما يلقاه مما رمى به من اغتابه، فردها - أي النار - الله عنها[4].

وجاء من حديث سهل بن معاذ بن جبل عن أبيه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ أُرَاهُ قال بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ الله عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قالَ))[5].

قال العظيم آبادي في شرح الحديث: "من حمى مؤمنًا" أي: حرس وحفظ مؤمنًا في عرضه من منافق يغتابه بعث الله ملكًا يحمي لحم حامي المؤمن، ومن رمى مسلمًا أي قذفه بشيء من العيوب يريد عيبه به، أوقفه الله يوم القيامة على جسر جهنم حتى يخرج مما قال، أي من عهدته، والمعنى حتى ينقي من ذنبه ذلك، بإرضاء خصمه أو بشفاعته أو بتعذيبه بقدر ذنبه[6].

قال النووي: اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق ذلك المجلس فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر[7].

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٢٦.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج١١/٢٧/٢٧١.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٥٨٤.

(٥) اخرجه أبو داود ٤٨٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٦).

(٦) انظر: عون المعبود ٢١٠٧.

(٧) الأذكار ٣٠٤.

الحديث رقم (١٥٣١)

١٥٣١- وعن عِتبَانَ بنِ مَالكٍ رضي الله عنه، في حديثه الطويل المشهور الَّذي تقدَّمَ في باب الرَّجاء[1] قَالَ: قام النبيّ صلى الله عليه وسلم يُصلِّي فقَالَ: ((**أيْنَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟**)) فقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللّهَ ولا رَسُولَهُ، فقَالَ النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ تَقُلْ ذَلِكَ الاَ تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهُ يُرِيدُ بِذَلكَ وَجْهَ اللهِ! وإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهُ يَبْتَغي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**)). متفق عَلَيْهِ[2].

(**وَعِتْبان**) بكسر العين عَلَى المشهور وحُكِيَ ضَمُّها وبعدها تاءٌ مثناة مِن فوق ثُمَّ باءٌ موحدة. و(**الدُّخْشُم**) بضم الدال وإسكان الخاء وضم الشين المعجمتين.

ترجمة الراوي:

عِتبان بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحكي قصة عملية للرد عن المسلم ونصرته في غيبته، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (أيْنَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟) سؤال تفقد للمسلمين عند الصلاة يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه، حتى يعود المريض ويعين الضعيف، ويعطي الفقير، ويصلي على الميت، وتنكير (رجل) لعدم تعلق غرض بذكره، أو من باب الستر على المخطيء وقول الرجل (ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللّهَ ولا رَسُولَهُ) هو موضع الخطأ، واسم الإشارة (ذلك) للذم وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لاَ تَقُلْ ذَلِكَ) نهي يقتضي أنه أتى مخالفة شرعية (ألاَ تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهُ يُرِيدُ بِذَلكَ وَجْهَ اللهِ !) استفهام تقريري أي أنه قالها، وقوله (يريد بذلك وجه الله) يفيد نفي النفاق عنه، ويثبت له الإخلاص، وقوله (وإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهُ يَبْتَغي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ) خبر مؤكد

---

(١) باب (٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣/٥٤)، وتقدم برقم (٤١٧).

بمؤكدات متعددة منها (إن) واسمية الجملة، وحرف التحقيق (قد) والفعل الماضي المفيد للتحقيق تعظيما للخبر، وتنبيها إليه والخبر يقرر نجاة الموحد المخلص.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٤١٧).

الحديث رقم (١٥٣٢)

١٥٣٢- وعن كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصةِ تَوْبَتِهِ وَقَدْ سبق في باب التَّوبةِ. قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ وَهُوَ جالِسٌ في القَومِ بِتَبُوكَ: ((**مَا فَعَلَ كَعبُ بن مالكٍ؟**)) فَقَالَ رَجلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رسولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ مُعاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه: بِئْسَ مَا قُلْتَ، والله يَا رسولَ الله مَا علمنا عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رسُولُ الله ﷺ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢).

غريب الألفاظ:

حبَسَه: منعه[2].

بُراده: ثنى بُرْدٍ: ضربٌ من الثياب[3].

عطفاه: جانباه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه[4].

الشرح الأدبي

قول النبي ﷺ (مَا فَعَلَ كَعبُ بن مالكٍ؟) هو من تفقد أصحابه عن الغزوات، لذلك سأل عن فعله، ولم يسأل عن مكانه، وقول الرجل: (حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ) أي جانبيه وقوله (حبسه برداه) مجاز مرسل بنسبة الفعل لسببه مبالغة في درجة الانشغال، والعبارة كناية عن انشغاله بالزينة، وللباس عن الجهاد، وهو موضع الخطأ؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩/٥٣) واللفظ له، وتقدم برقم (٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٠).

(٢) الوسيط في (ح ب س).

(٣) الوسيط في (ح ب س).

(٤) رياض الصالحين.

لأنه فيه غمز، ولمز لكعب بن مالك ﷺ، وقول معاذ بن جبل ﷺ (بِئْسَ مَا قُلْتَ) رد على الرجل بأسلوب إنشائي غير طلبي يفيد الذم لقوله، وهو أدب من معاذ ﷺ لأنه ذم القول دون أن يذم صاحبه مباشرة، ثم زكّى كعب بن مالك ﷺ بقوله (واللّه يَا رسولَ اللّه مَا علمنا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْراً) وقد أكد الجملة بعدة مؤكدات تصدرها القسم الذي يوحي بالثقة فيما يقول، تلاه النداء الذي يقصد به مزيد التنبيه والإقبال عليه مع ما يحمل من التكريم ثم أسلوب القصر بالنفي، والاستثناء المناسب لمقام الإنكار حيث قصر علمه عنه على الخير لا يتعداه لغيره، وسكوت الرسول ﷺ وعدم رد قوله يقرر صدقه، ونهاية القصة، ونزول القرآن فيه، وفي من معه دليل على ذلك.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على رد الغيبة وعدم سماعها:

من أهداف التربية الإسلامية، تهذيب الأخلاق والارتقاء بالسلوك، ومن ذلك التربية على عفة اللسان عن الخوض في الحديث عن الآخرين، والحث على رد غيبة المسلم، وعدم السكوت على ذلك لأنه يمثل انتهاكًا صارخًا لحرمة المسلم، وإن التربية الإسلامية تعمل على تنمية شعور الغيرة المحمودة والتي من مظاهرها رد غيبة المسلم والنبي ﷺ قال في توجيهاته التربوية: «مَنْ رَدَّ عن عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ الله عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فهذه تربية نبوية صريحة من الرسول ﷺ توجه إلى أهمية وضرورة رد غيبة المسلم وعدم سماع الغيبة وردها وزجر قائلها، ويعلمنا النبي ﷺ أن من لم يستطع رد الغيبة عليه أن يفارق المجلس، وإن رد الغيبة له آثار إيجابية منها: البعد عن الوقوع في الحرام، مراعاة حقوق وحرمات المسلمين، وكذلك صيانة روح المحبة والمودة بين المسلمين، ومن الشواهد على أهمية رد الغيبة من أحاديث الباب: قول معاذ عندما سمع الغيبة قال: «بئس ما قلت...»، لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه غرس القيم الإيجابية التي تعمل على رد الغيبة وتربية الجيل على أن الله يوم القيامة يبدل حسنات من قام بالغيبة بسيئات من اغتابه، ويعرفهم بأن الله شبه من يغتاب بأنه: ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1].

ومن الأهداف التربوية في هذا المضمون: احترام الآخرين، وذلك لأن الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك يعتز فيه بكرامته وحريته، وينسب علاقاته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة، وبذلك يطمئن الإنسان على نفسه وعرضه وماله، ومن هنا حرم رسول الله ﷺ كل ما يؤدي إلى سلبية الإنسان، ودعا إلى كل ما يقوي الصلات الاجتماعية ويوثق عرى المحبة والتعاون بين الناس، والتي منها "رد

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

الغيبة"، والقاعدة العامة في العلاقات الاجتماعية هي صيانة حرمة وعرض المسلم والتي منها الغيبة، ولن يتأتى هذا الأمر في السلوك الإسلامي التربوي إلا بالتربية على الوازع الديني الذي يعد في ضوابط السلوك(١).

ثانيًا: التربية بالترغيب:

التربية بالترغيب تؤثر في النفوس تأثيرًا إيجابيًا، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث الباب قول النبي ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله، وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

وقد أراد النبي ﷺ الترغيب في الإيمان ومراقبة الله والتحلي بالقيم الإسلامية "كرد الغيبة"، وذلك لأن الرسول ﷺ يعلم أن الإنسان مفطور على حب كل ما يُدخل عليه الراحة والسرور، لذا كان للترغيب تأثيرٌ كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب بالجنة، مما حمل قلب الإنسان نحو الخير وتوجيهه لذلك الخير، والرسول ﷺ أراد من هذا النموذج التربوي تعليم المسلم جلب الخير لنفسه وكره الشر والشقاء، كل هذا يدفع بالإنسان للاستجابة بالمؤثرات الترغيبية، وبهذا يكون الإنسان قد أعد لنفسه وقاية، من المخالفة، من هنا نخلص إلى أن النبي ﷺ أراد من هذا الهدي النبوي إعانة الإنسان على تحديد أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره(٢).

۞ ۞ ۞

---

(١) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ٤٢٢، ٤٢٣، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم نهاد العمري، ٢١١، القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع علي مانع، ص٤٢٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٣. التربية الإسلامية، د. سليمان بن عبدالرحمن، ص٥٩، ط الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

٢٥٦- باب ما يباح من الغيبة[١]

اعلَمْ أنَّ الغِيبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرْعِيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إلَيْهِ إلاَّ بِهَا، وَهُوَ سِتَّةُ أسْبَابٍ:

الأَوَّلُ: التَّظَلُّمُ، فَيَجُوزُ لِلمَظْلُومِ أنْ يَتَظَلَّمَ إلَى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهِما مِمَّنْ لَهُ وِلاَيَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فيقول: ظَلَمَنِي فُلاَنٌ بكذا.

الثَّاني: الاسْتِعانَةُ عَلَى تَغْييرِ المُنْكَرِ، وَرَدِّ العَاصِي إلَى الصَّوابِ، فيقولُ لِمَنْ يَرْجُو قُدْرَتَهُ عَلَى إزالَةِ المُنْكَرِ: فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فازْجُرْهُ عَنْهُ ونحو ذَلِكَ ويكونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلُ إلَى إزالَةِ المُنْكَرِ، فَإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ كَانَ حَرَامًا.

الثَّالِثُ: الاسْتِفْتَاءُ، فيقُولُ لِلمُفْتِي: ظَلَمَنِي أَبي أَوْ أخي، أَوْ زوجي، أَوْ فُلانٌ بكَذَا فَهَلْ لَهُ ذَلِكَ؟ وَمَا طَريقي في الخلاصِ مِنْهُ، وتَحْصيلِ حَقِّي، وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟ وَنَحْو ذلِكَ، فهذا جَائِزٌ لِلْحَاجَةِ، ولكِنَّ الأحْوطَ والأفضَلَ أنْ يقول: مَا تقولُ في رَجُلٍ أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ، كَانَ مِنْ أمْرِهِ كذا؟ فَإنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الغَرَضُ مِنْ غَيرِ تَعْيينٍ، وَمَعَ ذَلِكَ، فالتَّعْيينُ جَائِزٌ كَمَا سَنَذْكُرُهُ في حَديثِ هِنْدٍ[٢] إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرَّابعُ: تَحْذِيرُ المُسْلِمينَ مِنَ الشَّرِّ وَنَصِيحَتُهُمْ، وذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا جَرْحُ المَجْرُوحينَ مِنَ الرُّواةِ والشُّهُودِ وذلكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المُسْلِمينَ، بَلْ وَاجِبٌ للْحَاجَةِ.

ومنها: المُشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ أو مُشاركتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أَوْ مُعامَلَتِهِ، أَوْ غيرِ ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المُشَاوَرِ أنْ لا يُخْفِيَ حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المَسَاوِئَ الَّتي فِيهِ بِنِيَّةِ النَّصيحَةِ.

ومنها: إذَا رأى مُتَفَقِّهًا يَتَرَدَّدُ إلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ فَاسِقٍ يَأَخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وخَافَ أنْ يَتَضَرَّرَ المُتَفَقِّهُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْهِ نَصِيحَتُهُ بِبَيانِ حَالِهِ، بِشَرْطِ أنْ يَقْصِدَ النَّصِيحَةَ، وَهَذا مِمَّا يُغلطُ

---

(١) انظر: الأذكار ٢٨٠-٢٨٢ ط مكتبة الصفا.

(٢) سيأتي برقم (١٥٣٧).

فيـهِ. وَقَـدْ يَحمِلُ الْمُتَكَلِّمَ بـذلِكَ الحَسَدُ، وَيُلَبِّسُ الشَّيطانُ عَلَيْـهِ ذَلِكَ، ويُخَيِّلُ إِلَيْـهِ أنَّـهُ نَصِيحَةٌ فَلْيُتَفَطَّنْ لِذلِكَ.

وَمِنها: أنْ يكونَ لَهُ وِلايَةٌ لا يقومُ بِهَا عَلَى وَجْهِها: إمَّا بأنْ لا يكونَ صَالِحًا لَهَا، وإما بأنْ يكونَ فَاسِقًا، أَوْ مُغَفَّلاً، وَنَحوَ ذَلِكَ فَيَجِبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ لَهُ عَلَيْهِ ولايةٌ عامَّةٌ لِيُزيلَهُ، وَيُوَلِّيَ مَنْ يُصلِحُ، أَوْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حالِهِ، وَلاَ يَغْتَرَّ بِهِ، وأنْ يَسْعَى فِي أنْ يَحُثَّهُ عَلَى الاسْتِقَامَةِ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ.

الخامِسُ: أنْ يَكُونَ مُجَاهِرًا بِفِسْقِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ كالمُجَاهِرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ، وجِبَايَةِ الأمْوَالِ ظُلْمًا، وَتَوَلِّي الأمُورِ الباطِلَةِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ، وَيَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلاَّ أنْ يكونَ لِجَوازِهِ سَبَبٌ آخَرُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.

السَّادِسُ: التعريفُ، فإذا كَانَ الإنْسانُ مَعْرُوفًا بِلَقَبٍ، كالأعْمَشِ، والأعرَجِ، والأَصَمِّ، والأعمى، والأحْوَلِ، وغَيْرِهِمْ جاز تَعْرِيفُهُمْ بذلِكَ، وَيَحْرُمُ إطْلاقُهُ عَلَى جِهَةِ التَّنْقصِ، ولو أمكَنَ تَعْرِيفُهُ بِغَيرِ ذَلِكَ كَانَ أوْلَى، فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ وأكثَرُها مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلائِلُهَا مِنَ الأحاديثِ الصَّحيحَةِ مشهورَةٌ. فمن ذَلِكَ:

الحديث رقم (١٥٣٣)

١٥٣٣- عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً استَأذَنَ عَلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: ((ائْذَنُوا لَهُ، بِئسَ أخُو العَشِيرَةِ؟)). متفق عَلَيْهِ[١].

احتَجَّ بِهِ البخاري في جوازِ غيبَة أهلِ الفساد وأهلِ الرِّيب.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

يبين الرسول ﷺ في هذا الحديث بطريقة عملية أن ذكر مساوئ بعض الناس لغرض شرعي لا تعد غيبة وأنه قد يكون من الضروري مدارة بعض الناس اتقاء شرهم وسداً لباب الفتن مع التحذير من الفحش، والتفحش، وقد استخدم لبيان هذه المعاني عدة أساليب بلاغية منها: بداية الحديث بأسلوب الأمر في قوله: (ائذنوا له. ..) اتقاءً لشر هذا المستأذن بالدخول، وقوله: (بئس أخو العشيرة) أسلوب إنشائي غير طلبي قصد به الذم، وقد فصل جملة (بئس أخو العشيرة) عن جملة (ائذنوا له) لكمال الانقطاع بين الجملتين لأن الأولى إنشائية طلبية لفظاً، ومعنى، والثانية غير طلبية ؛ لأن نعم وبئس من أساليب الإنشاء غير الطلبي، وقوله: (أخو العشيرة) والعشير المعاشر الذي أمره معك واحد والعشيرة الجماعة والقبيلة والعشيرة الأدنى إلى الرجل من أهله وهم ولد أبيه وجده أي إخوته وبنيهم وأعمامه وبنيهم، وإضافة الأخ للعشيرة يفيد علما لرسول ﷺ به وبما يتعلق بأخلاقه، ومن الجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين المداراة والمداهنة وهو أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا أو هما معاً وهي مباحة وربما استحب، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معهم حسن عشرة فيزول بهذا التقرير الإشكال[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٩١/٧٣).

(٢) ينظر: فتح الباري / جـ١٦ / صـ٣٣١.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم غيبة الكافر والفاسق والمنافق وأمثالهم: اتفق الفقهاء على جواز غيبة الكافر، والفاسق، والمنافق وأهل والبدع وذوي الولايات الباطلة، ومن يجاهر بمعصيته وأن ذلك مستثنى من الغيبة المحرمة[(١)].

٢-حكم ذكر عيوب الخاطب: اتفق الفقهاء على جواز ذكر الخاطب بما فيه من العيوب التي يكرهها إذا كان ذلك للنصيحة ولا يكون حينئذ غيبة محرمة[(٢)]. واستدلوا على ذلك بحديث الباب رقم ١٥٣٥، ويقول ﷺ "المستشار مؤتمن" وقوله ﷺ "الدين النصيحة".

٣-حكم التعريض لخِطْبة المعتدة البائن: اتفق الفقهاء على القول بجواز التعريض لخِطْبة المعتدة البائن[(٣)]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾[(٤)].

٤-حكم الخِطْبة على خِطْبة الغير إذا لم يحصل للأول إجابة: تجوز الخِطْبة على خِطْبة الغير إذا لم يحصل للأول إجابة[(٥)].

٥-حكم النفقة على الزوجة من زوجها، ونفقة الأولاد الصغار على أبيهم: اتفق

---

(١) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢، بريقة محمودية ١٨٧/٣-١٨٨، الفواكه الدواني ٢٧٠/٢-٢٨٠، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٣/٢-٢٤، مطالب أولي النهى ٤٠٢/٢، شرح صحيح مسلم ١٤٢/٢٦-١٤٣، فتح الباري ٥٤٨/١٠، ٥٦٩، سبل السلام ٣٣٣/٤-٣٣٤.

(٢) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢، حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢٢٠/٢، مغني المحتاج ٢٢٢/٤، مطالب أولي النهى ١١/٥، شرح صحيح مسلم١٠٧/١٠، شرح صحيح مسلم ١٤٢/١٦.

(٣) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢١٩/٢، مغني المحتاج ٢١٩/٤، كشاف القناع ١٨/٥، أحكام القرآن للجصاص ٥٧٥/١-٥٧٦، شرح صحيح مسلم ١٠٧/١٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٥) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢٢٠/٢، مغني المحتاج ٢٢٢/٤-٢٢٣، مطالب أولي النهى ١١/٥، شرح صحيح مسلم ١٠٧/١٠.

الفقهاء على وجوب نفقة الزوجة على زوجها، ونفقة الأولاد الصغار على أبيهم[١]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[٢] والأمر بالإسكان أمر بالإنفاق لأنها لا تصل إلى النفقة إلا بالخروج والاكتساب[٣]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[٤] أوجب أجر رضاع الولد على أبيه[٥].

٦-مقدار النفقة: ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والمالكية، والشافعي في القديم، والحنابلة إلى أن النفقة مقدرة بالكفاية[٦]. واستدلوا على ذلك بحديث الباب رقم ١٥٣٧، وبقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٧] حيث أمر الله تعالى بالنفقة مطلقًا عن التقدير، فمن قدر فقد خالف النص، ولأن الله تعالى أوجبها باسم الرزق، ورزق الإنسان كفايته في العرف والعادة كرزق القاضي والمضارب[٨].

وذهب الشافعي في الجديد إلى أن نفقة الزوجة مقدرة الأمداد، ونفقة القريب مقدرة بالكفاية[٩]. واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾[١٠].

ويناقش هذا: بأنه لا حجة له في الآية لأن فيها أمر الذي عنده السعة بالإنفاق على قدر السعة مطلقًا عن التقدير بالوزن فكان التقدير به تقييدًا لمطلق الآية، فلا يجوز إلا

---

(١) بدائع الصنائع ١٥/٤، ٣٠، حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٥٠٨/٢، ٥٢٢، مغني المحتاج ١٥١/٥، ١٨٣، المغني ١٥٦/٨، ١٦٨، ١٦٩، شرح صحيح مسلم ٧/١٢، فتح الباري ٦١٣/٩.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٦.

(٣) بدائع الصنائع ١٥/٤.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٦.

(٥) المغني ١٦٩/٨.

(٦) بدائع الصنائع ٢٣/٤، حاشية الدسوقي ٢٠٩/٢، مغني المحتاج ١٥٢/٥، ١٨٦، المغني ١٥٦/٨.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٨) بدائع الصنائع ٢٣/٤.

(٩) مغني المحتاج ١٥٢/٥، ١٨٦، شرح صحيح مسلم ٧/١٢.

(١٠) سورة الطلاق، آية: ٧.

بدليل[١].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء القائل بأن النفقة تقدر بالكفاية.

٦-هل تقدر النفقة باعتبار حال الزوجين أم باعتبار حال أحدهما: ذهب الحنابلة، والحنفية، وبعض الشافعية إلى أن النفقة تقدر باعتبار سعة الزوج وحال الزوجة أي باعتبار حالهما معًا[٢]. واستدلوا على ذلك بأن في اعتبار حالهما في تقدير النفقة نظرًا من الجانبين، فكان أولى من اعتبار حال أحدهما[٣].

وذهب الحنفية في الصحيح، والشافعية إلى أن النفقة تقدر باعتبار حال الزوج في يساره، وإعساره[٤]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[٥] وهذا نص في الباب[٦].

والراجح هو رأي المالكية والحنابلة، لأن في هذا الرأي رعاية لكلا الجانبين فيكون أولى[٧].

٧-حكم القضاء على الغائب: ذهب جمهور الفقهاء المالكية، والشافعية، والحنابلة، وابن شبرمة والأوزاعي، والليث، وسوار، وأبو عبيد، وإسحاق، وابن المنذر إلى القول بجواز القضاء على الغائب في حقوق الآدميين إذا صح الحق على الغائب[٨]. واستدلوا بحديث الباب رقم ١٥٣٥ حيث قضى النبي ﷺ لامرأة أبي سفيان بالنفقة ولم يكن زوجها حاضرًا، ولأن الحاضر له بينة مسموعة عادلة فجاز الحكم بها[٩].

---

(١) بدائع الصنائع ٣٤/٤.

(٢) حاشية الصاوي على الشرح الصغير ٧٣٢/٢، المغني ١٥٦/٨، بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٣) بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٤) بدائع الصنائع ٢٤/٤، المغني ١٥٢/٥.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٦) بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٧) المغني ١٥٦/٨.

(٨) حاشية الصاوي ٢٣١/٤، مغني المحتاج ٢٠٨/٦، المغني ١٣٨/١٠، شرح صحيح مسلم ٨/١٢، فتح الباري ٦١٥/٩.

(٩) المغني ١٣٨/١٠.

وذهب الحنفية، وشريح، وابن أبي ليلى، والثوري، والقاسم، والشعبي إلى القول بعدم جواز القضاء على الغائب[١]. واستدلوا على ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: ((إِذَا تَقَاضَىٰ إِلَيْكَ رَجُلَانِ فَلاَ تَقْضِ لِلأَوَّلِ حَتَّى تَسْمَعَ كَلاَمَ الآخَرِ فإنك لا تَدْرِي بما تَقْضِي)).

ويناقش هذا: بأنا نقول بالحديث، وذلك إذا تقاضى إليه رجلان وهذا يقتضي أن يكونا حاضرين، ويفارق الحاضر الغائب فإن البينة لا تسمع على حاضر إلا بحضرته والغائب بخلافه[٢].

٨-اعتماد العرف في الأمور التي ليس فيها تحديد شرعي[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستئذان عند الدخول.

ثانيًا: من آداب الداعية: بيان حقائق بعض الناس بوصفهمبما يوجب الحذر منهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إذن النبي ﷺ للرجل السيئ بالدخول عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستئذان عند الدخول:

لقد أدبنا الله بالآداب الاجتماعية الإسلامية ذات الذوق الرفيع، ومنها أدب الاستئذان، وقد وردت الإشارة إليه في الحديث في فعل ذلك الرجل، "فعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال إئذنوا له"، فالاستئذان من الآداب الشرعية التي أدب الله بها عباده المؤمنين، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده[٤]، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

(١) بدائع الصنائع ٨/٧، المغني ١٠/١٣٨.

(٢) المغني ١٠/١٣٨.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢/٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦/٣٦.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1]، إن هذه الآية ذكرت أدبًا من الآداب الاجتماعية وأساسًا من أسس الآداب والمدنية الإنسانية، فنادى المؤمنين بأكمل الأوصاف وأحب الألقاب إليهم فقال: "يا أيها الذين آمنوا" أى: يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان اعلموا أنه يدعوكم إلى الفضيلة والآداب، ويرشدكم إلى أنكم لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم، أي ليس لكم فيها حق السكنى والمنفعة "وإن كانت ملكًا لكم، لا تدخلوا حتى تستأنسوا وتستأذنوا، ولاشك أن الإذن يذهب الوحشة، ولذا سمي الإذن أنسًا، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[2].

والاستئذان يكون بقرع الباب، أو النداء لمن في البيت، أو التسبيح والتحميد أو صريح الاستئذان وغير ذلك.

ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء، مع المحارم وغير المحارم، إذ كل إنسان له حالات لا يحب أن يطلع عليها أحد، ولو كان والدًا أو ولدًا، ولقد قال رجل للنبي ﷺ: أأستأذن يارسول الله على أمي؟ قالَ: «نعم»، قالَ: ليس لها خادمٌ غيري، «أأستأذن عليها؟» قالَ: «أتحبُّ أن تَراها عريانةً» قالَ الرجل: لاَ. قال: «فاستأذن عليها».

حتى تستأنسوا، وتسلموا على أهلها أي على من فيها، وظاهر الآية أن الاستئذان يحصل ثم السلام، وبعضهم يرى العكس، والبعض يرى أنه إذا رأى أحدًا في الدار سلم أولاً ثم استأذن: فإن لم ير استأذن أولاً.

---

(١) سورة النور، آية: ٢٧-٢٩.

(٢) سورة النور، آية: ٢٨.

"ذلكم خير لكم" وأفضل، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للسر، وأدعى إلى احترام البيوت والحرمات، ولا تظنوا أن في الاستئذان مذلة، بل هو خير لكم وأزكى، "لعلكم تذكرون" ذلك فتعملوا بمقتضاه.

ولا مانع من جعل حجرات الموظفين كالبيوت يحسن الاستئذان عند دخولها فلربما كان الموظف في شغل شاغل، أو عنده شخص في مصلحة لا يحب أن يطلع عليها أحد، وهذا بلا شك أحفظ للوقت، وأدعى إلى العمل والجد.

فإن لم تجدوا فيها أحدًا من ساكنيها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وهذا تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه، ولم يَرُدّ عليك ولم يأذن لك فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحدًا في البيت.

"وإن قيل لكم ارجعوا"، ولا تدخلوا، فارجعوا وامتثلوا أمر صاحب البيت فهذا حقه وهو حر فيه، والرجوع أزكى وأطهر، والله بما تعملون عليم ومحيط.

وقد يكون في البيت ما يدعو إلى الدخول بلا إذن، كحريق أو حادث أو استغاثة مثلاً وهنا تدخل بلا إذن. ولا حرج عليك.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ كالحوانيت ومحال البيع والشراء، وقد روى أن أبا بكر ﷺ لما نزلت آية الاستئذان قال: يا رسول الله فكيف يعمل تجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون؟ وليس فيها سكان؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية.

والمعنى أن البيوت العامة كالمقاهي والبيوت التجارية ما دامت مفتوحة فلا استئذان في دخولها.

وهل بيت الإنسان الخاص، الذي فيه أهل بيته يستأذن أم يكفي السلام فقط والإشعار بالحضور بأي شيء؟ الظاهر أن هذا يكفي.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فإن إباحة الدخول في الأماكن العامة

لغرض، أو في البيوت الخاصة مثلاً، قد يتخذه بعض الناس لغرض آخر سيئ، فجاء قوله تعالى: والله يعلم ما تبدون وما تكتمون، ليذكرهم بأن الله يعلم، وأنتم لا تعلمون وهو يعلم السر وأخفى.

ومن الآداب أنك عند زيارتك لإنسان، ووجدت الباب مفتوحًا، أن تقف بحيث لا تطلع على شيء في البيت، فقد روي «أن رجلاً اطلعَ من جُحرٍ في دارِ النبيِّ ﷺ -والنبيُّ ﷺ يَحُكُّ رأسَهُ بالمدرَى- فقال: لو علمتُ أنك تَنظرُ لطعَنتُ بها في عينك، إنّمَا جُعلَ الإِذنُ من قِبل الأبصار»[1][2].

ولقد كان ﷺ يعلم أصحابه الاستئذان، روى أبو داود في سننه بسنده عن ربعي قال : حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟، فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟، فأذن له النبي ﷺ فدخل"[3]. وبذلك بين الإسلام أحكام التزاور، وآداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته، على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد[4].

ثانيًا- من آداب الداعية: بيان حقائق بعض الناس بوصفهم بما يوجب الحذر منهم:

إن البيان والتبيين من الآداب الملازمة للداعية، ولقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وبيان الحقائق، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[5]،[6]. ومن ذلك بيان حقائق الناس تحذيرًا منهم، كما جاء في الحديث عن

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩٢٤ واللفظ له، ومسلم ٢١٥٦، بلفظ "من أجل البصر".

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج٢/ج٢٢/٦٠-٦٢.

(٣) أخرجه أبي داود ٥١٧٧، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨١٨).

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مج٨/ج١٨/١٩٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٦) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال ائذنوا له، بئس أخو العشيرة"، وفي رواية البخاري: "ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، قلت يا رسول الله: قُلْتَ الذي قُلْتَ ثم أَلَنْتَ له الكلام، قال: أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه، اتقاء فحشه"[١]، قال ابن حجر: قال العلماء: تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعًا حيث يتعين طريقًا إلى الوصول إليه بها، كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفادة والمحاكمة والتحذير من الشر وغير ذلك[٢]، قال النووي في شرح الحديث "أراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرف حاله"[٣].

ومثل ذلك لا يدخل في إطار الغيبة، بل إنه من الصور المباحة وقد ذكر العلماء ستة أسباب لإباحة الغيبة، وقد ذكرها الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين، فقال:

اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا. قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[٤].

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له ذلك، وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم ونحو ذلك؟ فهذا جائز

(١) أخرجه البخاري ٦٠٥٤.

(٢) فتح الباري ١٠/٤٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٥٤٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٨.

للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه؛ منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة. ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته أو غير ذلك أو مجاورته، ويجب على المشاوَر أن لا يخفي حاله بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة. ومنها إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يُغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويلبِّس الشيطان عليه ذلك ويخيل إليه أنه نصيحة فليُتَفطن لذلك. ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلمًا وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه. ودلائلها من الأحاديث الصحيحة المشهورة[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إذن النبي ﷺ للرجل السيئ بالدخول عليه:

إن من أسباب انتشار الدعوة وإقبال الناس عليها انتهاج الداعية تأليف القلوب وقد

(١) رياض الصالحين، الإمام النووي، ٥٢٥-٥٢٧.

اهتم الإسلام بذلك لدرجة أن خصص سهمًا من الزكاة وجعل تأليف القلوب مصرفًا له، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[1].

ومن تأليف القلوب إلانة القول وحسن المعاشرة، ومن ذلك ما جاء في الحديث من إذن الرسول ﷺ لذلك الرجل مع ما فيه من سوء، "فعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: "ائذنوا له". قال النووي: قال القاضي: "وإنما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام. أ.هـ، وفي هذا الحديث مداراة من يتقي فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه، والنبي ﷺ لم يمدحه ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام[2]، وذلك من أهداف الإسلام، فإنما جاء الإسلام ليجمع القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفًا إقامة كيان موحد منفيًا عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالة الإسلام العظمى[3].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٧.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٨١.

الحديث رقم (١٥٣٤)

١٥٣٤- وعنها، قالت: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((مَا أظُنُّ فُلانًا وفُلانًا يَعْرِفانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا)). رواه البخاري[1].

قَالَ: قَالَ اللَّيْثُ بن سعدٍ (أحَدُ رُواة هَذَا الحديثِ)[2]: هذانِ الرجلانِ كانا من المنافِقِينَ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: سبق ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

قد يكون من الضروري بيان حال بعض الناس بذكر عيوبهم، واغتيابهم كالمنافقين، ومن يترتب على ستر حالهم ضرر للناس، وهذا الحديث يبين بطريقة عملية أمثال هؤلاء، ويبين حالهم للناس حتى يتقي الناس شرورهم، وقوله: (مَا أظُنُّ فُلاناً وفُلاناً يَعْرِفانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا) أسلوب نفي يشير إلى جهلهم بأمور الدين، والظن هنا بمعنى الاعتقاد، وقوله (فلانا فلانا) كناية عن الرجلين، ونفي العرفان يشير إلى جهلهما أو نفاقهما، ونسبة الدين لضمير المتكلم العائد على الرسول ﷺ (ديننا) يشير إلى أنه لم يعتبر الإسلام دينا لهما فلم يقل من دينهم، و قَالَ اللَّيْثُ بن سعدٍ أحَدُ رُواة هَذَا الحديثِ: هذانِ الرجلانِ كانا من المنافِقِينَ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: بيان حقائق المنافقين وأهل الباطل للحذر منهم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ترخيص الإسلام في غيبة المنافقين، والمخادعين للحذر منهم.

أولاً- من واجبات الداعية: بيان حقائق المنافقين وأهل الباطل للحذر منهم:

لقد جاء في الحديث بيان رسول الله ﷺ عن حقائق بعض المنافقين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا

(١) برقم (٦٠٦٧).

(٢) هذه الزيادة من المؤلف.

شيئًا"، قال ابن حجر، مثل هذا الذي وقع في الحديث ليس من الظن المنهي عنه، لأنه في مقام التحذير من مثل ما كان حاله كحال الرجلين، والنهى إنما هو عن الظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر: إنا كنا إذا فقدنا الرجل في عشاء الآخرة أسأنا به الظن، ومعناه أنه لا يغيب إلا لأمر سيء إما في بدنه وإما في دينه[(١)]، وإنما كان من آداب الداعية بيان حقائق المنافقين لأجل أن يحذر الناس فسادهم فلا يغتروا بهم، فكم من إنسان طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقل تسمع لقوله، ولكنه لا خير فيه، فالواجب بيان حاله[(٢)]، فمن أشر الناس على الإسلام والمسلمين، المنافقون فهم ينتحلون نِحَلاً شتى، ويدعون أنهم مسلمون، ويسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، ويَدَّعون كذلك أنهم ما فعلوا، ويحرصون بشتى المعاذير[(٣)].

ولقد اهتم القرآن بشأن المنافقين وبيان حقائقهم وإظهار خطاياهم ليَحْذَرْهم المؤمنون، وأنزل الله سورة كاملة باسمهم وهي سورة المنافقون، وفي أول سورة البقرة تحدث القرآن عن المؤمنين في ثلاث آيات، والكفار في آيتين، أما المنافقون فقد استغرق الحديث عنهم ثلاث عشرة آية، وذلك لبيان مدى خطورتهم.

"إن من يتتبع تاريخ الإصلاح في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويجد أن المنافقين هم أضر عليها من أعدائها الكافرين، ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، فهم عدو الأمة اللدود وداؤها العضال، وهم طريق نكبتها، وسبب استبعاد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[(٤)].

إن المنافقين دائمًا في كل أمة لا يُؤمن جانبهم، والنفاق لا تنكر مضاره ولا يستهان

---

(١) فتح الباري ٥٠١/١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦١٠/٢.

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي، وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٨٨.

(٤) انظر: دعوة الرسل إلى الله تعالى، الشيخ محمد أحمد العدوي، ٤٧٠.

بها، فالنفاق والمنافقون سوس ينخر في عظام الأمم، وثغر تؤتى من جانبها.

إن مضار النفاق على صاحبه كثيرة منها:

أ- المنافق لا يقبل الله منه عملاً صالحًا.

ب- المنافق مريض القلب يفرح إذا أصاب المسلمين ضر، ويحزن إذا انتصروا، ويتربص بهم الدوائر.

ج- المنافقون بخلاء، ولكن ينفقون أموالهم رئاء الناس.

د- المنافق ضال باعتقاده وعلمه وعمله.

هـ- المنافقون والمراءون يتعذبون بأموالهم في الدنيا والآخرة.

و- الشدائد والمحن سرعان ما تظهر المنافق على حقيقته.

ز- المنافقون يلتمسون أدنى الأعذار للقعود عن الجهاد.

ح- المنافقون في كل مكان وزمان إخوة للكافرين والمشركين والملحدين يشدون أزر بعضهم.

ط- النفاق والرياء يوردان أصحابهما المهالك في الدنيا، وغضب الله وأليم عقابه في الآخرة.

ي- وهو محبط للأعمال مهما كثرت[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: ترخيص الإسلام في غيبة المنافقين، والمخادعين للحذر منهم:

جاء في الحديث ما يدل على ذلك، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا"، وقد ذكر العلماء ستة أسباب شرعية لجواز الغيبة، منها تحذير المسلمين من الشر وغير ذلك، قال النووي: اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب: منها: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه منها: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب،

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١/٥٦٣٠.

إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه[١]، فأظهر تلك الأسباب وأولاها بالبيان النفاق، وذلك أن حركة النفاق أخطر حركة على الإسلام فهو جاسوسية تعايش المسلمين في المساجد وفي الحروب وفي الأسواق وفي دور العلم وفي المنازل[٢]، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقون، وذكرهم في سورة النور، وغيرها من السور تعريفًا لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا[٣]، من تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾[٤]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٥].

إن النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب، فالمنافقون في الحرب يخذلون، ويبثون روح التردد، والتشكيك في الدعوة، والدعوة إلى الأثرة، والجهاد إيثار، وإلى الحرص، والجهاد فداء، وإلى مُتَع الدنيا، والجهاد رهبانية إيجابية، يدفع إلى الحياة العاملة المكافحة.

أما في السلم، فإنهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين، ليوهموا الناس، أن كل الناس مثلهم، ليس فيهم أخيار منزهون، وأبرار متقون.

فهم يلمزون كل عمل صالح، ويوهنونه، ويثيرون الريب، وإن اتقاءهم بعدم السماع

---

(١) انظر: رياض الصالحين، النووي، ص٥٢٥-٥٢٧، الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس احمد بن محمد الهيتمي، ضبط: أحمد الشامي، ص٣٨٣-٣٨٤، وانظر ص وما بعدها من هذا المجلد.

(٢) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، د. رءوف شلبي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ص ٣٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٧٣/١.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٨-١٠.

(٥) سورة النساء، آية: ١٤٢.

لهم، فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبي ﷺ، ويقول سبحانه في ذلك:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[1].

وقد بين الله تعالى للأمة كلها مصارف الصدقات، حتى لا يماري منافق وليطمئن كل مؤمن، وقد وزعها سبحانه توزيعًا فيه التكافل الاجتماعي الكامل.

والمنافقون يؤذون النبي ﷺ، ويؤذون كل داعية للخير، لأنهم والخير نقيضان، إذا كشف أمرهم لا يقولون: كشف الله تعالى سرهم، بل يقولون: إن النبي ﷺ، يسمع أخبارهم، ويتعرف أسرارهم، وأن له من يسعى عليهم، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

والمنافق دائمًا كثير الحلف بالله لضعفه النفسي، إذ النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد إرادة النفع، فهو يحلف لستر موقفه، ولأنه مهين يريد رضا من ينافق معهم، ويخشى أن ينفضح سره، ويعرف أمره.

وإنهم مع كفرهم، وعدم إذعانهم للحق لفرط ضعفهم؛ يخشون أن تنزل سورة تكشف حالهم.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[3].

ومع هذا الهلع من أن يكشف سترهم يحادُّون الله ورسوله، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويتخذونها في مجامعهم هزؤا وسخرية.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦١.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٤.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾(١).

والمنافقون أشرار قد استمكن الشر في نفوسهم، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل، والضوء يكشفها، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها، حتى يستمرئوا الشر، ويكون دينهم، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل إليه خير، ولا ينضح منه ومن اللسان الا الشر، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم، وأنه عقاب الذين من قبلهم، وكانوا أشد قوة، واستمتعوا بالشر، ونالوا من الدنيا، وخاضوا في أهل الإيمان مثل الذين خاضوا.

ويضرب الله تعالى الأمثال من قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكة، فإن هؤلاء كفروا برسلهم، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم، والنفاق غذاء الجحود، إذ يدفع الجاهلين إلى الكفر والعناد.

وفي مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين.

وإذا كان النفاق يفعل في الجماعات ذلك الفعل، فإن جهاده يكون في مرتبة جهاد الكفر، بل يكون قبل جهاد الكفر، وذلك لأن الكفر لا يستغلظ سوقه إلا بالنفاق، والمنافقون هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، ولهذا أمر الله تعالى نبيه الكريم، وأمته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٣).

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون في الجماعات الإسلامية، ووجوب جهادهم،

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٧٣

وذلك الجهاد يكون بألا يسمع لقولهم،ولو كانوا يحلفون، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون، ويحلفون أنهم ما قالوا، ومن جهادهم ألا يخوضوا في خوضهم، ومن جهادهم ألا يمكنهم من الجماعات الإسلامية.

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضها، وأولها الكذب، وثانيها نقض العهد، والشح على الخير، ويقول:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].

أي إنهم في نفاق مستمر، نافقوا عندما أعطوا العهد، ولما اختلفوا زاد نفاقهم بسبب أنهم يكذبون، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى، وهو يعلم سرهم وما يتجاوبون به بينهم، وإن المرء إذا سار في الشر أوغل فيه، وكلما سار زاد فسادًا.

وإنهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير، بل يتجاوزون ذلك إلى أن يلمزوا في القول موهنين شأن الذين يتصدقون الصدقات المفروضة، ويتطوعون بأكثر مما فرض، وهكذا يكون أهل الخير فريسة، أهل النفاق يصغرون أعمالهم، ويهجنون ما يكون منهم، ويستضحكون من أعمالهم، ولكن: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2][3].

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٨٢.

(٣) خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، ١٤٣٨/٢-١٤٤١.

الحديث رقم (١٥٣٥)

١٥٣٥- وعن فاطمة بنتِ قيسٍ رضي الله عنها ، قالت: أتيت النبيَّ ﷺ ، فقلتُ: إنَّ أَبَا الجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي؟ فَقَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ : **((أمَّا مُعَاوِيَةُ، فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ، وأمَّا أَبُو الجَهْمِ، فَلاَ يَضَعُ العَصَا[1] عَنْ عَاتِقِهِ))** متفق عَلَيْهِ[2].

وفي رواية لمسلم[3]: **((وَأمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّساءِ))** وَهُوَ تفسير لرواية: **((لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ))** وقيل: معناه: كثيرُ الأسفارِ.

ترجمة الراوي:

فاطمة بنت قيس: هي فاطمة بنت قيس بن خالد بن وهب القرشية الفهرية، أخت الضحاك بن قيس الصحابي وكان أميرًا لمعاوية، وكانت فاطمة أكبر منه بعشر سنين.

أسلمت بمكة، وهاجرت، فكانت من المهاجرات الأول[4] وكانت ذات جمال وعقل وكمال ونُبْل. كانت متزوجة من أبي عمر بن حفص المخزومي فطلقها، فجعلت أمرها إلى النبي ﷺ فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم الفهري. ثم جاءت تخبره أن معاوية وأبا الجهم خطباها، فقال لها كما هو في الحديث المذكور، ثم أمرها أن تنكح أسامة بن زيد فقال لها: ((انكحي أسامة بن زيد))[5]. ولكونها حسيبة نسيبة كرهت وكره أهلها ذلك. فقال لها رسول الله ﷺ ناصحًا: ((طاعة الله وطاعة رسوله خير لك))[6] فأطاعت، وقالت لأهلها: لا أنكح إلا الذي دعاني إليه رسول الله ﷺ[7].

---

(١) لفظ مسلم: (عصاه).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠/٣٦) ولفظه بتقديم معاوية على أبي جهم. وهو من أفراد مسلم ولم يخرجه البخاري كما في الجمع للحميدي (٢٨٠/٤، رقم ٣٥٢٥).

(٣) (١٤٨٠/٤٧) ولفظه: (وأما أبو جهم فرجل ضرّاب للنساء).

(٤) صحيح مسلم (١١٩-٢٩٤٢).

(٥) أخرجه مسلم (٣٦-١٤٨٠).

(٦) أخرجه (٤٧-١٤٨٠).

(٧) أخرجه أحمد ٤٣٢/٦ رقم ٢٧٧٣٣، وقال محققوه: حديث صحيح ١٢٦/٤٥.

فنكحته فقالت: فجعل الله فيه خيرًا واغتبطت به[١]. وقالت: فشرفني الله بأبي زيد وكرَّمني الله بأبي زيد[٢] [كنية أسامة] وفي طلاقها ونكاحها بعدُ سنن كثيرة مستعملة كما قال ابن عبدالبر، وهي التي انفردت برواية قصة الجسّاسة المطولة[٣] [وهي التي تتجسس الأخبار للدجال].

وقد اجتمع أهل الشورى في بيتها لما قتل عمر بن الخطاب، يختارون خليفة للمسلمين.

توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان[٤].

غريب الألفاظ:

الصعلوك: الفقير[٥].

فلا يضع العصا عن عاتقه: العاتق: هو ما بين العنق والمنكب والمراد هنا: كثير الأسفار أو كثير الضرب للنساء وهذا أصح[٦].

الشرح الأدبي

من الأمور التي تبيح للإنسان غيبة إنسان المُشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ أو مُشاركتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أَوْ مُعامَلَتِهِ، أَوْ غيرِ ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المُشَاوَرِ أنْ لا يُخْفِيَ حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المَسَاوِئَ الَّتي فِيهِ بِنِيَّةِ النَّصيحَةِ، وهو ما يوضحه هذا الحديث توضيحا عمليا خلال فعل الرسول ﷺ، في رده على سؤال فاطمة بنتِ قيسٍ رضي الله عنها – (إنَّ أَبَا الجَهْم وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي؟) استفهام غرضه الاسترشاد، والمشاورة فرد عليها بقوله (أمَّا مُعَاوِيَةُ،

(١) أخرجه مسلم (٣٦-١٤٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩-١٤٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (١١٩-٢٩٤٢).

(٤) الطبقات (٨/٢٧٣) والاستيعاب ٩٢٩، وأسد الغابة (٧/٢٢٤)، والإصابة ١٧٤٦، والسير (٢/٣١٩)، وتهذيب الكمال (٨/٥٦٣)، والتهذيب (٤/٦٨٥).

(٥) اللسان في (ص ع ل ك).

(٦) انظر: شرح مسلم ٩٣٧.

فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ) وأما تفصيلية لبيان حال كل منهما بما فيه والصعلوك الفقير، وقوله بعده (لا مال له) توكيد معنوي أو بيان لقوله صعلوك ولذلك فصلت عنها ولم تعطف عليها بالواو لأن العطف يقتضي المغايرة، وهما كالشيء الواحد لكمال الاتصال بين الجملتين، وقوله (وأمَّا أَبُو الجَهْمِ، فَلاَ يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ) كناية عن ضربه للنساء، ويؤكده رواية مسلم (وَأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ) وضراب صيغة مبالغة من الضرب وهو ما تشق معه الحياة، وَهُوَ تفسير لرواية :(لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ) وقيل كناية عن كثرة أسفاره كما تقول لا يضع رحله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية سؤال أهل العلم والفضل واستشارتهم في بعض الأمور.

ثانيًا: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح وعدم المجاملة في الحق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية سؤال أهل العلم والفضل واستشارتهم في بعض الأمور:

إن المسلم ينبغي عليه السؤال والاستيضاح عما يشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وطرق الخير وأبواب البر، وما يلحق بها من الأمور حتى يكون على بصيرة من أمره، قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى رسول الله ﷺ في كل ما يعنُّ لهم[2]، حتى في اختيار الأزواج، كما جاء في الحديث: "عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ قلت: إن أبا الجهم ومعاوية خطباني؛ فقال رسول الله ﷺ: أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا على عاتقه"، وفي ذلك دليل على أهمية الاستشارة خاصة في القضايا المصيرية كالزواج وغيره، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[3]، ووصف الله المؤمنين

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص١٧، ١٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

بالشورى وانتهاجهم لها في حياتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، أي: أنهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم وصدق تآخيهم في إيمانهم وتحابهم في الله تعالى[2].

والشورى إنما تكون في كل أمر لم يرد فيه نص، قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وأما ما ورد فيه نص فلا رأي فيه، قال تعالى آمرًا نبيه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[3]. وامتدح المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[4].

إن الحق سبحانه يعلم أن القرار المصيري تتحمل تبعته الأمم، وأحيانًا لا يتحمل أولوا الأمر من آثار القرارات شيئًا، ولذلك أوجب الإسلام مشورة أهل الحل والعقد، في كل أمر يتعلق به مستقبل الأمة، تبصرة للحاكم، وحدًا من غلوائه وسلطانه، وحتى لا يتحول إلى مستبد يقول ما قاله غيره ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[5].

وقد وضع الإسلام آدابًا لذلك، فلا يجوز إبداء الرأي فيما يجهل الإنسان، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[6]. ولا إبداء الرأي بهدف التضليل أو الغش، ولا فيما ورد فيه نص بالحل والحرمة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[7] مع وجوب النصح لأولي الأمر، وفي

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٢) محاسن التأويل، الإمام القاسمي، مج٨/١٤/٢١٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٥) سورة القصص، آية: ٣٨.

(٦) سورة الإسراء آية: ٣٦.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

الحديث عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم))[(١)][(٢)].

ولقد كان رسول الله ﷺ في حياته وإدارته للأمور وشئون الحياة مثالاً حيًا للشورى وحياته ﷺ مليئة بالنماذج العملية والتطبيقية لمبدأ الشورى، من ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ، حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا. قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ نَزَلُوا بَدْرًا، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ، وَفِيهِمْ غُلاَمٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَخَذُوهُ. فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْحَابِهِ؟ فَيَقُولُ: مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ. وَلَكِنْ هَـٰذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، فَإِذَا قَالَ ذَٰلِكَ، ضَرَبُوهُ. فَقَالَ: نَعَمْ، أَنَا أُخْبِرُكُمْ، هَـٰذَا أَبُو سُفْيَانَ. فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ. وَلَكِنْ هذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ، فَإِذَا قَالَ هَـٰذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَٰلِكَ انْصَرَفَ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ، وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ». قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «هَـٰذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ» قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ، هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا. قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ، عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٣)].

كذلك سار على نهجه ﷺ الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من سلفنا الصالح، فعن ميمون بن مهران قال: «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) انظر: المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية، د. بكر زكي عوض، ص١٥٠، ١٥١.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٧٩.

وعلماءهم واستشارهم»[١].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الرجال ثلاثة: رجل يَرِدُ عليه الأمور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدًا ولا يطيع مرشدًا»[٢].

وقال علي رضي الله عنه نعم المؤازرة المشاروة، وبئس الاستعداد الاستبداد[٣].

قال عمر بن عبدالعزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحًا بركة، لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم[٤].

إن في رجوع فاطمة بنت قيس لرسول الله ﷺ لاستشارته في اختيارها للزواج يعطينا الدلالة على أنه لا ينبغي أن يرجع بالأمر والشورى إلا لأهل الفضل، والخبرة ومن توافرت فيهم شروط الاستشارة والنصح، قال الإمام الماوردي:

وقد اشترطوا لأهلية المستشار شروطًا خمسة:

أ- عقل كامل مع تجربة سالفة، قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ... وما كلّ مؤتٍ نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحدًا ... فحقٌ له من طاعة بنصيب[٥]

ب- أن يكون ذا دين وتقى، فقد ورد في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، من أراد أمرًا فشاور فيه امرأً مسلمًا وفقه الله لأرشد أموره.

ج- أن يكون ناصحًا ودودًا، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى.

د- أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وغم شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ج١٢/٣٥٤.

(٢) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٠.

(٣) المرجع السابق ٢٦١.

(٤) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٠.

(٥) السحر الحلال، قافية الألف ٢٥/١.

هـ- ألا يكون له في الأمر المستشار فيه غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاد، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد"[١].

واستشارة أهل العلم والخبرة من دلائل الفطنة، وقد أمر الله رسوله بالشورى لتقتدي به أمته، قال القرطبي، قال الحسن البصري والضحاك ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده، ولله در القائل:

شَاوِر صديقَكَ في الخفَي المُشْكل ... واقبَل نصيحَةَ ناصِح مُتَفضِّلِ
فاللهُ قد أَوْصَى بذاكَ نَبِّيهُ ... في قوله: شاوِرْهُمُ وتَوكَّلِ[٢]

ولقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يعمدون إلى أهل العلم والدراية والفقه والفطنة والقدرة على استنباط الأحكام، وإنهاء القضايا وحل المعضلات، ومن أمثلة ذلك ما كان يفعله من إدناء القراء والعلماء منه ومشاورتهم، ومن أدلة ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدِمَ عيينة بن حصنِ بن حذَيفةَ بن بدر فنزلَ على ابن أخيه الحرِّ بن قيس بن حصن. وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمرُ، وكان القراء أصحابَ مجلس عمرَ ومشاورَته كهولاً كانوا أو شُبانًا. فقال عيينة لابن أخيهِ: يا ابنَ أخي هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأمير فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباسٍ فاستأذنَ الحر لعيينة، فلما دخل قال: يا ابنَ الخطاب، والله ما تعطينا الجزْل، وما تحكمُ بيننا بالعدل. فغضبَ عمرُ حتى همَّ بأن يقع به، فقال الْحرُّ: يا أَميرَ المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣] وإنَّ هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزَها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عندَ كتاب الله»[٤].

---

(١) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، مج٢/٤/١٥٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) أخرجه البخاري، ٤٦٤٢.

ثانيًا- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح وعدم المجاملة في الحق:

إن من أهم واجبات الداعية البيان وتوضيح الحقائق للناس ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[١]، دونما مجاملة أو خشية من أحد، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٢]، ففي هذه الآية يمدح تعالى: "الذين يبلغون رسالات الله" أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، "ويخشونه" أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، "وكفى بالله حسيبا" أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا. وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام-محمد رسول الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فقد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٣]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضى الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدى المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم[٤].

والحديث يضرب لنا أنموذجًا تطبيقيًا ومثلاً حيًا لما ينبغي أن يكون عليه الداعية" فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت إن أبا جهم ومعاوية بن أبي سفيان خطباني، فقال رسول الله ﷺ أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه"، قال النووي: وفيه دليل على جواز ذكر الإنسان بما فيه عند المشاورة، وطلب النصيحة، ولا يكون هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦/٤٢٧.

الواجبة[١]، وقال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا جاءك يستشيرك في شخص فذكرت عيوبه فلا بأس، لأن هذا من باب النصيحة، وليس من باب الفضيحة، وفرق بين من يغتاب الناس ليظهر مساوئهم ويكشف عوراتهم، وبين إنسان يتكلم بالنصيحة)[٢]، لذا ينبغي ألا يستشار إلا من عرف بالأمانة والإخلاص والعلم[٣]، والقوة في الحق.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٩٣٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦١١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٦/٢٤٤٠.

الحديث رقم (١٥٣٦)

١٥٣٦- وعن زيد بن أرقم ﷺ قَالَ: خرجنا مَعَ رسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ أصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عبدُ اللهِ بن أُبَيّ لأصحابه: لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا[١]، وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فَأخْبَرْتُهُ بذلِكَ، فَأرْسَلَ إِلَى عبدِ الله بن أُبَيٍّ[٢]، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعلَ، فقالوا[٣]: كَذَبَ زيدٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أنْزلَ اللهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ ثُمَّ دعاهُمُ النبيّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ. متفق عَلَيْهِ[٤].

ترجمة الراوي:

زيد بن أرقم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٤٦).

غريب الألفاظ:

حتى ينفضوا: حتى يتفرقوا[٥].

فاجتهد يمينه: أي: بذل ما وسعه في الحلف[٦].

فلووا رؤوسهم: أمالوا رؤوسهم من جانب إلى جانب وهو مثل لترك المكارم أو الرَّوَغان عن المعروف وإيلاء الجميل[٧].

الشرح الأدبي

الشدائد تبين معادن الناس، وتميز منافقهم من مخلصهم، وهذا الحديث يحكي

---

(١) عندهما زيادة: (من حوله).

(٢) عندهما زيادة: (فسأله).

(٣) لفظ مسلم: (قال).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (١/٢٧٧٢) واللفظ له.

(٥) القاموس المحيط في (ف ض ض).

(٦) الوسيط في (ج هـ د).

(٧) النهاية في (ل و ى).

موقفا من مواقف الشدة الكثيرة التي مرت بالمؤمنين، ومحّصتهم، وخلّصتهم مما اختلط بهم من زخم المنافقين، وقول الراوي (خرجنا مَعَ رسُولِ الله ﷺ في سَفَرٍ أصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ) التعبير بالخروج يفيد مفارقة الموطن الذي هو مظنة الأمن، وكفاية الحاجة، واتصال الفعل بضمير الجماعة يشير إلى أنهم كثيرون، ويؤكده لفظ الناس، والتعبير بالإصابة يدل على التحقق بدلالة الفعل، وبصياغته في الماضي كما أن التعبير بالإصابة يشير إلى شدة الأثر، والتعبير بالشدة يقرر صعوبة هذا الأثر، وقول المنافق عبد الله بن أبي (لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) فيه نهي عن التعاون في وقت الشدة رغبة في تفريق الناس عن رسول الله، وقد بيَّن الغاية بقوله (حتى ينفضوا) والطباق بين الأعز، والأزل يبين المفارقة في القلب المنكوس الذي يظهر عكس ما يبطن، والأعين السقيمة التي رأت العز ذلا، ورأت الذل عزا، ،وقول زيد بن أرقم (فَأخْبَرْتُهُ بذلِكَ) يشير إلى أنه لم ينهه عن الغيبة في هذا الموطن بدليل قوله (فَأرْسَلَ إِلَى عبدِ الله بن أُبَيٍّ) ولكن المنافق كذاب معتاد (فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعلَ) وهذا حال المنافقين في كل زمان يخدعون الناس، ويلبسون عليهم أمرهم وقوله (فقالوا: كَذَبَ زيدٌ رَسُولَ الله ﷺ) اتصال واو الجماعة بفعل القول يشير إلى أن تكذيبه غلب علب اعتقاد الناس، وأن خداعه تمكن منهم وكون الكذب على رسول الله ﷺ يزيد الأمر شدة عليه مما أحزن زيد (فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ) والتعبير بالوقوع يوحي بقوة الأثر وامتلأ القلب بالحزن من اعتقادهم كذبه حتى جاءه الفرج من عند الله في سورة تفضح كيد المنافقين وتؤكد صدقه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم -على مصاحبة النبي ﷺ- في السفر وتحملهم للشدائد.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: المنافقون.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: موقف المنافقين من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وتحريضهم على عدم الإنفاق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تكذيب المنافقين للمؤمنين وتبرئة الله تعالى للمؤمنين وكشف حقيقة المنافقين.

خامسًا: من مهام الداعية: التبين والتحقق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ -على مصاحبة النبي ﷺ- في السفر وتحملهم للشدائد:

ورد في الحديث ما يدل على ذلك، فعن زيد بن أرقم ﷺ، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في سفر أصاب الناس فيه شدة" يدفعهم إلى ذلك حبهم لنصرة الإسلام وحبهم لرسول الله ﷺ، وسيرة الصحابة ﷺ، حافلة بالأدلة والشواهد على مدى تحمل الصحابة الشدائد مع رسول الله ﷺ من ذلك ما روى عن قيس قال: سمعت سعد بن أبي وقاص ﷺ يقول: "إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزوا مع النبي ﷺ، ومالنا طعام إلا ورق الشجر حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة"[١]، وذلك من دلائل محبة رسول الله ﷺ، وقد ذكر الله السفر والجهاد مقرونًا بحبه سبحانه وحب رسوله ﷺ دليل على أنه أظهر العلامات على ذلك الحب، لأنه هو المحك الذي يتجلى فيه صدق هذا الحب وإيثاره على غيره من المحاب التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢]،[٣].

ثانيًا- من أصناف المدعوين: المنافقون:

أشير إلى ذلك الصنف في حديث: "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا

(١) أخرجه البخاري ٣٧٢٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٤٢/١٠.

من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ..."، والمنافقون لهم من الخطورة ما لا يخفى على أحد، فهذا الصنف من البشر لهم نفسيات معقدة ومتعفنة، يتولد منها أدواء وعلل خطيرة وكثيرة، تحتاج إلى وقفات وعلاج، فهم ينتحلون نحلا شتى، ويدعون أنهم مسلمون ويسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، ويدعون كذلك أنهم ما فعلوا ويعتذرون بشتى المعاذير[1]. لذا حرص القرآن على إظهار مساويهم وكشف خباياهم وما يكنونه من شر وضرر وما تنطوي عليه قلوبهم من مرض، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[2]، وهم مخادعون مراءون متكاسلون عن العبادة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

إن النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب، فالمنافقون في الحرب يخذلون، ويبثون روح التردد، والتشكيك في الدعوة، والدعوة إلى الأثرة، والجهاد إيثار، وإلى الحرص، والجهاد فداء، وإلى متع الدنيا، والجهاد رهبانية إيجابية، يدفع إلى الحياة العاملة المكافحة.

أما في السلم، فإنهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين، ليوهموا الناس، أن كل الناس مثلهم، ليس فيهم أخيار منزهون، وأبرار متقون.

فهم يلمزون كل عمل صالح، ويوهنونه، ويثيرون الريب، وإن اتقاءهم بعدم السماع لهم فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبيﷺ، ويقول سبحانه في ذلك: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) انظر: دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، ص ٨٨-٩٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٢.

رَاغِبُونَ ﴾[1].

إن المنافقين أشرار قد استمكن الشر في نفوسهم، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل، والضوء يكشفها، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها، حتى يستمرئوا الشر، ويكون دينهم، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل إليه خير، ولا ينضح منه ومن اللسان إلا الشر، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[2][3].

وغير ذلك من الصفات المنكرة، لذا كانت عناية القرآن والسنة بكشفهم[4]، وإظهار خلالهم للمسلمين حتى يأخذوا الحيطة والحذر، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: موقف المنافقين من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وتحريضهم على عدم الإنفاق:

قال عبدالرحمن الميداني: إن المنافقين صنيعة اليهود ليجعلوهم جيشًا داخليًا معاديا للإسلام والمسلمين، ويغزوهم بعوامل النفاق ليخذلوا عن الرسول ﷺ وقت الأزمات[6]، والحديث يسجل موقفًا من مواقف هؤلاء اللئام، "فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبدالله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَّن الأعزُ منها

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) خاتم النبيين، الشيخ محمد أبو زهرة، ١٤٣٨/٢، ١٤٣٩.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٦٦-٧٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٧١.

(٦) انظر: مكايد يهودية عبر التاريخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ص ٩٣-٩٤.

الأذل"، وقد سجل القرآن تلك المواقف ليجعلها المسلمون نصب أعينهم، يعرفون بها من والاهم ممن عاداهم، ومحبيهم من مبغضهم، قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[١]، وذلك لإبعادهم عن تلقي الهدى النبوي، وعن أن يتقوى بهم المسلمون، ولتفرقهم بغية إضعاف قوى المسلمين، وبين الله سبحانه أن المنافقين لا يدركون دقائق المدركات وخفاياها[٢]، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٣]، ألا ما أجدر بالمسلمين أن يأخذوا حذرهم ويحتاطون من أولئك الذين يسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، متظاهرين مدعين حرصهم على مصلحة الإسلام والمسلمين[٤].

وإن من يتتبع تاريخ الإصلاح في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويجد أن المنافقين هم أضر عليها من أعدائها الكافرين.

ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، فالنفاق والمنافقون هم عدو الأمة اللدود، وداؤها العضال، وهم طريق نكبتها وسبب استعباد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: تكذيب المنافقين للمؤمنين وتبرئة الله تعالى للمؤمنين وكشف حقيقة المنافقين:

لقد عنى القرآن بكشف حقائق المنافقين وأخلاقهم التي ينتهجونها مع المسلمين والتي منها أنهم يتهمون المؤمنين بالسفه، والأخلاق الذميمة كالكذب وغيره[٦]، قال

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، سماحة الإمام الطاهر بن عاشور، مج١١/ج٢٨/ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) سورة المنافقون، آية: ٧.

(٤) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، ص ٨٨.

(٥) دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، ٤٧٠.

(٦) انظر: فقه الدعوة: د. بسام العموش، ص ٦٦-٧٠.

تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(١)، والحديث يسجل موقفًا عمليًا لذلك، قال زيد بن أرقم: "فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أبي، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كَذَبَ زيدٌ رسولَ الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوه شدة، حتى أنزل الله تعالى على نبيه تصديقي: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾(٢)، ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلوَّوْا رءوسهم"، قال النووي: وفي ذلك منقبة لزيد بن أرقم رضي الله عنه وفيه أنه لمن سمع أمرًا يتعلق بالإمام أو نحوه من كبار ولاة الأمور، ويخاف ضرره على المسلمين، أن يبلغه إياه ليتحرز منه(٣).

خامسًا- من مهام الداعية: التبين والتحقق:

إن من أهم صفات المسلمين عامة والدعاة منهم خاصة التبين والتحقق، ولقد أعطانا النبي ﷺ في ذلك الحديث، الأنموذج التطبيقي والمثل الحى لذلك، وذلك من إرساله إلى عبدالله بن أبى وسؤاله عما بلغه به عنه زيد بن أرقم: "فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أبى فاجتهد يمينه ما فعل"، وذلك امتثال لأمر الله بالتثبت قبل إصدار الأحكام واتخاذ القرارات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾(٤)، وسبب نزول الآية: ما روي عن الحارث بن ضرار الخزاعي، قال: « قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله ﷺ رسولاً، لإبان(٥) كذا وكذا ليأتيك ما

(١) سورة البقرة، آية: ١٣.

(٢) سورة المنافقون، آية: ١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٣٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٥) أي مطلع أو وقت كذا.

جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث، ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ فَرَجَع، فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسولَ الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي؟ فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث وفصل من المدينة، لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، ولمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلاّ حين احتبس عليَّ رسولُ رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[١]»[٢].

لتعرفوا الحق من الباطل، وتقفوا على حقائق الأمور قبل الوقوع في الأخطار[٣]، والرسول ﷺ وما صدر منه في الحديث، من تثبت وإرساله إلى عبدالله بن أبي، يدلنا على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور، وتربية الناس، والتغلب على مشاكلهم[٤]، وللداعي في ذلك السنن والعبرة والاتعاظ.

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ٦-٨.

(٢) أخرجه أحمد، ١٨٤٥٩، وقال محققو المسند حديث حسن (مسند الإمام أحمد، ٣٠/٤٠٥).

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج٣/ج٢٦/٥٨.

(٤) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٣٠٧.

الحديث رقم (١٥٣٧)

١٥٣٧- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قالت هِنْدُ امْرَأَةُ أَبي سفْيَانَ للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِيني وولَدِي إلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ؟ قَالَ: ((خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول حالة اجتماعية بين هند امرأة أبي سفيان وبين زوجها تحكيها للرسول ﷺ بغرض بيان الحكم الشرعي، وقد تضمن حديثها غيبة لزوجها في أثناء خطابها للرسول ﷺ ،ولم ينكر عليها صنيعها فهل تباح الغيبة في هذا الموطن ؟، وما سره ؟ هذا ما يعرضه هذا الحديث، وقولها (إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ) وهو حكم مجمل ببخل زوجها تفصله بما بعده، وقد أكدت الكلام بأكثر من مؤكد حملا للمخاطب على الاقتناع بصدقها ووصفه بالشح وهو أشد البخل، وصياغته على فعيل وهي للمبالغة يؤكد شدة البخل والذي فسرته في أسلوب النفي في قولها (وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِيني وولَدِي) وقولها (إلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ ؟) هو موضع الاستفتاء وسبب الغيبة بوصفه بالشح، والذي يكشف سببا من الأسباب التي تبيح الغيبة لأن النبي ﷺ أقرها بالسكوت عنه، وأباح لها أن تأخذ من مال زوجها بالمعروف في قوله (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ) وقوله بالمعروف تكميل بلاغي وضع حدا للأخذ حتى لا يتخذ الحكم على إطلاقه وتستغله بعض النساء في سلب مال الزوج.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التنفير من الشح.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٧١٤/٧).

ثالثًا: من آداب المدعو: الرجوع إلى أهل العلم والفضل.

رابعًا: من أهداف الدعوة: ضمان حق الكفاية للفرد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التنفير من الشح:

إن الشح من ذميم الصفات التي نهى عنها الشرع، وتترفع عنها الفطر السوية، وكما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي"، والشح: حالة نفسية تقتضي منع الإنسان ما في يده أو في يد غيره[1]، بل وقد يصل بحال صاحبه إلى التطلع إلى ما حرم الله حفاظًا على ما يملك، قال ابن رجب الحنبلي: قال طائفة من العلماء: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها من حقوقها، وحقيقته شره النفس إلى ما حرم الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له[2]. وبيّن الله تبارك وتعالى أن السلامة من الشح علامة الفلاح[3]، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4]، وحذر النبي ﷺ من الشح في أحاديث بلغت حدًا في الكثرة، منها ما روى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم[5]". فالشح من أسباب الهلاك فهو سبب من أسباب الظلم والبغي والعدوان وسفك الدماء كما أنه يجرئ على المعاصي وفعل السيئات، إضافة إلى ما يورثه من قطيعة الرحم وانفصام عرى المحبة وغير ذلك من الآفات والمضار"[6].

---

(١) الكليات، الإمام الكفوي، ٢٤٢.

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، دراسة وتحقيق أبى مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ٦٩/١.

(٣) انظر: صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب، الإمام ابن القيم، ص ٥٠.

(٤) سورة الحشر، آية: ٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٦) انظر: موسوعة: نضرة النعيم ٤٦٩٤/١٠.

والشح من أشر الأمور إذا وجدت في إنسان، فعن أبي هريرة ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»(١). وهو من الصفات التي لا تتفق مع الإيمان فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدا وَلاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدا»(٢). والشح المذموم هو الذي يتعدى صاحبه الحلال إلى ما منع منه وهو مناف للإيمان، وقد قيل إنه رأس المعاصي كلها، أما من اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن(٣).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد:

إن من حقوق الزوجة والأولاد على الزوج والأب الفطرية التي صبغها الإسلام بصبغة دينية الإنفاق، قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾(٥)، وجعل النبي ﷺ الأولوية في الإنفاق على من يعوله الإنسان فعن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((قال الله عز وجل «يَا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))(٦).

إن الإسلام ليعتبر الإنفاق على الزوجة والأهل من الصدقات التي يحصد ثوابها إن

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥١١ واللفظ له، وأحمد ٣٠٢/٢، ٣٢٠، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح ١٦٤/١٥، رقم ٧٩٩٧، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣٠٦/٣) إسناده جيد، وصححه الشيخ الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٢).

(٢) أخرجه النسائي ٢٩٠٠، واللفظ له، وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح (٢١٨/١٣) رقم ٧٤٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩١٣).

(٣) شرح حديث "ماذئبان جائعان"، ابن رجب الحنبلي، ص٣١.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٦) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

احتسب ذلك، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»[1].

قال القرطبي: وقوله: إذا أنفق نفقه على أهله أي على زوجته وولده، ومعنى يحتسبها أي يقصد بها ثواب الله تعالى[2].

وقال النووي: ومعناه إذا أراد بها وجه الله تعالى، فلا يدخل فيه من أنفقها ذاهلاً ولكن يدخل المحتسب وطريقه في الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة، وأطفال أولاده، والمملوك، وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم، فينفق بنية أداء ما أمر به وقد أمر بالإحسان إليهم[3].

إن نفقة الإنسان على أهله وأولاده قيام بما كلف من أعباء الرعاية نحوهم وإتيان بما هو مسئول عنه يوم القيامة، روي عن يونس عن الزهري قال: أخبرنا سالم بن عبدالله، عن ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهلِهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتِهِ، وَالمرأَةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجِها وَمَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِهِ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ - قال: وَحَسِبتُ أَنْ قد قال: وَالرجلُ راعٍ في مالِ أَبيهِ وَمَسؤولٌ عن رعيَّتِهِ، وَكلُّكم راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ»[4].

فقوله: "الرجل راع في أهله وقوله ﷺ "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته[5].

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٩، ومسلم ١٠٠٢.

(٢) المفهم ٤٣/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ٦٣٩، ٦٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١١٨٥.

ومن هؤلاء المسئولين الرجلُ ورعايته لأهل بيته وأسرته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، فقد عنى الإسلام بالأسرة عناية خاصة، وجعل منها أساس المجتمع، وحتى يتحقق هدف الإسلام في بناء الأسرة على أساس متين، فقد وزع المسؤولية والأعمال توزيعًا جميلاً، ينتظم به شأن البيت من جهة، كما ينتظم به العمل خارجه من جهة أخرى، مع تحديد الواجبات والمسؤوليات على كل من الرجل والمرأة.

فالرجل راع على أهل بيته، فمن أوجب واجباته أن يسعى ويكد ينهض بالكسب، وما يحتاج إليه البيت من مال ونفقة[1]؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[2]. أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها، ومؤدبها إذا اعوجت ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، أي لأن الرجال أفضل من النساء، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾[3] الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله[4].

إن القيام بحقوق الزوجة والأولاد والإنفاق عليهم، له ثماره اليانعة، والنتائج العظيمة، التي ترجع للأهل والأولاد، وللوالد والمجتمع بأسره[5].

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. لقمان الأعظمي، ص٣٠٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ج٢/٢٠٥.

(٥) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح.

ثالثًا- من آداب المدعو: الرجوع إلى أهل العلم والفضل:

إن من آداب المدعو أن يسأل ويستوضح عما خفى أو أشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وغيرها، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم، يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنُّ لهم في شئون الدين، بل في الكثير من شئون الدنيا[2]، ومن ذلك السؤال عن الإنفاق على الأهل والأولاد، وماذا يحق لهم لو بخل وشح عليهم عائلهم، كما نرى في الحديث في سؤال هند لرسول الله ﷺ: "قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه، وهو لا يعلم؟ قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"، أى من غير سرف ولا تقتير[3].

رابعًا- من أهداف الدعوة: ضمان حق الكفاية للفرد:

ذلك ما قرره النبي ﷺ في قوله لهند زوجة أبي سفيان "خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"، قال النووي: في هذا الحديث فوائد منها: وجوب نفقة الزوجة، ومنها وجوب نفقة الأولاد الفقراء الصغار، ومنها أن النفقة مقدرة بالكفاية[4]، فإن من حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج، وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان[5]، وذلك يقدر بقدر كفايتهم من القوت والملبس والمسكن وسائر الحاجات الضرورية التي لا يستغنى عنها الإنسان ليعيش، وتلك الكفاية ورعاية الأهل والأولاد،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧-١٨.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان، ١٥٩٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ١١٠٢.

(٥) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٨.

تقي المجتمع من أن يتعرض للهزات التي تؤثر في كيانه، وتقيه شر التمرد عليه[١].

والنفقة على الأهل والعيال من أوجب النفقات على الإنسان، قال ابن علان: قال القرطبي: النفقة تعم الواجبات والمندوبات[٢]، ويستحق كل من سبق في استحقاق دعاء الملك "اللهم أعط منفقًا خلفا"[٣].

وضمان حق الفرد في الإسلام لا يقتصر على الزوجة والأولاد، وإنما هو حق كفله الإسلام لجميع أفراد المجتمع وأمر المجتمع بجميع شرائحه وفئاته أن يعملوا بهذا المبدأ على أرض الواقع ولا يقفوا عند مجرد اللافتات والشعارات.

إن من حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس. سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافئ جهده.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه، لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له، ولمن يعول من أهل وأقربين، فالحد الأدنى المطلوب للفقير في

---

(١) انظر: إسلامنا، السيد سابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ص٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٥.

المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية.

ولقد ذكر الفقهاء: أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة.

بل ذهب الإمام الشافعي - وهو قول في بعض المذاهب الأخرى- إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى. وقد صح عن عمر قوله: "إذا أعطيتم فَأَغْنوا"، وقوله: "والله لأكررن عليهم الصدقة ولو راح على أحدهم مئة من الإبل". وهذا المقدار - مئة من الإبل- يساوي عشرين نصابًا من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال، بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة -عمود الدين- في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعًا وبطيب نفس، وإلا أخذت كرهًا، ولو بقوة السلاح، حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعانًا وجاره إلى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي - رآه يسأل الناس- من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل الكتاب،

وكتب بذلك عمر بن عبدالعزيز إلى بعض ولاته لينفذه.

كما أن عمر - وهو في طريقه إلى الشام - وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر بإجراء القوت عليهم من الصدقات.

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق -حق الكفاية التامة - إذا لم تكف الزكوات وغيرها. وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها[1].

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٨٨-٩٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير، ومن الشواهد على ذلك في باب ما يباح من الغيبة، قول عائشة رضي الله عنها: «ائذنوا له، بئسَ أخو العشيرة؟»، وقوله ﷺ: «مَا أَظُنُّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا». وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ... إذا جاءك المنافقون ...».

فهذه تربية بالتحذير من أهل السوء وذوي الأخلاق الرذيلة مع مداراتهم، حيث بيّن الرسول ﷺ في هذين الموقفين ما ينبغي أن يحذره المؤمن في مجال التعامل مع من لا خلاق لهم.

إن التحذير أسلوب تربوي توجيهي لتجنب المعاصي والبعد عن اقتراف ما نهى الله تعالى عنه، كما أن للتحذير أهمية في بيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه والنصيحة وغيرها، والرسول ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه من خلاله الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، حيث اعتمد التحذير كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين[1].

ثانيًا: التربية على استشارة أهل الفضل والعلم:

من أهداف التربية الإسلامية، الحث على استشارة أهل الفضل والعلم، والشواهد على ذلك في باب ما يباح من الغيبة، ما روي عن فاطمة بنت قيس، قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: «أَنَّ أَبَا جَهْمٍ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي ، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فضراب للنساء» فهذا توجيه نبوي أراد النبي ﷺ من خلاله غرس قيمة استشارة أهل الفضل والعلم، ومن ثمرات الاستشارة في هذا الموطن أنها جاءت

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٠.

وقاية من الوقوع في ضرر الزواج ممن لا يناسب هذه المرأة من خلال بيان أسباب ذلك.

إن من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[١].

إن المشورة باب رحمة، ومفتاح بركة، لا يضل معها رأي، ولا يعقد معهما حزم: وقال ﷺ: «إسْتَرْشِدُوا العاقِلَ تَرْشُدُوا وَلا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا»[٢].

قال الشاعر:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحًا وعلى أخيك نصيحة لا تردد[٣]

ثالثًا: التربية على الصدق في النصيحة والتوجيه:

تهدف التربية الإسلامية إلى تربية النفوس على الصدق في القول والفعل والتوجيه، وقد عمل النبي ﷺ على ترسيخ تلك القيمة العظيمة في النفوس، وقد أراد النبي ﷺ أن يوضح أهمية الصدق في النصيحة وأنها لا تعد من الغيبة، إذا كانت لبيان واقع صحيح، أو تحذير من أمر خطير أو غير ذلك من الأسباب التي تباح فيها الغيبة، فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: «إنَّ أَبَا جَهْمٍ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ»، فهذا توجيه نبوي رائع ضُرب لنا المثل فيه في الصدق في التوجيه، لأنه إرشاد إلى مصلحة، والرسول ﷺ، علمنا في هذا الهدي وربانا على أنه يجوز ذكر الغائب بما فيه من العيوب التي يكرهها، إذا كان للنصيحة، ولا يكون حينئذ غيبة محرمة لأن من استشير لزمه القول بالحق، وأداء النصيحة، وليس ذلك في باب الغيبة لأنه لم يقصد

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) مسند الشهاب لمحمد بن جعفر أبو عبدالله، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، تحقيق: محمد عيد الحمد السلفي.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص٩٢.

بذلك لمزه ولاشفاء غيظه منه، فيجب على المسلم والمربي إذا سُئل عن شيء أن يبوح به ولا يكتمه[١].

رابعًا: التربية بالحوار:

من الأساليب التربوية التي حفلت بها التربية الإسلامية التربية بالحوار والرسول ﷺ كان حريصًا على تعليم الصحابة بطريق الحوار، من خلال ما يقومون بطرحه من أسئلة، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح...»، فالرسول ﷺ بين لهند زوج أبي سفيان كيفية تعاملها في الجانب المالي مع زوجها أبي سفيان، حيث وضح ﷺ المقدار الذي ينبغي لها أخذه من مال زوجها، وهو على قدر كفايتها وأولادها، وهذا درس تربوي نبوي في معالجة مثل هذه المشكلات الاجتماعية والأسرية المتعلقة بمسألة الإنفاق والزوجة والأولاد، ليقتدى المعلمون والمربون بهذا الأسلوب في المشكلات الأسرية المتعلقة بهذا الجانب، ويحسن بالقائمين على أمور التوجيه والتربية الذين تعرض لهم مثل هذه المشكلات أن يفيدوا من العلاج النبوي بطريقة تربوية مناسبة تساعد على حل المشكلات حيث قال النبي ﷺ: لهند - زوج أبي سفيان: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، كما أن هذا الحوار اتسم بالتدرج حيث بدأ بالمناقشة حول الشح وحول الكفاءة في النفقة والرسول ﷺ أنس من هند رغبة في الحق فتابع السؤال معها، وبين لها الحقائق، وهذا مما امتاز به الحوار النبوي الصريح، والشاهد في الهدي النبوي التربوي أن هند ذكرت زوجها بما لا يعجبه، لكن كان على وجه الاستفتاء وسماع أحد المتخاصمين في حال غياب الآخر، حتى ولو كان هذا الوصف قبيحًا، من هنا نقول: إن أسلوب الحوار الذي دار في هذا الهدي أسلوب ناجح لما فيه من الاستجواب والإقناع[٢].



(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٤٢٠/١. أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص٢٤٧.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص١٨٧. أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٦٨.

٢٥٧- باب تحريم النميمة

وهي نقل الكلام بَيْنَ الناس عَلَى جهة الإفساد

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[ن: ١١] وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٣٨)

١٥٣٨- وعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**)).متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

غريب الألفاظ:

نمام: النميمة: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم[٢].

الشرح الأدبي

الحديث قصير في غاية الإيجاز مع قمة الوفاء بالمعنى في لافتة قصيرة تعجل بالحكم، الذي يقضي بحرمة الجنة على النمام عن طريق (لا) النافية الداخلة على المضارع المستمر بدلالة النفي ن والنمام صيغة مبالغة تدل على كثرة إتيان الفعل الذي صيره فقيرا في الآخرة من الحسنات غنيا بالسيئات التي ألقيت عليه من الذين اغتابهم، فما له إلا النار، وعبارة الرسول ﷺ بهذا الإيجاز تحقق أبعاداً نفسية متعددة منها، المحافظة على نشاط النفس؛ لأن الكلام الموجز غير المخل المؤدي للغرض والموصل للمعنى بأقصر عبارة أدعى للمحافظة على نشاط نفس المتلقي في متابعته وإبعاد السأم

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٦٧/١٠٥) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٥٠).

(٢) النهاية في (ن م م)، وشرح صحيح مسلم ١٦٠.

والملل عنها؛ ولذلك نجد البلاغيين يؤكدون على هذا البعد النفسي للإيجاز يقول أبو هلال العسكري: (للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال. ..)[1] ومن مميزات هذه العبارة الموجزة التوسع في الدلالة الإيحائية: وهو من الأبعاد النفسية التي تفيدها ظاهرة الإيجاز، ويتمثل في فتح باب التخيل والاحتمال على مصراعيه أمام المتلقي ليفيد منه بحسب خبرته ويتخيل من الصور والمعاني بحسب ما يمكن أن يخيل عقله مما ينسجم مع حاله، فيخيل إليه أن تلك النميمة ستكون سدا بينه، وبين الجنة، وقد يكون هذا النمام له عمل صالح كأن يكون مصليا ومزكيا وغيره، مع النميمة التي تقف به خارج باب الجنة في حسرة ليس له منها خلاص.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم النميمة: أجمعت الأمة على أن النميمة محرمة، وأنها من أعظم الذنوب عند الله[2].

٢-الأحاديث تدل على عظيم ذنب النمام[3].

٣-حكم الاستتار والاستنزاه من البول: الحديث يفيد تحريم ملامسة البول وعدم التحرز منه بالاتفاق. وقد اختلف في إزالة النجاسة هل هي فرض أو لا؟ فقال مالك: إزالتها ليست بفرض وقال الشافعي: إزالتها فرض ما عدا ما يعفى عنه. وهو الراجح كما اختلفوا في عدم الاستتار هل هو من الكبائر أو من الصغائر على قولين: قيل من الكبائر، وقيل من الصغائر، والراجح أنه من الكبائر عند الله، وإن لم يكن بكبير

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى، تحقيق: د. مفيد قميحة، ص٨٠.

(٢) جمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ٥٥٢/٢، الفواكه الدواني ٢٨٠/٢، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٤/٢-٣٥، مطالب أولي النهى ٢٠٤/٢-٢٠٥، سبل السلام ٣٤٢/٤.

(٣) سبل السلام ٣٤٢/٤-٣٤٣.

في مشقة الاحتراز منه[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفى والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن النميمة وخطر الوقوع فيها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي والترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا يدخل الجنة نمام". حيث نفى دخول النمام الجنة. وهو أسلوب نفى مقرون بالترهيب من النميمة، حيث بين رسول الله ﷺ أن النميمة تكون سببًا في عدم دخول الجنة، وهذا الأسلوب من الأساليب المؤثرة في المدعو، لأن الأخبار بعدم دخول النمام الجنة فيه ترهيب كبير يؤدي إلى زجر النفوس عن ذلك، "وأسلوب الترهيب يقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن النميمة وخطر الوقوع فيها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة نمام"، قال النووي: قال العلماء: النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم[٣].

وقال الغزالي: ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة أن لا يصدق من نمّ إليه، ولا يظن بمن نم عنه ما نقل ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهاه ويقبح له فعله، وأن يبغضه إن لم ينزجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فينم هو على النمام فيصير نمامًا[٤].

وقد استفاض النقل من الكتاب والسنة في التحذير من النميمة، ورتب على ذلك وعيدًا شديدًا. والنهي عنها معلوم لدى عامة المسلمين، ومع ذلك تجد أن كثيرًا من

---

(١) سبل السلام ١/١٧١-١٧٢.

(٢) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٠.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/٤٨٨، نقلًا عن الإحياء للغزالي، ٣/١٦٢٧.

الناس لا يتورع عن إطلاق لسانه في أعراض الناس ولحومهم ولكن هو تزيين الشيطان لهم، ليفرق جمعهم ويوغر صدور بعضهم على بعض، فالشريعة جاءت بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وإحسان الظن بالناس، وقول الحق وطيبه ... والشيطان يسعى إلى تفريق الكلمة، وتنفير القلوب بعضها من بعض، وسوء الظن بالناس وقول الباطل وخبيثه. فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[1].

قال النووي: ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن نحوها[2].

والنميمة إحدى بذور الشحناء والخصومات التي بين الناس، والشيطان أخبرنا عنه مولانا أنه عدو لنا، والعدو لا يريد لنا الخير -لاشك في ذلك- وأمرنا أن نعاديه ونحاربه ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

والنميمة من أسلحة إبليس وحزبه، في التفريق بين الناس، وشحن قلوب بعضهم على بعض، وهما من الأدواء التي تهلك الفرد وتفرق الجماعة، فتجعل الفرد من الناس على خطر من أن يناله ما أعده للنمام، وهي تنشئ القطيعة بين الأهل والأقارب وبين الناس[4].

قال الطيبي حكى: أن حكيمًا زاره أحد وأخبره عن غيره بخبر، فقال أبطلت زيارتي، ثم أتيتني بثلاث جنايات: بغضت إلى أخي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة[5].

فالنميمة من أخطر المفاسد بين الناس، وفي المجتمع، وذلك لأنها تؤدي إلى الجفاء والأحقاد والتقاطع بين الناس، فينبغي على المسلم حتى ينال رضا الله ويدخل جنته أن

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٦٤٨.

(٣) سورة فاطر، آية: ٦.

(٤) انظر: كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص١١٩، ١٢٠.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠٢/٩.

يبعد عن النميمة.

قال الشاعر:

تنح عن النميمة واجتنبها ... فإن النم يحبط كل أجرٍ

يثير أخو النميمة كل شر ... ويكشف للخلائق كل سِرٍّ

ويقتل نفسه وسواه ظلمًا ... وليس النم من أفعال حُرٍّ[(١)]

وقال القرطبي: وفيه دليل: على أن النميمة من الكبائر، وإنما كانت كذلك لما يترتب عليها من المفاسد والشرور[(٢)].

(١) موسوعة نضرة النعيم، ٥٦٧١/١١ نقلاً عن موارد الظمآن للشيخ عبدالعزيز السلمان، ٣٨٥/٣.

(٢) المفهم ٣٥٥/١.

الحديث رقم (١٥٣٩)

١٥٣٩- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بقَبْرَيْنِ فقَالَ: ((**إنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبيرٍ! بَلَى (إنَّهُ كَبيرٌ)** [1]: **أمَّا أحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، وأمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**)). متفق عَلَيْهِ[2]. وهذا لفظ إحدى روايات البخاري.

قَالَ العلماءُ معنى: ((**وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبيرٍ**)) أيْ: كَبيرٍ في زَعْمِهِمَا. وقِيلَ: كَبيرٌ تَرْكُهُ عَلَيْهِمَا.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

لا يستتر من بوله: لا يتجنبه ويتحرز منه[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي (أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بِقَبْرَيْنِ) يشير إلى مكان له خصوصية لاسيما عند الموعظة، و لفظ القبر من الألفاظ الموحية بطبيعتها بمعانٍ تنقبض لها النفوس لأنه يوحي بالوحشة، والظلمة، وغائب الأهوال، وقول الرسول ﷺ (إنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ) يقرر أنهما في العذاب، وهو خبر يمهد به لما بعده وهو بيان سبب العذاب تحذيرا من التلبث بمثله، وقوله (وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبيرٍ! بلى إنه كبير) إثبات بعد نفي من عبقريته ﷺ في لفت انتباه المخاطب، وزيادة ترقبه مع تقرير معنى جديد، قِيلَ الْمَعْنَى لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي الصُّورَة؛ لِأَنَّ تَعَاطِي ذَلِكَ يَدُلّ عَلَى الدَّنَاءَة وَالْحَقَارَة، وَهُوَ كَبِير فِي الذَّنْب، وَقِيلَ: لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي اِعْتِقَادهمَا أَوْ فِي اِعْتِقَاد الْمُخَاطَبِينَ، وَهُوَ عِنْد اللَّه كَبِير كَقَوْلِهِ تَعَالَى: "وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْد اللَّه عَظِيم" وَقِيلَ: لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي مَشَقَّة الِاحْتِرَاز أَيْ

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٦٠٥٥): (إنه لكبير).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٩٢/١١١)، والسياق للمنذري في ترغيبه (٤١٥١).

(٣) شرح صحيح مسلم ٢٩١.

كَانَ لا يَشُقّ عَلَيْهِمَا الِاحْتِرَاز مِنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ لَيْسَ بِكَبِيرٍ بِمُجَرَّدِهِ، وَإِنَّمَا صَارَ كَبِيرًا بِالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَيُرْشِد إِلَى ذَلِكَ السِّيَاق فَإِنَّهُ وَصَفَ كُلًّا مِنْهُمَا بِمَا يَدُلّ عَلَى تَجَدُّد ذَلِكَ عَنْهُ وَاسْتِمْرَاره عَلَيْهِ لِلْإِتْيَانِ بِفِعْلِ الْمُضَارَعَة بَعْد كَانَ [1]وقوله (أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وأمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ) تفصيل بعد إجمال حيث ذكر مثنى في الكلام مجملا ثم تبعه بتفصيله يقرر خطر المشي بالنميمة، والتعبير بالمشي بها كناية عن ملازمتها وتحريها، وخطر عدم الاستتار الذي صوره المضارع الدال على الاستمرار، والتجدد، وهو تحذير، وترهيب من التلبث بهذين الذنبين اليسيرين في تجنبهما، وفي نظر الناس، العظيمين في عاقبتهما، وعقابهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عذاب القبر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطر النميمة بين الناس وعدم التنزه عن البول.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم الاستهانة بالذنوب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عذاب القبر:

يظهر ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مر بقبرين فقال: "إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير ...".

والإيمان بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذاب القبر لمن كان مستحقًا له من أهل المعصية والفجور من أصول الإيمان التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة[2].

ودليل عذاب القبر من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ

---

(١) ينظر حاشية السندي على سنن النسائي حديث ٣١

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٢٢١

ٱلْعَذَابِ﴾[١]، قال القرطبي: (الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ وهو حجة في تثبيت عذاب القبر)[٢].

وقال ابن كثير: (وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور)[٣].

ودليل عذاب القبر من السنة حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر"[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطر النميمة بين الناس وعدم التنزه عن البول:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ: «إنَّهُما لَيُعَذَّبانِ وَما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ، بَلى إنَّهُ كَبيرٌ: أمَّا أحدُهُما، فكانَ يَمْشِي بالنَّميمَةِ، وأما الآخَرُ، فكانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ».

قال النووي: قوله ﷺ: «وما يعذبان في كبير بل إنه كبير» فثبت بهاتين الزيادتين الصحيحتين أنه كبير، فيجب تأويل قوله ﷺ وما يعذبان في كبير. وقد ذكر العلماء فيه تأويلين: أحدهما أنه ليس بكبير في زعمهما. والثاني أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض تأويلاً ثالثًا أي ليس بأكبر الكبائر، قلت: فعلى هذا يكون المراد بهذا الزجر والتحذير لغيرهما أي لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا في أكبر الكبائر الموبقات، فإنه يكون في غيرها. وسبب كونهما كبيرين: أن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة، فتركه كبيرة بلا شك والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح، لاسيما مع قوله ﷺ: "كان يمشي" بلفظ كان للحالة المستمرة غالبًا والله أعلم»[٥].

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٥-٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، مج٨/١٥/٣١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٤٦/٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٦٨.

(٥) شرح صحيح مسلم ٢٩٠.

وقال محمد عبدالعزيز الخولي: ينبئنا الرسول ﷺ أن من الذنوب ما يعده الإنسان صغيرًا، لا يبالي أن يقترفه، ولا يأبى ارتكابه ويظنه هين الشأن. وهو سيء المغبة مؤلم العاقبة وأن من ذلك عدم الاستتار وقت قضاء الحاجة، فتبدو للناس عورته كالحيوان البهيم. مع أن الله كرمه على سائر الخلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]. ويفقد حياءه وتضيع كرامته ويصبح حقيرًا شأنه شأن الدواب. أَوْ ألاّ يحترز من البول فتصيبه النجاسة، وتتناثر على جسمه وملابسه فتلوثها وتجعله مستقذرًا في أعين الناس وتفسد صلاته وعبادته، ومن ذلك أيضًا. السعي بالنميمة ونقل الكلام بين الأصدقاء والخلان بقصد الإضرار بهم وإفساد صداقتهم ومودتهم، وكشف ما يكره كشفه من أمورهم سواء أكان ذلك بالقول أم بالكتابة، وسواء أكان المنقول من الأعمال أم من الأقوال ولذا كان خطبها جسيمًا وعاقبتها سيئة.

ولقد قال الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنةُ نمّام»[2].

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله تعالى، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبَرَاء العنت»[3].

وقال الحسن: من نم إليك نم عليك.

ومعنى هذا، أن النمام ينبغي أن يبغض، ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس، وهذا من آفات اللسان التي يجب على المسلم أن يحذر منها ويأخذ نفسه ولسانه على الحق، ومحبة الناس والعمل لخيرهم والبعد عما يضرهم ويسيء إليهم[4].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٤٥٩/٦ رقم ٢٧٥٩٩، وقال محققو المسند: حسن بشواهده ٥٧٥/٤٥.

(٤) انظر: الأدب النبوي ٢٥٢، ٢٥٣.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك من عموم الحديث، حيث رهّب ﷺ من المشى بالنميمة بين الناس وعدم الاستبراء من البول وجعلهما سببًا لعذاب القبر.

وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المؤثرة، ذلك لأن النفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها، فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم؛ لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده الله جل وعلا من شديد العقاب وأليم العذاب، لمن طغى وبغى وعاند وعصى. فإذا ما أحسن الداعية في عرض ما لديه من قول وإيراد ما عنده من استشهادات قرآنية وحديثية فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه، لأن الإنسان لا يتحمل تلك الزواجر مجرد سماع فكيف إذا كانت حقيقة، وكفى بالموت واعظًا، وهو من أعظم الزواجر والمرهبات والمنذرات والمخوفات، فإنه يأتي بلا استئذان. فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واستعد له بحب الله وحب رسوله، وطاعتهما حق الطاعة[1].

رابعًا- من آداب المدعو: عدم الاستهانة بالذنوب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وما يعذبان في كبير" قال ابن علان، قال العلماء معنى: "وما يعذبان في كبير أى : كبير في زعمهما"، أى: أنهما لاستخفافهما بأمور الديانة يريان ذلك غير كبير، "وقيل: كبير تركه عليهما"، وقد جاء أن المنافق يرى ذنبه كالذباب وقع على أنفه فدفعه فاندفع، وأن المؤمن يراه كالجبل يخشى أن يقع عليه أولا يريان بتركه مشقة لخفة ذلك عندهما وهو عند الله كبير، أى: باعتبار ما عند الله وباعتبار إثمه وتبعته[2]، فينبغي على المدعو عدم الاستهانة بالذنوب.

فمحقرات الذنوب تجر الإنسان إلى التمادي وإلى الهلاك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنّ العَبْدَ إذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

(٢) دليل الفالحين ١٥٩٣.

نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فإذا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ وهُوَ الرَّانُ الذِي ذَكَرَ الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)]))[(٢)].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه))[(٣)].

إن البناء الشاهق، يبني لبنة لبنة، والمسافة الطويلة، تقطع مرحلة مرحلة، والشجرة الضخمة، تبرز رويدًا رويدًا، والرجل الفارع كان نطفة نمت قليلاً قليلاً، وهذه سنة من سنن الحياة، وقانون من الله، نبهنا رسول الله ﷺ إليه، وحذرنا من تجاهله، في تكوين شخصيتنا، وأسلوبنا في الحياة، فإن ملكة الخير تتكون رويداً رويدًا، وفعلاً فعلاً، فالكريم يتعود على إنفاق القليل، ثم يتدرج منه إلى الكثير، والعابد يتدرج في الخضوع، إلى أن يحظى بالقرب، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، والشجاع يدرب في موقعة بعد موقعة، ومعركة إثر معركة، حتى يشار إليه بالبنان، وترهبه الأعداء، فأعمال الخير يُعلِّمُها الإنسان ويعتادها ويتدرب عليها حتى تصير له سجية، وتصبح له عادة، وهذا قد يكون واضحًا في الحياة يعلمه الناس ويدريه المربون، وقد تعدى هذا إلى تعليم الحيوان وتعويده وتدريبه على أشياء ليست من طبعه، ولا من طبيعته، وما ذلك إلا بالتدريب والتدرج والصبر، وإذا كان هذا في الخير، فهو كذلك في الشر، وإذا كان هذا واضحًا في البر، فهو ظاهر في الإثم، كما بينه لنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف فإن الشرير لا يولد شريرًا. والمجرم لا يخرج من بطن أمه مجرمًا، يقول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[(٤)]، ((وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ))[(٥)]. وإنما يتحول هذا الإنسان رويدًا رويدًا، وشيئًا

---

(١) سورة المطففين، آية: ١٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٣٣٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠٢/١ رقم ٣٨١٨، وقال محققو المسند حسن لغيره ٣٦٨/٦.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٥٩، ومسلم ٢٦٥٨.

فشيئًا، حتى يصير عاتيًا في إجرامه، مدمرًا في انحرافه، فمثلاً يبتدئ السارق بشيء قليل، ونذر يسير، ثم يتدرج من ذلك إلى الاحتراف، وقطع الطريق، وتهديد الممتلكات، والسفاح يبتدئ بغلظ القلب، وقتامة النفس، وإيذاء الخلق، ثم بجريمة واحدة، ثم يهون عليه الأمر ويسعد به، ويعده من مفاخره وكمال رجولته، وشارب الخمر ومدمن السكر، يعافه حتى الكأس الأولى والرشفة الأولى والزجاجة المتقدمة، ثم بعد ذلك، يشرب البرميل حتى الثمالة، وقد يستهين الإنسان بالإثم القليل ويهون في عينه، ولكنه في الحقيقة أول الطريق إلى الهاوية، ونقطة الانحدار الأولى إلى الجحيم، ومن هنا نعلم تحذير رسول الله ﷺ وقوله الذي لا ينطقه عن الهوى، «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، أرأيت هذا القانون الذي أعطاه لنا رسول الله ﷺ، في يسر وبدون عسر ليحفظ المسلم من كل سوء، ويحميه من كل انحراف، وقد وضح لنا رسول الله ﷺ ذلك، وضرب لنا مثلاً لهذه المحقرات من الذنوب، كيف تهلك الإنسان وتمحقه، وهو يستهين بها، مثلها رسول الله ﷺ بأعواد من الحطب، تجمع من هنا وهناك، حتى تصير كومة تشعل حريقًا، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ))[1].

ولا نقول إن هناك من لا يخطئ أو يقترف الدنايا، "فكل ابن آدم خطاء"، ولكن نقول إن هناك فرقًا بين من يخطئ ويتوب، ويقلع، ويحاسب نفسه، ويرجع إلى فطرته، ومن يخطئ ويتمادى، ويزين له فعله ويعاود إثمه، في غير ما تفكير، أو رجوع، أو ندم، أو توبة، فهذا هو من يحق عليه القول، ويعرض نفسه للهلكة والضياع. نسأل الله السلامة والتوفيق والسلام[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٣٣١، رقم ٢٢٨٠٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين ٣٧/٤٦٧.

(٢) سلوك المسلم، د. توفيق الواعي، ص١١٥، ١١٦.

الحديث رقم (١٥٤٠)

١٥٤٠- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: ((**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هي النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

العَضْه: وروي (العِضهُ) وهي: الكذب والبهتان، وعلى الرواية الأولى: العَضْهُ مصدر يقال: عضه عضها، أي: رماه بالعَضْه[2].

القالة بين الناس: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي للبعض عن البعض[3].

الشرح الأدبي

إذا نظرنا إلى أسلوب الرسول ﷺ نظرة تحليلية من بدايته نجد أنه صدر كلامه بالأداة (ألا) وهي من الحروف الهوامل، ولها مواضع منها: أن تأتي حرف استفتاح يبتدئ بها الكلام، كقول أبي العتاهية:

ألا من لمهموم الفؤاد حزينه ... إذا ابتز منه العزم ضعف يقينه
وإذ هو لا يدري لعل كتابه ... سيعطاه منشوراً بغير يمينه[4]

وفائدتها المعنوية. توكيد مضمون الجملة وكأنها مركبة من همزة الإنكار وحرف النفي، والإنكار نفي. ونفي النفي إثبات، وركب الحرفان لإفادة الإثبات والتحقيق فصارا بمعنى (أن) إلا أنهما لا يعملان.

---

(١) برقم (١٠٢/٢٦٠٦).

(٢) رياض الصالحين ٥٢٩.

(٣) النهاية في (ق و ل).

(٤) ديوان أبي العتاهية ط/ دار صادر.

وقد تدخل (ألا) على النداء، وقد تأتي للتحضيض، والعرض ومن مواضعها – أن تأتي للعرض فتختص بالدخول على الفعل، ولا شك في كونها إذن مركبة من همزة الإنكار، وحرف النفي، والفرق بين (ألا) التي للعرض و (ألا) الاستفتاحية أن الأخيرة تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية في حين تختص (ألا) التي للعرض بالدخول على الجملة الفعلية على الصحيح ومن مواضعها أن تكون تمنيا، وتنصب بعدها النكرة بلا تنوين كقولك: (ألا ماء بارداً)[1] وألا في قول الرسول ﷺ: (ألا أنبئكم) جاءت للعرض بدليل دخولها على الجملة الفعلية. واكتسب الأسلوب تشويقه من بقية السياق حيث تلى (ألا) بالفعل (أنبئكم) الذي يدعم التشويق بصيغته، كما يصعده بمتعلقاته، واستعمال هذه الأداة – في الأغلب مع هذا الفعل وأمثاله – كـ (أخبركم، أعلمكم، وأدلكم) تمهيد لشيء. خطير. ثم يبدأ في رفع درجة التشويق عن طريق اللفظ الغريب (ما العَضْهُ) الذي يصعِّد الترقب، وغرابة اللفظ تشير إلى غرابة العمل عن أخلاق المجتمع الفاضل، ولما توفر له القدر المطلوب من الترقب، والاستشراف لمعرفة المضمون قرر المعنى الذي يريده (هي النَّمِيمَةُ ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) حتى يكف كل واحد منهم لسانه، ويحذر هذا الخطر إذا أن خطر الغيبة أمر معروف عندهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم ويفسد ذات بينهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبهتان وأثر ذلك على المجتمع.

أولاً– من أساليب الدعوة: السؤال:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أنبئكم ما العِضَه؟ هي النميمة، القالة بين الناس".

قال ابن عثيمين: (هذا من أساليب التعليم الجيدة، وهي أن يلقي المعلم السؤال على المخاطبين للتنبيه، حتى يستثير أفهامهم ويعطوا الكلام انتباهًا "ألا أنبئك ما العضة"

(١) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام ١٩/١ وما بعدها.

والنبأ والخبر في اللغة العربية معناها واحد، والعِضَهُ، من القطع والتمزيق ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1] يعني قطعًا وأجزاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، فما هي الأداة المفرقة للأمة الممزقة لهم، قال: هي النميمة أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض، من أجل الإفساد بينهم، وهي من كبائر الذنوب.

وفي هذا: دليل على حسن تعليم النبي ﷺ، حيث يأتي بالأساليب التي يكون فيها انتباه المخاطب، ولا سيما إذا رأى الإنسان من المخاطب غفلة، فإنه ينبغي أن يأتي بالأسلوب الذي ينبهه؛ لأن المقصود من الخطاب هو الفهم والاستيعاب والحفظ، فيأتي الإنسان بالأساليب المفيدة في ذلك[2].

ثانيًا- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم ويفسد ذات بينهم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ألا أنبئكم ما العِضَهُ؟ هي النميمة؛ القَالَةُ بين الناس" فقد حذر النبي ﷺ من النميمة وذلك لما توقعه بين الناس من العداوة والبغضاء فهي تضر بهم وتفسد ذات بينهم.

وعلى الداعية أن يحث المدعوين بلزوم ما حثهم عليه دينهم من المحبة والائتلاف وينهاهم عن التفرق والاختلاف، وأن عليهم عمل جميع الأسباب المقربة للقلوب والبعد عن العداوات والضغائن التي لا تكسب إلا شرًا، وأن يحذروا سماسرة الأعداء الذين يُلْقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق، ويدّعُون أنهم مسلمون، وإنما هو غل ونفاق. والداعية هو الذي يسعى في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم[3]، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ﴾[4].

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦١٤/٢، ١٦١٥.

(٣) انظر: الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي، ص ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبهتان وأثر ذلك على المجتمع:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة؛ القالة بين الناس" قال النووي: (... ورُوي "العِضة" بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة، وهي الكذب والبهتان...)[1].

وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن طاعة الذي يمشي بين الناس بالكذب والنميمة فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[2] فنهى تعالى عن طاعة الهماز الطعّانِ، العيّابِ المغتابِ، الذي يمشى بين الناس بالوشاية، وبالإفساد، لأنه باعث الفتن وزارع الإحن، ومقطع الصلات، ومفرق الجماعات، يجعل الصديقَيْن عدوَّيْن، والأخوَيْن أجنبيين، والزوْجَين متنافرين، والولد حربًا لأبيه، والأب ضدًا لبنيه، فهو غراب بين، ونذير شر، وحمال حطب، ومشعل لهب، فكانت طاعته حرامًا. ونهيه لزامًا، وقد أمرنا الله تعالى بالتثبت في خبره والتحري عن صدقه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[3]، بل إن كنت مؤمنًا كريمًا فلا تشغل نفسك بحديث الأنمّاء، ولا تضيع من وقتك في تسمع أخبار السفهاء. وظن الخير بإخوانك وأقربائك واتهم النمام الجهول؛ بل قبح له عمله، وبغض إليه نمّه، وقل له: لا تفسد بيني وبين إخواني، ولا تُبَغّض إلي أعواني، وخير لك أن تذكر ما يزيد الصلة متانة. وعرى الإخاء وثاقة، وإن من ينقل عن غيرك إليك أحاديث السوء، ينقل عنك إلى غيرك. فلا تجعله موضعًا لثقتك، واجعل وشايته دبر أذنك.

واعلم أن نقل الأنباء قد تكون فيه مصلحة شرعية، ومنفعة عمومية. كمن ينقل إلى شخص مكيدة يدبرها له الخصوم من قتل أو سرقة؛ وكمن يعرّف الأئمة والملوك سيرة الحكام الظالمين، والموظفين الخائنين، فهذا لا حرج فيه بل ذلك واجب، حقنًا

---

(١) رياض الصالحين، النووي، ص ٥٢٩.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سورة الحجرات، آية:٦.

للدماء، والأموال، ونصحًا للرعية والولاة. والدين النصيحة.

وقد بين الرسول ﷺ أن الجنة لا يدخلها قتات، لأنها دار المتقين، وهذا من المجرمين، ما لم يكن له من الحسنات ما يمحو أثر السيئات، أو الغرض من العبارة التحذير من القت، والتنبيه إلى خطر النم؛ أو المراد: لا يدخلها أول الأمر. حتى يطهّر بالنار من خبث الوزر؛ ثم يدخلها طاهرًا طيبًا[1].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالحرمان:

من أساليب التربية الإسلامية "العقوبة" والتي منها الحرمان، وقد استعمل الرسول هذا الأسلوب في التربية ومن الشواهد على ذلك قوله: «لا يدخل الجنة نمام»، فهذا أسلوب نبوي ظهر فيه أن من يفعل ذلك يحرم من الجنة، وفي هذا الهدي النبوي فائدة كبيرة في التربية تساعد على ضبط النفس وعدم تجاوز الحدود حتى يكون ذلك رادعًا لمن يحاول أو يباشر هذا، تلك السلوكيات التي تكون سببًا في إفساد العلاقات بين الناس، ويجدر بالقائمين على أمور التربية أن يفيدوا من هذا الأسلوب التربوي، ولكن بالطريقة المناسبة والقدر المناسب، لأن المبالغة في استعمال الحرمان كأسلوب للتقويم، قد تؤدي إلى نتائج عكسية، ولأن التمادي فيه قد يؤدي إلى الانحراف السلوكي من أجل الإشباع مما جُرم منه كما انه لا يعمد لهذا الأسلوب إلا الذي أعيته الأساليب والوسائل التربوية الأخرى، كما أن التربية لا تتبع أسلوب الحرمان على الإطلاق، ولكن لأجل إحداث التغيير الإيجابي في السلوك، فإذا تحقق الهدف، فإن الحرمان يتحول إلى عطاء وجزاء وترغيب وتحفيز في تحيل الثواب.

ثانيًا: التوجيه غير المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية: التوجيه غير المباشر، وهذا الأسلوب من الأساليب المهمة في حياتنا، وذلك لأن الحياة لا تخلوا من المواقف والأحداث التي قد يحتاج المربي فيها إلى التوجيه غير المباشر لمناسبته، والرسول ﷺ في هذا الباب استخدم هذا الأسلوب التربوي ليدلل على أهميته في حقل التربية، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ».

إن النبي ﷺ استخدم هذا الحدث في بيان التوجيهات التربوية التي تعالج مواطن الخلل السلوكي في مثل هذه الأمور التي قد لا ينتبه إليها أو إلى أحدها كثير من الناس، مثل: النميمة التي استشرت في كثير من الأوساط الاجتماعية، أو عدم التنزه

عن البول، ومن ثم فقد أراد النبي ﷺ ألا يفوت هذا الحدث - مرور بقبرين - فقال: إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، ثم بيّن ﷺ أسباب ذلك العذاب وفي هذا توجيه غير مباشر، وهو توجيه قوي يأخذ بتلابيب النفس لأبعادها عن هذا السلوك المشين غير المحمود العاقبة، والذي يؤدي إلى نوع من الفزع النفسي أن يواجه الإنسان هذه النهاية الأليمة في الحياة البرزخية، ومن ثم فإن المسلم يربأ بنفسه أن يأتي مثل هذه السلوكيات الخاطئة، وبالتالي يراجع نفسه ويصحح سلوكه، ويسعى إلى التحلي بالأخلاق الحميدة والأنماط السلوكية الإيجابية.

ثالثا: التربية بالتشويق:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتشويق لما فيها من نزوع النفس إليه وشوقه إليه، والرسول ﷺ أراد التشويق إلى معرفة الآثار السيئة لتلك القيمة السلبية المتمثلة في النميمة، فقال في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضة...» فهذا نموذج تربوي استعمل فيه النبي ﷺ أسلوب التشويق باعتباره أسلوب من أساليب التربية النبوية لما فيه من جذب الانتباه إلى ما سيخبر به النبي ﷺ أصحابه، فالرسول ﷺ أخبر أصحابه عن النميمة، وأراد بذلك تشويقهم إلى معرفتها لأنه أراد أن يثير في نفوسهم أخبارها ومعرفتها مما سيكون له الأثر في عدم القيام بها لما فيها من ضرر شديد، وأراد النبي ﷺ أيضًا بيان أنه يجوز تبين أمر الفاحش والنمام ليحذره الناس، والرسول ﷺ أراد أن يبين أيضًا أن من ضروب الكذب التي تدل على أن صاحبها ذو نفسية مريضة لا هم له إلا رؤية الناس متعادين متخاصمين، وأن أكبر سلاح يحارب به النمام هو عدم الاستماع له، وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[1]. فالمشاء هو الذي تربى على المشي بنقل الكلام بين الناس، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ في حديثه "بالعِضَةُ" والرسول ﷺ: قال في حديث آخر بين فيه أنه أن صاحب النميمة لا يدخل الجنة، حيث قال: «لا يدخل

(١) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

الجنة نمام»، فهذا منهج نبوي نتعلم منه أيضًا أن الله قد أعد العذاب الشديد الذي يناله صاحب هذه العادة المتمثل في دخول النار، والذي تربى على هذا الخلق الذميم فإنه يصحبه "النفاق، والخداع، والكذب"، ومن هنا حذرت التربية الإسلامية النبوية من النميمة(١).

رابعًا- التربية بإثارة الاهتمام بخطر ما يستصغر:

من أهداف التربية الإسلامية إثارة الاهتمام بخطر ما يستصغر من الذنوب، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب تحريم النميمة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ...»»، فهذا التوجيه النبوي التربوي يكشف لنا عن سلوكيات خطيرة يحتقرها بعض الناس ولا يلقى لها هما أو بالاً وفي نفس الوقت سببٌ في هلاكه، لأنه استصغر المعاصي والذنوب، والرسول ﷺ أثار الاهتمام بخطر ما يستصغر من الذنوب ولو أخذ الناس بهذا الاهتمام لجنب الأمة كثيرًا من الألم والمآسي، وأيضًا هذا التوجيه تنبه له الصحابة فكان له أثر كبير في اجتناب كثير من الصحابة الكرام، هذه الفتن التي تبدأ في دول الأمم صغيرة ثم بعد ذلك تصير كبيرة، من أجل هذا اهتم الله بالتنبيه إلى عظم الصغائر فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٢). فهذا توجيه من الله بعدم استصغار الذنوب واعتبارها هينة وصغيرة واللامبالاة بشأنها، فحرى بالمرء أن لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه(٣).



---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٢١، وروح الدين الإسلامي. عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٢٣٣.

(٢) سورة النور، الآية: ١٥.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٦.

٢٥٨- باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس

إلى ولاة الأمور إذا لَمْ تَدْعُ إلَيْهِ حاجة كخوف مفسدة ونحوه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢]. وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبله.

الحديث رقم (١٥٤١)

١٥٤١- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إلَيْكُمْ وأنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**)). رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

يحرص الإسلام على نقاء الصدور وسلامة النية، وطهر الباطن، ونبل الغاية، وحسن التوكل على الله، وكثير من آيات القرآن، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، دعت إلى سلامة الصدر أو ما يؤدي إلى سلامة الصدر وهذا الحديث صورة عملية من صور تنقية الصدور، ومنع غائلتها وكف أسبابها فصدَّر الحديث بالنهي العام في قوله (لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً) وهو نهي عن التبليغ أي التوصيل، والإخبار، والإعلام، والتعميم يفهم من النكرة (أحد) التي وقعت في سياق النفي، كما أن تنكير (شيئا) يفيد التقليل فيعم إخباره بالصغيرة أو بالكبيرة، ثم علل لهذا النهي بما يحقق الإقناع

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠) واللفظ له، والترمذي (٣٨٩٦). قال الترمذي: هذا حديثٌ غريب من هذا الوجه، وقد زيد في هذا الإسناد رجلٌ. ثمّ ساقه بالزيادة برقم (٣٨٩٧).

قلتُ: هذا الراوي الذي زيد في الإسناد الثاني، هو السّدي، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، والحديث بإسناديه ضعيف، فيه: زيد بن زائد أو: زائدة تفرد بالرواية عنه الوليد بن أبي هشام.

العقلي ببيان العلة بعد الإقناع القلبي بالإيمان بالله وطاعة رسوله ﷺ في قوله (فإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إِلَيْكُمْ وأنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ) وسلامة الصدر كناية عن خلو القلب مما يبغضه، والتعبير بالكناية يصور هذا الخبر المنقول بالسوء عن أصحابه كالمرض الذي يصيب الصدر، ويحدث له به الألم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أسالب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه.

ثالثًا: من صفات الداعية: سلامة الصدر.

رابعًا: من أهداف الدعوة: النهي عن كل ما يؤدي إلى الضغائن.

أولاً- من أسالب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا..." وهو نفي بمعنى النهي، أي لا يوصلني[1]. حيث نهى رسول الله ﷺ أصحابه عن تبليغه عن أحد شيئًا مما يكرهه أو يعود إليه بضرر[2].

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عما يخالف الدين أو الأخلاق أو عن الأشياء التي فيها ضرر.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر".

قال ابن عثيمين: (وهذا من حكمة الرسول ﷺ، أنه لا أحد ينقل إليه كلام

---

(١) تحفة الأحوذي ٢/٢٦٤٧.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٥٩٤.

الناس، لكي لا يقع في قلبه شيء على هذا المتكلم، فيحب أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر، ولهذا كثيرًا ما يكون الإنسان محبًا لشخص يقدره ويرى أنه رجل كريم ورجل سليم، ثم إذا نقل إليه شيء عن هذا الرجل كرهه ونفر منه وصار يبغضه)[١]. من أجل ذلك حث رسول الله ﷺ أصحابَه على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه مما يكره.

ثالثًا- من صفات الداعية: سلامةُ الصدر:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث نهى رسول الله ﷺ أصحابَه عن تبليغه شيئًا عن أحد، وذلك من أجل سلامة صدره.

وكان من دعائه ﷺ: ((وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي))[٢] أي: غشه وغله وحقده[٣].

وهذه منقبة وخلة عظيمة الشأن، قليل هم الذين يتحلون بها؛ لأنه عسير على النفس أن تتجرد من حظوظها، وتتنازل عن حقوقها لغيرها، هذا مع ما يقع من كثير من الناس من التعدي والظلم، فإذا قابل الناس وجهلهم وتعديهم بسلامة صدر، ولم يقابل إساءتهم بإساءة، ولم يحقد عليهم، نال مرتبة عالية من الأخلاق الرفيعة والسجايا النبيلة[٤]. فينبغي على الداعية أن يتحلى بسلامة الصدر.

لأن الداعية الحق شخصية متميزة، فهو كالمنارة الهادية من بُعْدٍ لمن ضل أو حار، وهو كالظل الوارف لمن لفحه حر الشمس والمسير في الهجير، وبالتالي فهو نقطة تجمُّع بالنسبة للمدعوين، ولذا فإنه يحتاج إلى أن يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق[٥].

ولا مناص للداعية من مخالطة الناس، ولا مندوحة حينئذ من احتمال خطئهم،

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٦١٦/٢.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٦).

(٣) تحفة الأحوذي ٢٥٠٤/٢.

(٤) كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ص ٢٣٣.

(٥) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ١٠٠.

والصبر على أذاهم ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[(١)].

وليس الاحتمال النفسي أدنى من الاحتمال البدني بل هو في الحقيقة أعظم وأثره أكبر، (وهو الصبر على مشتهيات النفس فإن كان صبرًا عن شهوة البطن سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ سمي حلمًا، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش سمي زهدًا، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة[(٢)]، وكل ذلك مما تدعو طبيعة الدعوة أن يتحلى به الداعية.

والناس مشاربهم شتى، وسلوكياتهم متباينة، واحتياجاتهم كثيرة، واستفزازاتهم مثيرة، وهذا لابد أن يقابله الداعية بالاحتمال، لأن الاحتمال -كما قيل- قبر المعايب، وقد يكون الداعية لديه القدر الكافي من العلم، وعنده الموهبة الجيدة في التخطيط، ولكنه لا يملك القلب الرحيب الذي يشد إليه الأتباع، ولا النفس الصافية التي تقرب إليها الأرواح فينفض عنه الناس)[(٣)]. لذا تتضح أهمية تحلي الداعية بصفة سلامة الصدر وسعته.

رابعًا- من أهداف الدعوة: النهي عن كل ما يؤدي إلى الضغائن:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث نهى رسول الله ﷺ عن تبليغه عن أحد ما يجعله يكرهه أو يتضايق منه.

ويكون المخبِر سببًا في هذه الكراهية وهذا الضيق وإثارة الأحقاد والضغائن، ومن أهداف الدعوة أن تكون الشخصية الإسلامية فاتحة للخير مغلاقة للشر، فيجب أن يفيض من تلك الشخصية الإسلامية الخير تجاه العمل الإسلامي، فتبدأ بالحركة والدعوة وفتح أبواب الخير للناس، وغلق أبواب الشر، فإن الإسلام لا يقتصر على أن يجعل الإنسان صالحًا راشدًا في ذات نفسه، بل يجعله فوق ذلك مفتاحًا للخير مغلاقًا

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ١٠١، ١٠٢.

للشر[١]. كما ورد في الحديث النبوي: ((إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ. وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ. فَطُوبى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ. وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ))[٢].

فينبغي على المدعو أن يحرص على عدم النميمة والوقيعة بين الناس أو تبليغ ما يكون سببًا في العداوة حتى يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر.

فالنميمة وهي ذلك الكلام الذي من شأنه أن يثير الفتنة بين الناس، ويجعل نار العداوة قائمة بينهم، مما يجعل قلوبهم تملئ غضبًا وسخطًا تجاه بعضهم البعض، فهي من الأمراض الخطيرة والمستقبحة في هذه الحياة، وهي منتشرة بين الناس وشررها قد أصاب الجميع. فنرى مثلاً رجلاً ينقل كلمة قالها مرؤوس، فيبلغها إلى رئيسه مما يحصل بذلك ضرر على المرؤوس من فصلٍ عن عمله وما إلى ذلك، أو كلمة تتسبب في انفصال الزوجين، أو التفريق بين الأقارب وهكذا. وهذه العادة تأباها النفس الكريمة، وتخلو منها الشخصية الإسلامية، لأنها من أسوأ الخلال الذميمة، تدل على أن صاحبها يحمل نفسًا سقيمة وذو طبيعة لئيمة، يهوى إفشاء الأسرار والضرر بالآخرين، لأنه ربما أدت تلك النميمة التي مشى بها إلى سفك الدماء، وهي بسبب ذلك محرمة[٣].

---

(١) انظر: الأهداف الرئيسة للدعاة إلى الله، إصدار لجنة البحوث في مكتبة دار الدعوة، الكويت، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤)..

(٣) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله التركي، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في باب النهي عن نقل الحديث قوله ﷺ: «لا يُبْلِغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فإِنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ». نهى النبي ﷺ أصحابه أن يقوم أحدهم بإبلاغ النبي ﷺ شيئًا عن أحد أصحابه لأنه لا يريد أن يتأثر بأي شيء مما يبلغه ليؤكد على أهمية الحفاظ على الصفاء والمودة من كل ما يكدرها بسبب نقل الكلام..، لذا ينبغي للمسلم العلم بأن السلامة لا يعدلها شيء. وعلى هذا فإذا استوت المصلحة وعدمها، في أي كلام، كان تركه أفضل، وهذا مظهر من مظاهر المسؤولية الشخصية في الإسلام فينبغي على المسلم أن لا ينطق إلا بالخير والإصلاح[١].

قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٢].

"وينبغي عند إجراء عملية التوجيه المباشر في التربية مراعاة التدرج في النصح والإرشاد ثم إشعار محل التوجيه بالاهتمام، ثم مراعاة أن تكون النفس هادئة، أثناء هذا التوجيه"[٣].

ثانيًا: من أهداف التربية الإسلامية: الحفاظ على سلامة الصدور:

من أهداف التربية الإسلامية: الحفاظ على سلامة الصدور من الكره والضغائن التي يمكن أن تكمن فيها بسبب ما يصلها من أخبار ومعلومات تفكر صفوها وتفسد ودها نحو الآخرين، بسبب نقل الكلام، لأن الإنسان يتأثر بما يسمع، خاصة إذا كان ذلك متعلقًا به وبرأي الآخرين فيه، ولا شك أن الهوى والحقد والحسد له دور كبير في مثل هذه الأمور، وكم من الود والحب قد فسد بسبب نقل الكلام، وليس ذلك فحسب

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف العبد، ص٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري، ٦١٣٦، ص١٠٦٩، ومسلم، ٤٨، ص٥١.

(٣) أصول التربية، د. أمين أبولاوي، ص١٥٤، أصول التربية الإسلامية ،د. محمد شحات، ص٨٣.

فكم من عداوات نشأت بسبب هذا الأمر، ولذا فإن النبي ﷺ أراد أن يربي أصحابه رضي الله عنهم على الالتزام بهذا الأدب الإسلامي الجم الذي يصون العلاقات من الانهيار، والذي يحفظ وينمي روح المودة والمحبة بين المسلمين، وقد جعل النبي ﷺ من نفسه نموذجًا لمن يتأثر بمثل هذا الأمر من نقل الكلام، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو القدوة -إلا أنه بشر- يتأثر، فإن غيره من عامة المسلمين يتأثرون بشدة من هذا الفعل، ولذا عمل النبي ﷺ على وقاية المجتمع والأمة الإسلامية من الآثار الخطيرة لتلك الآفات الاجتماعية القاتلة التي تفسد الود وتقطع العلاقات بين الناس.

ولذا نهى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، عن الوقوع في هذا الفعل من نقل الكلام، وأراد أن يربيهم على حفظ الأسرار كأسلوب في التنشئة لأنه يمثل صلاح الفرد المسلم في حالة ومستقبله وسلامة الأسرة وانطلاقها - لأن المسلم الذي يتعلم ويتعود كتم الأسرار ينشأ قوى الإرادة حيال اللسان فتنشأ عن ذلك الثقة الاجتماعية بين الناس بحفظ الأسرار، ولذلك ربى النبي ﷺ صحابته على ذلك فهذا هو عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما يضرب لنا المثل في كتم الأسرار - قال: «أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ، هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ»[1]. وكان من خير الصحابة أيضًا أنس خادم النبي ﷺ، فقد تأخر أنس في يوم على أمه فقالت ما أبطأك قلت بعثني رسول الله ﷺ في حاجة، قالت: ما هي؟ قلت إنها بسرّ، فقالت المؤمنة الواعية الزكية وهي بذلك تعطي درسًا للأمهات في تعليم الطفل حفظ الأسرار، قالت له: لا تخبرن سر رسول الله ﷺ أحدًا فهذه تربية اجتماعية من أنس وأمه للأمة الإسلامية لكي تربي على حفظ الأسرار وكتمها[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٤٢٩، ص١٠٦٩.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص٢٦٨، أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٦١، التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ٧٩.

٢٥٩- باب ذمِّ ذي الوَجْهَيْن

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ القَولِ وكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحيطًا﴾[النساء: ١٠٨].

الحديث رقم (١٥٤٢)

١٥٤٢- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعادِنَ: خِيَارُهُم في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلاَمِ إذَا فَقُهُوا، وتَجِدُونَ خِيَارَ النَّاسِ في هَذَا الشَّأنِ أَشَدَّهُمْ كَرَاهِيَةً لَهُ، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَينِ، الَّذِي يَأتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ**)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

معادنَ: أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيسًا وتارة يكون خسيسًا، وكذلك الناس[2].

فقُهوا: فهموا وعلموا [3].

الشرح الأدبي

تشبيه الرسول ﷺ لاختلاف طباع الناس بمعادن الأرض له عدة دلالات:

١- اختلاف طباع الناس، وصفاتهم الخُلقية، والنفسية يفهم هذا من تفاوت المعادن.

٢- الإشارة إلى تفاوت الناس في تقبلهم للإصلاح، فمنهم السهل، ومنهم من يحتاج إلى صبر، ومنهم من لا يقبل كما هو حال معادن الأرض (المشبه به) فمنها ما يسهل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٣، ٣٤٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٦/١٩٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٤٧).

(٢) فتح الباري ٦١٢/٦.

(٣) النهاية في (ف ق هـ).

استخراجه ومنها ما يصعب استخراجه، ومنها ما يسهل تشكيله، ومنها ما يصعب تشكيله.

٣ – الإشارة إلى تفاوت الناس في كرم الأصل، وخسته يفهم ذلك من تفاوت المعادن في نفاستها فمنها الغالي كالذهب، والفضة، ومنها الرخيص كالحديد، والقصدير[١].

الإشارة إلى تفاوت الناس في قوة التحمل، والصبر على الأذى يفهم ذلك من تفاوت المعادن في صلابتها فالحديد يخالف النحاس كما يخالف الرصاص.

٤ - الإشارة إلى أن معرفة أصول الناس تحتاج إلى بحث في أحوالهم، وتدقيق في منابتهم حتى لا ينخدع الإنسان بالظاهر ويحكم خلاله على صفات الشخص، لأن كريم الخلال قد يعتريه في الظاهر ما يخفي كرم أصله من فقر أو خمول ذكر في الناس أو غيره كما يمكن لخسيس الأصل أن يعتريه في الظاهر ما يوهم بكرم الأصل وهو على غير ذلك يفهم ذلك من حال المعادن في الأرض التي لا يعرف خصائصها إلا بعد استخراجها من باطنها والكشف عنها قال بن حجر: وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية وأما قوله إذا فقهوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين)[٢]، وقوله (تجدون خير الناس في هذا الشأن) كناية عن الخلافة أو الإمارة، وقوله (أشدهم) أفعل تفضيل أي فاق الجميع كراهية لهذا الشأن ؛ وقد صار خير جميع الناس بكراهته لذلك مع مساواته لهم في سائر الفضائل أو يراد من الناس الخلفاء أو الأمراء أو معناه من خيرهم، وقوله (وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا

---

(١) ينظر أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه النبوي د. ناصر راضي الزهري إبراهيم، بحث منشور في كلية الآداب جامعة سوهاج، العدد السادس والعشرين لسنة ٢٠٠٦م .

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦/٥٢٩.

الوَجْهَينِ، الَّذِي يَأتِي هؤُلاءِ بِوَجْهِ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهِ) هو المنافق وهو الذي يمشي بين الطائفتين بوجهين يأتي لإحداهما بوجه ويأتي للأخرى بخلاف ذلك وفيه إشارة بلاغية إلى قوله الله تعالى (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء (النساء ١٤٣) قال المفسرون مذبذبين يعني المنافقين متحيرين بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا ولاهم مع الكفار ظاهرا وباطنا بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى هؤلاء[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بمعادن الناس وخيرها.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التفقه في دين الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في المناصب وأمور الدنيا.

رابعًا: من آداب الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتحذيرهم من النميمة والإفساد بين الناس.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بمعادن الناس وخيرها:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام...".

قال ابن حجر: (قوله "تجدون الناس معادن" أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيسًا وتارة يكون خسيسًا، وكذلك الناس.

وقوله "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام" وجه التشبيه صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفًا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية،

(١) ينظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، حديث: (٣٩٤٣).

والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفًا بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها. متوقيًا لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها)[١].

قال النووي: (والمعادن: الأصول وإذا كانت الأصول شريفة كانت الفروع كذلك غالبًا والفضيلة في الإسلام التقوى ولكن إذا انضم إليها شرف النسب ازدادت فضلاً)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التفقه في دين الله:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا...".

قال ابن حجر: (وأما قوله إذا فقهوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، وعلى هذا فتنقسم الناس أربعة أقسام مع ما يقابلها: الأول شريف في الجاهلية أسلم وتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه. الثاني: شريف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية لم يسلم وتفقه، الثالث: شريف في الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية أسلم ثم تفقه. الرابع: شريف في الجاهلية لم يسلم وتفقه ويقابله مشروف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه فأرفع الأقسام من شرف في الجاهلية ثم أسلم وتفقه، ويليه من كان مشروفًا ثم أسلم وتفقه، ويليه من كان شريفًا في الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه، ويليه من كان مشروفًا ثم أسلم ولم يتفقه وأما من لم يسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفًا أو مشروفًا سواء تفقه أو لم يتفقه)[٣].

فالتفقه في الدين له أهمية كبرى وفضل عظيم في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ))[٤] قال النووي: (فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى)[٥].

---

(١) فتح الباري ٦/٦١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٥٢٠.

(٣) فتح الباري ٦/٦١٣.

(٤) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٥) شرح مسلم، للنووي، ص ٦٥٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في المناصب وأمور الدنيا:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له".

قال القرطبي: (وقوله ﷺ: "وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له" هكذا الرواية: "من خير الناس" وهي لبيان جنس الخيرية؛ كأنه قال: تجدون أكره الناس في هذا الأمر من خيارهم... ويعني بالأمر: الولايات، وإنما يكون من يكرهها من خير الناس، إذا كانت كراهتُه لها لعلة تعظيم حقوقها، وصعوبة العدل فيها، ولخوفه من مطالبة الله تعالى بالقيام بذلك كله، ولذلك قال فيها: ((نعمت المرضعة وبئست الفاطمة))[(١)]، وكفى بذلك قوله ﷺ: ((مَا مِنْ أَمِيْرِ عشرةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يومَ القيامةِ مَغْلُولاً، لا يَفُكُّه إلا العَدْلُ، أو يوبقه الجَوْرُ))[(٢)])[(٣)].

وقال ابن حجر: (قوله "ويجدون خير الناس في هذا الشأن" أي: الولاية والإمرة، وقوله "أشدهم له كراهية" أي أن الدخول في عهدة الإمرة مكروهة من جهة تحمل المشقة فيه، وإنما تشتد الكراهة له ممن يتصف بالعقل والدين، لما فيه من صعوبةالعمل بالعدل وحمل الناس على رفع الظلم، ولما يترتب عليه من مطالبة الله تعالى للقائم به من حقوقه وحقوق عباده، ولا يخفى خيرية من خاف مقام ربه)[(٤)].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الولاية، فعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((يا عبد الرحمن، لا تَسألِ الإمارة؛ فإنكَ إن أُعطيتَها عن مسألة وكِلتَ إليها، وإن أعطيتَها عن غير مسألة أُعِنتَ عليها))[(٥)] فهذا الحديث يشير إلى وجوب التباعد عن طلب الرياسات ولو كان الطالب قادرًا على تحمل أعبائها، لأنها لا تخلو من عناء ومشقات[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٤٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤٣١/٢ رقم ٩٥٧٣، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٥٢/١٥.

(٣) المفهم ٤٧٨/٦.

(٤) فتح الباري ٦١٣/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٤٦، ومسلم ١٦٥٢.

(٦) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٩٩.

رابعًا- من آداب الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتحذيرهم من النميمة والإفساد بين الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه".

قال ابن عثيمين: (وذا الوجهين هو الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، كما يفعل المنافقون ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1] وهذا يوجد في كثير من الناس والعياذ بالله، وهو شعبة من النفاق، وتجده يأتي إليك يتملق ويثني عليك وربما يغلو في ذلك الثناء، ولكنه إذا كان من أولئك عقرك وذمك وشتمك، وذكر فيك ما ليس فيك فهذا والعياذ بالله كما قال النبي ﷺ "تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس[2]، فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين حقيقة النميمة وخطورتها على المجتمع لما فيها من إفساد بين الناس.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يستنبط هذا من عموم الحديث؛ حيث رغّب ﷺ في التفقه في الدين، وبين أنه سبب في التفاضل بين الناس، فقال "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا" ورغب في الزهد في المناصب وأمور الدنيا فقال: "وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له".

ورهّب من النميمة والإفساد بين الناس فقال: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

ويقصد بالترغيب: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه. ويقصد بالترهيب: كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة به أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦١٧/٢.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٤٣)

١٥٤٣- وعن محمد بن زيدٍ: أنَّ ناسًا قالوا لِجَدِّهِ عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما: إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا[1] فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سلاطيننا: جمع سلطان. ملوكنا وحُكّامنا[3].

الشرح الأدبي

الحديث يقوم على الحوار بين عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبين بعض الناس يقرر خطر الكذب، وأنه مخالفة الظاهر للباطن وهو شعبة من النفاق الذي والذي جاء فيه الوعيد الشديد ثم إنه يوم القيامة يستلزم العذاب الأليم وقوله (إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا) يشير ضمير الجماعة الذي تصدر الحديث إلى أنه فعل أكثر من واحد لأنهم أطراف الحديث الذي تحدثوا فيه بخلاف ما حدثوا السلاطين، والتعبير بالسلاطين يشير إلى أنه كان بعد الخلافة الراشدة، وقولهم (فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ) بيان لموضع الخطأ، والذي جسده الجار، والمجرور (بخلاف) الذي يصور التناقض النفسي بين ما يظهر، وما يبطن، وهو ما ينطوي على لون من الخداع، وعدم المناصحة لله تعالى، ولذلك جاء رد ابن عمر رضي الله عنهما (كنا نعد) بصيغة الجمع التي تؤكد الخبر وتوثقه لأنه فعل جماعة، وتنكير (نفاقا) للتحقير، و(عهد رسول الله ﷺ) يشير إلى الجيل المعلم لكل الأجيال، وهو جيل الصحابة.

---

(١) لفظ البخاري: (سلطاننا).

(٢) برقم (٧١٧٨).

(٣) الوسيط في (س ل ط ن).

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الصدق في كافة الأحوال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة النفاق.

أولاً- من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل:

يظهر ذلك في قول محمد بن زيد: أن ناسًا قالوا لجده عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ماتتكلم إذا خرجنا من عندهم".

وسؤال المدعو لأهل العلم والفضل حتى يعلم ويتثبت عن حكم فعله لكي يستفيد من علم أهل العلم والفضل.

وقد أمر الله تعالى بالرجوع إلى أهل العلم عند عدم العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وعن ابن مليكة: أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ))[2] فعلى المدعو الرجوع إلى أهل العلم والفضل في السؤال عما يجهل أو أشكل عليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الصدق في كافة الأحوال:

يستنبط ذلك من قول ابن عمر رضي الله عنهما "كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فإن الاستمساك بالصدق في كل شأن وتحريه في كل قضية، والمصير إليه في كل حكم، دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. وكذلك فإن بناء المجتمع كان قائمًا على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات واطراح الريب، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ٢٨٧٦.

(٣) انظر: خلق المسلم، الغزالي، ص ٣٥.

قال رسول الله ﷺ: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ))[١].

والصدق يصل بالإنسان إلى أعلى الدرجات ولذلك يقول ﷺ: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا))[٢].

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، قال الحارث المحاسبي: (واعلم أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا والأنس. وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف. والمحبة والإجلال، والحياء، والتعظيم... فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقًا، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة النفاق:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ" لمن سأله عن الكلام عند السلاطين بخلاف الكلام بعد الخروج من عندهم.

وذلك لأن من الناس من يظهر لجليسه الموافقة والمودة ويلقاه بالبشر والترحاب، فإذا ما توارى عنه سلقه بلسان حاد، وشتمه وأقذع في سبه وهذه الصفة من أحطّ الصفات وأخسها، وصاحبها من شر الناس، وأوضعهم[٤].

قال النبي ﷺ ((تجدونَ شرَّ الناسِ يومَ القيامةِ ذا الوَجهينِ، الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ))[٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويُطريه في المدحة

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٣) رسالة المسترشدين ص ١٧٠ نقلًا عن هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٤٣٥.

(٤) انظر: سوء الخلق، الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٢٤.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٩٣، ومسلم ٢٥٢٦.

فقال: ((لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ، ظَهْرَ الرَّجُلِ))[1].

فإذا كان المدح للتملق وإسناد الأعمال إلى غير أربابها فإنه مجلبة الطغيان وباعث النفاق والذلة، ومحي المهانة والحقارة، وموجب المقت والسحت والكذب؛ لأن المادح يضطر إلى الإفراط، وقوله غير الحق، وإلى إظهار ما لا يضمر للممدوح واعتقاده أنه كما يقول مادحه، وقد يكون فاسقًا أو ظالمًا وهذا غير جائز[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٦٠، ومسلم ٣٠٠١.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٥٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على التعلم والتفقه في الدين:

من أهداف التربية الإسلامية التربية على التعلم والتفقه في الدين، لأنه مما ينبغي أن يتربى عليه الشاب المسلم الاهتمام بالتعلم ومعرفة الفقه والرسول ﷺ أراد في هذا الباب إبراز فعل التفقه في الدين وأهميته، ففي حديث الباب قال ﷺ: «تَجِدونَ الناسَ مَعادِنَ: خِيارُهم في الجاهليةِ خِيارُهم في الإِسلامِ إِذا فَقِهوا»، فهذه تربية صريحة من النبي ﷺ بتعلم الأحكام للرعية، وإن أعلى مرتبة من مراتب الشرف بين الناس مرتبة من شرف بالتفقه في الدين كما أن النبي ﷺ، يربي في نفوس الصحابة معرفة المسائل الفقهية وأدلتها، ولذلك ربى عمر بن الخطاب على ذلك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»، فهذه دعوة أيضًا إلى الفقه والنبي ﷺ عندما دعا إلى العلم والفقه في هذا الحديث لم يقيده بسن؛ كبار أو صغار بل أطلق العلم، ولذلك تعلم الصحابة وفقهوا أمور دينهم وهم كبار، وكذلك ربي الإمام أحمد بن حنبل طلابه على حب العلم وقال لهم: "حاجة الناس إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب فالطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس"، لذلك ينبغي على المربي أن يرغب في طلب العلم والفقه الشرعي، كما يرغب في اهميته كما يعلي من الهمم في طلب العلم، كما فعل النبي ﷺ وقال «إذا فقهوا»، لذلك يعد طلب الفقه من أفضل الأعمال بل هو في الجهاد في سبيل الله، ويكفي شرفًا كل من سلك مسلك الفقه والعلم أنه إرث الأنبياء، وليس هناك إرث أفضل منه.

ومن باب التربية على فضل العلم والتفقه في الدين لا بد أن يعلم المسلم أن من تربى على حب العلم فهو من القائمين على أمر الله، حتى تقوم الساعة، ومن في ذلك مساوية وهو يقول: من يرد به خيرًا يفقه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولا تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله[1].

---

(١) أخرجه البخاري، ١٥.

فهذه تربية صريحة على أن أهل العلم قائمون على أمر الله، وليعلم الذي سلك ذلك ويرى نفسه على العلم والتفقه في الدين أنه طريقه إلى الجنة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»[١]، وليعلم الذي طلب التفقه في الدين أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة والدنيا، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٢].

ولكن أنْوِه إلى كل المربين والمرتبين على الفقه في الدين أن هناك أخطاء قد تحدث أثناء فترة التعلم والتفقه، وهي الحسد بين المتربين قد يقع لأنه ما من فقه إلا وقد وقع بين تلاميذه حسد لبعضهم البعض لأن الحسد في صفات اليهود قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣]. ومن عواقب الحسد الإفتاء بغير علم لأنه يريد أن ينتصر، والكبر، والتعصب لمذهب معين، وسوء الظن فيبتغي على أى طالب علم أن يعرف موضوعه ويعرف مصطلحاته، وأسلوبه وأن يحرص على الكتب المهمة، ويعرف الأدلة، وذلك لكي لا يقع في حرج مع نفسه أو الناس، ولنا وقفة تربوية هامة وهي أن من تربى على الفقه بطريقة صحيحة فإنه يكون نافعًا في مجتمعة مع الناس غير مثقل عليهم[٤].

ثانيًا: التربية بالوصف أو بالتقييم الذاتي:

إن مما تميزت به التربية الإسلامية التربية بالوصف ذو التقييم الذاتي، وهي أن تكسب الإنسان علمًا تفصيليًا بصفات الخير والشر والمعاني السامية والأعمال التي ترضى الله والأعمال التي لا ترضي الله، من هنا يحدث عنده ميزان حاضر يزن به نفسه

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٦٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٤) التربية على منهج أهل السنة، أحمد فريد، ١٠٤. التربية الإسلامية، إبراهيم الشافعي، ص٣٧، كتاب العلم، العثيمين، ص١٩، ٢٠.

ليحصل لديه تقويم ذاتي صحيح للوضع الذي هو فيه وهذه وسيلة تربوية من وسائل الرسول ﷺ التي لها علاقة بالمراقبة والمحاسبة: وظهرت هذه الوسيلة في أحاديث الباب التي تدل على ذم ذي الوجهين وعدم التشبه به: فقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ ...، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهؤُلاءِ بِوَجْهٍ». وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم ...»، فهذه نماذج تربوية أراد النبي ﷺ بيان ذم ذي الوجهين (المنافق) لأن النفاق مرض خبيث خطير، إذا ألم بأحد أفسد عليه آخرته وأحبط عمله لأنه صفة أخلاقية تتجمع حولها النفوس الضعيفة والعقول الشاذة من الناس، ولذلك حذر منه النبي ﷺ، لأنه أيضًا خطر اجتماعي كبير لأنه العدو الحقيقي الكامن داخل المعسكر المختبئ في الصف بل هو أخطر من العدو الخارجي الصريح، وتطرد لخطورة هذا المرض وحرصًا على نقاء قلوب المؤمنين وطهارة منه وضع الرسول ﷺ مواصفات للمنافقين أو لمن فيه خصلة من النفاق حتى يكون ميزانًا حاضرًا لكل من خشي على نفسه من هذا المرض الخطير، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»[1]. ولذلك استخف المنافق أن يكون من شرار الناس كما قال ﷺ في أحاديث الباب «إن شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[2].

من خلال هذه النماذج التربوية رأينا التركيز على الصفات التي اتصف بها الأشرار في أخلاقهم، وأشد ما حذر منه النبي ﷺ النفاق للرؤساء والأمراء وولاة الأمر، فإن الدنو منهم ومخالطتهم في شيء ينبغي أن يكون بحساب، وذلك لكي لا تتحدى وتفتن بالنفاق، ولقد ضرب لنا سفيان الثوري أروع الأمثلة التربوية في عدم الدنو من الأمراء والانغماس في كرمهم قال ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم، فيميل قلبي إليهم، من هنا اهتمت التربية الإسلامية على أن يكون سلوك الإنسان الظاهر المعير

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٧٨/١.

(٢) أخرجه البخاري، ٨٩١٩.

كالباطن المخفي لأن السلوك قد يتعرض لدوافع النفاق فالمسلم مطالب بأن يربي نفسه على تزكية النفس وتهذيبها وتطهيرها من نزعات الشر والإثم وإزالة حظ الشيطان منها وتنمية فطرة الخير فيها[1].



(١) أساليب الدعوة والتربية، العاني، ص٤٣٤، والوجيزة في أخلاق الإسلام، عبدالرحمن الميداني، ص٤٣.

٢٦٠- باب تحريم الكذب

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٤٤)

١٥٤٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: **((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا[١]. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ[٢] كَذَّابًا))** متفقٌ عَلَيْهِ[٣].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

البِرُّ: الخير[٤].

الفُجُور: الانبعاثُ في المعاصي والحرام[٥].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ في هذا الحديث يثمن غالياً قيمة الصدق ويبين أثره في هداية العبد الصادق إلى الجنة، ويحذر من الكذب ويبين سوء عاقبة الكذاب قصداً إلى تقويمه، ولتحقيق هذه المعاني وتقريرها في أذهان المخاطبين استخدم عدة أساليب بلاغية تتسم بالإقناع العقلي والإمتاع النفسي منها:

---

(١) لفظ البخاري: (حتى يكون صديقًا).

(٢) قوله: (عند الله) لا يوجدُ عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٣)، وتقدم برقم (٥٤).

(٤) النهاية في (ب ر ر).

(٥) النهاية في فجر.

البداية بأسلوب الإغراء في قوله (عليكم بالصدق ..) فقوله (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى (الزموا) ترغيباً في التخلق بهذا الخلق الحسن الذي هو من أخلاق المؤمنين والبد بأسلوب الإغراء يجذب المخاطب ويملك عليه حواسه تشوقاً لما وراءه، وتطلعاً إلى سببه وانشغالاً بمضمون الجملة بعده، وهذا من شأنه أن يوفر للخبر درجة من الانتباه والاهتمام لمتابعة الخبر مما يمهد لتقريره في أنفس المخاطبين، أضف إلى ذلك تعليله ﷺ لسبب الإغراء وكشفه عن سره مما يزيد المخاطب استشرافاً وتعلقاً بالمخاطب حتى يتم حديثه، ثم أسلوب التوكيد في قوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة) المرتبط بما قبله بفاء التعليل خطاباً للعقول مع العلم بأن المقام لخالي الذهن وأن الصحابة لم يبد منهم إنكار أو شك أو حتى تردد في صدق الرسول ﷺ ولكنه نزلهم منزلة المترددين الشاكين، وأكد الكلام بـ (إن) مع اسمية الجملة لما رأى من تهاون الناس بتحري الصدق والغفلة عن فضله والجهل بعظيم أثره لذلك أكد الخبر بأكثر من مؤكد عناية به واهتماماً بشأنه ورغبة في نقل هذا الاهتمام بنفس الدرجة من المتكلم إلى المخاطب، وكذا في قوله: (وإن البر يهدي إلى الجنة ..) فقد أكد الجملة بـ (إن) مع اسمية الجملة ليعلي من قيمة البر ويؤكد أنه الطريق الموصل للجنة ويشير إلى أهميته والتي تعود بدورها على أهمية الصدق لأنه المؤدي إليه، وبين قوله (الصدق، والبر، والجنة) تناسب في اللفظ لأنها ألفاظ يتصل بعضها ببعض وكل منها طريق إلى ما بعده. وبينهم تناسب في المعاني لاقتران بعضهم ببعض في الخيال، قوله: (الصدق يهدي إلى البر) والهداية هي الدلالة الموصلة إلى البغية ونسبة الهداية للصدق استعارة حيث شبه الصدق بإنسان يهدي وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الهداية على سبيل الاستعارة المكنية ونسبة الهداية للصدق استعارة تخييلية فكأن الصدق إذا امتلك القلب لا يعيش فيه وحده، وإنما يبحث له عن رفيق هو نعم الرفيق وهو البر، وقوله: (والبر يهدي إلى الجنة...) كذلك فيه استعارة مكنية، وقوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة) وصل بين الجملتين لاتفاقهما في الخبرية، واتحادهما في المسند مع اختلافهما في المعنى فبينهما ارتباط من جهة، واختلاف من جهة، ولذلك وصل بينهما، وهو ما يسمى بالتوسط بين

الكمالين، وكذلك جملة: (فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار). وقوله: (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق) عبر بفعل دال على الاستمرارية بدلالته ودال على التجدد والاستمرارية بصيغته المضارعية ما يضيفه الثاني من معنى البحث والتدقيق وصولاً إلى الصدق مما يؤكد إصرار هذا العبد وتمسكه بمبدئه في انتهاج الصدق وصبره على ما يمكن أن يلاقيه في سبيله وهذا مفهوم من لفظ (ما يزال) (ويتحرى)، وقوله: (حتى يكتب عند الله صديقاً) التعبير بالكتابة يفيد تأكيد الوجوب أي: يحكم له، والمراد: الإظهار للمخلوقين إما للملأ الأعلى، وإما أن يلقى ذلك في قلوب الناس، وألسنتهم، وإلا فحكم الله أزلي، والغرض، أنه يستحق وصف الصديقين وثوابهم.[1] وتقييد الفعل (يكتب) بالظرف (عند) وإضافته (لله) فيه تربية للمهابة وتعظيم للفعل وترغيب في الصدق وإشادة بالصادق. وقوله (وإياكم والكذب) بمعنى احذروا واجتنبوا وهو تأكيد للأمر بلزوم الصدق وقوله: (فإن الكذب يهدي إلى الفجور. ..) الفاء للتعليل لسبب التحذير من الكذب وهو كونه طريقاً موصلاً للفجور الذي هو الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشرور[2] ولعل تأكيد الجملة بأكثر من مؤكد يرجع إلى تساهل الناس في الكذب وجهلهم بخطره وما يمكن أن يبلغ بصاحبه، وقوله: (وإن الفجور يهدي إلى النار) يؤكد خطر الكذب ويبين عاقبته ترهيباً من التلبس به ويجعل الفجور قنطرة بين الكذب والنار توصل إليها، وبين قوله (الكذب والفجور والنار) تناسب في الألفاظ فكلها أسماء يؤدي بعضها إلى بعض وتقترن في الذهن، وقوله: (وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) أكد الجملة بثلاثة مؤكدات هي (إن) واسمية الجملة ولام التوكيد لتساهل الناس في أمر الكذب وأنه الطريق الموصل إلى سجل الأشقياء حيث يكتب العبد كذاباً، فنزل المخاطبين غير المنكرين منزلة المنكرين وأكد الجملة بعدة مؤكدات دفعاً لتساهل الناس ولما بدا عليهم من علامات هذا التساهل جهلاً بعاقبة الكذب

---

(١) عمدة القاري ١٥/ ٢٤١.

(٢) عمدة القاري ١٥/ ٢٤٠.

ومصير الكذاب. واستخدامه للفعل المفيد للاستمرارية (ما يزال) بصيغته ودلالته مع الفعل (يكذب) وإتباعه بفعل يدل على الاستمرارية والتجدد بصيغة (يتحرى) ويدل على البحث والتنقيب بمعناه يؤكد إصرار الكاذب واتخاذه الكذب عادة بل وبحثه عنه وكأنه صار متعته يُجِدُّ في طلبه، والأفعال المضارعة (ما يزال، يكذب، يتحرى) تصوِّر الكذاب في حركة دائمة دائبة بين الناس يخدعهم بكذبه ويشعل بينهم الفتن بأذاه.

وما أروع المقابلة في هذا الحديث بين الخلق الحسن والتدرج معه إلى حسن عاقبته وبين الخلق الذميم والتدرج معه حتى يرى المخاطب سيء عاقبته فقد قابل بين قوله: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة) وبين قوله: (وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار) فقد قابل ﷺ بين لفظ (عليكم) بمعنى التزموا إغراءً وبين لفظ (وإياكم) بمعنى اجتنبوا تحذيراً وترهيباً وبين لفظ (الصدق) وبين (الكذب) وبين لفظ (البر) ولفظ (الفجور) وبين لفظ (الجنة) ولفظ (النار)، وأيضاً قابل بين نموذجين أحدهما التزم الخلق الأول (الصدق) وتحراه والآخر التزم الخلق الثاني (الكذب) وتحراه وقابل بين عاقبتهما، وذلك في قوله: (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً) وقابله بالنموذج السيئ: (وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) وقد قابل بين لفظ (يصدق ويكذب) وبين (الصدق والكذب) وبين (صديق وكذاب) والمقابلة بين الخلق الحسن (الصدق والتزامه وعاقبته) وبين الخلق السيئ (الكذب التزامه وعاقبته) ثم المقابلة بين النموذج الحسن (الصادق المتحري للصدق وحسن عاقبته وبين النموذج السيئ (الكاذب المتحري للكذب وسوء عاقبته) يؤكد ويوضح ويشير إلى عدة دلالات: منها:

التأكيد على فضيلة الصدق وحسن عاقبته بوضعها إزاء رذيلة الكذب وعاقبتها لأن شرية الشر تؤكد وتظهر وتبني خيرية الخير بالمفهوم، فضلاً عن اقترانهما في الذهن، ومن الثابت في النفوس أن حسن الحسن يظهر قبح القبيح كما أن قبح القبيح يظهر حسن الحسن.

وضع النتيجتين المتقابلتين إزاء بعضهما (الجنة – والنار) يجعل المخاطب يفكر ألف

مرة قبل أن يكذب كذبة يستبدل بها الجنة بالنار كما يثمن غالياً فضيلة الصدق إذ جعل عاقبتها الجنة ويقرر خطر الكذب كرذيلة عاقبتها النار.

وضع البر بين الصدق وبين الجنة رسم وتحديد لطريق الصادق تترك طريقه واضحة المعالم عبوراً على قنطرة البر وهو جماع الخير ويبين العلاقة بين حسن الخلق ونتيجته ترغيباً في الصدق. كما أن وضع الفجور بين الكذب والنار إشارة إلى أن الفجور قنطرة يعبر منها جواد جامح في مضمار الكذب وطريق الغواية حتى يهوي به في النار.

وضع الصورتين المتقابلتين بإزاء بعضهما يحقق الإقناع العقلي الناشئ عن تمام العلم مع وضوح العاقبة لكلا السبيلين مع تحقيق الإمتاع النفسي الذي يحدثه التناظر بينهما.

وضع النموذج الحسن وتحريكه بالأفعال المضارعة (يصدق – يتحرى الصدق – يكتب) وهو يبحث ويفتش عن الصدق حتى يدرك غايته عند الله (صديقاً) بإزاء النموذج السيئ وتحريكه بالأفعال المضارعة (يكذب، ويتحرى الكذب – يكتب) وتصويره يبحث عن الكذب ويفتش عنه: يعطي المخاطبين صورة حية متحركة لكل صادق في حسن فعله وسلامة عاقبته وتستدعي في نفس كل مخاطب صورة صادق كان يعرفه فيتمثله ويثبت في وجدانه ويتقرر حسن الصدق في نفسه فيتخلق به. ويعطي المخاطبين – أيضاً صورة حية متحركة لنموذج سيء يبحث عن الكذب ويفتش عنه ويطلق لسانه الآثم حتى يدركه قدره القاصم ويسلمه لهمه الجاسم عند أبواب الجحيم.

أيضاً – وضع كلا الطريقين إزاء الآخر يترك لكل عاقل حرية الاختيار بعد تمام العلم واتضاح معالم الطريق وظهور العاقبة حتى إذا سار في أحدهما كان حقيقاً بما اختار من جنة أو نار. وبين المقابلتين تلميح بليغ وهو أن يشار إلى قصة أو غيره من غير ذكره وقول الرسول ﷺ (وإن البر يهدي إلى الجنة.. وإن الفجور يهدي إلى النار) يلمح إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ❁ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1] وهذا التلميح بالآيتين الكريمتين يؤكد قول الرسول ﷺ ويؤيده بقول الله تعالى.، والنص على ذكر

---

(١) سورة الانفطار:١٣: ١٤.

المسند إليه (البر) و(الفجور) مع إمكان الاستغناء عنه لتقدم ذكره بغرض زيادة الإيضاح والتقرير وجعله ملء الأسماع والأفهام حتى يكون أتم وضوحاً[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري ٢٧٠.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٤).

الحديث رقم (١٥٤٥)

١٥٤٥- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: ((**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**)). متفق عَلَيْهِ[١].

وَقَدْ سبق بيانه مَعَ حديث أَبي هريرة بنحوه في ((باب الوفاءِ بالعهدِ)) [٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

المنافق: الذي يظهر الإيمان ويخفى الكفر[٣].

خصلة: شعبة وصفة[٤].

فجر: مالَ عن الصِّدق وأعمال الخير[٥].

المضامين الدعوية[٦]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨/١٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٦).

(٢) برقم (٦٩٠) كما أنه سيأتي برقم ١٥٨٦.

(٣) النهاية في (ن ف ق).

(٤) النهاية واللسان في (خ ص ل).

(٥) النهاية في (ف ج ر).

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

الحديث رقم (١٥٤٦)

١٥٤٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ تَحلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ، كُلِّفَ أنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ[١]، صُبَّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فِيهَا (الرُّوحَ)[٢] وَلَيْسَ بنافِخٍ)). رواه البخاري[٣].

(تَحَلَّم): أيْ قَالَ إنَّه حلم في نومه ورأى كذا وكذا، وَهُوَ كاذب. و(الآنك) بالمدّ وضم النون وتخفيف الكاف: وَهُوَ الرَّصَاصُ المذاب[٤].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

تحلم: أي: قال إنه حلم في نومه ورأى كذا وكذا؛ وهو كاذب[٥].

يعقد بين شعيرتين: أي: عذب حتى يفعل ذلك، فيجمع بين ما لم يمكن أن يعقد كما عقد بين ما سرده، واختلق من الرؤيا، ولم يكن يقدر أن يعقد بينهما[٦].

الآنك: الرصاص المذاب[٧].

الشرح الأدبي

إن من أخلاق المسلم ومقومات شخصيته: الصدق في القول والعمل، والالتزام بما أمره به ربه، والكف عما نهاه عنه، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) عند البخاري زيادة: (أو يفرون منه) وليست عند المنذري.

(٢) قوله: (الروح) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥٩٦٣)، وكذا عند المنذري.

(٣) برقم (٧٠٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٢٨).

(٤) الترغيب للمنذري (٤٣١/٣).

(٥) رياض الصالحين ٥٣١.

(٦) شرح الطيبي ٢٧٧/٨.

(٧) رياض الصالحين ٥٣١.

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1].

وهذا الحديث، الذي يجسد بعض السلبيات التي يجب أن ينأى عنها كل مسلم، يتكون من ثلاث جمل لغوية صيغت كلها في شق واحد، ونظام لغوي متآلف حيث جاءت كلها في صيغة الشرط والجواب، وهذه الصيغة مناسبة للمقام، وملائمة لمقتضى الحال، لأن الجزاء من جنس العمل، فالجملة الأولى: "من تحلم بحلم، لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل"، والمراد: أنه يكذب ويدعي أنه رأى رؤيا وهو لم ير، وقُدِّم هذا الصنف؛ لأن الكذب في المنام كذب على الله عز وجل، وفعل الشرط "تحلم بحلم" يفيد التكلف، وذلك لزيادة التاء والتضعيف، ولم يقل من حلم بحلم، ووصف الحلم بقوله: لم يره، لإفادة تعمد الكذب، وللإشعار بمضاعفة العذاب؛ وجواب الشرط في هذه الجملة كناية عن العذاب، وليطول عذابه في النار، لأن عقده بين الشعيرتين غير ممكن، وقوله: "ولن يفعل"، يوحي بتحقق العذاب، ومكوث هذا الكاذب في النار بمقدار عجزه عن العقد بين الشعيرتين.

وأما الجملة الثانية: فهي كذلك في صيغة الشرط والجواب، والشرط هو قوله: "استمع إلى حديث قوم"، وحالهم أنهم له كارهون، والجواب هو الجزاء الذي يستحقه ذلك الذي يسترق السمع، ويهتك أسرار الناس، ويذيع ما يحرصون على كتمانه، والعقاب: هو أنه يُصَبُّ في أذنيه الآنُك: وهو الرصاص المذاب، لأن السمع استقبل كلامًا عن طريق التلصص، فعقابه أن يتحول الكلام في أذنيه يوم القيامة إلى رصاص مصهور وهو كالحميم الآني.

والجملة الثالثة شرطية كذلك، وهي تجسد العقوبة التي يستحقها كل من ينازع الخالق في قدرته، لأنه كما - قال العلماء - بصورته أدخل في الوجود صورة ليست بحقيقية، فالصورة الحقيقية هي التي فيها الروح، وقوله: "كُلِّف" جواب الشرط والتكليف مسؤولية واجبة التنفيذ والمصوِّر لا يقدر على نفخ الروح في الصورة لأن الروح

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

من أمر الله تعالى، ولذلك يستمر عذابه في النار، وقوله: "ليس بنافخ" يوحي بمزيد من العجز، ويوحي بمزيد من العذاب الذي يلحق بذلك المصوِّر.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لمن يفتري الكذب ويدعي أمورًا زورًا وبهتانًا.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الترهيب من التجسس على الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد للمصورين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لمن يفتري الكذب ويدعي أمورًا زورًا وبهتانًا:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ومن تحلم بحلم لم يره، كُلف أن يعقد شعيرتين ولن يفعل...".

قال ابن حجر: (وأما الكذب على المنام فقال الطبري: إنما اشتد فيه الوعيد من أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه إذ قد تكون شهادة في قتل أو حد أو أخذ مال، لأن الكذب في المنام كذب على الله أن أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾[1]، وإنما كان الكذب في المنام كذبًا على الله لحديث ((إذا اقتربَ الزمان لم تكد رُؤيا المؤمن تَكذبُ، ورُؤيا المؤمن جزءٌ من ستةٍ وأَربعينَ جزءًا منَ النبوَّة، وماكان من النبوَّة فإنه لا يكذب))[2] وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى. وقوله "كلف أن يعقد بين شعيرتين" كناية عن التعذيب)[3].

---

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠١٧، والفتح ٤٢٢/١٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٤٧/١٢.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الترهيب من التجسس على الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صُب في أذنيه الآنك يوم القيامة" قال ابن أبي جمرة: (وقوله ﷺ "ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون" هل هذا الاستماع على العموم على أي وجه كان أو على الخصوص؟ الظاهر أنه على الخصوص، لأنه لو كان على العموم لكان الأكثر منه من تكليف ما لا يطاق ومولانا سبحانه قد من علينا ولم يكلفنا هذا الأمر في العلم بكراهية للسامع لو كنا نطلب بالعلم بحقيقة ذلك كان أيضًا بعضه من تكليف ما لا يطاق، وإنما كلفنا في العلم بذلك بحسب قرائن الحال التي تدل على كراهيتهم بسمعنا إلى حديثهم فالاستماع على وجه خاص وليس على عمومه، وذلك مثل قوم يتحدثون في منزلهم، فإن استمعت إلى حديثهم فقد دخلت تحت هذا الحد؛ لأنهم بقرينة حالهم وهو كونهم في منزلهم وقد أغلقوا دونك بابهم، فدل ذلك على أنهم إنما أرادوا أن ينفردوا بحديثهم، دونك ودون غيرك ممن خلف بابهم، وكذلك إذا تسارر شخص مع آخر ومع جماعة دونك فقد كرهوا أن يسمعوك حديثهم؛ فإن استمعت إليهم دخلت تحت هذا الحد ولذلك نهى ﷺ "أن يتناجى اثنان دون واحد" لما كان الواحد ممنوعًا أن يسمع إلى حديثهما منعًا أيضًا أن يتناجيا دونه فيقع عنده منهما توهم ويظن بهما فمنعا من ذلك بقوله ﷺ ((لا يتناجى اثنان دون واحد))[1] وأما إن كانوا يتحدثون أمامك جهرًا وإن كان في قلوبهم كراهية منك أن تسمع كلامهم فهذا لا يلزمك منه شيء ولا أنت مطلوب بأن تعلم كراهيتم لاستماعك حديثهم)[2].

فينبغي على المسلم اجتناب التجسس واستماع أحاديث الآخرين؛ فإن الأصل في المسلم الطهارة والعفة والبراءة والسلامة من كل شيء مشين. ولذا كان الأصل في الإسلام النهي عن التجسس بجميع صوره، وأشكاله، سواء كان تجسس الفرد على الفرد، أو الدولة على الفرد، أو الفرد على الدولة، أوالدولة على الدولة، لأن التجسس

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٩٠، ومسلم ٢١٨٤.

(٢) بهجة النفوس ٤/٢٥١، ٢٥٢.

فيه انتهاك لحرمة المسلم وكشف ستره وقد يسبب الحقد والبغض بين أفراد المجتمع المسلم، وهذا ما يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً. لذا فإن الإسلام حرم التجسس إلا في حالات مخصوصة.

ومن أدلة تحريم التجسس: يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ففي هذه الآية: الخطاب العام للمؤمنين بنهيهم عن أمور كثيرة منها: التجسس: والتجسس لفظ عام يشمل جميع أنواع التجسس دون استثناء.

ومن الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث. ولاتحَسَّسوا ولا تجسَّسوا، ولا تحاسَدوا ولا تَباغَضوا))[2] فلفظ الحديث عام يشمل النهي عن جميع أنواع التجسس.

ولا شك أن التجسس من أسوأ الاعتداءات على المسلم، فهو يتضمن عدم احترام حقوق المسلمين وانتهاكًا لأعراضهم[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد للمصورين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ومن صَوَّرَ صورةً عُذِّب وكُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ".

قال ابن حجر: (هو أمر تعجيز ويستفاد منه صفة تعذيب المصور، وهو أن يكلف نفخ الروح في الصورة التي صورها وهو لا يقدر على ذلك فيستمر تعذيبه)[4].

قال ابن أبي جمرة: (وقوله ﷺ "من صور صورة" هل هو على العموم في كل

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٦٤.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ٢/٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) فتح الباري ١٠/٣٩٨.

صورة من الصور أو على الخصوص؟ اللفظ محتمل وقرينة الحال التي بعد تقتضي الخصوص وهي قوله ﷺ "كلف أن ينفخ فيها" فإنه لا ينفع في صورة من الصور إلا صورة لها روح فتخصص بهذه القرينة أنها كل صورة لها روح من أي أنواع المخلوقات كانت، وقد جاء معنى هذا، أظنه عن عبدالله بن عباس، حين سأله شخص كان يفعل هذا فقال له "صور ما شئت مما ليس له روح مثل الشجر والفواكه وشبههما" أو كما قال ﷺ)[1].

وقال ﷺ: ((أشد الناس عذابًا عند الله المصورون))[2]، قال النووي: (قوله: "إن أشد الناس عذابًا" هذا محمول على من صور الأصنام لتعبد، فله أشد عذاب، لأنه كافر. وقيل: هذا فيمن قصد المضاهاة بخلق الله واعتقد ذلك وهو أيضًا كافر، وعذابه أشد. ومن لم يقصدهما فهو فاسق لا يكفر كسائر المعاصي. وأما الشجر ونحوه مما لا روح فيه فلا يحرم صنعته ولا التكسب به)[3]. وهذا مذهب العلماء إلا مجاهد فإنه جعل الشجرة المثمرة من المكروه[4].

قال الطيبي: (قال الخطابي: المصور هو الذي يصور أشكال الحيوان فيحكيها بتخطيط لها وتشكيل، فأما النقّاش الذي يَنْقُش أشكال الشجر ويعمل التداوير والخواتيم ونحوها، فإني أرجو أن لا يدخل في هذا الوعيد، وإن كان جملة هذا الباب مكروهًا وداخلاً فيما يلهي، ويشغل بما لا يعنى. وإنما عظمت العقوبة في الصورة؛ لأنها تعبد من دون الله فالنظر إليها يفتن، وبعض النفوس نحوها تنزع)[5].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من تحلم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب في أذنيه الآنك يوم القيامة،

---

(١) بهجة النفوس ١٥٢/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٥٠، ومسلم ٢١٠٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، ص ١٣٣٢، ١٣٣٣.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٦/٨.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٦/٨.

ومن صور صورة، عذب وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ".

فقد اشتمل الحديث على الترهيب من الكذب على الرؤيا، والترهيب من الاستماع لحديث من لا يريد استماعه. والترهيب: من التصوير.

وبيّن ﷺ أن هذه الأعمال يعذب بها فاعلها يوم القيامة: ووجه المناسبة بينهم. قال ابن أبي جمرة: (ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه وللمصور أن الرؤيا خلق من خلق الله، وهي صورة معنوية، فأدخل بكذبه صورة لم تقع كما أدخل المصور إلى الوجود صورة ليست بحقيقة، لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا، وهو أن يُتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح، ووقع وعيد كل منهما، بأنه يعذب حتى يفعل ما كلف به، وهو ليس بفاعل فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام، قال: والحكمة في هذا الوعيد الشديد أن الأول كذب على جنس النبوة، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته، وقال في مستمع حديث من يكره استماعه: يدخل في من دخل منزله، وأغلق بابه، وتحدث مع غيره، فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه، فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب، فقد ورد الوعيد فيه، ولأنهم قالوا لو فقؤوا عينه لكانت هدرًا)[1].

وأسلوب الترهيب يقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[2].

---

(١) بهجة النفوس ٢٥١/٤، وهذا ملخص فتح الباري، ابن حجر، ٤٤٧/١٢.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٤٧)

١٥٤٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: ((أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا)). رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

أفرى الفِرى: أي: أعظم الكذبات، والفرى جمع فرية[2]، ومعناه: أن يقول: رأيت فيما لم يَرَه[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: شناعة الافتراء والكذب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عن كلامه.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: شناعة الافتراء والكذب:

جاء ذلك في صريح قوله ﷺ: "أفرى الفرى أن يُرِيَ الرجل عينيه مالم تريا" قال ابن حجر: "أى أعظم الكذبات والفرى، قال ابن بطال: والفرية: الكذبة العظيمة التي يتعجب منها، أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا، أى أخبر عنهما بالرؤيا وهو كاذب، قال الإمام الطبري: وأما الكذب في المنام فإنما اشتد فيه الوعيد مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه، إذ قد تكون شهادة في قتل أوحد أو أخذ مال، لأن الكذب في المنام كذب على الله أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من

(١) برقم (٧٠٤٣).

(٢) فتح الباري ١٢/٤٤٩.

(٣) رياض الصالحين.

الكذب على المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١)، وإنما كان الكذب في المنام كذبًا على الله لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءً من النبوة" (٢). وما كان من أجزاء النبوة فهو من قِبَل الله تعالى(٣)، وكذلك يندرج تحت شناعة الكذب في اليقظة، قال ابن علان في قوله ﷺ: "أن يُرِيَ الرجلُ عينيه ما لم تريا"، ظاهره شمول اليقظة والنوم، ومقتضى إيراد المصنف ثم تفسيره شموله له"(٤).

فالكذب على الله من أشد الكبائر، قال الإمام ابن حجر الهيتمي "وأفحش الكذب ما كان كذبًا على الله عز وجل أو رسوله ﷺ، وقد صرح العلماء بعدُ هذين النوعين (الكذب على الله والكذب على الرسول ﷺ) من الكبائر، وذهب بعضهم إلى أن الكذب على الرسول ﷺ كفر، قال ابن حجر: ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر محض، وإنما الكلام في الكذب عليهما فيما سوى ذلك"(٥).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عن كلامه:

لقد قرر الإسلام مسئولية الإنسان عن كل ما يتلفظ به لسانه، وذلك بيانًا لعظم مسئولية الكلمة وخطورتها، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٦)، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ما يلفظ من قول..."، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت"، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأُقِرَّ منه ما كان فيه من خير

---

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٨٣، ومسلم ٢٢٦٣.

(٣) فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ج١٢/٤٤٧.

(٤) دليل الفالحين، ص ١٥٩٩.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١/١٢٤.

(٦) سورة ق، آية: ١٨.

أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١]،[٢]، لذا ينبغي على المسلم أن يحفظ لسانه من الآفات، كالكلام فيما لا يعني، والكذب والغيبة وغير ذلك[٣]، فربما كلمة أهوت بصاحبها في أسفل سافلين، وأوردته موارد التهلكة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم"[٤]، ومن ذلك الكذب في الرؤى كما جاء في الحديث "أفْرَى الفِرَى أن يُرِي الرجلُ عينَيْه ما لم تَرَيَا"، ولله در القائل:

احْفَظْ لِسَانَكَ أيُّها الإنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إنَّهُ ثُعْبَانُ
كَم في المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كانَتْ تَهَابُ لقاءهُ الشُّجْعَانُ[٥]

عجيب حقًا أمر هذا اللسان، تراه مع صغر حجمه فَيْصلا تعرف به ذات البشر، ويستبين منه عمق الرجال ودرجاتهم من الفنون والثقافة، ومكانتهم العقلية والفكرية، وتجاربهم في الحياة العامة، وحنكتهم وذكاؤهم... إلخ.

وكثيرًا ما أوقع اللسان أمة في الهلاك.. وكثيرًا ما قاد جيشًا إلى الهاوية، وكثيرًا ما أودى بحياة جمع من البشر... لسوء حركته... وتعذر إلجامه.

وعجيب حقًا أمر هؤلاء الذين يصابون بنكبات من جراء ألسنتهم، ولم يقدروا على إلجامه وإلزامه، فالإنسان مخلوق وهب العقل المحكم والأعضاء الفاعلة.. والمفروض أن هذه النكبات حافزة على إلزامه أن يلزم نفسه وهواه.. فيتحكم في كلماته.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٣٩٩/٧.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ١٩٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، و مسلم ٢٩٨٨ مختصراً.

(٥) كتاب الأذكار، الإمام النووي، ٢٩٨، والأبيات للإمام الشافعي، البحر: الكامل التام، المستظرف ١٨٦/١.

وعجيب أن يصعد بشر بين البشر ويأخذ مكانه عندهم بلسانه فقط. فليس كل المشاهير وأصحاب الجاه والمكانة يمتلكون ثروة علمية أو مادية. ولكنك ترى بعضهم يمتلكون معرفة بآفات اللسان. فيزدادون حرصًا عليه. فيلزمونه أن يتحرك دون فائدة. فيظهر عليهم الكمال والاتزان البشري. فيصلون إلى مكانة بين البشر. فسبحان الله.

وللسان مكانة بين الأعضاء، فكما هو نقمة على صاحبه إن أساء استعماله. فهو نعمة كبرى ومنة عظمى[1].

قال أبو حامد الغزالي: اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرف عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخي العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان، أو يذم، غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان[2].

---

(١) أمراض النفوس، إبراهيم محمد الجمل، ص٢٥، ٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/١٠٤.

ألا فيعلم الإنسان ويستحضر دائمًا أن ما ينطق ويتلفظ به مسجل عليه محاسب به، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث واضحًا بينًا، حيث رهب النبي ﷺ من الكذب خاصة في الرؤى ببيان أن ذلك من أعظم الكذب وأشده، فقال ﷺ "أفرَى الفرى أن يُرِي الرجلُ عينيه ما لم تَرَيا"، وأسلوب الترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا وأشدها تأثيرًا في قلوب المدعوين، لما فيه من تخويف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام، كما بينه القرآن، وجاءت به السنة النبوية المطهرة[2]، وينتج عن أسلوب الترهيب رهبة تخالج شعور الإنسان وتدفع صاحبها إلى البعد عن كل ما يؤدي إلى غضب الله وعذابه، من أعمال في هذه الحياة الدنيا[3]، وآيات القرآن حافلة بأسلوب الترهيب ومن ذلك ما ورد في الترهيب من الكذب، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[4].

آذان ألفت سماع المنكر، وأبصار استمرأت رؤية الباطل، وألسن استساغت اللغو والغيبة، وقلوب أقفرت من الخشية، وأجدبت من الخوف فاسودت وأظلمت، وقست وتحجرت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، لم تعد تهزها الموعظة، أو تنفعها الذكرى، أو تفيدها العبرة، أو يحدوها الوعد، أو يرهبها الوعيد، إلا من رحم ربك.

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٦/ ٢١٧٠.

(٤) سورة هود، آية: ١٨.

ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[١].

والآن لنرى كيف ترجمت تلك المعاني، وطبقت هاتيك القيم، ولمع ذلك الإحساس في سماء صفوة من الناس، عمرت بالخوف قلوبهم، وتبددت من الإشفاق نفوسهم، وطاشت خشية الهول عقولهم، قلوب وجلة، وأكباد محترقة، وأعين باكية، ودموع مسبلة، احترقت وجناتهم، وشحبت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، وكادت تزهق لشدة الخوف أرواحهم. أضناهم السهر، وأفزعهم الخبر. خشوع وخضوع، نحيب ودموع، صلاة وصيام، وجهاد وقيام، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، ويصبحون شعثًا غبرًا صفرًا:

تتجافى عن الفراش من الخوف ... إذا الجاهلون باتوا نياما

بأنين وعبرة ونحيب ... ويبيتون سجدًا وقياما

ومع كل ذلك كانوا كأن النار لم تخلق إلا لهم، فأشفقوا من يوم الوقوف على الله، وخافوا من هول المقام بين يديه، ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[٢][٣].

إن الرهبة إذا غرست في قلب المسلم فإنه يحال بينه وبين معاصي الله تبارك وتعالى ولقد مدح الله عباده المؤمنين وفي مقدمتهم أنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[٤].

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك في الدنيا فأمنته يوم القيامة.

وما كثرت الذنوب وأظلمت القلوب إلا لقلة الخوف من علام الغيوب.

تحيط بنا العبر، وتكثر الحوادث، وتعظم الكوارث، وتفتن الأمم، وتحل النقم، والأنفس لاهية، والأفكار ساهية، وحبال التقوى واهية.

قلوب تحجرت، وأحاسيس تبلدت، وجوارح عطلت، لا قلب يخشع ولا نفس تشبع،

---

(١) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١٣.

(٢) سورة الإنسان، آية: ١٠.

(٣) انظر: كتاب الله أهل الثناء والمجد، د/ناصر بن مسفر الزهراني، ص٦٤٧، ٦٤٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

ولا عين تدمع، ولا فؤاد يرجف، ولا لسان ينكر. إلا من رحم الله.

أتخمت البيوت بالمعاصي، وملأت العقول بالشبهات، وأترعت النفوس بالشهوات، تسمع المعصية وقل من ينكرها، ويشاهد المنكر وكأنه المعروف، ويؤكل الحرام وكأنه الحلال، يجالس صاحب المعصية، ويؤاكل ويشارب مرتكب الكبيرة دون حرج في النفس من فعله أو إنكار في القلب لسلوكه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

الحديث رقم (١٥٤٨)

١٥٤٨- وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: ((هَلْ رَأى أحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟))[1] فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّهُ قَالَ لنا[2] ذَات غَدَاةٍ: ((إنَّهُ أتَانِيَ اللَّيْلَةَ آتِيَانِ[3]، وإنَّهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقتُ مَعَهُمَا، وإنَّا أتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإذَا هُوَ يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأخُذُهُ، فَلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأسُهُ كَما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأوْلَى!)).

قَالَ: ((قُلْتُ لهما: سُبْحَانَ اللهِ ! مَا هَذَانِ؟ قَالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإذَا آخرُ قَائمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإذَا هُوَ يَأتِي أحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرَهُ إلَى قَفَاهُ، وعَيْنَهُ إلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلَى الجانبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الجانبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجانبُ كما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي المرَّةِ الأُوْلَى)).

قَالَ: ((قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هذانِ؟ قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ)) فَأَحْسِبُ أنَّهُ[4] قَالَ: ((فإذا فِيهِ لَغَطٌ، وأصْوَاتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فإذا فِيهِ رِجَالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ، وَإذَا هُمْ يَأتيهمْ لَهَبٌ مِنْ أسْفَلَ مِنْهُمْ، فإذا أتاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا.

قُلْتُ[5]: مَا هَؤلاءِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

---

(١) هذا الذي أخرجه مسلم (٢٣/٢٢٧٥) في هذا الحديث، ولم يزد، وأخرجه البخاري بطوله، مقطعًا في مواضع عدّة.

(٢) (لنا) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية. وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٣) عند البخاري زيادة: (وإنهما ابتعثاني).

(٤) عند البخاري زيادة: (كان).

(٥) عند البخاري زيادة: (لهما)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ)) حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ((أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سابحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كثيرةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا.

قُلْتُ لهما: مَا هذان؟ قالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المرْآةِ، أَوْ[1] كَأَكْرَهِ مَا أنتَ رَاءٍ رجُلاً مَرْآىً، فإذا هُوَ[2] عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قالاَ لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكَادُ أَرَى رَأسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلدانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ.

قُلْتُ[3]: مَا هَذَا؟ وَمَا هؤلاءِ؟ قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ[4] عَظِيمةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْهَا، وَلاَ أَحْسَنَ! قالا لي: ارْقَ فِيهَا، فارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاها، فَتَلَقَّانَا[5] رِجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أنت راءٍ! وَشَطْرٌ مِنْهُمْ[6] كأقْبَحِ مَا أنتَ راءٍ! قالا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، وَإِذَا هُوَ[7] نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأنَّ مَاءهُ المَحْضُ فِي البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أحْسَنِ صُورَةٍ)).

---

(١) (أو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٢) (هو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٣) عند البخاري زيادة: (لهما)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبع عليه المنذري والمؤلف.

(٤) لفظ البخاري: (روضة) في الموضعين، بدل: (دوحة) والمثبت من الجمع للحميدي، وتبع عليه المنذري والمؤلف، وهو لفظ أحمد في المسند (٢٠٠٩٤).

(٥) عند البخاري زيادة: (فيها). وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٦) (منهم) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٧) (هو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المؤلف.

قَالَ: ((قالا لِي: هذهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنْزِلُكَ، فسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فإذا قَصرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ البَيضاءِ، قالا لي: هذاك مَنْزِلكَ؟ قلتُ لهما: بارك اللهُ فيكُما، فذَراني فأدخُلَه. قالا لي[1]: أمَّا الآنَ فَلاَ، وأنتَ دَاخِلُهُ، قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي[2] رَأيتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا؟ فما هَذَا الَّذِي رأيتُ؟.

قالا لي: أمَا إنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الَّذِي أتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيَرفُضُه، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكتُوبَةِ.

وأمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرُهُ إلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إلَى قَفَاهُ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأمَّا الرِّجَالُ والنِّسَاءُ العُراةُ الَّذِينَ هُمْ[3] في مثْلِ بناءِ التَّنُّورِ، فَإنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّواني.

وأما الرجلُ الذي أتيتَ عَليهِ يَسْبَحُ في النهرِ، ويلقم الحجارةَ، فإنَّهُ آكلُ الربا.

وأمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المرآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فإنَّهُ مالكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ.

وأمَّا الرَّجُلُ الطَّويلُ الَّذِي في الرَّوْضَةِ، فإنَّهُ إبراهيم ﷺ.

وأمَّا الولدان الَّذِينَ حَوْلَهُ، فكلُّ مَوْلُودٍ ماتَ عَلَى الفِطْرَةِ)).

(وفي رواية البَرْقانِيِّ: ((وُلِدَ عَلَى الفِطْرَةِ))) [4].

فَقَالَ بعض المُسلمينَ: يَا رسولَ الله، وأولادُ المُشركينَ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((وأولادُ المشركينَ.

وأما القومُ الذينَ كانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبيحٌ، فإنَّهُمْ قَومٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجاوَزَ اللهُ عنهم)). رواه البخاري[5].

---

(١) (لي) لا توجد عند البخاري.

(٢) عند البخاري زيادة: (قد)، وهي لا توجد الحميدي، تبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٣) (هم) لا توجد عند البخاري. وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٤) هذه الزيادة نقلها المؤلف عن الحميدي في جمعه (١/ ٣٨٠، رقم ٦٠٩). ولم يوردها المنذري في ترغيبه.

(٥) برقم (٧٠٤٧). الجمع للحميدي (١/ ٣٧٧- ٣٨٠، رقم ٦٠٩). أورده المنذري في ترغيبه (٨٢٥).

وفي روايةٍ لَهُ[1]: ((رَأيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أتيَانِي[2] فأخْرَجَانِي إلَى أرْضٍ مُقَدَّسَةٍ)) ثُمَّ ذَكَرَهُ وقال: ((فَانْطَلَقْنَا إلَى نَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ، أعْلاهُ ضَيِّقٌ وَأسْفَلُهُ واسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فإذا ارْتَفَعَتِ[3] ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا[4] أنْ يَخْرُجُوا، وَإذَا خَمَدَتْ! رَجَعُوا فِيهَا، وفيها رِجالٌ ونِساءٌ عراةٌ)).

وفيها: ((حَتَّى أتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ)) (ولم يشكّ)[5] ((فِيهِ رَجُلٌ قائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ وعلى شطِّ النَّهرِ رجلٌ، وبينَ يديهِ حجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النَّهرِ، فَإذا أرادَ أنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ في فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ[6] يَرْمِي في فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كما كَانَ)).

وفيها: ((فَصَعِدَا بي[7] الشَّجَرَةَ، فَأدْخَلانِي دَارًا لَمْ أرَ قَطُّ أحْسَنَ مِنْهَا، فيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ[8])).

وفيها: ((الَّذِي رَأيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بالكِذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ (مَا رَأيْتَ)[9] إلَى يَومِ القِيَامَةِ)).

وَفِيهَا: ((الَّذِي رَأيْتَهُ يُشْدَخُ رَأسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ

---

(١) برقم (١٣٨٦) من رواية جرير بن حازم.

(٢) عند البخاري زيادة: (وأخذا بيدي)، وهي لا توجد عند الحميدي، فتبعه عليه المؤلف.

(٣) لفظ البخاري: (اقترب)، وفي لفظ: (اقترت). والمثبت لفظ الحميدي في جمعه. وتبعه عليه المنذري في ترغيبه (٣٥٢٦)، والمؤلف.

(٤) لفظ البخاري: (حتّى كاد أن يخرجوا)، وفي لفظ: (كادوا يخرجون). والمثبت لفظ الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري في ترغيبه، والمؤلف.

(٥) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري، وإنما هي من الحميدي كما في جمعه، ويريد بقوله هذا: أن في الرواية التي تقدمت: (حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم) وفي رواية جرير بن حازم، قال: (على نهر من دم) ولم يقل: (حسبت) ولأجل ذلك علّق الحميدي بقوله هذا: إن جرير بن حازم رواه بهذا اللفظ بلا شكٍّ.

(٦) (جعل) لا توجد عند البخاري، ولا عند الحميدي في جمعه.

(٧) عند البخاري زيادة: (في)، وهذا لفظ الحميدي في جمعه.

(٨) وزاد: (ونساء وصبيان)، وهذه الزيادة لم يوردها الحميدي في جمعه اختصارًا، وتبعه عليه المؤلف.

(٩) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وهو تفسير من النووي.

فِيهِ بالنَّهارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[١].

والدَّارُ الأولَى الَّتي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤمِنِينَ، وأمَّا هذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَداءِ، وأنا جِبْرِيلُ، وهذا مِيكائيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأسِي، فإذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي ادْخُلُ مَنْزِلي، قالا: إنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَو اسْتَكْمَلْتَهُ أتَيْتَ مَنْزِلَكَ)). رواه البخاريُّ.

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

غريب الألفاظ:

غَدَاة: ما بين الفجر وطلوع الشمس أي: صباحَ يوم[٢].

فَيَثْلغ رأسَه: يشدخه ويشقه[٣].

يتدهده: يتدحرج[٤].

الكَلُّوبُ: حديد مُعْوَجَّةُ الرأس[٥].

يشرشر: يُقَطِّعُ[٦].

شدقه: جانب فمه[٧].

التَّنُّور: الذي يخبز فيه[٨].

اللغط: صوت وضجة لا يفهم معناها[٩].

---

(١) هذه القطعة رواها البخاري أيضًا برقم (٦٠٩٦).

(٢) الوسيط في (غ د و).

(٣) رياض الصالحين ٥٣٤.

(٤) رياض الصالحين ٥٣٤.

(٥) النهاية في (ك ل ب).

(٦) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٧) انظر: فتح الباري ٤٦١/١٢.

(٨) النهاية في (ت ن ر).

(٩) النهاية في (ل غ ط).

ضَوْضَوا: أصاحوا[١].

فيَفْغَر له: يفتح[٢].

فيلقمه حجرًا: يرميه إياه[٣].

المرآة: المنظر[٤].

يحشها: يوقدها[٥].

روضةٍ معتمة: وافية النبات طويلته[٦].

نُور: زهر[٧].

دوحة: شجرة كبيرة[٨].

ارْقَ: اصعد[٩].

بلبن ذهب ولبن فضة: اللبن جمع لبَنَه، وأصلها ما يبنى به من طين[١٠].

نهر معترض: أي: يجري عرضًا[١١].

المحض: اللَّبَنُ[١٢].

فسما بصري: ارتفع[١٣].

---

(١) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٣) فتح الباري ٤٦٢/١٢.

(٤) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٥) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٦) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٧) فتح الباري ٤٦٣/١٢.

(٨) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٩) الوسيط في (ر ق ى).

(١٠) فتح الباري ٤٦٥/١٢، ٤٦٦.

(١١) فتح الباري ١٢/ ٤٦٤.

(١٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(١٣) رياض الصالحين ٥٣٥.

صُعُدًا: مرتفعًا[١].

الربابة: السحابة[٢].

الآفاق: جمع أفق، وهو الناحية[٣].

الفطرة: الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه[٤].

نقب: خرق[٥].

خمدت: سكن لهبها ولم يطفأ جمرها[٦].

يشدخ رأسه: شجه وجرحه[٧].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي تتعدد طرائقه، وتتنوع أساليبه التي يصل من خلالها إلى إقناع العقول، وإمتاع النفوس، وتهذيب الطباع، وتصفية القلوب.

والرمز هو وسيلة من وسائل الإقناع، والتأثير في هذا الحديث المطوّل الذي يسرد وقائع رؤيا صادقة من رؤى النبي ﷺ، ورؤى الأنبياء حق، وهي كفلق الصبح.

والتصوير الرمزي في هذا الحديث واضح لا غموض فيه، ولكن الصور غريبة مؤثرة تنزع إلى تصوير أدواء المجتمع وأمراض النفوس، وتوضح كذلك المصير المضيء الذي يؤول إليه الصالحون، بعد تفصيل مشاهد المصير المظلم الذي ينتهي إليه الفاسدون.

وفي صدر الحديث يتكرر التوكيد بإن "خمس مرات" للتنبيه على أهمية هذه الرؤيا النبوية حيث ترد هذه العبارات: إنه قال: إنه أتاني الليلة، وإنهما قالا،

(١) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٣) الوسيط في (أ ف ق).

(٤) الوسيط في (ف ط ر).

(٥) الوسيط في (ن ق ب).

(٦) الوسيط في (خ م د).

(٧) الوسيط في (ش د خ).

وإني انطلقت، وإنا أتينا.

ومشاهدة هذه الرؤيا الرمزية تتضمن ثمانية رموز تضيء كثيرًا من جوانب الحياة المظلمة، وتكشف أحوال الفاسدين، وتتوعد بالعذاب طوائف المارقين، والتشويق يعد عنصرًا من عناصر التأثير في هذا الحديث لأن المصطفى ﷺ قدّم الصور الرامزة الغريبة أولاً. وعقب كل مشهد يتساءل ما هذان، ما هذان، ولكن تفسير الرموز جاء بعد سرد المشاهد كلها.. ثم قال رسول الله ﷺ مؤكدًا قوله: "فإني رأيت منذ الليلة عجبًا.. فما هذا الذي رأيت؟".

وتفسير المشاهد والرموز فيه إصلاح للنفوس، وإضاءة لكل دروب الخير والإصلاح في دنيا الناس.

ولنتأمل منظر ذلك الرجل المضطجع، الذي يَهْوي رجلٌ آخر بالصخرة عليه فيثلغ رأسه أي يشقها ثم تعود الرأس مرة أخرى صحيحة،ويعاود الرجل عمله عدة مرات، إنه لعذاب شديد، وتصوير رهيب لمن يهجر القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة،ورفضُ القرآن بعد حفظه كبيرة عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه!! ولنتأمل مصير الكذاب وعقابه في الآخرة، ، إنه يصور في صورة الرجل الذي يعذب بشق شدقه ومنخره، وعينه إلى قفاه من الجانب الأيمن، ثم من الجانب الأيسر، ثم يعود صحيحًا.. ويتكرر التعذيب مرات ومرات.. ولأن الكاذب يدَّعي ما لا تقع عليه حواسه، ويخدع الناس.. فإن هذا هو مصيره وجزاؤه.

وما أبشع هذه الصورة التي يتجسد فيها مصير الزناة والزواني، فهم في قلب اللهيب ومسجونون في بناء مثل التنور يصيحون ويستغيثون، وهم عراة من رجال ونساء، ولا مغيث لهم لأنهم في دنياهم غرقوا في نهر المعاصي، وفي الآخرة مصيرهم الغرق في لهيب جهنم، وآكل الربا: ما أقبح مصيره، وما أبشع عذابه، إنه يسبح في نهر من الدم.. لأنه باستحلاله الربا امتص دماء الناس وأعمارهم وأرزاقهم،وهو لا يشبع في دنياه من الربا، وكذلك في الآخرة تتحول أموال الربا إلى حجارة تثقل بطنه، وهي حجارة من الدم واللهيب!!

وفي ختام سرد هذه المشاهد الكريهة تأتي صورة مالك خازن النار وهو على هيئة تناسب أهل جهنم، فالنار عنده يوقدها ويسعى حولها حتى تظل موقدة، وعلى هؤلاء العصاة مؤصدة، في عمدٍ ممددة. وتتوالى بعد ذلك المشاهد الإيجابية الترغيبية: صورة إبراهيم الخليل عليه السلام، وصورة أولاد المسلمين وأولاد المشركين، الذين ماتوا على الفطرة وقد ولدوا عليها، وصورة الذين تاب الله تعالى عليهم وسبحوا في نهر الطاعة والتوبة.

وما أروع ختام الحديث حيث "جنة عدن".. منزل رسول الله ﷺ قصر مثل السحابة البيضاء مستقر خاتم الأنبياء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: رؤية النبي ﷺ لبعض مشاهد القيامة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإعراض عن القرآن الكريم، والنوم عن الصلاة المكتوبة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الزنا.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الربا.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير والترهيب من الكذب والإشاعات.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة لنبي الله إبراهيم عليه السلام.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة للرسول ﷺ.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

حادي عشر: من أهداف الدعوة الإسلامية: الحفاظ على الضرورات الخمس.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال:

ورد أسلوب السؤال في الحديث، "وذلك قول سمرة بن جندب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا" وأسلوب السؤال من

الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما لها من أثر في إيجاد الاستعداد الفكري والنفسي لدى المدعوين، لمعرفة الإجابة على الأسئلة المطروحة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، لذا ينبغي على الداعية وحامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد[١] إلى أقصى حد ممكن، وقد حفلت آيات القرآن في كثير من المواطن بذكر السؤال والجواب، مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾[٢].

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[٣].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد أسلوب الحوار في الحديث فيما قصه النبي ﷺ من الرؤيا التي رآها وما دار بينه وبين الرجلين الذين أتياه في منامه" وإنهما قالا: انطلق وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع... الحديث" والحوار من الأساليب النافعة في الدعوة، والذي يعود على الدعوة بالمكاسب العظيمة، فالحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين، والحوار ظاهرة اجتماعية، إذ هو من أفعال المشاركة والتواصل مع الآخرين[٤]، والقرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب، فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها، ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة في تضاعيف الكلام، دون أى نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل"[٥].

ومن ذلك ما سجله القرآن من حوار دار بين الرسول ﷺ وبين قومه، قال تعالى:

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢/٥٨-٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٣) سورة التين، آية: ٨.

(٤) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبدالكريم بكار، ص ٢٧٦.

(٥) منهج تربوي فريد في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، بدون تاريخ، ص٣٧-٣٨.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(١)، (٢).

إن الحوار يعد العنصر الأساسي للعلاقات الاجتماعية الإنسانية. ومذ خلق الله تعالى آدم فإن كلا العلاقات البشرية، النافعة منها وغير النافعة، ابتدأت بمرحلة الحوار. وبالتالي فإن الحضارات الإنسانية المترتبة على هذه العلاقات، إنما هي نتائج طبيعية للحوار الإنساني المعبر عن التفاعل الفكري المتبادل لبني آدم عليه السلام.

ولا شك أن أرقى أنواع الحوار هو حوار الدعوة إلى الله تعالى، ذلك هو حوار الرسل وأتباعهم، لفطرة الإنسان، ليجلو عنها ما ران وغبر: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾(٣).

ومن جنس هذا الحوار: حوار الدعاة بينهم، للقيام بأمر الدعوة إلى الله تعالى(٤).

إن الحوار ينبغي أن يقوم على التناصح وطلب الخير لا على تعميق الخلاف وترسيخه.

قال ابن تيمية محدثًا عن منهجه في الحوار وعن مدى سعة صدره: هذا وأنا في سعةِ صدرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فِيَّ بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله بميزان العدل، وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس، حاكمًا فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٨-١٠.

(٢) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ٧٠.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٤) مقدمة مجلة الحكمة، العدد الثامن، شوال ١٤١٦هـ، ص١١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾(٢).

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾(٤)، أ.هـ (٥).

إن الحوار ليس كحَلَبة مصارعة، وإنما هو مقدمة للتفاعل المعرفي بين المتحاورين، والهدف منه الوصول إلى الحقائق، وتمييزها عما يضارها وتنقيتها من الشوائب التي تكدر صفوها أو تعميها على أعين الناس.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: رؤية النبي ﷺ لبعض مشاهد القيامة:

جاء في الحديث: التصريح باطلاع الله عز وجل لرسوله ﷺ في رؤياه على بعض مشاهد القيامة: "وإنا أَتينا على رجل مَضْطجع. وإذا آخرُ قائم عليهِ بصخرةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرةِ لِرَأسهِ فيَثْلغ رأسَهُ فيتدَهده الحجر....الحديث". وذلك أن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة، وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه إلى نفسه الكريمة في غير ما آية في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٤٥/٣.

ٱللَّهُ ﴾[١]. وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريقة الوحى إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[٢]، وقد اشتهر النبي ﷺ وانتشر أمره باطلاع الله له على المغيبات، فروى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: " قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا. مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ"[٣]،[٤]. قال القاضي عياض: وهذه المعجزة من جملة معجزاته ﷺ المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإعراض عن القرآن الكريم، والنوم عن الصلاة المكتوبة:

جاء الترهيب في الحديث من نسيان القرآن الكريم، والتهاون في الصلاة المكتوبة باطلاع الله لنبيه ﷺ على عذاب من هذا فعله، واطلاع النبي ﷺ للأمة على هذا "وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ بها رأسه، فيتدهده الحجر ههنا، فيتبع الحجر يأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى..، فإنه الرجلُ يأخذُ القرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة"، قال ابن حجر: "قال ابن هبيرة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه فلما رفض

---

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٥٤٢/١، ٥٤٤.

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ٣٢٩/١.

أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس[١]. ومن أهم ما دعا إليه القرآن الصلاة، فعذب عليهما لهذا العذاب المذكور، وقد رهب القرآن من الإعراض عنه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[٢]، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٣].

قال ابن القيم: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا دخل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٤]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[٥].

كما رهب من ترك الصلاة والتهاون فيها، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[٦]، وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟

(١) فتح الباري ١٢/٤٦٤.

(٢) سورة طه، الآيات: ٢٤-٢٦.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٥) بدائع التفسير ٣/٢٩٢، ٢٩٣.

(٦) سورة الماعون، الآيتان: ٤-٥.

ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[١].

قال القاسمي: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة" وقرئ (الصلوات) بالجمع أي المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد "واتبعوا الشهوات" أي فأتوا بما ينافي البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر "فسوف يلقون غيا" أي شرًا. قال الزمخشري: كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد. قال المرقشي:

فمن يلق خيرًا يحمد الناس أمره ... من يغو لا يعدم على الغي لائما

أي من يفعل خيرًا، يحمد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال، وبالغي الفقر. أي ومن يفتقر. ومنه القائل:

والناسُ مَن يَلْقَ خيرًا قائلون لهما ... َشْتَهي ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أي: الثكل، ويجوز أن يكون المعنى جزاء غي. كقوله تعالى "يلق أثامًا" أي شرًا وعقابًا. فأطلق عليه كما أطلق الغي على مجازاته المسببة عنه، مجازًا. أو (غيًا) ضلالاً عن طريق الجنة. فهو بمعناه المشهور[٢].

خامسًا– من موضوعات الدعوة: الترهيب من الزنا:

ورد ذلك في بيان عقوبته وعذابه "فانطلقنا فأتَينا على مثل التنُّور، قال: وأَحسِبُ أَنه كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وأَصواتٌ. قال: فاطلعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا..." وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، قال ابن حجر: مناسبة العرى لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى[٣]، وقد حذر

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) محاسن التأويل مج٧/١١/١٣٧.

(٣) فتح الباري ١٢/٤٦٦.

الله منه فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[١]. قال القرطبي: قال العلماء قوله تعالى: "ولا تقربوا الزنى" أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه: لا تدنوا من الزنا[٢] وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك والقتل، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[٣]، وقد أجمع أهل الملل على تحريمه، فلم يحل في ملة قط، ولذا كان حده أشد الحدود، لأنه جناية على الأعراض والأنساب[٤].

لقد حرم الإسلام الزنا تحريمًا قطعيًا لا هوادة فيه قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[٦].

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه سلمة بن قيس: «ألا إنما هن أربع: أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا»[٧].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ (قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ. وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[٨].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن مج٥/١٠/٢٥٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٤) الموسوعة الفقهية ٢٤/٢٠.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٦) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٨٩٠، وقال محققو المسند إسناده صحيح، وصححه الألباني انظر: (صحيح الجامع، ٢٦٤٠)، (سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٧٥٩).

(٨) أخرجه مسلم ١٠٧.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أيُّ الذَّنب أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تقتلُ وَلدَك من أجل أن يَطعمَ معك. قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارك»(١).

إذن فليخسأ دعاة العهر والدعارة إلى غير رجعة، فهذا هو ديننا الحنيف، وهذه هي القوانين الإلهية تجيء لدحض هذه الشُبه والافتراءات التي تنبجس من قلوب تقطر حقدًا وحسدًا وغيظًا على الإسلام وأهله، وهذه هي وصايا من لا ينطق عن الهوى، ينزهنا عن هذه البراثن المقيتة، فيا أدعياء الضلالة، إن الواقع خير شاهد على بطلان دعاويكم التحررية من كل شرف وفضيلة، فضلاً عن كتاب ربنا جل جلاله وعن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم فموتوا كمدًا مثلما ماتت مهاتراتكم كلما بزغ الحق ولاح.

إن الزنا لا يعدو أن يكون لذة من لذائذ الحياة الآثمة عند هؤلاء النفر ضعاف الإيمان، وساقطي الرجولة والشهامة.

فإن الزاني عندما ينزع عن لقيطته، ويهجر على خجل فراش عشيقته، يعاني ويلات هذه الفعلة القبيحة، فتصبح معشوقته أبغض الناس إلى قلبه، وينظر إلى نفسه نظرة ازدراء واحتقار، بل سفه وجنون! ويرى أنه أحقر خلق الله، وود لو قرض ما أوداه إلى هذا المصير بالمقاريض، ويصبح أسير الخوف والهلع من نظرات الناس أن يكونوا كشفوا أمره، وتفارقه فكرة الزواج خوفًا أن يكون ألم بعرضه ما ألم بعرض غيره، فيصبح أسير الوساوس والقلاقل الحياتية والنفسية فتفارقه الراحة، ويخلد في مستنقعه الآسن مرة أخرى.

مع أنه كان المفروض أن يكون هذا الشعور المخيف، والتأنيب الذريع بداية بصيص من الأمل يجلب له الوقوف عند هذا الحد من الانحلال، والتفكير في التوبة، ولكن جزاء السيئة سيئة أخرى مثلها، وهذه إحدى العواقب التي يتكردس بسببها صاحبها في بحار الجحيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨١.

إن الزاني فاقد الرجولة والشهامة، والعزيمة والإرادة، منحط الأخلاق، عديم الحياء، جبان، غالبًا كان أو مغلوبًا، حقير، رئيسًا كان أو مرؤوسًا، محروم من الهيبة والوقار، وضيع الجانب عظيم العار، استحق المقت والسخط والعذاب، نزع من قلبه كل شفقة ورحمة فهو ذئب متلفع برداء الشرف والعرض والفضيلة بقدمه، وتجلبب بالذل والمهانة والخسة، حتى صار كالكلب الضاري المسعور، فإذا ما شبع وثمل وانهد، ذهب مطأطئ الرأس يجر قدميه كالخنزير المهين الدنيء الحقير.

والفرق بينه وبين الشريف الحي العفيف، جهاد ساعة!.

فاللهم احفظنا بحفظك، وثبتنا على طريقك حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا. اللهم آمين[(١)].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الربا:

ورد الترهيب من الربا ببيان عقوبته في الحديث: "فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسبَح، وإذا على شَط النهر رجلٌ قد جَمَعَ عندَه حجارة كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحَ، ثمَّ يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندهُ الحجارةَ فيفغرَ له فاهُ فيلقمُهُ حجرًا فينطلقُ فيسبَح ثمَّ يرجعُ إليه، كلما رَجَعَ إليه فغَرَ له فاهُ فألقمه حجرًا ... وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبح في النهر ويُلقم الحجرَ فإنه آكِلُ الرِّبا"، قال ابن حجر: "قال ابن هبيرة إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجارة لأن أصل الربا يجرى في الذهب والذهب أحمر، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئا وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه"[(٢)].

فالربا من الموبقات وأشد الذنوب والمعاصي، ذكر الإمام القرطبي في تفسيره ما قاله ابن بكير، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلاً سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر؛ فقلت: امرأتي طالق إن كان يدخل جوف

---

(١) كتاب: "والذين هم لفروجهم حافظون" خميس بن السعيد محمد، ٨٩، ٩٠.

(٢) فتح الباري ٤٦٥/١٢.

ابن آدم أشرٌّ من الخمر. فقال: ارجعْ حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الغد فقال له: امرأتك طالق؛ إني تصفحت كتاب الله وسنّة نبيه فلم أر شيئًا أشرّ من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب[1]. قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[2]. وحكمة تحريم الربا أنه يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، ويفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس إضافة إلى آثاره السلبية على اقتصاد البلاد عامة وآحاد الناس خاصة، لأنه يفضي إلى امتناع الناس من الاشتغال بالمكاسب، لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة الربا من تحصيل الدرهم الزائد، خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق[3].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير والترهيب من الكذب والإشاعات:

جاء التحذير من ذلك ببيان عقوبة إلقاء الكلمة، التي ليس لها مطابقة للواقع "فانطلَقْنا فأتينا على رجل مستَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليهِ بكلوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أَحدَ شِقي وَجهِهِ فيُشرشِر شِدْقه إلى قَفاه، ومِنْخَره إلى قَفاه، وعَينَه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يَفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصحَّ ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعودُ عليه فيفعل مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى ... وأما الرجل الذي أتيت عليه ليشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق"، وشرشرة تلك الأعضاء وشقها إنزال للعقوبة بمحل المعصية[4]. وقد تضافرت النصوص على تحريم الكذب وإشاعته بين الناس والحض على الصدق وتحريه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن مج٢/٣/٣٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٣) الموسوعة الفقهية ٢٢/٥٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٢/٤٦١.

مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[١]، وقال ﷺ: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"[٢]. وقد حرم الإسلام الكذب ونقل الإشاعات وترويجها بين الناس وبين أن كل ما يصدر عن الإنسان مسجل عليه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٣].

قال ابن كثير: أي ما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٤].

قال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين، يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها.

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾[٥]، يا ابن آدم بُسطِت لك صحيفة ووكّل بك ملَكَان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى يخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[٦]، ثم يقول: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري، رقم ٦٠٩٤.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

(٤) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٥) سورة ق، آية: ١٧.

(٦) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلتُ شربتُ ذهبتُ جئتُ رأيتُ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات[3].

ومعلوم أن الكذب ونقل الإشاعة وترويجها في المجتمع من أنواع الفحش والإثم والبغى التي حرمها الله تعالى بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4]، [5].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة لنبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وردت الإشارة إلى رفيع منزلة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلو مكانته "فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ... وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". قال ابن حجر: وإنما اختص إبراهيم لأنه أبو المسلمين، قال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾[6]،

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٩٨/٧، ٣٩٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

(٥) الإشاعة وآثارها في المجتمع، دراسة وصفية تحليلية، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، مؤسسة جائزة المدينة المنورة الخيرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١٦١.

(٦) سورة الحج، آية: ٧٨.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]،[2]، كما أثنى الله على إبراهيم وأمر الله رسوله ﷺ بإتباعه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3]، أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك ياخاتم الرسل وسيد الأنبياء، كما قال في سورة النعام: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[4]،[5].

إن من يستعرض آيات القرآن التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام يتبين له مدى اهتمام القرآن بأمر إبراهيم عليه السلام، ويمكن القول: إن الصلة بين محمد وإبراهيم عليهما السلام من ناحية وبين دعوتيهما من ناحية ثانية قوية، ويؤكدُ ذلك أمران:

الأمر الأول: رابطة الدم، فإسماعيل من ولد إبراهيم ومن نسله محمد عليهم الصلاة والسلام.

الأمر الثاني: رابطة الدين، فمحمد ﷺ هو دعوة إبراهيم التي توجه بها إلى الله تعالى وهو يبني البيت الحرام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[6] وجاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٦٦/١٢.

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٢٠-١٢٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦١١/٤-٦١٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٩.

قال: ((قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام))[١] وقد اصطفى الله كلاً منهما بالنبوة والرسالة، وجعلهما من أولي العزم من الرسل، وأمر محمدًا ﷺ بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام، لعظيم الشبه بينهما، وهذا ما يجعلنا نلقي الضوء على بعض أوجه الشبه بين دعوتيهما، ومنها:

أ- مسمى الدعوة:

صرح القرآن بأن إبراهيم عليه السلام قد أتى بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢] وأنه كان حنيفًا مسلمًا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣]. وبمثل ذلك صرح القرآن في حق محمد ﷺ فهو على الدين الإسلامي ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤] لأنه الدين الذي رضيه الله لنا، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾[٥] وأنه على ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦] وأنه أولى الناس بإبراهيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٢/٥ رقم ٢٢٢٦١، وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره ٥٩٦/٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٣٠-١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١.

(٥) سورة المائدة، آية: ٣.

(٦) سورة النحل، آية: ١٢٣.

(٧) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

ب-اتحاد أصول الشرائع، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[(١)][(٢)].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة للرسول ﷺ:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث في قوله: "قال: قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلك. قال: فسمَا بصَري صُعُدًا، فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضاء. قال: قالا لي هذاكَ منزِلك، قال: قلت لهما: باركَ الله فيكما. ذَراني فأدخُله، قالا: أما الآن فلا، وأَنتَ داخِله" أي قصر عاليًا مثل الربابة أي السحابة البيضاء، ويقال لكل سحابة منفردة دون السحاب ولو لم تكن بيضاء، وقال الخطابي: الربابة السحابة التي ركب بعضها على بعض[(٣)]، ووصف القصر بالربابة، زيادة في الإظهار، وتسمية الجنة عدن يعني المدينة من عدن بالمكان إذا أقام به[(٤)]. وذلك من الخصائص التي اختص بها رسول الله ﷺ ولم يعطها غيره، مما يدل على منزلته وعظيم قدره عند ربه تبارك وتعالى، إلى غير ذلك من الخصائص كالوسيلة والفضيلة والحوض، والكوثر، واللواء وغير ذلك[(٥)]، ومن ذلك الوسيلة والفضيلة وهي أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد من عباد الله وهو رسولنا ﷺ [(٦)]، وقال ابن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش[(٧)].

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٣.

(٢) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ٣٥٢-٣٥٥.

(٣) فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ٤٦٤/١٢.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦٠٤.

(٥) موسوعة نضرة النعيم، ٤٦٩/١.

(٦) خصائص النبي ﷺ، المحب المكي، تعليق محمد السيد عفيفي، مكتبة المجد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ٣٩٠/٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٥٥/٢.

عاشرًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ورد أسلوب الترغيب والترهيب في الحديث ظاهرًا واضحًا، حيث جاء الترغيب في العمل الصالح في بيان جزاء الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، والترهيب من رفض القرآن والتكاسل عن أداء الصلاة المكتوبة والكذب والزنا والربا وغير ذلك، ببيان عاقبة هذه الأعمال السوء، وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما في الترغيب من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وفي الترهيب تخويف المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوآن بما يرغب الناس في قبول الدعوة والترهيب من رفضها[1]، فإن ما جاء به الشرع الحنيف كله بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى، والرهبة من عقابه[2]، وذكر القرآن حال المؤمنين بين الرغبة والرهبة، وأنهما جناحا الإيمان ودفع المؤمن إلى الترقي والعلاء، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3].

"تتجافى جنوبهم عن المضاجع" أي: ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل "يدعون ربهم" أي: داعين له "خوفًا" من عذابه "وطمعًا" في رحمته "ومما رزقناهم" أي: من المال "ينفقون" أي: في وجوه البر والحسنات[4].

حادي عشر- من أهداف الدعوة الإسلامية: الحفاظ على الضرورات الخمس:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة حفظ الكليات الخمس وهي حفظ النفس والدين

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) موسوعة نضرة النعيم ٢١٢٧/٦.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) انظر: محاسن التأويل، الإمام القاسمي، مج٨/١٣/٢١٥.

والنسب والعقل والمال[١]، يقول الإمام الشاطبي : "وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الآخرة، فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين[٢]، ولذا جاء الحديث: "الترهيب من الكثير من المخالفات الشرعية التي تمس أصول تلك الضرورات، في مجال حفظ الدين جاء الترهيب من رفض القرآن والتكاسل عن الصلاة والتحذير من الكذب وإشاعته بين الناس، وفي مجال حفظ النسب جاء الترهيب من الزنا، وفي مجال حفظ المال جاء الترهيب من التعامل بالربا"، كما هو واضح في ثنايا الحديث "إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما قالا: انطلق وإني انطلقت معه وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة... الحديث"، والحفاظ على الضرورات الخمس من عناصر القوة في الإسلام، فإن الإسلام يحرص أشد الحرص على المحافظة على دين الناس وحقوقهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، كما يعني أشد العناية بصيانة حرياتهم وكراماتهم، ويتخذ لذلك جميع الوسائل التي تحفظ هذه الحقوق، وتصونها جميعًا[٣]، ولقد أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان مع حرمة الدماء والأموال والدعوة إلى الحفاظ على الضرورات قاطبة، وقد أعلن النبي ﷺ ذلك في حجة الوداع، أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام واليوم الحرام[٤]، "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا"[٥].

(١) الموسوعة الفقهية ٢٠/٢٤.

(٢) الموافقات، الإمام الشاطبي، ٨/٢-٩.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٤٧.

(٤) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٧.

(٥) أخرجه البخاري ١٧٣٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس قيمة الصدق:

من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة الصدق في النفوس لأن الصدق من أعلى القيم الإسلامية شأنًا وأعزها مكانًا لأنه لا تجد فضيلة وخلقًا محمودًا إلا والصدق أساسه فيه، ولقد حرص النبي ﷺ على غرس هذه القيمة وهذه الفضيلة في نفوس الصحابة. ومن الشواهد على ذلك: في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ ...».

فهذا شاهد تربوي نبوي ساقه النبي ﷺ ليبين عظمة هذه القيمة ولما لا، فلقد لقب ﷺ قبل البعثة بالصادق الأمين فما جرب الناس عليه كذبًا ولا عرفوا عنه خيانة، ولقد وصفه أبو هريرة بالصادق المصدوق، فكان يقول: «... سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ»[1]. والصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة، ولكن درجتهم ثاني درجة بعد النبيين؛ لأن منزلة الصدق من أعظم منازل القوم الذي نشأ منه جميع منازل السالكين وهو يعد من الطريق الأقوم الذي لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين وبه يتميز أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران.

ولقد ذكر الرسول ﷺ أن من علامات الصدق طمأنينة القلب.

ولذا قال ﷺ: «الصدق طمأنينة»[2]، ولقد أعد الله عز وجل لمن نشأ على الصدق وربي عليه جزاء ما بعده جزاء، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٥٨١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٥).

ﭐلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[١]، إلى جانب أن الله ييسر الأمور بالصدق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٢].

ونخلص من هذا الهدي النبوي تعلم تحري الصدق حتى يصير سجية لنا، وأن الأخلاق الفاضلة تكتسب بالتخلق والتحري، فإن النفس تتأثر بتعاطي أسباب الخير كالصدق[٣].

"ومن آثار الصدق: ثبات القدم، وقوة القلب، ووضوح البيان، مما يوحي إلى السامع بالاطمئنان ... ومن علامات الكذب الذبذبة واللجلجة، والارتباك، والتناقض، مما يوقع السامع بالشك وعدم الارتياح، والصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد"[٤].

ثانيًا: الترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، وهو من الأساليب المؤثرة المستخدمة بقوة في التربية، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في هديه النبوي على أساس أنه من الأسس النفسية للتربية النبوية. وفي الباب شواهد تدل على الترغيب: قوله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر ...».

فهذا ترغيب من النبي ﷺ للصحابة في اقتفاء أثر الصدق والسير على ضربه، والرسول ﷺ رغب فيه لأنه من أعظم الفضائل المحمودة لأن من تربى على هذا الخلق يكون مؤثرًا في مجتمعه بأخلاقه وسلوكه، والرسول بدأ بالصدق ورغب فيه لأن الإنسان مفطور على الحق والصدق فكانت تربيته من هنا أمرًا ميسورًا، وعلى المربين

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٥-١٧.

(٢) سورة الليل، الآيات: ٥-٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣/ ٥، ٢٩، المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص٢٦٨، موسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد متولي.

(٤) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص٤٣٥.

أن يستثمروا ذلك استثمارًا حسنًا كما استثمره الرسول ﷺ لأنه يعلم علم اليقين أن المجتمع الإنساني يحتاج إلى سيادة خلق الصدق، وذلك لأن العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية تعتمد عليه، وذلك لأن الكلمة إن لم تكن معبرة تعبيرًا صادقًا عما في النفس فإننا لم نجد وسيلة أخرى كافية لهذا التعبير، ولولا ترغيب الرسول ﷺ في هذا الخلق لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس[1]، كما أنه ﷺ استخدم أسلوب الترهيب لعلمه بأنه أسلوب قائم على الإحساس بالألم والشقاء وسوء المصير، ومن شواهد ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».

وقوله ﷺ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» فَيَقُصُّ عَلَيْهِ من شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ... أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ: فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ، ... وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ: فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمِرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا: فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ ...».

فهذه شواهد نبوية تدل على الترهيب من أمور منهي عنها شرعًا، ومن سوء المصير الذي يتبعها شرعًا، ولقد استخدم الرسول أسلوب الترهيب هنا، لأن في الترهيب وعيدًا وتهديدًا بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به أو هو التهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكون دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي، والترهيب يساعد على غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في نفوس الناشئين

---

(١) الوجيزة في الأخلاق، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٢٤، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣٠.

ليتسنى لنا أن نذهبهم من عذاب الله، وليكون لهذا الترهيب ثمرة عملية سلوكية[1]، وأهم ما تميز به الترهيب أنه يؤثر تأثيرًا واضحًا في النفوس السوية فيحملها على الالتزام والسلوك الإيجابي.

ثالثًا: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير والشاهد على ذلك في باب تحريم الكذب حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا... إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ...»، وقوله ﷺ: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ...».

فهذا أسلوب تحذيري من الكذب، وذلك التحذير من بعض الأفعال الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، وهذه التحذيرات قدمها الرسول ﷺ للوقاية من العذاب.

وترك هذه الرزيلة يجعل الإنسان يستبرئ لدينه وعرضه كما بينه ﷺ إن أثر الكذب في إفساد العلاقات بين الناس واضح وخطير لما يترتب عليه من ظن السوء والريبة والشك فتحصل الفرقة وعدم الوفاق، ودل الحديث أيضًا على أن من نشأ على خلق الكذب فإنه يعتاد السيئ من السلوك في حياته، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة عن طريق الكذب والرسول ﷺ قرن خلق النفاق بخلق الكذب لأن المنافق يستطيع أن يتظاهر بالإسلام زورًا وكذبًا ليحميه النفاق من نقمة المسلمين[2].

والتحذير أسلوب تربوي توجيهي يحذر من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه والتحذير له أهمية في بيان العقوبة المترتبة على عمل أو تركه، والرسول لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية اعتمد فيها التحذير كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب ينتظر المنحرفين فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين[3].



---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣٠.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٢٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. الحازمي، ص٢٦٥، أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٨.

٢٦١- باب بيان ما يجوز من الكذب

اعلَمْ: أنَّ الكَذِبَ وإنْ كَانَ أصْلُهُ مُحَرَّمًا، فيَجُوزُ في بَعْضِ الأحْوَالِ بشُرُوطٍ قَدْ أوْضَحْتُهَا في كتاب: ((الأذْكَارِ))[١]، ومُخْتَصرُ ذَلِكَ: أنَّ الكلامَ وَسيلَةٌ إلَى المَقَاصِدِ، فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٍ يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بغَيْرِ الكَذِبِ يَحْرُمُ الكَذِبُ فيهِ، وإنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحْصِيلُهُ إلاَّ بالكَذِبِ، جازَ الكَذِبُ. ثُمَّ إنْ كَانَ تَحْصِيلُ ذَلِكَ المَقْصُودِ مُبَاحًا كَانَ الكَذِبُ مُبَاحًا، وإنْ كَانَ وَاجِبًا، كَانَ الكَذِبُ وَاجِبًا. فإذا اخْتَفَى مُسْلِمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُرِيدُ قَتْلَهُ، أَوْ أَخذَ مَالِهِ وأخفى ماله وَسُئِلَ إنْسَانٌ عَنْهُ، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْفَائِه. وكذا لو كانَ عِندَهُ وديعَةٌ، وأراد ظالمٌ أخذها، وجبَ الكذبُ بإخفائها. وَالأحْوَطُ في هَذَا كُلِّهِ أن يُوَرِّيَ. ومعْنَى التَّوْرِيَةِ: أنْ يَقْصِدَ بِعِبَارَتِهِ مَقْصُودًا صَحيحًا لَيْسَ هُوَ كَاذِبًا بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ، وإنْ كَانَ كَاذِبًا في ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وبالنِّسْبَةِ إلَى مَا يَفْهَمُهُ المُخَاطَبُ، وَلَوْ تَرَكَ التَّوْرِيَةَ وَأطْلَقَ عِبَارَةَ الكَذِبِ، فَلَيْسَ بحَرَامٍ في هَذَا الحَالِ.

وَاسْتَدَلَّ العُلَمَاءُ بجَوَازِ الكَذِبِ في هَذَا الحَالِ بحَديثِ: أُمِّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنها سمعتْ رسُولَ الله ﷺ، يقول: ((**لَيسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**)). متفق عَلَيْهِ[٢].

زاد مسلم[٣] في رواية: قالت أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إلاَّ في ثَلاَثٍ، (تَعْنِي: الحَرْبَ، والإصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحديثَ المَرْأةِ زَوْجَهَا)[٤].

---

(١) ص٤٢١-٤٢٣ ط مكتبة الصفا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥/١٠١).

(٣) بعد حديث رقم (٢٦٠٥/١٠١) بحديث، بدون رقم).

(٤) قال مسلم بعد قوله: (إلا في ثلاث): بمثل ما جعله يونس من قول ابن شهاب. ولم يسق لفظه، وقوله: (تعني: الحرب، والإصلاح) إلخ، هذا الكلام للحميدي في جمعه، وزاد في آخره: أدرجه على ما قبله. وهذا من الأدلة الواضحة على اعتماد الإمام النووي على الجمع للحميدي.

٢٦٢- باب الحثّ عَلَى التثبت فيما يقوله ويحكيه

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦] وقَال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٤٩)

١٥٤٩-وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: ((**كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الصدق من أهم معالم شخصية المسلم، ومن أهم سمات حركته في الحياة، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصِّدِّيق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2]، ولفظ الصدق يستعمل في معانٍ - كما قال الإمام الغزالي: (صدق في القول وفي النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدِّيق لأنه مبالغة في الصدق.

وحين نتأمل مضمون هذا الحديث وأسلوبه نجده ينعي على هؤلاء الذين لم يلتزموا بفضيلة الصدق مسلكهم، ويوضح قبح فعلهم لأنهم ينقلون الأخبار من غير روية ولا تثبت فيشيعون الفتنة بين الناس، وأسلوب الحديث يتسم بالإيجاز، ولكن هذا الإيجاز

---

(١) برقم (٥/٥) في المقدمة. قال الدارقطني في التتبع (٨): والصواب مرسلٌ، قاله معاذ، وغُندر، وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤١.

يتضمن الوعيد الشديد، والمصير المهلك، وقول الرسول ﷺ: "كفى بالمرء إثمًا"، فيه من التهديد والوعيد الشديد ما لا تتحمله طاقة بشرية، ومعنى ذلك: كفاه ذلك كذبًا فإنه قد استكثر منه، وقوله: "بالمرء" فيه تأكيد لبشاعة وهول هذا السلوك الشائن، والباء الزائدة في قوله: "بالمرء"، هي أمارة ذلك التوكيد على رفض هذه الصفة الذميمة، وقوله: "كذبًا"، تمييز أو مفعول ثان.. وكلا الاحتمالين له أثره في توجيه المعنى، وتأكيد رفض رسول الله ﷺ للكذب وللكاذبين، وقال بالمرء، ولم يقل: بالمسلم، أو بالمؤمن، لأن المسلم الذي يلتزم بتعاليم دينه ليس من سماته الكذب، بل الكذب من أمارات المنافق.. ومن سمات المشركين والكفار.

والتعبير بالمضارع في قوله: "أن يحدث بكل ما سمع"، يوحي بأن هذا التحدث من غير تثبت ولا دليل هو طبيعة مستقرة، وخلق دائم لذلك الشخص الكذوب.

وقوله: "بكل ما سمع"، يرشد إلى أن هذا الرجل لا ينتقي ما يقول، ولا يمحص أقواله، ولا يوثق أخباره، وحُذف مفعول سمع.. حيث لم يقل: بكل ما سمعه، لإفادة الشيوع والعموم، وللدلالة على تسرع ذلك المتحدث الكاذب، وعدم غربلة الأقوال وتمحيصها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: خطورة تحدث الإنسان بكل ما يسمع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التثبت والتبين في الأخبار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: بيان مسئولية الإنسان عما يتحدث به، والحث على التثبت في الأخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: خطورة تحدث الإنسان بكل ما يسمع:

لقد حذر الإسلام من التحدث بكل ما سمعه الإنسان، فإن ذلك سبيل إلى الوقوع في الإثم، وإلى ذلك أشار الحديث، فقال ﷺ: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع"،قال القاضي عياض: معناه: أن من حدث بكل ما سمع وفيه الحق والباطل والصدق والكذب نقل عنه هو أيضًا ما حدّث به من ذلك فكان من جملة من يروي

الكذب، وصار كاذبًا لروايته إياه وإن لم يتعمده ولا عرف أنه كذب[١].

قال النووي: "ومعنى الحديث الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كَذَب، لإخباره بما لم يكن"[٢]، وأن الإنسان محاسب على ذلك فما من قول يصدر عن الإنسان إلا وهو محاسب عليه، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣]، فإن نقل كلمة دون تحرٍّ وتثبت قد يؤدي إلى التخريب وهدم الكيان والبنيان الاجتماعي، وصرف الناس عن عبادة الله تعالى، وعمارة الأرض وعمل ما ينفع الناس إلا الاشتغال فيما لا ينفع[٤]، وقد جاءت آيات القرآن حاضّة على الصدق وقول الحق، واجتناب الباطل والكذب، وإثارة الإشاعات واختلافها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٥].

وهذا أمر بالكون مع أهل الصدق، أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم[٦]، وجاء الأمر على سبيل المبالغة فقال: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٧][٨].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التثبت والتبين في الأخبار:

جاء في الحديث ضرورة التثبت في الأخبار وتبين صدقها من عدمه وعدم التحدث بكل ما سمع فإن ذلك لا يخلو من كذب، فقال رسول الله ﷺ : "كفى بالمرء كذبًا

---

(١) إكمال المعلم، ١/١٢٤، ١٢٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤٨.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

(٤) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٦٠.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، مج٤/٨/٢٨٨.

(٧) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٨) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٥/١١/٥٤.

أن يحدث بكل ما سمع" ولقد أمر الإسلام بالتثبت والتروي عند سماع الأقوال واتباع أحسن الأقوال والإعراض عن غيرها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(١)، قال القاضي ابن عطية الأندلسي في تفسيره للآية: "كلام عام في جميع الأقوال"، وإنما القصد الثناء على هؤلاء ببصائر هى لهم قوام في نظرهم، حتى أنهم إذا سمعوا قولاً ميزوه واتبعوا أحسنه"(٢) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾(٤)، قال الشوكاني: في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "المراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر"(٥)، فلا نقبل القول على علاته، بل ننظر فيه أحق هو أم غير حق(٦).

قال ابن عثيمين: ينبغي على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل ويتكلم به لاسيما في زمن الأهواء وكثرة القيل والقال والتحدث بما كان أو لم يكن، ثم استدل لذلك بالآيات والأحاديث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾(٧). "ولا تقف" يعني لا تتبع ما ليس لك به علم ولا تتكلم إلا بما تعلم، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٨). يعني إلا عنده "رقيب" أي مراقب يراقب ما تقول، "عتيد" حاضر فلا يغيب

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٨.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق، عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ٥٢٥/٤.

(٣) سورة القصص، آية: ٥٥.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٥) فتح القدير، الإمام الشوكاني، ٦٠/٥.

(٦) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٦٩.

(٧) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٨) سورة ق، آية: ١٨.

عنه، وهذا تحذير من أن يتكلم الإنسان بشيء لا يعلم عنه؛ لأنه بذلك آثم، ثم ذكر في ذلك أحاديث منها: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع" يعني أن الإنسان إذا صار يحدث بكل ما سمع من غير تثبت وتأن، فإنه يكون عرضة للكذب، وهذا هو الواقع ولهذا يجيء إليك بعض الناس يقولون: صار كذا وكذا، ثم إذا بحثت وجدت أنه لم يكن، أو يأتي إليك ويقول: قال فلان كذا وكذا فإذا بحثت وجدته لم يقل، وأعظم شيء أن يكون هذا فيما يتعلق بحكم الله وشريعته، بأن يكذب على الله، فيقول في القرآن برأيه، ويفسر القرآن بغير ما أراد الله، أو يكذب على النبي ﷺ يقول: قال النبي ﷺ كذا. وهو كاذب، أو ينقل حديثًا يرى أنه كذب وهو لم يكذبه، ولكن يقول: قال فلان كذا وكذا عن رسول الله ﷺ وهو يرى أنه كذب؛ فإنه يكون أحد الكاذبين كما بين ذلك النبي ﷺ.

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما يقول ويتثبت فيمن ينقل إليه الخبر، هل هو ثقة؟ أو غير ثقة كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1]. ولاسيما إذا كثرت الأهواء وصار الناس يتخبطون ويكثرون القيل والقال بلا تثبت ولا بينة؛ فإنه يكون التثبت أشد وجوبًا؛ حتى لا يقع الإنسان في المهلكة. والله الموفق[2].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: بيان مسئولية الإنسان عما يتحدث به، والحث على التثبت في الأخبار:

إن غرس المسؤولية في نفوس المدعوين والاستشعار بها من الأهداف الرئيسة للدعوة، وذلك مما يحمله الحديث من معانٍ، فقال ﷺ: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع"، لذا كانت مسئولية الإنسان عن حفظ لسانه، وأن يصونه عن الكذب والغيبة والنميمة، وقول الزور، وغير ذلك مما نهى عنه الشارع الحكيم[3]، قال

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦٣٣/٢، ١٦٣٤.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٢٦٣٤/٧.

تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]، لذا كان من الأخلاق الحميدة الصدق والتثبت في الأخبار والحقائق ولا سيما عند نقلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[٢].

قال ابن كثير في تفسير الآية: يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال[٣].

وقد جاء سبب نزولها ما روي عن: أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله ﷺ رسولاً لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث في سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقّت لي وقتًا يرسل إليّ رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليَد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق فَرَجَع، فأتى رسولَ الله ﷺ وقال: يا رسولَ الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/٢٠٨.

قتلي؟ فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، ولمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدًا بالحقِ ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعتَ الزكاةَ وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلاّ حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، قال: فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، إلى هذا المكان ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1]»[2].

ومن الآيات الآمرة بالتثبت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[3].

في نزولها روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِ رَسولِ الله ﷺ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إلاَّ لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَقَامُوا وَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوا بِهَا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[4]))[5].

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ٨٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢٧٩/٤ رقم ١٨٤٥٩، وقال محققو المسند، حديث حسن ٤٠٥/٣٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٩١.

قال السعدي: "وهذا الأدب من الآداب الواجب استعمالها فإن ترك التثبت فيه خطرٌ كبيرٌ ووقوعٌ في الإثم، قد يحصل تلف في النفوس والأموال وغيرهما"[١]. والتثبت فيه من الفوائد ما لا يخفي من حفظ الأرواح وصيانة للدماء وحفظًا لحقوق الأفراد والجماعات ولا يجعلها عرضة للظن، ويقي المجتمع من مخاطر القرارات السريعة، غير المدروسة"[٢].

وقد جاءت آيات القرآن آمرة بالتثبت والتبين في جميع المجالات، ففي مجال العبادات قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[٣]. وفي مجال الجهاد في سبيل الله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾[٤]، إلى غير ذلك، وقد ذكر الله أنه بين لخلقه الحقائق حتى يكونوا على بينة من ربهم ولا يكون لهم حجة على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٥].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٧٤٤.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٩٠٨/٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٥.

الحديث رقم (١٥٥٠)

١٥٥٠- وعن سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت في رواية الأحاديث عن النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحث على الأمانة ومراعاة الدقة، والتحري في رواية الأحاديث النبوية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت في رواية الأحاديث عن النبي ﷺ:

إن الإسلام حرم الكذب، وأشد الكذب شناعة، الكذبُ على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين"، قال ابن عثيمين: "وأعظم الكذب وأشنعه أن يكون فيما يتعلق بحكم الله وشريعته، بأن يكذب على الله، فيقول في القرآن برأيه، ويفسر القرآن بغير ما أراد، أو يكذب على النبي ﷺ يقول: قال النبي ﷺ كذا، وهو كاذب، أو ينقل حديثًا يرى أنه كذب وهو لم يكذبه، ولكن يقول: قال فلان كذا وكذا عن رسول الله ﷺ وهو يرى أنه كذب، فإنه يكون أحد الكاذبين، كما بين رسول الله ﷺ"[2]، فالكذب على رسول الله ﷺ أشد أنواع الكذب، قال ابن حجر الهيتمي: "ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام، أو تحريم حلال كفر محض"[3].

---

(١) في المقدمة (٩/١) قبل حديث رقم (١) بدون رقم. وكذا من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦٣٤/٢.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي، ضبط أحمد الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ١٢٤/١، ١٢٥.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ:

لقد رهبّ النبي ﷺ من الكذب عليه، فقال ﷺ: "من حديث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"، "والكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء"[1]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده في النار"[3].

قال القرطبي: (قوله ﷺ: "من حَدّث عني بحديث يَرَى أنه كذب فهو أحد الكاذبين" قيدناه عن مشايخنا "يرى" مبنيًا للفاعل والمفعول، فيرى بالفتح بمعنى يعلم المتعدية لمفعولين وأن سدت مسدهما، وماضي يرى: رأي مهموزًا، وإنما تركت العرب همز المضارع لكثرة الاستعمال، وقد نطقوا به على الأصل مهموزًا في قولهم:

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصر ومن يتمنل العيش يرأَ ويسمع[4]

وربما تركوا همز الماضي في قولهم:

صَاحِ هَلْ رَيْت، أَوْ سَمِعْتَ براعٍ رَدَّ في الضَّرْعِ ما قَرَا في الحِلابِ؟[5]

ويحتمل ما في الحديث أن يكون بمعنى الرأي، فيكون ظنًا من قولهم: رأيت كذا: أي ظهر لي، وعليهما يكون المقصود بالذم في الحديث: المتعمد للكذب علمًا، أو ظنًا. وأما يُرى بالضم: فهو مبني لما لم يسم فاعله، ومعناها الظن وإن كان أصلها معدى بالهمزة من "رأى"، إلا أن استعماله في الظن أكثر وأشهر.

و(قوله: "فهو أحد الكاذبين"، رويناه بكسر الباء على الجمع فيكون معناه أنه أحد الكاذبين على رسول الله ﷺ الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى

---

(١) الكبائر، الإمام الذهبي، مؤسسة الريان للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ص ١٢٥.
(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٣.
(٣) أخرجه البخاري ١١٠.
(٤) سر صناعة الأعراب ١/٧٧، وجمهرة اللغة ١/٢٣٥.
(٥) لسان العرب ١/٣٢٩، الفائق في غريب الحديث ١/٣٠٧.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾(١). لأن الكذب على رسول الله ﷺ كذب على الله تعالى. ورويناه أيضًا بفتح الباء على التثنية، ويكون معناه: أن المحدث والمحدث بما يظنان، أو يعلمان كذبه كاذبان، هذا بما حَدّث، والآخر بما تَحَمّل من الكذب مع علمه، أو ظنه لذلك.

ويفيد الحديث التحذير عن أن يحدث أحد عن رسول الله ﷺ إلا بما تحقق صدقه علمًا أو ظنًا، إلا أن يحدث بذلك على جهة إظهار الكذب؛ فإنه لا يتناوله الحديث.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: ((اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إلاَّ مَا عَلِمْتُمْ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))(٢).

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ))(٣). أي: يَدْخُلها، وماضيه: ولج، ومصدره: الولوج، ومنه قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾(٤). وصدر هذا الحديث نهي، وعجزه وعيد شديد، وهو عام في كل كاذب على رسول الله ﷺ، ومطلق في أنواع الكذب، ولما كان كذلك هاب قوم من السلف الحديث عن رسوله الله ﷺ كعمر، والزبير بن العوام، وأنس بن مالك، وابن هرمز رضي الله عنهم أجمعين، فإن هؤلاء سمعوا كثيرًا، وحدثوا قليلاً، كما صرح الزبير رضي الله عنه بذلك؛ لما قال له ابنه عبدالله رضي الله عنه: إنِّي لا أسْمَعُكَ تُحدِّثُ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ كما يُحدِّثُ فُلانٌ وفُلانٌ. قال: أما إنِّي لم أُفارِقْهُ، ولكن سَمعتهُ يقولُ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيّ فلْيَتَبوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار))(٥).

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٣/١ رقم ٢٦٧٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤١٤/٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٦١.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٧.

وقال أنس: إنه يمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا أن رسول الله ﷺ قال: ((من كذب عليّ ...))[١]. الحديث. ومنهم من سمع وسكت كعبد الملك بن إياس، وكأن هؤلاء تخوفوا من إكثار الحديث الوقوع في الكذب، والغلط، فقللوا، أو سكتوا، غير أن الجمهور خصصوا عموم هذا الحديث، وقيدوا مطلقه بالأحاديث التي ذكر فيها: متعمدًا، فإنه يفهم منها: أن ذلك الوعيد الشديد إنما يتوجه لمن تعمد الكذب على رسول الله ﷺ، وهذه الطريقة هي المرضية؛ فإنها تجمع بين مختلفات الأحاديث؛ إذ هي تخصيص العموم، وحمل المطلق على المقيد مع اتحاد الموجِب والموجَب، كما قررناه في الأصول. هذا مع أن القاعدة الشرعية القطعية تقتضي: أن المخطئَ والناسي غير آثمين ولا مؤاخذين لاسيما بعد التحرز والحذر[٢].

قال النووي: وكما يحرم تعمد الكذب على رسول الله ﷺ فإنه يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعًا، أو غلب على ظنه وضعه ولم يبين حال روايته ووضعه، فهو داخل في هذا الوعيد مندرج في جملة الكذابين على رسول الله ﷺ، ويدل عليه قوله ﷺ "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين" ولهذا قال العلماء: ينبغي لمن أراد رواية الحديث أو ذكره أن ينظر، فإن كان صحيحًا أو حسنًا، قال: قال رسول الله ﷺ كذا أو فعله أو نحو ذلك من صيغ الجزم، وإن كان ضعيفًا فلا يصل، قال أو فعل أو أمر أو نهى، وشبه ذلك من صيغ الجزم، بل يقول روى عنه كذا أو جاء عنه كذا أو يروى أو يذكر أو يحكي، أو يقال أو بلغنا وما أشبهه"[٣]. ولذلك كان الصحابة والسلف الصالح أبعد ما يكون عن الكذب على رسول الله ﷺ، روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((إذا حدَّثتُكم عن رسولِ الله ﷺ فلأنْ أخرَّ منَ السماءِ أحبُّ إليَّ من أن أكذبَ عليه، وإذا حدَّثتكم فيما بيني وبينكم فإنَّ الحرب خدْعة))[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٤

(٢) المفهم ١/١١١-١١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ٣٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦١١.

إن الكذب رذيلة محضة، وخصلة ذميمة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب وأقبح الصفات، يقلب الموازين، ويمسخ الحقائق ويشوه وجه الجمال في كل شيء يداخله وينبئ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبه، ويجر به إلى الفجور والنفاق.

قال ﷺ: ((... وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ))[١].

وقال: ((أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافِقًا خالصًا، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا أُؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ))[٢].

ومن أشد أنواع الكذبِ وأشنعِه الكذبُ على الله تعالى أو الكذب على رسوله ﷺ لأنه افتراء في الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرؤ عظيم على الناس. ولهذا أجمع العلماءُ على تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، وأنه من الكبائر وأن من كذب عليه متعمدًا مستجيزًا لذلك فهو كافر.

قال ﷺ: ((إِنَّ كَذِبا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ. فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[٣].

وقال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّدًا فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[٤].

وهذا المعنى: وهو توعد من كذب على رسول الله ﷺ بالنار. ورد من طرق متواترة صرح بذلك غير واحد. ومن بشاعة هذه الجريمة وشناعتها أن بعض العلماء منهم الإمام أحمد ويحيى بن معين وأبو بكر الحميدي، أفتوا بأن من كذب على رسول الله ﷺ توبته مردودة ومن ثم لا تقبل روايته، إلا أن جماهير العلماء على خلاف قولهم.

بينما نجد أن من كذب على غير رسول الله ﷺ وإن كان ذلك إثمًا وفسقًا إلا أن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤، ومسلم ٥٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩١، ومسلم ٤.

توبته صحيحة بالإجماع[١].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحث على الأمانة ومراعاة الدقة، والتحري في رواية الأحاديث النبوية:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة، حفظ السنة النبوية وتحري الدقة في رواية الأحاديث النبوية، ولقد عرف الصحابة ﭫ منزلة السنة النبوية فتمسكوا بها، وتتبعوا آثار الرسول ﷺ، وأبو أن يخالفوها متى ثبتت عندهم، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء فارقهم عليه، واحتاطوا في رواية الحديث عنه ﷺ، خشية الوقوع في الخطأ، وخوفًا من أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف، وهي المصدر التشريعي الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره[٢]، فالإنسان ينبغي أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به علمًا خاصة في نقل الرواية عن رسول الله ﷺ، قال مالك: (وينبغي للمرء أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به خبرًا)[٣].

لقد كان سلفنا الصالح يبذلون جهدهم في تحري الصدق، والتثبيت فيما ينقلونه عن رسول الله ﷺ وينسبونه إليه، ومن دلائل ذلك ما روى عن أبي سعيد الخدري ﭬ قال: ((كنتُ في مجلسٍ من مجالسِ الأنصار، إذ جاءَ أبو موسى كأنه مَذْعور، فقال: استأذنتُ على عمرَ ثلاثًا فلم يُؤْذَنْ لي فرجَعت، فقال: ما منعَك؟ قلت: استأذنتُ ثلاثًا فلم يُؤْذَنَ لي فرجَعت، وقال رسولُ الله ﷺ: إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤذَن له فلْيَرْجع. فقال: والله لتُقيمَنَّ عليه ببيِّنة. أمِنكم أحدٌ سمعَهُ من النبيِّ ﷺ؟ فقال أُبيُّ ابن كعب: واللّهِ لا يقومُ معكَ إلا أصغَرُ القوم، فكنتُ أصغرَ القوم، فقمتُ معه فأخبرتُ عمرَ أن النبيَّ ﷺ قال ذلك))[٤].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ١/٥١٣، ٥١٤.

(٢) السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب ٩٢.

(٣) انظر: معالم في طريق طلب العلم، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

لقد حذرنا النبي ﷺ من الكذب عليه أو الأخذ ممن لا يتحرون الصدق، وذلك ابتعادًا عن الزلل وأمنا من الفتن.

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ))، وفي رواية أخرى: ((يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ))[1].

(١) أخرجه مسلم، ٦، ٧.

الحديث رقم (١٥٥١)

١٥٥١- وعن أسماء رضي الله عنها: أنَّ امْرأةً قالت: يَا رسولَ اللّه، إنَّ لِي ضَرَّةً فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذي يُعْطِيني؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: ((**المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

(**وَالمُتَشَبِّعُ**): هُوَ الَّذي يُظْهِرُ الشَّبَعَ وَلَيْسَ بِشَبْعَان. ومعناهُ هُنَا: أنْ يُظْهِرَ أنَّهُ حَصَلَ لَهُ فَضيلَةٌ وَلَيْسَتْ حَاصِلَةً. (**وَلابِسُ ثَوْبَي زُورٍ**) أيْ: ذِي زُورٍ، وَهُوَ الَّذِي يُزَوِّرُ عَلَى النَّاسِ، بِأنْ يَتَزَيَّى بِزِيِّ أهْلِ الزُّهْدِ أَو العِلْمِ أَو الثَّرْوَةِ، لِيَغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَلَيْسَ هُوَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَقِيلَ غَيرُ ذَلِكَ واللّهُ أعْلَمُ.

ترجمة الراوي:

أسماء بنت أبي بكر: سبقت ترجمتها في الحديث رقم (٣٢٥).

غريب الألفاظ:

ضَرّة: إحدى زوجتي الرجل أو إحدى زوجاته[2].

المتشبع: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك ويتزين بالباطل[3].

كلابس ثَوْبي زور: أي كالرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد يوهم أنه منهم، ويظهر التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه[4].

الشرح الأدبي

الحديث يقوم على حوار بين امرأة من المسلمين وبين رأس الأمة، ورسولها في حوار يدل على تواضع الرسول ﷺ الجم، وحرصه على صلاح الأمة، كما يدل على أدب المرأة، وصلاحها لأنها لم تقدم على الفعل حتى تستشير الرسول ﷺ فتعمل بتوجيهه

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠/١٢٧).

(٢) المعجم الوسيط في (ض ر ر).

(٣) فتح الباري ٢٢٨/٩.

(٤) فتح الباري ٢٢٨/٩.

وسؤالها (إنَّ لِي ضَرَّةً فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي؟) وظاهر السؤال يوحي برغبتها في تجاوز ما لها، ولذلك رد عليها الرسول ﷺ ردا صار قاعدة شرعية تنتفع بها كل الأمة، وترجع إليها، وهي من جوامع كلمه (المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) قوله (المتشبع) قيل: المتشبع المتزين بأكثر مما عنده يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل كالمرأة تكون لها ضرة فتشبع عندها بما تدعيه من الحظوة عند زوجها بأكثر مما عنده لها تريد بذلك غيظ صاحبتها وإدخال الأذى عليها، وكذلك هذا في الرجل وقال النووي المتكثر بما ليس عنده مذموم مثل من لبس ثوبي زور وقيل هو من يلبس قميصا واحدا ويصل بكميه كمين آخرين فيظهر أن عليه قميصين وقال الزمخشري في (الفائق) المتشبه بالشبعان وليس به واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها وشبه بلابس ثوبي زور أي ذي زور وهو الذي يزور على الناس بأن يتزيا بزي أهل الصلاح رياء وأضاف الثوبين إليه، لأنهما كانا ملبوسين لأجله وهو المسوغ للإضافة وأراد أن المتحلي كمن لبس ثوبين من الزور وقد ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر، وقال الكرماني معناه المظهر للشبع وهو جائع كالمزور الكاذب الملتبس بالباطل وشبه الشبع بلبس الثوب بجامع أنهما يغشيان الشخص تشبيها تحقيقا أو تخييليا كما قرر السكاكي في قوله تعالى: "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف" (النحل١١٢) قال وفائدة التشبيه المبالغة إشعارا بأن الإزار والرداء زور من رأسه إلى قدمه أو الإعلام بأن في التشبع حالتين مكروهتين فقدان ما تشبع به وإظهار الباطل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثانيًا: من آداب المدعو: الحرص على سؤال أهل العلم والفضل عما يشكل عليه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من تظاهر الإنسان بما ليس فيه.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حث المدعوين على التزام الصدق في الأقوال والأفعال.

أولاً- من أصناف المدعوين: النساء:

وردت الإشارة إلى هذا الصنف في الحديث: "فعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت:

يارسول الله إن لي ضَرّةَ فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ ..." فقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف، في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[١]، وهى تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء كانت بنتًا أو زوجة أو أمًا، فهى وإن كانت غير رجل، إلا إنها أم الرجال، وأخت الرجال، وخالة الرجال، وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء، فهن نصف المجتمع، وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هى عناية بالدعوة نفسها[٢]".

لقد حظيت النساء بدعوة النبي الكريم ﷺ. ولهذا شواهد كثيرة. ومنها ما يلي:

أ- نهي النساء عن احتقار الهدايا فيما بينهن:

روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا. وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ[٣]»[٤].

والمراد بالحديث كما قال الحافظ ابن حجر: لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئًا، ولو أنها تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب[٥]".

وقال أيضًا: ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء، أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: "لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت". فيتساوى في ذلك الغني والفقير[٦]".

وأما حكمة تخصيصهن بهذا التوجيه النبوي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٣-٧٤.

(٣) "فِرْسِنَ شَاةٍ " بكسر الفاء وسكون الراء وكسر السين ثم النون: حافر الشاة، (انظر فتح الباري، ١٠/٤٤٥).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٠١٧، ومسلم ١٠٣٠.

(٥) انظر: فتح الباري ١٠/٤٤٥.

(٦) فتح الباري ١٠/٤٤٥.

فقال عنها الحافظ ابن حجر: وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منها[١].

ب- نهي النساء عن رفع الرؤوس قبل الرجال:

روى الإمام أحمد عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا تَرْفَعْ رَأْسَها حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ رُؤُوسَهُمْ» قالت: وذلك أن أُزرهم كانت قصيرة، مخافة أن تنكشف عوراتهم إذا سجدوا[٢].

وواضح في الحديث أنه ﷺ قام بتوجيه النساء المسلمات بأن يمتنعن من رفع رؤوسهن في الصلاة قبل الرجال.

ج- موعظة النساء يوم العيد:

روى الشيخان عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ يوم الفطر، فصلّى، فبدأ بالصلاة، ثم خطب. فلما فرغ، نزل فأتى النساء فذكّرهنّ. الحديث[٣].

وقد ترجم الإمام البخاري عليه بقوله: [باب موعظة الإمام النساء يوم العيد].

وروى الإمام البخاري نحو هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا، وترجم عليه بقوله: [باب عظة الإمام النساء وتعليمهن].

فخلاصة الكلام كان النبي الكريم ﷺ يقوم بدعوة النساء[٤].

ثانيًا- من آداب المدعو: الحرص على سؤال أهل العلم والفضل عما يشكل عليه:

ذلك واضح في سؤال المرأة للرسول ﷺ: "إن لي ضرة فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟..."، فإن من القواعد المنهجية الهامة التي ينبغي الحرص عليها سؤال أهل العلم عند استشكال الأمور، وعدم اتضاح الحقائق، وخفاء الأحكام وإرجاع الأمور إلى العلماء الربانيين الموثوق في دينهم وعقيدتهم وصلاحهم[٥]، قال تعالى:

---

(١) المرجع السابق ٤٤٥/١٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦٩٤١، وقال محققو المسند حديث صحيح لغيره (انظر: مسند أحمد، ٥١٤/٤٤).

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٩٧٨، ومسلم ٨٨٥.

(٤) ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي، ١٥١-١٥٣.

(٥) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٨٦.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، فإن الأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم، يسألون رسول الله ﷺ، عن كل ما يعن لهم في شئون الدين، بل في الكثير من شئون الدنيا[٢].

إن في الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم صلاح العبادة، قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من تظاهر الإنسان بما ليس فيه:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث، فقال ﷺ: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

قال القرطبي: (وقولها: "هل علي جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟" سألته: هل يجوز لها أن تظهر لضَرّتها: أن زوجها قد مكنها، أو أعطاها من ماله أكثر مما تستحقه، أو أكثر مما أعطى لضرتها، افتخارًا عليها، وإيهامًا لها: أنها عنده أحظى منها، فأجابها ﷺ بما يقتضي المنع من ذلك، فقال: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". وأصل التشبع: تَفعّل من الشبع، وهو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان. وكثيرًا ما تأتي هذه الصيغة بمعنى التعاطي كالتكبر، والتصنع.

ويفهم من هذا الكلام: أن النبي ﷺ نهى المرأة عن أن تتظاهر وتتكاثر بما لم يعطها زوجها؛ لأنه شبه فعلها ذلك بما ينتهى عنه، وهو: أن يلبس الإنسان ثوبي زور. واختلف المتأولون؛ هل الثوبان محمولان على الحقيقة، أو على المجاز؟ على قولين:

فعلى الأول يكون معناه: أنه شبهها بمن أخذ ثوبين لغيره بغير إذنه، فلبسهما مظهرًا

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧-١٨.

(٣) جامع بيان العلم، لابن عبدالبر، ١٣٦/١.

أن له ثيابًا ليس مثلها للمظهر له. وقيل: بل شبهها بمن يلبس ثياب الزهاد، وليس بزاهد.

وعلى الوجه الثاني: قال الخطابي: إن ذكر الثوبين هنا كناية عن حاله ومذهبه. والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه. والمعنى: أنه بمنزلة الكاذب القائل ما لم يكن. وقيل: هو الرجل في الحي تكون له هيئة، فإذا احتيج إليه في شهادة زور شهد بها؛ فلا يرد لأجل هيئته، وحسن ثوبه. فأضيفت شهادة الزور إلى ثوبه؛ إذ كان سببها.

قلت: وأي شيء من هذه الوجوه كان المقصود، فيحصل منه: أن تشبع المرأة على ضرتها بما لم يعطها زوجها محرم؛ لأنه شبه بمحرم، وإنما كان ذلك محرمًا؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه، ورياء، وأذى للضرة من نسبة الزوج إلى أنه آثرها عليها، وهو لم يفعل، وكل ذلك محرم[1].

وجاءت "ثوبي" مثناة للإشارة إلى أن -كذب المتشبع بما لم يعط مثنى، لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ وعلى غيره، بما لم يعط، وكذلك شاهد الزور يظلم نفسه ويظلم المشهود عليه، قال الداودي: في التثنية إشارة إلى أنه كالذي قال الزور مرتين مبالغة في التحذير من ذلك، ويحتمل أن تكون التثنية إشارة إلى أنه حصل بالتشبع حالتان مذمومتان: فقدان ما يتشبع به وإظهار الباطل[2]، قال ابن عثيمين: ويزداد إثم التقول إذا تشبع الإنسان بما لم يعط، كما في حديث المرأة أنها يكون لها ضرة يعني زوجة أخرى مع زوجها، فتقول إن زوجي أعطاني كذا وأعطاني كذا، وهى كاذبة، لكن تريد أن تراغم -تغيظ- ضرتها وتفسدها على زوجها، فهذا كما قال النبي ﷺ "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور" أى كذب[3].

فإن ذلك لون من ألوان الخداع والغش، وذلك من الأعمال التي تؤدي إلى تحطيم دعائم المجتمع المسلم[4].

---

(١) المفهم ٥/٤٥١، ٤٥٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٩/٢٢٨-٢٢٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٣٤.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ١٠/٤٤٧٦.

رابعًا- من أهداف الدعوة: حث المدعوين على التزام الصدق في الأقوال والأفعال:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة الدعوة إلى تجنب الكذب سواء كان على الآخرين أو على النفس والحض على التزام وانتهاج الصدق والحق في الأقوال والأفعال، كما جاء في الحديث "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"، قال النووي : قال العلماء: المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور"[١]، لقد جاء في الحديث: الحث على عدم مخالفة الباطن الظاهر ما أمكن خاصة إذا ترتب على ذلك فساد، فإن من تظاهر بما ليس فيه كان من المزورين الكذابين، فلا يجوز لإنسان أن يتزين بغير زيه، بأن يتزين بزي أهل الزهد أو العلم أو الثروة ليغتر به الناس وليس هو بتلك الصفة[٢].

لذا كان ترهيب الإسلام من الكذب وحضه على الصدق وتحريه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣]، وفي ذلك أمر من الله للمؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، الذين صدقوا الله في إسلامهم وإيمانهم وأقوالهم وأفعالهم، وذلك لحاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق وذلك أن شطرًا كبيرًا من العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية تعتمد على صدق الكلمة، ولولا الثقة بصدق الكلمة لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٧٣٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٤) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٢٢٢-٢٢٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الاجتماعية:

من أهداف التربية الإسلامية تحقيق التماسك في المجتمع، لأن الإسلام قد حرص على توثيق الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، ولقد اهتم النبي ﷺ بهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا، وذلك من خلال الترخيص والاستثناء للكذب في بعض المواطن التي تتحقق فيها المصلحة العامة، وذلك بالضوابط التي ذكرها النبي ﷺ، وليس من خلال الهوى والميول الشخصية.

قال ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا وَيَقُولُ خَيْرًا»، فهذا النموذج التربوي أراد النبي ﷺ تبيين الحقائق لكي لا يختلط الأمر بين الحق والباطل، والرسول ﷺ ما فعل ذلك إلا لتحقيق مصلحة اجتماعية تسود من خلالها الألفة والانسجام والاستقرار من جهة، وتبادل المصلحة من جهة ثانية، لأن الأصل في الكذب عدم الجواز ولكن الرسول ﷺ، أراد مصلحة هي أعظم مما في الكذب من مضرة أو دفعًا لضرر بين فريقين متخاصمين ثم لا يجد وسيلة للإصلاح بينهما أنجح من أن يركب مركب الكذب فهو خير له، وإن أراد التوريه فهي أفضل، ثم أخذ هذا النموذج التربوي اتجاه اجتماعي وأسري آخر، وهو «حديث الرجلِ امْرَأَتَهُ، وحديث المرأةِ زَوْجَهَا»، وهذا النوع من الكذب المباح لأن به تشد أواصر الوفاق والمودة بينهما، فهذه حالة يتسامح فيها شيء من الكذب لتوثيق روابط الأسرة ولإضفاء الأضواء الشاعرية على مجالس الأنس والسمر والغزل بين الزوجين، ففي مثل هذه المجالس تحسين المبالغات وإن كانت كاذبة وتزداد معطيات المتعة والأنس والصفاء، وهذا ما يعمل الإسلام على تغذيته بين الزوجين، حتى تقوي الروابط بين الزوجين، ولا يفهم من ذلك الدعوة إلى التصنع والتكلف وعدم الواقعية وغير ذلك مما رفضه الإسلام لتنافيه مع الصدق ولكن الترخيص في الكذب استثناء وليس قاعدة، بهدف الحفاظ على تماسك الأسرة، وإذا كان الكذب محرمًا بصفة عامة إلا أنه يستثنى من ذلك ما رخص فيه النبي ﷺ لمصلحة اجتماعية، حيث توجد ظروف قد يكون فيها الكذب

أجدى من الصدق وأنفع للإنسانية، وهذا ما ذكرناه سلفًا(١).

ثانيًا: التربية بالتوجيه:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتوجيه، وهي من الأساليب القائمة على اغتنام الفرص والأوقات المناسبة للتوجيه: والرسول ﷺ في حديث الباب أراد توجيه الصحابة على عدم التسرع في الحكم، وذلك من خلال قوله ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، ...».

إن الرسول ﷺ أراد أن يصحح الفهم، ويبين التصور الصحيح لهذا السلوك الذي يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي، لأن الرسول ﷺ أراد أن يربي الصحابة على أن الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب، يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب.

إن هذا الكلام ليس على إطلاقه حتى لا يسوغ للبعض أن يتخذه ذريعة الكذب من وجهة نظره، وبالتالي تتدخل الأهواء والميول الشخصية، وتضيع الأمور كلاً. إن هذه المسألة ترتبط حرفيًا بالضوابط التي وضعها النبي ﷺ وهي المصلحة العامة ولبست المنافع المادية الشخصية، والرسول ﷺ أراد التوجيه الإيجابي الحسن الذي ذكره في حديثي الباب بيان ما يمكن اتباعه عند التعرض للكذب وعند التعرض لوحدة المجتمع لنه يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية، والذي ظهر من الحديث(٢).



(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص٣٨، الوجيز في الأخلاق الإسلامية، ص٢٤٦، روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٢٣٢، المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص٤٠٧.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٢٧٨، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص٢٥٥.

٢٦٣- باب بيان غلظ تحريم شهادة الزُّور

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَاجْتَنِبوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: ٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ولاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿إنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[الفرقان: ٧٢].

الحديث رقم (١٥٥٢)

١٥٥٢- وعن أَبي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللّه ﷺ: **((ألاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ**[١]**؟))** قُلْنَا: بَلَى يَا رسولَ اللّهِ. قَالَ: **((الإشْراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ))** وكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: **((ألا وَقولُ الزُّورِ))** فما زال يُكَرِّرُهَا حَتَّى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

الكبائر: جمع كبيرة: الفَعْلَةُ القبيحةُ من الذنوب المنهيُّ عنها شَرْعًا، العظيم أثرها؛ كالقتل، والزنا، والفرار من الزحف وغير ذلك[٣].

عقوق الوالدين: عصيانهما وإيذاؤهما[٤].

الزور: الكذب والباطل والتهمة[٥].

الشرح الأدبي [٦]

المضامين الدعوية [٧]

---

(١) عندهما زيادة: (ثلاثًا).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧)، وتقدم برقم (٣٣٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦١١).

(٣) النهاية في (ك ب ر).

(٤) النهاية في (ع ق ق).

(٥) النهاية في (ز و ر).

(٦) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (٣٣٧).

(٧) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٣٧).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتشويق:

من أساليب التربية الإسلامية "التشويق" وهو من الأساليب التي استخدمها رسول الله ﷺ في أحاديثه، والتي منها حديث الباب، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا بلى يا رسول الله، قال: ... »، ففي الحديث يشوق النبي ﷺ أصحابه إلى معرفة تلك الكبائر التي شدَّ النبي ﷺ انتباههم إلى التعرف عليها، حيث جعل النبي ﷺ النفوس تنزع إلى الشيء الذي سيذكره وجعل للصحابة رضي الله عنهم رغبة في معرفة هذا لأنه قال "ألا" ولم يذكر الأشياء مرة واحدة، فجعل من ذلك تطلع إلى معرفة هذا الشيء الذي سيذكره الرسول ﷺ، وبهذا يكون قد حرك القوة الداخلية في الإنسان، والموجِّهة لإرادته والدافعة له حتى ينمو عنده سلوكًا معينًا ألا وهو التشويق لمعرفة ما سيخبر به رسول الله ﷺ فتتربى عنده دوافع ذاتية تدفعه إلى الفضائل وتبعده عن الرذائل حتى يكون عالي الهمة لا يرضى أن يكون مقترفًا للمعاصي أو الكبائر.

والرسول ﷺ في هذا الحديث أراد أن يربي في النفس البشرية، أن تكون عليَّةً لا ترضى بالظلم والفواحش لأنها أكبر من ذلك، لذلك حرص في حديثه على إبراز دافع قوي يدفع عن الشر ويحفز للخير، وذلك من خلال إثارة حواس النفس كما في الحديث، فتظل النفس تتطلع إلى ما سيلقى إليها بشوق ولهفة لمعرفة هذه الكبائر العظام، فيتمنى من الله أن لا يقع فيها، وهذا مما يزيد الرغبة في عمل الخير وتجعله يجد ويحرص على العمل والجد والمثابرة[١].

ثانيًا: التربية بالتَّكْرار والتأكيد:

من أصول التربية الإسلامية التربية بالتَّكْرار والتأكيد لما فيه من إعادة الشيء

---

(١) التربية الذاتية في الكتاب والسنة، هشام علي أحمد، ص٧٤. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني، ص٢٢٤. أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٢٩٧.

مرارًا، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في تربيته للصحابة، وفي حديث الباب ما يدل على التكرار، فقال ﷺ: ((ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يُكَرِّرُها حتّى قلنا: لَيتَهُ سَكَتَ)). مما يبرز أهمية التكرار وأنه أسلوب مفيد للغاية في عملية التربية، لأن الرسول ﷺ كان يحرص أثناء تربيته للصحابة على تأكيد أشياء لها أهميتها، وفي الحديث يؤكد الرسول ﷺ على خطورة قول الزور وشهادة الزور، وذلك لما يترتب عليها من مفاسد كبيرة تؤثر على الفرد والمجتمع، وتفسد علاقة العبد بربه، ومن فوائد التكرار هنا الحفظ، فإن الرسول ﷺ حرص على أن يحفظ الصحابة رضي الله عنهم هذا التحذير وليجعل كل واحد من الصحابة رضي الله عنهم نصب عينيه هذا التحذير. والرسول ﷺ يعلم أهمية هذه الوسيلة في تثبيت المعنى في القلوب وفي النفوس لتشعر بخطورة هذا الأمر وبشاعته، وظل رسول الله ﷺ يكرر حتى قال الصحابة ليته سكت، فهو فعل ما أمكن استطاعه من التكرار، ليتأكد بما لا يدع مجالاً للشك، إن مثل هذه الأمور يجب اجتنابها والبعد عنها للخطر الكبير والإثم العظيم المترتب عليها[1].

ثالثًا: التربية الشمولية:

من خصائص التربية الإسلامية أنها تربية شمولية متكاملة في كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته ومعاده، ففي حديث الباب ما يدل على ذلك: «... قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: الإِشراك بالله، وعُقوق الوالِدَين. وكان متَّكِئًا فجلسَ فقال: ألا وقولُ الزُّور...»، فالرسول ﷺ ذكر أشياء في هذا الحديث تدل على أن التربية النبوية شاملة لجميع جوانب الشخصية من الناحية العقدية، والعبادية، والأسرية، والاجتماعية، فهي لم تقتصر في الحفاظ على جانب واحد فقط بل اهتمت بجميع الجوانب كما ذكرنا، وأثر هذا الاهتمام يتأتى في تنمية الروح وتغذية الجسم وتثقيف العقل وتكوين الأخلاق الحسنة، وغرس الفضيلة في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد على أساس من التقوى والتكافل والتعاون.

---

(١) انظر: التربية في السنة النبوية، أبولبابة حسين، ص٧٠، وآداب المتعلمين، د. أحمد عبدالله الباتلي، ص١٠١. وأساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٠٣.

والرسول ﷺ في تأسيسه للتربية الشمولية في أحاديثه وضع قاعدة هامة وعامة، وهي القاعدة الموضوعية لأنه لم يفصل بين "الدين والدنيا" بل شمل شؤون الحياة في الدنيا والآخرة، لأنه التشريع الخالد إلى يوم القيامة وإنساني، لأنه خاطب البشرية جمعًا، وفطريًا لأنه وقف ما بين مطالب الروح والجسد، ومكاني، لأنه صالح لكل زمان ومكان، ومن شموله إنه لم يغفل العلاقات الأسرية [الجيران]، وجميع جوانب الأخلاق، فما ترك الإسلام جانبًا من جوانب الحياة إلا وقد تناولتها الشريعة، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر، والطاهر من الخبيث، والصحيح من الفاسد وبهذا الشمول الذي تتسم به الشريعة الإسلامية، فإنها في غاية الكمال، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1][2].



(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، أ.د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٣٥، ٧٥، وأصول التربية الإسلامية، أ.د. خالد الحازمي، ص ٤٦.

٢٦٤- باب تحريم لعن إنسان بعينه أَوْ دابة

الحديث رقم (١٥٥٣)

١٥٥٣- عن أَبي زيدٍ ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ من أهلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلاَمِ كاذِبًا (مُتَعَمِّدًا) [١]، فَهُوَ كَما قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ، عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُهُ،(وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ) [٢])) متفق عَلَيْهِ[٣].

ترجمة الراوي:

ثابت بن الضحاك: هو ابن خليفة بن ثعلبة الأنصاري. ولد سنة ثلاث من البعثة.

له صُحبة برسول الله ﷺ ورواية عنه.

وكان رديف النبي ﷺ يوم الخندق، ودليله إلى حمراء الأسد، وكان ممن بايع تحت الشجرة في بيعة الرضوان.

وقال البخاري والترمذي كما في الإصابة إنه شهد بدرًا، وقيل إنه لم يشهدها.

وبلغت أحاديثه عن النبي ﷺ ١٤ حديثًا. وتوفي سنة ٥٤هـ[٤].

غريب الألفاظ:

بملة: الملة: الدين[٥].

لعن المؤمن: سبُّه وشَتْمُه[٦].

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١١٠/١٧٧).

(٢) هذه الزيادة عند مسلم بعد حديث (١١٠/١٧٦، بدون رقم)، والبخاري برقم (٦١٠٥) من حديث أبي قلابة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠/١٧٦). والسياق للحميدي في جمعه (٥١٦/١، رقم ٨٤٢).

(٤) الإصابة (١٥٠)، الأعلام للزركلي (٩٨/٢)، الاستيعاب (١٠٣)، أسد الغابة (٤٤٦/١-٤٤٧)، تهذيب الكمال (٤٠٦/١)، تهذيب التهذيب (٢٦٥/١).

(٥) النهاية في (م ل ل).

(٦) النهاية في (ل ع ن).

الشرح الأدبي

ذكر ما يتعلق بالراوي من رؤية، أو سماع، أو صحبة للنبي ﷺ، أو حضور غزوة أو بيعة كقوله (وَهُوَ من أهلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ) من تعديل الراوي وتزكيته، وهو لون من ألوان توثيق الحديث ؛ لأنهم الثقات العدول الذين لا يبلغهم التجريح، والحديث يهدد في بدايته ويحذر في سياق الشرط من الحلف الكاذب بملة غير الإسلام بنسبته إلى تلك الملة الباطلة التي حلف بها (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ كاذِباً مُتَعَمِّداً، فَهُوَ كَمَا قَالَ) وهو يربط بين الحلف على ملة غير الإسلام بالقيد المذكور وبين الكون على ما قاله أي يصير إلى الملة التي حلف عليها، وهو يتضمن التحذير من الكذب في اليمين، ويتضمن التحذير من الحلف بملة غير الإسلام، والخطأ الثاني الذي يحذر منه الحديث في ثوب الشرط (وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ، عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) حيث ربط بين قتل النفس بشيء، والعذاب به يوم القيامة، وبذلك يجعل أداة القتل في يد القاتل أداة تعذيبه يوم القيامة، مما يعني أنه ينتقل من هول إلى هول، وتقييدها بيوم القيامة يزيد الأمر هولا، ثم قرر قاعدة شرعية في قوله (وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُهُ) وهو أسلوب نفي لتحمل الإنسان ما لا يطيق من النذر، (وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ) تشبيه للعن المسلم بقتله تعظيما لهذا الذنب يقتضي الحذر منه قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : قَالَ الْإِمَامُ – يَعْنِي الْمَازِرِيَّ – : الظَّاهِرُ مِنْ الْحَدِيثِ تَشْبِيهُهُ فِي الْإِثْمِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ وَاقِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّعْنَةَ قَطْعٌ عَنْ الرَّحْمَةِ، وَالْمَوْتَ قَطْعٌ عَنْ التَّصَرُّفِ قَالَ الْقَاضِي، وَقِيلَ : لَعْنَتُهُ تَقْتَضِي قَصْدَهُ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْعَهُمْ مَنَافِعَهُ، وَتَكْثِيرَ عَدَدِهِمْ بِهِ كَمَا لَوْ قَتَلَهُ، وَقِيلَ : لَعْنَتُهُ تَقْتَضِي قَطْعَ مَنَافِعِهِ الْأُخْرَوِيَّةِ عَنْهُ، وَبُعْدَهُ مِنْهَا بِإِجَابَةِ لَعْنَتِهِ فَهُوَ كَمَنْ قُتِلَ فِي الدُّنْيَا، وَقُطِعَتْ عَنْهُ مَنَافِعُهُ فِيهَا .

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١-حكم لعن المسلم: لا خلاف بين الفقهاء في تحريم وتغليظ لعن المسلم[1].

(١) شرح صحيح مسلم مج١/ج٢/١٠٧ ط دار الكتب العلمية.

٢-حكم لعن الكافر: لا يجوز لعن أعيان الكفار حيًا كان أو ميتًا، إلا من علمنا بالنص أنه مات كافرًا كأبي لهب وأبي جهل وشبههما، ويجوز لعن طائفتهم كقولك لعن الله الكفار، ولعن الله اليهود والنصارى[١].

٣-بيان غلظ تحريم قتل النفس، واليمين الفاجرة التي يقتطع بها مال غيره، والحلف بملة غير الإسلام كقوله هو يهودي أو نصراني إن كان كذا[٢].

٤-لا يصح النذر فيما لا يملك ولا يلزم بهذا النذر شيء[٣].

٥-حكم لعن البهائم: يحرم لعن البهائم[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل أهل بيعة الرضوان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف على يمين بغير ملة الإسلام.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس البشرية والترهيب من إزهاقها.

رابعًا: من خصائص الدعوة: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أهل بيعة الرضوان:

وردت الإشارة إلى ذلك في بيان كون راوي الحديث من أهل بيعة الرضوان "فعن أبي زيد ثابت بن الضحاك الأنصاري ﷺ وهو من أهل بيعة الرضوان"، وبيعة الرضوان كانت بالحديبية سنة ست من الهجرة، وسببها أنه أشيع أن قريشًا قتلوا عثمان ﷺ، فبايع الصحابة رسول الله ﷺ على قتالهم والموت في سبيل الله[٥]، وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعه الرضوان هذه مباشرة، وقد عرفت البيعة بذلك[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢، وسبل السلام ٣٤١/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٤) شرح منتهى الإرادات ٢٤٧/٣-٢٤٨، وكشاف القناع ٤٩٤/٥، وشرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٥) سيرة ابن هشام ٣٠٨/٣.

(٦) موسوعة نضرة النعيم ٢٣٧/١.

لقد خرج النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالاً، ولما غاب عثمان رضي الله عنه في مكة، وشاعت القالة بأنه رضي الله تعالى عنه قد قتل، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال، أخذ أهبته للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول، وهو رسول سلام، وهذا أمر منكر وقبيح في ذاته، وفوق ذلك يتضمن في ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله، إذ الرسول لا يقتل، ولكن يرد إلى مأمنه، سواء رفضوا الرسالة أم قبلوها.

لا بد إذن من الأهبة، وما خرجوا للقتال، فلابد من أخذ البيعة به، لأن القتال برضا الجند، وتلك سنة نبوية في كل حروبه عليه الصلاة والسلام، فإنه يريد جندًا مختارًا يقدم بنفسه برضا واختيار، محتسبًا النية لله تعالى طالبًا ما عند الله.

لذلك أخذ البيعة على من معه، وكان يبايعهم على الموت، وعلى ألا يفروا من الميدان، لأن الرسول ﷺ قرر القتال، وقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام.

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايع رسول الله ﷺ كل من معه، ولم يتخلف عن البيعة أحد إلا واحد، وما كان ليلتفت إليه.

ولقد رضي الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الإحرام ويلبسوا ملابس القتال، وقال الله تعالى فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ

﴿بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(١)، وفي هذه الآيات يخبر الله عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة(٢)، زيادة على ذلك وهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه المغانم أن يكف أيديهم عنكم، فكانت هذه غنيمة عاجلة، وكان هذا فتحًا مبينا.

ولقد قال رسول الله ﷺ لمن بايعه يومئذ "أنتم خير أهل الأرض"(٣)، وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها"(٤)، قال النووي: قال العلماء: "معناه لا يدخلها أحد منهم قطعًا، وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك"(٥).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف على يمين بغير ملة الإسلام:

إن من أراد أن يسلم له الإيمان فليتق الله في الأيمان، وليبتعد عن الأيمان المخالفة لهدى رسول الله ﷺ، ومنها ما جاء الترهيب منها في الحديث، فقال ﷺ "من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال".

قال القرطبي: وقوله: "من حلف على يمين بملة غير الإسلام"، اليمين هنا: يعني به المحلوف عليه، بدليل ذكره المحلوف به، وهو بملة غير الإسلام، ويجوز أن يقال: إن "على" صلة، وينتصب يمين على أنه مصدر ملاق في المعنى لا في اللفظ.

وقوله: "كاذبًا متعمدًا" يحتمل أن يريد به النبي ﷺ: من كان معتقدًا لتعظيم تلك الملة المغايرة لملة الإسلام، وحينئذ يكون كافرًا حقيقةً، فيبقى اللفظ على ظاهره. "وكاذبًا" منصوب على الحال، أي: في حال تعظيم تلك الملة التي حلف بها، فتكون هذه

---

(١) سورة الفتح، الآيات: ١٨-٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، ٧/٣٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٩٨.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٩٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥١١.

الحال من الأحوال اللازمة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾(١). لأن من عظم ملة غير الإسلام كان كاذبًا في تعظيمه دائمًا في كل حال، وكل وقت، لا ينتقل عن ذلك، ولا يصلح أن يقال إنه يعني بكونه كاذبًا في المحلوف عليه؛ لأنه يستوي في ذمه كونه صادقًا أو كاذبًا إذا حلف بملة غير الإسلام؛ لأنه إنما ذمة الشرع من حيث إنه حلف بتلك الملة الباطلة معظمًا لها، على نحو ما تعظم به ملة الإسلام الحق، فلا فرق بين أن يكون صادقًا أو كاذبًا في المحلوف عليه، والله تعالى أعلم.

وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثم، مرتكب كبيرة؛ إذ قد نسبه في قوله لمن يعظم تلك الملة ويعتقدها، فغلظ عليه الوعيد، بأن صيره كواحد منهم مبالغة في الردع والزجر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾(٢). وهل تجب عليه كفارة أم لا؟ اختلف العلماء في ذلك، فروي عن ابن المبارك مما ورد مثل هذا: أن ذلك على طريقة التغليظ، ولا كفارة على من حلف بذلك وإن كان آثماً، وعليه الجمهور، وهو الصحيح، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف باللات فليقل لا إله إلا الله»(٣). ولم يوجب عليه أكثر من ذلك. ولو كانت الكفارة واجبة لبينها النبي ﷺ حينئذ، لأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وقد ذهب بعض العراقيين إلى وجوب الكفارة عليه.

وقال ابن علان: قوله ﷺ من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال: كأن قال: والله إن فعلت كذا فهو يهودي أو نصراني، فهو كما قال أي إذا أراد التدين بذلك والعزم عليه إن فعل ذلك فيصير كافرًا حالاً، لأن العزم على الكفر كفر، أما إذا أراد المبالغة في منع نفسه من ذلك، وألا يفعله البتة من غير عزم على ذلك المحلوف به البتة، فمعصية يستغفر الله منها(٤)، قال ابن عثيمين رحمه الله: وهذا يدل على

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥١.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٢، ٣١٣.

(٤) دليل الفالحين ١٦١٣.

أن الحلف بملة غير الإسلام متعمدًا من كبائر الذنوب، فإن كان غير كاذب بأن كان صادقًا فإنه لا يلحقه هذا الوعيد، لكننا نقول إذا كنت حالفًا فاحلف بالله، كما قال الرسول ﷺ "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليسكت"(١)(٢).

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس البشرية والترهيب من إزهاقها

إن من أهداف الدعوة، الحفاظ على الضرورات الخمس، والتي منها الحفاظ على النفس، سواء كانت نفس الغير أم نفس الإنسان ذاته، ومن ذلك ما جاء في الحديث من ترهيب الإسلام من قتل الإنسان لنفسه، قال ﷺ "ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة"، فلقد حفظ الإسلام حق الحياة، وحماه بالتربية والتوجيه وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية، واعتبر الحياة هبة من الله لايجوز لأحد أن يسلبها غيره(٣)، فضلاً عن أنه لا يجوز له أن يسلبها نفسه، كما جاء في الحديث من الترهيب من قتل النفس، ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة " ليكون الجزاء من جنس العمل(٤)، وقد تضافرت النصوص على تحريم قتل الإنسان لنفسه، وبيان أن ذلك من أسباب استحقاق النار، فعن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "كان برجل جراح فقتل نفسه، فقال الله: بدرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة(٥)، إذ أن المنتحر قاتل للنفس التي حرم الله تعالى قتلها، فكان من أهل النار(٦).

ويتحقق قتل الإنسان نفسه، أو ما يسمى الانتحار بوسائل مختلفة، ويتنوع بأنواع متعددة كالقتل.

فإذا كان إزهاق الشخص نفسه بإتيان فعل منهي عنه كاستعمال السيف أو الرمح أو البندقية أو أكل السم أو إلقاء نفسه من شاهق أو في النار ليحترق أو في الماء ليغرق

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٧٩، ومسلم ٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦٣٧/٢.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٤.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٣.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٦٤، ومسلم ١١٣.

(٦) موسوعة نضرة النعيم ٥٢٩٩/١١.

وغير ذلك من الوسائل، فهو انتحار بطريق الإيجاب.

وإذا كان الإزهاق بالامتناع عن الواجب، كالامتناع من الأكل والشرب وترك علاج الجرح الموثوق ببرئه بما فيه من خلاف سيأتي، أو عدم الحركة في الماء أو في النار أو عدم التخلص من السبع الذي يمكن النجاة منه، فهو انتحار بطريق السلب.

ويقسم الانتحار بحسب إرادة المنتحر إلى نوعين: الانتحار عمدًا والانتحار خطأ.

فإذا ارتكب الشخص عملاً حصل منه قتل نفسه، وأراد النتيجة الحاصلة من العمل، يعتبر القتل انتحارًا عمدًا. كرمي نفسه بقصد القتل مثلاً.

وإذا أراد صيدًا أو قتل العدو فأصاب نفسه، ومات، يعتبر انتحارًا خطأ.

ويمكن أن يحصل الانتحار بطريق يعتبر شبه العمد عند غير المالكية، كقتل الإنسان نفسه بما لا يقتل غالبًا، كالسوط والعصا.

وقد يكون الانتحار بسبب سلبي وذلك مثل:

الامتناع من المباح: من امتنع من المباح حتى مات كان قاتلاً نفسه، متلفًا لها عند جميع أهل العلم. لأن الأكل للغذاء والشراب لدفع العطش فرض بمقدار ما يدفع الهلاك، فإن ترك الأكل والشرب حتى هلك فقد انتحر، لأن فيه إلقاء النفس في التهلكة المنهي عنه في محكم التنزيل.

وإذا اضطر الإنسان للأكل أو الشرب من المحرم كالميتة والخنزير والخمر، حتى ظن الهلاك جوعًا، لزمه الأكل والشرب، فإذا امتنع حتى مات صار قاتلاً نفسه، بمنزلة من ترك أكل الخبز وشرب الماء في حال الإمكان، لأن تاركه ساع في إهلاك نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. وكذلك حكم الإكراه على أكل المحرم، فلا يباح للمكره الامتناع من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير في حالة الإكراه، لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطرار لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[2]. والاستثناء من التحريم إباحة، وقد تحقق الاضطرار بالإكراه، ولو امتنع عنه

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١١٩.

حتى قتل يؤاخذ به ويعد منتحرًا، لأنه بالامتناع عنه صار ملقيًا نفسه في التهلكة.

أما عن الحكم التكليفي للانتحار، فإنه حرام بالاتفاق، ويعتبر من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[1]. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2]. وقد قرر الفقهاء أن المنتحر أعظم وزرًا من قاتل غيره، وهو فاسق وباغ على نفسه، حتى قال بعضهم: لا يغسل ولا يصلى عليه كالبغاة، وقيل: لا تقبل توبته تغليظًا عليه.

كما أن ظاهر بعض الأحاديث يدل على خلوده في النار، منها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن تَرَدَّى من جبل فقتلَ نفسَه فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن تحسَّى سمًا فقتَلَ نفسه فسمُّهُ في يده يَتحساهُ في نارِ جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن قتلَ نفسه بحَديدة فحديدتهُ في يده يَجأُ بها في بطنهِ في نار جهنمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[3][4].

رابعًا: من خصائص الدعوة: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم

ورد في الحديث صورة من صور تيسير الإسلام على أتباعه في قوله صلى الله عليه وسلم "ليس على رجل نذر فيما لا يملكه"[5]، أي لا يجب عليه الوفاء بنذر شيء لا يملكه، وذلك من مظاهر تيسير الإسلام على أتباعه، فإن المتتبع لما شرعه الله علينا يرى أن مظاهر رفع الحرج فيها واضحة جلية لا غموض فيها ولا خفاء، ذلك لأن الشريعة الإسلامية قد تميزت بعدم العنت والمشقة، ورفع الحرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[6]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[7]، وذلك مما يدل على أن

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٧٨، ومسلم ١٠٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٨١/٦-٢٨٤.

(٥) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٧) سورة الحج، آية: ٧٨.

رعاية التيسير والتخفيف مقصودة من الشارع الحكيم[1].

ولقد كانت وصية رسول الله ﷺ دائمًا للأمة ولاة وآحادًا بالتيسير والابتعاد عن التعسير، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن ومعاذ بن جبل قال لهما: «يَسرا ولا تعسِّرا، وبَشِّرا ولا تنفِّرا، وتَطاوَعا»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وبشروا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[3].

(١) انظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام، ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٤، ومسلم ١٧٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٢٥.

الحديث رقم (١٥٥٤)

١٥٥٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا)). رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

لعانًا: الدعاء بالإبعاد من رحمة الله(٢).

الشرح الأدبي

الحديث قصير يتميز بالإيجاز وأسلوبه خبري يبدأ بنفي الانبغاء على الحالة المذكورة وهي نفي اجتماع الصديقية مع صفة اللعن، والتعبير بلفظ (صديق) يوحي بقمة محاسن الخلق التي يتصور العقل معها وجود كل صفة حسنة والتعبير بصيغة المبالغة (لعان) بصيغة التكثير ولم يقل لاعنا واللاعنون لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر منه اللعن لا لمرة ونحوها ولأنه يخرج منه أيضا اللعن المباح وهو الذي ورد الشرع به وهو لعنه الله على الظالمين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الواصلة والواشمة وشارب الخمر وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين وغيرهم، وفي الحديث الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة ؛ لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه.

---

(١) برقم (٢٥٩٧/٨٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٩).

(٢) شرح مسلم ١٥٤٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب اللعن.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية تحلي المؤمن بالخلق الكريم والبعد عن اللعن.

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب اللعن

إن كثرة اللعن والإيذاء تنافي كمال التصديق وثبات الإيمان[١]، ولذلك جاءت النصوص الكثيرة الناهية عن اللعن، ومن ذلك ما جاء في الحديث في قوله ﷺ "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، قال القاضي عياض: (وذلك تعظيم لاثم اللعن وتجنبه، وأنه ليس من أخلاق المؤمنين والصديقين ولا الشهداء والشفعاء يوم القيامة، وأن من تخلق به فليس من هذه الطبقات العزيزة الرفيعة لأن اللعنة -وإن كان أصلها في اللغة الترك والإبعاد- فصار استعمالها في الدعاء والإبعاد من رحمة الله، وليس هذا خلق المؤمنين الذين وصفهم الله بالرحمة بينهم، والتعاون على البر، وأنهم كالجسد الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضًا، وأن المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومثله قوله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»[٢].

فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة، وهي البعد من رحمة الله، وهي بمثابة المقاطعة والعداوة ومحبة الشر أجمعه له، وهي ضد الشفاعة والشهادة المقتضية للإشفاق والرحمة وهي غاية ما يرده الكافر وغاية أصله وعاقبة أمره، فكيف يجوز لمسلم وقر الإيمان في قلبه أن يحبه لأخيه ويدعو عليه به[٣].

قال النووي رحمه الله: "فيه الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة، لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم، والتعاون على

---

(١) شرح رياض الصالحين د. الحسيني هاشم، ٧٣١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٩.

(٣) إكمال المعلم ٨/٦٨..

البر والتقوى وجعلهم كالبنيان المرصوص، يشد بعضهم بعضًا، وكالجسد الواحد، وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى، فهو من نهاية المقاطعة والتدابر، وهذا غايه ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه"[١]، وجاء التعبير في الحديث بصيغة المبالغة، فقال: "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، قال ابن علان: أي ليس شأنه ووصفه المبالغة بالإكثار منه، فأومأ إلى أنه إذا ندر منه ذلك حينًا فلا ينافي وصفه بالصديقية، لأن غلبة الحال قد تحمل عليه[٢].

وقد جاءت النصوص الجمة التي تحث على اجتناب اللعن، إذ أنه لون من ألوان الفحش التي حاربها الإسلام، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن يَهودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنَكُم الله وغضِبَ الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش. قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ ردَدتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ»[٣].

وبين ﷺ أن الفحش إذا اتصف به إنسان كان من أشر الناس، وذكر ابن حجر الهيتمي أن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، مستدلاً بقوله ﷺ: « إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشهِ»[٤]. وبما روي عن الإمام أحمد بن حنبل من أن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وأن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا[٥].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية تحلي المؤمن بالخلق الكريم والبعد عن اللعن

لقد أولى الإسلام الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الكريمة رعاية كاملة مقطوعة النظير، "فالأخلاق الكريمة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بمراعاة طبيعته

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٩.

(٢) دليل الفالحين ١٦١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٠ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٥٤ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩١.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/١٥٢، ١٥٣.

وقدراته، وما سخر له في السماوات والأرض، وبما أنزل عليه من كتب، وما أرسل إليه من رسل، وبذا تتحقق كرامة الإنسان ويتهيأ لها للعمل الصالح المحكوم بسياج العقيدة الصحيحة[١]. ومن أهم هذه الأخلاق التمسك بأحسنها والبعد عن اللعن والفحش في الأقوال والأفعال، فقال ﷺ: "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"[٢]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: "ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه"[٣].

ولله در القائل:

أُحِبُّ مكارِمِ الأخلاق جَهْدِي   وأَكْـره أن أَعيب وأن أُعابَا
وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْمًا   وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا[٤]

وعن حُكْم اللعن وملازمته وهو أحد ألوان الفحش، ذكر ابن حجر الهيتمي أن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، مستدلاً بما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذَنَ رجلٌ على رسولِ الله ﷺ، فقال: ائذَنوا له، بئسَ أخو العشيرة أو ابن العشيرة. فلما دَخلَ ألانَ له الكلام. قلت يا رسول الله قلتَ الذي قلتَ ثم أَلنتَ له الكلام. قال: أي عائشة، إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشِهِ»[٥]. وبما روى عن أحمد بن حنبل من أن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وأن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا[٦].

ولقد جاءت النصوص الكثيرة في التحذير من اللعن والفحش، ومن ذلك ما روى عن

---

(١) القيم الحضارية في رسالة الإسلام، محمد فتحي عثمان، الدار السعودية، الطبعة الأولى،١٤٠٢هـ،ص٤٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣٨٣٩، والحديث قال عنه محققو المسند حديث حسن، (مسند الإمام أحمد ٣٩١/٦).

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٧٤، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله، (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٧).

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٥٢٣٥/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٥٤ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩١.

(٦) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١٥٢/١، ١٥٣.

عائشة رضي الله عنها: «أن يهودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنَكُم الله وغضِبَ الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش. قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ»(١).

وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلْم ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ، وإيّاكُمْ والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ التَّفَحُّش، وإيّاكُمْ والشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أَمرَهُمْ بالقطيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بالفُجُورِ فَفَجَرُوا ... الحديث»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَسَمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَسْمًا. فَقُلْتُ: وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ لَغَيْرُ هؤُلاَءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ. قَالَ: «إِنَّهُمْ خَيَّرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي. فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ»(٣).

وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللّهِ. مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللّهِ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ... الحديث»(٤).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»(٥).

إن للفحش واللعن وما شاكلهما من الأخلاق الذميمة مضارها التي لا تنكر، والتي لها آثارها السلبية على الأفراد والمجتمعات، ومن هذه المضار:

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٣٠ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٦٤٨٧، وقال محققو المسند إسناده صحيح، انظر: (مسند الإمام أحمد ٢٦/١١).

(٣) أخرجه مسلم ١٠٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٢٠، ومسلم ٢٧٦٠ واللفظ له.

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٣٨٣٩، والحديث قال عنه محققو المسند حديث حسن، (مسند الإمام أحمد ٣٩١/٦).

أ- البعد من الله ومن الناس.

ب- إيجاب سخط الله وغضبه.

ج- استحقاق الوعيد في الآخرة.

د- معول هدم في المجتمع.

هـ- دليل على سوء الخاتمة[1].

---

(١) انظر موسوعة نضرة النعيم ١١/٥٢٣٥.

الحديث رقم (١٥٥٥)

١٥٥٥- وعن أَبي الدرداء ﵁ قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**لاَ يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٧).

غريب الألفاظ:

اللعانون: اللعن: الدعاء بالإبعاد من رحمة الله[٢].

شفعاء: الشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم وتكون في أمور الدنيا والآخرة[٣].

شهداء: من الشهادة بمعنى القتل في سبيل الله وقيل من الإشهاد على الأمم يوم القيامة[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من المشاهد الواقعية في سيرة المصطفى ﷺ، وهو مشهد يبوح بموقف رسول الله ﷺ من هذه الناقة التي لعنتها صاحبتها.

وفي الحديث السابق توضيح لمثل هذا الموقف، أو تفسير لبعض جوانبه، حيث ضجرت المرأة من علاج الناقة: فلعنتها، فقال رسول الله ﷺ: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة.

وهذا الحديث يصاغ في سياق حكاية تتضمن حدثًا وبعض الشخصيات، وبعض المواقف، ويبدأ الحديث بداية قصصية في قول الراوي: بينما.. وهي تمهد لأحداث

---

(١) برقم (٨٥/٢٥٩٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠١).

(٢) شرح مسلم ١٥٤٩.

(٣) النهاية ٤٨٤.

(٤) شرح مسلم ١٥٤٩.

ستتوالى بعد ذلك، والجارية من شخصيات هذه القصة.. وهي الشخصية المحورية لأنها هي التي لعنت الناقة، ولم يُحدد اسمها، ولا المكان الذي وقع به هذا الحدث.. لأن العبرة بما يتمخض عنه هذا الموقف من توجيه نبوي حكيم، ولم يُحدد الحديث من هؤلاء القوم أصحاب المتاع، وفي الحديث السابق حدّد المرأة فقال: امرأة من الأنصار.

وقول الراوي: وتضايق بهم الجبل، يوحي بأن ذلك سبب لعن الجارية للناقة، حيث يرشد ذلك التعبير أن الناقة زاحمت موكب النبي ﷺ أو تأخرت عنه، لأن قولها: "حَلْ" فيه زجر للناقة، وحث لها على الإسراع، وصيغة الدعاء في قول الجارية: اللهم ألعنها تدل على ضيق هذه الجارية بالناقة، وقول رسول الله ﷺ: لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، فيه نهي أن تصاحبهم تلك الناقة في سفرهم لأنها ملعونة، وقيل ليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، وهذا النهي عن المصاحبة في قوله: "لا تصاحبنا"، يتضمن نهي هذه الجارية عن المصاحبة كذلك لأنها أخطأت حين لعنت ناقتها.. لأن رسول الله ﷺ نهى عن لعن إنسان بعينه أو دابته، واللعن هو الطرد من رحمة الله عز وجل.

ويقول الزمخشري في أسس البلاغة: (لعنه أهله، أي طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، وقد لعن الله إبليس، أي طرده من الجنة وأبعده من جوار الملائكة.

فالحديث في مفهومه ينهى عن اللعن، ويقول رسول اله ﷺ: ((لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ الله ولا بِغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ))[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان تنافي اللعن واعتياد الإنسان عليه مع قبول الشفاعة والشهادة يوم القيامة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة.

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤٩٠٦، والترمذي، ١٩٧٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي، ١٦٠٩).

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار

جاء أسلوب الإخبار في الحديث عن حال اللعانين يوم القيامة، ونفى الشفاعة والشهادة يومئذ، فقال ﷺ "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة"، وأسلوب الإخبار له الأثر الإيجابي في النفس، وتتعدد الصيغ الخبرية، وكلها تعرض بأسلوب جميل، فمرة تأتي بسياق الأمر ومرة بالنهى وأخرى بالنفي وغير ذلك[1]، ومن صيغ الإخبار، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[2].

وجاء في الحديث الإخبار عن حال اللعانين يوم القيامة، وأنهم لا تنالهم ولا يستحقون الشفاعة يوم القيامة، ومثل تلك الأمور لا تدرك إلا بالإخبار "فما من ريب في أن معرفة أمور الغيب الحقيقي لا تنال بالعقول، بل يتوقف العلم بها على الوحي الإلهي، ومن ثمَّ كان مدار العلم بها عن طريق الإخبار، فنحن لا نعلم من الغيب الحقيقي إلا ما وصلنا منه إخبارًا من الله علام الغيب بواسطة النقل المعصوم عن رسول الله ﷺ وصفًا أو أثرًا، وأسلوب الإخبار الصحيح هو الذي يعتمد على تقديم الحقائق اليقينية، وعرضها على الناس بصورة تمكنهم من فهمها على وجهها الصحيح[3].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان تنافي اللعن واعتياد الإنسان عليه مع قبول الشفاعة والشهادة يوم القيامة

جاء التصريح بذلك في الحديث في قوله ﷺ "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة" قال الإمام النووي رحمه الله: قوله ﷺ: "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة" فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار، وقوله"ولا شهداء" فيه ثلاثة أقوال، أصحها وأشهرها: لا يكونون

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٥.

(٣) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ٢٠٩-٢١٥.

شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات، والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا: أي لا تقبل شهادتهم لفسقهم، والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهي القتل في سبيل الله"[١]، فعلى من يريد السلامة لدينه، ويحظى بالخير يوم القيامة، ولا يفوته شيء منه كالشفاعة والشهادة أن يحفظ لسانه، فكم للسان من زلات وكم فيها من الخطر، والحيطة والحذر تقتضيان من المرء أن يتيقظ وينتبه في حفظ لسانه، وألا يدع نفسه على هواها، فيقع فيما يلجئه إلى الاعتذار، وقد سئل رسول الله ﷺ: "أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٢]، "أفلا يطمح المؤمن أن يكون من ذوي الإسلام الأفضل، بأن يجعل سلاطة لسانه على أعداء الله، وحلو كلامه وحسن حديثه للمسلمين"[٣].

كما وصف الله جماعة المؤمنين بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٥].

ثالثًا: من أهداف الدعوة: التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة

إن من أهداف الدعوة الرئيسة التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة، وحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق وأحسنها، وإذا تصفحنا النصوص الشرعية نجد أنها توجه الاهتمام العظيم، والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير، منها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم"[٦]، ويقرر النبي ﷺ أن

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٩.

(٢) أخرجه البخاري ١١.

(٣) انظر: هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا محمود محمد الخزندار، ٤٢٨-٤٢٩.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٦) أخرجه الترمذي ١١٦٢، والحديث قال عنه الشيخ الألباني رحمه الله حديث حسن صحيح، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٨٤).

أثقل الفضائل في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلق الحسن والبعد عن الفحش، فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ: قال: " ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء"(١)، أي يبغض الذي يفعل الفحش ويقول الفحش، ويتكلم ببذئ الكلام، وهو رديئه وقبيحه الذي يتحدث عن العورات والرذائل وما ينبغي من الأشياء والأعمال ستره(٢)، فإن الإنسان إذا حسنت أخلاقه، كثر مصافوه وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب، ولله در القائل:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

إذا ما المرء لم يخلق لبيبًا فليس اللب عن قدم الوِلاد(٣)

أما إذا ساءت أخلاق الإنسان كثر معادوه، وجلب لنفسه ولمن حوله الشقاء والتعاسة، فعن أبي حازم رحمه الله قال: السيء الخلق أشقى الناس به، نفسه، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه فرقًا منه، وحتى إن دابته لتحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، وحتى إن قطه ليفر منه(٤).

فينبغي على كل إنسان أن يترفع عن سيء الأخلاق ومذمومها، ومن ابتلى بشيء من ذلك ينبغي أن يعمل جاهدًا على تغيير ما به من مذموم الأخلاق.

وهنا قد يرد سؤال مفاده هل يمكن تغيير الأخلاق أم لا؟

والجواب عن ذلك قد اختلف فيه، فهناك من يرى أن الأخلاق ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ لأنها غرائز فُطِر عليها، وطبائع جبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يتصور فكاكه عنها.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٢، والحديث قال عنه الشيخ الألباني رحمه الله حديث حسن صحيح، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥٤).

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، الشيخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٥٣، ٥٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) مساوئ الأخلاق ومذمومها، الخرائطي، ٢٦، وقال محققه أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء عن أبي حازم، ٩٩/٦.

وهناك من يرى أن تغيير الأخلاق وارد ممكن، فليس متعذرًا ولا مستحيلاً، خلافًا لمن رأى غير ذلك.

والرأي الثاني هو الصواب المقطوع فيه، ذلك أن الأخلاق على ضربين، فمنها ما هو غريزي فطري جبلي، ومنها ما هو اكتسابي يأتي بالدربة، والممارسة، والرياضة، والمجاهدة.

ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا، والمواعظ، والتأديبات.

بل كيف ينكر هذا، وتغيير خلق الحيوان البهيم ممكن؟! إذ أن البازي ينقل من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك عن التخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد.

وكل ذلك تغيير في الأخلاق.

فإذا كان هذا هو الشأن مع الحيوان البهيم، فأجدر بالإنسان أن يتغير خلقه، ويتبدل طبعه إلى حد الاعتدال، وذلك إن أخذ برياضة نفسه، وسياستها وحملها على المكارم[1].

وهذا الأمر هو الذي تسنده أدلة الشرع والواقع.

أما أدلة الشرع فكثيرة جدًا، فهي تحث على التحلي بالفضائل، والتخلي من الرذائل.

ولو كان ذلك غير ممكن لما أمر به. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[2]. وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[3]، ففي هاتين الآيتين دليل على أن الأخلاق تتغير، وأن الطباع تتبدل؛ ذلك حسن الخلق من الفلاح، والفلاح ينال بالتزكية.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّما العلمُ بالتعلُّم، وإنما الحِلْمُ بالتحلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ،

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣/٥٥، ٥٦.

(٢) سورة الأعلى، آية: ١٤.

(٣) سورة الشمس، آية: ٩.

ومَنْ يَتَّقِ الشرَّ يُوقَهُ»[١].

ففي هذا الحديث دليل على أن الأخلاق قابلة للتغيير، ذلك أن الحلم من الأخلاق بل هو سيدها، وهو مع ذلك ينال ويكتسب بالتحلم، والمجاهدة، وحمل النفس على ذلك.

لعمرك إن الحلم زين لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلم

أما دلالة الواقع فنرى، ونسمع أن أناسًا يتصفون بالشر، وسوء الخلق.

فإذا ما راض الواحد منهم نفسه، وساسها، وجاهدها، وأخذ بالأسباب المعينة على محاسن الأخلاق - تبدلت طباعه، وحسنت أخلاقه.

وخير دليل على ذلك ما كان من أمر الصحابة رضي الله عنهم قبل البعثة، فلقد كانوا كسائر كثير من العرب ممن يتصفون بالشدة، والقسوة، والغلظة.

فلما دخلوا في الإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، رقت طباعهم، وحسنت أخلاقهم.

بل إنهم أصبحوا مثالاً يحتذى، ونهجًا يقتفي، في الإيثار، والسماحة، والكرم، والحلم، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

وبعد أن تبين أن الأخلاق قابلة للتغيير نصل إلى بيت القصيد، ألا وهو علاج سوء الخلق، ذلك أن غالبية الناس لا يخفى عليهم سوء الخلق، ولا يجهلون شرره وقبحه، بل يعلمون ذلك ويتمنون الخلاص منه إن كانوا متصفين به.

وإنما الذي يحتاجه أغلب الناس هو كيفية التخلي من سوء الخلق، والتحلي بحسن الخلق[٢].

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه ١٢٧/٩، وقال الألباني: إسناده حسن أو قريب من الحسن، (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٤٢).

(٢) انظر: سوء الخلق، مظاهره، أسبابه، علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ٧٥-٧٨.

الحديث رقم (١٥٥٦)

١٥٥٦- وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ((**لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ بِغَضَبِهِ، وَلاَ بِالنَّارِ**)) رواه أبو داود والترمذي[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦٢).

غريب الألفاظ:

لا تلاعنوا: لا يلعن بعضكم بعضًا[2].

الشرح الأدبي

الأحاديث السابق التي دارت حول اللعن ، وقررت أن اللعن ليس من أخلاق الفضلاء أهل السبق في الآخرة من الصديقين ،والشهداء ،والشفعاء ، ونفت اتصافهم بهذه الصفات الأمر الذي يعني أن اللعان لا يكون وجيها عند الله ، وهذا الحديث جاء في صورة النهي العام الذي يشير إلى أهمية تجنب المنهي عنه وخطره الذي استلزم ألا يخص به أحد دون أحد (لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ ، وَلاَ بِغَضَبِهِ ، وَلاَ بِالنَّارِ) وبين تلاعنوا ،ولعنة جناس يؤكد المعنى ويقرر المنهي عنه وإضافة اللعنة إلى الله لأنها أشد خطر لأنها تعني الطرد من رحمة الله ،وليس هناك أشد من ذلك دعاءً على عبد ،والمفردات المنهي عنها تتفق في قسوتها وعظم أثرها فهي (لعنة الله – غضبه – النار) وإضافة اللعنة، والغضب الله مع عدم إضافة النار لأن اللعنة والغضب ترتبط في أثرها وشدتها بكونها من الله ، وعدم إضافة النار لما هو معلوم من أن النار يوم القيامة ناره ، وليشمل النهي نار الدنيا ،ونار الآخرة لأنها شديدة في الدنيا ، وهي أشد في الآخرة .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦) ولفظهما سواء. وقال الحاكم (٤٨/١): صحيح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٤).

(٢) عون المعبود ٢١١٥.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن التلاعن بلعنة الله وغضبه والنار.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ"لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، وذلك نهي عن الدعاء على الآخرين بشيء من ذلك[1]، وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية النافعة، لما فيه من بيان الأخطاء والمخالفات الشرعية للمدعو وحمله على الابتعاد عنها، وآيات القرآن وأحاديث السنة حافلة بأسلوب النهي وتحذير المدعوين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اهمية البعد عن التلاعن بلعنة الله وغضبه والنار

جاء في الحديث التحذير من التلاعن والدعاء على الآخرين فقال ﷺ: "لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، قال الإمام شرف الدين العظيم آبادي: قوله: "لا تلاعنوا" بحذف إحدى التائين "بلعنة الله" أي لا يلعن بعضكم بعضًا، فلا يقل أحد لمسلم معين عليك لعنة الله مثلاً "ولا بغضب الله" بأن يقول غضب الله عليك "ولا بالنار" بأن يقول أدخلك الله النار مثلاً" وهذا مختص بمعين، لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم كقوله: لعنة الله على الكافرين، أو بالأخص كقوله: لعنة الله على اليهود، أو على كافر معين مات على الكفر كفرعون وأبي جهل[3].

وقال ابن عثيمين رحمه الله يعني لا يلعن بعضكم بعضًا بلعنة الله، فيقول لصاحبه: لعنك الله ولا بغضبه فيقول غضب الله عليك، ولا بالنار، فيقول أدخلك الله النار، كل

---

(١) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٤.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٣) عون المعبود ٢١١٥.

هذا حذر منه النبي ﷺ، لأنه قد يقال لمن لا يستحقه[(١)]. والابتعاد عن تلك الأمور من أعاظم الأخلاق ومن كمال الإيمان وحسن الإسلام، فعن علقمة عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ :"ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"[(٢)]، وذلك أن الاتصاف بمثل هذه الصفات الشائنة ليست من أخلاق المؤمنين، فضلاً عما فيها من اعتداء على حق الكرامة الذي كفله الإسلام للإنسان، "فلقد حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان، حرم اللعن، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى في سورة الحجرات، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة"[(٣)]، إن حماية الأعراض، وصيانة كرامات الناس، والمحافظة على حرماتهم، لها في الإسلام شأن، وأي شأن؟

وهي حقوق فرضها الإسلام، وجعلها دينًا يتعبد به، كما يتعبد بالصلاة، والذكر، والدعاء، ولتبقى سلوكًا عمليًا في واقع الحياة، ومظهرًا من مظاهر المجتمع النظيف، فضلاً عن أنها تحفظ كيانه، وتدعم أركانه، وتقيه من التصدع.

ولقد أوسع الإسلام القول، وأفاض في الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذه الغاية، يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٤)].

وقد تضمنت هاتان الآيتان:

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٤١.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٣) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٧.

(٤) سورة الحجرات، الآيتان: ١١، ١٢.

أ-النهي عن السخرية، وهي احتقار الغير، واستصغاره لغير سبب ظاهر، سواء أكان الاستصغار بالعبارة، أم بالإشارة، أم بأي طريقة مفهمة لمعنى التحقير.

وإنما نهى الله عن ذلك؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه.

فإذا كان المسخور منه بليد الشعور، لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النفي في هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيره ضربًا من المزاح الذي أحله الله.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها كانت على الناس أهونا

وفي الآية تعليل النهي بأن المستهزأ به قد يكون أزكى نفسًا، وأحسن عملاً، وأقرب إلى الله بما يقدمه من خير وبر، ولا يعلم بذلك المستهزئ، فيكون قد تعرض للظلم، بتحقير ما يستحق التعظيم.

روى مسلم وأحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثَ[1] أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[2].

أي لو أقسم على الله وحلف على وقوع شيء أوقعه الله إكرامًا له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه، وذلك لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس[3].

إن سخرية الرجال من الرجال، والنساء من النساء، إثم كبير، وشر لو لم يكن للإنسان غيره لأوبقه.

ب-النهي عن ذكر العيوب والنقائص: فإن الطعن في الأشخاص يحرج الصدور، ويورث العداوات.

ج-النهي عن أن يدعو أحد غيره بلقب يكرهه: ويطلق عليه لفظًا يسوءه أن يسمعه، بل الواجب أن يدعو أخاه المسلم بأحب الأسماء إليه، فإن إطلاق لفظ قبيح على من

---

(١) أشعث: الأشعث هو الملبد الشعر المغبر غير مدهون ولا مرجل، انظر شرح مسلم، النووي، ١٥٦٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٦٠.

اتصف بالإسلام غير كريم "بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان".

د-إن مخالفة هذه التعاليم، وعدم مراعاتها، ظلم يسخط الله ويغضبه، لأن ارتكاب أمثال هذه الحماقات يفرق الجماعة، والله يريد للمسلمين أن يتعاونوا على البر، ويتجمعوا على المصلحة، ويعيشوا في ظلال المحبة والمودة.

هـ-النهي عن الظن السيئ: وهو الحكم على الغير بأمر سيء من غير دليل. فالتهمة، والتخون للأهل والأقارب والناس، من غير اعتماد على أدلة صحيحة، إثم من الآثام، وهو أكذب الحديث.

و-النهي عن التجسس وتتبع العورات: لما فيه من اشتغال بما لا يفيد، وضياع للعمر في غير جدوى ولا مصلحة، ولأنه مثير للضغائن والأحقاد.

ز-النهي عن الغيبة والتحذير منها: إن ذكر الغير بالنقص، والتماس عيوبه، فضلاً عن كونه يؤلم الإنسان ويخدش كرامته؛ فإنه كثيرًا ما يثير الفتن، ويقطع الروابط، ويمزق الصلات، وينسى المرء عيوب نفسه، ومن ثم فإن الإسلام اعتبر هذا التنقيص والتحقير، كأكل لحم الأخ الميت، لينفر منه. فكما أن النفس تشمئز من أكل لحم الأخ بعد موته، وتنفر منه، فكذلك يجب النفور والاشمئزاز من الغيبة بقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[1][2].

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب

جاء الترهيب في الحديث من التلاعن، فقال ﷺ: "لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، أي "لا يدع أحدكم على أحد بكل منها"، وذلك لعظم شأنها[3]. وأسلوب الترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا، فهو يغوص في النفس الإنسانية، ويخاطب

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) انظر: إسلامنا، الشيخ السيد سابق، ٢٧٧-٢٨٣.

(٣) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٤.

فيها العاطفة والوجدان، ويهيج فيها عنصر الخوف، ومتى وجد الخوف في القلوب والنفوس، قطع فيها دابر الشهوات واللذات[١]، فالترهيب أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية، وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن[٢]، ولقد كثر ورود أسلوب الترهيب في آيات القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[٣]، وقال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾[٤].

والترهيب من أكبر الأسباب في الانتفاع بالعبر والمواعظ القرآنية والنبوية، لأن من طبع النفس النسيان والغفلة، لذلك فإن الترهيب يصبح نوعًا من التذكير بما آلت إليه النفس من ارتكاس ونكوص، ووقوع في الرذائل والآثام[٥]، لذا كان الترهيب من الأساليب الأولى التي بدأت بها الدعوة، فقد بدأ النبي ﷺ دعوته بالإنذار تنفيذًا لأمر ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[٦]. ومعنى الإنذار إخبار فيه تخويف[٧].

---

(١) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، ٧٣.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ١/٢٣٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٥) نحو تربية إسلامية، د. حسن الشرقاوي، ٢٠٨.

(٦) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٧) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ٤٨٧.

الحديث رقم (١٥٥٧)

١٥٥٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : ((**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الفَاحِشِ، وَلاَ البَذِيِّ**)) رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الطعان: عيابًا للناس[٢].

اللعان: من يدعو بالإبعاد من رحمة الله[٣].

البذيء: الذي لا حياء له، وهو الفحش في القول[٤].

الشرح الأدبي

ورد الحديث في صورة خبرية خالية المؤكدات تقرر نقاء أخلاق المؤمنين من الصفات القبيحة التي تؤذي غيرهم ،والمؤمن طهور القلب حسن العمل ،والقول وهي حقائق قائمة في أخلاق المؤمنين وقوله (ليس المؤمن بالطعان) أي الوقّاع في أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة قال في الأساس : ومن المجاز طعن فيه وعليه وهو طعان في أعراض الناس ، وإنما سماه طعنا لأن سهام الكلام كسهام النصال حسا وجرح اللسان كجرح اليد وهو تصوير لقوة الأثر الذي يحدثه طعن الناس ويجسِّد خطره (ولا اللعان) أي الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة ربهم إما صريحا كأن يقول لعنة الله على فلان أو كناية كغضبه عليه أو أدخله النار ذكره الطيبي (ولا الفاحش

---

(١) برقم (١٩٧٧) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ١٩٢)، وقال الحاكم (١٢/١): هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٨٧٣): إسناده صحيح. وسيكرره المؤلف برقم (١٧٤٤).

(٢) تحفة الأحوذي ١٦٥٠/٢.

(٣) شرح مسلم ١٥٤٩.

(٤) انظر: النهاية ٦٩.

) أي ذي الفحش في كلامه وفعاله (ولا البذي) أي الفاحش في منطقه وإن كان الكلام صدقا فهو نظيف القلب واللسان ،وكل الجوارح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ذم الطعن واللعن والفحش والبذاءة والنهي عنه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمن على التحلي بالصفات الحميدة والتخلي عن الصفات الذميمة.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الصفات التي تقدح في أخلاق المؤمن.

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي

ورد أسلوب النفي في قوله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، وأسلوب النفي من أبرز الأساليب الدعوية التي لها أكبر الأثر في نفوس المدعوين"[(١)]، لما فيها من إبراز الحقائق مجردة، ونفي وإبعاد ما يلصق بها أو يعرض عليها دونما أدنى صلة، وقد استخدم القرآن أسلوب النفي في عرض الدعوة في كثير من آياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[(٢)]. فهو سبحانه لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض[(٣)].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ذم الطعن واللعن والفحش والبذاءة والنهي عنه:

جاءت الإشارة في الحديث بنفي تلك الصفات الشائنة عن المؤمنين، وأنها تناقض كمال الإيمان، فقال ﷺ "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، أي ليس المؤمن الكامل بالعياب للناس ولا اللعان، وليس بفاعل الفحش ولا قائله، ولا

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٧.

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، ٦/٥٦٠.

البذيء الذي لا حياء له[١].

لقد جاء الحديث ناهيًا عن بذيء القول وساقطه، وعن الفحش في القول واللعن وقول الخنا وغير ذلك من الأقوال الباطلة، والفحش في الكلام يأتي على معان:

فقد يأتي بمعنى السب والشتم وقول الخنا كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «لم يَكنِ النبيُّ ﷺ فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا، وكان يقول: «إنَّ من خياركم أحسنَكم أخلاقًا»[٢].

وقد يأتي بمعنى: التعدي في القول والجواب[٣]: كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ. فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ «وَعَلَيْكُمْ» قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ[٤]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا عَائِشَةُ لاَ تَكُونِي فَاحِشَةً» فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ «أَوَ لَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[٥].

وبين رسول الله ﷺ أن اللعان لا يكون صديقًا، وهو محروم من الشفاعة والشهادة يوم القيامة، ومن لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا»[٦].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»[٨].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٢/١٦٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٥٩.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/٣٢٥.

(٤) الذام: العيب، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/٢١٩، مادة ذام.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥ واللفظ له.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٩٧.

(٧) أخرجه مسلم ٢٥٩٨ واللفظ له، وأحمد ٢٦٩٨١.

(٨) أخرجه الترمذي، ١٩٧٨، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي، ١٦١٨).

قال النووي: فيه الزجر عن اللعن وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة، لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر، وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «لعن المؤمن كقتله»[1]. لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا، وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى[2].

إن مما سبق يتضح مدى نهي الإسلام عن الفحش من الكلام والبذىء من القول، وهذا يقتضي على المسلم أن يحفظ لسانه ويعتني به، فيجتنب القول الباطل، وقول الزور، والغيبة، والنميمة، والفاحش من القول، وجماع ذلك أن يصون لسانه عما حرم الله ورسوله ﷺ. وقد يتكلم المرء كلمة تُوبق دنياه وآخرته، وقد يقول كلمة يرفعه الله بها درجات ودرجات. ومصداق ذلك قوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق». وفي رواية مسلم وأحمد «أبعد ما بين المشرق والمغرب»[3].

وكما تكون الكلمة سببًا في السخط، تكون أيضًا سببًا في الرفعة والسعادة، قال ﷺ: « إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات،وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[4]. وفي سؤال معاذ بن جبل رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، عن العمل الذي يدخل الجنة ويباعد من النار، ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام، وبعض أبواب الخير، ثم قال له: « ألاَ

(١) أخرجه البخاري، ٦٠٤٧، ومسلم، ١١٠.

(٢) شرح مسلم، ٥٠٢.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٤٧٧ واللفظ له، ومسلم، ٢٩٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[١].

بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد ضمن الرسول ﷺ الجنة لمن صان لسانه وفرجه، فقال ﷺ: «من يَضمَنْ لي ما بينَ لَحْيَيْهِ وما بين رجليْه أضمَنْ له الجنَّة»[٢]. فعلى المسلم أن يصون لسانه وفرجه عن محارم الله، طلبًا لمرضاته، ورغبة في نيل ثوابه، وهو يسير على من يسره الله عليه[٣].

إن ملازمة الصفات القبيحة من اللعن والفحش وغيرها، من الكبائر، وأشار إلى ذلك الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله فقال: "إن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، ومن الأدلة على ذلك وصف رسول الله ﷺ لمن تلك صفته بأنه شر الناس[٤]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة " فلما دخل ألان له الكلام، قلت يارسول الله: قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام، قال: أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس - أو ودعه الناس- اتقاء فحشه"[٥]. أما المؤمن الكامل الإيمان فلسان حاله كما قال الشاعر:

أُحِبُّ مكارِمَ الأخلاق جَهْدِي وأَكْـره أن أَعيب وأن أُعابَا
وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْمًا وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا[٦]

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمن على التحلي بالصفات الحميدة والتخلي عن الصفات الذميمة

إن أسمى الغايات وأنبل المقاصد، أن يحرص الإنسان على الخير، ويسارع إليه،

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).
(٢) أخرجه البخاري ٦٤٧٤.
(٣) انظر: كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ١١٤-١٣٠.
(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر، الإمام ابن حجر الهيتمي، ١٥٢، ١٥٣.
(٥) أخرجه البخاري ٦٠٥٤، ومسلم ٢٥٩١.
(٦) موسوعة نضرة النعيم ٥٢٣٥/١١.

وبهذا تسمو إنسانيته ويتشبه بالملائكة، ويتخلق بأخلاق الله البار بعباده، الرحيم بخلقه[١]، ومن هنا كان حث الإسلام للمؤمن على التحلي بكريم الأخلاق وحميد الصفات، وأن ينأى ويرتفع عن ذميم الأخلاق وشائن الصفات، وكان وصف النبي ﷺ للمؤمن الكامل الإيمان بقوله "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش، ولا البذيء". قال بعض المشايخ: حسن الأدب مع الله أن لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضى الله عز وجل فأدب اللسان أن يكون رطبًا بذكر الله تعالى، وبذكر الإخوان بخير والدعاء لهم وبذل النصيحة والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهونه، ولا يغتاب ولا ينم ولا يشتم، ولا يخوض فيما لا يعنيه، وقيل خلق الله اللسان ترجمانًا للقلب، ومفتاحًا للخير والشر، وقيل إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل، وجماع ذلك كله أن يعامل الإنسان الخلق بما يحب أن يعامل به[٢].

وبذلك أراد الإسلام أن يسمو بأخلاق أتباعه، ويرتفع بطباعهم ويهذب سلوكهم.

(إن من أجل الغايات التي تريد الرسالة الإسلامية تحقيقها، هي تلك الغاية الإنسانية السامية وهي: أن يكون للإنسان خلق كريم، وسلوك نظيف يليق بكرامة الإنسان، ويتفق مع ما خلق له من خلافة عن الله في الأرض. وهذه هي الغاية التي حاولها الفلاسفة والعلماء والمصلحون – عبر قرون مضت، ولم يبلغوا فيها شأوا، أو يصلوا إلى تحقيق هذا الأمل المنشود.

وعناية الإسلام، وحرصه على تحقيق هذه الغاية الخلقية النبيلة يقصد بها: إيجاد عناصر قوية، وأفراد صالحين؛ كي يستطيعوا أن يسهموا بقلوبهم، وعقولهم في ترقية الحياة، وإعلائها.

وليكونوا أهلاً لجوار الله، ورضوانه فيما وراء هذه الحياة.

---

(١) إسلامنا، الشيخ، السيد سابق، ١٣١.

(٢) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٥٦-٢٥٧.

إن المثل الأعلى للأفراد: هو الشرف والنزاهة، والاستعلاء على الهوى والشهوة، وعرفان الحق والواجب، والاستمساك بأهداب الفضيلة، والاندماج في جوٍ روحي خالص بعيد عن نقائص المادة وشوائب الروح.

والمثل الأعلى للجماعة: هو التعاون، والإيثار، والتضحية، وإنكار الذات، والمحبة والمودة، والصدق، والإخلاص، والأمانة، والوفاء، والتسامح، وسلامة الصدر.

وتحقيق المثل الأعلى في جانبيه يثمر الحياة الطيبة، ويحقق المجادة، والسيادة والقيادة، والتمكين في الأرض[١].

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الصفات التي تقدح في أخلاق المؤمن

إن من أهم صفات العالم وأجلها خشيته من الله وإشفاقه على الناس، ولقد كان سلفنا الصالح منذ عصر الصحابة والتابعين فمن بعدهم، تغلب في علمائهم هذه الصفات، فكانوا مبعث خير ومصابيح هداية وأدله طريق[٢]، لذا كان دأب العلماء في بيان الصفات القادحة في أخلاق العباد، والتي منها ما جاء في الحديث "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، فإن مثل هذه الأمور تدل على نقص في الإيمان، وأنها تسلب عن المؤمن حقيقة الإيمان وكمال الإيمان، فلا يكون طعانًا يطعن الناس، بأنسابهم أو بأعراضهم، أو بشكلهم وهيئاتهم أو بآمالهم، ولا باللعان الذي ليس له هم إلا اللعنة، ولا بالفاحش الذي يفحش في كلامه بصراخ أو نحو ذلك، ولا بالبذيء الذي يعتدي على غيره، فالمؤمن مسالم ليس عنده فحش في قوله ولا فعله ولا غير ذلك[٣]، وإنما هو حسن الخلق، ممتثل لمثل قول الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[٤]، ولقوله ﷺ: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[٥].

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، الشيخ السيد سابق، ٤٤.

(٢) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي رحمه الله، ١٩٩.

(٣) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤١/٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٨٣.

(٥) أخرجه الترمذي ١٩٨٧، والحديث حسنه الشيخ الألباني رحمه الله، (صحيح سنن الترمذي ١٤٨٩).

مبتعدًا كل البعد عن دنيء الأخلاق وخبيث الصفات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[1]. وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاتصاف بمذموم الأخلاق، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلْم ظُلُماتٌ يَوْمَ القيامَةِ، وإيّاكُمْ والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ التَّفَحُّش، وإيّاكُمْ والشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ... الحديث»[2].

(١) سورة الشورى، آية: ٣٧.

(٢) أخرجه أبو داود، وصححه الشيخ الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٩).

الحديث رقم (١٥٥٨)

١٥٥٨- وعن أَبي الدرداء رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ العَبْدَ إذَا لَعَنَ شَيْئًا، صَعدَتِ اللَّعْنَةُ إلَى السَّماءِ، فَتُغْلَقُ أبْوابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبطُ إلَى الأرْضِ، فَتُغْلَقُ أبْوابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأخُذُ يَمينًا وَشِمالاً، فَإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إلَى الَّذِي لُعِنَ، فإنْ كَانَ أهْلاً لِذلِكَ، وإلاَّ رَجَعَتْ إلَى قَائِلِهَا)). رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٧).

غريب الألفاظ:

دونها: أي عندها[2].

مساغًا: مدخلاً وطريقًا[3].

الشرح الأدبي

الأحاديث السابقة قررت قبح اللعن وأنه ليس من أخلاق الصالحين ولا الشهداء ،ولا الصديقين، والحديث السابق نزَّه أخلاق المؤمن عن هذا القول ، وقد سبق تقرير النهي عن اللعن ،وهذا الحديث ينفّر من اللعنة عن طريق رصد حركتها في انتقالها من فم اللاعن إلى باب السماء ثم إلى الأرض والحديث خبري يبدأ بالتوكيد تنبيها على أهمية الخبر ،وخطره (إنَّ العَبْدَ إذَا لَعَنَ شَيْئاً ، صَعدَتِ اللَّعْنَةُ إلَى السَّماءِ ، فَتُغْلَقُ أبْوابُ السَّماءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبطُ إلَى الأرْضِ) وقد تضمن شرطا يربط اللعن بالصعود ، وما عطف عليها إشارة إلى التلازم الدال على المصير المقرر بالشرط وهو انحصارها بين اللاعن، والملعون، وتنكير (شيئا) ليعم القليل والكثير وجملة الأفعال صورت حركة اللعنة خروجا من اللاعن إلى السماء ثم العودة لتلحق بأحد المتلاعنين (لعن – صعدت –

---

(١) برقم (٤٩٠٥). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٦٧/١٠): إسناده جيد. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٧).

(٢) عون المعبود ٢١١٤.

(٣) عون المعبود ٢١١٥.

تغلق – تهبط – تأخذ – تجد – رجعت) ،وقوله (ثُمَّ تَأخُذُ يَميناً وَشِمالاً) كناية عن هيئة الحيرة ،وعدم وجود المستقر، وهو تمهيد لعودتها إلى المتسبب في اللعن إذا كان مستحقا للعن،وإلا عادت للاعن، والحديث يقرر أن مصير ومستقر اللعنة محصور بين اللاعن، والملعون، وهو ترهيب لكل منهما. الملعون لأنه تسبب فيها، واللاعن لأنه الفاعل.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: نبذ اللعن والحث على البعد عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من اللعن.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً: من موضوعات الدعوة: نبذ اللعن والحث على البعد عنه

لقد أمر النبي ﷺ في الحديث بنبذ الأخلاق السيئة والتي منها اللعن، فقال ﷺ "إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها" وذلك لقبحها وشناعتها، ولا يصعد عنها إلا الكلم الطيب والعمل الصالح[1]. ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن،فإن كان أهلاً لذلك وإلا رجعت إلى قائلها". وهذا وعيد شديد على من لعن مَنْ ليس أهلاً للعن، فإن اللعنة تتجول في السماء والأرض واليمين والشمال، ثم ترجع في النهاية إلى قائلها، إذا لم يكن الملعون أهلاً لها[2]، وذلك من دلائل سوء الخلق وهو خلق فاسد متصف بالشر، لا يتفق مع الواجبات الدينية والخلقية، ولا يتفق مع ما شرع الله أمرًا ونهيًا، وهو فعل منكر، وسلوك غير صالح، وهذا ناتج عن مرض القلب[3].

---

(١) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤٢/٢.

(٣) النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبدالله عفيفي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٥٨.

ولا خلاف أن اللعن منهي عنه، خاصة المسلم المصون، فلعنه حرام منهي عنه(١).

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من اللعن

إن اللعن من سيء الأخلاق وأشنعها، الواجب الحذر منها، ومما يوجب الحذر منها أن اللعنة إذا لم تصادف أهلاً رجعت إلى صاحبها، كما جاء في الحديث « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدت اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَإِذَا لَم تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الذي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قائِلِهَا»، بل أن الإسلام ليمنع من لعن الحيوان والجماد، فروى عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: "بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة" قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد"(٢).

فالحذر الحذر من اللعن، فإن التلفظ والدعاء به على الغير قد يهوى بالإنسان إلى أسفل الدركات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات،وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(٣)، لذا كان من الواجب على المسلم أن يكون واقفًا عند حدود الله تعالى، عاملاً في مرضاته متجنبًا مساخطه، فما أكثر عثرات اللسان حين يتكلم، وما أكثر مزالقه، ووقوعه في أخطاء في منتهى الخطورة على النفس وعلى المجتمع، ويكفي لمعرفة خطورة اللسان وما ينطق به، والآثار المترتبة على الحديث، قوله ﷺ "من ضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة"(٤)، (٥).

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٧٣/٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، ومسلم ٢٩٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٤.

(٥) الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد، ص٨٣.

إن اللعن والتلفظ بقبيح القول وبذيء الكلام إن نمّ فإنما ينم عن سوء خلق وجلافة طبع، وذلك نتاج جهل وظلم وغيرهما من الخلال المذمومة.

قال ابن القيم رحمه الله: ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب، فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص كمالا، والظلم يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها، والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه، ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة، وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص والشح، وسفساف الأمور، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب، والحدة والفحش والطيش، ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفا، فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهِر، ظالم عنوف جبار، فإذا قهر صار أذل من امرأة: جبان عن القوي جريء على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضا[1].

أما التخلق بالأخلاق الحسنة فهي نتاج الإيمان، وحب الله تبارك وتعالى وخشيته، ويرى ابن تيمية في نظريته الخلقية أن مفهوم الأخلاق يرتبط بالإيمان، وما ينبثق عنه. ومن ثم يقوم هذا المفهوم عنده على عدة عناصر وهي:

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢١، ٣٢٢.

أ- الإيمان بالله وحده خالقًا ورازقًا بيده المالك.

ب- معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة تقوم على أنه وحده سبحانه المستحق للعبادة.

ج- حب الله سبحانه وتعالى حبًا يستولي على مشاعر الإنسان، بحيث لا يكون ثمة محبوب مراد سواه سبحانه.

د- وهذا الحب يستلزم أن تتوحد إرادة الخالق والمخلوق في اتجاه واحد وهو تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، والالتزام بتحقيق هذا الرضا في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة.

هـ- وهذا يستلزم من الإنسان سموًا في أخلاقه، وترفعًا عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب في الدنيا.

و- ويأتي العمل بعد ذلك محققًا طريق بلوغ الكمال الإنساني.

والأمر كذلك إذا لم تتحقق هذه الشروط الموضوعية، فإن الناتج عن الإنسان يكون خلقًا سيئًا، لأنه تعبير عن الإيمان بالله وتعبير عن الرؤية الموضوعية للأشياء والحقائق. وعلى هذا يكون الخلق السئ فعلاً إنسانيًا لا ترتبط فيه الأفعال بالطاعة، أي أنه فعل تنفصل فيه الطاعة عن الأخلاق، ويصبح الفعل شكليًا أو مظهريًا. كما أنه فعل لا يدرك الغائية الخلقية، من حيث إنها تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والحياة الآخرة، الأمر الذي يجعل العمل الذي يقوم به الإنسان فاقدًا لقيمته الخلقية ودلالته الإنسانية، كما أن هذا الفعل فاقد للتمحيص والتدقيق اللازمين، كي يكون موافقًا لما أمر الله سبحانه وندب إليه في وقته الملائم والمناسب. وفي هذا الوضع يكون هذا العمل استجابة لاخلقية، وبذا يكون صاحبه متصفًا بسوء الخلق.

فالخلق السيئ خلق فاسد متصف بالشر، لا يتفق مع الواجبات الدينية والخلقية، ولا يتفق مع ما شرع الله أمرًا، ونهيًا، وهو فعل منكر، وسلوك غير صالح، وهذا ناتج عن مرض القلب[1].

---

(١) انظر: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبدالله عفيفي، ٥٨-٦٠.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب

ورد أسلوب الترهيب من لعن الغير ببيان أن الملعون إذا لم يكن للّعنة بأهل رجعت إلى قائلها، فقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدت اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَإِذَا لَم تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الذِي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قائِلِهَا». والترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا وتأثيرًا في قلوب المدعوين وهو "أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق، خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن"[1]. والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، من ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2]، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم"[3].

إن الترهيب يورث في قلب المؤمن الخشية من الله، والوجل والرهبة من الله تبارك وتعالى، فذكر الله تعالى أن من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[5].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٣-١٤.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٠، ٦١.

تقول عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾».

الفخـر في هـذه الـدنيا لـذي هـدف ... سـام فـلا بهـرج فيـه ولا خلـل
الفخـر فيهـا لقـوم قـدموا عمـلاً ... يرضـى بـه الله مـا زاغـوا ومـا عـدلوا
سـاروا علـى منهج الإسـلام في ثقـة ... يحـدوهم الحـب للجنـات والوجـل

وقد أمر الله بالرهبة والخوف منه فقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1]. ووصف المؤمنين بقوله: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[2].

قال الحسن البصري: "وهو الخوف الدائم في القلب".

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك في الدنيا فأمنته يوم القيامة.

وما كثرت الذنوب وأظلمت القلوب، إلا لقلة الخوف من علام الغيوب.

تحيط بنا العبر، وتكثر الحوادث، وتعظم الكوارث، وتفتن الأمم، وتحل النقم، والنفس لاهية، والأفكار ساهية، وحبال التقوى واهية.

قلوب تحجرت، وأحاسيس تبلدت، وجوارح عطلت، لا قلب يخشع ولا نفس تشبع، ولا عين تدمع، ولا فؤاد يرجف، ولا لسان يذكر... إلا من رحم الله.

أتخمت البيوت بالمعاصي، وملئت العقول بالشبهات، وأترعت النفوس بالشهوات، تُسمع المعصية وقل من ينكرها، ويُشاهد المنكر وكأنه المعروف، ويُؤكل الحرام وكأنه الحلال، يُجالس صاحب المعصية، ويُؤاكل ويشارب مرتكب الكبيرة دون

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

حرج في النفس من فعله أو إنكار في القلب لسلوكه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1].

آذان ألفت سماع المنكر، وأبصار استمرأت رؤية الباطل، وألسن استساغت اللغو والغيبة، وقلوب أقفرت من الخشية، وأجدبت من الخوف فاسودت وأظلمت، وقست وتحجرت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، لم تعد تهزها الموعظة، أو تنفعها الذكرى، أو تفيدها العبرة، أو يحدوها الوعد، أو يرهبها الوعيد، إلا من رحم ربك.

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾[2].

والآن لنرى كيف ترجمت تلك المعاني، وطبقت هاتيك القيم، ولمع ذلك الإحساس في سماء صفوة من الناس، عمرت بالخوف قلوبهم، وتبددت من الإشفاق نفوسهم، وطاشت خشية الهول عقولهم، قلوب وجلة، وأكباد محترقة، وأعين باكية، ودموع مسبلة، احترقت وجناتهم، وشحبت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، وكادت تزهق لشدة الخوف أرواحهم، أضناهم السهر، وأفزعهم الخبر. خشوع وخضوع، نحيب ودموع، صلاة وصيام، وجهاد وقيام، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، ويصبحون شعثًا غبرًا صفرًا:

تتجافى عن الفراش من الخوف ... إذا الجاهلون باتوا نياما

بأنين وعبرة ونحيب ... ويبيتون سجدًا وقياما

ومع كل ذلك كانوا كأن النار لم تخلق إلا لهم، فأشفقوا من يوم الوقوف على الله، وخافوا من هول المقام بين يديه، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾[3][4].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١٣.

(٣) سورة الإنسان، آية: ١٠.

(٤) انظر: كتاب الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٦٤٦-٦٤٨.

الحديث رقم (١٥٥٩)

١٥٥٩- وعن عمران بن الحُصَيْنِ رضي الله عنهما ، قَالَ: بَيْنَمَا رسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رسُولُ اللّه ﷺ فقالَ: ((خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ؛ فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ)).

قَالَ عمْرانُ: فَكَأنِّي أرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أحَدٌ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصْين: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣).

غريب الألفاظ:

فضجرت: ضاقت وتبرمت[٢].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ يبين في هذا الحديث بطريقة عملية خطر اللعنة ،وأثرها خلال هذه القصة التي ساقها عمران بن الحصين رضي الله عنه والتعبير بالظرف (بين) المضاف لـ(ما) والذي يوحي بالمفاجأة وقوله (عل ناقة فضجرت فلعنتها) يشير إلى أن اللعن كان لدابة، وليس لإنسان وتتابع الفاءات في الربط يشير إلى سرعة رد الفعل وعدم التريث ،وقول الرسول ﷺ (خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ؛ فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ) الأمر بالأخذ للإرشاد والنصح، وقوله ،ودعوها أمر للنهي عن استعمالها يشتمل على تحذير أكدته الجملة التعليلية بعده (فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ) والتي تحقق الإقناع العقلي بضرورة تركها خوفا من أن تلحق اللعنة راكبها بعد الإقناع القلبي بضرورة اتباع الرسول ﷺ، وقول الراوي(فَكَأنِّي أرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أحَدٌ) هو صدى النهي النبي ﷺ المعلل بتحقق لعنتها، وهو ما يبين خطر الفعل لاسيما على الإنسان .

---

(١) برقم (٨٠/٢٥٩٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٩).

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٥٣٤.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المنع والتحذير من لعن الحيوانات.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء

وردت الإشارة إلى هذا الصنف في الحديثين، فعن عمران بن الحصين ﷺ، قال: "بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ. فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا"، وعن أبي برزة قال: "بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الحيل فقالت حَلْ اللهم ألعنها فقال النبي ﷺ لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة". والنساء من أصناف المدعوين الذين لا يستهان بهم، فلقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٢)، فالمرأة جعلها الإسلام أهلاً للتكاليف الشرعية مثل الرجل، وهي بعد البلوغ مكلفة بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وليس لأحد - زوج أو غيره- منعها من أداء الفرائض، فجملة العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام التي شرعها الله للإنسان يستوي في التكليف بها والجزاء عليها الذكر والأنثى(٣)، يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

والمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء كانت بنتًا أو

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٥٥٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٦٠).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٣) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢/٧٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٧.

زوجة أو أمًا، فهي وإن كانت غير رجل، إلا أنها أم الرجال وأخت الرجال وخالة الرجال وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، ومادام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء، فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هى عناية بالدعوة نفسها[1].

إن المرأة في الإسلام ليست كمًّا مهملاً، ولا يعتبرها كسقط المتاع كما ينظر إليها في الديانات والثقافات الأخرى.

إن النساء شقائق الرجال وهما من أصل واحد، وقد كرم الله الجميع بلا استثناء فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]. فالمرأة كالرجل لها من الحقوق ماله وعليها من الواجبات ما عليه، ويمكن إجمال ما يتعلق بالمرأة من أحكام غالبًا فيما يلي:

أ-المرأة كإنسان لها حق الرعاية في طفولتها من تربية وتعليم وكفالة ونحو ذلك. وإذا رشدت كانت لها ذمتها المالية المستقلة، وصار لها حرية التعبير عن إرادتها، ولذلك لا تزوج بدون إذنها.

ب-والمرأة كأنثى، مطالبة بالمحافظة على مظاهر أنوثتها، فلها أن تتزين بزينة النساء، ويحرم عليها التشبه بالرجال. ومطالبة كذلك بالتستر وعدم الاختلاط بالرجال الأجانب أو الخلوة بهم، ولذلك تقف في الصلاة متأخرة عن صفوف الرجال.

ج- والمرأة كمسلمة، مطالبة بكل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده، مع الاختلاف عن الذكر في بعض هيئات العبادة.

د- والمرأة اختصها الله سبحانه وتعالى بالحيض والحمل والولادة، وترتب على ذلك بعض الأحكام الفقهية كالتخفيف عنها في العبادات في هذه الحالات.

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٧٣.

(٢) سورة يس، آية: ٢٠.

هـ- ولضعف المرأة في الخلقة والتكوين، فإنها لا تتولى من الأعمال ما يحتاج إلى بذل الجهد الجسدي والذهني كالإمارة والقضاء، ولم يفرض عليها الجهاد في الجملة، وكانت شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

و- ولأن المرأة أكثر حنانًا وشفقة من الرجل كان حقها في الحضانة مقدمًا على الرجل.

ز- والأصل أن يكون عمل المرأة هو رعاية بيتها وزوجها وأولادها، لذلك كانت نفقتها على زوجها ولو كانت غنية. وكان الرجل قوامًا عليها، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1][2].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المنع والتحذير من لعن الحيوانات

جاء ذلك واضحًا في الحديث "بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت، أى ضجرت المرأة من علاج الناقة، وصعوبتها[3]، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: خذوا ما عليها، ودعوها، فإنها ملعونة". وفي الرواية الأخرى "لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة".

قال القاضي عياض: وأمر النبي ﷺ في هذه الناقة بما أمر، من أخذ ما عليها وإعرائها من أداتها، لأنها لعنتها صاحبتها، لأمر أطلعه الله عليه فيها من لزوم اللعنة لها، أو لمعاقبة صاحبتها لنهيه قبل عن اللعن، فإن كان هذا وجهه، ففيه العقاب في المال ليزجر غيرها عن ذلك، وأصل اللعن الترك، وقيل البعد، كذا قال أهل اللغة، فلما دعت عليها باللعنة، وكانت غير مكلفة ممن تدركها لعنة العقاب، استعمل فيها معنى اللعنة اللغوية من الترك والإبعاد والخروج عن الملك، معاقبة لقائلها[4].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، ج٦/٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٤) إكمال المعلم ٦/٦٨.

قال النووي: "إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها، ونهى غيرها عن اللعن، فعوقبت بإرسال الناقة"[١]، وهذا من باب التعزير: تعزير هذه المرأة أن تلعن دابة لا تستحق اللعن، ولهذا قال: لا تصحبنا دابة ملعونة، لأن هذه المرأة لعنتها، والملعون لا ينبغي أن يستعمل، فلذلك نهى النبي ﷺ عنها وتركها"[٢].

وقال الشيخ محمد تقي العثماني: قوله خذوا ما عليها أي انزعوا عن الناقة ما عليها من المتاع وأرسلوها لكي لا تصاحبنا في القافلة، وإنما قال ذلك زجرًا، لأنه كان سبق منه النهي عن اللعن، فعوقبت المرأة اللاعنة بإرسال ناقتها، كأنه ﷺ أدبها بأن الناقة إن كانت ملعونة فلتتركها، ولكن هذا النهي إنما كان عن مصاحبتها في الطريق فقط، ولم تزل على ملكها، فلم يحرم الاستمتاع بها في غير مصاحبته ﷺ، وقوله "ملعونة" أي لعنتها صاحبتها، لا أنها ملعونة من الله تعالى، لأنها غير مكلفة[٣].

لقد وردت في الحديث الدعوة البالغة إلى رحمة الحيوان والرفق به، فمجرد اللعن قد نهى عنه الإسلام، فما بالنا بالإيذاء الحسي للحيوان، لقد نهى عنه الإسلام أشد النهي، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسر إلى حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه[٤] فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال لي يارسول الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه[٥]. وفي ذلك وغيره دعوة إلى حسن التأديب والتوجيه إلى الصبر على

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤٢/٢.

(٣) تكملة فتح الملهم ٣١٢/١١.

(٤) ذفراه: مثنى ذفرى والذفرى من البعير مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه، عون المعبود، العظيم آبادي، ص ١١٠٤.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٥٤٩، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن أبي داود ٢٥٤٩)

الحيوان وآلات النقل والعمل وإحسان معاملتها[١].

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» أي خذوا ما على الناقة من الرحل والحمل واتركوها فإنها مدعو عليها باللعنة[٢].

وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة، وهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكأ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان[٣]، وقد ورد أسلوب الأمر في كثير من آيات القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٥].

والأمر إذا كان من الله أو من الرسول ﷺ فتجب طاعته والعمل بمقتضاه، ويطاع سواهما في غير المعصية، لقول النبي ﷺ: «السمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يُؤمرْ بمعصية»[٦]. فيطاع الأبوان وولي الأمر ونوابه في غير الحرام[٧].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧٣٣.

(٢) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٣) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٥) سورة النور، آية: ٣٠.

(٦) أخرجه البخاري ٢٢٢١، ومسلم ١٤٦٩.

(٧) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٤٥/٦.

الحديث رقم (١٥٦٠)

١٥٦٠-وعن أَبي بَرْزَةَ نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ القَوْمِ. إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبيِّ ﷺ، وَتَضَايَقَ بِهِمُ الجَبَلُ. فَقَالَتْ: حَلْ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((**لاَ تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ**)). رواه مسلم[1].

قَوْله: (**حَلْ**) بفتح الحاء المهملة وَإسكانِ اللاَّم: وَهِيَ كَلِمَةٌ لِزَجْرِ الإبِلِ.

وَاعْلَمْ أنَّ هَذَا الحَديثَ قَدْ يُسْتَشكَلُ مَعْنَاهُ، ولاَ إشْكَالَ فِيهِ، بَلِ المُرَادُ النَّهْيُ أنْ تُصَاحِبَهُمْ تِلْكَ النَّاقَةُ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ بَيْعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِي غَيْرِ صُحْبَةِ النبيِّ ﷺ، بَلْ كُلُّ ذلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جائِزٌ لا مَنْعَ مِنْهُ، إلاَّ مِنْ مُصَاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ بِهَا؛ لأنَّ هذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلَّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَعْض مِنْهَا، فَبَقِيَ البَاقِي عَلَى مَا كَانَ، واللهُ أعلم.

ترجمة الراوي:

أبو برزة الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١٢).

غريب الألفاظ:

جارية: الجارية تطلق على الأمة وإن كانت عجوزًا وعلى الفتية من النساء[2].

متاع القوم: كلمة المتاع تطلق على كل ما ينتفع به من عروض الدنيا، قليلها وكثيرها[3].

حل: بفتح الحاء المهملة وإسكان اللام، وهي كلمة لزجر الإبل[4].

قال النووي: واعلم أن هذا الحديث قد يستشكل معناه ولا إشكال فيه، بل المراد: النهي أن تصاحبهم تلك الناقة، وليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، بل كان ذلك وما سواه من التصرفات جائز لا منع منه، إلا من مصاحبة

---

(١) برقم (٨٢/٢٥٩٦).

(٢) ينظر: الوسيط ١١٩.

(٣) ينظر: النهاية ٨٥٥.

(٤) رياض الصالحين، النووي ٥٣٩.

النبي ﷺ بها، لأن هذه التصرفات كلها كانت جائزة فمنع بعض منها فبقي الباقي على ما كان، والله أعلم[١].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من المشاهد الواقعية في سيرة المصطفى ﷺ، وهو مشهد يبوح بموقف رسول الله ﷺ من هذه الناقة التي لعنتها صاحبتها.

وفي الحديث السابق توضيح لمثل هذا الموقف، أو تفسير لبعض جوانبه، حيث ضجرت المرأة من علاج الناقة: فلعنتها، فقال رسول الله ﷺ: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة.

وهذا الحديث يصاغ في سياق حكاية تتضمن حدثًا وبعض الشخصيات، وبعض المواقف، ويبدأ الحديث بداية قصصية في قول الراوي: بينما.. وهي تمهد لأحداث ستتوالى بعد ذلك، والجارية من شخصيات هذه القصة.. وهي الشخصية المحورية لأنها هي التي لعنت الناقة، ولم يُحدد اسمها، ولا المكان الذي وقع به هذا الحدث.. لأن العبرة بما يتمخض عنه هذا الموقف من توجيه نبوي حكيم، ولم يُحدد الحديث من هؤلاء القوم أصحاب المتاع، وفي الحديث السابق حدّد المرأة فقال: امرأة من الأنصار.

وقول الراوي: وتضايق بهم الجبل، يوحي بأن ذلك سبب لعن الجارية للناقة، حيث يرشد ذلك التعبير أن الناقة زاحمت موكب النبي ﷺ أو تأخرت عنه، لأن قولها: "حَلْ" فيه زجر للناقة، وحث لها على الإسراع، وصيغة الدعاء في قول الجارية: اللهم العنها تدل على ضيق هذه الجارية بالناقة، وقول رسول الله ﷺ: لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، فيه نهي أن تصاحبهم تلك الناقة في سفرهم لأنها ملعونة، وقيل ليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، وهذا النهي عن المصاحبة في قوله: "لا تصاحبنا"، يتضمن نهي هذه الجارية عن المصاحبة كذلك، لأنها أخطأت حين لعنت ناقتها.. لأن رسول الله ﷺ نهى عن لعن إنسان بعينه أو دابته، واللعن هو الطرد من رحمة الله عز وجل.

---

(١) رياض الصالحين، النووي ٥٣٩.

ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: (لعنه أهله، أي طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، وقد لعن الله إبليس، أي طرده من الجنة وأبعده من جوار الملائكة.

فالحديث في مفهومه ينهى عن اللعن، ويقول رسول اله ﷺ: ((لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ الله ولا بِغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ))[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه أبو داود، ٤٩٠٦، والترمذي، ١٩٧٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي، ١٦٠٩).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية العقدية:

من أصول التربية الإسلامية التي قامت عليها، العقيدةُ الصحيحةُ التي تعد الركيزة الأساسية في حياة المسلم، ومن هنا حرص النبي ﷺ على ترسيخها في النفوس من خلال التزام الإنسان بمقتضيات الإيمان التي تتمثل في عدد من السلوكيات والممارسات الشخصية، ومن جملتها مسألة الحلف على يمين بملة غير الإسلام كذبًا وعمدًا، مما يعد مخالفة خطيرة في جانب العقيدة، مما يحرم على المؤمن إتيان مثل هذه الأمور، ولذا فإن النبي ﷺ رهب من ذلك وبيّن خطورته، لأن المؤمن يجب أن يربي نفسه ويلزمها بما يتفق والعقيدة الصحيحة، فلا يحلف إلا بالله عز وجل لأن الإيمان الصحيح أساس متين لتربية ثابتة مضمونة النتائج، بعكس التربية التي لا تقوم على ترسيخ الإيمان، فإنها تربية عشوائية غير صحيحة[١]. ولذلك يقول ابن القيم: "فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن، ودفعت عنه الكثير من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان"[٢].

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام"[٣].

لذلك كان من أهداف العقيدة الإسلامية ومقاصدها، وغاياتها النبيلة، تحريرُ العقل والفكر من التخبط الفوضوي الناشئ عن خلو القلب من الإيمان الصحيح، لأن ذلك يؤدي إلى الضلال والإضلال.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص١٠٦.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ١٧٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٤٠/٩.

ثانيًا: التربية الخلقية:

من مبادئ التربية الإسلامية الاهتمام بالتربية الخلقية باعتبارها الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أي نشاط إنساني، ولأهمية هذا الجانب في التربية الإسلامية: اهتمت به السنة النبوية، ففي أحاديث الباب ما يدل على التزام الأخلاق الزكية وترك الأخلاق البذيئة. قال ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ»، وقال ﷺ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»، وقال: «ولاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»، وقال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صُعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ...»، فهذه نماذج تربوية من الباب تدل على عِظم قيمة الأخلاق ومدى الحاجة إلى التربية عليها، فالرسول نهى عن اللعن من قبل المسلمين بعضهم البعض؛ لأن اللعن معناه الإبعاد من رحمة الله، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمن الذي تربى على الأخلاق لأن من تخلق بهذه الصفة لا يكون فيه صفات خلقية جميلة، من هنا فإن الأخلاق تحظى في الإسلام بمكانة كبيرة ومرموقة فقد أشاد الإسلام بالخلق الحسن، ودعا إلى تربية المسلمين عليه وتنميته في نفوسهم، وقد أثنى الله على النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فهذا هو النبي ﷺ يضرب لنا أروع الأمثلة في الخلق الحسن، وكل أخلاق النبي ﷺ تعتبر قدوة يجب على المسلمين الاحتذاء بها من أجل قيمة هذه الأخلاق في التربية الإسلامية حذر رسول الله ﷺ من اللعن، ولذلك اتفق المربون على أن التربية الأخلاقية تعتبر أصعب جانب في التربية عمومًا، ولعل صعوبة الأمر ترجع إلى أن التربية هنا تعتمد على تربية النفس، وتربية النفس أصعب من تربية الجسم، كما اتفق أهل التربية بعد مشاهدة أحاديث الرسول ﷺ، على أن التربية الخلقية ألزم تربية للحياة الإنسانية فحياة الجماعة ومدى نجاحها وسعادتها واستقرارها مرتبطة بحياتها الأخلاقية، فالمسلم ينبغي أن يربي نفسه على مكارم الأخلاق، ثم نماء المكرمات، بالممارسة والمران، وذلك فضل الله يؤتيه لمن يشاء[2].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) تربية الأولاد والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد العك، ص١١١. رسائل في التربية والأخلاق، ص١١. تربية الأولاد في الإسلام، علوان، ٢/٦٤٠.

ثالثًا: التربية بالحرمان:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحرمان لما له من نتائج كبيرة في عملية التربية، ولقد ظهر من الأحاديث النبوية استعمال هذا الأسلوب كثيرًا، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، ما رواه أبو الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فهذا النموذج التربوي ظهر منه نمط الحرمان في التربية. حرمان الشفاعة يوم القيامة، حرمان قبول الشهادة يوم القيامة، وسبب حرمانهم الشفاعة والشهادة أنهم لعَّانون، والشفاعة والشهادة يلزمها خلق المروءة والأخلاق واللَّعانُ فيه شيء من خوارم المروءة في الدين أو الجرأة على عباد الله، لذلك استحق هذا الحرمان.

وهذا الأسلوب الذي ذكره النبي ﷺ في حديث الباب له نتائج تناولتها بعض الإجراءات العقابية المتنوعة مما نتج عنه بعض القواعد العامة في تعديل الأنماط السلوكية غير المرغوب فيها عند المتعلمين، لذلك أبرزت التجارب الحديثة أن أحسن الأنظمة المنشودة هو منهج الشريعة الإسلامية لما فيه من أساليب عقوبية تعين على عملية التربية[1].

رابعًا: التربية بالترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الناجحة أسلوب الترهيب، ولقد استخدمه رسول الله ﷺ في أحاديث الباب: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صُعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ ...»، فهذا نموذج تربوي استخدم فيه رسول الله ﷺ أسلوب الترهيب من اللعن وان عاقبته عظيمة، فإن الله لا يقبله.

وهذا يعتبر وعد من الرسول ﷺ قد صاحبه تهديد وتحذير من الأعمال التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى مثل اللعن، والرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب التربوي الجيد لعلمه أنه لا يمكن الاستغناء عنه أثناء عملية التربية فاستخدمه

---

(١) علم النفس التربوي، عبدالمجيد نشواتي، ص٢٩٩. أساليب التربية، عبدالرحمن البابطين، ص٦١. أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٦٤، ٤٠٤.

في هذا الموقف لأنه يحتاج إلى وعيد وتهديد بالعقوبة. ويجب على أهل التربية أن يتعلموا من رسول الله ﷺ هذا الأسلوب لكونه يساهم في التنشئة الصالحة للمسلم الذي يتصف بالسلوك القويم[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. عزب، ص٢٦٢. أساليب التربية الإسلامية، البابطين، ص٣١. أصول التربية الإسلامية، د. شحات، ص٨٤.

٢٦٥- باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود: ١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ)) (١).

وَأَنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا)) (٢).

وأنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرِينَ(٣).

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ))(٤) أيْ حُدُودَهَا.

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ))(٥).

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ))(٦).

وَ((لَعَنَ اللهُ من ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ))(٧).

وَأنَّه قَالَ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَة والنَّاسِ أجْمَعِينَ))(٨).

وأنَّهُ قَالَ: ((اللَّهُمَّ الْعَنْ رِعْلاً، وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ: عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ))(٩).

وهذِهِ ثَلاَثُ قَبَائِلَ مِنَ العَرَبِ.

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ))(١٠).

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٢/١١٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٢٣٨) من حديث أبي جُحيفة.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧٨/٤٣) من حديث علي.

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧/٧) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٧٨/٤٣) من حديث علي بلفظ: (والده).

(٧) انظر قبله.

(٨) انظر قبله.

(٩) أخرجه مسلم (٦٧٥/٢٩٤) من حديث أبي هريرة بلفظ: (اللهم العن لحيان، ورعلًا، وذكوان، وعصية، عصت الله ورسوله).

(١٠) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩/١٩) من حديث عائشة.

وأنهُ ((لَعَنَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّساء والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّسَاء بالرِّجالِ)) [١].

وَجَمِيعُ هذِهِ الألفاظِ في الصحيح؛ بعضُها في صَحيحَيّ البُخاري ومسلمٍ، وبعضها في أحَدِهِمَا، وإنما قصدت الاختِصَارَ بالإشارةِ إلَيهمَا، وسأذكر معظمها في أبوابها من هَذَا الكتاب، إن شاء الله تَعَالَى.

غريب الألفاظ:

لعن اللّهُ: اللَّعنْ: الإبعاد من رحمته سبحانه وتعالى [٢].

الواصلة: التي تصل شَعرها بشعر آخر زُورٍ [٣].

المستوصلة: التي تأمر من يفعل بها ذلك [٤].

الرِّبا: الزيادة على أصل المال (المقترض) من غير عقد تبايع [٥].

المصورون: الذين يصنعون تماثيل مجسَّمة للأحياء [٦].

البَيْضة: الخُوذة [٧].

أحدث حدثًا: فعل أمرًا منكرًا ليس بمعتاد في السنة [٨].

آوى محدثًا: نصر جانيًا أو أجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتَّص منه [٩].

رعل وذكوان وعُصية: قبائل من بني سُليم [١٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث عائشة.

(٢) النهاية في (ل ع ن).

(٣) النهاية في (ز و ر).

(٤) النهاية في (و ص ل).

(٥) النهاية في (ر ب و).

(٦) الوسيط في (ص و ر).

(٧) النهاية في (ب ي ض).

(٨) النهاية في (ح د ث).

(٩) النهاية في (ح د ث).

(١٠) اللسان في (ر ع ل) و (ذ ك و)

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الإيمانية:

إن من أبرز ما تركز عليه التربية الإسلامية: التربية الإيمانية، ولذلك كان من مهام النبي ﷺ ترسيخ هذه التربية في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، ومن الشواهد على ذلك أحاديث الباب قوله ﷺ: «لعن الله الواصلة والمستوصلة.....»، وقال: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهين من النساء بالرجال».

لقد أراد النبي ﷺ تربية الصحابة على الحذر من إتيان أو فعل مثل هذه الأمور من التغيير في خلقة الله عز وجل لأن التغير في خلقة الله عز وجل مما يتنافى مع مقتضيات الإيمان بالله عز وجل، لذلك كان الأساس الإيماني من أهم الأسس التربوية التي ينبغي أن يركز عليها في عملية التنشئة، ومتطلباتها من معرفة المبادئ والقيم الإسلامية السليمة وما يجب البعد عنه من العادات والتقاليد التي تخالف ما أمر الله به، لأن الإيمان كلما كان قويًا راسخًا في القلب مؤثرًا في عمل الجوارح كانت الأعمال والأفعال ترجمة عملية قويه لهذا الإيمان.

ثانيًا: التربية الاقتصادية:

من أنواع التربية الإسلامية التربية الاقتصادية، ولقد حرص رسول الله على بيان الأسس التربوية الاقتصادية التي يجب التعامل من خلالها، وذلك عن طريق عدد من الأمور، ومنها ما ورد في أحد أحاديث الباب في قوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِبَا»، «ولعن السارق»، وإن دعاء النبي باللعنة على آكل الربا أو السارق الذي يسرق ما ليس له من ممتلكات الآخرين، يعد تنفيرًا شديدًا من إتيان هذه الأمور أو التعامل من خلالها، وذلك لأن النظام الاقتصادي في الإسلام يقوم على أسس العدالة والمساواة والتراحم والسعي في طلب الرزق والحرص على الشخصية المسلمة، ويقوم أيضًا على الحفاظ على الثروة التي بددها الربا والسرقة، والتعامل بهما، فقد محق الربا الثروة الاقتصادية، لأن المال الذي استخدم في الربا لو بقي مصونًا من العبث، لبقيت الشخصية المسلمة كريمة الحياة، من هنا حرم الله الربا، وأحل البيع لأن ظلم البائع للمشتري أو ظلم المشتري

للبائع يزرع الحقد ويزعزع الثقة ويدعو للفرقة.

وقد حرم الله ورسوله الربا والسرقة، لأنها زيادة من غير حق، فهو مال حرام لا يباركه الله، والذي تربى على أن المسلم أخو المسلم، يعينه إذا قدر، ولا يرده ردًا سيئًا إذا لم يقدر، حتى لا يضطر إلى ما لا يريد، مما لا يغضب الله، أو يذهب بالمروءة من تعامل بالربا والسرقة لا يفعل ذلك، والرسول ﷺ ربى الصحابة على الحفاظ على الثروة وتنميتها بالطرق المشروعة من أجل هذا لعن الله آكل الربا والسارق وحرم التعامل بهما، وحدد قواعد للكسب الطيب والمال الحلال، فحرم الربا والسرقة، وبتحريم الإسلام الربا والسرقة يكون قد حَقَّق الحفاظ على الموازنة بين أبناء المجتمع وتحقيق التكافل الاجتماعي، فلا يستحق القوي الضعيف، بل يأخذ بيده ويعينه، ولا يحقر الغني الفقير بل يعطيه حقوقه من ماله[1].

ثالثًا: التربية العقدية:

من الأسس التي قامت التربية الإسلامية ببيانها: العقيدة الصحيحة، وما تقتضيه تلك العقيدة من إخلاص العبادة لله وصدق التوجه إليه، ومما يتنافى مع تلك العقيدة الذبح لغير الله، ولأجل أن يربي النبي ﷺ الصحابة والأمة من بعدهم على إخلاص العبادة لله، كان يؤكد دائمًا على وجوب التوجه الخالص لله تعالى في كافة الأعمال، ومما يؤكد ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

فهذه تربية عقدية صريحة على توحيد الله تعالى، وأن لا يتوجه إلا لله تعالى بعبادته (من صلاة، وذبح) الذي خلقه فسواه ورزقه وأغناه ومنحه القدرة على التفكير ليعرف ما ينفع وما يضر، ليعلن ويتربى ويربي على العبودية لله عز وجل، وهذه هي تربية

---

(١) التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ٢٥١/١. التربية الاجتماعية، أكرم العمري، ص٣٠٢. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب، ص٢٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

الأنبياء جميعًا، وهي أن يتجه الناس لعبادة الله ويقروا بعبوديته، وبالتالي صنفت القلوب، وقامت حياتهم على التعاون فعاشوا آمنين مطمئنين.

إن العقيدة أساسٌ للسلوك، على أساس أنها تحكم سلوك وتصرفات الإنسان فلا تجعله يذبح لغير الله، ولا يصلي إلى قبر، وهذا يكون في السر والعلانية، لأن العقيدة تجعل لها في النفوس مهابة تتحكم في تصرفات الإنسان، وتجدر الإشارة هنا إلى أن من تربى على توحيد الله وكانت عقيدته ثابتة لا يُطْغى الجانب المادي على الجانب الروحي فلا يصبح عبدًا لشهواته وشيطانه لأن غاية الشيطان أن يجعله يلحد بربه بسبب العداوة القديمة بينهما منذ قصة أمره بالسجود للإنسان ورفضه وطرده من رغبته وتحرشه بالإنسان منذ هذه الآونة فيجعله يصلي لغير الله، ويذبح لغير الله[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب، ص٨٦. التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ص٤٢. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات، ص٦٦.

٢٦٦- باب تحريم سب المسلم بغير حق

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٦١)

١٥٦١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

سباب المسلم: سباب بكسر السين وتخفيف الموحدة، وهو أشد من السب، وهو أن يقول الرجل للرجل ما فيه وما ليس فيه، يريد بذلك عيبه وقيل: السباب هنا مثل القتال فيقتضي المفاعلة[٢].

فسوق: الفسق في اللغة: الخروج، وفي الشرع الخروج عن طاعة الله ورسوله، وهو في عرف الشرع أشد من العصيان[٣].

الشرح الأدبي

السباب من الأخطاء التي تمزق المجتمع وتشعل الفتن بين أفراده وتشحن النفوس وتهدر الأوقات وتقطع الأرحام، والرسول ﷺ حريص على سلامة ذات البين ومقاومة أسباب الشقاق لذلك قوَّم خطأ السب أو اللعن بكل أشكاله سواء كان سباباً للعامة أو للخدم أو للدابة أو للوالدين أو للعصر أو أي شكل من أشكال السباب.وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (١١٦/٦٤) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٣).

(٢) انظر: فتح الباري ١٣٨/١.

(٣) فتح الباري ١٣٨/١.

الحديث يقوِّم الرسول ﷺ خطأ سباب المسلم وقتاله مبيناً عظم هذا الجرم وأثره على دين المرء، لذلك استخدم عدة أساليب بلاغية منها:

البداية بأسلوب خبري، ومن شأن الأساليب الخبرية أن توحي بثقة المتكلم في حجته في إثبات صدق خبره، وعدم معارضته المتكلم أو تنزيلاً للمخاطبين المترددين أو المنكرين منزلة غير المترددين وغير المنكرين؛ فيأتي بخبره عارياً عن عوامل التوكيد في إشارة واضحة إلى أن الخبر أوضح من أن يحتاج إلى توكيد ، ولا يتأتى لعاقل إنكاره أو التردد فيه.فقوله: (سباب المسلم فسوق) خبر خال من المؤكدات دلالة على تمام وضوحه ولا ينكره منكر لما هو معلوم من تناف بين أخلاق الإسلام والسباب فالسابان خارجان بفعلهما عن أخلاق الإسلام والسباب يحتمل أن يكون على ظاهره من لفظه من التفاعل، ويحتمل أن يكون بمعنى السب، وهو الشتم، وهو نسبة الإنسان إلى عيب ما، وعلى الأول فحكم من بدا به منهما أن الوزر عليه حتى يعتدي الثاني[1]. وقوله: (سباب المسلم فسوق) تشبيه بليغ حذف منه وجه الشبه والأداة مبالغة في تقارب المشبه والمشبه به في الصفة. ووجه الشبه هو مجاوزة الحد في كل.، وقوله: (وقتاله كفر) تشبيه بليغ أيضاً – والمراد منه المبالغة في التحذير، ويقال: أطلق عليه الكفر لشبهه به، لأن قتال المسلم من شأن الكافر، ويقال: المراد به الفكر اللغوي، وهو الستر، لأن حق المسلم على المسلم أن يعينه وينصره ويكف عنه أذاه فلما قاتله كأنه كشف عنه هذا الستر ، وقوله: (سباب المسلم ...) عرَّف المسند إليه بالإضافة لأن التعريف بالإضافة هو أخصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع إما لأنه أخصر طرق التعريف عند المتكلم وأخصر ما يحضر عند المخاطب لا أنه أخصر طرق التعريف ،وإضافة السباب للمسلم تعظيم للجرم وتصعيدا له إذ حق المسلم أعظم.، أضف إلى ذلك تعريف المضاف (المسلم) ب (ال) التي للجنس لإفادة العموم والاستغراق.،والتعريف بالإضافة يأتي لمدلول اللفظ من الخارج وكذا التعريف باللام والنداء. مما يبين أن كون السباب فسوقاً لإضافته وتعلقه

---

(١) فتح البارى ٣٤٤/١٦.

بالمسلم.، وبين (السباب والقتال مناسبة لأن الأول منهما غالباً ما يكون سبباً للثاني أو مقدمة له والثاني غالباً ما يكون كالنتيجة للأول، ولذلك عطف الثاني على الأول بالواو لأن بينهما اتفاقاً في متعلقهما واختلافاً من حيث مخالفة الكفر للفسوق من بعض الوجوه فبينهما توسط بين الكمالين وبين: (الفسوق والكفر) مناسبة لأن الأول مقدمة للثاني ومؤدي إليه والثاني يكون غالباً نتيجة للتمادي في الأول[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية التخلق بأخلاق الإسلام والبعد عن سباب المسلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل مع المسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من سباب المسلم وقتاله أو رميه بالفسق أو الكفر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية التخلق بأخلاق الإسلام والبعد عن سباب المسلم:

يظهر ذلك في حديث ابن مسعود ﵁ قال: "قال رسول الله ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".

وحديث أبي ذر ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك"[3].

فقد بين رسول الله ﷺ أن المسلم إذا سب أخاه المسلم، صار الساب فاسقًا، ومن قاتله فإنه يكفر، ونهى عن رمي المسلم أخاه المسلم بالفسق أو الكفر، فمن قال لأخيه يا فاسق أو يا كافر وهو ليس كذلك ردت عليه. وفي هذا دليل على أن هذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ توعد هذا القائل أن يكون هو الذي يتصف بهذه الصفة[4].

---

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ٢٢٨.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥٦١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٦٢).

(٣) البخاري برقم ٦٠٤٥.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٦٥٢/٢.

وفي ذلك حث على التخلق بأخلاق الإسلام الكريمة. فإن مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار[1].

من أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الحث على الأخلاق الفاضلة، وجاء القرآن مشددًا على الاستمساك بها، لأنها هي التي تحقق الفوز بالنعيم الأخروي، وأن الفضائل التي أمر بها الإسلام هي الفضائل الإنسانية الحقة، والتي لو عمل بها الناس لحصلوا على أعظم الخير لعالمهم المضطرب.

والرذائل وهي التي نهى عنها الإسلام، هي سبب الخصام والعداوة بين الناس، وهي التي لا يشك في ضررها أي مخلص يبتغي الخير للإنسانية[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل مع المسلم:

يستنبط هذا من عموم الحديثين[3]، حيث إن المسلم ينبغي عليه أن يحرص على مراعاة حقوق أخيه المسلم، فلا يؤذيه بقول أو فعل، قال رسول الله ﷺ: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسلمٍ كُربَةً فرَّجَ الله عنهُ كُربةً من كُرباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة))[4].

فإن أذية المسلم بالقول أو الفعل تكون سببًا في دخول النار، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص ٣٣.

(٢) انظر: الأخوة الإسلامية، د. عبد رب النبي علي أبو السعود، ص ٧٠.

(٣) الحديث رقم (١٥٦٠)، (١٥٦١).

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[1].

فينبغي على الداعية أن ينبه المدعوين إلى الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل.

فقد جاءت في سنة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة للحض على الأخوة وتأكيدها، وإقامتها على مبادئ الدين وغاياته. والمسلمون ارتبطت آمالهم وحياتهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله بالانتساب إليه، وحب الله يقتضي اتباع أوامره سبحانه، وتطبيق أحكامه، واجتناب ما نهى عنه، وحب الرسول ﷺ يقتضي اتباع سنته، والسير على منهاجه[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من سباب المسلم وقتاله أو رميه بالفسق أو الكفر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".

وقوله ﷺ: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك" قال القاضي عياض: (وقوله: "سباب المسلم فسوق": أي خروج عن الطاعة وواجب الشرع، وبه سمي الفاسق فاسقًا لخروجه عن ثقاف[3] الإسلام وانسلاخه عن أعمال البر، يقال: فسَقَت الرُطَبَةُ إذا خرجت من قشرها.

وقوله: "وقتاله كفر" أي قتاله من أجل إسلامه واستحلال ذلك منه كفر.

وقيل: ذلك من أفعال أهل الكفر، أو يكون كفر طاعة وكفر نعمة، وغمطهما بأن جعلهما الله مسلمين، وألف بين قلوبهما، ثم صار هو بعد يقاتله.

وقيل: كفر بحق المسلم وجحد له بالمعنى؛ لإظهاره إباحة ما أنزل الله من تحريم دمه

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٥٨١.

(٢) انظر: الأخوة الإسلامية، د. عبد رب النبي علي أبو السعود، ص ٣١، ٣٢.

(٣) يقصد بذلك: تعاليم الإسلام، النهاية، والوسيط في (ث ق ف).

وقتاله، وترك ما أمر به من محبته وإكرامه وصلته، فهو كفر بفعله وعمله لا بقوله واعتقاده.

وقد يكون القتال المشارَّةُ والمدافعة، كما قال في الحديث في المار بين يدي المصلي: "فليقاتله".

وكله منهي عنه، وفاعله جاحدٌ حق أخيه المسلم وحق الله فيه[١].

وقد ورد الترهيب من أذية المسلم في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢].

قال ابن علان: (قوله تعالى:"والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا" من جناية أو استحقاق لأذى "فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا" فذكر فيها سائر أنواع الأذى القولية من غيبة ونميمة وسخرية به، والفعلية من ضرب وإهانة وغير ذلك)[٣].

ومن السنة قوله ﷺ ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[٤]، وقال ﷺ: ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ))[٥]، وقال في حجة الوداع: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ))[٦].

قال النووي: (المراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك)[٧].

فهل بعد هذه النصوص، وما فيها من وعيد وترهيب، يطيب لمسلم أن يطلق لسانه في عرض مسلم، أو يؤذيه بقول أو فعل؟[٨]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٢٢/١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٦١٨.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٥) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

(٦) أخرجه البخاري ١٧٣٩، ومسلم ١٦٧٩.

(٧) شرح صحيح مسلم ١٠٧٥.

(٨) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح الصغير، ص ٢٠٩.

الحديث رقم (١٥٦٢)

١٥٦٢- وعن أَبي ذرٍ رضي الله عنه: أنهُ سَمِعَ رسُولَ اللهِ ﷺ يقول: ((**لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بالفِسْقِ أَوِ الكُفْرِ**[١]**، إلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذَلِكَ**)). رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

الفِسْقُ: الترك لأمر الله والخروج عن الحق وأصله: فسقت الرطبة عن قشرها [٣].

الشرح الأدبي

يدور معنى الحديث حول إدراك الرمي بالفسق أو الكفر لأحد المتراميين وقد ورد المعنى في ثوب القصر الذي يحصر الرمي بالفسوق أو الكفر في أحد المتسابين لا يتعداهما لغيرهما ، والتعبير بالرمي يشير إلى شدة الأثر وتنكير لفظ الرجل الأول، والثاني يفيد التعميم للحكم حتى يشمل كل متسابين تلحق السبة بأحدهما ، والتعبير بالفسوق يشير إلى مجاوزة الحد في أمر ما ، والكفر ضد الإيمان ، والتعبير بالارتداد يشير إلى العودة إلى المصدر وهو جزاء من جنس العمل ، والتعبير بحرف الجر (على) المضاف إلى الضمير العائد على الرامي يشير إلى إحاطته به ، واستعلائه عليه ، وقوله (إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذَلِكَ) أسلوب شرط محذوف الجواب دل عليه السابق أي إن لم يكن صاحبه كذلك ارتدت عليه .

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) لفظ البخاري: (بالفسوق، ولا يرميه بالكفر).

(٢) برقم (٦٠٤٥).

(٣) القاموس المحيط في (ف س ق).

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٦٣)

١٥٦٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((الْمُتَسَابَّانِ[1] مَا قَالاَ فَعَلَى البَادِي (منهُما) [2] حَتَّى يَعْتَدِي[3] المَظْلُومُ)). رواه مسلم[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

المتسابان: اللذان يسب كل منهما الآخر[5].

البادي: البادئ بالسَّبِّ؛ خُففت همزته[6].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه من جهة المعنى ورد في أسلوب خبري خال من المؤكدات دليل على أن المعنى مما لا يتأتى إنكاره وهو إدراك تبعة السب للساب وليس للمسبوب المظلوم حتى يرد فيتعادلان في الذنب أو يتسبب فيه ، وبداية الحديث بلفظ (المتسابان) على صيغة التفاعل تدل على المشاركة ،وقوله (ما قالا فعلى البادي منهما) والفاء إما لكون ما شرطية أو لأنها موصوله متضمنة للشرط (حتى يعتدى المظلوم) أي بأن يسبه أكثر ، وأفحش منه أما إذا اعتدى كان إثم ما اعتدى عليه والباقي على البادي .

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من البدء بالسب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العدل في الغضب وعدم التجاوز.

---

(١) لفظ مسلم: (المستبّان).

(٢) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند الترمذي (١٩٨١)، وكذا عند المنذري في ترغيبه.

(٣) لفظ مسلم: (ما لم يعتد)، والمثبت لفظ أحمد في المسند (١٠٧٣)، وكذا عند المنذري.

(٤) برقم (٢٥٨٧/٦٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٢) والسياق له.

(٥) اللسان في (س ب ب).

(٦) النهاية في (ب د و).

ثالثًا: من آداب المدعو: الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة والسباب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من البدء بالسب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "المتسابان[١] ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم".

قال القرطبي: (ومعنى الكلام: أن المبتدئ بالسبِّ هو المختص بإثم السبِّ؛ لأنه ظالم به، إذ هو مبتدئ من غير سب ولا استحقاق، والثاني منتصر فلا إثم عليه، ولا جُناح، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٢]، لكن السب المنتصر به - وإن كان مباحًا للمنتصر - فعليه إثمٌ من حيث هو سبٌّ، لكنه عائد إلى الجاني الأول؛ لأنه هو الذي أحوج المنتصر إليه وتسبب فيه، فيرجع إثمه عليه، ويسلمُ المنتصر من الإثم؛ لأنَّ الشرعَ قد رفعَ عنه الإثم والمؤاخذة، لكن ما لم يكن من المنتصر عدوان إلى ما لا يجوز له[٣].

قال النووي: (معناه: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار)[٤].

وقال الطيبي: (معناه: إثم ما قالاه على البادئ إذا لم يعتد المظلوم)[٥]. فهذا يدل على الترهيب والتحذير من البدء بسب المسلم لأخيه المسلم.

فهذا مسلك مذموم في الشرع والعقل، وهو سبب لحدوث أمور لا تحمد عقباها، فكم حصل بسببه من قتل وطلاق، وفساد لذات البين، ونحو ذلك مما ينتج عن البدء بالسب، لذلك رهّب منه رسول الله ﷺ.

---

(١) المتسابان: وردت في صحيح مسلم بلفظ المستبان، مسلم ٢٥٨٧.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤١.

(٣) المفهم ٥٦٦/٦، ٥٦٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٤٦.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠٠/٩.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية العدل في الغضب وعدم التجاوز:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ: "حتى يعتدي المظلوم"، قال القرطبي: (قال: "ما لم يعتد المظلوم" أي ما لم يجاوز ما سُبَّ به إلى غيره؛ إما بزيادة سب آخر أو بتكرار مثل ذلك السَّبِّ، وذلك أن المباح في الانتصار: أن يردَّ مثل ما قال الجاني، أو يقاربه؛ لأنه قصاص، فلو قال له: يا كلب -مثلاً- فالانتصار أن يرد عليه بقوله: بل هو الكلب، فلو كرر هذا اللفظ مرتين أو ثلاثًا لكان متعديًا، بالزائد على الواحدة، فله الأولى، وعليه إثم الثانية، وكذلك لو رد عليه بأفحش من الأولى، فيقول له: خنزير -مثلاً- كان كلُّ واحد منهما مأثومًا؛ لأن كلاً منهما جار على الآخر، وهذا كلُّه مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[(٢)]، وكلُّ ما ذكرناه من جواز الانتصار: إنما هو فيما إذا لم يكن القول كذبًا، أو بهتانًا، فلا يجوز أن يتكلَّم بذلك لا ابتداءً ولا قصاصًا، وكذلك لو كان قذفًا؛ فلو ردَّه كان كلُّ واحدٍ منهما قاذفًا للآخر، وكذلك لو سب المبتدئ أبا المسبوب، أو جده، لم يجز له أن يردَّ ذلك؛ لأنه سبٌّ لمن لم يجن عليه، فيكونُ الرد عدوانًا لا قصاصًا، قال بعضُ علمائنا: إنما يجوز الانتصار فيما إذا كان السب مما يجوز سب المرء به عند التأديب، كالأحمق، والجاهل، والظالم؛ لأنَّ أحدًا لا ينفكُّ عن بعض هذه الصفات إلا الأنبياء والأولياء، فهذا إذا كافأه بسبه فلا حجر عليه، ولا إثم، وبقي الإثم على الأول بابتدائه وتعرُّضه لذلك.

تنبيه: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[(٣)] أن الانتصار مباح، وعلى ذلك يدلُّ الحديث المذكور، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[(٤)] مدح من الله تعالى للمنتصر، والمباح: لا يُمدح عليه، فاختلف العلماء في ذلك، فقال السُّدِّي: إنما مدح الله من انتصر ممن بغي عليه من غير زيادة على مقدار

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤١.

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٩.

ما فعل به، يعني: أنه إنما مُدح من حيث إنه اتقى الله في انتصاره؛ إذا أوقعه على الوجه المشروع، ولم يفعل ما كانت الجاهلية تفعلُ من الزيادة على الجناية. وقال غيره: إنما مدح الله من انتصر من الظالم الباغي المعلن بظلمه الذي يعمُّ ضررُه، فالانتقام منه أفضل، والانتصار عليه أولى[(١)].

قال النووي: (فيه جواز الانتصار ولا خلاف في جوازه)[(٢)] وتظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة. فعلى المنتصر لنفسه في رد من سبه ألا يتعدى، فإذا تعدى فيكون عليهما، نعم إلا إذا تجاوز غاية الحد، فيكون إثم القولين عليه، قال البغوي: (من أربى الربا من سب سبتين بسبه)[(٣)].

وتمام العدل أن يكون مع الصديق والعدو في الرضا والغضب قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٤)]. قال ابن كثير: (لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا، ولهذا قال: "اعدلوا هو أقرب للتقوى" أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه)[(٥)].

ثالثًا - من آداب المدعو: الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة والسباب:

يستنبط هذا من عموم الحديث، فإذا جاز لمن سبه صاحبه أن يسبه بمثل ما سبه، فإن الصبر والعفو أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(٦)] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(٧)] وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ

---

(١) المفهم ٥٦٧/٦، ٥٦٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، ص ١٥٤٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠٠/٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٦٢/٣.

(٦) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٠.

أن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾[٢] وقال ﷺ: ((مَا زاد اللّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا))[٣] ونحوه كثير. فعلى المدعو الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة.

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤] وعليه أيضًا الترفع عن السباب، فذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: (شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم)[٥].

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٥٨٨

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) انظر: سوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٠٦.

الحديث رقم (١٥٦٤)

١٥٦٤- وعنه، قَالَ: أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ، بِرَجُلٍ قَدْ شرِبَ قَالَ: ((**اضربوهُ**)) قَالَ أَبُو هريرةَ: فَمِنَّا الضارِبُ بيَدِهِ، والضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، والضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أخْزَاكَ اللهُ! قَالَ: ((**لا تَقُولُوا هَذَا**[1]**، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ**)). رواه البخاريُّ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

المضامين الدعوية[3]

(١) لفظ البخاري: (هكذا).

(٢) برقم (٦٧٧٧)، وتقدم برقم ٢٤٣.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٤٣).

الحديث رقم (١٥٦٥)

١٥٦٥- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ((مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَى يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ يَوْمَ القِيَامَةِ، إلاَّ أنْ يَكُونَ كما قَالَ)). متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الحد: العقوبة المقرونة بالذنب[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو ختام باب تحريم سبّ المسلم بغير حق، وهو يتضمن جملة خبرية في صدره، ثم جملة استثنائية في عجزه ونهايته، و"مَنْ" تتضمن معنى الشرط لأن الجملة بها مقدمة ولها نتيجة، والمقدمة تتمثل في قول رسول الله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزِّنى.." والنتيجة: هي العقاب الذي ينتظر ذلك السابّ القاذف، يقام عليه الحد يوم القيامة، وكلمات الحديث تتسم بدقة الاختيار، وقوة الإيحاء، فقوله: "مملوكه" يوحي بأن القاذف هو السيد مالك هذا المملوك، ويرشد إلى أن هذا المملوك يعجز عن المطالبة بحقه من سيده ومالكه، ولكن هل يضيع حق هذا المملوك؟ لا.. فرسول الله ﷺ يضمن له حقه، حيث أخبر بأن هذا السيد يقام عليه الحد يوم القيامة، إظهارًا لكمال العدل، إذا كان العبد بريئًا، وبناء الفعل للمجهول فيه تقليل من شأن ذلك السيد، فهو في الآخرة مهان لا يستحق تحديد من سيقيم عليه الحد، فهو بإذن الله تعالى ومشيئته، والذين سيقومون بذلك هم ملائكة العذاب، وقوله: "الحد": تنبيه على أن إقامة الحدود واجبة.. ولو نجا إنسان من الحد في الدنيا فإنه سيقام عليه في الآخرة، والتعبير بقوله: "قذف" يؤكد على بشاعة هذا الجرم، وأنه من الكبائر، فكأن القاذف يرمي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (٣٧/١٦٦٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣١٢١).

(٢) النهاية في (ح د د).

المقذوف بحجارة ملتهبة، فالقذف يؤدي إلى اشتعال نار الفتن، وتمزيق الأواصر، وتشويه الأعراض، ومما يؤيد ذلك قول العرب: قذف الحجر بالقذافة، وتقاذفوا بالحجارة، وجعل الله الشهاب قذيفة الشيطان، والاستثناء في ختام الحديث: يقيد الحكم، فالحدّ لا يقام على مالك العبد في الآخرة، إذا كان العبد كما قال مرتكبًا لجريمة الزنى.

وفي ذلك إيحاء بأن التنبيه على من يرتكب جريمة الزنى وكشف أمره، وفضح سلوكه، ليس قذفًا، ولكنه تقرير عن واقع، ولا بد أن يكون موثقًا بالأدلة والشواهد التي تقيم الحجة على مرتكب هذه الجريمة النكراء، ونسأل الله تعالى العصمة من الزلل والنجاة من النار.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم القذف: أجمع الفقهاء على حرمة القذف[١].

٢-الحكم لو قذف السيد عبده: أجمع الفقهاء[٢] على أن الحر إذا قذف عبدًا لم يجب عليه الحد، ودل هذا الحديث على ذلك، لأنه لو وجب على السيد أن يجلد في قذف عبده في الدنيا لذكره كما ذكره في الآخرة[٣].

كما أجمع الفقهاء على أنه إذا قذف العبد غيرُ مالكه أنه لا حد على قاذفه[٤].

٣-ما الحكم لو قذف الحر أم ولد؟ ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي إلى أنه لا حد عليه[٥]. واستدلوا على

---

(١) المغني ٩/٧٦.

(٢) إلا ما روي عن داود أنه قال: يجب الحد على قاذف العبد. المغني ٩/٧٦.

(٣) بدائع الصنائع ٧/٤٠، وحاشية الدسوقي والشرح الكبير ٤/٣٢٥-٣٢٦، ومواهب الجليل ٦/٢٩٨، ومغني المحتاج ٥/٥٨، والمغني ٩/٧٦، وفتح الباري ١٢/٢٢١، وسبل السلام ٤/٣١.

(٤) سبل السلام ٤/٣١.

(٥) بدائع الصنائع ٧/٤٠، ومغني المحتاج ٥/٥٨، والمغني ٩/٧٦، وبداية المجتهد ٢/٣٦٢، وفتح الباري ١٢/٢٢١، وسبل السلام ٤/٣١.

ذلك بأن من لا يحد قاذفه إذا لم يكن له ولد، لا يحد وإن كان له ولد كالمجنونة[1].

وذهب الإمام مالك وداود إلى أنه يجب عليه الحد بعد موت السيد وهذا قياس قول الشافعي[2].

والراجح هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على البعد عن ظلم العبيد والخدم والعمال.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: حماية أعراض الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المملوك وبيان عاقبة ذلك يوم القيامة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المؤمن.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على البعد عن ظلم العبيد والخدم والعمال:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزنى يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال".

فقد بيّن رسول الله ﷺ أن السيد إذا قذف عبده بالزنا أو اللواط أو ما أشبه من كلمات القذف. فإذا كان العبد مظلومًا، ولم يفعل شيئًا من ذلك كان ذلك ظلمًا من السيد لعبده. والظلم عقابه من الله شديد، قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: ((لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ

(١) المغني ٧٩/٩.

(٢) بداية المجتهد ٣٦٢/٢، وفتح الباري ٢٢١/١٢، والمغني ٧٦/٩، وسبل السلام ٣١/٤.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٤) سورة هود، آية: ١٨.

الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[١] فالخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الإنسانية، فينبغي معاملتهم معاملة كريمة، والبعد عن ظلمهم، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ فعن المعرور ابن سويد قال: ((رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلاَمِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))[٢].

فبين الرسول ﷺ أن الخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الإنسانية.

وكان الظاهر أن يقول: خولكم إخوانكم، ولكن قدم ما أصله التأخير اهتمامًا بالأخوة، وأنه لا ينبغي أن تنسيها الخدمة، وهل الخدمة إلا إعانة، فكيف تكون سببًا للتحقير والإهانة، إن الأخوة وحدها داعية إلى التبجيل والإكرام، فكيف إذا انضمت إليها الخدمة والمعونة والمساعدة؟ فينبغي على صاحب العمل الذي مكنه الله من هؤلاء الخدم، العناية بهم، والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾[٣] وقد نهى ﷺ عن تكليف الخدم من الأعمال ما يشق عليهم ويهد قوتهم أو يستفرغ جهدهم، بل التكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم. فالحديث إرشاد لأرباب البيوت أن يقفوا من الخدم موقف العدالة، ولا يتناسوا رابطة الأخوة، ولا تبادل المنافع، وفيه النهي عن سباب الخدم والتعرض لآبائهم وأمهاتهم بما يسوؤهم أو يحط من قدرهم[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٤٥، ومسلم ١٦٦١.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٤) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٧٥، ٧٦.

ثانيًا - من أهداف الدعوة: حماية أعراض الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزنى يقام عليه الحد يوم القيامة". فلقد شمل الإسلام أعراض الناس بأقوى حماية يمكن أن يختص بها حق من حقوق الإنسان. وتبدو حمايته هذه أوضح ما يكون في العقوبات القضائية الشديدة التي يوقعها في حالات الزنا وهتك العرض والقذف، كما تبدو في تحريمه الغيبة والنميمة والتجسس والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وما إلى ذلك من كل ما يمس عرض الإنسان وكرامته، وفي تحقيره لمقترفي هذه الآثام وتوعده إياهم بأشد عذاب يوم القيامة(١).

إن حماية الأعراض، وصيانة كرامات الناس، والمحافظة على حرماتهم، لها في الإسلام شأن، وأي شأن؟

وهي حقوق فرضها الإسلام، وجعلها دينًا يتعبد به، كما يتعبد بالصلاة، والذكر، والدعاء، ولتبقى سلوكًا عمليًا في واقع الحياة، ومظهرًا من مظاهر المجتمع النظيف، فضلاً عن أنها تحفظ كيانه، وتدعم أركانه، وتقيه من التصدع.

ولقد أوسع الإسلام القول، وأفاض في الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذه الغاية، ونشير هنا إلى آيتين: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾(٣).

وقد تضمنت هاتان الآيتان:

١-النهي عن السخرية، وهي احتقار الغير، واستصغاره لغير سبب ظاهر، سواء

---

(١) حماية الإسلام للأنفس والأعراض، د. علي عبدالواحد وافي، ص ٥٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

كان الاستصغار بالعبارة، أم بالإشارة، أم بأي طريقة مفهمة لمعنى التحقير.

وإنما نهى الله عن ذلك؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه.

فإذا كان المسخور منه بليد الشعور، لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النهي في هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيره ضربًا من المزاح الذي أحله الله.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانًا بها كانت على الناس أهونا

وفي الآية تعليل النهي بأن المستهزأ به قد يكون أزكى نفسًا، وأحسن عملاً، وأقرب إلى الله بما يقدمه من خير وبر، ولا يعلم بذلك المستهزىء، فيكون قد تعرض للظلم، بتحقير ما يستحق التعظيم.

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّهِ لأَبَرَّهُ))[١].

إن سخرية الرجال من الرجال، والنساء من النساء، إثم كبير، وشر لو لم يكن للإنسان غيره لأوبقه.

يقول الرسول ﷺ: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))[٢].

٢-النهي عن ذكر العيوب والنقائص، فإن الطعن في الأشخاص يحرج الصدور، ويورث العداوات.

٣-النهي عن أن يدعو أحد غيره بلقب يكرهه: ويطلق عليه لفظًا يسوءه أن يسمعه، بل الواجب أن يدعو أخاه المسلم بأحب الأسماء إليه، فإن إطلاق لفظ قبيح على من اتصف بالإسلام غير كريم "بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان".

٤-إن مخالفة هذه التعاليم، وعدم مراعاتها، ظلم يسخط الله ويغضبه، لأن ارتكاب أمثال هذه الحماقات يفرق الجماعة، والله يريد للمسلمين أن يتعاونوا على البر، ويتجمعوا على المصلحة، ويعيشوا في ظلال المحبة والمودة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٢٢، ٢٨٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

٥- النهي عن الظن السيء، وهو الحكم على الغير بأمر سيء من غير دليل. فالتهمة، والتخون للأهل والأقارب والناس، من غير اعتماد على أدلة صحيحة، إثم من الآثام، وهو أكذب الحديث..

يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري وغيره، عن أبي هريرة ((إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث))[1].

٦- النهي عن التجسس وتتبع العورات، لما فيه من اشتغال بما لا يفيد، وضياع للعمر في غير جدوى ولا مصلحة، ولأنه مثير للضغائن والأحقاد.

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي: أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه صعد المنبر، فنادى بصوت رفيع: ((يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَتُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّروهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخيهِ الْمُسْلِمِ يَتَّبِعِ اللّه عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعُ اللّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ))[2])[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المملوك وبيان عاقبة ذلك يوم القيامة:

يظهر ذلك من عموم الحديث، قال ابن عثيمين: (المملوك هو العبد الذي يملكه الإنسان، والمملوك كالسلعة يباع ويشترى ويوهب، ويرهن، ويوقف إلا أن أحكام الله عز و جل هو والحر على حد سواء في غير الأمور المالية. والسيد مالك للرقيق لعينه - يعني رقبته - ولمنافعه، فإذا قذف عبده بأن قال للعبد: يا زاني، أو لوطي، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يحد في الدنيا لأنه سيد، والعبد مملوك لكن يقام الحد عليه في دارٍ عذابُها أشد -والعياذ بالله- وهي الدار الآخرة يقام عليه الحد يوم القيامة، وعلى ذلك فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب، لأنه رتب عليه عقوبة في الآخرة، وكل شيء رتب عليه عقوبة في الآخرة فإنه من كبائر الذنوب)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٣٢ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٥٥).

(٣) إسلامنا، السيد سابق، ص ٢٧٧-٢٨١.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٥٦.

وفي ذلك ترهيب من قذف المملوك لما يترتب عليه من عقاب يوم القيامة.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المؤمن:

يستنبط هذا من عموم الحديث، حيث رهّب رسول الله ﷺ من قذف المملوك وبيَّن أن من قذف عبده ولم يكن كما قال، فإن الله يقيم عليه الحد يوم القيامة. وقذف المؤمن بصفة عامة حرمه الله تعالى، وجعله من أكبر الكبائر، والأصل في تحريمه الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وأما السنة قوله ﷺ: ((اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافِلاتِ))[3].

---

(١) سورة النور، آية: ٤.

(٢) سورة النور، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخلقية:

من أنواع التربية الإسلامية: التربية الخلقية التي ركّز عليها النبي ﷺ وعمل على تعميقها في نفوس أصحابه رضي الله عنهم من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه، وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع، وتتنافى مع القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث باب تحريم سب المسلم بغير حق ما ورد في قوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ. وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وقال: «المتسَابَّان ما قالا فعلى البادئ ...»، وقال: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...»، فهذه توجيهات تربوية نبوية ظهر منها أنه لا يليق بالمسلم أن يقذف ويسب أخاه المسلم والرسول ﷺ يرسي قواعد التربية الخلقية، بذلك ويعظم حق المسلم، ولذلك جعل عقوبة سبه الفسق، وهذا تهذيب للخلق وتربية للروح على الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية من أجل بناء الإنسان المتخلق بأخلاق الإسلام، الذي يربأ بنفسه عن السب والشتم، والرسول ما حث على الخلق إلا لعلمه أن حسن الخلق زينة للإنسان، ومن أسباب سعادته، وسوء خلقه، (من سب ولعن وقذف)، كما هو معنا في أحاديث الباب دليل على سوء خلقه وأنه لم يُرَبَّ التربية الإسلامية الحقة التي تدعو إلى الخلق الحسن، والرسول حرص على تربية الأخلاق أيضًا هنا لأنه حريص على ترابط المجتمع كما أن الأخلاق تدعوا إلى تطهير النفس.

إن اهتمام الرسول ﷺ بالتربية الأخلاقية والتنفير من السب، يؤكد على أهمية تخلق المسلم بالخلق الإسلامي والترفع عن كل ما يؤدي إلى النيل من المسلم بأي شكل أو صورة من الصور والتي منها: السب أو الرمي بالفسق أو الكفر، أو وصفه بأي وصف ينتقص منه، إن التربية الخلقية تعمل على تكوين روح الخير في الفرد، وتنمية الوعي بوحدة الحياة الاجتماعية، وأهم ثمار التربية الخلقية أنها تقوم على أساس اعتقادي يربط بين الإيمان والسلوك الخلقي، وعلى أساس علمي لصلة القوانين الأخلاقية بالعلوم

الطبيعية والنفسية والاجتماعية، وعلى أساس إنساني يستند إلى الطبيعة الإنسانية وحرية الإرادة والشعور بالمسئولية الأخلاقية، وهذا ما أخذه أهل التربية من أحاديث الباب[1].

ثانيًا: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية: التحذير، ولقد استخدم رسول الله ﷺ أسلوب التحذير في توجيهاته التربوية التي ترمى إلى البعد عن إتيان كل ما ينقص المؤمن، من خلال رميه بالتهم أو وصفه بالأوصاف التي لا تليق به، ومن شواهد ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «وَلاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالْفِسْقِ أَو الْكُفْرِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ.....»، فهذا توجيه تربوي يحذر من خلاله الرسول ﷺ أصحابه من السب بالفسق أو الكفر، وذلك لأن سب المؤمن يؤدي إلى غضب لله تعالى وعذابه، ويؤدي إلى إفساد العلاقات الاجتماعية، وفيه إعانة للشيطان على المسلم، كما يؤدي إلى نوع من العزلة الاجتماعية، ولذا حذر النبي ﷺ من هذه الأمور، وإمعانًا في التوجيه التربوي الذي يحمل المسلم على اجتناب هذا الأمر بين ﷺ أن من قام بالسب يوقع نفسه في دائرة العقوبة المترتبة على ذلك حيث حذر الرسول ﷺ من مغبة ذلك بقوله: « إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»، وهذا أسلوب توجيه تحذيري.

ولا شك أنه مرتبط بالسلوكيات الخاطئة التي قد يرتكبها المسلم في هذا السب، لأنه بمجرد إجراء هذه الألفاظ التي فيها سب يكون قد افتقد عددًا من قيم الخير وفضائل الأعمال، فهذا الحديث الذي معنا يستفاد منه تربويًا، أنه يعد بمثابة القوة الصادة لانحراف الإنسان عن الغاية الخلقية، إن ما قدمه الرسول ﷺ من تربية للأخلاق يعتبر تحذيرًا وتوجيهًا قدمه على هيئة نصائح وإرشادات لو أخذ بها المسلمون وأهل التربية لجنبت المسلم الكثير من الآلام، وهذا ما أراده النبي ﷺ، مع صحابته في تربيتهم على خلقٍ حميد لأنه عَلِم ﷺ أن عِلم الأخلاق يأتي في مقدمة الوسائل التي يعني بها المربون لأنه المصباح الكاشف لمسالك الرشد، والتربية الناجمة لا غنى لها عن الأخلاق[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. شحات، ص٦٦. أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٥٩.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٣٦٨، فصول من الأخلاق الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالله يوسف الأزدي.

ثالثًا: التربية بالعقوبة:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التربية بالعقوبة، وهو أسلوب وضعه الشارع للردع عن ارتكاب ما نهى عنه. والرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب ففي أحاديث الباب ما يدل على ذلك: «أُتيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شَرِبَ، قال: اضربوه. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمنّا الضاربُ بيدِهِ والضاربُ ...»، الرسول ﷺ في هذا الحديث أظهر أسلوب العقاب وأعتبره وسيلة من وسائل التأديب والتربية، وهذا في قوله «اضربوه» وهذه الوسيلة لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال لأن بعض البشر لا ينفع معه إلا العقاب والألم الذي يباشر بدنه، وهذا هو العقاب بالضرب والأذى الذي ذكره رسول الله ﷺ إيقاع الألم على جسد المضروب بعصا أو بالنعال، وهذه العقوبة أكدت التربية الإسلامية عليها في بعض الحدود «كشرب الخمر» وحد شرب الخمر له وضع خاص في التربية الإسلامية حيث استخدم الله عز وجل في تحريمه أروع أسلوب تربوي ألا وهو التدرج في التحريم لذلك كان له عناية خاصة في الشرع، لذلك كانت عقوبة شارب الخمر الضرب والإهانة -وقد عنى الفقه الإسلامي بهذا الأمر- لكن وضع أهل التربية قواعد لهذا الضرب:

١- أن لا يكون الضرب للتشفي، لأن ذلك يؤدي بالمؤدب إلى مجاوزة الحد.

٢- أن يكون الضرب غير مبرح.

٣- أن لا تكون أداة الضرب غليظة ولا رقيقة.

٤- أن لا يزيد الحد على الضرب - الضرب الزائد، أو بالسب والشتم كما حدث في الحديث عندما « قالَ بَعْضُ الْقَوْمِ أخْزَاكَ اللَّه» لأنه بهذه الزيادة يعين عليه الشيطان في ارتكاب الحد مرة أخرى، وهذا ما ذكره ﷺ.

٥- أن لا يضرب في أماكن قاتلة، فهذه هي الضوابط التربوية والشرعية التي يجب على المربي اتباعها عند تطبيق هذه العقوبة[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٠٧. أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن البابطين، ص٢٦٥، أساليب الدعوة والتربية في السنن النبوية، للعاني، ص٤٦٤.

٢٦٧- باب تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية

وَهِيَ التَّحْذِيرُ مِنَ الاقْتِدَاء بِهِ فِي بِدْعَتِهِ، وَفِسْقِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَفِيهِ الآيَةُ والأحاديثُ السَّابِقَةُ فِي البَابِ قَبْلَهُ.

الحديث رقم (١٥٦٦)

١٥٦٦- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قَالَ رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**)). رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

أفضوا: وصلوا وانتهى بهم الأمر[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يبد بأسلوب النهي (لا تسبوا الأموات) واتصال واو الجماعة بالفعل المنهي عنه يفيد عموم النهي لكل المسلمين في كل زمان ،ومكان ؛ لأن الميت لا يتسبب في إيذاء للحي ،وإن كان قد تسبب في إيذاء للحي قبل موته فإنه قد نال جزاءه الذي يستحقه ، وسب الأموات يعني شتمهم من السب ، وهو القطع ، وقيل من السبة ، وهي حلقة الدبر كأنها على القول الأول قطع المسبوب عن الخير ، والفضل ، وعلى الثاني كشف العورة وما ينبغي أن يستر ، وقوله (فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا) المعنى قد صاروا إلى جزاء ما قدموا فإن كانوا قد جوزوا بالشر فيكفي ما هم فيه وإن كانوا قد غفر لهم لم يضرهم السب.

---

(١) برقم (١٣٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٨) مع قصة في أوله عند ابن حبان، وعزاه أيضًا إلى البخاري، وقال: دون ذكر القصة.

(٢) المعجم الوسيط في (ف ض و).

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

حكم سب الأموات: دل الحديث على تحريم سب الأموات[1]. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سب الأموات يجري مجرى الغيبة، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير -وقد تكون منه الفلتة- فالاغتياب له ممنوع، وإن كان فاسقًا معلنًا فلا غيبة له فكذلك الميت، ويحتمل أن يكون النهي على عمومه فيما بعد الدفن، والمباح ذكر الرجل بما فيه قبل الدفن، ليتعظ بذلك فساق الأحياء، فإذا صار إلى قبره أمسك عنه لإفضائه إلى ما قدم أ هـ.... وأصحّ ما قيل في ذلك إن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساوئهم للتحذير منهم والتنفير عنهم، وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءً وأمواتًا)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن سب الأموات.

ثالثًا: من آداب المدعو: التخلق بأخلاق الإسلام.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تسبوا الأموات" حيث نهى ﷺ عن سب الأموات.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في نهي المدعوين عن ما يخالف أحكام الدين وأخلاق الإسلام، حتى يبين للمدعوين أهمية البعد عما نهى عنه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن سب الأموات:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا".

قال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ قال: "لا تسبوا الأموات" والأصل في النهي

---

(١) فتح الباري ٣١٧/٣، وسبل السلام ٢٠٥/٢، ونيل الأوطار ١٠٨/٤.

(٢) فتح الباري ٢٥٩.

التحريم، فلا نسب الأموات ثم علل وقال "فإنهم أفضوا إلى ما قدموا")[١].

قال الطيبي: (أي مضوا إلى جزاء ما قدموا من أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والله تعالى هو المجازي، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم، فما لكم وإياهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه؟ هذا يدل على أنه لا يجوز الخوض بلا فائدة، وإن كان للتحذير فلا بأس به)[٢].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سب الأموات يجرى مجرى الغيبة، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير -وقد تكون منه الفلتة- وإن كان فاسقًا معلنًا فلا غيبة له، فكذلك الميت)[٣].

ظاهر الحديث يدل على منع وتحريم سب الأموات مطلقًا، سواء كان الميت مسلمًا أو كافرًا، أوكان مسلمًا فاسقًا أو صالحًا.

ولكن هذا العموم مخصوص -على أصح ما قيل- بأن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساوئهم للتحذير منهم، والتنفير عنهم، وعن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم، والضابط في ذلك جواز سبهم إذا كان لمصلحة شرعية للمسلمين. وعلل ﷺ النهي عن سبهم بأنهم أفضوا ووصلوا إلى جزاء ما قدّموا وعملوا من خير أو شر، والله هو المجازي، فلا فائدة في سبهم، فيحرم إلا لمصلحة شرعية أو ما خصّه الدليل من عموم هذا النهي.

والعلة الثانية في هذا النهي لئلا يتأذى الأحياء بسبهم، من أولادهم وأقاربهم ومن يلوذ بهم، إذ العلة الأولى في النهي عن سبهم أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وهذا يدل على العموم إلا لمصلحة شرعية، فإن كان في سبهم أذية للأحياء فيكون محرمًا من جهتين، وإلا كان محرمًا من جهة واحدة.

قال ﷺ: ((لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ))[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٦٥٧/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٠/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٣٠٤/٣.

(٤) أخرجه الترمذي ١٩٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٤).

وقوله ﷺ "فتؤذوا الأحياء" لا يدل على جواز سب الأموات عند عدم تأذي الأحياء، كمن لا قرابة له، أو كانوا ولكن لا يبلغهم ذلك، لأن النهي عام إلا لمصلحة شرعية.

فقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءً وأمواتًا، لابتناء أحكام الشرع على بيان حالهم.

قال الشوكاني: المتحرّي لدينه: في اشتغاله بعيوب نفسه ما يشغله عن نشر مثالب الأموات. وسب من لا يدري كيف حاله عند بارئ البريات. ولا ريب أن تمزيق عرض من قدم وجثا بين يدي من هو بما تكنّه الضمائر أعلم. مع عدم ما يحمل على ذلك من جرح أو نحوه: أحموقة لا تقع لمتيقظ، ولا يصاب بمثلها متدين، ونسأل الله السلامة بالحسنات، وأن يغفر لنا تفلتات اللسان والقلم، وأن يجنبنا سلوك هذه المسالك التي هي في الحقيقة من أعظم المهالك[1].

وينبه هنا إلى أمر عظيم وخطير جدًا، وهو ما يقع من بعض الجاهلين الذين يقعون في أئمة ديننا، ويطعنون فيما سلف من أئمة الإسلام، ويتكلمون في عقيدتهم ويضللونهم ويبدّعونهم، ونصبوا أنفسهم حكامًا على أولئك الجبال العظام من أئمة الإسلام الذين قيل فيهم: تجاوزوا القنطرة.

ومن أنت أيها الجاهل المفضّل بالنسبة إليهم، فارفق بنفسك، واعرف حرمة أئمة وعلماء الإسلام، ورحم الله امرءًا عرف قدره فوقف عنده[2].

فينبغي على المسلم الكف عن سب الأموات، قال رسول الله ﷺ: ((اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وكُفوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ))[3].

فينبغي للأحياء أن يقبلوا على أعمالهم، وأن يعدو أنفسهم ليوم معادهم وألا يتحدثوا

---

(١) نيل الأوطار ٧٤٦.

(٢) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام، ٥٨٠/٢، ٥٨١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٤/١ رقم ١٤٦١ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه أبو داود ٤٩٠٠ والترمذي ١٠١٩ وضعفه الألباني.

عن الموتى إلا بما يعود بالنفع على حياتهم، فسب الموتى وتعديد سيئاتهم شغل لا جدوى منه ولا فائدة فيه، بل ربما كان فيه إيذاء للموتى وإيلام لأرواحهم، وربما أغضب الأحياء الذين لهم صلة قرابة أو صداقة بهم، وقد يكون في تلك الذكريات السيئة مثل سيء لمن كمنت في نفسه دواعي السوء. فيندفع إلى متابعتهم وتقليدهم. أما ذكر محاسن الموتى فلا بأس به، إذا كان بغير جزع ولا نياحة، فهو -زيادة على أنه تكريم لأرواح الموتى- يعقد صلة طيبة بين الأحياء، ويضع قدوة صالحة أمام أنظار العاملين[١].

ثالثًا- من آداب المدعو: التخلق بأخلاق الإسلام:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تسبوا الأموات... الخ" الحديث.

حيث نهى عن سب الأموات، وذلك فيه التخلق بأخلاق الإسلام التي بينها الرسول الكريم في قوله: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ))[٢] فينبغي على المدعو التخلق بأخلاق الإسلام مع جميع الناس، الأحياء والأموات، فلا يسب أحدًا، ولا يخرج من لسانه إلا كل خير، ذلك لأن الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك، يعتز فيه الإنسان بكرامته وحريته، ويبني علاقاته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة، وبذلك يطمئن الإنسان على نفسه وعرضه وماله، ويمارس حياته بروح إيجابية كلها خير وعطاء وتفاعل اجتماعي متفائل، ومن هنا حرم الإسلام كل ما يؤدي إلى سلبية الإنسان وانكماشه وعزلته عن المجتمع، ودعا إلى كل ما يقوي الصلات الاجتماعية، ويوثق عري المحبة والتعاون بين الناس[٣]، ودعا إلى التخلق بالأخلاق الكريمة.

---

(١) العبادات في الإسلام، د. محمد عبده، ط٣، مكتبة الفلاح، الكويت، ص ١٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٣) التربية الروحية والاجتماعية، د. أكرم ضياء العمري، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في توجيه الصحابة رضي الله عنهم ومن التوجيهات في باب التحريم: سب الأموات بغير حق قوله ﷺ: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» فهذا توجيه نبوي يرمي إلى التحذير من السب للأموات وأن حرمة الأموات كحرمة الأحياء، وهذا ما بينه النبي ﷺ في تهذيبه لسلوك المؤمن ونهيه عن سب الأموات الذي يعد انتهاكًا لحرمتهم، لأن سب الأموات يجلب غضب الله عز وجل، وعذابه، فهذا الأسلوب التربوي صريح في التحذير من سب الموتى، ولا يخفى على أهل التربية الجوانب التربوية في هذا الحديث من ردع للسلوكيات الخاطئة التي قد توجد عند بعض الأفراد، لأنه يوجد من يفعلها ويجترئ على فعلها بل وتكرارها ولا شك أن في ذلك فقد لقيم الخير والإيمان وفضائل الأعمال فكان لابد من تحذير فيه زجر شديد ووعيد مخيف يوقظ المجتري الجاني فيجعله بين خيارين لا ثالث لهما إما أن يتوب عن هذا السب وينتهي عن سب الأموات، وإما أن ينال غضب الله ومقت الله عز وجل، وليعلم الساب أنه لا فائدة من سبه لأن رسول الله ﷺ قال: «فإنهم أفضوا إلى ما قدموا إليه»[1].

وهذا التحذير الذي قدمه ﷺ يعتبر حماية من أفة اللسان "لأن اللسان خلقه الله تعالى لينتفع به الإنسان ويستعمله فيما ينفعه ولا يضره فإن أحسن استعماله جلب له الخير، فكم من مهلكات جلبها هذا اللسان الذي لم يأخذ بتحذيرات النبي ﷺ في السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، مع أنه لو أخذ بها لجنبته الكثير من المآسي، وبخطورة السب واللسان قال ابن حجر: في حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[2]، قال إن الحدث عام بالنسبة إلى اللسان دون اليد لأن اللسان يمكنه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، ص٣٣٠، مع تصرف.

(٢) أخرجه البخاري، ١٠، ٢٠/١، ٢١، ومسلم، ٦٥-٤١، ٦٥/١.

القول في الماضين (الأموات) والموجودين (الأحياء) فدل التشريع الإسلامي على خطورة الأذى من اللسان فلم يبق إلا تربية اللسان نفسه[1].

ثانيًا: التربية الخلقية:

من أصول التربية الإسلامية التربية الخلقية ولقد ربى رسول الله ﷺ الصحابة على هذه التربية ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب سب الأموات قوله: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا إليه» فهذا توجيه نبوي للصحابة رضي الله عنهم يركز فيه النبي ﷺ على تعميق الأخلاق الحسنة في نفوس أصحابه رضي الله عنهم من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع وتنافي القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها.

وهذه الطريقة لها فائدة كبيرة في العملية التربوية لأن الأخلاق هي الترجمة الحية لما يستقر في قلب الإنسان وما يحمله من تقوى وإيمان وورع أو ضعف وهي جديرة بأن يتعرف الإنسان على حدودها فلا يقصد عنها ومعرفتها والتعرف على المحرمات السلوكية، فالأخلاق تعتبر وسيلة وقائية علاجية للشخصية المسلمة وتركيز الرسول ﷺ على الجانب الخلقي في تنشئة الصحابة، يعود بدوره إلى التربية البارزة في تكوين روح الخير في الفرد وتنمية الوعي بوحدة الحياة الاجتماعية التي مصدرها الأساسي الأخلاق الحسنة[2].



(١) أصول التربية الإسلامية د. خالد الحازمي، ص١٦٤. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٣٠. فتح الباري، ١/ ٧٠.

(٢)أصول التربية الإسلامية د. شحاتة، ص٢٦٧. أصول التربية الإسلامية د. خالد الحازمي، ص٢١٠.

٢٦٨- باب النهي عن الإيذاء

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٦٧)

١٥٦٧- وعن عبدِ اللهِ بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ))** متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

لفظ الإسلام ودلالته ،وتعاليمه تدور حول السلم ،والأمن في الدنيا ،والآخرة للجميع، وقوله (المسلم من سلم) يدل على الحصر لوقوع جزئي الجملة معرفتين ولكن هذا من قبيل قولهم زيد الرجل أي زيد الكامل في الرجولية فيكون التقدير المسلم الكامل من سلم إلى آخره وقال القاضي عياض وغيره المراد الكامل الإسلام والجامع لخصاله ما لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل وهذا من جوامع كلامه ﷺ، وفصيحه، والمراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله أداء حقوق المسلمين والكف عن أعراضهم، ونفي اسم الشيء على معنى نفي الكمال عنه مستفيض في كلامهم، وكذا إثبات اسم الشيء على الشيء على معنى إثبات الكمال مستفيض في كلامهم ،وهذا وارد على سبيل المبالغة تعظيما لترك الإيذاء كما كان ترك الإيذاء هو نفس الإسلام الكامل وهو محصور فيه على سبيل الادعاء وتخصيص اليد بالذكر؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٤) واللفظ له، ومسلم (٤٠/٦٤) الشطر الأول فقط. وقد تقدم برقم ٢١١، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠١).

أكثر الأعمال تقوم عليها، وخص اللسان؛ لأنه الجارحة الوحيدة التي تتخطى بالإيذاء حدود الزمان، والمكان كما أنه الجارحة الوحيدة التي تنال الميت، والحي، والقريب منها، والبعيد عنها، وتتناول القوي، والضعيف مع سهولة اقتراف الذنوب بها، وتعلق كثير من الكبائر بها كالشرك القولي، وشهادة الزور، والقذف ،والكذب، وغيرها، وفيه من أنواع البديع تجنيس الاشتقاق وهو أن يرجع اللفظان في الاشتقاق إلى أصل واحد بين قوله (سلم، والمسلمون) وهو يؤكد المعنى ويجذب السمع وييسر الحفظ ،وقوله (والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) وتفسيره ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي . وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله ؛ فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي . والهجرة الخاصة التي هي الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام والسنة، جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة وفي العبارة جناس بين المهاجر، وهجر يؤكد المعنى، ويقرر المفهوم المستمر ليوم القيامة لمعنى الهجرة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢١١).

الحديث رقم (١٥٦٨)

١٥٦٨- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ أحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) رواه مسلم[1].

وَهُوَ بعض حديثٍ طويلٍ سبق في بابِ طاعَةِ وُلاَةِ الأمُورِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

يُزَحْزَحَ: يُنَحَّى ويُبعّد[2].

منيته: موته[3].

الشرح الأدبي

لا شك أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمنين، فذكر النبي ﷺ في هذا الحديث لها سببين، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع، الإيمان بالله واليوم الآخر، المتضمن للإيمان بالأصول التي ذكرها الله بقوله: { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ }(البقرة: ١٣٦). ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها؛ لأن الإيمان الصحيح يقتضي ذلك ويستلزمه، والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم من القول والفعل والمال والمعاملة ما يحب أن يعاملوه به فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس، فانظر، هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا ؟ فإن كنت تحب ذلك، كنت محبا لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت

(١) برقم (١٨٤٤/٤٦)، وتقدم برقم (٦٦٨).

(٢) النهاية في (ز ح ز ح).

(٣) اللسان في (م ن ى).

لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة، فقد ضيعت هذا الواجب العظيم[1] والحديث ورد في ثوب الشرط الذي يربط الزحزحة عن النار، ودخول الجنة بالاستمرار على الإيمان، وحسن معاملة الناس حتى الموت ،والتعبير بالزحزحة يوحي بمدى قرب الهلاك الذي نجوا منه، وقوله (فلتأته) أمر قصد به حثهم على الاستمرار، والدوام على الفعل حتى يلقوا ربهم وبين قوله ليأت وبين يوتى جناس يؤكد المعنى، ويشير إلى أن الجزاء من جنس العمل.

المضامين الدعوية[2]

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار / المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر السعدي حديث (٩٠).

(٢) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٦٦٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على حسن المعاملة:

من أنواع التربية الإسلامية التربية على حسن المعاملة التي ركز عليها النبي ﷺ، وعمل على تعميقها في نفوس الصحابة رضي الله عنهم من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه، وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع وتنافي القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث باب الإيذاء -باللسان واليد- ما ورد في قوله عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجرَ ما نَهى اللّهُ عنه». فهذه توجيهات تربوية نبوية ظهر منها أنه لا يليق بالمسلم " أن يكون فاحش اللسان سليط اليد، والرسول ﷺ حذر من الفحش فقال: «إياكم والفحش»[1].

والرسول كان سليم اللسان وربى أصحابه على التربية على حسن المعاملة وركز عليها فقال في حديث آخر بين فيه أن الإيمان لا يستقم إلا بسلامة اللسان: فقال: «لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حتى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ..»[2]، فهذا يؤكد على أهمية سلامة اللسان والحرص على ذلك والالتزام به، واجتناب الفحش وأول سبيل لسلامة اللسان التربية الصالحة والتنشئة على مكارم الأخلاق، عن طريق سلامة اللسان واليد، لأنه بسلامة اللسان واليد تحسن المعاملة، والحديث يؤكد على أهمية المعاملة الحسنة والترفع على كل ما يؤدي إلى عدم سلامة اللسان واليد، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[3].

"وسلوك المسلم وتعامله سواء أكان باللسان أو اليد ينبغي ألا يقوم إلا على منهج الله وأن الغاية من سلوكه القولي أو الفعلي اكتساب مرضاة الله، في التزامه بمكارم

(١) رواه أحمد ٢/١٦٠، رقم ٦٤٨٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١١/٢٦.

(٢) رواه أحمد ٣/١٩٨، رقم ١٣٠٤٨، وقال محققو المسند: ضعيف ٢٠/٣٤٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

الأخلاق القولية والفعلية التي أمر بها الإسلام، ورغب بفعلها مرضاة لله واجتنابه مساوئ الأخلاق التي نهى الإسلام عنها أو رغب في تركها مرضاة لله"[١].

ثانيًا: التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، وهو أسلوب تربوي وقائي يقوم على جانب التحذير من المخالفة مما يجعل له أهمية كبيرة في العملية التربوية. ولقد استخدمه ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم فقال ﷺ في حديث الباب: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، فهذا توجيه تربوي هدفه الترغيب في أعمال الجنة والترهيب من أعمال النار.

إن أسلوب الترغيب والترهيب له أهمية في السنة النبوية لأنه يستجيش قلب إنسان نحو الخير، وتوجيهه لذلك، وتخوفه من الانحراف وتحذره من ذلك فيثاب المجيب على إصابته، ويعاقب المخطئ على خطئه.

وحتى يؤتي الترغيب والترهيب دوره التربوي فلابد من مراعاة العوامل الآتية:

١ - قوة الترغيب والترهيب لأنه على قدر قوة هذا السلوك يكون الخوف والرجاء.

٢ - مصدر الترغيب والترهيب، هذا السلوك لو ورد في الله ورسوله سيكون مصدر قوة من الردع، أقوى من المربي أو الوالد.

٣ - مراعاته لحاجات الناس. من أبرز عوامل نجاح الترغيب والترهيب. فلا بد أن يكون الترغيب على قدر مطالب المتربي، والترهيب يكون قويًا فإن كان أقل من مردوده، فلا يكون له تأثير عقلي[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٥٩. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٦٦. فصول من الأخلاق الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالله يوسف الأزدي، ص٧١.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، د. عماد عطية، ص١٣٠. أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٢٥.

٢٦٩- باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]، وقال تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

الحديث رقم (١٥٦٩)

١٥٦٩- وعن أنس رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا (وَلاَ تَقَاطَعُوا) [1]، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ)) متفق عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا تدابروا: لا يُعط كل واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره [3].

الشرح الأدبي

الحديث ينهى عن مجموعة من الأخطاء القلبية التي تشتت المجتمع، وتشتت قلب المؤمن عن الاجتماع بربه، والرسول صلى الله عليه وسلم يريد من المؤمن أن يكون نقي القلب طاهر النفس مشغولاً بطاعة الله لا بمشاحنة الناس لذلك جاء نهيه صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه الأخلاق الرديئة حفاظاً على حال الفرد والجماعة، وأولها قوله (ولا تباغضوا) نهيا

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده قبل حديث رقم (٢٥٥٩/٢٤، بدون رقم).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩/٢٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٤)، وسيكرره المؤلف برقم (١٥٩٣) عن أنس أيضًا وعزاه إلى الصحيحين، وهو بلفظ الترمذي، وعندهما بنحوه، وقد تقدم بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٢٣٥)، وقد شرح هناك، فيحال عليه.

(٣) النهاية في (د ب ر).

يقوِّم خطأ التباغض، وهو تفاعل من البغض، وهو الكراهية التي تقطع الصلات، أيضاً ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره؛لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، وقوله:(ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر، وقوله (وكونوا عباد الله إخوانا) تتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها، ويضيف إليها فيما ورد في الجملة بعدها، فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة، وقوله : (وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ) والتعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر.، وقوله (لمسلم) قيَّد الحكم بالمسلم تعريضاً بنفي الإسلام عن الهاجرين بنفي الإسلام عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مسلم) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر أخيه)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المسلم كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل.وقد جاء المفعول بلفظ مشع يضيء حوالك النفس وقت الخصومة ويكشف ظلام القلب ساعة الغضب (أخاه) والمقصود الأخوة في الصفة السابقة، صفة الإسلام التي تفضل في الرحمة والإشفاق أخوة الأصلاب؛ لأنها تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها كما مر في الحديث قريباً وقوله (فوق ثلاث ليال) اختيار العدد (ثلاث)

رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ وتعود النفس اللوامة التي تراجع صاحبها، ولأن الهاجر غضبان والغضب يعمي العين يصم الأذن فاحتاج لفترة سكون[1] والتعبير بـ (ليال) دون أيام لأن الليالي أدعى لتوفير السكون والهدوء الذي يجعل النفوس تراجع أصحابها بعد سكون الغضب وهي السبيل للتخلص من التعب النفسي والجسدي المانع من سلامة التفكير وتدبر معاني السلوك الديني.، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث ليال) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / صـ ٣٣٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري٥٠.

(٣) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢٣٥).

الحديث رقم (١٥٧٠)

١٥٧٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((تُفْتَحُ أبْوابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ويَوْمَ الخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا، إلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بينهُ وَبَيْنَ أخِيهِ شَحْناءُ فَيُقَالُ: انْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا! أنْظِرُوا هَذينِ حَتَّى يَصْطَلِحَا[١])) رواه مسلم[٢].

وفي روايةٍ لَهُ[٣]: ((تُعْرَضُ الأعْمالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وإثْنَيْنِ)) وذَكَرَ نَحْوَهُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحناء: عداوة[٤].

أنظروا: أمهلوا من الإنظار وهو التأخير والإمهال[٥].

الشرح الأدبي

الحديث إلى يشير فضل يومي الاثنين، والخميس بما اختصا به من فتح أبواب الجنة، كما يحذر المتشاحنين بحرمانهم من هذا الفضل إن ظلوا على هجرهم، وقوله (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس) حقيقة؛ لأن الجنة مخلوقة الآن وفتح أبوابها ممكن أو هو بمعنى إزالة المانع، ورفع الحجب وبناء الفعل للمفعول للعلم بالفاعل (فيغفر فيهما لكل عبد لا يشرك بالله شيئا) أي ذنوبه الصغائر وتنكير (شيئا) يفيد العموم الذي يؤكد الشمول الذي أشار إليه لفظ (كل) المضاف للنكرة عبد، وقوله:

---

(١) عند مسلم ثلاث مرات.

(٢) برقم (٣٥/٢٥٦٥)، وسيأتي برقم (١٥٩٥) أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٦).

(٣) برقم (٣٦/٢٥٦٥).

(٤) النهاية في (ش ح ن).

(٥) النهاية (ن ظ ر).

(إلا رجل) فيه إيجاز بالحذف، وتقديره فلا يحرم أحد من الغفران إلا رجل، وقوله: (كانت بينه وبين أخيه شحناء) شحناء أي عداوة والتعبير بالشحن مبالغة في الامتلاء بالبغض لأخيه (فيقال) من قبل الله تعالى للملائكة الموكلين بكتابة من يغفر له (انظروا) أخروا، أو أمهلوا (هذين) أي لا تعطوا منها أنصباء هذين الرجلين المتعاديين (حتى) ترتفع العداوة بينهما و(يصطلحا) ولو بمراسلة عند البعد وتعليق المغفرة على الصلح ترغيب في الصلات، والسعي لإزالة أسباب البغض.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده المؤمنين.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى وإخلاص العبودية له سبحانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم والبعد عن الشحناء والخصومة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده المؤمنين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا..".

قال القاضي: قال الباجي: معنى فتحها كثرة الصفح والغفران ورفع المنازل وإعطاء الثواب الجزيل، قال القاضي: ويحتمل أن يكون على ظاهره وأن فتح أبوابها علامة لذلك[1]. وقال القرطبي: (وقد خصَّ الله تعالى هذين اليومين بفتح أبواب الجنة فيهما، وبمغفرة الله تعالى لعباده، وبأنهما تُعرض فيهما الأعمال على الله تعالى، كما جاء في الحديث. وهذه الذنوب التي تُغفر في هذين اليومين هي الصغائر. والله تعالى أعلم. كما جاء في قوله ﷺ: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ.

---

(١) إكمال المعلم ٨/٣٣.

مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ))[١]، ومع ذلك فرحمة الله وسعت كل شيء، وفضله يعم كل ميت وحي.

وفتح أبواب الجنة في هذه اليومين محمول على ظاهره، ولا ضرورة تحوج إلى تأويله، ويكون فتحها تأهلاً، وانتظارًا من الخزنة لروح من يموت في ذينك اليومين ممن غفرت ذنوبه، أو يكون فتحها علامة للملائكة على أن الله تعالى غفر في ذينك اليومين للموحدين، والله تعالى أعلم. وهو حجة لأهل السنة على قولهم: إن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا، خلافًا للمبتدعة؛ الذين قالوا: إنهما لم تُخلقا بعد، وستخلقان. وعرض الأعمال المذكورة كما هو - والله تعالى أعلم -[٢]. ففتح أبواب الجنة يومين في الأسبوع يدل على فضل الله تعالى على عباه المؤمنين وصفحه عنهم رحمة منه تعالى.

ثانيًا - من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى وإخلاص العبودية له سبحانه:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا".

فهدف الدعوة إلى الله إفراد الله بالعبادة، وإخلاص العبودية له سبحانه، فلا يشرك معه في عبادته أحد، وهذا حقه تعالى على عباده، وبين هذا الحق رسول الله ﷺ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((بينا أنا رَديفُ النبي ﷺ ليس بيني وبينَه إلا آخرَة الرحل فقال: يا معاذُ، قلتُ: لبيكَ يا رسولَ الله وسعدَيك. ثم سارَ ساعةً، ثم قال: يا مُعاذ، قلتُ: لبيكَ رسول اللهِ وسَعدَيكَ، ثم سارَ ساعة، ثم قال: يا معاذَ بن جَبل، قلتُ: لبيكَ رسولَ الله وسعدَيك. قال: هل تدري ما حق اللهِ على عبادِه؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: حق اللهِ على عبادِهِ أن يَعبدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذَ بن جبل، قلت: لبيكَ رسول الله وسَعدَيك. قال: هل تدري ما حق العبادِ على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق العباد على الله أن لا يعذبَهم))[٣].

فقد بيّن الرسول ﷺ أن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا:

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٢) المفهم ٦/٥٣٩، ٥٤٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٩٦٧، ومسلم ٣٠.

كلمة جامعة لم تترك من الدين صغيرة ولا كبيرة. فعبادته الخضوع له والتذلل. وذلك بطاعته فيما أمر ونهى، فنؤمن برسوله، ونصدق كتابه، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة، ونهذب نفوسنا ونصح أجسامنا بالصيام، ونحج البيت الحرام ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ونحسن عشرة الناس، ونصدق في معاملتهم، ونخالقهم بخلق حسن، ونقف عند ما شرع الله، لانتعدى حدوده، ونجانب كل ما نهى عنه من الخبائث مما هو اعتداء على النفس أو المال أو العرض أو إضرار بالخلق، وأساس ذلك علم بكتاب الله، وبما احتواه، وهذا بتلاوته وتدبره ودراسته وتفهمه. أما توحيده وعدم الإشراك به فأن نعتقد أنه وحده صاحب الخلق والأمر. وأن من دونه لا يملك ضرًا ولانفعًا إلا ما شاء الله.

فإذا تحقق ذلك من العباد، أي إذا هم عبدوه حق عبادته وأخلصوا له الدين، وأسلموك الوجوه، وعمروا القلوب بتوحيده، وطهروها من دنس الإشراك فكان حقهم على الله ألا يعذبهم[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم والبعد عن الشحناء والخصومة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا" قال القرطبي: (ومقصود هذا الحديث التحذير من الإصرار على بغض المسلم ومقاطعته، وتحريم استدامة هجرته ومشاحنته، والأمر بمواصلته ومكارمته)[٢]. فلا محيد عن وجود بعض الخصام والنزاع بين الإخوان، مما قد ينتج عنه بعض الشحناء والإحن بينهم، والموفق من الناس من جعله الله مصلحًا بين المتهاجرين أو المتخاصمين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قال: صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))[٣].

---

(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٨٤.

(٢) المفهم ٦/٥٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٧).

والشرع المطهر حريص على اجتماع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وسلامة القلوب، وينهى عن الاختلاف والتباعد والمفارقة[١]. لذلك حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم، والبعد عن الشحناء والخصومة لما فيها من مضار ومساوئ.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٢] وقال ﷺ: ((لا يحلُّ لرجلٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث ليال، يلتقيانِ فيُعرِض هذا ويُعرض هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسلام))[٣] ويقول ﷺ: ((لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا، عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ ههُنَا. وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ: بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[٤].

وفي الكتاب والسنة من الحث على هذا الأصل نصوص كثيرة تأمر بكل ما يقوي الألفة ويزيد في المحبة، ويدفع العداوة والبغضاء، وما ذاك إلا لما في الاجتماع والاتفاق من الخير الكثير، والثمرات الجليلة والبركة والقوة، ولما في ضده من ضد ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٥] يعني تخبوا وتذهب روحكم الحقيقة ومعنويتكم النافعة، وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالسعي لتحصيل القوة المعنوية بالإيمان والثبات، والصبر والاجتماع وعدم التنازع والتفرق، أيها المسلمون: عليكم بلزوم ما حثكم عليه دينكم من المحبة والائتلاف، وإياكم والتفرق والاختلاف، عليكم بعمل جميع الأسباب المقربة للقلوب، وإياكم والعداوات والضغائن التي لا تكسب إلا شرًا، احذروا سماسرة الأعداء الذين يلقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق ويدعون أنهم مسلمون، وإنما هو غل ونفاق. المسلم هو الذي يسعى في جمع كلمة المسلمين

---

(١) كتاب الآداب، الشيخ فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص ٣٤٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم ٢٥٦٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم، ما طمع الأعداء وتسلطوا إلا بسلاح الفرقة الفتاك، ولا استعمروا أقطاركم وسيطروا على مصالحكم إلا بعد ما انحلت معنويتكم التي هي الحصن الحصين، الواقية من الوقوع في الافتراق[1].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث رغّب رسول الله ﷺ في إفراد الله بالعبادة وعدم إشراك أحد في عبادته، وكذلك رغّب في ترك الخصومة والشحناء بين الناس، وبيّن أن ثواب ذلك، فتح أبواب الجنة لهم، وعفو الله عنهم، وصفحه، وإكرامهم بالثواب الجزيل.

وأسلوب الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه. والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة[2].

---

(١) الرياض الناضرة، السعدي، ص ٥٨-٦٠.

(٢) انظر: مستلزمات الدعوة، علي بن صالح المرشد، ص ١٦٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب القيم السلبية:

من أهداف التربية الإسلامية اجتناب القيم السلبية التي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على الصلات والعلاقات الاجتماعية، ولذا عنيت التربية الإسلامية بالنهي عن كل ما يؤثر على الروابط بين المسلمين، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر. قوله ﷺ: «لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا. وَكُونُوا. عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ». فهذه توجيهات نبوية أراد النبي ﷺ تعميقها في نفوس الصحابة من خلال تعاملاتهم الحياتية مع الأخوة والهدف منها اجتناب القيم السلبية، التي يجب أن يترفع عنها الأصحاب لأنها تخالف الشرع والقيم، والإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك يعتز فيه الإنسان بعلاقته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة بين الأفراد، مما يجعله يمارس حياته بروح إيجابية ما يؤدي إلى سلبية الإنسان من حسد وقطيعة ودعا إلى ما يقوي العلاقات الاجتماعية ويوثق عرى المحبة[1].

ثانيًا: التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب النهي عن التباغض. قوله ﷺ وهو يوجه ويرشد أصحابه في حديث الباب قال: «..وكونوا عباد الله إخوانا....»، فهذا توجيه مباشر للصحابة رضي الله عنهم من الرسول ﷺ يحض فيه على الأخوة والتماسك، لأن تعاليم الإسلام تهدف إلى بناء مجتمع تقدم علاقات أفراده على المحبة والمودة والتآلف والرحمة والبعد عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء التي تأتي من الهجر الطويل، ولقد أرسى النبي ﷺ دعائم الأخوة الحقة عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، فهذا عبدالرحمن بن عوف: آخى النبي ﷺ

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم العمري، ص٢٠٤.

بينه وبين سعد بن الربيع من الأنصار، فعرض سعد بن الربيع على عبدالرحمن بن عوف المال وعرض عليه الزواج من إحدى زوجاته فلم يرض، فهذا نموذج من الصحابة امتثلوا فيه لتوجيهاته ﷺ في قوله: «وَكُونُوا. عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» فضربوا أروع الأمثلة في الأخوة الحقة التي نأخذ منها العبرة والمثل، ولقد نهى الله تعالى عن كل ما من شانه أن يؤثر سلبًا أو يضعف الوحدة والتماسك بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، فالله عز وجل ربَّى ووَجَّه في هذه الآية على كل ما يقوي الوحدة والتآلف[2].

ثالثًا: التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب في تربيته لأصحابه ﷺ نظرًا لشدة تأثيره في النفوس، ومن الشواهد التي تدل على الترغيب في أحاديث الباب قوله ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ. فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا.....»، فهذا ترغيب في الجنة من خلال بيان الأيام التي تفتح فيها وتعرض هذه الأيام على الله فيها الأعمال، وهذا الأسلوب مناسب لتشجيع الإنسان وتحريك دوافعه تجاه الخير وتنشيطها لنيل ما أعده الله لعباده المؤمنين، وفائدة الترغيب أنه يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان ويدلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، وهذا مما تميزت به التربية الإسلامية، لأنها هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح في المجتمع.

ومن الأساليب المفيدة في مجال التربية: الترهيب لما له من تأثير مباشر على النفوس على اختلافها، لأن الإنسان السوي لا يرضى أن يعرض نفسه لعقاب الله، أو أن يكون سببًا في عدم الحصول على الثواب والمغفرة من الله تعالى.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢/١، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، العمري، ص٢٥٢، فتح الباري، ٢٧٠/٧.

قال ﷺ في حديث الباب: «... فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ. فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هذَيْنِ حَتَّىٰ يَصْطَلِحَا».

فهذا تصريح بالحرمان المؤقت من الجنة بسبب هذا الخصام والأمر في الحرمان لم يقف على ذلك بل الحرمان من المغفرة لأن الرسول ﷺ قال: «فَيَغْفَرُ الله لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ»، والرسول ذكر الترهيب بعد الترغيب لعلمه أن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره وبين ما ينفعه، والرسول ذكر فائدة تربوية هنا كبيرة وهي: الاعتدال في استخدام الترغيب والترهيب وأن يوائم المربي بينهما فلا يغلب أحدهما على الآخر(١).

رابعًا: من أهداف التربية الإسلامية: إصلاح ذات البين:

من أهداف التربية الإسلامية إصلاح ذات البين، يستوحي ذلك من النواهي والأوامر الواردة في حديثي الباب: ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ»، وقال: «فَيَغْفَرُ الله لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هذَيْنِ حَتَّىٰ يَصْطَلِحَا».

فهذه توجيهات نبوية أراد النبي ﷺ منها تعميق وغرس فضيلة إصلاح ذات البين، بين الصحابة، لأن سلامة المجتمع من الخصومة والتقاطع تحقق توازنًا نفسيًا لدى الإنسان، وتعوده على حب الخير للمجتمع وتطلق عنان قوة الخير للنفس البشرية إلى أعلى قممها.

ولقد دعا الله عز وجل إلى عدم الخصام والقطعية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(٢). وقال ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٣، أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب، ص٣٦٣، تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»[١].

فهذه توجيهات من الله ورسوله تحث على كل ما يقوي الوحدة والتآلف بين المؤمنين وينهى عن الشقاق والهجر والفرقة، وهذا لن يحدث إلا بإزالة الشقاق والخصومة بين المسلمين[٢].



(١) سنن أبي داود، ٤٩١٩، ٢١٨/٥، الترمذي في سننه، ٢٥٠٩، ٦٦٣/٤، وقال صحيح.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم العمري، ص٢٥٢، وتربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢.

٢٧٠- باب تحريم الحسد

وَهُوَ تمني زوالُ النعمة عن صاحبها، سواءٌ كَانَتْ نعمة دينٍ أَوْ دنيا قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء: ٥٤] وفِيهِ حديثُ أنسٍ السابق في الباب قبلَهُ[١].

الحديث رقم (١٥٧١)

١٥٧١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: **((إيَّاكُمْ وَالحَسَدَ؛ فَإنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ))** أَوْ قَالَ: **((العُشْبَ))**. رواه أَبُو داود[٢].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من الحسد الذي يضيع على الإنسان عمله، ويشعل قلبه، ويصرفه من شكر الله إلى الاعتراض على قضائه وقول الرسول ﷺ (إيَّاكُمْ وَالحَسَدَ) أسلوب تحذير ينبيء بخطر ينطوي عليه هذا الخلق الذميم، ويلزم المؤمن أن يتبرأ منه وأن يقاومه في نفسه برد الأمر لله تعالى في تصريف مقادير العباد، وقوله (فَإنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ) جملة تعليلية للتحذير تحمل على التسليم المبني على القناعة والتعبير بالفعل (يأكل) على سبيل الاستعارة بتشبيه الحسد بالمفترس الذي يأتي على ما يستطيع تصويرا لخطر الحسد على العمل الصالح، وقوله (كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ) تشبيه آخر مركب على الأول يشبه شدة إهلاك الحسد للحسنات بإهلاك النار للحطب وفيه إشارة إلى تمام الهلاك وسرعة الإبادة، وفي الحديث ترهيب بليغ من هذا الخلق الذميم كما يفهم منه خطر الإنسان الحسود الذي يعيش بين الناس بسيئات دون

---

(١) انظر الحديث (١٥٦٩).

(٢) برقم (٤٩٠٣)، وقال البخاري في التاريخ الكبير (٢٧٢/١): لا يصحُّ.

حسنات عذاب بلا رحمة أعاذنا الله من خلق الحسد، ومن كيد الحاسدين .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على سلامة القلوب من الحسد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الحسد على عمل الإنسان وحسناته.

رابعًا: من آداب الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً - من أساليب الدعوة: التحذير:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات...".

قال العظيم آبادي: (قوله ﷺ: "إياكم والحسد" أي: احذروا الحسد في مال أو جاه دنيوي، فإنه مذموم، بخلاف الغبطة في الأمر الأخروي "فإن الحسد يأكل الحسنات" أي يفني ويذهب طاعات الحاسد "كما تأكل النار الحطب" لأن الحسد يفضي بصاحبه إلى اغتياب المحسود ونحوه، فيذهب حسناته في عرض ذلك المحسود، فيزيد نعمة، على نعمة والحاسد حسرة على حسرة، فهو كما قال تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [(١)])[(٢)].

فأسلوب التحذير يستخدمه الداعية في تحذير المدعوين من الأشياء التي يترتب عليها الضرر لهم ولغيرهم.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على سلامة القلوب من الحسد:

هذا واضح من تحذير رسول الله ﷺ من الحسد، وذلك لأن هدف الدعوة إلى الله ألا يحسد الإنسان أخاه المسلم ويتمنى زوال ما لديه من النعم التي أنعم الله بها إليه أو إلى غيره، مالية كانت أو غيرها. فإن هذا ينافي خلق المؤمنين الذين يحبون لغيرهم ما

---

(١) سورة الحج، آية: ١١.

(٢) عون المعبود، ص ٢١١٣.

يحبون لأنفسهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك التمني بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١) وأمرنا بالتعوذ من شر الحاسد في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(٢) والحسد مذموم وإن لم يقرن بسعي في سلب النعمة عن الغير(٣).

فإذا خطر للإنسان فعليه أن يجاهده، حتى لا يمكن من نفسه، ويكون سببًا في ضرره وضرر غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٤).

فإن من أعظم نعم الله تبارك وتعالى، أن يعيش الإنسان سليم القلب مبرأ عن الحسد.

وبذلك يحيا الإنسان ناصع الصفحة، راضيًا عن الله وعن الحياة وعن العباد، ومستريح النفس من نزعات الحقد ومن نزوات الحسد.

فإن فساد القلب بالضغائن والحسد، داء خطير، ومرض عضال، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من هذا القلب المريض.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٢.

(٢) سورة الفلق.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٣٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٥) سورة الحشر، آية: ٩.

تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

وعن عبدالله بن عمرو قيل: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلا بَغْيَ، وَلا غِلَّ، وَلا حَسَدَ))[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: ((لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا. وَكُونُوا. عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ))[٣].

إن سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، وإن عجز عن سوقه إليهم بيده، فإن ذلك من مكارم الأخلاق.

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يضمر للناس حسدًا ولا غلاً، لأن صدره قد امتلأ حبًا وسلامة للآخرين.

ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرًا، وأكرم عاطفة من الذين امتلأت قلوبهم حقدًا وحسدًا على غيرهم.

فإن الحسد حمل ثقيل يتعب حامله، ويحمله الجاهل في صدره فيُشقي به نفسه ويفسد به فكره، ويشغل به باله، ويقض به مضجعه، ويكثر به همه وغمه.

إن الإنسان الحاسد، يشبه من يحمل على ظهره شوكًا ملتهبًا حارًا، يكوي نفسه ويشقي حاله ويدمي ظهره.

لذلك أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المنكر، وأن يسلكوا نهجًا أرقى وأهدأ.

إن لصاحب الصدر السليم من الحسد منزلة عالية في الدنيا والآخرة، وهذا ما رغب فيه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أنس بن مالك قال: ((كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٢١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٦٤.

لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ: مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحقر عمله، قلت يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فاقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق))[1].

كما أن الإسلام حرم الحسد، وأمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ من شرور الحاسدين، لأن الحسد جمرة تتقد في الصدور، فتؤذي صاحبها وتؤذي الناس به.

والحسد من الرذائل الخلقية ذات النتائج النفسية والاجتماعية السيئة جدًا على الأفراد وعلى الجماعات، وهو داء فتاك إذا أصاب النفس الإنسانية أضناها وأشقاها، وجعلها مصدر أذى للآخرين، لذلك حث الإسلام على سلامة القلوب من الحسد[2].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: خطر الحسد على عمل الإنسان وحسناته:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب".

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/١٦٦ رقم ١٢٦٩٧ وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ٢٠/١٢٤ – ١٢٥.

(٢) انظر: أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص، ص ١٠٥-١٠٧.

فالحسد خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو مضر بالبدن والدين، ومن أعظم الأسباب الموجبة للفرقة والاختلاف[١].

قال بعض السلف: (الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء) يعني حسد إبليس آدم عليه السلام[٢].

والحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود -والعياذ بالله- كما قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٤].

فالحسد اعتراض على قضاء الله وقدره. ولذا حذر النبي ﷺ منه وبين أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب، أو قال الحطب[٥].

والحسد من الرذائل الخلقية أيضًا، وهو من أقبح الخصال التي تصيب الإنسان وتنكد له عيشه، فإن الحسود الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره، يُشقي نفسه أيضًا بهذا الحسد، فهو بدلاً من أن يستمد السرور مما أوتي من خير، نراه يستمد العذاب من الخير الذي أوتيه سواه.

وعصرنا الحاضر يقوم فيه الحسد بدور خطير ذي أهمية بالغة، فالفقير يحسد الغني، والنساء يحسدن الرجال، والقبيحات يحسدن الجميلات، وهكذا مما يجعل بعض الأمة يكره بعضها الآخر ويتمنون لهم الشقاء، فالحاسد خلقه اللؤم، ولذته الوشاية بين الناس والوقيعة والدس بينهم، فلا ينفك يدس للرجل الناجح حتى يشوّه سمعته لأجل أن يحل محله، أو يجعل منه إنسانًا فاشلاً مثله، فالحسود إنسان فقد الثقة

(١) انظر: سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٣٤، ٣٥.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص ٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٦٦٥/٢.

بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته، لذلك نهى عنه الإسلام[١].

رابعًا - من آداب الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات..." فتحذير النبي ﷺ المسلمين من الحسد، وبيان أنه يأكل الحسنات، يدل على حرصه على مصلحتهم، وحرصه على بعدهم عما يضرهم.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية، لأن النصيحة ثمرة الإيمان، والإيمان يقتضي حب الخير للناس، والسعي بالقول والعمل قدر الاستطاعة، وبالتالي تتم الدعوة.

فحرص الداعية على خير المدعوين من شأنه أن يؤلف القلوب، ويجمع شتاتها ويجعلها تتفتح للخير إذا أراد الله لها الهداية[٢].

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص ٢٣٨.

(٢) انظر: النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري، ص ٢٢١، ٢٢٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على عدم الحسد:

"إن الحسد من أقبح الخصال التي يجدر بالقائمين على التربية والتوجيه تنقية نفس المتربي منها، والعمل على عدم تكوينها بين جنباته وفكره، والحسد هو ظاهرة اجتماعية خطيرة تؤدي حتمًا إلى أسوأ النتائج وأخطر الآثار"[(١)].

"فالحسود الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره يُشقي نفسه أيضًا بهذا الحسد، فهو بدلاً من أن يستمد السرور مما أوتي من خير نراه يستمد العذاب من الخير الذي أوتيه سواه.

وقد انتشر الحسد في هذا العصر بصورة بغيضة، فالفقير يحسد الغني، والنساء يحسدون الرجال، والقبيحات يحسدن الجميلات، وهكذا مما يجعل بعض الأمة يكره بعضها الآخر ويتمنون لهم الشقاء، فالحاسد خلقه اللؤم، ولذته الوشاية بين الناس والوقيعة والدس بينهم، فلا ينفك يدس للرجل الناجح حتى يشوه سمعته لأجل أن يحل محله، أو يجعل منه إنسانًا فاشلاً مثله، فالحسود إنسان فقد الثقة بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته"[(٢)]، لذلك نهى النبي ﷺ -كما ورد في حديث الباب- عن الحسد وذلك في قوله: «إياكم والحسد...إلخ».

والحاسد من الناحية التربوية يستحق الرثاء والشفقة مما يلاقيه من ألم، فحري بالقائمين على التربية والتوجيه أن يبينوا مخاطر الحسد وآفاته الخطيرة المتعلقة بالحاسد نفسه، حيث يؤدي الحسد إلى تلاشي الحسنات فضلاً عن العيشة الضنك التي يعيشها الحاسد بسبب حالة الغليان الداخلي والحسرة والمرارة التي يجدها في نفسه بسبب حسده[(٣)].

وإذا نظرنا إلى علاج الحسد من بذور تكوينه في صورة النشء المسلم نقول: إنه قد لا تكون ظاهرة الحسد واضحة لأول وهلة بالنسبة للأهل، فيظنون أن أولادهم لا يتوقع

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٣٤٢.

(٢) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٨.

(٣) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٨، ٢٣٩.

منهم الحسد، ولا يشعرون به، ولا يقعون فيه... لذا وجب على كل من يقوم بمسؤولية التربية أن يعالج الحسد بالحكمة والتربية القويمة حتى لا يؤدي إلى مشاكل صعبة، ونتائج وخيمة، ومضاعفات نفسية أليمة.

والإسلام قد عالج ظاهرة الحسد بمبادئ تربوية حكيمة لو أخذ المربون بأسبابها اليوم لنشأ الأولاد على التوادد، والإيثار، والمحبة، والصفاء.. ولأضمروا كل تعاون، وخير، وتعاطف... بالنسبة للآخرين.

وكان من أبرزها:

١ - إشعار الطفل بالمحبة:

وهذا ما كان عليه الصلاة والسلام يفعله، ويأمر أصحابه به، ويحضهم عليه، ويراقب تنفيذه هنا وهناك، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: «جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: تقبلونَ الصبيانَ فما نُقبّلهم، فقال النبيُّ ﷺ: أوَ أملك لك أن نَزعَ اللّهُ من قلبكَ الرحمة»[1].

٢ - تحقيق العدل بين الأولاد:

فمن المعروف بداهة أن المربين حين يسوون بين الأولاد في المعاملة، ويحققون العدل بينهم في العطاء تتلاشى ظاهرة الحسد في نفوسهم، وتزول آفات الضغائن والأحقاد من قلوبهم، بل يعيش الأبناء مع إخوتهم ومربيهم في تفاهم تام، ومحبة متبادلة، بل ترفرف على البيت أجنحة المودة، والإخلاص، والصفاء.....، فلا عجب أن نرى المعلم الأول، والمربي الأكبر صلوات الله وسلامه عليه، وهو يخص الآباء والمربين جميعًا على تحقيق مبدأ العدل بين الإخوة، بل كان ﷺ يستنكر كل الإنكار على الذين لا يحققون عدلاً ولا رحمة بين أولادهم، ولا يسوّن بينهم في القسمة والعطاء!!.

فعن النعمان بن البشير، أن أباه انطلق به إلى رسول الله ﷺ يحمله فقال يا رسول الله إني أشهدك أنى قد نحلت النعمان كذا وكذا فقال أكل ولدك نحلت قال لا قال

(١) أخرجه البخاري، ٥٩٩٨.

فأشهد غيري ثم قال أليس يسرك أن يكونوا في البر سواء قال بلى قال "فلا إذًا"[١][٢].

وكان من أهم سُبل علاج الحسد في نفس الإنسان، "الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره، وأخذ النفس باللوم وقهرها بالندم حتى يحب الخير لغيره، كما يحبه لنفسه، ومما يساعد على إزالة هذا المرض: ذكر الله الدائم والخشية من لقائه وحسابه، وهذا يجعل الإنسان يحرص على إنجاء نفسه من عقاب الله، فالاتصال الدائم بالله يملأ القلب بالنور، ويشرح الصدر بالخير ويخرج الإنسان من ظلمة الحسد إلى نور حب الخير لإخوانه المسلمين"[٣].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

"إن من الملاحظ أن طائفة من الناس لا يصلحهم الإقناع الفكري المجرد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وإن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة إليهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمرغبات، وذلك لأنهم قد يكونون ممن يؤثرون اللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة على الخيرات الآجلة مهما كانت جليلة، ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيبات بالثواب الجزيل على فعل الخيرات وترك الشر، لكنهم إذا ملئت المخاوف المحققة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا"[٤].

والرسول ﷺ الذي لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية اعتمد فيها الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصرين[٥].

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري، في الأدب المفرد، ٩٢، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد، ٦٩).

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٤٤/١-٣٤٦.

(٣) انظر: السلوك الاجتماعي في الإسلام، الشيخ/حسن أيوب، ص٩١، نقلًا عن الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر عبدالله ناصر التركي، ٥٣٣.

(٤) انظر: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، الشيخ/عبدالرحمن حبنكة، ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥١.

٢٧١- باب النَّهي عن التجسُّس والتَّسمُّع لكلام من يكره استماعه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات: ١٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٧٢)

١٥٧٢ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: ((إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، ولا تحسَّسوا وَلاَ تَجَسَّسُواولاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً)) (١).

((كَمَا أَمَرَكُمْ)) (٢).

((المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهُنَا التَّقْوَى هاهُنَا(٣))) وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ(٤) ((بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ))(٥).

((إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ))(٦).

((وأعْمَالِكُمْ)) (٧).

وَفِي روايةٍ: ((لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْواناً)) (٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣/٢٨) واللفظ له، كلاهما من حديث مالك..

(٢) هذه الزيادة عند مسلم بعد حديث (٢٥٦٣/٣٠، بدون رقم).

(٣) عند مسلم مرّة واحدة.

(٤) عند مسلم زيادة: (ثلاث مرّات).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٢) من حديث أبي سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٣) وزاد في آخره: (وأشار بأصبعه إلى صدره).

(٧) هذه الزيادة عند مسلم برقم (٢٥٦٤/٣٤).

(٨) أخرجها مسلم (٢٥٦٣/٣٠) من حديث الأعمش، عن أبي صالح.

وفي رواية: ((لاَ تَقَاطَعُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً))[١].

وَفِي رِوَاية: ((وَلاَ تَهَاجَرُوا[٢] وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ))[٣]. رواه مسلم[٤] بكلّ هذهِ الروايات، وروى البخاريُّ أكثَرَهَا[٥].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ولا تحسَّسوا: التحسس الاستماع لحديث القوم[٦].

ولا تجسسوا: التجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، وقيل: البحث عن العورات، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه، وقيل التجسس والتحسس بمعنى واحد تطلب معرفة الأخبار[٧].

ولا تنافسوا: الرغبة في الشيء، وفي الانفراد به[٨].

لا تدابروا: لا يُعط كلُّ واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره[٩].

لا تناجشوا: من النجش، وهو الزيادة في ثمن السلعة ولا يريد شراءها، ولكن ليغرر بغيره ليشتريها بالثمن المرتفع[١٠].

---

(١) أخرجها مسلم بعد حديث (٢٥٦٣/٣٠، بدون رقم) من حديث شعبة، عن الأعمش، وزاد في آخره: (كما أمركم الله).

(٢) عند مسلم زيادة: (ولا تدابروا، ولا تحسسوا) أسقطها المؤلف.

(٣) أخرجها مسلم (٢٥٦٣/٢٩) من حديث عبد العزيز، عن العلاء، وزاد في آخره: (وكونوا عبد الله إخوانا).

(٤) وانظر ما تقدم برقم ٢٣٥.

(٥) نقله المؤلف بهذه الصورة عن الجمع بين الصحيحين للحميدي (٢٢٨/٣ – ٢٣٠، رقم ٢٤٨٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١) اربع قطع منه.

(٦) النهاية في (ح س س).

(٧) النهاية في (ج س س).

(٨) النهاية في (ن ف س)، شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٣٧.

(٩) النهاية في (د ب ر).

(١٠) انظر: معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

لا تهاجروا: والمراد النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام، وفي رواية ولا تهجروا بمعنى: لا تتكلموا بالهُجْر، وهو الكلام القبيح[١].

لا يخذله: من الخذل وهو ترك الإغاثة والنصرة[٢].

لا يحقره: لا يستهين به ولا يستصغره[٣].

الشرح الأدبي

تناول الرسول ﷺ بالتقويم في هذا الحديث برواياته المختلفة عدة أخطاء من شأنها - إن تركت - أن تنزع الثقة بين أفراد المجتمع وتبعث الريبة وتنمي الحقد والحسد والكراهية مما يفتت أمن المجتمع ويوهن قوته التي تتمثل في قوة أفراد وتماسكهم وترابطهم، كذلك تناول بالبيان علاقة المسلم بأخيه، وواجبه نحوه وأن يكون عند حسن ظنه فلا يخذله ولا يتكبر عليه، أيضاً بين الحديث برواياته، وأكد حرمة المسلم وما يتعلق به، ثم تطرق إلى قضية الإخلاص وثمَّن غالياً نقاء السريرة ورفع قيمة التقوى حتى جعلها محل نظر الله في مقرها بالقلب لا بالظواهر، وقد استخدم لبيان هذه المعاني كثيراً من الألوان البلاغية في دقة وتناسق يشهدان بالعبقرية والتفرد منها:

١- بداية الحديث الأول بأسلوب التحذير حيث صدَّر بلفظ (إياكم) تعجيلاً بالإنذار، وإعلاناً لخطورة الخبر الأمر ولهذه اللفظة (إياك) ما ليس لغيرها من الإثارة والتنبيه واللفت والإيقاظ لما تعورف عليه في استعمالها في اللغة من كونها تتصدر الأمور الخطيرة والتي يتوقع من جهتها مكروه، والتعجيل بالإنذار المفهوم من هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز بحذف الفعل، والفاعل، لتكون علماً بذاتها على الخطر والمحذر منه هو الظن الذي علل له بقوله: (فإن الظن أكذب الحديث) حيث ربط

(١) شرح مسلم، النووي ١٥٧٣.

(٢) النهاية في (خ ذ ل).

(٣) المعجم الوسيط في (ح ق ر).

التحذير بما بعده بفاء السببية للإقناع ببيان العلة، فإذا علمنا أن بين الفاء والعلة حرف التوكيد (إن) رأينا جزماً بهذه العلة يقررها في الذهن وينفي عندها أي شك يمكن أن يحوم حولها، ولتأخذ طريقها في النفس دون عقبات أو اعتراضات[1].

٢- أساليب التوكيد ففي قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) أكد الجملة بـ (إن) - كما ذكرنا سابقاً - مع اسمية الجملة ولعله تنزل المخاطبين منزلة المترددين لما رأي من استهانة الناس بخطر الظن؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ يستخدم أفعل التفضيل (أكذب) مبالغة في ذم الظن الذي لا يعتمد على سند فإن قيل الكذب من صفات الأقوال، والظن عمل نفسي يجاب بأن المراد به هنا عدم مطابقته للواقع سواء كان قولاً أم فعلاً[2].

١- أسلوب النهي وقد ورد في عدة مواضع تقويماً لأخطاء متفرقة لا ينبغي أن يتلبس بها المسلم ومنها قوله (ولا تجسسوا) والتجسس تعرف الشيء من طريق الجس أي الاختبار باليد، والتجسس تعرفه من طريق الحواس ثم استعملا في البحث عن العورات وعيوب الناس[3] والرسول ﷺ يريد من المؤمن أن يكون نقي القلب طاهر النفس مشغولاً بطاعة الله لا بعورات الناس لذلك جاء نهيه ﷺ عن مثل هذه الأمور حفاظاً على حال الفرد، والجماعة، كما ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، وقوله: (ولا تناجشوا) هو تفاعل من النجش قال أبو عبيدة: هو أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيره فيزيد، والنجش في الحديث إذاعته، واستخراج الشيء والبحث عنه[4]. وعلى ذلك فنهى الرسول ﷺ عن التناجش من باب تطهير المجتمع من

---

(١) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٦٥.

(٢) انظر: عمدة القاري ١٥/ ٢١٨.

(٣) انظر: عمدة القاري ١٥ ٢١٨.

(٤) لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٤٣٥٣، مادة "نجش".

كل ما من شأنه أن يحدث الشقاق والخصام المؤدى إلى القطيعة؛ لأن النجش بهذه المعاني لا يخلو من الخداع والمخاتلة، التي توغل الصدور وتنمى الكراهية بين المتناجشين، ومن ثم ورد نهي الرسول ﷺ عن هذا الفعل نهياً صريحاً معطوفاً على ما قبله وهو جملة :(ولا تحاسدوا) بالواو المؤذنة بالمغايرة مع تكرار حرف النهى(لا) مع جملة (ولا تناجشوا) إشارة إلى استقلالية كلٍ منهما بحكم النهي ولاختلاف الفعلين إذ الأول (الحسد) من أفعال القلوب، والثاني (التناجش) من أفعال الجوارح.، وهو بهذا النهي ينقى المجتمع المسلم من تبعات الخديعة إذا فسرنا التناجش بمعنى أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها خداعاً لغيره.، وورد في قوله: (ولا تباغضوا ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر.

والمتأمل لهذه النواهي المتتابعة وسر عطفها بالواو على بعضها يجد أنها متصلة من عدة وجوه:

(أ) كونها مشتركة في صفة سوء الخلق ولا تجتمع إلا في موصوف سيئ الملكة.

(ب) كون كل صفة من هذه الصفات تؤدي إلى ما بعدها فالظن السيئ المنهي عنه ضمنياً بأسلوب التحذير يؤدي إلى التجسس والتجسس يؤدي إلى التحسس وكلاهما يؤدي إلى التباغض والتباغض يؤدي إلى التدابر الذي هو الهجر والإعراض والقطيعة التي يحاربها الرسول ﷺ بكل صورها.

(جـ) اتفاق هذه النواهي في الأسلوب وزمن الفعل الخاص (الماضي) علاوة على الاتفاق في المسند إليه مما حسَّن الوصل بينها.

(د) يفهم من النهي عن هذه الصفات السيئة الأمر بالتخلق بأضدادها فالرسول ﷺ إذ ينهى عن سوء الظن والتجسس والقطيعة بأمر ضمناً بحسن الظن وبناء الثقة والتواصل والتراحم.

٤- أسلوب الأمر وهو من الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول ﷺ لتقويم الأخطاء وقد ورد الأمر في قوله ﷺ (وكونوا عباد الله إخواناً) وأمر الرسول ﷺ بالكينونة أمر ندب واستحباب أي كونوا كأخوة النسب والغرض من هذا الأمر أن يكون الشعور بين المسلمين كالشعور بين أفراد الأسرة الواحدة يسعى كل فرد لتحقيق مصلحة أخيه ودفع الضر عنه.

تجد هذا الشعور الحنون متطابقاً عملياً في نسق وتركيب العبارة النبوية (وكونوا عباد الله إخواناً) فالأمر دعوة خير للترابط والاتحاد و(واو) الجماعة شاهدة بذلك ثم حذف أداة النداء من هذا النداء الحنون إيذاناً بالقرب وإمعاناً في التقرب لدرجة لا يحتاج معها لمد الصوت وكأنه إذ يحدث صحابته من حوله، وإخوانه من بعده - يحدث نفسه حباً وكرامة، ثم إن هذا النداء نداء تكريم وتشريف يدلك على ذلك إضافة العباد لله بعد التعبير بلفظ العباد دون لفظ العبيد والإضافة مع دلالتها على التكريم والتشريف تنادي بضرورة رعاية حق العبودية من اجتناب للنواهي وتنفيذ للأوامر كما أمر رسول المعبود.

٥- المجاز المرسل وقد ورد في إطار تقويم الخطأ ببيان مدى قبح الظن وذلك في قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) فالظن وهو عمل سيء عبر عنه الرسول ﷺ بأنه أكذب الحديث والحديث قول فقد أطلق السبب وهو الظن وأراد المسبب وهو الحديث الكاذب الناتج عن سوء الظن على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية.

٦- استخدام أسلوب النفي بياناً لأخلاق يجب أن يتبرأ منها المسلم وذلك في قوله: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله،ولا يحقره) وجاءت هذه الأفعال منفية على سبيل الإخبار بالنهي عن هذه الأفعال التي تنافي الأخوة وتأثر سلباً على العلاقات بين المسلمين لأنها من دواعي القطيعة والعداوة والبغضاء.

٧- أساليب الفصل والوصل وهي من الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ في تقرير المعاني التي أرادها في تقويم هذه الأخطاء على وجه ينبئ عن اتصال المعاني في نفسه وبثها إلى المخاطب بنفس الاتصال وفي حال الفصل بين الجمل قررت استقلالية

الحكم إشارة لأهمية الخبر وتنوع القضايا والأخطاء المتاولة بالتقويم واختلاف أساليبها تبعاً لذلك.

فقد وصل بين الجمل في قوله: (ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً) لوجود المناسبة التامة مع نوع من التغاير في المنهي عنه حقق المغايرة التي تقتضي العطف بالواو، وكذا في عطف الجمل في قوله (لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره)، أما الفصل فقد فصل جملة (المسلم أخو المسلم) عن التي قبلها وهي جملة (كونوا عباد الله إخوانا) فلأن بين الجملتين تبايناً تاماً لأن الأولى إنشائية لفظاً ومعنى، والثانية خبرية لفظاً ومعنى، وهو ما يسمى بكمال الانقطاع بلا إيهام.

أما الفصل بين جملة (بحسب امرئ من الشر أن يحقر) عن التي قبلها وهي قوله (ولا يحقره...) فلكمال الاتصال لأن الثانية نزلت من الأولى منزلة التوكيد المعنوي لأن جملة(بحسب امرئ. ..) في مضمونها النهي والتحذير عن احتقار المسلم لأخيه لكونه شراً عظيماً ومقتضى النفي في الجملة (ولا يحقره) كونه شراً أيضاً ولذلك نفاه الرسول ﷺ عن الأخلاق التي يجب أن يتصف بها المسلم وبذلك صارت كالتوكيد المعنوي لها أن يتصف بها المسلم وبذلك صارت كالتوكيد المعنوي لها مما اقتضى ترك العطف بالواو ولقوة الصلة المؤذنة بهذا الترك.

وفصل بين جملة (كل المسلم على المسلم حرام) عن الجملة (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه) لتنزيل الثانية من الأولى منزلة الجواب عن سؤال اقتضته الأولى؛ كأنه لما قال: (بحسب امرئ من الشر. ..) نتج سؤال مفاده: لماذا كان احتقار المسلم أخيه بهذه المثابة من الهلكة، فجاءت الثانية إجابة عليه، لأن كل المسلم على المسلم حرام) وهو ما يسمى بالفصل لشبه كمال الاتصال. (وتنزيل السؤال بفحواه منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة؛ إما لتنبيه السامع على موقع، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامه بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو

تقدير السؤال)[١] وتقدير السؤال هنا لتنبيه السامع إلى خطر احتقار أخيه المسلم مع وفرة من إيجازه واستمرارية للكلام حتى بلوغ المعنى المقصود وتقريره.

وفصل بين جملة (كل المسلم على المسلم حرام) والتي بعدها وهي قوله: (دمه وماله وعرضه) لنزول الثانية منزلة البدل من المبدل منه من الأولى، وهي إحدى صور الفصل لكمال الاتصال، وفصل بين جملة: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم) والتي قبلها وهي جملة: (دمه وماله وعرضه) لفقدان الجهة الجامعة بينهما والتي تسوغ العطف وهو ما يسمى بالفصل لكمال الانقطاع، وهو نفس المسوغ لفصل جملة (التقوى ههنا) عن جملة (إن الله لا ينظر إلى صوركم)، أما فصل الجملتين المكررتين (التقوى ههنا) كل منهما عن التي قبلها فلنزول كل منهما من التي قبلها منزلة التوكيد اللفظي وهو إحدى صور الفصل لكمال الاتصال المؤذن بقوة الصلة.

٨- التتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها ويضيف إليها في قوله بعدها: (وكونوا عباد الله إخوانا) فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة.

٩- مراعاة النظير ويسمى التناسب والتوفيق وهو الجمع بين أمر وما يناسبه وقد ورد في الحديث مستدعى من المعنى ينتقل بين جزئياته انتقالاً يسيراً صعوداً في الموضوع والبيان كدرجات السلم. فهناك مراعاة النظير بين (الظن والتجسس والتحسس، والتحاسد والتدابر، والتباغض فهذه الأمور مع اقترانها في الذهن واندراجها في سلك الأخلاق السيئة الذي يجمعها جميعاً تعتبر كمقدمات لنتيجة هي القطيعة بين أفراد المجتمع المسلم ومن ثم نظمها الرسول ﷺ في سلك النهي جميعاً.

١٠- التفصيل بعد الإجمال ففي قوله: (المسلم أخو المسلم) إجمال فصّله بقوله: (لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) وهو من وسائل التشويق والإثارة مع ما يحققه من تأكيد المعنى ويثبته بذكره مجملاً ثم تفصيله.

---

(١) مفتاح العلوم، للسكاكي ص ٢٥٢.

١١- ذكر الخاص بعد العام حيث ذكر في قوله (دمه، وماله، وعرضه) هذه الثلاثة خاصة فيما يتعلق بحرمات المسلم بعد أن حرَّم كل ما يتعلق به في قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) عناية بهذه الأمور وتنبيهاً على عظم جرم انتهاكها.

١٢- حسن التقسيم في قوله: (دمه وماله وعرضه) بعد قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) حيث استوفى أقسام المحرم ولم يترك منها شيئاً حيث أن أكثر ما يتعلق بالمسلم يندرج تحت هذه الأقسام.

١٣- المقابلة التي تؤكد المعنى وتقرره ففي قوله: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم) مقابلة لقوله: (ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) حيث قابل بين الأجساد والقلوب وبين الصور والأعمال وهذه المقابلة تؤكد أن القلب الطاهر والعمل الخالص هما موضع نظر الرب ومنزل رحمته وأن الصور والهيئات دونها لا وزن لها.

وهذه المقابلة في إطار تقويم الخطأ يجعل كل مخاطب يبحث في نفسه ويحاول تطهير قلبه وإخلاص عمله لعله أن يحظى بنظر ربه.

١٤-الجناس وهو في قوله: (لا تجسسوا ،ولا تجسسوا وهو جناس ناقص حيث اختلفت اللفظتين في المعنى واتفقتا في أكثر حروفهما، وهذا الجناس في إطار تقويم الخطأ يحدث نوعاً من اجتذاب السمع والتنبيه مع تأكيد المعاني حيث أن السامع بادئ الأمر يظن أنه تكرار للكلمة نفسها وسرعان ما يتنبه إلى اختلافهما مما يثبت معنى الأولى ويؤكد الثانية، قال أبو موسى: (إنما استحسن لأن الكلمة الثانية لما كانت في صورة الكلمة الأولى توهم المخاطب أن القائل لم يزده بها فائدة فإذا رجع وأدرك معناها المغاير كان يكون قد حصل على الفائدة من غير أن يتوقعها، وجدها حيث لا يرجو وجودها وكانت كالنعمة المفاجئة. .. وهذه الحالة النفسية التي يحدثها الجناس عند من تخاطبه هي فائدته وهي وجه حسنه)[1].

١٥- السجع المطبوع (وهو موالاة الكلام على وزن واحد)[2] أو تواطؤ الفاصلتين من

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د. محمد محمد أبو موسى ص ١٢١.

(٢) إعجاز القرآن، للقاضي: أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح ابن محمد بن عويضة ص ٤٨.

النثر على حرف واحد[1] وهو معنى قول السكاكي: (وورد في الحديث عفوياً خدمة للمعنى في قوله (ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا) حيث اتفقت الجمل الأربع في تواطؤ فواصلها وكذلك قوله (لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) وهو في إطار خدمة المعاني وتقويم الأخطاء يحقق الخفة على السمعة واللذة في النطق وتيسير الحفظ وسهولة نقله وتبليغه.

١٦- التكرار اللفظي لقوله (التقوى ههنا) وهذا التكرار مع ما سبق يؤكد المعنى ويقرره ويصعِّد الشعور به ويضمن له الثبوت والدوام والتكرار من وسائل التشويق والتنبيه إلى مواضع العناية والتأكيد على أن مركز صلاح الإنسان في قلبه حيث تستقر التقوى فترتفع به عن مستوى الشهوات، والشبهات وتطهر قلبه من أمراض النفس التي سبق ذكرها في الحديث وغيرها، ولا ننسى - إذ ننسى - دور الإشارة الحسية التي أكدت المعنى تأكيداً حسياً يدرك بالبصر المصاحب للقول المدرك بالسمع حيث أشار إلى صدره لحظة قوله: (التقوى ههنا) نضيف إلى ذلك الظرف المقيد للمكان المسبوق بهاء التنبيه متغلغلة بالتقوى في بواطن القلوب كتغلغل هاءات الرسول الست خارجة من أعماق صدره هاء إشارة وتنبيه وهاء ظرف خرجتا لفظاً من أقصى حلقه وخرجتا معنى من أعماق قلبه[2].

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- اشتمل الحديث على أمور نهى عنها الشارع وهي الظن، والتحسس والتجسس والتنافس، والتحاسد، والتباغض، والتدابر وغيرها[3].

٢- في الحديث إخبار بتحريم الدماء، والأموال، والأعراض وهو معلوم من الشرع علماً قطعياً[4].

---

(١) التبيان في علم المعاني والبيان والبديع للطيبي ص٥٠٢.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري، ٥٠.

(٣) انظر: سبل السلام ٩٧٢ – ٩٧٣ ط بيت الأفكار الدولية.

(٤) سبل السلام ٩٧٣ ط بيت الأفكار.

٣- حكم البيع على بيع الغير: أجمع الفقهاء[١] على تحريم البيع على بيع أخيه، والشراء على شرائه، والسوم على سومه فلو خالف فهو عاصٍ، ولكنهم اختلفوا في صحة العقد إذا وقع. فذهب جمهور الفقهاء الحنفية، ورواية للإمام مالك، والشافعية إلى صحة البيع، لأن النهي وارد على أمر خارج عن العقد[٢].

وذهب الإمام مالك في رواية[٣] والحنابلة وداود وأصحابه إلى بطلان البيع لأنه منهي عنه والنهي يقتضي الفساد[٤].

الراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن سوء الظن.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التنافس في الدنيا.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التهاجر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: نشر التوادّ والتحاب بين المدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: النهي عن سوء الظن:

هذا واضح من قوله ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"، قال

---

(١) بدائع الصنائع ٢٣٢/٥، الجوهرة النيرة ٢٠٦/١، المنتقى شرح الموطأ ١٠٠/٥-١٠١، بداية المجتهد ١٣٣/٢، مغني المحتاج ٣٩٠/٢-٣٩١، حاشية الجمل ٨٩/٣-٩٠، المغني ١٤٩/٤-١٥٠، مطالب أولي النهى ٥٥/٣، شرح صحيح مسلم ١٥٩/١٠.

(٢) بدائع الصنائع ٢٣٢/٥، الجوهرة النيرة ٢٠٦/١، المنتقى شرح الموطأ ١٠٠/٥، ١٠١، بداية المجتهد ١٣٣/٢، مغني المحتاج ٢٨٠/٢، حاشية الجمل ٨٥/٣.

(٣) أنكر ابن الماجشون ذلك في البيع وقال إنما قال ذلك مالك في النكاح، بداية المجتهد ١٣٣/٢.

(٤) بداية المجتهد ١٣٣/٢، المنتقى ١٠٠/٥، ١٠١، المغني ١٤٩/٤-١٥٠، مطالب أولي النهى ٥٥/٣.

(٥) تقدمت معظم روايات هذا الحديث في الأحاديث رقم (٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥) وفيه بعض الزيادات التي يمكن شرحها دعويًا على النحو الوارد في المضامين المذكورة بعاليه.

النووي: "المراد: النهي عن ظن السوء، قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس، فإن ذلك لا يملك، ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر. فإن هذا لا يكلف به كما في حديث "تجاوز الله تعالى عمّا تحدثت به الأمة ما لم تتكلم أو تعْمد"[(١)](٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[(٣)].

قال ابن كثير: "يقول الله تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محلّه، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليتجنب كثير منه احتياطاً. وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً"[(٤)](٥).

وقال أبو عبدالله القرطبي: "قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله بعد هذا: "ولا تجسسوا"، وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويتسمع ليحقق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك[(٦)].

وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عمّا سواها: أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر، كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأُونست منه الأمانة في الظاهر، فظنّ الفساد به والخيانة محرّم، بخلاف من اشتهره الناس تبعاً في الريب والمجاهرة بالخبائث.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤ ومسلم ١٢٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "إن الله تجاوز لأمتي عمّا وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم" هذا لفظ للبخاري.

(٢) شرح مسلم مج٨/ج١٦/١٢٠ ط دار عالم الكتب.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد ١٠٩/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٥/١٣، ط دار عالم الكتب.

(٦) هذا كلام شيخه أبي العباس القرطبي في المفهم ٥٣٤/٦.

وعن النبي ﷺ: "إن الله حرّم من المسلم دمه وعرضه، وأن يظن به ظن السوء"[١].

وعن الحسن: كنا في زمنِ الظّنُ بالناسِ فيه حرام، وأنت اليوم اعمل واسكُت وظن في الناس ما شئت أهـ.

وللظن حالتان: حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبينة على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، وغير ذلك من قيم المتلفات وأرُوش الجنايات.

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفاً"[٢].

وقال عبدالله البسام: "الظن هو ما يخطر بالنفس من تجويز الأمور المحتملة للصحة والبطلان، فيحكم بهذا الظن الذي لم يُبْن على قرائن قوية وأمارات صحيحة، ويعتمد عليه ويجرى عليه أحكام الحقائق الواقعة، وهذا هو الذي حذر منه هذا الحديث الشريف - إياكم والظن - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٣]. قال المفسرون: هو أن يظن بأهل الخير سوءاً، فالظن القبيح عمن ظاهره الخير لا يجوز، وهو المراد بقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وإنما كان الظن أكذب الحديث لأن الكذب مخالفة الواقع من غير استناد إلى أمارة"[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه:

ذلك واضح من قوله ﷺ: "ولا تحسسوا ولا تجسسوا"، قال ابن كثير: "التجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٢ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٤٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣٩٦/١٩-٣٩٨، ط الرسالة.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢ .

(٤) توضيح الأحكام، ٣١٨/٦.

قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾(١). وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا"(٢).

وقال النووي: "قال بعض العلماء: التحسس بالحاء: الاستماع لحديث القوم، وبالجيم البحث عن العورات، وقيل بالجيم: التفتيش عن بواطن الأمور. وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس: صاحب سرّ الشر. والناموس: صاحب سرّ الخير. وقيل بالجيم: أن تطلبه لغيرك. وبالحاء: أن تطلبه لنفسك. قاله ثعلب. وقيل: هما بمعنى وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال"(٣). وقال ابن عبدالبر: "هما لفظتان معناهما واحد، وهو البحث والتطلب لمعايب الناس ومساوئهم إذا غابت واستترت"(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(٥). قال أبو عبدالله القرطبي: "ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله"(٦).

لذا فإن "التجسس على المسلمين في الأصل حرام منهي عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ لأن فيه تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه"(٧). وقد قال ﷺ: "يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهم، فإنه من اتَّبَعَ عوراتهم يَتَّبِع الله عَوْرَتَه، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"(٨).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/١٥٨، ط دار عالم الكتب.

(٣) شرح صحيح مسلم مج٨/ج١٦/١٢٠-١٢١، ط دار عالم الكتب، وانظر تفسير القرطبي ١٩/٣٩٩.

(٤) التمهيد ٢٢/١١٠ موسوعة شروح الموطأ.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٢ .

(٦) تفسير القرطبي ١٩/٣٩٩.

(٧) الموسوعة الفقهية ١٠/١٦٢.

(٨) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وصححه الألباني، وصحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣.

قال عبدالرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب ﷺ بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت، بَابُه مجاف على قوم، لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شَرْب[1]، فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم[2].

وقال أبو قلابة: حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو مِحْجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التنافس في الدنيا:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ولا تنافسوا" قال النووي: "أما المنافسة والتنافس فمعناهما الرغبة في الشيء وفي الانفراد به، ونافسته منافسة: إذا رغبت فيما رغب فيه. وقيل: معنى الحديث: التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها"[4].

وقال ابن عبدالبر: "المراد التنافس في الدنيا، ومعناه: طلب الظهور فيها على أصحابها، والتكبر عليهم، ومنافستهم في رئاستهم، والبغي عليهم، وحسدهم على ما آتاهم الله منها. وأما التنافس والحسد على الخير وطرق البّر فليس من هذا في شيء"[5].

وإنما حذّر النبي ﷺ من التنافس في الدنيا لأنها قد تجر إلى الهلاك في الدين، فقال ﷺ: "فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم"[6].

---

(١) الشرْب بفتح الشين: القوم يشربون، القاموس المحيط في (ش ر ب).

(٢) أخرجه عبدالرزاق ١٨٩٤٣، والحاكم ٣٧٧/٤ والبيهقي ٣٣٣/٨، وصححه الحاكم.

(٣) أخرجه عبدالرزاق ١٨٩٤٤.

(٤) شرح مسلم مج١٢١/١٦/٨ ط دار عالم الكتب.

(٥) التمهيد ١١٢/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

(٦) أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١.

قال ابن حجر: "فيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين"[١].

وقال ابن حجر كذلك: "التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه.... والمال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه، فتقع العدواة المفضية إلى الهلاك"[٢].

وقال ﷺ: "تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض"[٣].

قال النووي: "قال العلماء: التنافس إلى الشيء المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد"[٤].

وقال ابن حجر: "وفيه إشارة إلى أن كلّ خصلة من المذكورات مسبَّبة عن التي قبلها"[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التهاجر:

ذلك واضح من قوله ﷺ: "ولا تهاجروا"

قال النووي: "قوله: "لا تهجَّرو" كذا هو في معظم النسخ، وفي بعضها "تهاجروا" وهما بمعنى، والمراد: النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام.

وقيل: يجوز أن يكون "لا تهاجروا" أي لا تتكلموا بالهُجْر بضم الهاء، وهو الكلام القبيح"[٦].

قلت: إذا كان المعنى النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام فسيأتي ذلك مفصلاً في باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام إلا لبدعة في المهجور أو تظاهر بفسق أو نحو ذلك.

---

(١) فتح الباري ١٤٩٣/٢ ط بيت الأفكار شرح الحديث ٣١٥٨.

(٢) فتح الباري ٢٨١٧/٣ ط بيت الأفكار شرح الحديث ٦٤٢٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٦٢.

(٤) شرح مسلم مج٩/١٨/٩٢-٩٣ ط دار عالم الكتب.

(٥) فتح الباري ١٤٩٣/٢ ط بيت الأفكار الدولية، شرح الحديث ٣١٥٨.

(٦) شرح صحيح مسلم مج٩/ج١٨/١٢١ ط دار عالم الكتب.

وإمّا إذا كان المعنى النهي عن الكلام القبيح فقد تقدم في باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابّة، كما سيأتي في باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان.

خامساً- من موضوعات الدعوة: نشر التوادّ والتحاب بين المدعوين:

هذا واضح من الحديث برواياته، قال ابن عبدالبر: "لا يحلّ التباغض، لأن التباغض مفسدة للدين حالقة له، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالتوادّ والتحابّ حتى قال: "تهادوا تحابوا"[(١)].

وروى مالك[(٢)] عن يحيى بن سعد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: "ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال صلاح ذات البين، إياكم والبغضة فإنها هي الحالقة، وكذلك لا يحلّ التدابر، والتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحو هذا. وإنما قيل للإعراض: تدابر، لأن من أبغضته أعرضت عنه، ومن أعرضت عنه وليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته لتسرّه ويسرّك، فمعنى تدابروا وتقاطعوا وتباغضوا معنى متداخل متقارب، كالمعنى الواحد في الندب إلى التواخي والتحابّ، فبذلك أمر رسول الله ﷺ في معنى هذا الحديث وغيره، وأمرُ رسول الله ﷺ على الوجوب، حتى يأتي دليل يخرجه إلى معنى الندب"[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وإسناده حسن قاله الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/٧٠.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١٧٤١ موسوعة شروح الموطأ.

(٣) التمهيد ٢٢/٩٧-٩٨ موسوعة شروح الموطأ.

الحديث رقم (١٥٧٣)

١٥٧٣- وعن معاوية رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ((إنَّكَ إنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ أفْسَدْتَهُمْ، أَوْ: كِدْتَ أنْ تُفْسِدَهُمْ)). حديث صحيح، رواه أَبُو داود[١] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

معاوية بن أبي سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١١).

غريب الألفاظ:

عورات: جمع عورة، وهي كل ما يستحي منه الإنسان إذا ظهر[٢].

الشرح الأدبي

قول معاوية رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يؤكد الخبر لأنه تلقَّاه من فم الرسول ﷺ مباشرة دون واسطة، وقول الرسول ﷺ (إنَّكَ إنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ أفْسَدْتَهُمْ) أسلوب خبري مؤكد تعظيما له تلاه أسلوب الشرط الذي يربط تتبع عورات الناس بإفسادهم يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه، والتعبير بالتتبع يوحي بالتخفي، والتستر، والريبة، والعورات جمع عورة قال الطيبي العورة سوأة الإنسان وأصلها من العار وذلك كناية لما يلحق في ظهوره من عار المذمة ويستحى منه إذا ظهر ولذلك سمى النساء عورة ومن ذلك العوراء للكلمة القبيحة) وإضافة العورات للمسلمين تزيد التنفير من الفعل لأنهم أولى بالستر والحفظ من غيرهم وقوله (أفسدتهم) جواب الشرط أي أوقعتهم في الفساد (أو كدت) أي قاربت أن (تفسدهم) لوقوع بعضهم في بعض بنحو غيبة أو لحصول تهمة لا أصل لها أو هتك عرض ذوي الهيئات المأمور بإقالة عثراتهم وقد يترتب على التفتيش من المفاسد ما يربو على تلك المفسدة التي يراد إزالتها والحاصل أن الشارع ناظر إلى الستر مهما أمكن.

---

(١) برقم (٤٨٨٨). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٦٠). اورده المنذري في ترغيبه (٢٤٥٠).

(٢) النهاية في (ع و ر).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من أهداف الدعوة: الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: البعد عن التجسس وبيان مضاره الاجتماعية.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم"، حيث أكد ﷺ على أن من يتبع عورات الناس يكون سبباً في إفسادهم. وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في تأكيد الحقائق للمدعوين، وضرورة امتثالهم لهذه الحقائق.

ثانياً - من أهداف الدعوة: الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم:

يستنبط هذا من عموم الحديث، حيث بيّن رسول الله ﷺ أن تتبع عورات الناس يكون سبباً في إفسادهم، والشريعة الإسلامية دعت إلى الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قال السعدي: يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ حيث قال: "إنما الاستئذان من أجل البصر"[2]، فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده[3]،

(١) سورة النور، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود، ٥١٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٣١٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥١٤.

وهذا يدل على الحرص على الحفاظ على حرمة مساكن المسلمين ومراعاة خصوصياتهم والمجتمع الذي يغلب عليه الطهر، لا يطفح فيه من الأخبار إلا ما كان طاهراً وعفيفاً، ويبقى المسر بالمعصية مستوراً بستر الله عليه، إلى أن يتوب، ويستره المؤمنون، لئلا يتجاسر على الجهر بها أو الإصرار عليها، وليكونوا عوناً له على الشيطان طالما أسر واستتر.

ومثلما استنكر رسول الله ﷺ حديث العاصي، الفاضح لنفسه، والكاشف لستر الله عنه، فقال: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يافلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه"(١). فقد استقبح أيضاً شأن الفاضح لأخيه، لذلك وصف الله الذين يلوكون أعراض الناس بألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٢)، فتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

يقابل هذا الوعيد بشارة الذين يكتمون عيوب إخوانهم، بستر الله لهم في الدنيا والآخرة"، كما جاء في الحديث الصحيح: ((وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ))(٣)،(٤).

وهذه النصوص تؤكد هدف الدعوة الإسلامية في الحفاظ على عورات المسلمين، ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم.

ثالثاً - من موضوعات الدعوة: البعد عن التجسس وبيان مضاره الاجتماعية:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم". أي: أنك إذا بحثت عن معائبهم وجاهرتهم بذلك، فإنه يؤدي إلى قلة حيائهم

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٠٦٩.

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٤) هذه أخلاقنا: محمود محمد الخزندار، ٤٥١.

عنك، فيجترئون على ارتكاب أمثالها مجاهرة[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾[2].

قال الطبري: وقوله: "ولا تجسسوا" يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة أخيه، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذُمُّوا، ما لا تعلمونه من سرائر[3].

وقال ابن عاشور: والتجسس من المعاملة الخفية عن المتجسس عليه. ووجه النهي عنه أنه ضرب من الكيد والتطلع على العورات.

وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه، فتنشأ عنه العداوة والحقد. ويدخل صدره الحرج والتخوف، بعد أن كانت ضمائره خالصة طيبة، وذلك من نكد العيش.

وذلك ثلم للأخوة الإسلامية، لأنه يبعث على إظهار التنكر، ثم إن اطلع المتجسس عليه على تجسس الآخر ساءه، فنشأ في نفسه كره له، وانثلمت الأخوة ثلمة أخرى كما وصفنا في حال المتجسس، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه.

وإذ قد اعتبر النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن، فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة. ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضر بهم.

فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجر منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم، فلا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص[4].

---

(١) عون المعبود ٢١٠٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢١/٣٧٤.

(٤) التحرير والتنوير مج١٠/٢٦/٢٥٠.

وقال ﷺ: "يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عز وجل عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"[1].

قال الطيبي: "ولا تتبعوا عوراتهم فيما يظن"، أي لا تجسسوا ما ستروا عنكم من الأفعال والأقوال، وما ستر الله عليهم، والمراد بقوله: "يتبع الله عورته"، كشف ستره.

فإن التجسس والتتبع ثمرة سوء الظن بالمسلم، والقلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق، فيؤدي ذلك إلى هتك السر[2].

وتتبع العورات والتجسس على الناس يؤدي إلى إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، وهذا منهي عنه وعقابه شديد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[3].

لذا تتضح أهمية البعد عن التجسس لما له من مضار اجتماعية.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٧/٩.

(٣) سورة النور، آية: ١٩.

الحديث رقم (١٥٧٤)

١٥٧٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً، فَقَالَ: إنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، ولكِنْ إنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ، نَأخُذ بِهِ. حديث حسن صحيح، رواه أَبُو داود[1] بإسنادٍ عَلَى شَرْطِ البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

التجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ورد في صورة خبرية تسرد قصة رجل شرب الخمر، ووقع بجنايته وسط الأبرار الذين لا يتركون منكرا في مجتمع الأطهار يكون دعاية سيئة لغيره من الغافلين، وسبة في جبين الصالحين، فتصدوا له، وأتوا به لابن مسعود رضي الله عنه الذي ينفذ بعقل العالم، وقلب المؤمن إلى بواطن الأوامر، ويرى المقصد الأسمى للشرع في الستر على المذنب لعله يتوب، ويقلع، أما إذا افتضح بذنبه، وصار معروفا بهذا الذنب وشهد عليه المؤمنون دون تتبع عوقب بما قرره الشارع، وقول الراوي (هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً) قولهم هذا فلان كناية عن اسم المذنب، والكناية عنه أفادت ستره وقوله (تقطر) يصور الفاعل متلبسا بجنايته، وقول ابن مسعود رضي الله عنه (إنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ) أي نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن تتبع أحوال الناس بغرض الإيقاع بهم، واتصال ضمير الجمع بالفعل تعميم للنهي ينبيء بأهميته، وقوله (ولكِنْ إنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ، نَأخُذ بِهِ) استدراك يقرر عدم ترك من ظهرت جنايته دون عقاب حتى لا يكون

---

(١) برقم (٤٨٩٠).

(٢) النهاية في (ج س س).

تشجيعا لغيره، وجرأة على حدود الله - تعالى - وقوله (نأخذ به) كناية عن إقامة الحد عليه، وعقابه بذنبه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على البعد عن التجسس.

ثانياً: من آداب الداعية: مراعاة فقه إنكار المنكر.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على البعد عن التجسس:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود عندما أتى له برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نهينا عن التجسس ..."الحديث.

وقد نهى القرآن عن التجسس، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[1]، فقد نهى القرآن الكريم عن التجسس، والمراد المنع من تتبع عورات الناس والبحث عن مثالبهم بأي طريق. فنكتفي منهم بالظاهر، ونكل إلى الله أمر الباطن[2]. وكذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجسس فقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ. فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ. وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا، عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً»[3].

فمن أجل النهي الوارد في الكتاب والسنة، كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على البعد عن التجسس، وإنما حكمهم يكون على الظاهر فقط.

فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، قال: "خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج، فانطلقنا نؤمه. فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط. فأخذ عمر بيدي، وقال: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٤٣، ومسلم ٢٥٦٣.

ربيعة ابن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[١] فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم.

وقال أبو قلابة: "حُدِّث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحابه في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه"[٢].

ثانياً - من آداب الداعية: مراعاة فقه إنكار المنكر:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود رضي الله عنه: "إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شيء، نأخذ به"، ويقصد بفقه الإنكار، الأحكام الشرعية المتعلقة بالنهى عن المنكر، والتي تبين ماهية المنكر شرعاً، وكيفية التعامل معه من قبل الأفراد، إذ أن هذا الأمر في غاية الأهمية والخطورة، لما يترتب عليه أحياناً من التحول من منكر إلى منكر أكبر منه"[٣]. والمطلوب مراعاته من الداعية في إنكار المنكر، والذي يظهر في ذلك الحديث هو أن يكون ظاهراً بغير تجسس. وذلك لأن الإسلام جاء بالحكم على الظاهر، وترك السرائر إلى الله عز وجل، فلم يبح الإسلام عموماً كشف الناس عن أسرارهم حتى ولو كانت منكرات[٤].

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا وكونوا عبادالله

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي، مج٨/١٦/٢٣٣، وإحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/١٠٠٦.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٥٩.

(٤) حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، د. حمد العمار، ١٤٥.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٢.

إخوانا"[١]. وقال ﷺ: "... فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته ..." [٢]، فعلى الداعية أن يراعي ضوابط إنكار المنكر التي حددها الشرع، حتى لا يقع في المحذور، ويتسبب في منكر أكبر من المنكر المراد إنكاره.

ولا بد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عارفاً بالحكم الشرعي لما يأمر به أو ينهى عنه، فإن جهل الحكم فعليه أن يتعلمه قبل أن يأمر أو ينهي لئلا يخالف حكم الشارع وهو لا يدري، وكذلك لابد أن يدرس الموقف ويعرف عواقبه قبل أن يقدم عليه، فإن الشريعة سمحاء، وإن الواجب يسقط عنه إذا كان فيه تلف نفسه أو هلاك أهله، فإذا غلب على ظنه أن يعود بالضرر على الآخرين، فإنه يجب عليه التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك لابد أن يقدر غلبة النفع واتعاظ المقابل عندما يأمره وينهاه، أما إذا غلب على ظنه وقوع الضرر، فإن الواجب يسقط عنه، وينتقل إلى مرحلة أدنى وهي الإنكار بالقلب[٣].

وقد وضح ابن تيمية قاعدة مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تتمثل في مراعاة المصالح والمفاسد من قبل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإن حصلت مصلحة أعظم من المفسدة وجب الأمر والنهي عليه، وإن كانت المفاسد أعظم من المصالح لم يجب عليه بل يحرم، أما إذا حصل التساوي والتكافؤ بين المعروف والمنكر؛ لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

وأما عند اختلاط المعروف بالمنكر فيدعو إلى المعروف دعوة مطلقة، وينهى عن المنكر نهيًا مطلقًا، هذا من جهة نوع المعروف ونوع المنكر، أما في الفاعل الواحد والطائفة الواحدة فيأمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروف أكبر منه[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٤١.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د/ أكرم ضياء العمري، ص٢٩٣.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، ٢٨/١٢٩، ١٣٠، وانظر: التربية الروحية، د. أكرم ضياء العمري، ٢٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخلقية:

إن من أهم أهداف التربية الخلقية والتي يجدر بأهل التربية غرسها في نفوس المتعلمين، البعد عن التجسس وسوء الظن بالناس. وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا....إلخ».

"وقد ورد النهي عن التجسس والبحث عما استتر من أمور المؤمنين؛ لما في ذلك من التعرض لما لا يفيد ولا يعني المتجسس، وهذا لا يثمر إلا الضغينة"[1].

والعلاقة بين سوء الظن والتجسس وثيقة، فسوء الظن يكون من نفس مريضة لا ترى إلا العيوب والنقائص، وهي نفس تغفل عن عيوبها لتتحرى عيوب الآخرين، وتجدُّ في التفتيش عنها، وذلك بالتجسس على الآخرين للوقوف على نقائصهم لتكون هذه العيوب والنقائض أمارات وأدلة تبرهن على الظن السيئ بالناس، وعلى التقدير الزائف للذات.

وتتأكد أهمية غرس خلق البعد عن التجسس وسوء الظن في نفوس المتعلمين، عند معرفة أن التجسس وسوء الظن يشتركان في كونهما مظهرين يدلان على العجز عن التواصل الإيجابي الرشيد مع المجتمع، فالواحد منا قد يلمس فضولاً في نفسه لمعرفة أحوال الآخرين الذين يلتقي بهم في نطاق معاملاته اليومية، كزملاء العمل والجيران في الحي، وقد ينبع التجسس على هؤلاء من رغبة مخلصة في التواصل معهم، وحرص صادق على مشاركتهم أحوالهم.

وغني عن البيان أن هذا مظهر سلبي للحياة الاجتماعية لا يليق بالعقلاء الذين يلجمون أنفسهم عن فضول الرغبة في معرفة أحوال الآخرين، ويتحلون بسلوك إيجابي، وهو التعامل مع الآخرين تعاملاً يهدف إلى تحقيق معاني الأخوة الصادقة، التي تجعل المرء في اطلاع على أحوال إخوانه بشكل عفوي تلقائي بعيد عن التجسس والفضول فيطمئن على سلامتهم

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٥.

وحسن تدبيرهم معاشهم دون أن يفعل ما يشين نفسه أو يسوؤها"[1].

ثانيًا: التربية على تعميق روح الأخوة الإسلامية:

إن من أجل ما يجب غرسه في نفوس المتربين، تعميق روح الأخوة الإسلامية حيث إنها الرابطة النفسية التي تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام... مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى... فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون، والإيثار، والرحمة، والعفو عند المقدرة ... واتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم... ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة في الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها[2]، وهذا ما ورد جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «... الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هَا هُنَا». وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ...إلخ».

"وفي ترسيخ معنى الأخوة الإسلامية، يستمد المؤمن قوته من إخوانه المؤمنين، فهو يشعر بأنهم له وهو لهم، يعينونه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحشة، ويأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه، فهو حين يعمل يحسّ بمشاركتهم، وحين يجاهد يضرب بقوتهم، إذا حارب جيشًا من ألف مؤمن شعر كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده، وشعر أن هؤلاء الألف يعيشون في نفسه - كما يعيش هو في أنفسهم - حبًا لهم، وحرصًا عليهم، وضنًا بهم، فإذا ضربت الألف، في ألف كان المجموع المعنوي ألف ألف رجل في الحقيقة، وإن كانوا ألفًا واحدة في لغة الإحصاء والتعداد"[3]، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس روح الأخوة الإسلامية في نفوس المتعلمين والمتربين.



---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٤/٧٥، ٧٦.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٣٦٢.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ٢٣١.

٢٧٢- باب النهي عن سوء الظنّ بالمسلمين من غير ضرورة

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

الحديث رقم (١٥٧٥)

١٥٧٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: **((إيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ))** متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من سوء الظن الذي يترتب عليه فساد ذات البين بين المسلمين، ويشغل القلوب، و ويشعل الصدور لذلك صدَّر الحديث بأسلوب التحذير بلفظ (إياكم) تعجيلاً بالإنذار، وإعلاناً لخطورة الخبر الأمر ولهذه اللفظة (إياك) ما ليس لغيرها من الإثارة والتنبيه واللفت والإيقاظ لما تعورف عليه في استعمالها في اللغة من كونها تتصدر الأمور الخطيرة والتي يتوقع من جهتها مكروه، والتعجيل بالإنذار المفهوم من هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز بحذف الفعل، والفاعل، لتكون علماً بذاتها على الخطر والمحذر منه هو الظن الذي علل له بقوله: (فإن الظن أكذب الحديث) حيث ربط التحذير بما بعده بفاء السببية للإقناع ببيان العلة، فإذا علمنا أن بين الفاء والعلة حرف التوكيد (إن) رأينا جزماً بهذه العلة يقررها في الذهن وينفي عندها أي شك يمكن أن يحوم حولها، ولتأخذ طريقها في النفس دون عقبات أو اعتراضات[2]. وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣)، وهذا طرف من الحديث الذي تقدم برقم (١٥٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١).

(٢) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٦٥.

جاءت أساليب التوكيد في تناسق دقيق مع بقية الأساليب لتحقيق المعنى ففي قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) أكد الجملة بـ (إن) - كما ذكرنا سابقاً - مع اسمية الجملة ولعله تنزل المخاطبين منزلة المترددين لما رأي من استهانة الناس بخطر الظن؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ يستخدم أفعل التفضيل (أكذب) مبالغة في ذم الظن الذي لا يعتمد على سند فإن قيل الكذب من صفات الأقوال، والظن عمل نفسي يجاب بأن المراد به هنا عدم مطابقته للواقع سواء كان قولاً أم فعلاً[١].

المضامين الدعوية[٢]

(١) انظر: عمدة القاري ١٥/ ٢١٨.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٧٢)

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب سوء الظن:

إن سوء الظن مدعاة إلى تحقير المؤمنين، وإلى إيقاع الضرر بهم[1]؛ لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه تحذير المربين من سوء الظن امتثالاً لأمر النبي ﷺ كما ورد في حديث الباب من قوله: «إياكم والظن....إلخ».

فالمرء الذي رُبِّي تربية إسلامية سليمة يحسن الظن بالآخرين، وهذا الإحساس ملكة لا تكتسب إلا برقابة النفس، وإخضاعها لسلطان العقل والدين والتماس الأعذار للآخرين، وهذا لا يتم إلا إذا كان صدر المسلم سليمًا ونواياه حسنة تجاه الآخرين، أما سوء الظن فهو دليل على سوء التربية وسوء النية، ودغل القلوب وأحقادها، وحتى يحقق التحذير من سوء الظن غايته ومراده، وجب بيان ما يترتب على هذا الخلق المرذول من آثار سيئة.

وأول هذه الآثار المترتبة على سوء الظن: "وقوع الإنسان في إثم كبير، فظنه السيئ بالآخرين وليد ارتيابه بهم، واحتقاره لهم، وكفى بالمرء إثمًا إن يحقر أخاه الإنسان. ويضاف إلى ذلك أن الظنون الباطلة تجلب الشرور والأذى بمن يساء بهم الظن، فمن أساء الظن بأحد فقد وضعه موضع الاتهام والارتياب، وأفسد سمعته لدى الناس، وربما دفعهم ذلك إلى تحاشي التعامل معه...، وكان من هذه الآثار تورط صاحبها في رذائل وآفات سلوكية منها الكذب المحرم في القوانين والشرائع والأديان، وإن الارتياب في الناس وإدامة الظن السيئ بهم يؤديان إلى تصور الإنسان أوهامًا غير حقيقة، فإذا ما واجه الناس بالحق الذي يبدد الظنون، واستبان له خطؤه في حق الآخرين، اضطر إلى الاعتذار، واختلاق الحجج المسوغة لإقدامه على الظن السيئ، ومثل ذلك يخلق مناخًا صالحًا للكذب، فاعتياد الإنسان على الارتياب بالآخرين يدفعه إلى اعتياد الكذب عليهم"[2].

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٥.

(٢) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٥/٤، ٦٨، ٦٩.

قال ابن حزم: "كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب، لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب، فيجترئ عليه ويستسهله"[١].

وكما يرتبط الظن السيئ بالكذب فإنه يرتبط كذلك بالغيبة، فمن زل في ظن سيئ بأخيه أطلق فيه لسانه، وظن نفسه خيرًا من المحيطين به. فاحتقرهم، حتى يبدو الأمر سلسلة من الرذائل يؤدي بعضها إلى بعض، مصدرها سوء الظن الذي يعد مدخلاً من مداخل الشيطان إلى القلب[٢].

"فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا شرًا. فمهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن خبثه يترشح منه!، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق"[٣].

"لذا وجب على المربين الحث على اجتناب سوء الظن والبعد عن مسالكه، ومما يساعد على ذلك ذكر حال السلف في اجتنابهم لسوء الظن وتوصيتهم بذلك، فعن سعيد بن المسيب قال: "كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه"[٤].

ثانيًا: التربية بالتحذير:

لقد ورد هذا الأسلوب التربوي التوجيهي في الحديث من تحذير النبي ﷺ من سوء الظن، وذلك في قوله: «إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث» والتحذير هو التحرز

---

(١) الأخلاق والسير، ٢٣٦.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٤/٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣٦١٢.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي، ٣/١٥٠

من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك، وأي ضرر يلحق المجتمع المسلم ويفت في عضده[1] من سوء الظن الذي يقطع أواصر الثقة والمحبة والألفة بين أفراده.



(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٤٩، ٢٥٠.

٢٧٣- باب تحريم احتقار المسلمين

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَومٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات: ١١]

وقال تَعَالَى: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لمزَةٍ﴾[الهمزة: ١].

الحديث رقم (١٥٧٦)

١٥٧٦- وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ)) رواه مسلم[١]، وَقَدْ سبق قريبًا بطوله.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يحقِر أخاه: يستهين به ويستصغره[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول رعاية مشاعر الناس وأحاسيسهم في التعامل فيما بينهم بأن ينظر المسلم لأخيه من خلال دينه نظرة المثلية في البشرية، والإسلام، وتكريم الله له، لا أن ينظر إليهم نظرة تعال وتكبر، وهو ما حذر منه بقوله (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ) أي حسبه وكافيه من خلال الشر ورذائل الأخلاق احتقار أخيه المسلم، وهو يقتضي تعظيم جرم احتقار الناس فقوله (بحسب امرئ) مبتدأ والباء فيه زائدة

---

(١) برقم (٣٢/٢٥٦٤)، وتقدم برقم (١٥٧٢)، وانظر ما تقدم برقم ٢٣٤، ٢٣٥، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١).

(٢) الوسيط في (ح ق ر).

وقوله (أن يحقر) خبره، والتعبير بلفظ (أخاه) إشارة إلى موجبات الأخوة من الرحمة، والمودة ورعاية المشاعر، ووصفه بالمسلم يزيد من تقبيح الفعل لأن تلك الرابطة لها حقوق يجب رعايتها، واختصاصه بالإسلام فيه مزيد تكريم بعد كونه من بني آدم فلا يجب احتقار من كرمه الله تكريما بعد تكريم وفيه تحذير عظيم من ذلك لأن الله تعالى لم يحقره إذ خلقه ورزقه ثم أحسن تقويم خلقه وسخر ما في السماوات وما في الأرض جميعاً لأجله وإن كان له ولغيره فله من ذلك حصة ثم إن الله سبحانه سماه مسلماً ومؤمناً وعبداً وبلغ من أمره إلى أن جعل الرسول منه إليه محمداً ﷺ فمن حقر مسلماً من المسلمين، فقد حقر ما عظم الله عز وجل وكافيه ذلك فإن من احتقار المسلم للمسلم أن لا يسلم عليه إذا مر ولا يرد عليه السلام إذا بدأ به، ومنها أن يراه دون أن يدخله الله الجنة أو يبعده من النار.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٤، ٢٣٥، ١٥٧٢)

الحديث رقم (١٥٧٧)

١٥٧٧- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**)) فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَالَ: ((**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**)) رواه مسلم[١].

ومعنى: (**بَطَرُ الحَقِّ**) دَفْعُه، (**وغَمْطُهُمْ**): احْتِقَارُهُمْ[٢]، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا في باب الكِبْرِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

مثقال: مقدار [٣].

الذَرَّة: ما يُرى في الضوء إذا دخل النافذة في الحجرة المظلمة [٤].

بَطَر الحقِّ: التَكبُّر عن الحقِّ وعدم قبوله [٥].

غَمْطُ الناس: الاستهانة بهم واستحقارهم [٦].

الشرح الأدبي

استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم عدة أساليب بلاغية لبيان خطر الكبر، والفرق بين اتخاذ الزينة المباحة، وبين الكبر منها: بداية الحديث بأسلوب النفي في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) حيث قدم المسند المنفي الذي يشكل الحكم على المسند إليه هنا، وكون هذا المسند فعلاً مضارعاً له أثره في تمكين الحكم، والتأثير به تأثيراً قوياً يلفت الذهن إلى خطورته، ولعل ذلك ما دعا إلى الاستفسار عنه،

(١) برقم (٩١/١٤٧)، وتقدم برقم (٦١٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٩٥).

(٢) نقلهما عن الترغيب للمنذري (٣/٥٤١).

(٣) النهاية في (ث ق ل).

(٤) النهاية في (ذ ر ر).

(٥) النهاية في (ب ط ر).

(٦) النهاية في (غ م ط).

ثم دفع إيهام ما قد يتصور من وجوه غير داخلة في معناه، ثم البلوغ في نهاية الأمر إلى وضع دلالة لغوية موضحة لدقائق هذا المعنى في أسلوب محدد، ثم جاءت أساليب التوكيد لتمهد النفس وتلفت الانتباه وتثير الاهتمام لتصحيح خطأ التصور وتحديد المفاهيم، وتعريفها كما جاء في الرد على السائل بقول الرسول ﷺ (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)، فقد أكدَّ الجملة بـ (إن) مع اسمية الجملة لدفع شك السامع، وتردده في فهم المعنى، وإجابته بأسلوب يتساوق مع أسلوبه حيث قال: (إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً) فرد عليه ﷺ بنفس درجة التأكيد (إن الله جميل) تصحيحاً لتصوره الخاطئ بأن محبة الثوب الحسن والنعل الحسن من الكبر وبيَّن له أن الكبر ليس بالتجمل واتخاذ الزينة من الثياب، بل هو أمر نفسي يرجع إلى أحوال النفوس وصفات القلوب، فهو التكبر على الحق، فيزهو بأصله، أو بجنسه، أو يتيه بمنصبه، وجاهه، أو يصعِّر خده للناس بقوته وماله، أو يحتقر من سواه من خلق الله ممن لا يساوونه، أو غير ذلك من مظاهر الكبر[1]، وهذا ما بيَّنه بقوله: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس) موضحاً ومحدداً لمفهوم الكبر، وقد فصَّل هذه الجملة عن سابقتها وهي جملة: (إن الله جميل يحب الجمال)، لأن الثانية وقعت إجابة لسؤال مقدر نتج عن الأولى، فكأنه لما سمع قول الرسول ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال) سأل: فما الكبر إذن؟ فجاء قوله ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال، وهذا النوع من الفصل يعطي النص حيوية، ويوثق الصلة بين المتكلم والمخاطب، ويشعر بالتواصل بينهما، والحديث في مجمله تحديد بليغ ودقيق لمفهوم الكبر، وبيان لشدة عقابه، وأنه يحرم صاحبه من كل خير بحرمانه من الجنة، وفيه عقاب لما يؤدي إليه الكبر من بطر الحق وغمط الناس مما يستجلب كراهية الناس لهذا المتكبر، الأمر الذي يحدث التصدع في وحدة المجتمع المسلم[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أحاديث نبوية شريفة، د. محمود فرج العقدة، ص٨٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري١٥٧.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦١٢).

الحديث رقم (١٥٧٨)

١٥٧٨- وعن جُندب بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ عز وجل: مَنْ ذا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أنْ لا أغْفِرَ لِفُلانٍ! فَإنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جندب بن عبدالله البَجَليّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣٢).

غريب الألفاظ:

يتألى: يحلف، وهو من الأليّة: اليمين[٢].

وأحبطت: أبطلت[٣].

الشرح الأدبي

الحديث يقرر خطر الخوض في الغيبيات بالحكم على الناس بالنار أو بالجنة لأن هذه الأمور اختص الله بها نفسه، وقلوب العباد سريعة التقلب فلا يقطع إنسان بمصير إنسان، وقوله (قال رجل) يحتمل أنه من هذه الأمة، أو من غيرهم ويشير إلى أن الخطأ قولي (والله لا يغفر الله فلان) حكاية قسم الرجل تصور الخطأ بالجزم بمصير غيره مع جهله بما يخوض فيه، وتمهد لما بعده من الرد لأنه قاله استكثارا أو استكبارا لذنبه أو تعظيما لنفسه حين جنى عليه، وقول الله - تعالى - (من ذا الذي يتآلى علي ؟) استفهام إنكار وتوبيخ ومعنى يتآلى أي : يتحكم علي ويحلف باسمي أنى لا أغفر، وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة أولا حكاية لصنيعه إلى غيره وإعراضا عنه، وقوله (فَإنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ) أكد العبارة بعدة مؤكدات ليقابل بها إنكار هذا الجاهل، وقوله (وَأحْبَطْتُ عَمَلَكَ) أي أبطلت عملك أو أبطلت قسمك وجعلت حلفك كاذبا، والمقابلة بين غفرت،

---

(١) برقم (١٣٧/٢٦٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٦٤) والسياق له.

(٢) النهاية في (أ ل ي).

(٣) النهاية في (ح ب ط).

وأحبطت تؤكد المعنى، وتقرر خلاف ما ظنه في حسن عمله، وسوء عمل صاحبه، وفيه بيان لخطر الكلمة، فانظر إلى هذا الرجل؛ تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، هلك كلّ عمله وسعيه؛ لأن إعجابه بنفسه، واحتقاره لأخيه، واستبعاده رحمة الله حمله على أن يقول هذه المقالة، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة عمله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية التواضع وعدم احتقار المسلمين والتألي على الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التأدب مع الله تعالى وعدم الجزم بأمور اختص الله تعالى بها.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: بيان سعة رحمة الله ومغفرته.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الاغترار بالعمل.

أولاً - من موضوعات الدعوة: أهمية التواضع وعدم احتقار المسلمين والتألي على الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: قَالَ رَجُلٌ، وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّه لِفُلانٍ، فَقَالَ اللَّه عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». الحديث.

قال القرطبي: (وقول المتالي: والله لا يغفر الله لفلان) ظاهر في أنه قطع بأن الله تعالى لا يغفر لذلك الرجل، وكأنه حكم على الله، وحجر عليه. وهذه نتيجة الجهل بأحكام الإلهية، والإدلال على الله تعالى بما اعتقد أن له عنده من الكرامة، والحظ، والمكانة. وكذلك المذنب من الخسة والإهانة؛ فإن كان هذا المتألي مستحلاً لهذه الأمور فهو كافر، فيكون إحباط عمله لأجل الكفر، كما يحبط عمل الكفار، وأما إن لم يكن مستحلاً لذلك، وإنما غلب عليه الخوف، فحكم بإنفاذ الوعيد فليس بكافر، ولكنه مرتكب كبيرة، فإنه قانط من رحمة الله، فيكون إحباط عمله بمعنى: أن ما أوجبت له هذه الكبيرة من الإثم يربي على أجر أعماله الصالحة؛ فكأنه لم يبق له عمل صالح.

(وقوله: من ذا الذي يتلى عليَّ ألا أغفر لفلان) استفهام على جهة الإنكار والوعيد،

ويستفاد منه: تحريم الإدلال على الله تعالى، ووجوب التأدُّب معه في الأقوال، والأحوال، وأن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ومولاه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية[1].

قال ابن عثيمين: وكان هذا الرجل عابدًا معجبًا بعمله محتقرًا لأخيه الذي رآه مفرطًا، فأقسم أن الله لا يغفر له، فقال الله عز وجل: "من ذا الذي يتألى على، والفضل يؤتيه من يشاء، إني غفرت له وأحبطت عملك"، أعوذ بالله، تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، أهلكته، لأنه قال ذلك معجبًا بنفسه محتقرًا لأخيه فأقسم أن الله لا يغفر له، فغفر الله لهذا الرجل، لأن معاصيه دون الشرك، أو لأن الله تعالى مَنَّ عليه فتاب، وأما الآخر فأحبط عمله؛ لأنه أعجب بعمله، والعياذ بالله، وتألى على ربه، وأقسم عليه أن لا يغفر لفلان، والله تعالى كامل السلطان لا يتألى عليه أحد[2]. قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار"[3].

قال الطيبي: والكبر هو الإعراض عن الحق وتحقير الناس، والتواضع هو الإذعان للحق وتوقير الناس... فالمعنى: من تكبر على الله وعلى الخلق ابتلاه الله تعالى بالذل والهوان في الدنيا والآخرة[4].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على التأدب مع الله تعالى وعدم الجزم بأمور اختص الله تعالى بها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان...".

(وقوله: فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك) دليل على صحة مذهب أهل السنة: أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وهو موجب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن

---

(١) المفهم ٦/٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٧٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٢٠، وابن ماجه ٤١٧٥ واللفظ له، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٦٦).

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٢٥٣.

يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]. وأن لله تعالى أن يفعل في عبيده ما يريد من المغفرة والإحباط؛ إذ هو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء[2].

فالغفران وعدمه لله تعالى لا يشاركه فيه أحد، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[4].

قال ابن كثير: أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[5]،[6].

فينبغي على المسلم التأدب مع الله تعالى وعدم جزمه بأمور اختص الله بها.

ثالثًا - من أهداف الدعوة: بيان سعة رحمة الله ومغفرته:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فقال الله عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ".

فالرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق، صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع علمه المحيط بكل شيء، أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة، ولذلك كان من صلاة الملائكة له[7]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[8].

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) المفهم ٦/٦٠٨.

(٣) سورة الفتح، آية: ١٤.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٢١.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٦٩٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٣٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦/٢٧٠-٢٧١.

(٧) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢٠٣.

(٨) سورة غافر، آية: ٧.

فالله واسع المغفرة، رحيم بعباده، يغفر للمذنب، ويتجاوز عن المخطئ، رحمة ومغفرة منه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الاغترار بالعمل:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك"، قال ابن القيم: إعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل، يبتغي به مرضاة الله، مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي مَنَّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته، ونظر قلبه، لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه، وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه وإعانته. فإذا غاب عن تلك الملاحظة، وثبت النفس، وقامت في مقام الدعوى، فوقع العجب مفسد عليه القول والعمل، ... فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس... فمن رأى نفسه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة. فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدًا فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذا لم يوفه حقه.

والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه، ناظرًا فيه إلى نفسه، يمن به على ربه راضيًا بعمله[2].

فالغرور هو أن يحتقر المرء كل من عداه، وأن يتطاول إلى ما ليس في قدرته، وأن يتدخل فيما ليس من شأنه، وأن يحكم على ما لم يُحط به علمه.

حتى أن المغرور ليترفع عن الإصغاء إلى نصيحة، أو الاستماع لرأي، أو الخضوع لكبير، أو الإجلال لعالم.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) انظر: الفوائد، ابن قيم الجوزيه، ٢٢٢-٢٢٣.

وهذا المرض تبتلى به الأمم الضعيفة، المنتقلة من طور الخمول إلى دور اليقظة، أو المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا اليوم، وحسبك أن تستمتع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة؛ لترى كيف يحمل كثير منهم مبضع الطبيب، يجرح به هذا، ويقطع به ذلك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء، ونظره فوق الأنظار، وعلمه فوق كل علم.

وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحماقة، وأهل العلم بالجهالة ونحو ذلك..

وحين تبتلى الأمة بهذه البلية فإنها تستعصى على نصح الناصحين، وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين، وتتراكم عليها المصائب، وهي تظن أنها أقوى من جميع أعدائها، تهزمهم بصرخة، وتردهم بإشارة، وتدفعهم عنها بالضجة، والثرثرة[1].

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ٢٥٤، ٢٥٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخُلُقية:

إن التربية الخُلُقية تعد من أهم ما عُني به الإسلام في عملية تربية النشء المسلم على عدم التهكم والازدراء والسخرية والاحتقار للآخرين، لما في ذلك من تمزيق لأواصر الأخوة الإسلامية، والتي أوجب الإسلام مراعاتها وحفظها في كل زمان ومكان.

حيث إن احتقار الآخرين داء خبيث، ينشأ عن جهالة سادرة، وغفلة شائنة؛ لذا أشار النبي ﷺ في حديث الباب إلى كون ذلك شرا ما بعده شر[1]، وذلك في قوله: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»، بل إن لم يسارع المسلم إلى تطهير نفسه من ذلك، حال بينه وبين رضوان ربه عز وجل، فلا يدخل الجنة[2]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»...إلخ. فاحتقار الناس ضرب من الكبر، والكبر مهما قل مقداره يحرم صاحبه من دخول الجنة، ونيل ثواب الله عز وجل[3]؛ لذا كان من أهداف التربية الخلقية احترام الغير، وعدم تحقيرهم، لتأكيد وحدة الجماعة ونشر المودة بينها، والقضاء على أسباب الفرقة والعداوة، فلا استهزاء بأي فرد من الناس ذكرًا كان أم أنثى ولا تحقير له بالقول أو الإشارة باليد أو اللسان أو نحو ذلك لمجرد رؤيته رث الهيئة فقيرًا أو ذا عاهة، إذ ربما كان المستَهْزَأُ به خيرًا من المستهزئ فيكون هذا قد ظلم نفسه بتحقير من وقره الله، فضلاً عن أن المستَهْزَأُ به لن يرضى عن ذلك بل سوف يحمله الهزء على أن يفتش عن عيوب المستهزئ به ويذيعها، وإن لم يجد فيه ما يعيبه اختلق له معايب ونسبها إليه وألبسها ثوب الصدق فيتناقلها الناس، وفي ذلك ما فيه من الضرر بالمستهزئ نفسه.

فإذا علمنا ذلك كله أدركنا أن السخرية والاحتقار، باب توريث البغضاء في

---

(١) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢٥٨.

(٢) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٥٨.

(٣) المرجع السابق، ٢٥٩.

القلوب، وقطع روابط المودة بين الأفراد[١]؛ لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية الخلقية باحترام الغير، وعدم احتقاره وازدرائه في بناء النشء المسلم.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

بني هذا الأسلوب التربوي الإسلامي على ما فطر الله عليه الإنسان من الرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير[٢]، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من ترهيبه ﷺ من احتقار المسلمين، وذلك في قوله: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، وإخباره ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى في الحديث القدسي قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ».

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية، ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي[٣].



(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٢٣٣، ٢٣٤ باختصار.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق، ٢٣١.

٢٧٤- باب النهي عن إظهار الشماتة بِالمُسْلِم

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾[النور: ١٩].

الحديث رقم (١٥٧٩)

١٥٧٩- وعَن وَاثِلَةَ بن الأسقع ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ**)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

وفي الباب حديث أَبي هريرة السابق في باب التَّجسُّس: ((**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ ...**)).

ترجمة الراوي:

واثلة بن الأسقع: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٤٤).

غريب الألفاظ:

الشماتة: فرح العدو ببلية تنزل بمن يعاديه[2].

ويبتليك: من البلاء المحنة تنزل بالمرء ليختبر بها[3].

الشرح الأدبي

الحديث ينهى عن الشماتة في المسلمين لأنه يعلم المسلم أن يحب لأخيه، ما يحب لنفسه حتى يستكمل إيمانه ولا شك أن من يحب لأخيه ما يحب لنفسه يكره لأخيه ما يكره لنفسه، ولا يشمت فيه وقول الرسول ﷺ (لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ) أسلوب نهي عن إظهار الفرح بمصيبة غيرك لعداوة بينك، وبينه أو غيرها، وهو معنى الشماتة

---

(١) برقم (٢٥٠٦) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال الحافظ العلائي في النقد الصريح (ص: ٤٠): وهو حسنٌ كما قال الترمذي، لكنه غريبٌ، كما ذكر لتفرد القاسم به. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٢٤).

(٢) النهاية في (ش م ت).

(٣) المعجم الوسيط في (ب ل ي).

والتعبير بلفظ أخيك تذكير برابط الرحم التي تستلزم المودة والرحمة والمواساة في المحنة وليس الشماتة لأن بينه، وبين أخيه رحم الإسلام التي يجب أن توصل، وقوله (فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ) فيه عقوبة من جهتين الابتلاء بتلك البلية ثم إظهاره بين الناس وإن ستره على نفسه، والطباق بين يرحمه، ويبتليك يؤكد المعنى ويشير إلى سرعة تبدل الحال بعكسها نكاية في صاحب النفس اللئيمة التي فرحت في مصاب المسلم بدلا من أن تواسيه فاستحق ما حاق به، وفي الحديث سجع بديع يعطيه خفة في السمع، وقبولا في النفس، وثباتا في العقل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الشماتة فيما يصيب الإنسان من أذى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الشماتة على المسلم.

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك ..."

حيث نهى رسول الله ﷺ المسلم عن الشماتة في أخيه المسلم. وأسلوب النهى من أساليب الدعوة التي تستخدم في النهي عن الأشياء التي تخالف أحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه، وهو أسلوب يكون تأثيره في نفوس المدعوين قويًا حيث يشعرهم بأهمية اجتناب ما نهوا عنه.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: اجتناب الشماتة فيما يصيب الإنسان من أذى:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك". فنهى رسول الله ﷺ عن إظهار الشماتة بالفرح فيما يصيب المسلم من مصيبة، وذلك لأن المسلمين إخوة، فلا يصح أن يفرح المسلم في مصيبة أخيه المسلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1]، قال السعدي: هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أى

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم[1]، ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا، بالأخوة الإيمانية "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره)[2].

وقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوًا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[3]. وقال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[4].

فالأخوة الإيمانية، والتراحم والتعاطف بين المسلمين، وإحساس بعضهم ببعض، وحبهم الخير لإخوانهم، يتنافى مع إظهار الشماتة والفرح في بلية أو مصيبة المسلم، فلذلك ينبغي على المسلم اجتناب الشماتة في أخيه المسلم.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: خطر الشماتة على المسلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك".

قال المباركفوري: (قوله: "لا تظهر الشماتة لأخيك"، الشماتة: الفرح ببلية من يعاديك أو من تعاديه (فيرحمه الله)، أي: فإنك إن فعلت ذلك يرحمه الله رغمًا لأنفك)[5].

ولخطورة الشماتة ثبت عن رسول الله ﷺ، أمره بالاستعاذة منها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماتة الأعداء"[6].

وكذلك استعاذ بالله منها ﷺ فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٧٤٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٥) تحفة الأحوذي ٢/١٩٤٢.

(٦) أخرجه البخاري ٦٦١٦، ومسلم ٢٧٠٧.

كان يدعو: «اللَّهُمَّ احفَظْنِي بالإسْلاَمِ قَائِمًا واحفَظْنِي بالإسْلاَمِ قَاعِدًا، واحفَظْنِي بالإسْلاَمِ رَاقِدًا، وَلاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَلاَ حَاسِدًا ...»[١]. وقد حكى الله عز وجل عن موسى ﷺ أنه قال: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢].

قال أبو عبدالله القرطبي: (فلا تشمت بي الأعداء)، أي لا تسرهم، والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا. وهي محرمة منهي عنها، وفي الحديث عن النبي ﷺ: "لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك".

وقال الشاعر:

إذا ما الدّهرُ جَرَّ على أُناسٍ كَلاكِلَه أناخَ بآخرينا
فقل للشَّامتين بنَا أفيقوا سَيَلقَى الشامتون كما لَقِينا) [٣]

وقيل لأيوب ﷺ أي شيء من بلائك كان أشد عليك؟ قال: شماتة الأعداء.

وقال عبدالله بن أبي عتبة:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى فتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الأعَداء

وقال ابن سيرين: عيرتُ رجلاً بالإفلاس فأفلست.

وقال آخر: عبتُ شخصًا قد ذهب بعض أسنانه، فذهبت أسناني، ونظرت إلى امرأة لا تحل لي، فنظر زوجتي من لا أريد[٤].

فالشماتة من الأشياء التي تسبب الكراهية بين المسلمين، وعدم محبة الخير لبعضهم البعض، فهي من الأشياء الخطيرة على المسلم، وعلى المجتمع الإسلامي.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٢٥/١، رقم ١٩٦٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن مج ٢٩١/٧/٤.

(٤) الآداب الشرعية، ابن مفلح، ٣٣٩/١، ٤٤٠، ٤٤١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب:

إن الترهيب هو العنصر التربوي الذي يمثل القوة الصَّادَّة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهي عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقًا حذرًا[1].

وهذا ما ظهر جليًا في نص حديث الباب من ترهيبه ﷺ من إظهار الشماتة بالمسلم، وذلك في قوله: «لا تُظْهِرْ الشَّماتَةَ لأَخيكَ فَيَرْحَمَهُ الله وَيَبْتَليكَ».

فالرسول ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، وكان الترهيب من أهم الأساليب التربوية التي استعملها النبي ﷺ - كما في حديث الباب - في تصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصرين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين ووضعهم على جادة الصواب[2]، لذا وجب مراعاة التربية بالترهيب عند النهي عن كل ما يخالف الشرع.

ثانيًا: التربية على غرس خلق الأخوة الإسلامية:

هذا ما ترائى جليًا من حديث الباب، حيث النهي عن إظهار الشماتة بالمسلم، وإعلان الأخوة الإسلامية في أبهى معانيها، وأجمل صورها.

فمن حق المسلم على أخيه أن يكره مضرته، وأن يتبادر إلى دفعها، فإن مَسَّهُ ما يتأذى به شاركه الألم، وأحس معه بالحزن، أما أن يكون ميت العاطفة قليل الاكتراث، لأن المصيبة وقعت بعيدًا عنه فالأمر لا يعنيه. فهذا تصرف لئيم، وهو مبتوت

---

(١) أساليب الدعوة الإسلامية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٥١.

الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التي تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل الرجل يتأوه للألم ينزل بأخيه. مصداق قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»(1)(2).

وحدثوا أن جيشًا من المسلمين كان بينه وبين عدوه نهر فأمرهم القائد أن يخوضوه، ولبوا الأمر، وخاضوا النهر، والعدو يشهدهم من بعيد دهشًا مرتاعًا... وفي وسط النهر شهدهم العدو يغوصون في جوف الماء مرة واحدة كأنما غرقوا، ثم ظهروا فجأة... فسأل العدو ما شأنهم؟ فعرفوا أن رجلاً منهم سقط منه قَعْبُه -إناؤه- فصاح، قعبي.. قعبي... فغاصوا جميعًا يبحثون عن قعب أخيهم... فقال الأعداء في ذهول: إذا كانوا يصنعون مثل هذا في قعب سقط من أحدهم، فماذا يصنعون بنا إذا قتلنا بعضًا منهم؟؟ وفت ذلك في عضدهم، وكانت العاقبة التسليم للمؤمنين(3)، فبذلك تتربى الناشئة على خلق الأخوة الإسلامية، والذي يبني لأمة الإسلام عزها ومجدها.



---

(1) أخرجه البخاري، ٦١٢٢.

(2) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ١٦٦ بتصرف.

(3) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ٢٣١.

٢٧٥- باب تحريم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا ﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٨٠)

١٥٨٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بهم كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النِّياحة: البكاءُ على الميت بجزعٍ وعويل[2].

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من بعض أعمال الجاهلية التي تدخل الإنسان بابا من الكفر، والحديث يقوم على أسلوب التوشيع وهو ذكر مثنى ثم تفصيله، وهو أسلوب يحقق التوكيد، و يحقق التشويق، وقوله (اثنتان) مثنى مبهم وصفه بجملة لم تزل إبهامه بل زادت الترقب لمعرفة هاتين الصفتين وقوله :(فِي النَّاسِ) يصعِّد الشوق لمعرفتهما لأن كل مخاطب يخاف أن يكونا فيه أو إحداهما وقوله (هُمَا بهم كُفْرٌ)، وقيل المراد بالكفر وجهان : أحدهما أن يكون كفر النعمة فإن من طعن في نسب غيره فقد كفر بنعمة الله عليه بسلامته من ذلك الطعن ومن ناح على ميت فقد كفر نعمة الله عليه إذ لم يكن هو الميت والثاني أن يكون المعنى أنهما من أفعال الكفار لا من خلال المسلمين.

---

(١) برقم (١٢١/٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٦).

(٢) الوسيط في (ن و ح).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: شناعة الطعن في النسب والنياحة على الميت.

ثانيًا: من آداب المدعو: التأدب بآداب الإسلام وعدم الطعن في النسب والنياحة على الميت.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: شناعة الطعن في النسب والنياحة على الميت:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

قال القاضي عياض: وقوله: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت": أي من أعمال أهل الكفر وعادتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان محرمتان في الشرع، وقد كان النبي ﷺ يأخذ على النساء في بيعتهن ألا ينحن، وقال: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"[(١)]، وكذلك نهى النبي ﷺ عن السخرية واللمز والنبز بالغيبة والقذف، وكل هذا من أعمال الجاهلية، وقال النبي ﷺ: "إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[(٢)] الجاهلية..."[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[(٤)]، فعرف نعمته بالأنساب للتعارف والتواصل، فمن تسور على قطعها والغمض فيها، فقد كفر نعمة ربه وخالف مراده، وكذلك أمر تعالى بالصبر، وأثنى على الصابرين، ووعدهم رحمته وصلاته، ووصفهم بهدايته، وحتم الموت على عباده، فمن أبدى السخط والكراهة لقضاء ربه، وفعل ما نهاه عنه، فقد كفر نعمته فيما أعد للصابرين من ثوابه، وتشبه بمن كفر من الجاهلية[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

(٢) العُبِّيَّةُ: الكبر والفخر. انظر: المعجم الوسيط مادة: عَبَّ.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٩٥٥، ٣٩٥٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣١٠٠، ٣١٠١).

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/٣٢٦.

وقال القرطبي: (وقوله: "اثنتان في الناس هما بهم كفر" أي: من خصال أهل الكفر كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الطَّعْنُ فِي الأَحْسَابِ، وَالْفَخْرُ بالأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[(١)(٢)].

قال النووي: "وفيه أقوال، أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. والثاني: أنه يؤدي إلى الكفر. والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان. والرابع: أن ذلك في المستحل. وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة، وجاء في كل منهما نصوص معروفة"[(٣)]. منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[(٤)].

قال ابن عاشور: "ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة. منها خلةٌ من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب الناس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهن، ويليطون[(٥)] بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانًا، أو سوءَ ظن إذا رأوا بعدًا في الشبه بين الابن وأبيه، أو رأوا شَبَهه برجل آخر من الحي، أو رأوا لونًا مخالفًا للون الأب أو الأم، تخرصًا وجهلاً بأسباب التشكل، فإن النسل ينزع في الشبه وفي اللون إلى أصول من سلسلة الآباء أو الأمهات الأدنَيْن أو الأبعدين، وجهلا بالشبه الناشئ عن الرحم. وقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت ولدًا أسودَ (يريد أن ينتفي منه) فقال له النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانهن؟ قال: حمر. قال: وهل فيها من جمل أورق؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعله عِرقٌ نزَعَه. فقال النبي ﷺ فلعل ابنك نزعه عِرق»[(٦)]، فنهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعًا في مجتمعات الجاهلية فنهى الله

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣٤.

(٢) المفهم ١/٢٥٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٣٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٥) يليطون: أي يلصقون ويلحقون. انظر: المعجم الوسيط، مادة: لاط.

(٦) أخرجه البخاري ٥٣٠٥، ومسلم ١٥٠٠.

المسلمين عن ذلك"[١].

ومما يدل على شناعة الطعن في الأنساب توعد الله بالويل للطاعنين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢]، قال القاسمي: "أي: لكل من يطعن في أعراض الناس ويغتابهم"[٣].

وما يدل على شناعة النياحة على الميت، قوله ﷺ: "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه"[٤]. فالنياحة من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة، لأنها تسخط بقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب[٥].

ثانيًا - من آداب المدعو: التأدب بآداب الإسلام وعدم الطعن في النسب والنياحة على الميت:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث قال ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ». فهذان الفعلان من أفعال أهل الكفر وأهل الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، ومن أجل ذلك ينبغي على المسلم أن يتأدب بآداب الإسلام، فإذا أصابته مصيبة من موت عزيز عليه صبر وطلب الخلف والصبر من الله، فيكون له الثواب، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٦].

وقال ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له"[٧].

فليس من أخلاق الإسلام النياحة على الميت والطعن في الأنساب، قال ﷺ: «لَيْسَ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور مج ٦/١٥/١٠٠.

(٢) سورة الهمزة، آية: ١.

(٣) محاسن التأويل مج ١٠/١٧/٢٥٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٢، ومسلم ٩٢٧.

(٥) انظر: فتح المجيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٢٨٢؟.

(٦) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٧) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

الْمُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ»[١].

فينبغي على المدعو التأدب بآداب الإسلام، والبعد عن النياحة على الميت والطعن في أنساب الناس.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

حيث رهّب رسول الله ﷺ من الطعن في النسب والنياحة، لأنهما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة الفعالة، لأن فيه تخويفًا يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده المولى عز وجل من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٢) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري، ٥١٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب والعقاب:

إن أسلوب التربية بالترهيب والعقاب من أهم الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في كل زمان ومكان، حيث لا تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف المتربي أن هناك نتائج مؤلمة، وراء ما صدر منه من عمل معيب، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك المعيب، والتربية الإسلامية تستخدم هذا الأسلوب التربوي، والأمثلة على ذلك يصعب حصرها[1]، وكان منها ما ترائى في حديث الباب من ترهيبه ﷺ من الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع، وذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وعلى المربي أن يستخدم التربية الإسلامية بالترهيب والعقوبة، إذا لم يفلح الترغيب والثواب. "وحين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة"، ولا غير ذلك من أساليب تربوية..... ساعتها، لابد إذًا من علاج حاسم يضع الأمور في مسارها الصحيح... والعلاج الحاسم هو العقوبة.

وحين استخدم الترهيب والعقوبة، فإنما يستخدمان بدرجات متفاوتة، لدرجات من الناس. فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة، فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه، ويعدل بما هو مُقَدِمٌ عليه من انحراف. ومنهم لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح، ومنهم ما يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ. ومنهم من لابد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه. ومنهم بعد ذلك فريق لابد أن يحس لذع العقوبة على جسمه لكي يستقيم[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٧، ونحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر، ٩٢، تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد، ١٢٧.

ثانيًا: التربية الاجتماعية:

إن من أهداف التربية الاجتماعية الواجب غرسها في نفوس النشء المسلم، الحفاظ على روابط المجتمع المسلم من أي توهين أو تفكيك؛ لذا وجب عدم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع؛ لما في ذلك من إضعاف للأسرة التي هي نواة المجتمع الإسلامي، وبالتالي تفكيك لروابط المجتمع الإسلامي، وليس هناك أمر أصعب على الأمم التي انتشرت فيها الإباحة، من أمر الشك في الأنساب، أو قبولها للطعن.

وليس أقسى على الإنسان، من أن يُطعن في نسبه، بأي طريق من الطرق، سواء وقع الطعن عليه هو، أم على أجداده وآبائه، أم على أولاده. فهذا إيذاء يندرج تحت إيذاء المسلم بصفة عامة[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[2].

لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه التحذير من الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع لما في ذلك من هدم للأمة، وتفريق لوحدتها وقضاء على ثوابتها الأسرية.

ثالثًا: التربية على آداب الحزن في الإسلام:

يجب على المتربين والمتعلمين أن يعلموا أن الأمة العظيمة تكون قوية في أفراحها، قوية في أحزانها، لا تضعفها المصائب، ولا تزعزعها النوائب كالجبال الراسيات لا تنال منها الأحداث إلا بمثل ما تنال من الجبال الرياحُ الشديدةُ.

لهذا كله رسم لنا الإسلام منهجًا تربويًا في النوازل ينبغي أن نتبع خطاه ولا نبتعد عنه قيد شعرة إذا كنا من ذوي الإيمان الصحيح والعزيمة القوية.

ولما كانت غالبية الناس تنسى نفسها عند المصائب وتخرج عن طورها في النائبات حتى تقع في شر عملها، وتضاعف من مصيبتها وتظهر بمظهر القلق المضطرب والنائح

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٨٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

الصارخ، جاءت السنة النبوية تربي أبناءها وجيل أمتها على التزام آداب الحزن ومنع ما استحكم من عادات جاهلية، والتي من أبرزها، النياحة على الميت[١]، لذا منعها الإسلام -كمنهج تربوي- وبين أنها من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية، وذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ» ثم ذكر ﷺ من ذلك: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه بيان أن النياحة على الموتى من التقاليد التي حاربها الإسلام، لما تحوي بين طياتها مظاهر من الغلو في إظهار الحزن والجزع[٢]، والذي بدوره يؤدي إلى إظهار رفض ما قدره الله على العباد من ابتلاءات، وفي ذلك هلاك الإيمان وضياع الصبر اللذان يعينان المتربي على مواجهة مشكلات الحياة وتقلبات الزمان.



(١) نحو أسرة مسلمة، محمد مهدي الاستانبولي، ١٢٠ بتصرف يسير.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٩٩٠ بتصرف.

٢٧٦- باب النهي عن الغش والخداع

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٨١)

١٥٨١- وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**)). رواه مسلم[1].

وفي رواية لَهُ[2]: أنَّ رسول الله ﷺ، مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأدْخَلَ يَدَهُ فيهَا فَنَالَتْ أصابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: ((**مَا هذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**)) قَالَ: أصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رسول الله. قَالَ: ((**أفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوقَ الطَّعَامِ حَتَّى يرَاهُ النَّاسُ! مَنْ غشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**[3])).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصُّبْرَةَ: الكُومة المجتمعة من الطعام (البُرّ)[4].

أصابته السماء: أي المطر، وسمي المطر سماءً لأنه ينزل من السماء[5].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يعلق الخروج عن الأمة المحمدية على حمل السلاح ضد المسلمين، وقوله (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ) كناية عن قتال المسلمين، وقوله (فَلَيْسَ مِنَّا " قَدْ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ: الْخُرُوجَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ إذَا حَمَلَ " عَلَيْنَا " عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ: كَانَ

---

(١) برقم (١٠١/١٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٢٥).

(٢) برقم (١٠٢/١٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٢٦).

(٣) لفظ مسلم: (منّي) والمثبت لفظ الترمذي (١٣١٥)، تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه.

(٤) النهاية في (ص ب ر).

(٥) النهاية في (ص و ب).

قَوْلُهُ "فَلَيْسَ مِنَّا" كَذَلِكَ، وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ هَذَا فَاحْتَاجُوا إِلَى تَأْوِيلِهِ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ((مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))، وَقِيلَ فِيهِ : لَيْسَ مِثْلَنَا، أَوْ لَيْسَ عَلَى طَرِيقَتِنَا، أَوْ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ، وفي الرواية الثانية جاء استفهام الرسول ﷺ (ما هذا يا صاحب الطعام؟) إنكارا وتوبيخا لتكاسل الرجل واستهانته بإظهار العيب الذي لحق بطعامه ظنا منه أنه شيء بسيط، لكن الرسول ﷺ كعادته في علاج أمته يقف بكل حسم أمام الخطأ مهما كانت بساطته حتى لا يكبر ويتفشى ويصير وباء، وهو بذلك يؤسس مبدأً عظيماً من مبادئ الإسلام، وهو الأمانة التي يجب أن يتعامل على أساسها كل مسلم فضلا عن كل مؤمن، ولذلك جاءت جملة الختام لافتة مدوية (من غشنا فليس منا) تصعيداً للإنكار وترهيباً وتهديداً بخروج الغاش من ربقة الإسلام ورفقة المؤمنين.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم الغش: أجمع الفقهاء على تحريم الغش شرعًا، وأن فاعله مذموم عقلاً، لما فيه من الإضرار بالغير[١].

٢-حكم حمل السلاح على المسلمين: مذهب أهل السنة والفقهاء أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاصٍ ولا يكفر بذلك، فإن استحله كفر[٢].

وقال الصنعاني: (والحديث دليل على تحريم قتال المسلم والتشديد فيه، وأما قتال البغاة من أهل الإسلام فإنه خارج من عموم هذا الحديث بدليل خاص)[٣].

---

(١) التاج الإكليل ٣٤٤/٤، وتكملة المجموع للسبكي ٣١/١٢، سبل السلام ٩٦٨، نيل الأوطار ١٠٢٠، الموسوعة الفقهية ٢١٩/٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠٨/٢.

(٣) سبل السلام ٧٦، وانظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٨٣ - ٣٨٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة حمل السلاح على المسلم والغش.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من واجبات الداعية: إنكار المنكر.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث: "من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا"، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة النافعة في الدعوة إلى الله، حيث يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ويبين له مدى ارتباط الشرط بالجواب، فالجزاء من جنس العمل، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَٰخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حرمة حمل السلاح على المسلم والغش:

يتضح هذا من الحديث: "من غشنا فليس منا"، وقوله: "من حمل علينا السلاح فليس منا"، وهذا يدل على حرمة حمل السلاح على المسلمين، والغش لهم، قال ابن حجر: "والمراد من حمل السلاح عليهم لقتالهم لما فيه من إدخال الرعب عليهم، لا من حمله لحراستهم مثلاً، فإنه يحمله لهم لا عليهم، وقوله: "فليس منا"، أى على طريقتنا، وأطلق اللفظ مع احتمال إرادة أنه ليس على الملة، للمبالغة في الزجر والتخويف"[3].

قال المازري: "لا حجة فيه لمن يقول: إن العاصي خرج من الإيمان، لأنه يحتمل أن يكون أراد من فعل ذلك مستحلاً له، أو ليس منا بمعنى ليس بمتبع هدينا ولا سنتنا،

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٣) فتح الباري ١٢/٢٠٥.

كما يقول القائل لولده: لست مني إذا سلك غير أسلوبه"[١].

وقال القرطبي: "وقوله "من حمل علينا السلاح فليس منا" أي: من حمل علينا السلاح مقاتلاً كما في الرواية الأخرى: "من سلّ علينا السيف فليس منا"[٢]، ويعني بذلك النبي ﷺ نفسه وغيره من المسلمين، ولاشك في كفر من حارب النبي ﷺ وعلى هذا فيكون قوله عليه الصلاة والسلام "فليس منا" أي: ليس بمسلم بل هو كافر، وأما من حارب غيره من المسلمين متعمدًا مستحلاً من غير تأويل فهو أيضًا كافر كالأول، وأما من لم يكن كذلك، فهو صاحب كبيرة إن لم يكن متأولاً تأويلاً مسوّغًا.

ومذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من المسلمين بارتكاب كبيرة ما عدا الشرك، وعلى هذا فيحمل قوله عليه الصلاة والسلام "ليس منا" في حق مثل هذا على معنى: ليس على طريقتنا ولا على شريعتنا، إذ سنة المسلمين وشريعتهم التواصل والتراحم لا التقاطع والتقاتل، ويجرى هذا مجرى قوله عليه الصلاة والسلام "من غشنا فليس منا"، ونظائره، وتكون فائدته الردع والزجر عن الوقوع في مثل ذلك[٣].

وقال النووي: ومذهب أهل السنة والفقهاء هو أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاص ولا يكفر، فإن استحله كفر. فأما تأويل الحديث فقيل: هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة. وقيل: معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يكره قول من يفسره بليس على هدينا ويقول: بئس هذا القول، يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر[٤].

وقال د. الحسيني هاشم: وحَمْل السلاح: كناية عن البغي والخروج عن جماعة المسلمين، ومعنى غشنا: أخفى الباطل بالحق، وفي الحديث التحذير من البغي والظلم

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٩٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٥٨.

باستعمال القوة، وغش المسلمين والتحايل عليهم بغير حق[١].

وأما في التحذير من الغش كما جاء في الحديث فقد قال ابن علان: (ومن الغش خلط الجيد بالرديء ومزج اللبن بالماء، وترويج النقد الزغل، وقوله: "فليس منا" أي: ليس على هدينا ومن أهل طريقتنا، وفي الحديث ما يوجه إلى السلامة من الغش الذي هو أقبح الأوصاف القاطعة لرحم الإسلام الموجبة، لكون المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومن قطع رحم الإسلام خشي عليه الخروج من عدادهم، كما ينشأ عن ذلك ما هو مقرر في شرعنا. والمراد بالغش هنا كتم عيب المبيع أو الثمن، والمراد بعيبه هنا، كل وصف يعلم من حال آخذه أنه لو اطلع عليه لم يأخذه بذلك الثمن الذي يريد بدله فيه)[٢].

وقال السعدي: "إن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٣]. فرتب على التقوى التي أساسها الصدق وأداء الأمانة في المعاملة التيسير والخروج من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما))[٤].

وإنما كان الصدق والبيان، وأداء الأمانة في جميع المعاملات سببًا للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين.

أحدهما: وعد الله ووعد رسوله والله لا يخلف الميعاد، أن من سلك الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه مالا يناله الناس بسعيهم وجدهم وحذقهم، وهذا أمر رباني وجزاء إلهي مشاهد معلوم بالتجربة.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٤٢.

(٢) دليل الفالحين ١٦٣٣.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٧٩، ومسلم ١٥٣٢.

والثاني: أن من عامل الناس وعرفوا منه الصدق والنصح اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه، لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أسست المعاملات النزيهة الطيبة، وبذلك مشت أسبابه مع الناس.

وكذلك عقد الشركات بين الشركاء، إذا بنيت على الصدق والأمانة، أفادت أهلها خيرًا كثيرًا، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال، مع ما يقترن بذلك من التعاون البدني والسعي المشترك من المنافع، ودفع ما يخشى ضرره، كل هذه الأمور أسباب ومفاتيح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب، وعدم النصح، وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة؛ وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب[1].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "ما هذا ياصاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفيد المدعو، حتى ينتج حوارًا بينه وبين الداعية، ويلفت انتباه المدعو، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [2]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [3].

رابعًا - من واجبات الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها"،

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، ص٢١٦، ٢١٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

وقوله "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس"، وإنكار المنكر من أهم واجبات الداعية قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١]، وذم الله بني إسرائيل لتركهم المنكر، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٢]، "وعلى الداعية عند إنكار المنكر، أن ينهي المدعو بالحكمة، ويعرفه أن ما هو عليه قولاً أو فعلاً منكر لا تقبله الشريعة، وأن يوضح للمدعو الأجر المترتب على ترك المنكر وأنه أجر عظيم، وأن يحذر المدعو من العقاب الأليم إذا استمر في منكره"[٣].

قال د. عبدالكريم زيدان: "وإزالة المنكر قولاً وفعلاً، إزالة لما يمنع الخير أو الحق، فإن المنكر في الأرض يدفع من الحق بقدره أو أكثر، فكان زواله أو إزالته تيسيرًا لتحقيق الحق والخير بين الناس. ولابد من الفقه والعلم بما يراد إزالته من المنكر، وكذلك الرفق في إزالته، وتجب ملاحظة المصالح والمفاسد، وتزاحمهما قبل الإقدام على إزالة منكر بعينه، ليعرف الداعي ما يترتب عليه من أضرار أو منافع"[٤].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨-٧٩.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٦٩.

(٤) أصول الدعوة ٤٨٢، ٤٨٣.

الحديث رقم (١٥٨٢)

١٥٨٢- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((لاَ تَنَاجَشُوا)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا تناجشوا: من النجش، وهو الزيادة في ثمن السلعة ولا يريد شراءها، ولكن ليغرّر بغيره ليشتريها بالثمن المرتفع[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث وسابقه يدور حول النهي عن النجش وقد ورد في الحديث الأول بنهي مباشر في أسلوب إنشائي في قوله: (ولا تناجشوا)، وفي الحديث الثاني جاء بأسلوب الخبر المنقول عن الرسول ﷺ (نهى رسول الله ﷺ عن النجش)، والتناجش: هو تفاعل من النجش قال أبو عبيدة: هو أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيره فيزيد، والنجش في الحديث إذاعته، واستخراج الشيء والبحث عنه[٣]. وعلى ذلك فنهى الرسول ﷺ عن التناجش من باب تطهير المجتمع من كل ما من شأنه أن يحدث الشقاق والخصام المؤدى إلى القطيعة؛ لأن النجش بهذه المعانى لا يخلو من الخداع والمخاتلة، التي توغل الصدور وتنمى الكراهية بين المتناجشين، ومن ثم ورد نهي الرسول ﷺ عن هذا الفعل نهياً صريحاً مباشراً، واتصال الفعل المنهي عنه بواو الجماعة يفيد العموم دلالة على خطره و(التناجش) من أفعال الجوارح، والرسول ﷺ بهذا النهي ينقى المجتمع المسلم من تبعات الخديعة إذا فسرنا التناجش بمعنى أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها خداعاً لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٣/٥٢)، وهو جزء من حديث تقدم برقم ٢٣٥.

(٢) معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

(٣) لسان العرب، لابن منظور ٤٣٥٣/٦، مادة "نجش".

فقه الحديث

١- حكم النجش: لا خلاف بين الفقهاء في أن النجش حرام[1] إذا ترتب على حصوله زيادة أو نقص في ثمن السلعة عن قيمتها، وأن الناجش عاصٍ بفعله إذا قام به من تلقاء نفسه، أما إذا كان النجش باتفاقٍ بينه وبين أحد المتعاقدين، فإن الإثم يكون مشتركًا بينهما ولا يختص به الناجش وحده[2].

٢- أثر النجش على العقد من حيث الصحة والفساد: ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والمالكية في المشهور، والشافعية، والحنابلة في المذهب إلى القول بأن العقد مع النجش صحيح يثبت به الملك ويجب به الثمن[3]. واستدلوا على ذلك بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[4]. فهي تدل على مشروعية البيع بكل صوره، ولأن النهي عن النجش يعود إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقدين، وهو خارج عن العقد فلم يؤثر في صحة العقد قياسًا على البيع وقت النداء[5].

وذهب بعض المالكية والحنابلة في رواية وطائفة من أهل الحديث وبه قال عمر بن عبدالعزيز، إلى القول بأن العقد مع النجش باطل ولا يفيد الملك بل يجب فسخه[6]. واستدلوا بأن بالنهي الوارد في أحاديث الباب يقتضي فساد العقد[7].

---

(١) بدائع الصنائع ٢٣٣/٥، وتبيين الحقائق ٦٧/٤، والمعونة على مذهب عالم المدينة ٥٨/٢، وبلغة السالك ٣٤/٢، والحاوي الكبير ٣٤٣/٥، وروضة الطالبين ٤١٤/٣، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤، والعدة في شرح العمدة ٢١٥.

(٢) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ١٠٩/٤، و الأم ٩١/٣، وفتح الباري ٤٣٤/٤، وسبل السلام ٢٨/٣، ونيل الأوطار ١٦٦/٥.

(٣) بدائع الصنائع ٢٣٢/٥، بداية المجتهد ١٣٤/٢، الحاوي الكبير ٣٤٣/٥، المبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٥) العناية على شرح الهداية ١٠٨/٥، والمهذب ٢٩١/١، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٦) المعونة ٥٨/٢، والمبدع في شرح المقنع ٨٠/٤، وتكملة المجموع ٨٧/١٢، وفتح الباري ٤٣٥/٤، وسبل السلام ٢٨/٣، ونيل الأوطار ١٦٦/٥.

(٧) المعونة ٥٨/٢، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٨٠/٤.

ويناقش هذا: بأن النهي في الأحاديث لا يقتضي فساد العقد قياسًا على البيع وقت النداء[1]، كما أن النهي في الحديث عائد إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقد، والناجش خارج عن العقد فلم يؤثر في صحته[2].

وذهب الحنابلة في رواية إلى القول ببطلان العقد إذا كان النجش بمواطأة البائع[3]. واستدلوا على ذلك بأن البائع أحد ركني العقد، فارتكابه النهي يفسد البيع بخلاف الأجنبي[4].

ويناقش هذا: بأن النهي عن النجش يعود إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقدين، وهو خارج عن العقد فلم يؤثر في صحة العقد قياسًا على البيع وقت النداء[5].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

٣-أثر النجش على العقد من حيث اللزوم وعدمه: ذهب الحنفية، والشافعية في الأصح، والحنابلة في رواية إلى القول بلزوم العقد وعدم ثبوت الخيار للمشتري[6]. واستدلوا على ذلك بأن المشتري قد فرط في ترك التأمل حيث اشترى ما لا يعرف قيمته، ولم يرجع في ذلك إلى أهل الخبرة ممن يعرفون ثمن المبيع، فصح العقد منه ولزم[7].

ويمكن أن يناقش هذا: بأن المشتري قد لا يستطيع الرجوع إلى أهل الخبرة إما لعدم توافر الوقت لديه أو لعدم معرفته بهم، أو لعدم تواجدهم في السوق حال إبرام العقد، كما أنه قد يكون تعاقد بناءً على تغرير الناجش فهو إذن غير مفرط، وفي ثبوت الخيار له مندوحة لدفع الضرر الواقع عليه دون إضرار بالبائع.

---

(١) المهذب للشيرازي ٢٩١/١.

(٢) العناية شرح الهداية ١٠٨/٥، المهذب ٢٩١/١، الأم ٩١/٣، المغني ٢٧٨/٤، المبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٣) المبدع في شرح المقنع ٨٠/٤، شرح الزركشي على مختصر الخرقي ٦٤٣/٣.

(٤) المبدع في شرح المقنع ٨٠/٤.

(٥) العناية على الهداية ١٠٨/٥، والمهذب ٢٩١/١، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٦) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١٠٠/٣، ١٠١، وحاشية الشلبي ٦٩/٤، ومغني المحتاج ٣٧/٢، روضة الطالبين ٤١٤/٣، والمبدع في شرح المقنع ٧٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٠/٣.

(٧) المهذب ٢٩١/١، ومغني المحتاج ٣٧/٢، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

وذهب المالكية، والشافعية في مقابل الأصح، والحنابلة في المذهب إلى القول بعدم لزوم العقد وثبوت الخيار للمشتري[1]. واستدلوا على ذلك بأن الناجش دلس على العاقد فثبت له الخيار، كما لو دلس عليه بعيب[2].

والراجح هو رأي المالكية ومن معهم، لأن هذا الرأي يتفق مع مبادئ العدالة التي تقضي برفع الظلم عن المظلوم، وذلك بثبوت الخيار للطرف المتضرر.

المضامين الدعوية[3]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النجش.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النجش:

ذلك واضح من الحديثين: قال عبدالله البسام: "النجش معناه: أن يزيد الإنسان في السلعة لا لقصد شرائها، وإنما لقصد الإضرار بالمشتري برفع ثمنها عليه، أو لنفع البائع بزيادة الثمن له، وهو حرام، وإذا تحقق خُيِّر المشتري بين الإمساك ورد البيع، لما ناله من الخديعة والمكر وزيادة الثمن"[4].

قال ابن قدامة: "النجش: أن يزيد في السلعة لا يريد شراءها ليقتدي به المستام، فيظن أنّه لم يزد فيها هذا القدر إلا وهي تساويه، فيغتر بذلك، فهذا حرام وخداع، قال البخاري: الناجش آكل ربا خائن، وهو خداع باطل لا يحلّ ... ولأن في ذلك تغريرًا بالمشتري وخديعة له، وقد قال النبي ﷺ: "الخديعة في النار"[5].

---

(١) مواهب الجليل والتاج والإكليل على هامشه ٤/٣٧٧-٣٧٨، وحاشية الدسوقي ٤/١١٠، ومغني المحتاج ٢/٣٧، وروضة الطالبين ٣/٤١٤، والمبدع في شرح المقنع ٤/٧٨-٧٩، ومطالب أولي النهى ٣/١٠٠.

(٢) بداية المجتهد ٢/١٣٤، والمهذب ١/٢٩١.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥٨٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٨٣).

(٤) توضيح الأحكام ٦/٣٣١ وانظر التعريفات للجرجاني، ص٢٩٥.

(٥) المغنى ٦/٣٠٤-٣٠٥.

وعبارة البخاري في صحيحه أنه بّوب في كتاب البيوع: باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع[١] ثم قال: وقال ابن أبي أوفى: "الناجش آكل ربا خائن" وهو خداع باطل لا يحلّ. قال النبي ﷺ: "الخديعة في النار، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ".

وقال ابن حجر في شرح هذا: "قوله: "باب النجش" بفتح النون وسكون الجيم بعدها معجمة، وهو في اللغة: تنفير الصيد واستثارته من مكانه ليصاد، وفي الشرع: الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. سمى بذلك لأن الناجش يثير الرغبة في السلعة ويقع ذلك بمواطأة البائع فيشتركان في الإثم، ويقع ذلك بغير علم البائع فيختص بذلك الناجش، وقد يختص به البائع، كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها به ليغر غيره بذلك[٢] كما سيأتي من كلام الصحابي في هذا الباب. وقال ابن قتيبة: النجش: الختل والخديعة، ومنه قيل للصائد ناجش لأنه يختل الصيد ويحتال له. قوله: ومن قال: "لا يجوز ذلك البيع" كأنه يشير إلى ما أخرجه عبدالرزاق من طريق عمر بن عبدالعزيز: "إن عاملاً له باع سبيًا فقال له: لولا أني كنت أزيد فأنفقه لكان كاسدًا، فقال له عمر هذا نجش لا يحل، فبعث مناديًا ينادي: إن البيع مردود وإن البيع لا يحل، قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الناجش عاص بفعله... قوله: وقال ابن أوفى: الناجش آكل ربا خائن هذا طرف من حديث أورده المصنف في الشهادات في " باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[٣]".

ثم ساق فيه من طريق السكسكى عن عبدالله بن أبي أوفى قال: أقام رجل سلعته فحلف بالله لقد أعطى فيها ما لم يعط فنزلت. قال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن، أورده من طريق يزيد بن هارون عن السكسكى[٤]. وقد أخرجه ابن أبي شيبة

---

(١) وأخرج تحته الحديث ٢١٤٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن النجش.

(٢) قال ابن قدامة: لو قال: أعطيت بهذه السلعة كذا وكذا، فصدقه المشتري واشتراها بذلك ثم بان كذبه فالبيع صحيح، وللمشتري الخيار أيضًا، لأنه في معنى النجش المغنى ٣٠٥/٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧ .

(٤) أخرجه البخاري ٢٦٧٥، قال حدثني إسحاق أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام قال: حدثني إبراهيم أبو إسماعيل السكسكي.

وسعيد بن منصور عن يزيد مقتصرين على الموقوف، وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن ابن أبي أوفى مرفوعًا لكن قال: "ملعون" بدل خائن أهـ. وأطلق ابن أبي أوفى على من أخبر بأكثر مما اشترى به أنه ناجش، لمشاركته لمن يزيد في السلعة وهو لا يريد أن يشتريها في غرور الغير، فاشتركا في الحكم لذلك وكونه آكل ربا بهذا التفسير، وكذلك يصح على التفسير الأول إن واطأه البائع على ذلك وجعل له عليه جعلاً فيشتركان جميعًا في الخيانة، وقد اتفق أكثر العلماء على تفسير النجش في الشرع بما تقدم، وقيد ابن عبدالبر وابن العربي وابن حزم التحريم بأن تكون الزيادة المذكورة فوق ثمن المثل، قال ابن العربي: فلو أن رجلاً رأى سلعة رجل تباع بدون قيمتها فزاد فيها لتنتهي إلى قيمتها لم يكن ناجشًا عاصيًا بل يؤجر على ذلك بنيته، وقد وافقه على ذلك بعض المتأخرين من الشافعية، وفيه نظر إذ لم تتعين النصيحة في أن يوهم أنه يريد الشراء وليس من غرضه، بل غرضه أن يزيد على من يريد الشراء أكثر مما يريد أن يشتري به، فللذي يريد النصيحة مندوحة عن ذلك، أن يعلم البائع بأن قيمة سلعتك أكثر من ذلك ثم هو باختياره بعد ذلك، ويحتمل أن لا يتعين عليه إعلامه بذلك حتى يسأله للحديث الآتي "دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض، فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه"[1]. والله أعلم قوله: وهو خداع باطل لا يحل، هو من تفقه المصنف، وليس من تتمة كلام ابن أبي أوفى، وقد ذكرنا توجيه ما قاله المصنف قبل. قوله: قال النبي ﷺ: الخديعة في النار، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"، أما الحديث الثاني فسيأتي موصولاً من حديث عائشة في كتاب الصلح[2].

وأما حديث الخديعة في النار، فرويناه في "الكامل لابن عدي" من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المكر والخديعة في النار"

---

(١) أخرجه أحمد ٤١٩/٣، رقم ١٥٤٥٥ من حديث حكيم بن أبي يزيد قال حدثني أبي مرفوعًا: "دعوا الناس يصيب بعضهم من بعض، فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه. وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره أهـ، وانظر تتمة تخريجه في ١٩٣/٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٧٥، ومسلم ١٧١٨ واللفظ لمسلم.

لكنت من أمكر الناس، وإسناده لا بأس به. وأخرجه الطبراني في "الصغير" من حديث ابن مسعود والحاكم في "المستدرك" من حديث أنس وإسحق بن راهويه في مسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناد كل منهما مقال، لكن بمجموعهما يدل على أن للمتن أصلاً، وقد رواه ابن المبارك في "البر والصلة" عن عوف عن الحسن قال: "بلغني رسول الله ﷺ قال: فذكره[1]. قوله "عن النجش" تقدم أن المشهور أنه بفتح الجيم وحكى المطرزي فيه السكون"[2].

ومما هو جدير بالذكر أن مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي قد حرّم النجش وذلك في دورته الثامنة التي عقدت في بروناي دار السلام ١-٧ المحرم ١٤١٤هـ، ٢١-٢٧ يونيو ١٩٩٣م وقد أصدر قرارًا بذلك جاء فيه:

"النجش حرام، ومن صوره:

أ- أن يزيد في ثمن السلعة من لا يريد شراءها ليغري المشتري بالزيادة.

ب- أن يتظاهر من لا يريد الشراء بإعجابه بالسلعة وخبرته بها، ويمدحها ليغرّ المشتري فيرفع ثمنها.

ج- أن يدعي صاحب السلعة أو الوكيل أو السمسار ادعاءً كاذبًا أنه دُفِع فيها ثمن معين ليدلس على من يسوم.

د- ومن الصور الحديثة للنجش المحظورة شرعًا، اعتماد الوسائل السمعية والمرئية والمقروءة، التي تذكر أوصافًا رفيعة لا تمثل الحقيقة، أو ترفع الثمن لتغر المشتري وتحمله على التعاقد"[3].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥٨٤/٤ من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه والحاكم ٦٠٧/٤ من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن حبان ٥٦٧ والطبراني في الكبير ١٠٢٣٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه البزار ١٠٣، كشف الأستار وابن عدي ١٦٣٤/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في المراسيل ١٦٥ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وانظر حاشية المحققين على تفسير القرطبي ٣٩٩/١٧ ط الرسالة.

(٢) فتح الباري ٣٥٥/٤-٣٥٦ ط السلفية.

(٣) نقلًا عن توضيح الأحكام ٤٧٤/٤.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: النهي:

ذلك في قوله ﷺ "لا تناجشوا"، أي لا تفعلوا النجش[1]. كما جاء النهي أيضًا عن طريق إخبار الصحابي عن نهي النبي ﷺ عن ذلك. وجاء النهي عن النجش ليحمي المعاملات بين المدعوين من الغش والخديعة والاحتيال، مما ينتج عنه العداوة والبغضاء وأكل الأموال بالباطل.

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ١١٨/٤٠، ومراجعها ومصادرها.

الحديث رقم (١٥٨٣)

١٥٨٣- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، نَهى عن النَّجْشِ. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

النجش: الزيادة في ثمن السلعة، ولا يريد شراءها ولكن ليغرر الآخرين فيشتروها بسعر مرتفع[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٢)، ومسلم واللفظ له (١٥١٦/١٣).

(٢) معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٨٤)

١٥٨٤- وعنه، قَالَ: ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي البُيُوعِ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ)). متفق عَلَيْهِ[1].

(الخِلاَبَةُ) بخاءٍ معجمةٍ مكسورةٍ وباءٍ موحدة، وهي: الخديعة.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

لا خلابة: لاخداع[2].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ لا يسكت عن خطأ يراه أو يخبر عنه إلا قوَّمه وقصة هذا الرجل الذي يخدع في البيوع من هذه النوعية، وقول الرسول ﷺ (مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ) ومعنى لا خلابة لا خديعة أي لا تحل لك خديعتي أو لا يلزمني خديعتك وهو علامة صفاء تغرس الثقة بين المتبايعين بحيث لا يخدع أحدهما الآخر وتقوم المعاملة بينهما على الصدق فيبارك لهما.

فقه الحديث

١-حكم البيع بشرط الخيار: اتفق الفقهاء على جواز البيع بشرط الخيار[3].

٢-حكم ثبوت الخيار للمغبون: ذهب جمهور الفقهاء، الحنفية، والمالكية في الأصح، والشافعية في الأصح والحنابلة في قول ضعيف إلى القول بعدم ثبوت الخيار

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٧)، ومسلم (١٥٣٣/٤٨) واللفظ له.

(٢) النهاية في (خ ل ب).

(٣) العناية شرح الهداية ٢٩٨/٦، والاختيار ١٤/٢، والمنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، المجموع شرح المهذب ٢٢٤/٧، والمغني ٢٢/٤، والفروع لابن مفلح ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣، وفتح الباري ٤١٤/٤.

للمشتري بالغبن[١]. وقالوا إن الحديث الوارد في الباب خاصٌ بحبّان بن منقذ، فلا يقاس عليه[٢].

وذهب المالكية في رواية، والحنابلة في الراجح إلى القول بإثبات الخيار للمغبون بشرط أن يبلغ الغبن ثلث القيمة، فإن كان دونه فلا يثبت له الخيار، واستدلوا بحديث الباب[٣].

وذهب ابن حزم إلى أن من قال حين يبيع أو يشتري لا خلابة فله الخيار مطلقًا سواء أكان مغبونًا أم لا، أما إذا قال لفظًا غير لا خلابة كما لو قال لا خديعة أو لا غش أو غيرهما فلا يثبت له الخيار[٤].

والراجح هو الرأي القائل بإثبات الخيار للمغبون غبنًا فاحشًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: استشارة الداعية.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: البعد عن الخداع في البيوع.

أولاً - من آداب المدعو: استشارة الداعية:

حيث جاء في الحديث: "ذكر رجل لرسول الله ﷺ أنه يخدع في البيوع؟" وهذا يدل على استشارته لرسول الله ﷺ عن أنه يخدع في البيوع، وقد قال الله لنبيه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٥]. قال الإمام ابن كثير:

---

(١) بدائع الصنائع ٢٢٦/٥، والاختيار ٣٦/٢، والمنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، و المجموع شرح المهذب ٢٢٤/٧، والمغني ٢٢/٤، والفروع لابن مفلح ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣، فتح الباري ٤١٣/٤، وسبل السلام ٤٩/٢.

(٢) المغني ٢٢/٤.

(٣) المنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، والمنتقى ٢٢/٤، والفروع ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣.

(٤) المحلى ٣١٦/٧-٣١٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

"كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبًا لقلوبهم ليكون فيما يفعلونه أنشط لهم"[١]. قال الإمام الماوردي:

"ومن الحزم لكل ذي لب، ألا يبرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا، إلا بمشورة ذي الرأى الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور، فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأى، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدًا، ولا يطيع مرشدًا. وقال عمر بن عبدالعزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم"[٢].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث: «مَنْ بَايَعْتَ فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ» فأرشده النبي ﷺ إلى ما يفعله إزاء خداعه في البيع من الناس، وإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم من أولى مهام الداعية، ذلك لأنهم يتوسمون فيه الخير دائمًا، ويثقون فيما يقول لهم، وقد بين النبي ﷺ ثواب من يرشد ويدل على الخير وعلى ما ينفع الناس، فعن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ[٣] بِي فَاحْمِلْنِي. فَقَالَ: «مَا عِنْدِي» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ أو قَالَ عَامِلِه»[٤]. جاء في موسوعة نضرة النعيم: "لا تخفي حاجة المجتمعات والأفراد إلى الإرشاد والتوجيه والدلالة، على الخير وأبوابه، وبهذا المعنى الواسع، فإن الإرشاد بمعنى الهداية والتعليم والوعظ، من الأمور المهمة في الحياة"[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: البعد عن الخداع في البيوع:

يتضح هذا من سياق الحديث، قال ابن حجر: وقوله "لا خلابة"، أى: لا خديعة،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٤٩/٢.

(٢) أدب الدنيا والدين ٢٨٩.

(٣) أبْدِعَ بي: أي هلكت دابتي وهي مركوبي. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٣٩/١٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) موسوعة نضرة النعيم ١٧٩/٢.

والمراد لا خديعة في الدين لأن الدين النصيحة، قال العلماء: لقنه النبي ﷺ هذا القول ليتلفظ به عند البيع، فيطلع به صاحبه على أنه ليس من ذوي البصائر في معرفة السلع ومقادير القيمة، فيرى له كما يرى لنفسه لما تقرر من حض المتبايعين على أداء النصيحة"[1]، وقال شرف الحق العظيم آبادي: "وكان الناس في ذلك أحقاء لا يغبنون أخاهم المسلم، وكانوا ينظرون له كما ينظرون لأنفسهم"[2]. ومن هنا وجب على الدعاة أن يوجهوا الناس إلى البعد عن الخداع في البيع والشراء وسائر التعاملات، لأن ذلك ليس من أخلاق أهل الإسلام".

قال المازري: ذكر قوله ﷺ للرجل الذي شكا إليه أنه يخدع في البيوع، فقال ﷺ: "من بايعت فقل لا خلابة".

قال: غبن المسترسل وهو المستسلم لبيعه ممنوع، وإذا وقع فله القيام ولا يلزمه الغبن، وإن لم يستسلم لبيعه وما كسبه وكان بصيرًا بالقيمة عارفًا بها فلا قيام له، لأنه يكون حينئذ كالواهب لما غبن فيه وإن كان غير بصير بالقيمة، فهذا موضع اختلاف الأئمة.

وقد تجاذبوا الاستدلال بالكتاب والسنة واستدلوا أجمعون بقوله عز وجل: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[3]. فقال من أثبت الخيار بالمغابنة، إن إمضاءها عليه أكل المال بالباطل، وقد نهت عنه هذه الآية.

وقال: من أمضى البيع عليه فإن ذلك عن تراض وقد استثنته هذه الآية.

وكذلك أيضًا تجاذبوا هذا الحديث، فقال بعضهم: فإنه ﷺ أثبت له الخيار في بعض طرق هذا الحديث؛ فذلك يدل على ما قلناه من إثبات الخيار للمغبون.

وقال: من أمضى عليه المغابنة لو كان له ذلك بمجرد الغبن ما افتقر إلى الشرط، وهو قوله: "لا خلابة". ورجع من أثبت الخيار مذهبه بما قدمناه في حديث النهي عن تلقي

---

(١) فتح الباري ٤/٣٩٦.

(٢) عون المعبود ١٤٩٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩.

الركبان، لأنه ﷺ أثبت للجالب الخيار إذا جاء إلى السوق، قالوا: وليس ذلك إلا للغبن وقد تقدم كلامنا على هذا الحديث في موضعه، فإذا قلنا بإثبات الخيار بالمغابنة، فإنما ذلك فيما خرج عن المعتاد منها، الذي لا تكاد تسلم منه البياعات، وقد حده بعض أصحابنا بالثلث، لأن أكثر البياعات لا تسلم من الغبن اليسير، ولهذا انتصب التجار، وعليه يقع أكثر البياعات، وكأن المغبون على ذلك دخل.

وقد قال بعض الناس: في هذا الحديث دلالة على أن الكبير إذا سفه لا يحجر عليه. وقال بعضهم: هذا لا تعلق لهم فيه لأنه لا يجب الحجر على المغبون وانتزاع ماله من يده إذا كان ممسكًا له، ولكنه ينهي عن التجارة المؤدية لإضاعته.

وقوله: "كان الرجل إذا بايع يقول: "لا خيابه" أشار بعضهم إلى أنه كان ألثغ فلهذا غَيَّر الكلمة"[1].

قال القاضي عياض: (وهذا الرجل هو حبان بن منقذ بن عمرو الأنصاري، والد يحيى، وواسع بن حبان، شهد أحدًا، وقيل: بل هو منقذ أبوه، وكان قد أتى عليه مائة وثلاثون سنة، وكان شج في رأسه في بعض مغازيه مع النبي عليه السلام على بعض الحصون بحجر مأمومة، تغير منها لسانه وعقله، وذكر الدارقطني: أنه كان ضرير البصر، وروى أن النبي عليه السلام جعل له هذه الثلاث، وكان أكثر مبايعته بالدقيق، شهر فيها وتبين غبنه. وقد روى أيضًا أن النبي عليه السلام جعل له مع هذا خيار ثلاثة أيام فيما اشتراه، أو في كل سلعة ابتعاها.

وقد اختلف الناس في معنى هذا الحديث، فبعضهم جعله خاصًا لهذا الرجل وغيره، وأن المغابنة بين الناس ماضية وإن كثرت، وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة، وقيل: للمغبون الخيار لهذا الحديث إذا كثرت، وإليه ذهب البغداديون من المالكين وحددوها بالثلاث، وصار الحديث عامًا متعديًا.

وقد اختلف الأصوليون في قضايا الغبن، هل تعدى أم تقصر إلا بدليل؟ وقد اختلف

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/٥٠٨، ٥٠٩.

المذهب عندنا فيمن يخدع في البيوع، هل يضرب على يديه أم لا؟ وقال بعضهم: فيه حجة على إمضاء بيع من لا يحسن النظر لنفسه وشرائه ما لم يحجر عليه، وفي مذهبنا في ذلك وغيره اختلاف معلوم"[1].

وإذا كان قد ثبت خيار الشرط من خلال هذا الحديث (فإن حكمة تشريع الخيار: هو تلافي النقص الحاصل بعد تخلف شريطة لزوم العقد. وذلك بعد أن تحققت شرائط الانعقاد والصحة والنفاذ، أي أن الخيارات الحكمية لتخفيف مغبة الإخلال بالعقد في البداية لعدم المعلومية التامة، أو لدخول اللبس والغبن ونحوه مما يؤدي إلى الإضرار بالعاقد، أو في النهاية كاختلال التنفيذ.

فالغاية من الخيارات الحكمية تمحيص الإرادتين، وتنقية عنصر التراضي من الشوائب، توصلاً إلى دفع الضرر عن العاقد.

والغرض من الخيارات هو التأمل في صلوح الشيء له وسد حاجته في الشراء، وذلك للترفيه عن المتعاقد لتحصيل مصلحة يحرص عليها. والتروي سبيله أمران: "المشورة" للوصول إلى الرأي الحميد، أو الاختبار وهو تبين خبر الشيء بالتجربة أو الاطلاع التام على كنهه، قال ابن رشد: "والخيار يكون لوجهين: لمشورة واختبار المبيع، أو لأحد الوجهين. ويقول بعدئذ: العلة في إجازة البيع على الخيار وحاجة الناس إلى المشورة فيه، أو الاختبار.

وهناك ثمرة عملية أخرى لتحديد الغرض من الخيار، تلك هي أن أمد الخيار -وهو عند المالكية ملحوظ فيه العرف والعادة- شديد الارتباط بالغرض من الخيار. فإذا كانت العلة في إجازة المبيع على الخيار حاجة الناس إلى المشورة فيه، أو الاختبار، فحده قدر ما يختبر فيه المبيع، ويرتأى فيه ويستشار على اختلاف أجناسه، وإسراع التغير إليه وإبطائه عنه.. فأمد الخيار في البيع إنما هو بقدر ما يحتاج إليه في الاختبار والارتياء، مع مراعاة إسراع التغير إلى المبيع وإبطائه عنه، خلافًا للشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله في قولهما: إنه لا يجوز الخيار في شيء من الأشياء فوق ثلاث"[2].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١٦٥/٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، ٤٦/٢٠، ٤٧.

الحديث رقم (١٥٨٥)

١٥٨٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ، أَوْ مَمْلُوكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا)). رواهُ أَبُو داود[1].

(خَبب) بخاءٍ معجمة، ثُمَّ باءٍ موحدة مكررة: أيْ أفْسده وخدعه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خبب: خدع، وأفسد[2].

الشرح الأدبي

الحديث خبري قصير خال من المؤكدات يسوق المعنى في هدوء، وثقة حتى يتم المعنى، والخب : الخداع، وهو الساعي بالفساد بين الناس رجل خب وامرأة خبة وقد تكسر خاءوه والمصدر بالكسر لا غير ومنه الحديث لا يدخل الجنة خب ولا خائن ومنه الحديث الآخر الفاجر خب لئيم ومنه الحديث من خبب امرأة أو مملوكا على مسلم فليس منا أي خدعه وأفسده كذا في النهاية والمجمع، وقوله : (من خبب زوجة امرئ) أي خدعها وأفسدها أو حسن إليها الطلاق ليتزوجها أو يزوجها لغيره أو غير ذلك (أو مملوكه) أي أو أمته أي أفسده عليه وقوله (فليس منا) نفي لكونه من المؤمنين يحرم به من رفقة الصالحين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الإفساد بين الزوجين والخديعة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إصلاح ذات البين.

---

(١) برقم (٥١٧٠). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٦٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٨٨).

(٢) النهاية في (خ ب ب).

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث" من خبب زوجة امرئ أو مملوكه فليس منا" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة النافعة في إرشاد المدعوين، حيث يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ويبين مدى ارتباط الشرط بالجواب، فالجزاء من جنس العمل، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الإفساد بين الزوجين والخديعة

حيث جاء في الحديث "من خبب زوجة امرئ أو مملوكة فليس منا" قال ابن الأثير: "والخب هو الخداع"، وهو الرجل الذي يسعى بين الناس بالفساد، وقوله في الحديث "خبب امرأة أو مملوكًا" أى خدعه وأفسده"[3].

وقال شرف الحق العظيم آبادي: وقوله: "من خبب زوجة امرئ : أي خدعها وأفسدها أو حسن إليها الطلاق ليتزوجها أو يزوجها لغيره أو غير ذلك " أو مملوكه"، أى أو أمته أى أفسده عليه بأن لاط أو زنى به، أو حسن إليه الإباق أو طلب البيع ونحو ذلك، وقوله "فليس منا" أى ليس من العاملين بأحكام شرعنا"[4].

وقال ابن علان: "ومعنى خبب أى: أفسدها عليه وأوقع بينهما الشقاق والتنافر فحملها على الخروج عن طاعته، والمراد بقوله "ليس منا" أى: ليس على هدينا لأن شأن المؤمن التعاون والتناصر وهذا بخلافه"[5].

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٣) النهاية ٢٥١.

(٤) عون المعبود ٢٢٠١.

(٥) دليل الفالحين ١٦٣٤.

وقال د. الحسيني هاشم: "وفي الحديث التحذير من إفساد النساء والخدم والعبيد والعمال بإغرائهم وإفسادهم على من هم من أتباعه"[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: "والتخبيب مصدر خبّب ومعناه في اللغة إفساد الرجل عبدًا أو أمة لغيره أو صديقًا على صديقه، وتخبيب زوجة الغير خداعها وإفسادها أو تحسين الطلاق إليها ليتزوجها أو يزوجها غيره، والتخبيب لا يكون إلا في الشر وهو حرام، وأما عقوبة المخبب فلا خلاف بين الفقهاء في أن المعصية التي لا حد فيها ولا كفارة عقوبتها التعزير بما يراه الإمام مناسبًا، وفعل المخبب هذا لا يخرج عن كونه معصية لا حد فيها ولا كفارة"[٢].

ثالثًا - من أهداف الدعوة: إصلاح ذات البين:

إن الإسلام يدعو إلى الألفة والتجانس، والبعد عن العداوة والتباعد، ومن ثم حث أتباعه على ضرورة السعي بالإصلاح وترك الإفساد وما يؤدي إلى الخلاف والشقاق، ويتضح هذا من سياق الحديث، حيث حذر النبي ﷺ من يسعى بالتحريض والإفساد بين الزوجين أو بين العبد وسيده.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾[٣]، "فنهى سبحانه وتعالى عن طاعة الهماز الطعان، العياب المغتاب، الذي يمشي بين الناس بالوشاية والإفساد، لأنه باعث الفتن، وزارع الإحن، ومقطع الصلات، ومفرق الجماعات، يجعل الصديقين عدوين، والأخوين أجنبيين، والزوجين متنافرين، والولد حربًا لأبيه، والأب ضدًا لبنيه، فهو غراب بين، ونذير شر، وحمال حطب، ومشعل لهب. فكانت طاعته حرامًا، ونهيه لزامًا. فإياك أن تأخذ قوله مسلمًا، وترتب عليه عداء وتخاصمًا؛ فإنه فاسق. وقد أمرنا الله تعالى بالتثبت في خبره والتحري عن صدقه، قال

(١) شرح رياض الصالحين ٧٤٢.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية ١١/١٨-٢٠.

(٣) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[1]، بل إن كنت مؤمنًا كريمًا فلا تشغل نفسك بحديث الأنمّاء، ولا تضيع من وقتك في تسمع أخبار السفهاء. وظن الخير بإخوانك وأقربائك، واتهم النمام الجهول؛ بل قبح له عمله وبغض إليه نمّه، وقل له لا تفسد بيني وبين إخواني، ولا تبغض إلى أعواني، وخير لك أن تذكر ما يزيد الصلة متانة، وعرا الإخاء وثاقة، وإن من ينقل عن غيرك إليك أحاديث السوء، ينقل عنك إلى غيرك، فلا تجعله موضعًا لثقتك، واجعل وشايته دبر أذنك.

واعلم أن نقل الأنباء قد تكون فيه مصلحة شرعية، ومنفعة عمومية. كمن ينقل إلى شخص مكيدة[2]، يدبرها له الخصوم من قتل أو سرقة؛ وكمن يعرف الأئمة والملوك سيرة الحكام الظالمين، والموظفين الخائنين، فهذا لا حرج فيه بل ذلك واجب، حقنًا للدماء[3]، والأموال، ونصحًا للرعية والولاة. والدين نصيحة.

وقد بين الرسول ﷺ أن الجنة لا يدخلها قتات، لأنها دار المتقين، وهذا من المجرمين، ما لم يكن له من الحسنات ما يمحو أثر السيئات، أو الغرض من العبارة التحذير من القت، والتنبيه إلى خطر النم؛ أو المراد: لا يدخلها أول الأمر. حتى يطهر بالنار من خبث الوزر؛ ثم يدخلها طاهرًا طيبًا[4].

والذي يسعى بالفساد بين الزوجين أو بين العبد وسيده، إنما هو يلجأ إلى الكذب لتحقيق ما يصبو إليه.

"والكذب من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢٠.

(٢) مكيدة: خديعة

(٣) حقنًا للدماء: حقن دم فلان: منعه أن يسفك.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٣٢.

يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ كَذَّابًا»[١]. والكلام وسيلة إلى المقاصد.

فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة.

فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب، أو إصلاح ذات البين إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن.

لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حرامًا في الأصل إلا لضرورة.

قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذي يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أو يَقُولُ خَيْرًا»[٢].

والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٣].

والكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، وهو من سيء الأخلاق: والكذب من صفات المنافقين كما قال النبي ﷺ: «آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمِنَ خان»[٤].

والكذب ضربان: كذب في الأقوال، وكذب في الأفعال.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٩٢ واللفظ له، ومسلم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

فكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال، فقد يفعل الإنسان فعلاً يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة.

والكذب في الأقوال أكثر من الأفعال؛ لسهولته، والكذب كله شر، والكذب في الأقوال خطير، وربما كان الكذب في الأفعال أشد خطرًا وأقوى تأثيرًا من الكذب في الأقوال، كما حكى الله من أقوال وأفعال إخوة يوسف حين ألقوه في الجب: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

فجمعوا بين كذب القول... وكذب الفعل.

ورخص الشرع في الكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل مع امرأته، وحديث المرأة مع زوجها، وذلك على طريق التورية والتعريض دون التصريح به، كما سئل النبي ﷺ ممن أنت؟ فقال: "من ماء؟".

فورى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل.

وكما سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في طريق الهجرة عن الرسول ﷺ فقال: هاد يهديني السبيل، فظنوا أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يعني هداية سبيل الخير.

وأسباب الكذب ودواعيه كثيرة، ومنها:

جلب النفع، ودفع الضر، فيرى الكذاب أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص فيه لنفسه؛ طمعًا في حصول ما يريده به.

ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبًا، وكلامه مستظرفًا، فلا يجد صدقًا يعذب، فيستحلي الكذب الذي يسهل اجتراره، وتطرب الآذان عند سماعه.

ومنها حب الترأس، وذلك أن الكاذب يرى له فضلاً على المخبر بما أعلمه، فهو

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ١٦-١٨.

يتشبه بالعالم الفاضل في ذلك.

ومنها أن يكون الكذب له عادة، ونفسه إليه منقادة، فهو يألف دواعي الكذب ويستملحه.

ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه، فيسميه بقبائح يخترعها عليه، ويصفه بفضائح ينسبها إليه.

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها، ويعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ثم يهلك.

والكذب داء لا يصلح منه جد ولا هزل، يمزق الأمم، ويقطع الأرحام، وتؤكل به الحقوق، وتنتهك الحرمات، ويهدي إلى الفجور، كما قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ. فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[1].

وقال ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكم بأكبَر الكبائِر (ثلاثًا)؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالِدَين - وجَلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال -: ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يُكَرِّرُها حتَّى قلنا: لَيتَهُ سَكَتَ»[2][3].

إن الإسلام حينما يمنع الإفساد في هذه الدائرة الضيقة، وهي دائرة الزوجة والعبيد والخدم، فإنما ذلك من أجل إقامة الوحدة الإسلامية في صورتها الأوسع والأكمل.

"ولقد حرص الإسلام على أن يقيم علاقة الجماعة المسلمة على أساس تقوية الروابط، وإصلاح ذات البين، ليجعل من المسلمين أمة قوية يحسب حسابها، ويرهب

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٥٤ واللفظ له، ومسلم ٨٧.

(٣) موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري، ٣١٣٨-٣١٤١.

جانبها. ويوم أن كان المسلمون ينفذون هذه التعاليم، ويقيمون علاقتهم على هذه القواعد كانت رابطتهم أقوى من أن تحل، ووحدتهم أعصى من أن ينال منها عدو.

فلما فقدوا هذا الإحساس، وخمد فيهم هذا الروح، بدأ الضعف يدب في صفوفهم، وأخذت الفرقة تعمل عملها فيهم، مما نجم عنه أن أصبحت بلادهم نهبًا للاستعمار، ومناطق نفوذ لمن لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة.

وكان أن انقسم الوطن العربي، والعالم الإسلامي، أشلاء ممزقة، وأجزاء موزعة. وبدلاً من أن تكون الأخوة والوحدة هما الرباط القوي بين هذه الشعوب الكثيرة العدد، الواسعة الرقعة، الغنية بما وهبها الله من ثروات، فشت فيهم هذه الإقليمية المحدودة المفرقة، وما هي إلا نعرة من نعرات الجاهلية؛ ودعوة من دعوات العصبية التي حاربها الإسلام.

ولئن كان ذلك جائزًا بين الأمم الكافرة، التي لا تجد من الروابط الأدبية ما يجمع شتاتها، غير هذه الروابط المادية؛ فما يجوز ذلك بين شعوب تظللها كلمة التوحيد، ويقول كتابها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. ويقول نبيها: «وكونوا عباد الله إخوانا»[2].

ولقد أدرك قادة الإصلاح هذه المبادئ، وعرفوا آثارها في الحاضر والمستقبل، فرأوا أن عليهم واجبًا؛ وأن لهم رسالة؛ وأنهم مسئولون عن إيجاد كيان موحد؛ يقف كالطود في وجه الأعداء؛ ويصد غارات المعتدين والغرباء، فدعوا إلى الوحدة وإلى التكتل والتجمع، وإلى النضال المشترك ضد الصهيونية والاستعمار، وما هذه الدعوة إلا إحياء لهذه الحكمة النبوية: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[3].

والغاية التي استهدفها الإسلام من أجل إقامة هذا الكيان، هي ما ذكره الله في قوله من سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[4][5].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

(٤) سورة الحج، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

(٥) عناصر القوة في الإسلام، الشيخ السيد سابق، ١٩٢-١٩٣

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الاجتماعية:

إن من أهداف التربية الاجتماعية السامقة، إيجاد الترابط بين المسلمين، لذا نهى الإسلام عن الغش في الأقوال والأفعال والسلوك، ليظل هناك ترابط وقوة بين المسلمين، بدلاً من إفساد الود والحب بسبب الآثار الجانبية الناتجة عن الغش، والخداع.

إن من أهم ما ينبغي أن يركز عليه القائمون على التوجيه والتربية اجتناب كافة وسائل وأساليب الغش في الحياة، والتحذير من العواقب الوخيمة لهذا الأمر، لأن ذلك يتنافى مع القيم والمبادئ الإسلامية، ويعد الغش من الصور السلبية في التعامل التي يجب على المسلم أن يربي نفسه على البعد عنها، واجتنابها والحذر من الوقوع فيها، ولذا أراد النبي ﷺ أن يعالج تلك الظاهرة الاجتماعية الخطيرة فأعلن التبرؤ ممن يقوم بغش المسلمين في قوله ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ومن أجل إبعاد المسلمين عن كل ألوان الغش، نهى رسول الله ﷺ في حديث الباب عن النجش -في أن يزيد إنسان في البيع ليقع غيره فيه- وذلك في قوله ﷺ: «لا تناجشوا»، وقد أكد النبي ﷺ في أحاديث الباب على أهمية الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم، بل وحذر في ذلك أشد التحذير بالنسبة لمن يفسد زوجة إنسان عليه، أو يفسد عليه خادمه أو مملوكه، وذلك في قوله ﷺ: «من خبب زوجة امرئ....إلخ».

لذا ينبغي للقائمين على التربية والتوجيه أن يبرزوا منهج التربية الإسلامية في علاج ظاهرة الغش وأشكالها وصورها مما يؤدي إلى فقد الثقة بين المسلمين، وانتشار العداوة والبغضاء بينهم نتيجة تلك الممارسات الشاذة التي تنم عن عدم الالتزام بالمبادئ والقيم الإسلامية، وحالة الإفلاس الأخلاقي التي تنجم عنها هذه السلوكيات السلبية.

ثانيًا: التوجيه غير المباشر:

لقد أرسى النبي ﷺ معالم التربية الإسلامية، واستطاع أن يصوغ هذا المجتمع

الإسلامي المتلاحم المتماسك الذي يراقب الله تعالى في كافة الأمور والتي من جملتها المعاملات الجارية بين الناس والتي تتم بصور مختلفة، وإذا كان النبي ﷺ قد نهى عن الغش في كافة صوره وأشكاله، لأن ذلك يؤدي في العاجل إلى الكسب الحرام الذي سرعان ما يمحق وتعقبه الخسارة والندامة، فإنه ﷺ يوجه بأسلوب غير مباشر إلى التعامل المبني على الوضوح والصدق والشفافية، وبذل الأسباب المشروعة لتحصل الرزق الحلال، والوصول إلى الغايات المحمودة بالوسائل المشروعة، لأن ذلك أدعى لمرضاة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ، وسبب لحصول البركة، لأن المسلم حينما يتأدب بهذا الآداب الإسلامية ويوطن نفسه على هذا النمط التربوي السوي، يعيش في سلام نفسي، وانسجام ومحبة مع نفسه وإخوانه وجيرانه ومجتمعه، وكل من يتعامل معه.

ولذا فإن النبي ﷺ يوجه بأسلوب غير مباشر إلى أهمية الصدق والوضوح في المعاملات وهذا لا يتأتى بالطبع إلا إذا ابتعد الإنسان ونأى بنفسه عن مظاهر الغش والخداع، ومن الشواهد العملية على ذلك في حديث الباب قوله ﷺ: «... مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» - وذلكَ بعْد أنْ نَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً عنْدمَا وضَعها في طَعَام - قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ثالثًا: التربية بالترهيب:

إن التربية بالترهيب من أبرز الأساليب التربوية تأثيرًا في النفوس، وهذا ما أكدته أحاديث الباب حيث رهّب النبي ﷺ من الغش والخداع، وذلك في قوله ﷺ: «... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وقوله ﷺ: «من خبب زوجة امرئ.... فليس منا» والترهيب هو التخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد، أو تصور، وهو يقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهى عنه[1].

ومن الملاحظ في التربية بالترهيب ألا يلجأ إليها المربي إلا بعد أن يستنفد وسائل الترغيب والثواب فهو آخر وسيلة للتربية إن لم تنفع الموعظة والتوجيه والإرشاد والملاطفة والاقتداء، فيكون العقاب بعد ذلك.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٩٣.

وللترهيب في العملية التربوية درجات تبدأ من الكف عن التشجيع "وهذه في ذاتها عقوبة لمن كان يتلقى التشجيع من قبل"، إلى الإعراض المؤقت وإعلان عدم الرضا، إلى العبوس والتقطيب والزجر بصوت غاضب إلى المخاصمة الطويلة والمقاطعة "أو التهديد بالمقاطعة" إلى الحرمان من الأشياء المحببة للمتربي "أو التهديد بالحرمان منها"، إلى التهديد بالإيذاء، إلى الضرب الخفيف إلى الضرب الموجع، وتلك أقصى درجات الترهيب والعقاب"[1].



(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ٢٢٤.

٢٧٧- باب تحريم الغدر

قَـالَ اللّه تَعَـالَى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَوْفُـوا بِـالْعُقُودِ﴾[المائـدة: ١]، وقـال تَعَـالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٤].

الحديث رقم (١٥٨٦)

١٥٨٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

خَصْلة: شعبة وصفة[٢].

النفاق: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر[٣].

فَجَر: انبعث في الكذب والفسق والعصيان[٤].

الشرح الأدبي[٥]

المضامين الدعوية[٦]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨)، وتقدم برقم (٦٩٠، ١٥٤٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٦).

(٢) النهاية في (خ ص ل).

(٣) النهاية في (ن ف ق).

(٤) النهاية في (ف ج ر)، وعمدة القاري ٦/١٣.

(٥) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

الحديث رقم (١٥٨٧)

١٥٨٧- وعن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم قالوا: قَالَ النَّبيّ ﷺ: ((لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فلانٍ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

لواء: اللواء في الأصل بمعنى الراية، والمعنى في الحديث علامة يشهر بها في الناس لأن موضوع اللواء شهرة مكان الرئيس[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث والذي يليه يدور حول الترهيب من الغدر لأنه من الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الإسلام، وهذا الحديث يشير إلى موقف من مواقف الخزي للغادر يوم القيامة، وقد تصدر الحديثين لفظ الشمول (كل) المتصل باللام، واللام للملكية، والاختصاص ولفظ الشمول يعطي الحكم اطرادا يشمل كل أفراد الأمة حتى تقوم الساعة تحذيرا من التلبث بهذا الذنب، والغادر هو الذي يعد، ولا يوفي، وقوله (لواء) قال أهل اللغة اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش ويكون الناس تبعا له قالوا فمعنى لكل غادر لواء أي علامة يشهر بها في

---

(١) حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٧٣٦/١٢) واللفظ له.

وحديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥/١١). تنبيه: حديث ابن عمر أورده المنذري في ترغيبه (٤٤١٧).

وحديث أنس، أخرجه البخاري (٣١٨٧)، ومسلم (١٧٣٧/١٤). تنبيه: حديث ابن مسعود، مع أنس أخرجه البخاري جمعًا، ومسلم مفرقًا.

(٢) النهاية في (ل و أ).

الناس؛ لأن موضوع اللواء الشهرة مكان الرئيس علامة له وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحافلة لغدرة الغادر لتشهيره بذلك وأما الغادر فهو الذي يواعد على أمر ولا يفي به) وقوله في الحديث الأول (يَوْمَ القِيَامَةِ) يشير إلى عظمة الهول لأن هذه أكبر فضيحة يمكن أن تلحق بخائب في الدنيا، أو الآخرة، لاجتماع كل الخلائق، واشتداد الحر وكثرة العرق، وبحث الجميع عن مخرج، وزاد في الحديث الثاني قوله (عند استه) وهو يبين شدة قربه منه لمزيد الإهانة له، والتشهير به، وهو عذاب معنوي يتبعه عذاب حسي، وقوله (بقدر غدرته) يربط درجة الذنب بجزائه حتى يعلم كل فرد أنه يستقل أو يستكثر من سبب فضيحته، وقوله (يُقَالُ : هذِهِ غَدْرَةُ فلانٍ) فيه مزيد تشهير به زيادة في إهانته بالصوت، والصورة، وقوله فلان بن فلان كناية عن ندائه باسمه، وقوله في الحديث الثاني (ألاَ وَلاَ غَادِرَ أعْظَمُ غَدْراً مِنْ أمِيرِ عَامَّةٍ) وألا للتنبيه والأسلوب بعدها أسلوب نفي لأن يكون هناك غدر أعظم من غدر الأمير لأنه يعظم به الخطب وتعم به البلوى، بالإضافة إلى أنه لا يحتاج إلى الخداع .

المضامين الدعوية[1]

أولاً : من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانيًا : من موضوعات الدعوة: التحذير من الغدر.

ثالثًا : من موضوعات الدعوة: تحذير الحاكم من الغدر برعيته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديثين حيث رهّب رسول الله ﷺ من الغدر؛ بأن لكل غادر لواء يوم القيامة يشتهر به ليدل على فضيحته وشناعة أمره. ومما لاشك فيه أن أسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو وترهبه من المخالفات الشرعية، "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٥٨٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٨٨).

وعذابه في الآخرة"(١)، هذا "وإن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كل حسب ما يناسبه، على أن يقدموا الترغيب، لأنه فعل إيجابي ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين"(٢).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التحذير من الغدر:

حيث جاء في الحديثين قوله في الأول: "لكل غادر لواء بوم القيامة" وقوله في الحديث الثاني: "لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة يرفع له بقدر غدره".

قال النووي: "الغادر هو الذي يواعد على أمر ولا يفي به، واللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعًا له، قالوا: فمعنى لكل غادر لواء، أى علامة يشتهر بها في الناس لأن موضوع اللواء الشهرة مكان الرئيس علامة له، وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر لتشهيره بذلك"(٣).

وقال ابن حجر: "قال ابن المنير: كأن الغادر عومل بنقيض قصده، لأن عادة اللواء أن يكون على الرأس، فنصب عند السفل زيادة في فضيحته، لأن الأعين غالبًا تمتد إلى الألوية، فيكون ذلك سببًا لامتدادها إلى التي بدت له ذلك اليوم، فيزداد بها فضيحته"(٤).

وقال ابن علان: "وينشر له اللواء زيادة في فضيحته وشناعة أمره وشهرته بذلك في ذلك الملأ العام"(٥). ولاشك أن كل هذا يبين خطورة الغدر وعدم الوفاء.

ومما يدل على تحريم الغدر ما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول

---

(١) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١١١٧.

(٤) فتح الباري ٣٢٨/٦.

(٥) دليل الفالحين ١٦٣٥.

الله ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَٰذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ»(١).

قال القاضي عياض: وقوله: "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، يقال: هذه غدرة فلان"، وفي بعض طرقه: "يعرف به"، وفي آخر"يرفع له عند استه". وفي آخر: "بقدر غدرته، ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة": أصل رفع اللواء للشهرة والعلامة، ولهذا قال: "لكل غادر لواء بقدر غدرته"، ولما كان الغدر مكتومًا ومستترًا به شهر به صاحبه، وكشف ستره لتتم فضيحته، ويتشنع ذلك معاقبة كما شهر امرؤ القيس في الآخرة بلواء الشعر، وبعد ذلك في الفخر والمجد شهرة نبينا ﷺ بلواء الحمد، واشتمل عليه عموم الحمد باسمه محمد وأحمد، فيكون من المبالغة في حمد فعاله وخصاله، ومن المبالغة في حمده هو نعم ربه وثناؤه عليه، كما قال: "فأحمده بمحامد" ثم يفتح عليه فيه من المحامد ما لم يعط غيره، ويبعثه ربه المقام المحمود كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون، وسمى أمته الحامدين. وفي هذا كله دليل على قبح الغدر، والوعيد الشديد عليه، لاسيما في معاهدة العدو.

وقد رأى بعض أهل العلم الجهاد مع الولاة الظلمة، وإن جاروا ولم يقسموا الغنائم وغير ذلك؛ إذ لو ترك الجهاد معهم لتغلب العدو، إلا إذا كانوا يعدون ويجهزون لهذا الذي قدمناه - والله أعلم - ورأى بعضهم الجهاد معهم على كل حال، وأباه بعضهم على كل حال(٢).

وقال القرطبي: (قوله: "لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له" هذا منه ﷺ خطاب للعرب بنحو ما كانت تفعل؛ وذلك": أنهم يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليشهروا به الوفي، فيعظموه، ويمدحوه، والغادر فيذموه، ويلوموه بغدره. وقد شاهدنا هذا فيهم عادة مستمرة إلى اليوم، فمقتضى هذا الحديث: أن الغادر يفعل به مثل ذلك؛ ليشهر بالخيانة والغدر، فيذمه أهل الموقف، ولا يبعد أن يكون الوفي بالعهد يرفع له

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٦/٣٩.

لواء يعرف به وفاؤه وبره، فيمدحه أهل الموقف، كما يرفع لنبينا محمد ﷺ لواء الحمد فيحمده كل من في الموقف.

وقوله: "بقدر غدرته" يعني: أنه إن كانت غدرته كبيرة عظيمة رفع له لواء كبير، عظيم، مرتفع، حتى يعرفه بذلك من قرب منه ومن بعد.

وقوله: "عند استه" معناه - والله أعلم - : عند مقعده؛ أي: يلزم اللواء به، بحيث لا يقدر على مفارقته ليمر به الناس فيروه، ويعرفوه، فيزداد خجلاً، وفضيحة عند كل من مر به)[١].

إن المسلم الحق يعرف الوفاء، ولا يعرف الغدر، فإن الغدر ونقض العهود والمواثيق من شيم أهل النفاق والمنافقين.

"إن المؤمن صادق القول، وَفِيُّ العهد، ليس الغدر من شيمته، لأنه يخل بنظام الحياة، ويفسد على المرء تدبيره لمصلحته، وهو ضرب[٢] من الكذب. والكذب رأس النفاق. وإضرار بمن عاهده. ولا ضرر ولا ضرار.

وقد بين الرسول ﷺ في هذا الحديث أن الغادر يشهر به على رؤوس الأشهاد يوم القيامة حيث العالم كله مجتمع، فينصب له لواء، ويرفع له علم في الموقف بحيث تراه العيون. ويقال: هذه غدرة فلان بن فلان؛ تشنيعًا [٣]عليه وتقبيحًا وتوبيخًا له وتعذيبًا؛ وتصور أنك في حفلة جامعة. وأنك بين يدي مليك؛ ثم نادى مناد هذا فلان المجرم؛ هذا الذي غدر، هذا الذي كذب؛ ألا تكاد تصعق[٤] من هذه النسبة، إن كانت كاذبة فما بالك بها إن كانت صادقة؟ فإذا كان هذا الأثر في مجتمعاتنا الخاصة، فما بالك بالمحشر العام الذي لا يدع مخلوقًا -من يوم أن كان آدم عليه السلام إلى أن يورث الله الأرض ومن عليها- إلا ضمه ذلك الموقف، الذي يتجلى فيه رب العالمين ويحاسب كل إنسان

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/ ٥٢٠.

(٢) ضرب: صنف ونوع.

(٣) تشنيعًا: شنع فلانًا: عابه وفضحه.

(٤) تصعق: صعق الرجل: غُشي عليه وهلك.

على الصغير والكبير؛ لاشك أن العذاب مبرح والهول مفزع؛ إذ تقول: ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ وهذا اللواء المرفوع قد يكون لواءً حقيقيًا، فيه رمز لصاحبه، وإشارة إلى غدرته، وقد يكون الغرض إشهار الغدرة من غير ملاحظة أن يكون هناك لواء مرفوع.

والغرض من الحديث التنفير من الغدر، وبيان أنه جريمة كبيرة، وأن صاحبه عند الله مهين وعذابه أليم[١].

وقال شهاب الدين الأبشيهي: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه؛ البغي والنكث والمكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٤]، وكم أوقع القدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف، وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما جاء في القرآن من قصة الذي عاهد الله ثم غدر ولم يف بعهده، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٥].

---

(١) الأدب النبوي، الشيخ محمد عبدالعزيز الخولي، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) سورة يونس، آية: ٢٣.

(٣) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٤) سورة فاطر، آية: ٤٣.

(٥) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٨.

ومما يشتهر على الألسنة أن هذه الآيات نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري البدري، وهي قصة باطلة منكرة. قال ابن حجر: وفي كون صاحب هذه القصة إن صح الخبر، ولا أظنه يصح هو البدري المذكور قبله نظر.

وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي إن البدري استشهد بأحد. =

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقًا يخزيه يوم فاقته وفقره. فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق؟ وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق؟ وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوئ الأخلاق؟ وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره، في جنب نيل المكارم. قال الشاعر:

غَدَرْتَ بأمرٍ كنتَ أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلته. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وممن غدر، عبدالرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

= ويقوي ذلك أيضًا أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس في الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلًا يقال له ثعلبة ابن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلسًا فأشهدهم؛ فقال: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة ابن أبي حاطب، والبدري اتفق على أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ». انظر ما أخرجه مسلم ٢٤٩٥. وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر: "اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"، أخرجه البخاري ٣٠٠٧، ومسلم ٢٤٩٤، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل، فالظاهر أنه غيره. والله أعلم. (الإصابة، ١٥٦)

وقال الألباني عن كون صاحب القصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري البدري: وهذا حديث منكر على شهرته. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٣٥/٣) سنده ضعيف. وقال الحافظ في تخريج الكشاف (١٣٣/٧٧/٤) إسناده ضعيف جدًا. انظر لسلسلة الأحاديث الضعيفة، ١١٢/٤] وانظر: [الدر المنثور، ٤٥٧/٧].

أينسى بنو العباس ذبِّي[1] عنهم بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربها فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها
أقطِّع أرحامًا علَيَّ عزيزة وأبدى مكيدات لها وأثيرُها
فلما وضعتُ الأمر في مستقرّه ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دفعتُ عن الأمر الذي استحقّه وأوسقَ أوساقًا[2] من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده مُلْقىً، فتتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاق كما لاقى مجير أم عامرِ[3]
أعدّ لها لما استجارت ببيته أحاليب ألبان اللقاح الدرائرِ
وأسَمنَهَا حتى إذا ما تمكنت فرته بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروف على غير شاكر[4]

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: تحذير الحاكم من الغدر برعيته:

حيث جاء في الحديث الثاني: "ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة"، قال النووي: "وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر، لاسيما من صاحب الولاية العامة، لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين، وقيل لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء، وهذا الحديث وارد في ذم الغادر، قال القاضي عياض وغدره يكون للأمانة التي قلدها لرعيته، والتزام القيام بها والمحافظة عليها، ومتى خانهم، أو ترك الشفقة عليهم، أو

---

(١) الذب: الدفاع.

(٢) أحمل جموعًا.

(٣) مجير أم عامر: من كنى الضبع.

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٧٩-٢٨١ بتصرف.

الرفق بهم، فقد غدر بعهده"[1].

قال القرطبي: (قوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" يعني: أن الغدر في حقه أفحش، والإثم عليه أعظم منه على غيره لعدم حاجته إلى ذلك.

وأيضًا: فلِمَا في غدر الأئمة من المفسدة، فإنهم إذا غدروا، وعُلِم ذلك منهم، لم يأمنهم العدو على عهد، ولا صُلح، فتشتد شوكته، ويعظم ضرره، ويكون ذلك منفرًا من الدخول في الدين، وموجبًا لذم أئمة المسلمين. وقد مال أكثر العلماء: إلى أنه لا يقاتل مع الأمير الغادر، بخلاف الخائن، والفاسق. وذهب بعضهم إلى الجهاد معه. والقولان في مذهبنا. والله تعالى أعلم)[2].

وقال القاضي عياض: (وقوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" : لأن غدره متعد إلى كثرة وجماعة، بخلاف غدر الواحد للواحد. وقد يكون تعظيمه لغدر أمير العامة لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته وسلطانه على الوفاء، كما عظم في حقه الكذب في الحديث الآخر في قوله: "ثلاثة لا يكلمهم الله" الحديث، وذكر منهم: "ملك كاذب"[3]، ويكون المراد بغدر أمير العامة، إما الغدر في عهده معه، أو لرعيته بخيانته لهم وقلة حوطته عليهم، وغدره لأمانتهم التي قلدها، وعهدهم الذي لزم عنقه. أو يكون المراد: أن الأمير هو المغدور، كما جاء في الحديث الآخر في الثلاثة الذين لا يكلمهم الله: «ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطى له ما يريد وفى له، وإلا لم يف»[4]. وعظم هذا لإخفائه؛ لأن فيه الخروج على الأئمة، وشق العصا، وإثارة الفتن)[5].

وجاء في فتح الملهم: (وقوله: "بقدر غدره" يعني كلما كان الغدر أعظم، كان اللواء أرفع، وقوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" لكونه من أكثر الناس قدرة

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١١٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥٢١/٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٣٥٨، ومسلم ١٠٨.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٤١/٦.

على الوفاء، والآمال معقودة عليه بذلك، فكلما خيب هذه الآمال بغير عذر استحق وزرًا أكثر من غيره، والله أعلم)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "ذهب الفقهاء إلى تحريم الغدر، لأنه من علامات النفاق ومن كبائر الذنوب، ولاسيما إذا كان الغادر من أصحاب الولايات العامة، لأن ضرر غدره يتعدى إلى خلق كثير. وقيل: لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء.

واستدلوا على تحريم الغدر بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٢]. وقول النبي ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنَّ كَانَتْ فِيه خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذا أؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ»[٣].

والغدر محرم بشتى صوره، سواء أكان مع فرد أم جماعة، وسواء أكان مع مسلم أم ذمي أم معاهد.

ويجب على المسلمين الوفاء بشروط العهد مع أهل الذمة والمعاهدين، ما لم ينقضوا العهد، لقوله ﷺ: «المسلمون على شروطهم»[٤]. ولأن أبا بصير رضي الله عنه لما جاء إلى النبي ﷺ، وجاء الكفار في طلبه -حسب العهد- قال له النبي ﷺ: «يا أبا بصير إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك ... فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجًا ومخرجًا»[٥]. ولما روى من أنه «كان بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وبَيْنَ أهلِ الرُّومِ عَهْدٌ، وكانَ يَسِيرُ في بلادِهم، حتى إذا انْقَضَى العَهْدَ أغَارَ عليهمْ، فإذا رَجُلٌ على دَابة أو على فَرَسٍ وهو يقولُ الله أكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ، وإذا

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٢٧/٩.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤ واللفظ له، ومسلم ٥٨.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٥٩٤، وقال الألباني حديث صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٠٦٣).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق ابن اسحاق عن مروان والمسور بن مخرمة وإسناده حسن لتصريح بن إسحاق بالتحديث عن الزهري، ٢٢٧/٩، حديث رقم ١٨٨٣١، ص ٣٨٠/٩.

هُوَ عَمْرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه، فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عن ذلكَ، فقالَ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فلا يَحُلَّنَّ عَهْدًا ولا يَشُدَّنَّه[1] حتَّى يَمْضِيَ أمَدُهُ أو يَنْبِذَ إليهِم عَلَى سَوَاء، قال: فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بالناسِ»[2]. ولأن المسلمين إذا غدروا وعلم ذلك منهم، ولم ينبذوا بالعهد على سواء، لم يأمنهم أحد على عهد ولا صلح، ويكون ذلك منفرًا عن الدخول في الدين، وموجبًا لذم أئمة المسلمين.

واتفق الفقهاء على أنه إذا دخل كافر حربي دار الإسلام بأمان، فيجب على المسلمين الوفاء له والكف عنه، حتى تنتهي مدة الأمان ويبلغ مأمنه، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[3]. ولقول النبي ﷺ: «ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عدْلاً»[4][5].

ومما يدل على حرص النبي ﷺ على الوفاء بالعهد وعدم الغدر ما جاء عن مصعب بن سعد عن أبيه: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ اقْتُلُوهُمْ وإنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبدُ الله بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعبْدُ الله بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبي السَّرْحِ فَأَمَّا عَبْدُ الله بْن خَطْلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حَرِيثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحابُ السَّفِينَةِ

(١) فلا يحلن عهدًا ولا يشدنه: أي لا يغير عهدًا ولا ينقضه بوجه حتى تنقضي غايته. انظر: تحفة الأحوذي ١٧٠/٥ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أخرجه الترمذي ١٥٨٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٢٨٥).

(٣) سورة التوبة، آية: ٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٣٠٠، ومسلم ١٣٧١ واللفظ له.

(٥) الموسوعة الفقهية ١٤٣/٣١، ١٤٤.

أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لاَ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ههُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلاَّ الإِخْلاَصُ لا يُنَجِينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ بَايِعْ عَبْدَاللهِ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا كُلَّ ذلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ثُمَّ أقبل عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: « مَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هذا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ» فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ: «إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِنبيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ»[1].

ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ[2]. قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ. قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا؟ فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ. فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ. فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللّهَ عَلَيْهِمْ»[3].

ولقد كان من وصية النبي ﷺ لأمراء جيشه وسراياه أن يقول: ((أَغْزُوا بِاْسمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ أَغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغدِرُوا))[4].

ومن خلال هذا يتبين ضرورة أن يتجنب الحاكم الغدر، ويحرص على الوفاء بالعهد والوعد مع رعيته، ومع جميع الناس.

---

(١) أخرجه النسائي ٤٠٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٧٩١).

(٢) هو والد حذيفة بن اليمان ﷺ واليمان لقب له. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١١٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٨٧.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٣١.

الحديث رقم (١٥٨٨)

١٥٨٨ - وعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ (عِنْدَ اسْتِهِ) [١] يومَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدَرِ غَدْرِهِ، ألاَ وَلاَ غَادِرَ أعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أمِيرِ عَامَّةٍ)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

لواء: اللواء في الأصل بمعنى الراية، والمقصود بها في الحديث: علامة يشهر بها في الناس لأن موضوع اللواء شهرة مكان الرئيس[٣].

استه: دبره[٤].

الشرح الأدبي[٥]

المضامين الدعوية[٦]

---

(١) هذه الزيادة عند مسلم برقم (١٧٣٨/١٥). جمعه المؤلف بين اللفظين في حديث واحد.

(٢) (١٧٣٨/١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤١٧).

(٣) النهاية في (ل و ا).

(٤) اللسان في (س ت هـ).

(٥) تم دمجه مع الشرح الأدبي للحديث السابق.

(٦) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٨٩)

١٥٨٩ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((قَالَ الله تَعَالَى: ثَلاثَةٌ انا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ اعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأجَرَ اجيرًا، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ اجْرَهُ)). رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفوح بعبق النبوة، وينضح بأنداء الوحي.. فهو يجمع بين جمال الحديث النبوي،وجلال الحديث القدسي.. حيث يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل.. ولنتأمل هذه البداية المشرقة: عن النبي ﷺ قال: "قال الله تعالى"، ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث: الإجمال ثم التفصيل، والإيضاح بعد الإبهام؛ فالقارئ والسامع يزداد تشوقه لمعرفة من هؤلاء الثلاثة الذين باءوا بغضب من الله تعالى، واستحقوا أن يكون الله خصمهم يوم القيامة، وهذا التشويق لإحداث مزيد من التأثير، وسرعة الاستجابة.. والكف عن ارتكاب المخالفات التي تؤدي إلى هذه الخصومة،وقوله: "أنا"، لإشعار هؤلاء المخالفين بهول الأمر، وفداحة الذنب،وقوله: "خصمهم".. مسند إلى ضمير المتكلم: "أنا"، وهو الله عز وجل، يوحي بأن هذه الخصومة من أعظم الخصومات لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذي يعلن ذلك.

ومن جماليات الأداء الأسلوبي: تكرار لفظ "رجل" ثلاث مرات في الحديث، حيث يتصدر بداية كل جملة من جمل الحديث في مقام التفصيل والإيضاح، وهذا التكرار يؤكد على أن الذين خاصمهم الله عز وجل مكلفون بالغون حملوا الأمانة، ولم يقوموا بحقها، ولفظ "رجل" يوحي بالتكليف وهو للتغليب، فالمرأة إذا ارتكبت هذه المخالفات

---

(١) برقم (٢٢٢٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٠٤).

الشرعية تستحق العقاب نفسه، ويكون الله عز وجل خصمها يوم القيامة.

ولنتأمل هذه المفارقات في هذه السلوكيات المخالفة: حيث تكون النتائج مخالفة للمقدمات، وذلك المسلك يخالف الفطرة السليمة، ويتصادم مع القانون الذي ينظم العلاقات بين الأشياء، إن هذا التناقض في السلوك ليس من صفة المسلم وليس من منهج المؤمن، فالعطاء يستلزم الوفاء به، ولكن المفاجأة والمفارقة تحدث في قوله: "ثم غدر"، والتعبير بـ"ثم" يوحي بالتريث والتفكير وتعمد الغدر، والصنف الثاني: باع حرًا فأكل ثمنه يتضمن مفارقة سلوكية وتعبيرية، فكيف يباع الحر؟ وبيعه يعطل عليه العبادات المختصة بالأحرار كالجمعة والحج والجهاد والصدقة، وقد ناقض هذا الذي باع حرًا - حكم الله في الوجود ومقصوده من عباده - وقوله "أكل ثمنه" كناية عن تضييع الحقوق، ولذلك عظمت جريمة هذا الصنف من الناس، والعطف بالفاء في قوله: "فأكل"، يرشد إلى سرعة هذا الرجل في الظلم، وإهدار كرامة الأحرار الشرفاء، والتضاد في مكونات الجملة الثالثة بين مقدمتها ونتيجتها يعلن عن فداحة الجُرْم في هذا السلوك، وصيغة الاستفعال في قوله: "استأجر، واستوفى"، تعلن عن الجهد الذي بذله الأجير، وعن حجم الثمرة التي جناها صاحب العمل، ولكنه ضيّع الحق ولم يعط الأجير أجره، فما أعظم هذا الجرم، والله عز وجل خصمه يوم القيامة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بالعهود وعدم الغدر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من بيع الحر، وعدم إعطاء الأجير أجره.

رابعًا: من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالحقائق.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل:

حيث جاء في الحديث "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ..."، حيث ذكر رسول الله ﷺ قول الله تعالى: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" على سبيل

الإجمال، ثم فصل بعد ذلك في قوله: "رجل أعطى بي... إلخ" الثلاثة المذكورين في الحديث، ومما لاشك فيه أن أسلوب الإجمال والتفصيل من أساليب الدعوة النافعة التي تقرب المعلومة للمدعوين، وتوضح لهم المراد، وبعد الإجمال يتطلع المدعو دائمًا إلى معرفة التفصيل للأمور، ففي هذا نوع تشويق للمدعو ولفت لانتباهه، وإثارة لفكره، وعلى الدعاة إلى الله استخدام هذا الأسلوب في دعوتهم، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الإجمال والتفصيل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ... ﴾ (١).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بالعهود وعدم الغدر:

حيث جاء في الحديث: "رجل أعطى بي ثم غدر" قال ابن حجر: "وقد جاء رواية أخرى للحديث: ومن كنت خصمه خصمته" (٢)، قال ابن التين: هو سبحانه وتعالى: خصم لجميع الظالمين إلا أنه أراد التشديد على هؤلاء بالتصريح. ومن هؤلاء... رجل أعطى بي ثم غدر"، التقدير أعطى يمينه بي، أى عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقضه"(٣)، هذا وقد دلت النصوص الشرعية على حرمة الغدر وضرورة الوفاء بالوعد والعهد، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾(٥)، قال السعدي "هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أى بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، والتي بينه

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ١٨-٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٨/٢، رقم ٨٦٩٢، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٣) فتح الباري ٤٨٨/٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ١.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع والإجارة، ونحوها والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم من التناصر والتعاون والتآلف، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها"(١).

قال ابن عثيمين: "الغدر هو خيانة الإنسان في موضع الاستئمان، بمعنى أن يأتمنك أحد في شيء ثم تغدر به، سواء أعطيته عهدًا أم لم تعطه، وذلك لأن الذي ائتمنك اعتمد عليك ووثق بك، فإذا خنته فقد غدرت به"(٢).

وقال الشيخ محمد الغزالي: والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به، التذكير والعزيمة، فإن ضعف الذاكرة وضعف العزيمة: عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب، والإنسان لتجدد الحوادث أمامه، وترادف الهموم المختلفة عليه، يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه، فتخبو المعالم الواضحة، ويمسى ما كان بارًا في نفسه لا يكاد يبين. والذكر المُطرِّد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء، فمن أين لناسي العهد أن يفي به؟ ويجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم مشدد على إنفاذه، عزم يمضي في سبيل الوفاء مهما تجشم من مشاق، وغرم من تضحيات، وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتًا شاسعًا في هذا المضمار، فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحًا، قد يكلف المال أو الحياة أو الأحبة، بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة.

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ   الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ(٣)

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من بيع الحر، وعدم إعطاء الأجير أجره:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة....، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه، ولم يعطه أجره"، وهذا يدل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٨١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٧٥.

(٣) انظر: خلق المسلم ٥٥، ٥٦.

عل الترهيب من بيع الحر وأكل ثمنه، واستئجار الأجير ثم عدم إعطائه أجره.

وقوله: ("باع حرًا فأكل ثمنه" خص الأكل بالذكر لأنه أعظم مقصود، ووقع عند أبي داود من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: "ثلاثة لا تقبل منهم صلاة" فذكر فيهم " ورجل اعتبد محررا " وهذا أعم من الأول في الفعل وأخص منه في المفعول به، قال الخطابي: اعتباد الحر يقع بأمرين: أن يعتقه ثم يكتم ذلك أو يجحد، والثاني أن يستخدمه كرها بعد العتق، والأول أشدهما، قلت: وحديث الباب أشد لأن فيه مع كتم العتق أو جحده العمل بمقتضى ذلك من البيع وأكل الثمن، فمن ثم كان الوعيد عليه أشد، قال المهلب: وإنما كان إثمه شديدا لأن المسلمين أكفاء في الحرية، فمن باع حرا فقد منعه التصرف فيما أباح الله له، وألزمه الذل الذي أنقذه الله منه، وقال ابن الجوزي: الحر عبد الله، فمن جنى عليه فخصمه سيده)[1].

وقال العيني: (إن المسلمين أكفاء في الحرية والذمة، وللمسلم على المسلم أن ينصره ولا يظلمه، وأن ينصحه ولا يغشه، وليس في الظلم أعظم ممن يستعبده أو يعرضه على ذلك، ومن باع حرا فقد منعه التصرف فيما أباح الله له، وألزمه حال الذلة والصغار، فهو ذنب عظيم ينازع الله به في عباده)[2].

وقال ابن علان: (الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِ اللَّهِ خَصْمَهُمْ أَنَّهُمْ جَنَوْا عَلَى حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَى بِهِ ثُمَّ غَدَرَ جَنَى عَلَى عَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجِنَايَةِ، وَالنَّقْضِ وَعَدَمِ الْوَفَاءِ، وَمِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوَفَّيَ بِعَهْدِهِ، وَالَّذِي بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ جَنَى عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ حَقَّهُ فِي الْحُرِّ إِقَامَتُهُ لِعِبَادَتِهِ الَّتِي خَلَقَ الْجِنَّ، وَالإِنْسَ لَهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] فَمَنْ اسْتَرَقَّ حُرًّا فَقَدْ عَطَّلَ عَلَيْهِ الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَصَّةَ بِالأَحْرَارِ كَالْجُمُعَةِ، وَالْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا وَكَثِيرًا مِنْ النَّوَافِلِ الْمُعَارِضَةِ لِخِدْمَةِ السَّيِّدِ، فَقَدْ نَاقَضَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْوُجُودِ وَمَقْصُودَهُ مِنْ عِبَاده فَلِذَلِكَ

---

(١) فتح الباري ٤/٤٨٨.

(٢) عمدة القاري ١٢/٤٢.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦..

عَظُمَتْ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَعْبَدَ الْحُرَّ وَعَطَّلَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَةِ، فَشَابَه الَّذِي بَاعَ حُرًّا وأَكَلَ ثَمَنَهُ فَلِذا عَظُمَ ذَنْبُهُ)[١].

وقال ابن حجر: (قوله: "ورجل استأجر أجير فاستوفى منه ولم يعطه أجره" هو في معنى من باع حرًا وأكل ثمنه، لأنه استوفى منفعته بغير عوض وكأنه أكلها، ولأنه استخدمه بغير أجرة وكأنه استعبده)[٢].

فإذا لم يؤد المستأجر للأجير أجره، أو أخره تأخيرًا بالغًا، فقد حمّل نفسه إثمًا عظيمًا ووزرًا وعذابًا أليمًا، وسيُقتص منه يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لتؤدن الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[٣].

وعنه أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دينارٌ ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[٤].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَعْطُوا الأجيرَ أَجْرَهُ، قبلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))[٥].

وخلاصة القول: إن بيع الحر وأكل ثمنه، وعدم إعطاء الأجير أجره من الكبائر التي ينبغي الترهيب منها والحث على اجتنابها؛ لأن ذلك ظلم، وقد ورد فيه وعيد خاص ليتبين رتبته من الظلم، وهو نوع منه، لأن الظلم وإن كان كبيرة من حيث الإطلاق ولكن بعضه أكبر من بعض[٦].

---

(١) دليل الفالحين ١٦٣٦.

(٢) فتح الباري ٤٨٨/٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٤٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨٠).

(٦) انظر: تنبيه الغافلين، ابن النحاس ص ١٨٧.

فينبغي على الداعية أن يبذل وسعه في بيان حرمة بيع الحر، وخاصة في هذا العصر، إذ أن العالم الآن تحرم قوانينه بيع البشر، ومع ذلك هناك بعض الناس الذين لا أخلاق لهم يتجرون في سرقة الأطفال وبيعهم وخاصة أطفال الدول الفقيرة، التي يستغلون حاجة أهلها للمال، ويتعاونون مع عصابات منظمة في هذا المجال، فيأخذون الأطفال فيستخدمونهم في الجريمة المنظمة، وما يتنافى مع الدين والقانون والأخلاق، أو يبيعونهم الأغنياء كعبيد، وهذا اعتداء على حقهم في الحرية، وحقهم في الحياة الكريمة، وكذلك عدم إعطاء الأجير أجره، فهو أمر لا يقل أهمية بل يفوق بيع الأحرار من الأطفال، خاصة في هذ العصر الذي كثرت فيه الشركات، والمصانع الخاصة التي يستخدم فيها العمال، ولا تعطيهم أجورهم، أو تعطيهم أقل مما يستحقون، أو تكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون، فكل هذا خطأ كبير، وإثمه عظيم، فينبغي مواجهته، وإرشاد القائمين على هذه المؤسسات والهيئات وأصحابها إلى اجتناب هذه الأشياء، حتى يخرجوا أنفسهم من دائرة الإثم والعقاب، وخصومة الله عز وجل يوم القيامة.

رابعًا – من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالحقائق:

حيث جاء في الحديث: قال الله تعالى: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" وهذا يدل على أن من أولى مهام الداعية أن يخبر المدعوين ويعرفهم بالحقائق حتى تقوم عليهم حجة البلاغ، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]، وأمر الله نبيه بالبيان فقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

قال د. عبدالكريم البكار: الوظيفة الأساسية للرسل عليهم الصلاة والسلام، ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء؛ وإنما تبليغهم الرسالة

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.
(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

التي حملهم الله تعالى إياها. وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله - تبارك وتعالى - وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان وعلى مستوى العمل، سلبًا وإيجابًا؛ وقد عبر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل حين قال سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾(1). إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس، حتى يستقيموا على الشريعة، ويعمروا الأرض، ويتراحموا بينهم.

والأنبياء وخلفاؤهم من الدعاة إذ يقومون بـ"البلاغ المبين" يكونون قد قاموا بالعمل الأساسي الذي تبرأ به الذمة أمام الله سبحانه وتعالى، وهناك آيات كثيرة تدل على هذا من نحو قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(2)، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾(3).

ويمكن أن نستجلي من الفوائد العظمى التي تجنيها الأمة من "البلاغ المبين" ما يلي:

١- جعل حياة الأمة مشدودة نحو هدف واحد، إذ أن تبليغ الرسالة يحول دون انسياق الأمة خلف أهداف مشتتة متناقضة ودنيوية. وإذا ما فقدنا "مركزية الهدف" فإن كثيرًا من أوجه التناظر والانسجام تصير شكلية، وتتحول من نقاط ارتكاز للتلاحم المجتمعي إلى معابر لتحقيق الأمجاد الشخصية والمنافع الخاصة!.

٢- إن القيام بعملية التبليغ أكبر ضمان لتحجيم الثورات الاجتماعية التي تعصف بالصالح والطالح؛ فمن خلال التذكير بالواجبات، والحث على ترك المنكرات، وبيان المبادئ الأساسية التي تبتغي مراعاتها، ينشط التبادل الاجتماعي الذي من طبيعته

(1) سورة غافر، آية: ١٥.

(2) سورة النحل، آية: ٣٥.

(3) سورة الشورى، آية: ٤٨.

الإحساس المبكر بتأزمات المجتمع واختناقاته، كما أنه يؤمن نوعًا من التوجيه للحركة الاجتماعية في مساقات محددة.

٣- إن البلاغ المبين يُعلم الناس تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهم ومجتمعهم؛ وما أصيبت الأمم بداء أخطر من فقد الشعور بالمسؤولية. ومن خلال الدعوة يتمكن الناس من معرفة ما يجب عليهم أن يفعلوه، وفي الوقت نفسه الثمن الذي عليهم أن يدفعوه إذا هم لم يستجيبوا، ومن خلال هذا وذاك تتولد الشخصية وفضيلة الشعور بالمسؤولية. ومن غير القيام بحق الدعوة والبلاغ يسود نوع من السبات والترهل في الوعي والإدراك، ونوع من الضبابية في علاقات الناس ببعضهم بعضًا.

٤- إن البلاغ المبين هو سفينة النجاة من أهوال تفسخ المجتمعات وانحلالها؛ إذ أن أضر ما يلحق المجتمعات من أذى، هو تراكم الأخطاء، وتحول العادات والتقاليد إلى شعائر وعبادات، وانتشار البدع والأنماط الخاطئة؛ مما يؤدي في النهاية إلى أن يفقد المجتمع الإحساس بهويته وأصالته.

٥- الدعوة تغرس في حسّ الناس وعقولهم وجود مرجعية عليا مطلقة "لا بشرية" توجههم، وترشدهم، وتؤطر تفكيرهم؛ وعندما تعم الفوضى، وتندرس معالم الطريق يجدون فيها شاطئ الأمان، وصلابة اليقين.

٦- إن أمة الإسلام لا تملك اليوم من الإمكانات المادية ولا من النفوذ العالمي ما يمكنها من فتح مجالات حيوية خارج حدودها؛ والشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت انتباه العالم إليها هو الدعوة والمضامين الحضارية الفريدة التي تحملها. إن إهمال أمة الإسلام للدعوة شوّه وجهها العالمي، وحرمها من الشعور بالتأنق والتميز الذي كان من الممكن أن يكون لها وحدها. أليس من الغريب العجيب أن تُدعى أمة لتتسلم مفاتيح العواصم والمدائن، فتأبى، ثم تتسوَّل كوخًا!!.

إن القيام بالدعوة - مهما تكن النتائج - شرف عظيم؛ لكن نجاح الدعوة في الوصول إلى أهدافها لا يتم بمجرد وجود أية دعوة، وإنما يحتاج إلى شروط عديدة يجب توفرها في شخص الداعية وأسلوبه، وفي نفس المدعو أيضًا، إلى جانب نجاعة الوسائل

المستخدمة حتى تؤتي الدعوة ثمارها، ويدخل الناس في دين الله أفواجا[1].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" فرّهب المولى تبارك وتعالى من أفعال هؤلاء الثلاثة، وأي ترهيب؟ إنه ترهيب عظيم، إذ أنه خصومة الله، وهذا أمر خطير لا قبل لأحد به.

قال الصنعاني: (وفي الحديث دلالة على شدة جرم من ذكر، وأنه تعالى يخصمهم يوم القيامة نيابة عمن ظلموه) [2]، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، وتحملهم على ترك المحظورات الشرعية، لأن النفس البشرية بطبيعتها تحذر العقوبة والوعيد، "والترهيب كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة[3].

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ١٤٣-١٤٥.

(٢) سبل السلام ص ٥٦٧.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الوفاء وعدم الغدر:

إن الوفاء بالعهد وعدم الغدر من الركائز التربوية التي قدرها الإسلام في تربية النشء المسلم، ونظرية الإسلام التربوية بصفة عامة في جميع السلوكيات البشرية وخاصة في الوفاء وعدم الغدر تقوم على أساس الصلة الربانية المرتبطة بالتقوى، فليست المصلحة البشرية أو العرف الجماعي هما الباعث الأخلاقي لغرس الوفاء وعدم الغدر في النفوس، بل الرقابة الإلهية هي القائمة بذلك، وهذا ما أكده النبي ﷺ في حديث الباب من قوله ﷺ: «قال اللهُ تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصمُهم يومَ القيامةِ: رجُلٌ أَعطى بي ثمَّ غَدَر...إلخ».

فالخصم هنا -عند الغدر وعدم الوفاء بالعهد- هو الله جل جلاله، وهذا معنى قوله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم»، ومن ثم ينبغي للمتربي والمتعلم أن يستمدا القيم والمقاييس من الله بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه، ومن ثم فإن الذين يخالفون العهد ويغدرون بالأمانة، ويشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً، فهؤلاء لا خلاق لهم ولا نصيب لهم في الآخرة، وعلاوة على هذا فإنهم يتصفون بصفات اليهود، ولا يليق بالمؤمن أن يشبه نفسه ويختلط عمله باليهود الذين عرفوا بالغدر والخيانة[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس هذه الركيزة التربوية من الوفاء بالعهد وعدم الغدر، كان عليهم القيام بعنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به، فإن الله أخذ على آدم أبي البشر، عهدًا مؤكدًا ألا يقرب الشجرة

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٢٣٧، بتصرف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

المحرمة، لكن آدم ما لبث أن نسي وضعف، ثم نكث في عهده.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١).

فضعف الذاكرة، وضعف العزيمة، عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب. والإنسان - لتجدد الحوادث أمامه، وترادف الهموم المختلفة عليه - يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه: فتخبو المعالم الواضحة، ويمسى ما كان بارزًا في نفسه لا يكاد يبين، ولهذا افتقر إلى مذكر دائم يغالب أمواج النسيان. ويمسك أمام عينيه ما يوشك أن يذهل عنه. وما أكثر آي القرآن التي تواردت لتصون هذا الذكر.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(٢).

والذكر المطرد اليقظ، ضرورة لازمة لتحقيق الوفاء بالعهد والبعد عن الغدر لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

فوجب على دعاة التربية غرس الذكر المطرد اليقظ في نفوس المتربين لتحقيق الوفاء بالعهد والبعد عن الغدر، فضلاً عن إيقاظ الهمة والعزيمة الوقادة في تجشم المشاق لتحقيق الوفاء بالعهد وعدم الغدر(٤).

كما ينبغي أن يكون المربي أمثل قدوة للمتربي في الوفاء بالعهد وعدم الغدر، فكثير من الوالدين إذا أراد التخلص من إحراج أحد الأولاد - وعده بالوعود الكثيرة، فيعده بشراء الحلوى، أو بالذهاب إلى الحديقة، أو بشراء دراجة، أو غير ذلك، وربما لا يقوم الوالد بذلك أبدًا، مما يجعل الولد ينشأ عن إلف ذلك الخلق الرذيل. فالذي يليق بالوالد، بل ويجب عليه إذا وعد أحدًا من أبنائه وعدًا - أن يتمه ويفي به، وإن حال بينه

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٤) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٥٥، ٥٦ باختصار.

وبين إتمامه حائل اعتذار من الولد، وبين له مسوغات ذلك[١].

ثانيًا: التربية على أداء الحقوق والواجبات:

إن الإسلام كمنهج تربوي يحيط حقوق الناس بسياج قوي بين القول والعمل وبين الحدود والتعازير حتى يعيش المجتمع الإسلامي في جو آمن كريم[٢]، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية على أداء الحقوق والواجبات في نفوس المتعلمين والمتربين.

وهذا ما ظهر في حديث الباب من قوله ﷺ عن رب العزة: «ثلاثةٌ أنا خَصمُهم يومَ القيامةِ: ...، ورجلٌ باع حُرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيراً فاستَوفى منهُ ولم يُعطِه أجرَه».

ومما لا شك فيه أن أكل الحقوق وعدم أداء الواجبات، داءٌ عضال، إن أصاب الأمة أفقدها توازنها الإيماني، وأهدم ميزانها الأخلاقي، وأورثها ذلاً يدهده عزها، ويكسّر ولاء أفرادها، فلا نجد فيها إلا مجتمعًا لصوصيا، سُرق فيه الحق، وأُضيع فيه الأجر، فكيف يرجى من أفراده إعزاز دينهم ونصرة أمتهم، وقد فقدوا هويتهم وانتمائهم؛ لذا كان من أوجب الواجبات وأقدس المهمات التربوية التي تقع على كاهل دعاة التربية والتوجيه غرس أداء الحقوق والواجبات في نفوس المتربين؛ لما في ذلك من بث روح الإخاء والعدل بين المسلمين لخلق جو إسلامي كريم يحافظ على تماسك بناء المجتمع ويرقى به.

ثالثًا: التربية بالترهيب:

إن الغدر وعدم إيفاء العهود من أعظم ما شُدد فيه النكير، وعظم فيه النذير، وهذا ما دللت عليه أحاديث الباب حيث تم الترهيب من ذلك بربط الغدر والنفاق في خصلة واحدة، حيث قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا...إلخ»، وقد اشتد الترهيب في تربية النفوس على عدم الغدر، في أحاديث الباب من ذكره ﷺ الأثر السيئ، لخصلة الغدر يوم القيامة، إذ يعلن عن صاحبها ويخزى بين الخلائق[٣].

وذلك في قوله ﷺ: «لِكُلِّ غَادرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، ...إلخ».

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ١٣٨.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٢٣٩.

(٣) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٧٤.

وبلغ الترهيب منتهاه ببيان أن الغادر محروم من رحمة الله ورضوانه، بل إنه خصم له يوم القيامة، فيمن يكون خصمًا لهم، وذلك في حديث الباب من قوله ﷺ وعن رب العزة "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ...إلخ".

"وبناء على ذلك، كان الترهيب من أعظم الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في كل زمان ومكان إذ لا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف النشء أن هناك نتائج مؤلمة، وراء عمله وسلوكه المعيب، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك"[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦.

٢٧٨- باب النهي عن المنِّ بالعطية ونحوها

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[البقرة: ٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً﴾[البقرة: ٢٦٢].

الحديث رقم (١٥٩٠)

١٥٩٠- وعن أَبي ذَر ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: ((**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ**)) قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مِرارٍ: قَالَ أَبُو ذرٍ: خَابُوا وخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رسول الله؟ قَالَ: ((**المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ**)). رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ لَهُ[2]: ((**المُسْبِلُ إزَارَهُ**)) يَعْنِي: المُسْبِلُ إزَارَهُ وَثَوْبَهُ أسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ لِلخُيَلاَءِ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

يُزكِّيهم: يطهرهم[3].

المنّان: الفَخُور على من أعطى حتى يُفسد عطاءه[4].

المنفق سلعة: المُروِّج لها[5].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب التوشيع في قوله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ...)، ولهذا الأسلوب أثر ينسحب على السياق كله فيحقق اليقظة، والترقب، والاستشراف إلى بقية

---

(١) برقم (١٠٦/١٧١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠١١).

(٢) بعد حديث رقم (١٠٦/١٧١، بدون رقم). وقد تقدم برقم ٧٩٤، أورده المنذري في ترغيبه (٣٠١١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ك و).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ن ن).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ن ف ق).

الخبر؛ فإن أسلوب التوشيع فيه نوع من الإبهام يتبعه توضيح يزيل غموضه فالمخاطب إذا سمع قول الرسول ﷺ (ثلاثة...) وهو لفظ نكرة مبهم يحتاج إلى تفسير استشرفت نفسه، وتطلعت إلى معرفة حقيقته، فإذا جاء التفسير تمكّن في النفس فضل تمكّن؛ لأنه صادف نفساً مهيأة، وتنكير كلمة (ثلاثة) بغرض التحقير إلى درجة الحرمان من كل خير.، والمتأمل لأسلوب الفصل، والوصل بين الجمل الثلاث التي وصفت بها النكرة في قوله: (لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم) يجد أن الجمل الثلاث الأولى جاءت بالسلب منفية بـ (لا) تُجرِّد النكرة من أجر الثواب، وصالح العمل.، ثم تُقرر الجملة الاسمية الأخيرة (ولهم عذاب أليم) وهي للدوام والثبوت المفاد من اسميتها تقرر بتقديم المسند وهو الجار والمجرور على المسند إليه، ثم بوصف المسند إليه وصفاً على المبالغة قَطْعَ كل وهم يستبقي لهم شيئاً قليلاً من الأمل.، والجمل الثلاث يلزم بعضها بعضاً من جهة المعنى، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه محروم -لا أشك- من نظره إليه، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه غضباً لا يكون محل تزكيته، ثم من كان كذلك كله ليس له إلا العذاب الأليم، والجمل الثلاث وصلت بالواو للتناسب، وعدم المانع، وإذا كان العطف يقتضي المغايرة، فهي حاصلة بالتنويع، لأنها ألوان ما بين الألم النفسي والمعنوي والحسي، ثم جاء التكرار لهذه الجمل ثلاثاً كما -حكى الصحابي- فصعَّد الوعيد والإنذار، وبلغ به أعظم درجة في أنفس المخاطبين، وقرر المعنى تقريراً لا يترك للمخاطب تعلة أو تحلة، يتحلل بها من تبعات ما ألقي إليه، أو يتعلل بها حين تكون استجابته غير متكافئة لما عليه موقف الرسول ﷺ من عناية واهتمام، فهذا التكرار بهذه الجمل الثلاث ارتقى بإحساس المتلقين لدرجة الخطر المحدق بكل متكبر أو منان أو كذاب، وصوَّر فِعالهم شبحاً يطارد في النفوس الإحساس بالعجب، أو الرغبة في المن، أو الجرأة على الحلف كذباً مما يقوِّم الخطأ ويصلح النفوس، نضيف إلى ذلك الامتزاج بين التكرار المعنوي المطبق لألوان الحرمان من كلام الله، ثم نظره، ثم تزكيته، ثم المآل إلى العذاب الأليم مع التكرار اللفظي الذي يصفع هؤلاء المخطئين، ويزلزل بنيان الرغبة في الشر، ويزيله من نفوسهم.

وقولـه (المسبل) المرسل لإزاره وثوبه' وهو كناية عن موصوف وهو المتكبر المختال المتعالي على الناس، وهذه الكناية تبيّن موضع الخطأ، وتدلل عليه وتوضح سبب الطرد من النعم، وأنه يرجع إلى تعالي هذا المتكبر،واختياله وتدلل الكناية على ذلك بأنه يجر ثوبه خيلاءً وزهواً على غيره، وقوله: (المنان) المن القطع، واستخدام لفظ المنان بمعنى القاطع للذي يفسد ما أعطى، ويبطله بالحديث عنه تيهاً وعجباً وإيذاءً لمشاعر المحتاجين، والفقراء على سبيل الاستعارة فقد استعار (المن) الذي هو القطع الذي يتعلق بالأمور الحسية لمن يضيع ثوابه بالحديث عنه عجباً وفخراً بجامع فعل ما يمنع الخير في كلٍ على سبيل الاستعارة التصريحية.

والمتأمل لأسلوب الرسول ﷺ البلاغي في تقويم هذه الأخطار، ومقاومة هذه النماذج السيئة في المجتمع المسلم يرى أنه لم يواجه هؤلاء بالعقاب دفعة واحدة، وإنما استخدم أسلوب التدرج تصعيداً للهول، وارتقاءً به في مسارب النفوس حتى يتغلغل فيها فيطرد شبح الكبر والخيلاء والتعالي على الناس بالمن والإيذاء، أو التجرؤ على الكذب والحلف عليه خداعاً للغافلين[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، د. ناصر راضي الزهري إبراهيم، ١٦٠ .

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٧٩٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب المخالفات الشرعية:

إن التربية الإيمانية تهيب بالمؤمنين وبالقائمين على أمور التربية والتوجيه ضرورة اجتناب المخالفات الشرعية، وهذا ما يستفاد من حديث الباب، حيث التربية على اجتناب الإسبال لما فيه من كبر، واجتناب المنّ لما فيه من عجب ورياء، واجتناب إنفاق السلعة بالحلف الكاذب، وذلك في قوله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ..إلخ».

وقد بدأ الحديث بتوجيه همم المربين إلى تربية النشء على اجتناب الإسبال لما فيه من كبر.

"والكبر من أخطر أمراض النفوس الباطنة، والتي تدل على ضعف تدين المتربي، مما يورثه اختلالاً في صحته النفسية"[1].

وهذا ما أكده ابن الجوزي في قوله: "إن الكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير، وذلك يكون بسبب الترفع على ما هو دونه، إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة، أو غير ذلك، وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه، والاحتيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له"[2]، ولما كان الإسبال طريق ذلك وجب تربية النشء على اجتنابه، وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه علاج ما كان من كبر في نفوس المتربين لما بهم من إسبال، وجب عليهم علاج ذلك بأمرين:

الأول: وينقسم إلى نوعين: علمي وعملي: فالعلمي: في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر، وأما العملي فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم، وأما الثاني: فإنه ينظر إلى رذائل النفس، وأن يعلم أن من يتكبر به، إن كان مالاً فهو مأخوذ منه عن قريب، والفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به، لأن الغني بالشيء فقير إليه، وإن كان

---

(١) التدين والصحة النفسية، د. صالح بن إبراهيم الصنيع، ٢١٦.

(٢) ذم الهوى، ابن الجوزي، ص٣١.

علمًا فقد سبقه خلق كثير أعلم منه، ثم علمه ينهاه عن حالته، فهو حجة عليه، كذلك إن كان عملاً تم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصه....إلخ[١].

أما المنُّ بالعطية فهو سقط أخلاقي في تربية النفس، وشجٌّ حسي في شعور الآخرين، وقد صدَّر له الإمام النووي باب الحديث في النهي عن المن بالعطية، لإرشاد المربين والمعلمين إلى أهمية وضرورة اجتنابه في سلوكيات المتربين، لاشتمال المنِّ بالعطية ضمنًا على التغافل عن الاعتراف بمالك العطية بداءة وهو الله، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقد ورد في حديث الباب أن المنان، له عقوبة مثل عقوبة المسبل إزاره، وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء، ومثل عقوبة المروج لسلعته بالحلف الكاذب[٤]، وهذا مما يدفع بأهل التربية إلى الاهتمام بتوجيه المتربين إلى اجتناب المن بالعطية، لما يحوي في طياته معنى الرياء والعجب والبخل كما قال القرطبي:

إن المن غالبًا يقع من البخيل والمعجب، فالبخيل تعظم في نفسه العطية وإن كانت حقيرة في نفسها، والمعجب يحمله العجب على النظر لنفسه بعين العظمة وأنه منعم بماله على المعطي، وإن كان أفضل منه في نفس الأمر، وموجب ذلك كله الجهل، ونسيان نعمة الله فيما أنعم به عليه، ولو نظر مصيره لعلم أن المنة للآخذ لما يترتب من فوائد[٥].

أما ترويج السلعة بالحلف الكاذب، فهي الكبيرة الثالثة، والتي يجب على دعاة التربية غرس اجتناب ارتكابها، في نفوس المتربين، لما في ارتكابها من وأد حرارة الإيمان في القلوب، وتكون التربية في ذلك بغرس عظمة الله في القلوب، بذكر أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، ليس ذلك فحسب بل وإقامتها في النفوس مقامًا فعليًا، وذلك

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٢٩٩/٣.

بجعلها منهج حياة للمتربي، فإن أراد أن يعصى أو يحلف كاذبًا تذكر أن الله هو السميع العليم الرقيب المجازى على الأفعال والأقوال، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد بلغ الترهيب كأسلوب تربوي في حديث الباب مبلغًا عظيمًا، يؤكد أهميته في التربية، حيث رهب النبي ﷺ في الحديث من الإسبال والمن وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، وذلك في قوله: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»..إلخ.

والترهيب كأسلوب تربوي يعني تهديد بالعقاب على عمل قبيح قولاً كان أو فعلاً، وهو أسلوب يتفق والطبيعة النفسية للمتربي، حيث التأثر بما يثير الخوف في نفسه مما يدفعه إلى اجتناب التهديد[1].



(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ٢١٨، ٢١٩.

٢٧٩- باب النهي عن الافتخار والبغي

قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[النجم: ٣٢]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى: ٤٢].

الحديث رقم (١٥٩١)

١٥٩١- وعن عياضِ بن حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ: **((إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ))** رواه مسلم[1]. قال أهل اللغة: البغي: التعدي والاستطالة.

ترجمة الراوي:

عياض بن حمار: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٠٢).

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (إن الله أوحى إلي) يشير إلى أنه أمر علوي يستلزم مزيد عناية به لأن مباشرة الملك لأمر من الأمور له دلالة تشير إلى أهميته، ثم إن توكيد الخبر تنبيه على فضله، والعناية به يدعم هذا المعنى الذي غفل الناس عنه، وهو عظيم الأثر في علاقة العبد بربه، وبالناس فالمتكبر المتفاخر مبغوض من الله، ومبغوض من الناس، والتواضع تفاعل يشير إلى إشتراك أكثر من واحد في الفعل، وهو الخضوع، والتذلل، وخفض الجناح، وهي أمور تحقق التحابب، والتقارب بين المسلمين وقد جعل غاية هذا التواضع ترك الفخر، ورد الحقوق، وعدم البغي؛ لأن الكبر بطر الحق وغمط الناس، والتواضع ضده، وقوله (لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) أسلوب نفي

---

(١) برقم (٦٤/٢٧٦٥)، واللفظ لأبي داود (٤٨٩٥). وتقدم برقم ٦٠٢، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٦٥) وعزاه لمسلم وأبي داود، وابن ماجه، واكتفى المؤلف بذكر مسلم، ولم ينتبه أن اللفظ لأبي داود.

يشير إلى غاية الوحي بالتواضع، وتنكير (أحد) في الموضعين، وتكرارها تعميم للحكم يجمع الأمة تحت مظلته.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٠٢).

الحديث رقم (١٥٩٢)

١٥٩٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**إِذَا قَالَ الرجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أهْلَكُهُمْ**)) رواه مسلم[1].

الرواية المشهورة: ((أهْلَكُهُمْ)) برَفعِ الكاف وروي بنصبها[2]: وذلكَ النهيُ لِمنْ قَالَ ذَلِكَ عُجْبًا بِنَفْسِهِ، وتَصَاغُرًا للنَّاسِ، وارْتِفاعًا عَلَيْهِمْ، فَهَذَا هُوَ الحَرامُ، وَأمَّا مَنْ قَالَهُ لِما يَرَى فِي النَّاسِ مِنْ نَقْصٍ في أمرِ دِينِهم، وقَالَهُ تَحَزُّنًا عَلَيْهِمْ، وعَلَى الدِّينِ، فَلاَ بَأسَ بِهِ. هكَذَا فَسَّرَهُ العُلَمَاءُ وفَصَّلُوهُ، وَمِمَّنْ قَالَهُ مِنَ الأئِمَّةِ الأعْلامِ: مالِكُ بن أنس[3]، وَالخَطَّابيُّ[4]، والحُميدي[5] وآخرونَ، وَقَدْ أوْضَحْتُهُ فِي كتاب: " الأذْكار "[6].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أهلكهم: أشدهم هلاكًا [7].

الشرح الأدبي

إن من سمات المسلم التواضع، وتجنب الافتخار والبغي، وعدم المبالغة في العُجب والزهو بالنفس، وهذا الحديث يرسي قاعدة من قواعد المنهج الإسلامي في سلوك المسلم وموقفه من الآخر، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة: وهي جملة شرطية تتكون من مقدمة ونتيجة، فالمقدمة هي فعل الشرط وأداة الشرط: "إذا قال

---

(١) برقم (١٣٩/٢٦٢٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٦٣).

(٢) قال مسلم عقب الحديث: قال أبو إسحاق: لا أدري (أَهْلَكَهُم) بالنَّصب، أو، : (أَهْلَكُهُم) بالرَّفع.

(٣) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر (٢٤٢/٢١).

(٤) معالم السنن (١٢٢/٤).

(٥) الجمع بين الصحيحين (٢٨٧/٣).

(٦) (ص: ٥٦٣).

(٧) شرح مسلم، النووي ١٥٦٠.

الرجل: هلك الناس، والنتيجة: جواب الشرط: فهو أهلكهم، وأداة الشرط: "إذا"، تعلن عن أن القول واقع حقيقة وليس افتراضًا لأن "إذا" تفيد التحقق: فلا بد أن يصدر القول من الرجل: ومقول القول: جملة: هلك الناس.. ودلالة هذه الجملة. أي: فسد الناس وفسقوا، وابتعدوا عن جادة الصواب، حسب رأي القائل، والعقوبة التي تترتب على هذا القول مصدرها الدافع إلى هذا القول، فإذا كان بدافع الإعجاب بالنفس، واحتقار الآخرين، وازدرائهم فهذا سلوك مرفوض، وقول ممقوت.. وجزاؤه أن هذا القائل هو أكثر الناس هلاكًا.. وابتعادًا عن النهج الصحيح، لأنه لا يدري سر الله تعالى في خلقه، ولكن إذا قال ذلك - كما يقول مالك - تحزنًا عليهم لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم من الابتعاد عن النهج الصحيح، فلا بأس.. أي أنه لا يستحق العقوبة.

وجواب الشرط: فهو أهلكهم، يتمم جملة الحديث، وقد اقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

واسميةُ الجملة هنا يوحي بثبات هذا العذاب وتحققه في ضوء نية القائل وتوجيه قوله، وأفعل التفضيل في قوله: "أهلكهم"، يوحي بشدة عقاب من يفتخر بنفسه، فهو أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع وترك الافتخار على الناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الألفاظ الخاطئة.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

الشرط: حيث جاء في الحديث: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تشد انتباه المدعو، وتبين له مدى ارتباط الشرط

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

بالجزاء، فالجزاء من جنس العمل، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾[1].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع وترك الافتخار على الناس:

حيث جاء في الحديث قوله: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، قال النووي: (قال الخطابي معناه لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم)[2].

وقال المازري: (محمل هذا عند بعض العلماء: على أن القائل قال ذلك ازدراءً بالناس واحتقارًا لهم وإعجابًا بنفسه؛ فأما قوله على جهة الإشفاق والتفجع لذهاب الصالحين، وتفضيل من مضى من الأولين، فإنه خارج عن هذا، والقصد يغير أحكام اللفظ، والأول عنوان الكبر والاستهزاء بالناس وهو مذموم، والثاني عنوان الإشفاق والتقصير بالنفس، وتعظيم السلف، وذلك لا يكون مذمومًا)[3].

وقال القاضي عياض: (وقيل هذا في الغالين والمبتدعين الذين يقولون: هلك الناس استوجبوا الخلود في النار بمعاصيهم، والذين يؤيسون الناس من رحمة الله)[4].

وقال النووي: (اتفق العلماء على أن الذم في قوله: "هلك الناس" إنما هو فيمن قاله على سبيل الازدراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه)[5].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضل التواضع، وخطورة الافتخار على الناس قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٦٠.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٨٤/٢ - ٣٨٥.

(٤) المرجع السابق ١٠٤/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٦٠.

حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، وقال ﷺ: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"[٣]، وكان ﷺ يقول في دعائه "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة"[٤]، وقال ابن القيم: قال ابراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة. وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله ولو سمعه من أجهل الناس قبله، وقال الجنيد بن محمد: التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب[٥].

وقال السعدي: "والتواضع هو أصل الدين وروحه والتكبر منافٍ للدين، والتواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، فعلى الإنسان أن يتواضع لعباد الله ويلين لهم، ويحب لجميعهم الخير، وينصح لهم في كل حالة من أحوالهم، ويحترم الكبير ويحنو على الصغير، فطوبى للمتواضعين، وويل للمتكبرين المتجبرين"[٦].

جاء في موسوعة فقه القلوب: والتواضع أن يخضع العبد للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ويتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والانقياد له، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه.

وبهذا يحصل للعبد خلق التواضع.

وحقيقة التواضع: خضوع العبد لصوله الحق، وانقياده لها، وخفض الجناح، ولين الجانب.

والتواضع خلق جميل ينشأ من معرفة جلال الرب وعظمته، ومعرفة نعمه وإحسانه، ومعرفة نقص الإنسان، فيتولد التواضع من الإنسان الضعيف الناقص لربه ذي الجلال والإكرام.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٥٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١٧).

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٤٢/٢.

(٦) الرياض الناضرة ص ١٠٨.

والتواضع على ثلاث درجات:

الأولى: التواضع للدين، وهو الانقياد والتسليم والإذعان لكل ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يعارض شيئًا مما جاء به، ولا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه ناقص الدلالة أو غيره كان أولى منه.

ومن عرض له شيء من ذلك فليتهم نفسه، وليعلم أن الآفة منه لا من الدليل.

وإذا رأى العبد من أدلة الدين ما يشكل عليه فليعلم أنه لعظمته وشرفه لم يدرك معناه، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم لم يؤت مفتاحه.

ويقدم نصوص الكتاب والسنة على آراء الرجال، ولا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه ولا بلسانه، ولا بفعله ولا بحاله.

الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وأن لا ترد عن عدوك حقًا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

فإذا كان الله رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟

فإن عدم رضاك به وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده هو عين الكبر.

وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته، وسيده راض بعبوديته؟.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّة؟ كلُّ ضعيفٍ مُتضعَّف لو أقسَمَ على الله لأبرَّه. ألا أخبرُكم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُستكبِرٍ»[2].

وكذلك تقبل الحق ممن تحب وممن لا تحب، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

ومن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًا كان أو باطلاً، وتكل سريرته إلى الله تعالى.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٧٢ واللفظ له، ومسلم ٢٨٥٣.

وعلامة الكريم أنه إذا رأى الخلل في عذره لا يوثقه عليه ولا يحاجه، بل يصفح عن المعتذر فورًا، ويقول: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضي شيء لكان، والمقدر لابدَّ واقع ونحو ذلك.

الثالثة: أن تتواضع للحق سبحانه، وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك.

ولا يكون باعثه لك على عبادته داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، بل يكون باعثه على العبودية لربه مجرد الأمر، ولا ترى لنفسك حقًا على الله لأجل عملك؛ بل تكون مع الله بالعبودية والفقر المحض، والذل والانكسار. فمتى رأى لنفسه على ربه حقًا صارت معلولة، وخيف منها المقت، وخشي عليها الطرد والإبعاد.

ولا ينافي هذا ما أحقه الله وأوجبه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره، وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، فلا يدخل أحد الجنة بعمله أبدًا، ولا ينجيه من النار كما قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ. وَلاَ يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلاَ أَنَا. إِلاَّ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ»[(١)(٢)].

ثالثًا - من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الألفاظ الخاطئة:

حيث جاء في الحديث: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، حيث حذر المسلم من قول: "هلك الناس"، قال النووي: والمراد أشدهم هلاكًا وذلك إذا قال ذلك على سبيل الاحتقار للناس، قال الخطابي: لا يزال يعيب الناس ويذكر مساويهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أى أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه وأنه خير منهم فيهلك. وقال مالك: إذا قال ذلك تحزنًا لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم فلا أرى به بأسًا، وإذا قال ذلك عجبًا بنفسه وتصاغرًا للناس فهو المكروه الذي ينهى عنه. قلت: أى النووي: وهو أحسن ما قيل في معناه وأوجز"[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨١٧.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٢/١٩٧٣-١٩٧٥.

(٣) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٩٨-٢٩٩.

ومما يدل على حرص النبي ﷺ على توجيه المدعوين إلى مجانبة الألفاظ الخاطئة ما جاء عن جابر بن عبدالله: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ. فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتِ: الْحُمَّى. لاَ بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا. فَقَالَ «لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى. فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ. كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[١].

ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء عن عمران بن حصين قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ. فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا. فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ»[٢]. وفي رواية: «لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة»[٣].

وعن زيد بن أسلم «أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ، فَدَعَا خَادِمَهُ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَعَنَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُكَ، اللَّيْلَةَ، لَعَنْتَ خَادِمَكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ النبيَّ ﷺ دَخلَ على أعرابيٍ يَعودهُ، قال: وكان النبيُّ ﷺ إذا دخلَ على مَريضٍ يعودُهُ قال: لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله. فقال له: لا بأسَ، طَهورٌ إن شاءَ الله. قال: قُلْتَ: طَهورٌ؟ كلا، بل هي حُمى تفور - أو تَثور على شيخ كبير، تُزِيرُه القُبور. فقال النبيُّ ﷺ: فنعم إذًا»[٥].

ومن خلال هذه النصوص والتوجيهات يتبين حرص النبي ﷺ على توجيه المدعوين إلى ترك الألفاظ الخاطئة، وفي هذا ينبغي أن يقتدى الدعاة الهداة بإمامهم ونبيهم ﷺ، وأن يحرصوا على إرشاد المدعوين إلى ترك الألفاظ الخاطئة ويحذروهم من ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٩٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٨.

(٥) أخرجه البخاري، ٣٦١٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: غرس خلق التواضع في نفوس المتربين:

لقد جاء الإسلام ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولهذا فقد أمر النبي ﷺ بالتواضع، ونهى عن الكبر، يقول ﷺ: «إِنَّ اللّهَ تَعَالىٰ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ....»، وذلك أن النبي ﷺ أراد للأمة أن تكون متآخية، لا مكان بين أفرادها للأحقاد التي تنشأ عن تكبر بعض الناس على بعض.

وخلق التواضع يحرص عليه كل نبيل وعظيم، لأن المرء كلما علت نفسه رآها صغيرة، ورأى الآخرين خيرًا منه، فعرف أقدارهم، بعكس المتكبر الذي يحلله التربويون بأن كبره عبارة عن خلق باطني لديه، حيث يرى نفسه فوق من يتكبر عليه، بحيث يكون هذا مبدأ عنده، ومن ثم يظهر في الواقع الخارجي من خلال الأعمال التي تصدر عن جوارحها[١].

والتواضع يجلب لصاحبه ما لا يجلبه المال وإن كثر، ويحقق ما لا يقدر بثمن، ألا وهو محبة الناس، وما ذلك إلا لأن البشر ينفرون من المتكبر، ويفرون من لقائه، لأنه يطمس معالم الإنسانية ويتجاوز حدود اللياقة الاجتماعية، فيبغضه الناس ويكرهون لقاءه، بخلاف المتواضع الذي يحترمهم، ويقدر مشاعرهم ويوطئ أكنافه لهم، ويتيح لهم سبل الإفصاح عن إنسانيتهم، والإعراب عن وجودهم، لذلك تراهم يقبلون عليه ويحبونه، ويرفعون من شأنه، وينشرون ذكره[٢].

ثانيًا: التربية بالتوجيه المباشر:

وذلك في قوله ﷺ: «إذا قال الرجل هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ» فذلك توضيح للحقيقة مباشرة للمتلقين، فالذي يسم الناس بالحقارة والفساد تعاليًا عليهم، فهو

---

(١) الشخصية، د. ناصر بن عبدالله التركي، ص٤٤٤.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ١٩/١٦.

أكثرهم دنوًا وحقارة؛ لأنه ما قال هذه الكلمة إلا كبرًا وتعاليًا على الآخرين، فحق له أن يبوء بمثل ما رمى به إخوانه، بل إنه سيكون أقلهم قدرًا، وأوضعهم مكانًا.

ويعتمد أسلوب التوجيه المباشر على توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر، فيقوم بتلقين الفرد المراد تغيير سلوكه أو تقويمه أو تعزيزه تلقينًا مباشرًا، فيلقى الكلام إلى السامع مباشرة بصورة جلية[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص١٥٤، ١٥٥ بتصرف.

٢٨٠- باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام إلاَّ لبدعة في المهجور، أوْ تظاهر بفسقٍ أوْ نحو ذلك

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

الحديث رقم (١٥٩٣)

١٥٩٣- وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لا تَقَاطَعُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَث**)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا تدابروا: لا يُعط كلٌّ واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره[2].

الشرح الأدبي

من أكثر الصفات التي حاربها الإسلام بتعاليمه صفة الفرقة، والقطيعة التي كانت تمزق المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وقد جاء الإسلام، ليوحد أهل الأرض تحت كلمة واحدة، وهي كلمة التوحيد، ولا يمكن أن يتم ذلك في ظل القطيعة، والفرقة، والبغضاء والحسد، وأمراض القلوب، وإنما يتم ذلك إذا كان المؤمن نقي القلب طاهر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩)، واللفظ للترمذي (١٩٣٥)، تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه (٤٠٦٤)، وتقدم برقم (٢٣٥).

تنبيه: هذا الحديث تقدم برقم (٢٣٥) وكان بلفظ مسلم، وكرره المؤلف هنا وهذا لفظ الترمذي، وبنحوه عندهما. ولذلك جرى التنبيه عليه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ب ر).

النفس مشغولاً بطاعة الله لا بمشاحنة الناس لذلك جاء نهيه ﷺ عن مثل هذه الأخلاق الرديئة حفاظاً على حال الفرد والجماعة، وأولها قوله (لا تَقَاطَعُوا) نهيا عن القطيعة التي تمنع الصلة المحققة لوصل الله للعبد، وقوله: (ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر، وقوله : (ولا تباغضوا) نهيا يقوِّم خطأ التباغض، وهو تفاعل من البغض، وهو الكراهية التي تترتب على القطيعة والتدابر، وقد نهى عنهما أولاً وهما يمنعان الصلة الحسية، والبغضاء تمنع الصلة القلبية، أيضاً ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره؛لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، ، وقوله (وكونوا عباد الله إخوانا) تتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها، ويضيف إليها فيما ورد في الجملة بعدها، فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة، وقوله : (وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ) والتعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر. وقوله (لمسلم) قيَّد الحكم بالمسلم تعريضاً بنفي الإسلام عن الهاجرين بنفي الإسلام عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مسلم) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر أخيه)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المسلم كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل.وقد جاء المفعول

بلفظ مشع يضيء حوالك النفس وقت الخصومة ويكشف ظلام القلب ساعة الغضب (أخاه) والمقصود الأخوة في الصفة السابقة، صفة الإسلام التي تفضل في الرحمة والإشفاق أخوة الأصلاب؛ لأنها تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها كما مر في الحديث قريباً.،وقوله (فوق ثلاث ليال) اختبار العدد (ثلاث) رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ وتعود النفس اللوامة التي تراجع صاحبها، ولأن الهاجر غضبان والغضب يعمي العين يصم الأذن فاحتاج لفترة سكون(١) والتعبير بـ (ليال) دون أيام لأن الليالي أدعى لتوفير السكون والهدوء الذي يجعل النفوس تراجع أصحابها بعد سكون الغضب وهي السبيل للتخلص من التعب النفسي والجسدي المانع من سلامة التفكير وتدبر معاني السلوك الديني.، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث ليال) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم(٢).

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١- تحريم الهجر: قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين، وخاصة في أمر لا تعلق له بالدين، فأما الهجران لمصلحة دينية من معصية أو بدعة فلا مانع منه(٣).

---

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / صـ ٢٣٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ص ٥٠.

(٣) غمز العيون ٩٧/١-٩٨، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٢٨/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٦٦/٤، والأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، جلال الدين السيوطي ص ١٢، وأحكام القرآن، الشافعي ١١٧/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٤٢/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٧/٨-٩٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩٠/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٤٦/٥.

٢- حكم هجرة الكافر: يجوز للمسلم أن يهجر الكافر وهو كذلك فإنه لا موالاة ولا مناصرة بينه وبينه(١).

٣- هل تنقطع الهجرة بمجرد إلقاء السلام؟ ذهب جمهور الفقهاء إلى أن السلام يقطع الهجرة وتزول بمجرد سلامه(٢).

وقال الإمام أحمد لا تنقطع الهجرة بمجرد السلام بل لابد من أن يعود معه إلى الحال التي كان عليها من الكلام والإقبال(٣).

وقال ابن القاسم وأحمد بن حنبل إن كان يؤذيه لم يقطع السلام هجرته(٤).

ومن الجدير بالذكر أن ابن تيمية وابن حجر قد عدّا هجر المسلم أخاه فوق ثلاث من الكبائر، لما فيه من التقاطع والإيذاء والفساد، وثبوت الوعيد عليه في الآخرة(٥).

المضامين الدعوية(٦)

(١) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٩/٨، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠.

(٢) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٢٤٨/٢-٢٤٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩١/٤، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٤٤/١.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٥٤/١.

(٤) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٨/٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩١/٤.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣١٤/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس الهيتمي ٤٢/٢ - ٤٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٥/٤٢.

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٥).

الحديث رقم (١٥٩٤)

١٥٩٤- وعن أَبي أيوبَ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ: يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وخَيْرُهُما الَّذِي يَبْدَأُ بالسَّلاَمِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو أيوب الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٣١).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجدها تبوح بالمعاني والدلالات التي يشع بها هذا الحديث الذي يرغب في إصلاح ذات البين، ويحرم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام، ويبدأ الحديث بأسلوب النفي، وهو نفي يتضمن معنى النهي: ويثبت حرمة هجران المسلم للمسلم، حيث يقول: "لا يحل" وصيغة المضارع هنا تعلن عن ضرورة استمرار إقلاع المؤمن عن هذا السلوك وهو الهجر، إذا كان لله تعالى، والعدول عن لفظ مسلم، إلى قوله "مؤمن"، وتكرار اللفظ في العبارة نفسها يبين أفضلية صفة الإيمان، حثًا للمسلم على أن يظل في منطقة الطاعة والتصديق القلبي؛ لأن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

والهجر: هو القطيعة والخصام لعتب ومَوْجِدة.. وهذا ليس من سمات الشخصية المسلمة، ولنتأمل تكرار أسلوب الشرط في الحديث: إنه يفصل مراحل الصلح ومعالمه، وأسلوب الشرط بمكوناته: "الأداء" والشرط والجواب يفصح عن مجاهدة النفس ومقاومة رغباتها ونزعاتها في سبيل إصلاح ذات البين، وتكرار أداة الشرط: "إن"، في الجمل الثلاث يوحي بالتشكك في هذا السلوك المشين الذي يؤدي إلى القطيعة بين المؤمن وأخيه المؤمن، فشأنهما التحاب والتزاور لا التباغض والتنافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥/٢٥٦٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٥).

وجملة الشرط الأولى يأتي جوابها مجزومًا في جواب الأمر: "فليلقه" و"ليسلم عليه"، وهذه الصيغة في الجواب ترشد إلى وجوب الصلح عن طريق التلاقي والمصافحة والمسالمة والعفو والتسامح، والجملة الثانية: "فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر"، تعرض الصورة المضيئة للمصالحة ولذلك صُدر الجواب بـ "قد"، وهي للتحقيق والتأكيد.. حيث يفوز كلاهما بالأجر، وهو ثواب بدء السلام وثواب إجابته، وقيل: يثاب الأول مثل ثواب الثاني لأنه كان السبب فيه.

والجملة الشرطية الثالثة: تعرض الصورة السلبية التي نهى عنها رسول الله ﷺ، وهي عدم استجابة الطرف الثاني للمصالحة. حيث لم يرد السلام، والسلام هنا هو تحية الإسلام التي تتضمن الأمان والرحمة والبركة، سلام الله ورحمته وبركاته، وأي أمان أشمل من هذا، وأي صلح أصدق وأعظم وأجمل من هذا الإيقاع الجميل الذي يغمرنا في ظلال تحية الإسلام الطيبة المباركة، وتأكيد جواب الشرط في قوله: "فقد باء بالإثم"، لمزيد من الوعيد والتهديد للذي يحرص على فساد ذات البين، ولا يستجيب لدواعي الصلح ومبادرات السلام؛ وقوله: "باء بالإثم": أي: رجع به، وفي ذلك مزيد من التحقير والسخرية لأن هذا المعرض عن الصلح لا يجني إلا الخسران والآثام والهلاك، أما المسلم وهو الم،ستجيب للصلح والمبادر بالسلام، فهو الفائز بنعيم الله تعالى ورضوانه، وجنته وغفرانه. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن هجر المسلم لأخيه المسلم.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تحقيق الأخوة بين المسلمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٥٩٤ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٩٧، ١٥٩٨).

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

حيث ورد في قوله ﷺ: "لا يحل لمسلم..." وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية المهمة حيث يشعر المدعو بأهمية المنهي عنه وضرورة اجتنابه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(١) ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(٢) وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾(٣).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن هجر المسلم لأخيه المسلم:

حيث في قوله ﷺ: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال..." قال النووي: (قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال وإباحتها في الثلاث الأول، قالوا: وإنما عفي عنها في الثلاث لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض)(٤).

وقال ابن حجر: (قال أكثر العلماء: وتزول الهجرة بالسلام ورده، وقال أحمد: لا يبرأ من الهجرة إلا بعودته إلى الحال التي كان عليها أولاً. والتقيد في الحديث بالأخوة دال على أنه للمسلم أن يهجر الكافر من غير تقييد، واستدل بهذه الأحاديث على أن من أعرض عن أخيه المسلم وامتنع من مكالمته والسلام عليه أثم بذلك، لأن نفي الحل يستلزم التحريم، ومرتكب الحرام آثم. وقال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه، أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز، ورب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية)(٥).

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٣٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٥١١/١٠.

وقال القاضي عياض: (وقوله: "لا هجرة بعد ثلاث"، "ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث": مقتضاه من دليل الخطاب أن الهجرة في الثلاث معفو عنها، وإنما الحرج فيما بعد ثلاث؛ إذ لابد للبشر من مغاضبة، وسوء خلق، ووجد لأمر يقع بينهم، فعفي عن الثلاث. وقد يحتمل السكوت عن حكمها، لتتلطف في الشرع والنهي على ما وراءها، وهذا على من لا يقول بدليل الخطاب من الأصوليين.

وقوله: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام": يحتج به من يرى أن السلام يقطع الهجرة، ويزيل الحرج، وإن لم يكلمه. وهو قول مالك وغيره. وقال أحمد بن حنبل وابن القاسم: إن كان يؤذيه فلا يقطع السلام هجرته. وعندنا أنه إذا اعتزل كلامه لم تقبل شهادته عليه وإن سلم عليه. ومعنى قوله: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام": أي أفضلهما وأكثرهما ثوابًا.

وقوله: "يصد هذا ويصد هذا" مثل قوله: "يعرض هذا ويعرض هذا"، وأصله أن يولي كل واحد منهما الآخر عرضه، وهو جانبه. والصد أيضًا: الجانب والناحية[1].

وجاء في فتح الملهم: (وقوله: "لا يحل لمسلم أن يهجر" الهجر والهجران في اللغة بمعنى الترك، وفي العرف بمعنى ترك الشخص مكالمة الآخر إذا تلاقيا، ثم اختلفوا في حد الهجران الممنوع بهذا الحديث، فقال أكثر العلماء هو ترك السلام، فمن بدأ بالسلام خرج من إثم الهجران، كما دل عليه قوله ﷺ في آخر الحديث: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام" وهذا في الابتداء بالسلام. أما رد السلام، فهو واجب على كل حال، فمن تركه، ولو لليلة واحدة، كان آثمًا. أما ترك الابتداء بالسلام بقصد الهجران فليس إثمًا ما لم يدم ثلاثة أيام. وقيل: لايخرج عن إثم الهجران بمجرد السلام، حتى يعود على ما كان عليه، وهذا القول مروي عن الإمام أحمد بن حنبل، وابن القاسم والقاضي عياض.

والذي يظهر أن الهجران الممنوع هو ترك السلام والكلام جميعًا، فلو سلم ثم اهتمّ بترك الكلام معه، حتى في مواضع الضرورة، أو لم يجبه حينما خاطبه بشيء، كان ذلك من الهجران الممنوع، ومجرد الاكتفاء بالسلام لا يخرجه من الهجران، لأن

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٦/٨ – ٢٧.

الاهتمام بترك الكلام بعد السلام مما يؤذي صاحبه، ومقصود الحديث التجنب عن إيذائه. أما قوله ﷺ: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام" فإنه ليس معناه الاقتصار على السلام، وإنما خرج الحديث مخرج العادة، فإن المسلمين يفتتحون مكالمتهم بالسلام، فالمقصود أن خيرهما من يبدأ بالكلام ويسلم على الآخر كفاتحة لكلامه معه، لا أنه يسلم عليه، ثم يعرض عنه، لأنه حين ذلك يدخل في قوله ﷺ: "يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا".

نعم! لا يلزم من ترك الهجران ان ينبسط له انبساطه للأصدقاء، فإن الانبساط من الأمور التي هي خارجة عن اختيار الإنسان، فلو كلمه عند الحاجة، ولو مع الانقباض، خرج من إثم الهجران إن شاء الله تعالى.

قوله: "فوق ثلاث ليال" قال أكمل الدين من الحنفية: "في الحديث دلالة على حرمة هجران الأخ المسلم فوق ثلاثة أيام. وأما جواز هجرانه في ثلاثة أيام فمفهوم منه لا منطوق، فمن قال بحجية المفهوم كالشافعية، جاز له أن يقول بإباحته، ومن لا فلا".

لكن تعقبه الشيخ علي القاري في المرقاة (٩: ٢٦٢) فقال: (فيه أن الأصل في الأشياء الإباحة، والشارع إنما حرم المهاجرة المقيدة لا المطلقة، مع أن في إطلاقها حرجًا عظيمًا، حيث يلزم منه أن مطلق الغضب المؤدي إلى مطلق الهجران يكون حرامًا).

وهذا كلام وجيه يتلخص منه أن الهجران لأقل من ثلاثة أيام جائز، عند من يقول بالمفهوم ومن لا يقول به جميعًا.

ثم إن الهجران الممنوع إنما هو ما كان لسبب دنيوي. أما إذا كان بسبب فسق المرء وعصيانه، فأكثر العلماء على جوازه. قال الخطابي: (رخص للمسلم أن يغضب على أخيه ثلاث ليال لقلته، ولا يجوز فوقها إلا إذا كان الهجران في حق من حقوق الله تعالى، فيجوز فوق ذلك) وفي حاشية السيوطي على الموطأ: (قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بحديث كعب بن مالك ورفيقيه، حيث أمر ﷺ أصحابه بهجرهم" يعني: زيادة على ثلاث إلى أن بلغ خمسين يومًا. قال: (وأجمع العلماء على أن من خاف من مكالمة أحد وصلته ما يفسد عليه دينه، أو يدخل مضرة في دنياه يجوز له مجانبته وبعده).

نقل علي القاري جميع هذه الأقوال في المرقاة، ثم قال: (قلت: الأظهر أن يحمل نحو هذا الحديث على المتآخين، أو المتساويين، بخلاف الوالد مع الولد، والأستاذ مع تلميذه، وعليه يحمل ما وقع من السلف والخلف لبعض الخلف).

وحاصل ذلك: أن الهجران إنما يحرم إذا كان من جهة غضب نفساني. أما إذا كان على وجه التغليظ على المعصية والفسق، أو على وجه التأديب كما وقع مع كعب بن مالك وصاحبيه، أو كما وقع لرسول الله ﷺ مع أزواجه، أو لعائشة مع ابن الزبير رضي الله عنهم، فإنه ليس من الهجران الممنوع، والله سبحانه أعلم[1].

وقال القاضي أبوبكر بن العربي: (إن الله عز وجل خلق الخلق أشتاتًا في الأهواء؛ لأنه خلقهم من أشتات في الابتداء، ثم دعاهم إلى التآلف، وذلك ضد ما جبلهم عليه؛ لأن الله تعالى هو الداعي، وهو الميسر، وهو الخالق لكل شيء، المقدر له، فإذا يسرك لما أمرك فقد أدركت، وإذا حال بينك وبينه فقد فات، وكل ذلك علامة على الهلكة أو النجاة، ولأجل هذا ما جعل الله في الهجرة ثلاثًا؛ لأن المرء في ابتداء الغضب مغلوب، فرُخص له في التمادي على حاله حتى يسكن غضبه بالاغتسال كما جاء في الحديث، أو بالفتور مع التمادي كما جرى في العادة)[2].

وقال ابن عبدالبر: (أما قوله "فيعرض هذا ويعرض هذا" فمعناه يدير هذا عن هذا بوجهه وذلك عنه أيضًا كذلك، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن التدابر والإعراض، قال الشاعر:

إذا أبصرتني أعرضت عني ... كأن الشمس من قِبَلي تدور

وقد رُوي عن النبي ﷺ في الهجرة آثارٌ شداد فيها تغليظ، منها حديث أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من هجر فوق ثلاث دخل النار))[3]. ومنها حديث أبي خراش السلمي، عن النبي ﷺ أنه قال: ((من هجر أخاه سنة فهو كسفك

---

(١) تكملة فتح الملهم، الشيخ محمد تقي العثماني، ١١/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/٨٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩١٤ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٦).

دمه))[1]. وحسبك بحديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: ((إنه يغفر في كل خميس واثنين لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا من كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا))[2].

وهذه الآثار كلها قد وردت في التحاب والمؤاخاة، والتآلف والعفو، وبهذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وفقنا الله لما يحب ويرضى، برحمته ولطف صنعه[3].

وقال أيضًا: (وأجمع العلماء على أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، إلا أن يكون يخاف من مكالمته وصلته ما يفسد عليه دينه، أو يولِّد به على نفسه مضرة في دينه أو دنياه، فإن كان ذلك فقد رخص له في مجانبته وبعده، ورب صَرْمٍ جميل خيرٌ من مخالطة مؤذية، قال الشاعر:

إذا ما تقضَّى الودُّ إلا تكاشرًا ... فهجرٌ جميلٌ للفريقين صالحُ

واختلفوا في المتهاجرين يسلم أحدهما على صاحبه، أيُخرجه ذلك من الهجرة أم لا؟ فروى ابن وهب، عن مالك أنه قال: إذا سلّم عليه فقد قطع الهجرة. وكأنه، والله أعلم، أخذ هذا من قوله صلى الله عليه وسلم: ((وخيرهما الذي يبدأ بالسلام))[4]. أومن قول من قال: يجزئ من الصَّرْم السلام. وقال أبوبكر الأثرم: قلت لأحمد بن حنبل: إذا سلم عليه، هل يجزئه ذلك من كلامه إياه؟ فقال: يُنْظَر في ذلك إلى ما كان عليه قبل أن يهجره؛ فإن كان قد عُلم منه مكالمته والإقبال عليه، فلا يخرجه من الهجرة إلا سلام ليس معه إعراض ولا إدبارٌ. وقد روي هذا المعنى عن مالك أيضًا؛ قيل لمالك: الرجل يهجر أخاه، ثم يبدو له فيسلم عليه من غير أن يكلمه؟ فقال: إن لم يكن مؤذيًا له لم يخرج من الشحناء حتى يكلمه، ويُسقِط ما كان من هجرانه إياه. وقد ذكرنا في باب ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد، من كتابنا هذا، زيادة من الأثر المرفوع في معنى هذا الباب، وذكرنا في هذا

---

(١) أخرجه ابو داود ٤٩١٥ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٧).

(٢) أخرجه ابو داود ٤٩١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٨).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢/٨٧-٨٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم ٢٥٦٠.

الباب قوله: ((ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[١]. وفي ذلك دليل على فضل السلام؛ لما فيه من رفع التباغض، وتوريث الود، ولقد أحسن القائل:

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهمُ ودٌّ فيزرعه التسليمُ واللطف[٢]

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذا الهجر الممنوع قد يكون في بعض الأحوال مشروعًا، فإن ترك السلام والكلام الممنوع في الشرع هو ما كان بين الأخوة في الدين، فمن لم يكن كذلك جاز هجرهُ، وبسبب التقصير في الحقوق أو لوجود عيب في المهجور أو موجدة عند الهاجر، ولا يكون هذا العيب شديدًا، بحيث يبدّع صاحبه، أو يكون من المنكرات المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وإلا فيجوز هجرانُ من يظهر المنكرات حتى يتوب منها[٣]، وهجران من ترك الواجبات وفعل المحرمات والبدع.

وبناء على هذا فإن الهجر من حيث الحكم الشرعي ينقسم إلى نوعين:

الأول: الهجر الممنوع أو الهجر السلبي.

والآخر: الهجر المشروع، وهو قسمان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات، أو: وقائي مانع، وهو: الذي يتّقي الهاجر به شرَّ المهجور أو الافتتان به.

والآخر: بمعنى العقوبة على المنكرات، أو: إيجابي زاجر، وهو يحصل ممن له حقُّ الزّجر والتأديب، إما بسلطة مادية، كالحاكم، والزوج، والأب. أو سلطة معنوية، كالعالم المقتدى به، والصالح المطاع لفضله[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٢/٢ حديث رقم ٩٧٠٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٤٤٣/١٥.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٠٧/٢٢-١٠٨.

(٣) بعد نهيه وإسداء النصيحة له. وكان مذهب عمر وأبي الدرداء والنخعي وجماعة: أنهم لا يهجرون عند الذنب. وكان أبو الدرداء يقول: إذا تغيّر أخوك واعوجّ، فلا تتركه، لأجل ذلك، فإن الأخ يعوج مرة، ويستقيم أخرى. وكان رجل على حال حسنة، فأحدث -أو اذنب ذنباً- فرفضه أصحابه ونبذوه، فبلغ إبراهيم النخعي ذلك، فقال: تداركوه وعظوه ولا تدعوه. أخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٢٣٢/٤-٢٣٣.

(٤) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود سلمان ص ١٠٢-١٠٣.

ثالثًا - من أهداف الدعوة: تحقيق الأخوة بين المسلمين:

حيث جاء في الحديث "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"، وقوله ﷺ: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" قال ابن علان: (وفي التعبير بلفظ "أخاه" إيماء إلى الحث على التواصل والتحذير من التقاطع)[1] ولاشك أن من أهم أهداف الدعوة تحقيق الأخوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]. وعن عروة رضي الله عنه: ((أن النبيَّ ﷺ خطبَ عائشة إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوكَ، فقال له: أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حَلال))[3]. وقال الماوردي في فضل الأخوة: (لقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، لتزيد ألفتهم، ويقوى تضافرهم وتناصرهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الإخوان جلاء للأحزان وقال خالد بن صفوان: إن أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال علي رضي الله عنه لابنه الحسن: يا بني الغريب من ليس له حبيب)[4].

وما من شك في أن هجر المسلم لأخيه المسلم فيه مساوئ وأضرار من انقطاع النصح والتناصح، وغياب روح الأخوة والتحاب والتآلف والتوادد، ولذا رهّب النبي ﷺ من الهجر فقال: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه".

(ومن مساوئ الهجر وأضراره وآثاره: أنَّ الهجر يعطّل طاقة الخير في المتهاجرين، بالنسبة إلى بعضهما، فلا يتعاونان على فعل برّ، ولا يجتمعان على مصلحةٍ.

ومنها: أن الهجر يقضي بقبض يد المساعدة عن المهجور، وهو عقوق إن كان المهجورُ أحد الوالدين، وقطيعة رحم إن كان أحد الأقارب، والعاقّ والقاطع لا يدخلان الجنة.

ومنها: أن الهجر يعطّل حقوق المسلم بين المتهاجرين، فلا يسلّم أحدُهما على الآخر، ولا يرد سلامه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يشيّع جنازته إذا مات.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٤٠.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٨١.

(٤) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ١٦٢.

ومنها: أن الهاجر يفرح إذا أصابت المهجور مصيبة، كما يحزن إذا أصابته نعمة، وهذا مناقض لروح الإسلام، غاية التناقض.

ومنها: أن المتهاجرين محرومان مما يفيض الله على المسلمين في مواسم الخير، فصلاتهما لا ترفع، وعملهما موقوف، حتى يصطلحا.

ولو لم يكن من قبائح الهجر، إلا هذا، لكان كافيًا في الابتعاد عنه.

قال الباجي: (اعلم أنه يصفح في هذين اليومين -أي الاثنين والخميس- عن الذنوب العظيمة، ويثبت فيها لكثير من الناس الدرجة الرفيعة، فتكون بمنزلة فتح أبوابها. وقد يعبّر بفتح الأبواب عن الإقبال على الأمر والإنعام، فيقال: فتح فلانٌ باب طعامه، وباب عطائه، فلا يغلقه عن أحد، ويقال في مشاهدة حرب العدو: قد فتحت أبواب الجنة، معناه -والله أعلم- وجدت أسباب دخولها، وغفران الذنوب المانعة منها.

ومنها: أن الهجر انعزالٌ وانخزالٌ، والإسلام ينهى عنهما، ويحضُّ على الجماعة، ويجعل المنعزل المنخزل، سهل الإنقياد للشيطان، لخروجه عن عامة المؤمنين، وضرب له مثلاً بالشاة المنفردة عن الغنم، يسهل للذئب اختطافها)[1].

وقال ابن حبان البستي: (لا يحل التباغض ولا التنافس ولا التحاسد ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا كما أمرهم الله ورسوله، فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فرح فرح بفرحه، ينفي الغش والدَّغل، مع استسلام الأنفس لله عز وجل، مع الرضا بما يوجب القضاء في الأحكام كلها، ولا يجب الهجران بين المسلمين عند وجود زلة من أحدهما، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان والعطف عليه بالإشفاق، وترك الهجران.

أنشدني محمد بن الحسن بن قتيبة أنشدني حميد بن عياش:

ولا تك في حب الأخلاء مفرطا ... فإن أنت أبغضت البغيض فأجملِ

فإنك لا تدري متى أنت مبغض ... حبيبك أو تهوى البغيض فأعقل

---

(١) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود سلمان، ص ١٤٢-١٤٣.

ولا يجب للمرء أن يدخل في جملة العوام والهمج بإحداث الود لإخوانه، وتكديره لهم بالخروج بالسبب الذي يؤدي إلى الهجران الذي نهى المصطفى ﷺ عنه بينهم، بل يقصد قصده الإغضاء عن ورود الزلات، ويتحرى ترك المناقشة على الهفوات، ولا سيما إذا قيل في أحدهم الشيء الذي يحتمل أن يكون حقًا وباطلاً معًا، فإن الناس ليس يخلو وَصلُهم من رش أسهم العذال فيه.

ولقد سمعت محمد بن عثمان العقبي يقول: سمعت عبدالعزيز بن عبدالله يقول: قال محمد بن حميد:

ومن ذا من عيوب الناس ناجٍ ... بحقٍ قيل فيهن أو قراف
قبيح بي إذا خاللتُ خلا ... ولازم خُلتي أن لا أكافي
وكلُّ مودة لا خير فيها ... إذا لم تحتمل حقَّ المُصافي
فأما في الكلام فكم وفيٌّ ... ولكن في الشدائد لا يوافي
إذا أحببتُ لم أنقض إخائي ... ولم أبْن الإخاء على اعتساف
ولكن أمنحُ الكرماء وُدًّا ... ولا أدعو اللئام إلى العطاف
متى تقطعْ صديقك بعد وصل ... ولا تثبت، فعهدك غير واف
إذا ما المرء أدبر لم تُطِقْه ... وصار المستقيم إلى خلاف

سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت محمد بن عبدالرحمن يقول: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث يقول: قيل لرجل: ألك عيوب؟ قال: لا، قيل له: فلك من يلتمسها؟ قال: نعم، قال: فما أكثر عيوبك!

قال أبو حاتم: السبب المؤدي إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء: إما وجود الزلة من أخيه - ولا محالة يزل- فلا يغضى عنها ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واشٍ يقدح فيه، ومشي عاذل بثلب له فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سببًا ولا لأخيه عذرًا، وورود ملل يدخل على أحدهما، فإن الملالة تورث القطع ولا يكون لملول صديق.

قال أبو حاتم: لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام: فمن فعل ذلك كان مرتكبًا لنهي النبي ﷺ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، والسابق بالسلام يكون

السابق إلى الجنة، ومن هجر أخاه سنة كان كسفك دمه، ومن مات وهو مهاجرٌ أخاه دخل النار، إن لم يتفضل الله عليه بعفو منه ورحمة، وغاية ما أبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام.

ولقد أنشدني عبيد الله بن محمد الأنماطي قال: أنشدني محمد بن الحسن:

يا سيدي عندك لي مظلمة فاستفت فيها ابن أبي خيثمه
فإنه يرويه عن شيخه قال: روى الضحاك عن عكرمه
عن ابن عباس عن المصطفى نبينا المبعوث بالمرحمة
إن صدود الخل عن خِلِّهِ فوق ثلاثٍ رَبُّنَا حرمه[1]

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

حيث جاء في الحديث "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"، حيث رغب في البدء بالسلام، بأن من يبدأ أخاه المسلم في حال الخصام هو الأفضل. وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعو في فعل الخير، وتشجعه عليه (إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه)[2].

وأما أسلوب الترهيب فقد جاء في الحديث الثاني في قوله: "فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار" وقوله في الحديث الثالث: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" قال شرف الحق العظيم آبادي: (وإذا مات على تلك الحالة من الهجر من غير توبة استوجب دخول النار، وفائدة التعبير التغليظ. وأما قوله "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" أي هجر أخاه في الدين فهو كإراقة دمه في استحقاق مزيد الإثم لا في قدره)[3]. ولاشك أن هذا ترهيب من هجر المسلم لأخيه المسلم، وأسلوب الترهيب مما يؤثر في نفس المدعو

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٢٠٤-٢٠٧.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ٨٦.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١١٧.

ويردعه عن فعل المحظورات الشرعية (والترهيب هو التخويف والتوعد، والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، ويأتي علاجًا وردعًا، فمن الناس من يلهث وراء الشهوات ويجري وراء المادة ويشغف بالمنكر، فهذا يقرعه الترهيب ويوقفه الإنذار، ويوقظه التخويف من عواقب ما هو فيه)[1].

ومن صوراستعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[3].

---

(١) الدعوة إلى الله: الرسالة -الوسيلة- الهدف، د. توفيق الواعي، ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٢١، ٢٢.

(٣) سورة المطففين، آية:٧.

الحديث رقم (١٥٩٥)

١٥٩٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، فَيَغْفِرُ اللهُ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا، إلاَّ امْرَءًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيقُولُ: اتْرُكُوا هذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحناء: عداوة[2].

الشرح الأدبي

يحرص الإسلام على إصلاح ذات البين، وعلى أن يظل المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وتشع ألفاظ وكلمات هذا الحديث النبوي الشريف بهذا السلوك الإيماني السديد، ويبدأ الحديث بإشاعة عنصر الترغيب وتنبيه المسلمين إلى المراقبة الدائمة من الله عز وجل لهم، وهذا الترغيب تنطق به الجملة الأولى: تُعرض الأعمال في كل اثنين وخميس.

وبناء الفعل للمجهول في قوله: تعرض ليس للجهل بالفاعل إنما للعلم به وهم الملائكة الذين يتعاقبون بالليل والنهار، والجمع في قوله: "الأعمال" لإفادة الكثرة والعموم، والله سبحانه وتعالى يغفر للعبد إذا تاب واستغفر، والفعل يغفر ينبئ عن هذا الكرم الإلهي والعفو الرباني، والاثنان والخميس من الأيام المباركة التي كان رسول الله ﷺ يكثر من صومهما ﷺ.

---

(١) برقم (٣٦/٢٥٦٥). وقد تقدم برقم ١٥٧٠. تنبيه: هذا الحديث بهذا اللفظ أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٦) وقال: رواه مالك، ومسلم واللفظ له، هذا مما جعل النووي يطمئن إلى أنَّ اللفظ لمسلم كما صرَّح بذلك المنذري، وبالمقارنة بين هذا اللفظ ولفظ مسلم، تبيّن أن هذا الحديث بهذا السياق للحميدي في جمعه (٢٨٢/٣، رقم ٢٦٤٠)، فتبع النوويُّ فيه المنذريَّ، كما تبع المنذريُّ فيه الحميديَّ في جمعه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ح ن).

وفي رواية أخرى تجيء البشارة صريحة، والوعد بالمغفرة يُقرن بدخول الجنة، حيث يصرح النص بذلك، إذ يقول النص رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس.. إلخ.

والعطف بالفاء في قوله: "فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا" يوحي بالإسراع في المغفرة، والترغيب الشديد في التوبة والاستغفار.. ومداومة العمل الصالح، وجملة: "لا يشرك بالله شيئًا": وصف للمسلم الذي فاز بالمغفرة وهو قوله: "امرئ"؛ ولنتأمل أسلوب الاستثناء في قوله: "إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء": إن هذين المتباغضين لا يفوزان بالمغفرة.. ولا تُفتح لهما أبواب الجنة حتى يصطلحا.. وقوله: "اتركوا هذين": أي المتباغضين، أي: لا تدخلوهما الجنة، وقوله: "حتى يصطلحا".. لمزيد من الترغيب وإعطاء البشارة والأمل في المغفرة، إذا نزعا ما بينهما من أسباب الشقاق ونسجا معًا ثوب الوفاق، وقال العلماء: إن هذا الوعيد من الله يتوجه إلى هؤلاء الذين يتباغضون مدفوعين بالأطماع الدنيوية، والحظوظ النفسية، والدوافع الشخصية الذاتية.

أما إذا كان البغض في الله وبدافع الغيرة على الدين، فذلك لا يمنع من المغفرة تأسيًا واقتداءً بقول رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ))[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه أبو داود، ٥٤٩٩، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود، ٩٩٨).

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٧٠).

الحديث رقم (١٥٩٦)

١٥٩٦- وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: ((إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ[١] أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)) رواه مسلم[٢].

(التَّحْرِيشُ): الإفْسَادُ وتَغْييرُ قُلُوبِهِمْ وتَقَاطُعُهُم[٣].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

التحريش: الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم[٤]، قال ابن الأثير: والمعنى هنا في حملهم على الفتن والحروب[٥].

الشرح الأدبي

قول الراوي رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يؤكد الخبر؛ لأن السماع من أقوى طرق العلم التي لا تحتمل شكا فيما يروي، والحديث يبدأ بأسلوب خبري مؤكد بعدة مؤكدات تعظيما للخبر وإشارة إلى خطره، والبداية بلفظ الشيطان تجذب السمع، وتحقق الترقب لأنه علم على الشر، وذكره يستلزم الحذر، ويوحي بشر يجب أن يتقى، والتعبير بالفعل الماضي المؤكد بقد يفيد مزيد تحقيق للمعنى، والتعبير باليأس يوحي بفقدان الأمل في النفس المظلمة التي انعدم فيها شعاع النور فراحت تنتقل من باب من أبواب الشر إلى باب، وتخصيص جزيرة العرب؛ لأن الدين يومئذ لم يتعد عنها وقيل لأنها معدن العبادة، ومهبط الوحي، وقوله (في التحريش) فيه إيجاز بالحذف لأنه خبر

---

(١) لفظ مسلم في المطبوع: (أيس) بلفظ الماضي، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه. وتبع فيه الحميدي في جمعه (٢/٤١٤، رقم ١٧٢٨).

(٢) برقم (٦٥/٢٨١٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٣).

(٣) الترغيب (٣/٤٥٠).

(٤) رياض الصالحين ص ٥٥٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ر ش).

لمبتدأ محذوف أي هو في التحريش أو ظرف لمقدر أي يسعى في التحريش بينهم أي في إغراء بعضهم على بعض والتحريض بالشر بين الناس من قتل وخصومة، وأصل التحريش الإغراء على الشيء بنوع من الخداع من حرش الضب الصياد خدعه وهو ما يتناسب مع فعل الشيطان، وما له من دقائق الوسواس التي لا يفهمها إلا البصراء، والمعنى : لكن الشيطان غير آيس من إغراء المؤمنين وحملهم على الفتن بل له مطمع في ذلك قيل ولعله أخبر عما يجري فيما بعده من التحريش الذي وقع بين أصحابه أي أيس الشيطان أن يعبد فيها لكن طمع في التحريش بين ساكنيها وكان كما أخبر فكان معجزة له عليه الصلاة والسلام.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل عقيدة التوحيد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان عداوة الشيطان وتحريشه بين المسلمين.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون...". فأكد يأس الشيطان من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب.

وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو، وتبين له مدى صدق الداعية فيما يقول، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل عقيدة التوحيد:

حيث جاء في الحديث "إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" قال أبو العباس القرطبي: ("إن الشيطان قد يئس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" يعني

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

-والله أعلم- أن المسلمين في جزيرة العرب أقاموا الصلاة فيها وأظهروها، لم يظهر فيها طائفة يرتدون عن الإسلام إلى عبادة الطواغيت والأوثان)[1].

وقال ابن رجب الحنبلي: (ولم يعظم على إبليس شيء أكبر من بعثة محمد ﷺ، وانتشار دعوته في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإنه يئس أن تعود أمته إلى الشرك الأكبر)[2].

ولا شك أن هذا يدل على فضل عقيدة التوحيد، وأن العبادة لن تكون إلا لله (إن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه بنيان الأمم، فصلاح كل أمة ورقيها مربوط بسلامة عقيدتها وسلامة أفكارها، ومن ثم جاءت رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنادي بإصلاح العقيدة، فكل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[3] وهذا التوحيد أصيل في العالم والشرك طارئ عليه ودخيل فيه، وأول ما حدث الشرك في قوم نوح حين غلوا في الصالحين واستكبروا من دعوة نبيهم)[4]. وفي فضل عقيدة التوحيد قال الدكتور يوسف القرضاوي: (لقد كانت مصيبة البشرية أن ناسًا منهم جعلوا من أنفسهم، أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون، لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين، فلم يعد عندهم بشر إله، ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محل حلَّ فيه الإله، ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة. لقد كانت عقيدة التوحيد تحريرًا للإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة، وكل من خلق الله وما خلق الله، وكانت ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجرًا أم حجرًا أم بشرًا)[5].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣١٠/٧.

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس ٣٣٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٩.

(٤) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح الفوزان ص ٩/١، ١٠.

(٥) الإيمان والحياة ٢٥.

قال محمد جميل زينو: (إن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة التي خلق الله العالم لأجلها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)] أي يوحدوني في العبادة ويفردوني في الدعاء.

وأنواع التوحيد الآتية مأخوذة من القرآن الكريم:

١- توحيد الرب: هو الاعتراف بأن الله هو الرب والخالق، وقد اعترف بهذا الكفار، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

وقد أنكر الشيوعيون وجود الرب، فكانوا أشد كفرًا من كفار الجاهلية.

٢- توحيد الإله: هو توحيد الله بأنواع العبادات المشروعة، كالدعاء والاستعانة والطواف والذبح والنذر وغيرها، وهذا النوع الذي جحده الكفار، وكانت فيه الخصومة بين الأمم ورسلهم منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، وقد حث القرآن الكريم في أكثر من سوره عليه، وعلى دعاء الله وحده، ففي سورة الفاتحة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(٣)] ومعناه نخصك بالعبادة، فندعوك وحدك، ولا نستعين بغيرك؛ وتوحيد الإله يشمل إفراده في دعائه، والحكم بقرآنه، والاحتكام إلى شرعه، وكله داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[(٤)].

٣- توحيد الأسماء والصفات: هو الإيمان بكل ما ورد في القرآن الكريم والحديث الصحيح، من صفات الله التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ على الحقيقة من غير تحريف ولا تكييف ولا تفويض، كالاستواء والنزول، واليد والمجيء، وغيرها من الصفات، نفسرها بما ورد عن السلف[(٥)].

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٧.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٤) سورة طه، آية: ١٤.

(٥) مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية، ص ١٦٤-١٦٥.

وقال الشيخ محمد الغزالي: (والحق أن التوحيد روح الإسلام، وجوهر عقيدته، ومحور عباداته المنوعة، ومبدأ التوحيد يسري في تعاليمه كافة سريان الماء في النبات، أو الأعصاب في البدن.

وقد وضح القرآن الكريم حقيقته وبسط فكرته، وناقش ما قد يعرض له أو يعارضه، حتى ليعتبر التوحيد الإسلامي أصرح وأكمل ما أسسه دين في قلوب بنيه، ودمغ البشر جميعًا بطابع العبودية لله وحده، وانتزاع كل شعور يتجه بالمرء إلى تقديس كائن ما -هنا أو هناك- كل ذلك من عناوين الإسلام الأولى وليس من إشاراته الثانوية أبدًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[(١)].

والله -وحده- هو الضار النافع، الخافض الرافع؛ الذي يخذل أو ينصر، ويعطي أو يمنع.

وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه، وليس من شأن ملك في السماء أو نبي في الأرض التدخل في مشيئة الله.

فهي التي تحكم أبدًا، وإليها يُحتكم أولاً وآخرًا.

وأولياء الله أو أعداؤه لا يفرضون رغباتهم على الإرادة العليا.

ولذلك فإن من إخلاص التوحيد أن نكل ما فوق قدرتنا وإرادتنا إلى الله وحده، وأن نربط خوفنا ورجاءنا به.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾[(٢)] وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٣)].

(١) سورة المائدة، آية: ٧٢.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٦.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٨.

إن للمؤمن قبلة واحدة يوليها وجهه، ويهب لها فؤاده، ويبثها نجواه وشكواه، ويعرف على أشعتها طريقه في ظلمات الحياة.

للمؤمن صلة عليا بالله، يحدد - على أساسها- علاقاته بالناس.

وله عواطف تجيش بالأمن والقلق، والسخط والرضاء والحب والبغض، والوحشة والأنس.

ومهما اضطربت في نفسه هذه المشاعر المعتادة، فإن ضوابط اليقين تحكمها، وعرفانه بربه هو الذي ينقضها أو يبرمها.

وإذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة.

فإذا نزلت به نكبة كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله، وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله. فاعلم أن هذا الشخص قد أشرك.

ولئن كان بعض العلماء يقول: إن الشرك في العمل غير الشرك في الاعتقاد، وأن هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر. والحقيقة أن المسألة أصعب مما يتصورون، وذاك شرك أكبر.

فالشرك عين حمئة قذرة، إذا انفجرت في قلب وبدأت تسيل قطرات راشحة، توشك أن تتحول سيلاً كاسحًا، ويومئذ لا يبقى في القلب إيمان حق، ويتحول ما يسمونه شركًا أصغر إلى عين الشرك، الذي يعده الإسلام أقبح الكبائر.

والإسلام يوم حارب اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، لم يحاربها لذواتها، ولم تكن بينه وبينها عداوة شخصية، إنما حاربها لأنها احتلت من قلوب الملتفين بها مكانة السيد المتصرف من عبيده الأذلين[1]".

وقال د. محيي الدين القره داغي: (إن التوحيد الخالص هو شريعة كل الرسل والأديان السماوية، ومنهجهم المشترك منذ أن جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض،

(١) عقيدة المسلم، ص ٦١-٦٣ بتصرف.

وبعث منهم رسلاً مبشرين ومنذرين قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1] ثم يبين الله تعالى أنهم ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ثم يدعو رسوله بقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ﴾[2].

هذا هو منهج "لا إله إلا الله" في العبادة والتوحيد، والسلوك والعمل والأخلاق والآداب.

فالتوحيد والعبودية لله تعالى وحده، هي القاعدة الأساسية للانطلاق بتحريك الإيمان من القلب إلى الأعضاء ثم إلى المجتمع ممن حوله، فما الصلاة والصوم والزكاة والحج، ثم الحدود والتعاذير، والحل والحرمة، والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية إلا وتنطلق من هذه القاعدة، التي لا تقوم حياة للأمة الإسلامية قبل أن تقوم، ولا يتحقق الوجود الإسلامي إلا إذا قام على منهج "لا إله إلا الله" قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[3].

فالمجتمع الإسلامي أول شعاره "لا إله إلا الله" ويتمثل هذا الشعار في عقيدته أولاً وفي الشعائر التعبدية ثانيًا، فلا يتحقق الإيمان ولا الإسلام إلا مع الاعتقاد بوجود الله وحده، ومع الاعتقاد بأن شعائره التعبدية لله تعالى لا يشركه في ذلك أحدًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4] فالله تعالى أغنى الشركاء فلا يقبل إلا ما هو خالص لوجهه.

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٣.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ٤٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١-١٦٣.

كما لا يتحقق مقتضى هذه الكلمة إلا بأن يتلقى الأوامر والنواهي من الله تعالى وعن طريق رسله الذين بلغونا الإسلام، وآخرهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

فالمؤمن بعد ما أعطى قلبه لله تعالى فامتلأ بالإيمان والتوحيد لابد وأن يكيف إدراكه على ضوء ما يؤمر به، ثم يكيف على أساس هذه العقيدة الحقة تعامله مع ربه، ومع نفسه ومع غيره تحقيقًا لعبوديته التي لابد وأن تشمل جميع حياته ونشاطه[2].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: بيان عداوة الشيطان وتحريشه بين المسلمين:

حيث جاء في الحديث "ولكن في التحريش بينهم".

قال النووي: (هذا الحديث من معجزات النبوة ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء، والحروب والفتن ونحوها)[3].

وقال الطيبي: (قال القاضي البيضاوي: ومعنى الحديث: الشيطان أيس أن يعود أحد من المؤمنين إلى عبادة الصنم، ويرتد إلى شركه في جزيرة العرب، ولا يرد على هذا ارتداد أصحاب مسيلمة، ومانعي الزكاة، وغيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يعبدوا الصنم و"جزيرة العرب" من جفر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن طولاً، ومن رمل يرين إلى منقطع السماوة - وهي بادية في طريق الشام - عرضًا، هكذا ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى؛ وإنما سميت جزيرة العرب لأنها واقعة بين بحر فارس، والروم، ونيل، ودجلة، وفرات، وقال مالك بن أنس: جزيرة العرب مكة والمدينة، واليمن وقال: التوربشتي: (وإنما خص جزيرة العرب بالذكر؛ لأن الدين يومئذ لم يتعد عنها".

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢١.

(٢) من مقدمة تحقيق وتعليق الدكتور علي محي الدين القره داغي على كتاب: معنى لا إله إلا الله للإمام بدر الدين الزركشي، ص ٤٠-٤١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦٤٨.

أقول: -القائل الطيبي- ولعله ﷺ أخبر عما يجري فيها بعده من التحريش الذي وقع بين أصحابه ﷺ، أي أيس أن يعبد فيها، لكن طمع في التحريش بين ساكنيها، وكان كما أخبر، وكان معجزة، والتحريش: الإغراء على الشيء بنوع من الخداع، من حرش الصياد الصيد إذا خدعه، أي يخدعهم ويغري بعضهم على بعض.

أقول: - أي الطيبي - لما ذكر العبادة سماهم المصلين تعظيمًا لهم، وحيث ذكر الفتنة أخرجه مخرج التحريش - وهو الإغراء بين الكلاب - توهينًا وتحقيرًا لهم)[١].

هذا وقد حذر الله في القرآن الكريم من عداوة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[٢] قال النسفي: (إن الشيطان ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله، فاتخذوه عدوًا في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدنَّ منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم، ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه، بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته، هو أن يوردهم مورد الهلاك)[٣]. ولهذا وجب الحث على الاتحاد والبعد عن التفرق، قال الإمام الغزالي: (إن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق؛ فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر. وقال بعضهم:

وجدت مصيبات الزمان جميعه ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب[٤]

وفي الحث والتحذير من عداوة الشيطان جاء في الحديث عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))[٥].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٩/١.
(٢) سورة فاطر، آية: ٦.
(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٩٧١.
(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٧١/٢.
(٥) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

قال القاضي أبوبكر بن العربي: (وقوله "لا تباغضوا" فالبغض هو كراهية المرء أو صفاته، وأما الحسد، فهو تمني نقل النعمة من غيرك إليك، وأما التدابر، فهو اختلاف الأهواء والمقاصد؛ وهي الحالقة، فإن صلاح ذات البين بها تقوم شعائر الإسلام من الصلاة والحج، وبها تحمى البيضة بالجهاد والنصرة، وبها تجمع حقوق الفقراء من أيدي الأغنياء.

وفي قول مالك: لا أحسب التدابر إلا الإعراض.

وأصل الفساد البغض، فنهى النبي ﷺ عنه، وينشأ عن البغض الإعراض؛ وهو أول درجات التدابر، ويترتب على الإعراض اختلاف الأهواء ومروج الأمور[١]، ففسره مالك بالإعراض، وهو الأصل، حتى إذا اجتنبت وكان الإقبال، يترتب عليه اتفاق الأهواء. وأما الظن، فهو حديث في النفس عما يتوهمه المرء، فإن كان عن دليل فالعمل عليه واجب، وإن كان مسترسلاً أو عن شهوة فهو أكذب الحديث. وأما التحسس، فهو تطلب الأخبار على الناس في الجملة، وذلك لا يجوز إلا للإمام الذي رتب لمصالحهم، وأُلقي إليه زمام حفظهم، فأما عُرْض الناس[٢]، فلا يجوز ذلك لهم إلا لغرض؛ من مصاهرة،أو جوار، أو رفاقة[٣] في السفر، أو معاملة، أو ما أشبه ذلك من أسباب الامتزاج. وأما التجسس، فهو طلب الخبر الغائب للشخص، وذلك لا يجوز لا للإمام ولا لسواه. وأما التنافس، فهو التحاسد في الجملة، إلا أنه يتميز عنه بأنه سببه، وكأنه قيل له: لا ترى نفسك خيرًا من أحد، حتى يحملك ذلك على الحقد والحسد.

وأما المصافحة، فلم يرها مالك في السلام؛ لأنه لم يسمع حديثها، وقد اجتمع مع سفيان، فصافحه سفيان وقال له: كذلك صافح النبي ﷺ لجعفر حين قدم من أرض الحبشة. وقال البراء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا))[٤].

---

(١) مروج الأمور: أي اختلاطها. انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (م ر ج).

(٢) يقال: هو من عُرْض الناس: أي من العامة. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (ع ر ض).

(٣) الرفاقة: الجماعة ترافقهم. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (ر. ف. ق).

(٤) أخرجه أبو داود ٥٢١٢ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٤٣).

وأما المحبة فقد قال جماعة من العلماء: إن المحبة هي الإيثار، ألا ترى إلى امرأة العزيز لما تناهت قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾(١) ففدته بنفسها، ولما دخل الصديق مع النبي ﷺ الغار، أرادت الحية أن تخرج من الجحر، فسده برجله، ففداه بنفسه، وكما ترس عنه طلحة ببدنه، وكما نام علي بن أبي طالب على الفراش في البرد الحضرمي بدلاً منه. وأما الهدية، فإنها من أسباب التواد لعلاقة الأمل بالمال، فترى النفس أن كل من أعانها على مصالحها يحبها، فتجازيه بالمحبة أيضًا)(٢).

وقال ابن عبدالبر: (وفي هذا الحديث من الفقه أنه لا يحل التباغض؛ لأن التباغض مفسدة للدين، حالقة له، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالتواد والتحاب، حتى قال: ((تهادوا تحابوا))(٣). وروى مالك، عن يحيى بن سعيد، قال: سمعت سعيد ابن المسيب يقول: ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، وإياكم والبغضة، فإنها هي الحالقة. وكذلك لا يحل التدابر، والتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام(٤) ونحو هذا. وإنما قيل للإعراض: تدابر؛ لأن من أبغضته أعرضت عنه، ومن أعرضت عنه وليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك، ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته، لتسُرَّه ويسرك. فمعنى "تدابروا"، و"تقاطعوا"، و"تباغضوا"، معنى متداخل متقارب، كالمعنى الواحد في الندب إلى التواخي والتحاب، فبذلك أمر رسول الله ﷺ في معنى هذا الحديث وغيره، وأمر رسول الله ﷺ على الوجوب حتى يأتي دليل يخرجه إلى معنى الندب(٥).

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥١.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/٩٤-٩٧.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١٧٥٠. وقال ابن عبدالبر: وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. انظر: موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/١٤٤. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ٥٩٤ وحسنه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢/٩٧-٩٨.

قال السيد سابق: (جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفًا إقامة كيان موحد، ومتقيًا عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة، والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالته العظمى: من عبادة الله وإعلاء كلمته وإقامة الحق وفعل الخير والجهاد من أجل استقرار المبادئ التي يعيش الناس في ظلها آمنين، فهو لهذا كله يقوي الروابط والصلات بين أفراد المجتمع، لتخلق هذا الكيان وتدعمه، ومن أهم هذه الروابط رباط الإخاء وهو أوثقها، وأمامه تزول جميع الفوارق من نسب عريق، ومال وفير، وجاه عريض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وهذا الإخاء يقتضي تبعات وحقوقًا، فليس هو إخاء عقيمًا لا ثمرة له في الواقع، ولا أثر له في الحياة العملية، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه، وأن يعنى بشأنه والدفاع عنه، والذياد عن حوضه، والعمل الدائب على ترقية حاضره)[2].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) عناصر القوة في الإسلام ١١٥ - ١١٧.

الحديث رقم (١٥٩٧)

١٥٩٧- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ انْ يَهْجُرَ اخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ، دَخَلَ النَّارَ**)). رواه أَبُو داود[1] بإسناد عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي[2]

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم (٤٩١٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٦) وقال: رواه أبو داود والنسائي بإسناد على شرط البخاري ومسلم. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٨٦): إسناده صحيح.

(٢) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

الحديث رقم (١٥٩٨)

١٥٩٨- وعن أَبي خِراشٍ حَدْرَدِ بنِ أَبي حَدْرَدٍ الأسلميِّ. ويقالُ: السُّلَمِيِّ الصحابي ﷺ: أنَّه سمع النبيَّ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ هَجَرَ أخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ)). رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

حدرد بن أبي حدرد الأسلمي: وهو سلامة بن عمير الأسلمي، ويكنى أبا خِرَاش. روى عن النبي ﷺ حديثًا واحدًا في الهَجْر، وماله غيره[2].

غريب الألفاظ:

كسفك دمه: كإراقته[3]. أي: كقتله.

الشرح الأدبي[4]

المضامين الدعوية[5]

---

(١) برقم (٤٩١٥). قال العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٨٨): إسناده صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٢).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١٩٠-١٩١)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٧٠١/١)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٢٦١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٧٢/٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٣٦/١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ف ك).

(٤) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

(٥) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

الحديث رقم (١٥٩٩)

١٥٩٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((**لاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ انْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوقَ ثَلاَثٍ، فَإنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ، فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ فَقَد اشْتَرَكَا فِي الأجْرِ، وَإنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإثْمِ، وَخَرَجَ المُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ**[1])). رواه أَبُو داود[2] بإسناد حسن.

قَالَ أَبُو داود : ((إِذَا كَانَتْ الهِجْرَةُ للهِ تَعَالَى فَليس مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ)) [3].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

باء بالإثم: التزمه ورجع به[4].

الهجرة: الهجران[5].

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر، وقوله (لمؤمن) قيَّد الحكم بالمؤمن تعريضاً بنفي الإيمان عن الهاجرين بنفي الإيمان عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مؤمن) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون

---

(١) قوله: (وخرج المسلم من الهجرة) من زيادة أحمد بن سعيد السرخسي، كما نبّه عليه أبوداود.

(٢) برقم (٤٩١٢). أورده المنذري عقيب الحديث رقم (٤٠٦٦).

(٣) قول أبي داود هذا بعد حديث رقم (٤٩١٦).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب و ا).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (هـ ج ر).

مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر المؤمن)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المؤمن كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل. وقد جاء المفعول بلفظ مشع بتلك الصفة الجامعة تحت مظلة العبودية لله الموجبة للتقارب، والاتصال بشعاع اليقين، والتي تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها، وقوله (فوق ثلاث) اختيار العدد (ثلاث) رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ، وفي العبارة إيجاز بالحذف، أي ثلاث ليال، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم.

وقد تبعه بأسلوب شرط يربط مرور الثلاث بالأمر باللقاء، والسلام (فإنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ، فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ) واستخدم (إن) كأداة شرط يشير إلى عدم توقع حدوث الشرط، وهو مرور ثلاث دون صلح بين المؤمنين لأن الإيمان محرك سريع في قلوبهم نحو الصلح، والأمر باللقاء والسلام قاطع لمادة الخلاف مزيل لصفة الهجر، ووجَّه الأمر المباشر باللقاء، والسلام ؛ لأنه يعول على صفة الإيمان الحاملة على الطاعة، والاستجابة، والتعالي على رغبات النفس في الاستمرار في القطيعة، وقوله : (فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ) ترغيب يداعب قلوب المؤمنين بما تسعى إليه من الأجر المقرب للغاية برضا الله، والجنة، ثم يتبع الترغيب في السلام، بالترهيب من ضده بتحمل الإثم كما هي عادة القرآن، وعادة الرسول ﷺ في شفع الترغيب بالترهيب في قوله: (وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ) والتعبير بالفعل (باء) يشير إلى إحاطته به واستحقاقه له بما يمهد لبراءة الذي سلَّم من الإثم، والذي قرره بالخبر الصريح في قوله (وَخَرَجَ المُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ)، والتعبير بالخروج يشير إلى مفارقته للإثم بعد سبق تلبسه به .

المضامين الدعوية

أولاً : من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من هجر المسلم لأخيه المسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إلقاء السلام.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

حيث جاء في الحديث "لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث..." وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي تشعر بخطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه، فواجب الدعاة استعمال هذا الأسلوب من خلال ما جاء في القرآن والسنة من صور النهي لتحذير المدعوين منها ومن صور استعمال القرآن لأسلوب النهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التحذير من هجر المسلم لأخيه المسلم:

يتضح هذا من قوله في الحديث "لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنًا فوق ثلاث" ولاشك أن هذا يدل على خطورة هجر المسلم والتحذير منه، قال الشيخ ابن عثيمين: (وإذا كان في هجر مَنْ فعل معصية، كترك واجب أو فعل محرم، فائدة، يُهْجر حتى تتحقق الفائدة، وأما من كان هجره لا يفيد شيئًا، بل لا يزيد الأمر إلا شدة وبعدًا عن أهل الخير، فلا يهجر؛ لأن الشرع جاء بالمصالح وليس بالمفاسد، فإذا علمنا أننا لو هجرنا هذا العاصي لم يزدد إلا شرًا وكراهة لنا، وكراهة ما معنا من الخير، فإننا لا نهجره، نسلم عليه ونرد عليه السلام، لأنه وإن عصى الله، فإن المؤمن لا يهجر فوق ثلاث)[3].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: (وإن تعلق الهجر بالمسلم فإنه يعد كبيرة، شريطة أن يكون فوق ثلاث، وليس بغرض شرعي، لما في ذلك من التقاطع والإيذاء والفساد، ويستثنى من تحريم هذا الهجر مسائل حاصلها أنه متى عاد الهجر إلى صلاح دين الهاجر والمهجور جاز وإلا فلا)[4].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٨٥.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ١١/٥٦٨٢.

وقال د. الحسيني هاشم: (من عادى أخاه وترك السلام عليه، وما إلى ذلك فوق ثلاثة أيام بلياليها، وأصر على الاستمرار على هذا الهجر والخصام، دخل النار لغلبة شهوته على إيمانه ويقينه، وعصيانه لله ورسوله ﷺ بهذا الهجران. فإن في الهجران قتلاً معنويًا لا يقل أثرًا وإثمًا عن القتل المادي المحسوس. وقطع التهاجر يكون بإلقاء السلام، فإن تجاوب الآخر ورد السلام، ذهب عنهما الوزر، وإن لم يرد انفرد بالوزر، وتخلص الثاني من وعيد القطيعة لأدائه ما عليه)[١].

وقال ابن مفلح: (فأما هجر المسلم العدل في اعتقاده وأفعاله، فقال ابن عقيل: يكره. وكلام الأصحاب خلافه.

ولهذا قال تقي الدين: اقتصاره في الهجرة على الكراهة، ليس بجيد، بل من الكبائر على نص أحمد: الكبيرة ما فيه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة)[٢].

إن الإسلام يبني علاقات أفراده على الحب والتواصل لا التقاطع والتدابر (إن الأصل في الهجر بين المسلمين الحرمة، بل جعله الشرع من الكبائر، الموجبة للنار، ولم يرخص للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ووقع التصريح أن المسلم إذا مات مهاجرًا يدخل النار - والعياذ بالله تعالى.

مما يدل على أن الهجر كبيرة، لهذا قال الهيتمي[٣] متعقبًا قول صاحب "العدة": "إن هجر المسلم فوق ثلاث صغيرة" ما نصه: "بعيدٌ جدًا، وإن سكت عليه الشيخان"[٤] ثم قال: ثم رأيت بعضهم جزم بأن الهجرة المذكورة كبيرة، ولم يلتفتُ إلى مقالة صاحب "العدة" والزركشي، وقال: ما ذكره من كون هجر المسلم فوق ثلاثة أيام من الصغائر فيه نظر، والأشبه أنه كبيرة، لما فيه من التقاطع والإيذاء والفساد، إلا أن يقال: مجيء ذلك من الإصرار عليها.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) الآداب الشرعية ١/٢٧٣.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس الهيتمي ٢/٤٤.

(٤) أي الرافعي والنووي -رحمهما الله تعالى-.

وتعقّب هذا القول أيضًا، فقال: وقوله: إلا أن يقال مجيء ذلك من الإصرار عليها، فيه نظرٌ، ولئن سلمناه فهو لا ينافي ما قلناه، إذ غاية الأمر أن معنى كون ذلك كبيرة، هل هو ما فيه مما ذكر، أو الإصرار عليه في مدة الثلاثة أيام، والوجه الأول، إذ الثلاثة قيد لأصل الحرمة، لأن بمضيها يتحقق الإفساد والتقاطع، بخلافه قبلها، فلا إصرار هنا)[(١)].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فضل إلقاء السلام:

حيث جاء في الحديث "فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه" فقد أرشد النبي ﷺ إلى وسيلة إنهاء الهجر بإلقاء السلام، قال شرف الحق العظيم آبادي: (وقوله "اشتركا في الأجر" أي في أجر السلام أو في أجر ترك الهجر أو فيهما "فقد باء بالإثم" أي رجع بإثم الهجران وقال القاري: الأظهر أنه باء بإثم الهجر وبإثم ترك السلام)[(٢)]. وفي فضل السلام جاء عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: ((أنَّ رَجُلاً سأل النبيَّ ﷺ: أَيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَن عَرَفْتَ وَمَن لم تَعْرَف))[(٣)] وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالله تَعَالَى مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلاَمِ))[(٤)].

قال السيد سابق: (شرع الإسلام التحية عند اللقاء وعند المفارقة كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة، إذ أن التحية من شأنها أن تؤلف القلوب وتقوي الصلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان، وقد قيل: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار. وقد قال الله سبحانه ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[(٥)] أي ليقل بعضكم لبعض: السلام عليكم، وهذا السلام تحية شرعها الله لكم، وكلها الخير والطيبة والبركة، لما فيها

---

(١) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود آل سلمان، ١٣٣-١٣٥.

(٢) عون المعبود شرح سنن ابي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١١٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦.

(٤) أخرجه ابو داود ٥١٩٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٢٨).

(٥) سورة النور، آية: ٦١.

من جلب المحبة، وتقوية عرى المودة، وإنما جعلت تحية المسلمين بهذا اللفظ، وهو لفظ السلام، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام، وإنما كانت هذه الصيغة أتم؛ لما فيها من مزيد الثواب)(١).

قال الطيبي: (السلام مصدر، نعت به، والمعنى ذو السلامة من كل آفة ونقيصة، أي الذي يسلم ذاته عن الحدوث والعيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر المحض، فإن ما تراه من الشرور فهي مقضية، لا لأنها كذلك، بل لما يتضمنه من الخير الغالب الذي يؤدي تركه إلى شرٍ عظيم، فالمقضى والمفعول بالذات هو الخير، والشر داخل تحت القضاء، وعلى هذا يكون من أسماء التنزيه.

ووظيفة العارف: أن يتخلق به، حيث يسلم قلبه عن الحقد والحسد، وإرادة الشر، وقصد الخيانة، وجوارحه عن ارتكاب المحظورات، واقتراف الآثام، ويكون سلمًا لأهل الإسلام ساعيًا في ذب المضار ودفع المعاطب عنهم، ومسلمًا على كل من يراه عرفه أو لم يعرفه. وعن بعض الصالحين: السليم من العباد من سلم عن المخالفات سرًا وعلنًا، وبرئ من العيوب ظاهرًا وباطنًا، قال الشيخ أبو القاسم: ومن آداب من تحقق بهذا الاسم أن يعود إلى مولاه بقلب سليم، والقلب السليم هو الخالص من الغل، والحقد، والحسد، فلا يضمر للمسلمين إلا كل خير ونصح، فيحسن الظن بكافتهم، ويسيء الظن بنفسه، فإذا رأى من هو أكثر سنًا منه قال: هو خير مني؛ لأنه أكثر مني طاعة، وإذا رأى من هو دونه في السن قال: إنه خير مني؛ لأنه أقل معصية. وقال المشايخ: إذا ظهر لك من أخيك عيب، فلتطلب له سبعين بابًا من العذر، فإن اتضح لك عذره، وإلا عد على نفسك باللوم، وقل: بئس الرجل أنت، حيث لم تقبل سبعين عذرًا من أخيك)(٢).

وجاء في موسوعة فقه القلوب: (ومن أسمائه الحسنى عز وجل: السلام. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣).

---

(١) إسلامنا ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥/١٦-١٧.

(٣) سورة الحشر، آية: ٢٣.

وقال النبي ﷺ: (إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد لله صالح، في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء)(١).

الله تبارك وتعالى هو السلام، الذي سلم من كل عيب، وبرئ من كل نقص، لكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو سبحانه أحق بهذا الاسم من كل ما سواه، لأنه السالم من كل آفة وعيب، ونقص وذم، وله الكمال المطلق من كل الوجوه، وكماله سبحانه من لوازم ذاته: فالسلام يتضمن إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه.

والسلام يتضمن سلامة ذاته من كل نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم، وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة أفعاله من العبث والظلم، وخلاف الحكمة.

فالله جل جلاله هو الحي الذي سلمت حياته من الموت والسنة والنوم والتغير. وهو القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب، والإعياء والعجز.

وهو العليم الذي سلم علمه من النقص، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، أو يغيب عنه قدر ذرة. وهو سبحانه السلام الذي سلم الخلق من ظلمه فلا يظلم أحدًا.

وهو سبحانه السلام الذي خلق الجنة دار السلام من الموت والمرض وسائر الآفات كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وهو سبحانه السلام الذي يسلم على عباده في الجنة كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ٨٣١، ومسلم ٤٠٢ واللفظ له.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٧.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٤.

وهو سبحانه السلام، المسلم على أنبيائه ورسله، لإيمانهم وإحسانهم، وطاعتهم له، وتحملهم في سبيله أعظم الشدائد، فيؤمنهم فلا يخافون ولا يفزعون كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[2].

وقد أمر النبي ﷺ بإفشاء هذا الاسم، وأخبر أن ذلك سبب للمحبة، ودخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[3].

والله سبحانه هو السلام، فكل سلام ورحمة منه وله، وهو مالكها ومعطيها، فالسلام منه بدأ، وإليه يعود، فالسلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له فـ((اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام))[4]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[5])[6].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديث، حيث رغب رسول الله ﷺ في إلقاء السلام من المسلم على أخيه المسلم إذا لقيه وكان بينهما هجر، وبإلقاء السلام يخرج من الهجر، ورهّب من عدم رد السلام، بأن من لم يرد سوف يبوء بالذنب.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٧٩.

(٢) سورة النمل، آية: ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٥٤.

(٤) أخرجه مسلم ٥٩٢.

(٥) سورة الصافات، آية: ١٨٠-١٨٢.

(٦) موسوعة فقه القلوب ١٤٨/١، ١٤٩.

وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفوس المدعوين، وحثهم على الطاعة، وترك المخالفات الشرعية: (إن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه)[1]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[3].

وعلى الدعاة الهداة الموازنة بين الترغيب والترهيب، واستعمال كل في موضعه، مع مراعاة ظروف المدعوين وأحوالهم.

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ٨٦.

(٢) سورة الانفطار، آية: ١٣، ١٤.

(٣) سورة محمد، آية: ١٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس روح الأخوة بين المسلمين:

إن الأخوة رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام... مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى.... فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم[1]؛ لذا كان من الواجب على دعاة التربية والتوجيه غرس وتوثيق رابطة الأخوة بين المسلمين فلا تقاطع ولا تدابر ولا تباغض ولا حسد ... وهذا ما أكده حديث الباب في قوله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا ... إلخ».

ولقد اشتد تعظيم الإسلام كمنهج تربوي في الحفاظ على تماسك الأخوة وعدم قطع أواصرها، فحرم الهجر بين المسلمين، وجعل الأصل في ذلك المنع[2]، وهذا ما أكدته أحاديث الباب، وهو ما يجب غرسه في نفوس المتربين، وحتى يتسنى للقائمين على التربية والتوجيه القيام بذلك وجب بيان مساوئ الهجر للمتربين، ليدركوا عظم مخاطر الهجر، ويلتمسوا اجتنابها، بل ويعملوا على الحفاظ على وشائجها وإنزالها منازل الأخوة بالدم، ولبيان مساوئ الهجر نقول: إن الهجر يعطل كافة صور الخير في المتهاجرين، بالنسبة إلى بعضهما، فلا يتعاونان على فعل بر، ولا يجتمعان على مصلحة ومنها: أن الهجر يقضي بقبض يد المساعدة عن المهجور، وهو عقوق إن كان المهجور أحد الوالدين، وقطيعة رحم إن كان أحد الأقارب، والعاق والقاطع لا يدخلان الجنة.

ومن ذلك أن الهجر يعطل حقوق المسلم بين المتهاجرين، فلا يسلّم أحدهما على الآخر، ولا يرد سلامه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يشيع جنازته إذا مات.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٣٦٢.

(٢) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود، ١١٩.

ومن الهجر أن المتهاجرين محرومان مما يفيض الله على المسلمين في مواسم الخير، فصلاتهما لا ترفع، وعملهما موقوف، حتى يصطلحا، ولو لم يكن من قبائح الهجر إلا هذا، لكن كافيًا في الابتعاد عنه[1].

وبهذا يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس روح الأخوة بين المسلمين وجعلها في سياج منيع عن القطع والهجر.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد بلغ الترهيب كأسلوب تربوي في النهي عن الهجر بين المسلمين أوج بلوغه، حتى لا يتغافل عنه دعاة التربية في استخدامه، عند وقوع الهجر بين المسلمين، فبدأ الترهيب بعدم المغفرة للمتهاجرين، وذلك في قوله ﷺ: «... فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا».

ثم ثنى هذا الأسلوب التربوي النبوي ببيان سوء العاقبة وعظم الجرم وذلك في قوله ﷺ: «... فمات دخل النار»، وقوله ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»، وقوله ﷺ: «... فقد باء بالإثم ...إلخ».

ونجاح الترهيب كأسلوب تربوي فعّال في علاج ما كان من أخطاء يرجع إلى فطرة نفس المتربي على كره الشر والشقاء، ولولا هذه الخاصية الفطرية لما كان لهذا الأسلوب أثره التربوي في زجر نفس المتربي، بل وتربيتها على اجتناب ما هو محظور[2].

ثالثًا: التربية الوقائية:

إن التربية الوقائية تعتبر سياجًا للمتربي من الوقوع في الرذائل الخلقية، وهذا ما بدا جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: ((إنَّ الشَّيْطانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جزيرة العرب، وَلَكِنْ في التَّحْرِيش بَيْنَهُمْ))، والأسرة والمجتمع لهما أكبر الدور في تنشئة

---

(١) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود، ١٤٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦، تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد، ١٢٧، أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٤، ٣٩٥.

المرتبين على تطبيق التوجيهات الإسلامية حتى يكونوا في الجانب الوقائي من الرذائل الخلقية التي انحل زمامها في الكثير من بلدان العالم، فأصبحوا في أوكارها جاثمين وبمجونها فرحين مسرورين، وما تذكروا قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾[1][2].

وأن النبي ﷺ أراد أن يربي المسلمين تربية وقائية تجعلهم على حذر من كيد الشيطان ووسوسته وتحريشه ونزغه بينهم، حتى يكون المسلم على بينة من الأمر، فيعمل على سد الثغرات التي يمكن أن ينفذ الشيطان من خلالها لتمزيق أواصر المحبة والمودة بين المسلمين.



(١) سورة الغاشية، الآيات: ٢-٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٦٠، ٦٩.

٢٨١- باب النهي عن تناجي اثنين دون الثالث بغير إذنه

إلاَّ لحاجةٍ وَهُوَ أن يتحدثا سرًا بحيث لا يسمعهما وفي معناه مَا إذا تحدثا بلسان لا يفهمه

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾[المجادلة: ١٠]

الحديث رقم (١٦٠٠)

١٦٠٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِذَا كَانُوا ثَلاثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ورواه أَبُو داود[٢] وزاد: قَالَ أَبُو صالح: قُلْتُ لابنِ عُمرَ: فَأَرْبَعَةً؟ قَالَ: لا يَضُرُّكَ.

ورواه مالك في الموطأ[٣]: عن عبد الله بن دينارٍ، قَالَ: كُنْتُ أنَا وابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بنُ عُقْبَةَ الَّتي في السُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي[٤]، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً آخَرَ حَتَّى كُنَّا أرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِي دَعَا[٥]: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا، فَإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((لا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن تعاليم الإسلام لا تُعنى بالأعراض دون الجواهر، ولا بالقشور دون اللباب، حتى تظل علاقة المؤمن بربه نابعة من القلب، ناضحة بالمشاعر، نابضة بالأحاسيس،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٣/٣٦).

(٢) عقب الحديث رقم (٤٨٥٢).

(٣) (٩٨٨/٢) رواية يحيى بن يحيى الليثي.

(٤) عند مالك زيادة: (وغير الرجل الذي يريد أن يناجيه).

(٥) لفظ مالك: (دعاه).

وكذلك تظل العلاقة بين أفراد الأمة الإسلامية قائمة على أسس من التصافي والإخاء، والبعد عن التجافي والعداء.

وهذا الحديث الشريف يلفت نظر المسلمين في كل زمان وفي كل مكان إلى حقيقة نفسية شعورية، لا بد أن يفطن لها كل مسلم وكل مسلمة؛ وهي اتقاء الشبهات، والابتعاد عن الظنون والريب، ومراعاة مشاعر وأحاسيس الآخرين.

وصياغة الحديث تؤكد الحرص على ذلك؛ حيث يجيء الحديث في قالب الشرط والجواب، وهو قالب إخباري، ولكنه كما قال العلماء: خبر في لفظه، طلب في معناه.

فالمراد: النهي عن انفراد اثنين بالتناجي والتحادث في همس، وثالثهم حاضر؛ ولكنهما يتعمدان إخفاء الحديث عنه، والتقدير: لا يتناجى اثنان دون الثالث، وهذا المطلب لا بد من تحققه لأن أداة الشرط "إذا"، تفيد التحقق.

وفعل الشرط: "كانوا"، فيه إشارة إلى هؤلاء الثلاثة من غير تخصيص، والفاعل هنا: "واو الجماعة"، ضمير رفع متصل، يعني العموم واستمرار هذا النهي عن هذا السلوك الذي يفسد العلاقات السوية بين أفراد المجتمع.

وفي الحديث بلاغة الحذف: لأن التقدير: إذا كان المجتمعون ثلاثة أشخاص من المسلمين، وغير المسلمين مطالبون بذلك لأن هذا سلوك إنساني، وانضباط اجتماعي.

والمسلمون أولى من غيرهم في الحرص على عدم إيذاء الآخرين شعوريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

وفي اللغة: النجوى والنجِّي: السر، والنجو: السر بين اثنين، يقال: نجوته نجوًا: أي ساررته، وقال أبو إسحاق: معنى النجوى في الكلام: ما يفرد به الجماعة والاثنان سرًا كان أو ظاهرًا، وجواب الشرط في الحديث يؤكد النهي عن مناجاة اثنين دون الثالث، حيث يقترن جواب الشرط بالفاء لأنه فعل طلبي منهي عنه، حيث يقول رسول الله ﷺ في صيغة النهي الصريح: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث".

اللهم ارزقنا محبتك ومحبة رسولك نبينا محمد ﷺ، واجعلنا اللهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب التناجي في الإسلام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى" وأسلوب الشرط له أثر في نفوس المدعوين، من حيث إنه يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: آداب التناجي في الإسلام:

حيث جاء في الحديث الأول قوله صلى الله عليه وسلم: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث" وفي الحديث الثاني قوله "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه" وهذا يبين أدب الحديث والتناجي في الإسلام، قال الإمام النووي: (وفي هذه الأحاديث النهي عن تناجي اثنين بحضرة ثالث، وكذا ثلاثة وأكثر بحضرة واحد، وهو نهي تحريم فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يأذن، وجماهير العلماء: أن النهي عام في كل الأزمان وفي الحضر والسفر، وكان المنافقون يفعلون ذلك بحضرة المؤمنين ليحزنوهم، أما إذا كانوا أربعة فتناجى اثنان دون اثنين فلا بأس بالإجماع)[3].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: وإنما قال يحزنه لأنه قد يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه أو لدسيسة غائلة له، ونقل ابن بطال عن أشهب عن مالك قال: لا

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠١).

(٢) سورة النساء، آية: ١٠١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٣٦٥، ١٣٦٦.

يتناجى ثلاثة دون واحد ولا عشرة، لأنه قد نهى أن يترك واحدًا، قال: لأن المعنى في ترك الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد، وهذا من حسن الأدب لئلا يتباغضوا ويتقاطعوا)[1].

قال القاضي أبوبكر بن العربي: (وأما مناجاة بعض الناس دون بعض فاختلف فيه على أربعة أقوال، الأول: أن ذلك في السفر؛ لأنه موضع التُّقاةِ ومكان الحذر. الثاني: أنه مخافة أن يحزن صاحبه، وكذلك جاء في الحديث: "كراهية أن يحزنه". فإن كان من قول النبي ﷺ فقد انحسم التأويل، وإن كان من قول الراوي فهو أولى من تأويل غيره. الثالث: أن ذلك من سوء الأدب. الرابع، ويرتبط بالثالث: أنه خلاف ما يقتضيه عقد المجالسة، فإنهما إنما يتجالسان بالصحبة والألفة والأنسة، فإذا انخذل عنه إلى السر فقد نقض هذا الميثاق، وفِعْلُ عبدالله بن عمر مع عبدالله بن دينار يدل على أن الحضَرَ في ذلك كالسفر، لكنَّ المعنى في السفر أوفى منه في الحضر، وقد تتزايد العِلّةُ الشرعيةُ، ويبقى الحُكم على حاله، وهذا المنع اختلف فيه الناس؛ هل يزولُ بالإذن أم لا؟ والصحيح أنه يزولُ؛ لأن الحق له، فإذا أسقطه سقَط. وقال ابنُ القاسم: سمعتُ مالكًا يقول: لا يَتَنَاجَ أربعة دون واحد. وصدَقا؛ لأن العلة أكثرُ، والتقيَّة أعظم. هذا في تناجي الجماعة دون الواحد، وأما تناجي الجماعة دون الجماعة، فإنه أيضًا مكروهٌ أو محرمٌ، وقد نص الله تعالى عليه، فقال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[2])[3].

وقال ابن عبدالبر: (التناجي التسار، وذلك مكالمة الرجل أخاه عند أذنه بما يسره من غيره. والنهي إنما ورد كما ترى إذا كانوا ثلاثة، وأما إذا كانوا أربعة فما فوقهم، فلا بأس به.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨٦/١١.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٤٥٤/٢٣-٤٥٥.

وقد جاء عن ابن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، لا تدعوا صاحبكم نجيًا للشيطان))[1]. قال ابن شهاب: وقال سعيد بن المسيب: إلا أن يستأذناه.

وقوله: "نجيًا للشيطان". يريد: لأنه يوسوس في صدره من جهتهما ما يحزنه. والله أعلم.

وقد أتى في الحديث أن النهي عن ذلك إنما ورد لئلا يحزن الثالث ويسوء ظنه، ونحو ذلك. وعن نافع، عن ابن عمر أنه كان يقول: هؤلاء لا يُبالون بسفك الدماء بينهم، وقال رسول الله ﷺ لعظم حرمة المؤمن: "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد". قال نافع: فربما كان لعبد الله حاجة - ومعه رجلان - إلى أحدهما، فلا يُكلمه حتى يأتي رابع، فإذا جاء قال: شأنك وصاحبك، فإن لي إلى صاحبي هذا حاجة.

قال أبو عمر: هذا لئلا يظن به أنه ينال منه، أو يتكلم فيه، وهو معنى حديث ابن مسعود: "فإن ذلك يحزنه". قال الشاعر:

يروعه السرار بكل أمر مخافةَ أن يكونَ به السرارُ[2]

قال القرطبي: (قوله: "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحدٍ" "كان" هنا: تامَّة بمعنى: وُجد، ووقع. و"ثلاثة": فاعل بها، بخلاف الرواية الأخرى؛ التي قال فيها: "إذا كنتم ثلاثة" فإنها فيها ناقصة. بمعنى: صرتم ثلاثة.

وقوله: "فلا يتناجى اثنان" الرواية المشهورة فيها: "يتناجى" بالألف مقصورة ثابتة في الخط، غير أنها تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين؛ فإذًا: هو خبرٌ عن نفي المشروعية، ويتضمن النهي عن ذلك. وقد وقع في بعض النسخ: "فلا يتناج" بغير ألف، على النهي. وهي واضحةٌ. والتناجي: التحادث سرًا. وقد زاد في الرواية الأخرى زيادةً حسنةً، فقال: "حتى يختلطوا بالناس"، فبين غاية المنع، وهو أن يجد الثالثُ من يتحدث معه، كما فعل ابن عمر، وذلك: أنه كان يتحدَّث مع رجلٍ، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه

(١) قوله: ((لا تدعوا صاحبكم نجيا للشيطان))، لم أعثر عليه فيما تحت أيدينا من كتب الحديث.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٤٥٦-٤٥٨.

حتى دعا رابعًا، فقال له وللأول: تأخرًا، وناجى الرجل الطالب للمناجاة. وقد نبَّه في هذه الزيادة على التعليل بقوله: "فإن ذلك يحزنه" أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله، بأن يقدِّر في نفسه: أن الحديث عنه بما يكره، أو أنَّهم لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس. وحصل ذلك كلُّه من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا: يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد، ولاعشرة، ولا ألفٌ مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن، وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خصَّ الثلاثة بالذكر لأنه أوَّل عدد يتأتى فيه ذلك المعنى. وظاهرُ هذا الحديث يعمُّ جميع الأزمان والأحوال. وإليه ذهب ابنُ عمر، ومالكٌ، والجمهور. وقد ذهب بعضُ الناس: إلى أن ذلك كان في أول الإسلام، لأن ذلك كان حال المنافقين، فتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام؛ سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاصٌّ بالسفر، وفي المواضع التي لا يأمن الرجلُ فيها صاحبه؛ فأما في الحضر، وبين العمارة: فلا.

قلتُ: وكلُّ ذلك تحكُّم، وتخصيص لا دليل عليه. والصحيح: ما صار إليه الجمهور. والله تعالى أعلم[1].

وقد نهى الله عن النجوى وبين أن ذلك من الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2] قال قتادة: (كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم)[3]. وقال ابن كثير: (وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن)[4].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٥٢٤-٥٢٥.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٠.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٨/١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٤.

قال القاسمي: (قال القاشاني: إنما نهوا عن النجوى لأن التناجي اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما، لا يشاركهما فيه ثالث. وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيأة الاجتماعية التي لا توجد في الأفراد، فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر، ويزداد فيهم الشر، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهي قوله: "ويتناجون بالإثم" الذي هو رذيلة القوى البهيمية "والعدوان" الذي هو رذيلة القوى الغضبية، "ومعصيت الرسول" التي هي رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة. ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجي بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجي بالخيرات، ليتقووا بالهيأة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال: "وتناجوا بالبر" أي: الفضائل التي هي أضداد تلك الرذائل، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، "والتقوى" أي: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة)[1].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: (والنجوى من رجل الشيطان وخيله ليحزن المؤمنين، وهي من عمل المنافقين وأعداء المسلمين من يهود وغيرهم، والنجوى يمقتها الله عز وجل وينهى أن تكون بين المجتمع المسلم، وهي تشكل جيوب الغمز واللمز ثم التفرقة والتمزق)[2].

وقال ابن عثيمين: (ومن الآداب التي حث عليها الإسلام ورغب فيها النهي عن تناجي اثنين دون الثالث، والتناجي من الشيطان، وكان أعداء المؤمنين من المنافقين والكافرين يحرصون على التناجي ليحزنوا المؤمنين، وهذا هو ما يريده الشيطان من أعداء الله، يريد أن يحزن المؤمنين على كل حال، ولذا كان من الآداب الإسلامية النهي عن التناجي)[3].

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٧٧/١٦.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٦٠٣/١١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٦٨٦/٢.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأسي بالنبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث أن رجلاً أراد أن يناجي ابن عمر وليس معهما رابع فدعا ابن عمر رجلاً آخر وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يتناجى اثنان دون واحد" وهذا يدل على مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأسي بأقوال رسول الله ﷺ ذلك لأنه الأسوة الحسنة للمؤمنين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[1].

قال د. صالح بن حميد: (ومن دقيق المعنى في هذه الآية أن الله سبحانه جعل الأسوة في رسول الله ﷺ، ولم يحصره في وصف خاص من أوصافه، أو خلق من أخلاقه، أو عمل من أعماله الكريمة، وما ذلك إلا من أجل أن يشمل الاقتداء بأقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وسيرته كلها، فيقتدى به ﷺ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقتدى بأفعاله وسلوكه من الصبر والشجاعة والثبات والأدب وسائر أخلاقه، كما يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب والمستحب وغير ذلك مما هو محل الاقتداء)[2]. ولاشك أنه في اتباعه والتأسي به ﷺ الهدى والفلاح، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[3] وقال جل شأنه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) معالم في منهج الدعوة ٦١.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

الحديث رقم (١٦٠١)

١٦٠١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أجْلِ أنَّ (ذَلِكَ) [1] يُحْزِنُهُ)). متفق عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن تعاليم الإسلام لا تُعنى بالأعراض دون الجواهر، ولا بالقشور دون اللباب حتى تظل علاقة المؤمن بربه نابعة من القلب، ناضحة بالمشاعر، نابضة بالأحاسيس وكذلك تظل العلاقة بين أفراد الأمة الإسلامية قائمة على أسس من التصافي والإخاء، والبعد عن التجافي والعداء.

وهذا الحديث الشريف يلفت نظر المسلمين في كل زمان وفي كل مكان إلى حقيقة نفسية شعورية لا بد أن يفطن لها كل مسلم وكل مسلمة وهي اتقاء الشبهات، والابتعاد عن الظنون والريب، ومراعاة مشاعر وأحاسيس الآخرين.

وصياغة الحديث تؤكد الحرص على ذلك حيث يجيء الحديث في قالب الشرط والجواب، وهو قالب إخباري، ولكنه كما قال العلماء خبر في لفظه، طلب في معناه.

فالمراد: النهي عن انفراد اثنين بالتناجي والتحادث في همس، وثالثهم حاضر ولكنهما يتعمدان إخفاء الحديث عنه، والتقدير: لا يتناجى اثنان دون الثالث، وهذا المطلب لا بد من تحققه لأن أداة الشرط "إذا"، تفيد التحقق.

وفعل الشرط: "كانوا"، فيه إشارة إلى هؤلاء الثلاثة من غير تخصيص، والفاعل هنا: "واو الجماعة"، ضمير رفع متصل، يعني العموم واستمرار هذا النهي عن هذا السلوك الذي يفسد العلاقات السوية بين أفراد المجتمع.

---

(١) قوله: (ذلك) ليست عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عند برقم (٢١٨٤/٣٨) بلفظ: ((فإنَّ ذلك يحزنه)).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤/٣٧) واللفظ له.

وفي الحديث بلاغة الحذف: لأن التقدير: إذا كان المجتمعون ثلاثة أشخاص من المسلمين، وغير المسلمين مطالبون بذلك لأن هذا سلوك إنساني، وانضباط اجتماعي.

والمسلمون أولى من غيرهم في الحرص على عدم إيذاء الآخرين شعوريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

وفي اللغة: النجوى والنجيُّ: السر، والنجو: السر بين اثنين، يقال: نجوته نجْوًا: أي ساررته، وقال أبو إسحاق: معنى النجوى في الكلام: ما يفرد به الجماعة والاثنان سرًّا كان أو ظاهرًا، وجواب الشرط في الحديث يؤكد النهي عن مناجاة اثنين دون الثالث حيث يقترن جواب الشرط بالفاء لأنه فعل طلبي منهي عنه، حيث يقول رسول الله ﷺ في صيغة النهي الصريح: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث".

اللهم ارزقنا محبتك ومحبة رسولك نبينا محمد ﷺ واجعلنا اللهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه:

هذا ما يستنبط من أحاديث الباب، حيث ربى النبي ﷺ المسلمين على أدب النجوى في عدم تسارّ اثنين إن كان المجلس يضم ثلاثة، وقد تجلى في أحاديث الباب أن التوجيه قد سبقه موقف دعا إليه، وذلك في قول عبدالله بن دينار: «كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ الَّتِي فِي السُّوقِ ... إلخ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه اختيار المواقف واغتنام فرصها والأوقات المناسبة للتوجيه حتى تسهل العملية التربوية، مما يساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، فإذا ظهر موقف خاطئ من شخص ووُضح له ما وقع فيه من خطأ، وفي نفس الوقت وجه التوجيه الإيجابي الحسن الذي كان المفروض أن يسلكه؛ فإن لذلك وقع على النفس وتأثير في السلوك، لأنه يرى النتائج أمامه ويعيشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[1]، وبالمثال يتضح المقال: فعن كلدة بن حنبل: «أن صفوان بن أمية بعثه إلى النبي ﷺ في الفتح بلبن وجداية وضغابيس قال أبو عاصم: "يعني البقل"، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ارجع، فقل: السلام عليكم أأدخل؟ وذلك بعد ما أسلم صفوان»[2].

فهذا التوجيه النبوي كان مع وقوع الحدث؛ مما يُثّبت ذلك النصح في ذهن المنصوح، وبالتالي ينشأ على تلك الخصائص الحميدة؛ التي وجِّه إليها، خاصة وأنها ارتبطت بموقف معين، ....، لذا كان اغتنام المواقف في التوجيه التربوي من أفضل طرقها وأساليبها، وأظهرها، لأنها تعالج خللاً في الحال، وصورته لازالت عالقة في الذهن، ونتائجه ظاهره، أو سوف تظهر فيما بعد، وكثير ما يغفل الإنسان ولا يدرك فداحة الأمر إلا بعد فواته، فهذا الأساس مما ينبغي ملاحظته واغتنام فرصته[3].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ١٠٨١، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد، ٨٢٥).

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٩. وأصول التربية الإسلامية، محمد شحات الخطيب، ٢٧٨.

ثانيًا: التربية على مراعاة شعور الآخرين:

اهتمت التربية الإسلامية اهتمامًا كبيرًا بتربية المؤمن على مراعاة شعور الآخرين والعمل على عدم إيذائها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ. حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ. مِنْ أَجْلِ ذلك أَنْ يُحْزِنَهُ».

وهذا دليل على تميز التربية الإسلامية في التعامل مع الآخرين ومراعاة شعورهم وكرامتهم وعدم جرحها بأي سلوك من السلوكيات المشينة التي تنم عن عدم التخلق بأخلاق الإسلام.

فالأصل في المؤمن أن يكون مرهف الحس يقظ المشاعر تجاه إخوانه، فلا يقع منه ما يكدر إحساسهم، أو يغيظ قلوبهم وقد راعى النبي ﷺ في ذلك مشاعر أصحابه حتى رسم ﷺ أبلغ وأرقى ما يجب أن تتربى عليه الناشئة.

فعن الصعب بن جثامة الليثي، أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء (أو بودّان) فرده عليه رسول الله ﷺ قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي قال: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّ عَلَيْكَ إِلاَّ أَنَّا حُرُمٌ»[١].

قال النووي: "وفي الحديث أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها لعذر أن يعتذر بذلك إلى المهدى تطييبًا لقلبه"[٢].

لذا وجب على المربين غرس قيمة مراعاة شعور الآخرين في نفوس المتربين، فلا يتسارّ اثنان إن كان المجلس يضم ثلاثة مراعاة لشعور الثالث حتى لا يحزن.



(١) أخرجه البخاري، ١٨٢٥، ومسلم، ١١٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، ٧٤٤.

٢٨٢- باب النهي عن تعذيب العبد والدابة

والمرأة والولد بغير سبب شرعي أو زائد علَى قدر الأدب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسانًا وَبِذي القُرْبَى واليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجَنْبِ وابْنِ السَّبيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[النساء الآية: ٣٦].

الحديث رقم (١٦٠٢)

١٦٠٢ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله، قَالَ: ((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْها حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

هرة: قطة[2].

خَشاش الأرضُ: هوامّها، وحشراتها[3].

الشرح الأدبي

إن الإسلام دين الرحمة والعطف والمحبة، والمسلم الحق يتأمل دائمًا مظاهر قدرة الله عز وجل، وكل ما خلق الله من كائنات يجب أن يرتبط بها المسلم، وأن يتأمل أحوالها، وان يكون رفيقًا بها، إذا كانت لا تلحق به الأذى، وهذا الحديث الشريف شاهد على هذه الدعوة إلى الرفق بالحيوان، وإلى انتزاع القسوة من قلب الإنسان، حيث

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢/١٥١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥٥).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ر ر).

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٥٤.

يبدأ الحديث بقوله: "عذبت امرأة"، وبناء الفعل للمجهول يدل على أن العذاب ليس له إلا مصدر واحد، وهو الله عز وجل، فالفاعل حذف للعلم به، وصيغة النكرة في قوله: "امرأة"، لإفادة أن المقصود ليس امرأة محدودة، ولكن المطلوب هو النهي عن هذا السلوك القاسي، والنهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي، أو زائد على قدر الأدب.

وقوله: "في هرة": يفيد السببية أي بسبب هرة، ولكن التعبير بـ"في" أبلغ: لأنها تفيد الظرفية، كأن المرأة غرقت في هذا الجرم، وقوله: "حتى ماتت" يومئ إلى قسوة هذه المرأة لأن الهرة حبست مدة طويلة.. والمرأة لا ترق لها، والعطف بالفاء في قوله.. "فدخلت فيها النار" يرشد إلى سرعة العقاب الإلهي الذي يلحق بهذه المرأة وأمثالها، والتعبير بالفعل الماضي هنا، يفصح عن أن هذا التعذيب واقع بالفعل، لأن هذا هو حكم الله، وأمر الله نافذ لا محالة، وتكرار قوله "فيها" الذي يفيد السببية لمزيد من التأكيد على شناعة هذا الجرم المخالف للطبيعة الإنسانية السوية.

ولنتأمل هذا التكرار كذلك في قوله: "لا هي"، "ولا هي"، وهو صيغة أسلوبية لمزيد من التأثير في نفوس المسلمين، ولمزيد من تحديد الأسباب التي من أجلها وقع العذاب، وكذلك لتأكيد الجرم الذي ارتكبته المرأة، وهو منسوب إليها.

ولنتأمل كذلك الإيقاع الصوتي المؤثر في هذه الأفعال المتوالية التي تثبت وقائع هذه القسوة الظالمة "ولا هي أطعمتها وسقتها، حبستها، تركتها"، وهذا التوافق الصوتي المؤثر نشأ من الجمع بين "تاء" التأنيث التي تدل على "المرأة" القاسية، وضمير الغائب الدال على "الهرة" المعذبة حيث تكرر هذا الإيقاع وذلك التوافق: خمس مرات في الحديث الشريف، وذلك لتأكيد العذاب، وإقامة الحجة على هذه المرأة، وقوله: خشاش الأرض: أي: هوامها وحشراتها؛ وصدق الله العظيم إذ يقول مخاطبًا رحمته المهداة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الرفق والرحمة بالحيوان.

ثانيًا: من مهام الداعية: إنكار المنكر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الرفق والرحمة بالحيوان:

حيث جاء في الحديث "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار" وقوله: "لعن رسول الله من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" وقوله "نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم" ومما لا شك أن الشريعة الإسلامية جاءت بالرحمة لكل شيء حتى الحيوان. قال النووي: (وفي الحديث دليل لتحريم قتل الهرة وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب، وأما دخولها النار بسببها فظاهر الحديث أنها كانت مسلمة ودخلت النار بسبب الهرة)[2]. (إن الرحمة لدى المسلم لا تقتصر على أهله وذوي أرحامه، ولا على إخوانه في دينه من المؤمنين، ولا على جنسه من البشر، بل تتعدى ذلك كله لتشمل جميع خلق الله حتى الحيوان)[3]. هذا وقد دلت توجيهات السنة النبوية على أهمية الرحمة والرفق بالحيوان، فعن سهل بن الحنظلية قال: ((مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فقَالَ اتَّقُوا الله في هذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً))[4]. قال شرف الحق العظيم آبادي: (والمعنى خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم فتسأل ما بها من الجوع والعطش والتعب والمشقة، وكلوها صالحة أي حال كونها صالحة للأكل أي سمينة)[5].

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠٣، ١٦٠٤).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٧.

(٣) أخلاقنا، د. محمد ربيع جوهري، ١٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥٤٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٢٢٢١).

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

وعن عبدالله بن جعفر قال: ((أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدِّث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتَر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخلٍ، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ وذَرَفَت عيناه، فأتاه النبيُّ ﷺ فمسح ذِفْراه فسكت، فقال: من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال: أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدْئِبُه))[1].

وعن عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه قال: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في سَفَرٍ فانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتْ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ[2] فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فقَالَ: مَنْ فَجَّعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا))[3].

قال محمد الغزالي: (ومن الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان. رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال: ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلاً.

والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسوا قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، وقد بين أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء.

قال رسول الله ﷺ: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض))[4].

كما بين أن كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب!

قال رسول الله ﷺ: ((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٢٢).

(٢) يقال: فرش: فرش الطائر جناحيه: رفرف بهما وبسطهما. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة: فرش.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٦٧٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاري ٣٣١٨، ومسلم ٢٢٤٢.

أمسكه بفيه حتى رقي فسقي الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: وفي كل كبد رطبة أجر))[١].

وفي رواية: ((أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر، قدأدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فغفر لها به!))[٢].

لئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فإن الرحم بالبشر تصنع العجائب![٣].

ويعلق محمد عبدالعزيز الخولي على أحاديث الرحمة بالحيوان والرفق به فيقول: (يقص علينا رسول الله ﷺ قصة رجل مؤمن كان يمشي بطريق أو بادية فعطش عطشًا شديدًا فنزل بئرًا شرب منها حتى روي، ثم خرج منها فإذا به يجد كلبًا قد أخرجه لسانه من شدة الظمأ يلحس به الأرض الندية لعلَّ في رطوبتها ما يقلّل من حرارة العطش.

فقال في نفسه أو بلسانه: لقد بلغ هذا الحيوان الدرجة التي بلغتها في العطش، وآلمه منه ما آلمني، فنزل إلى البئر ثانية وملأ خفه بالماء، وأمسكه بفمه لتخلص له يداه ويمسك بهما في جدران البئر عند الصعود ثم صعد فسقى الكلب من خفه. فشكر الله هذا الصنيع. وما شُكره إلا عفوه عن ذنوبه السالفة. بل من شُكْره المنَّ بنعمه على المحسنين من عباده.

فسأل الحاضرون رسول الله ﷺ: هل لنا في البهائم إذا دفعنا عنها الأذى، وأحسنًا إليها أجر وثواب؟ فقال النبي ﷺ: "في كل كبد رطبة أجر"، وهذه الجملة تعم كل حيوان من كلب أو قط أو جمل أو بقرة أو شاة... إلخ، وتشمل دفع أنواع الأذى عنه من عطش، أو جوع أو مرض أوحر، أو برد، أو حمل ثقيل، أو عمل شديد، أو غير ذلك مما يتأذى به الحيوان، وتشمل إيصال ضروب النفع له من تقديم الطعام والشراب والسكن له وإزالة الدرن عن جسمه. بل الكبد الرطبة تشمل الإنسان والحيوان، فكل عمل تعمله تزيل به ضرًا، أو تجلب به نفعًا لإنسان أو حيوان لك أجر فيه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٧٣، ومسلم ٢٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ومسلم ٢٢٤٥.

(٣) خلق المسلم ٢١١، ٢١٢.

ولا تستكثر الشكر من الله والمغفرة لهذا الذي أنقذ الكلب من ظمئه، فإنه نزل البئر له خاصة ليسقيه، وملأ خفه بالماء. وذلك مما يضر بجلده، وأمسكه بفمه وذلك مما يعافه المتكبرون. وعانى ما عانى من النزول والصعود مثل ما عاني لنفسه، كل ذلك تجشمه في سبيل رأفته بالحيوان الظمآن، وهل ترى نفسًا تبلغ منها الرحمة بالحيوان هذا المبلغ لا تكون رحمتها بالناس أشد؟ إن هذا العمل ليدُلُّ على شعور راقٍ. ورحمة فياضة سكنت تلك النفس العالية. فكانت لا ريب خليقة بهذا الجزاء. والراحمون يرحمهم الرحمن، ولعلك عرفت من هذا الحديث تربية الشدائد للنفوس. وأنها تدعوها للخير، وتلفتها إلى مثل ما حل بها. فتعمل على دفعه كما عملت لنفسه. ومن ذاق الآلام المريرة شعر بآلام الناس. وتلك حكمة من حكم الصيام أنه يزكي في الناس الشعور بحال البائسين فيمدون أيديهم بالإحسان إليهم.

فالحديث يحث على الرأفة بالحيوان ودفع الضر عنه، ويحبذ النصب في سبيله ويعظم الأجر على ذلك. وهذا الحديث أصل في إنشاء جمعيات الرفق بالحيوان. ويشكر للذين يقيمون حياضًا في الطرق ليشرب منها الحيوان.

يذكر الرسول ﷺ أن امرأة حبست هرة في حجرة أو ربطتها حتى ماتت جوعًا، فلا هي قدمت لها طعامًا وشرابًا، ولا هي أطلقتها تأكل من هوام الأرض وحشراتها فعذبها الله لذلك.

وفي هذا دلالة واضحة على أن تعذيب الحيوان بلا سبب معصية تستوجب العقاب، وكذلك قتله إذا لم يكن مؤذيًا. وهذا يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]، وفيه إشارة إلى جواز اتخاذ الهرة وربطها إذا لم يهمل طعامها وشرابها.

ولا يدل الحديث على إحباط عمل صالح، إن كان لهذه المرأة بإماتتها الهرة جوعًا، بل لكل حسنة ثوابها، ولكل جريمة عقابها، فإن كان لها من الحسنات ما يغمر

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

الجريمة شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[١]، وإذا كان هذا جزاء من يعذب الحيوان الأعجم، فما بالك بمن يصب على الناس وابلاً من شروره وآثامه، بل ما ظنك بمن يؤذي إخوانه الذين تربطه بهم رابطة الدين أو القرابة أو المصاهرة أو الجوار أو الاتحاد في العمل أو غيرها من الروابط؟

فالحديث يتوعد بالعذاب الشديد من يؤذي الحيوان، ويوجب علينا الإنفاق عليه أو تركه يسعى في رزقه[٢].

وقال د. يوسف القرضاوي: (والرحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه ويتقي الله فيه، ويعلم أنه مسؤول أمام ربه عن هذه العجماوات. وقد أعلن النبي ﷺ لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلبًا فغفر الله لها. وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب، فماذا يكون عقاب الذين يحبسون عشرات الألوف من بني الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله؟!

ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه - خيمته - فاتخذت من أعلاه عشًا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة "الفسطاط".

ويروي ابن الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة. وأنه كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة. وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

هذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله والآخرة، ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأفئدة القاسية.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) الأدب النبوي ٤١-٤٣.

أرأيت إلى عمر -وقد كان معروفًا بالشدة والقسوة في جاهليته- كيف صنع الإيمان به، ففجر ينابيع الرحمة والرقة في قلبه. لقد قالوا: وأد بنتًا له في الجاهلية، فلما ولي إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن بغلة تعثر بأقصى البلدان.

كما برز أثر ذلك الخلق العظيم في العلاقات الاجتماعية الداخلية، فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض بالرفق والمرحمة، وتتدفق بالبر والخير، وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عرف بنظام "الوقف الخيري" عند المسلمين.

فقد أوقف المواسون من المؤمنين -بدافع الرحمة التي قذفها الإيمان في قلوبهم، والرغبة في مثوبة الله لهم، وألا ينقطع عملهم بعد موتهم- أموالهم كلها أو بعضها على إطعام الجائع، وسقاية الظمآن، وكسوة العريان وإيواء الغريب، وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، ودفن الميت، وكفالة اليتيم، وإعانة المحروم، وعلى كل غرض إنساني شريف، بل لقد أشركوا في برهم الحيوان مع الإنسان.

ولقد تأخذ أحدنا الدهشة وهو يستعرض حجج الواقفين ليرى القوم في نبل نفوسهم، ويقظة ضمائرهم، وعلو إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم، وهم يتخيرون الأغراض الشريفة التي يقفون لها أموالهم، ويرجون أن تنفق في سبيل تحقيقها هذه الأموال.

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذاالبر يعين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال، فإلى هذه النفوس المستشرفة أسوق هذه الأمثلة:

وقف الزبادي: وقف تشتري منه صحاف الخزف الصيني، فكل خادم كسرت آنيته، وتعرض لغضب مخدومه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناء صحيحًا بدلاً منه، وبهذا ينجو من غضب مخدومه عليه.

وقف الكلاب الضالة: وقف في عدة جهات ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب استنقاذًا لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت او الاقتناء.

وقف الأعراس: وقف لإعارة الحلى والزينة في الأعراس والأفراح، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه. وبهذا يتيسر

للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة، ولعروسه أن تجلى في حلة رائقة، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتنجبر الخواطر المكسورة)[١].

ثانيًا- من مهام الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث "فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" قال الإمام النووي: (والمعنى لا تتخذوا الحيوان الحي غرضًا ترمون إليه، وهذا النهي للتحريم، لأنه تعذيب للحيوان وإتلاف لنفسه وتضييع لماليته، وتفويت لذكاته إن كان مذكى، ولمنفعته إن لم يكن مذكى)[٢]. هذا ومن فقه الداعية أن ينهى عن المنكر إذا رآه كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣] وقال ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٤]. قال الإمام ابن رجب: (من شهد الخطيئة فكرهها بقلبه، كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها، لأن الرضا بالخطيئة من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب، وهو فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في حال من الأحوال)[٥].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار" وقوله "إن رسول الله لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تردع المدعو عن ارتكاب المخالفات الشرعية (والترهيب هو كل ما يخيف

---

(١) الإيمان والحياة ٢٨٩-٢٩٢ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٤٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٤٥/٢.

المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[١]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٣].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

الحديث رقم (١٦٠٣)

١٦٠٣ - وَعَنْهُ: أنَّهُ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إنَّ رسولَ الله ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا. متفق عَلَيْهِ[1]. "الغَرَضُ" بفتح الغين المعجمة والراء، وهو الهدف، والشيء الذي يرمي إليه.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الغَرَضُ: الهدف والشيء الذي يُرمى إليه[2].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث ينقل مشهدًا واقعيًا يجسد قسوة الإنسان في تعامله مع الطير والحيوان، وهذا المشهد جزء من سلوكيات وأخلاقيات الجاهلية، وجزء من عاداتهم ولهوهم، وترجمان على هذه القسوة التي غلفت قلوبهم وحجرت مشاعرهم، وبقيت أصداء من هذه السلوكيات والعادات الجاهلية سيطرت على عقول بعض فتيان قريش الذين شهدهم ابن عمر رضي الله عنهما وهم يرمون الطير بنبلهم، حيث اتخذوه وسيلة للعب واللهو والتدريب على الرمي، فأنكر عليهم ذلك، وهذا المشهد الواقعي اتسم في صياغته اللغوية، وفي أسلوبه بعدة مظاهر تعلن عن رفض هذا السلوك المخالف لفطرة الإنسان ولطبيعة الإيمان، فقوله: "قدْ نصبوا"، يفيد تأكيد الحديث: لأن قد للتأكيد والتحقيق، وقوله: "وهم يرمونه" جملة حالية، لإثبات هذا الفعل المؤذي، وإلحاقه بهؤلاء الفتية، وقوله "طيرًا" يفيد الجمع والإفراد: لأن الطير جمع طائر، ويمكن أن يكونوا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (بعد حديث رقم ١٩٥٨/٥٩، بدون رقم) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥٠).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٥٤.

قد نصبوا طيرًا أي عددًا كثيرًا وهذا أشنع وأقسى وتكرار "قد" يفيد إصرار هؤلاء الفتية على هذا السلوك الشائن، وقد هنا تؤكد مشاركة صاحب الطير في هذا المشهد القاسي الذي يعد من الكبائر.

ولنتأمل هذه الهيبة التي اتسم بها ابن عمر رضي الله عنهما: حيث كانت لا تأخذه في الله لومة لائم، وحينما رآه الفتيان تفرقوا.

والاستفهام في قوله: "من فعل هذا؟" توبيخ وتقريع لهؤلاء الفتيان الأغرار، وتكرار "هذا" في قوله "لعن الله من فعل هذا": مع الدعاء عليهم باللعن: جاء لمزيد من التقريع والتبكيت، حتى يرتدعوا: ويرتدع غيرهم والفعل: لعن: يفيد الطرد من رحمة الله: لأن اللعن هو الإبعاد، وقوله: "لعن الله من فعل هذا": أي: طرده الله من رحمته، لأنه لم يرحم هذا الطير الأخرس البريء.

وكرر هذا الوعيد بالعذاب والطرد من رحمة الله، وجاء هذا التكرار مصحوبًا بالتأكيد في نهاية الحديث حيث قال: "إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا". فعلى رسول الرحمة أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فقه الحديث

تشير أحاديث الباب إلى عدة أحكام منها:

١- تحريم قتل أي حيوان صبرًا[١].

٢- حكم ضرب الوجه ووسمه: اتفق الفقهاء على حرمة الضرب في الوجه، والوسم في كل حيوان ولكنه في الآدمي أشد[٢]. واستدلوا بأحاديث الباب التي تنهى عن ذلك،

---

(١) بريقة محمودية ٢/٤، فتح الباري، ابن حجر ٧٧٢/٩، سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٦/٤، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٨/٨.

(٢) درر الحكام شرح غرر الأحكام ٣١٩/١، بريقة محمودية ١٢٦/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٥/٢، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٩٦/٢، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢٤٩/٧، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٤/٣، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٦٦٣/٥-٦٦٤، كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩٤/٥، شرح النووي على مسلم ٩٧/١٤، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٩/٨.

ولأن الضرب في الوجه والوسم من أفعال الجاهلية[١].

٣- حكم الوسم في الوجه للمداواة: اتفق الفقهاء على جواز الوسم والكي في الوجه للمداواة، وأنه مستثنى من النهي للحاجة[٢].

٤- حكم وسم البهائم في غير الوجه: ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز وسم البهائم في غير الوجه كالأعناق والأفخاذ. وذهب أبو حنيفة إلى كراهة ذلك لأنه تعذيب للحيوان وهو منهي عنه[٣].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

٥- النهي عن جعل الحيوان هدفًا يرمى إليه والنهي يقتضي التحريم[٤].

٦- تحريم تعذيب الحيوان الآدمي وغيره[٥].

٧- الرفق بالمماليك وحسن صحبتهم وكف الأذى عنهم[٦].

٨- أجمع المسلمون على أنه يستحب للسيد إذا ضرب عبده أن يعتقه رجاء كفارة ذنبه[٧].

المضامين الدعوية[٨]

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦.

(٢) غرر الحكام ٣١٩/١، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٩٦/٢، المجموع شرح المذهب ١٥٤/٦-١٥٥، شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٢٤٨/٣، كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩٤/٥.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢٤٩/٧، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٥/٢، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٤/٣، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦، شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٢٤٨/٣، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١٤١/٣- ١٤٢، شرح صحيح مسلم، النووي ٩٧/١٤.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٣/٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧٧٣/٩.

(٦) شرح صحيح ١٣٧/١١.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٧/١١.

(٨) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٠٤)

١٦٠٤ - وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: نهى رسُولُ الله ﷺ أن تُصبَرَ البَهَائِمُ. متفق عَلَيْهِ[1].

ومعناه: تُحْبَسُ للقتل.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

ما أرق قلب رسول الله ﷺ، وما أجمل شمائله، وما أحسن صفاته، وتاج هذه الشمائل وأم تلك الصفات والسجايا، يتضوأ في آفاق الرحمة التي جعلها الله هدية للعالمين، ومنارًا للقاصدين، وعنوانًا للعارفين، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وهذا الحديث برهان ساطع على ذلك السلوك الإسلامي الرشيد، فالراوي: أنس بن مالك يقول في صيغة حاسمة: "نهى رسول الله ﷺ: أن تصبر البهائم".

والفعل: نهى يفيد التحريم استجابة لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

وقوله: أن تصبر البهائم، أي: تحبس للقتل، وقيل معناه كما قال العلقمي: "هو أن يمسك الحي ثم يُرمى بشيء حتى يموت".

وحين نتأمل مدلول "الصبر" في اللغة ندرك عظمة البيان النبوي، فمعنى "صبره" أي: حبسه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦/٥٨) واللفظ له.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

ومن مشتقات هذه المادة ما يفيد القسوة والغلظة، "فالصبرة" الحجارة الغليظة المجتمعة، وكأن هذا الفعل الذي فيه: تصبر البهائم حتى تموت. أقسى من الحجارة أو أشد قسوة وقيل أم صبّار وأم صبور أي: الحرّ، والداهية، والحرب الشديدة، وكلها دلالات تجسد القسوة والعنف وعدم الرحمة، وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ في سياق هذا الحديث الشريف.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مضامين الحديث رقم (١٦٠٢).

الحديث رقم (١٦٠٥)

١٦٠٥ - وعن أَبي عليٍّ سويدِ بن مُقَرِّنٍ ﷺ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرِّنٍ مَا لَنَا خَادِمٌ إِلاَّ وَاحِدَةٌ لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا فَأَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا. رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ[2]: ((سَابِعَ إِخْوَةٍ لِي)).

ترجمة الراوي:

أبو علي سويد بن مقرن: هو سُوَيْد بن مُقَرِّن بن عائذ المُزَني، يكنى أبا عائذ، ويقال: أبو عديٍّ، ويقال: أبو عمرو.

روى عن النبي ﷺ وروى حديثه مسلم وأصحاب السنن ويقال إنه نزل الكوفة[3].

غريب الألفاظ:

لطمها: ضرب خَدَّها[4].

الشرح الأدبي

إن صحابة رسول الله ﷺ، كالنجوم في الهداية، بأيهم اقتديتم اهتديتم، كما يقول المصطفى ﷺ ومن أجل الصفات التي وصف محمد رسول الله والذين معه أنهم رحماء بينهم أشداء على الكفار، تراهم ركعًا سجدًا.

---

(١) برقم (١٦٥٨/٣٢).

(٢) برقم (١٦٥٨/٣٣).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٩/٦)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣١٧)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦٠٠/٢، ٦٠١)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٦٢)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٤٢/٣)، السندي (٤٧٢/٢٤).

(٤) لسان العرب، ابن منظور في (ل ط م).

وهذا الحديث الشريف برهان صادق على رسوخ صفة الرحمة في قلوب المسلمين، والحديث على لسان أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه اتباعًا لأمر رسول الله ﷺ.

ويبدأ الحديث بالتأكيد الذي يشعر بالقسم، وذلك في قوله: "لقد" أي والله لقد، وهذا التأكيد لإثبات هذه الحالة التي وقعت، وهي لطم الجارية، وبسبب هذه القسوة أمر رسول الله أن تعتق هذه الجارية عوضًا لها عما لحقها من أذى، إن هذه هي صورة الإسلام في أجل مظاهرها رحمة وبرًا، وتكافلاً ومساواة، وإخاءًا وتعاونًا، ورفقًا ومحبة.

وقوله "رأيتني" يفيد دلالتين، فرأى هنا إما بمعنى علم، أو بمعنى أبصر: فهي إما علمية أو بصرية.

وكلا الدلالتين يفيد تأكيد الخبر، وإقرار الواقع المثير للتأمل والتساؤل: فهم سبعة، وليس لهم خادم إلا واحدة، والمسكوت عنه في هذا الإقرار الذي جاء في أسلوب القصر للتحديد والحصر، هو أن هذه "الجارية" تخدم سبعة أشخاص، وليس شخصًا واحدًا.

فهي تتحمل المشاق، وتقوم على خدمتهم خير قيام، ومع ذلك تجازى جزاء به قسوة، ويلطمها أصغرهم، فإذا برسول الله "الرحمة المهداة" يعاقب هؤلاء السبعة رغم أنهم كلهم من الصحابة المهاجرين ولم يشاركهم أحد في مجموع ذلك، كما قاله ابن عبدالبر وغيره، وبرغم ذلك يعاقبهم رسول الله ﷺ، فيأمرهم بعتق الجارية وقوله: "فأمرنا" يفيد الإلزام والوجوب، وتنفيذ الأمر، ليكون إعتاق الجارية كفارة لضربها، وقيل فيه غلظ تعذيب المملوك والاعتداء عليه.

إنها مكافأة من رسول الله لهذه الجارية التي أهانها أخو سويد بن مقرن.

وما أجمل قول الشاعر أحمد شوقي في إشادته بصفة الرحمة التي تحلى بها رسول الله ﷺ:

وإذا رحِمــت فأنــت أُمٌّ، أو أَبٌ ... هــذان في الــدنيا همــا الرُّحمــاءُ[1]

---

(١) انظر: الشوقيات ٣٦/١.

المضامين الدعوية[(١)]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم.

ثانيًا: من واجبات الداعية: النصح والبيان.

ثالثًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اهمية الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم:

يتضح هذا من مجمل الأحاديث، وهي تدل بمجموعها على أهمية وفضل الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم، قال ابن علان: (وفي الأحاديث غلظ تعذيب المملوك والاعتداء عليه، وقوله في الحديث "فإن كفارته أن يعتقه" أي محو ذلك الإثم عنه بإعتاقه، قال القاضي عياض: أجمعوا على أن الإعتاق غير واجب وإنما هو مندوب، لكن أجر هذا الإعتاق لا يبلغ أجر الاعتاق شرعًا، وفي الحديث الرفق بالمماليك إذا لم يذنبوا، أما إذا أذنبوا فقد رخص ﷺ بتأديبهم بقدر إثمهم، ومتى زادوا يؤاخذوا بقدر الزيادة)[(٢)].

ولقد كان من هدي النبي ﷺ أن يحسن معاملة الخدم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((خَدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنينَ، فما قال لي أُفّ، ولا: لمَ صَنعتَ؟ ولا ألا صنعت))[(٣)] قال السعدي: (لقد أوصى الله ورسوله بالمماليك من الآدميين، وأن يقام بكفايتهم ومصالحهم، وأن لا يكلفوا من العمل ما لا يطيقون، ففي هذا رحمة للمماليك، ورحمة للملاك والسادة وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الملاك إذا احتسبوا في نفقاتهم على ما يملكون، ونووا القيام بالواجب ورحمة المملوك، أثابهم الله وكفر به من سيئاتهم وزاد في حسناتهم، وأنزل لهم البركة في هذه المماليك فإن كل شيء دخلته النية الصالحة، والتقرب إلى الله، لابد أن تحل

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠٦، ١٦٠٧).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٤٧، ١٦٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩.

فيه البركة، كما أن من أهمل مماليكه، وترك القيام بحقهم، استحق العقاب، ومن جملة مايعاقب به نزع البركة منها، فكما حبس وقطع رزق من يملكه، قطع الله عنه من الرزق جزاءً على عمله.

ثانيهما: أن قيامهم بما يملكون هو عين مصلحتهم، ونفعه عائد عليهم، فإنهم إذا قصروا عاد النقص والضرر الدنيوي على الملاك، ولكن المصلحة الدنيوية وخوف الضرر على أنفسهم ألجأتهم إلى ذلك رحمة من الله وجودًا وكرمًا)[1]. إن الإسلام حث على حسن معاملة الخدم؛ لأن الناس في الإسلام سواسية (لقد نهانا رسول الله ﷺ أن نكلف الخدم والعمال من الأعمال ما يشق عليهم، ويهد من قوتهم، أو يستفرغ جهدهم بل أمر بالتكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم، فإن كلفناهم بالشاق وجب علينا أن نعينهم بنفوسنا، أو بخدم إلى خدمنا، وفي هذا رفع لمستواهم وتنبيه لهم إلى حقوقهم قبل ساداتهم، وإرشاد لأرباب البيوت أن يقفوا منهم موقف العدالة، ولا يتناسوا رابطة الأخوة، ولا تبادل المنافع)[2]. وما من شك في أن الخادم أو العامل قد تصدر منه بعض الهنات والزلات، وهنا يوجه الإسلام إلى ضرورة العفو والصفح والتجاوز.

(إن العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان سبب لعلو المنزلة، ورفعة الدرجة، وفيه من الطمأنينة والسكينة، والحلاوة، وشرف النفس، وعزها، وترفعها عن تشفيها بالانتقام - ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا))[3].

وقال عمر بن عبدالعزيز: (أحب الأمور إلى الله ثلاثة: العفو عند المقدرة، والقصد في الجدة، والرفق بالعبدة).

وعن داود بن الزبرقان قال: قال أيوب: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم[4].

---

(١) الرياض الناضرة ٥٤، ٥٥.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٧٥، ٧٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٤) روضة العقلاء ١٣١.

وقال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ ... أرحت نفسي من ظلم العداوات[١]

ومن جميل ما يذكر في هذا قول المقنع الكندي:

وإن الذي بيني وبين أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا قدحوا لي نار حربٍ بزَنْدهِم ... قدحت لهم في كل مكرمةٍ زندا

وإن أكلوا لحمي وَفَرْت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أَحْمِلُ الحِقدَ القديمَ عليهم ... وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا[٢]

وعن عبدالملك أو قيس بن عبدالملك قال: (قام عمر بن عبدالعزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[٣]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه فشجَّه.

قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلّى سبيله)[٤].

وقال ابن القيم متحدثًا عن حسن الخلق والعفو، والإحسان إلى من أساء: (وما رأيت أحدًا أجمع لهذه الخصال من ابن تيمية.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له - فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام.

---

(١) ديوان الشافعي ص ٨٢.

(٢) روضة العقلاء، ص ١٧٣-١٧٤، وانظر: بهجة المجالس ٢/٧٨٤-٧٨٥.

(٣) الطومار: صحيفة مطوية.

(٤) الكتاب الجامع ٢/٤٢٣-٤٢٤.

فَسُرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه)[١].

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجدر بالعاقل -كما قال ابن حبان-: (توطين نفسه على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها)[٢].

وقد يظن ظانٌّ أن العفو عن المسيء، والإحسان إليه مع القدرة عليه موجب للذلة والمهانة، وأنه قد يجر إلى تطاول السفهاء.

وهذا خطأ؛ ذلك أن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة بحال؛ فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة.

أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه، حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومهابة.

سياسة الحلم لا بطش يكدرها فهو المهيب ولا تخشى بوادره[٣]

فالعفوا إسقاط حقك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك؛ رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا، وخوفًا، ومهانة نفس، فهذا غير محمود، بل لعل المنتقم بالحق أحسنُ حالاً منه[٤].

ثانيًا- من واجبات الداعية: النصح والبيان:

حيث جاء في الحديث "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" وقوله "فأمر رسول الله ﷺ أن نعتقها" قال الشيخ ابن عثيمين: (وقد ذكر النبي ﷺ أبا مسعود أن الله أقدر عليه من قدرته على هذا العبد، وعندئذ سقطت العصا من يده

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٢٨- ٣٢٩.

(٢) روضة العقلاء ١٣١.

(٣) انظر: رسائل الإصلاح ١/١٨٦.

(٤) سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ١١٠-١١٣.

هيبة لرسول الله ﷺ ثم أعتق العبد، وهذا من حسن فهمه رضي الله عنه لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١] فبدلاً من أنه أساء إلى هذا العبد أحسن إليه بالعتق، لهذا أرشد النبي ﷺ إلى هذا بأن من ضرب عبده أو لطمه، فإن كفارة ذلك أن يعتقه لأن الحسنات يذهبن السيئات)[٢]. ومن خلال هذا يتضح أن من أهم واجبات الداعية النصح للمدعو، وأن يبين له الأحكام والأمور، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وقد دلت الأحاديث النبوية على فضل النصح والبيان، فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: ((بايَعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والنُصْحِ لِكلِّ مُسْلم))[٤]. وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: ((إنَّ النَّبيَّ قَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((الْمُؤْمِنُ مِرآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ))[٦]. وبهذا يلزم الداعية أن يحرص على النصح لكل مسلم إذا رآه على مخالفة، وأن يبين له ويرشده إلى ما هو خير، فإن من شأن الداعية أنه حريص على المدعوين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

ثالثًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع:

حيث جاء في الحديث "فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا" وهذا يدل على مدى الاستجابة لتوجيهات الرسول ﷺ وذلك لأن في الاستجابة لهديه الحياة الحقيقية، قال

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٩١.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٠١، ومسلم ٥٦.

(٥) أخرجه مسلم ٨٨.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٩١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١٠).

(٧) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1]. وفي اتباعه وطاعته الهداية والرشاد، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3].

ومن أبرز الأمثلة على الاستجابة والطاعة لأمر رسول الله ﷺ ما جاء عن أبي برزة الاسلمي رضي الله عنه: أن جليبيبًا كان امرً يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا تدخلن عليكم جليبيبًا، إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن.

قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم: هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا؟ فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: "زوجني ابنتك". فقال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين. قال: "إني لست أريدها لنفسي". قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: "لجليبيب". قال: يا رسول الله أشاور أمها.

فأتى أمها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. قالت: نعم ونعمة عين. قال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب، قالت: ألجليبيب إنيه! ألجليبيب إنيه! لا لعمر الله لا نزوجه.

فلما أراد أن يقوم ليأتي النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها، فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني.

فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبًا.

قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، قال: فلما أفاء الله عز وجل قال: "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: لا. قال: "لكني أفقد جليبيبًا".

قال: "فاطلبوه في القتلى"، فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) سورة النور، آية: ٥٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

فأتاه النبي ﷺ فقال: "قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه مرتين أو ثلاثًا".

ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحفر له ما له سرير إلا ساعدا النبي ﷺ، ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله.

قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها.

وحدث إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة ثابتًا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ قال: (اللهم صُبَّ عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كَدًّا كَدًّا) قال: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها[1].

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له، وعلى أبي اليسر بردة ومعافريٌّ، وعلى غلامه بردة ومعافريٌّ، فقلت له: يا عميَ! لو أخذت بردة غلامك وأعطيته مَعَافِرِيَّك وأخذت معافِرِيَّه وأعطيته بردتك كانت عليك حلة وعليه حلة! فمسح رأسي وقال: اللهم بارك فيه، يا ابن أخي؛ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْن، وسَمْعُ أُذنيَّ هاتين ووعاه قلبي هذا - وأشار إلى مناط قلبه- النبي ﷺ وهو يقول: ((أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وكان أن أعْطَيْتُهُ من متاع الدنيا أهونُ عَلَيَّ من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة))[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((سَرَّحَتْني أمي إلى رسول الله ﷺ فأتيته وقعدت فاستقبلني، وقال: من استغنى أغناه الله عز وجل، ومن استعف أعفه الله عز وجل، ومن استكفى كفاه الله عز وجل، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف. فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت ولم أسأله))[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/٤٢٢ رقم ١٩٧٨٤ واللفظ له، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٣٣/٣٠، وأخرجه مسلم ٢٤٧٢ خاليًا عن الخطبة والتزويج.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٠٧.

(٣) أخرجه النسائي ٢٥٩٦، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن النسائي ٢٤٣٢).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب:

١- الشرط: حيث جاء في الحديث "من ضرب غلامًا له" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفس المدعو، حيث يشد انتباهه إلى معرفة جواب الشرط وما يترتب عليه، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة، حيث إن النفس البشرية بطبيعتها تخاف العقاب والوعيد (والترهيب هو التخويف والتوعد بعذاب الله والنار، والترغيب والترهيب يأتي في الشريعة حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجًا وردعًا، ويأتي بشيرًا ونذيرًا)[2].

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) الدعوة إلى الله الرسالة: الوسيلة، الهدف، د. توفيق الواعي، ص ١٩٩.

الحديث رقم (١٦٠٦)

١٦٠٦ - وعن أَبي مسعودٍ البدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أضْرِبُ غُلامًا لِي بالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: ((**اعْلَمْ أبَا مَسْعُودٍ**)) فَلَمْ أفْهَمِ الصَّوْتِ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إذَا هُوَ رسولُ الله ﷺ، فإذا هُوَ يَقُولُ[١]: ((**اعْلَمْ أبَا مَسْعُودٍ أنَّ اللهَ أقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلامِ**)). فَقُلتُ: لا أضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أبَدًا[٢].

وَفِي روايةٍ[٣]: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيْبَتِهِ.

وفي روايةٍ[٤]: فَقُلتُ: يَا رسولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ: ((**أمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ**)). رواه مسلم بهذه الروايات[٥].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

السوط: ما يضرب به من جلد سواءً أكان مضفورًا أم لم يكن[٦].

هيبته: مخافته[٧].

للفحتك النار: أصابتك بحرها ووهجها[٨].

الشرح الأدبي

إن الرحمة تاج أخلاق المسلم، وهي تسري في سلوكياته وحياته مسرى الدم في عروقه.

---

(١) عند مسلم زيادة: (اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، قال: فألقيت السوط من يدي).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩/٣٤).

(٣) برقم (١٦٥٩/٣٤) من حديث جرير، ولفظه: (فسقط من يدي السوط من هيبته).

(٤) برقم (١٦٥٩/٣٥) من حديث أبي معاوية.

(٥) انظر: الجمع للحميدي (١/٤٩٦- ٤٩٧، رقم ٧٩٨).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ط).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ ي ب).

(٨) المرجع السابق في (ل ف ح).

والحديث مشهد من مشاهد الواقع في عهد النبوة، وهو مشهد يجمع بين جموح السلوك البشري، وتهذيب هذا السلوك في ضوء التعليمات النبوية، والاقتداء بأخلاق الرسول الكريم، والحديث في نسقه اللغوي، وتكوينه الأسلوبي... يتكون من موقفين: وكلاهما مرتبط بالآخر موقف التعذيب والإيذاء؛ وموقف العظة والاهتداء.

فأما الموقف الأول فهو على نسق الحديث السابق، حيث يحكي الراوي عن نفسه ليقدم القدوة الصالحة في الاقتداء برسول الله ﷺ، واتباع تعاليمه، وهذا الموقف يتمثل في ضرب الغلام بالسوط، وأما الموقف الثاني فهو: زجر الرسول له ونهيه عن ذلك.

ونلاحظ أن الحديث يبدأ بالفعل "كنت"، وهو فعل ماض ناقص من الأفعال الناسخة، وفي ذلك إيحاء بأن هذا الموقف انتهى، ونسخ، وتبقى منه الموعظة والرحمة التي انبثقت من هذا الحدث المخالف لأخلاق المسلم؛ ووقائع هذا الحديث متلاحقة، والربط بين الجمل بحرف العطف "الفاء" يجسد هذا التلاحق إيحاءً بضرورة تخليص هذا العبد من ذاك العذاب: ولنتأمل هذه الأفعال، (فسمعت صوتًا - فلم أفهم الصوت- فلما دنا مني، فإذا هو يقول: فقلت لا أضرب مملوكًا أبدًا)، إن هذا التتابع يضفي على صياغة الحديث طابع القصة القصيرة التي تتلاحق وقائعها، وتكرار إذا الفجائية مع الضمير العائد على رسول الله مرتين، يرشد إلى إحساس هذا الصحابي بهيبة رسول الله ﷺ وسرعة استجابته لتوجيهاته.

وتوجيه رسول الله ﷺ صيغ في إطار أسلوبين: هما الأسلوب الإنشائي، والأسلوب الخبري، فأما الإنشاء فقد جمع بين الأمر والنداء، لمزيد من الحث والاهتمام والتنبيه في قوله: "اعلم أبا مسعود"، وحذف حرف النداء: للإيجاز وللإيحاء بالسرعة في الكف عن تعذيب هذا المملوك.

وأما الخبر: فقد جاء محصنًا بالتوكيد، وأفعل التفصيل، والطباق بين عليك، ومنك فقال: إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام.

وتأتي الجملة الأخيرة إقرارًا واستجابة لتوجيه رسول الله : فيقول: أبو مسعود: "لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وفي رواية قال: هو حر لوجه الله".

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٠٧)

١٦٠٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: ((مَنْ ضَرَبَ غُلامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأتِهِ، أوْ لَطَمَهُ، فإنَّ كَفَارَتَهُ أنْ يُعْتِقَهُ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

حَدًّا: الحَدُّ: الذنب الموجب للعقوبة[2].

لطَمَه: ضرَب خَدَّه[3].

كفَارتُه: الكفّارةُ: العمل الذي يستر الذنب ويمحوه[4].

الشرح الأدبي

إن الإسلام أعطى لكل ذي حق حقه، ولا يرى الإسلام قيمة للحياة بدون الحرية، والحرية في اللغة تطلق على الخلوص من العبودية، فيقال هو "حر" أي غير مسترق ولا مملوك، وتطلق على الخلوص من القيد، فيقال هو حر أي غير أسير، وعلى الخلوص من كل شيء دخيل، فيقال فرس حر أي عتيق الأصل، ليس في نسبة هجنه، وتطلق بمعنى: الشرف والطيب والجودة: فيقال هو حر أي كريم شريف طيب الأصل، ويقال: هو من حرية القوم أي أشرافهم، والحر من كل شيء: أحسنه وأطيبه وأعتقه[5].

وفي ضوء هذه الدلالات التي تتضوأ بها كلمة "الحرية" التي تناقض العبودية، نستبطن بعض أسرار لغة هذا الحديث الشريف الذي يحث على احترام الإنسان، ويرشد

---

(١) برقم (١٦٥٧/٣٠).

(٢) النهاي في (ح د د).

(٣) المعجم الوسيط، محمع اللغة العربية في (ل ط م).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

(٥) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، وانظر: لسان العرب، ابن منظور.

إلى البعد عن تعذيب "العبد أو الغلام أو الخادم أو الأجير" أو كل من يقوم بعمل مقابل أجر، فالإنسان في ظل الإسلام له كرامته وحريته.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة موجزة، ولكنها دالة هادفة: تشخص الداء وتصف الدواء، وهي جملة صيغت في قالب الشرط والجزاء، وهو قالب لغوي يناسب المعنى المراد في هذا الحديث: وهو أن لكل مخالفة كفارة، ولكل ذنب عقوبة.

ولذلك يتمثل الشرط في الجزء الأول من الحديث حيث قال رسول الله "من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته أو لطمه" أي من أقام الحد على غلام ظلمًا وهو لم يرتكب ذنبًا يوجب ذلك، وقوله: "حدًّا" مفعول به أي: من أجل إقامة الحد كان الضرب، وحتى إذا لم يضرب الضرب المقيم للحد بل لطم العبد فقط، فذلك ذنب يوجب الكفارة، والكفارة هي أن يحصل العبد على حريته، حيث يعتقه مالكه، وهذه أعظم مكافأة يكافئ بها الإسلام كل مملوك يتعرض لظلم مالكه.

وجاء جواب الشرط مؤكدًا في جملة اسمية تبدأ بـ"إن" المؤكدة، وخبرها مصدر مؤول: أن يعتقه.

ومصطلح "الكفارة" من مظاهر تطور اللغة في ظل الإسلام، فالكفارة في الفقه الإسلامي، ما يفعله الإنسان من عمل صالح، أو صدقة طيبة، ليغفر الله له سيئة اقترفها، أو عملاً غير صالح عمله، أو يمينًا حلف به، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في أربع آيات كلها في سورة المائدة، وهي آخر سورة نزلت في القرآن الكريم لتبين للناس كثيرًا من أحكام هذا الدين[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة ص٢٩٢.

(٢) تم دمجها مع المضامين الدعوية الحديث رقم (١٦٠٥).

الحديث رقم (١٦٠٨)

١٦٠٨- وعن هِشام بن حكيم بن حِزَامٍ رضي الله عنهما: أنه مَرَّ بالشَّام عَلَى أُناسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ، وَقَدْ أُقيمُوا في الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ! فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قيل: يُعَذَّبُونَ في الخَرَاجِ[1].

وفي رواية: حُبِسُوا في الجِزْيَةِ. فَقَالَ هِشَامٌ: أشهدُ لَسَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ في الدُّنْيَا))[2].

فَدَخَلَ عَلَى الأمِيرِ، فَحَدَّثَهُ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا. رواه مسلم[3]. "الأَنْبَاط": الفلاحون من العجم.

ترجمة الراوي:

هشام بن حكيم بن حزام: هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي، عمة أبيه السيدة خديجة زوج النبي ﷺ. أسلم هو وأبوه يوم فتح مكة.

كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، كان صلبًا في الحق مهيبًا قوّامًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن وحده يفعل ذلك، بل كان معه رجال يقومون بالإصلاح والنصح، والترغيب في الخير، والزجر عن الشر، حسبةً لله تعالى، ليس لأحد عليهم إمارة ولا سلطة. بلغ من شهرته في الصدع بالحق والأمر بالخير والنهي عن الشر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى منكرًا أو سمع بشيء من الباطل يراد أن يفعل أو ذُكر له - قال: لا يفعل هذا ما بقيت أنا وهشام بن حكيم. وبلغ من شغفه بهذا الأمر أنه عاش كالسائح لم يتخذ أهلاً ولا كان له ولد.

كان كل الناس عنده سواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فرق عنده بين حاكم ومحكوم أو رئيس ومرؤوس أو علية القوم وعامتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٣/١١٧) من حديث حفص بن غياث.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٣/١١٨) من حديث أبي أسامة.

(٣) بعد حديث (٢٦١٣/١١٨، بدون رقم) من حديث جرير. تنبيه: أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٧٢) هكذا جمعًا بين الطرق الثلاثة للحديث. وتبعه عليه المؤلف.

كان يدخل على الولاة بالشام، فإذا وجد أحدهم يعمل -أو يريد أن يعمل- أمرًا مخالفًا، يتوعده ويقول له: لأكتبن إلى أمير المؤمنين بهذا. فيرتدع الوالي- ويقوم إليه يتشبث به- ويرجع عما فعل أو أراد أن يفعل.

وله قصة مع عمر بن الخطاب في قراءة القرآن، قال عمر: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها وكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبَّبْتُه بردائه[1] فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي: أرسله. ثم قال له: اقرأ. فقرأ. قال: هكذا أنزلت. ثم قال لي: اقرأ فقرأت: فقال: هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا منه ما تيسر[2].

قال ابن سعد: توفي في أول خلافة معاوية[3].

غريب الألفاظ:

الأنباط: الفَلاحون من العَجم[4].

الخَراج: ما يُفرض على الأرض المفتوحة من الضرائب[5].

الجزية: ما يُفرض على أهل الذمَّةِ[6].

---

(١) أي أخذت بمجامع ردائه في عنقه وجررته به. شرح مسلم للنووي (٣/٨٦- ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٢٧٠- ٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٤١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥/٢٧٢) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٥٩، والسير (٣/٥٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٧/٤٠٠) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٢٦٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٨/٨٥)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣/١٩٣٧).

(٤) رياض الصالحين ٥٥٥.

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٧٢.

(٦) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٤٣.

خُلُّوا: تُركوا وأُخلِي سبيلُهم"[1].

الشرح الأدبي

يحكي الراوي عن هشام بن حكيم رضي الله عنه في هذا الحديث ما رآه من مظاهر تعذيب ولاة الأمر لعامة الناس، ويصور مظاهر ذلك التعذيب وهو تصوير مفزع ينشر الهلع في النفوس، ويزرع الخوف في القلوب، ويسجل انطباعًا غير صحيح عن الإسلام في نفوس الآخرين.

فهؤلاء المعذبون: من الأنباط، وهم فلاحون من العجم، وقيل هم قوم من العرب دخلوا في العجم والروم، واختلطت أنسابهم وفسدت ألسنتهم، وقد سموا بذلك لمعرفتهم بأنباط الماء واستخراجه من الأرض– لكثرة معالجتهم الفلاحة، فهم من الزراع.

وتصوير العذاب ورد في جملتين وقعتا موقع "الحال" فحالهم في الواقع: هو حالهم في النسق اللغوي: حيث أقيموا في الشمس تلفح وجوههم، وتكوي أجسادهم، ولم يكتف الأمير بذلك بل غالى في تعذيبهم وأمر أن يُصب الزيت على رءوسهم، وذلك من أقسى صور العذاب.

وبناء الفعل للمجهول في قوله: "أقيموا"، يرشد بأنهم أكرهوا على ذلك، وليس لهم اختيار في هذا الأمر، وكذلك بناء الفعل "صُبَّ"، للمجهول يوحي بأن الفاعل معلوم، وهو الوالي لأنه هو الذي أمر بذلك: لأنهم لم يقوموا بأداء الجزية أو الخراج.

والجزية شُرعت مقابل أن لا يهدم لأهل الكتاب بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم، بشرط أن يلتزموا بأحكام الإسلام، والخراج: هو ما يوضع من الضرائب على الأرض الزراعية أو محصولاتها، وهو يختلف باختلاف البلاد وما تصلح الأرض له، وتسقى به.

ولنتأمل أسلوب التوكيد الذي ورد في إطاره كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي سمعه منه هشام بن حكيم، حيث يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا".

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ل و).

وختام الحديث يُعد ثمرة نافعة من ثمار هذا الوعيد بالعذاب: وقد أسرع الأمير فخلى سبيل هؤلاء الأنباط المعذبين، وتتجلى السرعة في هذا النسق اللغوي الذي يفيد التتابع وسرعة التنفيذ رهبة وخشية وخوفًا من عذاب الله، وتوالت الأفعال معطوفة بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب والسرعة في هذه الجمل القصيرة المتوالية في ختام الحديث، في قوله: "فدخل على الأمير، فحدثه، فأمر بهم، فخلوا": أي أطلق سراحهم، وأقلع عن تعذيبهم، استجابة لما بلغه عن رسول الله ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من مصادر الدعوة: السنة النبوية.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة من يعذب الناس في الدنيا.

أولاً- من واجبات الداعية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

حيث جاء في الحديث "أنه مر بالشام على أناس من الأنباط وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤوسهم الزيت" وقوله "فدخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فخلوا" والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات الداعية- وقد قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[2]. قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (ودلت الأحاديث كلها

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤٩.

على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب لابد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دلَّ على ذهاب الإيمان من قلبه وقد روى عن أبي جحيفة قال: قال علي رضي الله عنه: (إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم ينكر قلبه المنكر، ويعرف قلبه المعروف- نكس فجعل أعلاه أسفله، وأما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الطاقة)[1]. قال الإمام عبدالرحمن بن داود الدمشقي: (والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف من أخص أوصاف المنافقين- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾[2].

بين سبحانه أن ذكور المنافقين وإناثهم ليسوا من المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[3] بل بعضهم من بعض في الحكم والمنزلة والنفاق وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق. فهم على دين واحد متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وليس المعنى على التبعيض حقيقة، لأن ذلك معلوم فالمؤمن بالمؤمن يتقوى، والمنافق بالمنافق يتعاضد. والمنافق (لصاحبه) أُسٌّ به قوامه وأصل به قيامه، يعينه على فساده، ويغمي عليه طريقة رشاده، وصفهم سبحانه بخلاف أوصاف المؤمنين، وأنهم يأمرون بالمنكر وهو الكفر والمعاصي، وينهون عن المعروف وهو الإيمان والطاعات.

قوله: "ويقبضون أيديهم" عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله تعالى قاله الحسن.

وقيل: تركوا أمره حتى صار كالمنسي، فصيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه.

وقيل: عن الجهاد. وقال سفيان: عن رفع الأيدي في الدعاء، و"النسيان" هنا الترك قال قتادة تركوا طاعة الله ورسوله. ونسيهم أي تركهم من الخير. وأما من الشر فلم ينسهم.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ٢/٢٤٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٥٦.

وقوله: "إن المنافقين هم الفاسقون" أي هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ من كل خير.

وللمنافق خمس خصال بنص القرآن: يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان، ويبخل بالزكاة، ويتخلف عن الجهاد إذا أمره الله، ويثبط غيره.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أوصاف المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

لما ذكر الله تعالى المنافقين والمنافقات، وما هم عليه من الأوصاف القبيحة والأعمال الفاسدة، ذكر المؤمنين والمؤمنات، فقال في أولئك: "بعضهم من بعض" وفي هؤلاء: "بعضهم أولياء بعض" في الدين، واتفاق الكلمة، والعون، والنصرة، إذ لا ولاية بين المنافقين ولا شفاعة لهم "ولا يدعو" بعضهم لبعض "فكأن المراد - هنا - أن الولاية في الله خاصة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدبعضه بعضًا))[2].

أي يعين بعضهم بعضًا على الطاعات، ويتواصون بترك المحظورات، فتحابهم "في الله" وقيامهم بحق الله، وصحبتهم لله، وعداوتهم لأجل الله، تركوا حظوظهم لحق الله، وآثروا - على هواهم - رضا الله.

أولئك الذين عصمهم في الحال، ويرحمهم في المآل.

ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده ما جرى كالتفسير والشرح له، وهي الخمسة التي يتميز بها المؤمن على المنافق في الآية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد، وهو المراد في هذه الآية

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

بقوله: "ويطيعون الله ورسوله"، فإن هذه الكلمة جامعة للمندوبات وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم.

وأخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتقدمه على بقية الأوصاف، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في الآية، فيثبت بذلك أن أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: "أولئك سيرحمهم الله" يعني الموصوفين بهذه الأوصاف الجميلة.

قال الزمخشري: السين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد والوعيد.

ولما كانت الرحمة - هنا - عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب في الآخرة، أتي بالسين التي تدل على الاستقبال.

"إن الله عزيز" أي غالب على كل شيء قادر عليه.

"حكيم" واضع كلاً موضعه. والله أعلم)[1].

والواجب على الداعية أن يحرص على إقامة هذه الشعيرة استجابة لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ.

(ومن لم تكن له همة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فليخش على نفسه النفاق وعلى قلبه من الزيغ، وَلْيَسْعَ في نجاة نفسه -بالقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر-، قبل أن يصيبه الله بقارعة لا تخطر له على بال، أو أن ينسيه الله نفسه فيهيم في أودية الضلال، فيكون ممن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسنًا. فيكون من الأخسرين أعمالاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[2].

---

(١) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الدمشقي الصالحي، ص ٥١-٥٢.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣- ١٠٦.

ومن أمارة هذا الصنف أنك تجده يكره الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، لقيامهم بذلك، ويفرح ويسر بما يصيبهم من الأذى وأنواع الابتلاء، ويسخر بما قد يقع من بعضهم من الأخطاء، أو ينسب إلى أحد منهم شيئًا على وجه الكذب والافتراء، وكان الأولى به أن يبكي على نفسه، ويأخذ بأسباب نجاتها مما توعد الله به أمثاله من سوء الحساب، وشديد العقاب، ما دام يمكنه المتاب، والسير في طريق الصواب.

فإن في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من جليل الفوائد، وكريم العوائد وعظيم المصالح الخاصة والعامة، ودرء المفاسد والشرور عن الأمة كافة، ما يدعو كل عاقل إلى الاهتمام به، والحرص على أن يكون من أهله المتحلين به المسارعين إليه، ومحبة القائمين به وإعانتهم عليه، لتحصيل ما وعد الله به القائمين بتلك الفريضة العظيمة، والشعيرة الجليلة، من الخير في العاجل والآجل ومن ذلك:

أن الأمر والنهي من الهدي الذي جاءت به الرسل عليهم السلام: فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أكملهم حظًّا عنده، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل جميع رسله:

بالأمر بالمعروف: الذي أصله وأساسه توحيد الله، وتصديق الرسول، وفروعه الأقوال والأعمال الصالحة.

والنهي عن المنكر: الذي أساسه الشرك والبدع، وفروعه أنواع الفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[2]. ولهذا تجد كل رسول أول ما يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه. ثم ينهاهم عن أعظم المنكرات من الأعمال - كبخس الكيل والوزن والبغي والظلم ونحو ذلك.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٦.

ولقد وصف الله خاتم الأنبياء محمد ﷺ، بالقيام بهذا الأمر كله على أكمل الوجوه وأحسنها، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1].

وبين أن أهدى الناس سبيلاً، وأسعدهم في الدنيا والآخرة أكملهم قيامًا وعناية به. قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3].

ولا يكون الإنسان مهتديًا حقًا إلا إذا كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾[4]. يعني: أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

والأمر والنهي آية صدق الإيمان، وبشارة بحسن الخاتمة: وصف الله أولياءه، المؤمنين الصالحين السابقين واللاحقين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقال سبحانه في السابقين: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[5].

ووصف الله به المؤمنين المجاهدين من هذه الأمة، فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[(٢)].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، آية الإيمان، وبرهان الصلاح، وأهله القائمون به هم خير الناس وأحبهم إلى الله تعالى، فيا بشراهم بما أعد الله لهم من الأجر العظيم، والنعيم المقيم، قال الله سبحانه: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(٣)].

وبالأمر والنهي يتمكن الدين ويعم الصلاح: قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾[(٤)].

وللأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دلالة على الخير وترغيب فيه، وتنبيه على الشر وزجر عنه، فيتحقق بالقيام به تنمية الخير وتقويته وتكثير أهله، وإضعاف الشر وتقليله أو القضاء عليه وقطع أسبابه.

وفي تكرار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في كل زمان ومكان ومناسبة، تعليم وتربية للأمة بأكملها، حيث يتحقق البيان الحازم للناس على الدوام، فيتعلم الجاهلين ويتذكر الغافل، وينشط المتكاسل)[(٥)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفتح حوارًا بين الداعية والمدعو، وفي مجال الدعوة إلى

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٥٥.

(٥) تذكرة أولي الأمر بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالله بن صالح القصير، ص ٧٦-٧٧ بتصرف.

الله تبدو أهمية المشاركة والمناقشة والسؤال (إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، ومن هنا وجب على الدعاة تشجيع الناس على طرح الأسئلة وإبداء الرأي حول مختلف القضايا، لأن ذلك يبني نفسية المشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إحداث القناعة بالرسالة الدعوية)[١].

ثالثًا- من مصادر الدعوة: السنة النبوية:

حيث جاء في الحديث "أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول" ومما لاشك فيه أن السنة النبوية المصدر الثاني للدعوة الإسلامية بعد القرآن الكريم (إن الرسول ﷺ ليس مجرد واعظ يلقي كلمته لتذهب في الهواء، ذلك أن الدين منهج حياة واقعية بأشكالها وتنظيماتها وأوضاعها وقيمها وأخلاقها وآدابها وعباداتها وشعائرها، ولذا وجب التحاكم إلى منهج الله القرآن والسنة)[٢]. (إن السنة المطهرة هي المصدر الثاني للداعية بعد القرآن الكريم، وهي شارحة للقرآن ومبينة له ومفصلة لما أجمل منه، كما أنها قصة كفاح، وخلاصة تجارب لأعظم داعية وأكرم عقل في الوجود، كما أنها توجيهات ربانية لفهم القرآن ورسم الطريق المستقيم)[٣].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن الله يعذب" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو مدى صدق الداعية فيما يقول وتحقق وقوعه، ومن صور استعمال أسلوب التوكيد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٤].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي ترهب المدعو وتحذره من الوقوع في المحظورات

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار، مرجع سابق ١٥٥.

(٢) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، د. محمد مصطفى الأعظمي، مطابع جامعة الرياض، ١٣٧٧هـ، ص ١٣.

(٣) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١٢٧.

(٤) سورة النبأ، آية: ٣١.

والمخالفات الشرعية، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[1]. يقول الدكتور عبدالكريم زيدان: (والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة من يعذب الناس في الدنيا:

حيث جاء في الحديث "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" قال الإمام النووي: (وهذا الوعيد الشديد محمول على التعذيب بغير حق، فلا يدخل فيه التعذيب بحق كالقصاص والحدود والتعزير وغير ذلك)[3]. وهذا التعذيب مناف للرحمة التي أراد الله أن تكون بين العباد، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمُكُم مَنْ فِي السَّماءِ))[4] وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: ((لا يَرحمُ اللّهُ مَن لا يَرحم النّاسَ))[5].

قال محمد الغزالي: (للرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى. هي كمال في الطبيعة؛ لأن تبلد الحس يهوي بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه، وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة. بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثمَّ كانت القسوة ارتكاسًا بالفطرة إلى منزلة البهائم، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز.

والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت. فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء

---

(١) سورة النبأ، آية: ٢١-٢٣.

(٢) أصول الدعوة ٤٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٥٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٢).

(٥) أخرجه البخاري ٧٣٧٦، ومسلم ٢٣١٩.

أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة. ولذلك كان من صلاة الملائكة له: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قُدِم على رسول بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى تَحلُبُ ثَديَها. إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته. فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله -وهي تقدر على أن لا تطرحه!- قال: فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها(٢).

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو. وقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((قال الله عز وجل: إن رحمتي تغلب غضبي))(٣)، أي أن تجاوزه عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسخطه عليهم، وبذلك كان أفضل الرحماء: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٤).

وما ترى في الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمة الله التي أودع جزءًا منها في قلوب الخلائق؛ فأرقُّ الناس أفئدة أوفرهم نصيبًا من هذه الرحمة وأرهفهم إحساسًا بحياة الضعفاء.

أما غلاظ الأكباد من الجبارين والكازِّين والمستكبرين فَهُمْ في الدرك الأسفل من النار. وكان رسول الله ﷺ يعد جمود العين واستغلاق القلب من الشقاء.

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثي لخطاياه، ويستميت في هدايته، ويأخذ بناصر الضعيف، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها. ويخضد شوكة القوي حتى يرده إنسانًا سليم الفطرة لا يضرى ولا يطغى..

---

(١) سورة غافر، آية: ٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥٥٣، ومسلم ٢٧٥١.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١١٨.

فأرسل "محمدًا" ﷺ. وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة والندى. ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا.

ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1].

وقد لازمته هذه الفضائل العذبة في أعصب الساعات عندما حاول المشركون في "أحد" اغتياله، وألجأوه إلى حفرة ليكبَّ فيها، ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى. ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خده قد شق وسنه قد سقطت. وفي هذه الأزمة قيل له: ادع على المشركين؛ فغلبه رفقه وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر، فكان دعاؤه: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".

إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة، فهي أبدًا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضطغان.

إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير. فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرود عن صراطه المستقيم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[2].

وقد أمر الإسلام بالتراحم العام. وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٦.

أجل، فإن الرجل قد يهش لأصدقائه حين يلقاهم، وقد يرق لأولاده حين يراهم. وذلك أمر يشيع بين الكثير. بيد أن المفروض في المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع، فهو يبدي بشاشته، ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلقى.

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة[1].

(١) خلق المسلم ٢٠٢-٢٠٥.

الحديث رقم (١٦٠٩)

١٦٠٩ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: رأى رسولُ الله ﷺ حِمَارًا مَوْسُومَ الوَجْهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: ((واللهِ لا اسِمُهُ إلاَّ[١] أقْصَى شَيْءٍ مِنَ الوَجْهِ)) وأمَرَ بِحِمَارِهِ[٢] فَكُوِيَ فِي جَاعِرَتَيْهِ، فَهُوَ أوَّلُ مَنْ كَوَى الجَاعِرَتَيْنِ. رواه مسلم[٣].

(الجَاعِرَتَانِ): نَاحِيَتَا الوَرِكَيْنِ حَوْلَ الدُّبُرِ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن الرفق بالحيوان سمة من سمات الخلق الإسلامي، وهذا الرفق نابع من طبيعة التراحم التي تميز تعامل الإنسان المسلم مع ما يحيط به من ظواهر الطبيعة النباتية، والحيوانية... لأنها من مخلوقات الله، ومن دلائل قدرته، ولذلك جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وكل شيء آمن حتى الطير، والحيوان، والنبات، في البلد الأمين تشعر بالأمن، وفي ذلك تدريب للمؤمن على تعميق علاقة التعاطف والمحبة بينه وبين ما حوله من المخلوقات غير العاقلة: لأنها نفوس لها خصائصها: فهناك النفس النباتية، والنفس الحيوانية، وأعلا النفوس درجة هي النفس الإنسانية، وفي ظل ذلك التصور نستضيء ونسترشد بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[٤].

وفي ضوء هذا المفهوم... نقرأ دلالات هذا الحديث الشريف الذي يروي ابن عباس حكايته، وهي تدعو للتأمل والتفكر والتدبر، لأن الرسول ﷺ وجه اهتمامه إلى الحيوان، واهتم حتى بهيئته، وأنكر تشويه وجه هذا الحيوان: حيث رأى حمارًا موسوم

---

(١) عند مسلم زيادة: (في).

(٢) لفظ مسلم: (بحمار له)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٢/١٣٠، رقم ١٢٢٥).

(٣) برقم (٢١١٨/١٠٨).

(٤) سورة النعام، الآية: ٣٨.

الوجه: أي قام صاحبه بكيه في وجهه، وذلك تعذيب وتشويه، وبعد هذا الإنكار يحدد ابن عباس موقفه في حسم: ويجيء الموقف مغلفاً بأسلوب القصر، وفي ذلك تأكيد للموقف الذي اقتدى فيه برسول الله، واتبع تعليماته، فقال: "والله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه".

وأسرع ابن عباس رضي الله عنهما إلى التغيير، وجاء التغيير في صيغة الأمر الفعلي، وليس الأمر القولي وأمر بحماره فكوي في جاعرتيه، أي في حرف الوركين المشرفين على الفخذين، فأي رحمة تعدل هذه الرحمة، وأي ملة تفوق ملة الإسلام في هذا الجانب المشرق من جوانب السلوك الإنساني تجاه الحيوان، والطير والنبات، وكل ما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، أو يسبح في قلب المحيطات، وكلها من النعم التي سخرها الله للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من واجبات الداعية: إنكار المنكر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطر وسم الحيوان في وجهه.

أولاً- من واجبات الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث "رأى رسول الله ﷺ حمارًا موسوم الوجه فأنكر ذلك؟ وقوله "مر عليه حمار قد وسم في وجهه فقال لعن الله الذي وسمه" ولاشك أن من أهم واجبات الداعية إنكار المنكر قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3] ولعن الله الذين لا ينكرون المنكر من بني إسرائيل قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤ .

(٢) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٠).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1]، قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا فيه أنفسهم من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال كما قال بعض السلف، وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وإنَّ لحمي قرض بالمقاريض، ومن لحظ هذا المقام هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه، وبكل حال يتعين الرفق في الإنكار، قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى)[2].

قال أبو حامد الغزالي: (وآداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب: العلم والورع وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومة، فما كل من علم عمل بعلمه. بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعًا، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جراءة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه. والعلم والورع لا يكفيان فيه. فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحستب على ما أصابه في دين الله. وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة، وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات وإن فقدت لم يندفع المنكر. بل ربما كانت الحسبة أيضًا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذاكنت ممن يأمر بالمعروف فكن أول الناس أخذًا به وإلاهلكت وقد قيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله

من ذم شيئًا وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله

ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعًا بالفسق، ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس.

وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى، فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر. ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف. فقال سبحانه حاكيًا عن لقمان: ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾[1][2].

قال ابن قدامة: (واعلم أن الحسبة لها خمس مراتب: التعريف، والوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سيد إبراهيم، ص ٥٠، ٥١.

والرابعة: المنع بالقهر. ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج والرعية على الوالي؟

قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، ويريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكِر قادرًا على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

ومن آداب المحتسب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة، فإن من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم.

أحدهما: من لطف ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾(١).

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

وروي أن أبا الدرداء ﷺ مرّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

ومر فتى يجر ثوبه، فهمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين[1]، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسين إلى عرس، فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهي في سكوت)[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "لعن الله الذي وسمه" وأسلوب الترهيب يكف النفس عن الوقوع في المحظورات الشرعية، لأن النفس البشرية بطبيعتها وفطرتها تخاف العقاب والوعيد (إن النفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها، فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم، لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وإذا ما أحسن الداعية إيراد شواهد القرآن والسنة في الترهيب، فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه)[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطر وسم الحيوان في وجهه:

حيث جاء في الحديث "لعن الله الذي وسمه" وقوله "نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه" قال الإمام النووي: (وأما الضرب في الوجه

---

(١) أي قرة عين، يعني: أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٣٣، ١٣٨- ١٣٩.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

فمنهي عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم وغيرها، لكنه في الآدمي أشد؛ لأنه مجمع المحاسن مع أنه لطيف؛ لأنه يظهر فيه أثر الضرب وربما شانه، وربما آذى بعض الحواس، وأما الوسم في الوجه فمنهي عنه بالإجماع فأما الآدمي فوسمه حرام لكرامته، ولأنه لا حاجة إليه فلا يجوز تعذيبه، وأما غير الآدمي فالأظهر تحريمه، وأما وسم غير الوجه من غير الآدمي فجائز بلا خلاف)[١].

قال في النهاية: (والوسم العلامة في الشيء يقال وسمه يسمه سمة ووسمًا إذا أثر فيه بكي، ويسم الإبل يُعلِّم عليها بالكي والميسم: الحديدة التي يكون بها)[٢].

قال المازري: (وقوله "نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه. قال عبدالوهاب: تكره السمة في الوجه ولا تكره في غيره؛ لأنه ﷺ نهى عن السمة في الوجه، وأرخص فيها في الأذن. قال: ويجوز في غيره؛ لأن بالناس حاجة إلى علامات يعرفون بها بهائمهم)[٣].

وقال القاضي عياض: (وقوله: "نهى عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه" وأنه لعن فاعله الذي وسم حمارًا في وجهه، وقوله في حديث ابن عباس: قال: فلا والله لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه، فكوى حماره في جاعرتيه، فهو أول من كوى الجاعرتين: قائل هذا هو العباس والده لا ابنه عبدالله صاحب الحديث، وهو في كتاب مسلم مشكل ليس فيه ذكر لقائله، وتوهم أنه من قول النبي ﷺ وبيانه ما تقدم.

وكذا ضبطنا هذا الحرف -الوسم- بالسين المهملة، وبعضهم يقول: فيه الوجهين السين والشين، وبعضهم فرق فقال: بالمهملة في الوجه، وبالمعجمة في سائر الجسد. والجاعرتان حرفا الورك المشرفان مما يلي الدبر.

وأما نهيه عن الضرب في الوجه، فإن فيه المحاسن، وأقل أثر فيه يشينه، وربما آذى البصر أو أذهبه، مع إهانة الصورة التي اختص الله بها بني آدم وكرمهم بها، ونبه في الحديث الآخر على إكرامها بخلق نبيه آدم أبي البشر عليها.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٣٣٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و س م).

(٣) المعلم بفوائد مسلم ٢٣٩/٢.

وما ذكره مسلم أن النبي ﷺ وسم غنمًا، وذكر في آذانها: يدل على ما ذكر وعلى جواز الوسم بالقطع والشق؛ لأنه الذي يمكن في الأذن)[١].

قال الدكتور الحسيني هاشم: (في الأحاديث النهي عن تعليم الحيوان في وجهه بحرق أو قطع أو ما إلى ذلك، لأن الوجه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة وأكثر الإدراك بها، وقد يبطلها أو ينقصها ضرب الوجه. ففيها الرفق بالحيوان، وعدم إيذائه في وجهه لشدة حساسيته)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (قال الشافعية: يكون الوسم في موضع صلب ظاهر لا يكثر شعره. والأولى في الغنم الآذان، وفي الإبل والبقر الأفخاذ، وكذا الخيل، والبغال والحمير، والفيلة.

وقالوا: ينبغي أن يكون وسم الغنم ألطف، وفوقه الحمير، وفوقه البقر والبغال، وفوقه الإبل، وفوقه الفيلة.

أما الوسم على الوجه فهو حرام على الأصح عند الشافعية لحديث جابر رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ مَرَّ عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: لعن الله الذي وسمه))[٣].

وذهب المالكية والشافعية في مقابل الأصح عندهم وبعض الحنابلة إلى أن الوسم في وجه الحيوان مكروه.

وهذا في غير الآدمي. أما الآدمي فوسمه حرام إجماعًا، لأن وسم الآدمي مُثْلة، وهي منهي عنها إلا إذا كان للتداوي)[٤].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٦٤٤- ٦٤٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٥٠، ٧٥١.

(٣) أخرجه مسلم ٢١١٧.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٣/١٤٥- ١٤٦.

الحديث رقم (١٦١٠)

١٦١٠- وعنه[١]: أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ)) رواه مسلم[٢].

وفي رواية لمسلم[٣] أيضًا: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الوَجْهِ، وَعَنِ الوَسْمِ فِي الوَجْهِ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

موسوم الوجه: مُعلَّم عليه بالكيّ[٤].

الشرح الأدبي

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومنها نعمة تسخير الحيوان له، وتذليل أضخم الحيوانات لخدمته في قضاء مآربه: قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

---

(١) إيراد المؤلف بهذه الصورة يشير إلى أنه من حديث ابن عباس، وليس كذلك، بل هو من حديث جابر كما في مسلم، وأورده الحميدي في جمعه (٣٩٥/٢، رقم ١٦٦١) في مسند جابر، لكن المؤلف تبع فيه المنذري في ترغيبه (٣٣٨٤) حيث قال عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٧/١٠٧) من حديث جابر، وليس من حديث عبد الله بن عباس، كما في الجمع للحميدي (٣٩٥/٢، رقم ١٦٦١). تنبيه: هذا الحديث أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٨٤) من حديث ابن عباس، فتبعه عليه المؤلف، وكذا الحافظ ابن حجر في تهذيبه (٩٢٢).

(٣) برقم (٢١١٦/١٠٦) من حديث جابر. كما في الجمع للحميدي.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و س م).

(٥) سورة النحل، الآيات: ٥-٧ .

والمصطفى ﷺ في هذا الحديث ينبه كل مسلم، وكل إنسان إلى الرفق بالحيوان، وعدم تشويه ملامح وجهه، وما أعظم هذا التعاطف الإنساني مع ذلك الحيوان الأبكم الذي لا يبين، والحديث في غاية الإيجاز، ولكنه عميق في معناه، بليغ في مبناه، وهذه الجملة الحديثية جاءت في صيغة دعائية، حيث دعا الرسول ﷺ على من أحدث هذا الوسم في وجه الحمار بالطرد من رحمة الله. لأن اللعن هو البعد والطرد من رحمة الله عز وجل.

والتعبير بقول الراوي: "مر عليه حمار" يدل على أن الحمار لم يكن يركبه أحد، ولا يعرف صاحبه، وقوله: "قد وسم في وجهه" يثبت أن الوسم محقق، ولذلك سبق الفعل "وسم" بالحرف "قد"، وهي للتحقيق والتأكيد، وبُني الفعل وسم للمجهول: لأن الفاعل مجهول، ولذلك لم يحدد الرسول ﷺ الشخص الذي وسمه، وقال متوعدًا من أقدم على هذا الفعل، الخبيث "لعن الله الذي وسمه" وعبر عنه باسم الموصول لمزيد من التحديد نظرًا لفداحة هذا الصنيع الذي تنبه له رسول الله ﷺ... بينما يغفل عن مثل هذه الصور والسلوكيات الكثيرون، وهم في غفلتهم ساهون، وفي غيهم سادرون.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من أهداف التربية: الرفق بالحيوان:

إن الرفق هدف تربوي، يجب غرسه في نفوس الناشئة، ولا يتوقف الرفق على البشر فقط، بل يشمل كل حيوان ودابة عجماء، وقد شدد الإسلام على من تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، بل وبين أن الإنسان على عظم قدره قد يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء[١].

وهذا ما ظهر جليًا في أحاديث الباب من قوله ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ...إلخ».

وقد بين ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم في أحاديث الباب أن من افتقر في تربيته إلى الرفق بالحيوان عوقب باللعن، وذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما، «إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضًا»، وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَما مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ . فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ». وفي هذا دلالة واضحة على أن تعذيب الحيوان بلا سبب معصية تستوجب العقاب[٢]؛ لذا وجب على دعاة التربية غرس خلق الرفق بالحيوان في نفوس المتربين.

ومما لاشك فيه أن تحقيق ذلك يعكس نتيجة تربوية في تنشئة المتربي، حيث رقة الشعور وفيض الرحمة على من حوله.

ثانيًا: التربية على معاملة الخدم بالرحمة واللين:

إن مما يجدر القيام بغرسه في قلوب المتربين، معرفة أن الخدم لهم نفوس كنفوس المخدومين، ولهم عواطف تتأثر بالإساءة إليهم كما تتأثر نفوس المخدومين إن أُسيء إليها، وما جعلهم الله تحت أيدي المخدومين إلا ليساعدوهم في أعمالهم، فوجب عليهم ألا يغلظوا لهم في القول، ولا يكلفوهم من الأعمال فوق طاقتهم، وإن كلفوهم

---

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢١١.

(٢) الأدب النبوي، محمد الخولي، ٤٣.

فيعينوهم لأنهم لم يخلقوا حجارة أو حديدًا، ولكنهم بشر تتألم أجسامهم بالأعمال الشاقة، وتُجرح مشاعرهم بسيء القول، والكلام البذيء.

والإسلام لا يرضى بقول الشاعر:

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاَّ وَالعَصَا مَعَهُ ... إنّ العَبِيدَ لأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

ولا يؤمن بقول الآخر:

العَبْدُ يُضْرَبُ بالعَصا ... والحُرُّ تَكْفِيهِ الإشَارَة[1]

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الحث على معاملة الخدم بالرحمة واللين، وهذا ما ترائى جليًا في نهي النبي ﷺ عن ضرب الخدم وإهانتهم، وذلك في قول أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرِّنٍ، مَا لَنَا خَادِمٌ إِلاَّ وَاحِدَةٌ، لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا»، وقوله ﷺ: «...اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلاَمِ...»، وقوله ﷺ: «من ضرب غلامًا......إلخ».

ثالثًا: الرفق في تربية النشء:

لقد صدَّر النووي أحاديث الباب بعنوان: "النهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي؛ لذا كان من الواجب الإشارة إلى ضرورة الرفق في تربية النشء.

لاعتقاد كثير من الآباء أن تربية الأطفال وتعليمهم يتناسب مع مقدار الشدة عليهم، فكلما أكثرنا من عقوبتهم حسنت تربيتهم وتهذبت نفوسهم! وتظهر هذه من وصايا الآباء للمعلمين: «اللحم لكم والعظم لنا!»، وقد يظن الكثير أن هذه الشدة والقسوة على هؤلاء الأطفال إذا لم تنفع فإنها لا تضر وتذهب بذهاب أيام الطفولة... وهذا خطأ كبير فإن كل شدة على الطفل تؤثر في نفسيته وعقله، فإذا لم تظهر سريعًا فإنها تبقى مكبوتة مختبئة في النفس، لا تلبث أن تظهر بشكل ثورة أو جنون بل ربما أدت إلى الموت السريع.

---

(١) إصلاح المجتمع، محمد سالم الكدادي البيحاني، ٣٤٨ بتصرف.

فقد روي أن دارًا تضم شابًا تظهر عليه علامات الجنون، فسئل عن قصته؟ فقيل: إنه ارتكب ذنبًا منذ سنوات، فأراد والده تربيته! فأحضر سكينًا وتظاهر بأنه يريد أن يذبحه فوضعها على عنقه فخاف الفتى، وفي الصباح جُنَّ، وبقي هذا عدة سنوات ثم التزم السكوت إلى وقتنا هذا...، وقد روي أيضًا أن ابنة سرقت من دارها قليلاً من المال، فعلم أبوها بالأمر، فأراد أن يربيها! فأحضر قلمًا أحمر مساء، وعلم به على يديها بدائرة حول معصمها، وقال لها في الصباح: سأقطع يدك الجانية. فباتت ساخنة طوال الليل، وأصيبت بالحمى، ثم فارقت الحياة بعد أيام[١].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الرفق في تربية النشء المسلم بما لا يخل بضوابط الشرع في ذلك.

رابعًا: التربية على الرفق بالنساء:

إن من أهم أوجه التربية الاجتماعية التي يجدر بدعاة التربية والتوجيه غرسها وإقامتها في بنيان الأسرة المسلمة، الرفق بالنساء؛ لذا صدر النووي في هذا الباب نهيه عن تعذيب المرأة بغير سبب شرعي، حتى يَعْلَم المتربون والمتعلمون أهمية الرفق في معاملة النساء.

ولقد سمع كثير منا بقصص رجال يسيئون إلى زوجاتهم كأنهن عبيد لدى سيد جبار، فنراهم يتفنَّنون في تعذيبهن وشتمهن حتى يصل الأمر في كثير من الأحيان إلى الضرب، مما يجعل البيت جحيمًا لا يطاق، وكل ذلك ليس من صفات الرجال الصالحين، وقد نهى الإسلام - نصير المرأة - عن مثل هذا السلوك، وكان من آخر وصايا الرسول ﷺ في حجة الوداع: «...ألاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيرًا!»[٢][٣].

وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس الرفق في معاملة النساء كان عليهم مراعاة الآتي في توجيه المتربين والمتعلمين:

---

(١) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي الاستانبولي ص٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي، ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٩٢٩).

(٣) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي الاستانبولي، ١١٩.

١ - تفهُم حقيقة أنوثة المرأة، لقوله ﷺ: «... فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»، وفي رواية: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ وَبِهَا عِوَجٌ»[١].

وفي هذا توجيه الرجل إلى الصبر على ما يصدر من المرأة من سلوك مبعثه هذا "العوج" وليتذكر أنها لا تتعمد هذا السلوك لمضايقته وإحراجه، إنما هو نتيجة ما قدره الله على المرأة من طبيعة خاصة، تتميز بسرعة الانفعال وشدته، فليصبر، وليكن سمحًا كريمًا، وليعلم أن هذه الخاصية من خصائص المرأة يمكن أن يكون لها أثر طيب، في إقدارها على أداء مهمتها الأساسية من حمل وإرضاع وحضانة، إذ تحتاج إلى عاطفة بالغة وحساسية مرهفة[٢].

٢ - على المتربي الرجل ألا يطلب الكمال، بل يطلب أحسن الموجود! وهلا فكر في نفسه فيما إذا كان كاملاً خاليًا من العيوب؟!، فلا داعي لطلب الكمال من غيرنا ونحن في العيوب غارقون إلى الأذهان منتهزين فرصة ضعف المرأة وفقرها، فإن كنا أقوياء عليها فإن الله أقوى منا علينا: جاء في الحديث الشريف: «لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[٣][٤].

٣ - بيان أن المرأة ربة البيت، ومن كان هذا شأنه كان جديرًا بالاحترام ومنحه السلطة اللازمة لتنفيذ أوامره حتى يستطيع تأدية مهمته، فعلى الأب ألا يغفل عن هذه الناحية الخطيرة وعليه أن يحترم امرأته ولا يهينها، وخاصة أمام أولادها كيلا تصغُر تجاههم، وتضعف شخصيتها، فلا تقدر على تنفيذ ما ينبغي تنفيذه لتأمين نظام البيت

---

(١) أخرجه مسلم، ١٨٧، ١٨٨.

(٢) استراتيجيات التربية الأسرية في الإسلام، لجنة البحوث والدراسات، إشراف د. توفيق يوسف الواعي، ٢٥٥/١.

(٣) أخرجه مسلم، ١٨٦.

(٤) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي استانبولي، ١٢٠.

ومصالحه، زد على ذلك أن المرأة الحقيرة لا تستطيع أن تنجب وتربي أولادًا أعزة أقوياء الشخصية، فالعبد لا يلد إلا العبد!، فواجب الأب أن ينتبه إلى ذلك كله، ويسعى جهده لاحترام زوجته وإعطائها الصلاحيات اللازمة والسلطات الكافية لتنجب له أولادًا أعزة وأكفاء.

وإهانة المرأة ربما أثار فيها الضغينة والنقمة فتنشئ أولادها على بغض أبيهم واحتقاره والثورة عليه[1].

رابعًا: التربية بالترهيب:

إن النبي ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، وكان الترهيب من أمثل الأساليب التربوية التي أشار إليها النبي ﷺ في تربية النفس، حيث إنه يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهى عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقًا حذرًا، وهذا ما ظهر جليًا في أحاديث الباب، حيث الترهيب من تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي، وقد شمل الترهيب في ذلك أوج الوعيد والتهديد بسوء العقوبة، كما في قوله ﷺ: «... فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ... إلخ». وقول ابن عمر رضي الله عنهما: «لعن الله من فعل هذا»، «إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضًا»، وقوله ﷺ: «... اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ...»، وقوله: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»، وقوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ».



(١) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي استانبولي، ١٩.

٢٨٣- باب تحريم التعذيب بالنار

في كل حيوان حَتَّى النملة ونحوها

الحديث رقم (١٦١١)

١٦١١- عن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: بعثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بَعْثٍ، فَقَالَ: ((إنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنَاً وَفُلاناً)) (لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا) [١] ((فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّارِ)) ثُمَّ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حِيْنَ أرَدْنَا الخرُوجَ: ((إنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أنْ تُحْرِقُوا فُلاناً وفُلاناً، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إلاَّ الله، فإنْ وَجَدْتُمُوهُما فاقْتُلُوهُما)) رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

لقد نوع الإسلام نوع العقوبة، وجعل منها "تفويضية" بحسب ما يراه الحاكم في كل زمان ومكان وحال، وأخرى "نصية" لايجوز تعديلها ولا اعتراض عليها، ليشمل بتشريعه كل أنواع الجريمة، ولتكفل العقوبات عليها راحة المجتمع وسعادته بقدر الإمكان[٣].

وحين نتأمل آفاق المعنى في هذا الحديث الشريف، ونرصد جماليات الأداء الأسلوبي في تقديم المراد من الحديث، نجد أن هذين الرجلين استحقا عقوبة القتل -في ضوء ما حددته الشريعة، ولكن كيف يكون قتلهما؟ وبأي وسيلة، والحديث يتكون من قسمين، القسم الأول يصور ملابسات الحكم بالقتل، ويحدد وسيلة القتل، فالرجلان

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٩٥٤).

(٢) برقم (٣٠١٦).

(٣) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص٢٨٨.

من الأعداء الذين يكيدون للإسلام، ومعنى في بعث، أي في جيش مبعوث به للجهاد، فقتلهما بأمر من رسول الله ﷺ، وجاء الإذن بالقتل في صيغة الشرط والجزاء، وهذا المبنى اللغوي مناسب للحدث المعبر عنه، لأن الرجلين ارتكبا جريمة عقوبتها القتل حدًّا والجزاء من جنس العمل، ولكن أداة الشرط "إن" مهَّدت لهذا التراجع الذي أعلنه الرسول ﷺ: فهي ليست يقينية مثل "إذا" ولذلك قال: "إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار".

والقسم الثاني يبدأ بحرف العطف "ثم" وهي توحي بالتمهل والمراجعة والتفكير، ولذلك تراجع الرسول ﷺ عن وسيلة العقوبة وهي القتل بالنار، وبدأ كلامه في الموقف الثاني بالتأكيد وفعل الكينونة الدال على الحدث الماضي "إني كنت أمرتكم..." ثم جاء بالعلة التي من أجلها كان تراجعه، وهذه العلة بدأت كذلك بالتأكيد ثم أسلوب القصر الذي يحدد من يعذب بالنار: حيث يقول رسول الله ﷺ "وإن النار لا يعذب بها إلا الله"، وهذه الجملة إما مستأنفة أو حالية، وحتى لا يقع في الظن أن الرسول ألغى عقوبة القتل أعاد الرسول ﷺ الحكم مرة ثانية في صيغة الجواب والشرط: وأداة الشرط "إن" واستخدامها هنا يوحي بأن هؤلاء الخارجين في بعث للقتال يمكن أن لا يجدوا هذين الرجلين: قال عليه الصلاة والسلام: "فإن وجدتموهما فاقتلوهما"، وهذا الأمر لا يتنافى مع الرحمة التي وصف بها رسول الله ﷺ لأن هذين الرجلين ارتكبا من الجرائم والكبائر ما يستحقان عليه هذا الجزاء الصارم الحكيم، حتى يكونا عبرة لغيرهما.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- حكم التحريق بالنار: اختلف الفقهاء في هذه المسألة على رأيين:

الرأي الأول: وهو مروي عن بعض الصحابة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما وحاصله أن التحريق مكروه مطلقاً، سواء أكان ذلك بسبب كفر أم في حال مقاتلة، أم كان قصاصاً[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦.

واستدلوا على ذلك: بحديث الباب، فقد جاء فيه: "... إن النار لا يعذب بها إلا الله".

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣]، ويرون جواز التحريق وممن قال بذلك: خالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما والثوري والأوزاعي[٤].

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- إن رسول الله ﷺ قد سَمَلَ أعينَ العرنيين بالحديد المحمى[٥]، وفعله ﷺ دليل الجواز.

ب- إن أبا بكر رضي الله عنه قد حرق البغاة بالنار بحضرة الصحابة.

ج- إن خالداً رضي الله عنه قد حرق ناساً من أهل الردة[٦].

الترجيح:

ولعل الراجح في المسألة أن ذلك لا يجوز اللجوء إليه إلا لضرورة كما لو تعين ذلك طريقاً للظفر بالعدو.

أما قصة العرنيين فلعلها كانت قصاصاً، أو منسوخة[٧]، وأما تجويز بعض الصحابة للتحريق فمعارض بمنع البعض الآخر[٨].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٤٩/٧، الهداية للمرغيناني ١٣٦/٢، المكتبة الإسلامية.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٧٩/٤.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٨/٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦.

(٥) الحديث أخرجه البخاري ٣٠١٨، ومسلم ١٦٧١.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٣٩/٧.

(٧) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، والهداية شرح بداية المبتدي ٢٣٧/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٨٣/٥، فإن قيل: إن دعوى النسخ تثبت حيث علم التاريخ، وهو هنا غير معلوم، نقول: إنه -في هذه الحالة- يكون قد تعارض دليل محرم، مع دليل مبيح، فيقدم المحرم. انظر: رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ١٣١/٤.

(٨) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٣٩/٧.

المسألة الثانية: إن هذا الحديث يدل على جواز الحكم بالشيء اجتهاداً، ثم الرجوع عنه.

المسألة الثالثة: استحباب ذكر الدليل عند الحكم لرفع الإلتباس، لأن رسول الله ﷺ علل عدوله عن الحكم الأول بأن "النار لا يعذب بها إلا الله"[(١)].

المسألة الرابعة: جواز الاستتابة في الحدود ونحوها[(٢)].

المسألة الخامسة: جواز نسخ الحكم قبل العمل به، أو قبل التمكن من العمل به، وهو محل اتفاق إلا عن بعض المعتزلة[(٣)].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البعوث.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة التعذيب بالنار.

رابعاً: من فقه الداعية: مراجعة أقواله عند ظهور الأصح.

أولاً- من وسائل الدعوة: البعوث:

حيث جاء في الحديث "بعثنا رسول الله ﷺ في بعث" ولاشك أن هذه البعوث وسيلة من وسائل الدعوة، يقول محمد الغزالي: (والحكمة من توجيه السرايا والبعوث أمران: أولهما: إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، والأمر الآخر: إنذار قريش عقبى طيشها، فقد حاربت الإسلام وكانت لا تزال تحاربه، ونكلت بالمسلمين في مكة، ثم ظلت ماضية في غيها، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله، ولا تسمح لهذا

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٢) الهداية شرح بداية المبتدي ٩٨/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٢٠٩/٢، والتنبيه، الشيرازي ٢٤٢، زاد المستقنع لموسى بن أحمد سالم المقدسي أبي النجا، ص ١٠٠.

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج لعلي بن عبدالكافي السبكي ٢٣٤/٢، وإحكام الإحكام، ابن حزم ٥٠٠/٤.

الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض، فأحب الرسول ﷺ أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة، وأنه قد مضى - إلى غير عودة- ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص)[١].

إن هذه البعوث والسرايا تظهر قوة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾[٢] وهي وسيلة مهمة من وسائل الدعوة.

ومن التطبيقات العملية لإيفاد البعوث والسرايا لنشر الدعوة:

(بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدراً فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه.

فلما وضع السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبدالله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" مرتين.

وقد أنكر على خالد الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، وكانت بينهما ملاحاة قال له فيها عبدالرحمن: إنك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة، وكان بعض بني جذيمة قتلوه في الجاهلية[٣] وكذلك أنكر على خالد بعض كتاب السير والتاريخ، ورموه بما رماه به ابن عوف.

(١) فقه السيرة ٢١٣، ٢١٤.

(٢) سورة الأنفال، آية:٦٠.

(٣) السيرة لابن هشام ٢/٤٣١.

والظن بمثل خالد ﵁ أنه إنما أراد نصرة الإسلام، وأنه اجتهد في أمر وتأوَّل فأخطأ، ففهم من كلامهم صبأنا أنهم يتبرأون من الإسلام، لا أنهم يريدون الإسلام. ولعل هذا هو السبب في أن النبي ﷺ عذره ولم يعزله، وإن كان تبرأ من فعله إلى الله، وما كان رسول الله يداهن، أو يخاف في الحق لومة لائم.

وبعض من يعذر خالداً وينتصر له يزعم أن خالداً قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدالله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام، وليس من شك في أن لخالد من المواقف المشهودة، والتضحية بالنفس، ما يغفر له مثل هذه الهنات، والله يغفر لهم جميعاً.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وقال له: "يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم. واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك".

فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله معه، فودَى لهم الدماء وما أصيب لهم من مال حتى ميلغة الكلب[1]، وبقيت معه بقية من المال فقال لهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يؤدَّ لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنع فقال له: "أصبت، أحسنت".

وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسىً وحزن.

ومن البعوث في العهد النبوي: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﵁ في ثلاثين فارساً لهدم العزى، وهي هيكل بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر؛ وكان ذلك لخمس بقين من رمضان، فذهب إليها وهدمها وهو يقول:

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ﵁ لهدم سُواع، وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

---

(١) الميلغة: إناء من خشب كان يعد لشرب الكلب.

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، وهيكلها بالمشلل، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قُدَيد، فتوجهوا إليها وهدموها.

وبهذا الفتح المبين وسقوط دولة الأصنام والهياكل أصبح توحيد الله على كل لسان، وأضحت الكعبة منارة التوحيد في الأرض، وعادت كما كانت على عهد الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[1].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث "إن وجدتم فلاناً وفلاناً لرجلين من قريش سماهما" فأحرقوهما بالنار، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي لها تأثير على المدعو، إذ تلفت انتباهه إلى الربط بين الشرط وجوابه، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حرمة التعذيب بالنار:

حيث جاء في الحديث "وإن النار لا يعذب بها إلا الله" وهذا يبين حرمة التعذيب بالنار. قال الإمام ابن حجر: (والحكم في هذه المسألة واضح لوضوح دليله، ومحله إذا لم يتعين التحريق طريقاً إلى الغلبة على الكفار حال الحرب، وهذا الحديث ظاهر النهي فيه التحريم، وهو نسخ لأمره المتقدم سواء كان بوحي إليه أو باجتهاد منه، وهو محمول على من قصد إلى ذلك في شخص بعينه)[4]. وقال الشيخ ابن عثيمين: (ومعنى تحريم التعذيب بالنار: أنه لا يحل لإنسان أن يعذب أحداً بالإحراق، لأنه يمكن التعذيب بدونه، ويمكن إقامة الحدود بدون ذلك، فيكون الإحراق زيادة تعذيب لا حاجة لها)[5].

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٤٦٤- ٤٦٦ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٦٩٢/٢.

جاء في الموسوعة الفقهية: (وأما الإحراق في الحرب، فإذا قُدر على العدو بالتغلب عليه، فلا يجوز تحريقه بالنار من غير خلاف يعلم، لما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار. ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما))[1].

فأما رميهم بالنار قبل القدرة عليهم مع إمكان أخذهم بغير التحريق لا يجوز، لأنهم حينئذ في حكم المقدور عليهم. وأما عند العجز عنهم بغير التحريق فجائز في قول أكثر أهل العلم، لفعل الصحابة والتابعين في غزواتهم.

هذا وإن تترس العدو في الحرب ببعض المسلمين، فإن اضطررنا إلى رميهم بالنار فهو جائز عند الجمهور. ومرجع ذلك إلى تقدير المصلحة العامة.

والحكم في البغاة والمرتدين في هذه المسألة كالكفار في حال القتال.

وأما إحراق أشجار الكفار في الحرب: إذا كان في ذلك نكاية بالعدو، ولم يرج حصولها للمسلمين، فالإحراق جائز اتفاقاً. بل ذهب المالكية إلى تعيُّن الإحراق. أما إذا رجي حصولها للمسلمين، ولم يكن في إحراقها نكاية، فإنه محظور وصرح المالكية بحرمته.

وأما إذا كان في إحراقها نكاية، ويرجى حصولها للمسلمين، فذهب الحنفية والشافعية إلى كراهة ذلك. بل صرح الشافعية بندب الإبقاء حفظاً لحق الفاتحين. وذهب المالكية إلى وجوب الإبقاء.

وإذا كان لا نكاية في إحراقها، ولا يرجى حصولها للمسلمين، فذهب الحنفية والمالكية إلى جوازه. ومقتضى مذهب الشافعية الكراهة لأنه الأصل عندهم.

أما الحنابلة فالأصل عندهم في هذه المسألة المعاملة بالمثل، ومراعاة مصلحة المسلمين في القتال)[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠١٦.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٥/٢.

رابعاً- من فقه الداعية: مراجعة أقواله عند ظهور الأصح:

حيث جاء في الحديث "إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموها فاقتلوهما" قال ابن حجر: (وفي الحديث جواز الحكم بالشيء اجتهاداً ثم الرجوع عنه، واستحباب ذكر الدليل عند الحكم لرفع الإلباس)[1]. وعلى هذا يجب أن يكون ديدن الدعاة إلى الله الرجوع إلى الحق إذا ظهر وتبين دليله. قال ابن مفلح: (قال الشعبي: لا أدري نصف العلم، وقال الثوري: لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا، وقال أحمد: نحن إلى الساعة نتعلم، وقال أبو عبدالله إنما ينبغي أن يأمر الناس على الأمر البين الذي لا شك فيه، وليت الناس إذا أمروا بالشيء الصحيح أن لا يجاوزوه)[2].

وقال الخطيب البغدادي: (وأول أوصاف المفتي الذي يلزم قبول فتواه: أن يكون بالغاً؛ لأن الصبي لا حكم لقوله.

ثم يكون عاقلاً؛ لأن القلم مرفوع عن المجنون لعدم عقله.

ثم يكون عدلاً ثقة، لأن علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الفاسق غير مقبول الفتوى في أحكام الدين، وإن كان بصيراً بها، وسواء كان حراً أو عبداً، فإن الحرية ليست شرطاً في صحة الفتوى.

ثم يكون عالماً بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتملُ على معرفته بأصولها وارتياضٍ بفروعها.

وأصول الأحكام في الشرع أربعة:

أحدها: العلم بكتاب الله، على الوجه الذي تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام: محكماً ومتشابهاً، وعموماً وخصوصاً، ومجملاً ومفسراً، وناسخاً ومنسوخاً.

والثاني: العلم بسنة رسول الله ﷺ الثابتة من أقواله وأفعاله، وطرق مجيئها في التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان منها على سبب أو إطلاق.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٦٢/٢، ٦٣.

والثالث: العلم بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه، واختلفوا فيه، ليتبع الإجماع ويجتهد في الرأي مع الاختلاف.

والرابع: العلم بالقياس الموجب، لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها، والمجمع عليها، حتى يجد المفتي طريقاً إلى العلم بأحكام النوازل، وتمييز الحق من الباطل، فهذا ما لا مندوحة للمفتي عنه، ولا يجوز له الإخلال بشيء منه.

وقال الشافعي: (لا يحل لأحد يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أُريد به، وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للعلم والقرآن، ويستعمل مع هذا الإنصاف، وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، ويكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هذا هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي).

وعن محمد بن علي، قال: حدثنا صالح - يعني: ابن أحمد بن حنبل-، أنه قال لأبيه: ما تقول في الرجل يسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث، وليس بعالم بالفتيا؟ قال: (ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن، عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلافُ من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ في السنة، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها).

وعن ابن المبارك قال: قيل له: متى يفتي الرجل؟ قال: (إذا كان عالماً بالأثر، بصيراً بالرأي).

قلت: وينبغي أن يكون: قوي الاستنباط جيد الملاحظة، رصين الفكر، صحيح الاعتبار، صاحب أناة وتؤدة، وأخا استثبات، وترك عجلة، بصيراً بما فيه المصلحة، مستوقفاً بالمشاورة، حافظاً لدينه، مشفقاً على أهل ملته، مواظباً على مروءته، حريصاً على استطابة مأكله؛ فإن ذلك أول أسباب التوفيق، متورعاً عن الشبهات، صادفاً عن

فاسد التأويلات، صليباً في الحق، دائم الاشتغال بمعادن الفتوى، وطرق الاجتهاد، ولا يكون ممن غلبت عليه الغفلة، واعتوره دوام السهر، ولا موصوفاً بقلة الضبط، منعوتاً بنقص الفهم، معروفاً بالاختلال، يجيب بما لا يسنح له، ويُفتي بما يخفى عليه، وتجوز فتواه فتاوى أهل الأهواء، ومن لم تخرجه بدعته إلى فسق، فأما الشراةُ والرافضة الذين يشتمون الصحابة، ويسبون السلف الصالح، فإن فتاويهم مرذولة، وأقاويلهم غير مقبولة.

وفي معرفة من يصلح أن يُفتي تنبيه على من لا تجوز فتواه)[١].

وفي بيان ضرور اعتماد المفتي على الكتاب والسنة في فتواه، ولا يطلق الفتوى اعتماداً على رأيه وهواه قال أيضاً: (لقي ابن عمر جابر بن زيد وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا جابر إنك من فقهاء البصرة، وإنك تستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق، أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت ذلك وإلا فقد هلكت وأهلكت).

(وقدم أبو سلمة – وهو ابن عبدالرحمن- فنزل دار أبي بشير، فأتيت الحسن، فقلت: إن أبا سلمة قدم وهو قاضي المدينة وفقيههم انطلق بنا إليه، فأتيناه، فلما رأى الحسن، قال: من أنت؟ قال: أنا الحسن بن أبي الحسن، قال: ماكان بهذا المصر أحد أحب إلي أن ألقاه منك، وذلك أنه بلغني أنك تفتي الناس، فاتق الله يا حسن، وأفت الناس بما أقول لك: أفتهم بشيء من القرآن قد علمته، أو سنة ماضية قد سنها الصالحون والخلفاء، وانظر رأيك الذي هو رأيك فألقه).

قلت: ولن يقدر المفتي على هذا، إلا أن يكون قد أكثر من كتابة الأثر، وسماع الحديث[٢].

وقال ابن القيم: (فإن كان المفتي ظهر له الخطأ قطعاً لكونه خالف نص الكتاب أو السنة التي لا معارض لها، أو خالف إجماع الأمة، فعليه إعلام المستفتي، وإن كان إنما ظهر له أنه خالف مجرد مذهبه أو نص إمامه، لم يجب عليه إعلام المستفتي.

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/٣٢٠-٣٢٣.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٣٤٤-٣٤٥.

وعلى هذا تخرج قصة ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لما ناظر الصحابة في أمهات الزوجات، بينوا له أن صريح الكتاب يحرمها لكون الله تعالى أبهمها فقال: تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وظن عبدالله أن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[1]، راجع إلى الأول والثاني، فبينوا له أنه إنما يرجع إلى أمهات الربائب خاصة، فعرف أنه الحق، وأن القول بحلها خلاف كتاب الله تعالى، ففرق بين الزوجين، ولم يفرق بينهما بكونه تبين له أن ذلك خلاف قول زيد أو عمرو، والله تعالى أعلم[2].

وقال بدر الدين العزي: (ومن آداب المفتي - وهو من أهمها- الانقياد إلى الحق بالرجوع إليه عند الهفوة، ولو ظهر على يد أصغر الطلبة، فهو من بركة العلم، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل)[3].

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٩٠٨.

(٣) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، بدر الدين محمد بن محمد الغزن ١٠٣.

الحديث رقم (١٦١٢)

١٦١٢ – وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: ((مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا)).

ورأى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا، فَقَالَ: ((مَنْ حَرَّقَ هذِهِ؟)) قُلْنَا: نَحْنُ قَالَ: ((إنَّهُ لا يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلاَّ رَبُّ النَّارِ)). رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح. قوله: "قرية نمل" معناه: موضع النمل مع النمل.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الحُمَّرة: طائر صغير كالعصفور[2].

تَعْرِش: ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها[3].

قرية نمل: موضع النَّمْل مع النَّمْلِ[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث خير برهان على قيمة الرحمة في الإسلام، وعلى إحساس المسلم الصادق الرقيق بطبيعة الكائنات الأخرى من الطيور والنباتات والحيوانات، والمصطفى ﷺ أُرسل رحمة للعالمين، عالم الإنس وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الجن، وكل الكائنات التي خلقها الله عز وجل.

---

(١) برقم (٢٦٧٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥١). تنبيه: عند المنذري عن أبي مسعود، وهو خطأ، وكذا بتحقيق الألباني (٢/٨٧٤، رقم ٣٢٩٤) وإشراف مشهور حسن سلمان.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م ر).

(٣) المرجع السابق في (ع ر ش).

(٤) الترغيب للمنذري ٣/١٥٣.

فأي عاطفة أسمى وأرق من هذه العاطفة الإسلامية التي تحرص على مشاعر هذا الطائر الصغير "الحمرة؟" إنها عاطفة ليست رومانسية، ولا سريالية، ولكنها تنبع من حقيقة كونية تتمثل في علاقة المسلم القلبية والنفسية والشعورية بكل الكائنات التي سخرها الله لخدمة الإنسان، والحديث يصور الدليل الواقعي على تعامل المسلم مع مظاهر الطبيعة ومنها هنا: الطيور والنمل، وأسلوب الحديث يجسد اللهفة والسرعة في الحدث الذي أنكره رسول الله ﷺ، ثم قام الصحابة بإعادة الفرخين إلى أمهما "الحمرة" لأنها فقدتهما فظلت "تعرش" أي: تتحرك في قلق وحيرة وترتفع وتهبط وتظلل بجناحيها على من تحتها، فأدرك رسول الله ﷺ طبيعة ألمها، وسر حيرتها فقال مستنكراً ما حدث: "من فجع هذه بولدها"، ثم أمر برد ولدها إليها: لأنها أم تشعر ويعتصر الألم قلبها، والعطف بالفاء في تعاقب جمل الحديث المصورة لهذا الحدث يرشد إلى السرعة واللهفة بدافع من الخوف على هذا الطائر الحائر، ولنتأمل هذا التوالي السريع للأفعال" فانطلق –فرأينا- فأخذنا- فجاءت - فجعلت تعرش - فجاء النبي ﷺ فقال: إن اللغة تنبئ عن طبيعة الحدث والموقف.

والموقف الثاني كان تعاطفاً مع النمل: وهو عالم عجيب دقيق منظم، والحوار كان بين رسول الله ﷺ ومن معه من الذين حرقوا مساكن النمل، وقد أنكر الرسول عليهم ذلك وعلمهم درساً في الرحمة والحكمة والامتثال، وختم الحديث بما ختم به الحديث السابق بأسلوب التوكيد، وصيغة القصر ... لترسيخ هذا المفهوم الذي تدفق كالضوء من هذا البيان النبوي الحكيم: "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار".

وهذا الإحساس العميق بالطير وعوالمه الحرة الطليقة يصوره الشاعر محبوب الشرتوني قائلاً:

ليتني كنت في الحياة هزاراً ... ناعم البال في فسيح فضائه
مطلق الجناحين فيه بعيداً ... عن أذى المرء عن كثير جفائه
ليس يلهيه والحدائق ملأى ... طلب القوت عن لذيذ غنائه

يرتدي من صنيع باريه ثوباً ما ارتداه ابن آدم في رخائه !!!

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- كراهة أن يفجع الإنسان الطائر في ولده، بقتله، أو أخذه، أو أخذ بيضه.

٢- عدم جواز إحراق النمل بالنار لقوله ﷺ: "لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار".

وقد سئل ابن تيمية هل يجوز إحراق بيوت النمل بالنار؟ فقال: يدفع ضرره بغير تحريق[١].

وإن كان المالكية قد ذكروا أنه لا بأس بقتل النمل بالنار إذا آذت ولم يقدر على تركها[٢].

أما قتل النمل بغير النار، فقد كرهه المالكية[٣]، والحنابلة في وجه[٤] وحرمه الشافعية[٥]، والحنابلة[٦] في الوجه الآخر.

والمراد بالنمل هنا النمل الكبير طويل الأرجل، المسمى بالسليماني، لعدم أذيته، أما النمل الصغير، وهو المسمى بالذر، فإنه يحل قتله لكونه مؤذياً بل وحرقه إن تعين طريقاً لدفعه[٧].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٣/٣٢٥.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٢/٣٥٢.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٣/٣٢٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٤٣٩.

(٥) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٣٠٢، وحاشية البجيرمي ٤/٣٠٦ وفيه: "ويحرم قتل النمل لصحة النهي عن قتله".

(٦) الفروع، ابن مفلح ٣/٣٢٥ وفيه "ولأصحابنا وجهان في نمل وغيره، والتحريم أظهر".

(٧) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٢/٣٥٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/٣٠٢، وحاشية البجيرمي ٤/٣٠٦، والفروع، ابن مفلح ٣/٣٢٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٤٣٩.

ثانياً: من فقه الداعية: إنكار المنكر على فاعليه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الرحمة بالطيور.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: حرمة التعذيب بالنار.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال:

حيث جاء في الحديث "من فجع هذه بولدها؟" وقوله "من حرَّق هذه" وأسلوب السؤال من أساليب الدعوة التي توحي بتثبت الداعية من الأمور، والاستقصاء عن المسائل، وقد أرشد الله تعالى إلى السؤال كأسلوب من أساليب الدعوة، فقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2].

ثانياً- من فقه الداعية: إنكار المنكر على فاعليه:

حيث جاء في الحديث "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" وقوله "من حرق هذه قلنا: نحن قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" وإنكار المنكر على فاعليه من فقه الداعية، وقد أمر الله بذلك في القرآن فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3] وذم الله تاركيه فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[4].

(والداعية الذي يقوم بإنكار المنكر له مكانة وفضل عند الله تعالى، فهو منفذ لأمر الله وأمر رسوله ﷺ وهذا فضل عظيم، وهو من المفلحين وهو سبب من أسباب خيرية هذه الأمة، حيث إن الأمم الأخرى تفتقد ذلك، وهو محاصر للشر في المجتمع، وسبب من أسباب نقائه، وسبب في منع العقوبات الربانية التي تصيب المسلمين إذا سكتوا عن المنكر)[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٥) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٦٠، ١٦١.

وإذا كان من فقه الداعية إنكار المنكر على فاعليه، فإنه ينبغي أن يراعي توفر شروطه قبل إنكاره.

(الأمر بالمعروف ليس له شروط خاصة، لأن الأمر بالمعروف نصيحة وإرشاد وتعليم، وكل ذلك جائز في كل وقت وفي كل مناسبة فعن تميم الداري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[1].

أما النهي عن المنكر وتغييره فله شروط خاصة يجب توفرها لوجوب النهي أو التغيير وهذه الشروط هي:

١- وجود منكر، والمنكر كل معصية حرمتها الشريعة الإسلامية، وهو كل ما كان محذور الوقوع في الشرع، ويستوي أن يكون فاعل المنكر مكلفاً أو غير مكلف، فمن رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن ينكر عليه، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة فعليه أن يمنعه.

٢- أن يكون المنكر موجوداً في الحال: بمعنى أن تكون المعصية راهنة، وصاحبها مباشراً لها وقت النهي أو التغيير، كشرب الخمر وخلوته بأجنبية، فإذا فرغ من المعصية فليس ثمة مكان للنهي عن المنكر أو تغييره، وإنما هناك محل عقاب على المعصية والعقاب من حق السلطات العامة وليس للأفراد. وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا الحكم بقوله: المعصية لها ثلاثة أحوال: أحدها أن تكون منصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير، وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد، الثانية أن تكون المعصية راهنة، وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر، فإبطال هذه المعصية، واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها، وذلك يثبت للآحاد والرعية، والثالثة أن يكون المنكر متوقعاً كالذي يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر، وبعد لم يحضر الخمر، فهذا مشكوك فيه، إذ ربما

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

يعوق عنه عائق، فلا يثبت للآحاد سلطة على العازم على الشرب إلا بطريقة الوعظ والنصح، فأما التعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد وللسلطات، إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة، وقد أقدم على السبب المؤدي إليها، ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار.

وقال ابن نجيم في التعزير: (لكل مسلم إقامته حال مباشرة المعصية، وأما بعد الفراغ فليس ذلك لغير الحاكم)[١].

وعُلل ذلك في كتب الفقه: (لو عزره حال كونه مشغولاً بالفاحشة فله ذلك، وأنه حسن؛ لأن ذلك نهي عن المنكر، وكل واحد مأمور به، وبعد الفراغ ليس ينهى عن المنكر؛ لأن النهي عما مضى لا يتصور فيتمحص تعزيراً وذلك إلى الإمام).

٣- أن يكون ظاهراً، فلو كان مستتراً فلا يجوز التجسس عليه؛ لأن الله حرم التجسس قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[٢]؛ وقيل لعبد الله بن مسعود إن فلاناً تتقطر لحيته خمراً فقال: (إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شيء نأخذ به).

والأصل أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار، كظهور رائحة الخمر وأصوات السكارى، أو أخبر ابتداءً من غير استخبار شخصان أو شخص واحد على رأي بأن فلاناً يرتكب المعاصي في بيته، جاز دخول البيت دون إذن.

مما سبق تتضح لنا أهم الشروط الواجب توافرها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإذا توفرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً، وإذا اختل شرط من شروط الوجوب السابقة، سقط الوجوب وبقي الحكم دائراً بين الاستحباب أو الحرمة[٣].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٤٢/٥.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ص ٧٨-٨١ بتصرف.

وما من شك في أن تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحقق السعادة للمجتمع.

(إن من مهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرساء قواعد الأمن في المجتمع، وقطع دابر الجريمة، واستئصال المنكرات والمعاصي، وتوجيه المجتمع الوجهة المفيدة والمثمرة له في دنياه وآخرته.

ولكن حينما يغيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تضعف كلمته، وتقل شوكته، فإنه بلا شك سوف تكثر المفاسد والمناكير، وتعم الجريمة، ويظهر المجرمون والمنحرفون، وبذلك يختل ميزان الأمن الاجتماعي، وتتقوّض عراه.

والمتأمل في حال المجتمعات غير الإسلامية، أو بعض المجتمعات الإسلامية التي لا يتحقق فيها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكله المطلوب، فإنه يتضح بما لا يدع مجالاً للشك مدى ما يعم تلك المجتمعات من انهيار في أمنها الاجتماعي، وعدم التماسك بين أفرادها وجماعاتها.

والحقيقة أن مردّ ذلك إلى فشوّ الخوف، وعدم الثقة بين الناس، وانتشار الجريمة بمعناها الواسع، وبروز المنظمات الإجرامية التي عاثت في الأرض فساداً، دون رادع أو وازع.

وهكذا حينما يضعف الإيمان، وتقل الأعمال الصالحة، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكون الحالة الأمنية سيئة جداً، بل قد يستعصي حلها، والحق أنه لا مخرج من كل ذلك إلا بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى والتمسّك بحبله المتين، وصراطه المستقيم، والاهتداء بسنة نبيه الأمين ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(١)])[(٢)].

---

(١) سورة النور، آية: ٥٥.

(٢) الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٢٦٢، ٢٦٣.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الرحمة بالطيور:

حيث جاء في الحديث "فجاءت الحُمَّرة فجعلت تعرش فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها" فهذا دليل على عموم الرحمة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، حتى بالطيور والبهائم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه دخل دار الحكم بن أيوب فرأى غلماناً أو فتياناً – نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس: نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم[1]، وحث رسول الله ﷺ على الرحمة بالحيوان حتى في الذبح، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ اللّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ. فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))[2]. والرحمة بالحيوان سبب للمغفرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينما كلبٌ يُطيفُ بركيَّةٍ كادَ يَقتلهُ العطشُ إذ رأته بَغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزَعَتْ مُوقَها فسقَتْه، فغُفِرَ لها به))[3].

قال محمد الغزالي: (من الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان، رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يسحب شاة من رجلها ليذبحها فقال له: ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً، والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، وقد بين أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء، وكبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب، ولئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب)[4].

إن الإسلام يحث المسلم على الرحمة بجميع المخلوقات والرفق بها. ولقد بلغ من اهتمام الإسلام بالرفق أنه لم يقصره فقط بالإنسان، وإنما تعدى نفعه حتى إلى الحيوان.

ولئن افتخرت بعض الدول الأجنبية باهتمامها بالرفق بالحيوان وأقامت الجمعيات والمؤسسات لهذا الأمر، فإن الإسلام بتعاليمه وتوجيهاته وإرشاداته قد سبقهم بهذا

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥١٣، ومسلم ١٩٥٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ومسلم ٢٢٤٥.

(٤) خلق المسلم ٢١١-٢١٢.

الاهتمام، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، أرحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء))[١].

وعن عائشة رضي الله عنها ((أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير فكانت فيه صعوبة فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه))[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ بهذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر))[٣].

هكذا يربي الإسلام أتباعه المؤمنين على الأخلاق الفاضلة، ويعودهم على العادات الحسنة، ويحثهم على الصفات الحميدة، ومن هذه الأخلاق التي تمسك بها المسلمون الرفق الذي لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينتزع من شيء إلا شانه، من تمسك به حصل على الخير الكثير، ومن حرمه فقد الأجر الكبير[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: حرمة التعذيب بالنار:

حيث جاء في الحديث "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" قال شرف الحق العظيم آبادي: (قال الخطابي في الحديث دلالة على أن تحريق بيوت الزنابير مكروهة، وأما النمل فالعذر فيه أقل، وذلك أن ضرره قد يزول من غير إحراق)[٥]. وقال الشيخ ابن عثيمين: (ونهى ﷺ عن التعذيب بالنار، وعلى هذا إذا كان عندك نمل فإنك لا تحرقها بالنار، وإنما تصنع شيئاً يطردها، وإذا لم يمكن اتقاء شرها إلا بمبيد يقتلها

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٤١ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٦٣، ومسلم ٢٢٤٤.

(٤) أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص، ٩١، ٩٢.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٤٠.

نهائياً فلا بأس لأن هذا دفع لأذاها، وإلا فالنمل مما نهى النبي ﷺ عن قتله بالنار وإذا لم يندفع إلا بالقتل أو بغيره فلا بأس)[١].

قال د. الحسيني هاشم: (وفي الحديث النهي عن الإحراق، والاكتفاء بالقتل كأقصى درجات التأديب والقصاص، وفيه النهي عن تعذيب العصافير والنمل وغيرها من الطيور والحشرات بالنار، وعدم تعذيب الطيور الصغار)[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٩٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الأدب مع الله تعالى:

إن من أسس الإيمان الجلية التي يجب أن يتربى عليها النشء المؤمن، هي الأدب مع الله تعالى، فلا اجتراء ولا منازعة لله تعالى في ملكه ولا عباده.

وهذا ما ترائى جليًا من نص الحديث، حيث إن النبي ﷺ رغم عظم مكانته عند الله تعالى إلا أنه ﷺ وقف عند حد عبوديته، ولم يجترئ على الله فيما خصه لنفسه جل وعلا، فالله هو الخالق من عدم، وهو المتفرد سبحانه بحساب الخلائق إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]؛ لذا حرم النبي ﷺ التعذيب بالنار، وذلك في قوله: «إنِّي كُنْتُ أمَرْتُكُمْ أنْ تحرِقُوا فُلانًا وفلانًا بالنَّارِ، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بها إلاَّ اللهُ، ....إلخ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلاَّ رَبُّ النَّارِ».

فلا حكم إلا الله، فالكون مخلوق لله ومملوك له، فليس لأحد غيره تعالى أن يتصرف بشيء منه إلا بإذنه، ونحن البشر جزء من هذا الملك، لما كان الأمر كذلك: فإنه ليس من حق أي أحد -غير الله- أن يتصرف في ملك الله بشيء مهما يكن ذلك الشيء إلا أن يأذن الله له بذلك التصرف ...، فنحن إذن ملزمون بالأدب مع الله تعالى، لأننا عبيد له سبحانه، وليس لنا أن نتجاوز الحدود، ولا أن نتعداها، وإلا كنا عصاة معتدين على حق ملك المالك الخالق القادر، والمعتدي يعرض نفسه للعقوبة[2].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الاقتداء بالنبي ﷺ في توجيه المتربين والمتعلمين على الوقوف عند حد العبودية، وعدم منازعة الله في حكمه على العباد، والأدب معه سبحانه، فالملك ملكه والعباد عباده والأمر كله لله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة، ٢٥٣، ٢٥٤.

ثانيًا: من وسائل التربية: العقوبة:

إن العقاب من الوسائل التربوية التي لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال، ذلك أن طباع البشر تختلف في درجة الاستجابة للمؤثرات والوسائل التربوية، فالبعض يتأثر بالموعظة، أو بالترغيب، أو بالترهيب، أو بالحوادث، والعبر التي يشاهدها أو يسمعها، والبعض لا يستجيب لتلك المؤثرات التربوية، ولا ينفع معه إلا الألم الذي يباشر بدنه[1].

ومن الشواهد على التربية بالعقوبة، ما جاء في قول النبي ﷺ: «... فإن وجَدْتموهما فاقتُلوهما»، وعلى دعاة التربية والتوجيه أن يعوا أن الهدف من العقاب ليس الانتقام ولكنه التأديب على ما صدر من سلوك معيب، فلا ينبغي أن يُشعر المربي المتربي عند العقوبة بعدوانيته أو قسوته، بل ينبغي أن يشعره بأن هذا العقاب ليس إلا لتعديل سلوكه، وعدم الوقوع في الخطأ مرة أخرى، مع ظهور شفقته عليه ورحمته به[2]، وقد كان النبي ﷺ أمثل قدوة لدعاة التربية والتوجيه عند إقامة العقوبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ فقَالَ اضْرِبُوهُ. قالَ: فمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ والضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قالَ بَعْضُ القَوْمِ أَخْزَاكَ اللهُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا تَقُولُوا هكَذَا، لاَ تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، ولَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ اللهُ»[3].

وحتى تتحقق ثمرة العقاب كوسيلة تربوية يجدر بدعاة التربية أمران: الأول: هو التدرج في العقوبة، فقبل أن يلجأ المربي إلى العقاب البدني فينبغي أن تكون هناك مراحل قد مر بها في محاولة تقويم المتربي والمتعلم، وقد بينها الغزالي في قوله: فإن وقع الخطأ بداءة ولأول مرة من المتربي كان ينبغي التغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يُظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولاسيما إذا ستره المتربي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٤٠٢.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٥.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٢٧٩، وأحمد، ٧٦٤٥.

فعند ذلك إن عاد ثانية، فينبغي أن يعاتب سرًا، ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يُطّلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقوع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلا أحيانًا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح[١].

فإن قرر المربي العقاب البدني لرؤية مناسبته لواقع الخطأ، فعليه أن يدرك أن العقاب البدني قد يكون فيه نوع من الإيلام، حتى يحدث الأثر المرجو منه، لكن لا ينبغي أن يكون مضرًا، كأن يترتب عليه كسر أو جرح أو نحو ذلك بحجة التربية[٢].

والأمر الثاني الواجب اتباعه في تربية النشء المسلم عند استخدام وسيلة العقوبة، هو عدم القيام بمصالحة المخطئ فور توقيع العقاب، فقد يعطي المربي المتربي المخطئ بعض المال أو يشتري للطفل بعض قطع الحلوى أو ما شابه ذلك، مما يضيع الثمرة المرجوة من العقاب[٣].

ثالثا: التربية بالسؤال والحوار:

يجب على القائمين على التربية الإفادة من السؤال والحوار مع المتربين والمتعلمين لتحقيق ثمرة التربية في كل ما غاب عن المتربين، وهم في ذلك قد اقتدوا بسيد المربين وإمام المعلمين محمد ﷺ كما ورد في نص الحديث، من قوله ﷺ: «مَنْ فَجَّعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، ... مَنْ حَرَّقَ هذِهِ؟ قُلْنَا: نَحْنُ، قال ... إلخ».

ومما لا شك فيه أن المتربي والمتعلم له طاقات معينة وبالتالي فإن معارفه محدودة، ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة. ولذا تراه يبحث عن إجابات لما يجهل، ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال والحوار[٤].



(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٧٣/٣ بتصرف.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٤، ٩٥.

(٣) المرجع السابق، ٩٥.

(٤) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٣.

٢٨٤- باب تحريم مطل الغني بحقٍّ طلبه صاحبه

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨]، وقال تَعَالَى: ﴿فَإِن أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[البقرة: ٢٨٣].

الحديث رقم (١٦١٣)

١٦١٣ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**)) متفق عَلَيْهِ[1]. معنى "أُتْبِعَ": أُحيلَ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مطل الغني: تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر[2].

أتبع: أحيل[3].

مليء: غني[4].

الشرح الأدبي

لقد حرص الإسلام على رد الحقوق لأصحابها، وجاء الأمر الإلهي بذلك، والأمر للوجوب، والحديث في منطوقه يدين كل من يماطل أو يسوف في رد الأمانة، وهذا المطل يمكن أن يؤدي بالإنسان إلى الخيانة، والوجه الآخر للحديث وهو المفهوم الذي يهدف إلى توصيله لكل مسلم، ولكل إنسان، هو أداء الحقوق في وقتها، وعدم خيانة الأمانة حرصاً على صونها وحرمتها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤/٣٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٠٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٢/٤.

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٥٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٢/٤.

ولغة الحديث تنزع إلى القصد والخلوص والاستيفاء، والقصد هو الإيجاز مع الإفهام والوضوح مع فتح آفاق التفسير والإفهام.

ويتضمن الحديث جملتين قصيرتين: الأولى تعد قاعدة ثابتة وحكمًا صارماً على كل من المطل وهو قادر على أداء الحق، ورد الأمانة: حيث يقول الصادق الأمين، مطل الغني ظلم.

ولكل كلمة دلالة في هذه الجملة الاسمية المكونة من مبتدأ "مصدر مضاف إلى فاعله"، وخبر وهو مصدر كذلك: "مطل الغني ظلم"، والمطل في اللغة: التسويف بالعِدَة والدين، والمطال من معانيه الحسية التي تفسر طبيعة المماطل في أداء الدين أو الأمانة، من معانيه: مد الحبل، ومد الحديد وسبكه وطبعه وصوغه، وكأن المماطل في تأخير الموعد، وإخلافه، ونقضه للعهد: يشبه الحديد في انصهاره، وذوبانه وشدة ناره، وتشكله أشكالاً جديدة، وكم يعاني صاحب الحق في ظل هذا التسويف الحارق الملتهب، وجاء لفظ "الغنى" مضافاً إلى "المطل" إيحاءً بارتباط المصدر بفاعله: وكذلك للإيجاز وكأن الإيجاز هنا قيمة بلاغية تصل بنا إلى ضرورة إيجاد القيمة السلوكية، وهي سرعة أداء الحقوق، وكذلك لفظ "الغني" فيه إيحاء بان ذلك المماطل ليس لديه عذر في التأخير لأنه ليس فقيراً.

ووصفه المطل بالظلم يتمم المعنى فكلمة "ظلم" خبر المبتدأ والخبر تتم به الفائدة، وقال السبكي تسمية المطل ظلماً يشعر بكونه كبيرة كالغصْب، والظلم هو مجاوزة الحد، والميل عن الحق في التصرفات.

وقد ذُكر الظلم ومشتقاته في القرآن، في مائتين وأربع وثمانين آية، حتى يتنبه الناس إلى أخطاره.

وأما الجملة الثانية فقد جاءت في قالب: الشرط والجواب، وأن الجملة الأولى توطئة وعلة لقبول "الحوالة" في الجملة الثانية: لأن معنى: "إذا أُتْبع" أي إذا أحيل أحدكم: أي صاحب الدين، "على مليء" أي غني، يحفظ له حقه: فليقبل من يحال بدينه عليه: حرصاً على حقه، وضماناً لرد ماله، وعدم ضياعه، وأداة الشرط هنا إذا: وهي

للتحقق، وذلك إيحاء بأن القبول يجب أن يتم، وقوله: "فليتبع": جواب الشرط، وهو أمر يجب اتباعه، حتى لا تضيع الحقوق، وتمزق العلاقات، وتنشأ العداوات، والإسلام دين المحبة والتراحم، والأمانة والتسامح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من تأخير الغني الدين الذي عليه.

ثالثاً: من مهام الداعية: إيجاد الحلول لما يستعصى من الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "مطل الغني ظلم" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة التي تدفع المدعو عن مقارفة المحظورات، وتخوفه من مغبة فعل المنكرات، ذلك أن النفس البشرية بطبيعتها تخاف الوعيد، وترعوي عند الزجر (والترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[1]. وقال د. توفيق الواعي: (إن الترغيب والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجاً وردعاً، يأتي بشيراً ونذيراً، فمن الناس من يلهث وراء الشهوات، ويجري وراء المادة، ويشغف بالمنكر، فهذا يقرعه الترهيب، ويوقفه الإنذار، ويوقظه التخويف من عواقب ما هو فيه)[2].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾[4].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

(٢) الدعوة إلى الله الرسالة - الوسيلة - الهدف، د. توفيق الواعي، ٢٠٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٤) سورة فاطر، آية: ٣٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من تأخير الغني الدين الذي عليه:

حيث جاء في الحديث "مطل الغني ظلم" وهذا تحذير للغني من تأخير الدين الذي عليه، لأنه بذلك في عداد الظالمين. قال النووي: (قال القاضي وغيره: المطل منع قضاء ما استحق أداؤه، فمطل الغني ظلم وحرام، ومطل غير الغني ليس بظلم ولا حرام، لأنه معذور، ولو كان غنياً ولكنه ليس متمكناً من الأداء لغيبة المال أو لغير ذلك، جاز له التأخير إلى الإمكان، وهذا خصوص من مطل الغني، أو يقال: المراد بالغني المتمكن من الأداء فلا يدخل هذا فيه)[1].

وقال ابن حجر: (والمعنى أن مطل الغني من الظلم، وأطلق ذلك للمبالغة في التنفير عن المطل، والمراد بالمطل تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر، ولذا فيحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه بخلاف العاجز، وفي الحديث الزجر عن المطل، والإرشاد إلى ترك الأسباب القاطعة لاجتماع القلوب، لأنه زجر عن المماطلة وهي تؤدي إلى ذلك)[2].

قال القاضي عياض: (وقوله عليه السلام "مطل الغني ظلم": المطل: منع قضاء ما استحق أداؤه. وفيه دليل على أن مطل غير الغني ليس بظلم، وإن كان مضطراً يجوز. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[3]، وإنما فصل بمطله من النظرة إلى ميسرة، مما يوجب الحكم وأمر به الله تعالى. وفيه حجة لمالك والشافعي وعامة العلماء، أنه إذا كان معسراً فلا يلزم سجنه[4] ولا ملازمته، ولا مطالبته حتى يكتسب مالاً؛ إذ قد أنظر إلى الميسرة، فكأنه من عليه دين إلى أجل وقد تقدم هذا. وإذا كان واجداً ومنع صاحب الحق استعمال حقه لغير عذر فهو ظالم له.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٣/٤، ٥٤٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.

(٤) لأن الحبس إما أن يكون لإثبات عثرته أو لقضاء دينه، وعثرته ثابتة والقضاء متعذر، فلا فائدة في الحبس. راجع: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٨٥/٦.

وقد اختلف أصحابنا وغيرهم في أن المماطل هل يفسق وترد شهادته بمطله مرة واحدة، أم لا ترد شهادته حتى يتكرر ذلك منه ويصير عادة مستمرة، ومقتضى مذهبنا اشتراط التكرار، وجاء في الحديث الآخر في غير مسلم: "لَيُّ الواجد يُحل عرضه وعقوبته"[(١)]. قال سفيان: عِرْضُه[(٢)] أن يقول: مطلني، وعقوبته الحبس. وهذا الحديث يدل على أن المراد بمطل الغني ظلم ما تقدم، وهو ظاهر، وتأويل كافة العلماء، خلافاً لما ذهب إليه بعضهم من أن المراد أن الغني هو المطول، وأنه وإن كان غنياً فمطله ظلم. وهو تعسف في التأويل من قائله[(٣)].

وقوله: "وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع": معناه: إذا أحيل على مليء فَلْيَحْتَل، هذا هو أُتبع، و"فليتبع" ساكنة التاء فيهما، وبعض المحدثين يشددها في الحديث الآخر. والوجه إسكانها، يقال من ذلك: تبعت الرجل، بمعنى أتبعه تباعة: إذا طلبته به، فإذا له تبيع قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[(٤)] ومعظم شيوخنا حملوا قوله "فليتبع" على الندب، وقد ذهب بعضهم إلى أنه على الإباحة وأنه ليس على الندب، وحكى الداودي أنه قيل: إنه غرم، وفي قوله "مطل الغني ظلم" قيل: هذا دليل على أن الحوالة لاتصح إلا عن دين حال، إذ لا يكون ظالماً ولا مطولاً من لم يحل عليه الدين)[(٥)].

قال القرطبي: (وقوله: "مطل الغني ظلم"، المطل: منع قضاء ما استحقَّ أدواؤه مع التمكن من ذلك، وطلب المستحق حقه. وهو الذي قال فيه في الحديث الآخر ((لَيُّ الواجد يُحِلُّ عِرْضه وعقوبَتَهُ))[(٦)]. أي: مطل الموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ظلم

---

(١) نقلها النووي عن القاضي، وهي في الأصل مضطربة، والمثبت مما نقله النووي عن القاضي.

(٢) أي إباحة عرضه.

(٣) لأنه يلزم أن يكون المصدر مبنياً للمفعول، وفيه خلاف.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٦٩.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥/٢٣٣-٢٣٤.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ٤/٢٢٢ رقم ١٧٩٤٦ وقال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين، ٢٩/٤٦٥. وأخرجه أبو داود ٣٦٢٨ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٨٦).

للمستحق، يبيحُ من عرضه أن يقال فيه: فلانٌ يمطل الناس، ويحبس حقوقهم. ويبيح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك. حُكي معناه عن سفيان. و"الظلم": وضعُ الشيء في غير موضعه في أصل اللغة. وهو في الشرع محرَّمٌ مذمومٌ. ووجهه هنا: أنَّه وضع المنع موضع ما يجبُ عليه من البذل، فحاق به الذمُّ والعقاب. والغنيُّ الذي أضيف المطلُ إليه هو الذي عليه الحق؛ بدليل قوله: "ليُّ الواجد..." وهو الظاهرُ من الحديث والمراد منه، ولا يلتفت لقول من قال: إنه صاحب الحق، لبعد المعنى، وعدم ما يدلُّ عليه.

وقوله: "وإذا أُتْبِعَ أحدكم على مليء فليتبع". أُتْبِعَ -بضم الهمزة، وتخفيف التاء، وكسر الياء- مبنياً لما لم يسمَّ فاعلُه عن الجميع. فأما "فليتبع" فبعضهم قيده بتشديد التاء، وكذلك قيدته على من يوثَقُ به. وقد روي بتخفيفها وهو الأجودُ؛ لأن العرب تقول: تبعتُ الرجل بحقي، أتبعه، تباعةً: إذا طلبته به، فأنا له تبيعٌ -كل ذلك بالتخفيف- ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[1]. ومعناه: إذا أحيل أحدكم فليحتل. وهذا الأمرُ عند الجمهور محمولٌ على النَّدب؛ لأنه من باب المعروف والتيسير على المعسر، وقد حمله داود على الوجه تمسُّكاً بظاهر الأمر. وهذا ليس بصحيح؛ لأن ملك الذمم كملك الأموال. وقد أجمعت الأمة: على أن الإنسان لا يُجبر على المعاوضة بشيء من ملكه بملك غيره، فكذلك الذمم، وأيضاً: فإن نقل الحق من ذمة إلى ذمة تيسير على المعسر، وتنفيسٌ عنه، فلا يجب، وإنما هو من باب المعروف بالاتفاق. وإذا تقرر ذلك فالحوالة معناها: تحويلُ الدين من ذمة إلى ذمة. وهي مستثناةٌ من بيع الدين بالدين لما فيها من الرفق، والمعروف. ولها شروط:

فمنها: أن تكون بدينٍ، فإن لم تكن بدينٍ لم تكن حوالة، لاستحالة حقيقتها إذ ذاك، وإنما تكونُ حمالة.

ومنها: رضا المحيل والمحال دون المحال عليه. وهو قولُ الجمهور، خلافاً للإصطخري؛ فإنه اعتبره. وإطلاقُ الحديث حجَّة عليه. وقد اعتبره مالك إن قصد المحيل بذلك الإضرار بالمحال عليه. وهذا من باب دفع الضرر.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٦٩.

ومنها: أن يكون الدين المحال به حالاً، لقوله ﷺ: "مطلُ الغنيِّ ظلم". ولا يصحُّ المطل، ولا يصدق الظلم إلا في حق من وجب عليه الأداء، فيمطل. ثم قال بعده: "فإذا أتبع أحدكم فليتَّبع" فأفاد ذلك: أنَّ الدين المحالَ به لابُدَّ أن يكون حالاً؛ لأنَّه إن لم يكن حالاً كثُر الغَرَرُ بتأجيل الدينين.

ومنها: أن يكون الدينُ المحالُ عليه من جنس المحال به؛ لأنه إن خالفه في نوعه خرجَ من باب المعروف إلى باب المبايعة، والمكايسة، فيكون بيعُ الدَّين بالدَّين المنهيِّ عنه.

فإذا كملت شروطها برئت ذمةُ المحيل بانتقال الحقِّ الذي كان عليه إلى ذمة المحال عليه. فلا يكون للمحال الرُّجوع على المحيل؛ وإن أفلس المحال عليه؛ أو مات. وهذا قولُ الجمهور. وقد ذهب أبو حنيفة إلى رجوعه عليه إن تعذر أخذه الدين من المحال عليه. والأول الصحيح؛ لأنَّ الحوالة عقدُ معاوضة، فلا يرجع بطلب أحد العوضين بعد التسليم، كسائر عقود المعاوضات، ولأن ذمة المحيل قد برئت من الحقِّ المحال به بنفس الحوالة، فلا تعود مشتغلةً به إلا بعقدٍ آخر، ولا عقد، فلا شغل. غير أنَّ مالكاً قال: إنْ غرَّ المحيل المحال بذمَّة المحال عليه كان له الرُّجوع على المحيل. وهذا لا ينبغي أن يختلف فيه؛ لوضوحه[1].

وجاء في فتح الملهم: (قوله: "مطل الغني ظلم". وأصل المطل: المد. قال ابن فارس: مطلت الحديدة أمطلها مطلاً: إذا مددتها لتطول، وقال الأزهري: المطل المدافعة. وقال ابن سيدة في المحكم: المطل التسويف بالعِدَة والدين ويستعمل من باب نصر وباب المفاعلة جميعاً والمراد هنا تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر.

و"مطل الغني" من قبيل إضافة المصدر إلى فاعله، والمعنى: أنه يحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه، بخلاف العاجز. وقيل: هو من قبيل إضافة المصدر إلى مفعوله، والمعنى أنه يجب وفاء الدين ولا يجوز تأخيره، ولو كان الدائن

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٤٣٨-٤٤٠.

غنياً، ويؤخذ منه حكم الدائن الفقير بالطريق الأولى، ولكن لا يخفى ما في هذا التفسير من تكلف، فالأول أولى.

وبالجملة، فمراد الحديث أن المديون إذا كان غنياً فلا يسوغ له التأخير والتسويف في أداء دينه، والمراد من الغني ههنا: من قدر على أداء دينه، ولو كان في نفسه فقيراً، واختلفوا: هل يعد الرجل غنياً إذا لم يكن عنده شيء، ولكنه يقدر على الاكتساب؟ فقيل: يعد غنياً، وقيل: لا، وجمع بعضهم بين القولين، فقال: إن كان قد استقرض لسبب هو معصية فالواجب عليه الاكتساب للأداء، فيعد غنياً عند قدرة الاكتساب، ولو كان فقيراً، وإن كان استقرض لحاجة مباحة عرضت له فلا يعد غنياً حتى يكون عنده ما يؤديه.

ثم جعل الحديث مطل الغني ظلماً، للمبالغة في التنفير عن المطل، وبه استنبط سحنون من المالكية أن الغني المماطل لا تقبل شهادته، لكون الحديث نص على أنه ظالم.

ثم إن الغني المماطل يدخل فيه كل من لزمه حق يستطيع أداؤه كالزوج لزوجته، والسيد لعبده، والحاكم لرعيته، وسواء كان الحق مالياً أو غيره، ويجوز للحاكم أن يعزر مثله)[١].

ثالثاً- من مهام الداعية: إيجاد الحلول لما يستعصى من الأمور:

حيث جاء في الحديث "وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع" وقد أرشد النبي ﷺ الدائن عند مماطلة المدين الغني أن يقبل الحوالة، قال ابن حجر: (والحوالة عند الفقهاء نقل دين من ذمة إلى ذمة ومناسبة قوله "فإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع" للتي قبلها أنه لما دلَّ على أن مطل الغني ظلم، عقبه بأنه ينبغي قبول الحوالة على الملئ لما في قبولها من دفع الظلم الحاصل بالمطل، فإنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل، ففي قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم)[٢]. ولقد أمر الرسول ﷺ

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٧/٤٤٧-٤٧٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٤/٥٤٤.

الدائن إذا أحاله المدين على غني مليء موسر قادر أن يقبل الحوالة، وأن يتبع الذي أحيل عليه بالمطالبة حتى يستوفي حقه (وإنما أمر الرسول ﷺ بالاتباع إذا أتبع تنجية للمدين من الظلم، أو الإشراف عليه بالمماطلة، وتعجيلاً لاستيفاء حقه بلا مساومة، ولقد قال أكثر الحنابلة، وأبو ثور وابن جرير وأهل الظاهر إنه يجب على الدائن قبول الإحالة على المليئ عملاً بهذا الأمر)[١].

والإسلام مع وضعه الحلول لمسألة الديون، إلا أنه لا يحب للمسلم أن يثقل كاهله بالدين، وهو لا يستطيع الوفاء، ولا القضاء، فإن الدين مسؤولية خطيرة، وأمانة جسيمة لاسيما إذا كان الإنسان قادراً على السداد وهو يماطل في أداء الحقوق، ورد الديون لأصحابها.

(إن الناظر إلى أحوال الناس اليوم يجد أن أكثرهم قد طوقته الديون وعظمت عليه الحقوق، حتى أصبحت لا تكاد ترى رجلاً إلا وهو مدين، وإن أكثر الناس اليوم في مظاهر الأغنياء، ويتزيون بزي الأثرياء، ولكنهم فقراء؛ فالمنزل أقام بنيانه بالدين، والسيارة التي يركبها بالدين، بل وصل الحال ببعضهم إلى أن أصبح إبريق الشاي وثلاجة القهوة والبتوجاز بالدين عن طريق مؤسسات التقسيط، وهذا خطر عظيم، ومغامرة رهيبة، إن الإنسان بذلك يعرض حياته للذلة والنكد، والتجريح والإهانات، والسجون والشكايات، وأعظم من ذلك كله يتعرض للعقوبة العظمى من الله تعالى لو مات وحقوق الناس وأموالهم برقبته.

وكان ﷺ يؤتى بالرجل المتوفى وعليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه من قضاء؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: صلوا على صاحبكم، وهذا كان في أول أمر الإسلام، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: ((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه))[٢].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٩٨، ومسلم ١٦١٩.

ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، فعن محمد بن جحش رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل في سبيل الله، ما دخل الجنة حتى يقضي دينه))(١).

فلماذا يتهاون الناس بهذه المسألة، ويتجرؤون على الإغراق في الدين والإثقال على النفس، والتحمل لما لا يطاق؟!

قنعت بالقوت من زماني وصُنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا فَضْلُ فلان على فلان
من كنت عن ماله غنياً فلا أبالي إذا جفاني

إن كثيراً من الناس قد أثقل نفسه بالدين لغير حاجة، وتحمل الحمالات العظيمة بدون ضرورة، وكثيراً من الناس يؤمل فيه الخير، ويتوقع منه الأداء فيثق فيه الناس، ويقرضونه أموالهم ثم يتنكر لهم، ويتمرد عليهم، ويمكر بهم؛ كثر غرماؤه، وتعدد خصماؤه، فلا معروف يرد، ولا دين يقضي.

يقول أحدهم وقد كثر غرماؤه:

ولو علقتموني كل يوم برجلي أو يدي في المنجنيق
لما أعطيتكم إلا تراباً يُطيَّر في الخياشم والحلوق

وأما الآخر فقد تحمل ديوناً كثيرة فكلما هجم عليه غرماؤه فرّ منهم وقال:

فلو كنت الحديد لكسَّروني ولكني أشدُّ من الحديد

ويكفي وعيداً لمن يأخذ أموال الناس، ويقترض من ذوي الفضل؛ ثم لا ينوي أداء الحق وإعادة الدين، يكفيه وعيداً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله))(٢).

إن لكثرة الديون على الناس أسباباً عديدةً، وهذا الأمر يحتاج إلى كثير عناية، وإلى عظيم دراسة، ولكنني أجمل بعض الأسباب التي تجعل كثيراً من الناس مسترقين برقِّ الدين، ومنها:

---

(١) أخرجه النسائي ٤٦٨٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٤٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٨٧.

١- محق البركة في الرزق، بحيث أصبح الإنسان له راتب طيب أو دخل مناسب ولكنه ممحوق البركة، ولذلك أسباب عديدة منها: الربا، الذي هو حرب على الله ورسوله، والذي درهم منه أشد من ست وثلاثين زنية، ومنها عدم الإخلاص في العمل أو الوظيفة، فقليل من الناس اليوم من يأخذ راتبه حلالاً زلالاً قد أدى عمله على أتم وجه، بل تجد التمرد والإهمال، والغياب، والكسل، والتأخر، إلى غير ذلك من التفريط في حق العمل. ومنها عدم أداء الزكاة التي هي مطهرة للمال والرزق ونماءٌ له وبركة فيه، ومنها عدم صدق النية في البيع والشراء، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويُمْحقا بركة بيعهما.

٢- غياب الصدق بين الشركاء، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب.

٣- التورط في مشاريع دون دراسة: لابد للإنسان قبل أن يقدم على أي مشروع صغير كان أو كبير أن يدرسه دراسة وافية من جميع جوانبه حتى لا يزج بنفسه في أمر لا تحمد عواقبه، وبتجارة لا تفلح فكرتها؛ فلابد من دراسة الجدوى، ومعرفة الثمرة، وحساب النتيجة.

٤- عدم التفكير وإعمال الذهن، وإيقاد القريحة: فالتجارة تحتاج إلى همة عالية، وذهن متوقد، وترقب للفرص، وذكاء في العرض، وتريث في الطلب. وحسن النية وحده لا يكفي في التجارة.

٥- استعجال الربح: فبعض الناس يبدأ بمحل تجاري، ويظن أن الأرباح ستنكب عليه من أول شهر أو شهرين، فإذا لم يجد شيئاً أغلق متجره وأنشأ متجراً آخر، وهكذا حتى يورط نفسه، وكان الأولى له الصبر والتريث، فإن الأمر يحتاج إلى زمن. والإنسان لكي يؤسس محلاً وعلاقات وزبائن يحتاج إلى سنوات وليس إلى أشهر.

٦- التورط في مسألة التقسيط: ظناً من الناس أنها حل ومخرج من الورطات، وهي في الحقيقة عناءٌ إلى عناء وهم إلى هم، ويجب أن لا يلجأ إليها إلا في الضرورة القصوى إذا بارت الحيل.

٧- الإغراق في الكماليات التي لا ضرورة لها: والواجب على المسلم أن يقتصد في الإنفاق، ولا يشتري إلا ما تدعو إليه الضرورة، فإن الرضا بالقليل خير من العيش وأنت ذليل[1].

---

(١) نسيم الحجاز من مسجد ابن باز، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ص ٢٢٨-٢٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على أداء الحقوق وعدم هضمها:

إن التربية الإسلامية تعمل على ترسيخ الوفاء بالحقوق في النفوس، وتهيب بالمسلم أن يسارع إلى أداء ما عليه وعدم المماطلة في ذلك، لأن الدين المعاملة، وأنه لابد للإنسان في هذه الحياة أن يكون آخذًا أو معطيًا، فإن كان آخذا متصدقًا عليه، شكر ودعا لصاحب المعروف، وكافأه على ذلك بما يستطيع، وإن كان الإنسان مقترضًا رد لصاحبه ما أخذ منه عند حلول أجله مثنيًا عليه، مظهرًا إحسانه إليه.

وعلى القائمين على التربية والتوجيه بيان أن مطل الغنى ظلم، ومن أخر حقًا عليه مع القدرة على تسليمه فهو البغيض الظلوم، والممقوت الملوم[1].

وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «مطل الغنى ظلم...إلخ».

فالإسلام كمنهج تربوي يرقب في مترببه ومتعلميه أن يكونوا ذا ضمير يقظ، تصان به حقوق الناس من خبث التلكؤ والتأخر مع المقدرة على الأداء في ذلك[2]؛ لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية على أداء الحقوق في نفوس المتربين، وبيان سوء عاقبة هضمها.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

إن المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها، مما يهدم الثقة بين الناس ويساعد على ضياع الأمانة التي طالما حافظ عليها الإسلام، كما أن المماطلة في أداء الحقوق تعمل على إيغار الصدور وتقطيع أواصر الود، ومن ثمَّ تفكيك المجتمع وسلخه من الترابط بين أفراده.

لذا ورد الترهيب من المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها، بأشد أنواع الترهيب، وهي بيان أن ذلك ظلم، وهذا ما ورد في حديث الباب من قوله ﷺ: «مطل الغنى ظلم».

---

(١) انظر: إصلاح المجتمع، محمد سالم الكدادي البيحاني، ١٧٨، ١٧٩ بتصرف يسير.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٤٥ بتصرف.

وللظلم ظلمات يوم القيامة، وقد حرمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، وذلك في قوله جل وعلا -من الحديث القدسي-: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا ... إلخ»[١].

وهذا مما يربي ويغرس في المتربي والمتعلم الترهيب من المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها.

والترهيب كأسلوب تربوي يعني التخويف من ترك فعل، وهو يتناسب مع ما فطر عليه الإنسان من الإحساس بالألم، لذا كان له عظيم الأثر في تربية الإنسان وتوجيهه وسلوكه[٢].

ثالثا: التربية بالتوجيه المباشر:

إن النبي ﷺ وجه أمته في نص الحديث إلى أن من دفعته الضرورة والحاجة إلى الاستدانة، ثم تعسر عن الوفاء، فأحال الأداء في ذلك إلى غنى يدفع عنه حقه غير مدافع ولا ممانع، فعلى صاحب الحق أن يقبل أخذ حقه حيث كان وتقاضيه من أي إنسان، وذلك في قوله ﷺ: «... وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»، وهذا توجيه مباشر من النبي ﷺ إلى طيب التقاضي الذي هو من مكارم الأخلاق[٣].

وبذلك تتربى الأنفس على التيسير وعدم التعسير في أخذ الحق، وبذلك تصفو القلوب، وتترسخ الأخوة في مجتمع دلَّل بتربيته على مكارم الأخلاق.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن التوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو يعني طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين[٤].

وذلك بهدف تحقيق الأهداف الكريمة، وغرس الفضائل العظيمة[٥]، لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه، عدم التغافل عن استخدام وسيلة التوجيه المباشر كلما تراءت الأهمية في ذلك.



---

(١) أخرجه مسلم، ٦٥٧٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٣.

(٣) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٧٩، ١٨٠ باختصار شديد.

(٤) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٤.

(٥) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٨.

٢٨٥- باب كراهة عود الإنسان في هبة لَمْ يُسلِّمها

إلَى الموهوب لَهُ وفي هبة وهبها لولده وسلمها أوْ لَمْ يسلمها وكراهة شرائه شَيْئاً تصدّق بهِ من الّذِي تصدق عَلَيْهِ أوْ أخرجه عن زكاة أوْ كفارة ونحوها وَلاَ بأس بشرائه من شخص آخر قدْ انتقل إلَيْهِ

الحديث رقم (١٦١٤)

١٦١٤ - عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ)) [١]. متفق عَلَيْهِ.

وفي رواية[٢]: ((مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ فِي صَدَقَتِهِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ فَيَأكُلُهُ)).

وفي روايةٍ[٣]: ((العائِدُ فِي هِبَتِهِ كالعائِدِ فِي قَيْئِهِ)).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن التصوير البياني في الحديث النبوي يجمع بين الترغيب والترهيب، فهو يرغب المسلم في الإقدام على الخير وكل ما هو صالح عن طريق التشبيه والتمثيل، والربط بين السلوك الخير ومشاهد الطبيعة الخيرة الجميلة، وأما الترهيب فيكون عن طريق ربط الأفعال القبيحة بمظاهر حسية قبيحة منفرة في مشاهد الحياة، ومفردات البيئة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧) من حديث أيّوب، عن عكرمة. أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦).

(٢) أخرجها مسلم (١٦٢٢/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦).

(٣) أخرجها مسلم (١٦٢٢/٧). تنبيه: هذه الرواية عزاها المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦) إلى أبي داود، وهي عند مسلم كما ذكرنا.

وهـذا الحـديث يجمـع بـين خاصـيتي الإيجـاز والتـصوير البيـاني عـن طريـق التشبيه التمثيلـي، والإيجـاز في الأسـلوب يتمثـل في أن الحـديث جملـة واحـدة مكونـة مـن مبتـدأ وخبر، ولكنه يصور سلوكاً بشرياً مرفوضاً يتكـرر في كـل عصر وفي كل مكـان وهو الرجوع في الصدقة أو الهبة.

وهـذا السلوك يعـد مـن الأعمـال القبيحـة الـتي لا تليـق بالمسلم، ولـذلك قـدم رسـول الله ﷺ هذا السلوك الشائن في صورة بيانية منفرة، حتى لا يقدم عليه النـاس، وحتـى يرتدع كل من يفكر في سلب الهبة أو الصدقة من صاحبها، لأن ذلك عمل قبيح.

وللقبـح وتـصويره مرحلتـان في نـص هـذا الحـديث: الأولى في مـشهد تقيـؤ الكلـب، والثانية في أكل القيء، وهاهنا: إشباع فكرة القبح المقزز، ومن القبح البارز أن المشهد نادر في الوجود، وندرته تكسر المألوف، وغرابته تشد الانتبـاه، وكـأن العائـد في هبتـه خرج على موازين الحياة السوية والطبيعية الصحيحة[1].

وقال ابن دقيق العيد، وقع التشديد في التـشبيه مـن وجهـين: أحـدهما تـشبيه الراجـع بالكلب، والثاني تشبيه المرجوع فيـه بـالقيء، وذلـك لمزيـد مـن التنفير مـن هـذا الـسلوك الشائن.

فقه الحديث

في هـذين الحـديثين[2] مـسألة حكـم الرجـوع في الهبـة[3]، أو العـود فيهـا، والفقهـاء عندما تكلموا عن هذه المسألة فرقوا بين حكم الرجوع في الهبة قبل قـبض الموهـوب لـه الشيء الموهوب وبين حكم الرجوع فيها بعد قبضه إياه:

أولاً: حكم الرجوع في الهبة قبل القبض: اختلف الفقهـاء في حكـم الرجـوع في الهبـة قبل القبض على رأيين:

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف.

(٢) الحديث رقم (١٦١٤)، (١٦١٥).

(٣) الهبة: هي "تمليك عين بلا عوض حال الحياة تطوعاً" انظر: مغني المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/٢٩٦-٢٩٧.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣]، ويرون جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه المالكية[٤]، والظاهرية[٥]، ويرون عدم جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

الأدلة:

أولاً: دليل الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على جواز الرجوع في الهبة قبل القبض بالأثر، والمعقول:

١- من الأثر: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه نحلها جذاذاً عشرين وسقاً من ماله بالعالية، فلما مرض قال: يا بنية ما أحد أحب إلي غنى بعدي منك، ولا أحد أعز علي فقراً منك، وكنت نحلتك جذاذاً عشرين وسقاً ووددت أنك حزيتيه، أو قبضتيه، وهو اليوم مال الوارث أخوك، وأختاك فاقتسموه على كتاب الله عز وجل[٦].

فهذا الأثر يدل - صراحة- على جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

٢- من المعقول: أما من المعقول: فقياس الهبة على القرض بجامع أن كلاً منهما عقد إرفاق، والقرض لا يملك إلا بالقبض، فكذا الهبة[٧].

ثانياً: دليل الرأي الثاني: استدل أصحاب هذا الرأي على عدم جواز الرجوع في الهبة قبل القبض بالنصوص الآمرة بالوفاء بالعقود لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[٨].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١١٥/٦.

(٢) حاشية البجيرمي على الخطيب، المسماة: تحفة الحبيب على شرح الخطيب، سليمان بن عمر الشافعي ٢٢١/٣.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥١/٦.

(٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد بن رشيد القرطبي ٣٢٩/٢.

(٥) المحلى، ابن حزم ١٢٠/٩.

(٦) موطأ مالك شرح الزرقاني ٤٧٧/٤.

(٧) حاشية البجيرمي على الخطيب، المسماة: تحفة الحبيب على شرح الخطيب، سليمان بن عمر الشافعي ٢٢/٣.

(٨) سورة المائدة، آية: ١.

فالهبة إذا تمت باللفظ كان الوفاء بها لازماً دونما توقف على قبض[١] وبالتالي لا يجوز الرجوع فيها قبله.

مناقشة هذا الدليل: وقد نوقش الاستدلال بهذه الآية، بأن المراد بالعقود التي يجب الوفاء بها - في الآية الكريمة- هي العقود اللازمة، والهبة لا تلزم قبل القبض، فلا تتناولها الآية[٢].

الترجيح:

بعد عرض آراء الفقهاء في هذه المسألة، وأدلتهم ومناقشة ما استدل به أصحاب الرأي الثاني، أرى - والله أعلم - أن الراجح هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول من جواز الرجوع في الهبة قبل القبض، وذلك حتى يعطي الواهب فرصة للاطمئنان ومراجعة النفس قبل إقباض الهبة، حتى إذا قام بتسليمها إلى الموهوب له، كان ذلك دليلاً على حرصه على إتمامها.

ثانياً: حكم الرجوع في الهبة بعد القبض: أما حكم الرجوع في الهبة بعد قبضها فقد اختلف الفقهاء فيه على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من المالكية[٣]، والشافعية[٤]، والحنابلة[٥]، والظاهرية[٦]، ويرون عدم جواز الرجوع في الهبة بعد قبضها، باستثناء الوالد فيما وهبه لولده.

واستدلوا: على عدم الجواز بحديث الباب.

كما استدلوا على استثناء هبة الوالد لولده بما روي عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل للرجل أن يعطي عطية ثم يرجع

---

(١) المحلى، ابن حزم ٩/١٢٠-١٢١.

(٢) الحاوي الكبير للماوردي ٧/٥٣٦.

(٣) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٥/١١٣، الاستذكار لابن عبدالبر ٢٢/٣١٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٦٤.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٧/١٤٥.

(٦) أخرجه أحمد ١/٢٣٧ رقم ٢١١٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤/٢٦.

فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب أكل حتى إذا شبع قاء، ثم عاد في قيئه".

كما أن الأب لا يهتم في رجوعه، لأنه لا يرجع إلا لضرورة، أو إصلاح حال الولد كما أن الولد وماله لأبيه، ومن ثم فإن رجوع الأب لا يسمى رجوعاً في الحقيقة، وإن كان رجوعاً في الظاهر[1].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[2]، ويرون جواز الرجوع في الهبة بشرط عدم وجود مانع.

الترجيح:

والراجح هو عدم جواز الرجوع في الهبة بعد القبض باستثناء الوالد فيما وهب لولده، وذلك للنصوص الدالة على وجوب الوفاء بالعقود، والشروط، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[3] وقوله ﷺ ((المُسْلِمُونَ عندَ شُرُوطِهِمْ، إلاَّ شرطاً حَرَّمَ حلالاً أَوْ شرطاً أَحَلَّ حراماً))[4]، ولاشك أن وجوب الوفاء يتنافى مع جواز الرجوع.

المضامين الدعوية[5]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على العطية والهبة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الرجوع في الهبة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦٤/٦، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٣٤٦/٢.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٢٧/٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ١.

(٤) أخرجه الترمذي ١٣٥ من حديث عمرو بن عوف وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن حبان ٥٠٩١، يتقوى به، وانظر: مسند أحمد ٨٧٨٤/١٤.

(٥) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦١٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٥).

رابعاً: من أساليب الدعوة: النهي.

خامساً: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل وخفي عليه.

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على العطية والهبة

هذا ما يستفاد من سياق الحديث، والهبة لغة: (إعطاء الشيء إلى الغير بلا عوض سواء كان مالاً أو غير مال، فيقال: وهب له مالاً وهباً وهبة، كما يقال: وهب الله فلاناً ولداً صالحاً)[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي﴾[٢]، واصطلاحاً: (تمليك المال بلا عوض في الحال، والهبة مشروعة في الكتاب والسنة والإجماع.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾[٣] ومن السنة قوله ﷺ: ((تهادوا تحابوا))[٤] والهدية هي الهبة، وقوله ﷺ: ((لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة))[٥] والفرسن الظلف، وقبول النبي ﷺ هدية المقوقس وهو كافر، كما قبل هدية النجاشي وهو مسلم وتصرف بها وهداه أيضاً، أما الإجماع فقد انعقد على جوازها ومشروعيتها، بل على استحبابها بجميع أنواعها، لما فيها من التعاون على البر والتقوى وإشاعة الحب والتواد بين الناس)[٦]. وهذا ما أظهره صفوان بن أمية رضي الله عنه في قوله: ((وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))[٧]، (فما أعظم التحول الذي أوجده تعالى بسبب الإعطاء في قلب صفوان رضي الله عنه ومما لاشك فيه أن الداعي إذا أعطى صار أحب الناس إلى المدعو فإن كلامه يُسمع، وأمره ينفَّذ، ونهيه يُحترم)[٨].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ٨٤٢.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٥-٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ومصادرها، ٤٢/١٢١-١٢٢.

(٧) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

(٨) ركائز الدعوة إلى الله، د. فصل إلهي، ٢٣٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الرجوع في الهبة:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه" وقوله "فإن العائد في صدقته كالعائد في قيئه"، وقد حث النبي ﷺ على عدم الرجوع في الهبة فقال: ((ليسَ لنا مَثَل السَّوْء، الذي يَعودُ في هِبَتِه كالكلب يَرجِع في قَيئهِ))[١]. قال ابن حجر في قوله ﷺ: ("ليس لنا مثل السوء" أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ﴾[٢] ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك مما لو قال مثلاً: لا تعودوا في الهبة)[٣]، وقال ابن عثيمين: (لا يحل لك أن ترجع فيما أعطيت من هبة، سواء كان قليلاً أم كثيراً، لأن النبي ﷺ شبه العائد في هبته بالكلب، الذي يقيء ما في بطنه ثم يعود فيأكله، وهذا تشبيه قبيح، شبه النبي ﷺ العائد في هبته بهذا تقبيحاً له وتنفيراً منه)[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل:

هذا ما ورد في الحديث من تشبيهه ﷺ لمن يرجع في هبته بالكلب الذي يقيء ثم يعود في قيئه فيأكله (فالتشبيه والتمثيل من الأساليب الدعوية المهمة في تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية، فضلاً عن تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم، فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما أدركت عياناً)[٥]، وقد أكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى:

---

(١) هذه رواية عند البخاري ٢٦٢٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٦٠.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/٢٧٨.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٦٩٥.

(٥) انظر: التربية على منهاج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ٣٣١-٣٣٥.

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١) وقال جل ذكره: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٢) وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾(٣).

رابعاً- من أساليب الدعوة: النهي:

قد ورد النهي كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه "لا تشتره، ولا تعد في صدقتك" والنهي من الأساليب الدعوية المهمة في إرشاد المدعو وحمله على اجتناب ما نهى عنه الشارع، لما في الاجتناب من خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

حيث أفاد النهي في نص الحديث عدم الرجوع في الهبة، لأن ببذلها يكون إشاعة الحب والتواد وحصول الألفة بين الناس، وفي الرجوع عنها شحٌّ فيما كان من حسن الصلات وجميل الفعال.

خامساً- من آداب المدعو: السؤال عما أشكل وخفي عليه:

هذا ما ورد في الحديث من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك؟ أي: عن شراء ما تصدق به ممَّن تُصُدِّق عليه، فعلى المدعو أن يسأل عن كل ما أشكل وخفي عليه من أمر دينه ودنياه، حتى يكون على بينة من ذلك، فيعبد الله على علم وبصيرة، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤) قال السعدي: (فهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعليم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم،

(١) سورة النور، آية: ٣٥.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

والإجابة عما علموا، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك)[1]، فعلى المدعو أن يمتثل لأمر الله تعالى في السؤال عما أُشكل وخفي عليه مقتدياً في ذلك بقوله ﷺ ((فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وقال الألباني حديث حسن (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

الحديث رقم (١٦١٥)

١٦١٥ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِندَهُ، فَأَرَدْتُ أن أشْتَرِيَهُ، وَظَنَنْتُ أنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: ((**لاَ تَشْتَرِهِ وَلاَ تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وإنْ أعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ؛ فَإنَّ العَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالعَائِدِ فِي قَيْئِهِ**)) متفق عَلَيْهِ[1]. قوله: "حملت على فرس في سبيل الله" معناه: تصدقت به على بعض المجاهدين.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث تطبيق عملي واقعي للقاعدة التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: وهي عدم الرجوع في الصدقة أو الهبة، والحديث يرويه الفاروق عمر رضي الله عنه، ويحكي مشهداً واقعياً حدث له، وحواراً دار بينه وبين رسول الله حول هذا الحكم: وهو عدم الرجوع في الصدقة.

وفي الحديث الشريف: لفظان يحتاجان إلى تأمل الدلالة فيهما: حيث عدل بهما عن معناهما المألوف إلى معنى جديد مرتبط بالسياق فقوله: "حملت على فرس في سبيل الله" لا يراد به أن عمر هو الذي جاهد في في سبيل الله، ولكن المراد هنا أنه تصدق به على المجاهدين: أي أعطى رجلاً فرساً ليجاهد الكفار عليه، وقيل إن هذا الفرس: اسمه الورد، وكان لتميم الداري: فأهداه للنبي صلى الله عليه وسلم: فأعطاه النبي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقوله: "فأضاعه الذي كان عنده" يتجاوز الدلالة المألوفة ويعدل عنها، وذلك ما يسميه النقاد الأسلوبيون، الانزياح أو العدول أو الانحراف عن النمط المألوف في التعبير، والمراد

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٠) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٠/١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٧).

هنا ليس ضياع الفرس بمعنى فقدانه، ولكن المراد أنه: لم يكرمه بالإطعام والعناية فهزل وضعف.

ومن الظواهر الأسلوبية في الحديث: العطف بالفاء في رصد تتابع الأفعال، ووقائع هذا الحدث لنقل سرعة الحركة والحرص على معرفة الحكم الصحيح في هذه القضية: ولنتأمل سرعة الحركة ووثبات الإيقاع التي تكون قصة محكمة بالغة الدقة والإيجاز على هذا النسق التعبيري البليغ "حملت على فرس، فأضاعه الذي كان عنده، فأردت أن أشتريه، فسألت النبي: فقال لا تشتره".

وتكرار النهي في إجابة رسول الله ﷺ حيث يقول: "لا تشتره ولا تعد في صدقتك": يؤكد صرامة الحكم، وترسيخ هذه القاعدة الشرعية الاجتماعية التي تحفظ للمسلم كرامته وهيبته، وتصون سيرته وحرمته.

ومن بلاغة الحديث: الإيجاز حيث حذف جواب الشرط في قوله: "وإن إعطاكه بدرهم"، والتقدير بعد ذلك: فلا تشتره، ولا تعد في صدقتك، لأن الجواب المحذوف فُسِّر بما قبله.

والتأكيد في تعليل الحكم، وكذلك التشبيه المنفر، من بلاغة الحديث، ومن مظاهر الترهيب من ذلك السلوك الشائن، وصورة الإنسان الذي يأكل القيء من أكثر الصور غرابة وتنفيراً، وأقبح منها صورة الكلب الذي يعود في قيئه فيأكله، كما جاء في الحديث السابق، وهذا الحوار الصريح بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يعد أنموذجاً لكل مسلم يحرص على التعلم، ومعرفة الأحكام الصحيحة من مصدرها الصحيح، ومن أهل الاختصاص: استجابة لقول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على دعم الأواصر الاجتماعية:

إن من مرذول الأخلاق اللئيمة، والتي يجب على أهل التربية والتوجيه نزعها من نفوس المتربين، دناءة الخلق والرجوع في الهبة أو الصدقة. لما لهذا الخلق المستقذر من تمزيق وتقطيع للأواصر الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد.

فالأواصر الاجتماعية لا تنمو وتنبت في مجتمع ساد فيه لؤم الطبع ودناءته، بل تقوي في مجتمع كان سمح النفس طيب المقصد، والعائد في هبته قد دلَّ بسوء فعله على أن قلبه قد تعلق بما أخرج من هبة أو صدقة، فهو لم يعط لله، بل أعطى لهوى في نفسه، ولمصلحة مشروطة بنتيجة إن تحققت أمضى هبته وصدقته وإن لم تتحقق عاد في هبته وصدقته، وقد رسم في ذلك صورة نفعية، لا تقيم لميزان الأخلاق وزنًا، ولا تدعم لوشائج المجتمع الإسلامي رابطه.

لذا ربى المعلم الأول ﷺ أمته أفرادًا وجماعات على عدم الرجوع في الهبة أو الصدقة، بعد أن ضرب في ذلك أبشع الأمثلة في الخسة والاستقذار، وذلك بقوله ﷺ: « الذي يَعودُ في هِبَتِه كالكلب يَرجِع في قَيئِهِ»، وقوله: «مثل الذي يرجع في صدقته...إلخ»، وقوله: «....فإن العائد في صدقته...إلخ».

ثانيًا: التربية بالتنفير:

إن الإسلام كمنهج تربوي يُنفِّر المتربين والمتعلمين، أن يعود أحدهم في هِبَة وَهَبَها، أو صدقة تصدق بها، سواء سلمها أم لم يسلمها، لما في ذلك من خرق لأواصر المجتمع، ورجوع عن الكلمة والعهد، وقد صورت أحاديث الباب هذا الأسلوب التربوي، حال من يعود في هبته، بصورة تنفُر منها النفوس الكريمة، ولا ترضى أن تقف هذا الموقف أبدًا[1].

وذلك في قوله ﷺ: «.... كالكلب يَرجِع في قَيئِهِ».

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨ بتصرف.

ومن هنا كانت التربية بالتنفير من أبرز الأساليب التربوية في إبعاد نفس المتربي عن كل مشين في الأخلاق وسيئ في الأعمال.

ثالثًا: التربية بضرب المثل والتشبيه:

لقد استعمل النبي ﷺ المثل والتشبيه -في أحاديث الباب- وسيلة من وسائل التربية، حيث مثّل وشبّه العائد في هبته بالكلب الذي يرجع في قيئه، وبذلك يوقظ ﷺ النفوس على بشاعة وخسة هذا الفعل، فتُقلع الأنفس عن هذا الخلق اللئيم[1]، وتتم بذلك التربية الأخلاقية والاجتماعية على نحو صحيح مثمر في بناء المجتمع على أواصر الحب والود.

رابعًا: من الأساليب التربوية السؤال والاستفهام:

إن المتعلم والمتربي العاقل هو الذي لا يتردد في السؤال والسكوت على الجهل حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه، سواء في القريب العاجل أو البعيد الآجل[2].

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثالاً فذًا وقدوة طيبة لجيل المتربين والمتعلمين في السؤال والاستفهام، وهذا ما أكده حديث الباب من سؤاله رضي الله عنه لإمام المربين وسيد المرسلين محمد ﷺ، في قوله: "....فسألت النبي ﷺ فالسؤال والاستفهام من الأساليب التي لا يستغنى عنها المتربي الذي منحه الله القدرة على النطق والتفكير. فهو في حياته اليومية يجد نفسه في حوار أو سؤال.... لذا يكون في بحث دائم عن إجابات لما يجهل، فكان السؤال والاستفهام هو محض تربيته، خاصة إذا كان المسئول من أهل الخبرة والاختصاص.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3][4].



---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٤٢٢ بتصرف.

(٢) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٣، سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٤) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٣ باختصار.

٢٨٦- باب تأكيد تحريم مال اليتيم

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ إنَّ الّذِينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنَّمَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[النساء: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾[الأنعام: ١٥٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَسْألُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإخْوَانُكُمْ واللّهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾[البقرة: ٢٢٠].

الحديث رقم (١٦١٦)

١٦١٦- وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**)) قالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: ((**الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبَا، وأكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ**)) متفق عَلَيْهِ[1]. "الموبقات": المهلكات.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الموبقات: المهلكات[2].

التولي يوم الزحف: الفرار من الجهاد ولقاء العدو في الحرب، والزّحف: الجيش يزحفون إلى العدو أي يمشون[3].

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات: المحصنات أي العفائف والغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قذفن به[4]، وقذفهن: رَمْيُهُنَّ واتهامهنَّ بالزنا[5].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٧٦٦)، ومسلم (١٤٥/٨٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٨٦).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٥٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ح ف).

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٠.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ذ ف).

الشرح الأدبي

ما أجمل هذه الصورة التي يقدمها رسول الله ﷺ للمجتمع المسلم الذي يخلو من هذه الموبقات المهلكات، وما أجمل النفس الإنسانية التي تسمو بصاحبها حين يستجيب لأمر المصطفى ﷺ ويجتنب هذه الموبقات التي تهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الحياة، وتقوده إلى جهنم وبئس المصير.

ولغة الحديث الشريف تفصح عن مقاصده، وأداؤه الأسلوبي يتسم بالإيجاز والإحكام ودقة الإفهام، ولذلك يبدأ الحديث بفعل الأمر لمن حضر مجلسه من الصحابة، وكذلك لكل المسلمين في كل زمان وفي كل مكان: حيث يقول: "اجتنبوا السبع الموبقات"، وقيل: قد أبهمها الرسول ﷺ ووصفها بما يشوق إلى معرفتها ليحذرها المسلم، ولذلك سأل الصحابة: "ما هن"، والموبقات، معناها: المهلكات: وهي جمع موبقة من أوبق أي أهلك، وسميت بذلك لأنها سبب في هلاك مرتكبيها.

ونلاحظ أن السبع الموبقات وردت كلها في صيغة "المصدر" وفي ذلك إيحاء بأن هذه السبع مصدر كل هلاك، وكل فساد، والشرك بالله جاء في صدارة هذه المهلكات، لأنه مصدر كل فساد، وأسٌّ كل رذيلة، وليس بعد الكفر ذنب، ويليه السحر وهو لغة: صرف الشيء عن وجهه، وكل ما لطف ودق مأخذه فهو سحر، ومنه سحر البيان: وهو السحر الحلال، وقيل إن السحر تخييل فقط ولا حقيقة له والصحيح أن له حقيقة وتأثيراً على المسحور، وتعلم السحر وتعليمه من الكبائر، وبلاغة البيان النبوي تكمن في أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال كلمة واحدة، وهي: "السحر" ولكنها تشمل دلالات وتفسيرات متعددة كثيرة، والإيجاز البليغ يكمن في قوله: "وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق"، فالمراد من القتل : إزهاق الروح وحصول الموت بأي وسيلة كانت، وحذف مفعول حرم، وهو "قتلها" لبشاعة الفعل، لأن القتل شديد وذكره يؤلم النفس المؤمنة، والباء للملابسة في قوله: "إلا بالحق"، والاستثناء من عموم الأحوال، وقوله "أكل الربا": المراد منه التعامل بالربا: وهو الزيادة غير الشرعية في القروض، وسمي أكلاً لتأكيد أن الكسب عن طريق الربا يقود إلى الأكل الحرام، وآكل الربا

لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وكذلك: "أكل مال اليتيم"، المراد منه: أخذ مال اليتيم والاستيلاء عليه: فكأنه ألقاه في جوفه، وهو مثل النار، في البطون، وقوله "قذف المحصنات الغافلات": ينطوي على تصوير بليغ، وبيان قوي التأثير، فأصل القذف الرمي البعيد بالسِّهام وغيرها من آلات القتال ووسائله القديمة والحديثة، واستعير ذلك للشتم والعيب والبهتان على سبيل الاستعارة التصريحية، وفي هذه الصورة تنفير من هذا السلوك القبيح وهو من السبع المهلكات، ولفظ "المحصنات" يوحي بالمنعة والحفظ، وكأنهن في حصون منيعة من العفاف والطهر.

والغافلات: كناية عن البريئات: لأن البريء غافل عما بهت به[1]، وهو لا يفطن لذلك ولا يتوقعه، ولكن الله يحفظه، وعلى المؤمن اجتناب هذه السبع، حتى لا يكون مصيره الهلاك، وبئس المصير.

فقه الحديث

١- معنى الموبقات: المهلكات: وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبيها. والمراد بالموبقة هنا: الكبيرة.

وقد ضبط بعض العلماء الكبيرة بأنها: كل ذنب قرن به وعيد، أو لعن.

وقال ابن الصلاح: لها أمارات منها: إيجاب الحد، ومنها: الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب والسنة، ومنها وصف صاحبها بالفسق، ومنها: اللعن.

وقال الحسن البصري: كل ذنب نسبه الله تعالى إلى النار فهو كبيرة. وقيل غير ذلك[2].

٢- والشرك بالله تعالى أعظم الموبقات، وأكبر الكبائر، فقد وصفه الله تعالى بالظلم العظيم قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] ويكفي للتدليل على خطره أن الله لا

(١) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٤١١/١٠، ١٨٢/١٢، شرح صحيح مسلم، النووي ٨٦/٢.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٣.

يغفره، ويغفر ما دونه لمن يشاء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم	لا تجزعن فما في ذاك من باسِ
إلا اثنتان فلا تقربهما أبداً	الشرك بالله والإضرار بالناس[2]

٣-والسحر حرام من الكبائر فعله، وتعلمه، وتعليمه، وقال بعض الشافعية: إن تعلمه ليس حراماً، بل يجوز ليعرف ويرد على صاحبه، ويميز عن كرامات الأولياء وقد حملوا الحديث على فعل السحر[3].

٤-وقتل الآدمي عمداً بغير حق من أكبر الكبائر بعد الكفر، فقد سئل النبي ﷺ قال: ((أَيُّ الذنبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قَالَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مِنْكَ))[4].

٥- والربا محرم بنص الحديث، وبالقرآن الكريم، وبالإجماع فمن القرآن الكريم قوله الله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[5]، وقد أجمعت الأمة على تحريمه[6].

٦- وأكل مال اليتيم من الكبائر للحديث، والنصوص الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[8].

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٦.

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤١٢/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٨٨/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٤٤٧٧، ومسلم ٨٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٦) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥/٤.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١٥٢، وأيضاً: سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٨) سورة النساء، آية: ١٠.

٧- والتولي يوم الزحف من الكبائر، والمراد به الفرار من العدو في المعركة، وذلك لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾(١).

وشرط حرمة الفرار ألا يزيد عدد الكفار عن مثلي عدد المسلمين، لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾(٢).

وألا يكونوا متحرفين لقتال، أو متحيزين إلى فئة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٣).

ومعنى التحرف لقتال: أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن.

ومعنى التحيز إلى فئة: أن يصير إلى قوم من المسلمين فيكون معهم، فيقوى بهم(٤).

٨- وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات: وهو الرمي بالزنا، وهو من الكبائر(٥)، للحديث، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٦). وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١٥.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١٦.

(٤) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٢١٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ١٧٨/٢-١٧٩، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٩٨/٤، والأم للإمام الشافعي ١٦٩/٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥٤/٩، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣١/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٣/٤.

(٥) منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ٣٣٠/٢، والكافي في فقه الإمام أحمد ٢٧١/٤.

(٦) سورة النور، آية: ٢٣.

(٧) سورة النور، آية: ٤.

والمراد بالمحصنات في الحديث: العفيفات، وقد وردت في القرآن الكريم بأربعة معان أحدها هذا[١].

والثاني: بمعنى الزوجات، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٢].

والثالث: بمعنى حرائر، كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٣].

والرابع: بمعنى الإسلام، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾[٤])[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والسؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب السبع الموبقات.

ثالثاً: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والسؤال والجواب:

قد ورد الأمر في الحديث من قوله ﷺ "اجتنبوا" والأمر من الأساليب الدعوية المهمة التي يستعين بها الداعية في إرشاد المدعو وحمله على فعل الأمر المدعو إليه، لما في ذلك من خير وصلاح له في الدنيا والآخرة، أما السؤال والجواب كأسلوب من أساليب الدعوة، فقد ورد في الحديث من قول الراوي: قالوا: يا رسول الله وما هن قال: "الشرك

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٦/٩، والمهذب للشيرازي ٢٧٢/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣١٦/٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٢٥.

(٥) لكن جاء في تفسير القرطبي ٢٣٦/٦-٢٣٧، عند قوله تعالى: "فإذا أحصن" قراءة عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة. الباقون نصها. فبالفتح معناه: أسلمن، وبالضم زوجن.

بالله... إلخ" (وقد كان السؤال والجواب من أبرز أساليبه ﷺ في التعليم، وذلك لإثارة انتباه السامعين، وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضّهم على إعمال الفكر للجواب؛ ليكون جواب النبي ﷺ - إذا لم يستطيعوا الإجابة- أقرب إلى الفهم وأوقع في النفس)[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب السبع الموبقات:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات! قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال "الشرك بالله... إلخ".

قال ابن حجر في قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات": (أي المهلكات، قال المهلب: سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها. قلت: والمراد بالموبقة هنا الكبيرة...، ومن أحسن التعاريف التي قيلت في الكبيرة قول القرطبي في المفهم "كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد النكير عليه فهو كبيرة" وعلى هذا فينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق من القرآن أو الأحاديث الصحيحية والحسنة، ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة)[٢]، وهذا ما نص عليه سياق الحديث في ذكر "السبع الموبقات". وذلك في قوله ﷺ "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"، (وقد كان الشرك بالله من أعظم هذه الموبقات، لأن الله عز وجل أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٤]، فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود،

---

(١) الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، عبدالفتاح أبو غده ص ٩٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/١٨٩، ١٩١.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٤) سورة الحجر، آية: ٨٥.

كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرَّم الله الجنة على كل مشرك ...، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين، حيث جعل له من خلقه نداً، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه)[1]، أما السحر (فهو أعمال شيطانية محرمة تخل بالعقيدة أو تناقضها، لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية، ولهذا قرنه الشارع بالشرك)[2]، وقد ورد حديث السبع الموبقات برواية أخرى اقتصر فيها النبي ﷺ على ذكر الشرك والسحر من الموبقات فقال ﷺ ((اجْتَنِبُوا الْمُوبِقَاتِ: الشِّرْكُ، وَالسِّحْرُ))[3] قال ابن حجر: (قال ابن مالك: ... واقتصر في هذا الحديث على ثنتين منها -أي الموبقات- تنبيهاً على أنهما أحق بالاجتناب)[4] (فالسحر من تعليم الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[5] وفيه دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في ذلك، وهذا كفر وضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[6] وإذا كان كذلك فلا شك أنه كفر وشرك؛ يناقض العقيدة)[7] فمن أجل ذلك كان من الموبقات التي قرنت بالشرك، وقد ورد في الحديث ذكر "قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق" من الموبقات، (وقد جعل الله سبحانه جزاءَ قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار، وغضب الجبار، ولعنته وإعدد العذاب العظيم له)[8] فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

---

(١) الداء والدواء، ابن القيم، ١٩٦-١٩٧.

(٢) عقيدة التوحيد، صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري، ٥٧٦٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٣/١٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٧) عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص ١٠٠-١٠١.

(٨) الداء والدواء، ابن القيم، ٢٢٢.

مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1]، وقد رهب النبي ﷺ من ذلك فقال: ((لن يَزالَ المؤمنُ في فُسحةٍ من دينه ما لم يُصِبْ دَماً حَراماً))[2] قال ابن حجر في قوله ﷺ ("فسحة" أي سعة، وقوله ﷺ "من دينه" كذا للأكثر بكسر المهملة من الدين وفي رواية الكشمهيني "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه، ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمداً بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه، ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور. وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل)[3]، وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ((إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرَجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه))[4]، (وذلك من أجل أن قتل النفس يتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله وحق المقتول وحق للولي، فضلاً عن أنه من أقبح الظلم وأشده، وقد كان الظلم من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه)[5] أما الربا (فجريمة اجتماعية لاستغلال الأغنياء حاجة الناس وضروراتهم...، والله يريد الإحسان ومواساة المحتاجين بالتعامل الشريف)[6] (وقد وصف الله المرابي بأنه كفار أثيم، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[7])[8].

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٨٦٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٥/١٢.

(٤) أخرجه البخاري، ٦٨٦٣.

(٥) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ٢٢١-٢٢٣.

(٦) فقه المعاملات، صالح الفوزان ص ٩٤.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٨) الملخص الفقهي، صالح الفوزان، ٢٦/٢.

قال ابن كثير: (أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل)[١]، فاستحق أن يكون فعله من الموبقات، وقد ورد أيضاً في الحديث اجتناب أكل مال اليتيم باعتبار أن ذلك كبيرة موبقة، وقد توعد الحق تبارك وتعالى أشد الوعيد في ذلك قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٢] قال ابن كثير: (أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة)[٣]، ثم أعقب ﷺ في الحديث ذكر التولي يوم الزحف باعتباره كبيرة موبقة، لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة، ذكرها ابن عثيمين قائلاً: (التولي عن صف القتال يوم الزحف...، من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن مفسدتين: المفسدة الأولى كسر قلوب المسلمين، والمفسدة الثانية: تقوية الكفار على المسلمين، إذا انهزم بعضهم لاشك أنهم سوف يزدادون قوة على المسلمين، يكون لهم بسبب ذلك نشاط)[٤]، (وقد توعد الحق تبارك وتعالى على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك)[٥] قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦] قال ابن عثيمين: (وقد استثنى الحق تبارك وتعالى من ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧١٥-٧١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٢٢٢.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٧٠١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٢٧.

(٦) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥-١٦.

أمرين: فمن تولى لهذين الأمرين، متحيزاً إلى فئة، يعني: بأن يقال إن الفئة الفلانية قدحصرها العدو، وخطر عليها أن يكتسحها العدو، فانصرف لإنقاذهم فهذا لا بأس به، لأنه انتقل إلى ما هو أنفع. والثاني: المتحرف لقتال وهو المذكور أولاً في الآية "إلا متحرفاً لقتال" يعني مثلاً انصرف لإصلاح سلاحه أو ارتداء دروعه أو ما أشبه ذلك من مصلحة القتال فهذا لا بأس به)[١].

وكان من آخر الموبقات التي ذكرت في الحديث والتي أمر النبي ﷺ باجتنابها لعظم جرمها "قذف المحصنات المؤمنات الغافلات"، (وقد قام الإسلام على حفظ مصالح ضرورية، هي حفظ الدين والنفس والعرض والمال والعقل...، والمتأمل للنصوص الشرعية يجد أنها أولت ضرورة العرض اهتماماً خاصاً، حيث قُرن بين هذه الضرورة وضرورة الدم والمال في عدد من النصوص منها قوله ﷺ: ((فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، بينكم حرام))[٢] ومن هذا المنطلق جاءت الشريعة بتقرير حد القذف حفاظاً على ضرورة العرض)[٣]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٤] ثم أورد الحق تبارك وتعالى وعيداً شديداً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٥] قال النووي: ("والمراد بالمحصنات" هنا العفائف، وبالغافلات الغافلات عن الفواحش وما قذفن به)[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٠١/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية في المحافظة على ضرورة العرض ووسائلها من خلال محاربة الشائعات، د. سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري ص ٧-٨.

(٤) سورة النور، الآيتان: ٤، ٥.

(٥) سورة النور، آية: ٢٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٠.

قال ابن حجر: (وتضمنت الآية الأولى بيان حد القذف، والثانية بيان كونه من الكبائر، بناء على أن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد، فهو كبيرة وهو المعتمد...، وقد انعقد الإجماع على أن حكم قذف المحصن من الرجال حكم قذف المحصنة من النساء)[1].

ثالثاً- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها:

هذا ما ورد في الحديث من حرصه ﷺ على بيان الأمور المهلكة وأمره باجتنابها وذلك في قوله ﷺ "اجتنبوا الموبقات السبع... إلخ" وقد أفرد الإمام مسلم باباً في شفقته ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ. فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ. فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ))[2].

قال النووي: (في قوله ﷺ "لأني أنا النذير العريان" قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة، نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم، ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قالوا: وإنما يفعل ذلك؛ لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو...، وقوله ﷺ "فالنجاء" أي انجوا النجاء أو اطلبوا النجاء)[3].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حرصه على بيان وإيضاح الأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٢/١٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤١٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتحذير:

ورد التحذير كأسلوب تربوي وتوجيهي على لسان النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، ....إلخ».

والتربية بالتحذير تعني التحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحذر من مغبة الوقوع في المحذور، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1][2].

والتحذير كأسلوب تربوي له شأو بعيد في إيقاف النفس عند غيها، خوفًا من مغبة وسوء عاقبة ما حذر منه؛ لذا كان لهذا الأسلوب أبلغ الأثر في تقويم الأنفس عند اعوجاجها، فضلاً عن حمايتها بسياج من الخوف يمنع من اقترابها من المحظور.

ثانيًا- التربية على اجتناب الكبائر:

على أهل التربية والتوجيه بذل كامل الوسع وإفراغ عظيم الجهد في استنقاذ المتربين والمتعلمين - بدافع الرحمة بهم - مما يهلكهم، مقتدين في ذلك بإمام الرحمة الأول، محمد ﷺ، حيث تراءى من نص الحديث اجتهاده ﷺ في تجنيب أمته الهلكة والعذاب من أمور سماها وحددها بعينها، وذلك في قوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، ... الشِّرْكُ بِاللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ، ...إلخ».

وحتى يُفرغ المربي عظيم الجهد، وكامل الوسع في استنقاذ المتربين مما يهلكهم، كان عليه أن يسأل نفسه، هل يحب أن يرى ولده أو والديه أو زوجه..، أمام عينيه

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٤٩.

يعذبون بنار تُقطّع أجسادهم وتلتهمُ وجوههم ومحاسنهم حتى تهلكهم!!!، هل كان يقف أمام هذا المشهد - الذي يدمي قلبه - مكتوف الأيدي !!! هل كان يُقصِّر في استنقاذهم!!!، بالتأكيد لا... لا...، بل كان سيسارعُ إلى أن يضحي بنفسه من أجل ألا يمسهم في ذلك نصب ولا تعب.

فإن كان ذلك حاله في الدنيا، فعليه أن يجتهد في استنقاذهم من العذاب الأليم في الآخرة.

ومن هذا المنطلق وجب على القائمين على التربية والتوجيه التحذير من الوقوع في الكبائر.

ثالثًا: التربية بالسؤال والاستفهام:

لأهمية التربية بالسؤال والاستفهام حرص الصحابة ﭬ على السؤال عما يخفى عليهم من أمور دينهم، وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قول الراوي ﭬ: «قالوا: يارسول الله، وما هن؟، قال: ......إلخ».

فعلى المتربي والمتعلم أن يعلما أن كل إنسان في هذه الحياة له طاقات معينة وبالتالي فإن معارفه محدودة، ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة؛ لذا وجب على المتربين تربية أنفسهم على السؤال والاستفهام عما جهلوا، خاصة إن كان المسئول من أهل الخبرة والاختصاص. قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1][2].



---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣، سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٣ باختصار.

٢٨٧- باب تغليظ تحريم الربا

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ - إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾[البقرة: ٢٧٥- ٢٧٨].

وأما الأحاديث فكثيرة في الصحيح مشهورة، مِنْهَا حديث أَبي هريرة السابق في الباب قبله[١].

الحديث رقم (١٦١٧)

١٦١٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ. رواهُ مسلم[٢]، زاد الترمذيُّ[٣] وغيره: وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

مُوكِلُه: معطيه لمن يأخذه وإن لم يأكل منه[٤].

---

(١) برقم (١٦١٤).

(٢) برقم (١٥٩٧/١٠٥) وزاد: قال: (شباك راوي الحديث): قلتُ: وكاتبه وشاهديه؟ قال: إنما نحدِّثُ بما سمعنا). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٥٢).

(٣) برقم (١٢٠٦) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. قلتُ: ثبتت هذه الزيادة عند مسلم من حديث جابر برقم (١٥٩٨/١٠٦) ولفظه: (وكاتبه وشاهديه، وهم سواء).

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٦٨/٢٢، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٢١٤/١.

الشرح الأدبي

إن الربا من السبع الموبقات التي أمر رسول الله ﷺ باجتنابها: لأنه تنمية لرأس المال بغير عمل مفيد، ولا إنجاز رشيد، وهو تعطيل لمدارك الإنسان، وإفساد لملكات الابتكار عنده، لأن آكل الربا لا يشارك في بناء المجتمع عن طريق إحياء موات الأرض، أو إقامة المصانع، أو تبني المشروعات العلمية، وإنما يعتمد على تكاثر الأموال تكاثراً غير طبيعي، حيث تتوالد وتتكاثر، ولا ينتفع أحد من زيادتها إلا "المرابي"، والمقترضون والمحتاجون يزدادون حاجة، وفقراً، والمرابي يزداد غنى وجحوداً وبطراً، والربا في اللغة: الزيادة، وشرعاً عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما كما قال الفقهاء، والبلاغة النبوية تكمن في التعبير عن المتعامل بالربا: بأنه: آكل الربا، فالمراد تعاطي المال الربوي بأي وجه سواء كان أكلاً أو غيره: وهو من الكبائر، التي شدد الإسلام في الزجر عنها، والحديث فيه تعميم العقوبة، وهي اللعن والطرد من رحمة الله، فكل من يشارك في إشاعة التعامل بالربا ملعون مطرود من رحمة ربه، وبعيد عن عفوه إلا إذا تاب وأرجع الحقوق إلى أصحابها، وشارك بجهده وفكره وماله وعرقه في تنمية ثروة بلاد الإسلام والمسلمين، ولذلك يستحق اللعن: آكل الربا، وهو الآخذ أو المعطي، وموكله: أي مطعمه لغيره، ولا ينجو الشاهدان على عقد الربا، وصفقة المترابين من هذا اللعن والطرد من رحمة الله، وكذلك كاتب العقد لأنه شارك في تنفيذ هذه الكبيرة وإشاعتها، ونشرها بين الناس. وقال العلماء: في ذلك تغليظ شديد: لأنه إذا لُعن الكاتب والشاهدان مع أنهما لا يصيبهما منه شيء: فَلأنْ يُلعن المباشر له من آخذ أو معط بالأولى.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- فيه دليل على حرمة الربا، إذ تضافرت أدلة الشرع على تحريمه، كتاباً، وسنة وإجماعاً[1]:

---

(١) المبسوط، أبو بكر السرخسي ٢٨١١/١٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٨/٣، والمهذب للشيرازي ٢٧٠/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥/٤.

فمن القرآن الكريم: قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(١)].

ومن السنة: حديث الباب.

ومن الإجماع: فقد أجمعت الأمة على حرمته، وأما ما حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما من القول بإباحة ربا الفضل، فقد صح رجوعه عنه[(٢)].

ويكفي للتدليل على حرمة الربا أن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم لآكله خمساً من العقوبات[(٣)]:

الأولى: التخبط: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[(٤)].

الثانية: المحق: قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾[(٥)] والمراد: الهلاك، والاستئصال وقيل: ذهاب البركة، والاستمتاع، حتى لا ينتفع به هو ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب، قال تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٦)].

الرابعة: الكفر، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٧)] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[(٨)] أي: كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكله.

الخامسة: الخلود في النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[(٩)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٨/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥١٢/٣.

(٣) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١١٠/١٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٥) سورة البقرة،آية: ٢٧٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

(٨) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٩) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

٢- وفيه دليل على تحريم كتابة الربا، والشهادة عليه، بدليل لعن رسول الله ﷺ شاهد الربا وكاتبه.

ولعل السبب في تحريم كتابة الربا والشهادة عليه، أن فيهما إعانة للآكل على الربا، ومحل التحريم إذا علم كل منهما أنه يكتب الربا، أو يشهد عليه، أما إذا لم يعلما ذلك فلا حرمة عليهما، ولا يدخلان في الوعيد[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد لآكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه.

ثانياً: من واجبات الداعية: بيان الحكمة من شدة الوعيد في تحريم الربا.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد لآكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه:

هذا ما ورد في الحديث من قول ابن مسعود رضي الله عنه "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه" واللعن: (هو الطرد والإبعاد من رحمة الله)[2] وقد توعد الله المتعامل بالربا بأشد الوعيد: فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾[3]، قال ابن كثير: (أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً)[4]، كما توعد الله سبحانه الذي يعود إلى أكل الربا بعد معرفة تحريمه بأنه من أصحاب النار خالداً فيها، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[5]، كما أخبر الله سبحانه أنه يمحق بركة الربا، قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١١٠/٤، وفتح الباري، ابن حجر ٣١٤/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٣٠/٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٠٩/٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٠٩/١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

ٱلرِّبَوٰاْ﴾[١] أي: (يذهبه، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة...)[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾[٣]، وقد شمل هذا الوعيد كلاً من آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه، وآكل الربا (أي آخذه وإن لم يأكل، وإنما خص بالأكل لأنه أعظم أنواع الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[٤] وقوله "موكله" أي معطيه لمن يأخذه وإن لم يأكل، نظراً إلى أن الأكل هو الأغلب أو الأعظم)[٥] في قوله "وشاهديه وكاتبه" قال النووي: (هذا تصريح بتحريم كتابة المبايعة بين المترابين والشهادة عليها، وفيه تحريم الإعانة على الباطل)[٦].

ثانياً- من واجبات الداعية: بيان الحكمة من شدة الوعيد في تحريم الربا:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد شدد الحق تبارك وتعالى الوعيد في تحريم الربا (لما فيه من أكل أموال الناس بغير حق؛ لأن المرابي يأخذ منهم الربا من غير أن يستفيدوا شيئاً في مقابله، وأن فيه إضرارًا بالفقراء والمحتاجين بمضاعفة الديون عليهم عند عجزهم عن تسديدها، وأن فيه قطعاً للمعروف بن الناس، وسداً لباب القرض الحسن، وفتحاً لباب القرض بالفائدة التي تثقل كاهل الفقير، وفيه تعطيل للمكاسب والتجارات والحرف والصناعات، التي لا تنتظم مصالح العالم إلا بها، لأن المرابي إذا تحصل على زيادة ماله بواسطة الربا بدون تعب، فلن يلتمس طرقاً أخرى للكسب الشاق، والله تعالى جعل طريق تعامل الناس في معايشهم، قائماً على أن تكون استفادة

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧١٣/١.

(٣) سورة الأنفال، آية:

(٤) سورة النساء، آية: ١٠.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، ١٢١٤/١.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠١٣.

كل واحد من الآخر، في مقابل عمل يقوم به نحوه أوعين يدفعها إليه، والربا خال عن ذلك؛ لأنه عبارة عن إعطاء المال مضاعفاً من طرف الآخر بدون مقابلة من عين ولا عمل)[1]، (فهو جريمة اجتماعية لاستغلال الأغنياء حاجة الناس وضروراتهم)[2].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

(إن الحاجة إلى الترهيب ضرورة لازمة للدعاة والمحتسبين عند الأخذ بأيدي الناس إلى الخير، وإنقاذهم من التعرض للمعاصي المؤدية لسخط الله)[3].

وقد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قول ابن مسعود رضي الله عنه "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا... إلخ" (والترهيب هو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها...، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[4] وهذا ما ورد في الحديث من ترهيبه ﷺ من أكل الربا وقد أكد الحق تبارك وتعالى على ذلك فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[5] (وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار)[6].

---

(١) الملخص الفقهي، صالح بن فوزان، ٢/٢٧- ٢٨.

(٢) من فقه المعاملات، صالح بن فوزان، ٩٤.

(٣) الترهيب في الدعوة، د. زينب نياز، ٧٧.

(٤) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ١/٢٣٢.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧١٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالترهيب:

الترهيب أسلوب تربوي وقائي، وقد رهّب النبي ﷺ من الربا، إلى حد اللعن والتنفير، كما ورد في نص الحديث من قول الراوي ﷺ: «لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا...إلخ»، وما شده الترهيب في ذلك إلا لترهيب كل مسلم من آكل الربا والتعامل به، حتى يكون عيش الإنسان من الحلال وحتى يعيش المسلمون إخوة متضامنين، يعاون الغني منهم المحتاج، دون غرض، اللهم إلا رضوان الله عز وجل وابتغاء فضله ووجهه(١).

والترهيب كأسلوب تربوي تحتاجه النفس كلما شردت عن الجادة، فإذا أقيم عليها بحق، عادت إلى رشدها، وتركت غيها؛ لذا كان الترهيب من أجل الأساليب التي يجدر بدعاة التربية استخدامه إن اقتضته طبيعة الموقف التربوي.

ثانيًا- التربية على تحريم الربا:

في هذا الباب دعوة للقائمين على التربية والتوجيه أن يبينوا للناس حرمة التعامل بالربا، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في بيان تحريم الربا في قول الراوي: «لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا...إلخ»، لذا وجب على المتربي والمتعلم أن يعلما بأن التعامل بالربا له آثار اجتماعية واقتصادية وأخلاقية خطيرة، لأنه يعمل على قتل كل مشاعر الشفقة في الإنسان، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من أمواله، إذا كان في ذلك إضافة درهم إلى ألوفه.

فالمال في نظر الإسلام وديعة في يد صاحبه، وهو موظف لخير الجماعة، فليس له أن يتحين ساعة احتياجهم فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم(٢).

وبذلك تنهار أخلاق المجتمع بسبب انعدام التعاون بين أفراده ... مما يؤدي حتمًا إلى تفسخ المجتمع، وشيوع الأنانية، والأثرة فيه، بدل التضحية والمحبة والإيثار(٣).

والمتربي والمتعلم يجب أن يعلما أن الإسلام يرمي من تحريمه الربا إلى الحيلولة، دون

---

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨.

(٢) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٢٩.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٩٨٧.

المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح، ويسعى لتحقيق المساواة بين أفراد الأمة، فالمرابي بدلاً من أن يعمل عملاً مجديًا يصبح كالطفيلي يعيش من كد غيره[١].

فينهار بذلك اقتصاد المجتمع بسبب تلكؤ الدائن عن العمل، وإخلاده إلى الراحة والكسل.... طمعًا في ربح الفائدة، والإثقال على المدين بالالتزامات الربوية، ومن ثمَّ اعتبره الإسلام منكرًا اقتصاديًا، حيث يؤدي إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين متنازعتين: طبقة المستغلين، والمتحكمين برؤوس أموالهم. وطبقة الفقراء المستضعفين الذين أكلت جهودهم وأتعابهم من غير حق[٢].

أما السقط الإيماني، فهو متمثل في الجهر بمحاربة الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾[٣].

فآكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه، في حرب مع الله ورسوله لعصيانهم أوامرهما، وقبح فعلهم في ذلك دلل على سقط وضعف إيمانهم.

ومما لا شك فيه أن قيام دعاة التربية والتوجيه بغرس تحريم الربا في نفوس المتعلمين قد لا يكفي لتحقيق الثمرة المرجوة في ذلك، إلا إذا أوجدوا سبل القضاء على الربا في نفوس المتربين، طالبين منهم إقامتها قربة لربهم وطاعة لنبيهم.

وأهم هذه الوسائل التي يجب غرسها في نفوس المتربين والمتعلمين لمنع الربا، هي وسيلة القرض الحسن، وهو قرض بلا فائدة يرجى أجره من الله، وهو يساعد على تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الأمة الإسلامية.

ومن هذه الوسائل فتح مؤسسات للزكاة حيث تدفع هذه المؤسسات للمديون المحتاج، أو الفقير الذي لا يملك، أو الغريب المنقطع... تدفع لهم قسطًا من المال يسد حاجتهم، ويحقق تكافلهم، ويرفع مستواهم[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٣١.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٩٨٧/٢.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٩٨٧، ٩٨٨.

٢٨٨- باب تحريم الرياء

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة: ٥]، وقال تَعَالَى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[البقرة: ٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[النساء: ١٤٢].

الحديث رقم (١٦١٨)

١٦١٨ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يقولُ: ((**قَالَ اللّه تَعَالَى: أنَا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً اشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)). رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هـذا الحديث يرويه رسول اللّه ﷺ عن ربه: فهو حديث قدسي، والحديث القدسي ألفاظه من إنشاء المصطفى ﷺ، ومعناه يوحى إليه من قبل اللّه عز وجل، والرسول ﷺ يصوغه بعبارته العربية المبينة الواضحة، ويرويه عنه الصحابة الأجلاء باللفظ والمعنى، أو بالمعنى فقط، مع الحرص على عدم تبديل الدلالة المعنوية حين يتغير النسق اللفظي، أو تبدل العبارة من نسق إلى آخر.

والحديث في بنائه اللغوي، وصياغته الأدبية يتكون من جملتين تفيضان بالتوحيد، وترشدان المسلم إلى منابع العقيدة الخالصة والدين الخالص للّه، وهي تتمثل في التوحيد وعدم الانزلاق إلى مهاوي الشرك، ولذلك تبدأ الجملة وهي اسمية بضمير المتكلم "أنا"،

---

(١) برقم (٤٦/٢٩٨٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩) من رواية أبي هريرة التي أخرجها ابن ماجه، وابن خزيمة، والبيهقي. بلفظ: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك).

والمتكلم هو الحي القيوم الذي لا إله إلا هو، قيوم السماوات والأرض، فهذا اللفظ المشع بهالات الوحدانية، لا يغني عنه سواه، ويلغي كل ما عداه، أنا (الله)، ثم يأتي تمام الجملة وهو الخبر في صيغة أفعل التفضيل، والمادة اللغوية هي مادة "الغنى والاستغناء" وهي تفيد التفرد والجلال، والكبرياء والكمال، وتأمل إشعاعات هذا التركيب الأسلوبي، ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك))، فليس لله شريك، فهو وحده لا شريك له.

ومادة (شرك) تكررت في الحديث أربع مرات، وذلك للتنبيه إلى خطورة هذا الأمر، وسوء مصير الذي يتردى فيه، وقد ذكر الفعل أشرك وما يشتق منه مائة وثمانية وستين مرة في القرآن الكريم، منها تسع وأربعون آية ذكرت فيها مصطلحات المشرك والمشركة والمشركين والمشركات[1].

ومصطلح الشرك بالله، أو المشرك لم يعرف إلا بعد نزول القرآن الكريم، وهذا من مظاهر تأثير الإسلام في اللغة العربية ومصطلحاتها.

والجملة الثانية في الحديث: جملة شرطية، تتكون من مقدمة: وهي الشرط، ومن خاتمة وهي: الجواب والجزاء: فالشرط وهو العمل المشوب بالشرك، والجواب والجزاء هو أن الله يترك هذا المشرك وشركه، وهذا الجواب، الجزاء: كناية عن إحباط ثواب: المرائي، وحرمانه من أجره لما اقترفه من ترك الإخلاص في العمل، والرياء شرك خفي، وإن كان لا يقدح في أصل الإيمان، كما قال العلماء.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على إخلاص العمل لله تعالى.

ثانياً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: ذمّ الرياء.

---

(١) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ص٢٧٣-٢٧٦.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦١٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٩، ١٦٢٠).

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

خامساً: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة الرياء في الأعمال.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على إخلاص العمل لله تعالى:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[2] قال ابن كثير (أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له)[3] وقال السعدي: (هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضيل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص، الصافي من جميع الشوائب فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، في تحصيل مطالب عباده. وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله برئ منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك...)[4]، والإخلاص كما بينه ابن القيم هو: (تصفية العمل من كل شوب، أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أوطلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العمل والشوائب التي عَقدُ متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله جملة، كائناً ما كان)[5].

---

(١) سورة البينة، آية: ٥.

(٢) سورة الزمر، آية: ٢ - ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨٤/٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٦٤.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣١٥/٢.

وفي ذلك قال ﷺ: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ. وَإِنَّمَا لِكُلِ امْرِيءٍ مَا نَوَى. فمَنْ كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله فهِجْرتُهُ إلى الله ورسولِهِ، وَمَن كانت هجرتُهُ إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينْكِحُها، فهجرته إلى ما هَاجَرَ إليه))[1] قال ابن رجب: (واتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول -أي حديث إنما الأعمال بالنية أو النيات- وبه صدَّر البخاري كتابه "الصحيح"، وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله، فهو باطل، لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال عبدالرحمن بن مهدي: لو صنفتُ الأبواب، لجعلت حديث عمر في الأعمال بالنية في كل باب)[2].

(وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾[3] هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل؛ وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4])[5].

ثانياً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، فحري بالداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: ((كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعودُني عامَ حَجَّةِ الوَداعِ من وَجَعٍ اشتدَّ بي، ... فقلتُ: يا رسولَ الله، أخَلَّفُ بعدَ أصحابي؟ قال: إنكَ لن تُخلَّفَ فتَعملَ عملاً تبتغي به وجه

---

(١) أخرجه البخاري ١، ٥٤، ٢٥٢٩، ومسلم ١٩٠٧.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٦١/١.

(٣) سورة الملك، آية: ٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣١٠/٢.

الله، إلاّ ازدَدْتَ به درجةً ورفِعة))[1] قال النووي: (وفي الحديث الحث على إرادة وجه الله تعالى بالأعمال)[2].

وقال ﷺ: ((... ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ. فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))[3] قال ابن القيم: (أي لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة؛ بل تنفي عنه غِلَّه، وتنقيه منه، وتخرجه عنه فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل،و استخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة)[4].

وقد حث ابن القيم على الإخلاص التام لله وحده مبيناً عظيم الفضل والثواب قائلاً: (ترك الشهوات لله، وإن أنجى من عذاب الله، وأوجب الفوز برحمته؛ فذخائرُ الله، وكنوز البر، ولذة الأنس والشوق إليه، والفرحِ والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره،وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنىً مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاً دونه، والذُّل عزاً معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه، وبالجملة، فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهمَّ والغمَّ والحزن، إذا لم يكن معه، فهذا له جَنَّتان: جَنَّة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة)[5].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: ذَمُّ الرياء:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، والرياء كما بينه ابن حجر: (هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها...، وقال الغزالي: والمعنى طلب المنزلة في قلوب

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٩٥، وأخرجه مسلم ١٦٢٨ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٣٥.

(٣) ابن ماجه ٣٠٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٤٨٠).

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣١١.

(٥) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ٢٧٧.

الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائي هو العامل، وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل العمل لغير الله)[١]، وقد ذم الحق تبارك وتعالى الرياء في جعله صفة للمنافقين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[٢].

قال السعدي: (يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات... ومن صفاتهم أنهم "يراءون الناس" أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس يقصدون رؤية الناس، وتعظيمهم، واحترامهم، ولا يخلصون لله. فلهذا "لا يذكرون الله إلا قليلاً" لامتلاء قلوبهم من الرياء)[٣]، وقال ﷺ مرهباً ومخوفاً من الرياء ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء))[٤].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

قد ورد التوكيد كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث من قوله ﷺ "إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد" (والتوكيد من الأساليب الدعوية المهمة في تقوية الكلام وإثبات صحته)[٥]، وهذا ما ورد في الحديث من تأكيده ﷺ على تحريم الرياء وذمه، وإنه سببٌ في إحباط العمل وزواله.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٤/١١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٢-١٤٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٧٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٢٨/٥ رقم ٢٣٦٣٠، قال محققو المسند: حديث حسن ورجاله رجال الصحيح ٣٩/٣٩.

(٥) انظر: مجلة العلوم الشرعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد الأول، ص ٢٧٣.

خامساً- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة الرياء في الأعمال:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله تعالى "تركته وشركه" قال النووي: (ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به)[1]، وهذا ما أكده النبي ﷺ أيضاً من نص الحديث في قوله "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء! فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار... إلخ" قال النووي: (وفي الحديث دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته)[2]، وقال ابن رجب: (وفي الحديث إنَّ معاوية لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: صدق الله ورسوله، قال الله عز وجل ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[3])[4].

وقد سئل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يُقصَدُ به من الرِّياء، وإظهار الشجاعة والعصبيَّة، وغير ذلك: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا فهوَ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ))[5]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: لاَ أجْرَ لَهُ، فَأعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فَلَعَلَّكَ لم تُفهِّمْهُ، فقال يَارَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قالَ: لاَ أجْرَ لَهُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فقالَ لَهُ الثَّالِثَةَ فقالَ لَهُ لاَ أجْرَ لَهُ))[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧١٧.

(٢) المرجع السابق ١٢٢٠.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥-١٦.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٧٧/١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٦) أخرجه أبو داود ٢٥١٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٦).

وقد ورد في نص الحديث الوعيد على من تعلم العلم لغير وجه الله، وذلك من قوله ﷺ "ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم! وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" وقد أكد النبي ﷺ على وعيد من تعلم العلم لغير وجه الله فقال: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعني رِيحَهَا))[1].

ثم بين النبي ﷺ في نص الحديث عاقبة من تصدق رياءً فقال "ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال" إلى قوله "قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد! فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار"، وقد حذر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين من أن ينفقوا أموالهم رياءً فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[2] قال ابن كثير: (أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى)[3].

وفي جملة ما سبق قال الذهبي في بيان عاقبة الرياء (فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داءُ خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داءٌ سار في نفوس المنفقين من الأغنياء، وأرباب الوقوف، والتُّرب المُزَخْرَفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدو، ويصطدم الجمعان، وفي نفوس المجاهدين مُخبّآتٌ وكمائن من

(١) أخرجه أبو داود ٣٦٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣١١٢).

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٦٩٤.

الاختيال، وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب، ولبس القراقل المذهبة، والخوذ المزخرفة، والعُدد المحلاة على نفوس متكبرة، وفرسان متجبرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة وظلم للرعية، وشرب للمسكر، فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم: فانصر دينك ووفق عبادك، فمن طلب العلم للعمل، كسره العلمُ، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾[1])[2].

سادساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار (والترهيب أسلوب مؤثر يستطيع الداعية من خلاله أن يتوغل في أعماق المدعو، لما فيه من وعد ووعيد تقشعر منه الأبدان، حيث جهنم ولهيبها وأنواع العذاب فيها جزاءً وفاقاً)[3] مما يحمل المدعو على سرعة الاستجابة والامتثال لأمر الله ورسوله، في تحري الإخلاص، والبعد عن الرياء، وجعل العمل كله لله.

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩-١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/٢٧٢٦-٢٧٢٧.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، الهجاري ص ٤٥٠.

الحديث رقم (١٦١٩)

١٦١٩ - وعنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ أولَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ[1]. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ[2] لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ[3]، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلاَّ أنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ[4]: جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى[5] أُلْقِيَ فِي النَّارِ)). رواه مسلم[6]. "جرئ" بفتح الجيم وكسر الراء وبالمد، أي: شجاع حاذق.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من الأحاديث التي تنبئ عن المستقبل والمصير، الذي ينتظر بعض الطوائف من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا: وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم المراءون الذين تشوب أعمالهم بواعث الرياء والنفاق، فلا تسلم نياتهم من التعلق بثناء العباد، ومراءاة الناس.

(١) إلى هنا أورده المنذري في ترغيبه.

(٢) عند مسلم زيادة: (العلم).

(٣) عند مسلم زيادة: (كله).

(٤) عند مسلم زيادة: (هو).

(٥) (حتى) لا توجد عند مسلم.

(٦) برقم (١٩٠٥/١٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٩٦) الشطر الأول منه، وأورده من رواية الترمذي بتمامه.

ولذلك يبدأ الحديث بأسلوب خبري مؤكد، فيقول رسول الله ﷺ: "إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه".

والجملة لم تتم حيث ينقصها خبر إن، وهو يبدأ من قوله: "رجل استشهد ... إلى نهاية الحديث" لأن كل ما بعد ذلك معطوف على هذا الخبر الذي بدأت به مشاهد المرائين يوم القيامة.

وفي هذه المشاهد الثلاث: مشهد المقاتل المرائي، والعالم المرائي، والمنفق المرائي، تتجلى المفارقة في المواقف، والحوارات، والأسئلة والأجوبة، وذلك من بواعث التفكير في مصير هؤلاء المرائين الذين تناقض مظهرهم مع مخبرهم، وتناقض فعلهم مع معتقدهم، وكشف الله زيفهم، وأظهر كذبهم، والحديث يفيض بالظواهر الأسلوبية التي تؤثر في المتلقي وتشده إلى التأمل والعظة والتفكر، ومن ذلك: الحوار بين هؤلاء المرائين وربهم، ومن خلال الحوار تتجلى المفارقة التي تجسد كذب هؤلاء ونفاقهم، والله يعلم السر وأخفى، والحوار جاء في صيغة السؤال والجواب لمزيد من الإقناع والتأثير، ويسيطر التكرار على أسلوب السرد وعرض المشاهد الثلاث: لتأكيد زيف هؤلاء، ولزجر غيرهم.

وتأمل أسرار تكرار جملة: "فأتي به فَعَرَّفَهُ نعمته فعرفها"، وتكرار السؤال في كل مشهد: "فما عملت فيها؟"، وقد تكررت هاتان الصيغتان ثلاث مرات في الحديث: في سياق كل مشهد.

وتأمل أسرار تكرار قوله: "فقد قيل" في كل مشهد وذلك لمزيد من الإدانة، وبأن المرائي قد حصل على مراده من ثناء الناس وشكرهم، ولكن حرم من نعمة الله ومن رضوانه، وكان مصيره جهنم وبئس القرار، وتأمل هذا المشهد المتكرر في كل موقف، مع العالم، ومع المقاتل، ومع المنفق، وهذا المشهد يوحي بالإهانة والإذلال في قوله: "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار"، وتكررت هذه العبارة المصورة لحال هؤلاء المرائين ثلاث مرات: لتؤكد أن هذا المصير المحتوم أمر يقيني لا شك فيه.

والحذف من مظاهر بلاغة الأسلوب في هذا الحديث، ومن ذلك حذف الفاعل في قوله: "فعرفه نعمته": لأن الذي عرف هو الله، ولا ينصرف الذهن إلى سواه، وكذلك حذف فاعل: "أمر" لأنه لا يأمر بذلك إلا الله.

وفي سياق الشهادة المزعومة أتت النعمة مفردة، وفي سياق مشهد العلم، قال نعمه، بالجمع وفي ذلك إيماء إلى عظم العلم، وأن نعمته بمنزلة أعلى من غيره.

والعطف بالواو في بداية المشاهد الثلاث حيث قال: ورجل، ورجل ، ورجل، يدل على أن هذه النماذج المرائية: يحاسبون دفعة واحدة، ولا إشكال في ذلك كما يقول العلماء، فهو ممكن، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٢٠)

١٦٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن نَاساً قَالُوا لَهُ: إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا[١] فَنَقُولُ لَهُمْ[٢] بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ؟ قَالَ (ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما)[٣]: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا (عَلَى عَهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٤]. رواه البخاريُّ[٥].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سلاطيننا: جمع سلطان: الملك أو الولي[٦].

---

(١) لفظ البخاري: (سلطاننا)، وكذا عند الحميدي، والمنذري، والمثبت لفظ الطيالسي في المسند (٢٠٦٧). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/١٧٠) في رواية الطيالسي، عن عاصم: (سلاطيننا) بصيغة الجمع.

(٢) أي: نثني عليهم.

(٣) هذا التفسير من المؤلف.

(٤) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري. وهي عند الحميدي في جمعه، فتبعه عليه المنذري والنووي. وهذه الزيادة أخرجها الطيالسي في المسند (٢٠٦٧) قال: (قال العمريُّ (عندابن حجر في الفتح ١٣/١٧٠ قال عاصم، بدل: قال العمري، وقال محقق المسند: هكذا في النسخ، ولعل الصواب: قال العمري: قال عاصم) ثم ذكرها، ووقع في الأطراف للمزي (٦/٤٠، رقم ٧٤٢٧) ما نصه: (خ في الأحكام، عن أبي نُعيم، عن عاصم بن محمد بن زيد، عن أبيه به)، قال: ورواه معاذ بن معاذ، عن عاصم وقال في آخره: (فحدّثت به أخي عمر، فقال: إن أباك كان يزيد فيه: في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم). قال الحافظ ابن حجر: وقال معاذ إلى آخره: لم يذكره أبو مسعود، فيحتملُ أن يكون نقله من كتاب خلف، ولم أره في شيء من الروايات التي وقعت لنا عن الفربري ولا عن غيره، عن البخاري. وقد قال الإسماعيلي عقب الزيادة المذكورة، ليس في حديث البخاري: (على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) انتهى. قلتُ: ذكر هذه الزيادة الحميدي في جمعه كما تقدم، ولا شكّ أنه إما نقله عن نسخة من الجامع فيها هذه الزيادة، أو من خلف الواسطي كما توقعه الحافظ ابن حجر، لكن الحافظ لم يتطرق إلى وجود هذه الزيادة عند الحميدي في جمعه، والله أعلم.

(٥) برقم (٧١٧٨)، والسياق للحميدي في جمعه (٢/٢٧٨، رقم ١٤٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٤٨).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل ط ن).

نفاقًا: النفاق: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر[1].

الشرح الأدبي

هذا الحديث محاورة بين عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وبعض المسلمين حول قضية سلوكية لها أثرها في ضبط إيقاع التعامل والتفاعل بين الراعي والرعية: بين الحاكمين والمحكومين، وهي: ما المعيار الذي يحكم صدق القول أمام السلطان؟

يبدأ الحديث بأسلوب التأكيد في خطاب جمع من الناس لابن عمر في قولهم: "إنا ندخل على سلاطيننا"، والتأكيد هنا يجعل من التناقض في القول أمام السلطان، ومن خلفه: حقيقة مؤكدة، والتعبير بالمضارع بأسلوب الجمع في قولهم: "ندخل"، وكذلك الجمع في سلاطيننا، إشارة إلى تكرار هذا السلوك: لأنه مستمر في ضوء دلالة الفعل المضارع الزمنية، وكذلك نستنبط هذه الدلالة من المضارعية في قولهم: "فنقول"، والعطف بالفاء يفصح عن التسرع في هذا القول الذي كان يعده الصحابة نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ، فهم يمدحون السلطان في حضرته، ولكن يذمونه إذا خرجوا من عنده، وصيغة الجمع في قولهم: "إذا خرجنا من عندهم" توحي بتعدد المواقف أمام كثير من الولاة، وليس المقصود سلطاناً واحداً.

وإجابة ابن عمر رضي الله عنهما فيها احتراس، لأنه لم يجزم بأن ذلك نفاق قاطع، لأنه جعل رأيه وحكمه في إطار زمني حيث قال: "كنا نعدُ ذلك نفاقا"، ولم يقل هذا نفاق، وقوله: "على عهد رسول الله ﷺ" يوحي بأن ذلك اجتهاد من ابن عمر: فيتوقف في موافقته أو مخالفته تخالف المجتهدين في الأحكام[2]. وذلك لأن مخاطبة الحكام، والنصيحة لهم، واجب على كل مسلم، ولكن ما وسيلة ذلك؟ وما السبل التي تؤدي إلى الاستجابة والعمل الصالح، وما أصدق هذه النصيحة التي قالها عمر بن عبيد واعظ المنصور: حين قال له المنصور: "عظني"، فقال: يا أمير المؤمنين: إن الله أعطاك الدنيا.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ف ق).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان.

بأسرها: فاستر نفسك ببعضها: واذكر ليلة تمخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده!!!، نسأل الله العون والسداد والإخلاص في القول والعمل.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦١٨).

الحديث رقم (١٦٢١)

١٦٢١ - وعن جُندب بن عبد اللهِ بن سفيان رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرائِي يُرائِي اللهُ بِهِ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ورواه مسلم[٢] أَيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

"سَمَّعَ" بتشديد الميم، ومعناه: أظهر عمله للناس رياءً.

"سَمَّعَ الله به" أي: فضحه يوم القيامة، ومعنى "مَنْ رَاءى" أي: من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم، "رَاءى الله به" أي: أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

ترجمة الراوي:

جُنْدُب بن عبدالله بن سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٥٠).

الشرح الأدبي

إن البناء اللغوي في هذا الحديث يفصح عن معانيه وعن مقاصده، فالمبنى وعاء للمعنى، والألفاظ أجنحة المعاني، والحديث يحذر من الوقوع في شرك الرياء، ويتسم بالإيجاز ودقة الدلالة، فهو يتكون من جملتين شرطيتين: وهما متناسقتان في بنائهما، وكأن هذا التناسق اللغوي صورة من التناسق الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، فلا بد أن يتوازن مظهره مع مخبره، وتستقيم أحواله، وتصلح أعماله، والجملة الأولى تبوح بالدلالات الكثيرة من خلال نسيجها اللغوي.

فصياغتها الشرطية تتفق مع دلالتها: فالجزاء من جنس العمل: لأن الجواب نتيجة للشرط ومحصلة له، وذلك متحقق ظاهر في قوله ﷺ "من سَمَّع سمَّعَ الله به".

والتضعيف في فعل الشرط وجواب الشرط: أضفى على الفعل "سمَّع"، دلالة مغايرة... ولكنها أكثر تأثيراً وأوسع دائرة، فالتضعيف في قوله: "سمَّع" يجعل من صاحب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٧/٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢).

(٢) برقم (٢٩٨٦/٤٧).

السمع، مصدراً للصوت وللفعل، حيث يقوم بأفعال وأقوال من شأنها أن تشيع عمله بين الناس رغبة في ثنائهم عليه، طلباً للشهرة وجرياً وراء زخرف الحياة وعرضها، وهو لاه عن مكانة عمله عند ربه عز وجل، أما الفعل سَمِعَ بدون تضعيف: فيجعل من صاحب السمع مستقبلاً للكلام من مصدر خارجي، وفرق بين دلالة الفعلين حسب بنائهما اللغوي: وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كما قال العلماء، فمعنى قوله: "سمَّع"، في ضوء ما سبق: أي من عمل سراً وأراد أن يسمع الناس بعمله فيثنوا عليه.

وسمَّع الله به: أي أعطاه الله ما يريد من متاع الدنيا: ولكن يحرمه من ثواب الآخرة: وقيل: فضحه يوم القيامة، والمشاكلة اللفظية تتجلى في قوله: "ومن يرائى يرائى الله به"، فدلالة الفعل في الشرط غير دلالتها في الجواب، أن العبد المرائى يظهر للناس العمل الصالح: وهو في غفلة عن مراقبة الله لسريرته واطلاعه على نيته، ولذلك يتفق الجواب في اللفظ مع الشرط: "يرائى الله به"، ولكن يختلف عنه في الدلالة: لأن الله لا يرائي، وقوله "به" يحدد التباين بين فعل العبد، وفعل الله عز وجل: والمراد من قوله: "يرائي الله به" أي يظهر سريرته على رءوس الخلائق: يوم القيامة، حيث يطلع الناس على ما حاول أن يخفيه عنهم في الدنيا، وقيل: يحتمل ذلك في الدنيا: حيث يطلع الله العباد على سريرته، ويعرفون عنه خلاف ما يظهر فلا ينال مراده، ولذلك جاء قوله: "يرائي الله به"، مطلقاً غير مقيد بزمن: الدنيا أو الآخرة.

المضامين الدعوية(1)

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

قد اشتمل الشرط كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث على أداة الشرط المتمثلة في قوله ﷺ "من" وعلى فعل الشرط المتمثل في قوله ﷺ "سمع" وقول "يرائي"

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٢١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٢٢).

وعلى جواب الشرط المتمثل في قوله ﷺ "سمع الله به" وقوله "يُرائي الله به"، والشرط من أساليب الدعوة المهمة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة جواب الشرط وما فيه من إرشاد.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال:

إن الرياء من كبائر المهلكات، وسوء الأخلاق، به يكون مقت الله وغضبه، (وهو ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه)[1]، (وأن يقصد فاعله اطلاع الناس على عبادته وكماله، فيحصل له منهم نحو مالٍ أو جاهٍ، أو ثناء)[2]، فيكون سبباً في إحباط الأعمال وسوء الجزاء، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "من سمَّع سمَّع الله به ومن يرائي يرائي الله به" قال النووي: (قال العلماء معناه: من رايا بعمله وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمَّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه، وقيل: معناه: من سمع بعيوبه وأذاعها أظهر الله عيوبه، وقيل: أسمعه المكروه، وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه، وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس وكان ذلك حظه منه)[3].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه، جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه، وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة، ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ٤٣/١.

(٢) الزواجر، ابن حجر الهيتمي، ٤٣/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧١٧.

(٤) سورة هود، آية: ١٥.

الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله؛ ولا يثاب عليه في الآخرة. وقيل المعنى، من سمع بعيوب الناس وأذاعها، أظهر الله عيوبه وأسمعه المكروه. وقيل المعنى من نسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله، وادعى خيراً لم يصنعه، فإن الله يفضحه ويظهر كذبه، وقيل المعنى من يرائي الناس بعمله، أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه. وقيل معنى سمع الله به، شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة، قلت: ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخرة، فهو المعتمد)[١]، وما يؤيد ذلك حديث بشر بن عقربة رضي الله عنه الذي قال فيه ((إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ قَامَ بِخُطْبَةٍ لا يَلْتَمِسُ بِهَا إلاّ رِياءً وسمعة أَوْقَفَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَوْقِفَ رِياءٍ وَسُمْعَةٍ))[٢] وعنه ﷺ أنه قال: ((من أكل برَجُلٍ مُسلم أكلةً ـ وقال مرة: أَكلةً ـ فإن الله عزَّ وجلَّ يطعمه مثلها من جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً فإن الله عزَّ وجلَّ يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برَجُلٍ مسلم مقام سمعة فإن الله عزَّ وجلَّ يقوم به مقام سمعة يوم القيامة))[٣]، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ من يقاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله))[٤].

وفي ذلك بيان لسوء عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال، ولكن قد يكون من الأفضل في حق بعض الناس إظهار الأعمال وعدم الإخفاء بقصد الاقتداء بهم، وهذا ما بينه ابن حجر في قوله: (وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة، قال ابن عبدالسلام:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٤٤-٣٤٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٥٠٠ رقم ١٦٠٧٣، وقال محققو المسند، إسناده حسن ٢٥/٤٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٢٩٩ رقم ١٨٠١١، وقال محققو المسند، حديث حسن إسناد رجاله ثقات ٢٩/٥٣٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهره ليقتدى به أو لينتفع به ككتابة العلم...، قال الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم، قال: فمن كان إماماً يستن بعمله، عالماً بما لله عليه، قاهراً لشيطانه، استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل)[1].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

هذا ما ورد في الحديث من تحذيره ﷺ من الرياء وعدم الإخلاص والتظاهر بالأعمال، لما في ذلك من إحباطٍ للعمل وتضييع للثواب، فضلاً عن افتضاح الأمر في الدنيا والحسرة يوم القيامة، فالتحذير من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على إرشاد المدعوين، وحملهم على اجتناب ما فيه هلاك لهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٥/١١.

الحديث رقم (١٦٢٢)

١٦٢٢ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عز وجل لاَ يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا: لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ)) يَعْنِي: رِيحَهَا. رواه أَبُو داود بإسنادٍ[1] صحيحٍ والأحاديث في الباب كثيرةٌ مشهورةٌ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ليصيب: ليحصُلَ[2].

عَرَضًا: مَتاعُ الدنيا وحُطامُها[3].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجد أنه يتكون من جملة واحدة، وهي جملة شرطية: تتماسك أطرافها، وتتجاذب كلماتها، ويشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص، وكأنها جسد المؤمن لا ينهض ولا تستقيم حياته إلا إذا صحت الأعضاء، واكتمل البنيان، والحديث في بنائه وما يتمخض عنه هذا البناء اللغوي من مقاصد كأنه شمس من الهداية، والكلمات كواكبها، والأحرف أشعتها، والهداية هي الطاقة المنبعثة من هذه الشمس التي تشرق دائماً في أفق البيان المحمدي، والهدي النبوي.

---

(١) برقم (٣٦٦٤)، وتقدم برقم (١٣٩٣). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٧٨)، وقال الحاكم (٨٥/١): هذا حديثٌ صحيحٌ سنده، ثقاتٌ رواته على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (١٧٧).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص و ب).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

ولنتأمل بناء الأسلوب في هذا الحديث الشريف، حيث يبدأ الحديث بأداة الشرط وفعل الشرط، ومتعلقات الشرط في قول رسول الله ﷺ "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل" والفائدة لم تحصل بعد، ولكن هذه المقدمة تنبئ عن البشرى في الجواب: لأن العلم المتحصل توج بشرف المقصد ونبل الغاية، فهو يبتغي به وجه الله عز وجل، وتحدث المفارقة الدلالية، والمفاجأة المثيرة، حيث تأتي جملة تفيد الشرط وتحصره: وهي قوله: "لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا"، فالعلم لم يعد خالصاً لوجه الله عز وجل، وإنما تحول المسار، وتغير المقصد: وهو تحصيل المكاسب الدنيوية من الثناء والمال والشهرة: وصيغة القصر، تؤكد هذا التوجه عند طالب العلم الذي يطلب عرض الدنيا. ويأتي جواب الشرط مكملاً لبنيان الحديث، ومفصحاً عن مصير هذا المرائي: الذي قال عنه رسول الله ﷺ في حديث سابق، "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار"، وهنا يقول: "لم يجد عرف الجنة يوم القيامة": يعني ريحها، وإن عرفها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام، فلفظ "عرف الجنة" يفصح عن أن هذا المرائي بعيد عن الجنة قريب من النار، وبينه وبين الجنة مسيرة خمسمائة عام، وذلك كناية عن بعده عن رحمة الله. لأنه قصر طلبه على الحقير الفاني، واستبدل الأدنى بالذي هو خير.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الإخلاص لله وتحريم الرياء:

إن أسمى الصفات الروحية -والتي تبلغ بالمتربي منزلة رفيعة في ميزان الخلق الإنساني- صفة الإخلاص لله، بأن يأتي المتربي أعمالاً نقية، لا يشوبها رياء، قيامًا بالواجب، سواء في العبادات أو في سائر الأعمال، قاصدًا بذلك وجه الله ورضاه[1].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس الإخلاص لله في نفوس المتربين والمتعلمين، والتحذير من نواقضه، والتي من أعظمها الرياء، وهذا ما أكدته جملة أحاديث الباب في بيان إحباط العمل وثوابه بسبب الرياء، وذلك في قوله ﷺ: «قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ..... مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».، وقوله ﷺ: «إنَّ أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرّفه نعمته فعرفها قال: فما فعلت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار....إلخ»، وقوله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وبذلك يكون الرياء من أخطر أمراض الباطن التي تُدهده حصن الإخلاص في نفوس المتربين؛ لذا وجب على المتربي والمتعلم أن يعلما أن: "أضر شيء على العبد، أن يعمل عملاً، أو يقول قولاً، لا يريد به وجه الله، جميل ظاهره، قبيح باطنه، يسرّ غير ما يعلن، ويظهر خلاف ما يبطن، يسبح ويهلل، ويقرأ القرآن، ويخطب، ويعلم، ويدعو إلى الله بلسانه، وقلبه غافل، وذاهل، وبغير الله مشغول، وعلى سواه معوّل ومتكل، وحسبه من الخير ثناء الجاهلين عليه، واستمالة قلوبهم إليه، إذا قرأ جوَّد، وإذا وعظ بكى، وإذا خطب أو درس لم يلحن، وجاء بالعجب العجاب، ولو أخلص في قلبه لكان الزعيم المطاع، والمصلح الحكيم، والمرشد العظيم، وإذا رأيته يصلي ظننته إسرافيل،

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ١٩٨.

وإن أبصرته يتصدق حسبته ميكائيل، وإن لقيته صائمًا أو معتكفًا لم تشك في أنه جبريل، ولكنه الخادع المنافق، والكذاب المكار المزور، يقول بفيه ما ليس في قلبه، ويرائي الناس بما يعمله لريه"[١].

وقد بيّن ابن الجوزي: لدعاة التربية والتوجيه علاج هذا المرض إن وقع، في قلوب المتربين، فقال: "وعلاج هذا المرض في الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه، فمن عرفه أفرد القصد له، ولم ير غيره، وأقام نفسه في مقام العابد الذليل للمعبود؛ لا في مقام معبود ممدوح، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل، فاحترس من تعب ضائع"[٢].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد حرم الإسلام الرياء تحريمًا شديدًا، وشدد النكير على من يتخلق به، واتبع في ذلك الترهيب كأسلوب تربوي في إبعاد نفس المتربي والمتعلم عن التخلق بمرذول صفته وشناعة قبحه، وهذا ما ترائى جليًا، في مجمل أحاديث الباب، حيث ابتداء الترهيب من الرياء ببيان أنه ينافي الإخلاص في العبادة لله عز وجل، ومن ثم إحباط العمل وضياع الأجر، وذلك في قوله ﷺ: «عن رب العزة: .... مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

ثم تُثَنّى بالترهيب من الرياء في أحاديث الباب ببيان سوء العاقبة وشدة العذاب، وذلك في قوله ﷺ: «...ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ....إلخ»، وقوله ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهِ بِهِ ...إلخ»، وقوله ﷺ: «... لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقد ورد الترهيب أخيرًا من الرياء ببيان أنه نفاق، وذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: «كُنَّا نَعُدُّ هذَا نِفاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فالترهيب أحد الأساليب التربوية التي يقوم عليها المنهج الإسلامي حيث يتسق مع فطرة الإنسان التي جبل عليها من الخوف وترك الألم[٣]. لذا وجب استعماله عند الحاجة في تربية النشء.



---

(١) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٣.

(٢) ذم الهوى، ٣٥.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٤.

٢٨٩- باب مَا يتوهم أنَّه رياء وليس هُوَ رياء

الحديث رقم (١٦٢٣)

١٦٢٣ - عن أَبي ذرٍ رضي الله عنه قَالَ: قيلَ لِرسولِ الله ﷺ: أرَأَيْتَ الرَّجُلَ الَّذي يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: ((تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الوحيد في بابه، وهو باب ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء، وقد جاء عقب باب تحريم الرياء، والحديث ورد في صيغة حوارية يرويها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، والحوار الذي دار كان بين رسول الله ﷺ ورجل من الصحابة، لم يحدده أبو ذر، ولذلك بدأ الحديث بالفعل: "قيل" المبني للمجهول، "قيل لرسول الله ﷺ" فالسائل غير معلوم: لأن القضية المسؤول عنها ليست قضية شخصية، وليست حكماً محدداً يطلب السائل تحديد الموقف الشرعي منه، وإنما هي قضية عامة تحكم منهج المسلم، وتدفع اللبس والتوهم في كثير من المواقف والسلوكيات الحياتية والعبادية، وألسنة الخلق أقلام الحق، وتبدأ المحاورة باستفهام حقيقي "أرأيت الرجل...." والفعل رأى هنا يتجاوز دلالته البصرية والعلمية إلى أفق أشمل، فهو بمعنى أخبرني، فقد دل على علم رسول الله ﷺ ودل على حاجة السائل إلى ثمرة ذلك العلم، فالاستفهام هنا طلب يفصح عن مراد السائل معرفة الحقيقة.

وقوله: "الرجل" للتغليب: لأن المرأة ليست خارج هذه الدائرة، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[٢].

---

(١) برقم (٢٦٤٢/١٦٦).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

وتأمل التعبير بالفعل المضارع في قوله: "يعمل العمل من الخير"، والمضارع يوحي بالاستمرار وعدم الانقطاع، فعمل الخير يجب أن يكون ديدن المسلم طيلة حياته، وقوله "من الخير"، تقييد لتحديد نوعية العمل المفيد الذي يرضى الله عنه ورسوله، ويفيد المؤمنين، "والخير" كلمة موجزة جامعة لكل آفاق العمل الصالح ومساراته، ونتائجه.

وصيغة المضارع في قوله: "يحمده الناس عليه"، ترشد إلى استمرار التفاعل بين الذي يعمل صالحاً وبين من يعمل لصالحهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فهم لا يجحدون فضله، ولا ينكرون عليه إنجازاته وإخلاصه، وقوله: "الناس" يوحي بأن العمل الصالح يجب أن يكون ذا ثمرة عامة يستفيد منها الناس وليس الأقارب فقط، أو الأبناء فقط، والتعبير بقوله: "يحمده الناس"، يعطي دلالة أعم وأشمل من قوله، "ويمدحه الناس"، فالحمد يكون بدافع الشكر والإخلاص والمحبة، أما المدح فقد يشوبه النفاق والرياء كما جاء في الحديث السابق الذي عده ابن عمر نفاقاً، والحمد في اللغة، الشكر والرضى، والجزاء وقضاء الحق، وتجيء إجابة رسول الله ﷺ مطمئنة مبشرة تزيل اللبس، وتدفع التوهم، وتفتح آفاق العمل الصالح الخالص لوجه الله أمام الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيقول مشيراً باسم "الإشارة" الذي يفيد التعظيم، "تلك عاجل بشرى المؤمن" فمن أخلص لله تعالى، وقصد التقرب إليه ليس إلا: كما يقول محمد بن علان صديق الشافعي، أطلق الله الألسنة بالثناء عليه، فذلك علامة قبوله سبحانه لذلك العمل، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور دينه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تبشير المؤمنين المخلصين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

---

(١) سورة يونس، آية: ٦٤.

أولاً- من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور دينه:

هذا ما ورد في الحديث من قول أبي ذر رضي الله عنه: "قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل الذي يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟" فعلى المدعو أن يسأل أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور، حتى يكون على بصيرة من أمر دينه فيعبد الله على علم، وخير دليل على ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما لهشام بن عامر عندما سأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال له: ((أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ بِوِتْرِ رَسُولِ اللّهِ ؟ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. فَأْتِهَا فَاسْأَلْهَا. ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ. -قال- فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهَا... فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللّهِ . قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللّهِ كَانَ الْقُرْآنَ. قَالَ فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، وَلاَ أَسْأَلَ أَحَداً عن شيء حَتَّىٰ أَمُوتَ. ثُمَّ بَدَا لِي فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هٰذِهِ السُّورَةِ. فَقَامَ نَبِيُّ اللّهِ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً. وَأَمْسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً فِي السَّمَاءِ. حَتَّىٰ أَنْزَلَ الله، فِي آخِرِ هٰذِهِ السُّورَةِ، التَّخْفِيفَ. فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعاً بَعْدَ فَرِيضَةٍ. قَالَ: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَتْ: كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ. فَيَبْعَثُهُ الله مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ. فَيَتَسَوَّكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ. لاَ يَجْلِسُ فِيهَا إِلاَّ فِي الثَّامِنَةِ. فَيَذْكُرُ الله وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ. ثُمَّ يَنْهَضُ وَلاَ يُسَلِّمُ. ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي التَّاسِعَةَ. ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ الله وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ. ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيماً يُسْمِعُنَا. ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ. فَتِلْكَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، يَا بُنَيَّ. فَلَمَّا سَنَّ نَبِيُّ اللّهِ، وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ، أَوْتَرَ بِسَبْعٍ. وَصَنَعَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِثْلَ صَنِيعِهِ الأَوَّلِ. فَتِلْكَ تِسْعٌ، يَا بُنَيَّ. وَكَانَ نَبِيُّ اللّهِ إِذَا صَلَّىٰ صَلاَةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا. وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّىٰ من النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً. وَلاَ أَعْلَمُ نَبِيَّ اللّهِ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ. وَلاَ صَلَّىٰ لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ. وَلاَ صَامَ شَهْراً كَامِلاً غَيْرَ رَمَضَانَ قَالَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِهَا. فَقَالَ: صَدَقَتْ: لَوْ كُنْتُ أَقْرَبُهَا أَوْ أَدْخُلُ عَلَيْهَا لأَتَيْتُهَا حَتَّىٰ تُشَافِهَنِي.

به. قَالَ: قُلْتُ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ مَا تَدْخُلُ عَلَيْهَا مَا حَدَّثْتُكَ حَدِيثَهَا))[١]، وفي ذلك قال النووي: (إنه يستحب للعالم إذا سئل عن شيء، ويعرف أن غيره أعلم منه به، أن يرشد السائل إليه، فإن الدين النصيحة)[٢]، فإذا كان هذا في حال العالم، وقد دل على من هو أعلم منه في المسألة، فمن باب أولى أن يسأل المدعو أهل العلم ليفيدوه بعلمهم ويرشدوه إلى الصواب، وليس أدل على ذلك من قصة موسى والخضر عليهما السلام.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تبشير المؤمنين المخلصين:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "تلك عاجل بشرى المؤمن" قال النووي: (معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل على رضاء الله تعالى عنه ومحبته له، فيحببه إلى الخلق كما في الحديث من قوله ﷺ: ((ثمَّ يُوضعُ له القَبول في الأرض))[٣] هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم)[٤].

قال ابن رجب: (وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضرَّه ذلك)[٥]، قال ابن عثيمين: (لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيراً؛ فهم شهداء الله في أرضه (ولهذا لما مرت جنازة من عند النبي ﷺ وأصحابه أثنوا عليه خيراً، قال: "وجبت" ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شراً، قال: "وجبت"، فقالوا: يا رسول الله ما وجبت؟ قال:"أما الأول فوجبت له الجنة، وأما الثاني فوجبت له النار" أنتم شهداء الله في الأرض)[٦]. فهذا معنى قوله: "تلك عاجل بشرى المؤمن". والفرق بين هذا وبين الرياء: أن المرائي لا يعمل العمل، إلا لأجل الناس، ليراه الناس، فيكون في نيته شرك، شرك مع الله غيره، وأما هذا فنيته خالصة لله عز وجل، ولم يطرأ على باله أن يمدحه الناس أو يذموه)[٧].

(١) أخرجه مسلم، ٧٤٦.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٥١١.
(٣) أخرجه البخاري ٧٣٨٥، ومسلم ٢٦٣٧.
(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي ١٥٦٦.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٨٣/١.
(٦) أخرجه البخاري ٢٤٩٩، ومسلم ٩٤٩.
(٧) شرح رياض الصالحين ١٧١٩/٢ – ١٧٢٠.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: البشارة:

ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "تلك عاجل بشرى المؤمن" والبشارة: (هي كل خبر صدق تتغيرُ به بشرةُ الوجه، ويستعمل في الخير أغلب)[١] وهي من صفات النبيين والمرسلين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٣] وهي من صفة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] والبشارة من الأساليب الدعوية المهمة في حث المدعو وحمله على سرعة الاستجابة للأمر المدعو إليه، لما لهذا الأسلوب من الوقع الحسن في قلوب المدعوين، حيث أفاد في نص الحديث أن الصدق والإخلاص في العمل لله وحده، هو باب إرضائه عز وجل في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فيكون بحمد الناس له ووضع القبول له في الأرض، وأما الآخرة فيكون رضوان الله تعالى وجنته.

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ٧٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٤٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٩٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من الأساليب التربوية: السؤال والاستفهام:

إن من عود نفسه على السؤال زادت ثقته بنفسه وشعر بالطمأنينة، والارتياح، لمعرفة الإجابة عما كان يجول بخاطره ويشغل ذهنه؛ لذا حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال والاستفهام عما خفي عنهم.

وهذا ما أكده حديث الباب من سؤال الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم عما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء، وذلك في قوله أبي ذر رضي الله عنه: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ ...إلخ».

وفي السؤال والاستفهام مزايا تربوية عظيمة، منها توفير الجهد والوقت والمال، فضلاً عن تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين[1].

وفي ذلك قال أمية بن الصلت:

لا يذهبنَّ بك التفريط منتظرًا ... طول الأناة ولا يطمع بك العَجَلُ
فقد يزيد السؤال المرءَ تجربةً ... ويستريح إلى الأخبار من يسلُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصرُ
فاستخبرِ الناس عمَّا أنت جاهلُهُ ... إذا عَمِيتَ فقد يجلو العمى الخبرُ[2]

وحتى يحقق هذا الأسلوب التربوي ثمرته، وجب على السائل أن يتأدب بآداب السؤال فلا يرفع صوتًا، ولا يقطع متكلمًا، ويراعى اختيار الألفاظ المناسبة من غير ما تكلف، ثم ينتظر الإجابة في تواضع واحترام وينصت لفهمها واستيعابها، وبذلك تحصل الفائدة التربوية في معرفة ما جهل المتربي[3].

---

(١) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥.

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السهلي، ط٢، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٣٩٤هـ، ص٤٣٦.

(٣) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥. أساليب الدعوة والتربية، د. محمود زياد، ٤٤٦.

ثانيًا: من الأساليب التربوية: الترغيب:

إن الترغيب أسلوب تربوي يعمل على دغدغة المطامع الإنسانية في اتجاه طرق الخير التي قد تدفع عن الإنسان الصوارف النفسية التي تصرفه عنه[1]، وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في حديث الباب بترغيبه في الإخلاص وبيان ثوابه العظيم، وذلك في قوله: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ».

ففي غزوة الخندق عندما أراد الرسول ﷺ أن يأتيه رجل من المسلمين بأخبار المشركين، قال حذيفة رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقَرٌّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. فَقَالَ: «قُمْ. يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا، إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي، أَنْ أَقُومَ. قَالَ: «اذْهَبْ. فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»[2]، فقد كانت الليلة ليلة شديدة الرياح قاسية البرودة، وكانت تحتاج إلى همة عالية وقوة، لذلك تقدم الرسول ﷺ بالثواب على هذا العمل فقال لمن يفعل ما أراد: «جعله الله معي يوم القيامة»، ولم يأمر أحدًا ابتداءً بذلك، ومع رغبة الصحابة في الخير وشدة حرصهم عليه، ووعد الرسول ﷺ لهم بهذه المنزلة العظيمة، ومع ذلك لم يقم أحد حتى كرر ذلك ثلاث مرات، مما يدل على الوضع الصعب لحالة الطقس في ذلك اليوم من الرياح الشديدة والبرد القاسي، هنا احتاج الرسول ﷺ أن يأمر بوصفه أمير القوم الذي تجب طاعته رغم قسوة الأوضاع، وكلّف بهذا الأمر حذيفة رضي الله عنه، وكذلك فعل الرسول ﷺ في غزوة أحد عندما أحاط المشركون به وببعض أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. محمود زياد العاني، ٢٢٠.

(٢) أخرجه مسلم، ٣٣٤٣.

قُـرَيْشٍ. فَلَمَّـا رَهِقُـوهُ قَـالَ: «مَـنْ يَـرُدُّهُمْ عَنَّـا وَلَـهُ الْجَنَّـةُ، أَوْ هُـوَ رَفِيقِـي فِـي الْجَنَّـةِ؟»[١]... الحديث، وهكذا ينبغي على المربي أن يفعل في الثواب مع البالغين، وأما ما فرضه الله فرضًا فالثواب فيه ما وعد الله به عباده المتقين[٢].



(١)أخرجه مسلم، ٣٣٤٤..

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ١٤١، ١٤٢.

٢٩٠- باب تحريم النظر إلَى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[النور: ٣٠]، وقال تعالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤].

الحديث رقم (١٦٢٤)

١٦٢٤ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: **((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكُ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ: العَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلاَمُ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، والقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ أَوْ[1] يُكَذِّبُهُ))**. متفق عَلَيْهِ[2]. هَذَا لفظ مسلمٍ، ورواية البخاري مختصرَةٌ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مدرك ذلك لا مَحالة: لابد منه لكونه قدر عليه[3].

البطش: الأخذ القوي الشديد[4].

يصدق: يحقق[5].

---

(١) لفظ مسلم بالواو فقط، وكذا عند أبي داود، والبخاري برقم (٦٢٤٣)، والمثبت لفظ البخاري برقم (٦٦١٢) وكذا عند الحميدي في جمعه (٣/٥، رقم ٢١٦٨) وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢١/٢٦٥٧) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٤٥).

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ط ش).

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٣، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ص د ق).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد أنه يتضمن عدة ظواهر فنية وأسلوبية: حيث يتكون من مقدمة إجمالية: تتضمن جملة واحدة، ثم يأتي التفصيل في سبع جمل بعد ذلك، وكلها تصور موقف الإنسان من النظر إلى المرأة الأجنبية، ومراحل الطريق التي تؤدي بالإنسان إلى التردي والوقوع في مهاوي جريمة الزنا.

والجملة الأولى وهي: الجمل المفتاحية في علم التحرير الأدبي، ولها خصائص كثيرة، نراها تبدأ بالفعل المبني للمجهول، "كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى"، والبناء للمجهول لا يعني أن الفاعل مجهول: ولكنه معلوم وهو الله عز وجل، ولا يقدر الأمور غيره، فالفاعل محذوف للعلم به، ولأن معنى "كُتب" حتم وقدّر، ولا يستطيع ذلك بشر، وقوله "على ابن آدم"، فيه تعميم وإشارة إلى أن التعلق بالمرأة فطرة مركوزة في التكوين البشري، وعلى الإنسان تهذيبها، ولذلك يتضح هذا الأمر الفطري الحتمي في قول رسول الله ﷺ "مدرك ذلك لا محالة"، وهنا إيجاز بالحذف: والتقدير: "هو مدرك ذلك لا محالة": ولا يخفى أن صيغة اسم الفاعل مع مادة الإدراك، مع اسم الإشارة "ذلك" الذي يحدد الأمر، وقوله: "لا محالة": أي لابد منه ولا مفر من ذلك، كل هذه الإشارات اللغوية، والشفرات الأسلوبية تؤكد الأسرار التي يتضمنها قوله: "كتب على ابن آدم".

وتتوالى بعد ذلك ست جمل تمثل في مجموعها إشارات حمراء على طريق الخطيئة: فإذا تجاوزها الإنسان، ولم يلتفت إلى الخطر الكامن وراء أسوارها وقع في الهلاك.

ولنتأمل تناسق التكوين اللغوي في هذه الجمل: حيث تتكون كل منها: من مبتدأ أول: مفرد، ثم خبر جملة اسمية، تتكون من مبتدأ أو خبر، "العينان زناهما النظر"، وعلى هذا النسق تتكون باقي الجمل "والأذنان زناها الاستماع ... إلخ"، الحديث" وهذا التنسيق يماثل حرص من يرتكب مثل هذا على الترغيب والتشويق والإثارة والتخطيط، وترتيب الجوارح التي أسند إليها الزنا، من باب إطلاق اسم المسبب على السبب مجازًا، هذا الترتيب فيه إدراك لوظيفة كل جارحة، فالعينان من خلال النظر يؤديان إلى

الإعجاب، والإعجاب يرغب في الاستماع والمحادثة، والاستماع يقود إلى الكلام الجميل، وبعد ذلك يتم التقارب، ثم السعي والحركة إلى تصديق ذلك، أو الامتناع عنه، والجمل التي تصور عمل الجوارح كلها وردت في صيغة الجملة الاسمية، لأن ذلك يدل على ثبات هذه الغريزة في تلك الجوارح، أما القلب فهو قلب: ومتغير، لذلك جاءت صياغته في قالب الجملة الفعلية "يهوى ويتمنى" وختام الحديث يعد نتيجة لهذا التحرك البصري، والسمعي، واللساني، واليدوي، والتحرك الحسي، والشعور القلبي، والتصديق والتكذيب هنا على سبيل التشبيه: فإذا وقع ابن آدم في جريمة الزنا: فقد استجاب لرغباته الحسية، وغرائزه المادية، وإذا امتنع فقد كذَّب هذه المثيرات، وصان نفسه من براثن الشهوات.

فقه الحديث

يشتمل الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- إن قوله ﷺ: "مدرك ذلك لا محالة" فيه رد صريح على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم المحدثون لها[١].

بل إنها مقدرة بتقدير العزيز العليم، على أن هذا التقدير ليس حجة للعبد بل هو معاقب على كسبه، ومثاب عليه[٢].

٢- إن النظر المحرم وإن سمى زنًا مجازًا، إلا أنه لا يترتب عليه حكم الزنا من إيجاب الحد، وإنما يجب الحد فقط في الزنا الحقيقي، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما "ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ"[٣].

٣- إن قوله ﷺ "والأذنان زناهما الاستماع" يدل على أن صوت المرأة عورة وهو ما ذهب إليه الحنفية[٤] في قول مرجوح، والمالكية في المعتمد[٥]، والشافعية[٦] في مقابل

---

(١) اعتقاد أهل السنة ص ٦٢ لمحمد بن عبدالرحمن الخميس.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٢/٨.

(٣) المرجع السابق ١٨٨/٨.

(٤) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٤٣٧/١.

(٥) شرح الخرشي على مختصر خليل ٣٥٦/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٦) حلية العلماء، القفال الشاشي ١١٣/٢.

الأصح، وأحمد[١] في رواية.

وذهب الحنفية[٢] في الراجح، والمالكية[٣] في قول، والشافعية[٤] في الأصح، وأحمد[٥] في رواية إلى أن صوت المرأة ليس بعورة، إذ لو كان عورة لما جاز سماع صوتها في شهادة ولا رواية[٦].

وإنما يكون سماع صوتها حرامًا إذا فعل ذلك بشهوة وتلذذ[٧].

٤- وقد يستدل بقوله ﷺ "والقلب يهوى ويتمنى" على تحريم تمني الزنا بالقلب، ولكن يعارضه ما صح وثبت من أن الخواطر، والوساوس معفو عنها وعلى ذلك فيحمل هذا على العزم على ذلك، والجزم به[٨].

٥- إذا قال شخص لآخر "زنت يدك" فهل يعد قاذفًا، ويجب عليه الحد أم لا؟

اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

الرأي الأول: وهو للشافعي في قول[٩] ووجه عند الحنابلة[١٠] اقتصر عليه في المبدع[١١] أنه يعد قاذفًا، ويجب عليه الحد.

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٢٦٠/٩.

(٢) رد المحتار على الدر المحتار ٤٣٧/١.

(٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٠/٣، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٦٠/٣، وحلية العلماء ١١٣/٢.

(٥) الفروع، ابن مفلح ٢٦٠/٩، واقتصر عليه في شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي .

(٦) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢، وحلية العلماء ١١٣/٢.

(٧) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٨) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٥/٨. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به" أخرجه البخاري ٦٦٦٤، ومسلم ١٢٧.

(٩) التنبيه للشيرازي ٢٤٣.

(١٠) الفروع، ابن مفلح ٩٢/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢١٣/١٠.

(١١) المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٩٢/٩.

الرأي الثاني: وهو للحنفية[١]، والمالكية[٢]، وبعض الشافعية[٣]، ووجه عند الحنابلة[٤] ويرون أنه لا يعد قاذفًا، ولا يجب عليه الحد.

واستدل للرأي الأول: بأن الأفعال إنما تضاف إلى الأيدي، كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٦]، وليس ذلك مقصورًا على جناية الأيدي دون غيرها من الأعضاء، فكأنه إذا جعل اليد زانية، صار الزنا وصفًا للذات[٧].

واستدل للرأي الثاني: بأن القائل "زنت يدك" كقوله "زنت عينك" والثاني لا يعد قذفًا بالاتفاق، فكذا الأول[٨].

والراجح: أن هذا اللفظ يعد من كنايات القذف، فإن قصد به القذف كان قاذفًا ويحد، وإلا فلا[٩].

المضامين الدعوية[١٠]

أولاً: من صفات الداعية: البيان والتوضيح.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الأمور المحرمة التي قد تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٣/٥، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣١٦/٣.

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٣١٦/٣.

(٣) التنبيه ٢٤٣.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٩٢/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢١٣/١٠.

(٥) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٦) سورة الحج، آية: ١٠.

(٧) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٩/٨.

(٨) المرجع السابق ١٨٩/٨.

(٩) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٧٠/٣.

(١٠) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٢٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٢٥).

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حماية العرض والمحافظة على سلامة ونظافة المجتمع.

رابعًا: من آداب المدعو: الحرص على تقوى الله، والبعد عن المحرمات:

أولاً- من صفات الداعية: البيان والتوضيح:

إن من أهم الصفات الرئيسة للداعية التي لا غنى له عنها البيان والتوضيح، فلقد أمر الله الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس[١]، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[٢] ومن ذلك ما جاء في الحديث من البيان والتوضيح لما يقترفه الإنسان من ذنوب تتعلق بجوارحه دون الفرج للتقليل منها قدر المستطاع، وأخذ الحذر منها ومن عواقبها، فقال ﷺ: "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى..."، قال ابن علان: (قال السيوطي: معنى الحديث أن ابن آدم قدر عليه نصيبه من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقيًا بإدخال الفرج في الفرج، ومنهم من يكون مجازيًا بالنظر المحرم ونحوه من المذكورات، فكلها أنواع من الزنا المجازي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، أي: إما يحققه بالفرج أي بأن يحصل الإيلاج أولا بأن لا يحصل ذلك[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الأمور المحرمة التي قد تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة:

إن بيان النبي ﷺ في الحديث للأمور التي تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة، تحذيرٌ منها، حتى لا يقع الإنسان في المنهي عنه ولا يقترف محظورًا، ولذا كان تعبير القرآن: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[٤] قال القرطبي: (قال العلماء: قوله تعالى: "ولا تقربوا الزنا" أبلغ من أن يقول ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا[٥]، وذلك كناية عن شدة النهي)[٦]، قال

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٢، ١٦٦٣.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٠/٥.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٩١/١٥/٦.

ابن عثيمين في شرحه لهذا الحديث: "فدل ذلك على الحذر من التعلق بالنساء، لا بأصواتهن، ولا بالرؤية إليهن، ولا بمسهن، ولا بالسعي لهنّ، ولا بغواية القلب لهن، كل ذلك من أنواع الزنا، والعياذ بالله، فليحذر الإنسان العاقل العفيف من أن يكون في هذه الأعضاء شيء يتعلق بالنساء، والواجب على الإنسان إذا أحس من نفسه بهذا أن يبتعد، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس الملعون، قد ينظر المرء إلى امرأة، ولا تتعلق نفسه بها أول مرة، لكن في الثانية والثالثة حتى يكون قلبه معلقًا بها والعياذ بالله، ويصبح هيمان لا يذكر إلا هذه المرأة، إن قام ذكرها وإن قعد ذكرها، وإن نام ذكرها، وإن استيقظ ذكرها، فيحصل بهذا الشر والفتنة"[1].

وأول الأسباب وأعظمها للوقاية من ورود موارد التهلكة، غض البصر قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

قال ابن كثير: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضُّوا من أبصارهم عمَّا حُرِّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد، فليصرف بصره سريعًا)[3].

لأن البصر كما يقول القرطبي: (هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما تخشى الفتنة من أجله)[4].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ يقول ابن كثير: (أي لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته، ويُروى في قلبه)[5].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٢٢.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٢٧٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦/١٢/٢٢٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٢٧٣.

وكما جاء القرآن آمرًا بغض البصر عن المحارم، كذلك جاءت السنة المطهرة بذلك تحث على غض البصر وحفظ الفرج[١].

إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة: فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سمّى النظر والنطق زنا؛ لأنه يدعو إلى الزنا الحقيقي)[٢].

وقال ابن القيم: (فبدأ بزنى العين؛ لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبّه بزنى اللسان بالكلام، وعن زنى الفم بالقبل، وجعل زنى الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا إن لم يحققه، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقًا)[٣].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حماية العرض والمحافظة على سلامة ونظافة المجتمع:

إن في تشديد الإسلام في اقتراف الفاحشة والإرشاد إلى البعد عن أسبابها ودواعيها صيانة للأعراض، وذلك بالابتعاد عن مسببات الفاحشة والتي أشير إليها في الحديث، "والاحتماء بسلطان الإيمان، فإن الإيمان قوة قاهرة غلابة أقوى من الغرائز والشهوات، وأقوى من سلطان العادات، وأقوى من كل المؤثرات، فالإيمان والمثل العُلى التي يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها"[٤].

إن الإسلام لما أراد تطهير المجتمع من أوساخ الرذيلة وبراثن الخطيئة، ودعا إلى إشاعة النظافة الخلقية في المجتمعات، لم يقتصر على تحريم الفاحشة فحسب، بل حرم الأسباب المفضية إليها.

---

(١) انظر: "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس بن السعيد محمد، ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣١/١١.

(٣) روضة المحبين ٨٤.

(٤) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢١٧.

فمن قواعد الشرع المطهرة، أن الله سبحانه إذا حرم شيئًا، حرم الأسباب والطرق والوسائل المفضية إليه؛ تحقيقًا لتحريمه، ومنعًا من الوصول إليه، أو القرب من حماه، ووقاية من اكتساب الإثم، والوقوع في آثاره المضرة بالفرد والجماعة.

ولو حرَّم الله أمرًا، وأبيحت الوسائل الموصلة إليه، لكان ذلك نقضًا للتحريم، وحاشا شريعة رب العالمين من ذلك.

وفاحشة الزنا من أعظم الفواحش، وأقبحها وأشدها خطرًا وضررًا وعاقبةً على ضروريات الدين؛ ولهذا صار تحريم الزنى معلومًا من الدين بالضرورة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

ولهذا حُرِّمت الأسباب الموصلة إليه من: السفور ووسائله، والتبرج ووسائله، والاختلاط ووسائله، وتشبه المرأة بالرجل، وتشبهها بالكافرات، وهكذا. من أسباب الرِّيبة، والفتنة، والفساد.

وتأمل هذا السر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله سبحانه لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمه تحريمًا غائيًا، ذكر سبحانه من فاتحتها إلى تمام ثلاث وثلاثين آية أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقاوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف، جماعة المسلمين. وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية، وهي:

١- تطهير الزناة والزواني بالعقوبة الحدية.

٢- التطهر باجتناب نكاح الزانية وإنكاح الزاني، إلا بعد التوبة ومعرفة الصدق فيها.

وهاتان وسيلتان واقيتان تتعلقان بالفعل.

٣- تطهير الألسنة عن رمي الناس بفاحشة الزنى، ومن قال ولا بينة، فيُشرع حد القذف في ظهره.

٤- تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا ولا بينة، وإلا فاللعان.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

٥- تطهير النفوس وحجب القلوب عن ظن السوء بمسلم بفعل الفاحشة.

٦- تطهير الإرادة وحجبها عن محبة إشاعة الفاحشة في المسلمين؛ لما في إشاعتها من إضعاف جانب من ينكرها، وتقوية جانب الفسقة والإباحيين.

ولهذا صار عذاب هذا الصنف أشد من غيره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(١).

ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا.

وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة -في بلاد الإسلام- من الحجاب، والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها، وحشمتها وحيائها.

٧- الوقاية العامة بتطهير النفس من الوساوس والخطرات، التي هي أولى خطوات الشيطان في نفوس المؤمنين ليوقعهم في الفاحشة، وهذا غاية في الوقاية من الفاحشة، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾(٢).

٨- مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت، حتى لا يقع النظر على عورة من عورات أهل البيوت.

٩- تطهير العين من النظر المحرم إلى المرأة الأجنبية، أو منها إلى الرجل الأجنبي عنها.

١٠- تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب عنها.

١١- منع ما يحرك الرجل ويثيره، كضرب المرأة برجلها؛ ليسمع صوت خلخالها، فيجلب ذوي النفوس المريضة إليها.

١٢- الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد ما يستطيع به الزواج، وفعل الأسباب.

والقرآن العظيم، والسنة المشرفة، مملوءان من تشريع الأسباب والتدابير الواقية من هذه الفاحشة في حق الرجال، وفي حق النساء.

---

(١) سورة النور، آية: ١٩.

(٢) سورة النور، آية: ٢١.

فمنها في حق الرجال مع الرجال: وجوب ستر عورة الرجل، فلا يجوز للرجل كشف عورته من السرة إلى الركبة.

ومنها: حجب نظر الرجل عن النساء الأجنبيات.

ومنها: حجب الرجل عن مجالسة المردان من الذكران، والنظر إليهم تلذذًا.

ومنها في حق النساء مع النساء:

ستر عورة المرأة عن المرأة.

يحرم على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها.

ومن أعظم الأسباب والتدابير الواقية من الزنى: فرض الحجاب على نساء المسلمين، لما يحمله من حفظهن، وحياتهن في عفة وستر وتصون وحشمة وحياء، ومجافاة للخنا، وطرد لنواقضها من التبذل، والتسفل، وانتزاع الحياء[1].

رابعًا- من آداب المدعو: الحرص على تقوى الله، والبعد عن المحرمات:

جاء في الحديث بيان الزنا الحقيقي، قوله ﷺ: "ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه" وبيان الأسباب المؤدية إليه من إطلاق الإنسان العنان لجوارحه "العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع..." وذلك تحذيرًا من التردي في مهاوي التهلكة، والحث على تقوى الله ومراقبته، والبعد عن المحرمات، وذلك بالابتعاد عن المثيرات كالنظر وغيره، والابتعاد عن أماكن الاختلاط والفجور، والتبرج والسفور، وعن مخالطة أصحاب الشهوات والمعرضين عن طاعة رب الأرض والسماوات، والعمل على تقوية الإيمان واستشعار مراقبة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، فهو سبحانه رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد ص ١٠٩-١١٢.

(٢) سورة الحديد، آية: ٤.

كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم[١] كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢] وقال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[٣]. وقال النبي ﷺ في بيان درجة الإحسان: ((أنْ تَعْبُدَ اللهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك))[٤]، فإذا ما استشعر القلب حلاوة الإيمان، والمراقبة، فإنه يستحي من مخالفة أمره وارتكاب نهيه، ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفى عنه يغيب[٥]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩/٨.

(٢) سورة هود، آية: ٥.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٨.

(٥) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

الحديث رقم (١٦٢٥)

١٦٢٥ - وعن أَبي سعيد الخُدريِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**إِيَّاكُمْ والجُلُوس فِي الطُّرُقَاتِ!**)) قالوا: يَا رسولَ الله، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**)) قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: ((**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، والأمرُ بالمَعْرُوفِ، والنَّهيُ عنِ المُنْكَرِ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

غَضُّ البصر: خَفْضُه وكفُّه[2].

كفُّ الأذى: مَنْعُهُ[3].

المعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه من الإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع[4].

المنكر: كل ما قبَّحه الشرعُ وكرِهَهُ[5].

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بعدة ظواهر فنية وأسلوبية تساعد القارئ والمتلقي على فهم المعنى، واستنباط الدروس المستفادة من هذه المحاورة بين النبي ﷺ وأصحابه الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١)، والسياق للحميدي في جمعه (٢/٤٣٥، رقم ١٧٤٩)، وتقدم برقم (١٩٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٠٩).

(٢) الصحاح في (غ ض ض).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ف ف).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ف).

(٥) المرجع السابق في (ن ك ر).

استمعوا إليه، وأول ظاهرة أسلوبية تتمثل في مفتتح الحديث: وهي: أسلوب التحذير، وهو تنبيه المخاطب إلى أمر مذموم ليجتنبه، وهذه الصيغة التحذيرية تتفق مع مضمون الحديث الشريف، لأنه يحذر من سلوكيات اجتماعية فصلها الحديث بعد ذلك.

وصيغة الحوار والسؤال والجواب: بين رسول الله ﷺ والحاضرين من أصحابه تضفي على الحديث صيغة التعليم والتوجيه والإقناع؛ وأسلوب الشرط: المتضمن للاستثناء في قوله: "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه"، هذا الأسلوب يرشد إلى أن الجلوس في الطرقات ليس اختيارًا، ولكنه استثناء، ولظروف خاصة، وهو له شروط وآداب وسلوكيات لا بد أن تُتَّبع، وإلا فهو غير مباح، ويظل في دائرة التحذير التي بُدئ بها الحديث الشريف، والخطاب في الحديث، للصحابة، ولكل المسلمين في كل عصر لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن سمات البلاغة في هذا الحديث الإيجاز: فكل معلم من معالم حق الطريق في هذا الحديث يعد بابًا واسعًا، وأفقا رحبا من السلوكيات التي تجعل المجتمع آمنًا، والحرمات مصونة، والأعراض محمية.

ولنتأمل التناسق في البناء اللغوي لهذه المعالم الخمسة، فهي كلها مصادر ثلاثية مضافة إلى ما بعدها، وهي كلها حق الطريق، وهي: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، وتأمل الطباق بين قوله: "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، وفي ذلك إرشاد إلى أن المسلم لا يكون سلبيًا بل يلتزم بالسلوكيات الصحيحة الثلاثة الواردة في أول هذه الحقوق، ثم يرشد غيره ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، والمعروف والمنكر، كلمتان جامعتان لكل المأمورات والمنهيات، وهذا الإيجاز المفيد من أدق أسرار بلاغة الرسول الكريم ﷺ.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام الفقهية الآتية:

١- وجوب غض البصر عن النظر إلى العورات، وإلى جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة منه[1]، وقد قال النبي ﷺ لعلي ((لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّما لَكَ

---

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٢/١١٠.

الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ))[1].

٢- وجوب كف الأذى، ويدخل في كف الأذى: اجتناب الغيبة، وظن السوء واحتقار بعض المارين، ومن الأذى أيضًا: تضييق الطريق على المارين، أو منع النساء من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق، أو أن يجلس بقرب باب دار إنسان يتأذى بذلك، أو حيث يكشف من أحوال النساء شيئًا يكرهونه[2].

٣- وفيه لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب رد السلام، إذ هو فرض بالإجماع، فإن كان السلام على واحد كان الرد فرض عين عليه، وإن كان على جماعة كان الرد فرض كفاية في حقهم، إذا رد أحدهم سقط الحرج عن الباقين[3].

٤- وفيهما: كراهية الجلوس في الطرقات، لما فيه من التعرض للفتن، والإثم بمرور النساء، وقد يمتد نظر إليهن، أو فكر فيهن، أو سوء ظن بهن، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن تجنبها بعدم الجلوس في الطرقات[4].

٥- وفيهما: الندب إلى لزوم المنازل التي يسلم لازمها من رؤية ما يكره رؤيته وسماع ما يجب عليه إنكاره، ومن معاونة مستغيث يلزمه إعانته، وذلك لأن رسول الله ﷺ إنما أذن في الجلوس بالأفنية، والطرق بعد نهيه عنه، لمن قام بالمعاني التي ذكرها رسول الله ﷺ[5].

المضامين الدعوية[6]

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٧٧٧، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٩٠٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٢، ١٤٢.

(٣) المرجع السابق ١٤/٣٢.

(٤) المرجع السابق ١٤/١٤٢.

(٥) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٢/١١٠.

(٦) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٢٦)

١٦٢٦ - وعن أَبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا قُعُودًا بالأفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ (فيهَا)[1] فَجَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: ((مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ)) فقُلْنَا: إنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأسٍ، قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ، وَنَتَحَدَّثُ. قَالَ: ((إمَّا لاَ فَأدُّوا حَقَّهَا: غَضُّ البَصَرِ، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَحُسْنُ الكَلاَمِ)). رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو طلحة الأنصاري: وهو الصحابي الجليل زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد، النَّجَّاري، الخزرجي، الأنصاري، المدني، صاحب رسول الله ﷺ، يكنى بأبي طلحة واشتهر بها وباسمه، وهو من فضلاء الصحابة، وهو زوج أم سليم بنت مِلْحان أم أنس بن مالك، وعقبه منها، روى عن النبي ﷺ، وروى له الجماعة، وكان قد ولد بالمدينة المنورة، ولما ظهر الإسلام كان من أكبر أنصاره، فكان أحد النقباء في بيعة العقبة، ولما هاجر رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، شهد بدرًا وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ فكان من الذين أبلوا بلاءً حسنًا، وسطر له التاريخ الإسلامي صفحات مضيئة، أوضحت أنه كان من الرماة المذكورين، والشجعان المعدودين من أصحاب رسول الله ﷺ ففي حنين قتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم، وقبل حنين، في أحد كان يقي رسول الله ﷺ بنفسه ويرمي بين يديه، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[3] وما زال مجاهدًا في سبيل الله حتى مات، فعن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ القرآن ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[4] فقال: أن تستنفروا شيوخًا وشبانًا،

---

(١) (فيها) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم (٢١٦١/٢).

(٣) أخرجه البخاري ٣٨١١.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤١.

فقالوا: أبانا لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات ومع أبي بكر وعمر، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر حتى مات، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه إلا بعد سبعة أيام، قال فما تغير[١].

كان متحليًا بمكارم الأخلاق، وعنها حدث ولا حرج، فكان كريمًا معطاءً وقصة استضافته لضيف رسول الله ﷺ مشهورة مسجلة في الصحاح، فقال لامرأته ((ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعالَيْ فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢]))[٣] تصدق بحديقته البيْرحاء وكانت أحب أمواله إليه، فقال له رسول الله ﷺ بَخٍ بَخٍ، ذلك مال رابح، أو مال رايح))[٤].

وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ فقابله النبي ﷺ بحب لا نظير له، ففي حجة الوداع لما حلق النبي رأسه خصه بشعر شقه الأيمن ووزع الشق الآخر على الناس ((... ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر فقال احلق فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: اقسمه بين الناس))[٥] وكان النبي ﷺ يزوره في بيته ويداعب أولاده ومنهم أبو عمير، ويصلي في بيته، فعن أنس قال ((كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عُمير، قال: أحسبه فطيمًا، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر؟ نغير كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمُرُ بالبساط الذي تحته فيُكنس ويُنْضَح ثم يقوم، ونقوم خلفه، فيصلي بنا))[٦].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٥٤٩. وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
(٢) سورة الحشر، آية: ٩.
(٣) أخرجه البخاري ٤٨٨٩.
(٤) أخرجه البخاري، ٤٥٥٤.
(٥) أخرجه مسلم ٢١٥٥.
(٦) أخرجه البخاري ٦٢٠٣.

وكان أبو طلحة هو الذي حفر قبر النبي ﷺ، ولحده.

توفي أبو طلحة رضي الله عنه بالشام، وقيل بالمدينة سنة (٣٢) أو (٣٤)، وهو ابن سبعين سنة، وجزم ابن حجر والمدائني وغيرهما بأنه مات سنة (٥١هـ)[١].

غريب الألفاظ:

بالأفنية: جمع فناء: وهو حريم الدار ونحوها وما كان في جوانبها وقريبًا منها[٢].

الصعدات: جمع صُعُد وهي الطرق، وصُعُد جمع صعيد، وقيل: جمع صُعدة وهي فناء باب الدار وممَرّ الناس بين يديه[٣].

لغير ما بأس: ما هنا زائدة، وبأس: مانع وحرج والمعنى: أن قعودنا لمباح لا لأمر فيه بأس شرعًا [٤].

الشرح الأدبي

ما أجمل هذا المشهد الواقعي، وما أصدق هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وبعض أصحابه: حيث الإصغاء والاستجابة لتعاليم رسول الله ﷺ بعد حوار جميل واقتناع وتسليم واتباع لسنة المصطفى ﷺ.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/٦٥٤-٥٠٧)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٨٢٥، ٨٢٦)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦/١٧٨، ١٧٩)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٥٠، ٤٥١)، سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢/٢٧-٣٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣/٧٩)، (٨/٣٤٥، ٣٤٦)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١/٦٦٦)، السندي (٢٦/٢٦٤)، الأعلام، خير الدين الزركلي (٣/٥٨، ٥٩)، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣/٢٠٧٣-٢٠٧٥).

(٢) شرح مسلم، النووي ١٣٥٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ع د).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب أ س)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٤.

ويبدأ الحديث بالفعل "كنا" وكان فعل ماض ناقص، وهذا البدء بهذا الفعل يدل على أن الجلوس في الصعدات كان من باب العادة والإلف، وهو سلوك مضى وانتهى بعد توجيهات الرسول ﷺ، وإذا حدث فهو مؤطر بإعطاء الطريق حقها، والفعل "كنا" يفصح عن صيغة الحكاية التي اتسم بها الأسلوب في هذا الحديث.

والتعبير بقوله: "نتحدث فيها". تصوير لحال هؤلاء الصحابة وهم قعود بالصعدات، والجمع بين قولهم، "نتذاكر ونتحدث" ليس إسهابًا، ولكن لكل فعل دلالته، فقولهم: "نتذاكر" أي أنهم جادون يتذاكرون مسائل العلم، وقولهم: "نتحدث" يدل على أنهم يتكلمون في الأمور المباحة من أمورهم الدنيوية، فهم يجمعون بين العلم والأمور العامة، وقولهم "لغير ما بأس" يفصح عن طبيعة أحاديثهم التي لا تخوض في الأمور المنهي عنها؛ وقولهم: "فجاء... فقام علينا"، يوحي بالتأمل واستنكار ما يحدث.

وهذا الاستنكار جاء صريحًا في ذلك الاستفهام الإنكاري، "ما لكم ولمجالس الصعدات؟؟!!!".

واختيار لفظ "الصعدات" والعدول عن لفظ "الطرقات"، ليس من باب الترادف، ولكن لتحديد طبيعة المجلس، ونوع الضرر الناتج عنه: فالصعدات هي: الطرق أو الممرات التي يصعد منها أصحاب الدور لحوائجهم، ويأتي الإنكار أكثر صراحة في صيغة الأمر: حيث قال رسول الله ﷺ "اجتنبوا مجالس الصعدات".

وفي قوله: "إما لا فأدوا حقها"، إيجاز وبلاغة نابعة من سياق ومراعاة مقتض الحال، فبعد الحوار. والتفصيل أصدر الرسول أوامره الرشيدة في إيجاز بليغ، وأسلوب رقيق دقيق، وأوجز للإيحاء بسرعة الاستجابة للمحافظة على حقوق الطريق، وقد حذفت كان واسمها، وحذف الخبر الواقع بعد "لا" في قوله: "إما لا" والتقدير: إن كنتم لا تتركونها: فأدوا الطريق حقها، فالإيجاز هنا إيحاء بضرورة الإسراع والتنفيذ، وهذا الأسلوب الشرطي: يؤكد حتمية مراعاة آداب الطريق، وأداء حقها وهي: غض البصر، ورد السلام، وحسن الكلام، اتباعًا لأمر المصطفى ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وسؤالهم والوقوف على أحوالهم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الالتزام بآداب حق الطريق.

رابعًا: من أهداف الدعوة: تعليم المدعوين مراعاة الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق.

أولاً- من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وسؤالهم والوقوف على أحوالهم:

جاء في الحديث الأنموذج التطبيقي لذلك والمثل الحي في تفقد النبي ﷺ في الحديث لصحابته "فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا" أي وقف علينا[1] وتلك من آداب الداعية الناجح، فالدعوة لا تقف عند مجرد الخطب والمواعظ، وإنما يضاف إلى ذلك الدعوة الحركية التنفيذية، وذلك أن الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة، ومن شأنه هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة، لا يكف عن الدعوة، ولا يخمد عن العمل، يزور هذا ويدعو ذاك، ويتحدث إلى آخر، ويدور على الأندية والمجالس وغير ذلك، ويقف على أحوال الناس، فالداعية لا يخلد إلى راحة، ولا يركن إلى دعة، فراحته في تعبه، وسعادته في دعوته[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد ذلك في الحديث "فقال: ما لكم ولمجالس الصعدات؟ اجتنبوا مجالس الصعدات، فقلنا: إنما قعدنا لغير ما بأس، قعدنا نتذاكر ونتحدث..." وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العالية، فالسؤال يجعل المدعوين في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة الإجابة على الأسئلة المطروحة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، لذا ينبغي على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن[3] وقد استخدم

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٦٤

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٢٥٤.

(٣) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨، ٦٠.

القرآن أسلوب السؤال والجواب في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[1] وقوله ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[2] وذلك استفهام تمهيدي للفت الأنظار والتنبيه إلى ما جاء في الجواب عنه[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الالتزام بآداب حق الطريق:

إن الإسلام كله أدب وذوق رفيعان، لم يصل إليهما، بل لم يعرفه بنو آدم من قبل أن يمن الله علينا بهذا الدين، وما كان لهم أن يكون لهم ذلك بغير تعليم العليم الخبير لهم وتربيته وتزكيته لهم، فالإسلام كله ناطق بهذه السمة في تعاليمه وأحكامه كلها[4]، والتي منها ما شرعه الإسلام من آداب للطريق، والتي وردت في الحديث "فأدوا حقها: غض البصر ورد السلام وحسن الكلام"، قال القاضي عياض: (قد تبين من هذا معنى علة ما نهى عنه من الجلوس على الطرقات، من التعرض للفتن بحضور النساء، وخوف ما يلحق من ذلك من النظر إليهن والفتنة بسببهن، ومن التعرض لحقوق الله والمسلمين بما لا يلزم الإنسان إذا كان في بيته، وحيث ينفرد أو يشتغل بما يلزمه، ومن رؤية المناكر وتعطيل المعارف، فيجب على المسلم الأمر والنهي عند ذلك، فإن ترك ذلك، فقدتعرض لمعصية الله.

وكذلك هو يتعرض لمن يمر عليه ويسلم، وربما كثر ذلك عليه فيعجز عن رد السلام على كل مارٍ، ورده فرض، فيأثم، والمرء مأمور ألا يتعرض للفتن، ولا لإلزام نفسه ما لعله لا يقوم بحقه فيه، فندبهم النبي ﷺ إلى ترك هذا، فلما أعلموه أنه لابد لهم من ذلك، لما يقصده الإنسان بمجالسة جيرته وأصحابه في أفنية منازلهم، لترويح

---

(١) سورة الصف، آية: ١٠، ١١.

(٢) سورة النازعات، آية: ١٥.

(٣) انظر: تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ١٣١٨.

(٤) الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ص ١٦٩.

قلوبهم وقضاء حوائجهم، والمباحثة عن أحوالهم. قال لهم: إن أبيتم إلا ذلك فأدوا الحقوق اللازمة لكم.

وفيه دليل، أن أمره ﷺ لم يكن لهم على الوجوب، وإنما كان على طريق الترغيب والحض لما هو أولى، إذ لو فهموا منه الوجوب لم يراجعوه هذه المراجعة، وقد يحتج به من لا يرى الأوامر على الوجوب، وفيه حجة على وجوب رد السلام، وحجة على أن الماشي يسلم على القاعد.

وأما قوله: "وكف الأذى": فيحتمل أن يكف أذى الناس بعضهم عن بعض، وهو من نحو قوله: "والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقد يكون أن تكف أذاك عن المار فيه بألا تجلس حيث يضيق عليه الطريق، أو من يتأذى بجلوسك على باب منزله، أو طريق واردته، أو حيث يكشف عياله، أو ما يريد التستر به من حاله.

وقوله: "وحسن الكلام": ندب إلى حسن معاملة المسلمين بعضهم لبعض، وأن الجالس على الطريق يمر به العدد الكثير من الناس، فربما سألوه عن بعض شأنهم، ووجهة طرقهم، فيجب أن يتلقاهم بالجميل من الكلام، ولا يتلقاهم بالضجر وخشونة اللفظ، ولعل هذا من باب كف الأذى المتقدم[١]".

قال ابن حجر: "وقد تبين من سياق الحديث، أن النهي عن ذلك للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وأشار بغض البصر إلى السلامة من التعريض للفتنة بمن يمر من النساء وغيرهن، وبكف الأذى إلى السلامة من الاحتقار والغيبة ونحوها، وبرد السلام إلى إكرام المار، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى استعمال جميع ما يشرع وترك جميع ما لا يشرع[٢]".

إن طرقاتنا في حاجة إلى ما يزيل ما أصابها من قذارة حسية وأخلاقية.

لقدشرع إسلامنا آداب الطريق وألزمنا بها وأمرنا بإماطة الأذى عنها أيًا كان نوعه حسيًا كان أم أدبيًا. إن مما يدخل في أذى الطريق ما نراه ونسمعه في غدونا ورواحنا من

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٤/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٥/٥.

مخالفات شرعية، وفوضى أخلاقية من سب للدين وقذف للمحصنات، وهتك للعورات، وعري فاضح، ومشاهد مرذولة، وشتم ولعن، وتضييق على المسلمين، ومعاكسات للفتيات، ونظرات خائنة، وغمز ولمز، وغيبة ونميمة، وإذلال للمسلمين، وأصوات عالية تضج بها المحلات والمقاهي ينبعث منها غناءٌ فاضح، دون محافظة على مشاعر الناس، ودون مراعاة لمريض يبحث عن الراحة!!

أليست كل هذه المخالفات تُعد أذى؟! أليس أصحاب هذه الجرائم يستحقون التأديب والتأنيب؟![1]

رابعًا- من أهداف الدعوة: تعليم المدعوين مراعاة الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق:

إن تعليم المدعوين الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق من الأهداف الدعوية التي لا يستهان بها، لذا أمر النبي ﷺ باستصحاب هذه الآداب وتطبيقها، ومن هذه الآداب ما جاء في الحديث "غض البصر ورد السلام وحسن الكلام" قال النووي: (ونحو ذلك من الأسباب التي لو خلا في بيته سلم منها، ويدخل في الأذى أن يضيق الطريق على المارين، أو يمتنع النساء ونحوهن من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق، أو يجلس بقرب باب دار إنسان يتأذى بذلك، أو حيث يكشف من أحوال الناس شيئًا يكرهونه)[2] وإن الالتزام بالآداب الإسلامية والتمسك بها سبب لرقي المجتمع وانتظامه وسعادته، ويتمثل فيها مدى انتصار الإنسان على النفس، وسرعته في الاستجابة، وقوته في الانقياد للأمر، مهما يكن مخالفًا للعادات، مصادمًا للشهوات[3].

لقد ضمنت السنة النبوية حقوق الطريق، وحقوق الطريق التي بينها رسول الله ﷺ هي: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر) وهذه الحقوق ليست من باب الحصر، وإنما هي بعضها، وقد بينت أحاديث أخر حقوقًا للطريق غير هذه، فعُلم أن المذكورات التي في الحديث ليست من باب الحصر.

---

(١) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف عزيز، ٣٢٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٤.

(٣) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

أ-غض البصر: الأمر بغض البصر يشترك فيه الرجال والنساء على حدٍ سواء، وذلك؛ لأن إطلاق البصر فيما يحرم يجلب عذاب القلب وألمه، وهو يظن أنه يروح عن نفسه ويبهج قلبه، ولكن هيهات. وأعظمهم عذابًا مدمنهم، وكماقال ابن تيمية: تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان، وإن قويت حتى صارت غرامًا وعشقًا زاد العذاب الأليم، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه، فإن كان عاجزًا فهو في عذاب أليم من الحزن والهم والغم، وإن كان قادرًا فهو في عذاب أليم من خوف فراقه، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه[1]. وأصل ذلك ومبدؤه من النظر، فلو أنه غض بصره لارتاحت نفسه وارتاح قلبه.

إن الشرع المطهر لم يغفل ما قد يقع من الناس بدون قصد منهم، بل أمر من نظر إلى امرأة أجنبية بدون قصد منه أن يصرف بصره عنها ولا يتمادى. قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: ((سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نَظْرة الفُجاءة فأمرني أن أصرف بصري))[2]. ومعنى نظر الفجأة: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث[3].

ب-كف الأذى: ومن حقوق الطريق، كف الأذى، وعدم إيذاء الناس في أبدانهم أو أعراضهم. وفي الحديث الذي رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده... الحديث))(٤). والحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، فيشمل اللسان من تكلم بلسانه وآذى الناس في أعراضهم أو سبهم، ويشمل من أخرج لسانه استهزاء وسخرية. وكذا اليد فإن أذيتها لا تنحصر في الضرب، بل تتعداها إلى أمور أخر كالوشاة بالناس والسعي في الإضرار بهم عن طريق الكتابة، أو القتل ونحو

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥٦/١٤، ١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٥٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ٤٠٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢١٠، ومسلم ٤٠.

ذلك. بل إن من محاسن هذا الدين أن كان كف المرء شره وأذاه عن الناس صدقة يتصدق بها على نفسه. جاء ذلك صريحًا في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: ((أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهادٌ في سبيله. قلت: فأي الرقاب أفضل. قال: أعلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها. قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق. قال: فإن لم أفعل؟ قال: تدعُ الناس من الشر فإنها صدقةٌ تصدق بها عن نفسك)) وعند مسلم: ((تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك))[(١)].

ج- رد السلام: ومن حقوق الطريق: رد السلام، وهو واجب لقوله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((خمس تجب للمسلم على أخيه رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز))[(٢)]. وقد قصَّر في هذا الباب خلقٌ كثير، واقتصر سلامهم على المعرفة، فمن عرفوه سلموا عليه أو ردوا عليه سلامه، ومن لم يعرفوه لم يعيروه اهتمامًا. وهذا خللٌ ومخالفة للسنة.

د- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هذا باب عظيم الشأن والقدر، به كانت هذه الأمة خير الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[(٣)]. قال ابن كثير: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[(٤)].

وبتركه يحل بهم العقاب، فقد روى الإمام أحمد في مسنده قال: ((قام أبوبكر رضي الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه فقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[(٥)] إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦ واللفظ له.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر، لا يغيروه، أوشك الله أن يعمهم بعقاب))[١].

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوائد عظيمة للأمة، منها: نجاة سفينة المجتمع من الهلاك والغرق، ومنها: قمع الباطل وأهله، ومنها: كثرة الخيرات والحد من الشرور، ومنها: استتباب الأمن، ومنها: نشر الفضيلة وقمع الرذيلة... إلخ.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصورًا على جهةٍ معينة "كالهيئة مثلاً" أو أُناس معينين "كرجال الحسبة"، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ على كل أحد، كلٌ بحسب استطاعته. والحديث الوارد في ذلك عامٌ لم يخصص أحدًا من أحد. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)). وينبغي عليه إرشاد السائل عن الطريق، وهدايته إليه، سواءٌ كان ضالاً أو أعمى، وجاء هذا الحق مصرحًا به في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الذين سألوا النبي ﷺ عن حق الطريق قال: ((وإرشاد السبيل))[٢])[٣]. وفي حديث آخر لأبي هريرة رضي الله عنه ما يبين أن هداية السبيل من الصدقات، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ودل الطريق صدقة))[٤].

هـ- إزالة الأذى من الطريق: من الآداب المستحبة في الطريق؛ إزالة الأذى عن الطريق، بل هي من الإيمان: قال ﷺ: ((الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أو بضعٌ وستون شعبة، فأفضلها قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١ رقم ١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٧٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ٤٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨١٥، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤٠٢١).

(٤) أخرجه البخاري ٢٨٩١.

(٥) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥ واللفظ له.

وهي من الصدقات، وبسببها أُدخل رجلٌ الجنة. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل سُلامي من الناس عليه صدقة... ثم قال: وتميط الأذى عن الطريق صدقة))[١]. وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي بطريق وجدغُصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له... الحديث)) وعند أبي داود: قال رسول الله ﷺ: ((نزع رجلٌ لم يعمل خيرًا قط غُصن شوك عن الطريق، إما كان في شجرة فقطعه وألقاه، وإما كان موضوعًا فأماطه، فشكر الله له بها فأدخله الجنة))[٢][٣].

و-حسن الكلام: قال النووي في شرح الحديث (وأما حسن الكلام فيدخل فيه حسن كلام الجالسين في الطرقات ونحوها في حديثهم بعضهم لبعض، فلا يكون فيه غيبة ولا نميمة ولا كذب ولا كلام ينقص المروءة، ونحو ذلك من الكلام المذموم، ويدخل فيه كلامهم للمار من رد السلام، ولطف جوابهم له، وهدايته للطريق وإرشاده لمصلحته ونحو ذلك[٤].

وبهذا قد جمع الحديث آداب الطريق، نظمها ابن علان فقال:

آداب من يجلس في الطريق من قول طه خذه بالطريق

أفش السلام وأحسن الكلام عن ... مظلوم واللهفان غث رفيقي

ومُرْ بعرف وانه عن منكر وكف ... أذى وغض الطرف يا صديقي

وشمت العاطس إن يحمد أعن ... في الحمل وأكثر ذكر ذي التوفيق

ورد تسليمًا واهد حائرًا ... والزم تقى الديان بالتحقيق[٥]

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٤، ومسلم ١٩١٤ واللفظ له.

(٣) انظر: كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ٣٠٤-٣٠٨.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٥.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٤.

الحديث رقم (١٦٢٧)

١٦٢٧ - وعن جرير ﷺ قَالَ: سألت رسول الله ﷺ عن نَظَرِ الفَجْأَةِ فَقَالَ: ((اصْرِفْ بَصَرَكَ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

إن الإيجاز، والاختصار، وحذف فضول الكلام: يعد من شروط الفصاحة والبلاغة، لأنه يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وأسلوب النبي ﷺ، في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصيتي: البلاغة والإيجاز، فليست فيه ألفاظ زائدة على المعنى، لأن الزيادة اللفظية تعد عيبًا من عيوب فصاحة اللسان العربي، وخاصية الإيجاز في كلام المصطفى ﷺ، تعد صدى مضيئًا وترجمانًا بيانيًا صادقًا لقوله ﷺ: ((أوتيت جوامع الكلم))[٢].

وهذا الحديث: تطبيق عملي للإيجاز والبلاغة النبوية، لأنه سؤال من جرير وهو ابن عبدالله البجلي الصحابي، حيث سأل رسول الله ﷺ عن أمر شائع يحدث للكثيرين وهو "نظر الفجأة"، ونظر الفجأة أي الذي يحدث بغتة من غير قصد، والدلالة اللغوية تفصح عن ذلك: فالفعل "فاجأه" معناه هجم عليه، والمفاجئ: يطلق على الأسد.

ولهذا السؤال دلالة لازمة له: وهي تفهم من سياق الحديث، وكأنه يريد أن يقول: هل عليَّ إثم وعقوبة؟ وكيف أنجو من ذلك وأحذره، وهو يأتي بغتة؟!

---

(١) برقم (٤٥/٢١٥٩)، واللفظ لأبي داود (٢١٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٤٧). تنبيه: الحديث أورده المنذري وعزاه إلى مسلم، وأبي داود، والترمذي واللفظ لأبي داود، ولما نقله النووي إلى هنا، أسقط المصدرين وبقي اللفظ لأبي داود.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

وتأتي إجابة المصطفى ﷺ: موجزة مقنعة مريحة: تطمئن السائل، وتبدد قلقه وحيرته: حيث قال له: ولكل من يقع في مثل ذلك الموقف الحرج: "اصرف بصرك"، أي تحول ببصرك عن المنظور إليه من غير قصد؛ والمسكوت عنه الذي يفهم من موحيات هذا الأمر النبوي: هو: إنك إذا لم تصرف بصرك أثمت بدوام النظر لما يحرم النظر إليه.

ولم يقل : غض البصر: لأن الغض هو أمر بعدم النظر... أما في هذا الموقف فالرجل نظر، ولكنه "نظر الفجأة"، فلفظ غض لا يتناسب مع المقام والسياق، ولكل مقام مقال.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- وجوب غض البصر في جميع الأحوال، وذلك للحديث، ولقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[١].

ويستثنى من وجوب الغض، ما إذا وجد غرض شرعي يبرر النظر[٢]، كما لو أراد أن يخطب هذه المرأة، أو يشهد عليها، أو يدخل معها في معاملة تجارية، حتى يتسنى له مطالبته بحقوق العقد، كما يستثنى من ذلك -أيضًا- حالة ما لو كان هذا الرجل طبيبًا معالجًا لهذه المرأة، فإنه يجوز له النظر إلى المواضع التي يحتاج إليها في ذلك، ولكن قيد العلماء ذلك بأن يكون ذلك بحضرة الزوج أو محرم[٣].

٢- وفيه دليل على أن النظر الواقع فجأة دون قصد وتعمد، لا يوجب إثمًا على الناظر لأن التكليف به خارج عن حدود الاستطاعة، أما ما يوجب الإثم فهو نظر التعمد أو ترك صرف البصر بعد نظر الفجأة[٤].

---

(١) سورة النور، من آية: ٣٠.

(٢) شرح معاني الآثار، الطحاوي ١٥/٣، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٨١/٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩/١٤، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٢/٢.

(٣) منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٢/٢، ١٢٣، ١٢٨.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤١/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩/١٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية غض البصر عن المحرمات.

ثالثًا: من آداب المدعو: صرف البصر عن نظرة الفجاءة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قول جرير رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: "اصرف بصرك" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المفيدة فهو من أساليب الأداء البياني، وله قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، فهم إذا تلقوا الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة، ويختزنونها برغبة منبعثة من نفوسهم، ولا يجدون في نفوسهم أي عقبة تصرفها عن ذلك، ثم تدفعهم الرغبة إلى الحديث عما ثبت في أذهانهم من الأسئلة والأجوبة عليها في مجالس مختلفة، فيروونها كما جرت في مجلس السؤال والجواب[١]. وقد ورد ذلك في كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[٢] وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[٣].

فينبغي على طالب العلم وراغب المعرفة أن يسأل عما لا يعلمه، وقد عد الإمام بدر الدين الغزي من آداب المتعلم السؤال فقال ومنها - من آداب المتعلم- أن لا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهه رق علمه، ومن رق وجهه عند السؤال، ظهر نقصه عند اجتماع الرجال[٤].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨-٦٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٣.

(٤) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، بدر الدين محمد بن محمد الغزي ص ١٥١.

لقد صور لنا النبي ﷺ الجهل ووصفه بأنه مرض وأن الشفاء منه والتعافي عنه السؤال، فروى عن عطاء بن جابر رضي الله عنه ((خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حَجَرٌ فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب - شك موسى- على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده))[1].

والعيّ هو التحير في الكلام وعدم الضبط، ويطلق على الجهل، والمعنى أن الجهل داء وشفاؤها السؤال والتعلم[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية غض البصر عن المحرمات:

جاء في الحديث الأمر بصرف الأبصار وغضها عن المحرمات، فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة فقال "اصرف بصرك" قال النووي: (ومعنى نظرة الفجاءة: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث فإنه ﷺ أمره أن يصرف بصره، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[3] وفي هذه الآية أمر الله عز وجل بغض البصر، وصيانة الفرج، وقرن بينهما في معرض الأمر، وبدأ بالأمر بالغض، لأن العين رائدٌ للقلب.

فالواجب على المسلم أن يحرص على سلامة قلبه، ورضا ربه بغض بصره، فالنظرة سهم مسموم من سهام إبليس:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

---

(١) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١٨٥.

(٣) سورة النور، آية: ٣٠.

وباعــث الطــرف يرتــاد الــشفاء لــه   طوقـــه إنــــه يأتيـــه بالعطـــب[١]

لقد أمر الله تبارك وتعالى في القرآن والرسول ﷺ في السنة النبوية بصريح النصوص بغض الأبصار وحفظها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

وروي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم))[٣].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ((أردف رسول الله ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عَجُزِ راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيئًا، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي ﷺ، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها. فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله في

---

(١) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ رقم ٢٢٧٥٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤١٧/٣٧.

الحج على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم))[١].

وروي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد))[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به في الحسنات. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى هذه المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ما منكم من رجل يخرج من بيته متطهرًا فيصلي مع المسلمين الصلاة ثم يجلس في المجلس ينتظر الصلاة الأخرى، إن الملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. فإذا قمتم إلى الصلاة فاعدلوا صفوفكم، وأقيموها وسدوا الفرج، فإني أراكم من وراء ظهري، فإن قال إمامكم: الله أكبر، فقولوا: الله أكبر، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، وإن خير صفوف الرجال المقدم، وشرها المؤخر، وخير صفوف النساء المؤخر، وشرها المقدم. يا معشر النساء: إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن، لا ترين عورات الرجال من ضيق الأزر))[٣].

إن غض البصر عن العورة التي يُنهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن، له ثلاث فوائد:

الأولى: حلاوة الإيمان ولذته والتي هي أطيب وأحلى مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

الثانية: نور القلب والفراسة، ولذلك ذكر الله عز وجل، عقب آيات غض البصر التي في سورة النور قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٤] وذلك لأن الله عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٢٨ واللفظ له، ومسلم ١٣٣٤.

(٢) أخرجه مسلم ٣٣٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩٣/٣ رقم ١٤١٢٣، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٦/٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٣٥.

يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه. فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل، أطلق نور بصيرته وفتح عليه باب العلم والمعرفة.

الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة.

- يبدل الله صاحبه نورًا يجد حلاوته في قلبه.
- فيه طاعة لله ورسوله يترتب عليها محبة توصله إلى الجنة.
- من أهم الصفات التي يتحلى بها المؤمن وتتولد من الحياء.
- فيه راحةٌ للنفس والبدن.
- يصون المحارم ويجنب الوقوع في الزلل.
- يجعل المجتمع المتحلي بهذه الصفة مجتمعًا آمنًا متحابًا.
- يصون المجتمع من انتشار الزنى.
- يضرُّ بالشيطان وأعوانه ويستجلب العفة[١].

ثالثًا- من آداب المدعو: صرف النظر عن نظرة الفجاءة:

وذلك ما جاء في منطوق الحديث، بصرف البصر عن نظرة الفجاءة فقال ﷺ لجرير عندما سأله عن نظرة الفجاءة "اصرف بصرك" يعني أدره يمينًا أو شمالاً حتى لا تنظر، فيستفاد من هذا الحديث تحريم نظر الرجل إلى المرأة، لكن إذا حصل هذا فجأة فإنه يعفى عنه لأنه بغير اختيار من الإنسان، لكن يجب عليه أن يصرف بصره[٢]؛ وذلك من الآداب الواجب التأدب بها والتزامها من قبل المدعو، حفاظًا على قلبه من الفتنة، وجوارحه من المعصية، قال القرطبي: (البصر: هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله[٣] قال بعض السلف: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته)[٤].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين ١٧٢٤/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٨/١٢/٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٨٣/٢.

وغض البصر دليل على عمران باطن المسلم بمراقبة الله عز وجل وتقواه، قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد إنَّ التقوى سبب لغضِّ البصر وتحصين الفرج)[١] وهو سبب من أسباب الفراسة وملء القلب بالنور، ولذلك ذكر الله عز وجل عقب آيات غض البصر التي في سورة النور قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢] وذلك لأن الله عز وجل يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل، أطلق نور بصيرته وفتح عليه باب العلم والمعرفة[٣]. قال شجاع بن شاة: (من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وأكل الحلال، لم تخطئ له فراسة)[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠٩/٩.

(٢) سورة النور، آية: ٣٥.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٢٥/١٥.

الحديث رقم (١٦٢٨)

١٦٢٨ – وعن أُم سَلَمَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالت: كنتُ عِنْدَ رسول الله ﷺ ، وعندهُ مَيْمُونَة ، فَأَقْبَلَ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ أنْ أُمِرْنَا بِالحِجَابِ فَقَالَ النبيُّ ﷺ : ((احْتَجِبَا مِنْهُ)) فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، ألَيْسَ هُوَ أعْمَى! لاَ يُبْصِرُنَا ، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : ((أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما ألَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ!؟)). رواه أبُو داود والترمذيُّ[1] ، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

الشرح الأدبي

الطهر في معناه الأسمى يتجسد نورا ينبعث من بيوت النبي ﷺ ليعم الأمة ، وينبعث شعاعا من أخلاق الطاهرات فيها ليضيء الطريق لكل المؤمنات على مر العصور ،وهذا الحديث يحكي موقفا تعليميا يقوم على الحوار بين أمهات المؤمنين، ورسول ﷺ ، وقد بدأ الحوار بأمر النبي ﷺ لزوجتيه بالاحتجاب عند دخول ابن أم مكتوم في قوله : (احتجبا منه) أمر باتخاذ ستر مانع من رويتهم له ،ورؤيته لهم - لو فرض بأنه يبصر- وقولهن (ألَيْسَ هُوَ أعْمَى! لاَ يُبْصِرُنَا ، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟) استفهام تحقيق، وتثبيت تلوح منه أمارات التعجب من سر الأمر بالاحتجاب ،ويؤكده توكيد جملة (هو أعمى) بجملة (لا يبصرنا) وهي توكيد معنوي لسابقتها لأنها بمعناها ، وهو ما سوَّغ للفصل بين الجملتين بعدم الربط بواو العطف التي تقتضي المغايرة ، والجملتان كالجملة الواحدة ،ولا يعطف الشيء على نفسه ، وقول النبي ﷺ (أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما ألَسْتُمَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨) واللفظ له، وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٥٧٥)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٥١٢/٧): هذا الحديث صحيحٌ. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٢٢٤٩/٥): ليس في إسناده سوى نبهان مولى أمّ سلمة شيخ الزهريّ، وقد وثّق اهـ. والحديث ضعيف لجهالة نبهان مولى أم سلمة ، وقال الإمام أحمد: نبهان روى حديثين عجيبين، وذكر منه هذا الحديث.

تُبْصِرَانِهِ؟) استفهام ورد على أسلوب الحكيم لأنهما سألا عن حال الرجل الأعمى ،ولم يسألا عن أنفسهما ،فأجابهما بما ينبههما إلى أمر غفلا عنه وهو رؤيتهما له، وأن الأمر بالاحتجاب ليس لنظره هو فقط بل لنظرهما أيضا، والطباق بين قوله أفعمياوان، وبين قوله تبصرانه يؤكد المعنى ، ويشير إلى أن سر الأمر بالاحتجاب أولا، والاستفهام ثانيا يرجع إلى رؤيتهما، وليس إلى رؤيته مما يوجب على المرأة المؤمنة غض بصرها من النظر إلى غير محارمها.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على مسألة: حكم نظر المرأة إلى الرجل.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الشافعي[1] في قول، والإمام أحمد[2] في رواية، ويريان أنه يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل، كما يحرم على الرجل أن ينظر إلى المرأة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[3]، والمالكية[4]، والشافعي[5] في قول، وأحمد[6] في رواية، ويرون أنه يجوز للمرأة أن تنظر من الرجل إلى ما ليس بعورة.

الأدلة:

أولاً: أدلة الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على ما ذهبوا إليه من عدم جواز نظر المرأة إلى الرجل، بالكتاب، والسنة، والمعقول:

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٥٦/٢.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٩/١٥، مسألة رقم ٥٣٤٣، والكافي له كذلك ٩/٣.

(٣) المبسوط، أبو بكر السرخسي ٣٦٢/١٢، الهداية ٨٥/٤.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٩٩/٢، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ٤٨٥/١.

(٥) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٥٦/٢.

(٦) الكافي في فقه الإمام أحمد لابن قدامة ٩/٣.

١- فمن الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[(١)].

٢- ومن السنة: حديث الباب، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لأم سلمة، وميمونة رضي الله عنهما حينما قالتا له: إنه - أي ابن أم مكتوم - أعمى، قال النبي ﷺ بعد ذلك: "أفعمياوان أنتما..." فكان ذلك دليلاً على عدم جواز نظر المرأة إلى الرجل حتى ولو كان أعمى.

٣- من المعقول: أما من المعقول، فلأن النساء أحد نوعي الآدميين، فحرم عليهن النظر إلى النوع الآخر، قياسًا على الرجال.

ويحققه أن المعنى المحرم للنظر هو خوف الفتنة، وهذا في المرأة أبلغ فإنها أشد شهوة، وأقل عقلاً، فتتسارع إليها الفتنة أكثر من الرجل[(٢)].

ثانيًا: دليل الرأي الثاني: واستدل أصحاب الرأي الثاني على ما ذهبوا إليه من جواز نظر المرأة إلى ما ليس بعورة من الرجل بالسنة:

١- حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ولقدْ رأيتُ رسولَ الله يقومُ على بابِ حُجْرَتي والحَبَشَةُ يلعبونَ بالحِرَابِ، ورسولُ الله يَسْتُرُنِي بردائِهِ لأَنْظُرَ إلى لَعِبِهِمْ بينَ أُذُنَيْهِ وعَاتِقِهِ ثم يقومُ من أَجْلِي حتَّى أكونَ أنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ، فاقْدُرُوا قَدْرَ الجاريةِ الحديثةِ السِّنِّ، حريصةً على اللهوِ))[(٣)].

مناقشة الاستدلال بالحديث: وقد ناقش المانعون الاستدلال بحديث عاشئة من وجهين:

الوجه الأول: أنه ليس في حديث عائشة أنها نظرت إلى وجوههم، وأبدانهم، وإنما نظرت لعبهم، وحرابهم، ولا يلزم من ذلك تعمد النظر إلى البدن، وإن وقع بلا قصد صرفته في الحال[(٤)].

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو مسألة رقم ٥٣٤٣، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٦/٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٤، ومسلم ٨٩٢ (١٨) واللفظ لمسلم.

(٤) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧/١٩٢.

الوجه الثاني: إن السيدة عائشة رضي الله عنها في هذه الواقعة كانت صغيرة السن غير مكلفة، أو لعل ذلك كان قبل نزول آية تحريم النظر[١].

٢- ما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة بنت قيس: ((اعْتَدِّي في بَيْتِ ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فإنَّهُ رَجُلٌ أعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ فلا يَرَاك))[٢].

مناقشة الاستدلال بالحديث: ويناقش ذلك، بأنه يمكن مكث المرأة في بيت الأعمى مع غض البصر منها، إذ لا ملازمة بين الاجتماع في البيت والنظر[٣].

وقد ذهب بعض العلماء إلى الجمع بين الأدلة.

قال الشوكاني: (وقد جمع أبو داود بين الأحاديث، فجعل حديث أم سلمة مختصًا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحديث فاطمة بنت قيس وما في معناه لجميع النساء[٤]. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص: قلت: وهذا جمع حسن، وبه جمع المنذري في حواشيه واستحسنه شيخنا انتهى[٥]. وجمع [أي ابن حجر] في الفتح [أي فتح الباري][٦] بأن الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم، لعله لكون الأعمى مظنة أن ينكشف منه شيء ولا يشعر به، فلا يستلزم عدم جواز النظر مطلقًا، قال: ويؤيد الجواز استمرار العمل على جواز خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منتقبات لئلا يراهن الرجال، ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء، فدل على مغايرة الحكم بين الطائفتين)[٧].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بارتداء المرأة الحجاب.

---

(١) المرجع السابق ١٩٢/٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٨٠.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٨/٦.

(٤) سنن أبي داود، ص ٥٢٧ بعد الحديث ٤١١٢.

(٥) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني ١٤٨/٣ والغالب على الظن أن شيخ ابن حجر في عبارته هذه هو ابن الملقن، انظر: البدر المنير ٥١٣/٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٩ .

(٧) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٩/٦.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع ونشر الحشمة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بارتداء المرأة الحجاب:

جاء في صريح الحديث، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال النبي ﷺ احتجبا منه".

إن حجاب المرأة من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على وجوب احتجاب المرأة من الرجال الأجانب[١] وقد ساق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أدلة وجوب الحجاب من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] وقال ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾[٣] وإذا علمت أن حكم آية الحجاب عام، ودلالة الآيات على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب، علمت أن القرآن دل على الحجاب[٤] قال عبدالعزيز بن باز: (يا معشر المسلمين تأدبوا بتأديب الله، وامتثلوا أمر الله، وألزموا نساءكم الحجاب، الذي هو سبب الطهارة ووسيلة النجاة والسلامة؛ فالمرأة يجب أن تُصَان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل، ولهذا خصت بالاحتجاب، وترك إبداء الزينة وترك التبرج، فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل، لأن ظهور النساء سبب الفتنة والرجال قوامون عليهن)[٥].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٢/١١٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٦/٥٨٦، ٥٨٧.

(٥) مجموعة رسائل في الحجاب والسفور، الشيخ عبدالعزيز بن باز، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ص ٧، ص ٢٦.

لقد فرض الله على كل امرأة أن تلتزم بالحجاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وشروط الجلباب ثمانية كما ذكرها الألباني وهي:

أ- استيعاب جميع البدن "إلا ما استثنى"، وهناك من العلماء من خالف في هذه المسألة وهي كشف الوجه، أما إن كانت هناك فتنة ستحصل بكشف الوجه، فإن الألباني يرى وجوب الستر عندئذٍ.

ب- أن لا يكون زينة في نفسه.

ج- أن لا يكون صفيقًا لا يشفّ.

د- أن يكون فضفاضًا غير ضيق.

هـ- أن لا يكون مبخرًا مطيبًا.

و- أن لا يشبه لباس الرجل.

ز- أن لا يشبه لباس الكافرات.

ح- أن لا يكون لباس شهرة[2].

وترك لباس الشهرة: أي أن يكون اللباس غير مخالف لما اعتاده صلحاء الناس في البلد.

إن الإسلام أمر المرأة بالحجاب، وحرم عليها التبرج، وهو أن تظهر المرأة من جسدها ما حُرِّم عليها إظهاره، وذلك كإظهار عنقها وماكياج الوجه والساقين، وغير ذلك مما يراه الناس من مظاهر هذا التبرج الصارخ، الذي يثير كوامن الشباب وغرائزهم.

فعلى كل إنسان مسلم أن يمنع ابنته أوأخته أو زوجته أو من يعول من كل تهتّك وسفور، وخاصة في الأفراح المتفسخة من كل قيد، أو المتهاونة في كثير من تعاليم الإسلام.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) جلباب المرأة المسلمة، ص ٣٧.

ولقد تهاون أناسٌ فيهم خير كثير في أمر هذه الأفراح والليالي الملاح! وما استبان لهم شُنع فعلهم، ولا قُبح تهاونهم، إلا بعد أن سُجِّلت عليهم هذه السيئات التي جنوها من جرَّاء هذا التهاون واللامبالاة، فندموا أشد الندم، وتمنوا أن لو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا، ليصلحوا ما جنوه على أنفسهم من تبعات الندم والأسف والأسى، وهم مع ذلك تائبون نادمون مستغفرون. والحاصل على كل من يعول امرأة أن يذب عنها هذا التبرج والسفور[١].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد الحوار في الحديث وذلك فيما دار بين النبي ﷺ وبين أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما من حوار فقال النبي ﷺ "احتجبا منه، فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا، فقال النبي ﷺ أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه" والحوار من أبرز الأساليب الدعوية، وأشدها تأثيرًا وأعظمها قيمة، (وديننا الإسلامي - ولله الحمد- منذ بدايته قام على الدعوة للتأمل والتفكر والحوار، والإسلام لم يدع إلى الحوار بين المسلمين فحسب، بل دعا للحوار بينهم وبين غيرهم من الأجناس الأخرى، وحثهم على أدب الحوار، هذا الأمر أحد العوامل المهمة في انتشار الإسلام من بداية عهده وإلى قيام الساعة[٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[٣]، (والقرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب، فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها، ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة، في تضاعيف الكلام، دون أي نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل)[٤].

---

(١) كتاب "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس السعيد محمد، ص ٢٨٥-٢٨٧.

(٢) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ص ٣.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٤) منهج تربوي فريد في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، بدون تاريخ، ص ٣٧، ٣٨.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع ونشر الحشمة:

إن ما جاء في الحديث من الأمر بالحجاب "احتجبا منه" لمن الأدلة الظاهرة على أن الحفاظ على المجتمع وسلامته وطهارته من أهداف الدعوة الرئيسة، فالحجاب يجعل المجتمع آمنًا متحابًا مصونًا من الرذائل والفواحش، تصان فيه المحارم ويجنب فيه الوقوع في الزلل[1] فللحجاب فضائل كثيرة لا تُنكر.

لقد تعبَّد الله نساء المؤمنين بفرض الحجاب عليهن، الساتر لجميع أبدانهن وزينتهن، أمام الرجال الأجانب عنهن، تعبدًا يثاب على فعله ويعاقب على تركه؛ ولهذا كان هتكه من الكبائر الموبقات، ويجر إلى الوقوع في كبائر أخرى، مثل: تعمّد إبداء شيء من البدن، وتعمّد إبداء شيء من الزينة المكتسبة، والاختلاط، وفتنة الآخرين، إلى غير ذلك من آفات هتك الحجاب.

فعلى نساء المؤمنين الاستجابة إلى الالتزام بما افترضه الله عليهن من الحجاب، والستر والعفة والحياء طاعة لله تعالى، وطاعةً لرسوله ﷺ، قال الله عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2]. كيف ومن وراء افتراضه حكم وأسرار عظيمة، وفضائل محمودة، وغايات ومصالح كبيرة، منها:

أ- حفظ العرض: الحجاب حراسةٌ شرعية لحفظ الأعراض، ودفع أسباب الرِّيبة والفتن والفساد.

ب- طهارة القلوب: الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات، وعمارتها بالتقوى، وتعظيم الحرمات. وصدق الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾[3].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

ج- مكارم الأخلاق: الحجاب داعية إلى توفير مكارم الأخلاق من العفة والاحتشام والحياء والغيرة، والحجب لمساويها من التلوث بالشائنات كالتبذل والتهتك والسُّفالة والفساد.

د- علامة على العفيفات: الحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات في عفتهن وشرفهن، وبعدهن عن دنس الريبة والشك: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[١]، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وإن العفاف تاج المرأة، وما رفرفت العفة على دار إلا أكسبتها الهناء.

ومما يستطرف ذكره هنا، أن النُّميري لما أنشد عند الحجاج قوله:

يُخَمِّرْنَ أطراف البنان من التُّقَى ويَخْرُجْن جنْح الليل مُعْتَجرات[٢]

قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة.

هـ- قطع الأطماع والخواطر الشيطانية: الحجاب وقاية اجتماعية من الأذى، وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكف الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عرضه، وأذى المرأة في عرضها ومحارمها، ووقاية من رمي المحصنات بالفواحش، وإدْباب قالة السوء، ودَنَس الريبة والشك، وغيرها من الخطرات الشيطانية.

ولبعضهم:

حُـوْرٌ حرائـر مـا هَمَمْـنَ بريْبَـةٍ كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَـيْدُهنَّ حَـرامُ

و- حفظ الحياء، وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلق يودعه الله في النفوس التي أراد سبحانه تكريمها، فيبعث على الفضائل، ويدفع في وجوه الرذائل، وهو من خصائص الإنسان، وخصال الفطرة، وخلق الإسلام، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو من محمود خصال العرب التي أقرها الإسلام ودعا إليها، قال عنترة العبسي:

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) اعتجرَ فلانٌ بالعمامة: لَفَّها على رأسه وردَّ طرفها على وجهه. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ج ر).

وأَغُضُّ طَرْفِيْ إنْ بَدَتْ لي جارتيْ حتى يُواري جارتي مأواها

فآل مفعول الحياء إلى التحلي بالفضائل، وإلى سياج رادع، يصد النفس ويزجرها عن تطورها في الرذائل.

وما الحجاب إلا وسيلة فعالة لحفظ الحياء، وخلع الحجاب خلع للحياء.

ز- الحجاب يمنع نفوذ التبرج والسفور والاختلاط إلى مجتمعات أهل الإسلام.

ح- الحجاب حصانة ضد الزنا والإباحية، فلاتكون المرأة إناء لكل والغ.

ط- المرأة عورة، والحجاب ساتر لها، وهذا من التقوى، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[1]. قال عبدالرحمن بن أسلم في تفسير هذه الآية: (يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى).

ي- حفظ الغيرة: الغيرة هي السياج المعنوي لحماية الحجاب، ودفع التبرج والسفور والاختلاط، والغيرة هي: ما ركّبه الله في العبد من قوة روحية تحمي المحارم والشرف والعفاف من كل مجرم وغادر، والغيرة في الإسلام خلق محمود، وجهاد مشروع؛ لقول النبي ﷺ: ((إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وإن غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه)) متفق عليه. ولقول النبي ﷺ: "من قتل دون أهله فهو شهيد" رواه الترمذي. وفي لفظ: "من مات دون عرضه فهو شهيد".

فالحجاب باعث عظيم على تنمية الغيرة على المحارم أن تنتهك، أو يُنال منها، وباعث على توارث هذا الخلق الرفيع في الأُسر والذراري: غيرة النساء على أعراضهن وشرفهن، وغيرة أوليائهن عليهن، وغيرة المؤمنين على محارم المؤمنين من أن تنال الحرمات، أو تخدش بما يجرح كرامتها، وعفتها وطهارتها، ولو بنظرة أجنبي إليها)[2].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) انظر: حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ص ٨٤-٨٨، ١٣١، ١٣٢.

الحديث رقم (١٦٢٩)

١٦٢٩ - وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ المَرْأَةُ إلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إلَى الرَّجُلِ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي المَرْأَةُ إلَى المَرْأَةِ في الثَّوْبِ الواحِدِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

عورة: كل أمر يستحيى منه، وما أوجب الشرع ستره من الإنسان[2].

يفضي: يصير، ويصل[3].

الشرح الأدبي

إن منابع الجمال الفني في الحديث النبوي تصدر عن توفيق الحق سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﷺ، وتنبع كذلك من توقيف ومصدر إلهي، لأنه لا ينطق عن الهوى، وفي تجليات التوقيف والتوفيق، تضيء النشأة النبوية التي أراد لها الله أن تكون في أصفى البيئات وأنقاها لغة وسلوكًا وقيمًا[4].

وهذا الحديث الشريف يُرْسي آدابًا وسلوكيات ربما يغفل عنها الكثير، فيقع في الإثم، وتنتشر في المجتمع العادات القبيحة، والسلوكيات الشاذة التي يروج لها أعداء الإسلام في كل عصر.

ويتكون الحديث من أربعة جمل.. وكلها وردت في صيغة النهي، أو أسلوب النفي المتضمن معنى النهي، ولكن النهي هو الإيقاع المسيطر عليها، لأن كل جملة تنهى عن

---

(١) برقم (٣٣٨/٧٤).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٩٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ض و).

(٤) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية: د. صابر عبدالدايم.

محظور من المحظورات الشرعية، والأفعال في الحديث كلها مضارعة، وفي ذلك إشارة لغوية إلى أن النهي مستمر، لأن هذه السلوكيات يمكن أن تنشأ وتستمر، ولذلك كرر رسول الله ﷺ حرف النهي أو النفي، "لا" أربع مرات في الحديث، ولم يكتف بإيراده مرة واحدة في بداية الحديث.

وخاصية التكرار مسيطرة على الحديث لخطورة الأمر، وعدم انتباه الناس لهذه الخطورة المدمرة، فقد تكرر لفظ "الرجل" أربع مرات، وذلك للحث في كل مرة على اجتناب الأمر المنهي عنه، وقوله "الرجل" للتعميم والشمول: ويشمل النوع الصغير أو الكبير من الرجال، فالرجل لا ينظر إلى عورة الرجل، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد.

وكذلك كرر لفظ "المرأة" أربع مرات، فالمرأة لا تنظر إلى عورة المرأة، وكذلك لا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد، والتعبير بقوله: "تفضي" فيه دقة وبلاغة لأنه يصور طبيعة الموقف ونوعية الحدث المنهي عنه، "فالفضا" في اللغة: الشيء المختلط، ويقولون: أفضى المرأة: أي جعل مسلكيها واحداً فهي مفضاة، وقالوا: أفضى إلى المرأة أي: جامعها أو خلا بها: جامع أم لا.

وتكرار الفعل "يفضي" في الحديث فيه تنبيه إلى فساد هذا المسلك، وخطورته، وسوء عاقبته الوخيمة.

والحديث لم يخاطب أحدًا محددًا ولكنه جاء في صيغة الغائب: لأنه يرسي قواعد عامة، ويحذر من سلوكيات تنتشر بين الناس ولا يدركون خطورتها، ولم يأت الحديث في صيغة المخاطب احتراسًا من وقوع اللبس، وشبهة التعريض بأحد، وصونًا لسمع المسلم ومخاطبته بذلك: ترغيبًا له في الامتثال لأوامر الإسلام، واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، ونظر المرأة إلى عورة المرأة.

وهذا مما لا خلاف فيه بين الفقهاء[١].

وقد نبه النبي ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة، وذلك بالتحريم أولى[٢]، ويستثنى من ذلك الأزواج، فإن لكل منهما النظر إلى عورة صاحبه جميعها، إلا الفرج نفسه ففيه خلاف، والأصح أنه مكروه[٣].

وأما نظر الرجل إلى محارمه، ونظرهن إليه: فالصحيح أنه يباح فيما فوق السرة وتحت الركبة.

وقيل: لا يحل إلا ما يظهر في حال الخدمة والتصرف[٤].

وكذلك يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد، إذا كان حسن الصورة، سواء أمن الفتنة، أو خافها، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند المحققين العلماء، وقد نص عليه الشافعي، وحذاق أصحابه[٥] -رحمهم الله تعالى-، والدليل على ذلك أنه في معنى المرأة، فإنه يشتهى كما تشتهى، وصورته في الجمال كصورة المرأة، بل ربما كان كثير منهم أحسن صورة من كثير من النساء.

بل هم في التحريم أولى لمعنى آخر، وهو أنه يتمكن في حقهم من طرق الشر ما لا يتمكن من مثله في حق المرأة[٦].

وهذا الذي ذكر في المسائل السابقة من تحريم النظر فيما إذا لم يكن لحاجة.

أما إذا كانت هناك حاجة شرعية، كتطبيب، وشهادة، ونحو ذلك، جاز النظر، ولكن بغير شهوة[٧].

---

(١) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١٤٦/١٠، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢١٩/٩، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٦، والإقناع للشربيني ٤٠٧/٢، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٨/٢، ١٢٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٠/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٠/٤، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٤٥١/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ٨/٣، والمهذب للشيرازي ٣٥/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤، والفروع، ابن مفلح ١١١/٥ وفيه أن تكرار النظر إلى الأمرد محرم.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٢/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٣/٨، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٤١/١١.

٢- قوله ﷺ "ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة... إلخ". فيه دليل على تحريم لمس عورة غيره، بأي موضع من بدنه[١]. ومعنى لا يفضي... إلخ: أي لا تصل بشرة أحدهما بالآخر[٢].

وقد فصل المالكية في هذه المسألة تفصيلاً حسنًا فقالوا:

ولا يجوز أن يتلاصق رجلان بالغان، ولو شيخين، أقربين، ولا امرأتان كذلك في لحاف واحد.

أما غير البالغين: فإن لم يبلغا العشر، فلا حرج فيه، أما بعد بلوغ العشر فتكره الملاصقة دون حائل.

وأما تلاصق البالغ وغيره: فحرام في حق البالغ، ومكروه في حق غيره، والكراهة متعلقة بالولي، وقيل: يحرم على الولي أيضًا.

وهذا التفصيل في تلاصق الذكرين، أو تلاصق المرأتين، أما تلاصق ذكر وأنثى مع مناهزة الذكر فحرام[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب النظر إلى العورات ولمسها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حفاظ الإسلام على طهارة المجتمع من أسباب الفواحش.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على التزام العفة وغض البصر عن المحرمات والتستر.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

تكرر أسلوب النهي في الحديث فقال ﷺ: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلا عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى

---

(١) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٣/٨.

(٣) كفاية الطالب الرباني ٣١٢/٢.

المرأة في الثوب الواحد" والنهي من أبرز الأساليب الدعوية وأكثرها استخدامًا وأعظمها تأثيرًا، لما فيه من بيان المخالفات وإظهار حكمها وحمل المدعو على اجتنابها وعدم الاقتراب منها، وقد استخدمه القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]، وقال ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾[2].

والنهي يتضمن معنى الزجر إضافة إلى المنع والتحريم وغير ذلك، والنهي لا يكون إلا من الأعلى إلى الأسفل، فالنهي اقتضاء كف عن فعل على جهة استعداد[3].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب النظر إلى العورات ولمسها

وهذا ما جاء في صريح الحديث "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل،ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد". قال القاضي عياض: (وقوله: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة"، وفي الحديث الآخر" عُرية" مكان "عورة"، والمعنى واحد، أي العُرية العامة التي تُبدي العورة، ولا خلاف في تحريم النظر إلى العورة من الناس بعضهم إلى بعض وسترها عنهم، إلا الرجل مع زوجته أو أمه على كراهية بعض العلماء في ذلك، ولا خلاف في تحريم كشفها بمحضر الناس، واختلف في كشفها في الانفراد وحيث لا يراه أحد، ولا خلاف أن السوأتين من الرجل والمرأة عورةٌ، واختلف فيما بين الركبة إلى السرة من الرجل هل هي عور أم لا؟ ولا خلاف أن إبداءه لغير ضرورة قصدًا ليس من مكارم الأخلاق، ولا خلاف أن ذلك من المرأة عورة على النساء والرجال، وأن الحرَّة ما عدا وجهها وكفيها عورة على غير ذوي المحارم من الرجال، وسائر جسدها على المحارم عورة، ما عدا رأسها وشعرها وذراعيها وما فوق نحرها، وقيل: كفها عورة، وقال أبو بكر بن عبدالرحمن: كل شيء منها عورة حتى ظفرها. واختلف في حكمها مع

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٤٠٤.

النساء، فقيل: جسدها كله عورة، فلا يرى النساء منها إلا ما يرى ذوو المحارم، وقيل: بل حكم النساء مع النساء حكم الرجال مع الرجال، إلا مع نساء أهل الذمة، فقيل: حكمهن في النظر إلى أجساد المسلمات حكم الرجال لقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾[1]، على خلاف بين المفسرين في معناه، وحكم المرأة فيما تراه من الرجل حكم الرجل فيما يراه من ذوي محارمه من النساء، وقد قيل: إن حكم المرأة فيما تراه من الرجل كحكم الرجل فيما يراه من المرأة، والأول أصح، وأما الأمة فالعورة منها ما تحت يديها، ولها أن تبدي رأسها ومعصميها، وقيل: حكمها حكم الرجال وعورتها من السُّرة إلى الركبة، وقيل: يكره لها كشف معصميها وساقيها وصدرها، وكان عمر يضربُ الإماء على تغطية رؤوسهن وقال: لا تشبهن بالحرائر[2].

قال النووي: (وفيه دليل على تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة وهذا حرام بالإجماع، ونبه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى، وفيه أيضًا دليل على تحريم لمس الرجل عورة غيره، بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، وهذا مما تعم به البلوى ويتساهل فيه كثير من الناس باجتماع الناس في الحمام وغيره، فيجب على الحاضر فيه أن يصون بصره ويده، وغيرها، عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره، ويد غيره من قيم وغيره، ويجب عليه إذا رأى من يخل بشيء من هذا أن ينكر عليه)[3]. قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الحديث: (قوله "لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا الرجل إلى عورة الرجل ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد...".

هذا نهي للناظرة أن تنظر إلى عورة المنظورة، يعني لو انكشت عورة المرأة المنظورة بريح أو بقضاء حاجة أو ما أشبه ذلك؛ فإنه لا يحل للأخرى أن تنظر إلى عورتها وهي ما بين السرة والركبة، وكذلك الرجل لو انكشفت عورته بريح، أو لغير هذا من

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٨٦/٢، ١٨٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ص ٣١٦.

الأسباب؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل، وهذا الحديث تشبث به بعض النساء، فقلن: إن المرأة لا يلزمها أن تستر من بدنها إلا ما بين السرة والركبة، وهذا فهم خاطئ، لأن النبي ﷺ لم يرخص للمرأة أن تقتصر على ثوب يستر ما بين السرة والركبة، وإنما نهى المرأة الأخرى أن تنظر إلى عورة المرأة، والفرق بين الأمرين ظاهر فالمرأة اللابسة يجب أن يكون لباسها ساترًا، وكان نساء الصحابة رضي الله عنهم، يسترن ما بين كعب القدم إلى كف اليد، كل هذا مستور، لكن لو قدر أن امرأة انكشفت عورتها لحاجة، أو انكشفت من ريح أو غير هذا؛ فإن المرأة لا تنظر إلى ما بين السرة والركبة بالنسبة للأخرى، وكذلك يقال للرجل لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل وهي ما بين السرة والركبة، وهذا بالنسبة للرجل يجوز له أن يكشف الصدر والكتف لأخيه، بدليل أن يجوز للإنسان الرجل أن يقتصر على الإزار كما في حديث الرجل الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه الواهبة، وهي امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ قالت: يا رسول الله وهبت نفسي لك، فصعد فيها النظر وصوبه ولم تطب نفسه بها، سكت، فجلست المرأة، ثم قال رجل من القوم: زوجنيها يا رسول الله. قال: ما معك من الصداق، قال: معي إزاري، قال سهل راوي الحديث: ليس له رداء، ما عليه إلا إزار فقط، فقال له الرسول ﷺ: إن أعطيتها إزارك بقيت بلا إزار وإن أبقيته لك لم يكن لها مهر، اطلب، ابحث، التمس ولو خاتمًا من حديد، فذهب يلتمس فلم يجد ولو خاتمًا من حديد، فإنه فقير، فقال: هل معك شيء من القرآن؟ قال: نعم سورة كذا وكذا، قال: زوجتكها بما معك من القرآن[1]، يعني علِّمها الذي معك من القرآن وهذا هو مهرها. فالشاهد من هذا أن الرجل لا بأس أن يقتصر على لبس الإزار، أما المرأة فلا يمكن أن تقتصر على لبس الإزار، وليس هذا من عادة نساء الصحابة رضي الله عنهم والله الموفق)[2].

لذا ينبغي اجتناب مثل هذه الأمور الشائنة، فإنها إن كثرت وظهرت في مجتمع فليُتَورَّع منه، إذ أنه أصبح مجتمعًا منحلاً لا قيمة له[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٢١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، ١٧٢٤/٢، ١٧٢٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٢٨٣/١١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حفاظ الإسلام على طهارة المجتمع من أسباب الفواحش:

إنّ الإسلام إذا أراد القضاء على أي مرض إنما يأمر بالقضاء على جذوره وروافده ومسبباته، كما جاء في الحديث النهي عن تلك الأمور التي قد تؤدي إلى الفاحشة، فقال ﷺ "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد" ونبه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى[١].

إن الزنا فعلة قبيحة متناهية في القبح، توجب النفرة عن صاحبه، والتفرقة بين الناس، فبئس الطريق طريقه، فإنه غصب للأبضاع، مؤدٍ إلى اختلاف أمر الأنساب وهيجان الفتن[٢]، والإسلام عندما نهى عن الزنا لم ينه عنه فحسب، بل نهى عن كل ما يؤدي إليه، (فالإسلام إذا نهى عن شيء نهى عن أسبابه، ففي النهي عن الزنا النهي عنه وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه[٣] فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[٤] فالقرب المنهي عنه هو أقل الملامسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل[٥].

إن الإسلام لما حرم الزنى حرم الأسباب المفضية إليه، إذ أن قاعدة الشرع المطهر أن الله سبحانه إذا حرم شيئًا، حرم الأسباب والطرق والوسائل المفضية إليه؛ تحقيقًا لتحريمه، ومنعًا من الوصول إليه، أو القرب من حماه، ووقاية من اكتساب الإثم، والوقوع في آثاره المضرة بالفردة والجماعة.

ولو حرم الله أمرًا، وأبيحت الوسائل الموصلة إليه؛ لكان ذلك نقضًا للتحريم، وحاشا شريعة رب العالمين من ذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١٦.

(٢) انظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٢٧/١٠/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٢/٥.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٩٠/١٥/٦.

وفاحشة الزنا من أعظم الفواحش، وأقبحها وأشدها خطرًا وضررًا وعاقبةً على ضروريات الدين؛ ولهذا صار تحريم الزنى معلومًا من الدين بالضرورة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

ولهذا حُرِّمت الأسباب الموصلة إليه من: السفور ووسائله، والتبرج ووسائله، والاختلاط ووسائله، وتشبه المرأة بالرجل، وتشبهها بالكافرات، وهكذا... من أسباب الرِّيبة، والفتنة، والفساد.

وتأمل هذا السِّر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله سبحانه لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمه تحريمًا غائيًا، ذكر سبحانه من فاتحتها إلى تمام ثلاث وثلاثين آية أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقاوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف، جماعة المسلمين. وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية، وهي:

أ- تطهير الزناة والزواني بالعقوبة الحدية.

ب- التطهر باجتناب نكاح الزانية وإنكاح الزاني، إلا بعد التوبة ومعرفة الصدق فيها.

وهاتان وسيلتان واقيتان تتعلقان بالفعل.

ج- تطهير الألسنة عن رمي الناس بفاحشة الزنى، ومن قال ولا بينة، فيُشرع حد القذف في ظهره.

د- تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا ولا بينة، وإلا فاللعان.

هـ- تطهير النفوس وحجب القلوب عن ظن السوء بمسلم بفعل الفاحشة.

و- تطهير الإرادة وحجبها عن محبة إشاعة الفاحشة في المسلمين؛ لما في إشاعتها من إضعاف جانب من ينكرها، وتقوية جانب الفسقة والإباحيين.

ولهذا صار عذاب هذا الصنف أشد من غيره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا.

وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة -في بلاد الإسلام- من الحجاب، والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها وحشمتها وحيائها.

ز- الوقاية العامة بتطهير النفس من الوساوس والخطرات، التي هي أولى خطوات الشيطان في نفوس المؤمنين ليوقعهم في الفاحشة، وهذا غاية في الوقاية من الفاحشة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾[1].

ح- مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت، حتى لا يقع النظر على عورة من عورات أهل البيوت.

ط- تطهير العين من النظر المحرم إلى المرأة الأجنبية، أو منها إلى الرجل الأجنبي عنها.

ي- تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب عنها.

ك- منع ما يحرك الرجل ويثيره، كضرب المرأة برجلها؛ ليسمع صوت خلخالها، فيجلب ذوي النفوس المريضة إليها.

ل- الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد ما يستطيع به الزواج، وفعل الأسباب.

والقرآن العظيم، والسنة المشرفة، مملوءان من تشريع الأسباب والتدابير الواقية من هذه الفاحشة في حق الرجال، وفي حق النساء.

فمنها في حق الرجال مع الرجال: وجوب ستر عورة الرجل، فلا يجوز للرجل كشف عورته من السرة إلى الركبة.

ومنها: حجب نظر الرجل عن النساء الأجنبيات.

ومنها: حجب الرجل عن مجالسة المردان من الذكران، والنظر إليهم تلذذًا.

ومنها في حق النساء مع النساء:

ستر عورة المرأة عن المرأة.

---

(١) سورة النور، آية: ٢١.

يحرم على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها.

ومن أعظم الأسباب والتدابير الواقية من الزنى: فرض الحجاب على نساء المسلمين، لما يحمله من حفظهن، وحياتهن في عفة وستر وتصون وحشمة وحياء، ومجافاة للخنا، وطرد لنواقضها من التبذل، والتسفل، وانتزاع الحياء[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على التزام العفة وغض البصر عن المحرمات والتستر:

إن من أهداف الدعوة الحث على الالتزام بالعفة في جميع المجالات والتي منها العفة في المجال الاجتماعي، فحرم الإسلام الفواحش والرذائل وما قرب إليها من قول أو عمل، كما جاء في الحديث "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد" فحرم النظر ولمس المحرمات، كما جاء ذلك في كثير من النصوص، ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٢] وذلك لون من ألوان شيوع العفة في المجتمع، والذي إذا شاعت في مجتمع كان مجتمعًا صالحًا نظيفًا من المفاسد والمآثم، تحفظ فيه الأعراض، وتكف الجوارح عما حرم الله[٣]. إن ضمان وسلامة المجتمع وحفظه يقتضي مزيدًا من الحذر والحيطة، والبعد عن المعاصي ودواعيها[٤].

---

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ١٠٩-١١٣.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠، ٣١.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٨٨٨/٧.

(٤) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على العفة والبعد عن الفواحش:

إذا علم المتربي أن:

مَـنْ يُطْعِـمِ الـنَفْسَ مَـا تَـشْتَهِي ... كَمَـنْ يُطْعِـمُ النَـار جَـزْلَ الحَطْـب

حرص على ألا يكون عبدًا لشهواته، وألا يسترسل مع كافة رغباته لما في اتباع الشهوات من إذلال النفس، وموت الشرف، والضعةُ والتسفُّل[1].

وإذا أيقن أهل التربية والتوجيه أن تربية النشء على البعد عن الفواحش، يحقق بداخلهم العفة التي تحيط إيمانهم وأخلاقهم بسياج من الأمن فتحفظهم كلما عتت عليهم أمواج الفتن، وظلمات الليل، اجتهدوا في ذلك أيما اجتهاد، واتبعوا كل أمر فيه حفظ العفة وصونها في نفوس الأبناء.

ومن شواهد التربية على العفة في أحاديث الباب أمر النبي ﷺ بغض البصر وحفظ الحواس مما يشينها، ومن هذه الشواهد قوله ﷺ: «قالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قالَ: غَضُّ الْبَصَرِ»، وقوله ﷺ: «اصْرِفْ بَصَرَكَ»، وقوله ﷺ: «ولاَ يَنْظُرِ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ...إلخ».

ومما لا جدال فيه أن النظرة إلى المرأة الأجنبية سهم من سهام إبليس، فمن تركها مخافة الله أبدله الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه... ومما لاشك فيه أن النظرة التي تتبعها النظرة تؤدي إلى الانجذاب الشهواني نحو المرأة أو نحو الرجل، وهذا الانجذاب يتبعه الابتسامة، والابتسامة يتبعها السلام، والسلام يتبعه الكلام، والكلام قد يتبعه الموعد واللقاء، واللقاء يؤدي لا محالة إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها!!!.

فقديمًا قال الشاعر:

كُـلُّ الْحَـوَادِثِ مَبْـدَاهَا مِـنَ النَّظَـرِ ... وَمُعْظَـمُ النَّـارِ مِـنْ مُسْتَـصْغَرِ الـشَّرَرِ

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ٤٦٢ بتصرف.

ويكفي النظرات الخائنة إلى المرأة ضررًا أنها تسد في الإنسان منافذ التفكير الصافي، وتشغله عن كثير من الواجبات، وتؤدي إلى حرمانه من بعض الطاعات كما تؤدي إلى تفسخ الأمة وانحلالها، وتجعل من الشباب المتفسخ المتميع... شباب لهو وعبث... يسيرون في الحياة بلا هدف ولا غاية ... بل هم أخطر ما يكونون على الأمن والاستقرار، وأضر ما يكون على الفضيلة والأخلاق!!(١).

ومما يُدمي القلوب أن التفريط في غض البصر سيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله، وجاهد نفسه وهواه. والناس فيها بين مقل ومكثر؛ فالنظر إلى النساء الأجنبيات وإلى صورهن في الأفلام والمجلات والصحف؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه، إلا نظر الفجاءة الأولى(٢)، ويكفي في ذلك ما ورد في أحاديث الباب.

وحتى يضع أهل التربية والتوجيه أيديهم على الجرح والدُمّل، ومن ثم علاج الداء، كان عليهم ما يلي:

١ - تقوية المراقبة لله تعالى في نفوس المتربين والمتعلمين، وذلك يكون كما قال ابن القيم: بدوام تعلم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه(٣)، "وهي منزلة عالية جعلها النبي ﷺ أعلى مراتب الدين، فقال في حديث جبريل المشهور: «الإِحْسَان: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٤).

وعن عبدالله بن معاوية الغاضري، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ من فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ: من عَبَدَ الله وَحْدَهُ فإنَّهُ لاَ إِلَهَ إلا الله، وأَعطَى زكاةَ مالِهِ طَيِّبَةً بها نَفْسُهُ رافِدَةً في كُلِّ عامٍ، ولم يُعْطِ الهَرِمَةَ ولا الدَّرِنَة ولا الشَّرَطَ اللائمةَ ولا المريضةَ ولكن من أوْسَطِ أموالِكُمْ، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ ولم يأمُرْكُمْ بشَرِّهِ،

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٥٨٤.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ١/١٢٦، ١٢٧.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم، ٢/٦٨، بتصرف يسير.

(٤) أخرجه مسلم، ٥.

وزَكَّى عَبْدٌ نَفْسَهُ»، فقالَ رجلٌ: ما تزكيةُ المرءِ نَفْسَهُ يا رسولَ اللَّه، قالَ: «يَعْلَمُ أَنَّ اللَّه مَعَهُ حيثُ ما كانَ»[١][٢].

٢ - تقوية الوازع الديني لدى المتربين والمتعلمين، وذلك يكون بربط الولد بالعقيدة الربانية، حيث حضور مجالس العلم والذكر، والمداومة على الفروض، وصلاة النفل، والمواظبة على تلاوة القرآن، والتهجد في الليل والناس نيام، والاستمرار على صيام المندوب والتطوع، والاستماع إلى أخبار الصحابة رضي الله عنهم والسلف، واستذكار الموت وما بعده، والارتباط بالرفقة الصالحة والجماعة المؤمنة، كل ذلك إذا فعله الشباب أو المتربي قوي في نفسه الوازع الديني، وتجنب مواطن الفساد، وابتعد عن الميوعة والتحلل، ووصل إلى قمة العفة والتسامي[٣].

٣ - بيان أن الإسلام لم يكن يومًا دين كبت ورهبنة، وإنه قد أوجد ما يسد على الشاب ضعفه ويُقوي عليه إيمانه في عدم النظر المحرم، وذلك بإقام سنة اللَّه على طبيعة الأنفس بالزواج، فإن تعذر ذلك، وجب على أهل التربية والتوجيه بيان ماتتسامى به العفة، وذلك ما بينه علي الطنطاوي، في قوله: ضرورة أن يُنفسَ المتربي الشاب عن نفسه بجهد روحي أو عقلي أو قلبي أو جسدي ... يستنفد هذه القوة المدخرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة ... بالالتجاء إلى اللَّه والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس في البحث، ... أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية الدينية أو البطولة الرياضية[٤].

٤ - بيان سوء عاقبة النظر المحرم من ضياع الإيمان وشؤم وحرارة المعصية، حيث قال ابن تيمية: "فإن أصر على النظر وعلى المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار

---

(١) أخرجه البيهقي، ٤/١٩٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٠٤٦.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد عبدالله الدويش، ٥٧، ٥٨.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٥٨٥.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٥٩٢.

على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة، قد يكون أعظم بكثير من فساد زنًا لا إصرار عليه"[(١)].

وقال ابن القيم: "والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخَطْرة ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع منه مانع"[(٢)].

٥ - بيان حسن جزاء من ترك النظر الحرام من أجل الله: وذلك بيان تخليص القلب من ألم الحسرة، حيث قال الأصمعي: رأيت جارية كأنها مَهاة، فجعلت أنظر إليها، وأملأُ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت، وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقلبكَ يَوْمًا أتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[(٣)]

لذا قال رجل لابن المبارك: أوصني فقال له: "اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك فضول الطعام توفق للعبادة، واترك التجسس عن عيوب الناس توفق للاطلاع على عيوب نفسك، واترك الخوض في ذات الله تواق الشك والنفاق"[(٤)].

وكان من عظم الجزاء العاجل لغض البصر في الدنيا، نور القلب وانشراح الصدر، وجلاء البصيرة، ووضوح الرؤية، وجعل الإنسان أكثر إيمانًا، وأكثر يقينًا....، فالله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل له، أطلق الله نور بصيرته، وفتح عليه باب العلم والمعرفة، وذلك فضلاً عن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩٣/١٥.

(٢) الجواب الكافي، ٢٢٤.

(٣) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٥٣٥.

(٤) سلسلة أعلام المسلمين، محمد عثمان جمال، ١٨٨، نقلًا عن الفوائد التربوية من فتاوى ابن تيمية، جمع وشرح، أحمد يوسف الأنصاري، ص٣٩.

توريث صحة الفراسة، وتسهيل طرق العلم، وفتح أبوابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، وأيضًا توريث القلب قوة وثباتًا وشجاعة وسرورًا وفرحًا، وانشراحًا، وذلك لقهر عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه[1]، ولو حصرنا فوائد غض البصر لما وسع البحث لآلئه وجواهره، ولكن نختم القول بما ورد عن عنترة بن شداد، - وهو الذي لم يحكمه دين، لعل نفوس المتربين الشاردة عن غض البصر تستحي من شؤم ما تفعل - :

وَأَغُضّ طَرْفِي ما بَدَتْ لي جارَتي حتّى يُوَارِي جارتي مَأْوَاهَا

فأين كثير من المسلمين من هذا الخلق الرفيع، والأدب الجميل:

يا وجه عنترة العبسي معذرة إني أراك كسيف البال مكتئبًا
أراك تنكر قومًا كنت تعرفهم وتنكر الوجه والأخلاق والنسبا
كأنما لم تجد ما كنت تعهده ومن غيرةٍ وحياءٍ يبلغ السحبا
ذلك امرؤ جاهليٌّ ما رأى خلقًا من النبي ولم يستنطق الكتبا
لكنه العربي الشهم يمنعه حياؤه من صفات تحرق الأدبا[2]

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد ترائى الترهيب كأسلوب تربوي في تنشئة المتربين والمتعلمين على البعد عن النظر المحرم، أو السمع المحرم أو اللمس أو المشي المحرم، وذلك في نص حديث الباب من قوله ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنى...إلخ».

حيث أثبت النبي ﷺ لفظ الزنا لكل نظرة حرام أو سمع أو لمس أو مشي أو تفكير بالقلب محرم، وإن كان هذا الإثبات للفظ الزنا مجازيًا -كما قال النووي[3]- وذلك لقوله ﷺ: «وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ». إلا أن ذلك كافيًا لترهيب قلوب المتربين والناشئة من النظر أو السمع أو اللمس أو المشي أو التفكير بالقلب فيما حرمه الله.

(١) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٥٣٧، ٥٣٨.

(٢) المرجع السابق، ٥٤٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٤٧٣.

ومن هذا المنطلق نبين لدعاة التربية والتوجيه أن الترهيب كأسلوب تربوي يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر التي ينهي عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، -كما ورد في أحاديث الباب من تحريم النظر إلى الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية- من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل[1].

لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه عدم الغفلة عن استعمال الترهيب كأسلوب تربوي كلما اقتضته الحاجة.

ثالثًا: التربية الوقائية:

إن وقاية المتربي والمتعلم من ارتكاب المعاصي والرذائل، لمن أعظم الأعمال التربوية التي يناط بأهل التربية والتوجيه، القيام بها، حيث تعمل التربية الوقائية على تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما، من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه[2].

وهذا ما فعله النبي ﷺ مع أمته حيث وقاهم من شر النظر المحرم، وذلك بعدم الجلوس في الطرقات، وذلك في قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»..إلخ، وقوله ﷺ: «مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ»، وقوله ﷺ: «..وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ».

رابعًا: التربية على مراعاة آداب الطريق:

إن التربية الإسلامية تعمل على تهذيب أخلاق المسلم، وتنمية مشاعره الطيبة التي تراعى من خلالها الحرمات، وتصان الأعراض، وتحفظ الجوارح؛ لذا أوجب الإسلام أن يتأدب المسلم بآداب الطريق، التي بينها النبي ﷺ في حديث الباب في قوله: «....غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ».

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٦.

فللناس أندية ومجالس يجتمعون فيها، ويتحدث بعضهم إلى بعض، وما جلس قوم في مكان لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة، ومن الأماكن التي يحضرها الخاصة والعامة، ويختلط الحابل فيها بالنابل، الطرقات العامة يسلكها الرجال والنساء، ويمر فيها الأشراف والسفهاء، فيظهر للعيان منكر وزور من القول والفعل، ويترك المعروف ولا يتجاسر على الأمر به، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1]، ومن أجل ذلك نهينا عن القعود حسمًا لمادة الشر، وسدًا لأبواب الفساد، ولئن كان في ذلك شيء من المصالح، فالقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن أبى أحد إلا القعود فلا حرج عليه إذا عرف حق الطريق، وقام به، وهو كما في الحديث خمسة أشياء: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[2]، لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه غرس هذه الآداب والأخلاق في نفوس الناشئة حتى يستضيئوا بمعرفتها ويلتزموا بإقامتها.

خامسًا: السؤال والحوار:

إن من أجل الأساليب التربوية التي تزيل اللبس والغموض: السؤال والحوار.

فالإنسان بحاجة إلى أن يستفهم عن الأمور التي تخفى عليه، أو التي يحتاج فيها إلى مزيد من البيان والإيضاح حتى يكون على بصيرة وعلم، فها هو ذا، النووي، رجل العلم والعمل، والذي قيل فيه: "إنه كامل العقل، وقل مثله في الناس من كمل، وفق للعلم وسهل عليه، ويسر له وسير إليه"، يجهل ويلتبس عليه بادئ أمره ما يوجب الغسل، فيقول: ولما قرأت قول التنبيه: يجب الغسل من إيلاج الحشفة، كنت أظن أنها قرقرة الجوف، فقعدت مدة اغتسل منها بالماء البارد، حتى تشقق ظهري[3].

إذًا فإن كان هذا العالم الجليل -الذي شهد له العلماء بعلمه- قد غاب عنه أشياء وجهل أشياء، ولم يزلها إلا بالسؤال والاستفهام، فقد وجب على جموع المتربين والمتعلمين

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٢) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٤١، ١٤٢.

(٣) المنهج السوي في ترجمة النووي، السيوطي، ص٥٣، ٥٤.

السؤال والاستفهام والحوار من أجل كشف ما غاب عنهم، وعلم ما جُهل منهم، لذا أدرك الصحابة رضي الله عنهم أهمية ذلك، فحرصوا رجالاً ونساءً على السؤال والحوار مع معلم البشرية الأول محمد ﷺ، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من سؤال الصحابة رضي الله عنهم وحوارهم معه ﷺ حول آداب الطريق والنظر، وذلك في قولهم رضي الله عنهم: «...وما حق الطريق يا رسول الله؟!...إلخ»، وقول أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: «... يَا رَسُول الله أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرُنَا ، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ النبي ﷺ -محاورًا لهما ومقنعًا لفكرهما-: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟!».



٢٩١- باب تحريم الخلوة بالأجنبية

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب: ٥٣].

الحديث رقم (١٦٣٠)

١٦٣٠- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((إيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ!)) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ[1]: أفَرَأيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: ((الحَمْوُ المَوْتُ!)). متفق عَلَيْهِ[2]. "الحَمْوُ" قريب الزوج كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠١٤).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأول في باب تحريم الخلوة بالأجنبية، ويبدأ الحديث بصيغة لغوية تتفق مع المراد منه، وهو التحذير من الاختلاط الذي يؤدي إلى الفساد وانحلال الأخلاق، ولذلك يصوغ الرسول ﷺ هذا المعنى في أسلوب التحذير في قوله: "إياكم والدخول على النساء".

وضمير المخاطب المنفصل "إياكم" يتصدر الجملة ويتصدر الحديث: وهو الذي يتشكل منه التحذير اللغوي والمعنوي، والمخاطبون هم كل المسلمين، وفي مقدمتهم الذين حضروا هذه المحاورة من الصحابة رضوان الله عليهم، والمعنى المقصود هو: أحذركم أن تدخلوا على النساء، وإذا لم يستجب المسلمون للتحذير فالعقاب شديد، والعواقب وخيمة، فأسلوب التحذير تكمن خلفه نذر شديدة، ومعان سديدة يجب أن يحذر المسلم التعرض لآثارها وأخطارها.

---

(١) عندهما زيادة: (يا رسول الله).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢/٢٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٥٢).

والجزء الثاني من الحديث: هو سؤال من أحد الأنصار، ثم جواب من رسول الله ﷺ، والسؤال موجه إلى رسول الله ﷺ: "أفرأيت الحمو؟" والاستفسار هنا حقيقي ورأى هنا بمعنى علم، أي: ما حكم "الحمو" وهو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه في الدخول على النساء، ولفظ "الحمو" ربما يوحي بالحماية، ولكنه هنا يوحي بالضرر، والأذى حيث يقول العرب: حمو الشمس: أي حرها، ويقولون: الحماة: عضلة الساق.

وإجابة رسول الله ﷺ تتسم بالإيجاز والإفادة والتحذير والمنع، حيث قال: "الحمو الموت"، وفي هذه العبارة تشبيه بليغ، حيث شبه الحمو بالموت، في حال الخلوة، فالخلوة بالأحماء مؤدية إلى الفتنة والهلاك، فجعل هذا كهلاك الموت.

فتأمل كيف أجاب رسول الله ﷺ السائل في إيجاز مبين، وبيان يشع بالمعاني والمقاصد الشريفة الجليلة، صونًا للحرمات، وحرصًا على جمال ما بين المسلمين من قربات وصلات.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- تحريم الدخول على النساء، وهذا التحريم مقيد بقيدين:

أحدهما: ألا يكون الداخل زوجًا للمدخول عليها، ولا محرمًا، والمقصود بالمحرم هنا من حرم عليه نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها.

فقولنا "على التأبيد" احتراز من أخت امرأته، وعمتها، وخالتها، ونحوهن ومن بنتها قبل الدخول بالأم.

وقولنا "بسبب مباح" احتراز من أم الموطوءة بشبهة، وبنتها، فإنها حرام على التأبيد، لكن لا بسبب مباح، فإن وطء الشبهة لا يوصف بحل ولا حرمة ولا غيرهما، لأنه ليس فعل مكلف.

وقولنا "لحرمتها" احتراز عن الملاعنة فهي حرام على التأبيد، لا لحرمتها بل للتغليظ.

ثانيهما: أن يتضمن الدخول الخلوة[١]، والمعنى في تحريم الخلوة بالأجنبية، أنه مظنة الوقوع في الفاحشة بتسويل الشيطان، فقد روى الترمذي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تَلِجُوا على المغيبّاتِ فإنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ))[٢].

٢- إن رسول الله ﷺ قال: "الحمو الموت"، وذلك لأن الخوف منه أكثر من غيره، وذلك لتمكنه من الوصول إلى المرأة، والخلوة بها، دون أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي.

والمراد بالحمو -هنا- أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، أما الآباء، والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوه ممن ليس بمحرم[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الدخول على النساء الأجنبيات.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من دخول أقارب الزوج على زوجته.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على طهارة المجتمع من الفاحشة وأسبابها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

وذلك في قوله ﷺ "إياكم والدخول على النساء" أي احذروا أن تدخلوا على النساء الأجنبيات، وهذا تحذير بالغ[٤]. وأسلوب التحذير من الأساليب الدعوية المفيدة،

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٣/٧.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٠٩ رقم ١٤٣٢٤، وضعفه محققو المسند ٢٢/٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٥٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٢٤١، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٦/٢٤٤، وفتح الباري، ابن حجر ٩/٣٣١، وشرح عمدة الأحكام ٤/٤٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/١٧٢٦.

لما فيه من إيقاف المدعوين على مواطن الخطر، وإعلامهم بها، وتحذيرهم من الوقوع فيها، وحملهم على اجتنابها والابتعاد عنها[١].

ويمكن تعريف التحذير: بأنه التحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه، أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحذر من مغبة الوقوع في المحذور، فمما ورد من آيات تحذر من غضبه تعالى، على سبيل المثال التصريح بخطبة النساء وهُنَّ في عدَّتهن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٢].

وقال أيضًا محذرًا من اتخاذ المشركين أولياء: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

وأما التحذير من فعل يسبب إلحاق ضرر بالأمة ومصالحها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[٥].

ومنه تحذيره تعالى من المنافقين والتنبيه على خطرهم واعتبارهم العدو الأول بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٦].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٤) سورة النور، آية: ٦٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٧١.

(٦) سورة المنافقون، آية: ٤.

وقال محذرًا من فتنة الأزواج والأولاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[1].

ومثل ما ورد التحذير في القرآن الكريم كأسلوب تربوي، كذلك ورد على لسان الرسول ﷺ كأسلوب تربوي توجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع، وبصيغٍ مختلفة كالترهيب والوقاية، وبيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه، والنصيحة وغيرها.

ويختلف التحذير عن الموعظة في كونه إنذارًا من خطر قادم، يتضمن وعيدًا وزجرًا ينتج عنه خوف ورهبة.

بينما الموعظة تذكير بفعل الخير والحق، على الوجه الذي يرقُّ له القلب محفوف بتلطّف وتودُّد[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الدخول على النساء الأجنبيات:

جاء ذلك في صريح الحديث، فقال ﷺ "إياكم والدخول على النساء" أي الأجنبيات على وجه الخلوة بهن، أو هن مكشوفات، قال القرطبي: (وقوله "إياكم والدخول على المغيبات هذا تحذير شديد، ونهي وكيد، كما يقال إياك والأسد، وإياك والشر أي اتق ذلك واحذره[3]. قال النووي: (وفي ذلك تحريم الخلوة بالأجنبية[4]. وقد جاءت الآيات الدالة على تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، وإن اضطر إلى الحديث معهن فليكن من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[5] أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا

---

(١) سورة التغابن، آية: ١٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/ ٥٠٠، ٥٠١.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٦٠.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهم فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب، فذلك الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب"[١]. قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وإذا كان الخطاب لأزواج النبي ﷺ والصحابة، فلاشك أنهم خير أسوة في الآداب الكريمة، المقتضية للطهارة التامة، وعدم التدنس بأنجاس الريبة)[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد ذلك في الحديث "فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الأداء البياني، والذي له قيمة تأثيرية عظيمة، لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم، فهم إذا تلقوا الجواب تلقفوه تلقفاً، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة والنظر فيها بإمعان[٣]، وقد ورد هذا الأسلوب في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[٤] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من دخول أقارب الزوج على زوجته:

جاء التصريح بهذا التحريم عامة وعلى أقارب الزوج خاصة فقال ﷺ: "إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" قال القاضي عياض: (وقوله: "الحمو الموت" قال الإمام المازري: قال أبو عبيد: يقال فلتمت ولا تفعل هذا، قال ابن الأعرابي: وهي كلمة تقولها العرب كما تقول الأسد الموت أي لقاؤه مثل الموت. قال القاضي: يريد في هذا لما فيه من الغرر المؤدي إلى الموت فكذلك الخلو بالأحماء مؤدٍ إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله كهلاك الموت، فأورد هذا مورد

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٥/٦.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٥٨٧/٦.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢، ٥٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

(٥) سورة الأنفال، آية: ١.

التغليظ والتشديد، والأشبه أنه في غير أبي الزوج ومَنْ عدا المحارم منهم، بدليل ما روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحًا أو ذا محرم))[1]. فقد فسر أن الحرج والمنع إنما هو لغير ذوي المحارم)[2]. وقال القرطبي: (وقوله "الحمو الموت" أي دخوله على زوجة أخيه يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي: فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عن ذلك وشبهه بالموت، لتسامح الناس في ذلك من جهة الزوج والزوجة لإلفهم لذلك، حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة عادة، وخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت والحرب الموت أي لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخول الحمو على المرأة يفضي إلى موت الدِّين، أو إلى موتها بطلاقها عند غَيْرة الزوج، أو برجمها إن زنت معه)[3]. وهذا التحذير "الحمو الموت" كلمة من أبلغ ما يكون من التحذير، يعني كما أن الإنسان يفر من الموت فيجب أن يفر من دخول أقاربه على زوجته وأهله بلا محرم، وهذا يدل على التحذير الشديد، ودخول أقارب الزوج على بيت الزوج أخطر من دخول الأجانب، لأن هؤلاء يدخلون باعتبارهم أقارب فلا يستنكرهم أحد، وإذا وقفوا عند الباب يستأذنون لم ينكر عليهم أحد، لذلك كان حرامًا على الإنسان أن يمكن أخاه من الخلوة بزوجته[4].

خامسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على طهارة المجتمع من الفاحشة وأسبابها:

إن الحفاظ على طهارة المجتمع لمن أسمى الأهداف الدعوية، لذا كانت النصوص الآمرة بالحجاب وغض الأبصار وحفظ الفروج، وحرمة الخلوة بالنساء الأجنبيات والدخول عليها كما جاء في الحديث "إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" وتلك المبالغة في أخذ الحيطة والحذر إنما شرعت، تزكية للنفوس، وتطهيرًا للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٧١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦٠/٧.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٢/٥.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٢٦/٢.

والتحلل الخلقي، وتجنبًا للنفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطهرًا أن كلفها زيادة على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم من الأقرباء، وفرض عليها الحجاب الشرعي، ليصون لها كرامتها، ويحفظها من النظرات الجارحة، والعيون الخائنة، ويدفع عنها مطامع المغرضين الفجار، والإسلام بهذا إنما يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ولا تستثار[١]. ولذلك نجد أن الإسلام يغرس في المجتمع خلق العفة والابتعاد عن المحرمات في جميع المجالات، فمثلاً في المجال الاقتصادي يقول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢]. وفي المجال الاجتماعي قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٣].

---

(١) روائع البيان، تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١٦٩/٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

(٣) سورة النور، آية: ٣٣.

الحديث رقم (١٦٣١)

١٦٣١ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((لاَ يَخْلُونَّ (أَحَدكُمْ) [١] بامْرَأَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ)). متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

ذوم محرم: محرم المراة: من لا يحل له نكاحها من الأقارب كالأب والابن والأخ والعم ومن يجري مجراهم[٣].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد التشديد والتحذير هو طابع الأسلوب في هذا الحديث: وذلك يتسق مع مناخ الحديث السابق، ومع الحكم الشرعي في هذه المسألة، فقوله في الحديث السابق: "الحمو الموت"، يمهد لما في هذا الحديث من نهي ونفي وتوكيد، فإذا كان قريب الزوج يحاكى الموت في خطورته، فما بالنا بالأجنبي الذي لا يراعى حرمة، ولا يحفظ عرْضًا: ويرد الحديث في صيغة الاستثناء المنقطع، وهذا الاستثناء يتضمن النهي القاطع مع التأكيد: مع إفادة استمرار النهي حيث عبر بصيغة المضارع.

وكل ذلك في قوله: "لا يخلون"، وقوله: أحدكم: يفيد العموم والخصوص: فلفظ أحد عام، ولكن الخطاب خصصه بكل من سمع الخطاب أو كلف به من المسلمين، وتنكير "امرأة" يوحي بالشمول: فأي امرأة في أي زمان؟ وأي مكان لا يحل للأجنبي

---

(١) عندهما بلفظ: (رجل) بدل: (أحدكم) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١/٤٢٤)ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٥٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ر م).

عنها الدخول عليها: إلا مع ذي محرم لها، وفي اللغة يقولون: رحم محرم "أي محرَّم تزوجها، وقيل: تحرم منه بحرمة: أي: تمنع. وتحمى بذمة، فالقاعدة هي عدم الخلوة بالمرأة، وعدم السفر معها، وعدم الدخول إليها، والاستثناء هو أن يكون ذلك جائزًا: لذي محرم، وهو الذي يحرم تزوجه من الرجال، وجاء التعليل البليغ الموجز في قوله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[1].

ووراء هذا التعبير ما وراءه من التفسيرات والدلالات والإشعاعات: وكلها تموج بالأخطار التي يحملها لفظ الشيطان، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[2].

فقه الحديث

وفي هذا الحديث من الأحكام: حرمة خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه كصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك، فإن وجوده كالعدم. أما لو اجتمع رجل مع نسوة أجانب، فإن الصحيح جوازه[3].

وأما الخلوة بالأمرد الأجنبي الحسن، فكالمرأة، فتحرم الخلوة به حيث حرمت بالمرأة، إلا إذا كان في جمع من الرجال المصونين.

ويستثنى من ذلك كله مواضع الضرورة، كأن يجد رجل امرأة منقطعة في الطريق، ونحو ذلك فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا خلاف فيه، ويدل عليه حديث عائشة في قصة الإفك[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ١١٧١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٩٣٤).

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨ .

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٩/٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥/٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٩/٩. وحديث الإفك أخرجه البخاري ٤١٤١، ومسلم ٢٣٨٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلوة بالمرأة الأجنبية إلا مع ذي محرم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب كافة الأسباب المؤدية إلى الفاحشة.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في الحديث في قوله ﷺ "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" وأسلوب النهي من الأساليب التي لها قيمة تأثيرية عظيمة في نفوس المدعوين، وذلك لما فيه من إيقاف المدعوين على مواطن الخطر، ومزالق الردى، وتحذيرهم منها، وقد استخدم القرآن أسلوب النهي في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1] وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلوة بالمرأة الأجنبية إلا مع ذي محرم:

لقد حرص الإسلام على سلامة المسلمين، بسد الطريق أمام الزنا ودواعيه، ومواجهة ذلك مواجهة حاسمة بمنع ما عدا المحارم من الخلوة بالمرأة ولو كانوا أقارب الزوج، إذ أن الخلوة المحرمة أول بواعث الزنا وألوان الشرور[3]، ولقد جاء في الحديث نهي رسول الله ﷺ عن خلوة الرجل بأجنبية عنه فقال ﷺ: "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" قال القاضي عياض: (وقوله "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" وذلك لأمن غلبة الشهوة والفتنة عليهما لحضور ذي المحرم لغيرته عليها وذبه عنها، وكذلك في السفر، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: ((لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذي محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم فقال

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧٥٩.

رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا قال: انطلق فحج مع امرأتك))[١].

قال القاضي: (وقوله: فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا قال انطلق فحج مع امرأتك: فيه وجوب الحج على النساء وإلزام أزواجهن تركهن وندبهم إلى الخروج معهن، وأن ذلك أفضل من خروجه للغزو؛ لأن المعونة على أداء الفريضة مؤكدة وقد تكون فريضة في بعض الوجوه)[٢]. وقال القرطبي: (وقوله للرجل انطلق فحج مع امرأتك. هو فسخ لما كان التزم من المضي للجهاد، ويدل على تأكد أمر صيانة النساء في الأسفار، وعلى أن الزوج أحق بالسفر مع زوجته من ذوي رحمها، ألا ترى أنه لم يسأله: هل لها محرم أم لا؟ ولأن الزوج يطلع من الزوجة على ما لا يطلع منها ذو المحرم فكان أولى، فإذن قوله ﷺ في الأحاديث: "إلا ومعها ذو محرم" إنما خرج خطابًا لمن لا زوج لها)[٣].

قال النووي: (أي لا يقعدن رجل مع امرأة إلا ومعها ذو محرم، أما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك فإن وجوده كالعدم، ولذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام، بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب، فإن الصحيح جوازه)[٤] وتحريم الاختلاط وخلوة الرجل بالمرأة من ألوان حفاظ الإسلام على العفة في المجتمع الإسلامي، ولحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضيلة والبعد عن الرذائل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾[٥]. بل إنه من مبالغة الإسلام في الحفاظ على المرأة وصيانة كرامتها يأمر أن لا

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٤١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ج٤/٤٥٠، ٤٥١.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ج٣/٤٥٣.

(٤) شرح مسلم، النووي، ص ٨٤١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

تسافر امرأة بغير محرم، وإن أدى ذلك إلى تركه لفضائل الأعمال كالجهاد وغيره، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((سمعت النبي ﷺ يخطب يقول لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال انطلق فَحُجَّ مع امرأتك))[١] قال النووي: (فيه تقديم الأهم من الأمور المتعارضة، لأنه لما تعارض سفره في الغزو وفي الحج معها، رجح الحج معها، لأن الغزو يقوم غيره في مقامه عنه بخلاف الحج معها)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب كافة الأسباب المؤدية إلى الفاحشة:

الحديث مثل حيٌّ على ذلك، قال ﷺ "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" كما أمر بغض الأبصار ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[٣] وفرض الحجاب فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٤]، وذلك تطهيرًا للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، وتجنبًا للنفوس من أسباب الإغراء والغواية[٥] ولذا جاءت آيات القرآن ناهية عن مجرد الاقتراب والتلبس بالأسباب المؤدية إلى الفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[٦] قال القرطبي: (قال العلماء: قوله "ولا تقربوا الزنا"[٧] أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا، والقرب المنهي عنه هو أقل الملابسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل)[٨].

إن السلامة في البعد عن كل ما يؤدي إلى المهالك أو يقرب منها، بل إن الإسلام ليأمر بالابتعاد عن الأمور التي قد يشتبه على المسلم حكمها، استبراءً للذمة والعرض،

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٤١.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٨٤١.
(٣) سورة النور، آية: ٣٠.
(٤) سورة النور، آية: ٣١.
(٥) روائع البيان، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢.
(٦) سورة الإسراء، آية: ٣٢.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٠/٥.
(٨) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٩٠/١٥/٦.

وصيانة للنفس، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))(١).

إن الخلوة بالأجنبية من أعظم الذرائع، وأقرب الطرق إلى اقتراف الفاحشة الكبرى.

إن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية مدرجة الهلاك، وداعية الإثم والفجور، وكيف لا يكون ذلك، والفرصة سانحة، وقد مهدت الخلوة لغريزة أن تستيقظ.

وإن من أعظم الشرور على الإطلاق خلوة الخطيب بمخطوبته، وإن فيها من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله وحده، وعذر الناس في ذلك أنهم يثقون في بناتهم وأبنائهم، وكذبوا ورب الكعبة، كيف لا؟! وهم يتركونها بين ناب سبع أو ذئب، ولربما نهش عرضها، وتركها قنبلة موقوتة، تصطاد ضحاياها في الليالي الحمراء والسوداء.

وكم سمعنا عن هذا الوباء في المجتمع، فالحذر الحذر من الأوهام الكاذبة، والثقة مهما كانت قوية لابد أن تضبط بميزان الشرع(٢).

("لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم" فتبًا لهؤلاء المستغربين وسحقًا لعبيد المدنية الزائفة، الذين أطلقوا لبناتهم ونسائهم العنان يسافرون دون محرم، ويخلون بالرجال الأجانب، مدَّعين أن الظروف تغيرت، وأن ما اكتسبته المرأة من التعليم، وما أخذته من الحرية، يجعلها موضع ثقة أبيها وزوجها، فما هذا إلا فكر خبيث، دَلَفَ إلينا ليفسد حياتنا، وما هي إلا حجج واهية، ينطق بها الشيطان على ألسنة هؤلاء الذين انعدمت عندهم غيرة الرجولة والشهامة، فضلاً عن كرامة المسلم ونخوته)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

(٢) "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس السعيد محمد، ٢٨٨.

(٣) عودة الحجاب، د. محمد إسماعيل المقدم ٤٩/٣.

الحديث رقم (١٦٣٢)

١٦٣٢ - وعن بُريدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ القَاعِدِيْنَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ المُجَاهِدِينَ فِي أهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إلاَّ وَقَفَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ (حَتَّى يَرْضى)[1])) ثُمَّ التَفَتَ إلَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: ((مَا ظَنُّكُمْ؟)). رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

يخلف رجلاً في أهله: يقوم بما كان يقوم به في أهله[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يؤكد حرمة نساء المجاهدين، وذلك لما للمجاهد من مآثر جليلة، ومكرمات نبيلة، فهو يسافر ويجود بنفسه وماله إعلاءً لراية الإسلام.

ولذلك يفيض هذا الحديث بكثير من الترغيب والترهيب، والإيحاءات والدلالات التي يتضمنها الأسلوب في هذا الحديث الشريف، وهو يتكون من ثلاثة أجزاء، تشكل رؤية متكاملة لموقف رسول الله ﷺ من حرمة نساء المجاهدين، ويأتي الجزء الأول مكونًا من طرفين: المشبه والمشبه به، مؤكدًا بذلك التشبيه حتمية المحافظة على حرمة نساء المجاهدين، والتشبيه هنا ليس من باب البلاغة اللفظية أو تزيين الكلام، وإنما هو تشبيه حالة بحالة: فنساء المجاهدين: حرمتهم: تشبه حرمة الأمهات في شرعيتها: وصيانتها، والوعيد الشديد لمن ينتهك هذه الحرمة.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند المنذري في ترغيبه..

(٢) برقم (١٣٩/١٨٩٧)، و (١٤٠/١٨٩٧)، والسياق للحميدي في جمعه (٣٧٥/١، رقم ٦٠٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ف).

ومما يدل على ثبات هذه القاعدة ورودها في صيغة الجملة الاسمية التي لا تحصر داخل زمن محدد، ولا حدث معين، وإنما هي قاعدة مطلقة ثابتة، وتأمل الطباق بين قوله "المجاهدين، والقاعدين" وما يوحي به من عناء وتضحية ومشقة يتحملها المجاهدون، ومن راحة وتحمل للأمانة ورعاية النساء من قبل القاعدين عن الجهاد.

والجزء الثاني: جملة مطولة صيغت في أسلوب القصر.. للتأكيد على حق المجاهد في الحفاظ على نسائه، ولذلك قال في سياق توصيف عدم قيام القاعد بحسن الرعاية، وعدم صيانة الحرمات: قال: "فيخونه فيهم".

والوعيد يصوره رسول الله ﷺ في قوله: "إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى".

والتعبير المضارع في قوله: "فيأخذ" فيه إيحاء باستمرار الأخذ، ويعضد هذا التفسير قوله: ما شاء: أي حسب رغبة المجاهد واختياره، وحتى تفيد الغاية، والفعل: "يرضى" يعلن عن الحرص على المجاهد الذي خانه القاعد في أهله، ويمكن أن تنفد حسنات ذلك الخائن، ولا تبقى له إلا سيئاته وفي صدارتها هذه الخيانة العظمى، والتعبير بقوله: "ثم التفت إلينا" يرشد إلى التأمل والتفكر والتدبر، لأن الرسول ﷺ بعد أن عرض هذه الصورة للمجاهد والقاعد الخائن يوم القيامة، أمهلهم وتركهم يفكرون في هذا المصير، ثم فاجأهم بالسؤال المثير: للتدبر والتفكر، والنظر والمراجعة، ما ظنكم؟ أي ما تظنون وقد أذن الله له في أخذ ما يرضيه من الحسنات: فهذا حكم الله، حتى لا يظن أحد أن هذا ليس من حق المجاهد، فالسؤال لنفي اللبس، ونفي التوهم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- بيان فضل الجهاد، والمجاهدين في سبيل الله تعالى، واهتمام رسول الله ﷺ بأمرهم.

٢- تحريم التعرض لنساء المجاهدين بريبة من نظر محرم، وخلوة، وحديث محرم وغير ذلك.

٣- الحث على بر نساء المجاهدين، والإحسان إليهن، وقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة، ولا يتوصل بها إلى ريبة، ونحوها. حيث جعل رسول الله ﷺ حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: البيان والإيضاح للأمور التي حرمها الشرع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من خيانة المجاهدين في سبيل الله في أهليهم.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على العفة والخوف من الله والحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع.

أولاً- من صفات الداعية: البيان والإيضاح للأمور التي حرمها الشرع:

إن من أبرز صفات الداعية البيان والتوضيح للمدعوين أمور دينهم، فلقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم من الدعاة أن يوضحوا الحق للناس[٢] ويبلغوه إليهم بلاغًا مبينًا، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣] وكفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، استجلابًا لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم[٤].

ومن هذه الأمور الواجب بيانها، الأمور التي حرمها الشرع، والتي منها ما ورد في الحديث من تحريم التعرض لنساء المجاهدين بوجه من وجوه الريب، وذلك أداءً لبعض

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/٤٢، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٧/١٢٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ص ٢١٠.

حق أزواجهن المجاهدين لنصر الله[١] فقال ﷺ "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من خيانة المجاهدين في سبيل الله في أهليهم:

جاء في الحديث الترهيب من خيانة المجاهدين في أهليهم فقال ﷺ "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم". قال القرطبي: (قوله: "حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهاتهم" يعني أنه يجب على القاعدين، من احترامهم، والكف عن أذاهن، والتعرض لهن، ما يجب عليهم في أمهاتهم)[٢]، وقال القاضي عياض: (وقوله في الذي يخون المجاهد في أهله أنه يأخذ من حسناته يوم القيامة ما شاء، فما ظنكم، يعني لما ترون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في هذا المقام، أي لا يبقى له شيئًا منها إن أمكنه ذلك وأبيح له)[٣].

وقال القرطبي في قوله "فما ظنكم" يعني أن المخون في أهله إذا مُكِّن من أخذ حسنات الخائن لم يُبْق له منها شيئًا، ويكون مصيره إلى النار، وقد اقتصر على مفعولي الظن. وظهر من هذا الحديث أن خيانة الغازي في أهله أعظم من كل خيانة، لأن ما عداها لا يخير في أخذ كل الحسنات، وإنما يأخذ بكل خيانة قدرًا معلومًا من حسنات الخائن[٤]. قال النووي: (هذا في شيئين: أحدهما: تحريم التعرض لهن بريبة من نظر محرم وخلوة وحديث محرم وغير ذلك، والثاني: في برهن والإحسان إليهن وقضاء

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٣٢/٣.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣١٩/٦.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٣٢/٣.

حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة ولا يتوصل بها إلى ريبة ونحوها[1]. وقوله "فما ظنكم" فيه تهديد عظيم، قال الطيبي: قال في المظهر: أي فما ظنكم بالله مع هذه الخيانة؟ هل تشكون في هذه المجازاة أم لا؟ يعني إذا علمتم صدق ما أقول فاحذروا من الخيانة في نساء المجاهدين[2] فإن خيانة المجاهدين في أهليهم أشد أنواع الخيانة، وليس مثلها خيانة، قال الإمام الذهبي: (والخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم[3]. والخيانة من أكبر الكبائر، وصرح النبي ﷺ أن صاحبها معدود في أهل النار، فعن عياض بن حِمَارٍ المجَاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: ((... وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ[4] له، الذين هم فيكم تبعًا لا يتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك))[5].

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة:

إن بيان الشر وجزائه للوقاية والحذر من الوقوع فيه، من مهام وواجبات الداعية، وهذا ليس ببدع من الدعوة، فقد فصل الله في القرآن ما حرمه على الناس ليحذروه، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[6] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[7] ومن الأمور الواجب بيانها ما جاء في الحديث من بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة "ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢١٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٧٢/٧.

(٣) الكبائر ١٤١، ١٤٢.

(٤) لا زَبْر له: أي لا قوة له. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة: زَبَرَهُ.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٦) سورة الأنعام، آية: ١١٩.

(٧) سورة الأنعام، آية: ٥١.

المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى" غاية الأخذ، أي لا يمنع منه ولا يوقف عند حد دون ما يرضيه[١].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على العفة والخوف من الله والحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع:

إنّ في العفة نظافة المجتمع من المفاسد والمآثم، وحفظ الأعراض وصلاح المجتمع[٢]. لذا كان حث الإسلام على التخلق بالعفة، والتعلق بأسبابها، والبعد عن مزالق الشر وموارد التهلكة، حفاظًا على سلامة المجتمع وطهارة أفراده، لذا حرم الإسلام الاعتداء على الأعراض، وأشد ما يكون النهي في الاعتداء على أعراض المجاهدين الذين وهبوا نفسهم صيانة للدين ودفاعًا عن المسلمين، كما جاء في الحديث "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى، ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: ما ظنكم؟ فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات، يهدف إلى إقامة مجتمع طاهر من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، تُجنب فيه النفوس من أسباب الإغراء والغواية[٣].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٨٨٨/٧.

(٣) انظر: روائع البيان، تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢، ١٧٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

إن الوقاية هي نوع من أنواع التحذير وهي تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما، من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه....، وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وهي بمثابة جرعة وقائية إن أخذت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق(١).

وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من تحريم النبي ﷺ الخلوة بالمرأة الأجنبية، وذلك في قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ...إلخ»، وقوله: «لاَ يَخْلُونَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ ... إلخ».

فمن أجل قطع الطريق على الشيطان ووساوس النفس، ووقاية الأفراد والمجتمع من السقوط في حَمْأة الرذيلة، تحت ضغط الهوى والشهوات. نهى النبي ﷺ عن الخلوة بالمرأة الأجنبية(٢)، مما يؤكد أهمية التربية الوقائية لحماية النشء المسلم من مزالق الفتن وظلمات المعاصي.

ثانيًا: التربية بالسؤال والاستفهام:

حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ لمعرفة كل ما جهل عنهم(٣)، وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قول رجل من الأنصار «أفرأيت الحمو؟...إلخ».

فمن الواجب على المتربي أن يسأل عما غاب عنه، وأن يجتهد في ذلك من خلال سؤال أهل العلم وذوي الاختصاص.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٦.

(٢) المرجع السابق، ٢٦٠.

(٣) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٣.

ثالثًا: التربية بالترهيب:

يُعد الترهيب من أبرز وأهم الأساليب التربوية التي تساعد المربي والمعلم في مهامه التربوية على أكمل وجه وأحسن حال.

فبعد أن حذر النبي ﷺ - وهو المربي الأول - أمته من خطر الخلوة بالأجنبية، شدد ﷺ في النكير على ذلك، وعظم الإثم والذنب لمن سولت له نفسه الخلوة بالأجنبية، ويظهر ذلك في أحاديث الباب من قوله ﷺ: - بعد ما سئل عن خلوة قريب الزوج بالزوجة - «الحمو الموت»، وقوله ﷺ: «...مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إلاَّ وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّى يَرْضَى....إلخ».

فقد بلغ الترهيب -كأسلوب تربوي- في هذا الحديث أشده، حيث أخبره النبي ﷺ أنه إذا خلف رجل أحد المجاهدين في أهله، كانت حرمة امرأة المجاهد، مثل حرمة أم من يخلفه، فإن خان مجاهدًا في أهله، عوقب من الله تعالى أشد العقاب، كما ورد في نص الحديث[1].

فالترهيب كأسلوب تربوي يثير عند المتربي عامل الخوف من سبل الشر التي ينهى عنها الإسلام[2]، والتي من أشرها الخلوة بالأجنبية، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه استخدام الترهيب كأسلوب تربوي فعّال في تقويم النشء وإصلاح أخلاق المتربي.



---

(١) الأخلاق في الإسلام، عبداللطيف محمد العبد، ٢٩١.

(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ٣٩٥.

٢٩٢- باب تحريم تشبه الرجال بالنساء

وتشبه النساء بالرجال في لباس وحركة وغير ذلك

الحديث رقم (١٦٣٣)

١٦٣٣- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: لَعَنَ رسُولُ اللهِ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

وفي رواية[١]: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ، والمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ. رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

المخنثين من الرجال: من الخَنث بمعنى التكسر والتثني والمراد بهم من يشبه خُلقه النساء في حركاته وكلماته[٣].

المترجلات من النساء: يعني اللاتي يتشبهن بالرجال في زيهم وهيئتهم[٤].

الشرح الأدبي

إن الله سبحانه وتعالى جعل لكل من الذكر والأنثى خصائص وسمات في الطبع والخلقة والتكوين الجسماني والشعوري، وكل مهيأ بجبلته وفطرته على ما خلقه الله عليه، ولذلك يشدد هذا الحديث النكير، ويغلظ القول ويتوعد كل من يحاول أن يحدث اضطرابا أو خللاً في هذا التوازن الإلهي الذي فطر خلقه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٨).

(٣) القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (خ ن ث)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ج ل).

وابن عباس ينقل ما سمعه من رسول الله بالمعنى: وتأتي عبارته واضحة لا لبس فيها ولا غموض، ولا التواء ولا تعقيد، وإنما هي كالشمس واضحة لكل ذي عينين.

والحديث كله جملة واحدة إخبارية: تبدأ بمادة اللعن، أي الطرد والابتعاد عن رحمة الله سبحانه والذي لعنهم: هو رسول الله ﷺ وكأنه دعا عليهم بالابتعاد عن رحمة الله وعفوه وفضله، ودعوته مستجابة، فالعقاب ثابت الوقوع، ومن هم الملعونون؟: هم صنفان: المخنثون من الرجال، وهم الذين يتقمصون شخصية الأنثى في كلامهم وحركاتهم وملابسهم: فيصبح الواحد من هؤلاء مسخًا شائهًا، وأنموذجًا فاسدًا، والخنث في اللغة من فيه: انخثاث: أي تكسُّر وتثنٍّ في المشي والكلام.

وأما الصنف الثاني: فهو يتمثل في المترجلات من النساء، أي النساء اللائي يتشبهن بالرجال في تصرفاتهن، وأصواتهن، وملابسهن: وقد صدق في هؤلاء قول الشاعر د. حسن جاد:

من مجيري من الذين اللواتي حِرْتُ فيهم بين الفتى والفتاة؟؟!!!!

والحديث في أسلوبه يقوم على المقابلة والمفارقة بين أنموذجين فاسدين خرجا عن الطبيعة البشرية المألوفة، فالمخنثون من الرجال: فقدوا سمات الرجولة، ولم يخلقوا للأنوثة، فيصبحون مادة للسخرية والاستهزاء ولا يتفيئون دورهم الرجولي في الحياة ولذلك يستحقون اللعن لأنهم أفسدوا الفطرة التي فطر الله الناس عليها، يقول الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(1). وهم بدَّلوا وغيروا: وأفسدوا!!!

والطرف الثاني من المقابلة والمفارقة هو على النقيض، ويتمثل ذلك في النساء اللاتي فقدن الخصائص الأنوثية وأردن أن يتشبهن بالرجال، والتعبير بقوله: "المترجلات"، يوحي بالافتعال والتكلف فهن: يفتعلن الرجولة، ولكنهن لسن رجالاً، وهن بهذا الافتعال يعطلن دورهن المنوط بهن في الحياة: الأمومة، والرعاية، والحنو، وهن بذلك أفسدن وظيفتهن في الحياة، فصرن مدعاة للسخرية والإهانة، ويقعن فريسة للقلق والحيرة

---

(1) سورة الروم، الآية: ٣٠.

والأمراض النفسية والسلوكية؛ والرواية الثانية تؤكد هذا اللعن، وتصرح بالتشبه، وهي في مفهومها مع الحديث الأول، تؤكد النهي عن هذا السلوك المشين الضار بالمتشبهين والمتشبهات وبكل من حولهم.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان[1] على الأحكام الآتية:

١- إنه يحرم[2] على الرجال التشبه بالنساء، ويحرم على النساء التشبه بالرجال وذلك لأن رسول الله ﷺ قد جعل عقوبة التشبه هي "اللعن" وهذه العقوبة الشديدة لا تكون إلا على فعل شيء محرم.

ولعل السر في هذا التحريم أن الإسلام أراد أن تكون طبيعة المرأة متميزة وأن يكون مظهرها صورة صادقة لهذه الطبيعة، كما أراد ذلك للرجل، فنهى كلاً منهما أن يتشبه بالآخر[3].

٢- إن تحريم التشبه إنما هو عام يشمل التشبه في الزي واللباس، والخضاب، والصوت، والصورة، والتكلم، وسائر الحركات، والسكنات، ولكن هذا التحريم مختص بمن تعمد التشبه، وأما من كان ذلك من أصل خلقته فإنه يؤمر بتكلف

---

(١) حديث (١٦٣٣، ١٦٣٤).

(٢) المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣٧٥/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٥٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٣٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٤٠٨/٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٠٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٨٥/٤، ٣٩٦، على أن الأمانة العلمية تحتم علينا أن نذكر أن بعض الشافعية وبعض الحنابلة قد قال: إن التشبه مكروه وليس حرامًا ينظر في فقه الشافعية: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٤، وفي فقه الحنابلة: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٥٢/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٣٩/٢.

(٣) فقه السنة، السيد سابق ٤٩٢/٣.

تركه، فإن لم يفعل مع قدرته عليه دخل في الحرمة، أما إذا كان ترك التشبه غير ممكن بالنسبة له فلا يلحقه اللوم، ولا يدخل في الحرمة[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بتعاليم وأخلاق الإسلام في الأقوال والسلوك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطر وجزاء تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الرجولة في المجتمع وحمايته من التردي والفساد الخلقي.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الأنوثة في النساء حماية للمجتمع من الفساد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بتعاليم وأخلاق الإسلام في الأقوال والسلوك:

إن أول ما يطالب به المسلم بعد إقراره بالوحدانية والانطواء تحت عباءة الإسلام الالتزام بتعاليم الإسلام وأخلاقه القولية والفعلية وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وترك قبائح الذنوب وعدم التقصير في الأوامر والحقوق[٣]، والالتزام بالحدود التي حدها الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] ومن ذلك تحريم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال فقال ابن عباس رضي الله عنهما: "لعن رسول الله ﷺ المخنثين

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٣٣٢، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١/١٠٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٣٤).

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ج١/١٥، ١٦.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٣، ١٤.

من الرجال والمترجلات من النساء"، عن أبي هريرة ﵁: "لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل"(١) وذلك حماية للأخلاق، ونشرًا للفضيلة ومحاربة للرذيلة"(٢).

إن العبد المسلم ليشعر بالسعادة الكبرى إذا ما التزم بشرع الله تعالى وإن هذا الالتزام يدور بين أمر ونهي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٣)، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

إن العبد المسلم المستقيم على شرع الله، إذا ما ذُكِرت أمامه الجنة ورغب فيها ألقى الدنيا وتبعاتها من فوق ظهره، وهرع إلى رب العالمين ليلحق بركب السائرين إلى الله، ولو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك لطال الحديث، وكذلك المسلم الذي رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، إذا ما ذُكرت أمامه جهنم بأغلالها وسلاسلها وحميمها وزقومها انهمرت دموعه وارتجف قلبه وطال حزنه، وأشفق على نفسه فلا تجده بعد ذلك إلا صائمًا قائمًا. وهذه هي الثمرة الحقيقية للترغيب والترهيب، أن يُساق الإنسان إلى رب العالمين جل جلاله بمواعظ الخوف والرجاء.

واعلم أيها المسلم أن القلب الذي يتأثر بذكر الجنة والنار، والترغيب والترهيب عمومًا، وينقاد بذلك إلى طريق الاستقامة، هو القلب العامر بالإيمان، فسرعان ما ينقاد إلى الله تعالى إذا ما ذكر، ومن هنا نعرف السر الحقيقي في عزوف كثير من البشر عن سُبل الاستقامة الكاملة حسب الطاقة الحقيقية للإنسان، ذلك لأن القلوب قد امتُلئت بحب الدنيا وشهواتها، وركن الإنسان إلى هذه الحياة الزائلة، فإذا ما خوِّف أو رُغِّب ليلحق بقوافل السائرين إلى الله تعالى، وجد مئات المثبطات التي ارتضاها لنفسه وعاش في دائرتها، ولا يكفي لنجاة هذا الصنف دمعات عابرة، أو زفرات

---

(١) أبو داود ٤٥٨/٢، حديث ٤٠٩٨، والحاكم ٢١٥/٤، حديث ٧٤١٥، وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

(٢) انظر: أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري، ص ٩٤، ٩٥.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

طائرة، أو تأوه أجوف لأنه سرعان ما يمر هذا الشعور الإيماني مرور الطيف في وهج الظهيرة، بل لابد من عودة كاملة إلى الله تعالى، ليتحقق للإنسان السمع والطاعة بكل حب وامتثال[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطر وجزاء تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال:

إن تمرد الإنسان على الخلق التي فطره الله عليها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال لمن الخطورة بمكان، فذلك جالب للعن والطرد من رحمة الله عز وجل، وفي ذلك وعيد شديد ولعن من رسول الله ﷺ أكيد والتشبه قد يكون في اللباس وقد يكون في الكلام وقد يكون في المشي ونحو ذلك فمتى تعاطى الرجل ما هو من خصائص النساء في مشيهن أو كلامهن أو لبسهن فقد دخل في اللعن أو متى تعاطت المرأة ما هو من خصائص الرجال في مشيهم أو كلامهم أو لباسهم فقد دخلت في اللعن[٢]. كما جاء في الحديث فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "قال لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء" وفي رواية "لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال" قال ابن حجر: (قال أبو محمد بن أبي جمرة: والحكمة في لعن من تشبه إخراجه الشيء عن الصفة التي وضعها عليه أحكم الحكماء -سبحانه وتعالى-[٣] وذهب كثير من العلماء أن ذلك من الكبائر، قال الذهبي رحمه الله: إن تشبه الرجال بالنساء من الكبائر بدليل قول الرسول ﷺ "لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء" وقال إذا لبست المرأة زي الرجال فقد شابهتهم في لبسهم فتلحقها لعنة الله ورسوله ولزوجها إذا أمكنها من ذلك أي رضي به لأنه مأمور بتقويمها على طاعة الله ونهيها عن المعصية[٤] وذلك امتثالاً لقوله

---

(١) كتاب "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس بن السعيد محمد، ٦٣، ١٤.

(٢) انظر: كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب، ٢٦٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٥/١، ٣٤٦.

(٤) الكبائر، الإمام الذهبي، ١٣٤، ١٣٥.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[١] أي بتعليمهم وتأديبهم وأمرهم بطاعة ربهم ونهيهم عن معصيته[٢].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الرجولة في المجتمع وحمايته من التردي والفساد الخلقي:

إن في تغيير الفطرة التي طبع عليها الإنسان تغيير للفطرة التي فطر الله الناس عليها وسبب لكثرة الفواحش وسبب للطرد والإبعاد من رحمة الله وجلب لغضب الرب سبحانه وتعالى[٣].

لقد أراد الإسلام أن تكون طبيعة الرجل متميزة وأن يكون مظهره صورة صادقة لهذه الطبيعة وفي ذلك حماية للمجتمع.

إن الميزان العادل الذي خلق الله عليه الخلق جعل للرجل صفاته الخاصة به حتى يتكامل مع المرأة حين يتزوج فتكون الذرية الصالحة التي تريد النماء للأمة، أما حين يتشبه الرجل بالنساء وتقل فيه صفات الرجولة فإن ذلك يؤدي إلى اختلال ميزان المجتمع حيث تكون جريمة اللواط التي تجلب الدمار والهلاك.

قال ابن تيمية: (إن الرجل المتشبه بالنساء يكتسب من أخلاقهن بحسب تشبهه، حتى يفضي به الأمر إلى التخنث المحض والتمكين من نفسه كأنه امرأة)[٤]. وهذا أمر -الله أعلم- سبب شدة الإنكار من النبي ﷺ حتى لعن فاعله.

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الأنوثة في النساء حماية للمجتمع من الفساد والهلاك:

خلق الله الأنثى ذات صفات مناسبة لوظيفتها في الحياة فهي في ميزان الأمة تمثل الكفة الثانية وعليها أن تحتفظ بخصائصها حتى لا يطيش ميزان المجتمع، فإن فعلت

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، ١/١٤٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٠/٤٤٨١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٨/١١٧.

وحافظت تكاملت مع زوجها فتم إرواء الشهوة الجنسية في الحلال وحصلت السكينة والمودة والرحمة.

أما إن تشبهت بالرجال وحملت صفاتهم فإنها حينئذ تفقد صفاتها الفطرية ومن ثم يجيء الشذوذ في السحاق ويتعرض المجتمع لفساد عريض حيث يفقد اتزانه (ويل للمطففين).

الحديث رقم (١٦٣٤)

١٦٣٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ رسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ، والمَرْأَةَ تَلْبسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ. رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لبسة المرأة: على هيئة لبسها وحالها[2].

الشرح الأدبي

هـذا الحـديث يختلـف عـن الحـديث الـسابق ولا يتعـارض معـه، والاخـتلاف في الصياغة، والنزوع إلى تحديد وجه المخالفة المستحقة للعن: وهـو "اللبـاس"، وهـذا التغيير في الصيغة ناشئ من اختلاف الراوين، فالحديث السابق يرويه ابن عباس وهذا الحديث يرويه أبو هريـرة رضي الله عنه، وروايـة ابـن عبـاس رضي الله عنهما أعـم وأشمـل: وروايـة أبـي هـريـرة أكثـر تخصيصًا وتحديدًا.

ويتكون هذا الحديث عن جملة واحدة... وهي إخبارية تمثل حكمًا صارمًا جازمًا، ولنتأمل البداية في الأحاديث الثلاثة حيث يبدأ كل حديث بقول الـراوي: "لعن رسـول الله ﷺ" فالاتفـاق هنـا حـول عقوبـة هـؤلاء المخـالفين لـسنة الله، ولـن تجـد لـسنة الله تبـديلا، فالعقوبة الـتي تلحـق بالـذين يحولـون سـنة الله في خلقـه هـي: اللعـن والطـرد مـن رحمـة الله عـز وجـل، والـذي دعـا علـيهم بـذلك هـو المبعـوث رحمـة للعـالمين، لأنهـم لا يستحقون الرحمة ولا الشفقة، وصياغة الحديث هنا تتلائم مع المراد منـه في المعنى ومع

---

(١) برقم (٤٠٩٨). وصحّحه ابن حبـان (الإحسان ٥٧٥١)، وقـال الحـاكم (١٩٤/٤): هـذا حـديث صـحيح علـى شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب س).

الرسالة التعليمية التي يوجهها رسول الله إلى كل مسلم، بل إلى كل إنسان خلقه الله فسواه، وصوره فأحسن صورته، وجعله في أحسن تقويم، فقوله: "الرجل" ولم يقل "رجلاً"، لأن أل هنا إما للجنس، فيكون اللعن لجنس الرجال الذين يقعون في هذا الإثم، في أي مجتمع، وإما أن تكون أل للعهد، فيراد بالرجل أي "المعهود" بهذا السلوك، والذين يتخذه ديدنا وسمة شخصية تنحرف به عن مداره الطبيعي السوي وكذلك لفظ المرأة في اقترانه بأل.

وفي ضوء ذلك، يأتي موقع قوله: "يلبس لبسة المرأة"، حيث تصور هذه الجملة حال ذلك الرجل أو صفته الدائمة التي تقترن به، وهو يتمسك بها، ويصر عليها واللعنة تلاحقه أينما كان، وحينما حل لأنه متلبس بجريمته النكراء، وكذلك جملة: "تلبس لبسة الرجل"، تصور حال المرأة في تشبهها بالرجال، وفي إصرارها على هذا التبديل لخلق الله، وهذا التغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

وفي الحديث إيجاز بالحذف للاختصار، والإيحاء بالإسراع في العقوبة، وللتنبيه على أن العقوبة واحدة للجنسين: الرجل والمرأة.

وهذا الإيجاز الموحي في قوله: والمرأة، فهي معطوفة على الرجل، والتقدير.

ولعن رسول الله ﷺ المرأة تلبس لبسة الرجل، والمطابقة والمقابلة بين هذين الموقفين، وهذين السلوكيين المنحرفين، تدعو إلى مزيد من رفضهما والقضاء على من يحذو حذوهما، والعودة إلى الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٣٥)

١٦٣٥- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((صِنْفَانِ مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُمَا: قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سياط: جمع سوط وهو: ما يضرب به من جلد سواء أكان مضفورًا أم لم يكن[2].

كاسيات عاريات: أي من نعمة الله وعاريات من شكرها، وقيل: معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارًا لجمالها ونحوه، وقيل: تلبس ثوبًا رقيقًا يضف لون بدنها[3].

مائلات: عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه، وقيل: مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، وقيل: مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا[4].

مميلات: يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، وومميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة المائلة[5].

كأسنمة: جمع سنام، وسنام كل شيء أعلاه[6].

البخت: جمع بَختيٌ: جمال طوال الأعناق، ومعنى رءوسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها[7].

---

(١) برقم (٢١٢٨/١٢٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٢٨).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ط).

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥.

(٤) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥، وشرح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٥) انظر: شرح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ن م).

(٧) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥، شرح صحيح مسلم، النووي ١٣١٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب خ ت).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من معجزات النبوة: لأنه إنباء عن أمور مستقبلية وقد حدثت، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك حين قال: "صنفان من أهل النار لم أرهما"، ونفى الرؤية البصرية هنا يثبت أن الرسول ﷺ لم يلتق هذين الصنفين، ولم يشهدها في زمانه، وقد تنبأ بوجودهما، وقد وقع هذا الصنفان، وهما موجودان في هذا الزمان. كما يقول صاحب دليل الفالحين؛ وقد كثرت أنواع هذين الصنفين في العصر الحديث: في زماننا هذا: في بلادنا وفي بلاد الغرب والشرق، والحديث فيه تشويق وبراعة استهلال: حيث أجمل القول ثم فصله بعد ذلك.

والتصوير الأدبي في الحديث يضع هذين الصنفين في دائرة الرفض حيث قال: "إنهما من أهل النار"، وحين نتأمل أطراف الصورة في كل من الصنفين: نرى الحديث يضعهما في أقبح هيئة منفرة، تدعو للاشمئزاز والنفور وأول ما يلفت النظر أن الإطار الزمني لهذه اللوحة التصويرية دنيوي، فليست تشتمل على مشاهد أخروية، ولكن صورة الآخرة في النار أكثر بشاعة ونفورًا، والحديث يقدم لوحة تلتقط جزئيات قبيحة تشكل العناصر اللازمة، فمن سلوك الظالم اتخذت صفة الضرب، والظلم قبيح قبحًا مطلقًا، ومع هذا فإنه يشبه سياط الظالم بأذناب البقر: وذلك لوجود الذنب خلف البقر، ولقربه من مكان التبرز، وهذه البشاعة الشكلية إيماءة إلى انحطاط إنسانية الظالم ودونيته[1].

ولنتأمل ما في الصورة الثانية من بلاغة وتصوير مطابق للحال، وللهيئة المادية والمعنوية، الخَلْقية، والخُلُقية، ففي قوله: "كاسيات عاريات" يجمع بين المتناقضين، وهذا التناقض في المظهر يصور تناقض الشخصية في مظهرها ومخبرها، فهي تمشي: مكسوة ولكنها عارية لأنها تلبس ملابس شفافة أو تستر بعض جسدها وتكشف البعض الآخر، أو أن هؤلاء النسوة:كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير،

---

(١) انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف، ص ٧٢٢.

والحديث يحتمل كل هذه التفسيرات، ولنتأمل: المشاكلة اللفظية، والتماثل بين: مائلات ومميلات، أي أنهن: مائلات عن طاعة الله بما يلبسن، وبما يتكلمن وبما يقمن به من أفعال، ولا يكتفين بذلك بل يعلمن غيرهن فعلهن المذموم بالقول والفعل، وتزيين الرذيلة، واتباع المودة!!! والتشبيه في قوله: "كأسنمة البخت المائلة"، يوحي بالضخامة: والتشوه، والنفور، وتغيير الخلقة السوية، فالبخت هي: الإبل الخراسانية، وواحدها بخت، والسنام: من كل شيء: أعلاه.

وهذه الصورة المنفرة ليست مستحيلة الوقوع، ولكنها وجدت في العصر الحديث، في المجتمعات الغربية والشرقية التي نأت على الفطرة، وشوهت الصورة السوية التي خلق الله عليها المرأة في أحسن هيئة، وأجمل قوام.

وختام الحديث يكمل هذه الصورة، ويفصح عن مصير هذين الصنفين، فهما لا يدخلان الجنة ولا يجدن ريحها.

فقه الحديث

١- يشتمل هذا الحديث من الأحكام الفقهية على ذم هذين الصنفين: وهما أعوان الحاكم الذين يضربون الناس دون وجه حق والكاسيات العاريات[١] اللائي يلبسن ثيابًا رقاقًا تصفهن وتبدي محاسنهن[٢].

٢-إن إخبار الرسول ﷺ بأن هذين الصنفين من أهل النار إنما هو محمول: إما على المشيئة، وأن هذا جزاؤه، فإن عفا الله تعالى عنهما فهو أهل العفو والمغفرة، لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[٣].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/١٩٠.

(٢) ولقوله ﷺ: "كاسيات عاريات، تأويلات أخرى غير هذا التأويل انظرها في تفسير القرطبي ١٢/٣١٠، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢/١١٩.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٣/٢٠٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب سنة ١٣٨٧هـ، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٣٤١.

وإما على من استحل حرامًا من ذلك مع علمه بتحريمه، فيكون كافرًا مخلدًا في النار لا يدخل الجنة أبدًا.

وإما على أنه لا يدخل الجنة أول الأمر مع الفائزين، والله أعلم[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن صنفين من أهل النار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من ظلم الناس وضربهم وجلدهم ظلمًا وعدوانًا.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من العرى والانحلال والسفور وإثارة الغرائز.

رابعًا: من أصناف المدعوين: النساء.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان نعيم الجنة وريحها.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على عدم ظلم الناس.

ثامنًا: من أهداف الدعوة: الحث على الالتزام بالحشمة والوقار والحياء.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن صنفين من أهل النار:

جاء ذلك في الحديث في قوله ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" قال النووي: (هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع هذا الصنفان، وهما موجودان[٢] وذلك أن من معجزات النبي ﷺ ودلائل نبوته ما أطلعه عليه الله من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها[٣]، وذلك من جملة معجزاته ﷺ المعلومة على القطع[٤]. والأحاديث في ذلك بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، منها ما

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٤٢/١.

(٤) كتاب الشفا، للقاضي عياض، ٣٢٩/١.

روي عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ))[1] قال الحافظ ابن كثير: (وهكذا وقع سواء، فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين، وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوًا من ستة أشهر حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من ظلم الناس وضربهم وجلدهم ظلمًا وعدوانًا:

ورد ذلك حيث صرح النبي ﷺ أن من استمرأ ظلم الناس والاعتداء عليهم من أصناف النار البعيدين عن الجنة، فقال ﷺ: "صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس..." قال القرطبي: (وقوله: "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر..." أي: لم يوجد في عصره منهما أحدٌ؛ لطهارة أهل ذلك العصر الكريم. ويتضمَّن ذلك: أن ذينك الصنفين سيوجدان. وكذلك كان؛ فإنه خلف بعد تلك الأعصار قومٌ يلازمون السياط المؤلمة التي لايجوز أن يضرب بها في الحدود قصدًا لتعذيب الناس، فإن أمروا بإقامة حدّ أو تعزيرٍ؛ تعدوا المشروع في ذلك في الصفة والمقدار، وربما أفضى بهم الهوى، وما جُبلوا عليه من الظلم إلى هلاك المضروب، أو تعظيم عذابه. وهذا أحوال الشُّرط بالمغرب، والعوانية في هذه البلاد. وعلى الجملة: فهم سخط الله في الجملة عاقب الله بهم شرار خلقه غالبًا. نعوذ بالله من سخطه في الدنيا والآخرة[3].

قال ابن علان: (والمراد يضربون بها الناس عدوانًا، أما الضرب لإقامة حد أو قصاص فلا يدخل في هذا الوعيد)[4] وقال ابن عثيمين في قوله "قوم معهم سياط": (قال

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٤٦، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٨٨٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٠٤/٦، ٢٠٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ج٥/٤٤٩.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٩.

العلماء: وهؤلاء هم الشرط الذين يضربون الناس بغير حق[١] وذلك من ألوان الفساد في الأرض والذي إن ظهر في مجتمع من المجتمعات كان معول هدم في المجتمع ودنا ما ينتظرهم من سخط الله وأليم عقابه[٢]؛ لذا ينبغي على كل إنسان وكل إليه أمر أو كانت له سلطة على غيره أن يتقي الظلم والاعتداء على غيره قدر استطاعته، ورحم الله عمر بن عبدالعزيز حيث قال: (إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس، فاذكر قدرة الله تعالى عليك، ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك)[٣].

إن الظلم ظلمات يوم القيامة فعاقبته وخيمة وجزاؤه أليم وهو دافع إلى المعاصي وسفك الدماء واستحلال الحرمات، روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))[٤].

إن الظالم لن يفلت من جزائه بأي حال من الأحوال ولا يغرنه إمهال الله تعالى له، روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٥]))[٦]. وليحذر الظالم دعوة المظلوم عليه، فقد قال ﷺ: ((واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))[٧].

إن للظلم مفاسده ومضاره التي لا تنكر في الدنيا والآخرة وله آثاره السلبية وعواقبه الوخيمة على الأفراد والمجتمعات، من هذه العواقب والمضار أن الظلم:

---

(١) شرح رياض الصالحين ج١٧٢٨/٢.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ج٥٢٦٠/١١.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١٣١/٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨ واللفظ له.

(٥) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٦) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم واللفظ له ٢٥٨٣.

(٧) أخرجه البخاري ١٤٩٦، ومسلم واللفظ له ١٩.

أ- يجلب غضب الرب وسخطه ويتسلط على الظالم بتشى أنواع العذاب.

ب- قبول دعاء المظلوم فيه.

ج- يخرب الديار وبسببه تنهار الدول.

د- تحاشي الخلق عن الظالم وبعدهم منه لخوفهم من بطشه.

هـ- معصيته متعدية للغير.

و- دليل على ظلمة القلب وقسوته.

ز- عدم الأخذ على يد الظالم يُفسد الأمة.

ح- يجلب كره الرسول ﷺ.

ط- صغار الظالم عند الله وذلته.

ي- الظالم يحرم شفاعة رسول الله ﷺ(١).

ك- الظلم يحمل صاحبه على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من العرى والانحلال والسفور وإثارة الغرائز:

جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما، ... ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".

قال القرطبي: (وقوله: "ونساءٌ كاسيات، عاريات" قيل في هذا قولان:

أحدهما: أنهنَّ كاسيات بلباس الأثواب الرقاق الرفيعة التي لا تستر منهن حجم عورةٍ، أو تبدي من محاسنها - مع وجود الأثواب الساترة عليها- ما لا يحلُّ لها أن تبديه، كما تفعل البغايا المشتهرات بالفسق.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤٩٢٦/١٠.

(٢) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٩٥/٢.

وثانيهما: أنهنَّ كاسيات من الثياب، عاريات من لباس التقوى؛ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

قلتُ: ولا بُعد في إرادة القدر المشترك بين هذين النوعين؛ إذ كلُّ واحدٍ منهم عروٌ، وإنما يختلفان بالإضافة.

وقوله: "مميلات مائلات" كذا جاءت الرواية في هاتين الكلمتين بتقديم: مميلات على مائلات!، وكلاهما من الميل، بالياء باثنتين من تحتها. ومعنى ذلك: أنهن يملن في أنفسهنَّ تثنيًا ونعمةً، وتصنُّعًا ليملن إليهنَّ قلوب الرجال، فيميلون إليهنَّ، ويفتنَّهم. وعلى هذا: فكان حق مائلات أن يتقدم على مميلات؛ لأن ميلهن في أنفسهن مقدم على الوجود على إمالتهن. وصحَّ ذلك لأن الصفات المجتمعة لايلزم ترتيبها: ألا ترى أنها تعطف بالواو، والواو جامعة غير مترتبة، إلا أن الأحسن تقديم مائلات على مميلات؛ لأنه سببه كما سبق.

وقد أبعد أبو الوليد الوقشي حيث قال: إن صوابه "الماثلة" بالثاء المثلثة، يعني: الظاهرة، وقال: لا معنى للمائلة هنا. وتركُ هذا الصواب هو الصواب.

وقوله: "رؤسهنَّ كأسنمة البخت المائلة" أسنمة: جمع سنام، وسنام كلِّ شيء: أعلاه. والبخت: جمع بختيَّة. وهي ضربٌ من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة، شبَّه رؤسهنَّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنَّ على أوساط رؤوسهنَّ تزينًا، وتصنعًا، وقد يفعلن ذلك بما يكثِّرن به شعورهنَّ، والمائلة: الرواية بالياء، من الميل. يعني: أن أعلى السنام يميل لكثرة شحمه، شبَّه أعالي ما يرفعن من الشعر بذلك. وقال الوقشيُّ: صوابه بالثاء المثلثة أي: المرتفعة الظاهرة[2].

قال النووي: (قوله "كاسيات عاريات" أي: تستر بعض بدنها وتكشف بعض إظهارًا بحالها ونحوه، وقيل معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها)[3]. وقد تضافرت آيات

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٤٩/٥-٤٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٤١.

القرآن وأحاديث السنة النبوية على الترهيب والنهي عن التبرج والسفور وإثارة الغرائز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(١) قال ابن كثير: (قال مجاهد بن جبر: وذلك أن المرأة فيهن كانت تخرج تمشي بين يدي الرجال، وقال قتادة: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى المؤمنات عن ذلك إذا خرجن من بيوتهن(٢) بل زيادة في الترهيب من العري والسفور يأمر النبي ﷺ بلعنة من كانت هذه سنتها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، العنوهن فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ))(٣) قال السيوطي، قال ابن عبد البر (أراد النبي ﷺ النساء اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر فهن كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة)(٤).

رابعًا- من أصناف المدعوين: النساء:

وقد ضمن الحديث الحديث عن النساء وتحذيرهن من التبرج والسفور، وبيان الوعيد لمن ترتكب ذلك، فقال ﷺ "ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" والنساء صنف من أصناف المدعوين لا يستهان به، لذا لابد من تكثيف النشاط لهداية النساء؛ لأن المرأة اليوم لا تزال في نظر عباد المال والشهوات وسيلة لتدمير الأخلاق وتجارة الرقيق الأبيض، وإن هداية المرأة للإسلام هو كسب لها، ومنع لأية آثار سلبية تتركها في المجتمع حينما تكون بلا هداية، وبهذا نفهم أن الدعوة في صفوف النساء هي أيضًا حماية للمجتمع وأخلاقه وشبابه(٥).

ومن أهم ركائز الدعوة في الأوساط النسائية الدعوة إلى العفة والحجاب والبعد عن التبرج والسفور.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٨٢/٥.

(٣) رواه الطبراني في الصغير، برقم ١١٢٥، وقال الألباني في حجاب المرأة المسلمة، سنده صحيح، ٥٦.

(٤) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جلال الدين السيوطي ١٠٣/٣.

(٥) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، الإمام شمس الدين بن القيم، ص ١٢٠.

إن الله تعالى قد حرم تبرج المرأة وأمرها بالعفة والحجاب، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(١).

والتبرج يعبر عنه وعن غيره من مظاهر الفساد بلفظ: التكشف، والتهتك، والعُري، والتحلل الخُلُقي، والإخلال بناموس الحياة، وداعية الإباحية: "الزنا".

وهو محرَّم في الشرائع السابقة، وهو في القانون الوضعي محرم على الورق وليس له نصيب من الواقع؛ لأنه ممنوع بعصا القانون.

أما في الإسلام فهو محرم بوازع الإيمان، ونفوذ سلطانه على قلوب أهل الإسلام طواعية لله تعالى ولرسوله ﷺ، وتحليًا بالعفة والفضيلة، وبعدًا عن الرذيلة، وانكفافًا عن الإثم، واحتسابًا للأجر والثواب، وخوفًا من أليم العقاب، فعلى نساء المسلمين، أن يتقين الله، فينتهين عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، حتى لا يُسهمن في نشر الفساد في المجتمع المسلم، وهدم الأسر والبيوت، وحلول الزنا، وحتى لا يكنّ سببًا في استجلاب العيون الخائنة، والقلوب المريضة إليهن، فيأثمن، ويؤثِّمن غيرهن.

والتبرج يكون بأمور:

يكون التبرج بخلع الحجاب، وإظهار المرأة شيئًا من بدنها أمام الرجال الأجانب عنها.

ويكون التبرج بتثني المرأة في مشيتها وتبخترها وترفلها وتكسرها أمام الرجال.

ويكون التبرج بالضرب بالأرجل؛ ليُعلم ما تخفي من زينتها، وهو أشد تحريكًا للشهوة من النظر إلى الزينة.

ويكون التبرج بالخضوع بالقول والملاينة بالكلام.

ويكون التبرج بالاختلاط بالرجال وملامسة أبدانهن أبدان الرجال، بالمصافحة والتزاحم في المراكب والممرات الضيقة ونحوها.

والنسوة المتبرجات هُنَّ: "المترجلات" و"المتشبهات" بالرجال أو بالنساء الكافرات.

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

والمترجلات يسميهن بعض الأوربيين باسم "الجنس الثالث".

والأدلة على تحريم التبرج آيات من كتاب الله، منها آيتان نصٌّ في النهي عن التبرج، وهما:

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(١).

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

وآيات ضرب الحجاب وفرضه على أمهات المؤمنين ونساء المؤمنين ونهيهن عن إبداء الزينة، نصوص قاطعة على تحريم التبرج والسفور.

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".

وهذا نص فيه وعيد شديد، يدل على أن التبرج من الكبائر؛ لأن الكبيرة: كل ذنب توعد الله عليه بنار أو غضب أو لعنةٍ أو عذابٍ أو حرمانٍ من الجنة.

وقد أجمع المسلمون على تحريم التبرج، وبالإجماع العملي على عدم تبرج نساء المؤمنين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ستر أبدانهن وزينتهن.

وليحذر المسلم من بدايات التبرج في محارمه، وذلك بالتساهل في لباس بناته الصغيرات بأزياء لو كانت على بالغات لكانت فسقًا وفجورًا، مثل إلباسها القصير، والضيق، والبنطال، والشفاف الواصف لبشرتها، إلى غير ذلك من ألبسة أهل النار، كما تقدم في الحديث الصحيح، وفي هذا من الإلف للتبرج والسفور، وكسر حاجز النفرة، وزوال الحياء، ما لا يخفى. فليتق الله من ولاه الله الأمر(٣).

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) سورة النور، آية: ٦.

(٣) انظر: حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ١٠٣-١٠٨.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان نعيم الجنة وريحها:

جاءت الإشارة إليه في الحديث في قوله ﷺ "لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" قال ابن القيم: (وريح الجنة نوعان ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد، وريح يدرك بحاسبة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله[1]، وأوليائه، وقد صرح القرآن بأن نعيم الجنة يشمل ما لا يدخل ولا يطرأ على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء الترهيب في الحديث واضحًا جليًا حيث رهب النبي ﷺ من ظلم الناس والاعتداء عليهم بغير حق ومن تبرج النساء وسفورهن بأن فاعل ذلك من أصناف النار، فقال ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" والترهيب من الأساليب ذات القيمة التأثيرية العظيمة، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام[3].

سابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على عدم ظلم الناس:

جاءت النصوص مرهبة أشد الترهيب من ظلم الناس كما جاء في الحديث "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس..." فالظلم سبب

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٤.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٥٧.

لوخيم العواقب، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾[(١)] وهو سبب لانهيار القوى وتبدد الممالك، قال ابن تيمية: (إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ومن المأثور أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة[(٢)] وهو من صفات اللئام ولله در أبي العتاهية حين قال:

أمـــا والله إن الظلـــم لـــؤم ... ومـــا زال المـــسيء هـــو الظلـــوم
إلى ديـــان يـــوم الـــدين نمـــضي ... وعنـــد الله تجتمـــع الخـــصوم
ســـتعلم في الحـــساب إذا التقينـــا ... غـــدًا عنـــد الإلـــه مـــن الملـــوم[(٣)]

إن محاربة الظلم وتمكين العدل ضرورة لإقامة الحق، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن، ويشد علاقة الأفراد بعضهم ببعض ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والإخاء. ومن هنا نجد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق محذرة من الظلم والبغي؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)]. والعدل من أوصاف الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[(٥)]. وإقامة العدل إحدى مهمات الرسول ووظائفه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾[(٦)].

والعدل الذي ينادي به الإسلام، عدل شامل يساوي بين الناس: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[(٧)].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٦.
(٢) مجموعة الفتاوى لابن تيمية، ج١٢/٦٢، ٦٣.
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١/١٨١.
(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٥) سورة الحديد، آية: ٢٥.
(٦) سورة الشورى، آية: ١٥.
(٧) سورة النساء، آية: ٥٨.

ولا تعتبر العداوة والشحناء التي تقوم للناس مبررًا لقيام الظلم أو ترك العدل؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع، فالعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه، والمجتمع العادل هو الذي من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد أن يصل إلى حقه[(٢)].

ثامنًا- من أهداف الدعوة: الحث على الالتزام بالحشمة والوقار والحياء:

جاء في الحديث الترهيب من السفور ونفض لباس الحشمة والحياء، فقال ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما ... ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ولا تستثار، وإقامة مجتمعًا طاهرًا من أدران الفاحشة والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، تُجنب فيه النفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطهرًا أن كلفها زيادة على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم وفرض عليها الحجاب الشرعية[(٣)]، فقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[(٤)] فالتبرج والسفور تعرٍّ من التقوى وبعدًا عن الحياء، لذا كان وصف النبي ﷺ للمتبرجات بقوله "كاسيات عاريات" كاسيات عاريات من لباس التقوى، فهن كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ظاهرًا وباطنًا، حيث تبدي زينتها، ولا تبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهن، وذلك مشاهد في الوجود منهن، ولو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك[(٥)].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي، ٣٣١.

(٣) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٠/١٢/٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالترهيب:

إن تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، منقصة وانتكاسة أخلاقية، يجب أن يترفع عنها كل مسلم ومسلمة، ولذا رهّب النبي ﷺ من هذا الفعل الشنيع فقد ورد في حديث الباب من قول ابن عباس رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، ... إلخ»، ومن قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ...إلخ»، واللعن هنا ورد كأسلوب تربوي غاية في ترهيب الأنفس من مغبة امتثال هذا الفعل الدنيء، "حيث إن الإسلام الحنيف يحافظ على فطرة الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، فلا يصلح للرجل التخلق بصفات الأنثى، ولا يصلح للمرأة أن تتصف بصفات الرجل، فهذا تغيير لخلق الله عز وجل، سواء أكان في ملبس، أم في صوت أم في حركة"[1]، وقد تراءى من أحاديث الباب أن الترهيب كأسلوب تربوي لم يقف عند حد اللعن، بل تعدى إلى بيان شدة العذاب، كما ورد في قوله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا..إلخ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه استخدام الترهيب كأسلوب تربوي إذا ما حادت النفس عن أمر الله ورسوله في ذلك، والتربية بالترهيب، لا تقف عند حد التغليظ في الموعظة، وبيان شدة وعيدها بالقول، بل تتعدى إذا اقتضى الأمر إلى الإيلام بالعقاب الجسدي، وإن اقتضى الأمر ذلك، وجب على القائمين بالتربية أن يعلموا أن الهدف من العقاب الجسدي ليس الانتقام والتشفي، وإنما التأديب والإصلاح، لما في ذلك من إنقاذ نفس المتربي من النار وعذاب الجبار، وبناء على ذلك كان العقاب في ظاهره القسوة وفي باطنه الرحمة بالمتربي.

وحتى يأتي العقاب -كأحد أشكال التربية بالترهيب- بثماره، وجب تجنب الأخطاء التربوية في ذلك، والتي من أهمها ما يلي:

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٨٦، ٢٨٧.

١- عدم التدرج في إيقاع العقاب على المتربي:

فالعقاب البدني لا يجرى كله على منوال واحد بل هو درجات، وأول درجاته إبراز أداة العقوبة كالعصا أو السوط، فإن ذلك مما يسهم في التربية ويحمل الصبي على السلوك الحميد المرغوب، ثم الإشارة بها والتهديد باستخدامها عند تكرار الخطأ، ثم الضرب الخفيف الذي يمكن أن يسبب ألمًا لكنه لا يضر، ولا ينبغي له أن يضرب كيفما اتفق في أي مكان من جسد الصبي، فإن ذلك يدل على هياج المربي وعدم اتزانه، مما ينذر بعواقب سيئة قد تترتب عليها كارثة للصبي، بل عليه أن يتريث ويختار المكان الذي يضرب فيه، فلا يضرب على العظام أو الأماكن الحساسة، ولا يكرر الضرب على مكان واحد، ولا يرفع يده عند الضرب حتى يرى بياض إبطه، بل تكون عضده مضمومة إلى جنبه، ولا يستخدم في ذلك عصا غليظة أو حديدة أو نحو ذلك(١).

قال ابن خلدون: وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: "لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئًا، ومن كلام عمر ﵁: "من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله"، حرصًا على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلمًا بأن المقدار الذي عينه الشرع، لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته"(٢).

٢- إظهار الشفقة والرحمة بالمتربي المخطئ بعد عقابه:

حيث كان من الأخطار التي يقع فيها المربي في محاولة إشعار الصبي بشفقته عليه أن يقوم بمصالحته فور توقيع العقاب، وقد يعطيه بعض المال أو يشتري له بعض قطع الحلوى أو ما شابه ذلك، مما يضيع الثمرة المرجوة من العقاب(٣).

ثانيًا- تربية العفة في قلوب نساء المسلمين:

إن من أعظم الجرائم الخلقية التي ترتكب في حق عفة الشباب المسلم الغَضِّ، جريمةُ التبرج والسفور، لأن فتن النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات كانت وبحق أعظم معول لهدم التربية الخلقية في قلوب المتربين.

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ص٩٥، ٩٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ٥٠٨.

(٣) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٥.

ونقول بكل شجن وألم إن الحسرة على هدم العفة في قلوب النشء والشباب، لا تعادلها حسرة، فالتربية على العفة صيانة للفرد والمجتمع وتنمية للقيم العليا بين الناس، وصيانة للأعراض، ولذا رهب النبي ﷺ من التبرج والسفور والتحلل الأخلاقي.

وذلك في قوله ﷺ من حديث الباب: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا» -ثم ذكر ﷺ من هذين الصنفين-: «وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا. وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

لذا وجب على أهل التربية والتوجيه غرس العفة في قلوب نساء المسلمين.



٢٩٣- باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار

الحديث رقم (١٦٣٦)

١٦٣٦ - عن جابر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**لاَ تَأكُلُوا بالشِّمَالِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأكُلُ (ويَشربُ)** [١] **بالشِّمَالِ**)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن للطعام آدابًا في الإسلام، ومن هذه الآداب: الأكل باليمين، تيمنًا وتبركًا واقتداءً برسول الله ﷺ، وبعدًا عن التشبه بالكفار والشيطان.

والحديث الشريف في بنائه اللغوي يتكون من جملتين الأولى فعلية وردت في صيغة النهي، والنهي هنا ليس موجهًا إلى فرد واحد، ولكنه موجه من رسول الله إلى الأمة الإسلامية كلها في كل العصور، وجميع البيئات وهذا النهي الممتد الشامل جاء موجزًا بليغًا صريحًا في هذه الجملة المتموجة بكثير من الدلالات، "لا تأكلوا بالشمال"، وأما الجملة الثانية فهي اسمية وردت في صيغة التأكيد، وهي تعليلية إقناعية: حيث تصدرتها الفاء التي تفصح عن السبب في النهي عن الأكل بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال ونلاحظ تكرار لفظ "الشمال" للتأكيد على النهي وللتذكير والتنبيه بأن الآكل بالشمال يتشبه بالشيطان، ويابئس هذا التشبه، ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا، والأولى أن نتشبه برسول الله ﷺ وقد كان ﷺ يحب التيامن في شأنه كله، وقال «ياغلامُ، سَمِّ الله، وكل بيمينك ، وكل مما يَلِيك»[٣].

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١٠٥/٢٠٢٠) من حديث عبد الله بن عمر، كما في الحديث الذي بعد هذا.

(٢) برقم (١٠٤/٢٠١٩).

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

والنهي في هذا الحديث الشريف: للتنزيه، وقيل للوجوب، لأن الشافعي يرى أن من أكل مما لا يليه وبشماله عالمًا بالنفي كان عاصيًا آثمًا، وقال ابن حجر: ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام التالية:

١- حكم الأكل والشرب بالشمال: وقد اختلف الفقهاء في حكم الأكل والشرب بالشمال على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[١] ويرون أن الأكل والشرب بالشمال إنما هو مكروه، وليس محرمًا.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الإمام ابن عبدالبر من المالكية[٢]، وقول عند الحنابلة اختاره أبو موسى[٣]، وابن حزم من الظاهرية[٤] إلى أن الأكل بالشمال، والشرب بها إنما هما محرمان.

الأدلة:

أولاً: دليل الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على ما ذهبوا إليه من كراهة الأكل والشرب بالشمال، بحمل النهي الوارد في الحديثين على الكراهة[٥].

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٤/٤، وكفاية الطالب الرباني ٦٠٧/٢، ٦٠٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٥٠/٣، وحاشية الشرواني على تحفة المحتاج ٤٣٨/٧، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٢١/٧، ٢٤٣/٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٨٩/٢.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١١٢/١١.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨.

(٤) المحلى، ابن حزم ٤٢٤/٧.

(٥) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٤/٤.

ثانيًا: دليل الرأي الثاني: واستدل أصحاب الرأي الثاني القائل بتحريم الأكل والشرب بالشمال، بأن رسول الله ﷺ قد نهى عن الأكل والشرب بالشمال، والنهي حقيقة في التحريم، ولا يكون للكراهة إلا مجازًا مع وجود الصارف[1]، وهو غير موجود هنا.

ومما يدل على التحريم - أيضًا- ما جاء في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع ((أَنَّ النبي ﷺ رأى رَجُلاً يأَكُل بشِمَالِهِ. فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ. قَالَ: لاَ اسْتَطَعْتَ فَمَا رَفَعَهَا إِلَىٰ فِيهِ بعد))[2].

وما أخرجه الطبراني من حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ رأى سبيعة الأسلمية تأكل بشمالها، فقال: أخذها داء غزة، فقال: إن بها قرحة قال: وإن، فمرت بغزة فأصابها طاعون فماتت[3].

وقد أجيب على الاستدلال بهذين الحديثين بأن دعاء النبي ﷺ عليهما، ليس لأنهما تركا الأكل باليمين، وأكلا بالشمال، وإنما لقصدهما المخالفة كبرًا[4].

الترجيح:

ولعل الراجح من هذين الرأيين هو أن الأكل بالشمال والشرب بها إنما هو مكروه، ومحل الكراهة إذا لم يكن لعذر، أما إذا وجد عذر يمنع من الأكل باليمين، ويحتم الأكل بالشمال من نحو مرض،أو جراحة، أو غير ذلك فلا كراهة[5].

٢- وفي الحديثين أيضًا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في كل حال، حتى في حال الأكل.

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٢٢/٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٢١.

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين بن أبي بكر الهيثمي ٣/٥.

(٤) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٥/٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٢٢/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨.

٣- وفيهما استحباب تعليم الآكل آداب الأكل[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل والشرب وعدم الأكل بالشمال أو الشرب بها.

ثانيًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في آداب الأكل والشرب.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل والشرب وعدم الأكل بالشمال أو الشرب بها:

ويظهر ذلك في حديث جابر رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ قال لا تأكلوا بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال" وحديث ابن عمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ قال: "لا يأكلن أحدكم بشماله، ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها".

قال النووي: (فيه استحباب الأكل والشرب باليمين وكراهتهما بالشمال وقد زاد نافع الأخذ والإعطاء وهذا إذا لم يكن عذر، فإن كان عذر يمنع الأكل والشرب باليمين من مرض أو جراحة أو غير ذلك فلا كراهة في الشمال، وفيه أنه ينبغي اجتناب الأفعال التي تشبه أفعال الشياطين وأن للشياطين يدين)[٣].

وقال ابن الجوزي: (لما جعلت الشمال للاستنجاء ومباشرة الأنجاس، واليمنى لتناول الغذاء، لم يصلح استعمال أحدهما في شغل الأخرى، لأنه حط لرتبة ذي الرتبة، ورفع للمحطوط، فمن خالف ما اقتضه الحكمة وافق الشيطان)[٤].

ولفضل التيمين كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في كل شيء فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله يعجبه التيمُّنُ في شأنه كلّهِ: في طهوره

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٣.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٣٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٣٧).

(٣) شرح مسلم، النووي، ص ١٢٨٠.

(٤) كشف المشكل ٥٩٤/٢، ١٢٢٧ نقلاً عن كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص ١٥٧.

وترجله وتنعُّله))[1]. فاليمين تقدم في الأعمال الشريفة النظيفة والشمال تقدم في الأعمال الخسيسة المستقذرة.

ثانيًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في آداب الأكل والشرب:

يستنبط هذا من عموم الحديثين. وقال رسول الله ﷺ: ((إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله))[2].

قال أبو العباس القرطبي: (قوله: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بها" هذا الأمر على جهة الندب؛ لأنه من باب تشريف اليمين على الشمال، وذلك لأنها أقوى في الغالب، وأسبق للأعمال، وأمكن في الأشغال. ثم هي مشتقةٌ من اليُمنِ، والبركة. وقد شرف الله تعالى أهل الجنة بأن نسبهم إليها، كما ذم أهل النار حين نسبهم إلى الشمال، فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[3]، وقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾[4]، وقال عكس هذا في أصحاب الشمال. وعلى الجملة: فاليمين وما نُسب إليها، واشتُق عنها محمودٌ لسانًا، وشرعًا، ودنيا، وآخرة. والشمال على النقيض من ذلك.

وإذا كان هذا، فمن الآداب المناسبة لمكارم الأخلاق، والسيرة الحسنة عند الفضلاء اختصاص اليمين بالأعمال الشريفة، والأحوال النظيفة، وإن احتيج في شيء منها إلى الاستعانة بالشمال فبحكم التبعية. وأما إزالة الأقذار، والأمور الخسيسة فبالشمال لما يناسبها من الحقارة، والاسترذال.

وقوله: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله" ظاهره أن من أكل بشماله تشبه بالشيطان في ذلك الفعل؛ إذ الشيطان بشماله يأكل وبها يشرب. ولقد أبعد وتعسَّف من أعاد الضمير في "شماله" على الآكل)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٦، ومسلم ٢٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٢٠.

(٣) سورة الواقعة، آية: ٨.

(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٩٦/٥.

قال الطيبي: (قال التوربشتي: قوله: "فإن الشيطان يأكل بشماله" المعنى أنه يحمل أولياءه من الإنس على ذلك الصنيع ليضاد به عباد الله الصالحين، ثم إن من حق نعمة الله والقيام بشكره أن يكرم ولا يستهان بها، ومن حق الكرامة أن يتناول باليمين ويميز بها بين ما كان من النعمة وبين ما كان من الأذى. أقول: تحريره أن يقال: لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها؛ فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم أولياء الشيطان؛ فإن الشيطان يحمل أولياءه من الإنس على ذلك)[١].

قال ابن عثيمين: (نهى النبي ﷺ عن الأكل والشرب باليد الشمال وعلل ذلك بأن هذا عمل الشيطان، الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقد نهينا عن اتباعه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[٢] وهذا يدل على تحريم الأكل بالشمال، وتحريم الشرب بالشمال، وأن من أكل أو شرب بشماله، فإنه مشابهة للشيطان الذي هو عدونا وعدو الله عز وجل[٣].

فينبغي على المدعو التأسي بهدي النبي ﷺ والاستجابة لتوجيهاته في الأكل والشرب باليد اليمنى وعدم الأكل والشرب باليد اليسرى حتى يبتعد عن التشبه بأفعال الشيطان وأفعال الكفار الذين يقلدون زعيمهم الشيطان.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك من عموم الحديثين حيث رهّب رسول الله ﷺ من الأكل والشرب باليد اليسرى وبين أن الشيطان يأكل ويشرب بيده اليسرى ومن اتبع الشيطان أو قلده وقع في المعاصي والذنوب وفي ذلك ترهيب من اتباع الشيطان وتقليده.

وأسلوب الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده المولى جل وعلا من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣٨/٨.

(٢) سورة النور، آية: ٢١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٣١/٢.

ومن صور الترهيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم صورة نفسية مفزعة إذا تدبرها الإنسان يرتجف فؤاده وتضطرب نفسه، يبين من خلالها الكتاب العزيز وضع الغافلين اللاهين الدائمين على الذنوب والمعاصي المستمرين على مخالفة أمر الله تعالى ورسوله أتباع الشيطان يوم يتخلى عنهم وهم غير قادرين على فعل شيء أي شيء، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[1].

إنها صورة وموقف لا خزي بعده حين يتنصل الشيطان -لعنه الله وأخزاه- من أتباعه بهذه الطريقة في هذا اليوم الذي لا يستطيع العبد أن يعمل فيه ما يبعد عنه عقوبة المعصية والبعد عن الله[2].

فينبغي على الداعية الترهيب من مخالفة أحكام الله وهدي نبيه ﷺ واتباع الشيطان.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٢.

(٢) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٥١٥-٥١٧.

الحديث رقم (١٦٣٧)

١٦٣٧ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((**لاَ يَاكُلَنَّ أَحَدُكُمْ**[1] **بِشِمَالِهِ، وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا**)). رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يتفق في مضمونه مع الحديث السابق: وهو النهي عن الأكل بالشمال، ولكن هذا الحديث يتسم بالزيادة في المبنى، وكذلك الزيادة في المعنى، فهنا ورد النهي عن الأكل بالشمال، وعن الشرب بها، لأن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها ،وهذه الزيادة لمنع اللبس فربما يتوهم بعض الناس أن النهي يتعلق بالأكل فقط، فيجيء هذا الحديث موضحًا أن النهي عام: عن الأقل أو الشرب بالشمال والنهي في هذا الحديث موجه إلى الفرد، وليس إلى الجماعة، وهو في الوقت نفسه يتضمن النهي الجمعي، لأن المراد: أن كل أحد منكم، فلفظ "أحد" يصدق على كل مسلم، ولذلك ورد هذا اللفظ مقترنًا بضمير المخاطب الدال على الجمع في قوله "أحدكم".

وجاء النهي في هذا الحديث مؤكدًا في موضعين في قوله: "لا يأكلن ولا يشربن"، وقيل أكد الفعل بالنون مبالغة في النهي، فهو بها مكروه كراهة شديدة، وتكرار الفعل يأكل، وكذلك الفعل يشرب، واقتران هذين الفعلين بالشمال يرشد إلى الإثم الشديد الذي يرتكبه من يقدم على ذلك ولأن الشمال تستعمل في إزالة القذارات في الاستنجاء: ويعلق بها من الميكروبات والجراثيم كائنات غير مرئية تلحق الأذى

---

(١) لفظ مسلم: (أحد منكم) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٢٠٢٠/١٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٣٠).

بالإنسان، حيث يتلوث الطعام، وتفسد الأمعاء، ويتعرض المسلم للأمراض الفتاكة، ومما يدل على أن الآكل بشماله آثم: ما جاء في صحيح مسلم ((أن النبي ﷺ رأى رجلا يأكل بشماله فقال: كل بيمينك قال: لا أستطيع، قال: "لا استطعت"، ما منعه إلا الكبر فما رفعها إلى فيه بعد))[١].

المضامين الدعوية[٢]

(١) أخرجه مسلم، ٢٠٢١.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٣٨)

١٦٣٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**إنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارى لاَ يَصْبغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ**)). متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يصبغون: المراد: خضاب شعر اللحية والرأس الأبيض بصفرة أو حمرة وأما السواد فمنهي عنه [٢].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الثالث في باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار، والحديثان السابقان يتعلقان بعدم التشبه بالكفار والشياطين في عادات الطعام والشراب، وهذا الحديث ينقلنا إلى مجال آخر ولكنه في إطار العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية، وهو مظهر الإنسان العام، ومن ذلك: عدم ترك الشيب في الرأس أو اللحية، وإنما على المسلم أن يصبغه إما بصفرة أو حمرة، والمنهي عنه الصبغ بالسواد.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين واضحتين لا غموض فيهما، ولا مواربة، ولا التواء، وإنما البيان والوضوح مع الإيجاز والإفهام، والإقناع والإفحام، من سمات البيان النبوي البليغ، والجملة الأولى اسمية مؤكدة في إطار الأسلوب "الخبري"، الذي يساق للإخبار والإعلام عن شيء متحقق، وأداة التوكيد "إن" وهي حرف توكيد ونصب، وهي من النواسخ وكأن مجيئها في بناء هذه الجملة إشارة إلى ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسخ ومحو عادات اليهود والنصارى في عدم الصبغ، والتميز بما يضفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٨٠/٢١٠٣) ولفظهما سواء.

(٢) رياض الصالحين ٥٦٥.

على المسلم طابع الخصوصية وهو الصبغ بالصفرة أو الحمرة، وهذا النسخ اللغوي يجيء متوائمًا مع النسخ الفعلي وهو عدم التشبه باليهود والنصارى، ولو جاء التعبير بقوله: "كان اليهود والنصارى: لا يصبغون" لما أعطى هذا الإيحاء الدقيق العميق، وخبر إن: جملة فعلية مقترنة بالنفي وفعلها مضارع، وهذه الصيغة الزمنية تعطي دلالة الاستمرار، والنفي بـ"لا"، غير النفي بـ"لن"، لاختلاف دلالة الفعل في حالة الاقتران بأحد الأداتين.

والجملة الثانية جاءت في صيغة الأمر الصريح الموجز في قوله: "فخالفوهم"، والمعنى الملازم لهذه المخالفة: هو اخضبوا بما عدا السواد، وقال بعض العلماء: إن الخضاب بالسواد: منهي عنه على سبيل التحريم إلا في الجهاد لإرهاب العدو، فتأمل هذه العلة التي تفيد الاستعداد والقوة في مواجهة العدو بكل الوسائل حتى بملامح الوجه، والشكل الخارجي الذي يرهب العدو.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام الفقهية الآتية:

١-استحباب خضاب شيب الرجل والمرأة بصفرة أو حمرة، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[١].

٢-أما تغيير الشيب بالسواد فقد ذهب الفقهاء[٢] إلى جوازه في الجهاد لإرهاب العدو لما روى صهيب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ أَحْسَنَ مَا اخْتَضَبْتُمْ بِهِ السَّوَادُ، أَرْغَبُ لِنِسَائِكُمْ فِيكُمْ، وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي صُدُورِ عَدُوكُمْ))[٣].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٢٢/٦، وتاج الملوك، محمد بن أبي بكر الرازي ص ٢٢٧، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٨٢/٢، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٧٦/١، وشرح العمدة ٢٣٧/١.

(٢) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١٩٩/١٠، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن احمد الصعيدي ٥٨٢/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/١.

(٣) ابن ماجه ٣٦٢٥ وضعّفه الألباني (ضعيف الجامع الصغير ١٣٧٥).

أما في غير الجهاد فقد اختلف الفقهاء في تغيير الخضاب بالسواد على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[١]، والمالكية[٢]، والحنابلة[٣] وبعض الشافعية[٤]، ويرون أن تغيير الشيب بالسواد مكروه.

وذلك لأنهم حملوا النهي الوارد عن الخضاب بالسواد على الكراهة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه بعض الشافعية[٥]، ويرون أن الخضاب بالسواد حرام وقد استدلوا على ذلك بحديث جابر -الذي معنا- وفيه أن رسول الله ﷺ قال: "اجتنبوا السواد".

وبما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ))[٦].

الرأي الثالث: وهو محكي عن إسحاق بن راهويه[٧]، ويفرق في ذلك بين الرجل والمرأة فيجيزه للمرأة كي تتزين به لزوجها، ولا يجبزه للرجل.

الترجيح:

بعد عرض آراء الفقهاء في المسألة أرى - والله أعلم- أن الرأي الراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من القول بكراهة تغيير الشيب بالسواد.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٢٢/٦ وفيه (ويكره السواد لغير الحرب).

(٢) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٨٢/٢.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٧/١ وفيه: "ويكره الخضاب بالسواد، قيل: لأبي عبدالله: تكره الخضاب بالسواد؟ قال: إي والله.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/٦، وكذا: شرح صحيح مسلم، النووي ٨٠/١٤.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/١، وشرح صحيح مسلم، النووي ٨٠/١٤.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٢١٢، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٨٠٠).

(٧) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٢/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٧/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مخالفة اليهود والنصارى في صبغ الشيب.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم".

حيث أكد رسول الله ﷺ على عدم صبغ اليهود والنصارى، وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يفيد منها الداعية في بيان الحقائق والتأكيد عليها مما يجعل المدعو يستجيب للدعوة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مخالفة اليهود والنصارى في صبغ الشيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم".

قال ابن تيمية: (فإنه يقتضي أن علة الأمر بهذه المخالفة: كونهم لا يصبغون، فالتقدير اصبغوا لأنهم لا يصبغون. وإذا كان علة الأمر بالفعل عدم فعلهم له دل على أن قصد المخالفة لهم ثابت بالشرع، وهو المطلوب.

ويوضح ذلك: أنه لو لم يكن لقصد مخالفتهم تأثير في الأمر بالصبغ لم يكن لذكرهم فائدة، ولا حسن تعقيبه به، وهذا وإن دل على مخالفتهم أمر مقصود للشرع، فذلك لا ينفي أن يكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة، مع قطع النظر عن مخالفتهم فإن هنا شيئين:

أحدهما: أن نفس المخالفة لهم في الهدى الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين، لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم، وإنما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه حتى رأى المغضوب عليهم من المرض الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان.

والثاني: أن نفس ما هم عليه من الهدي، والخلق، قد يكون مضرًا، أو منقصًا، فينهى عنه ويؤمر بضده، لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو:

إما مضر؛ أو ناقص، لأن ما بأيدهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها: مضرة، وما بأيديهم -مما لم ينسخ أصله- فهو يقبل الزيادة والنقص فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال، ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط، فإذا المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورهم، حتى ما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم قد يكون مضرًا بأمر الآخرة، أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا فالمخالفة فيه صلاح لنا[1].

وبالجملة: فالكفر بمنزلة مرض القلب، وأشد، ومتى كان القلب مريضًا؛ لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة، وإنما الصلاح: أن لا تشبه مريض القلب في أموره وإن خفي عليك مرض ذلك العضو، لكن يكفيك أن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفرع.

ومن ثم فقد تبين أن نفس مخالفتهم أمر مقصود للشارع في الجملة؛ ولهذا كان الإمام احمد بن حنبل وغيره من الأئمة يعللون الأمر بالصبغ بعلة المخالفة، قال حنبل: سمعت أبا عبدالله يقول: ما أحب لأحد إلا أن يغير الشيب، ولا يتشبه بأهل الكتاب لقول النبي ﷺ: ((غَيِّرُوا الشَّيْبَ ولا تَشَبَّهُوا باليَهُودِ))[2][3].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" وفي ذلك حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين وذلك لأن الله بعث محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور منها:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. ناصر بن عبدالكريم العقل ١/١٩٧، ١٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي ١٧٥٢ وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٤٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/١٩٨ - ٢٠٠.

أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة -مثلاً- يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم متقاضيًا لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا وظاهرًا أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التميز ظاهرًا، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر، إلا مباحًا محضًا لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم؛ كان شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه[1].

ومن أجل ذلك كان حث المسلم عن التميز في مظهره وعدم تقليد اليهود والنصارى.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ١/٩٣، ٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتنفير:

قد تحتاج التربية على ترك أمر ما، إلى تنفير المتربي عن القيام بالأمر المنهي عنه، لما في التنفير من خلق سياج نفسي في قلب المتربي يحول بينه وبين الفعل المنهي عنه.

وهذا الأسلوب في التربية قد ترائى جليًا في أحاديث الباب من تنفير النبي ﷺ لأمته من الأكل أو الشرب بالشمال، وذلك ببيان أن هذا الفعل المرذول تشبهًا بالشيطان، وذلك في قوله ﷺ: «لاَ تَأْكُلُوا بالشِّمَال، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بالشِّمَالِ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَأْكُلَنَّ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِهَا».

وذكر الشيطان هنا يكفي لتنفير النفس الطيبة، من التشبه بأفعال الشيطان وشؤم ودناءة تقليده.

وقد ورد التنفير أيضًا من التشبه بالكفار، وذلك في قوله ﷺ: «إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ لاَ يَصْبُغُونَ. فَخَالِفُوهُمْ». فالتنفير أداة يحسن بالمربي استخدامها في تحقيق ثمرة استجابة المتربي لترك الأمر المنهي عنه، وقد عجت السنة النبوية ببيان هذا الأسلوب التربوي حتى يتدارك المربون والمعلمون عظم أهمية هذا الأسلوب في تربية النشء المسلم، ولعل أمثل الأدلة على ذلك تنفير النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه من أكل الصدقة، وذلك في قوله: «كِخْ كِخْ» ليطرحها، ثم قال: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»[1].

ثانيًا: التربية على استقلال الشخصية الإسلامية:

إن مما ينبغي أن يُعني به كل مربي، مراعاة استقلال شخصية المتربي والحفاظ عليها من كل ما يطمس ملامحها أو يزيل حسن سمتها.

فكما أن للإسلام جوهر وضيء، فإن له سمت ظاهر جميل، يخالف فيه كل من عاداه من اليهود والنصارى، وهذا ما يستفاد جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ لاَ يَصْبُغُونَ. فَخَالِفُوهُمْ».

---

(١) أخرجه البخاري، ١٤٩١.

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه بيان أن التشبه بالكفار وتقليد الفساق في توافه الأمور، ومستهجن العادات، ومرذول الأخلاق؛ كتقليدهم في نحو الملبس، وقصات الشعر، وطريقة الأكل، ونحو ذلك، مما يوهن أمتهم، ويجعلهم عثرات تعترض طريق نهوضها، أو تجعله - على الأقل بطيئًا.

ومتى كثر في الناس أمثال هؤلاء الذين لا يميزون في محاكاتهم السيئة من الحسنة - أوشكت الأمة أن تفقد هدايتها، وتتجرد من معاني أصالتها وعزتها... وعلى المتربين والمتعلمين أن يعلموا أن الأمة العزيز هي التي تعرف مقدار ما تأخذ، ومقدار ما تعطي، ونوع ما تأخذ، ونوع ما تعطي، فنفرق بين محاكاة الأجنبي المحمود، ومحاكاة المنبوذة، سالكة بذلك طريقًا وسطًا، يكفل سعادة الأولى والآخرة[1].



(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ٤٦٩.

٢٩٤- باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

الحديث رقم (١٦٣٩)

١٦٣٩ - عن جابر ﷺ قَالَ: أُتِيَ بِأَبِي قُحَافَةَ (والد أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ)[1]، يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضاً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**غَيِّرُوا هَذَا**[2] **وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ**)). رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الثَّغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب، وقيل: هي شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثلج[4].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأوحد في باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد، والنهي للتحريم ولا يباح إلا للجهاد وإرهاب العدو كما قال العلماء، والحديث ليس قولاً وعظياً، وليس توجيهاً كلامياً، وإنما هو مشهد واقعي يُعلم فيه رسول الله صحابته والمسلمين أجمعين درساً من دروس النبوة، ومعياراً من معايير الشخصية الإسلامية وأول درس يتلقاه أبو قحافة ﷺ في الإسلام: هو ترك عادات المشركين والكفار، لأنه أسلم يوم فتح مكة، ورآه رسول الله ﷺ ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا، وقد مات في خلافة عمر ﷺ، وبناء الفعل للمجهول في قوله: "أتى بأبي قحافة": يرشد إلى أن الرجل

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) عند مسلم زيادة: (بشيء).

(٣) برقم (٢١٠٢/٧٩).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث غ م).

لم يأت طواعية، أو لكبر سنه، وجملة: ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً تصور حاله وسمته وهيئته: لأن الجملة في موقع الحال: فهي في المقال حال، وفي الواقع تصوير لحال الرجل الكائن عليها.

وهذه الصورة الدقيقة البليغة المستمدة من البيئة تنبئ عن قيمة التصوير الأدبي في البلاغة النبوية، فالتصوير الأدبي في البيان النبوي، يجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة، وبين الإقناع والامتاع، يغذي العقول، ويمتع الأسماع[1].

وهذه الصورة التي قدمت هيئة أبي قحافة للمتلقي، كأنه ماثل للعيان، مشاهد لا تخطئه الأبصار، والمشبه به فيه غرابة لفظية، "كالثغامة"، وهذه الغرابة تتفق مع هيئة أبي قحافة ﵁ التي استغربها رسول الله ﷺ فقال: "غيروا هذا، واجتنبوا السواد".

والثغامة: نبات أبيض الزهر يُشَبَّه به الشيب، حيث تبيض اللحية كأنها الثلج.

وورد النهي عن ذلك في صيغتين للأمر، حيث قال: "غيروا هذا، واجتنبوا السواد"، واسم الإشارة جاء لتحديد المشار إليه وهو الشيب الذي بدا كالثلج والثغامة بياضاً، وقيل الأمر في الفعلين للوجوب: فالتغير واجب، واجتناب السواد واجب، والله اعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: تاريخ الدعوة: فتح مكة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اتباع هدي النبي ﷺ في تغيير لون بياض الشعر.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً- تاريخ الدعوة: فتح مكة:

يظهر ذلك في قول جابر ﵁: "أُتي بأبي قحافة والد أبي بكر الصديق ﵄ يوم فتح مكة".

ولقد شهد العام الثامن للهجرة حدثاً هاماً كان بعيد الأثر في حياة الدعوة، ذلك هو فتح مكة الذي كان إيذاناً بانتهاء الوثنية في جزيرة العرب، والقضاء عليها، فما

---

(١) انظر: الحديث النبوي، رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

كادت مكة تدخل في حوزة الإسلام، ويكسر رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة في جوف الكعبة، وينطلق صوت بلال بالأذان من فوق الكعبة حتى سارعت القبائل تعلن ولاءها، وتقدم وفودها إلى المدينة تبايع رسول الله ﷺ حتى عرف العام التاسع بعام الوفود. وهكذا ساد الإسلام أرجاء الجزيرة، وبدأت القبائل تنظم حياتها على ضوء تعاليم الإسلام، بما تتلقاه من توجيهات النبي ﷺ وتعليمه لها، وانطلق ولاته ﷺ إلى مواطن القبائل يقومون بأمور الحكم والقضاء والدعوة[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اتباع هدي النبي ﷺ في تغيير لون بياض الشعر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ لأبي قحافة رضي الله عنه: "غيروا هذا واجتنبوا السواد".

قال القاضي عياض: (اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه، فرأى بعضهم أن ترك الخضاب أفضل، وبقاء الشيب أولى من تغييره. ورووا حديثاً في نهي النبي ﷺ عن تغيير الشيب، وأنه لم يغير هو شيبه ولا اختضب، وممن ذكر ذلك عنه علي، وعمر، وأُبي في آخرين، قال: فرأى آخرون: الخضاب أفضل وخضب جماعة من الخلفاء والصحابة والتابعين فمن بعدهم، واحتجوا بأمر النبي بالخضاب بالأحاديث التي ذكر مسلم وغيره في ذلك.

ثم اختلفوا: فكان أكثرهم يخضب بالصفرة، منهم علي وابن عمر وأبي هريرة، في آخرين، وكان منهم من يخضب بالحناء وبالكتم، ومنهم يصبغ بالزعفران، وكان منهم من يخضب بالسواد وذكر ذلك عن عمر، وعثمان، والحسن، والحسين، وعقبة بن عامر لومحمد بن علي، وعلي بن عبدالله بن عباس، وعروة] وابن سيرين، وأبي بردة في آخرين، وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: هو [أرغب] للزوجة، وأهيب للعدو. وكان بعضهم لا يخضب، وبه أخذ مالك وذكره عن علي بن أبي طالب، قال: وتغيير السواد أحب إليّ.

قال الطبري: والصواب عندنا أن الآثار التي رويت عن النبي ﷺ بتغيير الشيب والنهي عن تغييره كلها صحاح، وليس فيها شيء يبطل ما خالفه، لكن بعضها عام

(١) تاريخ الدعوة، د. محمد إبراهيم الجيوشي، ص ١٣٨.

وبعضها خاص، فالمراد بأحاديث التغيير الخصوص مما كان مثل شيب أبي قحافة. فأما الشمط[1] ففيه النهي عن التغيير والبقاء على الشيب. واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك، مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس على الوجوب للإجماع على هذا؛ ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك، ولا يصح أن يقال: إن أحدهما نسخ الآخر؛ لعدم دليل ذلك ومعرفة المتقدم من المتأخر من ذلك.

وقال غيره: الأمر في ذلك على وجهين وحالين:

أحدهما: عادة البلد، فمن كانت عادة موضعه ترك الصبغ أو الصبغ فخروجه عن المعتاد شهرة تقبح [وبلدها].

والثاني: اختلاف الناس في حال شيبهم، فرب شيبة نقية هي أجمل منها مصبوغة، ومنهم من يستبشع منظر شيبه فالصبغ أولى به.

قال أهل العلم: وللخضاب فائدتان:

إحداهما: تنظيف الشعر مما يتعلق به مما يغير بياضه من الغبار والدخان ويسمج لونه.

والأخرى: مخالفة أهل الكتاب؛ لقوله ﷺ في الحديث ذلك كما تقدم، ويكون مخالفتهم لمعنيين: أحدهما: لئلا يعتقدوا التسنن بهم، كما قالوه في غير ذلك، وقد كان يجب موافقتهم حتى أمر بمخالفتهم. الثاني: إظهار الشبيبة والكهولة للأعداء وغيظ الكفار. وفيه -أيضاً- ما تقدم في حق النساء والمباعلة[2].

قال النووي: (ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة ويحرم خضابه بالسواد على الأصح. وقيل يكره تنزيهًا والمختار التحريم لقوله ﷺ: "اجتنبوا السواد" هذا مذهبنا)[3]. فينبغي اتباع هدي النبي ﷺ وتوجيهاته في تغيير لون

---

(١) الشمط: اختلاط الشيب بالشعر، وقيل: هو أن يعلو البياض في الشعر السواد، وقيل: هو اختلاط البياض بالسواد. انظر: لسان العرب، ابن منظور مادة شمط.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٦٢٤-٦٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٢٨.

بياض الشعر. وقال العظيم آبادي: (والحديث يدل على ان الخضاب غير مختص باللحية وكراهة الخضاب بالسواد)[١].

وقال ابن عثمين: (ففي هذا دليل على أن الأفضل أن الإنسان يغير الشيب بصبغه، لكن بغير الأسود، إما بالأصفر كالحناء، أو بالأصفر الممزوج بالكتم، والكتم أسود فإذا مزج الأصفر بالأسود ظهر لون بني، فيصبغ الإنسان بالبني أو بالأصفر، كما أمر بذلك النبي ﷺ، ولولا المشقة والمؤونة على بعض الناس لكان يفعل ذلك، لكن مراعاة ومراقبة، ويخرج أسفل الشعر أبيض وأعلاه مصبوغاً.

وفي قوله "جنبوه السواد" دليل على أنه يمنع اللون الأسود، لأن السواد يعني أنه يعيد الإنسان شاباً، فكان مضادًا لفطرة الله عز وجل وسنته في خلقه، وأما بقية الأصباغ فلا بأس بها، إلا السواد، لأن النبي ﷺ نهى عنه[٢].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "غيروا هذا واجتنبوا السواد"؛ حيث أمر بتغيير لون بياض الشعر واجتناب التغيير بالسواد. وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في بيان الحقائق للمدعوين وأمرهم بها مما يجعلهم يستجيبون لها.

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٩٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الجمالية:

لقد حث الإسلام المتربين على الاهتمام بالشكل الخارجي، والجمال الحسي، فضلاً عن اهتمامه بالجمال الروحي، وذلك ظاهر جلي في قوله ﷺ عندما رأى أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وقد قدم عليه يوم فتح مكة ورأسه قد شاب شعرها فصار كالثغامة، وهو نبت أبيض الزهر، فقال ﷺ: «غَيِّرُوا هذَا، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ»، وذلك حرص منه ﷺ على أن يظهر المسلم بمظهر جميل، دون إسراف في التجمل، فلا مانع من تخضيب الشعر الأبيض بأي لون خلا اللون الأسود؛ لأن ذلك فيه تدليس وغش، وتشبه بالشباب في حين أن صاحبه جاوز الشباب.

إن من الأمور المستحبة التي عنى بها الإسلام حسن هيئة المرء؛ لأنها مرتبطة بنظافته ارتباطًا وثيقًا، ومن نتائج ذلك اتسام المرء بالمنظر الجميل والهيئة الحسنة، إذا يهتم بتسريح شعره[1]. وما إلى ذلك من أنواع التجملات، ومنها تخصيب الشيب، حتى يبدو جميلاً مشرقًا، حتى يسر المرء إخوانه، ومن نظر إليه، لأن سرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط... فهذا هو الشائع في طباع الناس؛ أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا[2].

ثانيًا- التربية بالملاحظة:

وذلك أنه ﷺ لاحظ أبا قحافة، وأبدى تعليقه على هذه الملاحظة، فبمجرد أن رأى شيب شعره، فأمره بتغييره إلى لون آخر غير السواد؛ حتى يبدو جميلاً، وهذا من مهام المربي الرئيسية، أن يلاحظ كل تغير يطرأ على المتربين، فيأمر بتغييره إذا كان سيئًا، ويحث على الزيادة فيه إن كان حسنًا؛ وذلك إشارة إلى تفاعل المربي مع تلاميذه،

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون، ٥٠/٢٥.

(٢) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع محمد علي المانع، ص٤١، نقلًا عن الشيخ سيد قطب في ظلال القرآن.

وشعوره بهم، واهتمامه ورعايته لهم في كل أحوالهم؛ حتى يكون أمره مطاعًا، وكلامه مقنعًا بالنسبة لهم.

إن المنهج القويم للتربية الإسلامية لو أخذ به المربون لأصبح المتربون قرة عين لهم، ولبنة صالحة في بناء المجتمع، ولقد أوصى علماء التربية أن يكون المربي ملاحظًا لمن تعهد تربيته أينما توجه، فيلاحظه في نفسه ومزاجه العصبي، وفي كل شيء؛ ليكون رجلاً مؤمنًا نقيًا؛ له في القلوب احترام، وفي النفوس إجلال، وبين الناس مقام محمود، وما ذلك ببعيد؛ إن أحسنت تربيته، وقام على أمره وأدى ما عليه نحوه من حقوق ومسئوليات[1].



(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٧٥٠، ٧٥١ بتصرف.

٢٩٥- باب النهي عن القَزَع وَهُوَ حلق بعض الرأس دون بعض، وإباحة حَلقِهِ كُلِّهِ للرجل دون المرأة

الحديث رقم (١٦٤٠)

١٦٤٠ - عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عن القَزَع. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

القزع: حلق بعض الشعر وترك بعضه متفرقًا مأخوذ من قطع السحاب الصغار المتفرقة[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم مطالب بأن يكون حسن الهيئة، حسن الصورة، نظيف الثياب، طاهر الإهاب، متسمًا بالوضاءة والإشراق.

وهذا الحديث يعنى بالصورة الحسية للمسلم، ومن مظاهر القبول والحسن، أن لا يحلق بعض الشعر ويترك بعضه في صورة مزرية غير مشذّبة ولا مهذبة، وجاء تصوير هذه الحالة في كلمة واحدة وهي "القزع"، حيث نهى رسول الله ﷺ عن ذلك.

وإذا تأملنا المدلول اللغوي لهذه الكلمة أدركنا سر نهي رسول الله ﷺ عن ذلك، فالقزع: قطع من السحاب، وهو جمع والمفرد منه: قزعة، ولذلك قالوا: في تفسير هذه الصورة البليغة القزع: أن يحلق رأس الصبي، وتترك مواضع متفرقة منه غير محلوقة، تشبيها بقزع السحاب؛ والقزع كذلك، ما يتحات من الصوف ويتناتف في الربيع، وهو أيضًا غثاء الوادي، ولغام الجمل على نخرته، والمقزع من الخيل: ما ننتف ناصيته حتى ترق، والخفيف الناصية خلقة، ومن ليس على شعره إلا شعرات متفرقات تطاير في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠/١١٣) وهو جزء من الحديث.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٣٠.

الريح، فتأمل هذه الصور الموحية التي تموج بها كلمة واحدة قالها رسول الله ﷺ وهي القزع، ونهى عنها لأنها تؤدي إلى مثل هذه الصور المثيرة للسخرية والنفور، وتغيير خلق الله، وفي هذه الكلمة وحدها استعارة تصريحية حيث شبه رأس الصبي، أو رأس الذي يحلق رأسه ويترك بعضه غير محلوق، بقطع السحاب المتفرقة، أو بالعهن المنفوش، أو بلغام الجمل ونخرته، أو بناصية الفرس التي تنتف حتى ترق، وغير ذلك من هذه الصور التي تجسد هذا المنظر الغريب، وحذف المشبه وبقي المشبه به وهو القزع، وعلى ذلك الفعل من باب الاستعارة التصريحية الدالة.

فقه الحديث

في الحديث أنه يكره حلق بعض الرأس، وترك بعضه، وهو ما يعرف بالقزع وهو حكم متفق عليه بين الفقهاء[١].

والحكمة في كراهته، أنه يشوه الخلقة، وقيل هو زي أهل الشر، وقيل: لأنه زي اليهود[٢].

ويكره حلق القفا لمن لم يحلق رأسه، ولم يحتج إليه لحجامة أو غيرها، لأنه من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم[٣].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٠٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢، والقوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣/١، والمهذب ٢٤١/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٣٤/٣، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١٠٥/١، والمحرر في الفقه ١١/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠١/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٤/١.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في مظهره وفي حلق شعره والالتزام بما ورد عنه ﷺ.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في مظهره وفي حلق شعره والالتزام بما ورد عنه ﷺ:

يظهر في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ عن القزع".

وفي قول ابن عمر رضي الله عنهما: "رأى رسول الله ﷺ صبيًا قد حلق بعض شعر رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال: احلقوه كله، أو اتركوه كله".

قال النووي: (وأجمع العلماء على كراهية القزع إذا كان في مواضع متفرقة إلا أن يكون لمداواة ونحوها وهي كراهة تنزيه، وكرهه مالك في الجارية والغلام مطلقًا وقال بعض أصحابه: لا بأس به في القصة والقفا للغلام ومذهبنا كراهته مطلقًا للرجل والمرأة لعموم الحديث. قال العلماء: والحكمة في كراهته أنه تشويه للخلق، وقيل: لأنه زي أهل الشر والشطارة وقيل لأنه زي اليهود[٢]).

وقال ابن عثيمين: (نهى رسول الله ﷺ عن القزع والقزع أن يحلق بعض الرأس ويترك بعضه، سواء كان من جانب واحد أو من كل الجوانب، أو من فوق، ومن يمين، ومن شمال، ومن وراء، ومن أمام، المهم أنه إذا حلق بعضه وترك بعضه فهذا قزع وقد نهى عنه النبي ﷺ. وذكر حديث ابن عمر الآخر أن صبيًا أُتي به النبي ﷺ وقد حلق بعض رأسه وترك بعضه فقال: احلقوه كله أو اتركوه كله)[٣].

فينبغي على المسلم الالتزام بما ورد عنه ﷺ في حلق الرأس كله أو تركه كله.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤١).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٣٣.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "احلقوه كله، أو اتركوه كله".

وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في بيان الحقائق للمدعوين ويحثهم على الاستجابة لها ويستخدم في ذلك أسلوب الأمر من أجل استشعارهم بأهمية الاستجابة للدعوة.

ثالثًا- من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "رأى رسول الله ﷺ صبيًا قد حلق بعض رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال:"احلقوه كله، أو اتركوه كله".

وفي ذلك تفقد منه ﷺ لأحوال المسلمين وتوجيههم إلى الخير والصالح. وتفقد أحوال المدعوين يترك أثره البارز في نفوسهم، وهو دليل على حسن خلق صاحبه وتواضعه، لذا فلا غرو أن يكون للنبي ﷺ من ذلك النصيب الأوفى، عن عثمان رضي الله عنه قال: ((إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلموني به، عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط))[(١)][(٢)]. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتفقدون أحوال المسلمين ويوجهوهم إلى ما فيه صالحهم اقتداء برسول الله ﷺ؛ فعن سالم بن عبدالله عن أبيه: ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ. فَنَادَاهُ عُمَرُ أَيَّةُ سَاعَةٍ هذِهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ الْيَوْمَ. فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَىٰ أَهْلِي حَتَّىٰ سَمِعْتُ النِّدَاءَ. فَلَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنْ تَوَضَّأْتُ. قَالَ عُمَرُ: وَالْوُضُوءَ أَيْضًا وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ))[(٣)].

قال النووي: (وفيه تفقد الإمام رعيته وأمرهم بمصالح دينهم والإنكار على مخالف السنة)[(٤)].

فينبغي للداعية الاقتداء برسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم في تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه صالح دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٧٠ رقم ٥٠٤ وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/ ٥٣٢.

(٢) تربية الشباب الأهداف والوسائل، محمد عبدالله الدويش، ٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٨٧٨، ومسلم برقم ٨٤٥.

(٤) شرح مسلم، النووي، ص ٥٥٦.

الحديث رقم (١٦٤١)

١٦٤١- وعنه، قَالَ: رأى رسُولُ اللهِ ﷺ صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِ رَأسِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وقَالَ: ((احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أو اتْرُكُوهُ كُلَّهُ)). رواه أبُو داود بإسناد[1] صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف: تفسير عملي للنهي عن القزع في الحديث السابق، وراوي الحديثين واحد وهو ابن عمر رضي الله عنهما فالنهي عن القزع مرتبط بموقف وهو رؤية رسول الله للصبي الذي حُلِقَ بعض رأسه وتُرِكَ بعضه، على غير تهذيب ولا تشذيب فصار كأنه الصوف المنتوف، أو السحاب المتفرق.

ولم يُسم الصبي في الحديث؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالنهي موجه إلى كل الآباء الذين يحرصون على حسن مظهر أبنائهم؛ وحتى لا يتعود الصبي على ذلك.

وقيل في تعليل النهي عن القزع؛ لأنه زي أهل الشر والشطارة أي اللصوصية، فالشطَّار في اللغة هم اللصوص والسراق وقاطعوا الطريق، وقيل إن ذلك من سمت اليهود وزيهم.

والضمير في قوله: "فنهاهم" عن ذلك: يرجع إلى الآباء الذين يشرفون على حلاقة الأبناء، أو إلى الحلاقين الذين يقومون بالحلاقة أو إلى السيد الذي يملك الصبي الرقيق، في ذلك الزمن.

وقوله عن ذلك لمزيد من التحديد، واسم الإشارة هنا للبعيد إشارة إلى بعد هذا الفعل عن الفطرة السوية، والمظهر المتوازن الذي يجب أن يكون سمت كل مسلم.

---

(١) برقم (٤١٩٥). صحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٩٥)، وأخرجه مسلم (بعد حديث رقم ٢١٢٠/١١٣، بثلاثة أحاديث، بدون رقم) ولم يسق لفظه.

وصيغة الأمر التي تكررت مرتين في ختام الحديث في قوله "احلقوه كله أو اتركوه كله"، تعلن عن وجوب اتباع أمر رسول الله ﷺ: لأن القزع تشويه للخلقة، والله خلق الإنسان في أحسن تقويم، والمسلم لابد أن يحرص على حسن المظهر، ونظافة الثوب والبدن والمكان.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٤٢)

١٦٤٢- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، أمْهَلَ آلَ جَعْفَر ثَلاَثًا[1]، ثُمَّ أتَاهُمْ فَقَالَ: ((لاَ تَبْكُوا عَلَى أخِي بَعْدَ اليَوْمِ)) ثُمَّ قَالَ: ((ادْعُوا لِي بَنِي أخِي)) فَجِيءَ بِنَا كَأنَّنَا[2] أفْرُخٌ، فَقَالَ: ((ادْعُوا لِي الحَلاَّقَ)) فَأمرَهُ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا. رواه أبُو داود بإسناد[3] صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن جعفر بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٩٨).

غريب الألفاظ:

أفرخ: جمع فرخ وهو ولد الطائر[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مشهد من مشاهد السيرة النبوية العطرة المضيئة بجلائل الآثار، وجميل الأخبار، وهذا المشهد يرويه عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما، وهو أحد الأبناء الذين واساهم رسول الله ﷺ، ورعاهم بعد موت أبيهم، جعفر أبي طالب رضي الله عنه الذي لقب "بذي الجناحين" لأنه أمسك الراية بعضديه بعد ما قطعت ذراعاه في غزوة مؤتة.

ويبدأ الحديث بالتأكيد على لسان عبدالله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثًا: أي ثلاث ليالي أو ثلاثة أيام، وقوله: "ثلاثًا" على تقدير ثلاث ليال: لتغليب لفظ الليالي في هذا السياق الحزين لأن التعبير بالليل فيه إيحاء بالحزن أو غياب الضوء الذي يتواءم مع الجو النفسي المسيطر على هؤلاء الأبناء عقب استشهاد أبيهم؛ والتعبير بقوله: "ثم" يفيد الإمهال والتأني إلى أن تخف حدة الحزن، ولذلك ندرك السر في اختيار الفعل

---

(١) عند أبي داود زيادة: (أن يأتيهم).

(٢) لفظ أبي داود كما أشار إليه المحقق في الهامش: (كأنا).

(٣) برقم (٤١٩٢).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ر خ).

"أمهل" وتفضيله على أي فعل مرادف يؤدي المعنى نفسه، ولكنه لا ينقل الجو النفسي المحيط بالموقف، والعطف بالفاء في قوله: فقال: يعلن عن حرص الرسول ﷺ على سرعة تجاوز لحظة الضعف والحزن، واللجوء إلى الصبر والاحتساب، ولذلك ورد النهي صريحًا مباشرًا إلى جميع آل جعفر في قوله. "لا تبكوا على أخي بعد اليوم"، وتأمل ما وراء كلمة "أخي" من معانٍ مشعة وأطياف تتماوج بالمحبة والأخوة والمودة القربى، وذلك لطمأنة أبناء ذلك الشهيد بأنهم في كنف أخي أبيهم وابن عمه وعمهم رسول الله ﷺ، والعطف بـ"ثم" في قوله: "ثم قال" يرشد إلى تمهل رسول الله ﷺ بعد أمره بعدم البكاء على أخيه جعفر رضي الله عنه حتى يترك مساحة لآله الحزانى لكي يتخلصوا من مثيرات الشجن، وملابسات الحزن.

وبعد أن وَعَوْا أمر الحبيب المصطفى ﷺ قال: "ادعوا لي بني أخي"، وقوله: "لي"، فيه إيناس وتلطف وكأنها دعوة شخصية خاصة لمزيد من الرعاية والإيناس والمواساة، وقوله: "بني أخي" يضاعف من الاطمئنان، ويدعو أبناءه للامتثال والكف عن البكاء، لأن أباهم مع الشهداء وهم عند ربهم أحياء يرزقون.

وتأمل دقة الصورة، وبلاغة التشبيه في قوله: "كأننا أفرخ" فهي صورة موحية دالة ناطقة مصورة لحال هؤلاء الأبناء فهم مازالوا صغارًا خائفين وجلين يتملكهم الحزن لموت أبيهم.

والمشهد المتحرك في ختام الحديث يجسده العطف بالفاءات المتتالية: "فقال ادعوا لي الحلاق، فأمره فحلق رؤسنا".

والأمر بحلق الرءوس فيه تنفيذ للسنة، وتنفيذ للنهي عن القزع لأنه حلق الرءوس جميعها وقيل أن الأمر بالحلق ليكون كالتفاؤل بإزالة الحزن وانجلاء الكرب.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام ما يأتي:

١- على الكبير من أقارب الأطفال أن يتولى أمرهم، وينظر في مصالحهم[1]، كما فعل رسول الله ﷺ مع أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٥/١.

٢- وفي الحديث جواز حلق جميع الرأس، وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[١]، حتى إن ابن عبدالبر قد حكى الإجماع على ذلك فقال: (وقد أجمع العلماء على إباحة الحلق وكفى بهذا من حجة)[٢].

وذهب بعض المالكية[٣]، والإمام أحمد[٤] في رواية أن الحلق مكروه، واستدلوا على ذلك بما رواه الدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: ((لا توضع النواصي إلا في حج أو عمرة))[٥].

ولما روي أن رسول الله ﷺ قال في الخوارج: "سيماهم التحليق"[٦] فجعل التحليق علامة لهم.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٠٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢ وفيه (وقال الأجهوري: والقول بعدم الكراهة ولغير العمم أولى) والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٣/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٩٧/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٩/١ وفيه (ولا يكره لذكر حلق رأسه)، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، والمحرر ١١/١.

(٢) انظر: في نقل ذلك عن ابن عبدالبر، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٥/١.

(٣) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢ وفيه (قال القرطبي: كره مالك حلق الرأي لغير المتحلل في الإحرام) وأيضًا: القوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣/١.

(٤) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، والمحرر ١١/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

(٥) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٢٢/١ .

(٦) البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، رقم ٧٥٦٢.

والراجح:

هو ما ذهب إليه الجمهور من جواز حلق جميع الرأس، أما ما استدل به القائلون بالكراهة فمحمول على الحلق بالموسى، أما بالمقراض فليس به بأس كما قال بذلك أحمد[١]. وهذا في حق الرجال أما حلق النساء فيدل عليه الحديث الآتي.

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل مواساة أهل الميت والنهي عن البكاء والنياحة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حث النبي صلى الله عليه وسلم على حلق الرأس وعدم حلق البعض دون البعض.

خامسًا: من أصناف المدعوين: النساء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حث المرأة على عدم حلق شعرها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تبكوا على أخي بعد اليوم".

دل هذا الحديث على فضل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه أخيه. وفضائله رضي الله عنه كثيرة فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد السابقين إلى الإسلام وأخو علي شقيقه[٣].

وقد عقد البخاري بابًا في الصحيح في فضائله فقال: (باب مناقب جعفر بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه)[٤]. وكذلك فعل مسلم فجمع في فضائله بعض الأحاديث فقال: (باب فضائل جعفر بن أبي طالب)[٥].

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٥/١.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٣).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٩١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب رقم ١٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب رقم ٤١.

قال الذهبي في ترجمته: جعفر بن أبي طالب: (السيد الشهيد، الكبير الشأن، علم المجاهدين، أبو عبدالله، ابن عم رسول الله ﷺ، عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمي، أخو علي بن أبي طالب، وهو أسنُ من علي بعشر سنين.

هاجر الهجرتين، وهاجر من الحبشة إلى المدينة، فوافى المسلمين وهم على خيبر إثر أخذها، فأقام بالمدينة أشهرًا، ثم أمره رسول الله على جيش غزوة مؤتة بناحية الكرك، فاستشهد. وقد سُر رسول الله ﷺ كثيرًا بقدومه، وحزن والله لوفاته.

قال الشعبي: تزوج علي رضي الله عنه أسماء بنت عميس، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر. فقال كل منهما: أبي خير من أبيك. فقال علي: يا أسماء! اقضي بينهما. فقالت: ما رأيتُ شابًا كان خيرًا من جعفر، ولا كهلاً خيرًا من أبي بكر. فقال علي: ما تركت لنا شيئًا، ولو قلتِ غير هذا لمقتك. فقالت: والله إن ثلاثة أنت أخسهم لخيار.

وعن الشعبي، عن عبدالله بن جعفر قال: ما سألت عليًا شيئًا بحق جعفر إلا أعطانيه.

وعن أبي إسحاق، عن البراء: إن رسول الله ﷺ قال لجعفر: ((أشبهت خلقي وخلقي))[١].

وعن أبي هريرة قال: ((ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ، أفضل من جعفر بن أبي طالب))[٢] يعني في الجود والكرم.

عن أبي هريرة قال: ((وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء، فنشقها فنلعق ما فيها))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٣/٢ رقم ٩٣٥٢، وقال محققو المسند: إسناده قوي على شرط البخاري ٢٠٦/١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٠٨.

وعن الشعبي قال: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، تلقاه جعفر، فالتزمه رسول الله ﷺ وقبل بين عينيه، وقال: ((ما أدري بأيهما أنا أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر))(١).

قال ابن إسحاق: وهو أول من عقر في الإسلام وقال:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردٌ شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... علي إن لاقيتها ضرابها

وعن خالد بن سُمير قال: قدم علينا عبدالله بن رباح، فاجتمع إليه ناس، فقال: حدثنا أبو قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد، فإن أصيب، فجعفر، فإن أصيب جعفر، فابن رواحة. فوثب جعفر، وقال: بأبي أنت وأمي! ما كنت أرهب أن تستعمل زيدًا عليّ. قال: امضوا، فإنك لا تدري أي ذلك خير، فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الله. ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر، وأمر أن ينادى: الصلاة جامعة. قال ﷺ ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فأصيب زيدٌ شهيدًا، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء جعفر، فشد على الناس حتى قتل شهيدًا، اشهد له بالشهادة فاستغفرو له، ثم أخذه ابن رواحة، فأثبت قدميه حتى أصيب شهيدًا فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد، ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه، فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال: اللهم هو سيف من سيوفك فانصره -فمن يومئذ سمي خالد سيف الله- ثم قال: انفروا فامددوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد. فنفر الناس في حر شديد(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير مع الملائكة بجناحين))(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢١١/٣ رقم ٤٩٩٤ وقال: هذا حديث صحيح، إنما ظهر بمثل هذا الإسناد الصحيح مرسلًا. وقال الذهبي: هو الصواب.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٩/٥، ٣٠٠-٣٠١ برقم ٢٢٥٥١، ٢٢٥٦٦ وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٥٧/٣٧، ٢٥٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٠٩/٣ رقم ٤٩٨٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الشعبي: كان ابنُ عمر إذا سلَّم على عبدالله بن جعفر قال: السلام عليك يا بن ذي الجناحين[١])[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل مواساة أهل الميت والنهي عن البكاء والنياحة:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ، أمهل آل جعفر ثلاثًا ثم آتاهم فقال: "لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ثم قال: "ادعوا لي بني أخي" فجيء بنا كأننا أفرخ فقال:"ادعوا لي الحلاق".

فمجيء رسول الله ﷺ إلى آل جعفر بن أبي طالب يدل على حرصه على مواساته لهم وعلى حثهم على ترك البكاء والنياحة عليه.

وقد كان رسول الله ﷺ دائمًا حريصًا على مواساة من أصابته مصيبة في موت عزيز عليه وتصبيره وتوجيهه إلى ما فيه خيره. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أنَّ أمَّ الرُّبيِّع بنتَ البَراءُ وهي أمُّ حارثةَ بنِ سُراقةَ أتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا نبيَّ الله ألا تحدِّثني عن حارثةَ - وكانَ قُتلَ يومَ بَدْرٍ أصابَهُ سهمٌ غربٌ - فإن كان في الجنَّةِ صبَرتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهَدْتُ عليهِ في البكاء. قال: يا أمَّ حارثةَ، إنها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنكِ أصابَ الفِردَوسَ الأعلى))[٣].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((جيء بأبي يومَ أحُدٍ قد مُثِّلَ به حتى وُضعَ بينَ يَدَيْ رسولِ اللهِ ﷺ وقد سُجِّيَ ثوبًا فذهبتُ أريدُ أن أكشفَ عنهُ فنهاني قَومي، ثمَّ ذَهبتُ أكشِفُ عنهُ فنهاني قَومي، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ فرُفِعَ، فسَمِعَ صوتَ صائحةٍ فقال: مَن هذهِ ؟ فقالوا: ابنةُ عمروٍ - أو أختُ عمرو - قال: فلم تبكي؟ أو: لا تبكي، فما زالتِ الملائكةُ تُظلِّلُه بأجنحِتها حتى رُفِعَ))[٤].

قال النووي: (فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغي البكاء على مثل هذا وفي هذا تسلية لها)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٠٩.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١/٢٠٦-٢١٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤٩٨.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ادعوا لي بني أخي" ... و"ادعوا لي الحلاق" حيث أمر بالإتيان بأبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والإتيان بالحلاق.

وأسلوب الأمر من الأساليب التي يستخدمها الداعية في دعوة المسلمين إلى أحكام دينهم مما يجعلهم يتسابقون لتحقيقها والوفاء بالمراد منها، دون تأخر أو تلكؤ ولا تراجع.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ على حلق الرأس وعدم حلق البعض دون البعض:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال ﷺ: "ادعوا لي الحلاق" فأمره فحلق رؤوسنا".

قال العظيم آبادي: (وإنما حلق رؤوسهم مع أن إبقاء الشعر أفضل إلا بعد فراغ أحد النسكين لما رأى من اشتغال أمهم أسماء بنت عميس عن ترجيل شعورهم بما أصابها من قتل زوجها في سبيل الله فأشفق عليهم من الوسخ والقمل. ذكره القاري، وفي الحديث دليل على جواز حلق الرأس جميعه)[(١)].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث التي تحث على حلق جميع الشعر للذكر دون الأنثى منها عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن القَزَع))[(٢)].

خامسًا- من أصناف المدعوين: النساء:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: "نهى رسول الله ﷺ، أن تحلق المرأة رأسها".

فالدعوة في هذا الحديث أصناف المدعوين فيها: النساء: ولقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فالمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في الشريعة الإسلامية سواء كانت بنتًا أو زوجة أو

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١٧٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٢١، ومسلم ٢١٢٠.

أمًا، فهي أم الرجال وأخت الرجال... ومربية الرجال وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فالعناية بالمرأة عناية بالدعوة نفسها[١].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حث المرأة على عدم حلق شعرها:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها".

فالمرأة لا يجوز لها حلق رأسها من غير ضرورة عند الحنفية والمالكية لقول أبي موسى: ((إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَرِيءَ منَ الصالِقةِ والحالقةِ))[٢] وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تحلق المرأة رأسها قال الحسن: هي مثله.

وأما إذا كان حلق المرأة شعرها لعذر أو وجع فلا بأس به عند الحنفية والحنابلة[٣].

قال ابن حجر: (كما يحرم على المرأة الزيادة في شعر رأسها يحرم عليها حلق شعر رأسها بغير ضرورة)[٤].

---

(١) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٩٦، ومسلم ١٠٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٦/١٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٨٨/١٠.

الحديث رقم (١٦٤٣)

١٦٤٣- وعـن علـيٍّ رضي الله عنه قَـالَ: نَهَـى رسُـولُ اللهِ ﷺ أنْ تَحْلِـقَ المَـرْأةُ رَأسَـهَا. رواه النسائيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عليّ بن ابي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٧٢).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب النهي عن القزع، وهو حلق بعض الرأس دون بعض، وإباحة حلقه كله للرجل دون المرأة، والمرأة لها سمتها، ولها مظهرها الجمالي، ومن شروط الزوجة الصالحة كما قال رسول الله ﷺ: ((خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك))[2]، ومن كمال جمال المرأة الذي أنعم الله عليها به هو شعرها، فهو من مصادر زينتها، وحسنها ولذلك يكمن سر النهي الذي أصدره رسول الله وهو أن لا تحلق المرأة رأسها، وذلك حفاظًا لها على جمالها، وهيئتها الحسنة، وترغيبًا لزوجها حتى لا ينفر منها، ويميل إلى غيرها، والسر الآخر في هذا النهي: هو عدم التشبه بالرجال: لأن من عادة الرجل أن يحلق رأسه أو يقصر شعره، وإذ قلدت المرأة الرجل فهو لعنة الله ولعنة رسوله، والطرد من رحمة الله عز وجل.

والمسلمة مطالبة بالحفاظ على مظهرها الحسن، وأن لا تكون مثارًا للسخرية والاستهزاء، وحلق المرأة رأسها يثير النفور والاشمئزاز من الزوج والأهل والأبناء، والجيران والمجتمع بصفة عامة، وفيه تشبه بالكاهنات البوذيات لأنهن تحلقن رءوسهن

---

(١) النسائي في الكبرى (٩٢٥١)، وفي المجتبى (٥٠٤٩). وأخرجه الترمذي (٩١٤)، و (٩١٥) وقال: ولم يذكر فيه: (عن علي). وقال: حديث عليٍّ فيه اضطرابٌ، وروي هذا الحديث عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عائشة.

(٢) أخرجه الطيالسي ٢٤٤٤ ،وقال محققه: حديث صحيح.

كلهن، ويمشين سافرات بهذه الصورة المنفرة، وقد نهانا رسول الله عن التشبه بالشياطين والكفار، نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد.

المضامين الدعوية[(١)]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الجمالية:

إن من باب حرص الإسلام على الجانب الجمالي في شخصية المسلم، أن النبي ﷺ نهى عن القزع وهو حلق بعض الرأس دون الآخر؛ وذلك لما يسببه من تشويه شكل الإنسان الخارجي، وربما أثار ازدراء الآخرين، حين يرون بعض الشعر محلوقًا وبعضه طويلاً مرسلاً كما هو، ولهذا كان ﷺ عندما رأى صبيًا على هذه الحال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أو اتْرُكُوهُ كُلَّهُ»، ومن باب الحرص على جمال المرأة أيضًا فقد نهى النبي ﷺ أن تحلق المرأة رأسها، وقد كانت العرب تصنعه في الجاهلية، فمن مظاهر حزن المرأة على زوجها أنها كانت تحلق شعرها، وهذا لاشك يسيء إلى شكلها وجمالها، كما أنه لن يعيد الميت إلى الحياة، ولن يخفف الحزن عليه، إنما هو من مظاهر إيذاء الإنسان نفسه، وتشويه صورته، فضلاً عن تغيير خلق الله الذي جمّل صورته وخلقه في أحسن تقويم.

ولا شك أن المربين يحتاجون إلى أن يستلهموا هذا الجانب التربوي من أحاديثه ﷺ؛ خاصة مع شيوع الصيحات الحديثة التي تنحو منحى شاذًا من حلاقة بعض الشعر وترك الباقي، ويتبنى هذه الاتجاهات الشواذ من الغربيين ومن يقلدونهم من المسلمين، فعلى المربي أن يتعهد المتربين من هذه الناحية، فينهاهم عن التقليد الأعمى، ويذكرهم بهديه ﷺ في هذا الجانب.

كذلك فإن بعض النساء تقص شعرها، ظانة أن هذا من جمالها، ومتأسية في ذلك بأدعياء الإصلاح المحدثات، اللاتي يبرزن للناس بشعورهن مقصوصة، سافرات متبرجات، فهؤلاء ينبغي أن لا يكن قدوة للمسلمات وإنما يتوجب على المربين والمربيات توجيه الفتيات إلى سنة الرسول ﷺ، وترغيبهن فيها، وتحبيب الجمال الخلقي الطبيعي إليهن.

إن اهتمام المسلم بشكله الخارجي يجعله يظهر بالصورة اللائقة؛ نظيفًا، طاهرًا، جميلاً؛ فالمسلم يتجمل في ملبسه ومظهره دون غرور أو كبر؛ فلباسه ونعله حسن،

ورائحته طيبة، يتطهر ويتوضأ خمس مرات، استعدادًا وتجملاً للقاء ربه، مستجيبًا لأمر ربه، يأخذ الزينة عند كل مسجد، لهذا فالقيم الحضارية في الإسلام تعد المسلم الذي يحمل القيم الجمالية في باطنه وظاهره؛ ليظهر بالصورة اللائقة به[1].

ثانيًا- التربية بالملاحظة والمتابعة:

من واجبات المربي الأساسية متابعة سلوك المتربين، وتقويمها أولاً بأول، فإن وجد من المتربي سلوكًا حسنًا شجعه على الزيادة فيه، وإن وجد مسلكًا سيئًا نهاه عن ذلك وبين مساوئه، مثلما فعل النبي ﷺ عندما رأى صبيًا حلق بعض شعر رأسه وترك الباقي، فقال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ ...»؛ وهذا ناشئ عن ملاحظته الدقيقة لسائر تصرفات الناشئة والمتلقين لرسالته من حوله؛ لأن سكوته على هذا التصرف إقرار له، ورضا عنه، هذا، ما لم يحدث، إنما أمر بحلق الشعر كله أو تركه كله، وكذلك فعل ﷺ مع أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم، حين مات أبوهم رضي الله عنه، فأمهلهم ثلاثة أيام، ثم أتى بالحلّاق فحلق شعرهم؛ نظرًا لطوله وإهماله بسبب وفاة أبيهم، وذلك اهتمام منه ﷺ بأهل الميت وأولاده الصغار، ومتابعة لأحوالهم، اقتضتها مهمته التربوية التي كلفه الله تعالى بها.

إن ملاحظة المتربي من أفضل أسس التربية وأظهرها؛ ذلك لأنه دائمًا موضوع تحت مجهر الملاحظة والملازمة، حيث المربي يرصد عليه جميع تحركاته وأقواله وأفعاله واتجاهاته... فإن رأى خيرًا أكرمه وشجعه عليه، وإن رأى منه شرًا نهاه عنه، وحذره منه، وبين له عواقبه الوخيمة، ونتائجه الخطيرة، وبمجرد أن يغفل المربي أو يتغافل عمن تعهد تربيته، فإنه سينزع لا محالة إلى الانحراف، ويتوجه -ولا شك- نحو الزيغ والانحلال، فعندئذ يكون هلاكه المحقق، ودماره المحتوم[2].

ثالثًا- من الأساليب التربوية: التوجيه حسب الموقف:

ويظهر هذا الأسلوب في موقفين من أحاديث هذا الباب، الأول عندما رأى النبي ﷺ الصبي الذي حلق بعض شعر رأسه وترك الباقي، فاغتنم النبي ﷺ هذا

---

(١) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع محمد علي المانع، ص٤٢ بتصرف يسير.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٧٢٩، ٧٣٠. بتصرف يسير.

الموقف، ونهى عن ذلك السلوك، وقال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أو اتْرُكُوهُ كُلَّهُ»، والموقف الثاني عندما مات جعفر بن أبي طالب ﷺ، وبعد موته بثلاثة أيام دعا النبي ﷺ بالحلّاق ليحلق شعر أبنائه.

إن اختيار المواقف واغتنام فرصها والأوقات المناسبة يسهل عملية التربية، ويساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، فإذا ظهر موقف خاطئ من شخص ووضح له ما وقع فيه من خطأ... فإن لذلك وقعًا على النفس وتأثيرًا في السلوك؛ لأنه يرى النتائج أمامه، ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمين ص٢٧٨.

٢٩٦- باب تحريم وصل الشعر والوشم
والوشر وهو تحديد الأسنان

قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾[النساء: ١١٧-١١٩].

الحديث رقم (١٦٤٤)

١٦٤٤ - وعن أسماء رضي الله عنها: أنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ ابْنَتِي أصَابَتْهَا الحَصْبَةُ، فَتَمَرَّقَ شَعْرُهَا، وإنِّي زَوَّجْتُهَا، أفَأَصِلُ فِيهِ؟ فقال: ((**لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ**)) متفق عليه[١].

وفي روايةٍ[٢]: ((**الوَاصِلَةَ، والمُسْتَوْصِلَةَ**))

وعن عائشة رضي الله عنها نحوهُ. متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أسماء بنت ابي بكر: تقدمته ترجمتها في الحديث رقم (٣٢٥).

غريب الألفاظ:

الحصبة: حمّى حادة طفحية معدية يصحبها زكام وسعال وغيرهما من علامات النزلة[٤].

فتمرق شعرها: انتثر وسقط[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٢٢/١١٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١١).

(٢) أخرجها البخاري (٥٩٣٦)، ومسلم (٢١٢٣/١١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٣٤)، ومسلم (٢١٢٣/١١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٥) بتمامه.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ص ب).

(٥) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

الواصلة: التي تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر[١].

الموصولة: التي يوصل شعرها[٢].

الشرح الأدبي

ما أصدق هذا الحوار بين رسول الله وإحدى النساء المسلمات، وهو حوار ينبئ عن حرص هذه المرأة على صواب ما تقدم عليه من سلوكيات حتى في أشد الأمور خصوصية، وهو: حرصها على جمال ابنتها، وتعويضها عما فقدته من مظاهر هذا الجمال: وهو سقوط شعرها، بشعر مستعار، وقبل أن تفعل ذلك، سألت رسول الله ﷺ عن حكم ذلك؛ ولأن هذا الموضوع قد يثير التساؤل عند كثير من الناس، بدأ الحديث بالتأكيد: في قوله الراوي: "أن امرأة"، والتأكيد هنا للإعلان عن صدق الخبر، ونزع الشك والتردد من نفس المتلقي، وجاء لفظ "امرأة" في صيغة النكرة، ولم يعرف: لأن اسم المرأة ليس ضروريًا، لأن الحكم عام، ويتعلق بقضية اجتماعية وشرعية عامة وشاملة، وتهم كل امرأة مسلمة، والعطف في قوله: "سألت فقالت" للتفسير أي تفسير السؤال.

والنداء في قول: المرأة: "يارسول الله": فيه إفصاح عن أن المرأة ترغب في معرفة الحكم الصحيح من نبي الإسلام، فالنداء فيه تعظيم وإذعان واستجابة لما سيقول رسول الله ﷺ، وقد تكرر التوكيد في كلام المرأة مرتين: حيث قالت: "إن ابنتي... وإني زوجتها..."، والتأكيد الأول: لتوثيق الإخبار عن المرض، والثاني لبيان السبب الذي من أجله تريد أن تصل شعرها الذي تمرق وسقط من الحصبة، وسؤال المرأة بعد هذين التوكيدين يمتزج بالعطف بالفاء الذي يفيد التتابع وحرص المرأة على وصل شعر ابنتها، وتأتي إجابة رسول الله بالنفي الضمني، حيث لم يقل: نعم أولا ، ولكن الإجابة كانت أبلغ وأعم وأشمل، فقد أصدر الرسول ﷺ حكمًا شرعيًا يظل منارة أمام كل سائلة

---

(١) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

(٢) رياض الصالحين ٥٦٧.

وسائل: من المسلمات والمسلمين: حيث قال: لعن الله الواصلة والموصولة، أو المستوصلة، واللعن هو البعد عن رحمة الله، فالله يطرد من رحمته كل من تحترف هذه المهنة، وكل من يعمل لها ذلك، وكل من تسأل وتبحث عمن يعمل ذلك، (الواصلة، الموصولة، والمستوصلة).

فقه الحديث

وفي الحديثين من الأحكام ما يأتي:

١-وفي الحديث الأول تحريم الوصل، وقد مر في الحديث قبل الماضي.

٢-وفي الحديثين تحريم الوشم، لأن الله ورسوله لعنا الواشمة التي تفعل ذلك بغيرها، والمستوشمة التي تطلب ذلك، واللعن دليل الحرمة[١].

وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٢].

ولعل السبب من تحريم الوشم أنه عند غرز الإبرة في الجلد وحشوه كحلاً ينحبس الدم النجس فيه[٣].

ومحل التحريم ما لم يتعين طريقًا للدواء، فإن تعين جاز[٤].

وهل تجب إزالة الوشم أم لا؟

نص الشافعية على أنه تجب إزالته متى أمكن ذلك ولو بالجرح، ما لم يخف فوات عضو، أو منفعته، أو حدوث تشوه في عضو ظاهر، ففي هذه الحالة لا تجب إزالته وإنما

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

(٢) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٣٠/١، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٩/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٩٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٥/٩١، إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٠٧/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٨/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٦/١٢، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٦٩/٥.

(٤) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٩٩/٢.

يجوز إبقاؤه، وتكفي التوبة من سقوط الإثم[١]، ويستوي في ذلك الرجل والمرأة.

وخالفهم في ذلك المالكية، فقالوا: لا يكلف صاحبه بإزالته، وإن وقع محرمًا[٢].

٣- وفي الحديث الثاني تحريم النمص، وهو إزالة شعر الحاجبين والوجه بالنماص وهو المنقاش، ونحوه، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٣].

ويستثنى من الحرمة إذا نبت للمرأة لحية، أو شارب، ففي هذه الحالة لا تحرم إزالته، بل يستحب[٤] ذلك بإذن الزوج وعلمه، وإلا فمتى خلا عن ذلك منع للتدليس[٥].

٤- وفي الحديث الثاني: تحريم التفليج، وأن تبرد المرأة من أسنانها لتباعد بعضها عن بعض[٦]، ومثله لو كانت الأسنان طويلة فتنشر منها حتى تقصر[٧].

ويعلق عليه "الوشر"، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٨].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٦٩/٥.

(٢) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٩٩/٢.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٩/٢، والثمر الداني شرح رسالة أبي زيد القيرواني للأبي ٦٨٩/١، وفتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠، والفروع، ابن مفلح ١٠٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٦/١.

(٤) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٦/٣، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦.

(٧) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٤/٢.

(٨) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٤/٢، والثمر الداني للأبي ٦٨٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٦/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٨/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

ولعل السبب في تحريم التفليج هو ما فيه من التدليس والتغرير، وتغيير خلق الله، إذ إن هذا الأمر تفعله العجوز إظهارًا للصغر وحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها فتبردها بالمبرد[١].

ومحل تحريم التفليج هو أن يكون "للحسن" كما هو منطوق الحديث، ويفهم منه إذا لم يكن للحسن، بل كان لحاجة كعلاج، أو إصلاح عيب في السن، فلا بأس به[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين.

رابعًا: من تاريخ الدعوة: هلاك بني إسرائيل بسبب المعاصي وعدم الإنكار على المخالفين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في عدم وصل الشعر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ لمن أرادت أن توصل شعر بنتها: "لعن الله الواصلة والموصولة".

ولعن الله: أي: الطرد والإبعاد من رحمته والإخراج من جواره تعالى[٤]. وفي ذلك ترهيب من وصل الشعر. ولأن اللعن يكون لكبيرة.

قال النووي: (وهذا صريح في تحريم الوصل ولعن الواصلة والمستوصلة مطلقًا وهذا هو الظاهر المختار، وقد فصله أصحابنا فقالوا: إن وصلت شعرها بشعر آدمي فهو حرام بلا خلاف، سواء كان شعر رجل أو امرأة، وسواء شعر المحرم والزوج وغيرهما بلا

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٦-١٠٧.

(٢) الثمر الداني ١/٦٨٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٧.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٤١٥.

خلاف لعموم الأحاديث ولأنه يحرم الانتفاع بشعر الآدمي وسائر أجزائه لكرامته بل يدفن شعره وظفره وسائر أجزائه، وإن وصلته بشعر غير آدمي فإن كان شعرًا نجسًا وهو شعر الميتة وشعر ما لا يؤكل إذا انفصل في حياته فهو حرام أيضًا للحديث ولأنه حمل نجاسة في صلاته وغيرها عمدًا، وسواء في هذين النوعين المزوجة وغيرها من النساء والرجال، وأما الشعر الطاهر من غير الآدمي فإن لم يكن لها زوج ولا سيد فهو حرام أيضًا وإن كان فثلاثة أوجه: أحدهما: لا يجوز لظاهر الأحاديث، والثاني: لا يحرم وأصحها عندهم إن فعلته بإذن الزوج أو السيد جاز وإلا فهو حرام[١].

قال القاضي عياض: (واختلف العلماء في المسألة فقال مالك والطبري وكثيرون أو الأكثرون: الوصل ممنوع بكل شيء سواء وصلته بشعر أو صوف أو خرق.

وقال الليث بن سعد: النهي مختص بالوصل بالشعر ولا بأس بوصله بصوف أو خرق أو غيرها.

قال القاضي: (فأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه؛ لأنه ليس بوصل ولا هو في معنى مقصود الوصل وإنما هو للتجميل والتحسين قال وفي الحديث أن وصل الشعر من المعاصي الكبائر للعن فاعله، وفيه أن المعين على الحرام يشارك فاعله في الإثم كما أن المعاون في الطاعة يشارك في ثوابها[٢].

وقال النووي: (أن الوصل حرام سواء كان لمعذورة أو عروس أو غيرهما)[٣].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر ذلك في قول حميد بن عبدالرحمن: أنه سمع معاوية رضي الله عنه عام حج على المنبر وتناول قصة من شعر كانت في يد حرسي فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ ... الحديث. فالخطبة وسيلة من وسائل الدعوة التي اهتم بها الإسلام اهتمامًا كبيرًا من بداية عهد رسول الله ﷺ حتى الآن. والخطبة وسيلة ممتازة للدعوة، للتبليغ، أو إيضاح

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦٥٢/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٨.

(٣) المرجع السابق ١٣٣٨.

فكرة معينة ومن مرامي الخطبة، حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها. فيتحمس لها ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الحاجة[١].

فالله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين الجهاد باللسان والجهاد بالسنان، والجهاد باللسان لا يكون إلا بالكلمة والقول الواضح والحجة البينة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

وكان حقًا على المسلمين أن يحملوا مواريث النبوة وأن يضطلعوا بأعباء الرسالة ويقودوا الناس إلى الله تعالى، ويوجهوهم إلى وجهة الحق والخير.

وهل بغير الكلمة أو بسوى الخطابة تصلح النفوس النافرة، وتنهض النفوس الفاترة وتقوى القلوب الخائرة، ويرفع الحق وينهزم الباطل ويقام العدل وترد المظالم[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين:

يظهر ذلك في فعل معاوية رضي الله عنه وقوله: "حيث تناول قُصة من شعر كانت في يد حرسي فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه".

قال النووي: (وفي حديث معاوية هذا اعتناء الخلفاء وسائر ولاة الأمور بإنكار المنكر وإشاعة إزالته وتوبيخ من أهمل إنكاره ممن توجه ذلك عليه)[٤].

فإن الفساد في المجتمعات قد يكبر ويتضاعف كما أبان القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٥].

---

(١) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ٢٧١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ص ٢٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٣٤٠.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤١.

قال أبو العالية: (من عصى الله في الأرض فقد أفسد الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)(١).

عندها تزداد مسؤولية الدعاة إلى الله والمحتسبين ليقوموا بواجبهم وينشطوا في مجال دعوتهم لينيروا للناس طريقهم ويردوهم إلى سبيل المتقين.

ولقد تفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أنه مهما بلغ حجم المنكرات فيها فإنه سبحانه يغرس غرسًا يستعملهم في طاعته، ولا يضرهم خذلان المرجفين أوتأثير المخالفين.

قال ﷺ: ((لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ))(٢)، وقال ﷺ: ((لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ. حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ))(٣).

هذه الطائفة التي تعنى باستصلاح الخلق، وإعادة الناس إلى منهج الله القويم، إلى صراطه المستقيم، هي الأمة المهتدية المفضلة على سائر الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٤)(٥).

فينبغي على المسلمين عامة وعلى العلماء خاصة الحرص على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المخالفين كان ذلك سببًا في نزول عقاب الله تعالى للأمة.

فعن عبيد الله بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لاَ يُغَيِّرُونَ، إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ))(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٠٠ رقم ١٧٧٨٧، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٩/٣٢٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٥) انظر: حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. حمد العمار، ص ١٧٩.

(٦) أخرجه ابن ماجة ٤٠٠٩، وحسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٣٨).

وهذا الحديث يبين صراحة أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في عقاب الله تعالى.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((مَثَلُ المُدْهن في حدودِ اللهِ والواقعِ فيها مَثَلُ قومٍ استَهموا سفينةً فصار بعضُهم في أسفلِها وصار بعضُهم في أعلاها، فكان الذين في أسفَلها يَمرُّون بالماءِ على الذين في أعلاها، فتأذَّوا به، فأخذَ فأسًا فجعلَ يَنقُرُ أسفلَ السفينةِ، فأتَوهُ فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بُدَّ لي منَ الماء، فإن أخذوا على يديهِ أنجوْهُ ونجّوا أنفُسَهم، وإن تَركوهُ أهلَكوهُ وأهلَكوا أنفُسَهم))[1].

فهذا الحديث أيضًا صريح في أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في هلاك الأمة جميعها"[2].

وهذا يدل على أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين.

رابعًا- من تاريخ الدعوة: هلاك بني إسرائيل بسبب المعاصي وعدم الإنكار على المخالفين:

يظهر ذلك في قوله معاوية رضي الله عنه: "سمعت النبي ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: "إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم".

قال القاضي عياض: (قيل: يحتمل أنه كان محرمًا عليهم فعوقبوا باستعماله وهلكوا بسببه. وقيل: يحتمل أن الهلاك كان به وبغير مما ارتكبوه من المعاصي فعند ظهور ذلك فيهم هلكوا وفيه معاقبة العامة بظهور المنكر)[3].

إن بني إسرائيل كانوا يرتكبون المعاصي ولا ينكر عليهم علماؤهم ارتكاب هذه المعاصي فكان ذلك سببًا في هلاكهم ولعنهم قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٨٦.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود ٢٤٢/١ - ٢٤٤.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٥٨/٦.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى بن مريم عليه السلام بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال: "لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" أي: كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا فقال: "لبئس ما كانوا يفعلون")[1].

وقد بالغ القرآن الكريم في ذم العلماء وأولى الأمر من بني إسرائيل على أن الله تعالى قد بوأهم مكانة مرموقة من إصلاح الأمة لكنهم قصروا عن أداء مسؤوليتهم، فكانوا يرون الناس حولهم يعصون الله، ويعتدون على غيرهم ولا يفرقون بين الحلال والحرام فلا يحاولون تغيير الوضع البتة[2].

يقول تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[3].

قال القرطبي: "قوله تعالى: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) (لولا) بمعنى أفلا (ينهاهم) يزجرهم (الربانيون) علماء النصارى (والأحبار) علماء اليهود قاله الحسن. وقيل: الكل في اليهود؛ لأن هذه الآيات فيهم، ثم وبخ علماءهم على تركهم نهيهم فقال: (لبئس ما كانوا يصنعون) كما وبخ من يسارع في الإثم بقوله: (لبئس ما كانوا يعملون) ودلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فالآية توبيخ للعلماء في ترك بالمعروف والنهي عن المنكر"[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٠/٣.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، السيد جلال الدين العمري ص ١٩٦.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٦٢ - ٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣٧/٦/٣.

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: (أيها الناس، إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقًا ولا يقرب أجلاً)[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في عدم وصل الشعر:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الواصلة، والمستوصلة" فينبغي على نساء المسلمين أن يتبعن الهدي النبوي في عدم وصل الشعر حتى لا تحل بهن لعنة الله. أما قوله صلى الله عليه وسلم "إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم".

قال ابن تيمية: فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن وصل الشعر: "أن بني إسرائيل هلكوا حين أحدثه نساؤهم" يحذر أمته مثل ذلك، ولهذا قال معاوية رضي الله عنه ((مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّ أَحَدًا يَفْعَلُهُ إلاَّ الْيَهُودَ))[٢].

فما كان من زي اليهود، الذي لم يكن عليه المسلمون: إما أن يكون مما يعذبون عليه، أو مظنة لذلك، أو يكون تركه حسمًا لمادة ما عذبوا عليه لا سيما إذا لم يتميز ما هو الذي عذبوا عليه من غيره، فإنه يكون قد اشتبه المحظور بغيره، فيترك الجميع كما أن ما يخبرونا به لما اشتبه صدقه بكذبه: ترك الجميع[٣].

فيظهر من ذلك أهمية اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في عدم وصل الشعر.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥/٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٣٤٨٨، ٥٩٣٨، ومسلم برقم ٢١٢٧.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/٢٨٨، ٢٨٩.

الحديث رقم (١٦٤٥)

١٦٤٥- وعن حُميدِ بنِ عبد الرحْمانِ: أنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه، عامَ حَجَّ على المِنْبَرِ وَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِنْ شَعْرٍ كَانَتْ فِي يَدِ حَرَسِيٍّ فَقَالَ: يَا أهْلَ المَدِينَةِ أيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟! سَمِعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هذِهِ، ويقُولُ: ((**إنَّمَا هَلَكَتْ بَنُواسْرَائِيلَ حينَ اتَّخَذَهَا نِسَاؤُهُمْ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

معاوية بن أبي سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١١).

غريب الألفاظ:

قصة من شعر: شعر الناصية[2].

حرسي: منسوب إلى الحرس وهو واحد الحراس[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يبدأ بنقل الخبر في صيغة التوكيد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو خليفة، حيث حج عام إحدى وخمسين من الهجرة، ويتنبه معاوية إلى وجود قصة من شعر، كانت في يد حرسي من حراس الأمير أو الخليفة، فأخذها ثم نبه المسلمين إلى حرمة ذلك، وجاء تنبيه معاوية وإنكاره في صيغتين "النداء والاستفهام الإنكاري"، في قوله "يا أهل المدينة: أين علماؤكم"، وهذا الاستفهام الإنكاري يوحي بأن العلماء ليس لهم دور في توجيه الناس؛ فالحديث في صياغته يتكون من موقف لمعاوية رضي الله عنه في مكان: وهو المسجد، ومن تصوير للحدث المرتبط بهذا الحوار: وهو وقوف معاوية على المنبر، ورؤيته للحارس وفي يده خصلة من الشعر، وينهي معاوية إنكاره لهذا السلوك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٢٧/١٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٦).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٩٦/٦.

(٣) المرجع السابق ٥٩٦/٦.

بالدليل الحاسم الجازم حيث يروي ما سمعه من رسول الله ﷺ، وقال: "ينهى عن مثل هذه" ، أي عن كل سلوك يشبه ما عمله هذا الحارس، وفي قوله: "مثل هذه" إيجاز، وتحديد للمنكر الذي يجب أن يجتنبه الناس.

وجاء قول رسول الله ﷺ محصنًا بالتوكيد الذي يؤكد الحكم، ويؤكد الخبر الذي كان سببًا في هلاك بني إسرائيل وهو اتخاذ نسائهم للشعر المستعار، والتأكيد جاء بإن المقترنة بما، ويقال عن "ما" في هذا الاستعمال: إنها كافة ومكفوفة، وهي تفيد القصر، وكأن هذا التركيب اللغوي إيحاءً بإحباط عمل بني إسرائيل، وبأنه كان الطريق لهلاكهم، وقال العلماء: فيه حسن التحذير فإن السعيد من وعظ بغيره.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٤٦)

١٦٤٦- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ الله ﷺ لَعَنَ الوَاصِلَةَ والمُسْتَوْصِلَةَ، والوَاشِمَةَ والمُسْتَوشِمَةَ. متفق عليه(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الواصلة: التي تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر(٢).

المستوصلة: التي تسأل من يفعل لها ذلك(٣).

الواشمة: وهي التي تشم وقيل هي التي يفعل بها الوشم(٤).

والمستوشمة: هي التي تطلب الوشم، وقيل: هي التي تفعله. والوشم: أن يغرز الجلد بإبرة ثم يُحْشى بكُحل أو نيلٍ، فيزرقّ أثره أو يخضرّ(٥).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من كلام ابن عمر رضي الله عنهما رواية عن رسول الله ﷺ: وهو يتكون من جملة واحدة فعلية: وفعلها ماض "لعن" واللاعن: هو الله عز وجل: واللعن في اللغة: الطرد والبعد، فمعنى لعن الله ... أي: أبعدهم وطردهم من رحمته، واللعنة من الناس: من يلعنه الناس، واللعنة بضم العين كهمزة: الكثير اللعن للناس، والملعن، الشيطان، والممسوخ، والمشؤوم، والمسيب، وما يتخذ في المزارع كهيئة رجل، والمخزي المهلك، والتلعين: التعذيب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤/١٩٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٢). السياق للمنذري في ترغيبه (٣١١٣).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٥/١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٥/١٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ش م).

وهذه المعاني اللغوية تتموج بكثير من الدلالات والإشعاعات التي تتطابق وتتوافق مع ما يعده الله من عذاب لهؤلاء الذين لعنوا، لتغييرهم خلق الله، وهم في الحديث أربعة أصناف: "الواصلة"، وهي اسم فاعل ترشد إلى من قام بالفعل، فهي التي تفعل الوصل، وهي التي تحترف هذه الحرفة في عصرنا وفي العصور السابقة، والصنف الثاني: "الموصولة"، وقد وردت هذه الكلمة الدالة على ذلك الصنف في صيغة اسم المفعول: أي أنها التي يقع عليها الفعل، وتقوم الواصلة بوصل الشعر لها، وفي رواية: والمستوصلة، وهي اسم فاعل من استوصل، وصيغة الافتعال أو الاستفعال فيها زيادة في المبنى، وتضفي زيادة على المعنى، وفي التي تبحث عن التي تقوم لها بوصل شعرها، وقيل هي طالبة فلعه بها أو بغيرها: أي تلعن عن ذلك وتقوم بالدعاية له.

والصنف الثالث: الواشمة: والوشم في اللغة: غرز الإبرة في البدن وذر النيلج عليه، ومن مشتقات الوشم كلمة الوشيمة، وهي: الشر والعداوة.

والصنف الرابع: المستوشمة: وهي طالبة فعل ذلك، والاستعانة بمن يقومون بهذا العمل وكل هذه الأصناف لعنها رسول الله ﷺ، كما روى ابن عمر، وساق روايته في إطار التأكيد الذي بدأ به الحديث الشريف.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر والوشم والنمص والفلج.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: النساء.

رابعًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر والوشم والنمص والفلج:

يظهر ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة. وحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله".

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٧).

قال ابن حجر: (قال الخطابي: إنما ورد الوعيد الشديد في هذه الأشياء لما فيها من الغش والخداع، ولو رخص في شيء منها لكان وسيلة إلى استجازة غيرها من أنواع الغش، ولما فيها من تغيير الخلقة، وإلى ذلك الإشارة في حديث ابن مسعود بقوله (المغيرات خلق الله)[1].

قال القاضي عياض: (قال بعض علمائنا: وهذا المنهي عنه المتوعد على فعله فيما يكون باقيًا، فإنه من تغيير خلق الله، فأما ما لا يكون باقيًا كالكحل فلا بأس به للنساء والتزين به عند أهل العلم، وقد أجازه مالك للنساء، وكرهه للرجال، وكذلك أجاز أن توشي المرأة يديها بالحناء.

وقد سبق الكلام في الواصلة والمستوصلة. وقال النووي: (أما "الواشمة" بالشين المعجمة ففاعلة الوشم وهي أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة فيخضر، وقديفعل ذلك بدارات ونقوش وقد تكثره وقد تقلله، وفاعلة هذا واشمة، وقد وشمت تشم وشمًا والمفعول بها موشومة، فإن طلبت فعل ذلك بها فهي مستوشمة وهو حرام على الفاعلة والمفعول بها باختيارها والطالبة له، وقد يفعل بالبنت وهي طفلة فتأثم الفاعلة ولا تأثم البنت لعدم تكليفها حينئذٍ.

قال أصحابنا: هذا الموضع الذي وشم يصير نجسًا فإن أمكن إزالته بالعلاج وجبت إزالته وإن لم يكن إلا بالجرح فإن خاف منه التلف أو فوات عضو أو منفعة عضو أو شيئًا فاحشًا في عضو ظاهر لم تجب إزالته، فإذا بان لم يبق عليه إثم وإن لم يخف شيئًا من ذلك ونحوه لزمه إزالته ويعصي بتأخيره، وسواء في هذا كله الرجل والمرأة والله أعلم.

وأما "النامصة" بالصاد المهملة فهي التي تزيل الشعر من الوجه والمتنمصة التي تطلب فعل ذلك بها، وهذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب فلا تحرم إزالتها بل يستحب عندنا. ومذهبنا ما قدمناه من استحباب إزالة اللحية والشارب والعنفقة وأن النهي إنما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه. ورواه بعضهم المنتمصة بتقديم النون والمشهور تأخيرها، ويقال: للمنقاش منماص بكسر الميم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٩٣/١٠.

وأما المتفلجات فبالفاء والجيم والمراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات وهو من الفلج بفتح الفاء واللام وهي فرجة بين الثنايا والرباعيات، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن إظهارًا للصغر وحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار فإذا عجزت المراة كبرت سنها وتوحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر وتوهم كونها صغيرة، ويقال له أيضًا: الوشر ومنه لعن الواشرة والمستوشرة، وهذا الفعل حرام على الفاعلة والمفعول بها لهذه الأحاديث؛ ولأنه تغيير لخلق الله تعالى ولأنه تزوير ولأنه تدليس.

وأما قوله: "المتفلجات للحسن" فمعناه يفعلن ذلك طلبًا للحسن، وفيه إشارة إلى أن الحرام هو المفعول لطلب الحسن، أما لو احتاجت إليه لعلاج أو عيب في السن ونحوه فلا بأس والله أعلم)[1].

قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[2].

قال القاسمي: (والمراد بقوله تعالى: "ولآمرنهم فليغيرن خلق الله": قال السيوطي: فيستدل بالآية على تحريم الخصاء والوشم وما يجري مجراه، من الوصل في الشعر والتفلج، وهو تفريق الأسنان، والتنمص وهو نتف الشعر من الوجه)[3].

وقد ذهب الدكتور محمد رواس مذهبًا مخالفًا لآراء العلماء في هذين الحديثين وهو من المعاصرين.

فقال: يحرم وصل الشعر بوصلة تخفي عيوبه في معرض الخطبة للمرأة أو الرجل، لأنه غش، ويباح ذلك للمتزوجة، ويصبح واجبًا إذا طلبه الزوج، كما يباح للزينة من غير غش أما قوله ﷺ "لعن الله الواصلة والمستوصلة" فإنه محمول على حالة الغش[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٩-١٣٤٠.

(٢) سورة النساء، الآيات: ١١٧-١١٩.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٤٨٣/٥/٣.

(٤) الموسوعة الفقهية الميسرة، د. محمد رواس قلعة جي ١٩٥٢/٢.

ويكره الوشم لما فيه من تعذيب النفس[١].

وتنمص المرأة: النمص الذي يغطي الأماكن المكشوفة من جسم الإنسان - كالوجه - له فائدة عظيمة، وهي أنه يمنع أشعة الشمس من السقوط مباشرة على الجلد، فتسقط عليه، لأن سقوطها المباشر على الجلد من أسباب حدوث سرطان الجلد، ولكن هذا النمص قد يفحش أحيانًا، فيشوه منظر الوجه، ولما كان الجمال أمرًا أساسيًا بالنسبة للمرأة فإنه يجوز لها إزالة ذلك النمص من وجهها بالنتف أو بمادة كيماوية أوغيرها، إذا طلب منها زوجها ذلك، أو إذا فحش النمص في وجهها، وشوَّه منظر وجهها، ما لم ترد بإزالته الغش لمن يريد الزواج منها، وإلى هذا يشير قوله رسول الله ﷺ "لعن الله النامصة والمتنمصة"[٢].

ويجوز للمرأة أن تزيل النمص الموجود في غير الأماكن المكشوفة من البدن، كالفخذين والظهر ونحو ذلك.

أما الشعر الخشن الذي ينبت في غير منابته في وجه المرأة فتجوز إزالته، كما لو امتد الحاجب إلى الجَبين، أو نبت لها شعر في موطن الشارب أو اللحية، لأن النهي جاء عن إزالة النمص وليس عن إزالة الشعر الخشن.

أما تنمص الرجل: لقد رُخص بالتنمص للمرأة لضرورة التزين -وهي مأمورة بالتزين لزوجها- أما الرجل فليس كذلك، ولهذا فإنه لا يرخص له بالتنمص -وهو إزالة الشعر الدقيق من الوجه- ولكن يرخص له بإزالة الشعر الخشن النابت في غير منابته من الوجه، كالشعر الذي قرب من العينين، والذي نبت أسفل الحلق إلى الصدر، ونحوهما.

ويحرم أيضًا وشر الأسنان وتفليجها لغير المتزوجين من الرجال والنساء وإن كان لا يعود، لما في ذلك من الغش، إذ كان العرب ولا يزالون يستدلون على ذكاء المرء إذا كانت أسنانه الأمامية مفلجة في الخلقة، وحديث رسول الله ﷺ ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمفلّجات الأسنان للحسن، المغيرات خلق الله)) يُحمل على

---

(١) المرجع السابق ١٩٥١/٢.

(٢) المرجع السابق ٥٨٦/١-٥٨٧.

ذلك؛ لأن علة التحريم التي وردت في الحديث الشريف هي: تغيير ما خلق الله تعالى بقصد التحسين للغش، ولا يكون غشًا إلا إذا كان هذا التحسين موقتًا لا يلبث أن يزول. وهو مباح للمتزوجين، ويصير واجبًا إذا طلبه الزوج[1].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما، إن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة.

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتمصات، والمتفلجات للحسن".

ويظهر ذلك الترهيب من فعل هذه الأشياء أو المشاركة فيها باللعن واللعن ليكون إلا لارتكاب كبيرة والترهيب: هو التخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصور[2].

والترهيب ليس يأسًا أو قنوطًا أو رهبة تشل التفكير وإنما تحذير من الأخطاء ودلالة على الصواب، وترشيد للأعمال حتى تنطلق الطاقات القوية إلى الغاية بغير تعويق أو عقبات[3].

ثالثًا- من أصناف المدعوين: النساء:

يظهر ذلك من عموم الحديثين حيث أن الدعوة موجهة إلى النساء.

ولقد بلغت المرأة في الإسلام منزلة عالية، لم تبلغها ملة ماضية ولم تدركها أمة تالية، إذ إن تكريم الإسلام للإنسان تشترك فيه المرأة والرجل على حد سواء، فهم أمام أحكام الله في الدنيا سواء كما أنهم أمام ثوابه وجزائه في الدار الآخرة سواء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[4] وقال عز من قائل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾[5] وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى

---

(١) انظر: المرجع السابق ١٠٥٤/٢.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص ٣٩٣.

(٣) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ص ٢١٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ٧.

عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(١)] وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[(٤)] وقال جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(٥)] وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(٦)].

وهذا التكريم الذي حظيت به المرأة في الإسلام لا يوجد له مثيل في أية ديانة أو ملة أو قانون غير الشريعة الإسلامية[(٧)]. فيتضح من ذلك أن النساء من أصناف المدعوين الذين اهتم بهم الإسلام ومن أجل ذلك على الدعاة إلى الله الاهتمام بالنساء والحرص على دعوتهم وتوجيههم إلى صحيح دينهم.

رابعًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

يستنبط ذلك من عموم الحديثين وذلك لأن رسول الله ﷺ إذا نهى عن شيء أو أمر بشيء ينبغي على المسلم أن يستجيب لتوجيهاته. ومن ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة الإسراء الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٧) الإسلام أصوله ومبادئه، د. محمد بن عبدالله بن صالح السحيم، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤٢١هـ، ص ٣٩، ٤٠.

لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله). قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١].

قال ابن كثير: (أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر)[٢].

وقال ابن عاشور: "وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة"[٣].

فينبغي على المدعو أن يستجيب لأوامر النبي ﷺ وتوجيهاته.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٦٧.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١١/٢٨/٨٧.

الحديث رقم (١٦٤٧)

١٦٤٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ والمُسْتَوشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[سورة الحشر: ٧]. متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

المتنمصات: جمع مُتَنَمِّصَة: التي تأخذ من شعر حاجب غيرها وترققه ليصير حسنًا، والمتنمصة التي تأمر من يفعل بها ذلك[٢].

المتفلجات: جمع متفلجة: التي تبرد من أسنانها ليتباعد بعضها عن بعض قليلاً وتحسنها وهو الوشر[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مثل الحديث السابق يرويه ابن مسعود بالمعنى أو بالإخبار عن رسول الله ﷺ ويبدأ الحديث بصيغة الفعل الماضي: "لعن الله الواشمات"، وصيغة الماضي تتجاوز إطارها الزمني، ولا تحصر داخل الزمن الفائت فقط، ولكنها تقيد الحكم الثابت القطعي الذي لا مجال للرجوع فيه إلا إذا تابت هؤلاء النسوة اللائي ذكرت أفعالهن في الحديث، والحديث هنا لم يأت بصيغة "الإفراد" مثل الأحاديث السابقة في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (١٢٠/٢١٢٥). السياق للمنذري في ترغيبه (٣١١٣). تنبيه: قد يكون المنذري اختصر هذا اللفظ من حديث البخاري بهذا الرقم.

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٦٨.

(٣) المرجع السابق.

هـذا الموضـوع، ولـكنـه جـاء بـصيغة جمـع المؤنـث الـسالم: ليفيـد أن اللعـن عـام "لـكل واشمة"، وأل في هذه الجموع للجنس، ومما يؤكد العقوبة أن الصيغة الاشتقاقية لهذه الأصناف وردت في صيغة اسم الفاعل، فهن القائمات بالفعل، أو المتصفات به أو الفاعلات له، والإيقاع الصوتي الذي يحدثه توافق الكلمات في نهاياتها "الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات المغيرات... خلق الله".

هـذا التوافق الـصوتي مع التوافق الجمعي، مع التوافق الاشتقاقي، يوحي باتفاق كل هؤلاء على المخالفة والمعصية، ولذلك كان عبدالله ابن مسعود صارمًا وحازمًا في رده حين لامته إحدى النساء في هذا اللعن، وعبر عنه الراوي بقوله: في ذلك، واكتفى باسم الإشارة تنزيهًا لجو الحديث من هذه المفردة التي يجب أن يكون المسلم الصادق بمنجاة منها.

وقول ابن مسعود رضي الله عنه فيه إنكار منه على هذه المرأة في موقفها واعتراضها: حيث قال: "ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم".

والإيجاز مع الإنكار مع الإقناع في هذا الرد البليغ: فقوله "ومالي" جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر في صيغة الاستفهام والجملة بعدها في محل حال من المستتر في الخبر.

والاستشهاد بالقرآن الكريم من أقوى وسائل الإقناع في مثل هذه المواقف، وقد اقتنعت المرأة المعترضة.

المضامين الدعوية(١)

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من الأساليب التربوية: التربية بالسؤال والجواب:

وقد كان السؤال موجهًا من المتعلم إلى المعلم، في موقف المرأة التي سألت رسول الله ﷺ عن ابنتها التي قرب زواجها، هل يحل لها أن تصل شعرها تزيينًا لها وتحبيبًا إلى زوجها، وقد اتسم سؤالها بالوضوح، وتبيان ملابسات الأمر، تقول: «إنَّ ابنتي أصابَتْها الحَصْبَة فتمرَّقَ شَعرها، وإني زوَّجتُها أفأصِلُ فيه؟ فقال ﷺ: لعن الله الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ».

تلك هي طريقة احتياج المتربي إلى المعلومة، دون تلقيها من المربي مباشرة، وهذا أدعى إلى حرصه على العمل بها، وأقرب إلى تحصيلها بسرعة.

ذلك هو هدي الصحابة رضي الله عنهم في السؤال عمّا يجهلون، ولكنهم راعوا آداب السؤال، التي أكثر العلماء تعديدها، ومنها: "أن يتلطف السائل في سؤاله، ويحسن خطابه، ولا يستحي من السؤال عمّا أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقّ وجهه رقّ علمه، ومن رقّ وجهه عند السؤال نقصه عند اجتماع الرجال"(١).

ثانيًا: التربية بالترهيب:

تضمن هذا الباب طائفة كريمة من أحاديثه ﷺ، التي ترهب من بعض العادات، التي يُقصد بها التجمل الجسدي، مع أنها من المهلكات، التي توجب عقاب الله تعالى ولعنته، فمن هذه العادات: وصل الشعر القصير بشعر طويل، يقول ﷺ: «لعن الله الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ»، ومنها أيضًا الوشم، يقول ﷺ: «لَعَنَ اللّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ»، ومن ذلك أيضًا التنمص وهو ترقيق الحواجب، والتفلج وهو المباعدة بين الأسنان بترقيق ما بينها بالمبرد، فهذا كله مما نهى النبي ﷺ عنه، ورهَّب منه.

إن مقصود ترهيبه ﷺ من هذه العادات الجاهلية هو تربية المؤمنات على الواقعية وعدم المغالاة في طلب الجمال الظاهري الجسدي الزائل، الذي كان الإسلام فيه

---

(١) آداب المتعلمين، د. أحمد عبدالله الباتلي، ص١٠٦.

واقعيًا، فالجمال الأساسي هو جمال الدين والخلق والجوهر، ولقد حث النبي ﷺ على اختيار الزوجة الدَّيِّنة، يقول ﷺ: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»[1]، فليس هم المرأة المسلمة وغايتها أن تحسن شكلها وتترك الجوهر خاويًا لا روح فيه، كما أن هذه العادات من تصرفات الغانيات والبغايا في الجاهلية، ولهذا لعن النبي ﷺ من تقوم بهذه الأشياء.

كما أن هذه التصرفات من شأنها إفساد الجسد، وتعريضه للأمراض، فالوشم قد يؤدي إلى إصابة الجلد بالأمراض، فضلاً عن الألم الذي يسببه سواء كان بالوخز أم بالكي، وكلها من المهالك التي نهى الإسلام عن تعريض النفس لها، وكذلك المتنمصات اللائي يزججن حواجبهن، يعرضن أنفسهن للأمراض، الناشئة عن نتف الشعر من الجلد، وقد يسبب ذلك الكلف، وبقع الجلد، أما التفلج فقد يرذي الأسنان ويؤدي إلى كسرها، ولهذا نهى الإسلام عن مثل هذه الأشياء، وعن كل ما يسبب أذى النفس والجسد.

إن أسلوب الترهيب الذي استخدمه النبي ﷺ يؤدي دورًا مهمًا في تغيير سلوك المسلم؛ لأن الترهيب يحمل تخويفًا وتحذيرًا من عاقبة السلوك المتبع لدى المسلم.

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة، تترتب على اقتراف إثم أو اجتراح ذنب قد نهى الله عنه، ويقصد به التخويف، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكون الناس دائمًا على حذر من ارتكاب المعاصي والهفوات[2].

ثانيًا: التربية باستخدام الوسائل التعليمية:

لقد ظهر في هذا الباب استخدام وسيلتين تعليمتين، من خلال حديث معاوية رضي الله عنه، حين صعد على المنبر وتناول خصلة من الشعر، وقال: «إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ». وأشار إلى هذه الخصلة من الشعر، يعني عندما فسد المجتمع في بني إسرائيل، وفشا فيه وصل الشعر، متهلكين بذلك الفطرة السليمة، وما جاءت به الرسل.

وفي هذا الحديث استخدم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وسيلتين:

---

(١) أخرجه مسلم، ٣٦٣٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٥٠ بتصرف يسير.

أولاهما: أنه صعد على المنبر: وذلك بيان لأهمية المسجد في الخطابة وإلقاء التعاليم إلى الناس، والوارد في الحديث أنه رضي الله عنه خطب وقال هذا الكلام في العام الذي حج فيه، ويبدو أنه قال ذلك في المسجد الحرام، وهذا يحتمل "شمولية التعليم لجميع أفراد المسلمين، على مختلف أعمارهم وصنائعهم ومستواهم التعليمي ومؤهلاتهم"[1].

الأمر الذي يؤدي إلى إيصال المعلومة إلى سائر أقطار الأرض، من خلال معرفة الحجاج بها.

ثانيهما: استخدام أسلوب التشبيه بضرب المثل؛ وذلك بإحضار خصلة من الشعر، والإشارة إليها دون حديث عن وصل الشعر، بل اكتفى بإبرازها للحضور، وقال لهم: إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ»، وذلك لأن الصورة المحسوسة أقرب تصورًا وأسرع فهمًا، وأثبت بقاءً؛ لأنها تحدد الأبعاد، وتبرز الأجزاء، وتوضح منها ما يخفى، قد تراها بالعين، أو تتخيلها بالخاطر، أو تتحسسها باليد، أو تستوعبها الأذن، وقد يشترك كل أولئك في التقاطها، فترتسم واضحة المعالم، محددة الأجزاء[2].

ثالثًا: من أهداف التربية الإسلامية: الامتثال لما نهى عنه النبي ﷺ:

ويبدو ذلك جليًا في قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ...»، وعندما سألته امرأة عن سر هذا اللعن، فأجابها أن هذا اقتداء وامتثال لما فعل النبي ﷺ حيث قال لها عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وَمَا لِيَ لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟»، وذلك مبلغ لبعض الأصناف من الأمة.

ومن تمام الاقتداء به ﷺ أن يحب المرء ما يحبه ﷺ ويكره ما يكرهه، فما كان لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يقبل هذا السلوك لمسلمة، وقد نهى عنه النبي ﷺ، وقد لعن رضي الله عنه من باب التذكير بخطر هذا السلوك وتحريمه على المؤمنات، وقد اتبع رضي الله عنه أسلوبًا تشويقيًا؛ حيث بدأ باللعن، استثارة لاهتمام الحضور، فإذا بامرأة تعاتبه في ذلك اللعن؛ ظنًا منها أنه إنما لعن على سبيل الدعاء ﷺ على الواشمات،

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٠٢.

(٢) التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح، ص١٢٥.

مجتهدًا بهذا الدعاء، فبيَّن لها عبدالله بن مسعود ﵁ علة اللعن بعد أن أثار اهتمامها وجعلها تسأل عن السبب، وهو أن النبي ﷺ لعنهن، فمن واجب الاقتداء به والامتثال لأوامره: أن نلعن من لعنه، وان نحب من أحب.

إن أقوى شاهد على صدق محبته ﷺ هو موافقة المحب لمحبوبه، وبدون هذه الموافقة يصير الحب دعوى كاذبة، وأكبر دليل على حبه ﷺ هو طاعته واتباعه؛ فالاتباع هو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل، وهو شرط صحة هذه المحبة، وبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية، ولا تتصور بمعناها الصحيح[1].



(١) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص٦٥، ٦٦.

٢٩٧- باب النهي عن نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما، وعن نتف الأمرد شعر لحيته عند أول طلوعه

الحديث رقم (١٦٤٨)

١٦٤٨- عن عمرو بن شعيب، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: ((لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ؛ فَإِنَّهُ نُورُ المُسْلِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ)) حديث حسن، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائيُّ[(١)] بأسانيد حسنة، قال الترمذي: (هو حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

إن دورة الإنسان الزمنية تتوالى وتتشكل حسب ظروفه الحياتية، وظروف الطقس والبيئة، وهو في كل دورة خاضع لتغيرات نفسية، واجتماعية، وفسيولوجية، وشعورية، وشكلية، وعليه أن يستجيب لمتطلبات كل مرحلة لأن هذه سنة الله في خلقه-كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[(٢)].

وهذا الحديث الشريف يعالج ما يمر به الإنسان من حالات التوتر والقلق حين يغزو الشيب مفرق رأسه، ويتذكر الآية الكريمة: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٠٢)، والترمذي (٢٨٢١)، والنسائي في الكبرى (٩٢٨٥)، وفي المجتبى (٥٠٦٨). وليس عندهم بهذا اللفظ الذي أورده المؤلف، وإنما أخذ المؤلف أول لفظ الحديث من أبي داود، وهو قوله: (لا تنتفوا الشيب) وقوله: (فإنه نور المسلم) من الترمذي، وقوله: (يوم القيامة) من آخر الحديث عند أبي داود. أورده المنذري في ترغيبه (٣١٠٤) بلفظ أبي داود، ثمّ أورد الزيادة التي عند الترمذي. قلتُ: وبهذا اللفظ الذي أورده المؤلف أخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢٩٨٥) عن أبي هريرة. لعل نظر المؤلف انتقل في نقله عن الترغيب من حديث إلى حديث.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

شَيْبًا﴾[1]. وينهى رسول الله ﷺ كل مسلم عن نتف الشيب، وهذا الحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: الأولى وردت في صيغة النهي الموجه إلى الجميع، فقال: "لا تنتفوا الشيب"، وضمير الرفع المتصل هنا: وهو "واو الجماعة"، يعود على المسلمين جميعًا حين يغزو الشيب رءوسهم ولحاهم؛ وذلك حفاظًا على وقارهم وهيبتهم في الدنيا، ولأنه سيكون نورًا لهم يوم القيامة.

ولذلك وردت الجملة الثانية في صيغة التأكيد "بإن"، وهي تعليل للنهي عن نتف الشيب، وفي هذه الجملة الاسمية المؤكدة صورة أدبية موحية بكثير من المعاني والوعود المبشرة لكل مسلم ينتهي عما نهاه الرسول عنه، فقد شبه رسول الله الشيب بأنه نور للمسلم يوم القيامة، وتشبيهه بالنور لأنه سبب خلاص المسلم من العذاب كما في الحديث القدسي.

وطرفا الصورة: أحدهما حسي ملموس مشاهد وهو الشيب والآخر المشبه به معنوي: وهو النور.

والنور يرمز إلى الهداية والنجاة، والبياض يوم القيامة من سمات المؤمنين والصادقين، والسواد في هذا اليوم من سمات الكافرين والكاذبين، يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه، نسأل الله أن نكون من الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم: يوم القيامة.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة نتف الشيب عند الأئمة الأربعة[2]، خلافًا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤.

(٢) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٣٤٢/١، والقوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٥٩/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٣٤/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٧/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٣/١، والفروع، ابن مفلح ١٠٢/١.

للظاهرية[١] الذين قالوا بالحرمة، حملاً للنهي الوارد في الحديث على ظاهره، وهو احتمال لصاحب الفروع من الحنابلة[٢].

ولا فرق في كراهة نتف الشيب بين نتفه من الرأس، أو اللحية، أو الشارب أو غير ذلك، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة[٣].

وفي تعليل كراهة النتف بأنه "نور المسلم" ترغيب بليغ في إبقائه وترك التعرض لإزالته[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية عدم نتف الشيب وفضل ذلك يوم القيامة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تنتفوا الشيب" حيث نهى ﷺ عن نتف الشيب.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في نهي المدعوين عما يخالف أحكام الإسلام وآدابه وقد ورد استخدام النهي في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[٦].

---

(١) المحلى، ابن حزم ٧٩/٤.

(٢) الفروع، ابن مفلح ١٠٢/١.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧١/١١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٣٤/٣.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٥٩/١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧١/١١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

(٦) سورة الإسراء، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

ومن الأحاديث قال ﷺ: ((لا تَباغَضوا ولا تحاسدوا ولا تدابَروا، وكونوا عبادَ اللّهِ إخوانًا، ولا يَحلُّ لمسلم أن يَهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثةِ أيام)) [1] ومنها قوله ﷺ ((لا تحلِفوا بآبائكم)) [2].

فأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عن ما يخالف أحكام الدين وآدابه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية عدم نتف الشيب وفضل ذلك يوم القيامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم يوم القيامة".

قال المباركفوري: (نهى عن نتف الشيب، أي الشعر الأبيض من اللحية أو الرأس، قال: إنه نور المسلم، الإضافة للاختصاص، أي وقاره المانع من الغرور بسبب انكسار النفس عن الشهوات، والفتور وهو المؤدي إلى نور الأعمال الصالحة فيصير نورًا في قبره، بين يديه في ظلمات حشره. قال ابن العربي: (إنما نهى عن النتف دون الخضب لأن فيه تغيير الخلقة عن أصلها، بخلاف الخضب فإنه لا يغير الخلقة على الناظر إليه) [3].

وقال ﷺ: ((لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الإِسْلاَمِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً)) [4].

فالشيب كما تبين من أحاديث رسول الله ﷺ يكون نورًا للمسلم وسببًا في كرامته برفع حسناته وحط سيئاته فينبغي الالتزام بتوجيهات رسول الله ﷺ في عدم نتفه.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فإنه نور المسلم يوم القيامة".

قال العظيم آبادي: (أي سببًا للنور، وفي ذلك ترغيب بليغ في إبقاء الشيب وترك التعرض لإزالته) [5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٤٨، ومسلم ١٦٤٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢١١٢/٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٧٩/٢، رقم ٦٦٧٢، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٦٦٧٢/١١.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، ص ١٧٩٤.

والترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[١].

والأصل في الترغيب: أن يكون في نيل رضاء الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة والفوز فيها[٢].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٢) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ص ١٠٢.

الحديث رقم (١٦٤٩)

١٦٤٩- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

رَدٌّ: مردود عليه[٢].

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بكثير من المعاني، وهو يتكون من كلمات قليلة، ولكن معانيه ممتدة وشاملة، فكل كلمة تشع بالمفاهيم والمقاصد المتعددة.

وصياغة الحديث تفصح عن منطق الثواب والعقاب، فهو جملة شرطية تتكون من شرط وجزاء، والأعمال كذلك منها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود، وهي قسمان: عبادات ومعاملات، فأما العبادات: فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله ﷺ بالكلية فهو مردود على عامله، وأما المعاملات: كالعقود والفسوخ ونحوهما: فما كان منها مغيرًا للأوضاع الشرعية: مثل الأحكام المدنية المستخدمة والتي ليس لها أصل في أحكام الشريعة: فإنه مردود.

فالحديث كما قال العلماء: أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو قاعدة عامة صارمة، وهو بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه الذي تشع به الألفاظ على أن كل عمل عليه أمر الشارع فهو غير مردود.

---

(١) برقم (١٧١٨/١٨)، وتقدم برقم (١٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٧٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر د د).

وكلمة أمر تحمل كل ما يتضمنه الدين والشرع من أوامر ونواه، ومن قواعد يجب اتباعها وقوله: "ليس عليه أمرنا"، إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، وفي ضوء الصياغة اللغوية للحديث وهي: صيغة الجزاء والشرط تكون الثمرة النافعة لهذا الحديث البليغ الموجز، أن من كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود[١].

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٦-١٨١.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦٩)، والرواية المشار إليها "من أحدث في أمرنا".

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في نهي صحابته الكرام عن نتف الشيب، يقول ﷺ: «لا تنتفوا الشيب...»؛ وذلك لما فيه من تغيير لخلق الله تعالى، لأن الشيب من تكريم الله تعالى للإنسان؛ فهو دليل على الوقار، ولهذا نهى النبي ﷺ عن نتفه، وقد بشَّر ﷺ بأن هذا الشيب سيكون نورًا يوم القيامة.

وربما كان نتف الشيب سببًا في الإصابة بالمرض، وسقوط الشعر، وحدوث الألم لفروة الرأس واللحية، وهذا مما يحرص الإسلام على وقاية المسلمين منه.

والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين[1].

ثانيًا- التربية على اتباع السنة:

ويبدو ذلك جليًا في نهيه ﷺ عن نتف الشيب، وذلك لأن الإسلام دين واقعي، لا يهرب فيه المسلم من واقعه، بل عليه أن يعيش ظروفه وسنه، دون محاولة للهروب أو التشبيه بالشباب حال الكبر، هكذا كانت سنة النبي ﷺ، وهكذا أمر صحابته الكرام، ونهاهم عن مخالفة ذلك.

ومن مظاهر الحث على اتباع السنة قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي: فهو مردود عليه، فواجب المسلم أن يتبع النبي ﷺ وسنته في أقواله وأفعاله وإقراره؛ ذلك هو شرط الإسلام الصحيح، يقول تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[2].

فاتباع النبي ﷺ: هو الاقتداء به، واقتضاء آثاره والتأسي به، وذلك لأننا متعبدون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به في أفعاله، وفي تركه، بأن نفعل صورة ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل، وأن نترك مثل ما ترك على الوجه الذي ترك لأجل أنه ترك[3].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٨٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) محبة النبي ﷺ، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص١٠٢، ١٠٣ بتصرف يسير.

ثالثًا- التربية بالترهيب:

وذلك في قوله ﷺ: «من عمل عملاً... فهو رد»، وذلك تخويف للمؤمنين من ابتداع ما لم يرد عن النبي بالتحريف في العبادة أو الزيادة أو النقصان؛ لأن ذلك كله غير مقبول عند الله تعالى، بل إن الله يعاقب على البدعة، يقول ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[١]، وذلك حتى لا يدخل في الإسلام من التشريعات ما ليس منه، مثلما حدث في الديانات السابقة، التي ظل أبناؤها يحرفونها شيئًا فشيئًا، ويبتدعون فيها قليلاً قليلاً، حتى وصل الأمر بهم إلى تحريفها تمامًا، ووصلوا بتحريفهم إلى تحريف العقيدة نفسها.

والترهيب وعد وتهديد بعقوبة، تترتب على اقتراف إثم أو اجتراح ذنب قد نهى الله عنه،... وهو تهديد من الله يقصد به لتخويف عباده،... وهو العنصر الذي يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر التي ينهى عنها الإسلام[٢].

رابعًا- التربية بالترغيب:

وذلك في ترغيبه ﷺ في إبقاء الشيب وعدم نتفه من اللحية أو الرأس، يقول ﷺ: «لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورُ الإِسْلاَمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فما أحرص المرء على هذا الشيب، وما أشد فرحه به إذا علم أن الله سيجعله نورًا يوم القيامة، وبهذا يصير الشيء المكروه والمنفور منه محبوبًا ومرغوبًا فيه؛ عن طريق إبراز صفة من صفات حسنه وجماله، لاسيما إذا كان هذا الجمال أخرويًا، نورانيًا يوم القيامة، وذلك ما يرتجيه المسلم من ربه، أن يحسن إليه في أخراه.

وقد استخدم ﷺ هذا الأسلوب، لأن النفس متى استرضت بشيء من المنافع العاجلة أو الآجلة، سكتت عن الإنسان الصوارفُ له عن طريق الخير، وغدا سهل الانقياد، وانفتحت نفسه للاقتناع به والتعلق الشديد بأسبابه[٣].



---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، ٨٦٧.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٠.

(٣) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٦ بتصرف يسير.

٢٩٨- باب كراهة الاستنجاء باليمين

ومس الفرج باليمين من غير عذر

الحديث رقم (١٦٥٠)

١٦٥٠- وعن أبي قتادة ﵁، عن النبيّ ﷺ، قال: ((إذا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلاَ يَأخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإنَاءِ)). متفق عليه[١].

وفي الباب أحاديث كثيرة صحيحة.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

إن للمسلم آداباً ومعالم تحكم منهجه الحياتي سلوكاً وقولاً، وعلاقات، ومراعاة للآداب الاجتماعية، والأعراف والتقاليد التي لا تتصادم مع ثوابت الإسلام، وهذا الحديث يرشد إلى أدق الأمور وأخفاها في حياة المسلم، وهي آداب التبول، والاستنجاء، وآداب الشراب والطعام، ويبدأ الحديث بجملة شرطية، وأداة الشرط "إذا" وفعل الشرط "بال" وجواب الشرط جملة: "فلا يأخذن أحدكم ذكره بيمينه) واختيار أداة الشرط هنا وهي: "إذا" يدل على تحقق فعل الشرط: وهو التبول، وهذا أمر ملازم لكل إنسان، بل لكل كائن، فلا تغني أداة عن "إذا" في هذا السياق.

وجواب الشرط: جاء مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة، ومقترناً بلا الناهية، وفي ذلك تشديد على اجتناب هذا الأمر الكريه، لأن اليد اليمنى تستخدم في أمور كثيرة في الحياة، وكانت يد النبي ﷺ اليمين لطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه، وما كان من أذى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٤) واللفظ له، ومسلم (٦٣/٢٦٧).

والجملتان الباقيتان معطوفتان على جواب الشرط "ولا يستنجى بيمينه، ولا يتنفس في الإناء"، ولكنهما خارج دائرة الشرط، والنفي فيهما بمعنى: النهي وقد كررت "لا" ثلاث مرات وهي تفيد النهي في المواضع الثلاث، وذلك للتأكيد على اجتناب هذه الأمور، لأن الاستنجاء باليمين يجلب القذارة للإنسان، وربما تعلق بيده اليمنى بعض الآثار النجسة والميكروبات المصاحبة لها فتتسرب إلى طعامه، فتفسد أمعاءه، وكذلك النهي عن التنفس في الإناء، لأن ذلك يمكن أن يلوث الماء، والطعام، ويكسبها رائحة كريهة، وينفر الذين يأكلون معه من أضيافه وأبنائه ونسائه، وبناته.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- أنه يكره للمرء أن يمس ذكره بيمينه[١]، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه (ما تغنيت، ولا تمنيت، ولا مسست ذكري بيمني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه أنه قال: ما مسست ذكرى بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

كما يكره الاستنجاء باليمين، لما روت عائشة رضي الله عنها ((كَانَتْ يَدُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم الْيُمْنَى لِطُهُورِهِ وَطَعَامِهِ، وكَانَتْ يَدُهُ اليُسْرَى لِخَلاَئِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أذى))[٣].

وإن كان الظاهرية[٤]، وإمام الحرمين[٥] من الشافعية يرون حرمة الاستنجاء باليمين حملاً للنهي على ظاهره.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٥٥/١، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٣٩/١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٤/١، وشرح العمدة ١٥٢/١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٨٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٣٧/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٠٢/١، وشرح عمدة الأحكام ٦٠/١.

(٢) الأوسط لابن المنذر ٣٣٩/١.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣، ٣٤، والبغوي في شرح السنة ١٨٢/١ وقال محققا شرح السنة: إسناده صحيح.

(٤) انظر في نسبة هذا الرأي إلى أهل الظاهر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٧٧/١.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢٨/٢.

٢- وفي الحديث كراهة التنفس في الإناء إذا ما أراد أن يشرب[(١)]، فإن غلبه النفس نحى الإناء من فيه، وتنفس، ثم عاد إليه[(٢)].

والنهي عن التنفس في الإناء إنما هو من باب الأدب الراقي الذي يحرص عليه الإسلام، وذلك مخافة تقذيره، أو تغير رائحته، أو سقوط شيء فيه من الفم أو الأنف[(٣)].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في قضاء الحاجة والشرب من الإناء.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية مراعاة النظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس في الإناء"؛ حيث علم رسول الله ﷺ أمته عدم مس الذكر باليد اليمنى، وعدم الاستنجاء بها، وعلمنا عدم التنفس في الإناء، والتعليم وسيلة من وسائل الدعوة التي يعلم بها الداعية المدعوين أحكام دينهم وآدابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة))[(٤)].

---

(١) القوانين الفقهية ٢٨٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٦٠/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٢٢/٧، ٣٤٤/٩.

(٢) القوانين الفقهية ٢٨٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦٠/٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

ولاشك أن للعلم في الإسلام أهمية سامقة، ومنزلة عالية رفيعة ويتضح ذلك من اهتمام القرآن الكريم به، والحث عليه. والرفع من شأن أهله قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) وقال تعالى موضحاً أن من يخشونه إنما هم العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٢).

كما طلب سبحانه من الناس التزود من العلم وتحصيله فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٣).

وإذا ما نظرنا إلى سنة المصطفى ﷺ فإننا نجد الحث الكامل على العلم وتحصيله والثناء على أهله قال ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين))(٤)، وقال ﷺ: ((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومِ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ))(٥).

ومن مجمل تلك النصوص تتضح أهمية العلم، وتبرز قيمته وفائدته، وخاصة لدى الدعاة إلى الله الذين يقع عليهم عبء الدعوة إلى هذا الدين الحنيف وإبراز عقيدته الصحيحة التي يقوم عليها، وشريعته الكاملة التي يستند إليها، وأخلاقه ومبادئه ونظمه العظيمة التي يركن إليها(٦). وكل ذلك يكون من خلال وسيلة التعليم. فبعد أن يتعلم الداعية العلم النافع يعمل به ويؤدي حقه بالنصح للمدعوين والإرشاد.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٦٥٨، وابن ماجة ٢٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩، صحيح سنن ابن ماجة ١٨٧).

(٦) انظر: منهج الدعوة إلى الله، د. عبدالرحيم المغذوي، ص ١٠١-١٠٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في قضاء الحاجة والشرب من الإناء:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يتنفس في الإناء".

قال ابن عثيمين: (قال: "لا يستنج أحدكم بيمينه" يعني لا يمسك الذكر باليمين فيغسله، لأن اليد اليمنى مكرمة، ولهذا قال العلماء رحمهم الله اليمنى هي المقدمة إلا في مواضع الأذى. فاليسرى تقدم للأذى، واليمنى لما سواه وعلى هذا فيستنجي باليسار)[١].

وقوله ﷺ "ولا يتنفس في الإناء".

قال ابن حجر: (قال المهلب: النهي عن التنفس في الشرب كالنهي عن النفخ في الطعام والشراب، من أجل أنه قد يقع فيه شيء من الريق فيعافه الشارب ويتقذره. إذ كان التقذر في مثل ذلك عادة غالبة على طباع أكثر الناس، ومحل هذا إذا أكل وشرب مع غيره، وأما لو أكل وحده أو مع أهله أو من يعلم أنه لا يتقذر شيئاً مما يتناوله فلا بأس. قلت: والأولى تعميم المنع لأنه لا يؤمن مع ذلك أن تفضل فضلة أو يحصل التقذر من الإناء أو نحو ذلك. وقال ابن العربي: قال علماؤنا هو من مكارم الأخلاق، ولكن يحرم على الرجل أن يناول أخاه ما يتقذره، فإن فعله في خاصة نفسه ثم جاء غيره فناوله إياه فليعلمه، فإن لم يعلمه فهو غش والغش حرام)[٢].

وقال ابن حجر: (ويحتمل أن تكون الحكمة التي ذكرها هنا أن الغالب من أخلاق المؤمنين التأسي بأفعال النبي ﷺ وقد كان إذا بال توضأ. فالمؤمن بصدد أن يفعل ذلك، فعلمه أدب الشرب مطلقاً لاستحضاره)[٣].

فينبغي على المسلم اتباع هدي النبي ﷺ والتأدب بآدابه في الاستنجاء والشرب.

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٣٧/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩٦/١٠.

(٣) المرجع السابق ٣٠٧/١.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية مراعاة النظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه ولا يستنج بيمينه" قال ابن حجر: (قيل: الحكمة في النهي لكون اليمين معدة للأكل بها فلو تعاطى ذلك لأمكن أن يتذكره في الأكل فيتأذى بذلك)(١).

وقوله ﷺ "لا يتنفس في الإناء"

قال ابن عثيمين: (لكن إذا تنفس لا يتنفس في الإناء، يزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس، لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب لأن النفس يكون صاعداً، والماء يكون نازلاً فيلتقيان فيحصل الشرق، وفيه أيضاً أذى لمن بعده؛ لأنه قد يخرج مع نفسه أمراض التي يسمونها "ميكروبات" فتكون في الماء فتؤثر على شرب من بعده؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن أن يتنفس في الإناء)(٢).

فيكون في ذلك مراعاة للنظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم.

رابعاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس في الإناء".

وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي ورد استخدامها في الكتاب والسنة فينبغي على الداعية استخدامها في دعوته لنهي المدعوين عن ما يخالف أحكام الإسلام وآدابه.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٠٦/١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٣٧/٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه المباشر:

لقد وجه النبي ﷺ في حديث هذا الباب إلى أدب من آداب دخول الخلاء؛ وكذلك إلى آداب الطعام، مستخدمًا الأسلوب التوجيهي المباشر، بتوجيه التعليمات إلى المربين بطريقة صريحة، يقول ﷺ: «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَأْخُذْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ» وهكذا في سائر توجيهاته ﷺ في هذا الحديث.

والتوجيه المباشر وسيلة تربوية ناجحة لتعديل السلوكيات السيئة نحو الأفضل، أو الأمر بإتيان الأفعال الحسنة والتزامها، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه.. يرافقها تصحيح لأخطائه... وهكذا حتى يصبح هذا السلوك عادة مستحكمة لدى المتربي، يواظب عليها[1].

ثانيًا: التربية على التمسك بالسنة:

وذلك في التزام أمره ﷺ في آداب إتيان الخلاء، وآداب الطعام؛ فأما آداب إتيان الخلاء فمنها سنته ﷺ في عدم أخذ الذكر أو الاستنجاء باليمين؛ لأن من السنة جعل اليد اليمنى للطعام والشراب، والأشياء الكريمة، بينما اليد اليسرى في الأشياء الكريهة، كدخول الخلاء وغير ذلك.

وأما آداب الطعام فمنها عدم التنفس في الإناء؛ لأن ذلك من هديه ﷺ، وقد نهى عن ذلك؛ لأن ذلك ربما أساء إلى الآخرين فتركوا هذا الطعام، واستاءوا من تناوله؛ وفي ذلك إسراف وتبذير نهى عنه الإسلام.

فاتباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به، واقتفاء آثاره والتأسي به، وقد بحث الأصوليون في باب أفعاله ﷺ عن هذه المعاني؛ وذلك لأننا متعبدون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به في أفعاله[2].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٨٤ بتصرف.

(٢) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف عثمان، ص١٠٢.

ثالثًا: التربية الصحية:

لقد ربى النبي ﷺ صحابته الكرام على ما يحفظ صحتهم وأبدانهم من الأمراض والآفات، ولذلك فقط أمر بكل سلوك يحفظ الصحة، ونهى عن كل مسلك يؤدي إلى المرض، ومنذ ذلك نهيه ﷺ عن أخذ الذَكَرِ والاستنجاء باليمين؛ يقول ﷺ: «وإذا بال أحدكم فلا يأخذ ذكره...»، وذلك لأن هذا المكان مظنة الجراثيم والنجاسة، فينبغي أن لا تمسه اليد اليمنى، التي يتناول بها الإنسان طعامه وشرابه، ولن يخلو الأمر حينها من إصابته بالمرض الذي يضعفه عن العمل والعبادة.

وفي الحديث نفسه ينهي النبي ﷺ عن التنفس في الإناء، وذلك من العادات السيئة في الطعام، وقد قال ابن القيم: "وأما النفخ في الشراب فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة يعاف لأجلها، ولاسيما إن كان متغير الفم، وبالجملة فأنفاس النافخ تخالطه"[1].

وفي النهي عن الاستنجاء باليد اليمنى والتنفس في الإناء أيضًا رعاية للصحة عن طريق الوقاية من المرض قبل وقوعه، وذلك منهج نبوي، في تنبيه الصحابة الكرام إلى ما فيه الضرر قبل اقترافه وإتيانه.

إن السنة النبوية اهتمت اهتمامًا كبيرًا بالصحة والعافية، وتنير في الحياة الإنسانية بالإضافة إلى أن السنة بإجمالها كانت ترشد إلى المحافظة على الصحة، وتبعد الإنسان عن الوقوع في الأمراض والأسقام... فالصحة من نعم الله التي أعطاها للإنسان، فعليه أن ينشط بها وفيها، فيستغل وقت صحته ليعمل العمل الصالح، وينتج الإنتاج الطيب المبارك، كما عليه أن يحافظ على هذه الصحة، ولا يدخل على بدنه ما يفسدها، وسيسأل عن ذلك يوم القيامة[2].

وقد أولت التربية الإسلامية عنايتها بالجانب الجسمي للفرد من زاوية الوقاية من الأمراض وعلاجها... بل ويحثنا ديننا الحنيف على عمل الإجراءات اللازمة للوقاية من

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ص٥٠٤.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح أحمد رضا، ص٤٦٩.

الأمراض قبل وقوعها، ففي النظافة وقاية ومنع لانتشار الأمراض، وفي غياب النظافة البدنية والبيئة تعرض للهلاك[١]، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٢].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

٢٩٩- باب كراهة المشي في نعل واحدة أو خف واحد لغير عذر وكراهة لبس النعل والخف قائماً لغير عذر

الحديث رقم (١٦٥١)

١٦٥١- عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قال: ((لايَمشِ أحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ، لِيَنْعَلْهُمَا جَمِيعاً، أو لِيَخْلَعْهُمَا جَمِيعاً))[1].

وفي رواية[2]: ((أو لِيُحْفِهِمَا جَمِيعاً)). متفق عليه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ليحفهما: ليخلعها[3].

الشرح الأدبي

على المسلم أن يكون حسن الهيئة، جميل المظهر، نظيف الثياب، مشرق الحياة، هاشاً باشاً، وأن لا يعرض نفسه لسخرية الآخرين، وللقيل والقال، وهذا الحديث يرشد المسلم إلى مراعاة السمت الطيب، واتباع المألوف لدى الناس في لباس النعل، والحديث يتكون من ثلاث جمل فعلية، وأفعالها مضارعة، والجملة الأولى تتصدرها "لا" الناهية، وهي أداة جزم، والجزم هو القطع: وكأن وظيفتها النحوية تتضافر مع وظيفتها الدلالية في الحديث الشريف فقول الرسول ﷺ: "لا يمس أحدكم في نعل واحدة"، فيه حزم وقطع بالانتهاء عن الإقدام على هذا الفعل المشين الذي يُشوِّه صورة المسلم، ويجعله مثار سخرية الآخرين، ولذلك جاء الفعل المنهي عنه مضارعاً إيحاءً باستمرار النهي عن هذا

(١) أخرجه البخاري (٥٨٥٦)، ومسلم واللفظ له (٦٨/٢٠٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٥٥).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٣/١٠.

السلوك المهين الذي يخالف المألوف لدى الناس، والجملتان الباقيتان: توضحان ما يجب على المسلم فعله حتى لا يكون سلوكه منفراً، وهذا التوضيح ارتبط بلام الأمر، والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر حيث قال: "لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً"، والضمير في الفعلين يعود على القدمين، وكرر لفظ "جميعاً" وهو حال في كلا الجملتين: أي في حال واحدة، ولنقتد برسول الله ﷺ في كل أمور حياتنا.

فرسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة في كل مظاهر الحياة والعبادة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين، وإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمنى أولهما ينتعل، وآخرها ينزع"[1].

فقه الحديث

وفي الحديثين كراهة المشي في نعل واحدة، أو خف واحد، أو مداس واحد إلا لعذر[2].

ولعل السبب في الكراهة أن النعال ونحوها شرعت لحماية الأرجل عما يكون في الأرض من شوك ونحوه، فإذا انفردت إحدى الرجلين احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى، فيخرج بذلك عن سجية مشيه وربما تعثر وسقط على الأرض[3].

كما قيل في سبب الكراهة: إن المشي في نعل واحد إنما هي مشية الشيطان[4].

وقيل أيضاً: إن فيه تركاً للعدل بين الرجلين، والعدل مأمور به[5].

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤١٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٤٨٦).

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣١٧/٤، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٧٧/١٨، والكافي لابن عبدالبر ٦١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ٧٤/١٤، والفروع، ابن مفلح ٣١٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٤/١.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٧/٤، وفي المعنى ذاته: شرح صحيح مسلم، النووي ٧٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٤٧/٤.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٧/٤.

(٥) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢.

وقيل أيضاً: حتى لا ينسب فاعل ذلك إلى اختلال الرأي، أو ضعفه[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في لبس النعلين أو خلعهما.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يمش أحدكم في نعل واحدة" وقوله ﷺ: "... فلا يمش في الأخرى حتى يصلحها". حيث نهى ﷺ عن المشي في نعل واحد.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عن الأشياء التي تخالف أحكام وآداب الشريعة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في لبس النعلين أو خلعهما:

هذه الأحاديث في النعل وكراهة أن ينتعل الإنسان برجل واحدة أو يلبس خفاً برجل واحدة بل إما أن يحفيهما جميعاً، يعني لا يلبس في الرجلين شيئاً، وإما أن ينعلهما جميعاً.

ويظهر ذلك في حديث أبي هريرة: "أن رسول الله ﷺ قال: لا يمشي أحدكم في نعل واحدة لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً". وفي رواية: "أو ليحفهما جميعا"[٣].

وعنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا انقطع شسع نعل أحدكم، فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها".

قال ابن حجر: (قال الخطابي: الحكمة في النهي أن النعل شرعت لوقاية الرجل عما يكون في الأرض من شوك أو نحوه، فإذا انفردت إحدى الرجلين احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى فيخرج بذلك عن سجية مشيه، ولا يأمن مع ذلك من العثار. وقيل لأنه لم يعدل بين جوارحه، وربما نسب فاعل ذلك إلى اختلال الرأي أو

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٠٩/١٠.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٢، ١٦٥٣).

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٧٣٨/٢.

ضعفه. وقال ابن العربي: قيل: العلة فيها أنها مشية الشيطان، وقيل: لأنها خارجة عن الاعتدال. وقال البيهقي: الكراهة فيه للشهرة فتمتد الأبصار لمن ترى ذلك منه. وقد ورد النهي عن الشهرة في اللباس. فكل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب)[١].

قال النووي: (يكره المشي في نعل واحدة أو خف واحدة أو مداس واحد لا لعذر ودليله هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم.

قال العلماء: وسببه أن ذلك تشويه ومثلة ومخالف للوقار، ولأن المنتعلة تصير أرفع من الأخرى فيعسر مشيه وربما كان سبباً للعثار، وهذه الآداب الثلاثة في المسائل الثلاث مجمع على استحبابها وأنها ليست واجبة، وإذا نقطع شسعه ونحوه فيخلعهما ولا يمشي في الأخرى وحدها حتى يصلحها وينعلها)[٢].

وقال ابن عثيمين: (ووجه ذلك: أن هذا الدين الإسلامي جاء بالعدل حتى في اللباس، لا تنعل إحدى الرجلين وتترك الأخرى، لأن هذا فيه جور على الرجل الثانية التي لم تنعل فلذلك نهى النبي ﷺ عن المشي في نعل)[٣].

ومن الآداب الإسلامية في لبس النعل: عدم لبسه والإنسان قائم، يظهر ذلك في حديث جابر رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائماً".

قال العظيم آبادي: (قال الخطابي: إنما نهى عن لبس النعل قائماً لأن لبسها قاعداً أسهل عليه وأمكن له وربما كان ذلك سبباً لانقلابه إذا لبسها قائماً فأمر بالقعود له والاستعانة باليد فيه ليأمن غائلته)[٤].

وقال ابن عثيمين: ("أن النبي ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائماً" فهذا في نعل يحتاج إلى معالجة في إدخاله في الرجل، لأن الإنسان لو انتعل قائماً والنعل يحتاج إلى معالجة، فربما يسقط إذا رفع رجله ليصلح النعل. أما النعال المعروفة الآن؛ فلا بأس أن ينتعل الإنسان وهو قائم ولا يدخل ذلك في النهي، لأن نعالنا الموجودة يسهل خلعها ولبسها)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٢/١٠.
(٢) شرح مسلم، النووي، ص ١٣٢٦.
(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٣٨/٢.
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي، ص ١٧٧٣.
(٥) شرح رياض الصالحين ١٧٣٨/٢، ١٧٣٩.

الحديث رقم (١٦٥٢)

١٦٥٢- وعنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ، يقول: ((إذا انْقَطَعَ شِسْعُ (نَعْلِ) [١] أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَمْشِ فِي الأُخْرَى حَتَّى يُصْلِحَهَا)). رواهُ مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شسع نعل: أحد سيور النعل وهو الذي يُدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، والزمام السير الذي يعقد فيه الشسع[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف فيه إرشاد للمسلم إلى عدم المشي في نعل واحدة كما ورد في الحديث السابق، وكأنه إجابة عن سؤال ينبثق من الحديث السابق، وماذا أعمل إذا انقطع شسع النعل، ويجيب رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن هذا السؤال المتوقع ليعطي حَلا لهذا الإشكال.

والشسع في اللغة قبال النعل، والنعل كما قال صاحب المحكم، ما وقيت به القدم، ففي البخاري عن قتادة حدثنا أنس رضي الله عنه "أن نعلي النبي ﷺ كان لها قبالان"[٤]: والقبالان: تثنية القبال، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الإصبعين.

ويقال في اللغة: شسع النعل، أي انقطع شسعه، والشاسع هو: الرجل المنقطع الشسع.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند النسائي في المجتبى (٥٢٧٠).

(٢) برقم (٢٠٩٨/٦٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش س ع).

(٤) أخرجه البخاري، ٥٨٥٧، ٥٨٥٨.

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة، وهي جملة شرطية مكونة من أداة الشرط "إذا" وجملة فعل الشرط : "انقطع نعل أحدكم"، وجملة جواب الشرط: "فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها".

وأسلوب الشرط في هذا السياق مناسب ، لأن الحديث يثير مشكلة تحتاج إلى حل، فالرسول ﷺ ينهي عن أن يمشي المسلم في نعل واحدة، فماذا يفعل الإنسان إذا انقطع شسع نعله، فهذه هي المشكلة، التي تضمنها فعل الشرط، والأداة: "إذا"، وهي توحي بدلالتها بوقوع هذه المشكلة لأنها من مستلزمات الحركة في الحياة، فكل نعل لابد أن يبلى، كأي شيء في الحياة.

ويجيء الجواب حلاً لهذه المشكلة، وهو إصلاح النعل، ولذلك قال: "حتى يصلحها" و"حتى" للغاية، فتأمل بلاغة رسول الله ﷺ الواضحة المبينة التي تتجلى حتى في أقل الأمور شأناً، وأدقها خفاءً في بعض الأحيان، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٥٣)

١٦٥٣- وعن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى أنْ يَنْتَعِلَ الرَّجُلُ قَائِماً. رواه أبو داود(١) بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

ما أحرص رسول الله ﷺ على أن يحتفظ المسلم بهيئته ووقاره، وما أكثر حرصه على احتفاظ المسلم بمعالم هويته، وخصائص شخصيته حتى في أدق الأمور التي يظن الناس أنها لا تمثل في حياتهم شيئاً ذا بال، ومنها طريقة لبس النعل.

وهذا الحديث الشريف الذي يرويه جابر بأسلوبه عن رسول الله ﷺ، ويتضمن النهي عن انتعال الرجل قائماً، ومعنى: "أن ينتعل"، أي يلبس النعل وهو قائم، وإذا كانت النعل ضيقة أو تحتاج لربط سيورها، كما هو موجود في العصر الحديث، فينثنى الرجل، ويصير حينئذ على هيئة قبيحة، وصورة مزرية، والفعل "نهى" يفيد النهي القاطع: لأنه إخبار بصيغة الفعل الماضي ولم يقترن الفعل هنا بلا الناهية، لأنها من الجوازم، والجزم من خصائص الفعل المضارع لأنه من أحوال الإعراب، والفعل الماضي مبني دائماً وجملة "أن ينتعل الرجل" مكونه من أن المصدرية الناصبة والفعل المضارع المنصوب بأن، و"الرجل" فاعل: والجملة يمكن أن تؤول بمصدر وهو الانتعال، ولكنها جاءت في هذه الصورة اللغوية لتوحي بالحكرة والعناء والمشقة، ولتوحي كذلك باستمرار هذا الفعل: لأن المضارع يفيد الاستمرار، وكلمة "قائماً" حال حيث توضح حال الرجل المنتعل الذي لا يجلس وقت الانتعال: إذا كان يحتاج إلى ذلك، لضيق النعل، أو لربط وتثبيت السيور.

---

(١) برقم (٤١٣٥).

فالحديث على الرغم من إيجازه، ودلالته الواقعية، وإخباره عن مشهد مألوف فإنه تضمن بعض الظواهر الأسلوبية الموحية البليغة، ومن معاني المصاحبة، للانتعال في اللغة: الرجل الذليل يوطأ كما توطأ الأرض، والرسول ﷺ في نهيه عن الانتعال قائماً يبتعد بالمسلم وهو في هذه الهيئة عن شُبْهة الذلة والضعف والهوان، لأنه يثني ظهره، ويحني قامته، وربما يتعرض للسخرية والاستهزاء من قبل الآخرين.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه: كراهة الانتعال قائماً[١]، للأحاديث التي تنهى عن ذلك وسبب النهي عن الانتعال واقفاً، هو أن اللبس قاعداً أسهل، إذ ربما كان ذلك سبباً لانقلابه، وسقوطه على الأرض إذا ما لبس قائماً، فأمر بالقعود لأنه أسهل، وأعون، وأسلم من المفسدة[٢].

وذهب المالكية[٣]، وبعض الحنابلة[٤] إلى القول بعدم الكراهة، وذلك لعدم صحة الأحاديث الواردة بالنهي، وعلى فرض صحتها، فإنها تحمل على من لا يمكنه القيام.

والأصح: حمل الأحاديث التي تنهى عن الانتعال قائماً على ما إذا كان فيه تعب ومشقة، أما إذا لم يكن فيه تعب ولا مشقة فلا بأس من القول بالجواز.

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٦٨/٢، ٦٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٥/١ وفيه "وصحح القاضي وغيره الكراهة، واختلف قوله أي الإمام أحمد - في صحة الأخبار".

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٨٣/٥.

(٣) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٥/٢، وفيه "ولا بأس من الانتعال لبس النعل حال كونه قائماً". كما يجوز لبسه جالساً. وأيضاً الكافي لابن عبدالبر ٦١٤.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٥/١ وفيه "ولا يكره الانتعال قائماً".

(٥) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٥١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

من باب حرص النبي ﷺ على سلامة صحابته الكرام وسائر أمته، فقد أمر بأن لا يمشي في نعل واحدة، يقول ﷺ: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة.....»، ويقول: «إذا انقطع ..... فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها»؛ وذلك وقاية للمسلم من أن يلبس نعلاً ويترك الأخرى، فيمشي بواحدة، فيتعثر فيقع أو تزل قدمه فتتكسر، وهذا من المضار التي قد تسبب له نتائج سلبية على صحته، فقد يكسر عظمه على أثر سقوطه، وذلك مما يؤلمه، ويعطله عن حياته كلها.

وتكون التربية الوقائية، باتباع الهدي النبوي في سنن الفطرة والطعام والشراب والنوم واللباس والنكاح والعطاس والتثاؤب، ثم بتعريف المتربين ببعض القواعد الصحية، والنصائح الطبية على ألسنة الأطباء القدامى والحكماء السابقين؛ عساهم أن يتبعوها فيكونوا في مأمن من الإصابة بالعديد من الأمراض إلى ما شاء الله[1].

ثانيًا: التربية الجمالية:

ومما حرص عليه المربي الأول ﷺ، وحث على انتشاره بين المسلمين: الجانب الجمالي، والذي لا يتوقف على جمال المخبر وحده، بل أيضًا جمال المظهر؛ فالمسلم دائمًا عليه أن يحرص على مظهره الخارجي، من النظافة وجمال الثوب، وتصفيف الشعر، والتعطر، بقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[2]، ومن مظاهر الحرص على الجانب الجمالي قوله ﷺ: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة ...»، لأن ذلك من شأنه الإساءة إلى مظهر المسلم، وربما أدى إلى ازدراء الآخرين له، وذلك لسوء مشيته وتعثرها، لأن إحدى قدميه ستكون أخفض من الأخرى، فيظهر في مشيته، كأنه أعرج، وذلك مما ينال من هيبته ومكانته أمام الناس.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ص٤٥١ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم، ٩١.

بل إن النبي ﷺ أمر من انقطع شسع نعله أن لا ينتعله حتى يخيطه يقول ﷺ: «إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَمْشِ فِي الأُخْرَىٰ حَتَّىٰ يُصْلِحَهَا». فليس الأمر مجرد حرص على لبس النعل، ولكن الأمر يتعدى ذلك إلى سلامة هذا النعل وعدم انقطاع شيء من سيوره التي تضمه إلى الرجل، وتوثق ربطه بها.

إن السعيد هو من يتطلع إلى ناحية الجمال في الحياة، إذا أظلمت الحياة، انتظر إشراقة الصباح، وإذا غربت الشمس انتظر شروقها، وإذا غاب القمر، فالنجوم تتلألأ، وحينئذ تخف وطأة الحياة، ويملأ التفاؤل حياة الإنسان[1].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

استخدم النبي ﷺ في أحاديث هذا الباب طريقة التوجيه المباشر؛ وذلك في قوله: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة...»، وقوله: «إذا انقطع نعل أحدكم...»، موجهًا صحابته الكرام إلى الهدي مباشرة، دون استخدام وسيلة أخرى، وذلك أنه يوجه إلى شيء من ضرورات الحياة الأساسية، وهو الاهتمام بالمظهر الخارجي، ورتق النعل المقطوع قبل لبسه، فالأمر لا يحتاج إلى استخدام وسيلة أخرى غير التوجيه المباشر.

ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه.... مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم، ومن المفيد أن يبتعد المعلمون في نصحهم وعظاتهم عن أسلوب الأوامر والنواهي، وعليهم استخدام الذكاء واللباقة في النصح والإرشاد؛ حتى لا ينفروا المتعلمين[2].



(١) التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح، ص١٠٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات وآخرون، ص٨٤.

٣٠٠- باب النهي عن ترك النار في البيت عند النوم

ونحوه سواء كانت في سراج أو غيره

الحديث رقم (١٦٥٤)

١٦٥٤- عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: ((**لاَ تَتْرُكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ**)). متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ حريص على أمته، بالمؤمنين رءوف رحيم، وهو يرشد أمته إلى سبل النجاة من الشرور والأخطار في دنياهم وإلى مسالك الطاعة، وسبل الهداية التي تؤدي بهم إلى النجاة من النار في أخراهم، ولم تقتصر هدايته على المواعظ والخطب والوصايا، ولكنه كثيراً ما كان ينصح الناس ويدلهم على اتقاء الأخطار التي قد يتعرضون لها في بيوتهم، وطرقهم، وأعمالهم

ومن هذه الإرشادات العملية هذا الحديث الذي جاء في صيغة النهي، ولم يتوجه رسول الله ﷺ بالنهي إلى فرد واحد وإنما توجه بالنهي إلى جموع الأمة كلها، فقال: "لا تتركوا النار في بيوتكم، حين تنامون".

وجملة "حين تنامون" تقييد للنهي فإطفاء السراج المشتعل وقت النوم من طرق الوقاية والأمان: حتى لا تشتعل النيران في البيت، فتلحق الأذى والضرر بكل ما يحتويه البيت من أثاث، ومتاع، وحيوان، وطير، وأناس.

وإذا اتخذ الإنسان وسائل الأمان، وترك البيت مضيئاً بوسائل أخرى، كما هو حاصل في العصر الحديث، فلا خبر، ولفظ "النار" يحدد بأن المراد، عدم ترك المواقد مشتعلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٣)، ومسلم (٢٠١٥/١٠٠) ولفظهما سواء.

أو السرج التي لا أمان لها من غطاء زجاجي أو غيره، وفي حديث آخر يقول ﷺ: ((إن هذه النار إنما هي عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم))[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من ترك النار أثناء النوم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

حيث نهى النبي ﷺ عن ترك النار في البيت وقت النوم.

وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية في توجيه المدعوين إلى ترك ما يتنافى مع أحكام وآداب الدين وكذلك ما يكون فيه ضرر للمدعو أو لغيره فينهاه عنه حتى ينتبه إليه ويأخذ حذره وحيطته منه وينتهي عن فعله.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من ترك النار أثناء النوم:

يظهر ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حدث رسول الله ﷺ بشأنه قال: "إن هذه النار عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها".

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٢٩٤.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٥).

قال النووي: (قوله ﷺ: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون" هذا عام تدخل فيه نار السراج وغيرها، وأما القناديل المعلقة في المساجد وغيرها فإن خيف حريق بسببها دخلت في الأمر بالإطفاء، وإن أمن ذلك كما في الغالب فالظاهر أنه لا بأس بها لانتفاء العلة)[١].

وقال ابن عثيمين: (النهي عن إبقاء النار ونحوها في البيت عند النوم ونحوه، وذلك أن النار كما وصفها النبي ﷺ في هذه الأحاديث عدو للإنسان، فإذا أبقاها الإنسان ونام. فربما تأتي الفويسقة - يعني الفأرة- فتتخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق، كانت السرج من النار توقد في الزمان الأول، بالودك، والسويت وشبهه، ثم صارت توقد بالجاز وكلها مواد سائلة، فإذا جاءت الفأرة وعبثت بها؛ انصب الذي في السراج وحصل الحريق، ولهذا أمر النبي ﷺ بإطفاء النار عند النوم لئلا يحصل الحريق، ولكن في الوقت الحاضر، ليس يوقد كما كان فيما سبق، فاليوم الكهرباء سالب وموجب، يحصل بها إيقاد اللمبة مثلاً فلو نام الإنسان وفي بيته لمبة موقدة فلا بأس؛ لأن العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ عن إبقاء النار غير موجودة في الكهرباء في الوقت الحاضر. نعم فيه أشياء تشبه ذلك كالدفايات؛ هذه لاشك أنها على خطر، ولا سيما إذا قربها الإنسان من فراشه، فإنه ينقلب أو ربما يمس هذه النار. فلهذا ينهى أن تبقى هذه الدفايات، موقدة إلا في مكان آمن، بعيداً عن الفراش، لئلا يحصل الحريق)[٢].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال:

يستنبط ذلك من عموم الحديثين فقد نهى رسول الله ﷺ عن ترك النار أثناء النوم وأمر بإطفائها وذلك من أجل الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال. قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: الأمر بإطفاء المصابيح فن حسن غريب ولو تتبع لحصل منه فوائد.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٣٩، ١٧٤٠.

وقال ابن العربي: معنى كون النار عدواً لنا أنها تنافي أبداننا وأموالنا منافاة العدو، وإن كانت لنا بها منفعة، لكن لا يحصل إلا بواسطة، فأطلق أنها عدو لنا لوجود معنى العداوة. وقال القرطبي: الأمر والنهي في هذا الحديث للإرشاد، قال: وقد يكون للندب، وجزم النووي بأنه للإرشاد لكونه لمصلحة دنيوية، وتعقب بأنه قد يفضي إلى مصلحة دينية وهي حفظ النفس المحرم قتلها والمال المحرم تبذيره)[1].

وحفظ الأنفس والأموال من الأهداف الرئيسة في الدعوة إلى الله لأنهما من الضروريات الخمس التي أمرت الشريعة بحفظهم وحرمت عليهم ورتبت على ذلك جزاءات دنيوية وتوعدت بالعذاب الشديد يوم القيامة لمن لم ينله العقاب الدنيوي.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر:

يظهر أسلوب التوكيد في قوله ﷺ: "إن هذه النار عدو لكم...".

وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في التأكيد على الحقائق للمدعوين. ويظهر أسلوب الأمر في قوله ﷺ: "... فاطفئوها...".

وأسلوب الأمر من الأساليب التي يستخدمها الداعية في حث المدعوين على الالتزام بما دعا إليه من حقائق وآداب لأنها من تعاليم الدين وإنما يأمرهم بما فيه خيرهم وخير مجتمعهم من ما جاء من تعاليم الإسلام.

خامساً- من موضوعات الدعوة: اهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها:

ويظهر ذلك في نهيه ﷺ عن ترك النار أثناء النوم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

وأمره بإطفائها في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "إن هذه النار عدو لكم فإذا نمتم، فأطفئوها".

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨٨/١١، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٨٠/٥.

قال ابن حجر: (قال القرطبي: في هذه الأحاديث أن الواحد إذا بات ببيت ليس فيه غيره وفيه نار فعليه أن يطفئها قبل نومه أو يفعل بها ما يؤمن معه الاحتراق، وكذا إن كان في البيت جماعة فإنه يتعين على بعضهم وأحقهم بذلك آخرهم نوماً، فمن فرط في ذلك كان للسنة مخالفاً ولأدائها تاركاً)[1].

فيتضح من ذلك أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٨٩.

الحديث رقم (١٦٥٥)

١٦٥٥- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال: احْتَرَقَ بَيْتٌ بالمَدينَةِ عَلَى أهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بشَأنِهِم، قالَ: ((إنَّ هذِهِ النَّارَ[١] عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإذا نِمْتُمْ، فَأطْفِئُوهَا[٢])) متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

هذا الحديث توضيح وتفصيل لما أجمل في الحديث السابق، والأحاديث النبوية بعضها يشرح بعضاً في نصوص كثيرة، فسبب النهي عن ترك النار في البيوت وقت النوم: كشف عنه الموقف والحدث في هذا الحديث الشريف: حيث يبدأ الحديث بتوصيف الحدث المأساوي في قول: أبي موسى الأشعري رضي الله عنه "احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل".

وهذه الجملة الإخبارية تشخص الحدث وهو الاحتراق، وتحدد مكان الاحتراق وزمانه فهو بالمدينة، وحدث ليلاً والمحترق بيت ينام فيه أهله، فعناصر الحدث مكتملة، وهي كلها واقعية.

وقوله: "فلما حدث رسول الله بشأنهم" يرشد إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغة الخبر من كثيرين وليس من واحد، لأن الفعل مبني للمجهول في قوله: "حُدِّث بشأنهم"، والتركيز على ما حدث من احتراق لأهل المنزل حيث قال: "بشأنهم" ولم يقل بشأنه: فحياة المسلم لابد أن تُتَّخذ كل وسائل الوقاية لحمايتها، وتأتي نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسلوب

---

(١) عندهما زيادة: (إنَّما هي) وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه (١/٣٠٢، رقم ٤٤١) فتبعه عليه المؤلف.

(٢) عندهما زيادة: (عنكم).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٥)، ومسلم (٢٠١٦/١٠١)، وتقدم برقم (١٦١).

خبري محصَّن بالتوكيد، في سياق التحذير العام لكل المسلمين: فقال: "إن هذه النار عدو لكم".

وبلاغة الرسول ﷺ تتجلى في قوله: "عدو لكم"، حيث شخص النار، وأضفى عليها خصائص البشر وبث فيها الحياة من خلال وصفها بالعداوة، فهي العدو المهلك بسبب آثارها المهلكة القاتلة.

والنار عند العرب في مواضع كثيرة مرتبطة بالأذى والهلاك، ويقول رسول الله ﷺ: "إن شدة الحر من فيح جهنم"[1]، وشدة الحر وقت الهاجرة، تؤذي الإنسان والحيوان، فالناقة يصيبها الهزال، وتحتفر الظباء والثيران، كُنَّساً تتقي فيها لفح الهاجرة، وبعض الحيوانات تنزوي من أذى الرمضاء، كالضباب والجنادب، والحرباء، ولهيب الحر، يكاد يشوي اللحم، وبعض الملابس تكاد تشتعل لشدة لفح الهاجرة.

وهذه العداوة التي جعلها الرسول ﷺ صفة النار ليس مطلقة ولكنها تكون وقت عدم اتخاذ الوقاية من الأذى، وللنار عند العرب أسماء حسب الحاجة والمنفعة، ومنها نار الاستمطار، ونار التحالف، ونار الأهمية للحرب، ونار الحرس، ونار السعالى، ونار الأسد، ونار القرى، ونار السليم، ونار الوسم[2].

والجملة الأخيرة في الحديث، تضيء الموقف وتوضح أن صفة العداوة ليست مطلقة فقد تكون النار نافعة كما عرفها العرب وحددوا أنواعها، ولكن ذلك يكون في اليقظة: أما عند النوم فهي: العدو المتربص المهلك، ولذلك جاء التحذير من النار في سياق الإخبار عن احتراق البيت، وهذا التحذير صيغ في قالب: الشرط والجواب وأداة الشرط: "إذا"، وهي تدل على التحقق: لأن النوم طبيعة بشرية، وكل الناس ينامون ويستيقظون، ولذلك نفهم سر جمال البيان النبوي وبلاغته، في قوله محذراً ومنبهاً كل المسلمين، بل وكل إنسان على وجه الأرض "فإذا نمتم فأطفئوها".

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٣٦، ومسلم، ٦١٥.

(٢) انظر: المنظور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة.

فقه الحديث

في الحديثين من الفقه الأمر بإطفاء النار قبل النوم، وهذا الأمر للإرشاد والاستحباب[1] وليس للوجوب، خلافاً لأهل الظاهر[2].

وقد ذكر الحديث الثاني العلة في ذلك، وهي أن النار عدو للإنسان، فربما أتت النار على المنزل، وأحرقته.

من المتلزم بإطفاء النار؟ إذا بات الشخص منفرداً في بيت فيه نار فعليه أن يطفئها قبل نومه، أو يفعل بها ما يؤمن معه الاحتراق.

أما إذا كان في البيت جماعة، فإنه يتعين على بعضهم، وأحقهم بذلك آخرهم نوماً، فمن فرط في ذلك كان للسنة مخالفاً، ولأدائها تاركاً[3].

المضامين الدعوية[4]

---

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٣٤١/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٨٣/٤، وفتح الباري، ابن حجر ٨٦/١١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨٧/١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٨٦/١١.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٥٦)

١٦٥٦- وعن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((غَطُّوا الإنَاءَ، وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ[١]. وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً، وَلاَ يَفْتَحُ بَاباً، وَلاَ يَكْشِفُ إنَاءً. فإنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إلاَّ أنْ يَعْرُضَ عَلَى إنَائِهِ عُوداً، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللهِ، فَلْيَفْعَل، فإنَّ الفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أهْلِ البَيْتِ بَيْتَهُمْ)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أوكئوا السقاء: أي: اربطوا السقاء لئلا يدخلها شيء[٣].

السراج: المصباح[٤].

سقاء: كل ما يجعل فيه ما يُسقى[٥].

يعرض على إنائه عوداً: أي: يمد عليه خشبة عرضاً[٦].

الفويسقة: الفأرة[٧].

تضرم: تحرق[٨].

الشرح الأدبي

من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي الشريف:

---

(١) لفظ مسلم في هذه الرواية: (الباب) بالإفراد، وبلفظ الجمع عنده برقم (٢٠١٢/٩٧).

(٢) برقم (٢٠١٢/٩٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ك أ).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ر ج).

(٥) المرجع السابق في (س ق ى).

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ر ض).

(٧) رياض الصالحين ٥٧٠.

(٨) رياض الصالحين ٥٧٠.

هـذا الحـديث نـصائح وإرشـادات لـكـل مـسلم؛ حتـى يتقـي النـارَ وإيـذاءهـا، وهـو تحذيرات من كل خطر يداهم البيوت بسبب الإهمال في ترك السرج المشتعلة، والمواقد الملتهبة، ويبدأ الحديث بأربع جمل وردت في صيغة الأمر، وكلها مقترنة بواو الجماعة؛ فالأمر موجه إلى جموع الأمة، والجمل متناسقة في بنائها اللغوي؛ فالأفعال في بدايتها أفعـال أمـر، والفاعـل في كـل جملـة هـو واو الجماعـة، والمفعـول بـه مـن متعلقـات ومستلزمات البيت، وختام الجمل يتسم بالإيقاع الصوتي، المتمثل في حرف المد المتواجد في كـل كلمـة، وكـذلك الـسجع الموقـع بـين الجملـة الأولى والثانيـة، وهـذه الظـواهر الأسلوبية لجذب الانتباه، وشد الأسماع؛ حتى يتنبه النـاس، ويسهل عليهم حفظ هذه الأوامر، وتلك التوجيهات التي تتناغم كلماتها، ويقوى تأثيرها، وهي تَرِدُ على هذا النحو: غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الباب وأطفئوا السراج.

وتعليل هـذه الأوامر يأتي في أسلوب التوكيد، وكـذلك يتَّشِحُ بالبديع الـذي يزين الكلام؛ والبديع هنا هو اللف والنشر غير المرتب؛ حيث قال رسول الله ﷺ مؤكداً نجاة المسلم الذي ينفذ الأوامر السابقة، من كل "خطر؛ "فإن الشيطان لا يحل سقاءً، ولا يفتح بابًا، ولا يكشف إناء"، فالسقاء، والإناء، والباب، وردوا في الجمل السابقة، ولكن ليس على الترتيب؛ حتى لا يكون الأمر تكلفاً، وتعمداً؛ ورسول الله ﷺ لا يتكلف في بيانه ولا أفعاله، وفي إطار أسلوب الشرط والجواب، يضع رسول الله ﷺ للمحتاجين الذين لا يجدون ما يحمون به متعلقاتهم من أعوان الشياطين فيقول: "ضعوا عوداً على كل إناء وسقاية، وسموا الله: فإن اسم الله الرحمن الرحيم، يحصن المسلم من الشرور"، وجملة الشرط والجواب في إطارها: أسلوب القصر لمزيد من بيان الحاجة، والعوز والفقر. والجملة الأخيرة" تعليل لاتخاذ الوقاية اللازمة، وتحذير من أخطار النار وهذا التعليل يأتي في أسلوب التوكيد إمعاناً في التحذير، حيث قال: "فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم"، واسم الفويسقة وهي "الفأرة" فيه استعارة مأخوذة من الفسق؛ لأنها من المؤذيات الخمس. وفي قوله: "تضرم": مجاز عقلي: حيث أسند الإضرام إلى الفويسقة، من بب الإسناد إلى السبب في الإحراق. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لمصالح الآخرة والدنيا[١]. من هذه الآداب ما يأتي:

١- تغطية الآنية، وربط الأسقية: والأمر بتغطية الإناء، وربط السقاء في الحديث للاستحباب والإرشاد، وقد ذكر العلماء لذلك فوائد منها:

أ- صيانتها من الشيطان، فإن الشيطان لا يكشف غطاء، ولا يحل وكاءً.

ب- صيانتها من الوباء الذي ينزل في ليلة من السنة، كما جاء في رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء)[٢].

ج- صيانتها من النجاسات والقاذورات، والحشرات، والهوام، فربما وقع شيء منها فيه، فيشربه وهو غافل، فيصيبه بذلك ضرر[٣].

وتغطية الآنية مطلوب، حتى إن الشخص إذا لم يجد شيئاً يغطي به إناءه، فإنه يضع عليه عوداً، ويذكر الله، كما هو منطوق الحديث[٤].

٢- غلق الأبواب: كما يستحب أن تغلق الأبواب للحديث، ولأن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، ولما في غلق الأبواب من حراسة للنفس والمال من أهل الفساد[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/١٨٣، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٥/٤٣٣، غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان لمحمد بن أحمد الرملي ص ٣٦، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢/٣٤١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠/١٤٢.

(٤) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٣٨١. هذا وقد عمل بعضهم بالسنة في التغطية بعود، فأصبح وأفعى ملتفة على العود ولم تنزل الإناء، ولكن لا يعرض العود على الإناء، إلا مع ذكر الله، فإن السر الدافع هو اسم الله مع صدق النية. انظر: غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان الرملي ٣٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/١٨٥، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢/٣٤١.

٣- إطفاء المصابيح والأسرجة: كما يستحب إطفاء المصابيح والأسرجة، وذلك خوفاً من الفويسقة -وهي الفأرة- أن تجر الفتيلة، فتحرق البيت[١].

أما القناديل المعلقة في المساجد، وغيرها -ويدخل فيه أدوات الإضاءة الحديثة- فإن خيف أن يؤدي عدم إطفائها إلى حريق دخلت في الأمر بالإطفاء. وإن أمن ذلك - كما هو الغالب -، فالظاهر أنه لا بأس بتركها لانتفاء العلة التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث، وإذا انتفت العلة زال المنع لأن النبي ﷺ علل الأمر بالإطفاء في الحديث، بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم، فإذا انتفت العلة زال المنع[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأخذ بأسباب السلامة.

ثالثاً: من آداب الداعية: الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة.

رابعاً: من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في التماس أسباب النجاة والأمن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج...".

ويظهر من ذلك أمره ﷺ بفعل هذه الأشياء. وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في حث المدعوين إلى الاستجابة لدعوته وأمرهم بما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأخذ بأسباب السلامة

ذلك واضح في قوله ﷺ: "غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا... إلخ الحديث".

---

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٣٤١/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٦/١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٨٦/١٣، وفتح الباري، ابن حجر ٣٥٦/٦.

قال النووي: (هذا الحديث فيه جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لمصالح الآخرة والدنيا فأمر رسول الله ﷺ بهذه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان، وجعل الله عز وجل هذه الأسباب أسباباً للسلامة من إيذائه، فلا يقدر على كشف إناء ولا حل سقاء ولا فتح باب ولا إيذاء صبي وغيره إن وجدت هذه الأسباب(١).

وهذا كما جاء في الحديث الصحيح: ((إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء))(٢) أي لا سلطان لنا على المبيت عند هؤلاء. وكذلك إذا قال الرجل عند جماع أهله: ((اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا))(٣) كان سبب سلامة المولود من ضرر الشيطان، وكذلك شبه هذا مما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة، وفي هذا الحديث الحث على ذكر الله تعالى في كل المواضع ويلحق بها ما في معناها. قال أصحابنا: يستحب أن يذكر الله تعالى على كل ذي بال، وكذلك يحمد الله تعالى في أول كل أمر ذي بال للحديث الحسن المشهور(٤).

وقال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: في الأمر بإغلاق الأبواب من المصالح الدينية والدنيوية حراسة الأنفس والأموال من أهل العبث والفساد ولا سيما الشياطين)(٥).

قال ابن القيم: وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة(٦).

ثالثاً- من آداب الداعية: الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً... إلخ" الحديث.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠١٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١، ومسلم ١٤٣٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٢٧٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١١/٩٠.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤/٢٣٢.

ويظهر من ذلك خوفه ﷺ على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه الداعية ولا أدل على ذلك من هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ لأثر القيام بهذا الواجب الشرعي في حفظ المجتمع وسلامته ونجاته فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَموا على سَفينةٍ فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلِها إذا استَقوا مِنَ الماءِ مَرّوا على مَن فَوقَهُم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبنا خَرقاً ولم نُؤذِ مَن فَوقَنا، فإن يَترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعاً، وإن أخَذوا على أيديهم نَجَوا ونجوا جميعاً))[1].

فينبغي على الداعية الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة حتى ينجو وينجو المجتمع.

رابعاً- من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في التماس أسباب النجاة والأمن:

يستنبط ذلك من عموم الحديث حيث أمر رسول الله ﷺ بهذه الأشياء حتى يحرص الناس على التماس أسباب النجاة والأمن.

قال القرطبي: (وقد تضمنت هذه الأحاديث: أن الله تعالى قد أطلع نبيه ﷺ على ما يكون في هذه الأوقات من المضار من جهة الشياطين، والفأر، والوباء. وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ما يتقى به ذلك فليبادر الإنسان إلى فعل تلك الأمور ذاكراً الله تعالى، ممتثلاً أمر نبيه ﷺ، وشاكراً لله تعالى على ما أرشدنا إليه وأعلمنا به، ولنبيه ﷺ على تبليغه، ونصحه. فمن فعل ذلك لم يصبه من شيء من ذلك ضرر بحول الله وقوته، وبركة امتثال أوامره ﷺ وجازاه عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته، فقد بلغ ونصح)[2].

قال ابن عثيمين: (وكذلك ينبغي للإنسان إذا نام أن يجافي الباب بمعنى يغلقه، وكذلك ينبغي إذا أراد أن ينام أن يغطي الإناء ولو بوضع عود عليه لأن في ذلك حماية له

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٩٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٢٨٢.

من الشيطان)[١]. وقد أمر رسول الله ﷺ بالحرص على ما ينفع فقال: ((... احرص على ما ينفعك))[٢].

وتغطية الأواني وإغلاق الأبواب وإطفاء السراج أثناء النوم من الأشياء التي تنفع الإنسان وتحفظه من التعرض للأذى وعبث الشيطان فينبغي أن يحرص على فعلها.

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

لقد حرص النبي ﷺ: على أمته، فهو الرءوف الرحيم بهم، ولم يتوقف حرصه على أمته على عذاب الآخرة وحده، بل إنه أيضًا كان يحذرهم من ملمات الدنيا ومسبباتها، وفي هذا الباب يستخدم النبي ﷺ التربية الوقائية من خلال تحذيره من مضار النار، يقول ﷺ: «إن هذه النار عدو لكم...» وذلك لأن ترك النار موقدة في البيوت قد يؤدي إلى نشوب الحريق، وفي ذلك هلاك للأهل والمال.

وفي حديث آخر يأمر ﷺ بتغطية آنية الطعام وربط الأسقية وإغلاق الأبواب وإطفاء السراج، تحرزًا من وقوع الضرر، وأعظمه دخول الشيطان لعنه الله، وإيذاؤه للنائمين بالوسوسة وتغليب النوم لتفوت عليه صلاة الصبح، وفي تغطية الآنية والأسقية وقاية من سم الحيات، والحشرات، والكلاب، وغير ذلك مما يفسد الطعام والشراب، وفي إغلاق الباب أمان ووقاية من دخول الكلاب والذئاب واللصوص، وكذلك وقاية من خروج الأطفال ليلاً فلا يؤمن عليهم ذلك، وكذلك في إطفاء السراج أمان من وقوع الحريق، وضمان لنوم هادئ بعيدًا عن الإضاءة.

بل إن الوقاية تصل إلى حد بعيد، فإن لم يجد الإنسان غطاءً لإنائه فليضع عليه عودًا وليسم بسم الله، وذلك ليحفظه الله تعالى من المكروهات، لأن العبرة في الأمر بالأخذ بالسبب والاستعانة بالله تعالى؛ وقد قال ابن القيم: "وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة:، وقال الليث ابن سعد: "وفي عرض العود عليه من الحكمة: أنه لا ينسى تخميره، بل يعتاده حتى بالعود، وفيه: أنه ربما أراد الدبيب أن يسقط فيه فيمر على العود، فيكون العود جسرًا له يمنعه من السقوط... فذكر الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشياطين، وإيكاؤه يطرد عنه الهوام، ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضعين[1]".

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي ٢/٥٠٥.

ثانيًا: التربية بالعبرة:

من الأساليب التربوية المؤثرة في نفوس المتربين: التربية بالعبرة؛ وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب عندما احترق بيت في المدينة على أهله من الليل، فبين النبي ﷺ لصحابته الكرام السبب في ذلك، وهو أنهم تركوا النار وناموا فشبت في البيت كله؛ حتى يعتبروا بحالهم، ولا يقعوا فيما وقعوا فيه من إهمال النار وتركها موقدة في الليل، ولاشك أن من رأى هذا الموقف وسمع مقولة النبي ﷺ سوف يعتبر بحال هؤلاء الذين احترق بيتهم، ثم يمسي مهتمًا بقول رسول الله ﷺ وتنفيذ أمره، يقول ﷺ: «إن هذه النار عدو لكم....».

إن المربي الماهر هو الذي يحسن كيف يستثمر الفرصة والحدث لتصحيح السلوكيات الخاطئة، وتقويم المعوج منها وتصويبه، وقد كانت هذه الطريقة من أبلغ وسائل التربية عند جماعة المسلمين الأولى، وأعمقها أثرًا فيها، ففي كل حدث درس، وفي كل درس عبرة لا تنسى[1].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

وذلك في أمره ﷺ المباشر بقوله: «فإذا نمتم فأطفئوها»، وقوله: «غطوا الإناء، وأوكئو السقا...»، وفي هذا الباب وجه النبي ﷺ أوامره ونواهيه إلى الصحابة، من أجل إتيان ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه؛ وذلك لخطورة ما يأمرهم به وينهاهم عنه، فإنه يوجه إلى خطورة النار ووجوب اتقائها من قبل أهل البيت وساكنيه، كما ينهي عن تركها موقدة، ويبين خطورتها، وكذلك في باقي أوامره ﷺ بتغطية الآنية وإغلاق الأبواب، وإطفاء السراج، وكلها استخدم فيها النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر.

ومن الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه: الابتعاد عن المضار والمنكرات والفواحش، وهو هدف أسمى تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقه، وبه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٣٨٤ بتصرف يسير.

يسمو المجتمع، ويسلك الجميع وفق منهج الله وشرعته، ويتوقف نجاح هذا الأسلوب على تخير وقت التوجيه[1]، مثلما فعل النبي ﷺ عقب احتراق أحد بيوت الأنصار، فوجه الصحابة إلى سبب الحريق، وهو ترك النار موقدة ليلاً.



(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤ بتصرف.

٣٠١- باب النهي عن التكلف

وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦].

الحديث رقم (١٦٥٧)

١٦٥٧- وعن عمر رضي الله عنه قال: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ. رواه البخاريُّ[(١)].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من كلمات ابن عمر رضي الله عنهما، ولكنه يستمد معانيه من كلام رسول الله ﷺ، وصيغة الفعل "نهينا" ترشد إلى ذلك، فقوله: "نهينا" مبني للمفعول، ومقترن بـ"نا" الدالة على الجمع: وهي في موقع النائب عن الفاعل، فالنبي ﷺ موجه إلى الأمة الإسلامية كلها، وهو النهي عن التكلف، فَمَن الذي نهى عن ذلك؟، إنه رسول الله ﷺ اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[(٢)].

والسلوك المنهي عنه: هو: التكلف، وهو في اللغة: تَجَشُّمُ الشيء، والمتكلف: المتعرض لما لا يعينه: أي الذي يتكلف الأمور، ويُقْحِم نفسه فيما لا يطلب منه، ويقال: حملت هذا الشيء تكلفة إذا لم تطقه إلا تكلفاً.

والمسلم في منهجه ينأى عن التكلف في الأقوال والأفعال، وفي أداء العبادات، وفي التعامل مع الآخر، ومادة "كلف"، في اللغة، تدل على التغير والتلون، ومنه "الكلف"، وهو حمرة كدرة تعلو الوجه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

وهو بتحريك اللام، الكَلَف، شيء يعلو الوجه كالسمسم، ولون من السواد والحمرة.

والكُلفة بالضم: لون الأكلف، أو حمرة كدرة، وما تكلفته من نائبةٍ أو حق.

ومن مظاهر التكلف المنهي عنها: المبالغة في الأحكام على الأشياء، والمبالغة في التصورات: رفضاً أو قبولاً، وتضخيم الأمور، والتهويل في استقبال أصداء الأحداث، وغير ذلك من هذه المظاهر، ومن مظاهر التكلف في الأقوال التي نهى عنها رسول الله ﷺ: (التنطع في الكلام، وكذلك التمطق، وكذلك التفيهق: وهو الكلام من أقصى الفم)، وقد أبدى رسول الله ﷺ رفضه للتكلف في المنطق، والمبالغة الممقوتة في طريقة إخراج الحروف.

فعن أبي ثعلبة الخشنى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون))[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على ترك التكلف.

ثانياً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثالثاً: من آداب الداعية: أن لا يفتى ولا يتكلم إلا فيما يعلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على ترك التكلف:

يظهر في قول ابن عمر رضي الله عنهما: نهينا عن التكلف. وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم ... إلخ"الحديث.

التكلف معناه: تكلف الشيء ومحاولة معرفته وإظهاره بمظهر العالم، وهو ليس كذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[٣]، أي:

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٣ رقم ١٧٧٣٢، وقال محققو المسند: حديث حسن لغيره ٢٩/٢٦٧.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٨).

(٣) سورة ص، آية: ٨٦.

لا أسألكم على ما جئت به من الوحى أجراً تعطونني إياه، وإنما أدلكم على الخير وأدعوكم إلى الله عز وجل وهكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم يقولون لأصحابهم "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين"، أى: من الشاقين عليهم، أو القائلين بلا علم، بل إنه ﷺ، كان يقول، ويؤيده الله على قوله بإقراره عليه، ثم حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: "نهينا عن التكلف"، والناهي هو الرسول ﷺ، فإذا قال الصحابي، نهينا فإن هذا له حكم الرفع يعني كأنه قال: نهانا رسول الله ﷺ فعليه يكون هذا الناهي الرسول ﷺ "نهينا عن التكلف"، أن يتكلف الإنسان مالا علم له به ويحاول أن يظهر بمظهر العالم العارف، وليس كذلك[1].

وقال الزمخشري: قوله تعالى: "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين" أي: المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي، حتى انتحل النبوة وأدّعى القرآن"[2]. قال القاسمي وفي الآية ذم التكلف[3].

وقال ابن عاشور: "وأخذ من قوله "وما أنا من المتكلفين"، أن ما جاء به الدين لا تكلف فيه، أى: لا مشقة في تكاليفه، وهو معنى سماحة الإسلام"[4]. "والمتتبع لرسالة الإسلام الغراء يجدها تمتاز باليسر والبساطة والمعقولية فتمتاز باليسر لأن مبادئها الأساسية ميسرة وميسورة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[7].

فهذه النصوص تؤكد تأكيداً جازماً سماحة الإسلام في مبادئه، فلا يكلف الإنسان فوق طاقته، ولا يعمل من المسئوليات ما لا يستطيع حمله فوق استعداده وكل

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٤٠/٢.

(٢) تفسير الكشاف ٩٣٢.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٩٢/١٤/٨.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٣٠٩/٣/٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥ .

(٦) سورة الحج، آية: ٧٨ .

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

تكاليف الإسلام تدخل في حيز الإمكان البشري والطاقة الإنسانية، لكي لا يكون للإنسان عذراً أو حجة في التخلي عن أمر شرعي أو ارتكاب مخالفة إسلامية[1].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النداء:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل".

وأسلوب النداء من أساليب الدعوة، التي يستخدمها الداعية في لفت انتباه المدعوين، وإشعارهم بتوجيه الدعوة لهم وحثهم على الامتثال لها.

ثالثاً- من آداب الداعية: أن لا يفتى ولا يتكلم إلا فيما يعلم:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم...".

فإذا نزلت بالداعية نازلة فإما أن يكون عالماً بالحق فيها أو غالباً على ظنه بحيث استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته أو لا، فإن لم يكن عالماً بالحق فيها أو غالب على ظنه لم يحل له أن يفتي أو يتكلم بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]، فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر[3].

وقال ﷺ: "من أُفتِي بفتيا غير ثبت فيها فإنما إثمه على الذي أفتاه"[4].

فإذا علم الداعية الحق أفتا به وإن لم يعلم قال: الله أعلم، أو لا أدري. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم :"لا أدري" أصيبت مقاتله، وكذا قال علي بن حسين.

وقال مالك: كان يقال: إذا أغفل العالم "لا أدري" أصيبت مقاتله، وقال أيضاً كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين، يُسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحى من السماء. وقال الشعبي: (لا أدري: نصف العلم)[5].

---

(١) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، د. حمدالعمار، ٢٠٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣٣ .

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٨٧٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٥٣ ، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٤٧).

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٦١/٢.

وقال القاسم وابن سيرين: لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول مالا يعلم.

وقال مالك: عن القاسم بن محمد : إن من إكرام المرء لنفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه[١].

قال ابن عثيمين: قال ابن تيمية في كتابه "الفتوى الحموية": كانوا يقولون: "ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة: نصف متكلم، نصف فقيه، نصف نحوي، نصف طبيب".

أما نصف المتكلم: فإنه أفسد الأديان والعقائد، لأن أهل الكلام الذين ينالون من الكلام شيئاً لم يصلوا إلى غايته اغتروا به وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى غايته فقد عرفوا حقيقته ورجعوا إلى الحق.

ونصف فقيه: يفسد البلدان، لأنه يقضي بغير الحق، فيفسد البلدان فيعطي حق هذا لهذا، وهذا لهذا.

ونصف نحوي: لأنه يفسد اللسان، لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة فيلحن فيفسد اللسان.

ونصف طبيب: فيفسد الأبدان، لأنه لا يعرف، فربما يصف دواء يكون داءً، وربما لا يصف الدواء فيهلك.

فالحاصل: أنه لا يجوز للإنسان أن يفتي إلا إذا جازت له الفتوى. ثم استدل ابن مسعود بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[٢]،[٣].

---

(١) المرجع السابق ٢/٦٥.

(٢) سورة ص، آية: ٨٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٤١.

الحديث رقم (١٦٥٨)

١٦٥٨- وعن مسروقٍ، قال: دَخَلْنَا على عبدِ اللهِ بْنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئاً فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ، فَلْيَقُلْ: اللهُ أعْلَمُ، فَإنَّ مِنَ العِلْمِ أنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ: اللهُ أعْلَمُ. قالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن كلمات هذا الحديث الشريف: من كلام عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه لفظاً، ولكن المعنى مستوحًى من كلام رسول الله ﷺ، ومن التعاليم الإلهية في القرآن الكريم: وهو توضيح وتفصيل لكلام ابن عمر رضي الله عنهما في الحديث السابق الذي تَكَوَّن من جملة واحدة.

وهذا الحديث يبدأ بالنداء: وحرف النداء "يا" للمنادي البعيد: لأنه ينادي الناس جميعاً؛ ليحثهم على الاهتمام بما يقول، والإصغاء إليه، وأركان النداء ثلاثة: المنادي: وهو ابن مسعود رضي الله عنه، والمنادى وهم الناس: والمنادى به: وهو المضمون الذي يريد توصيله للناس. وهذا المضمون أفصحت عنه الجملتان التاليتان اللتان صيغتا في قالب: الشرط والجواب، أو الشرط والجزاء: فالأولى تحث على عدم كتم العلم؛ حيث يقول: "من علم شيئاً فليقل به"، أي فليحدث به لإفادة الناس، في غير تكلف ولا مشقة ولا مبالغة ولا تهويل ولا كذب.

والجملة الثانية ترد في الصيغة نفسها: صيغة الشرط والجواب، ولكنها في مضمونها ضد مضمون الأولى، فبينهما تضاد ومقابلة في المعنى المراد، ومن لم يعْلَم

---

(١) برقم (٤٨٠٩).

فليقل: "الله أعلم"، وتحذر هذه الجملة من الإفتاء بغير علم، والتكلف في ادّعاء الصدق والمعرفة، وتجيء الجملة الأخيرة مؤكدة لمضمون الجملة الشرطية الثانية ومعللة لها تعليلاً يفصح عن المفارقة في التعبير والموقف فكيف يكون عدم العلم علماً؟؟!!، لأنه قال مؤكداً: "فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم"، والمفارقة هنا تضيء الموقف وتكشف عن السبب في جعل الإقرار بعدم العلم بأنه علم، لأنه أوكل الأمر إلى الذي يعلم السر وأخفى: إلى رب العالمين تبارك وتعالى.

وصيغة التفضيل في قوله: "الله أعلم"، تعلن عن ذلك، فليس في هذا الوجود أعلم من الله تعالى بكل ما في الكون من أسرار، وحقائق، وكائنات مرئية، وغير مرئية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) سورة الملك، الآية: ٦٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من سمات المربي: عدم ادعاء العلم:

في حديث هذا الباب يرشد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه المعلمين والمربين إلى ما تعلمه من كتاب الله تعالى، إلى عدم ادعاء العلم، ويقول رضي الله عنه: «ومن لم يعلم فليَقُل: اللّهُ أعلم؛ فإن منَ العلم أن يقول: لا أعلم»، وفي ذلك إشارة إلى احترام العلم، والتحلي بالأمانة العلمية؛ ذلك بأن بعض المربين يستحيون حين يسألون عن سؤال لا يعرفون إجابته أن يقولوا: لا أعلم، حرصًا منهم على مكانتهم بين تلاميذهم، فيضطرون إلى الإفتاء بغير علم، فيقولون في العلم ما ليس منه، ويضلون المتعلمين ويسود بذلك الجهل، ويصد الناس عن مصادر العلم الركيزة.

يقول ابن جماعة: إذا سئل عما لم يعلمه فليقل: لا أعلمه؛ أو لا أدري؛ فمن العلم أن يقول: لا أعلم..... وقيل: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه (لا أدري) لكثرة ما يقولها، وقول المسئول (لا أدري) لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه، وكمال معرفته وحسن تثبته[1].

ثانيًا: من مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم:

لقد استدل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على ما قال من عدم الإفتاء بغير علم، بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]؛ وذلك تأكيدًا على صحة كلامه، وتعضيدًا لما قال، وإشارة إلى مصدر كلامه، وهو القرآن الكريم، ولا يخفى على ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتربية الإسلامية، وقد جاءت تعاليمه مجملة أحيانًا ومفصلة أحيانًا أخرى، وما من مرب أو معلم إلا ويلزمه الاعتماد على هذا المصدر التربوي، والمعين القويم الذي لا ينضب.

---

(١) المرشد النفيس، د. محمد صالح علي جان، ص١٤٩ بتصرف يسير.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٦.

إن المرجع التشريعي في معرفة ما هو من الاتجاه المرغوب فيه وما ليس من الاتجاه المرغوب فيه هو القرآن الكريم، بوصفه المصدر الرئيس لاستصدار الأحكام واستنباط المعايير التربوية لذلك؛ لأننا نبحث في أنماط السلوك ما يصلح منها ومالا يصلح من وجهة نظر الإسلام، مستمد من القرآن الكريم، ولذا فإن قواعد وأسس التربية الإسلامية وأهدافها وأحكامها بناءً على ذلك مستمدة من القرآن الكريم بصورة رئيسية؛ بوصفه المصدر الأول للتربية الإسلامية[1].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

من خلال توجيه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الحديث والنصح إلى الناس، بقوله: «مَنْ عَلِمَ شيئًا، فليقلْ بهِ ....»، وفي ذلك إيضاح لفكرته والمراد من الناس بطريقة بسيطة وقريبة إلى الأفهام، حتى يتسنى للناس فهمه والعمل بما أمر به رضي الله عنه؛ وذلك لبساطة الفكرة وأهميتها، فلابد من توصيلها دون استخدام أسلوب تربوي آخر.

إن هذا الأسلوب الذي سلكه عبدالله بن مسعود في نصحه للناس اقتدى فيه بطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس وإصلاحهم لأنه "يعد أسلوب الأنبياء والرسل عامة، وهو من الأساليب المؤثرة في سلوك الصغار والكبار معًا.... ليسلك الجميع وفق منهج الله وشرعته"[2].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. امين أبو لاوي، ص ٢٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٣، ٨٤ بتصرف.

٣٠٢- باب تحريم النياحة على الميت ولطم الخد وشق الجيب ونتف الشعر وحلقه والدعاء بالويل والثبور

الحديث رقم (١٦٥٩)

١٦٥٩- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النَّبِيّ ﷺ: ((المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ))[١].

وَفِي روايةٍ[٢]: ((مَا نِيحَ عَلَيْهِ)). متفق عليه.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

نيح عليه: النواح: الصراخ والعويل في البكاء[٣].

الشرح الأدبي

إن المسلم في استقباله للمآسي والمصائب يتسم برباطة الجأش، وتسليم الأمر لله، وإسلام الوجه لرب العالمين، واحتساب الأجر عند الله تعالى، والموت من أشد المصائب تأثيراً في الإنسان، والصبر هو الحصن الذي يحتمى به المؤمن من الجزع والفزع والهلع؛ والحديث هنا له منطوق ومفهوم، فمنطوقه يصرح بأن الميت يعذب في قبره بسبب نَوْح أهله عليه، أو يظل يعذب طيلة بكائهم عليه.

والمفهوم الذي يشع به المنطوق أو يوحي به هو، عدم الجزع، وعدم البكاء الشديد المرتبط بالصياح وعبارات الهلع والاعتراض على قضاء الله عز وجل، لأن الموت قضاء الله عز وجل وقدره، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧/١٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (بعد حديث (٩٢٧/١٧، بدون رقم). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٩).

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٦١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

قال الشاعر:

المَـــوْتُ بَـــينَ الخَلْـــقِ مُـــشْتَرَكُ لا سُـــوقَةٌ يَبقَـــى وَلا مَلِـــكُ

والحديث جملة واحدة اسمية: تبدأ بلفظ "الميت"، للتذكير بأن الذي مات يمكن أن يكون عذابه في القبر بسبب جزع أهله عليه، والنواح المرتبط بالصياح، والكلمات التي تخرج الإنسان عن دائرة الإيمان الصحيح، والفعل "يعذب" مبني للمفعول، لأن المراد هو الإخبار عن العذاب، وليس المراد معرفة من يقوم بالعذاب؛ إذ أن عذاب القبر ثابت في الكتاب وفي صحيح السنة.

وللحديث تأويلات كثيرة وتفسيرات عديدة ذكرها العلماء، وكلها تثبت أن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم، وهو من أفصح العرب، والأولى بالمسلم: أن يتسلح بالصبر، وأن يسلم أمره إلى ربه، وأن يدعو للميت بالمغفرة والرضوان، وأن يكون عند استقبال خبر الموت، كما قال الشاعر:

قـــضاؤك يـــا إلهـــي لـــن يُـــرَدًّا وحكمـــك مـــا وجـــدنا منـــه بُـــدًّا
ومـــا للنـــاس في الأمـــر اختيـــار ومـــا تـــأتي بـــشيء منـــك إدًّا
فـــنحن ودائـــع حفظـــت لحـــين وذي مـــن شـــأنها أن تُـــستردًّا
وإن المـــوت غايـــة كـــل حـــي ومـــا أحـــد بهـــا قـــد نـــال خلـــدا
ومـــا دمـــع العيـــون يـــرد رُزءًا ولا جـــزع القلـــوب يعيـــد رفـــدا
فتلـــك إرادة الـــرحمن فينـــا ومـــا عرفـــت إرادتـــه مـــردًّا[1]

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على مسألة: (تعذيب الميت ببكاء أهله عليه)، إذ يدل الحديث بمنطوقه على تعذيب الميت بالنياحة عليه[2]، وبه قال بعض العلماء[3]، وقد نقل هذا

---

(١) من قصيدة إرادة الرحمن، د. صابر عبدالدايم، ديوان نبضات قلبية.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٦/٢.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢.

الرأي عن عمر بن الخطاب،وابنه عبدالله، والمغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري وغيرهم[1] رضي الله عن الجميع.

وذهب جمهور الفقهاء[2] إلى القول بأن الميت لا يعذب بالبكاء والنياحة عليه، وذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]، وهو مروي عن عائشة رضي الله عنها[4].

وقد تأول الجمهور الأحاديث الدالة على تعذيب الميت ببكاء أهله عليه -مع الاعتراف بثبوتها- بأوجه منها:

١- إنه يعذب ببكاء أهله عليه إذا أوصى أن يبكى عليه، وبناح بعد موته، لأنه سبب هذا النياح، وقد كان ذلك من عادة العرب، كقول طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد

أما من بكى عليه أهله وناحوا عليه دون وصية منه، فلا يعذب ببكاهم ونوحهم[5].

---

(١) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم المطبوع مع عون المعبود ٢٧٨/٨.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٠٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٤١/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٤/٥، ومغني المحتاج ٣٥٦/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٣/٢.

(٣) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٤) هذا وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما روايتهما لهذا الحديث، ووهمت فيه ابن عمر، والصواب أن إنكار السيدة عائشة لهذه الأحاديث، لا يصح، مع إمكان تأويل هذه الأحاديث، علاوة على ثبوت هذه الأحاديث فقد رواه عدد من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابنه عبدالله، وابنته حفصة، وصهيب والمغيرة بن شعبة. انظر في ذلك: تهذيب سنن أبي داود ٢٧٨/٨، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٦/٢.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٤/٥، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٢٧/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٥٦٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢١٦/٢.

٢- إنه يعذب بنوح أهله عليه إذا كان من عادة أهله ذلك، ولم يوص بتركه، لأنه متى ظن وقوع النوح والبكاء، ولم يوص تركه فقد رضي به[١].

٣- وقيل: معناه، يعذب بسماع أهله، ويرق لهم، لما روي أن النبي ﷺ زجر امرأة عن البكاء على أبيها، وقال: "إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه، فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم"[٢] وهذا التأويل ذهب إليه محمد بن جرير الطبري، وقال القاضي عياض: هو أولى الأقوال[٣].

٤- وقيل: إنه خاص بالكافر، وأن المؤمن لا يعذب بذنب غيره[٤]، أصلاً.

ولكن هذا التأويل بعيد، لأن الكافر لا يحمل عليه ذنب غيره عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٥].

هذا وقد جمع القرطبي بين حديث التعذيب والآية، بأن حال البرزخ يلحق بأحوال الدنيا، وقد جرى التعذيب فيها بسبب ذنب الغير، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٦].

فلا يعارض حديث التعذيب آية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأن المراد بها الإخبار عن حال الآخرة[٧].

وأولى هذه التأويلات بالقبول، هو التأويل الأول، وهو ما عليه الجمهور[٨].

---

(١) هذا التأويل اختاره صاحب المحرر من الحنابلة. انظر: الفروع، ابن مفلح ٢/٢٢٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥/ الحديث (١) من حديث قيلة بنت مخرمة.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦، وتهذيب السنن، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ٨/٣٧٨.

(٥) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٧) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦.

(٨) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٤.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب، والشرط.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من النياحة على الميت.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب، والشرط:

١- الإخبار: حيث جاء في الحديث "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه "وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة الهامة حيث تقوم به الحجة على المدعوين في تعريفهم بالمأمورات والمنهيات، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2] وأمر الله نبيه بالإخبار والتبليغ فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[3] قال السعدي: (هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو: التبليغ لما أنزل الله إليه. ويدخل في هذا الأمر كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه. وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[4].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه" وقوله "فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تخوف وتحذر من الوقوع في المخالفات الشرعية، والمحظورات الدينية (والترهيب هو التخويف للعمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصور ويقوم الترهيب على وعيد بعقوبة، أو حرمان منفعة،

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٢).

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠١.

إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهي عنه. والإنسان مفطور على الميل إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب)[1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[3].

٣- الشرط: حيث جاء في الحديث "من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو إلى الارتباط بين الشرط وجواب الشرط، مما يدلل على أن الجزاء من جنس العمل ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من النياحة على الميت:

يتضح هذا من سياق الحديثين قال النووي: (واختلف العلماء في هذه الأحاديث فتأولها الجمهور على من وصى بأن يبكى عليه ويناح بعد موته فنفذت وصيته فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم لأنه بسببه ومنسوب إليه قالوا: فأما من بكى عليه أهله وناحوا عليه من غير وصية منه فلا يعذب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5] وقيل الحديث محمول على من أوصى أو لم يوص لأنه أهمل وفرط في ترك

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٩٣.

(٢) سورة الدخان، آية: ٤٣-٤٦.

(٣) سورة النبأ، آية: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) سورة فاطر، آية: ١٨.

الوصية بعدم النياحة وأما من أوصى بعدم النياحة ونيح عليه فلا يعذب إذ لا صنع له ولا تفريط منه والصحيح ما عليه الجمهور)[1].

وقال ابن عثيمين: (هذا البكاء يعذب به الميت في قبره فيكون الإنسان الباكي النائح هو المتسبب لعذابه في قبره فالواجب على الإنسان أن يتصبر ويحتسب الأجر عند الله ويعلم أن عظم الثواب من عظم المصاب وأنه كلما عظمت المصيبة كثر الثواب)[2].

قال المازري: قوله ﷺ: "إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهله عليه" وفي حديث آخر: "بما نيح عليه". قال بعضهم: الباءُ ها هنا باء الحال. والتقدير: يُعذَّبُ عند بكاء أهله عليه. أي: يحضرُ عذابه عند البكاء. وعلى هذا التأويل تكون قضية في عين[3]. وقيل: محمله على أنَّ الميت وصَّى بأن يُبكى عليه فعُذِّب إذ نفذت وصيتُه، ومن الإيصاء بهذا المعنى قول طرفة:

إذا مُتُّ فانْعِيني بما أنا أَهلُه وشُقِّي عَلَيَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبدِ

وقيل معنى: "يعذب ببكاء أهله". أي: أنَّ تلك الأفعال التي يعددها أهله مما يعدونها محاسن يعذب عليها من إيتام الوالدان وإخراب العمران على غير وجه يجوز.

وأما عائشة رضي الله عنها، فإنها تأولت ذلك على أنه كان في يهودية وأنه عليه السلام قال: "إنَّكُم لتبكُون عليها وإنَّها لتعذَّبُ في قبرها" وذكر عنها مسلم أيضاً: أنها لما أخبرت بقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "إن الميت ليعذب في قبره ببكاء أهله عليه. قالت: وَهَل أبو عبدالرحمن إنما قال عليه السلام: "إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن؟ قالت: وهل هو مثل قوله: إنَّ رسول الله ﷺ قام على القليب يوم بدرٍ -وفيه قتلى بدر من المشركين- فقال لهم ما قال: إنهم ليسمعون ما أقولُ وقد وَهَل إنما قال: إنهم ليعلمون أن ما كنت أقولُ لهم حق.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ٥٩٨، ٥٩٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٤٢/٢.

(٣) وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوت نياحة لا مجرد دمع العين. (انظر كلام محققي المعلم بفوائد مسلم ٢٥٢/١).

قال المازري: اغتر بعضُ الناس بحديث القليب، فقال: إن الميت يسمعُ. وهذا غير صحيح عند أهلِ الأصول، لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمعُ غير حي. وحمل ذلك بعض الناس على أنهم أعيدت إليهم الحياة حتى يسمعوا تقريعه ﷺ لهم. وأما قولها: "وَهَلَ" فقال الهروي: يقال: وهل يهلُ. إذا ذهب وهمه إلى الشيء. ومنه قول ابن عمر: وهل أُنسي؟ يريد غلط. فأمًّا: وهلت من كذا أوهل، فمعناه: فزعت منه. وفي الحديث: "فقمنا وهلين". أي: فزعين[1].

وقال القاضي عياض: (وقيل: معناه: إنه يتعذب بسماع بكاء أهله ويرقُ لهم، وقد جاء هذا مفسراً في حديث قَيلة حين بكت عند ذكرها موت أبيها، فزجرها النبي ﷺ ثم قال: "إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه. فيا عباد الله، لا تعذبوا إخوانكم"، وإلى هذا نحا الطبري وغيره، وهو أولى ما يقال فيه لتفسير النبي ﷺ في هذا الحديث ما أبهمه في غيره، ويندفع به الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، وذهب داود وطائفة إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بنوحهم عليه؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته، وتأديبهم بذلك فيعذب بتفريطه في ذلك، وترك ما أمر الله به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[3]، فيندفع عنه الاعتراض بالآية على هذا، لكن في حق من أهمل ذلك وجهله من يخلفه. وحمل العلماء هذا الباب كله أنه في البكاء بالصوت والصراخ والنياحة لا في بكاء العين[4].

قال القرطبي: (قوله ﷺ: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله" اختلف في معناه على أقوال: فأنكرته عائشة رضي الله عنها وصرَّحت بتخطئة الناقل أو نسيانه، وحملها على ذلك: أنها لم تسمعه كذلك، وأنه معارض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5] وهذا فيه

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

(٣) سورة التحريم، آية: ٦.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣/٣٧١-٣٧٢.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

نظر؛ أمَّا إنكارُها؛ ونسبةُ الخطأ لراويه فبعيدٌ، وغير بين، ولا واضح، وبيانُه من وجهين:

أحدهما: أن الرواة لهذا المعنى كثير؛ عمر، وابن عمر، والمغيرة بن شعبة، وقيلة بنت مخرمة. وهم جازمون بالرِّواية، فلا وجه لتخطئتهم، وإذا أقدم على رد خبر جماعة مثل هؤلاء مع إمكان حمله على محمل الصحيح فلأن يرد خبر راوٍ واحد أولى، فردّ خبرها أولى، على أن الصحيح: ألا يردَّ واحدٌ من تلك الأخبار، وينظر في معانيها.

وثانيهما: أنه لا معارضة بين ما روت هي ولا ما رووا هم، إذ كلُّ واحد منهم أخبر عما سمع وشاهد، وهما واقعتان مختلفتان، وأما استدلالها على رد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] فلا حجة فيه، ولا معارضة بين هذه الآية والحديث.

وقد اختلف العلماء فيه: فقيل: مَحْمله على ما إذا كان النوحُ من وصيته وسنته، كما كانت الجاهلية تفعل.

وقد جمع عبدالمطلب بناته عند موته وأمرهنَّ أن ينعينه ويندبنه ففعلن، وأنشدت كل واحدةٍ منهن شعراً تمدحه فيه، فلما فرغن قال آخر ما كلمهن: أحسنتنَّ، هكذا فانعينني، وإلى هذا نحا البخاري. وقيل: معناه: أن تلك الأفعال التي يُبكى بها الميت مما كانوا يفعلونه في الجاهلية: من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وإخراب البلاد، وغير ذلك، فأهلُه يمدحونه بها، ويُعدِّدونها عليه، وهو يعذَّب لسببها. وعلى هذا تحمل رواية من رواه: "ببعض بكاء أهله" إذ ليس كل ما يعددونه من خصاله يكون مذموماً، فقد يكون من خصاله كرم، وإعتاق رقاب، وكشف كرب. وقد دل على صحة هذا التأويل حديث عبدالله بن رواحة، حيث أُغمي عليه، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه، فأفاق، وقال لها: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟! فلما مات لم تبك عليه[2]. وذهب داود وطائفةٌ إلى اعتقاد ظاهر الحديث: وأنه

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٦٧.

إنما يعذب بنوحهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذب بتفريطه في ذلك، وبتركُ ماأمر الله تعالى به من قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] وقيل: معناه: أنه يعذب بسماع بكاء أهله لرقته لهم وشفقته عليهم؛ لما يصيبهم من أجله. وقد دلّ على صحة هذا المعنى حديث قيلة بنت مخرمة العنزية، وبكت على ابنها مات عند رسول الله ﷺ فقال لها، وأنكر عليها: "والذي نفس محمد بيده! إن أحدكم ليبكي فيستغفر له صويحبه، يا عباد الله! لاتعذبوا إخوانكم" ذكره أبو بكر بن أبي شيبة[2]، وهو حديث طويل مشهور، وهذا التأويل حسن جداً، ولعله أولى ما قيل في ذلك، والله أعلم. وسكوتُ ابن عمر عن عائشة حين قالت ما قالت ليس لشكه فيما رواه لا هو ولا أبوه عمر رضي الله عنهما فإنهما قد صرَّحا برفع ذلك إلى النبي ﷺ وإنما كان -والله تعالى أعلم- لأنه ظهر له: أن الحديث قابلٌ للتأويل، ولم يتعين له محمل، أو سكت محترماً لها عن أن يراجعها في ذلك المجلس، وفي ذلك الوقت، وأخَّر ذلك لوقت آخر، مع أنه لم ترهق إليه في ذلك الوقت حاجةٌ يعتدُّ بها، والله تعالى أعلم.

وقولها: "وَهَلَ أبو عبدالرحمن". قال أبو عبيد في "المصنف": قال أبوزيد: وهلت في الشيء، ووهلت عنه، أيهل، وهلا: انسيت، وغلطت، ووهلت إلى الشيء أهل وهلاً! إذا ذهب وهمك إليه.

والقليب: البئر غير المطوية، وأما إنكار عائشة على ابن عمر سماع أهل القليب فمن قبيل ما تقدَّم، وذلك أنها أنكرت ما رواه الثقة الحافظ لأجل أنها ظنت أن ذلك معارضٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[4] ولا تعارضُ بينهما لوجهين:

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ٨/١٧١-١٧٣.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٢.

(٤) سورة النمل، آية: ٨٠.

أحدهما: أن الموتى في الآية إنما يراد بهم الكفار، فكأنهم موتى في قبورهم والسماع يراد به الفهم والإجابة هنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] وهذا كما سمّاهم صم وبكم وعمي، مع سلامة هذه الحواس منهم.

وثانيهما: أنا لو سلمنا أن الموتى في الآية على حقيقتهم؛ فلا تعارض بينها وبين أن بعض الموتى يسمعون في وقت ما، أو في حال ما، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص، وقد وُجد هنا، بدليل هذا الحديث، وحديث أبي طلحة الذي قال فيه النبي ﷺ في أهل بدر: ((والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم))[2]، وبما في معناه. مثل قوله ﷺ في الميت: ((إنه ليسمع قرع النعال))[3]، بالمعلوم من سؤال الملكين للميت في قبره، وجوابه لهما، إلى غير ذلك ما لا يُنكر. فحديث ابن عمر صحيح النقل، وما تضمَّنه يقبله العقلُ، فلا طريق لتخطئته، والله تعالى أعلم. وأيضاً فقد رواه عمر عن النبي ﷺ فقال: ((ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم))[4] ورواية من روى: "إن الميت ليعذب ما نيح عليه" يشهد لما اخترناه في تأويل الحديث المتقدم. و"ما" هنا ظرفية، تقديره: مدة النياحة عليه، وما يُعذَّب بسببه مسكوتٌ عنه هنا، وهو ما تقدم، والله أعلم)[5].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩٧٦، ومسلم ٢٨٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٣٤٧/٢ رقم ٨٥٦٣ وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، ٢٣٤/١٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٧٤، ومسلم ٩٣٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٨٠/٢-٥٨٦ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٠)

١٦٦٠- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الجيوب: من القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مبانيه تفصح عن معانيه، وهذه سمة أسلوبية وأدبية في بلاغة الحديث النبوي، فالحديث في منطوقه: يوضح الآثار الوخيمة لمن يجزع، ويفزع لوفاة من يحبه، ويحرص عليه في الحياة، وفي مفهومه: ينهي عن ظواهر الهلع التي تلقي المسلم خارج دائرة التسليم والانقياد والامتثال، وخارج دائرة خصائص الشخصية المسلمة، ومعالم تقليدها وسلوكها.

والحديث في بنائه اللغوي: يتضمن جملة واحدة، وبعدها جملتان معطوفتان على جزء من الجملة الأولى.

ويبدأ الحديث بصيغة النفي في قوله: "ليس منا من ضرب الخدود"، وأداة النفي هنا ليست حرفاً: ولكنها فعل ناسخ وهو "ليس": فهي تنسخ عمل المبتدأ والخبر؛ حيث ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وهذه الوظيفة النحوية الناسخة ترتبط بالدلالة الفعلية والإيحائية في الحديث: فكأن لهذا النسخ النحوي صدًى وإيحاء بنسخ عمل كل من يُقْدم على هذه السلوكيات التي نهى الرسول ﷺ عنها، فكل من يقوم بهذه السلوكيات:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣/١٦٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٠).

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (ج ي ب).

ينسخ الله تعالى عمله، ويحبط مساعيه، وفي قوله: "ليس منا: من ضرب الخدود"، تقديم خبر "ليس" على اسمها، حيث قدم "منا" وهو جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، والتقدير: ليس كائناً بيننا، وليس من أهل هدينا، وهذا التقديم يرشد إلى أهمية الجماعة المسلمة، وإلى أهمية انتماء المسلم لهذه الأمة: فهي خير أمة أخرجت للناس، و"نا" وهي ضمير الجمع المتصل الدال على الأمة كلها، والمتكلم هو: رسول الله ﷺ؛ لأنه نبي الأمة، وهو حريص عليها، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وفي ذلك إيحاء بأن كل مسلم عليه أن يتكلم باسم الأمة كلها، وانطلاقاً من هويتها ومن معالمها، ولا ينطلق من منظور شخصي، أو نزعة فردية والتعبير بالفعل الماضي في قوله: "ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"، إيحاء بانقطاع هذه السلوكيات وعدم استمرارها: فهي أحداث فيما مضى من الزمن، ولا يجوز تكرارها؛ فالفعل الماضي يدل على حدث وقع في الزمن الماضي، وقيل إن الواو: بمعنى: أو فالقيام بأحد هذه التصرفات الجاهلة يؤدي بالإنسان المسلم إلى الخروج عن الهدي النبوي، والطريق الإسلامي الصحيح.

فقه الحديث

وفي الحديثين من الفقه ما يأتي:

إنه لا يجوز - أي يحرم[1]- شق الثياب، ولطم الخدود، وما أشبه ذلك من الصراخ، وخمش الوجه، وتسويده، ونتف الشعر، وحلقه، لما في ذلك من إظهار الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، والسخط من فعله، ولما في الشق من إفساد المال بغير حاجة.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٢٠٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢/٢٤١، والمهذب للشيرازي ١/١٣٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٣، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢/٥٦٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/١٦٣، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١/٧٣.

كما يحرم التعداد - أي تعداد المحاسن والمزايا، وإظهار الجزع، لأن ذلك يشبه التظلم من الظالم، وهو عدل من الله تعالى، لأن الله تعالى له أن يتصرف في خلقه بما شاء، لأنهم ملكه[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من أفعال الجاهلية.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث "ليس منا من ضرب الخدود" وأسلوب النفي من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو أهمية الأمر المنفي. قال المباركفوري: (وقوله: "ليس منا" أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته لست منك ولست مني. أي ما أنت على طريقتي. وقيل المعنى: ليس على ديننا الكامل أي أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله)[٢]. وقال ابن حجر: (ويظهر لي أن هذا النفي يفسره تبري رسول الله ﷺ ممن يفعل ذلك وأصل البراءة الانفصال من الشيء وكأنه توعده بأن لا يدخله في شفاعته مثلاً، والسبب فيما تضمنه ذلك النفي إنما هو عدم الرضا بالقضاء فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلاً بما وقع فلا مانع من حمل النفي على الإخراج من الدين)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من افعال الجاهلية:

حيث جاء في الحديث "ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية" قال ابن حجر: (وخص لطم الخدود بذلك لكونه الغالب في ذلك وإلا فضرب

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/١٦٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١/١٠٧٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣/١٩٥.

بقية الوجه داخل في ذلك، و المراد بشق الجيوب أي الثوب وشقه: إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط، ودعوى الجاهلية هي النياحة ونحوها وكذا الندبة كقولهم: واجبلاه، وكذا الدعاء بالويل والثبور)[١].

وقال ابن علان: (والمراد ليس من أهل هدينا وطريقتنا من جمع هذه الأمور الثلاثة، واجتماعها غير شرط فيما ذكر، بل أحدها مقتضي للخروج عن الهدى والطريق)[٢].

وقال ابن عثيمين: (وهذه الأمور مما يفعله أهل الجاهلية إذا أصابتهم مصيبة شق جيبه، أو جعل يلطم خده، ينتف شعره أو يدعو بدعاء الجاهلية: يا ويلاه يا ثبوراه فتبرأ النبي ﷺ من هؤلاء لأن المؤمن مؤمن القلب بالله، مؤمن بقضاء الله، يعلم أنه لا يمكن أن تتغير الحال عما كان، وأن هذا أمر قضى وانتهى فلا فائدة من السخط والجزع فيجب على المسلم أن يصبر ويحتسب)[٣].

وفي تحذير النبي ﷺ من فِعْل هذه الأمور إنما لينبه المسلم إلى ضرورة مخالفة أهل الجاهلية فيما يفعلونه.

قال ابن تيمية: (وفيه التنبيه على مخالفتنا لأهل الكتاب. ودعوى الجاهلية: ندب الميت، وتكون دعوى الجاهلية في العصبية ومن ذلك ما جاء عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها: تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب))[٤].

ذم في الحديث، من دعا بدعوى الجاهلية، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذماً لمن لم يتركه، وهذا كله يقتضي: أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى

---

(١) المرجع السابق نفسه، ١٩٥/٣، ١٩٦.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٤٢/٢.

(٤) أخرجه مسلم ٩٣٥.

الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[١]، فإن في ذلك ذماً للتبرج، وذماً لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

ومنه: قوله لأبي ذر رضي الله عنه لما عيّر رجلاً بأمه: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[٢] فإنه ذم ذلك لذلك الخلق، ولأخلاق الجاهلية التي لم يجيء بها الإسلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] فإنه إضافة الحمية إلى الجاهلية: اقتضى ذمها؛ فما كان من أخلاقهم وأفعالهم فهو كذلك.

ومن هذا: ما رواه البخاري في صحيحه، عن عبيد الله بن أبي زيد، أنه سمع ابن عباس قال: "ثلاث خلال من خلال الجاهلية: الطعن في الأنساب والنياحة. ونسيت الثالثة" قال سفيان: "ويقولون إنها الاستسقاء بالأنواء")[٤].

ومما يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم في مخالفة أفعال الجاهلية والتحذير منها ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت))[٥] قال ابن تيمية: (فقوله: "هما بهم كفر" أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس، فنفس الخصلتين كفر، حيث كانتا من أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً، حتى يقوم به أصل الإيمان، وفرق بين

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/٢٣٥-٢٣٦.

(٥) أخرجه مسلم ٦٧.

الكفر المعرف باللام، كما في قوله ﷺ: ((ليس بين العبد وبين الكفر -أو الشرك- إلا ترك الصلاة))(١)، وبين كفر منكر في الإثبات(٢).

وقال القاضي عياض في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق: (وقوله: "اثنتان في الناس هما كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت" أي من أعمال أهل الكفر وعادتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان محرمتان في الشرع، وقد كان النبي ﷺ يأخذ على النساء في بيعتهن ألا ينحن، وقال: ((ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))(٣)، وكذلك نهى النبي ﷺ عن السخرية واللمز والنبز والغيبة والقذف، وكل هذا من أعمال الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾(٤)، فعرَّف نعمته بالأنساب للتعارف والتواصل، فمن تسوَّر على قطعها والغمض فيها، فقد كفر نعمة ربه وخالف مراده، وكذلك أمر تعالى بالصبر وأثنى على الصابرين ووعدهم رحمته وصلاته ووصفهم بهدايته، وحتم الموت على عباده، فمن أبدى السخط والكراهة لقضاء ربه وفعل ما نهاه عنه فقد كفر نعمته فيما أعدَّ للصابرين من ثوابه وتشبه بمن كفر من الجاهلية(٥).

ولإعانة المسلم على مخالفة أفعال الجاهلية حث الشرع الحنيف على الصبر، ودعا إليه (فمن خُلِق المؤمن الصبر عند نزول المصائب، ومقابلتها بالرضا والتسليم إذ يقول كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(٦) ويقول: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، والصبر يخفف المصيبة؛ ويحلل صلدها(٧)، ويقتل جرثومتها.

---

(١) أخرجه مسلم ٨٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٣٧/١.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٢٦/١.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٧) الصلد: الصلب الأملس الشديد.

وأما الجزع والهلع والسخط على ما قضى الله وقدّر، فليس من الإيمان في شيء وليس الذي يقوم به من حزب محمد ﷺ وصحبه.

فالذي ينخلع قلبه للمصيبة ولا يعرف الثبات والشجاعة في ملاقاة الإحن[1] وملاقاة المحن، بل يلطم الخدود، ويسخم[2] الوجوه، ويدق الصدور، ويشق الجيوب، ويمزق الثياب ويقطع الهندام، ويدعو بدعوى الجاهلية فيقول: وأبتاه، وأماه، واولداه، وازوجاه، واقريباه، وامصيبتاه، وادهيتاه، وامالاه، وابيتاه، ويقول كلمات يعترض بها على القدر؛ وينقد قضاءه – من كان كذلك فليس من المسلمين.

إنما المسلم الثابت الرزين الصابر المحتسب: الذي لا يدفعه الحزن إلى التسخط، بل يكون كما قال رسول الله ﷺ: حال وفاة إبراهيم ولده، جعلت عيناه تذرفان الدمع، فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "يا ابن عوف إنها رحمة"، ثم أتبعها بأخرى، وقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"، فليتق الله رجالنا ونساؤنا فيما يصنعون وقت المصائب، وليعلم الأزواج الذين يسمحون لنسائهم بالنياحة والتعديد[3]، ولطم الخدود، ودق الطبول، أنهم شركاؤهن في الإثم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[4][5].

---

(١) الإحن: جمع إحنة: الحقد والضغن.

(٢) يسخم: يسود.

(٣) التعديد: ذكر المناقب الحميدة.

(٤) سورة التحريم، آية: ٦.

(٥) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٢٥، ٢٦.

الحديث رقم (١٦٦١)

١٦٦١- وَعَنْ أبي بُرْدَةَ، قال: وَجعَ أبو مُوسَى[١]، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَرَأسُهُ فِي حِجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أهْلِهِ، (فَأَقْبَلَتْ تَصِيحُ بِرَنَّةٍ) [٢] فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئاً، فَلَمَّا أفَاقَ قَالَ: أنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِىءَ مِنْهُ رسُولُ اللهِ ﷺ إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ بَرِيءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ، والحَالِقَةِ، والشَّاقَّةِ. متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

رنّة: أي: صيحة[٤].

الصالقة: التي ترفع صوتها بالنياحة والندب[٥].

الحالقة: التي تحلق رأسها عند المصيبة[٦].

الشاقة: التي تشق ثوبها [٧].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث ينبثق من مشهد واقعي يرويه: أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، وذلك لإدانة الفزع والجزع عند وقوع المصيبة، ومبدأ الحديث بتصوير مشهد أبي موسى رضي الله عنه وهو مغشي عليه، وسرد ما حدث من امرأته من هلع وعدم امتثال وصبر.

---

(١) عندهما زيادة: (وجعًا)، وهي لا توجد عند المنذري فتبعه عليه المؤلف.

(٢) لفظ مسلم في هذه الرواية: (فصاحت امرأة من أهله)، والمثبت عند مسلم بعد حديث (١٠٤/١٦٧، بدون رقم) تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه، وهذا لفظه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٦) تعليقًا، ومسلم (١٠٤/١٦٧) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩١).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ن ن).

(٥) رياض الصالحين ٥٧١.

(٦) رياض الصالحين ٥٧١.

(٧) رياض الصالحين ٥٧١.

وقد صور العطفُ بالفاء سرعة توالي أحداث هذا المشهد الواقعي: ولنتأمل هذه الأفعال المتلاحقة "وجع أبو موسى، فغشي عليه، فأقبلت تصيح، فلم يستطع أن يرد، فلما أفاق قال".

إن هذا الإيقاع السريع ينقل لنا وقائع هذا المشهد الحزين في دقة بالغة، وكأننا نشاهد وقائعه أمامنا، والتعبير عن الصياح بقوله: "رنة" يجسد حالة الفزع من خلال حروف هذه الكلمة "رنة"، حيث لم يكتف بقوله "تصيح"، فصوت الراء شاق وعسير: كما قال علماء اللغة: وهو صوت مكرر، وهي من الأصوات المتوسطة من الشدة والرخاوة، وهي من الأصوات الجهرية، ومن صفاتها النطقية: تكرر طرف اللسان للحنك عند النطق بها، وكذلك حرف النون يتسق مع حالة الفزع: فهو صوت أسناني لثوي أنفي مجهور، والنون تشبه الحركة في قوة الوضوح السمعي، ولذلك هناك من يقول: إنها شبه حركة.

فالكلمة بما تضمنته من حرفي النون والراء، وتضعيف حرف النون: تجسد الحزن، وتعلن عن المبالغة فيه، وقوله: "أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ" إعلان عن عدم رضاه عن هذا الهلع، وإقرار بذلك الإنكار، والتبرئ حتى لو كان متعلقا بامرأة من أهله ينام في حجرها.

والتأكيد في بداية الجملة الأخيرة "إن رسول الله بريء من.."، يرشد إلى أهمية هذا الخبر اليقيني الصادق، ويذكره بما ورد في الحديث السابق حيث قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من لطم الخدود..."إلخ.

والجناس والسجع في قوله: "الصالقة والحالقة والشاقة"، يعطي إيقاعاً صوتياً مؤثراً: يشد الأذن، ويلفت الانتباه، ويوقظ الغافلين الذين يجرفهم تيار الحزن، ويغرقهم في طوفان المآسي والنكبات.

والصالقة: المرأة التي ترفع صوتها بالنياحة والندب وهي تعدد أوصاف الميت، مأخوذ: من الصلق: وهو الصوت الشديد، والحالقة: التي تحلق رأسها من شدة الحزن، والشاقة: اسم فاعل، وهي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: البراءة من أفعال الجاهلية.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث "فلم يستطع أن يرد عليهما شيئاً فلما أفاق قال: "أنا بريئ ممن بريئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم" ولاشك أن لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه فضلاً كبيراً فلقد كان رضي الله عنه من أحسن الناس صوتاً بالقرآن قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِزْماراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ))[1].

وقال ابن عبدالبر: (قدم أبو موسى مع إخوته في جماعة من الأشعريين ثم أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاليف اليمن: زبيد وذواتها إلى الساحل، وولاه عمر رضي الله عنه البصرة في حين عزل المغيرة عنها إلى صدر من خلافة عثمان وسئل علي رضي الله عنه عن موضع أبي موسى من العلم فقال: صبغ في العلم صبغة)[2].

وقال ابن حجر: (وأبو موسى هو عبدالله قيس بن سليم بن حضار بن حرب مشهور باسمه وكنيته معاً، كان رضي الله عنه أحد الحكمين بصفين، وكان خفيف الجسم قصيراً نشطاً وكان عمر إذا رآه قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى وكان أبو موسى هو الذي فقه أهل البصرة وأقرأهم. قال الشعبي: انتهى العلم إلى ستة فذكره فيهم وعن الحسن قال: ما أتاها يعني البصرة راكب خير لأهلها منه يعني من أبي موسى. وقال ابن المدائني قضاة الأمة أربعة: عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت. وقد مات رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين وقيل: أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٤٨، ومسلم ٧٩٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٢، ٤٣٣

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٢٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: البراءة من أفعال الجاهلية:

حيث جاء في الحديث "إن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة".

قال النووي: (والصالقة هي التي ترفع صوتها عند المصيبة والحالقة هي التي تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة التي تشق ثوبها عند المصيبة هذا هو المشهور الظاهر المعروف وأما دعوى الجاهلية فقد قال القاضي: هي النياحة والندب والدعاء بالويل وشبهه والمراد بالجاهلية ما كان في الفترة قبل الإسلام قال القاضي عياض: (وقوله: "أنا بريء ممن حلق" أي من فعلهن أو ما يستوجبهن من العقوبة أو من عهدة ما لزمني من بيانه وأصل البراءة الانفصال هذا كلام القاضي، ويجوز أن يراد به ظاهره وهو البراءة من فاعل هذه الأمور)[1].

وقال ابن علان: (ونص على البراءة ممن يفعل هذه الأمور عند المصيبة وذلك لما في فعلها من التبرم من القضاء الإلهي والتضجر منه وذلك سبب لإحباط الثواب وحلول العقاب)[2].

قال القرطبي: ("ودعوى الجاهلية" هنا هي: النياحة وندبة الميت، والدعاء بالويل، والنعي، وإطراء الميت بما لم يكن فيه، كما كانت الجاهلية تفعل، ويحتمل أن يراد بها: نداؤهم عند الهياج والقتال: يا بني فلان! مستنصراً بهم في الظلم والفساد، وقد جاء النهي عنها في حديث آخر وقال: ((دعوها فإنها منتنة))[3] وأمر بالانتماء إلى الإسلام فقال: ((ادعوا بدعوة المسلمين التي سمّاكم الله بها))[4] والأولى أليق بهذا الحديث لأنه قرنه بضرب الخدود وشق الجيوب.

وقوله: "أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق" أصل البراءة: الانفصال عن الشيء والبينونة منه، ومنه: البراءة من العيوب والدين، ويُحتمل أن يريد به: أنه متبرِّئٌ من تصويب فعلهم

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٩. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/٣٧٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٠٧، ومسلم ٢٥٨٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٨٦٣ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٩٨).

هذا، أو من العهدة اللازمة له في التبليغ. وحلق: أي شعره عند المصيبة، وسلق: أي: رفع صوته بها، ويقال بالسين والصاد، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[1]، ومنه قولهم: خطيب سلاق، وقال أبو زيد: السلق: الولولة بصوت شديد. وذكر عن ابن الأعرابي: أنه ضرب الوجه، والأول أصح وأعرف)[2].

وقال د. الحسيني هاشم: (وفي الحديث تنبيه الشرع النساء إلى أفعال الجاهلية، وتبرأة الرسول ﷺ ممن فعلت هذه الأفعال أو فعلها)[3].

والواجب على المسلم أن يبتعد عن الجزع والسخط حتى لا يقع في محظور من أفعال الجاهلية.

قال الماوردي: (ومن أسباب الجزع: تذكر المصاب حتى لا يتناساه، وتصوُّره حتى لا يعزب عنه، ولا يجد من التذكار سلْوة، ولا يخلط مع التصوّر تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدموع بالتذكر. وقال الشاعر:

"ولا يبعث الأحزان مثل التذكر".

ومنها: الأسف وشدة الحسرة، فلا يرى من مصابه خلفًا، ولا يجد لمفقوده بدلا، فيزداد بالأسف ولَهاً، وبالحسرة هَلعاً. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4]. وقال بعض الشعراء:

إذا بُليتَ فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو اللهُ
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... ما لامرئ حيلةٌ فيما قضى اللهُ
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإن الصانع اللهُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠١/١، ٣٠٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧٦٨.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٣.

ومنها: كثرة الشكوى، وبث الجزع، فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلاً﴾(١): إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث. وحكى كعب الأحبار، أنه مكتوب في التوراة: من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس، فإنما يشكو ربه. وحُكي أن أعرابية دخلت من البادية، فسمعت صُراخاً في دار، فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم إنسان. فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، وبقضائه يتبرَّمون، وعن ثوابه يرغبون. وقد قيل في منثور الحكم: من ضاق قلبه اتسع لسانه. وأنشد بعض أهل العلم:

لا تُكثر الشكوى إلى الصديق ... وارجع إلى الخالق لا المخلوقِ

لا يخرج الغريقُ بالغريقِ

وقال بعض الشعراء:

لا تشكُ دهرك ما صَحَحْتَ به ... إن الغِنَى هو صحة الجِسْمِ

هبكَ الخليفةَ كنتَ منتفعاً ... بغضارة الدنيا مع السَّقَمِ

ومنها: اليأس من جبر مصابه، ودَرْك طِلابه، فيقترن بحزن الحادثة قنوط الإياس فلا يبقى معهما صبر، ولا يتسع لهما صَدْر. وقد قيل: المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين. وقال ابن الرومي:

اصبري أيتها النفس ... فإن الصبر أحجى

رُبَّما خاب رجاءٌ ... وأتى ما ليسَ يُرْجَى

وأنشدني بعض أهل العلم:

أتحسب أن البؤس للحر دائمٌ ... ولو دام شيء عدّه الناس في العَجَبْ

لقد عَرَّفتك الحادثاتُ ببؤسها ... وقد أَدَّبَتْ إن كان ينفعُك الأدبُ

ولو طلب الإنسان من صرف دهره ... دوامَ الذي يخشى لأعياه ما طلب

---

(١) سورة المعارج، آية: ٥.

ومنها: أن يَغْرَى بملاحظة من حيطت سلامته، وحُرِست نعمته، حتى التحف بالأمن والدعة، واستمتع بالثروة والسَّعة، ويرى أنه قد خُصَّ من بينهم بالرزية، بعد أن كان مساوياً، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً، فلا يستطيع صبراً على بلوى، ولا يلزم شكراً على نُعْمَى، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرّزية، وساواه في الحادثة، لتكافأ الأمران، فهان عليه الصبر، وحان منه الفرج. وأنشدت لامرأة من العرب:

أيها الإنسان صبراً إن بعد العسر يسراً

كم رأينا اليومَ حُرًّا لم يكن بالأمس حُرًّا

ملك الصبرَ فأضحى مالكاً خيراً وشرًّا

اشرب الصبرَ وإن كان من الصبْر أَمَرًّا[1]

ثالثاً- من آداب المدعو: الاقتداء بالنبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث "فلما أفاق قال: أنا برئ ممن برئ منه رسول الله ﷺ" ولاشك أن هذا يدل على الاقتداء بالنبي في براءته ممن يفعل هذه الأمور، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2]

وبين الله تعالى أن في الاقتداء به واتباعه الهداية قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[3].

(ولا يخفى أبداً أثر القدوة في التأثير فهي الصورة الحية للفكرة والتطبيق العملي للدعوة، والتوضيح الجلي للحجة، ولاشك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة في القلوب ووجود القناعة في العقول وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة، ولاسيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها والقدوة الحسنة مغنية عن كثير من أساليب الترغيب والتشويق وأسباب تحصيل المحبة كما أنها تعفي من الاستكثار من الاستدلال وإقامة الحجة والمناظرة والجدال إذ يتحقق من خلال القدوة الكثير من ذلك بشكل تلقائي وبصورة أعمق)[1].

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ٣٩-٤٠.

الحديث رقم (١٦٦٢)

١٦٦٢- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((**مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ يَومَ القِيَامَةِ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

المغيرة بن شعبة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٨).

غريب الألفاظ:

نيح عليه: النواح: الصراخ والعويل[2].

الشرح الأدبي

الحديث قصير يشير إلى ضرورة ضبط النفس عند المصيبة، وتقبُّلها بثبات، ورضا دون نياحة أو اعتراض يتسبب في إيذاء الحي بتحصيل الذنب، ويؤذي الميت بتعذيبه بالنياحة عليه وقد جاء هذا المعنى في ثوب الشرط الذي يربط النياحة على الميت بعذابه إشارة إلى التلازم الذي يهيب بأهل الميت أن يتجتنبوا ما يتسبب في عذاب فقيدهم، وقوله (من نيح عليه) من النوح وهو فعل الشرط، الذي يمثل موضع الخطأ، وقوله (فإنه يعذب) الفاء واقعة في جواب الشرط وبناء الفعل للمفعول يجعل العقل يذهب في تخيل المعذِّب كل مذهب من بين ملائكة العذاب، وقوله: (بما نيح) عليه الباء للسببية و ما مصدرية أي بسبب النوح عليه وقيل :أن ما ظرفية وقيل (ما) للمدة أي يعذب مدة النوح عليه، قال الطيبي الباء سببية وما مصدرية أي بسبب النياحة أو موصولة فالباء للآلة أي بما نيح به عليه مثل واجبلاه، وتقييد العذاب بيوم القيامة يزيد الوعيد هولا لشدة العذاب، وانعدام الناصر، والشفيع إلا من استحق الشفاعة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣/٢٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: مسألة تعذيب الميت بنوح وبكاء أهله عليه، وقد مر بيان حكم هذه المسألة في الحديث رقم ١٦٥٧ فلا حاجة للتكرار.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٥٩).

الحديث رقم (١٦٦٣)

١٦٦٣- وعن أُمِّ عَطِيَّةَ نُسَيْبَةَ - بِضَمِّ النون وفتحها- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عِندَ البَيْعَةِ أنْ لاَ نَنُوحَ. متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم عطية الأنصارية: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٧٢٣).

غريب الألفاظ:

أن لا ننوح: أي: ترك النياحة من الصراخ والعويل في البكاء[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف ترويه: أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله ﷺ بالمعنى: وهو يتسم بالإيجاز الشديد لأنه إشارة إلى بيعة النساء، وتذكير بوصايا رسول الله ﷺ لهن، ومن هذه الوصايا الواجبة: عدم النوْح، ووجوبها يوحي به الفعل "أخذ" لأن أخذ العهد، هو الإلزام به، ويقولون في اللغة: من أخذ أَخْذَهم... أي من سار سيرتهم، وتخلق بخلائقهم، وتقديم الجار والمجرور، في قولها "علينا"، على الفاعل وهو: رسول الله ﷺ ليس للأهمية؛ ولكن للإلزام بالعهد؛ وحتى يكون ضمير المتكلمين الجمع "نا" مجاوراً للفعل "أخذ"، وملاصقا له، و"على" تفيد الاستعلاء، وتوحي بأن العهد بعدم النوح أصبح متمكناً منهم اتباعاً لتوجيهات رسول الله ﷺ وقولها: "عند البيعة" إشارة إلى بيعة النساء، وقد وردت في سورة الممتحنة تفاصيل هذه البيعة، وفي السيرة النبوية شرح لوقائعها وملابساتها، والنوح: هو: البكاء، واستبكاء الغير، وهو العواء من الذئب، حيث يقول العرب: ناح الرجل : أي بكى واستبكى غيره، والتناوح التقابل، ولذلك عُدَّ النواح من الكبائر، لأنه دعوة إلى انتشار الفزع والجزع، وعدم الامتثال والصبر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٣١/٩٣٦) ولفظهما سواء.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

وعلى المسلم أن يتأسى ويتمثل ويصبر، ولنتأمل ما تدعو إليه هذه الأبيات من صبر واحتساب عند استقبال النوائب:

وما دمع العيون يرد رُزءًا ... ولا جزع القلوب يعيد ندًا
وإن كان الإله أصاب قوماً ... وصدع شملهم والبيت هدًا
ومزقت الضلوع وأنَّ طفل ... فداه القلب لوقد كان يفدى
وعاد البيت أنقاضاً نداها ... وأهل البيت كل زار لحدا
وراح القلب يبكي فَقْد طفل ... وحرق كل قلب ذاق بعدا
فقد راحوا إلى جنات عدن ... وهم ذهبوا إلى الرحمن وفدا
وهم شهداء والشهداء تحظى ... بأسمى منزلٍ يُعْطى وأندى[1]

فقه الحديث

وفي الحديث دليل على تحريم النوح على الميت[2]، وهو رفع الصوت بالندب لما فيه من الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، ولقول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم النائحة والمستمعة"[3].

وهو مذهب كافة العلماء، إلا ما يروى عن بعض المالكية[4] من أن النياحة ليست بحرام واستدلوا على ذلك بما أخرجه مسلم عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾[5] كان

(١) ديوان "الأعمال الكاملة"، شعر د. صابر عبدالدايم، والأبيات من قصيدة قيلت عزاء، لصديق فقد أهله إثر انهيار منزلهم عليهم، ١٩٦٨م.

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٣/٢، ومغني المحتاج ٣٥٦/١.

(٣) أخرجه أبو داود ٣١٢٨، والبغوي ١٥٣٦، وضعّفه محققا شرح السنة.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٤٨/٦/٣.

(٥) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

منه النياحة، قالت: فقلت: يا رسول الله، إلا آل فلان، فإنه كانوا أسعدوني في الجاهلية فلابد لي من أن أسعدهم، فقال رسول الله ﷺ: إلا آل فلان[١].

ويجاب على ذلك: بأنه كان قبل مبايعة أم عطية رضي الله عنها على التوحيد وغيره مما ذكر في الآية[٢]، فقد قالت أم عطية: بايعنا رسول الله ﷺ وأخذ علينا فيما أخذ أن لا ننوح، فقالت امرأة من الأنصار: إن آل فلان أسعدوني في الجاهلية، وفيهم مأتم، فلا أبايعك حتى أسعدهم كما أسعدوني، فذهبت فأسعدتهم ثم رجعت، فبايعت النبي ﷺ[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النياحة.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

حيث جاء في الحديث "أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة" والبيعة وسيلة من وسائل الدعوة. قال ابن الأثير: (والبيعة المعاقدة والمعاهدة على الشيء كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره)[٤].

وقد نص القرآن الكريم على وجوب الوفاء بالبيعة والمعاهدة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[٥] وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٦] وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٧]

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣٧

(٢) الدين الخالص، محمود خطاب السبكي ٢٤٥/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٩٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

(٥) سورة المائدة، آية: ١.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

ومدح الله الذين يوفون بعهدهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ﴾[2].

(لقد سمى الله تعالى مبايعات الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ عهداً وميثاقاً ومن صور مبايعات الرسول ﷺ لصاحبته بيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان، وبيعة الإسلام وغيرها وقد وفَّى الصحابة رضي الله عنهم بهذه المبايعات التي أعطوها لرسول الله ﷺ)[3]. وقد بين الله سبحانه رضاه عن الصحابة المبايعين تحت الشجرة، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[4]. ولم تكن البيعة كوسيلة من وسائل الدعوة للرجال فحسب، وإنما للنساء أيضاً قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النياحة:

حيث جاء في الحديث "أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح" قال النووي: (فيه تحريم النوح وعظيم قبحه والاهتمام بإنكاره والزجر عنه لأنه مهيج للحزن ورافع للصبر، وفيه مخالفة التسليم للقضاء والإذعان لأمر الله تعالى)[6].

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٠.

(٣) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ١٠٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٥) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٠٢.

قال القاضي عياض: (وفي قول أم عطية "أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة أن لا ننوح" دليل على تحريم ذلك وشدته، والمعنى في ذلك لأنه يستجلب الحزن، ويصد عن الصبر الذي أمر الله به، وحض عليه نبيه ﷺ)[١].

وقال القرطبي: (وقول أم عطية: "أخذ علينا رسول الله ﷺ ألا ننوح" دليل على تحريم النياحة، وتشديد المنع فيها، لأنها تستجلب الحزن، وتصد عن الصبر المحمود)[٢].

وقال ابن عثيمين: (وهذا الحديث يدل على تحريم النياحة والندب على الميت، والنياحة هي البكاء برنة حتى يكون كنوح الحمام وأما الندب: فهو أن يذكر محاسن الميت ويتأوه منها ويتوجع وقد برئ رسول الله ﷺ ممن تفعل ذلك)[٣].

وجاء في فقه السنة: (أجمع الفقهاء على أنه يجوز البكاء على الميت، إذا خلا من الصراخ والنوح، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ: بكى لموت ابنه إبراهيم وقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[٤].

وعن أبي موسى قال: لما أصيب عمر جعل صهيب يقول: واأخاه، فقال له عمر: يا صهيب أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الميت ليعذب ببكاء الحي))[٥] وعن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه))[٦].

ومعنى الحديث، أن الميت يتألم ويسوءه نَوْح أهله عليه، فإنه يسمع بكاءهم وتعرض أعمالهم عليه، وليس معنى الحديث أنه يعذب ويعاقب بسبب بكاء أهله عليه؛ فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٧٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٥٨٩/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٤٥/٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٩٠، ومسلم ٩٢٧.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٩١، ومسلم ٩٣٣.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: أغمي على عبدالله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي واجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أأنت كذلك[1].

والنياحة مأخوذة من النوح، وهو رفع الصوت بالبكاء. وقد جاءت الأحاديث مصرحة بتحريمها[2].

جاء في الموسوعة الفقهية: (النياحة لغة اسم من النوح، مصدر ناح ينوح نوحاً ونواحاً ونياحاً. وهي: البكاء بصوت عال، كالعويل. والنائحة: الباكية. وأصلُ التناوح: التقابل، ومنه تناوح الجبلين، أي تقابلهما، وإنما سُمِّيت النساء النوائح نوائح لأن بعضهن يقابل بعضاً إذا نُحْن. وكان النساء في الجاهلية يقابل بعضهن بعضاً، فيبكين ويندبن الميت، فهذا هو النوح والنياحة. ويطلق على النساء اللواتي يجتمعن في مناحة نوائح ونُوّح ونَوْح وأنواح ونائحات. ونوح الحمامة: ما تبديه من سجعها على شكل النوح. واستناح الرجل كناح: بكى حتى استبكى غيره.

وفي الاصطلاح اختلفت عبارات الفقهاء في تعريف النيَاحة.

فعرفها الحنابلة بأنها: البكاء مع ندب الميت أي تعديد محاسنه. وقيل: هي البكاء مع صوت.

وحاصل كلام علماء المالكية أن النياحة عندهم هي البكاء إذا اجتمع معه أحد أمرين: صراخ أو كلام مكروه.

وعرفها أكثر فقهاء الشافعية وبعض المالكية بأنها: رفع الصوت بالندب ولو من غير بكاء، وقيل: مع البكاء.

وعرفها الحنابلة وبعض الشافعية بأنها رفع الصوت بالندب برنَّةٍ أو بكلام مسجع.

وأما البكاء مصدر بكى، يُمد ويقصر، فيقال: بكى بكاءً وبكىً، وهو: خروج الدمع من العين سواء كان مع الصوت أو بدونه، وقيل: هو بالمد إذا كان الصوت

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٦٧.

(٢) فقه السنة، السيد سابق، ١/٥٠٥، ٥٠٦.

أغلب، ويقصر إذا كان الحزن أغلب. وقيل: هو بالقصر خروج الدمع فقط، وبالمد خروج الصوت نحيب، ومع الصياح عويل.

واستعمال الفقهاء للبكاء لا يخرج في معناه عما ذكر.

والصلة بين النياحة والبكاء هي أن البكاء أعم من النياحة عند من قصر معناها على البكاء مع رفع الصوت، أو على البكاء مع رفع الصوت بالندب، حيث تكون النياحة إحدى صور البكاء. وأما من جعل النياحة شاملة لرفع الصوت بالندب: سواء أكان معها بكاء أم لا، فإنها تكون أخص من البكاء من جهة وأعم من جهة أخرى.

وأما الرثاء: فالرثاء: هو الثناء على الميت بذكر صفاته الحميدة نثراً كان أوشعراً، والصلة بين الرثاء والنياحة أن الرثاء يقع على سبيل المدح ولا يكون بلفظ النداء.

وأما النياحة فتكون بتعديد محاسن الميت مع رفع الصوت بالبكاء أو بغير بكاء.

وأما التعزية: فأصل العزاء هو الصبر، وتعزية أهل البيت: تسليتهم وندبهم إلى الصبر، ووعظهم بما يزيل عنهم الحزن، فكل ما يجلب للمصاب صبراً يقال له تعزية.

والصلة بين التعزية والنياحة أن كلاً منهما كلام يقال بمناسبة الموت، ولكن مضمون كل منهما مختلف، وكذلك مقصودهما، قال جمهور العلماء: والأحاديث جاءت في تحريم النياحة مطلقاً، وبيان عظيم قبحها، والاهتمام بإنكارها، لأنها مهيجة للحزن ورافعة للصبر، وفيها مخالفة للتسليم للقضاء والإذعان لأمر الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بالصبر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١]. وهذا يتناول كل ما يطلق عليه اسم النياحة من رفع الصوت بالبكاء أو بتعديد محاسن الميت. ويؤيد ذلك أن بعض الصحابة كانوا ينكرون على النائحة أشد الإنكار، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع نواحة بالمدينة ليلاً، فأتى عليها فدخل ففرق النساء، فأدرك النائحة، فجعل يضربها بالدرة فوقع خمارها، فقالوا: شعرها يا أمير المؤمنين، فقال: أجل فلا حرمة لها[٢].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٢) أثر عمر: "سمع نواحة في المدينة ...." أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٣/٥٥٧-٥٥٨.

ذلك هو حكم النياحة عند جمهور الفقهاء، وهو التحريم من حيث الجملة)[١].

ومما يدل على النهي عن النياحة ما جاء عن يحيى بن سعيد قال: أخبرتني عمرةُ قالت: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: لما جاء قتل زيد بن حارثة، وجعفر، وعبدالله بن رواحة، جلس النبي ﷺ يُعرْف فيه الحزن، وأنا أطلع من شق الباب، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، إن نساء جعفر، وذكر بكاءهن، فأمره بأن ينهاهن، فذهب الرجل ثم أتى، فقال" قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب ثم أتى، فقال: والله لقد غلبتني، أو غلبننا -الشك من محمد بن عبدالله بن حوشب- فزعمت: أن النبي ﷺ قال: فَاحْثُ في أفواههن التراب. فقلت: أرغم الله أنفك، فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء[٢].

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة، أم سُليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان. أو: ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى[٣].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٤٩-٥٣ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٥، ومسلم ٩٣٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٦، ومسلم ٩٣٦.

الحديث رقم (١٦٦٤)

١٦٦٤- وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: أُغْمِيَ عَلَى عَبدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ[١] تَبْكِي، وَتَقُولُ: وَاجَبَلاهُ، وَاكَذَا ، وَاكَذَا : تُعَدِّدُ عَلَيْهِ. فقالَ حِينَ أفَاقَ: مَا قُلْتِ شَيْئاً إلاَّ قِيلَ لِي أنْتَ كَذَلِكَ؟!. رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

واجبلاه: أسلوب ندبة وهو النداء بـ (وا) أو (يا) مع إلحاق الألف في آخر الاسم لمد الصوت وزيادة الهاء بعده لإرادة بيانه (أي الألف) والغرض من الندبة: إظهار التوجع، والمراد: التوجع مما أصاب عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

تُعدِّد عليه: تذكر مناقبه[٤].

الشرح الأدبي

إن حياة الصحابة الأخيار تعد كلها مشاهد مضيئة بالسلوكيات الإيجابية، والمشاهد الإيمانية التي يجب أن يحذو حذوها المسلمون في كل زمان، وفي كل مكان، فأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أخبر الصادق الأمين كالنجوم في الهداية، بأيهم اقتدينا اهتدينا.

وهذا الحديث يحكي مشهداً واقعياً يسرد تفاصيله النعمان بن بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، حين شهد خاله عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وهو من شعراء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين نافحوا عن الإسلام بأشعاره القوية المؤثرة.

---

(١) عند البخاري زيادة: (عمرة)، وهي لا توجد عند المنذري فتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (٤٢٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١١/١٧٩، وفتح الباري، ابن حجر ٧/٦٥٦، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٨/٧٥ والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن د ب).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع د د).

وتشارك في تصوير هذا المشهد الذي يفيض بالحكمة والموعظة الحسنة، عمرة بنت رواحة، أخت عبدالله بن رواحة، ولنتأمل ملامح هذا المشهد تأملاً إيمانياً وتأملاً أسلوبياً في ضوء يقيننا الثابت، وعقيدتنا الراسخة، فالحديث يبدأ بالفعل المبني للمفعول "أغمى"، ولم يذكر الحديث سبب الإغماء، لأن العبرة بالدرس المستفاد من استقبال الآخرين لهذا الحدث الجلل. والمصاب الأليم وليس المراد معرفة سبب ذلك الإغماء.

وقوله: "فجعلت أخته تبكي": إشارة إلى أنها ظلت تبكي طيلة مدة إغمائه؛ لأن "جعل" من أفعال الشروع فهي قد بدأت البكاء واستمرت وهي تبكي وتنوح: "واجبلاه"، واكذا، واكذا".

وهذه الصيغة من صيغ النداء وتسمى الندبة، والمندوب: هو المنادى المتفجع عليه، أو المتوجع منه، وإنما يتفجع على المندوب لفقده، وفقده قد يكون حقيقة، وقد يكون فقده حكماً[1]، كما جاء في هذا الحديث الشريف: لأن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لم يمت، وإنما هذا الأسلوب يكشف عن تفجع أخته وحزنها لمرضه، ولذلك قال: "تعدُّ عليه"، أي تعدد شمائله على طريق الجاهلية، وفي هذا التعبير إنكار لهذا المسلك من عمرة بنت رواحة رضي الله عنها.

وأسلوب القصر في قوله مخاطباً أخته في صيغة الاستنكار: "ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟؟" هذا الأسلوب لتأكيد الخبر لأخته: أن كل ما قالته كانت سبباً في عذابه وتقريعه، ومواجهته بهذا السؤال الإنكاري: أنت كذلك، وحذفت همزة الاستفهام اختصاراً ولمزيد من التبكيت واللوم، وفي الحديث إيحاء بلوم عبدالله رضي الله عنه لأخته النائحة تلميحاً لا تصريحاً، حتى تتعظ كل من تنوح، وتكف عن هذا النواح.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم النياحة على الميت، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٦١.

---

(١) انظر: شرح قطر الندى، وبل الصدى، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.

وفيه أيضاً تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، والمراد توبيخ الملائكة بما يندب أهله عليه[١]، كما روي من حديث أبي موسى مرفوعاً "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت، وقيل له: أنت عضدها؟! أنت ناصرها؟! أنت كاسبها؟!"[٢]، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٥٧.

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

ثانياً: من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالأمور التي ينبغي عدم فعلها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الصبر وعدم الندب والنوح.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث "أغمي على عبدالله بن رواحة رضي الله عنه" وأما عن فضله فقد قال ابن عبدالبر: (وعبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي أحد النقباء، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والحديبية وعمرة القضاء والمشاهد كلها إلا الفتح وما بعده؛ لأنه قتل يوم مؤتة شهيداً. وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة وأحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ وفيه وفي صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزلت: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٤] وجاء عن يحيى بن سعيد قال: كان عبدالله بن رواحة أول خارج إلى الغزو وآخر قافل)[٥]. ومما يدل على

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٥٥/٣، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٩/٤-١٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٧١٦/٣٢، والترمذي ١١٠٣، وابن ماجه ١٥٩٤ واللفظ لأحمد. وقال محققو المسند: صحيح لغيره أهـ. وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٦٦٤ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٨).

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٩٦.

فضله ما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ((لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ. حتى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ. وَمَا فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ صَائِمٌ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ))(١).

وقال ابن الجوزي: (وعبدالله بن رواحة يكنى أبا محمد أحد النقباء الاثني عشر شهد العقبة مع السعبين واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الموعد، وبعثه سرية في ثلاثين إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله، وأرسله إلى خيبر خارصاً فلم يزل يخرص عليهم إلى أن قتل بمؤتة وعن عروة بن الزبير قال: لما تجهز الناس وتهيوؤا للخروج إلى مؤتة، قال المسلمون: صبحكم الله ودفع عنكم، فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع قذف الزَّبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا)(٢)

ثانياً- من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالأمور التي ينبغي عدم فعلها:

حيث جاء في الحديث "ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول: "واجبلاه واسيداه أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه أهكذا كنت؟" ولاشك أن من أولى مهام الداعية أن يخبر المدعوين عن الحقائق حتى تقوم عليهم الحجة بالإخبار والعلم بالشيء وقد أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ويخبر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾(٣) وأمره بالبيان فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الصبر وعدم الندب والنوح:

يتضح هذا من سياق الحديثين(٥) وفي هذا حث على الصبر وعدم الندب والنوح، قال الطيبي: (وقوله "قيل لي كذلك" أي لما قلت "واجبلاه" أي أنت كذا أي جبل كهف

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٤٥، ومسلم ١١٢٢.

(٢) صفوة الصفوة ٢١٧/١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) رقم ١٦٦٤، ١٦٦٨.

يلجأون إليك على سبيل الوعيد والتهكم كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[١])[٢]. وقال المباركفوري: (وقوله "يلهزانه" أي يضربانه ويدفعانه، واللهز الضرب بجميع اليد في الصدر يقال لهزه بالرمح أي طعنه في الصدر وقول "أهكذا كنت" أي توبيخاً وتقريعاً)[٣]. وقد حث الشرع الحنيف على الصبر وعدم الجزع والسخط قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٤].

قال الماوردي: (اعلم أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصبر على الملمات، والثبات عند النوازل، وبه نزل الكتاب، وجاءت السنة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥] يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم، وصابروا عدوكم. ورابطوا: فيه تأويلان. أحدهما: على الجهاد. والثاني: على انتظار الصلوات. فنزل الكتاب بتأكيد الصبر، فيما أمر به، وندب إليه، وجعله من عزائم التقوى، فيما افترضه وحث عليه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مطية لاتكبو، والقناعة سيف لا ينبو. وقال عبدالحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الصبر والشكر بعيران، ما باليت أيهما ركبت: وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أفضل العدة الصبر على الشدة. وقال بعض البلغاء: من خير خلالك، الصبر على اختلالك. وقيل في منثور الحكم: من أحب البقاء، فليعد للمصائب قلباً صبوراً. وقال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع الكُره، تدرك الحظوظ. وقال عبيد ابن الأبرص:

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤٠٦/٣.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٧٩/١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

صَبْرِ النفسَ عندَ كلِّ مُلِمٍّ إنّ في الصبرِ حيلةَ المُحتالِ
لا تَضِيقَنَّ في الأمور فقد تكْشَفُ غمَّاؤها بغيرِ احتيالِ
رُبّ ما تجزعُ النفوسُ منَ الأمْرِ له فَرْجَة كحلِّ العِقالِ

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة: الصبرُ صبران، فاللئام أصبر أجساماً، والكرام أصبر نفوساً. وليس الصبر الممدوح صاحبه، أن يكون الرجل قوي الجسد على الكدّ والعمل، لأن هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللأمور متحمّلاً، ولجأشِه عند الحفاظ مرتبطاً.

واعلم أنه من صبر على حادثة، وتماسك في نكبة، إلا كان انكشافها وشيكاً، وكان الفرج منه قريباً.

أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حُبس في السجن خمس عشرة سنة، حتى ضاقت حيلته، وقل صبره، فكتب إلى بعض إخوانه، يشكو له طول حبسه، فردّ عليه جوابَ رقعته بهذا:

صَبْراً أبا أيوب صَبْرَ مُبَرِّحٍ فإذا عجزتَ عن الخطوب فمنْ لهَا؟
إن الذي عقد الذي انعقدت له عُقَدُ المكاره فيك يَملِكُ حَلَّها
صَبْراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلَّها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صَبَّرتني ووعظتني وأنا لها وستنجلي بلْ لا أقول لعلّها
ويَحُلُّها من كان صاحبَ عَقْدِها كَرَماً به إذ كان يملكُ حَلَّها

فلم يلبث بعد ذلك في السجن إلا أياماً، حتى أطلق مُكَرَّماً.

وأنشد ابن دُريد عن أبي حاتم:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ
وأَوْطَنَتِ المكارهُ واطْمأنّت وأرستْ في مكانتها الخطوبُ

ولم تـرَ لانكـشاف الـضُرّ وجهـاً ولا أغنـى بحيلتـه الأريـبُ

أتـاك علـى قنـوطٍ منـك غَـوْثٌ يَمُـنُّ بـه اللطيـفُ المـستجيبُ

وكـلُّ الحادثـات إذا تناهـت فموصـول بهـا الفـرج القريـبُ(١)

قال ابن مفلح: (فإذا علم العبد أنه وما يملكه لله سبحانه حقيقةً، لأنه أوجده من عَدَم ويعدمه أيضاً ويحفظه في حال وجوده، ولا يتصرف فيه العبد إلا بما يتاح له، وأن مرجعه إلى الله -ولابد- فرداً كما قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(٢). وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٣).

وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٤).

وأن الله لو شاء جعل مصيبته أعظم مما هي، وأنه إن صبر أخلف الله عليه أعظم من فوات مصيبته، وأن المصيبة لا تختص به فيتأسى بأهل المصائب، ومصيبة بعضها أعظم، وأن سرور الدنيا مع قلته وانقطاعه منغص.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً.

وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قط إلا كان بعده بكاء، وقد شاهد الناس من تغير الدنيا بأهلها في أسرع ما يكون العجائب.

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٨.

(٢) سورة مريم، آية: ٨٠.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٢-٢٣.

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس، وإنه حق على الله أن لا يملأ داراً حِبرةً إلا ملأها عبرة.

ثم قالت:

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقة نَتَنَصَّفُ

فأُفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها ... تَقلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

وعلم العبد أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها، وأنه يسر عدوه ويسيء محبه، وإن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها ومنه بيت الحمد الذي يبني له في الجنة على حمده واسترجاعه.

وفي البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: ((يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة))[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما يصيب المسلمَ من وَصَب ولا نَصَب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله من خطاياه))[2].

وعلم أن الذي ابتلاه أحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين ليمتحنَ صَبْرَهُ ويسمع تَضَرُّعه ويخوفه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

قال الشيخ عبدالقادر: يا بني، المصيبةُ ما جاءت لتهلك، وإنما جاءت لتمتحنَ صبركَ وإيمانك، يا بني، القدر سَبُعٌ، والسبع لا يأكل الميتة؛ فالمصيبة كير العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً، كما قيل:

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٢٤، وأحمد ٢/٤١٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤١، ومسلم ٢٥٧٣.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧٦.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٤٨.

سبكناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكيرُ عن خبث الحديد

اللجين: الفضة.

وعلم أنه لولا المصائبُ لبطر العبد وبغى وطغى، فيحميه بها من ذلك، ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وعلم أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس، ولهذا قال ﷺ: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1].

وقال: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[2]. ومعلوم أن العاقل من احتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، وذل ساعة لعز الأبد، هذا من لطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس -إلا من عصم الله- آثروا العاجل لمشاهدته وضعف الإيمان.

وعلم أنه يُحبُّ ربه وأن المحب إن أسخطه فهو كاذب في محبته، ولهذا كان عمران بن حصين رضي الله عنه يقول في مرضه: أحبُه إليَّ أحبه إليه. وكذا أبو العالية، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

فإذا علم العبد هذه الأمور ونظر فيها وتأمَّلها، صبر واحتسب، وحصل له من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. والناسُ في هذا متفاوتون كغيره من الأمور[3].

(١) أخرجه مسلم ٢٩٥٦، والترمذي ٢٣٢٤، وابن حبان ٦٨٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٢٢، والترمذي ٢٥٥٩، وابن حبان ٧١٦.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢/١٧٧-١٨٣ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٥)

١٦٦٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: اشْتَكَى سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى[١]، فَأتَاهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، يَعُودُهُ مَعَ عَبدِ الرَّحمانِ بْنِ عَوفٍ، وَسَعْدِ بن أبي وقّاصٍ، وعبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنهم. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، وَجَدَهُ في غَشْيَةٍ[٢]، فَقالَ: ((اقَضَى[٣]؟)) قالوا: لا يا رسول اللهِ، فَبكَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا رَأى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بَكَوْا، قال: **((ألاَ تَسْمَعُونَ؟ إنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلاَ بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلكِنْ يُعَذِّبُ بِهذَا))** - وَأشَارَ إلَى لِسَانِهِ- أو يَرْحَمُ)). متفق عليه[٤].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الغشية: الإغماء[٥].

أقضى: أمات [٦].

الشرح الأدبي

إن عيادة المريض من سمات المسلم في علاقته بالآخرين، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، واتباعاً لنهجه القديم، وسنته المباركة.

وفي هذا الحديث نتأمل مشهد الزائرين وهم من الصحابة الأخيار، وفي مقدمتهم النبي المختار صلى الله عليه وسلم حيث ذهبوا يعودون سعد بن عبادة رضي الله عنه، في مرضه، والوفد الزائر،

---

(١) عندهما زيادة: (له).

(٢) هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: (فوجده في غاشية أهله).

(٣) لفظ مسلم: (أقد قضى)، ولفظ البخاري: (قد قضى).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (١٢/٩٢٤)، وتقدم برقم (٩٢٦).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ش ي).

(٦) المرجع السابق في (ق ض ي).

يتكون من رسول الله ﷺ، والذين معه وهم: عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم.

وفدٌ يحوط به الإجلال والكمال، والبهاء والجمال، ويدثره نور الهيبة من الكبير المتعال.

ولغة الحديث تفصح عن مكانة الرسول ﷺ، وهو يتصدر هذا الوفد الكريم، حيث قال الراوي: "فلما دخل عليه وجده في غشيه" فقد أفرد الضمير في الفعلين "دخل عليه، ووجده"، مع أنهم دخلوا جميعًا، "ووجدوه جميعًا في غشية" أي: مغمى عليه من المرض، وجاء الضمير مفرداً إظهار لمكانة رسول الله ﷺ وللإخبار بأن الذين معه تابعون له، وأنه: متبوع وليس تابعاً أو فرداً في جماعة.

والعطف بالفاءات في كثير من جمل الحديث يرشد إلى تتابع مشاهد هذا الحدث، وتلهف رسول الله ﷺ إلى معرفة أخبار سعد بن عبادة رضي الله عنه والاطمئنان عليه، ولما أدرك رسول الله ﷺ بعد الحوار المؤثر بينه وبين الصحابة وأهل المريض: أن الأجل قد حان: بكى عظة واعتباراً وحزناً قلبياً على موت هذا الصحابي الجليل، وبكى الصحابة لما رأوا بكاء النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا مدحرجين من البكاء وإظهار الحزن، خوفاً من لوم النبي ﷺ لهم، فالبكاء الذي يخلو من النواح والتفجع والدعاء بدعوى الجاهلية: من فطرة النفس الإنسانية؛ واستقبال الموت يثير في النفس كوامن الأشجان، ويجعلها تتضح بالأحزان، ولكن في ظل الصبر والامتثال، والتوازن والاعتدال، والرضا بما قدره الكبير المتعال، ولذلك جاء قوله "ألا تسمعون"، بمثابة استفتاح وتنبيه إلى أن التعبير عن الحزن جائز في صورة تخلو من الاستغاثة أو الندب، أو الاعتراض، أو التعديد.

ولذلك يختم الحديث بأسلوب التوكيد: حيث يصرح الرسول ﷺ بذلك مؤكداً بأن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، والعذاب يكون بحصائد الألسنة حين يصدر الإنسان كلمات الاعتراض والسخط، وهو في غمرة الأحزان ينسى رحمة الواحد الديان، والإشارة إلى اللسان، وفي هذه الصورة الحسية في قوله: "يعذب بهذا أو يرحم وأشار إلى لسانه"، تحمل كثيراً من الدلالات المتعددة التي يجب أن ينتبه لها كل مسلم:

وليستجب لقول رسول الله ﷺ حين سئل عن أسباب النجاة فقال: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"[١]، ﷺ، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- جواز الحزن على الميت، والبكاء عليه إذا لم يكن يصحبه نوح، أو شق جيب، أو لطم خد، أو سخط لأمر الله تعالى، كمايجوز البكاء بصوت إذا غلب على الباكي الحزن، ولم يبلغ الحد المنهي عنه، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٢].

والدليل على ذلك ما روت عائشة رضي الله عنها[٣] أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبوبكر، وعمر رضي الله عنهما فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤][٥].

ففي تفريقها بين بكاء عمر وأبي بكر، وهي في الحجرة دليل على أنهما كانا يبكيان بصوت لشدة حزنهما على سعد رضي الله عنه ولم يقدرا على كتمه، ولكنه لم يبلغ إلى الحد المنهي، ولذلك لم ينكر عليهما النبي ﷺ[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٤٠٦، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٨٨٨).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٤١/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٩٨/٢، والمهذب ١٣٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٣/٥، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٣٥٧/١، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٧٣/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٧/٢.

(٣) الفتح الرباني ١٤١/٧.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) أخرجه أحمد ٢٥٠٩٧/٤٢ مطولاً في غزوة الخندق. وقال محققو المسند: ولمعظمه شواهد يصحّ بها أو يحسن أهـ. وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٦) الدين الخالص ٢٤١/٧.

٢- وفي قوله: "ولكن يعذب بهذا" حرمة النياحة، والندب، وغير ذلك من مظاهر الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٦١.

المضامين الدعوية[١]

(١) تقدم شرح هذا الحديث برقم (٩٢٦).

الحديث رقم (١٦٦٦)

١٦٦٦- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((**النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرِبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو مالك الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٥).

غريب الألفاظ:

النائحة: أي التي تبكي وتنوح من النساء على الميت[٢].

السربال: القميص[٣].

القطران: دهن يدهن به الجمل الأجرب فيحترق لحدته وحرارته فيشتمل على لذع القطران وحرقته وإسراع النار في الجلد واللون الوحش ونتن الريح جزاء وفاقًا، فخصت بذلك الدرع؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب، وبلون القطران، لكونها كانت تلبس السواد في المآتم[٤].

درعٌ من جرب: يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها، والدرع: قميص النساء[٥].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والتصوير الأدبي في هذا الحديث الشريف نجده يتكون في بنائه اللغوي من جملة واحدة، تبدأ بقوله ﷺ: "النائحة" وهي مبتدأ، وجاء في صيغة اسم الفاعل، والبداية بهذا اللفظ لأهميته في الحديث: لأنه بؤرة

---

(١) برقم (٢٩/٩٣٤). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٨١) بتمامه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٢٩٣/٦.

(٤) المرجع السابق ٢٩٣/٦.

(٥) المرجع السابق ٢٩٣/٦.

الحديث، ومركز دلالته، ومجيئه في هيئة اسم الفاعل، إيحاء بأن هذه المرأة وكل مَنْ على شاكلتها من النساء تتعمد القيام بالنوْح، وتبالغ فيه، وتبكي وتستبكي غيرها، و"أل" هنا للجنس: أي: كل نائحة تقوم بهذا الفعل.

وخبر المبتدأ هو: جملة الشرط التي تستغرق باقي الحديث الشريف، وأداة الشرط: "إذا"، وهي للتحقق وسر العدول عن غيرها من أدوات الشرط والإتيان بها في هذا السياق: يوحي بتحقيق التوبة.

وفيه كذلك ترغيب من رسول الله ﷺ بالإقدام على التوبة قبل ساعة الاحتضار، وفيه كذلك إنذار بالعقاب الشديد "إذا لم تتب قبل موتها"، وهذه الجملة هي: فعل الشرط، وفيها إيجاز بالحذف في قوله: "قبل موتها"، والمراد "قبل الغرغرة"، وقيل: ظهور الآيات المانعة من قبول التوبة كما قال صاحب دليل الفالحين.

وجواب الشرط: جملة: "تقام يوم القيامة.... الخ الحديث"، وبناء الفعل للمفعول هنا يرشد إلى أن هذه النائحة وكل من على شاكلتها، تكون مسلوبة الإرادة، وتأتي يوم القيامة في هيئة تلفت أنظار الجميع، ويشاهدها الكل، حيث "تقام" حتى تكون عبرة لأولي الألباب، وقد عدل عن قوله تقوم إلى قوله: "تقام"، للإشعار بفقد الإرادة وللإيحاء بأن هذا القيام القسري يعد صورة من صور العذاب يوم القيامة.

وما أبشع هذه الصورة التي يؤول إليها مصير هذه النائحة: إنها تُكسَى بقميص أو درع من قطران، ودرع من جرب، واختيار القطران في هذا السياق لمناسبة الموقف، لأنه أسود منتن، وهو سريع الاشتعال، وهو سائل لزج يتحلل من شجر "الأبهل" ويطلى به الإبل وغيرها، وكذلك الجرب: داء معروف.

وفي رسم هذه الصورة المنفرة: إنذار لكل من لم تتب عن النوْح، وفيه كذلك سخرية وإهانة: حيث قال: "درع من جرب"، والدرع للوقاية. ولكن كيف يكون الجرب وقاية: وهو داء مهلك، والقطران: نار تشتعل في جسم هذه النائحة التي كانت تظن بأن زوجها أو قريبها الذي ناحت عليه: هو جبلها وهو سندها، وهو حاميها، فهل يستطيع الآن حمايتها من العذاب؟ وهل يخفف عنها العقاب؟ وما ربك بظلام للعبيد، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه تحريم النياحة، وذلك لأنه هذا الوعيد الشديد لا يكون إلا على فعل شيء محرم، وقد سبق بيان حكم ذلك، في الحديث رقم ١٦٦٣.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة النائحة يوم القيامة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة النائحة يوم القيامة:

حيث جاء في الحديث "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب"، وقوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت"[٢] وفي هذا بيان لعاقبة النائحة إذا لم تتب. قال النووي: (وفي الحديث دليل على تحريم النياحة، وهو مجمع عليه، وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة)[٣].

وقال النووي -في بيان قوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت: - وفيه أقوال أصحها: أن معناه هما من أعمال الكفر وأخلاق الجاهلية، والثاني: أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع: أن ذلك في المستحل، وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة)[٤]، وأما ما جاء في عاقبة النائحة (فقوله: "عليها سربالٌ من قطران" أي أن الله تعالى يجازيها بلباس من قطران لأنها كانت تلبس الثياب السود وقوله "درع من جرب"

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٦٦٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٩).

(٢) أخرجه مسلم ١٢١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٦٠٢.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٥٠.

يعني يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع - وهو القميص- لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوي المصيبات. فهذا الحديث دل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الخصال الرديئة)[١].

وقال ابن علان: (وهذا الوعيد للنائحة إذا لم تتب من نوحها الذي هو من الكبائر قبل موتها وقبل الغرغرة وقبل ظهور الآيات المانعة من قبول التوبة كطلوع الشمس من مغربها إذ التوبة عند ذلك لا عبرة بها وقوله "من قطران" هو ما يتحلل من شجر الأبهل ويطلي به الإبل وغيرها ومن شأنه أنه يسرع فيه شعل النار وهو أسود منتن)[٢].

قال د. الحسيني هاشم: (من تعودت النياحة واتخذتها مهنة ولم ترجع عن ذلك بالتوبة ظهرت يوم القيامة، وعليها قميص من قطران، وكساء من جرب، كشفاً لما بدا منها وإظهاره في صورته الحقيقة)[٣].

هذا والواجب الامتناع عن النوح امتثالاً لأمر الشرع، وقد سبق التفريق بين النوح والبكاء؛ فالبكاء والدموع رحمة والنوح سخط وجزع على قضاء الله، وسبب لعذاب الميت خاصة إذا أوصى بالنوح عليه جاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه: سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجالٌ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: ((هذا رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء))[٤].

---

(١) المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، الإمام محمد بن عبدالوهاب، شرح محمود شكري الألوسي، تحقيق د. يوسف بن محمد السعيد، وكالة المطبوعات والبحث العلمي بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ، ص ٢٣٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣.

وعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، وإني لجالس بينهما، أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي، فقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان، ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله ﷺ قال: ((إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه))(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صدرت مع عمر رضي الله عنه من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء، إذا هو بركب تحتَ ظل سمرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت، فإذا صهيب فأخبرته فقال: ادعه لي فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل، فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر، دخل صهيب يبكي، يقول: واأخاه، واصاحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب، أتبكي علي، وقد قال رسول الله ﷺ: ((إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه))(٢).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((جيء بأبي يوم أحد قد مثل به، حتى وضع بين يدي رسول الله ﷺ، وقد سُجِّي ثوباً، فذهبت أريد أن أكشف عنه، فنهاني قومي، ثم ذهبت أكشف عنه، فنهاني قومي، فأمر رسول الله ﷺ فرفع، فسمع صوت صائحة، فقال: "من هذه. فقالوا: ابنة عمرو، أو: أخت عمرو، قال: فلم تبكي؟ أو: لا تبكي، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع))(٣).

وعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))(٤).

ومن خلال هذه النصوص السابقة تتبين حرمة النوح وعاقبته فالواجب الكف عنه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨٦، ومسلم ٩٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٨٧، ومسلم ٩٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديثين حيث قال النبي ﷺ: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب" وقوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو، وتحمله على ترك المحظورات الشرعية ذلك أن النفس البشرية بفطرتها تخاف الوعيد (والنفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم؛ لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده الله تعالى من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى وإذا ما أحسن الداعية في عرض ما لديه فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه، لأن الإنسان لا يتحمل الزواجر مجرد سماع فكيف إذا كانت حقيقة)[١]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة:

حيث جاء في الحديث "إذا لم تتب قبل موتها" وإذا كان الأمر كذلك ففي هذا الحديث حث على المبادرة إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣] قال السعدي: (قل يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبراً للعباد عن ربهم لا تيأسوا من رحمة الله فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وتقولوا قد كثرت ذنوبنا فتبقون مصرين على العصيان ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٣.

وجوده فهو غفور رحيم)[١]. وأمر الله بالتوبة فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] وبين الله أن الذي يعرض عن التوبة ظالم فقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣] والتوبة هي رجوع العبد إلى الله.

قال ابن القيم: (وشرائط التوبة ثلاثة: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة)[٤].

وفي موضع آخر قال: (والتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى قبض روحه ومنها انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها وتقطعه وانخلاعه هذا هو حقيقة التوبة فذلك من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة)[٥].

قال ابن قدامة: (الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرَّط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٧٣.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٣٩/٢.

(٥) المرجع السابق نفسه ٣٤٦/٢-٣٤٨.

وتسمى هذه التوبة النصوح، وتسمى هذه النفس المطمئنة، وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوَّامة، لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيرُه شرَّه، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾[1].

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى بالمسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[2] فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[3] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٢.

الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكن الخوف من الخاتمة، وكل نَفَسٍ يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزانته واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا، وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى)[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٨٨، ٢٨٩.

الحديث رقم (١٦٦٧)

١٦٦٧- وعن أَسيد بن أبي أَسِيدٍ التابِعِيِّ، عن امْرَأَةٍ مِنَ المُبَايِعاتِ، قالت: كان فيما أخَذَ عَلَيْنَا رسُولُ اللهِ ﷺ، فِي المَعْرُوفِ الَّذِي أخَذَ عَلَيْنَا أنْ لاَ نَعْصِيَهُ فِيهِ: أنْ لا نَخْمِشَ وَجْهاً، وَلاَ نَدْعُوَ وَيْلاً، وَلاَ نَشُقَّ جَيْباً، وأنْ[1] لاَ نَنْشُرَ شَعْراً. رواه أبو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات: هذه الصحابية لا تعرف إلا أن الراوي عنها أسَيد بن أبي أسَيد قال عنه المزي: أظنه غير البراد لواسمه: أسيد بن أبي أسيد البراد]، فإن البراد ليس له شيء عن الصحابة وإن يكنه فإن روايته عن المرأة منقطعة[3].

وهذه الصحابية من المبايعات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ على ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]. فكانت البيعة على العمل بأركان الإسلام وعلى فضائل الأخلاق وكرائم الشمائل وعلى ترك عادات الجاهلية من وأد البنات وتبرج الجاهلية الأولى والنياحة ونحو ذلك من سوء الآداب. لذا كان النبي ﷺ يمتحن بها من جاءه من المؤمنات المهاجرات، كما قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ يمتحن بها من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك على ذلك[5].

---

(١) (أن) لا توجد عند أبي داود.

(٢) برقم (٣١٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٢).

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٦٤/١) ووافقه الحافظ في التهذيب (١٧٤/١)، وينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٢٠/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٨٥١.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦).

كما كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد[١]، بل كان ﷺ يبايع الرجال على ذلك ثم يقول: ((فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه))[٢].

غريب الألفاظ:

لا نخمش وجهاً: لا نخدش[٣].

ولا ندعو ويلاً: لا نقول عند المصيبة ووايلاه، والويلَ: الحزن والعذاب والهلاك[٤].

جيباً: من القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه[٥].

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث إشارة إلى بيعة النساء التي وردت في القرآن الكريم، وهي إشارة ترشد إلى أن الحديث فصَّل ما أجمله القرآن الكريم، فألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال الخالق عز وجل، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وحديثه الشريف في صلته القرآن، إما أن يُفصِّل مجملاً، أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً.

وهنا: تفصيل لما أجمله القرآن في بيعة النساء: حيث أشارت هذه الصحابية إلى قوله عز وجل ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[٦]، وأوضحت أن من ذلك المعروف: هو أن لا نخمش وجهاً ... إلخ الحديث، ومن الظواهر الفنية والأسلوبية في هذا

---

(١) كما في صحيح البخاري ٩٧٩ ومسلم (٨٨٤) وينظر تفسير ابن كثير (٨/٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٨) وسلم (١٧٠٩).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (خ م ش).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ي ل).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ج ي ب).

(٦) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

الحديث، تكرار جملة: "أخذ علينا"، وهذا التكرار لتأكيد العهد، ولتنفيذ الوصية، حتى تكون البيعة صحيحة، وحتى يستغفر لهن الله، وكذلك تكرار "لا" النافية المسبوقة بأن الظاهرة، والمستترة، في الجمل الأربعة، يؤكد حرص النبي ﷺ كما تخبر هذه الصحابية على عدم تردي المؤمنات في مهاوي هذه السلوكيات المخالفة لسنة رسول الله ﷺ، ولما جاء في القرآن الكريم.

ومجيء الأفعال المنهي عنها في الجمل الأربع في صيغة المضارع: يعلن عن ضرورة استمرار الكف عن مثل هذه الأفعال، وتلك السلوكيات التي تلحق بصاحبها الويل والثبور، وتلقى به في أتون القلق واليأس من رحمة الله عز وجل.

وتناسق البناء في هذه الجمل، وتوازن الشكل اللغوي يوحي بضرورة توازن شخصية المسلم، وإحداث الإيقاع الصوتي في نهاية كل جملة دعوة للتنبُّه حيث الألف الممدودة، فالأفعال كلها مضارعة مبدوءة بالنون الدالة على الجمع: وهي من علامات الفعل المضارع، والفاعل مستتر في جميع الجمل، وكان هذا الاستتار الواجب في اللغة: إيحاء كذلك بوجوب التخلي عن هذه الأفعال المشينة التي تمثل مظاهر الجزع والفزع، واليأس من رحمة الله تعالى.

والمفعول به: اسم مفرد يتوالى في إيقاع صوتي مؤثر والإفراد هنا كأنه دعوة إلى عدم النوْح الجماعي، لأنه يعد اعتراضاً جماعياً على مشيئة الله تعالى وقدره، فإذا كان الفرد منهياً عن ذلك، فإن المجموع أولى بالنهي والترك، وكل هذه المؤثرات الأسلوبية، والظواهر الفنية للإيحاء يترك هذه الظواهر السلوكية (خمش الوجه، الدعاء بقولهم: ياويلاه، شق الجيب، نشر الشعر)، وقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديث تحريم مظاهر الجزع على الميت التي تدل على عدم الرضا بقضاء الله من نحو الصراخ والعويل، وخمش الوجوه ولطمها، وشق الجيوب، ونشر الشعر وغير

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١١.

ذلك من أمور الجاهلية التي نهانا رسول الله ﷺ عنها بقوله: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"، وقد مر بيان حكم هذا الأمر في الحديث رقم ١٦٦٠ وما بعده.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مبايعة النساء.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن أفعال الجاهلية والنوح.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مبايعة النساء:

حيث جاء في الحديث "عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف" وقد جاءت الإشارة إلى هذه المبايعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] قال القرطبي: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه فأمر أن يأخذ عليهن ألا يشركن وقد ذكر الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالاً شتى صرح فيهن بأركان النهي في الدين ولم يذكر أركان الأمر وهي ستة أيضاً: الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان، وكل الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وقيل: إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا). وفي مبايعة النساء جاء عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحن بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[2] قالت عائشة: ((فَمَنْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٧/٢٠.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

أَقَرَّ بِهَذَا مِن الـمؤمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بالـمِحْنَةِ، وكانَ رسولُ الله ﷺ إذَا أَقْرَرْنَ بذلكَ من قَوْلِهِنَّ قالَ لَهُنَّ: انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ))[1]. قال السعدي: (وهذه الشروط المذكورة في الآية تسمى "مبايعة النساء" اللاتي يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والإناث في جميع الأوقات فكان ﷺ إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط بايعهن وجبر قلوبهن واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين)[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن أفعال الجاهلية والنوح:

حيث جاء في الحديث "أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيباً، وأن لا ننثر شعراً" ولا ريب أن كل هذه من أفعال الجاهلية عند وقوع المصيبة والبلاء. قال شرف الحق العظيم آبادي: (وقوله "أن لا نخمش" أي لا نخدش، والويل أن يقول عند المصيبة وايلاه والجيب هو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس وهو الطوق في لغة العامة وقوله "أن لا ننثر شعراً" أي لا نفرق ولا ننشر شعراً)[3] هذا والواجب البعد عن أفعال الجاهلية وما يقومون به؛ فعن أبي بن كعب أن رجلاً اعتزى بعزاء الجاهلية، فأَعَضَّه، ولم يَكنِه فنظر القوم إليه فقال للقوم: إني قد أرى الذي في أنفسكم، إني لم أستطع إلا أن أقول هذا إن رسول الله ﷺ أمرنا: ((إذا سمعتم من يعتزي بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه ولا تكنوا))[4].

قال البغوي: (قوله: من تعزى بعزاء الجاهلية: أي انتسب وانتمى، كقولهم يا لفلان، ويا لبني فلان يقال عزوت الرجل وعزيته: إذا نسبته وكذلك كل شيء تنسبه إلى شيء وقوله "فأعضوه بهَن أبيه: الهن: الذّكر. أي قولوا له: اعضض ذكر أبيك، ولا تكنوا

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٦٨، والبخاري ٥٢٨٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٩٥.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣٣٧.

(٤) أخرجه أحمد ١٣٦/٥ رقم ٢١٢٣٣ وقال محققو المسند: حديث حسن وهذا إسناد رجاله ثقات. ١٥٧/٣٥.

أي صرّحوا بلفظ الذّكر بدون كناية، وهذا دليل على شناعة التعزي بعزاء الجاهلية)(١).

قال ابن تيمية: (والسنة الجاهلية: كل عادة كانوا عليها، فإن السنة هي العادة، وهي الطريق التي تتكرر لنوع الناس، مما يعدونه عبادة، أو لا يعدونه عبادة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢) وقال النبي ﷺ: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))(٣) والاتباع هو الاقتفاء والاستنان، فمن عمل بشيء من سننهم، فقد اتبع سنة جاهلية، وهذا نص عام يوجب تحريم متابعة كل شيء من سنن الجاهلية: في أعيادهم وغير أعيادهم، ولفظ: "الجاهلية" قد يكون اسماً للحال، وهو الغالب في الكتاب والسنة، وقد يكون اسماً لذي الحال.

فمن الأول: قول النبي ﷺ لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))(٤). وقول عمر: ((إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة))(٥) وقول عائشة: ((كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء))(٦) وقوله: ((يا رسول الله كنا في جاهلية وشر))(٧) أي في حال جاهلية أو طريقة جاهلية، أوعادة جاهلية ونحو ذلك.

فإن الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة، لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً، ومعناه قريب من معنى المصدر، وأما الثاني فتقول: طائفة جاهلية، وشاعر جاهلي، وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، فإن من لم يعلم الحق، فهو جاهل جهلاً بسيطاً، فإن اعتقد خلافه: فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال

---

(١) شرح السنة، الإمام البغوي، شرح الحديث رقم ٣٥٤١، ١٣/١٢١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٧.

(٣) أخرجه البخاري ٧٣٢٠، ومسلم ٢٦٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٠٤٢، ومسلم ١٦٥٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥١٢٧، وأبو داود ٢٢٧٢.

(٧) أخرجه البخاري ٧٠٨٤، ومسلم ١٨٤٧.

خلاف الحق عالماً بالحق، أو غير عالم: فهو جاهل أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[1]، وقال النبي ﷺ: ((إذا كان أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل))[2].

ومن هذا قول بعض شعراء العرب:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا كثير، وكذلك من عمل بخلاف الحق: فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[3] قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءاً فهو جاهل.

وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب، يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه، من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، فيصير جهلاً بهذا الاعتبار.

ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مستحق الإيمان حقيقة لا مجازاً، وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً، ولا خارجاً عن أصل مسمى الإيمان، وكذلك اسم: العقل، ونحو ذلك من الأسماء.

ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال: موتى، وعمياً، وصماً، وبكماً، وضالين، وجاهلين، ويصفهم بأنهم: لا يعقلون، ولا يسمعون.

ويصف المؤمنين: بأولى الألباب، وأولي النهى، وأنهم مهتدون، وأن لهم نوراً، وأنهم يسمعون ويعقلون.

فإذا تبين ذلك، فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٩٤، ومسلم ١١٥١.

(٣) سور النساء، آية: ١٧.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون: من يهودية، ونصرانية؛ فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما قال ﷺ: ((أربع من أمتي من أمر الجاهلية))[1] وقال لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[2] ونحو ذلك[3].

والمسلم لكي يبعد عن أعمال الجاهلية عند المصيبة يجب أن يتحلى بالصبر ويلزم الرضا بقضاء الله.

قال ابن حبان: (الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يتزر بإزار له طرفان، أحدهما: الصبر، والآخر: الرضا، ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شِدّة قد صعُبت وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثم فرج عنها السهل في أقل من لحظة.

وعن أبي إسحاق عن أبي الحجاج الأزدي قال: سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وأنشدني الأبرش:

هَوِّن على نفسك من سعيها ... فليس ما قُدِّر مردود
وارْضَ بحكم الله في خلقه ... كل قضاء الله محمود

---

(١) اخرجه مسلم ٩٣٤.

(٢) اخرجه البخاري ٦٠٥٠، ومسلم ١٦٦١.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ص ١/٢٥٤-٢٥٨ بتصرف.

وعن معمر قال: لما حاصر الحجاجُ ابنَ الزبير بمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط، فقيل له: لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر، فقال ابن الزبير:

هون عليك، فإن الأمور بكفِّ الإله مقاديرها

وحدثنا سفيان بن مسعر: أن رجلاً ركب البحر، فكسر به، فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فمكث فيها ثلاثاً لايرى أحداً، ولا يأكل طعاماً، ولا يشرب شراباً، فأيس من الحياة، فتمثَّل:

إذا شاب الغراب أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب

فأجابه مجيب يقول:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكون وراءهُ فرج قريب

فنظر، فإذا سفينة في البحر، فلوَّح لهم، فأتوه، فحملوه، وأصاب معهم خيراً، ورجع إلى أهله سالماً.

وأنشد المنتصر بن بلال الأنصاري:

عسى فرج يأتي به الله؛ إنه له كلَّ يوم في خليقته أمرُ

عسى ما ترى أن لا يدوم، وأن ترى له فرجاً مما ألحّ به العُسْرُ

إذا اشتد عُسر فارْجُ يُسْراً؛ فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر[1]

(١) روضة العقلاء ١٥٧-١٥٩ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٨)

١٦٦٨- وعن أبي موسى رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قال: ((مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ بَاكِيهِمْ[1] فَيَقُولُ: وَاجَبَلاَهُ، واسَيِّدَاهُ، أو نَحْوَ ذلِكَ إلاَّ وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزَانِهِ: أهكَذَا كُنْتَ؟)). رواه الترمذي[2]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

واجبلاه واسيداه: أسلوب ندبة وهو النداء بـ"وا" أو "يا" مع إلحاق الألف في ىخر الاسم لمد الصوت وزيادة الهاء بعه لإرادة بيانه "أي الألف" والغرض من الندبة: إظهار التوجع، والمراد التوجع من موت الذي يناح عليه[3].

يلهزانه: اللهز: الدفع بجمع اليد في الصدر[4].

الشرح الأدبي

حين نتأمل صياغة هذا الحديث الشريف: نجده يبدأ بحرف النفي "ما" وهذا البداية تشعر بأن ما في الحديث من جزع وفزع يقوم به الباكون يجب أن يكون منفياً من ذاكرتنا، وملغى من سلوكياتنا، "ومن" زائدة، في قوله: "ما من ميت"، وهي ليست مزيدة من باب الإطناب أو الإسهاب ولكنها فريدة لتأكيد استغراق النفي، أي أن

---

(١) لفظ الترمذي: (باكيه) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (١٠٠٣). وقال الحاكم (٤٧١/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (١٤٠/٢): وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير أهـ. وقد تقدم برقم (١٦٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٤).

(٣) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٩/١١، وفتح الباري، ابن حجر ٧٥٦/٧، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٧٥/١٨، والمعجم الوسيط، محمع اللغة العربية ٩١٠.

(٤) رياض الصالحين ٥٧٣.

النفي عام وشامل لكل باكٍ نواح، وأسلوب القصر يشمل صياغة الحديث: وطريقة النفي والاستثناء ، فـ"ما" النافية بدئ بها الحديث الشريف، و"إلا": وردت في نهاية الحديث، وفي ذلك إيحاء بأن هذا السلوك الجزع محاصر، وله عقابه الشديد يوم القيامة، حيث المواجهة والتقريع، أهكذا كنت؟

وتنكير لفظ "ميت" لإفادة العموم والشيوع، والاستقصاء، وحرف الجر، "من" يفيد ذلك، فلن ينجو ميت نيح عليه بالندبة والاستغاثة من هذا المصير: وهو اللهز والسخرية منه يوم القيامة؛ وقوله: "واجبلاه.." للإيحاء بأنه الحامي، ولكنه لا يحمي نفسه يوم القيامة حيث يجيء وعليه كالنائحة سربال من قطران، ودرع من جرب، وقوله: "واسيداه" اعتراف بسيادة الميت، واحتماء النائح به، وفي رواية، "واسنداه"، من السند، وكلاهما سلوك مرفوض، وغفلة عن رحمة العزيز الغفار القوي القهار.

وقوله: "يلهزانه"، تعبير يفيد شدة الأخذ، وشدة التوبيخ، وإظهار ضعف هذا الذي كان يستغاث به ويندب بعد موته، ويقال له: "واجبلاه، واسيداه"، ولذلك تسأله الملائكة سؤالاً فيه تقريع وتبكيت، ومواجهة بالحقيقة "أهكذا كنت؟" كما يقولون؟ وفي الجملة: تقديم وتأخير، فأصلها أكنت هكذا؟ ولكن قدم خبر كان، "هكذا" للعناية به وللإسراع في مواجهته بالحقيقة.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام، توبيخ الميت، وتعذيبه بالبكاء عليه، وقد مر بيان هذا الحكم في الحديث رقم ١٦٦٠.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦٦٤).

الحديث رقم (١٦٦٩)

١٦٦٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ : ((**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النِّياحة: مهنة التي تنوح على الأموات، أي: تبكي وتُوَلْوِل[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو ختام باب النياحة على الميت، ومجيئه في ختام هذا الباب تذكير للناس بالحكم الشرعي على هذا السلوك الذي ينطلق من اعتراض على مشيئة الله تعالى وقدره، وكذلك الإقدام على جريمة "الطعن في النسب" مع علمه بصحته، فذلك كفر واضح.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة صيغت في الأسلوب الخبري، ومكونه من مبتدأ مفرد، وهو: "اثنتان في الناس"، ومن خبر مفرد كذلك، مكون من جزأين، معطوف ومعطوف عليه، وهو "الطعن في النسب، والنياحة على الميت"، وبداية الحديث تعد براعة استهلال، وفيها تشويق وإثارة للسامع تجعله في تلهف لمعرفة هاتين الخصلتين: وفي هذا المنحى الأسلوبي تفصيل بعد الإجمال، وفيه كذلك إيجاز بالحذف، والتقدير خصلتان اثنتان، وقوله: "في الناس"، يفيد تمكن هاتين الخصلتين من طبيعة الناس، وأن الناس تضعف أمامهما؛ لأن "في" تفيد "الظرفية"، وفي ذلك تحذير

---

(١) برقم (٦٧/١٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٦).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن و ح).

من الانصياع إليهما، ودعوة لمقاومة هاتين الخصلتين، ويكفي في التحذير منهما أنهما يؤديان إلى الكفر والتعبير بـ"في" يرشد إلى أن المقاومة: لا بد أن تكون شديدة وصادقة وخالصة لوجه الله تعالى، وقوله: "في الناس" إشارة إلى أن هذا من الطبيعة البشرية المنحرفة التي يجب التصدي لها، والمسلم أولى من غيره بهذا التصدي وهذه المقاومة؛ حتى لا يؤول أمره إلى الكفران والخسران.

و"الكفر" بالضم: ضد الإيمان، وكفر نعمة الله: جحدها وسترها، والكفر: هو ستر الشيء، ومن معاني: الكافر، الليل، والسحاب المظلم، وهما يحجبان النور، وينشران الفزع، ويستران الأشياء.

والطعن في النسب: كفر: لأنه يحجب الحقيقة، وينكر الأنساب الصحيحة، ويشكك في الأرحام، وينشر الفتنة بين الأنام، وكذلك النياحة على الميت: كفر بنعمة الله الذي خلق الموت والحياة، وفيه اعتراض على قضاء الله تعالى وقدره، وعلى مشيئته في عباده التي لا رادَّ لها، فهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

وفي الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب، والنياحة على الميت ومعنى (هما بهم كفر) فيه أقوال أصحها ما يأتي:

١- إنه معناهما: أنهما من أعمال الكفر، وأخلاق الجاهلية.

٢- إنهما يؤديان إلى الكفر.

٣- إنهما من كفر النعمة، والإحسان.

٤- إن ذلك في المستحل لهما[١].

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) شرح صحيح مسلم ٥٧/٥، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٦٠/٤.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٦٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب:

لقد رهب النبي ﷺ من الجزع عند موت أحد الأحبة في كثير من أحاديث هذا الباب، لأن ذلك فيه تشبه بالجاهلية، حيث كانت النساء تنوح على الميت، ويندبن، ويشققن الجيوب ويلطمن الخدود، ويحلقن شعورهن، ويسوِّدن وجوههن، وما إلى ذلك من ضروب الجزع والجهل التي تزداد بازدياد أهمية الميت عند أهله، حتى جاء الإسلام، وأبطل هذه العادات، وكان لابد من استخدام أسلوب الترهيب في تخويف هؤلاء من المسلمين من عادات الجاهلية في الجنائز، يقول ﷺ: «الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ»، ويقول ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود.....».

وكذلك كان في الجاهلية مهنة تمتهنها بعض النساء وهي النائحة، التي تندب الميت وتأتي بالمنظومات في رثائه وتلطم خدها، والنساء يفعلن مثلها، فرهَّب النبي ﷺ من تفعل هذه الفعلة، يقول ﷺ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، ....». وذلك الجزاء من جنس عملها، حيث كان من جملة أعمالهن تلطيخ الوجه بالطين والسواد حزنًا على فقد الميت.

إن الانتهاء عن مثل تلك التصرفات لا يجدي مع أصحابها الإقناع الفكري المجرد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وإن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة لهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمرغبات، وذلك لأنهم قد يكونون ممن يؤثرون اللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة.... لكنهم إذا مثلت أمامهن المخاوف المحققة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا[1].

ثانيًا: التربية على اتباع سنة النبي ﷺ:

وذلك ما فعله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، «عندما مرض وغشي عليه، فصرخت زوجته وولولته، فلمّا أفاق ووجدها على هذه الحال قال: أنا برئ ممن برئ منه رسول

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٥١.

الله ﷺ»، وذلك تأسيًا واقتداءً بسنته ﷺ؛ حيث تبرأ ﷺ من التي ترفع صوتها بالنياحة، وكذلك التي تحلق شعرها وتشق ثوبها جزعًا على فراق الميت، لأن ذلك من علامات الجاهلية، وقد بعث النبي ﷺ لمحو هذه الكفريات من الأمة، وتعليمهم الصبر عند فقد الميت.

إن التأسي بالنبي ﷺ هو أن تفعل مثلما فعل على الوجه الذي فعله من وجوب أو ندب وأن نترك ما تركه، أو نهى عنه من محرم أو مكروه، كما يشتمل التأسي به التأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ﷺ وعلى ذلك فالتأسي والاقتداء شامل كافة أمور الدين؛ فإذا قال الرسول ﷺ قولاً قلنا مثل قوله، وإذا فعل فعلاً فعلنا مثله، وإذا ترك شيئًا تركناه فيما لم يكن خاصًا به، وإذا عظم شيئًا عظمناه، وإذا حضر شيئًا حضرناه، وإذا رضي لنا أمرًا رضينا به، وإذا وقف بنا عند حد وقفنا عنده ولم يكن لنا أن نتقدم عليه أو نتأخر عنه[1].

ثالثًا: التربية بالوصية:

ولأهمية هذا الأمر -الصبر عند المصيبة وفقد الأحبة- فإن النبي ﷺ نوَّع في أساليب تربية صحابته على التزامه، ومن هذه الأساليب أسلوب الوصية، يظهر ذلك في قول أم عطية رضي الله عنها، حيث قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح، وقول: امرأة من المبايعات: وكان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ ..أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجهًا...، وكذلك نهى عن سائر مظاهر الجزع المنسوب إلى الجاهلية، لأن المسلم لا تنتهي عنده الحياة بالموت، بل هناك بعث وجنة ونار، وهو محاسب على كل ما يفعل من خير أو شر.

إن الوصية أشبه بالعهد الذي يؤخذ على الأفراد والجماعات، وهي قليلة التكرار، مما يجعلها بعيدة النسيان، لاسيما إذا صدرت من محب له في القلب مكانة وفي النفس قبول، كما أنها كثيرًا ما تقع طلبًا من الموصي وتركز على أمور جوهرية لها علاقة بطبيعة الموصي، ومحتملة الوقوع في المستقبل[2].

---

(١) محبة الرسول ﷺ، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص١٢٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٧٤.

رابعًا: التربية على الصبر عند الشدائد:

إن سائر أحاديث هذا الباب تلمح إلى قيمة الصبر، وربما صرحت به تصريحًا، وخاصة عند أشد المصائب على الإنسان، وهي فقد الأحبة بالموت، فقد نهى ﷺ عن الجزع وسائر صوره من شق الجيوب ولطم الخدود وحلق الشعر بالنسبة للنساء، والتلطخ بالطين حزنًا؛ لأن الصبر هو العلاج الأمثل لتلك المصيبة ولغيرها.

يقول الحسن بن وهب في فضل الصبر: أما الصبر فمصير كل ذي مصيبة، غير أن الحازم يقدم ذلك عند اللوعة طلبًا للمثوبة، والعاجز يؤخر ذلك إلى السلوة فيكون مغبون نصيب الصابرين، ولو أن الثواب الذي جعل الله لنا على الصبر كان على الجزع لكان ذلك أثقل علينا؛ لأن جزع الإنسان قليل وصبره طويل، والصبر في أوانه أيسر مؤونة من الجزع بعد السلوة، ومع هذا فإن سبيلنا من أنفسنا على ما ملكنا الله منها ألا نقول ولا نفعل ما كان لله مسخطًا، فأما ما يملكه الله من حسن عزاء النفس فلا نملكه من أنفسنا[1].

ولتسهيل المصيبة على المرء فعليه أن يستشعر ما تعلمه نفسه من نزول الفناء، وتقصي المسار، وأن للنفس آجالاً منصرمة ومددًا منقضية؛ إذ ليس للدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء... وأن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا، حتى تعصب بفراقها ترحًا، فعلى قدر السرور يكون الحزن، وقد قيل: المفروح به هو المحزون عليه[2].

خامسًا: التربية على ضبط النفس:

إن المسلم ينبغي أن يضبط نفسه في حالات المصائب، وفضلاً عن الصبر والاحتساب، وانتظار أجر الله على الصبر على المصائب، فإن المسلم له مظهر خارجي يتسم بضبط النفس، وصونها عن الانهيار، وما وراءه من التفوه بألفاظ النياحة والثكل، والتي يتخذها البعض طرائف ونكات تطلق على أهل الميت بعد ادمال جراح

(١) موسوعة مكارم الأخلاق، ٤٢/٣٣.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص٢٨١ - ٢٨٣.

الفراق، التي دفعتهم إلى الخروج عن القواعد والأعراف الإسلامية، التي تقتضي أن يكون المسلم هادئًا ما أمكنه، محافظًا على سكينته ووقاره ولهذا فقد روي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ علينا أن لا نخمش وجهًا، ولا ندعو ويلاً...»، وكل ذلك لأن المصيبة ستزول بمرور الزمن، ولهذا فينبغي أن لا تنسى المرء نفسه، ويتصرف على أنها نهاية العالم، مع أنه قد يأكل ويشرب ويضحك بعد أيام أو شهور من وقوع المصيبة.

إن المسلمين إذا أصابتهم مصيبة "لم يملكهم الغم والحزن، وانتقلوا عن ذلك إلى الإقبال على مَا يهمهم مِن الأمور، ولم يلهمهم التحرُّق على ما فات"[1]، يقول تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].



(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١١/٢٧/٤٠٩.

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

٣٠٣- باب النَّهي عن إتيان الكُهّان والمنجِّمين
والعُرّاف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك

الحديث رقم (١٦٧٠)

١٦٧٠- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل رَسُولَ اللهِ ﷺ أناسٌ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ: ((لَيْسُوا[١] بِشَيءٍ)) فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ إنَّهُمْ يُحَدِّثُونا أحْيَاناً بِشَيءٍ، فَيَكُونُ حَقّاً؟ فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ)) متفق عليه[٢].

وفي رواية للبخاري[٣] عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها سمعتْ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((إنَّ المَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّماءِ، فَيَسْتَرِقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ، فَيَسْمَعُهُ، فَيُوحِيَهُ إلَى الكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ)).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الكهان: جمع كاهن: وهو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل[٤].

فيقرها في أذن وليه: يلقيها[٥].

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ليس) بالإفراد، والمثبت عنده برقم (٦٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٢) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨/١٢٣).

(٣) برقم (٣٢١٠).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك هـ ن).

(٥) رياض الصالحين ٥٧٣.

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفتتح به النووي باب: النهي عن إتيان الكهان والمنجمين والعراف، وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير وغير ذلك.

ويتسم الحديث بصيغة الحوار، والسؤال والجواب، وتلك السمة الأسلوبية إحدى سمات توصيل المعاني في البيان النبوي، وهي تبعث عن التشويق، وتكون ثمرتها الإقناع.

وأول ما يلفت النظر في الجملة الأولى: وهي من كلام عائشة رضي الله عنها: تقديم لفظ رسول الله ﷺ وهو مفعول به لأنه المسؤول، على لفظ "أناس" وهو الفاعل: وهذا التقديم لشرف رسول الله ﷺ، وتعظيمه، وتوقيره، ولأنه هو المؤثر والفاعل الحقيقي لأنه هو الذي يجيب ويفيد فهم يجهلون حقيقة أمر الكهان، والمصطفى ﷺ يعرف حقيقتهم .

والكهان: جمع كاهن: وهو من يخبر عن بعض المغيبات لأن له ولياً من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، كما ورد في سورة الصافات، أو بما يطرأ ويكون في أقطار الأرض، وما خفى عنه من قرب أو بعد، وقول رسول الله ﷺ: "ليس بشيء" فيه تفنن في التعبير، وجمال في الصياغة، وسر ذلك أمران: وهما أنه جاء بالإجابة في صيغة المفرد وليس الجمع: فلم يقل: ليسوا بشيء، وإنما قال: "ليس بشيء"، والمراد أن كلام الكهان لا قيمة له لأن الكذب هو الغالب عليه، وزيادة الباء في قوله "بشيء"، تفيد الاستقصاء والتهوين والتحقير من شأن كلام الكهان، والتأكيد في قولهم: "إنهم يحدثونا"، يفيد إصرار هؤلاء الناس على أن للجن وللكهان أثراً وقوة مؤثرة، ولكن قولهم: "أحياناً" يدل على أن صدق الكهان والحق في كلامهم ليس دائماً ولا مطرداً.

وقول الرسول ﷺ "تلك الكلمة"، إشارة إلى أهمية الكلمة أو الكلام الذي يخطفه الشيطان: لأنه يفتن به الناس، ويكذب به عليهم، والكلمة: المراد بها الكلام، لأن الكلمة في اللغة قد يقصد منها مجموع الكلام كما قال ابن مالك، "وكلمة بها كلام قد يُؤم" والعطف بالفاء في قوله ﷺ (يخطفها، فيقرها، فيخلطون معها) يصور سرعة حركة "الجني" وسرعة توصيله الكلام إلى الكهان الذين يزعمون قول الصدق، والعلم بالغيب، وبئس ما يزعمون.

فقه الحديث

وفي الحديث: النهي عن إتيان الكهان، وتصديقهم فيما يقولون، وهو حرام بإجماع المسلمين[١].

ولعل السبب في النهي عن إتيان الكهان، هو أنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإجابة، فيخشى الفتنة على الإنسان بسبب ذلك، ولأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمور الشرع[٢].

والسبب في إصابة الكاهن في بعض الأحيان، هو أن الجني يلقى إليه الكلمة التي يسمعها استراقاً من الملائكة فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادراً، وخطؤه هو الغالب[٣].

ويجب على ولي الأمر من محتسب وغيره أن يمنع الناس من التكسب بالكهانة وينكر عليهم أشد النكير، بل ويؤدبه إذا أخذ مقابلاً لذلك، كما يؤدب المعطي[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح لحقائق الأمور.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: كذب الكهان وتلبيسهم للأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تساعد على توضيح وبيان

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٥/٢٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٠/٢١٩.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٣/١٤١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٢١٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٥/٢٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٠/٢١٩.

الحقائق للمدعوين، وتفتح حواراً بين الداعية والمدعو (وللسؤال والجوب قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين فطبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية وبقدرته على فهم أسئلتهم فهماً دقيقاً فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفاً لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه)[١]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[٣] وقوله جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٤].

ثانياً- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح لحقائق الأمور:

حيث جاء في الحديث "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة" والبيان والإيضاح لحقائق الأمور من أهم واجبات الداعية وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث ما يفعله الكهان قال ابن حجر: (قال الخطابي: بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحياناً إنما هي لأن الجني يلقي إليه الكلمة التي يسمعها استراقاً من الملائكة فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادراً وخطؤه الغالب)[٥].

وقال النووي: (وقوله "تلك الكلمة من الجني يخطفها" أي الكلمة المسموعة من الجن أو التي تصح مما نقلته الجن)[٦].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٠/١٠.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي .

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن الملائكة تنزل في العنان..." وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو بما يقول الداعية، وتبين له مدى صدقه فيما يقول. جاء في البلاغة الواضحة: (وللمخاطب ثلاث حالات:

١-أن يكون خالي الذهن من الحكم، وفي هذه الحال يلقى إليه الخبر خالياً من أدوات التوكيد.

٢-أن يكون متردداً في الحكم طالباً أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يحسن توكيده له ليتمكن من نفسه.

٣-أن يكون منكراً له، وفي هذه الحال يجب أن يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر على حسب إنكاره قوة وضعفاً)[1]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[3].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: كذب الكهان وتلبيسهم للأمور:

حيث جاء في الحديث "فيخلطون معها مائة كذبة" وقوله "فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم". قال المازري: (وأما الكهان فهم قوم يزعمون: أنهم يعلمون الغيب بأمور تلقى في نفوسهم وقد أكذب الشرع من ادّعى علم الغيب ونهى عن تصديقهم.

وقد ذكر في كتاب مسلم عن النبي ﷺ وجه إصابة بعضهم. في بعض الأحايين، وأنه من استراق السمع يسترقه ولي الكاهن ويوصله إليه.

وأما التنجيم: فمن اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها، وكل فلك يفعل فيما تحته، حتى ينتهي الأمر إلينا وسائر الحيوان والمعادن والنبات، ولا صنع للباري سبحانه وتعالى في ذلك؛ فإن ذلك مروق في الإسلام.

---

(١) البلاغة الواضحة، علي الجارم، ومصطفى أمين، ص ١٨٨.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

وأما قوله ﷺ: "يُقرُّها في أذن وليه قرَّ الدجاجة".

يقال: قررت الخبر في أذنه أقره قراً إذا أودعته. وقرَّ الطائر قريراً: صوّت، قاله بعضهم. وقال غيره: قرت الدجاجة قراً وقريراً.

وفي رواية الفربري عن البخاري: قر الدجاجة -بكسر القاف- وهو حكاية صوتها. قال الخطابي في غريبه: قرَّت تقِر قراً وقريراً، إذا رجَّعت فيه.

قيل: قرقرت قرقرةً، وقرَّ قريراً.

قال الشاعر:

وإن قَرْقَرتْ هاجَ الهوى قَرْ قَريرُها

وقال آخر:

صوتُ الشّقِرَّاقِ إذْ قال قِرِرْ

فأظهر التخفيف على الحكاية.

قال: والمعنى أن الجِنِّي يقذفُ بالكلمة إلى وليه الكاهن فيتسامع بها الشياطين كما تُؤذّن الدجاجة بصوتها صواحباتها فتتجاوب.

قال: وفيه وجه آخر: وهو أن تكون الرواية: كقر الزجاجة. يدل عليه قول البخاري "فتقرُّها في أذنه كما تقرُّ القارورة". فذكر القارورة في هذه الرواية يدل على ثبوت الرواية بالزجاجة)[1].

قال القاضي عياض: (قوله: كنا نأتي الكهان، قال: "فلا تأتوا الكهان"، قالوا: كنا نتطير، قال: "ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم": أي لا يصدنكم عما كنتم تريدون فعله. قيل: دل من هذا أن النبي ﷺ إنما نهى عن الطيرة أن تعتقد أن لها تأثيراً، ويصمم على العمل بها عمل أهل الجاهلية، وأن نفيه لها نفي لحكمها لا نفي لوجودها إذا كانت الجاهلية تعتقدها، وتدين بها، ويجدون تأثيرها مما يقع في أوهامهم وتصادف قدر الله وما أمر الكهان.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٠ بتصرف.

وقوله في الحديث الآخر: إنهم يحدثونا بالشيء فنجده حقاً، قال: "تلك الكلمة الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه ويزيد فيها مائة كذبة": كذا لهم، وهو الصواب. وفي رواية: "يحفظها"، والأول المحفوظ ونص كتاب الله، قال الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾[1].

والكهانة كانت في العرب على أربعة ضروب[2]:

أحدهما: أن يكون له إنسان أي من الخير[3] فيخبره بما يسترق من السمع من السماء، وهذا القسم قد بطل منذ بعث الله محمداً ﷺ، كما نص الله تعالى في الكتاب[4].

الثاني: أن يخبره بما يطرأ في أقطار الأرض وما خفي عنه بما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده ونفت هذا كله المعتزلة وبعض المتكلمين وأحالوه، ولا إحالة ولا بعد في وجود مثله، لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عام في تصديقهم والسماع منهم.

الثالث: التخمين والخرز، وهذا يخلق الله منه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب في هذا الباب أغلب.

ومن هذا الفن العرافة، وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة وهذا الفن هي العيافة بالياء، وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة عندهم، ويعلمها في أكثر كتبهم.

وقوله فيهم: "ليسوا على شيء" دليل على بطلان قولهم، وأنه لا صحة ولا حقيقة له، وفيه جواز الغلو في اللفظ وإطلاق مثل هذا اللفظ العام، والمراد به الخاص من أحوالهم

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٠.

(٢) ما ذكره القاضي ثلاثة وليس أربعة ونص على هذا النووي. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٣) المراد: أن يكون للإنسان ولي من الجن. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٤) انظر: الآيات: ٦-١٠ من سورة الصافات، والآيتان: ٨، ٩ من سورة الجن.

لا ذواتهم؛ لأنهم أشياء بلا شك، ولا يعد هذا كذباً)[١]. قال النووي: (وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم والله أعلم)[٢].

قال القاضي عياض أيضاً: (وقوله: "فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة" قيل: إن معناه: أن الجني يقرها في أذن وليه الكاهن يسامع بها الشياطين، كما تؤذن الدجاجة بصوتها صواحبها، فيتجاوبن، وذلك من شأنهن قوله وأما ما ذكر عن الفربرى أنه رواه: "قر" بكسر القاف، فلم يضبطه عن الفربرى من جميع الطرق ولا عن غيره، ولا يصح الكسر فيه ولو صحت به الرواية، لكنه وضع في كتب بعض الشيوخ كما قال.

وقوله: "فيقذفها في أذن وليه": أي بلغتها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٣]. قال نفطويه: أن يلقي الحق في قلب من يشاء، ويحتمل أن يكون معناه: أن يقول في أذن وليه ما لا يعلم، ولا حقيقة عنده منه إلا ما استرق من كلمة من قصة لا يدري شرحها وتمامها، قال الله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٤]، أي يتخرصون ويقولون ما لا يعلمون.

وفي الحديث الآخر من رواية صالح عن الزهري: "يقرفون فيه ويزيدون فيه" بالذال، هذه رواية الجلودي وغيره، وهي بمعنى ما تقدم من التخوض، وقول ما لا يعلمون.

وفي رواية ابن ماهان من طريق الهوزني: "ويقرفون" بالراء، وكذا جاء بغير خلاف في رواية الأوزاعي ومعقل، ومعناه عندي: أن يكون من الخلط. قال صاحب العين: القرف: الخلط، أي يخلطون فيها من الكذب، كما قال ويزيدون)[٥].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧/١٥٢-١٥٤ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٣) سورة سبأ، آية: ٤٨.

(٤) سورة سبأ، آية: ٥٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧/١٥٨-١٥٩.

قال القرطبي: (والكهان: جمع كاهن، ككتَّاب: جمع كاتب، والكهانة ادِّعاء علم الغيب وإذا كان أمرهم كذلك فسؤالهم عن غيبٍ ليخبروا عنه حرام، وما يأخذون على ذلك حرام، ولا خلاف فيه، لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه.

قال أبو عمر: ويجب على من ولي الحسبة أن يقيمهم من الأسواق، وينكر عليهم أشدَّ النكير، ولا يدع أحداً يأتيهم لذلك؛ وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور؛ فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدرٍ ليغتر به بعضُ الجهال، ولقد انخدم كثيرٌ من المنتسبين للفقه والدين، فجاؤوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السَّراب، ومن أديانهم على الفساد، والضلال.

وقوله: "تلك الكلمة يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه" أي: يرميها في أذنه، ويسمعه إياها. وفي الرواية الأخرى: "فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة" أي: يضعها في أذنه. يقال: قررت الخبر في أذنه أقره قراً. ويصح أن يقال: ألقاها في أذنه بصوت. يقال: قرَّ الطائر: صوت. و"قرَّ الدجاجة" [بكسر القاف-حكاية: صوتها. قال الخطابي: قرَّت الدجاجة] تقرُّ قراً. وقريراً: إذا رجعت فيه.

قال: والمعنى أن الجني يقذف الكلمة إلى وليه الكاهن فيتسامع بها الشياطين، كما تؤذن الدجاجة بصوت صواحباتها فتتجاوب.

قلتُ: والأشبه بمساق الحديث أن يكون معناه: أن الجني يلقي إلى وليه تلك الكلمات بصوت خفي متراجع يُزَمزِمُه، ويُرَجِّعه له كما يلقيه الكهان للناس؛ فإنهم تُسمع لهم زمزمة، وإسجاع، وترجيع، على ما عُلم من حالهم بالمشاهدة والنقل. ولم يختلف أحدٌ من رواة مسلم أن الرواية في هذا اللفظ: قرَّ الدجاجة: يعني به الطائر المعروف. واختلف فيه عن البخاري. فقال بعض رواته: كقر الزجاجة بالزاي. قال الدارقطني: هو مما صحفوا فيه. والصواب: الدجاجة -بالدال-. وقيل: الصواب الزجاجة؛ بدليل ما قد رواه البخاري: فيقرُّها في أذنه؛ كما تُقِرُّ القارورة، وهي بمعنى الزجاجة. أي: كما يسمع صوت الزجاجة إذا حكت على شيء، أو إذا ألقي فيها ماء، أو شيء[1].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦٣٢-٦٣٤ بتصرف.

قال ابن حجر: (ومن أنواع الكهانة ما يتلقونه الكهان من الجن ومنها ما يخبر الجني به من يواليه ومنها ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ومنها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر وكل ذلك مذموم شرعاً.

والكهانة: هي ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب والأصل فيها استراق الجني السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب بالحصى والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه وقال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم)[1].

وقال ابن حجر أيضاً: (وقوله في الحديث "فيخلطون معها مائة كذبة" هو دال على أن ذكر المائة للمبالغة لا لتعيين العدد)[2].

وجاء في الموسوعة الفقهية الميسرة: (الكهانة هي الإخبار بالمغيبات. والكهانة على نوعين:

أ- كهانة مبنية على أسس علمية، وهي مشروعة، كالتكهن بنزول المطر غداً، أو بارتفاع درجات الحرارة، ونحو ذلك، وذلك بناء على دراسة الأحوال الجوية، وقد كان هذا في القديم يعتبر كفراً، لأنه لم يكن مبنياً على أسس علمية.

ب- كهانة مبنية على أسس غير علمية، كضرب الحصى، وقراءة الرمل، وقراءة الكف، والتنجيم، وإخبار الجن، ونحو ذلك.

حكمها: هذا النوع الثاني من الكهانة محرم، ويبنى على كونه محرماً ما يلي:

١- كل كسب يأتي من طريقه فهو كسب حرام، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن[3].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٧/١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه ٢٣١/١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٦١، ومسلم ١٥٦٧.

٢- ولا يجوز لمسلم أن يأتي كاهناً ليسأله عن أمر من أمور الغيب، لقوله ﷺ: ((من أتى كاهناً أو عَرَافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد))[١].

٣- كفر الكاهن: الكاهن الذي يدعي علم الغيب من غير اعتماد على أسس علمية فإنه كافر، لأن الله تعالى أخبرنا أنه لا يظهر علمه لمخلوق إلا أن يكون معجزة لنبي، قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[٢]، ولكنه لا يقام عليه حد الردة حتى يستتاب، فإن تاب وإلا قتل)[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢ رقم ٩٥٣٦، وقال محققو المسند: حديث حسن رجاله ثقات رجال الصحيح، ٣٣١/١٥.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ، ٢٧.

(٣) الموسوعة الفقهية الميسرة، د. محمد رواس قلعة جي ١٦٦١/٢-١٦٦٢.

الحديث رقم (١٦٧١)

١٦٧١- وعن صَفيَّةَ بنتِ أبي عُبيدٍ، عن بعض أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، ورَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: ((**مَنْ أتَى عَرَّافاً فَسَألَهُ عنْ شَيْءٍ (فَصَدَّقَهُ)** [١]**، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أرْبَعِينَ يَوماً**)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

صفية بنت أبي عبيد: صفية هي بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفية امرأة عبدالله بن عمر بن الخطاب، ذكرها ابن عبدالبر في الاستيعاب فجعلها من الصحابة، وقال ابن الأثير: أدركت النبي ﷺ ولا يصح لها سماع من النبي أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: كأنها لم تميز إلا بعد الوفاة النبوية أ. هـ.

وترجم لها المزي في تهذيب الكمال، فذكر أنها روت عن ثلاث من أزواج النبي ﷺ هن: حفصة بنت عمر وعائشة وأم سلمة[٣].

غريب الألفاظ:

عَرَّافا: هو: المنجم أو الحازي الذي يدعي عِلم الغيب - وقد استأثر الله تعالى به[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يرسى قاعدة شرعية وهي عدم تصديق العرافين، لأن تصديقهم يحبط عمل الإنسان: وأول مظاهر الإحباط هو: عدم قبول صلاته أربعين يوماً،

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند المنذري في ترغيبه، وتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (١٢٥/٢٢٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٧٥).

(٣) الطبقات الكبرى (٤٧٢/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩١٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٧٢/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧٢٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٤٦/٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٧٩/٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ف).

والحديث السابق جاء في أسلوب المحاورة، والسؤال والجواب، أما هذا الحديث فقد ورد في صيغة الجواب والشرط، وهذه الصيغة تفصح عن أن الجزاء من جنس العمل، فالناس مجزيون بأعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والإيجاز هو: سمة الحديث، لأنه يتكون من جملة شرطية واحدة، وجملة: فعل الشرط تتضمن ثلاثة أفعال ماضية متوالية يجمع بينها: العطف بالفاء: وهو يصور تتابع الحركة، وسرعة الذهاب والسؤال والتصديق: ولنتأمل هذا الإيقاع الحركي المصور لهذا المشهد المتنامي: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل صلاته.... الحديث".

وجواب الشرط: هو الجزاء الأوفى المناسب لهذا السلوك الشائن: حيث بدأ الجواب: بالنفي... "لم تقبل" والنفي هنا بـ"لم". وهي حرف نفي وقلب وجزم، فتصديق الكاهن في دائرة النفي، وواقع السائل المصدق قد تغير وانقلب إلى الضد من الرضا والقبول إلى الإحباط وعدم قبول صلاته أربعين يوماً، وهذا حكم جازم وقرار حاسم، والتنكير في قوله: "صلاة"، يفيد العموم حتى يشمل عدم القبول لجميع أنواع الصلوات: الفرض والنفل والتطوع، وجميع أنواع السنن. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونسأله العون والسداد والهدى والرشاد.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه حرمة إتيان العراف[1]، وهو من جملة أعمال الكهانة المنهي عنها في الحديث السابق رقم (١٦٧٠).

ولعل معنى عدم قبول صلاته، أنه لا ثواب عليها، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة، شأنها في ذلك شأن الصلاة على الأرض المغصوبة، فهي مسقطة للقضاء، ولكن لا ثواب فيها[2].

---

(١) الفروع، ابن مفلح ١٧١/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٩/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ٢٢٧/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٦٨/٧-٣٦٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٢٧/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٦٨/٧، ٣٦٩.

والسبب في تحريم إتيان العراف، وبطلان أخذ الأجرة على ذلك، هو أن ذلك من باب أكل المال بالباطل، ويدخل في ذلك كل ما يمنع منه الشرع من الرجم بالغيب(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرمة إتيان العرافين.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: التحذير من أنواع الشرك ومبطلات العمل الصالح.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب:

١-الشرط: حيث جاء في الحديث "من أتى عرافاً فسأله..." وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو وتشده إلى معرفة الجواب، وتربط للمدعو بين الشرط وجوابه فالجزاء من جنس العمل ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢) وقوله جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٣).

٢-الترهيب: حيث جاء في الحديث "لم تقبل له صلاة أربعين يوماً" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تردع المدعو عن الوقوع في المخالفات الشرعية، والمحظورات الدينية (إن للترهيب أهمية كبيرة في الدعوة لأن هنالك بعضاً من الناس وأصنافاً منهم لا يجدي فيهم الترغيب والوعود الجميلة وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق وإلزامها كلمة التقوى فكان الترهيب والتخويف مناسباً لذلك)(٤). ومن صور استعمال أسلوب الترهيب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

---

(١) شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ٣/١٣٥.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٣) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٤) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ١٩٤.

﴿ٱلْعَذَابِ﴾(١) وقوله جل شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرمة إتيان العرافين:

حيث جاء في الحديث "من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً". قال النووي: (وأما العراف فهو من جملة أنواع الكهان قال الخطابي وغيره: العراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما، وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة)(٣).

وقال ابن عثيمين: (والكهان هم أناس من بني آدم لهم أولياء من الجن يخبرونهم بما يستمعون من الملائكة وأخبر النبي ﷺ أن هذا الحق الذي يقع يكون ممزوجاً بمائة كذبة. وهؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم وألا نصدقهم ومن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ومن هذا يتبين حرمة أن يأتي الإنسان الكهان فيصدقهم كمن أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يوماً مجرد ما يسأل العراف ومنه الكهان لا تقبل له صلاة أربعين فعل يوماً فإن فقد كفر بما أنزل محمد ﷺ)(٤).

وقال ابن عثيمين أيضاً: (فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة)(٥).

---

(١) سورة غافر، آية: ٤٦.

(٢) سورة المطففين، آية: ١٥، ١٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٢.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٧٤٩/٢.

(٥) القول المفيد ٥٢/٢-٥٥ بتصرف.

وقال ابن باز: (فالواجب على المسلمين الحذر من ذلك والتواصي بتركه، والاعتماد على الله سبحانه، والتوكل عليه في كل الأمور، ولا بأس بتعاطي الرقى الشرعية والأدوية المباحة والعلاج عند الأطباء الذين يستعملون الكشف على المريض والتأكد من مرضه بالأسباب الحسية والمعقولة)[١].

قال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: (ومما ينبغي التنبيه عليه موضوع الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض مدَّعي الاتصال بالجن، والافتراءات على الله التي يفترونها، فينسبون إلى الجن بعض علم الغيب، وينقلون عنهم كذباً يزعمونه من علم الغيب، ويتلاعبون بعقول السذج من النساء وصغار العقول. أو يدّعون قدرة الجن على النفع أو الضرر، والجن أنفسهم لا حول لهم ولا طَوْل، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا أن يشاء الله.

وقد بيَّن القرآن أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجال من الجن لم ينفعوهم شيئاً، بل زادوهم غياً وضلالاً، وبعداً عن الأمن الذي يرجونه منهم.

كما نددت الأحاديث الكثيرة بالذين يصدقون الكهنة والمنجمين، ويعتمدون عليهم، ويرجون نفعهم، أو يخشون ضرهم، باعتبار أن ذلك شرك بالله، وإثم عظيم.

فعن حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة))[٢].

فهؤلاء المنجمون والمنجمات، والمشعوذون والمشعوذات، والساحرون والساحرات، الذين ينسبون للجن النفع أو الضرر، ويتحدثون عنهم بالمغيبات إنهم -وإن صدقوا في بعض ما يخبرون به- كذابون دجالون، عصاة لله والرسول، يريدون أن يستولوا على المغفلين ضعفاء الإيمان، ليضللوهم، ويسلبوا لهم أموالهم بغير حق؛ فالاستعاذة لا تكون إلا بالله، والاستعانة لاتكون إلا بالله.

---

(١) إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدّق الكهنة والعرافين، عبدالعزيز بن باز ص ٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣٠.

وإن يكن للجن شيء من القوة المادية فيما بينهم، فقد صرفهم الله في مجرى العادات عن أن يكون لهم سلطان على الإنس في نفع أو ضر، إلا أن يشاء الله شيئاً من ذلك، ولعل تسلط بعضهم إنما يكون على من يستعيذ بهم، أو يتخوف منهم ويخشاهم، دون أن يلتجئ إلى الله مستعيذاً به من شرهم، ومن شر كل ذي شر)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (أجمع الفقهاء على أن التكهن والكهانة بمعنى ادعاء علم الغيب والاكتساب به حرام، كما أجمعوا على أن إتيان الكاهن للسؤال عن عواقب الأمور حرام، وأن التصديق بما يقوله: كفر، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ))[٢]، ونهى عن أكل ما اكتسبه بالكهانة، لأنه سحت، جاء عن طريق غير مشروع، كأجرة البغي، روى أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ((نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن))[٣]، وهو ما يأخذه على كهانته، وتشمل الكهانة كل ادعاء بعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، ويشمل اسم الكاهن: كل من يدعي ذلك من منجم وعراف وضراب بالحصباء ونحو ذلك.

وكان للعرب في الجاهلية كهانة قبل مبعث الرسول ﷺ، وكان لهم كهنة، فكان منهم من يزعم: أن تابعاً من الجن ورِئياً، يلقي إليه الأخبار.

ويروى أن الشياطين كانت تسترق السمع فتلقيه إلى الكهنة فتزيد فيه ما تزيده فيقبله الكفار منهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تصعد الشياطين أفواجاً تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته، أو جنبه حيث يشاء الله منه فيلتهب فيأتي أصحابه وهو يلهب فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليه أضعافه من الكذب فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢ رقم ٩٥٣٦ وقال محققو المسند: حديث حسن رجاله ثقات رجال الصحيح، ٣٣١/١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٦١، ومسلم ١٥٦٧.

قد كان، صدقوهم بما جاءوهم من الكذب[1]، فلما بعث النبي ﷺ وحرست السماء بطلت الكهانة بالقرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل، أطلع الله نبيه ﷺ بالوحي على ما يشاء من علم الغيوب التي عجزت الكهانة عن الإحاطة به وأغناه بالتنزيل، وأزهق أباطيل الكهانة.

وأبطل الإسلام الكهانة بأنواعها، وحرم مزاولتها وقرر أن الغيب لا يعلمه إلا الله، فقال عز من قائل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]. وأما حكم الكاهن من حيث الردة وعدمها وكذب مزاعم الكهنة أن الشياطين تأتي لهم بخبر السماء قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[3] وأما حكم الكاهن من حيث الردة وعدمها فقد قال الفقهاء: الكاهن يكفر بادعاء علم الغيب، لأنه يتعارض مع نص القرآن، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[4]، أي عالم الغيب هو الله وحده فلا يطلع عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه للرسالة، فإنه يطلعه على ما يشاء في غيبه[5].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: التحذير من أنواع الشرك ومبطلات العمل الصالح:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث جاء الإسلام لتنقية عقيدة المسلم من أنواع الشرك والضلالات الاعتقادية "لقد حرص الإسلام في كل تشريعاته على سلامة العقيدة في قلب المسلم ليكون دائماً وأبداً متصلاً بالله، معتمداً عليه، مقراً لله بالربوبية، مستعيناً به على شدائد الحياة لا يتوجه لغيره في دعاء، ولا يقر لسواه بأي تأثير، أو تحكم في قانون من قوانين الطبيعة التي خلقها الله تعالى وسيرها بعلمه

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١/١٤.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١١، ٢١٢.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٥/١٧٢-١٧٣.

وقدرته وإرادته فإن زعم إنسان أنه يعلم الغيب باتصاله بالكواكب، وتعظيمه لها أو اتصاله بالجن والشياطين، ويستطيع بذلك أن يؤثر في قوانين هذه الحياة يكون بذلك قد خالف شرعة الله التي أوضحها في كتابه أو تجاوز الحدود التي وضعت)[١].

وقال د. صالح الفوزان: (والكهانة والعرافة أعمال شيطانية محرمة تخل بالعقيدة أو تناقضها لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية فمن ادعى علم الغيب ومشاركة الله عز وجل في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدق من يدعي ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه والكهانة لا تخلو من الشرك، لأنها تقرب إلى الشياطين بما يحبون، فهي شرك في الربوبية من حيث ادعاء مشاركة الله في علمه، وشرك في الألوهية من حيث التقرب إلى غير الله بشيء من العبادة)[٢].

قال القاضي عياض: (وفي الحديث قوله: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لن تقبل له صلاة أربعين يوماً" تقدم معنى العرافة، وأنه من الكهان. قال الهروي: العراف: الحاذي والمنجم الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله به.

وأما معاقبته بترك قبول صلاته، فمذهب أهل السنة: أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا يحبطها شيء إلا الكفر، والمراد بهذا [القبول] -والله أعلم- قبول الرضى وتضعيف الأجر، ولا قبول الأداء وسقوط العهدة.

وأما اختصاصه بأربعين ليلة في قبول صلاته، وقد جاء مثل هذا في شارب الخمر[٣] - فمن أسرار الحكمة الشرعية، وقد جاء عدد الأربعين في تنقل أطوار الخلق في الرحم؛ من النطفة، والعلقة، والمضغة[٤]، وجاء الحد في قص الأظافر والشارب، وحلق العانة أربعون يوماً[٥]، فيحمل في شارب الخمر أنه ينتقل اللحم المتولد عما شرب من الخمر وتبدله بغيره.

---

(١) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الشيخ محمد علي الصابوني ٨٧/١.

(٢) عقيدة التوحيد، د. صالح الفوزان، ١٠١، ١٠٢.

(٣) جاء في الحديث "من شرب الخمر فسكر لم تقبل صلاته اربعين ليلة.." والحديث اخرجه احمد في مسنده ١٨٩/٢ رقم ٦٧٧٣. وقال محققو المسند: صحيح لغيره، ٣٨٦/١١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٨.

وقد ذكر أهل التجارب أن السمن يظهر في الحيوان في أربعين يوماً. وكذلك المخلص أربعين يوماً يظهر بذلك تغيير طباعه عما كانت عليه وانتقال صفاته، ولذلك تغير نبات الشعر والأظفار في أربعين يوماً[١].

قال القرطبي: (وقوله: "من أتى عرافاً لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً" العراف: هو الحازي والمنجِّم الذي يدعي الغيب، وهذا يدلُّ على: أن إتيان العرافين كبيرة، وظاهره أن صلاته في هذه الأربعين تحبط، وتبطل، وهو خارج على أصول الخوارج الفاسدة في تكفيرهم بالذنوب. وقد بيَّنا فساد هذا الأصل فيما تقدم. وأنه لا يحبط الأعمال إلا الردة، وأما غيرها فالحسنات تبطل السيئات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢] وهذا مذهبُ أهل السنة والجماعة، فليس معنى قوله: "لا تقبل له صلاة" أن تحبط، بل: إنما معناه -والله أعلم- أنها لا تقبل قبول الرضا، وتضعيف الأجر. لكنه إذا فعلها على شروطها الخاصة بها، فقد برئت ذمته من المطالبة بالصلاة، وتُقَصَّى عن عهدة الخطاب بها، ويفوته قبول المرضيِّ عنه، وإكرامه، وثوابه، ويتضح ذلك باعتبار ملوك الأرض. ولله المثل الأعلى، وذلك أن المُهدي: إما مردودٌ عليه، أو مقبول منه، والمقبول: إما مقرَّب مُكرَّم مثاب، وإما ليس كذلك. فالأول: هو المبعدُ المطرود، والثاني: هو المقبول القبول التام الكامل. والثالث: لا يصدق عليه أنه مثل الأول، فإنه لم ترد هديته. بل: قد التفت إليه، وقُبلت منه. لكنه لما لم يُثِبْ، ولم يُقرَّب صار كأنه غير مقبول منه؛ فيصدق عليه أنَّه لم يُقبل منه إذ لم يحصل له ثوابٌ ولا إكرام وتخصيصه ﷺ الأربعين بالذكر قد جاء في مواضع كثيرة من الشرع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٣] ومنه: توقيته ﷺ في قص الشارب، وتقليم الأظفار، وحلق العانة: ألا تترك أكثر من أربعين ليلة. فتخصيص هذه

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٤/٧.

(٢) سورة هود، آية: ١١٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٥١.

المواضع بهذا العدد الخاص: هو سرٌ من أسرار الشريعة لم يطّلع عليه نصاً، غير أنه قد تتسم منه بعضُ علمائنا أمراً تسكن النفس إليه؛ وذلك: أنه قال: إن هذا العدد في هذه المواضع إنما خصَّ بالذكر لأنَّه مدَّة يكمل فيها ما ضربت له، فينتقل إلى غيره، ويحصل فيها تبدُّله، وبيانه بانتقال أطوار الخلقة، في كل أربعين منها يكمل فيها طورٌ، فينتقل عند انتهائه إلى غيره، كما قد نصَّ عليه في الحديث، وكذلك في الأربعين الميعادية: أمر بنو إسرائيل أن يكملوا تهيُّؤهم لسماع كلام الله، فكمل لهم ذلك عند انتهائها، ومثل ذلك في الأربعين الإخلاصية، وأما أربعون شارب الخمر فَليتبدَّل لحمُ شارب الخمر بغيره، ويؤيده أن أهل التجارب قالوا: إن السِّمن يظهر في الحيوان في أربعين يوماً، وقريبٌ من هذا الأربعون المضروبة لخصال الفطرة؛ لأنها عند انتهائها يكمل فحشها، واستقذارها، فينبغي أن تغير عن حالها. وأما أربعون إتيان العراف فلأنها -والله أعلم- المدة التي ينتهي إليها تأثير تلك المعصية في قلب فاعلها، وفي جوارحه، وعند انتهائها ينتهي ذلك التأثير. والله تعالى أعلم[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦٣٥-٦٣٧.

الحديث رقم (١٦٧٢)

١٦٧٢- وعَنْ قَبِيصَةَ بنِ المُخَارِقِ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: ((**العِيَافَةُ، وَالطِّيَرَةُ، والطَّرْقُ، مِنَ الجِبْتِ**)). رواه أبو داود[1] بإسناد حسن. وقال: (**الطَّرْقُ**) هُوَ الزَّجْرُ: أيْ زَجْرُ الطَّيْرِ وَهُوَ أنْ يَتَيَمَّنَ أو يَتَشَاءمَ بطَيَرَانِهِ، فإنْ طَارَ إلَى جهَةِ اليَمِين، تَيَمَّنَ، وإنْ طَارَ إلَى جِهَةِ اليَسَارِ، تَشَاءمَ. قال أبو داود: (**والعِيَافَةُ**): الخَطُّ.

ترجمة الراوي:

قبيصة بن المخارق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٣٥).

غريب الألفاظ:

العيافة: أي الخطُّ[2].

الطيرة: التشاؤم بالشيء[3].

الطَّرْقُ: هو الزجر: أي زجر الطير وهو أن يتيمّن أو يتشاءم بطيرانه، فإن طار إلى جهة اليمين، تيمن، وإن طار إلى جهة اليسار، تشاءم[4].

الجبتُ: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك[5].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن الإشارة إلى ثلاثة من مظاهر الشرك: وهي: العيافة والطيرة والطرق، وإنها: كما قال رسول الله ﷺ "من الجبت".

ولكل لفظ من ألفاظ الأحاديث الأربعة دلالة تفصح عن المراد منه، وتقودنا إلى فهم السبب في إلحاق ﷺ الرسول هذه الأصناف الثلاثة بالكفر إن استحلَّ فاعلها ذلك، أو أنها من السحر والكهانة.

---

(١) برقم (٣٩٠٧)، وهو صحّحه ابن حبان (الإحسان ٦١٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨١، و ٤٥٢٨).

(٢) رياض الصالحين ٥٧٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش أ م).

(٤) رياض الصالحين ٥٧٤.

(٥) رياض الصالحين ٥٧٤.

فما مدلول العيافة، إنها مأخوذة من قولنا: عافت الطير أي: استدارت على الشيء أو الماء أو الجيف، أو إذا حامت عليه تتردد ولا تمضي تريد الوقوع، ومن معانيها: الخط: لأن العَرْف هو الخط، وقال الجوهري في الصحاح: العيافة الخط، وهذا هو المراد بمعنى العيافة في الحديث، وقال الحربي: الخط: هو أن يخط ثلاثة خطوط ثم يضرب عليهن، بشعير أو نوى، ويقول يكون كذا، ويكون كذا، وهو ضرب من الكهانة، وهذا يقترب من المعنى اللغوي لأن قولهم: عافت الطير: أي حامت على الماء أو الجيف، تتردد ولا تمضي تريد الوقوع، فالذي يمارس العيافة والذي يصدقها، أشبه بمن يحوم حول الجيف ولا يحصد إلا البقايا النتنة من الحظوظ العاثرة. والطيرة: أي التطير والتشاؤم.

وذلك ينشأ من الطرق وهو زجر الطير الناشئ من التشاؤم أو التيمن بحركة الطير، وهذه عادة جاهلية ممقوتة، ولذلك نهى عنها رسول الله ﷺ كل مسلم وعدها من الجبت أي الكفر، لأنها من مظاهر الشرك التي يبرأ منها المسلم، ، ويتنزه عنها.

والجبت كما قال: الفيروز آبادي: الصنم، والكاهن، والسحر، والساحر، والذي لا خير فيه، وكل ما عُبد من دون الله تعالى.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه تحريم العيافة وإبطالها[1]، وهي زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها وممرها، وقد كانت عادة العرب في الجاهلية فعل ذلك.

كما يدل هذا الحديث على تحريم الطيرة، وإبطالها، وهي التشاؤم بالشيء وأصله التطير بالسوانح، والبوارح من الطير والظباء، وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع، وأبطله، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع، أو دفع ضرر[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٠/٢٨، وشرح عمدة الأحكام ٧٣/٤، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٧/١٠.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٧/١٠.

كما يدل هذا الحديث على النهي عن الطرق وتحريمهُ، وهو الخط في الرمل أو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء[١]، فهذه الأمور كلها حرام، وأخذ العوض عليها حرام بالنص الصحيح في حلوان الكاهن[٢] على ما سيأتي في الحديث رقم (١٦٧٣).

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأنواع الضلال والشرك.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حكم علم النجوم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأنواع الضلال والشرك:

حيث جاء في قوله: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت" وقوله "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر" ولا شك أن من أولى مهام الداعية البيان والإيضاح للمحظور والممنوع في الشريعة حتى يتجنبها المدعو، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤] وأمر رسوله بالبلاغ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[٥] وأمر المؤمنين باتباع أوامر الرسول ونواهيه قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٦].

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣٤٦/٩.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٧٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٧٣).

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٦) سورة الحشر، آية: ٧.

فبيّن النبي ﷺ بعض أنواع الضلال التي يجب أن يبتعد عنها المسلم منها العيافة "والعيافة زجر الطير والتفاؤل والاعتبار في ذلك بأسمائها أو الطيرة هي التشاؤم بها، وقد تستعمل في التشاؤم بغير الطير من حيوان وغيره، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضرر وبالجملة فزجر الطير هو التيمن والتشؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح وهو نوع من الكهانة. وأما الطرق: فهو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء وقيل هو الخط في الرمل وقيل هو كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر وغير ذلك[1]".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر:

حيث جاء في الحديث "العيافة والطيرة والزجر من الجبت" قال ابن علان: (وقوله "من الجبت" أي من الكفر إن استحل ذلك أو من السحر والكهانة وقد حذر منها وقيل تطلق على الصنم ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[2] وتطلق على الكاهن والساحر ونحو ذلك من العراف والمنجم)[3].

ولاشك أن النهي عن هذه الأمور وبيان أنها من السحر والكهانة حث للمؤمن أن يحسن التوكل على الله وبهذا أمر الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[5] وقال جل وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[6] وبين الرسول الكريم في الحديث الصحيح أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ. وَلاَ

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٦٩، ١٦٧٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٥١.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٦) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))[١] وقال الإمام ابن القيم: (والتوكل نصف الدين، وهو أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين. قال الإمام أحمد: التوكل علم القلب وقيل: هو الرضا بالمقدور وقال بشر الحافي يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، ولو توكل على الله رضي بما يفعل الله وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً. قال ابن عطاء: التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها)[٢].

قال د. يوسف القرضاوي: (إن المؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله.

المؤمن هو الذي يحسّ تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساخط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء، ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

الرضا نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاكٍ فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله، وحسن اتصاله به. وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[٣]. وامتن عليه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٤].

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٠٥، ومسلم ٢٢٠.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٥٤.

(٣) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٤) سورة الضحى، آية: ٥.

(٥) سورة البينة، آية: ٨.

المؤمن راض عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه في الكون، لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة، ولا كماً مهملاً، ولا شيئاً تافهاً، بل هو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة في أرض الله.

وهو راضٍ عن ربه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئاً لهواً، ولم يترك شيئاً سدىً، له الملك، وله الحمد، نعمه عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائماً هذا الثناء الذي ردَّده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار برّه تعالى ورحمته، فيناجي ربه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] فالخير بيديه، والشر ليس إليه، وما يظنه الناس شراً في الوجود ليس هو شراً في الحقيقة، وإذا كان لابد من تسميته شراً؛ فإنما هو شر جزئي خاص مغمور في جانب الخير الكلي العام، وهذا الشر الجزئي، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حكم علم النجوم:

حيث جاء في الحديث "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" قال شرف الحق العظيم آبادي: (والمراد من أخذ وحصل وتعلم علماً من النجوم أو

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٧٨، ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٦.

(٣) الإيمان والحياة، ص ١١٠، ١١١.

مسألة من علمها اقتبس شعبة أي قطعة من السحر وقوله "زاد ما زاد" أي زاد اقتباس شعبة السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

قال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدل عليه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع كمجيء الأمطار وتغير الأسعار، وأما ما يعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهى عنه. وفي شرح السنة: المنهي عنه من علوم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾[1] وأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[2] وقال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[3] فأخبر الله تعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال الكعبة. روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق ثم أمسكوا)[4].

وقال ابن عثيمين: (وعلم النجوم قسمان: الأول: علم التسيير: يعني علم سير النجوم يستدل به على الفصول وعلى طول النهار وقصره فهذا لا بأس به ولا حرج لأن الناس يهتدون به لمصالحهم.

الثاني: علم التأثير: أن يتخذ من علم النجوم سبباً يدعي به أن ما حصل في الأرض فإنه من سبب النجم كالذين يقولون في الجاهلية: مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا محرم ولا يجوز اعتماده ومنه ما يسمونه الطالع (أي طالع هذا الولد وهذا محرم والذي صدق النجم فيه كمن صدق الكاهن)[5].

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٦.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٦٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٧٤٨/٢.

وقال د. صالح الفوزان: (وأما الكهانة وهي ادعاء علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب هو استراق السمع؛ حيث يسترق الجني الكلمة من كلام الملائكة، فيلقيها في أذن الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة.

والله هو المتفرد بعلم الغيب؛ فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدَّق من يدعي ذلك؛ فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وهو مكذب لله ولرسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي يستعان بها على دعوى العلوم الغيبية.

فالكهانة شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله.

ومما يجب التنبيه عليه والتحذير منه أمر السحرة والكهان والمشعوذين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ فبعضهم يظهر للناس بمظهر الطبيب الذي يداوي المرض، وهو في الحقيقة مفسد للعقائد؛ بحيث يأمر المريض أن يذبح لغير الله، أو يكتب له الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية. والبعض الآخر منهم يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات وأماكن الأشياء المفقودة؛ بحيث يأتيه الجهال يسألونه عن الأشياء الضائعة، فيخبرهم عن أماكن وجودها، أو يحضرها لهم بواسطة الشياطين. والبعض الآخر منهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات؛ كدخول النار، وضرب نفسه بالسلاح، ومسك الحيات... وغير ذلك، وهو في الحقيقة دجال مشعوذ وولي للشيطان، وكل هذه الأصناف تريد الاحتيال والنصب لأكل أموال الناس وإفساد عقائدهم.

فيجب على المسلمين أن يحذروهم ويبتعدوا عنهم، ويجب على ولاة الأمور استتابة هؤلاء؛ فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا لإراحة المسلمين من شرهم وفسادهم وتنفيذاً لحكم الله فيهم)[1].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح الفوزان ص ١١٦-١١٧.

جاء في الموسوعة الفقهية: (التنجيم مصدر نَجَّم يقال: نَجَّمت المال عليه إذا وزعته، كأنك فرضت أن يدفع عند طلوع كل نجم نصيباً، ثم صار متعارفاً في تقدير دفعه، بأي شيء قدرت ذلك. وكانت العرب توقت بطلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب. وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء، وكانوا يسمون الوقت الذي يحل فيه الأداء نجماً لوقوعه في الأصل في الوقت الذي يطلع فيه النجم. واشتقوا منه فقالوا: نجَّمتُ الدَّين بالتثقيل إذا جعلته نجوماً.

ويطلق التنجيم أيضاً على النظر في النجوم.

واصطلاحاً هو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية. ولا يخرج استعمال الفقهاء له عن هذه المعاني.

والتنجيم بمعنى النظر في سير النجوم فقد قسم الفقهاء علم النجوم إلى قسمين:

الأول: حسابي: وهو تحديد أوائل الشهور بحساب سير النجوم. ويسمى من يمارس ذلك المنجم بالحساب.

ولا خلاف بين الفقهاء في جواز ممارسة التنجيم بهذا المعنى، وتعلم ما يعرف بمواقيت الصلاة والقبلة، بل ذهب جمهورهم إلى أن ذلك فرض كفاية. وجاء في حاشية ابن عابدين: والحسابي حق، وقد نطق به الكتاب في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[1].

وأجاز الفقهاء الاعتماد عليه في دخول أوقات الصلاة وتحديد جهة القبلة.

وقالوا: إن حساب الأهلة، والخسوف والكسوف قطعي، فالله سبحانه وتعالى أجرى حركات الأفلاك وانتقالات الكواكب على نظام واحد دائم، وكذلك الفصول الأربعة. والعوائد إذا استمرت أفادت القطع، فينبغي الاعتماد عليه في أوقات الصلاة ونحوها، وفي جهة القبلة.

وفرقوا بين هذا، وبين ما ذهب إليه الأكثرون من عدم اعتبار حساب المنجمين في ثبوت هلال رمضان بأن الشارع نصب زوال الشمس سبباً لوجوب الظهر في قوله

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٥.

عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾(١) وكذلك بقية الأوقات، فمن علم شيئاً من ذلك لزمه حكمه. أما ثبوت هلال رمضان فقد علق الشارع وجوبه برؤية الهلال، فلم يجز الاعتماد على القواعد الفلكية، وإن كانت صحيحة في نفسها.

وذهب بعض الفقهاء إلى جواز إثبات دخول رمضان وخروجه بالحساب.

الثاني: استدلالي:

وقد عرف ابن عابدين هذا القسم بأنه علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية. وهذا القسم هو المنهي عنه إذا ادعى أصحابه أنهم يعلمون الغيب بأنفسهم منه، أو أن لها تأثيراً على الحوادث بذاتها، أما إذا أسند الحوادث لعادة أجراها الله تعالى عند الوقت الفلاني فلا يأثم بذلك لخبر: ((إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك غُدَيقة))(٢) أي: كثيرة المطر. وهي كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض.

وقال ابن عابدين: إنما زجر عن ذلك لأسباب ثلاثة:

أ- أنه مضر بأكثر الخلق فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أنها المؤثرة.

ب- أن أحكام النجوم تخمين محض. قال ابن عابدين: وقد كانت معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس.

ج- أنه لا فائدة فيه، فإن ما قدر كائن، والاحتراز عنه غير ممكن)(٣).

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "العيافة والطيرة والطرق من الجبت" وقوله "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١/١٩٢ بلاغاً وقال ابن عبدالبر هذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤/٥٣-٥٤.

تكبح جماح النفس وتحذرها من الوقوع في المحظورات الشرعية (والترهيب هو التخويف للعمل على ترك فعل أو اعتقاد يلتزم بما أمر به، أو نهى عنه والإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب)[1].

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ٣٩٣.

الحديث رقم (١٦٧٣)

١٦٧٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُوم، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ ما زَادَ)). رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

اقتبس علمًا: تَعَلَّمَه[2].

شعبة: قطعة[3].

الشرح الأدبي

الحديث يوجه المسلمين إلى الانشغال بالنافع من العلوم التي تقرب من الله تعالى أو تحقق مصلحة شرعية، ودنيوية دون ما لا يعود على المسلم بطائل مما يتعلق بالتنجيم، والسحر، لأنه يضر ولا ينفع، وقوله (مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُوم) من اسم موصول متضمن معنى الشرط يربط أخذ علم النجوم بأخذ السحر، والمتأمل للتماثل بين فعل الشرط، وجزائه يدرك تشابه العاقبتين في انعدام الفائدة من تعلم العلمين، وأن الجزاء من جنس العمل، وإنما شبه النبي ﷺ علم النجوم بالسحر لأن حرمته منصوصة ونطق به التنزيل قال جل ذكره ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ

---

(١) برقم (٣٩٠٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب س).

(٣) المرجع السابق في (ش ع ب).

أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة١٠٢] وروى البخاري تعليقا عن قتادة قال خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم، وقوله (زاد وما زاد) أي زاد من السحر ما زاد من النجوم، وهو توكيد للتلازم المفهوم من الشرط بين الفعل، والجزاء بما يؤكد زيادته من السحر كلما ازداد من علم النجوم.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم علم النجوم[١]، وذلك لأن رسول الله ﷺ قد جعل من تعلم علماً من النجوم، كمن تعلم السحر، وتعلم السحر حرام فكذلك تعلم النجوم[٢].

على أنه ليس كل علم من علوم النجوم منهياً عنه، فالمنهي عنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث، والكوائن التي لم تقع، وستقع في المستقبل، ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها، وافتراقها.

ولعل السبب في النهي عن هذا النوع من علوم النجوم أنه تعاطٍ لعلم قد استأثر الله تعالى به.

أما علم النجوم الذي يدرك بالمشاهدة أو بالأجهزة العلمية في الوقت الحاضر، كالذي يعرف به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقى، فغير داخل فيما نهى عنه[٣]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[٤]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٩٣/٣٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٧٠/٧، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٥/١٠.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٧٠/٧.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٥/١٠، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٧٠/٧-٣٧١.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٧.

وقـال: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[١]. فـأخبر الله تعـالى أن النجـوم طـرق لمعرفـة الأوقات والمسالك، ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال القبلة[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) سورة النحل، آية: ١٦.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠/٢٨٥.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٧٤)

١٦٧٤- وعن مُعاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسُولَ اللهِ إنِّي حديثُ عَهْدٍ بالجاهِلِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ تَعالَى بالإسْلامِ، وإنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأتُونَ الكُهَّانَ؟ قال: ((فَلا تَأتِهِمْ)) قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؟ قَالَ: ((ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلا يَصُدُّهُمْ)) قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ؟ قَالَ: ((كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ، فَذَاكَ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

معاوية بن الحكم السُّلمي: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٠١).

غريب الألفاظ:

الكُهّان: جمع كاهن: من يخبر بالغيب ادِّعاءً لعلمه[2].

يتطيّرون: يتشاءمون[3].

يخطُّون: الخط هو الذي يَخُطّه الحازي، وهو علمٌ قد تركه الناس، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حُلوانًا، فيقول له اقْعُد حتى أخُطَّ لك، وبين يَدي الحازي غلام له معه ميلٌ، ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطًا كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين، وغُلامه يقول للتفاؤل: ابني عيان أسرِعا البيان، فإن بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خطٌّ واحد فهو علامة الخيبة[4].

افق خطَّهُ: صادفه[5].

---

(١) برقم (٥٣٧/٣٣) ضمن حديث طويل، وقد تقدم برقم (٧٠١).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك هـ ن).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٤) المرجع السابق في (خ ط ط).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ف ق).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يأتي نظمه البليغ في إطار محاورة صادقة مخلصة بين معاوية بن الحكم رضي الله عنه ورسول الله ﷺ، والغرض منها التعلم ومعرفة الحقيقة، لأن معاوية بن الحكم كان في ذلك الوقت كما قال: حديثُ عهد بجاهلية، وجاء بذلك في صيغة التوكيد للدلالة على أن عادات الجاهلية ما زالت تناوشه، وتحاول التغلب عليه، هو ومجموعة من الرجال الذين أخبر عنهم.

وإجابات رسول الله رضي الله عنه عليه تفصح عن سعة صدره ﷺ، وعن حلمه وحكمته وحسن موعظته فهو بالمؤمنين رءوف رحيم، والتأكيد بـ"قد" وهي للتحقيق والتأكيد في قوله "قد جاء الله تعالى بالإسلام" ينفي أي شبهة ترد على الظن بميل معاوية إلى تقاليد الجاهلية مرة أخرى، والتأكيد في قوله: "وإن منا رجالاً" ثلاث مرات في الحديث: يفيد أن بعض هؤلاء الرجال هم الذين يأتون الكهان، ويتطيرون ويخطون.

ولكن هذا البعض تتمكن منه هذه العادات والتقاليد الجاهلية: بدليل أنه قال في صيغة التوكيد: "وإن منا رجالاً"، وتكرار عبارة: "منا رجال" ثلاث مرات يرشد إلى أصناف هؤلاء الناس في ممارساتهم لأفعال الجاهلية.

وترتيب هذه المعتقدات، وتلك الممارسات: هو ترتيب حسب حجم المخالفة، واقترابها من الشرك أو ابتعادها عنه، فأول ظاهرة هي: إتيان الكهان، وهو من الشرك: ولذلك نهى عنه الرسول ﷺ نهي تحريم، في هذه الصيغة اللغوية الحاسمة الجازمة: "فلا تأتهم" والإجابة تشمل السائل وكل الذين أخبر عنهم.

والظاهرة الثانية: أقل في المخالفة: لأنها شعور يخالط النفس الإنسانية، وهو من الوساوس وأحاديث النفس وأوهام الصدور: وهي "التطير" ولذلك جاء تحديد الرسول ﷺ لهذا الأمر في غاية الدقة والبلاغة والخبرة بأحوال النفس الإنسانية، فقال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم"، ولكن يجب مقاومة أثر هذا التطير، ولا يبني عليه الإنسان أحكامًا، ولا مقاصد ولا وسائل ولا غايات.

والظاهرة الثالثة: وهي في دائرة المباح: إذا تمسك الإنسان بأصولها ومعالمها المعروفة، ولذلك قال في إيجاز وبلاغة: "كان نبي من الأنبياء يخط: فمن وافق خطه فذاك"، وفي الحديث إيجاز بالحذف، أي ومن لم يوافق خطه خط النبي في الأمم السابقة فليس ذاك بصحيح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الخط: هو الذي يخطه الحازي: وهو علم قد تركه الناس. والله هو العليم الحكيم، وهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم إتيان الكهان، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٦٧٠).

وفيه أيضاً حرمة التطير، وبطلانه، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٦٧٢).

المضامين الدعوية[١]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الجزء الأخير من الحديث رقم (٧٠١).

الحديث رقم (١٦٧٥)

١٦٧٥- وعن أَبي مَسعودٍ البدريِّ ﵁: أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الكَلْبِ، وَمَهْرِ البَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الكاهِنِ. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

مهر البغي: هو ما تأخذه الزانية على الزنا[٢].

وحُلْوان الكاهن: هو ما يعطاه على كهانته[٣].

الشرح الأدبي

إن الإسلام أولى عنايته الكبرى بالمال، ولذلك دعا المسلم إلى العمل والسعي لاكتسابه، والمحافظة عليه من الضياع والتبذير، وحث كذلك على تنمية المال بالتجارة والصناعة لتكثير الثروة، وزيادة الدخل، وحذر الإسلام من سوء استخدام الأموال في الأغراض الدنيئة الضارة التي حرمها الشرع، مثل: الاتجار في الخمور والمخدرات، والاتجار بالأعراض، والكسب عن طريق الزنا، وإشاعة الخرافات، وتصديق الكهان، والاتجار فيما حرَّم الله شراءه وبيعه، مثل: الكلاب والخنازير وغير ذلك.

في ضوء هذه القيم الإسلامية نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستشف بعض أسراره التعبيرية والأدبية وهو في إطار الأسلوب الخبري: إخبار من الراوي عن رسول الله ﷺ، ويتكون من جملة واحدة اسمية، مكونة من "أن" الناصبة المؤكدة الناسخة واسم إن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧/٣٩) ولفظهما سواء.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٧.

(٣) المرجع السابق ٩٩٧.

وهو: "رسول الله ﷺ"، وخبر إن وهو جملة فعلية "نهى عن..." الخ الحديث، ومجيء الحرف الناسخ المؤكد في صور الحديث فيه إيحاء بأن هذه الأعمال الثلاثة منسوخة وملغاة، فالمبنى اللغوي يفصح عن المعنى المراد، والحديث كله جملة اسمية، تضمنت في دائرتها جملة فعلية: وهي الخبر، ولكن هذا الفعل ثابت الحكم، وهو النهي الصارم الحاكم عن هذه السلوكيات المشينة، فالنهي قاطع ولا مجال فيه للجدال والمراء، ومجيء "النهي" في صيغة الزمن الماضي للإفادة بأنه حكم صدر من رسول الله ﷺ، ولا مجال للمراجعة أو التأويل.

والنهي عن ثمن الكلب لنجاسة عين الكلب، فلا يصح بيعه، وفي ذلك توجيه الناس لشراء ما ينفع، وكذلك توجيه لمن يربي الكلاب ويتاجر فيها؛ بأن ذلك عمل خاسر، ولابد أن يشغل الإنسان نفسه بما قصده ويفيده منه المسلمون في ظل التوجيهات الشرعية، والحاجات الاجتماعية.

وكذلك: "مهر البغي" ليس مهراً شرعياً؛ وإنما اللفظ من باب المشاكلة، والسخرية من هذا الذي يدفع الأموال الباهظة من أجل المتعة المحرمة، وإنما عليه أن يوجه هذا المال إلى الطريق الحلال حيث الزواج الشرعي، والمهر الحلال حتى لو كان قنطاراً، ولا يأخذ الإنسان منه شيئاً لأنه حلال.

"وحلوان الكاهن" ضياع للمال، وإهدار له في غير محله، وتشجيع لنشر الخرافات، والشعوذة والدجل. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾[1].

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- تحريم ثمن الكلب: وهذا يدل على تحريم بيعه، وعدم حِلِّ ثمنه، وهذه المسألة مختلف فيها عند الفقهاء على ثلاثة آراء:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، وهم المالكية في المشهور عندهم[1]، والشافعية[2]، والحنابلة[3]، والظاهرية[4]، ويرون أنه لا يصح بيعه، ولا يحل ثمنه مطلقاً، سواء كان معلماً أو غير معلم، وسواء كان مما يجوز اقتناؤه أم لا.

ودليلهم حديث الباب، ففيه نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، والنهي عن ثمنه يدل على عد جواز بيعه، وهو عام يشمل كل كلب، سواء كان مما يجوز اقتناؤه أم لا.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[5]، ويرون جواز بيع الكلاب مطلقاً، سواء أكانت معلمة أم لا. واستدلوا على ذلك بأن الكلب مالٌ والدليل على ماليته أنه منتفع به حقيقة من الاصطياد والحراسة ونحوهما، وهذه منفعة مشروعة، ومن ثم كان مالاً فكان محلاً للبيع كالصقر والبازي، وغيرهما مما له نفع مشروع.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه بعض المالكية[6] ويرون جواز بيع الكلب المأذون في اتخاذه ككلب الصيد ونحوه دون غيره.

واستدلوا على ذلك بما أخرجه النسائي من حديث جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب والسنور إلا كلب الصيد[7].

---

(١) الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي عليه ١١/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٦٧/٤.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٢٨/٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين بن حمزة الرملي ٣٩٢/٣.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٧٨/٤، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٣٤٣/٤، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٢٨/٢.

(٤) المحلى، ابن حزم ٦١٧/٩.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٠٠٦/٦، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٨٢/١، وقد روى عن أبي يوسف أنه قال بحرمة بيع الكلب العقور للنهي عن اتخاذه. انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٠٠٦/٦.

(٦) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٦٧/٤، الشرح الكبير للدردير ١١/٣.

(٧) أخرجه النسائي ١٩٠/٧-١٩١، ٣٠٩ وقال النسائي: ليس هو بصحيح. وقال مرّة: منكر. وانظر تتمة تخريجه في مسند أحمد ١٤٦٥٢/٢٣.

فهذا الحديث قد استثنى كلب الصيد من عموم النهي عن بيع الكلب، ويقاس على كلب الصيد غيره مما أذن في اتخاذه ككلب حراسة الماشية والزرع ونحوه.

الترجيح:

بعد عرض الآراء في هذه المسألة أرى أن الرأي الراجح هو الرأي الثالث القائل بجواز بيع الكلب المأذون في اتخاذه ككلب الصيد والحراسة، ويلحق بها -الآن- الكلاب المدربة على استكشاف المجرمين، أو المواد المخدرة، أو خلاف ذلك من الأعمال التي يتم تدريب الكلاب عليها، وذلك لأنها منافع مشروعة، والقول بالترجيح ليس اعتماداً على ما ورد من أحاديث تستثني هذه الكلاب من النهي، وذلك لأنها أحاديث ضعيفة، وقد بالغ العلماء في ردها، وإنما اعتماداً على ما ورد في الترخيص في اتخاذها[1]، والله أعلم.

٢- تحريم مهر البغي، وحلوان الكاهن: ومهر البغي: هو ما تأخذه الزانية في مقابل زناها، وسمي مهراً، لكونه في صورته، وحلوان الكاهن: هو ما يعطاه نظير كهانته وهما حرام بإجماع المسلمين[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب الكسب الحرام.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

حيث جاء في الحديث "أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن" وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو خطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه والبعد عنه وقد أمر الله تعالى باتباع النبي ﷺ فيما أمر واجتناب ما نهى قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) د. حسن صلاح الصغير، صلاحية البيع للانتفاع به ص ٢٧٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٣١/١٠.

ٱلْعِقَابِ﴾[١] قال السعدي: (وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نهي الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب الكسب الحرام:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن. والواجب على المسلم الابتعاد عن الكسب الحرام ومواطنه، قال الإمام النووي: (أما مهر البغي فهو ما تأخذه الزانية على الزنا وسماه مهراً لكونه على صورته وهو حرام بإجماع المسلمين وأما حلوان الكاهن فهو ما يعطاه على كهانته. قال البغوي والقاضي عياض: أجمع المسلمون على تحريم حلوان الكاهن لأنه عوض عن محرم ولأنه أكل المال بالباطل. قال الخطابي: وحلوان العراف حرام والفرق بين الكاهن والعراف أن الكاهن إنما يتعاطى الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما من الأمور)[٣].

قال القرطبي: (قوله: "نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب"، وفي الحديث الآخر: "وثمن الكلب خبيث" ظاهرٌ في تحريم بيع الكلاب كلها، ولاشك في تناول هذا العموم لغير المأذون فيه منها، لأنها إمَّا مضرةٌ؛ فيحرمُ اقتناؤها، فيحرم بيعها. وإما غير مضرة: فلا منفعة فيها. وأما المأذون في اتخاذها: فهل تناولها عمومُ هذا النهي أم لا؟ فذهب الشافعي، والأوزاعي، وأحمد: إلى تناوله لها. فقالوا: إن بيعها محرمٌ، ويفسخ إن وقع، ولا قيمة لما يقتل منها، واعتضد الشافعي لذلك: بأنها نجسة عنده. ورأى أبو حنيفة: أنه

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٧.

لا يتناولها؛ لأن فيها منافع مباحة يجوز اتخاذها لأجلها، فتجوز المعاوضة عليها، ويجوز بيعها. وجلُّ مذهب مالك على جواز الاتخاذ، وكراهية البيع، ولا يفسخ إن وقع. وقد قيل عنه مثل قول الشافعي. وقال ابن القاسم: يكره للبائع، ويجوز للمشتري للضرورة. وكأنَّ مالكاً في المشهور: لما لم يكن الكلب عنده نجساً، وكان مأذوناً في اتخاذه لمنافعه الجائزة؛ كان حكمه حكم جميع المبيعات. لكن الشَّرع نهى عن بيعه تنزيهاً؛ لأنه ليس من مكارم الأخلاق. فإن قيل: فقد سوى النبي ﷺ بين ثمن الكلب، وبين مهر البغيِّ، وحلوان الكاهن في النهي عنها. والمهر والحلوان محرَّمان بالإجماع، فليكن ثمن الكلب كذلك.

فالجواب: إنا كذلك نقول. لكنه محمولٌ على الكلب الغير مأذون فيه. ولئن سلَّمنا: أنه متناول للكل، لكن هذا النهي -ها هنا- قُصد به القدرُ المشترك الذي بين التحريم والكراهة؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما منهيٌّ عنه. ثم تُؤخذ خصوصيةُ كل واحدٍ منهما من دليل آخر، كما قد اتفق هنا. فإنا إنما علمنا تحريم مهر البغي، وحلوان الكاهن بالإجماع، لا بمجرد النهي سلمنا ذلك، لكنا لا نسلم: أنه يلزم من الاشتراك في مجرد العطف الاشتراك في جميع الوجوه؛ إذ قد يعطف الأمر على النهي، والإيجاب على النفي. وإنما ذلك في محل مخصوصٍ، وقوله: "شر الكسب مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام". "الكسب" في الأصل هو: مصدر. تقول: كسبتُ المال، أكسبه، كسباً. وقد وقع في هذا بعض الحديث موضع المكسوب، فإنه أخبر عنه بالثمن.

ومساق هذا الحديث يدلُّ: على صحة ما قلناه، من أنه لا تلزم المساواة في المعطوفات. ألا ترى: أنه شرَّك بين مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام في "شر"، ثم إن نسبة الشر لمهر البغي كنسبته إلى كسب الحجَّام، مع أن مهر البغي حرامٌ بالاتفاق، وكسب الحجام مكروه. فقد صحَّ أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام أجره. قال ابن عباس: ولو كان حراماً لم يعطه[1]. وقد سأل رجل النبي ﷺ عن

---

(١) أخرجه البخاري ٢١٠٣ واللفظ له، ومسلم ١٢٠٢.

كسب الحجام، فنهاه، ثم سأله، فنهاه، ثم سأله فقال في الثالثة: "اعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك"[١]، فلو كان حراماً لما أجاز له تملكه، ولا أن يدفع به حقاً واجباً عليه، وهو: نفقة الرقيق، فيكون "شرٌّ" في كسب الحجام بمعنى: ترك الأولى، والحضُّ على الورع. وهذا مثل ما تقدَّم من قوله: ((شر صفوف النساء أولها))[٢]. ويكون "شر" في مهر البغي على التحريم. وعلى هذا: فإمَّا أن يحمل لفظ: "شر" في صدر الحديث على قدر مشترك بين المحرَّم والمكروه، أو على أنَّ اللفظ المشترك قد يُراد به جميع متناولاته. وهذا كلُّه إذا تنزلنا: على أن كسب الحجام هو ما يأخذه أجرةً على نفس عمل الحجامة. فإن حملناه على ما يكتسبه من بيع الدم - فقد كانوا في الجاهلية يأكلونه، فلا يبعدُ أن يكونوا يشترونه للأكل- فيكون ثمنه حراماً. كما قد قال ﷺ: ((إن الله إذا حرم على قوم شيئاً؛ حرَّم عليهم ثمنه))[٣]. وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث: "ثمن الدم حرام".

و"حلوان الكاهن" هو: ما يأخذه على تكهُّنه. يقال: حلوتُ الرجل، أحلوه: إذا أعطيته شيئاً يستحليه. كما يقال: عسلته، أعسله: إذا أطعمته عسلاً. ومنه: قيل للرشوة، ولما يأخذه الرَّجل من مهر ابنته حلواناً؛ لأنه كلها عطايا حلوة مستعذبة. وفيه ما يدلُّ: على تحريم ما يأخذه الحُسَّابُ، والمنجِّمون في الرَّمل، والخط، وغير ذلك. لأن ذلك كله تعاطي علم الغيب، فهي في معنى الكهانة. وما يُؤخذ على كل ذلك محرم بالإجماع.

و"قوله: "ثمن الكلب خبيث، وكسب الحجام خبيث" إن حملنا الكلب ها هنا على العموم كان الخبيث بمعنى المكروه تسويةً بينه وبين كسب الحجام. وقد تبين: أنه مكروهٌ. وإن حملناه على غير المأذون في اتخاذه؛ كان الخبيث بمعنى: الحرام[٤].

---

(١) أخرجه ابو داود ٣٤٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٢٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم ٤٤٠.

(٣) أخرجه أبوداود ٣٤٨٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٧٨).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٤٤٤-٤٤٦.

وقال ابن عبدالبر: (قال أبو عمر: في هذا الحديث ما اتفق عليه، وفيه ما اختلف فيه؛ فأما مهر البغي، والبغي الزانية، ومهرها ما تأخذه على زناها، فمجتمع على تحريمه، تقول العرب: بغت المرأة، إذا زنت، تبغي بغاءً، فهي بغيٌّ، وهنَّ البغايا. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[١]. يعني زانية. وقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[٢]. يعني الزنى، وهو مصدر.

وأما حلوان الكاهن فمجتمع أيضاً على تحريمه. قال مالك: وهو ما يعطى للكاهن على كهانته. والحلوان في كلام العرب: الرشوة والعطية، تقول منه: حلوت الرجل حلواناً. إذا رشوته بشيء. قال أوس بن حجر:

كأنّي حَلَوْتُ الشِّعْرَ يومَ مدَحتُه صَفَا صَخرةٍ صَمَّاءَ يَبْسٍ بِلالُها

وقال علقمة:

فمَن رجلٌ أحْلُو رَحلي وناقَتِي يُبلِّغُ عنِّي الشِّعرَ إذْ مات قائِلُه

وأما ثمن الكلب فمختلف فيه، فظاهر هذا الحديث يشهد لصحة قول من نهى عنه وحرَّمه[٣].

وإذا كان النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن فذلك لكي يتعود المسلم على الكسب الحلال، ويبتعد عن الكسب الحرام وما فيه شبهة. قال القاسمي: (اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض. ولذا كان الورع عن الحرام على درجات، فمنه الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء، ومنه الورع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ومنه ما لا شبهة في حله لكن يخاف منه أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس. ومنه ما لا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ولكنه

---

(١) سورة مريم، آية: ٢٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ص ٧٩/١٧، ٨٠.

يتناول لغير الله ولا على نية التقوي به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

وقد حكي عن ابن سيرين أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. وكان لبعضهم مائة درهم على إنسان فحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة وكان بعضهم يتجر فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يزنه بزيادة حبة، ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع، وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته؛ وإذ علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فرخص، فلنفسك تحتاط، وعلى نفسك ترخص والسلام[١].

وقد حذر النبي ﷺ من الكسب الحرام فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لايُبالي المرءُ بما أخَذَ المالَ أمِن الحَلالِ أم منَ حرام))[٢] وقال ابن رجب الحنبلي: (أكل الحرام وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجب لعدم إجابة الدعاء)[٣]. وقال ابن كثير: (والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة)[٤].

وحذر الله تعالى من أكل المال بالباطل فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥].

قال ابن كثير: (أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم قال القرطبي:

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علو الدين، جمال الدين القاسمي ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٨٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٧٤/١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٥/١.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال فإنه يفسق)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (إن طلب الحلال فرض على كل مسلم وقد أمر الله بالأكل من الطيبات فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[٢] والحرام كله خبيث وبعضه أخبث من بعض، والكسب الخبيث هو أخذ مال الغير لا على وجه إذن الشرع فيدخل فيه القمار والخداع والغصب وجحد الحقوق وما لا تطيب نفس مالكه أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك، والواجب في الكسب الخبيث تفريغ الذمة والتخلص منه برده إلى أربابه إن علموا وإلا إلى الفقراء ويجب أن يمنع والي الحسبة الناس من الكسب الخبيث قال الماوردي (ويمنع من التكسب بالكهانة واللهو ويؤدب عليه الآخذ والمعطي)[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٢١/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٤/٣٤-٢٤٦ بتصرف.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية العقدية:

إن سلامة العقيدة تحتاج إلى تطهير الفكر من الخرافات والبدع، ومن التصديق للسحرة والمشعوذين والمنجمين والاعتقاد في أوهامهم، ومن كل ما من شأنه الإشراك بالله وتقديس غيره تعالى[١].

وقد كان النبي ﷺ ينقي قلوب الصحابة رضي الله عنهم وجوارحهم من الشرك الجلي والخفي ويربيهم على التوحيد الخالص، ويعرفهم بربهم الذي خلقهم ورزقهم، حتى صار الصحابة الكرام أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا[٢].

ومن الأمثلة في سيرة النبي ﷺ التي تبين هذه التربية العالية لهذه الأمة الغالية، أحاديث الباب التي نهت عن إتيان الكهان و المنجمين والعراف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك.

وهكذا سدَّ النبي ﷺ كل الذرائع إلى الشرك، ودعا إلى العقيدة الصحيحة.

فالواجب على القائمين على التربية والتوجيه والدعوة الاهتمام بتربية الناس على العقيدة الصحيحة والتنبيه الدائم لهم على ما يقعون فيه من أمور الشرك العلمية، والعملية لأن هذا هو هدي رسول الله ﷺ وما ربى عليه الصحابة الكرام[٣].

ثم الواجب على المربين كذلك أن يحثوا الطلاب على استشعار معاني العقيدة الصحيحة، وتذوق حلاوتها، حتى يكون لها أثر في حياتهم وواقعهم[٤].

ثانيًا - من أهداف التربية الإسلامية: تحرير القلب من التعلق بغير الله:

إن كثيرًا من أمراض الشبهات والشهوات ترتبط بتعلق القلب بغير الله فأولئك الذين يلجؤون للسحرة والكهنة ويصدقون المشعوذين، وأولئك الذين يسيطر عليهم التطير والتشاؤم وسائر الأساطير إنما أتوا من تعلق قلوبهم بغير الله تعالى.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٣٣.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٨٧.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٩٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٩١.

وأصحاب الشهوات الذين فتنوا بها كذلك، فقلوبهم قد تعلقت بها واتجهت إليها وصارت هي قبلتهم.

لذا كان لابد في التربية من تنقية القلوب وتخليصها من التعلق بغير الله والتوجه لسواه، سواء كان ذلك شهوة أم شبهة[1].

وهذا الهدف واضح جلي في أحاديث الباب التي دعت إلى تحرر قلب المسلم من التعلق بغير الله، من الكهان والمنجمين والسحرة... وغيرهم ممن يدعون معرفة الغيب، والنفع والضر.

قال ابن تيمية: (وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم مدبرًا لهم متصرفًا بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرًا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد؛ وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه... وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبيًا فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين)[2].

وقال ابن القيم حول حديث "من مات لا يشرك بالله" (فاعلم أن هذا النفي العام للشرك - أن لا يشرك بالله شيئًا البتة - لا يصدر من مُصر على معصية أبدًا، ولا يمكن

---

(١) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص ٥٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠/١٨٥-١٨٧.

مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك بالله شيئًا، هذا من أعظم المحال ولا يلتفت إلى جدلي لا حظٌ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى يقول وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعًا لم يلزم منه محال لذاته، فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله، وتوكله على غير الله، ما يصير به منغمسًا في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل، فإن ذُلَّ المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير الله وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره من الأسباب التي توصله إلى غرضه؛ فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك، نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل وعباد الأصنام، وهو توحيد الربوبية وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله، ولو أنجى هذا التوحيد وحده لأنجى عُبَّاد الأصنام، والشأن في توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين، والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصرًا عليها غير تائب منها، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى)[1][2].

ثالثًا - من أساليب التربية: الحوار والمناقشة:

استخدمت التربية الإسلامية أسلوب الحوار والمناقشة والذي له عدة فوائد تربوية كجذب الانتباه وشحذ الذهن وإعماله، وإبعاد المتعلمين عن الانقياد الأعمى، وتحقيق الإقناع والاقتناع العقلي، ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف[3].

ويظهر هذا الأسلوب في هذا الباب في الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: ((سأل رسول الله ﷺ، أناسًا عن الكهان، فقال: "ليسوا بشيء" فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء، فيكون حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ:

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٥٤/١-٣٥٥،.

(٢) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص ٥٦.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٨٠.

"تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة")).

كذلك يظهر أسلوب الحوار والمناقشة في حواره ﷺ مع معاوية بن الحكم رضي الله عنه حين قال: ((قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله تعالى بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: "فلا تأتهم" قلت: ومنا رجال يتطيرون؟ قال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدهم" قلت: ومنا رجال يخطون؟ قال: كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك)).

ولقد كان رسول الله ﷺ يستخدم أسلوب الحوار والمناقشة في إقناع أصحابه رضي الله عنهم وتعليمهم، من أجل ذلك شجع علماء المسلمين طلبتهم على المناقشة والمناظرة، وأوجبوا التمرن عليها، فقد نقد ابن خلدون الركود الذهني في بلاد المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي، وعزاه لرداءة طرق التدريس، لأنها أهملت المناقشة والمناظرة في التعليم. وهو يرى أن المناظرة في المسائل العلمية تساعد على فهمها وعلى التعبير عنها، وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم، كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة ... ويرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار[1].

وعلى المعلم أن يعود طلابه الحوار والمناقشة، ليشحذ أذهانهم ويقوي الحجة لديهم، ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس كما عليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستويات نموهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم، وحتى يفيدهم بذلك[2].

رابعًا - التربية بالترهيب:

أسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة[3].

---

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الأبراشي ص ٩٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٨٣.

(٣) انظر: أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن البابطين، ص ٣٦.

وقد اعتمد الرسول ﷺ الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين[1]، ويظهر الترهيب كأسلوب تربوي في هذا الباب في ترهيب النبي ﷺ من الذهاب إلى العرافين فقال: "من أتى عرافًا فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا".

ويلحق بالعراف كل من ادعى أمرًا من أمور الغيب فهو يندرج ضمن هذه المسميات لذا قال ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلمون في معرفة الأمور بهذه الطرق[2].

كما رهب ﷺ من: "العيافة، والطير، والطرق، وقال: - عنها أنها - "من الجبت" كما رهب من التنجيم فقال: "من اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد". والسحر من الكبائر.

فالترهيب أسلوب تربوي مفيد - خاصة مع الطفل - لأن الإنسان إذا علم نتيجة سلوكه وما يترتب عليه من عقاب تجنب هذا السلوك.

فالترهيب وسيلة تربوية يستخدم في التأديب وهو ما يسمى بالعقاب لكن له شروط يجب وضعها في الاعتبار عند عملية العقوبة منها:

أ - عد الإكثار منها خشية أن تصبح مألوفة فيقل تأثيرها.

ب - الحرص على أن تكون من نوع الخطأ ومناسبة لدرجة الخطورة، وبذا يكتسب العقاب صبغة الإصلاح لا مظهر التشفي والانتقام.

ج - استعمالها بهدوء ونزاهة حتى لا تخدش الكرامة ولا تؤلم النفس ولا تولد الحقد والكراهية.

د - مراعاة حساسية المعاقب[3].



---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ٢٥١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٧٣/٣٥.

(٣) آراء في التربية، محمد الناصف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت، ص ٥٠.

٣٠٤- باب النهي عن التَّطَيُّرِ

فِيهِ الأحاديث السابقة في الباب قبله.

الحديث رقم (١٦٧٦)

١٦٧٦- وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَألُ**)) قالُوا: وَمَا الفَألُ؟ قَالَ: ((**كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الطيرة: التشاؤم بالشيء[2].

الفأل: فيما يسر ويسوء والغالب السرور وقد فسره النبي ﷺ بالكلمة الصالحة والحسنة الطيبة[3].

الشرح الأدبي

هذه محاورة موجزة بين النبي ﷺ وبعض أصحابه وهي تتضمن الترهيب والترغيب، فأما الترهيب فتشع به بداية الحديث؛ حيث ينهي رسول الله ﷺ عن استسلام المؤمن للأوهام المتمثلة في الطيرة والعدوى، ولذلك صاغ رفضه لهذين النوعين في أسلوب النفي، والأداة هي "لا" النافية للجنس، وذلك في جملتين، وفيهما إيجاز بالحذف حيث حذف خبر، "لا" النافية للجنس، في الجملتين والتقدير: لا عدوى مؤثرة أو فاعلة فعلها من غير إرادة الله عز وجل، ولا طيرة، تُجْبر الإنسان على اتباع طريق ما حَسَب رؤية السوانح والبوارح، وهذا من عادات الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٥٧٧٦)، ومسلم (١١٢/٢٢٢٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٣) المرجع السابق في (ف أ ل)، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

وقوله: "ويعجبني الفأل" أي الاستبشار والشيء الذي يعجبك لتفرح به اتباعاً.

وورود هذه الجملة في صيغة الفعل المضارع يوحي باستمرار هذا السلوك المحبب إلى رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين الاقتداء برسولهم ﷺ، وهذا هو الترغيب الذي يتضمنه الحديث.

وفي الحديث تشويق وامتاع، وحوار وإقناع، حيث سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في لهفة ومحبة: "وما الفأل"، فقال رسول الله ﷺ: كلمة طيبة، أي الفأل كلمة طيبة، يسمعها الإنسان من أخيه، أو يقولها لأخيه، أو ينصح بها المسلمين، والكلمة هنا ليس المراد بها المفردة اللغوية، ولكنها جملة الكلام الطيب النافع، وما أعظم التصوير القرآني لهذه الكلمة الطيبة حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

فقه الحديث

تشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الآتية:

١- تحريم التطير "التشاؤم"[2]: وفي ذلك إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية إذ كانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح، فينفرون الظباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به، ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥ .

(٢) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٦٦/٢، وكفاية الطالب الرباني ٦٤٤/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٢/٢، وفتح الباري، ابن حجر ٦٢/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ٢١٨/١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩/٢٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١١/٦.

وتشاءموا بها[١]، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وقال "لا طيرة"، وأمرهم بالتوكل على الله، لأنه لا حكم إلا حكمه، ولا يعلم الغيب غيره[٢].

أما قول رسول الله ﷺ: "وإن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس" ففيه أقوال:

الأول: إنه على ظاهره وأن هذه الأشياء قد تكون سبباً في الشؤم، فيجري الله تعالى الشؤم عند وجودها بقدره.

وليس معنى ذلك اعتقاد أن الطيرة تضر قطعاً على نحو ما كان يفعل أهل الجاهلية وإنما معناه أن هذه الثلاثة أكثر ما يتشاءم الناس بها لملازمتهم إياها، فمن وقع في نفسه شيء من ذلك، فقد أباح الشرع له أن يتركه، ويستبدل به غيره مما تطيب به نفسه، ويسكن إليه خاطره، ولم يلزمه الشرع أن يقيم في موضع يكرهه، أو مع امرأة يكرهها، بل قد فسح له في ترك ذلك كله مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفعال لما يريد.

الثاني: وقال الخطابي وآخرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة، أي الطيرة، منهي عنها، إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه، وطلاق المرأة.

الثالث: وقيل شؤم الدار ضيقها، وسوء جيرانها، وأذاهم، وقيل: بعدها عن المسجد. وشؤم المرأة عدم ولادتها، وسلاطة لسانها، وتعرضها للريب، وشؤم الفرس ألا يغزى عليها، وشؤم الخادم سوء خلقه، وقلة تعهده لما فوض إليه[٣].

٢- استحباب الفأل: والفأل هو الكلمة الطيبة، كما لو خرج شخص إلى السفر وسمع "يا سالم أو يا غانم" أو كمن ذهب إلى عيادة مريض، وسمع "يا عافية"[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/٢١٨، ٢١٩.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٤/١٩٥.

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٨/٤٠٧-٤٠٨، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٤/٣٨.

(٤) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٢/٣٤٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤/٢٢٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠/٢٩٥.

وإنما كان الفأل مستحباً لأنه حسن ظن بالله، وقد جعل الله تعالى من الفطرة محبة ذلك[1].

ومحل استحباب الفأل إذا لم يقصده، أما إذا قصد سماع الفأل ليعمل على ما يسمع من خير أو شر، فلا يجوز، لأنه من الأزلام المحرمة التي كانت تفعلها الجاهلية[2].

المضامين الدعوية[3]

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التطير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان الأمور التي يكون فيها الشؤم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التفاؤل في الأمور.

خامساً: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

سادساً: من أهداف الدعوة: تعميق معاني التوكل على الله في كافة الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث "لا عدوى ولا طيرة" وقوله "أن النبي ﷺ كان لا يتطير" وأسلوب النفي من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو حيث يفيد النفي القطع والجزم للأمر ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[5]. وفي الأحاديث نفى رسول الله ﷺ الطيرة والتشاؤم، وبين أن المؤمن متوكل على الله في كل أحواله.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٩٣/١٠.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٢/٢.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٧٩).

(٤) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

(٥) سورة مريم، آية: ٦٠.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التطير:

حيث جاء في الحديث قوله ﷺ "لا عدوى ولا طيرة" وما جاء أيضاً "أن النبي ﷺ كان لا يتطير" وهذه الأحاديث بمجموعها تدل على النهي عن التطير والتشاؤم.

قال المازري: (جاء في بعض الطرق: "ولا طيرة وخيرها الفأل. قيل: يا رسول الله: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة الصالحة يسمعها أحدكم".

وفي بعض طرقه: "الشؤم في الدار والمرأة والفرس".

وفي طريق آخر: "إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة".

وفي طريق آخر: "إن كان في شيء ففي الرَّبْع والخادم والفرس".

وفي أخرى "يا رسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كُنا نأتي الكهان. قال: فلا تأتوا الكهان. قال: قلت كنا نتطير: قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم".

وفي بعض طرقه: "ومنا رجال يخطُّون".

قال: "كان نبي من الأنبياء يخطُّ فمن وافق خطَّه فذاك".

وقد اضطرب الناس فيما ذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه من الحديثين اللذين أُسقِط أحدهما؛ فقال بعض أصحابنا: "لا يورد ممرض على مصح" منسوخ بقوله: "لا عدوى".

وقال آخرون: ليس بينهما تنافٍ فيفتقر إلى النسخ، ولكن نفي العدوى وهي اعتقاد كون بعض الأمراض تفعلُ في غيرها بطبيعتها.

وإما أن تكون سبباً بخلق الباري عز وجل عندها مرضاً ما وردت عليه فلم ينفه؛ فإنما نهى أن يورد الممرض على المصح، لئلا تمرض الصحاح من قِبلِ الله جلَّت قدرته عند ورود المرضى، فتكون المرضى كالسبب فيها.

وقال آخرون: إنما المراد بهذا الاحتياط على اعتقاد الناس، لئلا يتشاءم بالإبل المريضة، ويعتقد أنه أمرضت إبله فيأثم في هذا الاعتقاد.

وقال آخرون: إنما ذلك للتأذي بمشاهدة المرضى، وما قد يكون فيها من رائحة تُؤذي؛ وهو المراد بما وقع في الأحاديث فإنه أذى.

وقال بعض أصحابنا في هذا: إن كانت مندوحة عن مخالطة من يتأذى كُرِه للوارد وإلا فلا، وكذا في أهل الجذام إذا تأذى الناسُ بمخالطتهم في البئر، فإن كان لهم مندوحة بماء آخر ينصرفون إليه، أُمِروا أن ينصرفوا إليه رفعاً للضرر عن هؤلاء، وإن لم يكن لهم مندوحة بماء آخر ينصرفون إليه قيل للآخرين: أوجدوهم العوض وإلا فيشاركونكم؛ لأن كل ذي مالٍ أحق بماله.

وقوله ﷺ: "لا عدوى" تفسيره: أن العرب كانت تعتقد أن المرض يعدي وينتقل إلى الصحيح؛ فأنكر النبي ﷺ اعتقادهم.

والطِّيرة: مأخوذة مما كانوا يعتادونه في الطير ويعتقدونه في البوارح والسوانح. وكان لهم في التشاؤم والتَّيامن طريقة معروفة. وقيل منها أخذ اسم الطيرة.

وقال بعضهم: فإن الفأل رجوع إلى قول مسموع وأمر محسوس يحسن معناه في العقول؛ فيخيل للنفس مثل وقوع ذلك المعنى، وتحسين الظن بالله عز وجل ورجاء الخير منه بأدنى سبب لا يقبح.

والطِّيرة: أخذ المعاني من أمور غير محسوسة ولا معقولة، ولا معنى يشعر العقل بما يتوقع من ذلك، فلهذا فارقت الفأل بأنها لا تقع إلا على توقع أمر مكروه، والفأل يقع على ما يحب ويكره، والمستحسن منه ما يحب وما يكره يتقي فألاً كان، وهو أحد قسمي الفأل أو طيرة هكذا قال بعضهم[1].

هذا ولا يتنافى ما ورد من نفي العدوى مع ما جاء في حديث المجذوم الذي كان في وفد ثقيف وأرد أن يبايع النبي ﷺ فأرسل إليه ﷺ: ((إنا قد بايعناك فارجع))[2].

قال القرطبي: (وقوله ﷺ للمجذوم: "اذهب فقد بايعناك" ولم يأخذ بيده عند المبايعة، تخفيفٌ عن المجذوم والناس؛ لئلا يشقَّ عليه الاقتحام معهم، فيتأذى هو في نفسه، ويتأذى به الناس.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٧١-٢٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣١.

وقد جاء عنه في الصحيح أنه قال: ((فر من المجذوم كما تفرُّ من الأسد))[١]. وهذا الخطاب إنما هو لمن يجدُ في نفسه نفرة طبيعية لا يقدر على الانتزاع منها، فأمره بالفرار لئلا يتشوش عليه ويغلبه وهمُه. وليس ذلك خوفاً لعدوى، فقد قال ﷺ ((لا عدوى))[٢]. وقال للأعرابي: ((فمن أعدى الأول))[٣].

ويُفيد هذا الحديث: إباحة مباعدة أهل الأسقام الفادحة، المستكرهة إذا لم يؤدّ ذلك إلى إضاعتهم، وإهمالهم. والله تعالى أعلم)[٤].

جاء في فتح الملهم: (قوله: "لا عدوى" العدوى: أن يتعدى مرض المريض إلى غيره، والأحاديث في هذا الباب مختلفة، فمنها ما يفهم منه نفي العدوى، مثل هذا الحديث، ومنها ما يشعر بكونها مؤثرة في درجة الأسباب.

وقد اختلفت أقوال العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث، واستقصى الحافظ في الفتح هذه الأقوال كلها، ومن جملتها ما هو المعروف فيما بين أكثر الشرّاح أن الأصل نفي العدوى، وإنّما نهى عن إيراد الممرض على المصحّ، وأمر بالفرار من المجذوم، لأن الصحيح إن مرض بعد مخالطته للمريض، فإنه إنما يمرض بتقدير الله تعالى، ولكنه يتخيّل أنه مرض بسبب العدوى، فيفسد اعتقاده، ومن أجل هذا نهى عن الوقوع فيما يؤدي إلى فساد الاعتقاد.

والموقف الراجح في باب العدوى ما ذكره الحافظ في الفتح عن البيهقي وابن الصلاح وغيره، قال البيهقي: ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لا عدوى" فهو على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك. قال الحافظ بعد نقل كلامه: وتبعه على ذلك ابن الصلاح في الجمع بين الحديثين ومن بعده وطائفة ممن قبله.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٥٧، ومسلم ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧١٧، ومسلم ٢٢٢٠.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ابو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٥/٤، ٧٦.

فالحاصل أنه لو ثبت طبياً أن جراثيم بعض الأمراض تنتقل من جسم إلى جسم آخر، فإن ذلك لا ينافي ما ورد في حديث الباب من نفي العدوى، فإنّ المنفيّ هو كون هذا الشيء مؤثراً بذاته، دون أن يخلقه الله تعالى، ولاشك في أن هذا الاعتقاد شرك وكفر. أما الاعتقاد بأن انتقال الجراثيم ربما يسبب المرض، كما تسببه الأشياء الضارة الأخرى وأن كل ذلك موقوف على مشيئة الله تعالى وتقديره، بحيث أنه إن لم يشأ الله تعالى ذلك لم تنتقل الجراثيم، أو انتقلت فلم تسبّب المرض، فهذا اعتقاد صحيح لامانع منه شرعاً، وليس ذلك بمخالف لحديث الباب. وبما أن العادة جرت بانتقال بعض الأمراض من جسد إلى جسد آخر، كالجذام والطاعون، فإن النبي ﷺ أمر بالحذر منه في درجة اختيار الأسباب والتدابير الوقائية، فإن اختيارها لا ينافي التوكل وعقيدة التقدير ما دام الإنسان معتقداً بأن تأثير الأسباب ليس ذاتياً، وإنما هو موقوف على مشيئة الله تعالى قائلاً: "ثقة بالله وتوكلاً عليه"، وذلك للتنبيه على أن هذا المرض وإن كان يعدي في العادة، ولكن تعديته موقوفة على تقدير الله تعالى وليس ذلك بتأثيره الذاتي.

وقوله "لا طيرة" هي: التشاؤم وهو مصدر "تطيّر" كما أن الحيرة مصدر "تحيّر" وقال بعض أهل اللغة: لم يجيء من المصادر هكذا غير هاتين.

وأصل التطيّر أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر في عمله، وإن رآه طار يُسرة تشاءم به ورجع وربما كان أحدهم يهيّج الطير ليطير فيعتمدها، وكانوا يسمّون الطائر الذي يطير إلى اليمين: "سانحاً"، والذي يطير إلى اليسار يسمونه: "بارحاً" فكانوا يتيمنون بالسائح ويتشاءمون بالبارح، ثم استعيرت كلمة التطير لكل تشاؤم، سواء كان بسبب الطير أو بغيره، ومنه ما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1] و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[2]. فجاء الشرع فأراح المسلمين من جميع هذه التوهمات[3].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣١.

(٢) سورة يس، آية: ١٨.

(٣) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٠/٢٢٣-٢٢٧ بتصرف.

وقال النووي: (والتطير: التشاؤم وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح فينفرون الظباء والطيور فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا منها فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر فهذا معنى قوله "لا طيرة" وأما قوله في حديث آخر "الطيرة شرك" أي اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك لأنهم جعلوا لها أثراً في الفعل والإيجاد)(١).

قال ابن حجر: (وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة يتيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع. وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه قال شاعر منهم:

الزجر والطير والكهان كلهم مضلون ودون الغيب أقفال

وقال آخر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقد جعل الله ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى)(٢).

وقال الماوردي: (اعلم أنه ليس شيء أضر بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة، أو نعيق غراب، يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً فقد جهل، واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد، لا سيما من عارضته المقادير في إرادته، وصده القضاء عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عُذْر خيبته وغفل عن قضاء الله ومشيئته)(٣).

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٣/١٠، ٢٢٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٣، ٣٠٤.

وقال أبو عمر بن عبدالبر: (أصل التطير واشتقاقه عند أهل العلم باللغة والسير والأخبار هو مأخوذ من زجر الطير ومروره سانحاً أو بارحاً[١] منه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير الحيوان فتطيروا من الأعور والأعضب[٢] والأبتر، وكذلك إذا رأوا الغراب أوغيره من الطير يتفلى أو ينتف ولإيمان العرب بالطيرة عقدوا الرتائم[٣] واستعملوا القداح بالآمر والناهي والمتربص، وكانوا يشتقون الأسماء الكريهة مما يكرهون، وإذا غلب عليهم الإشفاق تطيروا وتشاءموا، وإذا غلب عليهم الرجاء والسرور تفاءلوا فقال لهم رسول الله ﷺ "لاطيرة" ولا "شؤم" فعرفهم أن ذلك إنما هو شيء من طريق الاتفاق ليرفع عن المتوقع ما يتوقعه من ذلك كله، ويعلمه أن ذلك ليس يناله منه إلا ما كتب له)[٤].

جاء في الموسوعة الفقهية: (وأصل التطير: أن العرب كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لأمر قصد إلى عش الطائر، فيهيجه، فإذا طار الطير يمنة تيمن به، ومضى في الأمر، ويسمونه "السانح". أما إذا طار يسرة تشاءم به، ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمونه "البارح". فأبطل الإسلام ذلك ونهى عنه، وأرجع الأمر إلى سنن الله الثابتة، وإلى قدره المحيط، ومسيئته المطلقة، جاء في الأثر الصحيح: ((من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك))[٥].

وأما حكمه التكليفي: فإن اعتقد المكلف أن الذي شاهده من حال الطير موجب لما ظنه، مؤثر فيه، فقد كفر. لما في ذلك من التشريك في تدبير الأمور. أما إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر وحده، ولكنه في نفسه يجد شيئاً من الخوف

---

(١) السانح: ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به، لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح: ما مرَّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به؛ لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف. لسان العرب، ابن منظور (ب ر ح، س ن ح).

(٢) الأعضب: المكسور القرن، ويكون العضب في الأذن أيضاً، إلا أنه في القرن أكثر. لسان العرب، ابن منظور في (ع ض ب).

(٣) الرتائم: جمع رتيمة، وهي خيط يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة. لسان العرب، ابن منظور في (ر ت م).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/١٩٠، ١٩١.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٢٢٠ رقم ٧٠٤٥، وقال محققو المسند: حديث حسن، ١١/٦٢٣.

من الشر، لأن التجارب عنده قضت أن صوتاً من أصوات الطير، أو حالاً من حالاته يرادفه مكروه، فإن وطّن نفسه على ذلك فقد أساء، وإن استعاذ بالله من الشر، وسأله الخير ومضى متوكلاً على الله، فلا يضره ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ. لحديث معاوية بن حكم. قال: قلت: ((يا رسول الله: منا رجال يتطيرون. قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم))[(١)].

هذا وقد اتفق أهل التوحيد على تحريم التطير، ونفي تأثيره في حدوث الخير أو الشر، لما في ذلك من الإشراك بالله في تدبير الأمور. والنصوص في النهي عن ذلك كثيرة، منها: حديث: ((لا عدوى، ولا طيرة، ولاهامة، ولا صفر))[(٢)])[(٣)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان الأمور التي يكون فيها الشؤم:

حيث جاء في الحديث قوله ﷺ "وإن كان الشؤم في شيء، ففي الدار والمرأة والفرس".

قال المازري: (وأما ما ذكره: الشؤم في الدار والمرأة والفرس؛ فإن مالكاً أخذ هذا الحديث على ظاهره ولم يتأوله؛ فذكر في كتاب الجامع من المستخرجة: أنه قال: رب دار سكنها قوم فهلكوا وآخرون بعدهم فهلكوا، وأشار إلى حمل الحديث على ظاهره.

وقال غيره؛ فإن هذا محمله على أن المراد به أن قدر الله تعالى ربما اتفق بما يكره عند سكن الدار، فيصير ذلك كالسبب فيتسامح في إضافة الشؤم إليه مجازا واتساعاً.

قالوا: وقد قال في بعض طرق مسلم: إن يكن الشؤم؛ وهذا لفظ ينافي القطع.

ويكون محمله: إن يكن الشؤم حقاً؛ فهذه الثلاث أحق به، بمعنى: أن النفوس يقع فيها التشاؤم لهذه أكثر مما يقع بغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٧٥، ومسلم ٢٢٢٠.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢.

وقد وقع في بعض الأحاديث. أنه ﷺ لما شكى إليه في بعض الديار ذهاب الأهل و المال؛ فقال: ((دعوها ذميمة))[١].

وقد اعترض بعض أهل العلم في هذا الموضع بأن قال؛ فإنه ﷺ: نهى عن الفرار من بلد الطاعون، وأباح الفرار من هذه الدار؛ فما الفرق؟

قيل: قال بعض أهل العلم: إن الجامع لهذه الفصول كلها ثلاثة أقسام:

فأحد الأقسام ما لم يقع التأذي به، ولا طردت عادتهم فيه خاصة ولا عامة نادرة ولا متكررة؛ فهذا لا يصغي إليه. والشرع أنكر الالتفات إليه وهو الطيرة؛ لأن لقُيا الغراب في بعض الأسفار ليس فيه إعلام ولا إشعار بما يكره، أو يختار، لا على جهة الندور ولا التكرار؛ فلهذا قال ﷺ: "لا طيرة".

والقسم الثاني: مما يقع به الضرر، ولكنه يعم ولا يخص ويندر ولا يتكرر كالوباء؛ فإن هذا لا يقدم عليه احتياطاً ولا يفر منه لعدم أن يكون وصل الضرر إلى الغير على الندور والتكرار.

والقسم الثالث: سبب يخص ولا يعم ويلحق منه الضرر كالديار؛ فإن ضررها مختص بسكناها وقد ذهب فيها أهله وماله على حسب ما قال الشاكي للنبي ﷺ فهذا يباح له الفرار. فهذا التقسيم الذي قسمه بعض العلماء يشير إلى الفروق بين هذه المسائل بعضها من بعض)[٢].

وقال القاضي عياض: (وقد عارض بعض الملحدة هذا الحديث بقوله: "لا طيرة". قال القتبي: وهذا تعسف، ووجهه: أن هذا الحديث مخصوص بحديث الشؤم، كأنه قال: لا طيرة إلا في هذه الثلاثة، والطيرة على من تطير. كان أهل الجاهلية يقولون ذلك، فنهاهم النبي ﷺ عن الطيرة، فلم ينتهوا فبقيت في هذه الثلاثة الأشياء.

وقد روى أبو هريرة عنه ﷺ: "الطيرة على من تطير، وإن يكن في شيء ففي المرأة والدار والفرس"، وهذا يعضد قول من قال[٣]: إنه على الاستثناء، وقد جاء في حديث

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٢٢).

(٢) المعلم بفوائد مسلم٢/٢٧٣-٢٧٤.

(٣) الخطابي في معالم السنن ٤/٢٢٣٧.

آخر: ((لا شؤم))[١]، وقيل: معناه: أن هذه الأشياء مما يطول التعذب بها وكراهة أمرها، وذلك لملازمتها بالسكنة والصحبة، وإن دفع الإنسان ذلك عن اعتقاده، فكلامه عليه السلام بذلك بمعنى الأمر بفراق ذلك وزوال التعذب به، كما قال: ((اتركوها ذميمة))[٢].

قال الخطابي: معنى هذا الحديث: إبطال مذهبهم في التطير بالسوانح والبوارح، إلا أنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها، وامرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه ارتباطه – فليفارقه، بأن ينتقل عن الدار، ويبيع الفرس، ويفارق المرأة وكان مجرى هذا الكلام عن استثناء الشيء من غير جنسه، وتسهل الخروج من كلام إلى غيره.

وقد قيل: شؤم الدار ضيقها [سوء جارها]، وشؤم الفرس ألا يغزى عليها وشؤم المرأة ألا تلد.

وقد يكون الشؤم هنا على غير المفهوم منه من معنى التطير، لكن بمعنى قلة الموافقة وسوء الطباع، كما جاء في الحديث الآخر: "سعادة ابن آدم في ثلاثة، وشقوة ابن آدم في ثلاثة: فمن سعادته: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والمركب الصالح. ومن شقاوته: المسكن السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء"[٣])[٤].

قال ابن عبدالبر: وأما قوله في هذا الحديث "الشؤم في الدار والمرأة والفرس" فهو عندنا على غير ظاهره، وسنقول فيه بحول الله وعونه لا شريك له، وكان ابن مسعود يقول: إن كان الشؤم في شيء فهو فيما بين اللحيين -يعني اللسان- وما شيء أحوج إلى سجن طويل من اللسان.

قال أبو عمر: ونقول في معنى حديث هذا الباب بما نراه يوافق الصواب إن شاء الله.

فقوله ﷺ: "لا طيرة". نفيٌ عن التشاؤم والتطير بشيء من الأشياء، وهذا القول أشبه شيء بأصول شريعته ﷺ من حديث الشؤم.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٢٤ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٢٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٨/١ رقم ١٤٤٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح، ٥٥/٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٠/٧، ١٥١.

فإن قال قائل: قد روى زهير بن معاوية، عن عتبة بن حميد، قال: حدثني عبيد الله ابن أبي بكر، أنه سمع أنساً يقول: قال رسول الله ﷺ: ((لا طيرة، والطيرة على من تطير، وإن تكن في شيء، ففي المرأة، والدار، والفرس)). وقال: هذا يوجب أن تكون الطيرة في الدار، والمرأة، والفرس، لمن تطير. قيل له، وبالله التوفيق: لو كان كما ظننت لكان هذا الحديث ينفي بعضه بعضاً؛ لأن قوله: "لا طيرة". نفي لها، وقوله: "والطيرة على من تطير". إيجاب لها، وهذا محال أن يظن بالنبي ﷺ مثل هذا من النفي والإثبات في شيء واحد، ووقتٍ واحد، ولكن المعنى في ذلك نفي الطيرة بقوله: "لا طيرة". وأما قوله: "والطيرة على من تطير". فمعناه: إثم الطيرة على من تطير بعد علمه بنهي رسول الله ﷺ عن الطيرة. وقوله فيها: "إنها شرك، وما منا إلا ...، ولكن الله يذهبه بالتوكل". فمعنى هذا الحديث عندنا، والله أعلم، أن من تطير فقد أثم، وإثمه على نفسه في تطيره؛ لترك التوكل وصريح الإيمان؛ لا أنه يكون ما تطير به على نفسه في الحقيقة، لأنه لا طيرة حقيقة، ولا شيء إلا ما شاء الله في سابق علمه.

والذي أقولُ به في هذا الباب، تسليم الأمر لله عز وجل، وترك القطع على الله بالشؤم في شيء؛ لأن أخبار الآحاد لا يُقطع على عينها، وإنما توجب العمل فقط، قال الله تبارك اسمه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]. فما قد خط في اللوح المحفوظ لم يكن منه بد، وليست البقاع ولا الأنفس بصانعة شيئاً من ذلك، والله أعلم، وإياه أسأل السلامة من الزلل في القول والعمل برحمته.

وقد كان من العرب قومٌ لا يتطيرون ولا يرون الطيرة شيئاً.

ذكر الأصمعي أن النابغة خرج مع زبان بن سيار يُريدان الغزو، فبينما هما في منهل يُريدان الرحلة إذ نظر النابغة فإذا على ثوبه جرادة، فقال: جرادة تجرد، وذاتُ ألوان! فتطير وقال: لا أذهب في هذا الوجه. ونهض زبان، فلما رجع من تلك الغزوة سالماً غانماً أنشأ يقول:

---

(١) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

تَخَبَّر طيره فيها زِيَادٌ لِتُخْبِرَه وما فيها خَبِيرُ
أقامَ كأنَّ لُقْمَانَ بنَ عادٍ أشارَ له بحِكْمَتِهِ مُشِيرُ
تعلَّم أنَّه لا طِيرَ إلا على مُتَطَيِّرٍ وهْو الثُّبورُ
بلى شيءٌ يُوافِقُ بعضَ شيءٍ أحَايِيناً وباطِلُه كثيرُ

فهذا زبَّانُ بنُ سيار، وهو أحد دهاة العرب وساداتهم، لم يرد ذلك شيئاً، وقال: إنه اتفاقٌ وباطله كثير. وممن كان لا يرى الطيرة شيئاً من العرب ويُوصي بتركها، الحارث بن حلزة، والمرقش السدوسي كان أيضاً ممن لا يتطير، وهو القائل:

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أغْدُوا على واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائم كالأيا مِنِ والأيَامِنُ كالأشَائمْ
وكذاكَ لا خَيْرٌ ولا شرٌّ على أحَدٍ بدائمْ

الواقِ: الصُّرَدُ[1]، والحاتِمُ: الغُرَابُ.

وكانت عائشة رضي الله عنها تنكر حديث الشؤم وتقول: إنما حكاه رسول الله ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم، وكانت تنفي الطيرة ولا تعتقد شيئاً منها، حتى قالت لنسوة كنَّ يكرهن الابتناء بأزواجهن في شوال: ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال، وما دخل بي إلا في شوال، فمن كان أحظى مني عنده؟ وكانت تستحبُّ أن يدخلن على أزواجهن في شوال[2].

وعن قتادة، عن أبي حسان، أن رجلين دخلا على عائشة، وقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: "إنما الطيرة في المرأة، والدار، والدابة". فطارت شِقة منها في السماء، وشقة في الأرض، ثم قالت: كذب، والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم، من حدث عنه بهذا، ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: "كان أهل الجاهلية يقولون:

---

(١) الصرد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به. المعجم الوسيط، محمع اللغة العربية (ص ر د).

(٢) أخرجه مسلم ١٤٢٣، والترمذي ١٠٩٣، والنسائي ٣٢٣٦، ٣٢٧٧، وابن ماجه ١٩٩٠.

الطيرة في المرأة، والدار، والدابة". ثم قرأت عائشة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1].

قال أبو عمر: أما قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في أبوهريرة: كذب، والذي أنزل الفرقان. فإن العرب تقول: كذبت. بمعنى: غلطت فيما قَدَّرت، وأوهمت فيما قلت، ولم تظن حقاً. ونحو هذا، وذلك معروفٌ من كلامهم، موجودٌ في أشعارهم كثيراً، قال أبو طالب:

كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ نتْرُكُ مَكَّة ... ونظْعَنُ إلا أَمْرُكُم في بَلابِلِ
كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ نُبْزَى محمداً ... ولما نُطاعِنْ دُونَه ونُنَاضِلِ
ونُسْلِمُه حتى نُصَرَّعُ حولَه ... ونَذْهَلَ عن أبْنَائِنا والحَلائِلِ

وقال بعضُ شعراء همدان:

كذَبتم وبيتِ الله لا تأْخُذُونها ... مُراغَمَةً ما دامَ للسيفِ قائِمُ

ألا ترى أن هذا ليس من باب الكذب الذي هو ضد الصدق؟ وإنما هو من باب الغلط وظن ما ليس بصحيح؛ وذلك أن قريشاً زعموا أنهم يخرجون بني هاشم من مكة إن لم يتركوا جوار محمد ﷺ، فقال لهم أبو طالب: كذبتم. أي: غلطتم فيما قلتم وظننتم. وكذلك معنى قول الهمداني، وهذا مشهور من كلام العرب.

ومن هذا ما ذكره الحسن بن علي الحلواني، قال: حدثنا عارم، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، قال: سألتُ سعيد بن جبير عن الرجل يأذن لعبده في التزويج: بيدِ مَن الطلاقُ؟ قال: بيدِ العبد. قلت: إن جابر بن زيد يقول: بيد السيد قال: كذب جابرٌ. يريد غلط جابرٌ وأخطأ. والله أعلم.

وقد يحتمل أن يكون قول رسول الله ﷺ: "الشؤم في ثلاثة؛ في الدار، والمرأة، والفرس". كان في أول الإسلام خبراً عما كانت تعتقد العرب في جاهليتها على ما قالت عائشة، ثم نسخ ذلك وأبطله القرآن والسنن.

وأما قوله ﷺ للقوم في قصة الدار: ((اتركوها ذميمة))[2]. فذلك، والله أعلم، لما رآه منهم، وأنه قد كان رسخ في قلوبهم مما كانوا عليه في جاهليتهم، وقد

(١) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٢٢).

كان ﷺ رؤوفاً بالمؤمنين يأخذ عفوهم شيئاً شيئاً، وهكذا كان نزول الفرائض والسنن حتى استحكم الإسلام وكَمَل، والحمد لله، ثم بيّن رسول الله ﷺ بعد ذلك لأولئك الذين قال لهم: "اتركوها ذميمة". ولغيرهم ولسائر أمته، الصحيح بقوله: "لا طيرة". و"لا عدوى". والله أعلم[١].

وقال النووي: (معناه: قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة، وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها أذاهم، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها وقيل: حرانها وغلاء ثمنها وقيل: المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة[٢]).

وقال الطيبي: (قال القاضي: والمعنى أن الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء فإنها أقبل الأشياء لها، لكن لا وجود له فيها فلا وجود له أصلاً. فعلى هذا الشؤم في الأحاديث المستشهد بها محمول على الكراهية التي سببها ما في الأشياء من مخالفة الشرع أو الطبع فشؤمها عدم موافقتها له شرعاً أو طبعاً)[٣].

وقال ابن حجر: (قال ابن العربي: والحصر فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة وقال غيره إنما خصت بالذكر لطول ملازمتها. قال القرطبي: ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته فإن ذلك خطا وإنما عني أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس فمن وقع في نفسه شيء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره قال المازري: إن يكن الشؤم حقاً فهذه الثلاث أحق به بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها وسئل مالك عن هذا فقال: كم من دار سكنها ناس فهلكوا. قال ابن العربي: لم يرد مالك إضافة الشؤم

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٩٢/٢٣-٢٠٠ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٩.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣٢١/٨.

إلى الدار، وإنما هو عبارة عن جري العادة فيها فأشار إلى أنه ينبغي للمرء الخروج منها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل. وهذا التأويل أولى وهو نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفي العدوى والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة لئلا يوافق شيء من ذلك القدر فيعتقد من وقع له ذلك من العدوى أو من الطيرة فيقع في اعتقاد ما نهى عن اعتقاده فأشير إلى اجتناب مثل ذلك والطريق فيمن وقع له ذلك في الدار مثلاً أن يبادر إلى التحول منها لأنه متى استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة الطيرة والتشاؤم)[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التفاؤل في الأمور:

حيث جاء في الحديث "ويعجبني الفأل قالوا: وما الفأل؟ قال كلمة طيبة. وجاء في الحديث أيضاً "ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل".

قال النووي: (والفأل: فسره النبي ﷺ بالكلمة الصالحة والحسنة الطيبة قال العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء والغالب في السرور، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء. قال العلماء: وإنما أحب ﷺ الفأل لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالى وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط في جهة الرجاء فالرجاء له خير وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى فإن ذلك شر له، والطيرة فيها سوء الظن وتوقع البلاء)[٢]. وقال الطيبي: (وكان ﷺ يحب الاسم الحسن وهذا بيان لتفاؤله ﷺ لأنه لم يتجاوز عن ذلك)[٣]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ كان يُعْجِبُهُ إذا خَرَجَ لِحَاجَته أنْ يَسْمَعَ يَا رَاشِدُ يَا نَجِيحُ))[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أن النبي ﷺ سمع صوتاً فأعجبه فقال: قد أخذنا فألك من فيك))[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٧٢/٦، ٧٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣١٨/٨.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣١٦).

(٥) أخرجه أبو داود ٣٩١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣١٧).

وقال الإمام الماوردي: (وأما الفأل ففيه تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على الظفر، فقد تفاءل ﷺ في غزواته وحروبه وينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته، ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلاً روي أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله إليه: يا يوسف أنت حبست نفسك حين قلت: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[1] ولو قلت: العافية أحب إلي لعوفيت. وحُكي أن المُؤَمَّل بن أُمَيْل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي، فأتاه آتٍ في منامه فقال له هذا ما طلبت)[2].

جاء في الموسوعة الفقهية: (والتفاؤل مباح بل حسن إذا كان متعيناً للخير، كأن يسمع المريض يا سالم، فينشرح لذلك صدره.

ولا خلاف بين الفقهاء في جواز التفاؤل بالكلمة الحسنة من غير قصد، كأن يسمع المريض يا سالم، أو يسمع طالب الضالة يا واجد فتستريح نفسه لذلك.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعجبه: أن يسمع يا راشد يا نجيح إذاخرج لحاجته. وكان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ورئي بشر ذلك في وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح ورئي بشر ذلك في وجهه وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه.

وإنما كان يعجبه الفأل، لأنه تنشرح له النفس وتستبشر بقضاء الحاجة فيحسن الظن بالله. بخلاف الطيرة فإنها من أعمال أهل الشرك حيث كانوا يعتقدون حصول الضرر بما يتطير به.

والتفاؤل المباح: أن يسمع الرجل الكلمة الطيبة من غير قصد، أو يسمي ولده اسماً حسناً فيفرح عند سماعه.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٣.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٥.

أما أخذ الفأل من المصحف، كأن يفتحه فيتفاءل ببعض الآيات في أول الصفحة، أو يتفاءل بضرب الرمل، فيتفاءل ببعض رموزه فحرام)(١).

وقال الماوردي: (ينبغي لمن مُني بالتطير أن يصرف عنه نفسه دواعي الخيبة وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه، ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالبٌ، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سببٌ، فلا يثنيه عنها ما لا يضير مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً، وليمض في عزائمه واثقاً بالله تعالى إن أعطى، وراضياً به وإن منع)(٢).

خامساً- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث "ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك" حيث أرشد النبي ﷺ إلى ما يفعله المسلم تجاه الطيرة قال شرف الحق العظيم آبادي: (ولا تمنع الطيرة مسلماً من المضي في حاجته فإن ذلك ليس من شأن المسلم بل شأنه أن يتوكل على الله تعالى في جميع أموره ويمضي في سبيله فإنه لا يأتي بالأمور الحسنة الشاملة إلا الله ولا يدفع الأمور المكروهة الكافلة للنعمة والمعصية إلا الله ولا حول على دفع السيئات ولا قوة على تحصيل الحسنات إلا بالله)(٣).

وهذا واجب الداعية دائماً أن يوجه المدعوين إلى الخير لأنه حريص عليهم وعلى مصلحتهم وفائدتهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

قال ابن القيم: (التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره ألبتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: اللهم لا طير

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/٧٧، ٧٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٢.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٧٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك. وذلك لأن الطيرة بابٌ من أبواب الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، وهذا يعظم شأنه على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها فتكون إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه فيفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه فإذا سمع كلمة سفرجل، أو أُهدي إليه تطير به، وقال: سفر وجلاء، وإذا رأى ياسميناً أو أهدي إليه أو سمع اسمه تطير به وقال: يأس ومَيْن، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشاءم بيومه، وعلى هذا فإن المتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال سيء الخلق يتخوف من كل ما يراه ويسمعه فيصير أشد الناس وجلاً وأنكدهم عيشاً، وأضيقهم صدراً، وأحزنهم قلباً، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة. وأما من لم يلتفت إليها ولم يلقِ إليها باله، ولم يشغل نفسه بها ولا فكره، فإن ذلك يذهب عنه ويضمحل. وقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال: "ذلك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه")[1].

سادساً- من أهداف الدعوة: تعميق معاني التوكل على الله في كافة الأمور:

يتضح هذا من سياق الأحاديث قال ابن القيم: (والمؤمن لا يتطير فإن التطير شرك، ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته بل يتوكل على الله ويثق به، ويدفع شر التطير عنه بالتوكل وإن صاحب الهمة والعزيمة لا يتقيد بشيء من التطير ولا يصرف إليه همته وإذا سمع ما يسره استبشر وقوى رجاؤه وحسن ظنه وحمد الله وسأله إتمامه واستعان به على حصوله، وإذا سمع ما يسوؤه استعاذ بالله ووثق به وتوكل عليه ولجأ إليه والتجأ إلى التوحيد)[2].

وقال ابن رجب: (وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَة الأمور كلها إليه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/ ٢٣٠-٢٣٤ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤.

وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. قال الحسن: (إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته. وقال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان، واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك)[(١)].

قال القرطبي: (والتوكل لغة: هو إظهارُ العجز عن أمرٍ ما، والاعتماد فيه على الغير. والاسم: التكلان، يقال منه: اتكلتُ عليه في أمري. وأصله: إوتكلتُ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أُبدل منها التاء، وأُدغمت في تاء الافتعال، ويقال: وكّلته بأمر كذا توكيلاً. والاسم: الوكالة بكسر الواو وفتحها.

واختلفَ العلماءُ في التوكلُ، وفيمن يستحق اسم المتوكل على الله، فقالت طائفةٌ: لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبع أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق؛ لضمان الله تعالى.

وقال عامَّة الفقهاء: إن التوكل على الله تعالى هو الثقة بالله، والإيقانُ بأنَّ قضاءه ماضٍ، واتباعُ سنة نبيه في السعي فيما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب، وتحرزٍ من عدو، وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة، وإلى هذا ذهب محققو المتصوفة؛ لكنه لا يستحق اسم المتوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب، فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السببُ والمسبّبُ فِعل الله تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد انسلخَ عن ذلك الاسم.

ثم المتوكلون على حالين:

الحال الأول: حال المتمكن في التوكل، فلا يلتفتُ إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطها إلا بحُكم الأمر.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٩٧، ٤٩٨.

الحال الثاني: حال غيرِ المتمكِّن؛ وهو الذي يقعُ له الالتفاتُ إلى الأسباب أحياناً، غير أنه يدفعُها عن نفسه بالطرق العلمية، والبراهين القطيعة، والأذواق الحالية، فلا يزالُ كذلك إلى أن يرَقِّيَهُ اللهُ بجوده إلى مقام المتكمِّنين، ويُلحِقه بدرجات العارفين)[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٤٦٧، ٤٦٨.

الحديث رقم (١٦٧٧)

١٦٧٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ. (وإنْ كَانَ الشُّؤمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ، وَالمَرْأَةِ، والفَرَسِ)** [١])). متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

الطِّيَرَة: التشاؤُم[٣].

الشؤم: ما يُكره ويخاف عاقبته[٤].

الشرح الأدبي

يبدأ الحديث بما بدأ به الحديث السابق: وهو نفي العدوى، ونفي التطير، في صيغة "لا" النافية للجنس، وتكرار "لا" يؤكد هذا النفي لجنس العدوى ولجنس التطير، مهما تغيرت الأسماء، وتغيرت البيئات، ولكن رسول الله ﷺ حذر من مخالطة المرضى من باب الوقاية، لأن كثيراً من الأمراض تنتشر بالمخالطة، ولكن محكومة بالمشيئة الإلهية، بدليل أن بعض الناس يصاب، وبعضهم ينجو، وهم يعيشون في مناخ واحد، وبيئة واحدة.

والجزء الثاني من الحديث جاء في صيغة الشرط والجواب، "وإن كان الشؤم في شيء: ففي الدار والمرأة والفرس"، ونلاحظ أن أداة الشرط هي: "إن"، وليست: "إذا"، لأن "إن": تفيد الشك ولا تفيد التحقق: فهي احتمالية: وعلى هذا فإن الشؤم ليس قاعدة

---

(١) قوله: (وإن كان الشؤم) إلى آخره لفظ البخاري برقم (٥٠٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٤، و ٥٧٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٥/١١٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٤) المرجع السابق في (ش أ م).

مطردة، ولكن الفأل هو المطلوب، وهو التبشير عن طريق الكلم الطيب، وجواب الشرط جملة اسمية مقترنة بالفاء وجوباً وهو قوله: "ففي الدار والمرأة والفرس"، والتقدير: فهو موجود في دار الإنسان، وفي امرأته، وفي فرسه.

في ظل ظروف خاصة، إذا كانت الدار ضيقة قليلة المرافق، وإذا كانت الدابة قَطُوفًا بطيئة غير ذلول فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحق أصحابك، وكذلك المرأة تكون شؤماً: إذا ساءتك حين تراها، أو كانت تحمل لسانها عليك.

وقال بعضهم: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليها، وشؤم الدار: جار السوء.

وحديث رسول الله ﷺ في غاية الإيجاز فألفاظه قليلة، ولكنها تموج بالمعاني والاحتمالات، والتفسيرات التي لا تنتهي، ولكنها تتعدد وتتنوع بتعدد البيئات وتنوع الحالات التي تمر بالناس في كل زمان وكل مكان، وهم يخوضون عُبَاب الحياة في صحبة نسائهم ودوابهم وديارهم، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٧٨)

١٦٧٨- وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ لا يَتَطَيَّرُ. رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

يتطيَّر: يتشاءَم.

الشرح الأدبي

هذا الحديث قبسة من أنوار الشمائل المحمدية، وهالة من أشعة أخلاق الرسول ﷺ، وقد صيغ الحديث في جملة إخبارية واحدة تبدأ بالتأكيد وتوثيق الخبر الصادق، وقدم لفظ النبي ﷺ حيث جاء بعد التوكيد اسماً "لأن" في وظيفته النحوية، وأما الخبر فيتكون من جملتين فعليتين: جملة: كان واسمها المستتر: والتقدير كان هو...، وجملة لا يتطير... وهي خبر كان، والجملتان تعدان جملة واحدة وهي خبر "إن"، وتأمل مجيء قوله "كان" وهي فعل ناسخ ناقص، والفعل المنفي "يتطير"، ومجيئه في صيغة المضارع، فالحدث وهو عدم التطير له صفة الاستمرار، والفعل الناسخ... في ظل دلالته النحوية، له دلالة إيحائية في الحديث تنبثق من سياقه: وهي نسخ التطير، والإعلان عن عدم وجوده ولا وجود لآثاره في حياة النبي ﷺ، وكان ﷺ، في ظل هذا السلوك المرتبط بمشيئة الله تعالى وقدرته، وإسلام الوجه لله تعالى والإذعان لعظمته، أعظم مهيب في النفوس كما قال الماوردي: حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته، وكان صلوات الله وسلامه عليه محبوباً استحكمت محبة طلاقته في النفوس، حتى لم يَقْلُهُ مصاحب، ولم يتباعد منه مقارب، وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء وشرب الماء البارد على الظمأ، ﷺ.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم (٣٩٢٠) وهو جزء من حديث.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٧٦).

الحديث رقم (١٦٧٩)

١٦٧٩- وعن عُروة بن عامر رضي الله عنه قال: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: ((أحْسَنُهَا الفَألُ. وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِماً فإذا رَأى أحَدُكُمْ ما يَكْرَهُ، فَلْيَقلْ: اللَّهُمَّ لاَ يَأتِي بِالحَسَنَاتِ إلاَّ أنْتَ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلاَّ أنْتَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ)) حديث صحيحٌ، رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عروة بن عامر: هو عروة بن عامر القرشي ويقال: الجهني المكيّ. مختلف في صحبته روى عن النبي ﷺ وعن عبدالله بن عباس ورفاعة بن عبيد "وهو مختلف في صحبته كذلك". روى عنه عمرو بن دينار وحبيب بن أبي ثابت وغيرهما.

قال ابن حجر في الإصابة: وأخرج أبو داود له في السنن [أي هذا الحديث]؛ ما يشعر بأنه عنده صحابي.

وقال في التهذيب: أثبت غير واحد له صحبة وشك فيه بعضهم، وروايته عن بعض الصحابة لا تمنع أن يكون صحابياً. والظاهر أن رواية حبيب عنه منقطعة. وقال في الإصابة: حبيب كثير الإرسال[2].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجده فياضاً بكثير من الأسرار التعبيرية التي توصل المعنى، وتحدد المقاصد المتغياه من توجيهات المصطفى

---

(١) برقم (٣٩١٩). قال العراقي في تخريج الإحياء (١١٩) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو نعيم في اليوم والليلة، والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلاً، ورجاله ثقات. وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر، فجعله مسندًا. تنبيه: صحّح المؤلف إسناد الحديث على أنَّ عروة بن عامر عنده صحابيٌّ، واختلف فيه، والصواب أن الحديث مرسلٌ.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٦/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٠٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٥٧/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٥/٣).

الكريم ﷺ، فالحديث يبدأ بالفعل المبني للمجهول: "ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ"، وهذه الصيغة توحي بأن المراد ليس معرفة القائل... وإنما معرفة الموقف الصحيح من هذه الظاهرة التي استحكمت في النفوس.. وهي من آثار الجاهلية.

وهذا الموقف حدده رسول الله ﷺ في هذا التعبير الجميل المرغب الذي جاء فور سماعه بهذا الأمر، "فقال": والعطف بالفاء هنا يوحي بسرعة القول منعاً للفتنة، وحرصاً على توضيح الأمر وتأمل هذا البيان النبوي الراشد، "أحسنها الفأل"، والفأل هو الثقة في رحمة الله تعالى حتى في أشد الأوقات كمدا وضيقا، ففي الفأل حسن الظن بالله عز وجل، وأما الطيرة: ففيها سوء الظن بالله، وتوقع البلاء، والتعبير الذي جاء في صيغة أفعل التفضيل له ما يقابله وهو مفهوم العبارة التي يقابل منطوقها، وهو "أسوأها التشاؤم"، وكأن الفأل والتشاؤم ينبعان من مصدر واحد وهو إحساس النفس الإنسانية، ومدى صلتها بالله، كما قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

والإيجاز الذي يتضمن الحكم الصارم في قوله: "ولا ترد مسلماً"، فالنفي هنا بمعنى النهي: لأن شأن المسلم أن لا يرجع عما عزم عليه، والتعبير بالمضارع يوحي بالاستمرار، وأن ذلك من خلق المسلم الملازم له.

وصيغة الشرط والجواب في قوله: "وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل" تشخص المشكلة، وتضع الحل والدواء، وهو يتمثل في الدعاء الذي ورد في ختام الحديث، والأمر في قوله: "فليقل" للوجوب، حتى لا يقع المسلم فريسة للظنون والأوهام، وتأمل الصيغ الثلاثة للدعاء، إنها وردت في أسلوب القصر، وهذا الأسلوب يؤكد أنه لا يُصرِّف الأشياء إلا الله، ولا يقدر الأمور إلا الله، وتأمل تكرار قوله "أنت"، وذلك لبيان حرص المؤمن على التوكل على الله، وتأمل كذلك دقة الاختيار في قوله: "لا يأتي بالحسنات"، "ولا يدفع بالسيئات"، ففي مجال الحسنات، آثر التعبير بقوله: "يأتي" لأن

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.

الإيتاء: إعطاء وفضل وإحسان، أما في مجال السيئات: فالأنسب هو الدفع أملاً في تجنب السيئات والنجاة منها، ولذلك عدل رسول الله ﷺ عن قوله: "ولا يأتي بالسيئات إلا أنت ..." إلى قوله: "ولا يدفع" تأدباً مع الله، واستبشاراً وأملاً في تجنب السيئات، ومضاعفة الحسنات.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٧٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية بالتفاؤل:

التفاؤل بالحياة حياة جديدة، وسعادة حقيقية ينعم بها الإنسان، فمن تفاءل في أمور حياته ملك قوة لا تقهر، وسار بخطى حثيثة لتحقيق مستقبل أفضل[١].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول: "لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل" قالوا: وما الفأل، قال: "كلمة طيبة".

وقال ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة، وإن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس" وكان ﷺ لا يتطير، وعندما ذكرت عنده الطيرة قال: "أحسنها الفأل. ولا ترد مسلمًا فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك" وكان يبعث في النفوس الأمل والراحة، ويغمرها بالدعة والطمأنينة، ويزيل عنها الغم والحزن، ويقتل فيها اليأس والقنوط، ويحي فيها روح التفاؤل والعمل.

وكان إذا دخل على مريض قال له: ((لا بأس، طهور إن شاء الله))[٢] ذلك أن النفوس المتعبة المريضة، القلقة الخائفة، المتشائمة المتطيرة، المرتبكة المترددة، الخائرة الحائرة، يصعب على المربي تربيتها وقيادتها، مثل ما يصعب عليها أن تؤدي دورًا فاعلاً وإيجابيًا تنفع به نفسها، أو تنفع به غيرها.

لذلك حرص رسول الله ﷺ على أن تكون أمته دائمة البشْرِ إيجابية التفكير، نشطة وصحيحة، قوية وشجاعة، متفائلة ومتطلعة، مطمئنة إلى طريقها واثقة من نفسها، حتى يستطيع أن يبني فيها معالي الأمور، وصفات الكمال، ويبني بها أمة كريمة ودولة عظيمة[٣].

---

(١) موسوعة القيم العربية والإسلامية، ١٥/١٤ المقدمة.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٦.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

ثانيًا - التربية العقدية:

إن التطير هو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغير ذلك، فإذا عزم شخص على أمر من أمور الدين أو الدنيا، فرأى أو سمع ما يكره، أثر فيه ذلك أحد أمرين: إما الرجوع عما كان عازمًا عليه تطيرًا وتأثرًا بما رأى أو سمع، فيعلق قلبه بذلك المكروه، ويؤثر ذلك على إيمانه، ويخل بتوحيده وتوكله على الله، وإما أن يرجع عما عزم عليه، ولكن يبقى في قلبه أثر ذلك التطير من الحزن والألم والهم والوساوس والضعف.

فيجب على من وجد شيئًا من ذلك في نفسه أن يجاهدها على دفعه، ويستعين بالله، ويتوكل عليه، ويمضي في شأنه ويقول: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك[(١)].

والطيرة باب من الشرك منافية للتوكل لما فيه من الاعتماد والالتفات إلى غير الله تعالى، حيث إن المتطير الذي أحجم عما كان قد اعتزمه بسبب ما رآه أو سمعه، اعتقد بعمله هذا أنه يمكنه أن يرد قضاء الله وقدره، وهذا خلاف التوكل المأمور به وهو أن يثق المسلم بالله عز وجل ويعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له وقدره[(٢)].

وقد جاءت أحاديث الباب محذرة من التطير والتشاؤم ومرغبة في التفاؤل والتوكل.

وقد قال ﷺ: ((الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ومَا مِنَّا إلا، ولكِنْ يُذْهِبُه اللَّهُ بالتَّوَكُّلِ))[(٣)].

قال الخطابي: (قوله "وما منا إلا" معناه إلا يعتريه التطير وسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصارًا للكلام واعتمادًا على فهم السامع وقال محمد بن إسماعيل: كان سليمان بن حرب ينكر هذا ويقول: هذا الحرف ليس من قول رسول الله ﷺ وكأنه قول ابن مسعود رضي الله عنه)[(٤)].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان عبدالله الفوزان، ص ١١٧، ١١٨.

(٢) المسائل والرسائل المرويّة عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، تحقيق: د. عبدالإله بن سلمان بن سالم الأحمدي، ص ٢/١٢٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٨٩/١ رقم ٣٦٨٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٤) معالم السنن مع سنن أبي داود ٤/٢٣٠.

وقال ابن القيم: (وهو الصواب فإن الطيرة نوع من الشرك، كما هو في أثر مرفوع: "من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك" قالوا: يا رسول الله: ما كفارة ذلك قال: "أن يقول أحدهم، اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)[1].

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ: منا أناس يتطيرون فقال: ((ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ، فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ))[2] فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده، لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطير ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض وعمر الدارين الجنة والنار، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منها ولا يلتبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة[3].

فعلى المربين تحذير الناس من التطير والتشاؤم، وحثهم على التوكل على الله، لأن الطيرة لا تضر من كرهها ومشى في طريقه أما من لم يخلص في توكله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك، فيعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجبه بالإيمان بالله[4].



---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٢٢٠ رقم ٧٠٤٥، وقال محققو المسند: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٧ بلفظ: (ومنا أناس يتطيرون فقال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم" قال ابن الصباح: "فلا يصدنكم".

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/٢٣٤.

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص ١٢١.

٣٠٥- باب تحريم تصوير الحيوان في بساط

أو حجر أو ثوب أو درهم أو مخدة أو دينار أو وسادة وغير ذلك وتحريم اتخاذ الصور في حائط وسقف وستر وعمامة وثوب ونحوها والأمر بإتلاف الصورة

الحديث رقم (١٦٨٠)

١٦٨٠- عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: ((**إنَّ الذينَ يَصنَعُونَ هذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الصُّور: جمع صُورة: التِّمْثالُ[2].

الشرح الأدبي

إن من خصائص المسلم أنه يعبد الله وحده ولا يشرك في عبادته أحدا، ولا يوقع نفسه في الشبهات ولا يقترب من مناطق الريب، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، والصور التي يصنعها النحاتون والمثالون، ومَنْ على شاكلتهم قد توحي لصانعها بأنه قادر على بث الروح فيها، لأنه صنع "الهيكل" وهذا من وساوس الشيطان، وأوهام الظنون، وبداية الطريق إلى مفازات الخسران.

ولذلك يبدأ الحديث بالتوكيد، ثم باسم الموصول "الذين"، حيث يندرج في إطاره الآلاف من الذين يقومون بهذا الصنيع، واسم الموصول يجيء للتمييز والتحديد، وقوله: "يصنعون هذه الصور" فيه تفسير لإحساس من يقوم بهذا العمل بأنه صانع، وأن صنعته

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨/٩٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٢).

(٢) النهاية في (ص و ر).

دليل قدرة، وأنه يمكن أن يقوده هذا الإحساس إلى الغلو والاعتقاد بأنه خالق لهذا الشيء المصوَّر "المنحوت"، أو المصنوع من المواد البلاستيكية أو الرخامية أو غيرها من أدوات "الفن التشكيلي" أو لعب الأطفال.

ولذلك حدد رسول الله ﷺ المراد عن طريق اسم الإشارة وقال: "هذه الصور"، وما ورد من أول الحديث كله بداية الكلام: حيث إن واسمها وصلة الموصول؛ أما إتمام الكلام المتمثل في خبر "إن". فهو قوله: "يعذبون يوم القيامة"، وصيغة المبني للمجهول: تفيد أنه لا يعذبهم إلا الله، فالفاعل محذوف لأنه معلوم، وفي هذا حث لهؤلاء المصورين والنحاتين، والمثالين على التراجع عن ذلك لأن عملهم هذا سيكون سبباً في هلاكهم وعذابهم، فهم الأخسرون أعمالاً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

وإذا كانوا يصنعون هذه التماثيل، وتلك الصور مدفوعين بأوهام الشيطان، بأنهم فنانون قادرون على الخلق والإبداع، فستقام عليهم الحجة يوم القيامة، ويقال لهم وهم يعذبون "أحيوا ما خلقتم"، وفي ذلك غاية التحدي، لأنهم لا يقدرون على خلق ذبابة، ولا على إحياء أنفسهم، وإرجاعها للحياة من جديد، فكيف يبثون الحياة في الجمادات والطيور، والتماثيل الصامتة؟؟!!.

فقه الحديث

تشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- حرمة صناعة التصاوير، وهذا الحكم: متفق عليه بين الفقهاء[2]، والمقصود بالتصاوير التماثيل، وذلك لورود الوعيد الشديد على ذلك، وكون المصورين "أشد

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٩/٢، ومواهب الجليل ٥٥٢/١، والقوانين الفقهية لابن جزي ٢٦٤، والوسيط في المذهب للغزالي ٢٧٧/٥، وشرح صحيح مسلم ٩٠/١٤-٩١، والمغني لابن قدامة ٢١٦/٧، وكشاف القناع ٢٧٩/١.

الناس عذاباً يوم القيامة، وهو محمول على من صنع التمثال ليعبد، أو من قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى واعتقد ذلك، لأنه في الحالين يكون كافراً.

أما من لم يقصد بصنعه العبادة، أو المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير، إلا أنه لا يكفر شأنه في ذلك شأن مرتكبي المعاصي[1].

٢- إن المقصود بالصور المحرمة هي صور الحيوان أو الإنسان، أما تصوير غير الحيوان والإنسان، من شجر أو منزل فجائز اتفاقاً[2]، لما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فإن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر، وما لا روح فيه".

ولا فرق في ذلك بين الشجر المثمر، والشجر غير المثمر، خلافاً لمجاهد الذي يرى كراهة تصوير الشجر المثمر[3]، وذلك لحديث أبي هريرة رقم (١٦٨٥).

وقد أجاب الجمهور عن ذلك بأن هذا الحديث محمول على تصوير الحيوان جمعاً بينه وبين الأحاديث الدالة على جواز تصوير الشجر[4].

٣- تحريم بيع هذه التصاوير وشرائها، وذلك لأن هذه الأشياء محرمة، والله سبحانه وتعالى إذا حرم شيئاً حرم ثمنه.

٤- إن المقصود بالتحريم هنا هي الصور الفنية التي يصنعها الإنسان بقدرته الذاتية لأنه في نظر الناس مبدع، قد ضاهى الأصل أو شابه الحقيقة.

أما الصور الآلية التي تلتقطها الآلة، بحيث تنقلها أو تسجلها، أو تحتفظ بها كصورة آلة التصوير، والصور التلفزيونية، وصورة الشريط السينمائية، وصورة الأشعة

---

(١) شرح صحيح مسلم ٩١/١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ٩١/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٥٢/٥، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣١/٢، والوسيط للغزالي ٢٧٧/٥.

(٣) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

(٤) شرح صحيح مسلم ٩١/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٥٢/٥-٣٥٣، والدين الخالص للسبكي ٢٠٠/٣-٢٠١.

التي تلتقط عن طريق آلة التصوير لرسم الأجزاء الداخلية من جسم الإنسان، أو صورة السونار وهي نوع من التصوير بالأشعة إلا أنه ينقل الصورة من داخل الجسم البشري مع الحركة إلى شاشة التلفزيون، فيمكن بواسطته تصوير الجنين، أو نقل عمل الأجهزة الداخلية للجسم.

فكل هذه الصور مشروعة إذا ما استخدمت في الأمور النافعة، كالإعلام والتعليم والحرب، والأمن، والطب، وغير ذلك، وذلك لأنها في هذه الحالة لا ينطبق عليها وصف من الأوصاف التي تجعلها محرمة من نحو مضاهاة خلق الله تعالى أو تعظيم المخلوقين.

أما إذا استخدمت لأغراض غير نافعة كمجرد التعليق على الجدران، فإنها تكون حراماً، وتكون أشد حرمة إذا كانت للتعظيم، كتعظيم صور الزعماء، والرؤساء، وغيرهم[(١)].

المضامين الدعوية[(٢)]

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان أن المصور أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: بيان صور عذاب المصور يوم القيامة.

ثالثاً: من واجبات الداعية: بيان الحكمة من الوعيد الشديد للمصورين يوم القيامة.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

خامساً: من أساليب الدعوة: النداء.

سادساً: من واجبات الداعية: إنكار المنكر حال رؤيته وعدم السكوت عليه.

سابعاً: من آداب المدعو: الاستجابة والطاعة لأمر الله ورسوله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان أن المصور أشد الناس عذاباً يوم القيامة:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله: ﷺ "أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين

---

(١) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع، انظر: حكم التصوير في الشريعة الإسلامية للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق، ص ١٥ وما بعدها، ط٢، ١٤١٥هـ.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٨٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٨١، ١٦٨٢، ١٦٨٣، ١٦٨٤، ١٦٨٥).

يضاهون بخلق الله"، قال النووي: أما رواية: "أشد عذاباً" فقيل هي محمولة على من فعل الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها فهذا كافر وهو أشد الناس عذاباً، وقيل: هي فيمن قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى واعتقد ذلك فهذا كافر له من أشد العذاب ما للكفار ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره[1]، قال القاضي عياض: "وأما من لم يضاه بذلك خلق الله ولا قصد ولا نواه، فليس يناله هذا الوعيد وإن كان مخطئاً في فعله وعاصياً"[2]، وقال النووي: "هو في ذلك فاسق صاحب ذنب كبير ولا يكفر كسائر المعاصي"[3].

وقال ابن حجر: وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[4]. فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون، وأجاب الطبري بأن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك قاصداً له فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون، وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط...، وقال أبو الوليد بن رشد في "مختصر مشكل الطحاوي "ما حاصلة: أن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق كافر فلا إشكال فيه لأنه يكون مشتركاً في ذلك مع آل فرعون ويكون فيه دلالة على عظيم كفر المذكور، وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذاباً من غيره من العصاه ويكون ذلك دالاً على عظم المعصية. وأجاب القرطبي في "المفهم"[5]: بأن الناس الذين أضيف إليهم "أشد" لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه العذاب، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٣٣، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٣٨/٦.

(٢) إكمال المعلم، ٦٣٨/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، ١٣٣٣.

(٤) سورة غافر، آية: ٤٦.

(٥) المفهم ٤٣١/٥.

ممن يصورها لا للعبادة...، وقال الخطابي: إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله، ولأن النظر إليها يفتن، وبعض النفوس إليها تميل"(١).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: بيان صور عذاب المصور يوم القيامة:

هذا ما أشارت إليه نصوص الأحاديث الواردة، وفي بيان ذلك قال النووي: (في قوله ﷺ "يقال لهم: أحيوا ما خلقتم" هو الذي يسميه الأصوليون أمر تعجيز، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾(٢))(٣)، وفي قوله ﷺ: "كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه في جهنم"، قال القاضي عياض: "يحتمل أن معناها أن الصورة التي صورها هى تعذبه بعد أن يجعل فيها نفس أو روح وتكون الباء في بكل بمعنى في، ويحتمل أن يجعل له بعدد كل صورة ومكانها نفس أي شخص يعذبه، وتكون الباء بمعنى لام السبب أو من أجل"(٤). وفي قوله ﷺ: من صور صورة في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ"، قال ابن حجر: قال الكرماني: ظاهره أنه من تكليف ما لا يطاق، وليس كذلك وإنما القصد طول تعذيبه وإظهار عجزه عما كان تعاطاه ومبالغة في توبيخه، وبيان قبح فعله. وقوله: "ليس بنافخ" أى لا يمكنه ذلك فيكون معذباً دائماً"(٥)، وفي قوله ﷺ: "فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة"، قال النووي: "أى فليخلقوا ذرة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي هى خلق الله تعالى، وكذلك فليخلقوا حبة حنطة أو شعير أو ليخلقوا حبة فيها طعم تؤكل وتزرع وتنبت ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من الحب الذي يخلقه الله تعالى. وهذا أمر تعجيز"(٦). وقال ابن حجر: والمراد بالحبة حبة

---

(١) فتح الباري ٢٩٦/١٠-٢٩٧.

(٢) سورة هود، آية : ١٣ .

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٣٧/٦، انظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١٣٣٢.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٣٣٢.

(٥) فتح الباري ٤٠٨/١٠.

(٦) شرح صحيح مسلم ١٣٣٤.

القمح بقرينة ذكر الشعير، أو الحبة أعم، والمراد بالذرة النملة، والغرض تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق حيوان وهو أشد وأخرى بتكليفهم خلق جماد وهو أهون، ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلك"(١). وقال: (هو أمر تعجيز ...، وهو لا يقدر على ذلك فيستمر على تعذيبه)(٢).

ثالثاً- من واجبات الداعية: بيان الحكمة من الوعيد الشديد للمصورين يوم القيامة:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"، وقوله تعالى: "ومَن أظلمُ ممن ذهبَ يَخلُقُ كخلْقي"، قال القرطبي: "وقد دل هذا الحديث: على أن الذمَّ والوعيد إنما عُلِّق بالمصورين من حيث تشبهوا بالله تعالى في خلقه، وتعاطوا مشاركةً فيما انفرد الله تعالى به من الخلق والاختراع"(٣). فمضاهاة خلق الله هي أصل الحكمة من الوعيد الشديد للمصورين يوم القيامة، "فمن صنع الصورة متحدياً قدرة الخالق عز وجل، ورأى أنه قادر أن يخلق كخلقه، فيريه الله تعالى عجزه يوم القيامة، بأن يكلفه أن ينفخ الروح في تلك الصور ويتأيد التعليل بهذا بأن الله تعالى قال شبيهاً بذلك في حق من ادعى أنه ينزل مثل ما أنزل الله، أنه لا أحد أظلم منه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(٤)، فهذا فيمن ادعى مساواة الخالق في أمره ووحيه، والأول فيمن ادعى مساواته في خلقه، وكلاهما من أشد الناس عذاباً(٥).

وهذا "فضلاً عن كون التصوير وسيلة إلى الغلو في غير الله تعالى بتعظيمه حتى يئول الأمر إلى الضلال والافتتان بالصور، فتعبد من دون الله تعالى. وذلك أن

---

(١) فتح الباري ١٠/٣٩٩-٤٠٠.

(٢) فتح الباري ١٠/٣٩٨.

(٣) المفهم ٥/٤٣٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٣ .

(٥) الموسوعة الفقهية ١٢/١٠٥.

النبي ﷺ بعث والناس ينصبون تماثيل يعبدونها، يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، فجاء الإسلام محطماً للشرك والوثنية، معلناً أن شعاره الأكبر "لا إله إلا الله" ومسفها لعقول هؤلاء. ومن المناهج التي سلكتها الشريعة الحكيمة لذلك -بالإضافة إلى الحجة والبيان والسيف والسنان- أن جاءت إلى ما من شأنه أن يكون وسيلة إلى الضلال ولا منفعة فيه، أو منفعته أقل، فمنعت إتيانه"[١]، قال ابن العربي: "والذي أوجب النهى عنه -أي التصوير- في شرعنا -والله أعلم- ما كانت عليه عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يصورون ويعبدون، فقطع الله الذريعة وحمى الباب. فإن قيل: فقد قال: حين ذمّ الصور وعملها من الصحيح قول النبي ﷺ: ((مَنْ صَوَّرَ صُورَةً عَذَّبَهُ الله حَتَّى يَنْفُخَ فيهَا، يَعْنِي الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)). وفي رواية الذين يشبهون بخلق الله"[٢]؛ فعلل بغير ما زعمتم. قلنا: نهى عن الصورة، وذكر علة التشبيه بخلق الله، وفيها زيادة علة عبادتهما من دون الله، فنبه على أن نفس عملها معصية، فما ظنك بعبادتها!".

وقد ورد في كتب التفسير شأن ود، ويغوث، ويعوق، ونسرا، وأنهم كانوا أناساً، ثم صوّروا بعد موتهم وعبدوا"[٣].

وفي بيان ذلك قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارتِ الأوثان التي كانت في قَوْم نُوح في العرب بعد، أما وُدٌّ فكانت لكلْبٍ بدومَةِ الجنْدَل، وأمَّا سُواعٌ فكانت لهُذَيل، وأمَّا يَغوثُ فكانت لمرادٍ، ثم لبني غُطيف بالجوف عند سَبَأ. وأمَّا يَعوق فكانت لهمْدانَ. وأمَّا نَسْرٌ فكانت لِحمير، لآلِ ذي الكَلاع. أسماءُ رجالٍ صالحين من قومِ نوحٍ. فلمَّا هَلَكوا أَوْحَى الشَّيْطانُ إلى قومهم أَنِ انْصِبُوا إلى مَجالِسِهِم التي كانوا يَجْلِسون أنْصاباً وَسَمُّوها بأسمائِهِم فَفَعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَك أُولئك وَتَنَسَّخ العلْم عُبِدت»[٤]. وقال ابن جرير الطبري: "كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان أتباع يقتدون بهم، فلما

(١) المرجع السابق ١٢/١٠٥

(٢) أخرجه مسلم ١٦٧١.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/١٦٠٠.

(٤) جزء من أثر ابن عباس أخرجه البخاري ٤٩٢٠.

ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم"[١].

وقال ابن العربي: (وَقَدْ شَاهَدْتَ بِثَغْرِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ صَوَّرُوهُ مِنْ خَشَبٍ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، وَأَجْلَسُوهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ بَيْتِهِ وَكَسَوْهُ بِزَّتَهُ إِنْ كَانَ رَجُلًا وَحِلْيَتَهَا إِنْ كَانَتْ امْرَأَةً، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِ الْبَابَ. فَإِذَا أَصَابَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَرْبٌ أَوْ تَجَدَّدَ لَهُ مَكْرُوهٌ فَتَحَ الْبَابَ [عَلَيْهِ] وَجَلَسَ عِنْدَهُ يَبْكِي وَيُنَاجِيهِ بِكَانَ وَكَانَ حَتَّى يَكْسِرَ سَوْرَةَ حُزْنِهِ بِإِهْرَاقِ دُمُوعِهِ، ثُمَّ يُغْلِقُ الْبَابَ عَلَيْهِ وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ، وَإِنْ تَمَادَى بِهِمْ الزَّمَانُ يَعْبُدُوهَا مِنْ جُمْلَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ)[٢]. فسداً للذرائع منعت الشريعة الإسلامية التصوير.

"لكن إلى أي مدى أرادت الشريعة المنع من التصوير لتكفل سد الذريعة، هل إلى منع التصوير مطلقاً، أو منع الصور المنصوبة دون غير المنصوبة، أو من الصور المجسمة التي لها ظل، لأنها التي كانت تعبد ؟ هذا موضع الخلاف بين العلماء"[٣].

"وقد كان من العلل التي بنت عليها الشريعة الإسلامية منع التصوير هي مجرد الشبه بفعل المشركين الذين كانوا ينحتون الأصنام ويعبدونها، ولو لم يقصد المصور ذلك، ولو لم تعبد الصور التي يصنعها ، لكن الحال شبيه بالحال كما، كما نهينا عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا تكون في ذلك مثل من يسجد لها حينئذ"[٤].

فعلى الداعية أن يبين الحكمة من ذكر الوعيد الشديد للمصورين يوم القيامة حتى يجتنب المدعوين ما ورد فيه من أمور تؤدي إلى غضب الله تعالى ونقمته.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٢/٢٩، تفسير القرآن العظيم ٢٣٤/٨.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١٦٠٠/٤.

(٣) الموسوعة الفقهية ١٠٦/١٢.

(٤) الموسوعة الفقهية ١٠٦/١٢.

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

"الترهيب من الأساليب الدعوية الهامة في قرع القلوب وتنبيهها من غفلتها، فضلاً عن كونه الأسلوب الأمثل والمناسب لإنقاذ المسلم العاصي المستمرئ للمعصية والذي يخشى عليه أن تنتهي به المعصية إلى فسوق ثم إلى فجور وكفر والعياذ بالله، فكان الترهيب بمثابة لجام معنوي يأخذ بحجز الإنسان بعيداً عن النار ...، وهو أسلوب له موقع جد مفيد في نفوس الناس من وجهين الوجه الأول إنه يدخل إليهم من الأبواب الفطرية وهى كراهة البؤس والعقاب، قال بعض السلف رحمهم الله: الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينال بها رتبة القرب من الله. ولا يكون ذلك إلا بانقطاع الشهوات، ولا تقطع الشهوات بشيء كالخوف، فهو النار المحرقة للشهوات"(١).

"والوجه الثاني: "إن الترهيب له درجات تبدأ بالتهديد وتنتهي بالتنفيذ فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة، فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه، ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف ... ومنهم من لابد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه ومنهم بعد ذلك فريق لابد وأن يحس لذع العقوبة على جسمه لكي يستقيم"(٢).

ولما كان الترهيب هو الأسلوب الأخير لإنقاذ معظم الناس من عقوبة الله في الدنيا والآخرة وجب التأكد عليه والحرص على العمل به في مجال الدعوة، وهذا ما ورد في الأحاديث من ترهيبه ﷺ لمن أراد أن يضاهي خلق الله ببيان أنهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة " وذلك في قوله ﷺ: "إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة"، وقوله: "أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"، وقوله : "كل مصور في النار يجعل له بكل صورها نفس فيعذبه في جهنم، وقوله تعالى: "ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلفوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة".

---

(١) الترهيب في الدعوة، د. رقية نياز، ص ١٠-١٣.

(٢) انظر: "مدخل علاجي جديد لانحراف الأحداث- العلاج الإسلامي"، د. محمد سلامة غباري، ط١، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٤٠٦هـ، ص ٣٢٣، نقلاً عن الترهيب في الدعوة، د. رقية نياز، ص ١٣.

خامساً- من أساليب الدعوة: النداء:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ياعائشة" والنداء من الأساليب الدعوية الهامة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لبيان أهمية الأمر المدعو إليه.

سادساً- من واجبات الداعية: إنكار المنكر حال رؤيته وعدم السكوت عليه:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في إنكاره ﷺ لفعل عائشة رضي الله عنها من ستر سهوة فيه تماثيل وذلك بقوله ﷺ: "ياعائشة، أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"، فقالت رضي الله عنها فقطعناه فجعلنا منه وساده أو وسادتين، وما يؤكد على أهمية وضرورة إنكار المنكر حال رؤيته وعدم السكوت عليه ، قول أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه : "أتيت عائشة فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا يُخْبِرُنِي أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ «لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ تَمَاثِيلُ» فَهَلْ سَمِعْتِ رَسُولَ اللّهِ ذَكَرَ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: لاَ. وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكُمْ مَا رَأَيْتُهُ فَعَلَ. رَأَيْتُهُ خَرَجَ فِي غَزَاتِهِ. فَأَخَذْتُ نَمَطاً فَسَتَرْتُهُ عَلَى الْبَابِ. فَلَمَّا قَدِمَ فَرَأَى النَّمَطَ، عَرَفْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ. فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتَكَهُ أَوْ قَطَعَهُ. وَقَالَ: «إِنَّ اللّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ» قَالَتْ فَقَطَعْنَا مِنْهُ وِسَادَتَيْنِ وَحَشَوْتُهُمَا لِيفاً. فَلَمْ يَعِبْ ذَلِكَ عَلَيَّ"(١).

قال النووي: المراد بالنمط هنا بساط لطيف له خمل، وقولها "هتكه" هو بمعنى قطعه وأتلف الصورة التي فيه ... وهذا النمط كان فيه صور الخيل ذوات الأجنحة وأنه كان فيه صورة فيستدل به لتغيير المنكر باليد وهتك الصور المحرمة والغضب عند رؤية المنكر"(٢). "والمنكر : هو كل ما ينكره الشرع وينهي عنه ويذمه ويذم أهله"(٣)، وقد أمر تعالى بإنكاره وتغييره فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٠٧.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٣١.

(٣) حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، د. حمد ناصر العمار، ص١٢

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

وقال ابن تيمية: "إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بُعثت الرسل، وأُنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به. ويقول أيضاً: وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهى، وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصلحة، أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل كان محرماً إذا كان مفسدته أكثر من مصلحته"[1]. فعلى الداعية في إنكاره للمنكر أن يراعى الموازنة بين المصالح والمفاسد لما في ذلك من عظيم الفائدة وتحقيقاً للنتيجة المرجوة.

سابعاً- من آداب المدعو: الاستجابة والطاعة لأمر الله ورسوله:

هذا ما يستفاد في الحديث من استجابة عائشة رضي الله عنها لأمره ﷺ، وذلك من قولها: "فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

قال السعدي: "يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أى الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والإنكفاف عنه، والنهى عنه وقوله: "إذا دعاكم لما يحييكم" وصف ملازم،

---

(١) الاستقامة، ابن تيمية، ط٢، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٢/٢١١-٢١٦.

(٢) سورة الأنفال، آية : ٢٤ .

لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله على الدوام، ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" فإياكم أن تردوا أمر الله، أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء فليكثر العبد من قول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك"[1]، فعلى المدعو أن يستجيب لأمر الله ورسوله لما في ذلك من الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة".

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٨٠.

الحديث رقم (١٦٨١)

١٦٨١- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَدِمَ رسُولُ الله ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ [1] تَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وقالَ: ((يَا عائِشَةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ!)) قَالَتْ: فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنهُ وِسَادَةً أوْ وِسَادَتَيْنِ. متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

سهوة: وهي الصُّفَّة تكون بين يدي البيت، وقيل الطاق النافذ في الحائط[3].

بقرام: القرام: السِّتْرُ[4].

الذين يضاهون: أراد المصورين، والمضاهاة: المشابهة[5].

الشرح الأدبي

كانت أحوال النبي ﷺ مع أزواجه تقوم على المحبة والمودة والرحمة، والتعاطف والشفقة، وكان لا يأخذ عليهن، ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس عَدْل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رءوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهم.

وهذه السيرة المضيئة بالمحبة والمودة والتراحم. لم تمنع رسول الله ﷺ من إقامة

---

(١) عندهما زيادة: (هتكه، و).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٩٢/٢١٠٧) واللفظ له، وتقدم برقم (٦٥٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٣).

(٣) رياض الصالحين ٥٧٦.

(٤) رياض الصالحين ٥٧٦.

(٥) النهاية في (ض هـ و).

الحق، وإنكار ما يراه مخالفاً لتعاليم الشريعة، وهذا الحديث: مشهد واقعي من سيرته العطرة الحافلة بجلائل الأعمال، وكريم الفعال، ولم يمنعه حبه لعائشة وأبيها أن يجهر بكلمة الحق؛ وبلاغة الحديث القوليه والعملية تَنْبع من أن الذي يروي هذا المشهد هو عائشة نفسها، وليس خبراً مروياً عنها، فهي التي تقصُّ هذا الخبر، وتحكي تفاصيله من خلال هذه الأفعال الماضية التي تصور وقائع الحدث، وسياق الحديث، وتأمل هذه الأفعال التي تشكل ملامح هذا المشهد.

"قدم رسول الله، وقد سترت سهوة لي، فلما رآه رسول الله ﷺ تلون وجهه، وقال".

هذه الصيغة السردية الواقعية تفصح عن أن القصة انتهت،وأن عائشة استجابت لأمر رسول الله ﷺ، وأنها ترويها للاقتداء، وليأتمر الناس بما أمر به رسول الله ﷺ: كما استجابت عائشة رضي الله عنها حتى لا يتعرضوا لعذاب الله يوم القيامة، وتأمل الاستجابة الفورية لعائشة حيث لم تراجع النبي ﷺ، ولم تتردد، ولم تجادل، ولكنها قالت: "فقطعناه" أي قطعنا ذلك الستر المصنوع من القماش الملون والمزركش بصور وتماثيل تحاكى الكائنات الحية من الحيوانات والطيور، وقد عبرت عنه بقولها: "بقرام فيه تماثيل".

وقولها: "تلون وجهه" كناية عن غضب رسول الله ﷺ من ذلك المنكر، ولم تقل: "فغضب" حتى لا يتسرب إلى النفس الظن بأن الغضب كان من عائشة، وأنَّ ذلك يعد كرهاً، وفي ذلك تلطف من عائشة في التعبير، وتلطف من رسول الله ﷺ في حسن معاملة أزواجه، وفي توصيل الموعظة لهن.

وتأمل النذير الشديد الموجه لكل من يقوم بصنع الصور والتماثيل لكل ذي روح: وهو نذير ليس لعائشة فقط. وإنما لكل من يصنع ذلك، وكل من يقتني هذه الصور، وصيغة أفعل التفصيل، واختيار مادة "الشدة" يوجبان بالعذاب الشديد أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله، واسم الموصول: مع صيغة المضارعة الدالة على الاستمرار: يوحيان بأن هؤلاء الذين يستحقون العذاب كانوا يصرون على

ذلك، ويمتهنون هذه الحرفة، ولا يقتدون برسول الله ﷺ، ولا زوجاته، ولا أصحابه، نسأل الله العون والسداد، والتوفيق والرشاد.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٨٢)

١٦٨٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ فَيُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**)).

قال ابن عباس: فإنْ كُنْتَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لاَ رُوحَ فِيهِ. متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن علاقة المسلم بما حوله من مشاهد الكون مؤطرة بالتصور الإيماني، وبأن كل ما خلق الله عز وجل في السماوات والأرض فيه آيات لأولي الألباب فالسماء وما فيها، والأرض وما عليها من دلائل قدرة الله عز وجل، وقد سخر الله تعالى الشمس، والقمر، والبحار..، والدواب، والأشجار... للإنسان، وكلها من نعم الله تعالى التي لا تُعدُّ ولا تحصى.

واستغلال هذه النعم ينطلق من إحساس المؤمن بأنها من آيات الله المسخرة للإنسان وأولى دلائل الشكر على هذه النعم أن لا يقوم المنعم عليه بإقحام نفسه في محاكاة المنعم في خلقه، وتصويره الكائنات الحية التي يتوهم الكثيرون ومنهم المصورون لها أنهم قادرون على خلق مثلها، ويوجه الإنسان طاقته الفنية إلى صناعة الشجر... وإبداع اللوحات التشكيلية التي تظهر قدرة الله عز وجل في خلقه، وهذا ما أرشد إليه ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: "فإن كنت لابد فاعلاً: فاصنع الشجر وما لا روح فيه"، من المواد الجامدة التي لا حياة فيها.

والحديث يبدأ بقاعدة شرعية وهي: "كل مصور في النار"، وهذه القاعدة ثابتة، وصياغتها اللغوية تفصح عن هذا الثبات، فهي جملة اسمية: مكونة من مبتدأ وخبر،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٩٩/٢١١٠) واللفظ له، وهو ضمن حديث. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٤) بتمامه.

والمبتدأ هو: "كل مصور" وفيه إيحاء بالعموم والشمول: والخبر هو شبه الجملة: "في النار": فالجار والمجرور: متعلق بمحذوف خبر، والتقدير مستقر في النار، والجملة الاسمية من علاماتها: الثبوت والاستقرار.

والجملة الثانية: مبنية للمفعول: في قوله: "يجعل له": والفاعل معلوم وهو الله: والتحدي يكون يوم القيامة، فالله يبث في كل صورة صَوَّرها هذا المصور الروح، فإذا بها نفس حية تنطق وتتحرك: وتطالب بعذاب ذلك المصور.

وقوله: "فيعذبه" تقديره: فيعذبه الله، وفي رواية: "فتعذبه" أي: أن هذه النفس التي صورها هي التي ستعذبه، وإسناد التعذيب إلى النفس في هذه الرواية: مجاز عقلي.

وقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جاء في صيغة الشرط والجواب: وهو يضع حلاً لكل من لديه موهبة الرسم والتصوير والفن بصفة عامة. ولمن لا يملك من فن الكتابة إلا التصوير، حيث تقوم الصور عند بعض الشعوب مقام الحروف في لغاتهم: وقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يشع بالدقة والإيحاء، وهو يُنقذ فئات وطوائف كثيرة من العقاب يوم القيامة. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٨٠).

الحديث رقم (١٦٨٣)

١٦٨٣- وعنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقول: ((مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

صَوَّر صُورةً: صنع تمثالاً[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث تتصل أشعته المعنوية، وآفاقه الدلالية بالحديث السابق، ويؤكد هذا أن الراوي في الحديثين واحد وهو: ابن عباس رضي الله عنهما.

والحديث يتكون من جملتين: الأولى جملة شرطية: وهي تتوعد المصور بالعذاب يوم القيامة، ففعل الشرط هو "من صور صورة في الدنيا"، وجواب الشرط هو: "كلف"، أي كلفه الله: أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وهو لن يقدر على ذلك، لأن الروح من أمر الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

والتعبير بقوله: "كلف" يوحي بالإلزام: لأن التكليف فيه وجوب، وهو لن ينفذ هذا لأنه عاجز، وهذا العجز من خصال البشر، فالخالق هو الله عز وجل، والحديث صرح بذلك في قوله ﷺ: "وليس بنافخ" أي أن هذا المصور العاجز الواهم: لن يستطيع أن يفعل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠/١٠٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٤).

(٢) النهاية في (ص و ر).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥ .

وقوله: "وليس بنافخ" فيه إيجاز وإيحاء بالضعف والعجز، والتقدير: وهو في هذا الموقف ليس قادراً على أن ينفخ الروح في الصور التي صورها في الدنيا، فمآله العذاب الذي جاء صريحاً في الحديث السابق، فيعذبه في جهنم، والباء في قوله: "وليس بنافخ" مزيدة للتأكيد ولنفي أي احتمال لدى هذا المصور بالقدرة على نفخ الروح في الصورة، فالله عز وجل: هو الخالق البارئ المصور وهو الخلاق العليم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٨٠).

الحديث رقم (١٦٨٤)

١٦٨٤- وعن ابن مسعودٍ ﵁ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((إنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَومَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

المُصَوِّرون: الذين يصنعون تماثيل الأحياء[2].

الشرح الأدبي

يتوعد رسول الله ﷺ في هذا الحديث كل من تسوِّل له نفسه بالإقدام على صنع التماثيل التي تحاكي صورة الإنسان أو الحيوان أو الطير: أو كل ما فيه روح حية تنمو وتتوالد وتتكاثر وتتغذى، وهذه التماثيل أو تلك الصور التي يصنعها هؤلاء تفتن الناس ويتخذونها أصناماً وأوثاناً يعبدونها من دون الله، أو يشركونها في عبادة الله، وقد نشأت عبادة الأصنام في غمرة الافتتان بصور التماثيل التي صنعت لبعض البشر مثل ودًّ وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً، وبعدها جاءت اللات والعزى، ومناة، وبعض الشعوب كانوا وما زالوا يعبدون الطيور والزواحف، والدواب بصفة عامة.

ومنعاً لهذه الفتنة يشدد رسول الله ﷺ النكير والوعيد على كل من يحترف هذه الحرفة، وهو يعلم بحرمتها، ويقول في صيغة التوكيد: "إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون"، وهذه جملة واحدة مكونة من "إن" الناسخة المؤكدة، ومن اسمها وخبرها، والحرف الناسخ هنا: يعطي دلالة نسخ كل عمل يعمل: والخبر: كلمة: "المصورون" فعملهم منسوخ، وتصويرهم ممسوخ، واسم "إن": "أشد الناس عذاباً": تضمن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٩٨/٢١٠٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٥).

(٢) النهاية في (ص و ر).

مـادة: شـدد الـتي تمثـل الجـذر الأسـاس واللغـوي: وهـي تؤكـد ثقـل العـذاب وشـدته، وكذلك صيغة أفعل التفضيل: توحي بأن العذاب منه شديد: ومنه أشد، والمصورون هـم أشد الناس عذاباً يوم القيامة عند الله.

وقال العلماء: العندية للمكانة وليس للمكان، ففيه إيماء إلى عظم ذلك العذاب. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٨٠).

الحديث رقم (١٦٨٥)

١٦٨٥- وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: ((قال اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ اظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً اوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، اوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)) متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ذَرَّة: معناه: فليخلقوا ذرة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي هي خلق الله تعالى، والذرة: ليس لها وزن ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة[٢].

الشرح الأدبي

إن جو التحدي والتهديد يغلف أجواء هذا الحديث الشريف: وهو حديث قدسي؛ لأن رسول الله ﷺ قال: "قال الله تعالى"، وقد فرق صاحب كتاب: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث وهو: جمال الدين القاسمي بين القرآن والحديث القدسي وغير الحديث القدسي في محاورة بديعة فيها عمق، ووجدان مشع بالحب والصفاء والروحانية.

ومن هذه المحاورة ما أجاب به الأستاذ علي تلميذه حين سأله الفرق بين الثلاثة: فقال: الفرق بين الثلاثة، وإن كانت كلها خرجت من بين شفتيه ﷺ، وكلها معها أنوار من أنواره ﷺ، أن النور الذي في القرآن قديم من ذات الحق سبحانه، لأن كلامه تعالى قديم، والنور الذي في الحديث القدسي من روحه ﷺ، وليس هو مثل نور القرآن، فإن نور القرآن قديم، ونور هذا ليس بقديم، والنور الذي في الحديث النبوي، من ذاته ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١/١٠١) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٦).

(٢) شرح صحيح مسلم، ١٣٣٤، والنهاية في (ذ ر ر).

ويبدأ الحديث بصيغة التحدي والاستفهام الإنكاري، وأفعل التفضيل في قوله: "ومن أظلم"، ثم اسم الموصول وصلته وهي فعلان، "ذهب يخلق كخلقي"، أي أن الذين تغريهم شيطانهم يتوهمون أنهم خالقون ومن هؤلاء من يقولون: الخلق الفني، وهم يصنعون التماثيل والدمي في معاهدهم ومعابدهم، ويعلقونها في واجهات دواوينهم وقصورهم وصوامعهم، وبيعهم وكنائسهم، ويزينون بها جدران بيوتهم، وأسقف منازلهم، والتعبير بالفعل المضارع "يخلق" يوحي بالاستمرار والإصرار على هذا الصنيع الفاسد.

ويتجلى التحدي في هذه الجمل الثلاث التي صيغت في قالب المضارع المقترن بلام الأمر، وكأن الحق سبحانه وتعالى يأمرهم أن يقبلوا التحدي وهم عاجزون، ويأمرهم أن يجربوا وهم جامدون، لأن الروح من أمر الله، وفي هذه الجمل الثلاث جاءت اللام - كما قال العلماء- على سبيل التعجيز والتبكيت، تارة بتكليفهم خلق الحيوان، وهذا أشد، وذلك في قوله "فليخلقوا ذرة" والمراد منها نملة، كما فسرها بعض العلماء بذلك، وفي الجملتين الأخيرتين يكلفهم بخلق جماد: وهو النبات: حبة أو شعيرة، وهو أهون، والمراد الخلق من العدم، وليس التهجين، ولا الاستنساخ في عالم النبات.

و"أو" للتنويع وللتخيير وهي تفيد عجز هؤلاء المصورين عن خلق أي شيء من الحيوان أو النبات أو الجماد، فكيف يقدرون على خلق الإنسان، ويوم القيامة يكلفون أن ينفخوا فيما صوروا الروح، وليسوا بنافخين، ولذلك فهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٨٠).

الحديث رقم (١٦٨٦)

١٦٨٦- وعن أبي طلحة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ، قال: ((**لاَ تَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو طلحة الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٢٦).

غريب الألفاظ:

الصورة: التمثال[2].

الشرح الأدبي

في إطار الأسلوب الخبري يجيء هذا الحديث الشريف خالياً من التوكيد، ومن أنواع الطلب التي يتضمنها الأسلوب الإنشائي، وذلك لأن رسول الله ﷺ بدأ الحديث بالنفي فقال: "لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة"؛ ولا مجال لإنكار ذلك لأن التأكيد يأتي للمنكر والشاك، ولكن كل مسلم حينما يُسمَعُ الخبر من رسول الله ﷺ مشافهة أو رواية يصدق: لأن المصطفى ﷺ هو: "الصادق الوعد الأمين".

والنفي بـ"لا"، غير النفي: بـ"لن"، لأن "لا" ليست نفياً دائماً، أو مطلقاً، وإنما يمكن أن يكون الكلب للصيد أو للحراسة أو غير ذلك من الأمور المستثناه، ولذلك قال العلماء: لا تمتنع الملائكة من دخول بيت فيه كلب أُذن في اتخاذه بناء على أنه يجوز أن يستنبط من النص معنى يخصصه.

ولو كان النفي بـ"لن" لتغيرت الدلالة، ولما جاز استثناء أي حالة من الحالات.

وكذلك قوله: "ولا صورة" فيه عموم، ويمكن تخصيصه بالصورة المحرمة، والمراد منها: صور الإنسان، والحيوان، والطيور، أما صور النبات وغير ذلك من كائنات

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦/٨٣).

(٢) النهاية في (ص و ر).

الطبيعة غير الحية: مثل الشمس، والقمر، والنجوم، فيمكن أن تزين بها البيوت والأسقف، والفرش والأثاث، لأنه لا روح فيها، ولا تعد صورة محرمة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. والله أعلم.

فقه الحديث

وتشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الآتية:

١-عدم دخول الملائكة للبيت الذي فيه كلب أو صورة[2]: والمقصود بالملائكة هنا ملائكة الرحمة، لا الحفظة، لأن الحفظة مكلفون بكتابة أعمال ابن آدم لا يفارقونه إلا في خلوته بأهله، وعند دخول الخلاء[3].

٢-حكم دخول الإنسان منزلاً فيه صورة: اختلف الفقهاء في حكم دخول منزل فيه صورة على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنابلة[4]، ويرون أن دخول منزل فيه صورة غير محرم.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- ما ثبت أن النبي ﷺ دخل الكعبة فرأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط[5].

٢- ما روي أن النصارى صنعوا لعمر رضي الله عنه حين قدم الشام طعاماً، فدعوه فقال: أين

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١ .

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٩/٢، وحاشية ابن عابدين ٦٤٩/١، والتمهيد لابن عبدالبر ٢٢١/١٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٣٦٢/٣، ومغني المحتاج ٣٣١/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ١١٦/١، وكشاف القناع ٢٨٠/١، والمغني لابن قدامة ٣٤٣/١.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٠/٢، والشيخ عبدالرحمن عبدالخالق في بحثه السابق، ص ١٥.

(٤) المغني لابن قدامة ٢١٦/٧، وكشاف القناع ١٧٠/٥، ١٧١.

(٥) أخرجه البخاري ١٦٠١.

هو؟ قالوا: في الكنيسة، فأبى أن يذهب، وقال لعلي: امض بالناس فيلتغدوا، فذهب علي رضي الله عنه بالناس، فدخل الكنيسة وتغدى هو المسلمون.

وجعل عليّ ينظر إلى الصور، وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل[١]. وهذا اتفاق منهم على إباحة دخولها وفيها الصور.

٣- إن دخول الكنائس والبيع غير محرم، فكذلك المنازل التي فيها الصور[٢].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الشافعية[٣] في وجه عندهم، ويرون أنه إذا كانت الصور على الستور وما ليس بموطوء لم يجز له الدخول.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أحاديث الباب، وفيها أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

ويجاب عن ذلك: بأن كون الملائكة لا تدخله، لا يوجب تحريم دخوله علينا[٤] كما لو كان فيه كلب.

٢- ولأنه لو لم يكن محرماً لما جاز ترك الدعوة الواجبة من أجله.

ويجاب عن ذلك: بأن ترك الدعوة لم يكن لأن ذلك محرم، وإنما أبيح بترك الدعوة عقوبة له، وزجراً له عن فعله[٥].

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الشافعية في وجه عندهم ويرون أن دخول بيت فيه تصاوير مكروه.

واستدلوا على ذلك بالأحاديث التي تذكر أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، غير أنهم حملوا ذلك على الكراهة.

---

(١) ذكره ابن قدامة في المغني ١٠/٢٠٣، وعزاه لابن عائذ في فتوح الشام. وانظر: سنن البيهقي ٧/٢٦٨.

(٢) كشاف القناع ٥/١٧١، والمغني لابن قدامة ٧/٢١٦.

(٣) الوسيط في المذهب ٤/٢٧٨، ومغني المحتاج ٣/٢٤٧.

(٤) كشاف القناع ٥/١٧١، والمغني لابن قدامة ٧/٢١٦.

(٥) المرجعين السابقين: المواضع نفسها، وأيضاً: المبدع ٧/١٨٤-١٨٥.

الرأي الراجح:

ولعل الراجح من هذه الآراء هو الرأي الأول، وهو ما ذهب إليه الحنابلة الذين يرون أن دخول منزل فيه تصاوير غير محرم، لقوة أدلته.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عدم دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الوثوق بوعد الله ورسله.

رابعاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامساً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لما يلتبس على المدعو.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

النفي من الأساليب الدعوية الهامة في إيقاف المدعوين على الحقائق وبيان ما غاب عنهم من أمور وهذا ما ورد في الحديث من نفيه ﷺ لدخول الملائكة في البيت الذي فيه كلب أو صورة، وذلك من قوله ﷺ: «لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بيْتاً فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَة» وأيضاً من نفي جبريل عليه السلام لذلك في قوله: "إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة". وقد تكرر ورود النفي في القرآن الكريم كأسلوب دعوي في بيان الحقائق، ونفي ما زاد عنها، كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٨٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٨٧، ١٦٨٨).

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٠.

(٣) سورة المؤمنون، آية : ٩١ .

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عدم دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة:

هذا ما يستفاد من سياق الأحاديث الواردة وفي بيان ذلك قال النووي: (قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى، فأبغضوها لله، وتجنبوا مواضعها. وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات، وهم المطهرون المقدسون عن مقاربته، ولأن بعضها يسمى شيطاناً كما جاء في الحديث من قوله ﷺ: "الكلب الأسود شيطان"[١]، والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة ولأنها منهي عن اتخاذها فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه وفي بيته ودفعها أذى الشيطان. وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتاً فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت ولا يفارقون بني آدم في كل حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها. قال الخطابي: (وإنما لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة ممايحرم اقتناؤه من الكلام والصور، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع والماشية والصورة التي تمتهن في البساط والوسادة وغيرهما فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه. وأشار القاضي إلى نحو ما قاله الخطابي والأظهر أنه عام في كل كلب وكل صورة وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث، ولأن الجرو الذي كان في بيت النبي ﷺ تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر فإنه لم يعلم به، ومع هذا امتنع جبريل عليه السلام من دخول البيت وعلل بالجرو، فلو كان العذر في وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل والله أعلم)[٢].

وقال القرطبي: في بيان سبب امتناع الملائكة لدخول بيت فيه صورة- وإنما لم تدخل الملائكة البيت الذي فيه التمثال - أو الصورة[٣]- لأن متخذها في بيته قد تشبه

---

(١) أخرجه مسلم، ٥١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٣٠ ، إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٦٢٩/٦، ٦٣٠.

(٣) أورد هذا اللفظ ابن حجر في فتح الباري، ٤٠٥/١٠.

بالكفار الذين يتخذون الصور في بيوتهم ويعظمونها فكرهت الملائكة ذلك فلم تدخل بيته هجراناً له، وغضباً عليه"[١]. وقال الخطابي: "والصورة التي لا تدخل الملائكة البيت الذي هي فيه ما يحرم اقتناؤه، وهو ما يكون من الصور التي فيها الروح مما لم يقطع رأسه أو لم يمتهن"[٢].

وقد بين ابن حجر العلة من عدم دخول الملائكة للبيت الذي فيه كلب فقال: "المراد بالبيت المكان الذي يستقر فيه الشخص سواء كان بناء أو خيمة أم غير ذلك، والظاهر العموم في كل كلب لأنه نكرة في سياق النفي، وذهب الخطابي وطائفة إلى استثناء الكلاب التي أذن في اتخاذها وهي كلاب الصيد والماشية والزرع ...، قال القرطبي، "واختلف في المعنى الذي في الكلب حتى منع الملائكة من دخول البيت الذي هو فيه، فقيل: لكونها نجسة العين، ويتأيد ذلك بما ورد في بعض طرق الحديث عن عائشة عند مسلم "فأمر بنضح موضع الكلب"[٣]، وقيل: لكونها من الشياطين، وقيل: لأجل النجاسة التي تتعلق بها فإنها تكثر أكل النجاسة وتتلطخ بها فينجس ما تعلقت به"[٤]، وفي ذلك بيان لسبب امتناع دخول الملائكة للبيت الذي فيه صورة يحرم اقتناؤها أو كلب.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الوثوق بوعد الله ورسله:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: "ما يخلف الله وعده ولا رسله"، وفي بيان ذلك قال تعالى مخبراً عن حال المؤمنين في غزوة الأحزاب، وعن ثقتهم بموعود ربهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[٥]، قال الطبري: "وقوله: ولما رءا المؤمنون الأحزاب: يقول: ولما

---

(١) المفهم ٤٢١/٥، ٤٢٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٣٩٥/١٠

(٣) أخرجه مسلم ٢١٠٥

(٤) فتح الباري، ٣٩٤/١٠-٣٩٥، انظر المفهم، ٤٢٢/٥.

(٥) سورة الأحزاب، آية : ٢٢ .

عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار، قالوا تسليماً منهم لأمر الله، وإيقاناً منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم، الذي وعدهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾[١]، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمره، الثناء، فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيماناً بالله، وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر، والظفر على الأعداء"[٢]، وهذا ما كان من حال نبي الله موسى عليه السلام عندما اتبعه فرعون وجنوده بعد أن قال له أصحابه شاكين وحزنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[٣]، فقال موسى: مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق، ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٤]. قال ابن كثير: أي: "لا يصل إليهم شيء مما تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد"[٥]، ثم كان من ثقته عليه السلام بموعود ربه أنه تعالى أنجاه وقومه وأهلك عدوه، فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[٦].

وإذا رأى المدعوون الداعية وهو القدوة أمام أعينهم يثق بوعد الله تعالى ورسوله في كل تصرفاته وأفعاله وأحواله، وهو أكثر منهم علماً وورعاً وتقوى، فإنهم لاشك يسلكون منهجه ويلتزمون طريقته، فيثقون بوعد الله ويؤمنون بذلك أشد الإيمان مما ينعكس على حياتهم وشؤونهم وأحوالهم فيزرع الثقة في قلوبهم.

---

(١) سورة البقرة، آية : ٢١٤ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٩/١٩.

(٣) سورة الشعراء، آية : ٦١ .

(٤) سورة الشعراء، آية: ٦٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٤٣/٦-١٤٤.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان : ٦٥-٦٦ .

رابعاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا ما ورد في الحديث من سؤاله ﷺ لجبريل عليه السلام في قوله:" وعدتني، فجلست لك ولم تأتني"، فأجابه جبريل عليه السلام فقال:"منعني الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة".

"والسؤال والجواب كأسلوب دعوي له قيمة تأثيرية عظيمة في إثارة انتباه المدعوين لمعرفة الأسئلة المطروحة. إذ يشعرون بأن الدافع إليها في الغالب أمر مهم في نفوس السائلين، وأن تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها، كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتح أذهانهم لمعرفة الجواب، من المتصدر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة"[(١)].

خامساً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح لما يلتبس على المدعو:

لقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وأن يقولوا لهم في أنفسهم قولاً بليغاً، قال تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[(٢)].

قال قتادة: "وهذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم علماً فيعلمه الناس، وإياكم وكتمان العلم؛ فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل مالا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلفين، كان يقال: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينتفع به، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكان يقال في الحكمة: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علم علماً فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به"[(٣)].

وقال تعالى مؤكداً على أهمية: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[(٤)]، ولا يكون

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٩/٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٩٥/٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، ١٦٨/٤.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٣.

البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغاً إلا إذا كان واضحاً للنفوس المخاطبة ...، وقد كان ﷺ (سيد الدعاة) يوضح للناس ولأتباعه، ويكرر كلامه ثلاثاً ليتحقق الإيضاح، وعند ذلك يقول "اللهم بلغت اللهم فاشهد"[١]،[٢]، فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في بيان وإيضاح ما التبس وخفي على المدعو، وهذا ما ورد في الحديث من بيان جبريل عليه السلام وإيضاحه لسبب عدم إتيانه للنبي ﷺ، كما وعده وذلك في قوله عليه السلام: "منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب أو صورة".

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٤/٢٧٦.

(٢) فقه الدعوة، د.بسام العموش، ٢٦-٢٧.

الحديث رقم (١٦٨٧)

١٦٨٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: وَعَدَ رسُولَ اللهِ ﷺ جبْرِيلُ أنْ يَأتِيَهُ، فَرَاثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جبريلُ فَشَكَا إلَيهِ، فَقَالَ: إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواهُ البُخاريُّ[1].

(راثَ): أبْطَأَ، وهو بالثاء المثلثة[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

فراث عليه: أبطأ[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث ليس موعظة عامة، ولا إرشادات من النبي ﷺ يبلغها لقومه، ولكنه موقف واقعي، ومشهد حقيقي: يبرهن على تحريم اقتناء الكلاب للزينة أو للتسلية، كما يفعل بعض الأثرياء المترفين، والغافلين عن طريق الصواب، وهم ينفقون على الكلاب الأموال الطائلة، ويبخلون على الأيتام والفقراء والمعوقين بما يسد رمقهم، ويعوضهم عن عجزهم وعوزهم!!!.

ويحدد الحديث "الموقف" بدقة: حين تأخر جبريل عن وعده لرسول الله ﷺ، ولم يأته في الموعد المحدد، وقال رسول الله ﷺ: ما يخلف الله وعده ولا رسله، ويصور التعبير ذلك الموقف خير تصوير: وذلك يتجلى في تتابع الأفعال المعطوفة بالفاء والتي تصور قلق الرسول ﷺ وحيرته من تأخر جبريل: ولنتأمل هذه المتواليات الفعلية المصورة للحدث، "وعد رسولَ الله جبريلُ فراث عليه حتى اشتد على رسول الله ﷺ، فخرج

(١) برقم (٥٩٦٠). السياق للمنذري في ترغيبه (٤٤٩٠).

(٢) الترغيب (٣/٦٢٦).

(٣) رياض الصالحين ٥٧٧.

فلقيه جبريل: فشكا إليه فقال" إن السرد هنا ينقل الحدث بدقة، ويصور حرص الرسول ﷺ على لقاء جبريل: ولذلك قال: "حتى اشتد على رسول الله ﷺ" أي اشتد الموقف، ولكنه مطمئن حيث قال: "ما يخلف الله وعده ولا رسله".

والمحاورة الصادقة بين رسول الله ﷺ وجبريل توضح حرص رسول الله ﷺ على الرسالة، وشوقه إلى جبريل لتلقي التعاليم الإلهية، وقول جبريل يبدأ بالتوكيد بصيغة الجمع "المتكلم" لأنه يتكلم باسم الملائكة، فـ"نا" الدلالة على المتكلمين على لسان جبريل تشير إلى الملائكة: ثم يأتي خبر "إنا": وهو الجملة المنفية التي وردت في الحديث السابق "لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة"، وفي حديث آخر: تفسير لما حدث حيث يتوهم بعض الناس أن رسول الله ﷺ كان يقتني كلباً، وهذا وهم وزعم باطل، فهو قد وجد كلباً تحت سريره من الكلاب التي تهيم على وجهها ولا صاحب لها، فقال: متى دخل هذا الكلب:فقالت عائشة: والله ما دريت به، فأمر به رسول الله فأخرج، فجاء جبريل عليه السلام.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((وَاعَدَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ جبْرِيلُ عليه السلام، فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا. فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ . وَفِي يَدِهِ عَصاً فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ. وَقَالَ: مَا يُخْلِفُ اللّهَ وَعْدَهُ، وَلاَ رُسُلُهُ ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ. فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ مَتَىٰ دَخَلَ هذَا الْكَلْبُ ههُنَا؟ فَقَالَتْ: وَاللّهِ مَا دَرَيْتُ. فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ. فَجَاءَ جِبْرِيلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ. فَقَالَ: مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ. إِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ))[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه مسلم، ٢١٠٤.

(٢) تم دمجه مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٨٨)

١٦٨٨- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: واعدَ رسولَ اللهِ ﷺ، جبريلُ عليهِ السَّلامُ، في سَاعَةٍ أنْ يَأْتِيَهُ، فَجَاءتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأتِهِ ! قَالَتْ: وَكَانَ بِيَدِهِ عَصاً، فَطَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ((ما يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُهُ)) ثُمَّ التَفَتَ، فإذَا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ. فقالَ: ((مَتَى دَخَلَ هَذَا الكَلْبُ؟)) فَقُلْتُ: واللهِ مَا دَرَيْتُ بِهِ، فَأمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: ((وَعَدْتَنِي، فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأتِنِي)) فقالَ: مَنَعَنِي الكَلْبُ الَّذِي كانَ في بَيْتِكَ، إنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

ساعة: جزء من أجزاء الوقت والحين، وإن قل[2].

جرو كلب: صغير ولد الكلب[3].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث قصة واقعية تنسج خيوط أحداثها من موقف بين جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ، وأركان القصة وعناصرها مكتملة في هذه القصة التي ينقلها هذا الحديث الشريف فأشخاصها حقيقيون، وأحداثها واقعية، وبها العقدة وفيها الحبكة، وتتضمن الحوار الواقعي المقنع، وتتضمن كذلك لحظة التنوير أو الحل.

وفي هذه القصة الواقعية إرساء لبعض القواعد الشرعية، وتعليم المسلمين أمور دينهم، فأشخاص هذه القصة هم: جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ، وعائشة رضي الله عنها، والأحداث تبدأ من المواعدة بين رسول الله ﷺ وجبريل: وقولها: "واعد" يدل على

---

(١) برقم (٢١٠٤/٨١). السياق للمنذري في ترغيبه (٤٥٤٣).

(٢) الوسيط في (س و ع).

(٣) الوسيط في (ج ر و).

المفاعلة: أي الوعد قائم بين اثنين حيث يتلقى رسول الله ﷺ من جبريل عليه السلام كلمات الوحي، وتعاليم ربه عز وجل، ويؤمر بتبليغ ذلك.

والعقدة تتمثل في تأخر جبريل عن موعده، فجاءت تلك الساعة ولم يأته!!.

وملابسات الحدث وآثار هذه العقدة تتجلى في حركة الرسول ﷺ التي تصور قلقه وتأثره لتأخر جبريل عليه السلام.

وهذه الحيرة تحولت إلى فعل حسي وهو ما عبرت عنه عائشة رضي الله عنها في قولها: "وكانت بيده عصا فطرحها من يده"، ولكن هذا الفعل المصور للقلق عند الشخصيات العادية، لم ينتج عنه القلق في تصرفات رسول الله ﷺ، لأنه يبلغ عن ربه، ولأنه يُوحَى إليه، ولأنه لا ينطق عن الهوى: وهذه هي آثار الرسالة، ودلائل النبوة، وعبَّر الرسول ﷺ عن اطمئنانه ورباطة جأشه؛ حيث قال في وثوق المؤمن واطمئنان النبوة: "وما يخلف الله وعده ولا رسله".

والمفاجأة التي تمثل ذروة الحدث هي: أنه وجد كلباً تحت السرير، فأمر به فأُخرج، ولم تقل الراوية: فأخرجه: ولكن بعد حوار مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حول ملابسات وجود ذلك الكلب الصغير، "أمر به فأخرج" ولم يحدد الذي أخرجه تنزيهاً للمسلم عن ملابسة ذلك الحيوان لأنه نجس، وطرد الكلب وإخراجه هو الحل أو لحظة التنوير في هذه القصة الحقيقية: حيث دخل جبريل عليه السلام، وهنا يحدث الحوار، وتبزغ الحقيقة الساطعة، وتؤسس القاعدة الإسلامية.

حين يفسر جبريل السبب في تأخره عن موعده، وهو وجود ذلك الكلب الذي لم يكن يعلم الرسول ﷺ بوجوده، ثم يقول جبريل عليه السلام في صيغة التوكيد المقولة التي جاءت في رواية ابن عمر رضي الله عنهما في الحديث السابق: "إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة"، وهذه هي الثمرة الطيبة التي تقطفها من شجرة هذا الحديث المباركة، وهي: قاعدة شرعية ثابتة راسخة ترشد كل مسلم إلى المنهج الصحيح. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٨٦).

الحديث رقم (١٦٨٩)

١٦٨٩- وعن أبي الهَيَّاجِ حَيَّانَ بن حُصَيْنٍ، قال: قال لي عَليُّ بن أبي طالب ﷺ: ألاَ أبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أنْ لاَ تَدَعَ (صُورَةً) [1] إلاَّ طَمَسْتَهَا، وَلاَ قَبْراً مُشْرفاً إلاَّ سَوَّيْتَهُ. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عليّ بن ابي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٦٨).

غريب الألفاظ:

طمستها: استأصلت أثرها[3].

مشرفاً: عالياً[4].

الشرح الأدبي

ما أجمل هذه الوصية المنبثقة من مشكاة النبوة، ومن تعاليم المصطفى ﷺ، وهي وصية يُوصي بها، عليٌّ بن أبي طالب ﷺ حيانَ بن حصين.

وعليٌّ ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ، وأبو الحسن والحسين، سبطي رسول الله ﷺ، ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي قيل على لسان علي ﷺ وهو مستوحًى من كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

ويبدأ الحديث بالاستفهام الذي يرغب في الاستماع، وهو مقرون بأداة الاستفتاح "ألا" وهي للتنبيه، والترغيب، والحث على الإصغاء، والاستجابة لما يُقال، وقوله: "أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ"، يحمل معنى الهداية والإرشاد، والتعبير بالبعث

---

(١) لفظ مسلم: (تمثالاً)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٩٣/٩٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٧).

(٣) النهاية في (ط م س).

(٤) الوسيط في (ش ر ف).

أعم وأبلغ وأشمل، لأن البعث فيه التنبيه من الغفلة، وفيه دلالة الإرسال لمهمة جادة، وفيه "الإيقاظ" حيث تقول العرب، بعث فلاناً من منامه، أي: أهبه، وجعله يهب من رقدته، ومن معاني البعث: الجيش، والنشر، ففي قول علي بن أبي طالب ﵁ "أبعثك"، إفصاح عن الرغبة في الهداية، وثبات الرجل على ما يوصيه به، ووصية علي ﵁ جاءت في جملتين موجزتين، وهما من تعاليم النبي ﷺ له، وصيغت الجملتان في أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء، وهذا الأسلوب يفيد الحصر، والاستقصاء، فلا يترك المسلم صورة إلا طمسها، ولا يترك قبراً مشرفاً إلا سواه بالأرض، وقوله: "مشرفاً": أي ظاهراً وعالياً يراه الناس، وهذا ما يقوم به كثير من الناس في البلدان الإسلامية، ويتنافسون في ذلك، ويتخذون من القبور بيوتاً.

ووصف القبر بأنه "مشرف" يتضمن دلالة حسية، ودلالة معنوية، فأما الحسية، فهي: العلو؛ لأن الشرف في اللغة هو العلو والمكان العالي، وأما الدلالة المعنوية فهي تتعلق بالنتائج المترتبة على هذا البناء العالي: حيث التفاخر بالقبور، والتنافس في تشييدها وطلائها؛ حتى تكون أحسن وأبهى من القبور المجاورة، وهذا ليس من سمات السلوك الإسلامي، وفي اللغة تتضمن كلمة الشرف هذه الدلالة، فالشرف: هو "المجد"، وهو التفاخر بالآباء الراحلين، أو الأحياء، وهو علو الحسب، وفي ظل هذه الدلالة ندرك سر العدول عن قوله: ولا قبراً عالياً، إلى التعبير الأدق والأبلغ والأشمل، وهو قوله: "ولا قبراً مشرفاً"، وكلمة "سويته"، مطابقة لمقتضى الحال، ومناسبة للمقام، لأنها تراعي أحوال المخاطبين: فالتسوية أخف وقعاً على النفس من قوله مثلاً: "هدمته"، لأن هدم القبور، غير تسويتها: فالمراد: ليس إزالة القبر، ولكن إزالة كل علو فيه، وعدم تجسيمه في أي بناء يميزه. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- وجوب إتلاف الصور، وخاصة إذا كانت معظمة[1]، لأمر رسول الله ﷺ

---

(١) المبدع في شرح المقنع ١٨٤/٧، وشرح صحيح مسلم ٣٦/٧، ونيل الأوطار ١٣٠/٤، والتصوير في الشريعة، الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق، ص ١٠.

بطمسها، وإذا قام شخص بإتلافها فإنه لا يضمن[1].

٢- الأمر بتسوية القبور التي عليها بناء، والمراد بالتسوية تقريبها من الأرض، والمنع من علوها، علواً فاحشاً[2].

وعلى ذلك فالسنة أن القبر لا يرفع عن الأرض كثيراً، وإنما يرفع نحو شبر فقط. أما رفع القبور عن القدر المأذون فيه فهو حرام[3]، وتبلغ الحرمة مداها إذا بنيت عليها القباب، وأحيطت بأنواع الزينة والزخارف[4]، وأضيئت بالمصابيح، كما هو مشاهد الآن في أضرحة الأولياء، والصالحين.

ولعل السبب في التحريم هو ما يترتب على هذه الأمور من إفساد العقيدة، وصرف الناس عن التوجه إلى الله تعالى وحده دون واسطة.

ولو كان هذا الأمر جائزاً لفعله المسلمون على قبر خير خلق الله ﷺ ولكنهم لم يفعلوا، بل جعلوا قبره مساوياً للأرض لم يرتفع عنها إلا قليلاً، وهو ما قدره الفقهاء بشبر.

قال القاسم بن محمد بن أبي بكر: (دخلت على عائشة، فقلت: يا أماه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما - يعني أبابكر وعمر- فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء)[5].

---

(١) منار السبيل ١/٤٠٩.

(٢) منار السبيل ١/١٧١، وشرح فتح القدير ٢/١٤١، وشرح صحيح مسلم ٧/٣٧، والمحلى لابن حزم ٥/٣٢، ونيل الأوطار ٤/١٣٠-١٣١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤/١٢٩.

(٣) نيل الأوطار ٤/١٣٠.

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤/١٢٩.

(٥) الفقه الواضح للدكتور محمد بكر إسماعيل ١/٤٢٣، دار المنار، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. والحديث أخرجه أبو داود ٣٢٢٠، والحاكم ١/٣٦٩ وصححه ووافقه الذهبي.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: السير على نهج النبي ﷺ في طمس كل صورة محرمة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تسوية القبور وبيان الحكمة من ذلك.

ثالثاً: من واجبات المدعو: الاستجابة لله ورسوله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: السير على نهج النبي ﷺ في طمس كل صورة محرمة:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج حيان بن حصين: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رَسُول اللَّهِ ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها"، ويكون ذلك: "بإخراج الصورة عن وضعها المحرم إلى وضع تخرج فيه عن الحرمة، ولا يلزم إتلافها بالكلية، بل يكفي حطها إن كانت منصوبة فإن كان لابد من بقائها في مكانها، فيكفي قطع الرأس عن البدن، أو خرق الصدر أو البطن، أو حك الوجه من الجدار، أو محوه أو طمسه بطلاء يذهب معالمه، أو يغسل الصورة إن كانت مما يمكن غسله. وإن كانت في ثوب معلق أو ستر منصوب، فيكفي أن ينسج عليها ما يغطي رأسها"[(١)]، قال ابن عابدين: "ولو أن قطع الرأس عن الجسد بخيط -مع بقاء الرأس على حاله-، فلا ينفي الكراهة، لأن من الطيور ما هو مطوق، فلا يتحقق القطع بذلك"[(٢)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تسوية القبور وبيان الحكمة من ذلك:

هذا ما ورد في الحديث من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج، "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟... ولا قبر مشرفاً إلا سويته"، وهذا ما أكده ثمامة بن شفى حيث قال: "كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، برودس، فتوفى صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها"[(٣)].

قال القاضي عياض: "وقد جاء في ذكر الأمر بتسوية القبور آثار عن النبي ﷺ وأصحابه وعن العلماء، وجاء - أيضاً- أنها صفة قبره ﷺ وقبر أبي بكر

---

(١) الموسوعة الفقهية ١٢/١٢٥-١٢٦.

(٢) حاشية ابن عابدين ١/٤٣٦.

(٣) أخرجه مسلم ٩٦٨.

وعمر رضي الله عنهما، وجاء - أيضاً - أنها تسنم، وتسنيمها اختيار أكثر الفقهاء وجماعة أصحابنا وأبي حنيفة والشافعي، وحكى بعضهم فيه خلاف، وحمله بعضهم على الرفق، وجمعوا بين الأمرين بتسويتها وبين تسنيمها: أن تسويتها ألا يبني عليها بناء عالياً ولا تعظم، كما كانت قبور المشركين، وتكون لاطيةً بالأرض، ثم تسنم ليتميز أنه قبر.

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه هدمها وقال: ينبغي أن تسوى تسوية تسنيم"[١].

والتسنيم في اصطلاح الفقهاء: رفع القبر عن الأرض مقدار شبر أو أكثر قليلاً وفي النظم المستعذب: التسنيم أن يجعل أعلى القبر مرتفعاً ويجعل جانباه ممسوحين مسندين، وهو: أن يجعل منبسطاً متساوي الأجزاء، لا ارتفاع فيه ولا انخفاض كسطح البيت.

ولا خلاف بين الفقهاء في استحباب رفع التراب فوق القبر قدر شبر ولا بأس بزيادته عن ذلك قليلاً على ما عليه بعض فقهاء الحنفية ليعرف أنه قبر، فيتوقى ويترحم على صاحبه"[٢].

وقال د. محمد رواس قلعه جي في قوله: "فإذا وضع الميت في قبره وأهيل عليه التراب فإنه يستحب أن يرتفع القبر عن الأرض قدر شبر، لكي يعرف فلا يوطأ، ويمكن أن يجعل مسطحاً أو مسنماً دون أن يبني عليه، والتسنيم أفضل"[٣].

لقول سفيان التمار: "إنه رأى قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسنماً"[٤].

وهذا إذا دفن المسلم في دار الإسلام، أما إن دفن المسلم في غير دار الإسلام، بأن دفن في بلد الكفار أو دار حرب، وتعذر نقله إلى دار الإسلام، فالأولى تسوية قبره بالأرض، وإخفاؤه أولى من إظهاره وتسنيمه خوفاً من أن ينبش فيمثل به، وفي ذلك

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣٨/٣.

(٢) الموسوعة الفقهية ٣٤٢/١١ ومصادرها.

(٣) لموسوعة الفقهية الميسرة ١٥٤١/٢.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ٩٦، فوق حديث رقم ١٣٩١.

صيانة له عنهم. وألحق به الأذرعي: الأمكنة التي يخاف نبشها لسرقة كفنه أو لعداوة ونحوهما"[(١)].

وفي بيان الحكمة من أمر النبي ﷺ بتسوية القبور على النحو المبين، قال ابن القيم: (ومن أعظم مكايده - أي ابليس- التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه، وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى، وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾[(٢)])[(٣)].

وقال أيضاً ابن القيم: "ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه رضي الله عنهم، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد؛ مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها وهؤلاء يبالغون في مخالفة ذلك ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب"، إلى أن قال: "فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من

---

(١) الموسوعة الفقهية، ٣٤٤/١١، ومصادرها.

(٢) سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٤ .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ١٨٢/١-١٨٣.

النهى عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه؟ ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره"، ثم أخذ يذكر تلك المفاسد، إلى أن قال: "ومنها: أن الذي شرعه النبي ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركات منه، ونصره لهم على الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت، ولم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له"(١).

ثالثاً- من واجبات المدعو: الاستجابة لله ورسوله:

هذا ما يستفاد من الحديث في قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ"، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾(٢)، قال القرطبي: "قال مجاهد والجمهور: المعنى: استجيبوا للطاعة، وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه؛ ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية"(٣). وقال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾(٤)، قال السعدي: "يأمر تعالى عباده المؤمنين

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ١/١٩٥، ١٩٧، ١٩٨-١٩٩.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/٤٨٤.

(٤) سورة الأحقاف، الآيتان: ٣١-٣٢.

بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمر به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والإنكفاف عنه، والنهى عنه"[١].

(والعباد مأمورون بالاستجابة لله تعالى الذي يدعوهم من خلال هذه الرسالات التي أكرم الحق تبارك وتعالى بها عباده، إذ أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه ويوحدوه سبحانه وتعالى، فكل أمة لها رسول - تفضلاً من الله وكرماً - حتى لا يكون للعباد عذر، ومقابل هذا الفيض الكبير يطلب منهم سبحانه وتعالى -وهو الغني عن العالمين- "أن يقبلوا عليه ولا يشركوا به أحداً)[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٨٠.

(٢) قواعد الدعوة الإسلامية، الهجاري، ٤٢٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: أسلوب الترهيب:

يعد الترهيب من أهم أساليب التربية، وقد رهبت أحاديث الباب من التصوير الذي فيه مضاهاة لخلق الله تعالى بالعذاب يوم القيامة وفي جهنم، وكذلك رهبت من اقتناء كلب في البيت أو تعليق صورة لأن ذلك يؤدي إلى عدم دخول الملائكة للبيت.

وللترهيب وعيد وتهديد بعقوبة، تترتب على اقتراف إثم أو اجتراح ذنب قد نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي[1]، فالترهيب هو العنصر الذي يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهى عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقًا حذرًا، حتى ولو غامر في الأمر، واستهان بالمخاوف، إلا أن محاذير سلوك سبيل الشر عواقب وخيمة لا يستهين العقلاء بها بحال من الأحوال، متى تبصروا بها حقًا، وعلى مقدار نمو الحذر من جهة من الجهات تخبو جذوة الأطماع والأهواء المتأججة نحوها، وبالتكرار والمعالجة المتتابعة تنصرف النفس انصرافًا نهائيًا، وتكتسب خلق الزهد والعفة عن المحارم، مهما كانت إغراءاتها آسرة، ومثيرة لرغباتها وأهوائها[2].

ومن الملاحظ أن طائفة من الناس لا يصلحهم الإقناع الفكري المجرد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وإن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة إليهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمرغبات، وذلك لأنهم قد يكونون ممن يؤثرون اللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة على الخيرات الآجلة مهما كانت جليلة،

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣١.

(٢) أسس الحضارة الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٥٥.

ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيبات بالثواب الجزيل على فعل الخير وترك الشر، لكنهم إذا مثلت المخاوف المحققة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا»[١].

والرسول ﷺ الذي لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية اعتمد فيها الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصرين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين ووضعهم على جادة الصواب[٢].

ثانيًا: التربية بالملاحظة والمتابعة:

إن المربي الناجح هو من يقوم بملاحظة ومتابعة سلوك وتصرفات من يقوم بتربيتهم أو المسؤولين منه حتى يدلهم على الصواب ويجنبهم ويبعدهم عن ارتكاب الأخطاء أو ما يخالف أحكام الدين ويظهر هذا جليًا في هذا الباب في فعل النبي ﷺ مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما قدم عليها من سفر وقد سترت سهوة لها بقرام فيه تماثيل، فلما رآه ﷺ تلون وجهه وقال: «يَا عَائِشَةُ! أَشَدُّ النَّاسِ عَذابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ». قالَتْ : فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ».

كذلك من التربية بالملاحظة والمتابعة ذات الأهمية العظمى ملاحقة الولد وملازمته في التكوين العقدي والأخلاقي ومراقبته وملاحظته في الإعداد النفسي والاجتماعي، والسؤال المستمر عن وضعه وحاله في تربيته الجسمية وتحصيله العلمي.

ولاشك أن هذه التربية تُعد من أقوى الأسس في إيجاد الإنسان المتوازن المتكامل الذي يؤدي لكل ذي حق حقه في الحياة. والذي تدفعه إلى أن ينهض بمسئولياته، ويضطلع بواجباته على أكمل وجه وأنبل معنى، والذي تجعل منه مسلمًا حقيقيًا يكون الحجر الأساس لبناء القاعدة الإسلامية الصلبة التي بها يتحقق عز الإسلام، وبالاعتماد عليها تقوم الدولة الإسلامية قوية عتيدة، تضاهي الأمم بحضارتها ومكانتها وكيانها.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د/زياد محمود العاني، ص٢٥١.

والإسلام بمبادئه الشاملة، وأنظمته الخالدة حض الآباء والأمهات والمربين جميعًا إلى أن يهتموا بملازمة أولادهم ومراقبة أفلاذ أكبادهم... في كل ناحية من نواحي الحياة وفي كل جانب من جوانب التربية الشاملة[١].. ومما يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٢].

قال الضحاك ومقاتل: حق على المعلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[٤].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «والرَّجُلُ راعٍ في أهلِهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتِهِ، وَالمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجِها وَمَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، ....»[٥].

فعلى المربي أن يلحظ الولد ويلاحقه، ويلزم أدبه ويراقب حركاته وسكناته. حتى إذا أهمل حقًا أرشده إليه، وإذا قصر في واجب حضّه عليه، وإذا رأى منكرًا نهاه عنه وإذا فعل معروفًا شكر له صنيعه.

ومن الأمور التي لا يختلف عليها اثنان أن ملاحظة الولد ومراقبته لدى المربي هي من أفضل أسس التربية وأظهرها. ذلك لأن الولد دائمًا موضوع تحت مجهر الملاحظة والملازمة حيث المربي يرصد عليه جميع تحركاته وأقواله وأفعاله واتجاهاته.. فإن رأى خيرًا أكرمه وشجعه عليه، وإن رأى منه شرًا نهاه عنه وحذره منه، وبين له عواقبه الوخيمة، ونتائجه الخطيرة.. وبمجرد أن يغفل المربي أو يتغافل عن الولد، فإنه سينزع لا محالة إلى الانحراف، ويتوجه – ولا شك- نحو الزيغ والانحلال، فعندئذ يكون هلاكه المحقق، ودماره المحتوم!!.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٧٢٧.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/١٦٧.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٥) أخرجه البخاري، ٨٩٣، ومسلم، ١٨٢٩.

ومعلمنا الأول، وهادينا الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم كان يعطي لأمته القدوة الصالحة في حسن رعايته لأصحابه، وتفقده لهم، وسؤاله عنهم، ومراقبة أحوالهم، ومحاذرة مقصريهم، وتشجيع محسنيهم، والعطف على فقرائهم ومساكينهم، وتأديب الصغار منهم وتعليم الجهلة فيهم[1].

ثالثًا: من وسائل التربية: السماع:

إن الوسائل السمعية التي تعتمد على الاستماع أكثر من اعتمادها على الحواس الأخرى، تعتبر من وسائل التربية الإسلامية المفيدة وتظهر هذه الوسيلة في هذا الباب في قول ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار....»، وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صور صورة في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها....إلخ».

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ».

وقول أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟...»، فالسماع وسيلة تربوية ينبغي توظيفها في تنمية الإيمان وطاعة الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾[2].

ومن التقنيات التي تستخدم الوسائل السمعية ما يلي:

١ - الإذاعة المدرسية: حيث تقدم من خلالها التلاوة النموذجية، وبعض الأحاديث وسير السلف الصالح.

٢ - الإذاعة العامة (الراديو) وتقدم من خلالها التلاوة أيضًا والتفسير والأحاديث واستضافة العلماء والبرامج الدينية الأخرى... وعلى المعلم توجيه الطلبة لمتابعة هذه البرامج.

٣ - المسجل: حيث يستمع الطالب إلى التلاوة والأناشيد والأحاديث الدينية المساعدة على تحقيق الأهداف من خلاله.

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧٢٩/٢.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٦.

٤ - مختبر اللغة: ويتم فيه التدريب على أداء القرآن الكريم[1].

وقد تكون وسيلة السمع: سمعية بصرية، وهي التي تعتمد على حاستي السمع والبصر معًا في إكساب الخبرات والمهارات للتلاميذ وتزيد معارفهم وتنمي قيمهم واتجاهاتهم ومن تلك الوسائل:

١ - التلفاز (التلفزيون) الذي يقدم صورة متحركة مرئية ومسموعة فتثير الدافعية في الطفل أو التلميذ وتزيد فيه الرغبة والرهبة (في البرامج الإسلامية الموجهة).

٢ - الحاسوب بحيث أصبحت هناك أنواع مختلفة، منها ما يعتمد استخدامها على السمع والبصر معًا ويستفاد منها في تقديم أنواع برامج الشريعة وغيرها[2].

وبما أن هذه الوسائل السمعية البصرية أصبحت بداخل كل بيت بما تحمله من حسن وقبيح، وهادف وهادم للأخلاق، وخاصة الناشئة، تبرز أهمية دور المربين، وخاصة الوالدين في التوجيه والتصحيح والمتابعة والمراقبة للأولاد في استخدام هذه الوسائل، حتى لا تكون سببًا في انحرافهم، وضياع قيمهم وأخلاقهم بل ينبغي توظيفها فيما يفيد في تنمية المعلومات والإفادة من الثقافات، والتدرب على أحدث التكنولوجيات بما يتماشى مع القيم والأخلاق الإسلامية.

رابعًا: التربية بالحدث والمشاهدة:

التربية بالحدث والمشاهدة تعني استثمار الفرصة المناسبة لموقف معين، أو حدث طارئ، أو مشهد في توجيه موعظة مؤثرة تكون الفرصة المناسبة، أو الحدث الطارئ، أو المشهد المثير مفتاحًا لهذه الموعظة، وعاملاً نفسيًا دافعًا لتقبلها.

والحياة الدنيا حافلة بالأحداث والسلوكيات، والأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهذه الأحداث والسلوكيات والأعمال، منها ما هو مقبول معتاد، ومنها ما هو غير مقبول يطرأ أحيانًا وينبغي تصحيحه، ومن واجب المربي، أن يُحسن كيفية استثمار الفرصة والحدث، لتصحيح السلوكيات الخاطئة، وتقويم المعوج منها وتصويبه[3]. وقد

---

(١) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية، د. هدى على جواد الشمري، ص١٣١ ومراجعه.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢، ١٣٣، ومراجعه.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٢٨٤.

كانت الأحداث في حياة الجماعة وسائل التربية لهذه الجماعة وأعمقها أثرًا فيها ففي كل حدث درس، وفي كل درس عبرة لا تنسى[1].

حتى كادت لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من هذه التوجيهات السديدة والنصائح الرائعة، أو العتاب الحاني، الذي يتبع حدثًا معينًا أو اجتهادًا خاطئًا، أو تصورًا مخالفًا لمقتضيات الشرع وأساسات الدين.

وكذلك كان الرسول ﷺ يستثمر الحدث الطارئ، أو الفرصة المناسبة، أو المشهد، لتوجيه أصحابه وحثهم على التأمل والتدبر، والعظة والعبرة. لما يشاهدون أو يسمعون، ولا يدعه يمر دون تصويب رأي معين أو تعديل سلوك خاطئ والأمثلة في هذا الباب واضحة في موضعين:

الأول: حدث ومشهد رآه ﷺ عندما قدم من سفر على عائشة رضي الله عنها فوجدها تستر سهوة لها بقرام فيه تماثيل، فلم يترك ﷺ هذا المشهد دون تصحيح، بل صحح سلوك أم المؤمنين عائشة، بما يتفق مع أحكام الدين، فتلون وجهه ﷺ مما يدل على إنكاره وكراهيته لهذا الأمر، وقال: «يَا عَائِشَةُ! أَشَدُّ النَّاسِ عَذابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ». قالَتْ : فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ.

الثاني: المشهد والحدث الثاني هو عندما واعد جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ أن يأتيه في ساعة، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، فعلم ﷺ أن هناك أمرًا منعه من المجيء لأنه كما قال: «ما يخلف الله وعده ولا رسله» وكان المانع من مجيئه جروًا وجده ﷺ تحت سريره، فأمر به فأخرج فجاءه جبريل عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «وعدتني، فجلست لك ولم تأتني، فقال منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة».

فما أكثر الأحداث والمشاهد في الحياة بل إن الحياة كلها أحداث ومشاهد والمربي الناجح يعمل على توظيف المشاهد والأحداث في تصحيح سلوكيات من يقوم بتربيتهم وحسن توجيههم.



(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ١٥١/٢.

٣٠٦- باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد أو ماشية أو زرع

الحديث رقم (١٦٩٠)

١٦٩٠- عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((مَنِ اقْتَنَى كَلْباً إلاَّ كَلْبَ صَيْدٍ أوْ مَاشِيَةٍ، (فَإنَّهُ)[1] يَنْقُصُ مِنْ اجْرِهِ كُلَّ يَومٍ قِيرَاطَانِ)). متفق عليه[2].

وفي رواية[3]: (قِيرَاطٌ).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الماشية: هي: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يستعمل في الغنم[4].

قيراطان: القيراط هنا مقدار معلوم عند الله تعالى، والمراد نقص جزء من أجر عمله[5].

الشرح الأدبي

إن التشريع الإسلامي يحرص على أن يظل المسلم نظيف البدن وطاهر الثوب والمكان، ولذلك يتوعد رسول الله ﷺ هؤلاء الذين يقتنون الكلاب للزينة لأو للمتاجرة فيها، أو للتسلية بأن الحق - سبحانه وتعالى- سينقص من أجرهم في حياتهم كل يوم قيراطين، والحديث يتسم بالدقة الأسلوبية، وليس فيه نزعة تصويرية

---

(١) (فإنه) لا توجد عندهما في هذه الرواية، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٨١)، ومسلم (١٥٧٤/٥١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٤٠).

(٣) برقم (١٥٧٤/٥٣).

(٤) الوسيط في (م ش ي).

(٥) شرح صحيح مسلم ١٠٠٠.

كالتشبيه أو الاستعارة أو غير ذلك، وإنما صاغه رسول الله ﷺ في جملة واحدة شرطية، وهذه الصياغة تتوافق مع ما يرسيه الحديث من قاعدة شرعية، وهي تحريم اقتناء الكلاب إلا لحاجة ضرورية، وهي: الصيد أو حراسة الماشية أو الدور والمنشآت، ومن يخالف ذلك فعقوبته أن ينقص الله تعالى من أجره كل يوم قيراطين، "فالجزاء من جنس العمل" وصيغة الشرط تتضمن الإقناع، وتتضمن كذلك مساحة للاختيار.. وتفصيل ما فيه من الأجر والثواب، وكذلك تتضمن الدعوة إلى الإقلاع عن هذا العمل حتى لا ينقص الأجر الذي ينتظره.

والاستثناء الذي تضمنته الجملة الشرطية، ووقع في دائرتها: يرشد إلى أن الحكم ليس عاماً، حيث تطرأ حالات ومواقف فيها يباح للمسلم اتخاذ الكلب للصيد أو للحراسة.

وتأكيد جواب الشرط بـ"إن" المؤكدة، والتصريح بنقص الأجر كل يوم يُوحي بأن الأمر جد وواقع حقيقة، وليس من باب الترهيب فقط، وقوله: "ينقص من أجره كل يوم قيراطان"، كناية عن أن الإثم الحاصل باقتنائه الكلب يوازي قيراطين، فينقص من أجر عمله الصالح قدر ما يترتب عليه من الإثم: كل يوم. والله أعلم.

فقه الحديث

ويشتمل هذان الحديثان على الأحكام الفقهية الآتية:

١- إباحة اتخاذ الكلاب للصيد والماشية، وكذا الزرع، وغير ذلك من الأمور التي قد يؤدي استعمال الكلاب فيها إلى جلب نفع، أو دفع ضرر[(١)].

وإنما يباح اتخاذ هذه الكلاب ما لم يحصل الاتفاق على قتله، كالكلب العقور[(٢)]، والأسود البهيم[(٣)]، وإلا لم يبح.

---

(١) شرح فتح القدير ١١٨/٧، ١١٩، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ١٨٨/٦، وحاشية ابن عابدين ٢٢٧/٥، والتمهيد لابن عبدالبر ٢١٧/١٤-٢١٨، والفواكه الدواني ٩٤/٢، والمهذب للشيرازي ٢٦١/١، والمجموع للنووي ٢١٩/٩، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٠/٢، والمغني لابن قدامة ١٧٣/٤، وكشاف القناع ١٥٤/٣.

(٢) فتح الباري ٧/٥، وكشاف القناع ١٥٣/٣.

(٣) كشاف القناع ١٥٣/٣.

٢- عدم جواز اتخاذ الكلاب لغير ما ذكر[١]، لأنه في هذه الحالة يكون مقتنياً ما لا منفعة فيه، واقتناء ما لا منفعة فيه يعد سفهاً فلا يجوز[٢].

٣- يجوز تربية الجرو[٣] الصغير لأجل المنفعة التي يؤول أمره إليها إذا كبر من صيد أو حراسة ماشية، أو حرث، لأنه قصد به ما يباح[٤]، فيكون قصده قائماً مقام وجود المنفعة به، قياساً على جواز بيع ما لا ينتفع به في الحال لكونه ينتفع به في المآل[٥].

وإن كان هناك وجه عند الشافعية[٦]، والحنابلة[٧] يرى عدم جواز تربية الجرو الصغير. والراجح: الرأي الأول لقوة دليله.

٤- أما عن سبب نقصان الأجر باقتناء الكلب، فقد حكى النووي الخلاف فيه فقال: (اختلف العلماء في سبب نقصان الأجر باقتناء الكلب، فقيل: لامتناع الملائكة من دخول بيته بسببه، وقيل: لما يلحق المارين من الأذى من ترويع الكلب لهم، وقصده إياهم وقيل: إن ذلك عقوبة له لاتخاذه ما نهى عن اتخاذه، وعصيانه في ذلك، وقيل: لما يبتلى به من ولوغه في غفلة صاحبه ولا يغسله بالماء والتراب. والله أعلم)[٨].

المضامين الدعوية[٩]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من اقتناء الكلب لغير حاجة.

ثانياً: من مهام المدعو: بيان الحكمة في الترهيب ونقصان الأجر من اقتناء الكلب لغير حاجة.

---

(١) شرح فتح القدير ١١٨/٧، والتمهيد ٢١٧/١٤، والمغني لابن قدامة ١٧٣/٤، والمجموع ٢١٩/٩، وكشاف القناع ١٥٤/٣.

(٢) المهذب ٢٦١/١، ٢١٩/٩.

(٣) كشاف القناع ١٥٤/٣، والمغني ١٧٣/٤، والمهذب ٢٦١/١، والمجموع ٢١٩/٩.

(٤) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

(٥) فتح الباري ٧/٥.

(٦) المهذب ٢٦١/١، والمجموع ٢١٩/٩.

(٧) الكافي في فقه الإمام أحمد ١٠/٢، والمغني لابن قدامة ١٧٣/٤.

(٨) شرح صحيح مسلم ٢٧٣/٥.

(٩) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٩٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٩١).

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من اقتناء الكلب لغير حاجة:

هذا ما أشار إليه في قوله ﷺ "من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان، وأيضاً في قوله ﷺ: "فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط إلا كلب حرث أو ماشية".

قال ابن حجر: "يقال اقتنى الشيء إذا اتخذه للادخار"[1]، وقال النووي في قوله ﷺ: "نقص من عمله" فمعناه: "من أجر عمله. وأما القيراط هنا فهو مقدار معلوم عند الله تعالى والمراد: نقص جزء من أجر عمله، وأما اختلاف الرواية في قيراط وقيراطين فقيل: يحتمل أنه في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر، ولمعنى فيهما أو يكون ذلك مختلفاً باختلاف المواضع، فيكون القيراطان في المدينة خاصة لزيادة فضلهما والقيراط في غيرها أو القيراطان في المدائن ونحوها من القرى والقيراط في البوادي، أو يكون ذلك في زمنين، فذكر القيراط أولاً ثم زاد التغليظ فذكر القيراطين"[2].

قال ابن حجر: "يحتمل أن تكون العقوبة تقع بعدم التوفيق للعمل بمقدار قيراط مما كان يعمله من الخير لو لم يتخذ الكلب ..."، والمراد بالنقص أن الإثم الحاصل باتخاذه يوازي قدر قيراط أو قيراطين من أجر فينقص من ثواب عمل المتخذ قدر ما يترتب عليه من الإثم باتخاذه وهو قيراط أو قيراطان ...، وقال ابن التين المراد أنه لو لم يتخذه لكان عمله كاملاً، فإذا اقتناه نقص من ذلك العمل، ولا يجوز أن ينقص من عمل مضى، وإنما أراد أنه ليس عمله في الكمال عمل من لم يتخذه أ.هـ، وما ادعاه من عدم الجواز منازع فيه، فقد حكى الروياني في "البحر" اختلافاً في الأجر هل ينقص من العمل الماضي أو المستقبل، وفي محل نقصان القيراطين فقيل من عمل النهار قيراط ومن عمل

---

(١) فتح الباري ٩/٥٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠٠٠

الليل آخر وقيل من الفرض قيراط ومن النفل آخر"[١]، وفي ذلك بيان على الترهيب من اقتناء الكلب لغير الأغراض المشروعة من صيد أو ماشية أو زرع.

ثانياً- من مهام المدعو: بيان الحكمة في الترهيب ونقصان الأجر من اقتناء الكلب لغير حاجة:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وفي ذلك قال النووي: "واختلف العلماء في سبب نقصان الأجر باقتناء الكلب فقيل: لامتناع الملائكة من دخول بيته بسببه، وقيل: لما يلحق المارين من الأذى من ترويع الكلب لهم وصده إياهم، وقيل إن ذلك عقوبة له لاتخاذه ما نهى عن اتخاذه وعصيانه في ذلك، وقيل لما يبتلى به من ولوغه في غفلة صاحبه ولا يغسله بالماء والتراب"[٢].

فعلى الداعية أن يبين الحكمة ويظهرها لما في ذلك من حمل المدعوين على سرعة الامتثال لأمر الله ورسوله في عدم اقتناء الكلب لغير حاجة.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

هذا ما ورد في ترهيبه ﷺ: بنقص الأجر عند اقتناء الكلب لغير حاجة، "والترهيب من الأساليب الدعوية الهامة في إخافة المدعو وحمله على اجتناب ما رهب منه"[٣]. "ومما لاشك فيه أن النفس البشرية قد جبلت على كره الشر والرغبة في البعد عنه فكان الترهيب هو الأداة الهامة في حملها على الامتثال للأوامر والبعد عن النواهي)"[٤].

"وتظهر مكانة الترهيب وأهميته من أمر الله تعالى الصريح بتطبيقه في حقه جل ثناؤه. قال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٥]. وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[٦]. وقوله تعالى:

---

(١) فتح الباري ٩/٥-١٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠٠٠.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد، ١٦٠.

(٤) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، حمدان الهجاري، ٤٤٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٠.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[١]"[٢].

"والترهيب من أبرز أساليب المنهج العاطفي: فهو يغوص في النفس الإنسانية، ويخاطب فيها العاطفة والوجدان، ويهيج فيها عنصر الخوف، ومتى وجد الخوف في القلوب والنفوس قطع فيها دابر الشهوات واللذات"[٣]، "حتى تصير المعاصي والآثام المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة"[٤].

"فالحاجة إلى الترهيب ضرورة لازمة للدعاة والمحتسبين عند الآخذ بأيدي الناس إلى الخير وإنقاذهم من التعرض للمعاصي المؤدية لسخط الله تعالى، مع مراعاة أن الترهيب عملية تضعف وتشتد حسب ضعف السبب وقوته، وإنها مراتب تبدأ بالقول لمن سمع وعقل وتدبر، وتنتهي بالعقوبة لمن عاند وجحد واستكبر"[٥].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٢) الترهيب في الدعوة، د.رقية نياز، ٧٠.

(٣) المرجع السابق ٧٣.

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٤/١٥٦.

(٥) الترهيب في الدعوة، د. رقية نياز، ٧٠.

الحديث رقم (١٦٩١)

١٦٩١- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ أمْسَكَ كَلْباً، فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَومٍ قِيرَاطٌ، إلاَّ كَلْبَ حَرْثٍ أوْ مَاشِيَةٍ)). متفق عليه[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: ((مَنْ اقْتَنَى كَلْباً لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ، وَلاَ مَاشِيَةٍ وَلاَ أرْضٍ، فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِهِ قِيرَاطَانِ كُلَّ يَوْمٍ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الحرث: الزرع[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتفق في نصه مع الحديث السابق: مع التقديم والتأخير في بعض الألفاظ، وتغيير بعض الكلمات، وقد جاء في قالب الجملة الشرطية، مثل: الحديث السابق، ولكن فعل الشرط هنا "أمسك كلباً"، وفي الحديث السابق: "اقتنى كلباً"، ودلالة الفعلين واحدة، فقوله: "أمسك كلباً": أي على وجه القنية، كما قال العلماء.

وفي هذا الحديث: جاء جواب الشرط تالياً لجملة: فعل الشرط، وهو قوله: "فإنه ينقص من عمله...الخ"، وهو هنا مؤكد بـ"إن" إيحاء بوجوب الامتناع عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة.

والنص هنا يحدد بأنه ينقص من عمله كل يوم قيراط، وفي الحديث السابق: قيراطان، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه: يقول النص: ينقص من أجره قيراطان

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٢)، ومسلم واللفظ له (١٥٧٥/٥٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٤١).

(٢) برقم (١٥٧٥/٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٤١).

(٣) الوسيط في (ح ر ث).

كل يوم، وقد تأول بعض العلماء ذلك فقالوا: نقص القيراطين باعتبار كثرة الأقذار باتخاذ الكلب، ونقص القيراط باعتبار قلتها.

وجملة الاستثناء في هذا الحديث وردت في ختام الحديث للاحتراز من شبهة التعميم في كل الحالات والظروف.

وفي الحديث السابق ورد الاستثناء في قلب الحديث: بين الشرط والجواب حتى لا يتسرب أي ظن لدى السامع، بأنه لا يباح اقتناء الكلاب أبداً، مهما كانت الأسباب، فأتى بهذا الاستثناء منعاً لهذا الظن حتى تستريح نفس المسلم الذي يتخذ الكلاب للحراسة أو للصيد: أي لمهمة نافعة، وليس للزينة أو التسلية أو المهارشة أو المتاجرة أو المقامرة والمسابقات المخادعة اللاهية العابثة. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية الوقائية:

استخدم الإسلام أسلوب الوقاية للفرد المسلم وللأسرة والمجتمع، من خلال تحذيرات الرسول ﷺ من بعض السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك والمجتمع والدولة إلى الضعف والهوان، أو من خلال بعض التوجيهات التي تخص الفرد المسلم والمجتمع المسلم[١].

من هذه التوجيهات والتحذيرات تحريم اقتناء الكلاب إلا لصيد أو ماشية أو زرع، كما دلت أحاديث الباب، وقد ثبت طبيًا أن عدم اقتناء الكلاب فيه وقاية من كثير من الأمراض.

قال د. أحمد مصطفى متولي: (قال البروفيسور نلسون: عجبت لتعاليم الرسول ﷺ التي تنهى عن مخالطة الكلاب فلعابها يجب أن يبعد، والآنية التي تلعق يجب أن تغسل عدة مرات، والكلب لا يصح أن يدخل البيت ((لا تدخل الملائكةُ بيتًا فيهِ كلبٌ ولا صورةٌ))[٢] فتعاليم الرسول ﷺ تقف وحدها من بين تعاليم الناس كلهم إلى يومنا هذا متميزة واضحة بأن هذا الكلب يجب أن يعامل هذه المعاملة، وقال لما اكتشف المجهر، وأخذنا ندرس الجراثيم والطفيليات جئنا نبحث عن الكلب فوجدنا الكلب يحمل أكثر من خمسين مرضًا طفيليًا، والقط لا يحمل بنفسه مرضًا واحدًا، ولكنه يتسبب في مرض طفيلي.

وقال د. جون هانفر: الكلب يحمل الكثير من الأمراض المعدية فهو يحمل ما يقارب خمسين مرضًا طفيليًا، وكثير منها يوجد في لعابه، بينما يعد القط من أطهر الحيوانات من الناحية الطبية، إذ هو لا يحمل من الجراثيم والميكروبات إلا ما يسبب مرضًا واحدًا فقط)[٣].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٢٥٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٢٥، ٣٣٢٢، ومسلم ٢١٠٦.

(٣) الموسوعة الأم في تربية الأولاد ٢/٥٤٦.

ومن حكم الإسلام لوقاية الأبدان تقريره نجاسة الكلب، فقد قال النبي ﷺ: ((إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيُرِقْهُ، ثُمَّ لْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ))[1].

ومعنى ذلك ألا يأكل الإنسان من وعاء ولغ فيه الكلب ولوثه بفمه وأنفه ووضع فيه مختلف الجراثيم والأمراض.

وهذه معجزة علمية للإسلام سبق بها الطب الحديث الذي أثبت: أن الكلاب تنقل كثيرًا من الأمراض إلى الإنسان. جاء في مجلة "كوسموس" الألمانية تحت عنوان: "الأخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها" للدكتور جرادفنتسر، قوله: إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الأخير يضطرنا إلى لفت الأنظار للأخطار التي تنجم عن ذلك، وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها "فكل ما ذكر مع نُبوِّه عن الذوق السليم، ومنافاته للآداب لا يتفق وقوانين الصحة، فإن الأخطار التي تهدد صحة الإنسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان بها. فإن الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها إلى الإنسان، وتصيبه بمرض عضال قد تصل إلى حد العدوان على حياته".

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجمًا لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشريطية.

وقد رؤي في إقليم فريزلند بهولنده حيث تستخدم الكلاب في الجر: أن في كل مائة منها ١٢ إصابة. ووجد في اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصًا من أهاليها، وشوهد أن هذه النسبة تزيد في أستراليا إذ ثبت وجود شخص في كل ٣٩ شخصًا من سكانها، وثبت كذلك أنها كانت سببًا مباشرًا للكثير من الأمراض في الأقطار الأخرى.

---

(١) أخرجه البخاري ١٧٢، ومسلم ٢٧٩ واللفظ له.

ثم يقول: ومما تجب على الناس مراعاته: عدم مداعبة الكلاب وتعويد الأطفال التوقي منها، فلا تترك تلعق أيديهم، ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحالّ نزهة الأطفال وميادين رياضتهم، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الأواني المعدة لأكل الناس، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم، وعلى وجه عام: يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الإنسان ومشربه)[1].

ثالثًا - التربية بالترهيب:

من أساليب التربية التي يتضمنها هذا الباب التربية بالترهيب حيث رهب رسول الله ﷺ من اقتناء كلب إلا كلب صيد أو ماشية، وبين أن من يفعل ذلك ينقص من أجره كل يوم قيراطان وفي رواية قيراط.

وهذا ترهيب عظيم من اقتناء الكلاب في غير ما استثنى لأن الذي يفعل ذلك يكون قد ارتكب إثمًا كبيرًا ولحقه عقاب شديد. فقد بين رسول الله ﷺ مقدار القيراطين في حديث آخر رواه البخاري حيث قال: ((من شهِدَ الجنازةَ حتَّى يُصلِّيَ فله قيراطٌ، ومن شَهدَ حتَّى تُدفَنَ كان له قيراطانِ. قيل: وما القيراطان؟ قال: مثلُ الجبَلَينِ العظيمينِ))[2].

فإذا اقتنى المسلم الكلب دون ما أبيح فكل يوم ينقص أجره مثل الجبلين العظيمين وهذا ترهيب عظيم يجعل المربي ينبه إلى خطورة هذا الفعل وتنافيه مع أحكام الدين.

ويستخدم المربي الترهيب كأسلوب تربوي مفيد في إصلاح سلوك من يقوم بتربيتهم (وأسلوب الترهيب هو وعد يصاحبه تهديد الإنسان بالعقوبة وتحذيره من الأعمال التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله.

وأسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة)[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص ٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٢٥.

(٣) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن بن عبدالوهاب البابطين، ط١، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٦هـ، ص ٣٦.

٣٠٧- باب كراهية تعليق الجرس في البعير وغيره من الدواب

وكراهية استصحاب الكلب والجرس في السفر

الحديث رقم (١٦٩٢)

١٦٩٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((لاَ تَصْحَبُ المَلاَئِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ أوْ جَرَسٌ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

رفقة: أي صحبة[2].

الشرح الأدبي

إن المسلم تصحبه الملائكة في حلّه وترحاله، تحفظه من الشرور، وتحيطه بهالات من الهدى والنور، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

والمسلم في سفره عليه أن يتسلح بالإيمان، وأن يتزود بزاد التقوى، فهو يبدأ سفره بدعائه لربه: "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى"، وفي ظل العمل الصالح، والبر والتقوى تصحبه الملائكة هو ومَنْ معه، ولكن كما قال رسول الله ﷺ في هذا الحديث: "لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس"، ومفتاح النص الذي أشار إلى السفر يتجلى في كلمتين، في الفعل المنفي "لا تصحب"

---

(١) برقم (١٠٣/٢١١٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٥٩).

(٢) الوسيط في (ر ف ق).

(٣) سورة الانفطار، الآية: ١٠-١٢.

وكلمة رفقة، فالفعل "لا تصحب" ينفي صحبة الملائكة للمسافرين: وهم رفقة أي جماعة مترافقة في السفر ومتحابة، وقيل: اختر الرفيق قبل الطريق.

والحديث جاء مجرداً من التأكيد، وبعض الظواهر الأسلوبية التي تثبت المعنى في الذهن مثل القسم والتكرار؛ لأن المعنى واضح، والمسلم يتلقى هذا التوجيه بالقبول، ولا ينكره، ولا يشك فيه، ولذلك جاء الحديث في جملة واحدة مبدوءة بـ"لا" النافية، وكلمة "رفقة" نكرة لإفادة العموم، فأي رفقة من رجال أو نساء، ومن أي جنس، وفي أي زمان أو أي مكان، هذه الرفقة التي تقتني كلباً أو تتخذ جرساً للتنبيه أو للإعلان عن دخول الأوقات: لاحظ لهم ولا نصيب من صحبة الملائكة: وهي ملائكة الرحمة، وقيل: ينبغي لمن رأى ذلك وعجز عن إزالته وعن تغييره وهو في صحبة من يقتني الكلب، ويستخدم الجرس: أن يقول: "اللهم إني أبرأ إليك مما فعله هؤلاء، فلا تحرمني ثمرة صحبة ملائكتك وبركتهم". والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين من الفقه: كراهة استصحاب الكلب، والجرس في الأسفار وهي كراهة تنزيهية[١].

والجمهور[٢] على كراهة الأجراس على الإطلاق.

وذهب بعض الشافعية[٣] إلى التفرقة بين الجرس الكبير، والجرس الصغير، فقالوا بكراهة الأول دون الثاني.

ويناقش هذا: بأن لفظ الحديث مطلق، فيدخل فيه كل جرس، كبيراً كان أو صغيراً فالتقييد بالجرس الكبير يحتاج إلى دليل[٤].

---

(١) حاشية ابن عابدين ٣٩٨/٦، وحاشية الدسوقي ٣٣٩/٢، وإغاثة الطالبين ٨٣/٢، وشرح صحيح مسلم ٩٥/١٤، وكشاف القناع ١٧١/٥، والمغني لابن قدامة ٢١٧/٧، والفروع ٤٦٢/٥.

(٢) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

(٣) شرح صحيح مسلم، الموضع نفسه.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٩٢/٥.

ولعل السبب في كراهة استصحاب الكلب، والجرس في الأسفار: أن الملائكة لا تصحب من كان معه ما ذكر[١]، أما الكلب فلقبح رائحته، والملائكة تكره الروائح الكريهة، أو لأن بعضها يسمى شيطاناً، كما جاء به الحديث[٢] والملائكة ضد الشياطين[٣].

وأما الجرس، فلأنه شبيه بالنواقيس، وقيل: سبب كراهية الأجراس، هو كراهية صوتها، ويؤيده الحديث الثاني رقم (١٦٩٣) والذي فيه أن "الجرس مزامير الشيطان"[٤].

وقيل: إن سبب كراهة استصحاب الجرس في الأسفار أنه يدل على صاحبه بصوته، وكان رسول الله ﷺ يحب ألا يعلم العدو حتى يأتيهم بغتة[٥].

المضامين الدعوية[٦]

أولاً: من موضوعات الدعوة: عدم اصطحاب كلب أو جرس في السفر.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على عدم اصطحاب كلب أو جرس في السفر:

هذا ما أكد عليه في قوله ﷺ: "لاتصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس"، وقوله ﷺ: "الجرس مزامير الشيطان"، وقد نهى عن اقتناء الكلب لغير حاجة في صيد أو ماشية أو زرع.

وفي بيان الحكمة من ذلك قال القرطبي: "فذهبت طائفة: إلى أنه النجاسة وهو من حجج من قال بنجاسة الكلب. وتأيَّد في ذلك بنضحه ﷺ موضع الكلب، فعن ميمونة رضي الله عنها: ((أن رسول الله ﷺ أَصْبَحَ يَوْماً وَاجِماً. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ لَقَد

---

(١) إغاثة الطالبين ٨٣/٢.

(٢) أخرجه مسلم ٥١٠، وفيه "الكلب الأسود شيطان".

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٧٢/٥.

(٤) شرح صحيح مسلم ٩٥/١٤، وفتح الباري ١٤٢/٦.

(٥) حاشية ابن عابدين ٣٩٨/٦، وعون المعبود ١٦٢/٧.

(٦) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٩٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٩٣).

استَنْكَرْتُ هَيْئَتَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَلْقَانِي اللَّيْلَةَ. فَلَمْ يَلْقَنِي. أَمَ وَاللَّهِ مَا أَخْلَفَنِي قَالَ فَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ فُسْطَاطٍ لَنَا. فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ مَكَانَهُ ... إلخ))[١].

قلت: وهذا ليس بواضح، وإنما هو تقدير احتمال يعارضه احتمالات أُخر:

أحدها: أنها من الشياطين، "كما جاء في بعض الحديث"[٢].

وثانيها: استخباث روائحها، واستقذارها.

وثالثها: النجاسة التي تتعلق بها؛ فإنها تأكلها وتتلطخ بها، فتكون نجسة بما يتعلق بها، لا لأعيانها. والمخالف يقول: هي نجسة الأعيان. وعلى ماقلناه: يصح أن يقال: إنه ﷺ شك في طهارة موضعه، لإمكان أن يكون أصابه من النجاسة اللازمة لها غالباً شيء، فنضحه، لأنَّ النضح طهارة للمشكوك فيه، فلو تحقق إصابة النجاسة الموضع لغسله، كما فعل ببول الأعرابي، ولو كان الكلب نجساً لعينه، لا لما يتعلق به: لما احتاج إلى غسله، كما لا يحتاج إلى غسل الموضع أو الثوب الذي يكون عليه عظم ميتة، أو نجاسة لا رطوبة فيها. وعلى هذا: فهذا الاحتمال أولى أن يعتبر، فإن لم يكن أولى فالاحتمالات متعارضة، والدَّسْتُ قائم، ولا نص حاكم"[٣].

أما الجرس فقال فيه القرطبي: "ما يُعلَّق في أعناق الإبل مما له صلصلة، والذي يضرب به وهو بفتح الراء، وجمعه أجراس. فأما الجرس. فهو: الصوت الخفي. يقال: بفتح الجيم وكسرها.

وفيه ما يدل على كراهة اتخاذ الأجراس في الأسفار، وهو قول مالك وغيره. قلت: وينبغي ألا تقصر الكراهة على الأسفار، بل هي مكروهة في الحضر أيضاً، بدليل قوله ﷺ: الجرس مزامير الشيطان". ومزامير الشيطان مكروهة سفراً وحضراً، ثم: هذا يعم الكبير، والصغير منها. وقد فرق بعض الشاميين؛ فأجازوا الصغير، ومنعوا الكبير.

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم ٥١٠.

(٣) المفهم ٤٢٢/٥.

ووجه الفرق: أن الكبير به يقع التشويش على الناس، وبه تحصل المشابهة بالنصارى؛ فإنهم يستعملون النواقيس في سفرهم، وحضرهم"[١]. وهذا ما أيده النووي في قوله:

وأما الجرس هو: "اسم للصوت، فأصل الجرس بالإسكان الصوت الخفي، وأن الملائكة لا تصحب رفقه فيها أحدهما، والمراد بالملائكة ملائكة الرحمة والاستغفار لا الحفظة"، وقيل: سبب منافرة الملائكة للجرس أنه شبيه بالنواقيس أو لأنه من المعاليق المنهي عنها، وقيل سبب كراهة صوتها، وتؤيده رواية "مزامير الشيطان"[٢]،[٣].

قال ابن عثيمين: "والجرس معلوم وهو هذا الذي يُعلق على الدواب"[٤].

وقد أفرد البخاري لذلك باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل وأورد في ذلك قوله ﷺ: ((لا تَبقينَّ في رَقبةِ بعيرٍ قلادة من وَتَرٍ أو قِلادةً إلاّ قُطِعَتْ))[٥].

قال ابن حجر: "في قوله: "وتر" نقلاً عن الداودي: هو ما ينتزع عن الجمال يشبه الصوف ...، قال ابن الجوزي: وفي المراد بالأوتار ثلاثة أقوال: أحدها أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار القسى لئلا تصيبها العين بزعمهم، فأمروا بقطعها إعلاماً بأن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً ...، ثانياً: النهي عن ذلك لئلا تختنق الدابة بها عند شدة الركض ...، ولأن الدواب تتأذى بذلك ويضيق عليها نفسها ورعيها، وربما تعلقت بشجرة فاختنقت أو تعوقت عن السير. ثالثاً: أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس حكاه الخطابي وعليه يدل تبويب البخاري ...، والجرس بفتح الجيم والراء ثم مهملة معروف، وحكى عياض إسكان الراء، والتحقيق أن الذي بالفتح اسم الآلة وبالإسكان اسم الصوت. وروى مسلم من حديث العلاء بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه "الجرس مزمار الشيطان" وهو دال على أن الكراهية فيه لصوته لأن فيها شبهاً بصوت

---

(١) المرجع السابق ٤٣٤/٥، ٤٣٥.

(٢) أخرجه مسلم، ٢١١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، ١٣٣٤

(٤) شرح رياض الصالحين، ١٧٦١/٢.

(٥) أخرجه البخاري، ٣٠٠٥، ومسلم، ٢١١٥.

الناقوس وشكله"[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

هذا ما ورد في ترهيبه ﷺ من اصطحاب كلب في السفر لغير حاجة وضرورة، وكذلك ترهيبه ﷺ من تعليق الجرس في البعير أو اصطحاب ذلك في السفر، وقد علل النبي ﷺ ترهيبه في ذلك بعدم اصطحاب الملائكة لمن كان ذلك فعله، والترهيب (من الأساليب الدعوية الهامة التي يحسن بالداعية استخدامها في إخافة المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة للحق أو عدم الثبات عليه)[٢].

ومما لا شك فيه (أن الترهيب أسلوب ناجع للنفس الإنسانية التي يتنازعها الخير والشر، والتي جبلت على حب السعادة، والنفور من الضيق والعذاب)[٣]. فعلى الداعية أن يفيد من هذا الأسلوب حسب الحاجة إليه.

---

(١) فتح الباري ٦/١٦٤، ١٦٥.

(٢) انظر: الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ١٩٩.

(٣) الدعوة الإسلامية: الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ٩٧.

الحديث رقم (١٦٩٣)

١٦٩٣- وعنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: ((الجَرَسُ مَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مزامير الشيطان: المزمار: الآلة التي يُزمَّر بها[٢].

الشرح الأدبي

إن الإيجاز من سمات البيان النبوي فهو: الكلام الذي قل لفظه وكثر معناه، وهذا الحديث تبيان لهذه الخاصية، فهو جملة واحدة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، و"أل" في الجرس للجنس، أي: أي نوع من الأجراس بأية هيئة، وعلى أية صورة أو شكل.

وكلمات الحديث: "الجرس - مزامير - الشيطان" تموج بدلالات كثيرة، وتشع بمعان عدة، وقد استقرت في الأذهان مرتبطة ببعض المعاني والعادات والأعراف والتقاليد، ولكن حينما نتأمل الدلالات اللغوية لهذه الكلمات، ونتأمل موحياتها ندرك قيمة البيان النبوي، وندرك سر ربطه ﷺ بين الجرس، والمزامير، والشيطان.

فالجرس في اللغة: الصوت أو خَفيُّه، وقد تسكن الراء: فيقال ما سمعت له جرْساً، أو ما سمعت له حسا ولا جرسا، وقيل: "جَرَس" اسم كلب، والذي يُعلَّق في عنق البعير، وهو: ما يتخذه النصارى للإعلام عن عبادتهم وشعائرهم في كنائسهم، والجريسة: ما يُسرَق من الغنم بالليل.

والمزامير آلات تستعمل في الغناء، وقيل: زمَّر تزميرا: غَنَّى في القصب، وقيل: الزمارة، ما يزمر به: كالمزمار.

---

(١) برقم (٢١١٤/١٠٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٦٠).

(٢) النهاية في (ز م ر).

ومن معاني الزمارة: الزانية، وهو معنى شديد القبح، بغيض الدلالة، والمستزمر في اللغة هو: المنقبض المتصاغر، وهذه الدلالات التي تظل محصورة في دائرة الرفض ترتبط بدلالة لفظ الشيطان بكل موحياتها، فالشيطان نعت من القرآن بالرجيم، والمؤمن حينما يقرأ القرآن الكريم، يستعيذ بالله تعالى ويحتمي به من الشيطان الرجيم.

وهو مشتق من شطن: والشطن هو الحبل الطويل، ويوحى ذلك بالقيود والتكبيل، ويقال: بئر شطون أي بعيدة القعر، وكأن الشيطان يلقي بالإنسان في بئر سحيق القرار، وقيل: الشاطن هو الخبيث، والشيطان: هو كل عاتٍ متمرد من إنس أو جن أو دابة.

وقيل إن الشيطان مأخوذ: من شيط، فنقول: شاط يشيط: أي احترق، ومنه قولهم: شاط الدماء أي خلطها: كأنه سفك دم القاتل على دم المقتول.

وكل هذه الدلالات والإيحاءات المنبثقة من الدلالات اللغوية تكشف عن سر الجمال والإيجاز في هذا الحديث النبوي الواضح المشع بكثير من التوجيهات والإرشادات النبوية البليغة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من أساليب التربية: التحذير:

أسلوب التحذير من أساليب التربية التي يستعين بها المربي للتحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم مما يدفع باتجاه الاستعداد لتجنب حصول ذلك[1].

وقد ورد التحذير في هذا الباب في تحذير النبي ﷺ من اصطحاب كلب أو جرس في رفقة، لأن ذلك يمنع من مرافقة الملائكة لهم، فقال: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس».

وبيّن ﷺ أن الجرس مزامير الشيطان.

ووجود الملائكة في أي مكان أو مع أي رفقة يكون سببًا لوجود الخير ووجود البركة وحلول الرحمة، ودفع الضرر والأذى فينبغي للمربي تحذير من يقوم بتربيتهم من اصطحاب أو اقتناء الأشياء التي تمنع وجود الملائكة معهم أو في بيوتهم.

وتتجلى بوضوح أهمية هذا الأمر في هذا الزمان الذي أصبح فيه اقتناء الكلاب واصطحابها صورة من صور التمدن والرفاهية محاكاة للغرب، وأصحاب العقول الخربة، والنفوس المريضة، وكذلك وجود آلات الزمر والطرب في كل مكان والتي هي مزامير للشيطان، بل يصل الأمر إلى التباهي بوجودها وتعلمها، واستخدامها في حين أنها مخالفة لتعاليم الدين، مسببة لعدم وجود الملائكة، فعلى المربين والآباء تحذير الأبناء وخاصة الذين ينجرفون وراء التقليد الأعمى، دون أن يعلموا أحكام الدين، لأنه يجب على المسلم أن يحافظ على قيمه ومبادئه، وأن يربي أبناءه عليها، كما يجب على القائمين على التربية والتوجيه أن يبينوا أهمية الحرص على السلوكيات والممارسات التي تتفق مع مبادئ الإسلام وتكون سببًا في استجلاب رحمة الله تعالى، فما أحوج الإنسان في كل لحظة إلى رحمة الخالق سبحانه.



---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ص٢٤٩.

٣٠٨- باب كراهة ركوب الجَلاَّلة
وهي البعير أو الناقة التي تأكل العَذِرَة
فإنْ أكلت علفاً طاهراً فطاب لَحمُهَا، زالت الكراهة

الحديث رقم (١٦٩٤)

١٦٩٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: نهَى رسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الجَلاَّلَةِ في الإبلِ أنْ يُرْكَبَ عَلَيْهَا. رواه أبو داود[١] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الجلالة: أي التي تأكل العذرة، ونحوها من الجِلّة والبعر[٢].

الشرح الأدبي

إن للإبل، في حياة العرب والمسلمين دوراً رئيساً ومؤثراً: فهي سفن الصحراء، وهم يتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وخصها الحق سبحانه وتعالى بإرشاد الناس جميعاً إلى التأمل في خلقها، والسعي إلى اكتشاف أسرار قدرة الله تعالى فيها، وفي الفوائد التي يجنيها الناس من أكل لحومها، وشرب ألبانها، وكل ما تختزنه من أسرار وفوائد. تظهر للناس كلما تقدم العلم، واكتشف العلماء الأسرار الكثيرة الكامنة في خلق الإبل، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٣].

وهذا الحديث يدعو إلى المحافظة على الإبل، وإلى الحرص على أن يكون طعامها من مصدر طيب، وهذه الدعوة جاءت في نهي صريح عن ركوب الإبل التي تأكل

---

(١) برقم (٢٥٥٨).

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء ١٤٤.

(٣) سورة الغاشية، آية: ١٧.

العذرة، وهي: الروث، والخرء، وغيرهما من النجاسات، وإذا كان النهي عن ركوب هذه الإبل التي قال عنها رسول الله ﷺ "الجلالة" لأنها تأكل النجاسات، فإن النهي عن لحومها يكون أشد، لأن لحمها سيفقد فوائده العديدة، ولبنها لن يكون صالحاً للشرب، والإفادات الكثيرة التي تشفى كثيراً من الأمراض، كما أفاد بذلك العلماء المتخصصون في مجال الأدوية والأغذية، وغير ذلك.

وفي الحديث تصريح وتلميح: فأما التصريح فهو يتمثل في منطوق الحديث، وهو: النهي عن ركوب الإبل التي تأكل النجاسات، وأما التلميح: فهو مفهوم الحديث وهو النهي عن أكل لحوم الإبل المتصفة بذلك: لأن اللحم لم يعد طيباً، وفي اللغة: كما جاء في القاموس المحيط: الجلالة: البقرة تتبع النجاسات، والجلَّة: مثلثة، هي البعر أو للبعرة، فالجلالة: صفة مرتبطة بالغذاء الذي تأكله الإبل.

وفي هذا النهي: الصريح والخفي، حرص من رسول الله ﷺ على المؤمنين، وعلى صحة أبدانهم، وطهارة نفوسهم وقلوبهم، وقوة أجسادهم، والمحافظة على بيئتهم وحيواناتهم، وأطعمتهم، ولا غرو فهو بالمؤمنين رءوف رحيم، ﷺ.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة ركوب الجلالة من الدواب[١]، فلا يحج عليها ولا يعتمر ولا يغزُ، ولا ينتفع بها فيما سوى ذلك[٢].

ولعل السبب في كراهة ركوب الجلالة، أنها ربما عرقت، فيتأذى راكبها بذلك إذ قد يصيبه شيء من عرقها[٣].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٤٠/٥، والتمهيد لابن عبدالبر ١٨٢/١٥، والمجموع للنووي ٣٢٥/٤، وفتح الباري ٦٤٨/٩، المبدع ٢٠٤/٩، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٥/١، والمغني لابن قدامة ٢٣٠/٩.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٤٠/٥.

(٣) البدائع ٤٠/٥، وعون المعبود ١٦٣/٧، ونيل الأوطار ٢٩٣/٨، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٤٧/٥، والمغني لابن قدامة ٢٣٠/٩، وكشاف القناع ١٩٤/٦.

وقد حمل جمهور الفقهاء[١] هذه الكراهة على أنها كراهةٌ تنزيهية.

وحملها بعض الشافعية[٢]، وأحمد في رواية[٣]، والظاهرية على التحريم[٤]، حتى إن ابن حزم قد ذهب إلى أن الحاج لو وقف بعرفات راكباً جلالة لم يصح حجة إن كان عالماً.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور.

ومحل الكراهة إذا كانت لا تخلط، بأن كانت لا تأكل إلا العذرة، والجيف، أما إذا خلطت بأن كانت تأكل العذرة وغيرها، فليست جلالة، وبالتالي لا يكره ركوبها[٥].

وكذا الحال لو حبست أياماً[٦].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب ركوب الجلالة من الإبل بلا حائل.

ثالثاً: من آداب المدعو: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

النهي من الأساليب الدعوية التي تعين الداعية على إرشاد المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه صلاح لهم وخير في الدنيا والآخرة، وهذا ما ورد في الحديث من نهيه ﷺ عن ركوب الجلالة، وذلك من قول ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة في الإبل أن يركب عليها.

---

(١) البدائع ٥/٤٠، والتمهيد ١٥/١٨٢، وفتح الباري ٩/٦٤٨، والمبدع ٩/٢٠٤.

(٢) فتح الباري ٩/٦٤٨.

(٣) المبدع ٩/٢٠٤.

(٤) المحلى ٧/١٨٧، وايضاً: سبل السلام ٤/٧٧.

(٥) البدائع ٥/٤٠.

(٦) التمهيد لابن عبدالبر ١٥/١٧٩، وعون المعبود ١٠/١٨٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب ركوب الجلالة من الإبل بلا حائل:

هذا ما نص على الحديث في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة في الإبل أن يركب عليها".

"والجلالة: "الدابة التي تتبع النجاسات وتأكل الجلة، وهي البعرة والعذرة. وأصله من جل فلان البعر جلا التقطه فهو جال، وجلال مبالغة ومنه الجلالة، والمراد بالجلالة على ما نص الشافعية: كل دابة علفت بنجس ولو من غير العذرة، كالسخلة التي ارتضعت بلبن نحو كلبة أو أتان"(١).

"وقد كره رسول الله ﷺ ركوب الجلاَّلة بلا حائل، وذلك لنص حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كما نهى ﷺ عن أكل لحومها، لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عنْ أكْلِ الْجَلاَّلَةِ وألْبَانِهَا»(٢).

وقال رضي الله عنه: "نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة في الإبل: أن يركب عليها، أو يشرب من ألبانها"(٣)"(٤)، وفي بيان العلة من ذلك قال الخطابي: "... ويقال إن الإبل إذا اجتلت أنتن روائحها إذا عرقت، كما تنتن لحومها"(٥).

"ومن أجل ذلك يكره ركوب الجلالة إن ظهر النتن في عرقها، تحاشياً للمرء عن الرائحة الخبيثة، كما أنه يكره ذبحها للأكل حتى تحبس أياماً تطعم فيها الطعام النظيف، ليذهب أثر الطعام النجس من لحمها، ويقدر أهل الخبرة عدد هذه الأيام"(٦).

ثالثاً- من آداب المدعو: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَمَآ

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٦٠/١٥ ومصادرها.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٧٨٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢١٥).

(٣) أخرجه أبو داود ٣٧٨٧، وقال الألباني: حديث صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٢١٧).

(٤) الموسوعة الفقهية، ٢٦٢/١٥، ومصادرها.

(٥) معالم السنن ٣٨٩/٣، ٣٩٠.

(٦) الموسوعة الفقهية الميسرة، د.محمد رواس قلعه جي، ٦٣٦/١.

ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[١]، قال ابن كثير: أي: "مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهي عن شر"[٢].

وقال السعدي: (وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ، يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول ﷺ على حكم شيء، كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله)[٣]، وقد أمر النبي ﷺ بذلك فقال: «... فإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[٤]. "واتباع أمر النبي ﷺ أمر واجب وفرض عين على الأمة كلها في عسرها ويسرها ومنشطها ومكرهها، ولا يصير المسلم مسلماً حتى يتبع الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله حسب علمه واستطاعته"[٥]، ومن مظاهر اتباع النبي ﷺ الانتهاء عما نهى عنه ﷺ.

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٦٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٧٨٩.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، ومسلم ١٣٣٧.

(٥) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف عثمان، ١٢٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على النظافة:

إن الإسلام دين النظافة، فهو يدعو إلى تربية المسلمين على الطهارة، وتنفيرهم من القاذورات والنجاسات[١].

لذا ورد في حديث الباب نهي رسول الله ﷺ عن ركوب الجلالة في الإبل لأنها تأكل النجاسات والقاذورات.

ومما يدل على حرص الإسلام على النظافة: أنه كره أكل الطيور التي تأكل النجاسات ما لم تُحبس وتأكل طاهرًا، وذلك لأن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وجه الإسلام إليها عناية فائقة، واعتبرها من صميم رسالته، ولن يكون الشخص راجحًا في ميزان الإسلام، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهذيب، وكان في مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيدًا عن الأدران المكدرة والأحوال المنفرة، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحًا ماديًا فقط، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس، وتمكين الإنسان من النهوض بأعباء الحياة، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم الجلد والبدن القوي الصبور[٢].

كرم الإسلام البدن، فجعل طهارته التامة أساسًا لابد منه لكل صلاة، وجعل الصلاة واجبة خمس مرات في اليوم، وكلف المسلم أن يغسل جسمه كله غسلاً جيدًا في أحيان كثيرة تلابسه غالبًا، وتلك هي الطهارة الكاملة، وفي الأحوال المعتادة اكتفى بغسل الأعضاء والأطراف التي تتعرض لغبار الجو، ومعالجة شتى الأشغال، أو التي يكثر الجسم إفرازاته منها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾[٣].

---

(١) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ١٨٩/٢.

(٢) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص١٤٨، ١٤٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

فعلى المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى الاهتمام بالنظافة، والبعد عن النجاسات والقاذورات التي نبه الإسلام على البعد عنها حتى لا تكون مصدرًا للعلل والجراثيم والأوبئة.

فإن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية، فهو يتطلب أجسامًا تجري في عروقها دماء العافية، ويمتلئ أصحابها فتوة ونشاطًا.

فإن الأجسام المهزولة لا تطيق عبئًا، والأيدي المرتعشة لا تقدم خيرًا، ومن أجل ذلك حارب الإسلام المرض، ووضع العوائق أمام جراثيمه حتى لا تنتشر، فينتشر معها الضعف والتراخي، والتشاؤم، وتستنزف فيها قوى البلاد والشعوب.

وقد وفر الإسلام أسباب الوقاية بما شرع من قواعد النظافة الدائمة[1].

والنظافة ليست خيرًا ماديًا ينعكس على سلامة الجسد وحسب، ولكن لإجراءات الطهارة والنظافة مغزاها، كما يشهد بذلك كثير من شعائر الدين الإسلامي، فالنظافة الظاهرة والباطنة تهدف أن يكون ظاهر المؤمن كباطنه نظيفًا، فالأمر هنا ليس متعلقًا بالذوق الجميل السليم وحده أو لعدم نفور الناس فقط، وليس متعلقًا بالصحة وحدها حتى يبقى المسلم صحيحًا قويًا، ولكنها تتصل بجوهر هام، يكاد أن يكون المحور الذي تدور حوله، ففي النظافة مظهر من مظاهر الإخلاص لمثل الطهر الأعلى وإقرار بالتفوق الإنساني على سائر المخلوقات[2].



(١) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص١٤٩-١٥٤.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د/عبدالجواد سيد بكر، ص٢٧٨.

٣٠٩- باب النهي عن البصاق في المسجد والأمر بإزالته منه إذا وجد فيه والأمر بتنـزيه المسجد عن الأقذار

الحديث رقم (١٦٩٥)

١٦٩٥- عن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: (((**البُصاقُ**)[1] **فِي المَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا**)) متفق عليه[2].

والمرادُ بِدَفْنِهَا إذَا كَانَ المَسْجِدُ تُرَاباً أوْ رَمْلاً ونَحْوَهُ، فَيُوَارِيهَا تَحْتَ تُرَابِهِ. قالَ أبُو المحاسِنِ الرُّويَانِي مِنْ أصحابنا في كِتَابِهِ " البحر" وقِيلَ: المُرَادُ بِدَفْنِهَا إخْرَاجُهَا مِنَ المَسْجِدِ، أمَّا إذَا كَانَ المَسْجِدُ مُبَلَّطاً أَوْ مُجَصَّصاً، فَدَلَكَهَا عَلَيْهِ بِمَدَاسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثيرٌ مِنَ الجُهَّالِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْنٍ، بَلْ زِيَادَةٌ فِي الخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ لِلقَذَرِ فِي المَسْجِدِ، وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أنْ يَمْسَحَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَوْبِهِ أَوْ بِيَدِهِ أَوْ غَيرِهِ أَوْ يَغْسِلَهُ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

البصاق: ماء الفم إذا خرج منه[3].

كفَّارتُها: مَحْوُها وسَتْرُها ومغفرتُها[4].

الشرح الأدبي

إن للمسجد حرمته في الإسلام، فهو ملتقى جموع المسلمين، وهو مهوى أفئدة

---

(١) عندهما بلفظ: (البزاق)، والمثبت لفظ النسائي في المجتبى (٧٢٣)، وكذا عند المنذري، فتبعه عليه المؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥)، ومسلم (٥٥/٥٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٦).

(٣) القاموس في (ب ص ق).

(٤) النهاية في (ك ف ر).

المؤمنين، فيه يناجون ربهم، وإليه يبتهلون خاشعين، ويقعون بين يدي خالقهم راكعين ساجدين، يفتتحون صلاتهم بالتكبير، ويختمونها بالتسليم.

وهذا الحديث تحذير لكل مسلم أوَّاب، من إلحاق الأذى بالمصلين، وعدم الحرص على نظافة المساجد، وذلك بإلقاء القاذورات والفضلات التي تسبب الروائح الكريهة، وتنشر الجراثيم والأوبئة، فالمساجد بيوت الله تعالى. وكيف لمسلم أن يدنس مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى، وتقام فيه الصلوات وتستجاب فيه الدعوات، وتغدو الملائكة وتروح، والمؤمنون يصلون، وعلى ربهم يتوكلون.

وهذا التحذير النبوي يرد في جملتين اسميتين خاليتين من أدوات التوكيد، وألفاظه، لأن ما ذكره رسول الله ﷺ قاعدة شرعية ثابتة: لا مجال فيها للمراد ولا للشك ولا للإنكار، والجملتان اسميتان أولاهما: تشخص المشكلة، وتحدد الخطيئة وهي: "البصاق في المسجد خطيئة"، وثانيهما: تحل المشكلة... وتفتح الطريق للتوبة.. والتطهر من هذه الخطيئة؛ حيث قال الصادق الأمين "وكفارتها دفنها"، وتكفير دوام إثم هذه الخطيئة : دفنها، أي محو آثارها عن طريق الدفن في أرض المسجد إذا كانت أرضه غير مبلطة أو مفروشة بالسجاد وغيره، أو إخراجها من المسجد بأي وسيلة من وسائل النظافة التي تطورت في العصر الحديث.

واختيار لفظ "الكفارة" في هذا السياق يوحي بأن عدم نظافة المسجد معصية تحتاج إلى كفارة، والكفارة لا تكون إلا للتطهر والتخلص من المعصية والذنب، ولفظ "دفنها" فيه إيجاز: واستعارة تصريحية، لأنه شبه هذه القذارة بأنه مثل جثمان الميت الذي يتحلل ويتعفن، وتنتشر رائحته الكريهة المؤذية، ولابد من دفنه، والسياق هنا يحتم ذلك حتى لا تنتشر العدوى بين الناس، وحتى تظل المساجد نظيفة عامرة بالمؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: تحريم البصاق[١] ونحوه، كنخام في المسجد، وذلك لوجوب صيانة المسجد، وتنزيهه عن الأقذار، وإن بدره أو غلبه البصاق بصق في طرف ثوبه[٢].

أما من بصق في المسجد فقد ارتكب المحرم، وعليه أن يدفنه. وقد اختلفوا في دفنه: فالمشهور أن يدفنه في تراب المسجد، ورمله إن كان له تراب، أو رمل أو نحوهما فإن لم يكن أخذه بعود، أو خرقة أو نحوهما، أو بيده، وأخرجه من المسجد.

وقيل: المراد بالدفن إخراجها من المسجد مطلقاً، ولا يكفي دفنها في ترابه[٣].

وواضح من كلام الفقهاء أنهم يتكلمون عن المساجد في زمانهم، حيث كانت مفروشة، بالرمل، أو التراب، أما المساجد في هذا الزمان فقد أصبحت مبلطة مفروشة بفرش نظيفة، تتأثر بالوسخ والقذر، ويظهر فيها أثر النخامة والبصاق، وغير ذلك.

وعلى ذلك يتعين القول بمنع ذلك مطلقاً، سواء على الأرض، أو على الفرش، أو على الحيطان، فمن غلبه ذلك، فعليه أن يخرج من المسجد، ويفعل ذلك بالخارج، أو يبصق في منديله، أو حتى في طرف ثوبه، وذلك حتى يبقى المسجد نظيفاً[٤].

ويجب على من رأى من يبصق في المسجد الإنكار عليه بشرطه[٥].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٧/٢، وحاشية ابن عابدين ٦٦١/١، وحاشية الدسوقي ٢٣٤/١، ومواهب الجليل ١١٥/٢، والمجموع للنووي ١١١/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٩١/١، وفتح الوهاب للأنصاري ٩٣/١، وفتح المعين للمليباري ١٩٢/١، والمبدع ٤٨٩/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ١٠٢/٢، والكافي ١٧٣/١، وكشاف القناع ٣٨١/١.

(٢) فتح الوهاب ٩٣/١- ٩٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٩١/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ١٠٢/٢، والكافي لابن قدامة ١٧٣/١.

(٣) المجموع للنووي ١١١/٤- ١١٢.

(٤) في هذا المعنى: فصول ومسائل تتعلق بالمسجد لعبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، ص ٢٨، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

(٥) المجموع ١١٢/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٩١/١.

المضامين الدعوية[(١)]

أولاً: من ميادين الدعوة: المسجد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تنزيه المسجد عن الأقذار والعمل على نظافته.

ثالثاً: من واجبات الداعية: موافقة عمله قوله.

رابعاً: من أهداف الدعوة: تهيئة المساجد للعبادة.

أولاً- من ميادين الدعوة: المسجد:

هذا واضح من ذكر المساجد في الأحاديث الثلاثة، والمسجد هو "المكان المهيأ للصلوات الخمس"[(٢)]، والمسجد له أهمية كبرى في الدعوة إلى الله، يدل على هذا أن رسول الله ﷺ: "بادر إلى بناء المسجد، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا.... وتم المسجد في حدود البساطة فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح. هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربى ملائكة البشر ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبيٍّ يؤم بالقرآن خيرة من آمن به، أن يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل.

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام، لكن الناس، لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة، استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مصلين أقزاماً، أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٩٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٩٦، ١٦٩٧).

(٢) الموسوعة الفقهية ١٩٤/٣٧.

والمسجد الذي وجه الرسول ﷺ همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها، فالأرض كلها مسجد، والمسلم لا يتقيد في عبادته بمكان. إنما هو رمز لما يكترث له الإسلام أعظم اكتراث ويتشبث به أشد تشبث، وهو وصل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن، ويتكرر مع آناء الليل والنهار، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد، وتجهل اليوم الآخر، وتخلط المعروف بالمنكر. والحضارة التي جاء بها الإسلام تذكّر أبداً بالله وبلقائه، وتمسك بالمعروف وتبغض في المنكر وتقف على حدود الله"[1].

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (قد أقبل رسول الله ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة المنورة واستقراره فيها، على إقامة مجتمع إسلامي راسخ متماسك، يتألف من هؤلاء المسلمين الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه...)[2].

وقال عبدالله البسام: "وكانت المساجد زمن عز الإسلام وقوته منارة العلم ومثابة العلماء، فيها تزدحم الحلقات، وتلقى المحاضرات، وتعقد الندوات، وتسمع المناظرات والمساجلات. فكان المسجد هو الأساس في الإسلام فقد كان من رسالته:

أولاً: إنه مكان للعبادات وإقامة الشعائر، فكان المسلمون يتلاقون فيه يجتمع قويهم بضعيفهم، وغنيهم بفقيرهم، وعالمهم بجاهلهم، فكان المحرومون من هذه المواهب يتلقونها ويأخذونها ممن من الله عليهم بها من إخوانهم العلماء والأقوياء والأغنياء والعقلاء.

ثانياً: كان المسجد هو الجامعة العلمية الذي تلقى فيه الدروس، وتعقد فيه

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي، ١٧٧- ١٧٨.

(٢) فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة ٢١٣- ٢١٤.

الحلقات، فتجد علماء الشريعة وعلماء اللغة وعلماء الاجتماع، وتجد الوعاظ والمرشدين والموجهين، فيخرج التلميذ من المسجد عالماً تقياً زكياً حمل العلم الشرعي، وتحلى بالسلوك الإسلامي، فأخذ العلم شريعة وحقيقة وطريقة.

ثالثاً: كانت تعقد في المسجد رايات الجهاد، ويعين فيه القواد وتجهز الجيوش، وتتلقى أخبار الفتوح والانتصارات فتبلغ المسلمين من أعواد منابر المساجد.

رابعاً: كان المسجد كل شيء في حياة المسلمين، ذلك أن أساس حياتهم كانت قائمة على الدين، وكانت أمورهم تسير وفق أحكام الإسلام، ولما فصلوا الإسلام عن الحياة، وقصروه على العبادات، وأبعدوه عن مجال الحياة والسياسة ضعف أمر المسجد وهان شأنه، واستخف بمقامه، وصار لا ينتابه إلا الطبقة المحرومة من الجاه والمال والثقافة العصرية التي صار لها الشأن الأكبر في الأوساط العلمية، فهانوا وضعفوا.

فانصراف المسلمين عن المسجد وبعدهم عنه واستخفافهم بأمره وبعدهم عن القيام برسالته، والتخلي عن دوره، هو الذي حط من قدرهم، وهو الذي قلل من شأنهم، وهو الذي فرقهم فأضعفهم، فإذا كانوا يريدون العزة وإذا كانوا يرجون السيادة فليعيدوا إلى المسجد رسالته، وليهتموا بأمره، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والله من وراء القصد وهو المستعان"[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تنزيه المسجد عن الأقذار والعمل على نظافته:

هذا واضح من قول النبي ﷺ كما في حديثى أنس وفي فعله ﷺ كما في حديث عائشة، وقد كان النبي ﷺ: يغضب عندما يرى شيئاً يقذر المسجد، قال أنس: إن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رؤى في وجهه، فقام فحكه بيده فقال: إن أحدكم إذا قام في صلاته، فإنه يناجي ربه، أو إن ربه بينه وبين القبلة، فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه، ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض فقال: أو يفعل هكذا"[2].

---

(١) توضيح الأحكام ٥١٨/١، ٥١٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤٠٥، واللفظ له، ومسلم ٥٥١.

قال ابن حجر: "قوله (حتى رؤى)، أى شوهد في وجهه المشقة، وللنسائي[1] فغضب حتى احمر وجهه، وللمصنف[2] في الأدب من حديث ابن عمر: "فتغيظ على أهل المسجد"[3].

ولهذا كان يثني النبي ﷺ على من يزيل النخامة من المسجد، فقال أنس بن مالك رضي الله عنه: رأى رسول الله ﷺ نخامة في قبلة المسجد فغضب حتى احمر وجهه، فقامت امرأة من الأنصار فحكتها وجعلت مكانها خلوقاً، فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا"[4].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون ابن طاب، فرأى في قبلة المسجد نخامة فحكها بالعرجون، ثم أقبل علينا، فقال: أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟ قال: فخشعنا ثم قال: أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟ فخشعنا، ثم قال: أيكم يحب أن يُعْرِض الله عنه؟ قلنا: لا أينا يارسول الله. قال: فإن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه، فلا يبصقن قبل وجهه ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هذا، ثم طوى ثوبه بعضه على بعض، فقال أروني عبيراً فقام فتى من الحي يشتد إلى أهله، فجاء بخلوق في راحته، فأخذه رسول الله ﷺ فجعله على رأس العرجون ثم لطخ به على أثر النخامة، فقال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم[5].

قال النووي: "الخلوق -بفتح الخاء- هو طيب من أنواع مختلفة يجمع بالزعفران وهو العبير على تفسير الأصمعي وهو ظاهر الحديث فإنه أمر بإحضار عبير فأحضر خلوقاً فلو لم يكن هو هو لم يكن ممتثلاً. وقوله: (يشتد) أي يسعى ويعدو عدواً شديداً. وفي هذا الحديث تعظيم المساجد وتنزيهها من الأوساخ ونحوها، وفيه استحباب تطييبها،

---

(١) أخرجه النسائي ٧٢٨، وابن ماجه٧٦٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري ٦١١١، وفيه "فتغيظ"فقط وليس فيه "على أهل المسجد"..

(٣) فتح الباري ١/٦٠٥ ط الريان.

(٤) أخرجه النسائي ٧٢٨، وابن ماجه ٧٦٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٦١٦).

(٥) أخرجه مسلم ٣٠٠٨.

وفيه إزالة المنكر باليد لمن قدر وتقبيح ذلك الفعل باللسان"[١].

كما قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ. وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ»[٢].

قال النووي: "هذا ظاهره أن القبح والذم لا يختص بصاحب النخاعة، بل يدخل فيه هو وكل من رآها لا يزيلها بدفن أو حك ونحوه"[٣].

وقد قال النووي عن البزاق في المسجد: "واعلم أن البزاق في المسجد خطيئة مطلقاً سواء احتاج إلى البزاق أو لم يحتج بل يبزق في ثوبه، فإن بزق في المسجد فقد ارتكب الخطيئة وعليه أن يكفر هذه الخطيئة بدفن البزاق، هذا هو الصواب أن البزاق خطيئة كما صرح به رسول الله ﷺ. وقال القاضي عياض[٤] فيه كلام باطل حاصله أن البزاق ليس بخطيئة إلا في حق من لم يدفنه، وأما من أراد دفنه فليس بخطيئة، واستدل له بأشياء باطلة. فقوله هذا غلط صريح مخالف لنص الحديث ولما قاله العلماء نبهت عليه لئلا يغتر به"[٥]. وقال ابن حجر: "وحاصل النزاع أن هنا عمومين تعارضا، وهى قوله" البزاق في المسجد خطيئة"، وقوله: "وليبصق عن يساره أو تحت قدمه". فالنووي يجعل الأول عاماً ويخص الثاني به إذا لم يكن في المسجد، والقاضي بخلافه يجعل الثاني عاماً ويخص الأول لمن لم يرد دفنها، وقد وافق القاضي جماعة ... ويشهد له ما رواه أحمد بإسناد حسن من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً قال: "من تنخم في المسجد فليغيب نخامته أن تصيب جلد مؤمن أو ثوبه فتؤذيه"[٦]. وأوضح منه في المقصود ما رواه أحمد أيضاً والطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة مرفوعاً. قال: "من تنخع في

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٢/١٨/٩ .

(٢) أخرجه مسلم ٥٥٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ٤٢/٥/٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٨٤/٢، ٤٨٥.

(٥) شرح صحيح مسلم ٤٠/٥/٣- ٤١.

(٦) أخرجه أحمد ١٧٩/١ رقم ١٥٤٣، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١٢٢/٣.

المسجد فلم يدفنه فسيئة، وإن دفنه فحسنة"[١]. فلم يجعل سيئة إلا بقيد عدم الدفن، ونحوه حديث أبي ذر عند مسلم مرفوعاً، قال: "وجدت في مساوئ أعمال أمتي النخاعة تكون في المسجد لا تدفن"[٢]، قال القرطبي[٣]: فلم يثبت لها حكم السيئة لمجرد إيقاعها في المسجد بل به وبتركها غير مدفونة انتهى"، وروى سعيد بن منصور عن أبي عبيدة بن الجراح أنه تنخم في المسجد ليلة فنسى أن يدفنها حتى رجع إلى منزله فأخذ شعلة من نار ثم جاء فطلبها حتى دفنها ثم قال: الحمد لله الذي لم يكتب على خطيئة الليلة. فدل على أن الخطيئة تختص بمن تركها لا بمن دفنها. وعلة النهي ترشد إليه وهي تأذي المؤمن بها. ومما يدل على أن عمومه مخصوص جواز ذلك في الثوب ولو كان في المسجد بلا خلاف. وعند أبي داود[٤] من حديث عبدالله بن الشخير «أنه صلى مع النبي ﷺ فبصق تحت قدمه اليسرى ثم دلكه بنعله» إسناده صحيح وأصله في مسلم[٥]. والظاهر أن ذلك كان في المسجد فيؤيد ما تقدم. وتوسط بعضهم فحمل الجواز على ما إذا كان له عذر كأن لم يتمكن من الخروج من المسجد والمنع على ما إذا لم يكن له عذر وهو تفصيل حسن"[٦].

وقال ابن عثيمين عن المساجد المعاصرة: "أما مساجدنا الآن فكما ترون مفروشة كفارة ذلك أن يمسحها بمنديل حتى تزول"[٧].

ثالثاً- من واجبات الداعية: موافقة عمله قوله:

فالنبي ﷺ نهى عن البصاق في المسجد وأخبر أنه خطيئة كما أخبر أن كفارتها

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٢٣/٣٦، والطبراني في الكبير ٨٠٩١- ٨٠٩٤، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.

(٢) أخرجه مسلم ٥٥٣.

(٣) المفهم ١٦١/٢.

(٤) أخرجه أبي داود ٧٨٣، وانظر تتمة تخريجه في صحيح ابن حبان، رقم ٢٢٧.

(٥) صحيح مسلم ٥٥٤.

(٦) فتح الباري ٦١٠/١، ط الريان.

(٧) شرح رياض الصالحين ١٧٦٤/٢.

دفنها، كما قال ﷺ: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر"، ولم يكتف بهذا ﷺ فقط، بل إنه ﷺ أيضاً لما رأى في جدار القبلة ما يقذر من مخاط ونحوه أزاله بأن حكه، ولاشك أن هذا يعطي الدعاة صورة لما ينبغي أن يكونوا عليه من أن يوافق عملهم قولهم، وكثيرة هى الأحاديث التي أخبرت أن النبي ﷺ أزال من المسجد ما يستقذر من بزاق ونحوه[1]، من ذلك حديث عبدالله بن الشخير رضي الله عنه، قال: صليت مع رسول الله ﷺ فرأيته تنخع، فدلكها بنعله[2]، ومن ذلك أيضاً قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ تعجبه العراجين يمسكها بيده، فدخل يوماً المسجد وفي يده منها واحدة، فرأى نخامة في قبلة المسجد، فحتها به حتى أنقاها ثم أقبل على الناس مغضباً...[3].

قال ابن حجر: "وفي الأحاديث المذكورة من الفوائد الندب إلى إزالة ما يستقذر أو يتنزه عنه من المسجد، وتفقد الإمام أحوال المساجد وتعظيمها وصيانتها"[4].

"إن سيرته ﷺ الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر، ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعدما أوحى إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به: فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة، لأنه لم تكن تمض عليه ساعة من نهار أو ليل إلا وهو يذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه، فكان لسانه رطباً بذكر الله لا يفتر عنه طرفة عين، فإذا أكل أو شرب ذكر اسم الله، وإذا فرغ من ذلك حمد الله، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله، وإذا نهض أو جلس سبح الله أو حمده، وإذا لبس جديداً شكر الله، حتى إن أذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه في مختلف الأحوال شغلت حيزاً واسعاً من كتب الحديث... ومن قرأ هذه الأدعية يقضي العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحب

---

(١) انظر صحيح البخاري، الأحاديث: ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٤، وصحيح مسلم، الأحاديث: ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٤، وصحيح ابن حبان، الأحاديث: ٢٢٦٥- ٢٢٧١.

(٢) أخرجه مسلم، ٥٥٤.

(٣) أخرجه ابن حبان، ٢٢٧٠، وقال محققه: إسناده حسن، وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٤) فتح الباري، ٦١٢/١، ط الريان.

الله ويخشاه ويهاب جلاله، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصالحين: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[١]، وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ كان يذكر الله ولا يغفل عن ذكره أبداً[٢].

وأمر الناس بالصلاة وحضهم على إقامتها والمحافظة عليها أشد المحافظة، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره؟ إنه ﷺ كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها أكثر من غيره ... كان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم، وكان هو ﷺ يصلي في اليوم والليلة خمسين إلى ستين ركعة من المكتوبة، والنوافل ..."[٣].

وروى مسلم أنه ﷺ: لما نهى عن الربا في خطبة حجة الوداع قال: ((وأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانا، ربا عباسِ بنِ عبدِ المطلبِ، فإنه موضوع كله))[٤].

وروى البخاري ومسلم، أنه ﷺ قال: حين شفع عنده في حد السرقة: ((وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))[٥].

(فهذا منه ﷺ ظاهر في المحافظة على مطابقة الفعل للقول بالنسبة إليه وإلى قرابته، وهكذا ينبغي لمن تصدى لدعوة الناس، فهذا أمر مطلوب من الداعية، إذ هو علامة صدقة في دعوته؛ وهو السبيل لوضع البركة في قوله وتيسير قبوله في نفوس مستمعيه)[٦].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٢) أخرجه مسلم ٣٧٣ بلفظ: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه.

(٣) الرسالة المحمدية: السيد سليمان الندوي، مكتبة دار الفتح بدمشق، ط٣، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ١٧١-١٧٢، وانظر تتمة كلامه النفيس هناك.

(٤) أخرجه مسلم ١٢١٨.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨.

(٦) المفتي في الشريعة الإسلامية: الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعة، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨، دون بيانات أخرى، ٣٠-٣٢، بتصرف.

رابعاً- من أهداف الدعوة: تهيئة المساجد للعبادة:

هذا واضح من قول ﷺ "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله تعالى وقراءة القرآن"، وهذا الحديث فيه قصة: قال أنس: ((بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ: مَهْ مَهْ[1]. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لاَ تُزْرِمُوهُ[2]. دَعُوهُ فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ. إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ))[3].

قال النووي: "فيه احترام المسجد وتنزيهه عن الأقذار ... وفيه صيانة المساجد وتنزيهها عن الأقذار والبصاق، ورفع الأصوات والخصومات والبيع والشراء وسائر العقود، وما في معنى ذلك"[4]. أى صونها عن كل ما يشغل المصلين عن الصلاة، وصيانتها عن كل ما يعوق تعميرها بالعبادة والطاعة. ولهذا فإن رسول الله ﷺ أمر ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب[5]. وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها في دورنا ونصلح صنعتها ونطهرها[6].

وقد قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[7]، قال ابن كثير: "أمر الله تعالى برفعها أى بتطهيرها من الدنس واللغو والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ... وقال قتادة: هذه هى المساجد أقر الله

---

(١) هى كلمة زجر، ومعناه: اسكت، شرح مسلم النووي ١٩٦/٣/٢، ط دار عالم الكتب.

(٢) أي لا تقطعوا عليه بوله، النهاية في غريب الحديث، ص ٣٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٥.

(٤) شرح مسلم ١٩٤/٣/٢، ط دار عالم الكتب.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٥٥، والترمذي ٥٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٦).

(٦) أخرجه أبو داود ٤٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٧).

(٧) سورة النور، آية: ٣٦.

سبحانه ببنائها ورفعها وأمر بعمارتها وتطهيرها ... وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها"(١)، وقال القاسمي: "قال السيوطي في الإكليل، في هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهها عن اللغو والقاذورات، وفيها استحباب ذكر الله والصلاة في المساجد"(٢).

كما رغب سبحانه في عمارة المسجد بأن أثبت لمن فعل ذلك الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٣).

قال أبو عبدالله القرطبي: "قد أثبت الإيمان في الآية لمن عمّر المساجد بالصلاة فيها وتنظيفها وإصلاح ما وَهى منها"(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٦٢.

(٢) محاسن التأويل ١٢/٢١٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/٨/٩٠.

الحديث رقم (١٦٩٦)

١٦٩٦- وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رَأَى في جِدَارِ القِبْلَةِ مُخَاطاً، أَوْ بُزَاقاً، أَوْ نُخَامَةً، فَحَكَّهُ. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

مُخاطاً: ما يسيل من الأنف[٢].

بزاقاً: هو البصاق وهو ماء الفم إذا خرج منه[٣].

نخامة: ما يدفعه الإنسان من صدره أو أنفه من بلغم ونحوه[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث تطبيق عملي لما ورد النهي عنه في الحديث السابق: فالبصاق في المسجد خطيئة: ورسول الله ﷺ في هذا الحديث رأى تلك الخطيئة التي لم يدفنها صاحبها، وذلك منكر تجب إزالته، ويجب تغييره، ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة، وكل أفعاله وأقواله سنن مأثورة يجب التأسي بها: ولذلك قام بتغيير هذا المنكر بيده الشريفة في تواضع جم. ومحبة لله تعالى ولدينه، وحرص على طهارة المسجد ونظافته.

والحديث ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: وتبدأ الحديث بالتوكيد حيث قالت: "أن رسول الله" حتى لا يتشكك أي سامع أو متلق في الخبر، وحتى لا يستغرب البعض ذلك: ويتساءل في دهشة، كيف يقوم رسول الله بذلك، وهو نبي الأمة، وخاتم الأنبياء: ودفعاً لهذه الخواطر التي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٥٤٩).

(٢) مختار الصحاح في (م خ ط).

(٣) القاموس المحيط في (ب ز ق).

(٤) معجم لغة الفقهاء ٤٤٦١.

يمكن أن تخالط تفكير بعض الناس: أكدت عائشة رضي الله عنها الخبر.. لإزالة أي لبس، وأي طائف من الإنكار والشك، والتعبير بقولها: رأى في جدار القبلة مخاطاً أو بزاقاً أو نخامة فحكه، يفيد بأن هذا المخاط كان ظاهراً... وجافاً، لأن التعبير بالفعل "حكه" يفصح عن ذلك، وتحديد بأن ذلك كان في القبلة: يضاعف من إثم هذا الذي قام بذلك، والبزاق يدل على الكثرة: ففي القاموس المحيط: بزق الأرض: أي بذرها، والبذر يوحي بالكثرة، ورذاذ البزاق ينتشر في أكثر من جهة، والمخاط: هو السائل من الأنف؛ وقيل مخاط الشيطان: هو الذي يتراءى في عين الشمس للناظر في الهواء بالهاجرة؛ والنخمة، والنخامة: هي النخاعة، ويقال: تنخم أي دفع شيئاً من صدره أو أنفه، والعطف بالفاء في قولها: "فحكه"، يرشد إلى إسراع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إزالة القذر من المسجد، والمسارعة لتطهيره.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- وجوب إزالة ما يستقذر[١]، وما يتنزه عنه، ويتقزز منه من المسجد، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحك البصاق من المسجد، فكنسه، وتنظيفه، وكسوته يدخل في معنى ذلك[٢].

٢- يستحب تطييب محل القذر بعد إزالته من المسجد[٣].

٣- أما ما يفعله كثير من الناس إذا بصق، أو رأى بصاقاً ركله بأسفل مداسه الذي داس به النجاسة، والأقذار فحرام، لأنه تنجيس للمسجد وتقذير له وعلى من رأى من يفعل ذلك الإنكار عليه بشرطه[٤].

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) التمهيد ١٥٤/١٤، والمجموع للنووي ١١٢/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٩١/١، وكشاف القناع ٣٨٢/١، والمغني لابن قدامة ٩٦/١.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر ١٥٤/١٤.

(٣) المجموع للنووي ١١٢/٢، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٩١/١، وكشاف القناع ٣٨٢/١، والمغني ٩٦/١.

(٤) المجموع ١١٢/٢.

(٥) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٩٧)

١٦٩٧- وعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((إنَّ هذهِ المَسَاجِدَ لاَ تَصلُحُ لِشَيءٍ مِنْ هَذَا: البَوْلِ وَلاَ القَذَرِ[1]، إنَّمَا هي لِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَقِراءةِ القُرآنِ)) أَوْ كَمَا قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: سبقت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

القذر: الوسخ[3].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي يحذر من تلويث المساجد، ويدعو إلى نظافتها، وتطهيرها من كل دنس؛ لأنها تعمر بذكر الله وقراءة القرآن، نجد أن الحديث يبدأ بالتوكيد في جملته الأولى وهي: جملة اسمية تعطي دلالة الاستمرار والثبات فالمساجد في كل عصر، وفي كل مكان لها حرمتها ومهابتها، ويجب أن تظل نظيفة، واسم الإشارة في قوله: "هذه المساجد" يفيد التحديد، والتمييز الكامل، ولم يقل "إن المساجد"، ولكن قال: "إن هذه المساجد"، و"آل" في المساجد للجنس أي كل مسجد، وخبر "إن" هو الجملة الفعلية "لا تصلح لشيء من هذا"، والفعل مضارع مسبوق بالنفي: والمضارعية تفيد استمرار المحافظة على المساجد وهي لا تصلح لشيء من القذارات، والتعبير بقوله: "لشيء: يرشد إلى وجوب صيانة المساجد من القاذورات والبول: مهما قل أو كان ضئيلاً لأن النجاسة قليلها مثل كثيرها.

---

(١) لفظ مسلم: (للبول والقذر).

(٢) برقم (١٠٠/٢٨٥).

(٣) المصباح المنير في (ق ذ ر).

وقوله: "من هذا البول" لمزيد من التحديد عن طريق اسم الإشارة، وهو هنا ليس للتمييز ولكن للتحقير والتنفير، والدعوة إلى تجنب تلويث المساجد بأقل شيء منه.

والجملة الثانية في الحديث، تجيب على سؤال ينشأ في الذهن الخالي من المعرفة: لأي شيء تصلح المساجد؟ فقال رسول الله ﷺ -موضحاً وظيفة المساجد ودورها في الإسلام-: "إنما هي لذكر الله تعالى: وقراءة القرآن"، وهذه الجملة صيغت في أسلوب القصر، عن طريق "إنما" وهذه الصياغة ترشد إلى تحديد وظيفة المساجد، وتقصر وظيفتها ودورها على ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2].

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: حرمة التبول وإدخال شيء من النجاسات إلى المسجد: أما من على بدنه نجاسة، أو به جرح، فإن خاف تلويث المسجد حرم عليه الدخول، وإن أمن لم يحرم[3].

المضامين الدعوية[4]

---

(١) سورة الجن، آية: ١٨.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٦- ٣٧.

(٣) المجموع للنووي ٢/٢٠٠، وشرح الزرقاني على الموطأ ١/١٩٠- ١٩١.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٩٥).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - من وسائل التربية: المسجد:

يعد المسجد أول وسائل التربية الإسلامية وأهمها لأن أول عمل قام به رسول الله ﷺ عندما وصل المدينة بناء المسجد، لأن المسجد هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ودرء المفاسد عنهم، والتعاون لمجابهة المشكلات، وصد العدوان عن عقيدتهم، وعن أنفسهم، وأموالهم، بل هو المعقل الذي يلجؤون فيه إلى بارئهم، يستمدون منه السكينة والقوة والعون، ويعمرون قلوبهم بشحنة جديدة من الطاقات الروحية، بها يمنحهم الله صبرًا وبأسًا وإقدامًا ووعيًا وتبصرًا ورباطة جأش، وبعد نظر، وتفاؤلاً ونشاطًا[1].

وقد أولت الشريعة الإسلامية المسجد كوسيط تربوي أهمية خاصة وجاءت أحاديث الباب لتؤكد هذه الأهمية حيث نهى النبي ﷺ عن البصاق في المسجد، وأمر بإزالته منه إذا وجد فيه، وأمر بتنزيه المسجد عن الأقذار تكريمًا وإجلالاً لشأن المسجد، ورفعًا لشأنه عن وجود الأوساخ والقاذورات به.

وقد كان للمسجد في صدر الإسلام وظائف جليلة أهمل المسلمون اليوم عددًا منها، ولكن التاريخ يؤكد أن المسجد عندما يأخذ مكانه الطبيعي الذي بني من أجله، وأراده الله له، يصبح من أعظم المؤثرات التربوية في نفوس الناشئين، فيه يرون الراشدين مجتمعين على الله، فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم، والاعتزاز بالجماعة الإسلامية، وفيه يسمعون الخطيب والدروس العلمية، فيبدؤون بوعي العقيدة الإسلامية وفهم هدفهم من الحياة، وما أعدهم الله له في الدنيا والآخرة.

وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه، فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري بتعلم القراءة، ودستور المجتمع الإسلامي، والنمو الروحي وهو الارتباط بخالقهم.

وفيه يتعلمون الحديث والفقه، وكل ما يحتاجون من نظم الحياة الاجتماعية كما

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، ص ١٠٨.

أراد الله أن ينظمها للإنسان، ومن هداية الله وسنة رسوله.

ويتعلمون العلوم المتممة لذلك كاللغة والتاريخ الإسلامي وغيرها، ولكن ما يدعو المسلمين إلى المسجد هو الالتقاء على طاعة الله.

فالمسجد على هذا يعلّم الناشئين أن كل أمور الحياة تابعة للارتباط بالله، وصادرة عن هدف التربية الإسلامية الشامل الذي هو إخلاص العبودية لله، وينغرس هذا المعنى في نفس الناشئ عفوًا من غير قصد ولا تكلف[1].

ثانيًا - من أساليب التربية: الممارسة العملية:

يعد أسلوب الممارسة العملية من الأساليب التربوية الناجحة والذي له العديد من الآثار والفوائد التربوية كإتقان العمل[2].

وتعود الدقة وتوخي صحة النتائج، وشعور الإنسان بالمسؤولية عن صحة العمل، وحب العمل واستبعاد الغرور، وترك الكسل والتوكل[3].

وقد تجلت الممارسة العملية في هذا الباب في فعل النبي ﷺ عندما رأى في قبلة المسجد مخاطًا أو بزاقًا أو نخامة فحكهُ بنفسه فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ رأى في جدار القبلة مخاطًا، أو بزاقًا، أو نخامة، فحكه. وهو بذلك مارس ﷺ التربية الإسلامية ممارسة عملية.

ولاشك أن أسلوب الممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية وذلك لأن الإسلام دين عمل، شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم وقائمًا على أساسه، وهو دين يجعل العمل أساسًا للنجاح والخسران في الدنيا والآخرة. فإن كان خيرًا فخير وصلاح وفوز ونجاح، وإن كان شرًا فشر وخسران.

ويطالب الإسلام كل معتنقيه بتطبيق تعاليمه تطبيقًا عمليًا سواء ما يتعلق بتكاليف العبادة وما يهيئ للآخرة، أو ما يتعلق بشؤون الحياة الدنيا. بل وكل تعاليم

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٧٧.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، ص ٢١٧.

الإسلام إنما جاءت لكي تنفذ وتطبق على الواقع ولا يكون المسلم مسلمًا إسلامًا حقيقيًا إلا إذا مارسها وأداها عمليًا[١].

ومما لاشك فيه أن النبي ﷺ هو الذي علمنا مبادئ التربية الإسلامية، وأن نمارس ما نتعلم وأن نعمد إلى تعليم وتربية المتعلمين والمتربين بالأسلوب العملي فكل معلم يمارس العمل المراد تعليمه ثم يتابعه المتعلم، أو يمارس كل متعلم العمل أمام معلمه، ثم يناظره المعلم ويصحح أخطاءه[٢].

وكان رسولنا الكريم ﷺ مربيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به[٣].

ثالثًا - التربية على نظافة المساجد:

اهتم الدين الإسلامي بالنظافة اهتمامًا كبيرًا ودعا إلى نظافة المسلم ونظافة كل ما يحيط به ومن الأشياء التي حبب الرسول ﷺ في نظافتها وطهارتها من الأنجاس والأقذار المسجد الذي فيه اجتماع المؤمنين في خمس أوقات في الليل والنهار، وأمر المصلين بالتزين والتطيب عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٤][٥].

وقد جاءت أحاديث الباب ناهية عن البصاق في المسجد، وآمرة بإزالته منه إذا وجد فيه، وآمرة بتنزيه المسجد عن الأقذار، فقال ﷺ: "البصاق في المسجد خطيئة..." وعندما رأى ﷺ في جدار القبلة مخاطًا، أو بزاقًا، أو نخامة حكه أي أزاله بنفسه.

وقال ﷺ "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر...".

وللمسجد منزلة عظيمة في نفوس المسلمين، إذ كان الملجأ الأمين الذي يلجأون إليه في تطهير نفوسهم وتزكيتها، فهو إلى جانب كونه مكانًا للعبادة وتأدية الفرائض

---

(١) أصول التربية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ٢٢٥.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٥) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ٦٧/٥٠.

الخمس اليومية، فإنه المؤسسة التي تدار فيها أمورهم وشؤونهم الخاصة والعامة، ما دق منها وما جلّ، حتى غدا المدرسة الأولى التي تخرج فيها كبار الصحابة والفاتحين، وكان على مر العصور يختار له الموقع المناسب في القرى والمدن والأحياء[١].

وتأكيدًا لأهمية المساجد ومنزلتها في الإسلام؛ لأنها بيوت الله التي يمارس فيها المسلمون عبادتهم واتصالهم برب العالمين يجب أن يحافظ على نظافتها وطهارتها.

ويعد المسجد بعد البيت الركن الثاني الذي يسهم في تعليم الطفل وتوجيهه بشكل صحيح وسليم، فمن المفيد إذًا أن نعلم أطفالنا منذ نعومة أظفارهم الحفاظ على الطهارة في كل مكان، وعندما يرى المسجد النظيف الطاهر وينتبه إلى حرص المسلمين على طهارته، واستيائهم من كل شخص لا يهتم بنظافة بيت الله، فإنه يدرك أهمية الطهارة وضرورة المحافظة على النظافة في أي مكان وجد فيه[٢].



(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية ٥٠/٦٨.

(٢) المرجع السابق ٥٠/٧٠.

٣١٠- باب كراهة الخصومة في المسجد ورفع الصوت فِيه ونشد الضالة والبيع والشراء والإجارة ونحوها من المعاملات

الحديث رقم (١٦٩٨)

١٦٩٨- وعن أَبي هريرة ﵁: أنَّه سمعَ رسُولَ اللّهِ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً في المَسْجِدِ فَلْيَقُلْ[١]: لاَ رَدَّهَا اللّهُ عَلَيْكَ، فإنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهذَا)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ينشد ضالة: يطلب ما ضاع من البهائم[٣].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأول في باب: كراهة الخصومة في المسجد، ورفع الصوت فيه، ونشد الضالة والبيع والشراء والإجارة ونحوها من المعاملات.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من ثلاث جمل لغوية متنوعة: الأولى شرطية وهي قوله ﷺ: "من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل": والثانية: هي مقول القول، وهي: جملة دعائية إنشائية "لا ردها الله عليك"، والثالثة: جملة خبرية مؤكدة مستأنفة لبيان علة الدعاء على هذا الذي لم يرع حرمة المساجد... وجعل منها ميدانًا لقضاء

---

(١) لفظ مسلم: (فقولوا)، والمثبت لفظ أبي داود (٤٧٣)، وابن ماجه (٧٦٧)، تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٥٦٨/٧٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤١).

(٣) انظر: شرح مسلم ٤٢٢، والوسيط في (ن ش ر).

الحاجات الدنيوية، وشوش على المصلين، والحديث بناء لغوي متماسك، وذلك نستكشفه من خلال المقاربة الدلالية حيث نتوصل إلى علاقة العلامات، والكلمات والجمل بالأشياء وبحالات الأشياء والمعنى المراد توصيله، وهذا البناء المتماسك في الحديث يتجلى من خلال المقاربة النحوية، وهي تسعى إلى اكتشاف علاقة العلامات فيما بينها، والكلمات في الجملة أو الجمل، وفي مقاطع الجمل، كما يرى علماء اللغة.

وتترابط جمل الحديث الثلاث: فالجملة الشرطية تفصح عن ارتكاب مخالفة وهي نشدان الضالة في المسجد: أي الإعلان عن ضياع حيوان أو غيره في المسجد أمام المصلين، وفي مكبر الصوت: وهو أمر يشغل المصلين عن العبادة وعن ذكر الله، وهذه المخالفة التي جسمها فعل الشرط: يأتي جواب الشرط ليعلن في حسم حل هذه المشكلة، في قوله: "فليقل" ولكن المعنى لم يتم، وتأتي الجملة الثانية وهي مقول القول: المأمور به، وهي كما قلت: جملة دعائية: تمثل عقابًا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ لهذا الذي لم يرع حرمة المساجد "لا ردها الله عليك" والجملة الثالثة لا تخرج عن دائرة ما سبق في المعنى والمبني، حيث علل رسول الله ﷺ سبب هذه العقوبة المتمثلة في الدعاء على من اتخذ من المسجد وسيلة للإعلان عن ضالته: فقال مؤكدًا: "فإن المساجد لم تبن لهذا"، واسم الإشارة جُعل للقريب حتى لا يشم منه رائحة التعظيم أو التمييز، وإنما لتحديد الأمر الذي كان سببًا في ارتكاب المخالفة، والله اعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه أنه يكرهُ نشد الضالة في المسجد[1]، لما في ذلك من صرف المسجد عن مهمته التي بني لأجلها، وهي العبادة والذكر، والصلاة، وتعلم العلم ونحو ذلك[2].

---

(١) شرح فتح القدير ١٤/٦، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٤/٦، والزرقاني على الموطأ ٥٠٣/١، والمجموع للنووي ٢٠٠/٢، وروضة الطالبين ٢٢٤/١١، والكافي في فقه الإمام أحمد ٢٥٣/٢، وكشاف القناع ٢١٦/٤، والمغني لابن قدامة ١٨٤/٤.

(٢) عون المعبود ٩٧/٢، والدين الخالص للسبكي ٢٥٢/٣.

ويسن لمن يسمع شخصًا ينشد ضالته، أن يقول له: لا وجدتها، ولا ردها الله عليك[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: تنزيه المسجد عن نشدان الضالة وعن البيع والشراء، وعن إنشاد الشعر وعن رفع الأصوات فيه ونحو ذلك.

ثانيًا: من آداب المدعو: القيام بدوره في إنكار المنكر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تعهد الإمام أحوال المساجد والعمل على صيانتها وتعظيمها.

رابعًا: من آداب الداعية: إعذار أهل الجهل بالحكم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تنزيه المسجد عن نشدان الضالة وعن البيع والشراء، وعن إنشاد الشعر وعن رفع الأصوات فيه ونحو ذلك:

١- أما نشدان الضالة قال النبي ﷺ: "مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ، فَلْيَقُل: لاَ رَدَّهَا الله عَلَيْكَ. فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهذَا". كما قال ﷺ: "لرجل نشد جملاً أحمر في المسجد: لا وجدت"، كما نهى ﷺ عن أن تنشد الضالة في المسجد.

قال ابن الأثير: "الضالة: هى الضائعة من كل ما يقتني من الحيوان وغيره"[٣]، وقال ابن الأثير كذلك: يقال: "نشدت الضالة فأنا ناشد، إذا طلبتها، وأنشدتها فأنا منشد إذا عرفتها... وهو من النشيد: رفع الصوت"[٤]، أى أن العلة في ذلك هو رفع الصوت بالسؤال عما ضل من مال ونحوه، وهذا مناف لما بنيت المساجد لأجله[٥].

---

(١) كشاف القناع ٢١٦/٤.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٩٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٩٩، ١٧٠٠، ١٧٠١، ١٧٠٢).

(٣) النهاية في (ض ل ل).

(٤) النهاية في (ن ش د).

(٥) انظر: أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية: د. إبراهيم بن صالح الخضيري، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ٧٩/٣.

لكن من ناحية أخرى فإن أمام من ينشد الضالة أن يقف عند باب المسجد خارجه وينشد ضالته، فيكون جمع بين إعلام المصلين بضالته الضائعة، وعدم ارتكاب النهى بنشدانها في المسجد"[١].

قال عبدالله البسام: "الحديث يدل على تحريم نشدان الضالة في المسجد، ووجوب الدعاء عليه بهذا الدعاء، وإعلامه باستحقاقه الدعاء حيث اتخذ المسجد لنشدان الضوال، وإشغال المصلين والمتعبدين بأعمال الدنيا، ظاهره أنه لو خرج عند باب المسجد فنشدها، فإنه لا يحرم لأنه ليس من المسجد. وفيه بيان وظيفة المسجد بأنها الصلاة وذكر الله وتلاوة كتابه والمذاكرة في الخير ونحو ذلك"[٢].

٢- النهى عن البيع والشراء في المسجد، وهذا واضح في قوله ﷺ: «إذا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ "أي يشتري" في المَسجِدِ فَقُولُوا: لا أرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ»، وفي نهيه ﷺ عن الشراء والبيع في المسجد كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وذلك لأن المساجد إنما بنيت لذكر الله تعالى، ولم تبن للمتاجرة، ولأن المساجد بنيت للآخرة، والأسواق بنيت للدنيا، ولكل ما خصص له"[٣]. قال القرطبي: "وروى أن عيسى ابن مريم عليه السلام أتى على قوم يتبايعون في المسجد فجعل رداءه مخراقًا"[٤]. ثم جعل يسعى عليهم ضربًا ويقول: يا أبناء الأفاعي، اتخذتم مساجد الله أسواقا هذا سوق الآخرة"[٥]. وقال ابن قدامة: "ورأى عمران القصير رجلاً يبيع في المسجد فقال: هذا سوق الآخرة، فإن أردت التجارة فاخرج إلى سوق الدنيا"[٦].

قال عبدالله البسام: "إنما بنيت المساجد لطاعة الله وعبادته، فيجب أن تجتنب

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، للشيخ ابن عثيمين، ١٧٦٧/٢.

(٢) توضيح الأحكام ٥٢٧/١.

(٣) أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية ٧٨/٣.

(٤) المخراق: منديل أو نحوه يلوى فيضرب به أو يفزع به في لعبة للصبيان. الوسيط في (خ ر ق).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٠/١٢/٦.

(٦) المغنى لابن قدامة ٢٨٣/٦.

أحوال الدنيا"[١].

٣- إنشاد الأشعار في المسجد: وهذا واضح من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تنشد فيه ضالة أو ينشد فيه شعر. قال القرطبي: "أما تناشد الأشعار فاختلف في ذلك، فمن مانع مطلقا، ومن مجيز مطلقًا. والأوْلى التفصيل، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضي الثناء على الله عز وجل أو على رسوله ﷺ أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان[٢]، أو يتضمن الحض على الخير والوعظ والزهد في الدنيا والتقلّل منها، فهو حسن في المساجد وغيرها. وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر، والمساجد منزهة عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾[٣]. وقد يجوز إنشاده في المسجد؛ كقول القائل:

إذا سقط السماء بأرض قوم   رَعَيناه وإن كانوا غضابًا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حَمْد ولا ثناء يجوز؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب[٤]. وقال الدكتور إبراهيم بن صالح الخضيري: "وأما أن يكون "أي الشعر" مباحًا فهو كالكلام المباح، ويجوز إلقاؤه في المسجد حيث لا ضرر منه"[٥]. وقال ابن حجر: "يحمل النهى على تناشد أشعار الجاهلية والمبطلين، والمأذون فيه ما سلم من ذلك، وقيل: المنهي عنه إذا كان التناشد غالبًا على المسجد حتى يتشاغل به مَنْ فيه"[٦].

---

(١) توضيح الأحكام ٥٢٩/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٥٣، ومسلم ٢٤٨٥، قول رسول الله ﷺ لحسان: ياحسان أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس، وأخرجه البخاري ٣٥٣١، ومسلم ٢٤٨٧، عن عائشة: إنه كان ينافح عن النبي ﷺ.

(٣) سورة النور، آية: ٣٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧١/١٢/٦. وانظر: المجموع شرح المهذب للنووي، ١٤٢/٢.

(٥) أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية ٦٥/٣، وانظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين، ١٧٦٨/٢.

(٦) فتح الباري ٦٥٣/١، ط الريان.

وقال عبدالله البسام: "الشعر كلام قبيحه قبيح ومليحه مليح ويقاس على الشعر كل كلام، فما كان منه خير ومصلحة للدين فهو مرغوب منه، وما لا فائدة منه أو فيه مضرة فإن بيوت الله تنزه عن ذلك. كما أنه لابد من مراعاة عدم إشغال المصلين الذاكرين والتالين كتاب الله تعالى، فتراعى حالهم، ولا يشوش عليهم، فإن أصل بناء المساجد لإقامة الصلاة وذكر الله تعالى"[١].

٤- رفع الأصوات في المسجد: "وهذا واضح من قول عمر بن الخطاب للرجلين الذين رفعا أصواتهما: "لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ. قال ابن هبيرة: "فيه من الفقه أن رفع الصوت في المسجد في غير ذكر الله هو الذي نهى عنه عمر، لأن المساجد إنما بنيت ليذكر فيها اسم الله عز وجل، ولأن أحد ملوك الدنيا إذا رفع الصوت في داره بغير حمده والثناء عليه، عُدَّ ذلك من سوء الأدب"[٢].

قال الدكتور إبراهيم بن صالح الخضيري: "رفع الصوت بالأذان وبقراءة الكتب النافعة للتعليم وبالقراءة للقرآن بصوت مرتفع حين لا يتأذى به أحد كل هذا مشروع.

وأما رفع الصوت بالقراءة مع حصول التشويش أو رفع الصوت بالكلام المباح فإن ذلك مكروه، وقد حكى ابن عابدين[٣] الإجماع على استحباب ذكر الجماعة في المساجد، إلا أن يشوش جهرهم على نائم أو قارئ. ويدل لهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير، متفق عليه[٤].

وذكر القرطبي عن مالك: كراهية رفع الصوت مطلقًا بالمسجد[٥]. ولعل مراد مالك

---

(١) توضيح الأحكام ٥٢٦/١، وانظر: الاستذكار لابن عبدالبر، ٢٣٧/٦، موسوعة شروح الموطأ.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٩/١.

(٣) حاشية ابن عابدين "رد المحتار على الدر المختار"، محمد أمين بن عمر عابدين، ١٢٥٢هـ، دار عالم الكتب، الرياض، طبعة خاصة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

(٤) أخرجه البخاري ٨٤١، ٨٤٢، ومسلم ٥٨٣.

(٥) المفهم للقرطبي (المحدّث) ١٧٤/٢، والجامع لأحكام القرآن ٢٧٢/١٢/٦. للقرطبي المفسر وهو تلميذ المحدث وقد نقله عنه.

مسجد النبي ﷺ فإنه ينبغي غض الصوت فيه، لأن حرمته ﷺ حيًا كحرمته ميتًا.

لكن ارتفاع الصوت بالحق لاشيء فيه. ودليل هذا أن كعب بن مالك تقاضى عبدالله بن أبي حدرد دينًا كان له عليه، فسمع رسول الله ﷺ أصواتهما، وخرج إليهما من بيته. ثم حكم بينهما[1] ولم ينكر عليهما رفع أصواتهما، لأنها ارتفعت بحق. ولأنهما كانا يريدان أن يحكم بينهما رسول الله ﷺ.

وأما الكلام المباح فإنه لا يجوز رفع الصوت فيه بجميع المساجد، ودليل هذا: عن السائب بن يزيد قال: "كنتُ قائمًا في المسجدِ فحصَبَني رَجلٌ، فنظرْتُ فإذا عمرُ بنُ الخَطّابِ فقال: اذهبْ فأْتِني بهذينِ، فجِئْتُهُ بهما. قال: مَن أنتُما - أو مِن أين أنتما -؟ قالا: مِن أهلِ الطائفِ. قال: لو كنتُما من أهلِ البلدِ لأوجَعْتُكما، ترفعانِ أصواتَكما في مَسجِدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ!"[2]. فهذا يدل في ظاهره أنه خاص بمسجد رسول الله ﷺ إلا أنه يشمل المساجد كلها"[3]، وقال الشاطبي: "وأما ارتفاع الأصوات في المساجد فناشئ عن بدعة الجدال في الدين، فإن من عادة قراءة العلم وإقرائه وسماعه أن يكون في المساجد، ومن آدابه أن لا ترفع فيه الأصوات في غير المساجد. فما ظنك به في المساجد؟"[4].

وقال ابن كثير: "وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعًا، قال: خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقًا ولا يشهر فيه سلاح ولا ينبض فيه بقوس[5] ولا ينثر فيه نبل ولا تمرّ فيه بلحم نيئ، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه من أحد ولا يتخذ سوقًا"[6]. وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧١، ومسلم ١٥٥٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٠.

(٣) أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية ٣/٧١-٧٢.

(٤) الاعتصام: الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، ٧٩٠هـ، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص ٣٣٨.

(٥) انبض في قوسه: أصاتها أو حرك وترها لترنّ، القاموس المحيط في (ن ب ض).

(٦) أخرجه ابن ماجه، ٧٤٨، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه، ١٦٣).

صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ[١] وَبَيْعَكُمْ وَخُصُوماتِكُمْ وَرَفْعِ أَصْوَاتِكُمْ وَإِقَامَةِ حُدُودِكُمْ وَسَلِّ سُيُوفِكُمْ وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ وَجَمِّرُوهَا فِي الجُمَعِ»[٢].

أما أنه "لا يتخذ طريقًا " فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه، وفي الأثر "إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا ليصلي فيه". وأما أنه لا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل"، فلما يخشى عن إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ، إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها[٣] لئلا يؤذي أحدًا، كما ثبت ذلك في الصحيح[٤]، وأما النهي عن المرور باللحم النيئ فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث، وأما أنه "لا يضرب فيه حد أو يقتص" فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع، وأما أنه لا يتخذ سوقًا فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة[٥] المسجد «إن المساجد لم تبن لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها» ثم أمر بسجل[٦] من ماء فأهريق على بوله[٧].

وفي الحديث الثاني «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبيانًا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة، وكان يعس[٨] المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحدًا.

«ومجانينكم» يعني لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها،

---

(١) في المطبوع من سنن ابن ماجه: شراركم، ولفظ "شراءكم" وقع أيضًا في الدر المنثور، ١١/٧٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٧٥٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ١٦٤).

(٣) النصال: مفردها نصل: وهو حديدة السهم والرمح والسيف. القاموس المحيط في (ن ص ل).

(٤) أخرجه البخاري ٤٥٢، ومسلم ٤٥٢.

(٥) الطائفة من الشيء: القطعة منه. القاموس المحيط في (ط و ف).

(٦) السجل: الدلو العظيمة مملوءة، القاموس المحيط في (س ج ل).

(٧) أخرجه مسلم ٢٨٤.

(٨) أي يطوف بالليل، النهاية في (ط و ف).

ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك ...

«وخصوماتكم» يعني: التحاكم والحكم فيه، ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المساجد، بل يكون في موضع غيره، لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط[1] الذي يناسبه، ولهذا قال بعده «ورفع أصواتكم» ... وقوله «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريبًا من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك.

وقوله «وجمروها في الجُمَع» يعني بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ"[2].

ثانيًا- من آداب المدعو: القيام بدوره في إنكار المنكر:

هذا واضح من طلب النبي من الصحابة رضوان الله عليهم، أن يقولوا لمن ينشد ضالة في المسجد" لا ردها عليك فإن المساجد لم تبن لهذا" وفي رواية "فقولو: لا ردها الله عليك"، وإذا رأوا من يبيع أو يشترى في المسجد أن يقولوا: لا أربح الله تجارتك.، وقد قال النبي ﷺ لرجل ينشد جملاً أحمر:"لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له".

قال النووي: "قوله ﷺ: "إنما بنيت المساجد لما بنيت له" معناه لذكر الله تعالى والصلاة والعلم والمذاكرة في الخير ونحوها ... وقوله ﷺ: "لا وجدت"، وأمر أن يقال مثل هذا، فهو عقوبة له على مخالفته وعصيانه، وينبغي لسامعه أن يقول لا وجدت فإن المساجد لم تبن لهذا، أو يقول لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له كما قاله رسول الله ﷺ"[3].

قال أبو العباس القرطبي: قوله: "فليقل: لا ردها الله عليك" دعاء على الناشد في المسجد بعدم الوجدان، فهو معاقبة له في ماله على نقيض مقصودة"[4].

---

(١) جاء في القاموس المحيط ٦٧٩: التعيط: الجلبة والصياح.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٦٣، ٦٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ٥٧/٥/١٣ .

(٤) المفهم ١٧٤/٢.

وقال عبدالله البسام: "هذا دعاء عليه بنقيض قصده وهو نوع من أنواع التعزير، ومعنى قبوله "لا أربح الله تجارتك" أي لا يجعلها نافعة ناجحة"[١].

وقال ابن عثيمين: "الذي يسمع إنسانًا يبيع ويشتري ماذا عليه؟ قال النبي ﷺ قولوا: "لا أربح الله تجارتك"، ادعوا عليه بأن الله يخسره ولا يربحه، بأن الله لا يربح تجارته ولكن الرسول ﷺ قال فيه، "فإن المساجد لم تبن لهذا" يحتمل أن هذه الكلمة يضيفها القائل إلى قوله، ويحتمل أنها تعليل للحكم من النبي ﷺ، وأنها لا تقال. لكن إذا كان في قولك إياها تطييب لقلبه، فهذا قولها حسن يعني تقول: لا أربح الله تجارتك، فإن المساجد لم تبن لهذا"، يعني للبيع والشراء، ما بنيت للبيع والشراء، بنيت للصلاة والذكر وقراءة القرآن، وطلب العلم، وما أشبه هذا، فإذا كان قولك: إن المساجد لم تبن لهذا" تطييبًا لقلبه حتى لا يغضب عليك، أنا إذًا دعوت عليك، فقد دعوت عليك لأمر من الرسول ﷺ، وأمر الرسول ﷺ مطاع كأمر الله ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٢]، فأقول: "لا أربح الله تجارتك"، فإن المساجد لم تبن لهذا حتى يطيب قلبه. كذلك أيضًا إنشاد الضالة... ندعو عليه "أى منشد الضالة"، بأن الله لا يردها عليه ولا يعثر عليها، لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا"[٣].

ولا شك أن هذا القول من المدعوين إنكار على من فعل ذلك في المسجد من نشدان الضالة أو البيع أو الشراء، "والنهى عن المنكر من فروض الكفاية التي يجب على المسلمين أن يقوموا بها ويأثمون إذا تركوها جميعا، ويسقط الحرج عن الباقين إذا قام به بعضهم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤]"[٥].

---

(١) توضيح الأحكام ١/٥٢٧-٥٢٩.

(٢) سورة التغابن، آية: ١٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٦٧-١٧٦٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٥) الموسوعة الفقهية ٤١/٤٠٧، وانظر: مصنف عبدالرزاق ١/٤٣٨، رقم ١٧١٥.

ولاشك أن قيام المدعو بدوره في إنكار المنكر يشعر فاعل المنكر، بأن المجتمع المحيط به من المدعوين غير راض عن فعله وغير متقبل له، ومن ثم يكون هذا دافعًا له إلى الكف عن فعله والإقلاع عنه، وهذا ما يسمى بالردع العام الاجتماعي، فكم من منكر اختفى بسبب إنكار المدعوين له، وكم من منكر شاع بسبب سكوت المدعوين عنه.

وقد أخرج مالك في الموطأ: "أنه بلغه أن عطاء بن يسار كان إذا مر عليه بعض من يبيع في المسجد، دعاه فسأله: ما معك؟ وما تريد؟ فإن أخبره أنه يريد أن يبيعه، قال: عليك بسوق الدنيا، فإنما هذا سوق الآخرة"[(١)].

قال ابن عبدالبر: "ففيه أن ذلك الزمان كان فيه من عوام أهله من يبيع ويشترى في المسجد، ولكنه كان فيه من ينكر ذلك، وكان عطاء بن يسار منهم، ولا يزال الناس بخير ما أنكر فيهم ولم يتوطئوا عليه، فإن تواطئوا عليه هلكوا. وكان عطاء بن يسار فاضلاً قاضيًا واعظًا، من حملة العلم ورواة الثقات.

وأما قوله في المسجد: إنه سوق الآخرة. فمأخوذ من قوله عز وجل: ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[(٢)]. وهي أعمال البر الزاكية، ولا عمل أفضل من الصلاة وانتظارها، ولزوم المساجد من أجلها"[(٣)].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تعهد الإمام أحوال المساجد والعمل على صيانتها وتعظيمها:

هذا واضح من هذه الأحاديث، وقد وقع ذلك من فعل النبي ﷺ كما في حديث بريدة رضي الله عنه أن رجلاً نشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا وجدت، إنما بنيت لما بنيت له"، وكما وقع ذلك من عمر بن

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٤٢٥، موسوعة شروح الموطأ ٦/٢٣٥.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٩.

(٣) الاستذكار ٦/٢٣٥، موسوعة شروح الموطأ.

الخطاب رضي الله عنه عندما قال للرجلين: "لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب عندما يجد نخامة أو بصاقًا في القبلة، ويقوم بحكها بنفسه، وقد جاءت بذلك أحاديث كثيرة، منها عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة فحكها بيده، ورؤى منه كراهية، أو رؤى كراهيته لذلك وشدته عليه، وقال: إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنما يناجي ربه، أو ربه بينه وبين قبلته، فلا يبزقن في قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه، ثم أخذ طرف ردائه فبزق فيه ورد بعضه على بعض. قال: أو يفعل هكذا"[(١)].

قال ابن حجر: "وفي الأحاديث المذكورة من الفوائد الندب إلى إزالة ما يستقذر أو يتنزه عنه من المسجد، وتفقد الإمام أحوال المساجد وتعظيمها وصيانتها"[(٢)].

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حريصًا على هذا أشد الحرص، من ذلك أنه بنى رحبة في ناحية المسجد تسمى البطيحاء وقال: من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعرًا أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة"[(٣)].

قال القرطبي: "وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر في المسجد، ولذلك بنى البطيحاء خارجه"[(٤)].

وعن نافع أن عمر كان إذا خرج إلى الصلاة نادى في المسجد: "إياكم واللغط، وإنه كان يقول: ارتفعوا في المسجد"[(٥)]. وعن ابن عمر أن عمر كان يجمّر المسجد في كل جمعة"[(٦)]. وقال ابن كثير: "وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبيانًا يلعبون في

---

(١) أخرجه البخاري ٤١٧، ومسلم ٥٥١.

(٢) فتح الباري ٦١٢/١. ط الريان.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٤٢٦، بلاغًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٢٣٦/٦، موسوعة شروح الموطأ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٢/١٢/٦.

(٥) أخرجه عبدالرزاق ٤٣٨/١، رقم ١٧١٣، وفي سنده انقطاع لأن نافعًا لم يدرك ذلك الزمان كما قال ابن حجر في الفتح ٦٦٨/١.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٣/٢، وأبو يعلي ١٩٠، وقال محقق مسند أبي يعلى: إسناده ضعيف، أ.هـ. ويقال: أجمرت الثوب وجمرته إذا بخرته بالطيب، القاموس المحيط في (ج م ر).

المسجد ضربهم بالمخفقة وهى الدرة، وكان يعس المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحدًا"[١].

وإنما يجب على الإمام أو من يقوم مقامه، ذلك، لأن المساجد أحب البقاع إلى الله سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث: "أحب البلاد إلى الله مساجدها. وأبغض البلاد إلى الله أسواقها"[٢].

قال النووي: (لأنها "أي المساجد" بيوت الطاعة وأساسها على التقوى، "و" لأنها "أي الأسواق" محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة وإخلاف الوعد والإعراض عن ذكر الله، وغير ذلك مما في معناه"[٣].

ولذلك كان "من أجل الأعمال وأعظمها منزلة عند الله عمارة المساجد، بيوت الله وأحب البقاع إليه، عمارة حسيه بالبناء والترميم والتنظيف، وعمارة معنوية بالصلاة فيها وتلاوة القرآن والذكر والدعاء ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾[٤]. التي جعلت عمارتها من أبين الأدلة على صدق الإيمان ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية[٥]، لقد أشاد الإسلام بفضل عمارة المساجد وما تعود به زيارتها على النفوس من أثر فعال، وأضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[٦]، ولا غرابة فعمارة المساجد كالمرآة الصافية لعكس أحوال الناس، وبيان مدى رغبتهم في الخير"[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٦٤.

(٢) أخرجه مسلم، ٦٧١.

(٣) شرح مسلم ٣/٥/١٧٤، .

(٤) سورة النور، آية: ٣٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٦) سورة الجن، آية: ١٨.

(٧) رسالة إلى أئمة المساجد والمؤذنين والمأمومين: جمع وتحقيق: عبدالله بن جارالله بن إبراهيم الجارالله، ط١/١٤٠٨هـ/١٩٨٨م/ص١١.

رابعًا- من آداب الداعية: إعذار أهل الجهل:

وهذا واضح من قول عمر للرجلين الذين رفعا أصواتهما في مسجد رسول الله ﷺ من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه، عن نافع عن ابن عمر قال: سمع عمر رجلاً رافع صوته، فقال: ممن أنت؟ قال من ثقيف، قال من أى الأرض؟ قال: من أهل الطائف. قال: أما إنك لو كنت من أهل بلدنا لأوجعتك ضربًا. إن مسجدنا هذا لا يرفع فيه الصوت"[١].

قال ابن حجر: "وفيه المعذرة لأهل الجهل بالحكم إذا كان مما يخفي مثله"[٢].

قال ابن هبيرة: "فيه من الفقه أن الغريب الذي لا يعرف مقدار شرف المسجد معذور حتى يعرف، ... وفيه أيضًا من الفقه ان أرسل إليهما ولم يذهب بنفسه، وفي ذلك دليل على جواز الاستنابة في إنكار المنكر. وفيه أيضًا أن عمر أحسّ بأنهما غريبان فأراد أن يستدعيا إليه، فيعلما أنه سيد وآمر، فيصيرا إلى قوله"[٣].

ومن هذا القبيل ما رواه معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي[٤] وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: «إِنَّ هذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». أو كما قال رسول الله ﷺ: قلت: يارسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام..." الحديث[٥].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٤٣٨/٢ رقم ١٧١٢.

(٢) فتح الباري ٦٦٨/١، ط الريان.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٩/١.

(٤) أي ما انتهرني. شرح صحيح مسلم للنووي ٢١/٥/٣.

(٥) أخرجه مسلم٥٣٧.

(فالجهل عذر في حق الله تعالى في المنهيات دون المأمورات، والأصل فيه حديث معاوية بن الحكم لما تكلم في الصلاة، ولم يؤمر بالإعادة لجهله بالنهي)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "قال السيوطي: كل من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس لم يقبل منه دعوى الجهل إلا أن يكون قريب عهد الإسلام أو نشأ ببادية بعيدة يخفي فيها مثل ذلك، كتحريم الزنى والقتل والسرقة والخمر والكلام في الصلاة، والأكل في الصوم"[٢].

وقال الدكتور محمد رواس قلعه جي: (يعذر بالجهل من كان مقيمًا في مكان لا يبلغه فيه الخبر صحيحًا، لأنه لا تكليف إلا بعد البلاغ، لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٣]. وعلى هذا فإن البدوي المنقطع عن الناس إن جهل افتراض الحج عليه يعذر بجهله، وأرى أنه لا يعذر المسلم المقيم في ديار الكفر بجهله بأركان الإسلام ومبادئه، لتوفر المراكز الإسلامية فيها، ولوصول الإذاعات إليه، ولإمكانه السؤال عما يجهله من أمر دينه، نظرًا لسهولة الاتصال.

آثار الجهل: يترتب على الجهل عدة آثار هي:

١- سقوط الإثم: فمن شرب الخمر جاهلاً تحريمه، لا إثم عليه، ومن قبل هدية وهو يجهل أنها مسروقة فلا إثم عليه.

٢- ترتب الإثم: يترتب الإثم بالرضى بالجهل بما وجب عليه العلم به من أحكام الشريعة أو أحوال الصناعة، وبالعمل بما يجهل حله، أو منع ما يجهل تحريمه.

٣- سقوط العقوبة دون الضمان فيما يستحق الضمان: فمن شرب مشروبًا وهو يجهل أنه خمر فلا عقوبة عليه، ومن تزوج امرأة ودخل بها وهو لا يعلم أنها ذات زوج، فنكاحه فاسد، ويجب عليه الصداق بما أصاب منها، ويلحق به نسب الولد، ولا حد عليه، ومن خرق ثوبًا يظن أنه لا مالك له، فعليه ضمانه ولا عقوبة عليه.

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٠٢/١٦.

(٢) الموسوعة الفقهية ١٩٩/١٦.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٩.

٤- اعتبار التصرف باطلاً إن كان من قبيل ترك الواجبات، وصحيحًا إن كان من قبيل فعل المنهيات، فمن تكلم في صلاته جاهلاً النهي عن الكلام في الصلاة، فصلاته صحيحة.

٥- عدم الحنث بفعل ما حلف عليه جاهلاً أنه هو المحلوف عليه، فمن حلف أن لا يتصدق على فلان، فأتاه فلان يطلب صدقة، فأمر له بها، وهو لا يعلم أنه هو الذي حلف أن لا يعطيه، لا يحنث.

٦- وجوب التحري: إن جهل الحقيقة المترددة بين أمرين وجب عليه أن يتحراها في أحدهما، فمن كان عنده ماء طاهر وماء نجس، وثياب طاهرة وأخرى نجسة، وجهل أيتها طاهرة وأيتها نجسة، وجب عليه أن يتحراها، وإن جهل وقت الصلاة، أو وقت الصيام وجب عليه أن يتحراه، ومن جهل جهة القبلة ولم يوجد من يخبره بها، وجب عليه أن يتحراها، والمستحاضة إن جهلت وقت عادتها وجب عليها أن تتحراها، وهكذا.

٧- الحجر: كل من تعاطى أمرًا جاهلاً به، ويتعدى أثره إلى الآخرين يحجر عليه ويمنع من تعاطيه، كالطبيب الجاهل، والمفتي الجاهل، ونحوهما"[١].

(١) الموسوعة الفقهية الميسرة، ١/٦٨٨، ٦٨٩..

الحديث رقم (١٦٩٩)

١٦٩٩- وعنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((إذَا رَأيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ، فَقُولُوا: لا أرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ، وَإذَا رَأيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ[1] ضَالَّةً فَقُولُوا: لا رَدَّهَا[2] الله عَلَيْكَ)) رواه الترمذيُّ[3]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ينشد ضالَّة: يطلب ما ضاع منه[4].

الشرح الأدبي

إن نص هذا الحديث يتآزر في دلالته مع الحديث السابق: وفيه مزيد من التوضيح والبيان، وتحقق في هذا النص وفي كل نصوص الحديث الشريف المعايير التي حددها العلماء للنص المتماسك في بنائه، والمشع بدلالته.

والحديث النبوي: من أفصح ما جاءت به العربية بعد كتاب الله عز وجل، والمعايير التي قال بها العلماء كثيرة ومنها القصدية، وهي: تعبير عن هدف النص، والمقبولية وتتعلق بموقف المتلقي والمخاطب الذي يقر بأن المنطوقات اللغوية تكون نصًا متماسكًا، والإخبارية تتعلق بتحديد جدة النص وإفادته، والموقفية، وتتعلق بمناسبة النص للموقف، والتناصّ ويختص بالتعبير عن تبعية النص لنصوص أخرى أو تداخله معها.

---

(١) لفظ الترمذي زيادة: (فيه).

(٢) لفظ الترمذي: (ردّه).

(٣) برقم (١٣٢١) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وفي الترغيب: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصححه ابن خزيمة (١٣٠٥)، وابن حبان (الإحسان ١٦٥٠)، وقال الحاكم (٥٦/٢): هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٢).

(٤) اللسان في (ن ش د).

وهذا الحديث يتلاقى مع كل أحاديث هذا الباب في معناه ومبناه، فهو يتكون من أربع جمل تتناسق فيما بينها في المعاني والمباني في اتساق وتآلف، فالأولى شرطية والثانية دعائية، والثالثة شرطية والرابعة: دعائية، وجملة فعل الشرط موحدة في الجملتين الأولى والثالثة، حيث يقول ﷺ: "إذا رأيتم" في بداية الجملتين، وتعرض الجملة الأولى موقفًا وهو صورة من يبتاع أو يبيع في المسجد.

وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف حيث حذف متعلق الفعل الأول ودل عليه ما بعده والتقدير من يبيع في المسجد أو يبتاع في المسجد، وفي هذه العبارة تنازع بين الفعلين على معمول واحد وهو "في المسجد"، وهذا التنازع اللغوي يفصح عن التنازع البشري بين البائع والمشتري، وما ينتج عن ذلك من آثار غير محمودة تضر بالمصلين، وتفسد عليهم عبادتهم، وجملة فعل الشرط موحدة كذلك في الجملتين: وهي قوله: "فقولوا": وقيل: الأمر بالقول: ندبًا وليس وجوبًا.

وتأمل صيغة الأمر وهي للجمع، فكل من بالمسجد مأمورون بأن يدعوا على من اتخذ من المساجد ميدانًا لقضاء حاجاته الدنيوية، فكلهم يقول له: لا أوقع الله الربح في تجارتك: لكونك أتيت بها في محل المتاجر الأخروية، دون محلها من الأسواق وخارج المساجد، وحذف من الجملة الثانية قوله: "في المسجد" لدلالة الأول عليه، والله أعلم.

فقه الحديث

تشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- كراهة نشد الضالة في المسجد، وجواز الدعاء على من يفعل ذلك بعدم وجدانها. وقد مر بيان هذا الحكم في الحديث (١٦٩٨).

٢- حكم البيع والشراء في المسجد: اختلف الفقهاء في حكم البيع والشراء ونحوهما في المسجد على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنابلة في رواية[1] ويرون أن البيع والشراء في المسجد

---

(١) منار السبيل ١/٢٩١، والمبدع ٣/٨٢، وكشاف القناع ٢/٣٦٦، والفروع ٤/٤٧٧.

حرام قلّ المبيع أو كثر، احتاج إليه أو لا.

قال أحمد: (إن هذه بيوت الله لا يباع فيها ولا يشترى) ورأى عمران القصير رجلاً يبيع في المسجد فقال: يا هذا، إن هذا سوق الآخرة فإن أردت البيع فاخرج إلى سوق الدنيا[١].

واستدلوا على ذلك بأحاديث الباب التي تنهى عن البيع والشراء في المسجد، والنهي حقيقة في التحريم[٢].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[٣]، والمالكية[٤]، والشافعية[٥]، والحنابلة في وجه عندهم[٦]، ويرون أن البيع، والشراء ونحوهما في المسجد مكروه وحملوا النهي الوارد في الأحاديث على الكراهة.

الرأي الثالث: وقد نسبه بعض العلماء[٧] إلى بعض أصحاب الشافعي، وحاصله أن البيع والشراء في المسجد جائز بلا كراهة.

ولكن الأحاديث الواردة بالنهي ترده.

الترجيح: والراجح من هذه الآراء هو الرأي الأول الذي يرى حرمة البيع والشراء ونحوهما في المسجد، وذلك لأن النهي حقيقة في التحريم، وحمله على الكراهة يحتاج إلى قرينة صارفة، وهي غير موجودة هنا[٨].

على أننا إذا رجحنا القول بحرمة البيع والشراء في المسجد، إلا أن العقد يعد

---

(١) كشاف القناع ٢/٣٦٦.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٣٠.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٣٢٧.

(٤) التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٦/١٤، وشرح الزرقاني على الموطأ ١/٥٠٣.

(٥) روضة الطالبين ١١/٢٢٤، والمجموع ٢/٢٠٠، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٤/١٩٤.

(٦) الفروع ٤/١٨٤، والمغني لابن قدامة ٤/١٨٤.

(٧) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٣٠.

(٨) المرجع السابق الموضع نفسه.

صحيحًا منتجًا لآثاره[١]، خلافًا لبعض الحنابلة[٢].

٣- النهي عن إنشاد الشعر في المسجد، والمنهي عنه ما كان على سبيل التفاخر والهجاء، ومدح من لا يستحق المدح، وذم من لا يستحق الذم.

أما ما فيه أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وبيان لأحكام الدين، وترغيب في العمل بها ومدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم، وحث على الزهد والمكارم فجائز[٣].

المضامين الدعوية[٤]

(١) سبل السلام ١/١٥٥، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٣٠، ومنار السبيل ١/٢٩١، ونيل الأوطار ٢/١٦٧.

(٢) كشاف القناع ٢/٣٦٦، وفيه (فإن فعل -أي باع واشترى في المسجد- فباطل).

(٣) كشاف القناع ٤/٢١٦، والمهذب ٢/١٧٧، وشرح صحيح مسلم ١٥/١٤، والدين الخالص ٣/٢٦٠.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٠٠)

١٧٠٠- وعن بُرَيدَةَ رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً نَشَدَ في المَسْجِدِ فقَالَ: مَنْ دَعَا إلَى الجَمَلِ الأَحْمَرِ؟ فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((لا وَجَدْتَ؛ إنَّمَا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

نَشَدَ ضالَّة: طلب ضَالَّته التي فقدها[2].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يسرد مشهدًا واقعيًا عمليًا من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، يؤكد ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديثين السابقين. وهو الدعاء على كل من ينشد ضالة في المسجد، أو يبيع أو يبتاع في المسجد، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي دعا على هذا الرجل الذي نادى في المسجد، وقال: "من دعا إلى الجمل الأحمر".

والحديث يبدأ بتأكيد الخبر على لسان أبي بريدة رضي الله عنه: حتى لا يتشكك من في قلبه مرض، والتأكيد في إطار الجملة الاسمية: أن رجلاً نشد في المسجد ضالة، وتنكير كلمة "رجلاً" لإفادة الشيوع وتعميم الحكم، فليس المراد تحديد رجل بعينه: وإنما معرفة الحكم، والاهتداء إلى السلوك الصحيح في مثل هذه المواقف، وتقديم "المسجد" على "ضالة"، للاهتمام، وللتنبيه على أن المراد ليس النهي عن الإعلان عن ضياع الحيوان، وإنما النهي عن اتخاذ المسجد ميدانًا لمثل هذا الأمر، فالمساجد لم تبن لهذا، وعليه أن يعلن خارج المسجد، والاستفهام في قوله: "من دعا": استفهام حقيقي،

---

(١) برقم (٥٦٩/٨٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٣).

(٢) اللسان في (ن ش د).

ووصف الجمل بالأحمر لمزيد من التحديد والتعرف على لون الجمل وهيئته، وقول رسول الله ﷺ: "لا وجدت" يفصح عن رفض رسول الله ﷺ لهذا السلوك، وفي العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير: لا وجدت "الجمل الأحمر" وكأن هذا الحذف اللغوي: إيذان باستجابة الدعاء على الرجل، وأن يظل الجمل مفقودًا في الحياة المادية، كما هو غير موجود في البناء اللغوي، وذلك من الأسرار الكامنة في كنوز السنة النبوية، ومن خبيئات البيان النبوي الحكيم.

والجملة الأخيرة في الحديث تتسم بالإيجاز والإيحاء والإشعاع الدلالي والبلاغي.

حيث جاءت في أسلوب القصر وهو للحصر والاستقصاء عن طريق "إنما"، ومع القصر التأكيد، والإيجاز وتأمل هذه الأسرار التعبيرية المشعة بفيوضات التعليم النبوية، والتوجيهات الإسلامية في قوله: "إنما بنيت المساجد لما بنيت له"، أي: من الصلاة والذكر ونشر العلم. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٩٨).

الحديث رقم (١٧٠١)

١٧٠١- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّهِ ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَن الشِّراءِ والبَيْعِ في المَسْجِدِ، وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ ضَالَّةٌ؛ أَوْ يُنْشَدَ فِيهِ شِعْرٌ. رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

تُنشَد فيه ضالَّة: يطلب ما ضاع من البهئم ونحو ذلك [2].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يتناص مع الأحاديث السابقة فكلها تتموج في دائرة واحدة وهي: حفظ حرمة المساجد، وتخصيصها للعبادة والذكر وطلب العلم.

ويبدأ الحديث بالتأكيد لتوثيق الخبر، لأن النص ليس من كلام رسول الله ﷺ لفظاً ولكن بالمعنى.

وفي إطار مظلة التوكيد تتحرك ثلاثة جمل إخبارية متدثرة بالنهي الصادر من رسول الله ﷺ، فالجملة الأولى: نهى عن الشراء والبيع في المسجد، وهذا أمر صريح، ونهي واضح: لأن البيع والشراء يثيران الجدل والتنازع، وعلو الصوت، والمساومات، وأحياناً يلجأ الطرفان إلى الخداع والكذب، وهذا لا يليق بمكانة المسجد وهو بيت الله عز وجل.

والجملة الثانية: تتضمن إيجازاً بالحذف: والتقدير: ونهى عن أن تنشد فيه ضالة أي في المسجد، والحذف والإيجاز من سمات بلاغة النبوة، والبناء للمجهول في الفعل: تنشد

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٧٩)، والترمذي (٣٢٢).

(٢) النهاية في (ن ش د).

"إفادة تعميم النبي ﷺ على كل مسلم ينشد ضالته، فالنهي ليس متعلقاً بشخص دون آخر، ولا بعصر دون عصر، ولا بحادثة محددة أو بموقف معين، وإنما هي قاعدة شرعية ثابتة لا يصح تغافلها في أي زمن.

وأما الجملة الثالثة: فهي تتعلق بالشعر المنهي عنه: وهو شعر اللهو والعبث، والهجاء، والتعريض بالإسلام والمسلمين، والخوض في الأعراض، وإضعاف الهمم، ولذلك قال العلماء: في تفسير هذا النهي المتعلق بإنشاد الشعر في المساجد أي شعر غير مشتمل على نحو توحيد أو على مدح الرسول ﷺ أو نحوه من مطلوبات العلوم، وقال رسول الله ﷺ: الشعر بمنزلة الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام[١].

وقال: الخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام[٢].

وقيل: إنه: في صدر حياته قبل البعثة حضر سوق عكاظ مع القوم، وشهد حلقات الشعر والخطابة، وروى عنه أنه سمع عمرو بن كلثوم ينشد معلقته المشهورة في سوق عكاظ، كما يقول صاحب كتاب الأغاني. وقال جابر بن سمرة رضي الله عنه: "جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت، فربما تبسم معهم"[٣].

وقد حث النبي ﷺ شعراء الإسلام من الصحابة على التصدي للمشركين، والدفاع عن الإسلام، فعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: "إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل"[٤].

وأنشد حسان بن ثابت في المسجد أمام رسول الله ﷺ ودعا له النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٨٦٥ (صحيح الأدب المفرد، الألباني ٦٦٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/١٥/٥٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٥٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٢٨٦).

(٤) أخرجه أحمد، ٢٧١٧٤، وقال محققو المسند حديث إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٤٨/٤٥.

بالتأييد ، فعن أبي هريرة أن عمر مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: "قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة ﷺ ، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني اللهم أيده بروح القدس، قال: اللهم نعم"[(١)].

المضامين الدعوية[(٢)]

(١) أخرجه البخاري، ٣٢١٢، ومسلم، ٢٤٨٥.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٩٨).

الحديث رقم (١٧٠٢)

١٧٠٢- وعن السائب بن يزيد الصحابي رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ[1] فِي المَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ[2] أَنْتُمَا؟ فَقَالاَ: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ، لأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ! رواه البخاريُّ[3].

ترجمة الراوي:

السائب بن يزيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٨٣).

غريب الألفاظ:

فحصبني: أي رماني بالحصباء وهي صغار الحجر[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو خاتمة باب" كراهة الخصومة في المساجد" وهو يسرد مشهداً واقعياً: من المشاهد التي تتوالى وتتجمع لتكون هذه السلسلة الذهبية من مشاهد تاريخ الرسالة المحمدية، ووقائع حياة الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ وحمايتهم للرسالة وللرسول ﷺ، وهذا المشهد حوار بين عمر بن الخطاب والسائب بن يزيد رضي الله عنهما في القسم الأول من الحديث ثم ينتقل الحوار إلى ميدان آخر وهو ميدان، الزجر والتأديب، وتوجيه بعض المسلمين الغافلين إلى ضرورة المحافظة على حرمة مسجد رسول الله ﷺ، وعدم رفع الأصوات فيه وفي كل مسجد وفي مقدمة ذلك: المسجد الحرام والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

---

(١) عند البخاري زيادة: (قائمًا).

(٢) (أين) لا توجد عند البخاري.

(٣) برقم (٤٧٠).

(٤) فتح الباري ٦٦٨/١، والوسيط في (ح ص ب).

والعطف بالفاء في أغلب جمل الحديث أفصح عن توالي أحداث هذا المشهد الحقيقي، وذلك يرشد إلى ضرورة تغيير المنكر وعدم التمهل والتأني في ذلك، ولنتأمل هذه الأفعال المتواليات في سرعة وحرص على القضاء على الخصومة التي نشأت في المسجد: "كنت في المسجد، فحصبني رجل فنظرت: فإذا عمر: فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، فقال من أين أنتما: فقالا: من أهل الطائف، فقال".

وإن حرف الفاء هنا أضفى على جو الحديث طبيعة الإسراع وعدم التريث في القضاء على المنكر وذلك استجابة من عمر رضي الله عنه لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماته في هذا المجال: "من رأى منكم منكراً فليغيره... إلخ"[1] الحديث.

والحوار من سمات البيان النبوي، وقد جاء الحوار في هذا الحديث على مستويين: أو في موقعين: أحدهما بين عمر بن الخطاب والسائب بن يزيد رضي الله عنهما، وثمرته أن السائب رضي الله عنه أتى بالمتخاصمين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والثاني بين ابن الخطاب رضي الله عنه والاثنين المتنازعين واللذين علت أصواتهما في المسجد وهما من الطائف، وسؤال عمر رضي الله عنه لهما "من أين أنتما..." للتعرف عليهما، لأنهما من سلوكهما بدا أنهما غريبان، لا يعرفان مكانة المسجد النبوي، وتأمل موقف عمر رضي الله عنه الحكيم اللين: وهو الشديد في الحق الذي لا يلين ولا يفرط في حق من حقوق الله، حينما قالا له: "من أهل الطائف"، لم يعاقبهما، بل نبههما إلى مراعاة حرمة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهما في أسلوب الشرط الذي يوحي بالعقوبة، ولكنها عقوبة معلقة نظراً لظروفهما وغربتهما وعدم معرفتهما بالسلوك الواجب اتباعه في المساجد، فقال: "لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما"، ولو حرف امتناع لامتناع، فقد امتنع جواب الشرط وهو العقوبة لامتناع الشرط، وهو أنهما ليسا من أهل المدينة، ثم ينالهما في نهاية الحديث السبب الذي من أجله كانا سيعاقبان، وهو "ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم": وهذا استفهام إنكاري يفيض بكثير من المعاني والتوجيهات التي فطن لها السامعون، وهذان الغريبان، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٩.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١-كراهة رفع الصوت في المساجد، ولو بالقرآن الكريم، أو الذكر وذلك خشية التشويش على المصلين، أو الذاكرين، أما إن شوش على المصلين، والذاكرين كان رفع الصوت حراماً[١].

وأجاز أبو حنيفة، ومحمد بن سلمة من أصحاب مالك رفع الصوت فيه، بالعلم، والخصومة، وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس، لأنه مجمعهم ولابد لهم منه[٢].

٢-وفيه المعذرة لأهل الجهل بالحكم إذا كان مما يخفى مثله[٣]، إذ امتنع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ضرب الرجلين اللذين رفعا أصواتهما في المسجد لما علم أنهما غريبان، جاهلان للحكم.

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٣٥/١، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٧٤/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ٥٥/٥، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٥٨/٤. وفي المسالة تفصيل. انظر: الموسوعة الفقهية ٢٠٧/٣٧-٢٠٨.

(٣) فتح الباري ٥٦١/١.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٩٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على مراعاة حرمة المساجد:

المساجد بيوت الله في الأرض، أضافها المولى تبارك وتعالى إلى نفسه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾(١) وأضافها المصطفى ﷺ إلى ربه في قوله: ((لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ))(٢) إن هذه المساجد بيوت الله أذن أن يرفع فيها اسمه وهي محل التسبيح والصلاة وقراءة القرآن، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(٣).

والمساجد بما أن الله أضافها إلى نفسه وأضافها النبي ﷺ إلى ربه، وأذن الله أن ترفع، لها حرمة ولها أحكام واحترام وتعظيم(٤).

ينبغي للمربي أن يعمل على إيضاحها وبيان أهمية مراعاتها، صيانةً وتنزيهًا للمساجد منها: كراهة الخصومة في المسجد ورفع الصوت فيه ونشد الضالة والبيع والشراء والإجارة ونحوها من المعاملات، كما دلت أحاديث الباب؛ فالمسجد له من الاحترام والقدسية ما يجعل المربي حريصًا على ترسيخها في النفوس، وتوظيف الأساليب التربوية المناسبة لتعميق هذه القدسية وهذا الاحترام وأن يبين للمتربين تلك الآداب التربوية، لأن المساجد تختلف عن الأماكن العامة.

فالمساجد بنيت للعبادة والذكر والعلم، فلا يجوز التشويش على المصلين فيها برفع الصوت والخصومة، كذلك يبين المربي لمن يقوم بتربيتهم، أن البيع والشراء ونشد

---

(١) سورة البقرة، آية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٩٠٠، ومسلم ٤٤٢.

(٣) سورة النور، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٧٦٦.

الضالة في المسجد منهي عنه، بل يجوز لمن رأى ذلك أن يدعو على الفاعل لأنه ارتكب معصية بانتهاك حرمة المسجد وخصوصيته. فالمساجد أسواق الآخرة فمن آدابها تنزيهها عن أمور الدنيا ومما لا علاقة له بالآخرة.

فالمساجد بنيت لمصالح المسلمين في الدنيا والآخرة فلا يجوز تحويلها لمصلحة شخص أو حزب أو طائفة، وعلى المربي أن يستحث المتربين على الإكثار من ذكر الله تعالى، والتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير وغيرها من الأذكار، وكذلك قراءة القرآن، وتدارس الحديث النبوي وعلم الفقه، وسائر العلوم الشرعية[1]. ويبين لهم فضل وثواب تلك الأعمال مما يساعد على ترسيخ تلك الآداب الشرعية والتربوية في النفوس. فشرف المسجد وفضله ينأيان به عن أن يكون محلاً لخصومة أو رفع صوت أو بيع وشراء ونشد ضالة ونحوها من المعاملات التي مكانها خارج المسجد لا داخله.

ثانيًا – التربية بالرفق:

إن التربية بالرفق من الأساليب التربوية الناجحة والمؤثرة والتي يحرص عليها المربي في التعامل مع من يريد تربيتهم وهدايتهم؛ لأن الرفق ولين الجانب يفتحان العقول، ويستميلان القلوب حتى يستطيع المربي أن يعمق المعاني التربوية العظيمة للقيم النبيلة التي يسعى المصلحون لغرسها في القلوب[2].

وتتجلى مظاهر الرفق في هذا الباب في فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ حيث لم يعاقب من رفعا صوتهما في مسجد النبي ﷺ وقال: "لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما" حيث رفق بهما لجهلهما بحرمة المسجد؛ فالجاهل يحتاج إلى أن يعلم أمور دينه برفق ولين – قبل أن يعاقب على الخطأ فيها – حتى يقبل عليها، ويتقبلها بقلب سليم فعلى المربي أن يعلم من يقوم بتربيتهم بكل رفق ولين، فمن المشاعر النبيلة التي يجب أن يتحلى بها المربي، الرفق بالطلبة والرأفة بهم والعطف عليهم والرحمة بهم. أما المعلم الذي يتجرد من خلق الرحمة، فإنه يكون فظًا عتيًا غليظًا قاسيًا؛ مما يؤدي إلى

---

(١) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ص ١٩٢-١٩٤.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٣٦٦.

نفور الطلبة وتمردهم؛ فالرفق والرحمة يؤديان إلى استجلاب قلوب الطلبة ودفعهم إلى الطاعة برغبة ذاتية والإقبال على التعلم بطواعية والاستفادة من التعليم بكل طاقاتهم، وتقبل النصح والتوجيه والنقد من المعلم دون تذمر، بل إن الطلبة يتقبلون العقاب من المعلم المحبوب بنفس راضية، وقلوب صافية؛ لأنهم يعرفون أنه يعاقبهم على منافعهم ومصالحهم وليس انتقامًا منهم[١].

ثالثًا - أسلوب الأحداث الجارية:

يتعرض الناس في حياتهم دومًا للأحداث التي تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة أو لأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجة عن إرادتهم، والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدىً بغير عبرة وبغير توجيه وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها.

ومزية الأحداث - كأسلوب تربوي - أنها تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال فيكون من الحكمة - هنا - استخدام الدواء عند حدوث الداء[٢].

ويظهر هذا الأسلوب في هذا الباب عندما استغل عمر بن الخطاب ﵁، حدث رفع اثنين من أهل الطائف صوتهما في مسجد رسول الله ﷺ وقال لهما: "لو كنتما من أهل البلد، لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله...".

وهو بذلك يوجه من علا صوتهما ويبين لهما خطأ هذا الفعل مستغلاً هذا الحدث في تربيتهما، والتربية بالأحداث تعرف بقوة تأثيرها وشدة سيطرتها على النفس والفكر، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس، إن كانت هذه الظاهرة خارجية، وعن طريق التأمل، إن كانت داخلية[٣].



---

(١) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان، ص ٩٨، ٩٩.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفرة، ص ٥٧٢.

٣١١- باب نهي من أكل ثوماً أَوْ بصلاً

أَوْ كراثاً أَوْ غيره مِمَّا لَهُ رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته إلاَّ لضرورة

الحديث رقم (١٧٠٣)

١٧٠٣- عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**مَنْ أكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ** -يعني: الثُّومَ- **فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا**)). متفق عَلَيْهِ[١].

وفي روايةٍ لمسلم[٢]: ((**مساجدنا**)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن المسلم يجب أن يكون نظيفاً، حريصاً على إزالة أي رائحة تؤذي المسلمين وهو ذاهب للمسجد، أو إلى أي اجتماع عام، وبعض أنواع الطعام تظل رائحته في فم آكله، وتؤذي كل من يتحدث معه أو يجلس بجواره، ولذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللبن والتمر بالأطيبين" لأنهما لا يؤذيان أحداً برائحتهما ولهما فوائد جمة، وأما الثوم إذا أكل نيِّئاً تبقى رائحته، وتؤذى كل من يجلس بجوار آكل الثوم من المصلين، ولذلك جاء أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم متسماً بالشدة، وهو ينهي كل من أكل الثوم عن الاقتراب من المسجد.

والحديث جملة واحدة تمثل قاعدة من قواعد السلوك الإسلامي. وهذه الجملة شرطية وشرطيتها تفيد أن آكل الثوم ليس ممتنعاً، ولكنه منهي عنه حالة دخول المسجد، وإذ أُكل نيّئاً، وجملة فعل الشرط تضمنت اسم الإشارة، "هذه" والمشار إليه

---

(١) أخرجه البخاري (٨٥٣) واللفظ له، ومسلم (٥٦١/٦٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٥).

(٢) برقم (٥٦١/٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٥).

الشجرة، وقيل في تحديدها: يعني الثوم، وهذا التحديد الإشاري فيه دقة وتحذير من رسول الله ﷺ بعدم الإصغاء إلى هذا التحذير، ولذلك جاء التعبير في جواب الشرط بقوله: "فلا يقربن"، ولم يقل: فلا يدخلن، وفي ذلك إرشاد بضرورة الابتعاد عن المسجد، وعدم مصافحة المصلين أو المشي حتى باب المسجد، منعاً للأذى الذي ينفر الناس، ويشغلهم عن صلاتهم.

وصيغة الجمع في قوله: "مسجدنا" للاستغراق والتعميم، والمراد: كل مساجد المسلمين، ويؤيد ذلك، رواية مسلم: "مساجدنا" وقد ثبت أنه ﷺ كان يترك الثوم دائماً لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة، وقال العلماء: فينبغي لمحبة النبي ﷺ موافقته في ترك الثوم ونحوه، وكراهة ما كان يكرهه، فإن من أوصاف المحب الصادق أن يحب ما أحب محبوبه، ويكره ما يكرهه.

فقه الحديث

وتشتمل هذه الأحاديث من الفقه على تنزيه المسجد، وصيانته عن الروائح الكريهة، إذ نهى رسول الله ﷺ من أكل ثوماً، أو بصلاً أو كراثاً عن دخول المساجد.

وقد اختلف في النهي هل هو للتحريم، أو للكراهة؟

فذهب المالكية[1]، وبعض الحنابلة[2] إلى أنه النهي للتحريم.

وذهب الشافعية[3]، وبعض الحنابلة[4] إلى أنه للكراهة.

ويقاس على الثوم والبصل، والكراث، ما له رائحة كريهة يتأذى بها المسلمون

---

(١) التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٨٣/٢، والفواكه الدواني ٢١٩/٢.

(٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٠٤/٢.

(٣) روضة الطالبين ٢٩٧/١، وفتح الوهاب ١٠٩/١.

(٤) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٠٤/٢ وفيه: (يكره حضور المسجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً، أو فجلاً أو نحوه. حتى يذهب ريحه على الصحيح من المذهب).

كالدخان، وصاحب البخر الذي تنبعث من فمه رائحة كريهة، ومن به جرحٌ منتن، وصاحب الثياب القذرة، وغير ذلك، لأن في ذلك إيذاء للناس وإضراراً بهم، وهو محرم، وما أدى إلى الحرام فهو حرام[١].

وليس المراد بالتحريم تحريم أكل البصل والثوم، وإنما المراد تحريم دخول المسجد على من أكلهما نيئين من أجل الروائح الكريهة، أما إذا كان مطبوخاً فلا يشمله النهي لذهاب تلك الرائحة منه[٢]، ولقول عمر رضي الله عنه "فمن أكلهما فليمتهما طبخاً".

والأظهر أن النهي عام في كل المساجد لوجود الأذى، خلافاً لمن خص النهي بالمسجد النبوي بالمدينة[٣].

ويلحق بالمساجد مجامع الصلاة، وغيرها كمصلى العيد، والجنائز، ومجامع العلم، والذكر، الولائم، ولا يلحق بها الأسواق، ونحوها[٤].

وفي الأحاديث دليل على منع آكل الثوم ونحوه من دخول المساجد حتى وإن كانت خالية، لعموم الأحاديث، ولأن المساجد مسكن الملائكة وهي تتأذى بما يتأذى منه بنو آدم[٥].

المضامين الدعوية[٦]

أولاً: من موضوعات الدعوة: نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو غيره مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأذى الملائكة مما يتأذى منه بنو آدم.

---

(١) حاشية ابن عابدين ٦٦١/١، الفقه الواضح للدكتور محمد بكر إسماعيل ٣٥٦/١.

(٢) الدين الخالص ٢٤٨/٣، وأيضاً: التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٨٣/٢.

(٣) حاشية ابن عابدين ٦٦١/١، وشرح صحيح مسلم ٤٨/٥.

(٤) شرح صحيح مسلم ٤٨/٥، والفقه الواضح ٣٥٦/١، والدين الخالص ٢٤٨/٣.

(٥) الفواكه الدواني ٢١٩/٢-٢٢٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٢٠٤/٢، وشرح صحيح مسلم ٤٨/٥، والدين الخالص ٢٤٩/٣.

(٦) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٠٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٠٤، ١٧٠٥، ١٧٠٦).

ثالثاً: من مهام الداعية: تغيير المنكر باليد إن قدر على ذلك.

رابعاً: من أهداف الدعوة: سد كل طريق يؤدي إلى أن يتأذى المسلم من أخيه المسلم.

خامساً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو غيره مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد:

وهذا واضح من هذه الأحاديث، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم: "أن رسول الله ﷺ قال في غزوة خيبر: من أكل من هذه الشجرة -يعني الثوم- فلا يأتين المساجد"[١].

قال النووي: "هذا تصريح بنهي من أكل الثوم ونحوه عن دخول كل مسجد"[٢].

قال ابن حجر: " أن القول المذكور صدر منه ﷺ عقب فتح خيبر فعلى هذا فقوله مسجدنا يريد به المكان الذي أعد ليصلي فيه مدة إقامته هناك أو المراد بالمسجد الجنس والإضافة إلى المسلمين، أي فلا يقربن مسجد المسلمين، ويؤيده رواية أحمد[٣] عن يحيى القطان فيه بلفظ "فلا يقربن المساجد" ونحوه لمسلم[٤] وهذا يدفع قول من خص النهي بمسجد النبي ﷺ"[٥].

وقال النووي: "إن هذا النهى إنما هو عن حضور المسجد لا عن أكل الثوم والبصل ونحوهما، فهذه البقول حلال بإجماع من يعتد به ...، قال العلماء: ويلحق بالثوم والبصل والكراث كل ما له رائحة كريهة من المأكولات وغيرها، قال القاضي[٦]: ويلحق به من أكل فجلاً وكان يتجشى"[٧].

---

(١) أخرجه مسلم٥٦١، وهو عند البخاري ٨٥٣ بنحوه.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤٩/٥/٣ .

(٣) أخرجه أحمد ٢/٢١ رقم ٤٧١٥ بلفظ: "من أكل من هذه الشجرة، فلا يأتين المساجد" وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحيح مسلم ٦٨-٥٦١.

(٥) فتح الباري ٣٤٠/٢، ط الريان.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٩٧/٢

(٧) شرح صحيح مسلم ٤٩/٥/٣-٥٠.

وقال ابن عثيمين: "وكذلك قال العلماء: من كان به رائحة أسنان كريهة أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يقرب المسجد حتى يزيل هذه الرائحة، لأن العلة قائمة وهي تأذي الملائكة بالروائح الكريهة"[١]، وقال ابن المرابط: "ويلحق به من له بخر في فيه (أي فمه) أو به جرح له رائحة"[٢].

وقال ابن هبيرة: "في هذا الحديث زجر عن أذى الناس بكل حال، وأمر بتحسين الأدب في حضور مواطن الصلاة من تعاهد الإنسان نفسه بترك ما يؤذي ريحه"[٣].

وقال النووي: "قال القاضي[٤]: وقاس العلماء على هذا مجامع الصلاة غير المسجد كمصلى العيد والجنائز ونحوها من مجامع العبادات، وكذا مجامع العلم والذكر والولائم ونحوها. ولا يلتحق بها الأسواق ونحوها"[٥]. لكن ابن حجر قال: "لكن قد علل المنع في الحديث بترك أذى الملائكة وترك أذى المسلمين، فإن كان كل منهما جزء علة اختص النهى بالمساجد وما في معناها. وهذا هو الأظهر وإلا لعمّ النهي كل مجمع كالأسواق، ويؤيد هذا البحث قوله في حديث أبي سعيد عند مسلم[٦] "من أكل من هذه الشجرة شيئاً فلا يقربنا في المسجد"[٧].

والخلاصة أن كل من كان به رائحة كريهة يتأذى بها الناس فعليه أن لا يدخل المسجد حتى لا يكون سبباً للأذى سواء للملائكة أو للناس، ومن ثم يكون سبباً في التشويش على الناس في صلاتهم وذكرهم، وإنما شرعت المساجد لذكر الله تعالى كما قال ﷺ: "إنما هي لذكر الله تعالى وقراءة القرآن"[٨]. كما أن امتناع من كان

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٧٠/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ٥٠/٥/٣. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٩٧/٢.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٠٨/٤.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٩٧/٢

(٥) شرح صحيح مسلم ٥٠/٥/٣. وانظر: المفهم للقرطبي المحدث، ١٦٦/٢.

(٦) صحيح مسلم ٥٦٥/٧٦.

(٧) فتح الباري ٣٤٣/٢/ .

(٨) أخرجه مسلم ٢٨٥.

هـذا صفته عن دخول المسجد من تعظيم المساجد، قال القرطبي: "ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك، وذلك من تعظيمها"[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأذي الملائكة مما يتأذى منه بنو آدم:

هـذا واضح من قول النبي ﷺ: "ومن أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم"، قال النووي: "قال العلماء في هذا الحديث دليل على منع أكل الثوم ونحوه من دخول المسجد وإن كان خالياً، لأنه محل الملائكة ولعموم الحديث"[٢].

وقد كان النبي ﷺ لا يأكل الثوم ونحوه لأنه كان يناجي الملائكة وحرصاً على ألا يؤذيهم، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا -أو قال: فليعتزل مسجدنا- وليقعد في بيته، وأتى النبي ﷺ بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحاً، فسأل فأخبر بما فيها من البقول، فقال: قربوها. إلى بعض أصحابه كان معه فلما رآه كره أكلها قال: كل، فإني أناجي من لا تناجي"[٣]. وقال ابن حجر: "أي الملائكة وفي حديث أبي أيوب عند ابن خزيمة وابن حبان[٤] من وجه آخر " أن رسول الله ﷺ أرسل إليه بطعام فيه خضرة فيه بصل أو كراث فلم يَرَ فيه أثر رسول الله ﷺ فأبى أنْ يأكل، فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تأكل؟ قال: لم أر أثر يدك فيه يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: أستحيي من ملائكة الله، وليس بمحرم". ولهما[٥] من حديث أم أيوب قالت: نزل علينا رسول الله ﷺ فتكلفنا له طعاماً فيه بعض البقول، فذكر الحديث نحوه، وقال فيه: كلوا فإني لست كأحد منكم، إني أخاف أن أوذي صاحبي"[٦]، وفي صحيح ابن حبان كذلك: "فيها ريح الثوم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٧/١٢/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم ٥١/٥/٣.

(٣) أخرجه البخاري ٨٥٥، ومسلم ٧٣-٥٦٤.

(٤) أخرجه ابن حبان ٢٠٩٢، وقال المحقق إسناده صحيح، وانظر: تتمة تخريجه هناك.

(٥) أخرجه ابن حبان ٢٠٩٣، وقال المحقق: إسناده حسن في الشواهد.

(٦) فتح الباري ٣٤٢/٢، .

ومعي ملك"[١].

والملائكة السياحون يتبعون مجالس الذكر[٢]، قال ابن القيم: "فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه، كما أخرجا في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله ملائكة فضلا[٣] يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم تعالى - وهو أعلم بهم - ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك، قال فيقول: هل رأوني؟ قال فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً... الحديث، وفيه: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم. إنما جاء لحاجة. قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم"[٤].

ثم قال ابن القيم: "فمجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين، وكل مضاف إلى شكله وأشباهه. وكل امرئ بصير إلى ما يناسبه"[٥].

وقال ابن حجر: "وفي الحديث فضل مجالس الذكر والذاكرين وفضل الاجتماع على ذلك. وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل الله تعالى به عليهم، إكراماً لهم ولو لم يشاركهم في أصل الذكر وفيه محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم"[٦].

كما أن الملائكة السياحين هم الذين يبلغون النبي صلى الله عليه وسلم من أمته السلام[٧]، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني من

---

(١) أخرجه ابن حبان ٢٠٩٤، وقال المحقق: إسناده حسن.

(٢) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ١١٧.

(٣) أي أنهم ملائكة زائدون عن الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق، فهؤلاء السيارة لا وظيفة لهم، وإنما مقصودهم حلق الذكر، شرح صحيح مسلم للنووي، ١٦/١٧/٩".

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٠٨، ومسلم ٢٦٨٩.

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢/٣٤٤-٣٤٥.

(٦) فتح الباري ٢١٣/١١ .

(٧) انظر أصول الإيمان ١١٨.

أمتي السلام))[١].

وقد قال النبي ﷺ: ((لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ))[٢].

قال النووي: "قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى، وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات، ولأن بعضها يسمى شيطاناً كما جاء به الحديث[٣]. والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة ولأنها منهي عن اتخاذها فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه وفي بيته ودفعها أذى الشيطان. وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتاً فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت ولا يفارقون بني آدم في كل حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها. قال الخطابي: وإنما لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة مما يحرم اقتناؤه من الكلاب والصور، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع والماشية والصورة التي تمتهن في البساط والوسادة وغيرهما فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه. والأظهر أنه عام في كل كلب وكل صورة وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث"[٤].

ثالثاً- من مهام الداعية: تغيير المنكر باليد إن قدر على ذلك:

هذا واضح من قول عمر بن الخطاب "لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحها من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع"، قال النووي: "هذا فيه إخراج من وجد منه ريح الثوم والبصل ونحوهما من المسجد، وإزالة المنكر باليد لمن أمكنه"[٥]. وقال ابن

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٧/١ رقم ٣٦٦٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ١٨٣/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٣٢٢، ومسلم ٢١٠٦.

(٣) أخرجه مسلم ٥١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم ٨٨/١٤/٧-٩٠.

(٥) شرح صحيح مسلم ٥٥/٥/٣.

عثيمين: "البقيع قريب من المسجد النبوي، لكن يبعده إلى البقيع تعزيراً له وإلا فيكفي أن يخرجه من باب المسجد، لكن من أجل التعزير كان يخرجه إلى هذا المكان الذي هو بعيد نوعاً ما"(١).

وقال القرطبي: "قال العلماء: إذا كانت العلة في إخراجه من المسجد أنه يتأذى به، ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان(٢) سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه(٣) لسوء صناعته، أو عاهة مؤذية كالجذام وشبهه. وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها، مَن أكل الثُّوم وما في معناه، مما له رائحة كريهة تؤذي الناس. ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به. قال أبو عمر بن عبد البر(٤): وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام أفتى في رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد بلسانه ويده فشُوور فيه؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه، وألا يشاهد(٥) معهم الصلاة؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه، فذاكرته يوماً أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول؛ فاستدل بحديث الثُّوم، وقال: هو عندي أكثر أذى من آكل الثوم، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة في المسجد"(٦).

وقال ابن القيم: "إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف كما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٦٨/٢-١٧٦٩.

(٢) ذرب اللسان: فاسد اللسان بذيئه. القاموس المحيط في (ذ ر ب).

(٣) أي لا تفارقه، انظر الوسيط في (ر ي م).

(٤) التمهيد ٣٤٩/٢، "موسوعة شروح الوطأ"

(٥) في نسخة: يشهد كما في حاشية المحقق على تفسير القرطبي.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٧/١٢/٦-٢٦٨، وقد نقله عن ابن عبدالبر في التمهيد، ٣٤٩/٢ (موسوعة شروح الوطأ). كما نقل بعضه عن شيخه القرطبي المحدث صاحب المفهم، ١٦٦/٢.

منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والوُلاَة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابةُ رسولَ الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: ((لا، ما أقاموا الصلاة))[1] وقال: ((مَنْ رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعَنَّ يداً من طاعته))[2] ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر؛ فطلب إزالته فتولَّد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عَزَمَ على تغيير البيت ورَدِّهِ على قواعد إبراهيم، ومَنَعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشيةُ وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حَديثي عهدٍ بكفرٍ، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظمَ منه كما وجد سواء.

فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه؛ فالدرجتان الأوليَاَنِ مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحبّ إلى الله ورسوله كَرَمْي النشّاب[3] وسباق الخيل ونحو ذلك، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مُكاءَ وتَصْدية[4]، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٥٣، ومسلم ١٨٤٩.

(٣) النشّاب: النَّبْل. القاموس المحيط في (ن ش ب).

(٤) المكاء: الصفير بالفم، أو تشبيك الأصابع والنفخ فيها. والتصدية: التصفيق، القاموس المحيط في (م ك ا) وفي (ص د ا).

من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكُتُب المجون ونحوها وخِفْتَ من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فَدَعْهُ وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعضُ أصحابي في زمن التَّتَار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم مَنْ كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمرُ عن قتل النفوس وسَبْي الذرية وأخذ الأموال فَدَعْهم"(١).

رابعاً- من أهداف الدعوة: سد كل طريق يؤدي إلى ان يتأذى المسلم من أخيه المسلم:

وهذا واضح من النهي لآكل الثوم أو البصل والكراث أو ما في معناه مما له رائحة من دخول المسجد، وذلك حتى لا يؤذي المصلين والملائكة، وقد جاء هذا صريحاً في قوله ﷺ: "من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم".

قال ابن عبدالبر: "روى النهى عن أكل الثوم بألفاظ متقاربة المعاني عن النبي ﷺ جماعة منهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وحذيفة وابن عمر وجابر وأنس وأبو سعيد والمغيرة ومعقل بن يسار... اختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال بعضهم: إنما خرج النهى عن مسجد النبي ﷺ من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه على النبي ﷺ، وقال آخرون، وهم الأكثرون: مسجد النبي ﷺ وسائر المساجد غيره في ذلك سواء وملائكة الوحى في ذلك وغيرها سواء. لأنه قد أخبر أنه يتأذى منه بنو آدم، وقال: "إن الملائكة تتأذى بما يتأذى منه بنو آدم". وقال: "يؤذينا بريح الثوم"(٢)، ولا يحل أذى الجليس المسلم حيث كان"(٣).

وقا د. إبراهيم بن صالح الخضيري: "والمتأمل لحال الناس اليوم يجد أنهم لا يؤتون

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٤/٣-٥، ط دار الجيل.

(٢) أخرجه مالك ٢٩ عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وانظر: كلام ابن عبدالبر في التمهيد، ٢/٢٣٥.

(٣) التمهيد ٢/٢٣٦-٢٢٨، موسوعة شروح الموطأ.

المساجد قدرها، ولا يعطونها القيمة التي أراد الله أن تكون فيها، فتراهم يأتون المساجد وروائحهم خبيثة منتنة، وثيابهم قد تحتوي على قاذورات فيها روائح تؤذي المسلمين، وهذا أمر يجب أن يأخذه أئمة المساجد ومن يتولى تعليم الناس أمور دينهم بعين الاعتبار وأن يحذروهم من التهاون بهذه القضية.

والمتأمل للأحاديث المتقدمة يجد أن الدين الإسلامي دين يسر ودين طهارة وكمال احتوى جميع ما يحتاجه البشر وراعى شعورهم وقدر تكافل الجماعة المؤمنة.

والمتأمل لتشريعات الإسلام في كل جانب من جوانب الحياة يجد أن هذا الدين العظيم لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد جاء لها بحكم أدركه من أدركه، وخفي على من قصرت عقولهم عن إدراك أسرار الشريعة الإسلامية وحين يحرص الإسلام على رعاية الجماعة المؤمنة فإنما يدل هذا على أن الإسلام يبني أمة قوية متماسكة الأركان. يرعى غنيها فقيرها، وحين تكون مجالسهم في المساجد وغيرها صافية من الكدر فإن ذلك عامل من عوامل الألفة، ولعمري إن المؤمن ليدرك أن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على البشرية، فلندعُ إلى ذلك ما أمكننا... ومن هذا نعلم اهتمام الإسلام بمشاعر المسلمين، ورعاية حقوقهم والحفاظ على المساجد من الأذى"[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

هذا يتضح من هذه الأحاديث على النحو التالي:

١- أن هذه البقول لم تحرم رغم أن لها رائحة كريهة يتأذى منها الناس، وقد سأل أبو أيوب رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن الثوم: أحرام هو؟ قال: "لا ولكني أكرهه"[٢]، وجاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: " يا أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجره أكره ريحها"[٣]، وقال النووي: "هذه البقول حلال بإجماع من يعتد به"[٤].

---

(١) أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية ٣/١٨٩-١٩١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٥٣.

(٣) أخرجه مسلم ٥٦٥.

(٤) شرح صحيح مسلم ٣/٥/٤٩.

وهذا من تيسير الإسلام، وذلك لكثرة فوائد الثوم والبصل، قال الدكتور صالح بن أحمد رضا: "يؤكد الأطباء اليوم على ما في الثوم والبصل من المنافع الكثيرة التي تمضي إلى بدن الإنسان لتمده بمواد نافعة تكون سبباً بإذن الله تعالى في زوال كثير من الأمراض والأسقام، ومن هنا ندرك السر في أحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بهاتين البقلتين، حيث نجد أنه بالرغم من نفرته منهما وعدم أكلهما أو أكله طعاماً توجدان هما أو إحداهما فيه، وأمره من أكلهما بعدم اقترابه من جماعة المسلمين ومساجدهم، إلا أنه لم يحرمهما، بل على العكس من ذلك، فإنه أباح أكلهما للمؤمنين ولكنه من أجل ألا يكون الإنسان متسبباً في إيذاء الناس والملائكة، أمر من أكلهما بعدم دخول المسجد، فالأمر يعود إلى الإنسان نفسه، فعليه أن يعمل جهده ألا يأكلهما قبيل الذهاب إلى الصلاة، ووقت الصلاة معلوم لكل مسلم، أو يحاول أن يذهب إلى المسجد وليس في فمه أثر لريح هاتين النبتتين"(١).

٢- أن من أَكَل هذه البقول وتمكن من إزالة روائحها الكريهة، فإنه يجوز له أن يدخل المسجد، قال ابن عثيمين: "يجوز إذا أكل ما يذهب الرائحة إذهاباً كاملاً، ولا صار يخرج من المعدة رائحة فلا بأس، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً"(٢).

٣- يجوز دخول المسجد مع أكل هذه البقول إذا أمات رائحتها بالطبخ. وهذا واضح من قول عمر بن الخطاب: "فمن أكلهما فليمتهما طبخاً"، قال ابن هبيرة: "فيه كراهية أن يتعرض الإنسان لأكل الثوم والبصل وكل ما يجري مجراهما في نتن الريح لئلا يتأذى به جلساؤه وإخوانه وإلا أن يميته بالطبخ"(٣). وقد قال النبي ﷺ "إن كنتم لابد آكليهما فأميتوهما طبخاً"، يعني البصل والثوم"(٤). قال النووي: "معناه من راد أكلهما فليمت رائحتهما بالطبخ، وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته(٥)، وقال ابن

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية ١/٣٣٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٧٠.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١/١٥٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٨٢٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٤٢).

(٥) شرح صحيح مسلم، ٣/٥/٥٥.

عثيمين: "إنه إذا طبخهما راحت الرائحة وحصلت الفائدة"[1].

٤- يجوز دخول المسجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً بسبب مرض يُداوي منه أو نحو ذلك ودليل ذلك حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: أكلت ثوماً فأتيت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد سبقت بركعة، فلما دخلت المسجد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريح الثوم، فما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، قال: "من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا حتى يذهب ريحها أو ريحه، فلما قضيت الصلاة جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يارسول الله والله لتعطيني يدك، قال: فأدخلت يده في كم قميصي إلى صدري فإذا أنا معصوب الصدر، قال: "إن لك عذراً"[2]، وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر إسقاط الحرج عن آكل ما وصفنا نيئاً مع شهوده الجماعة إذا كان معذوراً من علة يداوى بها[3].

كل هذا يؤكد يسر الشريعة الإسلامية، جاء في الموسوعة الفقهية: "اليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصد أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، وأحاديث نبوية صحيحة وأجمعت الأمة عليه"[4].

وقال الدكتور القرضاوي: "إن التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية"[5].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ١٧٧٠/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٨٢٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي ٣٢٤١).

(٣) صحيح ابن حبان، الحديث ٢٠٩٥، وينظر تتمة تخريجه هناك.

(٤) الموسوعة الفقهية ٢١٣/١٤.

(٥) الخصائص العامة للإسلام ١٧٧، وانظر: الإحكام والتقرير لقاعدة المشقة تجلب التيسير. عدنان محمد أمامة. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الحديث رقم (١٧٠٤)

١٧٠٤- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ أَكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ فَلاَ يَقْرَبَنَّا، وَ[1] لاَ يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا)) متفق عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يشع بتوجيهات المصطفى ﷺ التي توهجت في الحديث السابق، ولكن الألفاظ تختلف، وكذلك يتضمن هذا الحديث تشديداً أكثر، وتنفيراً أشد من هذا الذي أطلق عليه العلماء "الأبخر" وهو صاحب الرائحة الكريهة بسبب الطعام وغيره، وقالوا: على الإمام أن يمنع الأبخر من مخالطة الناس دفعاً لأذى ريحه عنهم.

وصياغة هذا الحديث تتفق في مبناها مع الحديث السابق: حيث صيغ في قالب: الشرط والجواب، وصدر الحديث الذي تمثله أداة الشرط: وجملة فعل الشرط متوافقة تماماً مع الحديث السابق، "من أكل من هذه الشجرة"، يعني الثوم، وجواب الشرط هنا أكثر توضيحاً، وأكثر صراحة في التنفير من أكل الثوم "نيئاً" حيث قال: "فلا يقربنا ولا يصلين معنا".

ولنتأمل، دلالة الفعل وهي الاقتراب، فآكل الثوم ممنوع من الاقتراب من مجلس رسول الله ﷺ لأنه يؤذيه ويؤذي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويؤذي الملائكة، ويؤذي جبريل المكلف بالوحي، والتأكيد في هذا الفعل يضاعف من حجم النهي والتحذير، وصيغة الجمع في ضمير الإسناد "نا" وهي للمتكلم الجمع: ترشد إلى أنه يمنع اقترابه من أي مجلس يجتمع فيه المسلمون للذكر والدعاء والمشورة والاستغفار والصلاة، والجملة

---

(١) لفظ البخاري: (أو)، والمثبت لفظ المنذري.

(٢) أخرجه البخاري (٨٥٦) واللفظ له، ومسلم (٥٦٢/٧٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٦).

المعطوفة على جملة الشرط، "ولا يُصلِّينَّ معنا"، تُجلي الأمر أكثر، وتحدد المقصود، واقتران الفعل هنا بنون التوكيد الثقيلة يوحي بأن الأمر لا تهاون فيه، وقال العلماء: خصت الصلاة بالذكر: مع تناول ما قبله لذلك: لأن عدم الاقتراب يفيد عدم الصلاة بالأولى: قيل للاهتمام بأمر الصلاة، ودفعاً لسلب الخشوع عن المصلي ليأتي بها على الكمال المطلوب.

المضامين الدعوية[١]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٠٥)

١٧٠٥- وعن جابر ﵁، قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((مَنْ أكَلَ ثُوماً أوْ بَصَلاً فَلْيَعْتَزِلنا، أَوْ[1]: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا)) متفق عَلَيْهِ[2].

وفي روايةٍ لمسلم[3]: ((مَنْ أكَلَ البَصَلَ، والثُّومَ، والكُرَّاثَ، فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإنَّ المَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ)).

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الكراث: بَقْلة معروفة، وهي خبيثة الريح[4].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث حدد الطعام المنهي عنه حالة دخول المسجد، أو الاقتراب من مجلس رسول الله ﷺ، ومن هذه الأطعمة "الثوم والبصل والكُراث" والحديث يتفق في صياغته مع الحديثين السابقين، حيث صيغ في قالب الشرط والجواب. وهذا القالب الأسلوبي يوحي بأن الاقتراب ليس ممنوعاً، ولكنه مشروط بعدم أكل الثوم والبصل والكراث، وجواب الشرط هنا يمثل تصعيداً في موقف رسول الله ﷺ من آكل الثوم والبصل، ففي الحديث الأول قال: "فلا يقربن مسجدنا"، وفي الثاني صرَّح وحدَّد الأمر وقال: "ولا يصلين معنا"، بعد أن قال: "ولا يقربنا"، وهذه مرحلة أشد من الأولى: لأنه هناك قال: "ولا يقربن مسجدنا"، أما هنا فقد نهى عن الاقتراب من مجلس رسول الله ﷺ وصحابته ﵃، وفي هذا الحديث جاء النهي أكثر شدة ووضوحاً حيث أمر

---

(١) عند البخاري زيادة: (قال).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥٥) واللفظ له، ومسلم (٥٦٤/٧٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٧).

(٣) برقم (٥٦٤/٧٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٧).

(٤) ينظر: المصباح المنير ٦٤٠.

ذلك الشخص الذي أكل الثوم والبصل وكل من على شاكلته: أن يعتزل جماعة المسلمين، وأن يعتزل المسجد، وفي الرواية الأخرى، تعليل لهذا الأمر الصارم؛ "لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنوا آدم".

وروى أبو داود في سننه عن عائشة أنها سئلت عن البصل فقالت: (إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ فيه بصل)[١]، ولذلك قال بعض العلماء إن هذه الأطعمة ليست محرمة بل هي مكروهة كراهة تنزيه، وليست محرمة.

ويتضمن جواب الشرط في قوله: "فليعتزل مسجدنا..." حكماً: وهو وجوب اعتزال المسجد ولو في غير أوقات الصلاة لمن كانت رائحته كريهة من أكل الثوم والبصل وغيرها من الأطعمة التي تسبب ذلك، لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. والله أعلم.

المضامين الدعوية[٢]

(١) أخرجه أبوداود ٣٨٢٩، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٨٢٥).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٠٣).

الحديث رقم (١٧٠٦)

١٧٠٦- وعن عمر بن الخطاب ﷺ : أنَّه خَطَبَ يومَ الجمُعَةِ، فقَالَ في خطبته: ثُمَّ إنَّكُمْ أيُّهَا النَّاسُ تَأكُلُونَ شَجَرتَيْنِ مَا[1] أراهُمَا إلاَّ خَبِيثَتَيْنِ[2]: البَصَلَ، وَالثُّومَ. لَقَدْ رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ، إذَا وَجدَ ريحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ في المَسْجِدِ أمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ إلَى البَقِيعِ، فَمَنْ أكَلَهُمَا، فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخاً. رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

البقيع: هو: مقبرة أهل المدينة المنورة، وهي اليوم داخل المدينة المنورة، بجوار المسجد النبوي الشريف شرقاً[4].

فليمتها طبخا: أي من أراد أكلها فليمت رائحتها بالطبخ وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته[5].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب: نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً، عن دخول المسجد، ويتسم هذا الحديث في صياغته وأسلوبه بأنه جزء من خطبة لعمر بن الخطاب ﷺ، وهو يتأسى برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، ويحث على تجنب أكل الثوم والبصل.

وأسلوب الحديث يتسق مع خصائص أسلوب الخطب، والمواعظ والوصايا: من حيث

---

(١) لفظ مسلم: (لا)

(٢) عند مسلم زيادة: (هذا)، وهي لا توجد عند المنذري في ترغيبه.

(٣) برقم (٥٦٧/٧٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٩).

(٤) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٧٧.

(٥) شرح مسلم ٤٢٢.

الشرح والتفصيل بعد الإجمال، والتدليل على ما قال، والاستشهاد بمواقف رسول الله ﷺ.

ولنتأمل الظواهر الأسلوبية في هذا الحديث، فهو يبدأ بقوله: "ثم" وفي ذلك اتساق مع جو الخطبة؛ لأن هذا الكلام الآتي متمم لكلام سبق في الخطبة، فالعطف هنا ليس على مجهول، ولكن على معلوم دل عليه قول الراوي: "إنه خطب يوم جمعة فقال في خطبته"، وبعد العطف بـ"ثم" الذي يوحى بالتمهل والتفكر يأتي التأكيد... والخطاب الجَمْعي في "إنكم"، ثم النداء الذي ينبئ عن الاهتمام والحث على اتباع سنة رسول الله ﷺ في قوله: "أيها الناس".

وفي قوله: "تأكلون شجرتين" مجاز مرسل علاقته الكلية: حيث أطلق الكل وأراد الجزء، فالمراد ليس أكل الشجرتين، ولكن: الأكل من الشجرتين، وأكل ثمارهما: الثوم والبصل.

وأسلوب القصر في قوله "لا أراهما إلا خبيثتين"، يؤكد انطباق هذا الوصف عليهما، نظراً لخبث رائحتهما، وتأذى الناس من هذه الرائحة.

والتأكيد المشعر بالقسم في قوله: "لقد رأيت رسول الله ... إلخ"، يرشد إلى أهمية التدليل والتوثيق في إطلاق الأحكام الشرعية، والفعل "رأيت" بمعنى: أبصرت وشاهدت، فالدليل يقيني مشاهد، وليس ظناً أو تخميناً أو رأياً شخصياً، وأسلوب الشرط في قوله: "إذا وجد ريحهما... إلخ الحديث" يفيد بأن هذه وقائع حقيقية؛ لأن عمر رضي الله عنه رأى وأبصر ذلك، وأداة الشرط "إذا" تدل على التحقق.

وقوله "أخرج إلى البقيع"، إرشاد إلى أن صاحب الرائحة الكريهة لا يتحمل إيذاءه أحد لخبث هذه الرائحة، ومكانُه هذا المكان المعزول عن الأحياء؛ لأن الأموات في حضرة ربهم، لا يشعرون به، وقيل إن في ذلك مبالغة في الإبعاد عن المسجد وتنظيفه، وتنزيهه عن الروائح الرديئة.

والجملة الأخيرة شرطية مكونة من أداة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط، وهي تقدم حلاً لمن أراد أن يأكل من هذين الطعامين، "قال فليمتهما طبخاً": أي ليمت رائحتهما بإنضاجهما وطبخهما مع غيرهما من الطعام: وفي قول عمر رضي الله عنه تأييد لمن قال

بعدم حرمة أكل الثوم والبصل: ولكن إذا زالت رائحتهما زال القيد، وامتنع النهي، وفي قوله: "فليمتهما طبخاً": استعارة مكنية تثير الانتباه وتدعو للتأمل والبحث عن منفذ، لأن في هذين الطعامين فوائد صحية عديدة كما قال الأطباء، فإذا زالت رائحتهما لم يمتنع أكلهما. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٠٣).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على النظافة:

يهتم ديننا الحنيف بالنظافة والطهارة اهتمامًا بالغًا، إلى الحد الذي يجعلها جزءًا من الإيمان، ومطلبًا تقوم عليه العبادة؛ فالإسلام حريص على صحة وسلامة المسلم، ولا يقصر النظافة على نظافة البدن، بل يتعدى ذلك إلى نظافة كل ما شأنه أن يجلب نفعًا، أو يدفع ضررًا، تمشيًا مع القاعدة العامة "لا ضرر ولا ضرار" فنظافة الظاهر ونظافة الباطن، ونظافة المأكل والمشرب، ونظافة الملبس والبدن، ونظافة المكان والبيئة والمجتمع، ونظافة الجو واليابسة والماء، ونظافة كل شيء كبر أو صغر، كل ذلك أمر يطالبنا به ديننا الإسلامي ويحثنا عليه؛ لما لذلك من انعكاسات إيجابية، صحية وجمالية، على المستوى الفردي والجماعي والإنساني[1].

ومن احترام الإسلام للمسلم نهيه عن أكل الأشياء التي تكون مظنة الروائح الكريهة مثل: الثوم أو البصل، ذاك أن نتن الأفواه من هذه الأطعمة يؤذي الآخرين، ويُنفّر من آكلها، وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة عن تناول هذه المأكولات[2]، كما دلت على ذلك أحاديث الباب.

كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة، وهذا الأدب الكريم صيانة محمودة للمرضى والأصحاء. فقد اهتم الإسلام بنظافة الفم، وطيب رائحته لمن أراد أن يصلي مع الجماعة.

وعناية الدين بتطهير الفم وتجلية الأسنان، وتنقية ما بينها لا نظير لها في وصايا الصحة القديمة والحديثة[3]، قال رسول الله ﷺ: ((لَوْلا أَن أَشقّ على أُمّتي لأَمَرْتهُم بالسِوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاة))[4].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٥٤.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ١٥١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٧).

وقال ﷺ: ((السِّواكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضاةٌ لِلرَّبِّ))[١] فينبغي على المربين والآباء توجيه الصغار إلى العناية بنظافة أفواههم وأجسادهم، وبعدهم عن كل الأشياء التي تنفر الناس من رائحتهم أو هيئاتهم.

ثانيًا - التربية على البعد مما يؤذي الملائكة:

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم، وذلك ثابت بالأحاديث الصحيحة عنه ﷺ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، وكذا الأقذار والأوساخ.

ومن هذه الروائح التي يتأذون منها الثوم والبصل والكراث، ومما لا شك فيه أن الروائح الخبيثة كالدخان، وروائح الخمور بأنواعها تأخذ نفس الحكم، والملائكة تتأذى منها أيضًا، كالثوم والبصل والكراث وذلك واضح في قوله ﷺ "من أكل البصل، والثوم، والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم" والملائكة تتأذى من الكلاب التي تقبع في البيوت ولا تدخلها كذلك تتأذى من الصور[٢]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تدخل الملائكةُ بيتًا فيهِ كلبٌ ولا صورةٌ))[٣].

قال النووي: (قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة، كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى، وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات، ولأن بعضها يسمى شيطانًا كما جاء به الحديث والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة)[٤].

فعلى المربي توجيه من يقوم بتربيتهم إلى الامتناع عن أكل البصل والثوم عند حضور المساجد حتى يذهب ريحها، لأن هذا فيه طاعة لله ورسوله قبل أن يكون أذية للمؤمنين والملائكة قال رسول الله ﷺ: "من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم، فلا يقربن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/١ رقم ٧، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) انظر: التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص ٢٩٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٢٢٥، ٣٣٢٢، ومسلم ٢١٠٦.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٣٣٠.

مسجدنا".

وقال ﷺ: "من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزل مسجدنا" وفي رواية لمسلم: "من أكل البصل، والثوم، والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم".

ويلحق بالثوم والبصل والكراث، كل رائحة خبيثة تؤذي المصلين (كالدخان والروائح الخبيثة التي تنبعث من الجسد أو الملابس، فليحذر المصلي من أذية إخوانه المؤمنين فتتأذى الملائكة فيأثم)[1].



(١) انظر: مجالس المؤمنين في مصالح الدنيا والدين باغتنام مواسم رب العالمين، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ١/٢٢٠، ٢٢١.

٣١٢- باب كراهة الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب

لأنَّه يجلب النوم فيفوت استماع الخطبة ويخاف انتقاض الوضوء

الحديث رقم (١٧٠٧)

١٧٠٧- عن مُعاذِ بن أنس الجُهَنِيِّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الحِبْوَةِ يَومَ الجُمُعَةِ وَالإمَامُ يَخْطُبُ. رواه أَبُو داود، والترمذيُّ[1]، وقالا: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

معاذ بن أنس الجُهَني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٧).

غريب الألفاظ:

الحبوة: هي: أن يقيم الجالس ركبتيه ويقيم رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشد عليهما ويكون إليتاه على الأرض[2].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأوحد في هذا الباب: وهو يُعنى بهيئة المسلم ... وطريقة جلوسه وهو في المسجد يستمع لخطبة الجمعة، حيث يجب على المسلم أن يَعُدَّ نفسه ذهنياً وشعورياً وجسمياً، فيصفوا ذهنه، ويرق شعوره، ويطهر بدنه، ويجلس في هيئة المنتبه اليقظ؛ لأنه من زوار الله في بيته، وبيوت الله في الأرض المساجد.

ويبدأ الحديث بالتأكيد في قول: الراوي الأعلى: "إن النبي ﷺ نهى عن الحبوة يوم الجمعة... إلخ"، وهذا التأكيد يرد في صدر الرواية حتى يهتم المسلمون بهذا الأمر، ولا يظلنونه من أفعال الهيئات التي لا تدخل في أقوال الصلاة ولا أفعالها، وهذه الجلسة المنهي عنها تسبب الكسل.. وربما تجلب النوم في المسجد، وتشي بعدم اهتمام المسلم بما

---

(١) أخرجه أبو داود (١١١٠)، والترمذي (٥١٤) ولفظهما سواء. وصحّحه ابن خزيمة (١٨١٥)، وقال الحاكم (٢٨٩/١): هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) النهاية في (ح ب و).

يقوله الخطيب، وهي "الحبوة"، بضم الحاء، أو بكسرها، والاحتباء في الجلوس: هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما فيه مع ظهره ويشده عليهم، وقد يكون الاحتباء باليد عوض الثوب، وفي اللغة يقولون: حبا الرجل: أي مشى يديه وبطنه، وقالوا: احتبى بالثوب: أي: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها، وقيل: رمى فأحبى أي: وقع سهمه دون الغرض، وفي هذا المدلول اللغوي إشارة إلى أن المحتبي يوم الجمعة والإمام يخطب، يُحْرم من ثواب الصلاة الكامل، فهو مثل من رمى سهماً، ولم يظفر بصيده المطلوب، ولا غرضه المقصود، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على حكم الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب وقد اختلف الفقهاء في حكمه على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الجمهور من الحنفية[١]، والمالكية[٢]، ونقله ابن المنذر عن الشافعي[٣] وهو الصحيح عند الحنابلة[٤]، ويرون أن الاحتباء لا بأس به، ولا يكره.

واستدلوا على ذلك بما روى يعلى بن شداد بن أوس قال: شهدت مع معاوية بيت المقدس، فجمع بنا، فنظرت، فإذا جل من في المسجد أصحاب رسول الله ﷺ فرأيتهم محتبين والإمام يخطب[٥].

قال ابن قدامة: (وفعله ابن عمر وأنس، ولم نعرف لهم مخالفاً، فكان إجماعاً)[٦].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم

(٢) مواهب الجليل ١٧٦/٢.

(٣) المجموع للنووي ٤٩٦/٤.

(٤) الفروع ٩٤/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٩٦/٢، والمغني لابن قدامة ٨٧/٢.

(٥) أخرجه أبو داود ١١١١ وفي إسناده سليمان بن عبدالله بن الزبرقان لين الحديث. قاله الحافظ ابن حجر في التقريب ٣٢٦/١.

(٦) المغني لابن قدامة ٨٨/٢.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه بعض الحنابلة[١]، وبعض الشافعية[٢]، ويرون أن الاحتباء يوم الجمعة، والإمام يخطب مكروه.

واستدلوا على ذلك بحديث الباب، إذ فيه نهى النبي ﷺ عن الحبوة، غير أنهم حملوا النهي على الكراهة، وذلك لأنه يجلب النوم ويعرض طهارته للانتقاض، كما أنه يمنع من سماع الخطبة[٣].

والراجح:

هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول الذين يرون عدم كراهة الاحتباء، أما حديث النهي، فهو وإن كان الترمذي قد حسنه، إلا أن الإمام النووي قال: (في إسناده ضعيفان، فلا نسلم حسنه)[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية خطبة الجمعة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب:

هذا واضح من الحديث: "أن رسول الله ﷺ نهى عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب. قال ابن الأثير: (الاحتباء: هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب، وإنما نهى عنه، لأنه إذا لم يكن عليه إلا ثوب واحد ربما تحرك أو زال الثوب فتبدو عورته)[٥].

---

(١) الفروع ٩٤/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٩٦/٢، والمغني ٨٨/٢.

(٢) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٨/٢.

(٣) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٨/٢، والمغني لابن قدامة ٨٨/٢.

(٤) المجموع للنووي ٤٩٧/٤، وانظر أيضاً في بيان ضعف هذا الحديث: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٧/٣.

(٥) النهاية في غريب الحديث، ص ١٨٥. وجاء في الموسوعة الفقهية الميسرة، ٦٥: الاحتباء هو جلوس المرء على إليتيه ونصب ساقيه وضمهما إلى صدره.

وقال الخطابي: "إنما نهى عن الاحتباء في ذلك الوقت لأنه يجلب النوم ويعرض طهارته للانتقاض، فنهى عن ذلك وأمر بالاستيفاز في القعود لاستماع الخطبة والذكر وفيه دليل على أن الاستناد يوم الجمعة في ذلك المقام مكروه، لأنه بعلة الاحتباء أو أكثر"[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية ما يلي: "الاحتباء خارج الصلاة مباح إن لم يرافقه محظور شرعي آخر ككشف العورة مثلاً، والأولى تركه وقت الخطبة وعند انتظار الصلاة، لأنه يكون متهيئاً للنوم والوقوع وانتقاض الوضوء. وهو مكروه في الصلاة لما ورد من النهي عنه[٢]، وما فيه من مخالفة الوضع المسنون في الصلاة[٣].

لكن قال النووي: "الاحتباء يوم الجمعة لمن حضر الخطبة والإمام يخطب نقل ابن المنذر عن الشافعي: أنه لا يكره ... ونقله ابن المنذر عن ابن عمر وابن المسيب والحسن البصري وعطاء وابن سيرين وأبي الزبير وسالم بن عبدالله وشريح القاضي وعكرمة بن خالد ونافع ومالك والثوري والأوزاعي وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق وأبي ثور. قال: وكره ذلك بعض أهل الحديث[٤]"[٥].

لكن المباركفوري قال: "أحاديث الباب وإن كانت ضعيفة لكن يقوي بعضها بعضاً، ولا شك في أن الحبوة جالبة للنوم، فالأولى أن يحترز عنها يوم الجمعة في حال الخطبة، هذا ما عندي والله تعالى أعلم"[٦].

---

(١) معالم السنن: الخطابي: حمد بن محمد "٣٨٨هـ"، مطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري، وتهذيب السنن لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت، وهي ط مصورة، ٢١/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦٧، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن اشتمال الصماء، وأن يحتبي الرجل في ثوب واحد، ليس على فرجه منه شيء. وأخرجه مسلم ٢٠٩٩.

(٣) الموسوعة الفقهية ٦٦/٢.

(٤) انظر هذه الآثار في مصنف عبدالرزاق ٢٥٤/٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١١٨/٢-١١٩. وانظر كذلك نيل الأوطار ٦١٤-٦٢٥.

(٥) المجموع شرح المهذب ٣١٩/٤.

(٦) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٧٨٦/١.

وقال ابن عثيمين: "قد نهى النبي ﷺ عنها والإمام يخطب يوم الجمعة لسببين: الأول: أنه ربما تكون هذه الحبوة سبباً لجلب النوم إليه فينام عن سماع الخطبة، والثاني: أنه ربما لو تحرك لبدت عورته، لأنه غالب لباس الناس فيما سبق الأزر والأردية، ولو تحرك أو انقلب لبدت عورته، وأما إذا أَمِن ذلك، فإنه لا بأس بها. لأن النهي إذا كان لعلة معقولة فزالت العلة فإنه يزول النهى)[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اهمية خطبة الجمعة:

هذا يستنبط من النهى عن الاحتباء والإمام يخطب، نظراً لما قد تؤدي هذه الهيئة من الجلوس إلى النوم، فيفوت الاستماع إلى الخطبة، فيفوت المقصود من الاجتماع يوم الجمعة، "فالخطبة -كما يقول ابن القيم- يقصد بها: الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه وتحذيرهم من بأسه ونقمته، ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جنابه، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها"[2].

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالسعى إلى صلاة الجمعة عند النداء إليها، كما وبخ قوماً انصرفوا عن النبي ﷺ وهو يخطبهم، كل هذا يدل على أهمية الخطبة وصلاة الجمعة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

قال الطاهر بن عاشور: "جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/ ١٧٧١.

(٢) زاد المعاد ١/ ٣٩٨.

(٣) سورة الجمعة، الآيات: ٩-١١.

وإصلاحهم، قال القفال: لما جعل الله الناس أشرف العالم السفلى لم يخف عظم المنة وجلالة قدر موهبته لهم فأمرهم بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله به عليهم، ولكل أهل ملة معروفة يوم من الأسبوع معظّم، فلليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد وللمسلمين يوم الجمعة...

ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وتعظيم احتيج فيه إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته، فجمعت الجماعات لذلك، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها، ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة، جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى للاجتماع أ. هـ كلام القفال... والسعي: أصله الاشتداد في المشي وذكر الله فسر بالصلاة وفسر بالخطبة، بهذا فسره سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، قال أبو بكر بن العربي: "والصحيح أنه الجميع أوله الخطبة"[1]، قلت: وإيثار "ذكر الله"، هنا دون أن يقول: إلى الصلاة، كما قال: "فإذا قضيت الصلاة" لتتأتى إرادة الأمرين الخطبة والصلاة، وفيه دليل على وجوب الخطبة في صلاة الجمعة وشرطيته ... وجملة "وتركوك قائماً"، تفظيع لفعلهم إذ فرطوا في سماع وعظ النبي ﷺ أي تركوك قائماً على المنبر، وذلك في خطبة الجمعة، والظاهر أنها جملة حالية، أى ترك في حال الموعظة والإرشاد فأضاعوا علماً عظيماً بانفضاضهم إلى التجارة واللهو، وهذه الآية تدل على وجوب حضور الخطبة في صلاة الجمعة، إذ لم يقل: وتركوا الصلاة. وأمر الله نبيه ﷺ أن يعظهم بأن ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذة اللهو، وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله على ما يشغل عنها من وسائل الارتزاق، جزاء لهم على إيثارهم جزاء في الدنيا قبل جزاء الآخرة، فرب رزق لم ينتفع به الحريص عليه، وإن كان كثيراً، ورب رزق قليل ينتفع به صاحبه

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١٨٠٥/٤.

ويعود عليه بصلاح"[١].

وقال عبدالله البسام: "قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: الشارع من حكمته ومحاسن شرعه شرع للمسلمين الاجتماعات لأنواع العبادات من الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة ومصلى العيد، ومشهد الحج في البقاع المقدسة، ففي هذه الاجتماعات من الحكم والأسرار ما يفوت الحصر فمنها:

١- إظهار دين الله تعالى وإعلاء كلمته.

٢- إظهار شعائر الإسلام وبيان جمالها.

٣- إظهار محاسن الإسلام وجمال تشريعاته.

٤- تعارف المسلمين وتآلفهم.

٥- التعرف على بلدانهم وأحوالهم وآمالهم وآلامهم.

٦- التشاور وتبادل الآراء النافعة.

٧- التعاون على الحق والتآزر على الدين.

٨- اجتماع كلمة المسلمين ووحدة صفهم، وتوحيد هدفهم نحو الخير.

وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[٢].

فاجتماع المسلمين في عباداتهم خير وبركة وإصلاح وفلاح قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٣].

اسأل الله تعالى أن يوحد كلمة المسلمين، ويأخذ بيدهم إلى السداد، وأن يجمع قلوبهم على الحق، وأن يعزهم بدينه فهو القادر على ذلك، وهو نعم المولى ونعم النصير"[٤].

---

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٢٢/٢٨/١١-٢٣٠، بتصرف كبير.

(٢) سورة الحج، آية: ٢٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٤) توضيح الأحكام ٣١٨/٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على احترام مجلس العلم:

يجب على المتعلمين احترام مجلس العلم، ويقصد بمجلس العلم المفهوم الشامل لكل مكان يلقى فيه العلم، سواء جثا الطلاب على ركبهم بين يدي شيوخهم في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، أو في دروس المساجد، أو جلسوا على المقاعد في الفصول الدراسية أو قاعات المحاضرات الجامعية، فكل تلك الأماكن تعد من مجالس العلم ما دام يذكر فيها اسم الله تعالى ويدرس فيها ما ينفع الطلاب والطالبات من العلوم المختلفة التي لها أثرها في حياتهم حيث تربطهم بالله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ.

وتكمن أهمية احترام مجلس العلم لأنه موضع تحفه الملائكة ويدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: ((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُم المَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُ فيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ أَبَطأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))[1][2].

وخطبة الجمعة مجلس علم لجميع المسلمين الصغير والكبير، يقصد بها الثناء على الله وتمجيده، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه، وتحذيرهم من بأسه ونقمته، ووصيتهم بما يقربهم إليه، وإلى جنانه، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها[3]، فهي مجلس علم نافع ينبغي الحرص على الاستماع لها والتيقظ إلى موضوعها، لذا نهى النبي ﷺ عن الاحتباء والإمام يخطب لأنه يجلب النوم فيفوت استماع الخطبة، وهذا يتنافى مع احترام مجلس العلم ويدل على ذلك حديث الباب عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ "نهى عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب" قال ابن القيم: (نهى ﷺ عن الاحتباء يوم

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص ٧٢.

(٣) زاد المعاد، ابن القيم، ٣٩٨/١.

الجمعة، وما ذاك إلا أنه ذريعة إلى النوم)[١].

فعلى المسلم في جلوسه لسماع الخطبة أن يكون على هيئة تساعده على اليقظة والنشاط وأن يكون ملتزمًا بآداب مجلس العلم قال ابن جماعة في "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم": وعلى الطالب أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو يجلس متربعًا بتواضع وخشوع ويصغي إلى الشيخ ناظراً إليه ويقبل بكليته عليه، متعقلاً لقوله، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه بغير حاجة، ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط، ولا يعطي الشيخ ظهره أو جنبه، ولا يكثر التنحنح من غير حاجة، وإذا عطس خفض صوته وستر وجهه بمنديل أو نحوه، إذا تثاءب ستر فاه بعد رده جهده[٢].

جمع ابن جماعة في هذه الوصايا ما فيه كفاية للمتعلمين والمتعلمات مما يجدر بهم فعله مع أساتذتهم ليتحقق المقصود من العملية التربوية بقيام كل من العالم والمتعلم بواجبه نحو الآخر خير قيام. ولنعلم أن جلوس الطالب في مجلس العلم له آداب كثيرة اقتبسها العلماء، من سنة المصطفى ﷺ ينبغي على طالب العلم تعلمها والالتزام بها سواء أكان طلب العلم في المساجد والمدارس أو المعاهد والجامعات أو أي مكان آخر يتلقى فيه العلم[٣].

ثانيًا - من أهداف التربية: تحصيل المسلم لثواب الجمعة كاملاً:

يوم الجمعة فضله عظيم للمسلمين، فقد فضله الله تعالى على باقي أيام الأسبوع، وهو العيد الأسبوعي للمسلمين، وفيه فريضة الجمعة، ولقاء الجمعة، وفيه ساعة إجابة، لا يصادفها مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له[٤]. وقد حرص النبي ﷺ على

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٦٢٤.

(٢) نقلًا عن آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص ٧٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٧٧-٧٩، وانظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ٢٨٢-٢٨٥.

(٤) الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٣.

تحصيل المسلم لثواب يوم الجمعة كاملاً فنهى ﷺ عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب؛ لأن الاحتباء يجلب النوم فيفوت استماع الخطبة، ويخاف انتقاض الوضوء، وضياع الثواب في هذا اليوم العظيم الذي له مزية على سائر الأيام، لأن الله تعالى جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة كليلة القدر في رمضان، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم، سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر[1].

فعلى المربي بيان المعاني التربوية المهمة التي تدفع المسلم إلى الحرص على تحصيل ثواب الجمعة.



(١) زاد المعاد، ابن القيم، ١/٣٩٨.

٣١٣- باب نهي من دخل عَلَيْهِ عشر ذي الحجة وأراد أنْ يضحي عن أخذ شيء من شعره أوْ أظفاره حَتَّى يضحّي

الحديث رقم (١٧٠٨)

١٧٠٨- عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ، فَإذَا أَهَلَّ هِلاَلُ ذِي الحِجَّةِ، فَلاَ يَأخُذَنَّ من شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أظْفَارِهِ شَيْئاً حَتَّى يُضَحِّيَ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ام سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

غريب الألفاظ:

الذبح: ما يذبح من الأضاحي وغيرها من الحيوان[2].

الشرح الأدبي

إن النبي ﷺ حريص على أمته، يأخذ بأيديهم إلى النجاة في ظل ما يتلقاه من الوحي، وما يؤمر به من تبليغ عن ربه عز وجل.

والنهي في هذا الحديث ليس نهياً يحرم الإنسان من متعة، ولكنه نهي يجلب للمسلم المغفرة والمثوبة، وزيادة الأجر؛ لأن الذي يضحي يغفر الله له، وتشمل المغفرة جميع أجزاء بدنه، ومن هنا كان حرص رسول الله على أن لا يزيل المضحي شيئاً من شعره أو أظفاره إلا بعد أن يذبح الأضحية أو الهدى، حتى يعم الثواب جميع أجزاء البدن، وتشمل المغفرة كل مكونات الإنسان المادية والمعنوية .

والحديث يبدأ بما يوحي بالاختيار وعدم الإلزام، فقال: "من كان له ذبح يذبحه"،

(١) برقم (١٩٧٧/٤٢).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ١٢٥٧، والوسيط في (ذ ب ح).

وفي هذا التعبير إيجاز بالحذف، والتقدير "يريد ذبحه"، والجملة الثانية في الحديث تجيب على سؤال كامن في صدر كل سامع، وكأنه يقول: ماذا يفعل؟؟ ويجيب رسول الله ﷺ موضحاً الفعل المندوب فعله، وليس الواجب، وتجيء إجابته، في صيغة الشرط مرتبطة بزمان مبارك، وهو العشر الأوائل من ذي الحجة، وأفضل الأعمال تكون في هذه الأيام وتلك الليالي.

وتتضمن جملة الشرط بعض أسرار التعبير البلاغية التي تفصح عن بلاغة النبوة التي خضعت الأفكار لآيتها، وحُسرت العقول دون غايتها، ومن هذه الأسرار، أداة الشرط: "إذا"، وهي للتحقق، والإتيان بها في هذا السياق إيحاء من الرسول ﷺ لكل مسلم قادر بأن يضحي، فالأضحية خير وبركة، وتنفيذ للسنة المطهرة، ومن أسرار التعبير البلاغية بناء الفعل "أُهَلّ"، للمجهول لأن كل مسلم يعتقد ويعلم يقيناً بأن الفاعل هو الله، فهو يصرف الليل والنهار، وبيده مقاليد الأمور.

والهلال: اسم للقمر ثلاثة أيام في أول الشهر، وسمي بذلك من باب اقتران ظهوره بالإهلال أي رفع الصوت عند رؤياه، والناس يفعلون ذلك فرحاً وابتهاجاً وشكراً لله على نعمه.

وجواب الشرط: اقترن بنون التوكيد الثقيلة، "فلا يأخذن" لمزيد من التذكير والتنبيه للحصول على الثواب والمغفرة، وعدم الأخذ ليس على الوجوب ولكنه للندب، وعلى الرغم من ذلك فالفعل يجيء مؤكداً للترغيب في ذلك، وللفوز بالمغفرة الشاملة التي يرجوها رسول الله لأمته التي يحبها ويحرص عليها، وهي خير أمة أخرجت للناس. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: نهي من أراد أن يضحي إذا دخل عليه عشر ذي الحجة أن يأخذ شيئاً من شعره، أو أظفاره حتى يضحي.

وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه سعيد بن المسيب، وإسحاق[١]، وربيعة[٢]، والحنابلة في وجه عندهم[٣]، وبعض أصحاب الشافعي[٤]، ويرون أنه يحرم عليه إذا دخل ذو الحجة أن يأخذ شيئاً من شعره وأظفاره حتى يضحي.

واستدلوا على ذلك: بحديث الباب، وفيه النهي عن أخذ شيء مما ذكر، وظاهر النهي التحريم[٥].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه المالكية[٦]، وجمهور الشافعية[٧]، ووجه عند الحنابلة[٨] أن ذلك مكروهٌ وليس محرماً.

وحملوا النهي الوارد من الحديث على الكراهة، إذ أقل ما يحمل عليه النهي الكراهة[٩].

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١٠]، ويرون أنه لا يكره شيء من ذلك.

واستدلوا على ذلك: بأن المضحي لا يكره له شيء من الوطء، واللباس، فلا يكره له حلق الشعر وتقليم الأظافر، كما لم يرد أن يضحي[١١].

الترجيح: بعد عرض آراء الفقهاء أرى أن الراجح هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني القائلين بالكراهة لورود النهي عن ذلك، وأقل ما يحمل عليه النهي الكراهة.

---

(١) المبدع ٢٩٩/٣، وشرح صحيح مسلم ١٣٨/٣، وعون المعبود ٣٤٦/٧.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٨/٣، وعون المعبود ٢٩٩/٣.

(٣) المحرر ٢٥١/١، والفروع ٤٠٦/٣، والمبدع ٢٩٩/٣.

(٤) عون المعبود ٣٤٦/٧.

(٥) المبدع ٢٩٩/٣، وشرح صحيح مسلم ١٣٨/٣.

(٦) التمهيد لابن عبدالبر ٢٣٤/١٧، ومواهب الجليل ٢٤٤/٣.

(٧) المهذب للشيرازي ٢٣٨/١، وشرح صحيح مسلم ١٣٨/١٣.

(٨) المحرر ٢٥١/١، وشرح العمدة ٣٩٢/١، والفروع ٤٠٦/٣، والمبدع ٢٩٩/٣.

(٩) المغني لابن قدامة ٣٤٦/٩، ومواهب الجليل ٢٤٤/٣.

(١٠) عون المعبود٣٤٦/٧.

(١١) المغني لابن قدامة ٣٤٦/٩.

ومن الجدير بالذكر، أنه يستوي في الكراهة أن يزيل شعره بحلق أو تقصير أو نتف، أو إحراق، أو أخذ بنورة، ويستوي في ذلك شعر الإبط والشارب، والعانة، والرأس، وغير ذلك من شعور البدن.

ولعل الحكمة من النهي: أن يبقى كاملَ الأجزاء ليعتق من النار[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأضحية والترغيب فيها.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الآداب التي ينبغي للمضحي اتباعها عند دخول العشر الأول من ذي الحجة.

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الأضحية والترغيب فيها:

قال النبي ﷺ: "مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ"، قال النووي: (ذِبْح -هو بكسر الذال- أي حيوان يريد ذبحه فهو فِعْل بمعنى مفعول كحمل بمعنى محمول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ ﴾[٢])[٣]. وما أمر به الشرع وما ندب إليه فإن المسلم يعمله، سواء عرف الحكمة أم لا يعرف، لكنه قد يسأل سائل: ما الحكمة من الأضحية؟

جاء في الموسوعة الفقهية: "الأضحية عرفها اللغويون بتعريفين:

أحدهما: الشاة التي تذبح ضحوة، أي وقت ارتفاع النهار والوقت الذي يليه، وهذا المعنى نقله صاحب اللسان عن ابن الأعرابي. وثانيهما: الشاة التي تذبح يوم الأضحى. وهذا المعنى ذكره صاحب اللسان أيضاً.

أما معناها في الشرع: فهي ما يذكى تقرباً إلى الله تعالى في أيام النحر بشرائط مخصوصة، فليس من الأضحية ما يذكى[٤] لغير التقرب إلى الله تعالى: كالذبائح التي

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٨/١٣.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٥٠/١٣/٧، .

(٤) التذكية: إزهاق روح الحيوان ليتوصل إلى حل أكله، فتشمل الذبح والنحر بل تشمل العقر أيضاً، كما لو شرد الثور أو البعير فطعن برمح أو نحوه مع التسمية ونيه التضحية، كما هو موضح في الذبائح، حاشية الموسوعة الفقهية، ٧٤/٥.

تذبح للبيع أو الأكل أو إكرام الضيف، وليس منها ما يذكى في غير هذه الأيام، ولو للتقرب إلى الله تعالى، وكذلك ما يذكى بنيه العقيقة عن المولود أو جزاء التمتع أو القران في النسك أو جزاء ترك واجب أو فعل محظور في النسك، أو يذكى بنية الهدى... والأضحية مشروعة إجماعاً بالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[١]، قيل في تفسيره: صل صلاة العيد وانحر البُدْن[٢].

وأما السنة فأحاديث تحكي فعله ﷺ لها، وأخرى تحكي قوله في بيان فضلها والترغيب فيها والتنفير من تركها.

فمن ذلك ما صح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ. ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ وَسَمَّى وَكَبَّرَ. وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا"[٣]. وأحاديث أخرى منها قوله ﷺ: "من كان له سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا"[٤].

وقد شرعت التضحية في السنة الثانية من الهجرة النبوية، وهى السنة التي شرعت فيها صلاة العيدين وزكاة المال.

وأما حكمة مشروعيتها فهي شكر الله تعالى على نعمة الحياة، وإحياء لسنة إبراهيم الخليل عليه السلام، حين أمره الله عز اسمه بذبح الفداء عن ولده إسماعيل عليه السلام، في يوم النحر. وأن يتذكر المؤمن صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وإيثارهما طاعة الله ومحبته على محبة النفس والولد - كانا سبب الفداء ورفع البلاء. فإذا تذكر المؤمن ذلك اقتدى بهما في الصبر على طاعة الله وتقديم محبته عز وجل على هوى النفس وشهوتها.

---

(١) سورة الكوثر، آية: ٢.

(٢) البدن: بضم الباء وسكون الدال، جمع بدنة. وهى الواحدة من الإبل ذكورها وإناثها، وسميت بذلك لضخامة بدنها، وربما أطلقت البدنة على الواحدة من كل من الإبل والبقر. حاشية الموسوعة الفقهية، ٧٥/٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٥٨، ومسلم ١٩٦٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣٢١/٢ رقم ٨٢٧٣، وابن ماجه ٣١٢٣، من حديث أبي هريرة، وحسنة الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٥٣٢) لكن محققي المسند قالوا: إسناده ضعيف... وحسنه الألباني فأخطأ. وانظر تتمة تخريجه في مسند أحمد ٢٤/١٤.

وقد يقال: أى علاقة بين إراقة الدم وبين شكر المنعم عز وجل والتقرب إليه؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: إن هذه الإراقة وسيلة للتوسعة على النفس وأهل البيت وإكرام الجار والضيف، والتصدق على الفقير، وهذه كلها مظاهر للفرح والسرور بما أنعم الله به على الإنسان. وهذا تحدث بنعمة الله تعالى كما قال عز اسمه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١].

ثانيهما: المبالغة في تصديق ما أخبر به الله عز وجل من أنه خلق الأنعام لنفع الإنسان وأذن في ذبحها ونحرها لتكون طعاماً له. فإذا نازعه في حل الذبح والنحر منازع تمويهًا بأنهما من القسوة والتعذيب لذي روح تستحق الرحمة والإنصاف، كان رده على ذلك أن الله عز وجل الذي خلقنا وخلق هذه الحيوانات، وأمرنا برحمتها والإحسان إليها. أخبرنا وهو العليم بالغيب أنه خلقها لنا وأباح تذكيتها، وأكد هذه الإباحة بأن جعل هذه التذكية قربة في بعض الأحيان"[٢].

ثانياً- الآداب التي ينبغي للمضحي اتباعها عند دخول العشر الأول من ذي الحجة:

وهذا واضح من الحديث، وله روايات عند مسلم: "إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي فلا يمس من شعره وبشره شيئاً"[٣]. والبشرة: "ظاهر جلد الإنسان"[٤]. وفي رواية أخرى: "إذا دخل العشر وعنده أضحية يريد أن يضحي فلا يأخذن شعراً ولا يقلمن ظفراً"[٥]. وفي رواية "إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره"[٦].

وقال النووي: "قال أصحابنا: والمراد بالنهى عن أخذ الظفر والشعر والنهى عن إزالة

---

(١) سورة الضحى، آية: ١١.

(٢) الموسوعة الفقهية ٥/٧٤-٧٦.

(٣) صحيح مسلم ٣٩-١٩٧٧.

(٤) معجم لغة الفقهاء ٨٨.

(٥) صحيح مسلم ٤٠-١٩٧٧.

(٦) صحيح مسلم ٤١-١٩٧٧.

الظفر بقلم أو كسر أو غيره، والمنع من إزالة الشعر بحلق أو تقصير أو نتف أو إحراق أو أخذه بنورة[١] أو غير ذلك، وسواء شعر الإبط والشارب والعانة والرأس وغير ذلك من شعور بدنه. قال إبراهيم المروزي وغيره من أصحابنا: حكم أجزاء البدن كلها حكم الشعر والظفر ودليله الرواية السابقة: «فلا يمس من شعره وبشره شيئاً».

قال أصحابنا: والحكمة في النهي أن يبقى كامل الأجزاء ليعتق من النار، وقيل التشبه بالمحرم، قال أصحابنا: هذا غلط لأنه لا يعتزل النساء ولا يترك الطيب واللباس وغير ذلك مما يتركه المحرم"[٢].

لكن ابن القيم قال: "إن تحريم النساء والطيب واللباس أمر يختص بالإحرام، لا يتعلق بالضحية، وأما تقليم الظفر وأخذ الشعر فإنه من تمام التعبد بالأضحية، وقد تقدم حديث عبدالله بن عمرو أول الباب، وقوله ﷺ: "تأخذ من شعرك وأظفارك وتقص شاربك وتحلق عانتك، فتلك تمام أضحيتك عند الله عز وجل"[٣]. فأحبَّ النبي ﷺ توفير الشعر والظفر في العشر ليأخذه مع الضحية فيكون ذلك من تمامها عند الله. وقد شهد لذلك أيضاً أنه ﷺ شرع لهم إذا ذبحوا عن الغلام عقيقته، "أن يحلقوا رأسه"[٤]. "فدل على أن حلق رأسه مع الذبح أفضل وأولى"[٥].

---

(١) النورة: بضم النون وفتح الراء، حجر كلسي يطحن ويخلط بالماء ويطلى به الشعر فيسقط. معجم لغة الفقهاء، ص ٤٦٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٥٠/١٣/٧، قلت: والمسألة فيها خلاف بين الفقهاء، انظر: التمهيد لابن عبدالبر ٢٥٨/١٠-٢٦٢، موسوعة شروح الموطأ. والمفهم للقرطبي المحدث، ٣٨٢/٤، وسبل السلام ٨٦٩، ط بيت الأفكار الدولية، والموسوعة الفقهية ٩٥/٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٧٨٩، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود ٥٩٥).

(٤) أخرجه أبو داود ٢٨٣٧ ، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ، ٢٤٦٢).

(٥) تهذيب السنن ٩٩/٤، وانظر شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ١٧٧١/٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه المباشر:

التربية بالتوجيه المباشر وسيلة من وسائل التربية الهامة، وهي طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين[1].

ويظهر هذا الأسلوب في هذا الباب في توجيه النبي ﷺ المباشر لمن دخل عليه عشر ذي الحجة وأراد أن يضحي بعدم أخذ شيء من شعره أو أظفاره حتى يضحي، فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ فَإِذَا أَهَلَّ هِلَالُ ذِي الحِجَّةِ فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حتى يُضَحِّيَ».

وأسلوب التوجيه المباشر من وسائل التربية المفيدة خاصة في مخاطبة عقل الطفل، وتبيين الحقائق له، وترتيب المعلومات الفكرية ليحفظها مع فهمها، مما يجعل الطفل أشد قبولاً، وأكثر استعداد للتلقي، وهكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نتوجه إلى الطفل في كثير من المناسبات بالخطاب المباشر بصراحة ووضوح.

ومن ذلك حديث ابن عباس الذي قال فيه: ««كُنْتُ خَلْفَ النبيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كِلِمَاتٍ...»[2].

فالرسول ﷺ يباشر إلى الموضوع الذي يريده، فيقول للطفل الناشئ: «إني أعلمك» فالرسول ﷺ يعلم الطفل «كلمات» مختصرة مفيدة، لا طول فيها، ولا ملل، وهذا انسجام مع طبيعة الطفل الفكرية، التي تتطلب الكلمات القصيرة، الموجزة الجامعة، الغنية بالمعاني والأفكار.

وإذا تأملنا في طبيعة الكلمات التي وجهها الرسول ﷺ وجدناها تشكل للطفل قواعد فكرية، عقدية أساسية في حياته الحاضرة، وفي شبابه المرتقب بعد حين، فلنقرأ هذه الكلمات، ونشاهد:

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د/زياد محمود العاني، ص٢٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٠٤٣).

«احْفَـظِ اللّه يَحْفَظْـكَ، احْفَـظِ اللّه تجِـدْهُ تجَاهَـكَ، إِذَا سَـأَلْتَ فَاسْـأَلِ اللّه، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللّه، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّه لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّه عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[١].

أرأيت إلى جمال هذا الخطاب المباشر الذي ابتدأ في شدّ انتباه الطفل بكلمة «يا غلام» التي تثير انتباه الطفل، وتشعره بنشوة اهتمام الآخرين به، مثلما يشعر الشباب عند ما يسمعون النداء «يا شباب».

ثم هل رأيت بيانًا جامعًا شاملاً، يخاطب عقل الطفل من هذا الخطاب؟ وهل قرأت، أو سمعت مثل هذه القواعد الكلية التي تؤسس فكر وعقل الطفل، لتكون مرتكزًا له في مواجهة الحياة؟.

كذلك فإن الرسول ﷺ ليرشد الطفل بخطابه المباشر إلى طريقة عملية، ليتخلص من أدران أمراض القلب كالحسد، والبغضاء، والحقد، والكيد، وذلك بتسلسل فكري عجيب[٢].

ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه المباشر مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم، ومن المفيد أن يبتعد المعلمون في نصحهم وعظاتهم عن أسلوب الأوامر والنواهي، وعليهم استخدام الذكاء واللباقة في النصح والإرشاد حتى لا ينفروا المتعلمين[٣].



---

(١) نفس الحديث السابق.

(٢) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د/عبدالباسط محمد السيد، ص٩٧، ٩٨.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د/محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤.

٣١٤- باب النهي عن الحلف بمخلوق

كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء والحياة والروح والرأس وحياة السلطان ونعمة السلطان وتربة فلان والأمانة، وهي من أشدها نهياً

الحديث رقم (١٧٠٩)

١٧٠٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((إنَّ الله تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أنْ تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ)) متفق عَلَيْهِ[1].

وفي رواية في الصحيح[2]: ((فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلاَ يَحْلِفْ إلاَّ بِاللهِ، أَوْ لِيَسْكُتْ)).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن المسلم محاط بسياج نوراني متوهج بالتوجيهات الإلهية، والبشارات النبوية، ومحدد بالمعالم التي تؤطر السلوك الإسلامي، قولاً وفعلاً واستقبالاً للأحداث، وتناغماً معها أو رفضاً لها في ظل هذه المعالم التي أوصى بها رسول الله ﷺ ومن هذه المعالم: أن لا يحلف المسلم بغير الله، وأن لا يقسم بمخلوق حتى ولو كان له فضل ومزية عند خالقه، كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء.

ولأهمية هذا المعلم من معالم السلوك الإسلامي، يبدأ الحديث بالتأكيد بـ"إن"، واسمها "لفظ الجلالة" (الله) الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وقوله "تعالى": في هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٦/٣).

(٢) لم أقف عليه في الصحيح بهذا اللفظ، وإنما عند مسلم بعد حديث (١٦٤٦/٤، بدون رقم) بلفظ: (من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله، وكانت قريش تحلف بآبائها، فقال: لا تحلفوا بآبائكم). وأخرجه أبوداود (٣٢٤٤) عن ابن عمر، عن عمر مرفوعًا بلفظ: (فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليسكت).

السياق يرشد إلى أن الله هو الكبير المتعالي، فقد تعالى شأنه، وجل قدره، وفي ذلك إشارة إلى أنه وحده الذي يُحلف به ولا سواه، فغيره مخلوق عاجز. وهو الخالق القوي القاهر القادر الاستمرار، وخبر "إن" جملة فعلية فعلها مضارع يتوهج بدلالة الاستمرار وعدم الانقطاع، فالنهي مستمر عن الحلف بغير الله، واقتران أداة الخطاب الدالة على الجمع بالفعل ينهى مع الفاعل المستتر "المعلوم" وهو الله يضاعف من تأكيد النهي؛ لأن الناهي هو الله والنهي للوجوب.

وقوله: "أن تحلفوا"، مصدر مؤول: والتقدير: "عن الحلف بآبائكم"، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى: فالمصدر المؤول، يوحي بثقل هذا الفعل المخالف المُحَرَّم، وهو "الحلف بالآباء"، وصيغة المضارع فيها إيحاء بـ"أن" الزمن لا ينقطع، وبأن عدم الحلف بالآباء أو بغيرهم من المخلوقات يجب أن يكون سلوكاً مستمراً وملازماً للمسلم الملتزم بتعاليم الشرع، وثوابت العقيدة في كل وقت وحين.

الجملة الأخيرة في الحديث تضع القاعدة الواجب اتباعها في ظلال المنهج الإسلامي، وهي جملة شرطية: تجيب على تساؤل ينشأ في نفس المتلقي، وبماذا يكون الحلف؟؟

وقول رسول الله تحمل دلالة الاختيار.. لأن عدم الحلف أولى، أما إذا اضطر الإنسان إلى ذلك فالمنهج الصحيح هو: "فمن كان حالفاً فليحلف بالله: أو ليصمت وفي رواية: "أو ليسكت"، واللام في جواب الشرط للأمر، والأمر للوجوب: لأن الحلف بغير الله حرام، وربما يؤدي إلى الكفر، نسأل الله المغفرة والاهتداء إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم. آمين.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: حكم الحلف بالآباء، وغيرهم من المخلوقين[١] على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه بعض المالكية[٢]، وبعض الحنابلة[٣]، ويرون أن

---

(١) هذا إذا لم يحلف بملة غير الإسلام، أو بشيء من المعبودات سوى الله، كاللات والعزى ونحو ذلك، أما إذا حلف بهذه الأشياء فلا خلاف في التحريم، بل إن اعتقد تعظيم هذه الأشياء فإنه يكفر. انظر: الفواكه الدواني ٤٠٩/١، ومواهب الجليل ٢٦٤/٣.

(٢) الفواكه الدواني ٤٠٩/١، ومواهب الجليل ٢٦٤/٣.

(٣) المبدع ٢٦٢/٩، ٢٦٣، ومنار السبيل ٣٨٤/٢.

الحلف بغير الله حرام.

واستدلوا بالنهي الوارد في أحاديث الباب.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لأن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك)[٢].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٣]، وبعض المالكية[٤]، والشافعية[٥] وبعض الحنابلة[٦]، ويرون أن الحلف بغير الله مكروه.

وحملوا النهي الوارد في الحديث على الكراهة.

الترجيح:

ولعل الأظهر من القولين التحريم، وذلك للنهي الوارد في أحاديث الباب، وهو يقتضي التحريم، ولا قرينة تصرفه إلى الكراهة.

المضامين الدعوية[٧]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهى عن الحلف بغير الله عز وجل.

ثانياً: من آداب المدعو: إفراد الله جلّ وعَلا بالتعظيم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بالبراءة من الإسلام.

---

(١) انظر: المبدع ٢٦٣/٩، وقد نقل ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً، وليس بهذه المقولة الترخيص في الحلف بالله كاذباً، وإنما مراده المبالغة في النهي عن الحلف بغير الله. انظر: المبسوط للسرخسي ٢١٥/٣٠.

(٢) انظر في نقل ذلك عنه: المبدع ٢٦٣/٩.

(٣) المبسوط للسرخس ٢٤/١٧، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٠١/٤، والبدائع ٨/٣.

(٤) مواهب الجليل ٢٦٤/٣، وكفاية الطالب الرباني ٢٤/٢، والفواكه الدواني ٤٠٩/١.

(٥) المهذب ٢٩/٢، ومغني المحتاج ٣٢٠/٤.

(٦) المبدع ٢٦٢/٩-٢٦٣، ومنار السبيل ٣٨٤/٢، والكافي فقه الإمام أحمد ٣٧٦/٤.

(٧) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٠٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧١٠، ١٧١١، ١٧١٢، ١٧١٣).

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بغير الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهى عن الحلف بغير الله عز وجل:

هذا واضح من هذه الأحاديث: فمنها: "إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت، وفي رواية "من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت"، وقوله ﷺ: "لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم".

قال ابن هبيرة: "والسر في ذلك أن الحالف يحلف لغيره على قول يقوله له ليصدقه، أو ليعزم هو على نفسه باليمين ليثبت عليها، وذلك إنما يتم له المقصود فيه إذا حلف بأعز الأشياء عنده، فإذا حلف بغير الله فقد قال بلسان حاله: إن هذا الذي حلفت به أعز عندي من ربي عز وجل، والمؤمن أعز الأشياء في قلبه ربه عز وجل. فكيف يحلف بغيره لمن يريد أن يصدقه في يمينه؟!"[(١)].

قال ابن حجر: "قال العلماء: السر في النهى عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هى لله وحده...، وفي الحديث من الفوائد الزجر عن الحلف بغير الله، وإنما خص في حديث عمر بالآباء لوروده على السبب المذكور، أو خص لكونه كان غالباً عليه، ... ويدل على التعميم قوله: "من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله"[(٢)]، يقول ابن القيم عن حقيقة الأيمان والنذور: "الأيمان والنذور عقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما ألزم به نفسه من الأمور بالله ولله، فهى تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه وأن تكون العقود به وله، وهذا غاية التعظيم فلا يعقد لغير اسمه ولا بغير القرب إليه، بل إن حلف فباسمه تعظيماً وتبجيلاً وتوحيداً وإجلالاً، وإن نذر فله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية، فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده"[(٣)].

"وكان الناس في الجاهلية يحلفون بالله وبمعبوداتهم كاللات والعزى، وبما يعظمونه من المخلوقات مما لا يعبدون كالآباء والأمهات والكعبة وبما يحمدونه من

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٠٥/١.

(٢) فتح الباري ٥٢٣/١١. .

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ٥/٢.

الأخلاق كالأمانة، وفي صدر الإسلام بطل تعظيمهم للأصنام ونحوها مما كانوا يعبدونه من دون الله، فبطل حلفهم بها إلا ما كان سبق لسان، واستمر حلفهم بما يحبونه ويعظمونه من المخلوقات، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وأمرهم بالاقتصار على الحلف بالله تعالى"[١].

كما جاء في الموسوعة الفقهية: "إن صيغة اليمين بحرف القسم وما يقوم مقامه[٢] تنحصر شرعاً في اليمين بالله. فالحلف بغيره بحرف القسم وما يقوم مقامه لا يعتبر يميناً شرعية، ولا يجب بالحنث فيه كفارة، ومن أمثلته: أن يحلف الإنسان بأبيه أو بابنه أو بالأنبياء أو بالملائكة عليهم السلام أو بالعبادات، كالصوم والصلاة، أو بالكعبة أو بالحرم، أو بزمزم، أو بالقبر والمنبر أو غير ذلك من المخلوقات، سواء أتى الحالف بهذه الألفاظ عقب حرف القسم أم أضاف إليها كلمة "حق" أو "حرمة"، أو نحو ذلك، وسواء أكان الحلف بحرف من حروف القسم أم بصيغة ملحقة بما فيه من هذه الحروف، مثل لعمرك ولعمري وعمرك الله[٣]، وعلى عهد رسول الله لأفعلن كذا. وقد ورد النهي عنه في عدة أحاديث: منها قوله ﷺ: من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله..."[٤].

"إنما نهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء لما فيه من تعظيمهم بصيغ الأيمان؛ لأن العادة جارية بأن الحالف منا إنما يحلف بأعظم ما يعتقده. وإذا كان ذلك:فلا أعظم عند المؤمن من الله تعالى. وإنما جرى ذكر الآباء هنا لأنه هو السبب الذي أثار الحديث حين سمع النبي ﷺ عمر يحلف بأبيه. وقد شهد لهذا المعنى قوله: "من كان حالفاً فلا

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٤٧/٧.

(٢) حروف القسم هى: الباء والواو والتاء. أما الباء فهي الأصل مثالها: اقسم بك يارب لأفعلن كذا. وتليها الواو وتليها التاء ولا تدخل إلا على لفظ الجلالة... ويقوم مقام باء القسم حروف أخرى وهى الهاء والهمزة واللام، أما الهاء فمثالها: ها الله بفتح الهاء ممدودة ومقصورة أما الهمزة: فمثالها: آلله، وأما اللام فقد أفاد صاحب البدائع، أن من قال "لله" بلام الجر بدل الباء، كانت صيغته يميناً. الموسوعة الفقهية، ٢٥٣/٧.

(٣) العمر في هذا المثال معناه: اعتقاد بقاء الله. فقول القائل: عمرك الله. معناه أحلف باعتقادك أن الله عز وجل باق، ولا شك أن الاعتقاد صفة للمخاطب وليس صفة لله تعالى. حاشية الموسوعة الفقهية، ٢٦٤/٧.

(٤) الموسوعة الفقهية ٢٦٣/٧-٢٦٤.

يحلف إلا بالله" وهذا حصر، وعلى ما قررناه فظاهر النهي التحريم. ثم هذا النهي وإن كان ظاهره التحريم فيتحقق فيما إذا حدث بملة غير الإسلام، أو بشيء من المعبودات دون الله تعالى، أو ما كانت الجاهلية تحلف به كالدُمي[١]، والدماء، والأنصاب. فهذا لا يشك في تحريمه. وأما الحلف بالآباء، والأشراف، ورؤوس السلاطين، وحياتهم ونعمهم وما شاكل ذلك فظاهر هذا الحديث يتناولهم بحكم عمومه، ولا ينبغي ان يختلف في تحريمه. وأما ما كان معظماً في الشرع مثل: والنبي ﷺ، والكعبة، والعرش، والكرسي، وحرمة الصالحين: فأصحابنا يُطلقون على الحلف بها الكراهة. وظاهر الحديث وما قدمناه من النظر في المعنى يقتضي التحريم. والله تعالى أعلم. فإن قيل: كيف يحكم بتحريم الحلف بالآباء والنبي ﷺ قد حلف بذلك لما قال: "أفلح وأبيه إن صدق"؟، وكيف يُحكم بتحريم الحلف بغير الله وقد أقسم الله تعالى بغيره فقال: "والضحى"، "والشمس"، "والعاديات"، "والنازعات"، وغير ذلك مما في كتاب الله تعالى من ذلك؟ فالجواب:

أما عن قوله ﷺ: "أفلح وأبيه": فقد تقدم في الإيمان[٢]. وحاصله: أن ذلك يحتمل أن يكون صدر منه قبل أن يوحى إليه بهذا النهي. ويحتمل أن يكون جرى هذا على لسانه من غير قصد للحلف به، كما يجري في لغو اليمين؛ الذي هو": لا والله، بلى والله.

وأما عن قسم الله تعالى بتلك الأمور فمن وجهين:

أحدهما: أن المقسم به محذوف. تقديره: ورب الضحى. ورب الشمس، ونحو ذلك. قاله أكثر أئمة المعاني.

وثانيهما: أن الله تعالى يقسم بما يريد كما يفعل ما يريد، إذ لا حكم عليه، ولا حاكم فوقه، ونحن المحكوم عليهم، وقد أبلغنا حكمه على لسان نبيه ﷺ فقال: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"، و "من كان حالفاً فلا يحلف

---

(١) قال محققو المفهم: في حاشية إحدى النسخ: الدمي: جمع دمية، وهو الصنم. قاله الجوهري.
(٢) أخرجه مسلم ١١.

إلا بالله". فيجب الانقياد، والامتثال لحكم ذي العزة والجلال.

"وقوله: "من كان حالفاً فليحلف بالله" لا يفهم منه قصر اليمين والجائزة على الحلف بهذا الاسم فقط، بل حكم جميع أسماء الله تعالى حكم هذا الاسم. فلو قال: والعزيز، والعليم، والقادر، والسميع، والبصير؛ لكانت يميناً جائزة. وهذا متفق عليه. وكذلك الحكم في الحلف بصفات الله تعالى. كقوله: وعزة الله، وعلمه، وقدرته، وما أشبه ذلك مما يتمحض فيه الصفة لله تعالى، ولا ينبغي أن يختلف في هذا النوع أنها أيمان كالقسم الأول. وأما ما يضاف إلى الله تعالى مما ليس بصفة له كقوله: وخلق الله، ونعمته، ورزقه، وبيته: فهذه ليست بأيمان جائزة، لأنه حلف بغير الله عز وجل. على ما تقدم. وبين هذين القسمين قسم آخر متردد بينهما، فاختلف فيه لتردده، كقوله: وعهد الله، وأمانته، وكفالته، وحقه. فعندنا: أنها أيمان ملحقة بالملحق بالقسم الأول؛ لأنها صفات. وعند الشافعي: ليست بأيمان. ورأى: أنها من القسم الثاني"[١].

ثانياً- من آداب المدعو: إفراد الله جل وعلا بالتعظيم:

هذا واضح من النهي عن الحلف بالآباء، وعدم جواز الحلف إلا بالله. قال ابن حجر: "قال المهلب: كانت العرب تحلف بآبائها وآلهتها، فأراد الله نسخ ذلك في قلوبهم لينسيهم ذكر كل شيء سواه ويبقى ذكره، لأنه الحق المعبود فلا يكون اليمين إلا به، والحلف بالمخلوقات في حكم الحلف بالآباء"[٢]. وقد ورد عن الصحابة رضي الله عنهم استنكار الحلف بغير الله تعالى، قال ابن تيمية[٣]: وقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغير الله صادقاً"[٤].

---

(١) المفهم ٦٢١٠٦٢٣/٥.

(٢) فتح الباري ٥٣٥/١١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٥٠/١ ط العبيكان، ٢٠٤/١ ط ابن قاسم.

(٤) أخرجه عبدالرزاق ١٥٩٢٩ من طريق وبرة قال: قال عبدالله - لا ادري ابن مسعود أو ابن عمر- لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن احلف بغيره صادقاً.

وقال عبدالله بن الزبير: إن عمر قال له: وقد سمعه يحلف بالكعبة: لو أعلم أنك فكرت فيها قبل أن تحلف لعاقبتك، احلف بالله فأثم أو ابرر(١).

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ يقول: قال لي رسول الله ﷺ: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت النبي ﷺ ذاكراً ولا آثراً(٢).

قال القرطبي: أي لم يقع مني الحلف بها ولا تحدثت بالحلف بها عن غيري. وأثرت الحديث: نقلته عن غيرك"(٣).

ولأجل إفراد الله بالتعظيم والإجلال، نهى النبي ﷺ عن الحلف بالأمانة، فقال: "من حلف بالأمانة فليس منا"، قال الطيبي: قال القاضي البيضاوي: "أى من ذوي أسوتنا بل هو من المتشبهين بغيرنا، فإنه من ديدن أهل الكتاب، ولعله أراد به الوعيد عليه، فإنه حلف بغير الله"(٤). قال الخطابي: "هذا يشبه أن تكون الكراهية فيها من أجل أنه إنما أمر أن يحلف بالله وبصفاته، وليست الأمانة من صفاته، وإنما هى أمر من أمره. وفرض من فروضه فنهوا عنه، لما في التسوية بينها وبين أسماء الله عز وجل وصفاته"(٥).

وقال ابن الأثير: "والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان"(٦).

وكذلك من أجل تعظيم الله وإفراده بالإجلال أمر النبي ﷺ من حلف باللات والعزى أن يقول لا إله إلا الله، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق"(٧).

---

(١) المحلى: ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ٤٥٦هـ، اعتنى به حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ص ١٠٦، وعزاه لعبد الرزاق في مصنفه.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٤٧، ومسلم ١٦٤٦.

(٣) المفهم ٦٢٣/٥.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ٢٧/٧.

(٥) معالم السنن ٣٥٨/٤.

(٦) النهاية في غريب الحديث ٤٨.

(٧) أخرجه البخاري ٦٦٥٠، ومسلم ١٦٤٧.

قال النووي: "إنما أمر بقول: لا إله إلا الله، لأنه تعاطى تعظيم صور الأصنام حين حلف بها"(١). وقال البغوى: "فيه دليل على أنه لا كفارة على من حلف بغير الإسلام، بل يأثم به ويلزمه التوبة، لأنه جعل عقوبته في دينه، ولم يوجب في ماله شيئاً، وإنما أمره بكلمة التوحيد، لأن اليمين إنما تكون بالمعبود، فإذا حلف باللات والعزى فقد ضاهى الكفار في ذلك، فأمر بأن يتداركه بكلمة التوحيد"(٢).

وقال الطيبي: "إنما قرن القمار بذكر الأصنام تأسياً بالتنزيل في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ ﴾(٣)، فمن حلف بالأصنام فقد أشرك بالله في التعظيم، فوجب تداركها بكلمة التوحيد(٤)، ومن دعا إلى المقامرة وافقهم في لعبهم فأمر بكفارة ذلك بالتصدق"(٥).

وقال ابن هبيرة: "في هذا الحديث ما يدل على أن الكفارات تكون لها مناسبة بالخطايا؛ فإنه لما حلف بيمين تتضمن إثبات آلهة كانت كفارته نفي ما حلف به وإثبات التوحيد لله عز وجل، ولما كانت الخطيئة الثانية من حيث طلب المال بوجه حرام، وهو القمار، كانت الكفارة بإخراج شيء من المال، فكانت الحسنة المالية ماحية أثر الأمنية المالية"(٦).

وقال ابن قدامة: "إن من حلف بغير الله فقد عظم غير الله تعظيماً يشبه تعظيم الرب تبارك وتعالى، ولهذا سمي شركاً، لكونه أشرك غير الله مع الله تعالى في تعظيمه بالقسم به فيقول: لا إله إلا الله توحيداً لله تعالى وبراءة من الشرك"(٧).

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١١/١١/٦، .

(٢) شرح السنة ١٠/١٠.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ٢١/٧.

(٥) فتح الباري ٥٣٧/١١، وقد تصرف ابن حجر في عبارة الطيبي في شرح المشكاة، ١٢/٧، فنقلتها بتصرف ابن حجر.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٢٥/٦.

(٧) المغنى ٤٣٨/١٣.

ويقول ابن القيم عن تعظيم الله عز وجل: "من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجعله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾(١)، أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه. والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالى ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾(٢)، قال الحسن: "ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرونه؟"، وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم، وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته. وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته- وحّدوه وأطاعوه وشكروه. فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحيي من ذكره. فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا عدل به شيئاً من خلقه لا في اللفظ بحيث يقول: والله وحياتك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت.

ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني على المسامحة ولا يجعله على الفضلة ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحدٌ. فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه. فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإنه الله لا يلقى له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل

---

(١) سورة نوح، آية: ١٣.

(٢) سورة الفتح، آية: ٩.

يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقَّروه مخافة شره فذلك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم، ومن وقار الله أن يستحيي من اطلاعه على سره وضميره فيرى ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحيى من أكابر الناس"(١).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بالبراءة من الإسلام:

هذا واضح من حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من حلف فقال إني بريء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً. قال الخطابي: "فيه دليل على أن من حلف بالبراءة من الإسلام فإنه يأثم ولا يلزمه الكفارة، وذلك لأنه إنما جعل عقوبتها في دينه ولم يجعل في ماله شيئاً"(٢).

وصورة الترهيب من الحلف بالبراءة من الإسلام جاءت في الموسوعة الفقهية(٣) تحت: تعليق الكفر من أقسام اليمين التعليقية: وهو أن يعلق الكفر على ما لا يريده الإنسان بقصد تأكيد المنع منه أو الحث على نقيضه أو الإخبار بنقيضه. ومن أمثلة الكفر المعلق على الشرط: أن يخبر الإنسان عن نفسه أنه إن فعل كذا أو إن لم يفعل كذا أو إن حصل كذا، أو إن لم يحصل كذا، أو إن لم يكن الأمر كذلك. فهو يهودي أو نصراني أو مجوسي أو كافر أو شريك الكفار أو مرتد، أو بريء من الله أو من رسول الله أو من القرآن أو كلام الله أو الكعبة أو القبلة أو بريء مما في المصحف أو بريء مما في هذا الدفتر إذا كان في الدفتر شيء من القرآن ولو البسملة، أو بريء من المؤمنين أو من الصلاة أو الصيام أو الحج. ومنها أن يخبر عنه نفسه أنه يعبد الصليب أو يستحل الخمر أو الزنى إن لم يفعل ذلك(٤).

وقد ذكر ابن عثيمين صورة لحديث بريدة رضي الله عنه فقال ما محصله: "قال رجل: إن

---

(١) الفوائد ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) معالم السنن ٤/٣٥٨.

(٣) انظر المجلى في الفقه الحنبلي: د. محمد سليمان عبدالله الأشقر، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٢/٥١٧، ٥١٨.

(٤) الموسوعة الفقهية ٧/٢٧٢-٢٧٥.

فلاناً قدم اليوم، وصل اليوم وكان مسافراً. فقال له صاحبه: لا ما وصل. قال الأول: هو يهودي إن كان لم يقدم. "أى إن الأول: قال: أنا يهودي إن كان لم يقدم"، فإن كان لم يقدم وكان القائل كاذباً" فهو كما قال عن نفسه: "أنا يهودي". وإن قدم المسافر وصدق كلام القائل فإنه لن يرجع إلى الإسلام سالماً"[١].

وقد ورد كذلك التحذير من الحلف بملة غير الإسلام فقد قال النبي ﷺ: "من حلف بملة سوى الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال"[٢]. قال ابن حجر: "الملة بكسر الميم وتشديد اللام: الدين والشريعة، وهى نكرة في سياق النفى فتعم جميع الملل من أهل الكتاب كاليهودية والنصرانية، ومن لحق بهم من المجوسية[٣] والصائبة[٤] وأهل الأوثان والدهرية[٥] والمعطلة[٦]، وعبدة الشياطين والملائكة وغيرهم"[٧]. قال الطيبي: قال البيضاوي: الحلف بغير الإسلام مثل أن يقول الرجل: إن فعل كذا فهو يهودي أو بريء من الإسلام"، وقوله: "فهو كما قال": ظاهره أنه يختل بهذا الحلف إسلامه، ويصير كما قال: ويحتمل أن يعلق ذلك بالحنث، لما روى بريدة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: "من قال: إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذباً فهو كما قال. وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً"، ولعل المراد به التهديد والمبالغة في الوعيد، لا الحكم بأنه صار يهودياً أو بريئاً من الإسلام. وكأنه قال: فهو مستحق لمثل عذاب ما قال، ونظيره قوله ﷺ:

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ١٧٧٣/٢، وقد تصرفت في العبارة لزيادة الإيضاح والفهم.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٦٣، ومسلم ١١٠.

(٣) المجوس، قوم يعبدون النار والشمس والقمر. معجم لغة الفقهاء، ٣٧٧.

(٤) قوم يقولون إن نبيهم يحيى عليه السلام ويؤمنون بالإله الواحد الذي له ثلاثمائة وستون شخصاً يفعلون فعل الإله كالبرق والمطر، وأن الكواكب مسكن الملائكة. ولذلك فإنهم يعظمونها ولهم صلاة خاصة يؤدونها في اليوم ثلاث مرات. عند طلوع الشمس وعند استوائها وعند غروبها. معجم لغة الفقهاء ٢٤٠.

(٥) الدهرى: الذي ينكر اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب، معجم لغة الفقهاء ١٨٨.

(٦) التعطيل: هو نفي صفات الله تعالى، كمن زعم أن الله تعالى لا يتصف بصفة. أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ٧٨.

(٧) فتح الباري ٥٣٧/١١-٥٣٨.

"من ترك صلاة فقد كفر"[١]، أى استوجب عقوبة من كفر"[٢].

وقال النووي: "فيه بيان غلظ تحريم الحلف بملة غير الإسلام كقوله: هو يهودي أو نصراني إن كان كذا..، وقوله ﷺ "كاذباً" ليس المراد به التقييد والاحتراز من الحلف بها صادقاً، لأنه لا ينفك الحالف بها عن كونه كاذباً، وذلك لا بد أن يكون معظماً لما حلف به، فإن كان معتقداً عظمته بقلبه فهو كاذب في ذلك، وإن كان غير معتقد ذلك بقلبه فهو كاذب في الصورة لكونه عظمه بالحلف به، وإذا علم أنه لا ينفك عن كونه كاذباً حمل التقييد بـ"كاذباً" على أنه بيان لصورة الحالف، ويكون التقييد خرج على سبب، فلا يكون له مفهوم، ويكون من باب قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[٥]"[٦].

وقال ابن حجر: "قال القاضي عياض[٧]: إن الحالف المتعمد إن كان مطمئن القلب بالإيمان وهو كاذب في تعظيم ما لا يعتقد تعظيمه، لم يكفر وإن قاله معتقداً لليمين بتلك الملة لكونها حقاً كفر. وإن قالها لمجرد التعظيم لها احتمل، قلت: "أى القائل ابن حجر": وينقدح بأن يقال إن أراد تعظيمها باعتبار ما كانت قبل النسخ لم يكفر أيضاً ... ولهذه الخصلة "أى الحلف بغير ملة الإسلام". في حديث ثابت بن الضحاك شاهد من حديث بريدة أخرجه النسائي وصححه [الحاكم][٨] من طريق الحسين بن واقد عن

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ٨٢، من حديث جابر مرفوعاً: "بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة".

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٢١/٧-٢٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٥) سورة النساء، آية: ٢٣.

(٦) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢/١-١٢٧.

(٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٨٩/١.

(٨) سقط من المطبوع من فتح الباري، والحديث صححه الحاكم في المستدرك، ٢٩٨/٤، وأخرجه أحمد ٣٥٥/٥ رقم ٢٣٠٠٦، ٢٣٠١٠، وقال محققو المسند: إسناده قوي، وانظر تتمة تخريجه في مسند أحمد ١١٤/٣٨-١١٥ وهو حديث من أحاديث الباب.

عبدالله بن بريدة عن أبيه رفعه: "من قال إني بريء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال، وإن كان صادقاً لم يعد إلى الإسلام سالماً"[(١)]، وهو يؤيد التفصيل الماضي ويخصص بهذا عموم الحديث الماضي، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الكلام التهديد والمبالغة في الوعيد لا الحكم، وكأنه قال فهو مستحق مثل عذاب من اعتقد ما قال، ونظيره: "من ترك الصلاة فقد كفر"، أي استوجب عقوبة من كفر، وقال ابن المنذر: قوله: "فهو كما قال"، ليس على إطلاقه في نسبته إلى الكفر بل المراد أنه كاذب ككذب المعظم لتلك الجهة"[(٢)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بغير الله:

هذا واضح من قول النبي ﷺ: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"، وقد حمل بعض العلماء الكفر أو الشرك هنا لا على حقيقتهما ولكن على سبيل المبالغة في الزجر والتغليظ. قال ابن حجر: "والتعبير بقوله فقد "كفر أو أشرك" للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك، وقد تمسك به من قال بتحريم ذلك"[(٣)].

وقال الترمذي: "وفسر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله "فقد كفر أو أشرك" على التغليظ، والحجة في ذلك حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ سمع عمر يقول: "وأبي وأبي فقال: ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم"[(٤)]، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال في حلفه واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله"[(٥)]، هذا مثل ما روى عن النبي ﷺ أنه قال:"إن الرياء شرك"[(٦)]. وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[(٧)]،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود ٣٢٥٨، والنسائي٦/٧، وابن ماجه ٢١٠٠. وهو حديث من أحاديث الباب.

(٢) فتح الباري ٥٣٩/١١، .

(٣) فتح الباري ٥٣١/١١، .

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٤٦، ومسلم ١٦٤٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٦٥٠، ومسلم ١٦٤٧.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٣٩٨٩ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ "إن يسير الرياء شرك...." وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ٨٦٣).

(٧) سورة الكهف، آية: ١١٠.

قال: لا يرائى"[١]. ولكن النووي في شرح مسلم يبين أن هذا الكفر كفر نعمة، فقال: " إن كان الحالف به معظماً لما حلف به مجلاً له كان كافراً وإن لم يكن معظماً بل كان قلبه مطمئناً بالإيمان فهو كاذب في حلفه بما لا يحلف به، ومعاملته إياه معاملة ما يحلف به، ولا يكون كافراً خارجاً عن ملة الإسلام، ويجوز أن يطلق عليه اسم الكفر، ويراد به كفر الإحسان وكفر نعمة الله تعالى، فإنها تقتضي أن لا يحلف هذا الحلف القبيح، وقد قال الإمام أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك فيما ورد من مثل هذا مما ظاهره تكفير أصحاب المعاصي: إن ذلك على جهة التغليظ والزجر عنه، وهذا معنى مليح، ولكن ينبغي أن يضم إليه ما ذكرناه من كونه كافر النعم"[٢].

وقال المناوي في تفسير الشرك المذكور في الحديث: "أى فَعل فِعل أهل الشرك أو تشبه بهم إذا كانت أيمانهم بآبائهم وما يعبدون من دون الله، أو فقد أشرك في تعظيم من لم يكن له أن يعظمه، لأن الإيمان لا يصلح إلا بالله، فالحالف بغيره معظم غيره مما ليس له، فهو يشرك غير الله في تعظيمه، ورجحه ابن جرير"[٣].

وقال ابن الملقن: "قال الماوردي: "قوله: "فقد أشرك" فيه تأويلان أحدهما: فقد أشرك بين الله وبين غيره في التعظيم، وإن لم يصر من المشركين الكافرين. وثانيهما: صاراً كافراً به إن اعتقد لزوم يمينه بغير الله، كاعتقاد لزومها بالله"[٤].

لكن علماء المذهب الحنبلي يرون أن من حلف بغير الله فقد وقع في الشرك دون أن يفصلوا التفصيل السابق من كونه يقصد التعظيم أو خرج الكلام مخرج الزجر والتغليظ ونحو ذلك مما سبق ذكره.

يقول الدكتور محمد سليمان عبدالله الأشقر في كتابه "المجلّى" في الفقه الحنبلي: "الحلف بغير الله تعالى حرام، فمن حلف بمخلوق، كنبي من الأنبياء، أو ولي من

---

(١) سنن الترمذي ٣٦٣ بعد الحديث ١٥٣٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٢٧/٢/١.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير: محمد المدعو بعبدالرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت، وهى طبعة مصورة، ١٢٠/٦.

(٤) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ٤٦١/٩.

الأولياء، أو بالكعبة، أو بحياة أبيه أو أمه، أثم، ولم تنعقد يمينه، لما ورد "أن ابن عمر رأى رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((أن النبي أدركه وهو يحلف بأبيه فقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت))[1]. وقال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله تعالى كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً)[2]. ابن تيمية: (لأن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أهون من سيئة الشرك)[3].

ولا كفارة في الحلف بغير الله تعالى، لأن الكفارة وجبت في الحلف بالله تعالى حفظاً لأسمائه وصفاته، وغير الله تعالى لا يساويه. ولأن الحلف بغير الله تعالى شرك، وكفارته التوحيد، لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((من حَلفَ منكم فقال في حَلِفهِ باللاتِ والعُزَّى فليقُل لا إلهَ إلاّ الله))[4][5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٠٨، ومسلم ١٦٤٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٣/٩، ٨٩٠٢، وقال الهيثمي في المجمع ١٧٧/٤: رجاله رجال الصحيح.

(٣) الاختيارات الفقهية ٣٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٥٠، ومسلم ١٦٤٧.

(٥) المجلى في الفقه الحنبلي ٥١٨/٢، ٥١٩، وانظر: منار السبيل في شرح الدليل: إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان، ١٣٥٣هـ، حققه أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١٠٧٤/٣، ١٠٧٥، والملخص الفقهي الدكتور/صالح بن فوزان الفوزان، ٦٠١/٢، ٦٠٢، ط دار العاصمة. وتوضيح الأحكام الشيخ عبدالله البسام، ٨٢/٦، ٨٣.

الحديث رقم (١٧١٠)

١٧١٠- وعن عبد الرحمان بن سَمُرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**لاَ تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي، وَلاَ بِآبَائِكُمْ**)) رواه مسلم[1].

(**الطَّواغِي**): جَمْعُ طَاغِيَةٍ، وهِيَ الأصنَامُ. وَمِنْهُ الحَديثُ: ((**هذِهِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ**)) [2] أيْ: صَنَمُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ. وَرُوِيَ في غير مسلم[3]: ((**بِالطَّوَاغِيتِ**)) جَمعُ طَاغُوت، وَهُوَ: الشَّيْطَانُ وَالصَّنَمُ.

ترجمة الراوي:

عبدالرحمن بن سمرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٧٤).

الشرح الأدبي

يتكون هذا الحديث في بنائه اللغوي من جملة واحدة، وهي جملة فعلية: تبدأ بالنهي الصريح، "لا" ناهية جازمة: والجزم يعني: القطع والحسم، فالوظيفة النحوية للجزم: هي تسكين الفعل، وقطع حركته، أو اجتثاث الحرف الأخير منه، وهو: النون الدالة، على الجمع هنا، ولكن الدلالة التي تنبثق من سياق الحديث هي: النهي الجازم الحاسم عن الحلف بغير الله، وواو الجمع، تشير إلى كل مسلم على وجه الأرض في كل زمان ومكان، فالجماعة المسلمة التي دلت عليها هذه العلامة اللغوية، "واو الجماعة"، مطالبة بالانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ والطواغي: جمع طاغية، وهي الأصنام، والرواية الأخرى، الطواغيت، وهي جمع طاغوت، وفي اللغة: الطاغوت تتسع دلالته، فهو اللات والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب، وقد أطلق على كعب بن

---

(١) برقم (١٦٤٨/٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧١١٦) بلفظ: (وذو الخلصة طاغية دوس).

(٣) النسائي في المجتبى (٣٧٧٤)، والكبرى (٤٦٩٧).

الأشرف اليهودي لقب الطاغوت، لأنه من مردة أهل الكتاب، وأطلق لقب الجبت على "حُيي بن أخطب"، كما جاء في القاموس المحيط، مادة طغو.

وقوله: ولا بآبائكم فيه إيجاز بالحذف: والتقدير، "ولا تحلفوا بآبائكم".

وقال العلماء في التفريق بين النهي في الموقفين: النهي عن الحلف بالأول الطواغي: على سبيل التحريم، وعن الثاني على سبيل التنزيه. ففيه سر من أسرار الجمال اللغوي، وهو استعمال اللفظ الموضوع للنهي في حقيقته ومجازه، وقيل إنه مستعمل في معنى مجازي عام لهما هو طلب الترك لذينك، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧١١)

١٧١١- وعن بُريدَةَ رضي الله عنه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا)) حديث صحيح، رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يقتبس أشعته الهادية من وهج البيان القرآني العظيم، فهو كما يقول الرافعي: إن لم يكن من الوحي ولكنه جاء من سبيله،وأن لم يكن له منه دليل فقد كان هو من دليله، وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه،ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، والحديث يتسم بالإيجاز فهو جملة لغوية واحدة، ولكنها تتضمن أسراراً تعبيرية متعددة، وظواهر فنية أسلوبية تفصح عن بلاغة النبوة، وفصاحة خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومن هذه الأسرار التعبيرية: مجيء الحديث في قالب الشرط والجواب، فالجزاء من جنس العمل، وهذا القالب اللغوي يتواءم مع سياق الحديث والمراد منه، فلكل مقام مقال، والمبنى وعاء المعنى، لأن العقاب الذي تضمنه الحديث وهو "فليس منا" متوقف على نوعية السلوك الصادر عن الحالف بغير الله.

وأداة الشرط "من" وهي "للعاقل" فالذي يقسم ويحلف يعي ما يقول، وجواب الشرط: جملة فعلية فعلها ناسخ، وهو قوله: "فليس منا"، والنسخ هنا أدى وظيفته النحوية، وهي نسخ حركة أعراب المبتدأ والخبر، وهذا النسخ النحوي يتسق مع النسخ الدلالي، وهو نسخ عمل هذا الذي حلف بغير الله... فعقابه هو الخروج من دائرة الجماعة المسلمة،إلى أن يعود إلى جماعته، ويتوب إلى رشده.

---

(١) برقم (٣٢٥٣). وقال الحاكم (٢٩٨/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٥٦).

ولفظ "الأمانة" من الألفاظ التي تتعدد معانيها في هذا السياق، وتدل على ثراء اللغة العربية، فاللفظ كالمصباح المتوهج المشع بالنور في كل اتجاه، ولفظ الأمانة هنا: المراد به الفرائض، مثل الحج والصوم والزكاة وغيرها، وهذه الدلالة مستمدة من البيان القرآني، حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[١]، وقال السيوطي نقلاً علن الخطابي: فنهوا عن ذلك: لما يوهمه الحلف بها. أي: بالأمانة من مساواتها لأسماء الله وصفاته. والله أعلم.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يأتي:

١- كراهة الحلف بالأمانة: وهو ما ذهب إليه جمهور الحنابلة[٢]، ولعل سبب الكراهة أنه أُمر أن يحلف بالله تعالى أو بأسمائه، أو بصفة من صفاته، والأمانة ليست كذلك، وإنما هي فرض من فروضه على عباده، فنهى عنها حتى لا يسوّى بينها وبين أسماء الله تعالى وصفاته[٣].

وذهب الظاهرية[٤] وبعض الحنابلة[٥] إلى أن الحلف بالأمانة محرم.

٢- هل يعد الحلف بالأمانة يميناً؟: اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٦]، والمالكية[٧]، والحنابلة[٨]، ويرون أن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢ .

(٢) المبدع ٢٥٧/٩ ، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٦/١١ ، وكشاف القناع ٢٣١/٦ ، والمغني لابن قدامة ٢٤٥/٩.

(٣) عون المعبود ٥٨/٩.

(٤) المحلى لابن حزم ٣٢/٨.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٦/١١ ، وكشاف القناع ٢٣١/٦.

(٦) شرح فتح القدير ٧٦/٥.

(٧) مواهب الجليل ٣٦٥/٣.

(٨) كشاف القناع ٢٣١/٦ ، والمغني لابن قدامة ٢٤٥/٩ ، والمبدع ٥٧/٩.

الحلف بالأمانة يمين، بحيث تجب عليه الكفارة عند الحنث.

واستدلوا على ذلك بأن النهي الوارد في الأحاديث يقتضي فقط منع الحلف بها، ولا يقتضي منع كونها يميناً تجب فيها الكفارة عند الحنث[1].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الظاهرية[2]، ويرون أن الحلف بالأمانة ليس يميناً، واليمين بها معصية، وليس فيها كفارة، وليس فيها إلا التوبة، والاستغفار.

وظاهر من كلام ابن حزم أنه اعتبر الحلف بالأمانة معصية أكبر من أن تجبر بالكفارة.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الشافعية[3]، ويرون حمل ذلك على النية، فإن نوى بحلفه بالأمانة اليمين كان هذا الحلف يميناً، بحيث يكفر عنه حال الحنث، أما إن نوى بالحلف بها عدم اليمين، فلا يعد الحلف بها يميناً.

والراجح:

هو رأي الجمهور لعدم التلازم بين النهي عن الحلف بها، وكونه يميناً تجب فيها الكفارة عند الحنث.

المضامين الدعوية[4]

---

(١) شرح فتح القدير ٥/٧٦.

(٢) المحلى لابن حزم ٨/٣٢.

(٣) طرح التثريب ٧/٣٦٥.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٠٩).

الحديث رقم (١٧١٢)

١٧١٢- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إنِّي بَرِيءٌ مِنَ الإسْلاَمِ، فَإنْ كَانَ كَاذِباً، فَهُوَ كمَا قَالَ، وإنْ كَانَ صَادِقاً، فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الإسْلاَمِ سَالِماً)). رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

الشرح الأدبي

إن ألفاظ الحديث وجمله محددة ودالة، ومقنعة، فرسول الله ﷺ يحدد موقفاً، ويصدر حكماً؛ لأن الإنسان موكل بمنطقه، ومحاسب على ما ينطق، ولذلك حذر رسول الله من عثرات اللسان وزلاته فقال: ((من يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)) [2].

والحديث يبدأ بهذه الجملة الإخبارية: من حلف فقال: "إني بريء من الإسلام".

ومقول القول: جاء مؤكداً، وهو جملة اسمية تتكون من إن واسمها وخبرها ومتعلق الخبر.

ومضمون هذه الجملة يفصح عن تأثيم قائل هذا القول، وتصدير الجملة بإن الناسخة يمكن أن يشي ويرمز إلى أن عمل هذا القائل منسوخ ومردود عليه، ولذلك قال العلماء: إن قصد العزم على الكفر فهو كافر في الحال، لأنه صاغ كلامه في ثوب التوكيد، وإن قصد الامتناع من ذلك المحلوف عليه أبداً ولم يقصد شيئاً فلا كفر، لكنه لفظ شنيع قبيح يستغفر الله تعالى من إثمه ويأتي بالشهادتين ندباً، وتأمل، وراء

---

(١) برقم (٣٢٥٨). وقال الحاكم (٢٩٨/٤): هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣٠٧١): إسناده صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

قولهم: لفظ شنيع قبيح، وهو من حصائد الألسن التي تكب الناس في النار على وجوههم، ولذلك جعل الرسول ﷺ: إمساك اللسان من أبواب النجاة.

والجملتان الباقيتان في الحديث: شرطيتان، وأداة الشرط فيهما: "إن" وهي ليست للتحقق؛ لأن الرجل موقفه غير واضح فربما يكون صادقاً وربما يكون كاذباً فيما قال، ولكل افتراض نتيجته وعاقبته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ولذلك قدم رسول الله افتراض كذبه للتهديد والتشديد والوعيد، حتى لا تجري هذه الصيغ القبيحة على ألسنة العامة والجهلة وأدعياء الثقافة والحمقى من المفكرين الجهلاء.

وهو كما قال: "إن كان كاذباً" في حلفه أي أن الإسلام بريء منه، "وإن كان صادقاً" فلن يرجع إلى الإسلام سالماً، وتأمل دلالة الفعل يرجع، وما يوحي من خروج عن الإسلام ثم الرجوع إليه بسبب هذه الجملة الشنيعة القبيحة، "ولن يرجع سالماً" هذا التعبير فيه كناية عن أن هذا الحالف، قد أصابه الإثم، ولحقه الضرر، ووقع في الشبهات، وهو في حاجة إلى إصلاح ما انكسر من شعوره وعلاقته بدينه وربه، فهو قد أصبح مريضاً يحتاج إلى الاستشفاء، وهو الاهتداء إلى الصراط المستقيم، وإمساك اللسان، وسلامة العقيدة والنطق بالشهادتين. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- تحريم الحلف بالبراءة من الإسلام، سواء أكان صادقاً في يمينه أو كاذباً لما في ذلك من الاستخفاف بالإسلام[1].

٢- هل الحلف بالبراءة من الإسلام يُعد يميناً؟: اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

---

(١) شرح فتح القدير ٧٤/٥، والمدونة ١٠٦/٣، ومغني المحتاج ٣٢٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢١٤/٤، والمغني لابن قدامة ٤٠٠/٩-٤٠١، وعون المعبود ٦١/٩-٦٢.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه المالكية[١]، والشافعية[٢]، وأحمد في رواية[٣]، ويرون أن الحلف بالبراءة من الإسلام لا يعد يميناً، ولا يلزمه الكفارة إذا حنث وبه قال الليث، وأبو ثور، وابن المنذر[٤].

واستدلوا على ذلك: بأن الحالف في هذه الحالة لم يحلف بالله، ولا بصفة من صفاته وبالتالي لا تلزمه كفارة[٥].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٦]، والإمام أحمد في رواية[٧]، ويرون أن الحلف بالبراءة من الإسلام يعد يميناً، وبالتالي تجب عليه الكفارة إذا حنث وبه قال الثوري والأوزاعي، وإسحاق وجماعة[٨].

والراجح:

الرأي الأول، لقوة دليله، ولأن الوجوب من الشارع، ولم يرد في هذه اليمين نص[٩].

المضامين الدعوية[١٠]

---

(١) المدونة ١٠٦/٣.

(٢) مغني المحتاج ٣٢٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢١٤/٤.

(٣) المغني لابن قدامة ٤٠٠/٩-٤٠١.

(٤) المغني ٤٠٠/٩.

(٥) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٦) شرح فتح القدير ٧٤/٥.

(٧) المغني لابن قدامة ٤٠١/٩.

(٨) المغني ٤٠١/٩، وعون المعبود ٦١/٩.

(٩) المغني لابن قدامة ٤٠١/٩.

(١٠) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٠٩).

الحديث رقم (١٧١٣)

١٧١٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يقُولُ: لاَ وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابنُ عُمَرَ: لاَ تَحلِفْ بغَيْرِ اللهِ، فَإنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ حَلَفَ بغَيرِ اللهِ، فقد كَفَرَ أَوْ أشْرَكَ)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

وفَسَّرَ بَعْضُ العُلَمَاءِ قولَهُ: ((كفَرَ أَوْ أشْرَكَ)) عَلَى التَّغْلِيظِ، كما روي أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: ((الرِّياءُ شِرْكٌ[2]))[3].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف من المشاهد الواقعية، والحوارات الحقيقية التي توضح بجلاء بعض المواقف والأحكام، ويأتي ذلك الحديث ختاماً لباب: النهي عن الحلف بغير الله، واختياره في هذا الختام: للإفادة بأن ما ورد من أحاديث سابقة في هذا الباب لم تكن مجرد وصايا أو مواعظ أو نواهٍ مجردة، وإنما هي علاج لمواقف يخوضها بعض الناس، وبيان للمنهج الصحيح الذي يجب أن يتبعه المسلمون في أيمانهم وأقسامهم، وكذلك تدليل واقعي على ما يرتكبه بعض المخالفين الذين يحلفون بالمخلوقات، والمعنويات، والفرائض.

---

(١) برقم (١٥٣٥). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٣٥٨)، وقال الحاكم (٥٢/١): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال في (١٨/١): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بمثل هذا الإسناد وخرجاه في الكتاب، وليس له علة ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) من حديث معاذ بلفظ: (إنَّ يسيرالرياء شرك). قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٣٢٧٠): ضعيف، فيه عيسى بن عبد الرحمن، وهو الزرقي متروك.

(٣) هذا الكلام بنصه للترمذي عقب الحديث، اختصره المؤلف.

والحديث هنا يرصد ويروي مشهداً حوارياً بين رجل يحلف بغير الله، ويقول: "لا والكعبة"، ولم يتمهل ابن عمر رضي الله عنهما، ولم يسكت ولكن بادر مسرعاً فقال: وتأمل ما أحدثه العطف بحرف الفاء هنا من تصوير لغيرة ابن عمر رضي الله عنهما وإسراعه في تقويم هذا الانحراف القولي الذي يقود إلى الانحراف العقدي، فقال: موجهاً: النهي الحاسم الجازم إلى ذلك الرجل، "لا تحلف بغير الله".

ثم يعلل هذا النهي تعليلاً منطقياً مقنعاً مؤيدًا بالدليل الثابت: محصناً بالتوكيد، والإقرار بالسماع من رسول الله: فقوله: "فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول": من أقوى القرائن والأدلة: لأنه لم يرو هذا القول: عن راوٍ، ولم ينقله عن أحد، ولكنه سمعه ووعاه وحفظه وأداه كما سمعه، والحكم الذي قاله رسول الله ﷺ سمعه ابن عمر رضي الله عنهما، ونقله إلى كل مسلم، ورد في صيغة الشرط والجواب، وهو أسلوب مناسب للمقام، ومتسق مع الحدث، فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، وقيل: إن الكفر أو الشرك هنا محمول على التغليظ من ترك ذلك والتنفير منه.

وقال العلماء، النهي على سبيل التحريم إن قصد بها تعظيماً لها في الجملة، فإن قصد تعظيمها كتعظيم الله تعالى: "كفر"، وإن جرى على لسانه القسم بها بقصد إدغام الكلام كره، وإن جرى عليه من غير قصد فلا كراهة بل هو من لغو اليمين[١].
والله أعلم.

المضامين الدعوية[٢]

---
(١) دليل الفالحين، ٤.
(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٠٩).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية العقدية:

إن العقيدة الإسلامية هي الأساس الأول من أسس التربية في الإسلام من حيث كون العقيدة الإسلامية قاعدة تبني عليها كل حركة وكل سكنة من حركات وسكنات المسلم في حياته، ولذا فإنها والحالة تلك تكون مقياسًا حتميًا لكل سلوك يسلكه سواء كان سلوكًا دنيويًا أو كان سلوكًا أخرويًا، بحيث يقبل ويأخذ ما وافق العقيدة، ويرد ويرفض كل ما خالف العقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى ضرورة الكفر بما خالف العقيدة الإسلامية ومعاداته، وإعلان البراء من أوليائه قال عز وجل: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] كما أن غرس العقيدة الإسلامية في نفس المسلم بوصفه عملاً رئيسًا من مهام المربي المسلم يجعل سلوك الفرد متفقًا مع أهداف التربية الإسلامية[2]؛ فعلى المربي أن يحارب السلوكيات والأقوال التي تخالف العقيدة الإسلامية ومنها الحلف بغير الله كالحلف بالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء والحياة والروح والرأس ونعمة السلطان وتُرْبة فلان - أي قبره - والأمانة وغيرها من الأشياء التي تخالف العقيدة الإسلامية، لأن الحلف بغير الله تعالى شرك كما قال ﷺ: "من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك".

وقد كثر من الناس اليوم من يحلف بغير الله، كمن يحلف بالأمانة أو يحلف بالنبي ﷺ، أو يقول، وحياتي، وحياتك يا فلان... وما أشبه هذه الألفاظ، وقد سمعنا ما ورد في الأحاديث من النهي عن الحلف بغير الله عز وجل، واعتباره كفرًا وشركًا، لأن الحلف بالشيء تعظيم له، والذي يجب أن يعظم ويحلف به هو الله عز وجل،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي، ص ٨٦.

والحلف بغيره شرك وجريمة عظمى[1] ينافي العقيدة الإسلامية؛ فعلى المربي أن يقوم بتربيتهم لهذا وتوجيههم إلى البعد عن هذه العوائد الجاهلية.

قال ﷺ: "إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا، فليحلف بالله، أو ليصمت"، وقال ﷺ: "لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم" وقال ﷺ: "من حلف بالأمانة فليس منا"... أحاديث الباب التي تحرم الحلف بغير الله وتنهى عنه. وتأمرنا إذا أردنا أن نحلف أن نقتصر على الحلف بالله وحده ولا نحلف بغيره.

فالحلف بغير الله مسألة تعد من أهم المسائل التي ينبغي أن يعنى بها المربون لأجل تقوية العقيدة في النفوس، وتعظيم الله في نفوس المسلمين.

ثانيًا - التربية بالترهيب:

لقد رهب النبي ﷺ من الحلف بغير الله فقال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" وقال ﷺ: "من حلف بالأمانة فليس منا"، وقال ﷺ: "من حلف فقال: إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذبًا، فهو كما قال، وإن كان صادقًا، فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا" والترهيب هو وعد يصاحبه تهديد الإنسان بالعقوبة، وتحذيره من الأعمال التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى.

وأسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية وخاصة تربية الطفل، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة[2]، التي استخدمها رسول الله ﷺ في المواقف التي تحتاج إلى بيان الوعيد أو التهديد بالعقوبة، لمن يعمل عملاً لا يوافق الشريعة الإسلامية، ويغضب الله تعالى[3].

والمربي الناجح هو الذي يجيد استخدام أسلوب الترهيب كأسلوب تربوي يخدم عملية التربية في تخويف وتهديد من يقوم بتربيتهم من السلوكيات والأفعال التي تخالف الدين، وتغضب رب العالمين.



---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص ١٣٥.

(٢) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن البابطين، ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق ٣٨.

٣١٥- باب تغليظ اليمين الكاذبة عمداً

الحديث رقم (١٧١٤)

١٧١٤- عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيرِ حَقِّهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ)) قَالَ: ثُمَّ قَرأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿إنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [آل عمران: ٧٧]. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

لقد نهى الإسلام عن تحصيل المال بالطرق التي لا خير فيها صيانة لها عن الشر والفساد، وحفظاً لمال الغير عن السرقة والانتهاب، وجعل أخذ المال دون رضا صاحبه وطيب نفسه أكلاً له بالباطل يجب التحرز منه: فقال رسول الله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"[٢][٣].

وهذا الحديث الشريف ينبه إلى صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل وهذا التنبيه جاء في صورة وعيد، وإنذار بالعقوبة المغلطة وهي غضب الله سبحانه وتعالى على من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه، ليأخذه بيمينه الكاذبة.

وقد ورد هذا المضمون الذي يغلظ العقوبة، ويحرم اليمين الكاذبة عمداً، في صيغة لغوية متسقة مع هذا المضمون الذي يتضمن النتيجة المترتبة على المقدمة، وهذه الصيغة هي صيغة الجواب والشرط، فالمقدمة هي فعل الشرط: حيث يحلف الرجل على مال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٥)، ومسلم (١٢٨/٢٢٢) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٣١).

(٢) أخرجه مسلم، ٢٥٦٤.

(٣) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص٢٣٥.

امرئ مسلم بأنه من حقه وبأنه يخصه كذباً، ولذلك قال رسول الله مؤكداً أن هذه اليمين كاذبة "بغير حقه".

إن هذه المقدمة: تقود إلى نتيجة متوائمة مع طبيعتها: وهي: غضب الحق سبحانه وتعالى على هذا الكاذب المحتال، ولذلك جاء جواب الشرط في قوله: "لقي الله وهو عليه غضبان"، والمراد من الغضب هنا: إما غايته وهي الانتقام أو إرادة الغضب من باب المجاز المرسل، واقتران الجواب بالحال.

والآية القرآنية سيقت للتدليل على تحقق الغضب الإلهي، وموقع جملة، "وهو عليه غضبان"، يشارك في ترسيخ هذا الدليل، ويمهد له: فالجملة: حالية أي أن هذا العبد سيواجه ربه وهو مغضوب عليه، فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من اليمين الكاذبة عمداً.

ثانياً: من أهداف الدعوة: الحفاظ على الحقوق.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: اجتناب الكبائر.

رابعاً: من حقوق المدعو: السؤال عما يشغله.

خامساً: من فقه الداعية: استخدام الألفاظ المعبرة عن المعنى تعبيراً موحياً.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من اليمين الكاذبة عمداً:

هذا واضح من هذه الأحاديث: فحديث ابن مسعود رضي الله عنه: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان"، وحديث إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة". كما عدّ النبي ﷺ أن اليمين الغموس من الكبائر، وجاء تفسيرها في الحديث "الذي يقتطع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧ .

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧١٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧١٥، ١٧١٦).

مال امرئ مسلم، يعني بيمين هو فيها كاذب، فدل ذلك على تغليظ الحلف كذباً متعمداً، (ومن صوره اقتطاع حق مال امرئ مسلم كذباً عامداً" فاليمين الغموس، كما جاء في الموسوعة الفقهية، هي المحلوفة على ماض مع كذب صاحبها وعلمه بالحال ومن صورها: والله ما فعلت كذا وهو يعلم أنه فعله. أو والله لقد فعلت كذا وهو يعلم أنه لم يفعله، أو: والله ما لك على دين وهو يعلم أن للمخاطب ديناً عليه)[١].

ولتغليظ أمر الحلف كذباً عمداً، قال ابن مسعود: (كنا نعد الذنب الذي لا كفارة له اليمين الغموس أن يحلف الرجل على مال أخيه كاذباً، ليقتطعه)[٢].

وحديث ابن مسعود بلفظ من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقى الله وهو عليه غضبان، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]،[٤]، قال النووي: "التقييد بكونه فاجراً لابد منه، ومعناه: هو آثم. ولا يكون آثماً إلا إذا كان متعمداً عالماً بأنه غير محق"[٥].

وقال ابن دقيق العيد: "يمين الصبر"[٦]: هي التي يصبر فيها نفسه على الجزم باليمين و"الصبر": الحبس: فكأنه يحبس نفسه على هذا الأمر العظيم، وهي اليمين الكاذبة، ويقال لمثل هذه اليمين "الغموس" أيضاً، وفي الحديث وعيد شديد لفاعل ذلك، وذلك لما

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٨٢/٧-٢٨٣. بتصرف يسير. وجاء في معجم لغة الفقهاء: اليمين الغموس: اليمين الفاجرة، وهي أن يحلف على أمر وهو يعلم أنه كاذب، وهي بذلك تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، معجم لغة الفقهاء، ص٢٨٤.

(٢) قال ابن حجر: رواه آدم بن أبي إياس في مسند شعبة وإسماعيل القاضي في الأحكام عن ابن مسعود، وقال: ولا مخالف له من الصحابة، فتح الباري، ٥٥٧/١١ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٧٦، ومسلم ١٣٨.

(٥) شرح صحيح مسلم ١٦٣/٢/١ .

(٦) اليمين الغموس يقال لها الزور والفاجرة وسميت في الأحاديث يمين صبر ويميناً مصبورة. سبل السلام للصنعاني، ٨٨٠ط بيت الأفكار الدولية.

فيها من أكل المال بالباطل ظلماً وعدواناً والاستخفاف بحرمة اليمين بالله، وهذا الحديث يقتضي تفسير هذه الآية بهذا المعنى. وفي ذلك اختلاف بين المفسرين، ويترجح قول من ذهب إلى هذا المعنى بهذا الحديث، وبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر يحصل للصحابة بقرائن تحف القضايا"(١).

وقد ورد الترهيب والوعيد لمن حلف كاذباً في حق الغير مطلقاً، فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة" الحديث، وفيه "المنفق سلعته بالحلف الفاجر"(٢)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضى، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره، لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(٣)(٤).

قال ابن حجر: "قال الخطابي: خص وقت العصر بتعظيم الإثم فيه، وإن كانت اليمين الفاجرة محرمة في كل وقت. لأن الله عظم شأن هذا الوقت بأن جعل الملائكة تجتمع فيه وهو وقت ختام الأعمال، والأمور بخواتيمها فغلظت العقوبة فيه لئلا يقدم عليها تجرؤاً، فإن من تجرأ عليها فيه اعتادها في غيره، وكان السلف يحلفون بعد العصر، وجاء ذلك في الحديث أيضا"(٥).

ثانياً- من أهداف الدعوة: الحفاظ على الحقوق:

هذا واضح من هذه الأحاديث، وأشدها دلالة على ذلك حديث أبي أمامة إياس ابن

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٣٥٨ وهذا لفظه، ومسلم ١٠٨.

(٥) فتح الباري، ٢٠٣/١٣، .

ثعلبة الحارثي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة"، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك.

قال النووي: (قوله صلى الله عليه وسلم: "حق امرىء" يدخل فيه من حلف على غير مال كجلد الميتة والسرجين[1] وغير ذلك من النجاسات التي ينتفع بها، وكذا سائر الحقوق التي ليست بمال كحد القذف ونصيب الزوجة في القسم وغير ذلك. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "فقد أوجب الله تعالى له النار وحرم عليه الجنة" ففيه جوابان:

أحدهما: أنه محمول على المستحل لذلك إذا مات على ذلك، فإنه يكفر ويخلد في النار.

والثاني: معناه فقد استحق النار ويجوز العفو عنه، وقد حرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين.

وأما تقييده صلى الله عليه وسلم بالمسلم فليس يدل على عدم تحريم حق الذمي، بل معناه أن هذا الوعيد الشديد وهو أنه يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان، لمن اقتطع حق المسلم، وأما الذمي فاقتطاع حقه حرام، ... وقال القاضي عياض[2]: تخصيص المسلم لكونهم المخاطبين وعامة المتعاملين في الشريعة، لا أن غير المسلم بخلافه، بل حكمه حكمه في ذلك، والله أعلم.

ثم إن هذه العقوبة لمن اقتطع حق المسلم ومات قبل التوبة، أما من تاب فندم على فعله ورد الحق إلى صاحبه وتحلل منه وعزم على أن لا يعود فقد سقط عنه الإثم، والله أعلم ... وفيه بيان غلظ تحريم حقوق المسلمين، وأنه لا فرق بين قليل الحق وكثيره لقوله صلى الله عليه وسلم: "وان كان قضيباً من أراك")[3].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المسلم أخو المسلم فلا يظلمه، فقال صلى الله عليه وسلم: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ..."[4]، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا

---

(١) السرجين: الزبل وهو من روث الحيوانات، انظر: معجم لغة الفقهاء ٢٠٤-٢٠٧.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣٤/١١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٣/٢/١، وانظر: فتح الباري ٥٦٣/١١-٥٦٤ .

(٤) أخرجه البخاري ٢٣٣٢، ومسلم ٢٥٨٠.

تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا. ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"[١].

وقال ﷺ: «لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أضَرَّ به، وَمَنْ شَاقَّ مُسْلِماً شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ»[٣].

قال عبدالله البسام: (ما يؤخذ من الحديث:

١- أذية المسلم وغيره بغير حق حرام سواء أكانت الأذية في بدنه أو عرضه أو ماله أو ولده أو أهله أو أي شيء يلحقه الضرر به، فمن أدخل الضرر على مسلم أو ذمي أو معاهد جازاه الله تعالى من جنس عمله، بأن يدخل عليه المضرة والمشقة.

٢- جاء في الحديث الذي أخرجه مالك في الموطأ أن النبي ﷺ قال: "لا ضرر ولا ضرار"[٤]، وهذا الحديث جعله علماء الأصول قاعدة شرعية عامة كبرى استقوا منها عدداً كثيراً من المسائل الفرعية[٥].

ومعناه: نفي الضرر من الرجل لأخيه ابتداء وجزاء.

فالحديث: "لا ضرر ولا ضرار" وأخوه "حديث الباب" نص في تحريم الضرر بأنواعه كلها، لأن النفي -بلا- للاستغراق فيفيد تحريم جميع أنواع الضرر، لأنه الظلم الذي حرمه الله تعالى على نفسه وجعله بين عباده محرماً.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٥٣/٣ رقم ١٥٧٥٥، وقال محققو المسند: حديث حسن بشواهده أهـ وانظر تتمة تخريجه في مسند أحمد ٣٤/٢٥.

(٤) أخرجه أحمد ٣١٣/١ رقم ٢٨٦٥، وقال محققو المسند: حسن أهـ وانظر شواهده في تخريج المسند ٥٥/٥-٥٦، وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ٢٠٧/٢-٢١٠.

(٥) انظر جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي، ١٣٩/١-١٧١.

٣- الضرر بحق جائز كإقامة الحدود والعقوبات والإكراه على استخلاص الحقوق المستحقة الواجبة.

٤- المضارة المحرمة هي المضارة المقصودة، أما غير المقصودة فلا تحرم. قال شيخ الإسلام: المضارة معناها القصد والإرادة أو على فعل فيه ضرر، فمتى قصد الإضرار أو الفعل بالإضرار من غير حاجة فهو مضار.

وأما إذا فعل الضرر المستحق للحاجة لا لقصد الضرر فليس بمضار، ومن ذلك قوله ﷺ لصاحب النخلة التي تضر صاحب الحديقة لما طلب صاحبها المعاوضة عنها بعدة طرق فلم يفعل قال: "إنما أنت مضار"[(١)]، ثم أمر بقلعها، دل على أن الضرر محرم لا يجوز تمكين صاحبه منه"[(٢)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: اجتناب الكبائر:

هذا واضح من الحديث: "الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس"، وقال ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات"[(٣)]. وقال ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

---

(١) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه كان له عضد من نخل في حائط رجل من الأنصار، قال: ومع الرجل أهله، قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به ويشق عليه، فطلب إليه أن يبيعه فأبى، فطلب إليه ان يناقله فأبى، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فطلب إليه النبي ﷺ أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: فهبه له ولك كذا وكذا" أمراً رغبه فيه فأبى. فقال: أنت مضار. فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلع نخله.

أخرجه أبو داود ٣٦٣٦، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابي داود ٧٨٥).

قال الخطابي في معالم السنن: "رواه أبو داود" عضدا وإنما هو عضيد من نخيل، يريد نخلاً لم تبسق ولم تطل، قال الأصمعي: إذا صار للنخلة جذع يتناول منه المتناول فتلك النخلة العضيد جمعه عضيدات. وفيه من العلم: أنه أمر بإزالة الضرر عنه، وليس في هذا الخبر انه قلع نخله، ويشبه أن يكون أنه إنما قال ذلك ليردعه به عن الإضرار. معالم السنن، ٥/ ٢٤٠.

(٢) توضيح الأحكام ٦/ ٣٤٢، ٣٤٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٥٧، ومسلم ٨٩.

"ثلاثاً"، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور، أو قول الزور[١]. قال ابن حجر: "قوله ﷺ: "أكبر الكبائر" ليس على ظاهره من الحصر بل "من" فيه مقدرة، فقد ثبت في أشياء أخر أنها من أكبر الكبائر"[٢]، ثم ذكر الأحاديث الواردة في أكبر الكبائر، فبلغت عشرين كبيرة، وبعد إسقاطه المتداخل منها بلغت ثلاث عشرة"[٣].

أما عن تعريف الكبيرة فقال ابن حجر: "قال ابن عبدالسلام في "القواعد": لم أقف لأحد من العلماء على ضابط الكبيرة لا يسلم من الاعتراض، والأولى ضبطها بما يشعر بتهاون مرتكبها بدينه إشعاراً دون الكبائر المنصوص عليها. قلت: وهو ضابط جيد"[٤]، لكن ابن حجر قال في موضع آخر من فتح الباري: "ومن أحسن التعاريف قول القرطبي في "المفهم"[٥]: كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر فيه بشدة العقاب أو علق عليه الحد أو شدد النكير عليه فهو كبيرة. وعلى هذا فينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق من القرآن أو الأحاديث الصحيحة والحسنة ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك عرف منه تحرير عدها"[٦].

والذي يهمنا هنا كون الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس من الكبائر.

فأما الإشراك بالله[٧]، فقال ابن القيم مبيناً كونه من الكبائر المهلكة: "حقيقة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٥٣، ٥٩٧٦، ومسلم ٨٧.

(٢) فتح الباري ٤١١/١١، .

(٣) الموسوعة الفقهية ١٥٣/٣٤، وفتح الباري ٤١١/١٠، ١٨٣/١١.

(٤) فتح الباري ٤١١/١٠.

(٥) المفهم ٢٨٤/١

(٦) فتح الباري ١٨٤/١٢، .

(٧) قال ابن دقيق العيد، في إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ٣٦١: يحتمل أن يراد به مطلق الكفر فيكون تخصيصه بالذكر لغلبته في الموجود، لاسيما في بلاد العرب. فذكر تنبيهاً على غيره. ويحتمل أن يراد به: خصوصه، إلا أنه يرد على هذا الاحتمال: أنه قد يظهر أن بعض الكفر أعظم قبحاً من الإشراك، وهو كفر التعطيل، فبهذا يترجح الاحتمال الأول.

الشرك هو التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة... فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن غيره، شبيهاً لمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه ومرجعها إليه، فمن شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والتوبة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ..."[1].

أما قتل النفس التي حرم الله قتلها، فقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تعظم من أمر القتل وتبين الوعيد الشديد على ذلك، من هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أول ما يقضي بين الناس في الدماء"[2]. قال النووي: "فيه تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها"[3]، وقال ابن حجر: " وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعدام البنية الإنسانية غاية في ذلك، وقد ورد

---

(١) الداء والدواء ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٣٢، ومسلم ١٦٧٨.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٧٤/١١/٧، ط دار عالم الكتب.

في التغليظ في أمر القتل آيات كثيرة وآثار شهيرة يأتي بعضها في أول (كتاب الديات"[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٢]، قال ابن كثير: "أى ومن قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ... وقال سعيد بن جبير: "من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً"[٣].

وأما عقوق الوالدين فقال ابن دقيق العيد: "عقوق الوالدين معدود من أكبر الكبائر في هذا الحديث، ولاشك في عظم مفسدته، لعظم حق الوالدين"[٤]. وقال ابن حجر: "والعقوق - بضم العين المهملة- مشتق من العق، وهو القطع، والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد. وضبطه ابن عطية بوجوب طاعتهما في المباحات فعلاً وتركاً، واستحبابها في المندوبات، وفروض الكفاية كذلك. ومنه تقديمها عند تعارض الأمرين وهو كمن دعته أمه ليمرضها، مثلاً بحيث يفوت عليه فعل واجب إن استمر عندها ويفوت ما قصدته من تأنيسه لها، وغير ذلك لو تركها وفعله وكان مما يمكن تداركه مع فوات الفضيلة كالصلاة أول الوقت أو في الجماعة"[٥].

وقال ابن دقيق العيد: "قال شيخنا الإمام أبو محمد بن عبدالسلام: وقد حرم على

---

(١) فتح الباري ١١/٢٩٧، ط السلفية.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٩٢، وانظر: الداء والدواء، لابن القيم ٢٢٥-٢٣٠.

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٦١.

(٥) فتح الباري ١١/٤٠٦ .

الولد السفر إلى الجهاد بغير إذنهما، لما يشق عليهما من توقع قتله، أو قطع عضو من أعضائه ولشدة تفجعهما على ذلك، وقد ألحق بذلك كل سفر يخافان فيه على نفسه أو على عضو من أعضائه"[١].

وأما اليمين الغموس من الكبائر: "لما فيها من أكل المال بالباطل ظلماً وعدواناً والاستخفاف بحرمة اليمين بالله"[٢].

وقال القرطبي المفسر: "قد جمع هذا الحالف الكذب واستحلال مال الغير، والاستخفاف باليمين بالله تعالى، والتهاون بها وتعظيم الدنيا. فأهان ما عظمه الله وعظم ما حقره الله وحسبك، ولهذا قيل: إنما سميت اليمين الغموس غموساً، لأنها تغمس صاحبها في النار"[٣].

رابعاً- من حقوق المدعو: السؤال عما يشغله:

هذا واضح من سؤال الأعرابي النبي ﷺ فقال: "يارسول الله: ما الكبائر؟، قال: الإشراك بالله، قال: ثم ماذا؟، قال: اليمين الغموس...". الحديث. فإن هذا الأعرابي يغلب على الظن أنه سمع عن الكبائر وعن الوعيد الشديد على فعلها، فأراد أن يسأل النبي ﷺ عنها حتى يتجنبها ولا يقارفها. قال ابن القيم عن انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر، فقال: "وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[٥]، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، ص ٣٦١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٨/٦/٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٣١.

(٥) سورة النجم، آية: ٣٢.

ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر"[١]،[٢].

خامساً- من فقه الداعية: استخدام الألفاظ المعبرة عن المعنى تعبيراً موحياً:

هذا واضح في قوله ﷺ: "اليمين الغموس"، فقد عبر عن اليمين الكاذبة عمداً باليمين الغموس، قال ابن حجر: "قيل سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار"[٣].

ومن هذا القبيل: ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: "من الكبائر شتم الرجل والديه"، قالوا: يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"[٤]، قال النووي: "فيه دليل على أن من تسبب في شيء جاز أن ينسب إليه ذلك الشيء، وإنما جعل هذا عقوقاً؛ لكونه يحصل منه ما يتأذى به الوالد تأذياً ليس بالهين"[٥].

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[٦].

قال النووي: "معناه أن هذا حقيقة المفلس وأما من ليس له مال ومن قلّ ماله فالناس يسمونه مفلساً، وليس هو حقيقة المفلس، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته. وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته. وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الداء والدواء ١٩٢، وانظر: الموسوعة الفقهية ١٤٨/٣٤.

(٣) فتح الباري ٥٥٥/١١، .

(٤) أخرجه البخاري ٥٩٧٣، ومسلم ٩٠.

(٥) شرح صحيح مسلم ٩٠/٢/١، وانظر: فتح الباري ٤٠٣/١٠-٤٠٤.

(٦) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه، ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه"[١].

ولا شك أن استخدام الداعية للألفاظ المعبرة عن المعنى تعبيراً موحياً يجعل الرسالة الدعوية تصل إلى المدعوين وفيها من التأثير ما فيها، مما يسهل قبولهم لها ويسرع بامتثالهم إياها. وهذا هو مقصود الداعية من دعوته.

(١) شرح صحيح مسلم ٨/١٦/١٣٧-١٣٨، .

الحديث رقم (١٧١٥)

١٧١٥- وعن أَبي أُمَامَة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ ، قَالَ: ((مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ. وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإنْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: ((وإنْ (كَانَ) [1] قَضِيباً مِنْ أرَاكٍ)) رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو أمامة بن ثعلبة الحارثي الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٤).

غريب الألفاظ:

قضيباً من أراك: أي عوداً من شجر المسواك[3].

الشرح الأدبي

إن الحفاظ على مال الغير من المسلمين والذميين واجب شرعي، والمسلم أولى من غيره في هذا الباب؛ لأن حقه في الحفاظ على ماله لا يسقط بأي حال من الأحوال، ولذلك تضمن هذا الحديث مثل السابق عليه عدة ظواهر أسلوبية وفنية تساعد في جلاء المعنى، وترسيخه في النفوس، ومن هذه الظواهر الأسلوبية، بداية الحديث بالتوكيد، حيث يؤكد الراوي الخبر ويقول: "إن رسول الله ﷺ قال": وهذا التأكيد لأهمية الخبر ومضمونه في الحديث.

ورسول الله ﷺ يصوغ بيانه الشريف في إطار أسلوب الشرط والجواب، وأداة الشرط "من" وفعل الشرط "اقتطع حق امرئ مسلم"، وجواب الشرط: "فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة".

---

(١) (كان) لا توجد عند مسلم، والزيادة من النسائي في المجتبى (٥٤١٩)، تبع المؤلف فيه المنذري.

(٢) برقم (١٣٧/٢١٨)، وتقدم برقم (٢١٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٤٦).

(٣) النهاية في (ق ض ب)، والوسيط في (أ ر ك).

ولنتأمل صيغة الافتعال في قوله: "اقتطع" والمراد قطع أو أخذ، ولكن هذه الصيغة تومئ إلى الإكراه والاغتصاب، وكأن هذا الذي أخذ حق غيره يقتطع جزءاً من جسد صاحب الحق، والتعبير بقوله: "حق امرئ مسلم" عبر بحق ليعم المال وغيره من ممتلكات الإنسان الخاصة، ولذلك عدل عن قوله: "مال" إلى "حق" لإفادة أن هذا المال وغيره من اختصاص صاحبه، ولا حق لغيره فيه.

وقيل إن تخصيص الحق بالمرء المسلم لا يبيح أخذ مال الذمي بغير حق؛ فالعقوبة تطارد من يفعل ذلك، ومن أسرار التعبير البلاغية، مجيء جواب الشرط مقترناً بقد.. لتأكيد العقوبة وتغليظها، والتعبير بقوله: "أوجب الله له النار"، أشد في تغليظ العقوبة، والسخرية من الحالف كذباً من قوله: "أدخله الله النار"، وتزداد العقوبة تغليظاً وتأكيداً: بالجملة الثانية المعطوفة على جواب الشرط في قوله: "وحرم الله عليه الجنة".

ومن أسرار التعبير وجمالياته: هذا الحوار الصادق بين رسول الله وأحد الصحابة، وقد جاء الحوار في صيغة الجواب والشرط مقروناً بالاستفهام في كلام الرجل، وحذف جواب الشرط في السؤال والجواب، وذلك للعلم به، لأن العقوبة أوجبها الله وهي دخول النار: وتحريم الجنة.

ولنتأمل هذا السؤال الحقيقي وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله؟، وهو سؤال فيه حيرة ودهشة وقلق، ويأتي جواب رسول الله محدداً وواضحاً يزيل أي لبس ويجلو أي شبهة "وإن كان قضيباً" من أراك، وجواب الشرط محذوف والتقدير: فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧١٦)

١٧١٦- وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**الكَبَائِرُ: الإشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، واليَمِينُ الغَمُوسُ**)). رواه البخاريُّ[1].

وفي روايةٍ لَهُ[2]: أنَّ أعْرابياً جَاءَ إلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ مَا الكَبَائِرُ؟ قَالَ: ((**الإشْرَاكُ بِاللهِ**)) قَالَ: ثُمَّ مَاذا؟ قَالَ: ((**اليَمِينُ الغَمُوسُ**)) قلتُ: وَمَا اليَمِينُ الغَمُوسُ؟ قَالَ: ((**الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ!**)) (يعني بيَمِينٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ)[3].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

اليمين الغموس: اليمين الفاجرة، وهي أن يحلف على أمر وهو يعلم أنه كاذب، وهي بذلك تغمس، صاحبها في الإثم، ثم في النار[4].

الشرح الأدبي

يقدم هذا الحديث الشريف في أسلوب واضح محدد أربعة أنواع من الكبائر، وليست الكبائر محصورة في هذه الأربعة، وإنما جيء بها هنا لشدة أمرها وغلظها.

والكبائر جمع كبيرة، وهو جمع أقصى، على وزن مفاعل، والكبيرة -كما قال العلماء- ما توعد عليه بالعذاب أو الغضب في الكتاب والسنة.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي، ودلالات الألفاظ وموحياتها في هذا الحديث الشريف، فقوله: "الكبائر" مبتدأ ...، وهو يحتاج إلى خبر لتتم فائدة الكلام، وفي رواية أخرى: بُدىء الحديث بسؤال من أعرابي: "ما الكبائر؟" وخبر المبتدأ في هذه الرواية: هو

---

(١) برقم (٦٦٧٥)، ومسلم (٦٩٢٠)، وتقدم برقم (٣٣٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٣٥، و٣٦٧٩).

(٢) البخاري برقم (٦٩٢٠). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٣٥).

(٣) لفظ البخاري: (هو فيها كاذب)، بدل: (يعني: بيمين هو كاذب).

(٤) معجم لغة الفقهاء ٤٨٤.

بقية الحديث: وهو أخبار معطوفة.

ونلاحظ أنها جاءت على نسق واحد في البناء اللغوي، حيث المصادر المضافة إلى متعلقاتها، وهي: "الإشراك، وعقوق، وقتل": وكل مصدر مضاف إلى ما بعده وكأن هذه المخالفة هي مصدر الكبيرة ومنبعها، وأما اليمين فقد وصفت بالغموس، وفي ذلك تميز في تركيب هذه الجملة؛ لأن الناس يمكن أن يستهينوا بذلك الأمر، فتميز التركيب اللغوي، لإثارة الانتباه واليقظة.

وحين نتأمل دلالة الألفاظ التي تمثل مصادر الكبائر لغة ومعنى في الحديث الشريف، نجد أن الفعل أشرك، وهو مأخوذ من المصدر إشراك: ذكر في القرآن الكريم وما يشتق منه، مائة وثمانية وستين مرة، وقد أخذ هذا المصطلح من معنى الشركة: أي مخالطة الشريكين وهو المعنى الأساسي ولكن مصطلح" الشرك بالله أو المشرك" لم يعرف إلا بعد نزول القرآن الكريم، والمشرك أبعد في الضلالة من الكافر؛ لأن أساس العقيدة الإسلامية هو التوحيد، والمشرك يحتاج للعودة إلى دين الله الخالص أن يكفر أولاً بآلهته، وأن يؤمن ثانياً بالله عز وجل وحده لا شريك له[1]، ولذلك جاء الإشراك في مقدمة الكبائر، "وعقوق الوالدين": من الكبائر: لأنه يلغي حقهما من البر والرعاية ومدلول عق في اللغة: شق، وكأنه يشق عصا الطاعة،والعقة في اللغة، حفرة عميقة في الأرض، وكأن من يعق والديه يُلقي بهما في حفرة عميقة من الإهمال والحسرة والأحزان، وفي ذلك معصية لله عز وجل ومخالفة لقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[2].

وأما وصف اليمين بالغموس: فذلك له إيحاء ودلالة عميقة تصور فداحة الجرم الذي ارتكبه ذلك الحالف كذباً، وقد وصفت اليمين الغموس بذلك، لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

---

(١) انظر: التطور الدلالي: بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

والدلالة اللغوية تتفق مع الدلالة في الحديث الشريف، لأن الغموس في اللغة هو الأمر الشديد الغامس في الشدة، وهو الناقة لا يستبان حملها، والغميس: هو الليل المظلم، والظلمة، والشيء الذي لم يظهر للناس[١]، ولم يعرف بعد، فتأمل ما خلف وما وراء وصف اليمين الكاذبة بالغموس، من إيحاءات ودلالات وأسرار وذلك من دلائل بلاغة النبوة، وفصاحة المصطفى ﷺ.

المضامين الدعوية[٢]

(١) انظر: القاموس المحيط، في "غ م س" وفي "ع ق".

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧١٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - الترهيب من اليمين الكاذبة:

جاءت أحاديث الباب مرهبة من اليمين الكاذبة والكذب لذاته محرم، وهذا الكذب إذا قرن باليمين، واليمين تعظيم الله عز وجل فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص لله عز وجل حيث جعل اسمه مؤكدًا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذبًا عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار[1].

فعلى المربي أن يرهب من يقوم بتربيتهم من اليمين الكاذبة - أي الحلف بالله كذبًا - لأنها من كبائر الذنوب التي تؤول بصاحبها إلى النار.

فمن حلف على شيء كاذبًا ألجأته إليه الخصومة. وحمله عليه الجحود والمكابرة في الحق، وهو بها محدث في دينه حدثًا، وفاتق فيه فتقًا وخارج عن الحق خروجًا - من حلف هذه اليمين ليسلب به مال إنسان أو حقه. ويحول بينه وبينه لقي الله في القيامة وهو عليه غضبان. فينتقم على كذبه واستيلائه على مال غيره، بهذه الطريقة الخاطئة، واليمين الفاجرة. ويدخل ناره ليتخذ له فيها منزلاً، يصلى سعيره، ويقاسي جحيمه، فإن كان الذي اقتطع ماله أخًا مسلمًا كان الجرم أكبر، والعقاب أعظم فإن واجب المسلم نحو المسلم مساعدته على استرداد حقوقه، واسترجاع ماله؛ أما أن يقتطع قطعة من ماله ظلمًا وعدوانًا ويكذب في سبيلها ويمتهن اسم الله لسلبها فذلك ما ينافي الإيمان؛ وبهذا التحليل عرفت أن ذكر المسلم لا يراد به التخصيص؛ وقصر الحكم عليه؛ وإباحة أموال غيره ممن لا يدين بدينه؛ بل ذكره لتفظيع الجريمة، وأن أخوة الإسلام تستدعي الصدق؛ والتزام الحق؛ وكذلك كلمة "يمين" في قوله: من حلف على يمين صبر يراد بها المحلوف عليه وسمي يمينًا لتعلقه بها، أو تقول "على" زائدة والمعنى من حلف يمين صبر.

الكذب في نفسه جريمة لأنه قلب للحقائق، وتعمية على الناس؛ وإضلال لهم عن

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين، ٢١٨/٢.

الحقيقة؛ وداعية فقد الثقة في المعاملة والمحادثة، فإن انضم إليه تأكيده بالأيمان الكاذبة الفاجرة؛ التي فيها امتهان أسماء الله المقدّسة، وصفاته العالية كانت الجريمة أكبر، فإذا أضيف إلى ذلك قطع الحقوق عن أربابها. والحيلولة بينهم وبينها كان فحش الجريمة نهاية. فإن كان إلى ذلك وقوعها على أخيك في الدّين وتريك في العقيدة كان الفحش نهاية النهاية؛ وأقصى الغاية؛ فلا تعجب أن يكون العقاب غضب الجبار؛ وأن يكون المتبوأ النار؛ فإياك واليمين الفاجرة؛ وإياك ومال أخيك؛ واحترم للقضاء مكانته، ولبارئك أسماءه وصفاته؛ ولا تبتغ بها عرضًا من الدنيا؛ غناؤه قليل؛ وعقباه جحيم؛ واقرأ الآية المرة تلو المرة؛ وعد بأولها على آخرها وبآخرها على أولها لترى عظم الجريمة؛ وشدة العقوبة[1].

ثانيًا - التربية بالخوف من الظلم:

الظلم حرام قليله وكثيره، وأكل حق الغير بغير وجه باب من أبواب الظلم، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن من اقتطع حق مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وفي ذلك تخويف من الظلم.

فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وفي الدنيا نزاع وعداوة، ومتلفة وخسارة والطمع عقبه الندم[2]، فعلى المربي أن يحذر المسلم من الظلم، فلا يدنس نفسه الطاهرة برجسه ويعتدي على حق أحد بظلمه بالقول أو الفعل، فمن أشنع الصفات وأقبحها، وأجرئها على الله: أن يظلم المسلم أخاه المسلم، فهو بهذا يرتكب إثمًا مبينًا وجرمًا عظيمًا، فليحذر عاقبته فإنها وخيمة، ودعوة المظلوم مستجابة، ولو كان المظلوم فاجرًا ففجوره على نفسه، قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: ((وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))[3][4].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٨٠، ٨١ والمراد بالآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[سورة آل عمران، آية: ٧٧].

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٤٨، ومسلم ١٩.

(٤) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح الصغير، ص ٢١٢.

ثالثًا - من مصادر التربية: القرآن الكريم:

القرآن الكريم منبع هداية وإرشاد، ويحتوي على آيات تهدي للحق، وعلى تعاليم تعمق الوعي الأخلاقي، وتدعم القيم والمسؤولية الاجتماعية، وتزكي النفوس، وتحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1] ويتضمن القرآن الكريم عديداً من القيم والمثل العليا والحكم البالغة التي تقدم إلى النفس غذاءً كاملاً، لذا يعد القرآن الكريم الإطار المرجعي لكافة شؤون المسلمين، ومنبعًا رئيسًا للفكر التربوي الإسلامي تشتق منه التربية الإسلامية أهدافها[2].

وقد استخدم النبي ﷺ القرآن الكريم مصدرًا تربويًا للمسلمين عندما قال: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه، لقي الله وهو عليه غضبان" ثم قرأ مصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآية[3]؛ فالقرآن الكريم هو الأصل الأول، والأصل الرئيسي الذي ينبغي أن تستمد منه التربية الإسلامية[4].

رابعًا - التربية على الكسب الحلال:

لقد اهتم الإسلام بالكسب المعيشي اهتمامًا كبيرًا، فبين المهن والمكاسب المحرمة التي ينبغي صد جميع الوسائل المفضية إليها، ومن ذلك المكاسب المبنية على الحلف الكاذب الذي حذرت منه أحاديث الباب حيث قال ﷺ: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه، لقي الله وهو عليه غضبان...". وقال ﷺ: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة" ... "وإن كان قضيبًا من أراك" وعندما سئل عن اليمين الغموس؟ قال: "الذي يقتطع مال امرئ مسلم".

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٩.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب، وآخرين.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٤) أصول التربية، د. سعيد إسماعيل علي، ص ٢٧.

كما حرم الإسلام صناعة الخمور، والمخدرات، والأعمال الربوية، وغيرها من المحرمات التي بينتها كتب الفقه الإسلامي.

فينبغي تجنب المكاسب المبنية على الخداع والغش والحلف الكاذب، وغيرها من الرذائل السلوكية، وقد حذر ﷺ من فتنة المال التي تؤدي بالإنسان إلى عدم المبالاة بمكسبه، قال عليه الصلاة والسلام: ((يأتي على الناسِ زمانٌ لا يُبالي المرءُ ما أخَذَ منه أمِنَ الحلالِ أم منَ الحرام))(١).

فينبغي على العامل المسلم أن يتحرى في كسبه الأعمال المشروعة أولاً، ثم يتحرى سلامة الكسب، من الغش والخداع وسائر الرذائل، وأن يتحرى الصدق والأمانة والإخلاص، قال ﷺ: ((لا تزولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القيامَةِ، حتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فيما أفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ، وفِيْمَا أنْفَقَهُ وعن جِسْمِهِ فيما أبْلاهُ))(٢).

فالكسب الحلال من أهم الأشياء التي ينبغي أن لا يغفل عنها المسلم، وأن توليها المؤسسات التربوية اهتمامها الكبير، عن طريق الأنشطة التربوية، والمناهج الدراسية(٣).

خامسًا - التربية العقدية:

إن الهدف الأمثل للإنسان في الإسلام هو الإيمان بعقيدة التوحيد، المحدد الأمين لإطار السلوك الذي يناسب الإنسان في كل زمان ومكان(٤).

وقد قام الرسول المربي ﷺ ليلقن هذا الدرس في التربية العقدية للجميع، وينفي عن الله الشرك والإلحاد، والزيغ والانحراف، فقال كما في هذا الباب: الكبائر: "الإشراك بالله".

وليحل التوحيد محل ما كانت البشرية تعرفه من زيغ وضلال وتخبط وتعدد للآلهة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٧٠).

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٤) فلسفة الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص ١٨٧.

واتضحت صورة الأنبياء لدى الناس بحيث لم يعد هناك مجال لإضفاء بعض صفات الله سبحانه على بعض أنبيائه ورسله وأزال عن النبوة ما كان يصفها الناس به من كهانة وخرافة، وجعل الإسلام من العبادات الصحيحة فيه مجالاً تطبيقيًا للعقيدة الخالية من كل الشوائب المبرأة من كل ألوان الزيغ والانحراف[١].

وفي إمامة الرسول ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء والمعراج درس أساسي مقصود هو: أن عقيدة الأنبياء واحدة، وأنهم جميعًا يدعون إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما يغايره ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً[٢]، ((إنَّ مثلي ومَثَل الأنبياء من قَبلي كمثَل رجُلٍ بنى بيتًا فأحسَنَهُ وأجملَهُ، إلا مَوضعَ لبنةٍ من زاويةٍ، فجعلَ الناسُ يطوفونَ بهِ ويعجَبونَ له ويقولون: هلاّ وُضِعَت هذه اللبنةُ؟ قال: فأنا اللَّبنة، وأنا خاتمُ النَّبيين))[٣].

وهكذا تعمل التربية العقدية على غرس الإيمان بالله وتوحيده في قلب المسلم، ونفي الشرك والزيغ والانحراف في الاعتقاد عنه؛ لأن اتخاذ الأنداد والوسطاء، والأولياء، والشفعاء، ودعاؤهم في الملمات أكبر جريمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٤].

سادسًا - التربية على بر الوالدين:

إن حق الوالدن عظيم، ومنزلتهما عالية في الدين، فبرهما قرين التوحيد، وشكرهما مقرون بشكر الله عز وجل، والإحسان إليهما من أجل الأعمال، وأحبها إلى الكبير المتعال.

فبر الوالدين مما أقرته الفطر السوية، واتفقت عليه الشرائع السماوية، وهو خلق الأنبياء، ودأب الصالحين، كما أنه دليل على صدق الإيمان، وكرم النفس، وحسن

---

(١) المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، د. علي عبدالحليم محمود، ص ١٥، ١٦.

(٢) دروس من الإسراء والمعراج، د. رؤوف شلبي، مجلة الأزهر، تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الجزء الخامس، السنة التاسعة والأربعون، رجب ١٣٩٧هـ، يوليو ١٩٧٧م، القاهرة، ص ٨٨٧.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٣٥، ومسلم ٢٢٨٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٤٨.

الوفاء، وبر الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية، ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل، وعنوان على كمال الشريعة، وإحاطتها بكافة الحقوق. كما نهى الإسلام عن عقوق الوالدين، وحذر منه أشد التحذير فهو كبيرة من الكبائر وهو قرين للشرك، كما قال ﷺ: "الكبائر... وعقوق الوالدين". ويكفي في ذلك قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾(١) فما بالك بما فوق كلمة (أف)(٢).

وعقوق الوالدين عقابه عظيم في الدنيا والآخرة، وهو سبب في غضب رب العالمين، فعلى المربين التحذير منه والترهيب.

سابعًا- من أهداف التربية: المحافظة على النفس:

إن قتل النفس من الكبائر كما قال ﷺ: "الكبائر: ... وقتل النفس".

حَرَّمَ الله قتل النفس بغير حق، وأنزل أشد العقوبة بمرتكب ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾(٣)، وقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾(٤).

وذكر الله قصة قتل أحد أبناء آدم لأخيه وكانت أول حادثة قتل على الأرض ثم عقّب عليها بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾(٥).

وحرم الله الانتحار: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٦).

وفي بعض أبواب الحدود من الفقه الإسلامي أحكام القتل، والديات والقصاص،

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٢) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ص ١٥-١٧.

(٣) سورة الإسرا، آية: ٣٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٥) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٦) سورة النساء، آية: ٢٩.

ودراستها تزرع في نفوس الناشئة احترام الأرواح، والنفوس، والبعد عن التفكير بالثأر أو الاعتداء، أو أي جريمة من هذا النوع، كما تزرع العدالة، وحب القصاص، وما ينتج عن ذلك[١].



(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص ٦٢.

٣١٦- باب ندب من حلف عَلَى يَمينٍ فرأى غيرها خيراً مِنْهَا أنْ يفعل ذلِكَ المحلوف عَلَيْهِ ثُمَّ يُكَفِّر عن يمينه

الحديث رقم (١٧١٧)

١٧١٧- عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ)). متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالرحمن بن سمرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٧٤).

غريب الألفاظ:

كفِّر عن يمينِك: من الكفّارة: الفَعْلَةُ أو الخَصْلَةُ التي من شأنها أن تُكفِّر الخطيئة، أي: تسترها وتمحوها[٢].

الشرح الأدبي

يجيء هذا الحديث في مقدمة باب ندب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يفعل ذلك المحلوف عليه ثم يكفر عن يمينه، وفي ذلك تغليب للخير وإيجاد منافذ جديدة لمن أقسم على شيء ثم رأى أن في القيام به خيراً له وللمسلمين.

والحديث جزء من محاورة دارت بين رسول الله ﷺ وعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه، حيث يخبر في بداية الحديث بأن رسول الله ﷺ قال له: "وإذا حلفت ... الحديث"، والواو هنا لها وظيفة دلالية، فهي تشعر بأن هذا الحديث جزء من حديث، وهذا الحديث معطوف على ما قبله من كلام محذوف، وربما ورد في رواية أخرى.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٥٢/١٩).

(٢) النهاية في (ك ف ر).

والحديث صيغ في قالب: الشرط والجواب، وأداة الشرط "إذا" وهي هنا أنسب من غيرها من الأدوات، لأنها تفيد التحقق، وكثير من الناس يحلفون ثم يتبين لهم أن ما حلفوا عليه أو على منعه يتضمن خيراً لهم ولغيرهم لو تحقق، فهذا سلوك واقعي، ويحدث كثيراً، ومن هنا تتضح بلاغة التعبير بإذا دون غيرها من الأدوات في هذا المقام، وذلك السياق، وفعل الشرط معطوف عليه جملة تضيء الموقف، وتوضح الرؤية، وتحدد الحكم الصحيح، وهي قوله: "فرأيت غيرها خيراً منها".

ورأى: هنا: علمية تفيد التيقن والمعرفة، والجواب يأتي في صيغة الأمر لمزيد من الترغيب في ذلك وقوله: "الذي هو خير"، لتحديد معيارية التفضيل وهي خيرية العمل، وليست القيمة المادية أو الاجتماعية واسم الموصول في قوله: "فأت الذي هو خير" لتمييز المسند إليه أكمل تمييز، وقوله: "هو" لمزيد من التحديد والتمييز والترغيب، وقوله: "وكفر عن يمينك"، جملة معطوفة على الجواب، وموضحه له.

وتمثل مخرجاً من الحرج الذي يقع فيه من يتراجع عن يمينه: وقال العلماء: التكفير بعد الحنث واجب، وفعل الأمر في قوله: "وكفر عن يمينك" يؤيد ذلك.

والكفارة في الفقه الإسلامي: ما يفعله الإنسان من عمل صالح أو صدقة طيبة أو صوم ليغفر الله له سيئة اقترفها، أو عملاً غير صالح عمله، أو يميناً حلف به، وقد وردت كلمة "كفارة" في القرآن الكريم في أربع آيات كلها في سورة المائدة، وهي آخر سورة نزلت في القرآن الكريم لتبين للناس كثيراً من أحكام هذا الدين، والكفارة: مأخوذة من التكفير، وهي في اللغة: التغطية والستر، كما قال تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[1]. فالكفارة: تغطي وتستر المخالفة والمعصية، والله سبحانه وتعالى يعفو، ويصفح، ويغفر، ويستر، ويرحم، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحنث في اليمين أفضل من التمادي إذا كان في الحنث مصلحة.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧١٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧١٨، ١٧١٩، ١٧٢٠).

ثانياً: من واجبات الداعية: أن يوافق فعله قوله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: إثم من يتمادى في يمينه وتضرر أهله بذلك.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحنث في اليمين أفضل من التمادي إذا كان في الحنث مصلحة:

هذا واضح من الأحاديث: قال النووي: "في هذه الأحاديث دلالة على من حلف على فعل شيء أو تركه، وكان الحنث خيراً من التمادي على اليمين، استحب له الحنث وتلزمه الكفارة. وهذا متفق عليه"(١). وقال ابن تيمية: "فهذه نصوص رسول الله ﷺ المتواترة أنه أمر من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير"(٢)، وقد فصل ابن حجر فقال: "إن الحنث في اليمين أفضل من التمادي إذا كان في الحنث مصلحة، ويختلف باختلاف حكم المحلوف عليه، فإن حلف على فعل واجب أو ترك حرام فيمينه طاعة، والتمادي واجب والحنث معصية وعكسه بالعكس. وإن حلف على فعل نفل فيمينه أيضا طاعة والتمادي مستحب والحنث مكروه، وإن حلف على ترك مندوب فبعكس الذي قبله، وإن حلف على فعل مباح فإن كان يتجاذبه رجحان الفعل أو الترك كما لو حلف لا يأكل طيبا ولا يلبس ناعما ففيه عند الشافعية خلاف، وقال ابن الصباغ وصوبه المتأخرون: إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، وإن كان مستوي الطرفين فالأصح أن التمادي أولى والله أعلم"(٣).

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٤)، قال ابن تيمية: "إن السلف مجمعون أو كالمجمعين على أن معناها: أنكم لا تجعلوا الله مانعاً لكم إذا حلفتم به، من البر والتقوى والإصلاح بين

---

(١) شرح مسلم ١١٣/١١/٦- ١١٤ ط دار عالم الكتب.

(٢) مجموع الفتاوى ١٦٨/١٨ ط العبيكان، ٢٨٠/٣٥، ط ابن قاسم.

(٣) فتح الباري ٥٢١،١١، .

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢٤.

الناس، بأن يحلف الرجل ألا يفعل معروفاً مستحباً أو واجباً، أو ليفعلن مكروهاً أو حراماً ونحوه. فإذا قيل له: افعل ذلك أو لا تفعل هذا. قال: قد حلفت بالله، فيجعل الله عرضة يمينه. فإذا كان قد نهى عباده أن يجعلوا نفسه مانعاً لهم في الحلف من البر والتقوى"[١]. وقال ابن حجر: "والمراد لا تجعل اليمين الذي حلفت أن لا تفعل خيراً سواء كان ذلك من عمل أو ترك، سبباً يعتذر به عن الرجوع عما حلفت، خشية من الإثم المرتب على الحنث، لأنه لو كان إثماً حقيقةً لكان عمل ذلك الخير رافعاً له بالكفارة المشروعة، ثم يبقى ثواب البر زائداً على ذلك[٢].

وقال ابن عثيمين: "فالحاصل أن الإنسان إذا حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، وهو بالخيار إن شاء فعل ثم كفر أو إن شاء كفّر ثم فعل ... وقد ثبت بالسنة القولية والفعلية أن الإنسان إذا حلف على شيء ورأى غيره خيراً منه فإنه يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير. أما إذا لم يكن كذلك فالأفضل أن يبقى على يمينه وألا يحنث لقوله الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾[٣]، والله الموفق"[٤].

وقال عبدالله البسام: "الحلف على أمر مستقبل يريد الحالف تحقيق فعله أو تركه، لا يخلو من أمور:

١- فإن حلف على فعل محرّم أو ترك واجب، وجب حنثه وحرم برّه.

٢- وأما إن حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه، فهنا يكره حنثه لما يترتب على برّه من الثواب الحاصل بفعل المندوب وترك المكروه.

٣- وأما إن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب. فهذا هو ما أشار إليه حديث الباب من أن المستحب أن يحنث، فيترك المكروه أو يفعل المندوب ويكفر عن يمينه.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦٦/١٨ ط العبيكان، ٢٧٧/٣٥، ط ابن قاسم.

(٢) فتح الباري ٥٢١/١١، .

(٣) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٧٧٦/٢.

وهذا هو معنى قوله ﷺ: "إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك، وائت الذي هو خير"[١].

ثانياً- من واجبات الداعية: أن يوافق فعله قوله:

على الداعية أن يصدق فعله قوله، فإذا أمر الناس بشيء فعله، وإن نهاهم كان أول المنتهين. وهذا اقتداءً بالنبي ﷺ، حيث إنه ﷺ، "لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به"[٢].

والحنث في اليمين لمصلحة أرجح صورة عملية تطبيقية توضح موافقة فعله ﷺ لقوله، فحديث عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: "وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير"، هذه هى السنة القولية، أما الفعلية ففي حديث أبي موسى "وفيه قصة توضح هذا التوافق والتطابق، "فعَنْ زَهْدَمٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ كُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ جَرْمٍ إِخَاءٌ وَمَعْرُوفٌ قَالَ فَقُدِّمَ طَعَامٌ قَالَ وَقُدِّمَ فِي طَعَامِهِ لَحْمُ دَجَاجٍ قَالَ وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ مَوْلًى قَالَ فَلَمْ يَدْنُ فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى ادْنُ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مِنْهُ قَالَ إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئًا قَذِرْتُهُ فَحَلَفْتُ أَنْ لا أَطْعَمَهُ أَبَدًا[٣] فَقَالَ ادْنُ أُخْبِرْكَ عَنْ ذَلِكَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنْ الأَشْعَرِيِّينَ أَسْتَحْمِلُهُ[٤] وَهُوَ يَقْسِمُ نَعَمًا مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ قَالَ أَيُّوبُ (أحد رواة الحديث) أَحْسِبُهُ قَالَ وَهُوَ غَضْبَانُ قَالَ وَاللَّهِ لا أَحْمِلُكُمْ وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ قَالَ

---

(١) توضيح الأحكام ٦/٨٥.

(٢) الرسالة المحمدية، السيد سليمان الندوي، ١٧١.

(٣) يعني أنه رأى الدجاج يأكل نجاسة فاستقذره، فخلف الا يأكله لذلك. وظاهر قول هذا الرجل أنه كان يكره أكل ما يأكل النجاسات من الحيوانات. وقد اختلف في ذلك. قاله القرطبي في المفهم، ٤/٦٢٧.

(٤) قال ابن حجر: أى يطلب منه ما يركبه ... وكان ذلك في غزوة تبوك، كما تقدم أواخر كتاب المغازي. فتح الباري ١١/٦١٢، . والحديث في صحيح البخاري ٤٤١٥، وفي صحيح مسلم، ٨- ١٦٤٩.

فَانْطَلَقْنَا فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَهْبِ إِبِلٍ[١] فَقِيلَ أَيْنَ هَؤُلاءِ الأَشْعَرِيُّونَ فَأَتَيْنَا فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[٢] قَالَ فَانْدَفَعْنَا فَقُلْتُ لأَصْحَابِي أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لا يَحْمِلَنَا ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْنَا فَحَمَلَنَا، نَسِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمِينَهُ وَاللَّهِ لَئِنْ تَغَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمِينَهُ لا نُفْلِحُ أَبَدًا ارْجِعُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْنُذَكِّرْهُ يَمِينَهُ فَرَجَعْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَاكَ نَسْتَحْمِلُكَ فَحَلَفْتَ أَنْ لا تَحْمِلَنَا ثُمَّ حَمَلْتَنَا فَظَنَنَّا أَوْ فَعَرَفْنَا أَنَّكَ نَسِيتَ يَمِينَكَ قَالَ انْطَلِقُوا فَإِنَّمَا حَمَلَكُمْ اللَّهُ إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا"[٣].

قال ابن دقيق العيد: "وقد أكد النبي ﷺ في هذا الحديث الحكم المذكور باليمين بالله تعالى، وهو يقتضي المبالغة في الحنث على الوفاء عند هذه الحالة، وهذا "الخير" الذي أشار إليه النبي ﷺ أمر يرجع إلى مصالح الحنث المتعلقة بالمفعول المحلوف على تركه مثلاً"[٤]. وقال ابن حجر: "قال ابن الأثير في النهاية[٥]: الحلف هو اليمين، فقوله " أحلف" أى أعقد شيئاً بالعزم والنية، وقوله: "على يمين"، تأكيد لعقده وإعلام بأنه[٦] ليست لغواً. قال الطيبي[٧]: ويؤيده رواية النسائي[٨] بلفظ: " ما على الأرض يمين أحلف عليها"، الحديث. قال: فقوله: "أحلف عليها" صفة مؤكدة لليمين. قال: والمعنى: لا أحلف يميناً جزماً لا لغو فيها ثم يظهر لي أمر آخر يكون فعله أفضل من المضى في اليمين المذكورة إلا فعلته وكفرت عن يميني، قال: فعلى هذا يكون قوله "على يمين" مصدراً مؤكداً لقوله أحلف، ولاشك أن موافقة فعل الداعية لقوله من أقوى

---

(١) أي غنيمة، فتح الباري ١١/ ٦١٢.

(٢) معناه: إبل بيض الأسنمة، شرح مسلم ١١٥/١١/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٣٣، ٦٧٢١، ومسلم ٩-١٦٤٩.

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ٣٥١.

(٥) النهاية في غريب الحديث ٢٢٥.

(٦) كذا في المطبوع من فتح الباري، ولعل الصواب: بأنها. فإن اليمين مؤنثة. انظر: القاموس المحيط في (ي م ن).

(٧) شرح الطيبي على المشكاة ٢٣/٧-٢٤.

(٨) أخرجه النسائي ٣٧٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٥٣٧).

الأسباب وآكد الطرق التي تؤدي إلى نجاحه في دعوته لأن ذلك يعطيه مصداقية عالية عند المدعوين، فيقبلون ما يرشدهم إليه"(١).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: إثم من يتمادى في يمينه وتضرر أهله بذلك:

هذا واضح من حديث أبي هريرة: "لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفارته التي فرض الله عليه"، وفي رواية للبخاري: "من استلج في أهله بيمين فهو أعظم إثماً، ليبر. يعني الكفارة"(٢)، قال ابن تيمية: "أخبر النبي ﷺ أن اللجاج باليمين في أهل الحالف أعظم من التكفير، واللجاج: التمادي في الخصومة، ومنه قيل: رجل لجوج إذا تمادى في الخصومة...، فبين النبي ﷺ أن اللجاج باليمين أعظم إثماً من الكفارة، وهذا عام في جميع الأيمان"(٣).

وقال القرطبي المحدث: "اللجاج في اليمين: هو المضى على مقتضاه، وإن لزم من ذلك حرج ومشقة أو ترك ما فيه منفعة عاجلة أو آجلة، فإن كان فيه شيء من ذلك فالأولى له تحنيث نفسه، وفعل الكفارة قوله: "آثم له عند الله من أن يعطي ما فرض الله له من الكفارة" أي أكثر إثماً، وذلك إنما يكون إذا لزم من المضى في اليمين ترك واجب. هذا ظاهره. ويحتمل أن يكون إذا لزم من المضى في اليمين ترك مصلحة راجحة دنيوية، يطرأ عليه بسبب تركها حرج ومشقة"(٤).

قال النووي: "ومعنى الحديث أنه إذا حلف يميناً تتعلق بأهله ويتضررون بعدم حنثه ويكون الحنث ليس بمعصية فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء ويكفر عن يمينه، فإن قال: لا أحنث بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فيه فهو مخطئ بهذا القول بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثماً من الحنث، واللجاج في اللغة هو الإصرار على الشيء، فهذا مختصر بيان معنى الحديث، ولا بد من تنزيله على

---

(١) فتح الباري ٦١٣/١١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٢٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦٧/١٨ ط العبيكان، ٢٧٨/٣٥، ط ابن قاسم.

(٤) المفهم ٦٣٢/٤، ٦٤٣.

ما إذا كان الحنث ليس بمعصية كما ذكرنا، وأما قوله ﷺ "آثم" فخرج على لفظ المفاعلة المقتضية للاشتراك في الإثم لأنه قصد مقابلة اللفظ على زعم الحالف وتوهمه، فإنه يتوهم أن عليه إثماً في الحنث مع أنه لا إثم عليه فقال ﷺ الإثم عليه في اللجاج أكثر لو ثبت الإثم"[١]. وقال ابن حجر: "قال البيضاوي[٢]: "المراد أن الرجل إذا حلف على شيء يتعلق بأهله وأصر عليه كان أدخل في الوزر وأفضى إلى الإثم من الحنث لأنه جعل الله عرضة ليمينه وقد نهى عن ذلك، قال: وآثم اسم تفضيل وأصله أن يطلق للاجّ في الإثم فأطلق لمن يلج في موجب الإثم اتساعا، قال: وقيل معناه أنه [إن] كان يتحرج من الحنث خشية الإثم ويرى ذلك، فاللجاج أيضا إثم على زعمه وحسبانه، وقال الطيبي[٣]: "لا يبعد أن تخرج أفعل عن بابها كقولهم الصيف أحر من الشتاء ويصير المعنى أن الإثم في اللجاج في بابه أبلغ من ثواب إعطاء الكفارة في بابه، قال: وفائدة ذكر "الأهل" في هذا المقام للمبالغة وهي مزيد الشناعة لاستهجان اللجاج فيما يتعلق بالأهل، لأنه إذا كان في غيرهم مستهجنا ففي حقهم أشد"[٤].

وقال ابن هبيرة: "والذي أراه في هذا أنه إذا ترك ما جعله الله عز وجل متداركاً لقرطاب[٥] الآدميين في أيمانهم من الكفارات خائفاً من ذلك أن يأثم بفعل ما حلف عليه، فإن الذي آتاه من خوف ذلك آثم مما حلف. وبين هذا قوله ﷺ: "استلج في أهله بيمين فهو أعظم"[٦].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

هذا واضح من أمر النبي ﷺ بالحنث في اليمين إذا كان هناك مصلحة مع التكفير عن اليمين. قال ابن حجر عن حديث أبى موسى: "في الحديث ترجيح الحنث في

---

(١) شرح مسلم ١٢٨/١١/٦- ١٢٩، .
(٢) نقله الطيبي في شرح المشكاة ٢٤/٧.
(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٢٥/٧.
(٤) فتح الباري ٥١٩/١١.
(٥) جاء في القاموس المحيط ١٢٤: قرطب: غضب.
(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٢٦/٧.

اليمين إذا كان خيراً من التمادي وأن تعمد الحنث في مثل ذلك يكون طاعة لا معصية، وجواز الحلف من غير استحلاف لتأكيد الخبر ولو كان مستقبلاً، وهو يقتضي المبالغة في ترجيح الحنث بشرطه المذكور"(١).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفعلون ذلك؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمين قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني"(٢). وفي رواية أخرى عند البخاري: "إلا قبلت رخصة الله، وفعلت الذي هو خير"(٣).

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه ذكر شدة عزيمة أبي بكر والثبات على يمينه إذا حلف.

وفيه أيضاً دليل على أن اشتداده كان لله عز وجل لا لنفسه ولا من طبعه، فلما أنزل الله عز وجل كفارة اليمين، ترك ما كان عليه من العزم، وعدل إلى ذلك، وإنما سر بما أنزل الله عز وجل من الكفارة لأن اليمين ربما كانت تصده عن أفضل، وترده عن أجود، وتمنعه عن خير، فلذلك قال: "ولا أحلف على يمين وأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني"، وعلى هذا فلا أرى أن يحنث الإنسان في يمينه للعدول إلى ما ليس بخير"(٤).

لذا فإن الحنث في اليمين يفتح الباب واسعاً للحالف أن يفعل الأفضل ومن ثم يزداد ثواباً وطاعة، كما أنه لا يمنع من إيصال الخير والنفع إلى الآخرين، فهذا عدى بن حاتم رضي الله عنه يأتيه سائل فيسأله نَفَقَةً فِي ثَمَنِ خَادِمٍ أَوْ فِي بَعْضِ ثَمَنِ خَادِمٍ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ إلاَّ دِرْعِي وَمِغْفَرِي(٥)، فَأَكْتُبُ إِلَى أَهْلِي أَنْ يُعْطُوكَهَا، قَالَ: فَلَمْ

---

(١) فتح الباري ٦١٤/١١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٢١.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦١٤.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٩٤/١

(٥) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس تلبس تحت القلنسوة، المعجم الوسيط في (غ ف ر).

يَرْضَ، فَغَضِبَ عَدِيٌّ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لاَ أُعْطِيكَ شَيْئاً، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ رَضِيَ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى لِلَّهِ مِنْهَا، فَلْيَأْتِ التَّقْوَى» مَا حَنَّثْتُ يَمِينِي[١].

ومرة أخرى يأتيه سائل يسأله مائة درهم، فيقول حاتم ﷺ مغضباً: تسألني مائة درهم وأنا ابن حاتم؟ والله لا أعطيك. ثم قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حلف على يمين ثم رأى خيراً منها فليأت الذي هو خير"، ولك أربعمائة في عطائي"[٢].

قال القرطبي: "قوله ﷺ: "فليفعل الذي هو خير" أي الذي هو أكثر خيراً، أي الذي هو أصلح يعني من الاستمرار على موجب اليمين أو ما يخالف ذلك مما يحنث به، والأصلح تارة يكون من جهة الثواب وكثرته، وهو الذي أشار إليه في حديث عدى، حيث قال: "فليأت التقوى". وقد يكون من حيث المصلحة الراجحة الدنيوية التي تطرأ عليه بسبب تركها حرج ومشقة. وهي التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: "لأن يلج أحدكم بيمينه آثم له عند الله من أن يكفر"، يعني بذلك أن استمراره على مقتضى يمينه إذا أفضى به إلى الحرج -وهو المشقة- قد يفضي به إلى أن يأثم، فالأولى أن يفعل ما شرع الله له من تحنيثه نفسه وفعل الكفارة"[٣].

كل هذا يؤكد أن الحنث في اليمين لمصلحة مع التكفير عن اليمين من صور اليسر في الشريعة الإسلامية، جاء في الموسوعة الفقهية: (رفع الحرج: إزالة ما في التكليف الشاق من المشقة برفع التكليف من أصله أو بتخفيفه أو بالتخيير فيه. أو بأن يجعل له مخرج، كرفع الحرج في اليمين بإباحة الحنث فيها مع التكفير عنها أو بنحو ذلك من الوسائل... واليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصد أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، وأحاديث نبوية صحيحة، وأجمعت الأمة عليه)[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ١٦٥١.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٥١.

(٣) المفهم ٤/٦٣٢.

(٤) الموسوعة الفقهية ١٤/٢١٣.

وقال الدكتور صالح بن فوزان الفوزان: "وكفارة اليمين فيها تخيير وفيها ترتيب، فيخير من لزمته بين: إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من الطعام، أو كسوة عشرة مساكين لكل واحد منهم ثوب يجزئه في صلاته، أو عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب، فمن لم يجد شيئاً من هذه الثلاثة المذكورة؛ صام ثلاثة أيام.

فتبين بهذا التفصيل أن كفارة اليمين تجمع تخييراً وترتيباً؛ تخييراً بين الإطعام والكسوة والعتق وترتيباً بين ذلك وبين الصيام.

والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة إجمالاً: أن كفارة ما عقدتم من الأيمان إذا حنثتم فيها: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: من خير وأمثل قوت عيالكم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ مما يصح أن يصلى فيه، أو عتق رقبة، واشترط الجمهور كونها مؤمنة، وقد بدأ سبحانه وتعالى بالأسهل فالأسهل؛ فأي هذه الخصال فعل؛ أجزأه بالإجماع.

واشترط الجمهور في صيام ثلاثة الأيام أن تكون متتابعة؛ لقراءة عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"[2].

وهنا يغلط كثير من العوام، فيظنون أنهم مخيرون بين الصيام وبين بقية خصال الكفارة، فيصومون، مع قدرتهم على الإطعام أو الكسوة، والصيام في هذه الحالة لا يجزئهم ولا يبرئ ذمتهم من كفارة اليمين، لأنه لا يجزئ إلا عند العجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق، فيجب التنبه والتنبيه لمثل هذا الأمر.

ويجوز تقديم الكفارة على الحنث، ويجوز تأخيرها عنه، فإن قدمها؛ كانت محللة لليمين، وإن أخرها، كانت مكفرة له.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ١٦١٠٣، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير الطبري، ٨/٦٥٣، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ والبيهقي في السنن، ١٠/٦٠، كما في الدر المنثور، ٥/٤٥١.

والدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها؛ فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك"[١]، فدل هذا الحديث على جواز تأخير الكفارة عن الحنث، ولأبي داود: "فكفر عن يمينك، ثم ائت الذي هو خير"[٢]، فدل هذا الحديث على جواز تقديم الكفارة على الحنث، فدلت الأحاديث على جواز التقديم والتأخير"[٣].

(١) أخرجه البخاري ٦٧٢٢، ومسلم ١٦٥٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٢٧٨، والنسائي، ١٠/٧، وإسناده صحيح.

(٣) الملخص الفقهي، ٦٠٧/٢- ٦٠٩.

الحديث رقم (١٧١٨)

١٧١٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمينٍ، فَرَأى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فليُكفِّر: الكفّارة: الفعلة التي من شأنها أن تكفّر الخطيئة، أي تمحوها وتسترها[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتفق مع الحديث السابق في معناه، ولكن الحديث السابق جاء في صيغة سردية في حوار موجه إلى عبدالرحمن بن سمرة، أما هذا الحديث فهو قاعدة شرعية عامة وضعت لكل مسلم يحلف على ترك غرض مندوب أو فعل مكروه، ثم يرى أن العدول عنه أفضل، فعليه أن لا يلتزم بما أقسم عليه، ويكفر عن يمينه، ويفعل الذي هو خير، وفي الحديث السابق قدم فعل الخير على التكفير عن اليمين، وفي هذا الحديث قدمت الكفارة على فعل الخير، وهناك حالات يجب فيها تأخر الكفارة، وهو إذا كانت الكفارة بالصوم، أما إذا كان التكفير بالمال فيجوز تقديم الكفارة، فاختلاف الروايتين في الحديث لا تناقض بينهما وقوله: "حلف على يمين"، فيه ذكر للكل وإرادة البعض، لأن ظاهر اللفظ يوحي بمجموع المقسم والمقسم عليه، ولكن المراد هنا المقسم عليه، وبعض العلماء رأى في هذا التعبير إشعاعاً أسلوبياً آخر: حيث حمله على التأكيد، وجعل على بمعنى "الباء" والتقدير من حلف بيمين، وفي هذا التوجيه اللغوي يشع ملمح بلاغي في الحديث وهو الإيجاز بالحذف، ففي الحديث حذف

---

(١) برقم (١٣/١٦٥٠).

(٢) النهاية في (ك ف ر).

المحلوف عليه، والسياق يدل عليه: كأن حلف على ترك غرض مندوب أو فعل مكروه، وهذا الحديث مثل الحديث السابق يرشد المسلم إلى فعل الذي هو خير، لأن الناس مجزيون بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال رسول الله ﷺ.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧١٩)

١٧١٩- وعن أَبي موسى رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((إنِّي واللهِ إنْ شاءَ اللهُ لا احْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، ثُمَّ أرَى خَيراً مِنْهَا إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذي هُوَ خَيْرٌ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جمال المبنى، وبهاء المعنى في هذا الحديث، نجده مشعًّا بما تضوأ به الحديثان السابقان من توجيه نبوي كريم، وحث على فعل الذي هو خير، ولكن في حديث ابن سمرة رضي الله عنه كان الخطاب في الحديث موجهاً إلى ابن سمرة رضي الله عنه نفسه، وإلى كل مسلم بعد ذلك، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه جاءت صياغة الحديث في هيئة تجريدية: فالحديث إخبار وتعليم، وإرساء لقاعدة شرعية يسير في ضوئها كل مسلم يخوض مثل هذا الموقف وتلك التجربة.

أما هذا الحديث فهو: سلوك نبوي، ومنهج ارتضاه الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأمته؛ حيث يقر بذلك، ويؤكد أنه يعدل عن الحلف، ويكفر عن يمينه إذا رأى خيراً من الموقف الذي حلف عليه؛ وذلك كحلفه أن لا يحمل الأشعريين ثم حملهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وجمال المبنى يموج بعدة ظواهر أسلوبية تشارك في تجلية المعنى، وتوحي بمعان ومواقف كثيرة، ومن هذه الظواهر الأسلوبية: بدء الحديث بالتأكيد وامتزاج التأكيد بياء المتكلم، والمتكلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد التأكيد يأتي القسم بالله عز وجل، ثم تقديم المشيئة "إن شاء الله"، وهذه البداية المحصنة بهذه الموانع والحصون

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩/٧) واللفظ له.

الأسلوبية، ترشد إلى أهمية المقسم عليه؛ حتى لا يتحرج أي مسلم في الرجوع عن قرار ربما يبدو له عدم صوابه، أو إضراره بغيره أو بنفسه، وتقديم المشيئة فيه إزالة لوهم أو ظن من المتلقي أن رسول الله ﷺ يؤكد ويقسم على أمر، دون أن يترك ذلك لمشيئة الله، وفي ذلك توجيه لكل مسلم أن يقدم مشيئة الله على كل عمل يعمله؛ لأن منهج المسلم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ومن الظواهر الأسلوبية التي تؤكد صدق المنهج وصوابه في هذا الحديث: أسلوب القصر، الذي جاء في إطاره كلام رسول الله ﷺ؛ فهو يقول: "لا أحلف على يمين ثم أرى خيراً منها إلا كفرت عن يميني".

وتقديم الكفارة على فعل الخير، يوحي بأن الإنسان في هذه الحالة لا يكون عدوله عن اليمين حالة طارئة، أو موقفاً قسريًّا، ثم يضطر بعد أن يحنث إلى التكفير عن اليمين، ولكن لا بد من التفكير والتروي، وهذا المسلك نقتبسه من قول رسول الله ﷺ: "ثم أرى خيراً"، والتعبير بـ"ثم" يفيد التروي والتفكر والتدبر ثم الوصول إلى القرار الصائب، والمنهج القويم؛ لأن "ثم" في اللغة تفيد الترتيب والتمهل والتراخي، وهذا هو منهج رسول الله ﷺ، وهو منهاج المسلم، وطريقه المستقيم.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧١٧).

الحديث رقم (١٧٢٠)

١٧٢٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((لأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ في يَمِينِهِ[1] في أهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ أنْ يُعْطِي كَفَّارَتَهُ الَّتي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ)). متفق عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يَلَجُّ: يتمادى فيها، ولا يكفر[3].

آثمُ: أكثر إثماً[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو ختام باب: من حلف على يمين فرأى غيرها، وهذا الحديث يتخذ مساراً آخر، هو التهديد والوعيد، بينما أحاديث الباب كلها ترغب في العدول عن اليمين، والتكفير عن الحنث إذا كان في ذلك مصلحة.

أما في هذا الحديث، فالموقف يختلف: وهو أن الإنسان يحلف على شيء ويرى أن غيره خير منه، ومع ذلك يقيم على يمينه، ولا يحنث ولا يُكفّر، وهو بذلك لا يتأسى برسول الله ﷺ، ولا يستجيب لدعوته في هذا الأمر، ولذلك جاء أسلوب الحديث متسماً بالشدة، وينطوي على تهديد ووعيد، وقوله: "لأن يلج أحدكم في يمينه" يوحي بهذه الشدة؛ فصورة هذا الفعل اللغوية تكشف عن صورته المعنوية المرادة في الحديث؛ فاللجاجة في اللغة: الخصومة، والتلجلج: التردد في الكلام، واللجة: الماء الكثير،

---

(١) عندهما: (بيمينه).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم (١٦٥٥/٢٦) واللفظ له.

(٣) رياض الصالحين ٥٨٥.

(٤) رياض الصالحين ٥٨٥.

والمكان الحَزْن من الجبل، وكل هذه الدلالات الحسية تتشاله مع موقف هذا الرجل الذي يتمادى في موقفه، ويتلجلج صدره، ويُرى -وهو في تمسكه باليمين الذي لا ينفع بل يضر- كأنه غارق في لجة الإثم، ولذلك عبر رسول الله ﷺ وصوَّر مصيره بأنه آثم عند الله من أن يعطي كفارته التي فرض الله عليه، "وآثم": صيغة تفضيل: أي أكثر إثماً عند الله.

وفي هذا التشديد والوعيد بالعقوبة، إرشاد لكل مسلم أن يقتدي برسول الله: في فعل الذي هو خير، وأن يعود المسلم إلى الصواب؛ حتى يفوز برضا ربه العليم الوهاب.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧١٧).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على الترجيح بين المصالح والمفاسد:

جاءت أحاديث الباب لتحث المسلم على تغليب المصالح على المفاسد فقد أمر النبي ﷺ من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يفعل ذلك المحلوف عليه ثم يكفر عن يمينه، كما بين ﷺ أن ذلك ما كان يفعله، فإذا حلف يميناً على شيء ورأى غيرها خيرًا منها كفر عنها وأتى الذي هو خير وفي ذلك تغليب لجانب المصالح على المفاسد، وفي ذلك توجيه للمسلم أن ينظر إلى ما فيه مصلحته ومصلحة أخيه المسلم فيأتيه، ويترك ما فيه مفسدة أو يترتب عليه ضرر؛ فعلى المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى مراعاة المصلحة له ولغيره حيث إن المصلحة هي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده، من حفظ دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأحوالهم، وفق ترتيب معين فيما بينها[1].

وقد أجمع الفقهاء على أن جميع أحكامه سبحانه وتعالى متكفلة بمصالح العباد في الدارين، وأن مقاصد الشريعة ليست سوى تحقيق السعادة الحقيقية لهم[2].

ورسولنا الكريم ﷺ يميل إلى كل أمر من شأنه أن يحقق مصلحة للتربية بشكل خاص وللمسلمين بشكل عام، أي أنه كان يوازن بين الأمور، ويرجح الأصلح، ولو كان فيه مفسدة ظاهرة، أو ترك لواجب، وكذلك مراعاة استعدادات الأشخاص النفسية لتقبل بعض الأمور والاستجابة لها، طبقًا للظروف، والمرحلة التي تمر بها الأمة، شريطة أن تكون النتائج الإيجابية والمصالح للأمة والدولة أكثر مما يفوت عليها من هذه الأمور، إذ أن التشدد لا يعطي في كثير من الأحيان إلا نتائج عكسية تمامًا، لا

---

(١) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، د. محمد سعيد البوطي، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م، ص ٢٣.

(٢) انظر: الإحكام في أصول الإحكام، علي بن سيف الآمدي، ط دار الكتب، ٤١١/٣، وضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ص ٧٥.

تتفق ومصلحة الأمة وفائدة المسلمين[١].

فعلى المربي أن يبين حرص الرسول الكريم على ما فيه مصلحة المسلمين، فإذا حلف المسلم على يمين ورأى عدم إتيانها خيراً له وللمسلمين فعليه تركها والتكفير عنها ترجيحًا للمصلحة على المفسدة وهذا منهج تربوي هام لو أخذ به لتحقق الكثير من المصالح، ودرء كثير من المفاسد؛ فعلى المسؤولين عن التربية الإسلامية تأصيل هذا المنهج وغرسه في نفوس المسلمين.

ثانيًا - التربية بالقدوة:

من أساليب التربية التي يتضمنها هذا الباب التربية بالقدوة حيث قال رسول الله ﷺ: "إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، ثم أرى خيرًا منها إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير".

فلقد كان رسول الله ﷺ أعظم قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مربيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي، قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به[٢]. وإذ يجعل الإسلام قدوته الدائمة هي شخصية رسوله ﷺ، فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال، متجددة في واقع الناس، إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدي في سبحات الخيال، إنه يعرضها عليهم ليحققوها في ذوات أنفسهم، كل بقدر ما يستطيع أن يقتبس وكل بقدر ما يصبر على الصمود، ومن ثم تظل حيويتها دافقة شاخصة، ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم في حُبِّه الأرواحُ دون تأثر واقعي ولا اقتداء[٣].

والإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية، فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس، فلابد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكي يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع. ولابد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط٦، دار الشروق، ١٤٠٢هـ، ١/١٨٠.

(٣) التربية الإسلامية، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، ص ٥٤.

الإسلام وتقاليده النظيفة لكي يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال، ومن هنا فإن الأمانة تفرض على المربين في أي موقع كان أن يتخذوا من منهج رسول الله ﷺ التربوي قدوة ليتمكنوا من إعداد الإنسان الصالح. يجب أن يكونوا قدوة حسنة لتلاميذهم فيما يدعونهم إليه من الالتزام بالمبادئ الإسلامية، والتخلق بالأخلاق الإسلامية الرفيعة في جميع الأحوال وتحت مختلف الظروف[1].



(١) المرجع السابق، ص ٥٤.

٣١٧- باب العفو عن لغو اليمين

وأنَّه لا كفارة فِيهِ، وَهُوَ مَا يجري عَلَى اللسان بغير قصد اليمين كقوله عَلَى العادة: لا والله، وبلى والله، ونحو ذَلِكَ

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أيْمَانَكُمْ﴾[المائدة: ٨٩].

الحديث رقم (١٧٢١)

١٧٢١- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: أُنْزِلَتْ هذِهِ الآية: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لا واللهِ، وَبَلَى واللهِ. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو الأوحد في باب العفو عن لغو اليمين، وأنه لا كفارة فيه، وهو ما يجري على اللسان بغير قصد اليمين؛ كقوله على العادة: "لا والله، و"بلى والله"، ونحو ذلك، والحديث يستدل على أن هذه الصيغة: "لا والله، و"بلى والله" لغو؛ بالقرآن الكريم، والسنة النبوية مستمدة من وهج البيان القرآني العظيم، وبناء الفعل للمجهول في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أُنزلت هذه الآية" للإفادة بأن نزولها كان لسبب؛ وهو بيان حكم هذا اليمين، الذي يجري على اللسان مجرى العادة في القول، والفاعل المُنْزِل معلومٌ وهو الله عز وجل، والذي نزل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام.

---

(١) برقم (٤٦١٣).

والتعبير بقولها: هذه الآية للتنبيه والتذكير، فاسم الإشارة وُجد للتمييز والتحديد، ولفت الانتباه، والمشار إليه متأخر عن اسم الإشارة؛ وهو الآية، وكلمة الآية بدل أو عطف بيان، والآية ليست منفصلة عن بناء الحديث اللغوي؛ فهي بدل من الآية أو عطف بيان ، واللغو في اللغة، وكذلك اللَّغا كالفَتَى: السقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره، وهذا المعنى اللغوي ينفق في دلالته مع المراد باللغو في الآية الكريمة؛ فالمراد من قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[1] أي: بالإثم في الحلف إذا كفرتم.

وتقول عائشة رضي الله عنها في توضيح معنى اللغو: إن رسول الله ﷺ قال: "هو كلام الرجل في يمينه كلا والله، وبلى والله"، والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأسباب النزول.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بعدم مؤاختهم باللغو في الأيمان.

ثالثاً: من خصائص الدعوة: الواقعية.

أولاً– من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأسباب النزول:

هذا واضح من قول عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[2]، في قول الرجل: لا والله، وبلى الله. قال الطيبي: قال ابن الصلاح: تفسير الصحابى موقوف إلا فيما يتعلق بسبب نزول آية، وما نحن فيه من هذا القبيل"[3]. ويوضح الشوكاني أهمية بيان عائشة ليمين اللغو في الآية فيقول: "إن القرآن الكريم قد دل على عدم المؤاخذة في يمين اللغو، وذلك يعم الإثم والكفارة فلا يجب أيهما. والمتوجَّه الرجوع في معرفة اللغو إلى اللغة العربية، وأهل عصره ﷺ أعرف الناس

(١) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٥.

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٢٦/٧.

بمعاني كتاب الله تعالى، لأنهم مع كونهم من أهل اللغة، قد كانوا من أهل الشرع ومن المشاهدين للرسول ﷺ والحاضرين في أيام النزول، فإذا صح عن أحدهم تفسير لم يعارضه ما يرجح عليه أو يساويه وجب الرجوع إليه وإن لم يوافق ما نقله أئمة اللغة في معنى ذلك اللفظ، لأنه يمكن أن يكون المعنى الذي نقله إليه شرعياً لا لغوياً، والشرعي مقدم على اللغوي، كما تقرر في الأصول[1]، فكان الحق فيما نحن بصدده هو أن اللغو ما قالته عائشة رضي الله عنها"[2].

وقال الشوكاني كذلك في السيل الجرار: (قد اختلف أهل العلم في تفسير اللغو على ثمانية أقوال ولا يخفى أن الواجب الرجوع إلى معنى اللغو لغة إذا لم يثبت له معنًى في الشرع يخالف معناه اللغوي فإن ثبت فالرجوع إلى المعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي كما تقرر في الأصول.

واللغو في اللغة الباطل ولكنه ثبت عن عائشة في البخاري وغيره أنها قالت نزلت هذه الآية "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم" في قول الرجل لا والله وبلى والله.

والصحابة أعرف بمعاني القرآن فالرجوع إلى أقوالهم هو الواجب، وقد روي عنها وعن جماعة من الصحابة تفاسير مختلفة لمعنى اللغو ولكنهم لم يذكروا أن ما قالوه هو

---

(١) تنقسم الحقيقة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: حقيقة لغوية وضعية، وهي الثابتة بالوضع، أي أن يضع الواضع لفظاً لمعنى إذا أطلق ذلك اللفظ فهم ذلك المعنى الموضوع له، مثل لفظ "الأسد" يفهم منه الحيوان المفترس، فلا ينقدح في الذهن عند إطلاقه، إلا هذا المعنى. فيكون حقيقة، وهذا هو المقصود بالحقيقة، وهي الأسبق إلى الذهن من الحقيقة العرفية والشرعية.

القسم الثاني: حقيقة عرفية، وهو قول خص في العرف ببعض مسمياته، وإن كان وضعها للجميع حقيقة، مثل لفظ "الدابة" فإن وضعها بأصل اللغة لكل ما يدب على الأرض من ذي حافر وغيره، ثم هجر هذا المعنى، وصار في العرف حقيقة للفرس، ولكل ذات حافر.

القسم الثالث: حقيقة شرعية: وهي اللفظ المستعمل في الشريعة على غير ما كان عليه في وضع اللغة كالصلاة مثلاً فإنها في اللغة: الدعاء، فاستعمل هذا اللفظ في الشريعة على الأقوال والأفعال المخصوصة، فصارت حقيقة فيها.

انظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن. الدكتور عبدالكريم بن على النملة، ١١٤٧/٣-١١٥٧. وانظر كذلك إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الشوكاني محمد بن علي، ١٢٥٠هـ، ٦٣/١-٦٦.

(٢) نيل الأوطار ١٦٨٦.

ما نزل به القرآن مع عدم ثبوت ذلك من وجه تقوم به الحجة على أنه قد روى أبو داود قول عائشة هذا مرفوعا بلفظ قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله وهكذا أخرجه مرفوعا ابن حبان والبيهقي[١] وصحح الدارقطني الوقف[٢]. وقد روي عن ابن عباس وابن عمر وابن عمرو مثل قول عائشة)[٣].

ومن قبيل بيان الصحابي لسبب النزول ما رواه أسلم أبي عمران، قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنه لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه عدوه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[٤]، فكانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو[٥].

ولأهمية بيان سبب النزول قال ابن تيمية: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٥٤، وابن حبان ٤٣٣٣، والبيهقي ٤٩/١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٧٨٩) وانظر تتمة تخريجه في صحيح ابن حبان.

(٢) كما في التلخيص الحبير ١٦٧/٤.

(٣) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني، محمد بن علي، ١٢٥٠هـ، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥/١٩٨٥م، ١٣/٤-١٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٥١٢، والترمذي ٢٩٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٣).

(٦) مجموع الفتاوى ١٨١/٧، ط العبيكان، ٣٣٩/١٣ ط ابن قاسم: وانظر في معرفة المزيد عن فوائد علم سبب النزول مقدمة الدكتور عبدالحكيم محمد أنيس لتحقيقه: العجاب في بيان الأسباب. ابن حجر: أحمد بن علي، ٨٥٢ هـ، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٢، ١٤٢٦هـ، ٩٤/١-٩٨.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده بعدم مؤاخذتهم باللغو في الأيمان:

وهذا واضح من الحديث: "فقد أخبرت عائشة رضي الله عنها، أن الله عز وجل أنزل قوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾[1]، في قول الرجل: "لا الله وبلى والله"، وهذا من رحمة الله بعباده.

قال ابن كثير: "لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد[2] ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله»[3]، فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه"[4].

وقد ورد عن عائشة روايات أخرى بالمعنى نفسه: منها قولها: "هم القوم يتدارؤون[5] في الأمر، فيقول هذا: لا والله وبلى والله وكلا والله، يتدارؤون في الأمر، لا تعقد عليه قلوبهم"[6].

ومنها قولها: "إنما اللغو في المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لا والله وبلى الله، فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله"[7].

وعن عطاء عن عائشة وابن عباس وابن عمر وابن عمرو، أنهم كانوا يقولون: اللغو،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٥.

(٢) أي من عزم وعَقْد.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٦٠، ٦٦٥٠، ومسلم ١٦٤٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٦٠١/١.

(٥) أي يتدافعون ويختلفون، النهاية في (د ر أ).

(٦) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ١٥٩٥٢، والطبري في تفسيره ١٦/٤-١٧.

(٧) أخرجه الطبري ٣١/٤، وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦٢٦/٢.

لا والله وبلى والله[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٢]، قال أبو عبدالله القرطبي: ("غفور رحيم"، صفتان لائقتان بما ذكر من طرح المؤاخذة، إذ هو باب رفق وتوسعة)[٣]، وقال القاسمي: "والله غفور" يعني لعباده فيما لغوا من أيمانهم، فلم يؤاخذهم به "حليم" يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة تربصاً بالتوبة، والجملة تزييل للحكمين السابقين، فائدته الامتنان على المؤمنين، وشمول مغفرته وإحسانه لهم"[٤].

ثالثاً- من خصائص الدعوة: الواقعية:

هذا الحديث دليل على الواقعية التي هي من خصائص الدعوة، وقد ورد تفسير اللغو من قول النبي ﷺ، فعن إبراهيم "يعني الصائغ، عن عطاء: في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله»[٥].

قال ابن عثيمين: "لغو اليمين: هي اليمين التي يقولها الإنسان على لسانه ولا يقصدها بقلبه وقد عفا الله تعالى عن ذلك، لأنه يحصل كثيراً أن يقول الإنسان: لا والله ما أنا ذاهب، لا والله ما أنا فاعل، وما أشبه ذلك، فلما كثر هذا في ألسن الناس عفا الله عنه،... وهذا من سعة رحمة الله تعالى أن هذه الأيمان التي تتكرر على الألسن ولا يقصدها الحالف ليس فيها إثم وليس فيها كفارة، لأن ذلك يقع كثيراً، ولكن مع

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنثور، ٦٢٦/٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٠٢/١-٦٠٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠٢/٣/٢.

(٤) محاسن التأويل ٢٣٨/٣.

(٥) أخرجه أبو داود ٣٢٥٤، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥٤) وانظر تتمة تخريجه في صحيح ابن حبان، ٤٣٣٣.

ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[١]، يعني لا تكثروا من الأيمان، ولا تتركوا الكفارة إذا حنثتم فيها، بل احفظوها، لأن اليمين أمرها عظيم، ولهذا سمى الله تعالى، بل سماها النبي ﷺ حنثاً، لأنه لولا رحمة الله لكان الإنسان إذا حلف لزمه أن يوفي، ولكن من نعمة الله أن يسر أن الإنسان له أن يخالف ما حلف عليه إذا لم يكن إثماً والله الموفق"[٢].

قال عبدالله البسام: "فسرت عائشة رضي الله عنها لغو اليمين هنا بأنه ما يتردد على ألسنة الناس أثناء المحادثة عن قولهم: لا والله وبلى والله، مما يجري على اللسان ولا يقصده بالجنان، وهذا التفسير هو ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة.

أما أبو حنيفة فجعل لغو اليمين المذكور في الآية هو حلف الإنسان على أمر ماض يظنه كما قال، وهو بخلاف ما ظنه.

قال ابن المنذر وهو قول أكثر العلماء.

وذهب أحمد في المشهور من مذهبه إلى أن لغو اليمين يراد به للنوعان السابقان كلاهما.

قال في الروض وحاشيته: "وكذا يمين عقدها يظن نفسه، فبان بخلافه فلغو غير منعقدة، ولا كفارة فيها لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٣]. أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان التي لا يقصدها الحالف[٤].

وقال تقي الدين: وكذا لو عقدها ظاناً صدقه، فلم يكن، كمن حلف على غيره يظن أنه يطيعه فلم يفعل"[٥].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٢) شرح رياض الصالحين٢/١٧٧٧- ١٧٧٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٥.

(٤) الروض المربع وحاشيته ٧/٤٧٠، وتتمة كلام صاحب الحاشية: لأنه يكثر، فلو وجبت به كفارة لشق وحصل الضرر، وهو منتف شرعاً.

(٥) توضيح الأحكام ٢/٩١.

ويجعل الدكتور القرضاوي أن من الخصائص العامة للإسلام الواقعية ثم يذكر واقعية الشريعة الإسلامية فقال: "وجاء الإسلام كذلك بشريعة لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللإنسانية"[١]، ثم ذكر أن من دلائل الواقعية في التشريع التيسير ورفع الحرج، ومراعاة سنة التدرج والنزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة، فيقول في توضيح القاعدة الأخيرة: "ومن دلائل الواقعية في الشريعة: أنها مع حرصها البالغ على الوصول إلى المثل الأعلى، والوجه الأكمل في تطبيق أحكامها - لا تغمض عينها عن الواقع العملي الذي يعيشه الناس محلقة في مثالية لا وجود لها، بل نجدها تنزل إلى أرض الواقع لتكيف أحكامها الفرعية تبعاً له، حتى لا تهدر مصالح العباد وتعطل مسيرة الحياة"[٢]. ثم يقول في ختام صفة الواقعية: "هذا هو الإسلام، وهذه هى واقعيته في كل مجال من المجالات لا يكلف الناس شططاً ولا يرهقهم عسراً، ولا يجعل عليهم حرجاً، يحاول أن يرقى بهم ليصعدوا ويرتفعوا ولكنه لا يهملهم إذا هبطوا، إنه يريدهم أصحاء أقوياء ولكنهم إذا مرضوا عالجهم وساعدهم حتى يشفوا وينهضوا. إنه منهج الفطرة منهج الله الذي يتعانق فيه الواقع والمثال)"[٣].

وتتجلى الواقعية في هذا الحيث في مراعاة الإسلام لطبيعة الإنسان وسبق لسانه بالحلف دون أن يقصد عقد اليمين، فراعى العلي القدير ذلك وجعله يمين لغو لا عقوبة عليه ولا كفارة له.

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ١٧٠.

(٢) السابق ١٨٢.

(٣) السابق ١٨٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - من خصائص التربية الإسلامية: التيسير ورفع الحرج:

إن التيسير ورفع الحرج سمة أساسية للتربية الإسلامية الصحيحة ويظهر التيسير ورفع الحرج في هذا الباب في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[1] في قول الرجل: لا والله وبلى والله.

وهذا يدل على التيسير ورفع الحرج عن الإنسان الذي اعتاد الحلف في كلامه دون أن يقصد عقد اليمين.

إن الإسلام جاء بالتيسير ورفع الحرج، لأنه يراعي طبيعة الإنسان، وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم في ضوء هذا النظر الواقعي، جعل الإسلام حدًا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه، لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى مستوى الكمال[2].

فعلى المربي أن يبين لمن يقوم بتربيتهم أن الشريعة الإسلامية من خصائصها الأساسية التيسير ورفع الحرج عن المسلمين.

فالتيسير ورفع الحرج واضح لكل من تتبع الشريعة الإسلامية في أصولها وفروعها، فنطاق السماحة والتيسير في شريعة الإسلام لا يقتصر على شؤون العبادات، وإنما يتسع لكل أحكام الشريعة من معاملات مدنية، وتصرفات شخصية، وعقوبات جزائية وتشريعات قضائية ونحوها[3].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٢) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، نقلًا عن أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٢٣٥.

(٣) انظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام، ص ٨.

ثانيًا - من مصادر التربية: القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للتربية الإسلامي ويظهر استخدام القرآن الكريم كمصدر للتربية في هذا الباب في قول عائشة رضي الله عنها أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[(١)] في قول الرجل: لا والله، بلى والله.

فالتربية تستمد منه، وفي هديه أهدافها، ومادتها، وطرقها، ووسائلها، والذي على ضوئه تقيم تلك التربية وتعدل، فهو كلام الحق تبارك وتعالى، ومنهجه الشامل للحياة بكاملها[(٢)]، فمن أقدر من الله خالق كل شيء على تقديم الهداية الكاملة للبشرية؟ وأي منهج غير المنهج الإلهي يستطيع أن ينهض بحاجات النفوس البشرية، ويفي بمطالبها، ويغذي عواطفها ومشاعرها، ويتابع تطورها، ونموها، ويستوعب قضاياها، ويلاحظ أزماتها ويلائمها في تطورها الصاعد، ويقودها على طريقة الكمال بتؤدة ورفق[(٣)].

والقرآن الكريم، وهو كلام الخالق العليم (يخاطب النفس الإنسانية مخاطبة العليم بأسرارها، الخبير بما يفسدها أو يزكيها، المطلع على مواطن القوة والضعف فيها)[(٤)]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[(٥)].

والقرآن الكريم موصوف بقول الحق: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[(٦)] وللقرآن تطبيقاته وآثاره التربوية التي يصعب -إن لم يستحيل- حصرها وذلك لكثرتها من جهة، ولقصور العقل البشري عن إدراكها كاملة من جهة أخرى[(٧)].



---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٦٥.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل علي، ص ٧٩. نقلًا عن نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، توفيق محمد سبع، مجمع البحوث الإسلامية، العدد ٣٤ من سلسلة البحوث الإسلامية، القاهرة، أغسطس ١٩٧١م، ١/٧٧.

(٤) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ٨١.

(٥) سورة الملك، آية: ١٤.

(٦) سورة الطارق، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٧) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٦١-٦٦.

٣١٨- باب كراهة الحلف في البيع وإنْ كان صادقاً

الحديث رقم (١٧٢٢)

١٧٢٢- عن أبي هريرةَ ﷺ قال: سَمِعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

منفقة للسلعة: أي: مروجة للمتاع أو السلعة[2].

ممحقة للكسب: أي: تمحو وتنقص وتبطل الكسب[3].

الشرح الأدبي

يحرص المصطفى ﷺ على أن تظل العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن راسخة الدعائم، موثوقة العرا، والبيع والشراء من المجالات التي يمكن أن تتصدع فيها العلاقات، وتستعر الخلافات، ولذلك يوصي رسول الله بأن يكون المؤمن سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، وهذه السماحة تبنى على أسس من الثقة وعدم التشكك المتبادل بين البائع والمشتري المسلمين.

ومن أُولى أمارات هذه الثقة: أن لا يلجأ البائع إلى الحلف وإن كان صادقاً؛ لأن هذا الحلف يوحي بعدم تصديق المشترى، وعدم ثقته فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧) بلفظ: (ممحقة للبركة)، ومسلم (١٣١/١٦٠٦) بلفظ: (ممحقة للربح)، وهذا لفظ النسائي في المجتبى (٤٤٦١)، وكذا المنذري في ترغيبه، وتبعه عليه المؤلف.

(٢) انظر: فتح الباري ٣٦٩/٤.

(٣) النهاية في (م ح ق)، وفتح الباري ٣٧٠/٤.

والحدث يتسم بالإيجاز الشديد، ولكن معانيه تتسع لتشمل كل صور البيع والشراء، مهما اختلفت الظروف والأحوال، ومهما تعددت الأمكنة والبيئات.

ويتكون الحديث من جملة لغوية واحدة، مبتدأ وخبر "متعدد"، وهو "منفقة للسلعة، ممحقة للكسب"، والجناس الناقص بين منفقة وممحقة، ينشئ إيقاعاً صوتيًّا مؤثراً يلفت الانتباه، ويوقظ المستمع، والتنوين في منفقة، وممحقة -مع التماثل الصوتي في وزن الكلمة، وإيقاعها- يضاعف من ذلك التأثير، ودلالة الكلمتين تصور آثار الحلف السلبية ومدى ما تجلبه من كساد للبائع؛ حيث تبور سلعته، وتتمحي البركة من كسبه؛ ففي اللغة يقولون: نفق الرجل والدابة نفوقاً: أي: ماتا، وبالكسر نفِق: أي: نفد وفني أو قلَّ.

ومن معاني: نَفَق: بالفتح: راج، ولكن في ظل الحلف تُمحق البركة، ويقل الكسب، وقوله: ممحقة للكسب، أي: منقصة وزوال، ومن معاني "مَحَقَ" في اللغة: المحو والإبطال، ومحق الله الشيء: ذهب ببركته، ومن هذه المادة التي تدل على المحو أو الضآلة أو القلة قولهم: المحاق، وهو آخر الشهر، أو ثلاث ليال من آخره، أو أن يستسر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية، وسُمي بذلك لأنه طلع مع الشمس فمَحَقَتْه[1].

فالحلف في البيع يؤدي إلى بوار السلعة، ونقص الكسب، ومحو البركة، وإسناد التفوق إلى الحلف وكذلك المحق، من باب المجاز المرسل وعلاقته السببية؛ لأن الحلف سبب بوار السلعة، ومحو البركة من الكسب، والله أعلم.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التحذير والتعليل.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهى عن الحلف في البيع وإن كان صادقاً.

---

(١) القاموس المحيط في (م ح ق).

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٢٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٢٣).

أولاً- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

لقد بين ﷺ أن الحلف وإن كان يُكثر من بيع السلعة مما يعود على البائع، بالربح والزيادة، إلا أنه في الحقيقة نقصان، قال ابن الأثير: (المحق: النقص والمحو والإبطال)[١]، فالحلف كما يقول الطيبي: (وإن أنفق السلعة حالاً فإنه يذهب بالبركة مآلاً)[٢].

ولا شك أن بيان الحقائق للمدعوين مهم جداً، حتى يكونوا على علم بها ومن ثم يسيرون في ضوئها وفي هديها. ومن ثم كان هذا البيان في هذا الحديث دعوة لهم أن يتجنبوا الحلف في البيع، نظراً لضرره الشديد، على البائعين منهم.

ومن قبيل بيان الداعية للحقائق، ما رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: «انكسفَتِ الشمسُ يومَ ماتَ إبراهيمُ (ابن النبي ﷺ)، فقال الناسُ انكسفَتْ لموتِ إبراهيمَ، فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّ الشمسَ والقمرَ آيَتانِ من آياتِ الله، لا ينكسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى يَنجليَ»[٣].

فقد بين ﷺ للمدعوين حقيقة كسوف الشمس وأن ذلك آية من آيات الله تعالى، كما أرشدهم إلى ما يفعلونه إذا حدث هذا الكسوف سواء للشمس أو القمر.

ثانياً- من أساليب الدعوة: التحذير والتعليل:

هذا واضح من قوله ﷺ: "إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق تم يمحق" فهذا تحذير من النبي ﷺ للمدعوين من كثرة الحلف، كما أنه ﷺ ساق التعليل من هذا التحذير، فقال: "فإنه يُنفق ثم يمحق". قال الطيبي: قوله: "إياكم وكثرة الحلف" "إياكم" منصوب على التحذير، أى اتقوا أنفسكم من إكثار الحلف، وإكثار الحلف عن أنفسكم، كرره للتأكيد والتنفير"[٤].

---

(١) النهاية في (م ح ق).

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٣٣/٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٦٠، ومسلم ٩١٥.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ٣٢/٦.

وقال القرطبي: "إياكم معناه: الزجر والتحذير وكثرة منصوبة على الإغراء، كما نقول إياك والأسد، أي احذره واتقه"[١]. ثم علل ﷺ هذا التحذير بأنه يذهب بالبركة، وإن كان الظاهر أن يربح البائع ولكن هذا عاقبته محو البركة وسوء العاقبة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: النهى عن الحلف في البيع وإن كان صادقاً:

هذا واضح من الحديثين: فقوله ﷺ: "إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ثم يمحق"، قد حمله بعض العلماء على النهى عن الحلف كله قليله وكثيره: قال الطيبي: "والنهى عن كثرة الحلف فيه لا يقتضي جواز قلتها، لأن النهى وارد على أهل السوق، وعادتهم كثرة الحلف، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾[٢]، و "ثم" في "يمحق"، يجوز أن تكون للتراخي في الزمان، يعني وإن أنفق اليمين السلعة حالاً فإنه يذهب بالبركة مآلاً، كقول ابن مسعود: "الربا وإن كثر إلى قل"[٣]، وأن يكون للتراخي في الرتبة، يعني أن محقه البركة حينئذ أبلغ من الإنفاق، والمراد من محق البركة عدم انتفاعه به ديناً ودنيا"[٤].

ومن العلماء من حمل النهى على الكثرة دون القليل، قال النووي: "وفيه النهي عن كثرة الحلف في البيع، فإن الحلف من غير حاجة مكروه، وينضم إلى هنا ترويج السلعة وربما اغتر المشترى باليمين"[٥]، وجمع بين الأمرين ابن عثيمين: فقال: "وظاهر الحديث أنه لا فرق بين أن يكثر الحلف أو لا، لكن لما كان الإنسان البائع والمشتري

---

(١) المفهم ٥٢٣/٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٠.

(٣) بل جاء الحديث مرفوعاً فقد أخرجه أحمد ٣٩٥/١ رقم ٣٧٥٤، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: الربا وان كثر فإنه عاقبته تصير إلى قل"، وحسن ابن حجر إسناده في الفتح، ٣١٥/٤ ، وقال محققوالمسند: حديث صحيح ٢٩٧/٦.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة، ٢٣/٦.

(٥) شرح مسلم ٤٥/١١/٦، .

دائماً يحلف، دائماً يبيع ويشتري، حمله بعض العلماء على الكثرة، كثرة الحلف عند البيع والشراء"[١].

قال القرطبي: (وإنما حذر من كثرة الحلف: لأن الغالب ممن كثرت أيمانه وقوعه في الكذب والفجور، وإن سلم من ذلك على بعده، لم يسلم من الحنث، أو الندم؛ لأن اليمين حنث أو مندمة. وإن سلم من ذلك لم يسلم من مدح السلعة المحلوف عليها، والإفراط في تزيينها ليروجها على المشتري، مع ما في ذلك من ذكر الله تعالى لا على جهة التعظيم، بل على جهة مدح السلعة، فاليمين على ذلك تعظيم للسلع، لا تعظيم لله تعالى. وهذه كلها أنواع من المفاسد لا يقدم عليها إلا من عقله ودينه فاسد)[٢].

هذا بخصوص الحلف الصادق، أما الحلف كاذباً فحرام، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ، "الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة"، قال ابن حجر: ("لأحمد" اليمين الكاذبة)[٣]... فأوضح الحديث أن الحلف الكاذب، وإن زاد في المال، فإنه يمحق البركة، فكذلك قوله تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[٤]، أي يمحق البركة من البيع الذي فيه الربا وإن كان العدد زائداً لكن محق البركة يفضي إلى اضمحلال العدد في الدنيا كما مر في حديث ابن مسعود"[٥]. وقال السندي: (ممحقة: أي موضع لنقصان البركة ومظنة له في المال. بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها. إما سرقاً أو حرقاً أو غرقاً أو غصباً أو نهباً أو عوارض ينفق فيها من أمراض وقحط وغير ذلك مما شاء الله، كذا قيل)[٦].

قال القرطبي: "ومعنى تمحق البركة، أي تذهبها، وقد تذهب رأس المال والربح،

---

(١) شرح رياض الصالحين، ١٧٧٨/٢.

(٢) المفهم ٥٢٣/٤.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣٥/٢ رقم ٧٢٠٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٤١/١٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٥) فتح الباري ٣١٧/٤.

(٦) حاشية السندي على مسند أحمد ١٤١/١٢.

كما قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(١). وقد يتعدى المحق إلى الحالف، فيعاقب بإهلاكه وبتوالي المصائب عليه، وقد يتعدى إلى خراب بيته وبلده، كما روى أن النبي ﷺ قال: اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع"(٢)، أي خالية من مكانها إذا توافقوا على التجرؤ على الأيمان الفاجرة، وأما محق الحسنات في الآخرة، فلابد منه لمن لم يتب، وسبب هذا كله أن اليمين الكاذبة يمين غموس، يؤكل بها مال المسلم بالباطل"(٣).

وقد ورد الوعيد على المنفق سلعته بالحلف الكاذب، قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فذكر منهم: «الْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحلف الكاذب»(٤).

قال الطيبي: مفسراً استحقاق من كان هذا شأنه ذلك العقاب، قال: "الحالف البائع يراعى غبطة نفسه والهضم من حق صاحبه، والحاصل منه عدم المبالاة بالغير وإيثار نفسه عليه، ولذلك يجازيه الله تعالى بعدم المبالاة والالتفات إليه...، فإن قلت: مرتبة الجزاء أن يؤخر عن الفعل فلم قدم ذكره في الحديث: قلت: ليفخم شأنه ويهول أمر مرتكبيه في خلد السامع فيذهب بنفسه كل مذهب"(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٤٨٤٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره المنذري في الترغيب ٤١٦، ٢٨٥٣، وصدره بلفظ "وروي" دليلاً على ضعفه عنده كما نص على ذلك في مقدمة كتابه ص٢٤ ثم وجدت أن الألباني قد حسّنه لغيره وجعله في صحيح الترغيب والترهيب ١٨٣٥، فالله أعلم بالصواب.

(٣) المفهم ٥٢٢/٤، ٥٢٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٠٦.

(٥) شرح الطيبي على المشكاة ٣٤/٧، وانظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٢٦٠-٢٦١.

الحديث رقم (١٧٢٣)

١٧٢٣- وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أنَّه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((إيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الحَلِفِ فِي البَيْعِ، فَإنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٧).

غريب الألفاظ:

ينفق ثم يمحق: أي يروج ثم ينقص وتذهب بركته[2].

الشرح الأدبي

يتفق هذا الحديث السابق في مضمونه، ولكن تختلف الصياغة اللغوية؛ ففي هذا الحديث استخدم رسول الله ﷺ أسلوب التحذير؛ وهو التنبيه على أمر مذموم ليجتنبه الإنسان، كما يقول النحاة.

والتحذير من كثرة الحلف يخاطب به رسول الله ﷺ الأمة كلها، وقدَّم ضمير النصب المنفصل "إيَّا" المقترن بكاف الخطاب، وعلامة الجمع "كم"، وهذه الصيغة التحذيرية موجهة إلى الأمة جمعاء؛ حتى تتجنب كثرة الحلف في البيع.

والجملة الثانية في الحديث تتصل بالأولى اتصالاً تعليليًّا؛ فهي ليست مضافة إليها، وليست معطوفة عليها؛ ولكنها لبيان العلة من هذا التحذير، والفاء في قوله: "فإنه" تفصح عن هذه العلّية، التي تؤدي إلى الإقناع، والارتداع عن هذا السلوك المخادع من البائع، وقد أفصح قوله ﷺ: "ينفق" عن هذا السلوك، الذي يلجأ إلى كثرة الحلف رغبة في زيادة الربح، وترغيباً في كثرة المشترين، وتزييناً للسلعة وترويجاً لها.

---

(١) برقم (١٣٢/١٦٠٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٧٢).

(٢) الوسيط في (ن ف ق) و (م ح ق).

والتعبير بقوله: "ينفق" يعطي معنى الرواج، وهو من دلالات الفعل "نَفَقَ"؛ لأن هذا الفعل يجمع بين المعنى وضده؛ فهو من معاني الأضداد، وقيل: نفق بالفتح: معناه راج، ونفق بكسر الفاء: أي: مات، والتضعيف بتشديد الفاء في قوله: "ينفّق" يوحي بزيادة الكسب، ورواج السلعة، وصيغة المضارع تعطي دلالة الاستمرار، الناشئ من وهم هذا البائع الذي يكثر من الحلف، وقوله ﷺ: "ثم يمحق" يفيد بأن هذا الرواج غير مستمر، ومهما طال الزمن، فإن الله يمحق البركة من هذا الكَسْب المخادع، والتعبير بـ"ثم" يرشد إلى أن هذا الكسب، الذي حصله صاحبه، لن يدوم، مهما طال الزمن؛ فنهايته المحق والبوار، والخسران والدمار.

فقه الحديث

وفي الحديثين من الفقه: كراهة الحلف في البيع من غير حاجة، فإن الحلف من غير حاجة مكروه، فإن كان كاذباً فهي كراهة تحريم، وإن كان صادقاً فكراهة تنزيه[١].

وتتأكد هذه الكراهة إذا قصد بيمينه ترويج السلعة، لأن المشتري يغتر باليمين[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) فتح الباري لابن حجر ٣١٦/٤، وشرح صحيح مسلم ٤٤/١١.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤٤/١١، ٤٥.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية الاقتصادية:

يقوم النظام الاقتصادي في الإسلام، على أسس العدالة، والمساواة، والتكافل الاجتماعي، والتعاون، والتراحم، ويدعو إلى الجد والعمل والسعي في طلب الرزق، والحرص على الشخصية المسلمة، أن يستذلها الفقر، أو يهينها السؤال، والحفاظ على الثروة أن تبددها الخمر، أو يمحقها الربا، أو يذهب بها الميسر، فإذا بقي المال مصونًا من العبث وبقيت الشخصية المسلمة كريمة الحياة، فالعز والسلطان والجاه.

وقد شجع الإسلام المسلم على ممارسة البيع والشراء، لأنه يفيد خبرة، ويبعث على حركة، ويدعو إلى ممارسة، والخبرة إذا زادت، وسعت آفاق الفكر، وقوت وشائج الصلة ومهدت السبيل إلى الألفة، والمعرفة، وفي الحركة بركة، ونشاط وقوة للجسم وصبر. وللبيع أصوله وآدابه، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وظلم البائع للمشتري، أو ظلم المشتري للبائع، يزرع الحقد، ويزعزع الثقة، ويدعو للفرقة[2]. فينبغي على المسلم أن لا يحلف في بيعه على السلعة من أجل ترويجها، أو غش المشتري كما في حديثي الباب، قال ﷺ: "الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب"، وقال ﷺ: "إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق ثم يمحق".

كما لا يبيع المسلم على بيع أخيه، لتتساوى الفرص ويمتنع العدوان فتصفو القلوب، ليبقى التعاون قائمًا بين المسلمين، والقصد في الربح قناعة واجتناب للظلم، ورعاية للحقوق ((ومن غشنا فليس منا))[3] ومن خرج على تعاليم الدين فقد خسر

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١-٥.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد صبح، ٢٥١/١.

(٣) أخرجه مسلم ١٠١.

الدنيا والآخرة[١].

وقال الله تعالى محرمًا أكل الأموال بالتزوير والاحتيال كالرشوة، ونحوها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٣].

والفقه الإسلامي اعتنى بأحكام المال عناية فائقة، في أبواب البيوع والإجارة والزكاة، وسائر المعاملات، وحرم الربا، وذكر أنواعه وشبهاته.

فترك بذلك أثرًا تربويًا طيبًا، جعل الناشئ اقتصاديًا، يخشى الله في المال، فلا يسرف، ولا يبذر ولا يبدد، ويحترم أموال الآخرين فلا يقربها ولا يفكر في اغتصابها أو الاحتيال في أخذها، كما ربى الإنسان على احترام العمل، والكسب الحلال، وشرع الميراث للولد صغيرًا كان أم كبيرًا خلافًا للأنظمة المنحرفة التي تجعل الميراث للولد الأكبر[٤].

ثانيًا - التربية على تعظيم الله في القلوب:

إن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد[٥].

لذلك قال ﷺ: "إياكم وكثرة الحلف في البيع...". وقد أمر المولى تبارك وتعالى بحفظ الأيمان فقال: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[٦] قال ابن عباس: (يريد لا تحلفوا لأن كثرة

---

(١) التربية الإسلامية، محمد أحمد صبح، ١/٢٥١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص ٦٣.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين، ٢/٤٥٤.

(٦) سورة المائدة، آية: ٨٩.

الحلف تدل على الاستخفاف بالله وعدم التعظيم له وذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب)[١].

فعلى المربي أن يعمل على تقوية تعظيم الله في النفوس، وهذا هو الأساس الذي تتفرع منه سائر فروع الاعتقاد، وقد عاب تبارك وتعالى على أهل الزيغ والضلال أنهم لم يقدروه حق قدره فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى في النفس، ويملك صاحبه العلم الصحيح فإنه يسلم له اعتقاده، وتنضبط حياته بشرع الله تبارك وتعالى.

فالذي يعظم الله تعالى لا يقدم بين يدي قوله وقول رسوله ﷺ، ولا يتردد في تصديق الأخبار والتزام الأوامر وترك المنهيات ولا يتعلق قلبه بغير الله، ولا يتجه لمخلوق، فيصفو اعتقاده ويستقيم عمله، ويضع للمخلوقين منزلتهم التي يستحقونها[٣].

ثالثًا - التربية بالترهيب:

لقد رهّب النبي ﷺ من الحلف في البيع فقال: "الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب"، وقال ﷺ: "إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق ثم يمحق".

فالحلف ممحقة للكسب، أي: متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ماله شيئًا يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به لا دينًا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار - والعياذ بالله - بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غني؛ لأن البركة قد محقت[٤].

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٤١٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٣) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص ٥٤.

(٤) القول المفيد، ابن عثيمين، ٤٥٨/٢.

هذا عقاب من يحلف على البيع في الدنيا أما في الآخرة فعذابه شديد، قال ﷺ: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم، يوم القيامة: أشيمط زان وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه"[(١)].

قوله ﷺ: "جعل الله بضاعته"، ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلبًا للكسب، واستحق هذه العقوبة؛ لأنه إن كان صادقًا؛ فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾[(٢)]، وإن كان كاذبًا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١ - استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢ - كذبه.

٣ - أكله المال بالباطل.

٤ - أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ))[(٣)].

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه؛ لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا؛ فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء؛ بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا نحن المربين أيضًا بوصفنا ممن آتاهم الله العلم أن نُحذّر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ؛ فالنبي ﷺ كان عالمًا عاملاً داعيًا، أما طالب العلم؛ فإنه ليس وارثًا للرسول -عليه الصلاة والسلام- حتى يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نُحذّر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم؛ لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب رقم ٢٧٧٧، ص ٤٠٤، وعزاه للطبراني في الكبير، وفي الصغير والأوسط، وقال: رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٥٦، ٢٣٥٧.

(٤) القول المفيد، ابن عثيمين، ٤٦٢/٢، ٤٦٣.

٣١٩- باب كراهة أنْ يسأل الإنسان بوجه الله عز وجل غير الجنة، وكراهة منع من سأل بالله تعالى وتشفع به

الحديث رقم (١٧٢٤)

١٧٢٤- عن جابر رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ الا الجَنَّةُ)) رواه أبو داود(١).

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن الحق سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ولكن للدعاء آداب، واستجابة الله للدعاء تظل مرتبطة بحسن العمل، وصلاح النية، وإسلام الوجه لله، والإخلاص في العبادة، وهذا الحديث الشريف يصوغه رسول الله في أسلوب القصر؛ عن طريق النفي والاستثناء؛ فهو يحصر السؤال بوجه الله، والتشفع في أشرف مطلوب، وأسمى مرغوب؛ وهو سؤال الله دخول الجنة.

والفعل "يسأل" يمكن أن يكون مجزوماً؛ حيث تكون "لا" ناهية، والأسلوب يكون إنشائيًا طلبيًا؛ لأن النهي من أنواع الطلب، والنهي هنا -كما قال العلماء- تنزيهي.

ويمكن أن يكون الفعل مرفوعاً، و"لا" تكون نافية، فيكون الأسلوب خبريًا

---

(١) برقم (١٦٧١) فيه سليمان بن قرم، قال الحافظ في الفتح (٨/٦٨٧): بصري ضعيف، وتفرد أبو داود بتسمية أبيه معاذًا، وقال في التقريب (٢٦٠٠): سيء الحفظ يتشيع، والحديث أورده ابن عدي في الكامل (٣/١١٠٧) وقال: وهذا الحديث لا أعرفه عن محمد بن المنكدر إلا من رواية سليمان بن قرم، وعن سليمان: يعقوب بن إسحاق الحضري، وعن يعقوب: أحمد بن عمرو العصفري انتهى. قلتُ: وبهذا الإسناد عند أبي داود. قال السخاوي في المقاصد (ص: ٤٧١): والظاهر أن النهي فيه للتنزيه، ولا يمنع استحباب الإجابة لمن سئل به، بل قد ورد الترهيب من كليهما.

متضمناً معنى النهي.

وهذه التوجيهات الأسلوبية، تنبع من ثراء المعنى، واتساع الدلالة في الحديث الشريف.

وفي هالة هذا التوجيه النبوي.. ننضوا هذه الأبيات، التي يناجي فيها الشاعر ربه في صدق وإخلاص، يقول الشاعر:

إلهي، ذرفت الدَّمعَ أرجو مثوبةً ... وصفحًا عن الزلات في ليلة القَدْرِ
سألتُكَ يا ربّاهُ تفريجَ كُربةٍ ... وجنات عدن في مناراتها أسْري
وهذَّبت أعمالي ابتغاء مثوبةٍ ... وبالحقِّ يا ربَّاه وصَّيتْ والصبرِ
وخالفتُ نفسي إذ طويلاً سجنتها ... وأحكمتُ باب السجن خوفاً من
وتشهد يا ربَّاهُ: ما كنت مؤذياً ... لنفسي، ولو أُلْقيتُ في ساحة الضُّرِّ
وما كنتُ غيرَ الخير أعرفُ شيمةً ... ولا غيرَ نُورِ الحق أحفظُ في صَدرِّي[1]

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله عز وجل غير الجنة.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصر:

هذا واضح من الحديث: "لا يسأل بوجه الله إلا الجنة"، فقد قصر ﷺ السؤال بوجه الله على الجنة دون غيرها من السؤالات والمطالب، قال الطيبي: قال المظهر هذا يحتمل أمرين، أحدهما: أن يكون معناه لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه الله مثل أن تقولوا لأحد: يا فلان أعطني شيئاً بوجه الله أو بالله، فإن اسم الله تعالى أعظم من أن يسأل به شيء من متاع الدنيا، بل سلوا به الجنة. والثاني: لا تسألوا الله شيئاً من متاع الدنيا، بل سلوا الله الجنة ورضاه، فإن متاع الدنيا لا قدر له. أقول في الوجهين نظر.

---

(١) من قصيدة مناجاة في ليلة القدر، شعر د. صابر عبدالدايم، ديوان الأعمال الكاملة، والقصيدة منشورة بجريدة صوت الأزهر، عام ٢٠٠٢م.

ويمكن أن يجري على المبالغة، يعني لا يسأل الناس ناشداً بالله إلا الجنة، وقد علم أن ليس إليهم ذلك، فيفيد المبالغة في قطع السؤال عنهم بالله، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1]، وهذا تأديب للسؤال والمكدين، عليهم أن يحترزوا ويجتنبوا هذا الأمر الفظيع"[2].

وقد بوب المنذري على هذا الحديث ونحوه: ترهيب السائل أن يسأل بوجه الله غير الجنة، وترهيب المسؤول بوجه الله أن يمنع[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله عز وجل غير الجنة:

هذا واضح من الحديث قال العظيم آبادي: "إذ كل شيء أحقر دون عظمته تعالى، والتوسل بالعظيم في الحقير تحقير له، نعم الجنة أعظم مطلب للإنسان، فصار التوسل به تعالى فيها مناسباً"[4].

وقال ابن عثيمين: "وجه الله تعالى وصفه تعالى بأنه ذو الجلال والإكرام، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[5]، كل من على البسيطة فإنه فان زائل لكن يبقى وجه الله عز وجل "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، ولهذا قال بعض العلماء[6]: ينبغي أن يصل قوله "ويبقى وجه ربك" بما قبله حتى يتبين كمال الله عز وجل وأنه يستحيل عليه الفناء. بل هو الباقي الذي لا يزول فوجه الله تعالى عظيم وأعظم ما يسأله المرء الجنة. قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[7]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم. فلما كانت الجنة أعظم مسؤول

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٢.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ١٢٨/٤.

(٣) الترغيب والترهيب ٢٠١، الحديث ١٢٧٣ وما بعده.

(٤) عون المعبود ٧٦١.

(٥) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦- ٢٧.

(٦) هو عامر بن شراحيل الشعبي من فقهاء التابعين وعلمائهم. ذكر ذلك عنه ابن القيم في مدارج السالكين، ٣١٠/٤.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

يعني أعظم ما يسأله الإنسان هو الجنة. صار لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.فلا تسأل بوجه الله شيئًا من أمور الدنيا، لا تقل: اللهم إني أسألك بوجهك أن تعطيني بيتاً أسكنه، أو سيارة أركبها، أو ما أشبه ذلك؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به شيء من الدنيا. الدنيا كلها دنيئة، كلها فانية، كلها لا خير فيها إلا ما يقرب الله عز وجل، وإلا فهى خسارة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، العصر: يعني الدهر، وهو الدنيا، أقسم بالعصر أن كل إنسان في خسر، لا يستفيد من عصره إلا من جمع هذه الصفات الأربع، "إلا الذين آمنوا"، واحد، "وعملوا الصالحات"، اثنين، "وتواصوا بالحق"، ثالث يعني: أوصى بعضهم بعضاً بالحق. والرابع، "وتواصوا بالصبر" أي: بالصبر على الحق والدعوة إليه والصبر على أقدار الله وغير ذلك، فالمهم لا تسأل بوجه الله إلا الجنة، وكذلك ما يقرب إلى الجنة فلك أن تسأل بوجه الله النجاة من النار، اللهم إني أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، لأنه إذا نجا الإنسان من النار لابد أن يدخل الجنة. فليس هناك ثلاث دور، إنما هما داران فقط، دار الكفار وهى النار أعاذنا الله وإياكم منها، ودار المؤمنين المتقين وهي الجنة فإذا قلت: أسألك بوجهك أن تجيرني من النار، فلا بأس، لأن الله متى أجارك من النار أدخلك الجنة. وهذا الحديث إسناده ضعيف ولكن معناه صحيح، لا ينبغي أن تسأل بوجه الله العظيم إلا لشيء عظيم"[2].

وقال ابن القيم في مقدمة كتابه عن الجنة: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: "ولما علم الموفقون ما خلقوا له، وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم فإذا علم الجنة قد رفع لهم، فشمروا إليه، إذا صراطها المستقيم قد وضح لهم، فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن[3] بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول، ولا ينفد بصبابة[4] عيش، إنما هو كأضغاث أحلام[5]،

---

(١) سورة العصر، الآيتان: ١- ٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٧٩/٢- ١٧٨٠.

(٣) الغبن: النقص والخسارة.

(٤) الصبابة: ما بقى في الإناء من ماء ونحوه.

(٥) أضغاث أحلام: ما كان ملتبساً مختلطاً لا يصح تأويله، لاختلاطه والتباسه، وأصل الضغث: القبضة من الحشيش المختلط رطبها بيابسها. والأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم.

أو كطيف[١] زار في المنام، مشوب بالنغص[٢]، ممزوج بالغصص[٣]، إن أضحك قليلاً أبكى كثيراً، وإن سر يوماً أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعافُ أضعاف مسراته، أوله مخاوف، وآخره متالف، فيا عجباً من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ[٤] عاقل، آثر[٥] الحظ الفاني الخسيس، على الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السماوات والأرض، بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، بأعطان[٦] ضيقة آخرها الخراب والبوار[٧]، وأبكاراً عرباً أتراباً[٨] كأنهن الياقوت والمرجان، بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات، أو متخذات أخدان[٩]، وحوراً مقصورات في الخيام[١٠] بخبيثات سيئات بين الأنام[١١]، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدميم، وسماع الخطاب من الرحمن، بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي يا أهل الجنة: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين:

---

(١) الطيف: الخيال الطائف في النوم.

(٢) مشوب بالنغص: مخلوط بكدر العيش.

(٣) الغصص: جمع غصة: وهو مما اعترض في الحلق من طعام أو شراب.

(٤) المسلاخ: الجلد.

(٥) في الأصل "أآثر" على الاستفهام، وما أثبتاه أولى.

(٦) العطن: مبرك الإبل حول الحوض. وجمعه أعطان.

(٧) البوار: الهلاك، والكساد.

(٨) عرباً أترابا: العرب: جمع عروب. وهي المرأة المتحببة إلى زوجها والمطيعة له، والأتراب: جمع ترب. وهو المماثل في السن ذكراً كان أو أنثى.

(٩) مسافحات أو متخذات أخدان: زانيات، والسفاح، والمسافحة: معاشرة المرأة بلا زواج. والأخذان: جمع خدن، وهو الصديق الذي يكون معك ظاهراً وباطناً.

(١٠) حور مقصورات في الخيام: الحور: جمع حوراء، وهي المرأة إذا اشتد بياض عينها، مع شدة سواد سوادها، وهذا من جمال العين. ومقصورات في الخيام: جمع مقصورة، وهي المرأة المنعمة في بيت لا تتركه. والخيام: جمع خيمة.

(١١) الأنام: الإنس والجن، وما ظهر على الأرض من جميع الخلق.

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ فَلَيْسَ لِي مُتَـأَخَّرٌ عَنْـهُ وَلا مُتَقَـدَّمُ
أَجِدُ المَلامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبّاً لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه[1] بائعه يوم الحسرة والندامة، إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدا[2]، وسيق المجرمون إلى جهنم ورداً[3]، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد، ليعلمن أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد لهم من الإكرام وادخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر، لعلم أي بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته، وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكاً كبيراً لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال.

فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسرتها تحت الحجال[4] يجلسون وعلى الفرش التي بطائنها[5] من إستبرق[6] يتكئون، وبالحور العين[7] يتمتعون، وبأنواع الثمار يتفكهون، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[8] ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ[9] عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ[10] ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ

---

(١) السفه: الجهل والطيش، وسوء التصرف.

(٢) الوفد: الجماعة يفدون على ذي الشأن، وقيل هنا: جاؤوا ركباناً.

(٣) الورد: الماء يورد، والورد: الإبل ترد الماء. ويقال للقوم يردون الماء: ورد. والمراد أنهم يقصدون جهنم للارتواء. وبئس الورد المورود.

(٤) الحجال: جمع حجلة، وهي ناموسية تستر السرير كالقبة تتخذ للعروس، وخشية البعوض والناموس.

(٥) البطائن: جمع بطانة، وهي من الثوب ما يبطن به، وهي خلاف ظهارته.

(٦) الإستبرق: الديباج الغليظ، وثياب من حرير وذهب. والديباج: الحرير.

(٧) العين: جمع عيناء، وهي المرأة حسنة العين وواسعتها.

(٨) الماء المعين: هو الظاهر الذي تراه العين جارياً على وجه الأرض.

(٩) لا يصدعون: لا يصيبهم الصداع. والصداع: وجع الرأس.

(١٠) ولا ينزفون: لا يذهب عقلهم من السكر. يقال: نزف شارب الخمر: سكر فذهب عقله وتمييزه. ونزف الشيء نزفاً: نفذ وفني.

عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ[١] ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ[٣] مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٤]. تالله، لقد نودي عليها في سوق الكساد[٥] فما قلّب ولا استام[٦] إلا أفراد من العباد، فواعجبا لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قر للمشتاق القرار، دون معانقة أبكارها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدفت[٧] عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟.

وهذا كتاب اجتهدت في جمعه، وترتيبه، وتفصيله، وتبويبه، فهو للمخزون سلوة وللمشتاق إلى تلك العرائس جلوة، محرك للقلوب، إلى أجلّ مطلوب، وحادٍ للنفوس إلى مجاورة الملك القدوس[٨]، ممتع لقارئه، مشوق للناظر فيه، لا يسأمه الجليس، ولا يمله الأنيس، مشتمل من بدائع الفوائد، وفرائد القلائد[٩]، على ما لعل المجتهد في الطلب، لا يظفر به فيما سواه من الكتب، مع تضمينه لجملة كثيرة من الأحاديث المرفوعات، والآثار[١٠] الموقوفات، والأسرار المودعة في كثير من الآيات، والنكت البديعات، وإيضاح كثير من المشكلات، والتنبيه على أصول من الأسماء والصفات، إذا نظر فيه

---

(١) المكنون: المصون.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ١٧- ٢٤.

(٣) الصحاف: جمع صحفة، وهو وعاء الأكل الكبير.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٧١.

(٥) سوق الكساد: التي لم تحظ بالرواج، ولم ينفق ما فيها لقلة الرغبة فيه.

(٦) السوم: عرض السلعة على البيع. ومعنى الكلام أن سوق الجنة في الدنيا كاسدة. لا يسأل عنها كثير من الناس. يقال: استام المشتري السلعة: أراد شراءها ومعرفة ثمنها، واستام البائع غالي وطلب سعراً عالياً. وفي الأصل (أسام) وما أثبتناه أولى.

(٧) صدف: أعرض.

(٨) القدوس: من أسماء الله الحسنى. ومعناه المنزه عن كل نقص وعيب.

(٩) القلائد: جمع قلادة، وهي ما يجعل حول العنق من حلي ونحوه.

(١٠) في الأصل (الآيات) وهو خطأ، وما أثبتناه هو الصحيح.

الناظر زاده إيماناً، وجلى عليه الجنة حتى كأنه يشاهدها عياناً، فهو مثير ساكن العزمات إلى روضات الجنات، وباعث الهمم العليات، إلى العيش الهنيِّ في تلك الغرفات.

وسميته "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" فإنه اسم يطابق مسماه، ولفظ يوافق معناه، والله يعمل ما قصدت، وما بجمعه أردت؛ فهو عند لسان كل عبد وقلبه، وهو المطلع على نيته، وكسبه، وكان جل المقصود منه بشارة أهل السنة، بما أعد الله لهم في الجنة، فإنهم المستحقون للبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونعم الله عليهم باطنة وظاهرة، وهم أولياء الرسول، وحزبه، ومن خرج عن سنته فهم أعداؤه وحربه. لا تأخذهم في نصرة سنته ملامة اللوام، ولا يتركون ما صح عنه لقول أحد من الأنام، والسنة أجل في صدورهم من أن يقدموا عليها رأياً فقهياً، أو بحثاً جدلياً، أو خيالاً صوفياً، أو تناقضاً كلامياً، أو قياساً فلسفياً، أو حكماً سياسياً، فمن قدم عليها شيئاً من ذلك، فباب الصواب عليه مسدود، وهو عن طريق الرشاد مصدود"[1].

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ٢٧-٣٣، وما ذكرناه من تفسير للكلمات نقلناه من تحقيق المحققين للكتاب.

الحديث رقم (١٧٢٥)

١٧٢٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ، فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ، فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ، فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ما تُكَافِئُونَهُ (به) [1] فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَد كَافَأْتُمُوهُ)).

حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي[2] بأسانيد الصحيحين.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: سبقت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

استعاذ بالله: استجار به ولاذ به[3].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجده يتكون من خمس جمل لغوية... تتناسق في مبناها، وتتآلف في معناها؛ حيث تُصاغ الجمل كلها في قالب الشرط والجواب، وأداة الشرط في الجمل الأربع الأولى "مَن"، وأما في الجملة الأخيرة فالأداة "إن"؛ لأنها تستقل في معناها عن بقية الجمل، ولكنها متممة لها، ولأن الجمل التي تصدرتها "من"، تعرض لمواقف حياتية لأي مسلم تضطره الحاجة إلى الاستعانة والاستعاذة بالله، وطلب النصرة والحماية، أو السؤال بدافع الفاقة والاستعانة بالله في ذلك، وقد تكون المواقف ليست عن ضعف أو فاقة؛ وإنما تنبع من الرغبة في التآخي والصلة والمودة، فيدعو أخاه في الإسلام أو يهدي إليه معروفاً.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند أبي داود، ولا عند النسائي.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) واللفظ له، والنسائي في المجتبى (٢٥٦٧)، وفي الكبرى (٢٣٥٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٣٤٠٨)، وقال الحاكم (٤١٢/١): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. أورده المنذري في ترغيبه (١٢٤٨).

(٣) النهاية في (ع و ذ).

وفعل الشرط في الجمل الأربع يوحي بالتحقق والإنجاز؛ حيث صيغ في قالب الفعل الماضي، والماضي يدل على حدث قد وقع في الزمن الذي انقضى أو مضى؛ فالاستعاذة قد طُلبت، والسؤال قد وُجد، والدعوة قد صدرت، والمعروف قد صُنع.

وكلها مقدمات في أسلوب الشرط، يجب على من قُدمت إليه أن يجيب عليها، ولذلك جاء جواب الشرط متوائماً ومتناسقاً في صيغته مع هذه المقدمات، وصيغت كل أفعال الجواب في صيغة الأمر؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "فأعيذوه، "فأعطوه"، "فأجيبوه"، "فكافئوه"، والجواب يقترن في الجمل الأربع، وكذلك الجملة الخامسة، بواو الجماعة؛ لأن الأمر موجه من رسول الله إلى الأمة كلها، فهو منهج الأمة كلها، وليس منهجاً لفرد واحد، ولا منهج زمن محدد، أو بيئة معينة؛ وإنما منهج الأمة الإسلامية كلها.

ولنتأمل الإيقاع الصوتي في نهاية كل جملة؛ حيث تختم بواو الجماعة والضمير المفرد العائد على الفرد المسلم... هذا الإيقاع الصوتي مع التوازن الصوتي والتركيب في الجمل، مع التناسق في بناء العبارات، يوحي بضرورة تماسك الأمة وتفاعلها، وتناسقها وتعاونها على البر والتقوى، وأن تكون كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، والله أعلم.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يأتي:

١- كراهية رد السائل بالله تعالى[١] وذلك للحديث، اللهم إلا إذا سأل شيئاً قبيحاً، أو إلا إذا علم عدم حاجته للسؤال، وإنما كان سؤاله للتكثير[٢]، فلا يكره رده، وكذا إذا ألح السائل في المسألة حتى أضجر المسؤول[٣].

---

(١) حاشية رد المحتار ٣٩٧/٦، ومواهب الجليل ٢٦٣/٣، وروضة الطالبين ٤/١١، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٣١٢/٤، المغني لابن قدامة ٤٢٣/٩، ومنار السبيل ٢٥/٢.

(٢) رد المحتار على الدر المختار ٣٩٧/٦.

(٣) سبل السلام ١٧٠/٤.

٢- وجوب إعاذة المستعيذ بالله، وإجابة الداعي ما لم يكن هناك مانع شرعي[١].

٣- وجوب مكافأة المحسن كما أحسن قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٣].

فإن لم يجد ما يكافئه به فليدع له، بأن يقول: "جزاك الله خيراً"[٤] ونحو ذلك، لقول رسول الله ﷺ ((من صنع إليه معروفاً فقال لفاعله جزاك الله خيراً، فقد أبلغ الثناء))[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تعظيم اسم الله تعالى بأن نعيذ من استعاذ به ونعطي من سأل به.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إجابة الدعوة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: شكر من صنع معروفاً.

رابعاً: من أهداف الدعوة: نشر تعظيم الله في القلوب.

خامساً: من أهداف الدعوة: تأصيل خلق الشكر بين المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تعظيم اسم الله تعالى بأن نعيذ من استعاذ به ونعطي من سأل به:

هذا واضح من قوله ﷺ: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه"، قال الطيبي: "قال المظهر: "استعاذ": إذا طلب أحد من أحد أن يدفع عنه شراً و"أعاذه" إذا دفع عنه الشر الذي يطلب منه دفعه. يعني إذا طلب أحد منكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله، مثل قولك: يافلان بالله عليك أن تدفع عني شر فلان وإيذائه، أو

---

(١) عون المعبود ٦١/٥، وسبل السلام ١٧٠/٤.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٣) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٤) عون المعبود ٦١/٥.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٠٣٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٥٧).

احفظني من شر فلان – فأجيبوه، واحفظوه، لتعظيم اسم الله. أقول (أى الطيبي): قد جعل متعلق "استعاذ" محذوفاً و "بالله" حالاً، أى من استعاذ بكم متوكلاً بالله ومستعطفاً به، ويمكن أن يكون "بالله" صلة "استعاذ" والمعنى: من استعاذ بالله فلا تتعرضوا له، بل أعيذوه وادفعوا عنه الشر، فوضع "أعيذوه" موضعه مبالغة"[1]. وقال السندي: "حاصله من توسل بالله في شيء ينبغي أن لا يحرم ما أمكن"[2]. وقيد ابن عثيمين هذه الإعاذة بألا تكون في حق واجب، فقال: "إذا استعاذ أحد بالله منك فأعذه، إلا إذا استعاذ عن حق واجب، فإن الله لا يعيذه، لو أنه كان مطلوباً لك فسألته حقك قلت: أعطني حقي. قال: أعوذ بالله منك، فهنا لا تعذه، لأن الله تعالى لا يعيذ عاصياً، لكن إذا كان الأمر ليس محرماً، فاستعاذ بالله منك، فأعذه تعظيماً لله عز وجل"[3]. وكذلك من سأل بالله فيعطى ما سأل "تعظيماً لاسم الله وشفقة على حق الله"[4]. وقال ابن عثيمين: "لو سألك سائل فقال: أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا، أعطه. إلا إذا سألك شيئاً محرماً فلا تعطه. مثلاً أن يسألك يقول لك: أسألك بالله أن تخبرني ماذا تصنع مع أهلك مثلاً. هذا لا يجوز أن تخبره. بل وجهه وانصحه وقل: هذا تدخل فيما لا يعنيك، وقد قال النبي ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[5]. وكذلك لو سأل محرماً ولو سألك بالله، لا تعطه. لو قال: أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا ليشتري به دخاناً فلا تعطه. لأنه سألك؛ ليستعين به على شيء محرم. فالمهم أن من سألك بالله فأعطه ما لم يكن على شيء محرم، وكذلك ما لم يكن عليك ضرر، فإن كان عليك ضرر فلا تعطه، لأن النبي ﷺ، قال: "لا ضرر

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة ١٢٧/٤.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي ٨٧/٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٨٠/٢.

(٤) عون المعبود ٧٦١.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وابن ماجه ٣٩٣٦، وابن حبان ٢٢٩، وقال محقق صحيح ابن حبان: حديث حسن لغيره.

ولا ضرار"[١]،[٢].

وقال عبدالله البسام عما يؤخذ من الحديث: "إن من التجأ إليكم واعتصم بكم في أمر من الأمور التي حزبته والعظائم التي ألجأته فأعيذوه وكونوا سنداً له وعضداً له في كربته ممن ظلمه أو تعدى عليه مادام أنه مع حق في طلب النجاة والحماية، وقد دخل عليكم هذا المدخل. فقد قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما»[٣].

كذلك فإن من سألكم شيئاً وعزز سؤاله بالله تعالى أن تعطوه سؤاله فأعطوه ما طلب؛ إعظاماً للسؤال بالله تعالى"[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إجابة الدعوة:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ومن دعاكم فأجيبوه"، قال ابن عثيمين: "من دعاك إلى بيته إلى وليمة قليلة أو كثيرة فأجبه، لكن هذا مشروط بما إذا لم يكن عليك ضرر فلا تجبه، أو كان هذا الرجل ممن يهجر فلا تجبه أيضاً أو كان هذا الرجل في ماله حرام، ورأيت أنه من المصلحة ألا تجيبه، لعله يقلع عن الحرام فلا تجبه. أما في وليمة العرس فقد قال النبي ﷺ، "من لم يجب فقد عصى الله ورسوله"[٥]، إذا دعاك الزوج لوليمة العرس فأجبه ما لم يكن عليك ضرر أو يكن هناك منكر، فإن كان عليك ضرر فلا يلزمك إجابته، وإن كان هناك منكر فإن كنت تستطيع أن تغيره، فأجب وغير وإلا فلا تجب"[٦].

جاء في الموسوعة الفقهية: "ذهب جمهور الفقهاء إلى أن إجابة الدعوة في الأصل واجبة إن كانت إلى وليمة عرس وأما ما عداها فقد اختلف في الإجابة إليها، فقال

---

(١) أخرجه أحمد ٣١٣/١ رقم ٢٨٦٥، وقال محققو المسند: حسن ٥٥/٥ أ هـ. وقال النووي: له طرق يقوى بعضها بعضاً. انظر جامع العلوم والحكم، ٢/٢٠٧-٢١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٨٠/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٩٥.

(٤) توضيح الأحكام ٢٦٨/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٥١٧٧، ومسلم ١٤٣٢.

(٦) شرح رياض الصالحين ١٧٨١/٢.

الحنفية والشافعية والحنابلة ليست الإجابة إليها واجبة بل هى مستحبة إن لم يكن عذر أو مانع...، وسواء كانت بسبب كبناء أو ولادة أو ختان، أو غير ذلك، ما لم تكن من الداعي مكروهة كدعوة المأتم، وذلك لأن في إجابة الداعي تطييب نفسه وجبر قلبه"[١].

وقال الطيبي: "وأما الأعذار التي يسقط بها وجوب الإجابة وندبها فأن يكون في الطعام شبهة، أو يخص بها الأغنياء أو يكون هناك من يتأذى بحضوره، أولا يليق به مجالسته أو يدعوه لخوف شره أو لطمع في جاهه، أو لتعاونه على باطل وأن يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فرش حرير أو صور حيوان غير مفروشة، أو آنية ذهب أو فضة. ومن الأعذار أن يعتذر إلى الداعي فيتركه"[٢].

وقال عبدالله البسام: يستحب الدعاء من المدعو للداعي. ويكن الدعاء مناسباً للدعوة والمقام، ويظهر الفرح والغبطة للداعي، ويدخل السرور عليه بالأماني الطيبة والفأل الحسن، فهذا من بركة الحضور والاجتماع فليس الحضور هو مجرد الطعام والأكل، وإلا لما أمر الصائم بالإجابة، وإنما المراد معانيه الطيبة واجتماعه المبارك"[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: شكر من صنع معروفاً:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوا به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"، قال الطيبي: المعنى من أحسن إليكم أى إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا على ذلك فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى يحصل المثلية. ووجه المبالغة: أنه رأى من نفسه تقصيراً في المجازاة فأحالها إلى الله تعالى. ونعم المجازى هو. وقد جاء في حديث آخر"، من صنع إليه معروف فقال جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء"[٤])[٥]. وقال ابن عثيمين: "إذا صنع إليك أحد معروفاً

(١) الموسوعة الفقهية ٣٣٧/٢٠.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٢٩٥/٦. وانظر: سبل السلام للصنعاني ٦٤٩.

(٣) توضيح الأحكام ٥٠٣/٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٠٣٥، وابن حبان ٣٤١٣، وقال محقق صحيح ابن حبان: إسناده صحيح.

(٥) شرح الطيبي على المشكاة ١٢٧/٤.

إما بمعونة في شيء أو باستخدامك إياه في شيء من الأشياء أو غير ذلك، فكافئه، أعطه ما تظن أنه يكافئ معروفه. فإن لم تجد ما تكافئه أو كان ممن لا يحسن مكافأته، كالملك والوزير والرئيس وما أشبه ذلك، فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه"[١].

وقال عبدالله البسام: "فاعل المعروف ابتداءً له فضل ومنة على المسدى إليه ذلك المعروف، سواء أكان معروفاً مادياً أو معنوياً. لأن الابتداء بالإحسان يدل على نفس كريمة لصاحبه ومحبة للخير والإحسان. فمن حسن الأدب وكمال المروءة وطيب المقابلة أن يكافئه المحسن إليه على إحسانه ومعروفه، وأن لا يهمله ويتركه، فإنه من الجفاء وبلادة الطبع. وإذا لم يجد المحسن إليه من الأشياء المادية ما يكافئ بها المحسن فليدع له ومن أفضل ألفاظ الدعاء والشكر قوله: "جزاك الله خيراً" فإن هذا أبلغ الثناء، ذلك أن الجزاء إذا كان من الله تعالى كان عظيماً، فإن جزاء الله وعطاءه لا نهاية له، ولفظ الخير كلمة طيبة تشمل خيري الدنيا والآخرة"[٢].

رابعاً- من أهداف الدعوة: نشر تعظيم الله في القلوب:

هذا واضح من قوله ﷺ: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه"، وقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنَّ ابنةَ الجَونِ لما أُدخِلَت على رسولِ الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذُ باللَّهِ منك، فقال لها: لقد عُذتِ بعظيم، الحَقي بأهلكِ»[٣]. قال ابن الأثير: "أى لقد لجأت إلى ملجأ ولذت بملاذ"[٤].

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٥]، قال ابن كثير:

(١) شرح رياض الصالحين ٢/ ١٧٨٠.

(٢) توضيح الأحكام ٦/ ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢٥٤.

(٤) النهاية في (ع و ذ).

(٥) سورة الزمر، آية: ٦٧.

"يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته"(١).

ومن أسماء الله "العظيم" قال الطيبي: "أصله من عظم الشيء إذا كبر عظمه ثم استعير لكل جسم كبير المقدار كبراً يملأ العين كالجمل والفيل، أو كبراً يمنع إحاطة البصر بجميع أقطاره كالأرض والسماء ثم لكل شيء كبير القدر عالي الرتبة على هذا القياس، والعظيم المطلق البالغ إلى أقصى مراتب العظمة: هو الذي لا يتصوره عقل، ولا يحيط بكنهه بصيرة، وهو الله تعالى، فيرجع حاصل الاسم إلى التنزيه والتعالي عن إحاطة العقول بكنة ذاته، وحظ العبد منه أن يستحقر نفسه ويذلها للإقبال على الله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه والاجتهاد في اقتناص مراضيه"(٢).

وقال ابن القيم: "ما يجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات وموجود وشيء ... الخامس: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو المجيد العظيم الصمد فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ... والعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال"(٣).

خامساً- من أهداف الدعوة: تأصيل خلق الشكر بين المدعوين:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".

قال العظيم آبادي: "أي أحسن إليكم إحساناً قولياً أو فعلياً (فكافئوه)، من المكافأة أى أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم لقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا

(١) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٧.
(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٣٦/٥- ٣٧.
(٣) بدائع الفوائد ١٥٩/١-١٦٠.

ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[١]، ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[٢]،[٣].

وقد قال رسول الله ﷺ: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"[٤].

قال الطيبي: "قال البيضاوي: هذا لأن شكره تعالى إنما يتم بمطاوعته وامتثال أمره، وإن مما أمر به شكر الناس الذين هم وسائط في إيصال نعم الله إليه، فمن لم يطاوعه فيه لم يكن مؤدياً شكر أنعمه، أو لأن من أخل بشكر من أسدى إليه نعمة من الناس مع ما يُرى من حرصه على حب الثناء والشكر على النعماء، وتأذيه بالإعراض والكفران، كان أولى بأن يتهاون في شكر من يستوي عليه الشكر والكفران لوهو الله سبحانه وتعالى فلا يضره كفر، ولا ينفعه شكر، تعالى عن ذلك علواً كبيراً"[٥].

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٣) عون المعبود ٧٦١.

(٤) أخرجه الترمذي ١٩٥٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٩٢).

(٥) شرح الطيبي على المشكاة ٦/١٨٥-١٨٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على تعظيم الله وصفاته:

من المضامين التربوية في هذا الباب تعظيم الله وصفاته، فلا يسأل بوجه الله تعالى ما هو حقير من حوائج الدنيا، وإنما يسأل به ما هو غاية المطالب، وهو الجنة، أو ما هو وسيلة إلى الجنة مما يقرب إليها من قول أو عمل(١).

فعلى المربي توجيهُ المسلم كبيرًا أو صغيرًا إلى ذلك فيقول له: (لا تسأل أحدًا من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة، فإذا لا يُسْأَلون بوجه الله مطلقًا.

فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئًا من أمور الدنيا؛ فلا تسأل بوجه الله؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا، فأمور الآخرة تسأل بوجه الله؛ كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجني من النار والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾(٢) قال: هذه أهون أو أيسر(٣))(٤).

كما أن على المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى أن من استعاذ بالله عليهم أن يعيذوه ومن سأل بالله فعليهم أن يعطوه.

فمن احترام الله وتعظيمه أن لا يرد من سأل بالله، لأن منع من سأل بالله يدل على عدم إجلال الله، وفي إعطائه دليل على تعظيم الله والتقرب إليه سبحانه(٥).

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ص ١٦٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري ٤٦٢٨.

(٤) القول المفيد، ابن عثيمين، ٢/٣٥٦-٣٥٧.

(٥) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص ١٦٧، ١٦٨.

فينبغي تربية المسلمين وخاصة الناشئة على الاعتراف بعظيم قدرة الله وعظيم سلطانه، وقوته، وينطوي الاعتراف على تعظيم الله وإكباره وتقديسه، والشعور بالخضوع له والخشوع والخشية والخوف والالتجاء إليه، والطاعة لأمره، والرضى بحكمه، والتسليم له، والتفويض إليه[١].

ثانيًا - التربية الاجتماعية:

تهدف تعاليم الإسلام إلى بناء مجتمع تقوم علاقات أفراده على الحب والمودة والتآلف والرحمة، ويبعد عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء[٢].

ومن الأمور الاجتماعية التي تدعو إلى التواصل والتآلف والمحبة بين المسلمين إجابة الدعوة لذلك قال ﷺ: "من دعاكم، فأجيبوه".

فلقد حرص الإسلام على توثيق الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الفرد والمحيطين به، بما يحقق للفرد والجماعة الألفة والانسجام والتكيف والاستقرار من جهة، وتبادل المصلحة من جهة ثانية.

وقد شبه النبي ﷺ الكيان الاجتماعي بالجسد الواحد، الذي يتأثر بشكوى أحد أعضائه فقال: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ))[٣] وحتى تتحقق سلامة الكيان الاجتماعي، حدد الإسلام ما على الفرد والجماعة من حقوق وواجبات، إذ كل حق في الإسلام يقابله واجب، فوضح حقوق الوالدين وحقوق الأبناء وحقوق الأرحام، وحقوق الجوار، وحقوق المسلم في المجتمع عمومًا[٤].

تأكيدًا على استغناء الفرد عن بقية أفراد مجتمعه، وتوثيقًا للعلاقة الطيبة معهم، وقد حفلت التربية الإسلامية ببيان عدد من النصائح والتوجيهات التي تبين حقوق المسلم

---

(١) نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، محمد المبارك، ص ٦٨.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية، د. أكرم ضياء العمري، ص ٢٠٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦ واللفظ له.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٣٨.

على المسلم وواجباته في الوقت ذاته كأن تسلم عليه إذ لقيته، وتجبه إذا دعاك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتعوده إذا مرض، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. والإسلام ملئ بفضائل التعامل مع الناس، كالتعاون والتواضع وعدم التكبر عليهم، والبعد عن النميمة بينهم، وعدم هجرانهم فوق ثلاث، والعفو والصفح عنهم، والإحسان إليهم قدر المستطاع واحترام الكبار والرحمة بالصغار، والبشاشة عند اللقاء، والوفاء بالوعد معهم... إلى غير ذلك من فضائل، تزرع المحبة بين أفراد المجتمع، وتوثق عرى التماسك الاجتماعي فيما بينهم"[1].

ثالثًا - التربية على مكافأة المحسن، أو رد الجميل:

إن مكافأة المحسن خلق فطري ينشأ من خلق الوفاء، إذ أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، والمؤمن المستقيم لا يكون شاكرًا لله حتى يكون معترفًا بالفضل لأهل الفضل، وفي ذلك يقول ﷺ: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))[2] فإن أخلاق المؤمن لا تكتمل بحسن علاقته بربه فحسب وإنما لابد أن يكون على نفس المستوى من الأخلاق في التعامل مع الناس"[3] ولهذا قال ﷺ "ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".

فمن واجب المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى الوفاء وعدم نكران الجميل وشكر الناس لأن من لا يشكرهم لا يشكر الله، فمن صنع له معروفًا قابله بالشكر والمكافأة المادية عليه فإن عجز عن المكافأة دعا له بالخير بقوله جزاك الله خيرًا "[4].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ معروفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِه جَزَاكَ الله خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ))[5].



(١) المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨١١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٢٦).

(٣) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا، محمود محمد الخزندار، ص ٤٩٥.

(٤) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٠٩/٣.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٠٣٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٥٧).

٣٢٠- باب تحريم قوله: شاهان شاه للسلطان وغيره

لأن معناه: ملك الملوك، ولا يوصف بذلك غير الله سبحانه وتعالى

الحديث رقم (١٧٢٦)

١٧٢٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ عز وجل رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ)). متفق عليه.

قال سُفيانُ بن عُيَيْنَةَ: ((مَلِكُ الأَمْلاَكِ)) مِثْلُ: شَاهانْ شَاهٍ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أخنع اسم: أشد ذلاً وصغاراً يوم القيامة[2].

شاهنشاه: أي ملك الملوك أو الملك الأعظم (فارسية)[3].

الشرح الأدبي

إن الحق سبحانه وتعالى جلت قدرته، وتعالت عظمته، مالك الملك، بيده مقاليد الأمور، وله الأسماء الحسنى، وهو وحده لا شريك له، الخالق البارئ المصور، له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

والحديث الشريف ينعي على هؤلاء الذين يحاولون أن يَدَّعوا لأنفسهم ألقاباً وأسماء لا تكون إلا لله عز وجل: مثل "ملك الملوك"، أو ما يقوله ملوك العجم: "شاهنشاه"؛ لأن "شاه" بمعنى الملك، و"شاهان" جمع: شاه، وقد قدم المضاف إليه على المضاف تبعاً لقاعدة اللغوية عند العجم، ومعناها: "ملك الأملاك".

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣/٢٠) واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٤٦.

(٣) الوسيط في (ش و هـ).

وهذا الاسم أو اللقب إذا كان مصدر عزة لصاحبه الموهوم المدعي؛ فإنه أذل اسم عند الله عز وجل؛ لأنه ادِّعاء وكذب، وتشبه بالذات الإلهية، وهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولغة الحديث الشريف، تفصح عن معناه والمراد منه؛ فالحديث مكون من جملة واحدة، مكونة من "إن الناسخة" واسمها، وخبرها، وهي للتأكيد؛ حيث أكد رسول الله ﷺ رفضه لهذا الادعاء، ووصف صاحبه بأنه جاء بالذلة لنفسه بسبب هذا الاسم.

ولفظ "أخنع" يوحي بالاستهجان والكراهة؛ لأن اللفظ غريب، واجتماع حَرْفَي العين والخاء في كلمة واحدة، يؤدي إلى ثقلها وعدم تحمل الأُذُن لها، وهي كذلك في دلالتها ونطقها، و"إنَّ" أدت وظيفتها النحوية، وهي من الحروف الناسخة، التي تنسخ عمل المبتدأ أو الخبر وحركتهما الإعرابية، وكذلك أوحت بأن هذا الذي ادَّعى صفة لذاته لا يستحقها، فادعاؤه منسوخ، ولقبه ممسوخ، واختيار قوله "عز وجل" بعد لفظ الجلالة: إيحاء بأنه لا عزة إلا الله؛ فهو ذو العز والجلال، والكبرياء والكمال، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: تحريم التسمي بملك الأملاك، سواء بالعربية أو بالأعجمية، وذلك لورود الوعيد الشديد عليه، ودلالته على أن غضب الله تعالى على المسمى به أشد من غضبه على غيره[2].

وذلك لأن المسمى بهذا الاسم قد انتهى إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق، إذ لا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا على الله تعالى فعوقب على ذلك من الإذلال، والاسترذال بما لم يعاقب به أحد من المخلوقين[3].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٧٨.

(٢) المجموع للنووي ٣٢٨/٨، وفتح الباري ٥٩٠/١٠، وشرح صحيح مسلم ١٢٢/١٤، وطرح التثريب ٤٨١/٨.

(٣) طرح التثريب ٤٧٥/٨.

ويلحق بذلك التسمي بأسماء الله تعالى المختصة به كالرحمن، والقدوس والمهيمن، وخالق الخلق، ونحو ذلك[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهى عن التسمي أو الوصف بملك الأملاك ونحوه من الألقاب والمسميات.

ثانياً: من آداب المدعو: التزام الأدب في كل شيء.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التسمي أو الوصف بملك الأملاك ونحوه من الألقاب والمسميات:

هذا واضح من الحديث: "إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ عز وجل رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ"، وفي رواية عند البخاري: ((أخنى الأسماءِ يومَ القيامةِ عندَ الله رجلٌ تَسمَّى ملك الأملاك))[٢]. وفي رواية عند مسلم "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الملاك، لا ملك إلا الله"[٣].

قال ابن حجر: "قوله: "أخنى": من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور، وهو الفحش في القول، ويحتمل أن يكون من قولهم أخنى عليه الدهر أي أهلكه، ووقع عند المستملي "أخنع" بعين مهملة وهو المشهور في رواية سفيان بن عيينة وهو من الخنوع وهو الذل، وقد فسره بذلك الحميدي شيخ البخاري عقب روايته له عن سفيان قال: "أخنع: أذل" وأخرج مسلم[٤] عن أحمد بن حنبل قال: سألت أبا عمرو الشيباني، يعني إسحاق اللغوي عن أخنع فقال: أوضع، قال عياض[٥]: معناه أنه أشد الأسماء صغارا، وبنحو ذلك فسره أبو عبيد، والخانع الذليل وخنع الرجل ذل، قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٩٠، وطرح التثريب ٨/٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٠٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢١-٢١٤٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٠-٢١٤٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٧/١٨.

الأسماء كان من تسمى به أشد ذلا ، وقد فسر الخليل أخنع بأفجر فقال: الخنع الفجور، يقال أخنع الرجل إلى المرأة إذا دعاها للفجور، قلت: وهو قريب من معنى الخنا وهو الفحش، ووقع عند الترمذي[(١)] في آخر الحديث " أخنع: أقبح " وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ " أنخع " بتقديم النون على المعجمة وهو بمعنى أهلك لأن النخع الذبح والقتل الشديد، وتقدم أن في رواية همام " أغيظ " بغين وظاء معجمتين، ويؤيده " اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك " أخرجه الطبراني[(٢)])[(٣)].

وقال النووي: "واعلم أن التسمي بهذا الاسم (ملك الأملاك) حرام، وكذلك التسمي بأسماء الله تعالى المختصة به كالرحمن والقدوس والمهيمن وخالق الخلق ونحوها"[(٤)].

وقال ابن حجر: "واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد. ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء. وقيل: يلتحق به أيضاً من تسمى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار"[(٥)].

وقال الطيبي: "وقوله "لا ملك" استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية. فنفى جنس الملاك بالكلية، لأن المالك الحقيقي ليس إلا هو، ومالكية الغير عارية مستردة إلى مالك الملوك. فمن تسمى بهذا الاسم نازع الله في رداء كبريائه واستنكف أن يكون عبداً لله فيكون له الخزى والنكال والإلقاء في النار، وتحريره أن صفة المالكية مختصة بالله تعالى لا تتجاوز إلى غيره. والمملوكية صفة العبد لا يتجاوز عنها إلى غيرها، ولذلك كان أحب الأسماء إلى الله تعالى: عبدالله وعبدالرحمن[(٦)]، ونحوها. لأن

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٣٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢١١٣ ، وقال الهيثمي في المجمع ٨/٥٠ وفيه أبو شيبة: إبراهيم بن عثمان وهو متروك.

(٣) فتح الباري ١٠/٥٨٩، .

(٤) شرح صحيح مسلم ٧/١٤/١٢٧-١٢٨، .

(٥) فتح الباري ١٠/٥٨٩، .

(٦) أخرجه مسلم ٢١٣٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: "إن أحب أسمائكم إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن".

من تسمى بها يكون على بصيرة، لأنه عرف قدره ولم يتعد طوره، وذلك أنه ليس بين الله وبين العبد نسبة إلا العبودية. وما تحقق أحد هذه النسبة حق تحقيقه إلا سيد المرسلين صلوات الله عليه، فلذلك وصفه الله تعالى في مقام القرب وبساط الأنس بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1]، ورفع روح الله عيسى عليه السلام عن نفسه التهمة بالربوبية بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[2]، ونهى أن يقول أحد لمملوكه "عبيدي"[3]، لأن العبودية غاية التذلل لا يستحقها إلا من له غاية العزة والكبرياء. وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل"[4].

وقال القرطبي: "وحاصل هذا الحديث أن المسمى بهذا الاسم قد انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا ينبغي لمخلوق، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق، إذ لا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا على الله تعالى، فعوقب على ذلك من الإذلال والإحساس والاسترذال بما لم يعاقب به أحد من المخلوقين"[5].

ثانياً- من آداب المدعو: التزام الأدب في كل شيء:

هذا يفهم من الحديث: قال ابن حجر "قال ابن أبي جمرة: وفي الحديث مشروعية الأدب في كل شيء، لأن الزجر عن ملك الملاك والوعيد عليه يقتضي المنع منه مطلقاً. سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض أم على بعضها. سواء كان محقاً في ذلك أم مبطلاً، مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً ومن

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١.

(٢) سورة مريم، آية: ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥٥٢، ومسلم ٢٢٤٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ. وَلَـٰكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي». واللفظ لمسلم.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ٧٠/٩.

(٥) المفهم ٤٥٥/٥.

قصده وكان فيه كاذباً"[١].

ومن هذا القبيل حديث: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمُ: اسْقِ رَبَّكَ. أَطْعِمْ رَبَّكَ. وَضِّئْ رَبَّكَ. وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: رَبِّي. وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، مَوْلاَيَ، وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، فَتَاتِي، غُلاَمِي»[٢]. وفي رواية عند مسلم: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ. وَلَـٰكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»[٣]. وفي رواية عند مسلم أيضاً: «لا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: عَبْدِي، فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ اللّهِ، وَلَـٰكِنْ لِيَقُلْ: فَتَايَ. وَلا يَقُلِ العَبْدُ: رَبِي، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي»[٤].

قال النووي: " مقصود الأحاديث شيئان: أحدهما: نهي المملوك أن يقول لسيده ربي لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ في أشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها أو ربها[٥]. فالجواب من وجهين: أحدهما أن الحديث الثاني لبيان الجواز وأن النهي في الأول للأدب وكراهة التنزيه لا للتحريم. والثاني أن المراد النهي عن الإكثار من استعمال هذه اللفظة واتخاذها عادة شائعة ولم ينه عن إطلاقها في نادر من الأحوال ...، والثاني: يكره للسيد أن يقول لمملوكه: عبدي، وأمتي بل يقول: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه. وقد بين النبي ﷺ العلة في ذلك فقال: "كلكم عبيد الله"، فنهى عن التطاول في اللفظ كما نهى عن التطاول في الأفعال، في إسبال الإزار وغيره ... والظاهر أن المراد بالنهي من استعماله على جهة التعاظم والارتفاع، لا للوصف والتعريف"[٦]...، وقال ابن حجر: "أرشد ﷺ إلى العلة في ذلك لأن حقيقة العبودية إنما

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٩١، .

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٥٢، ومسلم ١٥-٢٢٤٩.

(٣) أخرجه مسلم ١٣-٢٢٤٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٤-٢٢٤٩.

(٥) أخرجه مسلم ٨.

(٦) شرح صحيح مسلم ٨/١٥/ ٧-٨، .

يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه، قال الخطابي: المعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع لله عز وجل وهو الذي يليق بالمربوب"[١].

وقال القرطبي: "ومقصود الشرع الإرشاد إلى تعرف مواقع الألفاظ، واستعمال الأولى منها والأحسن ما أمكن من غير إيجاب ذلك، واجتناب المشترك من الألفاظ وما يستكره منها، وما لا تواضع فيه، كعبدي وأمتي، من غير تحريم ذلك، ولا تحريجه"[٢].

(١) فتح الباري ١٨٠/٥ .

(٢) المفهم ٥٥٥/٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية على احترام أسماء الله وصفاته:

من المضامين التربوية في هذا الباب التربية على احترام أسماء الله وصفاته، فلا يسمى باسم من أسماء الله أحد، ولا يوصف بصفة من صفاته، فلا يجوز أن يسمى أحد بملك الملوك لأن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله - سبحانه وتعالى - ؛ فالله هو القاضي فوق كل قاضي، وهو الذي له الحكم، ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن[1].

فعلى المربي أن يبين لمن يقوم بتربيتهم أن أوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله - عز وجل - ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأهين، ولهذا كان أحب اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع مثل عبدالله وعبدالرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم؛ فالله له الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله[2].

والواجب احترام أسمائه من أن يسمى بها غيره، وذلك من تحقيق التوحيد؛ فعن أبي شريح: أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال النبي ﷺ: ((إِنَّ الله هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟ فقالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ مَا أَحْسَنَ هذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قَالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله. قالَ: فَمنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قالَ قُلْتُ: شُرَيْحٌ قالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ))[3].

---

(١) القول المفيد، ابن عثيمين، ٢/٢٤٩.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٥٢، ٢٥٣.

(٣) أخرجه أبو داو ٤٩٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٤٥).

فغير النبي ﷺ كنيته من أجل احترام أسماء الله؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾(١) وهو الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم في الدنيا بين خلقه بوحيه الذي أنزله على أنبيائه، ويحكم بينهم يوم القيامة بعلمه فيما اختلفوا فيه، وينصف المظلوم من الظالم.

وفي هذا الحديث دليل على المنع من التسمي بأسماء الله تعالى المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام؛ كالتكني بأبي الحكم ونحوه(٢).

فعلى المربي تربية الناشئة وتوجيههم إلى وجوب الاعتقاد بانفراد الرب - جل جلاله - بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال والجمال، التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها، الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله(٣).



(١) سورة الرعد، آية: ٤١.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٣) القول السديد، السعدي، ص ١١، ١٢ نقلًا عن الموسوعة الأم في تربية الأولاد، د. أحمد مصطفى متولي، ٨٠/١.

٣٢١- باب النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسَيِّد ونحوه

الحديث رقم (١٧٢٧)

١٧٢٧- عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: ((لاَ تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإنَّهُ إنْ يَكُ سَيِّداً فَقَدْ اسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عز وجل)). رواه أبو داود[1] بإسنادٍ صحيح.

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

أسخطتم: أغضبتُم[2].

الشرح الأدبي

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والمنافق نموذج اجتماعي مرفوض؛ لأنه إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف، فمسيرته بين الناس غير سوية، وسيرته غير مرضية، وكيف يقال لمن أصابته هذه الآفات السلوكية: إنه سيد، وهو يصر على معاصيه، فهو والفاسق سواء، ولا يخاطب إلا بما يستحق من الألقاب الدنيا؛ لأنه جاهر ربه بالعصيان.

والحديث يبدأ بالنهي الصريح الحاسم الجازم، الموجه إلى الأمة كلها في كل زمان وكل مكان. "لا تقولوا" أي: لا تخاطبوه ولا تصفوه بأنه سيد؛ لأن هذه الصفة لا تطلق إلا على الأشراف الأوفياء، الصادقين المخلصين، الذين أخلصوا دينهم لله، ولذلك علل

---

(١) برقم (٤٩٧٧). وقال الحاكم (٣١١/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال المنذري في ترغيبه (٥٤٧/٣): رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣٠٧٠): رواه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٠٩).

(٢) اللسان في (س خ ط).

رسول الله ﷺ هذا النهي الواضح الصريح الواجب تنفيذه، واقترن هذا التعليل بالتأكيد في قوله: "فإنه"، ثم صاغ العلة في أسلوب الشرط والجواب، والشرط هو: إضفاء السيادة على هذا المنافق زوراً، وجواب الشرط: هو سخط الله عز وجل على هذا المنافق، وعلى من جعله سيداً، ولنتأمل هذا التهديد وذلك الوعيد في قول المصطفى ﷺ: "فإنه إن يك سيداً، فقد أسخطتم ربكم عز وجل".

وتأمل اختيار أداة الشرط وهي "إن"؛ حيث تفيد عدم التحقق، وتدل على الشك؛ لأن سيادته المزعومة منكرة، وأفضليته مهدرة، وقوله: "قد" يزيد الأمر تأكيداً وتحقيقاً، وقوله: "ربكم"، يذكر بالربوبية، التي تحيط بالأكوان كلها قدرة وعلماً وفضلاً، وكذلك قوله: "عز وجل"؛ ينبه إلى أنه لا عزيز إلا الله، ولا سيادة إلا لله، وفي تصوير ملامح المنافق الشائهة، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل في ديوانه (قاب قوسين)، من قصيدته "صحراء العجائب":

ووجه به وجهان: وجهٌ مُقَنَّعٌ ... بآخر مدسوس بزِيِّ العناكب!
برت آيةُ البهتان جلدةَ وجهه ... مطايا رياءٍ لا تضيق براكب!
إذا قيل: هذا الصخر ماءٌ، رأيته ... يردد للينبوع شوق السَّباسب!
وإن قيل: هذا الماء نارٌ، رأيته ... عليها مجوسيًّا عريق المذاهب!
وإن قيل: تلك النار فجرٌ، رأيته ... أذانَ مَصَلٍّ هزَّ سمع الكواكب!
أمانك ربِّي منه؛ هذا منافق ... أخفُّ لقاءً منه وجهُ المصائب
تَقوَّس واستخذى على الذل ظَهْرُه ... وكبَّر، لا لله؛ بل للرغائب![1]

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة تعظيم المنافق، والفاسق، بأن يقال له: يا سيد لأنه تعظيم من لا يستحق التعظيم، هذا إذا كان صاحب مالٍ ونحوه، أما إذا لم يكن كذلك كان هذا القول له كذباً ونفاقاً.

(١) انظر: شرح القصيدة كلها بكتاب شعراء وتجارب، تاليف د. صابر عبدالدايم.

ولأننا إذا أطلقنا عليه هذا اللقب - مع نفاقه وفسقه- فحالنا دون حاله، والله سبحانه وتعالى لا يرضى لنا ذلك[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيدٍ ونحوه.

ثانياً: من آداب المدعو: ألا يتودد للفاسق.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيدٍ ونحوه:

وهذا واضح من الحديث: (لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل)، وجاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير بلفظ: (لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن كان سيدكم وهو منافق فحالكم دون حاله، والله لا يرضى لكم ذلك)[٢]، وقال الطيبي: "قوله: (إن يك سيداً) أي: إن يك سيداً لكم فيجب عليكم طاعته، فإذا أطعتموه فقد أسخطتم ربكم، أو لا تقولوا للمنافق سيداً، فإنكم إن قلتم ذلك فقد أسخطتم ربكم، فوضع الكون موضع القول تحقيقاً له"[٣]، وقال العظيم آبادي: "قوله: (فإنه إن يك سيداً)، أي: سيد قوم أو صاحب عبيد وإماء وأموال (فقد أسخطتم ربكم عز وجل)، أي: أغضبتموه، لأنه يكون تعظيماً له وهو ممن لا يستحق التعظيم، فكيف إن لم يكن سيداً بأحد من المعاني، فإنه يكون مع ذلك كذباً ونفاقاً"[٤].

وذلك لأن النفاق أمره عظيم، قال ابن رجب: "هو في الشرع ينقسم إلى سمين: أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلّه أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على

---

(١) عون المعبود ٢٢١/١٣، وأيضاً شرح الزرقاني على الموطأ ٥١٠/٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٤٥٢.

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٧٩/٩.

(٤) عون المعبود ٢١٣٩.

عهد النبي ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك"[١].

(ومن هنا فإن كلّ ما ذكر في القرآن من وعيد للكافرين يدخل فيه أهل النفاق الأكبر، لأن كفرهم اعتقادي حقيقي، ليس معه من الإيمان شيء، وحيث قرن الكفار بالمنافقين في وعيد، يراد بالكفار من كان كفرهم معلناً ظاهراً، وبالمنافقين أهل الكفر الباطن، أما أهل النفاق العملي الذي ليس معه نفاق اعتقاد - فلا يدخلون في وعيد الكافرين،وإنما هم من عصاة أهل الملة، وقد يطلق اسم النفاق من هذا النوع على من يرتكب خصلة من خصال النفاق)[٢].

ثانياً- من آداب المدعو: ألا يتودد للفاسق:

هذا واضح من الحديث، جاء في الموسوعة الفقهية: "اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز التودد للفاسق لأجل فسقه ولا الجلوس معه وهو يمارس شيئاً من المعاصي إيناساً ومجاراة له، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٣]، ولقول النبي ﷺ: ((لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِناً وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ))[٤]، وقوله ﷺ: ((الرجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))[٥].

كما أنه ورد النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيد ونحوه من الألقاب التي تدل على تعظيمه، لأن في ذلك تعظيم من أهانه الله تعالى، وقد نصّ المالكية والشافعية على أن الجلوس مع الفاسق إيناساً له يعد من صغائر الذنوب التي تغفر

---

(١) جامع العلوم والحكم ٤٨١/٢.

(٢) الموسوعة الفقهية ١٨/٤١ - ١٩.

(٣) سورة هود، آية: ١١٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٩٥، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٩٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣٧٨، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٩٣٧).

بالحسنات"[١].

وقال الزمخشري في قوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)، قال: "النهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم"[٢].

ولا يتودد للفاسق نظراً لإقدامه على ما يغضب الله، (فالفسق يقع بالقليل من الذنوب إذا كانت كبائر، وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً، وقد يكون الفسق شركاً وقد يكون إثماً، وأكثر ما يقال: الفاسق لمن التزم الشرع وأقرّ به ثم أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه"[٣].

وقال القرافي عن الفرق بين قاعدة المداهنة المحرمة وقاعدة المداهنة التي لا تحرم وقد تجب: "اعلم أن معنى المداهنة معاملة الناس بما يحبون من القول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٤]، أي: هم يودون لو أثنيت على أحوالهم وعباداتهم، ويقولون لك مثل ذلك، فهذه مداهنة حرام، وكذلك من يشكر ظالماً على ظلمه، أو مبتدعاً على بدعته، أو مبطلاً على إبطاله وباطله، فهي مداهنة حرام، لأن ذلك وسيلة لتكثير الظلم والباطل من أهله.

وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان يقول: إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم[٥]، يريد الظلمة والفسقة الذين يُتقى شرهم، ويتبسم في وجوههم،

---

(١) الموسوعة الفقهية ١٤٤/٣٢ - ١٤٥.

(٢) الكشاف ص ٥٠٠، وانظر: محاسن التاويل للقاسمي ١٧٤/٩/٦ - ١٧٥.

(٣) الموسوعة الفقهية ١٤٠/٣٢.

(٤) سورة القلم، آية: ٩.

(٥) هذا مروي من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الأدب من (الجامع الصحيح) قبل الحديث (٦١٣١) ووصله الحافظ ابن حجر من غير ما طريق في (تغليق التعليق) ١٠٢/٥ - ١٠٤، ولا تخلو أسانيده من مقال. والكشر: ظهور الأسنان للضحك. وكاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه. أفاده ابن الأثير في (النهاية) في (ك ش ر). وقد أفدنا ذلك من محقق كتاب الفروق.

ويشكرون بالكلمات الحقة، فإن ما من أحد إلا وفيه صفة تشكر، ولو كان من أنحس الناس، فيقال له ذلك استكفاء لشره، فهذا قد يكون مباحاً، وقد يكون واجباً إن كان يتوصل به القائل لدفع ظلم محرم أو محرمات لا تندفع إلا بذلك القول، ويكون الحال يقتضي ذلك، وقد يكون مندوباً إن كان وسيلة لمندوب أو مندوبات، وقد يكون مكروهاً إن كان عن ضعف لا ضرورة تتقاضاه بل خور في الطبع، أو يكون وسيلة للوقوع في مكروه، فانقسمت المداهنة على هذه الأحكام الخمسة الشرعية، وظهر حينئذ الفرق بين المداهنة المحرمة وغير المحرمة وقد شاع بين الناس أن المداهنة كلها محرمة، وليس كذلك بل الأمر كما تقدم تقريره"[1].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي والتعليل:

وهذا واضح من قوله ﷺ: (لا تقولوا للمنافق سيد)، حيث نهى النبي ﷺ عن قول ذلك للمنافق، والنهي من الأساليب الدعوية المباشرة لطلب الترك والاجتناب.

والتعليل في قوله ﷺ: (فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل) ولا شك أن إتيان التعليل بعد النهي يزيد امتثال النهي ويؤكده ويقويه.

---

(١) الفروق ٣٤٨/٤ - ٣٤٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية بالتحذير من النفاق الاجتماعي:

من المضامين التربوية في هذا الباب: التحذير من النفاق الاجتماعي، وذلك لأن ديننا العظيم أمرنا بإنزال الناس منازلهم، ونظرًا لأن المنافقين أعداء لله وأعداء لدينه، فينبغي على المسلمين عدم تعظيم المنافقين ومن على شاكلتهم من الفاسقين والمبتدعين وغير الجديرين بالتقدير بأي تعظيم، فلا يطلق عليهم سيدٌ، لأن السيد يطلق على الذي يفوق قومه ويرتفع قدره عليهم، ويطلق على الزعيم ويطلق على الحليم الذي لا يستفزه غضبه، ويطلق على الكريم وعلى المالك وعلى الزوج[1].

فالتربية الإسلامية تدعو إلى إنزال الناس منازلهم وتحذر وتنهى عن رفع منزلة ومكانة المنافق لأنه عدو لله.

فينبغي على المجتمع المسلم ألا يجعل المنافقين محل تقدير واحترام لأن ذلك يخالف المعايير الإسلامية في النظر إلى الناس وتقديرهم وإنزالهم المنزلة التي تليق بهم.

إن التربية الإسلامية تهدف إلى البعد عن النفاق الاجتماعي لأجل المصلحة، والمنافع الخاصة مما عمت به البلوى في عدد من المجتمعات الإسلامية، حيث أضحت المصالح الخاصة هي المحرك الأساس في العلاقات بين الناس، وفي التقدير والتبجيل.

فمن خذلان الله للعبد أن يعمي بصيرته فيتقرب إلى المنافقين والفاسقين ومن على شاكلتهم من أجل مصلحة له عندهم بتعظيمهم ورفعهم عن مكانتهم التي وضعهم فيها الدين، فإن ذلك يغضب المولى عز وجل ويستوجب مقته وعقابه ولا يدري أن الله يحرمه ما رغبه ويحول بينه وبين أمنيته، فلا دنيا أصاب ولا دينًا أقام[2].

وتحذر التربية الإسلامية أفرادها من النفاق الاجتماعي، الذي يقوم على التمادح المذموم، الذي يقوم على إسناد الأعمال إلى غير أربابها، فإنه مجلبة الطغيان وباعث

---

(١) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/٣٤١، وبهجة الناظرين، سليم الهلالي ٣/٢١٠.

(٢) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٣٠٠، ٣٠١ بتصرف.

النفاق والذلة، ومحيي المهانة والحقارة وموجب المقت والسحت والكذب، لأن المادح يضطر إلى الإفراط وقوله غير الحق في شأن من لا يستحق إلا الإذلال، والاحتكار"[1].

فعلى المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى اجتناب النفاق الاجتماعي الذي يؤول بالمجتمع إلى النفاق والرياء، ورفعة المنافقين والفساق ومن على شاكلتهم مما أبغضهم الله وحقرهم الدين.



(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٥٢.

٣٢٢- باب كراهة سب الحمّى

الحديث رقم (١٧٢٨)

١٧٢٨- عن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ دخلَ على أُمِّ السَّائِبِ، أو أُمِّ المُسَيَّبِ فَقَالَ: ((مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ - أو: يَا أُمَّ المُسَيَّبِ - تُزَفْزِفِينَ؟)) قَالَتْ: الحُمَّى لاَ بَارَكَ اللهُ فِيهَا! فَقَالَ: ((لاَ تَسُبِّي الحُمَّى فَإنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

تُزَفْزِفين: تتحركين حركة سريعة ومعناه: ترتعد[٢].

الكير: الزق الذي ينفخ الحداد به النار[٣].

خبث الحديد: ما ينفيه الكير من الحديد ونحوه عند إحمائه وطرقه[٤].

الشرح الأدبي

ما أجمل صحبة رسول الله، وما أرق رسول الله ﷺ في معاملته لأصحابه وللنساء المسلمات؛ ويصور هذا الحديث مشهداً من مشاهد معاملة الرسول للمسلمين والمسلمات، حيث الرأفة بهم، والحرص عليهم؛ ويتجلى ذلك في هذا الحوار الهادئ المطمئن بين الرسول ﷺ وأم السائب، حين رآها ترتعد من الحمى، فسألها في رفق ومودة وعطف:

---

(١) برقم (٢٥٧٥/٥٣). أورده المنذري في ترغيبه (٥٠٢٩).

(٢) رياض الصالحين ٥٨٧.

(٣) النهاية والوسيط في (ك ي ر).

(٤) الوسيط في (خ ب ث).

"مالك يا أم السائب؟"، والسؤال هنا مباشر وصريح، وهو تواضع من رسول الله ﷺ، وإعطاء الأسوة الحسنة في عيادة المريض، والاهتمام بأموره كلها.

وإجابة أم المسيب فيها إخبار ممتزج بالاعتراض والضيق؛ لما تشعر به من ألم ووجع، وتُبدي اعتراضها في دعائها على "الحمى"؛ حيث قالت: "لا بارك الله فيها"، ويحمل هذا الدعاء دلالة الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، فإذا برسول الله ﷺ يقول في صيغة "النهي": "لا تسبي الحمى"، ثم يعلل ذلك تعليلاً، من شأنه أن يزرع الصبر في قلب ونفس أم المسيب؛ لأن المومن مطالب بالصبر والاحتساب، مع اتخاذ الأسباب للعلاج والوقاية من العلل والأوصاب.

وتأتي الصورة البلاغية لترسخ الصبر في نفس أم السائب، وفي نفس كل من ألمت به مصيبة؛ حيث يشبه رسول الله الحمى في إزالتها لخطايا بني آدم بالكير، الذي يَنفخ فيه الحداد، فيذهب خبث الحديد، وينقي المعادن، ويصفى الجواهر؛ فالمؤمن تزيده المصائب ثباتاً وصفاءً، وتطهره من الخطايا والرزايا.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة سب الحمى، وذلك لأنه يحصل بها تكفير الخطايا[(١)].

ولكن يحصل بالحمى - وغيرها من الأسقام والأوجاع - زيادة الحسنات، ورفع الدرجات أم يقتصر أثرها على تكفير الخطايا فقط؟

- الجمهور يرى أنها تكفر الخطايا[(٢)] وترفع الدرجات وتزيد في الحسنات.

- وذهب البعض أنا الحمى - وغيرها من الأسقام - تكفر الخطايا فقط، ولا يحصل بها رفع الدرجات، ولا زيادة الحسنات، وقد روى نحو ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) حاشية ابن عابدين ٢/ ٢٤٠، والفواكه الدواني ١/ ٧٧، وشرح صحيح مسلم ١٦/ ١٢٨.

(٢) حاشية ابن عابدين ٢/ ٢٤٠، والفواكه الدواني ١/ ٧٧، وشرح صحيح مسلم ١٦/ ١٢٨.

وقد ذكر النووي: (أن الأول أصح، ولعل صاحب الرأي الثاني لم يطلع على الأحاديث الدالة على حصول جميع ذلك من التكفير، ورفع الدرجات وزيادة الحسنات[١]، ومنه حديث ((إذا مرضَ العبدُ أو سافرَ كُتبَ لهُ مثلُ ما كانَ يعملُ صحيحاً مقيماً))[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: التواضع وعيادة المرضى.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: كراهة سب الحمى.

رابعاً: من آداب المدعو: الصبر على ما يصيبه من أمراض.

أولاً- من آداب الداعية: التواضع وعيادة المرضى:

وهذا واضحٌ من قول جابر بن عبدالله رضي الله عنه: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب، أو أم المسيب..) ففي هذا تواضع من النبي صلى الله عليه وسلم أن يزور المرضى، كما أنّ في ذلك عيادة للمرضى وزيارة لهم تطيباً لهم واطمئناناً عليهم والدعاء لهم.

أما التواضع فكثيرة هي الأحاديث التي تدل على تواضعه صلى الله عليه وسلم من ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((إن كانتِ الأمَة من إماء أهلِ المدينة لَتَأخُذُ بيد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فتنطلقُ به حيث شاءت))[٣].

قال ابن حجر: "المقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمّم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: (حيث شاءت)، أي: من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى ولو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٢٨/١٦.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٧٢. تعليقاً، وأخرجه أحمد ٩٨/٣ رقم ١١٩٤١ موصولاً، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٩/١٩.

منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ"[١].

وقال ابن هبيرة: "في هذا الحديث صفة حسن خلق رسول الله ﷺ إنه لم يكن ممتنعاً ولا بعيداً عمن يريد أن يكلمه، ويدل على أنه ﷺ كان من الأمانة وبعد الظنة بحيث لا يتأثر عرضه ﷺ بأن تذهب به الأمة حيث شاءت، ولأن للنساء حوائج كما للرجال، وللإماء من إنصافه وإنعامه كما الحرائر، لأنه أبو الأُمّة"[٢].

وأما عيادة المرضى فخلق من أخلاق الإسلام حضّ عليه النبي ﷺ وكان يفعله[٣]، ومن ذلك قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير)[٤].

قال القرطبي: "عيادة المريض من أعمال الطاعات الكثيرة الثواب، العظيمة الأجر، كما دلّت عليه الأحاديث، وهي من فروض الكفايات؛ إذا منع المرض من التصرف، لأن المريض لو لم يُعد جملة لضاع وهلك، ولا سيما إن كان غريباً أو ضعيفاً"[٥].

وقال ابن القيم: "وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ويعظمونه، ورؤيتهم لهم ولطفهم بهم ومكالمتهم إياهم، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوع يرجع إلى المريض، ونوع يعود على العائد، ونوع يعود على أهل المريض، ونوع يعود على العامة"[٦].

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

وهذا واضح من قول النبي ﷺ: (مالك يا أم السائب - أو يا أم المسيب - تزفزفين؟

---

(١) فتح الباري ٤٩٠/١٠.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٨/٥.

(٣) انظر: خلق عيادة المريض في نضرة النعيم ٢٠٥٢/٧ - ٢٠٦٩.

(٤) أخرجه أحمد ٧٠/١ رقم ٥٠٤ وحسنه محققو المسند ٥٣٢/١.

(٥) المفهم ٥٥٠/٦.

(٦) زاد المعاد ١١٦/٤.

قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: لا تسبي الحمى...)، فقد سأل النبي ﷺ عن سبب رعدة أم السائب - أو أم المسيب - فأخبرته أنها مريضة بالحمى، ثم أردفت ذلك بأن دعت على الحمى، نظراً لما أصابها من آلام ومعاناة، فنهاها النبي ﷺ ألا تسب الحمى، لأنها تكفر الخطايا والذنوب، فكان ذلك السؤال والجواب طريقاً لتوصيل رسالة دعوية لهذه المريضة ولغيرها تتضمن عدم سب الحمى والصبر على ما يصيب الإنسان.

ولا شك أن هذا الأسلوب -السؤال والجواب- من الأساليب الدعوية الناجحة، لأنها تكشف عما داخل المدعو كشفاً مباشراً، ومن ثم يتمكن الداعية من إرشاده إلى ما فيه نفعه وخيره.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: كراهة سب الحمى:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد).

قال ابن القيم: "قال لي بعض فضلاء الأطباء: إن كثيراً من الأمراض نستبشر فيها بالحمى، كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضر بالبدن، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها فأخرجها فكانت سبباً للشفاء"[(١)].

وجاء في حاشية زاد المعاد: "قال الدكتور عادل الأزهري: إن بعض الأمراض الزمنة - مثل مرض الروماتيزم المفصلي المزمن، الذي تتصلب فيه المفاصل وتصبح غير قادرة على التحرك أو مرض الزهري الزمن في الجهاز العصبي- تتحسن كثيراً بارتفاع درجة حرارة الجسم، أي: في حالات الحميات، ولذلك من ضمن طرق العلاج الطبي -في مثل هذه الحالات- الحمى الصناعية أي: إحداث حالة حمى في المريض بحقنه بمواد معينة"[(٢)].

وقال ابن القيم كذلك: "لما كانت الحمى يتبعها حمية عن الأغذية الرديئة وتناول

---

(١) زاد المعاد ٤/٢٧.

(٢) حاشية زاد المعاد ٤/٢٧ الحاشية رقم ٢.

الأغذية والأدوية النافعة، وفي ذلك إعانة على تنقية البدن، ونفي أخباثه وفضوله وتصفيته من مواده الرديئة، وتفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي خبثه وتصفية جوهره، كانت أشبه الأشياء بنار الكير التي تصفي جوهر الحديد، وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان.

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه وإخراجها خبائثه، فأمر يعلمه أطباء القلوب، ويجدونه كما أخبرهم به نبيهم ﷺ، ولكن مرض القلب إذا صار ميئوساً من برئه لم ينفع فيه هذا العلاج، فالحمى تنفع البدن والقلب، وما كان بهذه المثابة فسبه ظلم وعدوان.

وذكرت مرة وأنا محموم قول بعض الشعراء يسبها:

زارت مكفرة الذنوب وودعت ... تباً لها من زائر ومودع

قالت وقد عزمتْ على ترحالها ... ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعي

فقلت: تباً له إذ سبّ ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه، ولو قال:

زارت مكفرة الذنوب لصبها ... أهلاً من زائر ومودع

قالت: وقد عزمت على ترحالها ... ماذا تريد؟ فقلت: أن لا تقلعي

لكان أولى به ولأقلعت عنه، فأقلعت عني سريعاً.

وقد روي في أثر لا أعرف حاله: "حمى يوم كفارة سنة"[1]، وفيه قولان أحدهما: أن الحمى تدخل في كل الأعضاء والمفاصل، وعدتها ثلاثمائة وستون مفصلاً، فتكفر عنه - بعدد كل مفصل - ذنوب يوم، والثاني: أنها تؤثر في البدن تأثيراً لا يزول بالكلية إلى

---

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٢٣١ - ٢٣٢: رواه القضاعي في مسنده عن ابن مسعود مرفوعاً في حديث بلفظ: ((وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مجرمة))، وله شاهد عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ: ((حمى ليلة كفارة سنة))، ورواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات.

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: محمد بن عبدالرحمن السخاوي ٩٠٢هـ، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت: ط/٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

سنة، كما قيل في قوله ﷺ: ((مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً))[(١)]: إن أثر الخمر يبقى في جوف العبد، وعروقه وأعضائه أربعين يوماً، والله أعلم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من مرض يصيبني أحبّ إليّ من الحمى، لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله سبحانه يعطي كل عضو حظه من الأجر)[(٢)].

رابعاً - من آداب المدعو: الصبر على ما يصيبه من أمراض:

وهذا واضحٌ من الحديث، قال القرطبي: "وقوله: (لا تسبي الحمى)، مع أنها لم تُصرح بسب الحمى، وإنما دعت عليها بألا يبارك فيها، غير أن مثل هذا الدعاء تضمن تنقيص المدعو عليه وذمه، فصار ذلك كالتصريح بالذم والسب، ففيه ما يدل على أن التعريض والتضمين كالتصريح في الدلالة، فيحد كل من يُفهم عنه القذف من لفظه؛ وإن لم يُصرح به، وهو مذهب مالك.

وقوله: (فإنها تذهب خطايا بني آدم) هذا تعليل لمنع سب الحمى لما يكون عنها من الثواب، فيتعدى ذلك لكل مشقة، أو شدة يرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي أن يُذم شيء من ذلك، ولا يُسب. وحكمة ذلك: أن سب ذلك إنما يصدر في الغالب عن الضجر، وضعف الصبر، أو عدمه، وربما يُفضي بصاحبه إلى السخط المحرم، مع أنه لا يفيد ذلك فائدة، ولا يخفف ألماً" [(٣)].

وقال ابن عثيمين: "الحمى: هي السخونة وهي نوع من الأمراض وهي أنواع متعددة[(٤)]، ولكنها تكون بقدر الله عز وجلّ، فهو الذي يقدرها وقوعاً ويرفعها سبحانه

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٣٧٧، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مطولاً وصححه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ٢٢٧٢).

(٢) زاد المعاد ٣٠/٤ - ٣٢.

(٣) المفهم ٥٤٨/٦ - ٥٤٩.

(٤) الحُمّى: علة يستحر بها الجسم، وهي أنواع: التيفود، التيفوس، الدق، الصفراء، القرمزية.

- والتيفود: حمى معدية طفحية تتميز بالتهاب نزلي وتقرحي بالغشاء المخاطي للأمعاء الدقاق وتورم بالعقد اللمفية والطحال.
- والتيفوس: حمى تتميز بارتفاع الحرارة، والإغماء وظهور طفح بقعي أو حبري على الجلد.
- وحمى الدق: حمى معاودة يومياً تصحب غالباً السل الحاد. المعجم الوسيط ص ٩٢، ٢٠٠، ٢٩١.

وتعالى. وكل شيء من أفعال الله فإنه لا يجوز للإنسان أن يسبه، لأن سبه سب لخالقه جلّ وعلا، ولهذا قال النبي ﷺ: ((لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ))[1]، وهنا حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على أم المسيب - أو أم السائب - وهي تزفزف من الحمى، يعني نَفَسها قد ثار من الحمى، فقال: مالك تزفزفين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فنهى النبي ﷺ عن سبها، وعلى المرء إذا أصيب أن يصبر ويحتسب الأجر على الله عز وجل، وأخبر أنها تذهب بالخطايا، كما يذهب الكير بخبث الحديد، فإن الحديد إذا صهر على النار ذهب خبثه وبقي صافياً كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك... المهم أن الإنسان يصبر ويحتسب على كل الأمراض لا يسبها"[2].

وقال ابن القيم: "العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأمر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمّل القيام بالأمر ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقلّ نصيبه من اللطف في الباطن، فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له مستكيناً ناظراً إليه بقلبه ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وترغيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها"[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٨٢، ومسلم ٢٢٤٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٨٢.

(٣) الفوائد ص ٢٨٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الصبر والرضا بقضاء الله:

من المضامين التربوية التي تظهر من حديث الباب: التربية على الصبر والرضا بقضاء الله وقدره، وهذا واضح من توجيه النبي ﷺ لأم السائب أو أم المسيب بعدم سب الحمى، عندما رآها تعاني منها وفي هذا توجيه تربوي نبوي للمسلمين بالصبر على المرض والبلاء والرضا بقضاء الله وقدره.

فعلى المربي أن يبين أهمية الصبر على ما يعرض للإنسان من بلاء سواء في نفسه أو أهله أو ماله؛ لأن المنهج الإسلامي في هذه الحالات: يدعو الإنسان إلى التحلي بالصبر واعتبار الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وعليه أن يواصل طريقه في الحياة والعمل في سبيل الله مهما اعترضه من المشقات ويطمئن بأنه مأجور عند ربه على قدر ما أظهر من صبر وجلد[1].

فالصبر خلق مهم للمسلم المتمتع بالصحة النفسية، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالاستعانة بالصبر في كل الأمور، السعيد منها وغير السعيد، قال الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}[2]، كما أن في هذه الآية معية الله للصابرين، وهذا المعنى مهم لطمأنينة النفس وسكونها لعلمها بعظم قدرة الله، وأن كل شيء تحت مشيئته، وهو الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

وقد بيّن رسول الله ﷺ أن من علامات محبة الله للعبد التزامه بالصبر في هذه الحياة الدنيا، وهذا على عكس الذي لا يصبر بل يجزع من كل ما يصيبه، فلا يكون ممن يحبهم الله سبحانه وتعالى، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»[3][4].

---

(١) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د/ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، ص١٩٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٢٧/٥ رقم ٢٣٦٢٣، وقال محققو المسند: إسناده جيد.

(٤) انظر: التدين والصحة النفسية، د/صالح بن إبراهيم بن عبداللطيف الصنيع، ٤٨٩، ٤٩٠.

فعلى الإنسان أن يتذرع بالصبر ويروض نفسه عليه من حين صغره، ومن هنا يجب على الآباء والأمهات، ومن يقومون بالتربية: أن يربوا الصغار على التحلي بالصبر[١].

كذلك على المربين أن يربوا الناشئة على الرضا بقضاء الله، لأن ذلك يولد الراحة النفسية وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات، إيثارًا لما عند الله عز وجل من العوض والثواب، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل، فهو ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[٢]"[٣].

ثانيًا: التربية بضرب المثل:

من أساليب التربية في هذا الباب التربية بضرب المثل، وتستخدم طريقة الأمثال والأشباه لتقريب المعاني غير المحسوسة وغير المادية فيوضح معناها ومفاهيمها في ذهن الإنسان، أي: هي طريقة تعتمد على تقريب معقول من محسوس أو محسوس من أكثر منه حسا ووضوحًا[٤].

وقد مثل رسول الله ﷺ ذهاب الحمَّى بخطايا بني آدم، بذهاب الكير بخبث الحديد.

فمَثَّل الأشياء الغير منظورة، بأشياء منظورة، حتى تتضح الفكرة في الأذهان بهذا التشبيه[٥].

فإن طريقة ضرب المثل طريقة تربوية "تؤثر تأثيرًا عميقًا في العواطف وتلعب دورًا في التأثير على سلوك الإنسان في الحياة اليومية، فيما لو استعملت بحكمة وفي الظروف المناسبة"[٦].

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د/ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، ص٢٠٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

(٣) انظر: وقفات تربوية، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ٢/٢٣٠.

(٤) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، علي خليل، ص٢٣٧.

(٥) انظر: الأمثال القرآنية، محمد بكر إسماعيل، ص٢.

(٦) نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، د. محمد فاضل الجمالي، ص١١٥.

ويستمر تأثير طريقة ضرب المثل في عقل وتفكير الإنسان فتثير فيه نزوعًا إلى الفهم والإدراك والاقتناع[1].

ثالثًا: التربية بالحدث والمشاهدة:

التربية بالحدث والمشاهدة تعني استثمار الفرصة المناسبة لموقف معين، أو حدث طارئ، أو مشهد، في توجيه موعظة مؤثرة تكون الفرصة المناسبة، أو الحدث الطارئ، أو المشهد المثير، مفتاحًا لهذه الموعظة، وعاملاً نفسيًا دافعًا لتقبلها.

وقد استثمر النبيُ ﷺ حدَث ومشهَد مرض أم السائب أو أم المسيب بالحمى، وسبها لها فوجه لها الموعظة وصحح لها السلوك بنهيها عن السبّ.

والحياة الدنيا أغلب أوقاتها أحداث وسلوكيات، وأعمال يقوم بها الإنسان، وهذه الأحداث والسلوكيات والأعمال، منها ما هو مقبول معتاد، ومنها ما هو غير مقبول يطرأ أحيانًا وينبغي تصحيحه، وهذا واجب المربي، الذي يحسن كيف يستثمر الفرصة والحدث، لتصحيح السلوكيات الخاطئة، وتقويم المعوج منها وتصويبه[2].



(١) فلسفة التربية الإسلامية، د/عبدالجواد سيد بكر، ص٣٤٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د/زياد محمود العاني، ص٣٨٣، ٣٨٤.

٣٢٣- باب النهي عن سب الريح، وبيان ما يقال عند هبوبها

الحديث رقم (١٧٢٩)

١٧٢٩- عن أبي المنذرِ أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أُبي بن كعب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٧).

الشرح الأدبي

إن علاقة المسلم بما حوله من ظواهر الطبيعة علاقة شعورية تأملية، تثير التفكير، وتدعو للنظر في خلق السماوات والأرض، واستجلاء معالم القدرة الإلهية في صنعة هذا الكون البديع المتناسق، والريح من مظاهر الطبيعة، التي تدعو للتأمل والتدبر والتذكر.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث، الذي يضع أمام المسلم كيفية استقبال آثار الرياح، الإيجابية والسلبية، الخَيِّرة والشريرة، نرى فيها تنوعاً في الظواهر الأسلوبية: فالجملة الأولى في الحديث طلبية؛ حيث تتصدرها "لا الناهية"، والنهي صادر من رسول الله ﷺ؛ حيث يقول: "لا تسبوا الريح"، والنهي موجه إلى جموع الأمة الإسلامية؛ لأن الريح من عطاء الله ونعمه، وهي مسخرة للإنسان، ولها دور رئيس في استمرار الحياة على وجه الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[3].

---

(١) برقم (٢٢٥٢).

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة ص، الآية: ٣٦.

والجملة الثانية تنقلنا إلى مناخ أسلوبي آخر، وهو أسلوب الشرط؛ حيث يضع المصطفى ﷺ المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل مع ما سخر الله للإنسان من ظواهر الطبيعة، وصيغة الشرط والجواب هي المدخل إلى أبجديات هذا المنهج، وهي صيغة تتسق مع المعنى المراد، والغرض المنشود، فيقول رسول الله: "فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا...".

وأداة الشرط "إذا" تتفق مع الحقيقة الكونية؛ فالريح قد تأتي بالنذر والصواعق، وتدمر كل شيء بأمر ربها، وأداة الشرط "إذا" تدل على التحقق، وقد تأتي بالخير، وهذا الأمر ظاهر ملموس ومحسوس، والقسم الثاني من الحديث يقودنا إلى فضاء من المعاني والدعوات والابتهالات، وصيغة الدعاء هي الإطار الذي يغلف المضمون، والمقابلة بين المواقف والمعاني والألفاظ في محوري الدعاء، تجعل المؤمن ثابتاً صامداً أمام الشدائد، وشكوراً حامداً أمام النعم، لا تهزه المتناقضات والإحباطات.

ولنتأمل تكرار كلمة "خير" ثلاث مرات في صيغة الدعاء الأولى، وتكرار كلمة "شر" بالقدر نفسه ثلاث مرات، في صيغة الدعاء الثانية، وفي تقديم الدعاء بخير الريح، على شرها: إيحاء بأن جانب الخير في الريح أقوى وأشد، وتوزيع الجمل بين هذين القسمين الأخيرين في إطار الدعاء، يفصح عن التنسيق والاتزان، والاعتدال والوسطية، وهي صورة المؤمن في استقباله للأحداث؛ إن رأى خيراً شكر، وإن رأى غير ذلك صبر. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي هذه الأحاديث من الفقه:

١- كراهة سب الريح[1]، لأنها خلق الله، مطيع له، وجند من أجناده يجعلها إذا شاء رحمة، وإذا شاء نقمة[2]. ولأن من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه[3].

---

(١) مغني المحتاج ٣٢٩/١، والإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع ١٩٥/١، وكشاف القناع ٧٥/٢.

(٢) الأم، الإمام الشافعي ٢٥٣/١.

(٣) مغني المحتاج ٣٢٩/١، والإقناع ٣٩٥/١، وكشاف القناع ٧٥/٢.

٢- ويسن الدعاء عندها[1]: بأن يقول كما جاء في الأحاديث: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به، أو يقول: اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذاباً، ونحو ذلك.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن سب الريح.

ثالثاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لحقيقة الآيات الكونية من الريح وغيرها.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الدعاء عند هبوب الريح.

خامساً: من آداب المدعو: الالتجاء إلى الله عند اختلاف الأحوال وحدوث ما يخاف منه.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

وهذا واضحٌ من قوله ﷺ: (لا تسبوا الريح)، فقد نهى ﷺ عن سب الريح وقد علّل ذلك بأنها من روح الله، أي من رحمته بعباده، والنهي من الأساليب الدعوية المباشرة للترك والاجتناب وعدم الفعل.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن سب الريح:

وهذا واضحٌ من قوله ﷺ: (لا تسبوا الريح)، وقوله ﷺ: (الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها)، قال ابن عثيمين: "الرياح من آيات الله عز وجل: من آيات الله تعالى في تصريفها وفي إرسالها وفي كيفيتها، إذا لا يقدر أحد على أن يصرف هذه الرياح إلا خالقها عز وجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٣٥/٦، وسبل السلام ٧٦/٢-٧٧.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٢٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٣٠، ١٧٣١).

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[٣]. والآيات في هذه كثيرة.

هذه الريح التي خلقها الله عز وجل وصرفها تنقسم إلى قسمين: قسم: ريح عادية لا تخيف، لا يسن لها ذكر معين، وريح أخرى عاصفة هذه تخيف؛ لأن عاداً عذبهم الله تعالى بالريح العقيم، والعياذ بالله، فإذا عصفت الريح فإنه لا يجوز لك أن تسبها لأن الريح إنما أرسلها الله عز وجل، فسبك إياها سب لله تبارك وتعالى"[٤].

وقال الطيبي: "قوله: الريح من روح الله، قال الراغب [٥]: الروح: التنفس وقد أراح الإنسان: إذا تنفس، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾[٦]، أي: من فرجه ورحمته، وذلك بعض الروح، قال المظهر: فإن قيل: كيف يكون الريح من روح الله، أي: من رحمته مع أنه يجيء بالعذاب؟ فجوابه من وجهين: أحدهما: أن الريح إذا جاءت لعذاب قوم ظالمين كانت رحمة لقوم مؤمنين، وأقول: [أي الطيبي] يؤيده قوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٧].

قال الزمخشري في الكشاف: "فيه إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وهو من أجلّ النعم وأجزل القسم"[٨]، وثانيهما: أن الروح مصدر بمعنى الريح بمعنى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٧.

(٣) سورة الروم، آية: ٤٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٧٨٣/٢.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٦) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٧) سورة الأنعام، آية: ٤٥.

(٨) تفسير الكشاف ص ٣٢٧.

الفاعل كالعدل بمعنى العادل، فالمعنى: الريح من روائح الله، أي من الأشياء التي تجيء من حضرة الله بأمر الله، فتارة تجيء له لراحة، وأخرى للعذاب، فإذاً لا يجوز سبها، بل يجب التوبة عند التضرر بها، وهو تأديب من الله تعالى، وتأديبه رحمة لعباده"[١].

ثالثاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح لحقيقة الآيات الكونية من الريح وغيرها:

وهذا واضحٌ من قوله ﷺ: (الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها)، ومن هذا القبيل ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: ((لاَ تَلعَنِ الرِّيحَ فإنَّهاَ مَأْمُورَةٌ، وإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئاً لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتَ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ))[٢]، قال الطيبي: "يعني: من لعن شيئاً ليس ذلك الشيء أهلاً له رجع اللعن إلى اللاعن، لأن اللعن طرد عن رحمة الله تعالى، فمن طرد ما هو أهل لرحمته جعل مطروداً"[٣].

ومن هذا القبيل كذلك ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب فزعم أن رسول الله ﷺ قال: ((بُعِثَتْ هذهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ)) فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ، قَدْ مَاتَ[٤].

قال النووي: "أي: عقوبة له وعلامة لموته وراحة البلاد والعباد"[٥].

والحديث أخرجه ابن إسحاق في المغازي بدون إسناد بلفظ: وكان ذلك في غزوة بني المصطلق وغزوة الإفك: ((فلما راح رسول الله ﷺ هبّت على الناس ريح شديدة فآذتهم وتخوّفوها، فقال رسول الله ﷺ: ((لاَ تَخَوَّفُوهَا فَإِنَّمَا هَبتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الكُفَّارِ)). فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قَيْنقاع، وكان

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة ٢٨٢/٣ - ٢٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٨، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٦١١).

(٣) شرح الطيبي ٢٨٣/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٨٢.

(٥) شرح صحيح مسلم ١٣١/١٧/٩. ط/ دار عالم الكتب.

عظيماً من عظماء اليهود، وكهفاً للمنافقين، مات ذلك اليوم[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الدعاء عند هبوب الريح:

وهذا واضح من قوله ﷺ: (فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها وشر ما أمرت به)، وقوله ﷺ: (فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها)، كما ورد ذلك من فعله ﷺ كما هو في حديث عائشة رضي الله عنها[٢].

قال المباركفوري: "قوله: (فإذا رأيتم ما تكرهون)، أي: ريحاً تكرهونها لشدة حرارتها، أو برودتها أو تأذيتم لشدة هبوبها فقولوا: أي راجعين إلى خالقها وآمرها: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، أي خير ذاتها (وخير ما فيها) أي من منافعها كلها (وخير ما أمرت به)، أي: بخصوصها في وقتها"[٣].

وقال ابن عثيمين: "وبهذا الدعاء يحصل خيرها ويزول عنك شرها، (أسألك خير هذه الريح)، لأن هذه الريح قد تكون عاصفة شديدة تقلع الأبواب وتجث الشجر وتهدم الديار، (وخير ما فيها)، ما فيها أي ما تحمله من أمور قد تكون نافعة وقد تكون ضارة، (وخير ما أرسلت به) لأنها ترسل بالخير وتارة ترسل بالشر. فتسأل الله خير ما أرسلت به.

(وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)، فإذا استعاذ الإنسان من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وسأل الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به كفاه الله شرها، واعلم أنه لا يجوز للإنسان أن يتعلق بالريح في حصول المطر والغيث والصحو وما أشبه ذلك، لأن هذا من جنس الاستقاء بالأنواء الذي نهى عنه

---

(١) سيرة ابن هشام ١٦٨/٢، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٨٦/٦.

(٢) قال الراغب: "وعامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة"، المفردات في غريب القرآن ص ٢٠٦، وانظر: النهاية في غريب الحديث ص ٣٨٠.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨١٨/٢.

النبي ﷺ[١]، كثير من الناس يعلق رجاءه بالريح الجنوبي[٢]، يقول: إذا ذهبت الجنوب حصل الغيث وتجد قلبه متعلقاً بها، وهذا لا يجوز، لأنها قد تهب ريح الجنوب كثيراً ولا يأتي أمطار ولا غيوم، وقد يكون بالعكس تأتي الأمطار والغيوم من الريح الشمالي، فالأمر كله بيد الله عز وجل فعليك أن تعلق قلبك بربك تبارك وتعالى وألا تسب ما خلقه من الريح، وأسأل الله خيرها وخير ما أرسلت به واستعذ بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به"[٣].

خامساً- من آداب المدعو: الالتجاء إلى الله عند اختلاف الأحوال وحدوث ما يخاف منه:

هذا واضح من الأحاديث واقتداء بالنبي ﷺ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به).

فعلى المدعو أن يقتدي بالنبي ﷺ، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذ أيضاً عند رؤية الغيم ويفرح بالمطر، من ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها أيضاً: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ. فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَاباً سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي. وَيَقُولُ: إِذَا رَأَى الْمَطَرَ رَحْمَةٌ))[٤].

وقال أنس رضي الله عنه: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ[٥]، قال ابن هبيرة: "فيه من الفقه الخوف من الريح، لأنها إذا جاءت رعرعاً[٦] فقل ما ينتفع بها، وإنما الريح المنتفع بها هي المرسلات عرفاً، فكان رسول الله ﷺ يخاف من

---

(١) انظر: الحديث التالي في الرياض برقم ١٧٢٣.

(٢) هكذا قال ابن عثيمين: الريح الجنوبي، والصحيح: الريح الجنوبية، لأن الريح لفظ مؤنث. انظر: المعجم الوسيط في (ر و ح).

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٨٣ - ١٧٨٤.

(٤) أخرجه مسلم ٨٩٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٣٤.

(٦) يقال: ترعرع الماء أو السراب: تحرك واضطرب وتلألأ. المعجم الوسيط ص ٣٥٣.

ذلك، لتجويزه أن تأتي بالعذاب"[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ مُسْتَجْمِعاً ضَاحِكاً. حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ. إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ. قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْماً أَوْ رِيحاً، عُرِفَ ذٰلِكَ فِي وَجْهِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَى النَّاسَ، إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ، فَرِحُوا. رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ. وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ، عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ. قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ. وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: ﴿هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[٢]))[٣].

قال النووي: "فيه الاستعداد بالمراقبة لله والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال وحدوث ما يخاف بسببه، وكان خوفه ﷺ أن يعاقبوا بعصيان العصاة، وسروره لزوال سبب الخوف"[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١٢/٥.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٢٩، ومسلم ٨٩٩.

(٤) شرح صحيح مسلم ٢٠٦/٦/٣، وانظر المفهم ٥٤٧/٦.

الحديث رقم (١٧٣٠)

١٧٣٠- وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((الرِّيحُ مِنْ رَوحِ اللهِ، تَأتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأتِي بِالعَذَابِ، فَإذَا رَأيْتُمُوهَا فَلاَ تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا)). رواه أبو داود[1] بإسناد حسن.

قوله ﷺ: (مِنْ رَوْحِ اللهِ) هو بفتح الراء: أي رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: سبقت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يتفق هذا الحديث في مضمونه مع الحديث السابق وهو تحديد المنهج الإسلامي في التعامل مع مظاهر الطبيعة التي سخرها الله للإنسان.

ولكن أسلوب هذا الحديث يضيف جديداً، حيث يبدأ بمفهوم إيماني راسخ يجب أن يتسلح به المسلم في استقباله لتقلبات الظواهر الطبيعية، ومنها الريح، وهذا المفهوم يتحدد في أن الريح من روح الله أي هي من عند الله: يرسلها من رحمته لعباده ولطفه بهم.

وهذه الجملة الاسمية الإخبارية تفصح عن ثبات هذا المفهوم، وعدم تغيره، من خلال الصيغة اللغوية الدالة على الثبات وهي الجملة الاسمية.

ثم تليها جملتان مكملتان وهما حاليتان تصوران حال الريح وهي تواجه الإنسان، وإسناد الرحمة والعذاب إليها من باب "المجاز المرسل" لأن الله هو الذي يرحم ويعذب والريح آلة هذا العذاب، وسبب تلك الرحمة، ولكن هذا التعبير يوحي بتشخيص الريح، وبإضفاء الطابع الإنساني عليها، وكأنها تعي وتفكر، وتأتي مرة بالرحمة، ومرة بالعذاب.

---

(١) برقم (٥٠٩٧). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ١٠٠٧)، وقال الحاكم (٢٨٥/٤): هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[2].

والجمل الثلاث الأخيرة تتنوع أسلوبياً ودلالياً ففي إطار أسلوب الجواب والشرط يأتي النهي عن سب الرياح وأداة الشرط "إذا" تنبئ عن تحقق رؤية الرياح ومشاهدتها حيث يقول المصطفى ﷺ، "فإذا رأيتموها: فلا تسبوها"، والريح لا ترى ولكن تُرى آثارها، والسب لا يقع عليها ولكن يقع على ما تحدثه من هلاك وتدمير، وطوفان وسيول أحياناً، واقتلاع للأشجار، وهدم للمباني، وفي صيغة الأمر الواجب، يأمر رسول الله كل أفراد الأمة الإسلامية بأن يتبعوا المنهج الصحيح في استقبال الريح وهو الدعاء بشقيه في حال خيرها وحال شرها، فقال: "وسلوا الله خيرها"، وكلمة الخير كلمة جامعة تشمل كل ما تحدثه الرياح من لقاح وسحب وهواء نقي يحيا في نعيمه الإنسان والنبات والحيوان.

وقال: "واستعيذوا بالله من شرها"، وكذلك الشر كلمة موجزة تتجمع في كثافتها آلاف الصور المدمرة التي تحركها الرياح فتحدث الدمار والخراب، وتشوه كثيراً من مظاهر الحياة، ونسأل الله العفو والنجاة، ونسأله من خير الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧ .

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٤-٢٥ .

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٣١)

١٧٣١- وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: كان النَّبيُّ ﷺ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قال: ((اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

كان رسول الله ﷺ أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، كأن يأخذ بمجامع القلوب، ويسلب الأرواح، ففصاحة لسانه ﷺ غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني منتهاها، كما يقول الكافي القسطلاني في كتاب "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية"، وهذا الحديث من "جوامع الدعاء"، في استقبال الريح إذا عصفت حيث لا يفزع المؤمن، ولا يضطرب يقينه ولكن يسلم أمره إلى ربه، ويدعو كما دعا رسول الله ﷺ.

ودعاؤه ينقسم إلى قسمين: قسم يستقبل خير الريح، ويسأل الله خير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وقسم يعوذ بالله من شر الريح وشر ما فيها وشر ما أرسلت به.

وهذا التنوع في الدعاء مع تكرار لفظ "خير" ليس إسهاباً، ولكن لكل موقف في الدعاء سياقه وثمرته فقوله: "أسألك خيرها" أي خيرها الذاتي، ونفعها العام: فهي لها أسرار كثيرة في تواصل الحياة على وجه الأرض، وقوله "خير ما فيها" يتعلق بفوائدها المحسوسة الملموسة، من إذهاب المضار، والإتيان بالمنافع؛ وقوله: خير ما أرسلت به، أي: ما سيقت من أجله، وما سخرت له من نماء وصلاح الجسد؛ والتأكيد في الجوانب الخيرية كان بارزاً حيث قال رسول الله ﷺ: اللهم إني أسألك، أما في الجوانب التي

---

(١) برقم (٨٩٩/١٥).

يستعيذ بالله فيها من شر الريح، فلم يصدرها بتأكيد؛ لأن رحمة الله واسعة، والله يختص برحمته من يشاء، والله يحفظ نبيه من كل ما يسوءه، وسؤال الخير يحتاج إلى إلحاح ومعاودة، أما الاستعاذة من الشر فيكفي فيها القول الخالص، والنية الصادقة والتوبة النصوح، والثقة في نصر الله لعباده المؤمنين وحفظه لهم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٢٩).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه:

إن حوادث الكون خاضعة لسنن وقوانين سنَّها الله وفق أقدار قدرها[1].

فقد شاء الله تعالى أن يبين لنا هذه النواميس المطردة والسنن الجارية لنراقبها وندركها ونكيف حياتنا وفقها، ونتعامل مع الكون على أساسها، ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون والتعامل معها بقدر ما يملك الإدراك البشري للانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعية[2].

والتوجيه وسيلة من وسائل التربية حيث يقوم المربي بتوجيه طاقات وقدرات الإنسان وجهده في جانب الخير[3]، وقد وجه النبي ﷺ المسلم إلى كيفية التعامل مع الريح، فقد وجهه إلى طلب خيرها من الله والاستعاذة به من شرها والريح آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4].

فالريح إحدى آيات الله الكونية وتصريفها من آيات الله عز وجل؛ فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع، ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا تكون نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، ولكن الله عز وجل بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد.

فعلى المربي بيان أن الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها؛ فكذلك الريح، ولهذا قال ﷺ: «لا تسبوا الريح».

---

(١) التربية بالآيات، عبدالرحمن النحلاوي، ص٥٦.

(٢) انظر: التدين والصحة النفسية، د. صالح الصنيع، ص٣٥٤.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٢٨٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

فهي مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله عز وجل، ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال: حينئذ في قوله: «ولكن قولوا: اللهم نسألك ... إلخ».

فالريح نفسها فيها خير وشر، فعلى المسلم أن يسأل الله خيرها ويستعيذ من شرها.

ويقع على عاتق المربي التوجيه إلى أنه يجب عليه أن لا يعترض الإنسان على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلمًا لأمره الكوني، كما يجب أن يكون مستسلمًا لأمره الشرعي، لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله سبحانه وتعالى[1].

ثانيًا: التربية بالقدوة:

من أساليب التربية في هذا الباب التربية بالقدوة، ولهذا الأسلوب تأثير كبير في النفس لأن المسلم يتخذ من سلوك الرسول المربي قدوة حسنة يتأسى بها في سلوكه، والرسول ﷺ هو القدوة للمسلمين، لأنه ﷺ وجّه المسلمين إلى سلوك تربوي إسلامي بعدم سب الريح، وعند رؤية ما يكره منها يجب أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ ما فيهَا وَخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ ما فيهَا وَشَرِّ ما أُمِرَتْ بِهِ». لم يكتف ﷺ بهذا التوجيه التربوي للمسلمين، بل كان ﷺ قدوة لهم في هذا الأمر، فكان يدعو بهذا الدعاء إذا عصفت الريح، وهذا أسلوب تربوي مؤثر يحسن بالقائمين على التربية أن يلتزموا به في العملية التربوية، حيث يعمل على إحداث التغييرات الإيجابية.

والقدوة تعد من أنجح أساليب التربية، ومن أوقعها تأثيرًا. وذلك لاتفاقها مع طبيعة النفس البشرية، مع فطرة الإنسان، مع حاجته وميله للتقليد والمحاكاة، ولسهولة اكتساب الخبرات من خلالها، ولكونها متجسدة وماثلة أمام المتأثرين بها.

وقد أكد الإسلام على القدوة الصالحة باعتبارها أسلوبًا تربويًا هامًا في تنشئة

---

(١) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين، ٣٧٨-٣٨١ بتصرف.

الأجيال تنشئة سليمة، تحقق الخير لهم ولغيرهم.. فدعانا الحق تبارك وتعالى إلى الاقتداء بخير قدوة وخير أسوة، حيث قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١]. فقد كان رسول الله ﷺ خير قدوة للبشرية في تاريخها الطويل. وكان مربيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به[٢]. ولا زال بسيرته العطرة خير أسوة لكل الأجيال[٣].

ثالثًا: من أهداف التربية الإسلامية: الحث على اللجوء إلى الله ودعائه:

من المضامين التربوية في هذا الباب: الحث على اللجوء إلى الله عز وجل ودعائه والاعتصام به، فإن المسلم يلجأ إلى الله عز وجل في دعائه، فيسأله من خيره، ويسأله أن يحميه، ويمنعه، ويعصمه، ويدفع عنه الشرور والفتن.

وكلما امتلأ القلب من توحيد الله عز وجل، والإيمان به، وصدق التوكل عليه واللجوء إليه كلما كان للأدعية ونطقها باللسان أثرها العظيم في عصمة الله عز وجل لعبده الداعي، ووقايته له من الفتن وشرورها وبقدر ما يكون في القلب من توحيد الله عز وجل، يكون الأمن من المخاوف والشرور والفتن.

إذن فالإيمان الصادق، والتوحيد الخالص، وصدق التوجه إلى الله عز وجل وإخلاص الدعاء له بتفويض الأمور إليه، كل ذلك يثمر للعبد طمأنينة وحياة طيبة سليمة من الفتن وشرورها، وسليمة من المخاوف والحيرة والاضطراب؛ فكان لزامًا على من أراد لنفسه النجاة والفكاك أن يلجأ إلى ربه عز وجل، ويحسن الظن به، سبحانه، وأن يكثر التضرع والدعاء في أوقات الإجابة وأماكنها ويسأل ربه سبحانه الوقاية من الفتن والثبات على الحق، والاستعاذة من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، فهذا باب عظيم من أبواب التوفيق، ومنارة مضيئة من منارات النجاة والسلامة من الفتن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص٢٢٥.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١٧٥.

وغوائلها[1].

وقد جاء في أحاديث هذا الباب من التوجيهات النبوية الكريمة لهذه الأمة الشيء الكثير وذلك باللجوء إلى الله ودعائه إذا هبت الريح بأن يعطيه خير ما أمرت به والاعتصام به سبحانه والاستعاذة به من شرها ومن شر ما أُمِرَت به، وكان هذا بأمره ﷺ وفعله.

وهو ما يجعلنا نحرص على اللجوء إلى الله ودعائه والاعتصام به. وكذلك غرس هذه الأشياء في نفوس المتربين وخاصة الصغار منهم حتى يشبوا على ذلك.

رابعًا: تهذيب الأخلاق بالترفع عن سب الريح:

إن من أبرز أهداف التربية الإسلامية تهذيب أخلاق المسلم والارتقاء به عن السب والشتم، ومن ذلك نهى النبي ﷺ المسلمين عن سب الريح ولاشك أن ذلك يبرز عظمة التربية الإسلامية في تنشئة المسلم على الأدب الجم في التعامل مع الخلق والمخلوقات والآيات الكونية، مما يؤكد حرص الإسلام على تربية المسلمين على الخلق العظيم، والارتقاء بذوقهم العام والترفع عن سفاسف الأمور التي قد تحمل الإنسان في بعض الأحيان على السب والشتائم، ولذا فإن التربية الإسلامية تعمل على تهذيب أخلاق المسلمين، من خلال حثهم على الدعاء، وسؤال الله تعالى خير الريح. وخير ما أمرت به، والاستعاذة به سبحانه من شرها ومن شر ما أمرت به، وهذا ما يمكن أن يفيد منه القائمون على التربية في شتى مجالات الحياة في كيفية الارتقاء بخلق الناس، وتوجيههم التوجيه الصحيح.



(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ٣/٥٢٥-٥٢٧.

٣٢٤- باب كراهة سب الديك

الحديث رقم (١٧٣٢)

١٧٣٢- عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلاَةِ)). رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

زيد بن خالد الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٧).

الشرح الأدبي

إن الطيور والحيوانات تعد من النعم التي سخرها الله للإنسان، وهي ذات نفوس غير ناطقة، تتغذى وتتكاثر وتنمو ... وتشعر، وتدرك ولكنها لا تنطق، وهي تسبح بحمد ربها مثل كل الكائنات، ولها قدرات خاصة يجهلها الإنسان، وبعض الحيوانات قوته السمعية تفوق سمع الإنسان،وكذلك قوتها البصرية تتفوق على الإنسان، وهي تتفاهم فيما بينها بإشارات وأصوات خاصة بها: قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2].

وهذا الحديث الشريف شاهد صدق على ذلك، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن سب الديك الذي يصيح وقت صلاة الفجر ... وبعض الكسالى والمنافقين يدّعون أن صياح الديك يزعجهم، ولذلك يسبونه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا الديك: فإنه يوقظ للصلاة".

والحديث يتكون من جملتين: الأولى فعلية، وقد تصدرها للنهي الصريح عن سب الديك، والنهي هنا موجه إلى الأمة كلها وخاصة الذين يظنون أن صوت الديك

---

(١) برقم (٥١٠١). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤١١٢).

(٢) سورة الأنعام، آية: ٣٨ .

يزعجهم!! وواو الجماعة: ضمير الرفع المتصل تفصح عن النهي الجمعي الصادر من نبي الأمة إلى أمته جمعاء.

وأما الجملة الثانية فهي اسمية وهي تعليل ... لنهي عن سب الديك، وقد صُدِّرت الجملة بإن المؤكدة، وخبر إن، جملة فعلية فعلها مضارع، "يوقظ للصلاة"، والمضارعية هنا توحي باستمرار هذا الفعل وهو الإيقاظ للصلاة، ومعمول يوقظ محذوف وللعلم به أي يوقظ النائمين الغافلين عن الصلاة ... حتى ينشطوا لصلاة الصبح، فيغفر الله لهم. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة سب الديك، وذلك لأنه يدعو إلى الصلاة، فيكون معيناً على الطاعة مستفاداً منه الخير، ومن كان هذا شأنه لا ينبغي أن يسب ولا يستهان به، بل ينبغي أن يكرم ويحسن إليه[1].

وليس معنى قوله "يدعو إلى الصلاة" أنه يدعو إليها حقيقة، وإنما معناه أن العادة جرت أنه يصرخ عند طلوع الفجر، وعند الزوال فطرة فطره الله عليها[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن سب الديك.

ثانياً: من واجبات المدعو: اتخاذ كل ما يعين على أداء الصلاة وطاعة الله.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن سب الديك:

وهذا واضحٌ من الحديث: (لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة)، وهناك رواية

---

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٨٢/٤، وفتح الباري ٣٥٣/٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٩٩/٩، وعون المعبود ٥/١٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٩٩/٩، وعون المعبود ٥/١٤.

عند أحمد: نَهى رسولُ اللهِ ﷺ عنْ سبِّ الدِّيكِ، وقال: ((إنَّه يُؤَذِّنُ للصَّلاةِ))[١].

ورواه أحمد بلفظ: لَعَنَ رَجُلٌ دِيكًا صَاحَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لاَ تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاَةِ))[٢].

وبوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر الزجر عن سب المرء الديكة لأنها تحث المسلمين على الصلاة[٣]، وقال العظيم آبادي: قوله: (لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة)، أي: قيام الليل بصياحه فيه، ومن أعان على طاعة يستحق المدح لا الذم، قال المناوي: جرت العادة بأنه يصرخ صرخات متتابعة إذا قرب الفجر، وعند الزوال فطره الله عليها فلا يجوز اعتماده إلا إن جرب"[٤].

وقال ابن عثيمين: "الديك هو الذكر من الدجاج وله صوت يؤذن فيوقظ النائم، وبعضها يؤذن على الأوقات عند أوقات الصلوات، وقد أمر النبي ﷺ من سمع صوت الديك أن يسأل الله من فضله[٥]، إذا سمعت صوت الديك فقل أسأل الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وبعض الديكة يكون أذانه على دخول الوقت أو قرب دخول الوقت، فيوقظ الناس للصلاة فنهى النبي ﷺ عن سبه لهذه المزية التي تميز بها، كما نهى على قتل النملة[٦] لأنها كانت دلت أخوانها على النجاة من سليمان عليه الصلاة

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٣/٥ رقم ٢١٦٧٩، وقال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين ١٣/٣٦.

(٢) أخرجه أحمد ١١٥/٤ رقم ١٧٠٣٤، وقال محققو المسند: رجاله ثقات، رجال الشيخين وقد اختلف في وصله وإرساله، وانظر: تتمة تخريجه هناك، المسند ٢٦٣/٢٨.

(٣) صحيح ابن حبان رقم ٥٧٣١.

(٤) عون المعبود ٢١٧٨.

(٥) سيأتي نصّ الحديث قريباً جداً بعد انتهاء الاقتباس من فتح الباري.

(٦) أخرجه أحمد ٣٣٢/١ رقم ٣٠٦٦، وأبو داود ٥٢٦٧، وابن ماجه ٣٢٢٤، وابن حبان ٥٦٤٦، والبيهقي ٣١٧/٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد))، قال ابن حجر: رجاله رجال الصحيح قال البيهقي: هو أقوى ما ورد في هذا الباب. التلخيص الحبير ٢٧٥/٢، والصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات وربما صاد العصفور. وكانوا يتشاءمون به. المعجم الوسيط في (ص ر د).

والسلام، وهذا من تمام عدل الله عز وجل أن بعض الحيوانات التي يكون فيها مصلحة للعباد يكون لها مزية وفضل على غيرها.

سب الديك قد يقع من بعض الناس يفزع من صوته وهو نائم فيسبه ويشتمه، وهذا منهي عنه؛ لأن النبي ﷺ قال: لا تسبوا الديك"[١].

وقال ابن حجر: "قال الحليمي: يؤخذ منه أن كل من استفيد منه الخير لا ينبغي أن يسب ولا أن يستهان به، بل يكرم ويحسن إليه، قال: وليس معنى قوله: فإنه يدعو إلى الصلاة: أن يقول بصوته حقيقة: صلوا أو حانت الصلاة، بل معناه: أن العادة جرت بأنه يصرخ عند طلوع الفجر وعند الزوال، فطرة فطره الله عليها"[٢].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ. فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً. وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ. فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً))[٣].

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه أنه لما كان صوت الحمار أنكر الأصوات كان الشيطان وشيكاً بالتعرض له؛ ليثير من النهاق الذي يزعج المسلمين فتتكره نفوسهم، فأمر رسول الله ﷺ بالتعوذ من الشيطان، ولما كانت الديكة يؤنس إلى أصواتها من حيث إنها في الليل توقظ النائم لأفضل الأوقات للذكر، وهو وقت السحر كانت عند رؤية الملائكة يثور صاحبها، فيذكر الله سبحانه حينئذ ويسأل من فضله"[٤].

قال النووي: "قال القاضي عياض[٥]: سببه رجاء تأمين الملائكة على الدعاء واستغفارهم وشهادتهم له بالتضرع والإخلاص"[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٨٥/٢.

(٢) فتح الباري ٣٥٣/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٠٣، ومسلم ٢٧٢٩.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٩١/٦.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢٢٤/٨.

(٦) شرح صحيح مسلم ٤٨/١٧/٩ - ٤٩.

وقال ابن حجر: "قال عياض[١]: وفائدة الأمر بالتعوذ لما يخشى من شر الشيطان وشر وسوسته فيلجأ إلى الله في دفع ذلك"[٢].

ثانياً- من واجبات المدعو: اتخاذ كل ما يعين على أداء الصلاة وطاعة الله:

وهذا ما يستنبط من الحديث، قال ابن حجر: "قال الداودي: يتعلم من الديك خمس خصال: حسن الصوت والقيام في السحر والغيرة والسخاء وكثرة الجماع"[٣].

وقال ابن عثيمين: "وفي هذا الحديث دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتخذ ما يوقظه للصلاة، وذلك مثل الساعات المنبهة، فإن الإنسان ينبغي له أن يقتني من هذه الساعات حتى تنبهه للصلاة في الوقت الذي يدرك فيه الصلاة، وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر ينام معتمداً على أنه سيقوم في الوقت الذي يريده ولكن يغلبه النوم، فإذا علمت من نفسك هذا فاجعل لنفسك منبهاً ينبهك للصلاة، لأن ما لا يتم المأمور به فهو مأمور به وأنت مثاب على هذا"[٤].

كما على المدعو أن يقتدي بالنبي ﷺ في استعداده للصلاة، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فعرّس بليل اضطجع على يمينه وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه [٥].

قال النووي: (قال العلماء: إنما نصب ذراعه لئلا يستغرق في النوم، فتفوت صلاة الصبح عن وقتها أو عن أول وقتها)[٦]، وعلى العموم فإن على المدعو (أن ينام مبكراً مع استحضار آداب النوم، داعياً الله بالأذكار المأثورة قبل نومه، مستحضراً نية صادقة للاستيقاظ لصلاة الفجر، وليستعن بما ينبهه للاستيقاظ وقت الفجر أو قُبيله بقليل

---

(١) لم نعثر على هذا القول في إكمال المعلم، وإنما قال القرطبي في المفهم ٥٨/٧: وإنما أمر بالتعوذ من الشيطان عند نهيق الحمير، لأن الشيطان لما حضر يخاف من شره، فينبغي أن يتعوذ منه.

(٢) فتح الباري ٣٥٣/٦.

(٣) فتح الباري ٣٥٣/٦.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٧٨٥/٢.

(٥) أخرجه مسلم ٦٨٣.

(٦) رياض الصالحين ٢٧٦.

عسى الله أن يرزقه قيام ركعتين)[1].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي والتعليل:

فقد نهى النبي ﷺ عن سب الديك وعلّل ذلك بأنه يوقظ للصلاة، ولا شك أن إتباع النهي بالتعليل يزيد المدعو اقتناعاً فوق اقتناع بالامتثال والطاعة لما نهي عنه الداعية أو أمر به، فإن النهي عن شيء أمر بضده.

---

(١) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحاذة، ٤١١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخلقية:

من المضامين التربوية في حديث الباب: التربية الخلقية، ويظهر ذلك في قوله ﷺ: «لا تسبوا الديك ...».

لقد اهتم الإسلام بالقيم الإنسانية التي تعمل على تهذيب الأخلاق والتي تجعل المسلم مترفعًا عن السب والشتم بريئًا عن الدنايا فلا يسب ولا يشتم ولا يتفوه بما يعاب من الكلام بل يتخلق بأخلاق الإسلام التي دعت إلى حفظ اللسان من الزلل، وما هو مستهجن من الكلام والعمل.

فالإسلام اهتم بالتربية الأخلاقية الإسلامية وجعلها أساسًا للتعامل مع الآخرين من هذه الأصول: كف الأذى أي يمنع الإنسان مصادر أذاه عن غيره.
ومصادر الأذى من حيث الشكل: قوليةٌ وفعليةٌ.

وحديثنا يراد به الأولى وهي المصادر القولية، وهو كل أذى كان مصدره البيان، سواء كان نطقًا باللسان، أو كتابة بالبنان، أو بهما معًا، واللسان مصدر قوي في الأذى[1]. لذا وجهت التربية الإسلامية إلى حفظه من أذى المسلم وغيره بل تعدى هذا التوجيه وهذه التربية الإسلامية الإنسان إلى غيره من المخلوقات التي ينبغي للمسلم أن يجتنب الإساءة إليها.

وفي هذا الباب وجه النبي الكريم ﷺ المسلمين إلى عدم سب الديك، لأنه يوقظ للصلاة.

والديك من بين الطيور له منزلة وفضل، وقد ورد فيه أحاديث تبين فضائله منها قوله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ. فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا»[2]. لذا كان التوجيه النبوي التربوي بعدم سبها.

---

(١) أصول التربية الإسلامي، د. خالد بن حامد الحازمي، ص١٦٤.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٣٠٣، ومسلم ٢٧٢٩.

فلقد جاء الإسلام لإقامة عالم رفيع الخلق. وبُعِث رسولُ الله ﷺ متممًا لمكارم الأخلاق. لذلك قدم منهجًا خلقيًا كاملاً يشمل جميع جوانب الحياة، سواء كانت على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع والعالم بأسره.

فتناول الأساس الأخلاقي كل ما ينمي الفرد خلقيًا، ويضبط علاقته مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره من الجنس البشري بل وكل ما في الحياة[1]، فإن التربية الإسلامية تسعى إلى غرس مكارم الأخلاق في المسلم، خاصة الناشئة لإعداد الإنسان الصالح وتحارب وبدون هوادة مساوئ الأخلاق التي حث الإسلام على الابتعاد عنها، مثل السب والشتم، والحسد والكذب والغش والنميمة.....وغيرها[2].

ثانيًا: التربية بالتعليل:

إن التربية بتعليل الأحكام تعمل على توفير القناعة لدى المسلم من خلال بيان تلك العلل التي تمثل إجابات على أسئلة قد ترد على الذهن، ويحتاج فيها إلى بيان حتى تستريح نفسه ويقتنع عقله، وقد ذكر النبي ﷺ علة نهيه عن سب الديك لأنه يوقظ للصلاة فقال: «لا تَسبُّوا الدِّيكَ فإنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلاَةِ».

وقد يقتصر بعض من يقوم بالتربية في حديثه مع الفتيان على الوعظ، والوعظ أمر مهم لابد منه، لكنه قد لا يكفي وحده، خاصة مع من يكون واقعًا في أمر هو يعلم نتائجه، كما أن ذكر الحكم الشرعي وحده في هذه الحالة قد لا يكفي، ويكون التعليل أو بيان الحكمة مما يساعد على القناعة، ويَعدِّل السلوك تعديلاً إيجابيًا.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة قال: «إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا، والله

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١١٥.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، ص٢٦.

جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[(١)].

فالفتى هنا لم يكن يغيب عنه حكم حرمة الزنا ولذلك جاء يستأذن فيه، فالقول له هنا: اتق الله، هذا حرام أو لا يجوز قد لا ينفع الفتى؛ لأن الحكم عنده معلوم، لكنه يحتاج إلى شيء آخر، لذلك سلك الرسول ﷺ معه أسلوبًا آخر، وهو بيان الحكمة من منع الزنا، وهو أن المزني بها إما أن تكون أُمًّا لأحد أو بنته أو أخته أو عمته أو خالته، لا يمكن غير ذلك، ولما كان هذا الفتى لا يرضى ذلك لنفسه، فكذلك الناس لايرضونه لأنفسهم، فكان في هذه الحجة النفسية قطع لدابر هذا الأمر في نفس الفتى، ثم كان الدعاء من الرسول ﷺ له أن يثبته على الحق والعفة، فهكذا نفعل في مثل هذه المواقف، ويمكن أن يقال عن هذا التصرف: كن أنت مكانه، وقل لي ماذا تفعل؟ ولو أن الإنسان عمل ذلك في أمور كثيرة لانحلت إشكالات تقوم بين الناس، ولو وضع الإنسان نفسه مكان من يعترض على مسلكه وتصرفه، فربما اتخذ المسلم نفس المسلك أو قريباً منه، فلذلك ينبغي على المربي أن يرشد إلى هذا الطريق[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥٧/٥، رقم ٢٢٢١١، وقال محققو المسند إسناده صحيح.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ص١٥١، ١٥٢.

٣٢٥- باب النهي عن قول الإنسان: مُطِرنا بنَوء كذا

الحديث رقم (١٧٣٣)

١٧٣٣-عن زيد بن خالد ﵁ قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فقالَ: ((هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟)) قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قال: ((قالَ: أصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بي كَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأما مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ)). متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

زيد بن خالد الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٧).

غريب الألفاظ:

الحديبية: بينها وبين مكة ٢٢ كم وهي غرب مكة على طريق جدة وتعرف اليوم بالحديبية والشميسي كذلك، وقد نزلها النبي ﷺ عندما توجه إلى مكة يريد العمرة ٦هـ، وفيها بئر ومسجد الشجرة، وعندها كانت بيعة الرضوان[٢].

في إثْر سماءٍ: عقَب مَطَرٍ[٣].

بنوء: ومعنى النوء سقوط نجم في المغرب من النجوم الثمانية والعشرون التي هي منازل القمر، وهو مأخوذ من ناء إذا سقط، وقال آخرون: بل النوء طلوع نجم منها وهو مأخوذ من ناء إذا نهض[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١/١٢٥) واللفظ له.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٤١٠.

(٣) فتح الباري ٧٠٦/٢، ورياض الصالحين ٥٨٩.

(٤) فتح الباري ٦٠٨/٢، وللاستزادة يراجع النهاية ٩٤٤.

الشرح الأدبي

ما أجمل هذا المشهد الواقعي.. الذي يعد أحد مشاهد السيرة النبوية العطرة، وما أعظم الدرس الذي يعلمه النبي لأصحابه عن طريق الحوار الواقعي الهادئ المقنع، وهذا المشهد السّردي الواقعي تكاملت عناصره البنائية، ففيه الحدث: الزمان والمكان، والحوار، والأشخاص، والراوية الذي يسرد الحكاية ويقص الخبر، ويحكي الواقعة.

فالحدث: صلاة الصبح ثم نزول المطر، والزمان، وقت الصبح، والمكان: الحديبية، وهو الشميسي الآن، وهو قريب من مكة، والحوار دار بين رسول الله ﷺ ومن حضر الصلاة من الصحابة.

وأما الموقف فهو تؤطره المفارقة والتضاد بين الفريقين إزاء استقبال ظاهرة المطر، ويبدأ الحوار: باستفهام تقريري وحقيقي من رسول الله ﷺ للصحابة: أتدرون: ماذا قال ربكم؟، فيقول الصحابة: الله ورسوله أعلم، وهذا تأدب مع رسول الله ﷺ ووقوف منهم عند حد العلم؛ ويكتمل الحوار: وتحل العقدة، وتضيء الموقف كلمات رسول الله ﷺ.

ويقدم رسول الله الإجابة في أسلوب مشوق مؤثر يلفت الانتباه، ويزرع الحكمة في قلب كل مؤمن، ويعرض الرسول نموذجين من الناس: النموذج المؤمن، والنموذج الكافر. وهما متضادان، ويمثلان مفارقة في الموقف، وبعد هذا الإجمال المثير للانتباه يفصل الرسول الأمر، فمنطق الإنسان هو الذي يقوده للإيمان وهو الذي يقوده للكفر في هذا السياق، وهو موقف كل فريق من المطر: هل من فضل الله ورحمته أم من النوء؟؟!، فمن اعتقد أن المطر بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بالله كافر بالكواكب، ومن اعتقد أن المطر فاعله وموجده النوء: أي حركة النجوم- كما كان يعتقد الجاهلون: فهو كافر بالله مؤمن بالكواكب.

ولنتأمل هذه الدلالات في هذا السياق: الإيمان والكفر: فالإيمان بالله واجب ومحمود وهو سمة المسلم الحقيقي والإيمان بالكواكب خروج عن الاعتقاد الصحيح، ومصير صاحبه الهلاك.

والكفر بالكواكب محمود ومطلوب شرعاً، أما الكفر بالله..... فهو خروج عن الملة، ويؤدي صاحبه إلى الخسران المبين، ومثواه جهنم وبئس المصير، وكل ذلك مرتبط بما يقوله اللسان، ويكشف عنه البيان، فتأمل دلالات الألفاظ، وارتباطها بالسياقات والقرائن، واختلاف الدلالة تبعاً لاختلاف الجو والمناخ الأسلوبي، ودوائر المعاني، وفضاءات المباني. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: النهي أن يقول عند نزول المطر: "مطرنا بنوء كذا"(١) ويندب أن يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته(٢).

فإن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر، ومنشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، فهو كافر كما قال رسول الله ﷺ، وذلك لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئاً ولا يمطر، ولا يصنع شيئاً(٣).

أما من قال: "مطرنا بنوء كذا" معتقداً أنه من الله وبرحمته وأن النوء وقت له، أي أن الله أجرى العادة أن يأتي المطر في هذه الأوقات فذاك جائز(٤)، إلا أن الإمام الشافعي قال: (وغيره من الكلام أحب إليّ)(٥).

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة الحديبية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ ٥٤٩/١، والأم للإمام الشافعي ٢٥٣/١، وروضة الطالبين ٩٥/٢، والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ١٩٥/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٤٦١/٢، ومنار السبيل ١٦١/١، ودليل الطالبين ٥٧/١.

(٢) المنهج القويم ٤١٩.

(٣) الأم، الإمام الشافعي ٢٥٣/١، وشرح صحيح مسلم ٦٠/٢، ومنار السبيل ١٥٦/١.

(٤) الأم، الإمام الشافعي ١٥٣/١، والإقناع ١٩٥/١، وشرح صحيح مسلم ٦١/٢، وعون المعبود ٢٨٦/١٠.

(٥) الأم، الإمام الشافعي ١٥٣/١.

ثالثاً: من فقه الداعية: استغلال الأحوال والمناسبات المختلفة لبيان الحقائق.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن قول: مطرنا بنوء كذا.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة الحديبية:

هذا واضح في قول زيد بن خالد رضي الله عنه "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بالحديبية"، قال ابن كثير: "وكانت في ذي القعدة سنة ست بلا خلاف"[١].

وقد انتهت بعقد صلح بين المسلمين والمشركين، وقد كان هذا الصلح فتحاً مبيناً، قال الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"[٢].

وقال الدكتور محمد أبو شهبة عن مكاسب المسلمين في صلح الحديبية: "اعترفت قريش بالمسلمين اعتراف الند بالند، وفي ذلك دعاية للإسلام لا يستهان بها إن لم تكن ذات بال عند قريش فسوف يسمع بها العرب، وفي ذلك تمهيد لاتساع نفوذ الإسلام وسطوته، إن هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة وما يتاخمها من الدول والإمارات، وهذا ما كان، فقد كاتب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك والأمراء وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل"[٣].

وقال الدكتور محمد فوزي فيض الله: "وترتب على ذلك اعتراف قريش بوجود دين جديد، له تصوراته ومفاهيمه التي تختلف تماماً عن تصوراتهم ومفاهيمهم ومعتقداتهم، وبحق هذا الدين في ممارسة شعائره حول البيت مع وجود أصنامهم، وتماثيلهم فيه،

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٦/٢٠٦.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٣/٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/٣٤٠.

وهي من أول ما يحقره هذا الدين ويسفهه ويضلله ويدعو إلى نبذه وطرحه قبل كل شيء وهذا الاعتراف يعني تراجع قريش وتخاذلها عن نصرة مبادئها العقدية، وتساهلها نسبياً في شؤون دينها العتيق المتوارث، وبمقدار هذا التراجع يكون تقدم المد الإسلامي ورسوخ مبادئه وأفكاره وإن هذا التراجع لهو أول النهاية الحتمية التي خطتها قريش في هذا الصلح لنفسها ولمستقبل آلهتها"[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

وهذا واضحٌ من قوله ﷺ: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم)، قال ابن حجر: "في هذا الحديث طرح الإمام المسألة على أصحابه وإن كانت لا تدرك إلا بدقة النظر"[٢].

وقال ابن عثيمين: "إنما ألقي عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا، لان إلقاء الأسئلة يوجب الانتباه، قالوا: الله ورسوله أعلم، وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله ورسوله أعلم في الأمور الشرعية أما الأمور الكونية القدرية فهذا لا يقول: ورسوله أعلم، لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب. المهم أنهم قالوا: الله ورسوله أعلم وهذا من الأدب"[٣].

ثالثاً- من فقه الداعية: استغلال الأحوال والمناسبات المختلفة لبيان الحقائق:

وهذا واضح من الحديث: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء -أي مطر- كانت من الليل، فلما انصرف وأقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب).

---

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ط/١ دار القلم، دمشق: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٩١.

(٢) فتح الباري ٢/٤٢٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٨٥.

وقال ابن هبيرة: "وفيه أيضاً تنبيه على أن الآدمي بلغ من إغضاب ربه، وإسخاط خالقه سبحانه إلى المبلغ الذي لا يقوم له السماوات والأرض؛ لأنه سبحانه وتعالى ينزل الغيث على عباده رحمة لهم، ونظراً في أحوالهم ليستدلوا بذلك على إحسانه سبحانه، ويشكروا فضله ويعتبروا رحمته، فلا يكونون من شكر النعمة بحيث يستحق ولا يقفوا على المقام الدون على ألا يشكروا؛ بل تخرجهم تلك النعمة بعينها إلى أن يسندوها إلى غير الله وينحوها افتراء منهم إلى سواه سبحانه"[١].

فالنبي ﷺ قد استغل مناسبة سقوط المطر ليوضح للمسلمين القول الذي يصبح به المدعو مؤمناً، والقول الذي يصبح به كافراً.

ومن قبيل استغلال الداعية الأحوال والمناسبات لتوصيل رسالة دعوية للمدعوين ما رواه جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُونَ[٢] فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافعلوا))[٣].

"ولا شك أن انتهاز المناسبة هو من أعظم العوامل المؤثرة في إصلاح المجتمع وتربية الأمة واستصلاح الأفراد"[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن قول: مطرنا بنوء كذا:

وهذا واضح من الحديث، قال النووي: "وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا، على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله سبحانه وتعالى، سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشيء للمطر،

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٨/ ٣٠.

(٢) يروى بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه. ومعنى التخفيف: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض. والضيم: الظلم. النهاية في (ض ي م).

(٣) أخرجه البخاري ٧٤٣٤، ومسلم ٦٣٣.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ٩٩.

كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم. وهذا ظاهر الحديث.

قالوا: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة. فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر. واختلفوا في كراهته. والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فيساء الظن بصاحبها، ولأنه شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب: ((أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَكَافِرٌ))[1]، وفي الرواية الأخرى ((مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلاَّ أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ))[2]، وفي الرواية الأخرى: ((ما أنزل الله عزَّ وجلَّ من السماء بركة إلا أصبح كثير من الناس بها كافرين))[3]، فقوله بها يدل على أنه كفر بالنعمة"[4].

وقال ابن حجر: "قال ابن قتيبة: وكانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء، إما بصنعه على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً في ذلك فكفره كفر تشريك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر على المعنيين لتناول الأمرين"[5].

---

(١) أخرجه مسلم ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٧٢.

(٣) أخرجه مسلم بعد الحديث ٧٢.

(٤) شرح صحيح مسلم ٦٢/٢/١ - ٦٣.

(٥) فتح الباري ٤٢٥/٢، وانظر: المفهم، للقرطبي ٢٥٨/١ ٢٦٣.

وقال ابن عثيمين: "كثير من العامة عندنا يقولون: مطرنا بالفصل، مطرنا كذا وكذا وليسوا يقصدون بهذا السببية وإنما يقصدون الظرفية، أي أن المطر صار في هذا الوقت وهذا لا بأس به"[١].

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٨٢/٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من أسس التربية الإسلامية: العقيدة الصحيحة:

تقوم التربية الإسلامية على عدد من الأسس التي تحدد ملامحها واتجاهاتها وترسى معالمها، ومن أول هذه الأسس: العقيدة الإسلامية الصحيحة، ولذا كان الرسول ﷺ يهتم اهتمامًا شديدًا بتصحيح العقيدة وبيان ما يجب أن يُربى عليه المسلم من عقيدة صحيحة، وكان ﷺ يغتنم المناسبات لبيان ذلك، مما يساعد على ترسيخ الفهم الصحيح، وفي حديث الباب يسأل النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم فيقول: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وفي حديث الباب يبرز النبي ﷺ العقيدة الصحيحة التي يجب أن تستقر في قلب المسلم، والتي يجب أن تترجم إلى أقوال وسلوكيات، وبين ذلك من خلال ما أخبر به عن رب العزة جل وعلا: فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته بأن أقرّ واعترف بتفرد الله تعالى، في الفضل والإنعام على عباده، فهو سبحانه المسخر للسحاب، المقدر لكل شيء، فهذا القول ينم عن العقيدة الصحيحة التي لابد من ترجمتها إلى سلوكيات عملية، وهذا برهان على الإيمان، لأن الإنسان يقر بالفضل للمنعم سبحانه، ولم ينسب ذلك إلى مخلوق من مخلوقات الله حتى وإن كانت هناك أسباب فهي ليس لها تأثير وإنما إرادة الله تعالى، وأمره الذي بين الكاف والنون فلا يعجزه شيء، تلك هي التربية الإسلامية التي ينبغي أن تكون واضحة المعالم راسخة في قلب الإنسان، أما إذا عُوّل على الأسباب فهذا ما يتنافى مع الإيمان، لأنه جحود وإنكار مما يوقع في دائرة الكفر، لأن الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته في الوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة ، والباطنة عليه، وعلى جميع الخلق، ويضيفها إليه

ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه[1].

فعلى المربي التوجيه والإرشاد إلى أن الكون والإنسان والحياة مخلوقة لله عز وجل، والله تعالى أزلي الوجود وهو المتصرف في الكون والإنسان والحياة بإرادته[2]، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء. لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد[3].

من هنا يبرز أثر العقيدة الإسلامية بوصفها الأساس الأول من أسس التربية في الإسلام.

إن غرس العقيدة الإسلامية في نفس المسلم يعد من مهام المربي المسلم ليجعل سلوك الفرد متفقًا مع أهداف التربية الإسلامية، ويضمن بالتالي تحقيق التوازن النفسي والوجداني عند الفرد بخاصة حيال مظاهر الكون، وأخيرًا يستطيع أن يصدر الأحكام المبنية على التصورات الإسلامية الصحيحة للأشياء والظواهر والعلاقات بصور صحيحة[4].

ثانيًا: التربية بالحوار والمناقشة والاستفهام:

لقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب بكثرة في تربية أصحابه رضي الله عنهم وتوجيههم وإعدادهم إعدادًا إسلاميًا صحيحًا، وهو أسلوب يدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم، والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهو طريقة لا يمكن أن يكون المتعلم فيها سلبيًا أو مصدقًا لما يسمعه دون فهم وإدراك، وقد توجه الأسئلة من المربي إلى المتعلم بطريقة تقوده لأن يتوصل بنفسه إلى الحقيقة[5].

---

(١) انظر: القول السديد، السعدي، ٩٣، ٩٤، نقلًا عن الموسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ص١٥٤، ١٥٥ بتصرف شديد.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابولاوي، ص٧٤.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الدمشقي الحنفي، ١/٧٥-٧٨.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. امين أبولاوي، ص٨٦.

(٥) انظر: فلسفة التربية في الحديث النبوي، د. عبدالجواد سيد بكر، ص٢٣٣.

وذلك أن الاستفهام في أصل وضعه، يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موقعه، وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه، ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه، فإذا كان الاستفهام تقريرًا فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف، وينزع منه الإجابة بعد التدبر والأناة التي يقتضيها أسلوب الاستفهام[١].

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الاستفهام في قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟». من أجل إثارة انتباه الصحابة رضي الله عنهم فالرسول يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»، وهذا يوجب استحضار قلوبهم[٢].

وقد أراد النبي ﷺ بهذا الحوار وهذه المناقشة والاستفهام إبطال اعتقاد الجاهلية بأن المطر ينزل بالأنواء، وبيان نزول المطر وانحباسه يرجع إلى إرادة الله وتقديره وحكمته، وليس لطلوع النجوم وتأثيره فيه[٣].

فعلى المربي الاستفادة من أسلوب الحوار والمناقشة والاستفهام في تصحيح وإيضاح العقيدة الصحيحة وإزالة اللبس والأخطاء وما يخالف العقيدة.

ثالثًا: التربية بالحدث والمشاهدة:

التربية بالحدث والمشاهدة تعني استثمار الفرصة المناسبة لموقف معين أو حدث طارئ، أو مشهد، في توجيه موعظة مؤثرة تكون الفرصة المناسبة، أو الحدث الطارئ، أو المشهد المثير، مفتاحًا لهذه الموعظة، وعاملاً نفسيًا دافعًا لتقبلها.

والحياة الدنيا أغلب أوقاتها أحداث وسلوكيات، وأعمال يقوم بها الإنسان، وهذه الأحداث والسلوكيات والأعمال، منها ما هو مقبول معتاد، ومنها ما هو غير مقبول يطرأ أحيانًا وينبغي تصحيحه، وهذا من واجب المربي الذي يحسن كيف يستثمر

---

(١) انظر: أسلوب الدعوة القرآنية، د. عبدالغني محمد سعيد، ص١٧٢.

(٢) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين، ٢/ ٤٣.

(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص١٢٦.

الفرصة والحدث لتصحيح السلوكيات الخاطئة، وتقويم المعوج منها وتصويبه[١]. وقد كانت الأحداث في حياة الجماعة المسلمة الأولى والتوجيهات القرآنية المنزلة فيها، من أبلغ وسائل التربية لهذه الجماعة وأعمقها أثرًا فيها، ففي كل حدث درس، وفي كل درس عبرة لا تنسى[٢].

وقد كان الرسول ﷺ يستثمر الحدث الطارئ، أو الفرصة المناسبة، أو المشهد، لتوجيه أصحابه وحثهم على التأمل والتدبر، والعظة والعبرة، لما يشاهدون أو يسمعون، ولا يدعه يمر دون تصويب رأي معين أو تعديل سلوك خاطئ، أو تقويم خلق منحرف[٣]، وقد استثمر ﷺ في هذا الحديث الذي نحن بصدده حَدَثَ ومشْهدَ نزول المطر، ووجه لهم الاستفهام عما يريد تصحيحه لهم، من اعتقاد باطل وأرشدهم إلى صحيح الدين وصوّب لهم خطأهم وبين أن المطر من نعم الله وفضله وأنه تعالى هو المتصرف فيه ولا علاقة للكواكب والنجوم به.



(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ٢/١٥١.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٣٨٥.

٣٢٦- باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر

الحديث رقم (١٧٣٤)

١٧٣٤- عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((إذَا قَالَ الرَّجُلُ[1] لأَخيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ)) متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله عمر بن الخطاب: سبقت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

باء بها أحدهما: التزمه ورجع به[3].

الشرح الأدبي

الكلمة الطيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، هذا هو المنهج الإسلامي
إقامة العلاقات بين أبناء الأمة الإسلامية، وهو قائم على دعائم راسخة من ا
والقربى، والخطاب المشحون ترغيباً وتراحماً وعطفاً وإخاءً.

والحديث في بنائه الأسلوبي يجسد هذه المعاني الوضيئة، والقيم الجميلة ا
أن يسود إيقاعها، ويُجمِّل لغة الخطاب الذاتي والجمعي بين طوائف الأمة ك

وأسلوب الشرط والجواب يسيطر على صياغة الحديث، لأن موضو
ونتائج: فالجملة الشرطية الأولى تتضمن داخل دائرتها أسلوب نداء، و
يا كافر.. وهو محاصر بين الشرط والجواب، حيث يقول المصطف

---

(١) لفظ مسلم: (أيّما امرئ قال)، ولفظ البخاري: (أيّما رجل قال)، والمثبت لفظا

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم بعد حديث (٦٠/١١١، بدون رقم) واللف
(٤٠٨٦).

(٣) النهاية في (ب و أ).

قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما"، وأداة الشرط "إذا" وهي تفصح عن تحقق هذا القول، وقوله: الرجل: أي المسلم، ولم يقلها: لأن السياق يحتم أن يكون مسلماً مؤمناً لأنه يتهم أخاه بالكفر، والكافر لا يُعبِّر بالكفر، وقوله: "لأخيه" تفيد الإشعار بأن هذا القول فيه تَجنٍّ وإهدار لحق الأخوة الإسلامية.

وجواب الشرط: "فقد باء بها أحدهما" وهذا تلميح في ثوب التصريح: أي أن أحدهما كافر: القائل أو المقول له: والفعل "باء"، بمعنى رجع: ولكنه يوحي بالعذاب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

والجملتان الباقيتان: تفصيل وتوضيح لما أجمله الرسول ﷺ وألمح إليه في الجملة الشرطية الأولى وهما شرطيتان كذلك، ولكنهما تنطويان على سرٍّ بلاغي وهو الإيجاز

ف، فالأولى، حذف منها: جواب الشرط، وحذفه للنفور من التصريح بالكف ،

كان كما قال: فهو من أهلها، أي من أهل ملة الكفر.

، منها: فعل الشرط: والتقدير وإن لم يكن المقول له كذلك، بأن

جعت عليه، أي أن القائل هو الذي يتحمل عبء هذه الصفة،

' أحدهما" فالبيان النبوي كما قال الجاحظ: هو الذي قل

حلّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، ﷺ.

ديث

ام أخاه المسلم بذنب، أو بتأويل لا

حيث إن ظاهرها غير

صي، كالقتل والزنا،

لام.

إذا علم ما تقدم، فقد قيل في تأويل الحديث أوجه:

أحدها: أنه محمول على المستحلّ لذلك، وهذا كفر، فعلى هذا يكون معنى "باء بها" أي بكلمة الكفر، وكذا "حار عليه" أي رجع عليه الكفر.

الوجه الثاني: معناه: رجعت عليه نقيصته لأخيه، ومعصية تكفيره.

الوجه الثالث: أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا الوجه نقله القاضي عياض عن مالك، وقد ضعفه النووي إذ اختار أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع.

الوجه الرابع: معناه: أنه يؤول به إلى الكفر، وذلك لأن المعاصي بريد الكفر، ويخاف على المكثر منها، أن يكون عاقبة شؤمها المصير إلى الكفر.

الوجه الخامس: معناه فقد رجع عليه تكفيره، فليس الراجع حقيقة الكفر، بل التكفير، لكونه جعل أخاه المؤمن كافراً، فكأنه كفر نفسه، إما لأنه كفر من هو مثله، وإما لأنه كفر من لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: تحريم قول المسلم لأخيه: يا كافر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من تكفير المسلمين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تحريم قول المسلم لأخيه: يا كافر:

وهذا واضح في الحديثين[٣]، جاء في الموسوعة الفقهية: "الأصل بقاء المسلم على إسلامه حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ صَلَّى

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/٤٩، ٥٠، وشرح ابن رجب على صحيح البخاري ١/٧٠، وشرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٧/٢٤٩.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٣٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٣٥).

(٣) الحديث رقم (١٧٣٤)، (١٧٣٥).

صَلاتَنا، واسْتَقبَلَ قِبلَتَنا، وأَكلَ ذَبيحتَنا، فهو المُسلِمُ له ما لنا وعليه ما علينا))[١]، ويجب قبل تكفير أي مسلم النظر والتفحص فيما صدر منه من قول أو فعل، فليس كل قول أو فعل فاسد يعتبر مكفراً، ويجب كذلك على الناس اجتناب هذا الأمر والفرار منه وتركه لعلمائهم؛ لخطره العظيم، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِها أَحَدُهُمَا فإِنْ كَانَ كما قال وَإِلاَّ رَجَعَتْ عليه)).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)).

ولا ينبغي أن يُكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره خلاف ولو كان رواية ضعيفة، وما يشك في أنه كفر لا يحكم به، فإن المسلم لا يخرجه من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك مع أن الإسلام يعلو، فإن كان في المسألة وجوه توجب التكفير، ووجه واحد يمنعه، فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير، لعظم خطره وتحسيناً للظن بالمسلم، ولأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية، ومع الشك والاحتمال لا نهاية"[٢].

وقال ابن تيمية: "ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٣]، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩١.

(٢) الموسوعة الفقهية ١٣/٢٢٨ – ٢٢٩، ومصادرها ومراجعها.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٢٥.

والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم عليٌّ بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار، ولهذا لم يُسب حريمهم ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا، مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحل دمها، وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا؟، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه.. فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم، وكلهم مسلمون مؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]، فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ العلم عن بعض، ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك"[2].

وقال ابن عثيمين: "ومسألة التكفير مسألة خطيرة جداً، فتح بها أبواب شر كبيرة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧٦/٢ - ١٧٨ .

على الأمة الإسلامية"[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من تكفير المسلمين:

وهذا واضح من الحديثين: "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه"، و"من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه" ورواية البخاري لحديث أبي ذر: (لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك).

قال ابن حجر: "وهذا يقتضي أن من قال لآخر: أنت فاسق، أو قال له: أنت كافر، فإن كان ليس كما قال كان هو المستحق للوصف المذكور، وأنه إذا كان كما قال لم يرجع عليه شيء، لكونه صدق فيما قال. ولكن لا يلزم من كونه لا يصير بذلك فاسقاً ولا كافراً ألا يكون آثماً في صورة قوله له: (أنت فاسق)، بل في هذه الصورة تفصيل: إن قصد نصحه أو نصح غيره ببيان حاله جاز، وإن قصد تعييره وشهرته بذلك ومحض أذاه لم يجز، لأنه مأمور بالتستر عليه وتعليمه وعظته بالحسنى. فمهما أمكنه ذلك بالرفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف، لأنه قد يكون سبباً لإغرائه وإصراره على ذلك الفعل، كما في طبع كثير من الناس من الأنفة، لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في المنزلة"[٢].

أما إذا كان المقول له غير ما وصفه القائل بالكفر، أو أنه عدو الله، فإن ذلك يرجع عليه، قال ابن حجر: "قال النووي[٣]: "اختلف في تأويل هذا الرجوع فقيل: رجع عليه بالكفر إن كان مستحلاً، وهذا بعيد من سياق الخبر، وقيل: محمول على الخوارج لأنهم يكفرون المؤمنين، هكذا نقله عياض عن مالك[٤] وهو ضعيف، لأن الصحيح عند الأكثرين أن الخوارج لا يكفرون ببدعتهم، قلت - أي ابن حجر - ولما قاله مالك

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٨٦.

(٢) فتح الباري ١٠/٤٦٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١/٢/٤٩ - ٥٠.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/٣١٨.

وَجْه، وهو أن منهم من يكفر كثيراً من الصحابة، ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وبالإيمان، فيكون تكفيرهم من حيث تكذيبهم للشهادة المذكورة، لا من مجرد صدور التكفير منهم بتأويل... والتحقيق أن الحديث سيق لزجر المسلم عن أن يقول ذلك لأخيه المسلم، وذلك قبل وجود فرقة الخوارج وغيرهم.

وقيل: معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره، وهذا لا بأس به، وقيل: يخشى عليه أن يؤول به ذلك إلى الكفر كما قيل: المعاصي بريد الكفر، فيخاف على من أدامها، وأصرّ عليها سوء الخاتمة، وأرجح من الجميع أن من قال ذلك لمن يعرف منه الإسلام ولم يقم له شبهة في زعمه أنه كافر، فإنه يكفر بذلك، فمعنى الحديث: فقد رجع عليه تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر، فكأنه كفر نفسه، لكونه كفر من هو مثله، ومن لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام، ويؤيده أن في بعض طرقه: وجب الكفر على أحدهما[1].

وقال القرطبي[2]: "والحاصل أن المقول له إن كان كافراً كفراً شرعياً، فقد صدق القائل وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه، وهو من أعدل الأجوبة، وقد أخرج أبو داود عن أبي الدرداء بسند جيد رفعه: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِيناً وَشِمَالاً فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا))[3]"[4].

---

(١) عبارة النووي في شرح مسلم ١/٢/٥٠: الوجه الرابع: معناه: أن ذلك يؤول به إلى الكفر وذلك أن المعاصي كما قالوا: بريد الكفر، ويخاف على المكثر منها أن يكون عاقبة شؤمها المصير إلى الكفر، ويؤيد هذا الوجه ما جاء في رواية أبي عوانة الإسفراييني في كتابه المخرج على صحيح مسلم: فإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر، وفي رواية: إذا قال لأخيه يا كافر وجب الكفر على أحدهما، والوجه الخامس: معناه: فقد رجع عليه تكفيره فليس الراجع حقيقة الكفر، بل التكفير لكونه جعل أخاه المؤمن كافراً، فكأنه كفر نفسه إما لأنه كفر من هو مثله، وإما لأنه كفر من لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام.

(٢) المفهم ١/٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩٠٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٩٩:٤).

(٤) فتح الباري ١٠/٤٦٦ - ٤٦٧.

وقال ابن هبيرة عن حديث أبي ذر رضي الله عنه : "فيه شدة الخطر على من رمى أخاه المسلم بالكفر، فإنه بهذا الحديث على يقين من ارتدادها إليه، إن لم يكن أخوه كما ادعاه، فليحذر أن يقولها أبداً لمن هو من أمره في شك، فإنه على سبيله في ارتداده عليه، إن لم يكن كما ذكره بيقين"[١].

وقال ابن دقيق العيد: "وأما من وصف غيره بالكفر فقد رتب عليه الرسول ﷺ قوله: (حار) بالحاء المهملة: أي رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[٢]، أي يرجع حيّاً، وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحداً من المسلمين وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد، فغلّطوا على مخالفيهم وحكموا بكفرهم،... والحق أنه لا يكفر أحدٌ من أهل القبلة إلا بإنكار متواتر من الشريعة عن صاحبها، فإنه حينئذٍ يكون مكذباً للشرع، وليس مخالفة القواطع مأخذاً للتكفير، وإنما مأخذه مخالفة القواعد السمعية القطعية طريقاً ودلالة. وعبر بعض أصحاب الأصول عن هذا بما معناه: أن من أنكر طريق إثبات الشرع لم يكفر كمن أنكر الإجماع، ومن أنكر الشرع بعد الاعتراف بطريقه، كفر، لأنه مكذب"[٣].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

لقد تضمن الحديثان ترهيباً من تكفير المسلمين، لأن ذلك قد يعود على القائل نفسه فيلحق به ما رمى غيره به، وفي هذا ترهيب من هذا القول وهذا الفعل ما بعده ترهيب وتخويف، "ولهذا يجب أن ينزه الإنسان لسانه وقلبه عن تكفير المسلمين"[٤].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٠/٢.

(٢) سورة الانشقاق، آية: ١٤.

(٣) عمدة الأحكام ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٧٨٧/٢.

الحديث رقم (١٧٣٥)

١٧٣٥- وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّه سَمِعَ رسُولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ دَعَا رَجُلاً بالكُفْرِ، أو قالَ: عَدُوَّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذلكَ إلاَّ حَارَ عَلَيْهِ)) متفق عليه[1]. "حَارَ": رجع.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

الشرح الأدبي

مضمون هذا الحديث يتفق مع مضمون الحديث السابق وهو: التحذير من اتهام المسلم بالكفر، أو وصفه بأنه عدو الله، لأن في ذلك سباً وقذفاً، وإخراجاً من العقيدة الصحيحة، ولا يوجد أبشع من هذه التهمة، ولذلك جاء أسلوب الحديث متسقاً مع التحذير الشديد من خطورة هذه التهمة الباطلة التي تزلزل كيان الجماعة المؤمنة، وقوله: "من" وهو اسم موصول بمعنى الذي، ويتضمن معنى الشرط في الحديث: وهذا اللفظ يمكن أن يحتوي على كل الحالات التي يتهم فيها أناس بالكفر الأبرياء، الذين لم يخرجوا عن الدين الإسلامي، فالحديث قاعدة شرعية محددة، وقوله: "دعا رجلاً"، أي نادى رجلاً مسلماً وقال له أقبل يا كافر، أو قال له بدون نداء، أنت عدو الله، ثم يقول الرسول في إيجاز وإيحاء، "وليس كذلك" أي وليس الرجل كمثل ما قال: أي ليس كافراً، وليس عدو الله.

ويختتم الحديث بقوله "إلا حار عليه"، أي أن هذا الاتهام لابد أن يرجع إليه وأن يبوء ذلك المتهم بذلك الذنب وهو الكفر، وقوله: و"ليس كذلك إلا حار عليه": أسلوب قصر، أي أن هذه التهمة المتمثلة في ذلك القول مقصورة على قائلها، وراجعة عليه، وتأمل قوله ﷺ: "عليه": ولم يقل: "إليه" لأن الرجوع عليه، يوحي بالعقاب والسخرية والوعيد، أما الرجوع إليه فيوحي باستعادة الحق، وامتلاك هذا العائد الذي كان قد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١/١١٢) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٨٧).

فقده، وما أحوج الشباب المسلم في عصرنا، وما أحوج بعض علماء الأمة إلى فقه هذا الحديث، والعمل به، لأن أخطر الأحداث، وأعتى المشاكل، وأفدح المصائب، تكمن في إصدار فتاوى التكفير بغير علم وبغير حق، نسأل الله الهداية والنجاة، والعمل بالكتاب والسنة، وإسلام الأمر لله فيما يشكل علينا من الأمور.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولا: من أهداف التربية الإسلامية: البعد عن التنطع والغلو في تكفير المسلمين:

إن من المفاهيم الخاطئة التي يربى عليها بعض الشباب المسلم: الغلو والتنطع واتباع العاطفة الهوجاء التي لا تنضبط بضوابط الكتاب والسنة، فيخرجون من الإسلام ويحكمون بالكفر على من تلبس ببعض المعاصي الظاهرة، وإن كانت هذه المعاصي لا تنافي أصل التوحيد، ولا يستحلها أصحابها[1].

وقد حرّم الإسلام وصف المسلم بالكفر كما في حديثي الباب حيث قال ﷺ: «إذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ».

وقال ﷺ: «مَنْ دَعا رَجُلاً بالكُفْرِ أو قالَ: عَدُوُّ اللهِ ولَيْسَ كَذَلِكَ، إلا حارَ عَلَيْهِ».

فعلى المسلم أن ينأى بنفسه عن تكفير المسلمين.

قال الطحاوي: "ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب مالم يستحله"[2].

فالمعاصي بمجردها لا تدل على خروج صاحبها من ملة الإسلام ودخوله في الكفر، وقد قال النبي ﷺ: «لا تَلْعَنُوهُ، فواللهِ ما علمتُ أنه يحبُّ اللّه ورسولَه»[3].

فالمعاصي لا تنافي أصل الإيمان، ولكن تنافي كمال الإيمان.

وقال الطحاوي رحمه الله كذلك: "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.."[4]، فقد جعل الله عز وجل للإسلام بابًا وهو الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن فعل فعلاً أو قال قولاً يتنافى مع هذا الإقرار السابق يخرج به من ملة الإسلام إلى ملة الكفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[5].

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص١٢٩.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٧٨٠.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/٤٥٨.

(٥) سورة النساء، الآية ٤٨.

وقال ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ إِيمَانٍ»[١].

قال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق: "ولكن التشدد والتطرف الذي هو آفة الآفات، وغاية الشرور، وسبيل هدم الدين وتمزيق جماعة المسلمين، هو الغلو في التكفير، والتنطع بإخراج المسلم عن الإسلام بالمعصية التي لا تبلغ درجة الكفر، واستحلال دمه وماله بذلك، وهذا النوع من الغلو هو الذي فرق أمة الإسلام على عهدها الأول، ففي طريقه استحلت طائفة من المسلمين دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، زاعمين أنه لا يسير على طريقة الشيخين، واستحلوا بعد ذلك قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه..."[٢][٣].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

من أساليب التربية في هذا الباب التربية بالترهيب، حيث رهب النبي ﷺ من رمي المسلم بالكفر أو بأنه عدو لله..

فإن الحكم على الإنسان بالكفر حكم خطير له آثاره العظيمة، فلا يجوز لمسلم أن يقدم عليه إلا ببرهان واضح، ودليل ساطع[٤]، لذا قال النبي ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا...».

وقال ﷺ: «مَنْ دَعا رَجُلاً بالكُفْرِ أو قالَ: عَدُوُّ اللَّهِ ولَيْسَ كَذَلِكَ، إلا حارَ عَلَيْهِ».

قال ابن دقيق العيد: "وهذا وعيد عظيم لمن كفّر أحدًا من المسلمين، وليس كذلك وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق من العلماء اختلفوا في العقائد وحكموا بكفر بعضهم بعضًا[٥].

---

(١) أخرجه البخاري، ٧٤٣٩، ومسلم، ١٨٣مطولًا، والترمذي، ٢٥٩٨ واللفظ له.

(٢) فصول في السياسة الشرعية في الدعوة، ١٢٥، ١٢٦؛ باختصار.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص١٢٩-١٣١.

(٤) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٢٦١.

(٥) انظر: الكفر الذي يعذر صاحبه بالجهل، وحكم من يكفر غيره من المسلمين، عبدالله ابابطين، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٤٠١هـ، ص٨.

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها التربية بالتحذير والترهيب من التكفير والزجر عنه لأنه حكم شرعي، مضبوط بضوابط معلومة من نصوص الكتاب والسنة، فلا يصار إليه بمجرد الهوى والجهل، فإن "من ادعى دعوى وأطلق فيها عنان الجهل مخالفاً لجميع أهل العلم، ثم مع مخالفتهم يريد أن يكفر ويضلل من لم يوافقه عليها، فهذا من أعظم ما يفعله كل جهول"[1]، ولأن أصل الإيمان والكفر محلهما القلب، ولا يطلع على ما في القلوب إلا الله[2].

فعلى المربي أن يستخدم أسلوب التربية بالترهيب من مزلق تكفير الناس ويمكن أن يبين خطورة هذا الأمر بإيضاح الآثار الخطيرة المترتبة على هذا الأمر التي منها:

١ - عدم حل زوجته له، وتحريم بقائها وبقاء أولادها تحت سلطانه.

٢ - وجوب محاكمته لتنفيذ حد الردة عليه بعد إقامة الحجة والاستتابة.

٣ - أنه إذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين، فلا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث.

٤ - أنه إذا مات على الكفر وجبت عليه لعنة الله والخلود الأبدي في النار[3].

فالتكفير لفظ بسيط ولكن خطره عظيم وتترتب عليه الآثار الخطيرة التي يجب على المسلم أن يربأ بنفسه عنها.

۞ ۞ ۞

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، ومعه الرد على الاخنائي: ابن تيمية، ط٢، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، دلهي، الهند، ١٤٠٥هـ، ص١٢٥.

(٢) الغلو في الدين، عبدالرحمن اللويحق، ص٢٦٢.

(٣) انظر: ظاهرة الغلو في التكفير، د. يوسف القرضاوي، ط٢، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٤٠٥هـ، ص٣١، ٣٢.

٣٢٧- باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان

الحديث رقم (١٧٣٦)

١٧٣٦- عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الفَاحِشِ، وَلاَ البَذِيِّ)) رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الطَّعّانُ: الوقّاعُ في أعراض الناس بالذمِّ والغيبة ونحوهما[٢].

اللعّان: الكثير السبِّ للنّاس[٣].

الفاحش: الذي ينطق لسانه بقَذَع الكلام ورديئه[٤].

البذيء: الفاحش القول[٥].

الشرح الأدبي

إن خلق المسلم ميزان شخصيته، ومعيار مصداقيته، والمؤمن من أَمِن جارهُ بوائقَه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وهذا البيان النبوي الكريم يَعْرِض مرآة المؤمن وهي مجلوَّة، ناصعة صافية، نقية ضافية.

---

(١) برقم (١٩٧٧)، وتقدم برقم (١٥٥٧). صحّحه ابن حبان (الإحسان ١٩٢)، وقال الحاكم (١٢/١): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٨٧٣): رواه الترمذي بإسناد صحيح وروي موقوفًا ومرفوعًا، وقال الدارقطني في العلل (٧٣٨): والموقوف أصحُّ.

(٢) النهاية في (ط ع ن).

(٣) الوسيط في (ل ع ن).

(٤) النهاية في (ف ح ش).

(٥) الوسيط في (ب ذ أ).

والحديث في منطوقه ينفي عن المؤمن هذه السلوكيات، التي لا يرتكبها إلا الحمقى والسفهاء من الناس، وفي مفهومه يؤكد أن المؤمن لسانه لا ينطق إلا بالحق، ولا يتحرك إلا بالصدق، وهو كما قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهو ليس من هذا الصنف الذي صورّه الشاعر في هذه الصورة السلوكية المرفوضة:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

والحديث في بنائه الأسلوبي يتكون من جملة واحدة، ومعطوف عليها ما يكملها أو يفصل جوانبها.

ويبدأ الحديث بالفعل الناقص الناسخ "ليس" وصيغة النفي هنا: تبرئ ساحة المؤمن من هذه الأدواء الضارة: الطعن ، واللعن، والفحش، والبذاءة.

ولكن هذه التبرئة تزداد رسوخًا، ونقاءً من خلال هذه الصيغ اللغوية التي جاءت في إطارها هذه الصفات فقوله "ليس باللعان"، صيغة مبالغة فليس المؤمن كثير اللعن، ولم يتخذ من ذلك عادة له أو سلوكًا يوميًا، واللعن هو: الطرد من رحمة الله، فهو لا يدعو على الناس بذلك حتى ولو كانوا من العاصين، وكذلك قوله: "ليس بالطعان"، فهو لا يتخذ من الطعن في الأنساب، أو الغمز واللمز، والتندر بالعيوب، سلوكًا يوميًا له، وعادةً لا يستطيع التخلص منها، وكذلك: الفاحش اسم فاعل، يفيد: القيام بفعل الفحش عن عمد وسبق إصرار، والفحش هو القول السيئ: الذي يخوض في أعراض الناس وسيرهم، أو يشوّه تعاليم الدين، أو آيات القرآن الكريم، بإقحامها في بعض الأشعار أو القصص، كما يفعل بعض المرجفين من الأدباء والشعراء، الذين لا يدركون القيمة الحقيقية للدين ومعالمه.

وفي الحديث وجه بلاغي آخر، وهو العدول عن مجيء خبر ليس صريحًا إلى مجيئه مقترنًا بالباء الزائدة ومقرنًا باللام التي تفيد التعريف والتخصيص، والباء مزيدة للحصر والتأكيد، وأصل الأسلوب هو، ليس المؤمن طعانًا، ولا لعانًا، ولا فاحشًا، ولا بذيئًا، والتعبير في صياغة الحديث أقوى أسلوبًا وأكثر إيحاءً، لأن المبني وعاءٌ للمعنى.

فقه الحديث

وفي الحديثين[1] من الفقه: تحريم الفحش، واللعن، والسب، وأن ذلك ليس من صفات المؤمن الكامل[2].

وقد عدّ ابن حجر الهيتمي سب المسلم، والاستطالة عليه من الكبائر[3].

ومحل حرمة اللعن إن كان معينًا بالشخص ولو فاسقًا، أو كافرًا حيًا أو ميتًا، لم يعلم موته على الكفر، لاحتمال أنه ختم له بالإسلام.

بخلاف من علم أنه ختم له بغير الإسلام، كفرعون، وأبي جهل فإنه يجوز سبه ولعنه، وكذا يجوز لعن غير المعين بالشخص، بل بالوصف كلعنة الله على الكاذبين، أو الظالمين[4].

وفيهما: بيان فضل الحياء، وأنه ما دَخل في شيء إلا زانه، إذ هو شعبة من الإيمان كما دلت على ذلك السنة الصحيحة.

المضامين الدعوية[5]

(١) الحديث رقم (١٧٣٦)، (١٧٣٧).

(٢) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٨٢/٤، والمجموع للنووي ٣٣٥/٤، والفواكه الدواني ٢٧٨/٢، وتهذيب السنن لابن القيم ١٧٢/١٣، ١٧٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٩٤/٦، وسبل السلام ١٩٨/٤.

(٣) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٨٢/٤.

(٤) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٨٢/١٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٩٤/٦.

(٥) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٥٧).

الحديث رقم (١٧٣٧)

١٧٣٧-وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ)). رواه الترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

شانه: عابه[٢].

زانه: جمّله وحسّنه[٣].

الشرح الأدبي

إن جمال الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، ينبع من هذه المفارقة التي تجمع طرفي الحديث، حيث التضاد والمقابلة بين الفحش والحياء، وبين الفعلين "شانه، وزانه"، فالفحش هو مجاوزة الحد المعروف شرعًا وعرفًا، والحياء هو: الإمساك عن اقتراف ما يعيب الإنسان، وعدم الاجتراء على المعاصي، وعدم الجهر بها، وكراهة الخوض في أحاديث الفحش واللهو.

ويؤازر الطباق في هذا الحديث: لون بديعي آخر هو: الجناس بين "شانه، وزانه"، وهو يحدث أثرًا صوتيًا مؤثرًا يدعو إلى عقد المؤازرة والمقارنة بين هاتين الحالتين، ففيهما: طباق، وجناس، وسجع.

وأسلوب الحديث جاء في صيغة: "القصر" عن طريق النفي والاستثناء، وهذا القصر

(١) برقم (١٩٧٤). قال المناوي في كشف المناهج (٣٩١٩): وهذا سند لا غبار عليه، رجاله من أجلّ أئمة الدين وأعظم علماء المسلمين، خرّج لهم الشيخان، إلا محمد بن عبد الأعلى، فإنه لم يخرج له البخاري. أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٩٤).

(٢) الوسيط في (ش ي ن).

(٣) الوسيط في (ز ي ن).

يفيد الحصر، وذلك يدعو إلى مزيد من تجنب الفحش، لأن العيب في الأشياء وقبحها مرتبط بالفحش، ومقصور عليه؛ وأما الحياء: فأسلوب القصر يؤكد التمسك بهذه القيمة الأخلاقية والسلوكية، لأنها من مظاهر الجمال والتحضر في السلوك الاجتماعي، وكلمة "في شيء" توحي بالتقصي، وعدم ترك أي مظهر: حركة أو فعلاً أو قولاً، إلا كان الجمال في مصاحبة الحياء قرينًا لذلك السلوك. والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: قبح الفحش.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضيلة الحياء.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: قبح الفحش:

وهذا واضح من قوله ﷺ: (ما كان الفحش في شيء إلا شانه)، قال الطيبي: "قوله: (في شيء) فيه مبالغة، أي لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لزانه أو شانه، فكيف بالإنسان"[1]، ولا شك أن هذا يدل على قبح الفحش، قال الراغب: "الفحش لغة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال"[2]، وقال ابن حجر: "الفحش كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، ويدخل فيه القول والفعل والصفة، يقال: طويل فاحش الطول إذا أفرط في طوله، لكن استعماله في القول أكثر، والمتفحش بالتشديد الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه"[3].

وقال الغزالي: "الفحش: التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون بها، ويدلون عليها بالرموز

(١) شرح الطيبي على المشكاة ١١٧/٩.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٣) فتح الباري ٤٥٣/١٠، ط/ السلفية.

فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها... وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أفحش من بعض، ربما اختلف ذلك بعادة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها... والباعث على الفحش، إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، أهل الخبث واللؤم، ومن عادتهم السب"(١).

ولهذا نهى النبي ﷺ عن الفحش فقال: ((وَإِيَّاكُمْ والفُحْشَ، فإنَّ الله لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ))(٢).

كما قال ﷺ: ((إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشِهِ))(٣).

وكان النبي ﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة الذميمة قال في وصفه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا))(٤).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((لم يكن النبي ﷺ سَبّاباً ولا فحاشًا ولا لعّانًا كان يقول لأحدنا عندَ المعتبة: ما لهُ تَرِبَ جبينهُ))(٥).

قال ابن حجر: "قال الداودي: قوله: ترب جبينه: إنها كلمة تجري على اللسان لا يراد حقيقتها"(٦).

"وإنما كان الفحش قبيحًا، لكونه يهون ارتكاب المنكرات والمعاصي، فإن من لا يستحيي يكون راكبًا للفواحش، مرتكبًا للقبيح، لا يحجزه ذلك حياء ولا دين، فلا يبالي من العار والمعاصي ما يأتي"(٧).

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/١٥٩٨ - ١٥٦٩.

(٢) أخرجه أحمد ٢/١٦٠ رقم ٦٤٨٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١١/٢٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٥٤، ومسلم ٢٥٩١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٢٩، ومسلم ٢٣٢١.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٣١.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٤٥٣.

(٧) التمهيد شرح الموطأ، لابن عبدالبر ٢٢/٤٨ موسوعة شروح الموطأ.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضيلة الحياء:

وهذا واضح من قوله ﷺ: (وما كان الحياء في شيء إلا زانه)، وذلك لأن الحياء في الشرع: "خلق يبعث على اجتناب القبيح من الأفعال والأقوال، ويمنع التقصير في حق ذي الحق"(١)، "والحياء من خصائص الإنسان وغريزة فيه، وإن كان استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فإنه يردع عن ارتكاب كل ما يشتهيه، فلا يكون كالبهيمة [ولذا] فإن الحياء بمعناه الشرعي مطلوب. وقد حث عليه النبي ﷺ ورغب فيه، لأنه باعث على أفعال الخير، ومانع من المعاصي، ويحول بينه وبين القبائح، ويمنعه مما يعاب به ويذم، فإذا كان هذا أثره فلا شك أنه خلق محمود، لا ينتج إلا خيرًا، فالذي يهم بفعل فاحشة فيمنعه حياؤه من اجتراحها، أو يعتدي عليه سفيه فيمنعه حياؤه من مقابلة السيئة بالسيئة، أو يسأله سائل فيمنعه حياؤه من حرمانه، أو يضمه مجلس فيمسك الحياء بلسانه عن الكلام، والخوض فيما لا يعنيه، فالذي يكون للحياء في نفسه هذه الآثار الحسنة، فهو ذو خلق محمود، فقد ورد أن النبي ﷺ مرّ على رجل يعظ أخاه في الحياء، فقال له: ((دَعْهُ، فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ))(٢)، وقال ﷺ: ((الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ))(٣).

وفي الصحيحين: ((كَانَ النبِيُّ ﷺ أَشَدَ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ، عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ))(٤)... قال العلماء: "الحياء من الحياة، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح"(٥)، وأولى الحياء: الحياء من الله، والحياء منه ألا يراك حيث نهاك ويكون ذلك عن معرفة

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٥٩/١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤، ومسلم ٣٦ من حديث عبداله بن عمر رضي الله عنهما واللفظ للبخاري، قال ابن حجر: كأن الرجل كان كثير الحياء فكان ذلك يمنعه من استيفاء حقوقه، فعاتبه أخوه على ذلك، فتح الباري ٩٤/١ ط/ الريان.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٧، ومسلم ٣٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦١٠٢، ومسلم ٢٣٢٠.

(٥) مدارج السالكين ٦٠١/٢.

ومراقبة، وهو معنى قوله ﷺ: ((الإحسان أن تَعبُدَ اللَّهَ كأنكَ تراه، فإن لم تَكنْ تراه فإنه يراك))[١].

وقال ابن القيم: "ومن كلام الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيي منه، وعمارة القلب بالهيبة والحياء، فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير"[٢].

ويجري في الحياء الأحكام التكليفية، فإن كان المستحيي منه محرمًا فالحياء منه واجب، وإن كان المستحيي منه مكروهًا فهو مندوب، وإن كان المستحيي منه واجبًا فالحياء منه حرام، وإن كان من مباح فهو عرفي أو جائز. فالحياء من تعلم أمور الدين وما يجب على الإنسان العلم به، ليس بحياء شرعي"[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

هذا واضح من الحديث، فقد أخبر النبي ﷺ أن الفحش صفة تشين صاحبها كما أن الحياء صفة تزين من يتحلى بها، ولا شك أن هذا ترغيب في خلق الحياء وتنفير من الفحش والتفحش، قال الطيبي: "قوله ﷺ: (في شيء)، فيه مبالغة أي لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لزانه أو شانه، فكيف بالإنسان"[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٩.

(٢) مدارج السالكين ٦٠١/٢.

(٣) الموسوعة الفقهية، ٢٦١/١٨ - ٢٦٢.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ١١٧/٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على صون اللسان:

من أهم أهداف التربية الإسلامية التربية على صون اللسان وحفظه من الآفات، ويعني ذلك كف اللسان عن الكلام في كل ما يخالف الشرع، والآداب والأخلاق العامة، وعن الخوض فيما تقتضي الحكمة السكوت فيه، بما يحفظ على الإنسان مروءته وكرامته، فلا يتجرأ عليه أحد من الناس، ولا يتهم في سيرته، ولا يظن فيه الخروج عن أعراف المجتمع وعاداته ونظمه[1].

من آفات اللسان التي ينبغي الاحتراز منها: الفحش والبذاءة، لذلك وضع النووي عنوان الباب باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان، وأورد فيه حديث ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ».

وحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه...» والفحش والسب من الأخلاق المذمومة التي يترفع عنها كل ذي طبع سليم وفطرة صافية فضلاً عن أن يكون ذا دين قويم وورع يقيه من التردّي في حمأة الرذيلة ويسمو به للتحلي بكل فضيلة. روي: «شتم رجل حكيمًا، فقيل له: هلا غضبت، فقال: كفاه خِسة أن يشتم ولا يشتم»[2].

وقد اتفقت الشرائع على ذم هذا الخلق والنهي عنه، والأمر بحفظ اللسان وتعهده[3].

لهذا وجب على الآباء والأمهات والمربين جميعًا.. أن يعطوا للأولاد القدوة الصالحة في حسن الخطاب، وتهذيب اللسان، وجمال اللفظ والتعبير... كما يجب عليهم أن يجنبوهم لعب الشارع، وصحبة الأشرار، وقرناء السوء حتى لا يتأثروا من انحرافهم، ويكتسبوا من عاداتهم، ويجب عليهم كذلك أن يبصروهم مغبة آفات اللسان، ونتيجة البذاءة؛ في

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، مجموعة من العلماء، ٨/٢١.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: د. سليم النعيمي، ط١، دار الذخائر للمطبوعات، قم إيران، ١٤١٠هـ، ٤٢٨/٢.

(٣) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ١٧/٢١.

تحطيم الشخصية، وسقوط المهابة، وإثارة البغضاء والأحقاد بين أفراد المجتمع.

وأخيرًا وجب على المربين أيضًا أن يلقنوا أولادهم الأحاديث التي تحذر من السباب والشتائم، والتي تبين ما أعد الله للفحّاشين واللعّانين من إثم كبير، وعذاب إليم... عسى أن ينزجروا بها، ويتأثروا بتوجيهاتها ومواعظها.[1].

ثانيًا: من أهداف التربية الإسلامية: غرس الحياء في النفوس:

إن من أبرز أهداف التربية الإسلامية غرس خلق الحياء، لأنه صفة أخلاقية غالبة لكثير من القيم والمكارم، فما ذكرت فضيلة أو مكرمة إلا كان الحياء وراءها، وما سلك الإنسان مسلكًا حميدًا ولا باشر قولاً سديدًا أو رأيًا شديدًا إلا كان الحياء ركيزة الحمد وأساس السداد وسبيل الرشاد[2]. وفي بيان ذلك قال النبي ﷺ: «وما كان الحياء في شيء إلا زانه».

فالحياء خلق عظيم، يبعث على فعل الجميل، وترك القبيح[3].

وما أجمل الحياء ما كان متدرعًا بالإسلام وتعاليمه، فيجمع مع العفاف الانصياع للإسلام الذي جاء متممًا لمكارم الأخلاق.

من أجل ذلك فإن غرس الحياء من أهم متطلبات التربية الإسلامية فهو قاعدة أخلاقية عظيمة في تنظيم السلوك الإنساني، وقد وضع له النبي ﷺ قاعدة جامعة في ألفاظها ومعانيها، فقال لصحابته «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحياء»، قال: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: قلنا: يَا رسولَ اللَّهِ، إنَّا نَسْتَحِي وَالحَمْدُ للَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[4].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/١٧٩.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٥/٢٥.

(٣) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ص٦١.

(٤) أخرجه الترمذي، ٢٤٥٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٠٠٠).

فهذا الحديث يعد من جوامع كلمه - صلوات الله عليه وسلامه - وهو في إطاره العام يأمر الإنسان بالحياء، ليكون إنسانًا سويًا في حياته، ولصالح معاشه ومعاده، لأنه يوجه جوارح الإنسان وملكاته لخيره وخير الإنسانية، ويجعل من الحياء مسيطرًا أخلاقيًا عليه، ومنظمًا أدبيًا وتربويًا له، وهذا التعريف لم يسمح لأي حاسة أو جارحة أن تفلت عن الانضباط الأخلاقي والسلوكي الذي يعينه الحياء، وأثره في الجوارح، المحددة في الرأس وما وعاه، والبطن وما حواه خصوصًا، فالرأس يعني العقل، كما أنه وعاء السمع والبصر، وأدوات الشم والتذوق، وآلة النطق. والبطن يحوي مضغة القلب والأداة المسيطرة على الجسد كله، الذي يصلح بصلاحها، ويفسد بفسادها، كما يحوي بيت الأكل والشرب الذي يمد كل هذه الحواس بالطاقة أو وقود الحركة.

ويتصل بالبطن ووظيفته: البضع، والجوارح الأخرى، كاليدين والرجلين، فالحياء زمام ذلك كله، وصمام أمنه وأمانه.

ومتى كان ذلك مرعيًا دعا إلى تذكر الموت والبلى، والزهد في زينة الدنيا، واستهداف الإنسان الباقيات الصالحات[1].

من أجل ذلك ما كان الحياء في شيء إلا زانه.

فينبغي على المربي أن يحرص على غرسه في النفوس فهو من جوامع الأخلاق في الإسلام، وكذلك إذا نجح الوالدان في غرس حب الحياء في نفس ابنهما يعني إمكانية حمل الصبي على جملة كبيرة من الأخلاق لأن الحيي لا يكذب، ولا يسرق، ولا يغش، ولا يفجر، ...إلخ. وأن من يفعل كل ذلك لا يستحي. قال ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[2][3].



(١) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٩/٢٥، ١٠.

(٢) أخرجه البخاري، ٦١٢٠.

(٣) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابولاوي، ص٢٥٢، ٢٥٨.

٣٢٨- باب كراهة التقعير في الكلام

والتشدُّق فيه وتكلف الفصاحة واستعمال وحشي اللُّغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم

الحديث رقم (١٧٣٨)

١٧٣٨- عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: ((هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ)) قَالَهَا ثَلاَثاً. رواه مسلم(١). "المُتَنَطِّعُون": المُبالغُون في الأمور.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن التنبيه إلى عدم التكلف في الكلام وعدم التنطع، والتمطق، والتفيهق، وهذا التنبيه ورد في صيغة الدعاء على هؤلاء الذين يبالغون في الأمور، ويتشدقون بالكلام، وتكرار هذا الدعاء ثلاث مرات، يؤكد رفض رسول الله ﷺ لهذه الصفة التي تنفر السامعين، وتحول بينهم وبين الإقبال على رياض الدعوة، والامتثال للمواعظ الحسنة، وقد كان رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة في الاعتدال والاتزان، وسلامة المنطق فقد برئ أسلوبه من تنافر الحروف، ومن التعقيد والمعاظلة في المنطق، ومن الغرابة المستكرهة، ومن الألفاظ الوعرة الوحشية، في غير قصد أو غرض.

كما برئ منطق رسول الله ﷺ من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسباً لرضا المستمعين، مثل: التنطع، والتمطق، والتفيهق والتشادق، وغيرها.

فالتنطع في الكلام، هو رمي اللسان إلى نطع الفم أي الغار الأعلى، مبالغة من المتكلم في إظهار الكلام، والتأثير في المستمعين.

---

(١) برقم (٢٦٧٠/٧)، وتقدم برقم (١٤٤).

والتمطق: هو ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الغار الأعلى للفم، والتفيهق هو الكلام من أقصى الفم.

وقد أبدى النبي ﷺ رفضه للتكلف في الكلام بأي نوع من أنواع التكلف كالثرثرة والتفيهق وغيرها، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[١].

فقه الحديث

وفي الأحاديث من الفقه: كراهة التكلف في الأمور كلها أفعالاً، وأقوالاً واستحباب التيسير وحسن الخلق[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) أخرجه الترمذي، ٢٠١٨، وصححه الألباني، انظر (سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٧٩١).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبدالسلام ١٧٤/٢، وتهذيب السنن لابن القيم ٩١/١٣، وشرح صحيح مسلم ٢٢٠/١٦، وعون المعبود ٣٣٥/١٢.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٤٤).

الحديث رقم (١٧٣٩)

١٧٣٩- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: ((إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ)) رواه أبو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة: يتشدَّق في الكلام ويُفَخِّم به لسانه ويلفُّه كما تلفُّ البقرةُ الكلأ بلسانها لفًّا[2].

الشرح الأدبي

ما أبشع هذه الصورة المنفرة التي يصور بها رسول الله ﷺ: هذا الصنف من الرجال: وهم المتكلفون المتشدقون الذين يدعون البلاغة والفصاحة، ويبالغون في إخراج الكلمات والحروف: ويتشدقون: وهم يلفون ألسنتهم ويلوونها بالحروف والكلمات كما تلف البقرة الكلأ بلسانها.

وهذه صورة عجيبة غريبة: تدعو للنفور، وكل من لديه هذا العيب في النطق.. عندما يقرأ هذا الحديث، ويتخيل صورته وهو يتكلم: وكأنه بقرة تخضم الكلأ ثم تخور، وترغى وتزيد، والتأكيد في بداية الحديث في قوله: "إن الله يبغض البليغ": وإسناد البغض إلى الله.

والمضارعية في "يبغض" الدالة على الاستمرار، كل هذه الظواهر الأسلوبية تؤكد رفض رسول الله ﷺ لهذه الصفة الممقوتة، والبلاغة المزعومة؛ وقوله: "البليغ من

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣) واللفظ له، إلا قوله: (بلسانه). وصحّحه أبو حاتم كما في العلل لابنه (٢٥٤٧).

(٢) النهاية في (خ ل ل).

الرجال": يوحي بالسخرية، لأن البلاغة محمودة، أما هذه فبلاغة مصنوعة: متكلفة.

وفي وصف هند بن أبي هالة لطريقة كلام رسول الله ﷺ في أحاديثه: تأكيد لمبدأ الفصاحة والاعتدال، وعدم الغلو، وعدم المبالغة حيث كان ﷺ يفتتح الكلام، ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، والعيوب التي تصيب حاسة النطق عند كثير من المتحدثين والخطباء والعلماء، وعامة الناس. قد سلم منها حديث النبي ﷺ، ومنطقه، فهو أفصح العرب، وأوتي جوامع الكلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التشدق في الكلام.

ثانياً: من فقه الداعية: توضيح المعنى بما هو أوضح وأقرب للمدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التشدق في الكلام:

هذا واضح من الحديث: (إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها)، قال ابن الأثير: "هو الذي يتشدق في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفا"[١].

وقال الطيبي: "قال البيضاوي: شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم تفاصحاً، بما تفعل البقرة، واستعماله بالتاء قليل"[٢]، وقال المباركفوري: "قوله: البليغ، أي: المبالغ في فصاحة الكلام وبلاغته (من الرجال) أي مما بينهم، وخُصّوا لأنه الغالب فيهم، (الذي يتخلل بلسانه)، أي: يأكل بلسانه أو يدير لسانه حول أسنانه، مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه"[٣].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا))[٤]، وفي رواية: كان عمر بن سعد

(١) النهاية في غريب الحديث ص ٢٨٣.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٩٢/٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢١٢٦/٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٨٤/١ رقم ١٥٩٧، وقال محققو المسند: حسن لغيره ١٥٤/٣.

بن أبي وقاص إلى أَبِيهِ ﵁ حَاجَةٌ، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَىْ حَاجَتِهِ كَلَامَاً، مِمَّا يُحَدِّثُ النَّاسُ يُوصِلُونَ، لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُهُ. فَلَمَّا فَرَغَ. قَالَ: يَا بُنَيَّ، قَدْ فَرَغْتَ مِنْ كَلَامِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا كُنْتَ مِنْ حَاجَتِكَ أَبْعَدَ، وَلاَ كُنْتُ فِيكَ أَزْهَدَ مِنِّى مُنْذُ سَمِعْتُ كَلاَمَكَ هَذَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((سَيَكُونُ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرَةُ مِنَ الأَرْضِ))[1].

وقال الطيبي: "قال التوربشتي: ضرب بهذا المثل لمعنيين: أحدهما: أنهم لا يهتدون من المأكل إلا ذلك سبيلاً، كما أن البقرة لا تتمكن من الاحتشاش إلا بلسانها، والآخر: أنهم في مغزاهم ذلك كالبقرة التي لا تستطيع أن تميز في رعيها بين الرطب والشوكة وبين الحلو والمر، بل تلف بلسانها لفاً، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون ألسنتهم ذريعة إلى مأكلهم، لا يميزون بين الحق والباطل، ولا بين الحلال والحرام، سماعون للكذب آكلون للسحت"[2].

وعدّ ابن عثيمين التقعر في الكلام من آفات اللسان، فقال: "من آفات اللسان التقعر في الكلام والتشدق حين يتكلم بملء شدقيه، وحين يتكلم عند العامة في غرائب اللغة العربية؛ إما رياءً ليقول الناس: ما أعلمه باللغة العربية! أو لغير ذلك، فالإنسان ينبغي أن يكون كلامه ككلام الناس، الكلام الذي يفهم حتى وإن كان بالعامية ما دام يخاطب العوام، أما إذا كان يخاطب طلبة علم وفي مجلس التعلم، فهنا ينبغي أن يكون كلامه بما يقدر عليه من اللغة العربية"[3].

وقال الأصمعي: "كنت إذا سمعت أبا عمرو بن العلاء يتكلم، ظننته لا يعرف شيئاً، كان يتكلم كلاماً سهلاً"[4] والعجب أن أبا عمرو بن العلاء هو شيخ القراء والعربية[5].

(١) أخرجه أحمد ١٧٦/١ رقم ١٥١٧ وقال محققو المسند: حسن لغيره ١٠٣/٣.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٩٢/٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٨٩/٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤١٠/٦.

(٥) سير أعلم النبلاء ٤٠٧/٦، ومعالم في طريق طلب العلم ص ١٧١.

وقال الدكتور عائض القرني: "لا نتكلف في القول بتشقيق الخطب والتفاصح وطلب الإغراب، والتشدق بالألفاظ وتميق السجع، والتفيهق لقصد الرفعة"[١].

ثانياً- من فقه الداعية: توضيح المعنى بما هو أوضح وأقرب للمدعوين:

وهذا واضح من تشبيهه ﷺ بالذي يتشدق في كلامه بالبقرة في أكلها الكلأ، قال الطيبي: "قال التوربشتي: ضرب للمعنى مثلاً يشاهده الراؤون من حال البقر، ليكون أثبت في الضمائر، وذلك أن سائر الدواب تأخذ من نبات الأرض بأسنانها والبقر بلسانها"[٢].

ومن هذا القبيل توضيح النبي ﷺ أن الحمى تذهب بخطايا الإنسان، فأوضح ذلك المعنى بما يفهمه المدعوون كلهم حق الفهم، فقال ﷺ لأم السائب أو أم المسيب عندما سبَّت الحمى قال لها: ((لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى. فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ. كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))[٣].

قال ابن عثيمين: "أخبر ﷺ أنها تذهب بالخطايا كما يذهب الكير بخبث الحديد، فإن الحديد إذا صهر على النار ذهب خبثه وبقي صافياً، كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك"[٤].

ومن هذا القبيل أيضاً تشبيه النبي ﷺ لما تكفره الصلاةُ من الذنوب بالنهر الجاري يطهر البدن مما يعلق به من الوسخ ونحوه، وهذه صورة واضحة أشد ما يكون الوضوح في أذهان كل المدعوين، فقال ﷺ: ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ. هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟)) قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: ((فَذٰلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا))[٥].

---

(١) هكذا حدثنا الزمان ص ١٣٢.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٩/٩٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٥.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٨٢.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧.

قال ابن حجر: "قال ابن العربي: وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه، ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب، حتى لا تبقى له ذنباً إلا أسقطته"(١).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا، فَقَالَ: ((هَذَا الأَمَلُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الأَقْرَبُ))(٢)، قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه أن رسول الله ﷺ نقل التصوير عن الفهم إلى ما تدركه الأبصار، ليكون تمثيله ﷺ أدعى إلى تعليم السامعين في سرعة، ليدرك ذلك من سمعه بسمعه وبصره"(٣).

(١) فتح الباري ١١/٢ – ١٢. ط/ السلفية.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٨١/٥.

الحديث رقم (١٧٤٠)

١٧٤٠- وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قال: ((إنَّ مِنْ أحَبِّكُمْ إلَيَّ، وأقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَومَ القِيَامَةِ، أحَاسِنكُمْ أخْلاَقاً، وإنَّ أبْغَضَكُمْ إلَيَّ، وأبْعَدَكُمْ مِنِّي[1] يَومَ القِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ)). رواه الترمذيُّ[2]، وقال: (حديث حسن). وقد سبق شرحه في بَابِ حُسْنِ الخُلُقِ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الثرثارون: الثرثرة: كثرة الكلام وترديده، والمراد: الذين يكثرون الكلام تكلُّفًا وخروجًا عن الحقِّ[3].

المتشدِّقون: المتوسِّعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، أو المستهزئون بالناس يلوون أشداقهم بهم وعليهم[4].

المتفيهقون: الذين يتوسَّعون في الكلام ويفتحون به أفواههم[5].

الشرح الأدبي

يخاطب المصطفى ﷺ أصحابه في مودة وصدق، ويعرض أمامهم نموذجين متضادين: أحدهما مقبول: وهو الفائز بحب رسول الله ﷺ وهو الأقرب مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وهو من تمتع بحسن الخلق، والنموذج الآخر يتضمن ثلاثة أنواع وكلهم في دائرة الرفض: وهم أبغض الناس إلى رسول الله وأبعد الخلق منه يوم

---

(١) عند الترمذي زيادة: (مجلسًا).

(٢) برقم (٢٠١٨)، وتقدم برقم (٦٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٧٦).

(٣) النهاية في (ث ر ث ر).

(٤) النهاية في (ش د ق).

(٥) النهاية في (ف هـ ق).

القيامة. وهم الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون.

ويتضمن الحديث عدة ظواهر أسلوبية تبرز بلاغة الحديث وجمال أسلوبه، واتفاق المباني مع مقاصد المعاني، فالحديث يبدأ بالتأكيد "بإن" إشارة إلى أن الكلام فيه جد، وأن تحديد ملامح النموذجين حقيقة لا ريب فيها، وصيغة التفضيل في "أحبكم وأقربكم": تفيد الأكثرية والأفضلية، أي الأكثر حباً، والأكثر قرباً، وقوله: إلي، ومني، لإفادة التشريف والفوز بالاقتراب منه ﷺ، وصيغة التفضيل في قوله: "أحاسنكم أخلاقاً" تنبه إلى أن الفوز بالقرب من رسول الله ليس بالخلق الحسن فقط، ولكن بمضاعفة ذلك، فالخلق مراتب، ودرجات، والمؤمن يحرص على أن يكون: الأحسن خلقاً، وهذا من جوامع كلمه ﷺ.

ومن مظاهر جمال الأسلوب في الحديث: بلاغة المقابلة والمطابقة بين الصفات التي تؤدي إلى المحبة، والصفات التي تؤدي إلى البغض، والتضاد بين: أحبكم وأبغضكم، وكذلك بين أقربكم، وأبعدكم، وهذه السمة الأسلوبية من سمات البديع في البلاغة وهو تزيين الكلام وتحسينه: وتقريبه من النفوس؛ والثرثرة، والتشدق، والتفيهق: من سمات سوء الخلق: لأنها جاءت في مواجهة قوله: "أحاسنكم أخلاقاً"، والثرثار: هو كثير الكلام تكلفاً، والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه، والمتفيهق أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه ويعرب به تكبراً، وإظهاراً للفضيلة على غيره، وذلك من أمارات سوء الخلق، والتكلف، والرياء والنفاق والتكبر وخداع النفس، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٣١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولا: من أهداف التربية الإسلامية: الحث على ترك التكلف في الكلام:

من أهداف التربية الإسلامية التربية على البساطة ونبذ التكلف في الكلام، وذلك يكون بحفظ اللسان من التقعر في الكلام، وهو ما يكون بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات، وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة. ويمكن أن نلحق بالتقعر تكلف الحوشي والغريب من الألفاظ والمفردات والتراكيب التي يخفى معناها على كثير من الناس، وكل ذلك من التصنع المذموم، ومن التكلف الممقوت[١].

والشاهد على ذلك قول رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثًا.

وقوله ﷺ: «إن الله يبغض البليغ من الرجال......إلخ الحديث».

وقوله: ﷺ: «....وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون»، فهذه أشياء كرهها الإسلام ونهى عنها.

وكذا رفع الصوت فلحق بالتقعر، لأنه ضرب من ضروب التكلف، وهو يدل على اضطراب الشخصية وغليان النفس وعدم اتزان التفكير. وقد نهى ربنا جل وعلا عن ذلك فقال في محكم بيانه على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[٢].

ومن أسباب ذم التكلف والتربية على نبذه ما جبلت عليه النفوس من حب ما فطرت عليه من الطبيعة غير المصطنعة والسليقة غير المتكلفة، ولذا فهي تنفر من كل تكلف وتصنع، أنىّ كانَ وكيف كان.

فالمتكلف غير محبوب، بل هو منبوذ من خاصة الناس وعامتهم[٣]. لذا كان من

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٥٦٥/٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

(٣) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٦٥/٢١، ٦٦.

أهداف التربية الإسلامية الرئيسية التربية على البساطة ونبذ التكلف حتى يكون الكلام مفهومًا ومقبولاً من السامعين.

ثانيًا- من أساليب التربية الإسلامية: التكرار:

من الأساليب التربوية المهمة: التكرار، ويمكن أن تبدو أهميته للأطفال في حفظ الكلمات وفي ذكر الأشكال، والتكرار قد يقصد به التأثير في النفس[١]، فهناك تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم[٢].

وقد استخدم الرسول المربي هذه الطريقة في التربية الإسلامية[٣].

ففي الحديث الشريف عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثًا.

فالتكرار من أساليب وطرق التربية الهامة.

من أجل ذلك يجب على المعلم تكرار الأشياء الهامة والأشياء الصعبة بألفاظ وأساليب مختلفة تأكيدًا لأهمية الشيء، حتى ينبه السامعين للإصغاء بإمعان وتدبر، وحتى يسمعها من لم يسمعها، وحتى تفهم فهمًا جيدًا دون لبس أو غموض، وحتى يكون الكلام أوقع في نفوس السامعين، ويبلغ منهم كل مبلغ. إن التكرار من الأساليب التعليمية المستخدمة لتثبيت التعلم، والمعلم يقوم بتكرار الأمور الهامة في الموضوع تمكينًا لسامعيه لفهمها واستيعابها، ولكي يعرف الطلبة الأفكار الهامة أو العناصر الأساسية في الموضوع وليكون أوضح دلالة على ما يريد تعليمه لهم[٤].

ثالثًا- التربية بضرب المثل:

من أساليب التربية في هذا الباب ضرب الأمثلة، فقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً الذي يتشدق بلسانه في الكلام ويلفه، بالبقرة تلف الكلأ بلسانها لفًا.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د/عبدالجواد سيد بكر، ص٣٣١.

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن، د/التهامي نفره، ص١٢٨.

(٣) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د/عبدالجواد سيد بكر، ص٣٣١.

(٤) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د/محمد صالح بن علي جان، ص٢١٦، ٢١٧.

والأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة[١].

والتربية بضرب المثل تجمع بين الإقناع والإمتاع لدى السامع لأن ضرب المثل يأتي بصورة حسية تشبه الصورة المراد انتزاعها إن كانت سلبية، وتعديلها إن كانت معوجة، وتعزيزها إن كانت إيجابية ومرغوباً فيها، فيضعها في دائرة الإدراك العقلي، وذلك بإشراك الحواس في تحليل تلك الصورة تحليلاً نفسيًا من أجل الوصول إلى غرس كراهية الصور السلبية، ومن ثم الإقلاع عنها، أو الوصول إلى حب السلوك الحميد وتمثله عمليًا كلما لزم الأمر[٢].

رابعًا- التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية في هذا الباب: الترغيب والترهيب، فقد رهب النبي ﷺ من التشدق والتكلف في الكلام فقال: «هلك المتنطعون» قالها: ثلاثًا.

وقال ﷺ: «إن الله يبغض البليغ من الرجال ...».

وقال: ﷺ: «... وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون».

كما رغب ﷺ في الأخلاق الفاضلة فقال: «إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»، وأسلوب الترغيب والترهيب يتماشى مع الطبيعة البشرية، والذي لا يستغنى عنه المربي في كل زمان ومكان[٣]، إذ لا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الطفل أو الإنسان أن هناك نتائج مسرة أو مؤلمة، وراء عمله وسلوكه، فإن عمل خيرًا نال السرور والحلاوة، وإن عمل شرًا ذاق

(١) فلسفة التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل، ص١٣٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابولاوي، ص١٦٣، ١٦٤.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١٨٦.

الألم والمرارة[1].

مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك، وما يترتب عليه من منفعة أو ضرر والتربية الإسلامية تستخدم هذا الأسلوب التربوي[2].



(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، علي خليل أبو العينين، ص٢٤٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د/سعيد إسماعيل القاضي، ص١٨٦.

٣٢٩- باب كراهة قوله: خَبُثَتْ نَفْسي

الحديث رقم (١٧٤١)

١٧٤١- عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيّ ﷺ، قال: ((لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسي، وَلكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسي)) متفق عليه[1].

قال العلماء: "مَعْنَى خَبُثَتْ: غَثَتْ، وهو معنى "لَقِسَتْ" ولكن كَرِهَ لَفْظَ الخُبْثِ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن للألفاظ أشعة وظلالاً وأجنحة، وبمقدار صفاء أشعتها، ونداوة ظلالها، ورهافة أجنحتها يكون تأثيرها في النفس، ومخالطتها للقلب، وامتزاجها بالشعور، واستقرارها في السمع، وهذا الحديث يُعلم المسلمين الأدب في النطق، ويرشدهم إلى استعمال اللفظ الحسن، وهجران القبيح منه، ومن دلائل جمال الألفاظ في اللغة العربية، وحسن موقعها في السمع كما قال: ابن سنان الخفاجى: "في سر الفصاحة"، أن تجد لتأليف اللفظة حسنًا ومزية على غيرها، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة في المخارج، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حُسنًا يتصور في النفس، ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه، وهذا ما دعا إليه رسول الله ﷺ، حيث نهى عن استخدام كلمة: "خبثت"، وأمر بالعدول عنها إلى قوله: "لقست" لأن إيحاء الأولى فيه نفور، وفيه اتهام للنفس، وإيهام باقترابها من الخبث أو من الشيطان.

وقال علماء البلاغة: في تفضيل اللفظ الحسن الجميل على اللفظ المنفر القبيح: وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنًا أو فننًا أحسن من تسميته

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٦/ ٢٢٥٠).

علوجًا، وأن أغصان البان أحسن من قولنا عاليج الشوحط: في السمع، والشوحط شجر يتخذ منه القسي؛ وقد عاب ابن سنان الخفاجى بعض الشعراء، ونعى عليهم استعمال الألفاظ الثقيلة المنفرة، وترك الألفاظ الحسنة المشعة الجميلة: مثل كلمة: جرش، ومعناها: النفس، وكلمة حقلد، ومعناها: الضعيف أو الضعيف النحيل، وكلمة دردبيس: ومعناها: الداهية، وكلمة جؤشوش: ومعناها: القطعة من الليل.

ورسول الله ﷺ في هذا الحديث يوجه المسلمين إلى استخدام الكلمات ذات الوقع الجميل في النفس، والتي تنأى عن الفحش والابتذال، وإثارة الغرائز، لأن المسلم عف السمع، عف اللسان. والله أعلم.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

النهي عن أن يقول الرجل خبثت نفسي[1]، وذلك كراهة لهذه اللفظة[2]، سدًا لذريعة اعتياد اللسان للكلام الفاحش، وسدًا لذريعة اتصاف النفس بمعنى هذا اللفظ، وذلك لأن الألفاظ تقتضي معانيها[3]. فكره رسول الله ﷺ لفظ الخبث لبشاعته وأرشدهم إلى لفظ هو أحسن منه، وهو قوله "لقست"، فيكون الرسول ﷺ قد أرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن قول الإنسان: خبثت نفسي.

ثانيًا: من آداب المدعو: مجانبة الألفاظ والأسماء القبيحة والعدول إلى ما لا قبح فيه.

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ١٩/٤٧، وفتح الباري ١٠/٥٦٤، وعون المعبود ١٣/٢٢٢.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر ١٩/٤٧، وعون المعبود ١٣/٢٢٢.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٣/١٥٠.

(٤) الطرق الحكمية لابن القيم ١/٦٣.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن قول الإنسان: خبثت نفسي:

وهذا واضح من نهيه ﷺ: (لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل: لقست نفسي)، قال ابن حجر: "قال الراغب [(١)]: الخبث يطلق على الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال، والقبيح في الفعال: قلت [القائل ابن حجر]: وعلى الحرام والصفات المذمومة القولية والفعلية"[(٢)].

قال ابن الأثير: "لقست، أي: غثت، واللقس:: الغثيان، وإنما كره (خبثت) هربًا من لفظ الخبث والخبيث، واللقس أيضًا: السيئ الخلق، وقيل: الشحيح، ولقست نفسه إلى الشيء: إذا حرصت عليه ونازعته إليه"[(٣)].

وقال ابن حجر: "وقال غيره - أي غير الخطابي -: معنى لقست غثت وهو يرجع أيضًا إلى معنى خبثت، وقيل: معناه ساء خلقها، وقيل: مالت إلى الدعة"[(٤)].

وقال ابن عثيمين: "معنى لقست: غثت، أحيانًا يصيب الإنسان كتمة يسميها الناس كتمة فتضيق عليه الدنيا بدون أن يعرف سببًا لذلك، فيقول خبثت نفسي، وخبثت يعني صارت خبيثة، وهذه كلمة مكروهة"[(٥)].

وقال الخطابي: "إنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم منه، وعلمهم الأدب في المنطق، وأرشدهم إلى استعمال الحسن وهجران القبيح منه"[(٦)].

وقال النووي: "إنما كره الخبث لبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب في الألفاظ، واستعمال حسنها وهجران خبيثها، فإن قيل: فقد قال ﷺ في الذي ينام عن الصلاة فأصبح: خبيث النفس كسلان[(٧)]، قال القاضي عياض[(٨)] وغيره: جوابه أن النبي ﷺ

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٤١.

(٢) فتح الباري ١٠/٥٦ - ٥٦٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث ص ٨٤٠.

(٤) فتح الباري ١٠/٥٦٤، .

(٥) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٩٠.

(٦) معالم السنن ٧/٢٧٣ - ٢٧٤.

(٧) أخرجه البخاري ١١٤٢ ومسلم ٧٧٦.

(٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٧/١٩١.

مخبر هناك عن صفة غيره وعن شخص مبهم مذموم الحال، لا يمتنع إطلاق هذا اللفظ عليه"(١).

وقال القرطبي: "إن محلّ النهي أن يضيف المتكلم الخبث إلى نفسه لا أن يتكلم بالخبث مطلقًا، فإذا أخبر به عن غير معين جاز، ولا سيما في معرض التحذير والذم للكسل، والتثاقل عن الطاعات، كما قد جاء في هذا الحديث، ومن أوضح ما في هذا الباب قوله ﷺ حين سئل عن العقيقة فقال: ((لاَ أحِبُّ الْعُقُوقَ، ولكن مَنْ وُلِدَ لَهُ فَأحَبَّ أنْ يَنْسُكَ عَنْ وَلَدِهِ بشاة فَلْيَفْعَلْ))(٢)، فكره اسم العقوق"(٣).

وقال الطيبي: "ويمكن أن يقال: إنه ﷺ نهى الشخص أن ينسب إلى نفسه الخبث، فإنه مذموم لا يحتمل غير الذم، والمراد النهي عن التعرض لما يوصف به من صفة المنافقين من الكسل والرياء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾(٤)، نعم إذا صدر منهم نحو غثيان كنوم وسهو أو نحو ذلك، يخبرون عن أنفسهم بأنها لقست، فيتدارك ما فات منهم"(٥).

ثانيًا- من آداب المدعو: مجانبة الألفاظ والأسماء القبيحة والعدول إلى ما لا قبح فيه:

وهذا يستنبط من الحديث، قال ابن حجر: "قال ابن أبي جمرة: النهي عن ذلك للندب، والأمر بقوله: (لقست) للندب أيضًا: فإن عبّر بما يؤدي معناه كفى، ولكن ترك الأولى، وقال: ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء والعدول إلى ما لا قبح فيه، والخبث واللقس، وإن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما، لكن لفظ الخبث قبيح ويجمع أمورًا زائدة على المراد، بخلاف اللقس فإنه

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨/١٧/٩. ط/ دار عالم الكتب.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٢/٢ رقم ٦٧١٣، ٦٨٢٢، وقال محققو المسند: إسناده حسن أ. هـ. وانظر: تتمة تخريجه في المسند ٣٢٠/١١.

(٣) المفهم ٥٥٥/٥.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٢.

(٥) شرح الطيبي على المشكاة ٧٤/٩ - ٧٥.

يختص بامتلاء المعدة، قال: وفيه أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة، قال: ويلتحق بهذا أن الضعيف إذا سئل عن حاله لا يقول: لست بطيب، بل يقول: ضعيف، ولا يخرج نفسه من الطيبين فيلحقها بالخبيثين"[١].

قال ابن عثيمين: "وفي هذا الحديث دليل على اجتناب الألفاظ المكروهة وإبدال ألفاظ غير مكروهة بها[٢] وإن كان المعنى واحدًا، لأن اللفظ قد يكون سببًا للمعنى، قد يقول: خبثت نفسي بمعنى غثت، والخبث: الغثيان، ويأتي في باله أنه من الخبث الذي هو ضد الطيب، والنفوس الخبيثة هي نفوس الكفرة، لقوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[٣]، ولقوله تعالى: [٤]، ولأن النبي ﷺ كان إذا أراد دخ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ول الخلاء ليبول أو يتغوط قال: ((أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ))[٥]، يعني الشياطين والشر.

فالمهم أن الإنسان يُكْره له أن يطلق ألفاظًا مكروهة على معانٍ صحيحة، بل يبدل ألفاظًا محبوبة للنفوس"[٦].

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٦٤.

(٢) في الأصل: وإبدالها بألفاظ غير مكروهة والصواب ما أثبتناه، فإن الباء تدخل على المتروك.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٤) سورة النور، آية: ٢٦.

(٥) أخرجه البخاري ١٤٢، ومسلم ٣٧٥.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٩٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

يعتمد هذا النوع من الأساليب التربوية على توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر، من خلال البيان والإرشاد، حيث يقوم المربي بتلقين الفرد المراد تغيير سلوكه أو تقويمه أو تعزيزه تلقينًا مباشرًا بأحد أساليب التلقين ومنها: التلقين بالكلام.

فيقوم بإلقاء الكلام إلى السامع - الشخص المستهدف بالتربية - مباشرة بصيغة الأمر، كما في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(١)]. أو بصيغة النهي كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾[(٢)]. وفي كلا الحالين يقوم المربي بإلقاء الأمر أو النهي بصورة جلية على ألا يكون هذا الأسلوب الأغلب لدى المربي[(٣)].

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر بنهي المسلم عن قوله: خبثت نفسي، حيث قال ﷺ: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : خَبُثَتْ نَفْسِي. وَلَـٰكِنْ لِيَقُلْ : لَقِسَتْ نَفْسِي».

إن الله تعالى كرم نفس المسلم وطهرها، وذلك يوجب على المسلم أن ينأى عن الأسباب التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها، وتحقرها، وتسوي بينها وبين السفلة، وإنما تعلو قيمة المرء، وتسمو مكانته بقدر نصيبه من بعد الهمة، وشرف النفس[(٤)].

والتوجيه التربوي الإسلامي يحث على الأدب في النطق مع كل الأشياء حتى مع النفس، فالإسلام قوامه الأدب ، فقد علم المسلم الأدب مع ربه ومع الخلق ومع نفسه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د/أمين أبولاوي، ص١٥٤، ١٥٥.

(٤) انظر: رسائل الأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ص٤٦١.

التي بين جنبيه، فلا ينبغي لمسلم أن يصف نفسه بالخبث لأن الله كرمه، ومن فعل ما نهي عنه فقد كان عونًا للشيطان على نفسه[1].

فعلى المربي التوجيه إلى استعمال الألفاظ الطيبة مع الآخرين ومع النفس، وخاصة توجيه النشء حتى يشبوا على طيب الكلام، ونبذ مكروهه فتكون ألفاظهم محبوبة للنفوس. لأن ذلك هدف تربوي إسلامي، تحث عليه التربية الإسلامية.



(١) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢/٢٢٠، ٢٢١ بتصرف.

٣٣٠- باب كراهة تسمية العنب كرمًا

الحديث رقم (١٧٤٢)

١٧٤٢- عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ، فَإِنَّ الكَرْمَ المُسْلِمُ)) متفق عليه[1]، وهذا لفظ مسلم.

وفي رواية[2]: ((فَإِنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤمِنِ)).

وفي رواية للبخاري ومسلم[3]: ((يَقُولُونَ الكَرْمُ، إِنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤْمِنِ)).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الكرم: العنب[4].

الشرح الأدبي

إن للإسلام أثرًا في تطور اللغة العربية، حيث جدت ألفاظ ومصطلحات جديدة تتسق مع تعاليم الإسلام وفرائضه وحدوده، ويقول: أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل"، وقد حدثت في الإسلام معان وسميت بأسماء كانت في الجاهلية لمعان أخر، ومن ذلك: القرآن، والسورة، والآية، والتيمم، وسمي الإيمان مع إسرار الكفر نفاقاً، والسجود لله إيماناً والسجود للوثن كفراً، ولم يعرف أهل الجاهلية من ذلك شيئاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٧/٨) من حديث محمد بن سيرين. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٧/٩) من حديث ورقاء بن عمرو، عن أبي الزناد.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٧/٧) من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب. انظر: الجمع للحميدي (٣٢/٣، رقم ٢٢٠٩).

(٤) الوسيط في (ك ر م).

وهذا الحديث الشريف شاهد من شواهد أثر الإسلام في توجيه واستخدام الألفاظ: وأسماء الأشياء، فالرسول يبدأ الحديث بجملة مصدرة بحرف النهي: وهي للجزم، وينهي عن أن يسمى المسلمون العنب كرماً: لأن هذا الاسم مشتق من الكرم: وهو يوحي بالتكريم، والتعظيم والتنزيه، وأولى بهذا الاسم: المسلم نفسه، أو قلب المؤمن كما ورد في رواية أخرى: "إنما الكرم قلب المؤمن".

والتأكيد في الجملة الثانية من الحديث يوحي بتشديد هذا الأمر، وأن النهي الصادر من رسول الله ﷺ هو نهي كراهة وتنزيه، ولكن على المسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ، وأن ينفذ سنته.

وقيل: وليس الغرض حقيقة النهي عن تسميته كرماً، ولكنه رمز إلى أن هذا النوع من غير الأناسي المسمى بالاسم المشتق من الكرم: أنتم أحقاء بأن لا تؤهلوه لهذه التسمية، غيرة للمسلم التقي أن يُشارك فيما سماه الله تعالى، واختصه بأن جعله صفته، فضلاً أن تسموا بالكريم من ليس بمسلم.

وهذا باب دقيق خفي: من أبواب الدقة واللطف في اللغة، وتوجيه للمسلم إلى إدراك هذه الخفايا والأسرار.

فقه الحديث

في الحديثين[١] من الفقه: النهي عن تسمية العنب كرماً، وليس النهي هنا للتحريم وإنما هو على سبيل الكراهة[٢].

والسبب في كراهة تسمية العنب كرماً، أن لفظ الكرم كانت تطلقها العرب على شجرة العنب، وعلى العنب، وعلى الخمر المتخذة من العنب، سموها كرماً لأنها متخذة منها، ولأنها تحمل على الكرم، والسخاء، فكره الشارع إطلاق هذه اللفظة

---

(١) الحديث رقم (١٧٤٢)، (١٧٤٣).

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ ٣/٣٤٦، ومغني المحتاج ٢/٣٢٤، والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٢/٣٤٥، وشرح صحيح مسلم ١٥/٤، وتهذيب السنن لابن القيم ١٣/٢١٧، والمطلع ١/١٣٠-١٣١.

على العنب وشجره، لأنهم إذا سمعوا هذه اللفظة ربما تذكروا الخمر، فهاجت نفوسهم إليها، فيقعون فيها، أو يقاربونها[١].

وإنما الذي يستحق هذه اللفظة هو الرجل المسلم، أو قلبه، كما في بعض الروايات وذلك لكثرة خيره، ونفعه، واجتماع الخصال المحمودة فيه من السخاء وغيره[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن تسمية العنب كرماً.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: كرامة المؤمن على ربه.

رابعاً: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم وبيان الصواب من الأسماء والمسميات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن تسمية العنب كرماً:

وهذا واضح من الحديثين، قال البغوي: "قد قيل في معنى نهيه عن تسمية هذه الشجرة كرماً: إن هذا الاسم عندهم مشتق من الكرم، سموا شجرة العنب كرماً، لأنه يتخذ منه الخمر وهي تحث على السخاء والكرم، فاستقوا لتلك الشجرة اسماً من الكرم، فكره النبي ﷺ تسميته لشيء حرّمه الشرع باسم مأخوذ من الكرم، وأشفق أن يدعوهم حسن الاسم إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها، فسلبها هذا الاسم تحقيراً لشأنها وتأكيداً لحرمتها، وجعله صفة للمسلم الذي يتوقاها، ويمنع نفسه عن محارم الشرع عزة وتكرماً، قال الله سبحانه وتعالى في صفة عباده: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٤]، أي: معرضين عنه، قد أكرموا أنفسهم من الدخول فيه، وقال جل

---

(١) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٣٤٥/٢، وشرح صحيح مسلم ٤/١٥-٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ٥/١٥، وطرح التثريب ٤٩٩/٨، والمطلع ١٣٠/١-١٣١.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٤٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٤٣).

(٤) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

ذكره: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، وقوله ﷺ: (إن الكرم قلب المؤمن) لما فيه من نور الإيمان وتقوى الإسلام"(٢).

وقال النووي: "قال العلماء: كره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره، لأنهم إذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا بها الخمر وهيجت نفوسهم إليها، فوقعوا فيها أو قاربوا ذلك.. فسمى قلب المؤمن كرماً لما فيه من الإيمان والهدى والنور والتقوى والصفات المستحقة لهذا الاسم، وكذلك الرجل المسلم"(٣).

وقال ابن حجر: "قال الخطابي ما ملخصه: إن المراد بالنهي تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها، ولأن في تبقية هذا الاسم تقريراً لما كانوا يتوهمونه من تكرم شاربها، فنهى عن تسميتها كرماً، وقال: (إنما الكرم قلب المؤمن)، لما فيه من نور الإيمان وهدى الإسلام، وحكى ابن بطال عن ابن الأنباري أنهم سموا العنب كرماً، لأن الخمر المتخذة منه تحث على السخاء وتأمر بمكارم الأخلاق، حتى قال شاعرهم: (والخمر مشتقة المعنى من الكرم)... فلذلك نهى عن تسمية العنب بالكرم حتى لا يسموا أصل الخمر باسم مأخوذ من الكرم، وجعل المؤمن الذي يتقي شربها ويرى الكرم في تركها أحق بهذا الاسم"، وحكى القرطبي(٤) عن المازري(٥) أن السبب في النهي: أنه لما حرمت عليهم الخمر، وكانت طباعهم تحثهم على الكرم، كره ﷺ أن يسمى هذا المحرم باسم تهيج طباعهم إليه عند ذكره، فيكون ذلك كالمحرك لهم، وتعقبه بأن محل النهي إنما هو تسمية العنب كرماً، وليست العنب محرمة، والخمر التي لا تسمى عنبة، بل العنب قد يسمى خمراً باسم ما يئول إليه، قلت [أي ابن حجر]: والذي قاله المازري موجه، لأنه يحمل على إرادة حسم المادة بترك تسمية أصل الخمر بهذا الاسم

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) شرح السنة ١٢/٣٥٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ٨/١٥/٦.

(٤) المفهم ٥/٥٥٠.

(٥) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٨٤.

الحسن، ولذلك ورد النهي تارة عن العنب وتارة عن شجرة العنب، فيكون التنفير بطريق الفحوي؛ لأنه إذا نهى عن تسمية ما هو حلال في الحال بالاسم الحسن لما يحصل منه بالقوة مما ينهى عنه، فلأن ينهى عن تسمية ما ينهى عنه بالاسم الحسن أحرى"[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد:

وهذا واضح من نهي النبي ﷺ عن تسمية العنب كرماً، معللاً ذلك بأن الكرم المسلم أو قلب المؤمن، "فسمى قلب المؤمن كرماً لما فيه من الإيمان والهدى والنور والتقوى والصفات المستحقة لهذا الاسم، وكذلك الرجل المسلم"[٢]، وقال ابن تيمية: "قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣]، سمى ووصف نفسه بالكرم وبأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق، ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة، كما قال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٤]، وكما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٥]، وكما قال الخليل عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[٦]، فالخلق يتضمن الابتداء والكرم تضمن الانتهاء، كما قال في أم القرآن: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٧].

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته؛

---

(١) فتح الباري ٥٦٧/١٠ - ٥٦٨.

(٢) شرح صحيح مسلم ٦/١٥/٨.

(٣) سورة العلق، الآيات: ٣ - ٥.

(٤) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ - ٣.

(٥) سورة طه، آية: ٥٠.

(٦) سورة الشعراء، آية: ٧٨.

(٧) سورة الفاتحة، الآيتان: ١ - ٢.

ولهذا قال النبي ﷺ: (لا تسموا العنب الكرم، فإنما الكرم قلب المؤمن)، وقد سموا العنب (الكرم)، لأنه أنفع الفواكه، يؤكل رطباً ويابساً ويعصر فيتخذ منه أنواع، وهم أعم وجوداً من النخل، يوجد في عامة البلاد، والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة، ولهذا قال في رزق الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾[1]، فقدم العنب، وقال في صفة الجنة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾[2]، ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال: (الكرم قلب المؤمن)، فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن.

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[3]، قال ابن قتيبة: "من كل جنس حسن، وقال الزجاج: الزوج النوع، والكريم المحمود، وقال غيرهما: (من كل زوج)، صنف وضرب (كريم) حسن، من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة، إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها.

وعن الشعبي: الناس مثل نبات الأرض: فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم، والقرآن قد دلّ على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه، وفيهم من يهينه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[5].

وقال النبي ﷺ: ((فإيَّاكَ وكَرائمَ أموالِهم. واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنه ليس بينَها

(١) سورة عبس، الآيات: ٢٤ - ٣٢.
(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٣١ - ٣٢.
(٣) سورة الشعراء، آية: ٧.
(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٥) سورة الحج، آية: ١٨.

وبـينَ اللّـهِ حِجـابٌ))[1]، وكـرائم الأمـوال: الـتي تكـرم علـى أصحابها لحـاجتهم إليهـا وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها.

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف بها، فدلّ على أنه الأكرم وحده، بخلاف ما لو قال: (وربك أكرم)، فإنه لا يدل على الحصر، وقوله: (الأكرم) يدل على الحصر، ولم يقل: (الأكرم في كذا)، بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد، فدلّ على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه"[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: كرامة المؤمن على ربه:

وهذا يستنبط من الحديث، قال الزمخشري في الفائق: "أراد النبي ﷺ أن يقرر ويشدد على ما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]، بطريقة أنيقة ومسلك لطيف، ورمز خلوب، فبصر أن هذا النوع من غير الأناسي، المسمى بالاسم المشتق من الكرم: أنتم أحقاء بأن لا تؤهلوه لهذه التسمية ولا تطلقوها عليه، ولا تسلموها له، غيرة للمسلم التقي، ورباً به أن يشارك فيما سماه الله به، واختصه بأن جعله صفته، فضلاً أن تسموا بالكرم من ليس بمسلم، وتعترفوا له بذلك، وليس الغرض حقيقة النهي عن تسمية العنب كرماً، ولكن الرمز إلى هذا المعنى كأنه قال إن تأتي لكم أن لا تسموه - مثلاً - باسم الكريم، ولكن بالحبلة فافعلوه، وقوله: (فإنما الكرم الرجل المسلم)، أي: فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرم: المسلم ونظيره في الأسلوب قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[4]"[5].

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٩. من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٢٩/٨ - ٤٣٠، ٢٩٣/١٦ - ٢٩٥، .

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٣٨.

(٥) الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري ٥٣٨هـ، تحقيق: على محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي ٢٥٧/٣. وط المكتبةالعصرية، ٢٤٨/٣.

وقال ابن هبيرة: "هذا الحديث يدل على أنهم كان يسمون العنب كرماً، ويزعمون أنها تحدث كرماً على ما قيل، فأراد رسول الله ﷺ أن لا ينسب إلى الخمر فضيلة وإنما الفضيلة للمؤمن لما فيه من النور والإيمان"(١).

وقال الطيبي: "وتلخيص المعنى تخطئه رأي من سمى العنب بالكرم، نظراً إلى أنه يتخذ من الخمر، وشربها يولد الكرم، وتسفيههم فيها، لأنها أم الخبائث والرجس الذي هو من عمل الشيطان، وتصويب رأي من يرى استحقاق هذا بقلب المؤمن الطاهر عن أوضار الرجس والآثام، وإنه معدن مكارم الأخلاق ومنبعها ومركز التقوى، فهو أولى وأحرى أن يسمى كرماً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(٢)، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٣)، كأنه ﷺ نبّه المسلمين على التحلي بالتقوى والتزيي به، وأنه رأس مكارم الأخلاق، لا ما ذهب إليه الجاهلية، وهو من باب المشاكلة، كقوله تعالى: (صبغة الله)، فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، يقولون: هو تطهير لهم، فقيل للمسلمين: قولوا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله.. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾(٤)، أي قولوا: صبغنا الله بالإيمان صبغته، ولم يصبغ صبغتكم التي هي النجاسة لا الطهر"(٥).

وقال ابن حجر: "وقال أبو محمد بن أبي جمرة ما ملخصه: لما كان اشتقاق الكرم من الكرم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض، فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن الذي هو خير الأشياء، لأن المؤمن خير الحيوان، وخير ما فيه قلبه؛ لأنه إذا صلح صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجرة الإيمان"(٦).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٠٦/٦.
(٢) سورة الحج، آية: ٣٢.
(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٣٦ - ١٣٨.
(٥) شرح الطيبي على المشكاة ٧٣/٩.
(٦) فتح الباري ٥٦٨/١٠.

رابعاً- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم وبيان الصواب من الأسماء والمسميات:

وهذا واضح من النهي في الحديثين، قال ابن القيم: "العرب تسمي شجر العنب كرماً لكرمه، والكرم كثرة الخير والمنافع والفوائد؛ لسهولة تناولها من الكريم ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾[1]، وفي آية أخرى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[2]، فهو كريم في مخبره، بهيج في منظره، وشجر العنب قد جمع وجوهاً من ذلك: منها: تذليل ثمره لقاطفه، ومنها: أنه ليس دونه شوك يؤذي مجتنيه... ومنها: أن ثمره يؤكل قبل نضجه وبعد نضجه وبعد يبسه.. ومنها: أنه يدخر يابسه قوتاً وطعاماً وأدماً... إلى غير ذلك من فوائده، فلما كان بهذه المنزلة سموه كرماً، فأخبرهم النبي ﷺ أن الفوائد والثمرات والمنافع التي أودعها الله قلب عبده المؤمن من البر وكثرة الخير، أعظم من فوائد كرم العنب، فالمؤمن أولى بهذه التسمية منه، فيكون معنى الحديث على هذا: النهي عن قصر اسم الكرم على شجرة العنب، بل المسلم أحق بهذا الاسم منه.

وهذا نظير قوله ﷺ: ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))[3]، أي: مالك نفسه أولى أن يسمى شديداً من الذي يصرع الرجال، وكقوله: ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان ولكنه الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه))[4]، أي: هذا أولى بأن يقال له مسكين من الطواف الذي تسمونه مسكيناً... ونظيره قوله: ((لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا))[5]. وإن كان هذا ألطف من الذي قبله.

وقيل في معنى النهي وجه آخر، وهو قصد النبي ﷺ سلب هذا الاسم المحبوب

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٠.

(٢) سورة ق، آية: ٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٩، ومسلم ١٠٣٩.

(٥) أخرجه البخاري ٥٩٩١.

للنفوس الذي يلذ لها سماعه عن هذه الشجرة التي تتخذ منها أم الخبائث فيسلبها الاسم الذي يدعو النفوس إليها، ولا سيما فإن العرب قد تكون سمّتها كرماً، لأن الخمر المتخذة منها تحث على الكرم وبذل المال، فلما حرمها الشارع نفى اسم المدح عن أصلها، وهو الكرم، كما نفى اسم المدح عنها وهو الدواء، فقال: ((إِنَّهَا دَاءٌ وَلَيْسَتْ بِدَوَاءٍ))[١].

ومن عرف سرّ تأثير الأسماء في مسمياتها نفرةً وميلاً عرف هذا، فسلبها النبي ﷺ هذا الاسم الحسن وأعطاه ما هو أحق به منها وهو قلب المؤمن.

ويؤكد المعنى الأول: أن النبي ﷺ شبه المسلم بالنخلة[٢]، لما فيها من المنافع والفوائد، حتى إنها كلها منفعة لا يذهب منها شيء بلا بمنفعة حتى شوكها، ولا يسقط عنها لباسها وزينتها كما لا يسقط عن المسلم زينته"[٣].

وقال القرطبي: "الأحقّ باسم الكرم المسلم أو قلب المسلم، وذلك لما حواه من العلوم والفضائل والأعمال الصالحات والمنافع العامة، فهو أحق باسم الكريم والكرم من العنب"[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦١، ومسلم ٢٨١١.

(٣) تهذيب السنن ٧/٢٦٨ - ٢٧٢.

(٤) المفهم ٥/٥٥١.

الحديث رقم (١٧٤٣)

١٧٤٣- وعن وائلِ بنِ حُجرٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، قال: ((لاَ تَقُولُوا: الكَرْمُ، وَلكِنْ قُولُوا: العِنَبُ، والحَبَلَةُ)) رواه مسلم[1]. "الحَبَلَةُ" بفتح الحاء والباء، ويقال أيضًا بإسكان الباء.

ترجمة الراوي:

وائل بن حُجْر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٩٩).

غريب الألفاظ:

الحَبَلَةُ: شجر العنب[2].

الشرح الأدبي

يتفق هذا الحديث في مضمونه مع الحديث السابق، ولكن تختلف الصياغة، والألفاظ. ففي هذا الحديث يبدأ رسول الله ﷺ بالنهي عن التلفظ بلفظ "الكرم" حيث يقول: "لا تقولوا: الكرم"، أي: لا تسموا العنت: الكرم: كما جاء في الحديث السابق، وهذا الحديث يرد فيه: الاستدراك رابطاً بين جملتي الحديث في قوله ولكن قولوا: (العنب والحبلة) والاستدراك في اللغة: هو: نفي ما يتوهم ثبوته، أو إثبات ما يتوهم نفيه، فالاستدراك في قوله: لكن جاء لنفي توهم عدم إثبات اسم لهذا النبات وإثبات ما توهم السامعون نفيه، وهو قولهم: "العنب والحبلة"، وشجر العنب يسمى الحبلة.

وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد: كما ورد في دليل الفالحين: إنما نهى عن هذا: لأن العرب كان يسمون العنب كرماً لما يدَّعون من إحداثها في قلوب شاربيها من الكرم، فنهى عن تسميتها بما تمدح به لتأكيد ذمها وتحريمها، وعلم أن قلب المؤمن

---

(١) برقم (٢٢٤٨/١٢).

(٢) شرح مسلم ١٤٠٠.

لما فيه من نور الإيمان أولى بذلك الاسم، ولأن العنب من مصادر صنع الخمر: جاء النهي عن تكريم هذا النبات، وتحريم تناوله حينما يستحيل إلى خمر... فكل مسكر خمر وكل خمر حرام، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- الدقة في استعمال الألفاظ:

من أهداف التربية الإسلامية الدقة في استعمال الألفاظ ويظهر ذلك في قوله ﷺ: «لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ. فَإِنَّ الْكَرْمَ الْمُسْلِمُ». وفي رواية: «فإِنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤمِنِ».

وقال ﷺ: «لاَ تَقُولُوا: الْكَرْمُ. وَلَٰكِنْ قُولُوا: الْعِنَبُ وَالْحَبْلَةُ».

إن العرب كانت تسمى شجرة العنب الكرم، لكثرة منافعها وخيرها، فكره النبي ﷺ تسميتها باسم يهيج النفوس إلى محبتها، ومحبة ما يتخذ منها من المسكر، وهو أم الخبائث، فكره أن يسمى أصله بأحسن الأسماء وأجمعها للخير(١).

وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على الدقة في اختيار الألفاظ واستعمالها مع ما يناسبها من الأشياء، وهذا هدف تربوي هام جدًا خاصة بعد تأثر شعوبنا الإسلامية بعوامل مختلفة كثيرة منها الغزو الفكري المعاصر، الذي غزانا به أعداء الإسلام من جهة واستورده فريق منا من جهة أخرى(٢).

فتجد هؤلاء يستخدمون ألفاظًا في غير مواضعها التي تهدف إليها التربية الإسلامية، فتجدهم يسمون الخمر، مشروبات روحية، ويسمون الربا: فائدة، ويسمون الكذب والنفاق: سياسة، ويسمون اللواطين: مِثْليّين، ويسمون المجون والتبرج والفجور: حرية، ويسمون أفلام الجنس والدعارة: ثقافة، ويسمون التدين والتمسك بالدين إرهاباً، ويسمون شق العصا والخروج عن طاعة ولي الأمر: ديمقراطية....إلخ من الأشياء التي تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، وذلك لأن النظم التربوية في المجتمعات متباينة، ومرجع هذا التباين طبيعة كل مجتمع، ثقافته، فكره، أهدافه(٣).

بعد هذا الإيضاح، ماذا تفعل المجتمعات الإسلامية لتواجه تحديات العصر؟ خاصة وأن لديها من الأصول الإسلامية ما يمكن أن ينقذها من أي تأثيرات سلبية وافدة من

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم، ٣٦٩/٤.

(٢) مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٣٧.

(٣) انظر: التربية الإسلامي، د/عماد محمد محمد عطية، ص٢١٤.

الخارج، الفكر الثقافي والتربوي فهي تمس تربية وإعداد الفرد المسلم... وعلى هذا فإنه يجب الرجوع إلى أصول الإسلام والتربية الإسلامية، لأن في كتاب الله المنهج التربوي والحياتي الكامل، الذي يمثل أكثر الصور تطورًا، وأوفرها حيوية، وهو يسجل مرحلة هامة بالقياس إلى المتغيرات الفكرية الأخرى سواء بتأكيد النواحي الدينية أو بإقامة الأخلاق الاجتماعية[1].

فعلى المربي التوجيه والإرشاد إلى استخدام الألفاظ التي تتفق مع ديننا، والتي تناسب ما تطلق عليه من أسماء وصفات حتى لا يقع المسلم في محظورات الدين، وتزيين ما يتنافى معه باستخدام ألفاظ مستوردة تزين الباطل وتجمله، وتصفه بعكس حقيقته.

ثانيًا- معرفة قدر المؤمن:

من المضامين التربوية التي يدل عليها الباب: معرفة قدر المؤمن، فإن المؤمن قدره عظيم ومنزلته عالية، عرف ربه فأطاعه وعبده وأحسن عبادته، فرضي الله عنه وقد امتدح الله المؤمنين فقال في كتابه ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2]، وقال فيهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، ووعدهم بالجنة فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[4].

والتربية الإسلامية تهدف إلى التعريف بقدر المؤمن ومنزلته عند ربه ومن ذلك قول النبي ﷺ: «لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ. فَإِنَّ الْكَرْمَ الْمُسْلِمُ». وفي رواية: «فإنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤمِنِ».

أي: إنكم تسمون شجرة العنب كرمًا لكثرة منافعه، وقلب المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه، فإن المؤمن خير كله ونفع، فهو من باب التنبيه والتعريف

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، علي خليل أبو العينين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠-١١.

لما في قلب المؤمن من الخير، والجود، والإيمان، والنور، والهدى، والتقوى، والصفات التي يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحبلة له[1].

وفي هذا تربية على العزة والكرامة وبيان لقدر المؤمن عند الله، وفي ذلك تربية على الاستعلاء بالدين والتمسك بالكرامة التي منحنا الله إياها بدلاً من روح الانهزامية التي استشرت بين فئام من المسلمين حتى إن الواحد منهم ليخجل من أن يظهر بالسمت الإسلامي، ويعمل على مجاراة من لا خلاق لهم في العادات والتقاليد، حتى لا يوصف بأنه رجعي أو متخلف ولاشك أن ذلك من تأثير الغزو الفكري والتغريب الاجتماعي.



(١) زاد المعاد، ابن القيم، ٣٦٩/٤.

٣٣١- باب النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل إلاَّ أن يحتاج إلى ذلك لغرض شرعي كنكاحها ونحوه

الحديث رقم (١٧٤٤)

١٧٤٤- عن ابن مسعودٍ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: ((لاَ تُبَاشِرِ المَرْأَةُ المَرْأَةَ، (فَتَصِفَهَا)[١] لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْهَا)) متفق عليه[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

لا تباشر المرأة المرأة: أي لا تنظر إلى عورتها[٣].

الشرح الأدبي

إن الإسلام يحفظ للمرأة مكانتها، ويصون حرمتها، وفي خطبة حجة الوداع يقول رسول الله ﷺ: «أَلاَ وَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً، فإنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهِنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ إلاَّ أنْ يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ في المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبَاً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً. أَلاَ إنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَن تَكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ في بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلاَ وَإنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»[٤].

وفي هذا الحديث تكريم جديد للمرأة، وهو نهي المرأة نفسها عن أن: تمس بشرتها

---

(١) لفظ البخاري: (فتنعتها)، والمثبت لفظ النسائي في الكبرى (٩١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٠)، ولم يخرجه مسلم، كما لم يعزه إليه المزي في تحفة الأشراف (٩٣٠٥).

(٣) فتح الباري ٩/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه الترمذي ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٩٢٩).

ببشرة امرأة غيرها فتعرف خصوبة بدنها ونعومته، وما فيه من المحاسن الخفية، وهي بذلك لا تصون حرمة المرأة، بل تكشف عن أسرارها، وتنقل أخبار محاسنها ومفاتنها لزوجها، نقلاً تفصيلياً دقيقاً، ورسول الله ﷺ في أسلوبه الدقيق يكشف آثار هذا الوصف، ويحذر من عواقبه: فيقول واصفاً حال الزوج كأنه ينظر إليها، وهذه الصورة التشبيهية المؤكدة توحي بدقة الوصف، والقدرة على تجسيد المحاسن، ولذلك بدأ الحديث: بصيغة النهي أو النفي، وإيثار التعبير بفعل: المباشرة، وهو أقوى وأدق من التعبير باللمس أو المس.. فلم يقل: لا تلمس أو لا تمس، وإنما قال: لا تباشر المرأة المرأة، والمباشرة هي التعرف الحسي الدقيق على المفاتن والمحاسن المتمثلة في خصوبة البدن، ونعومته.. وما يعطي للمرأة جمالاً وزينة من معالم أنوثتها المتعددة.

وهذا الوصف يمكن أن يحدث فتنة للزوج: حيث تعجبه المرأة الموصوفة فيفضى ذلك إلى تطليق زوجته: أو التعلق بالموصوفة.. والتعلق بأحاديث النفس، وأشواق القلب، ووساوس الوجدان، وفتح الأبواب للعصيان، ومسالك الشيطان. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونسأله الهداية والمغفرة والرضوان. آمين

وفي الحديث من الفقه: النهي عن أن تصف امرأة امرأةً أخرى لزوجها، ولعل السبب في النهي هو سد الذرائع، لأنها إن وصفتها بحسن خيف عليه الفتنة، إذ ربما تعلق قلبه بها، فيكون ذلك سبباً في طلاق زوجته، ونكاحها إن كانت الموصوفة غير ذات زوج، وإن كانت ذات زوج ربما أدى ذلك إلى بغض زوجته، ونقصان منزلتها عنده[1].

وإن وصفتها بقبح، كان ذلك غيبة[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النظر إلى العورة وأن تصف امرأة محاسن امرأة أخرى لزوجها.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٣٣٨/٩، وعون المعبود ١٣٢/٦، وشرح ابن بطال على صحيح البخاري ٢٨٦/١٣.

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ٢٦٨/١٣.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: سدّ الذرائع إلى المحرمات.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على التستر والحشمة والبعد عن أسباب الإثارة والفتن.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النظر إلى العورة وأن تصف امرأة محاسن امرأة أخرى لزوجها:

وهو واضح من الحديث: (لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها) وفي رواية عند النسائي: ((نَهَى رسولُ الله أَنْ تُبَاشِرَ المرأةُ المرأةَ في ثوبٍ واحدٍ، من أَجْلِ أَنْ تَصِفَهَا لِزَوْجِهَا))[١]، وفي رواية عنده عن ابن مسعود موقوفاً: ((لا تباشر المرأةُ المرأةَ، ولا الرجلُ الرجلَ))[٢].

قال ابن هبيرة: "أما مباشرة المرأة المرأة، فإنه يدل على أنه يكره للمرأة أن تصف لزوجها امرأة أخرى، والمراد بالمباشرة قيل: إنه رؤية البشرة، فلا ينبغي أن تصف ذلك لزوجها، لا على وجه المدح فربما عرضه للافتتان بها، ولا على وجه الذم والوقيعة، فتمدح نفسها، فعلى الحالين الوصف مكروه"[٣].

قال المناوي: "أي: لا تمس امرأة بشرة أخرى، ولا تنظر إليها، فالمباشرة كناية عن النظر، إذ أصلها التقاء البشرتين، فاستعير إلى النظر البشرة، يعني لا تنظر إلى بشرتها، فتصف ما رأت من حسن بشرتها لزوجها كأنه ينظر إليها، فيتعلق قلبه بها، فيقع بذلك فتنة، والنهي منصب على المباشرة والنعت معاً"[٤].

وقد قال النبي ﷺ كذلك: ((لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ))[٥].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ٩١٨٦.

(٢) السنن الكبرى ٩١٨٨.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥٨/٢.

(٤) فيض القدير ٣٨٥/٦.

(٥) أخرجه مسلم ٣٣٨.

قال ابن حجر: "قال النووي[1]: فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا مما لا خلاف فيه، وكذا الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع، ونبّه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة على ذلك بطريق الأولى، ويستثنى الزوجان فلكل منهما النظر إلى عورة صاحبه، إلا أن في السوأة اختلافاً والأصح الجواز، لكن يكره حيث لا سبب، وأما المحارم فالصحيح أنه يباح نظر بعضهم إلى بعض لما فوق السرة وتحت الركبة، قال: وجميع ما ذكرنا من التحريم حيث لا حاجة [كما في حالة البيع والشراء والتطبب والشهادة ونحو ذلك] ومن الجواز حيث لا شهوة، وفي الحديث تحريم ملاقاة بشرتي الرجلين بغير حائل إلا عند ضرورة، ويستثنى المصافحة، ويحرم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان بالاتفاق، قال النووي: ومما تعم به البلوى ويتساهل فيه كثير من الناس الاجتماع في الحمام، فيجب على من فيه أن يصون نظره ويده وغيرهما عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره، ويجب الإنكار على من فعل ذلك لمن قدر عليه، ولا يسقط الإنكار بظن عدم القبول، إلا أن خاف على نفسه أو غيره فتنة"[2].

وقال ابن عثيمين: "لا يجوز للإنسان أن يصف امرأة لرجل فيقول: صفتها كذا كالطول والحسن والبياض وما أشبه ذلك، إلا إذا كان هناك موجب شرعي، مثل أن يكون هذا الرجل يريد أن يتزوجها، فيصفها له أخوها مثلاً من أجل أن يقدم أو يترك، لأن هذا لا بأس به، كما أنه يجوز للخاطب إذا خطب امرأة أن ينظر إليها، من أجل أن يكون هذا أدعى لقبوله أو رفضه"[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: سدّ الذرائع إلى المحرمات:

وهذا واضح من النهي في الحديث، قال ابن حجر: "قال القابسي: هذا أصل لمالك

---

(١) شرح صحيح مسلم ٣١/٤/٢ - ٣٣، ط/ دار عالم الكتب وآثرنا نقله عن ابن حجر نظراً لأنه لخصه وأتى بفوائده، بعيداً عن الاختلافات الفقهية التي ذكرها النووي.

(٢) فتح الباري ٣٣٨/٩ - ٣٣٩. ط/ السلفية

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٩١/٢.

في سد الذرائع، فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور، فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة"(١)، وقال ابن عثيمين: "هو من جهة الزوجة ضرر عليها، وذلك لأنه إذا وصفت المرأة لزوجها، فربما يرغب فيها ويتزوجها عليها، ويقع بينهما مشاكل كما هي العادة"(٢).

قال الدكتور عبدالكريم زيدان: "الذرائع معناها: الوسائل، فإذا كانت الوسائل مفضية إلى الحرام والفساد، كانت هذه الوسائل محرمة ووجب سدها ومنعها، حسماً لمادة وسائل الفساد، وإن كانت هذه الوسائل تؤدي إلى أمر مطلوب في الشرع كانت هذه الوسائل مطلوبة أيضاً، فالذرائع تسد وتمنع إذا كانت تفضي إلى الفساد، وتجب وتفتح إذا كانت تفضي إلى المصالح، ولكن أكثر ما يطلق اسم الذرائع على الأفعال والطرق المؤدية إلى الشر والفساد، ولهذا إذا قيل سد الذرائع فيراد سد الطرق ومنع الأفعال المؤدية إلى الشر والفساد، والفعل يكون وسيلة إلى الفساد فيمنع بغض النظر عن قصد صاحبه، لأن المنظور إليه في هذا الباب مآلات الأفعال، أي ما تؤدي إليه، فإن كان المآل فساداً كان الفعل المؤدي إليه ممنوعاً سداً لذريعة الفساد، وإن لم يقصد الفاعل بفعله الفساد، وأصل سد الذرائع مشهود له بالصحة بدلائل الكتاب والسنة وعمل الصحابة"(٣).

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على التستر والحشمة والبعد عن أسباب الإثارة والفتن:

وهذا واضح من الحديث، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(٤).

---

(١) فتح الباري ٣٣٨/٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٩٢/٢.

(٣) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، ص ١٧١، وانظر: الموسوعة الفقهية ٢٧٦/٢٤ وما بعدها.

(٤) سورة النور، الآيتان: ٣٠ - ٣١.

قال ابن تيمية: "والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر، وهو نوعان: غض البصر عن العورة، وغضه عن محل الشهوة، فالأول: كغض الرجل بصره عن عورة غيره، كما قال النبي ﷺ: ((لا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ))[(١)]، ويجب على الإنسان أن يستر عورته، كما قال لمعاوية بن حيدة: ((احْفَظْ عَوْرَتَكَ إلا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، قَالَ: قُلْتُ: فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ؟ قَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلا يَرَيَنَّهَا، قُلْتُ: فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُ))[(٢)]، ويجوز كشفها بقدر الحاجة، كما تكشف عند التخلي، وكذلك إذا اغتسل الرجل وحده بحيث يجد ما يستره، فله أن يغتسل عرياناً، كما اغتسل موسى عليه السلام عرياناً، وأيوب عليه السلام وكما في اغتسال النبي ﷺ يوم الفتح واغتساله في حديث ميمونة، وأما النوع الثاني من النظر - كالنظر إلى الزينة الباطنة من المرأة، فهذا أشد من الأول، كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير وعلى صاحبها الحد"[(٣)].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[(٤)].

قال ابن القيم: "فمنعن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزاً في نفسه، لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهن إليهن"[(٥)].

ولا شكّ أن الابتعاد عن التستر والحشمة، واقتحام أسباب الفتنة والإثارة، له من الآثار الخطيرة والنتائج السيئة مما لا يخفى على عاقل، كما هو مشاهد في عالم اليوم، فكم من الأعمار أنفقت من أجل تحصيل شهوات لا تحل، بسبب سهولة الوصول إليها وشيوعها في المجتمعات، وكم من النفوس قد راحت من جرّاء الأمراض الخطيرة والعلل الفتاكة، التي نتجت عن ارتكاب ما حرم الله.

---

(١) أخرجه مسلم ٣٣٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٩ رقم ٢٠٠٣٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن، وانظر: تتمة تخريجه في المسند ٢٣٥/٣٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٤١/٨، ، ٤١٤/١٥ - ٤١٥. ط/ابن قاسم.

(٤) سورة النور، آية: ٣١.

(٥) بدائع التفسير ٢٤٩/٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

من أهداف التربية الإسلامية: الوقاية من المثيرات الجنسية، والوقاية من الوقوع في الزنا، لهذا قال النبي ﷺ: «لاَ تُبَاشِرْ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فتَصِفهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا».

فهذا الحديث أصل في سد الذرائع، فإن الحكمة في النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور، فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة[١]، فإن الزوج قد تتحرك نفسه إلى الوقوع في الزنا من الموصوفة.

فالوقاية بسد الذرائع المؤدية إلى مفاسد الأخلاق هدف تربوي ونصوص الشريعة تعمل على سد ذرائع الزنا ودواعيه، ومن سد ذريعة الزنا أن الإسلام "حرم المفاخرة بالجماع، لأنه ذريعة إلى تحريك النفوس، والتشبه، وقد لا يكون عند الرجل ما يغنيه من الحلال فيتخطّى إلى الحرام"[٢].

قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»[٣].

فمن واجب الأسرة والمجتمع أن يزرع في المتربي التقيد بالنصوص الإسلامية وينشئهم عليها حتى تكون لهم بمنزلة الحاجز من الوقوع في فاحشة الزنا.

إن التوجيهات الإسلامية تغرس فيمن تأملها وتدبرها الوقاية من الوقوع في الكثير من الرذائل الخلقية فهي بمنزلة الحاجز له منها[٤]. كذلك ينبغي على المربي والمجتمع وقاية الناشئة من الإثارات الجنسية.

فإذا كانت الوقاية خيرًا من العلاج في عالم الصحة، فإن وقاية الأبناء من الإثارات الجنسية، التي قد تجر إلى الفاحشة والتردي في الرذيلة، أسلم وأيسر من تقويمهم بعد

---

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٣/٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص٦٢٦ بتصرف.

(٣) أخرجه مسلم، ١٤٣٧.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د/خالد بن حامد الحازمي، ص٦٨، ٦٩.

انحرافهم، في مجال الجنس.

لذلك أمرنا ديننا الحنيف - كآباء ومربين - بتجنيب الأولاد الإثارات الجنسية. فقال بشأن ستر المرأة لمفاتنها ولزينتها منعًا للإثارة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

وقال ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُم بالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[2].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تأمر الآباء والأمهات وكل المربين باتخاذ الاحتياطات اللازمة والأسباب الواقية في تجنيب الأبناء الإثارات الجنسية، حتى يتربوا على الصلاح والخلق الفاضل[3].



(١) سورة النور، الآية:٣١.

(٢) أخرجه أبو داود، ٤٩٥، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود، ٤٦٦).

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص٤٨، ٤٩.

٣٣٢- باب كراهة قول الإنسان: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ بل يجزم بالطلب

الحديث رقم (١٧٤٥)

١٧٤٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ، قال: ((لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْتَ، لِيَعْزِم المَسْأَلَةَ، فَإنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ)) متفق عليه[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: ((وَلكِنْ لِيَعْزِمْ وَلْيُعْظِم الرَّغْبَةَ فَإنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لِيَعْزِم المَسْأَلَةَ: لِيَجِدَّ فيها ويقطعها[٣].

الشرح الأدبي

من آداب الذكر والدعاء في الإسلام: الإخلاص وحسن النية، والإلحاح في الطلب، والثقة في كرم الله عز وجل، وفي عطائه الذي لا يحد، فهو عطاء تام غير منقوص، وهو لا يشغله شيء عن شيء، وأن يتدبر الداعي كلمات الدعاء، وأن ينبض بها قلبه، وتنتطق بها مشاعره وأحاسيسه قبل أن يتحرك بها لسانه.

وهذا الحديث الشريف يفتح منافذ الرجاء، وأبواب العطاء أمام الداعية والمستغفرين بالأسحار وفي كل وقت وحين ..آناء الليل وأطراف النهار.

وأسلوب الحديث يتسق مع مقاصده الشريفة، وتوجيهاته السديدة: ويبدأ الحديث

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٩/٩).

(٢) برقم (٢٦٧٩/٨).

(٣) النهاية في (ع ز م).

بأسلوب النهي مع تأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد الثقيلة في قوله: "لا يقولن أحدكم"، أي: في دعائه: أو، وهو يدعو، وحذفت للإيجاز ولعدم الفصل بين القول: ومقول القول، والقول المنهي عنه في الحديث هو قول الداعي: إن شئت: حين يقول: "اللهم ارحمني، أو : اللهم اغفر لي": وتكرر لفظ الجلالة المقترن بالميم الدالة على الجمع: للإشارة بأن الله رب العالمين، وليس رب الداعي وحده، ويمكن أن يكون الدعاء جماعياً والإمام يقول: ويردد المأمومون وراءه هذا الدعاء المقترن بأسلوب الشرط، وتكرر كذلك: قوله "إن شئت": لمزيد من التحذير بتجنب هذه الصيغة في الدعاء وهي صيغة الشرط، حيث قال العلماء: سبب كراهة ذلك أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، فيخفف عنه، ويعلم أنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، والله منزه عن ذلك، وقيل: إن سبب الكراهة، أن في هذا اللفظ: أي في تعليق الدعاء بالشرط والمشيئة صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه؛ وهذا لا يليق بذات الله وجلاله: فإن الله صانع ما شاء لا مكره له.

ولذلك: ختم الحديث بالأمر الصريح المباشر في هذه الصيغة البليغة "ليعزم المسألة فإنه لا مكره له"، والتأكيد في الجملة الأخيرة، يطمئن المسلم ويدعو إلى الثقة بربه والتوكل عليه، فهو يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وقال العلماء عزم المسألة، الشدة في طلبها، والجزم به من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على مشيئته ونحوها، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين[1] من الفقه: استحباب الجزم في الطلب، وكراهة تعليقه على المشيئة فلا يقول اللهم أعطني إن شئت، ونحو ذلك، لما في هذا الأسلوب من الاستغناء عن المطلوب[2].

---

(١) الحديث رقم (١٧٤٥)، (١٧٤٦).

(٢) شرح صحيح مسلم ٤١/٩، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٣٠/٩.

بل ينبغي على الداعي أن يجتهد في الدعاء، ويكون راجياً للإجابة، ولا يقنط من رحمة الله، فإنه يدعو كريماً[١].

قال ابن عيينة[٢]: (لا يمنعن أحداً الدعاء ما يعلم في نفسه -يعني من التقصير- فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه، وهو إبليس، حين قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣].

هذا وحمل النهي - هنا - على الكراهة، وهو ما ذهب إليه النووي، وحمله ابن عبدالبر على التحريم، والأول أولى[٤].

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الجزم في الدعاء وعدم الاستثناء فيه.

ثانياً: من آداب المدعو: الإقبال على الله في الدعاء.

ثالثاً: من مهام الداعية: تعليم السائل لربه كيف يسأل.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الجزم في الدعاء وعدم الاستثناء فيه:

وهذا واضح من النهي: (لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له)، كما هو واضح أيضاً من الأمر والنهي المؤكد للأمر: (فليعزم في المسألة ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني)، قال ابن حجر: "ومعنى الأمر بالعزم: الجد فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى"[٦].

---

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٣٦/١٩، والاستذكار لابن عبدالبر ٥٢٥/٢.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٤٠/١١.

(٣) سورة الحجر، آية: ٣٦.

(٤) شرح صحيح مسلم ٤١/٩، والاستذكار لابن عبدالبر ٥٢٥/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ ٤٧/٢.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٤٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٤٦).

(٦) فتح الباري ١٤٠/١١.

وقال العز بن عبدالسلام: "الاستثناء في غير الدعاء توحيد وتفويض إلى الله وبراءة من الحول والقوة"(١).

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث أن الداعي ينبغي أن يعزم في السؤال ولا يتردد، فإن التردد في المسألة نذير التردد في الإيمان، فإن الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ لا يكره ولا يغيض ما عنده سبحانه"(٢).

وقال الطيبي: (قال المظهر: نهى عن قول: إن شئت في الدعاء، لأنه شك في القبول، بل ليعزم مسألته وليكن مستيقناً في قبول الدعاء، فإن الله تعالى كريم لا بخل عنده، وقدير لا يعجز عن شيء، ولا يكرهه أحد، ولا يحكم عليه، فلا يجوز أن يقال: اغفر لي إن شئت، والضمير في (أعطاه)، يرجع إلى شيء، يعني لا يعظم عليه إعطاء بل جميع الموجودات في أمره يسير)(٣).

وقال ابن عبدالبر: "يدخل في معنى قوله: (اللهم اغفر لي إن شئت، وارحمني إن شئت، كل دعوة، فلا يجوز لأحد أن يقول: اللهم أعطني كذا إن شئت، وتجاوز عني إن شئت، وهب لي من الخير كذا إن شئت من أمر الدين والدنيا، لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولأنه كلام مستحيل لا وجه له، لأنه لا يفعل إلا ما شاء، لا شريك له"(٤).

وقال ابن عثيمين: (ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له، يعني الله عز وجل إن غفر لك فمشيئته، أو رحمك فمشيئته، لا أحد يكرهه على ذلك، فهو يفعل ما يشاء ويختار عز وجل، لا مكره له حتى تقول إن شئت، كذلك أيضاً يقول الإنسان: إن شئت كأنه يتعاظم الشيء، فيقول: إن شئت فأت به وإن شئت لا تأت، والله تعالى لا يتعاظمه شيء

---

(١) شجرة المعارف والأحوال ص ٢٣٩. والاستثناء قولنا: إن شاء الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ - ٢٤].

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٢٩/٥.

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٣٠٢/٤.

(٤) التمهيد ٢٢٠/٧، موسوعة شروح الموطأ.

أعطاه، مهما عظم الشيء، فإن الله تعالى غني كريم يعطي الكثير)[١].

وقال ابن حجر: "والمراد أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيخفف الأمر عليه، ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله سبحانه فهو منزه عن ذلك فليس للتعليق فائدة"[٢].

ثانياً- من آداب المدعو: الإقبال على الله في الدعاء:

وهذا واضح من النهي: (لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت) والأمر: (ليعزم المسألة)، قال ابن حجر: "وقيل: معنى العزم أن يحسن الظن بالله في الإجابة... ومعنى قوله: (ليعظم الرغبة أي: يبالغ في ذلك بتكرار الدعاء والإلحاح فيه، ويحتمل أن يراد به الأمر بطلب الشيء العظيم،وتؤيده رواية: (فإن الله لا يتعاظمه شيء)، وقيل: المعنى أن فيه - أي في التعليق على المشيئة - صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه، وقال ابن بطال: في الحديث أنه ينبغي للداعي أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء الإجابة، ولا يقنط من الرحمة فإنه يدعو كريماً، وقد قال ابن عيينة: لا يمنعن أحداً الدعاء ما يعلم في نفسه - يعني من التقصير - فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣]، وقال الداودي: معنى قوله: (ليعزم المسألة) أن يجتهد ويلح ولا يقل إن شئت كالمستثنى، ولكن دعاء البائس الفقير. قلت: وكأنه أشار بقوله كالمستثنى إلى أنه إذا قالها على سبيل التبرك لا يكره وهو جيد"[٤].

والمتأمل في هذه الأقوال يجد أنه يمكن ردّها إلى معنى واحد وهو الإقبال على الله في الدعاء، ولهذا قال القرطبي: "إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة التهمم بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمن: أن هذا المطلوب إن حصل، وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يُتحقق من حالة الافتقار والاضطرار

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٩٢/٢ - ١٧٩٣.

(٢) فتح الباري ١٤٠/١١ ط/ السلفية، وانظر: المفهم ٢٩/٧ - ٣٠.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٤٠/١١.

الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة اكتراثه بذنوبه، وبرحمة ربه، وأيضاً فإنه لا يكون مُوقناً بالإجابة، وقد قال ﷺ: ((ادْعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بالإجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ))[1]. ثم إن النبي ﷺ لم يكتف بالنهي عن ذلك حتى أمر بنقيضه فقال: (ليعزم في الدعاء) أي: ليجزم في طلبته، وليحقق رغبته ويتيقن الإجابة؛ فإنه إذا فعل ذلك: دلّ على علمه بعظيم قدر ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقرٌ لما يطلب، مضطراً إليه، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[2])[3]".

وقال ابن القيم: "وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعه بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب، وذلّة له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً"[4].

ثالثاً- من مهام الداعية: تعليم السائل لربه كيف يسأل:

وهذا واضح من الحديث، قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه: تعليم السائل لربه كيف يسأل، وأن الله سبحانه لما عظُم كرمه، وغزر فضله، لم يكن ينال ذلك بمقتضى مبلغ عقول البشر، فعلّمهم سبحانه كيف يسألون فضله بألسنة الطلب؛ ومن ذلك ما علمهم إياه على لسان رسوله ﷺ، ومنه ما ادخره ليعلمه عباده في الآخرة، فكان من ذلك الذي علمهم إياه على لسان رسوله ﷺ أن يعزم العبد المسألة،

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٧٩، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٧٦٦).

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) المفهم ٧/٢٩.

(٤) الداء والدواء ص ١٤ - ١٥.

ويجزمها، ويقطع بها، ولا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، فإن قوله: إن شئت في سؤاله يدل على ضعف السائل وتردده من حيث إنه نظر عند طلبه إلى ما كان منه من السوء، ولو قد نظر عند طلبه إلى جود ربه سبحانه، وأوسع الطلب، وأعظم السؤال، لكان ذلك مما يناسب كرم الرب جل جلاله، إذ ليس عطاء الله سبحانه على مقدار سائله؛ ولكنه بحسب جود المعطي.

وليعزم في سؤاله؛ فإن كرم الله متسع لذلك وأمثاله، ومتى علقه بالمشيئة استدل بذلك منه، على أنه لم يعرف الله حق معرفته، ويدل على ما قلناه قوله: (فإنه لا مكره له) لأنه لو لم يشأ لم يشرع الدعاء، ولم يندب الخلق إلى الطلب، فلما شرع الدعاء وندب إليه، واستدعى من الخلق أن يمدوا أيديهم إلى فضله، علمنا أنه قد شاء الإجابة.

واعلم أنه شرع ذلك قبل أن يسأله السائلون عن غير إكراه، إذا الخلق كلهم دون أن يتعرضوا لنيل شيء من فضله إلا عن خضوع وسؤال وطلب.

ويدل على ما قلنا قوله: (وليعظم الرغبة) أي: لا يقتصر، فإن أحد ملوك هذه الدنيا لو قد تعرض له سائل فتوصل إلى لقائه فلما واجهه قال له: سلني، فلما سأله، [سأله] فلساً من نحاس لاستهجن ذلك وخاطبته العقول بألسنة الأحوال، يا هذا: تسأل من هذا الملك الواجد، وقد قال لك: اطلب مني، ودعاك إلى سؤاله، هذا المقدار اللطيف؛ لقد أفصحت بمسألتك هذا عن تبخيل هذا الملك أو اختلال عقلك.

فجميع الدنيا، وأضعافها، وما يعطيه الله في الجنة لعبده على سعتها، وكثرة العطاء إذا قيس الكثير منه إلى ما يجود به ذلك إلى الملك من أهل الدنيا من الفلس النحاس، كان الفلس في حال ذلك الملك مؤثراً، وفي جوده معتبراً، وجميع الدنيا، وسائر عطايا الجنة غير مؤثر فيما عند الله عز وجل ولا في عطائه"[1].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التعليل:

وهذا واضح من تعليله ﷺ عن التعليق على مشيئة الله تعالى، في الدعاء، والأمر

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٧/٢٤٠ - ٢٤١.

بـالعزم فيـه والجـدّ، وذلـك (بـأن الله لا مكـره لـه)، (وأن الله تعـالى لا يتعاظمـه شـيء أعطـاه)، وأنـه (لا مستكره لـه)، وهـذا التعليل يزيـد المدعوين اقتناعـاً علـى اقتنـاع بمـا أمرهم به الداعية أو نهاهم عنه.

الحديث رقم (١٧٤٦)

١٧٤٦- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((إذا دَعَا أحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلاَ يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

فليعزم المسألة: فليجدَّ فيها وليقطعها[2].

لا مستكره له: أي أن الله تعالى لا يتأتى إكراهه على شيء فهو يفعل ما يشاء ويرضى[3].

الشرح الأدبي

إن الله سبحانه وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئو النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئو الليل، ويقول: ادعوني استجيب لكم، وهذا الحديث الشريف يتوهج بالعطاء الإلهي الذي تألقت أشعته في الحديث السابق، ولكن الأداء الأسلوبي في هذا الحديث متنوع، ويتضمن صيغاً أسلوبية جديدة تقدم المعنى الجليل الذي تضمنه الحديث السابق، وهذا من سمات بلاغة البيان النبوي: فالمعنى واحد، ولكن تتعدد طرقه وأساليبه لمزيد من الترغيب والترهيب.

ويبدأ الحديث: بأسلوب الشرط: وأداة الشرط "إذا" ومجيء هذه الأداة في هذا السياق إيحاء بتحقق إجابة الدعاء، وفيها كذلك حث على الدعاء وتحققه، لأن جواب الشرط يتحقق بتحقق فعل الشرط، وإذا تفيد اليقين والتحقق، ولنتأمل هذه الجملة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٨/٧).

(٢) النهاية في (ع ز م).

(٣) انظر: فتح الباري ١١/١٤٤.

الشرطية المتوهجة بالبشارة والوعد الكريم "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة" أي: فليكن جاداً وشديداً في طلبه من غير ضعف ولا تردد في الطلب.

ثم يأتي أسلوب آخر بعد هذا الترغيب: وهو النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة: وفي ذلك ترهيب للسائل وتحذير من هذا النهج في الدعاء، والنهي جاء مؤكداً كما في الحديث السابق، "ولا يقولن: اللهم: إن شئت فأعطني"، وقيل لأن ذلك كلام مستحيل لا وجه له: لأن الله لا يفعل إلا ما يشاء، وأداة الشرط: "إن" تحمل معنى الشك والتردد، وكأن هذه الصيغة منهي عنها، لأنها توحي بعدم الثقة في قدرة الله عز وجل، والمؤمن الحق براء من ذلك، وصيغة الاستفعال في قوله: "فإنه لا مستكره له": توحي بأن الله يفعل ما يشاء، وأنه على كل شيء قدير، وهو صانع ما شاء، ولا يقدر أحد على حجب نفع أراده الله، أو رد ضر شاءه الله، وينبغي للداعي أن يجتهد في الدعاء، ويكون على رجاء الإجابة، ولا يقنط من الرحمة، فإنه يدعو كريماً كما قال ابن بطال.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على تعظيم الله عز وجل:

من أهداف التربية الإسلامية: تعظيم الله عز وجل وتعظيم شأنه، فيصدق المسلم تصديقًا جازمًا بأن الله - سبحانه وتعالى - هو الخالق المالك لهذا الكون، بما فيه، والمتصرف فيه تصرفًا مطلقًا، والقادر على إيجاد الشيء من العدم على غير مثال سابق، والمتصرف المطلق بتدبير الكون بمشيئته وحده، وذلك بإحداث ما يشاء وزيادة ما يشاء، وإنقاص ما يشاء من المقادير، في غير حاجة إلى شيء لأنه تعالى المحيي المميت القابض الباسط الرزاق النافع الضار المعز المذل....إلخ [١].

وإن تقوية تعظيم الله في النفوس هو الأساس الذي تتفرع منه فروع الاعتقاد، وقد عاب تبارك وتعالى على أهل الزيغ والضلال أنهم لم يقدروه حق قدره، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]. وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى في النفس، ويملك صاحبه العلم الصحيح، فإنه يسلم له اعتقاده، وتنضبط حياته بشرع الله تبارك وتعالى [٣].

فعلى المربي غرس تعظيم الله في النفوس، فالله جلا وعلا عظيم يجب أن يعظم، وهناك ألفاظ لا يجوز أن تقال في حقه سبحانه تعظيمًا له. ومن هذه الألفاظ التي لا تقال في حق الله تعالى: اللهم اغفر لي إن شئت، فطلب الحاجة من الله لا يعلق على المشيئة وإنما يجزم به.

ولهذا قال ﷺ: ((لاَ يَقُولُ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ فإنَّه لاَ مُكْرِهَ لَهُ». وفي رواية لمسلم: «وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ. وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ. فَإنَّ اللّهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)).

---

(١) انظر: أصول التربية، د/أمين أبولادي، ٨١، ٨٢.

(٢) سورة الزمر، الآية:٦٧.

(٣) تربية الشباب "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش، ص٥٤.

والنهي عن ذلك لأمرين:

الأول: أن الله سبحانه لا مكره له على الفعل، وإنما هو يفعل ما يريد؛ بخلاف العبد؛ فإنه قد يفعل الشيء وهو كاره، ولكن يفعل لخوف أو رجاء من أحد، والله ليس كذلك.

الثاني: أن التعليق على المشيئة يدل على فتور في الطلب وقلة رغبة فيه؛ فإن حصل، وإلا استغنى عنه، وهذا يدل على عدم الافتقار إلى الله.

وفي رواية مسلم الأمر بتعظيم الطلب، لأن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي: لا يكبر عليه سبحانه ولا يعسره، وليس عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق، وذلك لكمال فضله، ووجوده، وسعة غناه، فهو يعطي العظائم، ولا يعجزه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1][2].

ثانيًا: التربية على الثقة وحسن الظن بالله:

من أهم أهداف التربية الإسلامية: ترسيخ الثقة حسن الظن بالله - عز وجل - فهذا هدف تربوي رئيس، يجب غرسه في نفس المسلم، فيجب عليه أن يظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديه السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن يعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعل ذلك فعليه أن يظن أن الله يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه[3].

فسوء الظن بالله خطير، لأن حسن الظن بالله من واجبات التوحيد، وسوء الظن به ينافي التوحيد[4].

وإذا كان الأمر عائدًا إلى قدرة الله، فهذا يوجب أن يكون المسلم جازماً بأن الله قادر على ذلك، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[5].

---

(١) سورة يس، الآية:٨٢.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د/صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ص١٥٧، ١٥٨.

(٣) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين، ٢/٢٨٣.

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص١٠٤، ١٠٥.

(٥) سورة غافر، الآية:٦٠.

أما من حيث الدعاء مع ما عند الإنسان من موانع أو عدم توافر الأسباب، فقد يتردد الإنسان في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن يحسن الظن بالله، لأن الله عز وجل قال: "ادعوني استجب لكم"، فالذي وفق لدعائه أولاً سَيَمُنّ بالإجابة آخرًا، لاسيما إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة، وتجنب الموانع [1].

ولهذا قال النبي ﷺ: "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت، فأعطني، فإنه لا مستكره له". وفي رواية لمسلم: " ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه".

فينبغي على المسلم أن يتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل، وأن يكون على يقين بأن الله يسمع دعاءه، وأنه تعالى سوف يستجيب له.



(١) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين، ٣٢٣.

٣٣٣- باب كراهة قول: ما شاء اللهُ وشاء فلان

الحديث رقم (١٧٤٧)

١٧٤٧- عن حُذَيْفَةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: ((**لاَ تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلاَنٌ؛ وَلكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ**)). رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٤).

الشرح الأدبي

إن لغة الخطاب والحديث عن الله عز وجل يجب أن لا تشوبها شائبة، وأن لا تكدرها شبهة، وأن تسمو لفظاً ومعنى، وشكلاً ومضموناً، وأن يكون مصدرها الوجدان قبل اللسان، وباعثها الشعور الفياض بهالات الإيمان، والبيان النبوي من سمات بلاغته، مراعاة مقتضى الحال، وإرساء القاعدة البلاغية التي تقول: لكل مقام مقال.

والمصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف يلقن المسلمين درساً في كيفية التحدث عن المشيئة الإلهية، وهذه الكيفية قد ترتبط بحرف دون حرف وبالعدول عن كلمة إلى كلمة أخرى، وبحسن اختيار اللفظ، وحسن تركيب الجملة، وحسن أدائها، وقوة التدبر والتفكر في دلالة التراكيب والأساليب، مع استحضار عظمة الله في كل حرف، واستحضار رحمته وقوته، وبطشه وعلمه في كل مقام حسب سياق الخطاب، وجو الحديث.

ولنتأمل الفرق بين الصيغتين: صيغة نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهي التي تفيد الجمع والتماثل بين المشيئة الإلهية، والمشيئة الإنسانية. وهذا غير جائز شرعاً: ولذلك نهى رسول الله وقال: لا تقولوا ما شاء الله، وشاء فلان، دفعاً للوهم الذي توحي به الواو من حيث: المشاركة في المشيئة، ومشيئة الله أزلية قديمة، ومشيئة العبد حادثة ممكنة،

---

(١) برقم (٤٩٨٠). قال العراقي في تخريج الإحياء (٣٠٦٥): رواه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح.

فالواو هنا: هي التي أحدثت هذا الإشكال، وذلك الوهم الذي تبطل به عقيدة القائل، وهو لا يدري سبب ما وقع فيه: والسبب جهله بمعاني الحروف ودلالتها في اللغة العربية.

وأما الصيغة الثانية التي تزيل اللبس، وتدفع الوهم، وينجو بها الإنسان من مزالق التردي في الشبهات، فهي الصيغة الأولى نفسها ولكن مع قوله "ثم"، وثم من حروف العطف التي تفيد الترتيب والتتابع والتراخي أي أنها تفيد: انفصال المشيئة الإلهية عن المشيئة الإنسانية، ولذلك قال: "ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان".

ويرى الإمام الشافعي أن من جهل سعة لسان العرب، وكثرة ألفاظها، وافتتانها من مذاهبها، جهل جُمل علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذهبها، وفهم ما تأوله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الداخلة على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة أن يقول الرجل ما شاء الله وشاء فلان، لأن هذا اللفظ يقتضي التشريك بين الله تعالى وعباده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا ينبغي للعبد أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، وما لي إلا الله وفلان، وأطلب حاجتي من الله وفلان للحديث.

وقال رجل للرسول ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن قول: ما شاء الله وشاء فلان.

ثانياً: من آداب الداعية: البيان والتوضيح.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن قول: ما شاء الله وشاء فلان:

هذا واضح من النهي في الحديث، قال ابن عثيمين: "الكراهة - أي في قول النووي:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠٧/٣٥، وأيضاً: شرح صحيح مسلم ١٥٩/٦، نيل الأوطار ٣١/٧.

باب كراهة قول ما شاء الله وشاء فلان - هنا يراد بها التحريم، يعني: أنك إذ تقول: ما شاء الله وشاء فلان، أو ما شاء الله وشئت، أو ما أشبه ذلك، وذلك أن الواو تقتضي التسوية إذا قلت: ما شاء الله وشاء فلان، كأنك جعلت فلاناً مساوياً لله عز وجل في المشيئة، والله تعالى وحده له المشيئة التامة، يفعل ما يشاء الله، ولكن أرشد النبي ﷺ لما نهى عن ذلك، أرشد إلى قول مباح، فقال: ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان، لأن ثم تقتضي الترتيب بمهلة، يعني أن مشيئة الله فوق مشيئة فلان، وكذلك قول ما شاء الله وشئت، فإن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: ((أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده))[(١)]، فههنا مراتب:

المرتبة الأولى: أن يقول ما شاء الله وحده، وهذه كلمة فيها تفويض الأمر إلى الله واتفق عليها المسلمون، كل المسلمين يقولون: ما شاء الله وما لم يشأ لم يكن.

المرتبة الثانية: يقول ما شاء الله ثم شاء فلان، فهذه جائزة أجازها النبي ﷺ وأرشد إليها.

المرتبة الثالثة: أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، فهذه محرمة ولا تجوز، وذلك لأن الإنسان جعل المخلوق مساوياً للخالق عز وجل في المشيئة[(٢)].

المرتبة الرابعة: أن يقول: ما شاء الله فشاء فلان، بالفاء، فهذه محل نظر لأن الترتيب فيها وارد، بمعنى أنك إذا قلت (فشاء) فالفاء تدل على الترتيب، لكنها ليست كـ(ثم) لأن ثم تدل على الترتيب بمهلة، وهذه تدل على الترتيب بتعقيب ولهذا فهي محل نظر، لهذا لم يرشد إليها النبي ﷺ)[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٤/١ رقم ١٨٣٩، ٢٥٦١/٤، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وانظر: تتمة تخريجه في المسند ٣٣٩/٣، وقال السندي: المراد أن هذا الكلام يوهم المساواة، فلا ينبغي التكلم به. حاشية السندي على المسند ٣٤٠/٣.

(٢) قال البغوي في شرح السنة ٣٦٠/١٢ - ٣٦١: إن الواو لما كان حرف الجمع والتشريك، منع من عطف إحدى المشيئتين على الأخرى بحرف الواو. فأمر بتقديم مشيئة الله تعالى، وتأخير مشيئة من سواه بحرف (ثم) الذي للتراخي.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٩٣/٢ - ١٧٩٤.

ثانياً- من آداب الداعية: البيان والتوضيح:

وهذا واضح من قوله ﷺ: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)، وقال ﷺ: ((إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ))[1].

وقال ابن عثيمين: "في هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا ذكر للناس شيئاً لا يجوز، فليبين لهم ما هو جائز، لأنه قال: لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان، وهكذا ينبغي لمعلم الناس إذا ذكر لهم الأبواب الممنوعة فليفتح لهم الأبواب الجائزة حتى يخرج الناس من هذا إلى هذا، بعض الناس يذكر الأشياء الممنوعة، يقول: هذا حرام، هذا حرام، ولا يبين لهم الأبواب الجائزة، وهذا سد للأبواب أمامهم دون فتح للأبواب.

وانظر إلى لوط عليه الصلاة والسلام قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾[2]، نهاهم عن الممنوع وأرشدهم إلى الجائز، هكذا النبي ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان، بل انظر إلى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾[3]، ولما جيء إلى النبي ﷺ بتمر طيب فقال: ((أكلُّ تمرِ خَيبرَ هكذا؟ قال: لا والله يا رسولَ الله، إنّا لنأخُذ الصاعَ من هذا بالصاعَين والصاعَين بالثلاثةِ، فقال رسولُ الله ﷺ: ((لا تفعَل، بِعِ الجمعَ بالدراهم، ثمَّ ابْتَعْ بالدراهمِ جَنيباً))[4]"[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ١٧٢٠).

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٥ - ١٦٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٤) أخرجه البخاري ٢٢٠١ - ٢٢٠٢، ومسلم ١٥٩٣ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، وقال الشيخ عبدالله البسام: "إن النبي ﷺ أمر الجابي أن يبيع التمر الردئ ليشتري بثمنه تمراً جيداً، توضيح الأحكام ٢٧/٤، والحديث دليل على أن بيع الجنس بجنسه يجب فيه التساوي سواء اتفقا في الجودة والرداءة أو اختلفا، وأن الكل جنس واحد. سبل السلام ص ٥٢٠، قلت: الأجناس المتفق عليها الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح لأن الأحاديث نصت عليها، أما ما عدا ذلك فهناك خلاف بين الفقهاء ينظر في باب الربا من كتب الفقه.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٧٩٤/٢.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ. وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ. قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللَّه وَرَسُولَهُ))[1].

قال البغوي: "فيه تعليم الأدب في المنطق، وكراهية الجمع بين اسم الله تعالى واسم غيره تحت حرف الكناية، لأنه يتضمن نوعاً من التسوية... وروي أن عثمان قال لرجل: ما شئت، ثم قال بل الله أملك، بل الله أملك.. وكان إبراهيم لا يرى بأساً أن يقول: ما شاء الله ثم شئت، وكان يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك حتى يقول: ثم بك. قال الشافعي[2]: "المشيئة إرادة الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]، فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء، فيقال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله ثم شئت. ولا يقال: ما شاء الله وشئت. قال: ويقال: من يطع الله ورسوله، فإن الله تعبّد العباد بأن فرض طاعة رسول الله ﷺ، فإذا أطيع رسول الله، فقد أطيع الله بطاعة رسوله"[4].

---

(١) أخرجه مسلم ٨٧٠.

(٢)الأم، الإمام الشافعي ص ١٤٧.

(٣) سورة الإنسان، آية: ٣٠.

(٤) شرح السنة ٣٦١/١٢، وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي ١٦٥/٦/٣، ط/دار عالم الكتب، فقد ذهب مذهباً آخر في توجيه حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية العقدية:

إن أسمى وأعظم أهداف التربية والتعليم هو: تحقيق العبودية لله وحده في حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة[1].

ومما يحقق العبودية لله وحده التأدب معه في الألفاظ، فيجب التحفظ في الألفاظ والابتعاد عن اللفظ الذي فيه سوء أدب مع الله سبحانه، لأن هذا يخل بالعقيدة، وينقص التوحيد؛ فلا يجوز أن يقال ما شاء الله وشاء فلان، وإنما يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان لذا قال النبي ﷺ: «لا تَقولُوا مَا شَاءَ الله وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». لأن العطف بالواو يقتضي المشاركة، ولا أحد يشارك الله سبحانه ويساويه في أمر من الأمور، وأما العطف بـ "ثم" فإنه يقتضي الترتيب والتبعية، فتكون مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله سبحانه وحاصلة بعدها وليست مشاركة لها.

وهذا مما يؤكد على المسلم وجوب دراسة العقيدة ومعرفة ما يصححها وما يخل بها حتى يكون على بينة من أمره وحتى لا يقع في المحذور وهو لا يشعر[2].

فمن أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[3]، أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه والتوقير: العظمة.

ومن وقاره: أن لا يُساوي به شيء من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، د. سليمان عبدالرحمن الحقيل، ص٣٠.

(٢) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، ص١٦٠.

(٣) سورة نوح، الآية: ١٣.

ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه[1].

فعلى المربين العناية بالعقيدة وغرس مفهومها الصحيح في نفوس الطلاب والطالبات فيربطونهم بالخالق جل وعلا، فيتوجهوا إليه في سائر عباداتهم ودعائهم، ويعلموا يقينًا أنه سبحانه هو الرازق الناصر الوهاب القادر على كل شيء، فمن حصل له مكروه فليتوجه بالدعاء إلى الله فإنه سميع مجيب، وليتوكلوا عليه في سائر أمورهم، ويعظمونه ويقدرونه، ولا يساوونه بأحد من خلقه.

ولاشك أن لدراسة التوحيد بأقسامه الثلاثة أهمية كبرى في تعليم الجيل المسلم، ليعبدوا الله على بصيرة فيسلموا من الشرك والابتداع[2].



(١) الفوائد، ابن القيم، ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) انظر: آداب المتعلمين، د/احمد بن عبدالله الباتلي، ص٣٣.

٣٣٤- باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة

والمُرادُ بِهِ الحَديثُ الذي يَكُونُ مُبَاحًا في غَيرِ هذا الوَقْتِ، وَفِعْلُهُ وَتَرْكُهُ سواءٌ. فَأَمَّا الحَديثُ المُحَرَّمُ أو المَكرُوهُ في غيرِ هذا الوقتِ، فَهُوَ في هذا الوقت أشَدُّ تَحريمًا وَكَرَاهَةً. وأَمَّا الحَديثُ في الخَيرِ كَمُذَاكَرَةِ العِلْمِ وَحِكايَاتِ الصَّالِحِينَ، وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، والحَديث مع الضَّيفِ، ومع طالبِ حَاجَةٍ، ونحو ذلك، فلا كَرَاهَةَ فيه، بل هُوَ مُستَحَبٌّ، وكَذَا الحَديثُ لِعُذْرٍ وعَارِضٍ لا كَراهَةَ فيه. وقد تظاهَرَتِ الأحَاديثُ الصَّحيحةُ على كُلِّ ما ذَكَرْتُهُ.

الحديث رقم (١٧٤٨)

١٧٤٨- عن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يكرهُ النَّومَ قَبْلَ العِشَاءِ والحَديثَ بَعْدَهَا. متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو برزة الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٠٧).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف: جاء في أسلوب خبري يحكي عملاً من أعمال رسول الله ﷺ: وبداية الحديث بقوله: "كان": تدل على أن هذا الحديث هو خبر من أخبار رسول الله ﷺ التي تسردها الصحابة للاقتداء والاتعاظ، واتباع سنة رسول الله ﷺ وطريقته في هذا النهج الذي اختاره: إذا أقبل الليل، ومنهجه ﷺ مستمد من الوحي الإلهي، ومن نصوص القرآن الكريم، حيث يقول الله عز وجل في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[٢].

وفي ضوء هذا المنهج الإلهي: كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥/٦٤٧).

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ١٠-١١.

والحديث بعدها، وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير: ويكره الحديث بعدها: أي بعد صلاة العشاء.

وقد ورد ما يوضح هذا الأمر، حتى لا يلتبس الأمر على عامة الناس والذين يجهلون سيرة المصطفى ﷺ حيث يقول الإمام القسطلاني في صفة نومه: ﷺ كان ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني: فيقوم فيستاك ويتوضأ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان ﷺ: تنام عيناه ولا ينام قلبه، وقيل في تعليل ذلك: لأن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وقيل بأن النبي ﷺ كيفما اختلف حاله من نوم أو يقظة في حق وتحقيق، ومع الملائكة في كل طريق ... ﷺ.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- كراهة النوم قبل صلاة العشاء بعد دخول وقتها: من النوم المكروه: النوم قبل صلاة العشاء بعد دخول وقتها إن ظن تيقظه في الوقت، نص عليه الشافعية فقالوا: يكره النوم قبل صلاة العشاء بعد دخول وقتها، لخوف استمرار النوم حتى خروج الوقت، ومحل ذلك إذا ظن تيقظه في الوقت وإلا حرم النوم، أما النوم قبل دخول الوقت فالظاهر عدم الكراهة، لأنه لم يخاطب به، ويرى المالكية أنه يجوز له النوم ولا إثم عليه[١].

٢- كراهة الحديث بعد صلاة العشاء[٢]: يكره الحديث بعد صلاة العشاء[٣]. ولعل السبب في كراهة الحديث بعد صلاة العشاء أنه ربما تأخر في النوم، فتفوته صلاة الليل

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٦١/١.

(٢) والمراد بالحديث الذي يكره بعدها هو ما كان مباحًا في غير هذا الوقت، أما المكروه والمحرم في غيره فهو أشد كراهة وتحريمًا في هذا الوقت. انظر: المجموع ٤٣/٣.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٦١/١، والكافي لابن عبدالبر ٣٥، والمجموع ٤٣/٣، وكشاف القناع ٢٥٤/١، والمبدع ٢٣٧/١.

- لمن اعتادها - أو ربما أدى ذلك إلى تفويت صلاة الصبح عن وقتها المختار، أو الأفضل[1] ولأن السهر في الليل قد يؤدي إلى الكسل عما يجب في النهار من واجبات الدين ومصالح الدنيا[2].

ومحل الكراهة هنا إذا كان الكلام والسهر لغير حاجة، ولم تدع إليه مصلحة، أما الحديث للحاجة، والسهر للمصلحة، فلا بأس به، ويدخل فيه: قراءة القرآن الكريم، والحديث، ومدارسة العلم، ومحادثة الرجل أهله، وأولاده للملاطفة، ومحادثة الضيف، والحديث بالإصلاح بين الناس، والشفاعة إليهم في خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك[3].

والمعنى في ذلك: أن يكون اختتام الصحيفة بالعبادة، كما جعل ابتداؤها بالعبادة، ليمحى ما بينهما من الزلات[4].

المضامين الدعوية[5]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النوم قبل صلاة العشاء الآخرة والحديث بعدها.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: من معجزات النبي ﷺ إخباره بانخرام قرنه بعد مائة سنة من ليلة إخباره.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الاجتهاد في الطاعة والاستعداد للموت.

خامسًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة.

سابعًا: من فقه الداعية: مؤانسة المدعوين إذا وقع منه ما يظن أنه يشق عليهم.

---

(١) المجموع ٤٣/٣.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤٦/٥.

(٣) حاشية ابن عابدين ٣٦٨/١، وشرح صحيح مسلم ١٤٦/٥، والمجموع ٤٤/٣.

(٤) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ١٢٣/١.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٤٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٤٩، ١٧٥٠).

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النوم قبل صلاة العشاء الآخرة والحديث بعدها:

وهذا واضح من حديث أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها، قال النووي: "قال العلماء: وسبب كراهة النوم قبلها أنه يعرضها لفوات وقتها باستغراق النوم، أو لفوات وقتها المختار والأفضل، ولئلا يتساهل الناس في ذلك، فيناموا عن صلاتها جماعة"[1].

وقال ابن حجر: "قال الترمذي[2]: كره أكثر أهل العلم النوم قبل صلاة العشاء، ورخص بعضهم فيه في رمضان خاصة. انتهى، ومن نقلت عنه الرخصة قيدت عنه في أكثر الروايات بما إذا كان له من يوقظه، أو عرف من عادته أنه لا يستغرق وقت الاختيار بالنوم[3]، وهذا جيد حيث قلنا: إن علة النهي خشية خروج الوقت، وحمل الطحاوي الرخصة على ما قبل دخول وقت العشاء، والكراهة على ما بعد دخوله"[4].

وقال النووي: "وسبب كراهة الحديث بعدها أن يؤدي إلى السهر، ويخاف منه غلبة النوم عند قيام الليل أو الذكر فيه، أو عن صلاة الصبح في وقتها الجائز أو في وقتها المختار أو الأفضل، ولأن السهر في الليل سبب للكسل في النهار عما يتوجب من حقوق الدين والطاعات ومصالح الدنيا، قال العلماء: والمكروه من الحديث بعد العشاء هو ما كان في الأمور التي لا مصلحة فيها، وأما ما فيه مصلحة وخير فلا كراهة فيه، وذلك كمدارسة العلم، وحكايات الصالحين، ومحادثة الضيف والعروس للتأنيس، ومحادثة الرجل أهله وأولاده، للملاطفة والحاجة، ومحادثة المسافرين بحفظ متاعهم أو أنفسهم، والحديث في الإصلاح بين الناس، والشفاعة إليهم في خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد إلى مصلحة، ونحو ذلك، فكل هذا لا كراهة فيه، وقد جاءت

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٤٨/٥/٣، ط/ دار عالم الكتب.

(٢) سنن الترمذي ص ٥١ بعد الحديث ١٦٨.

(٣) انظر: مصنف عبدالرزاق ٥٦١/١ - ٥٦٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٢٧٩/٢ - ٢٨١.

(٤) فتح الباري ٤٩/٢ ط/ السلفية، وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي ١٤٩/٥/٣.

أحاديث صحيحة ببعضه والباقي في معناه[١]، ثم كراهة الحديث بعد العشاء، المراد بها صلاة العشاء لا بعد دخول وقتها، واتفق العلماء على كراهة الحديث بعدها إلا ما كان في خير كما ذكرناه"[٢].

وقال الألباني: "ينبغي أن يقيد ذلك بما إذا لم يترتب على الحديث بعد العشاء إضاعة شيء من الواجبات العينية، كالشاب مثلاً، يسهر في دراسة العلم أو الاستعداد للاختبار إلى قريب من الليل ثم ينام منهكًا، فتفوته صلاة الصبح، فمثل هذا السهر ولو في طلب العلم، لا يجوز، لأن مثله كمثل من يبني قصرًا ويهدم مصرًا، وإنما عليه أن ينام مبكرًا بعد صلاة العشاء، ليستيقظ مبكرًا لصلاة الصبح، وليجعل دراسته بعدها"[٣].

وقال ابن حجر: "والسمر بعدها قد يؤدي إلى النوم عن الصبح، أو عن وقتها المختار أو عن قيام الليل، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب الناس على ذلك، ويقول: (أسمرًا أول الليل ونومًا آخره)[٤]، وإذا تقرر أن علة النهي ذلك، فقد يفرق فارق بين الليالي الطوال والقصار، ويمكن أن تحمل الكراهة على الإطلاق حسمًا للمادة، لأن الشيء إذا شرع لكونه مظنة قد يستمر فيصير مئنة"[٥].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

وهذا واضح من قول ابن عمر رضي الله عنهما: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى العشاء في آخر حياته فلما سلم قال: أرأيتكم ليلتكم هذه؟) قال ابن حجر: الهمزة الأولى للاستفهام،

---

(١) وقد بوّب البخاري على حديثي ابن عمر وأنس بن مالك: باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء، كتاب مواقيت الصلاة الحديثان ٦٠٠، ٦٠١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤٨/٥/٢ - ١٤٩.

(٣) تعليق الشيخ الألباني على رياض الصالحين ص ٥٩٢.

(٤) أخرجه عبدالرزاق ٢١٣٤/١، وابن أبي شيبة ٢٧٩/٢.

(٥) فتح الباري ٧٣/٢، وقال د. زغلول النجار: "كراهة رسول الله صلى الله عليه وسلم النوم قبل أداء صلاة العشاء حرصًا على عدم ضياعها، وكراهة التحدث بعدها حرصًا على الاستفادة بأفضل ساعات النوم في أول الليل. الإعجاز العلمي في السنة النبوية ٦٢/٢.

والرؤية بمعنى العلم أو البصر، والمعنى: أعلمتم أو أبصرتم ليلتكم، وهي منصوبة على المفعولية والجواب محذوف تقديره، قالوا: نعم قال: فاضبطوها"[١].

ولا شك أن الاستفهام يثير المدعوين ويجعلهم أشد انتباهًا وأكثر استعدادًا لتلقي الرسالة الدعوية من الداعية، ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((هل تدرون ما قال ربكم؟))[٢].

قال ابن عثيمين: "إنما ألقى ﷺ عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا، لأن إلقاء الأسئلة يوجب الانتباه"[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: من معجزات النبي ﷺ إخباره بانخرام قرنه بعد مائة سنة من ليلة إخباره:

وهذا واضح من قول ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: (إن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض اليوم أحد)، وعند البخاري ومسلم زيادة: قال ابن عمر رضي الله عنهما: فوهل الناس[٤] في مقالة رسول الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: ((لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ))، يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَنْخَرِمَ ذَلِكَ الْقَرْنُ[٥].

قال ابن كثير: "فقد فسّر الصحابي المراد من هذا الحديث بما فهمه، وهو أولى بالفهم من كل أحد، من أنه يريد بذلك أن ينخرم قرنه ذلك، فلا يبقى أحد ممن هو كائن على وجه الأرض من أهل ذلك الزمان، من حيث قال هذه المقالة إلى مائة سنة"[٦].

وقد وردت أحاديث أخرى عن النبي ﷺ بمثل حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فعن جابر

---

(١) فتح الباري ٢٥٦/١ ط/ الريان.

(٢) أخرجه البخاري ٧٤٦، ومسلم ٧١ من حديث زيد بن خالد الجهني في نزول المطر ليلًا بالحديبية وصلاة النبي ﷺ بهم الصبح وقوله هذا القول بعد الصلاة.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٨٥/٢.

(٤) بفتح الهاء، أي: غلطوا. شرح صحيح مسلم ٨٩/١٦/٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠١، ومسلم ٢٥٣٧.

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٩٣/٩ - ٢٩٤.

بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: ((تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ. وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ))، وفي رواية: ((مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ، وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ))[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما رجع النبي ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة فقال رسول الله ﷺ: ((لاَ تَأْتِي مِائَةُ سَنَةٍ، وَعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ))[2].

قال النووي: "هذه الأحاديث قد فسّر بعضها بعضًا، وفيها علم من أعلام النبوة"[3]، وقد ساق ابن كثير: هذا الحديث في كتاب دلائل نبوته ﷺ في آخر السيرة النبوية تحت عنوان: ذكر الإخبار بانخرام قرنه ﷺ بعد مائة سنة من ليلة إخباره فكان كما أخبر"[4].

وقال ابن هبيرة: "فيه من الفقه أن الله تعالى أطلع رسول الله ﷺ على ذلك الغيب"[5].

وقال النووي: "والمراد أن كل نفس منفوسة كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها أكثر من مائة سنة، سواء قلّ عمرها قبل ذلك أم لا، وليس فيه نفي عيش أحد يوجد بعد تلك الليلة فوق مائة سنة، ومعنى نفس منفوسة: أي: مولودة، وفيه احتراز من الملائكة"[6].

وقال ابن كثير عن الحديث: "وهو نصّ على أن جميع الأحياء في الأرض يموتون إلى تمام مائة سنة من إخباره عليه الصلاة والسلام، وهكذا وقع سواء، فإنه لم يتأخر أحد من أصحابه إلى ما يجاوز هذه المدة، وكذلك جميع الناس، ثم قد طرد بعض العلماء

(١) أخرجه مسلم ٢٥٣٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٣٩.

(٣) شرح صحيح مسلم ٨/١٦/٨٩.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٩/ ٢٦٣.

(٥) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/ ١٢.

(٦) شرح صحيح مسلم ٨/١٦/٨٩.

هذا الحكم في كل مائة سنة، وليس في هذا الحديث تعرض لهذا"[1].

وقال ابن حجر: "وقد بيّن ابن عمر رضي الله عنهما في هذا الحديث مراد النبي صلى الله عليه وسلم وأن مراده عند انقضاء مائة سنة من مقالته تلك، ينخرم ذلك القرن فلا يبقى أحد ممن كان موجودًا حال تلك المقالة، وكذلك وقع بالاستقراء، فكان آخر من ضبط أمره ممن كان موجودًا حينئذ أبو الطفيل عامر بن واثلة، وقد أجمع أهل الحديث على أنه كان آخر الصحابة موتًا، وغاية ما قيل فيه إنه بقي إلى سنة عشر ومائة، وهي رأس مائة سنة من مقالة النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم"[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الاجتهاد في الطاعة والاستعداد للموت:

وهذا واضح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال ابن حجر: "قال ابن بطال: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه المدة تخترم الجيل الذي هم فيه، فوعظهم بقصر أعمارهم وأعلمهم أن أعمارهم ليست كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا في العبادة"[3].

وقال ابن هبيرة: "وفيه تذكير بقصر الأعمار وقلة البقاء في الدنيا، وأن بيع مدة الآخرة التي لا يبلغ قدرها حد حادّ، ولا عدّ عادٍ، بحيث لو خلق الله تعالى دارًا مثل الدنيا ألف مرة ملأها خردلاً، ثم خلق طائرًا وقال له: إن رزقك عندي هو هذا الخردل، فمتى نفد فهو آخر عمرك، وكان من حرص ذلك الطائر على البقاء أنه يأكل كل يوم خردلة، فنفد ذلك الخردل كله، وبقاء الإنسان في دار الخلد لا يفنى، فبيع ذلك بهذه المدة اليسيرة غبن فاحش، ولا سيما لكل من يقول: إني مؤمن بها، مصدق بالمعاد إليها، ثم يظهر عليه من تساهله - في بيع الكثير منها بالقليل من غيرها - ما يدل على كذبه في دعواه، لولا أن الغفلة تذهب بالإنسان كل مذهب، ويضطره إلى تعاهد التذكرة كل الاضطرار"[4].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٦٤/٩.

(٢) فتح الباري ٧٥/٢.

(٣) فتح الباري ٢٥٦/١.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٣/٤ - ١٤.

قال ابن القيم: "قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار، تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان"(١).

وقال ابن القيم: "ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره، مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٢)، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.

فصدق العزيمة، جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلّوم، فإذا صدقت عزيمته بقى عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور"(٣).

وقال ابن القيم أيضًا: "طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر وراحته التعب، محبًا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحبّ بينهم، قائمًا على نفسه بالرغبة والرهبة، طامعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسه، غير مرسل شيئًا من حواسه عبثًا، ولا مسرحًا خواطره في مراتب الكون، وملاك ذلك: هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب"(٤).

---

(١) الفوائد، ابن القيم، ١٧٢.

(٢) سورة محمد، آية: ٢١.

(٣) الفوائد ٢٦٦.

(٤) الفوائد ٢٧١ - ٢٧٢.

خامسًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

وهذا واضح من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: إنهم انتظروا النبي صلى الله عليه وسلم فجاءهم قريبًا من شطر الليل فصلى بهم يعني العشاء ثم خطبنا فقال: (ألا إن الناس قد صلوا...).

قال د. توفيق الواعي عن أهمية الخطبة: "الخطبة وسيلة ممتازة للدعوة، لتبليغ الرسالة، أو إيضاح فكرة معينة، ومن مرامي الخطبة حمل المخاطب على الإذعان والتسليم، وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها، فيتحمس لها ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الحاجة، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية التي تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية التي تقدم عارية، بل بذلك وبإثارة العاطفة ومخاطبة الوجدان، والمؤثرات الوجدانية، والأفكار العاطفية في الخطابة هما عماد اللغة الخطابية، تساعدهما الحجج العقلية، والبراهين المنطقية، مع أمور أخرى في القول والقائل، أو في الموضوع والخطيب"(١).

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل انتظار الصلاة:

وهذا واضح من قوله صلى الله عليه وسلم: (وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة)، وفي رواية عند البخاري: قال خالد بن قرة: انتظرنا الحسن - أي البصري - وراث علينا(٢) حتى قربنا من وقت قيامه، فجاء فقال: دعانا جيراننا هؤلاء، ثم قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: نظرنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل يبلغه، فجاء فصلى لنا ثم خطبنا فقال: ((ألا إنَّ النـاسَ قد صَلُّوْا ثـمَّ رَقَدُوا، وإنَّكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتَظرْتمُ الصَّلاةَ)) قال الحسنُ: وإنَّ القومَ لا يَزالونَ بخيرٍ ما انتَظروا الخيرَ(٣).

قال ابن حجر: "قوله: (من وقت قيامه)، أي: الذي جرت عادته بالقعود معهم فيه كل ليلة في المسجد لأخذ العلم عنه، قوله (دعانا جيراننا)، كأن الحسن أورد هذا مورد الاعتذار عن تخلفه عن القعود على عادته.. وأورد الحسن ذلك [أي الحديث]

(١) الدعوة إلى الله ص ٢٧١.

(٢) أي: أبطأ كما في فتح الباري ٢/٧٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٠.

لأصحابه مؤنسًا لهم، ومعرفًا أنهم وإن كان فاتهم الأجر على ما يتعلمونه منه في تلك الليلة على ظنهم، فلم يفتهم الأجر مطلقًا، لأن منتظر الخير في خير، فيحصل له الأجر بذلك، والمراد أنه يحصل لهم الخير في الجملة لا من جميع الجهات، وبهذا يجاب عمن استشكل قوله: (إنهم في صلاة) مع أنهم جائز لهم الأكل والحديث وغير ذلك. واستدل الحسن على ذلك بفعل النبي ﷺ فإنه آنس أصحابه بمثل ذلك، ولهذا قال الحسن بعد: وإن القوم لا يزالون بخير ما انتظروا الخير"[1].

وقد ورد في فضل انتظار الصلاة كثير من الأحاديث، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((الملائكةُ تُصلّي علَى أحدِكم ما دامَ في مُصلاّهُ ما لم يُحدِثْ: اللهمَّ اغفرْ له، اللهمَّ ارحَمْهُ. لا يَزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما دامتِ الصلاةُ تَحبِسُهُ، لا يَمنعُه أن يَنقَلِبَ إلى أهلِهِ إلاّ الصلاةُ))[2]، وفي رواية عند مسلم: ((لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلاَةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلاَّهُ. يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ. اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ))[3].

قال ابن عبدالبر: "هذا الحديث أفضل ما يروى في فضل المنتظر للصلاة، لأن الملائكة تستغفر له، وفي استغفارها له دليل على أنه يغفر له إن شاء الله. ألا ترى أن طلب العلم من أفضل الأعمال؟ وإنما صار كذلك -والله أعلم- لأن الملائكة تضع أجنحتها له بالدعاء والاستغفار. وأما قول مالك وتفسيره: ما لم يحدث، بأنه الحدث الذي ينقض الوضوء، فقد خالفه فيه غيره وقال: هو الكلام القبيح والخوض فيما لا يصلح من اللهو. والذي قاله مالك هو الصواب إن شاء الله، لأن كل من أحدث وقعد في المسجد، فليس بمنتظر للصلاة، لأنه إنما ينتظرها من كان على وضوء، وغير نكير أن تترحم الملائكة على كل منتظر للصلاة، وتدعو له بالمغفرة والرحمة والتوفيق والهداية - لفضل انتظاره للصلاة -إذا لم يحبسه غيرها على ما ذكرنا- إذا كان منتظرًا

---

(١) فتح الباري ٢/٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٩ واللفظ له، ومسلم ٢٧٥ - ٦٤٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٤ - ٦٤٩.

للصلاة، لا يمنعه أن ينصرف إلى أهله إلا الصلاة، وهذا أولى بأن تدعو له الملائكة بالمغفرة والرحمة، فرحمته وسعت كل شيء، لا شريك له، وقول مالك يدل على أن كل من لم يحدث حدثًا ينقض الوضوء، داخل في معنى هذا الحديث. وإن خاض في بعض ما يخاض فيه من أخبار الدنيا - والله أعلم - إذا كان أصل عقده انتظار الصلاة بعد الصلاة"(١).

سابعًا- من فقه الداعية: مؤانسة المدعوين إذا وقع منه ما يظن أنه يشق عليهم:

وهذا واضح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (فجاءهم ﷺ قريبًا من شطر الليل، فصلى بهم، يعني العشاء ثم خطبنا: ألا إن الناس قد صلوا ثم رقدوا وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة)، ووقع في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ شغل عنها ليلة - عن صلاة العشاء - فأخرها حتى رقدنا في المسجد ثم استيقظنا ثم رقدنا ثم استيقظنا ثم خرج علينا رسول الله ﷺ ثم قال: ((لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اللَّيْلَةَ، يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ غَيْرُكُمْ))(٢)، وفي رواية عند مسلم: ((إِنَّكُمْ لَتَنْتَظِرُونَ صَلاَةً مَا يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينٍ غَيْرُكُمْ))(٣).

قال النووي: "فيه أنه يستحب للإمام والعالم إذا تأخر عن أصحابه، أو جرى منه ما يظن أنه يشق عليهم، أن يعتذر إليهم، ويقول: لكم في هذا مصلحة من جهة كذا، أو كان لي عذر أو نحو هذا"(٤).

ومن هذا القبيل ما رواه الصعب بن جثامة رضي الله عنه أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: ((إنا لَمْ نَرُدَّهُ عليكَ إلا أنّا حرُم))(٥)، قال النووي: (فيه أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها لعذر، أن يعتذر بذلك إلى

---

(١) التمهيد ١٢/٦ موسوعة شروح الموطأ.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٠، ومسلم ٢٢١ - ٦٣٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٠ - ٦٣٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤٢/٥/٣.

(٥) أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣.

المهدي، تطييبًا لقلبه)[1].

ولا شك أن مؤانسة الداعية للمدعوين تقربهم إليه وتحببه إليهم، كما تزيل ما عساه قد وقع في أنفس بعض المدعوين، وكلّ هذا يساعد على نجاح الداعية في دعوته.

(١) شرح صحيح مسلم ٣/٦/١١٠، وانظر: فتح الباري ٤/٣٤.

الحديث رقم (١٧٤٩)

١٧٤٩- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صلَّى العِشَاء في آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ[١] قال: ((أرأيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هذِه؟ فَإِنَّ عَلَى رَأسِ مِئَةِ سَنَةٍ[٢] لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ على ظَهْرِ الأرْضِ (اليَومَ) [٣] أحَدٌ)). متفق عليه[٤].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن الحديث بعد العشاء إذا كان موعظة أو تعليمًا أو نصيحة فهو غير مكروه، وهذا الحديث الشريف هو الدليل على ذلك ويروي ابن عمر ذلك في صيغة التأكيد حيث يوضح مؤكدًا: أن رسول الله ﷺ صلى العشاء في آخر حياته، وقبل وفاته بشهر فلما سلم قال:

والفاء: تفيد الإسراع في القول: وقوله: "أرأيتكم ليلتكم هذه؟" تتضمن بعض أسرار التعبير الدقيقة: في ضوء التوجيه الراشد وتفسير المراد من هذا الخطاب النبوي البليغ، فمعنى قوله: "أرأيتكم" أي أخبروني، ولكن الأسلوب ليس خبريًا: فهو: إنشائي والاستفهام للتعجب، والكاف لتأكيد الفاعل، ولا محل له من الإعراب، وفي هذا الاستفهام الذي يوحي بالزوال والموت، إرهاصٌ بقرب وفاة النبي ﷺ، وكأنه ينبه الصحابة إلى أن الرحيل قد اقترب، وأن الموت قادم.

وفي هذا الاستفهام الذي أفاد الإخبار: مجاز مرسل علاقته السببية لأنه وضع السبب موضع المسبب: فإنه وضع الاستفهام عن العلم موضع الاستخبار، ولا يخبر عن

---

(١) عند مسلم زيادة: (قام).

(٢) عند مسلم زيادة: (منها).

(٣) (اليوم) لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما في التي بعدها.

(٤) أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢١٧/٢٥٣٧) واللفظ له.

الشيء إلا العالم به، وقوله: "هذه ليلتكم": يفيد التحديد... والإنذار: فقد لا تعود مرة أخرى ولا يراها أحدكم، وفي الإشارة إلى الليلة تشخيص للزمن وأنسه له: فكأن الليلة كائن حي له هيئته وملامحه التي يشار إليها، وذلك لمزيد من التحديد، ولمزيد من الحث على الانتباه واليقظة.

وبعد الاستفهام والتشخيص: يأتي التوكيد في صدر القسم الثاني من الحديث الذي يجيء تعليلاً لما ورد في مقدمته، وفي هذه الجملة حذف بعد قوله: لا يبقى، والتقدير لا يبقى أحد ممن ترونه أو تعرفونه، فهو عام أريد به الخاص، وذلك ليأخذ الناس حذرهم.

وقوله: "على ظهر الأرض" فيه احتراس لأنه قيل إن الملائكة موجودون وباقون لأنهم في السماء، وقيل: خرج عيسى من ذلك وهو حي، لأنه في السماء كما يرى جمهور العلماء.

وبعض العلماء يرى أن "أل": في لفظ الأرض للعموم، وأن عدم البقاء بعد مائة سنة يتناول جميع بني آدم الموجودين الأحياء على ظهر الأرض.

وقوله على "ظهر الأرض" يمكن أن نعدها تشخيصًا للأرض: من باب الاستعارة المكنية، حيث شبهها بالدابة أو الناقة الذلول، والناس على ظهرها: يولدون ثم يرحلون، ثم يولد غيرهم ثم يرحلون، وقال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾(١).

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه إباحة السمر بعد صلاة العشاء في الخير، وأن السمر المنهي عنه بعدها، هو ما كان فيما لا ينفع من الباطل، واللغو(٢).

المضامين الدعوية(٣)

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٢) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ١/٢٢٩، وشرح ابن بطال على صحيح البخاري ٣/٢٨٠، وعون المعبود ١١/٣٣٩.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٥٠)

١٧٥٠- وعن أنس رضي الله عنه: أنَّهم انتظروا النَّبيَّ ﷺ، فَجَاءهُمْ قَرِيبًا مِنْ شَطْرِ اللَّيْلِ فَصَلَّى بِهِمْ (يَعْنِي: العِشَاءَ) [١] ثمَّ خطَبنا فقالَ: ((ألاَ إنَّ النَّاسَ قَدْ صَلَّوا، ثُمَّ رَقَدُوا، وَإنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرْتُمُ الصَّلاَةَ)). رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

شطر الليل: نصفه[٣].

الشرح الأدبي

إن توجيهات رسول الله ﷺ وتعاليمه ليست أقوالاً فقط، ولكنها تتجاوز دائرة الوعظ القولي إلى ميدان الفعل والتنفيذ: حيث السنة العملية، والتدريب اليومي الذي يجعل من المبادئ والتشريعات سلوكًا يوميًا محببًا، ونهجًا واقعيًا مألوفًا مرغبًا، وهذا الحديث درسٌ عملي يتلقاه الصحابة من رسول الله ﷺ، وثمرته الإقناع، والمداومة على صلاة الليل وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وكل على قدر جهده وطاقته، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويتضمن الحديث عدة مظاهر جمالية وأسرار أسلوبية، تساعد في توصيل المعنى إلى ذهن وقلب كل مسلم يقتدى برسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار، ومن هذه الأسرار التعبيرية بداية الحديث بالتأكيد في قول الرواي: أنهم: أي الصحابة: انتظروا النبي ﷺ، وهذا الانتظار المؤكد ينبئ عن إخلاص الصحابة في انتظارهم، وعن مجيئهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) برقم (٦٠٠)، وأخرجه مسلم أيضًا برقم ٦٤٠/٢٢٢، وقد سبق برقم ١٠٦٤.

(٣) الوسيط في (ش ط ر).

وقوله: "فجاءهم قريبًا :... فصلى بهم..." يفيد الإسراع في أداء الصلاة... وعدم التمهل في ذلك، لأن العطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب أي التوالي والسرعة.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "ألا"، يوحى بالإيناس والمودة: فهذا الحرف أداة استفتاح.

والتأكيد في قوله: "إن الناس قد صلوا ثم رقدوا" يرشد إلى الإشادة بفضل الصحابة الذين لم يخلدوا إلى الراحة... لأنهم انتظروا رسول الله ﷺ، وما رقدوا مثل غيرهم من الناس؛ ويتكرر التأكيد مرة أخرى مع اقتران "إن" المؤكدة بكاف الخطاب الدالة على الجمع، "كم" حيث يقول: "وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة"، هذا التأكيد يعلن عن فضل الصحابة.. وعن هذه البشرى التي بشرهم بها رسول الله ﷺ فهم حتى وهم خارج الصلاة كأنهم في صلاة: لأنهم لم يرقدوا.. ولكن يستعدون للصلاة وفي ذلك مكافأة لهم: لأنهم لم يتعجلوا مثل غيرهم، ولكن انتظروا رسول الله ﷺ: حتى جاء وصلى بهم العشاء. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- جواز السهر للأمر النافع كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم انتظارًا للصلاة.

٢- يثير هذا الحديث أيضًا، مسألة آخر وقت العشاء: وقد اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه المالكية في المشهور عندهم[١]، والشافعي في الجديد[٢] وأحمد في رواية اختارها الأكثرون[٣]، ويرون أنَّ آخر العشاء إلى ثلث الليل.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه بعض المالكية كابن حبيب، وابن المواز[٤]،

---

(١) مواهب الجليل ٣٩٨/١، وحاشية الدسوقي ١٧٨/١، وكفاية الطالب الرباني ٢١٧/١.

(٢) حلية العلماء للقفال ١٦/٢، والأم ٧١/١، والإقناع في حل الفاظ أبي شجاع ١١٠/٤.

(٣) المبدع ٢٤٥/١، والفروع ٢٦٣/١، ومنار السبيل ٧٥/١، وعمدة الفقه لابن قدامة، ص ١٥.

(٤) مواهب الجليل ١٧٨/١.

والشافعي في القديم[١]، وأحمد في رواية اختارها القاضي وجماعة[٢]، ويرون أن آخر العشاء إلى نصف الليل.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٣]، والظاهرية[٤]، ويرون أن آخر وقت العشاء إلى دخول وقت الفجر.

سبب اختلاف الفقهاء في هذه المسألة: ولعل سبب اختلاف الفقهاء في هذه المسألة، هو تعارض الأحاديث والآثار الوارد فيها:

- ففي حديث إمامة جبريل، أنه صلاها بالنبي ﷺ في اليوم الثاني ثلث الليل[٥].
- وفي الحديث الذي معنا -حديث أنس أن النبي ﷺ- أخرها إلى شطر الليل.
- وفي حديث أبي قتادة أنه قال: ليس التفريط في النوم، وإنما التفريط أن تؤخر حتى يدخل وقت الأخرى[٦].

فالرأي الأول رجح حديث إمامة جبريل، لذلك قال: إن آخر صلاة العشاء إلى ثلث الليل.

والرأي الثاني رجح حديث أنس الذي معنا، لذلك قال: إن آخر وقتها إلى نصف الليل.

والرأي الثالث رجح حديث أبي قتادة لذلك قال: إن آخر وقتها إلى دخول وقت الفجر[٧].

المضامين الدعوية[٨]

(١) حلية العلماء ١٧/٢.

(٢) الفروع ٢٦٣، وعمدة الفقه ١٥، والمبدع ٢٤٥/١.

(٣) المبسوط ١٤٥/١، والهداية ٣٩/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٥٩/١.

(٤) المحلى لابن حزم ١٨٨/٣.

(٥) أخرجه مسلم ٦٨١.

(٦) أخرجه أحمد ٣٣١/٣ رقم ١٤٥٣٨، والترمذي ١٥٠، والنسائي ٢٦٣/١ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما. وقال محققو المسند: إسناده صحيح اهـ. وانظر تتمة تخريجه في المسند ٤٠٩/٢٢-٤١٠، وأخرجه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ١٤٩.

(٧) انظر في هذا المعنى: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد محمد بن رشيد القرطبي ٧٠/١.

(٨) تم دمجها مع المضامين الحديث رقم (١٧٤٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية التعبدية:

يعتبر توثيق الصلة بين العبد وربه، مطلبًا رئيسًا في إطار الأهداف التعبدية في التربية الإسلامية، يجب أن يسعى كل من يباشر عملية التربية إلى تحقيقه وتوجيه الفرد إلى الكيفية التي يستطيع من خلالها التقرب إلى الله تبارك وتعالى، وتوثيق العلاقة بالله عز وجل، وذلك عن طريق الامتثال لأمر الله سبحانه واجتناب نهيه والمحافظة على أداء العبادات المفروضة [(١)].

وما اللحظات والدقائق، وبعض الساعات أو الأيام، التي تشغلها العبادات في حياة المسلم، إلا تذكيرًا بهذه الصلة الدائمة بالله وترويضًا للنفس على الخضوع الدائم لأوامر الله فالمسلم يستيقظ لذكر الله عند الفجر، وينام بأمر الله بعد صلاة العشاء[(٢)].

وقد جاء عنوان هذا الباب كراهة الحديث بعد العشاء، وتحته حديث أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

وذلك لأن النوم قبل العشاء قد يمتد بالإنسان فيخرج الصلاة عن وقتها، والحديث إذا كان فيما لا فائدة منه قد يطول فينام الإنسان بعده عن صلاة الفجر.

الصلاة ركن من أركان الإسلام، وهذه العبادة فرضت على المسلمين حيث تجسد إحدى الجوانب القوية للصلة بين العبد وخالقه، فهي اتصال ينقطع به المسلم عن الدنيا بما فيها..... ويناجي فيها ربه عن قرب، ويذوق لذة تلك المناجاة، فيتجنب طريق الشيطان، ويسلك طريق الله الذي يجيب مناجاته [(٣)].

ولأهمية الصلاة في التربية الإسلامية أمر الله تعالى عباده بإقامتها فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(٤)].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي، ص٥٢، ٥٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي، ص٤٩.

(٣) في التربية الإسلامية، عبدالغني عبود، ص١٧٥، نقلًا عن التربية الإسلامية، د،عماد محمد عطية، ص٧٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية:٧٨.

فالصلاة لها آثارها التربوية التي تعود بالخير على المسلم في حياته وآخرته حيث إن الصلاة تربية عقائدية وتربية عملية ، حيث الالتزام بالعمل الصالح ، والصلاة تربي الإنسان خلقيًا وروحيًا ، وتحفظ طاقاته وتوجهه الوجهة الخيرة ، وتربي في نفسه صفات حسنة كالتواضع ، كما أنها تربي المسلم على الطمأنينة في القلب والهدوء في النفس ، كما أنها نشاط جسمي متكامل للمسلم [١].

ثانيًا: التربية على عدم تفويت الخير:

من الأهداف التربوية المستنبطة من أحاديث هذا الباب والتي ينبغي غرسها في النفوس: الحرص على عدم تفويت الخير ، وهذا يظهر من كراهته ﷺ النوم قبل العشاء والحديث بعدها ، وما ذاك إلا لأنه ذريعة إلى تفويتها ، والسمر بعدها ذريعة إلى تفويت قيام الليل ، فإن عارضه مصلحة راجحة كالسمر في العلم ومصالح المسلمين لم يكره [٢].

كذلك إذا كان السمر مع الزوجة ، ومداعبتها إيناسًا لها وتلطفًا بها وغيره من الأشياء التي للمسلم فيها أو لغيره من المسلمين خير ، فلا مانع منها لأن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق الخير للإنسان في كل أوجه النشاط التي يقوم بها وفاءً بأعباء الأمانة التي حملها ، والتزامًا بواجبات خلافة الله في الأرض ، فأداء الفروض الواجبة عبادة.... وطلب العلم عبادة ، والتفكير عبادة ، والعدل بين الناس عبادة ، بل إن كل خير يحققه الإنسان لنفسه أو لأسرته أو لمجتمعه أو لأمته... إذا كان هذا العمل خالصًا لوجه الله فهو صورة من العبادة والعمل الصالح وهو تعبير صادق عن مدى إيمان الإنسان وعلمه وخلقه [٣]. فينبغي عليه أن يحرص على عدم تفويته.

ثالثًا: التربية على المبادرة إلى الخيرات:

إن من أهداف التربية الإسلامية التربية على المبادرة إلى الخيرات وعدم تأخيرها ،

---

(١) انظر: التربية الإسلامية ، د ، عماد محمد عطية ، ص ٨٠ ، ٨١ ، ومراجعه.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص٦٢٣.

(٣) أزمة التعليم المعاصر ، زغلول راغب النجار ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٠هـ ، ص١٢٥ ، نقلًا عن التربية الإسلامية ، د/سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ، ص٢٣.

لأن المنية قد تفجأ العبد وهو لا يدري.

وفي ذلك قال ﷺ: "أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد".

فقد بين ﷺ أن أعمار أمته قصيرة دون أعمار من سبقهم من الأمم الماضية[1].

فإذا تذكر المتربي قصر الدنيا وسرعة زوالها، وأدرك أنها مزرعة للآخرة، وأنها لكسب الأعمال الصالحة وتذكر ما في الجنة من النعيم المقيم، وما في النار من العذاب الأليم، زهد في متع الدنيا، وأقصر عن الاسترسال في الشهوات، وانبعثت همته للأعمال الصالحات[2].

وقد أمر المولى تبارك وتعالى بالمبادرة إلى الخيرات فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3].

وقد نبه الرسول ﷺ على أنه يحصل في هذه الدنيا فتن شاغلة وكثيرة، فيجب على المسلم العاقل الحازم ذي الهمة العالية: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة النافعة التي أمر بها الدين الإسلامي، من: عبادة لله عز وجل، وجهاد في سبيله، أي: أنه يلتزم المنهج الإسلامي بكامله قبل حصول الفتن وكثرة المشاغل التي تصرفه عن الالتزام بهذا المنهج، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[4].

فقد كان الرسول ﷺ حريصًا على تأصيل هذه الخصلة في نفوس المسلمين وجعلها سمة يتسابقون إلى التحلي بها والتنافس فيها[5].

---

(١) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٢٧/٣.

(٢) انظر: الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ص١٩٨.

(٣) سورة المائدة، الآية:٤٨.

(٤) أخرجه مسلم، ١١٨.

(٥) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، ص٢٦٣، ٢٦٤.

رابعًا: التربية بالترغيب:

من الأساليب التربوية المهمة الترغيب الذي يولد الأمل في النفوس، وهو تحبيب المرء في الحصول على شيء يتمنى الحصول عليه [(١)].

وقد رغب ﷺ في انتظار الصلاة وبين أن فضل الله عظيم على عباده، فإنه يعطيهم الأجر ما داموا في انتظار الصلاة في المصلى، فقال ﷺ: «ألا إِنَّ النَاسَ قد صَلُّوْا ثمَّ رَقَدُوا ، وإنَّكم لن تزالوا في صلاةٍ ما انتَظرْتمُ الصَّلاةَ».

وهذا الترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء، بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة، مؤكدة، خيرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة، ابتغاء مرضاة الله، وذلك رحمة من الله لعباده[(٢)].

ولاشك أن مثل هذا الأسلوب التربوي بمثابة الدافع القوي الذي يجعل المسلم يُقدم على الطاعات ويصبر عليها، ويدفع عنه الضجر والملل، لأن الترغيب يحدوه مِن خلفه بما ينتظره من فضل الله تعالى.



---

(١) التربية الإسلامية، مصادرها، وتطبيقاتها، د. عماد محمد عطية، ص١٢٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣٠.

٣٣٥- باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها إذا دعاها ولم يكن لها عذر شرعي

الحديث رقم (١٧٥١)

١٧٥١- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبحَ)) متفق عَلَيْهِ[١].

وفي رواية[٢]: ((حَتَّى تَرْجعَ)).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن العلاقات الزوجية في الإسلام تقوم على أسس من المودة والرحمة والسكن.. والإلف والحب.. والمتعة النفسية والروحية والحسية، ووصف الله هذه العلاقة بأنها ميثاق غليظ، وقال: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[٣].

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة شرطية، وأسلوب الشرط يفصح عن الثواب والعقاب، فالجزاء من جنس العمل: ويبدأ الحديث بأداة الشرط "إذا" وجملة الشرط: "دعا الرجل امرأته إلى فراشه"، "وإذا": هنا تناسب المقام حيث تفيد تحقق الدعوة والطلب: وهذا سلوك واقعي بشري، حيث رغب رسول الله ﷺ في ذلك وقال: "وفي بضع أحدكم صدقة"[٤]، والدعوة هنا هي الرغبة في المعاشرة الزوجية، والتعبير

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦/١٢٢) ولفظهما سواء، وتقدم برقم (٢٨١). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٠٧).

(٢) أخرجها البخاري (٥١٩٤)، ومسلم بعد حديث رقم (١٤٣٦/١٢٠، بدون رقم). أوردها المنذري في ترغيبه (٢٩٠٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧ .

(٤) أخرجه مسلم، ١٠٠٦.

بقوله: "إلى فراشه"، كناية عن المراد من ذلك، حتى لا تكون الغريزة هي المحرك والدافع، بل لا بد من التلطف، والمداعبة، والترغيب، والتفاهم، والتعبير بالكناية كما يقول العلماء: من أبدع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية، التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيرًا مظلاً هادفًا موجزًا، يخفى تحت ظلاله لطائف مراده، وقد عرفوها بقولهم "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه"، والرسول ﷺ يضرب المثل الكريم السخي في استعمال هذا المسلك الأسلوبي، للدلالة على المعاني دلالة ألطف وآكد وأوجز من دلالة الحقيقة المحضة[1].

وقيل: إن الكناية عن الأشياء التي يستحيا منها كثيرة في الكتاب والسنة، وتأمل هاتين الجملتين المعطوفتين على جملة: جواب الشرط بالفاء: "فأبت أن تجيء": "فبات غضبان عليها"، هذا الغضب يفيد إعراض الزوجة الفوري المتسرع، ويفيد كذلك نفور الزوج وغضبه، فحرف العطف الفاء، يصور حالة التوتر، والقلق والنفور بين الزوجين في هذا الموقف: ولذلك يأتي جواب الشرط مفصحًا عن العقاب الأوفى والأمثل هو "لعنتها الملائكة حتى تصبح" والمراد من ذلك: حث الزوجة على طاعة زوجها وملاطفته وإعطائه حقه في هذا المجال.. وهي كذلك لها حقها من حسن العشرة، وحسن الملاطفة، والرعاية الكاملة: واللعن هو: الطرد من رحمة الله، وقوله: حتى تصبح: كناية عن أن اللعن ليس دائمًا، ففي الصبح يمكن أن يرضى الزوج، ويذهب غضبه، وتخبو حدة سورته، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- تحريم امتناع الزوجة إذا دعاها زوجها إلى فراشه[2]، ومحل التحريم إذا لم

---

(١) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين السيد، وانظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

(٢) المهذب للشيرازي ٢/٦٧، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٣/٣٧٦، وحاشية البجيرمي ٣/٤٤٢، والمغني لابن قدامة ٧/٢٢٣، وكشاف القناع ٥/١٨٥، ومنار السبيل ٢/١٩٥، والمبدع ٧/١٩٣، والفروع ٥/١٥٨، ونيل الأوطار ٣/٢١٨، والمحلى لابن حزم ١٠/٤٠، وسبل السلام ٣/١٤٣.

يكن بها عذر شرعي كصيام فرض، أو لم يقم بها مانع يمنعها من ذلك كمرض شديد أو نحوه[١].

وقد قيل: إن الحيض ليس بعذر يمنع الاستمتاع، لأنه له حق الاستمتاع بها فوق الإزار، وهي حائض[٢].

ومفهوم الحديث أن محل التحريم هو غضب الزوج من امتناع زوجته، لأن به يتحقق اللعن، وبذلك يتحقق ثبوت معصيتها، بخلاف ما إذا لم يغضب من ذلك، فإنه يكون راضيًا، وبالتالي فلا تحريم، إما لكونه عذرها، وإما لأنه ترك حقه في ذلك[٣].

٢- وفيه جواز لعن المسلم العاصي إذا كان على وجه التخويف، لئلا يواقع الفعل، فإن واقعه، يدعى له بالتوبة، والهداية، ولكن محل جواز اللعن أن يكون العاصي يرتدع وينزجر به، فإن لم يكن حال العاصي كذلك فلا يجوز[٤].

٣- وفيه دليل على أن الملائكة تدعو على أهل المعصية ما داموا فيها.

٤- وفيه تعظيم شأن الزوج، والإرشاد إلى طلب مرضاته[٥].

المضامين الدعوية[٦]

(١) الفقه الواضح للدكتور محمد بكر إسماعيل ٦٧/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ٧/١٠، وعون المعبود ١٢٦/٦.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٢٦٤/٩.

(٤) فتح الباري ٢٦٤/٩، ونيل الأوطار ٣٦٣/٦.

(٥) فتح الباري ١٦٤/٩، وشرح ابن بطال على صحيح البخاري ٣١٢/١٣.

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث برقم (٢٨١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- احترام الرغبات والغرائز الجنسية:

من أسس التربية الإسلامية احترام الرغبات والغرائز الجنسية، فالإسلام يحترم الرغبات والغرائز الجنسية فهو يأبى على المرأة أن ترفض زوجها حين طلبه لجماعها، وهذا نوع من احترام الإسلام للرغبات والغرائز الجنسية [1]، حيث يقول رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

فالإسلام يقر للإنسان حقه في تلبية رغبته الجنسية - هذه الرغبة القوية - عن طريق الزواج والاتصال الجنسي المشروع، فهو الوسيلة المثلى التي تجد من خلاله غريزة الجنس طريقها في نطاق الأسرة النظيف ما تنشده من إشباع وارتواء في توازن لا يخل بسلام المجتمع ولا يزعزع بناءه الإنساني الأخلاقي.

وقد ميز الله أهل الإيمان بضبط الغريزة وتوجيهها وجهة الفطرة الصالحة، وأشار القرآن إلى أن مسلك الفوضى إنما هو انحلال وعدوان خطير يدمر المجتمع ويبث الوهن في أنحائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[2].

فإن ضبط الغريزة وتنظيمها طهارة للزوج والبيت والجماعة ووقاية النفس والأسرة والمجتمع، وتحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ للقلوب من التطلع إلى غير حلال[3].

من أجل ذلك احترم الإسلام الرغبات الجنسية وحث على إشباعها في طلب الحلال

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب، ص١٨٩، ١٩٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات:٥-٧.

(٣) انظر: إستراتيجيات التربية الأسرية، إعداد لجنة البحوث والدراسات، إشراف: د. توفيق يوسف الواعي، ص٥١-٥٣.

وحث الطرف الآخر -الزوجة- على عدم الامتناع عنه ما لم يكن هناك عذر شرعي يجيز لها الامتناع.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

إن التربية الإسلامية تستخدم هذا الأسلوب التربوي الذي يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك، وما يترتب عليه من ضرر [(١)].

وقد رهب النبي ﷺ المرأة المسلمة من عدم طاعة زوجها إذا دعاها لفراشه، وامتنعت لغير عذر شرعي، بلعن الملائكة لها حتى تصبح، فقال ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». فهذا الأسلوب التربوي الترهيبي يحض المرأة على طاعتها لزوجها لإحصانه، فإن لم تفعل لعنتها الملائكة حتى تصبح، وفي ذلك كسر لكبر المرأة الحصيفة حتى ترجع عن ذلك وتطيع زوجها حتى تتجنب لعن الملائكة إلى الصباح.

وإن المرأة المؤمنة إذا ما تغير طبعها، وأرادت أن تهجر فراش زوجها، فما عليها إلا أن تذكر لعنة الملائكة التي تؤمن بها، فإن ذلك يرهبها ويزجرها، ويهيئها لطاعة زوجها، فإنه جنتها ونارها، فلتنظر أين هي من ذلك[(٢)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الأمر ليس على إطلاقه، وإنما يرتبط باستطاعة المرأة وظروفها الصحية بالإضافة إلى المسؤوليات الكبيرة تجاه الأولاد، وإذا كان للزوج على زوجته حق الطاعة، فيجب عليه عدم التسلط في استعمال هذا الحق، وربما يأتي إنسان لا يلتزم بمبادئ الإسلام التزامًا كاملاً، ثم لا يعجبه في الإسلام إلا أن يُلوح بهذا الحق دون مراعاة لمشاعر وظروف وصحة الزوجة ومسؤولياتها اليومية، ويجب أن نؤكد على أن الإسلام دين المودة والرحمة والتراحم بين الناس، خاصة بين الزوجين حتى يكون هناك انسجام أسري ودفء عائلي ويكون الجو مفعمًا بالمودة والرحمة.



---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص١٨٦.

(٢) انظر: التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ص٣٤٤.

٣٣٦- باب تحريم صوم المرأة وزوجها حاضر إلاَّ بإذنه

الحديث رقم (١٧٥٢)

١٧٥٢- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((**لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلاَّ بإذْنِهِ، وَلاَ تَأذَنَ فِي بَيْتِهِ إلاَّ بإذْنِهِ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتفق مع الحديث السابق في تأكيد حق الزوج، ووجوب طاعة زوجته له، وتقدم طاعة الزوج على أداء الطاعات المندوبة مثل: نسك التطوع، وصوم التطوع، وكذلك طاعته في صون حرمة بيته، فلا تدخل أحداً بيته إلا بإذنه.

وهذا المضمون الإسلامي الذي يقنن ويؤطر الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين: يصوغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسلوب القصر، وهو من الأساليب التي توثق المعنى، وتعمق الدلالة، وترسخ المقاصد في ذهن السامعين، وتنبئ عن حرص المتكلم على إيصال فكرته، وتأكيد مراده، فالجملة الأولى: مضمونها يحرم على المرأة صوم التطوع من غير إذن زوجها وقوله: "لا يحل" فيه ترغيب واستمالة للمرأة: لأنه لو قال: يحرم على المرأة: لكان التعبير شديداً ولأفاد العموم، لأن من الصوم مالا يتعلق برضا الزوج، وهو صوم الفرض، وقوله: "وزوجها شاهد"، أي حاضر: هذا إيحاء بوجوده في بيته، ومشاهدته لزوجته، وربما تقوده رغبته في التمتع بزوجته، وهي تمنعه من ذلك بدخولها في عبادة الصوم، وتصبح في هذه الحالة مثل. التي أبت أن تلبي دعوته إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٠٢٦/٨٤)، وتقدم برقم (٢٨٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٣٧١).

فراشه، ويمكن أن تصوم إذا أذن لها زوجها، وكذلك: أسلوب القصر في قوله: "ولا تأذن في بيته إلا بإذنه"، يفيد قصر دخول أي وافد إلى بيت الزوج على رضا الزوج وإذنه، وفي ذلكم صون لكرامته، وحفظ لحقه، وحفاظ على حرمة البيت، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- حرمة صيام التطوع على الزوجة، وزوجها حاضر إلا بإذنه[١]، وذلك لأن له حق الاستمتاع بها، ولا يمكنه ذلك مع الصوم[٢]، فإن أذن لها جاز، وعلمها برضاه كإذنه[٣]، وإن صامت بغير إذنه صح صومها وإن كان حراماً، كالصلاة في الدار المغصوبة[٤].

هذا إذا كان الزوج يجوز له التمتع بها، فإن قام به مانع شرعي يمنعه من الوطء كما لو كان محرماً، أو معتكفاً[٥]، أو قام به أو بها مانع عضوي لا يتأتى معه الجماع، كما لو كان مريضاً لا يقدر على الجماع[٦]، أو كان بها رتق أو قرن[٧]

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٠٧/٢، ومغني المحتاج ٤٤٩/١، والإقناع للشربيني ٢٤٥/١، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٧٣/٢، كشاف القناع ١٨٨/٥، ومنار السبيل ٩٥/٢، والمحلى لابن حزم ٣٠/٧.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٠٧/٢، وشرح صحيح مسلم ١١٥/٧، ومغني المحتاج ٤٤٩/١.

(٣) مغني المحتاج ٤٤٩/١.

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٥) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٧٣/٢.

(٦) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢٧٣/٢.

(٧) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٧٣/٢.

لا يمكن معه جماعها، فلا حرمة عليها إن صامت بغير إذنه.

وإن كان غائباً جاز لها الصوم دون إذنه[1].

٢- يحرم على المرأة أن تأذن لأحد بدخول بيت زوجها إلا بإذنه سواء كان غريباً، أو قريباً، وسواء أكان رجلاً، أو امرأة.

هذا ما لم تعلم الزوجة رضا زوجها بذلك، فإن علمت رضاه به جاز[2].

المضامين الدعوية[3]

(١) شرح صحيح مسلم ١١٥/٧.

(٢) المجموع للنووي ٢٤٠/٦، والمغني لابن قدامة ٢٢٣/٧، وكشاف القناع ١٨٨/٥، وعون المعبود ٩٣/٧.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٨٢).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- تربية الزوجة على تأدية حقوق الزوج:

إن التربية الإسلامية تهتم اهتمامًا كبيرًا باستقرار في الحياة الأسرية، حيث حضت الشريعة كل طرف - في الزواج - على القيام بواجباته تجاه الآخر.

والله تعالى جعل المرأة سكنًا نفسيًا للرجل، وأقام سبحانه وتعالى الحياة الزوجية على المودة والرحمة. فالرجلَ قوّام يقضي نهاره في طلب الرزق ويسعى ويجاهد فإذا أوي إلى بيته وجد الراحة النفسية والطمأنينة، وبين هذا وذاك تنمو المودة والرحمة، بمعنى أنها تزداد يومًا بعد يوم، فيزداد الوثاق والرباط القوي بين الزوجين [١].

وإن أكبر ما يجب للرجل على امرأته شرعًا وطبعًا، هو ما يقع الزواج لأجله: تمتعه بها، وتمكينها إياه من نفسها، وكل شيء بعد ذلك تبع له [٢].

من أجل ذلك نهى النبي ﷺ المرأة عن الصوم تطوعًا وزوجها حاضر إلا بإذنه، فقال: «لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ، وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلاَّ بِإذْنِهِ» فصوم التطوع سنة وحق الزوج واجب والواجب يقدم.

فإن رسول الله ﷺ أراد أن يؤصل في نفس الزوجة المسلمة طاعة زوجها فيما لا معصية فيه لله، ومن مظاهر تلك الطاعة التزام المرأة بعدم الصيام وزوجها شاهد إلا بإذنه، وذلك في صوم التطوع، ومن التربية النبوية للمرأة المسلمة عدم إذنها لأحد في دخول بيتها إلا بإذن زوجها، وهذا مما يعمل على دعم أواصر المودة والمحبة بين الزوجين.

كذلك على الزوجة المسلمة القدوة أن تتعرف بدقة على واجباتها نحو زوجها وحقوقه عليها فتؤديها تعبدًا لله وطمعًا في ثوابه، وأن تراعي مشاعره وتمتص همومه وتحفظ سره، وتتعاون معه في أمور الحياة [٣].

---

(١) الأسرة والتنشئة الاجتماعية في المجتمع العربي السعودي، د. محمد عبدالمحسن التويجري، ص٩٦.

(٢) إصلاح المجتمع، محمد بن سالم بن حسين الكدادي البيحاني، ص٢٩٣.

(٣) إستراتيجيات التربية الأسرية في الإسلام، إعداد لجنة البحوث والدراسات، إشراف: د. توفيق يوسف الواعي، ص٨٠.

فإذا ما عرفت الزوجة حقوق زوجها وحرصت على تأديتها له، فإن السعادة الزوجية سوف تتحقق ويحرص الزوج المسلم القدوة على إسعاد زوجته وتأدية حقوقها.

فالالتزام بتأدية الحقوق هدف تربوي عظيم، ينبغي على المربين والمجتمع غرسه في نفوس الجميع، خاصة الناشئة منهم، حتى يعلم كل فرد سواء في الأسرة أو المجتمع أهمية دوره وأثره الفعال في تحقيق السعادة والاستقرار في جميع نواحي الحياة، والحياة الأسرية على وجه الخصوص.



٣٣٧- باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام

الحديث رقم (١٧٥٣)

١٧٥٣- عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((أمَا يَخْشَى أحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأسَهُ قَبْلَ الإمَامِ أنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأسَهُ رَأسَ حِمَارٍ ! أَوْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث الشريف تحذيراً للمسلم المأموم وهو في الصلاة من أن يسبق الإمام، فذلك السلوك ينشأ من السرعة والعجلة وعدم الخشوع، وهذا التحذير لم يصدر مباشرة، ولم يأت في صيغة نهي مباشر، وإنما سيق في صيغة تصويرية من شأنها أن تنفر كل مسلم من هذا المصير المؤلم الذي يمكن أن يؤول إليه، والصورة في الحديث تركز على إبراز القبح في أشد صورة له، تنفيراً للمسلم من الوقوع في مثل هذا السلوك المتعجل، الذي يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخشوع والقنوت واتباع الإمام، وتأمل معالم صورة هذا المخالف: حيث: يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار، إذ ينصب البصر أول الأمر على الرأس، الذي يصبح رأس حمار ضخم بأذنين طويلتين ناهيك عن لونه، ويبرز القبح جلياً في المفارقة المقززة بين الجسد البشري والرأس الحيواني، وثمة احتمال آخر في النص هو انقلاب الجسد كله إلى شكل حمار، صورة حمار فينسى حينئذ الشكل الإنساني ويذوب، ويملأ المشهد هذا الحيوان

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١) واللفظ له، ومسلم (٤٢٧/١١٤). أورده المنذري في ترغيبه (٧٣٠).

الذي كان إنساناً، مع ما يوحي به لفظ الحمار، وشكله من معاني الغباء والأفعال الشنيعة المعهودة فيه، مما أسهب فيه المفسرون، وعلى هذا نفهم من تصوير القبح في النص: أن اتباع الإمام في الصلاة ذكاء وحكمة وحضارة، وأن المخالفة غباء وقبح، ومخالفة للنهج السوي، وانحراف عن الطريق القويم[١]، والاستفهام في أول الحديث تحذير لكل مسلم من الإقدام على مثل هذا السلوك الذي لا يليق بالمسلم ومكانته عند ربه، وأداة الشرط: مع فعل الشرط والجواب: إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل: ومن يتردى في هذا السلوك فليستحق ما يؤول إليه من مصير مؤلم، وعذاب أليم، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: تحريم الرفع من الركوع والسجود قبل الإمام[٢]، وذلك للوعيد عليه بالمسخ، وهو أشد العقوبات[٣].

ولكن هل تبطل صلاته أم لا؟: اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[٤]، والمالكية[٥]، والشافعية[٦]، وأحمد في رواية[٧]، ويرون أن صلاته لا تبطل، وإن كان الفاعل يأثم.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد في رواية عليها أكثر أصحابه[٨]،

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف، ص٧١٥.

(٢) تحفة الفقهاء ١/١٤٤، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٨٣، وشرح فتح القدير ١/٤٨٢- ٤٨٣، والتمهيد لابن عبدالبر ٢٤/٣٦٥، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/٣٤٢، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١/٢١١، وحلية الأولياء ٢/١٦٢- ١٦٣، والكافي فقه الإمام أحمد ١/١٨١، والروض المربع ١/٢٤٢، ومنار السبيل ١/١٢٠.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٢/١٨٣.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٨٣، وشرح فتح القدير ١/٤٨٢- ٤٨٣.

(٥) حاشية الدسوقي ١/٣٤٢.

(٦) حلية العلماء ٢/١٦٢- ١٦٣، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١/٢١١.

(٧) شرح ابن رجب على صحيح البخاري ٥/٩٠، ومنار السبيل ١/١٢٠، والروض المربع ١/٢٤٢- ٢٤٣.

(٨) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

والظاهرية[1] ويرون بطلان صلاته في هذه الحالة.

قال الإمام أحمد: ليس لمن سبق الإمام صلاة لهذا الحديث.

قال: ولو كان له صلاة لرجي له الثواب، ولم يخش عليه العقاب[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن سبق الإمام في الركوع والسجود أو الرفع منهما.

ثانياً: من آداب المدعو: متابعة الإمام في الصلاة وعدم مسابقته.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعاً: من مهام الداعية: الشفقة على المدعوين وبيان الأحكام لهم وما يترتب عليها من الثواب والعقاب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن سبق الإمام في الركوع والسجود أو الرفع منهما:

وهذا واضح من الوعيد في الحديث لمن رفع رأسه قبل الإمام، قال النووي: "هذا كله بيان لغلظ تحريم ذلك"[3].

وقال ابن دقيق العيد: "الحديث دليل على منع تقدم المأموم على الإمام في الرفع، هذا منصوصه في الرفع من الركوع والسجود، ووجه الدليل: التوعد على الفعل، ولا يكون التوعد إلا عن ممنوع، ويقاس عليه: السبق في الخفض، كالهوى إلى الركوع والسجود.

وفي قوله: (أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام ...)، ما يدل على أن فاعل ذلك متعرض لهذا الوعيد، وليس فيه دليل على وقوعه ولا بدّ.

وقوله: (أن يحول رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار)، يقتضي تغيير الصورة الظاهرة، ويحتمل أن يرجع إلى أمر معنوي مجازي، فإن الحمار موصوف

---

(١) المحلى ١٦/٤، وأيضاً شرح الزرقاني على الموطأ ٢٧٥/١.

(٢) المغني لابن قدامة ٣١٠/١، وشرح ابن رجب على صحيح البخاري ٩٠/٥، ومنار السبيل ١٢٠/١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٥٦/٤/٢، ط/ دار عالم الكتب.

بالبلادة، ويستعار هذا المعنى للجاهل بما يجب عليه من فروض الصلاة ومتابعة الإمام، وربما رجّح هذا المجاز بأن التحويل في الظاهر لم يقع مع كثرة رفع المأمومين قبل الإمام، ونحن قد بيّنا أن الحديث لا يدل على وقوع ذلك، وإنما يدل على كون فاعله متعرضاً لذلك، وكون فعله صالحاً لأن يقع عنه ذلك الوعيد، ولا يلزم من التعرض للشيء وقوع ذلك الشيء، وأيضاً فالمتوعد به لا يكون موجوداً في الوقت الحاضر، أعني عند الفعل، والجهل موجود عند الفعل، لست أعني بالجهل ههنا عدم العلم بالحكم، بل إما هذا وإما أن يكون عبارة عن فعل ما لا يسوغ، وإن كان العلم بالحكم موجوداً، لأنه قد يقال في هذا: إنه جهل، ويقال لفاعله: جاهل.

والسبب فيه: أن الشيء ينفى لانتفاء ثمرته والمقصود منه، فيقال: "فلان ليس بإنسان، إذا لم يفعل الأفعال المناسبة للإنسانية، ولما كان المقصود من العلم العمل به، جاز أن يقال لمن لا يعمل بعلمه: إنه جاهل غير عالم"[1].

لكن ابن حجر ذهب إلى تقوية حمل الوعيد على ظاهره فقال: "ويقوي حمله على ظاهره أن في رواية ابن حبان[2] من وجه آخر عن محمد بن زياد: (أن يحول الله رأسه رأس كلب)، فهذا يبعد المجاز، لانتفاء المناسبة التي ذكروها من بلادة الحمار، ومما يبعده أيضاً إيراد الوعيد بالأمر المستقبل وباللفظ الدال على تغيير الهيئة الحاصلة، ولو أريد تشبيهه بالحمار لأجل البلادة لقال مثلاً: (فرأسه رأس حمار)، وإنما قلت ذلك لأن الصفة المذكورة وهي البلادة حاصلة في فاعل ذلك عند فعله المذكور[3]، فلا يحسن أن

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) صحيح ابن حبان ٢٢٨٣، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٣) قال ابن العربي: وليس يريد به عند العلماء المسخ صورة، وإنما يريدون به الحمارية معنىً، وهو البَلَهُ، ضرب له الحمار مثلاً، لأنه أشد البهائم بلهاً، ولا حمارية أعظم من أن يلتزم الاقتداء مع الإمام ثم يخالف ما التزم في تلك الحال، وهذا كقوله ﷺ: ((لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لتخطفن أبصارهم))، وليس يريد بذلك إذهابها بالعمى، وإنما يشير به إلى ذهاب فائدتها من العبرة. القبس شرح الموطأ ٤/٤٤٧ موسوعة شروح الموطأ. والحديث الذي ذكره ابن العربي أخرجه البخاري ٧٥٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه مسلم ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقال له: يخشى إذا فعلت ذلك أن تصير بليداً، مع أن فعله المذكور إنما نشأ عن البلادة"[١].

وقال ابن هبيرة: "إنه ينبغي أن لا يستبعد هذا، فإن الله سبحانه وتعالى إن لم يجعل رأسه على شكل رأس الحمار، فإنه قد يجعل رأسه في المعنى رأس حمار في البلادة وبُعْد الفهم، وهو على صورة الآدميين، وقد أخذ على المأموم أن لا يسبق الإمام في التسليم، فما الذي تفيده المسابقة في الركوع أو السجود، مع كونه لا يمكنه الخروج من الصلاة إلا بخروج الإمام، فلا يحصل له من ذلك إلا سوء الأدب، وأن يظهر للمصلين معه قلة أدبه ودينه، ونزارة علمه وعدم ثباته، فإذن هذه كلها من أخلاق من رأسه في المعنى رأس حمار" [٢].

ثانياً- من آداب المدعو: متابعة الإمام في الصلاة وعدم مسابقته:

وهذا واضح من الحديث، قال ابن تيمية: "أما مسابقة الإمام فحرام باتفاق الأئمة لا يجوز لأحد أن يركع قبل إمامه ولا يرفع قبله، ولا يسجد قبله، وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك كقوله في الحديث الصحيح: ((لا تسبقوني، فَإِنِّي مَهْمَا أَسْبِقْكُمْ بِهِ إِذَا رَكَعْتُ تُدْرِكُونِي بِهِ إِذَا رفعت، وَمَهْمَا أَسْبِقْكُمْ بِهِ إِذَا سَجَدْتُ، تُدْرِكُونِي بِهِ إِذَا رَفَعْتُ، إِنِّي قَدْ بَدَّنْتُ[٣]))[٤]، وقوله: ((إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فإذا كَبَّرَ فكبِّروا، وإذا ركعَ فاركعُوا، فَإِنَّ الإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ))، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((فَتِلْكَ بِتِلْكَ. وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ. يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ. وَإِذَا كَبَّرَ وَسَجَدَ فَكَبِّرُوا وَاسْجُدُوا. فَإِنَّ الإِمَامَ يَسْجُدُ قَبْلَكُمْ وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ)). فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((فَتِلْكَ بِتِلْكَ))[٥]، وكقوله:

---

(١) فتح الباري ١٨٤/٢. ط/ السلفية.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٩٥/٧.

(٣) بَدَّنتُ: اي كَبِرْتُ وأسننتُ، انظر: لسان العرب في (ب د ن).

(٤) أخرجه أحمد ٩٢/٤ رقم ١٦٨٣٨، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٥٣/٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٤٠٤.

((أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟))[١]، وهذا لأن المؤتم متبع للإمام مقتد به، والتابع المقتدي لا يتقدم على متبوعه وقدوته، فإذا تقدم عليه، كان كالحمار الذي لا يفقه ما يراد بعمله.

ومن فعل ذلك استحق العقوبة والتعزير الذي يردعه وأمثاله، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يسابق الإمام فضربه وقال: لا وحدك صليت ولا بإمامك اقتديت.

وإذا سبق الإمام سهواً لم تبطل صلاته، لكن يتخلف عنه بقدر ما سبق به الإمام كما أمر بذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صلاة المأموم مقدرة بصلاة الإمام، وما فعله قبل الإمام سهواً لا يبطل صلاته، لأنه زاد في الصلاة ما هو من جنسها سهواً، فكان كما لو زاد ركوعاً أو سجوداً سهواً، وذلك لا يبطل بالسنة والإجماع... فعلى المصلي أن يتوب من المسابقة ويتوب من نقر الصلاة وترك الطمأنينة فيها، وإن لم ينته فعلى الناس كلهم أن يأمروه بالمعروف الذي أمره الله به، وينهوه عن المنكر الذي نهاه الله عنه، فإن قام بذلك بعضهم وإلا أثموا كلهم، ومن كان قادراً على تعزيره وتأديبه على الوجه المشروع فعل ذلك، ومن لم يمكنه إلا هجره وكان ذلك مؤثراً فيه، هجره حتى يتوب"[٢].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

فقد رهّب النبي صلى الله عليه وسلم من أن يسبق المأموم الإمام في الصلاة، بأن ذلك مدعاة لأن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار وفي هذا ترهيب ما بعده ترهيب، قال ابن عبدالبر: "وهذا وعيد وتهديد"[٣]، قال ابن حجر: "وظاهر الحديث يقتضي تحريم الرفع قبل الإمام، لكونه توعد عليه بالمسخ وهو أشد العقوبات"[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩١، ومسلم ٤٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/ ١٩١ - ١٩٢، ٢٣/٣٣٦ - ٣٣٨ .

(٣) التمهيد شرح الموطأ ٤/٤٤٧ موسوعة شروح الموطأ.

(٤) فتح الباري ٢/١٨٣.

رابعاً- من مهام الداعية: الشفقة على المدعوين وبيان الأحكام لهم وما يترتب عليها من الثواب والعقاب:

وهذا واضح في الحديث، قال ابن حجر: "وفي الحديث كمال شفقته ﷺ بأمته وبيانه لهم الأحكام وما يترتب عليها من الثواب والعقاب"(١)، ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ. أَوْ لاَ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ))(٢)، قال النووي: "فيه النهي والوعيد الشديد في ذلك"(٣).

وقال ابن حجر: "واختلف في المراد بذلك، فقيل: هو وعيد، وعلى هذا فالفعل المذكور حرام،... وقيل المعنى: أنه يخشى على الأبصار من الأنوار التي تنزل بها الملائكة على المصلين، كما في حديث أسيد بن حضير الآتي في فضائل القرآن إن شاء الله تعالى(٤)، أشار إلى ذلك الداودي، ونحوه في جامع حماد بن سلمة عن أبي مجلز أحد التابعين. و"أو" هنا للتخيير نظير قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾(٥)، أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة وإما الإسلام، وهو خبر في معنى الأمر"(٦).

ومن هذا القبيل أيضاً قوله ﷺ: ((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ. أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ. ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ))(٧)، وقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث ذكر الأمر بالمواظبة على الجمعات للمرء مخافة أن يكتب من الغافلين"(٨).

قال الصنعاني: "بعد ختمه تعالى على قلوبهم فيغفلون عن اكتساب ما ينفعهم من الأعمال وعن ترك ما يضرهم منها. وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن ترك الجمعة والتساهل فيها. وفيه إخبار بأن تركها من أعظم أسباب الخذلان بالكلية"(٩).

---

(١) فتح الباري ١٨٤/٢. ويبدو أنه قول ابن الجوزي.
(٢) أخرجه مسلم ٤٢٨، من حديث جابر بن سمرة.
(٣) شرح صحيح مسلم ١٥٧/٤/٢.
(٤) أخرجه البخاري ٥٠١٨، ومسلم ٧٩٦.
(٥) سورة الفتح، آية: ١٦.
(٦) فتح الباري ٢٣٤/٢.
(٧) أخرجه مسلم ٨٦٥.
(٨) صحيح ابن حبان ٢٥/٧ الحديث ٢٧٨٥.
(٩) سبل السلام ص ٢٨٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على احترام النظام والعمل به:

يحترم الإسلام النظام ويأمر باتباعه، كما يأبى الفوضى ويعاقب عليها. فالصلاة تتم وفق نظام معين، والجماعية منها تقوم على انتظام الجماعة في صفوف خلف الإمام[1]. فلا يجوز للمأموم أن يخالف هذا النظام ويتقدم على الإمام برفع رأسه من الركوع أو السجود، ولهذا قال ﷺ: «أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ».

فصلاة الجماعة تعلم وتربي المسلم على النظام، وتغرس فيه التربية بالاتباع والاقتداء بالإمام، كما أنها من أهم وسائل تحطيم الفوارق الاجتماعية والتعصب للجنس واللون، فوحدت بين المسلمين من كافة الأجناس والألوان، ونفخت فيهم روح الإخاء والمساواة والنظام، وقد نوّه بفضلها وجليل اعتبارها كثير من الباحثين، من ذلك ما قاله الدكتور فيليب حتى أستاذ الآداب السامية بجامعة برنستون بأميركا في كلامه عن صلاة الجمعة وتأثيرها على المجتمع العربي.

"وهذه الصلاة الجامعة في وقارها وبساطتها لا يفوقها أي نوع من أنواع العبادات الجامعة، إذ يقف المصلون معتدلي القامة في صفوف يسودها النظام في المسجد، ويتبعون زعامة الإمام بكل دقة واحترام، ولعمري إن منظرهم ليكون دائمًا بالغ الأثر في النفس، وهذه الصلاة الجامعة كوسيلة للنظام لابد وأنها كانت ذات أثر عظيم في نفوس أبناء الصحراء المعتزين بأنفسهم المتكبرين. لقد غرست في نفوسهم الشعور بالمساواة الاجتماعية والإدراك لفكرة المصالح المشتركة وتوحيدها. ولقد ساعدت أيضًا على تقوية الأخوة في مجتمع المؤمنين التي أحلها دين محمد نظريًا محل روابط الدم، وهكذا أصبحت أرض الصلاة هي الأرض الأولى للتدريب في الإسلام[2]"[3].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص٥٥.

(٢) تاريخ العرب، ترجمة: محمد مبروك نافع، ط٢، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبدالفتاح طبارة ص١٧٧، ١٧٨ بتصرف.

إن التربية الإسلامية تولي النظام في الصلاة أهمية خاصة بل إنها تهتم بالنظام والحث على احترامه والعمل به في كافة مناحي الحياة، ليربي المسلم على النظام والانضباط، والبعد عن الفوضى والعشوائية فالمسلم مأمور بأن يحترم النظام ويعمل به، في منزله، ومع أسرته، وفي عمله ومع زملائه، وفي بيئته ومجتمعه، وفي المجتمع الإنساني بأكمله [(١)].

ثانيًا: التربية بالتحذير:

إن التحذير من الأساليب التربوية المهمة حيث يستخدمه المربي في التوجيه للتحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه، لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه، أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك[(٢)].

وقد حذر النبي ﷺ المأموم في الصلاة من رفع رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام، فقال: «أَمَا يَخْشَىٰ أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ».

وقد ورد استخدام النبي ﷺ التحذير كأسلوب تربوي وتوجيهي في التحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه.

وكذلك في التحذير مما يتسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع، وبصيغ مختلفة كالترهيب والوقاية، وبيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه، والنصيحة وغيرها[(٣)].

فأسلوب التحذير أسلوب تربوي لا غنى للمربي عنه يستخدمه في التحذير من الأشياء التي تخالف الشريعة الإسلامية سواء كانت عبادات أو معاملات أو غيرها حتى يتجنبها المتربي وينتهي عن إتيانها.



---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص٥٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٢٤٩.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٢٤٩، ٢٥٠.

٣٣٨- باب كراهة وضع اليد علَى الخاصرة في الصلاة

الحديث رقم (١٧٥٤)

١٧٥٤- عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: نُهِيَ عن الخَصْرِ في الصَّلاَةِ. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الخَصْر: وهو أن يصلي ويده على خاصرته، والخصر من الإنسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين، وفي الصلاة وضع اليد على الخصر[٢].

الشرح الأدبي

إن الصلاة أقوال وأفعال.. وهيئات وحركات، وفي ظل الخشوع والخضوع يقرأ المصلي... ويركع ويسجد.. ويسبح، ويقوم ليواصل الصلاة، والحديث فيه إخبار عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخصر في الصلاة، والخصر: وسط الإنسان وأخمص القدم، والمراد هنا: وسط الإنسان: والحديث بدأ بتأكيد الخبر: حيث تقدم على الفعل "نهى" إن "المؤكدة" واسمها، وهو رسول الله ﷺ، وهذا التقديم له دلالته: لأن المسلم مكلف بطاعة رسول الله ﷺ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣].

وهذا الوضع وهو وضع اليد على الخاصرة في الصلاة مكروه: وقيل في سبب هذه الكراهة، وذلك النهي: هو عدم التشبه باليهود، لأن اليهود كانوا يفعلون ذلك، وقيل إن هذا فعل الشيطان، وقيل: لأن إبليس أهبط من الجنة كذلك، وقيل لأنه فعل المتكبرين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١٩) واللفظ له، ومسلم (٥٤٥/٤٦). أورده المنذري في ترغيبه (٧٨٧).

(٢) شرح مسلم ٤١٥، المصباح المنير في (خ ص ر).

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

والمؤمن في الصلاة يقف خاشعاً متذللاً لربه، وليس في قلبه مثقال ذرة من كبر، والله أعلم، وما أصدق هذه الأبيات التي تصور خشوع المؤمن وتواضعه.. وإقباله على الله.

وكن للصالحين أخاً وخلاً ... وكن في هذه الدنيا غريباً
وصل إذا الدجي أرخى سدولا ... ولا تضجر به وتكن هيوباً
تجد أنساً إذا أودعت قبراً ... وفارقت المعاشر والنسيبا[1]

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة التخصر في الصلاة، وهو وضع اليد على الخاصرة، وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[2].

وذهب الظاهرية[3] إلى أنه حرام تبطل به الصلاة.

وقد رجح صاحب نيل الأوطار[4]، وصاحب عون المعبود[5] القول بالتحريم، وذلك لعدم قيام قرينة تصرف النهي عن التحريم الذي هو معناه الحقيقي.

ولعل السبب الذي نهى لأجله عن التخصر، هو أنه فعل المختالين والمتكبرين، أو لأن فيه تشبهاً بالشيطان، أو لأنه استراحة أهل النار أو لأنه فعل اليهود. أو لأنه شكل من أشكال أهل المصائب، يضعون أيديهم على خواصرهم إذا قاموا من المآتم، وحال الصلاة حال يناجي فيه العبد ربه تعالى، فهو حال افتخار، لا حال إظهار المصيبة[6].

---

(١) انظر: كتاب: من محاسن الدين الإسلامي، تأليف: عبدالعزيز بن محمد السلمان.

(٢) المبسوط ٢٦/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٢/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٥٥٠/١، والقوانين الفقهية ٣٩، وشرح صحيح مسلم ٣٦/٥، والنكت والفوائد السنية على مشكل المحرر لابن مفلح ٧٧/١.

(٣) المحلى لابن حزم ١٨/٤.

(٤) نيل الأوطار للشوكاني ٣٨٢/٢.

(٥) عون المعبود ١٢٠/٣.

(٦) انظر في تعداد الأسباب التي من أجلها نهى عن التخصر في الصلاة: المبسوط ٢٦/١، وشرح صحيح مسلم ٣٦/٥، وعون المعبود ١٢٠/٣، ونيل الأوطار ٣٨٢/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن وضع اليد على الخاصرة في الصلاة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً - من موضوعات الدعوة: النهي عن وضع اليد على الخاصرة في الصلاة:

قال النووي: "اختلف العلماء في معناه [أي في معنى الحديث]: فالصحيح الذي عليه المحققون والأكثرون من أهل اللغة والغريب والمحدثين - وبه قال أصحابنا في كتب المذهب - أن المختصر هو الذي يصلي ويده على خاصرته، قال الهروي: قيل: هو أن يأخذ بيده عصا يتوكأ عليها، وقيل: أن يختصر السورة فيقرأ من آخرها آية أو آيتين، وقيل: هو أن يحذف[1] فلا يؤدي قيامها، وركوعها وسجودها وحدودها، والصحيح الأول"[2].

وقال ابن حجر[3]: "ويؤيد الأول ما روى أبو داود والنسائي من طريق سعيد بن زياد قال: صليت إلى جنب ابن عمر فوضعت يدي على خاصرتي، فلما صلى قال: هذا الصلب في الصلاة، وكان رسول الله ﷺ ينهى عنه"[4].

وقال ابن عثيمين: "الخاصرة ما بين الحقو وأسفل الأضلاع، وذلك أن الإنسان مأمور إذا كان في صلاته أن يضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى أو على الرسغ، أي ما بين الكف والذراع، ويرفعهما على صدره، هذه هي السنة، يفعل ذلك في القيام قبل الركوع وبعد الركوع، وأما وضعهما على الخاصرة فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك،

---

(١) حَذَفَ الشَّيءَ: أَسْقَطَهُ وخَفَّفَهُ. انظر: لسان العرب في (ح ذ ف).

(٢) شرح صحيح مسلم ٣٧/٥/٣، وقال ابن هبيرة: "يجوز أن يكون هذا من وضع اليد على الخصر، وذلك ينافي الخشوع، ويجوز أن يكون المراد شد الوسط، ويجوز أن يكون نهياً عن اختصار الصلاة، بأن لا يتم ركوعها ولا سجودها"، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٧٢/٧، وانظر: سبل السلام ١٦٨ ط بيت الأفكار الدولية.

(٣) فتح الباري ٨٩/٢، ط/ السلفية. وقد اختار ابن حجر هذا التفسير وجزم به في بلوغ المرام، الحديث ٢٢٦ مع شرحه سبل السلام، ص ١٦٨.

(٤) أخرجه أبو داود ٩٠٣ والنسائي ٨٩١ وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٧٩٨).

ولها صورتان: الصورة الأولى: أن يضع اليسرى أو اليمنى على الخاصرة، والثانية: أن يضع اليمنى على اليسرى ثم يجعلهما على الخاصرة كما يفعله بعض الناس، ويدعي أنه يفعل هذا ليجعل اليدين على القلب، وهذا غلط، الشرع ليس له مدخل في العقل، الشرع يتلقى من النبي ﷺ ولم يرد عن النبي ﷺ أنه كان يضم يده اليمنى على اليسرى ثم يجعلها على الخاصرة، بل هذا داخل في النهي، وهذا النهي للكراهة، كما قال المؤلف -أي النووي-"[1].

وقال ابن حجر: "واختلف في حكمة النهي عن ذلك، فقيل: لأن إبليس أهبط مختصراً... وقيل: لأن اليهود تكثر من فعله فنهي عنه كراهة للتشبه... وقيل: لأنه راحة أهل النار، وقيل: لأنها صفة الراجز حين ينشد[2]... وقيل: لأنه فعل المتكبرين، وقيل: لأنه فعل أهل المصائب، ولا منافاة بين الجميع"[3].

وقال عبدالله البسام: (الحكمة في النهي هو الابتعاد عن مشابهة اليهود، فإنهم يضعون أيديهم على خواصرهم في الصلاة، وقيل: الحكمة أنه فعل المتكبرين ولا منافاة، فإن من طبيعة اليهود الكبر واحتقار الناس، ولا يرون شعباً ولا جنساً أفضل منهم، فهم يقولون: إنهم شعب الله المختار. والمطلوب في الصلاة الخشوع والخضوع، لأن المصلّي واقف بين يدي الله تعالى، متذللاً بعيداً عن صفات المتكبرين وسيماهم. والواجب البعد عن مشابهة أهل الضلال، سواء أكان هذا التشبه مما يخرج من الملة، أو كان يفضي إلى المعصية، فإن من تشبه بقوم فهو منهم)[4].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النهي:

فقد نهى النبي ﷺ عن الخصر في الصلاة، والنهي هو اللفظ المستعمل لطلب الترك على جهة الاستعلاء"[5].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٩٩/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٥٨ عن عائشة رضي الله عنها: كانت تكره أن يجعل يده في خاصرته، وتقول: إن اليهود تفعله. وانظر: سبل السلام ١٦٩.

(٣) فتح الباري ٨٩/٣، وانظر: صحيح ابن حبان ٦٣/٦ - ٦٤ رقم ٢٢٨٦، وشرح صحيح مسلم ٣٧/٥/٣.

(٤) توضيح الأحكام ٤٩٩/١.

(٥) انظر: الموسوعة الفقهية ٤٠٤/٤١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على التواضع والخضوع لله تعالى:

للصلاة وضعها الدقيق ونظامها التربوي، فقد هيأت الحكمة الإلهية، والتشريع الرباني (الصلاة) تهيئة دقيقة عميقة، هي من المعجزات التشريعية، لتحقيق غاية العبودية، والإخلاص لله تعالى، وغاية الخضوع والتذلل، والاستغاثة والابتهال، وإحياء الصلة بالله تعالى، وتجديدها [1].

والصلاة مناجاة لله قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا قامَ في صَلاته فإنهُ يُناجي ربَّهُ أو إن ربه بينهُ وبينَ القِبلةِ» [2]، ولما كانت للمناجاة رهبة تهيمن على شعور الإنسان وحركاته تحول بين اللهو واللعب في صلاته، ولما كانت للمناجاة آداب يطلب من المصلي مراعاتها، لهذا كله، كان على المصلي أن يتجنب أي تصرف يتنافى والأدب مع الله [3].

لهذا وضع النووي عنوان الباب: باب كراهة وضع اليد على الخاصرة في الصلاة وذكر تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: "نهى عن الخصر في الصلاة". والخصر وسط الإنسان، ووضع اليد في وسط الإنسان هو فعل أهل الكبر.

وهذا يتنافى مع الأدب مع الله في الصلاة.

فالصلاة تهدف إلى تربية العبد على التذلل والتضرع والخضوع لله، وتربي المسلم على التواضع مع الآخرين حيث إنه يقف في الصلاة مثله مثل أي إنسان.

والمتواضعون أهل الله، والمتكبرون ليس لهم من بره حظ ولا نصيب [4].

فالكبر والتعالي على الناس، مما يتنافى مع الخلق الكريم، وقد شن عليه

---

(١) الأركان الأربعة، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص٣٢.

(٢) أخرجه البخاري، ٤٠٥.

(٣) روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص١٤٠.

(٤) إسلامنا، السيد سابق، ص٢٠٢.

الإسلام حربًا شعواء، ليطهر منه النفوس والقلوب[1]، وجاءت الآيات والأحاديث النبوية التي ترهب منه وتحث على تركه وتذم فعله هذا مع الناس.

فكيف الحال بالإتيان بفعل من أفعال أهل الكبر في مقام يناجي فيه الإنسان ربه ويتوجه فيه إلى رب الأرض والسماء، في مقام لا ينفع فيه إلا الخشوع والخضوع والتذلل والتضرع.

فعلى المربي توجيه المسلمين عامة والناشئة بصفة خاصة إلى البعد واجتناب أفعال وصفات أهل الكبر في الصلاة، بصفة خاصة، في جميع مناحي الحياة بصفة عامة.



(١) المرجع السابق، ص٢٠٢.

٣٣٩- باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تتوق إِلَيْهِ أوْ مَعَ مدافعة الأخبثين: وهما البول والغائط

الحديث رقم (١٧٥٥)

١٧٥٥- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((**لا صَلاَةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلاَ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الأخبثان: البول والغائط[2].

الشرح الأدبي

إن الخشوع في الصلاة هو سر قبولها، وهو ميزان صحتها، فلا صلاة بلا خشوع، ولا قبول لها بلا خضوع، فالصلاة: صلة بين العبد وربه، وأقوال المسلم في الصلاة كلها مناجاة لله عز وجل، فكيف يقرأ الفاتحة وقلبه مشغول بغير الله، وكيف يسبح الله وهو شارد الذهن، موزع الخواطر، مشتت الوجدان، ومن أسباب تشتت الذهن في الصلاة انشغال الحواس بالمشاهدات، وانشغال الذاكرة بما مضى من حوادث وذكريات، وانشغال الجسد بالملذات، ودفع الخبائث والفضلات.

ولذلك تتكرر أداة النفي في الحديث مرتين: المرة الأولى: ينفي الرسول ﷺ فيها عن المؤمن الصلاة المقبولة الصحيحة والطعام حاضر، وفي الحديث إيجاز بالحذف والتقدير لا صلاة للمرء مقبولة، أو لا صلاة فاضلة كاملة، بحضرة طعام، لأن المعدة إذا فرغت انشغل ذهن الإنسان.. ولن يتفرغ للصلاة تفرغاً كاملاً.

---

(١) برقم (٥٦٠/٦٧).

(٢) الوسيط في (خ ب ث).

ويتكرر النفي مرة أخرى، في قوله: "ولا وهو يدافعه الأخبثان"، وفي هذه الجملة يعود الضمير على معلوم غير موجود في نص الحديث: وهو المرء، أو المسلم، ورغم أنه محذوف فإن القرينة دلت عليه: لأن الصلاة لا تكون بدون مصل، وجملة: "وهو يدافعه الأخبثان" حالية: وهي تصور حال ذلك المصلي، وكأنه في صراع مع الاحتباس البولي، ومع احتباس الغائط، والصلاة ينقصها الخشوع والخضوع، لأنه يقاوم هذين الأخبثين، وصيغة التفضيل في هذا السياق، تفصح عن أن البول والغائط من أخبث ما يؤذي الإنسان إذا احتبسا، فخبثهما ناشئ من ضررهما، وطبيعتهما، ولذلك يقول المسلم وهو يدخل الخلاء لقضاء حاجته: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، ويقول بعد خروجه: الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- كراهة الصلاة بحضرة الطعام[1]، الذي يريد الأكل منه، لما فيه من اشتغال القلب به، وذهاب كمال الخشوع[2]. خلافاً للظاهرية القائلين بالحرمة[3].

وهذه الكراهة عند أكثر العلماء إذا صلى في وقت السعة، أما إذا ضاق الوقت بحيث لو أكل خرج الوقت، ففي هذه الحالة يصلي، ولا يجوز تأخيرها محافظة على حرمة الوقت.

وحكى أبو سعيد المتولي عن بعض الأئمة أنه لا يصلي بحاله، بل يأكل، ويتطهر حتى وإن خرج الوقت[4].

---

(١) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٤٣/١، ومواهب الجليل ٤٠٠/٢، والقوانين الفقهية لابن جزي ٣٩، والتمهيد لابن عبدالبر ٢٠٦/٢٢، والمهذب للشيرازي ٩٤/١، والمجموع للنووي ١٧٦/٤، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٧٦/١، والمغني ٣٦٤/١، والروض المربع ٢٦٦/١.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر ٢٠٦/٢٢، وشرح صحيح مسلم ٤٦/٥.

(٣) المحلى ٤٦/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم ٤٦/٥، وعون المعبود ١١٤/١.

إلا أنه لو صلى بحضرة الطعام، فأكمل صلاته، فإن الصلاة -والحالة هذه- تجزئه[1].

٢- كراهة الصلاة عند مدافعة الأخبثين -وهما البول والغائط-ويلحق بهما ما في معناهما مما يشغل القلب، ويذهب كمال الخشوع، وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[2].

وذهب الظاهرية[3] إلى تحريم الصلاة، عند مدافعة الأخبثين، ومن صلى كذلك فصلاته باطلة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الطمأنينة في الصلاة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحرص على الخشوع في الصلاة وعدم الانشغال ببعض الرغبات في الطعام وغيره.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على الطمأنينة والخشوع في الصلاة وتحصيل أسباب ذلك.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الطمأنينة في الصلاة:

إن من عوامل الإقبال على العبادة التفرغ لها، وعدم الاشتغال بغيرها -كوجود طعام مُعَدٌ تشتاق النفس إليه، أو حدث من بول أو غائط يطلب الخروج وهو يقاومه وما شاكل ذلك- ولذا جاء في الحديث الدعوة إلى التفرغ من هذه الشواغل، مما يساعد القلب ويعينه على الإقبال على الله تبارك وتعالى، بعقل يقظ وقلب خاشع وجوارح مطمئنة. فقال ﷺ "لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان" أي لا صلاة فاضلة

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٢٠٦/٢٢.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٦٧/١، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٤٣/١، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد محمد بن رشيد القرطبي ١٣١/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٥/٢، والمجموع ١٧٦/٤، وروضة الطالبين ٢٤٥/١، والتنبيه ٣٦/١، والمبدع ١٤٠/١، ومنار السبيل ١٢٨/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٧٦/١.

(٣) المحلى لابن حزم ٤٦/٤.

كاملة بحضرة طعام تتوق نفس المصلي إليه وذلك لما فيه من اشتغال القلب المانع من الخشوع، وكذلك في حال مدافعة الأخبثان[1]، قال القرطبي: (وقوله ﷺ: "لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثين" ظاهرُ هذا: نفيُ الصِّحة والإجزاء. وإليه ذهب أهل الظاهر في الطعام، فتأوَّل بعضُ أصحابنا حديث مدافعة الأخبثين: على أنه شغله حتى لا يدري كيف صلّى؟! فهو الذي يعيد قبل وبعد. وأما إن شغله لا يمنعه من إقامة حدودها، وصلّى ضاماً مابين وركيه، فهذا يعيد في الوقت. وهو ظاهر قول مالك في هذا. وذهب الشافعي، وأبو حنفية في مثل هذا: إلى أن لا إعادة عليه. قال القاضي أبو الفضل: وكلُّهم مجمعون: على أن من بلغ به ما لا يعقل به صلاته، ولا يضبط حدودها؛ أنها لا تجزئه، ولا يحل له الدخول كذلك في الصلاة، وأنه يقطعُ الصلاة إن أصابه ذلك فيها. والأخبثان: الغائط والبول. قاله الهروي وغيره[2].

قال النووي: (في هذا كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله، لما فيه من اشتغال القلب به، وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها مع مدافعة الأخبثين وهما البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع، وذلك إذا كان في الوقت سعة، فإذا ضاق بحيث لو أكل أو تطهر خرج وقت الصلاة، صلى على حاله محافظة على حرمة الوقت ولا يجوز تأخيرها)[3].

وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا المعنى منها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ))[4] وما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا وُضِعَ عَشَاءُ أَحَدِكُمْ وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَابْدَؤُوا بِالْعَشَاءِ، وَلاَ يَعْجَلَنَّ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ))[5] فإن ذلك أدعى إلى الطمأنينة

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٧٣٤.

(٢) المفهم ١٦٥/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ٤١٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٧٢، ومسلم ٥٥٧.

(٥) أخرجه البخاري ٦٧٣، ومسلم ٥٥٩.

والخشوع في الصلاة وسكون القلب فيها[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحرص على الخشوع في الصلاة وعدم الانشغال ببعض الرغبات في الطعام وغيره:

إن الخشوع زينة الصلاة وجمالها، ولذلك جاءت الأحاديث آمرة بالتخلص مما يقلل الخشوع أو يذهبه، كالطعام ومدافعة الأخبثين وغيرها، فقال ﷺ "لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان" قال ابن عثيمين: وذلك أن الإنسان إذا دخل في الصلاة وهو مشغول القلب فإنه لا يطمئن في صلاته، ولا يخشع فيها، يكون قلبه عند طعامه، والإنسان ينبغي له أن يصلي وقد فرغ من كل شيء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[٢]،[٣] قال ابن كثير: (أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، من هذا القبيل قوله ﷺ "لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان")[٤].

إن الصلاة لا تصح إلا بإتمام أركانها وشروطها، وتمامها وكمالها يكون بالخشوع، فهو محل القلب، وإليه ينظر الرب تبارك وتعالى، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[٥].

لقد حث النبي ﷺ على استجماع القلب والعقل في الصلاة والخشوع فيها لله رب العالمين، وأن ذلك سبب لتفتح أبواب الجنة الثمانية له، روي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ((كانت علينا رعاية الإبل. فجاءت نوبتي فروحتها بعشيٍّ. فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، الإمام ابن القيم، ٢/٥٢٦.

(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٩٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه. إلا وجبت له الجنة. قال فقلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود. فنظرت فإذا عمر. قال: إني قد رأيتك جئت آنفاً. قال: ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ "أو فيسبغ" الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء))[١].

وفي رواية أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه كنت وأنا في الجاهلية... فقدمت عليه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم.... قال: يا نَبيَّ الله فالوضوء؟ حدِّثني عنه. قال: ما منكم رجلٌ يُقَرِّبُ وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خَرَّتْ[٢] خطايا وجهه وفيه وخياشيمه. ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء. ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء. ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء. ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء. فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه))[٣].

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم في صلاته، وهو من أعلى درجات الخشوع، ومن يتدبر الكلمات التي كان يقولها صلى الله عليه وسلم في صلاته وسنها لأمته، لا يملك إلا أن يخشع قلبه، ويقشعر جلده، ويقبل على ربه بكليته، قلباً وقالباً، عملاً وفكراً، فهماً وإدراكاً، من ذلك ما روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك. ظلمت نفسي واعترفت

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٤.

(٢) خَرَّتْ: أي سقطت وذهبت. انظر لسان العرب في (خ ر ر).

(٣) أخرجه مسلم ٨٣٢.

بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق. لا يهدي لأحسنها إلا أنت. لبيك وسعديك والخير كله في يديك. والشر ليس إليك، أنا بك وإليك. تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك. وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت وبك آمنت، ولك أسلمت. خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي. وإذا رفع قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد. وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت. وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره. تبارك الله أحسن الخالقين. ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر. لا إله إلا أنت))[1].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على الطمأنينة والخشوع في الصلاة وتحصيل أسباب ذلك:

إن من أهداف الدعوة الحث على الطمأنينة والخشوع في الصلاة، وذلك من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[2] والمقصود بذلك سكون الجوارح[3] ولن يكون ذلك إلا بتحصيل أسبابه، والتخلص من الأسباب التي تفسد على الإنسان خشوعه في الصلاة، كالتوقان إلى الطعام وغيره، كما جاء في الحديث "لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان" فإذا ما انتفت الأسباب التي تصرف الإنسان عن الطمأنينة والخشوع واجتهد في الخشوع، والتذلل لله تعالى، كان ذلك من أسباب الفلاح، كما جاء ذلك في صريح قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[4] أي إذا قاموا إلى الصلاة أقبلوا عليها، وخفضوا أبصارهم، وعلموا أن الله

---

(١) أخرجه مسلم ٧٧١.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٢.

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، تحقيق محمد عبدالكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ، ص ٢٧٦.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٢.

يقبل عليهم فلا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا لذلك الجناح[١]، وتلك هي سيما المؤمنين، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢] قال هو الخشوع والخضوع)[٣]. وذلك من أسباب قبول الأعمال وتكفير الذنوب، فعن عثمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله))[٤].

لقد جعل الله الخشوع والطمأنينة في الصلاة سبب الظفر والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٥].

فالخاشع هو الذي يخضع قلبه، ويسيطر عليه الرهبة والخوف والرجاء عند ملاحظة جلال الله وعظمته، ويؤدب جوارحه حسب ذلك الخضوع، فلا التفات ولا حركة، سوى ما تفرضه أعمال الصلاة، فإن المصلي لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، وسكنت وخضعت.

ولأهمية الخشوع جعله بعض العلماء من الدعائم لقبول الصلاة عند الله، لأن المصلي يتعبد بتلاوة القرآن في الصلاة، والله يأمر بتدبر القرآن عند تلاوته لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٦]. والمعنى: أفلا يتفهمون القرآن ويتدبرون معانيه، أم أن قلوبهم مغلقة لا تفهمه، كأن عليها أقفالاً تحول دون وصول القرآن إليها.

---

(١) انظر: الدر المنثور، الإمام السيوطي، ٨٤/٦.

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٣) الدر المنثور، السيوطي، ٥٤٢/٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ١، ٢.

(٦) سورة محمد، آية: ٢٤.

ويقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1]. والغفلة هي ضد الذكر، فمن غفل في صلاته فكيف يكون خاشعاً مقيماً للصلاة؟

ويقول الله سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[2]. فالله ينهى السكران عن قربان الصلاة، لأنه لا يعلم ولا يستوعب ما يقول فيها، أو هو بالأحرى ينتفي الخشوع عنه، وهذا ما ينطبق أيضاً على الغافل المستغرق في تفكيره في نفسه ودنياه.

ويقول الله سبحانه في وصف الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[3]. أي إن الصلاة ثقيلة على النفوس باستثناء الذين خشعت قلوبهم، وحرصت على القربى من الله، لأن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الصخب والهموم إلى عالم السرور، عالم الملكوت الأعلى، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة.

يحكى عن الإمام أبي حنيفة أن حيّة سقطت من السقف وتفرق الناس، وكان أبو حنيفة مستغرقاً في الصلاة فلم يشعر بها. وتعليل ذلك: أن الإنسان إذا دخل على الملك المهيب، والسلطان القاهر، ووقف بعقله على كمال تلك المهابة، وعلى جلالة تلك السلطنة، فقد يصير بحيث تستولي عليه تلك المهابة وتلك السلطنة، فيصبح غافلاً عن كل ما سواه، حتى إنه ربما كان جائعاً فينسى جوعه، وربما كان به ألم شديد فينسى ألمه في تلك الحالة، لأن استيلاء تلك المهابة عليه أذهلته عن الشعور بغيره، فما قولك إذا وقف الإنسان أمام ملك الملوك ورب الكائنات؟

ولكن قد يقول قائل: ما تأثير الخشوع على النفس الإنسانية؟ فنقول: إن الخشوع هو وسيلة لتنمية ملكة حصر الذهن في الإنسان، والتي يترتب عليها أكبر الأثر في نجاحه وفوزه في هذه الحياة، وهي المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى

---

(١) سورة طه، آية: ١٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤٥.

صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، ولتفسير وتوضيح ذلك، نعرّف للقراء صفة "ملكة حصر الذهن" وأثرها في نجاح الإنسان، بما قاله وليم مولتون مارستني -الأخصائي في علم النفس- في مجلة المختار من ريدرز دايجست: القدرة على تركيز الخواطر، تجري مجرى العادة عند كل رجل بارز في كل باب من أبواب الحياة. ففي أي لحظة معينة يركز الزعيم أو الرجل الفائق في أمر ما، خواطره كلها في العمل المفرد، الذي يكون عليه أمر الاضطراب والشواغل والأهواء المتعارضة، ثم يقول: والعقل الإنساني يصبح أداة مدهشة الكفاءة إذا رُكز تركيزاً قوياً حاداً. ونقل عن وليم جيمس وهو أبو علم النفس الحديث أنه قال: إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين، ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها هممهم، وإلى درجة التركيز التي يسعهم أن يبلغوها.

ثم يقول وليم مولتون في كيفية اكتساب هذه الصفة: وهذه القدرة تكتسب بالمرانة، والمرانة تتطلب الصبر، فإن الانتقال من الشرود إلى حصر الذهن حصراً بيّناً محكماً، هو ثمرة الجهد الملح، فإذا استطعت أن ترد عقلك مرة بعد أخرى، وخمسين مرة، ومائة مرة إلى الموضوع الذين اعتزمت معالجته، فإن الخواطر التي تتنازعك لا تلبث أن تخلي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار والعناية، ثم تلقى نفسك آخر الأمر قادراً على حصر ذهنك بإرادتك فيما تختار.

وقد أوردت هذا كله لأخلص إلى القول بأن الصلاة هي واسطة لتنمية ملكة حصر الذهن في الإنسان. فالمصلي الذي يستطيع ويحاول بكل قدرته أن يحصر فكره طيلة الوقت الذي تستغرقه الصلاة، وهو ما يسمى بالخشوع، لا شك بأنه تنمو فيه ملكة حصر الذهن، وتصبح له أكبر معين في سائر الأعمال التي يزاولها.

ومما يزيد في تأييد هذا المعنى قول وليم مولتون أيضاً: "وخير ما يمسك الالتفات ويمنعه أن يتوزع، هو أن يعمل العقل والجسم معاً بالاتحاد فيما بينهما.

والصلاة في الإسلام يعمل العقل فيها والجسم معاً، فالمصلي يركع ويسجد وهو يقوم بعملية الصلاة[1].

---

(١) روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبدالفتاح طبّارة، ص ٢٩-٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على تحقيق الخشوع والسكينة في الصلاة:

إن التربية الإسلامية التي أرسى النبي ﷺ معالمها عملت على توفير جو الخشوع والسكينة في الصلاة، وذلك من خلال عدم إتيان الصلاة حال انشغال أو رغبة الإنسان في الطعام، وهو يستشعر الجوع أو حال رغبة الإنسان في قضاء الحاجة لهذا قال ﷺ: «لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ وَلاَ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ».

والخشوع ركن من أركان الصلاة وهو أمر مهم لكل مصل بأن يطمئن في صلاته ويؤديها امتثالاً لقوله ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[1].

ومما يدل على فضل الخشوع قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2].

فالخشوع في الصلاة أمر عظيم، ومحله القلب، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها لخشوعه[3].

قال ابن القيم: خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله فيخشع فتتبعه الجوارح[4]، والخشوع أجره عظيم عند الله تعالى كما قال عز وجل ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٣١.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١-٢.

(٣) انظر: آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص١٦٠.

(٤) نقلًا عن المرجع السابق، ص١٦٠، ١٦١.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ. وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»[1].

إن الصلاة حياة القلب، والخشوع حياة الصلاة.

وتحدث ابن الجوزي عن المعاني التي تتم بها حياة الصلاة فقال المعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

المعنى الأول: حضور القلب: ومعناه: أن يفرغ القلب من غير ما هو مُلابس له، وسبب ذلك: الهمة (أي: الاهتمام) فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج إلا صرف الهمة إلى الصلاة وانصراف الهمة يقوي ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

المعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب؛ لأنه ربما كان القلب حاضرًا مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة، وقطع موادها فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف عنها.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين:

- معرفة جلال الله تعالى وعظمته.
- معرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع.

ومن ذلك الرجاء، فإنه زائد على الخوف فكم من معظم ملكًا يهابه لخوف سطوته، كما يرجو بره، والمصلي ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب[2].

إن صلاة هذه روحها، وتلك حياتها، وذلك سجودها وركوعها وخشوعها، لهي جديرة بأن تنظف الإنسان من الأوضار، وتضع عنه الأوزار[3].

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٢٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٦-٢٨ باختصار.

(٣) انظر: شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، كما عدها ابن القيم، إعداد، عبدالعزيز مصطفى، ص١٢٠، ١٢١.

فعلى المسلم أن يحذر من كل أمر ينافي الخشوع في الصلاة وعلى المعلمين والمعلمات التركيز على هذا الموضوع خلال دروسهم، والحرص على تطبيقه مع طلابهم عند أداء صلاة الظهر في المدرسة، بالتأكيد على الطلاب بأن يؤدوا الصلاة بطمأنينة وخشوع ويحذروهم من العجلة وكثرة العبث، وما يشغل عن الصلاة[١].

ثانيًا: من أهداف التربية: مراعاة الطبيعة البشرية:

عرف الإسلام طبيعة الإنسان حق معرفتها، وقدرها حق قدرها، لأن الإسلام كلمة الله، والإنسان خلق الله، وخالق الشيء وصانعه لا يجهل طبيعته وكنهه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢].

وقد خلق الله هذا الإنسان جسمًا كثيفًا، وروحًا شفافًا.

جسمًا يشده إلى الأرض، وروحًا يتطلع إلى السماء، جسمًا له دوافعه وشهواته، وروحًا لها آفاقه وتطلعاته، جسمًا له مطالب أشبه بمطالب الحيوان، وروحًا لها أشواق كأشواق الملائكة[٣].

هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرًا طارئًا على الإنسان، ولا ثانويًا فيه، بل هي فطرته التي فطره الله عليها، وأهله بها للخلافة في الأرض، منذ خلق آدم خلقًا جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٤].

وجاءت عقيدة الإسلام فلم تغفل الروح من أجل الطين، ولم تغفل الطين من أجل الروح، بل زاوجت بينهما في وحدة متسقة ملتئمة. وأعطت الروح حقه، والجسد حقه، في غير إفراط ولا تفريط[٥].

---

(١) انظر: آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي، ص١٦٤.

(٢) سورة الملك، الآية:١٤.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٧٩.

(٤) سورة السجدة، الآيات:٦-٩.

(٥) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٧٩.

والإسلام في تصوره للإنسان لا يذهب "إلى ما ذهبت إليه المثالية من الإعلاء من شأن الروح والإقلال من شأن الجسم، وبالتالي فهو لا يحقر المطالب الجسد، ولا يزدري الأعمال البدنية"[1]. والإسلام يقر المطالب البدنية، ويؤكد الدعوة إلى إشباعها بطريقته المشروعة"[2].

والروح والجسد كما تحدد شريعة الإسلام (ملاك الذات الإنسانية) تتم بهما الحياة ولا تتكر أحدهما في سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقًا ليوفي حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقًا ليوفي حقوق الجسد"[3].

من أجل ذلك كان عنوان الباب الذي وضعه النووي: باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تتوق إليه أو مع مدافعة الأخبثين: وهما البول والغائط.

وذكر فيه حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ».

والمسلم في الصلاة يتصل بالله اتصالاً روحيًا، فهذا الاتصال ينبغي أن يكون متحررًا من الأشياء الأخرى التي يحتاجها الجسد، وتتوق إليها الروح من الطعام وغيره، أو ما يحتاج إلى دفعه من البول والغائط.

فالطبيعة الإنسانية مزيج مركب من الروح والجسد، والتربية الإسلامية تهدف إلى مراعاة هذه الطبيعة، بتحقيق التوازن بين رغبات وطلبات الروح، ورغبات ودوافع الجسد، وهذا قمة الإنصاف ونتيجة المعرفة الدقيقة بطبيعة الإنسان.

فينبغي على المجتمع والمربين بيان وتوضيح طبيعة الإنسان حتى يعلم الجميع أن لكل إنسان احتياجاته، ورغباته الجسمية والروحية التي زوده الله بها، وجعل له الحق في إشباعها بطريق مشروع، وبتوازن لا يتعارض مع أحكام الدين.

❁ ❁ ❁

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص١٣٣.

(٢) التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية، د. محروس سيد مرسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية جامعة أسيوط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ص٣١٢.

(٣) الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد بتصرف، ص٢٣.

٣٤٠- باب النهي عن رفع البصر إِلَى السماء في الصلاة

الحديث رقم (١٧٥٦)

١٧٥٦- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((مَا بَالُ أقْوامٍ يَرْفَعُونَ أبْصَارَهُمْ إلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ!)) فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: ((لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَتُخطفَنَّ أَبْصَارُهُمْ!)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لتخطفن أبصارهم: الخطف: هو استلاب الشيء وأخذه بسرعة.

والمعنى أنه يخشى على الأبصار من الأنوار التي تنزل بها الملائكة على المصلين[2].

الشرح الأدبي

يبدأ الحديث باستفهام إنكاري في قوله "ما بال" أي ما شأن أقوام، وهذا الإنكار من رسول الله صلى الله عليه وسلم على هؤلاء الأقوام: لأنهم لا يخشعون في صلاتهم، فهم يرفعون رؤوسهم إلى السماء: ومن شأن ذلك أن يتوهم البعض أن الله متحيز في مكان، وهو سبحانه الذي لا يحتويه مكان، ولا يمر عليه زمان، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، تعالى الله عما يتوهمون علوًا كبيرا، وتنكير كلمة "أقوام"، للسخرية والمهانة، فهؤلاء الذين يقومون بذلك نكرات ومجاهيل، ويمكن أن يومئ هذا التنكير إلى الكثرة، ولكنها مَجْهولة، أو هم: عوام الناس الذين لا يفقهون دينهم، والتعبير بالمضارع في قوله: "يرفعون أبصارهم"، يوحي بأن هذا السلوك مستمر في بعض طوائف الأمة فهم أقوام، وليسوا قوماً.

---

(١) برقم (٧٥٠). أورده المنذري في ترغيبه (٧٦٧).

(٢) النهاية قس (خ ط ف)، وفتح الباري ٢/ ٩٧٣.

وقوله: "فاشتد قوله في ذلك" كناية عن المبالغة، وشدة الإنكار في هذا الشأن.

والجملتان الأخيرتان تتضمنان النهي عن ذلك، والوعيد بالعذاب إذا لم يَنْتَه هؤلاء الناس، والتأكيد بالنون الثقيلة مع لام الأمر الجازمة، مع الإيقاع الصوتي المضعَّف المتكرر في تكرار التوكيد بنون التوكيد الثقيلة: كل هذه الظواهر الأسلوبية تعد من أقوى الدلائل على رفض رسول الله ﷺ لهذه الهيئة التي يقف عليها المصلِّي في صلاته، ويرفع بصره إلى السماء عند الدعاء.

وفي الحديث ما يسمَّى في البلاغة بالتعريض، حيث لم يحدد رسول الله ﷺ أناساً بعينهم منعاً للحرج، وحتى تكون القاعدة عامة لكل المسلمين، وبعض المسلمين كان يفعل ذلك في عهد رسول الله ﷺ، وأراد الرسول ﷺ أن يمنعهم من ذلك: فقال هذا الحديث الذي اتسم بالشدة، والتهديد، وهو مع ذلك لم يواجه الناس بما يفعلون، ولكنه ألمح من بعيد، وعرَّض بهم حتى ينتهوا، وحتى ينتهي غيرهم، وفي رواية أخرى: ما يشير إلى ذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يؤكد أن أناساً كانوا يفعلون ذلك في عهد رسول الله ﷺ: لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء، أو لتخطفن أبصارهم. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة رفع البصر إلى السماء في الصلاة، وهذا الحكم متفق عليه بين فقهاء المذاهب[1] إلا ما ورد عن ابن حزم، حيث قال بالحرمة، بل بالغ في ذلك، وقال ببطلان الصلاة به[2].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٣/٢، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٣٩/١، ومواهب الجليل ٥٤٩/١-٥٥٠، التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٥٤٩/١، والمهذب للشيرازي ٨٨/١، وشرح زبد ابن رسلان ١٠٤/١، وفتح المعين للمليباري ١٩١/١، والمبدع ٤٧٧/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٧١/١-١٧٢، والروض المربع ١٨٤/١، وكشاف القناع ٣٧٠/١، وإن كان الحنابلة لا يقولون بالكراهة حال التجشي لئلا يؤذي من حوله.

(٢) سبل السلام ٢٠٥/٢، وعون المعبود ١٢٨/٣.

وهذا الحكم قاصر على رفع البصر إلى السماء في الصلاة، أما خارج الصلاة فجوزه العلماء، لأن السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة[١].

ولعل الحكمة من كراهة رفع البصر إلى السماء في أثناء الصلاة، هو ما فيه من الإعراض عن جهة القبلة المأمور بها في الصلاة[٢]، ولمنافاة ذلك للخشوع المطلوب في الصلاة[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من فقه الداعية: التعميم وعدم التخصيص في التنبيه على المخالفات.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الخشوع والنظر في موضع السجود في الصلاة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من رفع البصر إلى السماء في الصلاة.

أولاً- من فقه الداعية: التعميم وعدم التخصيص في التنبيه على المخالفات:

إن الحكمة من أهم الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أهم مقومات الداعية الناجح، ومن نظر في سيرة المصطفى ﷺ وجد أنه كان ملازماً للحكمة في أموره كلها، خاصة في دعوته إلى الله جل وعلا، وقد أمره ربه تبارك وتعالى بالدعوة إلى الله بالحكمة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[٤]،[٥] ومن الحكمة اتباع أسلوب التعميم وعدم التخصيص في التنبيه على المخالفات التي تقع من بعض الناس في الصلاة، كما جاء في الحديث "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم" فإذا أراد الداعية أن يصحح خطأ شائعاً، ويحذر الناس من الوقوع فيه، فلا يسمى شخصاً بعينه

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٣/٢، وعون المعبود ١٢٧/٣.

(٢) مواهب الجليل ٥٤٩/١-٥٥٠، وسبل السلام ٢٠٥/٢، وعون المعبود ١٢٨/٣.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٣/٢.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، ص ٤٧، ٤٨.

ولا يذكر اسماً، بل يفعل ما كان يفعل رسول الله ﷺ حين وقف ينبه على بعض الأخطاء التي وقعت من أناس معلومين، كما جاء في الحديث "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم"[1].

وخلاصة القول إن الداعية إذا أراد أن يعالج أمراً عاماً يقع فيه بعض الناس، ويريد أن يوجه الجميع ليقلع من يقع، ويحذر مَنْ لم يقع، ينبغي عليه أن لا يسمى بعينه ولا يذكر اسماً، بل يفعل كما كان يفعل الرسول ﷺ حين يقف منبهاً على بعض الأخطاء التي وقعت من أناس معلومين، فقال كما جاء في الحديث "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا" أما إذا لم يكن الخطأ عاماً، وأراد الداعية أن يوجه صاحب هذه المشكلة بعينه، فإنه يلزم الداعية أن يسر إليه بالنصيحة والإرشاد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اهمية الخشوع والنظر في موضع السجود في الصلاة:

أشار إلى ذلك الحديث في مضمون قوله ﷺ "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم" فاشتد قوله في ذلك حتى قال: "لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم" قال ابن حجر: قال ابن بطال: أجمعوا على كراهة رفع البصر في الصلاة، وقال القاضي عياض: رفع البصر إلى السماء في الصلاة فيه نوع إعراض عن القبلة وخروج عن هيئة الصلاة[2] وذلك يناقض الخشوع، فالحديث نهى عن رفع الأبصار إلى السماء أثناء الصلاة لأنه يخل بالخشوع والنبي ﷺ يهدف إلى الخشوع المطلوب في الصلاة حتى تسكن الأعضاء ويصفو القلب، وتسمو الروح، فتتنزل الرحمة ويعم الرضوان، فما أعظم حين يتجلى الخشوع على أداء الصلاة، فيستحق صاحبها أن يوصف بالفلاح، وأن يكون من جملة المؤمنين الذي يرثون الفردوس الأعظم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[3])[4].

---

(١) انظر: أسس الدعوة وأدب الدعاة، د. محمد السيد الوكيل، ص ٣١.

(٢) فتح الباري ٢/٢٧٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٢.

(٤) أدب المؤمن، الشيخ أحمد حمزة عبدالباقي، د. أمينة أحمد يحيى، ص ١٠٣، ١٠٥.

أي قد فازوا وسُعِدوا، وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف، والتي منها خشوعهم في الصلاة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ خائفون ساكنون، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح، والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من رفع البصر إلى السماء في الصلاة:

جاء ذلك في صريح الحديث "فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم" أي ليكونن أحد الأمرين انتهاؤهم عن الرفع أو خطف الأبصار[٢] وفي ذلك الوعيد الشديد[٣].

قال النووي: (فيه النهي الأكيد والوعيد الشديد عن ذلك[٤] وذلك لما في التجافي عن الخشوع، عدم الإقبال بالقلب والوجه على الله، فيكون سبباً للحرمان من الفضائل[٥]، فعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة[٦]. قال النووي وقد جمع ﷺ بهاتين اللفظتين أنواع الخضوع والخشوع، لأن الخضوع في الأعضاء، والخشوع بالقلب على ما قاله جماعة من العلماء[٧] وذلك شأن الخاضع الخاشع لله[٨]، وذلك أمر الله ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٩] أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه[١٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٤٦١/٥.

(٢) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ص ١٧٣٥.

(٣) انظر: فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ٢٧٣/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم ٣٦٥.

(٥) انظر: العبادات في الإسلام، د. محمد عبده، ص ١٠٠، ١٠١.

(٦) أخرجه مسلم ٢٣٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي، ٢٥٨.

(٨) انظر: الأركان الأربعة، أبو الحسن علي الحسني الندوي، ٤٢.

(٩) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(١٠) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦٥٤/١.

ولنستحضر المسلم وهو يصلي، وهو ينتقل في صلاته من ركن إلى آخر، ويتدرج في خشوعه من درجة إلى درجة ومن منزلة إلى منزلة، ولنرى المصلى وهو يتدرج في الخضوع والانحناء، فيفتتح الصلاة بالقيام، فيثني بالركوع. ويثلث بالسجود، وهو شأن الخاضع الطبيعي، ولا يخرُّ ساجداً من ركوع، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة، ثم ينحني للسجود، ليكون أبلغ في الخشوع وأوقع في النفس، وأدل على الذل. وكذلك يتدرج في التعظيم والتمجيد. فيقول في ركوعه: "سبحان ربي العظيم"، ويقول في سجوده: "سبحان ربي الأعلى"، فإذا بلغ الغاية في الخضوع والتذلل، ونصب أشرف أعضائه على أذلّ شيء في الوجود، الأرض التي هي موطئ الأقدام، ومضرب المثل في الذلة والهوان، هتف بأعظم كلمة يُعلن بها عظمة الله وعلوّه، فيقول "سبحان ربي الأعلى" وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان، مع روعة البيان والإعلان، ويفصل بين السجدتين بجلسة خفيفة، لتكون السجدة مستأنفة مجدّدة، ولتنتبه النفس من غفوتها، وتشعر بلذة جديدة.

وإذا سجد، فك سلاسل التقليد، السلاسل التي فرضها عليه المجتمع والأعراف، والعادات والآداب، فخرّ ساجداً لله تعالى يمرِّغ وجهه، ويعفر جبينه، وأعطى القلب زمامه، وأرسل النفس على سجيتها، فلا حجر على الخشوع، ولا ملامة على الدموع، وقد غلى مرجل الصدر، وفاضت كأس القلب. روي عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء))[1].

والسجود أقرب هيئات المصلي وأحبها إلى الله، وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء))[2] فينتهز المصلي هذه الفرصة الثمينة، وينثر كنانة القلب، ويُفرغ جعبة الدعاء والعبودية، فيقول بلسان المقال أو بلسان الحال: أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، ودعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلّ لك جسمه، ورغم لك أنفه.

---

(١) أخرجه أبو داود ٩٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٤.

وهذه هي السجدة التي ترتعش لها الجبال الراسيّات، وتهتزّ بها الأرض، ويرتعد لها الجبابرة الطغاة، ولها في تاريخ الأمة ومغامراتها، ومحنها، شؤون وأخبار غريبة[١].

(١) انظر: الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٤١-٤٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية التعبدية:

العبادة نوع من الخضوع، بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب بعظمة المعبود، مع الحب النفسي والفناء في جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء، مع الاعتقاد بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرف عنها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه، فهو لذلك يخضع للمعبود رهبة مما يقدر عليه من العقاب، وطمعًا فيما عنده من الخير، ورغبة في كشف الضر عنه، وحبًا فيما أنعم عليه من إحسان [1].

فالعبادة تهدف إلى تربية المسلم على الخضوع والخشوع لله والإخلاص لله تعالى، كما أنه يُسعى من خلال التربية الإسلامية إلى تحقيق الأداء الشرعي الصحيح للعبادات من قبل الفرد المسلم[2].

ومنها: عدم رفع البصر إلى السماء في الصلاة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم".

فرفع الأبصار إلى السماء في الصلاة يتنافى مع الخضوع لله في الصلاة كما أنه يجعل المصلي مشغولاً عن الخشوع والإخلاص في الصلاة مما يفوت عليه فرصة التركيز فيما يقرأ من سور، ويجعله لا يعقل ما يقرأ أو يسبح في ركوعه وسجوده.

فعلى المربي والمختصين بالتوجيه في المجتمع المسلم الحث على عدم رفع البصر في الصلاة واجتناب كل ما يؤدي إلى صرف المسلم عن الخشوع في الصلاة، وأن يوطن نفسه على التزام السكينة وعدم الانصراف من صلاته بأي شكل من الأشكال التي تفوت على المسلم الانتفاع بصلاته.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

الترهيب هو وعد يصاحبه تهديد الإنسان بالعقوبة وتحذيره من الأعمال التي تؤدي

---

(١) روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص١٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي، ص٥٣.

إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى وأسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية الإسلامية المهمة[١].

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الترهيب مع من يرفع بصره إلى السماء في صلاته فقال ﷺ: "لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم"، أي: تسلب ولا ترجع إليهم.

فالترهيب أحد أساليب التربية الإسلامية التي تعتمد على الوعيد والتهديد بالعقوبة إذا ارتكب الطفل أو غيره بعض الأخطاء التي تحيد به عن الطريق الصحيح ويتحتم على المربي استخدام أسلوب الترهيب في بعض المواقف التربوية للطفل، ولكن يجب أن لا يكون هذا الأسلوب هو الوحيد أو الكثير الاستخدام في التربية، لأن كثرة استخدامه يؤدي إلى ترك آثار سلبية في نفسية وشخصية الطفل، ويعتبر أسلوب الترهيب أسلوباً تربوياً جيداً، ولا غنى للمربي عنه إذا أحسن استخدامه، وعلى ذلك يمكن القول بأن المربي الناجح يستطيع أن يساهم في التنشئة الصالحة للطفل الذي يتصف بالسلوك الإسلامي القويم[٢].



(١) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن بن عبدالوهاب البابطين، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩، ٤٠.

٣٤١- بـاب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر

الحديث رقم (١٧٥٧)

١٧٥٧- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: سألت رسُولَ اللّه ﷺ عَنِ الالتفَاتِ في الصَّلَاةِ، فَقَالَ: ((هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ العَبْدِ)). رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الاختلاس: الاختطاف بسرعة[2].

الشرح الأدبي

ما أصدق هذا الحوار الجميل الرقيق بين رسول الله ﷺ وزوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : وهو حوار ينبئ عن حرص عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق على معرفة الحكم الصحيح من مصدره الصحيح، والحديث سؤال: وجواب: أما السؤال: فهو من عائشة رضي الله عنها : حيث تقول: سألت رسول الله عن الالتفات في الصلاة؟ وهو يكون بالوجه مع استقبال القبلة بالصدر، وهذا الالتفات ينافي الخشوع في الصلاة، ويرشد إلى أن المصلي غير فارغ القلب، بل هو مشغول بدنياه، غير مستغرق في المناجاة، وغير مخلص في وقفته أمام الله.

ولذلك جاءت إجابة رسول الله ﷺ : في غاية الدقة، وقمة البلاغة، وذروة الإقناع، ومنتهى الترغيب، وقوة الترهيب، فلم يقل إنه: حرام أو مباح أو مكروه، أو ممنوع، وهذه عبارات الفقهاء في تقنين الأحكام، ولكنه قال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد".

(١) برقم (٧٥١). أورده المنذري في ترغيبه (٧٧٣).

(٢) فتح الباري ٢/ ٢٧٤.

والاختلاس: مصدر والفعل: اختلس، والخَلْس في اللغة، السّلب، فكأن الشيطان يسلب هذا الوقت من الصلاة، ويسرق هذه اللحظة، ومن معاني "الخَلْس" التي توحي باختلاط الضار بالنافع، واختلاط الصالح بالطالح: أن "الخَلْس": الكلأ اليابس نبت في أصله الرطب، وقالوا: أخْلس النبات: إذا اختلط رطْبه بيابسه، والخليس: الأشمط والنبات الهائج، والأحمر الذي خالط بياضه سواد، والتخالس: التسالب.

وهذه المعاني والدلالات توحي بأن الاختلاس الذي يختلسه الشيطان من صلاة العبد يحدث خلْطاً واضطراباً وعدم استقرار، وينقص من قدر الصلاة، ويقلل من أجْرها.

وعلى المؤمن أن يحذر ذلك، وأن يتنبه لأن الشيطان متربص به، لينقضّ عليه ويسرق منه طاعته، ويختلس صلاته، فيخسر المؤمن، ويفقد الخشوع، ولا يقطف من الصلاة ثمارها، ولا يشهد أنوارها، ولا يدرك أسرارها، ولا يجني آثارها، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة الالتفات في الصلاة[1]، لأنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد، ولأنه فعل يشغل المصلي عن صلاته، فكان تركه أولى[2].

غير أن هذه الكراهة مقيدة بقيدين:

القيد الأول: ألا تكون هناك حاجة للالتفات، فإذا كان هناك حاجة لذلك كما لو اشتد الحرب، أو نحو ذلك فلا كراهة[3].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٢٥/١، والنتف في الفتاوى للسُّغدي ٦٧/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٢/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٢٣/٢، ومواهب الجليل ٥٤٨/١، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٧٦/١، والمنهج القويم ٢٥١، وشرح زبد ابن رسلان ١٠٠/١، والمبدع ٤٧٦/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ١٧١/١، والمغني لابن قدامة ٣٦٩/١.

(٢) المغني لابن قدامة ٣٦٩/١.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٢/٢ وشرح زبد ابن رسلان ١٠٠/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٩١/٢.

القيد الثاني: أن يكون الالتفات يسيراً، كما لو التفت ببصره، أما لو التفت بصدره فذهب الشافعية[١] وبعض الحنابلة[٢] إلى أن صلاته في هذه الحالة تبطل.

بينما ذهب الحنابلة في المذهب[٣] إلى أن صلاته لا تبطل في هذه الحالة.

وإذا استدار بجملته، أو استدبر القبلة بطلت صلاته بلا خلاف[٤]، اللهم إلا إذا كان داخل البيت الحرام، فإنها لا تبطل[٥].

المضامين الدعوية[٦]

أولاً: من حقوق المدعو: السؤال عما يشغله في الصلاة من الالتفات.

ثانياً: من واجبات الداعية: بيان خطر الالتفات في الصلاة بأنه اختلاس من الشيطان.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على الخشوع في الصلاة وعدم الالتفات فيها.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الخشوع وحضور القلب في الصلاة.

أولاً- من حقوق المدعو: السؤال عما يشغله في الصلاة من الالتفات:

جاء في الحديث ما يدل على ذلك "فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة"؛ فالمدعو من حقه أن يسأل ويستوضح عن كل ما لا يعرفه، أو يشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات، وأمور المعاملات، وطرق الخير وأبواب البر، وعن كل شبهة ترد عليه في دينه، حتى يعبد الله وقد خلص قلبه وعقله من كل

---

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١/١٧٦، والمنهج القويم ٢٥٢.

(٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٢/٩١، والكافي في فقه الإمام أحمد ١/١٧١.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٢/٩١.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٢٢، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١/١٦٧، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٢/٩١.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٢/٩١.

(٦) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٥٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٥٨).

الشبهات، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم[١]، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

إن سؤال أهل الذكر كما وصفه النبي ﷺ شفاء لداء الجهل، ومن دلائل ذلك ما روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله؛ ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العي السؤال؛ إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب - شك موسى - على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده))[٣].

إن عدم التفقه في الدين، وعدم الرجوع إلى أهل الذكر وأرباب العلم ومظانه، يجعل الإنسان يسير على غير بصيرة، فقد يعبد الله على خطأ فلا تقبل منه، وقد يؤخر الواجب ويقدم عليه غيره. وقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً على ذلك، وهو ما وقع من جريج العابد، حيث قدم النفل على الواجب، فأصابه ما أصابه من دعوة أمه عليه.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه قال: كان جريج يتعبد في صومعة فجاءت أمه -قال حميد: فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة رضي الله عنه لصفة رسول الله ﷺ أمه حين دعته، كيف جعلت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه- فقالت: يا جريج، أنا أمك كلّمني، فصادفته يصلي. فقال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته. فرجعت ثم عادت في الثانية فقالت: يا جريج أنا أمك فكلّمني. قال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته. فقالت: اللهم إن هذا جريج، وهو ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني، اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات.

قال: ولودعت عليه أن يُفتن لفُتن.

---

(١) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧، ١٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره. قال: فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلاماً. فقيل لها: ما هذا؟ قالت: من صاحب هذا الدير. قال: فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه، فصادفوه يصلي فلم يكلمهم. قال: فأخذوا يهدمون ديره. فلما رأى ذلك نزل إليهم. فقالوا له: سل هذه. قال: فتبسم ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك؟ قال: أبي راعي الضأن. فلما سمعوا ذلك منه قالوا: نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة. قال: لا ولكن أعيدوه تراباً كما كان، ثم علاه[1].

ثانياً- من واجبات الداعية: بيان خطر الالتفات في الصلاة بأنه اختلاس من الشيطان:

من واجبات الداعية الرئيسة البيان والتبليغ وتوضيح الحق للناس، فذلك ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من الدعاة[2] قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[3]، ومن ذلك بيان خطر الالتفات في الصلاة، كما جاء بيانه في الحديث، فقال ﷺ: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد" فلما كان الشيطان قد يشغل المصلي عن صلاته بالالتفات إلى شيء ما بغير حجة يقيمها أشبه المختلس[4]. قال الطيبي: (فاستعير لذهاب الخشوع اختلاس الشيطان، تصوير لقبح تلك الفعلة، أو أن المصلي حينئذ مستغرق في مناجاة ربه، وأنه تعالى مقبل عليه، والشيطان كالراصد ينتظر فوات تلك الفرصة عنه، فإذا التفت المصلي اغتنم الفرصة فيختلسها عنه)[5].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على الخشوع في الصلاة وعدم الالتفات فيها:

من دلائل ذلك ما جاء في الحديث من بيان رسول الله ﷺ بأن الالتفات اختلاس من الشيطان "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد" وفي الحديث الآخر "إياك والالتفات في الصلاة فإنه هلكة فإن كان لابد ففي التطوع لا في الفريضة"[6] فوصف

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٨٢، ومسلم ٢٥٥٠ واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢/٢٧٤.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢/٢٩٩.

(٦) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح رقم ٥٨٩.

النبي ﷺ الالتفات في الصلاة بالهلكة أي الهلاك لأنه طاعة الشيطان، وهو سبب الهلاك، والصلاة بالالتفات تستحيل من الكمال إلى الاختلاس[1] إضافة إلى ذلك أن الالتفات في الصلاة استخفاف بالمكروهات، ومن استخف بالمكروهات وواقعها وقع في المحرمات، فأهلك نفسه بتعريضها للعقاب[2] وذلك كله مناف للخشوع المأمور به المصلي والذي هو أحد أسباب الفلاح، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[3].

وجعل الإسلام إحسان الصلاة وتزيينها بالخشوع كفارة للذنوب، فعن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من امرئ تحضره صلاةٌ مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله))[4].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

ورد التحذير في قوله ﷺ "إياك والالتفات في الصلاة" والتحذير من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما فيه من إيقاف المدعو على مواطن الخطر وموارد التهلكة وتحذيره منها، وقد جاء التحذير في القرآن في كثير من آياته، منها: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[5] وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[6].

ويمكن تعريف التحذير بأنه: التحذير من إتيان فعل أو امتناع عنه، لكونه سبباً في

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٤٤/١.

(٢) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ص ١٧٣٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ١ – ٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٨.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٩٢.

غضب الله تعالى وعذابه، أو سبباً في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحذر من مغبة الوقوع في المحذور، فمما ورد من آيات تحذر من غضبه تعالى، على سبيل المثال التصريح بخطبة النساء وهُنَّ في عدَّتهن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾[1].

وقال أيضاً محذراً من اتخاذ المشركين أولياء: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وأما التحذير من فعل يسبب إلحاق ضرر بالأمة ومصالحها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾[4].

ومنه تحذيره تعالى من المنافقين والتنبيه على خطرهم واعتبارهم العدو الأول بقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[5].

وقال محذراً من فتنة الأزواج والأولاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٧١.

(٥) سورة المنافقون، آية: ٤.

(٦) سورة التغابن، آية: ١٤.

ومثل ما ورد التحذير في القرآن الكريم كأسلوب تربوي، كذلك ورد على لسان الرسول ﷺ كأسلوب تربوي وتوجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع، وبصيَغٍ مختلفة كالترهيب والوقاية، وبيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه، والنصيحة وغيرها.

ويختلف التحذير عن الموعظة في كونه إنذاراً من خطر قادم، يتضمن وعيداً وزجراً ينتج عنه خوف ورهبة.

بينما الموعظة تذكير بفعل الخير والحق، على الوجه الذي يرقُّ له القلب محفوف بتلطف وتودُّد[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الخشوع وحضور القلب في الصلاة:

جاءت النصوص آمرة بالابتعاد عن أسباب انتفاء الخشوع كالالتفات في الصلاة ونحوه، كما جاء في الحديث "إياك والالتفات في الصلاة فإنه هلكة" فالإنسان إذا قام يصلي فإنه بين يدي الله عز وجل، فلا ينبغي له أن يلتفت لا بقلبه، ولا بوجهه إلى غير الله - سبحانه وتعالى-[٢] وما أعظم حين يتجلى الخشوع على أداء الصلاة، فيستحق صاحبها أن يوصف بالفلاح، وأن يكون من جملة المؤمنين الذين يرثون الفردوس الأعظم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[٣]. إلى أن قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٤] فالخاشع في صلاته لابد أن يحصل له الخشوع في جميع الجوارح، فأما ما يتعلق بالقلب من الأفعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ولا يلتفت الخاطر إلى شيء سوى ذلك التعظيم، وأما

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٨٠١/٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ١، ٢.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٠، ١١.

ما يتعلق بالجوارح فهو أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده[1]. قال قتادة: (الخشوع في القلب هو الخوف وغض البصر في الصلاة)، وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[2] قال: (كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا لذلك الجناح)[3].

إن وجود الخشوع، في قلب المصلي وتفاوته من مصلٍ إلى آخر، يترتب عليه التفاوت في ثواب الصلاة، فكما هو معلوم أن ثواب أعمال الجوارح يتفاضل بتفاضل أعمال القلوب.

قال ابن القيم مقرراً لهذا الأصل: (الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والمحبة، والتعظيم، والإجلال، وقصد وجه المعبود وحده دون شيء من الحظوظ سواه، حتى لتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في الفضل ما لا يحصيه إلا الله تعالى.

وتتفاضل - أيضاً - بتجريد المتابعة. فبين العملين من الفضل بحسب ما يتفضلان به في المتابعة، فتتفاضل الأعمال بحسب تجريد الإخلاص والمتابعة تفاضلاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

وينضاف هذا إلى كون أحد العملين أحب إلى الله في نفسه.

ثم قال: فتأمل هذا، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة، ويطلعك على سر العمل والفضل، وأن الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، يضع فضله مواضعه، وهو أعلم بالشاكرين.

ولا تلتفت إلى ما يقوله من غلُظ حجاب قلبه من المتكلمين والمتكلفين:

إنه يجوز أن يكون العملان متساويين من جميع الوجوه، لا تفاضل بينهما، ويثيب الله على أحدهما أضعاف ما يثيب على الآخر، بل يجوز أن يثيب على هذا

---

(١) انظر: أدب المؤمن، أحمد حمزة عبدالباقي، د. أمينة أحمد يحيى، ص ١٠٣-١٠٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٢.

(٣) الدر المنثور، الإمام السيوطي، ٦/٨٤.

ويعاقب على هذا، مع فرض الاستواء بينهما من كل وجه.

وهذا قول من ليس له فقه في أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا فقه في شرعه وأمره، ولا فقه في أعمال القلوب وحقائق الإيمان بالله، وبالله التوفيق)[١].

ومن أمثلة هذه القاعدة: تفاضل الصلاة بتفاضل الخشوع وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها[٢]، فروي أن النبي ﷺ قال: ((إن العبد ليصلي الصلاة وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها))[٣].

وقال ابن القيم أيضاً بعد أن ذكر أهمية الخشوع في الصلاة: (وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر الذنوب تكفيراً كاملاً. والناقص بحسبه، وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه)[٤].

---

(١) المنار المنيف، ابن القيم، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٣هـ، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) أعمال القلوب، د. سهل العتيبي، ٦١٨/٢.

(٣) أخرجه أبوداود ٧٩٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٧٦١).

(٤) الوابل الصيب، ابن القيم، ص ١٤، ١٥.

الحديث رقم (١٧٥٨)

١٧٥٨- وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: ((⁽¹⁾ **إيَّاكَ والالتِفَاتَ في الصَّلاَةِ، فَإنَّ الالتفَاتَ في الصَّلاَةِ هَلَكَةٌ، فَإنْ كَانَ لاَ بُدَّ، فَفِي التَّطَوُّعِ لاَ في الفَرِيضَةِ**)). رواه الترمذيُّ[2]، وقال: (حديث حسن صحيح[3]).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن البناء اللغوي في هذا الحديث الشريف، يتألق ويشع بالمعاني والثمار المرجوة منه من خلال ثلاث جمل تتنوع أساليبها، وموحياتها، فالحديث يبدأ بأسلوب التحذير، والتحذير هنا يتخذ أحد الطرق النحوية له: وهو: تقديم ضمير النصب المنفصل "إياك"، والتقدير: أحذرك الالتفات في الصلاة، وتقديم الضمير هنا يوحي بخوف رسول الله ﷺ على هذا المصلي المسلم من هذا السلوك، الذي يخل بقيمة الخشوع في الصلاة، ويفتح مسالك للشيطان في نفسه.

والجملة الثانية تعليل للأولى: فهي لبنة في بناء الحديث المتكامل، والفاء هنا للإفصاح عن سبب التحذير من الالتفات في الصلاة، وجملة التعليل وردت في إطار "التوكيد" لتعمق التحذير من الالتفات، لأنه هلكة أو مهلكة في الصلاة، وقوله: هلكة فيه مجاز مرسل، فالالتفات سبب الهلاك: وقد جمع بين السبب وما يتسبَّب عنه، والهالك هو الإنسان.

---

(١) عند الترمذي زيادة: (يابني).

(٢) برقم (٥٨٩). قال ابن القيم في زاد المعاد (٢٤٩/١): فيه علتان: إحداها: أن رواية سعيد عن أنس لا تعرف. الثانية: أن في طريقه علي بن زيد بن جدعان، ثم نقل عن الخلال، أنه قال: أن أبا عبد الله وهَّنَ حديثَ سعيد هذا، وضعّف إسناده.

(٣) في المطبوع: (حسن)، وزاد أحمد شاكر من إحدى النسخ: (غريب)، وقال: (وفي (م) (هذا حديثٌ غريب).

وأظهر كلمة "الصلاة"، ولم يقل: فإن الالتفات فيها، لسرّ بلاغي قال عنه العلماء: أتى بالظاهر فيها موضع المضمر تعظيماً وتفحيماً للأمر.

والجملة الثالثة، تشع بحل المشكلة أو العقدة كما يقول أصحاب الفن القصصي، ولذلك جاءت هذه الجملة في إطار أسلوب "الشرط والجواب"، لأن كل مشكلة لها حل، وكل مقدمة لها نتيجة، وكل عمل عليه جزاء: ثواب أو عقاب، ويتجلى ذلك في قوله: فإنه كان لابد ففي التطوع لا في الفريضة.

وفي هذه الجملة: إيجاز بالحذف، حيث تكمن كلمات في أشعة النص الموحية المائجة بالمقاصد والفوائد، والتقدير، فإن "كان" أي المصلي "لابد" أي لا غنى له عن الالتفات لعذر أو لمشاغل تحيط به ولا يقدر على دفعها، فيكون الالتفات في صلاة التطوع، لا في صلاة الفريضة، فتأمل هذه الكلمات المحذوفة، وتأمل هذا الجمال الأسلوبي، وكم أثار هذا الحذف من إيحاءات أسلوبية، وإثارات ذهنية ونفسية وعقلية، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الخشوع في الصلاة:

إن التربية الإسلامية تهدف إلى تحقيق الخشوع في الصلاة، وقد جعل الله من ثمرات الصلاة الظفر والنجاح في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[١]، فالخاشع هو الذي يَخْضَع قلبه ويسيطر عليه الرهبة والخوف والرجاء عند ملاحظة جلال الله وعظمته، ويؤدب جوارحه حسب ذلك الخضوع فلا التفات ولا حركة سوى ما تفرضه الصلاة[٢].

فالتربية الإسلامية تهدف إلى التزام السكينة والطمأنينة في الصلاة بأن يقبل العبد على ربه بقلبه وجميع جوارحه فلا يلتفت، ولا ينشغل بغير الصلاة لذلك عندما سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد".

وعن أنس قال: قال لي رسول الله ﷺ: "إياك والالتفات في الصلاة، فإن الالتفات هلكة".

والخشوع: خشوعان: خشوع قلب، وخشوع جوارح، فخشوع القلب أن يستحضر رقابة الله عز وجل، ويستحضر عظمته ويتدبر معاني القرآن، ويتدبر ما يتلوه من آيات أو ما يسمعه، وما يذكره من أذكار، كمعنى التكبير، ومعنى التسبيح، ومعنى سمع الله لمن حمده، وهكذا يستحضر معاني هذه الأذكار ويتدبر ما يتلو أو يسمع من آيات، عند ذلك يشعر فعلاً أنه يقف بين يدي الله عز وجل، وأن الصلاة يجب أن تنزه عن اللعب والعبث، أما أن يقف وتجتمع كل هموم الدنيا عليه حينما يصلي، ويشغل نفسه بكل شيء إلا الصلاة فهذا لا ينبغي للمسلم[٣].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان:١-٢.

(٢) روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٣٠.

(٣) هذا جزء من كلام، د. يوسف القرضاوي، عن الخشوع في الصلاة، ذُكر في موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، إشراف د. عبدالحليم عويس، ١/٢٧٢.

فالمصلي يقف في رحاب الله، وليس بينه وبين الله واسطة، فيشعر بالقرب من الله، ويشعر بمعية الله له، فتمتلئ جوانحه بالأمن والطمأنينة والثقة واليقين، فيخشع راكعًا، ويخشع ساجدًا، ويستمد العون والتأييد [١].

فإن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله بالذكر، والدعاء، والضراعة، والخضوع لكبريائه وعظمته [٢].

ثانيًا- التربية بالتحذير:

من أساليب التربية التي يتضمنها هذا الباب أسلوب التحذير حيث حذر النبي ﷺ من الالتفات في الصلاة، وقال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد"، وكذا قال ﷺ: "إياك والالتفات في الصلاة، فإن الالتفات في الصلاة هلكة".

فعلى المربي أن يحذر من مداخل الشيطان للإنسان في الصلاة، لأن العبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها فيذكره إياها في الصلاة، ليشغل قلبه بها ويأخذه عن الله عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة، فإن الصلاة تُكَفِّر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه[٣].

---

(١) الصلاة، د. عبدالله بن محمد الطيار، ص٢٠.

(٢) إسلامنا، السيد سابق، ص ١٦.

(٣) الوابل الصيب، ابن القيم، ضمن مجموعة الحديث، ٢/٢٧٤.

فالتحذير أسلوب تربوي فعال يستخدمه المربي في تحذير الإنسان مما يضر به في دينه ودنياه، حتى يتجنبه ويتوقاه ويعمل جاهدًا على حفظ نفسه مما حذر منه ونصح باجتنابه.



٣٤٢- باب النهي عن الصلاة إِلَى القبور

الحديث رقم (١٧٥٩)

١٧٥٩- عن أَبي مَرْثَدٍ كَنَّازِ بْنِ الحُصَيْنِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((لا تُصَلُّوا إِلَى القُبُورِ، وَلاَ تَجْلِسُوا عَلَيْهَا)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو مرثد كنّاز بن الحُصين: هو أبو مَرثد كنّاز بن الحُصين مشهور بكنيته. وقيل في اسمه غير ذلك. هو وابنه مرثد وابن ابنه أُنيس ممن نالوا شرف صحبة النبي ﷺ.

كان تِرْباً لحمزة بن عبدالمطلب وحليفاً له هو وابنه. آخى النبي ﷺ بينه وبين عبادة بن الصامت في المدينة.

وقد شهد بدراً وسائر المشاهد والمغازي مع رسول الله ﷺ قال أبوبكر بن أبي داود: ليس أحدٌ بدريًا ابن بدري إلا مرثد ابن أبي مرثد. وقد استشهد ابنه يوم الرجيع في حياة النبي ﷺ.

وكان رجلاً طويلاً كثير الشعر، وقد روى عن النبي ﷺ حديثاً واحداً، وهو هذا الحديث المشروح.

توفي بالشام في خلافة أبي بكر الصديق سنة ١٢هـ وسنه ٦٦ عاماً[2].

الشرح الأدبي

إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، والمؤمن في صلاته لا يتوجه إلا إلى ربه عز وجل: داعياً: ومستغفراً، قائماً وراكعاً وساجداً، والحديث الشريف يركز على

---

(١) برقم (٩٨/٩٧٢).

(٢) الطبقات (٤٧/٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٣٦، ٨٥٠ وأسد الغابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٧٦/٦) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٣٥، ١٥٥٢، وتهذيب الكمال (١٧٧/٦)، والتهذيب (٤٧٥/٣).

هذا المقصد الأسني، ولذلك نجد الحديث يخلو من التوكيد، ويرد في صيغة الأمر، لأن المؤمن المصلي الراكع العابد الساجد.. لا يحتاج إلى تأكيد الأمر، فهو يستجيب لله ولرسوله، لأن رسول الله ﷺ يدعوه هو والمسلمين جميعاً إلى ما يحييهم، وأي حياة أسمى من الحياة الإيمانية في طاعة الله، ومناجاته، وتسبيحه، والاقتداء برسول الله ﷺ، والعمل بما يأمر به والانتهاء عما ينهي عنه، ويتضمن الحديث جملتين تردان في أسلوب الإنشاء، والأمر هو الأسلوب المختار من أنواع الطلب، والأمر هنا يرد في صيغة النهي لأن "لا" ناهية جازمة، والجزم هو القطع: فالنهي يرد صريحاً وجازماً في قوله: "لا تصلوا إلى المقابر، ولا تجلسوا عليها"، والنهي عن الصلاة ليس موجهاً إلى فرد واحد، وكذلك الجلوس على المقابر، ولكنه موجه إلى الأمة كلها: في كل زمان ومكان، قديماً وحديثاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والنهي هنا يتجاوز المشهد الحسي، والحركة المشاهدة: إلى دائرة أوسع، وأفق أشمل من المقاصد والأهداف: فالمراد أن لا تعظموا من في داخل القبور، لأن التعظيم لا يكون إلا لله، وقال الشافعي، وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس، وقد لعن الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1].

فقه الحديث

ويشتمل الحديث على الأحكام الآتية:

١- حكم الصلاة إلى القبور: اختلف الفقهاء في حكم الصلاة في المقبرة على أربعة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنفية[2]، والثوري والأوزاعي وابن المنذر[3]، ويرون

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٢٠/١.

(٣) التمهيد لابن عبدالبر ٢٢٩/٥، ونيل الأوطار ١٣٧/٢.

أن الصلاة في المقبرة مكروهة، وقد حملوا الأحاديث التي تنهى عن ذلك على الكراهة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنابلة[١]، والظاهرية[٢]، ويرون أن الصلاة في المقبرة حرام، ولا تصح.

واستدلوا بالنهي الوارد في الحديث، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الشافعية[٣]، ويفرقون بين المقبرة المنبوشة وغيرها، فإن كانت منبوشة بحيث اختلطت بما يخرج من الموتى لم تجز الصلاة فيها.

فإن صلى في مكان طاهر منها صحت مع الكراهة.

الرأي الرابع: وهو ما ذهب إليه المالكية[٤]، ويرون جواز الصلاة في المقبرة بلا كراهة واستدلوا بحديث (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)[٥].

وحملوا أحاديث النهي عن الصلاة في المقبرة على ما إذا كان بها نجاسة، ويُنَاقَشُ هذا: بأن النبي ﷺ قال: "كل الأرض مسجد وطهور إلا الحمام والمقبرة"[٦]، وهذا حديث خاص، يقيد عموم الحديث الذي استدل به المالكية.

الترجيح: بعد عرض آراء الفقهاء في المسألة يتضح والله أعلم بالصواب، أن الراجح هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني القائلين بالحرمة لورود النهي عن ذلك، والنهي يقتضي التحريم ما لم توجد قرينة تصرفه إلى غيره، ولا قرينة هنا.

١- حكم الجلوس على القبر: اختلف الفقهاء في حكم الجلوس على القبر على ثلاثة آراء:

---

(١) المغني لابن قدامة ١٩٣/٢، والمبدع ٣٩٦/١، وكشاف القناع ٢٩٨/١.

(٢) نيل الأوطار ١٣٧/٢، والمحلى ١٣٩/٥ وما بعدها.

(٣) المجموع للنووي ٦٠/٣.

(٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد محمد بن رشيد القرطبي ١٧٧/١، التمهيد لابن عبدالبر ٢٢٩/٥.

(٥) اخرجه البخاري ٣٣٥، ومسلم ٥٢١.

(٦) اخرجه أحمد ٨٣/٣ رقم ١١٧٨٤، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٣٠٨/١٨.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[1]، والشافعية[2]، والحنابلة[3]، ويرون أن الجلوس على القبر مكروه، إذ حملوا أحاديث النهي عن الجلوس على القبور على الكراهة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه ابن حزم[4] ويرى أن الجلوس على القبر حرام.

واستدل بظاهر الأحاديث التي تنهى عن ذلك.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الإمام مالك[5]، ويرى أن لا يكرهُ القعود على القبر إلا إذا قعد لقضاء الحاجة.

إلا أنه ذكر لأحمد أن مالكاً يتأول حديث النبي ﷺ أنه نهى أن يجلس على القبور أي للخلاء، فقال: ليس هذا بشيء، ولم يعجبه رأي مالك[6].

والراجح، والله أعلم ما ذهب إليه الجمهور.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب الصلاة إلى القبور والجلوس عليها.

ثالثاً: من آداب المدعو: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في الحديث في قوله ﷺ "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" والنهي من الأساليب الدعوية المفيدة، لما فيه من إيقاف المدعوين على مواطن الخطر، والتحذير

---

(١) نور الإيضاح ٩٨، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٢٠/١.

(٢) المهذب ١٣٩/١، ومغني المحتاج ٣٥٤/١.

(٣) المغني ١٩٢/٢.

(٤) المحلى ١٣٥/٥.

(٥) حاشية الدسوقي ٤٢٨/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٢٥٢/٢.

(٦) المغني لابن قدامة ١٩٢/٢.

منها واجتنابها والابتعاد عنها، وقد تكرر أسلوب النهي في القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١) وأمر الله الأمة أن تخصص فئة تضطلع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بطلب الكف عن فعل ما ليس فيه رضا الله تعالى(٢)، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب الصلاة إلى القبور والجلوس عليها:

لقد نهى الإسلام عن الجلوس على القبور والاستناد إليها أو الاتكاء عليها، وحذر من الصلاة إلى القبور، وذلك ما جاء في نهي النبي ﷺ في الحديث "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" قال القرطبي: (قوله: "لا تصلوا إلى القبور أي تتخذوها قبلة، وذلك لقطع الذريعة أن يعتقد الجهَّالُ في الصلاة إليها، أو عليها أو الصلاة لها فيؤدي إلى عبادة مَنْ فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام)(٤). قال النووي: (فيه تصريح بالنهي عن الصلاة إلى القبر، قال الشافعي: (وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده)(٥). أما عن القعود على القبر، فقال المازري: (وأما القعود على القبر فمن الناس من أخذه على ظاهره، ومنهم من تأول أن المراد بالقعود الحدث لا الجلوس)(٦). وقال مالك في الموطأ المراد بالقعود الحدث وهذا تأويل ضعيف أو باطل والصواب أن المراد بالقعود الجلوس(٧).

وقد جاءت الأحاديث ترهب من امتهان المقابر، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، ٤٠٧/٤١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) المفهم ٦٢٨/٢.

(٥) شرح صحيح مسلم ٦١٩.

(٦) المعلم ٢٦٠/١.

(٧) فتح الملهم، الشيخ شبير أحمد العثماني، ٥١/٦.

رسول الله ﷺ: ((لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَىٰ جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ قَبْرٍ))[١]. إذ أن القبر محترم شرعاً توقيراً للميت، ومن ثم اتفق الفقهاء على كراهة وطء القبر والمشي عليه[٢].

ثالثاً- من آداب المدعو: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ:

إن من الأمور الواجب الانتهاء عنها الصلاة إلى القبور والقعود عليها، فقال ﷺ "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" وفي ذلك انتهج الإسلام تجاه القبور وأصحابها اتجاهاً وسطاً، فمنع من تقديسها أو مما يؤدي إلى تقديسها في يوم من الأيام، نتيجة لجهل أو اختلاط فهم أو ما شاكل ذلك، وفي نفس الوقت نهى عن امتهانها فنهى عن القعود عليها، وما زاد على ذلك من الحدث عليها أو ما شاكله من ألوان الامتهان فهو حرام من باب الأولى. وقد أمرنا الله بالانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣] وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل، فيندرج فيها جميع أدلة السنة، وعطف الله على هذا الأمر تحذيرًا من المخالفة، فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله ﷺ، وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات، يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي[٤]، فكما أمر الله المسلمين بطاعة رسول الله ﷺ حذرهم من الخروج عن سنته، ورهبهم من تركها والإعراض عنها، وبين أن طاعته طاعة لله تبارك وتعالى[٥]، فقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٩٧١.

(٢) الموسوعة الفقهية ٢٢٤/٣٢.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٨٧/٢٨/١١.

(٥) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص ١١٦، ١١٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٨٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

من أهم الأشياء التي تهدف إليها التربية الإسلامية، وقاية المسلم من الأمور التي تلحق به ضررًا سواء أكان في دينه أم دنياه، ومن أنواع هذه الوقاية، الوقاية من تعظيم أشياء تؤدي إلى الشرك مثل تعظيم القبور واتخاذها مساجد[١]، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ».

فالنهي عن الصلاة إليها، لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك، وحذر منه وأخبر أن أهله شرار الخلق، كما قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[٢][٣].

فإن التربية الوقائية أصل من الأصول المعتبرة في الفقه الإسلامي، إن (الوقاية) هي المرادف لكلمة (درء المفاسد) وهي المرادف لعبارة (كل ما أدى إلى الحرام فهو حرام) والوقاية في محصولها الأخير ليست إلا الحذر مما يؤدي إلى الضرر، وهذا المحصول نفسه ما تنتهي إليه - في المجالات الفكرية والعقدية والأخلاقية والتشريعية - كل القواعد التي تنهي عما يقرب من الحرام أو المفاسد أو أهل الحرام أو أهل المفاسد، فكل هذا وقاية[٤].

إن التربية الوقائية خير معين للحفظ من الوقوع فيما يضر الإنسان من المفاسد والمعاصي والأمور التي تجلب غضب الله وسخطه.

فعلى المربي أن يحرص على استخدام الوقاية مع من يقوم بتربيتهم وخاصة الناشئة منهم، وذلك بتحذيرهم وتوجيههم إلى تجنيبهم ما يضرّ بهم في دنياهم ودينهم.

---

(١) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٣٢/٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠٥/١، رقم ٣٨٤٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين ٣٩٤/٦.

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص٤٨٨.

(٤) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، إشراف: د. عبدالحليم عويس، ٢١٠/١.

ثانيًا- التربية على احترام الإنسان حيًا وميتًا:

إن أعظم وأسمى ما تستهدفه التربية الإسلامية التربية على احترام الإنسان حيًا وميتًا، فهو مخلوق كريم على الله، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفته في الأرض، ومحور النشاط في الكون، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما في الكون له ولخدمته، أما هو فجعله تعالى لنفسه[(١)].

وقد أكد الإسلام على حرمة العرض والكرامة مع حرمة الدماء والأموال حتى أن النبي ﷺ أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام، فقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذَا، فِي بَلَدِكُمْ هذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»[(٢)].

فلا يجوز أن يؤذى إنسان في حضرته ولا أن يُهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول. فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو السنان[(٣)].

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان حالة حياته، فكفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله، وتكفينه ودفنه والنهي عن كسر عظمه أو الاعتداء على جثته[(٤)]. خلافًا للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وفي هذا جاء الحديث النبوي: «كَسْرُ عَظْمِ المَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا»[(٥)(٦)].

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص٦٦.

(٢) أخرجه البخاري، ١٠٥، ومسلم، ١٦٩٧.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٨٧.

(٤) ما لم تدفع إلى ذلك ضرورة أو حاجة، كمعرفة أسباب القتل وكيفيته، الذي يقوم به (الطب الشرعي) الآن، وقد يستلزم هذا تشريح الجثة أو كسر بعض العظام. الخصائص العامة للإسلام، ص٨٧، هامش ٤.

(٥) أخرجه أبو داود ٣٢٠٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٢٧٤٦).

(٦) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٨٧.

ومن احترام الميت احترام قبره فلا يجلس عليه، لأن في الجلوس على القبر امتهان لشأن الميت يتنافى مع ما حث عليه الدين الإسلامي من احترام للميت، وفي هذا جاء قول رسول الله ﷺ - في الحديث الشريف الذي نحن بصدد بيانه - (ولا تجلسوا عليها).

فعلى المربي والمجتمع المسلم غرس قيمة احترام الإنسان حيًا وميتًا في النفوس وخاصة في نفوس الناشئة الذين يحتاجون إلى التربية على هذا الفهم الإسلامي الذي يحفظ للإنسان حرمته حيًا وميتًا، وهذا من القيم الإسلامية النبيلة التي ينبغي الحرص عليها.



٣٤٣- باب تحريم المرور بين يدي المصلي

الحديث رقم (١٧٦٠)

١٧٦٠- عن أَبي الجُهَيْمِ عبد اللهِ بن الحارِثِ بن الصِّمَّةِ الأنصارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أنْ يَقِفَ أرْبَعِينَ خَيْراً لَهُ مِنْ أنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ**)).

قَالَ (الراويُّ)[1]: لا أدْرِي قَالَ: أرْبَعِينَ يَوماً، أَوْ أرْبَعِينَ شَهْراً، أَوْ أرْبَعِينَ سَنَةً[2] متفق عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن الحارث بن نوفل: وهو صحابي ابن صحابي ابن صحابي، واسمه: عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم، القرشيُّ الهاشميُّ، من أشراف قريش، أمه هند بنت أبي سفيان، أخت معاوية، كانت تُرَقِّصُه، وتسميه ببَّه، فصار لقباً عليه، ذكر الزبير بن بكار بروايته أن هند بنت أبي سفيان بن حرب وهي تُنَقِّزُ -أي ترقص- ابنها ببَّه عبدالله بن الحارث كان تقول:

لأُنْكِحَنَّ ببَّه ... ما أبَّه ما أبَّه
جارية بنقْبَة ... تسود أهل مكة

فعمِّرت حتى زوجته خالدة بنت مُعَتِّب بن أبي لهب، ويقال إن أهل البصرة لقبوه بهذا اللقب، ولد على عهد رسول الله ﷺ قبل أن يموت رسول الله ﷺ بسنتين، وحكى ابن سعد في الطبقات: أنه لما وُلِد أتت أمه هند إلى أختها أم حبيبة، فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: من هذا يا أم حبيبة؟ قالت: هذا ابن عمك وابن أختي، فتفل في فيه

---

(١) عندهما: (قال أبو النضر).

(٢) عندهما بلفظ: (أربعين يومًا، أو شهرًا، أو سنة).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٢٦١/٥٠٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٧٨٩).

ودعا له[1].

له صحبة وقيل إن له إدراكاً، روى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى له الجماعة، وكان يكنّى بأبي محمد المدني، ويقال: أبو إسحاق، كان ﷺ وَرِعاً ظاهر الصلاح، كان والياً على مكة زمن عثمان بن عفان ﷺ، نزل البصرة، واصطلح عليه أهلها حين مات يزيد بن معاوية، فأمَّره عليها عبدالله بن الزبير، ولما قامت فتنة ابن الأشعث خرج إلى عُمَان هارباً من الحجاج فتوفي فيها، وإنما خرج لأنه كان مع ابن الأشعث لَمّا خلع الحجاج وقاتله، فلما انهزم ابن الأشعث هرب عبدالله إلى عمان، ومات هناك سنة (٨٤) على الأرجح، قال ابن حبان في كتاب الثقات توفي سنة (٧٩) قتلته السَّمُوم، ودفن بالأبواء، وصلى عليه سليمان بن عبدالملك[2].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجده يتكون من جملة لغوية واحدة لها متعلقاتها... وموحياتها الدلالية، وهذه الجملة صيغت في قالب: الشرط والجواب، وهذا القالب اللغوي يتسق مع مقاصد الحديث: حيث يوضح رسول الله ﷺ العقاب الذي ينتظر من يمر أمام المصلي، فيشغله عن استغراقه في الصلاة، وأداة الشرط "لو" وهي أداة امتناع لامتناع، ودلالة هذه الوظيفة النحوية لهذه الأداة أن جواب الشرط ممتنع، لأن فعل الشرط ممتنع، ففعل الشرط قد وقع وهو مرور الإنسان أمام المصلي، ولم يمتنع عن ذلك، وكذلك "وقوفه أربعين يوماً أو شهراً أو سنة"، لم يقع: لأن هذا من باب الترهيب والإنكار، وأسلوب الشرط هنا يناسب طبيعة الجو

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، (٥٦/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٤/٥-٢٦)، (١٠٠/٧، ١٠١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣٩٠)، أسد الغابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٢٠٨/٣، ٢٠٩)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٧٥٦)، سير أعلام النبلاء (٥٢٩/٣-٥٣١)، تهذيب الكمال (١٠٨/٤)، تهذيب التهذيب (٣١٨/٢)، الأعلام، خير الدين الزركلي (٧٧/٤).

الموحي بالثواب أو العقاب بعد حصول ما يؤهل لذلك، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله: "بين يدي المصلى" كناية عن المرور أمام المصلين، ولكن هذا التعبير يوحي بالقرب الشديد من الصف المقام للصلاة، وإشغال المصلين عن مناجاة ربهم، وإذهاب الخشوع والخضوع في صلاتهم. وقوله: "ماذا عليه" استفهام يفيد الإنكار والوعيد، ومضاعفة العقاب، وقيل حَذْفُ نوعية العقاب زيادة في التنفير عن ذلك، لتذهب النفس في تقدير كل صنف من المكروهات المحذر منها كل مذهب.

وحذف تمييز العدد بعد قوله: "أربعين" للإيحاء بتغليظ العقوبة، وشدة المخالفة لأن هذا المارّ سيتساءل: هل مرور لحظة سيكون عقابه أن أقف أربعين يوماً: وربما أربعين شهراً، وربما أربعين سنة!!.

وهذا التساؤل المنبثق من الموقف، يُعطي فرصة للمراجعة، وعدم الإقدام على مثل هذه المخالفة. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: تحريم المرور بين يدي المصلي[1]، وذكر الأربعين في الحديث لا مفهوم له، بل الغرض منه المبالغة في تعظيم الأمر[2]، لما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: ((لَوْ يَعْلَمُ أَحدُكُم ما لَهُ في أَن يَمشِيَ بينَ يَدَيْ أَخيهِ مُعترضاً، وهوَ يُناجِي ربَّهُ، لَكانَ أَن يَقِفَ في ذَلكَ المقامِ مئةَ عامٍ أحبَّ إليهِ من أن يَخْطُو))[3].

وقد قيد التحريم بقيدين:

الأول: إذا لم يقصّر المصلي في دفع المارّ، فإن قصر في دفع المارّ بأن صلى على قارعة الطريق مثلاً فلا حرمة، بل ولا كراهة.

الثاني: إذا لم يجد المار فرجة أمامه، وإلا فلا حرمة، بل له خرق الصفوف والمرور

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٦/٢، والدر المختار للحصكفي ٦٨٣/١، ٦٨٤، وفتح العزيز ويسمى أيضاً العزيز للرافعي ١٣٢/٤، والمجموع للنووي ٢٤٩/٣، وفتح الوهاب ٩٣/١.

(٢) الدين الخالص للسبكي ٢٩٤/٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٩٤٦، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب ٢٩٩.

بينها لسد هذه الفرجة[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لحرمة المرور بين يدي المصلي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من المرور بين يدي المصلي.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الوقوف وعدم المرور بين يدي المصلي.

أولاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح لحرمة المرور بين يدي المصلي:

لقد كلف الله الأنبياء وأتباعهم تبيين الحق وأحكامه للناس، وعدم كتمانه[٢]، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣] ومن ذلك ما جاء في الحديث من تحريم للمرور بين يدي المصلي، فقال ﷺ: "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه" قال الراوي: لا أدري قال: أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنة" فتبليغ الدعوة وتبيين أحكامها، من الأمور المنوطة بجملة العلماء من هذه الأمة، بحيث يجب عليهم ألا يكتموا شيئاً من أمر الشريعة، وأن يبلغوها للناس، ومن ثم يكون تبليغ الدعاة وحملة العلم أمور الشريعة إلى كل من لم تبلغه دون خوف أو وجل[٤]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[٥].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من المرور بين يدي المصلي:

جاء ذلك في صريح قوله ﷺ "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه". قال القاضي عياض: (وقوله: "لو يعلم المار بين

(١) فتح الوهاب ٩٣/١.

(٢) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم، ٨٧٧/٣.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه..." أي لاختار وقوفه هذه المدة على ما عليه من الإثم، وذلك تغليظ وتشديد في النهي عن المرور بين يدي المصلي[١]. فإذا كان بين يدي المصلي سترة اختصَّ المار بالإثم وإن لم يكن المصلي في موضع لا يأمن من المرور عليه اشتركا في الإثم[٢]. قال ابن حجر: (يعني أن المار لو علم مقدار الإثم، الذي يلحقه من مروره بين يدي المصلي، لاختار أن يقف المدة المذكورة، حتى لا يلحقه ذلك الإثم، وظاهر الحديث يدل على منع المرور مطلقاً ولو لم يجد مسلكاً، بل يقف حتى يفرغ المصلي من صلاته)[٣]. ومعنى الحديث: (النهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك[٤] بل جاء الأمر للمصلِّي بمنع المار بين يديه. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلاَ يَدَعْ أَحَداً يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلْيَدْرَأْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ))[٥] قال العلماء في قوله "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه" لم يذكر العقاب، وذلك زيادة في التنفير من ذلك لتذهب النفس في تقدير كل صنف من المكروهات المحذر منها كل مذهب[٦].

وكما نُهي غير المصلي عن المرور بين يدي المصلي، أمر المصلي أن يحول بين غيره وبين المرور بين يديه، فروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحداً يمر بين يديه وليدراه ما استطاع فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان)) وفي رواية ((إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفع في نحره فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان))[٧].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/٤٢١.

(٢) المفهم، القرطبي، ٢/١٠٦.

(٣) فتح الباري ١/٦٩٧، ٦٩٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ٣٩٧.

(٥) أخرجه مسلم ٥٠٥.

(٦) دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٧٣٧.

(٧) أخرجه مسلم ٥٠٥.

قال القاضي عياض: (وقوله: "إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحداً يمر بين يديه": حمله العلماء على الإباحة للمصلي لمدافعته، والأمر برده لا على الوجوب. وقوله: فليدرأه ما استطاع: أي ليدفعه ويمنعه عن ذلك ولا يسامحه في المرور، وهو معنى قوله: "ما استطاع" وأجمعوا على أنه لا يلزمه مقاتلة بالسلاح ولا ما يؤدي إلى هلاكه، فإن درأه بما يجب فهلك من ذلك فلا قود عليه باتفاق، وهل فيه دية أو هو هدرٌ؟ فيه للعلماء قولان، وهما في مذهبنا أيضاً. وكذلك اتفقوا أن هذا كله لمن لم يعزر بصلاته واحتاط لها وصلى إلى سترة، أو في مكان يأمن المرور بين يديه، ويدل عليه قوله في حديث أبي سعيد هذا: "إذا صلى أحدكم إلى سترة" فإذا فعل هذا كان الإثم على المار، وإن كان إلى غير سترة أثما جميعاً، إلا أن يكون المصلي صلى على طريق الناس، حيث تدعوهم الضرورة إلى الاجتياز ولا يجدون مندوحة فيأثم هو دون المارين، إلا أن يكون المصلي صلى إلى غير سترة، حيث يأمن في الغالب ألا يمر بين يديه أحد، فلا إثم عليه على رأي بعضهم. وكذلك اتفقوا على أنه لا يجوز له المشي من مقامه إلى رده والعمل الكثير في مدافعته؛ لأن ذلك في صلاته أشد من مروره عليه، والذي أبيح له من هذا هو قدر ما تناله يده من مصلاه دون المشي إليه، وإعمال الخطى، وهذا حدٌّ في مقدار القرب من السترة لهذه الفائدة، وسنذكره بعد، وليكن رده هاهنا بالإشارة والتسبيح. وكذلك اتفقوا على أنه إن مر فلا يرده لأنه مرور ثانٍ، إلا شيءٌ روى عن بعض السلف في رده، وتأوله بعضهم على قول أشهب برَدِّه بالإشارة، وظاهر قول أشهب أنه في ابتداء المرور.

وقوله: "فإن أبى فليقاتله": أي إن أبى بالإشارة ولطيف المنع فليمانعه ويدافعه بيده عن المرور، ويعنف عليه في رده. قال أبو عمر: هذا اللفظ جاء على وجه التغليظ والمبالغة. وقال الباجي: يحتمل أن يكون بمعنى فليلعنه، فالمقاتلة بمعنى اللعن موجودة، كقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[1]، قال: ويحتمل أن يكون بمعنى فليعنفه على فعله ذلك ويؤاخذه، وخرج من ذلك معنى المقاتلة المعلومة بالإجماع.

---

(١) سورة الذاريات، آية: ١٠.

وقوله: "فإنما هو شيطان" قيل: معناه: فإنما حمله على فعله ذلك وإبائه من الرجوع الشيطان، وقيل: فإنه يفعل فعل الشيطان، فإن معنى الشيطان بعيد من الخير، والائتمار للسنة، من قولهم: نويٌ شطون، أي بعيدة، ومنه سمي الشيطان لبعده من رحمة الله، فسماه شيطاناً لاتصافه بوصفه، كما يقال: فلان الأسد، أي يبطش ويقوى كبطشة الأسد وقوته، وقيل: المراد بالشيطان هنا قرين الإنسان اللازم له، كما قال في الرواية الأخرى: "فإن معه القرين"، ويكون هذا من معنى قوله في الحديث الآخر: "فإن الشيطان يحول بينكم وبينها"، فيكون على هذا يمنع الإنسان الجواز بين يدي المصلي من أجل الشيطان اللازم له، لكونه خبيثاً نجساً، ويكون الله تعالى يمنعه من التسلط على المشي أمام المصلي وقطع صلاته، إذا اجتهد العبد في الدنو من قبلته، وامتثل ما أمر به، ولم يجعل له سبيلاً إليه، بخلافه إذا لم يدن من السترة[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الوقوف وعدم المرور بين يدي المصلي:

ذلك ما جاء في مفهوم الحديث في قوله ﷺ "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه" وذلك إجلالاً للصلاة فهي لقاء بين العبد وربه فلا يجوز قطعه، وعدم الإفساد على المصلي خشوعه واستحضاره لعظمة ربه تبارك وتعالى، فإن التوجه في الصلاة، واستقبال القبلة التي أمر الله بها، أجمع للخاطر، وأحث على صفة الخشوع، وأقرب لحضور القلب[2].

إضافة إلى ما في وقوف الإنسان وسلوكه طريقاً آخر، وعدم مروره بين يدي المصلي، تعويد للإنسان على الالتزام والانضباط والنظام، ويعود أثر ذلك على شؤون الحياة جميعها، بما فيه خير الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة. إن من يتبع النظم في الإسلام ليجدها كلها دعوة وتدريب للمسلم على الالتزام بالنظم والقواعد المتبعة في كل شيء، ففي الصلاة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[3]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/٤١٩-٤٢١.

(٢) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٣٣، ٣٤.

(٣) سورة النساء، آية: ١٠٣.

وفي مجال الجهاد يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[1]. وفي مجال النظم الاجتماعية والآداب الاجتماعية، جاء مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2].

(١) سورة الصف، آية: ٤.

(٢) سورة النور، آية: ٥٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتنبيه والترهيب:

لقد نبه النبي ﷺ إلى عدم المرور بين يدي المصلي، ورّهب منه فقال ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ». قال الراوي: لاَ أَدْرِي قَالَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً؟.

فهذا الحديث يدل على أن المرور بين يدي المصلي في محل سجوده فيه إثم ووعيد، ولو عرف هذا المار ما عليه من الإثم لوقف أربعين سنة، ولو مر بعيدًا من مكان سجوده لا شيء عليه حسب مفهوم الحديث الذي ينص على مكان وضع يدي المصلي عند سجوده.

وعلى المصلي أن يضع ستره أمامه، حتى ينتبه المار فيحذر المرور أمامه لقوله ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادَ أحد أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلْيَدْفَعْه. فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»[1].

فإن المرور في مكان سجود المصلي حرام، فيه إثم ووعيد إذا وضع أمامه سترة[2].

فعلى المربي تنبيه وترهيب من يقوم بتربيتهم بخطورة المرور بين يدي المصلي، خاصة الناشئة منهم حتى يتجنبوا هذا الأمر ويحذروا إثمه.

ثانيًا- التربية على الأمانة في نقل العلم:

من أهداف التربية الإسلامية التربية على الأمانة في نقل العلم، وهذا واضح في قول راوي الحديث: لا أدري قال أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين سنة، فالمعلم أمين على ما استودع من العلوم، ولابد من أن يؤدي الأمانة التي تحملها كما هي، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٩، ومسلم، ٥٠٥.

(٢) انظر: مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، محمد بن جميل زينو، ص١٠٩، ١١٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ»[2].

إن الأمانة توأم الصدق، وتتجلى الأمانة في تحري الصدق في القول والعمل وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[3].

ومن الأمانة، ألا ينسب المعلم لنفسه علمًا أو قولاً ليس من إنتاجه أو من تأليفه، وإنما يسند كل قول إلى قائله وكل علم إلى مصدره[4].

وهذا ما يسمى الأمانة العلمية، وهي نسبة كل نظرية أو رأي أو فكر أو قول إلى مبدعه وقائله. كما هو، ومن الخيانة سرقة أفكار الآخرين وادعاؤها.

وقد شاعت هذه الظاهرة، كثيرًا حيث يتعدى بعض الناس على جهود غيرهم العلمية، وينسبونها إلى أنفسهم، وقد يلجؤون إلى بعض الحيل لإخفاء فعلتهم كإجراء بعض التعديلات على المادة العلمية بالحذف أو الإضافة أو بهما معًا، أو تغيير الصياغة والأسلوب تمويهًا وخداعًا، حتى لا ينكشف أمرهم.

وعلينا أن ندرك أن سرقة الأفكار أشد خطورة من سرقة الأشياء المادية كالذهب والمال. لأن السرقة الأولى تؤدي إلى فساد الحياة العلمية وإهدار جهود العلماء المخلصين. ومن ناحية أخرى يسهل الاستدلال على المسروق من الأشياء المادية أما معرفة ما سرق من الأفكار فقد يخفى في حالات كثيرة.

ومما يتصل بالأمانة ما يسمى بحقوق المؤلفين حيث يقدم بعض الخونة على سرقة المصنفات العلمية والفنية والأدبية من الأشرطة والأقراص والكتب وبيعها للناس بأبخس

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣٥/٣، رقم ١٢٣٨٣، وقال محققو المسند حديث حسن ٣٧٦/٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٥.

(٤) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د/محمد صالح بن علي جان، ص١٢٥، ١٢٦.

الأثمان، وهذا يحرم المبدعون من ثمرة عطائهم، وقد يؤدي إلى فتور الحياة العلمية، وإحجام المفكرين والعلماء عن البذل والعطاء[1].

فعلى المربي تحري الأمانة العلمية في نقل العلم إلى المتربي وغرس هذه القيمة في نفسه والعمل على تنمية العمل بهذه الأمانة خاصة بين الصغار، حتى يشب الصغار على تحري الأمانة في أقوالهم وأفعالهم ونقولهم عن غيرهم.



(١) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٩/ ٦٠، ٦١.

٣٤٤- باب كراهة شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن في إقامة الصلاة سواء كانت النافلة سنة تلك الصلاة أو غيرها

الحديث رقم (١٧٦١)

١٧٦١- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ صَلاَةَ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن قاعدة فقهية واضحة، وهي ليست اجتهاداً من فقيه، ولكنها صادرة من نبي هذه الأمة، وهي أن المسلم يجب أن يحرص على أداء الصلاة المكتوبة، ولا يجعل النوافل تطغى على الصلوات المفروضة، والبناء اللغوي للحديث يرشد إلى تحقق الصلاة المكتوبة حيث نُظم الحديث في جملة واحدة شرطية، وأداة الشرط "إذا"، وهي تفيد تحقق الجواب لتحقق الشرط، والجواب هنا: عدم صلاة النافلة وقت إقامة الصلاة المكتوبة، وهذا الجواب الواضح سيق في أسلوب يزيده جلاءً ورسوخاً؛ وهو أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء في قوله: "فلا صلاة إلا المكتوبة"، وحُذف المنعوت: وهو الصلاة اكتفاءً بالنعت: لأنه يَحْمل الدلالتين: الصلاة، والفَرْض، والمكتوبة "اسم مفعول": أي التي كتبها الله أي فرضها ولابدّ من أدائها.

وهذا التحذير الصارم يرشد إلى أهمية الصلاة ودورها في حياة المسلم، فبالانصراف إلى الصلاة وجمْع النية عليها كما يقول الرافعي، يستشعر المسلم أنه قد

---

(١) برقم (٦٣/٧١٠).

حطمَّ الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، وبالركوع والسجود بين يدي الله، يُشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا البارئ الخالق من وجود الكون.

هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات، يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: جعلت قرة عيني في الصلاة.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على: حكم التنفل عند إقامة صلاة الفريضة: التنفل عند الشروع في الإقامة منهي عنه كما في حديث الباب، ولعل الحكمة من النهي عن التنفل في هذه الحالة، هو التفرغ لأداء الفريضة من أولها، والمحافظة على إتمامها مع الإمام.

وكذلك الحرص على جمع القلوب، والبعد عما يؤدي إلى الخلاف على الأئمة، والطعن فيهم[1].

وقد اختلف الفقهاء في حكم التنفل حال إقامة الصلاة الحاضرة على أربعة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الشافعية[2]، والحنابلة[3]، ويرون أن التنفل في هذه الحالة مكروه، لأن المراد بالنفي في الحديث النهي، وهو محمول على الكراهة، أو النفي باق على حقيقته، والمراد به نفي الكمال.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الظاهرية[4]، ويرون أن التنفل في هذه الحالة حرام، لا فرق في ذلك بين ركعتي الفجر، وغيرهما، ولو خارج المسجد، حملاً للنفي في الحديث على نهي التحريم.

---

(١) الدين الخالص للسبكي ٣٥/٢.

(٢) مختصر المزني ٢١، المجموع للنووي ٢٥٥/٣، فتح الوهاب ٨٦/١.

(٣) الشرح الكبير على متن المقنع ٨/٢.

(٤) المحلى لابن حزم ٢٢٩/٤.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الحنفية[1]، ويرون أنه لا بأس بصلاة سنة الصبح خارج المسجد، أو فيه، والإمام في الفريضة إذا تيقن إدراك الركعة الأخيرة مع الإمام.

واستدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ صَلاَةَ إِلاَّ الْمَكْتُوبَةُ، إلاَ رَكْعَتَي الْفَجْرِ))[2].

الرأي الرابع: وهو ما ذهب إليه المالكية[3]، ويرون أداءها خارج المسجد إذا لم يخف فوات الركعة الأولى مع الإمام، وإلا تركها، ودخل معه.

الراجح: والراجح والله أعلم ما ذهب إليه الجمهور لورود النهي عن ذلك، وترك التنفل عند إقامة الصلاة أقرب إلى اتباع السنة، ويتأيد ذلك من حيث المعنى بأن قوله في الإقامة: "حي على الصلاة" معناه: هلموا إلى الصلاة التي يقام لها، فأسعد الناس بامتثال هذا الأمر من لا يتشاغل عنه بغيره[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على صلاة الفريضة وتقديمها على النافلة والحفاظ على إدراك تكبيرة الإحرام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم الشروع في النافلة عند إقامة الصلاة أو قرب إقامتها.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على صلاة الفريضة وتقديمها على النافلة والحفاظ على إدراك تكبيرة الإحرام:

جاء ذلك في صريح الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة". قال القاضي عياض: (قوله: "إذا أقيمت الصلاةُ فلا صلاة إلا المكتوبة": أخذ

---

(١) الدر المختار للحصكفي ٤٠٧/١.

(٢) أخرجه البيهقي ٤٨٣/٢، وقال البيهقي: وهذه الزيادة لا أصل لها.

(٣) مواهب الجليل ٤٠٧/٢.

(٤) انظر: الدين الخالص ٤٠/٢.

قوم بظاهر هذا الحديث، وهو قول أبي هريرة، وروي عن عمر أنه كان يضرب على صلاة الركعتين بعد الإقامة، وإليه ذهب بعض الظاهرية، رأوا أنه يقطع صلاته إذا أقيمت عليه الصلاة وكلهم يقولون: لا يبتدئ نافلةً بعد الإقامة لنهيه ﷺ المتقدم. وذهب مالك إلى أنه إذا أقيمت عليه وهو في نافلة، فإن كان ممن يخفف ويقيمها بقراءة أم القرآن وحدها قبل أن يركع الإمام، أتمها، وإلا قطع، وذهب بعض أصحابنا على أنه يتمها.

واختلفوا في صلاة ركعتي الفجر إذا أقيمت الصبح، فذهب جمهور السلف والعلماء إلى أنه لا يصليها في المسجد، ثم اختلفوا: هل يخرج لها ويصلي خارجه أم لا؟ وهو قول جماعة من السلف جملة، ويدخل في المكتوبة، وهو قول مالك والشافعي وأحمد والطبري إذا أقيمت عليه وقد دخل المسجد، وقول ابن سيرين: متى أقيمت عليه، دون تفصيل.

واختلف من أباح له الخروج لصلاتها، هل ذلك ما لم يخش فوات الركعة الأولى، فإذا خشيها دخل مع الإمام ولم يخرج؟ وهذا قول مالك والثوري: إذا أقيمت قبل أن يدخل المسجد، وقيل: بل إنما يُراعى فواتُ الآخرة. قد روي هذا أيضاً عن مالك، أن يصليها وإن فاتته صلاة الإمام إذا كان الوقت واسعاً، قاله ابن الجلاب وذهبت طائفة من السلف والفقهاء إلى انه يُصليها في المسجد والإمام يصلي، وروي هذا عن ابن مسعود.

ثم اختلف هؤلاء: هل يركعهما في المسجد ما لم يخش فوات الركعة الأولى، فإن خشيها دخل مع الإمام؟ وهذا قول الثوري، وقيل: يركعهما ما لم يخش فوات الركعة الثانية، وهو قول الأوزاعي وأبي حنيفة وأصحابه، وقد حكى عن أبي حنيفة أنه يركعهما عند باب المسجد[١].

قال النووي: (فيه النهي الصريح عن افتتاح نافلة بعد إقامة الصلاة، سواء كانت راتبة كسنة الصبح والظهر والعصر أو غيرها، وهذا مذهب الشافعي والجمهور)[٢]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٣/٣، ٤٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤٩٥.

وكذا قال المباركفوري في تحفة الأحوذي: (والحديث يدل على أنه لا يجوز الشروع في النافلة عند إقامة الصلاة من غير فرق بين ركعتي الفجر وغيرهما)[١].

وقال ابن عثيمين: (قوله: "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" يعني أنه إذا أقيمت الصلاة؛ فإنه لا يشرع المأموم في نافلة، سواء كانت هذه النافلة تحية مسجد أو تطوعاً مطلقاً، أو راتبةً تلك الصلاة، مثل: أن تحضر لصلاة الفجر وتقام الصلاة، فلا يجوز أن تصلي سنة الفجر؛ لأنه أقيمت الصلاة، ودليل ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" فقوله: "لا صلاة" عام، يشمل أي صلاة كانت، حتى لو كان على الإنسان فريضة فائتة، نسيها ولم يذكرها إلا حين أقيمت الصلاة؛ فإنه لا يصليها، ولكن يدخل مع الإمام بنية تلك الفريضة التي فاتته ولا ينفرد عن الناس، فمثلاً إذا أقيمت صلاة العصر، ودخلت المسجد وأنت لم تصل الظهر، فلا تصل الظهر؛ لأنه أقيمت صلاة العصر، لكن ادخل معهم بنية الظهر، ثم إذا فرغت من صلاتك فصلِّ العصر؛ ولكن إذا أقيمت وأنت شرعت في النافلة، فهل تكملها أو تخرج منها. في هذا للعلماء قولان: القول الأول: إنه إذا أقيمت الصلاة وأنت قد شرعت في النافلة فاقطعها ولا تكملها مطلقاً.

والقول الثاني: كملها ولو فاتتك ركعة، أو ركعتان، أو كل الصلاة، إلا مقدار تكبيرة الإحرام قبل السلام.

والصحيح أن نقول: إذا أقيمت الصلاة وأنت في نافلة، فإن كنت في الركعة الأولى فاقطعها، وإن كنت في الركعة الثانية فأتمها خفيفة، وهذا هو الصحيح الذي يمكن أن تجتمع عليه الأدلة)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لأوامر النبي ﷺ بعدم الشروع في النافلة عند إقامة الصلاة أو قرب إقامتها:

وذلك ما وردت الإشارة إليه في الحديث، فقال ﷺ "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٧١٦/١.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٨٠٣/٢، ١٨٠٤.

إلا المكتوبة" قال ابن علان: (واقتضى قوله فلا صلاة إلا المكتوبة أنه يكره التطوع عند إقامة جماعة، فإن أقيمت المكتوبة وهو في النافلة قطعها استحباباً إن خشي فوت الجماعة، والحكمة في النهي عن صلاة النافلة بعد الإقامة أن يتفرغ للفريضة من أولها، فيشرع فيها عقب شروع إمامه، وإذا اشتغل بنافلة فاتته تكبيرة الإحرام مع الإمام، وفاته بعض مكملات الفريضة، والفريضة أولى بالمحافظة على إكمالها، قال القاضي: وفيه حكمة أخرى هي النهي عن الاختلاف على الأئمة، وهاتان الحكمتان أولى ما قيل[1] وما من شك في أن رسول الله ﷺ يريد لأمته حصول أولى الفضائل وأرفع الدرجات وأعلى المنازل كما جاء في الحديث من تقديم الفريضة على النافلة، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2] ففي الآية بيان أن حق المؤمنين الكُمَّل أن يخافوا الله ويطيعوه ويمتثلوا أمره، وأعقب ذلك بالأمر بالاستجابة للرسول ﷺ، ففي طاعته إحياء للنفوس، فقوله "لما يحييكم" أي دعاكم لأجل ما هو سبب حياتكم الروحية، والإحياء هذا مستعار لما يشبه إحياء الميت، وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان، فيعم كل ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح، والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وما يتقوم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة[3].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد أسلوب النهي في الحديث في صريح قوله ﷺ "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية البارزة المفيدة، لما فيها من بيان المخالفات الشرعية ونهي المدعوين عنها، وقد تكرر أسلوب النهي في كثير من آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[4] وقوله

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان، ١٧٣٨.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٣١٣/٩/٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٩٥.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾[1].

والأصل في النهي أنه وضع للمنع، إلا أن صيغ النهي تستعمل في معانٍ أخرى منها:

أ- الكراهة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾[2].

ب- الدعاء، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾[3].

ج- الإرشاد، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[4].

د- التحقير لشأن المنهي عنه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[5].

هـ- اليأس، كقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾[6].

و- بيان العاقبة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾[7][8].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٥) سورة طه، آية: ١٣١.

(٦) سورة التحريم، آية: ٧.

(٧) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٨) الموسوعة الفقهية ٤١/٤٠٦، ٤٠٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على العناية بالفرائض:

الفرائض هي الأساس والأصل، وأعظم ما يُتَقربُ به إلى الله تبارك وتعالى كما أخبرنا بذلك ﷺ فقال فيما يرويه عن ربه: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[١].

ومن الأمور التي ينبغي أن يعني بها المربي: الحرص على غرس تعظيم الفرائض والاعتناء بها ورعايتها لدى من يربيهم، وضرورة تقديمها على النوافل والتطوعات[٢].

من أجل ذلك وضع النووي عنوان الباب: باب كراهية شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن إقامة الصلاة سواء كانت النافلة سنة تلك الصلاة أو غيرها.

وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ صَلاَةَ إِلاَّ الْمَكْتُوبَةُ».

وهذا يدل على العناية بالصلاة المفروضة، وتقديمها على النافلة، واهتمام المربي بالفرائض والاعتناء بها لا ينبغي أن يقف عند مجرد تأكيد الإتيان بها وفعلها، بل الاعتناء بأدائها وإقامتها على الوجه الأكمل وإتقانها وإحسانها، واتباع سنة النبي ﷺ فيها.

ومن ذلك: الاعتناء بتعليم المتربين أحكامها، والسعي لإتقانهم ما يتوقف عليه صحة الفرائض وبطلانها، ثم الاعتناء بتعليم آدابها وسننها وهدي الرسول ﷺ فيها[٣].

ثانيًا: التربية على ترتيب الأولويات:

إن مصالح الدنيا والآخرة متفاوتة في الأهمية، فمنها الراجح ومنها المرجوح، قال العز بن عبدالسلام: "وتقديم المصالح الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن،

(١) أخرجه البخاري، ٦٥٠٢.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش، ص٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص٦٠.

ودر المفاسد الراجحة على المفاسد المرجوحة محمود حسن، اتفق الحكماء على ذلك"[١].

والتربية الإسلامية تهدف إلى تربية المسلم على ترتيب الأولويات في حياته بصفة عامة وفي عباداته بصفة خاصة.

فينبغي للمؤمن تحديد الأولويات، عندما تكثر الأعمال وتتطلب أكثر من الوقت المتاح لديه، يجب تقييم كل عمل لمعرفة ماذا يقوم به، وما يترك، حتى لا يترك الأهم ليقوم بما هو أقل منه أهمية[٢].

وينبغي للمؤمن أن ينظم وقته بين الواجبات والأعمال المختلفة دينية كانت أو دنيوية، حتى لا يطغي بعضها على بعض، ولا يطغي غير المهم على المهم، ولا المهم على الأهم، ولا غير الموقوت على الموقوت، فما كان مطلوبًا بصفة عاجلة يجب أن يبادر به ويؤخر ما ليس له صفة العجلة، وما كان له وقت محدد يجب أن يعمل في وقته[٣].

لذا يجب على المسلم أن يُعني عناية تامة بالصلاة المكتوبة، ولا تشغله النوافل ولا ما دونها عن أداء المكتوبة، وهذا ما يؤصل في نفس المؤمن مسألة ترتيب الأولويات سواء في أمور العبادات أم في غيرها.



---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، ط٢، دار الجبل، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠، ص١/٥.

(٢) انظر: إدارة الوقت، د. محمد أمين شحادة، ص٣٧٣، ٣٧٥.

(٣) الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص١٨، ١٩.

٣٤٥- باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالي

الحديث رقم (١٧٦٢)

١٧٦٢- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((لا تَخُصُّوا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي، وَلاَ تَخُصُّوا يَومَ الجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الأَيَّامِ، إلاَّ أنْ يَكُونَ فِي صَومٍ يَصُومُهُ أحَدُكُمْ)) رواه مسلم[(١)].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن صلاة الجمعة تتويج لطاعة المسلم في أسبوع كامل من العبادة، وهي تُؤدَّى في جماعة وحيث يلتئم شمل المسلمين، وقد سَعَوْا إلى ذكر الله، وتركوا البيع، وأصغوا لما في الخطبة من مواعظ ودروس.

هذا اليوم الكريم الذي خصه الله بساعة يستجاب فيها الدعاء، لا يخصه المسلم بقيام أو صيام دون غيره من سائر الأيام: وهذا التوجيه النبوي الذي أشرق في هذا الحديث جاء في أسلوب صريح مباشر وهو "النهي" الموجه إلى جموع الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان، ويتضمن الحديث ثلاث جمل منها اثنتان تبدآن بحرف النهي "لا" وبعده "الفعل المضارع"، والتعبير موحد في بدء الجملتين "لا تخصوا"، وهذا التكرار لمزيد من التأكيد والتذكير بعدم الابتداع في القربات والطاعات والنوافل، ومن الظواهر الأسلوبية التي تكشف عن قيمة البلاغة النبوية: هذا الطباق في قوله: ليلة الجمعة، ويوم الجمعة: فالجمع بين الضدين هنا ليس للتناقض، ولكنه للتكامل

(١) برقم (١١٤٤/١٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (١٥٤٨).

والعموم والشمول، فالجمعة زمن متكامل يجمع بين الليلة واليوم، وهذه إشارة إلى أن عقب غروب الشمس ينتهي اليوم ويبدأ يوم جديد، وكرّر لفظ الجمعة، ولم يكتف بالضمير في التعبير لزيادة الإيضاح، ولتكريم هذا اللفظ "العَلَم" على ذلك اليوم، فله أفضليته في الإسلام.

ومن أسرار الجمال التعبيري: تقديم قوله: "بصيام"على من بين الأيام، والتقديم هنا يفيد التفنن في التعبير، والتنوع في طريقة تقديم المعنى، ففي الجملة السابقة: قدم القيام على : من بين الليالي، وكذلك في هذه الجملة، ولكن في سياق الصوم ذكر "اليوم"، لأن الصيام لا يكون إلا نهاراً، وفي سياق "القيام" ذكر "الليل"، لأن مصطلح القيام مرتبط بالصلاة في الليل، وهذا من أثر الإسلام في تجديد اللغة.

والجملة الثالثة: متفرعة عن الجملة الثانية، فهي: مستثنى من النهي الوارد بشأن صوم الجمعة فقال: إلا أن يكون في صومٍ يصومه أحدكم، والله أعلم.

فقه الحديث

تشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الآتية:

١- كراهة إفراد ليلة الجمعة بقيام[١]، أما إذا كان هذا القيام يوافق قياماً كان يقومه، كأن كان يقوم ليلة، وينام ليلة أخرى، فوافق قيامه ليلة الجمعة فلا كراهة.

٢- حكم صوم يوم الجمعة: اختلف الفقهاء في حكم صوم يوم الجمعة على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الشافعية[٢]، والحنابلة، وإسحاق، وابن المنذر[٣]، ويرون أن صوم يوم الجمعة مكروه، إلا أن يصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده، وإلا أن يوافق صوماً كان يصومه، كما لو كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً،

(١) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٢٦/١، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٧١/١، والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ١١٧/١، المبدع ٥٤/٣، الفروع ٩١/٣.

(٢) المجموع ٤٣٨/٦، ومغني المحتاج ٥١٥/١.

(٣) المجموع ٤٣٨/٦.

فوافق صومه يوم الجمعة، أو أن تكون عادته صوم أول يوم من الشهر، أو آخر يوم، أو نحو ذلك، فيوافق ذلك يوم جمعة فحينئذ فلا كراهة.

واستدلوا بأحاديث الباب، بيد أنهم حملوا النهي على الكراهة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الظاهرية(١)، ويرون أن صوم يوم الجمعة حرام، إلا أن يصوم يوماً قبله، ويوماً بعده، بل حتى لو نذر صيامه كان نذره باطلاً، ولو كان إنسان يصوم يوماً ويفطر يوماً، فجاء صومه في الجمعة فليصمه.

واستدل بأحاديث الباب التي تنهى عن صوم يوم الجمعة، إلا أن يصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده، غير أنه حمل النهي على ظاهره وهو التحريم.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة(٢)، والمالكية(٣)، ويرون جواز صوم يوم الجمعة مطلقاً، سواء أصام يوماً قبله، أو يوماً بعده، أم لا.

واستدل أصحاب هذا الرأي بحديث ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر، وقلما كان يفطر يوم الجمعة(٤).

وقال مالك في الموطأ: (لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدي به ينهى عن صيام الجمعة، وصيامه حسن)(٥).

ويبدو أن الإمام مالكاً معذور في قوله هذا، إذ لم تبلغه الأحاديث التي تنهى إفراد صوم يوم الجمعة، قال الداودي من أصحاب مالك: لم يبلغ مالكاً حديث النهي، ولو بلغه لم يخالفه(٦).

---

(١) المحلى ٢٠/٧.

(٢) تحفة الفقهاء ٣٤٤/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٧٩/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٥١/٢.

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد محمد بن رشيد القرطبي ٢٤٨/١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٤٤٣/٢.

(٤) أخرجه أحمد ٤٠٦/١ رقم ٣٨٦٠، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤٠٧/٦.

(٥) الموطأ ٣١١/١، دار إحياء التراث العربي.

(٦) المجموع للنووي ٤٣٩/٦.

والراجح: والله أعلم هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول القائلين بالكراهة.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن تخصيص ليلة الجمعة بقيام مخصوص، أو صيام يومها من بين الأيام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التيسير في صيام يوم الجمعة إذا كان في صيام يصومه الإنسان، أو صيام يوم قبله أو بعده.

ثالثاً: من آداب المدعو: الامتثال لسنة النبي ﷺ والبعد عن المخالفة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عما نهى النبي ﷺ.

خامساً: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن تخصيص ليلة الجمعة بقيام مخصوص، أو صيام يومها من بين الأيام:

جاء التصريح بذلك في قوله ﷺ "لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام" وما روي عن محمد بن عباد قال: سألت جابراً رضي الله عنه أنهى النبي ﷺ عن صوم يوم الجمعة؟ قال نعم"[٢] قال القاضي عياض: قال المهلب: (ووجه نهي رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة وإفراده بذلك خشية أن يستمر عليه فيفرض، أو خشية أن يلتزم الناس من تعظيمه ما التزمه اليهود والنصارى في سبتهم وأَحَدِهم من ترك العمل، وقال الداودي في كتاب النصيحة ما معناه: إن النهي إنما هو عن تحريه واختصاصه دون غيره، وأنه متى صام مع صومه يوماً غيره فقد خرج عن النهي[٣]. وقال القرطبي: (ومقصود هذا الحديث ألا يخصَّ يوم الجمعة بصوم يعتقد وجوبه، أو لئلا يلتزم الناس من تعظيمه ما التزمه اليهود في سبتهم من تركهم الأعمال

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٦٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٦٣، ١٧٦٤، ١٧٦٥).

(٢) أخرجه البخاري ١٩٨٤.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٩٧/٤.

كلها يُعظِّمونه بذلك)[١].

قال النووي: (قال العلماء: والحكمة في النهي عن الصيام يوم الجمعة، أنه يوم دعاء وذكر وعبادة، من الغسل، والتبكير إلى الصلاة وانتظارها، واستماع الخطبة وإكثار الذكر بعدها، لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] وغير ذلك من العبادات في يومها، فاستحب الفطر فيه، فيكون أعون له على هذه الوظائف وأدائها بنشاط وانشراح لها والتذاذ بها، من غير ملل ولا سآمة، وهو نظير الحاج يوم عرفة بعرفة فإن السنة له الفطر، وقيل سبب النهي عن تخصيص يوم الجمعة بالصيام خوف المبالغة في تعظيمه، بحيث يفتتن به كما افتتن قوم بالسبت، كما جاء في الحديث النهي الصريح عن تخصيص ليلة الجمعة بصلاة من بين الليالي، وهذا متفق على كراهيته، واحتج به العلماء على كراهة هذه الصلاة المبتدعة، التي تسمى الرغائب قَاتَلَ الله واضعها ومخترعها، فإنها بدعة منكرة من البدع التي هي ضلالة وجهالة وفيها منكرات ظاهرة، وقد صنف جماعة من الأئمة مصنفات نفيسة في تقبيحها، وتضليل مصليها ومبتدعها، ودلائل قبحها وبطلانها، وتضلل فاعلها أكثر من أن تحصر)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التيسير في صيام يوم الجمعة إذا كان في صيام يصومه الإنسان، أو صيام يوم قبله أو بعده:

جاء ذلك في صريح قوله ﷺ "ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم" إذ أن يوم الجمعة عيد المسلمين الأسبوعي يتفرغون فيه للعبادة، ويحتفلون بشهي الطعام ولذيذ الشراب، أما إذا كان صومه متصلاً بصوم قبله أو بعده، أو صادف يوماً من الأيام التي يستحب فيها الصوم كيوم عاشوراء وعرفة

---

(١) المفهم ٣/٢٠١.

(٢) سورة الجمعة، آية: ١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم ٧٠٨.

ونحوهما فلا بأس بذلك[١] أو أن يصوم يوماً قبله أو يوماً بعد فلا بأس في ذلك[٢] وذلك من ألوان التيسير في الشريعة الإسلامية المبنية على اليسر ورفع الحرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] فذلك من مظاهر التيسير ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية[٥].

ثالثاً- من آداب المدعو: الامتثال لسنة النبي ﷺ والبعد عن المخالفة:

من صور هذا الامتثال ما جاء في الأحاديث من نهي عن إفراد يوم الجمعة بصيام أو تخصيص ليلته بقيام "لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم" وقال "لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده" وقد أمرنا الله بطاعة وامتثال أوامره ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٦] أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر[٧]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٨] والتأسي بالنبي ﷺ هو أن نفعل مثلما فعل على الوجه الذي فعله، من وجوب أو ندب، وأن نترك ما تركه، أو نهى عنه من محرم أو مكروه، كما يشمل التأسي به التأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ﷺ، وعلى ذلك

---

(١) العبادات في الإسلام، د. محمد عبده، ص ٢٨٣.
(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٨٠٤/٢.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٥.
(٤) سورة الحج، آية: ٧٨.
(٥) انظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام، ص ١٣.
(٦) سورة الحشر، آية: ٧.
(٧) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦٧/٨.
(٨) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

فالتأسي والاقتداء شامل لكافة أمور الدين[١]. قال ابن القيم: (وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[٢].

وقد أمرنا الله تعالى بالاستجابة للرسول ﷺ والامتثال لأوامره، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٣].

وهذه الطاعة وذلك الامتثال ليس كلمات جوفاء، وإنما هي تطبيق عملي لما يرد عن رسول الله ﷺ، فالاستجابة الحقيقية هي التي تحمل صاحبها على الطاعة والإتيان بمراد القول. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٤]. وحذرنا الله تعالى من التسويف في الاستجابة، وإنما ينبغي أن يؤتى بالفعل بمجرد علم الإنسان به، ولذا جاء التعبير بـ "إذا" في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٥].

إن الاستجابة لله وللرسول ﷺ سبب للرحمة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص ١٢٤.

(٢) زاد المعاد من هدي خير العباد، الإمام ابن القيم، ١/٦٩، ٧٠.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٢.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٠، ٢١.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عما نهى النبي ﷺ:

جاء ذلك واضحاً فيما روى عن محمد بن عباد أنه قال سألت جابراً رضي الله عنه أنهى النبي ﷺ عن صوم يوم الجمعة؟ قال: نعم. ولقد كان الصحابة والسلف الصالح يسألون عن ما كان يعنُّ لهم في شؤون الدين، حتى يعبدوا الله على بصيرة وبينة من أمرهم، وذلك أن الأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم وأن يستوثق مما يعلم، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢] فذلك إيجاب على طلاب العلم والمعرفة أن يسألوا ويستوضحوا حتى يكونوا على بينة من أمر دينهم[٣].

خامساً- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين:

ضرب النبي ﷺ للدعاة في ذلك الأنموذج التطبيقي المثل الحي في مدى ما ينبغي أن يراعيه الداعية من تفقد لأحوال المدعوين، فعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها "أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال أصمت أمس؟ قالت لا، قال تريدين أن تصومي غداً، قالت: لا، قال فأفطري"[٤] لقد كان النبي ﷺ دائم التفقد لأحوال الصحابة لا لتجسس ونحوه، وإنما تقييماً وتقويماً لأعمالهم، وإرشاداً إلى الخير وتحذيراً مما سواه، وذلك في جميع المجالات، فمثلاً في المجال الاجتماعي ملاحظته ﷺ بعض الأخطاء التي تقع في الطرقات وتقويمها، روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧، ١٨.

(٤) أخرجه البخاري ١٩٨٦.

السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))[١].

ومن ملاحظاته ﷺ في تأديب الصغار ما روي عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: ((كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك))[٢].

وفي إرشاده للكبار، روي عن عبدالله بن عامر رضي الله عنه قال: ((دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطك، فقال رسول الله ﷺ ما أردت أن تعطيه قالت: أردت أن أعطيه تمراً فقال لها رسول الله أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة))[٣].

تلكم بعض النماذج من مراقبة النبي ﷺ لأبناء المجتمع الذي يقوم على هدايته وإصلاحه، وهي نماذج حية واقعية تؤكد حرص الرسول ﷺ في تربية الناس ومعالجة أمورهم، وإصلاح أحوالهم، والرفع من مستواهم[٤].

ولقد سار الصحابة من بعده ﷺ والسلف الصالح على نفس الدرب من تفقد لأحوال الناس والمدعوين، ومن النصوص الدالة على ذلك ما جاء في صحيح مسلم، ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَنَادَاهُ عُمَرُ أَيَّةُ سَاعَةٍ هذِهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ الْيَوْمَ. فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَى أَهْلِي حَتَّى سَمِعْتُ النِّدَاءَ...))[٥].

قال النووي: (فيه تفقد الإمام رعيته، وأمرهم بمصالح دينهم، والإنكار على مخالف السنة وإن كان كبير القدر[٦] فمن شأن الدعوة أن تجعل صاحبها ذا حركة دائبة، لا يكف عن الدعوة، ولا يخمد عن العمل، يزور هذا ويدعو ذاك، ويتحدث إلى

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٢٩، ومسلم ٢١٢١.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٩٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩٩١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧٦).

(٤) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٧٣٠-٧٣٢.

(٥) أخرجه مسلم ٨٤٥.

(٦) شرح صحيح مسلم ٥٥٦.

آخر ويتحدث إلى كل من يقابله، فالداعية إلى الله لا يخلد إلى راحة ولا يركن إلى دعة، فراحته في تعبه، وسعادته في دعوته)[1].

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٢٥٤.

الحديث رقم (١٧٦٣)

١٧٦٣- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((لاَ يَصُومَنَّ أحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلاَّ يَوماً قَبْلَهُ أوْ بَعْدَهُ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن أشعة هذا الحديث تتصل بما في الحديث السابق من إشراقات التوجيه النبوي الراشد، وهالات التعاليم المشعة بالسنة المباركة، فالراوي هو أبو هريرة رضي الله عنه في الحديثين، وهذا الحديث يبدأ بالنهي مع الفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة، "لا يصومنّ أحدكم"، وبعد قليل من تأمل الأسلوب في الحديثين ندرك أن النهي في الحديث السابق موجه إلى الجماعة حيث يقول: "لا تخصوا" مرتين: أما في هذا الحديث فإن النهي موجه إلى "المفرد": "لا يصومنَّ أحدكم"، ولكن هذا النهي الفردي يتضمن نهياً جماعياً وقوله: "أحدكم"، يفصح عن ذلك حيث أضيف لفظ "أحد" إلى أداة الخطاب "كم" الدالة على الجمع، والمعنى: لا يصومن أي أحد منكم، ولذلك فلا تناقض بين الحديثين، ونهاية الحديث هنا تتفق مع نهاية الحديث السابق، وهو جملة الاستثناء، حيث يجوز أن يصوم المسلم يوم الجمعة إذا كان نذراً أو كان مرتبطاً بصيام قبله أو بعده.

وقيل في تعليل النهي عن صيام يوم الجمعة: وقيام: ليلتها، هو: التحذير من تقليد اليهود والنصارى، لأنهم يخصون السبت والأحد بالصيام، وليلتهما بالقيام، زاعمين أنهما أعز أيام الأسبوع، فاستحب أن نخالفهم في طريق تعظيم ما هو أعز الأيام، وهو يوم الجمعة(٢).

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٥) واللفظ له، ومسلم (١١٤٤/١٤٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٥٤٩).

(٢) دليل الفالحين، ١٧٣٩.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٦٤)

١٧٦٤- وعن محمد بن عَبَّادٍ، قَالَ: سَأَلْتُ جَابِراً رضي الله عنه: أنَهَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ صَومِ الجُمُعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

ما زالت إشعاعات الحديثين السابقين تتوهج وتضيء آفاق المعنى، وترشد كل من يطلب الرشد والهداية ومعرفة موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صوم يوم الجمعة، وهذا الحديث ما هو إلا هالة من هالات الهَدْي النبوي، وهي تتشكل في هيئة سؤال وجواب من خلال هذه المحاورة الصادقة بين تابعي وصحابي، حيث يتوجه محمد بن عباد، وهو ثقه من أوساط التابعين: بالسؤال إلى "الصحابي الجليل جابر رضي الله عنه"، يريد الوقوف على الحكم الصحيح، فقال مستفسرًا: وليس مستغرباً، وليس مستنكراً، ولكنه يريد المعرفة، قال: أنَهَى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة؟ فأجاب جابر: "نعم"، وفي ما قال جابر رضي الله عنه اختصار وبلاغة: لأن السائل ليس متردداً، وليس شاكاً، وليس منكراً، ولا يحتاج إلى مزيد من التوضيح والإقناع والتوكيد، وقوله: "نعم": فيه إقناع وإرشاد، والتقدير نعم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الجمعة، وقال العلماء: حمل النهي على التنزيه لعدم وجود سبب الحرمة فيه. والله أعلم.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٤) واللفظ له، ومسلم (١١٤٣/١٤٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٥٥١).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٦٢).

الحديث رقم (١٧٦٥)

١٧٦٥- وعن أُمِّ المُؤمِنِينَ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ وهِيَ صَائِمَةٌ، فَقَالَ: ((أصُمْتِ أمْسِ؟)) قالت: لا، قَالَ: ((تُرِيدِينَ أنْ تَصُومِي غَداً؟)) قالتْ: لاَ. قَالَ: ((فَأَفْطِرِي)). رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

جويرية بنت الحارث: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (١٤٣٥).

الشرح الأدبي

ما أصدق هذا الحوار، وما أجمله... وهو حوار بين رسول الله ﷺ وزوجه أم المؤمنين: جويرية بنت الحارث رضي الله عنها: والحوار هو مَصْدر ذلك النور المتوهج في أحاديث هذا الباب: حيث نبصر هذا المشهد الواقعي، وهذا الشاهد العملي على "كراهية تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة".. وهذا عنوان الباب، وقد بُدئ بالنهي الصريح "لا تخصوا"، وختم بذلك الحوار الهادئ المقنع الذي يعد الاقتداء به من أمثل الطرق وأنجعها في إنجاح الدعوة، وترغيب الناس في الإقبال على الإسلام.

ويبدأ الحديث بتأكيد الخبر، في قول أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، ولنتأمل حكمة المصطفى ﷺ وطريقته في الإقناع، والتدرج في الحوار: حيث لم يصدر أمره المباشر بعدم الصوم، ولكن قال في مودة وسكينة، "أصُمْتِ أمس"، فتجيب في هدوء ويقين: لا، أي لا: لم أصم أمس، ويستمر التساؤل التدرجي المرغب، حيث قال: أتريدين أن تصومي غداً: قالت: لا.

وبعد هذا الحوار المشحون بالإيقاع الهادئ، والمودة واللطف والرحمة، والمحصّن بالاستمالة والإقناع، أصدر رسول الله ﷺ أمره في يُسْر -وهو يشهد آثار الاقتناع،

---

(١) برقم (١٩٨٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٥٥٠).

وجو المودة، وحسن الاستماع- يقول لها رسول الله ﷺ: فأفطري: والفاء للإفصاح، وتومئ إلى المحذوف للإيجاز، والتقدير، فإذا كنت لم تصومي أمس، ولن تصومي غداً فأفطري.

والحديث لم يحدّد إجابة أم المؤمنين لأنها: معروفة: فهي من المسكوت عنه المعروف وقوعه، فهي قد استجابت: وأفطرت، وهل تخالف أم المؤمنين زوجها الرحمة المهداة محمدًا بن عبدالله، خاتم النبيين، وسيد المرسلين والذي أرسله الله رحمة للعالمين؟؟ عليه الصلاة والسلام.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٦٢).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وهو العيد الأسبوعي للمسلمين، وفيه فريضة صلاة الجمعة، ولقاء الجمعة، وفيه ساعة إجابة، لا يصادفها مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له[1].

كل هذه الفضائل قد تجعل المسلم يحرص على تخصيصه بصيام نهاره، وقيام ليلته، فجاءت التربية الوقائية في الأحاديث النبوية سدًا للذريعة من أن يلحق بالدين ما ليس فيه، ويوجب التشبه بأهل الكتاب في تخصيص بعض الأيام بالتجرد من الأعمال الدنيوية، ولما كان هذا اليوم ظاهر الفضل على سائر الأيام، كان الداعي إلى صومه قويًا، فهو مظنة تتابع الناس في صومه، واحتفالهم به بما لا يحتفلون بصوم يوم غيره، وفي ذلك إلحاق بالشرع ما ليس منه.

لذا كانت أهمية التربية الوقائية، بالنهي عن تخصيص ليلة الجمعة بالقيام من بين الليالي، لأنها من أفضل الليالي، فهي مظنة تخصيصها بالعبادة، فحسم الشارع الحكيم الذريعة، وسدها بالنهي عن صيام نهاره وقيام ليلته[2].

وقد نهى النبي ﷺ عن تخصيص ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، وتخصيص يوم الجمعة بصيام من بين الأيام فقال: «لاَ تَخْتَصُّوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي. وَلاَ تَخُصُّوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الأَيَّامِ. إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ». وقال ﷺ: «لا يصومن أحدكم يوم الجمعة....» وغيره من أحاديث الباب التي جاءت لسد ذريعة تخصيص يوم الجمعة بصوم أو ليلته بصلاة، وهذا ما يظهر جليًا أهمية التربية الوقائية التي انتهجتها الأحاديث النبوية، ومدى فاعليتها في هذا الأمر.

---

(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص٢٣.

(٢) انظر: بهجة الناظرين، سليم الهلالي ٣/٢٣٤.

ثانيًا: من أساليب التربية: السؤال:

السؤال من الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي أو المعلم وقد قيل: إن من لا يحسن الاستجواب كيف، ومتى، وأين لا يحسن التدريس أصلاً[(١)].

وقد كان رسول الله ﷺ يبادر أصحابه أحيانًا بالسؤال لينبههم إلى ما قد يحتمل أن يقعوا فيه من أخطاء أو ليذكرهم بأمر هام لتأكيده أو ليرفع عنهم الإشكال والحرج أو ليعلمهم أشياء أخرى عن طريق ربطها بأشياء في خبراتهم[(٢)].

وفي هذا الباب نجد النبي ﷺ يسأل أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها عندما دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ قال: «أصُمْتِ أمْسِ؟ قالَتْ: لاَ، قال: تُرِيدِينَ أنْ تَصُومي غَدًا؟ قالَتْ: لاَ، قالَ: فَأفْطِرِي».

فالسؤال من الأساليب المهمة في العملية التربوية والتعليمية، فهو عنصر هام في كل درس، فمن بديهيات التدريس أن يعرف المعلم كيف يوجه الأسئلة، ومتى يوجهها وعن ماذا يسأل، وكيف يصوغ أسئلته بشكل جيد[(٣)].

كما أن السؤال من الأساليب التي تدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق[(٤)]، وفي هذا الباب نجد محمد بن عباد يسأل جابرًا رضي الله عنه: «أنهى النبي ﷺ عن صوم يوم الجمعة؟ فقال: نعم».

فأسلوب السؤال يُمَكّن المتعلم من الاستفهام عما لا يدركه من المعلم، ويُمَكّن المعلم من الإجابة والتوجيه الصحيح للمتعلم، فهو أسلوب مفيد في التربية الإسلامية.



(١) مبادئ التربية العملية، د. عبدالحميد محمد الهاشمي، ط دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٢م، ص٩٣.

(٢) المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي حان، ٢٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٠.

(٤) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص٢٣٣.

٣٤٦- باب تحريم الوصال في الصوم

وَهُوَ أنْ يصوم يَومَين أوْ أكثر وَلاَ يأكل وَلاَ يشرب بينهما

الحديث رقم (١٧٦٦)

١٧٦٦- عن أَبي هريرة[١]، وعائشة[٢] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الوِصَالِ. متفق عَلَيْهِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الوصال: الترك في ليالي الصيام لما يفطر بالنهار بالقصد[٣].

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ حريص على أمته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، والعبادة ليست تعذيباً للنفس، ولكنها قربى إلى الله، وسموّ بالنفس، ومقاومة لرغباتها، وأداء للفرائض أداءً مقروناً بالنية الخالصة، والعبودية التامة، وهذا الحديث الموجز يشترك في روايته اثنان من أعلام الصحابة أبو هريرة، وأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، والحديث جملة لغوية واحدة: يتصدرها التوكيد "بأن" ثم يتصدر لفظ "النبي ﷺ" كلمات الحديث: إيذاناً بالأهمية، وبأن هذا النهي ليس نَهْياً عاماً، ولكنه صادر من رسول الله ﷺ، والمنهي عنه هو الوصال، فالنهي جازم قاطع، والوصال: المراد منه في هذا الحديث، هو أن يصوم يومين أو أكثر ولا يشرب بينهما، ولم يذكر متعلق الوصال، أو ما يخصه لأن

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣/٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥/٦١).

(٣) فتح الباري ٢٣٨/٤.

القرينة تدل عليه، فالحديث السابق، "عن صوم يوم الجمعة"، وكذلك ارتبط "الوصال بالصوم" في الفقه الإسلامي.

والصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام: وهو في أصله اللغوي بمعنى الإمساك عن الحركة: فكل شيء سكنت حركته فقد صام، والخيل الساكنة: خيل صائمة، ومن معانيه المجازية الامتناع، ويقال: صام النهار، وصامت الشمس: أي صارت في كبد السماء: كأنها وقفت في منتصف السماء، وامتنعت عن الحركة وسكنت.

وأما في الشرع فهو الإمساك والامتناع عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص وهو من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس مع النية.

وقد تطور الصوم من معناه اللغوي وهو السكون والثبات إلى المعنى المجازى وهو الانقطاع عن الأكل والشرب والنكاح، وكذلك انقطاع الجوارح وصومها عن كل ما يغضب الله عز وجل، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على: حكم الوصال في الصوم.

والوصال: هو صوم يومين فأكثر، بلا فطر بينهما قصداً.

وقد اختلف الفقهاء في حكم الوصال في الصيام على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[(١)]، والمالكية[(٢)]، والشافعية[(٣)]، ويرون أن الوصال في الصوم مكروه، وليس محرماً.

واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ واصل بأصحابه، ولو كان حراماً ما

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٧٨/٢، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٢٦/١، وتحفة الفقهاء ٣٤٤/١.

(٢) الشرح الكبير للدردير ٢١٣/٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢١٣/٢، والفواكه الدواني ٣٠٥/١.

(٣) الوسيط للغزالي ٥٣٨/٢، وروضة الطالبين ٣٦٨/٢، والمجموع ٣٧٤/٦.

واصل بهم[١].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الظاهرية[٢]، ويرون أن الوصال في الصيام حرام واستدلوا بأحاديث الباب التي تنهى عن الوصال في الصوم، وحمل النهي على ظاهره من التحريم.

ويُنَاقَشُ هذا: بوجود الصارف عن التحريم إلى الكراهة، وهو ما روي أن سبب نهي النبي ﷺ عن الوصال في الصيام هو الإبقاء على أصحابه دون أن يحرمه عليهم[٣].

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه الحنابلة[٤]، وبعض المالكية[٥]، وإسحاق وابن المنذر[٦]، ويرون جواز الوصال في الصوم إلى السحر، ويكره الزائد على ذلك.

واستدلوا على ذلك بحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل، فليواصل حتى السحر"[٧]. ولأن مثل هذا الوصال لا يترتب عليه مشقة[٨].

أقول: إن ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي لا يسمى وصالاً حقيقة، لأن حقيقة الوصال أن يصوم يومين فأكثر.

أما عدم الفطر إلى السحر فلا يسمى وصالاً، لذلك فإن هذا الرأي لا يختلف كثيراً عن رأي الجمهور.

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٦٥، ومسلم ١١٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: "فلما أبو أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يوماً، ثم رأوا الهلال فقال: لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبو أن ينتهوا.

(٢) المحلى لابن حزم ٢٢/٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٣٧٤ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسولا لله ﷺ نهى عن الحجامة والمواصلة ولم يحرمهما إبقاءً على أصحابه. وصحّح إسناده الحافظ ابن حجر ١٠٩٢/١ ط بيت الأفكار الدولية، شرح الحديث ١٩٦١ وما بعده.

(٤) المبدع ٥٦/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي ٣٥٠/٣، والروض المربع ٤٤١/١، والكافي ٣٦١/١.

(٥) كابن وهب، شرح الزرقاني على الموطأ ٢٤٣/٢.

(٦) الزرقاني على الموطأ ٢٤٣/٢.

(٧) أخرجه البخاري ١٩٦٣.

(٨) الدين الخالص ٢٨٦/٨.

والراجح: هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من القول بالكراهة، لأن الأدلة ناطقة بالكراهة، ولأن من الصحابة من واصل بعد النهي[1] فدل ذلك على أنه للتنزيه لا للتحريم.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عن وصاله في الصيام.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ في وصاله في الصيام.

رابعاً: من أهداف الدعوة: التيسير وعدم المشقة على الناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي فيما روي عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى عن الوصال، ورواية ابن عمر "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال" وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية النافعة، وذلك لما فيه من التعريف بالمخالفات الشرعية والنهي عنها والتحذير منها، وقد تكرر استعماله كثيراً في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3] وقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[4].

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عن وصاله في الصيام:

وذلك واضح فيما جاء في الحديث "قالوا: إنك تواصل" أي ونحن مأمورون

---

(١) انظر: فتح الباري ١/١٠٩٣ ط/ بيت الأفكار، شرح الحديث ١٩٦٤.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٦٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٦٧).

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) سورة الحجرات، الآيتان: ١، ٢.

باتباعك فيما تفعل[1] وسؤال الصحابي يدل على ما كانوا عليه من حب للمعرفة وسؤال النبي ﷺ عن كل ما يعنُّ لهم حتى يعبدوا الله على بصيرة وبينة من أمرهم، وامتثالاً لمثل أمر الله عز وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] فمن الأمور المستحبة السؤال على وجه التبيين والتعلم عما تمس إليه الحاجة من أمور الدين أو الدنيا، بل قد يكون مأموراً به، وذلك في الأمور التي تتوقف عليها صحة العبادات ونحوها[3]. فلا يليق بمسلم يريد أن يعبد الله على بصيرة، وأن يكون عنده قسط من علم أن يستحي من السؤال، وقد عَدّ الإمام الغزي من آداب المتعلم أن لا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقَّ وجهه رقَّ علمه، ومن رقَّ وجهه عند السؤال، ظهر نقصه عند اجتماع الرجال[4].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ في وصاله في الصيام:

إن الوصال في الصيام من خصائص رسول الله ﷺ فهو جائز له حرام على أمته، لما فيه من الغلو والمبالغة التي لا يصلح بها حال العباد[5]، وقد جاء في الحديث النهي عن الوصال كما في قول عائشة وابن عمر رضي الله عنهما "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال قالوا: إنك تواصل؟ قال: إني لست مثلكم إني أطعم وأسقى" قال الحافظ ابن حجر: (واستدل بهذا على أن الوصال من خصائصه ﷺ، وعلى أن غيره ممنوع منه إلا ما وقع فيه الترخيص من الإذن إلى السحر[6].

قال ابن عثيمين: (ومعنى الوصال: أن يقرن الإنسان بين يومين في الصيام، فلا يفطر بينهما، والله سبحانه وتعالى حدد الصيام في قوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ

---

(١) دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٧٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) الموسوعة الفقهية، /٩٦.

(٤) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، بدر الدين بن محمد الغزن ص ١٥١.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٧٩٨.

(٦) فتح الباري ٤/ ٢٤٠.

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[1].

قال: "ثم أتموا الصيام إلى الليل..." فحد الله ابتداء الصيام وانتهاءه، وقال النبي ﷺ: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر))[2] هذا هو المشروع، أن الإنسان يبادر بالفطور ولا يتأخر، ولا يحل له أن يواصل بين يومين، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: ((أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَّحر))[3]، فأذن ﷺ بالمواصلة إلى السحر، يعني وليتسحر في آخر الليل، وبهذا تبين أن للصائم ثلاث حالات:

أ- أن يبادر بالإفطار بعد غروب الشمس، وهذه هي السنة والأفضل والأكمل.

ب- أن يتأخر إلى السحر، وهذا جائز لكنه خلاف الأولى.

ج- ألا يفطر بين يومين، بل يواصل وهذه حرام على ما ذهب إليه المؤلف، وهذا هو الأقرب؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الوصال، فواصلوا رضي الله عنهم ظناً منهم أنه إنما نهى عنه من أجل الرفق بهم والشفقة عليهم، وقالوا: نحن نتحمل؟ فواصلوا، فتركهم، وواصلوا، حتى هلَّ الشهر -شهر شوال- فقال: ((لو تأخر الهلال لزدتكم))[4] كالمُنْكر لهم، وهذا يدل على التحريم، وذهب بعض العلماء إلى كراهة الوصال دون التحريم؛ لأن العلة هي الرفق بالإنسان، والإنسان أمير نفسه، لكن الأقرب أن الوصال قد نهي النبي ﷺ عنه، ولأن النبي ﷺ واصل بهم يوماً، ويوماً ويوماً حتى رؤي الهلال، وقال: "لو تأخر لزدتكم". والله أعلم)[5].

وقال النووي: (قال الخطابي وغيره من أصحابنا: الوصال من الخصائص التي أبيحت لرسول الله ﷺ وحرمت على الأمة[6] فمما سبق يتضح أن من خصائصه ﷺ مواصلة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٥٧، ومسلم ٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٦٣.

(٤) أخرجه البخاري ١٩٦٥، ومسلم ٥٧.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٨٠٦/٢، ١٨٠٧.

(٦) شرح صحيح مسلم ٨١٢.

الصوم، فيصوم يومين متتالين لا يفطر إلا في نهاية اليوم الثاني، ولم يؤذن لأحد من أمته في ذلك، والوصال من الخصائص التي اختص الله بها رسول الله ﷺ، وذلك لكماله الذاتي والروحي)[١].

رابعاً- من أهداف الدعوة: التيسير وعدم المشقة على الناس:

إن تحريم الوصال في الصيام ونهيه ﷺ عنه "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال" من مظاهر تيسير الشريعة الإسلامية وعدم المشقة على الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٣]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[٤] ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله شرع الأحكام سهلة ميسرة على العباد، فما من عمل من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهو في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه[٥]. ولقد وصف الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٦] فجاءت شريعته ﷺ مبنية على التيسير والسهولة والتخفيف والرحمة، ورفع الحرج والآصار والأغلال، مما يلائم اختلاف الأجيال وحاجات العصور وشتى البقاع[٧]. وبذلك تميز الإسلام عن غيره من التشريعات بأنه دين الحنيفية السمحة، وللشرع مقاصد، منها المقاصد العامة، وهي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، ويدخل في المقاصد العامة أوصاف الشريعة "مثل الفطرة والسماحة واليسر" وغايتها العامة "درء المفاسد

---

(١) انظر: هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب، أبوبكر جابر الجزائري، ص ٣٨٧.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٤) سورة النساء،آية: ٢٨.

(٥) انظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام، ١٠.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٧) موسوعة نضرة النعيم، ٥٠٧/١.

وجلب المصالح" وقال ﷺ: ((وإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه))[1]. ومعنى الحديث أن العبادة ميسرة، والمبالغة فيهالا تعني أن المرء يستطيع بلوغ حد الكمال[2].

(١) أخرجه البخاري ٣٩.

(٢) اليسر في القرآن الكريم، رأفت كامل عيد السيوري، ٨٩.

الحديث رقم (١٧٦٧)

١٧٦٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: نَهَى رسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الوِصَالِ. قالوا: إنَّكَ تُواصِلُ؟ قَالَ: ((إنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى)). متفق عَلَيْهِ[١]. وهذا لفظ البخاري.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن توجيه النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم تتنوع أساليبه، وتتعدد مداخله، وتتشكل طرقه حسب السياق، والموقف، والمناسبة، وهذا الحديث صورة مشرقة، وأسلوب مضيء من أساليب المصطفى ﷺ في إرساء دعائم سنته، ومعالم العقيدة، وأسس العبادة.

ويبدأ الحديث بأسلوب خبري يتمثل في إرساء القاعدة الشرعية وهي أنه "نهى عن الوصال".

ثم فجأة يظهر في أفق الحديث صوت جماعي: وهو صوت بعض الصحابة رضي الله عنهم، "قالوا: إنك تواصل"، وفي هذا الإخبار المواجه لرسول الله ﷺ إيجاز وإيحاء، وهو ليس اعتراضاً من الصحابة رضي الله عنهم، ولكنه رغبة في توضيح الموقف، وتقدير الكلام، إنك تواصل، ونحن مأمورون بالاقتداء بك في ذلك، فكيف لا نواصل؟ ويوضح الموقف رسول الله ﷺ، ويزيل الشبهة، وينير الطريق أمام صحابته رضي الله عنهم والمسلمين جميعاً، ويؤكد أن له خصوصية فقال: "إني لست مثلكم" في هذا الشأن، ثم أعاد التأكيد مرة أخرى، وقال: "إني أطعم وأسقى"، والبناء للمجهول هنا في هذين الفعلين يفيد بأن الذي يطعمه ويسقيه هو ربه جلَّ وعلا، وقيل إن هذا كناية عن جعل القوة فيه: أي أن الله تعالى يجعله في قوة الطاعم والشارب، وفي رواية يأتي الفعلان مبنيان للمعلوم حيث يقول: إني

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٢) واللفظ له، ومسلم (٥٥/١١٠٢).

أبيت يطعمني ربي ويسقيني، والدليل على ذلك أن جسمه ﷺ كان يُرى أشد نضارة من المترفهين بالنعم الدنيا، وكان يتألم من الجوع أحياناً: ولكن كل من رآه لا يظن به جوعاً.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من خصائص التربية الإسلامية: التوازن

تميزت التربية الإسلامية، بالتوازن الذي يجمع بين الشيء ومقابله في اتساق وتناسق، بلا غلو ولا تفريط، من ذلك التوازن بين حق الجسم وحق الروح، فلا حرمان للجسم يصل إلى حد التعذيب كما في البرهمية الهندية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهبانية المسيحية ونحوها، ولا إغفال لأمر الروح كما هو في اليهودية إلى حد كبير في المذاهب المادية التي لم تعترف للروح بوجود فضلاً أن يكون لها حق[1].

والتوازن في القيم الإسلامية جعلها تجمع بين الدنيا والآخرة فلا إفراط ولا تفريط، فلا يطغى الإنسان بما أعطى ويترك الأخرة، ولا يعرض عن الدنيا ويحتقرها ويعيش عيشة الرهبان، بل إن فيه نزعة مادية وروحية، فهو عبارة عن جسم يطلب حقه مما خرج من الأرض من متاع وزينة وعنصر روحي يتمثل في الروح التي تتطلع إلى هداها من السماء.

وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم، وحق ربهم، بين متعة البدن، ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلوًا في جانب قوّمه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط[2]. من أجل ذلك التوازن جاء حديث أبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهما، «أن النبي ﷺ نهى عن الوصال»

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: «نَهى رسولُ الله ﷺ عنِ الوِصالِ، قالوا: إِنكَ تُواصِلُ، قال: إِني لستُ مِثْلَكم، إِني أُطْعَمُ وأُسقى».

فالصيام من أفضل العبادات وأقربها إلى الله، ولكن الوصال فيه إفراط في التعبد على حساب الجسم، من أجل ذلك نهى النبي ﷺ عن الوصال في الصيام لإقامة التوازن بين مطالب الدين والدنيا.

---

(١) انظر: مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص١٠٨، ١٠٩، نقلًا، عن القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع بن محمد بن علي المانع، ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) انظر: الخصائص العامة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص١٤٠- ١٤٤.

ولما رأى النبي ﷺ في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام على حساب جسمه وأهله، ومجتمعه قال له: «فإنَّ لجسدكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَوجكِ عليكَ حقًا، وإنَّ لزَورِكَ عليكَ حقًا»[1].

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا. قال لهم: «أَمَا وَاللَّهِ إِني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكِنِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني»[2].

وهكذا تعلم الصحابة رضي الله عنهم أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وان يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة[3].

ومما سبق يتبين أن التربية الإسلامية تتسم بالتوازن، فهي تربية متوازنة في روحها وتوجيهاتها حيث تعمل على بناء الإنسان المتوازن الموضوعي في أقواله وأفعاله وسلوكياته التي يتعامل من خلالها مع الناس، ولاشك أن التربية المتوازنة تعمل على ترسيخ المبادئ والقيم في حياة المسلم، ولاشك أن التوازن مطلب حياتي للإنسان، لأنه سبب من أسباب الالتزام والمواظبة على الطاعات والسلوكيات الحميدة، ومن ثم فإن التوازن يجنب المسلم الملل والنفور، وهذا أمر تربوي مهم للغاية.

فعلى المربي أن يحرص على بيان أهمية التوازن بين مطالب الجسد والروح، لأن الإنسان عندما ينحرف بطاقة من طاقاته على حساب البقية، فإنه يترتب على ذلك اختلال في الشخصية وجهل بمبادئ الإسلام، وعدم إدراك لأهدافه السامية، وغاياته الإنسانية، ولذا نجد الإسلام يحرص أشد الحرص على تحقيق التوازن ويجعله هدفًا أساسيًا في منهجه[4].

---

(١) أخرجه البخاري، ١٩٧٥، ومسلم، ١١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري، ٥٠٦٣.

(٣) انظر: الخصائص العامة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص١٤٤- ١٤٧.

(٤) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط٦، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١/٢٦-٢٩.

إن التربية الإسلامية تحقق توازنًا بين النظرية والتطبيق، وتوازنًا بين الحياة الدنيا والآخرة، وتوازنًا بين أشواق الفرد الروحية وتلبية حاجاته المادية والاجتماعية، وهذا التوازن في التربية الإسلامية يجعلها أقرب ما تكون إلى طبيعة الأشياء، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

فالتربية الإسلامية ليست تربية مادية فقط، ولا تربية روحية فقط. مثل بعض التربيات التي تضحي بالجسد لحساب الروح أو التي تهتم بتنمية العقل على حساب الروح، ولكنها مزيج متوازن بين الجوانب الروحية والمادية بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

ومن مظاهر التوازن في الإسلام يأتي حق النفس على الإنسان: أن يروح عنها وأن يعطيها من الراحة والأمن والطمأنينة والغذاء والتسلية والهدوء في حدود ما أباحه الله، والإسلام لا يرضى إرهاق النفس في طلب العبادة[٣].

ثانيًا: الحوار الإقناعي:

من أساليب التربية الفعالة أسلوب الإقناع، وقد كان رسول الله ﷺ يحاور في سبيل الإقناع وإقامة الحجة من ذلك حواره ﷺ مع الصحابة عندما نهاهم عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل. قال: (إني لست مثلكم، وإني أطعم وأسقى) فهذا الحوار النبوي الذي يبين فيه ﷺ سبب مواصلته ﷺ بأن الله خصه بما لم يخصهم به.

فالحوار الإقناعي في التربية الإسلامية من الوسائل الناجحة لإقناع من يوجه إليهم الحوار، وهو وسيلة ناجحة في التدريس، إذ أنه وسيلة للتعليم والإقناع، وإلزام الخصم بالحجة[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٧٦، ٧٧.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن النحلاوي، ص١٨٧، ١٨٨.

٣٤٧- باب تحريم الجلوس عَلَى قبر

الحديث رقم (١٧٦٨)

١٧٦٨- عن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((لأنْ يَجْلِسَ أحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ، فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الجمرة: القطعة الملتهبة من النار[٢].

الشرح الأدبي

إن للقبور حرمتها في الإسلام، وهذه الحرمة يجب أن تصان، صوناً لكرامة الميت، وحرصاً على طهارة المكان، لأن المارّ على القبور يلقي السلام على أرواح الذين رحلوا إلى الآخرة: قائلاً: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحْن اللاحقون، والقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وأسلوب الحديث الشريف يجنح إلى الترهيب والوعيد الذي ينذر كل من يجلس على القبر لقضاء الحاجة: البول أو الغائط: بالعذاب الشديد.

وهذا العذاب لم يقدمه البيان النبوي تقديماً مباشراً في صورة تقريرية جازمة، ولكنه قدَّمه في إطار فني مشوق يدعو للرهبة والخشية، حيث بدأ الحديث بالمصدر المؤول: وهو قوله "لأن يجلس أحدكم"، والتقدير: جلوس أحدكم، واللام في أول هذه الجملة تشعر بالقسم وكأنه يقول: والله لأن يجلس أحدكم.

---

(١) برقم (٩٧١/٩٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥٢٢٧).

(٢) الوسيط في (ج م ر).

ولنتأمل: مكان الجلوس: وهو قوله: "على جَمْرة": وهل يطيق أحد الجلوس على الجمر المشتعل؟ وتداعيات الجلوس وآثاره تتجسد في اكتمال الصورة من خلال قوله: "فتحرق ثيابه فتخلص إلى جسده"، والعطف بالفاء في الجملتين يفيد سرعة حرْق الثياب وحرْق الجلد، واستمرار ذلك..، إن هذه الصورة الرهيبة، وهذا الحدث الجلل حرْق الثياب، وحرْق الجلد، والجلوس على الجَمْر، هي إنذار لكل من تسول له نفسه بانتهاك حرمات الموتى، فكأن الجلوس على القبر والتبول، والتغوط عليه أو بجواره أشد من الجلوس على النار.

ولذلك يأتي تمام الجملة الحديثية ليكشف عن مقصد الحديث في هذا الأسلوب الترهيبي التصويري البليغ: حيث يقول رسول الله ﷺ: خير له من أن يجلس على قبر: والجلوس ليس محرَّماً لذاته، ولكن لما يتسبب عنه من إيذاء وأفعال منكرة محرمة، والله أعلم.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على حكم الجلوس على القبر، وقد سبق بيان هذا الحكم في الحديث رقم (١٧٥٩) من الكتاب، فلا حاجة بنا إلى التكرار.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عدم الجلوس على القبر.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التمثيل.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عدم الجلوس على القبر:

أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، فلا يجوز أن يُؤْذى إنسان في حضرته ولا أن يُهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول، فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو السنان، وبذلك حافظ الإسلام على كرامة الإنسان وحماها من الإهانة.

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته، فكفل له الاحترام بعد مماته[١].

ومن ألوان الاحترام وأشكاله للميت نهى الإسلام عن الجلوس على قبره، ورهب من ذلك كما جاء في الحديث في قوله ﷺ "لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر".

قال القرطبي: (وقوله: "لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه خيرٌ له من أن يجلس على قبر" اختلف في معناه: فمنهم من حمله على ظاهره من الجلوس، ورأى أنَّ القبر يُحترم كما يحترم المسلم المدفون فيه، فيعامل بالأدب، وبالتسليم عليه، وبغير ذلك. ومنهم من تأوله: على أنه كنايةٌ عن إلقاء الحدث في القبور، وهو تأولُ مالك. ولاشكَّ في أن التخلّي على القبور وبينها ممنوعٌ، إما بهذا الحديث، وإما بغيره، لحديث الملاعن الثلاث، فإنه مجلسُ الزائر للقبر، فهو في معنى التخلّي في الظلال، والطرق، والشجر المثمر، وغير ذلك، ولأن ذلك استهانةٌ بالميت المسلم، وأذى لأوليائه الأحياء[٢].

قال النووي: (قال أصحابنا: القعود على القبر حرام وكذا الاستناد إليه والاتكاء عليه[٣] وذلك لما فيه من انتهاك حرمة الميت[٤] والاستخفاف بحق أخيه المسلم[٥]. ولبيان مدى حرمة القبر ومدى إثمه والترهيب من ذلك، قال النبي ﷺ "لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على القبر". إذ أن القبر محترم شرعاً توقيراً للميت[٦].

قال ابن عثيمين: (وهذا يدل على التحريم، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجلس على قبر

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٧.

(٢) المفهم ٢/٦٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ٦١٨.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ص ١٧٤١.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٣/٢٨١.

(٦) الموسوعة الفقهية ٣٢/٢٤٥.

مسلم، وإذا أراد أن يجلس فيجلس من وراء القبر، يجعل القبر خلف ظهره أو عن يمينه أو عن شماله، وأما أن يجلس عليه فهذا حرام)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: التمثيل:

ورد ذلك في بيانه ﷺ لمدى إثم الجلوس على القبر وامتهان حرمته، وأن الجلوس على جمر من نار خير من ذلك فقال ﷺ "لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر" فجعل الجلوس على القبر وسراية مضرته إلى قلبه -وهو لا يشعر- بمنزلة سراية النار من الثوب إلى الجلد ثم إلى داخله[٢]. وفي ذلك ضرب للمثل، وذلك تقريباً إلى الأفهام، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية[٣]، ولقد كان رسول الله ﷺ يستعين على توضيح المواعظ بضرب المثل، مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ويقع تحت حواسهم، وفي متناول أيديهم، ليكون وقع الموعظة في النفس أشد، وفي الذهن أرسخ)[٤]، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ ((مَثَلُ المؤمنِ الذي يَقرأ القرآن كالأترُجةِ ريحُها طيبٌ وطعمُها طيبٌ، والذي لا يقرأ كالتَمرةِ طعمُها طيبٌ لا رِيحَ لها، ومثلَ الفاجِرِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمثل الرَّيحانةِ رِيحُها طيبٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي لا يَقرأ القرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طعمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها))[٥].

إن الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فتقبله العقول، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة. ويضرب المثل للترغيب في الممثل به حين يكون مما ترغب

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٨٠٧/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٨١/٣.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٣٣١.

(٤) التربية النبوية، عثمان قدري مكانسي، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٥) أخرجه البخاري ٥٠٢٠، ومسلم ٧٩٧.

فيه النفوس، ويضرب المثل للتنفير حينما يكون الممثل به، مما تكرهه النفوس، ويضرب المثل لمدح الممثل به، ويضرب المثل حين يكون المُمَثَّلُ به فيه صفة يستحقها الناس[١]. أو تصوير المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد.

ومنها: إن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر، وإيقاظ النفوس، وتجديد نشاطها، فالإنسان يميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال، لما يرى فيها من جمال حكمتها، ولطافة لفظها، وإصابتها المعنى[٢].

ومنها: إن الأمثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل، إنما هو في الحقيقة يقيس الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ومسلم به عند من يخاطبه، ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم.

وقد استعمل رسول الله ﷺ المثل وسيلة من وسائل التربية بنواحيها المختلفة: الروحية والخلقية والاجتماعية والجسدية والعلمية والإيمانية والنفسية[٣].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

لقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من ترهيبه ﷺ من الجلوس على القبر وبيَّن ﷺ أن الجلوس على الجمر خير من ذلك، والترهيب يعد من الأساليب الدعوية الناجعة في تخويف المدعو وحمله على الامتثال لأمر الله ورسوله ﷺ، فهو يساعد الداعية على أن يتوغل في أعماق المدعو فيحمله على ترك ما رهب منه، (وعلى الداعية أن يكون حكيماً في أداء هذا الأسلوب، فلا يجعل حديثه كله ترهيباً...، بل يناوب بينه وبين الترغيب، حتى لا يطغى جانب القنوط على جانب التمني والرجاء)[٤].

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ص ٣٤٢.

(٢) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبدالغني محمد، ص ٢٩٩.

(٣) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص ٤٢٤.

(٤) الدعوة الإسلامية، محمد خير رمضان يوسف، ١٠١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على احترام القبر:

تهدف التربية الإسلامية إلى احترام الإنسان حيًا وميتًا، ومن احترام الإنسان ميتًا احترام قبره فلا يجلس عليه أو يوطأ بالنعال.

وقد كان من هدي رسولنا الكريم ﷺ أن لا تهان القبور وتوطأ، وألا يُجلس عليها[١].

لذلك قال ﷺ: «لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَىٰ جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ قَبْرٍ».

ومما يدل على احترام القبر نهي رسول الله ﷺ عن المشي في الحذاء بين القبور، فعن بَشِيرٍ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ اسْمُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ زَحْمُ بنُ مَعْبَدٍ، فَهَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا اسْمُكَ؟ فقالَ زَحْمٌ، قالَ: بَلْ أَنْتَ بَشِيرٌ قال: « بَيْنَمَا أَنَا أُمَاشِي رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فقالَ: لَقَدْ سَبَقَ هؤُلاَءِ خَيْرًا كَثِيرًا ثَلاَثًا، ثُمَّ مَرَّ بِقُبُورِ الْمُسْلِمِينَ فقالَ: لَقَدْ أَدْرَكَ هؤُلاَءِ خَيْرًا كَثِيرًا، ثُمَّ حَانَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَظْرَةٌ فَإِذَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي الْقُبُورِ عَلَيْهِ نَعْلاَنِ، فقالَ يَاصَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ[٢]: وَيْحَكَ أَلْقِ سِبْتِيَّتَيْكَ، فَنَظَرَ الرَّجُلُ، فَلَمَّا عَرَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَلَعَهُمَا فَرَمَى بِهِمَا»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»[٤].

ومن تدبر نهي النبي ﷺ عن الجلوس على القبر، والاتكاء عليه، والوطء عليه علم أن النهي إنما كان احترامًا لسكانها أن يوطأ بالنعال فوق رؤوسهم، ولهذا ينهي

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم، ١/٥٢٦.

(٢) السبت بالكسر؛ جلود البقر المدبوغة بالقرظ يتخذ منها النعال....، وإنما أمره بالخلع احترامًا للمقابر، لأنه كان يمشي بينها وقيل: لأنها بها قذر، أو لاختياله في مشيه، النهاية في غريب الحديث، ص٤١٢.

(٣) أخرجه أبو داود، ٣٢٣٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي دواد، ٢٧٦٧).

(٤) أخرجه البخاري، ١٣٧٤، ومسلم، ٢٨٧٠.

عن التغوط بين القبور، وأخبر النبي ﷺ أن الجلوس على الجمر حتى تحرق الثياب خير من الجلوس على القبر.

ومعلوم أن هذا أخف من المشي بين القبور بالنعال. وبالجملة: فاحترام الميت في قبره بمنزلة احترامه في داره التي كان يسكنها في الدنيا فإن القبر قد صار داره.

ومما يؤكد أهمية احترام الميت قوله ﷺ: «كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا»[1].

فدل على أن احترامه في قبره كاحترامه في داره، والقبور هي ديار الموتى، ومنازلهم، وعليها تنزل الرحمة من ربهم، فكيف يستبعد أن يكون من محاسن الشريعة: إكرام هذه المنازل عن وطئها بالنعال واحترامها؟ بل هذا من تمام محاسنها، وشاهده ما ذكرناه من وطئها، والجلوس عليها والاتكاء عليها[2].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

الترهيب من الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في أي زمان ومكان، لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير، فهو وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على القيام بسلوك غير مرغوب فيه[3].

وقد رهب رسول الله ﷺ من الجلوس على القبر فقال: «لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَىٰ جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ قَبْرٍ». وفي ذلك ترهيب شديد لمن يجلس على القبور.

وأسلوب الترهيب من أساليب التربية المهمة فهو يؤدي دورًا مهمًا في سلوك الأبناء خاصة إذا أُحسن استخدامه، وإذا أدرك الأبناء من خلال هذا الأسلوب النتائج التي يمكن أن تترتب على سلوكهم غير المقبول[4].

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٠٧، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود، ٢٧٤٦).

(٢) انظر: جامع الفقه "موسوعة الأعمال الكاملة للإمام ابن القيم"، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه، يسري السيد محمد، ٥٠٥/٢-٥٠٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية/محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤.

(٤) المرجع السابق، ص٨٥.

٣٤٨- باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه

الحديث رقم (١٧٦٩)

١٧٦٩- عن جابر رضي الله عنه قَالَ: نَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّصَ القَبْرُ، وأنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأنْ يُبْنَى عَلَيْهِ. رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يجصص القبر: يطلى القبر بالجص، وهو من مواد البناء[٢].

الشرح الأدبي

يلتقي هذا الحديث مع الحديث السابق في وجوب صيانة القبور، ووجوب الحفاظ على حُرْمتها، ولكن هذا الحديث يعد خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرويه جابر رضي الله عنه، والحديث يتضمن جملة واحدة كلية، وهي تتكون من الفعل: نهى، والفاعل: وهو الذي أصدر النهي: وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حيثيات النهي: وهي متعلقات الجملة، وتتمثل في الظواهر المنهي عنها، وهي ترد في ثلاث جمل فرعية تنبثق من الجملة الكبرى، وهذه الظواهر كما وردت في الحديث: "أن يجصص القبر"، "وأن يقعد عليه"، "وأن يبني عليه"، والصياغة في هذه الجمل تتسم بالتوازن اللغوي، والتنسيق البنائي، فالجمل الثلاث كلها صيغت في إطار لغوي موحد، وهو المصدر المؤول: المكون من أن المصدرية والفعل المضارع المبني للمجهول، ثم حذف الفاعل في الجمل الثلاث، وصيغة البناء للمجهول تشير إلى أن النهي ليس صادراً لمن يبني أو يقعد أو يجصص القبر، ولكن النهّي عام وشامل للفعل نفسه وللفاعل، وهذه الصياغة تفيد العموم حيث لا يرتبط

---

(١) برقم (٩٤/٩٧٠).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ص ص).

النهي عن هذه الظواهر بزمن محدد، ولا بمكانٍ بعينه، ولا بيئة دون أخرى، وإنما هي قاعدة شرعية يجب اتباعها في كل زمان ومكان، مهما اختلفت البيئات، وتغيرت الأزمان، وهذه الشمولية مع الإيجاز الشديد، والإيحاء المتمَوج بالمقاصد والمعاني السامية: من أسرار بلاغة البيان النبوي، وقوة التأثير والإقناع.. مع الوضوح والبعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- حكم تجصيص القبر: ومعنى تجصيص القبر، أي تبييضه بالجص، وهو الجير.

وقد ذهب جمهور الفقهاء[1] إلى كراهة تجصيص القبر، وذلك لأن هذا التجصيص إنما هو زينة، وخيلاء، وليس الموت موضع واحد منهما.

ولأن تجصيص القبر بدعة، إذ إن المسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار لم يكونوا يجصصون القبور[2].

وذهب الظاهرية[3] إلى أن تجصيص القبور حرام، واستدلوا على ذلك بظاهر الأحاديث التي تنهى عن تجصيص القبور.

والراجح -والله أعلم- هو رأي الجمهور القائلين بالكراهة.

٢- حكم القعود على القبر: وقد تقدم بيان حكمه في الحديث رقم (١٧٥٩) فلا حاجة بنا إلى التكرار.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٠٩/٢، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٣٦/٢، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٠٥/١، الثمر الداني ٢٧٥/١، وكفاية الطالب الرباني ٥٣١/١، والمهذب ١٣٨/١، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢٨٩/٢، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٢٧٣/٢، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ١٧٠/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٢٥٣/١.

(٢) الأم، الإمام الشافعي ٢٧٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٢٥٣/١

(٣) المحلى، ابن حزم ١٣٢/٥.

٣- حكم البناء على القبر: اختلف الفقهاء في حكم البناء على القبر: فذهب الجمهور[١] إلى أن البناء على القبر مكروه، وذلك لأنه زينة لا حاجة للميت إليها، ولما فيها من تضييع المال بلا فائدة[٢].

وذهب الظاهرية[٣] إلى أن البناء على القبر حرام، وإذا بني وجب هدمه.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على اتباع السنة في عدم تجصيص القبور والبناء عليها وكذلك القعود عليها.

ثانياً: من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال وعدم الإسراف والحث على التواضع.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على اتباع السنة في عدم تجصيص القبور والبناء عليها وكذلك القعود عليها:

إنه ينبغي على المسلم اتباع السنة وما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ومن ذلك ما جاء في بيان حكم تجصيص المقابر والبناء عليها والجلوس عليها، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه" وفي ذلك نهي عن تعظيم القبور بتجصيصها والبناء عليها، والتجصيص كما قال المحلي: هو التبييض بالجص وهو الجير[٤]، قال ابن عثيمين: (حرم الجلوس على القبر، لأن القبر فيه إنسان مسلم محترم، وجلوسك عليه إهانة له، مثل ذلك الغلو في

---

(١) البدائع ٣٢٠/١، وتحفة الفقهاء ٢٥٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٤٢/٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٤٢٥/١، وحاشية الشرواني ١٩٦/٣، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة ٢٧٠/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٩٣/٢.

(٢) تحفة الفقهاء ٣٢٠/١، والبدائع ٣٢٠/١.

(٣) المحلى، ابن حزم ١٣٣/٥.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٠/٣.

القبور، ولهذا نهى ﷺ أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه، لأن تجصيصه يعني تفخيمه، وتعظيمه يؤدي إلى الشرك به، وكذلك البناء[١]. وقد جاءت الأحاديث آمرة بتسوية المقابر فعن ثمامة بن شُفَيٍّ قال كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٢]. وعن أبي الهياج الأسدي قال قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)[٣].

قال القرطبي: (ووجه النهي عن البناء للقبور ونحوه كالتجصيص وغيره، أن ذلك مباهاة، واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبُّه بمَنْ كان يُعظِّم القبور ويعبدها، وباعتبار هذه المعاني، وبظاهر هذا النهي، ينبغي أن يقال هو حرام، كما قد قال به بعض أهل العلم)[٤].

ثانياً- من أهداف الدعوة: الحفاظ على المال وعدم الإسراف والحث على التواضع:

وذلك ما نلحظه في نهيه ﷺ عن تجصيص المقابر أو البناء عليها، حفاظًا على المال وعدم الإسراف، فعن جابر رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه. قال الطيبي: (وذلك منهي عنه لانعدام الفائدة فيه، ولأنه من صنيع الجاهلية)[٥]. وقال عميرة: وحكمة النهي التزيين، وزاد إضاعة المال على غير غرض شرعي[٦]، وذلك أيضاً مناف للتواضع الذي ينبغي مراعاته في المقابر، ولله در القائل:

---

(١) شرح رياض الصالحين ج٢/١٨٠٧.

(٢) أخرجه مسلم ٩٦٨.

(٣) أخرجه مسلم ٩٦٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٦٢٦، ٦٢٧.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣/٣٨١.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣/٢٥٠.

أرى أهــل القــصور إذا أُميتــوا بنــوا فــوق المقــابر بالــصخور
أبــوا إلا مباهـــاة وفخـــراً علــى الفقــراء حتــى في القبــور[١]

إضافة إلى ما في ذلك من إضاعة للمال والإسراف فيه، ولقد جاءت شريعة الإسلام هادفة إلى حفظ الضرورات الخمس والتي منها المال. قال الشاطبي: (ومجموع الضروارت خمس وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت، لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين)[٢] قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[٣] وذكر من أصناف عباد الرحمن بُعْدَهم عن الإسراف: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾[٤].

قال ابن كثير: (أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا)[٥]. وذلك في المباحات، فما بالنا بمن يضع أمواله في أبواب نهى عنها الإسلام كتجصيص القبور والبناء عليها، قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً[٦].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/٢٠/١٧٠.
(٢) الموافقات ٢/٨-١٠.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٣١.
(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥/١٢٨.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٣/٢١٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الالتزام بالسنة النبوية في التعامل مع القبور:

تعد السنة النبوية المصدر الثاني - بعد القرآن الكريم - للتربية، فهي مصدر عظيم من مصادر التربية الإسلامية، فكل ما صدر عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات يعتبر من القيم التربوية، لأن السنة حجة، وواجب على المسلمين الاتباع لكل ما صدر عن النبي ﷺ بصفته رسول الله ﷺ، وكان مقصودًا به التشريع والاقتداء، وما صدر عن طبيعته البشرية فهو قيمة تربوية ملزمة إذا قام دليل يدل على أن المقصود من فعله الاقتداء، وقيمة تربوية غير ملزمة إذا كان غير ذلك، فهي قيم تخضع للاختيار أما ما ثبت بدليل يقصد به التشريع فهو قيمة تربوية ملزمة وسنة واجبة الاتباع[(١)].

فالسنة النبوية المطهرة مصدر يزخر بالقيم التربوية الإسلامية الكثيرة، وحياة النبي ﷺ كلها مواقف نبيلة، والمجتمع الإسلامي الذي عاصر النبي ﷺ لا مثيل له في التاريخ، ولأن السنة النبوية المطهرة مصدر تشريعي لهذه الحياة قامت بالتوجيه ملازمة للقرآن الكريم، واعتبارها مصدرًا رئيسًا للقيم التربوية بعد القرآن أمر لازم وضروري ومهم وواجب اشتقاق القيم منها ومن القرآن الكريم[(٢)(٣)].

فالتربية على اتباع سنة النبي ﷺ والتزام ما بها في كافة مناحي الحياة أمر واجب على جميع من يقومون بالتربية الإسلامية حتى يلتزم المسلمون بالهدي النبوي في جميع أحوالهم وشؤونهم، ومن ذلك الالتزام بالهدي النبوي في التعامل مع القبور.

فلم يكن من هديه ﷺ تعليةُ القبور ولا بناؤهُا بآجر، ولا بحجر ولبن، ولا تشييدها ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها، فكل هذا بدعة مكروهة، مخالفة

---

(١) انظر: علم أصول الفقه، د. عبدالوهاب خلاف ص ٤٣، ٤٤. وانظر: القيم الإسلامية والتربية، د. علي أبوالعينين ص ٦٤، ٦٥.

(٢) انظر: القيم الإسلامية والتربية، د. علي أبو العينين ص ٦٥.

(٣) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع بن محمد بن علي المانع ص ١٨١.

لهديه ﷺ، وقد بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن، ألا يدع تمثالاً إلا طمسه، ولا قبرًا مشرفًا إلا سواه[١].

فسنته ﷺ تسوية هذه القبور المشرفة كلها، ونهى أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه، وأن يكتب عليه[٢].

وكانت قبور أصحابه لا مشرفة، ولا لاطئة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبيه، فقبره ﷺ مسنم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء لا مبني ولا مطين، وهكذا كان قبر صاحبيه[٣][٤].

وكان هديه ﷺ ألا تهان القبور وتوطأ، وألا يجلس عليها ويتكأ عليها[٥]. ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها[٦]. وتتخذ أعيادًا وأوثانًا[٧][٨].

فالتربية الإسلامية التي مصدرها السنة النبوية تهدف إلى الاعتدال في التعامل مع القبور، فهي تؤكد على أهمية مراعاة حرمة القبور بعدم وطئها بالنعال، أو يجلس عليها، ويتكأ عليها، كذلك تهدف إلى عدم تعظيم القبور والمغالاة في تشييدها وتعليتها وعدم الصلاة إليها لئلا تتخذ مساجد.



---

(١) انظر: ما أخرجه مسلم، ٩٦٩، وأبو داود، ٣٢١٨.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٤/١.

(٣) انظر: ما أخرجه البخاري، ١٣٩٠، وأبو داود، ٣٢٢٠.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٥٢٤/١.

(٥) انظر: ما أخرجه مسلم، ٩٧١، وأبو داود، ٣٢٢٨.

(٦) انظر: ما أخرجه البخاري، ١٣٣٠، ومسلم، ٥٢٩.

(٧) انظر: ما أخرجه أبو داود، ٢٠٤٢.

(٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٥٢٦/١.

٣٤٩- باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده

الحديث رقم (١٧٧٠)

١٧٧٠- عن جرير رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

غريب الألفاظ:

أبق: هرب، وهو العبد الرقيق الذي يفر ممن هو في يده تمرُّدًا[2].

برئت منه الذمة: ضمانه وأمانته ورعايته[3].

الشرح الأدبي

إن الكرامة التي مَيَّز بها الله الإنسان، حيث فضله على جميع المخلوقات، يستحقها كل مخلوق يدرك حقوقه وواجباته، لا يميزه حسب أو جاه أو لون أو جنس، وقد أمر النبي ﷺ ألا ينادي السيد عبده بقوله: يا عبدي، وأن لا يقول العبد لمالكه: يا سيدي؛ بل يقول المالك: فتاي، وفتاتي، ويقول العبد: مولاي: أي: صديقي الذي أواليه وأنصره.

وفي ظل هذه الحقوق تكون الواجبات، التي يلتزم بها كل من كُلِّف بعمل، فلا يتهاون ولا يقصر، ولا ينكث، ولا يخلف الوعد، ولا يخون الأمانة.

وفي ظل هذه الحقوق كذلك، يشع المعنى في هذا الحديث الشريف، الذي جاءت صياغته الأسلوبية في قالب الشرط والجواب، وهي صياغة مناسبة لجو الحديث؛ فالعبد له حقوق، وعليه واجبات، فإذا أخذ حقوقه كاملة فعليه أداء ما يجب أن ينجزه من

---

(١) برقم (١٢٣/٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨١٨).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٩.

أعمال وطاعة، ومن أمارات هذه الطاعة: عدم الهروب؛ لأن في ذلك خيانة للأمانة، وتفريطاً في الواجب، ولذلك توعد رسول الله كل من يُقْدم على هذا السلوك بقوله: "فقد برئت منه الذمة"، ومعنى: "أبق": أي: هرب من غير خوف ولا كدّ، والذمة: العهد: أي: أن العبد الذي لم يظلمه سيده، ويهرب، ليست له حقوق، وفي اللغة: الذِّمام والذِّمة تدل على "الحق والحُرْمة".

والذمة: العهد والكفالة؛ وإسناد الفعل "بريء" للذَمة: تعبير مجازي، من باب المجاز المرسل؛ لأن الذمة لا تبرأ؛ وإنما صاحب الذمة وهو السيد هو صاحب الحق، وهو المتصرف، ولكن هذا التعبير أبلغ؛ فالذمة تغدو في سياق مخالفة العهد، وخيانة الأمانة، كائناً يحسّ وينفعل ويتحرك، ويبرأ من كل من لا يؤدي واجبه، ولا ينفذ شروط العقد، ولذلك جاء جواب الشرط مصدراً بـ"قد"، وهي للتأكيد والتحقيق؛ إيحاءً بالتهديد والترهيب، وتحذيراً من النكوص وإخلاف العهد، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين[1] من الفقه: تحريم إباق العبد من سيده[2]، أي: هروبه منه وذلك للوعيد الشديد على ذلك من براءة الذمة منه، أو عدم قبول الصلاة أو الكفر، كما في بعض الروايات.

بيد أن الكفر يحمل على المستحل لذلك[3]، ولا داعي لبحث ذلك بالتفصيل نظراً لعدم وجود الرقيق في وقتنا الحاضر.

---

(١) الحديث رقم (١٧٧٠)، (١٧٧١).

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٧٠/١، الفروع، ابن مفلح ٢٩١/١/٣، شرح صحيح مسلم، النووي ٥٨/٢، المحلى، ابن حزم ٦٩/٤، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢١٨/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٥٨/٢، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢١٨/٣.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإباق ونقض العهود والجحود.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من آداب المدعو: الالتزام بالعهود وعدم الجحود.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الوفاء وشكر الناس على معروفهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإباق ونقض العهود والجحود:

لقد أمر الإسلام بتحمل المسؤولية والالتزام بها وعدم الفرار منها مهما كان ثقلها، فكلٌ راع وكلٌ مسؤول عن رعيته، ومن ذلك قيام العبد تجاه سيده والوفاء بالتزاماته، وقياساً على ذلك التزام العامل بما اتفق عليه والتزم به من جهد، وعدم التهرب من العمل الواجب عليه، فإن التهرب من ذلك لون من ألوان نقض العهود، فقال ﷺ "أيما عبد أبق، فقد برئت منه الذمة" وفي رواية: "إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة" وفي رواية "فقد كفر" وفي ذلك ترهيب للعبيد من الإباق والتمرد، فذلك محرم لما فيه من إبطال حق السيد، وهو من عيوب الرقيق[2]. قال القرطبي: (قوله "فقد برئت منه الذمة" أي ذمة الإيمان وعهده وخفارته إن كان مستحلاً للإباق)[3].

قال الإمام المازري: (قوله ﷺ: "إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة" يحتمل أن يحمل على المستحل لذلك، فيكفر باستحلاله، فلا تقبل صلاته ولا غير ذلك منه، ويكون كنّى بالصلاة عن غيرها، وفيه أيضاً معنى خفي، وذلك أنه يحتمل أن يكون ذكر الصلاة لأنه منهي عن البقاء في المكان الذي يصلى فيه، لكونه مأموراً بالرجوع إلى سيده، فصارت صلاته في بقعة منهيٍ عن المُقام بها، تضارع الصلاة في الدار المغصوبة)[4].

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٧٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٧١).

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤/٢٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٥٦/١.

(٤) المعلم ٦٦/١.

قال النووي في شرح الحديث: (في قوله "فقد برئت منه الذمة" معناه لا ذمة له، قال الشيخ أبو عمرو: الذمة هنا يجوز أن تكون هي الذمة المفسرة بالذمام وهي الحرمة، ويجوز أن يكون من قبيل ما جاء في قوله "له ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أي ضمانه وأمانته ورعايته، ومن ذلك أن الآبق كان مصوناً عن عقوبة السيد له وحبسه، فزال ذلك بإباقه[1] أما قوله "لم تقبل له صلاة" وقال ابن علان: وقوله "فقد كفر" أي إن استحله أو من كفران نعمة السيد وعدم أداء حقه، فإن عمله من عمل الكفرة والجاهلية"[2] قال الشيخ ابن عثيمين: (وإنما كان هذا الترهيب لأن العبد مملوك للسيد في ذاته ومنافعه، فإذا هرب فقد فوت على سيده ذلك، وقد ورد الوعيد في هذا بثلاث عقوبات، فإنه يكون كافراً، وأن الذمة بريئة منه، وأنه لا تقبل له صلاة، فهذه ثلاث عقوبات والعياذ بالله)[3].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث واضحاً جلياً، حيث رهب النبي ﷺ من إباق العبيد وتمردهم ببراءة الذمة منه وبعدم قبول الصلاة، فقال ﷺ "أيما عبد أبق فقد برئت منه الذمة" وفي رواية "لم تقبل له صلاة" وفي رواية "فقد كفر" وأسلوب الترهيب من أعظم الأساليب الدعوية وأشدها تأثيراً في قلوب المدعوين، لما فيه من الوعيد والتهديد بالعقوبة، التي تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، وذلك ما يجعل الإنسان دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام[4].

والترهيب هو أحد ركني الموعظة الحسنة، قال ابن تيمية: (والموعظة الحسنة تجمع الأمر والنهي، ولهذا يجيء الوعظ في القرآن مراداً به الأمر والنهي بترغيب وترهيب،

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٤٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ج١٨٠٩/٢.

(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٥٧.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي يتعظون بها فينتبهون وينزجرون)[2] وقال ابن القيم في معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] العظة هي الأمر والنهي المعروف بالترغيب والترهيب[4].

ثالثاً- من آداب المدعو: الالتزام بالعهود وعدم الجحود:

إن من الآداب الواجب التخلق بها الالتزام بالعهود والوفاء بها، وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب احترام العهود والوفاء بالمواثيق[5]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[6] وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[7]. قال ابن كثير: (قال ابن عباس وغير واحد يعني بالعقود: العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال والعهود: ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[8] يعني بالعهود: يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حدَّ في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدّد في ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[9].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٥/٢.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٤) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٤٤٤/١.

(٥) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٢٠١.

(٦) سورة المائدة، آية: ١.

(٧) سورة النحل، آية: ٩١.

(٨) سورة المائدة، آية: ١.

(٩) سورة الرعد، آية: ٢٥.

وقال الضحاك: ("أوفوا بالعقود" قال ما أحل وما حرم، وما أخذ الله من الميثاق على مَنْ أقر بالإيمان بالنبي ﷺ والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام، وقال زيد بن أسلم "أوفوا بالعقود" قال هي ستة: عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين[١]؛ فيجب الوفاء بالعقود والعهود ما دامت توافق الشرع الشريف ولا تعارضه)[٢].

وكما أن الوفاء بالعهد والميثاق له آثاره الكبيرة، فإن نقض العهد والميثاق والجحود يترك آثاراً كبرى تؤدي بصاحبها إلى الخسران والبوار، كما جاءت الإشارة في الحديث إلى ذلك ببيان عاقبة جحود العبد لسيده وإباقه وتمرده عليه، فقال ﷺ "أيما عبد أبق فقد برئت منه الذمة" وفي رواية "إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة، وفي رواية فقد كفر".

ولقد جاءت النصوص مرهبة من نقض العهود، ذامة له، مبينة أن ذلك من أسباب الخسران، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣] ومن أسباب اللعنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[٤].

وجعل النبي ﷺ نقض العهود من خصال النفاق وخلاله، روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر))[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣/٧، ٨.

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ١/٦/٢٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧.

(٤) سورة الرعد، آية: ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤، ومسلم ٥٨ واللفظ له.

قال أبو العالية: (ست خصال في المنافقين إذا كانت فيهم الظُهْرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا)(١).

وقال ابن الجوزي: (إن نقض العهد من صفات الفاسقين)(٢).

وقال محمد بن كعب القرظي: (ثلاث خصال من كن فيه كن عليه: البغي والنَّكْث والمكر، وقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٣) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾(٤). وقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾(٥))(٦).

وذكر ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٧) أن من نكث يعني نقض هذا العهد فإنما يجني على نفسه وإياها يهلك فنكثُه عليه لا له)(٨). وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾(٩) شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٧/١.

(٢) زاد المسير ٥٦/١.

(٣) سورة فاطر، آية: ٤٣.

(٤) سورة يونس، آية: ٢٣.

(٥) سور الفتح، آية: ١٠.

(٦) ذم البغي لابن أبي الدنيا، تحقيق أبو اليزيد العجمي، ونجم عبدالرحمن خلف ص ٨٨.

(٧) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري وآخرين ٩٦/١٥.

(٩) سورة النحل، آية: ٩٢.

أو يبرم عقداً بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله محكماً، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوى ذلك الغزل فحلّته بعد إبرامه[١].

إن لنقض العهود من المضار والعواقب الوخيمة الكثير، ومن ذلك:

أ- أن من ينقض العهود والمواثيق يجلب لنفسه بغض الله والوعيد الشديد.

ب- تسلط الخلق عليه ونزع الثقة منه.

ج- يضر نفسه قبل أن يضر الآخرين.

د- أن نقض العهود من أمارات النفاق وصفات المنافقين.

هـ-يؤدي نقض العهود إلى تفكك المجتمع وشيوع البغضاء والفساد فيه.

و-كما يؤدي نقض العهود إلى تسلط الأعداء على المجتمع وسومهم إياه سوء العذاب[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الوفاء وشكر الناس على معروفهم:

إن في نهي رسول الله ﷺ العبيد عن الإباق وترهيبهم منه، دعوة إلى الوفاء وعدم الجحود والاعتداء على حقوق الغير، حتى يجعل الله لهم من رقهم وعبوديتهم سبيلاً، فقال ﷺ "أيما عبد أبق فقد برئت منه الذمة" فالوفاء قيمة إنسانية وأخلاقية عظمى، لأنه يرسي دعائم الثقة في الأفراد، ويؤكد أواصر التعاون في المجتمع[٣]، والوفاء صفة وسمة من سمات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٤] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري وآخرين ٢٢٦/١٠.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٦٤٤/١١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٣٦٣٩/٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[١] ففي الوفاء السعادة، وذلك في رضا الله ورضا الناس، وفي الجحود ونكران الجميل الشقاوة وسوء المصير، وجحود النعمة وترك الشكر للناس يؤدي إلى جحود نعمة الله، قال ابن الأثير (من كانت عادته وطبعه كفران نعمة الناس وترك شكره لهم، كان من عادته كفر نعمة الله عز وجل وترك الشكر له[٢] وسبب لإعراض الكرماء وصرف النعمة، يقال: إعطاء الفاجر يقويه على فجوره، ومسألة اللئيم إهانة للعرض، وتعليم الجاهل زيادة في الجهل، والصنيعة عند الكفور إضاعة للنعمة، فإذا هممت بشيء من هذا، فارْتَدِ الموضع قبل الإقدام عليه أو على الفعل)[٣].

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق محمد حامد الفقي ٥٦٠/٢.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٢٨٨/٣.

الحديث رقم (١٧٧١)

١٧٧١- وعنه، عن النبيِّ ﷺ: ((إِذَا أَبَقَ العَبْدُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ)). رواه مسلم[١].

وفي روايةٍ[٢]: ((فَقَدْ كَفَرَ)).

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

غريب الألفاظ:

أبق: هرَب من سيده [٣].

الشرح الأدبي

إن معيار الأفضلية في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح؛ حيث يقول الحق عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٤]؛ ففي ظل التقوى لا قيمة للأعراق والأحساب، ولا قيمة للثروة والأنساب؛ ولكن كل إنسان له حقوق وعليه واجبات؛ فالسيد أو رب العمل مسؤول عن رعاياه.. والأجراء الذين يعملون تحت إمرته، وكل عبد أو أجير أو عامل، عليه أن يتقن عمله، وأن لا يهمل الأمر المسند إليه، وأن لا يهرب، ولا يترك مكان العمل إلا بإذن صاحب العمل أو سيده.

ورسول الله ﷺ ينظم العلاقة بين العامل وصاحب العمل، ومن أسس هذه العلاقة: الالتزام والاتفاق، وعدم الهروب، والحرص على زيادة الإنتاج.

والحديث في صياغته اللغوية يفصح عن مبدأ الثواب والعقاب؛ حيث يتكون من جُملة واحدة، وهي "جملة الشرط والجواب"، وأداة الشرط "إذا"، وهي تفيد التحقق؛ فالجواب في هذا الحديث متحقق، وهو عدم قبول صلاة العبد؛ وذلك لتحقق الشرط،

---

(١) برقم (١٢٤/٧٠). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨١٩).

(٢) برقم (١٢٢/٦٨). أوردها المنذري في ترغيبه (٢٨٩١).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (أ ب ق).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وهو هروب العبد، ومعنى أبق العبد هرب، وفي القاموس المحيط: أبق العبد: أي: ذهب بلا خوف ولا كد عمل، أو استخفى ثم ذهب، فهو آبق وأبوق، ويقال: تأبَّق: أي: استتر، أو احتبس وتأثم.

والروايات الأخرى لجواب الشرط تفسر أبعاد الدلالة المرادة في الحديث الشريف، ومن هذه الروايات: "فقد كفر"، وهو من كفران نعمة السيد، وعدم أداء حقه، وفي رواية: "فقد حلّ دمه"، وهذا عقاب قاسٍ وصارمٍ، وفي رواية: "فقد أخل بنفسه"، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع المضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً-التربية على الالتزام بالقيام بالواجبات:

لقد حدد الإسلام ما على السيد تجاه عبده من حقوق وواجبات كذلك حدد ما على العبد تجاه سيده من حقوق وواجبات إذ أن كل حق يقابله واجب في الإسلام.

فإذا كان الإسلام أمر السيد بالإحسان إلى الرقيق كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1]. فأمر تعالى بالإحسان إلى المماليك، وبين ذلك النبي ﷺ فقال: «إنَّ إخوانكم خوَلُكم جعَلهمُ اللّهُ تحتَ أيديكم، فمن كان أخوهُ تحتَ يدِهِ فليُطعِمْهُ مما يأكلُ وليُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإن كلَّفتموهم ما يَغلِبُهم فأعينوهم»[2].

وقال ﷺ: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلاَ يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إلاَّ مَا يُطِيقُ»[3]، وقال ﷺ: «لا يَقُلْ أحدُكم : عبدي، أمَتي. بل لِيَقُلْ: فَتايَ وفَتاتي»[4].

فندب ﷺ السادة إلى مكارم الأخلاق، وحض عليها، وأرشدهم إلى الإحسان، وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا مزيَّة على عبيدهم، إذ الكل عبيد الله، والمال مال الله، لكن سخر بعضهم لبعض وملك بعضهم، إتمامًا للنعمة وتنفيذًا للحكمة[5].

فالإسلام يوجب على السادة القيام بواجبهم تجاه الذين تحت أيديهم من العبيد من طعام وكسوة ونفقه...إلخ، بما يحقق هدف الإسلام من العناية بهم والإحسان إليهم وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري، ٢٥٤٥، ومسلم، ١٦٦١.

(٣) أخرجه مسلم، ١٦٦٢.

(٤) أخرجه البخاري، ٢٥٥٢، ومسلم، ٢٢٤٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣١٥/٦.

في المقابل جعل الإسلام على العبيد واجبات تجاه سيدهم يجب عليهم أن يلتزموا بها ويقوموا بها على أكمل وجه، من أهمها ما يلي:

حق الطاعة فيما يأمر السيد أو ينهي ما لم يأمر بمعصية أو ينهي عن واجب.

كذلك عليه حق خدمة سيده في أي مكان شاء وأي عمل بشرط أن يكون في حدود ما يطيق الرقيق.

كما على الرقيق حفظ وصيانة مال سيده ورعايته[1] وغيرها من الواجبات، ومن أجل ذلك حرّم الإسلام إباق العبد من سيده فقال رسول الله ﷺ: «أيما عبد أبق، فقد برئت منه الذمة»، وقال ﷺ: «إذا أبق العبد، لم تقبل له صلاة».

وذلك لأن إباق العبد يؤدي إلى ضياع حقوق سيده وإلى ضياع الالتزامات التي تضعها الشريعة الإسلامية على عاتقه تجاه سيده.

فينبغي توجيه العبد والسيد إلى الالتزام بالقيام بالواجبات التي حددتها الشريعة عليهم.

وهذا هدف تربوي عظيم حيث تهدف التربية الإسلامية إلى تربية المسلمين عامة والناشئة خاصة على الالتزام بأداء ما عليهم من واجبات دون التنصل والهروب منها.

وهذا ما يجب أن يحرص عليه جميع المسلمين كل في مجاله وفي تخصصه، وإذا كان الإسلام قد عالج قضية الرق وحرر العبيد من خلال توسيع منافذ العتق، حتى تلاشى هذا الواقع الاجتماعي، وقد عالج النبي ﷺ تلك القضية الاجتماعية ببيان ما يجب على العبيد من واجبات تجاه سادتهم في تلك المرحلة التاريخية التي كان الرقيق يمثلون عصب الحياة، فقد رهّب النبي ﷺ من إباق العبد، بأن العبد الآبق لا تقبل صلاته، وهذا ما يؤكد على أهمية قيام الخدم والعمال بأداء ما يناط بهم من أعمال، وعدم التهاون في أداء الواجبات المنوطة بهم، وهذا يستلزم قيام كل فرد بواجباته الوظيفية وعدم الإخلال بها، لأن هذا مما يقدح في التزام المؤمن بالمبادئ والقيم الإسلامية.

---

(١) وانظر: في ذلك الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٣/١١-٢٤.

ثانيًا- التربية بالترهيب:

من أساليب التربية في هذا الباب أسلوب الترهيب حيث رهب النبي ﷺ الرقيق من الهروب من أسيادهم فقال: «أيما عبد أبق، فقد برئت منه الذمة»، وقال ﷺ: «إذا أبق العبد، لم تقبل له صلاة»، وهذا ترهيب شديد للعبد من الهروب.

والترهيب أسلوب تربوي يقصد به وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، وهو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده[1].

وهو أسلوب هام في التربية الإسلامية فلا غنى للمربي عنه حيث يستخدمه في ترهيب من يقوم بتربيتهم من الإتيان بالأشياء التي تخالف شريعة الله بأن ذلك يوجب عقاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، مما يجعلهم يلتزمون بأحكام ربهم وسنة نبيهم، ويعود إليهم رشدهم فلا يخالفون، ولا يتهربون، ولا يكابرون في ارتكاب المعاصي والذنوب رهبًا من العقاب وطمعًا في الثواب.



(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣١.

٣٥٠- باب تحريم الشفاعة في الحدود

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النور: ٢].

الحديث رقم (١٧٧٢)

١٧٧٢- وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ قُرَيْشاً أهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتي سَرَقَتْ، فقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فقالوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **((أتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى؟!))** ثُمَّ قَامَ فاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: **((إنَّمَا أهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))**. متفق عَلَيْهِ[1].

وفي روايةٍ[2]: فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: **((أتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟!))** فَقَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ المَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

أتشفع: من الشفاعة: التوسُّط في تخفيف العقوبة[3].

حدود الله: جمع حَدٍّ: الذنب الموجب للعقوبة[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٨٨)، وتقدم برقم (٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨/٩) واللفظ له.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ف ع).

(٤) المرجع السابق في (ح د د).

الشرح الأدبي

إن الحدود في الإسلام تحفظ الحقوق، وهي من بواعث انتشار الأمن، واستقرار المجتمع، وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[1]، وهذا الحديث الشريف يرسى قاعدة شرعية: وهي المساواة في إقامة الحدود؛ فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ومضمون الحديث يشع بمساواة الإسلام، وعدم التفريق بين الناس في إقامة الحدود، حتى لو كان السارق من أشراف قريش، وحتى لو سرقت فاطمة بنت محمد لقُطِعَتْ يدُها!

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث نجده يتضمن عدة ظواهر أسلوبية وفنية، ومنها: الحوار بين القرشيين حين أهمَّهم شأن المرأة المخزومية، والحوار ينبئ عن استكبار القرشيين، ورغبتهم في أن لا يقام الحد على "السارقة" من بني مخزوم، وثمرة الحوار كانت تكليفهم لأسامة بن زيد بالشفاعة عند رسول الله ﷺ؛ لأنه "حِبُّ رسول الله"، وأسلوب القصر مع الاستفهام يؤكد مكانة أسامة بن زيد عند رسول الله ﷺ؛ حيث قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؟

والنزعة القصصية تغلف أسلوب الحديث الشريف، وهو مشهد قصصي واقعي حقيقي، وتوالي حروف العطف -الفاء وثم- مع الحوار بين القرشيين، والحوار بين رسول الله وأسامة بن زيد، كل ذلك من سمات النزعة القصصية، ولنتأمل هذا الاستفهام الإنكاري المشع بكل أمارات رفض الشفاعة في حدّ من حدود الله، وذلك في قول رسول الله لأسامة: أتشفع في حد من حدود الله تعالى.

وأسلوب القصر في قوله ﷺ: "إنما أهلك الذين من قبلكم"، يفيد أن من أسباب الهلاك، بل يكاد يكون السبب الوحيد، هو: إقامة الحدّ على الضعفاء، والتسامح، وتعطيل الحدود، إذا كانت متعلقة بالأغنياء وأصحاب الجاه والثروات والأحساب، وذلك سر فناء الأمم، وهلاك الشعوب، وتكرار التأكيد في قوله: "إنما" وقوله: "أنهم".

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

يؤكد حرص رسول الله ﷺ على القضاء على أسباب الهلاك.

وأسلوب الشرط في الجملتين اللتين توضحان مصدر الهلاك وسببه، يفيد أن الهلاك محقق؛ لأن أداة الشرط "إذا" للتحقق واليقين "كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"، والقسم مع الشرط في الجملة الأخيرة يؤكد ثبات المبدأ، وعدم الإخلال بفريضة الحدود.

وهل بعد هذا القسم من رسول الله أي منفذ للتحايل أو تعطيل الحدود؟

"وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها"... متفق عليه، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: حرمة الشفاعة في الحدود، وحرمة قبول الشفاعة فيها[1] وذلك لما روى ابن عمر مرفوعاً: "من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فهو مضاد لله تعالى"[2].

ومحل عدم جواز الشفاعة في الحدود إذا ما بلغت الإمام، لأنها إذا بلغت الإمام تعلق بها حق الله تعالى، لذلك أنكر الرسول ﷺ على أسامة بن زيد حين شفع في المرأة المخزومية التي سرقت[3].

إلا أن الإمام مالك قد روي عنه في حد القذف خاصة روايتان: جواز الشفاعة، وعدمه بعد بلوغ الإمام، أما غيره من الحدود فيبقى على الحرمة عنده[4].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٥، رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣/٤- ٤، الشرح الكبير ٣٤٧/٤، الثمر الداني ٦٠٢/١، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١٩٤/٤، حاشية الشرواني ١٥٢/٩، دليل الطالب ٣٠٥/١، منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٧٣/١.

(٢) أخرجه أحمد ٥٣٨٥/٩، وأبو داود ٣٥٩٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح أهـ. وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢/٥.

(٤) كفاية الطالب الرباني ٤٣٧/٢، والثمر الداني ٦٠٢/١.

أما قبل بلوغ الإمام فإن الشفاعة تجوز في الحدود[١]، لأن وجوب الحد قبل بلوغ الإمام لم يثبت، لأن الوجوب لا يثبت بمجرد الفعل، وإنما يثبته الإمام[٢].

المضامين الدعوية[٣]

(١) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٥/٢١٢-٢١٣، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤/٣، ٤، والشرح الكبير ٤/٣٤٧، وكفاية الطالب الرباني ٢/٤٣٧، والمهذب ٢/٢٨٣، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٤/٦٥، ودليل الطالب ١/٣٠٥، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ١/٧٣.

(٢) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٥/٢١٢-٢١٣.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٥١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- الوقاية بإقامة الحدود:

إن إقامة الحدود وقاية للفرد والمجتمع من انتشار الرذائل، فهي وقاية للفرد لأنها قوة ردع وزجر من اقتراف الجرائم الخلقية والوقوع في حبائلها، وما يترتب على ذلك من العقاب، وهي وقاية للمجتمع لأنها تقلل نسبة الفساد الخلقي، إن لم تقض عليه تمامًا[١].

والشريعة الإسلامية تأمر بإقامة الحد على كل من ارتكب جريمة تدخل في جرائم الحدود، ومن أجل ذلك أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد رضي الله عنهما حينما كلمه في أمر المرأة المخزومية التي سرقت. فقال ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله تَعَالَى؟ ثُمَّ قَامَ فاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إنَّمَا أهلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

إن إقامة الحدود لها آثارها التربوية في كبح جماح النفس من إشباع غرائزها بما لم يأمر به أو يبيحه الشرع، وفي درء المفاسد الخلقية والوقاية منها بالحيلولة دون وقوعها. ومن يتربى في بيئة تطبق التشريع الإسلامي ينشأ كارهًا للرذيلة محبًا للفضيلة ويؤازر ذلك ويعضده انعدام عامل التشجيع للرذيلة والتشويق لها، بالإضافة إلى عامل التشجيع من المجتمع والأسرة، فتكون للفرد وقاية له من الوقوع في الجرائم والرذائل الخلقية[٢].

وذلك لأن أي مجتمع لاتطبق فيه الحدود فإنه يصبح مرتعًا خصبًا للفساد بمظاهره المختلفة، والذي ينظر إلى واقعنا المعاصر يجد الانحرافات الخلقية والمنكرات منتشرة في أكثر بلاد المسلمين، وسبب ذلك هو عدم إقامة الحدود الشرعية[٣].

فلو أقيمت حدود الله، وحيل بين الظلمة وبين تعديهم لما رجع المسلمون القهقري، وساروا إلى وراء، وسقطوا في الحضيض، واستحقوا من الله مقته، وتغيير ما أنعم به

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ٦٥.

(٣) المرجع السابق، ٧٢.

عليهم وهو لا يغير نعمة أنعم بها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

والواقع الصحيح أنها لا تُحْفظ الدماء والأموال والأعراض وتصلح البلاد، ويسود فيها الأمن والاطمئنان إلا بإقامة الحدود(١).

ومن هنا ظهر جليًا أهمية إقامة الحدود لوقاية المجتمع من الرذائل والمفاسد الأخلاقية.

ثانيًا- من أساليب التربية: التربية بالتأنيب التعليمي:

التأنيب من أساليب التربية عند الرسول ﷺ ويقتصر فيه على اللوم بالكلام أو العتاب الشديد، أو الإشعار بالخطأ، وتتفاوت لهجة الكلام فيه حسب نوعية الخطأ وشخصية مرتكبه، فقد يكون خطأٌ مَا، مدعاة لتأنيب شديد لشخص، في حين يكون التأنيب خفيفًا أو معدومًا لخطأ مثله، أو أشد منه، لشخص آخر وذلك حسب حالة كل شخص وطبيعته النفسية أو حسب الظروف المحيطة بالخطأ وملابساتها(٢).

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التأنيب التعليمي مع أسامة بن زيد حيث أنبه ولامه لشفاعته للمرأة المخزومية التي سرقت فقال له ﷺ: «أتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله تَعَالَى؟».

ثم علمه النبي ﷺ بأن ترك إقامة الحد على الشريف، وإقامته على الضعيف كان سببًا في هلاك الأمم السابقة.

أما الشريعة الإسلامية فلا يجوز فيها ذلك بل أن من سرق يقام عليه الحد أيًا كان شأنه، ولو كانت بنت أشرف الخلق محمد ﷺ فاطمة الزهراء أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إليه فحد الله لابد أن يطبق.

فقال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

---

(١) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم بن حسين الكدادي البيحاني ص ٣٣، ٣٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٤٦٤.

وفي رواية: فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّه ﷺ. فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ قال: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يدُهَا.

وأسلوب التأنيب التعليمي من الأساليب التي يستطيع المربي الإفادة منها، فإذا أخطأ أيًا من يقوم بتربيتهم كان له أن يوجه له التأنيب الذي يتناسب مع شخصية ونفسية كل شخص على حده، مع تعليمهم سبب التأنيب والحكم الصحيح للعمل.

ثالثًا- من أهداف التربية: غرس قيمة العدل في المجتمع الإسلامي:

العدل هو الذي يعطي حصانة القانون لكل فرد[1]. "ذلك أن سلب الحقوق الطبيعية لأي مخلوق إنما هو ظلم صريح[2]"، والظلم في تقسيم الحقوق وإعطاء كل ذي حق حقه يسبب البغضاء والتفكك في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية. وفي المجتمع الإسلامي لم يقبل الرسول ﷺ الشفاعة في حد من حدود الله وأنذر من يقبل الشفاعة "الوساطة" بمعاداة الله لأنه يضيع حقًا لذوي الحق[3]. فقال ﷺ: «إِنَّمَا أَهلَكَ الَّذِينَ قَبلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّه لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

فالعدل في المجتمع الإسلامي من أهم أهداف التربية وخاصة أن المجتمع في العصر الحديث تعددت مطالب أفراده، وارتقت حياتهم، وصارت هناك خدمات عامة تؤديها الحكومة ممثلة في مؤسساتها المختلفة، فكأن الحكومة صارت رمزًا للمجتمع العادل، وأقل تكليف للحكومة ألا تضع العراقيل أمام الأفراد في بلوغ ما يريدون من علم ورقي، وكسب مادي مشروع بل تيسر لهم ذلك، وتكون لها سلطة نافذة تحفظ بها حقوق الناس، وتردع الظلم.

وتتجلى عدالة المجتمع في ثلاثة جوانب: العدل في القضاء، والعدل في الحكم، والعدل الاجتماعي، أي العدل على أفراد توزيع الثروة في المجتمع وإتاحة الفرص

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ١٥٤.

(٢) الإسلام ومشكلات العصر، د. مصطفى الرافعي ص ٣٧.

(٣) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ١٥٤.

المتساوية لأبنائه في طرق الكسب المادي وفي الوضع المعنوي فلا يهضم حق فرد أو فئة إذا كان غير محسوب على فئات النفوذ والتكتلات الاجتماعية[1]، فالعدل هو الميزان لاستقرار وتقدم المجتمع.



(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ٤٠/٥٦، ٥٧.

٣٥١- باب النهي عن التغوط في طريق الناس
وظلهم وموارد الماء ونحوها

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[سورة الأحزاب:٥٨]

الحديث رقم (١٧٧٣)

١٧٧٣- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((اتَّقُوا اللاَّعِنَيْنِ)) قالوا: وَمَا اللاَّعِنَانِ؟ قَالَ: ((الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

اللاعنين: أي الأمرين الجالبين للعن[2].

يتخلى: أي يتغوط في موضع يمر به الناس[3].

الشرح الأدبي

إن المسلم يحرص على نظافة المكان، ونظافة البدن، ونظافة الثوب، والبيئة التي يتمتع الإنسان بظلالها، وأشجارها وطرقها وحدائقها، عليه أن يشارك في تجميلها، والتمتع بمباهجها؛ لأنها حدائق ذات بهجة، والماء من مصادر الحياة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[4].

---

(١) برقم (٦٨/٢٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٢٤٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٢٧٥.

(٣) المرجع السابق ٢٧٥.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

والحديث يتوعد باللعن كل من يؤذي الناس ويتغوط في طريقهم وظلهم، وموارد الماء ونحوها، ولذلك يؤكد الراوي الأعلى -أبو هريرة رضي الله عنه- الخبر الذي يرويه عن رسول الله ﷺ، فيبدأ الحديث بقوله: "إن رسول الله ... قال": وكلام رسول الله يجيء في صيغة الأمر، والأمر للوجوب؛ حيث قال: "اتقوا اللاعنين"، وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: اتقوا سبب اللعن من المذكورين، وقيل: نسب إليهما مبالغة في التحذير، وفي الحديث إشارة إلى أن التغوط في طريق الناس وظلهم: كأنه اللعن نفسه، وفي ذلك مجاز مرسل، من باب إطلاق السبب وإرادة المسبِّب، وقوله: اتقوا، أي: توقوا: وخذوا حذركم ووقايتكم؛ لأن هذا السلوك يؤدي إلى اللعن والطرد من رحمة الله عز وجل.

والتعبير في الحديث النبوي يتسم بالإيحاء، والابتعاد عن الألفاظ الفجة، والعبارات المستكرهة، وقوله: "يتخلَّى في طريق الناس أو ظلهم"، إشارة إلى التغوط في طريق الناس وأماكن قيلولتهم، وقوله: "يتخلى" مأخوذ من قول العرب: خلا المكان، خلوًّا وخلاء، وأخلى واستخلى، أي: فرغ، فالتعبير بهذا الفعل "يتخلى" يفيد القيام بالفعل في مكان خالٍ من الناس، ولكنه طريق للمشاة، أو ظل للمستريحين، ومن يفعل ذلك يستحق اللعن والطرد، وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: ((اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل))[1].

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: النهي عن التخلي في طريق الناس[2]، وفي ظلهم، وموضع اجتماعهم، لما في ذلك من إيذاء المسلمين بالنجاسة، والقذارة التي تترتب على ذلك[3].

---

(١) أخرجه أبو داود، ٢٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٢١).

(٢) حاشية الطحطاوي ٣٥/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٧٦/١، وشرح زبد ابن رسلان ٥٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦٣/١، المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٠٨/١.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٣٠/١.

والمراد بالتخلي: التفرد لقضاء الحاجة غائطاً أو بولاً، لذلك فلا يسلم تفسير النووي له بالتغوط فقط، ولو سلم، فالبول يلحق به قياساً[١].

وقد اختلف الفقهاء في دلالة النهي:

- فذهب الجمهور[٢] إلى أن النهي هنا يدل على الحرمة.
- وذهب جمهور الشافعية[٣]، إلى النهي هنا يدل على الكراهة.

والراجح: الأول لما فيه من أذية المسلمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من إيذاء الناس بقضاء الحاجة في طرقهم وظلهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على مراعاة مشاعر الناس وعدم إيذائهم بالمناظر المنفرة التي يأباها الذوق السليم.

رابعاً: من أهداف الدعوة: الحث على النظافة والطهارة وتوفير المناخ الصحي.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اتقوا اللاعنين" وهو من الأساليب الدعوية المفيدة، لما فيه من بيان الواجبات الشرعية ونحوها، وحمل المدعوين على الإتيان بها، وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، وتحقيقاً لعبودية الله وطاعته[٤].

---

(١) المرجع السابق ٣٠/١.

(٢) شرح زبد ابن رسلان ٥٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٦٣/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٧٦/١.

(٣) شرح زبد ابن رسلان٥٤.

(٤) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠.

وقد تكرر أسلوب الأمر في القرآن كثيراً، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾(١) وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾(٢).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من إيذاء الناس بقضاء الحاجة في طرقهم وظلهم:

إن من فضل الله علينا أنه حذرنا في الإسلام المتمثل في مصدريه الأساسين -القرآن والسنة- من أسباب اللعن والإبعاد من رحمة الله وعدم تعاطيها أو الاقتراب منها، ومن ذلك ما جاء في الحديث من نهي النبي ﷺ عن التغوط في طريق الناس أو ظلهم، وكذا كل مكان أعدوه لاجتماعهم، وقايةً من الأمراض والأسقام، وحداً من انتشارها، فضلاً عما في ذلك من رعاية لذوق الناس ومشاعرهم وأحاسيسهم، فقال النبي ﷺ "اتقوا اللاعنين، قالوا ما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم". قال القاضي عياض: (قوله: "اتقوا اللاعنين" وتروى "اللعانين" وفسَّر ذلك بالتخلي في طريق الناس أو ظلهم. التخلي مأخوذ من الخلاء وهي عبارة عن الستر والتفرد لقضاء الحاجة والحدث، وسمت اللاعنين، لأنهما تجلبان اللعن لفاعلها؛ لأن مثل ذلك مأخوذ من جواد الطريق وظلال المناهل ومستراح الناس ومترددهم لمنافعهم، فمن وجد فيها القذر ونكد عليه تصرفه فيه لعن فاعله، وقد يكون اللاعنان هنا بمعنى الملعونين، أي الحالتين الملعونتين والملعون فاعلهما، كما قال: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾(٣) أي مرضية(٤). وقال القرطبي في شرح الحديث: (وقوله: "اتقوا اللاعنين"، قالوا: ما اللاعنان؟ يُروى هكذا. وصحيح روايتنا: "اللعانين". قالوا: وما اللعانان؟ بالتشديد على المبالغة. وكلاهما صحيح، وقد تقدم القول: أن اللعن: الطرد والبعد، وقد فسّرها: بالتخلي في الطرق والظلال، وسميت هذه ملاعن لأنها تجلبُ اللعن على فاعلها العادي والشرعي؛ لأنه ضررٌ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤، ٥.

(٣) سورة القارعة، آية: ٦.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧٦/٢.

عظيم بالمسلمين؛ إذ يعرّضهم للتنجيس، ويمنعهم من حقوقهم في الماء والاستظلال وغير ذلك.

ويُفهم من هذا: تحريم التخلّي في كلّ موضع كان للمسلمين إليه حاجة، كمجتمعاتهم، وشجرهم المثمر، وإن لم يكن له ظلال وغير ذلك[1].

وقال النووي: (قال الإمام أبو سليمان الخطابي: المراد باللاعنين الأمرين الجالبين للعن، الحاملين الناس عليه والداعين إليه، وذلك أن من فعلهما شتم ولعن يعني عادة الناس لعنه، فلما صار سبباً لذلك أضيف اللعن إليهما، قال: وقد يكون اللاعن بمعنى الملعون، والملاعن مواضع اللعن، قلت: فعلى هذا يكون التقدير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلهما وذلك لما فيه إيذاء المسلمين بتنجيس من يمر به ونتنه واستقذاره[2] وقد حرم الله إيذاء المؤمنين والمؤمنات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[3] والآية شاملة لما ذُكر[4]، فإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير جناية موجب للأذى، فأذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيم ولذا قال: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[5])[6].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على مراعاة مشاعر الناس وعدم إيذائهم بالمناظر المنفرة التي يأباها الذوق السليم:

من دلائل ذلك ما جاء في الحديث من النهي عن التخلي في طرق الناس وظلهم،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٥٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٢٧٥.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٤٤.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦١٨.

فقال ﷺ "اتقوا اللاعنين، قالوا وما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم" والابتعاد عن مثل هذه القاذورات حفاظٌ على الطبيعة التي خلقها الله وسخرها للإنسان، فليس في الكون شيء خلق جزافاً أو عبثاً، كل شيء فيه قد هيئ ليؤدي دوره فيما أراده الله من عمارة الأرض واستمرار الحياة إلى أجلها[1] واعتداء الإنسان عليها بتلويث أو غيره تعطيل لهذا الدَّور، كما أن في تحريم الإسلام لمثل هذه القاذورات كالتخلي في طرق الناس وظلهم ومشمسهم وغير ذلك رعاية لشعورهم ومحافظة على أحاسيسهم، وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى في رعاية مشاعر الناس وتطييب خواطرهم، فعن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء -أو بودَّان- فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: ((إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم))[2]. قال الحافظ ابن حجر: (وفيه الاعتذار عن رد الهدية تطييباً لقلب المهدي)[3].

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحث على النظافة والطهارة وتوفير المناخ الصحي:

إن المتتبع للتشريعات الإسلامية المتعلقة بصحة الأبدان، يلاحظ أن الإسلام فرض على أهله كثيراً من الأصول، التي يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الأولية التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها، وللتخفيف من حدتها إذا وقعت، وقد عني الإسلام بالتشريعات الوقائية، ثم بالتشريعات العلاجية التي تخفف من علل الأجسام.

إن خير علاج للأمراض هو الوقاية من أسبابها، هذا ما يقوله الطب، أي أن الوقاية خير من العلاج، لذلك نرى الطب الوقائي يزدهر وينمو في الدول المتحضرة، ونرى حكومات هذه الدول تعمل على تلقينه لأبناء المدارس والمواطنين كشيء ضروري لاغنى عنه. ولقد سبق الإسلام جميع الحضارات، وقعد للبشرية قواعد الصحة والوقاية من الأمراض، ومن ذلك ما جاء في أمره ﷺ بالتقليل والحد من التلوث ومن ذلك

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٢٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١/٤.

قوله ﷺ في الحديث "اتقوا اللاعنين؟ قالوا وما اللاعنان؟ قال الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم" وروي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد" وهذه الأحاديث وغيرها مما رسمه رسول الله ﷺ للوقاية من المسببات للأمراض، وانتشار الجراثيم في الجو وتلوث البيئة من ذلك، فقضاء الحاجة في طرق الناس وظلهم أو مائهم يمنع من الانتفاع بها، فضلاً عن أنه سبب واسع لانتشار الأمراض وتسرب مسبباتها إلى الماء، فانظر إلى هذا السبق العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ حيث أراد وقاية الإنسانية من أمراض وأسقام كثيرة فتاكة، تفتك بالحياة، وتنتقل مع الأحياء، لتجعلهم يعيشون حياة يائسة في جسد ضعيف متهالك، إنه الإعجاز العلمي لرسول الله ﷺ يقدمه للمجتمع الإنساني بعامة، وللمسلمين بخاصة ينقذهم به من تلوث البيئة الذي يؤدي إلى الأمراض والأسقام[1]. وإن مخالفة هذه الإرشادات النبوية إعراض عن المنهج الإسلامي القويم، إضافة إلى ما يؤدي إلى الإفساد في الأرض، والواقع يؤكد ذلك ويصدق قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

(١) انظر: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا ٤٨١/١- ٤٨٣.

(٢) سورة الروم، آية: ٤١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية البيئية في الإسلام:

إن الدين الإسلامي الحنيف كان سباقًا دائمًا إلى وضع تشريعات محكمة لرعاية البيئة وحمايتها من آفات التلوث والفساد، ورسم المنهج الإسلامي حدود هذه التشريعات على أساس الالتزام بمبدأين أساسيين يحددان مسؤولية الإنسان حيال البيئة التي يعيش فيها:

المبدأ الأول:

وهو "درء المفاسد" حتى لا تقع بالبلاد والعباد، وتسبب الأذى للفرد والمجتمع والبيئة، حيث لا ضرر بالنفس، ولا ضرر بالغير.

المبدأ الثاني:

هو "جلب المصالح" وبذل كل الجهود التي من شأنها أن تحقق الخير والمنفعة للجماعة البشرية، وأهم ما يميز هذا المنهج الإسلامي الرشيد هو الأمر بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان باعتباره من أهم عوامل الخلل والاضطراب والقلق في منظومة التوازن البيئي المحكم الذي وهبه الله سبحانه وتعالى للحياة والأحياء في هذا الكون، كذلك يتميز المنهج الإسلامي بأن جعل النظافة والطهارة مقترنين بالإيمان، واعتبر التلوث نجاسة كريهة[1]، لذا نهي الإسلام عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء ونحوها، فقال النبي ﷺ: «اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ. قالُوا: وَمَا اللَّاعِنَانِ؟ قال: الَّذي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ».

وقد ثبت أن هذه الأعمال والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية المتوطنة وتساعد على انتشارها، ولاشك أن النهي عنها ينسحب على جميع الملوثات الأخرى التي تضر بصحة الإنسان والحيوان وبقية المخلوقات[2].

---

(١) الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي، ط أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م ص ٣٧-٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨.

فالإسلام قرر وقبل أن تسمع الدنيا عما يسمى بحقوق الإنسان بألف وأربعمائة عام، حق الإنسان في البيئة ومواردها سليمة ومتوازنة، كما خلقها الله تعالى، وهذا الحق ليس منحة من قانون وضعي لدولة محددة أو منة يقررها ميثاق دولي أو معاهدة جماعية، إنما هو حق مثل باقي حقوق الإنسان في الإسلام، فهو حق ثابت دائم بحكم الطبيعة والشريعة معًا[١].

ولا أدل وأعمق في الاعتراف بمثل هذا الحق "البيئي" من أن الله سبحانه وتعالى قد جعل "صاحب" هذا الحق وهو الإنسان خليفته في رعاية وصيانة "محل" ذلك الحق وهو الأرض أو البيئة[٢].

والحقيقة أن الإسلام حرّم العدوان على البيئة وتلويثها، لما في ذلك من تعطيل لها عن الوفاء بما خلقت له ومن ثم تعطيل للحياة ذاتها على الأرض[٣].

فالالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول ﷺ وأوصى بها إلى المسلمين إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق إن إفساد البيئة وتلويثها المضني لها، إنما يبدأ بتلويثها اليسير أو عدم التزام النظافة وإماطة الأذى عن البيئة[٤]. ذلك أن التلوث البيئي يؤثر على صحة الإنسان، ويكون سببًا للإفساد في الأرض والإنسان مأمور بعدم الإفساد في الأرض سواء التي يعيش فيها - أي المكان - أو التي لا يعيش فيها أيا كانت صور الإفساد سواء الإفساد المعنوي، أو الإفساد الحسي، المادي.

حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[٥]، إن علاقة الإنسان بالبيئة ينبغي أن تنطلق من التعاليم الإسلامية فقد عالج الإسلام كل ما يتعلق بالإنسان

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦.

(٢) الإسلام وفكرة حق الإنسان في البيئة، مجلة منار الإسلام، دبي، العدد الرابع، السنة الثالثة والعشرون، ربيع الثاني، ١٤١٨هـ، أغسطس ١٩٩٧م ص ٥٠-٥٢.

(٣) الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي ص ٥٠.

(٤) المرجع السابق، ٦٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق وبين العلاج الناجح لكافة المشكلات التي تواجه الإنسان.

حيث إن دور الإنسان هو الأساس في الحفاظ على سلامة البيئة وكل مكوناتها، لأن من غايات خلق الإنسان عمارة الأرض، وأن تلك العمارة لا تتم إلا بإصلاح البيئة والمحافظة على سلامتها والبعد عن كل ما يفسدها أو يحول دون الانتفاع بها، كما خلقها الله تعالى متوازنة[1].

وفي الحقيقة أن التربية البيئية موضوع لم يعد يحتاج إلى الدعم والبراهين لإثبات ضرورته في الوقت الحاضر.

إذ تبين بأن المسألة لا تقبل التفاوض أو التأجيل لهذا قامت أعداد كبيرة من البلدان إلى ابتكار برامج للتربية البيئية تركز على العلاقات المتبادلة بين السكان والبيئة والنمو، وبعد أن اتضح أيضًا بأن القوانين والتشريعات قد عجزت عن الحد من إهدار واستنزاف وتلوث البيئة بكل عناصرها والتي تزداد تدهورًا يومًا بعد آخر، فلا يعد الإلمام بالتربية البيئية بابًا من أبواب العلوم المعاصرة شديدة الأهمية وضرورة قصوى على صعيد الأفراد والمجتمعات فحسب بل مذهبًا أخلاقيًا وسلوكيًا في الوقت نفسه[2].

وما دام أن هذه التربية تهم الجميع بحكم طبيعتها ووظيفتها فينبغي أن تصبح متاحة لجميع أفراد المجتمع المحلي بوسائل تتلاءم مع الاحتياجات والمصالح والبواعث الخاصة بكل فئة من فئات العمر ومن الفئات الاجتماعية المهنية على اختلافها.. وما دام من الضروري أن تكون هذه التربية مستمرة ومتاحة للجميع، فمن المناسب إدخالها في جميع مراحل التعليم المدرسي وغير المدرسي أو النظامي وغير النظامي.. ويأتي تعليم الجمهور في مقدمة المهام التي تناط بالتربية البيئية فإلى جانب دورها في نقل المعارف إلى جميع

---

(١) انظر: حماية البيئة من التلوث بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي، د. محيي الدين عفيفي أحمد، بحث منشور ضمن حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م ص ٢٥.

(٢) المشكلات البيئية والتربية على الصعيدين الدولي والعربي، غازي أبو شقرا، مجلة التربية الجديدة، اليونسكو، العدد الثالث والعشرون، السنة الثامنة، ١٩٩١ ص ٥.

المواطنين، ينبغي لها أن تعمل على توعيتهم بما صادفهم في حياتهم اليومية من مشكلات بيئية، وأن تحثهم على انتهاج سلوك قويم والعمل بصورة جادة على حل هذه المشكلات، ومن اللازم أن تصبح التربية البيئية متاحة للناس على اختلاف أعمارهم، وان تدخل في التعليم المدرسي بجميع مراحله - رياض أطفال، والابتدائي، والمتوسط "الإعدادي"، والثانوي، والجامعي - وفي شتى أنشطة التعليم غير المدرسي لصالح الناشئة والبالغين أيا كانت فئة الناس التي ينتمون إليها ويتعين أن تدمج في عملية التعليم العام بكل بلد وأن تنمى في كل مؤسسات التعليم ومناهجه[1].



(١) الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي ص ١٩٦.

٣٥٢- باب النهي عن البول ونحوه في الماء الراكد

الحديث رقم (١٧٧٤)

١٧٧٤- عن جابر ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى أنْ يُبَالَ في المَاءِ الرَّاكِدِ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الراكد: الساكن غير الجاري[2].

الشرح الأدبي

إن الماء سر حياة الكائنات، يحيا به النبات، ويُسْقى منه الحيوان، ويُروى بسببه الضرع، وينمو في كوثره الزرع، وصيانة لهذا المورد الصافي، والبلسم الشافي، يوجه رسوله ﷺ نهيه عن تلويث هذا المصدر الكريم من مصادر الحياة، والتبول في الماء من أخطر الأضرار التي تلوث البيئة، وتنشر الأمراض، وتنقل العدوى، وتفتك بحياة الناس.

والحديث يصاغ في أسلوب خبري، ويبدأ بالتأكيد على لسان الراوي الأعلى، جابر ﷺ؛ حيث يقول: "أن رسول الله ﷺ"، وقول رسول الله ﷺ هو "خبر إن"، فهو يتموج داخل دائرة هذه الجملة الاسمية، المصدرة بالتأكيد (نهى أن يبال في الماء الراكد).

وبناء الفعل للمجهول يفيد التعميم؛ فالنهي عن الفعل الضار، وكل فعل لا بد له من فاعل، والفاعل المستتر: كل من يقوم بهذا الفعل الضارّ القبيح، وذلك ليس من سلوك المسلم الملتزم، وقوله: "في الماء" يتضمن إيجازاً بالحذف، أي: في مجاري الماء، وقوله: "في

---

(١) برقم (٩٤/٢٨١). أورده المنذري في ترغيبه (٢٥١).

(٢) معجم لغة الفقهاء ١٩٤.

الماء" للتنفير الزائد من هذا الفعل الكريه، ووصف الماء بقوله: "الراكد" لمزيد من التنفير؛ لأن الماء الراكد تختلط به النجاسة فيفسد، وحين يستعمله الآخرون يصيبهم الأذى والضرر. والله أعلم.

فقه الحديث

قضاء الحاجة في الماء: ذهب الحنفية والمالكية إلى كراهة قضاء الحاجة في الماء، بولاً أو غائطاً، وذهب الحنفية أن الكراهة تحريمية وإن كان الماء راكداً، وتكون الكراهة تنزيهية إن كان الماء جارياً. وقال الشافعية والحنابلة يكره البول في الماء الراكد قليلاً كان أو كثيراً للحديث.

وأما الجاري فقال جماعة من الشافعية: إن كان قليلاً كره وإن كان كثيراً لم يكره، قال النووي: وفيه نظر. وينبغي أن يحرم البول في القليل مطلقا، لأنه ينجسه ويتلفه على نفسه وعلى غيره، وأما الكثير الجاري فلا يحرم لكن الأولى اجتنابه، ولعلهم لم يحرموا البول في الماء الراكد كما هو ظاهر الحديث، لأن الماء غير متمول عادة، أو لأنه يمكن تطهيره بالإضافة.

وفرق الحنابلة ين التبول في الماء والتغوط فيه فرأوا كراهة الأول وتحريم الثاني، ففي كشاف القناع: يكره بوله في ماء راكد أو قليل جارٍ، ويحرم تغوطه في ماء قليل أو كثير راكد أو جارٍ، لأنه يقذره ويمنع الناس الانتفاع به[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن البول في الماء الراكد.

ثالثاً: من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع

---

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ٥٥٥/١ ط دار عالم الكتب، وحاشية العدوي على الخرشي ١٤٤/١، والمجموع شرح المهذب ٩٣/٢، وكشاف القناع ٦٣/١، وشرح صحيح مسلم مج٢/٣/١٩٠-١٩١، والموسوعة الفقهية ١٣/٣٤-١٤.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

حيث جاء في الحديث قول جابر رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يبال في الماء الراكد" وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي تشعر المدعو بخطورة المنهي عنه، وضرورة اجتنابه، وقد أمر الله سبحانه بالاستجابة لما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وما ينهى عنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن البول في الماء الراكد:

إن الإسلام دين الطهارة والنظافة والتجمل، ولذا يحرص الإسلام على نظافة الماء المستخدم للطهارة وغيرها، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البول في الماء الراكد حتى لا يتنجس، ويظل على نظافته وطهارته، حيث جاء في الحديث من قول جابر رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يبال في الماء الراكد" قال النووي: (وأما "الراكد" القليل فقد أطلق جماعة من أصحابنا أنه مكروه، والصواب المختار، أنه يحرم البول فيه، لأنه ينجسه ويتلف ماليته، ويغر غيره باستعماله، وقال أصحابنا وغيرهم من العلماء: والتغوط في الماء كالبول فيه وأقبح، وكذلك إذا بال في إناء ثم صبه في الماء، وكذا إذا بال بقرب النهر بحيث يجري إليه البول فكله مذموم قبيح منهي عنه على التفصيل المذكور، ولم يخالف في هذا أحد من العلماء، إلا ما حكى عن داود بن علي الظاهري أن النهي مختص ببول الإنسان بنفسه، وأن الغائط ليس كالبول، وكذا إذا بال في إناء ثم صبه في الماء أو بال بقرب الماء، وهذا الذي ذهب إليه خلاف إجماع العلماء، وهو أقبح ما نقل عنه في الجمود على الظاهر... وأما انغماس من لم يستنج في الماء ليستنجي فيه، فإن كان قليلاً بحيث ينجس بوقوع النجاسة فيه فهو حرام، لما فيه من تلطخه بالنجاسة وتنجيس الماء، وإن كان كثيراً لا ينجس بوقوع النجاسة فيه، فإن كان جارياً فلا بأس به، وإن كان راكداً فليس بحرام، ولا تظهر كراهته لأنه ليس في معنى البول

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

ولا يقاربه، ولو اجتنب الإنسان هذا كله أحسن)[١].

وقال القاضي عياض: (ونهيه ﷺ عن بول الرجل في الماء الراكد أو الدائم الذي لا يجري، هذا تفسير منه ﷺ على طريق التنزيه والإرشاد إلى مكارم الأخلاق والاحتياط على دين الأمة، وهو في الماء القليل آكد منه في الكثير لإفساده له، بل ذكر بعضهم أنه على الوجوب فيه، إذ قد يتغير منه ويفسد، فيظن من مرّ به أن فساده لقراره أو مكثه، وكذلك يكثر تكرار البائلين في الكثير حتى يعتريه ذلك، فحمى ﷺ هذا العارض في الماء الذي أصله الطهارة بالنهي عن ذلك، وذكر البول فيه دليل على ما يشابهه من الغائط وغيره، فإن فعل ذلك في ماء كثير لم يضره، وأما الجاري فهو في حكم الكثير الغالب ما لم يكن ضعيفاً يغلبه البول ويغيره، ولأن أكثر المياه الموجودة ليست كثيرة مستجرة، والناس يتناوبون المياه عند حاجتهم، ويقربون منها للتنظيف بها، فلو أطلق لهم البول فيها لفسد أكثرها، وقطع الانتفاع بها، لا سيما فيما يقرب من العمران، ويدخل الوساوس فيما يوجد منها)[٢].

وقال ابن علان: (والنهي محمول على التنزيه إذا كان الماء ملكاً له أو مباحاً، فإن كان مسبلاً أو مملوكاً للغير حرم، ومحل الكراهة في الأول حيث لم يبل وهو في الماء والماء قليل، وإلا فيحرم لما فيه من التضميخ بالنجاسة، والكراهة في الغائط أشد للفحش، قيل: وبالليل أقوى لأنه مأوى الجن. قال العلقمي: والنهي عن القليل أشد للتنجيس وهو التنزيه)[٣].

وجاء في فتح الملهم: (ووصفه ﷺ الماء بالركود والدوام وعدم الجريان، تنبيه على أن هذه الأوصاف هي مناط النهي في الحالة الراهنة، لا تغير أوصاف الماء، ولا كونه أقل من قلّتين، لأن سكونه وعدم جريانه يقتضي استقرار النجاسة أو الخبث فيه وعدم انتقاله منه، فلا يخلو استعمال الماء الذي بال فيه عن استعمال بعض أجزائها وهو محرم

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢٨٥.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢/١٠٥.

(٣) دليل الفالحين ١٧٤٥.

بنص القرآن الكريم، أي قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[1] وكون الماء متروكاً ومهجوراً إلى ما يظن وجود أجزاء النجاسة فيه في القليل والكثير، فلا نقيد الحديث بالقليل والكثير، لأن الحكم دائر على التعليل المذكور، وهو استقرار الخبث في الماء وعدم انتقاله عنه، ومن قيده منا بالقليل فكأنه أظهر مفاد التعليل ونتيجته، أي: الكثير لا يفسد سائر أطرافه لعدم وصول الخبث إليه، وإن كان النهي يشمل البول في الماء الكثير أيضاً، فإن فيه إفساد بعض أطرافه، كما صرح به بعض فقهائنا والله أعلم)[2].

وقال الحسيني هاشم: (وفي الحديث النهي عن البول في الماء الدائم الذي لا يجري، وهو نهي يشتمل على كثير من الفوائد، ففضلاً عن رعاية الذوق والشعور العام، فيه وقاية من انتقال الأمراض وانتشار الأوبئة والأسقام)[3].

ثالثاً- من واجبات المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع:

ويستنبط هذا من الحديث، حيث يجب على المدعو أن يستجيب لتوجيهات الرسول ﷺ، والتي تمثلت في الحديث في إخبار جابر رضي الله عنه عن نهي النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد، والرسول ﷺ لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، قال الله تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[4].

ففي الالتزام بأوامر الرسول ونواهيه السعادة والرضا في الدنيا والآخرة (لقد اصطفى الله محمداً ﷺ بنبوته ورسالته، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وأمره باتباع ما أوحى إليه، وتبليغ ما أنزل إليه، وقد شهد الله له بالصدق والعصمة واستمساكه بما أمره به، كما شهد له بالهدى في نفسه، وأنه هاد لمن اتبعه قال

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) موسوعة فتح الملهم، الشيخ شبير أحمد العثماني، ص ٤٧/٣.

(٣) شرح رياض الصالحين ٨٠١.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

وهذه منزلة رسول الله ﷺ من الدين، فهو المبلغ عن الله دينه ووحيه، وهو الآمر بإذن مولاه والهادي إلى الصراط المستقيم، فمن آمن به فبالله آمن، ومن أطاعه فقد أطاع الله، ومن قبل عنه فعن الله قبل، لأجل هذا أمر الله العباد بطاعته، وأوجب عليهم اتباع أمره وتصديق خبره، وحذرهم من مخالفته وعصيانه، وجعل طاعته فرضاً لازماً لكل من آمن بالله، ولم يجعل لمؤمن اختياراً في أي أمر بعد قضاء الله ورسوله فيه)[2].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢-٥٣.

(٢) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص ١١١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: الوقاية الصحية باجتناب التبول في الماء الراكد:

استخدم الإسلام أسلوب الوقاية للفرد المسلم وللأسرة والمجتمع، من خلال تحذيرات النبي ﷺ من بعض السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك والمجتمع والدولة إلى الضعف والهوان، أو من خلال بعض التوجيهات التي تحض الفرد وتدفعه نحو الاستقامة والاعتدال.

وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وهي بمثابة جرعة وقائية إن أخذت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق.

وهي بمثابة حمية وقائية يتقي بها من الأمراض المهلكة(١).

ومن هذه الإرشادات والتحذيرات نهيه ﷺ عن التبول في الماء الراكد، فعن جابر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ»، وذلك من أجل عدم تنجيس الماء الراكد لأنه لا يجري، فأي نجاسة تسري فيه وتنجسه، ومن أجل الوقاية الصحية باجتناب الأمراض التي تنتقل من خلال التبول في الماء الراكد.

قال البروفيسور نلسون(٢): مرض البلهارسيا يفتك بالملايين من الناس في العالم والوقاية منه باتباع حديث من أحاديث النبي ﷺ(٣)، لو اتبع المسلمون وغير المسلمين هذا الحديث لانتهى مرض البلهارسيا من العالم.

والسر في ذلك: أن مريض البلهارسيا إذا تبول في الماء الراكد نزلت بويضات البلهارسيا مع بوله إلى الماء، حيث تفقس ويخرج كائن صغير يعرف بالميراسيديوم،

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص٢٥٦.

(٢) من أكبر أطباء بريطانيا، ومكتشف مرض نلسون، وقد سمي المرض باسمه.

(٣) يقصد به حديث النبي ﷺ الذي رواه أبي هريرة رضي الله عنه، «لا يَبولَنَّ أحدُكم في الماء الدائمِ الذي لا يَجري ثم يَغتسِلُ منه»، أخرجه البخاري، ٢٣٩، ومسلم، ٢٨٢.

الذي يبحث عن القوقعة التي يكمل فيها أطوار حياته، ليخرج بعد ذلك كائناً آخر يعرف بالسيركاريا، التي تسبح في الماء باحثة عن الضحية التي ستدخل جسدها والعجيب أن الضحية هو الشخص الذي خالف هدي سيد البشرية ﷺ ونزل الماءَ الراكدَ الذي تبول فيه ليغتسل فيه، فإن السيركاريا تدخل جسده ليصاب بمرض البلهارسيا التي ربما تكون بسببه وفاتُه.

ومن الجدير بالذكر، أن الماء الراكد يعتبر بيئة خصبة لنمو الكثير من البكتريا، كالكوليرا، والسمالونيلا، والشجيلا، وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان "كالزحار الأميبي، والديدان المستديرة، والبلهارسيا"، إلى الماء الراكد لإكمال دورة حياتها، خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الطفيليات والديدان بسرعة، وتكاثرها، وانتشارها[1].

فعلى المسلم أن يتقي التبول في الماء الراكد حتى يقي نفسه وغيره من البشر الأمراض والأوبئة.

وعلى المربي توجيه الناشئة إلى ضرورة عدم التبول في الماء الراكد، وعدم الاغتسال منه إذا بال فيه أحد، حتى يتجنبوا الأمراض التي تضعف أجسادهم وتعيقهم عن أداء أدوارهم في الحياة.

ثانيًا: من أهداف التربية: المحافظة على مصادر المياه:

لقد نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الذي لا يجري مما يؤدي إلى نجاسته وعدم استعماله.

وما أسوأ الآثار للبول في الماء أو قضاء الحاجة، أو عملية الصرف الصحي التي تتم في الأنهار أو الترع أو البحيرات أو غير ذلك مما أدى إلى انتشار البلهارسيا التي فتكت بأعداد غير قليلة من الشعوب التي تأتي مثل هذه المخالفات[2].

---

(١) انظر: الموسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ٥٠٩/٢.

(٢) انظر: حماية البيئة من التلوث بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي، د. محيي الدين عفيفي أحمد، بحث منشور ضمن حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص٢٤.

هذا فضلاً عن إلقاء المخلفات الصناعية للمصانع وغيرها في الماء هذا على مستوى الدول الفقيرة.

أما على مستوى الدول الكبرى فهناك كوارث بيئية تصنعها تلك الدول عن طريق إلقاء النفايات السامة في البحار والمحيطات وعملية غسل ناقلات البترول العملاقة في البحار، لأجل تنظيف خزانات تلك الناقلات وتفريغ مياه تنظيفها في البحار، أو تفريغ بعض الكميات في المسطحات التي يراد تلويثها، أو الإضرار بالبيئة البرية والبحرية فيها، هذا فضلاً عن حوادث الناقلات البحرية التي تحمل النفط مما يؤدي إلى تلوث المياه في البحار والمحيطات[1].

ناهيك عن أضرار الحروب وما تخلفه من تلوث في البحار والمحيطات إن مثل هذه الممارسات غير المسؤولة واللا إنسانية يأباها الإسلام، ويحظر على المسلم فعلها، لأن ذلك يؤدي إلى إلحاق الضرر بالإنسان والحيوان والنبات والأحياء البحرية التي تعد غذاء الإنسان، فضلاً عن إتلاف للشعاب المرجانية، وغير ذلك من ألوان الفساد[2].

وقد حرص الإسلام على المحافظة على مصادر المياه وترشيد استعمالها وعدم هدرها أو تلويثها[3].

فالماء نعمة كبرى، فقد جعله الله سببًا في حياة الأرض والإنسان والحيوان والكائنات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[4].

ومعروف أن الماء وسيلة من وسائل الطهارة والنظافة، والسعادة النفسية، وله أثره في إحياء الأرض بعد موتها، وتأهيلها للزراعة والإنتاج[5]، فهو ضروري لكل الموجودات،

---

(١) انظر: التلوث وحماية البيئة، د. محمد عبدو العودات، د. عبدالله باصهي، ١٥٥، نقلا المرجع السابق، ص٣٥.

(٢) حماية البيئة من التلوث بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي، د. محيي الدين عفيفي أحمد، ص٣٥، مرجع سابق.

(٣) انظر: بهجة الناظرين، سليم الهلالي، ٢٤١/٣.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٥) انظر: بهجة الناظرين، سليم الهلالي، ٢٤١/٣.

وهو حياة لكل ما في الكون[١]، وقد اهتم الإسلام به اهتمامًا كبيرًا والمتتبع لآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ يلمس هذا الاهتمام ويدرك أهميته.

ولا فرق في الأهمية بين ماء البحر وماء النهر والمطر، فلكل منها فوائده الجمة وضرورته الحيوية لجميع المكونات البيئية وإن كانت استفادة الإنسان من كل ذلك تأتي في الدرجة الأولى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

ولأن الماء ضرورة لكل الموجودات منع الإسلام احتكاره، ومنعه من طالبه، وجعل الناس جميعًا فيه شركاء، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[٣].

وقال النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلاَثٍ: فِي الْمَاءِ وَالْكَلأ وَالنَّارِ»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلأُ»، وفي رواية: «لاَ يُبَاعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُبَاعَ بِهِ الْكَلأُ»[٥]. وهذه الأهمية والضرورة تقتضي من الإنسان حسن التعامل معه، وتوظيفه فيما خلق له، وعدم تلويثه أو استنزافه لتظل الحياة والأحياء. والاستفادة منه بحكمة وتعقل، والحرص على طهارته ونقائه، حتى لا يكون بيئة صالحة للأمراض وتعايش الميكروبات والفيروسات، ومن ثم يصبح مصدرًا للهلاك والإهلاك. ولذا نرى السنة المطهرة تحذر من ذلك وتنفر منه فقد ورد عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه نهي أن يبال في الماء الراكد، وورد عن أبي هريرة عن

---

(١) انظر: الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي، ص٧٥، ٨٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه، ٢٤٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٠٠٤).

(٥)أخرجه البخاري، ٢٣٥٣، ٦٩٦٢، ومسلم، ١٥٦٦.

النبي ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل منه»[١]، وعنه أن رسول الله ﷺ: قال: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب، فقال أبو السائب راوي الحديث، كيف يفعل يا أبا هريرة قال يتناوله تناولاً»[٢].

وبلغ من عناية الإسلام بالنظافة وحرصه على عدم تلوث الماء ولو بطريق غير مباشر، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا ٱسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلاَ يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلاَثًا، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»[٣].

ولأهمية النظافة للماء ولغيره، جعلها الإسلام شعارًا من شعاراته العبادية، وفضيلة من فضائل الإسلام، يتحلى بها المسلم، ويحرص عليها، وسواء في ذلك الطهارة الحسية أو المعنوية، كل ذلك ليبعد بنا عن التلوث، أيا كان، فضلاً عن أن تكون سببًا في حدوثه، ولذلك ورد لفظ الطهر والطهارة في القرآن الكريم "١٣ مرة" في مواضع عديدة للماء أو للإنسان، للطهارة الحسية أو المعنوية.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٥]، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[٦]، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٧].

وورد عن النبي ﷺ قال: «الطهور شَطْر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان....إلخ»[٨].

ومن الأهمية أن يعرف الإنسان أن الماء - شأنه شأن جميع الموجودات - وقد خلقه

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٣٩، ومسلم، ٢٨٢.

(٢) أخرجه مسلم، ٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم، ٢٧٨.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٥) سورة المدثر، الآيتان: ٤، ٥.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٧) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٨)أخرجه مسلم، ٢٢٣.

الله سبحانه بقدر، وأن أي إسراف فيه أو تبذير أو تلوث يخل بهذا القدر الصالح للاستعمال، ويُعَرِّض الحياة لخطر داهم، حيث لا غنى لمخلوق عنه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[1][2].



(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٢) الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي، ص٨٩، ٩٢.

٣٥٣- باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض في الهبة

الحديث رقم (١٧٧٥)

١٧٧٥- عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: أنَّ أباه أتَى بِهِ رسُولَ اللّهِ ﷺ فقال: إنِّي نَحلْتُ ابْنِي هَذَا غُلاماً كَانَ لِي، فقال رسولُ الله ﷺ: ((أكُلَّ وَلَدِكَ نَحلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟)) فقال: لا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((فَأرْجِعهُ))[1].

وفي روايةٍ[2]: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ((أفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟)) قال: لا، قال: ((اتَّقُوا الله واعْدِلُوا فِي أوْلادِكُمْ)) فَرَجَعَ أبي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ.

وفي روايةٍ[3]: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ((يَا بَشيرُ ألَكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟)) فقالَ: نَعَمْ، قال: ((أكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هذَا؟)) قال: لا، قال: ((فَلاَ تُشْهِدْنِي إذاً فَإنِّي لاَ أشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ)).

وفي روايةٍ[4]: ((لاَ تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ)).

وفي رواية[5]: ((أشْهِدْ عَلَى هذَا غَيْرِي!)) ثُمَّ قال: ((أيَسُرُّكَ أنْ يَكُونُوا إلَيْكَ فِي البِرِّ سَوَاءً؟)) قال: بَلَى، قال: ((فَلا إذاً)). متفق عليه[6].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٦)، ومسلم (١٦٢٣/٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣/١٣) واللفظ له، من حديث عامر بن شراحيل الشعبي عن النعمان.

(٣) أخرجها مسلم (١٦٢٣/١٤) من حديث محمد بن بشير.

(٤) أخرجها مسلم (١٦٢٣/١٦) من حديث عاصم الأحول.

(٥) أخرجها مسلم (١٦٢٣/١٧) من حديث داود بن أبي هند.

(٦) انظر: الجمع بين الصحيحين للحميدي (٤٩٩/١، رقم ٨٠٤).

غريب الألفاظ:

إني نحلت: أعطيت[(١)].

الشرح الأدبي

هذا الحديث ينقل مشهداً واقعيًا من مشاهد السيرة النبوية المضيئة، بجلائل الأعمال، وروائع الأقوال، وحميد الأفعال، وهذا المشهد درس من دروس النبوة في العدل والمساواة بين الأبناء؛ حتى لا تتسرب الأحقاد والعداوات إلى نفوسهم، حين يفضل بعض الآباء أحد الأبناء على الآخرين.

وتأكيد المساواة ووجوبها تنطق به صياغة الحديث؛ حيث يبدأ بالتوكيد بـ"أن": فَخَبَرُ المحاورة بين الرسول والنعمان وأبيه يبدأ بتأكيد الخبر، في قوله: "أن أباه أتى به رسول الله ﷺ".

وكلام بشير الأنصاري يبدأ بالتوكيد في سياق إثبات الهبة للابن؛ حيث يقول: "إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي"، واسم الإشارة في قوله: "ابني هذا" يفيد التحديد؛ لأن المراد ابن معين وهو النعمان، وتنكير لفظ "غلاماً" يدل على الشيوع؛ فالمراد الهبة المعطاة وليس غلاماً محدداً.

وهذا الصنيع لم يرض رسول الله ﷺ فقال: "أكلَّ ولدك نحلته مثل هذا؟" والاستفهام هنا تقريري، يحمل اعتراضاً ضِمْنيًا على تخصيص أحد الأبناء بعطية دون الآخرين.

وقد انتهى الحوار بين رسول الله ﷺ وبشير الأنصاري بالإقناع والرجوع عن الهبة، وقد أصدر رسول الله حكمه في صورة أمر واجب التنفيذ، حين قال للصحابي بشير الأنصاري: "فأرجعه"، وفي هذا الأمر إيجاز بالحذف والتقدير، فإذا كنت لم تنحل كل ولدك مثل هذا... فأرجعه: أي: فأرجع ملكية العبد إليك، وفي الرواية تفسير لهذا الإيجاز؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم"، ويقول النعمان: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور في (ن ح ل).

فقه الحديث

ومن الحديث من الفقه: حكم تفضيل الشخص بعض ولده على بعض في العطية والهبة: اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنابلة[١]، والظاهرية[٢]، ويرون أنه لا يجوز للشخص أن يفضل بعض ولده على بعض في الهبة والعطية، فإن خص بعضهم بعطية أو فاضل بينهم أثم، ويجب عليه إما أن يرد ما تفضل به على البعض، وإما إتمام نصيب الآخر.

واستدلوا على ذلك: بحديث الباب، فقد سمى رسول الله ﷺ ذلك جَوْراً، وامتنع عن الإشهاد عليه، والجور حرام، ولأن النبي ﷺ أمر برده والأمر يقتضي الوجوب.

ولأن ذلك يورث العداوة والبغضاء، وقطيعة الرحم بين الأولاد فلا يجوز، كتزويج المرأة على عمتها، أو خالتها[٣].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[٤]، والمالكية[٥]، والشافعية[٦]، ويرون أنه يجوز للشخص أن يفضل بعض ولده في العطية، وإن كانت التسوية بينهم أحب إلى الجميع.

واستدلوا على ذلك: بأن أبا بكر رضي الله عنه قد نحل عائشة ابنته جذاذ عشرين وسقاً دون سائر ولده[٧].

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٨٧/٥، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣٧١/٥، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٢٩/٢.

(٢) المحلى، ابن حزم ١٤٢/٩.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٨٧/٥، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٣٠/٢.

(٤) البدائع ١٢٧/٦.

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢٥/٧.

(٦) اختلاف الحديث للشافعي ١٦٠.

(٧) أخرجه مالك ١٥٠٨ موسوعة شروح الموطأ، ومن طريقه في شرح معاني الآثار ٨٨/٤، والبيهقي ١٦٩/٦-١٧٠، والبغوي في شرح السنة ٢٢٠٤ وإسناده صحيح.

كما أن قول رسول الله ﷺ في حديث الباب "أشهد على هذا غيري" يدل على صحة الهبة، لأنه ﷺ لم يأمره بردها وإنما أمره بتأكيدها، بإشهاد غيره عليها، وإنما لم يشهد رسول الله ﷺ لأن البشير قد ترك الأفضل[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عما يعنيهم من أمورهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حث الآباء على العدل بين أبنائهم، وعدم تفضيل بعضهم على بعض.

ثالثاً: من واجبات الداعية: سؤال المدعو عن بعض الجزئيات قبل إعطائه الإجابة للتثبت والتأكد.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النداء.

خامساً: من أساليب الدعوة: الأمر.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الحث على تحري العدل في شتى الأمور خاصة في معاملة الأولاد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي ﷺ عما يعنيهم من أمورهم:

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين الحرص كله على سؤال النبي ﷺ والرجوع إليه واستفتائه، ومن دلائل ذلك ما ورد في الحديث من سؤال والد النعمان بن بشير رضي الله عنهما لرسول الله ﷺ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ، فقال إني نحلت ابن هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله ﷺ أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ فأرجعه" فلقد كان صحابة رسول الله ﷺ يسألونه عن كل ما يعنُّ لهم في شؤون الدين، بل في الكثير من شؤون

---

(١) اختلاف الحديث للشافعي ١٦٠، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢٦/٧، ٢٢٧.

الدنيا، حتى إن بعضهم كان يسأل عن الشر مخافة أن يقع فيه[(١)].

كما في حديث أبي إدريس الخولاني قال سمعت حذيفة بن اليمان يقول: ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ. وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ. مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ. فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَٰذَا الْخَيْرِ. فَهَلْ بَعْدَ هَٰذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قال: نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا، قال: نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: يا رسول الله! فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصلِ شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك))[(٢)]. فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حث الآباء على العدل بين أبنائهم وعدم تفضيل بعضهم على بعض:

إن العدل ضرورة لإقامة الحق، وضمان العدل يشيع الطمأنينة، وينشر الأمن، ويشد علاقة الأفراد بعضهم ببعض، ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والإخاء. ومن هنا نجد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق، محذرة من الظلم والبغي؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[(٤)]. والعدل من

---

(١) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ١٨٤٧.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.

أوصاف الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١). وإقامة العدل إحدى مهمات الرسول ووظائفه: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٢)(٣).

والعدل الذي ينادي به الإسلام، عدل شامل في جميع ميادين الحياة، وفي جميع شرائح المجتمع وطبقات الناس، ومن ذلك عدل الآباء بين أولادهم وعدم تفضيل بعضهم على بعض، وقد جاء الأمر بالعدل بينهم في صريح الحديث في قوله ﷺ "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم" فإذا كان الآباء حريصين على سلامة أبنائهم من العقد النفسية ومركبات الشعور بالنقص، وآفات القلوب من حقد وحسد وفساد طوية، فليس أمامهم من سبيل سوى أن ينفذوا أمر الرسول ﷺ بالعدل بين الأولاد، وأن يسعوا جهدهم في إشعار أولادهم جميعاً بروح المحبة والأخوة والتسامح والمساواة، حتى ينعموا في ظلال العدل الشامل، والنظرة الرحيمة، والعطف الصادق، والمعاملة العادلة(٤). ولذا كان أمر النبي ﷺ بالعدل في الأولاد، "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم" بالتسوية بينهم في العطاء والبر والإحسان(٥).

وهذا العدل إنما يجب على الإنسان قدر استطاعته، ولا يلزم التدقيق الشديد لما جاء في بعض الروايات ((قاربوا بين أولادكم))(٦). وفي ذلك دليل على أن التسوية بين الأولاد إنما تجب بقدر الوسع، ولا يجب على الإنسان التدقيق الشديد في ذلك، وإنما التفضيل المكروه ما يغلب على الظن أنه يسوء الأولاد والآخرين(٧).

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٥.

(٣) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي ص ٣٣١.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ٣٢٩/١، ٣٣٠.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٤٦.

(٦) أخرجه مسلم ١٦٢٣.

(٧) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني ٧١/٨.

ثالثاً- من واجبات الداعية: سؤال المدعو عن بعض الجزئيات قبل إعطائه الإجابة للتثبت والتأكد:

جاءت الإشارة إلى وجوب مراعاة ذلك، وذلك في سؤال النبي ﷺ لبشير والد النعمان "أكل ولدك نحلته مثل هذا" وفي رواية "أفعلت هذا بولدك كلهم" وفي رواية "يا بشير ألك ولد سوى هذا؟ فقال نعم، قال: أكلهم وهبت مثل هذا" وفي ذلك إشارة إلى ما ينبغي أن يتحلى به الداعية والمفتي بالرصانة في الفكر، وجودة الملاحظة، والتأني في الفتوى، والتثبت فيما يفتي به، فهذه صفات يلزم وجودها فيمن يتصدى للفتوى[1]، إذ أن من كان معروفاً بالعجلة في فتواه، والتسرع بالإجابة عما يسأل عنه، دون أن يتثبت من ذلك، فمن كانت أوصافه كذلك، فقد أول أسباب التوفيق، وحريٌّ بمن فقد أولها، ألا يحالفه الحظ في وجدان آخرها، وألا ينال في آخر المطاف غايته التي قصدها[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء:

ورد في الحديث في قوله ﷺ "يا بشير" والنداء من أساليب الدعوة المفيدة، وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[3] وهذا الخطاب المصدر بنداء الإيمان له أهمية خاصة عند المؤمن، فهو نداء يخاطب قلبه ويدفعه إلى أن يستجيب لما أمر به[4] فالنداء خاصة المصدر بالإيمان نداء موجه مقصود، حتى يتغلبوا على ما يشق على النفس من أمر التكاليف[5].

خامساً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم" وأسلوب الأمر من الأساليب ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما فيه من حمل المدعوين على

---

(١) المفتي في الشريعة الإسلامية وتطبيقاته في هذا العصر، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن علي الربيعة، ص ٢٥.

(٢) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي ٢/١٥٨.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧.

(٤) انظر: الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي ص ٦٠.

(٥) مبادئ تربوية في آيات النداء للذين آمنوا، مأمون النعمان، ص ٥١.

الائتمار بما أُمروا به، وقد تكرر أسلوب الأمر في القرآن، مثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(١)، وقوله: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢) وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾(٣) وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، وتحقيق العبودية لله وطاعته(٤).

سادساً- من موضوعات الدعوة: الحث على تحري العدل في شتى الأمور خاصة في معاملة الأولاد:

جاء في الحديث ما يدل دلالة صريحة على وجوب تحري العدل في الأمور كلها خاصة في تعامل الآباء مع أولادهم، ومراعاتهم العدل بينهم في الهبات والعطايا وعدم تفضيل بعضهم على بعض(٥). فقال ﷺ "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم" وقد تضافرت آيات القرآن وأحاديث السنة النبوية على وجوب العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٦) وقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٧) وقال ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾(٨) وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَٰنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا))(٩). والعدل من

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٤) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤/١.

(٦) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٧) سورة المائدة، آية: ٨.

(٨) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

(٩) أخرجه مسلم ١٨٢٧.

أفضل ما يتصف به الإنسان، قال ابن حزم: أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره[١]. والعدل سبب للتمكين والنصر، قال ابن تيمية: (إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، وإن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة)[٢]. ومن أبرز مجالات العدل التي أولاها الإسلام أهمية خاصة، العدل في الأسرة، أزواجاً وأولاداً ومن شاكلهم، فلكل فرد حقوقه التي يجب أن تصان، وإن اجتناب ذلك والتجافي عن العدل، خاصة بين الأولاد يغرس الحقد والحسد[٣] والضغائن في النفوس.

---

(١) مداواة النفوس، الإمام ابن حزم، تحقيق: أبو حذيفة بن محمد ص ٩٠.

(٢) انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٢٨١٦/٧.

(٣) أخلاقنا، د. محمد ربيع جوهري، ٢١٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على العدل:

العدل خلق شرعي عظيم، وعليه قامت السماوات والأرض، وهو سمة للمسلم الصادق في حياته كلها، ويتأكد الأمر عند تعامل الوالد مع أولاده، أو المعلم مع تلاميذه، وجاءت السنة النبوية مؤكدة وجوب العدل بين الأولاد، ومن ذلك حديث الباب، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلاَمًا كَانَ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟» فَقَالَ: لاَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَرْجِعْهُ».

وفي رواية فقال رسول الله ﷺ: «أَفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ» فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ»..إلخ باقي روايات الحديث.

وما ذلك إلا لأن الإخلال به ينشأ عنه مفاسد عدة من إيغار الصدور وإثارة البغضاء، بل هو مؤد إلى تكريس الأحقاد، وقد يصل الحال لدى بعضهم كما فعل إخوة يوسف حين قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وحين ينشأ الشاب في بيئة لا تلتزم بالعدل فسوف يترك ذلك أثره عليه سواء أكان مُفضَّلاً على غيره أم فُضِّل غيره عليه.

وينشأ الإخلال بالعدل في المحاضن التربوية في حالات كثيرة؛ فيبدو من المربي اهتمام زائد ببعض الشباب لأنه يتوقع منهم أكثر من غيرهم.

ومما ينبغي أن يراعيه المربي هنا: أن الاعتبارات التي يراها مسوغة لتفضيل بعض أولاده أو تلامذته على بعض قد لا تكون مقنعة لديهم، ومن ثم فلابد أن يربط تمييز أحدهم - إن كان في تمييزه مصلحة ظاهرة - بأمور موضوعية مدركة للجميع[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٢) تربية الشباب "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٢٠٥، ٢٠٦.

ثانيًا: التربية بالحوار والمناقشة:

يعد هذا الأسلوب من أهم الأساليب التربوية، فالحوار أحد أركان الفهم والإقناع، لأن الإقناع عن طريق العقل والمنطق يعد أحد أركان السلوك، والقرآن مليء بالأمثلة التي توضح أشكال الحوار التي يمكن استخدامها في التربية لتنمية العقل، وترسيخ العقيدة، ويستخدم أسلوب الحوار والمناقشة في تربية الصغار والكبار، وإن كانت نتائجه مثمرة مع الكبار، ومن الضروري أن نراعي في الحوار والمناقشة مستوى نضج من نحاوره أو نناقشه، وأن نخاطب هذا وذاك على قدر عقولهم ومستوى ادراكهم، وأن نبدأ بالبسيط الواضح المقنع ثم نتدرج في المحاورة والمناقشة إلى أن نصل إلى غايتها.

وقد استخدم رسولنا الكريم ﷺ هذا الأسلوب في عديد من المواقف[1]، ويظهر ذلك جليًا في حواره ﷺ مع بشير رضي الله عنه والد النعمان رضي الله عنه عندما أراد أن يفضل النعمان بعطية دون باقي أولاده ويروي هذا الحوار المفيد وهذه المناقشة الجميلة النعمان بن بشير رضي الله عنه فيقول إن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: «إنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلاَمًا كَانَ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟» فَقَالَ: لاَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَأرْجِعْهُ».

وفي رواية: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ» فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ.

وكذلك باقي الحوار والمناقشة في باقي روايات الحديث، هذا الحوار والمناقشة كان نتيجتها اقتناع الوالد ورجوعه عن تفضيل ابنه عن باقي إخوته، فهو أسلوب من الأساليب التي كثر استخدام النبي ﷺ لها لفائدته في الإقناع.

لذا حرص المربون المسلمون على اتباع هذا الأسلوب والإشادة بأهميته، وفي هذا المجال يؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة في التعليم هي التي تهتم بالفهم والوعي والمناقشة لا الحفظ الأعمى عن ظهر قلب، ويشير إلى أن "ملكة العلم" إنما تحصل

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٥، ٨٦.

بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة في مواضيع العلم، ويعيب طريقة الحفظ عن ظهر قلب ويعتبرها مسئولة عن تكوين أفراد ضيقي الأفق عقيمي التفكير لا يفقهون شيئًا ذي بال في العلم.

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار في التدريس، واعتبروه أسلوبًا مفضلاً مجديًا في التعليم، حيث يقول الزرنوجي: "إن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في الحفظ والتكرار"، وقد احتاط المربون المسلمون من سوء استخدام أسلوب المناظرة والحوار بأن وضعوا له بعض الشروط التي تجعل منه أسلوبًا فعالاً للتعلم والبحث العلمي، ومن أهمها: أن يكون هدف المناظرة الوصول إلى الحقيقة لا التضليل وحب الانتصار بالباطل، كما يشترط في المتناظرين الإلمام بموضوع المناظرة، والتحلي بالهدوء وسعة الصدر وعدم التكلف وغيرة الصدر. ومع أن أسلوب المناظرة هو أقرب إلى الدراسات العالية فإننا نجد صورة مبسطة منه في أسلوب الحوار والنقاش الذي يديره المعلم مع تلاميذه ليحفزهم على التفكير[1].

ثالثًا: التربية بالأحداث والمواقف:

أحداث الحياة ومواقفها متتالية، والأحداث والمواقف لها عواملها وأسبابها، ولها كذلك نتائجها ومخرجاتها، وفي كل حدث أو موقف يكمن درس ينبغي أن نعيه، والتربية بالأحداث والمواقف الواقعية من أهم أساليب التربية الإسلامية وقد استخدم الرسول ﷺ من الأحداث والمواقف العملية دروسًا لقنها للمسلمين، وهكذا كان الرسول ﷺ لا يدع فرصة أو حدثًا أو موقفًا يمر دون أن يجعل منه درسًا وموعظة[2]، ومن ذلك استغلال حدث والد النعمان عندما أراد أن يفضله على باقي أولاده بعطية.

فأرشده إلى الصواب وأفاده وأفاد جميع الوالدين من المسلمين إلى يوم القيامة، بوجوب العدل بين الأولاد وعدم تفضيل أحدهم على الآخر إلا إذا كانت هناك أسباب تدعو لذلك، وهكذا تكون التربية بالحدث، ومن خلال الحدث.

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦.

(٢) أصول التربية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٧.

رابعًا: التربية بالقدوة:

إن التربية بالقدوة من أهم أساليب التربية وأنجحها، وذلك لأن المربي إذا التزم بالقيم التربوية التي يدعو إليها، كان ذلك ادعى إلى قبول توجيهاته والعمل بها، وقد كان رسول الله ﷺ خير قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مربيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به[1].

وتظهر مطابقة سلوك النبي ﷺ لقوله في رفضه أن يشهد على العطية التي أراد أن يعطيها والد النعمان لابنه النعمان، وذلك في قوله ﷺ: «يَا بَشِيرُ أَلَكَ وَلَدٌ سِوَىٰ هـذَا؟» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «أَكُلُّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هـذَا؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «فَلاَ تُشْهِدْنِي إذًا فَإِنِّي لاَ أَشْهَدُ عَلَىٰ جَوْرٍ».

وفي رواية: «لاَ تُشْهِدْنِي عَلَىٰ جَوْرٍ».

وفي رواية: «إذًا فَلاَ».

كل هذه الروايات تؤيد مطابقة سلوكه ﷺ لقوله: «اتَّقُوا اللّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ».

من ذلك يتضح لنا أهمية مطابقة سلوك المربي مع قوله ليكون القدوة الصالحة لهم فيقتدون به.

وذلك لأن تأثير المواقف العملية على نفس المتلقي أبلغ بكثير من الحديث والخطب والعظات، لأنها تكسب برهان صدقها من حدوثها وتحققها، لذلك كان تفاعل المربي مع القيم التربوية التي يدعو إليها والتزامه بها، أجدى من كثير من الكلام عن أهميتها والدعوة إليها، من غير أن يصاحب ذلك عمل في واقع الأمر.

فالتزام المربي أمام الطفل بالصدق في كل تصرفاته فيما يعود عليه بالمنفعة أو ما يعود عليه بالضرر، أجدى من حديث المربي المكرر عن أهمية الصدق وقيمته، وهو لا يلتزم به أو لا يظهر منه التزامه به[2].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ٢٢٥.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف ص ٥٢.

فعندما يلتزم المربي في كل أحواله بأن تكون أعماله مصدقة لأقواله فإن ذلك أنفع للمتربي، حتى لو كان هذا فيما يتعلق بأمور الدنيا، ففي عصرنا الحاضر عندما يلتزم المربي الوقوف عندما تضيء إشارة المرور اللون الأحمر مثلاً، فإن ذلك له تأثيره على الطفل أكثر بمرات كثيرة من سماعه عن أهمية الالتزام بإشارات المرور، بينما هو يرى مربيه في الوقت نفسه لا يلتزم بها، وعندما يرى الطفل مربيه وهو يعطف على المسكين ويساعد الضعيف، فإن ذلك - ولاشك - سوف يدفعه إلى تقليده والاقتداء به وهو أجدى من الحديث عن فضل الصدقة وأهميتها في الوقت الذي لا يظهر فيه القيام بها... وهكذا، فمن الأمور المهمة في تربية الطفل أن يتعامل مع القيم التي نريد له أن يتخلق بها على أنها سلوك عملي ولست مجرد أفكار نظرية، والقدوة تؤكد ذلك المعنى وترسخه[1].



(١) المرجع السابق ص ٥٣، ٥٤.

٣٥٤- باب تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام

الحديث رقم (١٧٧٦)

١٧٧٦- عن زينب بنتِ أبي سلمة رضي الله عنها، قالت: دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها، زَوجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ تُوُفِّيَ أبُوهَا أبُو سُفْيَانَ بن حرب رضي الله عنه، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فِيهِ صُفْرَةُ خَلُوقٍ أوْ غَيرِهِ، فَدَهَنَتْ مِنهُ جَارِيَةً، ثُمَّ مَسَّتْ بِعَارِضَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: واللهِ مَا لِي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيْرَ أنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: **((لا يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ على مَيِّتٍ فوقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، إلاَّ عَلَى زَوْجٍ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً))**[1].

قالَتْ زَيْنَبُ: ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها حِينَ تُوُفِّيَ أخُوهَا، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فَمَسَّتْ مِنْهُ ثُمَّ قَالَتْ: أمَا وَاللهِ مَا لِي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيرَ أنِّي سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: **((لا يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ على مَيِّتٍ فَوقَ ثَلاثٍ، إلاَّ عَلَى زَوْجٍ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً))**. متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم حبيبة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (١٠٩٩).

زينب بنت أبي سلمة: وهي زينب بنت أبي سلمة عبدالله بن عبدالأحد من بني مخزوم، ربيبة النبي ﷺ، أخت عمر بن أبي سلمة، وأمهما أم سلمة زوج النبي ﷺ. ولدت بأرض الحبشة، وقيل غير ذلك، وكان اسمها برَّة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكانت أسماء بنت أبي بكر أرضعتها فهي أحب أولادها من الرضاعة، وبذلك كانت أختا من الرضاعة لأولاد الزبير، واعتبرها النبي ﷺ من أهل بيته. فقال لأمها السيدة أم سلمة أنت وابنتك من أهل البيت، وكانت رضي الله عنها ممن رزقهم الله الفقه في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٤)، ومسلم (١٤٨٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣٥)، ومسلم (١٤٨٦/٥٨). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٤).

الدين، قال أبو رافع كنت إذا ذكرت امرأة بالمدينة فقيهة ذكرت زينب بنت أبي سلمة، وقال أبو رافع في رواية أخرى وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة.

حفظ الله عليها شبابها، وأبقى لها ماء وجها ناضراً، حتى كبرت وعمَّرت، وذلك ببركة نضح رسول الله ﷺ الماء في وجهها.

توفيت رضي الله عنها بالمدينة المنورة في ولاية طارق عليها سنة ثلاث وسبعين، وقيل في رجب سنة ثلاث وستين، وحضر ابن عمر جنازتها، وصُلِّي عليها بعد صلاة الصبح، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها[1].

غريب الألفاظ:

صفرة خلوق: هو طيب معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب، وتغلب عليه الحُمرة والصّفرة [2].

بعارضيها: العارضان: جانبا الوجه فوق الذقن إلى ما دون الأذن [3].

تحد على ميت: أي تترك الطيب والزينة [4].

الشرح الأدبي

إن من سمات الشخصية الإسلامية: إسلام الوجه لله، والرضا بالقضاء والقدر، واستقبال أحداث الحياة المأساوية استقبالاً إيمانيًا فيه سكينة المؤمن، والصبر الجميل، والاحتساب عند الله، والثبات وعدم الجزع؛ لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤٦١/٨، ٤٦٢)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٩٠٨، ٩٠٩)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٣٢/٧، ١٣٣)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (١٦٩٨)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٣٧/٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٧٤/٤، ٦٧٥)، الأعلام، خير الدين الزركلي (٦٦/٣)، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٨٤٩/٢، ٨٥٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: في (ص ف ر).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٩٤٣.

(٤) المرجع السابق ٩٤٣.

والحديث يصور مشهداً من تاريخ نساء النبي ﷺ، وهن أمهات المؤمنين، اللائي قال الله فيهن: "لستن كأحد من النساء".

والحديث في صياغته يغلب عليه الطابع القصصي؛ حيث يسيطر الفعل الماضي على بدايات الجمل، وتتعدد الأحداث والمواقف، وكذلك تتعدد الشخصيات في هذا الحديث الشريف؛ فالراوية زينب بنت أبي سلمة من شخصيات الحديث، وهي التي تفصِّل الأحداث، وتحكي الوقائع، ولذلك تكررت هذه العبارة التي تدل على جو السّرد والحَكْي: قالت: دخلت على أم حبيبة، ... وتواصل عرض وقائع الحدث، "ثم قالت"... وفي المشهد الثاني: "قالت زينب"، وعلى لسان زينب بنت جحش تقول: "ثم قالت".

والشخصية الثانية أم حبيبة زوج النبي ﷺ، التي التزمت بالحداد ثلاثة أيام على أبيها أبي سفيان بن حرب؛ استجابةً لأمر رسول الله ﷺ.

والشخصية الثالثة: زينب بنت جحش، وهي قد التزمت بما أمر به رسول الله ﷺ؛ حيث توفي أخوها، ولم تحد عليه إلا ثلاثة أيام.

ومن شخصيات الحديث: أبو سفيان بن حرب، ومن الشخصيات كذلك، أخو زينب بنت جحش، وقيل: هو عبدالله بن جحش.

ومن الأساليب الموحية في الحديث: أسلوب القصر، في قول رسول الله: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال، إلا على زوج، أربعةَ أشهر وعشراً"، وهذه العبارة التي تعد قاعدة شرعية، تكررت مرة أخرى على لسان زينب بنت جحش رواية عن رسول الله، وهذا التكرار يُعد تأكيداً للحكم، وتثبيتاً له، والنفي هنا بمعنى النهي على سبيل التأكيد.

وتكرار عبارة "والله ما لي بالطيب من حاجة...."إلخ، مرتين على لسان أم حبيبة ولسان زينب بنت جحش، في سياق انتهاء الحداد على الأب والأخ، يؤكد سرعة الاستجابة لتوجيهات رسول الله ﷺ والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- عدم جواز الإحداد على غير الزوج فوق ثلاث ليالٍ، بشرط إذن الزوج.

٢- وجوب الإحداد على الزوج الميت أربعة أشهر وعشراً[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: امتثال أمهات المؤمنين رضي الله عنهن لأقوال النبي ﷺ في الإحداد على الميت.

ثانياً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على نفي التهم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء للزوج إذا مات.

خامساً: من موضوعات الدعوة: إحداد المرأة على زوجها إذا مات عنها وفاءً له.

أولاً- من موضوعات الدعوة: امتثال أمهات المؤمنين رضي الله عنهن لأقوال النبي ﷺ في الإحداد على الميت:

جاء في الحديث ما يدل على ذلك، من فعل أم حبيبة وزينب بنت جش رضي الله عنهما فعن زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنهما قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره، فدهنت منه جارية ثم مست بعارضيها، ثم قالت والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، قالت ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب فمست منه، ثم قالت أما والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت

---

(١) المبسوط، السرخسي ٥٨/٦، وتحفة الفقهاء ٢٥١/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣١٣/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٠١/٣، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٤١/١٦، والمدونة الكبرى، مالك الأصبحي ٤٣٣/٥، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٨/٣، وفتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، زكريا الأنصاري ١٨٥/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤١٥/٥، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة ٢٠٧/٣.

فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا. وذلك يدل على مدى مبالغة أزواج النبي ﷺ في طاعته ﷺ وامتثال أوامره، فهن أحق نساء الأمة بالطاعة فهن لسن كأحد من النساء،وقد خاطبهم الله بقوله ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾[1].

وذلك لشرف منزلتهن وفضل درجتهن وتقدمهن على سائر النساء أجمع، وقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾[2] وذلك خطاب على جهة الموعظة وتعديد النعمة، بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة[3].

ثانياً- من أصناف المدعوين: النساء:

جاء الخطاب في الحديث موجهاً للنساء، فقال ﷺ لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً" والنساء من أصناف المدعوين الذين لا ينبغي أن يغفلوا، فالمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام سواء كانت بنتاً أو زوجة أو أماً، فهي وإن كانت غير رجل إلا أنها أم الرجال وأخت الرجال وخالة الرجال وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهداً كافياً تجاه النساء، فهن نصف المجتمع، وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هي عناية بالدعوة نفسها، وإن هداية المرأة كسب لها، ومنع لأية آثار سلبية تتركها في المجتمع حينما تكون بلا هداية، وبهذا نفهم أن الدعوة في صفوف النساء هي أيضاً حماية للمجتمع وأخلاقه وشبابه[4].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٠-٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٤/١٤/٧.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٧٣، ٧٤.

إن المرأة لها كيان لا يستهان به في مجتمع الإسلام، فهي مثل الرجل لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما عليها، وقد كفل لها الإسلام من الحقوق ما لم تجده في غيره، ويمكن أن نجمل ما يتعلق بالمرأة من أحكام غالباً فيما يأتي:

أ-المرأة كإنسان لها حق الرعاية في طفولتها من تربية وتعليم، وإذا رشدت كانت لها ذمتها المالية المستقلة، وصار لها حرية التعبير عن إرادتها، ولذلك لا تُزوج بدون إذنها.

ب- والمرأة كأنثى، مطالبة بالمحافظة على مظاهر أنوثتها، فلها أن تتزين بزينة النساء، ويحرم عليها التشبه بالرجال.

ومطالبة كذلك بالتستر وعدم الاختلاط بالرجال الأجانب أو الخلوة بهم، ولذلك تقف في الصلاة متأخرة عن صفوف الرجال.

ج- والمرأة المسلمة، مطالبة بكل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده، مع الاختلاف عن الذكر في بعض هيئات العبادة.

د- والمرأة اختصها الله سبحانه وتعالى بالحيض والحمل والولادة، وترتب على ذلك بعض الأحكام الفقهية كالتخفيف عنها في العبادات في هذه الحالات.

هـ- ولضعف المرأة في الخلقة والتكوين، فإنها لا تتولى من الأعمال ما يحتاج إلى بذل الجهد الجسدي والذهني كالإمارة والقضاء، ولم يفرض عليها الجهاد في الجملة، وكانت شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

و- ولأن المرأة أكثر حناناً وشفقة من الرجل، كان حقها في الحضانة مقدماً على الرجل.

ز- والأصل أن يكون عمل المرأة هو رعاية بيتها وزوجها وأولادها، لذلك كانت نفقتها على زوجها ولو كانت غنية. وكان الرجل قواماً عليها، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1])[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ج٦/٢٤٦، ٢٤٧.

وذلك لا يعني نقصان المرأة ولا امتهانها، ولا كون الرجل أفضل منها، لأن الحق يسوى من يشاء مما يشاء وينزله كيف يشاء، وقد كثرت النصوص في القرآن والتي تؤكد على منزلة النوعين من ناحية، وكون المرأة مظهراً من مظاهر نعم الله على الرجال، فضلاً عن التسوية بينهما في التكاليف والثواب والعقاب وسائر الحقوق والواجبات، وكل إسقاط عن المرأة في جانب التكاليف -أو إرجاء- فهو من باب التخفيف عليها من ناحية، مراعاة لطبيعتها التكوينية، ولظروفها الاجتماعية، كإسقاط وجوب الجمعة والجماعة والجهاد، مع إعطائها استقلالية ذاتية بمثل ما يعطي الرجل، وما القوامة إلا لتحميل الرجل دوره تجاه المرأة في الرعاية والعناية ودرء الأذى، ورد عادية المعتدى، حتى وإن أدى ذلك لقتله دفاعاً عنها فينال الشهادة[١]، كما جاء ذلك فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على نفي التهم:

يلاحظ ذلك في الحديث في قول أم حبيبة زوج النبي ﷺ عندما دعت بالطيب ومست به عارضيها "والله ما لي بالطيب من حاجة" ولقد أعطانا النبي ﷺ المثل الحي على الابتعاد عن مواطن الشك والريبة ونفي التهم، فعن أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبت[٣] فقام معي ليقبلني وكان سكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ على رسلكما، إنها صفية بنت حيي، فقالا سبحان الله يا رسول الله، قال إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم

---

(١) دعوة الرسل بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، دراسة تحليلية موضوعية مقارنة، د. بكر زكي إبراهيم عوض ص ٧٧، ٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٩٠ رقم ١٦٥٢، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣/١٩٠.

(٣) فانقلبت: أي رجعت وانصرفت، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق ل ب).

وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً أو قال شيئاً"[١] قال النووي: (وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق وقد يخفى، أن يبين حاله ليدفع ظن السوء، وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان، فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم، فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء للزوج إذا مات:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث في قوله ﷺ "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" فقد شرع إحداد المرأة المتوفى عنها زوجها وفاءً للزوج، ومراعاة لحقه العظيم عليها، فإن الرابطة الزوجية أقدس رباط، فلا يصح شرعاً ولا أدباً أن تنسى ذلك الجميل، وتتجاهل حق الزوجية التي كانت بينهما، وليس من الوفاء أن يموت زوجها من هنا[٣]، ثم تنغمس في الزينة وترتدي الثياب الزاهية المعطرة، وتتحول عن منزل الزوجية، كأن عشرة لم تكن بينهما، وقد أوجب الله الحداد على من توفي عنها زوجها إظهاراً للتأسف على ممات زوج وفى بعهدها، وعلى انقطاع نعمة النكاح، وهي ليست نعمة دنيوية فحسب، ولكنها أيضاً أخروية، لأن النكاح من أسباب النجاة في المعاد والدنيا[٤].

خامساً- من موضوعات الدعوة: إحداد المرأة على زوجها إذا توفي عنها وفاءً له:

إن من تعاليم الإسلام ورعايته لنفوس الناس، خاصة النساء، التحذير من إطالة مدة الحزن، فمنع المرأة أن تحد على أي إنسان مات أياً كان زيادة على ثلاثة أيام، باستثناء الزوج الذي تحد عليه أربعة أشهر وعشراً كما جاء في صريح الحديث "لا يحل لامرأة

---

(١) أخرجه البخاري ٣٢٨١، ومسلم ٢١٧٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٦١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٦/٢.

(٤) حاشية سعدي جلبي على شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ١٣١٦هـ ٢٩١/٣.

تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً" وإحداد المرأة على زوجها هذه المدة، وإن كان له بعض الحكم الظاهرة، إلا أنه في الأصل أمر تعبدي، ومن حِكَمِ الإحداد أنه مبالغة في التحرز من تعرض المرأة لأسباب النكاح في حق المتوفى عنها زوجها[1] وقيل غير ذلك.

قال ابن عثيمين: (والإحداد معناه: ترك الزينة، والطيب ونحوه، مما يعد بهجة وسروراً وترفهاً وهو حرام، وكانوا في الجاهلية إذا مات الإنسان وهو حبيب إليهم امتنعوا عن الطيب والتجمل وما أشبه ذلك إلى مدة حسب ما يقدرونها بأنفسهم، فبين النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه عنه زوجتاه أم حبيبة، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما أنه لا يجوز الإحداد على ميت فوق ثلاثة إلا على زوج؛ فرخص النبي ﷺ في هذا، في الإحداد لمدة ثلاثة أيام، ولا يجوز أكثر من ذلك.

مثاله: رجل مات ابنه فحزن عليه، فالواجب الصبر، والاحتساب، وأن تجري الأمور على ما هي عليه، يخرج إلى دكانه إذا كان صاحب دكان، وإلى فلاحته إذا كان صاحب فلاحة وإلى مكتبه إذا كان موظفاً، وإلى مدرسته إذا كان معلماً أو طالباً، المهم ألا تتأثر أعماله بشيء، هذا هو المشروع، وهذا هو السنة وهذا هو الأوفق، وهذا هو الأرفق بالشخص، ألا يحد على أحد، حتى على ابنه وأبيه، وأمه وأخيه، لا يحد عليهم، الأمر لله عز وجل، لله الملك وله الحمد، فهو المالك، وهو المحمود على كل حال. فلا حاجة إلى أن تحد، اصبر واحتسب، لا تقل: لا تحزن، كل إنسان له قلب حي سيحزن، لكن نقول: اصبر واحتسب وكأن شيئاً لم يكن، لا تخرب شيئاً من أمور دنياك، هذا هو الأفضل والأوفق والأرفق والأحسن.

لكن لما كانت النفوس قد لا تطيق هذا لا سيما مع عظم المصائب، رخص النبي ﷺ في الإحداد لمدة ثلاثة أيام فقط. يعني لا بأس مثلاً أن الإنسان إذا مات له صديق أو قريب وحزن حزناً شديداً لا يستطيع أن يقابل الناس، لا بأس أن يبقى في بيته

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ابو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٢٨٥.

لمدة ثلاثة أيام، فأقل، ولكن لابد من صلاة الجماعة. هذا لا بأس به.

وكذلك بالنسبة للنساء لو مات ابنها أو أبوها أو أخوها أو أحد ممن تأثرت بهم تأثراً بالغاً، فلا حرج عليها أن تحد لمدة ثلاثة أيام فأقل: أما ما زاد فلا يجوز.

"لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تحد فوق ثلاث إلا على زوج". فالزوج له حق عظيم، حتى قال النبي ﷺ: ((لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها))[1] لكن السجود لا يكون إلا لرب العالمين الخالق عز وجل.

المهم أن الزوجة تحد أربعة أشهر وعشرا، هذا إذا كانت غير حامل، أما الحامل فتحد إلى وضع الحمل فقط، زاد أو نقص.

فعلى هذا إذا مات زوج، فالمرأة تحد أربعة أشهر وعشرة أيام، لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2] حتى لو كان ما دخل عليها، لو عقد عليها وهي في المدينة وهو في مكة، ومات فإنها تحد عليه وإن لم يدخل عليها، ما دام العقد صحيحاً.

وإذا كانت حاملاً فإلى وضع الحمل، حتى لو وضعت قبل أن يُغسل الزوج، انتهت العدة، وانتهى الإحداد، يعني مثلاً امرأة توفي زوجها وهي في الطلق، فلما خرجت روحه، خرج الحمل، يعني ما بين خروج روح زوجها، وخروج حملها إلا دقائق معلومة، فالآن انتهت العدة، وانتهى الإحداد، فلها أن تتزوج، يمكن شرعاً أن تتزوج قبل أن يدفن هذا الزوج؛ لأنها وضعت الحمل، ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[3].

فهذه انتهت عدتها، والإحداد.

ولكن ما هو الإحداد؟ الإحداد أن تجتنب المرأة الأشياء التالية:

أولاً: لباس الزينة، لا تلبس ثوباً يعد ثوب زينة، أما الثياب العادية فلها أن تلبسها،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٨٥٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٤.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٤.

بأي لون كان، أصفر، أحمر، أخضر... أي شيء، إنما الذي يعد زينة بحيث يقال: إن هذه المرأة تزينت وتجملت؛ فإنه لا يحل لها أن تلبسه وهي محدة على الزوج.

الثاني: الطيب بجميع أنواعه: دهناً، أو بخوراً، أو شماً، أو غير ذلك، لا تتطيب إطلاقاً، إلا إذا طهرت من الحيض؛ فإنها تأخذ شيئاً يسيراً من الطيب تتطيب به أي تطيب محل الخبث حتى لا يكون لها رائحة.

الثالث: الحلي بجميع أنواعه، لا تلبس الحلي لا في القدمين، ولا في الكفين، ولا في الرقبة، ولا في الأذنين، ولا على الصدر، أي نوع من أنواع الحلي ما تلبسه، حتى لو كانت تلبس سناً من ذهب؛ فإنها تخلعه إذا لم يكن عليها مضرة، فلتحرص على أن تخفيه بأن تقلل الضحك، حتى لا تظهر السن ويتبين للناس.

الرابع: ألا تخرج من البيت أبداً إلا لضرورة أو حاجة، لضرورة في الليل، أو حاجة بالنهار، وأما بدون حاجة ولا ضرورة؛ فلا يجوز أن تخرج من بيتها الذي مات زوجها وهي فيه، فهي يجب عليها أن تبقى في البيت فلا تخرج.

إذا قالت أريد أن أخرج إلى جيراني أستأنس عندهم في النهار وأول الليل، وأرجع إلى بيتي.

نقول: لا، جيرانك يأتون إليك أما أنت لا تذهبي، تبقين في البيت الذي زوجك وأنت فيه، فإذا قدرنا أنها سافرت مع زوجها إلى بلد للعلاج، ومات زوجها بالبلد الذي هو غير بلدها، نقول: ارجعي إلى بلدك، لأن هذا ليس مسكنك في الأصل.

الخامس: التجميل والتكحل بالكحل وما أشبه ذلك، حتى لو فرضنا أن عينها فيها مرض، فلا تتكحل، إلا بصبر أو شبهه -مما لا لون له- تفعله بالليل وتمسحه بالنهار، هذا إن احتاجت وإلا فلا. ولهذا جاءت امرأة إلى النبي وقالت: يا رسول الله، إن ابنتي مات زوجها، وقد اشتكت عينها -يعني توجعها- أفنكحلها قال: لا. مع أنها توجعها عينها، فقال: لا. حتى قال ابن حزم: لو فقدت عينها فإنها لا تكحلها بأي حال من الأحوال؛ لأن النبي سئل عن هذه المريضة في عينها فأبى أن يرخص لهم في الكحل. وكذلك التحمير والتجميل وما أشبه ذلك. أما الصابون الذي ليس فيه طيب فلا بأس،

وكذلك تنظيف الرأس وكذلك تنظيف الجلد.

وما اشتهر عند العوام أن المرأة تغتسل من الجمعة إلى الجمعة يعني المحادة، فهذا لا أصل له.

كذلك أيضاً ما اشتهر عند العوام أنها في الليل لا تخرج إلى الحوش بل تكون تحت السقف؛ فهذا لا صحة له، تخرج إلى ما شاءت.

كذلك ما اشتهر في العامية المحضة، يقولون: إن القمر رجل، له عيون، وأنف، وفم، فلا تخرج المرأة للقمر؛ لأن القمر رجل يطلع عليها، هذا غلط وليس بصحيح. تخرج في الليالي المقمرة، وفي كل شيء، لكن لا تخرج من البيت.

كذلك أيضاً ما اشتهر عند العوام أنها لا تكلم أحداً إلا من محارمها، وهذا غلط أيضاً، تكلم من شاءت لا بأس، ولا حرج، يعني هي في الكلام كغيرها من النساء، لا يحرم عليها الكلام، لكنها كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1] والله الموفق[2].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ج٢/١٨١٦-١٨١٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الاستجابة لسنة النبي ﷺ:

رحم الله النساء المؤمنات، اللاتي إذا أمرن بشيء فعلنه، وإذا نهين عن شيء اجتنبنه، عاملات بقول ربهن عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

من أولئك أزواج النبي ﷺ: أم حبيبة بنت أبي سفيان، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما اللتان مستا من الطيب ما لا تريدان بعد ثلاثة أيام من وفاة والد إحداهما وشقيق الثانية، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، وإيمانًا بالله واليوم الآخر[2].

واتباع سنة النبي ﷺ أمر واجب وفرض عين على الأمة كلها في عسرها ويسرها ومنشطها ومكرهها، ولا يصير المسلم مسلمًا حتى يتبع الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله حسب علمه واستطاعته[3].

فعلى المربي أن يوجه من يقوم بتربيتهم إلى أهمية الاستجابة لسنة النبي ﷺ والاقتداء بأقواله وأفعاله حتى ينالوا رضى الله ورحمته.

ثانيًا- التربية بالممارسة العملية:

التربية الإسلامية تربية عملية، تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام[4].

والتعليم بالعمل والممارسة، مبدأ تربوي هام في التربية الإسلامية، وقد مارس الجيل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) إصلاح المجتمع، الشيخ محمد بن سالم الكدادي البيحاني ص ٣١٠.

(٣) انظر: محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان ص ١٢٣.

(٤) في التربية الإسلامية، د. عبدالغني محمود، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.

الأول من المسلمين السنة الشريفة بغيرة وإيمان وذلك لقربهم من ينبوع الوحي[١]، من ذلك فعل أزواج النبي ﷺ أم حبيبة رضي الله عنها، وزينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث مستا من الطيب الأولى بعد وفاة أبيها والثانية بعد وفاة شقيقها، وفي ذلك ممارسة عملية لإخبارهم عن قول النبي ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِإمْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللَّه والْيَوْمِ الآخِرِ، أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيامٍ. إلاَّ عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

وقد مضى الجيل التالي (التابعون) يسير على نفس المنهج في اتباع السنة، وهكذا حتى يومنا هذا، حيث نجد المسلم المؤمن لا يزال يسعى إلى تركيز حياته وإرسائها على السنة الشريفة، ويتحقق هذا السعي في إعادة تفسير السيرة وفق مفاهيم الأجيال المتتابعة[٢].

والتعليم عن طريق الممارسة والعمل والخبرة "يعوِّد المرء على النظام في الحياة وعلى ضبط النفس، وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية، وعلى التضحية في سبيل الجموع كلها، وهي تتطلب مراعاة وممارسة يومية، تلازم حياة الإنسان"[٣].

والأحداث التي يمر بها الإنسان تؤثر في سلوكه ويمكن استثمارها تربويًا، وذلك بالتأثير الهادف في سلوك الإنسان، فالأحداث[٤] وسيلة فعّالة لربط المادة التعليمية بحياة المتعلمين الواقعية[٥].

والمربي حقًا "لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة، وبغير توجيه، وإنما يستغلها"[٦].

والتربية بالأحداث تعرف بقوة تأثيرها وشدة سيطرتها على النفس والفكر، لأنها

---

(١) انظر: الإسلام، "أهدافه وحقائقه"، د. سيد حسين نصر، ط١، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م ص ٧٤.

(٢) المرجع السابق ص ٧٤.

(٣) فلسفة التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل ص ١٢١.

(٤) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٦-٣٣٨.

(٥) فلسفة التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل ص ١٤٢.

(٦) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ٢٥٠، ط دار الشروق.

تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس، إن كانت هذه الظاهرة خارجية، أو عن طريق التأمل إن كانت داخلية[١].

والحديث الشريف كله ممارسات تربوية في المجتمع الإسلامي الذي عاشه الرسول المربي، في شتى مجالات الحياة[٢].

ثالثًا- التربية على الوفاء:

الرابطة الزوجية من أعظم الروابط في الإسلام، لذلك جعل الإسلام من الوفاء للزوج وجوب إحداد المرأة على زوجها مدة العدة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام بلياليها[٣].

فتمتنع من التزين والتطيب والظهور بمظهر الفرح أو السرور وكذا تمنع خطبتها والتكلم في شأن زواجها حتى تنتهي عدتها[٤].

فعلى الزوجة إظهار الحداد والحزن على الزوج لفراقه بسبب الوفاة. وقد أثبت القرآن هذه العدة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٥].

وبهذه العدة يمكن تحقيق أمرين:

الأول: التأكد من عدم وجود حمل من الزوج المتوفى.

الثاني: إظهار الحزن على وفاة الرجل، ولهذا فهي واجبة على كل من مات زوجها سواء كان ذلك قبل الدخول أو بعده، لأن الحزن واجب في الحالتين، وعليها التزام هذا الحداد فلا عطر ولا زينة ولا خروج من البيت إلا لعذر منه قضاء المصلحة إذا توقفت عليها[٦].

---

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفرة ص ٥٧٢.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٣٨.

(٣) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٤٤/٣.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٤٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٦) الفقه الإسلامي المعاصر، د. عبدالحليم عويس، ٤٦١/٢.

فعلى الزوجة الحزن على زوجها "الميت" لأن الوفاء من المحب إلى محبوبه أمر واجب، قال ابن حزم: ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات. قال: وأول مراتب الوفاء، أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب. لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خلاق له ولا خير عنده[1].

رابعًا- من أهداف التربية الإسلامية: الاعتدال في الحزن:

الحزن على القريب أو الزوج أو الصاحب غير محظور، وربما كان مشكورًا بل قد يكون إظهاره واجبًا مراعاة لحق القرابة ووفاء لواجب الصحبة. ولكن متى خرج عن المشروع صار مذمومًا لأنه يبعث على جلب السأم إلى القلب والغم إلى النفس ويدعو إلى تعطيل الأعمال وتحريم ما أحل الله وربما جر إلى السخط من قضاء الله[2].

وقد بيّن رسول الله ﷺ مقدار ما يباح للمرأة فيه أن تبدي الحزن عند موت زوج أو غيره فقال: «لاَ يَحِلُّ لإمْرَأةٍ تُؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ، أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيام. إلاَّ عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

ومنع المرأة من الإحداد على أمها وأبيها وأخيها فوق ثلاث، وأوجبه على زوجها أربعة أشهر وعشرًا، وهو أجنبي، فيقال: هذا من تمام محاسن هذه الشريعة وحكمتها ورعايتها لمصالح العباد على أكمل الوجوه، فإن الإحداد على الميت من تعظيم مصيبة الموت التي كان أهل الجاهلية يبالغون فيها أعظم مبالغة، ويضيفون إلى ذلك شق الجيوب، ولطم الخدود، وحلق الشعور، والدعاء بالويل والثبور، وتمكث المرأة سنة في أضيق بيت وأوحشه، لا تمس طيبًا، ولا تدهن، ولا تغتسل إلى غير ذلك مما هو تسخط على الرب -تعالى- وأقداره، فأبطل الله سبحانه برحمته ورأفته سنة الجاهلية، وأبدلنا بها الصبر والحمد والاسترجاع الذي هو أنفع للمصاب في عاجلته وآجلته، ولما كانت

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم الأندلسي، ص ١٠٩.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٤٨.

مصيبة الموت لابد أن تحدث للمصاب من الجزع والألم والحزن ما تتقاضاه الطباع سمح لها الحكيم الخبير في اليسير من ذلك، وهو ثلاثة أيام تجد بها نوع راحة. وتقضي بها وطرًا من الحزن، كما رخص للمهاجر أن يقيم بمكة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه ثلاثًا، وما زاد على الثلاث فمفسدته راجحة، فمنع منه بخلاف مفسدة الثلاث[1].

فإنها مرجوحة مغمورة بمصلحتها، فإن فطام النفوس عن مألوفاتها بالكلية من أشق الأمور عليها فأعطيت بعض الشيء، ليسهل عليها ترك الباقي، فإن النفس إذا أخذت بعض مرادها قنعت به، فإذا سئلت ترك الباقي كانت إجابتها إليه أقرب من إجابتها لو حرمت بالكلية.

ومن تأمل أسرار الشريعة وتدبر حكمها رأى ذلك ظاهرًا على صفحات أوامرها، ونواهيها، باديًا لمن نَظَره نافذ، فإذا حرم عليهم شيئًا عوضهم عنه بما هو خير منه وأنفع، وأباح لهم منه ما تدعو حاجتهم إليه ليسهل عليهم تركه.

وبالجملة فما حرم عليهم خبيثًا ولا ضارًا إلا أباح لهم طيبًا بإزائه أنفع لهم منه، ولا أمرهم بأمر إلا وأعانهم عليه، فوسعتهم رحمته ووسعهم تكليفه.

والمقصود أنه أباح للنساء - لضعف عقولهن وقلة صبرهن - الإحداد على موتاهن ثلاثة أيام، وأما الإحداد على الزوج، فإنه تابع للعدة، وهو من مقتضياتها ومكملاتها، فإن المرأة إنما تحتاج إلى التزيين والتجمل والتعطر لتتحبب إلى زوجها، ويحسن ما بينهما من العشرة، فإذا مات الزوج واعتدت منه، وهي لم تصل إلى زوج آخر، فاقتضى تمام حق الأول، وتأكيد المنع من الثاني قبل بلوغ الكتاب أجله، أن تُمنع مما تصنعه النساء لأزواجهن مع ما في ذلك من سد الذريعة إلى طمعها في الرجال وطمعهم فيها بالزينة والخضاب والتطيب، فإذا أبلغ الكتاب أجله صارت محتاجة إلى من يرغب في نكاحها. فأبيح لها من ذلك ما يباح لذات الزوج، فلا شيء أبلغ في الحسن من هذا المنع والإباحة ولو اقترحت عقول العالمين لم تقترح شيئًا أحسن منه[2].

---

(١) انظر: ما أخرجه البخاري، ٣٩٣٣، ومسلم، ١٣٥٢.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص٣٥٤-٣٥٦.

فالشريعة الإسلامية راعت طبيعة الإنسان في حزنه على فقد العزيز ولكنها حثت على الاعتدال في هذا الحزن مراعاة للمصالح، فأوجبت على المرأة الحزن على الزوج مدة العدة فقط، وبعد هذه المدة لا يجوز لها أن تظهر الحزن مراعاة لمصالحها وحثًا لها على التعايش مع الواقع، وأما الحزن على غير الزوج من المرأة مثل أبيها أو أخيها.. أو غيره فلا يجوز أكثر من ثلاث أيام، لأن هذه المرأة قد تكون زوجة وأمًا لأولاد فامتداد حزنها سوف يؤدي إلى تعطيل حقوق هؤلاء، لذا كانت أهمية التربية على الاعتدال في الحزن.



٣٥٥- باب تحريم بيع الحاضر للبادي وتلقي الركبان والبيع على بيع أخيه والخِطبة على خطبته إلا أنْ يأذن أو يردّ

الحديث رقم (١٧٧٧)

١٧٧٧- عن أنس ﵁، قالَ: نهَى رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَبيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ وإنْ كانَ أخَاهُ لأَبيهِ وَأُمِّهِ. متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الحاضر: المقيم في المدن والقرى[2].

لباد: المقيم في البادية[3].

الشرح الأدبي

إن نظام البيع والشراء في الإسلام يقوم على حسن العلاقة بين البائع والمشتري، والقضاء على الاحتكار والاستغلال، والجشع والسرقة، والاختلاس والخداع، والحديث صيغَ في قالب الأسلوب الخبري؛ حيث بدأ بالفعل الماضي في قول الراوي: "نهى رسول الله ﷺ"، والمنهي عنه هو بيع الحاضر للبادي، وقد ورد المنهي عنه في صيغة المصدر المؤوَّل... وهذه الصياغة هي صورة لما يتم في ميدان البيع؛ حيث لا يتم البيع مباشرة بين المستهلك وصاحب السلعة؛ ولكن يقول الحاضر للبادي صاحب المتاع: دعْه عندي لأبيعه لك بالتدريج، وذلك النوع من البيع يحرم؛ لما فيه من الإضرار، وصور التحايل في البيع والشرع متعددة، وتتنوع وتتجدد بتنوع الأسواق، وتجدد الحالات،

(١) أخرجه البخاري (٢١٦١)، ومسلم (٢١/١٥٢٣). السياق للحميدي في جمعه (٢/٥٥، رقم ١٩٠٤).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٥١.

(٣) المرجع السابق ص ٨٢.

والجملة الثانية من الحديث صيغت في قالب الشرط والجواب، والجملة هنا غير مكتملة؛ حيث حذف الجواب للإيجاز، ولدلالة ما قبله عليه؛ حيث يقول رسول الله ﷺ: "وإن كان أخاه لأبيه وأمه": والتقدير: فلا يبيع له، أي: لا يتولى عنه البيع؛ منعاً للاستغلال والاحتكار، والقضاء على بواعث الشحناء، والبغضاء بين المسلمين في معاملاتهم وعلاقاتهم؛ لأن المؤمنين إخوة، والمسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين[1] من الفقه:

١- حكم بيع الحاضر للبادي: جاء في الملخص الفقهي: (ومن البيوع المحرمة: بيع الحاضر للبادي، والحاضر: هو المقيم في المدن والقرى، والبادي: هو القادم من البادية أو غيرها؛ لقوله ﷺ: ((لا يَبَعْ حاضرٌ لباد))[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يكون له سمسارًا)[3]، أي دَلّالاً يتوسط بين البائع والمشتري.

وكما أنه لا يجوز للحاضر أن يتولى بيع سلعة البادي، كذلك لا ينبغي له أن يشتري له. والممنوع هو أن يذهب الحاضر إلى البادي ويقول له: أنا أبيع لك أو أشتري لك، أما إذا جاء البادي للحاضر، وطلب منه أن يبيع له أو يشتري له، فلا مانع من ذلك)[4].

٢- حكم تلقي الركبان: اختلف الفقهاء في حكم تلقي الركبان على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من المالكية[5]، والشافعية[6]، وأحمد

(١) الحديث رقم (١٧٧٧)، (١٧٧٨).

(٢) أخرجه البخاري ٢١٤٠.

(٣) متفق عليه من قول ابن عباس، البخاري ٢١٥٨.

(٤) الملخص الفقهي ٢/١٤-١٥، ط / جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت.

(٥) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد بن رشيد القرطبي ٢/٢٧١.

(٦) المهذب ١/٢٩٢، وروضة الطالبين ٣/٤١٣، وحاشية البجيرمي ٢/٢٢١.

في رواية[١]، والظاهرية[٢]، ويرون أن تلقي الركبان حرام.

واستدلوا على ذلك بأحاديث الباب التي تنهى عن تلقي الركبان، والنهي للتحريم ما لم توجد قرينة تصرفه إلى الكراهة، ولا قرينة هنا.

علاوة على ذلك ما يشتمل عليه البيع من تدليس، وتغرير بالركبان.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٣]، وأحمد في رواية[٤]، ويرون أن تلقي الركبان مكروه.

وقد قيد الحنفية الكراهة بما إذا كان التلقي يضر بأهل البلد، بأن كانوا في ضيق وقحط أو كان المتلقي قد ألبس السعر على الواردين، وإلا فلا كراهة.

واستدلوا بأحاديث الباب -أيضاً- بيد أنهم حملوا النهي على الكراهة.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور في التحريم، لأن هذا البيع لا يخلو من التدليس والتغرير ولأن هذا البيع يؤدي إلى التضييق على الناس، ورفع الأسعار عليهم.

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الإضرار بالناس.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: نهي النبي ﷺ عن تلقي السلع قبل وصولها إلى الأسواق.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: النهي.

رابعاً: من أهداف الدعوة: الحث على اجتناب أساليب الغش والخداع والظلم.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية تحري الحلال من الرزق.

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٥٣/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١١/٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٩٤/٤، والفروع، ابن مفلح ٧٢/٤.

(٢) المحلى، ابن حزم ٤٤٩/٨.

(٣) النتف في الفتاوى للسُّغدي ٨١٠/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٤٧٧/٦.

(٤) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٩٤/٤، والفروع، ابن مفلح ٧٢/٤.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٧٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٧٨، ١٧٧٩).

سادساً: من آداب المدعو: الحرص على النصح في البيع والشراء.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الإضرار بالناس:

إن أعظم القوانين الاقتصادية قانون الاقتصاد في الإسلام، لقد أقر الإسلام حق الملكية، لكن ليس مطلقاً كما يتصوره الغير كالاقتصاد الغربي ونحوه، بل يفرض الإسلام على الملاك وأصحاب الثروات طائفة من الالتزامات الإيجابية والالتزامات السلبية، فالقاعدة أن كل شيء ملك لله أصلاً وأن الإنسان مستخلف فيه، ومن الالتزامات الإيجابية: الزكاة والإنفاق، ومن الالتزامات السلبية: تحرير المال من الحرام والغلو في التبذير، والامتناع عن الربا ونحوه من المعاملات الاقتصادية التي حرمها الإسلام كالغش وغيره، ويطلق العنان للمنافسة في الخير وإجادة العمل، ويجعل العرض والطلب يسريان سرياناً تلقائياً دون أن يصل إلى الاحتكار[1]، ومن أجل حرية المنافسة وعدم الإخلال بالعرض أو الطلب، حرم الإسلام عدة أمور، والتي منها تلقي السلع قبل وصولها إلى الأسواق، أو أن يبيع حاضر لباد، فجاء النهي عن ذلك في الحديث، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيع حاضر لباد وإن كان أخاه لأبيه وأمه" وذهب جمهور العلماء إلى أن المراد أن يكون الحاضر سمساراً للبادي، لما يؤدي إليه ذلك من الإضرار بأهل البلد لارتفاع السعر[2]. وذلك أن الأصل في المعاملات تحقيق مصالح العباد في المعاش والحياة، ورفع الحرج عنهم بعيداً عن الباطل والحرام والإضرار بالغير[3]. ولذا منع الإسلام المعاملات التي تؤدي إلى الإضرار بالغير، ومنها الصورة التي جاءت في الحديث وهي بيع الحاضر للباد، وذلك لما فيه من منع البلدي من الرفق الحاصل له لو اشترى من البادي بالسعر عند قدومه[4].

---

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، د. شوقي ضيف، ٨٨ نقلاً عن كتاب: الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة، أنور الجندي، ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٢٢٣/٩.

(٣) النظام الاقتصادي في الإسلام، خصائصه وأركانه ونظرته لبعض المشكلات الاقتصادية، دراسة مقارنة، محمود بن إبراهيم الخطيب، ص ١٠٣.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٤٨.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: نهي النبي ﷺ عن تلقي السلع قبل وصولها إلى الأسواق:

جاء هذا النهي في الحديث في صريح قوله ﷺ "لا تتلقوا السلع حتى يهبط بها إلى الأسواق". قال الإمام المازري: (إن النهي عن التلقي معقول المعنى، وهو ما يلحقُ الغير من الضرر، ولكن ينقدح هاهنا في نفس المتأمل معارضة، فيقول: المفهوم من منع بيع الحاضر للبادي ألا يستقصي للبادي وأن يوجد السبيل لغبنه، والمفهوم من النهي عن التلقي ألا يغبن البادي.

والانفصال عن هذا أن الشرع في مثل هذه المسألة وأخواتها مبنيٌّ على مصلحة الناس، والمصلحة تقتضي أن ننظر للجماعة على الواحد، ولا تقتضي أن ننظر للواحد على الواحد، ولما كان البادي إذا باع لنفسه انتفع سائر أهل السُّوق واشتروا ما يشترونه رخيصاً، وانتفع به سائر سكان البلد، نظر لأهل البلد عليه، ولما كان إنما ينتفع بالرخص المتلقّى خاصة وهو واحدٌ في قبالة الواحد الذي هو البادي لم يكن في إباحة التلقي مصلحة، لاسيما وينضافُ إلى ذلك علة ثانية وهي لحوق الضرر بأهل السوق في انفراد المتلقي عنهم بالرخص، وقطع المواد عنهم، وهم أكثر من المتلقي، فنظر لهم عليه، فعادت المسألة الأولى، فصارا أصلاً واحداً وانقلب ما ظنه الظان في هذا من التناقض بأن صارا مثلين يؤكد بعضهما بعضاً.

وقد اختلف المذهب عندنا فيمن لم يقصد التلقي ولم يبرز إليه خارج المدينة، بل مر به على بابه بعض البداة: هل يشتري منه ما يحتاج إليه قبل وصوله إلى السوق؟ فقيل بالمنع لعموم الحديث. وقيل بالجواز، لأن هذا لم يقصد الضرر ولا الاستبداد دون أهل السوق فلم يمنع، وقد جعل له في بعض الطرق هاهنا الخيار، إذا جاء السوق ولم يفسخ البيع، لما كان النهي لحقِّ الخلق لا لحق الله عز وجل، ومن لم تثبت عنده هذه الزيادة ورأى أن المنع يدلُّ على فساد المنهي عنه، فسخ البيع، وفي ذلك اضطراب في المذهب.

وفي هذا الحديث من الفوائد أيضاً: إثبات الخيار للمغبون، لأنه إذا ثبت أن النهي عن التلقي لئلا يغبن الجالب، لم يكن لإثبات الخيار له معنى إلا لأجل الغبن، أو لأنه

يرجو الزيادة في السوق[١].

قال النووي: (قال العلماء: وسبب التحريم إزالة الضرر عن الجالب وصيانته ممن يخدعه[٢]، قال ابن عثيمين في تلقي الركبان والسلع، وما ينتج عن ذلك من مضار لأهل البلد وللركبان، وذلك لأنهم كانوا فيما سبق يعرفون أن البادية تأتي بالسلع، مثلاً في أول النهار يوم الجمعة، فتجد بعض الناس يخرج من البلد إلى قريب منه، ثم يتلقى الركبان، ويشتري منهم قبل أن يصلوا إلى السوق، فيقطع الرزق على أهل البلد الذين ينتظرون الركبان وكذلك يغبن المتلقين، بأن يغبن الركبان، فيحصل بتلقي الركبان مضرتان:

الأولى: على أهل البلد الذين ينتظرون قدوم الركبان من أجل أن يشتروا منهم برخص.

الثانية: الضرر على الركبان، لأن هذا الذي تلقاهم سيغبنهم، ويشتري منهم بأقل من السوق، ولم يصلوا إلى السوق حتى يعرفوا السعر، ولهذا قال النبي ﷺ ((لاَ تَلَقَّوُا الْجَلَبَ. فَمَنْ تَلَقَّى فَاشْتَرَىٰ مِنْهُ، فَإِذَا أَتَىٰ سَيِّدُهُ السُّوقَ، فَهُوَ بِالْخِيَارِ))[٣] يعني إذا تلقى الإنسان الركبان خارج البلدان، واشترى منهم، ثم دخل البلد ووجد أنه مغبون، فله أن يرد البيع، لأنه قد غر وغبن[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: النهي:

تكرر النهي في الأحاديث في قوله ﷺ "لا تتلقوا السلع" وقوله "لا تتلقوا الركبان" وفيما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه "نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد" وذلك للحفاظ على الأسعار وعدم التدخل فيها، ورعاية لمصلحة الجالبين ولأهل البلد المستهلكين، وهذا النهي واجب التنفيذ، لما فيه من إطلاق النهي وعدم وجود قرينة

---

(١) المعلم ج١/٤٩٩، ٥٠٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٩٦٦.

(٣) أخرجه مسلم ١٥١٩.

(٤) شرح رياض الصالحين ج٢/١٨٢١.

صارفة له، وامتثالاً لقول الله عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1][2] وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية النافعة، في عرض الدعوة وإيقاف المدعوين على المخالفات الشرعية ونهيهم عنها، وهو أسلوب يتسابق المؤمنون للامتثال به والانتهاء عن مقتضاه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع وهذا هو مقتضى الإيمان، وتحقيقاً لعبودية الله وطاعته[3]، وقد تكرر استخدام النهي في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحث على اجتناب أساليب الغش والخداع والظلم:

جاءت السنة مبينة لأساليب الغش والخداع في البيوع ومنها ما جاء في الحديث في قوله ﷺ "لا تتلقوا الركبان ولا يبع حاضر لباد" وذلك أن الإسلام بتشريعاته يحمي المنتج، وصاحب السلعة، ومن يتاجر بها، وفي نفس الوقت يحمي المستهلك، وذلك إيجاداً للرحمة في المجتمع الإسلامي كله، فالإسلام يحقق في المعاملات الرحمة بدلاً من الشقاق[6]، لذا كان النهي عن الغش والخداع بكل صوره لما فيه من ظلم للناس، وقد جاءت النصوص ناهية عن غش الناس والغرر بهم فقال ﷺ ((مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))[7]

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) انظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٠٥/٤١، ٤٠٦.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠، ٥١.

(٤) سورة الجمعة، آية: ٩.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٨٥.

(٦) انظر: الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، يوسف كمال، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ص ١٨٠، ١٨١.

(٧) أخرجه مسلم ١٠٢.

قال القرطبي: (وهذا يحمل على معنى ليس على طريقتنا ولا على شريعتنا، إذ سنة المسلمين وشريعتهم التواصل والتراحم لا التقاطع والتقاتل، وتكون فائدته الردع والزجر عن الوقوع في مثل ذلك، كما يقول الوالد لولده إذا سلك غير سبيله: لست منك ولست مني، كما قال الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً ... فإني لست منك ولست مني

والغش ضد النصيحة، وأصله من اللبن المغشوش أي المخلوط بالماء تدليساً[١]، والغش طريق موصل إلى النار، مبعد عن الله وعن الناس، إضافة إلى ما فيه من دلالة على دناءة النفس وخبثها، فضلاً عما يؤدي إليه من سخط الناس ومقتهم[٢].

خامساً- من موضوعات الدعوة: أهمية تحري الحلال من الرزق:

لقد أمر الإسلام بتحري الحلال من الرزق واجتناب الحرام، لذا جاء تبيين الإسلام لهما، حتى يكون العبد على بينة من أمره، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[٣] وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...))[٤] ومن ذلك الحرام المفصل، غش الناس وخداعهم في البيوع، والغرر بهم، ومن صور ذلك تلقي الركبان كما في الحديث "لا تتلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد" فإن في ذلك منافاة للورع، وتحري الحلال الذي هو أعلى مراتب الإيمان، وأفضل درجات الإحسان[٥]. قال

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٣٠٠، ٣٠١.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ١١/٥٠٧٥.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١١٦.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٨/٣٦٢٦.

الحسن البصري: (ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه)[١].

بل إن الورع عن الحرام أصل في قبول العبادات وتحصيل ثوابها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٢] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك))[٤] وفي ذلك حث على تحري الحلال والبعد عن الحرام، وأن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك، ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه[٥].

سادساً- من آداب المدعو: الحرص على النصح في البيع والشراء:

إن من أهم الآداب الواجب التحلي بها النصح، ولا سيما في المعاملات، وذلك دليل على إخلاص المحبة للغير بإظهار ما فيه صلاحه[٦]، وذلك من واجبات المسلم على أخيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ». قِيلَ: مَا هُنَّ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ. وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ. وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللّهَ فَشَمِّتْهُ. وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ. وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»))[٧] والحرص على النصح في البيع والشراء من أسباب البركة، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا. فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا

---

(١) كتاب الورع، لابن أبي الدنيا ص ٤٢.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٠١٥.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٤.

(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني ص ٢٩٥.

(٧) أخرجه مسلم ٢١٦٢.

فِي بَيْعِهِمَا. وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا))[١] وذلك أن الكذب والكتمان والغش، وغيرها من الصفات المذمومة في البيع والشراء، تؤدي إلى هدم الثقة بين الناس وغرس الضغينة في النفوس، بإيقاد نار الشحناء والبغضاء، وذلك ما لا يرضاه الإسلام، ويقاس على ذلك كل ما يخدش الثقة، أو يعرض رابطة الأخوة للشقاق والتخاصم[٢].

لقد فرض الإسلام في البيع والتجارة، والمعاملات عامة، مستوى رفيعاً للاستقامة والأمانة والثقة، جدير بأن تنهجه أمم العالم في عصرنا اليوم[٣].

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٩، ومسلم ١٧٢١ واللفظ له.

(٢) النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه، د. فتحي أحمد عبدالكريم، د. أحمد محمد العسال، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ١٦٠.

(٣) انظر: أمراض النفوس، إبراهيم محمد الجمل ص ١٤١.

الحديث رقم (١٧٧٨)

١٧٧٨- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ تَتَلَقَّوُا السِّلَعَ حَتَّى يُهْبَطَ بِهَا إلَى الأَسْوَاقِ)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن الدين الإسلامي يتكئ على قواعد ثلاث: العقائد والعبادات والمعاملات، وهذه القواعد نابعة من التصور الإيماني الصحيح؛ فالإيمان ليس اعتقاداً قلبيًّا فقط؛ ولكنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. وكتاب البيوع أحد أقسام الفقه الإسلامي، وللبيع في الإسلام شروطه وأسسه، التي تنظم حركة البيع والشراء، وتعطي لكل ذي حق حقه.

والمصطفى ﷺ يبدأ هذا الحديث الموجز الواضح بالنهي الجازم الصريح في قوله: "لا تتلقوا"، والنهي ليس موجَّهاً لفرد واحد؛ ولكنه موجّه إلى الأمة كلها، بكل أجناسها وألوانها ولغاتها، وأماكنها وأزمنتها وبيئاتها.

والمنهي عنه: تلقي المتاع المجلوب للبيع قبل استقرار هذه البضاعة في الأسواق، ومعرفة الأسعار؛ حتى يكون الناس على بينة من أمرهم، وأسعار السلع معروفة لديهم، والتعبير بقوله: "حتى يهبط بها إلى الأسواق"، فيه تصوير لحركة جلب السلع من الأماكن المتفرقة البعيدة والقريبة، وهي حركة تحتاج إلى الصعود والنزول، والمدافعة والمنافسة، والبناء للمجهول في الفعل "يُهبط" يومئ إلى عدم تحديد صاحب البضاعة؛ لأن كل إنسان من حقه التجارة، وتنمية رأس ماله، والمساهمة في الرواج الاقتصادي.

وأتى بلفظ "الأسواق" جمعاً، ولم يأت به مفرداً؛ للإيحاء بضرورة تعدد منافذ البيع

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦٥) واللفظ له، ومسلم (١٥١٧/١٤).

والشراء، وأن لا يحتكر السلعة أحد، وأن لا يختص بها مكان دون آخر، وقد حذر رسول الله ﷺ من المخاتلة والخداع في البيع، فقال عليه الصلاة والسلام: "إياكم وهَيْشات الأسواق"[1]. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- حكم بيع الحاضر للبادي، وقد سبق بيانه في الحديث رقم (١٧٧٧).

٢- حكم النجش: ذهب جمهور الفقهاء[2] إلى أن النجش حرام، وأن الناجش عاص بفعله، خلافاً للحنفية[3] فقد قالوا بالكراهة.

وقد اختلفوا في حكم البيع الذي يقع فيه النجش على ثلاثة آراء.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه بعض المالكية[4]، والحنابلة في المشهور عندهم[5]، ويرون أن بيع النجش فاسد لا يفيد الملك.

واستدلوا على ذلك بأحاديث الباب التي تنهى عن النجش، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه.

---

(١) أخرجه مسلم، ٤٣٢.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٦٨/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٧٧/٤، والشرح الكير ٦٨/٣، والوسيط في المذهب ٦٦/٣، وروضة الطالبين ٤١٤/٣، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٢٩٩/١، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة ٢٢/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٩٥/٤.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٠٧/٦، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٠١/٥، والنتف في الفتاوى للسُغدي ٨١٠/٢.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٦٨/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٧٧/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٣٢/٣.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٩٥/٤، الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة ٢٢/٢.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣] في رواية والظاهرية[٤]، يرون أن البيع صحيح يفيد ملك المشتري للسلعة، وللبائع الثمن كغيره من البيوع الصحيحة.

واستدلوا على ذلك بأن النهي في الأحاديث راجع إلى الناجش، لا إلى العاقد، فلم يؤثر في البيع.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه المالكية في المشهور عندهم[٥]، ووجه عند الشافعية[٦]، ويرون بثبوت الخيار للمشتري فإن شاء أمضى البيع، وإن شاء رده.

واستدلوا على ذلك بقياس النجش على بيع المصراة بجامع التغرير في كل، والمصراة يثبت فيها الخيار فكذلك النجش.

الترجيح:

ولعل الراجح هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثالث الذي يعطي للمشتري الخيار بين الفسخ والإمضاء.

٣-حكم بيع الرجل على بيع أخيه: بيع الرجل على بيع أخيه حرام، إلا أن الفقهاء اختلفوا في حكم البيع إن وقع على رأيين:

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ١٠٧/٦، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٠١/٥.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤١٤/٣، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦٦/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٨/٢.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٩٥/٤.

(٤) المحلى، ابن حزم ٤٤٨/٨.

(٥) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٦٨/٣، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣٧٧/٤.

(٦) الوسيط في المذهب ٦٦/٣، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤١٤/٣.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد في رواية[1]، ويرى أن بيع الرجل على بيع أخيه فاسد، فإن وقع يجب فسخه مطلقاً.

واستدلوا على ذلك بأحاديث الباب التي تنهى عن بيع الرجل على بيع أخيه، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[2]، ويرون أن بيع الرجل على بيع أخيه صحيح مع الإثم.

واستدلوا على ذلك بأحاديث الباب التي تنهى عن بيع الرجل على بيع أخيه، وقالوا: إن النهي ليس منصباً على البيع، وإنما هو منصب على سلوك العاقد، وما ألحقه من إيذاء للعاقد الآخر.

الراجح:

هو ما ذهب إليه الجمهور من القول بصحة البيع مع الإثم، وذلك لأن البيع مستوف لأركانه وشروطه، والنهي ليس وارداً على نفس البيع، وإنما هو وارد على معنى آخر، فلا يقتضي فساد البيع.

٤- حكم خطبة الرجل على خطبة أخيه: الخطبة على الخطبة حرام[3]، لما في ذلك

---

(١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣/٣٣١، والفروع، ابن مفلح ٤/٢٧٧، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٤/٤٤.

(٢) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٦/٤٧٧، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٥/١٠١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٤/٣٧٩، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤/٢٢١، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٣/٦٥، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣/٤١٤.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٥/١٠١، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٦/٤٧٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤/٢٢١، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٤/٣٧٩، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٣/٦٥، والروضة ٣/٤١٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧/١٩.

من الاعتداء على الخاطب الأول، والإساءة إليه، علاوة على ما قد ينجم عن ذلك من الشقاق، وإشعال نار العداوة بين الخاطب الأول والخاطب الثاني.

ولعل شرط عدم جواز الخطبة على الخطبة ما يأتي:

١- أن يركن كل منهما للآخر بأن صرحت هي ووليها بالرضا، أما إذا كان الخاطب الأول لم يصرح له بالرضا، فإنه يجوز للخاطب الثاني التقدم لخطبتها.

٢- أن يعلم الخاطب الثاني بأنها مخطوبة، فإن لم يعلم وتقدم لخطبتها فلا إثم.

٣- ألا يأذن له الخاطب الأول في الخطبة، فإن أذن له جاز للثاني خطبتها لأن إذن الأول بمثابة الإعراض عن زواجها.

٤- تحريم سؤال المرأة طلاق الأخرى[1]، حتى يصير إليها ما كان للأولى من النفقة وغيرها، وتفوز بحظها وتنكح زوجها.

المضامين الدعوية[2]

(١) المبسوط، السرخسي ١٩٥/٤، والبدائع ٤٨/٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٥١٨/٣، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣١٠/٣، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٩٢/٩، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٨١/٧، ومنار السيل ١٥٧/٢.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٧٩)

١٧٧٩- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: ((لاَ تَتَلَقَّوُا الرُّكْبَانَ، وَلاَ يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ)) فقالَ لَهُ طَاووسٌ[١]: مَا [٢]: لاَ يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ؟ قال: لاَ يَكُونُ لَهُ سِمْسَاراً. متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الركبان: القادمون إلى المدينة بالسلع[٤].

سمساراً: وسيطًا بين البائع والمشتري[٥].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يضيء بعض المعاني والمقاصد المستغلقة في الحديث السابق، ويفسِّر بعض جوانبه؛ حيث حدّد المقصود من تلقي السلع في الحديث السابق، فقال: "لا تتلقوا الركبان"، وهذا الأمر الصادر من رسول الله ﷺ إلى كل مسلم، وإلى كل فئات الناس، يوحي بكثرة التجار، وكثرة الأسواق، وتدافع حركة البيع والشراء، والاستيراد والتصدير، وصيغة الجمع في قوله: "الركبان" تفصح عن هذا الإيحاء، والكلمة تفصح عن دلالات الرحلة والسفر.. والتعب والمشقة.

وقد ازداد الأمر وضوحاً؛ من خلال هذه المحاورة الجميلة، بين ابن عباس وطاووس: حين سأله: ما قوله: "لا يَبِع حاضر لباد؟"، أي: ما معنى قوله: "لا يبع حاضر لباد"،

---

(١) لفظ البخاري: (فقلت لابن عباس).

(٢) عند البخاري زيادة: (قوله).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٥٨) و اللفظ له، ومسلم (١٥٢١/١٩).

(٤) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٢.

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٣.

فأفصح رسول الله ﷺ عن المراد، وقال: "لا يكون له سمسارًا": أي: وسيطاً بين صاحب البضاعة والمستهلك الحقيقي؛ حيث يشتريها هذا الدلال بثمن قليل، ثم يبيعها للمحتاج بثمن بَهْظ؛ رغبة في الكسب المرتفع، وهذه صورة من صور الحضارة الإسلامية، التي تحرص على أقوات الناس وأمنهم؛ حيث يكون كل مسلم آمناً في سربه، مطمئنًّا على غده، عنده ما يكفي أبناءه، غير خائف من جشع التجار، فتستقر به أمواج الحياة، ويرسو على شاطئ النجاة، لا يتوكل إلا على خالقه، ورازقه الواحد القهار، ويسبحه آناء الليل وأطراف النهار.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه: بيان حكم بيع الرجل على بيع الرجل، وحكم الخطبة على الخطبة، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٧٧٧).

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٧٧).

الحديث رقم (١٧٨٠)

١٧٨٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ أنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ يَبِيعِ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أخيهِ، وَلاَ يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أخيهِ، وَلاَ تَسْأَلُ المَرْأَةُ طَلاَقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِي إنائِهَا[١].

وفي رواية[٢] قال: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنِ التَّلَقِّي، وَأَنْ يَبْتَاعَ المُهَاجِرُ لِلأعْرَابيِّ، وَأَنْ تَشْتَرِطَ المَرْأَةُ طَلاَقَ أُخْتِهَا، وأنْ يَسْتَامَ الرَّجُلُ على سَوْمِ أخيهِ، وَنَهَى عَنِ النَّجْشِ و[٣] التَّصْرِيَةِ. متفق عليه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ولا تناجشوا: النجش معناه: يمدح السلعة ويزيد ثمنها وهو لا يريد شراءها، ليقع غيره فيها[٤].

لتكفأ ما في إنائها: وهذا تمثيل لإمالة الضرة حق صاحبتها من زوجها إلى نفسها إذا سألت طلاقها[٥].

يستام الرجل على سوم أخيه: من المساومة: المجاذبة بين البائع والمشتري على السلعة للفصل فيها، والمنهيُّ عنه أن يتساوم المتبايعان حتى يقترب العقد، فيجيء رجلٌ آخر يريد أن يشتري تلك السلعة ويخرجها من يد المشتري الأول[٦].

التصرية: أي ترك حلب الدابة ومنع ولدها من شربها ليجتمع اللبن في ضرعها[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٠) واللفظ له، ومسلم (١٥١٥/١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٢٧) واللفظ له، ومسلم (١٤١٢/٤٨).

(٣) لفظ البخاري: (وعن التصرية).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ج ش).

(٥) المرجع السابق في (ك ف أ).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س و م).

(٧) انظر: مختار الصحاح، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص ر ي).

الشرح الأدبي

ما أجمل الآداب الاجتماعية، التي تنظم السلوك القويم في ظل التعاليم الإسلامية، والتوجيهات النبوية الحكيمة، وهذا الحديث يعبق بتعاليم سديدة، وقيم مفيدة رشيدة، وقد تضمن باقاتٍ عديدة من النصائح والإرشادات، وهي خمس باقات وهالات لغوية، وردت في خمس جمل، تناسقت وتآلفت في نظامها اللغوي، وأسلوبها النحوي؛ فصيغة النهي تشمل كل جمل الحديث، التي يغلفها الأسلوب الإنشائي، والجملة الأولى قد وردت في صيغة إخبارية.. وليست إنشائية، ولكن النهي فيها صريح؛ حيث قال الراوي: نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد، والمراد كما جاء في الحديث السابق: لا يبع حاضر لباد، وقوله: "ولا تناجشوا" نهى إلى كل من يتصدر حركة البيع والشراء، ويغشى الأسواق، والنجش زيادة في ثمن السلعة، لا لرغبة بل ليخدع غيره.

والنجش في اللغة -كما ورد في القاموس المحيط- أن تواطئ رجلاً إذا أراد بيعاً أن تمدحه، أو أن يريد الإنسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها بثمن كثير؛ لينظر إليك ناظر فيقع فيها.

وتكرار "لا" الناهية في بداية كل جملة، يؤكد أن ما نهى عنه رسول الله ﷺ هو نهي تحريم، حرصاً على استمرار الأخوة والصحبة الحسنة بين المسلمين.

وتحديد لفظ "الأخ" وتكراره مرتين، وكذلك لفظ "الأخت"؛ لمزيد من الترغيب في البعد عن الخداع، فالأخوة هنا ليست أخوة النسب أو الرضاع؛ ولكنها أخوة إيمانية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، والمسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه.

والحديث يتجاوز دائرة البيع والتجارة؛ لينبه إلى سلوك اجتماعي غير قويم، فقال: "لا يخطب على خطبة أخيه"؛ لأن ذلك الأمر يمزق السكينة التي توحد بين القلوب المؤمنة، ويقطع أواصر المحبة والقربى والمودة والرحمة، وذلك سر النهي الذي أصدره

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

رسول الله ﷺ؛ حتى لا يعتدي الرجل على حق أخيه، ولا تعتدي المرأة على حق أختها، وتزعزع استقرارها، حين تطلب طلاقها؛ حتى تتزوج من زوجها، وما أرق هذا التعبير الموحي الهادف، في ذلك البيان النبوي البليغ: "لتكفأ ما في إنائها"، إنه كناية عن قلب الحياة، وسلب السعادة، وتدمير الاستقرار، وهذا ليس من خلاق المسلم أو المسلمة.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ من بيع الحاضر للباد.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الزيادة في الأسعار للخداع والمزايدة على الناس في البيع.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن بيع الرجل على بيع أخيه، والسوم على سومه.

خامساً: من موضوعات الدعوة: النهي عن خطبة الرجل على خطبة أخيه.

سادساً: من أهداف الدعوة: النهي عن السعي في إفساد العلاقة بين الرجل وزوجته.

سابعاً: من أهداف الدعوة: بيان حق المؤمن على أخيه المؤمن.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

تكرر أسلوب النهي في الحديث "لا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها" وقوله "لا يبع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له" وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية البارزة المفيدة، وذلك لما فيه من إيقاف المدعوين على المخالفات الشرعية وتحذيرهم من الوقوع فيها، وقد تكرر أسلوب النهي كثيراً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٨٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٨١، ١٧٨٢).

(٢) سورة هود، آية: ٨٥.

تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1] وأسلوب النهي من الأساليب التي يتسابق المؤمنون للامتثال بها والانتهاء عن مقتضاها، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، وتحقيق العبودية لله وطاعته[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الانتهاء عما نهى عنه النبي ﷺ من بيع الحاضر للباد:

إن الإسلام يعترف بنظام السوق وقوتيْ العرض والطلب، ويجب أن تسير السوق على سيرها الطبيعي وكما قال ﷺ: ((لا يبع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض))[3] يعني أن الله تعالى يرزق المشتري بواسطة البائع، ويرزق البائع بواسطة المشتري، فلا يجوز لأحد أن يتدخل في هذا النظام، كما لا يحب الإسلام أن تحدث في السوق احتكارات تتسيطر على السوق وتستبد بالأسعار، وهذا من ميزات النظام الاقتصادي الإسلامي التي تميزه عن الرأسمالية والاشتراكية.

ثم إن أحاديث النهي عن بيع الحاضر للبادي، تدل على أن الإسلام يستحسن أن لا تكون بين البائع والمشتري وسائط، أو تكون قليلة جداً، فإنه كلما كثرت الوسائط بين البائع والمشتري ازداد الثمن على المستهلكين، فما يسميه علماء الاقتصاد اليوم "الرجل المتوسط" مما لا يستحسنه الإسلام إلا إذا اشتدت الحاجة إليه، فالسمسرة وإن كانت جائزة، ولكن الإكثار من الوسائط بين الصانع والمستهلك مما لا يشجع عليه الإسلام، وإنما يشجع على التقليل منها[4].

كما جاء في الحديث فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه "نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد" والمراد أن يكون الحاضر سمساراً للبادي، ونهى النبي ﷺ عن ذلك لما يؤدي إليه بعد ذلك من الإضرار بأهل البلد لارتفاع السعر[5]؛ فالعقود في الإسلام تبتعد

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٢) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠، ٥١.

(٣) أخرجه مسلم ١٥١٢.

(٤) انظر: تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٣٢٦/٧، ٣٢٧.

(٥) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٣/٩.

عن الظلم، لذا جاء تحريم التطفيف في المكيال والميزان وتحريم الكذب والخيانة، فكل عقد فيه ظلم واستغلال لأحد المتعاقدين أو كليهما، فقد نهى عنه الإسلام، مثل كتمان العيب في المبيع، والغش، فإن ظاهرها الصحة والرضا بين المتعاقدين، وخاصة عند حاجة المشتري، ولكن باطنها ينطوي على الظلم والطغيان[١]، ولقد أوصى الأنبياء أتباعهم بالبعد عن التغابن والتنازع، ومظاهر الظلم في المعاملات، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن الزيادة في الأسعار للخداع والمزايدة على الناس في البيع

جاء النهي عن ذلك وهو ما يسمى بالنجش، فقال ﷺ "ولا تناجشوا" والنجش الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها، قال ابن حجر: (قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الناجش عاص بفعله، والنجش خديعة، وتحريم الخديعة واضح لكل أحد)[٣]، وقد نهى النبي ﷺ في الحديث عن النجش لأنه خداع وغش، وقد حرم الإسلام الغش بأي شكل من الأشكال[٤]. فقال ﷺ ((مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))[٥] قال ابن أبي أوفى ((الناجِشُ آكِلُ رِباً خائن))[٦] والنجش هو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليقتدي به المستام -المشتري الفعلي- فيظن أنه لم يزد فيها هذا الثمن إلا وهي تساويه فيغتر بذلك، فهذا حرام وخداع باطل لا يحل، لما فيه من

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام، محمود بن إبراهيم الخطيب، ١٠٥.

(٢) سورة هود، آية: ٨٤، ٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤/٤١٦.

(٤) النظام الاقتصادي في الإسلام، محمود بن إبراهيم الخطيب، ١٣٠.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٢.

(٦) أخرجه البخاري ٤١٧.

التغرير بالمشتري والخديعة له[1]. وذلك من صفات اللئام، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفاجِرُ خَبٌّ لَئِيمٌ))[2].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن بيع الرجل على بيع أخيه، والسوم على سومه:

إن أحكام الشريعة على اختلاف أنواعها لها صلة وثيقة بالأخلاق، لهذا حثت على مراعاة الفضائل، من الصدق والعدل، والوفاء بالعهود والعقود، والرحمة والإحسان، وترك الرذائل من الظلم والغدر، والغبن والكذب والفسق، وأكل أموال الناس بالباطل[3] والاعتداء على حقوق الآخرين، وتفويت المصالح عليهم، وإجهاض مشروعاتهم، ومن ذلك ما جاء في الحديث من نهي المسلم عن البيع على بيع أخيه المسلم، كما جاء في صريح الحديث "ولا يبيع الرجل على بيع أخيه" وفي الرواية الأخرى "وأن يستام الرجل على سوم أخيه" وفي الحديث أيضاً: "فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه..." قال النووي: (أما البيع على بيع أخيه فمثاله أن يقول لمن اشترى شيئاً في مدة الخيار: افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه وأجود منه بثمنه ونحو ذلك، وهذا حرام، ويحرم الشراء أيضاً على شراء أخيه، وهو أن يقول للبائع في مدة الخيار افسخ هذا البيع وأنا أشتريه منك بأكثر من هذا الثمن ونحو هذا، وأما السوم على سوم أخيه، فهو أن يكون قد اتفق مالك السلعة والراغب فيها على البيع ولم يعقده، فيقول الآخر للبائع أنا أشتريه وهذا حرام بعد استقرار الثمن)[4]، قال ابن عثيمين: (وذلك حرام، لأن المشتري سوف يحاول أن يفسخ العقد من أجل أن يأخذ السلعة برخص)[5] وفي ذلك إضرار بالآخرين.

---

(١) انظر: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٠٤/٦.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٦٤، وأبو داود ٤٧٩٠ واللفظ له، والحديث حسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٥٩٩)، وقال محقق جامع الأصول: حديث حسن، ط١١/٧٠١.

(٣) الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة، أنور الجندي ص ٢٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٩٦٤.

(٥) شرح رياض الصالحين ج١٨٢١/٢.

خامساً- من موضوعات الدعوة: النهي عن خطبة الرجل على خطبة أخيه:

فقد جاء في الحديث النهي عن الاعتداء على الخطبة، "ولا يخطب على خطبة أخيه" وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الخطبة على الخطبة حرام إذا حصل الركون إلى الخاطب الأول، لما في ذلك من الإيذاء والجفاء، والخيانة والإفساد على الخاطب الأول، وإيقاع العداوة بين الناس[1].

سادساً- من أهداف الدعوة: النهي عن السعي في إفساد العلاقة بين الرجل وزوجته:

وإلى ذلك جاءت الإشارة في الحديث "ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها" أي ولا تسأل المرأة ولو أجنبية طلاق زوجة رجل لينكحها، أو يصير لها من نفقته ومعروفه ومعاشرته ما كان للمطلقة، فعبر عن ذلك بكفء ما في إنائها مجازاً[2]. فجاء في الحديث نهي المرأة الأجنبية أن تسأل الزوج طلاق زوجته لينكحها، أو أن يخطب الرجل المرأة وله امرأة، فتشترط عليه طلاق الأولى لتنفرد به، وليصير لها من نفقته ومعاشرته ما كان للمطلقة، فعبر عن ذلك بإكفاء ما في الإناء والكفؤ والإكفاء بمعنى الإمالة، وهذا مثل لإمالة الضرة حق صاحبتها من زواجها إلى نفسها[3]؛ فإن ذلك لون من ألوان البغي والاعتداء على الغير، والتحريض على إلحاق الأذى به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[4]، قال ابن رجب الحنبلي: (تضمنت النصوص أن المسلم لا يحل إيصال الأذى إليه بوجهٍ من الوجوه من قول أو فعل بغير حق)[5].

سابعاً- من أهداف الدعوة: بيان حق المؤمن على أخيه المؤمن:

جاء في الحديث بيان النبي ﷺ للأخوة التي تجمع بين المؤمنين، فقال ﷺ

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٩٥/١٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٤٩.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٤٩٧/٤.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٩٤/١ .

"المؤمن أخو المؤمن" فأخوة الإيمان أقوى الأواصر وأمتن العلائق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[2]. وجاء في الأحاديث بيان بعض مقتضيات الأخوة فقال ﷺ "المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر" وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ "أن يبيع حاضر لباد، ولا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها" وغير ذلك من الحقوق والواجبات، فإن الأخوة التي ربط الله بها بين المؤمنين، يترتب عليها حقوق وواجبات تجاه الأخوان، وذلك كالإغضاء عن الهفوات والنصح لهم والتناصح، ووجوب زيارتهم ومودتهم، وغير ذلك من أمورٍ من شأنها إشاعة الألفة والتآلف بين المسلمين، وذلك كله بهدف تحقيق التماسك الاجتماعي المطلوب، بما يعين على تحقيق أهداف رسالة الإسلام[3].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢٢/١٦/٨، ٣٢٣ .

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص ١٦٢-١٧٥.

الحديث رقم (١٧٨١)

١٧٨١- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: ((لاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ[1]، وَلاَ يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَةِ اخِيهِ إلاَّ انْ يَأذَنَ لَهُ)) متفق عليه[2]، وهذا لفظ مسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

المضامين الدعوية[3]

(١) هذا الشطر عند مسلم برقم (١٤١٢/٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٢)، ومسلم (١٤١٢/٤٩)، و (١٤١٢/٥٠).

(٣) الشرح الأدبي والمضامين الدعوة تم دمجها مع الشرح الأدبي ومضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٨٢)

١٧٨٢- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: ((**المُؤْمِنُ أخُو المُؤْمِنِ، فَلاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ انْ يَبْتَاعَ عَلَى بَيْعِ اخِيهِ وَلاَ يَخْطُبَ عَلَى خِطْبَةِ اخِيهِ حَتَّى يذَرَ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠١٥).

الشرح الأدبي

إن براعة الاستهلال في هذا الحديث الشريف تأسر السامع، وتشد المتلقي؛ فما أجمل المضمون والصياغة في هذا المطلع المضيء بكلمات النبوة: "المؤمن أخو المؤمن"، إنها قاعدة أرساها المصطفى ﷺ، وهي نابعة من البيان القرآني، لأنه لا ينطق عن الهوى، فهو -كما قال القاضي عياض- كان يحمل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، وأوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم ﷺ[2].

وهذا الاستهلال الجميل جاء في قالب الأسلوب الخبري، وهو جملة اسمية، توحي بالثبات وعدم التقلب والتغير في دورة الأحداث والزمن، وهذا الثبات الذي أفادته الصيغة اللغوية هو ثبات كذلك على مبدأ الأخوة الإيمانية، ولذلك تكرر لفظ المؤمن ثلاث مرات ظاهراً، ومرة رابعة جاء مضمراً، بعد الفعل "ولا يخطب"، أي: ولا يخطب هو أي: المؤمن.

وتأكيداً لهذه العلاقة الإيمانية، وحرصاً على استمرارها وعدم نقضها يكرر المصطفى ﷺ لفظ "أخ" مضافاً إلى المؤمن ظاهراً، ومضافاً إلى الضمير العائد إليه،

---

(١) برقم (١٤١٤/٥٦).

(٢) انظر: الشفا: بتحقيق أحوال المصطفى ﷺ.

ثلاث مرات؛ حتى يتعمق الإحساس بهذه الأخوة الراسخة في نفس كل مسلم وفي قلبه.

وقوله: "فلا يحل"، يفيد بأنه يحرم على المؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ويحرم عليه أن يخطب على خطبة أخيه، وقوله: "حتى يذر"، أي: حتى يترك هذه الخطبة، يفتح نافذة جديدة؛ فالتحريم ليس مطلقاً، ولكنه مرتبط بصاحب المسألة؛ فإن فسخ الخطبة، وإن أذن للآخر فيها، فالأمر جائز؛ لأن التراضي هو الذي يحكم هذه العلاقة، والأخوة دائمة، وهذا هو المنهج الإسلامي الصحيح.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٧٨٠).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من أهداف التربية الإسلامية: المحافظة على مصالح الأفراد:

إن المحافظة على مصالح أفراد المجتمع من أهم أهداف التربية الإسلامية، ومن أجل ذلك لابد أن يتساند المجتمع أفراده وجماعاته، بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، ولا تذوب مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة، وإنما يبقى للفرد كيانه وإبداعه ومميزاته، وللجماعة هيبتها وسيطرتها، فيعيش الأفراد في كفالة الجماعة متلاقية مع مصالح الآحاد ودفع الضرر عنهم[١].

وقد نهى النبي ﷺ أن يبيع حاضر لباد - كما في أحاديث الباب - لحكمة فيه وهي حفظ مصلحة الجماعة في أن تصلهم السلع بالسعر المعتاد دون أن يكون مغاليًا فيه، وذلك لأن الحاضر لو باع للبادي فإنه في الغالب سيرفع الأسعار نظرًا لمعرفته باحتياج الناس لهذه السلع، على حين أنه لو ترك البادي يبيع بنفسه لرخص على الناس، قال النبي ﷺ: «دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ»[٢].

وهذه الكلمة الموجزة تضع مبدأ هامًا في الميدان التجاري: أن تترك السوق وأسعارها ومبادلاتها للتنافس الفطري والعوامل الطبيعية دون تدخل مفتعل من بعض الأفراد[٣].

ومن ذلك أيضًا النهي عن تلقي الركبان فقد قال ﷺ: «لا تَتَلقّوا السلع حَتّى يهبطَ بها إلى الأسواقُ».

وقال ﷺ: «لا تتلقوا الركبان ...».

والحكمة من النهي عن تلقي الركبان هو ألا يلحق الضرر مجموع الناس وصاحب السلعة، فإن العادة فيمن تلقي الركبان أن يشتري السلع لنفسه ثم يبيعها للناس بسعر

---

(١) المجتمع المتكافل في الإسلام، عبدالعزيز الخياط، ص ٧٢.

(٢) أخرجه مسلم، ١٥٢٢.

(٣) الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٤٨، وانظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٦٩/٣.

أعلى مما تباع به، فيلحق بالناس مضره، أمّا لو ترك أصحاب السلع يصلون إلى الأسواق لباعوها بسعر معتدل لا يكون فيه هذا الضرر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه قد يشتري السلع من أصحابها بأقل من ثمنها الذي تشترى به في الأسواق نظرًا لكونه على غير معرفة بسعر السوق، فيسهل خداعه وغبنه من خلال المتلقي، فيلحق الضرر به.

لذا نهى الشرع عنه، ولهذا جعل النبي ﷺ له الخيار إذا أتى السوق فقال ﷺ: «لاَ تَلَقَّوُا الْجَلَبَ. فَمَنْ تَلَقَّاهُ فَاشْتَرَىٰ مِنْهُ، فَإِذَا أَتَىٰ سَيِّدُهُ السُّوقَ، فَهُوَ بِالْخِيَارِ»[١].

فالشريعة الإسلامية تراعي مصلحة الفرد وكذلك مصلحة الجماعة فهي لا تقبل الضرر لأحد، ولا تقبل التحكم من أحد في أحد، ولكن تبتغي أن يأخذ كل فرد حقه، وأن تحرر الأسواق من جشع التجار، وحيلهم في التجارة التي تضر بمصالح المسلمين.

فعلى المربي والمجتمع غرس القيم الفاضلة بين الناس في الأعمال التجارية حتى يعمل الجميع على المحافظة على مصلحة الجماعة والفرد، فمصلحة الفرد وإن كان أخا لا تقدم على مصلحة الجماعة لذا نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد، وإن كان أخاه لأبيه أو أمه.. كما أن مصلحة الفرد لا تهضم، ولا تغفل.

ومراعاة المصالح مقصد عظيم للشريعة الإسلامية، وهذا يقتضي تحمل الضرر الخاص في سبيل دفعه الضرر العام. ومعنى هذا أن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة، وأن على الفرد أن يضحي بمصلحته الفردية في سبيل المصلحة العامة العائدة على الجميع بالنفع، وهذه قاعدة عظيمة تبين أن الشريعة الإسلامية اجتماعية وتقاوم الفردية المتطرفة التي تبيح للفرد أن يحقق حريته وأحلامه ولو على حساب الجماعة، وهذه القاعدة تسمح للدولة أن تسعى إلى توجيه الاقتصاد إذا دعت المصلحة العامة لذلك، فيمكنها أن تسعر أثمان البضائع إذا ترتب على تركه الإضرار بالناس، كما يمكنها بيع طعام المحتكرين عن الحاجة إليه جبرًا، وهكذا كل ذلك مراعاة للمصلحة العامة وتقديمًا لها على المصلحة الخاصة[٢].

---

(١) أخرجه مسلم، ١٥١٩.

(٢) مقاصد الشريعة ومكارمها، علال الفارسي، ص ٨١.

ثانيًا- التربية: الاقتصادية:

يقوم النظام الاقتصادي في الإسلام، على أسس العدالة، والمساواة والتكافل الاجتماعي، والتعاون، والتراحم، ويدعو إلى الجد والعمل، والسعي في طلب الرزق، والحرص على الشخصية المسلمة، أن يستذلها الفقر، أو يهينها السؤال.

وأصل الاقتصاد الإسلامي: أحل الله البيع: لأنه يفيد خبرة، ويبعث حركة، ويدعو إلى ممارسة. والخبرة إذا زادت، وسعت آفاق الفكر، وقوت وشائج الصلة، ومهدت السبيل إلى الألفة، والمعرفة، ونشاط وقوة للجسم والعقل معًا، والممارسة تدريب، وحياة، ومعاناة، ومثابرة وصبر. وللبيع أصوله وآدابه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وظلم البائع للمشتري، أو ظلم المشتري للبائع، يزرع الحقد ويزعزع الثقة ويدعو للفرقة، لذا كان النهي عن بيع الحاضر للباد، وتلقي الركبان والنجش، وبيع الرجل على بيع أخيه، لتتساوى الفرص، ويمتنع العدوان فتصفوا القلوب[2].

فالتربية الاقتصادية في الإسلام تهتم بتنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم، وليس أعدل ولا أعلم بمصالح العباد من اللطيف الخبير الذي شرع للناس أنظمة الحياة والتعامل في ظل شريعته الخالدة[3].

كما تحرم الشريعة الإسلامية الكسب الخبيث، لما فيه من أخذ المال بغير حق مشروع، ومنها أخذ المال بغير مقابل من عمل: كالربا والقمار واليانصيب ونحوها، أو بغير حق كالنصب والسرقة والغش ونحوها، أو كان ثمنًا لمحرم: كثمن الخمر والخنزير والمخدّر ونحوها، فكل هذه الموارد للكسب لا يبيحها الإسلام ولا يعترف بها[4].

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١-٥.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح ص ٢٥١.

(٣) انظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر بن عواض الألمعي، ص ٣٩٢.

(٤) المرجع السابق، ص٣٩٣.

ثالثًا: من أهداف التربية: معرفة أحكام فقه البيع والشراء:

إن أحاديث الباب تدعو المسلم إلى معرفة أحكام فقه البيع والشراء، ومن هذه الأحكام التي تناولتها أحاديث الباب: تحريم بيع الحاضر للباد، وتلقي الركبان وبيع الرجل على بيع أخيه.

فإنه ينبغي لكل من تصدى للعمل بالسوق وممارسة العمل التجاري أن يكون لديه بعض الإلمام بأحكام البيع والشراء، حتى تكون معاملته صحيحة بعيدة عن الفساد(١).

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا يَبِعْ في سُوقِنَا إلاَّ من تَفَقَّهَ في الدِّين»(٢).

وقال محمد علي حيدة: وأحسب أن كل من عمل بالسوق وخاض غمار التجارة ومارس البيع والشراء حتى يعرف بأنه امتهن العمل في هذا المجال، ثم لا يعرف أحكام المعاملات: الحلال منها والحرام وما يفسدها وما يصلحها، أحسبه - والله أعلم - آثم بحسب تقصيره في هذا الجانب، وقد امتلأت أسواقنا بكثير من المسلمين الذين أغفلوا هذا الفقه - بقصد أو بدون قصد - وأصبحوا لا يبالون بالفرق بين الحلال والحرام، وخلت من الصالحين والمتفقهين، الذين آثروا السلامة، فنأوا بأنفسهم تزهدًا وتورعًا، أقول لهم، افعلوا ما فعل أجدادكم، اطرقوا أبواب الأسواق، وأخلصوا النية لله تفتح لكم الشركات والمؤسسات، وتَسلّموا من غلّ الوظيفة وقيدها، وتفتح لكم قلوب العباد، كما فتحت لأسلافكم حينما ذهبوا بتجارتهم إلى الصين وإلى الهند وإلى الجنوب من إفريقيا(٣).

رابعًا: من أهداف التربية الإسلامية: تنمية روح الأخوة الإسلامية:

إن الأخوة الإسلامية هي أوثق رابطة وأقوى صلة بين المسلم وأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٤)، وهذه الأخوة تقتضي حقوقًا بينهما إن قاما بها نمت

---

(١) انظر: السوق وآدابه وأحكامه، محمد علي حيدة، مجلة البيان، السنة الثانية عشر، العدد ١٢٤، ذو الحجة ١٤١٨هـ، إبريل ١٩٩٨م ص ٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي، ٤٨٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٤٠٤).

(٣) المرجع السابق، ٤٨، ٤٩.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

وزكت، وإلا ضعفت وذوت حتى تموت، فعلى المسلمين مراعاتها وإحياؤها بالقيام بالحقوق والصلات[١].

ومن هذه الحقوق التي دلت عليها أحاديث الباب ألا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبته إلا بإذنه، ولا يزايد عليه في الثمن ولا يغشه في بيع ولا شراء، ولا تشترط المرأة طلاق أختها المسلمة من زوجها، حتى تتزوجه هي، فكل هذه الأشياء وغيرها من الأشياء التي تلحق الضرر بالمسلم تكون سببًا في زرع العداوة والبغضاء، وقطع عرى الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم.

من أجل ذلك نهت الشريعة الإسلامية عنها حتى تحفظ عرى الأخوة من التمزق والخلاف والكراهية.

فإن أقل ما يجب للمسلم على أخيه المسلم ألا يعتدي على حقه ولا يظلمه ولا يغشه.

قال ابن تيمية: وأما عقد الأخوة بين الناس في زماننا، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]، وقول النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ»[٣]، وقوله: «لا يَبِيعُ الرَّجُلُ على بيْعِ أَخيهِ، ولا يَخْطُبُ إلاّ بإذْنِهِ، إلاّ أن يأذن له»[٤]، وقوله: «وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٥]. ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن. فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، .... وهي ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن[٦].

---

(١) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٦/٣٣٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري، ٢٤٤٢، ومسلم، ٢٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم، ١٤١٢.

(٥) أخرجه البخاري، ١٣، ومسلم، ٤٥.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ١١/١٠٠، ١٠١، ط العبيكان، ٦/٥٩.

فعلى المربي والوالدين وكل من يقوم بعملية التربية العمل على غرس وتوثيق علاقة الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم على المحبة والمودة والإيثار، والمواساة والنصر، والبعد عن كل ما يؤدي إلى إشاعة الكراهية والشحناء.



٣٥٦- باب النهي عن إضاعة المال في غير وجوهه التي أذن الشرع فيها

الحديث رقم (١٧٨٣)

١٧٨٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((**إنَّ اللهَ تعالى يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثاً، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثاً: فَيَرْضَى لَكُمْ أنْ تَعْبُدُوهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً، وَأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإضَاعَةَ المَالِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أن تعتصموا بحبل الله: أن تستمسكوا بنوره وهُداه وكتابه[2].

قيل وقال: يعني فضول ما يتحدث به المتجالسون، من قولهم: قيل: كذا وقيل: كذا[3].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يخط للمؤمن طريقه الصحيح، الذي يضمن له الفوز برضا الخالق عز وجل، ويحذره كذلك من الوقوع فيما يغضب الله سبحانه ويكره لعباده، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث الشريف، نجده يبدأ بالتأكيد في قوله: "إن الله تعالى"؛ وذلك لأهمية ما يذكر بعد ذلك، ولتنبيه المسلم إلى ضرورة الإقدام على تنفيذ ما يرضى الله عز وجل، وتجنب ما يكرهه.

---

(١) برقم (١٧١٥/١٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ص م) و(ح ب ل).

(٣) المرجع السابق في (ق و ل).

ومن سمات الجمال الأسلوبي في هذا الحديث: التوازن، وحسن التقسيم في عبارات الحديث وتراكيبه؛ فالذي يرضاه الله لعباده ثلاث... والذي يكرهه لهم ثلاث كذلك، وقد قدّم رسول الله السلوكيات التي تجلب الرضا على السلوكيات التي يكرهها الله لعباده؛ لغرس روح التفاؤل في نفس المؤمن، وتقديم البشرى له، والإشارة إلى أن هذه الثلاث هي معالم الطريق، التي يهتدي بها المؤمن، ويفوز برضا ربه عز وجل.

والتعبير بالفعل المضارع في سياق التوحيد وعدم الشرك، والاعتصام بحبل الله جميعاً: يرشد إلى وجوب استمرارية هذا السلوك الإيماني الراشد؛ فهو طبيعة المؤمن وديدنه؛ استجابة لدعوة النبي ﷺ: "أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً...، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا".

ومن مظاهر الجمال التعبيري: المقابلة بين الموقفين: موقف الرضا وموقف الكره، وتقديم موقف الرضا على موقف الكره؛ لأن الرضا هو الطريق إلى الفوز بالجنة، وهذه المقابلة جاءت في إطار التنسيق في بناء الجمل؛ حيث جاءت صياغة الجمل هكذا: الإثبات ثم النفي، ثم الإثبات ثم النفي: (أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا... ولا تفرقوا)، والجملة الأولى والثالثة جاءت في قالب المصدر المؤول، والثانية والرابعة سُبقاً بأداة النفي "لا"، ولا تشركوا، ولا تفرقوا.

وأما القسم الثاني -وهو الذي يفصّل السلوكيات التي يكرهها الله لعباده- فقد اتسم بالسّجع والإيقاع الصوتي المؤثر، الذي يجلب الانتباه، ويثير الذهن، ويشحذ عاطفة المسلم، ويحرك مكان الشعور فيه، فيعرف أخطار هذه السلوكيات فيحذرها، ومع هذا الإيقاع الصوتي، كان الإيجاز وقصر العبارة ووضوح الفكرة، ولنتأمل ما يبوح به هذا البيان النبوي البليغ من معان ومواعظ، وإرشادات وتوجيهات، "ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال".

فقه الحديث

وقد سبق بيان الأحكام التي اشتمل عليها هذا الحديث.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل.

ثالثاً: من صفات الداعية: البيان والتوضيح لما يرضاه الله تعالى لعباده ولما يكرهه لهم.

رابعاً: من أهداف الدعوة: بيان فضل إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به والاعتصام بحبل الله.

خامساً: من موضوعات الدعوة: اجتناب القيل والقال.

سادساً: من موضوعات الدعوة: الابتعاد عن كثرة السؤال.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: التنفير من إضاعة المال.

ثامناً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في قوله ﷺ "إن الله تعالى يرضى لكم" وأسلوب التوكيد من الأساليب الدعوة ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما فيه من تقوية الكلام وإثبات صحته[١]. وقد تكرر أسلوب التوكيد في القرآن تقريراً للحقائق، وتثبيتها في قلوب الناس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾[٢]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٣].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل:

ورد ذلك في الحديث، حيث أجمل النبي ﷺ القول، فقال: "إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثا" ثم فصله بقوله: "فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا

---

(١) الأصل النحوي، توالي الأمثال اللفظية والمعنوية، د. منيرة بنت محمود الحمد، بحث منشور بمجلة العلوم الشرعية والعربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، شوال ١٤١٧هـ ص ٢٧٣.

(٢) سورة الصافات، آية: ٤، ٥.

(٣) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" وإجمال القول ثم تفصيله من الأساليب الدعوية ذات الأدب الرائق، والتي لها أثر بالغ في إثارة الانتباه، وإقبال المدعوين، وتمنع تسلل السأم والملل إلى نفوسهم[١].

ثالثاً- من صفات الداعية: البيان والتوضيح لما يرضاه الله تعالى لعباده ولما يكرهه لهم:

إن أبرز صفات الداعية، البيان والتوضيح، ولقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس[٢] ويبينوه لهم، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣] ومن ذلك بيان ما يرضاه الله تعالى لعباده وما يكرهه لهم، ومن ذلك ما جاء في الحديث في قوله ﷺ "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً..." وبيان الحق وتوضيحه وتزيينه للناس بكل الطرق والوسائل العلمية المشروعة، مع كشف وجوه الباطل وتقبيحه بالطرق المشروعة أيضاً، قصداً لهداية الناس، وتوضيحًا للحقائق والمفاهيم، من أجلّ وأبرز صفات الداعية التي لا غناء له عنها[٤].

رابعاً- من أهداف الدعوة: بيان فضل إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به والاعتصام بحبل الله:

ورد التصريح في الحديث بأن مما يحبه الله لعباده: إخلاص العبودية والاعتصام بحبل الله، فقال ﷺ "فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" قال القرطبي: (قوله: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً" أي: شرع هذه الثلاثة، وأمر بها، وجعلها سبباً لكلّ ما عنده من الكرامة في الدنيا والآخرة.

وقوله: "ويكره لكم ثلاثاً"، وفي الرواية الأخرى: "سخط" أي: نهى عنها وحرَّمها،

---

(١) انظر: مبادئ في الأدب والدعوة، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ١١٤.

(٢) فقه الدعوة، بسام العموش ص ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) انظر: الإعلام في ضوء الإسلام، د. عمارة نجيب ص ٣٥.

وجعلها سبب إهانته، وعقوبته في الدنيا والآخرة. وهذا كما قاله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾[١] هذا أولى ما قيل فيه. وقد تقدم القولُ على الرضا والسخط، وعلى العبادة والشرك في الإيمان)[٢]. وقال النووي واعلم أن الثلاثة المرضية إحداها أن يعبدوه، والثانية أن لا يشركوا به شيئاً، والثالثة أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرقوا[٣]. فإن أصل الدين عبادة الله ومن أجلها خُلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[٤] وأن تكون الأعمال خالصة لوجهه تبارك وتعالى، قال ابن رجب الحنبلي: (إن سائر الأعمال، صلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالجهاد والحج وغيرها، وقد سئل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وغيره، وما يقصد به من الرياء وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" فخرج بهذا كلُّ من سألوا عنه من المقاصد الدنيوية[٥]، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ. فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))[٦].

وحقيقة الإخلاص: هو القصد بالعبادة إلى أن يُعبد المعبود بها وحده، وقيل تصفية

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/١٦٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٠٣.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦، ٥٧.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٧٥.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٣، ومسلم ١٩٠٤.

السر والقول والعمل[١]. وقال المناوي الإخلاص: تخليص القلب من كل شوبٍ يكدِّر صفاءه، فكل ما يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص منه يسمى خالصاً. وقيل: الإخلاص عملٌ يعين على الخلاص. وقيل الخلاص عن رؤية الأشخاص، وقيل تصفية العمل من التهمة والخلل[٢].

وقال الجرجاني: الإخلاص: ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى، وقيل هو: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه -الفطري- وتحقيقه أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يُسمى خالصاً، قال تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا﴾[٣]. فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوبٌ من الفرث والدم، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به[٤].

وحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله تعالى، أما الإخلاص في الدين فيقول فيه الراغب: إخلاص المسلمين أنهم قد تبرءوا مما يدَّعي اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث، قال تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾[٥] وقال عز وجل: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾[٦]. وأجمعوا على أن الإخلاص في الطاعة ترك الرياء[٧].

إن المقاصد التي يقصدها المكلفون بالعبادة تنحصر في مقصد واحد، هو قصد الله دون سواه، فالعمل الذي لا يتوجه به إلى الله، ليس له قيمة، ومن يستقرئ نصوص القرآن والسنة، يعلم أن هذا هو القصد الوحيد الذي يرتضيه الإسلام، فأول أمر في

---

(١) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ص ٦٤.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، الإمام المناوي، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، ص ٤٢.

(٣) سورة النحل، آية: ٦٦.

(٤) التعريفات، أبو الحسن الجرجاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ص ١٣، ١٤.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٢٩.

(٦) سورة النساء، آية: ١٤٦.

(٧) التعريفات، أبو الحسن الجرجاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة ص ١٣.

كتاب الله هو ما تضمنته هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٢).

إن الله وحده المستحق لأن يقصد دون سواه، لأنه المعبود الذي يتصف بصفات الجلال والكمال، فهو الكامل في ذاته وصفاته، وهو المنعم المتفضل بيده النفع والضر، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والنصر والخذلان، والعزُّ والإذلال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾(٣).

فهو وحده المطلوب المقصود، لأنه الخالق الهادي المطعم المسقي، الذي يشفي من الأمراض، والذي يغفر الذنوب والخطايا: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾(٤).

فمنه المبتدأ وإليه المنتهى، له الحمد في الأولى والآخرة، لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١.

(٢) سورة البينة، آية: ٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٧٨-٨٢.

(٥) سورة النجم، الآيات: ٤٢-٥١.

فمن كانت هذه صفاته، وتلك أفعاله، فإنه الذي يستحق العبادة دون سواه، وهو الذي ينبغي أن يكون المقصد والمعاذ والملاذ.

والتوجه إليه وقصده بالعبادة حقه الخالص الذي لا يشركه فيه أحد، فعن معاذ بن جبل، قال: ((كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً))[1].

فهو الذي يستحق العبادة خوفاً ورجاء، ورغبة ورهبة، وتوكلاً واعتماداً، وصلاة وصياماً، وزكاة وحجاً، ونذراً ودعاء[2].

أما عن أهمية الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، فإن ذلك يتمثل فيه نجاة الأمة، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[3] قال القرطبي في تفسير هذه الآية: (إن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة، لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة)[4] من أجل ذلك نجد أن العبادات في الإسلام تهدف إلى غرس الألفة والاجتماع بين صفوف المسلمين، قال ابن حجر في فائدة الجماعة خاصة في الفجر والعشاء (انتظام الألفة بين المتجاورين في طرفي النهار، وليختموا النهار بالاجتماع على الطاعة ويفتتحوه كذلك)[5].

وجاء في الحديث "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا".

قال القرطبي: (وقوله: "وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً" الاعتصام بالشيء: التمسُّك به، والتحرُّز بسببه من الآفات. وأصل العصمة: المنعُ. تقول العرب: عصم فلاناً الطعام.

(١) أخرجه البخاري ٢٨٥٦، ومسلم ٣٠.

(٢) الإخلاص، د. عمر سليمان الأشقر، ١٥، ٢٦، ٢٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٩/٤/٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٥١/٢.

أي: منعه من الجوع، وكنوا السويق بأبي عاصم لذلك، فالمعتصم بالشيء يمتنع به من أسباب الهلاك والشدائد. وحبل الله هنا: شرعه الذي شرعه، ودينه الذي ارتضاه. قال قتادة: هو القرآن. وهو بمعنى القول الأول. والحبل ينصرفُ على وجوه. منها: العهد والوصل، وما يُنجى به من المخاوف. ومنها: الأمان. وكلُّها متقاربة المعنى؛ لأنَّ الحبلَ في الأصل: واحد الحبال التي تُربط بها الآلات، وتجمع بها المتفرقات، ثم استعير لكلِّ ما يعوَّل عليه، ويتمسك به، ثمَّ كثر استعماله في العهد ونحوه. ومعنى هذا: أن الله تعالى أوجب علينا التمسُّك بكتابه، وسنَّة نبيه ﷺ، والرجوع إليهما عند الاختلاف[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: اجتناب القيل والقال:

من الأمور التي صرح الحديث بكراهية الله تعالى لها: القيل والقال، فقال ﷺ: "ويكره لكم قيل وقال" والمراد به الكلام فيما لا يعني[٢]، فينبغي على المسلم أن يعرض تمام الإعراض عن السفاسف ودنايا الأمور، من (الخوض في أخبار الناس وحكايات ما لا يعني من أحوالهم وتصرفاتهم)[٣] فإن البعد عن ذلك كمال للإيمان وإحسان للإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنيهِ))[٤]. ولله در القائل:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان[٥]

سادساً- من موضوعات الدعوة: الابتعاد عن كثرة السؤال:

كما بين الحديث أيضاً أن من الأمور التي يكرهها الله تعالى كثرة السؤال،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٣/٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٠٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٥) كتاب الأذكار، النووي، ٢٩٨.

فقال ﷺ "ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال...". قال القرطبي: (ومعناه أن الله حرَّم الخوض في الباطل، وفيما لا يعني من الأقوال وحكايات أحوال الناس، التي لا يسلم فاعلها من الغيبة والنميمة والبهتان والكذب)[1]. وقال النووي: (وأما كثرة السؤال فقيل المراد به القطع في المسائل، والإكثار من السؤال عما لم يقع ولا تدعو إليه حاجة، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن ذلك، وكان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف المنهي عنه[2]، وهذا هو أرجح المعاني، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[3] وهذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء، مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها[4].

قال القرطبي: (وقوله: "وكثرة السؤال" يحتمل أوجهاً:

أحدها: أن يريد به كثرة سؤال الناس الأموال، والحوائج إلحاحاً، واستكثاراً.

وثانيها: أن يكثرَ من المسائل الفقهية تنطُّعاً وتكلُّفاً فيما لم ينزل. وقد كان السلف يكرهون ذلك، ويرونه من التكلف. وقال مالك في هذا الحديث: لا أدري أهو ما نهاكم عنه من كثرة المسائل، فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، أو هو مسألة الناس أموالهم.

وثالثها: أن يكثرَ من السؤال عما لا يعنيه من أحوال الناس، بحيث يؤدِّي ذلك إلى كشف عوراتهم، والاطلاع على مساوئهم.

قلتُ: والوجه: حَمْلُ الحديث على عمومه، فيتناول جميع تلك الوجوه كلها[5].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٣/٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٠٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٣/٣.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٤/٥.

سابعاً- من موضوعات الدعوة: التنفير من إضاعة المال:

جاءت الإشارة إلى ذلك في الحديث "ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" والرواية الأخرى "أنه ﷺ كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال" يقول ابن عثيمين: (المال جعله الله قياماً للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، وهو أمر مهم فلا يجوز للإنسان أن يضيعه في غير فائدة، لذا جاء تحريم الإسلام لإضاعة المال أو التبذير والإسراف في إنفاقه، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] فمجاوزة الحد إسراف، وهي محرمة وعرضة لأن يكره الله فاعلها[2]. قال ابن الجوزي: (العاقل يدبر بعقله معيشته في الدنيا، فإن كان فقيراً اجتهد في كسب وصناعة، تكفه عن الذل للخلق، وقلل العلائق واستعمل القناعة، فعاش سليماً من منن الناس عزيزاً بينهم، وإن كان غنياً فينبغي له أن يدبر في نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج إلى الذل للخلق، فينبغي التوسط في الأحوال، وانتهاج التدبير أسلوباً في الحياة، وإنما التدبير حفظ المال والتوسط في الإنفاق، وكتمان ما لا يصلح إظهاره)[3].

فقد نهى الإسلام عن إضاعة المال بإتلافه وإهلاكه وصرفه في غير أوجه الإنفاق المحمودة والجائزة، فيلحق بإتلافه منع صرفه في وجوهه من مصالح دنياه ودينه، كما يفعله أهل البخل، ودناءة الهمم؛ يدَّخرون المال، ويكثرونه، ولا ينفعون نفوسهم بإنفاق شيء منه، ولا يصونون به وجوههم، ولا أديانهم. فهذا الصنف هو المحروم الخاسر؛ الذي قال فيه الشاعر:

رُزِقْتَ مالاً وَلَمْ تُرْزَقْ مَنَافِعَهُ ... إنَّ الشَّقيَّ هُوَ المَحْرُومُ مَا رُزِقا

وأشدُّ من هذا كلّه قبحاً وإثماً من يتلف ماله في معاصي الله تعالى، فيستعين بمال الله على معاصيه، ويخرجه في شهواته المحرمة، ولا يباليه، ويدخل في عموم النهي عن

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٨٢٢، ١٨٢٣.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٦١٠.

إضاعة المال القليل منه والكثير، لأن المال هنا: كل ما يتموّل، أي: يتملّك؛ حتى لو رمى بثمن درهم في البحر مثلاً لكان ذلك محرماً. وكذلك لو منعه من صرفه في وجهه الواجب، وكذلك لو أنفقه في معصية الله. ولا خلاف في هذا إن شاء الله[١].

ثامناً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

جاء أسلوب الترغيب والترهيب واضحاً في الحديث، ترغيب في عبادة الله والإخلاص له والاعتصام بحبل الله جميعاً ومجانبة التفرق والتشرذم، وترهيب من القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، فقال ﷺ: "إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" وأسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة والمفيدة، لما في الترغيب من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وفي الترهيب تحذير المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله. والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب: أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم[٢]. وللترغيب والترهيب أثره في صدق التوجه إلى الله تعالى رغبة إليه ورهبة منه، قال تعالى واصفاً عباده المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣] فالترغيب والترهيب يحبب إلى المسلم الطاعات، وينأى به عن المعاصي، ويدفع به إلى مقاومة الشيطان[٤].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ص ١٦٥.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢١٥٦/٦.

إن أسلوب الترغيب والترهيب له نتائجه الباهرة التي لا تخفى على أحد، وقد أصّله لنا أنبياء الله بوحي من الله على لسانهم ولسان الرسل أجمعين كما نطق بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[١].

ومن يطالع دعوات المرسلين يجد أن دعوتهم قد اصطبغت بالترغيب والترهيب، ويبدو أن الترغيب والترهيب، أو بما يسمى التبشير والإنذار على النحو الذي جاءت به الرسل، هو مفتاح النفس الإنسانية؛ فالنفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصّر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة، فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تبين لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال، فإن النفوس تهرب من هذه الأعمال، ونعيم الله المبشر به، نعيم يستعذبه القلب، وتلذه النفس، ويهيم به الخيال.

وعذاب الله المبشر به، عذاب يرتجف منه القلب، وتستهوله النفس، ويرتعد منه الخيال. فعلى الداعية أن يسلك مسلك الرسل في التبشير والإنذار، حتى تؤتي دعوته ثمارها العظيمة.

إن بعض الذين لم يفقهوا دعوة الإسلام، يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم بالإنذار والتبشير، ويقولون فلان واعظ، ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ وتخويف الناس وترغيبهم، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم، وينظروا في موقفهم هذا، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول ﷺ التي تبين أسلوب الدعوة، وتوضح مهمة الرسل الكرام[٢].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٥٦.

(٢) انظر: الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر ص ٤٨، ٤٩.

الحديث رقم (١٧٨٤)

١٧٨٤- وعن ورَّادٍ كاتب المغيرة، قال: أَمْلَى عَلَيَّ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فِي كِتَابٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ: ((**لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**)) وَكَتَبَ إلَيْهِ أنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَإضَاعَةِ المَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ البَنَاتِ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ. متفق عليه[١]، وسبق شرحه[٢].

ترجمة الراوي:

المغيرة بن شعبة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٠).

غريب الألفاظ:

الجَدُّ: الحظُّ[٣].

قيل وقال: يعني فضول ما يحدث به المتجالسون من قولهم: قيل: كذا، وقيل: كذا[٤].

عقوق الأمهات: إيذاؤهنَّ وعصيانهنَّ[٥].

وأد البنات قتلهنَّ[٦].

ومنعٍ وهات: منع ما عليه إعطاؤه وطلب ما ليس له[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٣٧/٥٩٣)، وتقدم برقم، (٣٤١)، و(١٤١٨).

(٢) عند الحديث رقم (٣٤١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج د د).

(٤) المرجع السابق في (ق و ل).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ق ق).

(٦) المرجع السابق في (و أ د).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ن ع).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف إملاء من المغيرة بن شعبة على "ورَّاد" كاتبه، وهو نص كتاب أرسله إلى معاوية بن أبي سفيان؛ ناصحاً ومرشداً وموجهاً، ومسترشداً بكلام سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمد ﷺ.

ويبدأ الحديث بالتأكيد على مظاهر السلوك النبوي، وعلى أقوال النبي ﷺ في دبر كل صلاة، وتأكيد الخبر هنا فيه حث لمعاوية على الاقتداء برسول الله قولاً وفعلاً؛ حيث قال: "أن النبي ﷺ كان يقول".

وهذا الدعاء الذي يتفوه به قلب رسول الله ﷺ ولسانه عقب كل صلاة، هو شكر لله عز وجل، وإقرار بوحدانيته، وتفرده بالعطاء والربوبية والألوهية؛ فقد امتن الله على نبيه محمد ﷺ؛ إذ جعل صدره ينبوعاً للهدى والنور والمعرفة، وأذهب عنه الشواغل التي تصدُّه عن إدراك الحق، وليّن قلبه بالإيمان، والانتفاع بالموعظة والعلم، وامتن الله على نبيه بذلك؛ ليداوم شكر المنعم سبحانه وتعالى، وليطمئن قلبه، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[(١)] [(٢)].

وأسلوب القصر في قوله: "لا إله إلا الله"، فيه تأكيد لوحدانية الله عز وجل؛ فالله مختص بالألوهية، وهي مقصورة عليه وحده، ولا يشاركه سواه في ذلك.

والتقديم في قوله: "له الملك"، وكذلك في قوله: "له الحمد"، يفيد الاختصاص والقصر؛ فلا ملك إلا لله، ولا حمد إلا له، وجملة "لا شريك له"، وكذلك "له الملك" في موقع الحال، وصاحب الحال، يتضمنه قوله: "وحده" وهو الله عز وجل؛ فهو في كل الأحوال لا شريك له، وهو "له الحمد، وله الملك، وهو على كل شيء قدير"، والطباق والمشاكلة اللفظية، والمقابلة المعنوية تضفي جمالاً لفظيًّا، يتآزر مع الجمال المعنوي، الذي يَعْبق به قوله ﷺ في دعائه الصادق، وثنائه الجميل على ربه.

---

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) انظر: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني.

"اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت" وهذه الصياغة توحي بشمول العطاء، وطلاقة القدرة الإلهية؛ والإيقاع الصوتي الذي يحدثه السجع المؤثر والمحبب، في القسم الثاني من الحديث يوحي بضرورة الاهتمام، وإلى مزيد من الإصغاء، واتباع تعاليم المصطفى ﷺ، واتباع ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، وهذه النواهي موجهة إلى معاوية في هذا السياق، وإلى كل من يتولى أمور المسلمين، وإلى كل مسلم، وهي ستة أمور منهي عنها، وقد اتسمت بالإيجاز وحسن التقسيم؛ حيث وردت ثلاث مسجوعةً تنتهي فواصلها بحرف اللام، وثلاث تنتهي فواصلها بالألف والتاء، وحرف المد الألف الذي يسبق الحرف الأخير، يعطي مساحة للتأمل والتفكر والتدبر، في الأخطار التي تحدق بالأمة إذا شاعت فيها هذه السلوكيات: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، وعقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات.

وهذا الجمال الأسلوبي، والعمق الفكري، والإشراق البياني، من سمات البيان النبوي الراشد البليغ.

المضامين الدعوية(١)

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٤١، ١٤١٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية العقدية:

إن العقيدة الإسلامية تقوم على توحيد الله تبارك وتعالى، وذلك بالتصديق الجازم بأن الله واحد لا شريك له، وإفراده في الربوبية والألوهية[1].

وورد ما يدل على ذلك في هذا الباب في قوله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ تَعَالى يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.....».

وقوله ﷺ: في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له....».

فأول ما يجب أن يتربى عليه الشاب المسلم العقيدة الصحيحة، وهي العقيدة السلفية التي مضى عليها سلف الأمة رضي الله عنهم، فقد جعل الله عز وجل عقيدة المنصوص عليها في القرآن وطبقها الرسول ﷺ المقياس للعقيدة الصحيحة، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾[2].

وبين عز وجل أن غاية خلق الجن والإنسان إفراد الله عز وجل بالعبادة ومعرفته عز وجل فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

كما بيّن عز وجل أن غاية الرسل وهدفهم تعبيد الناس لله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[5].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين ابولاوي ص ٨١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

وبين النبي ﷺ أن حق الله على العباد أن يعبدوه وحده لا شريك له، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كُنْتُ رِدْفَ النبي ﷺ . فَقَالَ لي: يَا مُعَاذُ! تَدْرِي مَا حَقُّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ وما حقُّ العبادِ عَلَى اللهِ؟ فقَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللّهِ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لاَ تُبَشِّرْهُمْ. فَيَتَّكِلُوا»[١].

وأول أمر في ترتيب كتاب الله أمر بالتوحيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٢].

وما أتى الأمر بالتوحيد في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله ﷺ مع مجموعة من الأوامر إلا كان الأمر بالتوحيد أول الأوامر.

وما أتى النهي عن الشرك مع مجموعة من النواهي في كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ إلا كان النهي عن الشرك هو أول النواهي، فما أمرت الرسل بشيء قبل التوحيد وما نهت عن شيء قبل الشرك.

فكل دعوة لا تهتم بأمر التوحيد، وتربي أبناءها عليه، وتستقيم العقيدة الصحيحة فهي دعوة على غير هدى المرسلين، فتقسيم بعض الناس أمور الدين إلى قشر ولباب قبيح، وأقبح منه اعتبار أمور العقيدة والاهتمام بها من القشور التي تعامل عندهم بالإهمال والطرح[٣].

والتربية العقدية مسؤولية خطيرة تقع على عاتق المربين والآباء والأمهات.

فعلى الأب أو المربي ألا يترك فرصة سانحة تمر إلا زود الولد بالبراهين التي تدل على الله، وبالإرشادات التي تثبت الإيمان، وباللفتات التي تقوي فيه جانب العقيدة... وهذا الأسلوب من انتهاز الفرص في النصائح الإيمانية، هو أسلوب المربي الأول صلوات

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٨٥٦، ومسلم، ٣٠ واللفظ له.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٨١-٨٣.

الله وسلامه عليه، حيث كان يسعى دائمًا إلى أن يوجه الأولاد إلى كل ما يرفع من شأنهم، ويرسخ الإيمان واليقين في أعماق نفوسهم[١].

ثانيًا: التربية: على لزوم الجماعة ونبذ الفرقة:

إن التربية على لزوم الجماعة ونبذ الفرقة من أهم ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية وترضاه لأفرادها، ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا ....، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا...». وهذا ما أمر به المولى تبارك وتعالى، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٢].

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رسولِ الله ﷺ فِينَا فقال: «أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلاَ يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ وَلاَ يُسْتَشْهَدُ. أَلاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ. مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ»[٤].

قال ابن تيمية: سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنًا وظاهرًا، وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

---

(١) للاستزادة انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/١٦٤-١٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

(٤) أخرجه الترمذي، ٢١٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٧٥٨).

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم[١].

والأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم التي تدل وتحث على المحافظة على هذا الأصل العظيم من أصول الدين كثيرة جدًا ليس هذا مقام تفصيلها وإنما المقصود الإشارة إلى أهمية الاجتماع والوحدة والائتلاف وأثر ذلك في الوقاية من الفتن وغوائلها، والتحذير من الفرقة والاختلاف وأنها أصل كبير وباب خطير من أبواب الفتن.

ولو تتبعنا أحكام الإسلام ومبادئه لرأيناها مبنية على هذا الأصل، فكثير من العبادات تقوم على الاجتماع والترابط والتكافل، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

إذن فلزوم الجماعة ونبذ الفرقة من أكبر المنجيات والعواصم من قواصم الفتن والشرور، وما نمت بذور الفتن إلا في أرض الفرقة والاختلاف. والتاريخ أكبر شاهد على ذلك. فإن أردنا السلامة من الفتن وشرورها؛ فلنكن عوامل بناء وتأليف وجمع لكلمة المسلمين، ولنحذر من أن نكون عوامل هدم وتفريق بين المؤمنين، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين؛ لأنها فرصتهم الثمينة في نشر ما يريدونه من الشرور والفساد، بل فرصتهم التي لا تعوض في بسط نفوذهم على بلاد المسلمين[٢].

ثالثا: التربية الوقائية:

أسلوب التربية الوقائية من الأساليب المهمة، وذلك أن الوقاية نوع من أنواع التحذير وهي: تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر[٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ١٧/١.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ٣/٥٥٤-٥٥٧.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٥٦.

وقد اشتمل هذا الباب على مجموعة من التوجيهات والتحذيرات الوقائية منها:

أ- من التربية الوقائية: التي استخدمها رسول الله ﷺ: قطع دابر الإشاعة التي من شأنها أن تؤدي إلى خلخلة الصف المسلم وتوهينه، وتفشي القيل والقال بين أفراد المجتمع المسلم، وفقدان الثقة بينهم، مما جعل الرسول ﷺ يحرص على وأدها في مهدها[١].

فقال ﷺ: «ويَكْرَهَ لَكُمْ قيلَ وقالَ» والمراد تتبع أخبار الناس وأحوالهم للتحدث بها وإشاعتها، وربما كان في شيء منها مما يغضب المقول فيه، من أمور يود إخفاءها، وأسرار لا يحب إذاعتها، فتنشأ العداوة وتنمو الضغينة ويعم الفساد والأذى[٢].

ب- ومن التربية الوقائية التي استخدمها رسول الله ﷺ في هذا الباب النهي عن كثرة السؤال فقال: «وكره لكم.... وكثرة السؤال» لأنه إذا كان سؤال المال والصدقة فإنه يؤدي إلى إراقة ماء الوجه وإذلال النفس ما يربأ أن يدنس به نفسه، وأما السؤال عن المشكلات والمعضلات وأخبار الناس واختراع الأحاجي والألغاز والتعجيز والإرهاق، لما يترتب على ذلك من إضاعة الوقت في غير المفيد، وربما كان في الجواب عن السؤال ما يؤلم السائل ويسيء إليه أو إلى غيره على حد قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٣][٤].

فعلى المربي أن يحث من يربيهم على الاستعفاف وغنى النفس وعدم السؤال فيما لا فائدة منه حتى يقوا أنفسهم الحرج ويكونوا حريصين على الإفادة والعلم، وعدم ضياع وقت من يعلمهم فيما لا فائدة فيه.

ج- ومن التربية الوقائية التي استخدمها رسول الله ﷺ في هذا الباب النهي عن إضاعة المال، بالإسراف في إنفاقه أو إنفاقه فيما يغضب الله من المحرمات،

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٦٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٧٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

(٤) المرجع السابق، ٢٧٦.

فقال ﷺ: «وكره لكم...إضاعة المال» وعلى الجملة إنفاقه في غير وجهه المشروع لأن المال قوام الحياة ومادة الدنيا التي هي مزرعة الآخرة وإضاعته تورث الندم والفقر والذل.

انظر إلى ما يصنع في الأفراح والمآتم وجهاز العروس والمنازل، وما ينفق في الملاذ والملاهي والرياء والملق للحكام، والظهور في المظاهر الكاذبة الخادعة وما يجلب ذلك من الخراب العاجل وقانا الله شر هذه الآثام ووفقنا للعمل بسنة خير الأنام[١].

فعلى المربي والمجتمع غرس قيمة المحافظة على المال - في نفس المسلم - وإنمائه كوسيلة تحقق له ولأمته المسلمة العزة والكرامة وتغنيهم عن سؤال غيرهم وتحفظ لهم ماء وجوههم، وتساعدهم على التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي...إلخ.

د - ومن التربية الوقائية التي استخدمها النبي ﷺ التحذير من عقوق الأمهات، وهذا واضح في كتاب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الذي أملاه على كاتبه ورّاد وأرسل به إلى معاوية رضي الله عنه وفيه وكان ينهي عن عقوق الأمهات.

وعقوق الأمهات وعدم القيام بحقوقهن والوفاء لهن بما يجب من حسن الطاعة والإنفاق والمعونة: وطيب القول والبعد عما يغضبهن أو يسبب سخطهن، فطالما شقيت الأم بابنها حملاً ورضاعًا وفصالاً وتربية وحياطة من كل أذى وضرر. تسهر لينام، وتتعب ليرتاح، وتشقى ليسعد، ابتسامته وهو صغير أشهى لديها من الدنيا وما فيها، وصحته وسروره أغلى ما تبغي الحصول عليه، تفتديه بكل مرتخص وغالٍ، وتقيه بما تستطيع وتملك من كل غائلة وشر، إن بكى طارت نفسها شعاعًا، وإن مرض تقرحت جفونها التياعًا[٢]، فليس من حسن الصنيع أن يقابل ذلك بالجحود والكفران أو يجعله في مطارح النسيان، وقد خص الأم، لأن العقوق إليها أسرع لضعفها ولينبه على أن بر الأم مقدم على بر الأب في التلطف والحنو[٣].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٧٧.

(٢) التياعًا: اللاعة واللوعة ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب، النهاية، ابن الأثير ص ٨٤٦.

(٣) انظر: الأدب النبوي ص ٢٧٦.

كما أن عقوق الوالدين عامة يكون سببًا في غضب الله وسخطه وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، ويكون سببًا في تعب الإنسان دنيا وآخرة، فمن أجل ذلك كانت الوقاية منه من أهم أهداف التربية الإسلامية.

فينبغي على المسلم أن يقي نفسه سخط الله وغضبه وذلك بالبعد عن عقوق الوالدين وخاصة الأم.

هـ - ومن التربية الوقائية في هذا الباب النهي عن البخل وهذا واضح فيما تضمنه كتاب المغيرة بأن النبي ﷺ كان ينهي عن: «...ومنع وهات».

والمراد بهما البخل بالمال عن الواجبات الشرعية وما تقتضيه المروءة من زكاة وبر وإعانة محتاج وغوث مستغيث، ونحو ذلك والطمع فيما ليس أهلاً له من ابتغاء أجر بدون عمل، أو زيادة على استحقاق لما في ذلك من إضاعة المروءة وإذلال النفس وأكل المال بالباطل[1].

من أجل ذلك، كان النهي النبوي لوقاية المجتمع المسلم من هذا الداء الخطير، وذلك لأن البخل يؤدي إلى الهلاك، كما كان سببًا في هلاك الأمم السابقة كما أنه يؤدي إلى تعطيل حقوق الله وحقوق الناس، وكذلك التطلع إلى ما ليس من حق الإنسان يؤدي إلى الكراهية والحقد بين الناس، فينبغي أن يتربى الناشئة على البعد عن كل هذه الأشياء حتى ينالوا رضا الله تعالى ويسعدوا في الدنيا والآخرة.

رابعًا: من أهداف التربية: تحري الأوقات الفاضلة:

ينبغي للمسلم الحريص على استباق الخيرات، أن يتحرى الأوقات التي ميزها الله بخصائص روحية معينة بها على غيرها[2].

من هذه الأوقات دُبر الصلاة، وهذا واضح في قول الراوي: إن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة.

فهذا وقت فاضل سُئل النبي ﷺ عنه، فقيل: «يا رَسُولَ الله أَيُّ الدُّعَاء أَسْمَعُ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٦.

(٢) الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ٢٢.

قالَ: جَوْف اللَّيْلِ الآخِرُ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ»[1]. فعلى المسلم اغتنام هذا الوقت بالذكر والدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ حتى يُحصّل فائدته وينال بركته، وعلى المربي أن يوجه الناشئة من أبناء المسلمين إلى اغتنام دبر الصلوات، وكل وقت فاضل في الذكر والدعاء والتقرب والتزلف إلى رب السماوات.

خامسًا: التربية على ذكر الله عز وجل:

من المضامين التربوية التي يهدف إليها هذا الباب التربية على ذكر الله، وهذا واضح في قول النبي ﷺ في دبر كل صلاة مكتوبة «لاَ إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ . لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ....».إلخ الحديث.

وذكر الله تعالى من أفضل العبادات وأعظم القربات، وهو سبب للفلاح وطمأنينة القلب ورضا الرب، والذكر معناه استحضار عظمة الله سبحانه وتعالى في جميع الأحوال التي يكون عليها المؤمن سواء أكان الاستحضار ذهنيًا أو قلبيًا أو نفسيًا أو لسانيًا أو فعليًا.. أو كان في حال القيام أو القعود أو الاضطجاع أو السعي في مناكب الأرض أو تدبر آيات القرآن، أو سماع الموعظة، أو الاحتكام إلى شريعة الله، أو ابتغاء أي عمل يقصد به المؤمن وجه الله.

وهذا المعنى للذكر هو ما بينه القرآن الكريم في مناسبات كثيرة.

ويدخل في الذكر اللساني كل الأدعية والمأثورات التي صحت عن النبي ﷺ، وأثرت عن أصحابه الكرام، والسلف الصالح رضي الله عنهم سواء ما يتعلق بأدعية الصباح والمساء، أو أدعية الطعام والشبع، أو أدعية السفر والإقامة، أو أدعية الدخول والخروج أو أدعية النوم واليقظة، أو أدعية التهجد والظواهر الكونية. وغيرها من الأذكار.

فإذا عرف المربي، معنى الذكر، وأنه لا يتصف بحالة واحدة ولا يختص بحالة معينة، بل هو حالة نفسية واعية تنتهي بالمؤمن إلى أن يستحضر عظمة الله سبحانه على الدوام.

---

(١) أخرجه الترمذي، ٣٤٩٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٧٨٢)

فبعد هذا عليه أن يسعى بكل جهده على أن يربي ولده على هذه المعاني من استحضار عظمة الله في نفسه، ليخشاه في السر والعلن، والمتقلب والمثوى، والحل والترحال، والسفر والحضر، والسلم والحرب، والبيت والسوق، والنوم واليقظة، وفي كل مكان ليكون في عداد أولئك الذين عناهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

ولاشك أن الولد إذا تأصلت نفسه على ذكر الله سبحانه وترسخ قلبه على مراقبته نشأ الولد مخبتًا عابدًا ذاكرًا صالحًا مستقيمًا متزنًا خلوقًا.. فلا يقع في معصية، ولا يرتكب فاحشة ولا يعمل ذنبًا.. وهذا والله غاية الصلاح والتقوى في الولد.

ألا ما أعظم منهج الإسلام في التربية حينما يسير المربون على هداه ويلتزم قواعده الآباء والمعلمون[2].



(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٨٢٦-٨٢٩.

٣٥٧- باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه سواء كان جاداً أو مازحاً، والنهي عن تعاطي السيف مسلولاً

الحديث رقم (١٧٨٥)

١٧٨٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: ((**لاَ يُشِرْ أحَدُكُمْ إلَى أخِيهِ بِالسِّلاحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**)). متفق عليه[١].

وفي رواية لمسلم[٢] قال: قال أبو القاسم ﷺ: ((**مَنْ أشَارَ إلَى أخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإنَّ المَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى (يَنْزِعَ)** [٣]**، وَإنْ كَانَ أخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ**)).

قوله ﷺ: "يَنْزِعُ" ضبط بالعين المهملة مع كسر الزاي، وبالغين المعجمة مع فتحها، ومعناها متقارب، ومعناه بالمهملة يرمي، وبالمعجمة أيضًا يرمي ويفسد، وأصل النَّزْع: الطعن والفساد.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ينزع في يده: أي يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته[٤].

الشرح الأدبي

لقد حرص الإسلام على أمن كل مسلم، وأوجب المحافظة على نفسه وماله

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٦/١٢٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٣٣).

(٢) برقم (٢٦١٧/١٢٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٣٤).

(٣) لفظ مسلم: (يدعه)، وعند المنذري بياض في الأصل، فقدره المؤلف أن يكون: (ينزع) لأن محقق الترغيب قال في (٤٧٤/٣، هامش رقم١): في: (أ) (ينتهي)، ولفظة: (ينتهي) ليست في مسلم، ولا في: (ج)، وهذا مما يؤكد أن في الأصل بياضًا.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٥٨.

وعرضه؛ فكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، وقد نوَّع الإسلام العقوبة، وجعل منها "تفويضية"، بحسب ما يراه الحاكم في كل زمان ومكان وحال، وأخرى "نصية" لا يجوز تعديلها، ولا اعتراض عليها؛ ليشمل بتشريعه كل أنواع الجريمة، ولتكفل العقوبات عليها راحة المجتمع وأمنه وسعادته، بقدر الإمكان.

وهذا الحديث الشريف يعد حماية لكل مسلم، وهو من سبل الأمن الوقائي؛ حيث يتجنب المسلم المواقف التي يمكن أن تقوده لارتكاب المحظور، وإيذاء الآخرين.

ولذلك يبدأ الحديث بالنهي الحاسم الجازم، أو النفي الذي يحمل دلالة النهي في قوله: "لا يشر أحدكم"، وتحديد لفظ "أخيه" يرشد إلى الرابطة الإسلامية، التي تجمع المؤمنين، فهم إخوة، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب، وأعظم منها عند الله عز وجل.

والتعليل الوارد في الحديث لهذا النهي يبدأ بالتأكيد، وفاء التعليل؛ حيث قال: "فإنه لا يدري"؛ لأن السلاح يغري الإنسان، والشيطان يدفع حامل السلاح إلى الطعن والقتل، بدافع الغرور، ووهْم القوة والسيطرة، والعطف بالفاء في قوله: "فيقع في حفرة من النار": يفيد السرعة في الأحداث، والإسراع في العقوبة، التي تلحق بهذا الذي أشار بالسلاح إلى وجه أخيه، فأغراه الشيطان، فارتكب حماقة الإضرار والإيذاء؛ من قتل أو جرح بالغ، ولا يحصد إلا الندم، ولا يجني إلا العقوبة، ومثواه جهنم وبئس المصير. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن إيذائه، وترويعه، وتخويفه، والتعرض له، بما قد يؤذيه.

وقوله ﷺ في رواية مسلم: "وإن كان أخاه لأبيه وأمه" مبالغة في إيضاح عموم النهي في كلٍّ على حد سواء، من يتهم فيه ومن لا يتهم، وسواء كان هزلاً ولعباً، أو لا، لأن ترويع المسلم يحرم بكل حال[1].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧٠/٦، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥/١٣، وأيضاً: المحلى، ابن حزم ١١٠/١١، والفروع، ابن مفلح ٣٤٤/٤.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإشارة للمؤمن بالسلاح أو ترويعه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التماس وسائل الأمن والبعد عن تعاطي السيف مسلولاً.

رابعاً: من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس الإنسان وسلامة بدنه.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد أسلوب النهي في الحديث في قوله ﷺ "لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح" وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما فيه من إيقاف المدعوين وإعلامهم بالمخالفات الشرعية وتحذيرهم منها، وقد تكرر أسلوب النهي في القرآن كثيراً، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣] والنهي من الأساليب التي يتسابق المؤمن لتحقيق الوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، وتحقيق العبودية والطاعة لله[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإشارة للمؤمن بالسلاح أو ترويعه:

لقد رهّب الإسلام ومنع من ترويع المؤمن حتى ولو بمجرد الإشارة بحديدة، فجاء في الحديث "لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلام فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار" وبين رسول الله ﷺ أن ذلك سبب للعنة الملائكة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: ((مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٨٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٨٦).

(٢) سورة الإسراء، آية:٣٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٨٧.

(٤) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥٠، ٥١.

تَلْعَنُهُ. حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ))[1]. قال القاضي عياض: (وقوله: "من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه": ظاهر الحديث على غير قصد إلا بجهة اللعب والترويع بالهزل، بدليل ذكره، لأخيه لأبيه وأمه الذي لا يبهم عليه، وترويع المسلم حرام، وبدليل قوله في الحديث الآخر: "فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار"، وكذا رويناه بالعين المهملة، قيل: معناه: يرمي في يده، أي يدفع يده ويحقق ضربته. ومن رواه بالغين المعجمة فمن الإغواء ونزع الشيطان، أي يحمله على تحقيق الضرب به وقصده، وتزيين ذلك له، لاسيما عندما يحدث من جهته عند الملاعبة، أو هجر بغير حال، وأن الهزل قد يفضي إلى الجد)[2].

وقال القرطبي: (ولعن النبي ﷺ للمشير بالسلاح: دليلٌ على تحريم ذلك مطلقاً، جداً كان أو هزلاً، ولا يخفى وجه لعن من تعمَّد ذلك؛ لأنه يريدُ قتلَ المسلم أو جرْحه، وكلاهما كبيرة. وأما إن كان هازلاً؛ فلأنه ترويعُ مسلم، ولا يحل ترويعُه؛ ولأنه ذريعةٌ إلى القتل والجرح المحرَّمين. وقد نصَّ في الرواية الأخرى على صحَّة مراعاة الذَّريعة، حيث قال: "فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزعُ في يده فيقع في حفرةٍ من النار".

وقوله: "وإن كان أخاه لأبيه وأمه" يعني: أن ذلك محرَّم، وإن وقع من أشفق الناس عليه، وأقربهم رحماً، وهو يشعرُ بمنع الهزل بذلك. ونصال: جمع نصل، وهي -هنا-: حديدةُ السهم، وتكراره: "فليأخذ بنصالها" ثلاث مرات على جهة التأكيد والمبالغة في سدّ الذريعة، وهو من جُملة ما استدلَّ به مالك على أصله في سد الذرائع)[3].

وقال النووي: (فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه، وقوله ﷺ وإن كان أخاه لأبيه وأمه مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً أم

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦١٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٩٦.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ابو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٠١/٦.

لا ، لأن ترويع المسلم حرام بكل حال)[١] ، وبهذا حرم الإسلام ترويع المسلم، وفي ذلك تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه[٢].

(وذلك أن ترويع الآخرين يترتب عليه مفاسد اجتماعية جمة، منها زعزعة القلوب، وانعدام الأمن والاطمئنان، ونشر الذعر والفزع بين الناس، ونزع الثقة والرحمة بين الناس، وتشتيت جهود الأمة، وتأخر المجتمع عن ركب الحضارة والعمران)[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التماس وسائل الأمن والبعد عن تعاطي السيف مسلولاً:

لقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين باتخاذ الحذر والحيطة في الأمور عامة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٤] وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب. ومن ذلك ما جاء في الحديث عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ "أن يُتعاطى السيف مسلولاً" أي نهى عن تناول السيف مسلولاً، لأنه قد يخطئ في تناوله فيجرح شيئاً من بدنه، أو يسقط على أحد فيؤذيه[٥]. ويحصل الفساد، وفي معنى السيف السكين -وما شابهها- فلا يرميها والحد من جهته، والأدب في تناولها أن يمسك النصل المحدود في يديه من جهة قفاه، ويجعل المقبض إلى جهته ليتناولها بالنصال[٦].

ولقد أوضح ابن عثيمين هذا الأمر وذكر بعض صور المخالفات الشرعية في ذلك والتي تقع من الكثير في عصرنا الحاضر فقال "وكذلك ما يفعله بعض السفهاء، يأتي بالسيارة مسرعاً نحو شخص واقف أو جالس أو مضطجع يلعب عليه ثم يحركها بسرعة

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٥٨.

(٢) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٣٣٥/١١.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٨٣٦/٩.

(٤) سورة النساء، آية: ٧١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٥٠.

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١١١٣.

إذا قرب منه حتى لا يدهسه، هذا أيضاً ينهى عنه، كالإشارة بالحديدة، لأنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يديه فلا يتحكم في السيارة، وحينئذ يقع في حفرة من النار، ومن ذلك أن يشرى الكلب به، يكون عنده كلب ويأتي إنسان آخر إليه زائراً أو نحو ذلك، فيشرى الكلب به يعني يغريه به، فإنه ربما ينطلق الكلب ويأكل هذا الرجل، أو يجرحه ولا يتمكن من فضه بعد ذلك، فالمهم: أن جميع أسباب الهلاك ينهى الإنسان أن يفعلها سواء أكان جاداً أم هازلاً، كما دل على ذلك الحديث[1].

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحفاظ على نفس الإنسان وسلامة بدنه:

إن من أهم الضرورات الواجب حفظها في الإسلام نفس الإنسان وبدنه، وذلك لحرمة المؤمن عند الله سبحانه وعظيم منزلته، فلا يجوز الاعتداء عليه لا من قريب ولا من بعيد، بطريق مباشر أو تسبب فيه[2]، وكما أشير إلى ذلك في الحديث "نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً" لما في ذلك من تسبب الأذى إلى النفس التي جاء الإسلام آمراً بحفظها، كما في الحديث النهي عن التهديد بالسلاح في المزاح به، لئلا يتسبب في قتل أو جرح المسلم لأخيه المسلم فيستحق عذاب النار، وهو بالإشارة أو التهديد يتعرض للعن الملائكة، كما جاء النهي عن مناولة السيف أو السلاح من حده القاطع، لأن في ذلك تعريضاً للإيذاء وتلاعباً بسلامة المؤمنين[3].

إن كل ما جاء في الشريعة من مبادئ وأحكام وأوامر ونواه وزواجر وعقوبات، كلها تهدف إلى حفظ هذه المقاصد[4] والضرورات الخمس "الدين، والنفس والعقل والنسب والمال[5]"، قال الشاطبي: (ومجموع الضرورات خمس، وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين)[6].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٨٢٦/٢.

(٢) انظر: محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ١٢١/٢.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٨٠٥.

(٤) انظر: بحوث هامة، الإسلام شريعة الزمان والمكان، عبدالله علوان، ص ٦٢.

(٥) انظر: مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، الشيخ علي بن صالح المرشد ص ٦٠.

(٦) الموافقات، الإمام الشاطبي ٨/٢-١٠.

الحديث رقم (١٧٨٦)

١٧٨٦- وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولاً. رواه أبو داود والترمذيُّ[١]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يتعاطى السيف مسلولاً: مخرجاً من غمده[٢].

الشرح الأدبي

يتسم هذا الحديث الشريف بالإيجاز؛ فهو يتكون من جملة واحدة، رواها جابر رضي الله عنه، وهو سنة عملية؛ لأنه ليس فيه من ألفاظ رسول الله كلمة واحدة؛ وإنما ينقل الراوي عن رسول الله: أنه نهى عن أن يتعاطى السيف مسلولاً، والمجرور بعد "عن" جملة "أن يتعاطى السيف مسلولاً"، وهذه الجملة مكونة من "أن" المصدرية الناصبة، والفعل المضارع المبني للمجهول، منصوب بأن، والسيف نائب فاعل، ومسلولاً: حال من السيف، والفاعل ليس مجهولاً، ولكنه حذف للعلم به؛ لأن السيف لا يحمل نفسه، والمصدر المؤول الذي يفيد معنى: تناول السيف وحمله، يفيد أن حامل السيف المسلول يتكلف حمله، ويكون مستعدًا ضمنيًا للإيذاء، ويمكن أن يؤذي نفسه؛ لأن السيف في وضع الاستعداد، والسيف في هذه الهيئة أصبح كأنه الفاعل؛ لأن الفاعل الحقيقي للإيذاء هو السيف، فالفاعل هو من قام بالفعل أو اتصف به، ومعنى تعاطى السيف، أي: تناوله، قال تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[٣]، أي: تناول الناقة بسيفه فعقرها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٨٨)، والترمذي (٢١٦٣) ولفظهما سواء. قال الحافظ في الفتح (٢٥/١٣): إسناده صحيح.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل ل).

(٣) سورة القمر، آية: ٢٩.

ورسول الله ﷺ كان القدوة في ذلك؛ فما انتقم لنفسه، وجاء في الأثر: "ما لعن رسول الله مسلمًا بذكرٍ" أي: بصريح اسمه، "وما ضرب بيده شيئًا قطُّ إلا أن يضرب في سبيل الله، ولا سُئل شيئًا قطُّ فمنعه، إلا أن يُسأل مأثمًا، ولا انتقم لنفسه من شيءٍ إلا أن تُنتَهك حُرُمات الله فينتقم". والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة تعاطي السيف، ومناولته مسلولاً، لما يخاف من الغفلة عند التناول، فيجرح شيئاً من يده، أو يسقط على أحد فيؤذيه[1].

وفي هذا رعاية كاملة للإنسان.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥/١٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣١٨/٦، وعون المعبود شرح سنن ابي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٨١/٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

إن ترويع المسلم وتعريضه للأذى من الأمور التي نهى عنها النبي ﷺ من أجل ذلك جاءت التوجيهات النبوية لوقاية المسلم من الأذية وتجنيبه ما يسعى إليه الشيطان، لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، فقال ﷺ: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»، وفي رواية لمسلم قال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ. حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

كما أنه نهى ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً.

إن النهي عن إشارة المسلم إلى أخيه بسلاح جادًا أو مازحًا - إذ الإنسان عرضة للشيطان، إلا من عصمه الله - فقد يحمله الغضب لأقل شيء على قتل أخيه المؤمن، أو جرحه فيندم، وقد سبق السيف العذل، ويقول بعد ذلك ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله، ويا أسفا على ما صنعت بأخي لكلمة سمعتها منه، أو لشيء بلغني عنه، أو لحق ضئيل تعدى علي وأضاعه، وكان يسعني العفو عنه، واحتمال أذاه ومسامحته أو انتظاره، ولكنها نزعات الشيطان وتحكمه في، لتسلطه عليّ، ولعدم الامتثال لأوامر الله القائل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

من أجل ذلك نهى النبي ﷺ المسلم عن أن يشير بالسلاح لأخيه المسلم وقاية له من أن يقع في حبائل الشيطان، فيؤذي أخيه أو يقتله فيوقعه فيما يجره إلى النار، ويدفعه إلى سخط الله.

هذا النهي وإن كانت الإشارة بالسلاح مزاحًا سداً للذريعة، وخوفًا من الشيطان، لأن هذا المزاح قد تكون عاقبته وخيمة، ويفضي إلى ترويع المسلم، وربما أدى إلى قتله وسفك دمه، وكم نعرف من الحوادث التي وقعت من هذا النوع كمن يزعج الآمن بالصياح وراء ظهره أو عند أذنه. وكمن يطلق الرصاص فوق رأس أخيه ليخيفه،

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

وكذلك بالترويع بهاون السيارة، والمرور بها إلى جانب الوادع الآمن. فيطيش لبه، ويكاد ينفطر قلبه، ويدخل فيما ذكر الترويع بالسيارة والدابة الجموح، وما يفعله الأحمق الطائش من الصواريخ المفرقعة في الأعياد والأفراح عند أبواب المساجد، وحين يمر بهم الضعيف والعاجز والمستغرق في التفكير، وتوجد اليوم صور حيوانية كالثعابين يطرحها المرء على أخيه الذي لا يعرفها فيتوهم الشر، ويفزع فزعه تتخلع لها القلوب، وما أكثر ضحايا المزاح المذموم[1].

ومن التربية الوقائية التي جاءت في باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه... نهيه ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً؛ لأن المتناول قد يخطئ في تناوله فيصاب بجرح في يده أو شيء من جسده.

ويدخل في معنى السيف السكين، فلا يرميها والحد من جهته[2].

فهذه التوجيهات والتحذيرات النبوية إنما كان الدافع منها الإشفاق على المسلم أن يؤذي أخاه المسلم، وحفظه من كيد الشيطان الذي يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بينه وبين أخيه المسلم.

فإذا التزم المسلم بهذه النصائح والتوجيهات، كانت له وقاية من أذية أخيه المسلم أو قتله، ووقاية من حبائل الشيطان وكيده، ووقاية من النار وعذابها.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

يعد الترهيب من أساليب التربية التي لا يستغنى عنها المربي فهو وعد يصاحبه تهديد الإنسان بالعقوبة وتحذيره من الأعمال التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى[3]، وقد رهب النبي ﷺ المسلم من الإشارة بالسلاح إلى أخيه فقال: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»، وفي رواية لمسلم قال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ.

---

(١) انظر: إصلاح المجتمع، الشيخ/محمد بن سالم بن حسين الكدادي البيحاني ص ٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٥٠/٣.

(٣) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن بن عبدالوهاب البابطين ص ٣٦.

حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

وأسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية وخاصة تربية الطفل، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة.

ولأهمية أسلوب الترهيب في العملية التربوية، فقد استخدمه رسول الله ﷺ في المواقف التي تحتاج إلى بيان الوعيد أو التهديد بالعقوبة لمن يعمل عملاً لا يوافق الشريعة الإسلامية.

ويتحتم على المربي استخدام أسلوب الترهيب في بعض المواقف التربوية للطفل، ولكن يجب عدم المبالغة في استخدامه في التربية، لأن كثرة استخدامه تؤدي إلى الآثار السلبية في نفسية الطفل، ويعتبر أسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد، ولا غنى للمربي عنه إذا أحسن استخدامه[1].



(١) انظر: المرجع السابق ص ٣٦-٤٠.

٣٥٨- باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبة

الحديث رقم (١٧٨٧)

١٧٨٧- عن أبي الشَّعْثَاءِ، قالَ: كُنَّا قُعُوداً مَع أبي هريرة رضي الله عنه في المَسْجِدِ، فَأَذَّن المُؤَذِّنُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ المَسْجِدِ يَمْشِي، فَأَتْبَعَهُ أبُو هُرَيرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ، فقال أبو هريرة: أمَّا هذَا فَقَدْ عَصَى أبا القَاسِمِ صلى الله عليه وسلم. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة لكل من يرجو النجاة في الدنيا، والفوز في الآخرة؛ استجابة لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2]، ولقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، ما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر"[3]، وهذا الحديث الشريف ليس قولاً مجرداً سيق للموعظة والإرشاد؛ ولكنه سلوك واقعي ... شهده الصحابة، وهو سلوك مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حيث خرج أحد الرجال من المسجد بعد أن أذن المؤذن.. ولم ينتظر حتى تقام الصلاة ... وأبو هريرة رضي الله عنه ظل يتابعه ببصره، حتى أيقن وشاهد أنه خرج من المسجد ولم يُصلِّ،

---

(١) برقم (٦٥٥/٢٥٨). أورده المنذري في ترغيبه (٦١١).

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٣) أخرجه الترمذي، ٣٦١٥، واللفظ له، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢٨٥٩) وبعضه عند مسلم برقم ٢٢٧٨..

فقال في استنكار واعتراض على هذا المسلك المخالف لسنة رسول الله ﷺ: "أمَّا هذا فقد عصى أبا القاسم".

والحديث يَنْزِع إلى القالب القصصي؛ فيبدأ بالفعل "كُنَّا"، ثم يتوالى عطف الأفعال بالفاء التي توحي بالسرعة وتعاقب مشاهد الحدث، التي تتوالى على هذا النسق، "فأذن المؤذن، فقام رجل من المسجد يمشي، فأتبعه أبو هريرة بصره، حتى خرج"، وبعد هذه الحركة المتعاقبة والمتتابعة من أبي هريرة رضي الله عنه، يسرع أبو هريرة قائلاً: "أما هذا فقد عصى أبا القاسم"، وهذه الجملة تتضمن معنى الشرط والجواب، وتتضمن إيجازًا بالحذف، حيث حذف العقاب الذي يتضمنه العصيان، وهو غضب الله عز وجل عليه، وغضب رسول الله ﷺ؛ حيث يقول الله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: عدم جواز الخروج من المسجد بعد الأذان حتى يصلى، وذلك لأنه دعاء إلى صلاة الجماعة، فمن خرج حينئذ، فقد قصد خلافهم وتفريق جماعتهم، وهو أمر ممنوع.

ويستثنى من عدم جواز الخروج، ما إذا نوى الرجوع، أو كان خروجه لعذر كما لو أحدث، أو رعف، أو نحو ذلك، ففي هذه الحالات وأمثالها لا يحرم الخروج.

ومثل ما تقدم في عدم الحرمة، من كان إماماً في مسجد آخر تتفرق الجماعة بغيبته، فإنه يجوز له أن يخرج بعد النداء.

على أن ما تقدم من حرمة الخروج من المسجد بعد الأذان هو ما ذهب إليه المالكية[2]،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ١/٤٦٤، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ١/٤٦٧.

والحنابلة[١]، وكذا الحنفية[٢]، فقد قالوا: إنه مكروه كراهة تحريم.

أما الشافعية[٣] فقد قالوا بالكراهة، ويبدو أن هذا هو ما اختاره النووي، فقد عنون الباب بـ (كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان).

والراجح ما ذهب إليه الجمهور.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة.

ثانياً: من مها الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين، والتنبيه على المخالفات الشرعية.

ثالثاً: من آداب المدعو: الامتثال لسنة النبي ﷺ في انتظار الصلاة في المسجد وعدم الخروج عند الأذان.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة:

أشير إلى ذلك في الحديث من خلال بيان أهمية الجلوس في المسجد، وانتظار الصلاة وعدم الخروج من المسجد إذا أذن للصلاة، إلا لعذر من مرض أو حاجة داعية للخروج كحدث أو نحوه[٤]. فعن أبي الشعثاء، قال: "كنا قعوداً مع أبي هريرة رضي الله عنه في المسجد، فأذن المؤذن، فقام رجل من المسجد يمشي، فأتبعه أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد، فقال أبو هريرة، أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ". قال القاضي عياض: (وقوله للذي خرج بعد النداء: "أما هذا فقد عصى أبا القاسم" تشديد في الخروج من المسجد بعد النداء لغير ضرورة من تجديد طهر أو غيره)[٥]. وقال القرطبي: (قول أبي

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٢٨٣/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٤٥/١، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٧٣/١.

(٢) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٤٧٥/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٧٨/٢، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٥٤/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠٥/٢.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٥٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ج٦٢٨/٢.

هريرة في الخارج من المسجد: أما هذا فقد عصى أبا القاسم. محمول على أنه حديث مرفوعٌ إلى رسول الله ﷺ، بدليل ظاهر نسبته إليه في معرض الاحتجاج به. وما كان يليقُ بواحدٍ منهم للذي عُلم من دينهم، وأمانتهم، وضبطهم، وبعدهم عن التدليس ومواقع الإيهام. وكأنه سمع ما يقتضي تحريم الخروج من المسجد بعد الأذان، فأطلق لفظ المعصية. فإذا ثبت هذا استثمر منه: أن من دخل المسجد لصلاة فرض، فأذّن مؤذّن ذلك الوقت حَرُم عليه أن يخرج منه لغير ضرورة حتى يصلي فيه تلك الصلاة؛ لأن ذلك المسجد تعين لتلك الصلاة، أو لأنه إذا خرج قد يمنعه مانع من الرجوع إليه أو إلى غيره فتفوته الصلاة)[١].

قال النووي: (قوله في الذي خرج من المسجد بعد الأذان "أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ" فيه كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان حتى يصلي المكتوبة إلا لعذر)[٢] كأن يكون حاقناً يعني يحتاج إلى أن ينقض الوضوء، أو أصابه مرض يحتاج إلى أن يخرج معه، أو كان إماماً لمسجد آخر، أو مؤذناً في مسجد آخر، أما إذا لم يكن له عذر فيكره الخروج من المسجد، وذلك أن المؤذن إذا أذن فإنه يقول للناس: حي على الصلاة يعني أقبلوا إليها، والخروج من المسجد بعد ذلك معصية، فإنه يقال: أقبل، ولكن يدبر"[٣].

ثانياً- من مهام الداعية: الانتباه لأفعال المدعوين، والتنبيه على المخالفات الشرعية:

يتضح ذلك من خلال فعل أبي هريرة رضي الله عنه من ملاحظته خروج رجل من المسجد بعد الأذان، وتنبيهه بأن ذلك معصية لرسول الله ﷺ، فعن أبي الشعثاء، قال: كنا قعوداً مع أبي هريرة رضي الله عنه في المسجد، فأذن المؤذن فقام رجل من المسجد يمشي، فأتبعه

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٢٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٤٦٦.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/١٨٢٤، ١٨٢٥.

أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد، فقال أبو هريرة: أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ وذلك من فطنة الداعية ومتابعته للمدعوين، وذلك مما ينبغي على الدعاة التحلي به، فالداعية والمربي الناجح لا ينتظر أن يخبر بأحوال المدعوين، بل إن فطنته تدعوه للشعور بأحوال من يربيهم، فيبادر لإزالة ما قد يلحق أذهانهم من لبس، ويصحح ما قد يقعوا فيه من أخطاء أو تجاوزات شرعية[١].

وللداعية الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في رسول الله ﷺ في ملاحظاته لأصحابه وتفقده لهم ولأعمالهم والتعرض لها تقييماً وتقويماً، وهذه الملاحظات إنما كانت في جميع الاتجاهات وعلى مختلف الصُعد.

فمن ملاحظاته في التربية الاجتماعية ما روي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. قال: رسول الله ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: ما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))[٢].

ومن ملاحظاته في التحذير من الحرام ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ((أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعله في يده. فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك وانتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ))[٣].

ومن ملاحظاته في تأديب الصغار ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: ((كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك))[٤].

---

(١) انظر: المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي ص ٣٥٣.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٢٢٩، ومسلم ٢١٢١.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٩٠.

(٤) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

ومن ملاحظاته في إرشاد الكبار ما رواه أبو داود والبيهقي عن عبدالله بن عامر رضي الله عنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة))[1].

ومن ملاحظاته في التربية الخلقية ما رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه ((أن رجلاً ذُكِرَ عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويحك قطعت عنق صاحبك. يقول مراراً: إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله، ولا يزكي على الله أحداً))[2].

ومن ملاحظاته في التربية النفسية ما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني نحلت ابني غلاماً كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا؟ فقال: فأرجعه. وفي رواية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعلت هذا بولدك كلهم؟. قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا في أولادكم. فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وفي رواية: قال صلى الله عليه وسلم: فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جور[3].

ومن ملاحظاته في التربية الدعوية وأخذ الناس بالرفق ما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: ((مشيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ، فأدركه أعرابي فجذبه -أي جذب الثوب- جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله وقد أثر فيه حاشية البرد من شدة جذبه. ثم قال الأعرابي: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر له بعطاء))[4].

تلكم بعض النماذج من مراقبة النبي صلى الله عليه وسلم لأبناء المجتمع الذي كان يقوم على

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٩١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٦١، ومسلم ٣٠٠٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٥٨٦، ومسلم ١٦٢٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٨٨.

هدايته وإصلاحه، وهي نماذج حية واقعية، تؤكد حرص الرسول ﷺ في تربية الناس، ومعالجة أمورهم، وإصلاح أحوالهم، والرفع من مستوياتهم[١].

ثالثاً- من آداب المدعو: الامتثال لسنة النبي ﷺ في انتظار الصلاة في المسجد وعدم الخروج عند الأذان:

جاء في الحديث ما يدل على كراهية مخالفة النبي ﷺ فيما بينه لنا من آداب للمساجد والصلاة، والتي منها انتظار الصلاة وعدم الخروج من المسجد إذا أذن للصلاة إلا بعد أداء المكتوبة، فالخروج من المسجد قبل صلاة المكتوبة التي دخل وقتها عدها أبوهريرة رضي الله عنه معصية لرسول الله ﷺ، حيث قال: أما هذا فقد عصى أبا القاسم" وقد أمرنا الله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وحذرنا من المخالفة، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢] وهذا أمر بامتثال الأمر، والكف عن المنهي عنه، وكرر "وأطيعوا" في ذكر الرسول تأكيداً، ثم حذر من مخالفة الأمر، وتوعد من تولى بعذاب الآخرة، فقال ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في تحري ما أمر بتحريمه، وعلى المرسل أن يعاقب أو يثيب بحسب ما يُعصى أو يطاع[٣]. وقد أمرنا الله بالتأسي برسول الله ﷺ فيما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٤] قال ابن كثير: (هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ فقال: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" أي هلا اقتديتم

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٧٣٠-٧٣٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٩٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣/٦/٢٩٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

به وتأسيتم بشمائله؟"[١]. والتأسي برسول الله ﷺ يكون في جميع ما نقل عن النبي ﷺ، قال الطاهر بن عاشور: وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول ﷺ دون وصف خاص ليشمل الائتساء في أقواله وأفعاله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى، وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي ﷺ[٢].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٣٠٣/٢١/٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من وسائط التربية في الإسلام: المسجد:

المسجد أول وسائط التربية في الإسلام وأهم وسيط، فقد كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ عندما وصل المدينة بناء المسجد، لأن المسجد هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ودرء المفاسد عنهم، والتعاون لمجابهة المشكلات، وصد العدوان عن عقيدتهم، وعن أنفسهم، وأموالهم، بل هو المعقل الذي يلجؤون فيه إلى بارئهم، يستمدون منه السكينة، والقوة والعون، ويعمرون قلوبهم بشحنة جديدة من الطاقات الروحية، بها يمنحهم الله صبرًا وبأسًا وإقدامًا ووعيًا وتبصرًا ورباطة جأش، وبُعد نظر، وتفاؤلاً ونشاطًا(١).

والمسجد كوسيط تربوي ظهر في الباب في قول أبي الشعثاء: كنا قعودًا مع أبي هريرة في المسجد.

والمسجد له أثره التربوي والاجتماعي في حياة الأمة، فعندما يأخذ المسجد مكانه الطبيعي الذي بني من أجله، وأراده الله له، يصبح من أعظم المؤثرات التربوية في نفوس الناشئين، فيه يرون الراشدين مجتمعين للصلاة وذكر الله فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم، والاعتزاز بالجماعة الإسلامية، وفيه يسمعون الخطب والدروس العلمية التي تساعدهم على فهم أمور دينهم والسؤال عما خفي عليهم وفيه يتعلمون الحديث والفقه، وكل ما يحتاجون من نظم الحياة الاجتماعية كما أراد الله أن ينظمها للإنسان، ومن هداية الله وسنة رسوله.

ومن العلوم المتممة لذلك كاللغة والتاريخ الإسلامي وغيرها، ولكن ما يدعو المسلمين إلى المسجد هو الالتقاء على طاعة الله.

فالمسجد يعمل على تعليم الناشئين أمور دينهم، والمبادئ والقيم التي ينبغي أن يتربى المسلم عليها وينطلق منها، إن هدف التربية الإسلامية هو: إخلاص العبودية لله،

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٠٨.

وينغرس هذا المعنى في نفس الناشئ عفوًا من غير قصد ولا تكلف[١].

ثانيًا: التربية بالملاحظة والمتابعة:

إن التربية بالملاحظة والمتابعة من أهم أسس التربية الإسلامية، تظهر الملاحظة والمتابعة في قول أبي الشعثاء: «كنا قعودًا مع أبي هريرة ﷺ في المسجد، فأذن المؤذن، فقام رجل في المسجد يمشي، فأتبعه أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد».

لقد تأسى أبو هريرة ﷺ بالنبي ﷺ في حسن رعايته لأصحابه، وتفقده لهم، وسؤاله عنهم، ومراقبة أحوالهم، ومحاذرة مقصريهم، وتشجيع محسنيهم والعطف على فقرائهم ومساكينهم، وتأديب الصغار منهم، وتعليم الجهلة فيهم[٢].

فعلى المربي أن يلحظ الولد، ويتابعه، ويلزم أدبه ويراقب حركاته وسكناته.. حتى إذا أهمل حقًا أرشده إليه وإذا قصر في واجب حضه عليه، وإذا رأى منكرًا نهاه عنه، وإذا فعل معروفًا شكر له صنيعه..

ومن الأمور التي لا يختلف عليها اثنان، أن ملاحظة الولد ومراقبته لدى المربي هي من أفضل أسس التربية وأظهرها، ذلك لأن الولد دائمًا موضوع تحت مجهر الملاحظة والملازمة حيث المربي يرصد جميع تحركاته وأقواله وأفعاله واتجاهاته.. فإن رأى خيرًا أكرمه، وإن رأى شرًا نهاه عنه وحذره منه، وبين له عواقبه الوخيمة. ونتائجه الخطيرة، وبمجرد أن يغفل المربي أو يتغافل عن الولد، فإنه سينزع لا محالة إلى الانحراف، ويتوجه - ولا شك - نحو الزيغ والانحلال... فعندئذ يكون هلاكه المحقق ودماره المحتوم[٣].

ثالثًا: التربية بالأحداث والمواقف:

المربي الناجح هو الذي لا يدع موقفًا أو حدثًا يمر عليه دون أن يفيد منه في التربية الإسلامية، وهذا واضح في موقف أبي هريرة ﷺ من الرجل الذي خرج وقت الأذان دون أن يصلي صلاة الجماعة حيث قال: «أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ»، فلم

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٧٣٠/٢.

(٣) المرجع السابق، ٧٢٩/٢، ٧٣٠.

يدع الحدث والموقف يمر دون أن يوجه إلى أهمية أداء الصلاة الجماعة وعظمها، وأن هذا الخروج فيه مخالفة لهدي النبي ﷺ.

والأحداث التي يمر بها الإنسان تؤثر في سلوكه، ويمكن استثمارها تربويًا، وذلك بالتأثير الهادف في سلوك الإنسان فالأحداث[١] وسيلة فعّالة لربط المادة التعليمية بحياة المتعلمين الواقعية[٢].

والمربي حقًا "لايترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة، وبغير توجيه، وإنما يستغلها"[٣]. والتربية بالأحداث تعرف بقوة تأثيرها وشدة سيطرتها على النفس والفكر، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس، إن كانت هذه الظاهرة خارجية وعن طريق التأمل، إن كانت داخلية[٤].

فعلى المربي أن يستغل المواقف والأحداث التي تمر به في تربية النفوس وصقلها وتهذيبها.



(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٢٨.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل ص ١٤٢.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ٢٥٠، ط دار الشروق.

(٤) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفره ص ٧٢.

٣٥٩- باب كراهة رد الريحان لغير عذر

الحديث رقم (١٧٨٨)

١٧٨٨- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدَّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ المَحْمِلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ريحان: هو كل نبت مشموم طيب الريح[٢].

المَحْمَل: الحَمْل[٣].

الشرح الأدبي

لقد كانت الرائحة الطيبة من صفات رسول الله ﷺ وإن لم يمس طيباً.

وقال أنس: ما شَمَمْتُ ريحاً قطُّ، ولا مسكاً ولا عنبرًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ[٤].

وفي رواية البخاري: ولا شممتُ مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبيِّ ﷺ.

وهذا الحديث الشريف باقة من عطر كلام رسول الله ﷺ، ونفحة من شذا توجيهاته المعطرة، وجماله التعبيري يكمن في صياغته اللغوية، وهي صياغة توحي بالإلزام ووجوب قبول الهدية، وما أدراك ما هيه؟ إنها "الريحان"، وهو ذو رائحة طيبة، وليس غالي الثمن مثل المسك.

والرسول ﷺ ينهى عن رد هدية الريحان، ولم يقل: من أُهدي إليه، وإنما قال: من

---

(١) برقم (٢٠/٢٢٥٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٠٢.

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (ح م ل).

(٤) أخرجه أحمد.

عرض عليه ريحان فلا يرده، والتعبير بالفعل "عرض"، يدل على كثرة هذا السلوك؛ لأن الريحان في متناول الكثير؛ فهو ليس عطية باهظة الثمن، وإنما فيه مودة ومحبة وألفة، وحرص على تبادل الأشياء الطيبة النافعة، والجملة الثانية: تعليل للنهي عن ردّ عطية الريحان، وجاء التعليل مؤكداً بـ"إن"، وقد وَرَد هذا التعليل مُضمَّخاً بسببين مقنعين؛ وهما: أن الريحان خفيف المحمل، طيب الريح، وفي الحديث، كما يقول صاحب دليل الفالحين: الترغيب في استعمال الطيب وعرضه على من يستعمله، لا سيما عند حضور الجمعة والجماعات ونحوهما.

فقه الحديث

وفي الحديثين[١] من الفقه: كراهة رد الريحان، وغيره من الطيب، إلا لعذر وقد كان رسول الله ﷺ لا يرد الطيب لمحبته فيه[٢].

والحديث يدل على أن رد الطيب خلاف السنة، ولهذا نهى النبي ﷺ عنه، وأعقب النهي بما يفيد انتفاء موجبات الرد، لأنه باعتبار ذاته خفيف الوزن، لا يثقل حامله، وباعتبار عرضه طيب، لا يتأذى به من يعرض عليه، فلم يبق حامل على الرد، فإن كل ما كان بهذه الصفة محبب إلى كل قلب، مطلوب إلى كل نفس[٣].

المضامين الدعوية[٤]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على قبول الطيب، وعدم رده.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الترغيب في الروائح الزكية، وكل ما يجلب الألفة والمودة بين الناس.

ثالثاً: من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في قبول الطيب وعدم رده.

---

(١) الحديث رقم (١٧٨٨)، (١٧٨٩).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧١/١٠، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٠/١٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٥٣/١١.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٨/١-١٥٩.

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٨٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٨٩).

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على قبول الطيب، وعدم رده:

إن الإسلام دين جمال وذوق ومراعاة لشعور الآخرين، ومن مظاهر ذلك نجد أن الإسلام رغب في التطيب، وحث على التهادي به وقبول هديته واستعماله وتداوله بين المسلمين، ووجه النبي ﷺ المسلمين إلى عدم رد الطيب، بل نهى عن ذلك كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل طيب الريح" وكان ﷺ لا يرد الطيب، فعن أنس رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب"، قال النووي: (ويحتمل عندي أن يكون المراد بالريحان في هذا الحديث الطيب كله، وفي الحديث كراهة رد الريحان لمن عرض عليه إلا لعذر)[(1)].

قال ابن علان: (قال القرطبي: أشار إلى قبول عطية الطيب لأنه لا مؤنة لحمله، ولا منة للخلق في قبوله، لجريان عادتهم بذلك، اهـ، وفي الحديث الترغيب في استعمال الطيب وعرضه على من يستعمله لاسيما عند حضور الجمعة والجماعات ونحوهما)[(2)].

ولقد كان رسول الله ﷺ يحب التطيب والروائح الطيبة كالبخور ونحوه، ولقد نقل عنه الصحابة ذلك في أكثر من حديث، من ذلك ما روي عن نافع قال كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا استجمر استجمر بالألُوَّة غير مُطرّاه وبكافور ويطرحه مع الألوة ثم قال: هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ[(3)].

قال القاضي عياض: (وفيه جواز استعمال البخور للرجال، واستعمال الأرايج الطيبة من جميع وجوهها وأنواع الطيب، وذلك مندوب إليه في الشريعة لمن قصد به مقاصده، من امتثال أمر نبيه ﷺ بذلك ليوم الجمعة، والأعياد، ومجامع الناس؛ ليدفع عن نفسه ما يكره من الروائح، وليدخل على المؤمنين راحة ويدفع عنهم مضرة، وما يوافق الملائكة من ذلك في المساجد، ومظان حلق الذكر وغيرها، وليقوى دماغه، ويصلح

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٠٢.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٥٤.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٥٤.

خاطره، ويطيب نفسه؛ لتأثير الطيب في تقوية هذه الأعضاء، وليعينه على ما يحتاج إليه من أمور النساء، فله في ذلك من التأثير ما لا ينكر، ولتطيب رائحته عند أهله وإخوانه المؤمنين، وتظهر مروءته ونظافته؛ وقد بني الإسلام على النظافة.

ولا يفعل هذا فخراً أو رياءً واختيالاً بدنياه، ومباهاة بوجده، فالله لا يحب كل مختالٍ فخور[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الترغيب في الروائح الزكية، وكل ما يجلب الألفة والمودة بين الناس:

إن الألفة والمودة وغيرهما من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية هي التي تؤدي إلى القوة في الترابط والصحة في التوافق، والمتعة في التضام، وهي التي تشد بناء الجماعة المسلمة بعضه إلى بعض، وتوفر للمجتمع جواً اجتماعياً سليماً صحيحاً لنمو الشخصية السوية[2]، ولقد رغّب الإسلام في كل ما يجلب الألفة والمودة بين الناس، سواء كانت معنوية كحسن الخلق والأدب، أو حسية كالابتعاد عن أسباب النفرة والتماس أسباب المودة والمحبة كالنظافة والتطيب وغيرها، ويزداد الترغيب في أماكن التجمع كالجمع والجماعات وغيرها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ هـذَا يَوْمُ عِيدٍ. جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ. فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ. وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ. وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ))[3] ولا يقتصر استحباب التطيب في العبادات، وإنما يمتد هذا الاستحباب ليشمل جميع أوقات وأحوال الإنسان، فيستحب للرجل التطيب داخل بيته وخارجه بما يظهر ريحه ويخفي لونه، كبخور العنبر والعود، ويسن للمرأة في غير بيتها بما يظهر لونه ويخفي ريحه، لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ))[4].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ج١٩٥/٧.

(٢) قراءة تربوية في فكر أبي الحسن البصري الماوردي، د. علي خليل مصطفى أبو العينين، دار المجتمع، السعودية، ١٤١١هـ، ط١ ص ٢٩٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه ١٠٩٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٩١٥).

(٤) أخرجه الترمذي ٢٧٨٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٣٨).

وذلك لأن المرأة ممنوعة في غير بيتها مما ينم عليها، لقوله ﷺ: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، فَمَرَّتْ على قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فهي زَانِيَةٌ))(١). أما في بيتها فتتطيب بما شاءت، مما يخفى أو يظهر لعدم المانع(٢).

ثالثاً- من آداب المدعو: التأسي بالنبي ﷺ في قبول الطيب وعدم رده:

من الأمور التي ينبغي الائتساء فيها برسول الله ﷺ قبول الطيب لما جاء في الحديث من نهيه ﷺ عن رد الطيب، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب" ولقوله ﷺ "من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه خفيف المحمل طيب الريح" ولما صرح به ﷺ من حبه للطيب، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((حُبِّبَ إلَيَّ النِّساءُ والطِّيبُ، وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ))(٣) والطيب من جملة أشياء نهى عنها النبي ﷺ عن ردها؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ((ثَلاثٌ لاَ تُرَدُّ: الْوَسَائِدُ وَالدُّهْنُ وَاللَّبَنُ))(٤) الدهن يعني به الطيب، قال ابن علان: (وقد نظم بعضهم ما يسن قبوله فقال:

قد عُرِفَ من سنة خير الورى ... صلى عليه الله طول الزمن

أن لا يُرَدَّ الطيبُ والمستكا ... والتمرُ أيضاً يا أخي واللبن

وزاد السيوطي عليه أربعة ونظمها في قوله:

عن المصطفى سبع يسن قبولها ... إذا ما بها قد أتْحَفَ المرءَ خِلاَّنُ

فحلوى وألبان ودهن ووسادة ... ورزق لمحتاج وطيب وريحانُ

ونظمتها كذلك فقلت:

سبعٌ يُسن قبولها إن أهديت ... والرد يكره يا أخا العرفان

(١) أخرجه الترمذي ٢٧٨٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٣٧).

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢/١٧٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٢٢٩٣، وقال محققو المسند: إسناده حسن، ١٩/٣٠٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٧٩٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦١٠).

لبن وحلوى طيب دهن وسادة رزق لمحتاج مع الريحان[١]

فمما ينفع الإنسان ويحببه لأهله والناس: النظافة والطهارة، وجمال المظهر واللباس الحسن والطيب، فعلى المسلم أن يهتم لذلك، ويكون غرة جميلة عطرة طاهرة[٢]؛ فإن في ذلك نيلاً لمحبة الله ورضاه، وصحة للأبدان وقوة للأديان، وبعثًا للسرور والانشراح في النفوس، إضافة إلى ما في الطهارة والتماس أسباب الطيب والزينة، من وسائل الوقاية من الأمراض والأدران[٣].

وذلك مما شرعه الإسلام للحافظ على جسد الإنسان وسلامته، ومن شرائع الإسلام في ذلك الوضوء، حيث يتم فيه غسل الأطراف خمس مرات يومياً، ويسن تخليل الأصابع، وتعهد مواطن الأذى، وغسل الجسد على سبيل الوجوب، والاستنان وتجميل الجسد في حدود الشرع، فذلك مما يحبه الله تبارك وتعالى ويرضاه؛ فعن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس))[٤].

وحفاظاً من الإسلام على الإنسان روحاً وجسداً، دعا إلى تناول كل طيب قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٥]. وأباح استخدام كل طيب مباح، بل أنكر على من يحرم شيئاً من الطيبات، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٦][٧].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٥٤، ١٧٥٥.

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز ص ٢٨٤.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٧٤٠/٧.

(٤) أخرجه مسلم ٩١.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٧) انظر: المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية، د. بكر زكي إبراهيم عوض، مطابع القدس، الإسكندرية، ط١، بدون تاريخ ص ١٣٩.

الحديث رقم (١٧٨٩)

١٧٨٩- وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ لاَ يَرُدُّ الطِّيبَ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

كان رسول الله ﷺ طيب الرائحة، محمود السيرة، كريم الشمائل، وقال جابر ابن عبدالله: كان في رسول الله خصال، لم يكن في طريقٍ فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه؛ من طيب عرقه وعَرْفه، وقال الشاعر في تصوير ذلك:

فلو أن ركباً يمَّمُوك لَقَادَهم نسيمُك حتى يستدلّ به الركبُ

وعن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب، وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق.

وهذا الحديث الشريف برهان ساطع على صدق هذا النهج النبوي، وهذا السلوك الوضيء، الذي اتسم به رسول الله ﷺ؛ وهو أنه كان أحسن الناس وجهاً، وأنورهم لوناً، وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر.

ولذلك يرد الحديث في صيغة التوكيد، ويبدأ بـ"أنَّ" المؤكدة التي تدل على تحقق هذه الصفة في رسول الله ﷺ، فهو كان لا يرد الطيب الذي يُهدى إليه.

والطيب كلمة جامعة مانعة، تتضمن كل أنواع الطيب، وأنواع العطر الطبيعي، والحديث السابق دعوة إلى قبول الريحان، وعدم رده، وهذا الحديث يدعو إلى الاقتداء برسول الله ﷺ في هذا السلوك الإنساني الجميل؛ لأن المؤمن يتسم بالوضاءة والإشراق، والنظافة وطيب الرائحة، وطيب السلوك، وطيب السريرة، وحسن السيرة، وحسن الخلق. والله أعلم.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم (٢٥٨٢).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الجمالية:

خلق الله الإنسان، وجعل بينه وبين الكون وكل ما فيه ترابطًا بالإحساس والإدراك، فالإنسان من هذا الجانب ميال إلى الجمال، الرائحة العطرة في الكون تجذب إدراكه الحسي، والرائحة الكريهة ينفر الإنسان منها، والأفعال الحسنة التي تصدر عن الإنسان تجذب أحاسيس ومشاعر كل إنسان يرى هذه الأفعال، والمناظر البديعة في الكون والتناسق في مكوناته يثير إحساس الإنسان بالجمال، ويربي الإنسان على هذا المنهج الجمالي، والقرآن الكريم والحديث الشريف يوجهان الإنسان ويربيانه على حب الخير وعلى الإحساس والتذوق الجمالي[1]، ومن التذوق الجمالي الإحساس بجمال الرائحة الطيبة التي إذا عرضت على المسلم فلا يردها، قال ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ، فَلاَ يَرُدُّهُ. فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ».

كما أنه كان ﷺ لا يرد الطيب.

والأشياء الجمالية هي كل ما يسر العين، ويسري في النفس إحساس بالراحة والمتعة سواء كان في الشكل أو اللون أو السلوك أو الحقائق أو الأصوات[2]، وحبذا استعمال الطيب لما له من رائحة طيبة، لها أثر طيب على النفس وانشراح الصدر، ويجلب المحبة بين الأصدقاء وهو سنة النبي ﷺ[3].

وللرائحة الطيبة أثرٌ في حفظ الصحة، فإنها غذاء للروح، والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطيب، وهو ينفع الدماغ والقلب وسائر الأعضاء الباطنية، ويفرح القلب ويسر النفس ويبسط الروح، وهو أصدق شيء للروح، وأشده ملائمة لها، وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قريبة؛ كان أحد المحبوبين من الدنيا إلى أطيب الطيبين صلوات الله عليه وسلامه.

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٢٤٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ومراجعه ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي ص ١٤٦.

والملائكة تحب الرائحة الطيبة، وتتأذى بالرائحة الخبيثة، والشياطين تنفر من الرائحة الطيبة، وأحب شيء إلى الشياطين الرائحة المنتنة الكريهة، فالأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة، وكل روح تميل إلى ما يناسبها، فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات، وهذا وإن كان في النساء والرجال، فإنه يتناول الأعمال والأقوال والمطاعم والمشارب، والملابس والروائح، إما بعموم لفظه، أو بعموم معناه[1].

فعلى المسلم أن يكون طيب الرائحة ويستعمل الطيب ولا يرده إذا أهدي إليه، ويعرضه على إخوانه في الجمع والجماعات والمجامع، لأن ذلك يؤدي إلى التآلف والمحبة بين المسلمين[2].

فالسعيد من يتطلع إلى ناحية الجمال في الحياة، ومن الحكم الصينية القديمة "إذا كان لديك رغيفان من الخبز فبع أحدهما واشتر بثمنه باقة من الزهر".

والسعادة الحقيقية، لا تكون بإشباع حاجات الجسد، وإنما بإشباع حاجات الروح من المثل العليا، ونبل الإنسان حيث تنحصر في الحق، والخير، والجمال. ومن هذا ينبغي رعاية حاسة الجمال منذ نشأتها عند الطفل، وتهيئة المناخ الملائم لازدهارها، لأن الطفل فنان بطبعه، وهو مرهف الحس، رقيق الشعور، واسع الخيال، محب للحرية، وجانب النشاط الوجداني فيه أقوى وأوفى من أي نشاط آخر، وجوهر الفن التعبير الوجداني، ونشاط الطفل لا يعدو أن يكون في جميع مظاهره تعبيرًا مفصلاً عن مشاعره ورغباته. ولا يكون التعبير الفني جميلاً، إلا إذا كان صادقًا، ولا يمكن تذوق الناحية الفنية الجميلة، إلا إذا كانت تعبر عن جانب من جوانب أنفسنا[3].

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٢٧٨/٤-٢٨٠، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٣٨/٣، ٣٩.

(٢) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٥٢/٣.

(٣) التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح ١٠٥/١، ١٠٦.

ثانيًا: التربية بالقدوة:

تعتبر القدوة من أهم أساليب التربية الإسلامية، وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه رضي الله عنهم أهمية الاقتداء والتأسي به، فكان لا يأمر بشيء أو ينهي عن شيء إلا ألزم نفسه به قبل الآخرين، ومن ذلك ما ورد في هذا الباب من أنه ﷺ أمر المسلمين بعدم رد الريحان لرائحته الطيبة فقال: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ، فَلاَ يَرُدُّهُ. فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ».

وكان ﷺ يلزم نفسه بعدم رد الطيب، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب، فرسول الله ﷺ كان هاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به.

وتؤكد التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم على ضرورة الاقتداء بالرسول ﷺ، لتحقيق تصورات الإسلام لخلق الشخصية المسلمة، فالحديث الشريف تبرز فيه طريقة القدوة في التربية الإسلامية، محققة مع غيرها من الطرق لأهداف التربية الإسلامية، والمعلم لكي يكون قدوة[1] لابد أن يتمثل المنهج الذي يعلمه ويربى به، حيث يربى على هديه، وحتى لا يكون هناك تناقض بين قوله وعمله، وحتى يتخذه المتعلمون قدوة لهم ويتأسون به في كل حركاته، وسكناته، فضلاً عن أخلاقه ومنهجه، وإلا فإن التربية تنقلب إلى تلقين وحفظ وتسميع دون أي أثر عملي لها[2].

والتربية بالقدوة تساهم بشكل فعال في بناء شخصية الطفل المسلم من جميع جوانب التربية الإسلامية مثل الجانب الإيماني والصحي والخلقي والاجتماعي والعقلي والنفسي، ولا تقتصر أهمية القدوة في التربية على جميع مراحل الطفولة فقط، بل تستمر في جميع مراحل النمو التي يمر بها الفرد المسلم، ولكل إنسان في هذه الحياة قدوة إما أن تكون هذه القدوة حسنة أو سيئة.

وقدوة الطفل في البيت هما الوالدان، حيث ينظر لكل عمل أو تصرف يصدر

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٢٢٢.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل ص ١٢٩.

منهما على أنه هو الصحيح، والذي يجب أن يؤخذه بعين الاعتبار وما سواه فهو الخطأ، ففي ضوء ذلك ينبغي على الوالدين أن يكونا قدوة حسنة صالحة لأبنائهم، فإذا أَمرا الطفل بأي عمل يجب أن يطبقوه على أنفسهم أولاً ثم على طفلهما وإذا نهيانه عن عمل يجب أن لا يأتوا بعمل مثله.

وأما قدوة الطفل في المدرسة فهو المعلم، فلا يصح أن يحث على الآداب والأخلاق الإسلامية ويعمل بخلاف ما قال، لأن المعلم هو في الحقيقة مُرَبٌّ أولاً ثم معلمٌ ثانيًا، وعلى ذلك ينبغي أن يكون المعلم قدوة حسنة لتلاميذه لكي يؤدي المسؤولية الملقاة على عاتقه وهي تربية التلاميذ على الآداب والأخلاق الإسلامية أولاً ثم تعليمهم العلوم المفيدة التي يستفيدون منها في حياتهم المستقبلية[1].



(١) انظر: أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن بن عبدالوهاب البابطين ص ٧، ٨.

٣٦٠- باب كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه مفسدة

من إعجاب ونحوه، وجوازه لمن أمِنَ ذلك في حقه

الحديث رقم (١٧٩٠)

١٧٩٠- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سَمِعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي المِدْحَة، فقالَ: ((أهْلَكْتُمْ - أوْ: قَطَعْتُمْ - ظَهْرَ الرَّجُلِ)). متفق عليه[1].

"والإطراء" المبالغة في المدح.

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

إن الصدق في الحديث من سمات ومعالم الشخصية الإسلامية، ومن أمارات هذا الصدق: أن يكون الإنسان صادقاً في موقفه من الآخرين، فلا يكون إمعة، ولا يزين للآخرين مواقف السوء، ومقارفة المآثم، والاجتراء على الحق.

والحديث من مواقف المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي يواجه فيها بعض هؤلاء المادحين، الذين يبالغون في الثناء والمدح، والمبالغة في الثناء والمدح هي "الإطراء"، المذكور في الحديث؛ وقد سمعه النبي بنفسه؛ حيث يروي أبو موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يثنى على رجل ويطريه في المدحة، فقال معقباً على ما سمع: "أهلكتم -أو قطعتم ظهر- الرجل"، وهذا التعبير كناية عن الهلاك، والمعنى هلاك الدين، لأن الرجل الممدوح يتولد له من ذلك إعجاب أو كبر يحجب عنه الحقيقة الساطعة.

وقد ترسَّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه هَدْي النبي صلى الله عليه وسلم، في النهي عن التزيد في المدح، والغلو فيه، وعدّ ذلك مهلكة للممدوح والمادح؛ فهو ينفخ الممدوح ويغطرسه، وينفث في

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٦٦٣)، ومسلم (٣٠٠١/٦٧).

روعه الغرور والكبر، والغلو من المادح مظنة نفاق، وقال عمر: المدح ذَبْح، أي: ذبح للطرفين، وقال لرجل أثنى عليه: تهلكني وتهلك نفسك، وسمع رجلاً يمدح الجارود، ويقول: هذا سيد ربيعة، وقد سمعها الجارود ومن حوله، فخفقه عمر بالدرة، فقال: ولك يا أمير المؤمنين، فقال: أما لقد سمعتها، قال سمعتها، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطاطئ منك[1].

فقه الحديث

وفي الأحاديث من الفقه: كراهة مدح الغير في الوجه، وهذا محمول على من مدح الغير بما ليس فيه؛ لأن من أفرط في مدح الغير بما ليس فيه، لم يأمن من الممدوح العجب بنفسه، فقد يضيع العمل، ويترك الازدياد من الخير اتكالاً على ما وصف به[2].

أما من مدح الناس بما هم فيه، فلا يدخل في النهي، فقد مُدح النبي ﷺ في الشعر، والخطب، والمخاطبة، ولم يحثُ في وجه مادحه التراب.

وعلاوة على الأحاديث التي وردت في النهي عن المدح في الوجه، وجدت أحاديث في الصحيحين بالمدح في الوجه، كقول الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه "ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك"[3] وغير ذلك.

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث بأن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه الفتنة، من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح.

أما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله، فلا ينهى عن مدحه في وجهه، بل إن كان يحصل بذلك منه مصلحة كنشاط في الخير أو في الازدياد منه، أو الدوام عليه، والاقتداء به، كان مستحباً[4].

---

(١) انظر: شخصيات إسلامية في الأدب والنقد، د. وليد قصاب، وانظر: الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ٦٥٥/٤، عيون الأخبار، ٢٧٥/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٧/١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٦/١٨، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠/١٣، وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٥٠٢/١، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٧٧/١٠.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على القصد وعدم مدح الشخص في وجهه إلا بالاعتدال وعدم التملق وتحري الحق.

ثانياً: من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتصحيح الأخطاء وبيان الصواب في المدح.

ثالثاً: من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في مدح الشخص.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: استشعار أمانة الكلمة وعدم كيل المدح لغير المستحقين له.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على القصد وعدم مدح الشخص في وجهه إلا بالاعتدال وعدم التملق وتحري الحق:

إن المبالغة في المدح والإطراء قد تؤدي في الغالب إلى الكبر والعجب بالنفس، لذا جاء نهي النبي ﷺ في الحديث عن المبالغة والإطراء في المدح، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: "سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل" وفي رواية أبي بكرة "ويحك قطعت عنق صاحبك". قال القاضي عياض: (قال العلماء: هذا كله في التفاوت في المدح ووصف الإنسان مما ليس فيه، أو لمن يخشى عليه العجب والفساد بسبب المدح)[2]. وقال القرطبي: (قوله: "ويحك! قطعت عنق صاحبك"، وفي حديث أبي موسى: "قطعتم ظهر الرجل" كل ذلك بمعنى أهلكتموه. ويعني بذلك كله: أن الممدوح إذا أكثر عليه من ذلك يُخاف عليه منه العجب بنفسه، والكبر على غيره، فيهلك دينه بهاتين الكبيرتين، فإذاً المدحُ مظنَّة الهلاك الديني، فيحرم، لكن هذه المظنة لا تتحقّقُ إلا عند الإكثار منه، والإطراء به، وأما مع الندرة والقلّة؛ فلا يكون مظنَّة، فيجوزُ ذلك إذا كان حقاً في نفسه، ولم يقصد به الإطراء، وأُمن على الممدوح الاغترارُ به. وعلى هذا يُحمل ما وقع للصحابة رضي الله عنهم من مدح بعضهم

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٩٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٩١).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٤٩/٨.

لبعض مشافهة ومكاتبة. وقد مُدح النبي ﷺ مشافهة نظماً ونثراً، ومدح هو أيضاً جماعة من أعيان أصحابه مشافهة، لكنَّ ذلك كلّه إنما جاز لّما صحَّتِ المقاصد، وأُمِنتِ الآفاتُ المذكورة)[١].

وقال النووي: (قوله ﷺ "قطعت عنق صاحبك" وفي رواية "قطعتم ظهر الرجل" معناه: أهلكتموه، وهذه استعارة من قطع العنق، الذي هو القتل لاشتراكهما في الهلاك، لكن هلاك هذا الممدوح في دينه، وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب)[٢] لأن ذلك يوجب أن هذا الممدوح يترفع ويتعالى، وقد أمر النبي ﷺ أن يحثى التراب في وجوه المداحين[٣]، وإنما الواجب إن كان لا بد من المدح، أن يعتدل الإنسان في المدح ولا يبالغ فيه.

ثانياً- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتصحيح الأخطاء وبيان الصواب في المدح:

يلاحظ ذلك في الحديث في نهي النبي ﷺ لمن أطرى في مدح غيره "ويحك قطعت عنق صاحبك" وبيانه ﷺ لما ينبغي "إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يُزَكّى على الله أحد"[٤] وفي ذلك بيان لصفة من أهم صفات الداعية، وهي متابعته للمدعوين وتصحيحه للأخطاء والمخالفات التي قد تقع منهم، "فالداعية طبيب اجتماعي يعالج أمراض النفوس، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة، فهو ناقد بصير، يقف حياته على الإصلاح إلى ما شاء الله"[٥]، ومن الأحاديث الدالة على تفقد الداعية والإمام لأحوال المدعوين، ما روي عن عبدالله بن عمر ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ. فَنَادَاهُ عُمَرُ أَيَّةُ سَاعَةٍ هذِهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ الْيَوْمَ. فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَى

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٢٧/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢١.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٨٣٠/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٦١.

(٥) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٦.

أَهْلِي حَتَّىٰ سَمِعْتُ النِّدَاءَ. فَلَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنَّ تَوَضَّأْتُ. قَالَ عُمَرُ: وَالْوُضُوءَ أَيْضاً وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ))(١). قال النووي ﷺ: (فيه تفقد الإمام رعيته وأمره بمصالح دينهم، والإنكار على مخالف السنة وإن كان كبير القدر)(٢).

ثالثاً- من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في مدح الشخص:

لقد نهى النبي ﷺ عن الإطراء والقطع في المدح، فإن كان الإنسان مادحاً لا محالة، فليقل كما أرشد النبي ﷺ في الحديث، حيث قال ﷺ "إن كان أحدكم مادحاً لا محالة، فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله ولا يزكى على الله أحد" والمعنى فليقل أحسب أن فلاناً كذا والله يعلم سره لأنه هو الذي يجازيه، ولا يقل أتيقن ولا أتحقق جازماً بذلك، ومعنى النهي هنا أي لا تزكوا أحداً على الله لأنه أعلم بكم منكم)(٣) قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٤) أي تمدحوها وتشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم(٥)، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلاً﴾(٦) وإذا كان قد نهى الإنسان عن أن يزكي نفسه فعن غيره أولى، (وقد شاع من آداب عصر النبوة بين الصحابة التحرز من التزكية وكانوا يقولون: إذا أثنوا على أحد لا أعلم عليه إلا خيراً ولا أزكي على الله أحداً)(٧).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: استشعار أمانة الكلمة وعدم كيل المدح لغير المستحقين له:

إن من المعلوم لدى المؤمن أن كل ما يتلفظ به مسجل عليه محاسب عليه إن خيراً

---

(١) أخرجه البخاري ٨٧٨، ومسلم ٨٤٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٥٥٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٩٢/١٠.

(٤) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٦٢/٧.

(٦) سورة النساء، آية: ٤٩.

(٧) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ١٢٦/٢٧/١١.

فخير وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١) وأن الكلمة أمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(٢) قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له)(٣). وإذا استشعر الإنسان ذلك فلا يترك العنان للسانه في الإطراء في مدح الآخرين، أو مدح غير المستحقين لذلك، (وذلك بأن يمدح غيره، ويغلو في إطرائه، ويصفه بما لا يستحقه، فهذا محرم وهو كذب وخداع، وهو أيضاً ضرر على الممدوح)(٤). بل هو من دروب الهلاك كما جاء في الحديث "ويحك قطعت عنق صاحبك".

قال الطيبي: (قوله: "ويلك قطعت عنق صاحبك" هذه استعارة من قطع العنق الذي هو القتل لاشتراكهما في الهلاك، لكن هذا الهلاك في الدين، وقد يكون في الدنيا)(٥).

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٤/١٣/٧.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٨٣٠/٢.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ، ١٠٤/٩.

الحديث رقم (١٧٩١)

١٧٩١- وعن أبي بكرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً ذُكِرَ عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْراً، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ)) يَقُولُهُ مِرَاراً: ((إنْ كَانَ أحَدُكُمْ مَادِحاً لاَ مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أحْسِبُ كَذَا وَكَذَا، إنْ كَانَ يَرَى أنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسِيبُهُ اللهُ[١]، وَلاَ يُزَكَّى عَلَى اللهِ أحَدٌ)). متفق عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

ويحك: هي كلمة رحمة وتوجع[٣].

قطعت عنق صاحبك: معناه: أهلكتموه وهو استعارة من قطع العنق لاشتراكهما في الهلاك، لكن هلاك هذا الممدوح في دينه، وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب[٤].

وحسيبه الله: محاسبه على عمله الذي يعلم حقيقته[٥].

الشرح الأدبي

هذا درس من دروس النبوة، وتوجيه من توجيهات السنة المباركة؛ فالمسلم مطالب بأن ينأى عن المبالغة في الثناء، والمبالغة في الذم؛ لأن التوازن من معالم التصور الإسلامي، والغرور أحد مداخل الشيطان إلى النفس، والمبالغة في الثناء والمدح تغمر الممدوح بالغرور والتكبر، والتعالي والجحود، وهذا الحديث في رصده لهذه الظاهرة السلبية يتسم بعدة ظواهر فنية وأسلوبية، تضفي مسحة الجمال على صياغة الحديث،

---

(١) لفظهما: (والله حسيبه).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٦٠٦١)، ومسلم (٦٥/٣٠٠٠).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٩٢/١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٩٢/١٠.

ويبدأ الحديث بتأكيد الخبر، الذي يحكي هذا المشهد القصصي؛ حيث يحكي أبو بكرة، "أن رجلاً... الحديث، وعدم تحديد اسم المادح، وكذلك عدم تحديد اسم الممدوح، يفيد أن القضية ليست قضية أشخاص؛ وإنما قضية سلوك ومبدأ، يرسيه رسول الله ﷺ؛ وهو عدم المبالغة في الإطراء، والبعد عن ادّعاء اليقين في الثناء؛ لأن الذي يعلم السرّ وأخفى هو الله العلي الأعلى، وهو أعلم بالسرائر، وهو المحيط بما في الضمائر.

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله: "فأثنى عليه رجل خيراً"؛ فكلمة "خيراً" مفعول به لفعل محذوف تقديره قال خيرًا.

وخيراً: لفظ يجمع كل الصفات الحسنة، وكل الشمائل الطيبة.

وقوله: "قطعت عنق صاحبك" كناية عن الهلاك المعنوي؛ لأن المدح يقود إلى الغرور، والغرور يقود إلى الافتتان بالنفس والوقوع في حمأة الباطل، ومصائد الشيطان؛ لأن المدح ذبح للطرفين، والتكرار في قوله: "يقول مراراً"، للمبالغة في الزجر له ولغيره عن مدح من كان مثل الممدوح في الخوف عليه من نحو العجب، وأسلوب الشرط في قوله: "إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا" يوحي بالتشكك وعدم اليقين؛ لأن "إن" لا تفيد التحقق، وذلك يرشد إلى المنهج الإسلامي، الذي لا يؤيد المبالغة في المدح، وجواب الشرط يضع الحل، ويرسى دعائم الموقف، إذا كان لا بد من الثناء، فليقل: أحسب كذا وكذا، وقوله: "وحسيبه الله، ولا يُزكّى على الله أحد"، يوحي بأن الله يحاسب كل من يَمْدح ويثنى بدافع التملق والنفاق؛ لأن الله أعلم بالسرائر، وأخبر بما في الضمائر، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٧٩٢)

١٧٩٢- وعن همام بن الحارث، عن المِقْدَادِ رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمانَ رضي الله عنه، فَعَمِدَ المِقْدَادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ[1]، فَجَعَلَ يَحثو في وَجْهِهِ الحَصْبَاءَ. فقالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: **((إذَا رَأَيْتُمُ المَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ))**. رواه مسلم[2].

فهذهِ الأحاديث في النَهي، وجاء في الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة.

قال العلماءُ: وطريق الجَمْعِ بين الأحاديث أنْ يُقَالَ: إنْ كان المَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إيمانٍ وَيَقِينٍ، وَرِيَاضَةُ نفْسٍ، وَمَعْرِفَةٌ تَامَّةٌ بِحَيْثُ لاَ يَفْتَتِنُ، وَلاَ يَغْتَرُّ بِذَلِكَ، وَلاَ تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلاَ مَكْرُوهٍ، وإنْ خِيفَ عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ هذهِ الأمورِ، كُرِهَ مَدْحُهُ في وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، وَعَلَى هَذا التفصيلِ تُنَزَّلُ الأحاديثُ المُخْتَلِفَةُ فِي ذَلكَ.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الإبَاحَةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم لأبي بكْرٍ رضي الله عنه: **((أرجُو أنْ تَكُونَ مِنْهُمْ[3]))** أيْ مِنَ الَّذِينَ يُدْعَونَ مِنْ جَمِيعِ أبْوابِ الجَنَّةِ لِدُخُولِهَا.

وَفِي الحَدِيثِ الآخر: **((لَسْتَ مِنْهُمْ))**[4]: أيْ لَسْتَ مِنَ الَّذِينَ يُسْبِلُونَ أُزُرَهُمْ خُيَلاَءَ.

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم لعُمَرَ رضي الله عنه: **((مَا رَآكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً إلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ))**[5].

والأحاديثُ في الإباحة كثيرةٌ، وقد ذكرتُ جملةً مِنْ أطْرَافِهَا في كتاب "الأذكار"[6].

ترجمة الراوي:

المقداد بن الأسود الكندي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٩٢).

---

(١) عند مسلم زيادة: (وكان رجلاً ضخمًا).

(٢) برقم (٣٠٠٢/٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧/٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦/٢٢).

(٦) انظر: باب المدح (ص: ٣٩٥).

غريب الألفاظ:

فجثا على ركبتيه: جلس على ركبتيه[١].

يحثو في وجهه الحصباء: يرميه بالحصى الصغير[٢].

فجاً: هو الطريق الواسع[٣].

الشرح الأدبي

إن حديث رسول الله ﷺ في هذا النص يأتي برهاناً ساطعاً، ودليلاً يقينيًا على موقف الإسلام من المدح الزائف، والثناء المطغي؛ فالمقداد يرفض ما سمعه من مدْح لعثمان؛ حيث حثا "الحصباء" في وجه المادح، أي: رمى صغار الحصى في وجهه، ويستغرب عثمان هذا الموقف، فيقول مستفهماً في استنكار واعتراض: ما شأنك؟

وهذا الحوار بين المقداد وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، يُفْصح عن سعة صدر عثمان، وقبوله لآراء الآخرين، واقتناعه بحجة المقداد؛ لأنه استشهد بحديث رسول الله، وهو لا ينطق عن الهوى.

والبيان النبوي جاء في قالب الشرط والجواب، وأداة الشرط "إذا".. وهي تفصح عن تحقق العقوبة التي يستحقها المداّحون المغالون ووجوبها، والذين يكذبون في أقوالهم، ويزينون للناس الباطل بما يقدمون من أقوالٍ كاذبة، وأوهامٍ غاربة، وآمال هاربة، وأمانٍ غائبة: "إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب".

والإسلام لم يرفض المديح كله، ولم ينه عن جميع ضروبه وأشكاله؛ بل أجاز مديح الفضلاء وأهل الخير، بل ندب إليه؛ ففي الثناء عليهم تمجيد لقيم الحق وإذاعتها.

وقد تصدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمديح التكسُّب، وهو المتاجرة بالكلمة، واستئكال عقل الممدوح وفتنته بها، ونهى الممدوح أن يصل الشاعر المادح على مدحه؛

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ث و).

(٢) المرجع السابق ، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ث و).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ج ج).

فإن هذا يشجعه على السؤال، ويجرئه على التكسب بشعره، ويعطله عن التماس الرزق الشريف، ويستمرئ الممدوح من وجه آخر طعم الفخر، وحلاوة الثناء، وزهو الفوقيه، وقال عمر للحطيئة: إياك وكل مدحة مجحفة، قال: وما المجحفة؟ قال: تقول: بنو فلان خير من بني فلان؛ امدح ولا تفضّل[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستجابة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: من آداب المدعو: التزام الموضوعية والصدق والقصد في المدح وعدم المبالغة.

ثالثاً: من آداب المدعو: اليقظة لأساليب المتملقين في المدح والكذب للتكسب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستجابة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص ما يكونون على الاستجابة لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتثالها، وفي الحديث أنموذج تطبيقي، ومثل حي لذلك في فضل المقداد رضي الله عنه، فعن همام بن الحارث عن المقداد رضي الله عنه أن رجلاً جعل يمدح عثمان رضي الله عنه فعمد المقداد فجثا على ركبته، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب)، قال النووي: "هذا الحديث قد حمله على ظاهره المقداد، الذي هو راويه، ووافقه طائفة وكانوا يحثون التراب في وجوههم حقيقة، وقال آخرون: معناه: خيبوهم فلا تعطوهم شيئاً لمدحهم"[٢].

وما صدر عن الصحابة رضي الله عنهم يدل على مدى استجابتهم لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أمرنا الله بطاعتها وحذرنا من مخالفته، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٣]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

(١) انظر: كنز العمال، ٨٤٦/٣. وانظر: شخصيات إسلامية في الأدب والنقد، د. وليد قصاب.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٢.

أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]، ففي الاستجابة لأوامره ﷺ الحياة والتوفيق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢]، من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة كما أن الجهل موت، ولبعضهم:

لاَ تعْجَبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتهُ فَذَاكَ مَيتٌ وَثَوْبُهُ كَفَن[٣]

والاستجابة لله وللرسول ﷺ مقتضى الإيمان، وفيه الحياة (إذا دعاكم لما يحييكم)، وذلك وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله ﷺ على الدوام[٤].

ثانياً- من آداب المدعو: التزام الموضوعية والصدق والقصد في المدح وعدم المبالغة:

لقد جاءت الأحاديث آمرة بالتزام الموضوعية والصدق والاعتدال والقصد في المدح، وما جاء من نهي عن المدح فمحمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كتنشيطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به، كان مستحباً[٥]، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٦][٧].

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري ص ٤٠٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٨٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢١.

(٦) سورة المائدة، آية: ٢.

(٧) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ١٨٣٠.

فقد ثبت أنه ﷺ مدح البعض إظهاراً لفضلهم، روي أنه ﷺ قال لأشج عبدالقيس: ((إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ))[١]، قال النووي: "وفيه جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه، وأما استحبابه فيختلف بحسب الأحوال والأشخاص"[٢].

ثالثاً- من آداب المدعو: اليقظة لأساليب المتملقين في المدح والكذب للتكسب:

إن من آداب المدعو الكيس الفطن أن يكون يقظاً لما يلقى على مسامعه، ولا يخدع بالمزين من الكلام، بل من كانت هذه آدابه، أن يُقابل بنقيض قصده من الحرمان من العطايا، بل ويعنف على ذلك كما جاء الحديث: (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب)، قال ابن حجر: "قال ابن بطال: حاصل النهي أن من أفرط في مدح آخر بما ليس فيه، لم يأمن على الممدوح العجب لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالاً على ما وصف به، ولذلك تأول العلماء قوله ﷺ: (فاحثوا في وجوههم التراب)، أن المراد من يمدح الناس في وجوههم بالباطل"[٣].

قال القاضي عياض: "وقوله: (احثوا التراب في وجوه المداحين) فقد حمله المقداد وغيره ممن جاء بعده على ظاهره، وقال: خيبوهم ولا تعطوهم شيئاً لأجل مدحهم، من قولهم تربت يداه، وقيل: إذا مُدحتم فتذكروا أنكم من تراب وتواضعوا ولا تعجبوا بالمدح، وقوله: (أحسب ولا أزكي على الله أحداً) في هذا أنه لا يقطع على عاقبة أحد ولا ضميره، إذ ذاك مغيب عنا وإنما يقول بحسب الظاهر"[٤].

وقال أبو العباس القرطبي في قوله: (أحسب فلاناً...): "ظاهر هذا: أنه لا ينبغي للإنسان أن يمدح أحداً ما وجد من ذلك مندوحة، فإن لم يجد بداً مَدح لما يعلمه من أوصافه، وبما يظنه، ويتحرز من الجزم والقطع بشيء من ذلك، بل يتحرز بأن يقول

---

(١) أخرجه مسلم ١٧، ١٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٩٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٩٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٨/٥٥٠.

فيما أحسب أو أظن ويزيد على ذلك، (ولا أزكي على الله أحداً)، أي لا أقطع بأنه كذلك عند الله؛ فإن الله تعالى هو المطلع على السرائر، العالم بعواقب الأمور"[1].

وقد جمع محمد تقي العثماني في تكملة فتح الملهم أقوال العلماء في معنى: (احثوا التراب في وجوه المداحين) فقال: "قوله: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب) قد فسر العلماء هذا الحديث على وجوه:

الأول: أنه محمول على حقيقته، فينبغي أن يُحثى التراب على وجه المادح حقيقة، وهو الذي استعمله المقداد رضي الله عنه راوي الحديث. وقد ورد مثل ذلك عن بعض السلف، وقد حكى الأبي في ذلك قصة للشيخ ابن إسحاق الجبيناني.

الثاني: أن حثي التراب كناية عن تخييبه، والمراد من المداحين من يتملق لأخذ المال والصلة وتخييبه أن لا يعطى، أو من يريد الفتنة بإلقاء العجب في نفس الممدوح، فتخييبه أن لا يُعجب الإنسان بنفسه.

الثالث: المراد أن يقول الممدوح للمادح: (بفيك التراب) والعرب تستعمل ذلك لمن تكره قوله.

الرابع: أن المقصود أن يأخذ الممدوح تراباً، فيبذره بين يديه ليتذكر أصله وأن مصيره إليه فلا يطغى بالمدح الذي سمعه. وعلى هذا، فقوله (في وجوه المدّاحين) معناه: بين أيديهم وفي مواجهتهم.

الخامس: أن المراد بحثو التراب في وجه المادح إعطاؤه ما طلب، لأن كل ما فوق التراب تراب. وبهذا جزم البيضاوي وقال: شبه الإعطاء بالحثي على سبيل الترشيح والمبالغة في التقليل والاستهانة كذا في الفتح.

السادس: معنى الحديث أنه ينبغي للممدوح أن يقوم عن مجلس المادح ويثير بقيامه التراب عليه، ذكره الأبي وقال: إنه أبعد التأويلات.

ويبدو أن أفضل التأويلات هو الثاني، والمقصود الحث على منعه من المدح، وعدم

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦/٦٢٧ - ٦٢٨.

تشجيعه على ذلك. وهو الذي اختاره أكثر السلف.

قال الخطابي: "المدّاحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة يستأكلون به الممدوح. فأما من مدح الرجل على الفعل الحسن والأمر المحمود يكون منه ترغيباً له في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به في أشباهه، فليس بمدّاح. وقد استعمل المقداد الحديث على ظاهره في تناول عين التراب، وحثيه في وجه المادح. وقد يُتأول أيضاً على وجه آخر، وهو أن يكون معناه: الخيبة والحرمان، أي: من تعرض لكم بالثناء والمدح، فلا تعطوه واحرموه. كنى بالتراب عن الحرمان، كقولهم: ما في يده غير التراب وكقوله ﷺ: ((إذَا جاءَك يَطلُبُ ثمنَ الكَلْبِ فامْلأ كَفَّهُ تُرَاباً))[1].

نقله البغوي في شرح السنة (١٥١/١٣) ثم قال: "وفي الجملة المدح والثناء على الرجل مكروه، لأنه قلّما يسلم المادح عن كذب يقوله في مدحه، وقلّما يسلم الممدوح من عُجب يدخله. وروي أن رجلاً أثنى على رجل عند عمر، فقال عمر: عقرت الرجل، عقرك الله".

والحاصل؛ أن المدح بغرض تشجيع الممدوح على أفعال الخير جائز، كما ذكره الخطابي، لأن ذلك ثابت من النبي ﷺ بمناسبات كثيرة. والمدح المكروه هو ما خيف فيه أن يفتتن الممدوح بالعجب، أو ما قصد به التملق وأكل الأموال بالباطل. وبما أن الفرق بينهما دقيق ربما لا يدركه المرء، فالأحوط ما ذكره البغوي من الاجتناب عنه في كل موضع مشتبه، والله سبحانه وتعالى أعلم"[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٤٨٢، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٢٩٧٤).

(٢) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثمان ٢٩٢/١٢ - ٢٩٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالأحداث:

يتعرض الناس في حياتهم للأحداث... تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة أو لأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجه عن إرادتهم. والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة أو توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها.

ومزية الأحداث -كأسلوب تربوي- أن تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال، فيكون من الحكمة -هنا- استخدام الدواء عند حدوث الداء[1].

وأسلوب التربية بالأحداث جاء في أحاديث الباب في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «سَمِعَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلاً يُثْنى علَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي المِدْحَةِ، فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ».

وكذلك في حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا فقال النبي ﷺ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ....» إلخ الحديث.

كذلك استخدم المقداد رضي الله عنه أسلوب التربية بالأحداث عندما رأى رجلاً يمدح عثمان رضي الله عنه، فعمد المقداد، فجثا على ركبتيه، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتهم المداحين....إلخ» الحديث.

ولاشك أن طريقة التربية بالأحداث من أساليب التربية الفعالة إذ يستغل المربي حدثاً معيناً لإعطاء توجيه أو تغيير سلوك معين، وميزة هذا التوجيه أو التغيير في السلوك أنه يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزًا فتكون أكثرَ قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغيير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمدًا في التأثير من تلك التوجيهات

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٩٦، ١٩٧.

والتغيرات العابرة التي تأتي "على البارد" بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر[١].

فعلى المربي ألا ينتظر وقوع الأحداث بطريقة تلقائية حتى يستغلها في تشكيل المتعلم وتوجيه سلوكه. فالمنهج قد يخطط للأحداث وينظمها بحيث يمر بها المتعلم، وكأنها أحداث تلقائية، فينفعل بها ويتأثر ويستغل المربي ذلك في عملية التوجيه والتشكيل. حتى يتحقق الهدف من التربية وهو تغيير السلوك في الاتجاه المطلوب غرسه في تصرفات وأقوال المتعلمين[٢].

ثانيًا: من أساليب التربية: التكرار:

لقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التكرار في قوله: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» يقول الراوي: يقوله مرارًا.

ولاشك أن أسلوب التكرار أسلوب تربوي يجعل من الأمر المكرر عند المرء، عادة مستحكمة راسخة في أعماق قلبه ونفسه فبالتكرار يمكن التأثير على كثير من النفوس التي لا تأخذ بالتوجيه لأول وهلة للتفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم[٣].

فيجب على المعلم تكرار الأشياء الهامة والأشياء الصعبة بألفاظ وأساليب مختلفة تأكيدًا لأهمية الشيء، حتى ينبه السامعين للإصغاء بإمعان وتدبر، وحتى يسمعها من لم يسمعها، وحتى تفهم فهمًا جيدًا دون لبس أو غموض، وحتى يكون الكلام أوقع في نفوس السامعين، ويبلغ منهم كل مبلغ. إن التكرار من الأساليب التعليمية المستخدمة لتثبت التعلم والمعلم يقوم بتكرار الأمور الهامة في الموضوع تمكينًا لسامعيه لفهمها واستيعابها، ولكي يعرف الطلبة الأفكار الهامة أو العناصر الأساسية في الموضوع، وليكون أوضح دلالة على ما يريد تعليمه لهم[٤].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ١٥١/٢.

(٢) انظر: منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٤٤٦-٤٤٩.

(٣) انظر: سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفرة، ١٢٨ بتصرف.

(٤) المرشد النفيس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٢١٦، ٢١٧.

ثالثًا- من واجبات المربي الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ:

يجب على المربي أن يقتدي برسول الله ﷺ في كل أقواله وأفعاله وقد اقتدى المقداد بن الأسود رضي الله عنه عندما رأى رجلاً يمدح عثمان رضي الله عنه بقول رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُم الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، فجعل يحثو في وجهه الحصباء وأقره عثمان رضي الله عنه ولم ينكر عليه.

وقد جعل الإسلام القدوة الدائمة لجميع المربين شخصية الرسول ﷺ، قدوة متجددة على مر الأجيال، متجددة في واقع الناس "كلما قرأنا أخباره ازددنا حبًا له واقتداءً به"[(١)].

فالمربي القدوة يتمثل سنة وأخلاق الرسول ﷺ ابتداءً ويترجمها إلى سلوك عملي أصيل، بحيث يكون نابعًا من ذاته ولا مكان للتكلف فيه، فالمربي أبًا أو أمًا أو جدًا أو نحو ذلك، ينبغي عليه أن يدرك أولاً وجوب التزامه بسنة النبي ﷺ وأحكام الشريعة[(٢)].

رابعًا- من خصائص التربية الإسلامية: التوازن:

إن التربية الإسلامية تربية متوازنة ويظهر هذا التوازن من أحاديث الباب حيث نهت بعض الأحاديث عن المدح، وأثبت بعضها المدح في حق بعض الصحابة، كأبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه.

فالمدح إذا كان لشخص مأمون الجانب من الغرور والتكبر، قد يكون من إشارات الاستحسان، ودواعي التشجيع والإجادة، واستحثاث الهمم إلى جلائل الأعمال والإشادة بذكر المجد العامل، وحفز العزائم على الدأب والسعي لتحصيل المحامد وابتناء المكارم، كما أن السكوت عنه غمط من شأن أولي الهمم وتثبيط لهم، وفت في عضدهم، وإماتة لما عساه يكون عندهم من غرائز يدفعها التنشيط، ويعبرها الغمص والزراية كل هذا خير مادام القصد ما ذكر[(٣)].

---

(١) أصول التربية، عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٠٧.

(٢) انظر: أصول التربية، د. أمين ابولاوي ص ٨٠.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٤١، ٢٥٢.

أما المدح إذا كان لشخص غير مأمون الجانب فيضره على وجهين: أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا وهما مهلكان.

الثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرًا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال ﷺ: «قطعت عنق صاحبك»[1].

كما أن المادح قد تصيبه من المدح آفات منها:

أ - أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

ب - أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرًا له ولا معتقدًا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا.

ج - أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، لذلك قال ﷺ: «إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لاَ مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِيبُهُ اللهُ، وَلاَ يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا».

د - أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز[2].

فالتربية الإسلامية تنشد في المربي الإنصاف، فلا يمدح إلا من كان أهلاً للمدح مأمون الجانب من الغرور والعجب بالنفس.

كما أنها لا تقيده بالمنع المطلق من المدح، ولا تطلق له العنان في مدح الجميع بل تطلب منه التوازن بين المصالح والمفاسد، فإذا كان ثناؤه على بعض أفعال المتربين مشجعًا لهم وحافزًا على الإجادة والتفوق فلا مانع، بل هو واجب يجب عليه القيام به حتى تحقق التربية هدفها.

أما إذا رأى أن مدحه لبعض المتربين قد يدخل في نفوسهم الغرور والعجب بالنفس فينبغي عليه أن يتجنب هذا المدح والإطراء حتى لا يكون سببًا في إفسادهم.

وهذا هو التوازن المقصود، والتوازن من خصائص التربية الإسلامية وميزاتها التي

---

(١) تزكية الأنفس، سعيد حوى ص ٤٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٤، ٤٣٥.

لا توجد في تربية سواها، حيث تركز مفاهيمها وممارساتها على أساس من الاعتدال والاستقامة، وتقيم مجالاً واسعًا متوازنًا للاختيارات والبدائل تجاه السلوك الواحد، وبفضل المعايير الشرعية الدقيقة فيما يتعلق بأنماط السلوك فإنها تكون بعيدة عن التطرف والإغراب[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي ص ٣٨، ٣٩.

٣٦١- باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها الوباء فراراً منه وكراهة القدوم عليه

قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥].

الحديث رقم (١٧٩٣)

١٧٩٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشَّامِ حَتَّى إذا كَانَ بسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ - أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجرَّاحِ وأصْحَابُهُ - فَأخْبَرُوهُ أنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بالشَّامِ. قَال ابن عباس: فقال (لي)[1] عمر: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاستَشَارَهُمْ وَأخْبَرَهُمْ أنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ[2]: خَرَجْتَ لأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعضهم: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وأصْحَابُ رسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ نَرَى أنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ. فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ[3]، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبيلَ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هاهُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ[4] رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أنْ تَرْجِعَ بالنَّاسِ، وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ رضي الله عنه فِي النَّاسِ: إنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عليهِ، فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفِراراً مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فقالَ عُمرُ رضي الله عنه: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أبا عبيدَة! - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلاَفَهُ - نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ، أرَأيْتَ لَو كَانَ لَكَ إبِلٌ، فَهَبَطَتْ وَادِياً لَهُ عُدْوَتَانِ، إحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، ألَيسَ إنْ رَعَيْتَ الخصْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ اللهِ، وَإنْ رَعَيتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ اللهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبدُ

---

(١) (لي) لا توجد عندهما.

(٢) عندهما زيادة: (قد).

(٣) عند مسلم زيادة: (له).

(٤) لفظ البخاري: (منهم عليه)، و (منهم) لا توجد عند مسلم.

الرَّحمانِ بنُ عَوفٍ رضي الله عنه ، وَكَانَ مُتَغَيِّباً في بَعْضِ حاجَتِهِ، فقالَ: إنَّ عِنْدي من هَذَا علماً، سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: ((إذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بأرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإذَا وَقَعَ بأرْضٍ وَأنْتُمْ بهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِراراً مِنْهُ)) فحمِدَ اللهَ تَعَالَى عمرُ رضي الله عنه وانصَرَفَ. متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

بسرغ: قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز في وادي تبوك[2].

الأجناد: مدن أهل الشام، فلسطين، والأردن ودمشق وحمص، وقنسرين[3].

الوباء: المرض الذي تفشى وعمّ الكثير من الناس وهو الطاعون[4].

بقية الناس: أي الصحابة[5].

ارتفعوا عني: أي اخرجوا[6].

مشيخة قريش من مهاجرة الفتح: أي مشايخ قريش الذين هاجروا إلى المدينة عام الفتح[7].

مصبح على ظهر: أي مسافر راكب على ظهر الراحلة راجع إلى وطني[8].

عدوتان: العدوة: جانب الوادي[9].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٢٩، ومسلم ٢٢١٩/٩٨ ولفظهما سواء.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢١٧.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٥/١٠.

(٤) انظر: المرجع السابق ١٩٥/١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٥/١٠.

(٦) انظر: المرجع السابق ١٩٥/١٠.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٩٥/١٠، وشرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٨٤.

(٨) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٨٤.

(٩) رياض الصالحين ٦٠٦.

الشرح الأدبي

هذا الحديث قبس من سيرة عمر رضي الله عنه واجتهاده في ظل اقتدائه بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والحديث يموج بعدة ظواهر فنية وأسلوبية، تفصح عن المعنى، وتبرز المقصود.

ومن هذه الظواهر: بدء الحديث بالتوكيد، حيث يؤكد ابن عباس الخبر؛ حتى لا يتشكك صاحب هوًى في أحداثها؛ لأنها جزء من تاريخ الإسلام، وبرهان ساطع على استجابة الصحابة لأمر الله عز وجل، في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وكذلك قوله جل شأنه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2].

فالتأكيد يفصح عن واقعية هذا الحدث التاريخي بكل تفاصيله، والحوار يضفي على الحديث سمة المشورة ومعرفة الآخر.. وينفي عن عمر هذه الصفة التي عرف بها، وهي القوة والشكيمة؛ فقوته تكون لقمع الأعداء وكل من يجاهر بالمعصية، ويتعدى حدود الله، والحوار المقنع تشعّب، فكان بين عمر وأبي عبيدة وأصحابه وابن عباس وكان بين عمر والمهاجرين، وبين عمر والأنصار، وبين عمر ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح، وتقديم المهاجرين على الأنصار يفصح عن تقدير عمر لهم ومعرفته بمكانتهم؛ لأن لهم سابقتهم في الإسلام، ولكنه لم يقتنع برأي المهاجرين، ولا رأي الأنصار، واقتنع برأي مشيخة قريش من مهاجرة الفتح؛ حيث اتفقوا ولم يختلفوا، وأشاروا على عمر بالرجوع؛ فراراً من الوباء الذي وقع بالشام، وقوله: "معك بقية الناس، وأصحاب رسول الله": من عطف الخاص على العام وتخصيص أصحاب رسول الله بالذكر للتنبيه على قدرهم، وللإيحاء بأنه يجب أن لا يتعرضوا للوباء، وقيل: إن هذا الرأي مبني على أصل من أصول الشريعة، وهو: الاحتياط والحذر، ومجانبة أسباب الإلقاء باليد إلى التهلكة.

والإيجاز بالحذف يتمثل في قول ابن عباس رضي الله عنهما: فدعوتهم: أي: مشيخة قريش، والتقدير: فدعوتهم فاستشارهم، وقوله: "إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه"، كناية

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

عن الرجوع إلى المدينة، بناء على المشورة والاجتهاد، وطلباً للنجاة وعدم التعرض للتهلكة.

وفي قول عمر: "لو غيرك قالها يا أبا عبيدة"، إيحاء وإيجاز بالحذف، يُفصح عن بلاغة عمر؛ حيث لم يصرح بالمراد؛ حِرْصاً على مكانة أبي عبيدة لديه، فجواب الشرط محذوف، وتقديره: لآذيته لاعتراضه، أو تقديره: لم أتعجب منهم، وإنما أعجب منك لفضلك وعلمك.

وقد لجأ عمر رضي الله عنه إلى الإقناع عن طريق الاستفهام والقياس، والمجيء بالنظير والشبيه: أو التشبيه الضمني، وذلك بعد أن قال أبو عبيدة، "أفراراً من قدر الله"، والاستفهام هنا للإنكار والاعتراض، فقال عمر هذه العبارة البليغة المقنعة: "أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خَصْبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعت الخصبة رعتها بقدر الله، وإن رعت الجدْبة رعتها بقدر الله؟". والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين[1] من الفقه: منع القدوم على بلد الطاعون، وهو الوباء أياً كان، لأن دخول البلد التي انتشر فيها الطاعون، فيه خطر إلقاء النفس في التهلكة، وقد نهانا الشرع عن ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2].

ومنع الخروج من البلد التي انتشر فيها الطاعون فراراً، لأن الفرار من القدر لا يفيد، أما لو خرج لعارض كحاجة أو نحوها، فلا بأس به[3].

---

(١) الحديث رقم (١٧٩٣)، (١٧٩٤).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٠٥/١٤، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٥٥/٨، وكفاية الطالب الرباني ٦٤٤/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٤٣١/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ١٠٠/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٨٤/٥، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٤٣/٤.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من تاريخ الدعوة: خروج عمر رضي الله عنه إلى الشام.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على الشورى.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الأمر والحوار.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

سادساً: من صفات الداعية: الحكمة والفقه.

سابعاً: من واجبات الداعية: تفقد أحوال المدعوين.

ثامناً: من أهداف الدعوة: الحث على التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب.

تاسعاً: من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال.

عاشراً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من أخطار المرض واليقين بأن الأمراض لا تنقل إلا بقدر الله.

أولاً- من تاريخ الدعوة: خروج عمر رضي الله عنه إلى الشام:

يظهر ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنهما: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ...).

قال ابن حجر: "ذكر سيف بن عمر في (الفتوح) أن ذلك كان في ربيع الآخر سنة ثماني عشرة، وأن الطاعون كان وقع أولاً في المحرم وفي صفر ثم ارتفع، فكتبوا إلى عمر فخرج، حتى إذا كان قريباً من الشام بلغه أنه أشد ما كان، وذكر خليفة بن خياط أن خروج عمر رضي الله عنه إلى سرغ كان في سنة سبع عشرة"[2].

وقال القرطبي: (وقوله: "إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام" كان هذا الخروج منه بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط،

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٧٩٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٧٩٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠/١٩٤ - ١٩٥.

وكان يتفقد أحوال رعيته، وأحوال أمرائه. وكان قد خرج قبل ذلك إلى الشام لما حاصر أبو عبيدة إيلياء، وهي بيت المقدس، عندما سأل أهلها أن يكون صلحهم على يدي عمر، فقدم وصالحهم. ثم رجع، وذلك سنة ست عشرة من الهجرة)[١].

وقد كان فتح بلاد الشام في عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مَعْلَمًا مهماً في تاريخ الدعوة الإسلامية، وذلك لانتشار الإسلام في هذه البلاد واسترداد المسلمين لبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح:

يظهر ذلك في قول عمر رضي الله عنه: (ادع لي المهاجرين فدعاهم ثم دعا الأنصار ثم مشيخة قريش من مهاجرة الفتح)، قال النووي: "إنما رتبهم هكذا على حسب فضائلهم، قال القاضي: المراد بالمهاجرين الأولين من صلى القبلتين، فأما من أسلم بعد تحويل القبلة فلا يعدمنهم، قال: وأما مهاجرة الفتح فقيل: هم الذين أسلموا قبل الفتح: فحصل لهم فضل بالهجرة قبل الفتح، إذ لا هجرة بعد الفتح، وقيل: هم مسلمة الفتح الذين هاجروا بعده فحصل لهم اسم دون الفضيلة، قال القاضي: هذا أظهر لأنهم الذين ينطلق عليهم مشيخة قريش"[٢].

وقد أثنى الله عليهم وبشرهم بالنعيم، وهذا مما يدل على فضلهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٣].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦١٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٨٤، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧/١٣٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم"[١].

وقال رسول الله ﷺ: ((الْمُهَاجِرُونَ، وَالأَنْصَارُ، أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَالْعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[٢].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على الشورى:

يظهر ذلك في استشارة عمر رضي الله عنه للمهاجرين والأنصار ومن معه من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح.

قال النووي: "ومن فوائد الحديث: استحباب مشاورة أهل العلم والرأي في الأمور الحادثة وتقديم أهل السابقة في ذلك"[٣].

والشورى من المبادئ الإسلامية التي أمر بها المولى تبارك وتعالى والتزم بها رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٥].

أي: لا يبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه[٦].

ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه رضي الله عنهم في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم، ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عُرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٢/٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٣/٤، رقم ١٩٢١٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٨٥.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٥) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٦) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير، ٢١١/٧.

(٧) المرجع السابق ١٤٩/٢.

وغير ذلك كثير مما ورد عن مشاورته ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، وكذلك صحابته من بعده، فلما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان رضي الله عنه عليهم[1].

قال ابن عثيمين: "إن المشاورة من سمات المؤمنين كما قال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)، فينبغي لمن ولاه الله أمراً، وتردد في شيء من الأشياء، ولم يتبين له الصواب، أن يشاور غيره من ذوي العقل والدين والتجربة، وكذلك إذا كان الأمر عاماً يعم الناس كلهم، فإنه ينبغي أن يشاور حتى يصدر عن رأي الجميع"[2].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الأمر والحوار:

يظهر أسلوب الأمر في قول عمر رضي الله عنه: (ادع لي المهاجرين.. وادع لي الأنصار.. وادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش. وقوله: ارتفعوا عني).

وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في توجيه دعوته إلى المدعو، لحثه على الاستجابة لها، وهو من الأساليب كثيرة الاستعمال، وقد ورد استخدامه في كثير من آيات القرآن وسنة خير الأنام.

ويظهر أسلوب الحوار في محاورة عمر رضي الله عنه مع المهاجرين الأولين، والأنصار ومن كان من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، وحواره مع أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

والحوار من أساليب الدعوة المهمة، لأنه يهدف إلى أن يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهه نظر الطرف الآخر، ويعرف فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال ما يظهر الطرف الآخر من نقد بأدلته الصحيحة.

ويكون هدف الحوار في الأصل، تعاون الفريقين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢١١/٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٨٣٣/٢.

(٣) انظر: الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قول عمر رضي الله عنه: (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة)، قال ابن حجر: "أي: لعاقبته، أو لكان أولى منك بذلك، أو لم أتعجب منه، ولكني أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا؟"[١].

وفضائل أبي عبيدة رضي الله عنه كثيرة وعظيمة، فقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً. وَإِنَّ أَمِينَنَا، أَيَّتُهَا الأُمَّةُ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))[٢]. ويكفيه فضلاً أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.

قال الذهبي في ترجمته: (هو أحد الأولين المهاجرين، ومن عزم الصديق على توليته الخلافة وأشار به يوم السقيفة لكمال أهليته عند أبي بكر[٣]. يجتمع في النسب هو والنبي صلى الله عليه وسلم في فهر. شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وسماه أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمة. روى أحاديث معدودة، وغزا غزوات مشهودة.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران: ((لأبعثن -يعني عليكم أميناً حق أمين- فأشرف أصحابه فبعث أبا عبيدة رضي الله عنه))[٤])[٥].

وقال ابن عبدالبر: (وهو الذي انتزع من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقتي الدرع يوم أحد، فسقطت ثنيتاه، وكان لذلك أثرم وكان نحيفاً معروف الوجه طوالاً أجناً، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكان من كبار الصحابة وفضلائهم، وأهل السابقة منهم رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٩٦/١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٤٤، ومسلم ٢٤١٩.

(٣) انظر: خبر السقيفة، تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٠٢/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري ص ١٨٧/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٤٥.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥/١-٢٣.

قال رسول الله ﷺ: ((لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))[١] وقال أبوبكر الصديق يوم السقيفة: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين يعني -عمر، وأبا عبيدة وقال عمر إذا دخل عليه الشام -وهو أميرها- كلنا غيَّرته الدنيا غيرك يا أبا عبيدة، وله فضائل جمة)[٢].

سادساً- من صفات الداعية: الحكمة والفقه:

يظهر ذلك في استشارة عمر رضي الله عنه الصحابة رضي الله عنهم في الرجوع إلى المدينة، أم التقدم إلى بلاد الشام حيث وباء الطاعون، فإنه على ما عنده من الدين والعلم والعقل وإصابة الصواب، لم يفت في هذا إلا بعد المشاورة والمراجعة [٣].

وهذا يدل على حسن سياسته وحكمته وفقهه رضي الله عنه، فينبغي على الداعية التحلي بالحكمة والفقه في مواجهة الأمور، وحل ما يواجهه من صعاب، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعو الناس بالحكمة، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٤].

قال ابن كثير: (يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ: أن يدعو الخلق إلى الله "بالحكمة"، وقوله: "وجادلهم بالتي هي أحسن"، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب)[٥].

(فالداعية لابد له من ثلاثة: العلم، والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال؛ وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى

(١) أخرجه البخاري ٤٣٨٢.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٨٢٨.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٨٣٣/٢.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦١٣/٤.

عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه)[1].

سابعاً- من واجبات الداعية: تفقد أحوال المدعوين:

يظهر ذلك في خروج عمر رضي الله عنه إلى الشام.

قال النووي: (واعلم أن في حديث عمر هذا فوائد كثيرة، منها خروج الإمام بنفسه في ولايته في بعض الأوقات، ليشاهد أحوال رعيته، ويزيل ظلم المظلوم، ويكشف كرب المكروب، ويسد خلة المحتاج، ويقمع أهل الفساد، ويخافه أهل البطالة والأذى والولاة، ويحذروا تجسسه عليهم، ووصول قبائحهم إليه، فينكفوا، ويقيم في رعيته شعائر الإسلام ويؤدب من رآهم مخلين بذلك، ولغير ذلك من المصالح)[2].

ثامناً- من أهداف الدعوة: الحث على التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب:

يظهر ذلك في قول أبي عبيدة رضي الله عنه: "أفراراً من قدر الله؟ ورد عمر رضي الله عنه: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل، فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟" قال القرطبي: (فبعد أن استشار عمر رضي الله عنه مشيخة قريش لكمال خبرتهم للأمور، ولم يختلف عليه منهم أحد. فترجح عنده رأيهم، ونادى في الناس إني مصبح على ظهر، أي: على ظهر طريق، أو ظهر بعيرٍ مترحلاً، فأصبحوا عليه، أي: مرتحلين. وهذا يدلُّ: على أنه إنما عزم على الرجوع لرأي أولئك المشيخة، لما ظهر أنه أرجح من رأي غيرهم ممن خالفهم. ووجهُ أرجحيةِ هذا الرأي: أنه جمع فيه بين الحزم، والأخذ بالحذر، وبين التوكل، والإيمان بالقدر. وبيان ذلك: بحجة عمر على أبي عبيدة رضي الله عنهما حين قال له: أفراراً من قدر الله؟! وذلك: أن أبا عبيدة ظهر له: ألا يرجع، ويتوكل على الله، ويسلِّم للقدر؛ لأن ما يقدر عليه لا ينجيه منه رجوع، ولا فرار. فأجابه عمر رضي الله عنه بأن قال له: لو غيرُك قالها! أي: ليت غيرك يقول ذلك القول. فكأنه قال:

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، ٢٠، ٢١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٨٥.

لا يليقُ هذا القول بك لعلمك وفهمك، وإنما يليق ذلك بغيرك ممن قل علمه، وقصر فهمه. ثم احتجَّ عليه بأن قال: نعم؛ نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله؛ إذ لا محيص للإنسان عما قدَّره الله عليه، لكن أمرنا الله بالتحرُّز من المخاوف والهلكات، وباستفراغ الوسع في التوقِّي من المكروهات، والحذر، وجلب المنافع، ودفع الضرر، ثم المقصِّر في ذلك ملومٌ عادةً وشرعاً، ومنسوبٌ إلى التفريط عقلاً وسمعاً؛ وإن زعم أنَّه المتوكل على الله، المسلِّم لأمر الله. ولما بيَّن عمرُ ذلك المعنى بالمثال؛ لاح الحقُّ، وارتفع الجدال، ثم لم يبرح عمر من مكانه حتى جاءه الحق ببرهانه، فحدَّثهم عبدالرحمن بما قاله في ذلك النبي ﷺ فسُرَّ بذلك عمر رضي الله عنه سروراً ظهر لديه، فحمد الله، وأثنى عليه، حيث توافق الرأي والسمع، وارتفع الخلاف، وحصل الجمع، فرجع من موضعه ذلك إلى المدينة سالماً موفوراً، وكان في سعيه مصيباً مشكوراً)[1].

فإذا كان الإسلام قد أمر بالتوكل على الله كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

فإن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سننه في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[5].

فالشريعة الإسلامية تحث على التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، قال ابن

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦١٧-٦١٨.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٥) سورة الجمعة، آية: ١٠.

رجب: "قال يوسف بن أسباط: كان يقال: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له"(١).

تاسعاً- من أساليب الدعوة: ضرب الأمثال:

يظهر ذلك في ضرب عمر رضي الله عنه لأبي عبيدة رضي الله عنه مثلاً براعي الإبل. قال ابن عثيمين: "إن ضرب الأمثال يقرب المعاني للإنسان، وذلك أن عمر رضي الله عنه ضرب مثلاً لأبي عبيدة رضي الله عنه: إنسان هبط وادياً ومعه إبل وله شعبتان، إحداهما مخصبة فيها الأشجار وفيها الحشيش وفيها كل شيء ينفع الإبل، والثانية مجدبة بيضاء، فمن المعلوم أن الإنسان لن يختار المجدبة، سوف يختار المخصبة، فاختياره للمخصبة بقدر الله عز وجل، وعدوله عن المجدبة بقدر الله عز وجل"(٢). فضرب الأمثال يوضح المعنى ويقربه إلى الفهم. وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه مع أبي عبيدة رضي الله عنه حتى يقرب له المعنى ويوضح له قصده.

عاشراً- من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من أخطار المرض واليقين بأن الأمراض لا تنتقل إلا بقدر الله:

يظهر ذلك في حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرار منه)، وحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها)(٣).

قال القاضي عياض: (في هذا الحديث من العلم: توقي المكاره والتحفظ منها قبل وقوعها، وفيه التسليم لأمر الله وقدره إذا وقعت المصائب والبلايا، وهذا كما قال عليه السلام: ((لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا))(٤) وفيه

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤٩٨/٢ - ٤٩٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٨٣٣/٢ - ١٨٣٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٧١/١٠، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٠/١٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٥٢/١١.

(٤) أخرجه البخاري ٥٧٢٨.

أن الأمور كلها بقدر الله، وأنه لا ينجي الفار من القدر فراره، وفيه منع القدوم على بلاء الطاعون والوباء، وتحريم الخروج عنها فراراً من ذلك)[١].

فينبغي الحذر من أخطار المرض، فإذا سمع الإنسان بوباء أو بلاء نزل على أرض فلا يقدم عليه لقوله ﷺ: "فلا تقدموا عليه"، وقوله: "فلا تدخلوها". لأن دخول البلاد التي فيها الوباء، فيه تعريض الإنسان لنفسه للتهلكة وهو منهي عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٢]. فينبغي على الإنسان أن يحذر ذلك

وإذا كان الإنسان بأرض نزل بها الوباء، أي: البلاء، فلا يخرج منها لقوله ﷺ: (فلا تخرجوا منه فراراً)، وقوله: (فلا تخرجوا منها).

وذلك لأن ما قدر الله لا فرار منه، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[٤].

قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: وفي قوله: "فلا تخرجوا منه"، إشارة إلى الوقوف مع المقدور والرضا به، قال: وأيضاً فالبلاء إذا نزل إنما يقصد أهل البقعة لا البقعة نفسها، فمن أراد الله إنزال البلاء به فهو واقع به لا محالة، فأينما توجه يدركه، فأرشده الشارع إلى عدم النصب من غير أن يدفع ذلك المحذور)[٥].

فإذا نزل البلاء بأرض، وصبر عليه أهلها دون الخروج منها، راضين بقضاء الله وقدره وموقنين أن المرض لا ينتقل إليهم إلا بقدر الله، كان لهم أجر الشهداء، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ في قوله عند ما سئل عن الطاعون: ((كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ إلا كان لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ))[٦].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٣٢/٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٧٨.

(٤) سورة الجمعة، آية: ٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢٠٠/١٠.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٧٣٤.

الحديث رقم (١٧٩٤)

١٧٩٤- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وأنْتُمْ فِيهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أسامة بن زيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٩).

غريب الألفاظ:

الطاعون: هو المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان[2].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجده قد تضمن جملتين، وكلتاهما جاءتا في قالب الشرط والجواب، وأداة الشرط فيهما إذا وهي تفيد التحقق، أي أن الناس لابد أن يتحققوا من الوباء الذي حل بأهل المنطقة، حتى لا يكون الأمر إشاعات ونشر للفزع بين الناس، والجملة الأولى ثمرتها الوقاية من الإصابة بالمرض، فمجرد السماع بأخبار الوباء المنتشر، يوجب على المسلم الإحجام عن الدخول لمنطقة الوباء، والتوجيه النبوي جاء في أسلوب الجَمْع؛ لأنه صادر إلى الأمة كلها، والنهي في جواب الشرط للوجوب، ولنتأمل ما يشع به هذا البيان النبوي من تعاليم وإرشادات وتوجيهات (إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها)، أما الجملة الثانية فهي وقائية كذلك، ولكنها تحول دون انتشار المرض، حيث ينهى رسول الله ﷺ كل من كان في بلد وقع به الطاعون، أن لا يخرج من هذا البلد، خوفاً من أن يكون حاملاً للمرض.. فإذا خرج من بلد الوباء نشر عدواه بين الأصحاء.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٧٢٨، ومسلم ٢٢١٨/٩٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ع ن).

وهذا التوجيه النبوي يُعد إعجازا علمياً؛ لأنه يتوافق الآن مع ما قاله العلماء في قانون الحجر الصحي، والحجر الصحي كما قال د. محمد علي البار، من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية، فالشخص السليم في المنطقة الموبوءة، قد يكون حاملاً للميكروب، كما قد يكون في فترة الحضانة، فإذا خرج من بلدته تلك لم يلبث أن يظهر عليه الوباء فيعدي غيره، وينقل بذلك المرض إلى آلاف البشر، بل إلى ملايين البشر والله أعلم[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: العدوى بين الطب وحديث المصطفى ﷺ، د. محمد على البار، الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بتحمل المسؤولية:

إن مما ينبغي أن يتربى عليه الشاب المسلم تحمل المسؤولية والمشاركة في العمل الجماعي، فإن الدعوة إلى الله عز وجل والعمل لإعزاز دينه ورفع رايته أكبر من أن يقوم بها فرد أو أفراد متناثرون، ولكن الواجب على المسلمين التعاون والتضافر للقيام بالواجبات المفروضة على الأمة، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1][2].

ويتجلى تحمل المسؤولية في هذا الباب في خروج عمر رضي الله عنه إلى الشام ومعه أصحاب رسول الله ﷺ وقبل دخولهم الشام أخبروه أن الطاعون وقع بها، فاستشار المهاجرين والأنصار ومن كان معه من مشيخة قريش، هل يقدم إلى الشام ويعرض نفسه ومن معه من المسلمين للوباء أم يرجع، ليعرف رأيهم ويشركهم في تحمل المسؤولية معه.

وإن من أبرز مميزات هذا الدين أنه وزع المسؤولية توزيعًا دقيقًا لتنظيم الحياة الاجتماعية ومحاسبة المسؤولين والمكلفين كل حسب مهمته وواجباته، فبدأ بالإمام فقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[3].

والإمام هو المسؤول الأول في الدولة الإسلامية، وقد أوجب الإسلام عليه أن يقوم بواجبات تمثيل الأمة والوكالة عنها، وفي مقابل ذلك أوجب الإسلام على الأمة تجاهه بعض الواجبات هي كالحقوق عليهم، لأن كل واجب لابد أن يقابله حق والعكس[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري، ٨٩٣، ومسلم، ١٨٢٩.

(٤) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي ص ٢٩٨.

والإنسان مسؤول عن كل عمل يقوم به وحده أو يشترك مع غيره أو يكون سببًا في وقوعه بالحض عليه أو الرضى به، ما دام عمله بإرادته واختياره[(١)].

والحياة مليئة بالمهام والمسؤوليات فعلى كل إنسان أن يتحمل مسؤولية ويضطلع بدوره في الحياة وعلى المربي أن يعود الناشئة على تحمل المسؤولية تجاه أنفسهم والآخرين وتجاه المجتمع الإسلامي بأسره.

ثانيًا- التربية على احترام أهل السبق في الإسلام وكبار السن:

دعا عمر رضي الله عنه المهاجرين الأولين، والأنصار، واستشارهم في أمر الوباء حتى يعلم رأيهم أيرجع أم يمضي إلى الشام، وفي هذا احترام لهم لسبقهم وفضلهم في الإسلام.

كما دعا إليه من كان معه من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح واستشارهم احترامًا لكبر سنهم ومكانتهم.

وهو بذلك يطبق عمليًا ما علمه المعلم والمربي الأول محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان يربي الصحابة الكرام على احترام من له سبق وبذل في الإسلام، فلا يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقال: وكلا وعد الله الحسنى.

ومن ذلك: لما اختلف أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وذهب أبو بكر ليعتذر إلى عمر رضي الله عنهما فأبى قبول اعتذاره، وذهب أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه القصة فغضب صلى الله عليه وسلم لغضب أبي بكر، وقال: «فهل أَنْتُمْ تَارِكُوا لِيّ صَاحِبِي» مرتين، فما أُوذِيَ بَعْدَهَا[(٢)].

وكذا لما اختلف عبدالرحمن بن عوف وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، وعبدالرحمن من المهاجرين الأولين، ومن العشرة المبشرين، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالرحمن وقال: «لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصفه»[(٣)].

مع أن خالدًا من أصحابه صلى الله عليه وسلم إلا أن عبدالرحمن أخص به وأقدم صحبة منه. وفي

---

(١) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، د. حمدي عبدالعال، ص ٢٩-٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦٦١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤٠.

هذا تربية للأمة لاحترام أهل السبق والعلم والفضل، وكذا احترام الصغير للكبير، ومعرفة أقدار الناس، وأنهم يتفاضلون بالعلم والسبق والتقوى، لا بالحسب والنسب والمال[(١)].

ثالثًا- التربية بالمشورة:

المشورة تعني: عرض الأمر الذي فيه إشكال على من يتوسم فيهم الفكر الحصيف والرأي السديد، من ذوي التجارب والخبرات وسماع أقوالهم المختلفة للوصول إلى حل مناسب لذلك الإشكال، لاتخاذ القرار المناسب.

وهي تعني أيضًا: عدم الاستبداد والانفراد بالتصرف قبل معرفة ما للأمر وما عليه عند مناقشته، وتبادل وجهات النظر حوله، حتى تظهر المصلحة فيه، ويستبان وجه الصواب من المحاورة والمناقشة[(٢)].

وهذا ينطبق على ما فعله عمر رضي الله عنه من مشورة من معه من المهاجرين الأولين والأنصار، ومن معه من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح.

حيث استشارهم في أمر الوباء لمعرفته بحصافة رأيهم، وتجاربهم وخبراتهم حتى يسمع الأقوال المختلفة ويصل إلى حل مناسب لاتخاذ القرار، وهذا يدل على عدم استبداده رضي الله عنه باتخاذ القرار، بل في هذا التزام بالمشورة التي أمر بها الإسلام.

والمشورة كأسلوب تربوي ناجح، له أثره الواضح على المستهدفين بالتربية بها ومن فوائدها التربوية ما يلي:

أ - أنها تنمي العقل وتفجر طاقاته الكامنة، وتستثمر أجود ما فيها، وتدفع الجميع إلى حالة من الوعي والإدراك والتفكير المنطقي السليم الذي يجعل من الجميع عناصر خير مفيدة في المجتمع، متعاونة في كل ما يُعلي شأنه.

ب - كونها مدرسة تربوية للأمة تظهر من خلالها شخصيتها، وتحقق ذاتها، وتعبر عن إرادتها، ومواقفها الفكرية من قضاياها المصيرية.

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، ص ١٥، نقلاً عن موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون، ٩/٤٩.

وهـي تـدرب المستـشار علـى المساهمة في الحكـم والإدارة وتعينـه بالتجربـة وجـودة الرأي والتفكير، كما وأنها خير وسيلة تكشف عن الكفاءات والقدرات وبها يظهر الأَكْفَاء وتستفيد الأمة من كفاءاتهم[١].

ج – أنها تعطي المستشار دفعًا وحماسًا يجعلانه يبذل ما في وسعه من نصح وإخلاص وأمانة لتحقيق الصواب.

د – أنها تقنعه بأهمية القضية المطروحة عليه، وتنمي فيه الحرص الكبير على نجاحها، لأنه شارك في التخطيط والإعداد لها[٢].

وعندما تكون الشورى هي السائدة في المجتمع، فإن القلوب تأتلف والنفوس تتقارب، وتشيع روح الألفة والمحبة والتعاون بين أفراد المجتمع على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم[٣].

فعلى أفراد المجتمع بث روح المشورة فيم بينهم.

أما المدارس والمعاهد العلمية على مختلف مستوياتها، فدورها أعظم، ومسؤوليتها أخطر، فهي تتحمل العبء الأكبر في بث روح المشورة بين الأجيال وتنشئتهم على حبها وتمثلها، واتخاذها منهجًا وسلوكًا في الحياة، ويكون ذلك من المناهج المدرسية بحيث تتضمن مفرداتها التركيز على إبراز أهمية المشورة في حياة الفرد والمجتمع، وتجسيم الخطر الحاصل من تعطيل هذا المبدأ، وسيادة الاستبداد والانفراد بالرأي، وما يعقب ذلك من فساد وهلاك للجميع[٤].

رابعًا– من أساليب التربية: الحوار والمناقشة:

أسلوب الحوار والمناقشة من الأساليب التربوية المهمة في طرح وتناول القضايا

---

(١) حكم الشورى في الإسلام ونتيجتها، د. محمد عبدالقادر أبو فارس ص ١٠، ١١، نقلاً عن أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٩٤.

(٣) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ٤٩/٣٢.

(٤) المرجع السابق ٤٩/٨١.

المختلفة، ويظهر هذا الأسلوب في هذا الباب في محاورة عمر ﵁ للمهاجرين، والأنصار، ومشيخة قريش ﵃ أجمعين، في أمر الوباء الذي وقع في الشام.

وكذلك محاورته ومناقشته ﵁ مع أبي عبيدة بن الجراح ﵁، ويعد هذا الأسلوب من أهم الأساليب التربوية، فالحوار أحد أركان الفهم والإقناع، والإقناع عن طريق العقل والمنطق يعد أحد أركان السلوك والقرآن الكريم مليء بالأمثلة التي توضح أشكال الحوار التي يمكن استخدامها في التربية لتنمية العقل وترسيخ العقيدة.

ويستخدم أسلوب الحوار والمناقشة في تربية الصغار والكبار، وإن كانت نتائجه مثمرة مع الكبار، ومن الضروري أن نراعي في الحوار والمناقشة مستوى نضج من نحاوره أو نناقشه، وأن نخاطب هذا وذاك على قدر عقولهم ومستوى إدراكهم، وأن نبدأ بالبسيط الواضح المقنع، ثم نتدرج في المحاورة والمناقشة إلى أن نصل إلى غايتها.

وقد استخدم رسولنا الكريم ﷺ هذا الأسلوب في عديد من المواقف لذا حرص المربون المسلمون على اتباع هذا الأسلوب والإشادة بأهميته[1].

خامسًا- التربية بضرب الأمثلة والتشبيه:

من أساليب التربية المفيدة في توضيح المعنى وتقريبه إلى الأفهام ضرب الأمثال.

وذلك أن عمر ﵁ ضرب مثلاً لأبي عبيدة بإنسان معه إبل وله شعبتان إحداهما مخصبة، وفيها الحشيش والعشب والأشجار التي تنفع الإبل، والثانية مجدبة لا عشب فيها، فإن الإنسان لابد أن يختار الأولى، فاختياره للأولى بقدر الله، وتركه للثانية بقدر الله.

وضرب الأمثلة وتشبه المعنوي بالمحسوس من الأمور الفعالة، ذلك لأن الصورة المحسوسة، أقرب تصورًا وأسرع فهمًا، وأثبت بقاء لأنها تحدد الأبعاد، وتبرز الأجزاء، وتوضح منها ما يخفى، قد تراها بالعين، أو تتخيلها بالخاطر أو تتحسسها باليد، أو تستوعبها بالأذن، وقد يشترك كل أولئك في التقاطها، فترتسم واضحة المعالم محددة الأجزاء، زاهية الألوان، نابضة بالحركة، ولهذا كان أسلوب التشبيه وضرب الأمثلة من

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٥، ٨٦.

أساليب البلاغة القرآنية، أو البلاغة النبوية، إن الصورة التشبيهية تدع بين يديك، وأمام عينيك حالتين متشابهتين لتتفحص كل حالة، وتدرسها، وتحللها، فإذا حكمت بعد ذلك لإحداهما أو على إحداهما كان حكمك بعيدًا عن الخطأ، قريبًا من الصواب[١].

فيعد أسلوب ضرب الأمثال أحد أساليب التربية الإسلامية المهمة والفعّالة والمؤثرة، بحيث إن المربي الناجح يستطيع عن طريقه مساعدة الطفل في فهم الأشياء غير المحسوسة بتقريبها إلى فهمه بضرب أمثال بالأشياء المحسوسة لديه[٢].

سادسًا- التربية الوقائية:

إن الوقاية نوع من أنواع التحذير، وهي تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما، من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه، فالوقاية الصحية للإنسان تكمن في تحذيره من ارتياد المواطن الموبوءة، أو تناول بعض الأغذية والعقاقير والمشروبات التي تتسبب في تدهور حالته الصحية، أو حقنه بجرع خاصة من شأنها أن تجعل لدى الجسم مناعة كافية لمقاومة مرض معين. والإسلام استخدم أسلوب الوقاية للفرد المسلم وللأسرة والمجتمع، من خلال تحذيرات الرسول ﷺ من بعض السلوكيات الخاطئة، التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، والمجتمع إلى الضعف والهوان...

وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وهي بمثابة جرعة وقائية إن أخذت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق.

وهي كذلك بمثابة حمية وقائية يتقي بها من الأمراض المهلكة[٣].

ومن التربية الوقائية في الإسلام إذا انتشر وباء الطاعون في مكان، اتخاذ الحيطة بالبعد عن مصدره بعدم الدخول في الأرض الموبوءة به، وكذلك عدم نشر الوباء في

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح، ١٢٥/١.

(٢) أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن عبدالوهاب البابطين ص ٥٢.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني ص ٢٥٦.

الأماكن الأخرى بالخروج إليها من الأماكن الموبوءة، ودل على ذلك حديثا الباب الأول حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطويل الذي جاء في آخره أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ. وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ».

والثاني حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها».

فإن الإيمان بقضاء الله وقدره أحد أركان الإيمان، والإسلام يأمر الإنسان مربيًا إياه، أن يحافظ على جسده، ويقيه من الأمراض والتربية الإسلامية، كما تبدو في ضوء الحديث الشريف تتضمن هذا الجانب في تربية الجسد[1].

فالإنسان لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة في البيئة الملوثة، وما كان ليحافظ على صحة بدنه وسلامة عقله في تلك البيئة، لو لم يتعلم كيف يحمي ذاته من آثار التلوث السيئة، والفضل في ذلك يرجع إلى ما اكتسبه من معرفة، وما تعلمه عن طريق التربية التي يتزايد انتشارها وتتعقد أساليبها باستمرار[2].

وللتربية دورها في تعليم الإنسان أين يكمن الخطر ويوجد ميكروب المرض[3].

وتعليمه أيضًا كيف يقي نفسه من هذه الميكروبات[4].

ومن خلال ذلك يتضح لنا أهمية التربية الوقائية في الإسلام.



---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٢٧٩.

(٢) تعلم لتكون، ايدجار فور وآخرون، ترجمة: د. حنفي بن عيسى، ط/٢، اليونسكو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: ١٩٧٦م ص ٤٤.

(٣) الرسول صلى الله عليه وسلم، سعيد حوى ص ٤٤.

(٤) فلسفة التربية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر، ٢٨٠.

٣٦٢- باب التغليظ في تحريم السحر

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢].

الحديث رقم (١٧٩٥)

١٧٩٥- وعن أَبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)). قالوا: يَا رسولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: ((الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبَا، وأكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ؛ وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يبدأ بالأمر المباشر الصادر من رسول الله ﷺ إلى الأمة كلها في كل زمان ومكان، حيث يقول ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات".

وهذه البداية الصريحة الصارمة مشحونة بالتشويق والإثارة والحث على الانتباه والإصغاء، ولذلك انبثق هذا الحوار الدالّ على حرص الصحابة ﷺ وشوقهم إلى المعرفة والتفقه في دينهم.

فقالوا في لهفة وتشوق يا رسول الله "وما هن" وتأمل هذا النداء الحميم الذي يفيض حباً ومحبة لرسول الله ﷺ: حيث قدَّم الصحابة نداءهم لرسول الله ﷺ على الضمير المنفصل العائد على السبع الموبقات، في قولهم "وما هن"، وهذا التقديم يوحي بأنهم سيستجيبون لهذا النهي، وذلك الأمر، وسؤالهم للوقوف على حقيقة هذه السبع الموبقات، ليس للاعتراض، أو التفكير في الاجتناب أم لا؟ ويُفصِّل رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩/١٤٥ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ١٩٩٩.

القول بعد الإجمال، ويوضح الأمر بعد الإبهام، والتعريف "بأل" هو الثوب اللغوي الذي ارتدته هاتان الكلمتان "السبع الموبقات"، وفي ذلك إيحاء بأن هذه الأمور السبعة من أخطر الأمور وأكبرها في اقتياد الإنسان إلى الهلاك، "وأل" هنا للعهد وفي مقدمتها الشرك بالله، وهو من أكبر الكبائر، لأنه كفر بالله: وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

والسحر يلي الشرك بالله في خطره وضرره، وفي ذلك إيماء إلى غلظة وفظاعة شأنه، ولذلك قُدّم على القتل المحرم، لأن السحر كله حرام وكفر بالله، أما القتل فقد يكون واجباً في القصاص، والحد والردة، وكرر لفظ "آكل" في سياق النهي عن أكل الربا، والنهي عن أكل مال اليتيم، إشارة إلى أن آكل مال اليتيم يتساوى في عقوبته، وفظاعة جرمه مع آكل الربا، فهو يأكل في بطنه ناراً، وصياغة هذه السبع الموبقات جاءت متناسقة متوازنة متشابهة، فهي كلها من المصادر ومتعلقاتها، "الشرك، والسحر وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات"، وهذه المصادر توحي بأن مرتكبي هذه السبع الموبقات لا يكتفون بالفروع، ولكنهم يخططون لجرائمهم، وهذه السبع الموبقات تهلكهم هلاكاً مقيتاً، وتقتلع جذور كل عمل طيب، ولذلك ليس من العجيب أن يبدأ رسول الله ﷺ بقوله الذي يلحق فيه: "أل" العهد المعرّف بهذه السبع فيقول: اجتنبوا السبع الموبقات، وقال العلماء: كل من السبع بانفراده موبق في الدين، والله أعلم.

المضامين الدعوية[2]

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦١٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

تهدف التربية الإسلامية إلى وقاية المسلمين من الموبقات المهلكات التي توجب لهم مقت الله ومقت الناس وتعرضهم لشديد العذاب في الدنيا والآخرة(١).

وقد جاءت التربية الوقائية في هذا الباب من سبع موبقات كل واحدة من هذه السبع توقع صاحبها في الهلكة(٢).

فقال رسول الله ﷺ: ((اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافِلاتِ)).

والتربية الإسلامية هدفها تربية المسلم الذي تتحقق فيه عبودية الله وحده، وتتحقق بتحقيقها كل فضائل الحياة الاجتماعية من تعاون وتكافل وتضامن ومحبة، والأخلاقية من ورع، وعفة، وقوة، وشجاعة، وحرص على الفضائل، واجتناب كل الرذائل والانحرافات العقدية، والاجتماعية، والأخلاقية.

والمربي الناجح الحريص على مصلحة المسلمين هو الذي يعمل جاهدًا على وقايتهم من هذه المهلكات، وذلك ببيان خطورتها، وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، وبيانه لمن يقوم بتربيتهم، أن هدف التربية هدف رباني لا يأتي إلا كاملاً يستمد كماله من الكمال الإلهي، فهو في كل المجالات، يبعدنا عن النقائص، ويوجهنا نحو الفضائل وخير الإنسانية أفرادًا ومجتمعات، كما أنه يأتي شاملاً يكتنف الحياة من جميع جوانبها، والنفس الإنسانية من كل نواحيها، ويأتي عامًا لكل الناس فهو إنساني وليس خاصًا بمصالح أمة معينة أو قوم بخصوصهم.

ويأتي صالحًا للبقاء والخلود على مر الزمن وهو يستمد خلوده من أنه جاء من عند

---

(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٩٢.

(٢) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم البيحاني ص ٤٠.

الله. ويأتي الهدف الرباني موافقًا للفطرة الإنسانية، وفطرة الإنسان لا تتغير على مر الزمن، من حيث هو فرد، ومن حيث هو عضو في جماعة، ومن حيث هو بشر من دم ولحم وله نوازعه وشهواته، ودوافعه الغريزية؛ من حيث هو إنسان له عقله وإرادته وقدرته على الخير والشر؛ فهدف التربية الإسلامية يربي كل هذه النوازع والدوافع والفطرة ويوجهها كلها نحو مثلها الأعلى، نحو عبادة الله الذي خلق الإنسان وإليه مرجعه ومآله.

وهو هدف خصب تتولد عنه الثمرات الطيبة وليس عقيمًا لأنه لا يجافي الفطرة، ولا يصد طاقات الإنسان بل يحرضها على الإنتاج الخير، ويدفعها إليه دفعًا، ويستوفي منها كل خير تستطيع تقديمه للفرد والجماعة[1].



(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٠٣، ١٠٤.

٣٦٣- باب النهي عن المسافرة بالمصحف إلَى بلاد الكفار إذا خيف وقوعه بأيدي العدوّ

الحديث رقم (١٧٩٦)

١٧٩٦- عن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: نَهَى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُسَافَرَ بالقُرآنِ إِلَى أرْضِ العَدُوِّ. متفق عَلَيْهِ(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته وفصلت من لدن حكيم خبير، وهو كما يقول الرافعي، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليه الضمائر، وكم صدوا عن سبيله صداً، ومن ذا يدافع السيل إذا هدر، واعترضوه بالألسنة رداً، ولعمري من يرد على الله القدر؟

وألفاظ القرآن إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة، فمنها جنتها وضرامها(٢)، ومعانيه هي: عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان.

والحديث الشريف يوجه كل مسلم إلى أن يحافظ على قداسة القرآن، وأن لا يلقيه في يد لا تعرف قدره، ولا تحترم قدسيته، ويصاغ الحديث في أسلوب خبري مَحْكيّ عن رسول الله يبدأ بالفعل "نهي"، والناهي هو رسول الله ﷺ، والمنهي عنه: هو السفر بالقرآن إلى أرض العدو، وهذا النهي مقيد بحالة الخوف من وقوع القرآن في

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٩٠، ومسلم ١٨٦٩/٩٢ ولفظهما سواء.

(٢) الضِّرَامُ: اشتعال النار، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ض ر م ت).

أيدي العدو فيهينه الأعداء، أما إذا أمن صاحب القرآن ذلك، فيكره حمله سداً للذريعة وأخذاً بالأحوط، فلا جرم أن القرآن سر السماء، فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على صيانة القرآن وحفظه من الامتهان.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على القرآن الكريم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على صيانة القرآن وحفظه من الامتهان:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو.

قل النووي: "وفيه النهي عن المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفار، مخافة أن يناله الأعداء فينتهكوا حرمته، فإن أمنت هذه العلة بأن يدخل في جيش المسلمين الظاهرين عليهم فلا كراهة ولا منع منه حينئذ لعدم العلة"[2].

قال القرطبي: (وظاهر هذا النهي: تحريم السفر به مطلقاً، فتستوي فيه الجيوش والسرايا. وهو مذهب مالك، وقدماء أصحابه، وسحنون، وابن حبيب. وذهب أبو حنيفة وغيره: إلى الفرق بين الجيوش العظام فيجاز ذلك فيها، وبين الصُغار فيمنع ذلك فيها؛ نظراً إلى العِلّة التي نصَّ عليها في الحديث، حيث قال: "فإني لا آمن أن يناله العدو" ونيلُ العدو له في الجيوش العظام نادرٌ. ولأصحاب القول الأول بعد تسليم العلة المذكورة التمسك بسد الذريعة، وبأنَّ نسيانه، وسقوطه ليس نادراً)[3].

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٢٠٤.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٦٩٨/٣، ٦٩٩.

وقال الشيخ تقي العثماني: (وقال السرخسي في شرح السير الكبير شارحاً لحديث الباب "تأويله: هذا أن يكون سفره مع جريدة خيل لا شوكة لهم. هكذا ذكر محمد. وذكر الطحاوي أن هذا النهي كان في ذلك الوقت، لأن المصاحف لم تكثر في أيدي المسلمين، وكان لا يؤمن إذا وقعت المصاحف في أيدي العدو، وأن يفوت شيء من القرآن من أيدي المسلمين، أو يغيّر بعض ما في المصاحف مما يعلمون أنه لم يبق بأيدي المسلمين، ويؤمن مثله في زماننا هذا، لكثرة المصاحف وكثرة القراءة. قال الطحاوي: ولو وقع مصحف في أيديهم لم يستخفوا به، لأنهم وإن كانوا لا يقرّون بأنه كلام الله تعالى، فهم يقرّون بأنه أفصح الكلام بأوجز العبارات وأبلغ المعاني، فلا يستخفون كما لا يستخفون بسائر الكتب، ولكن ما ذكره محمد أصح، فإنهم يفعلون ذلك مغايظة للمسلمين، وقد ظهر ذلك من القرامطة حين ظهروا على مكة، جعلوا يستنجون بالمصاحف)[1].

فذكر ابن عمر رضي الله عنهما نهي الرسول ﷺ عن السفر بالمصحف إلى بلاد الكفار، من أجل الحث على صيانته وحفظه من الامتهان.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو.

حيث أخبر ابن عمر رضي الله عنهما عن نهي الرسول ﷺ عن السفر بالقرآن الكريم إلى بلاد الكفار.

وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في إخبار المدعوين بالحقائق وأمور دينهم ودنياهم، وهو من الأساليب التي تنتشر بها الدعوة سواء عن طريق الداعية أم المدعوين؛ ذلك لأن المدعو الذي هداه الله تعالى إلى الانصياع إلى الحق، ثم قام بتطبيق منهج الله، لا يتم إيمانه، ولا يكمل إلا بأن يتحول إلى داعية إلى الله تعالى، يدعو غيره من الناس إلى عبادة الله وحده واتباع ما جاء به محمد ﷺ.

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثمان ٩/ ٣٢٠.

وهكذا يكون العمل للإسلام، والدعوة إليه حلقة محكمة البناء، يتحول المسلم فيها من مدعو إلى داع لغيره، ثم يتحول هذا المدعو إلى داع وهكذا [١].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الحفاظ على القرآن الكريم:

يظهر ذلك في نهي النبي ﷺ عن السفر بالقرآن إلى بلاد الكفار، فالقرآن هو أشرف وأعظم الكتب، فهو كلام الله عز وجل، "فهو يحمل العلم الإلهي، والحكمة الربانية، والقدرة الأزلية المتصفة بالكمال والجلال، والمنعوتة بالتوفيق والهداية، والمنزهة عن كل قصور ونقص، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]"[٣].

وهو دستور الأمة ونورها الساطع، من تكلم به صدق، ومن التزم به نجا، ومن دعا إليه أجر، وهو أشرف وأعظم من أن يكون في يد العدو، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو، ومن ذلك تتضح أهمية الحفاظ على كتاب الله، فينبغي على كل مسلم أن يحرص على الحفاظ على كتاب الله، وأن يبعده عن أي يد تريد أن تنال منه، أو يتعرض لأي صورة من صور الامتهان.

---

(١) انظر: أصناف المدعوين، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٧، نقلاً عن فقه الدعوة ٢/١٠٤٠.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦.

(٣) انظر: الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي ص ١١٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

إن من أبرز ما تهدف إليه التربية الإسلامية صيانة المصدر الأول لها وهو: القرآن الكريم، لأنه المصدر الذي تستمد منه التربية الإسلامية: أصولها ومبادئها وأهدافها وقيمها ووسائلها وأساليبها وكافة ما يتصل بها، إن القرآن الكريم والسنة النبوية يمثلان الينبوع الأصلي للتربية الإسلامية، ومن هنا جاء نهي النبي ﷺ أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدو، وذلك إذا تيقن المسلم بأن القرآن سيُهان ويُمتهن بأي شكل من الأشكال، إن النبي ﷺ أراد أن يغرس في نفوس أصحابه رضي الله عنهم والأمة من بعدهم ويربيهم على أهمية الحفاظ على القرآن الكريم والحرص على صيانته، والحذر من امتهانه بأي شكل، حتى يرسخ في نفوس المسلمين أهمية الحفاظ على القرآن الكريم، لكن هناك أمرًا ينبغي إيضاحه لكل مسلم: أنه إذا انتفى هذا المانع، وتيقن المسلم بأنه لن يتعرض القرآن للامتهان، فإنه ينبغي للمسلم أن يسافر ومعه القرآن، حتى يقرأ فيه ويراجع ما حفظ منه، أو يتأمل في آياته، أو يُعلم القرآن لغيره، أو غير ذلك من الأهداف المشروعة.



٣٦٤- باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

الحديث رقم (١٧٩٧)

١٧٩٧- عن أُمِّ سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((الَّذِي يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الفِضَّةِ، إنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ)) متفق عَلَيْهِ[1].

وفي رواية لمسلم[2]: ((إنَّ الَّذِي يَأكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ)).

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

الشرح الأدبي

كان المصطفى ﷺ قدوة في الزهد والقناعة وفي كل سلوك إيجابي مثمر، يَدْفع بالحياة إلى الترقي والتكافل والتآلف، ويقضي على مظاهر البذخ والثراء والإسراف، وهذا الحديث الشريف يصور المسرفين المترفين الذين يبالغون في الزينة والتباهي، فيشربون ويأكلون في آنية الذهب والفضة، تصويراً قبيحاً منفراً، فإذا كانوا قد تمتعوا في دنياهم، فهم في أخراهم يسمعون للنار أصواتاً في بطونهم، والتعبير بقوله: "يجرجر"، يشخص هذه الصورة ويجسدها، ففي المصباح يقال جرجر فلان الماء في حلقه، إذا تجرع جرعاً متتابعًا يسمع له صوت، والجرجرة كناية عن ذلك الصوت، وهذا النص من الأحاديث المهوِّلة، التي يتضح في تصويرها تلازم القبح مع الرعب وشدة الوعيد، فالقبح في أن هذا العاصي مترف مهتم ببطنه، حتى صار يجرجر ما فيها وكأنه حيوان يجر عربة، وكأن بطنه غدت ثقيلة تحتاج إلى جرّ لما امتلأت به من

(١) أخرجه البخاري ٥٦٣٤، ومسلم واللفظ له ٢٠٦٥/١، وتقدم برقم ٧٧٨). أورده المنذري في ترغيبه ٣١٢٦.

(٢) بعد حديث رقم ٢٠٦٥/١، بدون رقم.

الشراب الذي انقلب ناراً، ومع الفعل المضارع، "يجرجر"، يحصل تجاوز زمني من خلال النص، إذ ينقلنا من عالم الشهود في الحياة إلى غيب العقاب في نار جهنم، فكأن هذا الآكل يستحضر شيئاً من نار جهنم في بطنه في لحظة استعماله لهذه الأواني، فيتغلغل الغيبي في المشاهد من خلال الحيز الزماني والحيز المكاني.

والصورة التي تصور هذا النموذج، وتجسد عقابه في هذه الصورة المنفرة، يتصدرها "التوكيد"، المقرون "بما" الكافة والمكفوفة، وهي تفيد الحصر، فالتوكيد مع الحصر يطبع هذه الصورة بطابع اللزوم والثبات، وذلك للتنفير والتخويف من السلوك المترف، وجحود النعمة والبطر، والله اعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث برقم (٧٧٨).

الحديث رقم (١٧٩٨)

١٧٩٨- وعن حُذَيفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: إنَّ النبيَّ ﷺ نهانا عنِ الحَريرِ، وَالدِّيبَاجِ، وَالشُّرْبِ في آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وقالَ: ((**هُنَّ لَهُمْ في الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ**)). متفق عَلَيْهِ[1].

وفي رواية في الصحيحين[2] عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((**لاَ تَلْبسُوا الحَرِيرَ وَلاَ الدِّيبَاجَ، وَلاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَلاَ تَأكُلُوا في صِحَافِهَا**)).

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

الشرح الأدبي

إن رسول الله ﷺ كما يقول البخاري ما كان يتجوَّز من اللباس، أي كان يتوسع فلا يُضيّق بالاقتصار على صنف بعينه، أو لا يضيق بطلب النفيس الغالي، بل يستعمل ما يتيسر، وقال القاضي عياض: كان ﷺ قد اقتصر منه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه فكان يلبس ما وجده، فيلبس في غالب أحواله الشملة والكساء الحسن والأردية والأُزُر.

وفي ضوء هذا السلوك النبوي في ملبسه، نقرأ هذا الحديث الشريف، ونكتشف بعض أسراره التعبيرية، فالحديث يبدأ بتأكيد الخبر، من قول حذيفة "إن النبي ﷺ نهانا".

والنهي صادر إلى مجموع الأمة "وناء" الدالة على غير الفاعلين ترشد إلى ذلك، والمنهي عنه يتمثل في مظهرين من مظاهر سلوك المسلم اللباس والشراب، والطعام تابع للشراب، حيث نهى رسول الله عن الشرب والأكل في آنية الذهب والفضة، ونهى جميع المسلمين عن لُبْس الملابس المنسوجة من الحرير والديباج، وتحريم الحرير والديباج مقصور على الذكور؛ لأن علة تحريمه -من أن فيه خنوثة تنافي شهامتهم- مقصور عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٦٣٢، ومسلم ٢٠٦٧/٤، وانظر: الحديث رقم ٧٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٤٢٦، ومسلم ٢٠٦٧/٥ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٣١٢٧.

وختام الحديث تعليل للتحريم، وإقناع للمسلمين، ووعد وبشارة لهم، حيث قال رسول الله: "هن" أي الحرير والديباج، وآنية الذهب والفضة، "لهم" أي للكفار والمشركين في الدنيا، وهذه الجملة توحي بأن من تشبه بالكفار في هذا فهو منهم، أو يخشى عليه الفتنة في دينه بارتكابه هذا المحرم، والجملة الثانية: وهي تقابل الأولى في ضدية الدلالة والمصير، حيث قال مخاطباً جموع المؤمنين "وهي" أي هذه الأدوات، والملابس: "لكم في الآخرة"، أي في الجنة، وما أجمل هذا الوعد النبوي !! والجملتان وردتا في ثوب الجملة الاسمية دلالة على ثبات هذا الوعد الذي يبشر المؤمنين بنعيم الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٧٧٧).

الحديث رقم (١٧٩٩)

١٧٩٩- وعن أنس بن سيرين، قَالَ: كنتُ مَعَ أنس بن مالك رضي الله عنه، عِنْدَ نَفَرٍ مِنَ المَجُوسِ؛ فَجِيءَ بفَالُوذَجٍ عَلَى إنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ، فَلَمْ يَأكُلْهُ، فَقِيلَ لَهُ: حَوِّلْهُ، فَحَوَّلَهُ عَلَى إناءٍ مِنْ خَلَنْجٍ وَجِيءَ بِهِ فَأَكَلَهُ. رواه البيهقيُّ[١] بإسناد حسن.

(الخَلَنْج): الجفْنَةُ.

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

نفر من المجوس: نفر اسم يقع على جماعة من الرجال خاصة ما بين الثلاثة إلى العشرة[٢].

فالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل وتصنع الآن من النشا والماء والسكر[٣].

خلنج: أي: الجفنة[٤].

الشرح الأدبي

لقد توعد رسول الله ﷺ في حديث سابق بأن الذي يشرب في آنية الفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم، وفي الحديث السابق على هذا الحديث فصل القول، ومَزَج قوله بالوعد والبشارة لكل مسلم يقتدي برسول الله ﷺ في الزهد والقناعة، والإعراض عن زينة الحياة الدنيا، وقال هن لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة.

وفي ضوء هذه السيرة العطرة، والبيان النبوي المقنع، الذي يجمع بين الترغيب

(١) السنن الكبرى ٢٨/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ف ر).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ا ل و ذ ج).

(٤) رياض الصالحين ٦٠٨.

والترهيب، أشرق سلوك أنس بن مالك، وتجلى موقفه الإيماني في هذا المجلس، الذي حاول المجوس فيه أن يفتنوه في دينه، وأن يغروه بعدم الاقتداء بالرحمة المهداه، والسراج المنير، محمد بن عبدالله ﷺ، وأتوا بالطعام على إناء من فضة، فهل يجامل أنس بن مالك المجوس ويخالف تعاليم دينه.؟ أم لابد من الثبات على المبدأ، والاعتزاز بسلوك المصطفى ﷺ؟؟

إن أنس بن مالك رفض الأكل انطلاقاً من التمسك بمبادئ الإسلام، واقتداء بالنبي ﷺ، وقال لمن قدم الطعام: حوله أي بدِّل الإناء، وجيء بالطعام على إناء من خلنج وهو مصنوع من خشب شجر فارسي، فأكله أنس بن مالك، ومعه ابن سيرين راوي هذا الحديث الشريف: وكان النبي ﷺ إذا قرب إليه طعام يقول: باسم الله، فإذا فرغ قال: "اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت، وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت"... آمين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: المجوس.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب استعمال آنية الفضة في الطعام أو الشراب.

ثالثاً: من آداب المدعو: الامتثال لتوجيهات النبي ﷺ في عدم الأكل في أواني الفضة.

أولاً- من أصناف المدعوين: المجوس:

يظهر ذلك في قول أنس بن سيرين: كنت مع أنس بن مالك رضي الله عنه عند نفر من المجوس.

والمجوس هم الذين أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين، يقتسمان الخير والشر والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمون أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، وبالفارسية يزدان وأهرمن، ومسائلهم تدور على قاعدتين:

الأولى: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة.

الثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة.

وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً، وهم فرق كثيرة، عبدة النار فرقة ضالة

تفلسفت فوقعت في هذه الترهات. تكون دعوتهم بتعريفهم بالرب الخالق عز وجل المحيي المميت، الذي أوجدهم لأمر عظيم وسخر لهم ما في الأرض جميعاً، كي يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به أحداً.

وذلك باستخدام الحكمة والموعظة الحسنة، والأدلة الباهرة على وجود إله واحد لا شريك له، ولا ند ولا ظهير، وأن هذا الكون بقبضته سبحانه وتعالى، وحتى لا يكون للبشر حجة أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ختمها بخير كتبه، وخاتم رسله محمد ﷺ مع استخدام كل الوسائل المتاحة لبيان حاجة الإنسان للدين، وأن حياته لن تكون متوازنة إذا كان هكذا لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يدين بالإسلام الذي ارتضاه الله لناس كافة، بل للإنسان والجن[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب استعمال آنية الفضة في الطعام أو الشراب:

يظهر ذلك في قول أنس بن سيرين: كنت مع أنس بن مالك رضي الله عنه عند نفر من المجوس، فجيء بفالوذج على إناء من فضة، لم يأكله فقيل له حَوِّلْهُ، فَحَوَّلَهُ على إناء من خلنج وجيء به فأكله.

وفي هذا حث على اجتناب استعمال آنية الفضة في الطعام أو الشراب، وذلك لنهي النبي ﷺ عن الأكل والشرب في آنية الفضة، وإخباره بأنها للكفار في الدنيا ولنا في الآخرة.

فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب والفضة وقال: ((هنَّ لهم في الدنيا، وهن لكم في الآخرة))[٢].

وأخبر ﷺ أن الذي يأكل في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ((الَّذي يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ، إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ))[٣].

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري ص ٤٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٣٣، ومسلم ٢٠٦٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥٦٣٤، ومسلم ٢٠٦٥.

وهذا يدل على أن الأكل والشرب في آنية الفضة من كبائر الذنوب، وأنه لا يحل لمؤمن أن يفعل ذلك[١].

ثالثاً- من آداب المدعو: الامتثال لتوجيهات النبي ﷺ في عدم الأكل في أواني الفضة:

يظهر ذلك في امتناع أنس رضي الله عنه عن الأكل في إناء الفضة، وهذا يدل على امتثاله لنهي النبي ﷺ عن الأكل والشرب في إناء الفضة، ومما يؤكد امتثال الصحابة رضي الله عنهم لتوجيهات النبي ﷺ في عدم الأكل والشرب في أواني الفضة ما فعله حذيفة رضي الله عنه؛ فعن ابن أبي ليلة: أنهم كانوا عند حذيفة رضي الله عنه، فاستسقى فسقاه مجوسي فلما وضع القدح في يده رماه به وقال: لولا أني نهيته غير مرة ولا مرتين، كأنه يقول: لم أفعل هذا، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، وَلاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا))[٢].

والمسلم ينبغي عليه أن يمتثل لتوجيهات النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣].

قال السعدي: "وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله"[٤].

ومن أجل ذلك يجب على المسلم امتثال توجيهات النبي ﷺ بترك الأكل والشرب في أواني الفضة.

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٨٤٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٤٢٦، ٥٦٣٢، ومسلم ٢٠٦٧.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الرجولة، وترك الترف:

لقد حرم الإسلام على المسلمين رجالاً ونساءً استعمال آنية الذهب والفضة في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال، كما حرم على الرجال لبس الحرير والديباج والذهب والشرب في آنية الفضة.

ومن أحاديث الباب التي تؤيد هذا منها قوله ﷺ: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ، إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ نهانا عن الْحَرير والدِّيباج والشربِ في آنيةِ الذهبِ والفضةِ، وقال: هنَّ لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة».

وفي رواية عن حذيفة رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلاَ الدِّيبَاجَ. وَلاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا».

وما نهينا عن هذه الأشياء المذكورة إلا لنتربى ونتخلق بأخلاق الإسلام التي تؤصل معاني الرجولة والتميز وعدم التشبه بالكفرة. إذ العادة أن المسلم لا يبالغ في الزينة والعناية بجسمه وثوبه ومركوبه وفراشه وأثاثه إلى درجة الإفراط لأن الإسلام يربي المسلمين على الرجولة والاعتزاز بالقيم والمبادئ الإسلامية، وعدم التشبه بغير المسلمين، والحرص على التخلق بأخلاق الإسلام والبعد عن كل ما يتنافى معها من ملبس أو مظهر أو استعمال الذهب في اللبس أو الشرب أو الشرب في أواني الفضة.

وقد كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يلبس البرد الغليظ الحاشية، ويفترش الحصير، ويتوسد الجلد حشوه الليف، ويركب البعير والفرس والبغلة والحمار، مرّة بسرج، ومرة بلا سرج، ويردف خلفه وبين يديه، ويمشي المسافة الطويلة على رجليه، ويأكل ما تيسر من الطعام، ويأتدم اللحم والعسل، وأحيانًا بالخل.

فلا ينبغي لمؤمن متأس بنبيه، ممتثل لأمره ونهيه أن يلبس الذهب أو الحرير اللذين حلا للنساء، وحرما على الرجال، وإنما يلبس الحرير من الرجال من لا خلاق له، ومن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو لأنه

قد استعجل طيباته وأذهبها في حياته الدنيا.

وحلية أهل الجنة الذهب واللؤلؤ، ولباسهم الحرير وفرشهم الطنافس، وأرائكهم الديباج[١].

وجاء في استعمال آنية الذهب والفضة نهي شديد كما ورد في أحاديث الباب، وهذا يدل على هدف التربية في البعد عن الترف، والبعد عن الإسراف والخيلاء، فلابد من غرس قيمة استعمال الأشياء في مواضعها الصحيحة، فخير لنا من اتخاذ الذهب والفضة أواني أن نستثمرها في الأعمال الصناعية أو الزراعية، أو نتجر بهما فننمي ثروتنا، ونعز أمتنا[٢].

ولكن مما يورث الأسى والأسف أنه قد كثر الترف، واستخف المسلمون بالمحرمات، ففاضت المنازل بآنية الفضة والذهب، وأسرف النساء في الحلي إسرافًا يؤدي إلى سوء الحال، وضياع المال، وإرهاق الرجال.

ولو أخذت الأمة المحمدية بشريعة نبيها، وتعاليم دينها أمرًا ونهيًا، لصلح المجتمع وسعد الأفراد والجماعات، واستقامت الأخلاق ولعاد لهم ما فقدوا، ولكنهم أعرضوا عن خطاب الله لهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٣][٤].

ثانيًا- أسلوب الترغيب والترهيب:

جاءت أحاديث الباب مرهبة للمسلمين من الشرب في آنية الذهب والفضة بجرجرة نار جهنم في بطن من يستعملها، ومرهبة للرجال من لبس الحرير والديباج والذهب، بعدم اللبس في الآخرة.

كما رغبت الرجال في عدم لبس الحرير والديباج، وعدم الشرب في آنية الذهب والفضة، بلبسهم واستعمالهم لها في الآخرة.

(١) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم البيحاني ص ٩٤، ٩٥.

(٢) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٦٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٤) انظر: إصلاح المجتمع، محمد بن سالم البيحاني ص ٩٥.

وأسلوب الترغيب والترهيب يتماشى مع الطبيعة البشرية، والذي لا يستغنى عنه المربي في كل زمان ومكان[١]، إذ لا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف الطفل أو الإنسان أن هناك نتائج مسرة أو مؤلمة، وراء عمله وسلوكه، فإن عمل خيرًا نال السرور، وإن عمل شرًا ذاق الألم والمرارة[٢].

مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك وما يترتب عليه من منفعة أو ضرر والتربية الإسلامية تستخدم هذا الأسلوب التربوي والأمثلة على ذلك يصعب حصرها من الكتاب والسنة[٣].

ثالثًا- التربية بالممارسة العملية:

لقد استخدم أنس بن مالك رضي الله عنه أسلوب الممارسة العملية، وذلك بالعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما امتنع عن أكل الفالوذج الموضوع على إناء من فضة.

ويعد أسلوب الممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية، وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل، شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم وقائمًا على أساسه. وهو دين يجعل العمل أساسًا للنجاح أو الخسران، في الدنيا والآخرة. فإن كان خيرًا فخير وصلاح وفوز ونجاح، وإن كان شرًا فشر وخسران.

ويطالب الدين الإسلامي كل معتنقيه بتطبيق تعاليمه تطبيقًا عمليًا سواء ما يتعلق بتكاليف العبادة وما يهيئ للآخرة، أو ما يتعلق بشئون الحياة الدنيا[٤].



---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، علي خليل أبو العينين ص ٢٤٠، نقلاً عن توحيد الفكر التربوي، د. محمد فاضل الجمالي ص ١١٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٨٦.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧.

٣٦٥- باب تحريم لبس الرجل ثوباً مزعفراً

الحديث رقم (١٨٠٠)

١٨٠٠- عن أنس رضي الله عنه قَالَ: نَهَى النبيُّ ﷺ أنْ يَتَزَعْفَرَ الرجُل. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يتزعفر الرجل: أي يتطيب بالزعفران[٢].

الشرح الأدبي

إن الخيلاء سلوك يرفضه الإسلام، فالمسلم من سماته التواضع والنظافة وحسن الهيئة، ولكنه بمنأى عن التكبر والترفع اقتداءً برسول الله ﷺ فقد جاء عن أنس أنه قال ما شممت ريحاً قط ولا مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ[٣].

وفي ضوء هذه السمة التي تميز المؤمن في ملبسه ومشربه ومأكله، وهيئته اقتداء برسول الله ﷺ ينهي النبي ﷺ "أن يتزعفر الرجل"، والتزعفر هو المبالغة في الزينة والزخرف والإطلاء بالزعفران، تمسكاً بالخيلاء، وإسرافاً في الزينة التي ينهي عنها رسول الله ﷺ، وصيغة التفعيل في قوله ﷺ "أن يتزعفر الرجل"، تدل على التكلف والمبالغة، والمصدر المؤول المكون من أن والفعل المضارع يوحي بالتكلف، كذلك التفنن في الزينة والزخرف، وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

المضامين الدعوية[٤]

أولاً: من موضوعات الدعوة: اجتناب التشبه بالنساء في اللباس.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٨٤٦، ومسلم ٢١٠١/٧٧.

(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٣٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٧٣، ومسلم ٢٣٣٠.

(٤) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٨٠٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٠١).

ثانياً: من مهام الداعية: بيان اللباس الذي يجب على المدعو عدم ارتدائه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في لباسه وعدم تشبهه بلباس الكفار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اجتناب التشبه بالنساء في اللباس:

يظهر ذلك في حديث أنس رضي الله عنه الذي ذكر فيه نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزعفر الرجل.

وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم علي ثوبين معصفرين فقال: "أمك أمرتك بها؟" قلت: أَغْسِلُهُما؟ قال: "بل أَحْرِقْهُما".

وفي رواية: فقال: (إن هذا من ثياب الكفار فلا تلبسها)[1].

قال النووي: "قوله صلى الله عليه وسلم: (أمك أمرتك بهذا)، معناه: أن هذا من لباس النساء وزيهن وأخلاقهن، وأما الأمر بإحراقهما فقيل: هو عقوبة وتغليظ لزجره وزجر غيره عن مثل هذا الفعل"[2].

ويؤيد ذلك ما ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: هَبَطْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ ثَنِيَّةٍ فالْتَفَتَ إِلَيَّ وَعَلَيَّ رَيْطَةٌ[3] مُضَرَّجَةٌ بِالْعُصْفُرِ فقال: ((مَا هذِهِ الرَّيْطَةُ عَلَيْكَ؟)) فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ، فَأَتَيْتُ أهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُونَ تَنُّوراً لَهُمْ فَقَذَفْتُهَا فِيهِ ثُمَّ أتَيْتُهُ مِنَ الْغَدِ، فقال: ((يَا عَبْدَ اللهِ مَا فَعَلَتَ الرَّيْطَةَ))، فأَخْبَرْتُهُ، فقال: ((ألاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أهْلِكَ فإِنَّهُ لا بَأْس بِهِ لِلنِّسَاءِ))[4].

قال ابن تيمية: "كما أن الفرق بين الرجال والنساء لما كان مطلوباً ظاهراً وباطناً؛ لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء وقال: ((أَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ))[5]"[6].

---

(١) مسلم ٢٠/٧٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣١٨.

(٣) الرَّيْطة: كل ثوب لين رقيق، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ا ل ر ا ئ ط ة).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٠٦٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤٣١).

(٥) أخرجه البخاري ٥٨٨٦.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٢/٢٨٢.

وقال ﷺ: ((لَعَنَ رسولُ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ والمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))[١].

فينبغي للمسلم اجتناب التشبه بالنساء، حتى يتجنب اللعن الذي توعد به رسول الله ﷺ من تشبه بالنساء أو العكس، أما اجتناب التشبه بالكفار في لباسهم فيظهر في قوله ﷺ: (إن هذا من ثياب الكفار فلا تلبسها).

قال ابن تيمية: "علل النهي عن لبسها بأنها من ثياب الكفار، وسواء أراد أنها مما يستحله الكفار، بأنهم يستمتعون بخلاقهم في الدنيا أو مما يعتاده الكفار لذلك"[٢].

قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ))[٣]. فينبغي اجتناب التشبه بالكفار.

ثانياً- من مهام الداعية: بيان اللباس الذي يجب على المدعو عدم ارتدائه:

يظهر ذلك من عموم الحديثين[٤] حيث نهى النبي ﷺ الرجال عن لبس المعصفر.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ الكثير من الأحاديث التي تبين للمسلم ما يجب عليه عدم ارتدائه من اللباس، فعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((وَلاَ تَلْبَسُوا الدِّيبَاجَ وَالْحَرِيرَ. فَإِنَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٥]، وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: ((أنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عنْ لُبْسِ الْقَسِّيِّ وَعنْ لُبْسِ المُعَصْفَرِ))[٦].

وغير ذلك من الأحاديث الكثير، التي بيّن فيها ﷺ للمسلمين ما يجب عليهم اجتنابه من اللباس، وكان نهيه ﷺ عن لبسها، إما لما فيها من التشبه بالنساء، أو التشبه بالكفار، وإما لما فيها من الخيلاء والتكبر.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٨٨٥.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/٣٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود رقم ٤٠٣١، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٤٠١).

(٤) الحديث رقم (١٨٠٠)، (١٨٠١).

(٥) أخرجه البخاري ٥٤٢٦، ومسلم ٢٠٦٧.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٠٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤١٢).

فينبغي على الداعية الاقتداء برسول الله ﷺ في ذلك، فيبين للمدعوين اجتناب اللباس الذي نهى عنه الإسلام، ويبين لهم علل ذلك، حتى يقبلوا نهيه بنفس راضية عالمة العلة من النهي.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في لباسه وعدم تسبه بلباس الكفار:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (إن هذا من ثياب الكفار فلا تلبسها).

لقد بعث الله تعالى محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر [١].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢].

فجعل الله محمداً على شريعة شرعها له، وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون: كل من خالف شريعته، وأهواؤهم: هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك. فإن موافقتهم في ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره، فإن من حام حول الحمى أو شك أن يواقعه [٣]، فينبغي البعد عن هديهم الظاهر في اللباس وغيره.

ومن ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصحابة رضي الله عنهم، ثم عامة الأئمة بعده وسائر الفقهاء، جعلوا في الشروط المشروطة على أهل الذمة من النصارى وغيرهم فيما شرطوه على أنفسهم، أن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم: قلنسوة، أو عمامة أو نعلين أو فرق شعر...

فمقصود ذلك التميز عن المسلمين في اللباس ونحوها.. ليتميز المسلم عن الكافر ولا يتشبه أحدهما بالآخر في الظاهر، ولم يرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأصل التمييز بل التميز في عامة الهدي، على تفاصيل معروفة في غير هذا الموضع [٤].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٩٢/١.

(٢) سورة الجاثية، آية: ١٨.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٩٨/١.

(٤) المرجع السابق ٣٦٣/١ - ٣٦٥.

الحديث رقم (١٨٠١)

١٨٠١- وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ: رأى النَّبيُّ ﷺ عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ، فَقَالَ: ((أُمُّكَ أمَرَتْكَ بِهَذا؟)) قلتُ: أَغْسِلُهُمَا؟ قَالَ: ((بَلْ أَحْرِقْهُمَا))[١].

وفي رواية، فَقَالَ: ((إنَّ هَذَا مِنْ ثِيَابِ الكُفَّارِ فَلاَ تَلْبَسْهَا)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

ثوبين معصفرين: أي مصبوغين بالعصفر الأصفر[٣].

الشرح الأدبي

إننا نقتبس من هذا الحديث الشريف: كيف يعلم الرسول ﷺ أصحابه الالتزام بالمنهج الإسلامي قولاً وعملاً، وهيئة وسلوكاً، وهذا التعلم تشع به صياغة الحديث الشريف... فقول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما رأى النبي "عليّ ثوبين معصفرين" يفيد التحقق من عدم التزام عبدالله بالمنهج الإسلامي في ملبسه، لأن الرؤية هنا بصرية وعلمية، والرائي هو النبي المبلغ عن ربه، والذي لا ينطق عن الهوى، وتقديم الجار والمجرور "عليّ"، يفيد تلبس عبدالله بهذا الصنيع المخالف، والحوار التدرجي الذي يقود إلى الإقناع، من طرق التعلم والمعرفة في الإسلام، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع عبدالله، وبدأ حواره بالسؤال: "أمك أمرتك بهذا؟" وهو سؤال فيه إنكار وتعريض، ويوحي هذا الاستفهام المشع بكثير من دلالات الإنكار، بأن الذي لبسه "عبدالله" من ملابس النساء، وتأتي الإجابة موجزة: حيث لم يجب بنعم أو لا، وإنما فهم مقصد رسول

(١) مسلم برقم ٢٨/٢٠٧٧.

(٢) برقم (٢٧/٢٠٧٧).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣١٧.

الله ﷺ من السؤال، وقال متسائلاً: أغسلهما: والاستفهام هنا حقيقي: فعبدالله يرغب في معرفة الحكم الصحيح، وهذا موقف إيجابي يجب أن يتحلى به كل مسلم في اتباع المنهج، والعمل بالسنة الشريفة المباركة.

ويجيبه رسول الله إجابة صارمة حاسمة تتضمن الإضراب عن المظهر الذي يتشبه فيه "عبدالله" بالكفار، ثم الأمر بحرق هذين الثوبين وليس غسلهما فقط: قال: "بل أحرقهما"، وتتسم الجملتان اللتان ختم بهما الحديث الشريف بالسجع بينهما، والجناس الناقص، وهما يحدثان إيقاعاً صوتياً مؤثراً يبقى أثره في النفس، ويدعو للاستجابة السريعة، والطاعة والسمع، واتباع ما أمر به رسول الله ﷺ، وهذا ما فعله عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- تحريم اتخاذ[1] الحرير على الرجال دون النساء، لبساً، واستعمالاً فيحرم جعله وسادة أو لحافاً، أو ملاءة أو غير ذلك، وهذا عند جمهور الفقهاء[2]؛ لأحاديث الباب، ولقول رسول الله ﷺ من حديث علي رضي الله عنه "إن هذين حرام على ذكور أمتي حلال لإناثهم"[3].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٦٥٥/٦، والنتف في الفتاوى للسُّغدي ٢٤٨/١، وكفاية الطالب الرباني ٥٨٤/٢، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٠٩/١٦ وما بعدها، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٧٧/٤، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٠٦/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٦٦/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٤٢/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨١/١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣٧٩/١.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٠/١٧. فقد ذهب أبو حنيفة وبعض المالكية إلى جواز استعمال الحرير في البسط والافتراش والوسائد.

(٣) أخرجه أحمد ٩٦/١ رقم ٧٥٠، ٩٣٥، وأبو داود ٤٠٥٧، والنسائي ١٦٠/٨، وابن ماجه ٣٥٩٥، وصحّحه محققو المسند ١٤٦/٢.

ولأنه فعل الأكاسرة، فقد قال عمر رضي الله عنه إياكم وزي الأعاجم، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (لأن أتكئ على جمر الغَضَى[١] أحب إليَّ من أن أتكئ على مرافق الحرير).

ولأنه يورث البدن - نظراً لملمسه الناعم- بعض صفات الأنوثة والتخنث، ولهذا لا تكاد تجد من يلبسه إلا وعلى شمائله من التخنث والتأنث، والرخاوة ما لا يخفى[٢].

وفي حكم اتخاذ الحرير، والحالات التي يجوز اتخاذه فيها، كلام طويل ليس محله هنا، فليرجع إلى المطولات من كتب فقه المذاهب[٣].

٢- تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة، وقد سبق بيان هذا الحكم في الحديث رقم (١٧٩٧).

المضامين الدعوية[٤]

(١) الغَضَى: شجر خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلاً لا ينطفئ، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ ض ا).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٢/٨٩.

(٣) وقد مضى ذكر بعضها في أول الكلام في فقه هذا الحديث.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أهداف التربية: عدم تشبه الرجال بالنساء:

تهدف التربية الإسلامية أن تكون طبيعة الرجل متميزة، وأن يكون مظهره صورة صادقة لهذه الطبيعة.

كما أرادت ذلك للمرأة، فنهت الشريعة الإسلامية كلا منهما أن يتشبه بالآخر، وحرم عليه ذلك وسواء أكان التشبه في اللباس، أم الكلام، أم الحركة، أم غير ذلك[1].

لهذا جاء في هذا الباب عن أنس رضي الله عنه قال: « نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَزَعْفَرَ الرَّجُلُ».

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: رأى النَّبِيُّ ﷺ عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ. فَقَالَ «أَأُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا؟» قُلْتُ: أَغْسِلُهُمَا. قَالَ: «بَلْ أَحْرِقْهُمَا».

وهذا النهي خاص بالرجال لأن الثياب المصبوغة بذلك مما يتزين به النساء[2].

والمسلم لا يلبس لبسة المرأة المسلمة، والمسلمة لا تلبس لبسة الرجل لتحريم الرسول ﷺ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[3].

في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَعَنَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لُبْسَةَ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لُبْسَةَ الرَّجُلِ»[4].

فالرجل له صفاته التي ينبغي أن يحرص على التميز بها عن المرأة - وكذلك المرأة - منها اللباس، فما يناسب المرأة لا يناسب الرجل، كما أن الشريعة الإسلامية وضعت أحكاماً للباس الرجل وأحكاماً للباس المرأة فينبغي على كل مسلم ومسلمة الالتزام بها.

وعلى المربي توجيه الناشئة إلى ضرورة التميز في اللباس بين البنت والولد، فلا تتشبه

---

(١) انظر: إسلامنا، السيد سابق ص ٣٥، بتصرف.

(٢) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٢٦٥/٢.

(٣) أخرجه البخاري، ٥٨٨٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٢٥/٢، رقم ٨٣٠٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

البنت بالولد في اللباس أو غيره ولا الولد بالبنت، وذلك لأن تشبه الولد بالبنت في اللباس وغيره يؤدي إلى ضعف شخصيته وقلة رجولته، واتصافه بصفات البنات مما ينافي ما خلق من أجله من الرجولة والخشونة والقيام بالأعمال الجادة في الصناعة والتجارة والجهاد وغيرها من الأعمال، أما البنت إذا تشبهت بالولد في اللباس وغيره فسوف تطغي عليها صفات الذكورة، وهذا يتنافى مع ما خلقت له من الرقة والحنان والجمال الذي جبلها الله عليه.

ثانيًا- من أهداف التربية الإسلامية: عدم التشبه بالكفار:

تهدف التربية الإسلامية إلى مخالفة الكفار وعدم التشبه بهم فيما ليس بضروري من لباس وغيره لهذا قال النبي ﷺ في رواية: «إِنَّ هَـٰذَا مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ، فَلاَ تَلْبَسْهَا». لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حينما رأى عليه ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ.

فينبغي مخالفة الكفار في اللباس وعدم التشبه بهم قال ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١).

فالمسلم لا يتشبه بالكافرين أعداء الله وأعداء الدين، بل يرتدي ما أمر به الدين وما هو ليس من لبس الكافرين، فعلى المربي توجيه المسلمين وخاصة الناشئة منهم إلى عدم تقليد الكافرين في اللباس، لأن هذا التقليد الظاهري قد يمتد إلى التقليد في أشياء باطنية تخالف أحكام الدين، كما أن هذا التقليد الأعمى للكافر يمحو شخصية المسلم، ويجعله مقلداً متبعاً لكل ما أتى به المشركون، في حين أن ديننا العظيم يربي فينا الشخصية القوية القادرة على القيادة والتميز الداعية إلى تقليدها والتأثر بها، لا أن تذوب في تقليد غيرها من الكفرة والمشركين الذين لا يلتزمون بدين ولا يتقيدون بأخلاق أو مثل.

فعلينا نحن جميع المسلمين وخاصة شباب الجيل البعد عن تقليد ومحاكاة الكافرين فيما يرتدون من لباس وتصاميم تخالف آدابنا ومثلنا الراسخة والنابعة من ديننا.



(١) أخرجه أبو داود، ٤٠٣١، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٤٠١).

٣٦٦- باب النهي عن صمت يوم إلَى الليل

الحديث رقم (١٨٠٢)

١٨٠٢ - عن عليٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ، وَلاَ صُمَاتَ يَومٍ إلَى اللَّيْلِ)). رواه أَبُو داود[١] بإسناد حسن.

قال الخَطَّابي في تفسير هذا الحديث: كان من نُسُك الجاهلية الصُّمَاتُ، فَنُهو في الإسلام عن ذلك، وأُمِروا بالذكر والحديث بالخير.

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٧٢).

غريب الألفاظ:

اليُتم: فقد الصبي أباه قبل البلوغ[٢].

احتلام: إدراك سن البلوغ وإنزال المني في المنام[٣].

صمات يوم: سكوت[٤].

الشرح الأدبي

يشع هذا الحديث بعدة مفاهيم يجب أن يفطن لها كل مسلم، لأن معرفتها تفتح آفاقًا من المعرفة، ونوافذ من الوعي، تجعل الإنسان أهلًا للمسؤولية ملتزمًا بمعالم التصور الإسلامي، ومنها: التوازن في شخصيته، والثبات على مبادئه، والإيجابية في سلوكياته، ومواقفه وعلاقاته بالآخرين في المجتمع وبأفراد الأمة بصفة عامة.

ومفهوم اليتم في الإسلام ينتهي بعد الاحتلام أو البلوغ، وبعدها يصير المرء رجلًا

(١) برقم ٢٨٧٣. قال ابن حجر في الكافي الشافي ١/٤٥٤: إسناده حسن.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ي ت م).

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٥.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٢٢٤.

مسؤولًا عن أعمال، مكلفًا بما فرض عليه من عبادات وتشريعات، واليتم: في اللغة الانفراد، أو فقدان الأب، واليتيم: الفرد، وكل شي يعز نظيره، وهو يتيم، ما لم يبلغ الحلم. ومن معاني اليتم الهمّ، وبالتحريك اليَتَم، الإبطاء.

وهذه المعاني: تفيد أن اليتيم ضعيف الجانب مكسور الجناح، ولكن بعد أن يبلغ الحلم، يصير رجلاً مكلفًا مسؤولاً.. يكد ويشقى، ويواجه أعباء الحياة في صبر وشجاعة، وإيمان وقوة، وهذا هو السر الذي يشع به البيان النبوي، "لا يُتم بعد احتلام"، حيث تكمن وراءه دلالات كثيرة تقود المسلم إلى اجتياز كل الصعاب، وتخطي العوائق بالإيمان والعمل الصالح، والقيام بواجبات التكليف، وأما الأمر الثاني الذي نفاه رسول الله فهو التزام الصمت، والانقطاع عن الكلام يومًا كاملاً، بدافع النفور من الناس، أو الميل إلى العزلة، وتجنب حركة الحياة، وهذا الصمت يؤدي إلى الاكتئاب، وفقدان الثقة بالنفس، أما إذا كان الصمت بدافع الرغبة في التأمل والتفكر والتدبر، فهو مستحب ولكن لا يكون طيلة اليوم، حتى لا يفتقد الناس أثر هذا الصامت، وحتى لا يتشبه من يرتضي هذا السلوك بكهان الجاهلية، فقد كان من نسك الجاهلية الصمات كما يقول الخطابي: فنهوا في الإسلام عن ذلك وأمروا بالذكر والحديث بالخير. والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديثين من الفقه: كراهة الصمات إلى الليل، وذلك لأنه كان من نسك الجاهلية، فلما جاء الإسلام نهى عنه، وأمر بالذكر والحديث بالخير. وإن نذره، لم يجب عليه الوفاء به، لأنه كنذرة المعصية.

وهذا هو الذي عليه جماهير الفقهاء[1].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٤٩/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣٩٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٣٦٣/٢، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة ٣٧٥/١، والفروع، ابن مفلح ١٤٣/٣-١٤٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٦/٣.

وقال أبو ثور وابن المنذر[١]، له أن يفعله إن كان ذلك أسلم له، لقول النبي ﷺ "من صمت نجا"[٢].

ولكن يناقش هذا: بأنه محمول على الصمت عما لا يعنيه من الكلام[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٤].

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من صفات الداعية: البيان والإيضاح.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الصمت الطويل.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: فضل الكلام بذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس.

رابعًا: من صفات الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم.

أولاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: حفظت عن رسول الله ﷺ: (لا يُتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل)، حيث بيّن أن الطفل بعد الاحتلام لم يعد يتيمًا، وبين أنه لا يصح الصمات إلى الليل، وبين أن ذلك حفظه عن رسول الله ﷺ.

وقول أبي بكر رضي الله عنه لمن حجت مصمتة: تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية.

حيث بيّن أن الصمت كان في الجاهلية والإسلام نهى عنه.

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٣/١٤٣-١٤٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/١٥٨، ١٧٧ رقم٦٤٨١، ٦٦٥٤، والترمذي ٢٥٠١ وحسّنه محققو المسند، وانظر تتمة تخريجه في: المسند ١١/١٩.

(٣) الفروع، ابن مفلح ٣/١٤٤، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣/٧٦.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث (١٨٠٢) مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٠٣).

والداعية ينبغي عليه أن يبين ويوضح للمدعوين الحقائق، فلقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وأن يقولوا لهم في أنفسهم قولاً بليغا، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]، وقال: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[2]، ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة.

وقد كان ﷺ (سيد الدعاة) يوضح للناس ولأتباعه حقيقة ما يدعوهم إليه وأصله[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الصمت الطويل:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: حفظت عن رسول الله ﷺ: (... ولا صمات يوم إلى الليل)، وقول أبي بكر رضي الله عنه: (تكلمي، فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية).

قال ابن تيمية: "فأخبر أبو بكر رضي الله عنه أن الصمت المطلق لا يحل، وعقب ذلك بقوله: هذا من عمل الجاهلية، قاصدًا ذلك عيب هذا العمل وذمه.

وتعقيب الحكم بالوصف: دليل على أن الوصف علة، ولم يشرع في الإسلام، فيدخل في هذا: كل ما اتخذ من عبادة، مما كان أهل الجاهلية يتعبدون به، ولم يشرع الله التعبد به في الإسلام، وإن لم ينه عنه بعينه كالمكاء والتصدية، فإن الله تعالى قال للكافرين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[4].

والمكاء: الصفير ونحوه.

والتصدية: التصفيق.

فاتخاذ هذا قربة وطاعة من عمل الجاهلية الذي لم يشرع في الإسلام، وكذلك

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٣) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦ - ٢٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٣٥.

بروز المحرم وغيره للشمس، حتى لا يستظل بظل، أو ترك الطواف بالثياب المتقدمة، أو ترك كل ما عمل في غير الحرم، ونحو ذلك من أمور الجاهلية التي كانوا يتخذونها عبادات، وإن كان قد جاء نهي خاص في عامة هذه الأمور، بخلاف السعي بين الصفا والمروة، وغيره من شعائر الحج، فإن ذلك من شعائر الله، وإن كان أهل الجاهلية قد كانوا يفعلون ذلك في الجملة [١].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: فضل الكلام بذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس:

يظهر ذلك من عموم الحديثين[٢] فالنهي عن الصمت لأن هذا يؤدي إلى ترك التسبيح والتهليل والتحميد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقراءة القرآن وغير ذلك [٣].

والمسلم إذا تكلم ينبغي ألا يتكلم إلا بخير قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

قال السعدي: "لا خير في كثير مما يتناجون به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير؛ فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: (إلا من أمر بصدقة)، من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي ﷺ: ((إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ))[٥].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/٣٧١ - ٣٧٢.

(٢) الحديث رقم (١٨٠٢)، (١٨٠٣).

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/١٨٤٣.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٠٦.

أو معروف: وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

أو إصلاح بين الناس: والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجد الشر والفرقة، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس.

فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير كما دل على ذلك الاستثناء[1].

وقال رسول الله ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَصْمُتْ))[2].

فهذا يدل على أن الإنسان ينبغي أن يتكلم بذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، ولا يصمت عن هذه الأشياء بل يصمت عن المعاصي.

رابعًا- من مهام الداعية: تفقد أحوال المدعوين والسؤال عنهم:

يظهر ذلك في قول قيس بن حازم: دخل أبو بكر رضي الله عنه على امرأة من أحمس يقال لها: زينب فرآها لا تتكلم فقال: ما لها لا تتكلم؟

وهذا يدل على حرص أبي بكر رضي الله عنه على تفقد أحوال المدعوين وله في ذلك القدوة في رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ حريصًا على تفقد أحوال المدعوين.

ومما يدل على اهتمام النبي ﷺ بأحوال المدعوين، أنه كان يتفقدهم كي يتعرف على أحوالهم فيزودهم بالتوجيه المناسب لهم، أو يعلق على غيابهم بما يفيدهم والسامعين، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثابتَ بن قَيْس، فقال رجُلٌ يا رَسولَ الله أنا أعلمُ لكَ علمَهُ، فأتاهُ فوَجَده جالسًا في بيتِهِ مُنكِّسًا رأسَه، فقال له: ما شأنُكَ؟ فقال شرٌّ. كانَ يَرْفع صَوْته فوقَ صوتِ النَّبيِّ ﷺ فقد حَبطَ عَمَلُه وهو من أهل النار، فأتى الرَّجل النبيَّ ﷺ فأخبرَه أنّه قال

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٦٥.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٧٥، ٦١٨٣، ومسلم ٤٧.

كذا وكذا، فقال موسى، فرجع إليْه المرَّةَ الآخِرَة ببشارَةٍ عظيمة، فقال اذهبْ إليه فقلْ له: ((إنَّك لَسْتَ من أهل النَّار، ولكنَّك من أهلِ الجنَّة))[١].

ومما نجده في هذه القصة أن النبي الكريم ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فتعرف على حاله، ثم قدم له التوجيه الذي أخرجه به -بفضل الله تعالى- عما كان هو فيه من الهم والغم[٢].

وقال النووي: "وفيه أنه ينبغي للعالم وكبير القوم، أن يتفقد أصحابه، ويسأل عمن غاب منهم"[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٤٦، مسلم ١١٩.

(٢) انظر: مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. فضل إلهي ص ١١١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩.

الحديث رقم (١٨٠٣)

١٨٠٣- وعن قيس بن أبي حازم، قَالَ: دَخَلَ أَبُو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عَلَى امْرأةٍ مِنْ أحْمَسَ يُقَالُ لَهَا: زَيْنَبُ، فَرآهَا لاَ تَتَكَلَّمُ. فَقَالَ: مَا لَهَا لا تتكلمُ؟ فقالوا: حَجَّتْ مصمِتةً، فقالَ لها: تَكَلَّمِي، فَإنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ، فَتَكَلَّمَتْ. رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١).

غريب الألفاظ:

أحمس: من قريش، ومن وَلَدتَ قُريش، وكنانة، وجديلة قيس، سُمّو حُمسًا لأنهم تحمسوا في دينهم أي: تشددوا[2].

مصمتة: ساكتة[3].

الشرح الأدبي

هذا الحوار المشرق بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه والصحابة بشأن هذه المرأة المسلمة التي بالغت في العبادة.. يعد تنفيذًا لمنهج الإسلام المعتدل المتوازن، فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه، والقصد والاعتدال في العبادة من مقومات المسلم في عبادته ومعاملاته، وسلوكياته.

والحديث يَرْصد مشهدًا واقعيًا حيث رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه امرأة يقال لها زينب: "لا تتلكم": أي أنها لا تخاطب أحدًا، ولا يخاطبها أحد، وهي تظن أن هذا الصمت من إكمال العبادة، وأن حجها سيكون أفضل في ظل الصمت وعدم الكلام.

ومن جماليات التعبير في الحديث مجيء هذه الجملة في موقع: الحال: "لا تتكلم"،

---

(١) برقم ٣٨٣٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م س).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٨٥/٧.

وهذا تصوير لحال هذه المرأة وتشخيص لواقعها، ثم يجيء استفهام أبي بكر وهو استفهام إنكاري؛ حيث قال: "مالها لا تتكلم؟" والإنكار رفض لهذا الصمت الذي وهمت هذه المرأة بأنه مكمل للعبادة، ولم يقل لها: مالك لا تتكلمين؟ لأنها في صمتها لن ترد عليه، وحتى لا تظن أنه يُعنفها، وذلك من حكمة أبي بكر رضي الله عنه في التوجيه والإرشاد، ولكن حين عرف السبب، وقال له رضي الله عنه الصحابة: حجت مُصمته، قال لها: تكلمي، والتوجيه هنا جاء في صيغة الأمر الحاسم: لأن الصمت بدعة في هذه الحالة، وجاء التعليل المؤكد بعد هذا الأمر الصريح، فقال: فإن هذا لا يحل.

وتكرار اسم الإشارة يرشد إلى ضرورة الانتباه، وسرعة الاستجابة والإقلاع عن هذا السلوك، والجملة الأخيرة... "فتكلمت"... تفصح عن استجابة هذه المرأة لأمر أبي بكر رضي الله عنه، وعدم مجادلته فيما قال.

ومن الظواهر الأسلوبية في هذا الحديث تكرار العطف بالفاء في جمل الحديث المتعاقبة: على هذا النحو (فرآها- فقال- فقالوا- فقال لها- فتكلمت)

وهذا التوالي الذي انبثق من خلال العطف بالفاء ينبئ عن سرعة أبي بكر رضي الله عنه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا منهج إسلامي راسخ الدعائم، ثابت الأصول مستمد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[١]. والله أعلم.

المضامين الدعوية[٢]

(١) أخرجه مسلم ٤٩.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من وسائل التربية الحفظ:

إن الحفظ نعمة من الله ينعم بها على من شاء من عباده، فينبغي لطالب العلم أن يكون على استحضار للأدلة والنصوص الشرعية.

فلقد كان الرسول ﷺ حريصًا على حفظ القرآن إذا أنزل عليه، فأمره الله تعالى إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1].

ولقد وهب الله صحابة نبيه ﷺ حافظة قوية مكنتهم من حفظ القرآن والسنة في صدورهم ونقله إلى غيرهم من الصدور إلى السطور.

وفي هذا الباب ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: حَفِظْتُ عن رَسُولِ الله ﷺ: «لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ وَلاَ صُمَاتَ يَوْمٍ إلى اللَّيْلِ».

فالحفظ وسيلة تربوية هامة، وهذا ليس في العلوم الإسلامية فقط، بل في كل العلوم التي تتطلب إجابات محددة بنصوص موثقة. فالحفظ ضروري لكل العلوم، والذاكرة الحافظة تخدم صاحبها في كل مكان ما دام مستعدًا لكل سؤال يلقى عليه.

ومما يدل على أهمية الحفظ وانه لا يكفي الفهم فقط، أن كثيرًا من العلوم كالرياضيات والعلوم والحاسب الآلي والفلك وغيرها ترتكز على حقائق وقوانين ومعادلات لابد من حفظها للوصول لنتائجها الصحيحة، ولا يكفي فهمها بل لابد من حفظ كل مسألة فيها لتؤدي غرضها[2].

وقس على ذلك تعلم اللغات الأجنبية فلابد فيه من حفظ مفردات وقواعد وتراكيب تلك اللغة ليستطيع التعبير عما يريد بألفاظ صحيحة.

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦-١٩.

(٢) آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي ص ٩٥، ٩٦.

فلابد أن نشجع الطلاب والطالبات على الحفظ ليخرجوا وقد تسلحوا بسلاح علمي قويم يستطيعون به نفع أنفسهم وإخوانهم ومجتمعهم، ولاشك أن الفهم مهم ولكن الحفظ أهم في بعض المواد لأنه يخدم صاحبه وهو الذي يميز النابغين المتفوقين عن غيرهم حيث حفظوا المقررات وسددوا في الإجابات فحازوا قصب السبق[1].

وأول ما ينبغي أن يتربى على حفظه الصغير حفظ كتاب الله جل وعلا، لاسيما في الصغر الأذهان صافية، وقدرة الصغار على الحفظ فائقة، والذي ليس في جوفه شيء من القرآن فهو كالبيت الخرب.

ثم بعد أن يحفظ القرآن الكريم أو ما تيسر له، فعليه أن يشرع في حفظ بعض أحاديث السنة النبوية لينال الأجر الوارد بدعاء المصطفى ﷺ بقوله: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[2].

ثم بعد ذلك ينتقل طالب العلم لحفظ ما شاء من المتون العلمية النافعة المختصرة، فإنها ركيزة مهمة من ركائز العلم يحسن البدء بها لأنهم قالوا: لن تنالوا العلوم إلا بحفظ المتون.... ومن رام الوصول حفظ الأصول[3].

ثانيًا- التربية بالأحداث والمواقف:

الأحداث التي يمر بها الإنسان تؤثر في سلوكه ويمكن استثمارها تربويًا، وذلك بالتأثير الهادف في سلوك الإنسان[4].

وقد استغل أبو بكر الصديق رضي الله عنه حدث وموقف امرأة من أحمس يقال لها: زينب، فرآها لا تتكلم: فقال: ما لها لا تتكلم؟ فقالوا: حجت مصمته، فقال لها: تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية فتكلمت، فوجهها إلى عدم الصمت الطويل لأن هذا من أعمال الجاهلية فأثر في سلوكها هذا وعدله.

---

(١) المرجع السابق ٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود، ٣٦٦٠، وصححه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣١٠٨).

(٣) انظر: آداب المتعلمين، د. أحمد عبدالله الباتلي ص ٩٧، ٩٨.

(٤) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٢٨.

والأحداث وسيلة فعّالة لربط المادة التعليمية بحياة المتعلمين الواقعية[(١)].

والمربي حقًا لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة، وبغير توجيه، وإنما يستغلها[(٢)].

والتربية بالأحداث تعرف بقوة تأثيرها وشدة سيطرتها على النفس والفكر، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس، إن كانت هذه الظاهرة خارجية وعن طريق التأمل إن كانت داخلية[(٣)].

ولقد اتبع المربي الأول رسولنا الكريم ﷺ أسلوب التربية العملية، تعليمًا وتدريبًا، وربط التوجيه بالأحداث والوقائع الجارية في حياة الناس، والتربية الإسلامية في هذا المجال تظهر من خلال حديث الرسول ﷺ وقبله القرآن الكريم[(٤)]. تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان، كما تصوره الإسلام[(٥)].

ثالثًا: من خصائص التربية الإسلامية: التوازن:

تميزت التربية الإسلامية بموازنتها بين الأشياء فلم تغفل جانباً أو تهتم بجانب على حساب جانب.

يتجلى هذا التوازن في هذا الباب في النهي عن صمت يوم إلى الليل، وهذا في قول الإمام علي رضي الله عنه حفظت عن رسول الله ﷺ «...ولا صمات إلى الليل» وأمر أبي بكر رضي الله عنه المرأة الأحمسية بالكلام عندما رآها صامتة.

فإذا قارننا بين هذا النهي وبين الأصل العام في الشريعة الإسلامية بحفظ اللسان، يتضح لنا التوازن في ذلك، فإن الشريعة لم تأخذ بعمل أهل الجاهلية بنذر الصمت يوماً أو ليلة والتعبد به وقهر النفس، وكذلك لم تطلق العنان للسان فيتحدث بما شاء،

---

(١) فلسفة التربية كما يحددها القرآن، علي خليل ص ١٢١.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ٢٥٠.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفرة ص ٥٧٢.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ١٤٩/١.

(٥) في التربية الإسلامية د. عبدالغني عبود ص ١٥٧.

وكيف شاء ولكنها وازنت بين الأشياء فحثت على الصمت في الكلام، في الحشو والعبث وأذى الناس، وأمرت بالكلام في الخير والذكر والتسبيح والتهليل فهذه الأشياء عبادة لا يجوز الصمت عنها عمدًا أو إيثار الصمت عنها، قال تعالى في ذلك: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[2]. فعلى المسلم أن يوازن بين كلامه وصمته فإذا كان الكلام خيرًا وفيه الثواب ورضا الله تحدث، وإذا كان الصمت خيرًا له صمت، وآثر الصمت على الكلام.

وعلى المربي توجيه الناشئة إلى التحدث بالخير والذكر والدعاء والصمت عن الشر والأذى للمسلمين.



(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٤/٢ رقم ٦٦٢١، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ١٩٢/١١.

٣٦٧- باب تحريم انتساب الإنسان

إِلَى غير أَبيه وَتَولِّيه إِلَى غير مَواليه

الحديث رقم (١٨٠٤)

١٨٠٤ - عن سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ ﷺ ، قَالَ: ((مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أبيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أنَّهُ غَيْرُ أبيهِ، فالجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)). متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

سعد بن أبي وقاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦).

غريب الألفاظ:

ادَّعَى: انتسب[٢].

الشرح الأدبي

إن الإسلام دين النقاء، والصفاء، ومن أصوله المقررة عدم اختلاط الأنساب، حتى تتحدد الحقوق، ولا يُعتدى على الحرمات، ولا تضطرب العلاقات الاجتماعية، وهذا هو الحديث الأول في باب: تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه.

والحديث الشريف يوضح الموقف الحاسم من هذه القضية.. حيث تضمنت صياغته اللغوية ثلاث جمل، وكل جملة تتآزر مع الأخرى في تجسيم المراد، وتحديد المقصود، فالجملة الأولى تتكون من أداة الشرط وفعل الشرط "من ادَّعى إلى غير أبيه" وهذا الشرط فيه إنذار ووعيد يفهم من السياق، والجملة الثانية: وهي "حالية" حيث تصور واقع هذا المدّعى لأنه يعلم أن ادّعاءه غير صحيح، فهو يزيف الأنساب، وهو يحاول أن يتبرأ من جذوره، وينتمي إلى غير حقله، ويخرج عن دائرته، "وهو يعلم أنه غير أبيه"، والجملة الثالثة تتم المعنى، وتفصح عن المقصود، وتحدد المراد وهو العقاب الشديد الذي

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٦٦، ومسلم ١١٥/٦٣ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٢٩٥٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، في (د ع و).

يحل بهذا المدّعى، وهل هناك أقسى من هذا العقاب، الذي يحرم الجنة على كل من يلجأ إلى هذا السلوك الاجتماعي الشائن، "فالجنة عليه حرام"، وجواب الشرط يجيء في قالب الجملة الاسمية، التي تدل على الثبات وعدم الخضوع للزمن.. وتحرك الحدث، فالعقاب ثابت ومؤكد، وفي اللغة تحديد لدلالة هذا المدّعي، فالمدْعاةُ، الادعاء في النسب، والدَّعي: المتهم في نسبه، ويقولون: ادّعاه: صيره يُدْعى إلى غير أبيه، وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديثين[2] من الفقه:

١- تحريم انتفاء الشخص من نسبه المعروف[3]، والادعاء إلى غير أبيه[4].

٢- إن معنى قوله "فالجنة حرام عليه" فيه تأويلات[5]:

أحدها: إن ذلك محمول، على المستحل لذلك.

ثانيها: إن الجنة محرمة عليه أولاً عند دخول الفائزين، وأهل السلامة، فيمنع من دخولها إلى أن يعذب بذنبه، إذا أراد الله ذلك، وقد يعفو سبحانه وتعالى عنه فلا يجازيه.

ثالثها: إن ذلك محمول على الزجر عن هذا الأمر، لما يؤدي إليه ذلك من فساد[6].

٣- جواز إطلاق الكفر على المعاصي، إذا قصد بذلك الزجر[7].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥.

(٢) الحديث رقم (١٨٠٤)، (١٨٠٥).

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤١/٦، شرح صحيح مسلم، النووي ٥٢/٢، عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣/١٤.

(٤) وليس معنى هذا الحديث أن من اشتهر بالنسبة إلى غير أبيه يدخل في الوعيد كالمقداد بن الأسود رضي الله عنه وإنما المراد به من تحول عن نسبته لأبيه عامدًا مختارًا. انظر في ذلك: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥/١٢، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣/١٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٥٢/٢.

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣/١٤.

(٧) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤١/٦.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من انتساب الإنسان إلى غير أبيه وهو يعلم.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: المحافظة على الأنساب ومراعاة حقوق الآباء واحترامهم وعدم ازدرائهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام).

وقوله ﷺ: (لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر)[2].

حيث أخبر ﷺ عن تحريم انتساب الرجل إلى غير أبيه وهو يعلم، والإخبار من أهم أساليب الدعوة، فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإخبار والبلاغ لأمته قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

ثم اهتدى بهديه ﷺ أصحابه رضي الله عنهم فدعوا الناس إلى الهدى، وأخبروهم عن أمور دينهم ودنياهم، وما سمعوه وشاهدوه عن رسول الله ﷺ امتثالاً لأمره ﷺ: ((وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))[4]، وقوله ﷺ: ((بلِّغوا عني ولو آيةً))[5].

فالإخبار من أساليب الدعوة، التي ينبغي أن يستخدمها جميع المسلمين دعاة ومدعوين للإخبار بأمر الدين.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٨٠٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري ٦٧٦٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) أخرجه البخاري ١٠٤ ومسلم ١٣٥٤.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من انتساب الإنسان إلى غير أبيه وهو يعلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام).

وقوله ﷺ: (فمن رَغِبَ عن أبيه، فهو كفر).

قال ابن كثير: "وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم"[١].

وقال الطيبي: "قوله: (من ادعى)، الدعوة بالكسر في النسب، وهو أن ينسب الإنسان إلى غير أبيه وعشيرته، وقد كانوا يفعلونه فنهى عنه، والادعاء إلى غير الأب مع العلم به حرام، فمن اعتقد إباحته كفر لمخالفة الإجماع، ومن لم يعتقد إباحته ففي كفره وجهان: أحدهما أنه أشبه فعله فعل الكفار، والثاني: أنه كافر نعمة الإسلام، أقول: ومعنى قوله: (الجنة عليه حرام)، على الأول ظاهر، وعلى الثاني تغليظ"[٢].

قال ابن أبي جمرة: (والحكمة في ذلك أنه لما خالف هذا حكمة الله سبحانه وتعالى في عبيده، وترتب على ما فعله تحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه الله، وترتب عليه هذا الوعيد العظيم، ولو اعتقد أن ذلك جائز لكان كافرًا، بيان ذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[٣] "وحلل من النسب وحرم منه ما شاء" أعني في التناكح بينهم حسب ما يعرف ذلك من أحكام الشريعة، وقد تقرر الحكم به فلا يحتاج إلى ذكره، فإذا انتسب هذا إلى غير أبيه، فقد ابتعد عن هذا النظام البديع، وحرم على نفسه وعلى غيره نكاح من قد أحله الله له ولغيره، وحلل لنفسه ما قد حرمه الله عليه وعلى غيره، فإنه يتزوج بتلك النسبة التي انتسبها ذوي محارمه الحقيقيين وهم عليه حرام، ويحرم على نفسه أو على غير محارمه الزوريين بحسب انتسابه، فيكون حرم من ذلك ما أحله الله تعالى "وأما قولنا" هل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا؟ فحيث وجدنا من خالف حكم الله تعالى مثل ما فعل هذا، قلنا له الحكم فيه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٩/٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٥٥/٦.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

كالحكم في هذا سواء، لأنه بواحدة مما فعل هذا يكون الخلود في النار، أعني في الاعتقاد لقول الله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾[1].

وبإجماع الأمة أن من أحل واحدة مما حرمه الله سبحانه، أو حرم واحدة مما أحله الله عامدًا لذلك مستبيحًا لذلك، أنه كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كفرًا، وفيه معنى آخر وهو سوء أدب العبودية مع الموالية، لأن حكم العبودية اتباع كل ما أمرت به الموالية فالعبد إذا خالف حكم مولاه وجب أدبه، ولذلك قال بعض أهل التوفيق: أعظم الكرامات، الاتصاف بأوصاف العبودية، وامتثال أمر الربوبية، جعلنا الله من أهلها بمنه)[2].

قال ابن عثيمين: "فإن الإنسان يجب عليه أن ينتسب إلى أهله: أبيه، جده، جد أبيه.. وما أشبه ذلك، ولا يحل له أن ينتسب إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه ليس بأبيه"[3].

ومما يدل على أهمية الانتهاء عن الانتساب لغير الأب مع العلم، أمر المولى تبارك وتعالى بنفي نسب غير الآباء، وأمره بالانتساب للآباء، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[4].

قال ابن كثير: "قوله تعالى: (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله): هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وهذا هو العدل والقسط"[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٨٥.

(٢) بهجة النفوس ٢٣٤/٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٨٤٥/٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤ – ٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٧٧/٦.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: المحافظة على الأنساب ومراعاة حقوق الآباء واحترامهم وعدم ازدرائهم:

يستنبط هذا من عموم الحديثين، حيث حرم الإسلام الانتساب إلى غير الآباء مع العلم، وبيّن رسول الله ﷺ أن من يفعل ذلك تحرم عليه الجنة، وقال هو كفر.

قال ابن حجر: "وقال بعض الشرّاح: سبب إطلاق الكفر هنا أنه كذب على الله كأنه يقول: خلقني الله من ماء فلان، وليس كذلك لأنه إنما خلقه من غيره"[1].

فالأب سبب وجود الإنسان في الدنيا، فيجب على الإنسان أن يحافظ على نسبه منه ويحترم نسبه له، دون أن يزدري نسبه وينتسب لغيره؛ فالإسلام حافظ على الأنساب وحرم الاعتداء عليها، وذلك لأن الأنساب هي قوام القرابة في الأسرة، ودعامة الرابطة بين أفرادها، ومن أجل ذلك حرص الإسلام على حمايتها من كل ما يؤدي إلى اختلاطها أو يوهن حرمتها، فكان من أهدافه الرئيسة المحافظة على الأنساب، ومراعاة حقوق الآباء واحترامهم وعدم ازدرائهم.

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٥٦.

الحديث رقم (١٨٠٥)

١٨٠٥ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، قَالَ: ((لاَ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أبِيهِ، فَهُوَ كُفْرٌ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

لقد أمر الله الحق سبحانه بالإحسان إلى الوالدين، وإلى التباهي بالانتساب إليهما، لأن الأبناء ثمرات الآباء، والثمار لا تنضج إلا في ظلال الارتباط بالجذور، والنمو في حقل خصب مترع بالحياة، ومظاهر التآلف والتراحم والمصافاة، وهذا الحديث الشريف إنذار إلى الأبناء الذي يحاولون قطع صلاتهم بجذورهم بحثًا عن حقْل جديد، وهيهات هيهات أن يفوزوا بما يريدون، وما هي إلا أوهام في متاهاتها يغرقون، وفي مفازاتها يضلون.

والحديث الشريف يتكون من جملتين: الأولى صيغت في أسلوب إنشائي.. حيث تبدأ بأداة النهي "لا" والنهي موجه إلى أفراد الأمة كلها، "لا ترغبوا عن آبائكم" أي لابد من التمسك بالانتساب إلى الأب، وعدم قطع هذه الصلة التي كرّمها الله عز وجل، فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾[2]. ولا يضير صاحب الجاه أو السلطان أن يكون أبوه فقيرًا، أو ضعيف الجاه أو المكانة، فحق الأبوة فوق كل هذه الأعراض المتغيرة، لأنه جوهر الحياة، وبوابة النجاة.

والجملة الثانية: جاءت في أسلوب الشرط والجواب، وهي تفسير للنهي في الجملة الأولى، وكأنها إجابة لسؤالٍ ينشأ في الذهن.. وتقديره: ما جزاء من يرغب عن أبيه ويتبرأ منه، فقال رسول الله، "فمن رغب عن أبيه فهو كُفْر"، وأسلوب الشرط مناسب

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧٦٨، ومسلم ٦٢/١١٣ ولفظهما سواء.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥.

للدلالة في هذا الحديث: لأن الجزاء من جنس العمل، والحديث يتسم بالإيجاز لأنه يتضمن مقاصد كثيرة، ويومئ إلى قضايا اجتماعية تتكرر في كل بيئة، وفي كل زمان، وتكرار مادة "رغب" مرتين، للتنفير من هذا السلوك الجاحد الشائن، وكذلك تكرار: مادة "الأبوة" مرتين "آبائكم" "وأبيه" للتأكيد على حق الأبوة، وللتذكير بالحفاظ على هذا الحق، والتمسك بالانتساب إليهما، ويؤكد هذا الحق إضافة لفظ "آباء" إلى ضمير المخاطب الدال على الجمع : كم، وهو ضمير متصل للتعبير عن هذا الالتحاق والترابط بين الآباء والأبناء، وكذلك إضافة "أب" إلى الضمير المتصل: وهو "الهاء" العائد على كل ابن في هذا الوجود، لتأكيد حق الأبوة، وجملة جواب الشرط، تجيء في صيغة الجملة الاسمية، لتأكيد ثبات العقوبة التي تحل بكل جاحد راغب عن أبيه، ولم يقل فهو كافر: لأن الكفر مصدر، ودلالته أقوى من اسم الفاعل، "كافر"، وكأن هذا الصنيع من الابن هو الكفر نفسه، كفر بالله تعالى، أو كفر بالأب وحقه المشروع، وهذا من سمة بلاغة النبوة، وجوامع كلمه ﷺ.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨٠٦)

١٨٠٦ - وعن يزيد بن شريكِ بن طارقٍ، قَالَ: رَأيتُ عليًّا ﷺ عَلَى المِنْبَرِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يقُولُ: لاَ واللهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرؤُهُ إلاَّ كِتَابَ اللهِ، وَمَا في هـذهِ الصَّحيفَة، فَنَشَرَهَا فَإذَا فيهَا أَسْنَانُ الإبلِ، وَأشْيَاءُ مِنَ الجرَاحَاتِ، وَفِيهَا: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((المَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً. ذِمَّةُ المُسْلِمينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أدْنَاهُمْ، (فَمَنْ أخْفَرَ مُسْلِمًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً)[١]. وَمَن ادَّعَى إلَى غَيرِ أَبيهِ، أوْ انْتَمَى إلَى غَيرِ مَوَاليهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً)). متفق عَلَيْهِ[٢].

"ذِمَّةُ المسلمين" أي: عهدهم وأمانتهم و"أَخْفَرَهُ": نقض عهده. "والصَّرْف" التَّوْبَة، وقيل: الحِيلَةُ "والعَدْل": الفداء.

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٦٨).

غريب الألفاظ:

أسنان الإبل: أعمار الإبل[٣].

الجراحات: الجنايات ما دون النفس قد لا تكون بالقطع والإبانة؛ بل بالجرح، وهي أنواع كثيرة تتفرع عن أصلين: الجراح الواقعة على الرأس، والجراح الواقعة على باقي الجسد[٤].

---

(١) هذه الزيادة عند مسلم برقم ١٣٧٠/٤٦٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٧٠، ومسلم واللفظ له. ١٣٧٠/٤٦٧، أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٥٩).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ن ن).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر ح)، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/١٦ - ٣٢.

عير: جبل بالمدينة المنورة من الشرق إلى الغرب[1].

ثور: جبل ثور بالمدينة[2].

صرفًا ولا عدلاً: الصرف: التوبة، وقيل الحيلة. والعدل: الفداء.

ذمة المسلمين: عهدهم وأمانتهم[3].

فمن أخفر مسلمًا: نقض عهده[4].

مواليه: المولى[5].

الشرح الأدبي

هذا الحديث جاء في سياق خطبة لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي هذه الخطبة يستشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بحديث رسول الله ﷺ: في تكذيب الرافضة الذين زعموا أن رسول الله ﷺ خص عليًا عن سائر الناس بعلم لم يطلعوا عليه، وفي الحديث تأكيد على عدم نقض العهد، وعدم قطع الصلة بين الابن وأبيه، وكذلك المولى لا ينتمي إلى غير مواليه.

والحديث يموج بعدة ظواهر أسلوبية توصل معانيه، وتوضح مقاصده، ومن هذه الظواهر الجمالية:

أ- القسم في مفتتح كلام "علي بن أبي طالب" حيث قال: "لا والله"، وقيل "لا" مزيدة للتأكيد أو لنفي كلامٍ وقع قبلها، أي ليس عندنا ما يقوله هؤلاء الرافضة، والقسم يؤكد هذا النفي.

ب- أسلوب القصر في قوله: ما عندنا من كتاب نقرؤه إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة.

والقصر هنا عن طريق "النفي والاستثناء": وفي ذلك قصْر للعلم والمعرفة على كتاب الله سبحانه وما ورد عن رسول الله ﷺ من أقوال وأفعال، والصحيفة في هذا الحديث تضمنت توجيهات رسول الله ﷺ.

---

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٨٠.

(٢) رياض الصالحين، ٦١٠.

(٣) رياض الصالحين، ٦١٠.

(٤) رياض الصالحين، ٦١٠.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ل ى).

ج- الإيقاع الصوتي المؤثر المتمثل في السجع في قوله: "ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ"، وهذا من الإيجاز في البيان النبوي: مع التحديد والتركيز والتأثير، ففي كلمتين حدّد موقع الحرم النبوي، وحرم المدينة.

د- أسلوب الشرط الذي تكرر ثلاث مرات في سياقات متعددة، ولكنها كلها تنطلق من دائرة المحافظة والتمسك بالأصول، والمحافظة على الحرمات، ومنها: المحافظة على حرمة المدينة المنورة "فمن أحدث فيها..."، والمحافظة على عهد الأمان، "فمن أخفر مسلمًا..." والمحافظة على النسب والانتماء "ومن ادعى إلى غير أبيه" ومجيء هذه التوجيهات في أسلوب الشرط والجزاء للتأكيد على عقاب من يخالف: فهو سيلقى عقابه: فالجزاء من جنس العمل.

هـ- تكرار بعض الجمل للتأكيد على عقاب المخالفين والجاحدين، والذين لا يحافظون على حرمة المدينة المنورة، والجملة التي كُرِّرت اتحدت وظيفتها النحوية، فهي جواب للشرط في الجمل الثلاث (فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وتكرار قوله: لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً: ثلاث مرات: يؤكد أن العقوبة التي ستلحق بهؤلاء المخالفين ليست وعيدًا فقط، ولكنها عقوبة حقيقية، وأيٌّ عقوبة أشد وأنكر من "لعنة الله والملائكة والناس أجمعين": والله لا يقبل فريضته، ولا نافلته قبول رضا حيث قيل بأن: الصرف، الفريضة، والعدل النافلة، وقيل: الصرف التوبة، والعدل: الفدية، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- تحريم شجر المدينة، وصيدها، لأنها حرم ما بين جبلي عير، وثور[١]، كحرم

(١) اعتقد بعض كبار العلماء أن ذكر "ثور" في الحديث جاء على سبيل الخطأ على أساس أنه جبل في مكة، وليس في المدينة، وزعموا أن أصل الحديث (من عير إلى أحد)، وليس كذلك، بل "ثور" جبل صغير حذاء "أحد" عن يساره جانحا إلى ورائه، فعلم من ذلك أن ذكر "ثور" في الحديث صحيح، وأن عدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته، وعدم بحثهم عنه. انظر: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٠٢/٥.

مكة وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء، من المالكية[(١)]، والشافعية[(٢)]، والحنابلة[(٣)]، وغيرهم.

لكن قال مالك والشافعي، إن قطع شجرًا، أو قتل صيدًا، فلا ضمان عليه، لأنه ليس محلاً للنسك فأشبه الحمى[(٤)].

وقال ابن أبي يعلى[(٥)]: يجب فيه الجزاء كحرم مكة، وبه قال بعض المالكية.

وذهب أبو حنيفة[(٦)] إلى أن المدينة ليست بحرم، ولا يثبت له الأحكام من تحريم قتل الصيد، وقطع الشجر.

والراجح: الأول للأحاديث الدالة على ذلك.

٢- تحريم خفر ذمة المسلم، ونقض عهده، فإذا أَمَّنَ مسلم بعض الكفار، فإن أمانه ماض.

وهذا خاص بأمان بعض الكفار دون جماعتهم، إذ لا يجوز لمسلم أن يعطي أمانًا عامًا لجماعة الكفار، فإن فعل ذلك لم يجز، لأن ذلك يؤدي إلى تعطيل الجهاد[(٧)].

---

(١) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٧٩، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٢٨٤، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ٣/١٧٣.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١/٥٢٩، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣/١٦٨، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦/٣٢٧.

(٣) المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣/٢٠٧، والفروع، ابن مفلح ٣/٣٥٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣/٥٦٠.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٧٩، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦/٣٢٧.

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٥/١٠٣، وبه قال الشافعي في القديم، الروضة ٣/١٦٨.

(٦) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٥/١٠٣.

(٧) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٦/١٣.

٣- تغليظ تحريم انتماء الإنسان إلى غير أبيه، وانتماء العتيق إلى غير مواليه لما في ذلك من كفر النعمة، وتضييع حقوق الإرث، والولاء، والعقل، وغير ذلك، علاوة على قطيعة الرحم، والعقوق[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: القسم.

ثالثًا: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الرد على من ادعى أن النبي ﷺ خصّ عليًا رضي الله عنه بعلم دون غيره من الصحابة رضي الله عنهم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حرمة المدينة المنورة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من ارتكاب المعاصي في المدينة.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الانتساب إلى غير الأب والانتماء إلى غير الموالي.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من ادعاء الإنسان ما ليس له.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من اتهام المسلمين بالكفر أو رميهم بأنهم أعداء الله.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر هذا في قول يزيد بن شريك بن طارق: رأيت عليًا رضي الله عنه على المنبر يخطب.

(منذ أقدم العصور والخطبة من أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس، للتأثير في مشاعرهم، ولإقناعهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة، وبقي شأن الخطابة كذلك في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام وفي الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات، بل بقي شأنها كذلك في كل ثورة حدثت على وجه البسيطة، وذلك في العصور القديمة والوسطى

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٩/١٤٣.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث (١٨٠٦) مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٠٧).

والحديثة، وسيبقى لها هذا الشأن حتى تبدل الأرض غير الأرض)[١].

(والخطابة تعد من شعائر الإسلام، ففي كل جمعة يجتمع المسلمون في جامع يسمعون خطيبًا يُذكّر بالإسلام ويعلمهم أحكامه.. وفي كل عيد يجتمعون بحشد أكبر للغرض نفسه.. وفي الحج يستمع الحجيج - من بقاع العالم - إلى الخطيب وهو يُذكّر وينصح في عرفة، وعلى الخطيب أن يصور الحدث أو الفكرة بكل دقة ووضوح، وأن يستعمل في خطبته كل ما من شأنه جذب انتباه الناس بالأسلوب الحسن الجميل)[٢].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: القسم:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: (لا والله ما عندنا..)، ويعد القسم وسيلة مهمة من وسائل إبلاغ الدعوة، (وذلك لأن القسم وسيلة قولية موجزة قصيرة تلائم الطباع الذكية النبيهة التي تكفيها الإشارة، والقسم وسيلة قديمة عرفها الناس قديمًا، واستعملوه تأكيدًا لخبر، أو تعظيمًا لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية، والقسم أيضًا وسيلة إقناع، لأنها تعمل على ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا)[٣].

ثالثا- من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: "ما عندنا من كتاب نقرؤه إلا كتاب الله".

إن القرآن الكريم مصدر الدعوة الأول، ودستورها الثابت، الذي لا يأتيه الباطل، فهو كلام الله تعالى ووحيه، غير مشوب بأوهام البشر ولا بأهوائهم، مبرأ من التحريف والتبديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٤]، ومنزه عن النقص والقصور، فهو إذن

---

(١) الإعلام في صدر الإسلام، د. عبداللطيف حمزة، ط/١، دار الفكر العربي: ١٩٧١م ص ١٧٢.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، محمد خير رمضان ص ١٠٦ - ١٩٧.

(٣) انظر: الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ص ٣٢٩-٣٣٠، ومباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٢٩١ نقلا عن الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز ص ١٣١-١٣٢.

(٤) سورة الحجر، آية: ٩.

الخير الخالص، والنور الصافي، ليس لجبريل عليه السلام منه إلا النقل، ولا لمحمد ﷺ إلا التلقي والتبليغ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

فالقرآن الكريم يحمل العلم الإلهي، والحكمة الربانية، والقدرة الأزلية المتصفة بالكمال والجلال، والمنعوتة بالتوفيق والهداية، والمنزهة عن كل قصور ونقص.

والقرآن الكريم بالنسبة للداعية حجته التي لا تضل، وبينته التي لا تزول، ورايته التي لا تتوارى، يعطيه طلاوة وحلاوة، ويزيده بهاءً ووضاءة، ويمنحه إقناعًا وهداية واتباعًا.. لسان من لا لسان له، وفصاحة من لا فصاحة عنده، وطريق من ضل الدرب وتاه عن الصراط المستقيم، كما هو عقل وصواب، وعزم ومضاء، وإرادة وحكم، واستقامة وتقدم، وعدالة واستقرار، وأمن وطمأنينة، ورحمة ورأفة، ومبدأ وفكرة، كما هو حياة بغير ضلال أو عوج، أو شرور وآثام، وفتن وأهواء[2].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الرد على من ادعى أن النبي ﷺ خصّ عليًا رضي الله عنه بعلم دون غيره من الصحابة رضي الله عنهم:

ويظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: (لا والله ما عندنا من كتاب نقرؤه إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة...).

قال النووي: "هذا تصريح من علي رضي الله عنه بإبطال ما تزعمه الرافضة والشيعة ويخترعونه من قولهم أن عليًا رضي الله عنه أوصى إليه النبي ﷺ بأمور كثيرة من أسرار العلم وقواعد الدين وكنوز الشريعة، وأنه ﷺ خصّ أهل البيت بما لم يطلع عليه غيرهم، وهذه دعاوى باطلة، واختراعات فاسدة لا أصل لها، ويكفي في إبطالها قول علي رضي الله عنه هذا"[3].

قال ابن عثيمين: "وفي إقسام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وهو الخليفة الرابع، والبار

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) انظر: الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٨٥٥.

الصادق بدون قسم - أن النبي ﷺ لم يخصهم بشيء، دليل على كذب الرافضة والشيعة الذين يقولون: إن النبي ﷺ عهد بالخلافة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،وأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ظالمون معتدون كافرون منافقون هكذا - والعياذ بالله - يصفون خير هذه الأمة بهذه الأوصاف، نسأل الله العافية، ونسأل الله أن يجازيهم بما يستحقون به من عدله إنه على كل شيء قدير، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إن كانوا صادقين في محبته وولايته وأنهم يتولونه وأنهم شيعته، فليصدقوه بهذا اليمين الذي أقسم به على المنبر - وهو يخطب الناس معلنًا أن النبي ﷺ ما خصهم بشيء أبدًا إلا كتاب الله الذي يقرأه المسلمون صغارًا وكبارًا إلى يومنا هذا - والحمد لله - (وما في هذه الصحيفة)، ثم نشرها وقرأ فيها شيئًا من أسنان الإبل في الزكاة والثياب والجراحات التي لم تبين في هذا الحديث، وإنما بينت في أحاديث أخرى"[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حرمة المدينة المنورة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (المدينة حرم ما بين عير إلى ثور).

لقد جعل الله تعالى المدينة حرمًا كما هو الحال في الحرم المكي، والنصوص في هذا المعنى كثيرة جدًا بلغت حد التواتر[2].

منها: عن عبدالله بن زيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لأَهْلِهَا. وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ. وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لأَهْلِ مَكَّةَ))[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المدينةُ حَرَمٌ من كذا إلى كذا، لا يُقطَعُ شجرُها، ولا يُحْدَثُ فيها حدَثٌ. مَن أحدَثَ فيها حدَثًا فعليهِ لَعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ))[4].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٤٦.

(٢) فضائل المدينة المنورة، د. خليل إبراهيم خاطر ١/٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢١٢٩، ومسلم ١٣٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٨٦٧، ومسلم ١٣٦٦.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من ارتكاب المعاصي في المدينة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلا..).

قال النووي: "قال القاضي: معناه: من أتى فيها إثمًا أو آوى من آتاه وضمه إليه وحماه..

وقوله: عليه لعنة الله إلى آخره: هذا وعيد شديد لمن ارتكب هذا، قال القاضي: واستدلوا بهذا على أن ذلك من الكبائر؛ لأن اللعنة لا تكون إلا في كبيرة، ومعناه: أن الله تعالى يلعنه وكذا يلعنه الملائكة والناس أجمعون، وهذا مبالغة في إبعاده عن رحمة الله تعالى، فإن اللعن هو الطرد والإبعاد، قالوا: والمراد باللعن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه، والطرد عن الجنة أول الأمر، وليست كلعنة الكفار الذين يبعدون من رحمة الله تعالى كل الإبعاد، وقوله: (لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً)، قال القاضي: وقيل: المعنى: لا تقبل فريضته ولا نافلته قبول رضا، وإن قبلت قبول جزاء، وقيل: يكون القبول هنا بمعنى تكفير الذنب بهما، قال: وقد يكون معنى الفدية هنا: أنه لا يجد في القيمة فداء يفتدي به، بخلاف غيره من المذنبين الذي يتفضل الله عز وجل على من يشاء منهم؛ بأن يفديه من النار بيهودي أو نصراني بما ثبت في الصحيح"[(١)].
وكل ذلك يدل على الترهيب من ارتكاب الإثم في المدينة وإيواء من يرتكبه.

سابعًا - من موضوعات الدعوة: الترهيب من الانتساب إلى غير الأب والانتماء إلى غير الموالي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً).

وحديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر...))[(٢)].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٨٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٠٨.

قال النووي: "قوله ﷺ: (ومن ادعى لغير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)، هذا صريح في غلظ تحريم انتماء الإنسان إلى غير أبيه، أو انتماء العتيق إلى ولاء غير مواليه، لما فيه من كفر النعمة، وتضييع حقوق الإرث والولاء والعقل وغير ذلك، مع ما فيه من قطيعة الرحم والعقوق)"[(١)].

وقال القرطبي: (قوله: "ليس من رجل ادّعى لغير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر" أي: انتسب لغير أبيه رغبةً عنه مع علمه به، وهذا إنما يفعله أهل الجفاء والجهل والكبر؛ لخسة منصب الأب، ودناءته، فيرى الانتساب إليه عارًا، ونقصًا في حقه، ولاشك في أن هذا محرم، معلوم التحريم، فمن فعل ذلك مستحلاً فهو كافرٌ حقيقة، فيبقى الحديث على ظاهره، وأما إن كان غير مستحل، فيكون الكفر الذي في الحديث محمولاً على كفران النعم والحقوق، فإنه قابل الإحسان بالإساءة، ومن كان كذلك صدق عليه اسم: الكافر، وعلى فعله: أنه كفر، لغةً وشرعًا، على ما قررناه، ويحتملُ أن يقال: أطلق عليه ذلك، لأنه تشبّه بالكفار أهل الجاهلية، أهل الكبر والأنفة، فإنهم كانوا يفعلون ذلك)[(٢)].

ثامنًا - من موضوعات الدعوة: الترهيب من ادعاء الإنسان ما ليس له:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار..).

قال القرطبي: (وقوله: "من ادّعى ما ليس له فليس منا" ظاهره التبري المطلق، فيبقى على ظاهره في حق المستحل لذلك، ويتأول في حق غير المستحل بأنه ليس على طريقة النبي ﷺ ولا على طريقة أهل دينه، فإن ذلك ظلم، وطريقة أهل الدين العدل وترك الظلم، ويكون هذا كما قال: ((ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب))[(٣)] ويقرب

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٨٥٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥١٩، ومسلم ١٠٣.

منه: ((من لم يأخذ من شاربه فليس منا))[١])[٢].

قال النووي: "وفي الحديث تحريم دعوى ما ليس له في كل شيء، سواء تعلق به حق لغيره أم لا، وفيه أنه لا يحل له أن يأخذ ما حكم له به الحاكم، إذا كان لا يستحقه"[٣].

وقال ابن حجر: "ويؤخذ من رواية مسلم تحريم الدعوى بشيء ليس هو للمدعي، فيدخل فيه الدعاوى الباطلة كلها مالاً وعلمًا وتعلمًا ونسبًا وحالاً وصلاحًا ونعمة وولاء وغير ذلك، ويزداد التحريم بزيادة المفسدة المترتبة على ذلك"[٤].

تاسعًا - من موضوعات الدعوة: الترهيب من اتهام المسلمين بالكفر أو رميهم بأنهم أعداء الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه)، قال ابن حجر: "والحاصل أن المقول له إن كان كافرًا كفرًا شرعيًا، فقد صدق القائل وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه"[٥].

قال رسول الله ﷺ: ((أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْفَرَ رَجُلاً مُسْلِمًا، فَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَإِلاَّ كَانَ هُوَ الْكَافِرُ))[٦].

وتجد طائفة من الناس مما أعمى الله بصيرتهم، ولغوا في أعراض الناس تكفيرًا وتبديعًا وتفسيقًا، وكأن الله تعبدهم بذلك، والواحد منهم يطلق عبارة التكفير أو التبديع أو التفسيق وهو منشرح بها صدره، مع أن السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن سار

(١) أخرجه الترمذي ٢٧٦١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢١٧).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٥٤/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٢٥/٦.

(٥) المرجع السابق ٤٨١/١٠.

(٦) أخرجه البخاري ٦١٠٤، ومسلم ٦٠.

على هداهم من أئمة الإسلام - كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - كانوا يتحرجون من ذلك كثيرًا، وخصوصًا في التكفير، حيث لم يتلفظوا بشيء من ذلك إلا بعد أن قامت لديهم أدلة لا تقبل الشك، وانتفت في حق المعين الموانع وقامت عليه الحجة"(١).

لأن اتهام المسلمين بالكفر، أو رميهم بأنهم أعداء الله، من أخطر الأشياء وأشدها جرمًا، لما فيها من الرمي بالباطل.

(١) كتاب الآداب، د. فؤاد عبدالعزيز الشلهوب ص ١٣٧ - ١٣٨.

الحديث رقم (١٨٠٧)

١٨٠٧- وعن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه : أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ ، يقول: ((لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيرِ أَبيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إلاَّ كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بالكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُو اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إلاَّ حَارَ عَلَيْهِ)). متفق عَلَيْهِ[١]، وهذا لفظ رواية مسلم.

ترجمة الراوي:

ابو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

ليتبوأ مقعَده: لينزل أو يتّخذه[٢].

حار: عاد ورجع[٣].

الشرح الأدبي

يؤكد هذا الحديث تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه، وكذلك تحريم اتهام أي إنسان بالكفر، إلا إذا كانت للمتهم بينة وأدلة قاطعة على ما يقول.

والحديث في مبناه يفصح عن معناه، وأسلوبه الرصين يضيء كثيرًا من مقاصد معناه المبين.

وتتعدد أنواع الجمل والأساليب على الرغم من قلة الألفاظ: فالجملة الأولى يغلفها أسلوب القصر عن طريق النفي بـ "ليس"، والاستثناء "بإلا" (ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر).

وهذا القصر مع بلاغته وإفصاحه عن طبيعة هذا الجرم الذي ارتكبه ذلك الدعيُّ يتضمن بعض السمات البلاغية في داخل هذه الجملة: ومنها "من" الزائدة، والزيادة هنا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥٠٨، ومسلم واللفظ له ٦١/١١٢. أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٥٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب و أ).

(٣) المرجع السابق في (ح و ر).

ليست إسهابًا أو ترفًا لفظيًا.. ولكنها للتأكيد والاستقصاء: فأي رجل مهما كان شأنه وجاهه وسلطانه يدعى لغير أبيه فهو كافر، وتنكير كلمة "رجل" للشيوع والعموم، وقد يكون للتحقير، لأن من يَدَّعى لغير أبيه لا يستحق التكريم.

والجملة الثانية "ومن ادعى ما ليس له فليس منا"، تأكيد للدلالة في الجملة الأولى، ولكن الدلالة هنا أعم وأشمل فهي قاعدة عامة تحرّم على كل إنسان أن يدعي ما ليس له، أو يسلب حق غيره، أو يعتدي على الحرمات، وقوله: "فليس منا" يفصح عن مقاصد كثيرة تتجمع خيوطها في أنه خرج عن جماعة المسلمين.

ولتأكيد هذه الدلالة، وهذه العقوبة: تجيء الجملة الثالثة في أسلوب الأمر، وهو أمر ساخر وفيه تهديد ووعيد، لأنه إنباء عن المستقبل المظلم الذي تجسد في هذا البيان النبوي البليغ، "وليتبوأ مقعده من النار"، والجملة الثالثة جاءت في أسلوب القصر، وفيها إنذار لكل من يتهم غيره بالكفر، فمن فعل ذلك عاد سهْم التهمة إليه ولحق به الكفر، وقيل هذا التعبير محمول على الزجر والتنفير من إلحاق التهم بالآخرين، وفي ذلك محافظة على العلاقات بين المسلمين، وحرص على الترغيب ورفض للترهيب، والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل الحديث على الأحكام الآتية:

١- تحريم انتساب الشخص إلى غير أبيه، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٨٠٤).

٢- تحريم الدعوى بشيء ليس للمدعي، فيدخل فيه الدعاوى الباطلة كلها، مالاً أو غيره، ويزاد في التحريم بزيادة المفسدة المترتبة عليها[1].

٣- تحريم نسبة المسلم إلى الكفر وقد سبق بيان هذا الحكم في الحديث رقم (١٧٣٤) والحديث رقم (١٧٣٥).

المضامين الدعوية[2]

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤١/٦.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أهداف التربية: المحافظة على الأنساب:

من احترام الإسلام للمسلم، صيانة النسب فلا يجوز الطعن في نسب ثابت شرعًا، وهذا من أكبر مفاخر الإسلام، وكذلك لا يجوز لمسلم أن ينتسب إلى غير أبيه مهما كانت الأسباب، وإلا حُرِمَ رحمة الله عز وجل[1].

وقد جاءت أحاديث الباب صريحة في هذا منها قوله ﷺ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ». وقوله ﷺ: «لاَ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ».

والحديث المطول الذي رواه يزيد بن شريك بن طارق عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ يفيد وقوع من فعل ذلك في غضب الله ولعنته «وَمَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، ... فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. لاَ يَقْبَلُ اللّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً».

وقوله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَىٰ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ»، فهذا تحذير شديد من النبي ﷺ من الرغبة عن الآباء والانتساب إليهم. لأن الأصل في الإسلام الانتساب إلى الأب، ولا يجوز التخلي عنه إلى نسب آخر - كما هو الحال في بعض البلاد الإسلامية - تمشيًا مع العادات الغربية بانتساب المرأة إلى نسب زوجها بعد زواجها، وتركها الانتساب لأهلها، فهذا حرام كما هو منطوق الأحاديث الشريفة[2]، ويلحق بهذا ما يفعله بعض المشاهير من الانتساب إلى غير آبائهم الأصليين. فكل هذا يدل على خسة ونذالة مع الوالد، فبدلاً من مكافأته وبره بالتشرف بالانتساب إليه، يكون الانتساب إلى غيره.

فينبغي على المربي والمجتمع بأسره غرس قيمة الانتساب إلى الآباء في نفوس الناشئة، وتنشئتهم على احترام الآباء وتقديرهم لا التبرئ من الانتساب إليهم، وليعلم

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد ص ٢٨٥.

(٢) انظر: بر الوالدين، د. خليل إبراهيم ملا خاطر العزامي ص ٢٢١، ٢٢٢.

الجميع أن الأب من اختيار الله للإنسان فقد اختار الله لكل إنسان من بين البشر أبًا واحدًا، ولا يوجد اختيار أفضل من اختيار الله عز وجل، فينبغي على المسلم أن يفضل ويعتز باختيار الله له بالانتساب إلى أبيه، ولا يسعى إلى أن يختار غيره، أو يرضى باختيار غيره له أبًا غير أبيه.

ثانيًا- أسلوب الترهيب:

لقد رهبت أحاديث الباب من انتساب الإنسان إلى غير أبيه، بالحرمان من الجنة، وكفر من يرغب عن أبيه ويدعى إلى غيره، ولعنة الله وملائكته والناس أجمعين له ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، وأنه ليس من المسلمين، وليتبوأ مقعده من النار.

ورهبت من أحدث حدثًا في المدينة المنورة، وإيواء من أحدث حدثًا فيها. كما رهبت من تولية العبد لغير مواليه، ورهبت من رمي المسلم بالكفر، أو عداوة الله.

وأسلوب الترهيب من الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في أي زمان ومكان، لأنه يستند إلى ما فطر الله عليه الإنسان من الرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير، وهو وعيد وتهديد بعقوبة مؤكدة تترتب على القيام بسلوك غير مرغوب فيه، وهو يؤدي دورًا مهمًا في تغيير سلوك الأبناء خاصة إذا أحسن استخدامه، وإذا أدرك الأبناء من خلال هذا الأسلوب النتائج التي يمكن أن تترتب على سلوكهم غير المقبول[1].

ثالثًا- من مصادر التربية: القرآن الكريم:

من مصادر التربية التي يتضمنها هذا الباب: القرآن الكريم، وهذا في قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لاَ وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا كِتَابٌ نَقْرَؤُهُ إِلاَّ كِتَابَ اللَّهِ».

إن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للتربية الإسلامية، والذي تُستَمَدّ منه، وفي هديه أهدافُها، ومادتُها، وطرقها ووسائُلها، والذي على ضوئه تقيم تلك التربية وتعدل. فهو كلام الحق تبارك وتعالى، ومنهجه الشامل للحياة بكاملها[2].

ولقد ترك أثرًا لا شك فيه في تربية النفس، بداية من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٤، ٨٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٦٥.

خلقه القرآن، وقال تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1]، والصحابة لم يتوقفوا عند مجرد حفظ القرآن بل تعدى ذلك إلى العمل به وتطبيقه حتى كان له أثر عظيم في تربيتهم.

والقرآن الكريم يربي من خلال الإقناع العقلي المقترن بالعواطف والانفعالات الإنسانية ويبدأ من المحسوس إلى المجرد، ثم ينتقل إلى استلزام وجود الله وعظمته، وهو في ذلك يستخدم أساليب تربوية عدة منها: الاستفهام بغرض التقريع أو التنبيه أو التحبيب، والتذكير بالجميل أو نحو ذلك مما يثير في النفس الانفعالات الربانية كالخضوع والشكر، ثم محبة الله، ثم تأتي العبادات والسلوك المثالي تطبيقًا عمليًا للأخلاق الربانية، وحسبنا أن نبين أن القرآن الكريم قد بدأ بآيات تربوية فيها إشارة إلى أن أهم أهدافه تربية الإنسان بأسلوب حضاري فكري عن طريق الاطلاع والقراءة والتعلم والملاحظة العملية، وهكذا يقرر القرآن الكريم قابلية الإنسان للتربية[2].

رابعًا- من وسائل التربية: الكتابة:

تعتبر الكتابة من وسائل التربية المفيدة وتظهر هذه الوسيلة في هذا الباب في قول يزيد بن شريك: رأيت عليًا رضي الله عنه على المنبر يخطب فسمعته يقول: «لاَ وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا كِتَابٌ نَقْرَؤُهُ .... وما في هذه الصحيفة" فنشرها فإذا فيها أسنان الإبل أو أشياء من الجراحات، وفيها قال رسول الله ﷺ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَىٰ ثَوْرٍ.....إلخ» الحديث.

وفي ذلك جواز كتابة العلم، وأن السنة كُتب بعضها زمن رسول الله ﷺ[3].

إن الكتابة أمر مهم لطالب العلم، ويحتاج دائمًا لتدوين مسموعاته ليرجع إليها متى شاء، لأن الإنسان مهما أوتي حفظًا وفهمًا فإنه عرضة للنسيان، وعدم استذكار تلك المسائل التي سمعها منذ زمن وكلما بعدت المدة كان النسيان أحرى.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٣٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب ص ١٢.

(٣) انظر: بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، سليم بن عيد الهلالي ٣/ ٢٧٠.

ولقد كان النبي ﷺ ينزل عليه القرآن، يستدعي أحد كتاب الوحي من أصحابه ليكتب الآيات التي نزلت[١].

كما شجع ﷺ على تعلم الكتابة، بافتداء أسرى بدر، بتعليم عشرة من أبناء المسلمين، فوضع بذلك أساسًا حضاريًا للتربية الإسلامية[٢].

وأمر ﷺ بكتابة حديثه لمن طلبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ قامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فذكر الخطبة: فقامَ رَجُلٌ مِنْ الْيَمَنِ، فقالَ يَا رَسُولَ اللهِ اكْتُبوا لِي، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اكْتُبُوا لأبِي شَاةٍ»[٣].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما مِنْ أصحابِ النبيِّ ﷺ أحَدٌ أكثرَ حَديثًا عنهُ منِّي، إلا ما كان من عبدالله بنِ عمرو، فإنه كان يكتُبُ ولا أكتُبُ»[٤].

فالكتابة وسيلة تربوية مهمة لحفظ العلم والإفادة منه، كما أنها وسيلة وأداة تنوير وتثقيف، وخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه وسائل الكتابة، من صحف ومجلات، وكتب قصصية وأدبية وغيرها من الوسائل المكتوبة، فينبغي على القائمين على هذه الوسائل العناية بها بإبراز القيم الإسلامية المختلفة، من أجل تنوير وتثقيف وتربية المجتمع المسلم عليها.

خامسًا- من أهداف التربية: البعد عن تكفير المسلمين ووصفهم بعداوة الله:

إن التكفير والتفسيق، والإخراج من الملة أمر خطير، وذنبه عظيم لهذا قال ﷺ: «مَنْ دَعا رَجُلاً بالكُفْرِ أو قالَ: عَدُوُّ اللهِ ولَيْسَ كَذَلِكَ، إلا حارَ عَلَيْهِ».

يقول شيخ الإسلام: "ومن جالسني يعلم ذلك مني ؛ أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسبَ معيَّنٌ إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية؛ إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرر

---

(١) آداب المتعلمين، د. أحمد بن عبدالله الباتلي ص ٩٠.

(٢) التربية في الإسلام، د. أحمد فؤاد الأهواني ص ١٨.

(٣) أخرجه البخاري ١١٢، ومسلم واللفظ له ١٣٥٥.

(٤) أخرجه البخاري ١١٣.

أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية. وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية"[١].

هذه قضية أصولية في العمل الإسلامي عدل في فهمها الكثير من الدعاة عن جادة الصواب، فتارة يحكم أحدكم بالكفر على أخيه المسلم لمجرد مخالفته لقضية اعتقادية كل له برهانه ودليله، وتارة يحكم عليه بالفسق والمعصية لقضية فرعية يتعذر فيها الجمع على قول واحد، بل الأدهى من ذلك والأمر، أن أحدهم يدعى لنفسه ولجماعته سلامة الاعتقاد والاجتهاد مطلقًا، ولغيره مظنة الخطأ والزلل. متجاهلاً هدي القرون الأول من الصحابة والتابعين، فهذه عائشة وغيرها من الصحابة كانوا يتنازعون في رؤية محمد ﷺ لربه، حتى أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ومع هذا لا تقول لابن عباس وغيره من المنازعين لها أنه مفتر على الله، يقول صاحب متن الطحاوية[٢] مبينًا الضابط الشرعي في التكفير والتفسيق وعدمه: "ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله" لقوله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا»[٣]. ويوضح لنا شارحها[٤] بقوله: وأما الشخص المعين، إذا قيل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة فإن من أعظم البغي أن يشهد علي معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، لأن الشخص المعين، يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩/٣.

(٢) أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدي الطحاوي.

(٣) أخرجه البخاري ٣٩١، بلفظ «مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقبَلَ قِبلَتَنا، وأَكَلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذمة رسولِهِ، فلا تَخفِروا اللهَ في ذِمَّتِه».

(٤) علي بن أبي العز الأذرعي.

ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص[١]، ومن هنا فنحن لا نكفر مسلمًا أقرّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض برأي أو بمعصية إلا إن أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة ونحوهما[٢].



(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٣٧، ٤٣٨.

(٢) الفوائد التربوية من فتاوى ابن تيمية، أحمد يوسف الأنصاري ص ٣٦، ٣٧.

٣٦٨- باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله عز وجل أو رسوله ﷺ عنه

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢].

الحديث رقم (١٨٠٨)

١٨٠٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ**[١]، **وَغَيْرَة اللهِ، أنْ يَأْتِيَ (المَرْءُ)** [٢] **مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ**[٣])) متفق عليه[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن المسلم مطالب بالالتزام بما أمره به ربه، وبالانتهاء عما نهاه الله تعالى عنه، وإن الحق سبحانه وتعالى يغار أن تُنتهك حرماته، وهذا الحديث الشريف في منطوقه البياني الدال المفيد يتصدره التأكيد بـ "إن" حيث يقول رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يغار"، وهذا التأكيد يفصح عن صدق الخبر، وعن الرغبة في إقناع المتشككين في ذلك، والشاك يساق إليه الخبر في ثوب التأكيد حتى يزول الشك من ذهنه، ويتفتح قلبه لضياء اليقين، وتستجيب حواسه لنداء الإيمان فيعي ما يَسْمع وينفذ ما يقرأ أو يُلقى إليه

---

(١) عند مسلم زيادة: (وإن المؤمن يغار).

(٢) لفظ البخاري: (المؤمن)، والمثبت لفظ مسلم.

(٣) (عليه) لا توجد عند البخاري.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٢٣، ومسلم ٣٦/٢٧٦١، وتقدم برقم ٦٤. أورده المنذري في ترغيبه ٣٤٥٣.

من تعاليم وتوجيهات، والفعل "يغار" يرشد إلى استمرار هذه الغيرة، لأن الناس في صراعهم مع مكابدات الحياة يقترفون المعاصي، ويجترحون السيئات، والغيرة بالنسبة إليه تعالى كما قال العلماء غايتها المنع، أي منع العبد من فعل المحرمات "والجملة الثانية" في الحديث إخبارية اسمية وهي تفسير لمفهوم "غيرة الله" لأنها ليست كغيرة البشر، فالبشر يغارون حسداً وحقداً، على غيرهم، وبدافع من التضرر والأذى كما تغار النساء من الضرائر، ودلالة الغيرة في اللغة: لا تتفق مع مفهوم الغيرة في هذا الحديث...، ففي الحديث تغير عن حاله تحول وغيَّره: جعله غير ما كان وحوَّله وبدَّله، ويقولون: أغار أهله، تزوج عليها فغارت.

ومفهوم الغيرة في هذا الحديث له أفق جديد يتسق مع منهج الإسلام في علاقة العبد بربه، وعلاقته بالناس، وما أوجز هذا البيان، وما أجمله! وما أشمله! وما أكمله! وهو قول رسول الله ﷺ وغيرة الله أن يأتي المرءُ ما حرم اللهُ عليه".

وتكرار لفظ الجلالة في الحديث ثلاث مرات، لمزيد من التأثير في النفوس، وزرع الهيبة والخوف من الله تعالى في القلوب، وللإشعار بأن الأمر جد، وأن غيرة الله لا يطيقها أي إنسان مهما كان، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: النهي عن ارتكاب ما حرم الله تعالى من الفواحش وسائر المنهيات، والمحرمات، لأن حمى الله في أرضه محارمه، ولأجل الغيرة، حرم الله الفواحش ما ظهر منها، وما بطن[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٧٧/١٧، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٧٧/٤.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على تعظيم حرمات الله واجتناب المعاصي:

إن من أعظم أهداف التربية الإسلامية تعظيم حرمات الله واجتناب المسلم للمعاصي، لذا كان تحذير الإسلام من ارتكاب ما نهى الله عز وجل أو رسوله ﷺ.

وجاء حديث الباب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المرءُ ما حرم الله عليه».

فإن من أمارات صدقِ الإيمان وقوتِّه بُعد العبد عن معصية الله تبارك وتعالى وتعظيمه لمحارمه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «المؤمنَ يرَى ذنوبهُ كأنه قاعدٌ تحتَ جَبل يَخاف أن يَقعَ عليه، وإن الفاجرَ يَرى ذنوبهُ كذُبابٍ مرَّ على أنفهِ فقالَ به هكذا - قال أبو شهاب بيدهِ فوق أنفهِ»[1].

ومن ثم كان من أهم ما ينبغي أن يعني به المربي، غرس تعظيم حرمات الله ومعاصيه في نفوس من يربيهم.

ومن الوسائل التي تعينه على ذلك:

أ- تذكيرهم بشأن الذنوب والمعاصي وخطورتها، وأثرها على النفس.

ب- ابتعاده هو عنها، ومجانبته إياها.

ج- أن يروا منه تعظيمها واستنكاف إتيانها، وتأثره حين يرى أحدًا يواقعها، وهو سلوك لا يستطيع أن يتكلفه من لم يستقر تعظيم حرمات الله في قلبه.

د- أن يجنبهم المواطن التي تظهر فيها المعاصي، ويعوِّدهم على هجرها إن لم يستطيعوا إنكارها، لذا فقد عظم الشرع عقوبة المجاهر بالمعصية، ونهى عن مجالسة أهل العصيان إن لم يرتدعوا عن ذلك ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٠٨.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٠.

هـ- ألا يتساهل بمجاهرة أحد بها، وأن يناصحه حين يراه وقع. محذرًا إياه من شؤمها وأثرها[1].



(١) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٦٠، ٦١.

٣٦٩- باب ما يقوله ويفعله من ارتكب منهيًا عنه

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

الحديث رقم (١٨٠٩)

١٨٠٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللاَّتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرك فَلْيَتَصَدَّقْ**)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

باللات والعزى: اللات: اسم صنم كان لثقيف بالطائف. والعزى: أيضًا صنم من الأصنام، كانا يعبدهما المشركون[2].

أقامرك: ألاعبك القمار[3].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٤٨٦٠، ومسلم ١٦٤٧/٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل و ت)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي، ٢٨٠.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ق م ر).

الشرح الأدبي

إن معالم التصور الإسلامي لها آفاقها وأبعادها، التي يجب أن يفيء إليها المسلم من هجير الأفكار المادية، ومن نوازع القلق، ولوافح الشرور، وهذه المعالم التي يَسْبح في هالاتها قلبُ المسلم، ويحلّق عقله في ملكوتها هي: (الربانية-الثبات- التوازن- الشمولية-الواقعية-الإيجابية - التوحيد).

وعقيدة التوحيد تحصين لقلب المسلم ولسانه وعقله من الحلف بغير الله عز وجل، ولذلك يضع رسول الله ﷺ أمام كل مسلم هذه القاعدة الشرعية، التي تنجيه من ظلمات التردي في مهاوي الشرك والغواية والضلال، وهذه القاعدة تصاغ في قالب الشرط والجواب: في قوله ﷺ: "من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل "لا إله إلا الله". وجواب الشرط واجب التنفيذ لأنه تصدّرته لام الأمر، ومقول القول الواجب النطق به -تكفيرًا عن الحلف باللات والعزى- هو شهادة التوحيد "لا إله إلا الله".

والجزء الثاني من الحديث يعالج سلوكًا اجتماعيًا معوجًا، وهو "المقامرة"، ومَنْ تواعد مع صاحبه على مثل هذا السلوك، فإن كفارة هذا السلوك المنحرف عن طريق الهداية، وعن معالم التصوير الإسلامي: هو التصدق، والمقابلة بين المقامرة والتصدق، ترشد إلى أن المقامرة سلوك خاسر يفسد العلاقات، ويمُزقُ الأواصر، ويشوّه صورة المجتمع، وأما التصدق، فهو دواء ناجع لداء المقامرة، فالتصدق عطاء، والمقامرة وباء، والتصدق إصلاح وتراحم، والمقامرة إفساد وتخاصم، والمقامرة إفلاس وضياع، والتصدق إثراء وقضاء على الآلام والأوجاع.

وجواب الشرط مقترن بلام الأمر، فهو واجب التنفيذ: حتى يتطهر العبد من دنس المقامرة، كما قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1]. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل الحديث على الأحكام الآتية:

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

١- تحريم الحلف باللات، والعزى، وغيرهما من الأصنام، هذا ما لم يعتقد تعظيمها، فإن اعتقد تعظيمها كفر[١] والعياذ بالله.

ولكن هل تجب عليه كفارة لهذا الحلف أم لا؟

اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[٢]، ويرون أن من حلف باللات والعزى، وغيرهما من الأصنام لا تجب عليه كفارة، وكفارته أن يقول: لا إله إلا الله.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- حديث الباب، وفيه أن الرسول ﷺ قد أمر من حلف بذلك أن يقول: لا إله إلا الله،ولم يذكر كفارة[٣].

ب- ولأن الكفارة وجبت في الحلف بالله تعالى صيانة لأسمائه وصفاته، وغيره -تعالى- لا يساويه في ذلك[٤].

ج- ولأن الأصل عدم الكفارة، حتى يثبت فيها شرع، ولم يثبت بل الثابت هو قول: لا إله إلا الله، على نحو ما ذكرنا[٥].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٦] ويرون أن من حلف بذلك تجب عليه

---

(١) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٩/١، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٢٥/٢.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٠٩/١، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ٢٥/٢، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٧/١١، وإعانة الطالبين ٣١٤/٤، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٢٨٥/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣٨٦/٩، والمحلى، ابن حزم ٥١/٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٧/١١.

(٤) منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد بن ضويان ٢٨٥/٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٧/١١.

(٦) شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٧٤/٥.

الكفارة، وذلك لأن الله تعالى قد أوجب على المظاهر الكفارة، لأنه منكر من القول وزور، والحلف بهذه الأشياء منكر من القول وزور، فتجب فيها الكفارة، كما وجبت في الظهار.

والراجح: هو ما ذهب إليه الجمهور، للحديث، وللمعنى الذي ذكروه.

٢- تحريم القمار، لأنه من أكل أموال الناس بالباطل[١]، ويجب على من قال لصاحبه تعالى أقامرك أن يتصدق تكفيرًا لخطيئته[٢].

ولكن هل يتصدق بقدر معين من المال، أم بما تيسر؟

ذهب الجمهور[٣] إلى أنه يجب أن يتصدق بما تيسر له، وبما تطيب به نفسه.

وذهب الخطابي[٤] إلى أنه يجب عليه أن يتصدق بمقدار ما أمر أن يقامر به.

والصواب الذي عليه المحققون هو الأول، لظاهر الحديث، ويؤيده ما جاء في رواية معمر التي ذكرها مسلم "فليتصدق بشيء"[٥] فيكفي ما ينطبق عليه اسم الصدقة[٦].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بغير الله وحث من حلف باللات والعزى أن يقول لا إله إلا الله.

ثانيًا: من مهام الداعية: تحذير المدعوين من الوقوع في المخالفات الشرعية في الحلف.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الدعوة للقمار وأهمية التوبة من المعاصي والذنوب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦/٢٧١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣/٢٦٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٠٧، وفتح القاري ٨/٦١٢.

(٣) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣/٢٦٧، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٠٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/٥١، والمحلى، ابن حزم ٨/٦١٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/٦١٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٠٧.

(٥) أخرجه مسلم بعد الحديث ١٦٤٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/٦١٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٠٧.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف بغير الله وحث من حلف باللات والعزى أن يقول لا إله إلا الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (من حلف فقال في حلفه: باللات والعُزى فليقل: لا إله إلا الله).

قال النووي: "إنما أمر بقول لا إله إلا الله، لأنه تعاطى تعظيم صورة الأصنام حين حلف بها، قال أصحابنا: إذا حلف باللات والعزى وغيرهما من الأصنام أو قال: إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام أو بريء من النبي ﷺ أو نحو ذلك، لم تنعقد يمينه، بل عليه أن يستغفر الله تعالى ويقول: لا إله إلا الله، ولا كفارة عليه سواء فعله أم لا، هذا مذهب الشافعي ومالك وجماهير العلماء، وقال أبو حنيفة: تجب الكفارة في كل ذلك إلا في قوله: أنا مبتدع أو بريء من النبي ﷺ، أو واليهودية، واحتج بأن الله تعالى أوجب على المظاهر الكفارة لأنه منكر وزور، واحتج أصحابنا والجمهور بظاهر الحديث فإنه ﷺ إنما أمر بقول لا إله إلا الله ولم يذكر كفارة، ولأن الأصل عدمها حتى يثبت فيها شرع، وأما قياسهم على الظهار فينتقض بما استثنوه"[١].

واللات والعزى أصنام كان يعبدها المشركون قبل الإسلام، وجاء ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[٢].

قال ابن كثير: "في قوله ﷺ: (من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى)، فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية... وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر، لأنها أشهر من غيرها"[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٠٤٨.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ١٩ - ٢٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٥/٧ - ٤٥٦.

وقال ابن حجر: "قال البغوي في شرح السنة تبعًا للخطابي: ... وإنما أمره بالتوحيد، لأن الحلف باللات والعزى يضاهي الكفار، فأمره أن يتدارك بالتوحيد"[١].

وقال ابن عثيمين: (اللات صنم يعبده الجاهليون في الجاهلية وكذلك العزى... كما كانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله فيقولون: واللات، أو واللات والعزى، فإذا قال الإنسان ذلك فإنه شرك يداوى بالإخلاص، ولهذا قال: فليقل: لا إله إلا الله، ليداوي الشيء بضده)[٢].

ثانيًا- من مهام الداعية: تحذير المدعوين من الوقوع في المخالفات الشرعية في الحلف:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله...).

(فالحلف على الشيء يفيد توكيد المحلوف عليه، باقترانه بما يعظم عند السامع والمتكلم، وقد علمنا الرسول ﷺ بمن نحلف ونؤكد أقوالنا إذا أردنا الحلف ومن نعظم، فبين لنا أن نحلف بالله، لأن التعظيم الحقيقي لا يكون إلا له سبحانه وتعالى، وهو الجدير بالإجلال والإكبار[٣]، فقال ﷺ: ((مَن كانَ حالِفًا فَلْيَحلِفْ باللهِ أو لِيَصمُت))[٤].

فينبغي على المسلم عدم الحلف إلا بالله، وعلى الداعية أن يحذر المدعوين من الحلف بغير الله، ويبين لهم أن الحلف بغير الله فيه مخالفة لشريعة الله وأوامره.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الدعوة للقمار وأهمية التوبة من المعاصي والذنوب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق).

قال القرطبي: (وقوله: "من قال: تعال أُقامِرْكَ فليتصدَّق" القول فيه كالقول في اللات؛ لأنهم كانوا اعتادوا المقامرة. وهي من أكل المال بالباطل. ولما ذمها النبي ﷺ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٥/١١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٨٥١/٢.

(٣) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ٢٥٧.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٤٦، ومسلم ٤٢٣٣.

بالغ في الزجر عنها، وعن ذكرها، حتى إذا ذكرها الإنسان طالبًا للمقامرة بها؛ أمره بصدقة. والظاهر: وجوبُها عليه؛ لأنها كفارة مأمورٌ بها، وكذلك قول: لا إله إلا الله. على من قال: واللات. ثم هذه الصدقة غير محدودة، ولا مقدرة، فيتصدَّق بما تيسَّر له مما يصدق عليه الاسم. كالحال في صدقة مناجاة الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[1] فإنها غير مقدَّرة)[2].

قال الطيبي: "أقول: إنما قرن القمار بذكر الأصنام تأسيًا بالتنزيل في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ﴾[3]، فمن حلف بالأصنام فقد أشركها بالله في التعظيم، فوجب تداركها بكلمة التوحيد، ومن دعا إلى المقامرة فوافق أهل الجاهلية في تصدقهم بالميسر، فكفارته التصدق بمقدار ما أمر أن يقامر به، أو بما تيسر مما يصدق عليه اسم الصدقة، وفيه أن من دعا إلى اللعب فكفارته التصدق، فكيف بمن لعب؟"[4].

وقال النووي: "قال العلماء: أمر بالصدقة تكفيرًا لخطيئته في كلامه بهذه المعصية، قال الخطابي: معناه فليتصدق بمقدار ما أمر أن يقامر به، والصواب الذي عليه المحققون وهو ظاهر الحديث، أنه لا يختص بذلك المقدار، بل يتصدق بما تيسر مما ينطلق عليه اسم الصدقة"[5]. فينبغي على المسلم إذا ارتكب معصية أن يتوب إلى الله ويتبعها بالحسنة، حتى تمحى عنه، قال رسول الله ﷺ ((... واتبع السيئة الحسنة تمحها))[6].

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١٢.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٦٢٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٠.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧/٢١.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٠٤٨.

(٦) أخرجه الترمذي ١٩٨٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٨).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (ومن قال لصاحبه: تعالى أقامرك فليتصدق)، وأمره بالصدقة لمن دعا غيره إلى القمار، يدل على فضل الصدقة في تكفير الذنوب، وهذا ثابت في قوله ﷺ: ((وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ))[١].

كما أن الصدقة تكون وقاية من النار، كما قال رسول الله ﷺ ((اتقوا النار ولو بشق تمرة))[٢]. وقال ﷺ: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوة، حتى تكون مثل الجبل)[٣]. وهذه المباركة والزيادة وتضعيف الله لها، يدل على فضلها ومحبته تعالى لها.

(١) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٢) أخرجه البخاري ١٤١٧، ومسلم ١٠١٦.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية فتح باب التوبة أمام المذنبين:

إن فتح باب التوبة أمام المذنبين يحقق هدفًا تربويًا عظيمًا، وهو إعطاء الأمل - لمن ضعف أو ارتكب الذنوب أو سيطر عليه الشيطان من المسلمين - في التوبة والعودة إلى الله تعالى باستغفار، والندم على المعاصي والذنوب، والتكفير عنها بالصدقات، واتباعها بالحسنات فهي تمحو السيئات.

وقد جاء هذا الباب بعنوان ما يقوله ويفعله من ارتكب منهيًا عنه، وفيه حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ فقالَ في حَلِفِهِ : باللاَّتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ».

وقد خاطب المولى تبارك وتعالى سائر العباد من المؤمنين والكافرين، المرتكبين لمعاصي الكفر أو الكبائر أن لا ييأسوا من رحمة الله فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. فإن باب التوبة مفتوح، وإن الرب غفور رحيم، وقد نقل عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية أوسع ما في القرآن من الآيات معنى، تَسَع العبادَ وتجبرهم وتحيي آمالهم في العودة إلى الله، وعن ابن مسعود: أنها أكثر آية فرجًا في القرآن[2].

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالتوبة وجعلها رجاءً للفلاح فقال: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، وعدّ المصر على ذنبه ظالمًا فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٠/٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١١.

فالإسلام يتسم بنظرته الواقعية للإنسان، فهو ليس ملاكًا ولا شيطانًا، بل كائناً عاقلاً رفيعاً كريماً، فيه من أشواق الروح وتطلعاتها ما يرتفع به إلى عليين، وفيه من رغبات الجسم وأهواء النفس ما قرنه بالمزخرفين من الشياطين.. فمن طبيعته التسامي والارتقاء، ومن طبيعته السقوط والالتواء، وقد خلق هكذا بقضاء الله الكوني، وإرادة الله وحكمه الديني جاء منسجمًا مع قضائه الكوني، فما دامت طبيعة البشر قابلة للوقوع في الذنب، فإن الباب لا يوصد أمامه، وإن الرحمة لا يطرد عنها لئلا يظل في شقاء دائم وخطيئات يتبع بعضها بعضًا[1].

وقد كان الرسول ﷺ -مع أن الله تعالى أعلى منزلته ورفع قدره وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- لا يغفل يومًا عن التوبة والاستغفار ويوصي بها أصحابه رضي الله عنهم فيقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ. فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ، إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[2].

ففي التوبة تجديد للإيمان وفي الاستغفار حياة للقلب[3].

فينبغي على المسلم إذا ارتكب ذنبًا أن يبادر بالتوبة والاستغفار والتكفير عنه والتحلل منه بما يخرجه من دائرة الإثم، ويرجعه إلى ربه وإلى الصراط المستقيم رجوعًا جميلاً.

ثانيًا- من أهداف التربية: الحث على بذل الصدقات:

إن الصدقة جالبة لمحبة الله، ودافعة لمقته وغضبه ومنجية من آثار الآثام لذا قال ﷺ: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ».

فالصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ كما قال رسول الله ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»[4].

فعلى المربي غرس حب التصدق في نفوس الناشئة حتى يتعود المسلم منذ الصغر على

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٧٩، ٨٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام ٨٠، ٨١.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

صفة الجود والكرم، والعطف على ذوي الحاجات والرحمة للفقراء، فالصدقة من أفضل الأشياء التي تعين المحتاجين، وتفرج كربات المكروبين، وتستر المعسرين، ومن أجل ذلك كان ثوابها عظيمًا، فينبغي الحرص عليها من كافة المسلمين، وغرس حبها في نفوس المتعلمين، ومما يعين على ذلك:

أ- أن يبين المربي لمن يقوم بتربيتهم ثوابها وفضلها عند رب العالمين.

ب- أن يحثهم على التصدق ولو بالقليل.

ج- أن يكون المربي مثالاً طيبًا وقدوة صالحة يقتدى بها، فيبدأ بنفسه بالتصدق حتى يكون فعله مطابقًا لقوله، فإن الفعل له تأثيره الكبير في نفوس المتعلمين، لأن من يقول الشيء ولا يفعله يكون منفرًا منه بفعله الذي لا يطابق قوله، فكيف يصدق الناشئة من يدعو إلى الشيء ولا يفعله، وينهي عن الشيء ويأتيه، فهذا خطأ جسيم ينبغي أن يحذره كل من يقوم بعملية التربية والتوجيه إذ أن الناشئة له متابعون، ويتأثرون بالسلوك سلبًا وإيجابًا، لذا وجب الحرص على التطابق بين القول والعمل.

